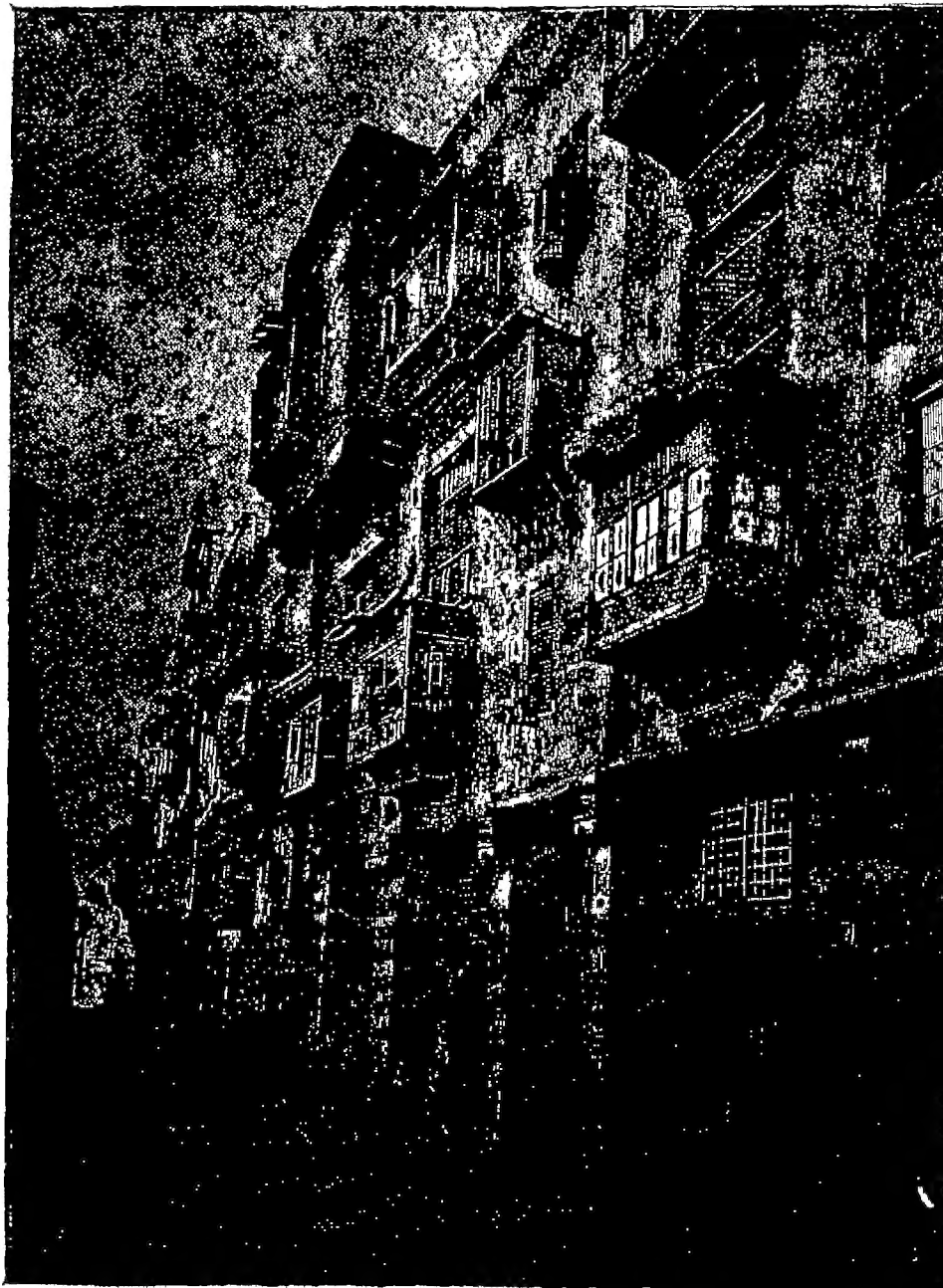


بَدَائِعُ الزَّهْوَرِ فِي وَقَائِعِ الدَّهْوَرِ



كتاب الشعب

المختار من

بَدَائِعُ الزُّهُورِ فِي وَقَائِعِ الدُّهُورِ

تأليف

محمد بن أحمد بن إياش
الحنفى المصرى

كتب عربى
(أهداء) مكتبة المتحف

رقم التسجيل ٥٣٠١٩



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliothèque d'Alexandrie

مطابع الشعب
١٩٦٠



سبق القارىء على فقرات يعجب فيها من تفكير القوم في
عصر ابن اياس . وقد أثبتناها ليعلم جيلنا ، وكل جيل يأتي
من بعده ، أن لكل جيل أوهامه وضلالاته ...

ولكى تثبت أقدامنا على السبيل السوى ، علينا أن نراجع
أفكارنا ... فنأخذ الطيب من الحق ، ونذر الحبيث من
الضلالات والأوهام ، حتى لا تسخر الأجيال القادمة من
أفكارنا حين تصبح تراثا ...

كتاب الشعب

الأخبار من مصر

وما ورد فيها من الآيات العظيمة والأحاديث النبوية ، وما
خصت به من الفضائل والمحاسن والمعجائب دون غيرها من
البلاد ، وما قاله الشعراء في وصفها .

اعلم — وفقك الله — أن مصر من أجل البلاد
قدرا .

قال تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال : « أليس
لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ،
أفلا تبصرون ؟ » .

وأما بالاشارة والاياء فمنها قوله تعالى :
« كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام
كريم ؟ » . يعنى مصر .

وأما ما ورد فيها من الأخبار النبوية فمنها قوله
صلى الله عليه وسلم : « اذا فتح الله عليكم بعدى
مصر فاتخذوا منها جندا كثيرا ... فذلك الجند
خسیر أجناد الأرض ، لأنهم فى رباط الى يوم
القيامة » .

ذكر حدود أرض مصر ومسافاتها

قال أبو الصلت أمية الأندلسى ان حد أرض
مصر فى الطول من مدينة برقة الى عقبه ايلة ،
وذلك نحو من أربعين يوما . ومسافة حدها فى
العرض من مدينة أسوان من أعمال الصعيد الى
العريش عند الفجرتين ، وذلك نحو من ثلاثين
يوما فى مسافة العرض منها .

وكان اقليم مصر متصلا بالعبارة على شاطئ
النيل كأنها مدينة واحدة مشتبكة بالأفجار المثيرة

بالفواكه اليانعة والقرى العامرة ، حتى قيل ان
المسافر كان يسير من اسكندرية الى أسوان بلا
زاد ، بل يسير فى ظل وأشجار وفواكه الى أن
يصل الى مدينة أسوان فى قرى عامرة بالناس
لا يحوجونه الى زاد يحمل معه .

ذكر ما عد من فضائل مصر

قال أبو الريحان : « ولد بمصر من الأنبياء
موسى وهارون عليهما السلام ، وولد بها يوشع
ابن نون ، ودخل اليها عيسى بن مريم وأقام بقرية
بالصعيد يقال لها أهناس .

ودخل مصر من الأنبياء ابراهيم الخليل
عليه السلام ، ويعقوب ويوسف والأسباط
وارمياء ، ودخل اليها دانيال ولقمان الحكيم عليهم
السلام . ودخل اليها من السادة التابعين جماعة ،
ودفن بها من العلماء جماعة كثيرة كما سيأتى ذلك
فى مواضعه .

وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذين أنى
الله تعالى عليه فى القرآن ، ومنهم آسية لفرعون
فرعون التى أخبر الله تعالى عنها فى كتابه . ومن
أهلها سحرة فرعون الذين آمنوا فى ليلة القدر
مع كثرتهم .

مختصر بصر من المحاسن والعجائب دون غيرها من البلاد

عليها بالنار فتحاكى نار الطبيعة في حضانة الدجاجة
فيخرج منها الفرايج وهي من أعظم مأكول مصر ،
ولا يعمل هذا في بلد غير مصر .

وبها النارج والاترنج المدور ، قيل انه حمل
من أرض الهند وزرع بمصر بعد سنة ثلثمائة من
الهجرة ولم يكن بمصر قبل ذلك .

وكان بها نوع يقال له البنج وهو مثل اللوز
الأخضر ، وكان من محاسن مصر ولكن انقطع منها
في سنة سبعمائة من الهجرة .

وكان بها الماسكة ومنافعها لا تنكر .

وبها الخوخ الزهري الأحمر ولا يوجد الا بها .
وبها العسل النحل المصري وهو أطيب من غيره
من الأشربة وله فضيلة دون غيره .

وبها تتاج الخيل والبغال والحمير تفوق على
غيرها من البلاد .

وبها الطرز الأسيوطية وكانت لا توجد الا بها .
وبها الثياب الديقية . كانت تعمل بمدينة
تيس ، يبلغ ثمن الثوب منها مائة دينار .

وبها جلال الخيل والبراقع والطنافس لا تعمل
الا بها .

وبها المقاطع الشرب لا تعمل الا بدمياط ، ولها
خاصية دون غيرها .

وبها العرس والنمس ، ولهما فضيلة لا تنكر في
أكل الثعابين حتى قيل : لولا العرس والنمس لما
سكنت مصر .

وبها البطيخ الصيفي ، ومنافعه لا تنكر . قيل

قال مساعد الغوثي في كتاب طبقات الأمم :
« ليس في بلد أعجوبة الا وفي مصر مثلها ... أو
أعجب منها » .

وقيل ان بمصر من الأنواع ثلاثين نوعا لا توجد
في الدنيا :

فمنها معدن الزمرد والذبابي ، ولا يوجد في
الدنيا الا بها . قيل يوجد في نواحي البهنسا .

ومنها معدن الشب والملح ، ولا يوجد الا بها .
ومنها الأبنوس الأسود ، ولا يوجد الا بها .

ومنها مقاطع الرخام الملون الفستقي والسماقي
واللروري وغيره من أنواع الرخام .

ومنها الأقيون وهو عصارة ماء الخشخاش ،
ومنافعه لا تنكر .

وبها دهن اليلسان ، ولا يوجد الا بها في
أرض المطرية ، وهو الذي تتغالى ملوك النصارى
في ثمنه ولهم فيه اعتقاد عظيم .

وبها السمك الرعاد ، ونفقه للحمى اذا علق على
المعوم يرى .

وبها الحيات التي يعمل منها الدرياق ومنافعها
لا تنكر .

وفيها الاسقنقور ومنافعه لا تنكر .
وبها الحطب الصنط الذي هو سريع الاشتعال

بطيء الخمود .

وبها القمح اليوسفي .

وبها دهن السلجم .

وبها معامل التناير التي يعمل بها البيض ويوقد

تقلت زريعتيه الى مصر من بلاد الهند في أيام القبط .

وبها الرخام المرمر ، ومنافعه لا تنكر .

وبها القرط الذى تربط عليه الحبول في زمن الربيع .

وبها الكتان ، ومنافعه لا تنكر .

وبها الخيار شنبر ، ومنافعه لا تنكر .

ومن أجل منافعها ماء النيل المبارك وسرعة هضمه للأكل . قال بعض الحكماء ، « لولا ماء الليمون على أهل مصر لوخموا من حلاوة ماء النيل » .

وبها ماء العومج ، ومنافعه لا تنكر .

ومن فضائل مصر أن الرخامة الخضراء الفستقية التى فى الحجر عند الكعبة أصلها من مصر ، بعثها الى مكة محمد بن طريف ، مولى العباس بن محمد ، فى سنة احدى وأربعين ومائتين من الهجرة ، وبعث معها رخامة أخرى فستقية وضعت على سطح الكعبة عند الميزاب . وقبل طولهما ذراع بالعمل وثلاث أصابع ، وعرضهما مثل ذلك . ذكره الفاكهى فى تاريخ مكة .

قال المسعودى : « ان كل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة على انفرادها » .

وقد قال الله تعالى فى حق قرى مصر : « وابعث فى المدائن حاشرين » .

قال القضاعى : « لم يكن فى الأرض ملك أعظم من ملك مصر . ولو ضرب بينها وبين سائر قرى الدنيا سور لاستغنى أهلها بما فيها عن سائر البلاد . ولو زرعت كلها لوقت بخراج الدنيا بأسرها » .

وهى أكثر البلاد كنوزا وعجائب وأنهارا ، ولا سيما ما فى بلاد الصعيد من البرابى ، وما

أودعت من المعلوم والحكم والطلسمات وغير ذلك .

قيل سئل بعض الحكماء : « متى تطيب أرض مصر ؟ » . قال : « اذا اعتدل هواها ، وارتفع وبها ، وطاب مرعاها » .

وقال بعض الحكماء : « اذا بلغت زيادة النيل ثمانية عشر ذراعا وهبط ، كانت العاقبة فى ذلك حدوث وباء بالديار المصرية فى تلك السنة » .

قال كعب الأحبار رضى الله عنه : « من أراد أن ينظر الى شبه جنة الفردوس فليتنظر الى أرض مصر » . قيل قبل طلوع الشمس فى زمن ربيعها ، اذا اطردت أنهارها ، وغردت أطيارها ، وأينعت أزهارها .

وقد قال القائل فى المعنى :

ما مثل مصر فى زمان ربيعها

لصفاء ماء واعتلال نسيم

أقسمت ما تحوى البلاد نظيرها

لما نظرت الى جمال وسيم

ووصف بعض الحكماء أرض مصر فقال :

« ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر كهرة صفراء ... »

فان أرض مصر فى شهر أيب ومصرى وتوت يركبها الماء فتصير الأرض بيضاء من اقتراش الماء عليها ، وتصير ضياعها مثل الكواكب فى السماء فلا يصل اليها أهلها الا فى الزوارق .

وأما المسكة السوداء فان أرض مصر فى شهر بابه وهاتور وكيهك ينصرف عنها الماء فتصير مثل المسكة السوداء .

وأما الزمردة الخضراء فان أرض مصر فى شهر

طلوبة وأمشير وبرمهات يكثر فيها الزرع فتصير
الأرض خضراء مثل الزمردة .

وأما الكهرمة الصفراء فإن أرض مصر في شهر
برمودة وبشنس وبؤلة يدرك فيها الزرع ويحصد
فتصير مثل السبيكة الذهب الصفراء .

وقد قيل في المعنى :

كل وقت بمصر أمر عجيب

نحن منه في السعد كالأغنياء

ذهب حيثما ذهبنا ، ودر

حيث درنا ، وفضة في الفضاء

ومن محاسن مصر ... قال القضاعي : « ان مصر
يوجد بها في كل شهر من الشهور القبطية نوع من
الماكولات والمشروبات . فيقال رطب توت ، ورماني
بابه ، وموز هاتور ، وسبك كيهك ، وماء طوبه ،
ورميس أمشير ، ولبن برمهات ، وورد برمودة ،
ونبق بشنس ، وثمن بؤلة ، وعسل أييب ، وعنب
مسري » .

ومن محاسن مصر أيضا السبع زهرات التي
تجتمع في وقت واحد في أواخر فصل الشتاء ،
ولم يكن هذا يبلد غيرها ، وهي : النرجس ،
والبنفسج ، والبان ، والورد النصيبى ، والزهر
(وهو زهر النارج) ، والياسمين ، والورد
الجورى ، ويعرف أيضا بالقحاني ، وهو آخر هذه
السبع زهرات التي تجتمع في وقت واحد .

أما النسرين — وإن كان من أعظم الزهور
والحة — فانه غير معدود في جملة الزهور السبع
التي تجتمع في وقت واحد ، لأنه يأتي في آخر أيام
الورد ... فلا يلحق النرجس ولا يلحق البنفسج ،
فلم يكن معدودا في جملة هذه السبع زهرات التي

تجتمع في وقت واحد لأجل تأخره عن بقية الأزهار .
وقد نظمها في هذا المقطوع وهو قولى في المعنى :

يا طيب وقت بمصر فيه قد جمعت
سبع من الزهر تحويها البساتين

بنفسج نرجس زهر وبان لنا

ورد نصيبى وجورى وياسمين

وقيل ان الذى ينقطع من الفواكه والأزهار في

سائر البلاد في زمن الشتاء يوجد بمصر .

ومن محاسنها أن أهل مصر لا يحتاجون في زمن
الشتاء الى التدفئ بالنار كما تعاليه أهل الشام ،
ولا في زمن الصيف الى أن يدخلوا تحت الخيش من
شدة الحر كما تعاليه أهل مكة .

قال أبو الصلت : « أهل مصر خصوا بالأفراح
فيها دون غيرهم من جميع الأمم » .

وقيل ان أهل مصر لا يهتمون بأمر الزاد كما هي
عادة غيرهم من الأمم ، كأنما حوسبوا وفرغوا من
الحساب .

وكان بمصر من الفلاسفة والحكماء القدماء :
هرمس وبقراط وجالينوس والينوس وفيدافورس ،
ولما ماتوا دفنوا بمصر . وكان بها من الحكماء في
دولة الاسلام الرئيس علاء الدين بن نفيس صاحب
كتاب الموجز ، والرئيس أبو على بن سينا .

ومما تفتخر به مصر على سائر البلاد أن سلطانها
خادم الحرمين الشريفين وله الميزة على سائر ملوك
الأرض كما قال القائل :

إذا البلاد افتخرت لم يفتخر

بمصر ليسها من الملوك

وكيف لا تفخبر

أرجائها السلطان والنيل

مأقاله الشعراء في وصف مصر من كل معنى غريب

قال ابن الوردي رحمه الله تعالى :

ديار مصر هي الدنيا ، وساكنها

هم الأنام ... فقابلها بتقبيل

يا من يباهى ببغداد ودجلتها

مصر مقدمة والشرح للنيل

وقال الصلاح الصفدي :

من شاهده الأرض وأقطارها

والناس أنواعا وأجناسا

ولا رأى مصر ولا أهلها

فما رأى الدنيا ولا الناسا

وقال الشيخ علاء الدين الوداعي :

وو بمصر وساكنها

شوقي ، وجدد عهدى الخالي

وصف لنا القرط ، وشنف به

سمعى ، وما العاطل كالحالى

وارو لنا ياسعد عن نيلها

حديث صفوان بن عسال

وقال البها زهير :

يارعى الله أرض مصر ، وحيأ

ما مضى لى بمصر من أوقات

حبذا النيل والمراكب فيه

مصاعداً بنا ومنحدرات

هات زدنى من الحديث على النية

ل ، ودعنى من دجلة والفرات

وقال ابن فضل الله :

يحق لمصر أن تنيه إذا جرى

بها النيل وامتدت اليه عيون

فما مثله من زائر لقدومه

تقر عيون اذ تقر العيون

وقال ابن الصائغ الحنفى :

ارض بمصر فلك ارض

من كل فن لها فنون

وتيلها العذب ذاك بحر

ما نظرت مثله العيون

وقال الشهاب المنصوري :

تقول لنا مصر : أنا خير موطن

ولا ناس فى الأمصار أطرفه من ناسى

فان تك أوقات السرور نضيرة

فلا تقطعوها فى الا بمقياسى

وقال رضى الله عنه :

اعملوا أهل مصر لله شكرا

وقليل من العباد الشكور

ان مصر أسقى الاله ثراها

بلد طيب ورب غفور

المَقَوْسُ

وأكرم حاملاً غاية الأكرام وبعثه بتلك الهدية ،
فلما وصلت الى النبي صلى الله عليه وسلم قبلها
منه ، واستسلم مارية فأسلمت على يديه ، ووهب
أختها شيرين الى حسان بن ثابت . وكانت البغلة
والحمار أحب دوابه اليه .

ولما دخل على مارية حملت منه بإبراهيم فعاش
ثمانية عشر شهرا ومات .

قال صلى الله عليه وسلم : « متفتحون بعدي
أرضا يذكر فيها القيروط . فاذا افتتحتموها
فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم نسبا وصهرا » .
قال ابن شهاب : « كنى بالنسب عن هاجر ، أم
اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام ، فان
أصلها من مصر . وكنى بالصهر عن مارية القبطية ،
فان أصلها من مصر أيضا » .

واستمر المقوقس قائما بملك مصر نحو احدى
وثلاثين سنة حتى افتتح عمرو بن العاص رضي الله
عنه الديار المصرية في سنة عشرين من الهجرة
النبوية في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
وأرضاه .

كان اسمه جرج بن ميناهي ، وقد أدرك نبوة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كانت سنة
ست من الهجرة (٦٢٧ م) بعث اليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم حاطب ابن أبي بلتعة رضي الله
عنه ومعه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
يخبره فيه الى الاسلام . فلما دخل حاطب مصر
وجد المقوقس بغير اسكندرية ، فتوجه اليه ، وكان
يصيف بمصر وشتى بالاسكندرية ^١ . فلما دخل عليه
هو له كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما
أعطاه قبله ووضع على رأسه ، ثم قرأه وعلم ما فيه
وقال لحاطب : « نعلم أنه نبي مرسل ، وقد أخبرنا
المسيح بذلك » .

ثم بعث مع حاطب الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم هدية عظيمة ، وهي ألف مثقال من
الذهب ، وعشرون ثوبا من قباطى مصر ، وجارية
تسمى مارية وأخرى تسمى شيرين ، وغلام خصى
يسمى مابور ، وبنطة تسمى دلدل ، وحمار يسمى
خضرا وقيل ينفور ، وعسل من عسل بنها .

(١) له بنى مكى ذلك .



عمرو بن العاص

وابتداء دولة الإسلام

بيالك أنه فيه من المال ولا تفتحه ، فلم يسمع لهم شيئا وفتحه . فلما دخل فيه لم يجد به شيئا من المال ، ورأى على حيطانه منقوشا تصاوير العرب وهم على خيولهم بعمائمهم وسيوفهم في أوساطهم وهم على الابل . ورأى في صدر ذلك المكان كتابة بالقلم الرومى ، فأتى بمن قرأ ذلك الخط ، فاذا معناه : اذا فتح هذا المكان تملك العرب المدينة في تلك السنة التى يفتح فيها ... فكان الأمر كذلك ، وملك العرب المدينة في تلك السنة . وكان كل من ملك مدينة الاسكندرية يجعل على ذلك الباب قفلا ، وهذه الأقفال بعدد من ملك المدينة من ملوك القبط .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما فرغ من الصلاة : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا فتحت عليكم بعدى مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا ... فذلك الجند خير أجناد الأرض » . فقيل : « ولم ذلك يا رسول الله ؟ » . فقال : « لأنهم في رباط الى يوم القيامة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « مصر كنانة الله في أرضه ... ما كاد أهلها أحد الا كفاهم الله تعالى مؤنته » .

قال ابن المتوج : « لما فتح عمرو بن العاص مصر واستقر بها ، قصد التوجه الى مدينة الاسكندرية ، فتوجه اليها بمن معه من العربان ، فلما وصل اليها حاصر أهل المدينة أشد المحاصرة ، وكان المقوقس بها مقيما ، فلما أشرف على فتحها

قال الكندى : لما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل جيشا الى مصر ، وكان أمير الجيش عمرو بن العاص رضى الله عنه فلما وصل الى مصر أقام يحاصر أهلها ثلاثة أشهر ، وكان المقوقس في قصر الشمع ، وكان قصر الشمع مطلا على بحر النيل ، وكانت السفن ترسو تحته . فلما رأى المقوقس أن العرب أشرفوا على أخذ المدينة نزل في مركب من باب قصر الشمع وتوجه الى نحو الاسكندرية هاربا ، وكان يعلم أن العرب لا بد أن تملك مصر ، وسبب ذلك ...

قال أبو الحسن المسعودى : كان بقصر الشمع في الكنيسة المعلقة صنم من النحاس الأصفر راكب على جمل من النحاس الأصفر ، وهو زى العرب وعلى رأسه عمامة وفي رجليه نعلان من جلد ، فكانت القبط والروم اذا تظالموا في شيء بينهم واعتدى بعضهم على بعض يتحاكمون عند ذلك الصنم النحاس ، ويقفون بين يديه فيقول المظلوم للظالم : « أنصفنى قبل أن يجرى هذا الرجل الأعرايى فيأخذ الحق لى منك ان رضيت أو لم ترض » . فكانوا يعنون بذلك عمرو بن العاص رضى الله عنه .

وقيل كان بالاسكندرية باب لا يزال مغلقا دائما وعليه أربعة وعشرون قفلا ، فعزم على فتحه المقوقس . فلما قوى عزمه على ذلك اجتمعت عليه القسيسون والرهبان وسألوه ألا يفتح ذلك الباب وأن يجعل عليه قفلا كما فعل من تقدمه من الملوك ، فلم ينته عن فتحه ، فقالوا له نحن نعطيك ما خطر

أرسل المقوقس يسأله في الصلح وأن يجعل عليه الجزية .

قال ابن لهيعة: «وكان سبب فتح الاسكندرية أن عمرو بن العاص لما طال عليه أمر الحصار أتى إليه رجل يقال له ابن بسامة — وكان بوابا على باب المدينة — فقال لعمرو بن العاص: أتؤمنني على نفسي وعيالي وأنا أفتح لك الباب؟ فأجابه عمرو إلى ذلك ففتح له الباب فدخل عمرو ومن معه من المسلمين فملكوها وأسرُوا المقوقس .

فلما فتحت مدينة الاسكندرية أرسل بذلك إلى الخليفة وكتب إليه كتابا وهو يقول فيه: «أما بعد، فإني قد فتحت مدينة لا أقدر أن أصف لك ما فيها غير أني قد وجدت بها اثني عشر ألف بقال يبيعون صنف البقولات في جوانب المدينة من بعد العصر، ووجدت بها ألف مركب من مراكب الروم الكبار، ووجدت بها نحو ستمائة ألف يهودي وقد هرب أكثرهم إلى بلاد الروم من البحر، وقد أوجبت الجزية على من بقي منهم غير النساء والصبيان، فقررت على كل رأس منهم دينارين في كل سنة، فكان الذي بقي نحو خمسين ألف يهودي .

فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من كان في يدك من اليهود أو النصارى فخيرهم بين الاسلام ودينه . فإن أسلم فهو من جملة المسلمين ... له مالهم، وعليه ما عليهم . وإن لم يسلم فعليه الجزية عن كل رأس ديناران .

ثم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عمرو بن العاص تقليدا بولاية مصر وأرسله على يد معاوية بن خديج، وذلك في سنة عشرين من الهجرة، فكان أول من تولى على مصر نيابة عن الخلفاء .

قليل لما ملك العرب مدينة الاسكندرية جاءت الروم إلى قسطنطين بن هرقل، وقالوا له: «أترك

الاسكندرية في أيدي العرب وهي مدينتنا الكبرى؟» . فتوجه قسطنطين إلى الاسكندرية في ألف مركب مشحونة بالرجال المقاتلين، فلما وصل إلى قرب الاسكندرية بعث الله تعالى عليهم ريحا عاصفا فأغرقت تلك المراكب كلها بمن فيها من الرجال ولم ينج منهم أحد . وأما قسطنطين ملك الروم فألقته الريح بصقلية فسأله أهلها عن أمره فأخبرهم بأمر الريح وتغريق المراكب فقالوا له: «قد أفنيت من بقي من عسكر الروم وجئت إلينا، فلو دخلت العرب إلى بلادنا لم يجدوا من يردهم» . فاجتمع عليه أهل صقلية وقتلوه وكفى الله المؤمنين القتال . قال ابن وصيف شاه: «لما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية أقام بها مدة ورجع إلى مصر، فاجتمع رأيهم بأن يبنى هناك مدينة ظاهر قصر الشمع، فابتدأ ببناء مدينة وسماها مدينة الفسطاط . وسبب تسميتها بمدينة الفسطاط أن عمرو بن العاص لما فتح مصر نزل بمن معه من العربان في الفضاء ونصب هناك فسطاطه، فلما قصد التوجه إلى الاسكندرية أمر بنزع ذلك الفسطاط فوجدوا عليه عش يمامة وقد أفرخت عليه، فقال عمرو بن العاص: «دعوا الفسطاط — يعني الخيمة — مكانه لا تهدوه احتراما لليمامة التي قد عشتبت عليه» .

فلما توجه إلى الاسكندرية وفتحها، وقصده الرجوع إلى مصر قالوا له لما دخل إلى مصر: «في أي مكان تنزل؟» . فقال في مكان تركت به الفسطاط، أي الخيمة . فلما بنى هناك هذه المدينة سميت مدينة الفسطاط بسبب ذلك . وكانت الفسطاط مدينة عظيمة جليلة بها عدة مساجد وحمامات وطواحين ومعاصر، وكان أولها من حדרه ابن قميحة وآخرها عند الرصد . ولم تزل هذه المدينة عامرة ساكنة إلى دولة الفاطمية إلى خلافة

العاقد بالله ، فحرقته عندما استولى الفرنج على الديار المصرية كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه فى أخبار الدولة الفاطمية .

قال إبراهيم بن وصيف شاه : « ان فى سنة احدى وعشرين من الهجرة كان فتح مدينة دمياط على يد المقداد بن الأسود رضى الله عنه ، وكان ملك هذه المدينة شخصا من القبط يقال له الهاموك خال المقوقس صاحب مصر . وكان للهاموك ولد يسمى شطا ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأسلم تلك الليلة ، ودلهم على مسالك المدينة فاستولوا عليها ليلا وملكوها فقاتل معهم شطا قتالا شديدا حتى قتل فى المعركة ، وكان قتله فى ليلة الجمعة فى النصف من شعبان من سنة احدى وعشرين من الهجرة ودفن خارج دمياط فى مكان قتل به ، وقبره يزار الى الآن رحمة الله عليه . »

قال ابن عبد الحكم : « لما استقر عمرو بن العاص بمصر جاء اليه القبط وقالوا له : « ايها الأمير ان لنيلنا سنة كل سنة لا يجرى الا بها . » فقال لهم : « وما هى ؟ » فقالوا : « اذا كان ليلة اثنتى عشرة من شهر بؤنة من الشهور القبطية عمدنا الى جارية بكر وأخذناها من أبويها غصبا أو رضا ، وجعلنا عليها الحل والحلل ثم نلقيها فى بحر النيل فى مكان معلوم . » فلما سمع عمرو بن العاص ذلك قال لهم : « هذا الأمر لا يكون فى الاسلام أبدا . » فأقام أهل مصر شهر بؤنة وأيب ومسرى وتوت من الشهور القبطية ، ولم يجر فيها النيل لا قليلا ولا كثيرا ، فهم أهل مصر بالجلاء ... »

« فلما أن رأى عمرو بن العاص ذلك كتب كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأرسله على يد نجاب ، فلما وصل الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتب بطاقة وأرسلها الى عمرو بن العاص ، وأمره أن يلقبها فى بحر النيل ، فلما وصلت الى عمرو بن

العاص فتح تلك البطاقة وقرأ ما فيها واذا فيها مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . »

« من عبد الله عمر بن الخطاب الى نيل مصر المبارك . »

« أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر . وان كان الله تعالى الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك » ... »

« فلما وقف عمرو على ما فى البطاقة ألقاها فى النيل كما أمره أمير المؤمنين عمر ، وقد ألقاها فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد ، وعيد الصليب يكون سابع عشر توت من الشهور القبطية ، وكان قد أجلى غالب أهل مصر من عدم جريان الماء . فلما أصبح الناس يوم عيد الصليب رأوا النيل زاد فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا فى دفعة واحدة . وقد قطع الله تلك السنة السيئة عن أهل مصر ببركة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . »

وفى سنة ثلاث وعشرين من ولايته على مصر ابتداء ببناء جامع الكبير الذى بمصر — وهو المسمى به — وكان واقفا على قبلته نحو سبعين رجلا من الصحابة ، فهو أول جامع بنى فى الاسلام بمصر ، وهو جامع مبارك وفيه الدعاء مجاب .

قال ابن وصيف شاه ان عمرو بن العاص سأل المقوقس وقال له : « لقد وليت على مصر احدى وثلاثين سنة فأخبرنى بما يكون فيه عمارة أراضى مصر . » فقال له المقوقس : « انى رأيت الذى يقوم بعمارة مصر حفص خلعائها ، واصلاح جسورها ، وسد ترعها ، ولا يؤخذ خراجها الا من غلالها ، ويحجر على عمالها من المثل ، ويمنعون من الرشا ، وترفع عن أهلها المعاون والهدايا ليكون ذلك قوة على وزن الخراج . »

قال المسبحي :

« كان بمصر في الزمن الأول مائة وخمسون كورة ،
في كل كورة مدينة ، وكان لكل كورة ثلثمائة
وخمس وستون قرية . فلما خربت عند قدوم
بختنصر اليها ، ثم أعيدت بعد ذلك ، صار بها
خمس وثمانون كورة ، ثم ألحقت من بعد
ذلك الي أن كانت دولة عمرو بن العاص فصار بها
لحو أربعين كورة . وقد اشتملت على ألفين
وثلثمائة وخمس وتسعين قرية دون الكفور ، وذلك
عند ما خربت وتناقص خراجها فجباها عمرو بن

العاص فبلغ اثني عشر ألف ألف دينار . وكان
خراجها في زمن الفراعنة ستة وتسعين ألف دينار .
ثم ان عمرو بن العاص أقام على مصر الى أن
توفي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،
وتولى من بعده الامام عثمان بن عفان ، فعزل عمرو
ابن العاص عن ولاية مصر وولى عبد الله بن أبي
السرْح ، فكانت مدة ولاية عمرو بن العاص على
مصر في هذه المرة لحوست سنين الا أشهراً ، ثم
هاد الى ولايته بمصر ثانياً كما سيأتي ذكر ذلك في
موضعه .



ولاية مصر لعمر بن العاص

عنه ، وأقام في ولايته عليها الى أن مات بها ودفن بها ، وقيل انه مات مسموما ، فلما بلغ الامام موته حزن عليه حزنا شديدا وقال : « لقد كان لي كمل كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم » .

الولاية زمن الامويين

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه . تولى على مصر في خلافة معاوية بن أبي سفيان في سنة ثمان وثلاثين من الهجرة ، وأقام بمصر حتى قتل . وكان سبب قتله أن محمد بن أبي بكر هذا كان من جملة من اجتمع على قتل الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو في داره يوم المقتلة فيما زعموا ، واستغفر الله من ذلك . فلما تولى محمد على مصر ثار عليه الشيعة بسبب ثار عثمان بن عفان ، وكان الذين ثاروا عليه من الشيعة معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وبشر بن أرطاة وغيرهم من الشيعة ، فأتوا من الشام ، فلما دخلوا الى مصر خرج اليهم الأمير محمد بن أبي بكر رضى الله عنه وقاتلهم قتالا شديدا . وكان — مع صغر منه — شجاعا بطلا ، فكان هو وأخوه عبد الرحمن يقاتلان الشيعة ومعهما بعض العسكر ، فلما قويت عليهم الشيعة تفرق عنهما العسكر ، فانكسر الأمير محمد وهرب واختفى في بعض الخرابات ، فلما حشوا في طلبه قالت لهم عجوز : « أتريدون الأمير محمد بن أبي بكر ؟ » . فقالوا لها : « نعم » . فقالت : « أعطوني الأمان لأخى وأنا أدلكم عليه » . فقالوا لها : « نعم » .

قال الكندي : « كان عبد الله بن أبي السرح أخا الامام عثمان بن عفان من الرضاع ، فلما تولى على مصر رحل عنها عمرو بن العاص وأتى المدينة الشريفة ، فلما استقر ابن أبي السرح بمصر جبي خراجها في تلك السنة أربعة عشر ألف ألف دينار ، فلما وصل خراج مصر الى الامام عثمان بن عفان نظر الى عمرو بن العاص وقال : « لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو » . فقال له : « نعم ، ولكن أجاعت أولادها ، وإن هذه الزيادة اتى أخذها عبد الله ابن أبي السرح انما هي على الجحاجم » . فانه أخذ عن كل رأس دينارا خارجا عن الخراج فحصل لأهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل ، وكانت هذه أول شدة وقعت لأهل مصر في مبتدأ الاسلام .

وأقام عبد الله بن أبي السرح في ولايته على مصر الى أن مات في سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وقيل انه مات بفلسطين ودفن بها ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو اثنتى عشرة سنة ، فانه تولى على مصر سنة خمس وعشرين وتوفي في سنة ست وثلاثين .

* ثم تولى من بعده الأمير قيس بن سعد بن عبادة الحزرجي الأنصارى — وكان من الصحابة — فأقام في ولايته على مصر نحو اثنتى عشرة سنة ، فانه تولى على مصر سنة خمس وعشرين وتوفي في سنة ست وثلاثين .

* ثم تولى من بعده الأمير مالك بن الحارث النخعي بن الأشتر — وكان من الصحابة — فتولى على مصر في خلافة الامام على رضى الله تعالى

قد أعطينا الأمان لأخيك . وكان أخوها يبيع
 الفجل في مدينة الفسطاط ، فدلتهم على مكانه .
 فلما دخلوا عليه وجدوه قد كده العطش فقال
 لهم : « بالله اسقوني شربة من الماء » . فقال له
 معاوية بن خديج : « لا سقاني الله ان سقيتك .
 أنسيت منك الماء لعثمان بن عفان وهو محصور
 في الدار ؟ » . فقال : « أكرموني لأجل أبي بكر » .
 فقال له معاوية بن خديج : « لا أكرمني الله ان
 أكرمتك . أنسيت ما فعلته يوم قتلة عثمان ؟ فلا
 أمان لك عندنا » . ثم تقدم اليه معاوية بن خديج
 وضرب عنقه بالسيف ثم جره برجله وطاف به في
 المدينة ، ثم أدخل جثته في جوف حمار ميت وأحرقه
 حتى صار فحما . فكانت قتلته في رابع عشر صفر
 سنة ثمان وثلاثين من الهجرة . وكانت مدة ولايته
 على مصر خمسة أشهر ، وكان له من العمر لما قتل
 ثمان وعشرون سنة ، وكان مولده في عام حجة
 الوداع . وتوفي أبوه أبو بكر وله من العمر نحو
 ستين ونصف . قيل لما قتل الأمير محمد بن أبي بكر
 الصديق رضي الله عنه أخذ رأسه وجثته زمام الخادم
 ودفنهما خارج مدينة الفسطاط وبنى هناك مسجدا ،
 وهو إلى الآن يعرف بمسجد زمام ويزار إلى الآن .

قال الكندي : « لما قتل الأمير محمد أرسل
 معاوية بن خديج قميصه الذي قتل فيه وهو بدمه
 إلى المدينة الشريفة . فلما وصل إلى دار الامام
 عثمان بن عفان اجتمع عصبة عثمان ونساؤه وأظهروا
 الفرح والسرور في ذلك اليوم . ثم ان نائلة زوجة
 عثمان لبست القميص ورقصت به بين الرجال .

ثم من بعده أعيد الأمير عمرو بن العاص
 إلى ولايته بمصر ، وهي الولاية الثانية . تولاهما
 في خلافة معاوية بن أبي سفيان في سنة ثمان وثلاثين
 من الهجرة . واستمر في ولايته إلى أن مرض
 وسلسل في المرض ، فلما أشرف على الموت أحضر

ما كان جمعه من الأموال وقال لولده عبد الله ،
 وكان يقاربه في السن — قيل كان بين مولد عمرو
 ابن العاص وبين مولد ابنه عبد الله نحو ثلاث عشرة
 سنة — فقال عمرو لولده عبد الله : « اذا أنا مت
 فارد هذه الأموال التي جمعتها إلى أربابها » . فلما
 مات الأمير عمرو بن العاص أرسل معاوية بن أبي
 سفيان يقول لعبد الله : « نحن أحق بهذه الأموال
 التي جمعها عمرو لدفع العدو » . فأرسل من أخذها
 وأدخلها في بيت المال ، فقيل لعبد الله : « ما كان
 قدر ذلك المال ؟ » . فقال : « كان سبعين جرابا
 من جلد ثور كاملة » .

وكانت وفاة الأمير عمرو بن العاص في ليلة
 عيد الفطر في سنة ثلاث وأربعين من الهجرة . فلما
 كان يوم عيد الفطر أخرج نعشه إلى الجامع ووضع
 في المحراب حتى تكاملت الناس وصلوا عليه بعد
 صلاة العيد ، ثم حمل ودفن في مقابر الفسطاط
 على طريق الحاج . ومات رضي الله عنه وله من
 العمر نحو خمس وتسعين سنة ، وكانت مدة ولايته
 الثانية نحو ست سنين الأشهر .

ثم تولى من بعده الأمير عقبة بن أبي سفيان ،
 أخو أمير المؤمنين معاوية . فلما تولى على مصر
 أقام بها مدة يسيرة دون السنة ومات ودفن بمصر .
 ثم تولى من بعده الأمير عقبة بن عامر الجهني ،
 صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورديقه ،
 وهو الذي تسند إليه الأحاديث عن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم . تولى على مصر في سنة أربع
 وأربعين من الهجرة ، وأقام بها إلى أن مات شهيدا
 في يوم النهروان رضي الله عنه ، فكانت مدة ولايته
 على مصر مستثنين وثلاثة أشهر . وكانت وفاته في

(١) الذي في « شعرات الذهب » و « اسد الغابة » ان وفاة
 عقبة بن عامر سنة ثمان وخمسين . وفي صفحة ٢٠١ من الجزء
 الاول من خطط التبريزي انه هزل من مصر سنة ٤٧ للهجرة .

سنة سبع وأربعين من الهجرة ، ودفن بالقرافة الصغرى وقبره يزار الى الآن بالقرافة .

* ثم تولى من بعده الأمير مسلمة بن مخلد ، واستمر على ولايته بمصر حتى مات ، فكانت مدة ولايته خمس سنين .

* ثم تولى من بعده الأمير سعيد بن يزيد ابن علقمة الأزدي . تولى على مصر في سنة اثنتين وستين من الهجرة ، فكانت مدة ولايته سنتين .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الرحمن ابن جحدم القرشي . تولى في أيام عبد الله بن الزبير في سنة أربع وستين من الهجرة ، فلم تطل أيامه بمصر وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد العزيز بن مروان ، وهو أبو العبد الصالح عمر رضى الله عنه . قيل لما تولى عبد العزيز بن مروان على مصر وقع بها الطاعون ، فرحل عبد العزيز عن مدينه القسطنطين وتوجه الى حلوان — وهى من قرى مصر — فأقام بها مدة ، وقيل ولد بها ابنه عمر ، فكانت أخبار المدينة تأتية في كل يوم الى حلوان بما يحدث في البلد من الموت وعدة من يموت بها وغبر ذلك من الأخبار ، فلم نزل عبد العزيز مقيما بحلوان حتى طعن ومات بها فحملوه في نعش من حلوان الى مدينة القسطنطين وقد تغيرت رائحته ، وكان حول نعشه مجامر النار وهى معلقة بالبخور حتى دخل الى مدينة القسطنطين فدفن بها . قال ابن عفير : « لما كان الأمير عبد العزيز بحلوان كان له في كل ليلة ألف جفنة تصف حول داره وهى ملانة بالطعام تفرق على الفقراء والمساكين بجرابة الخبز . وكانت له مائة حلة كبيرة تحمل على عجل وفيها الطعام فيطاف بها على قبائل العرب التى حوله ، واستمر ذلك في كل ليلة الى أن مات » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن عبد الملك

ابن مروان ، فكانت ولايته على مصر في سنة ست وثمانين من الهجرة ، وكانت مدة ولايته نحو خمس سنين .

* ثم تولى من بعده الأمير قره بن شريك العيسى . تولى على مصر في سنة تسعين من الهجرة ، فلم تطل ولايته الا أياما وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده عبد الملك بن رفاعة الفهمي . تولى على مصر مرتين وطالت بها أيامه حتى مات ودفن بها .

* ثم تولى من بعده الأمير أيوب بن رحيسل الأصبحي . تولى على مصر في سنة احدى ومائة من الهجرة في خلافة عمر بن عبد العزيز فأقام بها نحو سنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير بشر بن صفوان . تولى على مصر ثلاث مرات ثم عزل عنها في سنة ثمان وعشرين ومائة في خلافة مروان الحمار .

* ثم تولى من بعده الأمير حنظلة بن صفوان الفهمي أخو بشر ، وهو الذى لقت قبائل بنى قيس الى مصر في أيامه ، وذلك في سنة ثمان وعشرين ومائة ، ولم يكن قبل ذلك بمصر من بنى قيس أحد . واستمر الأمير حنظلة واليا على مصر حتى توفى في سنة تسع وعشرين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن عبد الملك ابن مروان فأقام في ولايته على مصر سبعة أشهر وحسنة أيام ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير الحر بن يوسف ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حفص بن الوليد العامري ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده أخوه الوليد بن رفاعة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الرحمن بن خالد الفهمي ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حسان بن العتاهية التجيبي ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حوثة بن سهل الباهلي ، وكان رجلا حليما قليل الغضب . قيل ان رجلا من العرب دخل عليه وهو قائم يريد الدخول الى حرمة ، فجاء اليه الرجل الأعرابي وحدثه في حاجة له ، فوصح الأعرابي نصل سيفه على رجل الأمير حوثة وطال معه في الحديث ، وجعل يغوص بالسيف في رجله حتى أدامها وهو صابر ، حتى فرغ الأعرابي من كلامه وخرج من عنده فدعا حوثة ببنديل ومسح به الدم عن رجله فقبل له : « لم لا نحيت رجلك من تحت سيفه أيها الأمير أو أمرته برفع سيفه عن رجلك ؟ » فقال : « خشيت أن أقطع عليه كلامه وهو في حاجته » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الحميد بن المغيرة بن سعيد الفزاري ، فأقام على ولاية مصر نحو سنتين ثم عزل عنها . قال ابن وصف شاه : « ان أرض مصر أجذبت ووقع بها الغلاء في زمن عبد الحميد بن المغيرة فزهرن حلج نسائه عند التجار واشترى منهم قمحا وفرقه على الفقراء . فلما عزل عقب ذلك عن مصر وقف اليه التجار بسبب الرهن فأمر ببيعه حتى قضى ما كان عليه من الدين الذي للتجار وكان نحو عشرة آلاف دينار ، ثم رحل عن مصر والناس عنه راضون » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله بن مروان الحمار ، وهو آخر من تولى على مصر من عمال الخلفاء من بني أمية . ومما وقع للأمير عبيد الله هذا ... قال ابن وصيف شاه : « لما اتقلت الخلافة الى بني العباس ، وولى عبد الله السفاح ، توجه عبد الله بن علي العباسي الى الشام في طلب من بقي

من بني أمية ، ثم أرسل بالقبض على الأمير عبيد الله بن مروان الحمار أمير مصر ، فلما أن بلغ الأمير عبيد الله ذلك دخل الى خزائن أمواله وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهباً ثم أحضر اثني عشر بغلا وحملها ذلك المال وشيئا من القماش والفرش وغير ذلك ، وأخذ معه جماعة من العبيد والغلما ، ثم شد على وسطه خريطة فيها جواهر فاخرة مشنة وخرج من مصر هاربا ، فتوجه الى نحو بلاد النوبة . فلما وصل هناك وجد مدائن خرابا وبها قصور محكمة البناء ، فنزل في بعض تلك القصور ، وأمر غلمانه بكنسها فكنست وفرشت فيها فرشها وما كان معه من تلك الفرش الفاخرة ، ثم قال لبعض غلمانه ، وكان ممن يثق بعقله : « امض الى ملك النوبة وخذ لي منه أمانا على نفسي من القتل » . فخرج الغلام وتوجه الى ملك النوبة ، فغاب ساعة ، ثم عاد ومعه قاصد من عند ملك النوبة ، فلما دخل عليه قال له ان الملك يقرئك السلام ويقول لك : « أجئت اليه محارباً أم مستجيراً ؟ » . فقال له الأمير عبيد الله : « رد عليه مني السلام وقل له : قد جاء اليك ليستجير بك من عدو يريد قتله » . فمضى ذلك القاصد بالجواب ، فغاب ساعة ورجع وقال له : « ان الملك قادم عليك في هذه الساعة » . فقال عبيد الله لغلمانه : « افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة » . وجعل مرتبة في صدر المكان برسم ملك النوبة ، وجلس يرتقب مجيئه .. فبينما هو على ذلك اذ دخل عليه غلامه ، وقال له ان ملك النوبة قد أقبل ، فقام الأمير عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر الى ملك النوبة فاذا هو رجل أسود طويل القامة نحيف الجسد ، وعليه بردان قد ائزر بأحدهما وارتمى بالآخر ، ومعه عشرة من السودان حوله ومعهم حراب بأسنة تلمع . فلما رآه الأمير عبيد الله

غايتهما منكم ، وأنا أخاف على نفسي ان أنزلتلك
عندى أن تحل بى تلك النعمة التى حلت بكم ،
والبلاء عام والرحمة مخصوصة » . ثم قال له :
« ارحل من أرضى بعد ثلاثة أيام والا أخذت جميع
ما معك وقتلتك شر قتلة » . فلما سمع الأمير
عبيد الله ذلك خرج من أرض النوبة فى يومه
ورجع الى مصر فقبض عليه عمال الخليفة المنصور
العباسى وبعث به الى بغداد ، فسجنه المنصور
حتى مات فى السجن . وهو آخر من تولى على
مصر فى دولة الخلفاء الأموية من العمال .

الولاة فى العهد العباسى

وأما من تولى على مصر من العمال فى دولة
الخلفاء العباسية فجماعة كثيرة ، أكثر ممن تولوا
فى دولة بنى أمية ، وكانوا يسمون عمال الخراج
بمصر . وكانت الخلفاء تشترط على عمال مصر فى
تقليدهم ، الخيل العربية ، والأثواب الديقية شغل
تنيس ، والمقاطع الشرب الاسكندرانية ، والطرز
الصعيدية ، وأجلال الخيل . وتشترط عليهم
ضيافة العسل النحل المصرى من عسل بنها ،
وتشترط عليهم البغال والحمر وغير ذلك من
الأصناف التى لا توجد الا بمصر .

* فكان أول من تولى مصر فى دولة الخلفاء
العباسية الأمير صالح بن على بن عبد الله العباسى ،
تولى على مصر فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ،
فتولى على مصر مرتين .

* ثم تولى من بعده الأمير أبو عون عبد
الملك الأزدي ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن كعب
— وهو أبو عيينة — تولى على مصر فى سنة
أحدى وأربعين ومائة فلم تطل أيامه بها ، وكانت
مدة ولايته على مصر دون السنة .

استصغر أمره واحتقره ، فلما قرب من المكان الذى
فيه عبيد الله أتاه من عسكره نحو عشرة آلاف
رجل من السودان فى أيديهم الحراب ، فلما دخل
ملك النوبة على عبيد الله وأحاط ذلك العسكر
بالمكان الذى فيه عبيد الله ووقعت عين ملك النوبة
على الأمير عبيد الله ، بادر الى يد الأمير عبيد الله
وقبلها ، فأشار اليه عبيد الله بأن يجلس على تلك
المرتبة التى وضعها له فأبى وصار يدفع تلك الفرش
الفاخرة برجله ، فقال عبيد الله للترجمان : « لم لا
يقعد الملك على تلك المرتبة التى وضعناها له ؟ » .
فقال له الترجمان فى ذلك فقال ملك النوبة : « قل
للأمير : كل ملك لا يكون متواضعا لله فهو جبار
عبيد متكبر » . ثم انه جلس بين يدي الأمير
عبيد الله وجعل ينكت فى الأرض بأصبعه طويلا .
ثم انه رفع رأسه الى الأمير عبيد الله وقال له :
« كيف سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأتتم أقرب
الناس الى نبيكم ؟ » . فقال له عبيد الله : « ان
الذى سلب منا ملكنا أقرب الى نبينا منا » . فقال
له ملك النوبة : « فكيف أتتم تلوذون الى نبيكم
بقراة وأتتم تشربون ما حرم عليكم من الخمر ،
وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم ، وتركبون
فى السروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ولم
يفعل نبيكم شيئا من هذا . وبلغنا أنك لما وليت
على مصر كنت تخرج الى الصيد ، وتكلف أهل
القرى ما لا يطيقون ، وتفسدون الزرع على
الناس ، وتروم الهدايا والتقادم من أهل القرى ...
وكل هذا لأجل كركى تصيده قيمته سبعة أنصاف
أو ثمانية » ... فصار ملك النوبة يعدد على الأمير
عبيد الله جملة ذنوب ، والأمير عبيد الله ساكت
لا يتكلم بحرف واحد ، ثم قال له ملك النوبة :
« فلما استحللتم ما حرمه الله عليكم ، سلبتم من
ملككم وأخذ منكم وأوقع الله بكم لقمة لم تبلغ

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن الأشعث الخزاعي ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده حميد بن قحطبة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير يزيد بن حاتم المهلبى . تولى فى سنة سبع وأربعين ومائة ، وفى أيامه وقع الغلاء بمصر وشرقت الأراضى من خسة النيل . وفى هذه السنة أخذ قاع النيل فجاء الماء القديم ذراعا وعشرين أصبعا ولم يعهد مثل ذلك فى السنين الماضية . فكان منتهى الزيادة فى تلك السنة اثنى عشر ذراعا وستة عشر أصبعا ، فشرقت البلاد فى تلك السنة وحصل للناس الضرر الشامل ، ووقع الغلاء بمصر حتى ماجت المدينة بأهلها ومات الأمير يزيد بعد ذلك بمدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن عبد الرحمن فلم تطل أيامه بها ، ومات .

* قتولى من بعده الأمير محمد أخو عبد الرحمن عم عبد الله ، ثم عزل عنها بعد مدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن على ، وعزل عنها بعد مدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده اللخمي فى أيام الخليفة المهدي فلم تطل أيامه بها وعزل عن ولاية مصر فى سنته ، ولم يستقم أمره بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن لقمان فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير واضح المنصورى فلم تطل أيامه .

* ثم تولى من بعده الأمير منصور بن يزيد فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير يحيى بن داود فى أيام الرشيد فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير سالم بن سودة ، تولى أيضا فى أيام الرشيد فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير ابراهيم بن صالح العباسى ، تولى على مصر فى سنة خمس وستين ومائة . وكان الرشيد قد زوجه بابنته غالية ، فلما تولى على مصر لم يستقم بها حاله فعزله الرشيد عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن مصعب مولى خثعم ، تولى على مصر فى سنة سبع وستين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير أسامة بن عمرو المعافرى ، تولى على مصر فى سنة تسع وستين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير فضل بن صالح العباسى فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير على بن سليمان العباسى ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده موسى بن عيسى العباسى فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير مسلمة بن يحيى الأحمسي ، تولى على مصر سنة اثنتين وسبعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن زهير الأزدي فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده داود المهلبى ، تولى على مصر سنة ثلاث وسبعين ومائة هو والأمير محمد ابن زهير الأزدي سنة واحدة .

* ثم تولى من بعده الأمير ابراهيم بن صالح العباسى . وفى أيامه توفى الامام الليث بن سعد

رضى الله عنه ودفن بالقرافة . وكانت وفاته في سنة خمس وسبعين ومائة ، وذلك في يوم الجمعة رابع عشر شعبان — وهي الولاية الثانية — فأقام بها حتى توفي في سنة ست وسبعين ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن المسيب الضبي فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسحق بن سليمان العباسي ، تولى على مصر في سنة سبع وسبعين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير هرثمة بن أعين في سنة ثمان وسبعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الملك بن صالح العباسي ، تولى في سلخ سنة ثمان وسبعين ومائة فأقام دون الشهر ومات ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله ابن الخليفة المهدي العباسي ، تولى على مصر في سنة تسع وسبعين ومائة فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن عيسى العباسي ، تولى على مصر ثلاث مرات ، وأقام في آخر ولايته الى سنة ثمانين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله ابن الخليفة المهدي ثانيا ، فأقام في ولايته على مصر هذه الثانية نحو سنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسمعيل بن صالح العباسي ، فأقام على ولايته بمصر دون السنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسمعيل بن عيسى في سنة اثنتين وثمانين ومائة .

* ثم تولى من بعده الليث بن الفضل الأسدي ، تولى على مصر في سنة أربع وثمانين ومائة ثم عزل عنها .

* وتولى من بعده الأمير أحمد بن اسمعيل العباسي ، تولى على مصر في سنة تسع وثمانين ومائة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن أحمد العباسي الذي يقال له ابن زينب ، تولى على مصر في سنة تسعين ومائة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حسين بن جميل ، تولى على مصر في أواخر سنة تسعين ومائة ثم عزل عنها في مدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده الأمير مالك ابن دلهم الكلبي في سنة اثنتين وتسعين ومائة ، فلم تطل بها أيامه وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير جاثم حسن بن البجياج ، تولى على مصر في سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير جاثم بن هرثمة ابن أعين ، فأقام على ولاية مصر مدة يسيرة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير جابر بن الأشعث الطائي ، تولى على مصر في سنة خمس وتسعين ومائة ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبادة بن محمد في سنة ست وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده المطلب بن عبد الله الخزاعي في سنة ثمان وتسعين ومائة . وفي أيامه توفي القاضي بكار بن قتيبة الحنفى رضى الله عنه ، وكان الرشيد ألزمه أن يتولى القضاء بمصر فتولى القضاء على كره منه . وكانت له كرامات خارقة للعادة ، وكانت وفاته في سنة تسع وتسعين ومائة ، ودفن بالقرب من باب الزعلة عند المجرة .

❖ ثم عزل المطلب عن مصر ، وتولى العباس
ابن موسى العباسي فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .
❖ ثم أعيد المطلب ثانيا مرة فأقام مدة يسيرة
وعزل عنها .

❖ ثم تولى من بعده السري بن الحكم في سنة
تسع وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .
❖ ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن طاهر
الخراساني . وكان من حذاق العمال بمصر ، وهو
الذي نقل زريعة البطيخ العبدلي الى مصر ولم يكن
بها قبل ذلك منه شيء ، وكان ظهوره بمصر في سنة
مائتين من سنَى الهجرة في أيام عبد الله بن طاهر ،
واليه ينسب فيقال البطيخ العبدلي . وأقام عبد الله
ابن طاهر على ولاية مصر ثم عزل عنها .

❖ ثم أعيد السري بن عبد الحكم الى ولاية مصر
ثانيا وذلك في سنة احدى ومائتين فأقام بها مدة
ومات ودفن بمصر .

❖ ثم تولى من بعده ابنه محمد بن السري ،
وفي أيامه توفي الامام الشافعي محمد بن ادريس
رضي الله عنه ، وكانت وفاته في ليلة الجمعة في سلخ
شهر رجب الفرد سنة أربع ومائتين من الهجرة
ودفن بالقرافة الكبرى مقابل تربة القاضي بكار .
وقيل مات بعلّة البطن ومات وله من العمر أربع
وخمسون سنة . وكان مولده بمدينة غزة في سنة
خمسین ومائة ، وهي السنة التي توفي فيها الامام
أبو حنيفة رضي الله عنه .

قيل لما مرض الامام الشافعي أوصى بالآ
يفسله الا أمير البلد . فلما مات حضر محمد
ابن السري أمير البلد ، فقيل له : « ان الامام أوصى
بالآ يفسله الا أنت » . فقال : « هل توفي الامام
وعليه دين ؟ » . فقيل له : « نعم » . فحسبوا
ما عليه من الدين فاذا هو سبعون ألف درهم ،

فقضاها عنه محمد بن السري ، وقال هذا غسلي
اياه ، وانما كنى عن الدين الذي عليه لأقضيه عنه .
وقيل ان الامام الشافعي أوصى اذا مات بأن
السيدة نفيسة رضي الله عنها تصلي عليه . فلما
مات أحضروا نعشه عندها فضربت لها ستارة وصلت
عليه من خلفها ، ثم حمل من عندها ودفن في تربته
كما تقدم ذكر ذلك .

وقيل ان الامام الشافعي رضي الله عنه له ساح
في الأرض في طلب الحديث ، وقصد التوجه الى
نحو مصر ، أنشد في حلقة درسه قبل أن يدخل
الى مصر هذين البيتين من نظمه حيث قال :

واني أرى نفسي تتوق الى مصر
ومن دونها عرض المهامه والقفر

فوالله ما أدري : ألعز والغنى
أساق اليها ، أم أساق الى قبري ؟
فكان الأمر كذلك ودفن بمصر ، وكانت وفاته في
أيام الخليفة المأمون .

وأما نسبه — رضي الله عنه — فهو : محمد
ابن ادريس بن عثمان بن شافع بن السائب ، متصل
النسب الى عبد مناف أحد أجداد رسول الله صلى
الله عليه وسلم ... فهو قرشي . وأما أمه فهي فاطمة
بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن الامام علي
رضي الله عنه .

❖ وقد قال الكرمانى فيه هذه الأبيات :

الشافعي امام كل أئمة
تربو فضائله على الآلاف

لكننى أوتيت بدعا بارعا
في وصفه هو سيد الأوصاف

ختم النبوة والامامة في الهدى
بمحمد بن هـ لعبد مناف

قيل ان أم الشافعي رضى الله عنه رأت في منامها وهي حامل أن نجما خرج من بطنها وله ضوء عظيم فسقط بأرض مصر ، ثم طار منه فانتشر في سائر الآفاق . فقصدت هذه الرؤيا على بعض المعبرين فقال لها : « سيخرج من بطنك مولود ويكون من كبار العلماء ، ويخص علمه أهل مصر دون غيرها من البلاد ، ثم ينتشر علمه في سائر الآفاق » ... وكان كذلك .

وكان الامام — رضى الله عنه — حسن الخلق ، قليل الغضب ، سخي النفس . وقد غاصر الامام مالك بن أنس رضى الله عنه ، وقرأ عليه الموطأ في المدينة الشريفة . وعاصره أيضا الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

ومما يحكى عن الامام الشافعي رضى الله عنه أنه قال : « كنت في المسجد جالسا ، واذا بلص قد سرق نعلى من غير علمى ، ثم مضى الى بيتي فقلت للجارية ان الامام قد سرق نعله ، ولم يجد ما يمشى فيه ، فأرسلوا له نعل حتى يجيء به الى البيت . فبينما أنا جالس في المسجد واذا بالجارية قد أقبلت من باب المسجد ومعهما نعل فقلت لها : وما هذا ؟ فقالت : قد جاء الينا رجل وقال لنا ان الامام قد سرق نعله ولم يجد ما يجيء به الى البيت فأتوا اليه بنعل غيره . فعلمت ان القائل للجارية هو اللص ، فتعجبت من لطافة هذا اللص اذ لم يدعنى أجىء الى بيتى حافيا » .

ومن فضائل الامام الشافعي رضى الله عنه أن في مدة حياته لم يقع الطاعون بمصر وهو بها ، ولا وقع في غيرها من البلاد في مدة حياته طاعون وذلك نحو من خمسين سنة ... نقل ذلك ابن حجر . ومن هنا نرجع الى أخبار أمراء مصر .

* ثم تولى من بعد محمد بن السرى أخوه

عبيد الله بن السرى ، تولى على مصر في سنة ست ومائتين من الهجرة .

وفي أيامه توفيت السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكانت وفاتها في شهر رمضان سنة ثمان ومائتين من الهجرة ، ودفنت بالمراغة . وكان لها كرامات خارقة ، وأسرار صادقة .

قال شمس الدين بن خلكان في تاريخه : هي نفيسة بنت الامام حسن بن زيد بن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . أتت من مكة الى مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق رضى الله عنه . وقيل بل دخلت مصر مع أبيها الأمير حسن . وقيل كان لها أولاد من زوجها اسحق ابن جعفر الصادق رضى الله عنه . قال ابن خلكان ان الامام الشافعي رضى الله عنه حضر عندها وأخذ عنها الحديث . وبالجمل ان الدعاء عند قبرها مجاب . وقيل ماتت ولها من العمر نيف وسبعون سنة .

* ثم أعيد الأمير عبد الله بن طاهر الى ولايته على مصر ثانيا ، فأقام مدة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن يزيد الجلودى . تولى على مصر في سنة ثلاث عشرة ومائتين ، فأقام بها نحو سنة ثم عزل عنها .

* وتولى الأمير عمير بن الوليد التميمي ، تولى على مصر في سنة أربع عشرة ومائتين ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم أعيد الأمير عيسى بن يزيد ثانيا ، ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده عبدويه بن جبلة . تولى على مصر في سنة خمس عشرة ومائتين ، فأقام بها مدة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن منصور

المرافقى . وفى أيامه خرج أهل مصر عن طاعة الخليفة المأمون ، وامتنعوا عن وزن الخراج ، وطرّدوا العمال عن البلاد ، وكانت فتنة عظيمة بمصر حتى كادت أن تخرب عن آخرها ، وعظم الأمر حتى قدم الخليفة المأمون الى مصر وخمدت هذه الفتنة ، ومهد البلاد ، وعزل عيسى بن منصور المرافقى عن مصر .

✽ ثم تولى من بعده الأمير نصر السعدى المسمى كيدر ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

✽ ثم تولى من بعده المظفر ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

✽ ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن منصور المرافقى ، فأقام بها مدة ثم عزل عنها فى سنة تسع عشرة ومائتين .

✽ ثم تولى من بعده الأمير موسى بن على ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو شهر ويومين وعزل عنها .

✽ ثم تولى من بعده مالك بن كيدرة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

✽ ثم تولى من بعده على بن يحيى الأرمنى فى سنة خمس وعشرين ومائتين ، ولم تطل أيامه بها .

✽ ثم تولى من بعده هرثمة بن نصر الجبلى .

✽ ثم تولى ابنه جانم .

✽ ثم تولى اسحق بن يحيى .

✽ ثم تولى من بعده الأمير عبد الواحد المسمى حوط . تولى على مصر فى سنة ست وثلاثين ومائتين فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

✽ ثم تولى من بعده عنبسة بن اسحق بن شمر . تولى على مصر فى سنة ثمان وثلاثين ومائتين . وفى أيامه أتى بنو الأصفر الى ثغر دمياط ، وهجموا على

أهلها ، وقتلوا جماعة من المسلمين وأسروا منهم جماعة ، فجاء الخبر الى مصر بذلك فى يوم عيد النحر ، فنودى بالنفير عاما ، فخرج أهل الفسطاط جميعا وتوجهوا الى ثغر دمياط ، وتحاربوا مع بنى الأصفر ، فانتصر عليهم عنبسة وأسر منهم جماعة وهرب الباقون جميعا ، ورجع عنبسة الى مدينة الفسطاط فأقام بعد ذلك مدة ومات ودفن بها .

✽ ثم تولى من بعده الأمير يزيد بن عبد الله التركى ، وكان من الموالى . تولى على مصر فى أيام الخليفة المتوكل على الله جعفر ، وهو الذى بنى المقياس الجديد فى جزيرة الفسطاط وأبطل المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى فى أيام خلفاء بنى أمية ، وصار العمل فى قياس النيل على هذا المقياس الجديد الى الآن . وكان بناؤه فى سنة سبع وأربعين ومائتين .

✽ ثم تولى من بعده مزاحم بن خاقان التركى ، فلم تطل أيامه بها .

✽ ثم تولى من بعده ابنه أحمد ، ولم تطل أيامه بها وعزل عنها .

✽ ثم تولى من بعده أرخور التركى ، وكان من الموالى . تولى فى أيام المتوكل فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

✽ ثم تولى من بعده الأمير محفوظ بن سليمان . تولى فى أيام المتوكل أيضا فكان يقول : « انى تأملت أرض مصر فوجدتها اذا بلغ النيل ستة عشر ذراعا فقد وفى خراج مصر تاما ، وان زاد ماء النيل بعد ذلك ذراعا واحدا نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستبحر من بطون الأراضى التى هى واطية ، واذا زاد خمسة عشر ذراعا ثم هبط حصل للناس الضرر الشامل واستسقى أهل مصر لذلك

وقع بها الغلاء . ولو أن أراضى مصر تزرع كلها
تفت بخراج الدنيا كلها بأسرها .

قال محفوظ بن سليمان أمير مصر : « تبقى على
خراج مصر في أيام المتوكل ثلثمائة ألف دينار ،
رسل فأحضرني في الحديد . فلما وصلت الى
داد دخلت عليه بعد أن فرغ من صلاة الفجر وأنا
أعقل من الوهم ، فأصبت جالسا وفي يده درج
لتوب بماء الذهب . فلما أبصرني قال : من أنت ؟
لت : عبدك محفوظ بن سليمان . فقال : ويحك !
ساعة دخلت على فيها ! فقلت : في ساعة خير
مير المؤمنين . فقال : هل تدري ما في هذا الدرج
في يدي ؟ فقلت : لا والله ياسيدي . فقال :
ما أنزل على دانيال عليه السلام . يقول الله
لي : « عند تناهي شدتي يكون فرجى ، وعند
ول بلائى يكون رجائى ، وفي مثلى فليطمع
أمعون » . اذهب يا محفوظ فقد وهبت لك
عليك من المال ووليتك على مصر ، فامض
نذا . وأمر بنزع قيودي وخلع على خلعة
ية » .

وقد قيل في المعنى :

ما خاب عبد على الله الكريم له
توكل صادق في السر والعلن

حاشاه أن يحرم الراجى اجابته
إذا دعاه لكشف الهم والحزن

واستمر الأمير محفوظ بن سليمان في ولايته على
مصر حتى مات ودفن بها في سنة أربع وخمسين
ومائتين .

* ثم تولى من بعده الأمير أحمد بن محمد بن
المدير . فلما تولى على مصر أحدث بها أنواعا من
المظالم في جهات متعددة : منها أنه حجر على
الأترون بعد ما كان مباحا للناس ، ومنها أنه قرر
على الرعاة ما كانوا يرعونه من المراعى في الفلاة ،
وصير عليهم قدرا معلوما ، ومنها أنه قرر على
صيادى السمك قدرا معلوما ، وأحدث أشياء كثيرة
من هذا النمط ... فهذه أول شدة لحقت أهل مصر
من المظالم . وقد انحط خراجها في هذه الأيام الى
الغاية حتى بقى ثمانمائة ألف دينار بعدما كانت
تجيب في أيام خلفاء بنى أمية اثنى عشر ألف ألف
دينار بغير مكوس .

ثم صارت مصر تتزايد من هذه الأحوال
الفاسدة ، وقد آل أمرها الى الخراب ، حتى تولى
أمرها الأمير أحمد بن طولون ، واستقل بها ،
وانفرد وادعى بها الأمر لنفسه ... وذلك في أيام
محمد المعتز بالله بن جعفر المتوكل .



الزولت الطولونية

قال إبراهيم بن وصيف شاه : « كان طولون والد الأمير أحمد أصله من مماليك الخليفة المأمون ، فولد له الأمير أحمد هذا ، فلما انتشأ طلع شجاعا بطلا عالي الهمة سعيد الحركات ، تولى على مصر في أواخر خلافة المتوكل في سنة خمس وخمسين ومائتين . ولما دخل مصر كان في أضييق حال ، يحتقره كل من يراه . قيل كان بمصر رجل من الأعيان يقال له على بن معبد البغدادي ، وكان في سعة من المال ، فلما بلغه حضور الأمير أحمد خرج الى تلقيه ، فلما رآه في ضيق حال أرسل اليه عشرة آلاف دينار قبيلها ، ورأى بها موقعا ، وحظى ذلك الرجل عنده ، فكان لا يتصرف في شيء من الأمور الا برأى ذلك الرجل . وتضاعفت عنده منزلته الى الغاية » .

قال ابن وصيف شاه : « لما تولى الأمير أحمد ابن طولون على مصر أخذ في أسباب عمارة قرى مصر وعمارة جسورها وقناطرها ، وحفر خلجانها وسد ترعها ، فاستقامت أحوال الديار المصرية في أيامه بعد ما كانت قد تلاشى أمرها الى الحراب ، وانحطت خراجها في أيام من تقدمه من العمال . فلما حصلت العمارة والعدل عم الرخاء سائر أعمال الديار المصرية حتى بيع القمح في أيامه كل عشرة أرادب بدينار ، وعلى هذا فقس في جميع البضائع . ووصل خراج مصر في أيامه — مع وجود هذا الرخاء — أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار غير المكوس » .

قال ابن وصيف شاه : « فلما تم أمر الأمير أحمد

ابن طولون في ولايته على مصر ، واستقامت أحواله بها استكثر من مشترى المماليك الديالمة حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ، وبلغ مشترى عبيده أربعين ألفا من العبيد الزنج ، واستكثر من شناترة العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف انسان . فعند ذلك سطا على الخلفاء ، وادعى الخلافة لنفسه بمصر ، وانفرد بخراجها . فحاربه الخليفة المعتضد بالله أشد المحاربة فلم يقدر عليه ، فخضع له وأرسل يخطب ابنة ابنه الأمير خمارويه — وهي الست قطر الندى — فأصدقها مائة ألف دينار . وأنت من مصر الى بغداد في محفة ، وكانت مدة توجهها من الديار المصرية الى بغداد ستة أشهر ، فكانت تمشي كما تمشي السحابة . فلما حضرت الى بغداد دخل عليها المعتضد بالله وزقت عليه ، وكان لهما مهم عظيم . وأحبها المعتضد بالله حبا شديدا ، وأقامت معه حتى مات » .

قيل ان النجوم تطايرت في السماء شرقا وغربا في أيام الأمير أحمد بن طولون وذلك سنة احدى وأربعين^١ ومائتين ، فارتاع الأمير أحمد من ذلك وأحضر أرباب الفلك وسألهم عن ذلك فما أجابوا بشيء ، فصار الأمير أحمد متظيرا من ذلك فدخل عليه الشاعر المسمى بالجمل — وهو جالس في موكبه — وأنشده هذه الأبيات :

قالوا تساقطت النجوم م لحادث أبدا عسير
فأجبت عند مقالهم بجواب محتك خبير
هذي النجوم الساقطا ت رجوم أعداء الأمير

(١) لهما احدى وستين .

، الأمير أحمد بذلك ، وخلع على الشاعر
لمعة سنية .

بن وصيف شاه : « خرج الأمير أحمد بن
وما على سبيل التنزه الى نحو الأهرام ،
يسير اذ غاصت قوائم فرسه في الأرض ،
ف ذلك المكان ، فلما كشفه اذا هو مطلب
يوسفية ، فنقلها الى خزائنه على ظهور
لشكاير » .

حاله فأخذ في أسباب بناء الجامع المعروف
بنائوه في سنة ستين ومائتين . قيل انه
بنائه مائة ألف دينار .

قضى ان الأمير أحمد بن طولون وضع
لذا الجامع على مكان يسمى جبل يشكر ،
الجبل يشرف على بحر النيل قبل حفر
كتين اللتين احدهما تعرف ببركة الهيل ،
تعرف ببركة قارون . وقيل ان جبل يشكر
ور باجابة الدعاء ، وسبب ذلك أن موسى
ثم ناجى ربه عليه في بعض الأوقات ، وهو
رك . قيل ان النمل دار على محراب هذا
وضموا أساسه ، فبنوا على ذلك الخط
عه النمل المحراب ، ويسمى محراب النمل
ورئي النبي صلى الله عليه وسلم في
مرار يصلى في ذلك المحراب . فلما بنى
بهذا الجامع قرر به جماعة من العلماء
، وأجرى عليهم الرواتب والصدقات ،
كل يوم راتب من الطعام والخبز — حتى
الفاكهة وغير ذلك — وكان هذا مستمرا
م . وأنشأ به مارستانا برسم الضعفاء ،
قبل ذلك بمصر مارستانا غيره ، فكان
على هذه الرواتب والصدقات في كل يوم
ي دينار .

الأمير أحمد يرسل في كل سنة الى فقراء

بغداد مائة ألف دينار برسم الصدقات ، ويرسل
اليهم في كل سنة بكسوة الشتاء والصيف دائما في
مدة ولايته على مصر .

قال الشيخ أبو الحسن بن حماد ، وكان من
كبار العلماء : « كنت راقدًا في بعض الليالي في
منزلى ، واذا بالباب يدق في نصف الليل ، فنظرت
من الطاق ، واذا برجال ومعههم مشاعل ، فوقفوا
على باب منزلى ، فقلت : ما تريدون ؟ قالوا :
أبا الحسن ابن حماد ؟ فقلت : هاهو أنا . فقالوا :
امض فان الأمير أحمد قد طلبك في هذه الساعة .
فارتعدت أعضائي ، فخرجت معهم وركبت بغلتي
وأنا آيس من الحياة . فلما وصلت الى دار الأمير
أحمد دخلت وسلمت على حاجب الباب فقال لى :
ادخل وخذ في مشيك عن عيئك ، واحترى أن تقع في
البحرة . وكانت ليلة مظلمة من ليالى الشتاء .
فمشيت حتى بلغت ضوء الشمع ، فوقفت هناك
ساعة واذا بالأمير أحمد في قبة لطيفة وهو نائم
على ظهره وبين يديه شمعتان ، فوقفت طويلا ، فلما
علم بى قال : أبو الحسن ؟ فقلت : نعم . فقال :
ادخل . فدخلت ووقفت بين يديه فقال لى : اجلس
فجلست ، فقال لى : لأى شىء تصلح هذه القبة ؟
وكانت قبة لطيفة يجلس فيها نحو أربع أنفس ،
فقلت : تصلح للذكر وقراءة القرآن ومطالعة العلم
ومنادمة المحبين . فتبسم ثم قال : ما تقول في هذه
المسألة ؟ فقلت : يقول الأمير أيده الله بنصره . فقال :
ما تقول فيمن سلط على شىء ففعله ... فهل يعذب
عليه ؟ قال أبو الحسن : فعلت أن المسألة ناشئة
عنه ، فقلت على الفور : لو كان كل مسلط معذبا
لكان ملك الموت أشد الناس عذابا يوم القيامة .
فلما سمع ذلك استوى جالسا وقال : كيف قلت ؟
فقلت : لو كان كل مسلط معذبا لكان ملك الموت
أشد الناس عذابا يوم القيامة . ثم سكبت طويلا

وقال : انصرف الى منزلك . فخرجت من عنده وأنا لم أصدق بالنجاة . فلما خرجت من عنده تبغى الحاجب بكيس فيه مائة دينار ، وانصرفت الى منزلى وأنا أرعد من الخوف » .

قال ابن وصيف شاه : « كان راتب مطبخ الأمير أحمد بن طولون في كل يوم ألف دينار تصرف فيما يحتاج اليه أمر الطعام والحلوى والفاكهة والسكر والشمع وغير ذلك . وكان منتهى حكمه من مصر الى القرات ، ومن مصر الى بلاد المغرب » .

قال جامع السيرة الطولونية : « كان بمدينة عين شمس — وهى التى تسمى الآن المطرية — صنم من الكذان الأبيض على قدر خلقة الانسان المعتدل ، وكان محكم الصناعة يكاد أن ينطق ، فقصد الأمير أحمد أن ينظر اليه ، فنهاه عن ذلك بعض الكهان وقال له : أيها الأمير ، لا تنظر الى هذا الصنم فما نظر اليه أحد من ولاة مصر الا عزل عنها فى سنته . فلم ينته الأمير أحمد عن ذلك وركب وتوجه الى مدينة عين شمس ، ولم يزل حتى رأى ذلك الصنم ، فأمر بإحضار القطاعين فكسروه قطعاً ولم يبق له أثر . فلما رجع الأمير أحمد الى داره لم يقم بعد ذلك سوى عشرة أشهر ، ثم مرض وتسلسل فى المرض ، فاضطربت مصر بسبب مرضه وخرج الناس قاطبة الى الصحارى ، وفعلوا مثل ما يفعلون فى الاستسقاء ، فخرج الناس حفاة وعلى رؤوسهم المصاحف ، وخرج اليهود وعلى رؤوسهم التوراة ، وخرج النصارى وعلى رؤوسهم الأناجيل ، وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم الألواح ، وخرج سائر العلماء والصلحاء وهم يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء » .

فاستمر الأمير أحمد فى ذلك المرض حتى مات ، به ، فكانت وفاته فى سنة تسع وستين ومائتين ، فكانت مدة ولايته بمصر نحو اثنى عشرة سنة ،

وكان يقول فى مرضه : « رب ارحم من جهل مقدار نفسه وقد أبطره وغره حلمك يا أرحم الراحمين » . وكان الأمير أحمد ملكاً عادلاً فى الرعية كريماً سخياً ، منقاداً الى الشريعة ، يحب العلماء والصلحاء . وكان يصلى على من يموت فى البلد — من فقير أو غنى — بنفسه ، ويحضر دفنهم ، ويحب فعل الخير ، كثير البر والصدقات ، وكان له اشتغال بالعلم وطلب الحديث ، وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة ... حكم فى أيام ولايته من مصر الى القرات ، ومن مصر الى بلاد المغرب ، وعم العدل منه سائر الجهات حتى تخيروه على خلفاء بغداد . وكانت أفعاله جميلة ... غير أنه كان سفاكاً للدماء ، شديد الغضب ، سيئ الخلق ، قيل مات فى حبسه ثمانية عشر ألف انسان .

ولما مات الأمير أحمد دفن بالقرب من باب القرافة . قال بعض الثقات : كنت أرى شيخاً من أهل العلم يقرأ على قبر الأمير أحمد بن طولون فى كل يوم ، ثم رأيته ترك القراءة ورجع عن ذلك ، فسألته عن سبب ذلك فقال لى : كان للأمير أحمد على بعض احسان فأحببت أن أصله بعد موته بشيء من القرآن ، فرأيته فى بعض الليالى فى المنام فقال لى : يا فلان ، لا تبق تقرأ على قبرى شيئاً ، فانى ما تمر بى آية الا قيل لى أما سمعت هذه الآية فى دار الدنيا ... فهلا كنت تعمل بها ؟ وما رأيت أشد على رؤساء الدنيا من الحجاب فى كتفهم لحوائج المظلومين عن الحكام . ثم أنشد يقول :

ولو أنا اذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى
ولكننا اذا متنا بعثنا ونسأل بعد ذا عن كل شى
مع أن الأمير أحمد كان فيه الخير ، وأبطل فى أيامه جملة مكوس كانت حدثت بمصر ، أيام أحمد بن المدبر .

لها أنساب مثبتة في الدواوين كأنساب الناس المعروفة .

قال ابن وصيف شاه : « كان الأمير خمارويه مولعا بالعمارات وغرس الأشجار . قيل انه أنشأ ميدانا بالقرب من جامع أبيه ، ونقل اليه الأشجار من سائر البلاد الهندية والشامية حتى من خراسان ومن مكة ومن اليمن ، فكان به سائر الفواكه وسائر الرياحين ، حتى الكادى والقرنفل والسنبل والزعفران وجوز الهند وغير ذلك من أنواع الفواكه والزهورات والرياحين والأشياء الغريبة التي لم تزرع قط بمصر ، ثم زرع أشياء من أنواع الرياحين وجعلها كالسطور تقرأ ، مثل « حسبنا الله ونعم الوكيل » وما أشبه ذلك من الألفاظ ، ووكل بتلك السطور رجالا بأيديهم مقاريض من الذهب والفضة يصلحون بها ما يفسد من الأوراق ويخرج عن قالب الاعتدال في الأحرف حتى يستقيم الكلام في معناه . ثم أله ألبس قوائم الأشجار الكبار بالنحاس الأصفر وطلاه بالذهب ، فكانت الشمس اذا طلعت على تلك الأشجار لا يقدر أحد أن ينظر إليها من شدة انقاد ذلك النحاس الموه بالذهب ، وكان يسحق المسك والكافور وينثره على تلك الرياحين السطور ... » وصنع في ذلك البستان بحيرة كبيرة وملأها من الزئبق . وكان يضع على ذلك الزئبق فراشا من جلد خباه أنعم من الحرير ، وكان له حركات تمتلىء بالريح ثم يسد فاه بحبل ويطرح ذلك الفراش على ذلك الزئبق وينام عليه . »

قال بعض المؤرخين ان خمارويه هذا كان يعثره ضربان المفاصل ، وكان يضع ذلك حتى يجد له راحة وينام ساعة من الليل .

قال ابن وصيف شاه : « خرج خمارويه يوما

قال ابن وصيف شاه : « لما توفي الأمير أحمد بن طولون خلف من الأولاد ثلاثة وثلاثين ولدا ، منهم سبعة عشر ذكورا وباقي ذلك اناث ، وخلف من الذهب العين عشرة آلاف ألف دينار ، وخلف من الممالك المستروات سبعة آلاف مملوك ، ومن العبيد السود أربعة وعشرين ألف عبد ، وخلف من الخيول سبعة آلاف فرس ، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس ، وخلف من الجمال عشرة آلاف جمل ، ومن المراكب الحربية والشوالى ألف مركب ، وخلف من اللؤلؤ والجواهر واليواقيت مائة صندوق ، وخلف من التحف والفرش ما لا يحصى عدده ... وهذا خارج عن الضياع والأموال والبساتين وغير ذلك » .

وكان خراج مصر في أيامه أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار بعد اسقاط المكوس — وهو نحو مائة ألف دينار — مع وجود الرخاء والحظاظ سعر الغلال في زمانه .

ولما مات رثاه بعض الشعراء بهذه الأبيات :

خذ القناعة من دنيالك وارض بها
واقصد لنفسك منها راحة البدن

وانظر لمن قد حوى مصرا وما جمعت
هل راح منها بغير القطن والكفن

ولما مات الأمير أحمد بن طولون تولى من بعده ابنه خمارويه .

الامير خمارويه

تولى على مصر بعد أبيه الأمير أحمد ، ومشى على نظامه وطريقته ، واستكثر من الممالك وزاد في عسكره شناترة العرب الشجعان حتى بلغوا نحو عشرة آلاف انسان . وكان يحب الجياد من الخيل فاستكثر منها حتى ضاقت بها الاسطبلات ، وكان

الى الفضاء على سبيل التنزه ، فلقية أعرابى فأخذ
بعنان فرسه وأنشد :

ان السنان وحد السيف لو نطقا
لحدثا عنك فى الهيجاء بالعجب
أفريت مالك تعطيه وتبذله
يا آفة الفضة البيضاء والذهب

فلما سمع خمارويه هذه الأبيات قال لغلame :
ادفع اليه ما معك فى الخريطة . فوجد فيها
خمسائة درهم فدفعها اليه . فقال الأعرابى :
زدنى أيها الأمير فمثلك من يزيد . فقال خمارويه
للمماليك : اطرحوا عليه مناطقكم وسيوفكم ،
وكانت مسقطة بالذهب . فقال الأعرابى : ومن
يحمل لى ذلك ؟ فأمر له ببغل ، فحمل ذلك ومضى .
فلما رجع خمارويه الى قصره فرق على المماليك
مسيوفا ومناطق عوضا عما أخذ منهم .

الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالى

واستمر خمارويه فى ولايته على مصر حتى تولى
بها ودفن عند أبيه ، ثم تولى من بعده ابنه الأفضل
أمير الجيوش بدر الجمالى . وهو صاحب سوق
مرجوش .

قال القضاى : ان الأفضل هذا هو الذى حفر
خليج أبى المنجى ، وكان المتولى أمر حفر هذا
الخليج أبو المنجى شعبا اليهودى فعرف به من
يومئذ . وقال القضاى ان الأفضل هو الذى بنى
المسجد المظل على بركة الحبش المعروف الآن
بالرصد ، وانما سمي بالرصد لأنه كما قيل كان
فوقه صورة من النحاس الأصفر قدرها نحو
قنطار وهى مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض
بسبب تحرير الساعات لأجل وقت دخول الصلاة .
ولم ينسب الى الحاكم بأمر الله فى بنائه شيء وانما
هى اشاعة بين الناس فى نسبته الى الحاكم .

ومن الحوادث فى أيام الأفضل أنه فى يوم
الجمعة ثانى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ،
هاجت بالديار المصرية ريح سوداء ، واشتد
هبوبها ، وأظلم الجو حتى ظهرت النجوم بالنهار ،
فارتاع الناس من ذلك وتوجهوا الى المساجد
يبتهلون الى الله تعالى بالدعاء . فلم تزل تلك
الرياح عاصفة من العصر الى المغرب ، ثم بعد ذلك
سكن الريح وانجلى تلك الظلمة وعادت الناس
الى دكاكينهم بعد ما تركوها مفتوحة ومضوا الى
المساجد .

وفى أيامه تولى الشيخ بنان الجمال رضى الله
عنه ، وكان صاحب كرامات خارقة ، ودفن تحت
الجبل المقطم بالقرافة .

واستمر الأفضل فى ولايته على مصر حتى مات
بها ودفن فى المسجد الذى فى حارة برجوان .
وكانت وفاته فى سنة احدى وتسعين ومائتين .

هارون بن بدر الجمالى

ثم تولى من بعده ابنه هارون ، فلما تولى على
مصر لم يستقم أمره بها وعزل عنها ، فكانت مدة
ولايته على مصر ثمانية أشهر وأياما .

ثم تولى من بعد الأمير شيبان من ولد
الأمير أحمد بن طولون ، وكان يكنى بأبى المناقب .
تولى على مصر فى سنة اثنتين وتسعين ومائتين ،
فلم تطل مدته بها وعزل عنها .

ثم تولى من بعده الأمير عيسى الدنوشرى ،
فلم تطل أيامه بها وعزل عنها . ومن الحوادث فى
أيامه أنه وقعت صاعقة عظيمة فى مدينة القسطنطين
فأحرقت عدة أماكن .

ثم تولى من بعده أبو الحسن المسمى

بكاء الأعداء . تولى على مصر في سنة ثلاث وثلثمائة ،
فأقام بها مدة يسيرة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يسمى تكين
التركي . تولى على مصر مرتين ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يسمى هلال
ابن بدر المصري في سنة تسع وثلثمائة ، ولم نطل
أيامه بها ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يسمى أحمد
ابن كيغلق ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم أعيد تكين التركي الى ولايته ببصر
ثالث مرة ، فكانت ولاية أحمد بن كيغلق وعود
تكين في سنة واحدة وهي سنة احدى عشرة
وثلثمائة . ولم تزل الأحوال مضطربة ببصر حتى
ابتدأت دولة الاخشيدية .



الزّولات والإخشيديّات

بمصر ، فكانت مدة ولايته بها نحو عشرين سنة .
ولما مات الأمير أبو بكر رثاه الشاعر الماهر
أبو الطيب المتنبي بهذه الأبيات :

هو الزمان مشّت بالذي جمعنا
في كل يوم ترى من صرفه بدعا
لو كان مستنق تغنيه منعته
لم يصنع الدهر بالاخشيدي ما صنعا
ذاق الحمام فلم تدفع عساكره
عنه القضاء ولا أغناه ما جمعنا
لو يعلم اللحد ما قد ضم من كرم
ومن فخار ومن نعماء لاتسعا
يالحد طل ان فبك البحر محتبسا
والليث مهتصرا والجود مجتمعنا

يا يومه لم يخص الفجع فيه لقد
كل الوري بردى الاخشيدي قد فجعا
ولما مات الأمير أبو بكر تولى من بعده
خادمه أبو المسك كافور الاخشيدي . فلما تولى
على مصر مشى على طريقة أستاذه الأمير أبي بكر
وأطاعه أهل مصر . ثم انه استجدّ في عسكره
جماعة كثيرة من طوائف البربر . ومما وقع له أنه
كان جالسا في موكبه في يوم عيد فدخل عليه طائفة
من التكرور وهم يرقصون ومعهم طبل وطنبور ،
فلما رقصوا بين يديه طرب منهم وحرك كتفيه ،
ثم انه استدرك فارطه فصار يحرك كتفيه في كل
ساعة من الليل والنهار حتى مات ، وقال : هذا
مرض يعتريني . ولم يخرج عن ناموسه .

قال الكندي : ان أول من تولى بمدينة فرغانة
يسمى الاخشيدي ، فكان أول من تولى منهم
أحمد بن كيغلغ ، ومحمد بن طغج ، وأبو القاسم علي ،
وأبو بكر بن محمد بن طغج ، وخادمهم كافور .
وأما أحمد بن كيغلغ ومحمد بن طغج فتوليا على
مصر كل واحد منهما مرتين ، ولم تطل أيامهما بها .
* وأما أبو القاسم علي فانه تولى على مصر
في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، وفي أيامه وقع
الغلاء بمصر واستمر تسع سنين متوالية . وسبب
ذلك أن النيل كان ينتهي في زيادته الى خمسة عشر
ذراعا وأربعة عشر أصبعا ، واستمر في كل سنة يزيد
هذه الزيادة الخسيسة الى سنة تسع وأربعين
وثلثمائة ، فوقع الغلاء بسبب ذلك في هذه
السنين .

* ثم توفي عقب ذلك الأمير أبو القاسم علي
الاخشيدي ، وتولى الأمير أبو بكر بن محمد
ابن طغج على مصر مدة طويلة نحو عشرين سنة .
وفي أيامه استقامت أحوال الديار المصرية ،
وانصلحت أحوال الناس ، واستكثر من العساكر
ورتب لهم الرواتب والجوامك في كل شهر ،
فبلغت عدة عساكره بمصر والشام نحو أربعمائة
ألف فارس ، وبلغ خراج مصر في أيامه ألفي
ألف دينار . قيل ان الوزير عمل لأولاده في ليلة
الغطاس فوائس شمع مزهر ، فكان مصروف
ذلك مائة وعشرين ألف دينار .

واستمر الأمير أبو بكر في ولايته على مصر
حتى توفي في سنة خمس وخمسين وثلثمائة ودفن

قليل وكانت علامة على مراسيمه « القلم بمداه ،
والسيف بجده ، والعبد بسعده ، لا بأبيه
ولا بجده » .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه :
« كان راتب كافور الاخشيدى في مطبخه في كل
يوم ألفى رطل من اللحم البقرى ، وسبعمئة رطل
لحم ضأن ، ومائة طير أوز ، وثلاثمئة طير دجاج ،
وثلاثمئة فرخ حمام ، وعشرين فرخ سمك كبار ،
وعشرين رميسا رضع ، وثلاثمئة صحن حلوى ،
وسبعة أفراد فاكهة ، وألف كور تفاح ، ومائة قرية
من السكر ، وألف كماجة ، وخمسة أفراد
بقولات . وكان يحضر على سباطه الخاص
والعام » .

قليل وقعت زلزلة عظيمة بمصر في أيامه فخاف
الناس من ذلك ، وهربوا الى الجبال ، فدخل
محمد بن عاصم الشاعر على كافور وهو في موكبه
فأنشده قصيدة عظيمة منها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها

لكنها رقصت من عدله طربا

فلما سمع كافور ذلك أجازه على هذه القصيدة
بألف دينار ، وهذه الجائزة التي هيئت المتنبي
حتى دخل الى مصر ومدح كافورا بقصائد سنية
وهي ثابتة في ديوانه الى الآن .

قليل وقع حريق عظيم في أيامه بمصر ، وعملت
النار من سوق البزازين الى قيسارية العسل ،
ودخل الليل والنار على حالها ، فبات الناس على
وجل من ذلك ، فركب كافور وأمر المنادى ينادى
بأن من جاء بقربة فيها ماء فله مائة درهم ، فجاء
الناس بالقرب وفيها الماء فأطفأوا تلك النار ، فكان
عدة ما احترق في هذه الواقعة ألفا وسبعمئة دار
غير البضائع والأقمشة التي احترقت للناس .

وفي أيامه وقع الغلاء بمصر . وسبب ذلك أن
النيل بلغ في الزيادة الى اثني عشر ذراعا وتسعة
عشر أصبعا ثم هبط ، فشرقت الأراضي ووقع
الغلاء ، وكان ذلك في سنة ست وخمسين
وثلاثمئة .

قال الكندي : « وكان من آثار عجائب القدماء
الى أيام كافور الاخشيدى حوض من رخام أخضر
مدور وعليه كتابة لا تقرأ بالقلم القديم ، وهذا
الحوض كان في بحر النيل عند طرا ، فاذا جلس
فيه واحد من الناس أو أربعة وحركوه يعدى بهم
من جانب الى جانب . فأخذه كافور من البحر
وألقاه في البر فبطل فعله من يومئذ » .

واستمر كافور الاخشيدى في ولايته على مصر
الى أن مات في سنة سبع وخمسين وثلاثمئة ودفن
بالقرافة الصغرى ، فكانت مدة ولايته على مصر
نحو ثلاث سنين ، وهو آخر من تولى على مصر من
الأمراء .

قال ابن وصيف شاه : « تولى على مصر من
الأمراء اثنان وسبعون أميرا ، أولهم عمرو بن
العاص رضى الله عنه ، وآخرهم أبو المسك كافور
الاخشيدى ، ودفن غالبهم بمصر . ومن مبتدأ
ظهور الاسلام من حين فتحت مصر على يد عمرو
ابن العاص وأخذها من يد المقوقس عظيم القبط
لم ينفرد بملك مصر أحد من أمرائها ويستغل
خراجها له سوى الأمير أحمد بن طولون في مدة
ولايته عليها » .

ولما مات الأمير كافور اضطربت أحوال الديار
المصرية غاية الاضطراب ، ومطمع أهل القرى في
الجند ، وامتنعوا عن وزن الخراج ، فعند ذلك
كتب أعيان مصر الى المعز الفاطمى — وكان
ببلاد الغرب — بأن يحضر الى الديار المصرية ،
ويتسلم المدينة ويتولى عليها . فلما وقف المعز

على تلك المكاتبات أرسل الى مصر الأمير جوهر القائد الصقلي ، ومعه مائة ألف من عساكر الغرب ، فكان دخول جوهر القائد الى مصر في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، فلما دخل الى مصر لم تعجبه مدينة الفسطاط ، فأخذ في أسباب عمارة القاهرة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه : « لما أراد جوهر القائد أن يبنى سور القاهرة اختط أساس المدينة وجمع أرباب الفلك وأمرهم بأن يختاروا له مطلقا سعيذا حتى يضع فيه أساس المدينة ، فجعل على كل جهة من أساس المدينة ، قوائم من الخشب ، وبين كل قائمة منها جبلا وفيه أجراس من نحاس ، ثم وقفت الفلكية ينتظرون دخول الساعة الجيدة والظالم السعيد حتى يضعوا فيه الأساس . وكان لهم

إشارة مع البنائين اذا حركوا تلك الأجراس يلقون ما بأيديهم من الحجارة اذا سمعوا حس الأجراس . فبينما هم واقفون لانتظار الساعة السعيدة ، واذا بغراب وقع على تلك الجبال فتحركت تلك الأجراس فظن البنؤون أن الفلكية قد حركوا لهم الجبال التي فيها الأجراس ، فألقوا ما بأيديهم من الحجارة في أساس السور ، فصاح عليهم الفلكية : لا ، لا ، القاهرة في الظالم . يعنون المريح ، واسمه عندهم « القاهرة » ، ففضى الأمر ... » . فكان كما قيل :

يريد المرء أن يعطى مناه

ويأبى الله ألا ما يريد

وكان بناء سور القاهرة في سنة تسع وخمسين وثلثمائة من الهجرة ، وبنى أولا بالطوب اللبن ، فلما فرغ بناء السور أرسل الأمير جوهر القائد يعرف المعز بفراغ بناء السور فقدم اليها .



الدولة الفاطمية

المعز لدين الله الفاطمي

شعاعها . وكان معه أربع خواب من البلور كل خابية تسع قدر راوية من الماء ، وكان معه غير ذلك من التحف والعجائب » .

قيل لما أراد المعز أن يتوجه الى مصر يحمل معه أجداده الذين ماتوا بمدينة أفريقية ، فحملهم في ثوابيت من خشب ، فلما دخل الى مصر دفنهم بالقرافة الكبرى .

قال ابن كثير : « لما دخل المعز الى مصر رأى ما بناه جوهر القائد فلم يعجبه ، وعاب عليه ما بناه ، وقال له : « لقد بنيت هذه المدينة في وطينة لا هي بحرية ولا هي جبلية » . وكان قصد المعز لو بناها على شاطئ النيل » .

وقيل ان المعز سمي « القاهرة » أولا « المنصورية » ، فلما بلغه ما وقع للفلكية من أمر القاهر غير اسمها فقال سموها « القاهرة » ، فاستمرت من ذلك اليوم على هذا الاسم .

وقد قالت فيها الشعراء أشعارا كثيرة :

لله قاهرة المعز لأنها

بلد تخصص بالمسرة والهنا

أو ما ترى في كل قطر منية

من جانيها فهي مجتمع المنى

وقال آخر فيها :

مصر لها الأفضال اذ لم تزل

على العدا منصوره ظاهرة

ما غولبت ، كلا ولا قوهرت

الا وكانت مصر والقاهرة

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في نسبه : « هو المعز أبو تميم معاذ بن المنصور اسماعيل ابن القائم بالله محمد بن المهدي عبيد الله المغربي الفاطمي » . وكان مولده ببلاد الغرب بمدينة أفريقية في يوم الجمعة تاسع عشر من شوال سنة احدى وأربعين وثلثمائة . وهو رابع خليفة من بنى عبيد الله ببلاد المغرب بمدينة أفريقية .

وفي سبب شرف هذه الفاطمية أقوال كثيرة . فمن الناس من قد نسبهم الى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن الناس من قد نسبهم الى الحسين بن محمد بن أحمد بن قداح ، وكان أصل القداح من أبناء المجوس ، وهذا الأمر عند أرباب التواريخ في نسبهم مشهور وأكثر الاتفاق عليه .

قال الذهبي : « وكان قدوم المعز الى مصر في سابع عشر شهر رمضان سنة احدى وستين وثلثمائة ، وقد اقترضت دولة الاخشيدية بموت الأمير كافور » .

قال الشيخ عماد الدين بن كثير : « لما دخل المعز الى مصر دخل معه ألف وخمسمائة رجل موسوقة ذهباً عينا . وكان معه من القماش والتحف ما لا يسمع بمثله ، فمن جملة ذلك كان معه قبة من البلور وهي قطعتان يجلس فيها نحو أربع أنفس ، فكانت اذا نصبت في الليلة القمرية تخفى ضوء القمر من

قال المسيحي : لما استقر المعز بمصر انفرد بها ولم يدخل تحت طاعة الخلفاء العباسية ، وادعى الخلافة لنفسه بمصر ، وقال نحن أفضل من الخلفاء العباسية لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الخلفاء الفاطمية يحكمون من مصر الى الشام الى حلب الى الفرات الى مكة والمدينة الشريفة الى القدس والخليل ، وصارت مصر وبلاد المغرب مملكة واحدة . وكانت الخلفاء العباسية يحكمون من الفرات الى بغداد وأعمالها الى سائر بلاد الشرق . وكان يخطب لكل خليفة منهما في الجهات التي تحت حكمه باسمه فقط .

ثم ان المعز استكثر من العساكر بمصر فكانوا ما بين كنانة وروم وصقلية وبربر ومغاربة ، وكانوا في العدد لا يحصون لكثرتهم حتى قيل : لم يظأ الأرض — بعد جيوش الاسكندر بن فليش الرومي الكبير — أكثر من جيوش المعز الفاطمي . ثم انه بنى قصر الزمرد مكان دار الضرب ، وكان جواهر القوائد وزيره ومدبر مملكته .

وجوهر هذا هو الذي بنى الجامع الأزهر ، وكان بناؤه في سنة احدى وستين وثلاثمائة . وكانت له في مصر حرمة وافرة ، وكان خراج مصر في أيامه ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار . وكان خراج مصر قد انحط في أيام من تولى قبله من الأمراء فجدد الأمير جوهر ما فسد من عمارة القناطر والجسور وغير ذلك حتى استقامت أحوال الديار المصرية في أيامه .

ولما تولى المعز على مصر منع القبط مما كان يعمل في يوم النيروز من صب المياه على الناس في الطرقات ، وإيقاد النار في تلك الليلة ، وكانوا يخرجون في ذلك عن الحد . ومنعهم أيضا مما

كان يعمل في ليلة الغطاس من النزول في المراكب وضرب الخيام على شاطئ بحر النيل عند المقياس ، فأشهر النداء بإبطال ذلك جميعه ، وهدد من يفعل ذلك بالشنق ، فرجع الناس عن ذلك في أيامه ، وكان يحصل من هذه الأفعال غاية الفساد بمصر في تلك الأيام .

قال المسيحي في تاريخه ان امرأة وقفت للمعز وهو في موكيه وأنشدت :

تعطمننا ريب الزمان كأننا

زجاج ولكن لا يعاد له سبك

فقال لها المعز : « من أنت أيتها المرأة ؟ » . فقالت : « أنا زوجة الأمير أبي بكر بن محمد بن طنج الاخشيدى صاحب مصر » . فقام اليها المعز ، وقال : « ما حاجتك ؟ » . فقالت : « انى قد أودعت بعلطاقا لى عند شخص يهودى ، فأقام عنده مدة ، ثم انى طلبته منه فأنكره ، فقلت له : خذ منه ما تختار من جواهره وأعطني الباقي ، فأبى وامتنع من الاعطاء ، وأنكر ذلك أصلا » . فلما سمع المعز ذلك أرسل خلف اليهودى وسأله عن أمر البغلطاق الذى أودعته عنده زوجة الأمير أبي بكر الاخشيدى ، فأنكره ولم يعترف به ، فأمر بشنقه . فلما تحقق ذلك اعترف به فأمره المعز باحضاره ، فلما أحضره بين يديه تحير مما فيه من الجواهر واللالى . ثم انه وجد اليهودى قد سرق من صدر ذلك البغلطاق درتين فسأله عن ذلك فاعترف أنه باع هاتين الدرتين بألف وستمائة دينار ، فأخذ المعز ذلك البغلطاق من اليهودى وأمر بشنقه فشنع ، ثم دفع ذلك البغلطاق الى زوجة الاخشيدى فسألته أن يأخذه منها على سبيل الهدية فأبى من قبول ذلك ، فأخذته وانصرفت وهى داعية له .

وكان المعز يحب العدل والانصاف بين الرعية ،

غير أنه كان رافضيا سبابا للصحابة في يوم الجمعة على المنابر . قال المسيحي : ان المعز كان يميل الى علم الفلك ، فأخبره جماعة من المنجمين بأن عليه قطعا شديدا في يوم كذا وكذا ، في شهر كذا وكذا ، ثم أشاروا عليه بأن يختفى في سرب تحت الأرض حتى تمضي عنه تلك القطوع . فاخترفى في سرب نحو أربعة أشهر ، فلما طالت غيبته على جنده ظنوا أنه قد رفع الى السماء فكان الفارس من عسكره اذا نظر الى الغمام في السماء ينزل عن فرسه ويقول : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » ... فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر من ذلك السرب وجلس على سرير ملكه وهم يحسبون أنه كان في السماء وأتى اليهم .

قال المسيحي : « كان للمعز أخت تسمى الست سيدة الملك ، قيل انها توفيت في خلافة أخيها المعز فوجد لها من الذهب العين ثلثمائة صندوق ، ومن الفصوص الياقوت الملونة واللؤلؤ خمس وبيات ، ووجد لها مدهنا من الياقوت الأحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا لم يحص له ثمن ، ووجد لها من الشقق الحرير الأحمر ثلاثين ألف شقة » . قال بعض المؤرخين وكانت أخت المعز — مع وجود هذه السعة — أزهد الناس في الدنيا ، وكانت لا تأكل الا من ثمن غزلها دائما حتى ماتت .

واستمر المعز في الخلافة حتى مرض وسلسل في المرض حتى مات ، فكانت وفاته في ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة ، وكان له من العمر لما توفي نحو احدى وأربعين سنة . وهو أول خلفاء بنى عبيد الله بمصر ، ودفن عند سيدي زين العابدين جد السيدة نفيسة ، وتربته بين الكيمان عند حدرة ابن قميحة . وكانت مدة خلافة المعز بمصر أربع سنين وشهرا ويومين .

وكان المعز رجلا عادلا عاقلا حازما لييبا فصيحاً شاعرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :
ما بان عذرى فيك حتى عذرا
وبدا البنفسج فوق ورد أحمر
همت بقبلته عقارب صددغه
فاستل ناظره عليها خنجرا
ولما مات المعز تولى من بعده ابنه العزيز .

العزيز بالله

هو العزيز بالله ، أبو منصور ، نزار ، بن المعز لدين الله معد الفاطمي العبيدي ، وهو الثاني من خلفاء بنى عبيد بمصر .

بويج بالخلافة بعد موت المعز في سنة خمس وستين وثلثمائة ، وكان مولده بمدينة القيروان في سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، فلما تم أمره في الخلافة بمصر ، استقر بجوهر القائد مدبرا لأمر مملكته كما كان في أيام أبيه المعز .

وكان العزيز يحب العدل في الرعية ، وينصف المظلوم من المظالم ، وكان كريما جوادا ممدوحا ، فأجبت الرعية وصفا له الوقت بالديار المصرية . ثم انه استكثر في عسكره من المماليك الديالمة والمصامدة والأتراك المغل . واستقر بالقاضى يعقوب ابن كلس وزيرا .

قيل لما تولى العزيز الخلافة دخل عليه عبد الله بن حسن الجعفرى الشاعر يهنئه بالخلافة بعد موت أبيه فأنشده هذه القصيدة منها :

عنت خلافته مصرا فصار بها
كأنه الشمس فيها حلت الحملا
ان المعز الذى لا خلق يشبهه
الا العزيز ابنه ان قال أو فعلا

فان مضى كافل الدنيا فصار لها
من بعده كافلا يغنى بما كفلا

أضحت ملوك بنى الدنيا له خدما
وما حوت كل دار منهم نفلا

حكى المسبحى فى تاريخه أن العزيز لما تم أمره
بمصر استقر بشخص من النصارى عاملا بمصر على
سائر جهاتها ، وكان يقال له نسطروس ، واستقر
بشخص من اليهود عاملا على سائر جهات دمشق
وكان يقال له منشأ . فحصل من النصرانى لأهل
مصر غاية الظلم والأذى ، وحصل من اليهودى
لأهل دمشق غاية الظلم والأذى . فاتفق أن العزيز
ركب يوما وشق من القاهرة فزيت له ، فعمد بعض
الناس الى مبحرة من حديد وألبسها ثياب النساء
وزينها بازار وشعرية ، وجعل فى يدها قصة على
جريدة وكتب فيها :

« بالذى أعز جميع النصارى بنسطروس ،
أعز جميع اليهود بمنشأ ، وأذل جميع المسلمين
ك... الا ما رحمتهم وأزحت عنهم هذه المظالم ؟ » .
فلما مر العزيز على تلك الصورة ظن أنها امرأة
ولها حاجة ، فطلب قصتها فلما قرأها اشتد به
الغضب ، وأمر بشنق ذلك النصرانى بنسطروس
فشنق على باب القصر ، وأرسل بشنق منشأ
اليهودى فشنق على أحد أبواب دمشق ، واحتاط
على جميع أموالهما من صامت وناطق

ومن الحوادث فى أيامه أن فى سنة سبع وسبعين
وثلاثمائة ولدت امرأة بمدينة تنيس جارية لها رأسان
ووجهان فى عنق واحد ، وكان أحد الوجهين أبيض
اللون والآخر أسمر اللون وفيه سهولة ، وكل وجه
منهما كامل الخلقة ، وهذان الوجهان فى جسد
واحد ، فكانت أم تلك المولودة ترضع كل واحد
منهما على انفراد ، فحملت هذه المولودة الى العزيز

من تنيس الى مصر حتى شاهدها فوجه لأمها شيئا
من المال ، ثم عادت الى تنيس فعاشت هذه المولودة
مدة يسيرة ثم ماتت .

وفى أيامه فى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة حدث
بمدينة تنيس فى ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الأول
حادث فيه أرعدت السماء وأبرقت ، وأظلم الجو
وظهر فى السماء أعمدة من نار تلتهب ، فأضاعت منها
الدنيا ، ثم اشتدت تلك الحمرة ، وجاءت عقب ذلك
ريح سوداء فيها غبار حار يأخذ بالأنفاس من شدة
حره ، فارتاع الناس من ذلك وأيقنوا بالهلاك ،
وصار يودع بعضهم بعضا ، فضج الناس الى الله
تعالى بالدعاء . ولم يزل على ذلك من بعد العشاء
الى طلوع الفجر حتى خمدت الريح وخمدت تلك
الأعمدة النار وزالت الحمرة من الجو . فلما لاح
الصباح طلعت الشمس وهى محمرة ، فأقامت على
ذلك خمسة أيام حتى اعتدلت .

قال أبو القاسم عبد المجيد القرشى ان فى سنة
احدى وسبعين وثلاثمائة صيدت سمكة بمدينة
تنيس من البحر المالح فكان طولها من رأسها الى
ذنبها ثمانية وعشرين ذراعا ونصف ذراع ، وكان
عرضها خمسة عشر ذراعا ، وكان فتح فيها تسعة
وعشرين شبرا ، وكان لها يدان كل يد طولها ثلاثة
أذرع ، وكان لها عينان كعينى البقر ، ولسان كلسان
الثور العظيم ، وكانت ملساء وفى جلدها غلظ .
فلما صيدت أمر والى تنيس بأن يشق بطنها ويحشى
ملحا ، فوضعوا فى جوفها مائة أردب ملح ، فكان
الرجل يدخل فى جوفها وهو حامل قفاف الملح قائما
غير منحني ، فأمر نائب تنيس بحملها الى القاهرة
حتى يشاهدها الخليفة العزيز فشاهدها وتعجب من
خلقتها .

وكانت مدينة تنيس هذه من أجل المدائن ،
وكانت بالقرب من دمياط . قال المسعودى : « كان

طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتي ذراع ، وكان عرضها من المشرق الى المغرب ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا بالعمل ، وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد ، وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا ، وبكل مسجد منارة ، وكان بها ستة وثلاثون حماما ، وكان بها مائة معصرة للزيت والشيرج والقصب ، وكان بها مائة وستون طاحونا ، وكان بها من الحوانيت ألفان وخمسمائة চালوت برسم البضائع ، وكان بها من المناسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون فيها الثياب الشرب التي لا يصنع مثلها في الدنيا ، وكانوا ينسجون بها أثوابا تسمى البدنة تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمائة دينار ، وكانت تحمل منها الى بغداد ، وكان يعمل بها طرز من الكتان بغير ذهب يباع كل طراز منها بمائة دينار وهو بغير ذهب ، وكان بهذه المدينة النخل والكرم وسائر أصناف الأشجار . وكانت صحبة الهواء كثيرة الطير والسماك ، وكان أهلها يدخرون بها ماء النيل في جباب فلا يفسد ولو أقام بها دهرا طويلا . ولم تزل مدينة عامرة الى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة حتى جاء اليها نحو أربعين مركبا موسوقة جماعة من الفرنج فحاصروا أهلها ، فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها الى ثغر دمياط وتركوا المدينة فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألقوا فيها النار فاحترقت كلها ، ثم أخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها . واستمرت على ذلك الى سنة أربع وعشرين وستمائة في دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقي من سورها وبيوتها ، واستمرت خرابا من يومئذ الى الآن .

قال المسبحي ان في أيام العزيز نزار هذا ظهر السمك البلطي بالنيل ، ولم يكن به قبل ذلك منه شيء ، وهو من أسماك البحر المالح . وفي أيامه أيضا ظهر السمك اللبيس ببحر النيل ولم يكن منه قبل ذلك شيء ، وهو أيضا من أسماك البحر المالح هرب ودخل الى البحر الحلو . وانما سمي ليبسا لأنه يشبه البورى فالتبس به فسمى ليبسا .

واستمر العزيز بالله نزار في الخلافة بمصر حتى تولى ، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة ، وكانت مدة اقامته في الخلافة بمصر احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وأياما ، وكان خيار بني عبيد قاطبة . ولما مات تولى من بعده الحاكم بأمر الله منصور .

الحاكم بأمر الله

هو الحاكم بأمر الله ، أبو علي منصور ، ابن العزيز نزار بن المعز معد الفاطمي العبيدي ، وهو الثالث من خلفاء بني عبيد الله بمصر ، بويع بالخلافة بعد موت أبيه العزيز في يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة من الهجرة . وكان مولده بالقاهرة في يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلثمائة . فلما تولى الخلافة أظهر العدل بين الرعية وسار في الناس سيرة حسنة ، وأخذ في أسباب بناء جامع الذي هو داخل باب النصر ، وكان مبتدأ عمارته في سنة تسع وثمانين وثلثمائة . ولما تم أمره في الخلافة بمصر أفرد لليهود حارة زويلة وأمرهم بأن يسكنوا بها ولا يخالطوا المسلمين في حاراتهم . ثم انه بعد مدة أمرهم بأن كلا منهم يدخل في دين الاسلام فخافوا

منه وأسلموا كلهم ، ثم أذن لهم بالعودة الى دينهم فارتد منهم في يوم واحد أكثر من سبعة آلاف يهودي ، ثم انه أمر بهدم كنائسهم ، ثم انه أعادها كما كانت عليه أولا .

وفي أيامه توفي الأمير جوهر القائد وزير المعز ، فلما مات وجد له من الأموال ما لا يحصى . فمن جملة ذلك من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار ، ومن الدراهم أربعة آلاف ألف درهم ، ومن اللؤلؤ الكبار والياقوت أربعة صناديق مجلدة ، ومن القصب الزمرد ألف قصبه ، ومن الثياب الديباج ورق تيس خمسة وسبعين ألف قطعة ، ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع وهي مرصعة بالدر والياقوت ، فقوم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار . ووجد عنده لعبة من المسك والعنبر الخام اذا نزع ثيابه ألبسها عليها . ووجد في داره مائة مسمار من الذهب على كل مسمار منها عمامة لون . ووجد عنده من المعالق الذهب والفضة ثلاثة آلاف معلقة . ووجد عنده عشرة آلاف زبدية صيني وبلور وفضة . ووجد عنده أربع قدور من الذهب وزن كل قدر مائة رطل ذهب ، قيل كان يطبخ المسلوقة فيها . ووجد عنده سبعمائة خاتم بقصوص من الياقوت والزمرد والماس ، ووجد عنده ثلاثة آلاف نرجسية ذهب وفضة وبلور وصيني ... هذا كله خارج عن البغال والجمال والخيول والعييد والجوارى والفرش والأملك والضياع وغير ذلك . ولما مات الأمير جوهر القائد دفن بالقرافة الكبرى . ثم ان الحاكم بأمر الله لما توفي الأمير جوهر القائد استقر بالأمير برجوان عوضه بالوزارة . وبرجوان هذا هو صاحب الحارة المنسوبة اليه ، وكان من أمراء الحاكم ، وكان الحاكم يخشى من سطوة برجوان ولا يتصرف في شيء من أمور المملكة الا برأيه ، وصار معه

كالمحجور عليه فأقام على ذلك مدة طويلة فما أطاق ذلك ، فندب الى برجوان من قتله وهو خارج من الحمام .

فلما قتل برجوان احتاط الحاكم على موجوده فوجد له أكثر مما وجد لجوهر القائد ، فمن جملة ذلك وجد له من الذهب العين مائتا ألف ألف دينار ، ومن الدراهم الفضة خمسون اردبا ، ووجد له من القماش مائتان واحدتي وستون بقجة ، ووجد له ألف سروال من البعلبكي العال ، وفي كل سروال نافجة مسك وتكة حرير أبيض ، ووجد له ألف قميص حرير اسكندري وألف منديل حرير شغل اسكندرية ، ووجد عنده من كل صنف من القماش ألف قطعة ، ووجد عنده من الجواهر اثنا عشر صندوقا ... هذا خارج عن الأملاك والضياع والخدم . ووجد عنده من البقر والأنعام والجاموس ما يباع لونه في كل سنة بثلاثين ألف دينار على يد أبي الحسن بن يزيد العامل . ووجد له من الحواصل والمناخات ما لا يحصى لكثرتة ، فصار الحاكم ينقل في موجود برجوان في كل يوم دفعتين من حارة برجوان الى قصر الزمرد الذي كان عند دار الضرب على مائتي جبل تقلتين في كل يوم نحو أربعين يوما .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي : « لما قتل برجوان صار الحاكم ما على يده يد ، فعند ذلك طغى وتجبر وصار يفعل أشياء متضادة لا تقع الا من المجانين الذين في عقولهم خلل .

« فمن ذلك أنه مر يوما بحمام الذهب الذي بمصر فسمع بها ضجيج النساء وهن في الحمام ، فأمر بأن يسد عليهن باب الحمام ، فسدوه عليهن من وقته وساعته بالحجر الفص ، فاستمرت في الحمام حتى مات الجميع في الحمام ولم يجدوا لهم من حميم ولا شفيع .

« ومنها أنه منع الناس من بيع الزبيب ، وأمر بحرق الكروم وقطعها ، فقطع منها نحو مائة ألف كرم .

« ومنها أنه منع الناس من بيع العسل الأسود وكسر منه نحو اثني عشر ألف مطر .

« ومنها أنه منع الناس من أكل الملوخية وأكل القرع ، وكتب قسائم على الفلاحين ألا يزرعوا شبتا من الملوخية ولا القرع . وعلل تحريم الملوخية بكون أبي بكر الصديق كان يميل إليها ، وعلل تحريم القرع بكون عائشة بنت أبي بكر كانت تميل إليه ... وقيل انه طلع يوما على جماعة يأكلون ملوخية فضر بهم بالسياط ، وطاف بهم في القاهرة ، ثم أمر بأن تضرب أعناقهم عند باب زويلة .

« ومنها أنه نهى عن بيع السمك الذى لا قشر له ، ونهى عن بيع الرطب ، ونهى عن زرع الترمس .

« ومنها انه أمر بقتل الكلاب ، فقتل منها نحو ثلاثين ألف كلب .

« ومنها أنه صار يوقد الشمع في مجلسه ليلا ونهارا ، ثم انه صار يجلس في الظلام ، واستمر على ذلك مدة طويلة .

« ومنها أنه أمر الناس بأن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل ، وجعل الليل مقام النهار في جميع أحوال الناس فامتثلوا منه ذلك واستمروا عليه دهرا طويلا ، ثم انه مر في بعض الأيام على شيخ يعمل في التجارة من بعد العصر فوقف عليه وقال : « ألم أنهكم عن ذلك ؟ » . فقال له الشيخ : « يا أمير المؤمنين ، أما كان الناس يسهرون بالليل ؟ ... فهذا من جملة السهر ... فتبسّم وتركه ، ثم أعاد الناس الى ما كانوا عليه في الأول يتقاضون أشغالهم بالنهار .

« ومنها أنه كان يسب الصحابة ، وأمر بكتابة

ذلك على سائر أبواب المساجد والجوامع ، فأقام على ذلك مدة ، ثم انه أمر بمحو ذلك .

« ومنها أنه هدم قمامة وبنى مكانها مسجدا ثم أعادها على ما كانت عليه قمامة . وكان يبنى عدة مدارس ويقرر بها المشايخ والصوفية ثم يقتلهم ويهدم تلك المدارس .

« ومنها أنه كان يعاقب جماعة من خواصه بسلب الألقاب ، فاذا غضب على أحد سلب لقبه مدة طويلة لا ندعوه بذلك اللقب فيصير ذلك الرجل في حزن وبكاء حتى يرد عليه لقبه فيكون عنده ذلك عيدا .

« ومنها أنه أمر طائفة اليهود بأن يعملوا في أعناقهم اذا خرجوا الى الأسواق قرم خشب وزن كل قرمة خمسة أرطال ، وأمر النصارى بأن يعملوا في أعناقهم صلبانا من حديد قدر ذراع ، وأمرهم بأن يلبسوا المآزر الفسيحة ، وألا يركبوا بهيمة ، فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم الى ما كانوا عليه .

« ومنها أنه أمر الناس اذا ذكر اسمه الخطيب في يوم الجمعة وهو على المنبر تقوم الناس صفوفًا اعظاما لذكره واحتراما لاسمه ، فكان يفعل ذلك في سائر مملكته حتى في الحرمين الشريفين وبيت المقدس .

« ومنها أنه كان يلبس جبة صوف أبيض ويركب على حمار عال أشهب يسمى القمر ، ويطوف في أسواق مصر والقاهرة ، ويباشر حسبة البلد بنفسه ، وكان معه عبد أسود طويل عريض يمشى في ركابه يقال له مسعود ، فان وجد أحدا من السوق غش في بضاعته أمر ذلك العبد مسعودا بأن والحاكم واقف على رأسه . وقد صار مسعود هذا مثلا عند لطفاء أهل مصر اذا مزحوا مع أحد يقولون احضر له يا مسعود ...»

« ومنها أنه أبطل صلاة التراويح نحو عشر سنين ثم أعادها كما كانت أولا .

« ومنها انه كان يجب أهل العلم والصلحاء ثم يغضب عليهم ويقتلهم . وأقام يلبس الصوف مدة سبع سنين ثم ترك ذلك ولبس الحرير .

« ومنها أنه كان يركب على حماره الأشهب المدعو بالقمر فينزل عنه عند باب جامعه الذى عند باب النصر ويأخذ بيد من يختار من غلمانه فيرقده ويشق بطنه بيده ثم يخرج مصارينه بيده فيرميها الى الكلاب ويترك المقتول مكانه حتى يدفنه أهله ، وكان يعذب جماعة من خواصه بالنار ، وقتل جماعة كثيرة من العلماء منهم أبو أسامة — وكان من كبار العلماء — ومنهم جبارة اللغوى . قيل ان الشيخ جبارة هذا كان يعرف للكلب فى اللغة ثلثمائة اسم فى لغات العرب ، ومنهم الهروى وغير ذلك من العلماء .

« ومنها أنه كان عنده شجاعة واقدام مع جبن وادبار ، وكان يحب الكرم ويكثر من البخل ، وكان يحب فعل الخير ويتبعه بشيء من الشر ، ويحب العدل فى الرعية ويتبعه بشيء من الظلم والجور » .

فكان كما قال القائل فى المعنى :

أرى فيك أخلاقا حسنا قيحة

وأنت لعمرى كالذى أنا واصف

قريب بعيد ، باذل متمنع

كريم بخيل ، مستقيم مخالف

كذوب صدوق ، ليس يدري صديقه

أيجقوه من تخليطه أم يلاطف

فلا أنت ذو غش ، ولا أنت ناصح

وانى لفى شك لأمرك واقف

كذاك لسانى هاج لك مادح

كما أن قلبى جاهل بك عارف

قال القاضى شمس الدين بن خلكان فى تاريخه ان الحاكم بأمر الله كان يعبد الكواكب كما كان جده المعز ، وكان له اشتغال بأمر المطالب وله فى ذلك أخبار كثيرة .

حكى بعض المؤرخين ان رجلا أودع عند رجل جرابا فيه ألف دينار وسافر الى الحجاز ، فلما عاد طلب ذلك الجراب من الرجل فأنكره ، فشكا ذلك الرجل أمره الى الحاكم ، فقال له الحاكم : « أقعد لى فى الشارع ، فاذا مررت بك فقم الى وتحدث معى » . فلما فعل ذلك ومر عليه الحاكم قام له وتحدث معه وأطال معه الحديث ، فمر به الرجل الذى عنده الجراب فرأى صاحب الجراب يتحدث مع الحاكم حديثا طويلا ، فلما مر الحاكم ومضى أحضر ذلك الرجل الجراب ودفعه الى صاحبه وقال له : « تذكرت وديعتك وهامى » فوجده الرجل بختمه لم يفتح ، فمضى به ذلك الرجل الى الحاكم وعرفه بما جرى له مع الرجل ، فقال له الحاكم : « خذ جرابك وامض الى سبيك » . فلما أصبح رأى ذلك الرجل الذى كان عنده ذلك الجراب مشنوقا على باب داره والناس يتحدثون فى أمره .

قال ابن كثير : « وقع الغلاء بمصر فى زمن الحاكم فى سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، فاجتمع الناس تحت قصر الزمرد واستغاثوا بالحاكم فى أن ينظر فى أحوال الناس فقال لهم الحاكم : « اذا كان الغد أتوجه الى جامع راشدة وأعود من مصر ، فان وجدت فى طريقى مكانا خاليا من الغلة ضربت عنق صاحب ذلك المكان » . ثم انه توجه الى جامع راشدة وتأخر هناك الى ما بعد العصر ، فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة الا وحمل ما عنده من الغلال ووضعها فى الطريق الذى يمر عليه الحاكم ، فلما رجع من جامع راشدة وجد الغلال قد امتلأت بها الطرقات وشبعت

أعين الناس ، فقرر مع أصحاب الغلال أن أحدا لا يدخر في بيته شيئا من الغلال ، وقرر معهم أسعار كل صنف من الغلال بثمن معين لا يزيد ولا ينقص ، فعند ذلك سكن الوهج الذي كانت فيه الناس ، ووقع الرخاء في مصر وسائر أعمالها ، وذلك من شدة رعب الناس من الحاكم ومن سطوته ... فكان كما قيل في المعنى :

صاحب أخا الشر لتسطوبه

يوما على بعض صروف الزمان

فالرمح لا يرهب أنبوبه

الا اذا ركب فيه السنان

وفي هذه السنة — وهى سنة سبع وثمانين وثلاثمائة — توفى ابن زولاق صاحب تاريخ مصر ودفن بها .

ومن النكت المضحكة ما قيل ... كان في زمن الحاكم قاض بمصر يقال له النطاح . وسبب ذلك أنه كان له طرطور وفيه قرنان من قرون البقر ، فيضعه الى جانبه ، فاذا جاءه خصمان يتحاكما عنده وجار أحدهما على الآخر يلبس القاضى ذلك الطرطور الذى فيه القرنان ويتباعد وينطح الخصم الذى يجور على صاحبه ، فاشتهر أمره بين الناس بهذه الواقعة . فبلغ أمره الى الحاكم فأرسل خلفه ، فلما حضر بين يديه قال له : « ما هذا الأمر الذى قد اخترعته حتى قبحت سيرتك بين الناس ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ، أشتى أن تحضر مجلسى يوما وأنت من خلف ستارة تنتظر ماذا أقاسى من العوام ، فإن كنت معذورا فيهم والا عاقبنى بما تختار . » فقال له الحاكم : « أنا غدا أحضر مجلسك حتى أرى ما تقول » . فلما أصبح الحاكم أتى الى مجلس ذلك القاضى وقعد من خلف ستارة ، فأتى الى القاضى خصمان ، فادعى أحدهما على الآخر بمائة دينار فاعترف المدعى عليه بها ، فأمره القاضى بدفع

ذلك الى صاحبه فقال المدعى عليه : « انى معر في هذا الوقت ، فقسطوا على ذلك على قدر حالى » . فقال القاضى للمدعى : « ما تقول ؟ » . فقال : « أقسطها عليه في كل شهر عشرة دنانير » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى : « تكون خمسة دنانير » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى : « تكون دينارين » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى : « تكون دينار » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فلا زال القاضى يدرجه حتى قال له : « تكون عشرة دراهم في كل شهر » . وهو يقول : « لا أقدر على ذلك » . فقال له القاضى : « وما القدر الذى تقدر عليه في كل شهر . فلعل أن يرضى به خصمك » . فقال المديون : « أنا لا أقدر على أكثر من ثلاثة دراهم في كل سنة ، بشرط أن يكون خصمى في السجن لئلا يحصل معى هذا القدر ولا أجد خصمى فيذهب منى » .

فلما سمع ذلك الحاكم لم يملك عقله وخرج من خلف الستارة وقال للقاضى : « انطح هذا النجس الشيطان والا فأنا أنطحه ... » . وكان الحاكم أحق من القاضى .

وقال الشيخ شمس الدين الذهبى في تاريخ الاسلام : « لا زال الحاكم بأمر الله يتزايد في الظلم والجور ، واستخف بأهل مصر حتى أنه ادعى الربوبية من دون الله كما فعل فرعون ، فكان اذا مر في الطرقات والأسواق يقول له جماعة من العوام : « يا واحد يا أحد ! يا محبى يا ميت ! » . وكانت جماعة من جهال العوام يسجدون له كلما رأوه ، ومن لم يفعل ذلك ضرب عنقه .

ثم انه ادعى في وقت أنه يعلم علم الغيب ، فكان يقول لأمرائه ووزرائه : « يا فلان ، أنت فعلت في بيتك البارحة ما هو كيت وكيت . وأنت يا فلان قلت

البارجة ما هو كيت وكيت ... وكان ذلك باتفاق
يعتمده مع العجائز اللاتي يدخلن الى بيوت الأمراء
والوزراء وغير ذلك من أعيان أهل مصر . فلما زاد
الأمر في ذلك كتب اليه بعض الناس رقعة ورمى بها
وهو في معظم موكبه ، وكان في الرقعة هذه الأبيات :

بالجور والظلم قد رضىنا

وليس بالكفر والحقا

ان كنت أوتيت علم غيب

بين لنا كاتب البطاقة

فلما قرأ تلك الرقعة سكت عن الكلام في أمر
ما كان يدعيه من علم الغيب .

روى ابن كثير أن الفاطمية كانوا يدعون الشرف
ويقولون نحن أفضل من العباسية ، لأننا من ولد
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان
بعض العلماء الذين يتواجهون لهم أثبت لهم نسبا
فاسدا بأنهم من ولد الامام على رضى الله عنه وليس
بصحيح ، والما هم من ولد ديصان بن سعيد —
وكان أصله مجوسيا — وقد وافق على ذلك جماعة
من العلماء ، مثل أبى حامد الاسفراينى ، والشيخ
أبى الحسن القدورى وغير ذلك من العلماء .

وكان الحاكم يذكر نسبه في كل جمعة وهو على
المنبر يخطب ، وكانت الناس ترفع اليه الرقاع في
أشغالهم وهو على المنبر ، فرفعت اليه رقعة فيها
مكتوب هذه الأبيات :

انا سمعنا نسا منكرا

يتلى على المنبر في الجامع

ان كنت فيما قلته صادقا

فانسب لنا نفسك كالتائب

وان ترم تحقيق ما قلته

فاذكر لنا بعد الأب السابع

أو لا دع الأنساب مستورة

وادخل بنا في النسب الواسع

فان أنساب بنى هاشم

يقصر عنها طمع الطامع

فلما قرأ تلك الرقعة رجع عما كان يدعيه من أمر
النسب .

واستمر الحاكم على ما ذكرناه من أمر هذه
الأفعال الشنيعة ، ومخالفته لأمر الشريعة ، حتى
قتل . وكان سبب قتله أن أخته ست النصر لما زاد
أخوها من هذه الفعال أراد قتلها ، فلما تحققت
ذلك — وكانت من النساء المدبرات — أخذت في
تدبير الحيلة على قتل أخيها ، فخرجت تحت الليل
وأنت الى دار الأمير سيف الدين بن رواش ، وكان
أكبر أمراء الحاكم . فلما دخلت عليه اختلت به
وعرفته أنها أخت الحاكم فبالغ في تعظيمها ، فقالت
له : « أنت تعلم ما قد فعله أخى بالرعية من القتل
والجور وخراب البلاد ، وقد عول على قتلى
وقتلك » . فقال لها الأمير سيف الدين : « وكيف
الحيلة في قتله ؟ » . فقالت له : « الرأى عندي أنك
تندب اليه جماعة من العبيد السود يقتلونه اذا خرج
الى حلوان ، فانه ينفرد بنفسه في الطريق ، فيخرجون
عليه ويقتلونه . فاذا قتل تكون أنت المدبر للمسلكة
من بعده ، وتولى ولده عليا » . فاتفقا على ذلك ثم
مضت الى قصرها ، فلما أصبح النهار خرج الحاكم
على عادته الى نحو حلوان ، فأرسل الأمير سيف
الدين خلفه عشرة من العبيد السود الغلاظ الشداد ،
وأعطى لكل عبد منهم خمسمائة دينار وعرفه كيف
يقتله . فسبقه العبيد الى حلوان ، فلما وصل الحاكم
هناك نزل بالقصبة التي في حلوان بشرقى البلد ،
فخرج عليه أولئك العبيد فقتلوه هناك ، فلما أبطل
خبره على العسكر خرجت اليه جماعة من الجند
يلتمسون رجوعه ومعهم جنائب الموكب بالسروج

الظاهر لدين الله

هو الظاهر لدين الله على ، بن منصور بن نزار ابن المعز معد ، وهو الرابع من خلفاء بني عبيد الله الفاطمية بنصر ، بويح له بالخلافة بعد أبيه الحاكم بأمر الله في شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة ، وتلقب بالظاهر لدين الله . تولى الخلافة وله من العمر نحو ست عشرة سنة ، وكانت عمته ست النصر أخت الحاكم هي القائمة بأمر دولته ، والأمير سيف الدين بن رواش .

وفي أيامه اضطربت أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية ، واستولى على البلاد الشامية الأمير حسان شيخ عربان جبل نابلس ، وصار يستخرج خراجها لنفسه ، ونزع أيدي العمال عنها .

وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة من خلافته توفيت ست النصر أخت الحاكم بأمر الله ، فظهر لها موجود عظيم من المال والجواهر والقماش والتحف لا يحصى لكثرتة ، ووجد لها أربعة آلاف جارية ما بين بيض وسود ومولدات ، فمنهن ألف وخمسمائة أبكار والبقية ثيبات ، ووجد عندها ثلاثون زيرا صينيا مملوءة من المسك السحيق ، وأما بقية الموجود فما ضبط لكثرتة .

ومن الحوادث في أيامه جاءت الأخبار من مكة أن رجلا أعجميا قد حضر الى مكة وجماعة من الأعاجم معه فأظهروا أنهم يريدون الحج ، فأقاموا في مكة مدة ، ثم غافلوا الناس في وقت القائلة ودخلوا الحرم وقلعوا الحجر الأسود من مكانه وكسروه ثلاث قطع ، فأدركهم الناس وأمسكواهم فقطعوا أيديهم وصلبواهم على أبواب الحرم ، ثم ان الناس أعادوا الحجر الأسود الى مكانه ولصقوا ما كسر منه .

الذهب والكبايش ، فصاروا يخرجون الى حلوان في كل يوم ينتظرون رجوعه مدة سبعة أيام ، فلما أبطأ عليهم فوق السبعة أيام ، خرج الأمير مظفر الحاجب ومعه جماعة من العسكر — وكانت عساكر الحاكم ما بين ترك وديلم ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد سود وغير ذلك — فلما وصلوا الى آخر القصة التي بحلوان وجدوا حماره الأشهب المدعو بالقمر ، وقد قطعت يداه ورجلاه ، وعليه السرج واللجام ، فتبعوا أثر الحمار فوجدوا ثياب الحاكم وكان عليه سبع جيب صوف بيض ورأوا فيها آثار ضرب السكاكين ، فلم يشكوا بعد ذلك في قتله . فلما رجعوا الى القاهرة أشيع قتل الحاكم .

وكان قتله في شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة ، وكانت مدة خلافته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمسا وعشرين سنة وأياما ... ولم ينل أهل مصر من أفعاله مكرمة ، وصاروا معه في قمع سمسمة ، وصبروا على أذاه في هذه المدة وقد قاسوا منه أى شدة حتى فرج الله عنهم هذه الكربة العظيمة فكان كما قيل :

ودهر قطعنياه بضيق وشدة

ونحن على نار قيام على الجمر

صبرنا له حتى أزيل وانما

تفرج أيام الكريهة بالصبر

وفي هذه المدة قتل الحاكم من الناس ما لا يحصى عددهم من العلماء والفقهاء وغير ذلك .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي : « ولما قتل الحاكم صار جماعة من الجهال المغفلين من وادى التيم من نواحي الشام يعتقدون حياة الحاكم الى الآن ، ويقولون لا بد أن يظهر في آخر الزمان ويعود الى الخلافة ، وأنه هو المهدي لا محالة ، ويحلقون الى الآن بغيبة الحاكم » .

يحصل في تلك الليلة . وكان المعز لما قدم الى مصر ورأى ما يحصل في ليلة الغطاس من المفاسد العظيمة أمر بإبطال ذلك ، واستمر ذلك باطلا من سنة اثنتين وستين وثلثمائة الى سنة خمس عشرة وأربعمائة ، فأمر الخليفة الظاهر بإعادة ذلك حتى يتفرج عليه . قال المسيحي : ان في الدولة الفاطمية كان رؤساء القبط يضربون في يوم خميس العدس خرايب من ذهب ويفرقونها على أرباب الدولة برسم التبرك . وكانوا يضربون من هذه الخرايب نحو خمسمائة مثقال ، فبطل ذلك جميعه من مصر من جملة ما بطل من القواعد القديمة .

واستمر الخليفة الظاهر لدين الله في الخلافة بمصر حتى توفي ، وكانت وفاته في يوم الأحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، وكانت مدة خلافته بمصر عشر سنين وتسعة أشهر^١ . ولما مات الظاهر لدين الله تولى من بعده ابنه المستنصر بالله أبو تميم .

المستنصر بالله

هو المستنصر بالله أبو تميم ، معد ، بن الظاهر لدين الله على بن منصور الحاكم بأمر الله ، وهو الخامس من بني عبيد الله الفاطمي . بويع له بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر لدين الله في يوم الأحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، فتولى الخلافة بمصر وله من العمر سبع سنين وعشرون يوما . وكان مولده بالقاهرة في سنة ثمانى عشرة وأربعمائة^٢ . وهو الذى خطب له البساسيري على منابر بغداد مع وجود خلفاء بني العباس ، وهذا لم يقع لأحد من أقاربه من خلفاء بني عبيد الله .

(١) الذى في القريزى ان مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام ، وهو الصواب .
(٢) في القريزى انه ولد في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٤٢٠ .

وفي أيام الظاهر هذا أذن لأقباط مصر فيما كان يعمل في ليلة الغطاس بالديار المصرية ، وكان هذا الأمر قد بطل من أيام المعز كما تقدم ، وكان من أجل المواسم بمصر . وذلك أن ليلة الغطاس — وهى في الجادى عشر من شهر طوبه — تجتمع جماعة من المسلمين وجماعة من الأقباط النصارى عند شاطئ النيل قدام المقياس ، فتنصب هناك الخيام على جانبى النيل وتوضع فيها الأسرة لأعيان القبط من الرؤساء ، وكان البحر يتلىء بالمراكب والزوارق ، ويجتمع فيها السواد الأعظم من الخاص والعام من المسلمين والنصارى ، فاذا دخل الليل تزين المراكب بالقناديل وتشعل فيها الشموع ، وكذلك على جوانب الشطوط من بر مصر والروضة ، وكان يشعل على الشطوط في تلك الليلة أكثر من ألف مشعال وألف فانوس وتنزل رؤساء القبط في المراكب ، وكان ينفق في تلك الليلة من الأموال ما لا يحصى في مآكل ومشارب ، وتتجاهر الناس بشرب الخمر ، وتجتمع أرباب الملاهى وأرباب الملاعب من كل فن ، ويخرج الناس في تلك الليلة عن الحد في اللهو والفرجة ، ولا يغلق في تلك الليلة دكان ولا درب ولا سوق ، وكانوا يهادون رؤساء الأقباط في تلك الليلة بأطنان القصب والبورى والحلوى القاهرية والكمثرى والتفاح الفتحي والسفرجل والأترج والنانج والليمون المراكبى وطاقت النرجس وغير ذلك من الأنواع اللطيفة ، وكانوا بعد العشاء يغطسون في بحر النيل — النصارى مع المسلمين سوية — ويزعمون أن من يغطس في تلك الليلة يأمن من الضعف في تلك السنة . فلما كان وقت الغطاس نادى الخليفة الظاهر ألا يختلط النصارى بالمسلمين عند الغطاس ، وكان في قصر جده المعز الذى يشرف على بحر النيل يتفرج على ذلك المهرجان الذى

ولما تم أمره في الخلافة استقر بالحسن بن علي البازوري وزيرا ، وهو الذي جمع بين الوزارة وقضاية القضاة الشافعية ، ولم تقع هذه لمن قبله من الوزراء . فلما مات البازوري استقر بأبي نصر العلاجي وزيرا ، فقبض أبو نصر العلاجي على ابن الأنباري وزير الحاكم بأمر الله فاعتقله بخزانة البنود وصادره وأخذ جميع أمواله ، ثم قطع رأسه ودفنها بخزانة البنود ، فما مضى قليل حتى قبض المستنصر على أبي نصر العلاجي ، واعتقله في خزانة البنود وصادره وأخذ أمواله وأمر بقطع رأسه . فلما أرادوا أن يحضروا لأبي نصر العلاجي في خزانة البنود ليواروا رأسه فيها ظهر من تلك الحفرة رأس فسألوا العلاجي عن ذلك فقال هذا رأس ابن الأنباري وأنا قتلتُه ودفنته في هذه الحفرة ثم أنشد يقول :

رب لحد قد صار لحد مرارا

فاحكا من تراحم الأضداد

فقطعوا رأس العلاجي ودفنوها على رأس ابن الأنباري ... والجزاء من جنس العمل .

ومن الحوادث في زمن المستنصر بالله : أنه في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة وقع الغلاء العظيم بمصر ، فكان يعادل الغلاء الذي وقع في زمن يوسف عليه الصلاة والسلام . وقد أقام هذا الغلاء بمصر سبع سنين متوالية والنيل في تلك السنين لم يبلغ في الزيادة الا اثني عشر ذراعا وأحد عشر اصبعاً ، وكان القاع ثلاثة أذرع وأحد عشر اصبعاً . ففي هذه المدة أكلت الناس بعضها بعضاً ، وبيع فيها القمح بشماين ديناراً كل أردب ، وبمائة وعشرين ديناراً كل أردب . ثم اشتد الأمر حتى بيع كل رغيف في زقاق القناديل بخمسة عشر ديناراً ، وأكلت الناس الميتة والكلاب والقطط حتى قيل بيع كل كلب بخمسة دنائير ، وبيع كل قط بثلاثة دنائير ، وقيل كان الكلب يدخل الى الدار فيأكل

الطفل الصغير وهو في المهد وأمه وأبوه ينظران اليه فلا يستطيعان النهوض لدفعه عن ولدهما من شدة الجوع وعدم القوة . ثم اشتد الأمر حتى صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر ذلك عليه أحد من الناس . وصار الناس في الطرقات اذا قوى القوى على الضعيف يذبحه ويأكله . وصارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم أحد من الناس ألقيوا عليه تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب في أسرع وقت ، فاذا صار عندهم ذبحوه في الحال وأكلوه بعظامه . وقيل ان الوزير ركب يوماً على بغلة ودخل الى دار الخلافة فلما نزل عنها أخذت من غلمانها وأكلت في الحال ، فأمسكوا الذين فعلوا ذلك وشنقوهم وعلقوهم على الخشب ، فلما باتوا أصبحوا لم يجدوا أحداً من المشائيق ، وقد أكلوا من فوق الخشب ، ولم يبق منهم غير لعظام على الأرض .

قال المسبحي في تاريخه : « كان بمدينة الفسطاط حارة تسمى حارة الطبق ، وكان فيها نحو عشرين داراً ، كل دار تساوي في الثمن ألف دينار ، فبيعت بيوت هذه الحارة كلها بطبق من الخبز — كل دار برغيف — فسميت من يومئذ حارة الطبق » . وقال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي : « خرجت امرأة من مدينة الفسطاط ومعها ربع من اللؤلؤ الكبار وقالت : « من يأخذ مني هذا اللؤلؤ ويعطيني عوضه قمحاً ؟ » . فلم تجد من يأخذ منها ذلك اللؤلؤ ويعطيها عوضه قمحاً . فلما أعيت من ذلك ألقت على الأرض وقالت : « اذا لم تنفعني وقت الحاجة فلا حاجة لي بك » . ثم تركته ومضت ، فأقام ذلك اللؤلؤ مرمياً على الأرض ثلاثة أيام ولم يوجد من يلتقطه ، وكان كل أحد من الناس مشغولاً بنفسه عن كل شيء » .

الآمر بأحكام الله

هو الأمر بأحكام الله ، أبو على المنصور ، بن المستعلى بالله أحمد ، وهو السابع من خلفاء بني عبيد الله الفاطمي . بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستعلى بالله في تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة . ولما أن تولى الخلافة بمصر طاش وصار في الناس أقبح سيرة ، وصار يتجاهر بالمنكرات ، واشتغل باللهو والطرب وشرب الخمر ، فاضطربت أحوال الديار المصرية في أيامه ، وجاءت الأخبار بأن الفرنج استولوا على مدينة عكا وطرابلس ونابلس وغير ذلك من أعمال البلاد الشامية ، وأشرفوا على أخذ الديار المصرية ووصلوا إلى العرش ، وكان ملك الفرنج يسمى بردويل^١ ، فلما وصل إلى العرش مرض هناك مرضا شديدا ومات ، فكتم أصحابه موته خوفا من المسلمين ، وشقوا بطنه ورموا مصاريه ، ثم دفنوها بالعرش ، وقد صار الناس إلى الآن كلما مروا بالعرش رجسوا ذلك المكان الذي دفنت فيه مصارين بردويل — ويسمى إلى اليوم سبخة بردويل — وأما جثته فحملت إلى القمامة التي بيت المقدس ودفنت هناك .

وفي أيامه وقع الغلاء بمصر ، وتناهى سعر القمح إلى ثلاثين دينارا ثمن الأردب الواحد ، فأقام الأمر على ذلك نحو ستة أشهر ، وتراجع الأمر قليلا قليلا ، وانحط سعر القمح عن ذلك القدر ، وكثرت الغلال في العرصات .

وكان القائم بتدبير أمور الديار المصرية المأمون البطايحي الوزير ، فساس الناس في هذه الغلوة أحسن سياسة ، ولم يحصل في الديار المصرية من

(١) هو « بلدوين » .

الخلافة ستين سنة وأربعة شهور ، وهذه المدة لم تتفق لأحد قبله من الخلفاء الفاطميين ولا العباسيين ، ولكنه قاسى في هذه المدة مشقات عظيمة شديدة كما قيل في المعنى والأمثال « من أراد البقاء في الدنيا فليوطن نفسه على المصائب » .

ولما مات المستنصر تولى من بعده ابنه أحمد المستعلى بالله .

المستعلى بالله

هو المستعلى بالله أحمد ، بن المستنصر بالله ، ابن الظاهر ، بن الحاكم ، وهو السادس من خلفاء بني عبيد الله الفاطمي . بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر بالله في ثاني عشر ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

ومن الحوادث في أيامه أن الفرنج استولوا على بيت المقدس وملكوه ، وقتلوا جماعة كثيرة من المسلمين وأسروا من الباقي نحو ألف انسان ، وذلك في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، وأخذوا من قبة الصخرة أربعين قنديلا من الذهب والفضة ، وزن كل قنديل ألف درهم من الفضة ، وأخذوا التنور النحاس الكبير ، وأقاموا مالكين بيت المقدس نحو ثلاث سنين .

وفي أيام المستعلى كسفت الشمس ، وغاب جميعها ، وأظلمت الدنيا حتى ظهرت النجوم وقت الظهر ، وأقامت على ذلك إلى آخر النهار حتى انجلى .

واستمر المستعلى في الخلافة بمصر إلى أن مرض ومات فكانت وفاته في يوم الثلاثاء تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وكانت مدة خلافته بمصر سبع سنين وشهرين .

ولما مات تولى من بعده ابنه الأمر بأحكام الله .

الاضطراب كما حصل في أيام المستنصر مما تقدم ذكره .

قيل : هجم رجل في زمان الغلاء على بعض المغاربة وهو يأكل في رغيغ ، فلما رآه ستر الرغيغ ، منه ، فقال له ذلك الرجل : « أما سمعت الحديث : طعام واحد يكفى اثنين ؟ » فقال له المغربى : « ذلك في ضوء السراج ... إذا كان لواحد يكفى جماعة . وأما في هذا الرغيغ فلا أطعمك منه لقمة » . فمضى عنه الرجل ولم يطعمه شيئا .

وسبب هذا الغلاء أن النيل بلغ في الزيادة الى خمسة عشر ذراعا وأصبعا ثم هبط ، فشرقت البلاد ، وحصل للناس الضرر الشامل ، ورسم الخليفة للبطرك بأن يتوجه الى بلاد الحبشة بسبب توقف النيل ، ولم يقد توجه البطرك شيئا .

وفي سنة اثنى عشرة وخمسمائة ابتداء الأمر بأحكام الله في عمارة جامعته الذي بناه عند سوق مرجوش المسمى بجامع الأقمر ، وأنفق على بنائه مائتى ألف دينار ، وكان له صهر يج يمتلىء من مسارب الخليج الحاكمى .

وفي سنة تسع عشرة وخمسمائة قبض الأمر على الوزير المأمون البطايحي ، وقتله ثم صلبه واحتاط على موجوده ، فظهر له من الأموال ما لا يحصى . فمن ذلك مائة صندوق ما بين ذهب عين ودراهم فضة وجواهر فاخرة ، ووجد عنده مائة بكرية مملوءة من الكافور العنصوري ، وهذا الصنف عزيز الوجود . ووجد عنده ثلثمائة صندوق فيها قماش جسمه ما بين حرير وصوف ودق تنيس ودمياط ، ووجد عنده من العود القمارى مائة من وأشياء كثيرة لا تنحصر ، فحمل ذلك الى قصر الخلافة .

فلما قتل الأمر الوزير البطايحي لم يبق بعده

الا مدة بسيرة وقتل الآخر . وكان سبب قتله أنه توجه الى بر الروضة على سبيل التنزه ، فأقام هناك يوما وليلة ، فلما رجع الى القاهرة مر على جسر الروضة الذى كان بالقرب من الجزيرة الوسطى ، فلما عبر الجسر وثب عليه جماعة من العبيد السود فضربوه بالسكاكين تحت الليل — وكان سكران — فوقع عن فرسه فحملوه الى القاهرة وطلعوا به الى قصره فمات من وقته ، فكانت وفاته في ليلة الثلاثاء العشرين من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة من الهجرة ، وكانت مدة خلافته بمصر نحو تسع وعشرين سنة وشهرين . ومات عن غير ولد فتولى من بعده ابن عمه المستنصر بالله .

الحافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله ، ابن المستنصر بالله ، وهو الثامن من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويغ بالخلافة بعد قتل الأمر بأحكام الله ، وكان الحافظ لدين الله رجلا حليما ، لين الجانب ، قليل الأذى ، فطمعت فيه الرعية ، واضطربت في أيامه أحوال الديار المصرية ، واستولت الفرنج على البلاد ، وكثر منهم الفساد ، وطمع الفلاحون في أهل مصر ، وامتنعوا من وزن الخراج ، وتعطل الأمر وما راج .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : « ان الشيخ أبا عبد الله الأندلسى دخل الى مصر في أيام الخليفة الحافظ — وكان الشيخ أبو عبد الله له يد طائلة في علم السيمياء — فأحضره الحافظ بين يديه وقال له : « أرنا شيئا من علم السيمياء » . فامتنع من ذلك ، فألح عليه ، فأراه مساحة القصر كأنها لجة ماء وفيها سفينة كبيرة وحولها شوانى حربية ،

من ذلك ورمى الطبل من يده على الأرض فكسره ، فبطل فعله من حينئذ ، فندم على كسره صلاح الدين يوسف غاية الندم .

واستمر الحافظ بالخلافة بمصر حتى توفي ، فكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسائة ، وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر . ولما مات تولى من بعده ابنه الظاهر بالله .

الظاهر بالله

هو الظاهر بالله ، أبو المنصور اسماعيل ، بن الحافظ ، بن المستنصر بالله ، وهو التاسع من خلفاء بني عبيد الله الفاطمي . بويغ بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ ، وكان له من العمر لما تولى الخلافة سبع عشرة سنة . وكان شاباً جميلاً الصورة ، حسن الهيئة ، وكان يميل إلى اللهو والطرب وشرب الراح ، وكان يهوى ابن وزيره عباس ، وينزل إليه ويبيت عنده في غالب الأوقات ، وامتحن به غاية الامتحان . قيل انه أهدى في بعض الأوقات إلى ابن الوزير صينية من ذهب فيها ألف حبة من اللؤلؤ الكبار ، وفصوص من الياقوت الأحمر والأصفر والزمرد الدناني ، وألف نافجة من المسك ، وعشرة آلاف دينار . ومن العجائب أن الوزير عباساً وولده نصراً لم ينفع فيهما شيء من ذلك ، وقتل الظاهر عقيب ذلك كما سيأتي ذكره في موضعه .

ومن الحوادث في أيام الظاهر أن في سنة إحدى وخمسين وخمسائة وقع وباء عظيم بين أرض الحجاز واليمن ، وكان بينهما نحو من عشرين قرية ، فدخل الوباء في ثمانى عشرة قرية منها فأفناهم عن آخرهم حتى لم يبق منهم انسان . فكانت مواشيهم سائبة لا قانى لها ، ولا يستطيع أحد من الناس أن يدخل إلى تلك القرى ، وكل

فوقع بينهما الحرب والقتال ، فكانت بينهم السيوف تلمع ، وسحائب القسي تمطر ، وابنود تخفق ، والرءوس تهدر ، والدماء تسيل ... فلا يشك الناظر في حقيقة ذلك . ثم ان أصحاب السفينة سلموا إلى أصحاب الشوانى فساروا بها والطبول تضرب والبوقات تزعق حتى غابوا عن الأبصار . ثم ذهبت تلك اللجة الماء التي كانت في القصر بأمواج تتلاطم كالجبال . فلما رأى الحافظ ذلك تعجب منه ، وكان حوله جماعة من خواصه فأشاروا عليه بقتل الشيخ أبى عبد الله ، وقالوا هذا يفسد عقول الناس ، فلم يوافقهم الحافظ على قتله . ثم قال للشيخ : « أرئى شيئاً في هؤلاء الذين قد أشاروا بقتلك » . فقال له الشيخ : « مرهم يمضوا إلى منازلهم » . فقال الحافظ لمن حوله : « انصرفوا إلى منازلكم » . فلما انصرفوا صار كل من يركب دابته يراها في صفة الثور العظيم ، ولها في رأسها قرون طوال ، فتحيروا في ذلك ، ورجعوا إلى الحافظ ، وذكروا له ما جرى لهم في دوابهم ، فضحك وقال لهم : « افدوا دوابكم منه » . فما منهم الا من أعطاه شيئاً حتى أطلق لهم دوابهم .

قيل ان الحافظ كان يشتكى بالحمى القولنج ، فصنع له الحكيم شبرماه الديلمي طبل باز من المعادن السبعة ، وهو مرصود في وقت معلوم ، فكان من خاصية هذا الطبل اذا ضرب عليه أحد خرج منه ريح ، وهذه الفائدة كانت لدفع القولنج ، وكان الحافظ يعتريه هذا المرض فصنع له ذلك الطبل بسبب القولنج .

قيل لما ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الديار المصرية استعرض حواصل الخلفاء الفاطمية فوجد ذلك الطبل في علبة ، فأخذه بعض الأكراد وضرب عليه بيده فخرج منه ريح فحقق

من دخل الى تلك القرى هلك من وقته بالطعن ومات . وأما القرستان اللتان حول تلك القرى فما عندهما شعور بما جرى على من حولهما من القرى مما أصابهم من الفناء والطعن ، ولم يمت من هاتين القرئتين طفل واحد ... فسبحان القادر على كل شيء .

ومن هنا لرجع الى أخبار الظافر بالله . قيل كثير الكلام بين الناس في حق الوزير عباس بسبب ابنه نصر ، فلما نزل الظافر الى بيت الوزير عباس على جرى عادته وبات عنده ، ندب اليه من قتله تحت الليل ورماه في بئر ... فلما أصبح الوزير طلع الى دار الخلافة ودخل الى القصر ، فقال لبعض الخدام : « أين أمير المؤمنين ؟ » . فقال له الخدام : « ان ابنك نصر يعرف أين هو ؟ » . ثم ان الوزير عباس دخل الى دور الحرم وأخرج الأمير عيسى بن الظافر ، وأحضر القضاة وأرباب الدولة وقال : « ان أمير المؤمنين الظافر نزل البارحة في مركب فأنقلبت به فغرق ومات . والرأى عندي أننا نولى الأمير عيسى الخلافة عوضا عن أبيه الظافر ، ونلقبه بالفائز بنصر الله » . وتراضوا على ذلك . ثم بعد ذلك شاع بين الناس أن الوزير عباس قد قتل الظافر ، فأنقلبت الجند على الوزير عباس بسبب ذلك .

وكانت قتلة الظافر في ليلة الأحد ثلثي صفر سنة تسع وأربعين وخمسائة من الهجرة ، وكانت مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وأياما .

والظافر هذا هو الذي بنى الجامع المعروف الآن بجامع الفاكهي ، وهو بالقرب من الشواين .

الفائز بنصر الله

هو الفائز بنصر الله ، أبو القاسم عيسى ، بن الظافر ، بن الحافظ ، بن المستنصر ، وهو العاشر من خلفاء بني عبيد الله الفاطمي . بويع بالخلافة بعد قتل أبيه الظافر بالله ، وكان سبب بيعته أن الوزير عباس لما قتل الظافر طلع الى القصر وأحضر القضاة والشهود وقال لهم ان الظافر نزل البارحة في مركب فأنقلبت به فغرق ، ثم هجم الوزير على ابن الظافر وهو في دور الحرم وأخذه من عند أمه وحمله على كتفه ففزع منه واضطرب — وكان له من العمر ست سنين — فأحضره بين القضاة وولاه الخلافة ، واستمرت معه الطربة عمالة حتى كبر ومات بعد مدة وهو بضرب في كل وقت .

فلما تم أمره في الخلافة وأطاعه الجند ، صار يخشى من الوزير عباس ولا يقر له قرار ، فاستعان على قتله بشخص يسمى طلائع بن رزيك — وكان متوليا على منية ابن خصيب — فجتمع هسكرا عظيما من العربان وقصد التوجه الى القاهرة . فلما بلغ الوزير عباس ذلك أخذ ما قدر عليه من الأموال والتحف وهرب نحو البلاد هو وولده نصر ، فكان كما قيل :

حكى غراب البين في شؤمه

لكن اذا جئنا الى الحق زاغ

فبينما هو في أثناء الطريق اذ خرجت عليه طائفة من الفرنج فأسروه ، وأخذوا ما كان معه من الأموال والتحف ، فلما جاءت الأخبار بذلك الى القاهرة احتاط الفائز على موجود الوزير عباس جميعه ، وولى الوزارة طلائع بن رزيك عوضا عن عباس ، فخلع عليه وتلقب بالصالح بالله ، فأطاعه الجند وأحبوه ، وكانت له حرمة وافة في القاهرة . وهو

وكانت مدة خلافته بمصر خمس سنين وأشهر
ولما مات تولى من بعده ابن عمه عبد الله العاضد بالله .

العاضد بالله

هو العاضد بالله ، أبو محمد عبد الله ،
ابن الحافظ ، بن المستنصر ، وهو الحادى عشر
من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة
بعد موت ابن عمه الفائز فى رجب سنة خمس
وخمسين وخمسائة . قيل ان الخليفة المعز لما قدم
الى الديار المصرية قال لبعض علماء مصر :
« اكتب لنا ألقابا تصلح للخلافة ، حتى اذا تولى
منا أحد تلقب بها » . فكتب له ألقابا كثيرة
آخرها العاضد بالله ، فاتفق أن آخر من تولى
منهم تلقب بالعاضد بالله ، وبه انقرضت دولتهم .
ولم يكن لهم من المساوىء سوى أنهم كانوا
رافضة يسبون الصحابة فى كل جمعة على المنابر .
ولما أن تولى العاضد استمر الصالح وقيرا ،
فأقام على ذلك مدة ومات ، فتولى عوضه فى
الوزارة شاور بن مجير السعدى .

ومن الحوادث فى أيام العاضد أن الفرنج
استولوا على الديار المصرية ودخلوا بمراكبهم الى
بحر النيل ونزلوا على مدينة الفسطاط التى تقدم
ذكرها لأنها كانت بالقرب من بركة الحبش من
الرصد ، فأحاطت عساكر الفرنج بمدينة
الفسطاط ، وأشرفوا على أخذها ، وكان ملك
الفرنج يسمى مرى ، وكان معه نحو سبعين مركبا
مشحونة بالمقاتلين . فلما رأى الخليفة العاضد عين
الغلب ، وصار الفرنج يأسرون جماعة من المسلمين
وينهبون أموالهم ، وقرروا على أهل مصر والقاهرة
أموالا جزيلة ، وأخذوا فى أسباب جبايتها ... فعند

الذى بنى الجامع المنسوب اليه المشهور بجامع
الصالح الذى هو خارج باب زويلة ، وكانت
الوزراء تتلقب يومئذ كالألقاب الخلفاء .

ثم ان الصالح هذا أرسل الى طائفة الفرنج
الذين أسروا الوزير عباسا يطلبه منهم ، وأرسل
الهم هدية ومالا نحو عشرة آلاف دينار ، فلما
وصل ذلك الى الفرنج أرسلوا الوزير عباسا
وولده نصرا الى الصالح وهما فى الحديد ، فلما
دخلا القاهرة كان يومهما يوما مشهودا لم يسمع
بمثله ، فأمر الفائز بأن يصلب الوزير عباس وولده
نصر على باب القصر ، فصلبا وأخذ الفائز بثأر
أبيه الظافر قبل العصر ، فكان كما قيل فى الأمثال :
« المسوت فى طلب الثأر ، خير من الحياة فى
العار » .

وفى أيام الفائز هذا نقلت رأس الحسين رضى
الله عنه من عسقلان الى القاهرة ، وذلك فى سنة
تسع وأربعين وخمسائة . وسبب ذلك أن رأس
الحسين كانت بعسقلان ، فلما تولى الفرنج على
عسقلان خاف المسلمون على رأس الحسين
فأحضروها الى القاهرة فى علبة ، وبنى لها الفائز
هذا المشهد ودفنها به . قيل ان رأس الحسين
نقلت الى ثلاثة أماكن قبل أن تحضر الى القاهرة
بمدة .

وفى أيام الفائز استعرضت عساكر القاهرة ،
فكانت نحو خمسين ألف مقاتل على أجناس
مختلفة ، وكان بمراكبه عشر مراكب مشحونة
بالرجال والسلاح بسبب الجهاد ، وهذا مع وجود
تلاشى أمر الخلفاء الفاطمية وضعف شوكتهم .

واستمر الفائز فى الخلافة بمصر حتى مرض
ومات ، وكانت وفاته فى يوم الجمعة سابع رجب
سنة خمس وخمسين وخمسائة ، وتوفى وله من
العمر احدى عشرة سنة وأشهر ، ومات بالطعن ،

ذلك أشار الوزير على الخليفة بحرق مدينة
الفسطاط خوفا من الفرنج أن يملكوها ، فأذن له
الخليفة في حرقها ، فجمع الوزير العبيد
وأحرقوها . وكانت هذه المدينة من أجل المدائن ،
وقد أنشأها عمرو بن العاص في مبتدأ الاسلام
عند فتح مصر ، وقد تقدم ذكر ذلك عند فتوح
مصر . فلما قدم المعز من الغرب وبنى القاهرة
تلاشى أمر مدنة الفسطاط .

وكانت القاهرة في غاية العمارة والتحصين ،
فلما أحرقت مدينة الفسطاط تحول الناس الى
القاهرة قيل بلغ كراء الجمل من مدينة الفسطاط
الى القاهرة عشرة دنانير كل ثقل ، وصارت النار
عمالة في مدينة الفسطاط واحدا وخمسين يوما حتى
صار الدخان يرى من مسيرة ثلاثة أيام ، فلما رأى
الفرنج ذلك خافوا ورحلوا عن مصر .

قال عبد الله بن عبيد الحكم : « وكان ذلك
سببا لخراب مدينة الفسطاط ، وصارت من يومئذ
كيمافا يوجد فيها الأعمدة الرخام الأبيض الى
الآن . وكان أولها من حدة ابن قبيصة وآخرها
عند الرصد ، وكان حرقها وخرابها في سنة أربع
وستين وخمسائة » .

وقال ابن المتوج ان الخليفة العاضد لما استولى
مرى ملك الفرنج على مصر أرسل العاضد الى
الملك العادل نور الدين الشهيد صاحب دمشق
بأن يرسل الى أهل مصر لجة ويدركهم قبل أن
تملك الفرنج المدينة ، فأرسل نور الدين الشهيد
الى مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب هو
واخوته ، فلما قدموا الى مصر تسامع بهم الفرنج
فرحلوا عن مصر . ولما رحلوا قويت شوكة
بنى أيوب بمصر ، فخاف منهم العاضد ، فخلع

الوزير شاور بن مجير الدين السعدى من
الوزارة ، وولى أسد الدين شيركوه أخا أيوب
عم صلاح الدين يوسف عوضا عن السعدى .

ثم ان أسد الدين صلب الوزير ابن مجير الدين
السعدى على باب القاهرة لكونه أشار بحرق
مدينة الفسطاط ، ثم ان أسد الدين لما تم أمره في
الوزارة تلقب بالمنصور — وكانت الوزراء تتلقب
بمثل ألقاب الخلفاء — فلما تولى الوزارة أقام
حرمة مصر الى الغاية ، وهابه الناس ، فأقام في
الوزارة مدة يسيرة ومات فجأة على حين غفلة .

فلما مات أسد الدين شيركوه تولى من بعده
الوزارة صلاح الدين يوسف بن أيوب وتلقب
بالناصر . فلما تولى صلاح الدين بن أيوب على
مصر ضعفت شوكة الخليفة العاضد ، ومالت
الجند الى صلاح الدين يوسف . ثم ان نور الدين
الشهيد أرسل يقول له : « اقطع الخطبة من مصر
عن اسم العاضد » . فلما قطع الخطبة عن اسمه
حصل له قهر عظيم ، وصار مع صلاح الدين
كالمحجور عليه ... لا يتصرف في الأمور الا بعد
مشورة صلاح الدين ، فما أطاق العاضد ذلك ،
فقليل انه ابتلع فص ألماس فمات من يومه .

وكانت وفاته في يوم الاثنين عاشر المحرم سنة
سبع وستين وخمسائة من الهجرة ، وكانت مدة
خلافته بمصر اثنتى عشرة سنة وستة أشهر وأياما ،
وبه انقطعت دولة بنى عبيد الله الفاطمى عن
الخلافة بمصر ، وبه ختمت أخبار الخلفاء الفاطمية
من بنى عبيد الله .

وقد قامت دولة الخلفاء الفاطمية بمصر مائتين
وثمانيا وستين سنة .

الزُّوْلَةُ الإِثْبَوِيَّةُ

الملك الناصر

يشبوا على بسبب ذلك » . فأرسل نور الدين الشهيد يقول لصلاح الدين ثانيا : « لابد من ذلك » .

فلما رأى صلاح الدين أن نور الدين الشهيد مصمم على ذلك ، جمع أعيان أهل مصر وذكر لهم ما قاله نور الدين الشهيد ، فقالوا له : « وكيف يكون ذلك ؟ » . فقال شخص من أبناء العجم يسمى الأمين ، وكان من أهل العلم : « أنا أفتح لكم باب هذا الأمر » .

فلما كان يوم الجمعة ثاني المحرم سنة سبع وستين وخمسائة ، صعد ذلك الشخص الأعجمي إلى المنبر قبل صلاة الجمعة ، ودعا إلى الخليفة المستضيء بالله العباسي خليفة بغداد . فلما صعد المنبر ودعا إلى المستضيء لم يتكلم أحد من الناس ولا أنكروا . فلما كان ثاني جمعة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا اسم الخليفة العاضد من الخطبة ، وأن يدعوا باسم الخليفة المستضيء بالله العباسي ، ففعلوا ذلك .

فلما بلغ العاضد ذلك انقهر وعمد إلى فص من الألباس فابتلعه ، فمات من يومه ودفن . فكانت وفاته في عاشر المحرم كما تقدم .

فلما مات العاضد أرسل نور الدين الشهيد إلى صلاح الدين تقليدا بولاية مصر نيابة عنه . قيل لما استولى صلاح الدين يوسف على حواصل الخلفاء الفاطمية استعرض ما فيها من السلاح والأموال ، فأرسل إلى نور الدين ما استحسنته من السلاح الفاخر والتحف ، وصار

كان أولهم الملك الناصر ، أبا المظفر يوسف ، ابن أيوب ، بن شادي ، بن مروان الكردي . وكان أصلهم من أذربيجان من بلاد الكرج ، ولكن أصلهم أكراد .

وكان مولد صلاح الدين يوسف بقلعة تكريت في سنة اثنتين وثلاثين وخمسائة . وكان أبوه أيوب في خدمة زفكي أبي نور الدين الشهيد ، فلما توفي زفكي صار أيوب وأولاده في خدمة نور الدين الشهيد ، ثم ارتقى نور الدين حتى بقي صاحب البلاد الشامية .

فلما تلاشى أمر الخليفة العاضد ، واستولت الفرنج على الديار المصرية ، أرسل يطلب من نور الدين الشهيد نجدة بسبب الفرنج ، فأرسل إليه أسد الدين شيركوه أخا أيوب عم صلاح الدين يوسف . فلما توفي أسد الدين تولى من بعده في الوزارة أيام العاضد صلاح الدين يوسف . فلما توفي العاضد تولى من بعده على مصر صلاح الدين يوسف نيابة عن نور الدين الشهيد بتقليد منه .

وكان سبب موت العاضد أن نور الدين الشهيد لما أرسل إلى صلاح الدين يقول له : « اقطع الخطبة عن اسم العاضد بالله » ... أرسل صلاح الدين يقول لنور الدين الشهيد : « إن أهل مصر لا يطاوعوني على ذلك ، وأخشى أن

بعد ذلك يبيع ما فضل من السلاح وغيره نحو
عشر مئتين غير ما اصطفاه لنفسه .

ثم ان صلاح الدين صار مستوليا على مصر
نيابة عن نور الدين الشهيد حتى توفي نور الدين
محمود بن زنكي . وكانت وفاته في سنة تسع
وستين وخمسماية ، ودفن بدمشق في جامع
الكلاسة ، وكان يلقب بالملك العادل ، وهو
المجاهد المرباط فاتح بيت المقدس من أيدي
الفرنج ، وفاتح الثغور الاسلامية من البلاد
الشامية ، وهو الذي تعصب لبنى العباس ورد لهم
الخطبة بمصر وأعمالها ، وأبطل ما كان يخطب
باسم الفاطمية .

قال الهروي ان في سنة تسع وثلاثين وخمسماية
انخفضت المغارة المدفون فيها ابراهيم الخليل عليه
السلام ، فنزل اليها جماعة فوجدوا فيها ابراهيم
واسحق ويعقوب عليهم السلام ، وقد بليت
أكفانهم ، وهم مستندون الى حائط المغارة وعلى
رؤوسهم قناديل من ذهب وفضة . فلما بلغ نور
الدين ذلك أمر بأن تجدد لهم أكفان جدد ، وأن
يسد عليهم ما انخفض من المغارة .

فلما توفي نور الدين الشهيد انفرد صلاح الدين
يوسف بملكة الديار المصرية والبلاد الشامية ،
وصفا له الوقت ، فأزال ما كان بمصر من العساكر
الملققة — وكانوا ما بين صقالبة وكدالة ومصادمة
وأرمن وشناترة العرب والعبيد السود — فمحا
تلك الطوائف جميعها ، واتخذ بمصر عساكر من
الأكراد خاصة ، فكانت عدتهم اثني عشر ألف
فارس من شجعان الرجال الذين لا يكلون من
الحروب .

ثم ان صلاح الدين يوسف نظر في أحوال
الرعية ، وأمر باسقاط المكوس جميعها التي
حدثت في أيام الفاطمية ، وكتب بذلك مساميح

بخط القاضي عبد الرحيم الفاضل صاحب ديوان
الانشاء ، وقرئت على المنابر في الجوامع بعد صلاة
الجمعة ، وكان قدر ما أبطله من المكوس في كل
سنة ما ينوف عن مائة ألف دينار . فلما قرئت تلك
المساميح ضج له الناس بالدعاء وأحبته الرعية
فكان كما قيل :

دولته للأنام عيسد
باق وأيامه مواسم
قد أظهر العدل في الرعايا
وأبطل الجور والمظالم
هذا الذي عنه أخبرتنا
طوالع النجوم والملاحم
يصير الشاة في حماه
تمشي مع الذئب والضيغم

قال ابن الأثير : « لما كانت سنة اثنتين وسبعين
 وخمسماية ، أمر الملك الناصر صلاح الدين بن
أيوب ببناء سور القاهرة بالحجر الفص المنحوت ،
وكان القائم على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش
الخصي الحبشي » . فأبطل السور القديم الذي
كان قد بناه الأمير جوهر القائد في أيام المعز
الفاطمي كما تقدم .

وكان جوهر القائد بنى السور أولا بالطوب
اللين في سنة إحدى وستين وثلثمائة عندما قدم
من القيروان ، وآثار السور القديم باقية عند
الباب المحروق الى الآن .

قال ابن الأثير ان دور السور الذي بناه صلاح
الدين يوسف تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثة
آلاف ذراع بالعمل ، وجعل عليه هذه الأبواب
المصنعة بالحديد . وكانت عدة أبواب القاهرة
خمسة عشر بابا غير ما في السور من الأبواب
الصغار ، وكان باب زويلة يسمى باب الفاضل ،

وانما باب زويلة القديم الذى فى الغرابلين عند
سام بن نوح وآثاره باقية الى الآن .

قال ابن الأثير ان صلاح الدين يوسف هو
الذى بنى قلعة الجبل وصارت دار المملكة ، وبطل
أمر قصر الزمرد الذى كان فى القاهرة مكان دار
الضرب . ولكن مات صلاح الدين ولم يتم بناء
قلعة الجبل وانما أتم بناءها الملك الكامل محمد
ابن أخى الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وهو
أول من سكن بقلعة الجبل من بنى أيوب .

ومن النكت اللطيفة أنه كان بدمشق خان يسمى
بخان ابن الزنجارى ، وكان يفعل فيه من أنواع
الفسوق مالا يوصف شرحه . فلما بلغ الملك الناصر
صلاح الدين يوسف أخبار ذلك الخان أمر بهدمه
فهدم وبنى مكانه جامعا وسماه جامع التوبة ، وولى
خطبته والامامة الى شخص يسمى العماد الواسطى
— وكان يتهم بشرب الراح وحب الملاح —
فكتب بعض اللطفاء قصيدة عن لسان حال هذا
الجامع ، ورفعها الى الملك الناصر صلاح الدين
يوسف ، وكان شرح هذه القصة فى هذه الآيات :

يا مليكا أوضح الحق لديننا وأبانه
جامع التوبة قد قلدى منه أمانه
قال : قل للملك لنا صر أبقى الله شأنه
يا صلاح الدين يا من حمد الناس زمانه
لى خطيب واسطى بعشق الشرب ديانه
ويجب المرد طبعنا ويعنى بالجمعانه
فانا فى كل حال لم أزل بالسكركخانه
فاستمع قصة حالى زادك الله صبيانه
فلما وقف صلاح الدين على هذه الآيات أمر
بعزل العماد الواسطى عن خطبة الجامع ، وولى
عليه شخصا من أهل الصلاح والخير .

قال المسبحى ان فى أيام صلاح الدين يوسف
نزل الفرنج على ثغر مدينة دمياط فخرج اليهم
صلاح الدين فى عساكر كثيرة من مصر ، وتوجه
الى دمياط ، فتقاتل مع الفرنج أشد القتال ،
وكانوا نحو مائتى مركب ، فأقام صلاح الدين
يحاصر الفرنج على دمياط نحو خمسة وخمسين
يوما فانكسر الفرنج وانهزموا نحو بلادهم مدبرين
واتنصر عليهم صلاح الدين .

فلما رحل الفرنج الى بلادهم توجه صلاح الدين
من هناك الى الشام فأقام بها مدة . قبل لما دخل
صلاح الدين الى دمشق نزل بالميدان الكبير فجاءت
اليه أرباب الملاعب من المصارعين والمتأقنين وغير
ذلك ، وكان فيما جاء اليه رجل أعجبنى فتكلم معه
بأن يريه أعجوبة فى صنعة الشعبة ، فأذن له فى
ذلك ، فنصب خيمة لطيفة فى الميدان بين يدى
السلطان صلاح الدين وأخرج من كنه كبة خيط
فربط طرف ذلك فى يده ، ثم حذف تلك الكبة
الخيطة فى الهواء ثم تعلق بها وصعد حتى غاب عن
الأبصار ، ثم سقطت بين الناس احدى رجليه
وصارت تزحف على الأرض حتى دخلت الى الخيمة ،
ثم سقطت احدى يديه ودخلت الى الخيمة ، ثم
سقطت اليد الأخرى ودخلت الى الخيمة . ولم
تزل أعضاؤه تتساقط عضوا بعد عضو حتى سقط
الرأس وصار يزحف على الأرض حتى دخل الخيمة
ثم بعد ساعة خرج ذلك الرجل وهو سوى كما
كان يمشى على أقدامه ، فقبل الأرض بين يدى
الملك الناصر ... فبهت الناس من ذلك ، ثم ان
الرجل دخل الخيمة ثانيا قدام الناس فقال رفيقه
للحاضرين : « ادخلوا الخيمة فتشسوا فيها » ..
فدخلوا الخيمة وفتشوا فيها فلم يجدوا فيها أحدا ،
ثم فكوا الخيمة ونصبوها فى مكان آخر فخرج
منها ذلك الرجل وهو يمشى على أقدامه كما دخل ،

فتعجب منه الناس ومن كان حول الملك الناصر من
الأمراء .

ثم ان الأمير سنقر الأخطاى حنق من ذلك
الرجل الذى صنع هذه الشعبة فقام اليه بالسيف
وضرب عنقه بين الناس ، وقال للملك الناصر ان
مثل هذا لا يؤمن أن يكون جاسوسا من عند أحد
من الفرنج ، ثم أراد الأمير سنقر أن يقتل رفيقه
فاستجار بالملك الناصر وزعم أنه لا يعرف شيئا مما
كان يعمل رفيقه ، فقال له الملك الناصر : « اخرج
من دمشق فى هذه الساعة ، ولا تقم بها فيقتلوك »
فخرج من وقته .

قال ابن كثير ان الملك الناصر صلاح الدين بن
أيوب هو أول من قرر الخدام الخصيان بمدينة
النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن بها أحد من
الخدام قبل ذلك ، وكان سبب تقريره للخدام أن
بنى حسن لما تغلبوا على الخلفاء الفاطمية ، وأظهروا
العصيان ، وصاروا يجهرون عند الأذان بقولهم :
« حى على خير العمل » ، وهو مذهب الشيعة ..
فلما تولى مصر الملك الناصر صلاح الدين يوسف
ابن أيوب استمال بنى حسن ، وأغدق عليهم الأموال
والهدايا حتى أذنوا له أن يجعل على المدينة الشريفة
جماعة من قبله ، فقرر بالمدينة الشريفة أربعة وعشرين
خادما خصيا ، وجعل عليهم شيخا من الخدام يقال
له بدر الدين الأمدى ، ووقف على مجارى المدينة
الشريفة بلدين من أعمال الصعيد — وهما نقادة
وقبالة ، وهما الى الآن جاريتان فى أوقاف
الحرمين — وكان شيخ الحرم النبوى اذا قدم من
المدينة على الملوك يقومون له ويجلسونه الى جانبهم
ويتبركون به لقرب عهده من تلك الأماكن الشريفة ..
واستمر الأمر على ذلك الى أيام الملك الأشرف
برسباى .

ومما أنشأه الملك الناصر صلاح الدين يوسف
بالديار المصرية من آثار الحير ، خاتمه سعيد
السعداء التى بالقرب من باب النصر وأنشأ
المدرسة السيوفية التى بالقرب من باب الزهومة ،
وأنشأ مارستانا كان عند دار الضرب القديم ،
وأنشأ المدرسة التى بجوار الامام الشافعى
— وكانت ساحة — وهو الذى أقام بمجد السادة
الشافعية وقدمهم على غيرهم من المذاهب ، وأنشأ
المدرسة الصلاحية التى بالقدس الشريف عندما
استخلص بيت المقدس من يد الفرنج ، وله غير
ذلك من الآثار الحصنة أشياء كثيرة بالديار المصرية
والبلاد الشامية ، واستخلص بلادا كثيرة كانت
تحت يد الفرنج من البلاد الاسلامية .

واستمر الملك الناصر صلاح الدين يوسف
قائما بأمور الديار المصرية حتى سافر الى البلاد
الشامية فى أواخر سنة ثمان وثمانين وخمسائة .
فلما دخل الى الشام أقام بها مدة يسيرة ومرض
ومات ، فكانت وفاته فى صفر سنة تسع وثمانين
وخمسائة . ومات وله من العمر احدى وسبعون
سنة .

ولما مات دفن بدمشق بمدرسة مجاهد الدين ،
وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية أربعاً وعشرين
سنة بما فيها من أيام محمود بن زنكى الشهيد .

ولما مات صلاح الدين يوسف خلف من الأولاد
سبعة عشر ولدا ذكرا من صلبه ، ولم يخلف فى
خزائنه لاذها ولا فضة ، ولم يخلف قرية ولا بستانا
ولا ملكا ولا ضيعة ، وأتقذ جميع ما فى الخزائن
على التجاريد والغزوات حتى فتح البلاد التى
كانت بيد الفرنج .

ولما مات تولى من بعده ابنه العزيز عثمان .

الملك العزيز بالله

هو الملك العزيز بالله ، عماد الدين أبو الفتح ، عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو الثاني من ملوك بني أيوب بمصر . بويح له بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بعهد من أبيه له . وكان أصغر اخوته ، وكان أخوه الأفضل أكبر منه . فلما توفي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق ولى ابنه الأفضل على دمشق ، وولى ابنه المظفر غازي على حلب ، وولى ابنه العزيز عثمان على مصر .

وكان مولد العزيز بمصر في جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسائة ، وولى ملك مصر وله من العمر نحو سبع وعشرين سنة . فلما مات أبوه صلاح الدين وقع الخلاف بين الاخوة ، ووثبوا على بعضهم ، ولم يقنع أحد منهم بما هو فيه فحصل بينهم من الفتن والحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر .

فلما تولى الملك العزيز على مصر وأتى من دمشق وجلس على سرير الملك لم يش على طريقة والده الملك الناصر صلاح الدين ، وسار مع الناس في مصر أقبح سيرة ، وقد أخطأت فيه فإساسة أبيه الناصر بما كان يرجوه فيه فكان كما قيل في المعنى :

أملتهم ثم تأملتهم

فلاح لى أن ليس فهم فلاح

مطل وقوفى بفنا ربهم

بغير نفع فالرواح الرواح

فأعاد المكوس التى كان أبطلها أبوه صلاح الدين ، وزاد في شناعتها ، وتجاهر بالمعاصى والمنكرات حتى غلا سعر العنب في أيامه لكثرة من يعصره ، وحملت أوانى الخمر جهارا من غير انكار

وحملت بيوت المزاراة وأماكن الحشيش ، وأباح ذلك أرباب الأمر والنهى ، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة حتى صار يأخذ من أرباب هذه الجهات في كل يوم ستة عشر دينارا حماية للسلطان ، فلم يقدر أحد أن يعارض أماكن الفسوق في أيامه فيما يفعلون ، وصارت طاحون الحشيش عمالة في كل يوم في حارة المصامدة ، وكذلك بيوت المزاراة في الكباش في مكان يقال له الغور .

قال القاضى الفاضل ان في أيام الملك العزيز هذا وقع غلاء بسبب توقف النيل ، وتشحطت الغلال في وقت ميسورها والقمح في الجرون ، واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق .

ومن الحوادث في أيامه أن دارا كانت في فم السد تعرف بدار ابن مقشر ، وكان يحصل في أجرتها في اليوم والليلة ما لا يتحصل من أجره مثلها في مدة سنة كاملة ، وذلك بسبب الفرجة يوم فتح السد اذا أوفى النيل . فلما أن كانت سنة احدى وتسعين وخمسائة أوفى النيل على جرى عادته فأكرت الناس تلك الأماكن التى في دار ابن مقشر بسبب الفرجة حتى ما بقى فيها ما يسع قدم انسان . فبينما الناس محتبكة بها للفرجة اذ سقطت تلك الدار على من فيها من الناس فماتوا جميعا ، وكان بها ما ينوف عن خمسمائة نفس من ساء ورجال وصغار وكبار ، فأقاموا يستخرجون من فيها من الأموات ثلاثة أيام ، فوجدوا بها شخصا يعرف بأبى البقا وفيه بعض نفس ، فطلع من تحت الردم وقد كاد أن يفارق الدنيا . فلما شم الهواء عوفى وعاش بعد ذلك مدة طويلة ، ثم طلع الى سطح داره في بعض الأيام ونزل وهو مستعجل فزلت رجله من ثلاث درج من سلم السطح فمات من وقته وساعته .

قال ابن المتوج : « جاء رجل من بلاد العجم الى القاهرة فأوحى الى الملك عثمان بأن الهرم الصغير الذى فى الجيزة — وهو المكسو بالحجر الصوان — تحته مطلب ، فوجه اليه الملك العزيز جماعة من الحجارين ليهدموه ، فأقاموا فى هدمه نحو شهر ولم يهدموا منه الا اليسير ، فأنفق على هدمه فى هذه المدة مالا جزيلا ، فلما أعياء ذلك تركه . وآثار ذلك النقب فيه الى الآن ، وقد نزعوا عنه بعض الحجارة الصوان .

سنة خمس وتسعين وخمسمائة (١١٩٨ م) :

ففيها خرج الملك العزيز الى نحو الفيوم يتصيد على سبيل الفرجة ، فلاح له ظبي فساق خلفه فكبا به الفرس فدخل قربوس السرج فى صدره فمات من وقته ، فحمل الى القاهرة ودفن عند الامام الشافعى رضى الله عنه .

وكانت وفاته فى يوم الخميس العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، فكانت مدة سلطنته فى الديار المصرية نحو سبع سنين وأشهر . ولما مات تولى من بعده ابنه محمد .

الملك المنصور

هو الملك المنصور محمد ، بن الملك العزيز عثمان ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، بن أيوب ، وهو الثالث من ملوك بنى أيوب . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه العزيز فى العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وكان له من العمر لما تولى السلطنة نحو عشرين سنة . وكان القائم بأمور دولته الأمير بهاء الدين قراقوش — وهو صاحب الحارة المنسوبة اليه — فساس الرعية فى أيامه أحسن سياسة وأحبته الرعية ، ودعوا له بطول البقاء .

وفى أيامه توفى القاضى عبد الرحيم الفاضل صاحب ديوان الانشاء ، وهو أول من أظهر التورية فى الشعر . قال الأسعد بن مماتى : « كان القاضى الفاضل دميم الخلقة ، وكان له حدة ظاهرة خلف ظهره ، وكان يسترها بالطيلسان حتى لا تظهر للناس » . وقد هجاه ابن عنين الشاعر بسبب حديثه بهذه الأبيات :

حاشا لعبد الرحيم سيدنا ال
فاضل ماذا تقوله السفلى

يكذب من قال ان حديثه
فى ظهره من عبيده جبل

هذا قياس فى غير سيدنا
يصح أن كان يحبل الرجل

ومن النكت اللطيفة قول الأسعد بن مماتى : دخلت يوما على القاضى الفاضل ، فرأيت الى جانبه أترجة بديعة الخلقة ، فجعلت أنظر الى تلك الأترجة فقال لى الفاضل : أراك تطيل النظر الى هذه الأترجة . فقلت : أتعجب من شكلها وبديع خلقتها . فقال لى الفاضل : ولها نسبة أيضا فيما بها من الاحتداب . فقلت : الله الله يا مولانا .

ثم الى ارتحلت بيتين من الشعر وهما هذان :

للحسن ، بل لله ، أترجة
قد أذكرتنا بجنان النعيم

كانها قد جمعت نفسها
من هيئة الفاضل عبد الرحيم

فلما سمع ذلك أعجبه وزال ما عنده مما كان قد توهمه منى .

قال الأسعد بن مماتى : ثم انى ذكرت هذه الواقعة لبعض أصحابى ، فقال لى : احمد الله اذ أنشدته ذلك من لفظك ولم تكتبهما له ... فربما

حُفَّت عليه في اللفظ فيقرؤها « من هيثة »
نزل عبد الرحيم ... فيزداد حنقا من ذلك .

واستمر الملك المنصور في السلطنة مدة يسيرة ،
بت عليه أعمامه من أجل السلطنة ، وجرى بينهم
الحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر .

وآخر الأمر خلع الملك المنصور من السلطنة ،
جن بقلعة الجبل واستمر مسجوناً إلى أن مات
لسجن ، فكانت مدة سلطنته بمصر تسعة أشهر
ما .

يلما خلع الملك المنصور تولى من بعده عم أبيه
ير أبو بكر بن أيوب .

الملك العادل

هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، بن الأمير
م الدين أيوب بن شادى ، وهو الرابع من ملوك
، أيوب بمصر . بويج بالسلطنة بعد خلع ابن ابن
يه المنصور محمد في شوال سنة خمس وتسعين
عسمائة . وكان العادل هذا في أيام أخيه الناصر
لاح الدين يوسف قد استولى على عدة من بلاد
رق . وكان العادل هذا مسعوداً في جميع
كاته ، يحب الغزو في سبيل الله ، خفيف
كائب ، صورا على الجهاد . وكان مولده بمدينة
بك في سنة أربع وستين وخمسمائة . وكان أصغر
أخيه صلاح الدين يوسف . فلما تولى السلطنة
صر مشى على نظام الملوك القديمة في الحرمة
إفرة ونفاذ الكلمة . قيل انه كان يشتى بمصر
صيف بالشام . وكانت مملكة مصر والشام في
مه مضبوطة لا يختل شيء من نظامها . واستمر
أمر على ذلك ...

سنة سبع وتسعين وخمسمائة (١٢٠٠ م) :
فيها توقف النيل عن الزيادة قبل الوفاء ، وثبت

على اثني عشر ذراعاً وأصبع واحد ، ثم هبط ولم
يزد بعد ذلك شيئاً من الأصابع فاضطربت أحوال
الديار المصرية ، وأكلت الناس بعضها بعضاً .
واستمر النيل على ذلك ثلاث سنين متوالية ، ولم
يزد غير عشرة أذرع ثم هبط ، فوقع القحط بالديار
المصرية وعدمت الأقوات في سائر أعمال مصر ،
فصار الناس من شدة الجوع يأكلون القحط
والكلاب والحمير والبغال والخيول والجمال حتى
ما بقى بمصر دابة ، فصار الناس إذا قوى أحدهم
على صاحبه يذبحه بيده ويأكله ، وصار الرجل
يذبح ابن جاره ويأكله ولا ينكر ذلك عليه ،
ويذبح ولده بيده ويأكله من شدة الجوع ... وهذا
كله بعد أن فرغت الكلاب والقحط والوحوش
والطيور . وقد تنهى سعر القمح في السنة الثالثة
إلى مائة دينار كل أردب ... ولا يوجد .

ثم جاء عقيب ذلك فناء عظيم حتى مات من أهل
مصر نحو الثلثين .

قال أبو شامة المؤرخ ان الملك العادل أبا بكر
ابن أيوب كفن من ماله في مدة يسيرة ممن مات من
الغرباء نحو مائتين وعشرين ألف إنسان ، غير من
مات من أهل المدينة فلم يحص لهم عدد حتى قيل
كان النيل إذا طلع لم يجد من يزرع الأراضي ،
فكانت الترك تخرج بنفسها يحرثون ويزرعون
بأيديهم ، ويبدرون في الأرض الغلال لعدم وجود
الفلاحين .

وقيل فقد من الأطباء في تلك السنة جماعة
كثيرة ... يدعونهم إلى المريض فإذا حصلوا عندهم
في الدار يذبحونهم ويأكلونهم . وكذلك النساء
العواسل ... يدعونهن إلى الأموات فيذبحنهن
ويأكلونهن ، حتى قيل ان رجلاً استدعى بطبيب فلما
مضى معه الطبيب جعل ذلك الرجل يكثر من ذكر
الله تعالى بطول الطريق ، فسكن روع ذلك الطبيب

شاه أرمن هذا بديع الحسن والجمال ، وهو
مدوح القاضى كمال الدين بن النبيه فى جميع
قصائده حيث يقول من قصيدة :

يا طالب الرزق ان سدت مذهب
قل يا أبا الفتح يا موسى وقد فتحت
وقال فى ختم زجل :

والشفق أحمر وأصفر رايات شاه أرمن
ذا ملك بحال جمالو ما خلق وليس يخلق
وفى أيام العادل أبى بكر توفى مؤيد الدين -
صاحب لامية العجم - الطغرائى . وكان شاعرا
ماهرا ، وله شعر جيد . وكان كاتب الملك مسعود
صاحب حماه . فلما كانت الواقعة بين الملك مسعود
وبين أخيه الملك محمود شاه ، انكسر الملك مسعود
وولى هاربا ، فكان أول من أسر من جماعة الملك
مسعود مؤيد الدين الطغرائى . فلما مثل بين يدى
الملك محمود شاه - وكان بينه وبين الطغرائى
عداوة بسبب مملوكه فريد الحسن - أمر بقتل
الطرغرائى على يد ذلك المملوك الذى كان يهواه ،
فرمى عليه بالنشاب فقتله . وقيل عفا عنه ومات
الطرغرائى عقيب ذلك من الرجفة .

الملك الكامل

هو الملك الكامل ، ناصر الدين محمد ، بن الملك
العادل أبى بكر بن أيوب ، وهو الخامس من ملوك
بنى أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه
العادل فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة سنة
خمس عشرة وستمائة . وكان الملك الكامل أكبر
إخوته .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه ان
الملك الكامل استولى على الديار المصرية نحو من
أربعين سنة ، نصفها فى حياة أبيه الملك العادل ،

بعد ما كان على وجل ، فلما وصلا الى الدار فاذا
هى دار خربة ، فارتاع ذلك الطبيب فخرج اليه
رجل من الخربة وقال للرجل الذى جاء بالطبيب :
« وهل مع هذا البطء العظيم جئت الينا
بصيد ؟ » ... فلما سمع الطبيب ذلك ولى هاربا ،
وما خلس الا بعد جهد عظيم .

واستمر الأمر على ذلك مدة ثم سكن الحال ،
وتراجع الأمر قليلا قليلا ، وظهرت الغلال ، وانحط
سعر القمح حتى صار مرميا لا يجد من يشتريه ،
وتراجع سعر كل شئ ، وانصلح الوقت وطاب ،
ورجع الماء الى مجاريه فكان كما قيل فى المعنى :

إذا ما رماك الدهر يوما بنكبة
فهيمى لها صبرا وأوسع لها صدرا
فان تصاريف الزمان كثيرة
فيوما ترى عسرا ويوما ترى يسرا

ثم ان الملك العادل استمر فى السلطنة بمصر حتى
خرج الى نحو الشام لتفقد الأحوال ، فمرض هناك
ومات ودفن بدمشق ، فكانت وفاته فى جمادى
الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ، وكانت مدة
سلطنته بمصر ثمانى عشرة سنة وتسعة أشهر .

وكان العادل هذا رجلا طويلا جسيما ، مدور
الوجه ، شرها فى الأكل ، يأكل الخروف وحده .
وكان يحب من يأكل معه مثل أكله .

ولما مات الملك العادل خلف من الأولاد ثلاثة ،
وهم :

الملك محمد الكامل ، فاستمر بعد أبيه العادل
على مملكة الديار المصرية .

وابنه الملك المعظم عيسى ، فاستقر بعد أبيه
العادل على مملكة البلاد الشامية .

وابنة الملك الأشرف موسى شاه أرمن ، فاستقر
بعد أبيه على مملكة البلاد الخلية . وكان موسى

ونصفها مستقل بها بمفرده . وكان كثير الغزوات ،
ويحب الجهاد ، وفتح في أيامه فتوحات كثيرة من
البلاد الشامية والمصرية .

وكان الملك الكامل يكثر من الإقامة في العباسية ،
ويقول : « هذه أحسن من مصر ، فاني اذا أقمت
بها أصطاد الطير من السماء ، والسماك من الماء ،
والوحش من الفضاء ، ويصل الى خبر القاهرة في
يومه مع النجباء في كل يوم مرتين » . وكان من
حبسه للعباسية أنشأ بها البساتين والمنابر برسم
الحرم والسراري .

وفي أيامه توفي الشيخ الصالح أبو الحسن
الدينوري ، وكان من كبار العلماء الأولياء ، وله
كرامات خارقة ، ودفن بالقرب من الحبل المقطم ،
وكانت وفاته في ذي القعدة سنة ست عشرة
وسمائة .

ومن الحوادث في أيامه أن شخصا مغربيا دخل
الى الديار المصرية ، وكان من علماء فن السبيا ،
فأظهر لشخص من الأعيان بستانا خارج القاهرة من
أحسن ما يكون ، كثير الأشجار من أصناف الفواكه
المثمرة ، وفيه خمس سواق دائرة ، وعدة تيران
واقفة برسم السواقى ، وحوله واقفة من حول هذا
البستان . فلما رآه ذلك الرجل أعجبه فاشتراه من
المغربي بألف دينار وقبضه الثمن ، وأشهد عليه
المغربي بتسليم ذلك البستان بقاض وشهود ... ثم
مضى ذلك المغربي الى حال سبيله وبات ذلك الرجل
في البستان الذي اشتراه ، فلما أصبح وجد نفسه
بين الكيمان ولم ير شيئا من ذلك البستان الذي
باعه له المغربي ، فصار يسأل من الناس : « هل
كان قبل ذلك اليوم هنا بستان ؟ » . فيقولون :
« ما سمعنا بهذا قط » . فصار الرجل متعجبا من
ذلك ، وشاع أمره بين الناس فلما بلغ الملك
الكامل ذلك طلب المغربي فلم يجده وأخذ الألف

دينار ومضى الى حال سبيله . وهذه الواقعة من
الغرائب .

وقال بعض المؤرخين ان ملوك اليمن أهدت الى
الملك الكامل محمد شمعدانا من نحاس يخرج منه
عند طلوع الفجر شخص من نحاس لطيف الحافة
يخاطب الملك قائلا : « صبحك الله بالخير ... قد
طلع الفجر » ، أو صغير هذا معناه . وكان هذا
الشمعدان من صنعة الميقاتية ، فأقام في حواصل
الملوك الى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون
ثم فقد .

وفي أيام الملك الكامل هذا توفي الشيخ زكى
الدين العوضى ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد .
وكان سبب موته — كما قيل — أنه كان في خدمة
الملك المظفر محمود صاحب حماه ، وكان قبل أن
يلى حماه وعد الشيخ زكى الدين العوضى أنه اذا
تولى حماه يعطى الشيخ زكى الدين ألف دينار .
فلما تولى حماه كتب اليه الشيخ زكى الدين هذه
الآيات :

مولاي هذا الملك قد نلت

برغم مخلوق من الخالق

والدهر منقاد لما شئت

فدا أوان المود الصادق

فعند ذلك دفع اليه الملك المظفر الألف دينار
التي وعده بها ثم ان الملك المظفر صار يرسل
الشيخ زكى الدين في الأسفار الى بعض أشغاله
فصرف الألف دينار على الأسفار ولم يبق منها
شيء ، فبلغ الملك المظفر أن الشيخ زكى الدين قال
في معنى ذلك شعرا :

ان الذى أعطوه لى جملة

قد استردوه قليلا قليل

فليت لهم يعطوا ولم يأخذوا

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فلما بلغ الملك المظفر ذلك أمر بحبسه ، فحبس ، فبلغه عنه أنه قال وهو في السجن هذا البيت من قصيدة :

أعطيتني الألف تعظيماً ومكرمة
يا ليت شعري ! أم أعطيتني ديتي ؟
فلما بلغ الملك المظفر ذلك أمر بخنقه ، فخنق
وهو في السجن ، ودفن تحت الليل .

سنة ثمان عشرة وستمائة (١٢٢١ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن الفرنج جاءوا الى ثغر دمياط في مائتي مركب ، واستولوا على مدينة دمياط وملكوها . فعند ذلك اضطربت أحوال الديار المصرية ، ونادى الملك الكامل في القاهرة بأن النفير عام ... فاجتمع من العساكر نحو عشرين ألف مقاتل ، فعند ذلك خرج الملك الكامل من القاهرة ومعه تلك العساكر فتوجه الى دمياط ، ونزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم ، واجتمع هناك السواد الأعظم من الخلائق ، وصار الملك يحاصر الفرنج في دمياط ، وقد حصن الفرنج سور دمياط ، وجعلوا الجامع الكبير كنيسة . فلما دام الحصار بينهم وقع الغلاء بين عسكر السلطان الكامل حتى عدت الأقوات وبلغ الرغيف الخبز ثقله فضة ، وبيعت بيضة الدجاجة بدينار ، وصار السكر في مقام الياقوت الأحمر ... فكانت الخيول والبهائم تأكل من أوراق الشجر في مدة هذه المحاصرة . وكانت المحاصرة في ثغر دمياط ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما . وقد أسرف الافرنج في القتل والنهب والأسر .

وسير الملك الكامل السعاة الى سائر البلاد يستحث الناس الى الحضور لأجل دفع الفرنج عن الديار المصرية . قيل كان في مدة هذه المحاصرة يمشي في ركاب الملك الكامل شخص يسمى شمائل — وكان من جملة الجندارية — فكان يسيح في البحر تحت الليل ، ويأتى الملك الكامل بأخبار

الفرنج ، فحظى بذلك عند الملك الكامل . فلما انتصر على الافرنج ولى شمائل المذكور القاهرة ، وصار مقربا عنده ، واليه تنسب خزانة شمائل ، وهي عبارة عن سجن يحبس فيه أصحاب الجرائم . ولما طال حصار الملك الكامل على دمياط أنشأ هناك قرية وسماها « المنصورة » ، وبنى بها الأسواق والفنادق والحمامات ، ولا زالت تتزايد في العماره الى الآن .

ثم ان الملك المظفر محمود — صاحب حماه — حضر في عسكر كثيف عند الملك الكامل ليعاونه به على دفع العدو ، فاجتمع هناك من العساكر نحو أربعين ألف مقاتل ، فجرت بينهم من القتال ما يطول شرحه عن هذا المختصر ، فلما طال الأمر على الافرنج أيقنوا بالهلاك ، وأرسلوا يطلبون من الملك الكامل الأمان على أنهم يتركون دمياط ويرحلون عنها الى بلادهم ، فاتفق الحال على أن كلا من الفريقين يعطى رهائن من أقاربه ، وعلى أن كلا من المسلمين يطلق من عنده من الأسارى ، وعلى أن الافرنج يطلقون من عندهم من الأسرى من أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ... فحلف الملك الكامل والافرنج على ذلك ، ووقع الصلح على ذلك . فأرسل ملك الافرنج عشرين ملكا من عنده رهنا الى الملك الكامل ، وأرسل الملك ابنه الأمير نجم الدين مع جماعة من الأمراء الى ملك الافرنج . فعند ذلك سلم الافرنج مدينة دمياط الى المسلمين ، وأطلقوا من كان عندهم من الأسرى من أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف . وكذلك أطلق الملك الكامل من كان عنده من الافرنج الأسرى .

قيل لما سلم الفرنج مدينة دمياط الى المسلمين ، جاء عقيب ذلك الى الافرنج نجدة من البحر نحو مائتي مركب . وكان من جميل صنع الله تأخيرها الى حين تسلم المسلمون دمياط ، لأنها لو جاءت

قبل ذلك لتقفوا بها على المسلمين ، وأبوا عن الصلح . فلما تسلم الملك الكامل مدينة دمياط كان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً لم يسمع بمثله ، وعمت البشائر سائر الآفاق . وكانت مدة استيلاء الفرنج على ثغر دمياط سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً ، والملك الكامل معهم في جهاد ليلاً ونهاراً ، لا يكل من الحروب في هذه المدة . وكانت هذه النصر في سنة تسع عشرة وستمائة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي ان في مدة المحاصرة حضر الى الملك الكامل أخواه — وهما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الأشرف موسى شاه أرمن صاحب حلب وماردين — فلما حصلت هذه النصر حضر الملك أخويه واجتمعوا في القصر الذي أنشأه الملك الكامل في المنصورة ، وكان مبتدأ عمارة المنصورة في سنة عشرين وستمائة ، فلما اجتمعوا في القصر أحضروا مسفرة الشراب بعد أن مد لهم معاط عظيم هناك . فلما جلسوا الى المنسادة بعد ما قاسوا من الافرنج أهوالاً عظيمة كما قيل في المعنى :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر
أحضر الملك الأشرف موسى جارية تغنى على عود ، فحركت العود وأنشدت تقول :

ولما طغى فرعون عكا بسحره

وجاء ليسعى بالفساد الى الأرض

أتى نحوه موسى وفي يده العصا

فأفرقهم في اليم بعضاً على بعض

فطرب الملك الأشرف موسى لذلك فشق على أخيه الملك الكامل محمد هذا المعنى ، وأسرها في نفسه ، ثم انه أرسل خلف الراجح الحلبي الشاعر وأمره بأن يجيب عن ذلك المعنى بشيء — والراجح الحلبي هذا أقدم من الصفي الحلبي — وقد قال ابن نباتة في معنى ذلك هذين البيتين :

يا سائل عن رتبة الحلبي في
نظم القريض رواضيا بي أحكم
للشعر حليان ذلك راجح
ذهب الزمان به ، وهذا قيم
ثم ان الراجح الحلبي نظم هذين البيتين ودفعهما الى الملك الكامل ، فأمر الملك الكامل بإحضار جارية تضرب بالعود ، فحضرت في اليوم الثاني وأخذت العود وغنت عليه بهذه الأبيات :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا

لما قد جرى في عصرنا وتجددا

ألا ان موسى قد أتانا وقومه

وعيسى جميعا ينصرون محمدا

فلما سمع الملك ذلك طرب له ، وأمر لكل جارية بخسمائة دينار ، وأجاز الراجح الحلبي بجائزة سنية .

ثم ان الملك الكامل دخل الى القاهرة في موكب عظيم ومعه أخواه الملك الأشرف موسى والملك المعظم عيسى ، فأقاموا في القاهرة مدة يسيرة وتوجها الى بلادهما .

ثم ان الملك الكامل أخذ في أسباب بناء مدرسته الكاميلية التي بين القصرين ، وكانت تسمى دار الحديث . قيل لما أن حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك صنما كبيراً من ذهب ، فأمر الملك الكامل بأن يسبك ذلك الصنم وينفق على بناء هذه المدرسة ، فبنيت من وجه حل .

وهو الذي أنشأ هذه القبة العظيمة على ضريح الامام الشافعي رضى الله عنه ، وبنى المجرة من بركة الحبش الى تربة الامام الشافعي رضى الله عنه تجرى بالماء في أيام النيل وهي باقية الى الآن . وبنى الحوض على الطريق السالكة عند تربة الامام الشافعي رضى الله عنه . ولما ماتت أم الكامل دفنت عند الامام الشافعي داخل القبة .

وتوفى في أيامه القاضى كمال الدين ابن النبيه ،
وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، وهو الذى مدح
بنى أيوب بقوله من قصيدة :

دمتم بنى أيوب فى نعمة

تجوز فى التخليد حد الزمان

والله لا زلتم ملوك الورى

شرقا وغربا وعلى الضمان

وكان الملك الكامل سعيد الحركات فى أفعاله ،
كثير الجهاد والغزوات والفتوحات .

وفى سنة اثنتين وثلاثين ومستمائة فى ثمانى جمادى
الأولى توفى الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض
رحمة الله عليه ، ودفن بالقرافة الصغرى تحت
العارض بالجبل المقطم . وكان مولده بالقاهرة
فى رابع ذى القعدة سنة سبع وسبعين وخمسائة ،
فكانت مدة حياته أربعاً وخمسين سنة وستة أشهر
وأياماً . ولما مات دفن تحت رجلي شيخه الشيخ محمد
البقال رحمة الله عليه ، وكان أصله من حماة ، وإنما
سمى بابن الفارض لأن والده الشيخ شمس الدين
كان من كبار أهل العلم ، وقد انفراد فى علم
الفرائض ، فسمى لذلك الفارض . وكان الشيخ
شرف الدين عمر بن الفارض رضى الله عنه فريد
عصره فى علم التصوف ، وكان له نظم فائق فى معانى
الغراميات لم يسبق اليه . وقد عاصر من العلماء
الشيخ أبا القاسم المنفلوطى ، والشيخ صفى الدين
ابن أبى المنصور ، والشيخ شمس الدين الأيكل
شيخ خانقاه سعيد السعداء ، والشيخ سعد
الدين الحارثى الحنبلى المحدث ، والقاضى أمين
الدين بن الرقاقى ، والشيخ شهاب الدين السهروردى
الأسيوطى ، والشيخ برهان الدين الجعبرى ،
والقاضى شمس الدين بن خلكان ، والشيخ شهاب
الدين بن الخيى ، وكان له نظم لطيف ، وكان

يطارح به ابن الفارض — والشيخ نجم الدين بن
اسرائيل ... وغير ذلك جماعة كثيرة من العلماء
والصوفية ، ولم ينكر عليه أحد منهم فى حالاته
ولا نظمه ، وكانوا معه فى غاية الأدب .

ومما وقع للشيخ شرف الدين عمر بن الفارض
أنه كان مقيماً بجامع الأزهر ، فأراد يوماً أن يتوجه
الى جامع عمرو بن العاص الذى فى مصر العتيقة ،
فأحضروا الى الشيخ مكاريا ليركبه الى جامع
عمرو ، فقال أصحاب الشيخ للمكارى : « كم لك
من هنا الى جامع عمرو ؟ » . فقال المكارى :
« خلوا الشيخ يركب معى على الفتوح » . فقال
الشيخ : « نعم نركب معك على الفتوح » . فركب
معه الشيخ وتوجه الى جامع عمرو . فلما كان فى
أثناء الطريق لقي الشيخ بعض أعيان الناس فترجل
له عن فرسه فسلم عليه ثم أرسل الى الشيخ مائة
دينار مع غلامه ، فقال الشيخ : « ادفعوا هذه المائة
الى المكارى ، فانا ركبنا معه على الفتوح » .
فدفعوا المائة دينار الى المكارى ، فبعث اليه بمائة
دينار أخرى غير المائة الاولى ، فقال الشيخ :
« ادفعوها الى المكارى ، فانا ركبنا معه على
الفتوح » . فلما وصل الشيخ الى جامع عمرو
نزل عن الحمار وصار يعتذر الى المكارى فى
التقصير ، وقال : « لو دخل إلينا أكثر من ذلك
لدفعناه إليك » .

ثم ان الملك الكامل قصد التوجه الى دمشق
لتفقد الأحوال ، فخرج من القاهرة وتوجه الى
دمشق ، فلما دخلها أقام بها مدة ثم مرض ومات
هناك ودفن بدمشق . وكانت وفاته فى العشرين
من رجب سنة خمس وثلاثين ومستمائة ، فكانت مدة
سلطنته بمصر نحو من عشرين سنة .

ولما مات تولى من بعده ابنه العادل أبو بكر .

الملك العادل

هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، بن الملك الكامل محمد ، بن الملك العادل أبي بكر ، بن نجم الدين أيوب ، وهو السادس من ملوك بني أيوب بمصر . بويج بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الكامل محمد . تولى الملك في سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وكان سبب سلطنته أنه لما توفي أبوه الملك الكامل بدمشق ، كان العادل أبو بكر هذا نائبا عن أبيه بمصر لما أن توجه الى دمشق . فلما توفي هناك الملك الكامل ، وجاءت الأخبار بموته الى القاهرة ، اتفق رأى الأمراء الذين كانوا بمصر على أن يسلطنوا الأمير أبا بكر بن الملك الكامل عوضا عن أبيه ، فسلطنوه ولقبوه بالملك العادل على اسم جده الملك العادل أبي بكر . فلما بلغ أخاه نجم الدين ، وكان نائبا بحلب ، أن أخاه تسلطن بمصر — وكان العادل أصغر من أخيه نجم الدين — شق ذلك على نجم الدين وحضر من حلب الى الديار المصرية في أسرع مدة . فلما دخل الى مصر وثب على أخيه الملك العادل وحاربه وجرى بينهما من الحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر . وصار العسكر معهم فريقين : مع كل أخ فريق .

ودام الأمر على ذلك ثم قويت شوكة الأمير نجم الدين على أخيه العادل فخلعه من السلطنة وسجنه بقلعة الجبل الى أن مات ، كما سيأتى ذلك في موضعه ، فكانت مدة ولايته على مصر سنة وشهرين وأياما . ولما خلع تولى من بعده أخوه نجم الدين .

الملك الصالح

هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بن الملك الكامل محمد ، بن الملك العادل أبي بكر ، بن نجم الدين بن أيوب ، وهو السابع من ملوك بني أيوب بمصر . بويج بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك العادل أبي بكر في يوم الاثنين خامس عشر ذى القعدة سنة ست وثلاثين وستمائة ، وتولى الملك وله من العمر نحو أربع وثلاثين سنة . وكان مولده في سنة ثلاث وستمائة بمصر في قلعة انجيل . فلما تم أمره في السلطنة وأطاعه الجند أخذ في أسباب تدبير ملكه ، واستكثر من مشترى الممالك حتى ضاقت بهم القاهرة ، وصاروا يشوشون على الناس وينهبون البضائع من الدكاكين ، فضج منهم الناس . وفي ذلك قال بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من
ترك بدولته ... يا شر مجلوب 1

قد أخذ الله أيوبا بفعلته
فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب

فلما بلغ الملك الصالح ذلك بنى لهم قلعة في الروضة بالقرب من المقياس ، وأسكنهم بها وسماهم الممالك البحرية . وجعل حول تلك القلعة شوانى حربية مشحونة بالسلاح معدة لقتال الفرنج اذا طرقت البلاد فتكون هذه الممالك على أهبة ، فينزلون في الحال في الشوانى ويتوجهون الى قتال الفرنج ، وكان عدتهم ألف مملوك قاطنين بالقلعة لا يخالطون الناس بالمدينة ، ولهم الرواتب والجوامك عمالة بسبب ذلك . وآثار هذه القلعة باقية في الروضة الى الآن .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي ان طائفة من هذه الممالك خرجوا من القاهرة هاربين من السلطان

في سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، فتوجهوا الى نحو التيه ، فتاهوا به نحو خمسة أيام ، فلاح لهم في اليوم السادس سواد فقصده فاذا هو مدينة عظيمة ولها سور ولها أبواب وهي مبنية بالرخام الأخضر ، فدخلوا اليها وطافوا بها ، فوجدوا بها أسواقا ودورا ، ووجدوا فيها صهاريج فيها ماء أحلى من العسل وأبرد من الثلج — فشربوا منه ، ووجدوا في بعض الدكاكين التي في أسواقها دنانير من الذهب وعليها كتابة بالقلم القديم ، فأخذوا تلك الدنانير وخرجوا من المدينة فساروا ليلة كاملة ، فلما أصبحوا وجدوا طائفة من العرب هناك فحملوهم الى مدينة الكرك فأخرجوا تلك الدنانير التي معهم الى بعض الصيارفة فاذا عليها مكتوب اسم موسى عليه السلام . وقيل ان هذه المدينة بنيت في زمن موسى وكان يقال لها المدينة الخضراء من مدائن بنى اسرائيل ، وقد طمست بالرمال ، فتارة تنقص عنها الرمال فتظهر ، وتارة تظمها ... فلاحت الى هؤلاء المماليك وقت تنافس الرمل عنها .

وفي سنة أربع وأربعين وستمائة أنشأ الملك الصالح نجم الدين مدينة على أطراف الرمل وسماها الصالحية ، وأنشأ بها الأسواق والفنادق والمساجد ، فتزايدت في العمارة وصارت مدينة على انفرادها .

وهو الذي أنشأ المدرستين تجاه باب الصاغة ، وهي : النجمية ، والصالحية قلعة العلماء .

ومن الوقائع في أيامه أن الأمير شهاب الدين بن يعمور والى القاهرة أمر بشنق عشرين رجلا كانوا يقطعون الطريق على الناس ويقتلون من يظفرون به ، فلما شنقهم أمر الخفراء بحفظهم ، فلما جاء الليل عدهم الخفراء فاذا هم تسعة عشر مشنوقا ... فخاف الخفراء من الأمير شهاب الدين أن يسألهم

عنه ، ففعدوا على الطريق ينتظرون من يمر بهم فيشتقونه عوضا عن ذلك الرجل ، واذا بشخص قد مر بهم فقاموا اليه وأمسكوه وشنقوه مع جملة المشائيق . فلما لاح الصباح أتى الأمير شهاب الدين وعد المشائيق فاذا هم أحد وعشرون رجلا فقال للخفراء : « ومن هذا الرجل الزائد الذي معهم ؟ » . فبهتوا ... فقال لهم : « ما شأنكم ؟ » . فقالوا : « يا أيها الأمير ، قد عددناهم في الليل فرأيناهم ناقصين واحدا ، فمر بنا في الليل هذا الرجل فأمسكناه وشنقناه معهم » . فقال لهم الأمير شهاب الدين : « أروني هذا الرجل المسكين الذي وقع لكم » . فلما رآه وجده شخصا قاطع طريق وله مدة وهو محث في طلبه ولا يقدر على تحصيله . فلما رآه سر به وتعجب من هذه الواقعة غاية العجب .

ثم ان الملك الصالح صفاء له الوقت ، وكثرت مماليكه ، وطالت أيامه في السبلطنة ... فعند ذلك تعرض لقتل أخيه الملك العادل أبي بكر الذي كان في السجن بقلعة الجبل فقتله في ثالث شوال سنة أربعين وستمائة ودفن عند الامام الشافعي رضى الله عنه . فلما قتل الملك الصالح أخاه العادل أقام بعد قتله أياما يسيرة ، ثم ابتلاه الله تعالى بأكلة طلعت له في وجهه فرعته الى آخره ، واستمر عليلًا وثقل المرض عليه .

سنة سبع وأربعين وستمائة (١٢٤٩ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن ريدا فرنسيس ، ملك الافرنج ، أتى الى ثغر دمياط في مائتي مركب مشحونة بالرجال ، غير من أتى في البر من المقاتلين . وكان ريدا فرنسيس هذا قد استولى على غالب بلاد الأندلس وسبى أهلها ، وقتل من المسلمين ما لا يحصى عددهم ، ونهب أموالهم .

(١) هو لويس التاسع ملك فرنسا .

وكانت طائفة هذه الافرنج غير الطائفة التي جاءت في أيام الملك الكامل محمد كما تقدم ذكر ذلك . فلما تحقق الملك الصالح ذلك أمر بأشهار النداء في مصر والقاهرة بأن النفير عام ، ولا يتأخر صغير ولا كبير ، فإن العدو قد استولى على البلاد ، ووصلت بوادره للمنصورة ... فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وماجت بأهلها .

ثم ان ملك الافرنج ريدا فرلسيس لما أحاط بثغر دمياط أرسل كتابا الى نائب دمياط يهدده فيه ويحذره ، وذكر له ما جرى على أهل الأندلس من القتل والسبي . فلما سمع أهل دمياط بذلك هربوا تحت الليل . فلما أصبح الافرنج وجدوا أبواب المدينة مفتحة وليس فيها أحد من الناس ، فظن الافرنج أن ذلك مكيدة من المسلمين ، فتمهلوا حتى ظهر لهم أن ما في المدينة أحد من المسلمين ، فدخلوا من غير مانع وملكوها .

فلما سمع الملك الصالح بذلك نادى في مصر والقاهرة بالرحيل ، فخرج الناس قاطبة وسائر الأمراء ، وخرج الملك الصالح في محفة ، فانه كان مريضا على غير استواء . فلما وصل الى نحو المنصورة نزل بها ، وأمر بجمع العربان من سائر النواحي ، فاجتمع من العالم ما لا يحصى .

ثم ان الملك الصالح أحضر نائب دمياط وشنقه وشنق معه نحو خمسين أميرا بسبب خروجهم من دمياط بغير إذن من السلطان ، فعز ذلك على الأمراء وقصدوا أن يقتلوا الملك الصالح هناك فأشار بعض الأمراء بعدم ذلك ، وقال هذا غير صواب ... فصار القتال بين المسلمين والافرنج : كل فرقة تقتل من الأخرى ، وأسر جماعة كثيرة . هذا والسلطان كل يوم يتزايد في المرض حتى أيست منه الأطباء .

فلما كانت ليلة الأحد رابع عشر شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة (١٢٤٩ م) توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد .

فلما مات الملك الصالح بالمنصورة كنتم موته خوفا من الافرنج أن يطمعوا في أخذ البلاد من أيدي المسلمين ، فحمل السلطان بعد أن مات في زورق تحت الليل وجرى به الى قلعة الروضة فدفن بها . وقيل نقل بعد ذلك الى مقام الامام الشافعي رضي الله عنه ودفن عند أقاربه داخل القبة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية نحو تسع سنين وسبعة أشهر وأحد عشر يوما .

ولم يشعر أحد من الناس بموته ، فكانت المراسيم تخرج كل يوم بعلامة السلطان فلا يشك من يراها انها يخط السلطان الصالح . وكانت الأمراء تجتمع في الموكب ويظهرون أن السلطان مريض ، وكانت الأطباء تدخل على جاري العادة في كل يوم ، وكان طبق المزاور يدخل في كل يوم ويخرج على جاري العادة ، والمراسيم في كل يوم رائحة من المنصورة الى القاهرة في الاشتغال ، ولم يعلم أحد بموت الصالح في القاهرة ... وكان القائم بتدبير هذه الأمور الأمير حسام الدين لاجين ، والأمير فارس الدين اقطاي في هذه المدة ، حتى حضر توران شاه ابن الملك الصالح .

وكان توران شاه في حصن كيفا ، فلما سلسل الملك الصالح في المرض أرسلوا خلف ابنه توران شاه من حصن كيفا ، فأبطأ عليهم حتى مات أبوه . فلما حضر الى المنصورة - وقد جاء في عسكر عظيم من الأكراد من عساكر حصن كيفا - أشيع موت الملك الصالح ، وتسلم ابنه توران شاه عوضه .

الملك المعظم توران شاه

هو الملك المعظم توران شاه ، بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بن الملك الكامل محمد ، وهو الثامن من ملوك بني أيوب بمصر . بوع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب في مستهل شهر المحرم الحرام سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وكانت ولاته بعد موت أبيه بأربعة أشهر . فلما بولى نودى باسمه في القاهرة وزينت له ودقت له الكؤوسات سبعة أيام ، وتلقب بالملك المعظم ، ونودى بين العساكر في الوطاق بالدعاء للسلطان الملك المعظم توران شاه والترحم على الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلبس توران شاه خلعة السلطنة بالمنصورة ، وقبل له الأمراء الأرض ، وخطب باسمه على المنابر .

فلما تحقق الافرنج موت الملك الصالح طمعوا في أخذ مصر وزحفوا الى فارسكور ، فاجتمع سائر الأمراء وتحالفوا على الجهاد في سبيل الله تعالى . فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) ركب الأمير بيبرس البندقدارى والأمير لاجين وغيرهما من الأمراء ، وخرج معهم السواد الأعظم من العوام والفلاحين وغير ذلك وفي أيديهم المقاليع والحجارة ، وهجم الممالك البحرية وفي أيديهم السيوف والدابيس والرماح ، ومنهم طائفة يرمون بالنشاب ، فحملوا على الافرنج حملة واحدة ... فكانت ساعة تشيب منها النواصي ، وقد تاب من هول ذلك اليوم العاصي ، فانكسر الافرنج أبخس كسرة ، وولوا

(١) في « حسن العاصفة » : ان توران شاه ملك مصر في ذي القعدة سنة ٦٤٧ ، وقتل في يوم الاثنين سابع عشر المحرم سنة ٦٤٨ هـ .

مدبرين ، والله تعالى ناصر الناصرين ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم

قال الشاعر :

لله در فوارس يوم الوغى
تهوى الحيطة لا اليهم تنتمى

ذرعوا الفوارس بالرماح ، وفصلوا
بالرهفات ، وخطوا بالأسهم

فبلغ عدة من استشهد في هذه الواقعة من أمراء السلطان سبعة وستين أميراً غير الممالك ، وقتل من العوام ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الافرنج على فارسكور ما يزيد على اثني عشر ألف انسان ، وأسر من ملوكهم سبعة ، وغنم منهم المسلمون من السلاح والقماش والخيول شيئا كثيرا لا يحصى ... حتى قيل بيع في عسكر السلطان كل سيف بنصفين فضة ، وكل فرس بعشرة أنصاف ، وكل درع بثمانية أنصاف .

وأما ملك الافرنج ريذا فرليسي ، وأكابر أمرائهم ، فانهم قد انحاشوا الى تل عال هناك ، وأرسلوا يسألون الأمان من السلطان ، فأرسل اليهم بعض الأمراء فقبض عليهم وفيدهم وسجنهم .

وأما ملك الافرنج فسجنه السلطان في دار القاضي فخر الدين بن لقمان كاتب السر — وكانت في المنصورة — ووكّل به طواشي يسمى صبيح الفاطمي فكان يضربه ليلا ونهارا ، ويقرره على الأموال . واستمر في السجن وهو مقيد هو وأخوه وأقاربه ، وقد قرر عليه السلطان مالا يورده ، فأرسل الى بلاده ليحضر الأموال التي قد قررت عليه .

فلما حصلت هذه النصرة أرسل السلطان الملك المعظم توران شاه بالبشارة الى القاهرة بأخذ مدينة دمياط ، وقد توجه بهذه البشارة الأمير شهاب الدين ابن يغمور والى القاهرة ، فدخلها وهو لابس لبس

ملك الافرنج : اشكر لاط مخمل احمر بفرو منجباب
وقلنسوة ذهب . فزينت له القاهرة ، وكان يوما
مشهودا لم يسمع بمثله ... بعد أن كان الافرنج
أشرفوا على أخذ الديار المصرية ، واستولوا على
غالب الضياع ، ونهبوا ما فيها ، وأسرؤا أهلها .

قيل لما ملك المسلمون مدينة دمياط أشار الأمراء
على السلطان بهدم مدينة دمياط ، فأرسل اليها
الهدادين فهدموها عن آخرها ، ولم يبق منها سوى
الجامع الكبير . ووقع فيها الهدم في يوم الاثنين ثامن
شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة ، واستمرت من
يومئذ خرابا وصار مكان بيوتها أخصاصا من القش
على شاطئ بحر النيل يسكن فيها جماعة من
الصيادين ، وسموها المنشية ، واستمرت على ذلك
الى دولة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس
البندقدارى ، فأمر بتجديد عمارتها ، فأرسل اليها
جماعة من البنائين والحجارين . وكان ابتداء عمارتها
في سنة خمسين وستمائة (١٢٥٢ م) ، فجدد بناء
سورها ، وأمر بردم فم البحر الذى تدخل منه
مراكب الافرنج فدموه من القراييص التى كانت
هناك من الهدم القديم ، فامتنت المراكب الكبار
من الدخول الى بحر النيل من يومئذ .

ثم ان الملك الظاهر أمر بإعادة السلسلة الحديد
التي كانت من البر الى البر ... قيل ان هذه
السلسلة كانت في أيام المقوقس عظيم القبط ثم
بطلت ، فأمر بإعادتها كما كانت .

ومن هنا لرجع الى أخبار ملك الافرنج ريذا
فرنسيس ، فانه لما اعتقل بدار القاضى فخر الدين
ابن لقمان كاتب السر التى كانت بأرض المنصورة ،
وتولى عقابه الطواشى صبيح الفاطمى ، صار يضربه
في كل يوم خمسمائة عصا ، فاستمر على ذلك الى
أن تولى الملك المعز أيبك التركمانى ، فأرسل اليه .

فرنسيس يقول له بأن يشتري نفسه منه بمائتى ألف
دينار غير التقادم ... فأفرج الملك المعز عنه وعن
أخيه وأقاربه ، وحلفوه أيمانا عظيمة بأنه ما بقى
يتعدى على بلاد المسلمين ، ولا يفسد فى البحر
والبر . فلما حلف أذن له الملك المعز بالتوجه الى
بلاد ، فسار واستمر فى بلاده وأرسل الى الملك
المعز ما قرره له من الأموال .

وأقام على ذلك الى أن قتل الملك المعز أيبك
وتولى من بعده ابنه الملك المنصور على ، فجاءت
الأخبار من البلاد بأن فرنسيس المذكور جمع
العساكر ، وصنع مراكب كثيرة ، وقصد العود الى
أخذ مدينة دمياط . فلما بلغ المنصور ذلك جمع
الأمراء وضربوا مشورة ، فاقتضى الرأى أن يرسلوا
اليه مطالعة من عند السلطان بالتهديد له والخط
عليه ، فكتب اليه صاحب جمال الدين بن مطروح
مطالعة وضمنها هذه الأبيات :

قل للفرنسيس اذا جئته

مقال نصح من قتل فصيح

آجرك الله على ما جرى

من قتل عباد لدين المسيح

أتيت مصرا تبتغى ملكها

تحسب أن الزمر بالطبل ريح

فساقك الحين الى عسكر

ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم

بسوء تدبيرك بطن الضريح

خمسون ألفا لا ترى منهم

الا قتيلا أو أسيرا جريح

وفقك الله لأمثالهما

لعل عيسى منكم يستريح

ان كنت عولت على عودة
لأخذ ثأر أو لعقد صحيح

دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق ، والطواشي صبيح

فلما وصلت هذه المطالعة الى فرنسيس
وسمع هذه الأبيات ، رجع عن التوجه الى مصر ،
وتذكر ما قد جرى عليه من الطواشي صبيح
وما قامى من ضربه له .

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك المعظم توران
شاه ... قيل لما حصلت هذه النصرة لتوران شاه
ظن أن الوقت قد صفا له فتحول من المنصورة الى
فارسكور ، فنصب له هناك برجا من الخشب على
شاطئ البحر ، ثم أحضر الأسارى من الافرنج
وضرب أعناقهم بين يديه بالسيف ، ثم قذفهم في
البحر ، ثم شرع يقرب جماعة من حاشيته ممن
حضر معه من حصن كيفا وصار يعطيهم الوظائف
السنية ، وأبعد ممالك أبيه الملك الصالح ، وأرسل
الى شجرة الدر زوجة أبيه يعدها بكل سوء ،
فأرسلت شجرة الدر تقول للأمراء والمماليك
البحرية اقتلوا توران شاه وعلى رضاكم بكل
ما يمكن .

وكان توران شاه عنده خفة ووهج في أموره ،
فكان اذا سكر يصف الشموع في الليل قدامه ،
ويأخذ السيف بيده ، ويضرب به تلك الشموع
ويقول : « هكذا أفعل بالمماليك البحرية ... » .
وكان أحق جاهلا ، لا يدري ما يضره وما ينفعه
كأنه خشبة ، وكان كما قال فيه القائل :

يا جامعا لخصال قبيحة ليس تحصى

نقصت عن كل فضل فقد تكاملت نقصا

لو أن للجهل شخصا لكنت للجهل شخصا

فلما بلغ ممالك أبيه ذلك أضمرها له السوء
وقد تغيرت خواطرهم عليه .

فلما كان يوم الاثنين تاسع المحرم سنة ثمان
وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) جلس الملك المعظم
توران شاه في الموكب والأمراء بين يديه ، وكان
قد أمر رءوس النواب أن يقفوا قدامه بعضى ، وهى
ملبسة بالذهب في أيام المواب ، فلما مضى الموكب
وحضر السباط جلس الملك المعظم على السباط
كجارى العادة ، فتقدم اليه جماعة من المماليك
البحرية وبأيديهم السيوف فضربوه على أصابعه
فقطعوها ، فقام وهرب ودخل ذلك البرج الخشب
وأغلق عليه باب البرج ، فأطلقوا في البرج النار ،
فخرج منه السلطان وألقى نفسه في البحر وصار
يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية وهو
يقول : « خذوا ملككم ودعوني أرجع الى حصن
كيفا » ... فلم يغثه أحد وبقي على ذلك حتى قتل
في ذلك اليوم المقدم ذكره ، فمات حريقا قتيلا
غريقا ، فظلموا به من البحر فبقى مرميا على شاطئ
البحر ثلاثة أيام لم يدفن ، ثم دفن في بعض جروف
البحر ولم يعلم له قبر .

ثم ان المماليك لهبوا جميع ما كان في الوطاق
من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك ، واستمر
السباط في ذلك اليوم ممدودا حتى تخطفتسه
الكلاب ولم يع أحد له ، فكانت مدة سلطنة الملك
المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين
أيوب نحو أربعين يوما ، ولم يدخل الى مصر ولا
جلس على سرير الملك بقلعة الجبل ، ولا حكم
بالقاهرة ، فكانت قتلته في يوم الاثنين كما تقدم .

وهو آخر من تولى السلطنة بمصر من بنى
أيوب ، وبه انقرضت دولة بنى أيوب ، وكانت مدة
دولتهم — من حين تولى الملك الناصر صلاح الدين
يوسف الى أن قتل الملك المعظم توران شاه —
نحو ست وثمانين سنة الا أشهرها ، وزالت دولتهم
كأنها لم تكن بمصر .

قبل لما قتل توران شاه رجعت الأمراء والعسكر الى القاهرة ، وطلعوا الى قلعة الجبل ، فوق الاتفاق من الأمراء على سلطنة شجرة الدر عوضا عن توران شاه ، وأن يكون الأمير عز الدين أيبك التركمانى مدبر المملكة معها ... فسلطنوها وتحالفوا على ذلك ، وهذا لم يقع قط بالديار المصرية ، ولا سمع بأن امرأة قد تسلطت بها .

شجرة الدر

هى شجرة الدر ، زوج الملك الصالح نجم الدين أيوب . وهى أم ولده خليل ، فكانت تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بنى أيوب ، وقع الاتفاق على سلطنتها ، فتسلطت فى ثانى شهر صفر سنة ثمان وأربعين وستائة ، وقبل لها الأمراء الأرض من وراء حجاب .

فلما تم أمرها فى السلطنة فرقت الوظائف السنية على الأمراء ، وفرقت الاقطاعات الثقال على المماليك البحرية ، وأغدقت عليهم بالأموال والخيول ، وأرضتهم بكل ما يمكن ، وسامت الرعية فى أيامها أحسن مياسة ، وكانت الناس عنها راضية ، وكان الأمير عز الدين أيبك التركمانى مدبر المملكة ، وكان لا يتصرف فى الأمور الا بعد مشورتها فيما تريد ، وكانت تكتب على المراسيم فى العلامة بخطها « والدة خليل » .

فلما كان يوم الجمعة خطب باسم شجرة الدر على منابر مصر ، فكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والددة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » .

قال الشيخ شمس الدين محمد بن ابراهيم الجزرى : « فلما بلغ الخليفة المستنصر بالله أبا جعفر وهو ببغداد ، أن أهل مصر قد سلطنوا امرأة أرسل يقول من بغداد للأمراء مصر : أعلمونا ان كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ؟ وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الانكار ، وهددهم وأمرهم بالرجوع عن ذلك ... » . وقد قال القائل :

النساء ناقصات عقل ودين
ما رأينا لهن رأيا سنيا
ولأجل الكمال لم يجعل الله
تعالى من النساء نبيا

فلما بلغ شجرة الدر ذلك خلعت نفسها من السلطنة برضاها من غير كره لها ، فكانت مدة سلطنتها بالديار المصرية نحو ثلاثة أشهر الا أياما . وكانت تدبر أمور المملكة بالديار المصرية فى حياة استاذها الملك الصالح ، وكانت ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة ، فسلطنوها لحسن تديرها للأمور ، وسياستها للرعية ، وجعلوا الأمير عز الدين أيبك التركمانى أتابك العساكر ومشاركها فى أحوال المملكة ، فكان لا يتصرف فى شئ من الأمور الا برأيها ... فلما خلعت نفسها من السلطنة أشار القضاة والأمراء بأن يولوا الأمير عز الدين أيبك التركمانى السلطنة ، وأن يتزوج بشجرة الدر فتزوج بها ، ثم تولى السلطنة بعد خلع شجرة الدر ، فكان أول من تولى من ملوك الترك .

دولة الأتراك

المعز أئيبك الترماني

الشريك ، وكان يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها ، وضربت السكة على الدنانير والدرهم باسمهما ، فلم يسع أئيبك الاحتمال .

واستمر أئيبك ويوسف المذكور شريكين في السلطنة حتى قويت شوكة المعز أئيبك ، وأنشأ له ممالك ، وأقام له عصبة ، فعزم رأيه على أن يقبض على الأمير فارس الدين اقطاي — وكان رأس الممالك الصالحية — فطلبه وقت الظهر ، فلما طلع الى القلعة أكن له كميناً وراء قاعة الأعمدة وقرر معهم اذا مر بهم الأمير فارس الدين يقتلونه من غير معاودة . فلما مر بهم ووصل الى باب قاعة الأعمدة وثب عليه الممالك المعزية ، فأذاقوه كأس المنية .

فلما قتل الأمير فارس الدين أمر الملك المعز أئيبك بغلق باب القلعة . فلما شاع بين الناس قتل الأمير فارس — وكان ذلك في يوم الاثنين حادي عشر شعبان سنة اثنتين وخمسين وستمائة — ركب سائر خشداشيينه — وكانوا نحو سبعمائة انسان — فلما أن طلوعوا الى الرميطة وأحاطوا بالقلعة ، رمى اليهم الملك المعز برأس الأمير فارس الدين اقطاي من فوق سور القلعة ، فلما تحقق خشداشيينه قتله انقضوا خائبين ، وخرجوا على حمية ، نحو البلاد الشامية ، وهم الأمير بيبرس ركن الدين البندقداري ، والأمير قلاون الألفي ، والأمير سنقر الأشقر ، والأمير بيسرى ، والأمير سكن ، والأمير برمق .

فلما قصدوا أن يخرجوا الى البلاد الشامية ، وجدوا أبواب القاهرة مغلقة ، فتوجهوا الى باب

كان أولهم المعز أئيبك الترماني الصالح النجمي ، كان أصله من ممالك الملك الصالح نجم الدين أيوب فأعتقه ، ثم صار أميراً في حياة أستاذه الملك الصالح ، ثم بقي أتابك العساكر بعد قتل الملك المعظم توران شاه ثم بعد خلع شجرة الدر . تولى الملك بالديار المصرية في يوم السبت تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) وركب بشعاره وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشي ، وجلس على سرير الملك وجميع الأمراء قبلوا الأرض بين يديه ولقبوه بالملك المعز .

فلما تم أمره في السلطنة قلب عليه الممالك الصالحية ، وقالوا لا بد لنا من واحد من ذرية بني أيوب نسلطه — وكان المتكلم يومئذ من الأمراء الأمير بلباي الرشيدى ، والأمير فارس الدين اقطاي ، والأمير بيبرس ركن الدين البندقداري ، والأمير سنقر الرومى وغير ذلك جماعة من الممالك البحرية — فوقع الاتفاق بينهم وبين المعز أئيبك بأن يحضروا بشخص من بنى أيوب ، يقال له مظفر الدين يوسف من أولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق — وكان عند عماته ببلاد الشرق — فأرسلوا خلفه ، فلما حضر من البلاد سلطنوه ولقبوه بالملك الأشرف . وكان له من العمر نحو عشرين سنة ، فلما تسلطن يوسف المذكور لم يعزل أئيبك الترماني من السلطنة ، بل صار معه مثل

القراطين ، فأحرقوه بالنار وخرجوا منه هاربين ، فسمى من ذلك اليوم باب القراطين . فلما بلغ المعز هروبهم أمر بالحوط على موجودهم . فلما خمدت تلك الفتنة ، وتشتت الأمراء الذين كان يخشى منهم المعز ، فعند ذلك قبض على الملك الأشرف يوسف الذي كان شريكه في السلطنة وسجنه بالقلعة ، وانفرد بالسلطنة وحده .

سنة أربع وخمسين وستمائة (١٢٥٦ م) :

فيها أرسل الملك المعز أيبك يخطب بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . فلما بلغ ذلك شجرة الدر تغيرت على المعز أيبك وتغير هو أيضا عليها ، لأنها كانت تمن عليه في كل وقت وتقول له : « لولا أنا ما وصلت أنت الى السلطنة » ... وكانت قد منعت من الاجتماع بزوجه أم ولده الأمير على ، حتى انها ألزمته بطلاقها منه بالثلاث . وكانت شجرة الدر تركية الجنس ، صعبة الخلق ، شديدة الغيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة ، مسكرانة من خمرة العجب والتيه كما قيل في المعنى :

كتب القتل والقتال علينا

وعلى الغايات جر الذبول

فلما صار أيبك معها في غاية الضنك حنق منها يوما ونزل الى مناظر اللوق وهو غضبان ، وكانت مناظر اللوق مكان الأزيكية الآن ، وكانت مظلة على بحر النيل . فلما نزل أيبك من القلعة أقام بمناظر اللوق أياما وهو غضبان ، فأرسلت اليه شجرة الدر وهي تتلطف به حتى سكن غضبه وقام وطلع الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبلت يده على غير عادة منها ، وكانت شجرة الدر قد أضمرت له السوء فندبت له خمسة من الخدام الخصى الروم وقالت لهم : اذا دخل الى الحمام فاقتلوه . فلما

طلع الى القلعة اصطلع مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الى الحمام ، فلما صار هو وشجرة الدر بها دخل عليه أولئك الخدام وبأيديهم السيوف ، فقام أيبك وقبل شجرة الدر واستغاث بها ، فقالت للخدام : « اتركوه » ... فأغلظ عليها بعض الخدام في القول ، وقال لها : « ان تركناه حيا فلا يبقى عليك ولا علينا » ... فقتلوه في الحمام خنقا ، وقيل ربطوا محاشمه بوتر وجذبوه حتى مات . فلما مات حملوه وأخرجوه من الحمام وأشاعوا أنه قد أغمى عليه من الحمام فوضعه على فراش الحمام ، وكان ذلك في ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ست وخمسين وستمائة (١٢٥٨ م) .

فلما أصبح الصباح أشاعوا قتله بين الناس ، فركب ابنه الأمير على والمماليك المعزية ، فلما طلعوا الى القلعة وتحققوا قتله شرعوا في تجهيزه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه في القرافة . ثم قبض ابنه على شجرة الدر ، وسلمها الى أمه فأمرت جواربها أن يقتلنها بالتباقيب والنعال ، فضربنها بها حتى ماتت وفارقت الدنيا ... فكانت كما قيل في الأمثال :

واقنع اذا حاربت بالسلامة

واحذر فعلا توجب الندامة

فالتاجر الكيس في التجارة

من خاف في متجره الخسارة

فلما ماتت شجرة الدر سحبوها من رجلها ورموها من فوق السور الى خندق وهي عريانة ، فأقامت وهي مرمية في الخندق ثلاثة أيام لم تدفن حتى قيل أن بعض الحرافيش نزل الى الخندق تحت الليل وقطع دكة لباسها لأنها كانت من حرير أحمر ، وقيها كرة من لؤلؤ ، ونافجة مسك ... فسبحان من يعز ويذل كما قيل في المعنى :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاهما وحتى سامها كل مفلس

ثم بعد ثلاثة أيام حملت ودفنت بتربتها التي
بشريق السيدة نفيسة بجوار بيت الخلفاء .

وكانت شجرة الدر أصلها من جوارى الملك
الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراها في أيام أبيه
الملك الكامل محمد فحظيت عنده واستولد منها
ابنه خليلا ثم أعتقها وتزوج بها . وكانت معه في
البلاد الشام مدة طويلة لما كان مستوليا على
الشام ، فلما قدم الى الديار المصرية وتسلطن ،
عظمت شجرة الدر في دولة أستاذها الملك
الصالح ، وصارت تدبر أمور الملكة عند غياب
الملك الصالح في الغزوات .

وكانت ذات عقل وحزم ، كاتبة قارئة ، لها
معرفة تامة بأحوال الملكة . وقد نالت من العز
والرفعة ما لم تنله امرأة قبلها ولا بعدها . وقد
أقامت في السلطنة نحو ثلاثة أشهر ، وخطب
باسمها على منابر مصر وأعمالها ، وتفذت
مراسيمها في الآفاق بعلامتها ، وكانت علامتها على
المراسيم « والدة خليل » . وكانت كثيرة البر
والصدقات ، ولها أوقاف على جهات خير
وصدقة . وكانت قتلها في يوم الثلاثاء الخامس
والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وخمسين
وستمائة (١٢٥٨ م) .

وأما الخدام الذين قتلوا المعز أيك التركماني
فهرب بعضهم الى بلاد الشرق ، وصلب بعضهم
على باب القلعة وأقام أياما . وكان الملك أيك
التركماني رجلا عاقلا حليما نظر في مصالح الرعية
في أيامه . وكان كفؤا للسلطنة ودفع العدو ، وكان
يحب الجهاد في سبيل الله تعالى مع الأفرنج .
وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد

الشامية سبع سنين ، منها مدة انفراده بالسلطنة
خمس سنين وثلاثة أشهر ، وكانت مدة الأشرف
يوسف الذي هو من بنى أيوب الذي شارك أيك
في السلطنة سنة وأشهر .

وأيك هذا هو أول ملوك الترك . ولما قتل
تولى من بعده ابنه نور الدين على .

ومن الأبيات اللطيفة التي تتضمن أسماء ملوك
الترك والجراكسة — دون أسماء أولادهم —
ممن تولى السلطنة بالديار المصرية ، وهم على
الترتيب من مبتدأ دولتهم الى الآن ، وهي هذه :
أيك ، قطز ، يعقبا ، بيبرس ذو الكمال
بعد قلاون بعد كتبغا المفضل
لاجين ، بيبرس ، برقوق شيخ ذوالأفضال
ططر ، برسباي ، جقمق ذو العلا ، اينال
وخشقدم عنه قل بلباي ذو الأحوال
تمريقا ، قايتباي ، الفحل ذو الاقبال
وقانصوه ، جنبلا ط عنهما أقوالى
وبعدهم جاء طو من باي بالاقبال
وقانصوه بعده ذا مظهر الأحوال

الملك المنصور

هو الملك المنصور ، نور الدين على ، ابن الملك
المعز أيك التركماني الصالحى ، وهو الثانى من
ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تولى
السلطنة بعد قتل أبيه الملك المعز أيك التركماني
يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول سنة
خمس وخمسين وستمائة (١٢٥٧ م) ، وكان له
من العمر لما تولى السلطنة احدى عشرة سنة ،
وكان القائم بتدبير أمور الملكة الأميرة علم الدين
سنجر الحلبي ، وكان الوزير يومئذ شرف الدين
ابن صاعد الفائزي ، وكان قد وزر لأبيه المعز

أيضا ، وكان اسمه هبة الله ، وكان أصله من أبناء القبط ، فأسلم في دولة الملك الكامل محمد ، وما زال يرقى الى أن بقى وزيرا بالديار المصرية في دولة الملك المعز أيبك التركمانى ، ثم وزر لابنه الملك المنصور على .

فلما تم أمر الملك المنصور على في السلطنة ، استقر بالأمير سيف الدين قطز المعزى ، نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر . وكان قطز شديد البأس ، صعب الخلق ، فقبض على الوزير شرف الدين هبة الله ، وصادره وأخذ جميع أمواله ثم صلبه على باب القلعة ، وخلع على القاضي زين الدين يعقوب بن الزبير ، واستقر به وزيرا عوضا عن هبة الله .

ومن الحوادث في أيام الملك المنصور على هذا أن في سنة ست وخمسين وستمائة ، في خامس جمادى الآخرة ، جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأنه قد ظهر في التاريخ نار بوادى شطا شرقى المدينة ، وأنها يخرج منها شرر يأكل الحجارة . وقيل انه قبل ظهور هذه النار بخسة أيام وقع بالمدينة زلزلة عظيمة ، وسمعوا أصواتا من السماء مزعجة . ولم تزل هذه النار مستمرة ليلا ونهارا نحو شهر ، فكان ملول هذه النار أربعة فراسخ في عرض أربعة أميال ، فصارت تأكل الحجارة حتى تصير مثل الفحم الأسود . قال الشيخ عماد الدين ابن كثير : « أخبرنى الشيخ صدر الدين على التميمى الحنفى ، قال : أخبرنى والدى الشيخ صفى الدين مدرس مدرسة البصرى أنه رأى وهو بالبصرة صفحات أعناق الابل في الليل المظلم من ضوء تلك النار التى ظهرت بالمدينة » .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ان أهل المدينة لما رأوا تلك النار قد زاد أمرها تضرعوا الى الله تعالى ، وتابوا من ذنوب كانوا يعملونها ،

وتصدقوا بالأموال على الفقراء ، ولزموا الصوم والصلاة حتى كشف الله تعالى عنهم تلك النار بعد ما أقامت نحو شهر وهى تفور . وفى ذلك يقول القائل :

بحر من النار تجرى فوقه سفن
من الهضاب لها فى الأرض ارساء
منها تكاثف فى الجو الدخان الى
أن عادت الشمس منه وهى دهباء
يرمى لها شرر كالقصر طائشة
كأنها ديمة تنصب هطلاء
فيا لها آية من معجزات رسو
ل الله قد ظهرت والقوم أحياء

يشير الناظم الى ما رواه البخارى في صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء منها أعناق الابل ببصرى » رواه في آخر كتاب الفن في باب خروج النار .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في تاريخه : ان في دولة الملك المنصور على بن أيبك هذا ، كان استيلاء هلاكو على مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخراب بغداد وقتل أهلها . ثم قصد التوجه الى حلب وأخذ البلاد الشامية ، فعدى من الفرات فى عسكر لا يحصى عدده . فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى من هلاكو ، وقد أرسل ابنه فى عسكر عظيم الى حلب ، وقد استولى على نائب ضياع حلب .

فلما تحقق الأتابكى قطز ذلك أمر بعقد مجلس وجمع مائر الأمراء والقضاة ومشايخ العلماء — وكان المشار اليه فى ذلك المجلس شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه ، وكان من أكابر علماء الشافعية ، وقد تلقب بسلطان العلماء —

فاعتقلوه ببرج السلسلة بشجر دمياط ، فأقام في
البرج الى أن مات هناك ، ودفن بشجر دمياط بعد مدة
طويلة وهو في البرج ، فكانت مدة سلطته بالديار
المصرية سنتين وثمانية أشهر ، وكانت أيامه كلها
قتن وشور .

ومن الحوادث في أيامه أن في سنة ست
 وخمسين ومستمائة ، في رابع شهر رمضان ، وقعت
احدى المصلتين اللتين بأراضى المطرية . يزعم
الناس أنهما مسلتا فرعون ، وكاتتا اثنتين ، فلما
وقعت احدهما وجدوا في قلنسوتها نحو مائتى
قنطار نحاس أصفر ، ووجدوا في داخل تلك
القلسوة عشرة آلاف دينار كل دينار وزنه
أوقية من الذهب الأكسير الجيد ، فحمل الى
الخزائن الشريفة ... ذكر ذلك الشيخ شمس
الدين محمد بن ابراهيم الجزرى في تاريخه كما
شرح هناك .

وأما من توفى في أيام الملك المنصور على ابن الملك
المعز أيك التركمانى من الاعيان فهم : الشيخ زكى
الدين عبد العظيم المنذرى ، والشيخ القطب
العارف بالله تعالى ، شيخ الطريقة والحقيقة
الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، ودفن
بصحراء عيذاب من أعالي الصعيد الأعلى . وتوفى
الشيخ شعله شيخ القراءات ، وتوفى الفاسى
المغربى المالكى ، وتوفى الشيخ سعد الدين بن
العربى صاحب النظم الرقيق ، وتوفى الصرصرى
صاحب الديوان اللطيف ، وتوفى ابن الأبار
المؤرخ ، وغير ذلك من أعيان العلماء وأعيان
الناس .

ومن انشاء المعز أيك المدرسة المعزية المطلة
على بحر النيل عند رحبة الحناء عند مصر
العتيقة .

فلما تكامل ذلك المجلس من الأمراء وأعيان الدولة
والقضاة ومشايخ العناء قام مدع في ذلك المجلس
وذكر هيئة سؤال في أمر هلاك واستيلائه على
البلاد ووصوله الى حلب ، وأن بيت المال خال
من الأموال ، وفد وصل العدو ، وطمع في أخذ
البلاد ، والسلطان صغير السن ، وضاعت مصالح
الرعية ، وأن الوقت محتاج الى اقامة سلطان كبير
تحشاه الناس ويدفع العدو ، وأن بيت المال محتاج
الى المساعدة بشئ من أموال الرعية لاقامة الجند
وتجهيزهم للسفر وما يعينهم على ذلك . . فأجاب
الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه في
ذلك المجلس وقال : « اذا طرق العدو البلاد وجب
على الناس قتاله ، وجاز للسلطان أن يأخذ من
أموال التجار وأعيان البلد ما يستعين به على
تجهيزه العسكر لدفع العدو ... لكن بشرط
ألا يبقى في بيت المال شئ من السلاح والسروج
الذهب والفضة والكبايش الزركش وأسقاط
السيوف الفضة وغير ذلك ، وأن كلا من الجند
يقصر على فرسه ورمحه وسلاحه ، ويساوى
في ذلك بقية العامة وقت القتال . وأما أخذ
أموال التجار والرعية - مع وجود ما في بيت المال
من السلاح والقماش - فلا يجوز ، لأنه من باب
أخذ أموال الرعية بغير حق » .

ثم ان الأمراء تكلموا مع القضاة في اقامة
سلطان كبير لدفع العدو ، فوقع الاختيار من
الأمراء والقضاة على خلع الملك المنصور على ابن
الملك المعز أيك التركمانى ، وأن يسلطوا الأتابكى
قطز . فعند ذلك خلعوا الملك المنصور على من
السلطنة وولوا الأتابكى قطز .

وكان الملك المنصور على طائش العقل ، يلعب
بالحمام مع أولاد الغلمان ، وكانت أمه تدبر أحوال
السلطنة . فلما خلعه من السلطنة أرسلوه وهو
مقيد الى ثغر دمياط وأرسلوا معه اخوته وأمه

الملك المظفر

هو الملك المظفر ، سيف الدين قطز المعزى ، وهو الثالث من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وكان أصله من مماليك المعز أيبك التركمانى ، ورقى فى دولة أستاذه الملك المعز ، ثم صار فى دولة ابن أستاذه الملك المنصور على أتاكب العساكر . فلما خلع الملك المنصور على ، وقع الاختيار على سلطنة الأتابكى قطز المعزى ، فتسلطن فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وستمائة (١٢٥٩ م) . فلما تسلطن وتم أمره فى السلطنة قبض على جماعة من خشداشيينه من الأمراء والخدام وأرباب الدولة وغير ذلك من الأعيان وأرسلهم الى الجبوس بشعر دمياط والاسكندرية . فلما فعل ذلك استقامت أموره فى السلطنة ، وصفا له الوقت ، وأنشأ له عصابة من الأمراء ، فخلع على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، واستقر به أتابك العساكر ، وفوض اليه جميع أمور المملكة ، وانحصرت فيه الكلمة .

ثم جاءت الأخبار بأذ جاليش عسكر هلاكو ملك التتار قد وصل الى أطراف دمشق ، ونهبوا البلاد وقتلوا العباد وأطلقوا فيهم الزناد ، وكان ذلك فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠ م) . فلما وصل الخبر الى الديار المصرية اضطربت وماجت بأهلها ، وقد بلغهم ما فعله هلاكو فى بغداد وقتله للخليفة المستعصم بالله ، وما جرى منهم فى حق أهل بغداد من القتل والنهب وخراب البلاد كما تقدم .

ثم ان أميرا من أمراء هلاكو الذين وصلوا الى دمشق يقال له كتبغا حضر الى الملك قطز ، وصحبته

أربعة من التتار ومعهم كتاب من عند هلاكو ، وكان مضمونه : من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم ... ونعت فيه نفسه بالفاظ معظمة ، وذكر فى الكتاب شدة سطوته وكثرة عساكره وما جرى على أهل البلاد منه ولا سيما ما فعله فى بغداد وما جرى على أهلها منه ... وأرسل يقول : « يا أهل مصر أتم قوم ضعاف ، فصونوا دماءكم منى ، ولا تقاتلونى أبدا فتندموا » .

وشرع يذكر فى كتابه أشياء كثيرة من هذه الألفاظ الفاحشة اليابسة ، فلما أن سمع الملك المظفر قطز مضمون ما فى كتاب هلاكو أحضر الأمراء واستشارهم فيما يكون من أمر هلاكو ، فقال الأمراء : نجمع العساكر من سائر البلاد ونخرج اليه ونقاتله أشد ما يكون من القتال .

ثم ان الملك المظفر قطز نادى فى القاهرة بأن النفير عام الى الغزو فى سبيل الله تعالى . ثم انه عرض العساكر ، وأرسل خلف عربان الشرقية والغربية ، فاجتمع من العساكر ما لا يحصى . ثم انه أخذ فى أسباب جمع الأموال ، فأخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر و أنثى دينارا واحدا ، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهرا واحدا ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث من المال ، وأخذ على الفيطان والسواقى أجرة شهر ، وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة ، فبلغ جملة ما جمعه من الأموال فى هذه الحركة ستمائة ألف دينار ، فأنفق على العسكر والعربان ، وبرز خيامه الى الريدانية .

فلما كان أواخر شهر شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة نزل السلطان الملك المظفر قطز من قلعة الجبل وهو فى موكب عظيم . فلما نزل بالريدانية ،

امر بتوسط كتبغا فويزبك — أمير هلاكو — ومن كان معه من التتار ، ثم رحل من الريدانية ونزل بمنزلة الصالحية ، وأقام بها الى أن تكامل العسكر ، ثم رحل من الصالحية ، وجد في السير الى أن وصل الى عين جالوت من أرض كنعان ، فتلاقى هناك عسكر هلاكو وعسكر السلطان قطز ، فكانت بينهما ساعة تشيب فيها النواصي ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عدده ، فكانت الكسرة على التتار ، فكسروهم وشتتوهم الى بيسان ، وكان ذلك في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة .

ثم وقعت بينهما وقعة ثانية على بيسان أعظم من الأولى ، فقتل من التتار نحو النصف ، وغنم عسكر السلطان منهم غنيمة عظيمة من خيول وسلاح وغير ذلك .

فلما جرى ذلك توجه السلطان قطز الى نحو الشام ، فدخلها في موكب عظيم ، وجلس للحكم ، فخلع على الأمير سنجر الحلبي واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير علاء الدين ابن صاحب الموصل واستقر به نائباً ، ثم انه أخذ في أسباب استخلاص البلاد الشامية من أيدي أولاد بني أيوب — وكان غالبها في أيديهم — فمهد البلاد الشامية والحلبية وولى من يختار من عصبته من الأمراء . ثم بعد ذلك قصد التوجه نحو الديار المصرية . فلما خرج من دمشق ووصل الى قريب من أرض الصالحية ، اتفق الأمراء على قتله فكان كما قيل في الأمثال :

لا تغترر بالحفظ والسلامه

فانما الحياة كالمدا

والعمر مثل الكأس والدهر القدر

والصفو لا بد له من الكدر

وكان المشار اليه في ذلك الوقت من الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . فلما السلطان قطز الى القرين ، ركب السلطان الفضاء ، فرأى أرباباً فساق خلفه وساق معه — وكان فيهم الأمير بيبرس البندقدارى — ساق دنا منه الأمير بيبرس ليقبل يده — السلطان قطز قد أنعم عليه بجارية مليحة من التتر — فظن قطز أنه جاء يقبل يده بسبب ذلك فلما مد يده اليه قبض عليه وضربه بالسيف ، و عليه بقية الأمراء بالسيوف فقتلوه وتركوه ميتاً على الأرض ، ثم ساقوا وهم شاهرون سب الى أن وصلوا الى الوطاق ، فجلس الأمير ي على مرتبة السلطان قطز ، وأخذ الملكة بالذ فشق ذلك على جماعة من المماليك الأمراء . السلطان قطز قتل من غير ذنب ، وكان خيار الترك ، وله اليد البيضاء في قيامه لدفع التتار البلاد الشامية وقد أشرفوا على الدخول الى المصرية .

وكان قتل الملك المظفر قطز في اليوم الخ عشر من ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستة ودفن هناك في مكان قتله بالقرين . وقيل نقل ذلك ودفن في مدرسته التي بالقرب من الشيخ خلف . وكانت مدة سلطنته سنة إلا أن ثم تولى من بعده الأمير بيبرس البندقدارى

الملك الظاهر

هو الملك الظاهر ، ركن الدين بيبرس ، العلا البندقدارى الصالحى النجمى . وهو الرابع ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، تس بعد قتل الملك المظفر قطز في يوم السبت الخ عشر من ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستة وتلقب بالملك القاهر أبى الفتوحات .

فلما تلقب بالملك القاهر عز ذلك على جماعة من العلماء ، فقال الصاحب زين الدين بن الزبير : « ما تلقب أحد بهذا اللقب فأفلح . ولقد تلقب به جماعة من الملوك فلم تطل أيامهم » . فلما سمع ذلك ترك ذلك اللقب وتلقب بالملك الظاهر بيبرس . وكان أصله تركي الجنس ، أخذ من بلاده وهو صغير فبيع لشخص يسمى العماد الضائع ، ثم بعده اشتراه منه الأمير علاء الدين ايدكين البندقدارى . فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب واحتاط على موجوده ، أخذ بيبرس من جملة الموجود . ثم ان الملك الصالح أعتقه وجعله من جملة المماليك البحرية .

وكان بيبرس هذا شجاعا بطلا ، أظهر في يوم وقعة الافرنج التى كانت في المنصورة في أيام الملك المعظم توران شاه من الشجاعة ما لا يسمع بمثله ... فلا زالت الأقدار تساعد حتى بقى أتابك العساكر في أول دولة الملك المظفر قطز . فلما قتل قطز بقى بيبرس سلطانا كما تقدم ، فلما جلس على مرتبة السلطان قطز قبل له الأمراء الأرض وحلفوا ألا يخونوا ولا يغدروا ولا يشبوا عليه ، وذلك الحلف على المصحف الشريف . ثم أحضر خلعة وخلع على الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ، واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه .

فلما تم أمره في السلطنة قصد التوجه نحو الديار المصرية ، فدخل القاهرة في الليل ، وطلع الى قلعة الجبل . فلما طلع النهار نادى المنادى في مصر والقاهرة : « ترحموا على الملك المظفر قطز ، وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس البندقدارى » .

وكانت القاهرة قد زينت لتقدم الملك المظفر قطز ... فلما تحقق الناس قتل الملك المظفر قطز ، حزنوا عليه لأنه قتل من غير موجب ، وكانت له

الراية البيضاء في قبامه لدفع العدو عن البلاد ، وكان التتار قد أشرفوا على الدخول الى مصر .

ثم ان الملك الظاهر بيبرس عمل الموكب بقلعة الجبل ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأتابكى فارس الدين أقطاي المستعرب واستمر أتابك العساكر كما تقدم ، وخلع على الأمير لاجين الدريفيل واستقر به دوادارا كبير ، وخلع على الأمير بلباى الرشيدى واستقر به دوادار ثانيا ، وخلع على الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى واستقر به أمير أخور كبيرا ، وخلع على الأمير أيك الأفرم الصالحى واستقر به أمير جاندار .

وأنعم على الأمير بدر الدين اليسرى الشمسى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير سيف الدين قلاون بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير بدر الدين بكتوت المعزى الجوكندار بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير عز الدين بيدغان — المعروف بسم الموت — بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير بلبان الهارونى بتقدمة ألف . وخلع على الأمير جمال الدين أقوش النجيبى واستقر به استادار العالية ، وخلع على الأمير ركن الدين اياجى ، والأمير سيف الدين بكجى واستقر بهما حجابا ، ثم فصل الصاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة ، واستقر بالصاحب بهاء الدين بن حنا وزيرا بالديار المصرية . والصاحب بهاء الدين بن حنا هذا هو الذى بنى مكان الآثار النبوية المظل على بحر النيل ، واشترى الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال وأودعها في ذلك المكان الذى أنشأه على بحر النيل ، وصارت الناس يقصدون ذلك المكان بسبب الزيارة في كل يوم أربعاء .

ثم ان الملك الظاهر بيبرس عمل الموكب ، وخلع على مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ، واستقر به نائب السلطنة ، وفوض اليه جميع أحوال

المملكة ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى تذكرته ان الأمير بيليك هذا كان أصله من ممالك الظاهر بيبرس ، اشتراه صغيرا ورباه من حين كان الملك الظاهر أمير عشرة ، واستمر فى خدمته الى أن بقى الملك الظاهر سلطانا فخلع على الأمير بيليك واستقر به نائب السلطنة ، وفوض اليه أمور المملكة جميعها ، وصار ينفذ الأمور من غير مشورة السلطان .

قيل ان التاجر الذى باع الأمير بيليك الى الملك الظاهر بيبرس كان فى سعة من المال والتجارة ، فدارت عليه الدوائر حتى افتقر وصار من جملة الحرافيش ، فلما دخل الى القاهرة قال له التجار ان مملوكك بيليك الذى بعته للملك الظاهر بيبرس قد صار عزيز مصر ، وأقبلت عليه الدنيا ، فلو أنك تسأل اليه وتذكر له حالك وما صرت اليه من الفقر فعسى ينعم عليك بشيء من الدنيا تستعين به على جور الزمان ... فكتب قصته ورفعها الى الأمير بيليك ، وكان من مضمون تلك القصة هذان البيتان :

قد صرت ، من بعد عز ، فى الهوان وقد
جار الزمان بضيق نلت منه أذى

والآن أقبلت الدنيا عليك كما

ترضى : فلا تنسنى ... ان الكرام اذا

فلما قرأها الأمير بيليك قال : « من رفع هذه القصة ؟ » . فقيل له : « هذا التاجر الذى باعك للسلطان » ... فلما رآه قام اليه واعتنقه وأجلسه الى جانبه ، فشكا اليه التاجر ما قد جنى عليه الزمان بجوره ، فأنعم عليه الأمير بيليك بعشرة آلاف دينار وخلعة وفرس .

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك الظاهر بيبرس .

فلما تم أمره فى السلطنة رسم باحضار الممالك البحرية الذين كانوا منفقين فى البلاد ، ثم أرسل عدة مكاتبات الى سائر من فى البلاد من النواب وأخبرهم بما قد جدد الله تعالى له من الملك ، وطلب منهم بذل الطاعة ، فأجابوه بالسمع والطاعة .

ثم ان الملك الظاهر لما ثبت فى السلطنة أراد أخذ خواطر الرعية بالأفعال المرضية ، ليمحو ما جناه من السيئات ، وتعود مكانها الحسنات ... فأبطل جميع ما كان أحدثه الملك المظفر قطز من أبواب المظالم عند خروجه الى تجريدة التتار ، وكتب به مساميح ، وقرئت على منابر مصر والقاهرة ، فطابت اليه نفوس الرعية ، وضجوا له بالأدعية السنية ، فطابت به مصر ورق الهواء ، ومشى الذئب والشاة سواء . وفيه يقول بعض الشعراء من أبيات :

لم يبق للجور فى أيامكم أثر

الا الذى فى عيون الغيد من حور

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام سنجر الحلبي الذى كان الملك المظفر قطز ولاه نيابة الشام قد خرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان ، وجمع أمراء دمشق وقبلوا له الأرض ، وركب فى دمشق بشعار السلطنة وتلقب بالملك المجاهد ، وكتب بذلك الى سائر أعمال البلاد الشامية ، وخطب باسمه على منابر دمشق وأعمالها . وكان الأمير علم الدين سنجر الحلبي هذا ، لما نقل أمره على الناس فى دولة الملك المنصور على ابن أيبك التركمانى ، قبض عليه الملك المظفر قطز قبل أن يلى السلطنة وسجنه مدة فى الاسكندرية ، ثم أفرج عنه واستقر به لائب الشام . فلما قتل الملك المظفر قطز وتولى الملك الظاهر بيبرس ، كما تقدم ، أظهر الأمير سنجر العصيان وتسلمن بالشام . فلما بلغ الظاهر بيبرس ما وقع من الأمير سنجر كتب اليه كتابا يوبخه فيه بقبائح فعله ، وأمره بالرجوع

عن ذلك ، فعادت الأجوبة بالمخالفة وعدم الطاعة ، وقد وافقه على العصيان جماعة من النواب ، واضطربت أحوال البلاد الشامية والحلبية في أوائل دولة الملك الظاهر بيبرس ... منها ما أفسده عسكر هلاكو من نهب البلاد وقتل العباد ، ومنها عصيان النواب وسلطنة سنجر . واضطربت أحوال الملك الظاهر في أوائل دولته ، ووثب عليه المماليك المعزية ، فقبض على جماعة من الأمراء المعزية والمماليك ، وقتل منهم جماعة ، ونفى منهم جماعة ، حتى صفا له الوقت من الكدر وأمن الحذر .

سنة تسع وخمسين وستمائة (١٢٦١ م) :

في يوم الاثنين تاسع عشر شهر رجب حضر من بغداد الى الديار المصرية شخص من ذرية بنى العباس يقال له الامام أحمد . وهو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، ابن الخليفة الناصر لدين الله ، ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي الهاشمي . فلما بلغ الملك الظاهر قدومه خرج الى تلقيه . فلما وصل الى المطرية تلاقى هناك هو والامام أحمد العباسي ، وكان الامام أحمد هذا أسير اللون ، وأمه أم ولد حبشية . فلما وقعت عين الملك الظاهر عليه نزل عن فرسه ، ونزل الامام أحمد عن فرسه ، واعتنقا ثم ركبا ومرا في القاهرة ، ودخلا من باب النصر ، فزينت له القاهرة ، وكان له موكب عظيم ويوم مشهود لم يسمع بمثله . فلما وصلا الى القلعة طلع الامام أحمد مع السلطان الى القلعة ، فأنزله السلطان في قاعة الأعمدة ، فأقام بها أياما .

ثم ان الملك الظاهر قصد أن يثبت لسبا للامام أحمد بأنه من ذرية بنى العباس ، فان الخلافة كانت شاغرة من حين قتل الخليفة المستعصم بالله في سنة ست وخمسين وستمائة ، وكان قدوم الامام أحمد الى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستمائة ، فكانت مدة شغور الخلافة نحو أربع سنين الأشهر .

فأمر الملك الظاهر بمقد مجلس في قاعة الأعمدة ، وجمع القضاة ومشايخ العلماء ومشايخ الصوفية وأعيان مشايخ الأولياء وسائر الأمراء وأرباب الدولة ، وكان في صدر المجلس المشار اليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام رضى الله عنه .

فلما تكامل المجلس ، تأدب الملك الظاهر مع الامام أحمد ، وجلس بين يديه بغير مرتبة . ثم ان السلطان أمر باحضار العربان الذين حضروا صحبة الامام أحمد من بغداد - وكان فيهم طواشي من بغداد - فشهدوا كلهم بين يدي قاضي القضاة تاج الدين الشافعي ابن بنت الأعز بأن الامام أحمد هذا هو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، ابن الخليفة الناصر لدين الله ، المتصل بالنسب الى العباس رضى الله عنه ... فثبت ذلك على يدي قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وسجله على نفسه وحكم بصحة ذلك .

فلما ثبت نسب الامام أحمد بايعه القضاة بالخلافة ولقبوه بالمستنصر بالله ، ثم ان الامام أحمد بايع الملك الظاهر بيبرس بالسلطنة ، وفوض اليه أمر البلاد الاسلامية وما يضاف اليها وما سيفتح عليه من البلاد الكفرية .

فلما كان يوم الجمعة أمر السلطان الامام أحمد بأن يخطب وبصلى بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ، فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء بالجامع ، فخطب الامام أحمد خطبة بليغة ، وأثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذي رد الخلافة لبني العباس .

فلما كان يوم الاثنين رابع شهر شعبان من السنة المذكورة خرج الملك الظاهر الى نحو أرض المطرية ، وضرب هناك خيمة كبيرة ، وجلس على كرمى والأمراء بين يديه . ثم ان القاضي فخر الدين بن

لقمان كاتب السر الشريف نصب له هناك منبرا وصعد عليه ، وقرأ على الأمراء تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر . فلما فرغ من قراءته أحضروا للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة ، وهي جبة سوداء بطوق ذهب ، وعمامة سوداء بعذبة ذهب ، وسيف بداوى متقلد به حمائل . فلما لبس خلعة السلطنة ركب فرسا برز بسرج ذهب وكبنوس ، ودخل القاهرة من باب النصر ، ومر بالمدينة وقد زينت له ، وهو لا لبس شعار السلطنة كما تقدم ، والأمراء جميعهم مشاة بين يديه ، والصاحب بهاء الدين بن حنا حامل التقليد على رأسه حتى طلع الى القلعة . وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله . ثم ان السلطان كتب الى سائر أعمال مملكته يأخذ البيعة الصحيحة من الخليفة المستنصر بالله أحمد ، وهو أول خليفة بايع الملوك الترك بمصر . ثم ان السلطان أخذ في أسباب تجهيز الامام أحمد وعوده الى بغداد ، فأقام له برك عظيم ، وعين معه عسكريا ، فكان جملة ما أنفقته الملك الظاهر على تجهيز الامام أحمد من المال مائة ألف دينار وستين ألف دينار .

فلما انتهى شغل الامام أحمد ، ودع السلطان ونزل من القلعة ، فنزل السلطان معه الى المطرية وسائر الأمراء ، فودع السلطان الامام أحمد وعاد الى القلعة ، وسار الامام أحمد بمن معه من العساكر السلطانية . فلما وصل الى الفرات بلغ قرابغا أمير التتار الذي استخلفه هلاكو على بغداد مجيء الامام ومعه عساكر السلطان ، فخرج اليه قرابغا في عسكر ثقيل من التتار ، فتلقى العسكران على مكان يسمى الأنبار ، فحمل عسكر السلطان على التتار فكسروهم كسرة قوية ، وهرب التتار ... فلما دخل الليل هجم التتار على عسكر السلطان فأحاطوا بهم

فما نجا منهم الا من طال عمره ، ونهبوا ما كان معهم من سلاح وخيول ومال . وأما الامام أحمد فلم يعلم له خبر ، ولا وقف له على أثر . فمن الناس من يقول انه قتل تحت الليل وقت الكبسة ، ومن الناس من يقول انه نجا بنفسه وهو مجروح مع طائفة من العرب فأقام عندهم أياما ومات ... والله أعلم . وكانت هذه الواقعة في أواخر سنة تسع وخمسين وستمائة .

فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى للامام أحمد ، تأسف الملك الظاهر بيبرس على ذلك غاية الأسف ، وراح ما صنعه في البارد ، فكان كما قال الشاعر في المعنى وأجاد :

أنفقت كنز مدائحى في ثغره

وجمعت فيه كل معنى شارد .

وطلبت منه جزاء ذلك قبلة

فأبى ، وراح تغزلى في البارد

سنة ستين وستمائة (١٢٦٢ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن شخصا من ذرية بنى العباس يقال له الامام أحمد أيضا قد وصل الى الديار المصرية ، فلما بلغ ذلك الملك الظاهر بيبرس خرج الى تلقيه ، فلاقاه من الريدانية ، وصعد به الى القلعة وأنزله بالبرج الكبير الذى بالقلعة . وكان هذا الامام أحمد الثانى مستخفيا عند جماعة من العرب فى قرية من أعمال بغداد ، فسبقه الامام أحمد ابن الخليفة الظاهر الى مصر . فلما قتل الامام أحمد حضر الى مصر ، فعقد له الملك الظاهر مجلسا ثانيا ، وجمع فيه القضاة ، وفعل به كما فعل أولا . وكان قد حضر معه الأمير عيسى بن مهنا وجماعة كثيرة من العربان ، فشهدوا بين يدى قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز بأن هذا الامام أحمد هو ابن على ، بن أبى بكر ، ابن الخليفة المسترشد ، ابن الخليفة المستظهر ، ابن الخليفة المقتدى ، ابن محمد

الذخيرة العباسي الهاشمي ... فثبت ذلك على يد قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وحكم بصحة ذلك .

ثم ان القضاة بايعوا الامام أحمد بالخلافة ولقبوه بالحاكم بأمر الله ، وثبت نسبه ، وتولى في ذلك المجلس الخلافة .

ثم ان الامام أحمد بايع الملك الظاهر بالسلطنة ثانيا ، وبايع أعيان الدولة على قدر طبقاتهم ، ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها ، وينقش على الدنانير والدراهم اسمهما ، وأن يقدم اسم الخليفة في الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه .

ثم انه أسكن الامام أحمد في مناظر الكبش التي أنشأها الأمير أحمد بن طولون ، وكانت مناظر الكبش مظلة على بحر النيل . ورتب له ما يكفيه في كل يوم هو وعياله ، وأمره بأن يصعد الى القلعة في أول كل شهر ويهني السلطان بالشهر ... فهو أول خلفاء بني العباس بمصر ، وهو جد الخلفاء الذين تولوا الخلافة بمصر ، فهذا كان سبب نقل الخلافة من بغداد الى مصر على يد الملك الظاهر بيبرس ، وهذا من جملة فضائله .

وقد ورد في بعض الأخبار أن الخلافة لا تزال في بني العباس حتى ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فتتقطع بعد ذلك . قال بعض الشعراء في حق الملك الظاهر بيبرس :

يا أسد الترك ، وياركنهم

ويا آخذ الثأر بعد المخافه

كسرت الطغاة ، جبرت العفاة

قطعت الفرات ، وصلت الخلفاه

ثم ان الملك الظاهر — لما امتنعت الخلافة بمصر — جعل لكل مذهب من المذاهب قاضيا كبيرا

وتحت يده نواب ، وكان قبسل ذلك في الدول المتقدمة قاض فرد كبير شافعي . وكان يولى من تحت يده نوابا من المذاهب الثلاثة . وآخر من كان يفعل ذلك قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعي ، فأبطل ذلك الملك الظاهر بيبرس ، وقرر لكل مذهب قاضيا كبيرا ويولى من تحت يده نوابا ، فهو أول من قرر القضاة أربعة ، وجعل لمصر نوابا وحدها ، وللقاهرة نوابا وحدها ، وكان ذلك في أواخر سنة ستين وستمئة .

سنة احدى وستين وستمئة (١٢٦٣) :

فيها رتب السلطان لعب القبق . وفيها وقع الغلاء بمصر ، وشح النيل حتى عدت الأقوات ، فأمر السلطان بجمع الحرافيش كلهم — وكانوا نحو ألفي حرفوش — ففرقهم على الأمراء ، وأخذ لنفسه منهم جانبا ، وأضاف لولده الملك السعيد منهم جانبا ، وأضاف الى الأمير بيبيك نائب السلطنة منهم جانبا ، ورسم لكل واحد منهم في كل يوم برطل خبز ونصف رطل لحم ، وأمرهم ألا يسألوا بعد ذلك أحدا من الناس .

وفيها كانت وفاة الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري الحموي شيخ الشيوخ بحياة ، وكان مولده في سنة ست وثمانين وخسمائة ، ووفاته سنة احدى وستين وستمئة ، فكانت مدة حياته خمسا وسبعين سنة . وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله في الغزل :

سبحان مورثه من حسن يوسف ما

لم يبق في الحجر لي والصبر من حصص

أقام للشعراء العذر عارضه

فكم لهم في ديبب النمل من قصص

سنة اثنتين وستين وستمئة (١٢٦٤) :

وفيها حضر الى الملك الظاهر بيبرس جماعة من

تسوق لها عز الفتوح جنائبا
وأول هاتيك الجنائب سيس

سنة خمس وستين وستمائة (١٢٦٧ م) :

فيها أبطل السلطان ضمان الحشيشة ، وأمر
بأحراقها ، وأخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها
من الخمر وأراقها ، ومنع الخانات من الخواطي
... وعم هذا الأمر سائر الجهات المصرية ، وبرزت
المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات
الشامية ، فظهرت في أيامه سائر البقاع ، ومنع
الناس من ذلك غاية الامتناع .

ثم أحضروا اليه في أثناء هذه الواقعة شخصا
يسمى ابن الكازروني ، وهو مكران ، فأمر
بصلبه فصلب بعد حد عظيم في مستحقه ، وعلقت
الجرة والقدح في عنقه . فلما عاين أرباب المجون
والخلاعة ما جرى لابن الكازروني امتثلوا أمر
السلطان بالسمع والطاعة ، وقد قال القائل :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه

خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدا

فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي :

ألا تب ، فإن الحد قد جاوز الحد

قال الشيخ شمس الدين بن دانيال ، صاحب
كتاب طيف الخيال : « لما قدمت من الموصل الى
الديار المصرية ، في الدولة الظاهرية ، سقى الله من
سحب الأنعام عهدا ، وأعذب مشارب وردا ،
فوجدت مواطن الأنس دارسة ، وأرباب اللهو
والخلاعة غير آتسة ، ومن لذة العيش آيسسة .
وهزم أمر السلطان ، جيش الشيطان . وتولى
الخوان والى القاهرة اهراق الخمر ، وأحراق
الحشيش وتبديد المزور ... وشاعت بذلك
الأخبار ، ووقع الإنكار ، واختفى المسطول في
الدار ، وقد آذى الخلاعة غاية الأذى ، وصلب
ابن الكازروني وفي رقبة نيازية ... فدعاني بعض

ملوك الشرق بهنونه بالسلطنة ، فمنهم الملك الصالح
اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ،
وأخوه الملك المجاهد سيف الدين اسحق صاحب
الجزيرة ، وأخوه الملك المظفر ... فلما قدموا على
الملك الظاهر أكرمهم وأقرهم على ما بأيديهم من
الممالك التي في الشرق .

وفيها ختن السلطان ولده الملك السعيد محمدا ،
ورسم للأمراء والجند وبقية الرعية أن كل من كان
له ولد فليطلع به الى القلعة حتى يخستن مع ابن
السلطان ... فأحضر الناس أولادهم فبلغ عددهم
نحو ألف وستمائة وخمسة وأربعين ولدا ، خارجا
عن أولاد الأمراء والأعيان ، فرسم لكل واحد منهم
بكسوة على قدر مقام أبيه . وأما أولاد الحرافيش
فرسم لكل واحد منهم بكسوة ، ومائة درهم ،
ورأس غنم ، واستمر المهم عمالا في القلعة سبعة أيام .

سنة أربع وستين وستمائة (١٢٦٦ م) :

فيها سافر السلطان الى الشام ، وتوجه من هناك
الى صفد فافتتحها ، وعمر بها البرج الكبير ، ورجع
الى الديار المصرية .

وفيها أخرج السلطان تجريدة الى مدينة سيس .
وكان باش العساكر الأمير عز الدين بيدغان المعروف
بسم الموت ، والأمير قلاون الألفي ، وجماعة من
الأمراء والمماليك السلطانية ... فخرجوا من القاهرة
في موكب عظيم وتوجهوا الى نحو بلاد الشمال .
فلما وصلوا الى مدينة سيس وحاصروها أعلن أهلها
بالأمان ، ثم توجهوا الى قلعة اياس ففتحوا عدة
قلاع كانت بيد الأرمن ، ثم رجع الأمراء الى الديار
المصرية وهم في غاية النصر بهذه الفتوحات العظيمة
التي فتحت على أيديهم . وقد هنا بهذه الأبيات
بعض الشعراء الأمير بيدغان عند عوده :

بقيت مدى الدنيا جمالا لدولة

لها منك سهم في القا ورسيم

أصدقائي الى محله ، وأنزلى من عياله وأهله .
واعتذر الى عن تقصيره في الاكرام ، اذ لم يأتني
بمدام . وقال قد غلب على ظني أن أبا مرة ١ قد
مات ، وعد من الرفات ... فقم بنا نكيه ، ونصف
الحالة ونرثيه . فابتدأت وقلت ، في معنى هذه
الواقعة التي وقعت :

مات يا قوم شيخنا ابليس
وخلا منه ربه المائوس
ولعاني حدسي به اذ توفي
ولعمري مماته محدوس
هو لو لم يكن كما قلت ميتا
لم يغير لأمره ناموس
أين عيناه تنظر الخمر ، اذ عط
ل منها الراوق والمحريس ؟
ومواعينها تكسرن ، والخم
سار من بعد كسرهما محبوس

أين عيناه تنظر المزر قد أو
حش منه الماجور والقادوس ؟
وعجبن البقول قد بددوه
وهو بالترب خلطه مبسوس
والقناني مكسرات كما قد
كسرت في دجي الليالي الكئوس
وذوو القصف ذاهلون ، وقد كا
دت على سيلها تسيل النفوس
وفتي قائل : لقد هان عندى
بعد هذا في شربها التجريس
كم خليع يقول : ذا اليوم يوم
— مثل ما قيل — قمطير عبوس !
ارحلوا هذه بلاد عفاف
وسعود الخلاع فيها نحوس

(١) أبو مرة : كنية لابليس .

من لنا بعد ذلك الشيخ الف
ومسمير ومؤنس وأنيس
لا ترى بعده فتى ضاحك الس
من وكل يبدو له تبيس
فسأبكيه أرمدا العين حتى
لشفائي يعيش جالينوس
قال ابراهيم المعمار : لما وقعت على قصيدة
الشيخ شمس الدين بن دانيال قلت : لو أنى
أدركت ذلك الزمان لرثيت الخلاعة والمجون ،
بهذا الزجل المصون :

منعونا ماء العنب ياسين
رب سلم لم يمنعونا التين
هات قل لى اذا منعنا الراح
وحرمننا من الوجوه الصباح
يش نبقى نستجلب الأفراح
والخليع كيف نراه يعيش مسكين

على ماء ذا العنب بكى الراوق
والشمع صار بعبر تو مخنوق
والوتر بات من الغروب للشروق
من أنيه تسمع له في الليل حنين

ولقد هان حضرة المحضر
وتلون ذا الزهر وتغير
وبغيظه ريحانا انتصر
وعلى وجهه صلب اليسمين

والندامى جيمهم في شتات
حزنوا كأن مات لهم أموات
هذا قاعد يبكى على ما فات
وذا ينسحب وذا الآخر حزين

ولى صاحب زمان معى كان طبيب
جانى وقال لى مشتاق أنا يا أديب
لجريه لو انها من زيب
أرى قلبى يرتاح لهذا الحين

فقصدا « المنية » الى « شبرا »
ما لقينا رحنا « طنان » لخر
وفى « قلوب » قالوا ولا نظرا
درنا من « مرصفا » الى « شين »

وصعدنا قبلى ذا البلدان
ونبشنا « طموه » « لدير شعرا »
ما أمر الطريق الى « حلوان »
أخرب الله « طره » على « التين »

قد تعبنا مما نجد السير
ولا أصبنا فى ذا السفر من خير
جئنا عند المسا لواحد دير
فوقفنا نزق للشيخ أبو مرتين

وتقول له : يا أبونا قد جئناك
عسى جره بحياة رهاينناك
ويميتك ربى على دينناك
وانا ندرى انه أحسن دين

لانا نضحك عليه وتهمز
حتى لا يكبح ويتخنزر
ووهبنا من بيننا منزر
ووقفنا نخطبه باللين

فدخل غاب زمان ونحن وقوف
واتو تدروا ايش وقفة الملهوف
وانا ندعو ذاك الدعا الموصوف
انه يفتح وأخى يقول آمين

بعد ساعة الا وهو قد رد
جا يقول : بالله رآكم حد ؟
ونصيب من وراه شيخ يرعد
ومعه جرة اذ يصيح يا أسين

كم ندور فما لقيت عندى
الا هذه وأظنها دردى
قمت متمدد من الفرح يدى
ونصيح له من الظما أروين

أخذت نسكب منها قنينه
جبتها كالمسك رقتينه
سودا ملانه للطينه
قلت معمار دى لحسه للطين

فرجعنا ايش رجعة المكسور
قلت كيف العمل فقال ندور
فى المقيلات وتقتنع بالمزور
ولا نرجع من ذا السفر متخيين

حين قطعنا الاياس من الخمار
جئنا نسعى له أشن المزار
قال لشرب ما عجين فقلت فشار
فما ذا الكعك أصل من ذا العجين

وأنا مالى عنه سوى ابن الكروم
والشراب المعتق المعلوم
تبعه لو يصير بأقصى الروم
ولو انا ندخل لقسطنطين

ولا نهوى الا الشراب القديم
ومعشوق جديد يكون لى قديم

ننفق المال على ايش يسمى عديم
وأنا ممكن في غناية التمكن

أرخوا بالله توبة المعبار
واكتبوها بالتبر طول أعمار
قولوا من هجرة النبي المختار
سبعمائة سنة خمس وأربعين

اتتهى ما أوردناه مما قالت الشعراء في هذه
الواقعة ، ومن هنا لرجع الى أخبار التاريخ .

سنة ست وستين وستمائة (١٢٦٨ م) :

فيها توجه السلطان نحو الشام ، وحاصر مدينة
انطاكية ، ففتحها في يوم الجمعة ثالث شهر رمضان
من السنة المذكورة . ثم توجه الى بغراس ففتحها
ورجع الى الديار المصرية وهو في غاية النصر
وزينت له القاهرة .

سنة سبع وستين وستمائة (١٢٦٩ م) :

فيها حج السلطان الى بيت الله الحرام ، فخرج
من القاهرة في ثالث شوال ، وتوجه الى غزة ،
فأخذ الاقامات التي كان عباها له نائب الشام ، ثم
توجه من غزة الى الكرك ، ثم توجه من الكرك الى
المدينة الشريفة ، فزار قبر النبي صلى الله عليه
وسلم ، ثم توجه من هناك الى مكة فدخلها في
خامس ذي الحجة . وكان في تلك السنة الوقفة
يوم الجمعة ، وكان ولد السلطان السعيد محمد
توجه صحبة المحمل بالحاج المصري ، فلما قضى
حجه رجع الى الشام ورجع ابنه الملك السعيد
صحبة المحمل مع الركب المصري .

سنة ثمان وستين وستمائة (١٢٧٠ م) :

فيها رجع السلطان الى القاهرة وأقام بها الى
شهر شعبان ، ثم توجه الى زيارة بيت المقدس

والخليل عليه السلام ، فزارهما ورجع الى الديار
المصرية .

سنة تسع وستين وستمائة (١٢٧٠ م) :

فيها أرسل صاحب طرابلس مقدمة عظيمة
للسلطان ، وأظهر الطاعة ، فقبلها السلطان وأقره
على ما كان بيده من البلاد .

وفي هذه السنة رتب السلطان خيل البريد ،
بسبب سرعة أخبار البلاد الشامية ، فكانت أخبار
البلاد الشامية ترد عليه في الجمعة مرتين . وقيل
انه أثق على ذلك جملة مال حتى تم له ترتيب
ذلك ، وكان خيل البريد عبارة عن مراكز بين
القاهرة ودمشق ، وفيها عدة خيول جيدة ، وعندها
رجال يعرفون بالسواقين ، ولا يقدر أحد يركب من
خيل البريد الا بمرسوم سلطاني . وكان عند كل
مركز ما يحتاج اليه المسافرون من زاد وعلف وغير
ذلك ... وهذا كله لأجل سرعة مجيء أخبار البلاد
الشامية وغيرها من البلاد . وقيل ان الملك الظاهر
يبيرس هذا كان يعمل موكبا بمصر وموكبا بالشام ،
وكانت خيل البريد مرصودة بسبب ذلك ، حتى
لقد قال القائل في المعنى :

يوما بمصر ، ويوما بالشام ، ويو

ما بالفرات ، ويوما في قرى حلب

وامتد هذا الأمر باقيا بعد الملك الظاهر
يبيرس مدة طويلة ، ثم تلاشى أمره قليلا قليلا حتى
بطل في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق عندما
قدم تيمورلنك الى الشام وأخرب البلاد الشامية ،
وذلك في سنة ثلاث وثمانائة ... فعند ذلك بطل أمر
خيل البريد مع جملة ما بطل من شعائر مملكة
الديار المصرية .

سنة سبعين وستمائة (١٢٧١ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن التتار قد تحركوا على
البلاد ، ووصلوا الى الفرات ، وملكوا البيرة ،

صادقتهم ، وأرى الخرو
ج من الصداقة يعسر
كالخط سهل في السطو
ر ومحوه يتعذر
وإذا أردت كشطه
لكن ذلك يؤثر

سنة ثلاث وسبعين وستمائة (١٢٧٤ م) :
فيها زوج السلطان ولده الملك السعيد محمد
بينت الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، وكان له
مهم عظيم أقام سبعة أيام بالقلعة ، وكان يظن أنه
إذا زوج ابنه بينت الأمير قلاون الألفى يكون له
من بعده عونا على قلب الزمان ، فجاء الأمر بخلاف
ذلك ، فسطا الزمان عليه وأخذ من الجانب الذى
يركن اليه .

سنة أربع وسبعين وستمائة (١٢٧٥ م) :
فيها جرد السلطان الى نحو بلاد النوبة . وسبب
ذلك أن ملك النوبة دخل مدينة أسوان ونهب
ما فيها وأحرقها . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل
الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى استدار
العالية ، والأمير عز الدين أيلك الأفرم أمير جاندار ،
وجماعة من الأمراء العشراوات والمماليك السلطانية
... فلما وصلوا الى النوبة تقاتلوا مع ملك النوبة
على أسوان ، فانكسر ملك النوبة وهرب ، وقتل
من عسكره جماعة كثيرة ، وأمسك أخوه وأولاده
وأقاربه ، وغنم منهم عسكر السلطان غنائم كثيرة
من جوار وعبيد وخيول وغير ذلك .

سنة خمس وسبعين وستمائة (١٢٧٦ م) :
فيها جاءت الأخبار بأن التتار زحفوا على البلاد ،
فخرج اليهم السلطان وتوجه الى حلب وتقاتل مع
التتار فكسروهم وقتل منهم خلائق لا تحصى . وكان
ملك التتار يقال له ابغا . فلما انكسر ملك التتار

فخرج اليهم السلطان ومعه سائر الأمراء . وكان
جاليش العسكر الأمير قلاون الألفى والأمير
يسرى ... فتلاقوا مع التتار على الفرات ، فكان
بينهم وقعة عظيمة ، فقتل منهم ما لا يحصى عدده ،
وأسر منهم جماعة كثيرة . فلما دخل السلطان الى
البيرة خلع على نائبها وأقره على حاله ، وفرق
جملة من المال على من بها من الرعية لأنهم قاتلوا
التتار قتال الموت حتى كسروهم كسرة قوية ، فأقام
السلطان فى البيرة أياما ثم رجع الى الشام ، فأقام
بها شهرا ثم توجه الى الديار المصرية فدخلها فى
موكب عظيم ، وزينت له وحملت القبة والطير
على رأسه .

سنة احدى وسبعين وستمائة (١٢٧٢ م) :

فيها هجم الوباء على الديار المصرية ، ومات فى
تلك السنة مالا يحصى من الخلائق من نساء
ورجال وأطفال وعبيد وجوار ، وأقام نحو ستة
أشهر .

سنة اثنين وسبعين وستمائة (١٢٧٣ م) :

فيها كان النيل شحيحا ، ووقع الغلاء وقلت
الغلال فى سائر أعمال الديار المصرية .

وفى هذه السنة توفى الشيخ عبد العظيم ابن
الجزار الشاعر ، وكان من فحول الشعراء وله
شعر جيد ، وكان مولده فى سنة احدى وستمائة ،
ووفاته فى سنة اثنين وسبعين وستمائة ، فكانت
مدة حياته احدى وسبعين سنة . وعاصر الشيخ
أثير الدين أبا حيان المغربى ، والشيخ قطب الدين
القسطلاى ، وغيرهما من العلماء .

ومن شعره الرقيق قوله فى نفسه :

من منصفى من معشر

كثروا على وأكثروا

والتجاريد ، وينفق ذلك على العسكر . وكان مهيب الشكل ، حسن الوجه ، طويل القامة ، مستدير اللحية ، الغالب في لحيته البياض . وكان مبعجلا في موكله ، كفوا للسلطنة ، منقادا للشرعة ، يحب العلماء والصالحين ، ويحب فعل الخير ، وله بر ومعروف وآثار ، ولا سيما رده الخلافة لبنى العباس بعدما كادت أن تنقطع عنهم ، فردها لهم كما تقدم ذلك . وقد أنفق على ذلك جملة مال حتى صارت الخلافة بمصر .

وكان خيار ملوك الترك بمصر وفي ذلك أقول :

تاريخه في الملوك أضحى

يحير العرب والأعاجم

فاكتبه بالتبر لا بجبر

وانسب لأفعاله العظائم

اختاره الله من امام

لقمع أهل الفساد صارم

قد أظهر العدل في الرعايا

وأبطل الجور والمظالم

له بقلب الملوك رعب

أغنى عن السر والصوارم

فالله يرحمه كل حين

ما دام هذا الوجود قائم

قيل لما توفي الملك الظاهر بيبرس كتم الأمير بيليك ، نائب السلطنة ، موته خوفا من التتار لئلا يرجعوا الى البلاد ، ثم احتاط على خزائن المال والبرك السلطاني ، وقصد التوجه الى الديار المصرية ، فكانت المحفة تنشى في الموكب وقدامها الجنائب وهو يظهر أن السلطان مريض . ورتب حضور الأطباء على العادة ، فكان لا أحد يجسر أن يقرب الى المحفة . واستمر الأمر على ذلك حتى دخل الى مصر القاهرة ، وطلع قلعة الجبل ... فعند ذلك

هرب فتبعه السلطان الى نحو الابلستين ، فكانت بينهما هناك وقعة عظيمة قتل من الفريقين نحو مائة ألف انسان ، فانكسر ابغا ملك التتار وهرب فتبعه السلطان الى نحو زبيد ، ثم رجع من هناك السلطان الى قيسارية وحاصر أهلها ، فأرسلوا يطلبون من السلطان الأمان ، فأرسل لهم الأمان على يد الأمير بيسرى ، فسلموا المدينة فدخلها السلطان . وكان يوم دخوله الى المدينة يوما مشهودا ، فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين ، وحكم بين الناس ، وأقام بها أياما ثم رحل وتوجه الى دمشق .

سنة ست وسبعين وستمائة (١٢٧٧ م) :

فيها دخل السلطان الى حلب ، فتوعك جسده وأخذته الحمى وسلسل في المرض ، فأسقاء الحكماء دواء مسهلا ، فأفرط في الامهال وثقل في المرض ، فرحل من حلب وقصد الدخول الى دمشق ، فمات في بعض ضياع دمشق . فلما مات كتم موته عن العسكر ، وحمل في محفة الى أن دخل دمشق فدفن هناك ليلا . وكان موته في يوم الخميس ثامن عشرى شهر الله المحرم سنة ست وسبعين وستمائة . ومات وله من العمر نحو ستين سنة .

وكان ملكا عظيما جليلا مهيبا ، كثير الغزوات ، خفيف الركاب ، يحب السفر والحركة في الشتاء والصيف . وكان مشهورا بالفروسية في الحرب ، وله اقدام وعزم وقت القتال ، وله ثبات عند التقاء الجيوش في الحرب . وكان يلقب بأبى الفتوحات لكثرة الفتوحات في أيامه . وكان له موكب بمصر وموكب بالشام كما تقدم ذلك عند خيل البريد . وكان رنكه سبع ... اشارة لشجاعته وقوة بأسه . وكان كريما سخيا على الرعية ، بأسط اليد ، يفرق الغنائم التي تحصل من الفتوحات على الرعية حتى يرغبهم في القتال وقت الحرب . وكان محبا لجمع الأموال ، كثير المضادات للرعية لأجل الغزوات

أشيع موت السلطان وتسلطن ولده الملك السعيد .
وقد رثاه القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر
كاتب السر الشريف بهذه الأبيات :

الله أكبر ، انها لمصيبة
منها الرواسي ، خيفة ، تتقلقل
لهفى على الملك الذى كانت به الداء
يا تطيب ... فكل قصر منزل !

الظاهر السلطان من كانت له
من على كل الورى وتطول
لهفى على آرائه تلك التى
مثل السهام الى المصالح ترسل
لهفى على تلك العزائم كيف قد

غفلت ... وكانت قبل ذا لا تغفل
ما للرمال تخولتها رعدة
لكنها ، اذ ليس تعقل ، تعقل
سهم أصاب وما رمى من قبله

سهم له فى كل قلب مقتل
أنا ان بكيت دما فعدوى واضح
ولئن صبرت فأنى أتمثل
خلف الشهيد لنا السعيد فادمع
منهلة فى أوجه تهلل

وكانت مدة سلطنة الملك الظاهر بيبرس بالديار
المصرية والبلاد الشامية سبع عشرة سنة وشهرين
ونصف شهر .

ولما مات خلف من الأولاد عشرة : ثلاثة ذكور ،
وهم الملك السعيد محمد ، والملك العادل سلامش ،
وسيدى خضر ولكنه لم يتسلطن . وخلف من البنات
سبعاً . وأما فتوحاته التى افتتحها فى أيامه فهى
قيسارية وأرسوف وصفد وطبريا ويافا والشقيف
وانطاكية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين
و حصن عكا وصافيثا والمرقبة وحلب وبانياس

وطرسوس ، وكانت هذه البلاد بأيدي الافرنج .
وأما ما فتحه من بلاد الشرق فهى مدينة سيس ،
أخذها بالأمان ، ودركوش وتلميش وكفر دنين
ورعيان ومرزبان وكنوك وأدنة والمصيصة .

وأما الذى صار اليه من بلاد المسلمين فهى دمشق
وبعلبك وقلعة الصيبة وقلعة شيزر وعجلون وبصرى
وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة وتل
ياشر وصهيون وقلعة الكهف والقدموس والخوابى
والكرك والشوبك وبيت المقدس ومدينة الخليل
عليه السلام .

وأما ما افتتحه من بلاد السودان فهى النوبة
وأعمالها ، وافتتح قلعة العميدى من أعمال برقة ،
وافتح عدة جزائر من أعلى الجنادل .

وأما ما أنشأه من العمارات فى البلاد فهو ما جدهه
فى الحرم الشريف النبوى ، وجدد عمارة قبة
الصخرة ببيت المقدس ، وزاد فى أوقاف الخليل
عليه السلام .

وأما ما أنشأه بالديار المصرية وأعمالها ، فمن
ذلك قناطر شبرامنت بالجيزة ، وعمر سور مدينة
الاسكندرية ، وجدد بناء المنار الذى بها ، وعمر
منارا بشعر رشيد ، وردم فم بحر دمياط بالقرايىص
حتى لا تدخل اليه مراكب الافرنج ، وعمر الشوانى
وأعادها الى ما كانت عليه بالصناعة ، وحفر بحر
أشموم طناح ، وعمر القلاع التى ببلاد الشرق التى
كان هلاكو ملك التتار قد أخرجها ، وعمر مدرسة
بدمشق .

وأما ما أنشأه فى القاهرة من العمارات فهى المدرسة
التي بين القصرين بجانب المدرسة الصالحية ، وعمر
الجامع الكبير الذى فى زقاق الكحل خارج
الحسينية وأنفق عليه جملة مال من وجه حل من
الغنائم التى كانت تفتح عليه من بلاد الافرنج
وغيرها من البلاد — وكان هذا الجامع ساحة يلعب

الملك السعيد

هو الملك السعيد أبو المعالي محمد ، بركة خان ، ابن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلاني البندقداري الصالحى النجمي ، وهو الخامس من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية .

بويغ بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الظاهر . وكان مولده في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠ م) وانما سمي بركة خان على اسم جده لأبيه . فلما تسلطن وجلس على سرير الملك كان القائم بتدبير دولته الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة ، فحلف الأمراء ، وتم أمره في السلطنة ، ومشى على نظام أبيه ، واستمر على ذلك مدة يسيرة .

ثم ان الأمير بيليك نائب السلطنة مرض وسلسل في المرض حتى مات ... وكان أميراً ديناً خيراً كثيراً البر للفقراء والمساكين . فلما مات كثر عليه الحزن والأسف . فلما انتقضت أيامه طاش الملك السعيد واستبد برأيه ، فقبض على جماعة من أمراء والده ، وهم الأمير سنقر الأشقر والأمير يسرى ، وكانا جناحي والده . ثم استقر بالأمير آق سنقر الفارقاني نائب السلطنة عوضاً عن الأمير بيليك ، فأقام في نيابة السلطنة مدة يسيرة ، ثم قبض عليه ، وسجنه بشعر الاسكندرية ، ثم أرسل بخنقه فخنق ودفن في السجن .

ثم ان الملك السعيد استقر بالأمير كوندك نائب السلطنة عوضاً عن الأمير آق سنقر الفارقاني .

سنة سبع وسبعين وستمائة (١٢٧٨ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن نائب الشام خامر وخرج عن الطاعة ، فجرد اليه الملك السعيد وخرج بنفسه . فلما دخل الى الشام نزل بالقصر الأبلق الذي أنشأه

فيها الماليك القبق — وجدد عمارة الجامع الأزهر ، وأعاد فيه الخطبة بعد ما أقام وهو خراب من أيام الحاكم بأمر الله ، وعمر القصر الأبلق بدمشق ، وعمر خانا بالقدس الشريف ، وجدد حفر خليج الاسكندرية وبأشر حفره بنفسه ، وأنشأ ضيعة على قم وادى العباسية وسماها الظاهرية .

وأخبار الملك بيبرس كثيرة في عدة مجلدات ، ولكن الذى ذكرناه هنا من أخباره هو الصحيح . وغالب أخباره فيها الزيادة والنقصان وهى موضوعة .

ومن انشائه بالديار المصرية القناطر التى على بحر أبى المنجى شعياً . ومن انشائه قناطر السباع التى بالقرب من ميدان الجبل ، ومن انشائه البرج الكبير الذى بقلعة الجبل عند ظريب التبر .

قال الشيخ شمس الدين بن الوردي في ذلك : الملك الظاهر أخباره تشنف الراحل والقاطن تأملوا آثاره وانظروا ما فعل الظاهر بالباطن وأما من توفى في أيامه من أعيان العلماء فهم : شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه من أكابر علماء الشافعية ، وكان يلقب في أيامه بسلطان العلماء ، وكانت له كرامات خارقة ، ودفن بالقرافة الصغرى . وتوفى الامام أبو شامة وكان من كبار العلماء ، وتوفى قاضى القضاة الشافعى ابن بنت الأعز ، وتوفى الشيخ أبو الحسن ابن بنت الأعز ، وتوفى الشيخ مجد الدين ابن دقيق العيد والد الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد ، وتوفى القرطبى صاحب التذكرة ، وتوفى الشيخ ناصر الدين الطوسى ، وتوفى اللورقى وكان من كبار العلماء ، وتوفى غير هؤلاء من العلماء والأعيان جماعة كثيرة .

طلع القلعة رجعوا من المطرية وحاصروا السلطان وهو بالقلعة . فلما رأى من كان حول السلطان أن حاله قد تلاشى صاروا يتسحبون من القلعة وينزلون الى الأمراء الذين في الرميّة .

واستمر الحرب سائرا بين الأمراء وبين الملك السعيد سبعة أيام . فلما رأى الملك السعيد عين الغلب أرسل الى الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، فمشى بينه وبين الأمراء وقال : « ايش آخر هذا الحال ؟ وما قصدكم ؟ » فقالوا قصدنا يخلع نفسه من السلطنة ويمضى الى الكرك ويقيم بها . فرجع الخليفة الى السلطان وأخبره بذلك ... فخلع نفسه من الملك ، وشهد عليه القضاة بالخلع وخرج الى الكرك من وقته . وكان للتسفر عليه الأمير بيدغان الركنى المعروف بسم الموت .

وكانت مدة سلطنة الملك السعيد بالديار المصرية سنتين وشهرا وأياما ، وهو صاحب الحمام التى بالقرب من سوق الغنم .

سنة ثمان وسبعين وستمائة (٢١٧٩ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن الملك السعيد قد توفى الى رحمة الله تعالى ، وكان سبب موته أنه لعب بالكرة في ميدان قلعة الكرك ، فتقنطر به الفرس ، فانكسر ضلعه فمات من يومه . وكانت وفاته في أول هذه السنة ، ثم دفن هناك ، وقيل نقل بعد ذلك الى دمشق ، ودفن على أبيه الملك الظاهر بيبرس .

وكان الملك السعيد شابا جميل الصورة ، حسن الشكل ، كريما على الرعية .

ولما خلع الملك السعيد من السلطنة تولى بعده أخوه سلامش .

والده بدمشق فخامر عليه هناك جماعة من الأمراء — وقد بلغهم عنه أنه يريد قبض جماعة منهم — فلما تحققوا ذلك خرجوا من دمشق وتوجهوا الى المرج الأصفر وأقاموا هناك . فلما بلغ الملك السعيد ذلك أرسل اليهم بعض الأمراء ليمشى بينهم وبين السلطان بالصلح ، فأبوا عن ذلك وانفصل المجلس وكلهم مانع .

فلما عاد الجواب بالمنع ركبت خوند أم الملك السعيد — وكانت سافرت مع ولدها الملك السعيد الى الشام — فلما تغير خاطر الأمراء على السلطان ركبت خوند بنفسها وتوجهت اليهم في مكان يسمى الكسوة خارج دمشق . فلما اجتمعت بهم مشيت بينهم بالصلح فأبوا من ذلك ، فرجعت من عندهم والمجلس مانع .

ثم ان الأمراء الذين خامروا قصدوا أن يتوجهوا نحو الديار المصرية ، فلما بلغ الملك السعيد ذلك رحل من دمشق ، وأخذ من بقى معه من العسكر والأمراء وقصدوا التوجه الى القاهرة ، فجمع معه من عربان جبل نابلس جماعة كثيرة ، والتف عليهم جماعة من عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس . فلما وصل الى غزة أنفق عليهم الأموال ، فأخذوا منه النفقة ، وتسحب من عنده العربان وعسكر دمشق وطرابلس ، ولم يبق معه من العسكر المصرى الا القليل .

فلما خرج من غزة جد في السير حتى دخل المطرية . فلما بلغ الأمراء الذين كانوا بمصر مجيء السلطان على حين غفلة خرجوا اليه على حمية ، وكان من لطف الله تعالى في ذلك اليوم ضباب عظيم ، فستر الله تعالى الملك السعيد حتى طلع القلعة ونجا بنفسه . فلما بلغ الأمراء أن السلطان

الملك العادل

هو الملك العادل سيف الدين سلامش ، ابن الملك الظاهري بمرس البندقدارى ، وهو السادس من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويغ بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك السعيد ، وكان له من العمر لما تسلطن سبع سنين ونصف ، وكان يعرف بابن البدوية . وكان جلوسه على سرير الملك فى ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وكان القائم بتدبير مملكته قلاون الألفى وكان يخطب له وللعاقل سلامش على منابر مصر وأعمالها ، وضربت السكة باسمهما ، وكان فى الحقيقة قلاون هو السلطان ، والسلطان ليس له الا مجرد الاسم ، والأمر كله لقلاون .

وكان الأمير بيسرى يشارك قلاون فى أمور السلطنة ، ولكن كان الأمير بيسرى مغرما بحب الصيد والخروج الى السرحات ، وكان الأتابكى قلاون يمهّد لنفسه فى الباطن ، وأرسل بعزل النواب عن البلاد الشامية ، وولى من يشق به من خشداشينه . ثم انه قبض على جماعة من الأمراء الظاهرية وأرسلهم الى السجن بشعر الاسكندرية . فلما صفا له الوقت خلع الملك العادل سلامش من السلطنة ، وأرسله الى قلعة الكرك ، وأرسل معه أخاه سيدى خضرا فأقاما فى الكرك مدة ثم نقلهما الملك الأشرف خليل بن قلاون الى القسطنطينية فكانت مدة سلطنة الملك العادل سلامش بالديار المصرية خمسة أشهر وأياما .

ولما خلع سلامش من السلطنة تولى من بعده قلاون .

الملك المنصور قلاون

هو الملك المنصور سيف الدين قلاون ، أبو المعالى الألفى ، الصالحى النجمى ، وهو السابع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تسلطن بعد خلع الملك العادل سلامش فى يوم الأحد ثامى عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وتلقب بالملك المنصور ، وجلس على سرير الملك فى اليوم المذكور .

وكان أصله من ممالك آق سنقر الكاملى ، ثم قدمه الى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب المدرسة الصالحية ، فأعتقه فى أثناء سنة سبع وأربعين وستمائة . فلما تم أمره فى السلطنة أنعم على جماعة من خشداشينه بتقادم ألفوف — وهم : طرنطاي ، وكتبغا ، ولاچين ، وقفجق ، والشجاعى ، وأبيك الخازندار ، وطقصو ، وطغرل الايغاني ، وبلبان الطباخ ، وأقوش الموصلى ، وسنقر جركس وازدمر العالئى ، وقلجق وايدمر الطباخ ، وقيران الشهابى ، ومحمد الكوراني ، وابراهيم الجاكى — ثم أمر بالافراج عن جماعة من الأمراء الذين كانوا فى السجن بشعر الاسكندرية ، منهم الأمير أبيك الأفرم ، فخلع عليه واستقر به نائب السلطنة وأقام فى النيابة مدة يسيرة ، ثم استعفى من ذلك فأعفاه السلطان ورتب له ما يكفيه ، ولزم بيته .

ثم ان السلطان خلع على مملوكه طرنطاي واستقر به نائب السلطنة عوضا عن أبيك الأفرم ، وخلع على الأمير سنقر الأشقر واستقر به نائب الشام . فلما أن دخل الى الشام خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ، ثم انه تسلطن هناك وقبلوا له الأرض يدمشق وتلقب بالملك الكامل ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ، ثم فلت عنه الناس واضمحلت أمره وقصد

أمراء الشام أن يقبضوا عليه فهرب الى صهيون .
سنة تسع وسبعين وستمائة (١٢٨٠ م) :

فيها جاءت الأخبار أن ملك التتار زحف على البلاد ، وأرسل أخاه منكوتمر في جاليش العسكر ، وقد وصلوا الى حلب وملكوا ضياعها وأشرفوا على أخذ المدينة . فلما بلغ الملك المنصور قلاون الألفى ذلك خرج بنفسه ، هو والأمراء ، على جرائد الخيل . فلما وصل الى غزة جاءت الأخبار بأن منكوتمر أخا أبغا — لما بلغه مجيء السلطان — نهب البلاد ، وأحرق الضياع ، وقتل الرعية ، وآذى البرية ... ثم رجع الى بلاده .

فلما بلغ السلطان رجع من غزة الى القاهرة ، فجاءت الأخبار بأن التتار رجعوا الى حلب وأفحشوا في حق الرعية أعظم ما فعلوا في الأول ، فخرج اليهم السلطان ثانيا ، وجد في السير فتلاقى مع عسكر التتار على المرج الأصفر ، فكان بينهما واقعة عظيمة ، وذلك في أوائل سنة ثمانين وستمائة ، فكانت النصر للملك المنصور قلاون ، فتقنطر منكوتمر أخو أبغا الى الأرض ، فأحاط به التتار حتى حملوه وهربوا به ، فوقع النهب في عسكر التتار وولوا منهزمين ، وقد غنم منهم عسكر السلطان ما لا يحصى من سلاح وخيول وقماش وغير ذلك ... وكانت هذه الواقعة من الوقعات المشهورة .

ثم ان السلطان قصد التوجه الى نحو القاهرة ، فدخلها في موكب عظيم ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ومشت الأمراء بين يديه حتى طلع القلعة .

سنة احدى وثمانين وستمائة (١٢٨٢ م) :

فيها صفا الوقت للسلطان ، فقبض على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير يسرى ، والأمير بكتوت الشمسى ، والأمير كشغندى ، وجماعة كثيرة من

المماليك السلطانية ومن خشداشينه ، وشرع في انشاء ممالك ، وأنعم عليهم بتقادم ألوف ، وبالاقطاعات السنية .

وفيها تزوج السلطان الملك المنصور قلاون بخوندا شلون بنت الأمير شنكاي ، فكان له مهم عظيم بالقلعة ، وزقت عليه .

وفي هذه السنة توفي مجير الدين محمد بن تميم الدمشقى ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

وليلة بت أسقى في غياهاها
راحا تسلى شبابى من يد الهرم

ما زلت أشربها حتى نظرت الى
غزاة الصبح ترعى نرجس الظلم

وفيها توفي الشيخ بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى ، وكان من أعيان الشعراء ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله في معذر وقد ضمن المثل السائر :

صدوا وقد دب العذار بخده
ما ضرهم لو أنهم جبروه
هل ذاك غير نبات خد قد حلا
لكنهم لما حلا هجروه

سنة اثنتين وثمانين وستمائة (١٢٨٣ م) :

فيها ابتداء السلطان الملك المنصور قلاون بعمارة القبة التى بين القصرين والمدرسة ، وأضاف الى ذلك قاعة القنطين وسماها البيمارستان المنصورى . وقيل انتهى منها العمل فى مدة عشرة أشهر على ما نقله المؤرخون ، وجعل لها فى كل يوم من الرواتب ألف دينار ، ووقف عليها أوقافا كثيرة من ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك ، وشرط فى وقفه أشياء كثيرة من أنواع البر والخير مما لم يسبق فعله لأحد من الملوك من قبل ومن بعد ، فكان كما قال القائل :

تمشى الملوك على آثار غيرهم
وأنت تخلق ما تأتى وتبتدع
فهو من حسنات الزمان ... تحتاج اليه الملوك ،
ويفتقر اليه الغنى والصعلوك .

قيل : وكان سبب بناء البيمارستان هذا أن الملك
المنصور قلاوون أمر مماليكه بأن يضعوا السيف في
العوام لأمر أوجب تغير خاطر السلطان عليهم ،
فأنهم خالفوا أمره في شيء فعله بجهلهم ، فأمر
بقتلهم ، فلعب فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتل في هذه
المدة ما لا يحصى عدده ، وراح الصالح بالطالح
وربما عوقب من لم يجن .

فلما زاد الأمر عن الحد ، طلع القضاة ومشايخ
العلم الى السلطان وشفعوا فيهم ، فعفا عنهم ،
وكف عنهم القتل . فلما جرى ما جرى ، وراق
خاطر السلطان ندم على ما فعله ، وبني هذا
البيمارستان ، وجعل له جملة أوقاف على رواتب
بر وإحسان ، وفعل من أنواع الخير ما لا يفعله
غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس لعل
الحسنات تذهب السيئات كما قال الله تعالى .

سنة ثلاث وثمانين وستمائة (١٢٨٤ م) :

فيها خرج السلطان الى نحو البلاد الشامية ،
فوصل الى حصن المرقب ، ونصب المجانيق ،
وحاصره مدة ثمانية وثلاثين يوما ، فطلب أهله
الأمان ، فأخذ بالأمان ، ثم رجع الى الديار
المصرية .

سنة أربع وثمانين وستمائة (١٢٨٥ م) :

فيها أرسل السلطان الأمير طرنتاي نائب
السلطنة الى حصار منقر الأشقر الذي كان نائب
الشام ، وأظهر العصيان وتسلطن هناك كما تقدم .
فلما وصل الأمير طرنتاي الى نحو صهيون حاصر

سنقر الأشقر أشد المحاصرة ، فلما رأى سنقر
الأشقر عين الغلبة ، أرسل يطلب من الأمير طرنتاي
الأمان ، فأجابه الى ذلك . فلما وثق منه بالأمان
نزل اليه من قلعة صهيون ، فحلف له الأمير
طرنتاي أنه اذا توجه الى السلطان لا يشوش
عليه ، ولا يحصل منه الا كل خير ... فأخذ عياله
وأولاده وتوجه صحبة الأمير طرنتاي الى نحو
الديار المصرية . فلما بلغ السلطان معجى منقر
الأشقر خرج الى تلقيه . فلما وصل الى مسجد
التين بالقرب من المطرية ، تلاقى هو وسنقر الأشقر
هناك . فلما وقعت عين سنقر الأشقر على السلطان
نزل عن فرسه ، ونزل السلطان أيضا ، وتعانقا .
فبكى سنقر الأشقر وطلب الأمان من السلطان ،
فأعطاه منديل الأمان فوضعه على رأسه . ثم ركبا
وتوجها الى القلعة في موكب عظيم ، وسنقر الأشقر
راكب الى جانب السلطان . فلما طلعا الى القلعة ،
خلع عليه ونزل الى مكان قد أعد له ، ونزل معه
سائر الأمراء الى ذلك المكان ثم انصرفوا ، وكان
ذلك في يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول من سنة
أربع وثمانين وستمائة .

سنة خمس وثمانين وستمائة (١٢٨٦ م) :

فيها قبض السلطان على مملوكه الأمير علم
الدين منجر الشجاعى ، وصادره واحتاط على
موجوده ، واستصفى أمواله بعد أن عصره
بالمعاصير حتى كسر رجله ، وخلعه من الوزارة ،
ثم خلع على مملوكه الأمير بدر الدين بيدرا
المنصورى ، واستقر به وزيرا عوضا عن منجر
الشجاعى .

وفي هذه السنة توفى الشيخ محيى الدين بن
قرناص الحموى ، وكان من فحول الشعراء وله
شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

أيا حسنهما روضة قد غدا
جنوني فنسونا بأفتانها
أتى الماء فيها على رأسه
لتقيل أقدام أغصانها

سنة ست وثمانين وستمائة (١٢٨٧ م) :

فيها توعك المقام العلائى نور الدين على ، ولد
السلطان الملك المنصور قلاون ، وكان والده
المنصور ولاء السلطنة في أيام حياته ، وركب
بشعار السلطنة وجلس على سرير الملك وقبل له
الأمراء الأرض ، وجلس الى جانب والده قلاون .
وكان سبب سلطنته أن الملك المنصور قلاون كان
كثير الأسفار الى نحو البلاد الشامية ، فسلطن
ولده نور الدين عليا ولقبه بالملك الصالح ليكون
عوضه في مصر اذا سافر الى البلاد الشامية ،
فأقام على ذلك مدة في حياة والده ثم ان الملك
الصالح عليا مرض مرضا شديدا بحمى الكبد
حتى أشرف على الموت .

سنة سبع وثمانين وستمائة (١٢٨٨ م) :

فيها ثقل على الملك الصالح على المرض وتفل
الدم . فلما كانت ليلة الجمعة رابع شهر شعبان
سنة سبع وثمانين وستمائة ، توفي الملك الصالح
على الى رحمة الله تعالى . فلما مات حزن عليه
والده الملك المنصور حزنا شديدا ، وكان الأمراء
جلوسا على باب الستارة ينتظرون ما يكون من
أمره . فلما وقع الصراخ في دور الحرم دخل الأمير
طرنطاي نائب السلطنة فوجد السلطان مكشوف
الرأس وكلوته مرمية على الأرض وهو يبكي
ويصيح . فلما رآه الأمير طرنطاي على هذه
الحالة رمى الآخر كلوته عن رأسه ، ثم ان بقية
الأمراء دخلوا على السلطان ، وألقى الكل كلوتاتهم
عن رؤوسهم وأقاموا على ذلك ساعة ، ثم ان الأمير
طرنطاي النائب أخذ كلوة السلطان في يده وقبل

الأرض هو والأمير سنقر الأشقر الذى تسلطن
بدمشق ، وناولها للسلطان ، فدفعه وقال : « ايش
بقيت أعمل بالملك بعد ولدى ؟ » ... ثم صبروا له
ساعة ، وقام الأمراء جميعا كلهم وقبلوا الأرض
ووضعوا كلوة السلطان على رأسه .

واستمر العزاء قائما في تلك الليلة . فلما
أصبحوا يوم الجمعة أخذوا في أسباب تجهيزه ،
فأخرجوه وصلوا عليه عند باب الستارة ، ثم
نزلوا به من باب المدرج ، فأراد السلطان أن
يمشى في الجنازة فمنعه الأمراء من ذلك . فكان له
مشهد عظيم ، وذلك في يوم الجمعة قبل الصلاة ،
فمشت قدامه الناس قاطبة الى تربة والدته
خوند خاتون التى في طريق السيدة نفيسة بجوار
المدرسة الأشرفية ، فدفن هناك .

فلما أصبح يوم السبت نزل السلطان الى زيارة
قبر ولده وجلس عنده في ذلك اليوم ، واستمر
الميتم متندا سبعة أيام .

ولما مات السلطان الملك الصالح على ، خلف
ولدا ذكرا يسمى الأمير موسى ، وهو صاحب
الربع الذى في الغرابلين . ومات الملك الصالح
وله من العمر نحو عشرين سنة . وكان والده
قلاون أشركه في السلطنة من سنة تسع وسبعين
وستمائة ، واستمر على ذلك حتى مات في سنة
سبع وثمانين وستمائة ، فكان أكبر أولاد قلاون .
قال ابن خلكان ^١ : لما مات السلطان الملك الصالح
كتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب
السر الشريف عن لسان أبيه الملك المنصور قلاون
الى نائب الشام وغيره من النواب مطالعات ،
ضمنها ما جرى على السلطان من فقد ولده ، فقال

(١) انظر هذا : فان ابن خلكان توفى سنة ٦٨١ والملك الصالح
توفى سنة ٦٨٧ .

عن لسان والده : « نحمد الله تعالى على حزن
حزنا به بالصبر أجورا فاخرة ، فكان قصدنا أن
نجعله ملكا في الدنيا فاختار الله تعالى أن يكون
ملكاً في الآخرة » .

وفي هذه السنة توفي الشيخ ناصر الدين
ابن النقيب ، وكان من أعيان شعراء مصر ، وله
شعر جيد في نوع التورية ، فمن ذلك قوله :

جودوا لنسجع بالمديح على علاكم سرمداً
فالطير أحسن ما يغرد عند ما يقع الندى

سنة ثمان وثمانين وستمائة (١٢٨٩ م) :

فيها في ثالث عشر صفر خرج السلطان على حين
غفلة الى نحو البلاد الشامية ، وتوجه نحو
طرابلس ، وحاصر أهلها ونصب على سورها
المجانيق ، واستمر يحاصرها أربعة وثلاثين يوماً
ففتحتها بالسيوف عنوة في يوم الثلاثاء رابع عشر
ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وستمائة ،
فوردت البشائر الى الديار المصرية بفتح مدينة
طرابلس وجبيل . ثم ان السلطان عاد الى الديار
المصرية فزينت له وحملت على رأسه القبة والظير ،
وكان له يوم مشهود لم يسمع بمثله .

وفيها جاءت الأخبار بأن ملك النوبة هجم على
مدينة أسوان ونهب أسواقها وأحرق جرونها ،
فجرد اليه الأمير أيبك الأفرم ، فلما أن وصل
الى هناك هرب منهم ملك النوبة ، فتبعه العسكر
والأمير عز الدين أيبك الأفرم الى آخر بلاد
النوبة ، فغنموا منهم أشياء كثيرة — من عبيد
وجوار وخيول وغير ذلك — ورجع العسكر الى
الديار المصرية وهم في غاية النصر .

وفي هذه السنة توفي الشيخ ظهير الدين بن
البارزى الدمشقي ، وكان عالماً فاضلاً وله شعر
جيد ، فمن ذلك قوله :

يذكرني وجد الحمام اذا غنى
لأنا كلبنا في الهوى نعشق الغصنا

سنة تسع وثمانين وستمائة (١٢٩٠ م) :

فيها عزم السلطان الى العود الى السفر ليحاصر
مدينة عكا . فخرج من القاهرة في ثامن عشر شوال
من السنة المذكورة ، فلما نزل بالريدانية وأقام بها
حتى يتكامل خروج العسكر ، وجد في جسده
توعكاً وحماً ، فصار الأمر في كل يوم يتزايد
عليه حتى ثقل في المرض . وكان الملك المنصور
قلاون لما مات ولده الملك الصالح على ، عهد من
بعده الى ولده خليل ولقبه بالأشرف . فلما سلسل
السلطان ، اضطربت الأحوال ، وصار ولده خليل
ينزل اليه من القلعة في كل يوم ويتفقد أحواله ثم
يرجع الى القلعة . وكانت الأمراء يدخلون على
السلطان في كل يوم صحبة الحكماء . فلما زاد
الأمر على السلطان وتغير حاله منع الأمير طرناي
الأمراء من الدخول على السلطان .

فلما تحقق الأمراء موت السلطان جاءوا الى
الأمير طرناي النائب وقالوا له : « أنت تعلم
ما بينك وبين ولد السلطان من حظوظ النفس من
أيام والده . وقد صار الأمر اليه والسلطان ما بقي
يرجى . ومتى صار الحكم الى ولده فهو قاتلك
لا محالة ... فبادر اليه وأمسكه قبل أن يمسكك
ونحن كلنا عصبتك » ... فسكت الأمير طرناي
ساعة وقال : « كيف أمسك ابن أستاذي أو
أقتله ؟ فايش يشاع على بين الناس ؟ ولكن أنا
مملوك السلطان ومملوك ولده . فان رضييني
وأبقاني على حالي كان الفضل له ، وان قتلني
صرت شهيداً من جملة الشهداء » .

ثم ان السلطان قلاون دخل في النزاع ، فجلس
الأمير طرناي عند رأسه حتى مات وغمضه بيده .

فيه من وجوه البر والصدقات ووقف الأوقاف
الجليلة ، وشرط في وقفه ما لم يشترطه أحد من
الملوك قبله ولا بعده ، وقد كفاه ذلك شرفا في
الدنيا والآخرة .

ومن محاسنه أنه غير تلك الملابس الشنيعة التي
كانت تلبسها العسكر في الدول القديمة . قيل كانت
كلوتاتهم من الصوف الأزرق الغميص ، وهي
مضربة عريضة بغير شاش . وكانت الممالك تربي
لهم ذوائب من الشعر خلفهم ويجعلونها في أكياس
حرير أحمر أو أصفر ، وكانوا يشدون في أوساطهم
بنودا بعلبكية عوضا عن الحوائص ، وكانت
خفافهم برغالي أسود ، وكانوا يشدون فوق قماشهم
ابزيم جلد وفيه حلق نحاس وفيها صوالق برغالي
أسود ، وهي كبار يسع الصولق الواحد نصف
ويبة قمح ، وكان لهم في ذلك الابزيم معلقة من
الخشب كبيرة وسكين كبيرة ، وكانت لهم مناديل
من الخام قدر فوطة كبيرة لمسح أيديهم . وكانوا
يربون لهم شوارب قدر السلفة الكتان . فلما تولى
الملك المنصور قلاون أمر العسكر أن يغيروا هذه
الملابس الشنيعة ، ويدخلوا في الهيئة المطبوعة
وكانت خلع المقدمين من العنتابي ، فأمر لهم بالخلع
المخلع الأحمر والأخضر بالقرو السمر . وهو
أول من أسكن الممالك في أبراج القلعة وسماهم
الممالك البرجية .

وأما ما افتتحه الملك المنصور قلاون في أيامه
من الفتوحات فهو المرقب وجبله من بلاد الافرج ،
وفتح طرابلس الغرب ، واللاذقية ، وجبيل ،
والكرك والشوبك ... كانت بيد أولاد الملك
بيبرس البندقداري فأخذها منهم .

وأما ما أبطله في أيامه من المظالم ، فهو أنه كان
من قديم الزمان وظيفة تسمى ناظر الزكاة — وهو
من يأخذ ممن عنده مال زكاته — فإن مات ذلك

فلما أصبح الصباح جاءت الأمراء على العادة فلم
يمكنهم من الدخول على السلطان . ثم انه أرسل
خزائن المسال والأطلاب التي كانت مع السلطان
برسم السفر . ثم ان الأمير طرنتاي أرسل عرف
ولد السلطان الملك الأشرف خليل أن والده قد
مات ، وأشار عليه أنه يقيم في القلعة ولا ينزل ،
ووكل به مقدم الممالك .

ثم ان الأمير طرنتاي حمل السلطان قلاون وهو
ميت في محفة وطلع به الى القلعة بعد المغرب ،
فغسله وكفنه ونزل به في تابوت بعد العشاء
والأمراء والقضاة وأعيان الناس مشاة قدامه .
وكرر عليه الحزن والأسف من الناس الى أن
وصلوا به الى البيمارستان ، فصلوا عليه هناك
ودفن داخل القبة التي بين القصرين . وكانت وفاته
يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين
وستمائة ، ودفن في ليلة الأحد ، وكانت مدة
تويعه تسعة عشر يوما . وكانت مدة سلطنته
بالديار المصرية والبلاد الشامية إحدى عشرة سنة
وثلاثة أشهر وستة أيام ، فمات وكأنه لم يكن ...
فكان كما قيل في المعنى :

كل ابن أثى وان طالت سلامته

يوما على آلة حديد محمول

ولما مات الملك المنصور قلاون خلف من الأولاد
ثلاثة ذكور ، وهم : الأشرف خليل ، والناصر
محمد ، والأمير أحمد ولد بعد وفاة أبيه .

وكان المنصور قلاون حسن الشكل ، مربع
القامة ، ذرى اللون . وكان قليل الكلام بالعربي ،
وكان شجاعا بطلامقدا في الحرب ، وكان مغرما
بمشتري الممالك حتى قيل انه تكامل عنده اثنا
عشر ألف مملوك ، وقيل سبعة آلاف مملوك .
ومما يدل على علو همته وحسن اعتقاده عمارة
البيمارستان الذى بين القصرين ، ولا سيما ما فعله

الرجل صاحب المال أو عدم ماله فيتهم ذلك القدر المقرر عليه في الدفاتر باقيا يؤخذ من أولاده أو من ورثته أو من أقاربه ولو بقى منهم واحد ... فأبطل الملك المنصور قلاون ذلك الى يومنا هذا وسطر في صحائفه .

ومما أبطله من المظالم أيضا أنه كان يؤخذ مال من أهل مصر للمبشرين اذا حضروا يبشرون بفتح حصن أو بنصرة عسكر أو بما أشبه ذلك ، وكان يجبى من أهل مصر على قدر طاقتهم في السعة ، فأبطل ذلك .

وكان يجبى من أهل مصر عند وفاء النيل المبارك ثمن الحلوى والفاكهة والشوى ، يرسم السباط الذى يوضع في المقياس يوم الوفاء ، فأبطل ذلك عن الناس جميعه ، وجعل مصروفه من بيت المال ، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط . وكان من أجل ملوك الترك قدرا ، وأعظمهم أخبارا وذكر .

وأما من توفى في أيامه من أعيان العلماء ومشايخ الاسلام ، فمن ذلك الامام العلامة محبى الدين النووى الشافعى رضى الله عنه ، وهو صاحب كتاب المنهاج . قال الشيخ شمس الدين الذهبى : ان الشيخ محبى الدين توفى وله من العمر نحو أربعين سنة ، ودفن بنوى وهى بلده . وقد رثاه الشيخ زين الدين ابن الوردى المعرى بهذه الأبيات :

لقيت خيرا يا نوى
ووقيت من ألم النوى
فلقد ثوى بك عالم
لله أخلص ما نوى
وعلا علاه بفضل

فضل الحبوب على النوى
وتوفى أيضا الشيخ برهان الدين الشافعى ابن

جماعة ، والشيخ شمس الدين ابن خلكان المؤرخ ، والشيخ ناصر الدين ابن المنير ، والشيخ جمال الدين الشريشى شارح مقامات الحريرى ، وتوفى ابن النحاس النحوى ، وتوفى علاء الدين ابن النفيس شيخ الأطباء ، وتوفى غير ذلك من أعيان الناس ومن العلماء جماعة كثيرون .

ولما توفى الملك المنصور قلاون تولى من بعده ابنه الأشرف خليل .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف ، صلاح الدين خليل ، ابن الملك المنصور قلاون الألفى الصالحى ، وهو الثامن من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تولى الملك بعهد من أبيه قبل وفاته ، وجلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه قلاون ، وذلك في يوم الأحد سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ، وكان مولده في سنة ست وستين وستمائة . فلما قام بشعائر السلطنة نزل من القلعة الى الميدان الذى تحت القلعة . وكان سبب نزوله الى الميدان أن الأمراء تخلوا من طلوعهم الى القلعة ، فلم يطلع منهم أحد الى القلعة ، فنزل السلطان — وهو بشعائر الملك — فجلس هنالك على كرسى ، واستحلف له سائر الأمراء ، فلما حلقوا له خلع في ذلك اليوم على الأمير علم الدين سنجر الشجاعى واستقر به وزيرا كما كان في أيام والده .

وكان الأشرف خليل كفؤا للسلطنة ، وجاء فيها كما ينبغي في الحرمة والعظمة والشهامة ، وفيه يقول القائل محمد بن غانم الشاعر :
مليكان قد لقبا بالصلاح
فهذا خليل وذا يوسف
فيوسف لا شك في فضله
ولكن خليل هو الأشرف

فلما تم أمره في السلطنة ، وتلقب بالملك
الأشرف ، عمل الموكب ، ثم قبض على الأمير
طرنطاي نائب السلطنة ، وكان بينه وبين الأمير
طرنطاي عداوة قديمة من أيام والده . وكان
الشجاعى يكره الأمير طرنطاي ، فحسن للسلطان
القبض عليه ، فقبض عليه في ذلك اليوم وحمل الى
الاعتقال ... فكان الأمر كما قالت الأمراء للأمير
طرنطاي : ان الأشرف خليلا يقبض عليه . فلما
قبض عليه ندم الأمير طرنطاي الذي ما قبض على
الأشرف خليل قبل أن يتسلطن ، كما قيل في المعنى :
احذر من الناس ، ولا

معترك الشك تجل

في قلب ليث بت ... وخف

ان بت في قلب رجل

فأقام الأمير طرنطاي بالسجن في القلعة ثلاثة
أيام ، ثم ان السلطان أمر بقتله فخنق وهو في
السجن ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفن تحت
الليل في القرافة الصغرى .

ثم ان السلطان رسم للشجاعى بأن يحتاط على
موجود الأمير طرنطاي ، فنزل الشجاعى الى بيت
طرنطاي ، ورسم على مباشره ، وقبض على جميع
من كان من حاشيته ، وقبض على نسائه وسراريه ،
وأحضر لهم المعاصير وعصرهم وقررهم على الأموال
والذخائر ... فكان الشجاعى ينزل في كل يوم الى
بيت الأمير طرنطاي ويقرر جماعته ونسائه ويعاقبهم
أشد العقوبة ، فظهر له من الأموال والتحف ما لم
يسمع بمثله ، فطلعوا بذلك جميعه الى الخزائن
الشريفة .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الأمير
بيدرا واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير
طرنطاي النائب .

فلما قتل الأشرف خليل الأمير طرنطاي صفا له

الوقت ، فأرسل خلف القاضى شمس الدين بن
السلوس — وكان بالحجاز من أيام الملك المنصور
قلاون — بالحضور ، وحشاه بخط يده بالقلم
العريض بين السطور وهو يقول : « يا شعير اجد
السير ، جاء الخير » ... وكان الأشرف خليل كثيرا
ما يحشى في مراسيمه بقلم العلامة .

وحشى أيضا مرسوما وأرسله الى دمشق لما أمر
باسقاط ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل من
باب الجابية من القمح خمسة دراهم من المكس ،
فرسم بإبطال ذلك وكتب في مرسومه بين السطور :
« وقد أمرنا بأن تكشف عن رعايانا هذه الظلامة ،
ونستجلب بذلك الدعاء الينا من الخاصة
والعامة » ... فهو أول سلطان حشى في مراسيمه
بين السطور بخطه بيده .

فلما حضر شمس الدين ابن السلوس من مكة
الى القاهرة ، خلع عليه واستقر به وزيرا مستشار
المملكة ، وفوض اليه أمر السلطنة جميعها ، وأحال
الناس في أشغالهم عليه ، وفصل الشجاعى من
الوزارة . وكان حضور شمس الدين ابن
السلوس من مكة في ثالث عشر المحرم مستهل
سنة تسعين وستمائة ، وقد حضر صحبة مبشر
الحاج على الهجن ، وجد المسير حتى حضر الى
مصر .

قيل : وكان أصل ابن السلوس هذا من
دمشق ، وكان تاجرا بها ، فحضر في بعض السنين
الى مصر ، وكان له خط جيد ، فسعى عند الأشرف
خليل — وهو أمير في أيام والده قلاون — فجعله
ناظر ديوانه ، وصار يستأجر له مواضع كثيرة في
البلاد الشامية ، فيتحصل منها كل سنة جملة من
المال ، فحظى ابن السلوس عند الأشرف حتى
صار نديمه ولا يصبر عنه ساعة واحدة ، واحتوى
على عقله وملك له ... فلما بلغ الملك المنصور
قلاون ذلك ، أمر بنفى ابن السلوس الى مكة ،

فأقام بها الى أن مات المنصور قلاون وتسلطن ابنه خليل ، فأرسل نحو ابن السعلوس نجابا مطردا كما تقدم . فلما حضر واستقر به وزيرا فوض اليه جميع أحوال المملكة ، فكان يركب ، ومعه جماعة من الأمراء الرؤوس النواب والمماليك السلطانية في كل يوم حسبما رسم له السلطان بذلك ، وكانت القضاة الأربعة تركب قدامه في أيام الموكب ، وعظم أمره حتى صارت القصص تقرأ عليه ، وينفذ أمرها من غير مشورة السلطان ، فأظهر من الكبرياء والعظمة ما لم يظهره غيره ، وانفرد بالكلمة في مصر دون غيره ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية والبلاد الشامية ، وصار يجتمع بالسلطان في الليل في خلوة ويقضى أشغال الناس من سهلها لصعبها ، كما قيل في المعنى :

ملك اذا قابلت بشر جبينه
فارقته والبشر فوق جبينى
واذا لثمت يمينه وخرجت من
أبوابه لثم الملوكة يمينى

سنة تسعين وستمائة (١٢٩١ م) :

فيها جرد السلطان وخرج بنفسه هو والعساكر الى حصار مدينة عكا وكانت بيد الافرنج . فلما وصل الى عكا حاصر أهلها أشد المحاصرة ، ونصب حول المدينة خمسة وسبعين منجنيقا ، وحاصرها مدة أيام فأعطاء الله النصر وفتحها بالسيف في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة . فلما افتتحها هدم سورها وقلعتها . وكانت عكا بيد الافرنج ، وكانوا يقطعون على المسافرين الطريق ، ويأخذون أموال التجار ، ويقتلون كل من لقوه من المسلمين . فلما فتح الملك الأشرف خليل مدينة عكا توجه من هناك الى جبتي وبيروت ، فافتتحها في تلك السنة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه : ان عكا كانت من أحسن المدائن في العمارة والبناء الفاخر . فلما فتحها الملك الأشرف خليل وهدم سورها هرب أهل المدينة منها وصارت خرابا من يومئذ ، وصار الناس من حينئذ ينقلون منها الرخام الملون مدة طويلة . ومن جملة ما نقل منها الباب الرخام الأبيض الذى على المدرسة الناصرية التى بين القصرين ، وكان هذا الباب على كنيسة ، فنقل الى القاهرة فأخذه الملك الناصر ابن قلاون ووضعه على باب مدرسته التى أنشأها بجانب البيمارستان . قيل لما فتحت عكا قتل في مدة المحاصرة من الأمراء اثنا عشر أميرا ، وقتل بها العزى تقيب الجيوش المنصورة ، وهو صاحب سويقة العزى سميت به . وقتل يوم الفتح من المماليك السلطانية نحو مائة وعشرين مملوكا .

ثم ان الملك الأشرف خليلا لما فتح عكا رجع الى الديار المصرية وهو في غاية النصر والعظمة ، فدخل من باب النصر ، وشق في المدينة وزينت له . وكان يوم دخوله يوما مشهودا والأمراء مشاة بين يديه ، والأمير بيدرا نائب السلطنة حامل القبة والطير على رأسه ، ولعبوا بالغواشي الذهب بين يديه . وكان القضاة الأربعة وأرباب الوظائف راكبين بين يديه ، وكان له موكب عظيم . فلما وصل الى البيمارستان ثنى عنان فرسه ونزل وزار قبر والده قلاون ، ثم ركب وطلع الى القلعة ، فخلع على الأمراء ونزلوا الى بيوتهم ، وانفض الموكب .

ومن غرائب الاتفاق أن الشيخ شرف الدين الأبوبصيرى — ناظم البردة — رأى في منامه ، قبل مسير الملك الأشرف خليل الى حصار عكا في شوال سنة تسع وثمانين وستمائة ، كأن قائلا ينشد هذه الأبيات :

قد أخذ المسلمون عكا
وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا اليهم
خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت
لن يتركوا للفرنج ملكا

فلما اتبه الشيخ شرف الدين من منامه أخبر
بهذه الرؤيا جماعة من أصحابه . فلما توجه الأشرف
خليل الى عكا فتحها الله على يديه ، فكان الأمر
كما قال الهاتف في منامه ، وأخذت عكا . وفي ذلك
يقول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر — كاتب
السر الشريف — هذين البيتين :

يا بني الأصفر قد حل بكم
تقمة الله التي لا تنفصل
نزل الأشرف في ساحلكم
فأبشروا منه بصك متصل

ولما رجع الملك الأشرف من هذه الغزوات ، عظم
في نفسه ، واستخف بالأمرء ، فأخذ في أسباب
لقبض على جماعة منهم ، فقبض على الأمير حسام
الدين لاجين السلحدار ، وكان نائبا . فلما رجع
مع السلطان الى الديار المصرية بعد فتح عكا قبض
عليه وقيده وأرسله الى السجن بقلعة صنفد ، ثم
أمسك الأمير سنقر الأشقر الذي كان قد تسلطن
بدمشق كما تقدم ، وقبض على الأمير طقصو ،
وقبض على الأمير جرمك ، ثم قبض على أميرين
ما يحضرني اسماهما ثم أرسل خلف الأمير لاجين
الذي كان في السجن بقلعة صنفد ، فلما حضر أكملهم
سبعة من الأمرء وسجنهم بقلعة الجبل في برج
الحية . فلما كانت ليلة الأحد أمر بخنق هؤلاء
الأمرء جميعهم ، فخنقوا في البرج تحت الليل .
فلما أخرجوهم ليدفنوهم وجدوا الأمير لاجين نائب

الشام فيه بعض نفس ، فأخبروا السلطان بذلك ،
فعطف عليه وأمر بأن يفرج عنه ، فكان كما قيل :
« الحى مالمو قاتل ، ولو قتل ما مات » ... وكيف
يموت وقد كتب الله له في اللوح المحفوظ أن يكون
سلطانا بمصر كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ؟
فلما عوفي الأمير لاجين أنعم عليه السلطان بتقدمة
ألف .

ثم ان السلطان أمر بالافراج عن الأمير يسرى ،
وكان في السجن بشعر الاسكندرية . وكان سبب
ذلك أن السلطان لما حضر من السفر ومر بالمدينة ،
واجتاز أمام قصر يسرى الذى كان تجاه المدرسة
الكاملية ، وقف له أولاد الأمير يسرى تحت القصر
وقبلوا له الأرض — وكانوا ستة أولاد ذكور صغار
وفيه من هو رضيع — فقال السلطان : « من
هؤلاء ؟ » . فقال له الأمرء : « هؤلاء أولاد
مملوكك يسرى » ... فرق لهم السلطان ، وقال
لهم : « يحصل الخير ان شاء الله » . فلما طلع
القلعة وجرى لهؤلاء الأمرء ما جرى ، أفرج عن
الأمير يسرى وأنعم عليه بتقدمة ألف .

سنة احدى وتسعين وستمائة (١٢٩٢ م) :

فيها توجه السلطان الى نحو الشام ، فأقام بها
مدة أيام ، ثم توجه الى نحو حلب ، ثم توجه من
حلب الى قلعة الروم وحاصر أهلها ونصب حول
المدينة ثلاثة وعشرين منجنيقا ، ففتحها بالسيف في
يوم السبت حادى عشر رجب من سنة احدى
وتسعين وستمائة ، وكانت قلعة الروم كرمى مملكة
الأرمن . ثم رجع السلطان الى نحو الديار المصرية ،
وطلع قلعة الجبل .

سنة اثنتين وتسعين وستمائة (١٢٩٣ م) :

فيها خرج السلطان على حين غفلة على الهجن ،

فلما خرج من القاهرة توجه الى نحو الكرك ، فاستقر بالأمير اقوش نائبا . ثم توجه من هناك الى دمشق ، فعرض عليه العسكر بدمشق ، وعين جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ليتوجهوا الى نحو سيم . فلما وصلوا الى سيم أرسل صاحب سيم يطلب الأمان ، فأرسل الأمراء يكتابون السلطان بذلك ، فعاد الجواب من السلطان : « ان كان صاحب سيم يسلم هذه الثلاث قلاع — وهى قلعة البهنسا وقلعة مرعش وتل حمدون — فأعطوه الأمان . وان لم يسلم هذه الثلاث قلاع فحاصروه » ... فلما وصلت مراسيم السلطان بذلك سلم صاحب سيم تلك القلاع الثلاث ، وحصل الصلح ، ورجع العسكر من سيم .

ثم ان السلطان أقام بدمشق الى مستهل رجب ، ثم توجه من هناك الى نحو حمص ، فأضافه الأمير مهنا بن عيسى ثلاثة أيام بلياليها . ثم ان السلطان بدا له أن يقبض على الأمير مهنا بن عيسى وعلى اخوته ، فقبض عليهم وولى الأمير على بن حديثة عوضا عن الأمير مهنا بن عيسى .

ثم ان السلطان رجع الى دمشق ، ورسم للأمير بيدرا النائب بأن يأخذ العسكر ويتوجه الى القاهرة . فأخذ الأمير بيدرا فى أسباب التوجه الى القاهرة ، وأخذ معه الأمراء والعسكر ، ورجع الى مصر ، وأقام السلطان بدمشق على سبيل التنزه ، ثم توجه الى الديار المصرية ودخل القاهرة فى موكب عظيم وكان له يوم مشهود لم يسمع بمثله . وزينت له القاهرة بالزينة الفاخرة ، وسار فى الموكب مثل العروس ، حتى طلع القلعة وجلس على سرير المملكة أحسن جلوس .

وفى هذه السنة توفى القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر الشريف ، وكان مولده فى

سنة عشرين وستمائة ، فكانت مدة حياته اثنتين وسبعين سنة ، وكان له نظم ونثر فائق ، فمن ذلك قوله :

ان كانت العشاق من أشواقهم
جعلوا النسيم الى الحبيب رسولا
فأنا الذى أتلو لهم : ياليتنى
كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

سنة ثلاث وتسعين وستمائة (١٢٩٤ م) :

ففيها توجه الملك الأشرف خليل الى نحو البحيرة على سبيل التنزه ، فخرج من القاهرة فى ثالث المحرم ، فلما وصل هناك ضرب خيامه فى مكان يعرف بالحمامات — وهو غربى تروجه — فأقام هناك مدة .

ثم انه قصد أن يتوجه الى نجر الاسكندرية ، فأرسل صاحب شمس الدين ابن السعلوس الى نجر الاسكندرية ليجهز الاقامات لأجل قدوم السلطان . فلما دخل ابن السعلوس الاسكندرية ، وجد غلمان الأمير بيدرا النائب بشجر الاسكندرية وقد استولوا على بهار الأمير بيدرا وأدخلوه فى الحواصل — وكان أعظم من بهار السلطان — فحصل بين ابن السعلوس وبين الأمير بيدرا تشاجر ، فأرسل ابن السعلوس يكتاب السلطان بما جرى من غلمان الأمير بيدرا وما رأى عنده من البهار وما قاله غلمان بيدرا ، وزاد على كل كلمة عشرة ، وأغلظ فى القول ... فلما سمع السلطان ما فى مكاتبه ابن السعلوس ، غضب على الأمير بيدرا أشد الغضب ، وأضمر له العطب ، فكان كما قال القائل :

يا ناقلا الى قول حاسدى
لا ينبغي نقل الذى لا ينبغي

لا تؤذنى فى حجة النصح فما
أسعنى السوء سوى مبلغى

ثم ان السلطان أرسل خلف الأمير بيدرا وقت
الظهر . فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام ، وقصد
القبض عليه وتوعده بكل سوء ، فتلف به الأمير
بيدرا فى الكلام حتى خرج من بين يديه ، فاجتمع
بالأمراء من خشداشينه واتفق رأيهم على الوثوب
على السلطان .

ثم ان السلطان قصد أن يتصيد ويخلو بنفسه ،
فأعطى الأمراء والعسكر دستورا بأن يتوجهوا
الى القاهرة الى حين يعود السلطان ، فبضى
الأمراء والعسكر الى القاهرة ، ولم يبق مع الملك
الأشرف سوى بعض مماليك جمدارية . فلما كان
يوم السبت خامس المحرم ركب السلطان وانفرد
وحده — وليس معه سوى أمير شكار شهاب
الدين بن الأشل — فلما بلغ ذلك الأمير بيدرا
رجع من أثناء الطريق وقال هذا وقت انتهاز
الفرصة ... قيل فى الأمثال :

وانتهز الفرصة ان الفرصة
تصير ان لم تنتهزها غصه
وان رأيت النصر قد لاح لك
فلا تقصر واحترز أن تهلكا

فأرسل الأمير بيدرا خلف خشداشينه — وهم
الأمير قرا سنقر ، والأمير لاجين ، والأمير بهادر ،
والأمير آق سنقر ، وجماعة من الخاصكية —
فشدوا فى أوساطهم تراكيش وسيوفا ، وركبوا
خيولهم ، ثم ساقوا خلف السلطان ، فوجدوه
منفردا وحده وليس معه سوى أمير شكار وبعض
مماليك جمدارية ... فلما رآهم السلطان قاصدينه
— وكانوا نحو عشرة من الأمراء — أحس بالشر ،
وظهر له منهم الغدر . فلما أن وصلوا اليه عاجلوه
بالحسام قبل الكلام . فكان أول من ابتدأه

بالحسام الأمير بيدرا نائب السلطنة ، فضربه
بالسيف على يده ، فصاح عليه الأمير لاجين وقال
له : « ويلك ! الذى يريد أن يتسلطن يضرب هذه
الضربة ؟ » . ثم ضربه الأمير لاجين على كتفه ضربة
فوقع الى الأرض ... فجاء الأمير بهادر ، رأس نوبة
النواب ، ونزل عن فرسه ، وأدخل السيف فى دبر
السلطان وأخرجه من حلقه ، وصار كل واحد من
الأمراء يظهر ما كان فى نفسه من السلطان ، ثم
تركوه ميتا فى المكان الذى قتل فيه ، ثم ردوه الى
الوطاق .

وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة ، فوقع رأيهم
على أن يولوا الأمير بيدرا نائب السلطنة ، فحلف
له الأمراء ، ثم قبلوا له الأرض ولقبوه بالملك
الأمجد ، وقيل بالملك الرحيم . ثم فكوا الوطاق
وتوجهوا الى القاهرة ، فأركبوا الأمير بيدرا تحت
العصائب السلطانية ، ثم شرعوا فى مسك جماعة
من الأمراء . منهم الأمير يسرى ، والأمير بكتمر
السلحدار ، وغير ذلك من الأمراء .

فلما وصل هذا الخبر الى الأمراء الذين كانوا
بالقاهرة ، ركبوا خيولهم على حمية سائر الأمراء
والمماليك السلطانية ، فلما عدوا من الجيزة
ووصلوا الى الطرانة تلاقوا هم وبيدرا هناك ،
فوقع بينهم على الطرانة واقعة عظيمة ، فانكسر
بيدرا ، وسار يتسحب من كان معه من المماليك
ويجئ عند الأمير كتبغا . وكان بيدرا قد جمع
معه من عربان الجيزة جماعة كثيرة ، فلما رأوا
بيدرا قد انكسر رجعوا الى البحيرة مطرودين .
وكان بيدرا لما انكسر توجه نحو الجبل فتبعه
جماعة من المماليك السلطانية ، فقبضوا عليه ،
وأثوا به عند الأمير كتبغا . فلما رآه مماليك
الأشرف قطعوه قطعاً بالسيف ، وشقوا بطنه ،
وأخرجوا كبده ، وصار كل واحد منهم يقطع منه
قطعة ويأكل منها ، ثم حزوا رأسه وحملوها على

رمح ، وقصدوا التوجه الى القاهرة فطافوا برأس بيدرا في المدينة ثم علقوها على باب بيته . فلما رأى من كان مع بيدرا من الممالك والأمراء انه قتل ، هربوا واختفوا .

ثم ان الأمير سنجر الشجاعى نادى النواتية من شاطئ البحر بأن لا أحد من النواتية يعصى بمملوك من عسكر بيدرا ، ولا بأحد من حاشيته ... هذا ما كان من أمر الأمير بيدرا .

وأما ما كان من أمر الأشرف خليل بعد قتله ، فانه أقام بعد قتله ثلاثة أيام لم يدفن ، وهو مطروح في البرية ، وقد أكلته الذئاب حتى قال فيه الشاعر هذا المعنى :

ألم تر أن الليث حقا تناهشت

ذئاب الفلا منه ذراعا وساعدا

ثم ان والى تروجة ، أي دمر الفخرى ، حمل الأشرف خليلا على جبل وأتى به الى القاهرة ، ففصلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه في مدرسته التى بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها .

وكان الملك الأشرف حسن الوجه ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، ضخيم الجسد ، كبير الوجه ، شديد البأس ، مهيبا في أعين الناس ، كفوا للسلطنة ، عارفا بالملكمة . وكان بطلا شجاعا مقداما على القتال ، لا يكل من الحروب ليلا ولا نهارا ، وكان مسعودا في حركاته ، ولو طال عمره لكان يفتح غالب بلاد العراق ... ولا يعرف في أنباء الملوك من يناظره في العزم والشجاعة والإقدام ، وعلى هذا قد اتفق أرباب التواريخ في ترجمته .

وكان يميل الى شرب الراح والى السماع الطيب ، وكان كثير الانهماك على اللذات ، وكان عنده معرفة بصناعة الانشاء والتوقيع ، وكان يتعاطى حتى كان يكتب في علامته على المراسيم

والمربعات حرف الخاء فقط ، اشارة الى الحرف الأول من اسمه . ومنع الموقعين أن يكتبوا لأحد من الأمراء والنواب « الزعيمى » ، وكان يقول : « من زعيم الجيوش غيرى ؟ » .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، كاتب السر الشريف ، قبل موته : « ما رأيت ولا سمعت بأحسن من فهم الملك الأشرف خليل . ولقد كنت أحضر بالمراسيم للعلامة ، فما علم على مرسوم قط الا وقرأه جميعه ، وفهم ما فيه ، بل كان يخرج علينا أشياء كثيرة في صنعة التوقيع ونرى فيها الصواب منه » .

ولكنه كان من مساويه أنه نفى الملك العادل سلامش وأخاه سيدى خضر — وهما أولاد الظاهر بيبرس البندقدارى — كانا في الكرك ، فنفاهما الأشرف خليل الى القسطنطينية ، وقد تخيل من اقامتهما في الكرك ، فأرسل الأمير عز الدين أيبك الموصلى فأخذهما من الكرك وأمهنا معها ، وتوجه بهما الى ثغر الاسكندرية ، ثم أرسلهما من البحر المالح الى القسطنطينية ، فلما وصلا الى هناك أكرمهما الأشكرى صاحب القسطنطينية ، وأحسن اليهما ، ورتب لهما ما يكفيهما من النفقة في كل يوم . وأما سلامش فأدركته المنية هناك فمات . فلما مات صبرته أمه في تابوت الى أن اتفق عودها الى القاهرة فحملته معها وهو ميت ، فدفنوه بالقرافة . ومات سلامش وله من العمر نحو اثنى عشر سنة .

وأما سيدى خضر فانه عاد الى مصر كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ان شاء الله تعالى .

ومن مساوي الأشرف خليل أنه خنق مبيعة من الأمراء المقدمين في ليلة واحدة كما تقدم . وكان مفاكا للدماء ، قتل خلقا كثيرا من الأمراء وغيرهم .

ومن مساويه أيضا أنه كان يسمع الكلام في حق الناس بالباطل من وزيره ابن السعلوس ، وكان ذلك سببا لزوال ملكه . ولكن كان عنده العدل في حق الرعية ، ويقضى بالحق على الأمراء المقدمين للسوق ، ولا يراعى في ذلك أحدا . وكان منقادا للشريعة ويحب العلماء ، وكان اذا ظهر له الحق لا يوالس عليه ، وفيه يقول بعض الشعراء :

يا أبها الملك الذي سطواته

حلمت بها الأعداء في يقظاتها

ملك تصر له الملوك بأنه

انسان أعينها وعين حياتها

شتت شمل المال بعد وفوره

وجمعت شمل الناس بعد شتاتها

وكانت قتلة الأشرف خليل يوم السبت بعد العصر خامس عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة . ومات وله من العمر ثلاثون سنة ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام .

وأما فتوحاته التي افتتحها في أيامه من المدن فهي مدينة عكا وصيدا وبيروت وعثليث وبهنسا وقلعة الروم ومرعش وتل حمدون وصور . وأما ما أنشأه من العمارات فهي قاعة الأشرفية التي بقلعة الجبل ، والمدرسة التي بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضي الله عنها ، وله غير ذلك من الآثار .

وقيل بلغت عدة الممالك السلطانية في أيامه اثني عشر ألف مملوك .

وتوفي في أيامه أبو جلنك الحلبي الشاعر ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد . ومما وقع له أنه دخل حلب ودمشق فامتدح القاضي كمال الدين ابن الزملكاني الشافعي بقصيدة سينية وجلس على الباب ينتظر الجائزة ، فأرسل له

القاضي رقعة بأن يصرف له رطلان من الخبز ، فغضب أبو جلنك ومضى ... ثم بعد مدة دخل أبو جلنك الى بستان من منتزهات دمشق فأقام فيه يومه ، ثم سأل عن ذلك البستان فقيل له ان البستان لقاضي القضاة كمال الدين ابن الزملكاني المشار اليه ، فكتب أبو جلنك الحلبي على بعض حيطان ذلك البستان هذين البيتين :

لله بستان حللنا دوحه

في جنة قد فتحت أبوابها

والبان تحسبه سنائرا رأت

قاضي القضاة فنفت أذنانها

فهجا القاضي بأحسن عبارة وألف إشارة .

ولما قتل الأشرف خليل ، وجرى للأمير بيدرا ما جرى ، وقع رأى الأمراء على سلطنة محمد ابن قلاون أخى الأشرف خليل فسلطنوه ولقبوه بالملك الناصر ، وكان القائم في ذلك الأمير كتبغا .

الملك الناصر

هو الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون ، وهو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تسلطن بعد قتل أخيه الملك الأشرف خليل في يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وكان له من العمر لما تسلطن نحو تسع سنين ودخل في العاشرة ، وكان مولده سنة أربع وثمانين وستمائة . وكانت أمه أشلون بنت الأمير شنكاي ، فلما أن تسلطن خلع على الأمير كتبغا واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير بيدرا ، وخلع على الأمير سنجر الشجاعى واستقر به وزيرا عوضا عن الأمير شمس الدين بن السعلوس ، وخلع على الأمير بيبرس الجاشنكير واستقر به استادارا وكاشف الكشاف ... وفي ذلك اليوم

طافوا برأس بيدرا على رمح ، ثم علقوها على باب القلعة .

ولما تولى الملك الناصر واستقر أمره ، قبض الشجاعى على جماعة من الأمراء ممن كانوا سببا فى قتل الأشرف خليل ... فقبض على الأمير قفجق السلحدار ، والأمير قرمش السلحدار ، والأمير بورى السلحدار ، وهو صاحب الدرب المنسوب اليه ، والأمير لاجين چركس ، والأمير مغلطاي المسعودى ، والأمير كردى الساقى وهو صاحب الحمام الذى فى المدايق .

فلما قبض عليهم قيدهم وسجنهم فى البزج الذى فى القلعة . ثم انه قبض على جماعة من المماليك السلطانية وسجنهم بخزانة شمائل ، ثم ان الأمير بيبرس الجاشنكير تولى عقوبة هؤلاء الأمراء وصار يقرهم على من كان سببا فى قتل الأشرف خليل . ثم رسم الأمير كتبغا بقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمروا على الجبال ، وطافوا بهم فى القاهرة ، وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله ، ثم وسطوهم فى سوق الخيل ومضى أمرهم .

ثم ان الشجاعى قبض على صاحب شمس الدين بن السلوس الذى رأى من العز والعظمة ما لم يره غيره من أرباب الوظائف . فلما قبض عليه الشجاعى جعل يعاقبه ويعصره بالمعاصير حتى مات تحت الضرب ، وكانت وفاته فى يوم الأحد خامس عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، فاحتاط الشجاعى على موجوده جميعه ، وصادر عياله وغلمانة وحاشيته ونساءه وأقاربه ، واستصفى أموالهم جميعها حتى صادر سائر أصحابه ، فذهبت أمواله ، وزال سلطانه ، واختفى سعده ، وظهر عكسه ، وظفرت به أعداؤه ، وتولى الدهر عنه وما دعاه ، فكان كما قيل :

لا تفرحن بخير جاء من غلط

فللزمان اساءات واحسان

وكن من الدهر ان يصحو على حذر
فما تقدمت الا وهو مكران

ومن النكت اللطيفة ... قيل ان صاحب شمس الدين بن السلوس لما أن رقى وبلغ من العلو ما بلغ فى دولة الأشرف خليل ، أرسل ابن السلوس يطلب أقاربه الذين كانوا بدمشق ، فكلهم أجابوه الى الحضور الا شخصا من أقاربه يقال له زين الدين ، فانه أبى الحضور وخاف على نفسه ولم يوافق على الدخول الى مصر ، وكتب الى ابن السلوس فى رقعة وهو يقول هذين البيتين :

ثبت ياوزير الملك ، واعلم
بأنك قد وطئت على الأفاعي
وكن بالله معتصما فالى

أخاف عليك من نهش الشجاعى
فكان القول بالمنطق ... فما كان عن قريب حتى
قتل الأشرف خليل ، وتسلم الشجاعى ابن السلوس ، واستصفى أمواله وعاقبه حتى مات تحت العقوبة كما تقدم .

ثم ان سنجر الشجاعى لما رأى أن الوقت قد صفا له وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، استخف بالسلطان الملك الناصر محمد لصغر سنه ، فحدثه نفسه بالسلطنة ، فصار يرمى الفتن بين الأمراء وبين الأمير كتبغا نائب السلطنة ، فصار مع الأمير كتبغا فريق من العسكر ، وفريق مع الشجاعى ... فكان الشجاعى يبذل الأموال على جماعة من المماليك البرجية حتى قيل انه أنفق عليهم فى يوم واحد ثمانين ألف دينار ، واتفق معهم بأن كل من قتل أميرا وجاء برأسه من عصابة الأمير كتبغا يأخذ بيته وبركه واقطاعه . فلما بلغ ذلك الأمير كتبغا اجتمع بأعيان خشداشيته وألبسهم آلة الحرب ووقفوا فى سوق الخيل . فلما علم الشجاعى بذلك أغلق باب القلعة وعلق المنجق

السلطانى ودق الكتوسات حربى ، هم صار ينتظر من يطلع اليه من الأمراء فلم يطلع اليه أحد ، وصار الأمير كتبغا يحاصر القلعة وقطع عنها الماء ، فلما كان يوم الجمعة ثالث عشر من صفر نزل المماليك البرجية من القلعة على حين غفلة ووقعوا مع الأمير كتبغا واقعة قوية حتى كاد الأمير كتبغا أن ينكسر . ثم كسرت عصبة الأمير كتبغا فاجتمع معه الأمير بيسرى ، والأمير بكتاش أمير سلاح ، والأمير بكتوت العلائى ، والأمير أيبك الموصلى ، والأمير آق سنقر ، والأمير بلبان الحسنى ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة من الأمراء الأربعين والأمراء العشراوات والمماليك السلطانية ... فوقعوا مع المماليك البرجية واقعة قوية ، فانكسر المماليك البرجية وطلعوا الى القلعة منهزمين ، وليس لهم من ناصر ولا معين .

ثم ان خوند أشلون ، أم الملك الناصر محمد ، أرسلت خلف الأمير كتبغا من باب السلسلة ، وتحدثت معه من أعلى السور ، وقالت له : « ايش قصدك حتى تفعله ؟ ... ان كان قصدك أن يخلع ابنى من السلطنة فافعل » . فقال الأمير كتبغا : « أعوذ بالله السميع العليم ! والله لو بقى من أولاد أستاذنا بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ، ولا سيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك . وانما قصدنا القبض على الشجاعى واخماد الفتنة » ... فانقصل الأمر على ذلك .

فلما سمع من كان من عصبة الشجاعى ما جرى صاروا ينزلون من القلعة ويجيئون الى الأمير كتبغا ، فلا زالوا على ذلك حتى لم يبق عند الشجاعى الا القليل . فلما رأى الشجاعى عين الغلب أرسل يطلب الأمان من الأمير كتبغا ، فلم يعطه كتبغا أمانا ولا وافقه بقية الأمراء على ذلك .

ثم ان الشجاعى دخل الى السلطان فى صورة أنه يستشيريه فيما يكون هذا الأمر وما يفعل فى

ذلك ، فقال له السلطان : « يا عمى ايش آخر هذا الحال الذى أتم فيه ؟ » . فقال له الشجاعى : « هذا كله لأجلك يا ابن أستاذى ... فانهم قصدوا أن يخلعوك من السلطنة ويمسكونى أنا » . فقال له السلطان : « يا عمى ، أنا أعطيك نيابة حلب واخرج اليهم فى هذه الساعة لتستريح منهم » . فلم يوافق على ذلك الشجاعى وأغلظ على السلطان فى القول ، فقام اليه المماليك الذين كانوا عند السلطان وأمسكوه وقيدوه وأرسلوه الى البرج .

فبينما هو فى أثناء الطريق اذ خرج عليه جماعة من المماليك البرجية فقتلوه ، وقطعوا رأسه ووضعوه فى فوطه حرير ، وكان الذى قتل الشجاعى شخصا من المماليك يقال له بهاء الدين أقوش . فلما خرج برأس الشجاعى الى باب القلعة رآه بعض المماليك البرجية الذين هم من عصبة الشجاعى ، فقالوا له : « ما معك فى هذه الفوطه ؟ » . فقال : « خبز سخن أرسله السلطان الى الأمراء ليعلموا أن عندنا الخبز كثير » . فتركوه حتى مضى ونزل من القلعة ... ولو علموا أن معه رأس الشجاعى لقتلوه شر قتلة

فلما نزل الى الرميلة رمى برأس الشجاعى بين يدى الأمير كتبغا . فلما رأى الأمراء رأس الشجاعى توجه كل واحد منهم الى بيته ، وخدمت الفتنة ، ولم يبق شر بينهم .

ثم ان الأمير كتبغا رسم بأن يطوفوا برأس الشجاعى فى مصر والقاهرة ، فطافوا بها وهى على رمح ، والمشاعلية تنادى عليها ، وكان أكثر الناس من أهل مصر والقاهرة يكرهون سنجرا الشجاعى ، فصاروا يعطون المشاعلية شيئا من الفضة يأخذون منهم الرأس ويدخلون بها الى دارهم ، ولا يزالون يصفعوها بالقباقيب والنعال حتى يشتفوا منه ، وطافوا بها فى الحارات والأزقة حتى طافوا بها فى حارات زويلة ، وصار اليهود يدخلون بها الى

بيوتهم ، ولم يزالوا يصفعونها بالنعال حتى اشتفوا منها ، وربما كانوا يبولون عليها ، فأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية حتى قيل كان مع المشاعلية برنية خضراء يحصلون فيها الفضة التي تدخل عليهم من الناس ، فقيل انهم ملأوا البرنية ثلاث مرات فضة ... ولم يسمع ببثل هذه الواقعة فيما تقدم من الوقائع ، وهى من الغرائب .

قيل كان سنجر الشجاعى هذا رجلا طويلا عريضا ، كامل الخلقة ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، مهيب الشكل ، قاسى القلب ، مظلم الصورة ، عسوف كثيرا الأذى ، اذا ظفر بأحد لا يرحمه ، ولا يراعى فى الأنام خليلا ... فلما أن قتل لم يرث له أحد من الناس فكان كما قال القائل :

لا تفعل الشر فتسمى به
وافعل الخير تجاز عليه
أما ترى الحية من شرها
يقتلها من لا تؤامى عليه

فلما قتل الشجاعى وخمدت الفتنة ، طلع الأمراء عند السلطان وجمعوا الممالك البرجية ، وكانوا يسكنون فى أبراج القلعة ، فرسم الأمير كتبغا بأن ينزلوا من القلعة ويسكنوا فى الأبراج التى فى سور القاهرة خلف البرقية ، فسكنوا بها — وكانوا نحو أربعة آلاف وسبعمئة مملوك — فرتب لهم الأمير كتبغا ما يكفيهم فى كل يوم ، وشرط عليهم أنهم لا يركبون ولا يخرجون من الأبراج .

ثم ان الأمير كتبغا قبض على جماعة من الأمراء الذين كانوا من عصبة الشجاعى ، وهم : الأمير بيبرس الجاشنكير أستاذار العالية ، وقبض على الأمير اللقانى أمير أخور كبير ، وقيدهم وأرسلهم

الى السجن بشفر الاسكندرية . ثم أفرج عن جماعة من الأمراء الذين كانوا مسجونين بالشفر المذكور ، وهم : الأمير ققجق السلحدار ، والأمير عبد الله حامل الخبر ، والأمير قرمش ، والأمير بورى ، والأمير لاجين جركس ، والأمير مغلطاي المسعودى ، والأمير كردى الساقى ، والأمير عمر شاه السلحدار ... فلما حضروا خلع عليهم وأعادهم الى وظائفهم واقطاعاتهم .

سنة أربع وتسعين وستمئة (١٢٩٤ م) :
فى يوم عاشر المحرم ثار جماعة ممالك الأشرف خليل تحت الليل ، وفتحوا باب سعادة وهجموا على اصطبلات الناس . فلما طلع النهار أرسل الأمير كتبغا فقبض على من فعل ذلك من الممالك ، وقطع أيديهم ، وصلب على باب زويلة منهم جماعة ووسط منهم جماعة ، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك . فلما جرى ذلك اجتمع الأمراء وضربوا مشورة وقالوا قد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن ، وطمع الممالك فى حق الرعية ، ومن رأى أن نولى سلطانا كبيرا يقمع الممالك عن هذه الأفعال . فعند ذلك وقع الاتفاق من الأمراء على خلع الملك الناصر محمد ، وأن يولوا كتبغا ، فخلعوا الملك الناصر من السلطنة وولوا كتبغا ، فكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى هذه المرة أحد عشر شهرا وأياما .

الملك العادل كتبغا

هو الملك العادل كتبغا ، بن عبد الله المنصورى ، وهو العاشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تسلطن بعد خلع الملك الناصر محمد

ابن قلاون في حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين
وستمائة ، وتلقب بالملك العادل ، ونودى باسمه في
القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء .

وكان أصله من سبايا التتار ، أخذه الملك
المنصور قلاون في وقعة حمص الأولى ، وذلك في
سنة تسع وخسين وستمائة ، فصار من جملة ممالك
السلطان قبل أن يلى السلطنة ، فلما تسلطن جعله
أمير عشرة ، ثم بقى مقدم ألف . فلما قتل الأشرف
خليل وتولى أخوه محمد جعله نائب السلطنة ثم بقى
سلطانا . فلما تم أمر كتبغا في السلطنة استقر بالأمير
لاجين نائب السلطنة عوضا عن نفسه . وكان الأمير
لاجين ممن تواطأ على قتل الملك الأشرف . فلما تولى
أخوه محمد هرب الأمير لاجين — وكان من عصابة
بيدرا — فاخفى لاجين مدة طويلة نحو سنة ،
فكان مقيما في خزانة أحمد بن طولون . ثم ان
الأمير كتبغا شفع فيه عند الملك الناصر محمد بن
قلاون ، فقبله به ، فرضى عليه السلطان ، وأنعم
عليه بتقدمة ألف . فلما تسلطن كتبغا جعله نائب
السلطنة ، وفوض اليه أمور المملكة جميعها ،
وجعل الأمير بهادر حاجب الحجاب .

ثم ان الأمير كتبغا لما ثبت أمره في السلطنة
صار يقرب خشداشيته وينعم عليهم بتقادم ألوف
وبالاقطاعات السنية ، وقويت شوكته وراج أمره
في السلطنة وصار له عصابة .

سنة خمس وتسعين وستمائة (١٢٩٥ م) :

فيها أجذبت البلاد وشح النيل ، وقد وصل الى
اثنى عشر ذراعا ثم هبط ، فشرقت الاراضى ووقع
الغلاء والقحط بالديار المصرية ، وشحط سعر
القمح الى مائة وسبعين درهما كل أردب ، وكذلك
الفول ، وبلغ سعر اللحم كل رطل سبعة دراهم ،
وبيع كل فروج بخسة عشر درهما ، وبيعت
البيضة الواحدة بأربعة دراهم ، وبيعت التفاحة

والرمانة والسفرجلة كل واحدة منها بثلاثين
درهما . واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا
الكلاب والحمير والبغال والخيول والجمال ، ولم
يبق عند أحد شئ من الدواب ... حتى قيل صار
يباع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة
دراهم . فلما طال الأمر على الناس أرسل الله
تعالى اليهم جرادا كثيرا فاكل الناس منه شيئا
كثيرا حتى قيل كان يباع منه كل أربعة أرطال
بدرهمين . وقد عم هذا الغلاء سائر البلاد ... حتى
البلاد الشامية ، حتى مكة والمدينة وسائر أعمال
الديار المصرية .

ثم أعقب هذا فناء عظيم حتى صار الناس
يتساقطون موتى في الطرقات ... قيل مات في هذه
السنة من الناس نحو الثلث ، حتى كفن الملك
العادل كتبغا من ماله في مدة يسيرة من مات من
العربان على الطرقات نحو مائتين وسبعين ألف
انسان ، فجافت منهم الحارات والأزقة ، وصار
الرجل يكون ماشيا فيقع ميتا في الحال . وفي ذلك
يقول ابن المعمار :

يا طالبا للموت قم واغتتم
هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله
ومات من لا عمره ماتا

ثم كشف الله عن الناس هذه الكربة ، وتراجع
الأمر قليلا قليلا ، وانحطت الأسعار ، وانصلح
الحال كما كان أولا ، وزالت تلك الشدة العظيمة
فكان كما قيل :

قل لمن يحمل هما ان هذا لا يدوم
مثل ما تفنى المسرات كذا تفنى الهموم
وفي هذه السنة — وهى سنة خمس وتسعين
وستمائة — توفى الشيخ الزاهد الناسك سيدى

ثم لما سمعت باسمك فيه
قلت نعم المولى ونعم النصير
ومن هنا نرجع الى أخبار كتبنا .

سنة ست وتسعين وستمائة (١٢٩٦ م) :

فيها سافر السلطان الى البلاد الشامية بسبب
تمهيد البلاد ، فلما دخل الشام صلى بها الجمعة ،
ثم في يوم السبت لعب في ميدان دمشق بالكرة وأقام
بها أياما وعزل من عزل وولى من ولى ، ثم قصد
التوجه الى الديار المصرية . فلما رحل من دمشق
ووصل الى وادى فجعة ، وقع بين الأمير لاجين
نائب السلطنة وبين جماعة من الأمراء كلام فبادر
الأمير لاجين وقبض على جماعة من الأمراء ، منهم
الأمير بنجاص العادلى ، والأمير بكتوت الأزرقى ،
وكانا جناحى الملك العادل كتبنا . فلما بلغه ذلك
رجع الى دمشق في نفر قليل من العسكر .

فلما رجع كتبنا الى دمشق احتوى الأمير لاجين
على خزانة المال ، وركب تحت العصائب
السلطانية ، وقصد التوجه الى الديار المصرية ...
هذا ما كان من أمر الأمير لاجين .

وأما ما كان من أمر الملك العادل كتبنا فانه لما
رجع الى دمشق ، أقام بها ثلاثة عشر يوما وهو
بقلعة دمشق ، وقد أطاعه أهلها وتعصبوا له ، فما
مضى قليل حتى جاءت الأخبار من القاهرة بأن
لاجين قد تسلطن بمصر وتلقب بالملك المنصور ،
فعند ذلك انحل برم الملك العادل كتبنا وانصرف
عنه الناس .

فلما كان يوم الخميس ثامن ربيع الأول من
السنة المذكورة ، وصل الى دمشق الأمير حسام
الدين لاجين استادار العالية ، وعلى يده مراسيم
لقضاة دمشق وللأمراء ، فاجتمعوا بدار السعادة
وقرأوا مراسيم السلطان لاجين على القضاة والأمراء

فتح الأسمر رحمة الله عليه . وهو فتح بن عثمان
الأسمر التكرورى المراكشى ، قدم من مراكش الى
دمياط على سبيل التجريد ، وكان يسقى في دمياط
الماء في الأسواق احتسابا من غير أن يأخذ من أحد
شيئا ، وكان يلزم الصلاة في المسجد مع الجماعة ،
وكان لا يرى الا وقت الصلاة ، وإذا سلم الامام
عاد الى انعكافه . واستمر على ذلك حتى توفى في
ليلة الجمعة ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين
وستمائة ، ودفن بغير دمياط بجوار مسجد الفتح
وقبره يزار الى الآن ، وقد قيل في المعنى :

لعمرك ما دمياط الا حبيبة
تهيم الورى منها بأحسن منظر
لها ناظر منها يصول بأبيض
ويطعن من فتح القوام بأسمر

وفي هذه السنة أيضا كانت وفاة الشيخ سراج
الدين الوراق ، الشاعر الماهر ، وكان من فحول
الشعراء وله شعر جيد . وكان مولده في سنة
خمس عشرة وستمائة ، ووفاته في سنة خمس
وتسعين وستمائة ، فكانت مدة حياته نحو ثمانين
سنة . ومن شعره لنفسه قوله :

واخجلتى وصحائفى سودا غدت
وصحائف الإبرار فى اشراق !
وموبخ لى فى القيامة قائل :
أكذا تكون صحائف الوراق ؟

ومما وقع للسراج الوراق أن الشيخ نصير
الدين الحمامى قال له : « قد عملت قصيدة فى
الصاحب تاج الدين السبكى ، وأشتهى أن تثنى
عليها اذا قرئت بحضرتك » ... فلما أنشدها النصير
الحمامى بحضرة الشيخ سراج الدين أنشأ على
الفور ارتجالا وهو يقول :

شاقنى للنصير شعر بديع
ولملى فى الشعر نقد بصير

بأن يحضروا الملك العادل كتبغا ويشهدوا عليه بالخلع من السلطنة ، فقام قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة الشافعي — هو والأمير لاجين الاستادار — ودخلوا على العادل كتبغا وهو بقلعة دمشق ، وتكلموا معه . فلما رأى كتبغا عين الغلبة أذعن وأشهد على نفسه بالخلع .

ثم في يوم الاثنين وصل الى دمشق الأمير قفجق المنصوري ، وقد استقر نائب الشام . فلما دخل دمشق نزل بدار السعادة ، وأرسل خلف العادل كتبغا وقال له : « ان السلطان المنصور لاجين يسلم عليك ، ورسم لك بأن تتوجه الى مدينة صرخد ويرتب لك ما يكفيك » ... فقال : « السمع والطاعة ا » .

وخرج من يومه الى صرخد وهو معزز مكرم ، ومعه عياله ومماليكه وغلمانه وبركه ، وتوجه الى صرخد فأقام بها ... فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والديار الشامية الى أن خلع من السلطنة نحو سنتين الا شهرين .

فلما توجه الى صرخد أقام بها الى سنة تسع وتسعين وستمائة ، فلما عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة في المرة الثانية أنعم على الملك العادل كتبغا بمملكة حماة وأعمالها . وكان الملك الناصر يعيل الى كتبغا دون أبيه ، فاستمر كتبغا في حماه الى أن مات ، وكانت وفاته في يوم عيد النحر من سنة اثنتين وسبعمائة ، ودفن بحماه ، ثم نقل بعد ذلك الى دمشق ودفن بسفح جبل قاسيون . وكان كتبغا رجلا قصير القامة ، أجرد اللحية ، أسمر اللون ، وكان موصوفا بالشجاعة ، وكان ديننا خيرا سليم الباطن . ومات وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة .

ومن صفاء باطنه أنه قرب الأمير لاجين وشفع فيه من القتل عند الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وكان لاجين ممن تعصب على قتل الأشرف خليل . ولما أن تسلطن كتبغا استقر بالأمير لاجين نائب السلطنة ، وفوض اليه أمور السلطنة جميعها . وكان لاجين في قلبه الغدر لكتبغا حتى وثب عليه وخلعه من السلطنة وجرى عليه ما جرى . وكان لاجين يظهر المحبة لكتبغا وهو في الباطن بخلاف ذلك كما قيل في المعنى :

والخل كالماء : يبدى لى ضمائره
مع الصفاء ، ويخفيها مع الكدر

الملك المنصور

هو الملك المنصور حسام الدين لاجين ، ابن عبد الله المنصوري ، وهو الحادي عشر من ملوك الترك وأولادهم بالدار المصرية . بويغ بالسلطنة بعد خلع الملك العادل كتبغا ، وذلك في نصف شهر صفر سنة ست وتسعين وستمائة ، وتلقب بالملك المنصور ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضحج الناس له بالدعاء ودقت له الكنوسات .

وكان أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون . فلما تم أمره في السلطنة خلع على خشداشيه ، وهم الأمير قرا سنقر المنصوري ، واستقر به نائب السلطنة عوضا عن نفسه ، وأنعم على مملوكه منكوتر بتقدمة ألف ، ثم خلع على الأمير سنقر الأعسر واستقر به وزيرا .

ثم أخذ في أسباب عمارة جامع أحمد بن طولون وكان خرابا بغير سقف مدة مائة وسبعين سنة ... وكان لاجين ، لما قتل بيدرا وجري ما تقدم ذكره ، اختفى في جامع أحمد بن طولون في المئذنة مدة طويلة حتى شفع فيه العادل كتبغا عند الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فلما ظهر ورضى عليه الناصر محمد نذر في نفسه ان صار سلطانا ليعمرن جامع

أحمد بن طولون كما كان . فلما صار سلطاناً عمره ورتب في سطح الجامع دكة بسبب الميقاتية لتحرير الوقت ، ووقف على ذلك أوقافاً كثيرة إلى الآن تصرف للميقاتية ، وأحيا رسوم هذا الجامع بعد ما كانت قد درست .

ومن محاسن الملك المنصور لاجين أنه أرسل خلف أولاد الملك الظاهر يبرس البندقدارى الذين كانوا بالقسطنطينية من حين نفاهم الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، فأحضرهم إلى مصر . فأما سلامش ابن الملك الظاهر فانه أدركته المنية في القسطنطينية ، فأثوا به — وهو ميت — في محمية ، ودفن بالقرافة الصغرى . وكان يسمى ابن البدوية ، وكان جميل الصورة ، مليح الشكل . وأما أخوه سيدى خضر فانه أقام بالقاهرة مدة ثم طلب من السلطان لاجين دستوراً بأن يحج ، فأذن له في ذلك ، فسار إلى الحجاز وحج ورجع إلى مصر ، وأقام بها مدة ومات ودفن مع أخيه سلامش ، وبه انقرضت أولاد الملك الظاهر يبرس البندقدارى .

ثم ان السلطان لاجين قبض على الأمير قرا منقر — نائب السلطنة — وسجنه ، وامتنع بملوكه منكموتر نائب السلطنة ، فعز ذلك على بقية الأمراء ، ولم يكن منكموتر أهلاً لذلك .

سنة سبع وتسعين وستمائة (١٢٩٧ م) :

فيها رآك السلطان البلاد المصرية ، وهو الروك الحسامى . وكان ابتداء ذلك في سادس جمادى الأولى من السنة المذكورة . وكان المتكلم في ذلك شخصاً من المباشرين يقال له التاج الطويل ، فشرع في كتب قوائم بمساحة البلاد وأسمائها .

وكانت البلاد المصرية مقسومة يومئذ على أربعة وعشرين قيراطاً ، منها أربعة قرايط للسلطان ، ومنها عشرة قرايط للأمراء والاطلاقات ، ومنها

عشرة قرايط للجند كلهم ... فرسم السلطان للمباشرين بأن يكفوا الأمراء بعشرة قرايط مع الأجناد ، وزاد الذين قد تشكوا من الأجناد قيراطاً ، وبقي للسلطان ثلاثة عشر قيراطاً ، فشكا الجند وضجوا من ذلك . وكان المتكلم في ذلك الأمير منكموتر النائب ، فصار يقابح الأمراء والجند أنحس مقابحة ، وعادى سائر العسكر بسبب ذلك ... فنفرت قلوبهم عن السلطان لاجين ، وتمنى كل أحد زواله ، وكثر الدعاء عليه من الناس ، وكان مملوكه منكموتر من سيئات الدهر ، أظلم خلق الله تعالى وأنحسهم .

فلما كان ثامن رجب من السنة المذكورة فرقت المثالات بما تقرر عليه المال مع الأمراء والجند وهم غير راضين بذلك .

ثم لما مضى أمر ذلك أشار الأمير منكموتر على السلطان بأن يقبض على جماعة من الأمراء قبض على جماعة منهم الأمير ايلبك الحموى وغيره من الأمراء ، ثم أرسل بالقبض على قفجق نائب الشام ، فلما بلغه ذلك خرج من الشام هارباً وخرج معه الأمير بكتير الأبوبكرى والأمير نزار وغيرهم من الأمراء الذين كانوا بدمشق . فلما خرجوا من دمشق توجهوا إلى القان الأكبر غازان ملك التتار ، وكان هذا سبباً للفتنة العظيمة التى وقعت بينه وبين عسكر مصر كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ان شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة سأل الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله السلطان بأن ينعم له فى أن يحج ، فأنعم له فى ذلك ، ورسم له بألف دينار فأخذها وحج فى تلك السنة ، ثم عاد مع الحجاج إلى القاهرة .

سنة ثمان وتسعين وستمائة (١٢٩٨ م) :

فيها توجه السلطان إلى القصر الكبير ، وكان صائماً ، وكان ذلك يوماً شديداً الحر فجلس فى القصر

الى وقت الفطور وهو يلعب بالشطرنج ، وكان
عنده القاضى حسام الدين الرازى الحنفى ، وامامه
محب الدين ابن العسان ، وشيخ العرب يزيد . فلما
جلس فى القصر الى وقت المغرب بلغ ذلك جماعة
من المماليك الأشرفية - وكان فى قلبهم من السلطان
لاچين شىء لأنه كان من جملة من تواطأ على قتل
أستاذهم الملك الأشرف خليل - فقالوا هذه ليلة
الفرصة ، فاتفقوا مع جماعة من المماليك البرجية
بأن يهجموا على السلطان بعد العشاء وهو فى
القصر .

وكانت تلك الليلة نوبة شخص من السلحدارية
يقال له نوغان الكرمانى ، فاتفق معه شخص يقال
له كرجى - وهو مقدم المماليك البرجية - على
أن يدخل المماليك ، ويهجموا عليه بعد العشاء
ويقتلوه . فلما دخل وقت المغرب أفطر السلطان فى
القصر واستمر يلعب فى القصر الى وقت العشاء ،
فتقدم كرجى مقدم المماليك البرجية الى الشمعة
ليصلحها ، فرمى الفسطة على النمجة والسلطان
منكب على الشطرنج وهو لا يدري ما خبىء له فى
الغيب ، فالتفت اليه السلطان وقال له : « غلقت
أبواب الأطباق على المماليك البرجية ؟ » فقال له :
« نعم » . فشكره وأثنى عليه .

وكان المماليك البرجية واقفين بالسيوف فى دهليز
القصر ، فلما فات وقت العشاء تقدم كرجى الى
السلطان وقال له : « ياخجى ، أما تصلى العشاء ؟ »
فقال له السلطان : « نعم » . وقام ليصلى العشاء
فضربه كرجى بالسيف على كتفه فهدله ، فقام
السلطان ليأخذ النمجة فلم يجدها ، فقبض على
كرجى ورماه الى الأرض فجاء اليه نوغان الكرمانى
وأخذ النمجة وضرب بها السلطان على رجله ضربة
قوية فقطعها ، فصاح عليه القاضى حسام الدين
الرازى : « ويلكم ! كيف تقتلون أستاذكم ؟ » .

فاقلب على ظهره السلطان ووقع الى الأرض ميتا ،
فتركوه مكانه ومضوا وأغلقوا عليه باب القصر ،
وتركوا عنده الامام والقاضى حسام الدين الرازى .
ثم ان كرجى توجه تحت الليل الى الأمير
منكوتر النائب - وكان ساكنا بدار النيابة
بالقلعة - فدق عليه الباب وقال له : « ان السلطان
يدعوك » . فأفكر ذلك ، وقال لكرجى : « لعلك
قتلت السلطان » . فقال له كرجى : « نعم قتلناه
وجئنا اليك تقتلك يانحس » . وكان بين كرجى
وبين الأمير منكوتر حظ نفس من قديم الزمان .

ثم ان كرجى أحرق الباب ودخل على منكوتر
وقبض عليه وتوجه به الى العجب الذى بالقلعة
فحبسه به ، وكان بالعجب جماعة من الأمراء
مسجونون ، وكان منكوتر سببا لسجنهم كما
تقدم . فلما رأوا منكوتر دخل عليهم قتلوه شر
قتلة ... هذا كله جرى فى القلعة تحت الليل وأهل
المدينة لم يشعروا بشىء من ذلك ، فلما طلع النهار
شاعت الأخبار فى المدينة بما جرى .

ثم ان الزمام شرع فى تجهيز السلطان ، فغسل
وكفن ونزل من القلعة فى تابوت هو والأمير
منكوتر ودفنا بالقرافة الصغرى ، ولم تنتطح فى
ذلك شاتان ، فكانت مدة سلطنة الملك المنصور
حسام الدين لاچين بالديار المصرية الى أن قتل
سنتين وشهرين وأياما ، وكانت قتلته فى ليلة الجمعة
عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة .
ومات وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة .

وكان رجلا طويلا القامة ، أشقر اللون واللحية ،
أزرق العينين ، مهيب الشكل ، وكان موصوفا
بالفروسية ، شجاعا بطلا ، وكان ديننا خيرا أبطل فى
أيامه من المكوس التى كانت بالديار المصرية أشياء
كثيرة ، ولم يكن من سيئاته سوى مسلوكة منكوتر

هو الذى كان يرمى الفتن بينه وبين الأمراء ، وهو الذى كان يحدث فى القاهرة أبواب الظلم ، حتى يجلب لأستاذه الدعاء من كل أحد من الناس ، حتى كرهوه وتمنوا زواله وعود الملك الناصر محمد بن قلاوون الى الديار المصرية .

وفى أثناء قتلة السلطان لاجين حضر الى القاهرة الأمير بكتاش أمير سلاح ، وكان مسافرا مع طائفة من العسكر الى البلاد الشامية ، فلما أن حضر نزل اليه كرجى ونوغان اللذان قتلا السلطان لاجين فقبض عليهما وقتلهما شر قتلة ، وكان بين قتلتهما وقتل السلطان لاجين ليلة واحدة .

ثم ان الأمراء اجتمعوا فى القلعة وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطانا فوق الاتفاق منهم على عود الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ، فأرسلوا اليه نجابا الى الكرك بالحضور فأبطأ عليهم وأقامت مصر بلا سلطان أحدا وأربعين يوما حتى حضر الملك الناصر من الكرك وعاد الى الملك .

قعود الملك الناصر محمد بن قلاوون

عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة بالديار المصرية ، وهى السلطنة الثانية . دخل القاهرة يوم الخميس ثامن جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة . فلما دخل القاهرة زينت له زينة عظيمة ودقت له الكؤوسات ، فلما طلع القلعة لبس خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء بطوق ذهب وعبامة سوداء وسيف بداوى متقلد به — وحملت القبة والطير على رأسه ، ومشى الأمراء بين يديه حتى جلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، وفى ذلك يقول الشيخ علاء الدين الوداعى رحمه الله هذين البيتين :

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس
عاد الى كرميه مثل ما عاد سليمان الى الكرسي
ثم ان الملك الناصر عمل الموكب ، وخلع على من سيذكر من الأمراء وهم : الأمير أقوش الأفرم واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير سلا المنصورى واستقر به نائب السلطنة ، وخلع على الأمير بيبرس الجاشنكير ، واستقر به نائبك العساكر ، وأعيد الأمير منقر الأعصر الى الوزارة ، وخلع على الأمير حسام الدين لاجين وأعيد الى الاستدارية ، وأنعم على جماعة كثيرة من ممالك آبيه بتقادم ألوف ، وأنعم على جماعة أيضا من الممالك بالاقطاعات السنية ، وتم أمره فى المملكة وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة .

سنة تسع وتسعين وستمائة (١٢٩٩ م)

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن غازان ملك التتار قد زحف على البلاد ووصل أوائل عسكره الى الفرات ، وهو فى عسكر ثقيل لا يحصى . وغازان هذا هو ابن أرغون ، بن ابغا ، بن هلاكو الذى أخرب بغداد ، وقتل الخليفة ، وجرى منه ما جرى .

وكان سبب مجيء غازان وزحفه على البلاد هو أن قفجق ، نائب الشام ، لما بلغه أن الملك المنصور لاجين أرسل بالقبض عليه أخذ أولاده وعياله وبركه وماله ، وخرج من الشام وتوجه هاربا الى القان غازان ، وحسن له أن الملك الناصر صغير ، وأن الأمراء والعسكر بينهم الخلف ، وأنه اذا زحف القان غازان على البلاد لا يجد من يرد عنه . فعند ذلك جمع القان غازان عساكر عظيمة ، نحو مائتى ألف مقاتل .

أمرهم وانهم جاءوا يطلبون الأمان منه ، فقال له غازان : « قل لهم انى قد أرسلت اليهم الأمان قبل حضورهم عندي » ... فرجعوا الى دمشق واجتمع في جامع بنى أمية الجيم الغفير ، وقرأوا على الناس الأمان الذى أرسله القان غازان الى أهل دمشق . فلما قرئ عليهم ذلك الأمان وسعوه فرح الناس بذلك ، وحصل عندهم سكون بعد ما كانوا في اضطراب من أمر غازان .

ثم حضر الأمير قفجق الذى كان نائب الشام وهرب الى غازان ونزل بالميدان الأخضر وأرسل يقول لنائب قلعة الشام : « مسلم الينا القلعة ولا تحوجنا الى أن نحصرك وتغلب بعد ذلك » . فأرسل نائب القلعة يقول لقفجق : « ليس لك عندي جواب الا السيف . وكيف أسلم القلعة والملك الناصر على قيد الحياة ؟ » .

فلما بلغ غازان ذلك حاصر القلعة ، ونصب عليها المجانيق ، وأحرق البيوت التى حولها فلم يقدر عليها .

ثم بلغه أن الملك الناصر تراجع اليه العسكر وهو قاصد نحو الشام . فلما كان يوم الجمعة ثالى عشر جمادى الأولى رحل غازان عن دمشق وترك بها أميراً من التتار يقال له الأمير قطلوشاه بيبك ومعه عسكر من التتار ، وولى الأمير قفجق نائب الشام كما كان أولاً ... هذا ما كان من أمر القان غازان .

وأما ما كان من أمر الملك وأمر عسكره فانه لما انكسر ودخل الى بعلبك أقام بها أياماً ، ثم قصد التوجه الى الديار المصرية ، وجد في السبيل حتى وصل الى القاهرة ، فدخل على حين غفلة وطلع القلعة ، وقد نهب جميع ما كان معه من البرك وكذلك الأمراء والعسكر . فلما طلع القلعة فتح الزردخانه وفرق ما كان فيها من الملبوس والسلاح على العسكر ، ثم فتح خزائن المال وأنفق على

فلما وصل الخبر الى الديار المصرية اضطربت الأرض واجتمعت الأمراء بالقلعة وضربوا مشورة ، فوقع الاتفاق على أن الأتابكى بيبرس الجاشنكير يتوجه الى حلب ومعه خمسمائة مملوك قبل خروج السلطان ، فخرج الأتابكى بيبرس على جرائد الخيل مع العسكر . ثم خرج الملك الناصر محمد بعده في خامس عشر صفر ، وكان صحبته الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله والقضاة الأربعة ، وكان قاضى القضاة الشافعى حينئذ شيخ الاسلام : تقى الدين ابن دقيق العيد . وخرج مع السلطان سائر الأمراء والعسكر ، فجد السلطان في المسير حتى وصل الى دمشق في ثامن ربيع الأول سنة تسع وتسعين وستمائة ، ثم خرج من دمشق فتلاقى مع جاليش غازان في مكان يعرف بسلمية قرب بعلبك ، فوقع بينهما واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، فانكسر عسكر السلطان وهرب الملك الناصر الى بعلبك ، ونهب بركه وسائر برك العسكر ، ولم يبق معه من العسكر الا طائفة يسيرة .

ثم ان القان غازان زحف على ضياع الشام ونهب ما فيها وسبى أهلها . فلما بلغ أهل الشام ذلك خافوا على أنفسهم من غازان فيما فعله بأهل الضياع ، فتشاوروا مع جماعة من العلماء الذين كانوا بدمشق ، وخرجوا الى غازان يطلبون منه الأمان ، فخرج قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعى ، والشيخ زين الدين الفارقى ، والشيخ تقى الدين ابن تيمية الحرانى ، والقاضى نجم الدين ابن الصرصرى ، والقاضى عز الدين بن تركى ، والشيخ عز الدين بن القلانسى ، والقاضى جلال الدين القزوينى ، وغير هؤلاء جماعة من العلماء والصلحاء . فلما دخلوا على غازان ووقفوا بين يديه ، وقف الترجمان وتكلم مع القان غازان في

العسكر ... فأعطى كل مملوك ثمانين ديناراً ،
وجماعة منهم أعطاهم خمسة وسبعين ديناراً ،
وجماعة منهم خمسة وستين ديناراً ، وأعطى ممالك
الأمراء كل واحد خمسين ديناراً ثم أنفق على
عسكر الشام الذين حضروا بصحبته ، فأعطى كل
واحد منهم عشرة دنانير ذهباً ، وعشرة أراذب
شعيراً ، وعشرة أراذب قمحاً . ثم أنفق على سائر
الأمراء والمقدمين والطلبخانات والعشراوات لكل
واحد منهم على قدر مقامه . وكان القائم في تدير
ملكته الأمير سلالر نائب السلطنة والأتابكي
بيبرس الجاشنكير .

ثم ان الملك الناصر قصد العود الى
محاربة غازان ، فبرز بخيامه في الريدانية ،
وخرج من القاهرة ثانياً . وكان صحبته الخليفة
الامام أحمد والقضاة الأربعة وسائر الأمراء
والعساكر . فلما أقام في الريدانية تشكى العسكر
وتغلبوا عليه فأنفق عليهم نفقة ثانية لترفع
أحوالهم ، ثم رحل من الريدانية وجد في السير ،
فتقدم في جاليش العسكر الأمير سلالر نائب
السلطنة ، والأتابكي بيبرس الجاشنكير فلما
وصل الجاليش الى دمشق تلقاهم الأمير قفجق
وأظهر الطاعة للسلطان وبأس الأرض ، واجتمع
بالأمراء وأشار عليهم بأن السلطان يرجع الى
القاهرة ولا يدخل دمشق ، وسيجيئه الأمر كما
يختار .

فمعد ذلك رجع السلطان الى القاهرة ، وكان
رجوعه اليها في ثامن عشر شهر رمضان من سنة
تسع وتسعين وستمائة .

ومن النكت اللطيفة أن الملك المنصور قلاوون
— أستاذ الأمير قفجق المذكور — خرج يوماً الى

نحو المطرية في أيام النيل على سبيل التنزه ومعه
جماعة من الأمراء من أخصائه ، فانشرح السلطان
في ذلك اليوم وذبح خروفاً سمينا بيده ، فلما حضر
السماط قدموا ذلك الرميس بين يديه فقطعه بيده ،
ثم أخذ الكتف منه وجرده من لحمه وتركه ساعة
حتى جف ، ثم لوحه على النار قليلاً قليلاً ، ثم
أخرجه ونظر في لوح الكتف ساعة وأطال التأمل ،
ثم ثقل عليه وألقاه من يده وظهر في وجهه الغضب
... فسأله بعض الأمراء عن ذلك — بعد ما سكن
غضبه — فقال : « ان وليتم قفجق بعدى نيابة
الشام يحصل منه غاية الفساد . فلا تخرجه بعدى
من مصر لئلا تتعبوا من أمره » . فكان الأمر كما
قاله الملك المنصور قلاوون . والملوك لهم فراسة في
الأمور قبل وقوعها كما قيل في المعنى :

يرى العواقب في أثناء فكرته

كان أفكاره بالغيب كمان

لا طرفه منه الا تحتها عمل

كالدهر لا دولة الا لها شان

ولم يزل الأمير قفجق ممقوتا في دولة الملك
المنصور قلاوون حتى مات قلاوون وتسلطن خليل
ولده ، الى أن تسلطن الملك المنصور لاچين فاستقر
بالأمير قفجق نائب الشام . فلما ظهر له منه عين
العصيان أرسل بالقبض عليه فهرب قفجق الى
القان غازان وحسن له بأن يزحف على البلاد كما
تقدم من أخباره .

قال القاضي محيي الدين بن فضل الله : « حكى
لى الأمير قفجق ، بعد أن جرى ما جرى ، ورجع
الى القاهرة ، وتلاقى عسكر السلطان مع عسكر
غازان فكاد غازان أن ينكسر وهم بالهرب ، فطلبنى
ليضرب عنقى ، لأنى كنت السبب في مجيئه الى
دمشق ، فلما حضرت بين يديه قال لى : ما هذا

الحال ؟ فقلت : ما ثم الا الخير والسلامة ... فأنا
أخبر بعسكرنا فان لهم أول صدمة ثم يولون عن
القتال . فالتان يصبر ساعة فما يبقى قدامه أحد
منهم . فصبر ساعة فكان ما قاله صحيحا . ولما
انكسر عسكر مصر أراد أن يزحف عليهم بما معه
من العسكر فقلت في نفسي : متى زحف عليهم لم
يبق منهم أحد . فقلت له : التان يصبر ساعة فان
عسكر مصر لهم حيل وخداع ، وربما يكون لهم
كمين وراء الجبل فيخرج علينا فنكسر . فسمع
لى ، ثم وقف ساعة حتى أبعدتم عنا ولم يبق منكم
أحد قدامه ... فلو زحف عليكم ما بقى منكم
أحد . فلولوا أنا ما سلم منكم أحد » .
فكان الأمر كما قيل :

ولو شئت قابلت المسىء بفعله

ولكننى أبقيت للصلح موضعا

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك الناصر محمد
ابن قلاوون .

ثم فى هذه السنة وصل الخبر من البحيرة بأن
قد اختلفت طائفتان من العرب — وهما جابر
ومرديس — ونهبوا ضياع البحيرة ، وأحرقوا
العجرون ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وعين
لهم السلطان تجريدة ... فكان باش العساكر الأمير
بيبرس المنصورى أمير دوا دار كبير ، وصحبته
جماعة من الأمراء نحو عشرين أميرا ، ما بين
مبلغانات وعشراوات ، فخرجوا من القاهرة على
الفور ، وجدوا فى السير الى أن وصلوا الى
تروجه ، ووقعوا مع العرب فكسروهم وهربوا الى
الجبال حتى لم يبق منهم أحد ، فأحاط العسكر
بجمالهم وأغنامهم وأولادهم ونسائهم ، ثم عاد
الأمراء الى القاهرة وهم فى غاية النصر ... فخلع
السلطان على الأمير بيبرس خلعة ، ونزل الى بيته
فى موكب عظيم .

سنة سبعمائة من الهجرة النبوية (١٣٠٠ م) :
ففيها كان خليفة الوقت الامام أحمد الحاكم بأمر
الله ، وسلطان العصر الملك الناصر محمد ابن الملك
المنصور قلاوون ، وقاضى القضاة من الشافعية شيخ
الاسلام تقي الدين ابن دقيق العيد .

وأما الأمراء أرباب الوظائف : فالأمير سلا
المنصور نائب السلطنة ، والأمير بيبرس الجاشنكير
أتابك العساكر المنصورة ، والأمير بيبرس
المنصورى دوا دار كبير ، والأمير سنقر الأعسر
وزير ، والأمير لاجين استادار ، والأمير عز الدين
أيدمر تقيب الجيوش المنصورة ، والأمير أقوش
الشمسى حاجب الحجاب ، والأمير ناصر الدين
ابن الشيخ واليا بالقاهرة . وبقية الأمراء لم
نذكرهم هنا خوف الاطالة ولكن سيأتى ذكرهم فى
مواضعه .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين ، فالقاضى
محبى الدين ابن فضل الله كاتب السر الشريف ،
والقاضى بهاء الدين بن الحلّى ناظر الجيوش
المنصورة ، والقاضى كريم الدين بن السديد ناظر
الخواص الشريفة .

وكان شاعر الوقت يومئذ الشيخ صدر الدين
ابن الوكيل ، كان من فحول الشعراء وله شعر
جيد ، فمن شعره ونظمه الرقيق قوله من قصيدة
خمرية :

عناصر أربع فى الكأس قد جمعت
وفوقها الفلك السيار والشهب
ماء ونار هواء أرضها قدح
وطوقها فلك والأنجم الحب
وان أقطب وجهها حين تبسم لى
فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

وفي أثناء هذه السنة جاءت الأخبار بحركة التتار وقد وصل أوائلهم الى الفرات ، فجمع السلطان الأمراء ، وضربوا مشورة في ذلك الخبر ، فقال السلطان للأمراء : « أنتم تعلمون أني رجعت مكسورا من التتار تلك المرة ، ولهب جميع بركي ، وذهبت الأموال ... والآن لم يبق في بيت المال لا دينار ولا درهم ، فمن أين أنفق على العسكر ؟ » .

فاتفق رأى الأمراء على أن يوزعوا النفقة على المباشرين وأعيان التجار ومساكين الناس ، ثم ندبوا الى ذلك الأمير سنقرا الأعسر وزير الديار المصرية فشرع في استخراج الأموال من الناس ، فتحصل من ذلك فوق مائتي ألف دينار . ثم ان السلطان أنفق على العسكر وخرج من القاهرة قاصدا نحو البلاد الشامية . فلما أن وصل الى غزة جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب كسر التتار كسرة قوية ، ورجعوا الى بلادهم هاربين . فلما بلغ السلطان رجع الى القاهرة من غزة ، وكان سبب رجوعه ... قيل ان العسكر تغلبوا عليه هناك وقصدوا منه نفقة ثانية من قلعة التبن والشعير ، فانه كان لا يوجد .

ثم ان السلطان عين من الأمراء بكتمر السلحدار وجماعة من الأمراء بأن يتوجهوا من غزة الى حلب ويقيموا بها الى أن يظهر ما يكون من أمر التتار . ثم ان السلطان رجع الى القاهرة ، ودخل في موكب عظيم ، وملع الى القلعة ، وانقضى ذلك الأمر .

سنة احدى وسبعمائة (١٣٠١ م) :

فيها توفي الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، وكانت وفاته في ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الاولى من سنة احدى وسبعمائة ، وكان قدومه من بغداد في سنة تسع وخمسين وستمائة ، وذلك

في دولة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى . وأقام في الخلافة نيفا وأربعين سنة ، وهو أول خلفاء بنى العباس بمصر . ولما مات دفن بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وبنيت له هناك قبة . ولما مات الامام أحمد تولى من بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان ، وهو ثاني خلفاء بنى العباس بمصر واليه تنسب الخلفاء الى الآن بمصر .

سنة اثنتين وسبعمائة (١٣٠٢ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن أميرا من أمراء القمان غازان ، يقال له قطلوشاه ، قد دخل الى حلب على حين غفلة من أهلها ومعه طائفة من عسكر التتار ، وذكروا أن بلادهم قد اضمحلت هذه السنة وقصدهم الاقامة بحلب حتى يشتروا لهم مغلا ... وكل ذلك حيل وخداع .

ثم بعد أيام دخل منهم جماعة نزلوا بالمرعش ، فأرسل نائب حلب يكتب السلطان بذلك فلما جاء هذا الخبر عين السلطان جماعة من الأمراء المقدمين عدتهم ستة من الأمراء ، وعين ألف مملوك من المماليك السلطانية فخرجوا من القاهرة على الفور مسرعين . فلما وصلوا الى غزة تواترت الأخبار بوصول غازان الى الرحبة ، وأن نائب الرحبة تلطف به وأرسل له بالاقامة مع ولده ومنعه من محاصرة المدينة .

فلما أن بلغ السلطان ذلك أحضر الأمير سلاار النائب ، والأتابكي بيبرس الجاشنكير ، وضربوا مشورة في ذلك ، فأشاروا على السلطان بالخروج قبل أن يتمكن العدو من البلاد ، فنادى السلطان في جميع أماكن القاهرة للعسكر بالرحيل من كبير وصغير .

ثم ان السلطان أحضر جماعة من عربان الشرقية ومن عربان الغربية ، ونادى بالنفير عاما ، وخرج

مسرعاً على جرائد الخيل ، وكان معه الخليفة المستنكى بالله أبو الربيع سليمان والقضاة الأربعة وسائر الأمراء والعسكر من كبير وصغير . فلما رحلوا من الريدانية تقدم الأتابكي بيبرس الجاشنكير مع جماعة من العسكر قدام السلطان . فلما وصلوا الى الشام جاءت الأخبار بأن جاليش غازان قد وصل الى قرب حماة ، فأرسل الأتابكي بيبرس يستحث السلطان في سرعة الحضور ، فجدد السلطان في السير حتى وصل الى الشام في مستهل شهر رمضان من السنة المذكورة . ثم ان السلطان لم يقيم بالشام ، وبرز الى قتال عسكر غازان ... فكان مع السلطان من العساكر المصرية والشامية وعربان جبل نابلس نحو مائتي ألف انسان ، وكان مع غازان مثل ذلك أو أكثر . فتلاقى العسكران على مرج راهط تحت جبل غباغب ، فكان بين الفريقين هناك واقعة عظيمة لم يسمع بشئها فيما تقدم من الزمان ، فكانت النصره يومئذ للملك الناصر محمد بن قلاوون على القان غازان ، فقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وأسر من عسكر غازان نحو الثلث ، وقتل من أمراء مصر الأمير حسام الدين لاجين استادار العاليه ، والأمير أوليا بن قرمان ، والأمير سنقر الكافورى ، والأمير أيدير الشمسى المقشاش ، والأمير أقوش الشمسى الحاجب ، والأمير عز الدين قبيب الجيوش المنصورة ، والأمير علاء الدين بن التركمانى ، والأمير حسام الدين على بن ساخل ، والأمير سيف الدين بهادر الدكاجكى ... هؤلاء غير من قتل من أمراء دمشق الشام وحماة وحلب وطرابلس وغزة وغير ذلك من الأمراء . وقتل من المماليك السلطانية والأمراء نحو ألف وخمسمائة مملوك ، هذا خارجا عن العربان والمشاة والعييد والغلمان وغير ذلك .

فلما دخل الليل حالت الظلمة بين العسكرين ، فالتجأ عسكر غازان الى أعلى الجبال ، وباتوا يوقدون النيران ، وبات عسكر السلطان محدقين بهم كالحلقة . فلما لاح الصباح من يوم الأحد رابع شهر رمضان عاين عسكر التتار الهلاك من العطش والجوع ، فصاروا يتسحبون في الأودية أولا بأول ، فحمل عسكر السلطان عليهم فصيروهم رما ، وأسروا منهم ما شاءوا ، فامتلات من قتلاهم القفار ، وضجوا كما قال فيهم القائل :

مشوا متسابقى الأعضاء فيهم
لأرجلهم بأرؤسهم عشار
إذا فاتوا السيوف تناولتهم
بأسسياف من العطش القفار

فلما وصلت هذه النصره للملك الناصر محمد ، أرسل الأمير بكتوت الفتاح بأخبار هذه النصره الى الديار المصرية ، ثم ان السلطان رحل من المكان الذى وقعت فيه الواقعة ودخل الى دمشق وصحبته الخليفة المستنكى بالله سليمان والقضاة الأربعة ، فنزل بالقصر الأبلق . وكان يوم دخوله الى دمشق يوما مشهودا لم يسمع بشئله ، وزينت له دمشق زينة عظيمة ، فأقام بدمشق أياما ثم قصد التوجه نحو الديار المصرية ، فوصل الى القاهرة في ثالث عشرى شوال من سنة اثنتين وسبعمائة ، فدخل الى القاهرة وكان يوما مشهودا ، والأسارى من عسكر التتار قدامه وهم فى جنازير حديد ، وصناجق غازان منكوسة ، وطلائعه معكوسة . وقد فشق السلطان من القاهرة وطلع الى القلعة . وقد غنم العسكر من التتار — لما انكسروا — أشياء كثيرة من خيول وسلاح وقماش وغير ذلك من الغنائم . وكانت هذه النصره على غير القياس ، فان غازان كسر الملك الناصر قبل ذلك كسرة قوية ، ونهب جميع ما كان معه ومع العسكر من خيول

فليذكروا مع خوفهم قوله
زلزلة الساعة شيء عظيم

سنة ثلاث وسبعمائة (١٣٠٣ م) :

فيها خرج الأمير بيبرس الدوادار لمصارعة
ما انهدم من الأبراج والأسوار بمدينة الاسكندرية
بسبب ما حصل من الزلزلة ، فكان عدة ما سقط
من الأبراج سبعة عشر برجاً وستاً وأربعين
مئذنة

ثم ان جماعة من الأمراء التزموا بترميم ما انهدم
من الجوامع بالديار المصرية بسبب الزلزلة ،
وصرفوا على ذلك من أموالهم شيئاً كثيراً .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار بموت القان
غازان الذي جرى منه ما تقدم ذكره ، فكان غازان
هذا من أولاد هلاكو الذي جرى منه في بغداد
ما جرى . وقيل ان غازان مات مسموماً ... ستمه
زوجته في منديل الفرش . وكان موته بالقرب من
همدان ، وحمل الى تبريز ودفن بها . وكان أخذ
في أسباب جمع عساكر ، وقصد بأن يزحف على
البلاد الشامية ، وكفى الله المؤمنين القتال . وفي
ذلك يقول الشيخ علاء الدين الوداعي :

قد مات غازان بلا علة

ولم يمت في السنة الماضية

بل شنعوا في موته فاشنى

حيا ولكن هذه القاضيه

سنة اربع وسبعمائة (١٣٠٤ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة صاحب دقلة
من أعمال الصعيد ، وكان صحبتة هدايا جميلة من
رقيق وجمال وأبقار حبشية وغير ذلك ، فخلع عليه
السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة .

وفيها كانت وفاة قاضي القضاة الشافعي شيخ
الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله تعالى .

وسلاح وبرك وغير ذلك كما تقدم ، فكان كما
قيل في المعنى :

فيوم علينا ويوم لنا

ويوم نساء ويوم نسر

ومن الحوادث في هذه السنة أن في الثالث
والعشرين من ذى الحجة وقعت زلزلة عظيمة
بالديار المصرية وسائر أعمالها ، وكانت قوة عملها
بشعر الاسكندرية ، فهدمت سورها والأبراج .
وهدمت جانب المنار ، وفاض ماء البحر المالح حتى
غرقت البساتين . وأما بالديار المصرية فهدمت أكثر
جدران الجوامع الحاكمة ، وهدمت مئذنة المدرسة
المنصورية ومئذنة جامع الظاهر الذي في الشوايين ،
وهدمت مئذنة جامع الصالح الذي عند باب
زويلة ، وهدمت جانباً من حيطان جامع عمرو بن
العاص . وقد تشقق من هذه الزلزلة الجبل
المقطم ، وخرج الناس الى الصحراء وظنوا أنها
القيامة . وأقامت الزلزلة تعاود الناس مدة عشرين
يوماً ، وسقطت الدور على الناس ، وهلك تحت
الردم من الناس ما لا يحصى . وقيل ان شخصاً كان
بيع اللبن فسقطت عليه داره فظن الناس أنه قد
مات ، فأقام تحت الردم ثلاثة أيام بلياليها ، فلما
شالوا عنه الردم ، وجدوا فيه الروح وقد تصلبت
عليه الأخشاب فسلم ، وكان معه جرة فيها لبن
فوجدت معه كما هي سالمة وفيها اللبن .

وكانت هذه الزلزلة في قوة الحر ، فجاء
عقبها ربيع أسود فيه سموم ، فلفح حتى أغشى
على الناس منها .

وقيل كانت هذه الزلزلة متصلة الى دمشق
والكرك والشوبك وسفد وغالب البلاد الشامية ،
وفي ذلك يقول بعضهم :

زلزلت الأرض فخاف السورى

وابتهلوا الى العزيز الحكيم

وكان عالماً فاضلاً بارعاً في العلوم ، وكان من مطلبة
الشيخ عز الدين بن عبد السلام . وكان له نظم
وقيق ، فمن ذلك قوله في نوع الجنس التام :

تهيم نفسى طرباً عند ما
أستلحح البرق الحجازياً
ويستخف الوجد عقلى وقد
لبست أثواب الحجا زياً
ياهل ترى أقضى منى من منى
وأنحر البدن المهارياً
وأرتوى من زمزم فهمى لى
ألد من ريق المهاريا

سنة خمس وسبعمائة (١٣٠٥ م) :

فيها ابتداء الأتابكى يبرس الجاشنكير بعمارة
خاتناه التى برجة باب العيد قبالة الدرب الأصفر ،
وكتب له الشيخ شرف الدين بن الوجيه ختمة
مكتوبة بالذهب فى سبعة أجزاء فى ورق قطع
البغدادى بقلم الشعر ، فصرف على أجرة نسخها
ألفاً وسبعمائة دينار . وكتبها برسم هذه الخاتناه
التى أنشأها ، فكانت هذه الختمة من محاسن
الزمان ، وأودعها بها .

سنة ست وسبعمائة (١٣٠٦ م) :

فيها وقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت
الغلال واشتد سعرها ، وهاجت الناس على بعضها ،
وعز الخبز من الأسواق ، وبلغ ثمن الرغيف درهم
فضة ، فأقام الأمر على ذلك مدة يسيرة ، ثم تراجع
الحال قليلاً قليلاً الى أن انحط السعر ، وظهرت
الغلال .

وفيها توفى الشيخ الزاهد العارف بالله تعالى
سيدى يافوت العرشى رضى الله عنه ودفن بنواحي
الاسكندرية . وفيها توفى الشيخ زين الدين

الفارقى ، وتوفى الشيخ صدر الدين بن الوكيل
صاحب الأشعار اللطيفة ، وتوفى الشيخ ضياء الدين
الطوسى شارح الحاوى .

سنة سبع وسبعمائة (١٣٠٧ م) :

فيها وقع بين السلطان وبين الأمير ملار نائب
السلطنة ، وثار بينهما الفتنة وكثر القيل والقال ،
ودبت بينهما عقارب التشاحن .
ثم انه فى يوم الاثنين عمل السلطان الموكب ،
وقبض فى ذلك اليوم على جماعة من الخاصكية
الذين هم من عصبة الأمير ملار النائب — وهم :
يلبغا التركمانى ، وخاص ترك العلائى ، وبكتير
الفارمى — فرسم لهم السلطان بأن يتوجهوا الى
القدس ، فعز ذلك على الأمير ملار .

وفيها أظهر صاحب اليمن — وهو الملك المؤيد
هزى داود — المخالفة للسلطان ، ومنع ما كان
يرسله فى كل سنة من الهدايا والتقادم الى السلطان ،
فعز ذلك على الملك الناصر ، وعين له تجريدة ،
وشرع فى عمارة مراكب تسمى جلبات ، وعين جماعة
من الأمراء والمماليك السلطانية . فلما شرع فى ذلك
دخل الشتاء فأهمل هذا الأمر وبطل .

سنة ثمان وسبعمائة (١٣٠٨ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بحركة التتار . فلما
بلغ السلطان ذلك عين تجريدة وبها جماعة من
الأمراء المقدمين وهم : الأمير جمال الدين أقوش
الموصلى المسمى قتال السبع ، وهو صاحب الغيطة
المنسوب اليه ، والأمير شمس الدين السدكر
السلحدار . وعين جماعة من الأمراء والطبلخانات
والعشراوات والمماليك السلطانية ، ورسم لهم بأن
يتقدموا ويقيموا فى مدينة حلب الى أن يصير من
أمر التتار ما يكون . فلما شرعوا فى أمر السفر ،
وهموا بالخروج الى حلب ، جاءت الأخبار من عند

فائب حلب بأن التتار وقع بينهم خلف ورجعوا الى بلادهم ، فبطل أمر التجريدة .

ثم ان السلطان أظهر أن يحج في تلك السنة ، وعبى له سنيحا عظيما . فلما كان في يوم السبت خامس عشرى شهر رمضان من السنة المذكورة خرج السلطان من القاهرة ، وصحبته جباة من الأمراء ، وهم الأمير عز الدين أيدير الخطيرى استادار العالية ، وهو صاحب الجامع الذى فى ببولاق ، والأمير حسام الدين لاجين قرا أمير مجلس ، والأمير آل ملك الجوكندار ، والأمير بلبان المحمدى أمير جاندار ، والأمير أيك الرومى ، والأمير بيبرس الأحمدى ، وغير ذلك من الأمراء والطبلخانات والعشراوات والماليك السلطانية . فخرج السلطان من القاهرة وتوجه الى الصالحية فعيد بها عيد الفطر ، ثم رحل وأظهر أنه يقيم بالكرك الى أن يخرج المحمل من القاهرة ، فرحل من الصالحية وتوجه الى الكرك فدخل اليها فى يوم الأحد عاشر شهر شوال .

فلما دخل المدينة زينت له زينة عظيمة . ولما وصل الى خندق قلعة الكرك وقف حتى مدوا له جسرا من الخشب ليبر عليه . فلما عبر عليه ومشى تكاثرت حوله الماليك ، فأنكسر ذلك الجسر من تحت أرجلهم بعد أن تقدم فرس السلطان بخطوتين ، فسقط الماليك المشاة فى الخندق ، فانصدع منهم جماعة كثيرة ، ومات منهم واحد فى تلك الساعة .

فلما طلع السلطان الى قلعة الكرك وأقام بها ، جمع الأمراء الذين كانوا معه وصرح لهم بما كان عنده من السكين فى خساطره من الأمير سار والأتابكى بيبرس الجاشنكير ، ورسم الى الأمراء الذين توجهوا معه الى الكرك بأن يرجعوا الى القاهرة ، وأنه قد اختار الإقامة بالكرك .

ثم ان السلطان رسم لنائب الكرك بأن ينزل من القلعة هو وجباة ، فتحول فى الحال ونزل من القلعة بمن كان معه من الرجال ، واستقر السلطان بقلعة الكرك . وكان السلطان قرر مع الأمراء الذين بمصر أنه اذا خرج المحمل من القاهرة يلاقيهم من العقبة ، وكان قرر معهم أن حريم السلطان يتوجهون صحبة المحمل وهو يلاقيهم من هناك . فلما كان سابع عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة وصحبته حريم السلطان — وكان أمير المحمل فى تلك السنة الأمير جمال الدين خضر بك ابن نوكبة — فلما وصل الحاج الى العقبة أرسل السلطان فأخذ عياله من هناك والسنيح ومضوا الى الكرك .

فلما وصلوا الى هناك رسم السلطان للأمراء بالعود الى الديار المصرية ، وأعاد صحبتهم خزائن المال والجنائب والعصائب السلطانية والحجن والكبايش الزركش التى كانت معه برسم سفر الحجاز ، وكتب مع الأمراء مرسوما يتضمن أن السلطان رغب عن الملك ، واختار الإقامة بالكرك ، وأن الأمراء الذين بالقاهرة يختارون لهم من يولونه سلطانا .

ثم ان الملك الناصر محمد خلع نفسه من الملك وأشهد عليه بذلك ، فمضى الأمراء من عنده .

فلما كان يوم السبت ثالث عشرى شوال دخل الأمراء الذين كانوا صحبة السلطان فى الكرك الى القاهرة ، فلما بلغ الأمراء الذين كانوا بمصر مجيء الأمراء على حين غفلة ركبوا جميعا وطلعوا الى الرميلة ووقفوا بسوق الخيل ، فقرأوا عليهم مرسوم السلطان بأنه قد رغب عن الملك وأشهد على نفسه بالخلع واختار الإقامة بالكرك .

فلما سمع الأمراء ذلك ضربوا مشورة مع بعضهم وقالوا : « ان راددنا السلطان فى العود الى

الملك المظفر

هو الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري ، وهو الثاني عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويج بالسلطنة بعد خلع الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون ، وتلقب بالملك المظفر ، فركب بشعار السلطنة من الايوان الأشرقي ، وحملت القبة والطير على رأسه ، ومشت الأمراء بين يديه حتى جلس على سرير الملك ، والأمراء قبلوا له الأرض ، ونودى باسمه في القاهرة ، وضح له الناس بالدعاء ، وذلك في يوم السبت بعد العصر الثالث والعشرين من شهر شوال من سنة ثمان وسبعمائة .

فلما تم أمره في السلطنة خلع على الأمير سلال واستقر به نائب السلطنة على عادته ، وخلق على صاحب ضياء الدين النشائي واستقر به وزيرا ، وخلق في ذلك على جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين حتى قيل انه خلع في ذلك اليوم ألفين ومائتي خلعة ، ما بين كوامل سمور ومتمرات وغير ذلك .

سنة تسع وسبعمائة (١٣٠٩ م) :

من الحوادث فيها أن النيل توقف عن الزيادة واستمر الى آخر مسرى ، ودخلت أيام النسيء وهو على ذلك ، ثم نقص فضج الناس وماجوا في بعضهم ، وتشحطت الفلال ، وارتفع الخبز من الأسواق ، وضج العوام .

ثم ان السلطان رسم بكسر السد من غير وفاء ، لأن النيل كان تقص عن الوفاء ثلاثة أصابع ، فكسر السد سابع توت من الشهور القبطية . ولم يخلق المقياس لذلك ، لأن التخليق لا يكون الا بالوفاء .

فلما كان السابع والعشرون من توت نقص النيل جملة واحدة ، فكان منتهى الزيادة في تلك السنة

الملك نخشى ألا يسمع ... ويطمع العربان في البلاد الى أن يعود الجواب النابجا يكون ... ثم انفضوا ولم ينتظم لهم حال .

فلما كان وقت الظهر من ذلك اليوم ركب سائر الأمراء وطلعوا الى القلعة ، واجتمعوا في دار النيابة ، وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطانا ، وكانت الكلمة يومئذ مجمعة بين سلال نائب السلطنة وبين الأتابكي بيبرس الجاشنكير ، فطال بينهما الجدل في أمر السلطنة .

فأما الأمير سلال فامتنع من السلطنة بكل ما يمكن ، وحلف على ذلك بالطلاق الثلاث من نسائه .

فلما جرى ذلك وقع الاختيار على سلطنة الأتابكي بيبرس الجاشنكير . وأما الأمير سلال فبقى نائب السلطنة على عادته . ثم تحالف سائر الأمراء على ذلك وأنهم يكونون كلمة واحدة .

ثم أحضروا خلعة السلطنة والفرس الى بيبرس الجاشنكير ، وتولى السلطنة . فكانت مدة سلطنة الناصر محمد بن قلاوون في هذه المرة — وهي السلطنة الثانية — عشر سنين وأياما .

قليل وكان مسبب توجه الملك الناصر الى الكرك أنه كان مع سلال النائب وبيبرس الجاشنكير كالمحجور عليه ، لا يتصرف في شيء من أمور المملكة الا باختيارهما ، حتى قيل انه طلب خروفا وميسا بدريا فنزع من ذلك ، وقيل له حتى يعجى القاضي كسريم الدين كاتب الأمير بيبرس الجاشنكير ... فغضب السلطان من ذلك ، وأظهر أنه يريد الحج في تلك السنة ، فلما خرج من القاهرة توجه الى الكرك وأقام بها كما تقدم ، وأخذ عياله من العقبة .

وسيعود بعد ذلك الى الملك كما سيأتي ذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

خسعة عشر ذراعا وسبعة عشر اصبعاً ، فشرقت البلاد بسبب ذلك . وقد قال النصير الحمامي في هذه الواقعة :

ان عجل النوروز قبل الوفا
عجل للعالم صفع القفا
فقد كفى من دمهم ما جرى
وما جرى من نيلهم ما كفى
ثم ان العوام صنعوا كلاماً ولحنوه ، وصاروا يغنونه في أماكن التفرجات وغيرها ، وهو هذا :
سلطانا ركين ونائبو دقين
يجينا الماء من اين

هاتوا لنا الأعرج يجي الماء يدرج
وكان السلطان بيبرس الجاشنكير لقبه ركن الدين ، فسماه العوام « ركين » .

وكان الأمير سالار أجرد ، في حنكه بعض شعرات ، لأنه كان من التتر ، فسماه العوام « دقين » .
وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون به بعض عرج ، فسماه العوام « الأعرج » .

فلما فشا بين الناس هذا الكلام بلغ السلطان بيبرس ، فرسم بقبض جماعة من العوام نحو ثلثمائة انسان ، فضرب منهم جماعة بالمقارع ، وأشهرهم في القاهرة ، ورسم بقطع السنة جماعة منهم .

ثم ان السلطان بيبرس بلغه عن بعض الأمراء أنهم كاتبوا الملك الناصر وهو بالكرك ، فقبض على جماعة منهم ونفاهم الى نجر الاسكندرية ، وقبض على جماعة من المماليك السلطانية ونفاهم نحو قوص ، وكانوا نحو ثلثمائة انسان ، فلما وقع ذلك من الملك المظفر نفرت منه قلوب الرعية من الترك والعوام ، واختار كل أحد من الناس عود الملك الناصر محمد .

ثم صار جماعة من المماليك الناصرية ينسحبون تحت الليل ويتوجهون الى الملك الناصر بالكرك ،

ويتركون بيوتهم وأولادهم . فلما بلغ الملك المظفر بيبرس ذلك أرسل الى الملك الناصر محمد ، الأمير مغطاي والأمير قطلوبغا ويدهما كتاب الى الملك الناصر ، مضمون تلك المطالعة تهديد الملك الناصر ووعيده بكل سوء ، وأرسل يقول له : « ان لم ترجع عن مكاتبتك الى الأمراء ، والا جرى عليك كما جرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقداري ونفيهم الى القسطنطينية ... وأنت تعلم ذلك فلا تحوجنا الى أن نفعل ذلك كما فعل أخوك الأشرف خليل بأولاد الظاهر بيبرس » كما تقدم . فلما وصلت مطالعة الملك المظفر الى الملك الناصر محمد اشتد غضبه على الأمير مغطاي وقطلوبغا اللذين أرسلها الملك المظفر ، وضرب الأمير مغطاي بالمقارع لأنه أغلظ عليه في القول ، ثم اغتله هو والأمير قطلوبغا في الحب .

ثم ان الملك الناصر أرسل مكاتبة الى نائب حلب والي نائب طرابلس ، والي نائب صفد ، والي نائب حماة ، يقول لهم فيها : « لما اشتد على الضنك من الأمراء خرجت لهم من مصر ، وتركتم لهم الملك ، ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن وأضيق الأماكن ليستريح خاطري من النكد ... فما تراجعوا عني ، وأرسل المظفر يهددني بالنفي الى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس البندقداري ، وأرسل يطلب مني مالاً لا أقدر عليه . وأنتم تعلمون ما لوالدي الملك المنصور عليكم من حق العتق والتربية . وما أظنكم ترضون لي بهذا الحال . فاما أنكم تكفون عني أذى هؤلاء الأمراء الذين يتعصبون علي ، واما أني أتوجه الى بعض بلاد التتار وألتجئ اليهم قبل ما يرسلني الملك المظفر الى بلاد الكفار » .

ثم أرسل الملك الناصر الى النواب مطالعة الملك المظفر التي أرسلها له بالتهديد ، وكان الذي توجه الى النواب بمطالعة الملك الناصر شخصاً يسمى

تاج الدين أوزان من أبناء المعجم . فلما وصلت هذه
المنشآت إلى الثواب أخذتهم الحمية على ابن
أستاذهم ، وتعصبوا له ، وأرسلوا يقولون له :
« متى أردت أن تتحرك إلى التوجه إلى مصر فنحن
منوع يدك ومنايك أيبك » ... فلما عاد الجواب
إلى الملك الناصر بذلك أخذ في أسباب التوجه إلى
مصر ، فخرج من الكرك ومعه جماعة من العربان ،
فلما وصل إلى البرج الأبيض من أعمال البلقاء
أرسل نائب الشام أقوش الأفرم يعرف الملك المظفر
بذلك ، وكان نائب الشام هذا من عصبة المظفر ،
فلما وقف الملك المظفر على مطالعة نائب الشام
وتشاور مع الأمير ملار النائب عينوا إلى الملك
الناصر تجريدة ، وعينوا بها من الأمراء الأمير سيف
الدين بلغار — صهر الملك المظفر — والأمير عز
الدين أيبك البغدادى ، والأمير شمس الدين الدكر
السلحدار ، والأمير أقوش الذى كان نائب الكرك ،
وعين معهم ألفى مملوك من المماليك السلطانية .

ثم إن الملك المظفر أنفق على العسكر المعين
للتجريدة ، فجهزوا أمرهم في سبعة أيام ، ثم خرجوا
من القاهرة يوم السبت تاسع رجب من سنة تسع
ومسعمائة . فلما نزلوا بالريدانية أقاموا هناك يوما
وليلة ، ثم عادوا إلى القاهرة . وكان سبب عود
الأمراء أن ورد كتاب من عند نائب الشام بأن الملك
الناصر تسلم الشام ودخل إليها في موكب عظيم
وزينت له ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وأن
جميع الثواب دخلوا تحت طاعته ومشوا في ركابه ،
وهم : نائب طرابلس ، ونائب حماة ، ونائب صفد ،
ونائب حمص ، وكل نائب بعسكر ... فدخل إلى
الشام في موكب عظيم ، وكان الأمير بهادر
— المعروف بالحاج بهادر — حامل القبة والطير
على رأسه إلى نزوله بالقصر ببيدان دمشق ،
فحضر إليه السنجرى نائب قلعة دمشق بسماط
عظيم . ثم إن الملك الناصر خلع على الأمير أقوش

الأفرم ، وأقره نائب الشام على عاداته ، وخلع على
الأمير استدر كرجى وأقره نائب طرابلس على
عاداته ، وخلع على الأمير تمر الساقى وأقره نائب حمص
على عاداته ، وخلع على نائب حماة وأقره على
عاداته ، ثم حضر الأمير قرا سنقر المنصورى نائب
حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فخلع عليه وأقره
على عاداته في نيابة حلب .

ثم لما كان يوم الجمعة خطب باسم الملك الناصر في
ذلك اليوم على منابر دمشق ، فلما بلغ الملك المظفر
بيبرس ذلك كله اضطربت أحواله ، وضافت عليه
الأرض بما رحبت ، ونسى حلاوة اللحم بمرارة
الأشنان ، وقد قال القائل في المعنى :

يا طالب الدنيا الدنية ، انها

شرك الردى وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكك في يومها

أبكت غدا ... تبا لها من دار !

فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان
دخل المقر السيفى ملار النائب ومعه جماعة من
الأمراء إلى الملك المظفر بيبرس ، وقالوا له :
« يامولانا السلطان ، إن غالب الأمراء والمماليك
السلطانية قد تسحبوا من القاهرة وتوجهوا إلى
الملك الناصر ، وقد وقع الاختيار على عودهم ، ومن
الرأى أن ترسل إلى الملك الناصر لتسأله في مكان
تتوجه إليه أنت وعيالك فلعله أن يجيبك إلى ذلك .
وإن لم تبادر إلى هذا والا دهمت العساكر وهجموا
عليك وأنت هنا » . فقال له المظفر : « ومن يتوجه
إلى الملك الناصر بهذه الرسالة ؟ » . فأشار عليه
الأمراء بالأمير بيبرس الدوادار الكبير والأمير
بهاجر آص ، فكتب معهما الملك المظفر كتابا إلى
الملك الناصر وهو يترفق به فيه ، ويسأله أن ينعم
عليه بمكان يتوجه إليه هو وعياله : أما الكرك ،
وأما صهيون ، وأما حماة .

ثم إن الملك المظفر أحضر القضاة الأربعة ، وخلع

نفسه من الملك وأشهد عليه بذلك ، وجيز ذلك
الاشهاد على يد الأمير بيبرس والأمير بهادر آص ،
وخرجا من يومهما وتوجها الى الشام .

ومن عجائب الاتفاق أن الساعة التي خلع فيها
الملك المظفر نفسه من الملك كانت هي الساعة التي
ركب فيها الملك الناصر من الشام وخرج قاصدا
نحو الديار المصرية ، ودام فيها الملك الناصر في
السلطنة مدة طويلة الى أن مات على فراشه كما
سيأتى ذكر ذلك في موضعه . فلما توجه الأميران
المذكوران الى الملك الناصر برسالة الملك المظفر ،
أقام الملك المظفر بعد ذلك أياما وهو على جمرة
نار ، لا يقر له قرار . ثم دخل خزائن بيت المال ،
وأخذ منها ما قدر عليه من الأموال والسلاح
والتحف ، وعين معه من المماليك الذين هم من
مشترياته سبعمائة مملوك ، وأخذ صحبته الأمير
بكتوت الفتاح ، والأمير أيدير المعبروف
بالحظيري ، والأمير قجماس .

فلما كان يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان
نزل الملك المظفر من القلعة بعد العشاء من باب
القرافة ، وأخذ معه من الأسطبل الساطاني ثلاثا
طوائل خيل من الخيول الخواص . فلما بلغ العوام
نزوله من القلعة اجتمعوا ، ووقفوا له عند باب
القرافة ، ورجوه بالحجارة والمقاليح ، وسبوه سبا
قبيحا ... فلولا أنه شعلهم بشيء من الفضة نثرها
عليهم والا كانوا قتلوه لا محالة ، فانه كان قد
أفحش في حق العوام وشوش على جماعة منهم كما
تقدم ذكر ذلك .

فلما خلاص منهم توجه من بركة الحبش الى نحو
أطفيح ، وقصد التوجه الى نحو أسوان .

فلما أصبح الصباح أشيع هروب الملك المظفر
ونزوله من القلعة . فلما جرى ذلك دخل الأمير
سلار النائب ، وختم على خزائن بيت المال ، وأطلق
من كان مسجوناً من الأمراء في الأبراج بالقلعة .

ثم انه أرسل يكاتب الملك الناصر بما جرى من أمر
الملك المظفر بيبرس ، وأرسل كتابا بهذه الواقعة
على يد الطنبا الجمدار .

ولما كان يوم الجمعة خطب باسم الملك الناصر
على منابر القاهرة قبل دخوله اليها .

هذا ما كان من أخبار الملك المظفر بيبرس ...
وأما ما كان من أمر الملك الناصر فانه لما خرج من
الشام ووصل الى غزة لاقاه الأمير بيبرس الدوادار
والأمير بهادر آص اللذان أرسلهما الملك المظفر ،
فقدما اليه مطالعة الملك المظفر والخلع الذي أشهد
به على نفسه . فلما رأى ذلك الملك الناصر فرح
وقال : « الحمد لله الذي صان دماء المسلمين عن
القتال ! » . وخلع على ذينك الأميرين الخلع
السنية .

ثم ان الملك الناصر كتب أمانا وأرسله الى الملك
المظفر على يد الأمير بيبرس والأمير بهادر آص ،
وعادا الى مصر فوجد الملك المظفر توجه الى
أطفيح . فلما رآيا ذلك أرسلوا له ذلك الأمان وهو
في أطفيح ... فكانت مدة غيبة الأميرين سبعة أيام
ذهابا وإيابا الى أن عادا بالجواب .

ثم ان الملك الناصر خرج من غزة ، وجد في
السير فوصل الى بركة الحاج في سلخ شهر رمضان
فعيد هناك ، فخرج اليه الأمير سلار النائب وقبل له
الأرض ، وكذلك سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر
والقضاة الأربعة وأعيان الناس . ثم ان الملك الناصر
صلى صلاة العيد هناك ، وطلع الى القلعة في
موكب عظيم ، وحملت القبة والطير على رأسه ،
وفرشت تحت حوافر فرسه الشقق الحرير من بين
الترب الى أن طلع الى القلعة وجلس على سرير
الملك ... وقد قال القائل في المعنى :

فاستبشرت مصر وهنأ بعضها
بعضا بعودته الى الأوطان

عَوْدُ الْمَلِكِ النَّاصِر

عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون الى السلطنة ،
وهى السلطنة الثالثة .

فلما كان يوم الخميس ثانى شوال سنة تسع
وسبعمائة ، فيه عمل السلطان الموكب ، وطلع الى
القلعة الخليفة المستكفى بالله سليمان ومعه القضاة
الأربعة ، وبايع الملك الناصر بالسلطنة ، ولبس
خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء وعمامة سوداء
بعذبة زرکش وميف بداوى متقلد به — فجلس
على سرير الملك وجميع الأمراء من كبير وصغير
قبلوا له الأرض وهو جالس فى الايوان الأشرفى .
ثم خلع على سائر الأمراء والنواب الذين حضروا
معه خلع الاستمرار ، وخلع على الخليفة المستكفى
بالله سليمان والقضاة الأربعة وأرباب الدولة من
أصحاب الوظائف

ثم فى ذلك اليوم قبل الأرض الأمير سلار
النائب ، وطلب من السلطان أن يعفيه من النيابة ،
وأن يقيم بالشوبك لأنها كانت جارية فى جملة
اقطاعه ... فأجابه السلطان الى ذلك ، وخلع عليه
خلعة السفر وخرج من يومه الى الشوبك ، فكانت
مدة لياسته بالديار المصرية احدى عشرة سنة وأياما .
وكان مستحقا للسلطنة أكثر من المظفر بيبرس
الجاشنكير ، ولكن كان سلار قانعا بالنيابة . وهو
نافذ الكلمة ، وافر الحرمة ، كثير المال ... ففنع
بذلك عن السلطنة كما قيل فى المعنى :

إذا منعتك أشجار المعالى

جناها الغض فافتع بالشميم

ثم ان السلطان عمل الموكب الثانى ، وخلع على
الأمير بكتمر الجوكندار واستقر به نائب السلطنة
عوضا عن سلار . ثم ان السلطان أرسل الأمير

بيبرس الدوادار والأمير بهادر آص الى الملك المظفر
بيبرس ، وكان قد توجه نحو اخميم من أعمال
الصعيد . فلما اجتمعا به تطلقا معه فى القول حتى
استخلصا منه ما كان أخذه من بيت المال من
الأموال والتحف ، وكذلك ما كان أخذه من
الخيول الحواص ، وأخذا منه ما كان معه من
الماليك ، ثم قالوا له ان السلطان يقول لك :
« امض الى الكرك وأقم بها ، وهو يرسل اليك من
هناك عيالك وأولادك » . فقال الملك المظفر :
« السمع والطاعة » . ورحل من يومه وتوجه من
هناك من طريق السويس .

ثم ان الأمير بيبرس الدوادار والأمير بهادر آص
رجعا الى القاهرة ومعهما الأموال والحيول
والماليك الذين كانوا مع المظفر . فلما حضروا الى
الملك الناصر وبلغه توجه المظفر من جهة السويس
الى الكرك ، أرسل اليه الأمير استدمر كرجى وهو
فى أثناء الطريق ، فقبض عليه وأحضره الى الأبواب
الشريفة ، فطلع الى القلعة فى الليل ، وذلك فى ليلة
الخميس رابع عشر ذى القعدة . فلما طلع الى القلعة
أودعه السلطان فى البرج .

فلما كان صبيحة يوم الخميس وقت الظهر فى
خلوة ، مثل بين يديه ووبخه بالكلام ، وعدد له
ما وقع من القبائح فى حقه ، ثم أمر بحنقه بين يديه
فخنق بوتر حتى مات وقضى نجه ، وذلك فى يوم
الخميس رابع عشر ذى القعدة من سنة تسع
وسبعمائة . فلما مات أرسله السلطان الى زوجته ،
وأمر بأن يدفن فى تربة بالقرافة فدفن هناك مدة ...
ثم ان بعض الأمراء تداخل على السلطان بأن ينقل
ويدفن فى خانقائه التى أنشأها عند الدرب الأصفر
بالقرب من خانقاه سعيد السعداء ، فكانت مدة
سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير بالديار
المصرية أحد عشر شهرا وأياما .

وكان يبرس ملبع الشكل ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، أشهل العينين ، وافر العقل ، حسن السيرة ، وكان كفؤا للسلطنة ، كثير البر والخير والمعروف والصدقات .

سنة عشر وسبعمائة (١٣١٠ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير بكتمر الناصري الحاجب واستقر به وزيرا .

ثم ان السلطان بلغه أن أخا الأمير سلار النائب وجماعة من الأمراء الذين هم من عصابة الأمير سلار يقصدون الوثوب على السلطان . فلما تحقق ذلك بادر وقبض على أولئك الأمراء الذين تقل عنهم أمر الوثوب — وكانوا نحو أربعة عشر أميرا — وقبض معهم على أخى الأمير سلار وأودعهم السجن .

ثم ان السلطان أرسل يكتاب سلار بما وقع من أخيه ، وأرسل الى سلار بالحضور الى القاهرة ليزول أمر القال والقييل من بين الناس . ثم ان السلطان أرسل في هذه الرسالة الأمير علم الدين سنجر الجاولي ، وأمره ان لم يجيء سلار طوعا يقبض عليه ويحضره كرها ، فأخذ سنجر الجاولي مراسم السلطان وتوجه الى سلار — وكان مقيما بالكرك وقيل بالشوبك — فلما وصل اليه الجاولي أجاب الى الحضور . فلما حضر الى الأبواب الشريفة ، أودعه السلطان في السجن بالقلعة ، فأقام به أياما وأشيع موته . وكان أصله من ممالك الملك الصالح على بن قلاون ، وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار قلاون .

وقيل لما سجن الأمير سلار بعث اليه السلطان بطعام ، فلما وصل اليه الطعام ومثل بين يدي سلار أبى أن يأكل ، وردده على السلطان وأظهر الحق . فلما بلغ السلطان ذلك منع عنه الأكل والشرب ، فأقام على ذلك أياما ، فلما تزايد به الجوع أكل

أخفافه وهو في السجن . ولما بلغ السلطان ذلك رق له وأرسل من يقول له ان السلطان قد رضى عليك ، ففرح وقام ومشى خطوات ثم وقع ميتا من شدة الجوع .

وكان سلار مربوع القامة ، غليظ الجسد ، أسمر اللون ، خفيف اللحية ، له بعض شعرات في حنكه ... وكان من التتار ، وكان شديد البأس ، صعب الخلق ، قوى الغضب . وكان لطيف الذات في ملبسه ، واليه ينسب السلارى الى الآن والمناديل السلارية . وقد اقترح أشياء كثيرة في الملبوس وقماش الخيل وآلة الحرب ، وهى منسوبة اليه الى اليوم . وكان كثير البر والصدقات ، وله آثار ومعروف ، وكان في سعة من المال والعيال مما لا يحصى لكثرتة .

ولما مات سلار تولى أمر دفنه الأمير سنجر الجاولي ، ودفنه في مدرسته الجاولية التى عند الكيش . ثم ان السلطان احتاط على موجوده فظهر له من الأموال والتحف ما لم يسمع بمثله في خزائن الملك . قال الشيخ محمد الكتبي : « وقفت على قوائم بخط القاضى جمال الدين بن الغورية تتضمن ما قد اشتملت عليه تركة الأمير سلار النائب — وذلك أول ما ضبط في أول يوم وهو يوم الأحد سادس عشر جمادى الأولى من سنة عشر وسبعمائة — فمن ذلك صناديق افرنجى مصفحة بنحاس ضمنها فصوص ، منها فصوص ياقوت أحمر كهرمان رطلان ، وفصوص بلخش رطلان ونصف ، وفصوص زمرد بابى عشرون رطلا ، وفصوص ألماس وعين الهر ثلثائة قطعة ، ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة . ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا ألف دينار ، ومن الفضة أربعمائة ألف درهم وأحد وسبعون ألف درهم » ..

ثم في يوم الاثنين سابع عشره وجد له من الذهب
عين خمسة وخمسون ألف دينار ، ومن الفضة
ألف ألف درهم ، ومن القصوص المختلفة رطلان ،
ووجد منه مصنوع من ذهب — ما بين خلاخيل
ونسور — ووزن أربعة قناطير مصرى . ووجد عنده
مئة فضة وثلثين وثمانون ذهب ومشوت فضة
وزن ستة قناطير .

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشره وجد له من الذهب
عين خمسة وأربعون ألف دينار ، ومن الفضة
ثمانية ألف وثلاثون ألف درهم . ووجد عنده
مئات فضة للصنماجق ، وقطريات فضة ثلاثة
قناطير .

ثم في يوم الأربعاء تاسع عشره وجد عنده من
ذهب العين ألف ألف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة
ألف درهم . ووجد عنده أقيصة حرير عمل الدار
ممنون بفرو سنجاب ... العدة أربعمئة قباء . ووجد
عنده من السروج الذهب مائة سرج ، والكل بمياثر
زركش على مخمل أحمر . ووجد له — عند صهره
الأمير موسى — ثمانية صناديق لم يعلم ما فيها .
ووجد له من الشقق الحرير الطرد وحش وغيره
ألف شقة . ووصل صحبته من الكرك من الذهب
العين مائة ألف دينار ، ومن الدراهم أربعمئة ألف
درهم . ومن الخلع الملونة ثلثمائة خلعة . ووجد
عنده من الخيام ست عشرة نوبة ، وحزكات خشب
بغشاء أملس أحمر مرقوم مزركش . ووجد عنده
من الخيول الخاص ثلثمائة رأس دون الدشار ،
ومن البغال مائة وعشرون قطارا ، ومن الجمال
مائة وعشرون قطارا ... هذا كله خارج عما وجد
له من الأملاك والضياع والمعاصر والشون
والمرائب والعييد والخدم والمبايك والجواري
وغير ذلك . ووجد عنده من الأغنام والأبقار
ما لا يحصى . ووجد عنده من الغلال ثلثمائة ألف

أردب في الشون ... ومع هذا كله مات من شدة
الجوع في السجن بالقلعة ! ثم بعد أيام ظهر له
مخبأة في داره ظهر فيها أكياس ذهب لا يعلم لها
عدد ، ووجد له في بيت قريب من بيت الخلاء مخبأة
فيها ذهب عين مسبوك بغير أكياس لا يعلم له عدد .

قليل كان متحصل الأمير سلار هذا في كل يوم
من أجرة أملاكه وضياعه ومستأجراته وحيالاته
مائة ألف دينار . ومن العجائب أن الأمير سلار أقام
في نيابة السلطنة بمصر إحدى عشرة سنة ... فكيف
حوى هذه الأموال العظيمة في هذه المدة اليسيرة
والذى يظهر لى أما أنه كان قد ظفر بكنز من
كنوز القدماء ، وأما أنه كان أخذ هذه الأموال
والتحف من خزائن بيت المال عندما توجه
الملك الناصر الى الكرك — وقد كانت مفاتيح بيت
المال بيد سلار لا يمكن منها الملك الناصر بشيء —
ولكن لما مات سلار رجع كل شيء لأصله ، وقد
قليل في المعنى :

اجمع وأنت من الدنيا على حذر
واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدمت من عمل
محصى عليك وما خلقت موروث
وفي هذه السنة ، وهى سنة عشر وسبعمائة ،
كانت وفاة الشيخ شمس الدين بن دانيال
الحكيم ، وهو صاحب كتاب طيف الخيال . وكان
شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله في
حرفته :

يا مائل عن حرفتى في الورى
وضيعتى فيهم وافلاسى
ما حال من درهم اتفاقه
يأخذه من أعين الناس

وفيها توفي الشيخ شمس الدين السروجي ،
شارح كتاب الهداية ، وكان من كبار الحنفية .
وتوفي التوريزي محدث مكة .

سنة احدى عشرة وسبعمائة (١٣١١ م) :

فيها عظم أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون حين
جاءت الأخبار من افريقية ببلاد الغرب أنه قد
خطب باسمه فيها على المنابر . وكان سبب ذلك أن
صاحب افريقية — وهو أبو يحيى اللحياني —
قدم على الملك الناصر في هذه السنة ، وقال له :
« أرسل معي عسكريا الى افريقية ، فاذا فتحت
المدينة وملكتها ألزمت للسلطان بأن أقيم نفسي بها
نائبا عن السلطان » ... فعين معه السلطان تجريدة
نحو مائة مملوك ومعهم أمير عشرة ، فلما توجهوا
نحو افريقية تسامعت بهم العربان وأهل النواحي ،
فالتفت عليهم جماعة من العربان والمغاربة ، فعظم
أمر أبي يحيى ومشى على بلاد تونس وغيرها من
البلاد ، فحاصر مدينة افريقية حتى فتحها ، ودخل
اليها وعلى رأسه الصناجق السلطانية والعساكر
المصرية ، فطرد من كان بها وملكها وخطب فيها
باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون كما قرر معه ،
واستمر بها ورجع العسكر الى القاهرة وذلك في
شهر رجب من السنة المذكورة .

ومن الحوادث في هذه السنة أن السلطان خلع
على الأمير كراي المنصوري ، واستقر به نائب
الشام ، فأقام بها مدة يسيرة ، وأرسل فقبض عليه
وأعاد الأمير أقوش الأفرم الى نيابة الشام وكان
بالكرك . ثم ان السلطان قبض على الأمير بكتسر
الجوكندار نائب السلطنة بمصر ومسجته ، وخلع
على الأمير بيبرس الدوادار المنصوري واستقر به
نائب السلطنة عوضا عن بكتسر الجوكندار .
وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام

والأمير قرا منقر المنصوري هربا من الشام وتوجها
الى نحو بلاد التتار ، وقد بلغها أن السلطان يروم
القبض عليهما فهربا من أجل ذلك .

سنة اثنتى عشرة وسبعمائة (١٣١٢ م) :

فيها حضر رسل صاحب اليمن وصحبته هدايا
عظيمة ، فقبلها السلطان وأكرم قصاده .
وفيها حضر ملك النوبة الى الأبواب الشرفية
وصحبته هدايا عظيمة ، فمن جملة ذلك ألف رأس
رقيق وخمسائة جمل وخمسائة بقرة خيسية .
وفيها قبض السلطان على الأمير بيبرس الدوادار
الذى استقر نائب السلطنة ومسجته واستقر بالأمير
أرغون الدوادار الناصري في نيابة السلطنة بمصر
عوضا عن بيبرس الدوادار ، ثم خلع على الأمير
تنكز الحسامي واستقر به نائب الشام عوضا عن
أقوش الأفرم . قيل لما تولى الأمير تنكز نيابة
الشام جعل السلطان نيابة دمشق أكبر من نيابة
حلب — وكانت في قديم الزمان نيابة حلب أكبر
من نيابة الشام — ثم خلع على الأمير سودون
الناصري واستقر به نائب حلب عوضا عن الأمير
قفجق المنصوري .

وفيها عمر السلطان الناصر جامعته المسمى
بالجديد الذى عند موردة الحلفاء ، وكان النيل
يجرى من تحته صيفا وشتاء . قيل لما أراد عمارة
هذا الجامع نقل حجارتها من صنم كان عند قصر
الشمع يقال له السرية . قيل كان مقابل ذلك الصنم
الذى عند الأهرام في بر الجيزة الذى يقال له
أبو الهول . قيل عمل من ذلك الصنم قواعند
للأعمدة الكبار التى في الجامع .

وفيها عمر السلطان سور الميدان الكبير الذى
تحت القلعة ، وابتدأ بعمارة الميدان الكبير الذى
عند موردة الجبس بالقرب من خليج أروى .

وفيهما حضر مملوك نائب حلب وأخبر السلطان بأمر التتار قد تحركوا على البلاد ، فلما تحقق السلطان ذلك عرض العسكر وأنفق عليهم فعبوا حالهم في سبعة أيام ، ثم خرج السلطان من القاهرة في أوائل شهر رمضان وقصد التوجه الى حلب بسبب التتار ، فلما وصل الى غزة وردت عليه الأخبار بأن التتار بلغهم مجيء السلطان فخافوا ورحلوا عن مدينة الرحبة وتوجهوا الى بلادهم ، وقد كسرهم نائب الرحبة كسرة قوية . فلما تحقق السلطان ذلك قوى عزمه بأن يسافر من هناك الى الحجاز الشريف ، وقد سميت هذه التجربة « الكذابة » ... ثم ان السلطان رد جماعة من الأمراء والعسكر الى القاهرة ، وأخذ معه بعض أمراء ومماليك سلطانية وتوجه من هناك الى الحجاز الشريف . فلما قضى حجه رجع من هناك الى الشام وأقام بها الى أوائل شهر صفر من سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، فدخلها ثالث عشر صفر ، وكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له المدينة زينة عظيمة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت له الشقق الحرير من التبانة الى القلعة ، ومشت الأمراء بين يديه حتى طلع الى القلعة ، وكان له موكب عظيم وهذه هي الحجة الأولى .

وفي أثناء السنة - وهي سنة اثنتى عشرة وسبعمائة - كانت وفاة الشيخ نصير الدين الحماوى وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

كدت حماوى بغييتك التى
تكدر فيها العيش من كل مشرب
فما كان صدر الحوض منشرحا بها
وما كان قلب الماء فيها بطيب

وقال فى المعنى :

لى منزل معروفه ينهل غيثا كالسحب
أقبل ذا العذر به وأكرم الجار الجنب
وفى هذه السنة توفى أبو جبارة شارح
« الشاطبية » ، وكان من أعيان العلماء .

سنة ثلاث عشرة وسبعمائة (١٣١٣ م) :

ففيها سافر السلطان الى نحو بلاد الصعيد لتهديد البلاد ، فان العربان كانوا قد زادوا فى الفساد . فلما توجه السلطان هناك ضيق عليهم حتى رحلوا الى الجبال ، فماتوا من الجوع والعطش ، فأسر منهم نحو النصف وحملهم الى القاهرة فى مراكب وهم فى الخشب ، فسجن منهم جماعة واستعمل منهم جماعة آخر فى حفر الجصور وهم فى جنازير حديد .

ولما عاد السلطان من بلاد الصعيد أقام عند الأهرام فى بر الجزيرة أياما على سبيل التنزه - وكان ذلك فى شهر رمضان - فلما قرب عيد الفطر طلع الى القلعة وعيد بها .

وفى هذه السنة شرع السلطان فى روك البلاد الشامية - وهو الروك الناصرى - فأمر باحضار كتاب الجيوش الشامية ، وحضر نائب غزة وجماعة من الأجناد الشامية والغزاوية ، وتكلموا فى ذلك وكتبوا المثالات والمناشير وأرسلوها على يد الأمير قجلىش السلحدار . ولما وصل الى الشام سلم الأوراق والمناشير الى نائب الشام ففرقها على العساكر الشامية .

وفى هذه السنة تحولت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة الخراجية ، الى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة الهلالية .

سنة أربع عشرة وسبعمائة (١٣١٤ م) :

ففيها شرع السلطان فى عمارة القصر الأبلق الذى

بقلعة الجبل ، وهو عبارة عن ثلاثة قصور متداخلة في بعضها ، وهي خمس قاعات وثلاثة مراقد .

قال بعض المؤرخين ان الملك الناصر محمدا هذا أكمل عبارة هذه القصور الثلاثة المتداخلة في عشرة أشهر ، فلما انتهى العمل جمع فيها سائر الأمراء حتى القضاة الأربعة ، وقرأ فيها ذلك اليوم ختمة ، ومد بها سباطا عظيما ، وملأ الفسقية التي في القصر الكبير سكرا بباء ليمون ، فأكل من ذلك السباط الخاص والعام ، وأحضر السلطان للأمراء القنز فشرّبوا منه ، ووقف رءوس النواب على الفسقية يبلّون السكر للناس بالطاسات . وخلع السلطان في ذلك اليوم على المعلمين والمهندسين والمرخين والتجارين والفعلة نحو ألفين وخمسمائة خلعة ، ما بين متترات وكوامل وخلع وأقية وغير ذلك ، وفرق من الأموال على الفقراء في ذلك اليوم نحو خمسين ألف دينار ، وكان ذلك اليوم يعرف بالسلطاني ... ذكر ذلك صاحب كتاب زبدة الأفكار في أخبار الملك الناصر .

سنة خمس عشرة وسبعمائة (١٣١٥ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن تنكز نائب الشام جمع سائر النواب وتوجه الى نحو ملطية ، فحاصر أهلها ومن كان بها من الأرمن ، فطلبوا منه الأمان ، ففتحها بالأمان في يوم الاثنين الثاني والعشرين من المحرم من سنة خمس عشرة وسبعمائة .

وفي هذه السنة راك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون البلاد المصرية — وهو الروك الناصري بعد الروك الحسامي — فزاد عن الروك الحسامي في مواضع ونقص في مواضع .

وفي هذه السنة — وهي سنة خمس عشرة وسبعمائة — كانت وفاة الشيخ شمس الدين محمد ابن العفيف ، وكان مولده سنة اثنتين وستين

وستمائة ، فكانت مدة حياته ثلاثا وخمسين سنة . وكان شاعرا ماهرا ، رقيق الشعر والنظم ، وله شعر جيد ، فمن تغزلاته اللطيفة قوله :

ياساكنا قلبى المعنى وليس فيه سواه ثانى
لأى معنى كسرت قلبى وما التقى فيه ساكنان

سنة ست عشرة وسبعمائة (١٣١٦ م) :

فيها جرد السلطان العساكر نحو صحراء عيذاب بأعلى بلاد الصعيد بسبب فساد العربان ، فخرج في هذه التجريدة ستة أمراء مقدمين وألفا مملوك ، فتوجهوا الى بلاد البجاة وجاوزوا الأقاليم الثلاثة فلم يظفروا بأحد من العربان العصاة ، فرجعوا الى القاهرة من غير طائل . وكان قوت العسكر في هذه التجريدة الذرة والماء من الحفائر ، وكانت العرب في الجبال فلم يظفروا منهم بأحد يلوح .

وفي هذه السنة كانت وفاة الشيخ علاء الدين ابن المظفر الكندى الشهير بالوداعى ، وكان مولده سنة أربعين وستمائة ، ووفاته سنة ست عشرة وسبعمائة ، فكانت مدة حياته ستا وسبعين سنة . وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

لقد سبخ الزمان لنا بيوم
غدا فيه السى مع السى
تجمعنا كآنا ضرب خيط
على فى على فى على

سنة سبع عشرة وسبعمائة (١٣١٧ م) :

فيها جرد السلطان العساكر الى نحو مدينة أحد ، فطرقوها على حين غفلة ، فهرب أهلها منها ، فملكها عسكر مصر من غير محاصرة .

وفي هذه السنة توجه السلطان الى غزة ، وتوجه من هناك الى زيارة بيت المقدس فزاره ، ثم توجه

الى زيارة الخليل عليه السلام فزاره ، ثم رجع الى الديار المصرية وذلك في جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

وفي هذه السنة وفي النيل في التاسع والعشرين من أيب وزاد عن الوفاء نصف ذراع ، فكسر بعد العصر خوفا من قوة عزم الماء .

وفيها أمر السلطان بتوسعة الجامع الذى فى القلعة ، فوسعه وبنى به المئذنة الخضراء ، وزخرفه بالرخام الملون وبنى به القبة الخضراء ، وقيل انتهت منه العمارة فى أربعة أشهر وخمسة وعشرين يوما .

سنة ثمانى عشرة وسبعمائة (١٣١٨ م) :

فيها جرد السلطان العسكر الى نحو برقة بسبب فساد العربان لأنهم قد منعوا غنم الزكاة وأظهروا العصيان ، فجرد اليهم السلطان وأخذ أغنامهم وجبالهم وقتل منهم جماعة وهرب الباقون الى نحو بلاد الغرب .

وفي هذه السنة أجرى السلطان ماء النيل من البحر الى قلعة الجبل ، وعمل مجراة جارية على قناطر مبنية بالحجر ، وركز للمياه آبارا ، وجعل عليها سواقي نقالة فى عدة أماكن .

وفي هذه السنة عمر السلطان الحوش الكبير الذى بالقلعة وزرع به بستانا ، ونقل اليه الأشجار والرياحين من سائر الأماكن حتى من البلاد الشامية ومن مكة ، وطلع فيه الكادى وجوز الهند وغير ذلك من الفواكه .

وفي هذه السنة قوى عزم السلطان على أن يحج فى تلك السنة — وهى الحجة الثانية — فعين معه جماعة من الأمراء المقدمين اثنى عشر أميرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات ثلاثين أميرا . وحج مع السلطان فى تلك السنة الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماء ، وحج صحبة

السلطان من المباشرين القاضى علاء الدين بن الأثير كاتب السر الشريف ، والقاضى فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى كريم الدين ناظر الخواص الشريفة ، وغير ذلك من المباشرين ... فخرج السلطان من القاهرة فى تاسع ذى القعدة ، فجد فى السير حتى دخل الى مكة قبل الصعود بثلاثة أيام ، فكنس مكان الطواف ومسحه بيده ، ثم صعد الى الجبل وقضى مناسك الحج ورجع الى مكة وأقام بها أياما وفرق على الفقراء الذين بمكة جملة من المال ، وأبطل أشياء كثيرة من المكوس التى كانت بمكة .

ثم توجه الى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل المدينة الشريفة وهو ماش على أقدامه حافيا . فلما دخل المدينة فرق على الفقراء خمسين ألف دينار ، ثم توجه الى نحو القاهرة فدخلها فى أوائل صفر ، وكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا .

سنة تسع عشرة وسبعمائة (١٣١٩ م) :

فيها تزوج السلطان بنت أربك خان صاحب الموصل ، فحضرت من بلاد الشرق الى مصر فى محفة مرقومة بالذهب ، فطلعت الى القلعة وكان لها مهم عظيم ، ودخل عليها السلطان وحظيت عنده .

وفي هذه السنة كالت وفاة الشيخ شهاب الدين محمود أبى الثناء . وكان عالما فاضلا ، ناظما ناثرا ،

وله شعر جيد ونثر رقيق ، فمن شعره قوله :

لقد سلبوا نومي ولم تدر مقلتي

وقد سلبوا قلبي ولم تشعر الأعضاء

وطلقت نومي والجفون حوامل

فمن أجل ذا فى الخد أبقت لنا فرضا

سنة عشرين وسبعمائة (١٣٢٠ م) :

فيها جرد السلطان العساكر الى مدينة سيس ، فطردوا من كان بها من الأرمن وملكوها ، وأقاموا بها نائبا من قبل السلطان ثم رجعوا الى القاهرة وهم في غاية النصر .

وفي هذه السنة توفي قاضى القضاة جلال الدين القزوينى .

سنة احدى وعشرين وسبعمائة (١٣٢١ م) :

فيها حجت خوند زوجة الملك الناصر — وهى خوند طغاي أم ولده أنوك — فحج معها القاضى كريم الدين ناظر الخاص ، وكان أمير المحمل في تلك السنة الأمير قجليش أمير سلاح وجماعة من الأمراء العشراوات ، فخرجت من القاهرة في ثامن شوال ، وحجت في محفة مرقومة بالذهب ، وسافر صحبتها الكتوسات والعصائب السلطانية ، فحجت ورجعت الى القاهرة في عاشر المحرم ، فنزل السلطان الى تلقياها ، فتلقاها من بركة الحاج ، ودخلت في موكب عظيم والأمراء مشاة قدام محفتها حتى طلعت الى القلعة .

وفي هذه السنة جرد السلطان العساكر الى قلعة اياس ومدينة سيس ... وذلك أنه لما رحل عنها عسكر السلطان ورجعوا الى القاهرة رجعت اليها الأرمن وطردوا النائب الذى كان فيها من قبل السلطان ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل اليها تجريدة عظيمة كان بها من الأمراء الأمير طرجى أمير مجلس ، والأمير ألماس حاجب الحجاب — وهو صاحب الجامع الذى بالقرب من سوق الغنم — والأمير بهادر آص ، والأمير مسنجر الجمقدار ، والأمير كجكر العلمى ، والأمير أقوش الأشرفى ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات ، وألفان من المماليك السلطانية . ولما وصلوا الى سيس

حاصروها أشد المحاصرة حتى هرب من كان بها من الأرمن ، وقتلوا من أهلها ما لا يحصى عدده ، وفتحوها بالسيف ، وأخربوا سورها وتركوها خاوية على عروشها ، وزال عنها زخرفها ونقوشها ، وجعلوا بها نائبا قد رماه الدهر في النوائب . وعن لسان نائب سيس يقول بعض الشعراء :

قالوا اجعلوا فيها لنا نائبا

جيوش سيس ... قلت رأى نعيم

لو أن ذا الحاكم فى سلطنة

ما تركونى أبقى بسيس

ثم رجع العسكر المصرى الى القاهرة وتركوا نائب سيس تحت مكتوبه .

وفي هذه السنة رسم السلطان الملك الناصر بعبارة ميدان المهارة الذى عند قناطر السباع ، وأنزل أمير أخور كبير لعمارته ، فعمره بالطوب اللبن وانتجز العمل منه فى أسرع مدة .

سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة (١٣٢٢ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على القاضى كريم الدين ابن السديد — ناظر الخواص الشريفة — فقبض عليه وعلى ولده ، وقد كان نال من العز ما لم ينله جعفر البرمكى فى أيام هارون الرشيد ، وكان الملك الناصر قد صير له التصرف فى الخزائن والأموال من غير حرج ، فكانت الأمراء والأعيان يركبون فى خدمته ، وينزلون معه الى بيته . ولما تغير خاطر السلطان عليه احتاط على موجوده ، واستصفى أمواله وذخائره ولم يترك له لا قليلا ولا كثيرا ، وصادر نساءه وغلماؤه وحاشيته ، ثم بعد ذلك نفاه الى نحو الشوبك هو وولده .

ثم ان السلطان خلع على القاضى تاج الدين ابن عبد الوهاب واستقر به ناظر الخواص الشريفة عوضا عن كريم الدين . ثم ان السلطان نقل القاضى

سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة (١٣٢٣ م) :

فيها ابتداء الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمارة خاتناه سرياقوس . قيل ان الملك الناصر رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وأشار عليه أن يبنى في هذا المكان خاتناه ، فبنى هذه الخاتناه . فلما كملت قرر بها الصوفية ، ووضع في هذه الخاتناه أربعة مكتوبة بالذهب مثل الربعة التي في خاتناه بكتمر التي بالقرافة ، وجعل فيها حضورا ، وقرر الشيخ مجد الدين الأقصرائي شيخا بها وكان من كبار العلماء . فلما كملت العمارة نزل السلطان هناك وعمل بها وليمة عظيمة ، وحضر فيها القضاة الأربعة وأعيان الناس من العلماء .

ثم ان السلطان عمر حول هذه الخاتناه البيوت الجليلة ، ورغبوا في سكنها ، وصارت مدينة على انفرادها ، وتزايدت في العمارة ، وبنى بها الملك الأشرف برسباي مدرسة عظيمة وجعل فيها خطبة ، وبنى فيها عدة مساجد ، وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون قرر بهذه الخاتناه جماعة آفاقية قاطنين بها ليس لهم حرفة ، وفي ذلك يقول المعمار :

قد صار في الخاتناه عرف

من فعلهم وهو شر عادة

لا يدفعون النصيب فيها

الا لمن يترك الشهادة

سنة اربع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٤ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة موسى ملك التكرور وصحبته هدايا جليلة الى السلطان . وسبب توجهه الى مصر أنه قصد الحج في تلك السنة فحج ورجع الى بلاده .

وفي هذه السنة رسم السلطان بحفر الخليج الناصري . وسبب ذلك أن الخليج القديم ، المسمى بخليج الذكو ، كان قد تلاشى أمره وعمى ، فأمر

كريم الدين من الشوبك الى أسوان من أعمال بلاد الصعيد ، فتوجه من هناك وهو مقيد بالحديد وسجن هناك في أسوان ، فأقام في السجن مدة يسيرة ومات ... قيل انه عمد الى خشبة وعمل فيها جبلا وخنق به نفسه ، فمات وهو في السجن بأسوان . فلما مات أحضر السلطان ولده وعاقبه وقرره على الأموال والذخائر فأظهر مخبأة في دهليز بيته فوجد فيها من الذهب العين مائتي ألف دينار ، ومن النصوص والتحف ما لا يحصى ... هذا بعد ما أخذه السلطان منه في المصادرة أولا وثانيا ، فكان كما قيل في المعنى :

لحذر مداخله الملوك ولا تكن

ما عشت بالتقريب منهم واثقا

فالغيث غيثك ان ظمئت وربما

ترمى بوارقه اليك صواعقا

وحكى بعض المؤرخين عن القاضي كريم الدين هذا أنه شرب في بعض الأيام دواء ، فجمع وردا كان في القاهرة ففرش منه في داره ما قدر عليه حتى في دهايز بيت الخلاء وعلى الملاقي ، وداس منه الناس ما داسوا ، وأخذوا منه ما أخذوا ، ثم ان العبيد والغلمان أخذوا ما فضل من ذلك الورد فباعوه بخسة آلاف درهم . وكان القاضي كريم الدين له بر ومعروف ، وأنشأ جامعاً بجزيرة أروى ، وأنشأ خاتناه بالقرافة الصغرى ، ووقف عليها الأوقاف الجليلة . وفيه يقول ابن نباتة :

يا كريم ما موافق الاسم للفعـ

ل وأنسى في الفضل كل قديم

لا تخف بسوة الحوادث فاثـ

كريم يحب كل كريم

وقيل مات القاضي كريم الدين وله من العمر نحو من ستين سنة .

الشامية ، فخرج أمير من الأمراء العشراوات ومنعه جماعة من المباشرين بسبب ذلك ، فتوجهوا من القاهرة الى حلب وراكوا البلاد الحلبية حكم البلاد الشامية ، فجميع البلاد المصرية والشامية والحلبية الآن في الروك الناصري .

سنة خمس وعشرين وسبعمائة (١٣٢٥ م) :

فيها رسم السلطان بإبطال الضرب بالمقارع من سائر أعمال مملكته ، وكتب بذلك مراسيم شريفة وقرئت على منابر مصر والشام بإبطال ذلك .

وفي هذه السنة وقع الغلاء بمصر وسائر أعمالها ، وتشحطت الغلال وماجت الناس على بعضها .

وفي هذه السنة أجرى السلطان عين ماء بمكة — وهي العين المعروفة بعين بازان — فحصل لأهل مكة بها غاية النفع ، وهي الى الآن جارية يعم نفعها أهل مكة .

سنة ست وعشرين وسبعمائة (١٣٢٦ م) :

فيها عمل السلطان الموكب ، وقبض على الأمير طشتمر المعروف بحمص أخضر ، وقبض على الأمير قطلوبغا الفخري . فأما الأمير طشتمر حمص أخضر فشفع فيه الأمراء ، فأفزع عنه السلطان من يومه وأما الأمير قطلوبغا الفخري فأرسله السلطان الى دمشق بطلا . واستمر طشتمر ممقوتا عند السلطان فانه كان شديد البأس ظالم الصورة ، وفيه يقول المعمار رحمه الله تعالى :

لما طغى طشتمر واعتدى

تفائل الناس بأفوالها

دنا حصاد الحمص المعتدى

ولم تنزل مصر بأفوالها

وفي هذه السنة عمرت القرية المعروفة بالنعيرية من أعمال الغربية ، وكان سبب انشائها أن الأمير

السلطان بحفر هذا الخليج ، وجعل مبدأه من عند موردة الجبس الى أن أوصله بالخليج الحاكمي من عند زقاق الكحل ، ثم وزع حفره على جماعة من الأمراء بالقصبة الحاكمية . وسبب ذلك أن الأمراء الذين تعاونوا على حفره كان لهم بلاد تنتفع بالرى من هذا الخليج ، فوزع السلطان حفره عليهم ، فاحتفلوا به وحفروه حتى نبع الماء من أرضه ، وانتجز منه العمل في مدة شهرين . فلما أخذوا في أسباب حفره أرادوا أن يوصلوه بالخليج الحاكمي من كوم الريش ، فأشار عليهم شخص من الصالحين يقال له الشيخ على الرطلي بأن يمشوا به من بركة قرموط ، فعطفوا به من عند القنطرة العسراء ومشوا به الى الخليج الحاكمي وطلعوا من قبالة زقاق الكحل . والى الشيخ على الرطلي تنتسب بركة الرطلي ، وكان هذا المكان قديما يعرف بأرض الطبالة . فلما مشى هذا الخليج الناصري بالماء جاء أحيا من خليج الذكو وأكثر مياهها . قيل لما أوفى النيل في تلك السنة ودخل الماء الى الخليج الناصري كان له يوم مشهود ، ونزل السلطان واجتمع الأمراء يوم كسر سده ، وفي ذلك يقول الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي :

ولرب أقطع قال لي بيتا وقد

كسر الخليج وجاء كالطوفان

أجرى لنا السلطان بحرا ثانيا

مالى بشكر بوالهن يدان

وفي هذه السنة ابتداء الأمير بكتمر — حاجب الحجاب — بحفر بركته المعروفة الآن ببركة الرطلي ، وأجرى اليها الماء من الخليج الناصري ، وعمل لها جسرا بينها وبين الخليج . وأرض البركة جارية الى الآن في وقف الأمير بكتمر الحاجب .

وفي هذه السنة برزت المراسيم الشريفة الى نائب حلب بأن يروك البلاد الحلبية كما فعل في البلاد

جليلة وتقادم عظيمة ، فأكرمه السلطان غاية
الأكرام ، وأقام بالقاهرة أياما ثم توجه الى بلاده .

سنة ثمان وعشرين وسبعمائة (١٣٢٨ م) :

فيها برزت المراسيم الشريفة ببناء قنطرة على
الخليج الناصري الذي حفره السلطان الملك الناصر ،
فبنى قنطرة عند الميدان الكبير بموردة الجبس ،
وبنى قنطرة تعرف الآن بقنطرة قديدار . قيسل ان
الأمير قديدارا كان مشرفا على عمارتها فنسبت اليه ،
وبنى قنطرة بظاهر باب البحر ، وبنى قنطرة عند
بركة قرموط تعرف الآن بقنطرة العسرا ، وبنى
قنطرة عند بركة الرطلى تعرف الآن بقنطرة الحاجب
كان مشرفا على عمارتها فنسبت اليه ، وبنى قنطرة
عند زقاق الكحل تعرف الآن بالقنطرة الجديدة ...
فهذه القناطر من انشاء الملك الناصر محمد بن
قلاوون .

سنة تسع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٩ م) :

فيها حفر السلطان الملك الناصر البركة الناصرية
المنسوبة اليه المجاورة للميدان الكبير ، وأجرى
اليها الماء من الخليج الناصري .
وفي هذه السنة أخرج السلطان ولده الأمير أحمد
الى مدينة الكرك ورسم له بأن يقيم بها ، فعفى له
نسيحا عظيما وتوجه الى هناك .

سنة ثلاثين وسبعمائة (١٣٣٠ م) :

فيها عمر السلطان القصر الكبير الذي في الميدان
عند البركة الناصرية ، وعمل تحته بستانا عظيما ،
وكان ينزل هناك ويقيم معه الحريم ، ويوكب من
هناك المواكب الجليلة ، ويطلع الى القلعة والأمراء
بين يديه بالشاش والقماش والعسكر مشاة بين
يديه حتى يطلع الى القلعة .
وفي هذه السنة رسم السلطان بهدم الايوان

شمس الدين منقر السعدي - نقيب الجيوش
المنصورة - كانت هذه الأرض في اقطاعه جارية ،
فعمر بها الأمير سنقر السعدي جامعا وطلاحونا
وخانا ، ثم تزايدت في العمارة وسكن بها جماعة
كثيرة من الفلاحين ، فبلغ خراجها في كل سنة
خمس عشرة ألف دينار ، فبلغ ذلك الملك الناصر ،
فأخذها من الأمير منقر السعدي وصارت من جملة
بلاد السلطان ، وتزايدت في العمارة حتى صارت
بلدا كريما .

سنة سبع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٧ م) :

فيها توفي الأمير سنقر السعدي - نقيب
الجيوش - عند حادثة البقر المساة بالسعدية .

وفي هذه السنة أمر السلطان باحضسار القاضي
محيى الدين بن فضل الله العمري - كاتب سر
الشام - فلما حضر الى الأبواب الشريفة خلع عليه
السلطان ، واستقر به كاتب السر الشريف بصر .
وهو الذي يقول فيه الشيخ جمال الدين بن نباتة :
يا سائلي عن كاتب السر الذي
يعزى علاه الى أب أواه

هذاك غيث الله محيي الأرض من
بعد الممات ، وذاك فضل الله
ومما يحكى عن القاضي محيي الدين هذا أنه
كان اذا دخل على الملك الناصر في وقت العلامة
يجمع ما فيها من الرمل الذي يتناثر من العلامة
بحضرة السلطان ، فيجمع ذلك كله ولا يرمى منه
شيئا ، ويضعه في مرملته التي لنفسه ، ويقول :
« هذا رمل سعيد لا يرمى منه شيء » . فكان اذا
كتب شيئا رمله من ذلك الرمل الذي جمعه من
العلامة بحضرة السلطان .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة صاحب حماسة
- وهو الملك المؤيد حماد الدين - وصحبته هدايا

الأشرفى الذى كان بالقلعة ، فهدمه وبناءه على هذه الصفة الموجودة الآن ، وعقد فوقه هذه القبة العظيمة ، وكان يعمل فيه المواكب العظيمة ، وتجتمع به الأمراء ويكثر فيه الزحام من العسكر حتى قال فيه بعض الشعراء رحمه الله :

ما كان يكفى حر ذا الا

يوان حتى ازداد قبـه

فكاننى فيه خـرو

ف قد شوى من تحت كـبه

وفى هذه السنة هدم السلطان دور الحرم التى كانت بالقلعة وأنشأها عمارة جديدة وتباهى فى بنائها .

وفى هذه السنة حضر الى الأبواب المقر السيفى تنكز نائب الشام يزور السلطان ، فأنزله فى الميدان الكبير عند الناصرية ، وبالنح فى اكرامه وتعظيمه . وأحضر صحبته تقادم عظمة الى السلطان والأمراء ما بين خيول وفراش وقماش وغير ذلك .

سنة احدى وثلاثين وسبعمائة (١٣٣١ م) :

فيها رسم السلطان بأن يعمل باب للكعبة الشريفة جديد من الخشب السنط الأحمر ، فعمل وصفحوه فوق الخشب بصفائح الفضة ، فكان زنتها ثلاثين ألف درهم . فلما قلع الباب العتيق وزلوا ما كان عليه من الفضة فكان زنتها مستين رطلا ، فأنعم بها الملك الناصر على بنى شيعة خدام البيت الشريف ، فتقاسموه بينهم . وهذا الباب كان عمله الخليفة العباسى الملقب بالمقتفى بالله فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة من الهجرة .

سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٢ م) :

فيها شرع السلطان فى التوجه الى الحجاز الشريف ، وهى الحجة الثالثة ، فيها خرج من القاهرة فى سابع شوال . وكان سبب هذه الحجة أن

السلطان لما عمل هذا الباب الجديد للكعبة قصد أن يوضع على باب الكعبة بحضرته ، فحج فى تلك السنة ، وكان بصحبته الملك الأفضل محمد ابن الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، وكان مع السلطان من الأمراء الأمير بكتمر الساقى وولده الأمير أحمد ابن أخت الملك الناصر ، والأمير أيدير الخطيرى ، والأمير جنكى ابن البابا — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمير يبرس الأحمدي ، والأمير بهادر المعزى ، والأمير ايدغش — وهو صاحب الخوخة المنسوبة اليه — والأمير قطز أمير آخور كبير ، والأمير طقزدمر — وهو صاحب القنطرة المنسوبة اليه — والأمير منجر الجاولى ، والأمير قوصون ، والأمير صوصون ، والأمير طايير بغا ، والأمير بشتاك العمرى — وهو صاحب الجامع المنسوب اليه — والأمير أقبغا آص الجاشنكير ، والأمير طقتمر الخازن — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمير تمر الموسوى ، والأمير أيدير أمير خازن دار ، والأمير مسعود حاجب الحجاب ، والأمير صاروجا ققيب الجيوش المنصورة — وهو صاحب الجامع الذى عند بركة الرطلى — وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ... فكانت عدة من حج مع السلطان من الأمراء فى تلك السنة اثنين وسبعين أميراً ما بين مقدمى ألوف وغير ذلك ، فكانت مدة غيبة السلطان فى هذه السفرة الى الحجاز ذهاباً وإياباً أربعة وخمسين يوماً لا غير .

ومما وقع للسلطان الملك الناصر فى هذه الحجة أن صهره الأمير بكتمر الساقى الأتابكى لما حج معه هو وولده الأمير أحمد ، فلما قضوا حجهم ورجعوا مرض الأتابكى بكتمر فى أثناء الطريق ، فلما وصل الى عيون القصب ثقل عليه المرض فمات هناك ودفن بعيون القصب ، وكانت وفاته فى ثانى المحرم

بعيون القصب احتاط الملك على موجوده الذى كان معه بطريق الحجاز فوجد معه خمسمائة تشريف ما بين خلع أطلس ومتمرات وكوامل وغير ذلك ، ووجد معه عدة قيود وجنازير فى خوشخانات ... فعند ذلك تحقق الملك صحة ما نقل عن الأتابكى بكتسر فى أمر أنه قصد قتل السلطان هناك .

وكان الأتابكى بكتسر يغلف على السلطان فى القول اذا رأى منه الجور فى حق الرعية ، وكان يحجر عليه فى ذلك ، وكان السلطان يرجع الى قول الأتابكى بكتسر فى غالب الأمور ولا يخالفه فى شيء اذا أصر عليه .

وكان صفة الأتابكى بكتسر : أبيض اللون مشرباً بحمرة ، أسود اللحية ، معتدل القامة ، وافر العقل ، حسن العبارة فى كلامه ، عليه سكينه ووقار . وكان قليل الأذى فى حق الرعية ، وله بر ومعروف ... فمن ذلك أنه أنشأ خاتماه فى القرافة الصغرى بالقرب من الجبل المقطم ، وقرر بها صوفية وحضوراً ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة ، ووضع بها ربة عظمة مكتوبة كلها بالذهب ، قيل ان مصروفها نحو ألف دينار ، وهى موجودة الى الآن . وكان بهذه الخاتاه حمام وفرن وطاحون وساقية وجنيحة ، وكان بها جماعة من الصوفية قاطنون بها ، وكان له آثار كثيرة بمصر والشام .

فلما مات الأتابكى بكتسر قرب السلطان الأمير قوصون ورقاه . قيل انه أنعم عليه بزرذخانة الأتابكى بكتسر ، فقوم ما فيها من السلاح وغيره فكان بنحو ستمائة ألف دينار . ثم ان السلطان زوج الأمير قوصون باحدى بناته . ولم يزل قوصون يرقى فى أيام الملك الناصر حتى فاق على الأتابكى بكتسر فى أيامه . قيل وقع يوماً بين الأتابكى بكتسر وبين الأمير قوصون تشاجر فقال قوصون للأتابكى بكتسر : « أنا ما ثقلت من الأطباق

من سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . ثم مرض ولده الأمير أحمد أيضاً ومات بنخل ودفن بها ، ثم بعد مدة نقل الأتابكى بكتسر وولده الأمير أحمد الى القاهرة ودفن هناك فى الخاتاه التى أنشأها بالقرافة الصغرى بالقرب من الجبل المقطم . وكان الأمير بكتسر من مماليك الملك المظفر بيبرس نجاشيكير ، فلما مات الملك المظفر أخذ الملك الناصر محمد من جملة موجوده ، فحظى بكتسر عند الملك الناصر حتى جملة ساقياً ، ثم صار يرقى فى دولة الملك الناصر حتى بقى أتابك المسافر . ثم ان الملك الناصر زوج الأتابكى بكتسر بأخته بنت الملك المنصور قلاوون . وكان الملك الناصر ينزل الى بيت الأتابكى بكتسر وينفرد عنده وينام فى بعض الأوقات حتى يتفرج على بركة الفيل ، فان الأمير بكتسر كان ساكناً فى البيت الذى بالقرب من المدرسة النجاولية ، فصار الأتابكى بكتسر صاحب الحل والعقد فى دولة الملك الناصر ، ولا يتصرف الملك الناصر فى شيء من المملكة الا بعد مشورة الأتابكى بكتسر ، وكان لا يهدى للملك الناصر شيء من التقداد الا ويهدى للأتابكى بكتسر مثله أو أحسن منه ، فكثرت أموال الأتابكى بكتسر حتى قيل : كان فى اسطبله مائة سطل نحاس بيد مائة سائس ، وتحت يد كل سائس طوالة خيل من الخيول الخاص ، وحوى من الأموال والجواهر والتحف ما لم يحويه قبله أحد من الأمراء ، فلما ثقل أمره على الملك الناصر لم يتمكن من القبض عليه ، فلما حج معه بلغ الملك الناصر أن الأتابكى بكتسر يقصد قتله فى طريق الحجاز ويتسلطن هناك ، فبادر اليه الملك الناصر ودرس عليه من سقاء سما هو وولده الأمير أحمد ابن أخت الملك الناصر فماتا وهما فى كندء الطريق راجعين كما تقدم ذكر ذلك .

قال بعض المؤرخين : لما مات الأتابكى بكتسر

الى الاسطبلات ، بل أخذنى السلطان من شخص تاجر كنت فى خدمته . فلما أخذنى السلطان اتفق أن فى ذلك اليوم توفى واحد من الخاصكية الثقال فأنعم على السلطان باقطاعه وبركه وبيته ، وصرت خاصكيا فى ذلك اليوم . وسبب ذلك أن التاجر الذى كنت عنده لما قال له السلطان : معنى هذا المملوك ، قال التاجر : هو حر لوجه الله تعالى ، فأخذنى السلطان برضاي ، ولم أقعد فى طبقة ، ولم أكن تحت حكم أغا ، ولم أبس مثل بقية المماليك ... » .

فلما سمع الأمير بكتير ذلك سكت عنه ولم يجبه عن ذلك بشئ .

وفى أثناء هذه السنة — وهى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة — حضر الى الأبواب الشريفة الأمير مهنا ابن الأمير عيسى من عربان آل فضل ، وأحضر معه تقادم عظيمة للسلطان ، فخلع عليه وأقره على حاله شيخ آل فضل .

سنة أربع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٤ م) :

ففيها حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى تنكرز نائب الشام ، وكان يزور السلطان فى كل سنة مرة ، وصحبته الهدايا والتقادم . فلما حضر أنزله السلطان فى الميدان الكبير الذى عند البركة الناصرية ، وبالغ السلطان فى اكرامه وتعظيمه ، وكان ذلك آخر اجتماعه بالسلطان وهو فى عزه وعظمة وقد تنهاى سعده ، فأقام بالقاهرة ثم توجه الى الشام ، فخلع عليه السلطان خلعة عظيمة ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم والأمراء فى خدمته حتى رحل من القاهرة .

سنة خمس وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٥ م) :

ففيها أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء الذين

فى السجن بشجر الاسكندرية ، وهم : الأمير بيبرس حاجب الحجاب ، والأمير تمر الساقى ، والأمير غانم بن أطلس خان ، والأمير طغلق ، والأمير بلاط اليونسى ، والشيخ على الأوجاقى ، والأمير يلزعى ، والأمير بنجاص ، والأمير لاجين الغمري ، والأمير بيبرس العلمى ، والأمير كچلى ... فلما حضر هؤلاء الأمراء الى القاهرة خلع عليهم السلطان ثم أعادهم الى اقطاعاتهم وقبض على جماعة من الأمراء نحو ذلك وأرسلهم الى السجن بشجر الاسكندرية .

وفى هذه السنة رسم السلطان بعسارة قنطرة على بحر أبى المنجا عند شيبين القناطر .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن الأرمن ملكوا مدينة سيس وطردها من كان بها من المسلمين ، فرسم السلطان لنائب حلب بأن يتوجه اليهم ومعه العساكر الحلية ، فخرج اليهم فى سابع عشر شهر رمضان ، فحاصر من كان بها من الأرمن ، وأحرق الضياع التى حولها ، وأسر جماعة من الأرمن نحو ثلثمائة انسان . فلما بلغ ذلك من كان من الأرمن بقلعة اياس ، ثاروا على من كان عندهم فى المدينة من المسلمين ، وحشروهم فى فندق ، وأحرقوا ذلك الفندق ، فاحترق فيه من المسلمين نحو ألفى انسان ما بين رجال ونساء وصغار ، وذلك فى يوم العيد ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

سنة ست وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٦ م) :

ففيها رسم السلطان للمقر السيفى تنكرز نائب الشام بعمارة قلعة جمبرة ، فتوجه اليها شكز وعمرها فى أسرع مدة ، ورتب بها الرجال الحرسية ، وجعل لها نائبا مقيما بها ، وأودع فيها السلاح ، وكب بذلك محضرا وأرسله الى السلطان .

وفى هذه السنة توجه الأمير أزدمر الشسى — نائب بهنسا — الى قلعة درنده وحاصر أهلها ،

فقتلبوا منه الأمان فممنهم ، فسلموه القلعة فأقام بها نائباً من قبل السلطان . ثم توجه الى قلعة النقيير فحاصرها ، ففعل أهلها مثل ما فعل أهل قلعة درندة ، وأقام بها نائباً من قبل السلطان .

وفي هذه السنة وقع الغلاء بالديار المصرية ، فبيع الفصح كل أردب بسبعين درهما ، وعدم الخبز من الأسواق ، وماجت الناس على بعضها ، فرسم السلطان بفتح ثونه ففتحوها وباعوا منها فانحط السعر الى أن صار الأردب بثلاثين درهما . ولما أن دخل شهر رمضان كثر فيه القمح حتى ما بقي أحد يشتريه ولا يقلبه ، وسكن وهج الناس .

ومن الحوادث في هذه السنة أن السلطان الملك الناصر تغير خاطره على الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ، ورسم له بأن يتحول من مناظر الكيش ويسكن بقلعة الجبل ، فتحول من يومه وطلع الى القلعة هو وعياله ، فأنزله السلطان في البرج الكبير الذي أنزل فيه الظاهر بيبرس البندقداري الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله عند قدومه من بغداد ، فاستمر الخليفة المستكفي بالله ساكناً في البرج ، ومنعه السلطان من الاجتماع بالناس ومن النزول الى المدينة ، فأقام على ذلك نحو خمسة أشهر . ثم ان بعض الأمراء تشفع فيه فرسم له السلطان باعادته الى مناظر الكيش كما كان أولاً .

وفيها أرسل السلطان تجريدة الى ميس بسبب فساد الأرمن .

وفيها حضرت الى الأبواب الشرفية الحرة زوجة ملك الغرب طالبة الحج ، فأهدت الى السلطان هدية جليلة ، ومن جملتها أعجوبة وهو نور أصفر فاقع اللون كامل الخلقة ، وفي وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع من رهوس أضلاعه ، وهو

بمرفق وذراع وحافر مفروق مثل حوافر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة ويجبى عليه — كما يفعل بالسباع — وهو بجبل من حرير أصفر .

سنة سبع وثلاثين وسبعمائة (١٢٣٧ م) :

فيها قبض النشو — ناظر الخواص الشريفة — على ابن فضيل شيخ مدينة ملوى ، وكان له دواليب ومعاصر ، وكان يزرع في كل سنة من القصب الحلو خمسمائة فدان . فلما قبض عليه النشو وجد عنده في حاصله أربعة عشر ألف قنطار مسكر ، ومثلها قطر نبات ، ومثلها غسل أسود ... هذا كله خارج عن العبيد والجواري والغلال وغير ذلك . فحمل جميعه الى الحواصل السلطانية ، وأقام ابن فضيل في الترسيم مدة ، ثم أفرج عنه السلطان ، وخلع عليه وأعيد الى عمله بمدينة ملوى .

سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (١٢٣٨ م) :

فيها رسم السلطان للخليفة المستكفي بالله سليمان بأن يتوجه هو وأولاده وعياله الى نحو مدينة قوص من أعمال بلاد الصعيد وأن يقيم بها ، فخرج من يومه — هو وعياله وأولاده — فشق ذلك على الناس وتأسفوا غاية الأسف على ذلك ، وفي ذلك يقول الشيخ زين الدين ابن الوردى :

أخرجوكم الى الصعيد لأمر

غير مخز في ملتي واعتقادي

لا يغيركم الصعيد وكونوا

فيه مثل السيوف في الأغمار

قيل : وكان سبب تغيير خاطر السلطان على الخليفة المستكفي بالله أنه رفعت قصة الى الملك الناصر وعليها خط الخليفة سليمان ليحضر محمد بن قلاوون الى مجلس الشرع أو يوكل ، فشق ذلك على الملك الناصر وبقي في خاطره شيء من الخليفة

سليمان حتى نفاه الى قوص ، فأقام بها الى أن مات
في شهر شعبان سنة احدى وأربعين وسبعمائة ،
فكانت مدة خلافته بمصر خمسا وثلاثين سنة
وسبعة أشهر .

فلما نفاه السلطان الى قوص أقامت مصر بلا
خليفة أربعة أشهر والسلطان يتروى فيمن يوليه
الخلافة . وكان الخليفة المستكفي بالله لما توجه الى
مدينة قوص عهد الى ولده أحمد ، وثبت عهده على
يد قاضي قوص بشهادة أربعين رجلا من العدول ،
فلهم يمض الملك الناصر ذلك العهد لما في نفسه من
الخليفة سليمان ، فجمع القضاة الأربعة ، وعقد
مجلسا بسبب ذلك ، فلما رأى القضاة ذلك العهد
تمسكوا بحكم قاضي قوص ، فانفض المجلس ولم
يول السلطان أحمد بن المستكفي بالله وصمم على
عدم ولايته ، ثم ولي ابراهيم أخا المستكفي بالله
على حين غفلة ، ولقبوه بالوائق بالله . وكان ذميم
السيرة ... قال قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر
في تاريخه : « ان العوام كانت تسمى ابراهيم هذا
لما تولى الخلافة « المستعطي بالله » لفساد نفسه
وسوء تدبيره . »

سنة تسع وثلاثين وسبعمائة (١٢٣٩) *

فيها ظهرت بالقاهرة امرأة تسمى الخناقة ،
وكانت تحنل على النساء والأطفال وتخفقهم وتأخذ
نبايهم ، فشاع أمرها بين الناس ، فلا زالوا يحتالون
عليها حتى أمسكوها وشنقوها على باب زويلة ،
وكان لها يوم مشهود لما علقت للشنق .

وفي هذه السنة تغير خاطر السلطان على النشو
— ناظر الخواص الشريفة — وسلمه للأمير بشناك
الناصرى حاجب الحجاب يعاقبه . فلما تسلمه عاقبه
حتى مات تحت العقوبة ، واستصفى أمواله . وكان

السلطان قد قرب النشو عنده في أعلى المراتب ،
وأمن من قبله ، فكان كما قال الامام على كرم الله
وجهه : « من أمسى من الدنيا وهو على جناح
أمن أصبح منها وهو على قوادم خوف » . فلما
مات النشو استقر السلطان بصهر النشو في نظارة
الخاص ، فجاء أظلم من النشو ، وفيه يقول المعمار :

قد أخلف النشو صهر سوء

قيح فعل كما تروه

أراد للشر فتح باب

فأغلقوه وسرروه

سنة أربعين وسبعمائة (١٢٤٠ م) :

فيها توفى أنوك ولد الناصر محمد بن قلاوون ،
وكان بديع الجمال مليح الشكل ، وكان السلطان
يحبّه دون سائر اخوته ، ومات وله من العمر نحو
عشرين سنة ، فتأسف عليه السلطان أسفا شديدا .
وقد رثاه صلاح الصفدى رحمه الله حيث قال :

مضيت وكنت للدنيا جمالا

وجرعت النجوم الزهر فقدك

ومن عجب الليالى فيك ألا

يموت أبوك يا أنوك بمدك

وكان الفأل بالمنطق .

وفيها توفى الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن
محمد بن سيد الناس اليعمرى . وكان عالما فاضلا
ناظما للشعر ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

فسر لى عابر مناما فضل فى قوله وأجل
وقال : لا بد من طلوع فكان ذاك الطلوع دمل

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى : « كنت
بدمشق فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، والشيخ

فتح الدين بن سيد الناس بمصر ، فكتبت اليه
وأنا بدمشق أقول له :

كان سمعى فى مصر بالشيخ فتح الد
ين يجنى الآداب وهى طرية
يا لها غربة بأرض دمشق
أعوزتنى الفواكه الفتحية

وفى هذه السنة تغير السلطان على المقر السيفى
تنكرز نائب الشام ، فأرسل الأمير بشتاك الناصرى ،
والأمير يلغا اليحياوى ، وصحبتهم جماعة من
المماليك السلطانية ، ثم كتب مراسيم الى أهل دمشق
على يد هؤلاء الأمراء بأن يكونوا لهم عوناً على
القبض على تنكرز نائب الشام . وكان تنكرز هذا
أصله من مماليك الملك المنصور حسام الدين
لاجين ، وتولى الملك الناصر فأخذ تنكرز من جملة
موجود لاجين ، فصار من مماليك الناصر محمد ،
ثم جعله خاصكياً ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى
أمير طبلخانات ، ثم بقى مقدم ألف ... كل ذلك فى
دولة الملك الناصر محمد . ثم جعله نائب الشام فى
سنة اثنتى عشرة وسبعمائة عوضاً عن الأمير أقوش
الأفرم . واستمر تنكرز فى نيابة الشام ثمانيا وعشرين
سنة ، فعظم أمره ، وكثرت أمواله ، وكان له عند
السلطان منزلة عظيمة حتى كان يكتبه فى المراسيم
« أعز الله أنصار المقر الكريم العالى » . وزاده فى
الألقاب عن العادة ، وكان السلطان لا يفعل شيئاً
من أمور المملكة حتى يرسل ويشاور تنكرز عليها .
وكان تنكرز يزور السلطان فى كل سنة مرة
وصحبته الهدايا الجليلة والتقادم العظيمة ، ويقيم
بمصر أياماً ، ثم يخلع عليه السلطان خلعة ويتوجه
الى الشام .

واستمر تنكرز على ذلك حتى أوقعوا بينه وبين
السلطان ، ودبت بينهما عقارب الفتن ، فأرسل

السلطان بالقبض عليه . فلما وصل اليه بشتاك
الناصرى والأمير يلغا اليحياوى ، قالوا له .
« ان السلطان رسم لك بأن تحضر الى القاهرة حتى
يزوج ابنته بابنك » . فقال تنكرز : « أنا لى شغل
فى هذا الشهر ، ولكن امضوا أتم الى القاهرة
وأنا أحضر أنا وولدى بعدكم » . فأغلظوا عليه فى
العبارة ، وأغلظ هو أيضاً عليهم ، فأرسلوا كاتبوا
السلطان بذلك ، وأثنخوا جراحات تنكرز عند
السلطان . فلما سمع السلطان هذا الجواب ازداد
حنقه على تنكرز ، وعين اليه الأمير طاجار الدوادار
الكبير بالقبض عليه . ولو أن تنكرز حضر الى
السلطان صحبة الأمير بشتاك والأمير يلغا ما حصل
له من السلطان الا كل خير .

فلما وصل الأمير طاجار الدوادار قال لتنكرز :
« قم احضر عند السلطان والخيرة لك » . فقال له
تنكرز : « امض أنت وأنا بعد ثمانية أيام احضر
عند السلطان » . فرجع الأمير طاجار عند السلطان ،
وما أبقى ممكناً فى حق تنكرز من الأذى .

فلما سمع السلطان ذلك عين الى تنكرز تجريدة
ثقيلة من القاهرة ، ورسم للنواب كلهم أن يمشوا
على تنكرز . فلما وصلت التجريدة الى الشام ،
ومشت على تنكرز جماعة من النواب ، حاصروه وهو
بالشام ، فطلب منهم الأمان ، ونزل اليهم فقبضوا
عليه وقيدوه ، وذلك فى ثالث عشر ذى الحجة
سنة أربعين وسبعمائة .

ولما أمسك تنكرز احتاطوا على موجوده من
صامت وناطق ، فالذى قد ضبط من الذهب العين
ثلثمائة ألف دينار وستون ألف دينار ، ومن الفضة
النقدية ألف ألف درهم وخسمائة ألف درهم ،
ووجد له من الفصوص الياقوت والبلخش واللؤلؤ
الكبار ثلاثة صناديق ، ووجد عنده من الطراز

الزركش والحوائص الذهب والخلع الأطلس مائة وخمسون بقجة ، ومن القماش الصوف وغير ذلك خمسمائة بقجة ، ووجد عنده من الفرائش والبرك والأوانى ما حمل الى القاهرة على مائة وخمسين جملا ، ووجد له ودائع عند الناس مائتا ألف دينار ، ومن الفضة ألف ألف ومائة ألف درهم ، وظهر له من الأملاك والضياع بمصر والشام ما قوم في كل سنة بمائة ألف دينار .

فلما وصل تنكز الى القاهرة حمل موجوده الى الخزان الشريفة ، ورسم له بالتوجه الى السجن بشعر الاسكندرية ، فسجن بها . ولما سجن أقام بالسجن أربعين يوما وهو مقيد ، ثم ان السلطان رسم بخنقه ، فأرسل اليه الحاج ابراهيم بن صابر مقدم الدولة فخنقه بالسجن وغسله وصلى عليه ودفنه بشعر الاسكندرية ... فذهب ماله ، وتخلي عنه سلطانه . وقد قيل :

لا فهم في الدنيا المستيقظ
بلمحها بالفكرة الباصرة

ان كدرت عيشته ملها

وان صفت كدرت الآخرة

قيل : « ثلاثة لا يؤمن اليها : المال وان كثر ، والملوك وان قربوا منك ، والمرأة وان طالت صحبتها » .

ثم ان تنكز أقام مدفونا بشعر الاسكندرية مدة يسيرة ، ثم ان بعض الأمراء شفع فيه بأن ينقل ويدفن في مدرسته التي أنشأها بدمشق ، فرسم السلطان بنقله وهو ميت الى دمشق في أواخر سنة أربعين وسبعمائة . وفيه يقول الشيخ صلاح الدين الصفدى :

الى دمشق نقلوا تنكزا
فيالها من آية ظاهرة

في جنسة الدنيا له جنسة
وروحه في جنسة الآخرة
وقال فيه أيضا رحمه الله تعالى :

في نقل تنكز سر أراده الله ربه
أتى به نحو أرض يحبها وتحب

وكانت صفة تنكز : أسمر اللون ، خفيف العوارض طويل القامة ، حسن الشكل ، وافر العقل ، شديد الرأي ، حسن السياسة . وكان ديناً خيراً ، كثير البر والخير ، وله معروف وآثار للخير بمصر والشام ، وكان طاهر الذيل عن ... غير أنه كان صعب الخلق شديد الغضب ، اذا غضب على أحد لم يرض عنه أبدا .

وكانت مدة لياسته بدمشق ثمانيا وعشرين سنة ، وهذا لم يتفق لئائب قبله . وكانت أهل دمشق عنه راضية في مدة ولايته .

سنة احدى وأربعين وسبعمائة (١٣٤١ م) :

فيها توفى القاضى محبى الدين بن فضل الله العمري كاتب السر الشريف . فلما توفى استقر ولده القاضى شهاب الدين بن فضل الله عوضه ، فجاء في المنصب أعظم من والده . وكان عالما فاضلا ، وله نظم ونثر ، وألف كتابا في صنعة الانشاء ، وصار العمل عليه الى الآن بين الموقعين في الانشاء ، وصار عمدة الموقعين ، وبه يقتدون . وقد قال منشيه في المعنى :

ياطالب الانشاء خذ علمه

عنى ، فعلى غير منكور

ولا تقف بباب غيرى فما

تدخله الا بدمستور

وفي هذه السنة تزايدت عظمة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكثرت ممالكه حتى صار راتبه ورواتب ممالكه كل يوم من اللحم الضانى ستة وثلاثين ألف رطل . وبالع في مشتري الممالك حتى

ولم يزل الملك الناصر قائما على سرير ملكه حتى مرض وسلسل في المرض ومات على فراشه في ليلة الخميس العشرين من ذي الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة . ومات وله من العمر ثمان وخمسون سنة ، ودفن في يوم الخميس المذكور على والده قلاون داخل القبة التي أنشأها قلاون بين القصرين . وكانت له جنازة مشهودة ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس .

وقد رثاه بعض الشعراء رحمه الله بهذه الأبيات :

حكم المنية في البرية جارى
ما هذه الدنيا بدار قرار
ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب في الماء جذوة نار
طبعت على كدر ، وأنت تريدها
صفوا من الأقدار والأكدار
واذا رجوت المستحيل فانما
تبني الرجاء على شفير هار
فالعيش نوم ، والمنية يقظة
والمرء بينهما خيال سار
جاورت أعدائي ، وجاور ربه
شتان بين جواره وجواري

وكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد هذا بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاثا وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياما ، وذلك دون خلعه من الولاية نحو أربع سنين وأيام . ولما مات خلف من الأولاد أحد عشر ولدا ذكرا دون البنات ، فالذي تولى السلطنة من أولاده بعده ثمانية ، وهم : سيدى أبو بكر ، وسيدى أحمد ، وسيدى كجك ، وسيدى شعبان ، وسيدى اسماعيل ، وسيدى حاجي ، وسيدى حسن ،

قبل بنغت مشروعاته اثني عشر ألف مملوك . وهو أول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر والأقبية المفتوحة ، واتخذ الطرز الذهب والحوائص الذهب والسيوف المستطعة بالذهب والأقبية القاقم . وهو أول من رتب المواكب في القصر على هذا الترتيب الحسن ، ورتب شرب السكر بعد السباط في القصر والأمراء مجتمعون ، ورتب وقوف الأمراء في المواكب على قدر منازلهم وكذلك أرباب الوظائف من المتعممين . وقد طالت أيامه في السلطنة — بخلاف من تقدمه من الملوك — وصفا له الوقت ، وصار غالب الأمراء والنواب مماليكه وممالك والده قلاون ، ولا يعلم لأحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه ، حتى قيل قد تزايدت في أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية في العمار مقدار النصف من جوامع وقناطر وجسور وغير ذلك من العمار والانشاء .

قال الشيخ سيف الدين أبو بكر بن أسد في تاريخه : « لقد وقفت على تاريخ الملوك السالفة ، فما سمعت لأحد من الملوك بما للمالك الناصر محمد بن قلاون من المواقع الحسنة . فانه خطب له في أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك ، وكتبه سائر الملوك من مسلم وكافر ، وهادوه وهابوه ، وصار جميع عسكر مصر في قبضته من كبير وصغير . »

وفيه يقول الشيخ صفى الدين الحلبي :

الناصر السلطان قد خضعت له
كل الملوك ... مشارقا ومغاربا
ملك يرى تعب المكارم راحة
ويعد راحات الفراغ متاعا
ترجى مكارمه ويخشى بطشه
مثل الزمان ... مسالما ومحاربا
فاذا مضا ، ملأ القلوب مهابة
واذا سخا ، ملأ العيون مواهبا

وسيدى صالح ... فهؤلاء تولوا السلطنة كما سيأتى . وأما من لم يل السلطنة فثلاثة ، وهم : سيدى رمضان ، وسيدى حسين ، وسيدى يوسف . وأما من توفى من أولاده فى حال حياته من الذكور فأربعة ، وهم : سيدى إبراهيم ، وسيدى محمد ، وسيدى أنوك ، وسيدى على ... فهذا مجموع ما جاءه من الأولاد الذكور دون البنات .

وأما فتوحاته التى فتحها فى أيامه فآمد وملطية ، ودرنده ، وقلعة اياس ، وبهنا ، والمرعش ، وتل حمدون ، وقلعة النقيز ، وقلعة نجبية ، والهارونية ، وكاورا ، واسفندكار ، وغير ذلك من الفتوحات . وحج فى أيامه ثلاث حجج ، وزار بيت المقدس والخليل عليه السلام ثلاث مرات ، وسافر الى حلب والشام عدة مرار .

وأما نوابه بالديار المصرية فالأمير كتبغا ، والأمير سار ، والأمير بكتمر الجوكندار ، والأمير بيبرس الدوادر المنصورى ، والأمير أرغون الناصرى مملوكه .

وأما وزرائه بالديار المصرية : فالأمير سنجر الشجاعى ، والصاحب تاج الدين بن حنا بن الصاحب بهاء الدين بن حنا ، والصاحب فخر الدين الخليلى تولى الوزارة فى أيامه مرتين ، والأمير سنقر الأعسر ، والأمير أيبك البغدادى ، والصاحب شمس الدين محمد بن الشيخى ، والأمير أيبك الأشقر ... وهو أول من تسمى مدبر المملكة . وتولى شخص يسمى ابن عطاء ، وتولى شخص يسمى بدر الدين محمد بن التركمانى ، وتولى الصاحب أمين الدين بن الغنام ، تولى الوزارة فى أيامه ثلاث مرات ، والأمير بكتمر الحاجب ، والأمير مغلطاي الجمالى ... فهؤلاء وزرائه .

وأما قضاته الشافعية : فالشيخ تقي الدين

ابن دقيق العيد ، والشيخ بدر الدين بن جماعة المقدسى ، والشيخ جمال الدين الزرعى ، والشيخ جمال الدين القزوينى ، والشيخ عز الدين بن جماعة .

وأما كتاب سره : فالقاضى شرف الدين بن فضل الله ، والقاضى علاء الدين بن الأثير ، والقاضى شهاب الدين محمود أبو الثناء ، والقاضى محبى الدين بن فضل الله ، وولده القاضى شهاب الدين صاحب كتاب الانشاء فى صناعة التوقيع .

وأما نظار جيوشه : فالقاضى بهاء الدين بن الحلى . وتولى شخص يسمى الفخر - وهو صاحب القنطرة المنسوبة اليه - تولى فى أيامه مرتين . وتولى القاضى قطب الدين بن شيخ السلامية ، والقاضى شمس الدين بن التاج ، والقاضى مكين الدين بن قزوينة ، وهو صاحب الغيظ المنسوب اليه . وتولى شخص يسمى جمال الكفاة ... فهؤلاء نظار جيوشه .

وأما نظار خواصه : فالقاضى كريم الدين بن السديد ، وتولى شخص يسمى النشو ، ثم تولى صهر النشو .

وأما دوادراته : فالأمير عز الدين أيدمر الناصرى ، والأمير أرغون الناصرى ، والأمير رسلان ، والأمير الجاى الناصرى ، والأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد ، والأمير بغا ، والأمير طاجار الناصرى .

وأما ما أنشأه فى أيامه من البناء فهو القصر الكبير الأبلق والقصران اللذان يليانه ، وعمر الايوان الكبير وعقد فوقه القبة العظيمة ، وعمر الجامع الكبير الذى بالقلعة ، وعمر الجامع الجديد المطل على بحر النيل عند موردة الحلفاء ، وأنشأ الخانقاه التى بسرياقوس ، وعمر الحوش الكبير الذى بالقلعة ، وعمر دور الحرم التى بالقلعة ، وعمر المجرة وأجراها من بحر النيل الى القلعة ،

وفي الجبل ان الملك الناصر محمد بن قلاوون
كان من أجل الملوك قدرا وأعظمهم نهيا وأمرا ،
وأكثرهم معروفا وبراء ، وقد جبلت القلوب على
محبتة سرا وجهرا .
ولما مات تولى من بعده ابنه المنصور أبو بكر .

الملك المنصور

هو الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ، ابن
الملك الناصر محمد بن قلاوون . وهو الثالث عشر
من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، بويح
بالسلطنة بعد موت أبيه بعهد منه له . وكان في
أولاده من هو أكبر منه ، ولكن الملك الناصر
اختار من بين أولاده هذا ، فقدمه عليهم ، وعهد
له من بعده ، فهو أول من تسلطن من أولاد محمد
ابن قلاوون .

لبس شعار الملك ، وجلس على سرير الملك في
يوم الخميس حادى عشر ذى الحجة سنة احدى
وأربعين وسبعمائة ، وله من العمر نحو عشرين
سنة . وقبل الأمراء له الأرض بالقصر الكبير .
فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب ، وخلع على
من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير طقزدمر
صاحب القنطرة التي على الخليج الحاكمى ،
واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية ، وخلع
على الأمير قوصون وهو صاحب ...^١ واستقر به
أتابك العساكر ، وخلع على الأمير طشتير المعروف
بمحض أخضر واستقر به دوا دارا كبيرا على عادته .
ثم دبت عقارب الفتن بين قوصون والأمير طاجار ،
وصار العسكر فرقتين : فرقة مع الأمير قوصون ،
وفرقة مع الأمير طاجار الداوادر . ولم يخضع
أحدهما لصاحبه .

(١) هذا في الأصل .

وعمر سور الميدان الذى تحت القلعة ، وعمر
الميدان الكبير الذى عند البركة الناصرية ، وبنى
القصر الكبير وميدان المهارة الذى عند قناطر
السباع ، وحفر الخليج الناصرى من موردة
الجبس الى زقاق الكحل . ومن انشائه الدهيشة
المطلة على الحوش السلطاني وهى من محاسن
الزمان . وأنشأ عدة قناطر كما تقدم ، وحفر البركة
الناصرية المنسوبة اليه وأجرى اليها الماء من
الخليج الناصرى ، وعمر قناطر أم دينار وقناطر
شيبين وقناطر أبو صوير وقناطر اللينى ، وعمر
الجسر الذى بشبرامنت ، وعمر جسرا بالفيوم ،
وجدد عمارة الرصد ، وجدد عمارة جامع راشده
الذى عند دير الطين ، وجدد عمارة مشهد السيدة
نقيسة رضى عنها ووضع به المحراب على التحرير
الصحيح ، وعمر زاوية الشيخ رجب التى تحت
القلعة ، وعمر الاصطبل السلطاني ، وجدد عمارة
الطبلخانات السلطانية ، وعمر زريبة بثغر دمياط ،
وله غير ذلك آثار كثيرة بمصر والشام .

وأما ما أبطله في أيامه من وجوه الظلم فهو
ضمان الغواني . وكان عبارة عن أخذ مال من
النساء البغايا ، وذلك لو خرجت أجل امرأة في
القاهرة قصد البغاء ، ونزلت اسمها عند امرأة
تسمى الضامنة ، وأقامت بما يلزمها من القيدر
المعين عليها ، لما قدر أكبر من في مصر عندها عن
البغايا وعمل الفاحشة . وكان يحصل من ذلك
لنساء الأكابر وبنايتهم غاية الفساد ولا يقدر أحد
يمنع من ذلك ، فأبطل الناصر ذلك وسطر في
صحائفه الى يوم القيامة ... وكان يتحصل من هذه
الجهة جملة مال كثير .

وأبطل أيضا في أيامه ما كان يؤخذ ممن يبيع
ملكا عن كل ألف درهم عشرون درهما ، فأبطل
ذلك جميعه ... وكان يتحصل من ذلك جملة مال .

الى الأمير قوصون في الدس ، وكنتم موت الملك المنصور عن الناس ، ولكن أشيع ذلك ... فهذا أول ملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، وكان ذلك من أكبر ذنوب الأتابكي قوصون ، وبه زال أمره .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف علاء الدين كجك ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الرابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثاني من أولاد محمد بن قلاون . ولى السلطنة بعد قتل المنصور أبي بكر .

تولى الملك وجلس على سريرته في يوم الاثنين حادى عشرى صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة ، فتولى الملك وله من العمر سبع سنين أو أقل ، فتصرف فى الأحكام صغيرا ، وأوتى — على صغر سنه — ملكا كبيرا ، فكان سابورى الولاية ، صغير السن الى الغاية . وأما تسميته بكجك فهو لفظ أعجمى معناه بالعربى صغير ، فان والده لحظ فيه حال التسمية أنه سيلى بعده الملك وهو صغير ، والملوك لهم فراسة فى الأمور قبل وقوعها .

ثم ان الأتابكى قوصون عمل بالموكب ، وأجلس السلطان على تخت الملكة ... وأحضر خلعة ولبسها ، واستقر نائب السلطنة وأتابك العساكر ، ثم تحول وسكن فى دار النيابة بالقلعة ، وتصرف فى أمور الملكة بحسب ما يختاره ، فنفى الأمير طقزدمر نائب السلطنة الى دمياط ، وقبض على جماعة من الأمراء ، وعزل من عزل ، وولى من ولى ، وظن أن الوقت قد صفا له . فكان اذا حضرت العلامة أخذ قوصون بيد السلطان كجك والقلم فى يده ، ويريه كيف يكتب على المراسيم والمناشير .

ثم ان الأمير طاجار الدوادار حسن للسلطان أن يقبض على الأتابكى قوصون وهو فى الخدمة بالقصر الكبير ، فأسر السلطان ذلك الى بعض الخاصكية ، وكان السلطان من طبعه الخفة والوهج ، فتوجه ذلك الخاصكى الذى أسر اليه السلطان الى الأمير قوصون ، وذكر له ذلك ، وأخبره بما قد عزم عليه السلطان من مسكه . وقد قيل فى المعنى :

إذا المرء أفشى مره بلسانه

ولام عليه غيره فهو أحق

إذا ضاق صدر المرء عن مر نفسه

فصدر الذى يستودع السر أضيق

فلما تحقق الأتابكى قوصون ذلك اجتمع بالأمير أيدغمش أمير أخور كبير وجماعة من الأمراء ، وذكر لهم ذلك ، فاتفقوا على خلع الملك المنصور أبى بكر . فلما كان يوم الموكب امتنع الأتابكى قوصون عن طلوع القلعة ، فاضطربت الأحوال فى ذلك اليوم . ثم ان الأتابكى قوصون طلع القلعة فى ذلك اليوم بعد انقضاء الموكب بعد الظهر على حين غفلة ، وقبض على السلطان الملك المنصور أبى بكر وأرسله الى السجن بمدينة قوص ، وأرسل معه أخويه — وهما سيدى يوسف وسيدى رمضان — فكانت مدة الملك المنصور أبى بكر فى السلطنة نحو ثلاثة أشهر ، وكان خلعه فى شهر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة .

ثم ان الأتابكى قوصون قبض على الأمير طاجار الدوادار ، والأمير بشتاك الناصرى ، وجماعة من الأمراء ، وأرسلهم الى السجن بشعر الاسكندرية ، ثم قبض على جماعة من المماليك السلطانية . فلما وصل الملك المنصور الى قوص ، أرسل الأتابكى قوصون الى متولى ناحية قوص بأن يقتل الملك المنصور وهو فى البحر ، فقتله وقطع رأسه وأرسلها

وكان لأمر كله بيد قوصون ، والسلطان معه
مش العصفور بيد النور ... فاضطربت أحوال
الدير المصرية ، وتعطلت البلاد الشامية ، وعصت
انواب ، ووقع الخلف بين الأمراء بمصر ، ووقفت
أحوال الرعية ، وحصل للناس غاية الأذى . وقد
قال القائل بالمعنى :

سلطاننا اليوم ضل ، والأكابر في

خلف ، وبينهم الشيطان قد نزعا

فكيف يضع من مسته مظلمة

أن يبلغ السؤل ، والسلطان مابلغا ؟

ثم ان الأتابكى قوصون صار يسك في كل يوم
جدة من الممالك السلطانية ، وأرسل الى الطنبغا
نائب الشام بالقبض على طشتمر حمص أخضر نائب
حلب . فلما بلغ طشتمر ذلك توجه الى الكرك ،
وأخذ الأمير أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاوون
لأنه كان مقبلا بالكرك من أيام والده الملك الناصر
كما تقدم . فلما خرج الأمير أحمد من الكرك
تسمعت به النواب ، فجاء اليه الأمير قطلوبغا
الفخرى نائب طرابلس ، وحضر نائب حماه ونائب
صفد وقصدوا التوجه الى مصر ، وأن يسلطنوا
الأمير أحمد عوضا عن أخيه الملك كجك ، وأن
يفضوا على الأتابكى قوصون . فلما خرجوا من
الكرك توجهوا الى نحو الشام ليقبضوا على الطنبغا
نائب الشام لأنه كان من عصابة قوصون ، فأرسل
الطنبغا يطلب من النواب الأمان وأن يكون معهم
تحت طاعة الأمير أحمد بن الناصر . فلما خرج
النواب على حمية قاصدين الديار المصرية وبلغ ذلك
الأتابكى قوصون ، أراد أن يقبض على الأمير
أيدغمش أمير أخور كبير . فلما بلغ الأمير أيدغمش
ذلك ركب هو والأمير آق منقر والأمير يلبغا
اليحياوى وجماعة من الأمراء وطلعوا الى الرملة
وأحاصوا بالقلعة .

ثم ان الأمير أيدغمش نادى للعوام بأن ينهبوا
بيت الأتابكى قوصون ، ونادى للعسكر أن كل
من لم يكن له فرس فليحضر الى الاصطبل
السلطاني ويأخذ له فرسا ... فطلع اليه العسكر
قاطبة ، ففرق عليهم في ذلك اليوم عدة خيول من
الاصطبل السلطاني . فلما تحقق الأتابكى قوصون
أن الركة عليه جلس بالقلعة وحصنها . ثم ان العوام
دخلوا بيت قوصون وأحرقوا بابه ، ونهبوا ما في
اصطبله من الخيول والبغال ، ونهبوا حواصله وما
كان فيها من برك ونحاس وسلاح وصيني وسكر
 وغير ذلك وقوصون ينظر اليهم من شباك ، فقال
لبعض الأمراء الذين في الاصطبل : « يامسلمين ،
أما تحفظون هذا المال الذي تنهبه العوام ؟ .. اما
أن يكون لى أو للسلطان » ، فقالوا له : « الذى
معك من الأموال والتحف يكفى السلطان ... وهذا
شكرانه للعوام من عندك » .

ثم ان العسكر صاروا كلما رأوا أحدا من ممالك
قوصون ، أو من حاشيته في الطرقات ، قتلوه شر
قتلة . واستمر الحال على ذلك الى العصر من ذلك
اليوم ، فأرسل قوصون يطلب الأمان من الأمير
أيدغمش ، وقد تسحب من كان عنده من الأمراء
والممالك ، فهاجم عليه الأمير أيدغمش وقبض عليه
وقيده وسجنه بالزردخانة . فلما تحقق العوام مسك
قوصون نهبوا خاناته التى هى خارج باب القرافة ،
وجامعه الذى بالقرب من بركة الفيل . ثم ان الأمير
أيدغمش صار يسك من كان من عصابة قوصون
من الأمراء والخاصكية ، ثم أرسل الأتابكى
قوصون تحت الليل الى ثغر اسكندرية وهو مقيد
فسجن بها ، فعمد أهل مصر وصوروا صورة
قوصون فى العلاليق وقد سمروه ، وفى ذلك يقول
المعار :

شخص قوصون رأينا في العلالق مسمر
تعجبنا منه لما جاء في التسمير سكر

وكان الأتابكي قوصون أميرا عظيما مليئا مهيبا ،
وصار في دولة الملك الأشرف كچك صاحب الحل
والعقد بالديار المصرية ، وتصرف في أمور المملكة
بحسب ما يختاره من ذلك .

فلما أمسك قوصون وسجن ، خلع الأشرف
كچك من السلطنة ، ودخل الى دور الحرم ، وصار
الأمراء والعسكر ينتظرون قدوم الأمير أحمد من
الكرک حتى يتسلطن ، فخطب باسمه في القاهرة
قبل حضوره ، وتلقب بالملك الناصر الى أن حضر
وتولى السلطنة كما سيأتى ذلك في موضعه ...
فكانت مدة سلطنة الملك الأشرف كچك بالديار
المصرية الى أن خلع خمسة أشهر وأياما ، فلم تكن
الا كسنة من النوم أو يوم أو بعض يوم . وأقام
في الأسر والاعتقال بدور الحرم الى أن مات على
فراشه في دولة أخيه الملك الكامل شعبان ، كما
سيأتى ذلك في موضعه .

ولم يتسلطن من أولاد الملك الناصر محمد بن
قلاون أصغر منه سنا .

الملك الناصر شهاب الدين

هو الملك الناصر ، شهاب الدين أحمد ، ابن
الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الخامس عشر
من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو
الثالث من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون .

دخل القاهرة وبويع بالسلطنة بعد خلع أخيه
كچك ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء
الأرض في يوم الاثنين عاشر شوال سنة اثنتين
وأربعين وسبعمائة . فلما جلس على سرير الملك ،

وتم أمره في السلطنة — وكان أكبر اخوته سنا ،
وأرجحهم في العين وزنا ، فهو ليثهم الغالب ، وشهابهم
الثاقب — ولكن خابت فيه الظنون ، وقيل معلم
مجنون ، فوقع منه أمور لا تقع الا ممن أصيب في
عقله ... وذلك أنه أمر بقتل سبعة من الأمراء الذين
كانوا في السجن بشفر الاسكندرية .

فلما فعل ذلك نفرت منه قلوب العسكر . ثم
انه خلع على الأمير طشتمر حمص أخضر واستقر
به نائب السلطنة بمصر ، وخلع على الأمير قطلوبغا
الفخرى واستقر به نائب الشام عوضا عن الطنبغا ،
وخلع على الأمير أيدغمش أمير أخور واستقر به
نائب حلب عوضا عن الأمير طشتمر حمص أخضر ،
واستقر بجماعة من الأمراء في وظائف من أمسك
منهم وسجن ... فاستمر الأمر على ذلك نحو ثلاثة
وثلاثين يوما .

ثم انه قبض على الأمير طشتمر حمص أخضر
وقيده وسجنه بالقلعة ، ثم انه أرسل جماعة من
المماليك السلطانية خلف الأمير قطلوبغا الفخرى
الذى استقر به نائب الشام وقبض عليه وهو في
أثناء الطريق وقيده — وكان هذان الأميران سببا
في سلطنته — فما شكره أحد من الناس على ذلك .

ثم انه أقام في السلطنة الى سلخ ذى القعدة من
سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فتوجه الى السفر ،
فخرج في يوم الاثنين ومعه جماعة من الأمراء
والعسكر ، فلم يعلم أحد أين يريد . فلما خرج
من القاهرة توجه قاصدا نحو الكرك الذى هو
محط رحاله وبغية آماله . وكان لما أضمر على
التوجه الى الكرك دخل الى الخزائن السلطانية
وأخذ منها ما قدر عليه من الأموال الجزيلة
والتحف الجليلة ، فوصل الى الكرك يوم الثلاثاء
من ذى الحجة ، فعمل عيد النحر بها . وكان لما
توجه الى السفر أخذ الأمير طشتمر حمص أخضر

معه وهو مفيد في محفة ، ثم أحضر الأمير قطلوبغا
الفخرى بين يديه وهو مقيد لما وصل الى الكرك ،
فأمر باعتقاله في قلعة الكرك هو والأمير طشتمر .

سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة (١٣٤٢ م) .

في خامس المحرم اجتمع الأمراء في سوق الخيل ،
وقالوا : « ان أحوال الملكة ضائعة ، والسلطان
لا يلتفت لشيء من ذلك . فأرسلوا كاتبوه في
الحضور الى مصر ، فان حضر فذاك ، وان لم
يحضر فولوا غيره » . فكتبوا كتابا عن لسان
الأمراء كلهم ، وأرسلوه على يد خاصكى يقال له
طقتمر الصلاحى ، فأخذ الكتاب ومضى الى الكرك
فوصل في حادى عشر المحرم . فلما اجتمع بالسلطان
وقرأ ما في الكتاب كتب للأمراء جواب ذلك الكتاب
الذى أرسلوه وهو يقول فيه : « ان الشتاء قد
دخل . واني قد اخترت الإقامة بالكرك الى أن
يمضى الشتاء وبعد ذلك أحضر الى مصر » . ثم
أخرج الأمير طشتمر حمص أخضر والأمير قطلوبغا
الفخرى من السجن ، ووسطهما بالسيف في ميدان
قلعة الكرك بحضرة ذلك الخاصكى طقتمر
الصلاحى ... وهذا الأمر لا يقع الا من المجانين
الذين في عقلم خلل ، مع أن هذين الأميرين كانا
سيبا لسلطته ، ولكن :

لا تفعل الأعداء في جاهل

ما يفعل الجاهل في نفسه

ومما قاله ابراهيم المعمارى في الأمير طشتمر
حمص أخضر :

جنت بالملك لما أتاك بالبسط ماجن

وقد أمنت الليالى يا حمص أخضر وداجن

وقوله فيه أيضا :

أوردت نفسك ذلا ورد النفوس المهانة

وبالدنا حزت مالا ملأت منه الخزانة
وكم عليك قلوب يا حمص أخضر ملانه
وقال فيه بعض الشعراء :

طوى الردى طشترا بعد ما

بالغ في دفع الأذى واحترس

عهدى به كان شديد القوى

أشجع من يركب ظهر الفرس

ألم تقولوا حمصا أخضرا

تعجبوا بالله كيف اندرس

وقال فيه آخر :

لما رجعت اليـنا

من بعد ذا البعد والبين

خلناك تحنو علينا

يا حمص أخضر بقلبين

فلما رجع طقتمر الصلاحى من عند الملك الناصر
أحمد الى القاهرة ، وأخبر عن هذين الأميرين وما
جرى عليهما ، فعند ذلك نفرت منه قلوب العسكر
قاطبة . فلما قرأوا كتابه وعلموا أنه اختار الإقامة
بالكرك ، ضربوا مشورة فيمن يولونه السلطنة ،
فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه اسماعيل ابن الملك
الناصر محمد ، فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة ،
وولوا اسماعيل .

وكانت مدة سلطنة الناصر أحمد بالديار المصرية
شهرين واثني عشر يوما لا غير ، وأقام بالكرك حتى
قتل كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

وكانت سلطنته كالحلم في المنام ، كما قيل
في ذلك :

فلم يقيم الا بتقدير أن

قلت له أهلا أخى مرحبا 1

الملك الصالح

هو الملك الصالح علاء الدين ، أبو الفداء اسماعيل ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو السادس عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الرابع من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاوون . بويج بالسلطنة بعد خلع أخيه الناصر أحمد في يوم الخميس ثاني عشر المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، فلما جلس على سرير الملك وتم أمره في السلطنة خلع على الأمير آق سنقر السلاري واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية ، وخلع على الأمير أيدغمش واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير طقزدمر واستقر به نائب حلب ، وقبض على الأمير الطنبغا المارديني — وهو صاحب الجامع الذي في البرادعين — وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية . ثم عزل من عزل وولى من ولى ، فما اختلف عليه اثنان ، ولا قيل هذان خصمان ، فسار في الناس سيرة حسنة ، وبسط العدل ، وأكثر في الرعية من البذل ، وعامل خاصكية أبيه بالمعروف وبذل لهم الألو ف بعد الألو ف .

سنة أربع وأربعين وسبعمائة (١٣٤٣ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على الأمير آق سنقر نائب السلطنة ، فقبض عليه وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية ، ثم خلع على الحاج آل ملك واستقر به نائب السلطنة عوضا عن آق سنقر السلاري .

والأمير آل ملك هذا هو صاحب الجامع الذي في الحسينية . وكان الأمير آل ملك له ير ومعرفة ، ولما تولى نيابة السلطنة أمر بهدم خزانة البنود التي

كانت سجنا يجسون فيها أصحاب الجرائم ثم صارت حارة يسكن فيها طائفة من الأرمن ، ويجتمع فيها طائفة من المناحيس والمقامين فيحصل منهم غاية الفساد ، فهدمها وبني مكانها مسجدا فلم يصل أحد فيه لما قد تقدم فيه من الفساد وسفك الدماء ، وكثرة من به من القتل مدفونا ، فصار هذا المسجد مقفلا دائما لا يصل في فيه أحد من الناس ، وبقي مهجورا . وقد قال فيه بعض الشعراء :

أنا مسجد سبت بيت عبادة

عارى الملابس ليس في حصير

هجر المؤذن والجماعة جانبي

وجفاني التهليل والتكبير

الشع في خلل المساجد مشعل

وفناء ربعى مظلم مهجور

ما جاء في القرآن في عبارة

واليوم للشيطان في عبور

هل مبلغ غنى الأمير شكائتي

فلعله يرثي لمن هو بور

سنة خمس وأربعين وسبعمائة (١٣٤٤ م) :

فيها أرسل السلطان تجريدة الى أخيه الناصر أحمد وهو في الكرك ، فحاصروه أشد المحاصرة فلم يقدروا عليه ، والسلطان يخرج له تجريدة بعد تجريدة وهو لا يبل من القتال ، وقد حصن قلعة الكرك فلم يقدروا على أخذها ، واستمر على ذلك حتى نفذ جميع ما كان عنده من المال والغلال ، ف ضرب ما بقى عنده من السروج الذهب والكبايش وخلط مع الذهب النحاس ، فكان الدينار الذي ضربه يساوي مئة دراهم فضة ، وأنفق ذلك على المسكر الذين هم بقلعة الكرك ، وقد هلكوا من الجوع والعطش والعري ، فلما طال عليهم الأمر تفرقوا

من حوله وقد أقاموا معه في المحاصرة نحو ثلاث
سنتين

فلما كان يوم الاثنين ثاني عشرى صفر ، طلب
الملك الناصر أحمد من العسكر الأمان ، ونزل اليهم
فقيدوه وأرسلوا يعلمون السلطان الملك الصالح
بذلك ، فأرسل اليه الأمير منجك اليوسفى فقطع
رأسه وأحضرها الى القاهرة في علبة . وكانت قتلتها
في أواخر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمئة .
وكان الناصر أحمد أشجع اخوته ، وأحسنهم شكلا ،
وأكبرهم سنا ... لكنه كان سىء التدبير ، قليل
المعرفة ، الغالب عليه الجهل وقوة الرأس وقلة
الثبات في الأمور . وقيل لما وضعوا رأسه بين يدي
أخيه الملك الصالح سجد لله شكرا وأمر بدفنها .

سنة ست وأربعين وسبعمئة (١٢٤٥) :

فيها مرض السلطان وسلسل في المرض الى أن
مات يوم الخميس حادى عشرى ربيع الأول سنة
ست وأربعين وسبعمئة ، فكانت مدة سلطنته
بالديار المصرية ثلاث سنين وشهرا ونصفا . وكان
خيار أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، وله بر
ومعروف على جهات خير ، فمن ذلك أنه وقف ضيعة
تسمى بيسوس وجعلها مرصدة على كسوة الكعبة
الشريفة . وكان يحب العدل والانصاف بين الرعية ،
وساس الملك في مدة ولايته أحسن سياسة ... ولم
يزل على ذلك الى أن مات على فراشه — بخلاف
اخوته — فكثر عليه الأسف والحزن من الناس ،
وقد رثاه الصلاح الصفدى بقوله :

مضى الصالح المرجو للبأس والنسدى

ومن لم يزل يلقي المنا بالمنايح

فياملك مصر ، كيف حالك بعده

إذا نحن أثنين عليك بصالح ؟

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى في تاريخه

ان الملك الصالح اسماعيل هذا كان — على مذهب
بعض الخلفاء — يميل الى حب الجوارى المولدات
الحبش والسود ، وكان يحب من يمدح له في
ذلك ، فكانت الشعراء يكثرون له في معنى ذلك .
قال بعضهم :

يكون الخال في خد قبيح

فيكسوه الملاحمة والجمالا

فكيف يلام معشوق على من

يراه كله في المين خالا ؟

وقال آخر في أسماء الجوارى :

إذا زار الحبيب على اشتياق

فقد زال العنا وقت الصباح

وان وافتك خمر مع نسيم

فقد دام السرور بالانشراح

ومثله في المعنى :

بدا السعد لى حين زار الحبيب

وجاء الهنا ودام السرور

وجاءت نسيم بتفاحة

مباركة من غزال ثفور

الملك الكامل

هو الملك الكامل شعبان ، ابن الملك الناصر
محمد بن قلاون . وهو السابع عشر من ملوك
الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس
من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون . بويح
بالسلطنة بعد موت أخيه الملك الصالح اسماعيل
بعهد منه له . وكان شعبان هذا هو أخا الملك
الصالح اسماعيل شقيقه ، جلس على سرير الملك ،
ولبس شعار السلطنة في يوم الخميس حادى

عشري ويبيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة ،
وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباته :
طلعة سلطاننا تبست

بكمال السعد في الطلوع
واعجب لهاتيك كيف أبدت

هلال شعبان في ربيع

فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب ، وقبض
على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير آل ملك نائب
السلطنة ، فأقام بالقلعة في البرج أياما ثم أفرج عنه
وولاه نيابة صفد ، فخرج من يومه ، فلما وصل
إلى العريش أرسل بالقبض عليه وقيده وأرسله إلى
السجن بشجر الاسكندرية . ثم عمل الموكب وخلع
على الأمير ارقطاي واستقر به نائب السلطنة عوضا
عن آل ملك . ثم قبض على الأمير قماري استأدار
العالية وأرسله إلى السجن بشجر دمياط . ثم أرسل
بالقبض على الأمير طقزدرم نائب الشام وسجنه
بالكرك . وخلع على الأمير يلبغا اليخياوي واستقر
به نائب الشام عوضا عن طقزدرم .

وفي هذه السنة توفي الملك الأشرف كجك أخو
السلطان ، وكان مقيما بدور الحرم من حين خلع
من السلطنة إلى أن مات .

سنة سبع وأربعين وسبعمائة (١٣٤٦ م) :

فيها طاش الملك الكامل شعبان ، وصار يخرج
الاقطاعات بمال معلوم ، وصار يصادر أرباب
الوظائف من المباشرين ويأخذ أموالهم قهرا ...
فتقلقت منه الناس .

وفيها جاءت الأخبار بأن يلبغا اليخياوي — نائب
الشام — خامر وأظهر العصيان ، فجمع السلطان
الأمراء وشاورهم في أمر نائب الشام ، فوقع
الاتفاق على أن السلطان يرسل الأمير منجك
اليوسفي لكشف الأخبار ، فتوجه الأمير منجك

نحو الشام من يومه ، ثم إن السلطان عرض العسكر
وقصد التوجه إلى الشام بسبب عصيان النائب .

ومن الحوادث في هذه السنة أن السلطان طلب
أخويه : الأمير حاجي ، والأمير حسينا ، فأرسل
إليهما الساقى سرور الزيني ، فقال لهما : « امضيا
كلما السلطان » . فقالا : « نحن اليوم ضعاف
وقد شربنا الدواء » . فلما رد الجواب على السلطان
بذلك أرسل إليهما الأمير الزمام صواب الطولوني ،
فقال لهما : « امضيا كلما السلطان والخيرة لكما » .

فقالا له مثل ما قال لسرور الزيني . فلما رد الجواب
على السلطان بذلك ، اشتد غضبه على أخويه ،
وأرسل خلف الأمير أستدرم الكاملى والأمير
قطوبغا الكركى ، فلما حضرا قال لهما : « إلى
مطبت أخي حاجي وأخي حسينا فأيا عن الحضور
إلى » ، فقال الأمير أستدرم الكاملى للأمير أرغون
المسلاني زوج أم السلطان : « ادخل أنت إليهما
وأخرجهما » . فدخل الأمير أرغون وأخرجهما
غصبا وهما يتباكيا . فلما حضرا بين يدي السلطان
قبلا له الأرضي وقال له : « يا مولانا السلطان ،
لا تؤاخذنا فإنا كنا شربنا دواء » . فقال لهما
السلطان : « كذبتما ... ما أتيتا إلا مخيامران
على » . فأخرج الأمير حاجي ختمة كانت معه
وحلف عليها أنه ما امتنع عن الحضور إلا لكونه
كان ضعيفا وشرب الدواء ، فلم يصدقه السلطان
في ذلك . ثم جاءت أمهاتهما ، وحلفن للسلطان ،
وكشفن رءوسهن له وقلن : « والله ما امتنعا عن
الحضور إلا لكونهما شربا الدواء » ... فلم يقبل
منهن السلطان ذلك ، وقال لهن : « أتتن نساء
قليلات العقول » . ثم أمر بإدخال أخويه إلى موضع
في الدهيشة ، ورسم عليهما السلطان بجماعة من
الخدم ، فباتا تلك الليلة في الدهيشة ، فلما أصبح
الصباح طلب السلطان عشرين فص حجر مسقط ،

وحلى جبر وجبس ، وقصد أن يدخل أخويه في مكان عقد تحت الدهيشة ويبني عليهما بالحجر ، ويجعل ذلك المكان قبرا لهما .

فلما كان يوم الاثنين ، ثالث عشر شهر جمادى الأولى من سنة مبع وأربعين وسبعمائة ، دخل بعض الخاصكية على السلطان وقت صلاة الصبح وأخبره بأن الأمير ملكتمر الحجازي قد لبس آلة الحرب هو وماليكه وتوجهوا الى قبة الهواء التي تحت القلعة — وكان السلطان قد عول على القبض عليه أيضا — فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، فأرسل الى زوج أمه أرغون العلاني وقال له : « ما الخبر ؟ » . فقال له : « ان ملكتمر الحجازي ، وأرغون شاه ، وجماعة من الأمراء لبسوا آلة الحرب وتوجهوا نحو قبة الهواء » .

فلما تحقق السلطان ذلك فتح باب الزردخانه ، وفرق منها الملبوس ، وأمر بشد الخيول ... فلم يجد أحدا عنده من الممالك غير بعض ممالك صغار كتابية ، فركب السلطان ووقف على باب السلسلة ، ودقت الكتومات حريبا ، ثم مشى الى الطبلخانات ووقف ينتظر من يطلع اليه من الأمراء والعسكر فلم يطلع اليه أحد ، فبقى واقفا ساعة حتى طلعت الشمس . ثم مشى وقصد نحو قبة الهواء — ولم يكن معه من الأمراء سوى الأمير أرغون العلاني زوج أمه ، والأمير أستدر الكاملي ، والأمير قطلوبغا الكركي ، والأمير جوهر السجرتي مقدم الممالك ، وبعض ممالك صغار تحت الصنجق — فتقدم الى آخر الصورة فبرز اليه الأمير أرغون شاه ، والأمير قرا بغا القاسمي ، والأمير آق منقر ... وضربوا عليه يرك ، ووقع بينهما القتال ، فبرز الأمير يلبغا أروس الى الأمير أرغون العلاني زوج أم السلطان فضربه

بطبر على وجهه فسقط عن فرسه الى الأرض ، فقبضوا عليه وأسروه .

فلما رأى ذلك من كانوا حول السلطان تسحب أكثرهم من حوله ولم يبق معه أحد الا القليل من الممالك ، فزحف عليه الأمراء ، فهرب في أربعة ممالك صغار ، وتوجه نحو باب السلسلة .

فلما ولي السلطان مهزوما قبضوا على من معه من الأمراء المقدم ذكرهم . فلما توجه الى نحو باب السلسلة وجده مقفلا ، فصار يسأل بعض الأوجاقية في أن يفتح له الباب حتى يطلع الى القلعة وهو سائق . فلما دخل الحوش أراد أن يقتل أخويه حاجي وحسينا ، فلم يفتح له الخدام باب الدهيشة ، فرجع الى بيت أمه واختفى فيه ، وكانت أمه ساكنة بالقلعة .

هذا ما كان من أمر الملك الكامل شعبان بعد كسرتة . وأما ما كان من أمر الأمراء الذين وثبوا على السلطان ، فانهم لما انكسر السلطان وولى مهزوما ، قبضوا على الأمراء الذين كانوا معه وشكوههم في زلاجير . وأما مقدم الممالك جوهر السجرتي فانه كان واقفا تحت الصنجق فقطعوه بالسيوف ، ثم ساقوا الى الرميطة وطلعوا من السلسلة الى القلعة ، فوققوا على باب الستارة وقالوا للخدام : « أين ابن أستاذنا سيدي حاجي ؟ » فقالوا لهم : « في الدهيشة هو وأخوه سيدي حسين » فدخلوا الحوش ، وطلعوا الدهيشة ، وأخرجوا سيدي حاجي وقبلوا له الأرض وقالوا له أنت سلطاننا ...

ثم انهم طلبوا الملك الكامل شعبان فلم يجدوه ، فقال لهم بعض الخدام : « قد اختفى في بيت أمه » . فهجموا عليه في بيت أمه فلم يجدوه ، فأمسكوا الجوارى وأرادوا تومسيطهم ، فأقروا بأنه في بيت الأزيار ، فهجموا عليه فوجدوه واقفا

اللون ، أزرق العينين ، وافر الأنف ، مجدر
الوجه ، يميل الى الصفرة ، شديد الخلق ، سيء
التدبير . وكانت أمه رومية ... فجمع بين قبيح
الشكل والفعل . قال الصلاح الصفدى :

بيت قلاون سعاداته
في عاجل كانت بلا آجل
حل على أملاكه للردى
دين قد استوفاه بالكامل

الملك المنظر

هو الملك المنظر حاجى ، ابن الملك الناصر محمد
ابن قلاون . وهو الثامن عشر من ملوك الترك
وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السادس من
أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون . بويغ
بالسلطنة — بعد قتلة أخيه الملك الكامل شعبان
— فى يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة
سبع وأربعين وسبعمئة ، وفيه يقول الشيخ جمال
الدين بن نباتة المصرى :

يا امام الورى ، مضى نصف عام
لم أئل فيه من وصولى ربع
سنة ، ان غفلت عنى فيها
كسرتنى ، وكيف لا وهى سبع ؟

وكان مولد حاجى هذا فى سنة اثنتين وثلاثين
وسبعمئة . ولد بالطريق عند عود أبيه الملك الناصر
من الحجاز — وهى الحجة الثالثة — فلما بشر به
سماء حاجى .

فلما تسلطن وتم أمره فى السلطنة أراد أن يقبض
على جماعة من الأمراء ، فرسم لنقيب الجيوش
المنصورة بأن يدور على الأمراء المقدمين ويعلمهم
بأن السلطان رسم بأن يعمل الموكب فى القصر

بين الأزيار وقد ابتلت أثوابه بالماء ، فقبضوا عليه
ومضوا به الى الدهيشة وسجنوه فى المكان الذى
كان به أخواه .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى ، حكى لى
الأمير متبغا — استدار الصحبة — قال : « هيانا
السماط على أن الملك الكامل شعبان يأكل منه ،
ثم أفردنا منه شيئا لسيدى حاجى وسيدى حسين
الذين كانا فى السجن بالدهيشة ، فخرج الى
السماط سيدى حاجى وجلس فى صدره وأكل
منه ، ثم دخلنا بالطعام الذى كنا أفردناه لسيدى
حاجى وأخيه حسين الى الملك الكامل شعبان فأكل
منه وهو فى السجن الذى كان فيه أخواه ... » .
فسبحان القادر على كل شيء ... ان فى الليل
والنهار عجائب . وقد قال القائل :

لا تأمنن للدهر وهو مسالم
سلس القياد فقد يكون محاربا
واحذر تقلبه ، ولا تعجب له
ان أركب الماشى وأمشى الراكبا

وقال آخر :

كم حاربتنى شدة بجيشها
فضاق صدرى من لقاءها وانزعج
حتى اذا آيست من زوالها
جاءتنى الألفاظ تسمى بالفرج

ثم ان الملك الكامل أقام محبوسا فى المكان
الذى فى الدهيشة ثلاثة أيام ، ثم ان أخاه حاجى
أرسل اليه من يخته وهو فى السجن فخنق ،
وكانت قتلته فى ليلة الخميس ثالث جمادى الآخرة
سنة سبع وأربعين وسبعمئة ، فكانت مدة سلطنته
بالديار المصرية سنة وشهرين ونصفا . ولما مات
دفن مع والده داخل القبة التى بين القصرين .

وكانت صفة الملك الكامل شعبان : أشقر

دمشق فتقاتل معهم وقتل ، فقطعوا رأسه وأحضرت
الى القاهرة ، فرسم السلطان بأن تعلق على باب
زويله .

ثم ان الأمير شجاع الدين عزلوا تزايد ظلمه في
حق الرعية ، وصار يرمى الفتن بين الأمراء ... فلما
بلغ السلطان ذلك قبض عليه وسجنه ، فوقع منه
كلام في حق السلطان ، فلما بلغه أمر بقتله فخنق
تحت الليل ودفن في القرافة . فلما بلغ العوام ذلك
توجه منهم جماعة الى قبره ، ونشوا عليه ،
وأخذوا كفيه ، وأحرقوا عظامه ... فلما بلغ
السلطان ذلك رسم لوالى القاهرة بأن يقبض
على من فعل ذلك ، فقبضوا على جماعة من
العوام ، وضربوهم بالمقارح ، وقطعوا أيديهم
وطافوا بهم القاهرة .

ولما كان يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان ،
وصل من الشام موجود يلغا اليحيوى ، وكان
من جملة ذلك من الذهب العين خسون ألف
دينار . فلما وصل ذلك الى الخزائن الشريفة ،
أنفق السلطان جميعه على طيور الحمام — وكان
مولعا بلعب الحمام ، فعمل لها خلاخيل ذهب في
أرجلها وألواح ذهب في أعناقها ، وصنع لها
مقاصير من خشب الأبنوس وطعمها بالعاج
والأبنوس ، وأقام بها غلمانا يكلفونها — فصرف
ذلك المال جميعه عليها ...

قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة في
ترجمته للملك المظفر حاجى : « وقد اشتغل بلعب
الطيور عن تدبير الأمور ، والتهى عن الأحكام
بالنظر الى الحمام ... فجعل السطح داره ،
والشمس سراجها ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان
هواه ، وخالف من نهاه . وخرج في ذلك عن
الحد ، وصار لا يعرف الهزل من الجد ... » .

ثم ان السلطان صار يستخف بالأمراء ولا يبيت

وتجتمع سائر الأمراء ... فدار عليهم نقيب الجيوش
وأعلمهم بذلك . فلما طلعوا الى القلعة واجتمعوا
في القصر ، دخل عليهم جماعة من المماليك
السلطانية بعد المغرب فقبضوا على جماعة منهم .
قيل ان الأمير آق سنقر — لما أرادوا أن يقبضوا
عليه — جرد سيفه وقصد نحو السلطان ليقتله ،
فأمسكه الأمير شجاع الدين عزلوا والأمير كجلى ،
وأخذوا سيفه من يده . ثم قبضوا على الأمير
ملكتر الحجازى ، والأمير قرابغا القاسمى ،
والأمير أيتس عبد الغنى ، ونزلار الغمري ،
والأمير صفار ... فكانت ساعة تشيب فيها
النواصى .

ثم ان السلطان أمر بتقييدهم فقيدوا ، وأرسلهم
الى السجن بغير الامكندرية ، وأما الأمير آق
سنقر والأمير ملكتر الحجازى ، فحبسهما
السلطان في البرج الى الليل ، وأمر بخنقهما
فخنقا ودفنا تحت الليل ومضى أمرهما . وكان
هذان الأميران سببا لسلطنة المظفر حاجى وقتل
أخيه الملك الكامل شعبان ، وكانا يظنان أنهما في
دولة الملك المظفر حاجى يصيران صاحبى الحل
والعقد في أمور المملكة ، فجاء الأمر اليهما بخلاف
ذلك ... فكان الأمر كما قيل :

ربما يرجو الفتى نفع فتى

خوفه أولى به من أمـله

ورب من ترجو به دفع الأذى

سوف يأتيك الأذى من قبله

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع في ذلك
اليوم على خمسة عشر أميرا ، وأنعم عليهم
بالاقتاعات السنية ، وقرر منهم جماعة في وظائف
وأقام له عصبة من الأمراء .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام
يلغا اليحيوى هرب ، فتبعه جماعة من عسكر

عندهم في القصر في ليالى الموكب ، فعند ذلك تغيرت عليه خواطر الأمراء — ولا سيما ما قد أنفقته على الحمام من المال الذى جاءوا به من موجود نائب الشام — فدخل الأمير جبغا على السلطان وقت الظهر وخلا به وعنفه على تلك الأمور التى يفعلها ، وقال له ان الأمراء والعسكر قد تغير خاطرهم على السلطان بسبب ذلك .

فلما سمع السلطان ذلك غضب ، وقام من وقته وطلع الى الحمام وذبحها جميعا ، وأخرب تلك المقاصير ، وأرسل يقول للأمير جبغا : « انى قد ذبحت الحمام الذى كان عندى جميعه . وأنا ان شاء الله تعالى أذبح في هذا القرب خياركم كما ذبحت الحمام ... » . فلما سمع الأمير جبغا ذلك قام من وقته ودخل الى نائب السلطنة ، وذكر له ما قاله السلطان ، فاتفق رأى الأمراء قاطبة على خلعه من السلطنة .

فلما كان يوم الأحد ثانى عشر رمضان ، وثب الأمراء على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب ، وخرجوا الى قبة النصر . فلما بلغ السلطان ذلك رسم بشد الخيول ، ودق الكنوسات حريبا ، وزعق النفير ، وركب تحت الصنجق ومعه جماعة من الأمراء العشراوات نحو ثلاثة أنفس ، وبعض مماليك صغار ، ومقدم المماليك الأمير عنبر . ثم ان السلطان خرج من باب السلسلة ، ومشى الى رأس الصوة ، ووقف ينتظر من يطلع اليه من الأمراء فلم يطلع اليه أحد ، فوقف ساعة ثم مشى بين التراب فوقف هناك .

وأرسل خلف الأمير شيخو العمرى فجاء من بيته ، فبعثه السلطان الى الأمراء الذين في قبة النصر وهو يقول لهم : « ايش قصدكم حتى نعرف سبب ركوبكم علينا من غير موجب ؟ » . فلما توجه الأمير شيخو من عند السلطان بهذه الرسالة ، اجتمع

بالأمراء الذين في قبة النصر وبلغهم ما قاله السلطان فقالوا له : « امض الى السلطان وقل له ينزل عن الملك ويكف هذا القتال عن العسكر » . فلما رجع الأمير شيخو الى السلطان ، وبلغه ما قالت الأمراء ، قال السلطان : « كيف أنزل عن الملك ؟ ... والله ما عندى لهم الا السيف » .

فرجع اليهم الأمير شيخو بهذا الجواب ، فزحفوا اليه ، وأشاروا بالحرب عليه . فثار بينهم غبار الحرب الوارد ، وحملوا عليه حملة رجل واحد . وكان رأس الفتنة الأمير يلبغا أروس ، فجاء من وراء السلطان وضرب عليه يرك بين معه من العسكر ، فصار من كان مع السلطان من المماليك يتسحبون قليلا قليلا ، فلم يبق معه الا القليل من المماليك ، فتقدم اليه الأمير يلبغا أروس وضرب السلطان بطبر كان معه ، فلم تؤثر فيه الضربة ، فنزل الأمير يلبغا أروس عن فرسه ، وأمسك لجام فرس السلطان . وتكاثر عليه العسكر فقلعوه من قربوس السرج ، وأخذوه وهو حاسر الرأس ، ومضوا به الى الأمير أرقطاي نائب السلطنة . فلما رآه نزل عن فرسه ، ورمى على انسلطان قباءه ، وقال : « أعوذ بالله أن أقتل ابن أستاذى ، ولكن امضوا به الى السجن في القلعة » . فأخذ الأمير يلبغا أروس ومضى به الى تربة في الباب المحروقى فخنقه هناك ، ودفن من وقته ، ولم يشعر به أحد . وكان له من العمر نحو عشرين سنة . وكان مليح الشكل ، صبيح الوجه ، شجاعا بطلا ، لا يهاب الحرب ، ولا يخاف الضرب . وقد قال فيه الصلاح الصفدى رحمه الله :

أيها العاقل اللبيب تذكر
في المليك المظفر الضرغام
قد تمادى وازداد في البغى حتى
كان لعب الحمام جد الحمام

فكانت مدة سلطنة الملك المظفر ههنا بالديار المصرية سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما ، ولكن قتل في هذه المدة السيرة جماعة كثيرة من الأمراء وغيرهم . وكان سفاكا للدماء على صغر سنه . وفيه يقول الصفدي :

خان الردي للمظفر وفي الثرى قد تعقر
فكهم أباد أميرا على المعصالي توفر
وقاتل النفس ظلما ذنوبه ما تكفر
فلما قتل المظفر حاجي طلع الأمراء الى القلعة
وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة ، فاختلفوا في ذلك : فطائفة من الأمراء يقولون سيدي حسين ، وطائفة منهم يقولون سيدي حسن ... فوقع الخلف بينهم في ذلك .

وكان سيدي حسين مجرما سفاكا للدماء ، فنفر منه المسكر لشدة بأسه ، ووقع القاتل والقييل بين الأمراء ، وأقامت مصر يومين بغير سلطان والناس يدعون الى الله باصلاح أحوال المسلمين . ثم في اليوم الثالث وقع الائتلاف من الأمراء على سلطنة سيدي حسن ، فطلبوه من دور الحرم وسلطنوه ، كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

الملك الناصر أبوالمحسن

هو الملك الناصر أبو المحاسن حسن ، ابن الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاوون . وهو التاسع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السابع من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاوون .

بويح بعد قتل أخيه حاجي ، فتولى الملك وله من العمر ثلاث عشرة سنة . وكان مولده في سنة ست

وثلاثين وسبعمائة . تسلطن في يوم الثلاثاء في رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

قيل لما أخرجوه من دور الحرم جلس على باب الستارة وأحضروا له خلعة السلطنة . وكان اسمه أولا « سيدي قماري » لحسنه . فلما أرادوا أن يسلطنوه قال للأمراء : « أنا لا أسى الا بسيدي حسن » . فقال الأمراء : « على بركة الله تعالى » . فألبسوه خلعة السلطنة ، وأركبوه من باب الستارة الى الايوان ، وجلس على سرير المسك ، ودقت له الكؤوس ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضح له الناس بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بولايته . فلما كان يوم الاثنين عمل الموكب ، وخلع على الأمير يلبغا أروس واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير أرقطاي ، ثم خلع على الأمير أرقطاي واستقر به نائب حلب ، ثم خلع على الأمير أرغون شاه واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير منجك اليوسفى واستقر به وزيرا واستادارا بالديار المصرية ، وخلع على جماعة كثيرة من أرباب الوظائف من الأمراء والمتعنين وغير ذلك .

ثم فرق الاقطاعات على الممالك السلطانية وأرضاهم بكل ما يمكن . ثم عينوا الأمير استبغا المحمودى السلحدار بأن يتوجه ببشارة ولاية السلطان الى دمشق ، فأخذ في أسباب السفر الى دمشق . وفيه يقول ابن أبى حجلة :

غدا سلطانتا ملك البسرايا
رعاه الله يعدل في الرعايا
حواصل عدل والده حواها
وأخرج من زوانها الخبايا
فمهلا في التساوى والأيادي
فقد حزت النهاية في العطايا

وفي هذه السنة — وهي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (١٣٤٧ م) — احترق بحر النيل احترافا زائدا مما يلي بر مصر ، فاتفق رأى الأمراء بأن يسدوا البحر مما يلي بر الجيزة ، فرسموا للأمير منجك اليوسفى وزير الديار المصرية بأن يتولى أمر ذلك ، ففرض منجك على كل دكان ببصر والقاهرة درهمى فضة ، وأخرجوا مراسيم شريفة الى كاشف الشرقية بأن يفرض على كل نخلة فى البلاد درهمين من الفضة ، فاجتمع من ذلك مال جزيل ، فأخذ منجك ذلك المال واشترى به مراكب ووسقها حجارة كبارا وغرقها فى البحر مما يلي بر الجيزة ، فلم يفد من ذلك شيئا ، وطفى عليهم الماء ، فقبضوا على منجك ورسوموا عليه بسبب ما أخذه من البلاد من المال فصادروه ، وأخذوا أمواله وعزلوه من الوزارة .

سنة تسع وأربعين وسبعمائة (١٣٤٨ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير جبغا واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير أحمد شاد الشرنجناه واستقر به نائب صفد .

ومن الحوادث فى هذه السنة ان الفناء وقع بالديار المصرية وعم سائر البلاد ^١ ، فكان يخرج من القاهرة فى كل يوم مائتوف عن عشرين ألف جنازة . وقد ضبط فى شهر شعبان ورمضان فبلغ عدة من مات فيهما من الناس ، فكان نحو تسعمائة ألف انسان . . . ولم يسمع ببثل هذا الطاعون فيما تقدم من الطواعين المشهورة فى صدر الاسلام .

قال الشيخ شمس الدين محمد الذهبى :

(١) هو وباء « الموت الاسود » الذى اجتاحت المعمورة فى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد . وقد بدأ فى أواسط آسيا ، ثم انتقل الى شبه جزيرة القرم ، ومنها نقلته إحدى السفن الى جنوا وسائر أنحاء أوروبا . وانتقل من ارمينيا الى انجلترا عام ١٣٤٨ ، فقفى على نصف سكانها . وقضى فى الصين على ثلاثة عشر مليونا .

« ان الطواعين المشهورة فى مبتدأ الاسلام خمسة ، وهى :

« طاعون شيرويه .

« وطاعون عمواس — كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقع بالشام وأعمانها فى سنة ثمان عشرة من الهجرة — وعمواس بفتح العين اسم قرية بالشام .

« وطاعون الجارف ، وقع فى زمن عبدالله بن الزبير فى سنة سبع وستين من الهجرة . قيل مات فيه فى ثلاثة أيام فى كل يوم سبعون ألفا ، ومات فيه لأنس بن مالك رضى الله عنه فى ثلاثة أيام ثلاثة وثمانون ولدا . وكان فى شهر رمضان قوة عمله .

« وطاعون الفتيات كان بالبصرة وواسط . قيل انه ابتدأ بالعذارى الصغار فسمى طاعون الفتيات .

« وطاعون جاء فى سنة احدى وثلاثين ومائة من الهجرة يسمى طاعون قتيبة ، مات فيه ألف ألف وستمائة وخمسون ألف انسان ، ومات عقيقه المغيرة ابن شعبة رضى الله عنه » .

ولكن لم يسمع ببثل هذا الطاعون الذى جاء فى هذه السنة ، لأنه عم البلاد قاطبة ، ومات فيه من الناس ما لا يحصى عددهم من مسلم وكافر ، وكانت قوة عمله فى بلاد الفريج ، وأقام دائرا فى البلاد نحو سبع سنين حتى عزت جميع البضائع لقللة الجالب من البلاد ، وبلغ ثمن الراوية من الماء اثنى عشر درهما بالقاهرة ، وسبب ذلك موت الجمال . وبلغ طحن الارذب القمح خمسة عشر درهما .

ولم يزرع من أراضى مصر فى تلك السنة الا القليل بسبب موت الفلاحين وعدم من يزرع ، فوقع الغلاء حتى بيعت كل وبة قمح بمائتى درهم ، وكادت مصر تخرب فى تلك السنة . ووقع الطاعون

أيضا في القطط والكلاب والوحوش . ولقد شوهد
شيء كثير من الوحوش وهي مطروحة في البراري
وتحت أبطها الطواغيت ، وكذلك الخيل والجمال
والحمير وسائر الحيوانات ، حتى الطيور مثل النعام
وغير ذلك . وفي ذلك يقول الصلاح الصفدي :

لما اقترست أصحابي يا عام تسع وأربعينا
ما كنت والله تسما بل كنت سبعا يقينا
وقوله أيضا :

دارت من الطاعون كاس الفنا
فالنفس من سكرته طافحة

قد خالف الشرع وأحكامه
لأنه ثبت بالرائحة

وقوله أيضا :

لا تثق بالحياة طرفة عين
في زمان طاعونه مستطير

فكان القبور شعلة شمع
والبرايا لها عرائش تطير

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى :

يقولون شم الخل في زمن الوباء
وفاقا لما قال الأطباء يا خلّى

فان قلت للطاعون تسطو على الورى
يقول : نعم ... أسطو وأثقل في الخل

وقال ابراهيم المعمار :

يا طالباً للموت قم واقتنم
هذا أوان الموت ما فاتنا

قد رخص الموت على أهله
ومات من لا عمره ماتا

وقوله أيضا :

قبح الطاعون داء فقدت فيه الأحبة
يعت الأنفس فيه كل انسان بحبة

ومن مجونه قوله :

قلت لمن بالحشيش مشغل :
ويحك ، ماتخشي هذه الكتب !
فالناس ماتوا بكبة ظهرت
فقال : انى أعيش بالكبة

وقال بعضهم :

تروعا الجنائز مقبالات
ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة ظبية صدفت لذئب
فلما غاب عادت راتعات

وقال آخر :

نراع بالموت ساعة ذكره
ونعرض للدنيا فنلهو ونلعب

ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها

وما كنت منه فهو شيء محجب

قيل لما زاد أمر هذا الطاعون بالديار المصرية ،
أمر بعض العلماء بأن الناس يخرجون قاطبة الى
الدعاء برفعه ، فخرج الناس قاطبة الى الصحراء
وفعلوا كما يفعلون في الاستسقاء ، فلم يفد ذلك
شيئا ، بل زاد أمر الطاعون حتى عم سائر البلاد ،
ودخل الى مكة ، ولم يعهد هذا قط في سوى هذه
السنة ... تهل ذلك ابن حجر في كتاب « بذل
الماعون في أخبار الطاعون » .

سنة خمسين وسبعمائة (١٣٤٩ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن أرغون شاه نائب الشام
قتل تحت الليل . وسبب ذلك أن الأمير جيفاً نائب
طرابلس دخل الى دمشق في جماعة كثيرة من عسكر
طرابلس . وكان أرغون شاه نائب الشام مقيماً
بالقصر الأبلق الذي بدمشق ، فدخل عليه الأمير
جيفاً نائب طرابلس وهو نائم بين عياله فقبض عليه

وقيده وسجنه بقلعة دمشق . فلما أصبح الصباح طلب الأمير جبغا القضاة والأمراء بدمشق ، وأخرج لهم مرسوم السلطان بالقبض على أرغون شاه نائب الشام ، فعند ذلك سكن ما كان بين الناس من الاضطراب ، وظنوا أن ذلك صحيح .

ثم إن الأمير جبغا احتاط على موجود أرغون شاه جميعه . فلما كانت ليلة الجمعة رابع عشر ربيع الأول من تلك السنة ، فيها وجدوا أرغون شاه النائب مذبوحا وهو في السجن ، فأحضر الأمير جبغا القضاة وكتب محضرا في شأن ذبح أرغون شاه بأنه وجد في السجن مذبوحا ولا يعلم من فعل ذلك . ثم فشا الكلام بين الناس بأن ذلك من فعل الأمير جبغا ، فكثر القال والقليل في حق جبغسا بأنه هو الفاعل لذلك جميعه ، فوثب عليه عسكر دمشق وحاربوه ، فهرب جبغا وتوجه الى نحو المزم — وهى من أعمال دمشق — فلم يتبعه أحد من عسكر الشام وخافوا عقبى ذلك .

ثم إن الأمير جبغا توجه الى طرابلس بعد ما جرى منه ما جرى .

ثم إن أمراء دمشق كاتبوا السلطان بما وقع من الأمير جبغا . فلما وصل الخبر الى السلطان أنكر ذلك ، وحلف على مصحف أنه لم يكن له علم بذلك . ثم عاد الجواب الى الأمراء بدمشق بأن السلطان ليس له علم بما جرى من الأمير جبغا ، ثم رسم لعسكر دمشق بأن يحاربوا الأمير جبغا ويمشوا عليه في أى مكان كان ، فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة ، وحاربوه وهو في طرابلس ، فانكسر الجبغسا وقبضوا عليه ودخلوا به الى الشام ... وكان يوم دخوله الى الشام يوما مشهودا لم يسمع بمثله . وكان في مراسيم السلطان التى جاءت الى دمشق : « ان ظفرتهم بالجبغا فاشنقوه على باب دمشق » . فلما ظفروا

به شنقوه وعلقوه على باب القلعة كما رسم السلطان ، فأقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى دفن بعد ذلك ، فكان كما قيل : ليس المغر بمحمود ولو سلما .

سنة احدى وخمسين وسبعمائة (١٢٥٠ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن شخصا من التتار يسمى هندو أغار على مدينة سنجان وملئها ، فأرسل السلطان له تجريدة فحاصروه فطلب من العسكر الأمان ، ثم رحل عن سنجان وعاد اليها النائب الذى من قبل السلطان ، ثم رجع العسكر الى القاهرة وهم سالمون .

وفيها توجه الأمير طاز أمير حاج بالمحصل الشريف . فلما وصل الى مكة وقع بينه وبين الملك المجاهد صاحب اليمن — وكان قد حج في تلك السنة — فلما صعدوا الى الجبل وقعت بينهما فتنة عظيمة فانكسر الملك المجاهد صاحب اليمن وقبض عليه الأمير طاز وقيده وأحضره صحته الى القاهرة .

وفيها جمع السلطان الملك الناصر حسن القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، ورشد نفسه ، واستعذر الأوصية فأعذروا له في ذلك . ثم بعد أيام قبض السلطان على جماعة من الأمراء — منهم الأمير يلغا أروس ، والأمير منجك اليوسفى — وأرسلهم الى السجن بالاسكندرية .

وفيها أبطل السلطان ما أحدثه النساء من القمصان التى خرجت في كبر أكمامها عن الحد ، وأبطل ما أخرجوه من الأزر الحرير والأخفاف الزركش ، فأشبهوا المناداة في القاهرة بأبطال ذلك فرجعت النساء عن ذلك .

سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة (١٢٥١ م) :

فيها عاد الحجاج الى القاهرة ، فطلع الأمير طاز

الملك الناصر حسن في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة .

وكان مولده بقلعة الجبل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة . وأمه خوند قطلو ملك بنت الأمير تنكز نائب الشام . وكان سبب سلطته أن الملك الناصر لما خلع من السلطنة تعصب الأمير طاز وسلطن الملك الصالح ، فجلس على سرير الملك ، وتلقب بالملك الصالح ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء .

فلما تم أمر سلطنة الملك الصالح صار الأمير طاز صاحب الحل والعقد ، واجتمعت فيه الكلفة ، وصار الملك الصالح معه مثل اللولب يديره كيف شاء ، وليس له في السلطنة غير مجرد الاسم فقط ... فوقع بين الأمراء الخلف ، وأضربوا السوء للأمير طاز ، ودبت بينه وبينهم عقارب الفتن ، فوثب عليه جماعة من الأمراء ، ولبسوا آلة الحرب ، وتوجهوا إلى القصر . فلما بلغ الأمير طاز ذلك أركب السلطان ونزل به من القلعة في جماعة من الأمراء ومن المماليك السلطانية ، ودقت الكؤوسات حربيا ، وزعق النفير ، ومشى السلطان تحت الصنجق ، ونودي في القاهرة : « من وجد مملوكا من مماليك الأمير منكلى بغا الفخرى والأمير مغلطاي ، فيقتله حيث وجد في أى مكان كان » ... فقتل في ذلك اليوم جماعة كثيرة من المماليك ، وأخذوا خيولهم وقماشهم وسلاحهم .

ثم زحف السلطان والأمير طاز بمن معه من الأمراء والعسكر ، وتوجهوا إلى قبة النصر ، فوقع بينهم القتال عند خليج الزعفران وقرب المطرية ، فكان بين الأمراء واقعة عظيمة قتل فيها جماعة كثيرة من المماليك .

ثم إن الأمير منكلى بغا الفخرى والأمير مغلطاي انكسرا وهربا في بعض بساتين المطرية ، فقبضوا

إلى القلعة وصحبته الملك المجاهد صاحب اليمن . فلما تمثل بين يدي السلطان أطلقه من القيد ورسم له بالعود إلى بلاده وهو مكرم ، وأرسل معه السلطان الأمير قشتمر المنصوري ليوصله إلى بلاده . فلما وصل إلى ينبع أراد الملك المجاهد أن يقتل الأمير قشتمر ويهرب من هناك ، فقبض عليه الأمير قشتمر ورجع به إلى القاهرة ، فتغير عليه خاطر السلطان بسبب ذلك ، فقيده وأرسله إلى السجن بقلعة الكرك .

وفيها — في يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة — وثب الأمراء على السلطان ، ولبسوا له آلة الحرب ، وطلعوا إلى الرميلة ، ووقفوا بسوق الخيل . وكان رأس الفتنة الأمير طاز المنصوري ، والأمير بيغا الشمسي ، والأمير سفر الناصري ... فحطم الأمير طاز — ومعه جماعة من الأمراء — فطلعوا إلى القلعة وهم راكبون إلى الحوش السلطاني ، فقبضوا على السلطان الملك الناصر حسن وسجنوه بالقلعة في مكان داخل دور الحرم ، فأقام به إلى حين عودته إلى السلطنة كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

فكانت مدة سلطنة الملك الناصر حسن في هذه المرة بالديار المصرية ثلاث سنين وتسعة أشهر ، وهى السلطنة الأولى . ثم تولى من بعده أخوه صالح .

الملك الصالح صلاح الدين

هو الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ابن الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون ، وهو تمام العشرين من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثامن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، بويح بالسلطنة بعد أخيه

الأمير أحمد نائب حماه ، وكذلك الأمير النقيب
برقاق نائب صفد — فأرسل نائب الشام الأمير
أرغون الكاملى يخبر السلطان بما قد جرى من
النواب .

ثم بعد ذلك بأيام يسيرة جاءت الأخبار بأن
نائب حلب وصل الى الشام وحاصر المدينة . فلما
رأى نائب الشام عين الغلبة هرب تحت الليل هو
ومماليكه وتوجه الى نحو غزه فأقام بها ، فأرسل
يعلم السلطان والأمراء بذلك .

ثم جاءت الأخبار بأن يبيغا أروس لما دخل الى
الشام وقف تحت القلعة ومعه من تقدم ذكرهم
من النواب ، فاستعرض هناك العسكر الشامى
والعسكر الحلبى ، فكان مع الأمير يبيغا أروس
من النواب والأمراء نحو ستين أميرا — غير
العساكر الحلبية والشامية ، وغير ما التف عليه
من العربان والعشائر — ففويت شوكته . فلما
فرغ من العرض نزل عند قبة يبيغا . وأرسل الى
نائب قلعة دمشق — وهو الأمير أياجى — بطلب
منه أميرا كان مسجوناً بقلعة دمشق ، فأرسل اليه
الأمير أياجى يعتذر له عن ذلك بأن هذا فى سجن
السلطان ولا أقدر على اطلاقه من السجن الا
بمرسوم السلطان .

ثم ان نائب قلعة دمشق حصن القلعة تحصينا
عظيما ، وركب عليها المكاحل والمدافع ، وأرسل
يقول لأهل المدينة : « لا تفتحوا دكانا ولا سوقا ،
ولا تبيعوا على عسكر حلب شيئا » .

فلما بلغ الأمير يبيغا أروس ذلك اشتد به
الغضب ، وأمر عسكره بأن ينهبوا ضياع دمشق
والبساتين ، ويقطعوا الأشجار . فلما سمعوا هذه
المناداة ما أبقوا مكننا من الأذى والفساد ، فنهبوا
حتى النساء والبنات والقماش . وجرى على أهل

عليهما فى أواخر النهار ، فرسم السلطان بسجنهما
فى خزانة شمائل ، ثم أرسلهما الى السجن بشعر
الامكندرية . ورسم بالافراج عن الأمير شيخو
العمرى والأمير منجك اليوسفى — وكانا
بالسجن بشعر الاسكندرية — فأفرج عنهما وحضرا
الى الأبواب الشريفة وطلعا الى القلعة ، فأنعم
السلطان على الأمير شيخو فى ذلك اليوم بتقدمة
ألف ، وكذلك الأمير منجك اليوسفى .

ثم ان السلطان أرسل بالافراج عن الأمير يبيغا
أروس — وكان بالسجن فى قلعة الكرك — فلما
حضر خلع عليه واستقر به نائب حلب . ثم خلع
على الأمير أرغون الكاملى واستقر به نائب
السلطنة بالديار المصرية .

وفى هذه السنة توفى ابن اللبانة الشاعر ، وكان
من فحول الشعراء وله شعر جيد . ومن لطائف
قوله :

هلا نساك على قلب مشفق
لترى فراشا فى فراش يحرق

قد صرت كالرمق الذى لا يرتجى
وبقيت كالنفس الذى لا يلحق

لو فى يدى سحر وعندى هذه
لجعلت قلبك كل يوم يعشق

لتذوق ما قد ذقت من ألم الهوى
فترق لى مما نراه وتشفق

وفىها توفى الامام العالم العلامة شيخ الاسلام
شمس الدين بن قيم الجوزية وكان له مصنفات
كثيرة فى العلوم الجليلة .

سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة (١٣٥٢ م) :

ففىها جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يبيغا
أروس قد خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ،
وكذلك الأمير بكلمش نائب طرابلس ، وكذلك

دمشق من يبيغا أروس ما لم يجبر عليهم من
عسكر غازان لما أن دخل الى دمشق .

فلما جاءت الأخبار بذلك الى السلطان علق
الجاليش وتجهز للخروج الى دمشق . ثم عين
الأمير عمر شاه — وهو صاحب القنطرة — وعين
محمد بن بكتمر الساقى ، والأمير قمارى الحموى .
بأن يخرجوا الى الصعيد قبل خروج السلطان
لحفظ البلاد من فساد العربان وصون الغلال ،
فخرجوا من يومهم .

ثم ان السلطان خرج من القاهرة قاصدا نحو
البلاد الشامية ، فطلب طلبا عظيما ، وخرج معه
من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير طاز ، والأمير
شيخو العمري ، والأمير صرغتمش ، والأمير
أستدر العمري ، وأخوه الأمير طاز ، والأمير
جردرم ، والأمير قرابغا ، والأمير بنجاص ،
والأمير قجبا السلحدار ، والأمير طشتمر القاسمى ،
والأمير منقر المحدثى ، والأمير قطلوبغا الذهبى ،
وبقية الأمراء المقدمين ، وكان مع السلطان
الطبلخانات والعشراوات نحو ثمانين أميرا .

ثم ان السلطان ترك في القاهرة الأمير قبلاى
نائب السلطنة ، ومعه ثلاثة أمراء لصون المدينة .

ثم خرج السلطان من القاهرة في يوم الثلاثاء
سابع شهر شعبان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ،
وكان صحبته القضاة الأربعة ، والخليفة الامام
أحمد الحاكم بأمر الله ابن المستكفى بالله ابن
الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، وسائر العسكر
قاطبة ، فكان وصول السلطان الى دمشق في شهر
رمضان ، فنزل بالقصر الأبلق الذى فى الميدان ،
وصلى الجمعة فى جامع بنى أمية . وكان الأمير
بييغا أروس لما بلغه وصول الملك الصالح الى
دمشق رحل عنها . ثم ان السلطان طلع الى قلعة
دمشق وأقام بها ، وأمر جماعة من الأمراء

والعسكر بأن يتوجهوا خلف الأمير يبيغا ومن معه
من النواب ، فخرجوا اليهم وتقاتلوا معهم .

فلما كان ثالث شهر شوال جاءت الأخبار من
عند السلطان بأنه قد انتصر على الأمير يبيغا
أروس ، وانكسر يبيغا وهرب الى بلاد التراكمه ،
وقبض على جميع من كان معه من النواب
والعسكر ودخلوا بهم الى دمشق وهم فى جنازير
وقيود ، وكان لهم فى دمشق يوم مشهود لم
يسمع بمثله .

ثم ان السلطان جلس فى القصر الأبلق بالميدان ،
 واجتمع الأمراء عنده فى القصر ، ودخل العسكر
الى الميدان ، ثم أحضروا النواب بين يدي
السلطان فعاتبهم على ما فعلوا ، ثم أمر بتوسيطهم
فوسطوا ستة من الأمراء وهم : الطنبغا برقاق
نائب صفد وهو صاحب الدرب المنسوب اليه ،
والأمير طنبغا الأوجانى المعروف بحلاوة ، والأمير
مهدى الملايى شاد الدواوين بحلب ، والأمير
استبغا التركمانى ، والأمير الطنبغا شاد
الشرنجاناه ، والأمير شادى أخو الأمير أحمد نائب
حماء . ثم أراد أن يوسط الأمير بكتمر السعيدى ،
فشفع فيه الأمراء فحبس بقلعة دمشق .

ثم ان السلطان قصد أن يتوجه نحو الديار
المصرية ، فخرج من الشام — بعد ما عزل من عزل
وولى من ولى — وسار حتى دخل القاهرة فى
أواخر شوال من السنة المذكورة ، فكان يوم
دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له
وحملت على رأسه القبة والظير ، وفرشت له
الشقق الحرير من باب النصر الى القلعة ... وهو
فى غاية العز والنصرة ، والأمراء مشاة بين يديه ،
ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، ونثروا عليه
الذهب والفضة ، وضج له الناس بالدعاء .

وكان محبا للرعية قليل الأذى . فلما استقر

بالقلعة ومضى عليه أيام يسيرة قبض على صاحب
علاء الدين بن زنبور ، وكان قد عظم أمره ونمت
أمواله ، واجتمع فيه من الوظائف السنية ما لم
يجتمع في غيره ، فكان وزيرا وناظر الجيوش
المنصورة وناظر الخواص الشريفة ... فتعاطم
على الناس بقوة البأس .

فلما قبض عليه السلطان ضربه ضربا شديدا ،
وقيده ونفاه الى قوص ، واحتاط على موجوده
من صامت وناطق ، فكان كما قيل في المعنى :
ومباشر السلطان شبه سفينة
في البحر ترجف دائما من خوفه
ان أدخلت من مائه في جوفها
أدخلها ، وماءها ، في جوفه

قال قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة رحمة
الله عليه : « وقفت على قوائم فيها ما ضبط من
موجود صاحب علاء الدين بن زنبور ، وهو :
قماش ملون ما بين صوف وحرير ألفان وستمئة
قطعة . منها مفرى بسمور ووشق ومسندجاب
وقاقوم ألفا قطعة ، جنداب بوجهين ستمئة قطعة .
جبينات خمسة آلاف قطعة . أواني ذهب وفضة
زنتها نحو ستين قنطارا . صناديق ضمنها فصوص
ملون ما بين ياقوت والماس وعين هر وجبات
لؤلؤ كبير وزن ذلك نحو قنطارين وكسور .
صناديق ضمنها لؤلؤ حب ، فاعتبروه بالكيل فكان
نحو أردبين بالمصرى . صناديق ضمنها ذهب عين
جملته ستمئة ألف دينار . حوائص ذهب ستة
آلاف حياصة . كلوات زركش ستة آلاف
كلوته . ووجد له ودائع عند الناس في أماكن
عدتها ستة وثلاثون مكانا ما يعلم ما في الصناديق
التي وجدت بها . ووجد له فضة تقرة محررة
بالكيل فكانت ثلاثين أردبا بالمصرى . حواصل
فيها شاشات ، العدة ثلثمائة ألف شاش . حواصل

فيها بسط رومى وسقاعة من سائر الألوان خمسة
وثلاثون ألف قطعة . أنطاع كبار وصغار ثلاثون
ألف نطع . ومن الخيول والبغال والجمال عشرون
ألف رأس . ووجد له في خيبة تحت سلم سبعمائة
ألف دينار . ووجد له عبيد وجوار سبعمائة
رأس ، ومن المالك الروم خمسون مملوكا ، ومن
الخدام الخصى مائة رأس . ووجد له في حاصل
نحو من ثلاثين ألف قطعة صيني ما بين لازورد
وأخضر وشفاف . ووجد له من النحاس الأصفر
المكفّ والنحاس الأبيض نحو من أربعين ألف
قطعة . ووجد له من الأملاك والضياع والمسقفات
سبعة آلاف مكان قومت بثلثمائة ألف دينار .
ووجد له من المعاصر خمسة وعشرون معصرة ،
وبها من القنود السكر ما لا ينحصر وزنه . ووجد
لأولاده اقطاعات حلقة سبعمائة اقطاع . ووجد له
في حاصل من السروج الذهب والفضة والكبابيش
الزركش والبدرات وعدد الخيل ، قوموا ذلك
بثلاثين ألف دينار . ووجد له مخازن فيها بضائع
وبهار قوموا ذلك بأربعمائة ألف دينار . ووجد
له من المراكب ستمئة مركب . ووجد له من
البساتين والغيظان مائتا بستان . ووجد له من
السواقي في البلاد ألف وأربعمائة ساقية . ووجد
له من الأبقار الحلابة والأغنام السياق ثلثمائة ألف
رأس . ووجد له من الغلال — ما بين قمح
وشعير وفول — ما لا ينحصر كيلاه . ووجد له
ودائع كثيرة عند الناس من قماش ونحاس ومال
وغير ذلك مما لا ينحصر قدره . والذي ضاع له
عند الناس والغلمان ونحو ذلك شيء لا ينحصر .
وكان له أربع نسوة ومائتا سرية ... وهذا الموجود
لم يسمع بمثله ولا عند الخلفاء » .
وآخر الأمر أنهم أخذوا ماله جميعه ونفى الى
قوص ، فأقام بها الى أن مات ودفن بقوص ، ولم

يعلم له مكان قبر ، وزالت الدنيا عنه كما زالت
عن غيره ، كما قيل في الأمثال : « المال كالماء ...
من استكثر منه غرق فيه » .

وقال بعضهم :

خذ القناعة من دنياك وارض بها
واختر لنفسك منها راحة البدن

وانظر لمن قد حوى مما سمعت به
هل ناله غير بعض القطن والكفن

وقال الزمخشري رحمه الله :

وقائلة أرى الأيسام تعطى
لئام الناس من رزق خبيث

وتمنع من له شرف وفضل
فقلت لها خذي أصل الحديث

رأت جل المكاسب من حرام
فجادت بالخبيث على الخبيث

وفي هذه السنة توفي الشيخ الامام العالم
العلامة زين الدين عمر بن المظفر بن الوردى
المعري الكندي ، وكان من أعيان علماء الشافعية
وله مصنفات كثيرة ، منها « كتاب البهجة » وغير
ذلك . وكان فريد عصره ووحيد دهره ، وله نظم
وشر ، رضى الله عنه .

قال الشيخ عماد الدين اسماعيل بن كثير في
تاريخه ان الشيخ زين الدين بن الوردى دخل الى
الشام - وكان ضيق المعيشة ، رث الهيئة ، ردىء
المنظر - فحضر الى مجلس القاضى نجم الدين
ابن صحرى من جملة الشهود ، فاستخفت به
الشهود وأجلوه في طرف المجلس ، فحضر في
ذلك اليوم مبايعة مشترى ملك ، فقال بعض
الشهود : « أعطوا المعري يكتب هذه المبايعة » ...
على سبيل الاستهزاء به . فقال الشيخ زين الدين :
« أكتبه لكم نظما أو نثرا ؟ » ... فتزايد استهزاؤهم

به فقالوا له : « بل اكتب لنا نظما » . فأخذ ورقة
وقلما وكتب فيها هذا النظم اللطيف ، وهو :

باسم اله الخلق هذا ما اشترى

محمد بن يونس بن سنقرا

من مالك بن أحمد بن الأزرق

كلاهما قد عرفا من جلق

فباعه قطعة أرض واقعة

بكورة الغوطة وهى جامع

بشجر مختلف الأجناس

والأرض فى البيع مع الغراس

وذرع هذى الأرض بالذراع

عشرون فى الطول بلا نزاع

وحدها من قبله ملك التقى

وجابر الرومى حيد المشرق

ومن شمال ملك أولاد على

والغرب ملك عامر بن جهيل

وهذه تعرف من قديم

بأنها قطعة بيت الرومى

بيعا صحيحا ماضيا شرعا

ثم شراء قاطعا مرعيا

يشن مبلغه من فضية

وازنة جيدة مبيضة

جارية للناس فى المعاملة

ألقان ، منها النصف ألف كاملة

وسلم الأرض الى من اشترى

فقبض القطعة منه وجسرى

بينهما بالبدن التفريق

طوعا فما لأحد تعلق

ثم ضمان الدرك المشهور

فيه على بائعه المذكور

وأشهدا عليهما بذلك في

رابع عشر رمضان الأشرف

من عام سبعمائة وعشرة

من بعد خمسة تليها الهجرة

والحمد لله وصلى ربي

على النبي وآله والصحب

يشهد بالمضمون من هذا عمر

ابن المظفر المعري اذ حضر

فلما فرغ الشيخ من نظمه ، ووضع الورقة بين

يدين الشهود ، تأملوا هذا النظم مع سرعة

الارتجال ، فقبلوا يده واعتذروا له من التقصير

في حقه ، واعترفوا بفضيلته عليهم .

ثم ان الشيخ قال لبعض الشهود في المجلس :

« سد في هذه الورقة بخطك » فقال له : « ياسيدي

أنا ما أحسن النظم » . فقال له : « ما اسبك ؟ » .

فقال له : « أحمد بن رسول » ، فكتب الشيخ

عنه وهو يقول :

قد حضر العقد الصحيح أحمد

ابن رسول وبذلك يشهد

وتوفي في هذه السنة الشيخ شمس الدين

الذهبي المؤرخ . وتوفي الشيخ أثير الدين أبوحيان

المغربى — وكان مالكي المذهب ، فلما دخل الى

مصر تقلد بمذهب الشافعى رضى الله عنه —

فُسِّلَ عن ذلك فقال : « بحسب البلدة » ... وكان

عالما فاضلا ناظما ناثرا ، وله شعر جيد . ومن شعره

اللطيف قوله :

بدر تم له على الخد خال

في احمرار ينشق منه الشقيق

كتب الحسن بالمحقق معنى

ولكن عذاره تعليق

سنة اربع وخمسين وسبعمائة (١٢٥٣ م) :

فيها توفي الخليفة الامام الحاكم بأمر الله تعالى

أحمد ، ابن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ،

ابن الامام الحاكم بأمر الله أحمد . فلما مات تولى

من بعده ابنه أبو بكر ، وتلقب بالمعتضد بالله .

وكان له مشهد عظيم ، وصلى عليه السلطان

الملك الصالح .

وفيها حضروا برأس الأمير بكتلش نائب

طرابلس ، ورأس الأمير بيغا أروس نائب حلب ،

ورأس الأمير أحمد نائب حماه — وكانوا هربوا

من الملك الصالح لما توجه الى الشام كما تقدم .

فلما هرب أولئك النواب توجهوا الى بلاد

التركيان ، فقطعوا رؤوسهم وأرسلوهم الى

السلطان ، فرسم بأن يعلقوا على باب زويلة ،

فعلقوا عليه ثلاثة أيام .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد

بأن العربان أظهروا الفساد وعصوا ونهبوا جميع

الغلال وقتلوا العمال . وكان كبير العربان شخصا

يسمى ابن الأحذب ، شيخ قبيلة عرك ، فاجتمع

عليه قبائل كثيرة من العربان حتى سدوا الفضاء .

فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت الأحوال وخرج

اليهم السلطان بنفسه وسائر الأمراء قاطبة . وكان

جاليش العسكر الأمير طاز ، والأمير شيخو

العمرى ، والأمير صرغتمش الناصرى . فلما

تقدموا أمام العسكر وقع بينهم وبين العربان واقعة

عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقيل مات من العربان

نحو النصف ، وانكسر شيخهم ابن الأحذب ،

وصار الأمير شيخو تقطع رأس كل من رآه من

الفلاحين يقول دكيك ، حتى بنى من رؤوس العربان

مساطب وموائد على شاطئ البحر . ثم ان الأمراء

مشوا وراء العربان الذين هربوا مسيرة سبعة

أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج . ثم رجع
الأمراء والسultan إلى الديار المصرية ومعهم ألف
رأس من أكابر العربان ، وقد غنموا منهم غنائم
كثيرة من خيول وجمال وأغنام وسيوف ودرق
وغير ذلك .

فلما دخل السلطان إلى القاهرة كان له يوم
مشهود . فلما طلع إلى القلعة رسم بتوسيط
الأسرى من العربان ، فوسطوا نحو سبعمائة
إنسان .

ثم إن السلطان نادى في القاهرة بأن الفلاح
لا يركب فرسا ولا يحمل سلاحا .

ثم إن ابن الأحمد كبير العربان شيخ العرك
الذى قد هرب أرسل يطلب من السلطان الأمان
بأن يقابل ، فأرسل له السلطان أمانا ، فحضر إلى
الأبواب الشريفة ، فخلع عليه السلطان خلعة ،
وأقره على عادته شيخ العركى كما كان ، وتوجه
إلى بلاده . وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

ما هادن السلطان أعداءه إلا لأمر فيه اذلالهم
حتى له تكثر أموالهم ولللبا تكثر أطفالهم
وفي هذه السنة خلع السلطان على الأمير أرغون
الكامل واستقر به نائب حلب عوضا عن بييغا
أروس . فلما توجه الأمير أرغون إلى حلب جرد إلى
قراجا بن ذو الغادر أمير التركمان ، وكان ذنب قراجا
أنه وافق بييغا أروس على العصيان . فلما وصل إليه
الأمير أرغون هرب منه ، فتبعه الأمير أرغون إلى
أطراف بلاد الروم ، فقبض عليه وأرسله إلى
السلطان . فلما حضر إلى القاهرة ومثل بين يدي
السلطان أمر بتسميره ، فسروه على جمل وطاقوا
به مصر والقاهرة ، ثم وسطوه في الرميطة بسوق
الخيول ثم دفنوه .

سنة خمس وخمسين وسبعمائة (١٣٥٤ م) :
فيها توفي القاضي شهاب الدين ابن فضل الله
كاتب السر الشريف بالديار المصرية والبلاد
الشامية . وكان عالما فاضلا ، نازما ناثرا ، وله شعر
جيد . وصنف كتابا في صناعة التوقيع وصار العمل
عليه إلى الآن بين الموقعين ، وبه يقتدون .
ومما وقع للقاضي شهاب الدين هذا أنه رثى
نفسه قبل أن يموت بهذين البيتين ، ووجدنا في
دواته بعد موته :

قلت لأقلامي : اكتبى وانطقى
فقلت الأقلام : واسوأته

وشقت الألسن من حزنها

ولولت ، واسود وجه الدواه

ومن الحوادث في هذه السنة أنه في يوم الاثنين
ثاني شوال وثب جماعة من الأمراء على الملك
الصالح . وكان الأمير طاز قد توجه إلى نحو البحيرة
ليتصيد ، فاغتنم الأمراء هذه الفرصة ، فركب في
ذلك اليوم الأمير شيخو العنرى وجماعة من الأمراء
وهجموا على السلطان الملك الصالح وخلعوه من
الملك وسجنوه بدور الحرم من يومه ، وزال ملكه
كأنه ما كان . فكانت مدة سلطته بالديار المصرية
— إلى أن خلع من السلطنة — ثلاث سنين وثلاثة
أشهر وأربعة عشر يوما . وكان ملكا عظيما دينيا
خيرا حسن السيرة ، ساس الرعية في أيامه أحسن
سياسة ، وكانت الناس عنه راضية ، وكانت أيامه
كلها خيرا وعدلا ، وكان قليل الأذى كثير الخير .
ولما خلع من السلطنة اشتور الأمراء فيمن يولونه
سلطانا فوقع الاتفاق على عود الملك الناصر حسن
ابن محمد بن قلاوون أخى الملك الصالح ، فأخرجوه
من دور الحرم وسلطنوه كما سيأتى ذكر ذلك في
موضعه .

عَوْدُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ حَسَنِ

وهي السلطنة الثانية . فلما خلع الملك الصالح صالح من السلطنة وقع الرأي على عود الملك الناصر حسن ، فأخرجوه من دور الحرم وسلطنوه ، وذلك في يوم الاثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة . فلما جلس على سرير الملك هنأه الشيخ جمال الدين بن نباته بهذه الأبيات وهي قوله :

عد على النصر والسعادة يامن

رفع الله في السلاطين شأنه

أنت سهم الله ما كان يخلى

منه أوطان مصر وهي كنانه

قال الشيخ شهاب الدين بن حجلة التلمساني ان الملك الناصر حسن وافق والده في سبعة أشياء وقعت له :

أولها — أنه وافقه في اللقب ، لأن والده تلقب بالناصر وهو أيضا تلقب بالناصر .

الثاني — أنه ترك الملك وعاد اليه ، ووالده ترك الملك وعاد اليه .

الثالث — أنه جلس على سرير الملك في المرة الأولى في رابع عشر الشهر ، ووالده جلوسه في المرة الأولى كان في رابع عشر الشهر .

الرابع — أنه لما عاد الى الملك جلس على سرير الملك في ثاني شوال ، ووالده كذلك .

الخامس — أنه وزر له متعمم ورب سيف ، ووالده أيضا وزر له متعمم ورب سيف .

السادس — أنه أقام مدة بلا وزير ، ووالده أقام مدة بلا وزير .

السابع — أنه أقامت مصر في أيامه مدة بلا نائب سلطنة ، ووالده أيضا أقامت مصر في أيامه مدة بلا نائب سلطنة .

وهذا من غريب الاتفاق ...

فلما عاد في هذه المرة غاب كالبدر في سحابه ، ورجع كالسيف المسلول من قرابه ، فخضعت له الرقاب ، وضرب بين الظلم وقلعته بسور له باب ، وأنشده الدهر « بغيرك راعيا عبث الذئاب » ...

فلما تم أمره في السلطنة ، عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفي سيف الدين شيخو العمري الناصري ، واستقر به أميراً كبيراً — وهو أول من سمي بأمير كبير — ولبس لها خلعة وصارت من يومئذ وظيفة مستقلة . ثم خلع على المقر السيفي عز الدين أزدمر العمري واستقر به أمير سلاح بالديار المصرية — والأمير أزدمر هذا هو جده والد مؤلف هذا التاريخ ، وكان جده والده لأمه — ثم خلع على الأمير صرغتمش ، واستمر رأس نوبة النواب على عادته ... فصار الأمير شيخو والأمير صرغتمش في دولة الناصر حسن صاحبي الحل والعقد ومدبري المملكة ، وكانت عظمة الاتابكي شيخو في دولة الملك الناصر حسن .

ثم ان الأمير طاز ، الدوادار الكبير ، حضر عقيب ذلك من البحيرة — وقد تقدم أنه توجه للصيد — فلما حضر قبضوا عليه وقيدوه ، وسجنوه بالقلعة هو وأخوه ، فأقام في السجن أياماً . ثم ان بعض الأمراء شفع فيه فأفرج عنه وخلع عليه واستقر به نائب حلب ، فخرج بها من يومه .

وفي هذه السنة خلع على القاضي تقي الدين السبكي ، واستقر به قاضي القضاة الشافعية بدمشق . فلما توجه الى دمشق وخرج من القاهرة قال فيه ابراهيم المعمار :

مصر للسبكي قالت سر فلا عدت اليها
عدت بالرحمن ربي منك ان كنت تقيا
وفيها خلع على القاضي علاء الدين بن فضل الله

العمرى ، واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية على عادته ، وفيه يقول المعمار أيضا :

لابن فضل الله فضل غير الناس ووى
كيف لا وهو على علم السر وأخفى

سنة ست وخمسين وسبعمائة (١٣٥٥ م) :

فيها أنشأ المقر السيفي شيخو جامعا وخانقاه بالصليبية الضولونية ، وأنشأ بها حمامين وربوعا ودكاكين ولما كملت عمارة الخانقاه قرر بها شيخا يحضر في كل يوم من بعد العصر وصوفية يحضرون معه . وكان الشيخ الذي قرره ، شيخ الاسلام الشيخ أكمل الدين الحنفى ، وكان من أكابر علماء العقبة ، وقد خضعت له الناس لفضله وزهده ، وكان بارعا في العلوم ، وفيه يقول ابن أبى حجلة التلسانى :

شيخ تقدم فى المعلوم لأنه

ان عد أرباب الفضائل أول

ما قيل هذا كامل فى ذاته

الا وقلت الشيخ عندى أكمل

ثم ان شيخو أوقف على هذه الخانقاه والجامع أوقافا كثيرة ، وشرط فى وقفه محاسن جميلة ، وجعل النظر على تلك الأوقاف لمن يكون رأس بوية النواب بالديار المصرية ، ولشيخ الخانقاه المشاركة معه فى النظر . وقرر للصوفية الجيز والطعام فى كل يوم ، والحلوى والمعجبة فى كل شهر ، وغير ذلك من الجوامك والمرتبات للصوفية ، وجعل فى الخانقاه تدريسا وقراءة سبع فى كل يوم . قال فى معنى ذلك ابن أبى حجلة :

ومدرسة للعلم فيها مواطن

فشيخو بها فرد وإثاره جمع

لئن بات فيها للقلوب مهابة

فواقفها ليث وأشياخها سبع

سنة سبع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٦ م) :

فيها من الحوادث أن ربعا وقع عند جامع قوصون على ثلاثين نفسا من نساء ورجال ، فمات منهم ثلاثة وعشرون انسانا ، وسلم منهم سبعة ، فقليل ان السبعة الذى سلموا من الردم سافروا فى ذلك الشهر الى نحو بلاد الصعيد فى مركب ، فهبت عليهم ريح شديدة ففرقت بهم المركب ولم يسلم منهم أحد ... فمن لم يمت بالسيف مات بغيره .

وفى هذه السنة ابتدأ السلطان الملك الناصر حسن بعمارة مدرسته التى فى سوق الخيل تجاه القلعة ، وكان مكانها قصر ببيغا الجياوى نائب الشام ، فهدمه وبنى مكانه هذه المدرسة التى لم يعمر مثلها فى الاسلام . وقيل ان ايوانها بنى على قدر ايوان كسرى أنوشروان فى الطول والعرض . وهذه المدرسة تشتمل على أربع مدارس ، لكل شيخ مذهب مدرسة تختص به . وقيل ان بعض الناس كان مسافرا فى البحر المالح فى شهر رمضان فرأى قنديل هلال مئذنة هذه المدرسة من البحر المالح . وقيل ان أخشاب أساقيل العمارة قومت بمائة ألف دينار ... وبالجبل ان بناء مدرسة السلطان حسن دال على أفعاله ، وعلى علو قدر همته بين الملوك المصرية ، وقد قال فيه ابن أبى حجلة :

لسنا ، وان كرمت أوائلنا ،

يوما ، على الأنساب تتكل

نبى كما كانت أوائلنا

تبى ، ونفعل فوق ما فعلوا

ولما كملت عمارة هذه المدرسة كان لها يوم مشهود ، واجتمع بها فى يوم الجمعة القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان الناس ، وملئت الفسقية التى بصحن المدرسة سكرا بماء الليمون ، ووقف رهوس

النواب يفرقون السكر على الناس بالطاسات ،
ونزل السلطان وصلى بها الجمعة ، وخلع على
البنائين والمهندسين الخلع السنية ، وأنعم على
الفعلة لكل واحد عشرة دنانير ، وقال الشيخ
جمال الدين ابن نباتة في المعنى :

امام الوري ، هنت بالجامع الذي

وجدت الى مبناه سمدا موافقا

دعا حسنه أهل الصلاة لقصده

فلا غرو ان جاء المصلى سابقا

وقيل ان السلطان لما حفر أساس هذه المدرسة
وجد في الأرض مالا مدفونا فصرفه على عمارة هذه
المدرسة ، فعمرت من وجه حل . وقيل لما حفروا
أساس هذه المدرسة وجدوا هناك مرساة مركب
قيل كان البحر هناك ...

ومن الحوادث في هذه السنة أن هبت ريح
عاصفة من جهة الغرب حتى أظلم الجو ظلمة
شديدة ، وهدمت الرياح عدة أماكن ، وقلعت
الأشجار من الأرض بعروشها ... وامتد ذلك من
أوائل النهار الى أن طلع الفجر ، فسكن الريح ،
وأمرت السماء ، وأسفر الجو .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من بغداد بأن
القان حسن صاحب بغداد قد توفي الى رحمة الله
نعالي ، وتولى أويس ابنه عوضا عنه .

وفيها توفي الشيخ شهاب الدين بن عقيل ،
والحافظ العلامة مغلطاي .

سنة ثمان وخمسين وسبعمائة (١٣٥٧ م) :

فيها قتل الأتابكي شيخو العمري أمير كبير .
وسبب ذلك أن شخصا من المماليك السلطانية
يسمى قطلوقجاء السلحدار غافل الأتابكي شيخو
وهو في الايوان في يوم الموكب ، فضربه بالسيف
في وجهه ثلاث ضربات ، فوقع الأتابكي الى الأرض

مفشيا عليه . فلما جرى ذلك قام السلطان من
مجلسه وهو مرعوب ، فطلع ممالك الأتابكي
شيخو وصهره الأمير خليل بن قوصون الى القلعة ،
وحملوا الأتابكي شيخو على جنوبه ونزلوا به الى
بيته فوجدوا به بعض رمق ، فخيظوا جراحاته ،
وكان ذلك في يوم الاثنين حادي عشرين شعبان .
فلما بات في تلك الليلة في بيته نزل له السلطان
ثاني يوم يسلم عليه ، فنزل عن فرسه ودخل الى
الأتابكي في المكان الذي كان به ، فلما سلم عليه
السلطان صار يحلف له أن ذلك لم يكن بعلمه ولا
له خبر بما جرى ، ثم ان السلطان أحضر ذلك
الملوك الذي ضرب شيخو وقال له : « هل أغراك
على ذلك أحد من الأمراء ؟ » ، فقال : « لا والله
ما أغرائي أحد على ذلك ، وإنما قدمت للأمير شيخو
قصة بسبب اقطاع ، فأخرج ذلك الاقطاع لشخص
من جماعته ، فتغير خاطري منه ، ففعلت ذلك من
قهرى منه » ... فرسم السلطان بتسمير ذلك
الملوك قتلوا قجاء الذي ضرب شيخو ، فسمروه
وطافوا به في القاهرة ، ثم وسطوه في الرميلة قدام
ممالك شيخو ، وكان عدة ممالك شيخو سبعمائة
ملوك .

ثم ان شيخو استمر ملازم القراش وهو عليل
حتى مات يوم الجمعة سادس عشرين ذي القعدة
سنة ثمان وخمسين وسبعمائة . وقد استمر عيلا في
الفراش ثلاثة أشهر وأياما . وكانت جنازته
مشهودة ، ونزل السلطان وصلى عليه وحضر
دفنه ، ودفن في خانقاه التي في الصليية داخل
القبة ، وطلعوا بجنازته من بيته الذي عند حدره
البقر فصلوا عليه في سبيل المؤمنين ، ورجعوا
بالجنازة من رأس الصليية الى خانقاه التي دخل
بها السلطان قدام نعشة ماشيا حتى دفن ، فكثر
عليه الأسف والحزن من الناس .

واتفق أن في ذلك اليوم زلزلت الأرض زلزلة خفيفة ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا — وذلك في وسط قلب الصيف — فقال بعض الشعراء في هذه الواقعة :

بروحى من أبكى السماء لفقده
بغيت ظننساء نوال يمينه
وما استعبرت الا أسى وتأسفا
والا فإذا القطر في غير حينه ؟

وقد رثاه بعض الشعراء بقوله :

لما أفلت عن المنازل أظلمت
تلك الديار ، وغاب عنها المشفق
وتقول مصر : لفقد شيخو شفى

أرق على أرق ومثلى يارق
وكان شيخو أميرا خيرا دينا ، كثير الخير قليل الأذى ، وله بر ومعروف ولا سيما هذه الخاتمة والجامع الذى فى الصلية ، وما قرر فيهما من وجوه الخير والاحسان .

سنة تسع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٨ م) :

فيها تزايدت عظمة المقر السيفى سيف الدين صرغتمش رأس نوبة النوب ، وصار فى رتبة الأتابكى شيخو ، صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، فأرسل بالقبض على الأمير طاز نائب حلب من غير علم السلطان ، وأرسله من هناك الى السجن بغير الاسكندرية ، فانه كان بينه وبين الأمير طاز حظ نفس من أيام الملك الصالح ، وكان الأتابكى شيخو يرده عن الأمير طاز . فلما مات شيخو قضى منه الأمير صرغتمش أربه . وقيدته ونفاه الى الاسكندرية .

فلما جرى ذلك خلع السلطان على الأمير منجك اليوسفى واستقر به نائب حلب عوضا عن الأمير طاز . ثم ان الأمير صرغتمش أشار بضرب فلوس

جدد : كل فلس بدرهم ، وشىء بدرهمين ، وشىء بشقال ... فثقل أمر ذلك على الناس ، وتضرر منه السوق . وغلت سائر البضائع بسبب ذلك ، ووقف حال الناس . وقد قال بعض الشعراء :

أميرنا أكرم من حاتم
لا يمنع السائل من فلسه

تقضى به حاجة من رامه

فخذ طوعا واخشا من بأسه

ومن الحوادث فى هذه السنة : رفعت قوائمه الى الأمير صرغتمش من ديوان الأعباس فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والديور ، فكان قدر تلك الحصص خمسة وعشرين ألف فدان بيد النصارى . فلما سمع الأمير صرغتمش بذلك حنق وطلع الى القلعة وشاور السلطان على ذلك ، فرسم السلطان بأن يخرج ذلك من يد النصارى ، وكتب بذلك مبيعات ، وأنعم بها على الأمراء زيادة على اقطاعاتهم ، ففرقت عليهم تلك المبيعات الشريفة ، وبطل ما كان بيد النصارى من تلك الرزق .

ثم ان السلطان رسم بهدم الكنائس والديور . وكان فى شبرا كنيسة عظيمة على شاطئ بحر النيل ، وكان بتلك الكنيسة صندوق من الخشب مقفول بقفل من حديد وفى داخله أصبع بعض من هلك من عباد النصارى يسمونه الشهيد ، وكان هذا الأصبع مقيما بتلك الكنيسة دائما ، وكان النصارى يتوارثونه من قديم السنين .. فاذا كان ثامن شهر بشنس من الشهور القبطية أخرجوا ذلك الأصبع من الصندوق وغسلوه فى بحر النيل ، ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الأصبع ويسمونه عيد الشهيد ، ويكون لذلك اليوم عيد ترحل اليه سائر النصارى من جميع القرى ، وتخرج عامة أهل مصر من غنى

وصعلوك ، وينصبون الخيام على شاطئ البحر النيل بشبرا وفي الجزائر ، ولا يبقي مغن ولا مغنية ، ولا رب ملعوب ولا ماجن ولا خليع الا ويجتمع هناك ، فيجتمع عالم لا يحصى عددهم ، وتصرف هناك أموال لا تنحصر ، ويتجاهرون هناك بالمعاصي والفسوق وشرب الخمر ... وربما كان يقتل في ذلك اليوم جماعة من الناس ولا يوجد ما يمنع من ذلك لا من وال ولا من حاجب . وكان أهل مصر يستعدون لذلك اليوم في كل سنة دائما من قديم الزمان ، حتى قيل كان يساع بشبرا في مدة ثلاثة أيام بألف دينار خمر ، وكان فلاحو شبرا لا يغلقون خراج أطيانهم الا بما يبيعونه على الناس في يوم عيد الشهيد . وكان أعيان القبط والمبشرين ، وأعيان الناس من المسلمين والأمراء ، يكرون المراكب حتى ما يبقى في البحر مركب ، ويوقدون فيها الشمع والقناديل في الليل حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب . وكان الناس يعتقدون أن النيل لا يزيد الا بالقاء هذا الأصبع فيه ، فقام الأمير صرغتمش في ابطال ذلك قياما عظيما ، وأرسل الحجاب والأمير علاء الدين بن الكوراني الوالي الى شبرا ومنع الناس من نصب الخيام على شاطئ البحر ، وأشهر النداء هناك بمنع ذلك ، ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة ... وكان ذلك من أجل متفرجات مصر لم يسمح بثله في اللهو والقصف والفرجة .

ثم ان الأمير صرغتمش أمر بهدم تلك الكنيسة فهدموها ، وأحضروا ذلك الصندوق الذي فيه أصبع الشهيد الى ما بين يدي السلطان الملك الناصر حسن . فلما كان يوم الاثنين خامس عشر ربيع الأول جلس السلطان في الميدان الذي تحت القلعة ، وأحضر ذلك الصندوق الذي فيه أصبع الشهيد وأمر بحرقه بحضرة الأمراء ، ورسم بأن

يذروا رماد ذلك الأصبع في بحر النيل ، ففعلوا ذلك . وبطل من يومئذ أمر عيد الشهيد وما كان يحصل فيه من المفاسد العظيمة ، وزاد النيل في تلك السنة زيادة عظيمة لم يسمع بثلها ، وزال من ظن الناس أن النيل لا يزيد الا بالقاء ذلك الأصبع فيه ، وبطلت السيئة في تلك السنة على يد المقر السيفي صرغتمش رأس نوبة النوب وأتابكي العساكر ، وسطر ذلك في صحيفته الى يوم القيامة كما قيل في المعنى :

للخير أهل لاترا لوجوههم تسعى اليه
ملوبى لمن جرت الأمور الصالحات على يديه

سنة ستين وسبعمائة (١٢٥٩ م) :

فيها توفي الأمير تنكزبغا المارديني أحد الأمراء المقدمين ، وكان صهر الملك الناصر حسن . فلما مات أنعم السلطان باقطاعه على مملوكه يلغا العمرى الناصرى ، ثم خلع عليه وجعله أمير مجلس ... وهذا كان أول عظمة الأمير يلغا العمرى .

وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير منجك اليوسفي تسحب حتى خرج من مصر واختفى ولم يعلم له خبر ، فعاقب السلطان جماعته بسبب ذلك ، وجسهم الى أن ظهر الأمير منجك كما مسياتي ذكر ذلك في موضعه .

فلما اختفى الأمير منجك خلع السلطان على الأمير بيدمر الخوارزمي واستقر نائب حلب عوضا عن الأمير منجك . فلما توجه الأمير بيدمر الى حلب جرد الى نحو سيس وحاصر أهلها ، فطلبوا منه الأمان ، فأخذها بالأمان ، وكذلك المصيصة . وفتح في تلك السنة عدة قلاع ، ثم رجع الى حلب .

وفيها ركب السلطان الملك الناصر حسن ، ومر

بالقاهرة وزينت له . فلما وصل الى اليمارسستان
نزل عن فرسه ودخل فزار قبر أبيه قلاون ، ثم
دخل الى الضيعة والمجانين وتفقد أحوالهم ، ثم
ركب وطلع الى القلعة ، وضع له الناس بالدعاء
حتى طلع الى القلعة ، وكان يوما مشهودا .

سنة احدى وستين وسبعمائة (١٣٦٠ م) :

فيها ثقل أمر الأمير صرغتمش على السلطان
وخشى منه ، فأشار بعض الأمراء على السلطان
بأن يقبض عليه من قريب ، وقال له : « ان لم
تبادر وتقبض عليه ، والا قبض هو عليك » ...
فبادر السلطان وقبض عليه ، فكان كما قيل في
المعنى :

وربما فات بعض الناس حاجته

مع التواني وكان الرأي لو عجلا

فلما كان يوم الاثنين حادى عشرى شهر رمضان
من السنة المذكورة قبض السلطان على الأمير
صرغتمش وهو فى الموكب بالايوان . فلما سمع
ماليك صرغتمش بذلك لبسوا آلة الحرب وطلعوا
الى الرملة — وكانوا نحو ثمانمائة مملوك —
ووقفوا فى سوق الخيل ، فوثب عليهم المالك
السلطانية ورموهم بالنشاب ، فتفرقوا وانكسروا .
ثم ان الزعر وجماعة العوام نهبوا بيت
صرغتمش ، ونهبوا سبط خاقلاته التى بالقرب من
حدرة الفيل ، ونهبوا جميع قناديلها وحوائج
الأعجام الصوفية الذين كانوا بها ، ودكاكين
الصليبة صميعة لذلك ، وصاروا يسكون حاشية
صرغتمش وغلمانة ، وينهبون بيوتهم ... واستمر
هذا الأمر من أول النهار الى ما بعد العصر .

فلما كان يوم الثلاثاء صبيحة ذلك اليوم قيدوا
الأمير صرغتمش ، وأرسلوه الى السجن بشعر
الاسكندرية ، وأمسكوا معه جماعة من الأمراء

ممن كانوا من عصيته — وهم الأمير طشتمر
القاسى حاجب الحجاب ، والأمير طقبغا صاووق ،
والأمير جركس الرسولى ، وغير ذلك من الأمراء —
وأرسلوهم الى الاسكندرية .

ثم ان الأمير صرغتمش أقام فى السجن نحو
ثلاثة شهور وأشاعوا فى القاهرة موته . قيل انه
خفق وهو فى السجن . وكان أميرا عظيما مهيبا ،
وكان فى سعة من المال ، وقد أخذ بغتة من حيث
لا يشعر كما قيل فى المعنى :

وان امراً دنياء أكبر همه

لمستمسك منها بحبل غرور

وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير منجك اليوسفى
قد أمسك ، فلما حضر بين يدى السلطان كان
عليه بشت عسلى وعلى رأسه منزر صوف أبيض ،
فوبخه السلطان بالكلام ، ثم عفا عنه ورسم له
بامرة أربعين فى الشام ويكون به طرخانا ، فخلع
عليه وخرج الى الشام من يومه وسافر .

سنة اثنتين وستين وسبعمائة (١٣٦١ م) :

فيها تزايدت عظمة السلطان حسن ، وتناهى
أمره فى العلو ، وكثرت ممالكه ، فأهدى اليه
بعض ملوك اليمن خيمة عظيمة غريبة الشكل ،
بها هيئة قاعة وبها حمام ، وهى منقوشة بصنعة
غريبة ، فتوجه السلطان الى بر الجزيرة ، ونزل
بكموم برا ونصب هناك تلك الخيمة المقدم ذكرها ،
فكان أهل القاهرة يخرجون ويتوجهون الى نحو
كوم برا حتى يتفرجوا على تلك الخيمة ، وفيها
يقول ابن أبى حجلة :

حوت خيمة السلطان كل عجيبة

فأمسيت منها باهتا أتعجب

لسائى بالتقصير فيها مقصر

وان كان فى أطنابها بات يطنب

وقال فيها أيضا عفا الله عنه :

إذا ما خيمة السلطان لاحت

فقل في حسنها نظما ونثرا

وان رفعت ورمت النصب منها

فصف أطنا بها وهلم جرا

ثم ان السلطان طابت له الإقامة هناك ، فأقام نحو ثلاثة شهور — وكان زمن الربيع — وكان بالقاهرة أوخام وموت ، فأقام السلطان هناك حتى تذهب تلك الأوخاب عن المدينة ، فكان هناك في أرغد عيش ، وعنده في كل ليلة مغاني عرب وخيال ظل وحراقة لفظ ... وهو لا يدرى ما خبيء له في الغيب من الحوادث ، فكان كما قيل :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة

وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

فلما أقام السلطان هناك هذه المدة ، وكان بعض الأمراء يرمى بين السلطان وبين الأمير يلغا الفتن ، وكان الأمير يلغا من ممالك السلطان حسن ، فحسنوا للسلطان الفتك به ، فدبت بينه وبين السلطان عقارب الفتن . فلما كانت ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى وهو في الخيام ، أحس الأمير يلغا بذلك فخرج من الخيام ، فلما كبس عليه السلطان لم يجد بالخيام أحدا — وكان الأمير يلغا قد آكمن للسلطان كميناً — فلما رجع خرج عليه ذلك الكمين فوقع مع السلطان واقعة عظيمة ، فقتل من ممالك السلطان جماعة ، وانكسر السلطان وغرق عسكره ، فهرب تحت الليل وعدى من طرا ، وطلع الى القلعة فتبعه الأمير يلغا .

فلما طلع السلطان الى القلعة لم يجد معه من الممالك الا القليل ، ولم يكن معه من الأمراء

سوى الأمير ثمان تمر العمري والأمير أيدير الدوادر الكبير وبعض ممالك صغار ، فلم يجد السلطان للمالك خيولا يركبونها لأن الخيول كانت في الربيع . فلما أسفر النهار حطم الأمير يلغا وطلع الى الرملة وحاصر السلطان وهو في القلعة . فلما رأى السلطان عين الغلبة نزل من القلعة — هو والأمير أيدير الدوادر — ولبسوا زى العرب ، وقصد السلطان بأن يتوجه نحو الشام ليستجد بالأمير ييدر الخوارزمي نائب الشام .

فلما نزل السلطان من القلعة ووصل الى المطرية قبض عليه وعلى الأمير أيدير الدوادر جماعة من العربان وأحضرهما الى الأمير يلغا . فأما الأمير أيدير فقيده ، وأرسلوه الى السجن بشعر الاسكندرية ، وأما السلطان حسن فكان آخر العهد به ... قيل انه خنق ورمى في البحر ولم يعرف له مكان قبر ، ولم يدفن في مدرسته داخل القبة التي بها . وكانت قتلته في ثاني عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعائة . وكان ملكا شجاعا ، بطلا ، مقداما مهيبا ، نافذ الكلمة ، وافر الحرمة ، عالى الهمة . وكان محبا للرعية ، غير أنه كان كثيرا ما يصادر أرباب الوظائف لأجل المال . وكان له من العمر لما مات نحو سبع وعشرين سنة ، وقد دارت لحيته . وكان عربى الوجه ، أشقر اللحية ، أشهل العينين لأن أمه كانت رومية الجنس . وكان نحيف الجسد ، معتدل القامة ، وكان يميل الى اللهو والطرب وشرب الراح ، مولعا بحب الملاح ، لا يمل من شرب الراح وسماع الغناء ليلا ولا نهارا ، حتى قيل فيه :

لما أتى للعاديات وزلزلت

حفظ النساء وما قرا للواقعة

فلجل هذا الملك أضحى لم يكن

وأتى القتال وفصلت بالقارعة

لسو هامل السرحمن فاز بكهفه
وبنصره في عصره للسلطنة

من كانت الأنعام من أحزابه
عظمه به الدخان نار لامعة

أراد الناظم بقوله « عظمه » الإشارة الى من
كان اسمه عظمه ، وأشجار بالدخان الى اسم
مشيب كانا يغنيان بالديار المصرية والبلاد
الشامية ...

وكانت مدة سلطنته عشر سنين ونصفا .
فالسلطنة الأولى ثلاث سنين وتسعة أشهر وأيام ،
والسلطنة الثانية ست سنين وتسعة أشهر وأيام .
ولما مات السلطان حسن خلف من الأولاد
عشرة ذكور ، وهم : سيدي أحمد ، وسيدي
علي ، وسيدي قاسم ، وسيدي اسكندر ،
وسيدي موسى ، وسيدي يحيى ، وسيدي
شعبان ، وسيدي يوسف ، وسيدي اسماعيل ،
وسيدي محمد . وخلف من البنات ستا .

وكان في أيامه من أولاد الناس ثمانية أمراء
مقدمي ألوف ، وهم : عمر بن أرغون النائب ،
واستيف بن بكتمر الأيوبي ، ومحمد بن
المحسني ، ومحمد بن آل ملك نائب السلطنة ،
وموسى بن أرقطاي النائب ، ومحمد بن طرغاي ،
ومحمد بن بهادر آص ، وموسى بن الأزكشي .
وكان من أولاد السلطان حسن ثلاثة أمراء
مقدمين ، وهم : سيدي أحمد ، وسيدي علي ،
وسيدي قاسم .

وكان في أيامه من أولاد الناس أمراء طبلخانات
وعشراوات كثير ، وكان منهم نواب في البلاد
الشامية : بيلدير الخوارزمي نائب الشام ،
والعلائي علي بن قشتمر نائب حلب ، وابن صبيح

نائب صفد . وكان قصد الملك الناصر حسن
إنشاء أولاد الناس في أيامه .

وهو آخر من تولى الملك من أولاد الملك
الناصر محمد بن قلاوون . وكان مجموع من تولى
من أولاد محمد بن قلاوون ثمانية . وكان الناصر
حسن كفوا للسلطنة .

ولما قتل تولى من بعده ابن أخيه المظفر حاجي .
وأما من توفي في أيامه من الأعيان فهم :

الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ابن الملك
الناصر محمد بن قلاوون ، أخو الملك الناصر
حسن . وقد تقدم أنه لما خلع من السلطنة استقر
مقيما بدار الحرم الى أن مات في سنة إحدى
وستين وسبعمئة في دولة أخيه حسن ، ودفن في
تربة عمه الملك الصالح علي بن قلاوون داخل القبة
التي أنشأها بجوار المدرسة الأشرفية التي بطريق
السيدة نفيسة .

وتوفي في أيامه الشيخ بهاء الدين بن عقيل من
أعيان العلماء ، وتوفي الحافظ العلامة مغطاي ،
وتوفي الشيخ أبو امامة من أعيان العلماء ، وتوفي
ابن النقاش من كبار علماء الشافعية ، وغير ذلك
من أعيان العلماء جماعة كثيرة .

وتوفي في أيامه أيضا الشيخ صفى الدين الحلبي
صاحب شرح البيهقي . وكان شاعرا ماهرا ، وله
شعر جيد في ديوان لطيف كله غرر ومحاسن .
ومن لطائف قوله :

من شاء يملك حفظ صحة جسمه
ويغوز طول حياته بدوامها

فليجمل غناؤه من أربع
لايقبل التغير في أقسامها :

من لحم ساعته ، وخبز نصاره
وطعام ليلته ، وقهوة عامها

الملك المنصور محمد

هو الملك المنصور محمد ، ابن الملك المظفر حاجي ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهو الحسادى والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بوع بالسلطنة بعد قتل عمه الملك الناصر حسن في يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمئة ، فتولى الملك وله من العمر أربع وعشرون سنة . وكان القائم في أمور تدبير مملكته المقر السيفى يلغا العبرى ، فاستقر به أتابك العساكر . وكانت عظمة الأمير يلغا في أيام الملك المنصور ، فخلع على المقر السيفى قشتمر المنصورى واستقر به نائب السلطنة ، ثم رسم بالافراج عن كان مسجوناً من الأمراء بغير الاسكندرية — وهم : الأمير طاز الناصرى نائب حلب ، والأمير جركنر الماردىنى ، والأمير قطلوبغا المنصورى ، والأمير طشتمر القاسمى ، والأمير ملكنر المحمدى ، والأمير آقنر عبد الغنى ، والأمير بكنر المؤمنى وهو صاحب سبيل المومنين المصلاة الآن ، والأمير جردمر ، والأمير قرابغا بنخاص — فلما حضروا الى القاهرة وطلعوا الى القلعة ، خلع عليهم وأنعم لهم بتقادم ألوف ، وفرق عليهم الاقطاعات السنية . فلما فعل ذلك وتم أمره فى السلطنة أقام مدة يسيرة وهو نافذ الكلمة وافر العقل ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تركزن الى الدنيا وان كبرت

فصفوها لك مزوج بتكدير

ثم جاءت الأخبار من الشام بأن ييدير الخوارزمى نائب الشام أظهر العصيان ، وخرج

عن الطاعة ، وملك قلعة دمشق ، وقتل نائب القلعة ... وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب .

فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الأحوال ، وعلق السلطان الجاليش ، وأخذ فى أسباب الخروج الى الشام . فلما كان ثانى شعبان من سنة اثنتين وستين وسبعمئة خرج الملك المنصور محمد من القاهرة قاصدا نحو الشام ، وخرج صحبته الأتابكى يلغا العبرى ومائى الأمراء ، فلما وصل السلطان الى الشام أرسل له أمانا ، فلما نزل من القلعة وقابل السلطان قبض عليه الأتابكى يلغا وقيده وأرسله الى الاسكندرية . ثم ان السلطان خلع على الأمير على الماردىنى واستقر به نائب الشام عوضا عن ييدير الخوارزمى ، واستقر بالأمير قطلوبغا الأحمدى نائب حلب ، ثم رجع السلطان والأتابكى يلغا الى القاهرة ، فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له المدينة ، وطلع الى القلعة فى موكب عظيم .

سنة ثلاث وستين وسبعمئة (١٣٦٢ م) :

فيها توفى الامام الخليفة المعتضد بالله أبو بكر ابن المستكفى بالله ، وكانت وفاته فى ليلة الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة . وكانت مدة خلافته نحو عشر سنين . ولما مات عهد بالخلافة الى ولده محمد ، فولاه السلطان وتلقب بالمتوكل على الله .

وفيها تزوج الأتابكى يلغا بخوند طولو — زوجة أستاذ الملك الناصر حسن — وما كفاه أنه قتله ، بل تزوج بامرأته زيادة على ذلك .

سنة اربع وستين وسبعمئة (١٣٦٣ م) :

فيها توفى سيدى حسين ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون . وهو والد الملك الأشرف شعبان ،

وكان الملك المنصور هذا لما خلع من السلطنة
 قنع من الدنيا بأرغد العيش من شرب الخمور
 وساع الزمور ، وكان راضيا بما فيه من ذلك ،
 واستغنى بذلك عن السلطنة كما قيل في المعنى :
 كل الملوك تسلطوا بالملك والسلاح
 وأنا قنعت منه بالراح والملاح

الملك الأشرف أبوالمعالى

هو الملك الأشرف ، أبو المعالى زين الدين
 شعبان ، ابن الأمجد مجد الدين حسين ، ابن الملك
 الناصر محمد بن قلاوون ، وهو الثانى والعشرون
 من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويج
 بالسلطنة فى يوم الثلاثاء خامس شهر شعبان سنة
 أربع وستين وسبعمائة ، وتلقب بالملك الأشرف ،
 ولبس خلعة السلطنة ، وجلس على سرير الملك ،
 ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ،
 وضج له الناس بالدعاء .

وكان له من العمر لما تسلطن نحو اثنتى عشرة
 سنة ، وكان مولده فى سنة أربع وخمسين
 وسبعمائة ، وكان الأشرف شعبان مليح الشكل
 بديع الجمال ، تولى الملك بعد خلع ابن عمه محمد
 المنصور بن المظفر حاجى . وقد تمصب لسلطنته
 الأتابكى يلبغا المعرى ، وفيه يقول بعض الشعراء :

بالمملك الأشرف المفدى

شعبان فزنا بكل فضل

من وطن الكون والرايا

بطى ظلم ونشر عدل

وفيه يقول خلف الغبارى من زجل :

حب قلبى شعبان موفق رشيد

وجمالو أشرق ، ومالو حدود

وأبسوه الحسن ، وعمه الحسن

وارث الملك من جددود الجدود

وهو آخر من توفى من أولاد الملك الناصر محمد
 ابن قلاوون . مات ولم يل السلطنة ، فانه كان
 عنده خفة ووهج وصعفة . فلما قتل السلطان
 حسن لم يوافق الأتابكى يلبغا على سلطنته ،
 واختار محمد ابن الملك المظفر حاجى فولاه كما
 تقدم . وكانت وفاته يوم السبت رابع ربيع الآخر
 من السنة المذكورة .

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الثلاثاء
 رابع شعبان طلع الأتابكى يلبغا الى القلعة وقبض
 على السلطان الملك المنصور محمد ، وخلعه من
 السلطنة ، وأدخله دور الحرم متحفظا به ، وولى
 سيدى شعبان ابن سيدى حسين المقدم ذكر وفاته ،
 فكانت مدة سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك
 المظفر حاجى بالديار المصرية ستين وأربعة أشهر
 لاغير .

واستمر فى دور الحرم مقيما فى غبوق وصباح
 لايفيق من السكر ساعة ، وعنده جوقة جوارى
 مغنيات نحو عشر من الجوارى يدفون بالطارات
 عند الصباح والمساء ، وكانت هذه عادة رؤساء
 مصر تبنى عندهم الجوارى المغنيات ، وآخر من
 كان يفعل ذلك من أعيان مصر الأمير جمال الدين
 محمود الاستادار ، ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل
 من محاسن عيشة الأكابر بالديار المصرية .

ثم ان الملك المنصور أقام على ذلك وهو مختف
 فى دور الحرم الى أن مات فى ليلة السبت تاسع
 المحرم سنة احدى وثمانمائة فى دولة الظاهر
 برقوق ، ومات وله من العمر نحو خمس وخمسين
 سنة ١ ، ودفن فى تربة جدته أم أيه خوند طغلى عند
 الباب المعروق ، وخلف من الأولاد نحو خمسة
 ذكور واثلاث ، واستمرت هذه الجوقة المغنيات
 بعده دائرة فى القاهرة يعرفن بمغالى المنصور .

(١) لا يستقيم هذا مع قول المؤلف ان عمره كثر اربعا وعشرين
 سنة فندميايته عام ٧٨٢ هـ .

سل لحظك صارم لقتل العدا
وانت منصور طول المدى والسنين
زق السعد بين يديك شايش
فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسي على الملكة
وظهر لك نصره بفتح المبين
والعصايب من حولك اشتالت
خفقت في الركوب عليك البنود

فاحكم احكم في مصرنا سلطان
فجميع السلاح لحسنك جنود

فلما تم امر الأشرف شعبان في السلطنة أقصر
الأنابكي ييلغا أميرا كبيرا على عادته ، واستقر
بالأمير قشتمر المنصوري في نيابة السلطنة على
عادته كما كان ، ثم عمل الموكب وجلس على
سرير الملك وخلع على من يذكر من الأمراء ،
وهم : المقر السيفي طنبغا الطويل ، واستقر به
أمير سلاح عوضا عن الأمير أزدر العسرى
الناصرى الشهير بالخازندار جد والد مؤلفه ،
واستقر بالأمير أزدر المذكور نائب طرابلس ،
وخلع على الأمير عشقتمر الماردنى ، واستقر به
أمير مجلس على عادته . وخلع على الأمير أرغون
الشهير بالأسعدى ، واستقر به دوا دارا كبيرا .
وخلع على الأمير أرغون الأرقى ، واستقر به رأس
لوبة النوب . وخلع على الأمير طيغا العلانى ،
واستقر به حاجب الحجاب .

ثم عمل الموكب الثانى وخلع فيه على من يذكر
من الأمراء — وهم أرباب الوظائف — وهم :
المقر السيفي منكلى بغا الشمسى ، واستقر به
نائب الشام . وأرسل المراسيم الشريفة الى قطلوبغا
الأحمدى بأن يكون نائب حلب على عادته .
ثم خلع على الأمير قشتمر المنصوري ، واستقر به

نائب صفد . وخلع على الأمير عمر شاه — وهو
صاحب القنطرة — واستقر به نائب حماه . وخلع
على الأمير عمر بن أرغون النائب ، واستقر به
نائب غزة . ثم فرق الاقطاعات على جماعة من
الممالك وجعل منهم أمراء طبلخانات وأمراء
عشراوات ، ثم أنفق على العسكر وأرضى الجند
بكل ما يمكن ، فاستقام أمره في السلطنة وتعدت
أحكامه .

سنة خمس وستين وسبعمائة (١٣٦٤ م) :

فيها أرسل السلطان بالقبض على قطلوبغا
الأحمدى نائب حلب . وخلع على الأمير
طشقتمر الماردنى ، واستقر به نائب حلب عوضا
عن قطلوبغا الأحمدى . ثم خلع على الأمير خليل
ابن قوصون ، واستقر به أمير مجلس عوضا عن
الأمير طشقتمر الماردنى .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من دمشق بأن
نائب دمشق منكلى بغا الشمسى فتح باب كيسان
الذى بدمشق ، وكان هذا الباب مقفلا من أيام
نور الدين فاقتضى رأى فتح الباب بسبب من
ير من المسافرين ، فجمع النائب القضاة الأربعة
وأعيان دمشق واستشارهم في ذلك فأشاروا
بفتحه ففتح . ثم ان النائب بنى القنطرة عند هذا
الباب فحصل بها منفعة للمسافرين وغيرهم .

وفي هذه السنة رسم السلطان بإبطال الوكلاء
من أبواب القضاة والحكام بالديار المصرية
وبالبلاد الشامية ، فامثلوا ذلك . وقد قال
بدر الدين بن حبيب :

يقول ذا الحق الذى قاله
خصم ألد ولسان كيليل
ان صيروا أمر وكيلى سدى
فحسبى الله ونعم الوكيل

سنة ست وستين وسبعمائة (١٣٦٤ / ٦٥ م) :

فيها توفي الملك الصالح ابن الملك المنصور غازي صاحب ماردین . وكان ملكا عظيما جليلا عادلا في الرعية . وقد أقام في ملكة ماردین نحو أربع وخمسين سنة ، وعاش من العمر إحدى وسبعين سنة . فلما جاءت الأخبار بذلك تأسف السلطان لموته .

وفيها توفي نور الدين الأسعدي الشاعر . وكان شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

دب العذار بخدّه ثم انثنى
فكأنه من وجنتيه مَرَوُحُ

نمل يحاول نقل حبة خاله
فتسه نار الخدود فيرجع

وفي هذه السنة — في ربيع الآخر — أسلم أبو الفرج المقسي القبطي ، وتلقب بشمس الدين ، وقرر في استيفاء الممالك ، وهو من أجداد تاج الدين المقسي ناظر الخواص الشرفية .

سنة سبع وستين وسبعمائة (١٣٦٥ / ٦٦ م) :

فيها رسم السلطان لنائب حلب بأن يأخذ العساكر الحلبية ويتوجه الى حصار قلعة خرت برت من أعمال ديار بكر ، فسار اليها وحاصرها نحو من أربعة أشهر ، فطلب أهلها الأمان ونزلوا طائعين ، فأرسل نائب حلب يعلم السلطان بذلك ، فأرسل اليه السلطان خلعة بأن يستقر بنبابة قلعة خرت برت على عادته ويحلفه أيما عظيما بأنه لا يرجع يخامر ولا يعصى السلطان .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من ثغر اسكندرية بأن صاحب قبرص قد وصل الى ثغر الاسكندرية في سبعين مركبا من المراكب الحربية مشحونة بالمقاتلين ، فطرقوا المدينة يوم الجمعة ثالث عشرى

صفر ، فخرج اليهم نائب الاسكندرية وجماعة من أهل البحيرة فوقعوا معهم واقعة عظيمة ظاهر باب البحر ، فانكسر نائب الاسكندرية وهرب وهرب العربان الذين كانوا معه ، فدخل الفرنج الى المدينة ، ونهبوا أسواقها وبيوتها ، وقتلوا جماعة كثيرة من المسلمين ، وحرقوا باب رشيد .

فلما جاءت الأخبار بذلك الى القاهرة كان السلطان ، هو والأتابكي يلغيا ، في وادي العباسية يتصيدون ، فلما بلغتهم هذه الأخبار رجعوا الى القاهرة ونودي في العسكر قاطبة بأن السلطان يصلى الظهر ويركب فلا يتأخر أحد من الممالك السلطانية . فلما صلى السلطان الظهر ركب وعدى الى بر الجيزة — وكان النيل في قوة الزيادة — فقاسى العسكر مشقة زائدة في التعدية .

ثم ان السلطان سار الى الطرانة ونزل هناك ، وعين الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح ، والأمير خليل بن قوصون أمير مجلس ، والأمير قطلوبغا المنصوري والأمير كوكنداي أخا طنبغا الطويل ، وعين معهم ألف مملوك ، ورسم بأن يتقدموا جاليش العسكر فلما وصلوا الى ثغر الاسكندرية وجدوا الفرنج رحلوا من الثغر وتوجهوا نحو بلادهم بعد ماجرى منهم ماجرى من القتل والنهب وغير ذلك .

فلما بلغ السلطان رجوع الفرنج الى بلادهم رجع الى القاهرة هو والأمراء ، وأرسل مرسوما الى الأمراء الذين تقدموا الى الاسكندرية بأن يقيموا هناك ، ويعمروا ما فسد من المدينة ويطنوا أهل البلد حتى لا يرجع اليهم الفرنج .

ثم ان السلطان خلع على الأمير بكتمر الشريف — أحد مقدمى الألوفا — وجعله نائبا لثغر الاسكندرية . وهو أول من تولى نيابة ثغر

الاسكندرية من الأمراء المقدمين ، وكان قبل ذلك يتولاهم جماعة من الكشاف ومن أولاد الناس ... فظهرت من يومئذ حرمة ثغر الاسكندرية ، وزال عنها أولئك النواب الأصاغر ، فخرج إليها الأمير بكتمر انشريفى فى برك عظيم ، ومماليك كثيرة ، وحرمة وافرة . وقد قال بعض الشعراء فى النائب المنفصل على لسان حال الاسكندرية هذين البيتين :

اسكندرية قالت يا نائبي صن دماكا
لقد تغير ثغرى واحتجت فيه سواكا
وقال الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة
يرثى ثغر الاسكندرية فيما جرى عليه من الفرنج فى هذه الواقعة :

ألا فى سبيل الله ما حل بالثغر
على فرقة الاسلام من عصبة الكفر

أتاها من الافرنج سبعون مركبا
وضاقت بها العربان فى البر والبحر
وصير منها أزرق البحر أسودا

بنو الأصفر الباغون بالببيض والسر
أتوا نحوها هجما على حين غفلة
وباعهم فى الحسب يقصر عن فتر

فكم من فقير عاش فيها من الغنى
وكم من غنى مات فيها من الفقر

نشرت دموعى يوم فرط نظامهم
فياليت شعرى من يبلغهم ثرى

ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح خرج نحو وادى العباسية على سبيل التنزه ، فأقام هناك أياما يتصيد ، فأرسل اليه الأتابكى يلبغا خلعة مع جماعة من الأمراء ومرسوما سلطانيا بأن يستقر نائب الشام ويتوجه من هناك . فلما أوصل اليه ذلك الأمراء — وهم الأمير

أرغون الأسعدى الدوادار ، والأمير طنبغا العلاءى حاجب الحجاب ، والأمير أرغون الأرقى رأس نوبة النوب ، والأمير أروس المحمودى استادار العالية — تحدثوا معه فى أمر نيابة الشام ، فأبى الأمير طنبغا الطويل لبس الخلعة وأظهر العصيان ، والتف عليه أولئك الأمراء الذين توجهوا اليه ، ووافقوه على العصيان ، وتوجهوا الى القاهرة ليتفقوا مع الأتابكى يلبغا . فلما وصلوا الى خاتماه سراقوس ، بلغ الأتابكى يلبغا ذلك فطلع الى القلعة ، وأركب الملك الأشرف شعبان ونزل به من القلعة ، ووقفوا تحت القلعة ودقت الكنوسات حريبا ، ولادوا فى القاهرة : « من أطاع الله والسلطان يركب ويحجى » تحت الصنجق السلطاني « ... فركب العسكر قاطبة وطلعوا الى الرميطة ، فوقف السلطان ساعة حتى تكامل العسكر ، ومشى تحت الصنجق السلطاني وتوجه الى نحو قبة النصر فوقف هناك ، وذلك فى يوم السبت سابع ربيع الأول من السنة المذكورة .

هذا ما كان من أمر السلطان والأتابكى يلبغا . وأما ما كان من أمر الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح والأمراء الذين معه ، فانهم ركبوا من العباسية واستمروا سائقين طول الليل حتى وصلوا الى المطرية ... فتعبت خيولهم ، وتشتت غلمانهم ، فتلاقوا مع عسكر السلطان على قبة النصر ، وكان بينهما هناك واقعة عظيمة ، فانكسر الأتابكى يلبغا وولى مدبرا . وكان الأتابكى يلبغا قد أكن كميناً من العسكر عند فم وادى السدرة . فلما ولى الأمير يلبغا مهزوما خرج ذلك الكمين من وادى السدرة على الأمير طنبغا الطويل ومن معه فانكسروا كسرة عظيمة ، وقبض على الأمير أرغون الأسعدى الدوادار والأمير أروس المحمودى الاستادار ، والأمير كوكندى أخى طنبغا الطويل ،

وجماعة كثيرة ممن كانوا معهم من الأمراء . ثم قبض على الأمير طنبغا في أثناء ذلك اليوم من تربة في باب القرافة . فلما تكامل الأمراء قيدهم الأتابكي يلبغا في تلك الليلة وأرسلهم تحت الليل الى السجن بغير مدنة الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على جماعة كثيرة من الأمراء عوضا عن قبض عليهم ممن تقدم ذكرهم كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

وفيها توفي الملك المجاهد سيف على صاحب بلاد اليمن ، وتولى من بعده ابنه عباس وتلقب بالملك الأفضل .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة الأمير جبار بن مهنا أمير آل فضل من عربان الشام ، فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه واستقر به على عادته ... وكان له مدة طويلة وهو عاص فلم يؤاخذه السلطان وحلم عليه .

سنة ثمان وستين وسبعمائة (١٢٦٦/٦٧ م) :

فيها فرق السلطان اقطاعات الأمراء الذين كانوا قد ركبوا مع الأمير طنبغا الطويل فنفاهم وأخرج اقطاعاتهم على الأمراء الطبلخانات والعشراوات . وفيها أرسل المقر السيفى منكلى بغا نائب الشام يسأل السلطان في الحضور الى مصر زائرا ليرى وجه السلطان . فلما حضر الى القاهرة أحضر صحبته تقادم كثيرة للسلطان حتى للأمراء والأتابكي يلبغا ، فأكرمه السلطان غاية الاكرام ، وخلع عليه واستقر به نائب حلب ، وجعل حلب أكبر من الشام كما كانت على القاعدة القديمة ، وعين معه عسكرا يقيمون بحلب عنده .

ثم ان السلطان خلع على الأمير أقتمر عبد الغنى واستقر به نائب الشام عوضا عن منكلى بغا .

ومن الحوادث في هذه السنة أن الأتابكي يلبغا رسم بعمارة مراكب أغربة بسبب تجريدة تتوجه الى بلاد الفرج ، فان جماعة من الفرنج صاروا يعشون في البحر ويقطعون الطريق على التجار ، فعين لهم السلطان تجريدة ، وأنشأ مائة غراب ، ورسم للأمير طنبغا العلاني بأن يكون شادا على عمارة هذه الأغربة ، فأنشأ عمارتها في الجزيرة الوسطانية ، فلما كملت عمارتها نزل السلطان والأتابكي يلبغا الى الجزيرة الوسطى يتفرجان على القائما في البحر ، فكان يوم نزول السلطان يوما مشهودا . فألقوا الأغربة قدامه في البحر والطبل عمال والنفط ، وزينت الأغربة بالصناجق والسلاح ، ولعبوا بها في البحر ذهابا وإيابا والسلطان ينظر الى ذلك .

فلما انقضى ذلك اليوم عدى السلطان من هناك الى بر الجزيرة وصحبته الأتابكي يلبغا ، فتوجه الى نحو الطرانة فأقام بها أياما وهو في أرغد عيش . فبينما هو على ذلك اذ وثب ممالك الأتابكي يلبغا عليه هناك .

وسبب ذلك أن الأتابكي يلبغا ضرب بعض ممالكه هناك بالمقارع وقطع أنفه ، فتعصب عليه جماعة من خشداشينه ووثبوا على أستاذهم .

فلما كانت ليلة الأربعاء سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وستين وسبعمائة ، ركب ممالك يلبغا وكبسوا عليه وهو في الخيام ، فهرب تحت الليل وهو في زى فلاح ، فعدى من بولاق التكرور وطلع الى الجزيرة الوسطى ، ثم توجه الى بيته الذى في الكبش . فلما طلع النهار طلب الأمراء الذين كانوا بالقاهرة ، ولبسوا آلة الحرب ، وتوجه الى الجزيرة ونادى أن لا أحد من النواتية يعدى

بأحد من المماليك الى بر مصر ، ومنع المراكب من التعدية ، وجعل الأمراء الذين معه كل واحد في مكان ... فأقام جماعة منهم في بولاق ، وجماعة في مصر العتيقة ، وجماعة في دير الطين . وكان معه من الأمراء الأمير طنبغا الملائي حاجب الحجاب ، وكان معه استاداره والأمير أينبك البدرى وكان أمير أخوره ، والأمير أقبغا جركس وكان دواداره . واجتمع عنده جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات والمماليك السلطانية .

هذا ما كان من الأتابكى يلبغا .

وأما ما كان من أمر ممالك يلبغا فانهم لما علموا بهروب أستاذهم جاءوا الى السلطان الملك الأشرف شعبان وقالوا له : « قم واركب معنا » ... فأبى السلطان ذلك . فقالوا له : « ان لم تتركب معنا والا تقتلك » ... فقام وركب معهم ، وجاء الى بر انبابة فلم يجد مركبا يعدى فيه ، فأقام في بر انبابة يوم الأربعاء ويوم الخميس .

ثم ان الأتابكى يلبغا طلع الى القلعة ، وطلب سيدي أنوك — أخا السلطان الأشرف شعبان — وأخرجه من دور الحرم بالغصب ، وأجلسه على سرير الملك ، وقبلوا الأرض أمامه ولقبوه بالملك المنصور ، ونودى باسمه في القاهرة .

فلما كان الجمعة ركب الأتابكى يلبغا وركب سيدي أنوك الذى تسلمن معه ، وجمع العسكر ... فعصار الملك الأشرف شعبان في بر انبابة والأتابكى يلبغا في الجزيرة الوسطى وهما يتراميان بالثشاب والمكاحل النفط حتى حال بينهما الليل .

ثم ان الملك الأشرف شعبان طلب شخصا من التواتية يسمى محمد لبطة — وكان رئيسا على المراكب في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون — فقال له السلطان : « فصدى أن نعدنى الى ذلك

البر » فقال له : « نعم أنا عدى بك » . ثم انه أحضر ثلاثين غرابا من الأغربة التى كانت عمرت بسبب التجريفة ، فكسروا بروقها وعمروها بالمقاديف ، وعدى بالسلطان والعسكر من الوراق وهم راكبون خيولهم ، فطلعوا من جزيرة الفيل ، وذلك في يوم السبت .

فلما طلع السلطان من جزيرة الفيل ، توجه على خليج الزعفران وخسرج من بين الترب وطلع الى القلعة ، فتسامعت به الناس والعسكر ، فصاروا يتسحبون من عند الأتابكى يلبغا ويطلعون الى السلطان في القلعة ، فلم يبق عند الأتابكى الا القليل من العسكر ، فرجع الأتابكى يلبغا من الجزيرة ، وطلع الى الرميلة بمن بقى معه من العسكر ، فوقف بسوق الخيل ساعة فلم يجرى اليه أحد من العسكر ، فتلاشى أمره وولى سعده وبدأ عكسه .

فلما رأى اذار نفسه نزل عن فرسه وصلى ركعتين في وسط الرميلة قدام باب الميدان ، ثم حل سيفه وأعطاه للأمير طنبغا حاجب الحجاب ، ثم ركب فرسه وتوجه الى بيته الذى في الكيش ، فرجعه العوام وسبوه سبا فاحشا لأنه كان يبغض العوام ويسلط ممالكه عليهم ، فما وصل الى بيته الا بعد جهد كبير ، فأقام في بيته ذلك اليوم ، وأرسل اليه السلطان بعض الأمراء وقت المغرب فأخذه وطلع به الى القلعة هو والأمير طنبغا ، فسجنوه بها الى ما بعد العصر ، فهجمت ممالك يلبغا عليه ، وأخرجوه من السجن ونزلوا به من باب المدرج وهو ماش مشحط بينهم . فلما وصلوا به الى رأس الصوة عند الحوض تقدم اليه مملوك من ممالكه يقال له قرانتر وضربه بالسيف فرمى رأسه عن جثته ، وأخذ بقية ممالكه الرأس

ووضعوها في مشعل ، ونزلوا بها من الصليبة ،
وتوجهوا بها الى بيته الذي في الكبش .

فلما منع النهار أحضروا الرأس بين يدي السلطان
— وكان الأتابكي يلغا له خلف أذنه سلعة — فلما
رأوا ذلك لم يشكوا في قتله ، ثم صار جسده
مرميا في الصوة على الأرض والناس ينظرون اليه ،
حتى أخذ رأسه وجثته الأمير طشتمر الدوادار
ودفنه في تربة عند الباب المحروق ومضى أمره ،
فكانت قتلته في ليلة الأحد تاسع ربيع الآخر سنة
ثمان وستين وسبعمائة ، وفيه قال بعض الشعراء :

أتاك على بديك الموت لما

ظهرت بما نهاك الشرع عنه

فلا تعتب سواك على الذي قد

بليت به فدود الخل منه

وقال آخر :

بدا شقا يلغا وعدت

عداه في سفنه اليه

والكبش لم يفده وأضحت

تنوح غريباؤه عليه

وقال آخر :

حواشي يلغا كانوا زناة

فلا تعجب اذا رجما جهارا

ولا عجب اذا سكروا بحرب

فأهل الكبش ما برحوا سكارى

وكان الأتابكي يلغا أميرا عظيما جليل القدر ،
في سعة من المال ، وافر الحرمة ، نافذ الكلمة .
وكان في دولة الملك الأشرف شعبان صاحب الحل
والعقد بالديار المصرية ، والسلطان معه مثل اللوب
يديره كيف شاء . وقد تزايدت عظمته في تلك
الأيام حتى بلغت ممالكه ما يزيد عن ثلاثة آلاف
مملوك . وكان من ممالكه أربعة مقدمو ألوف غير

العشراوات . وكان راتب سماطه ضريبة كل صحن
عشرة أرطال لحم ضاني ، فيقال صحن يلغاوى ،
واليه تنسب الطرز العراض اليلغاوية الى الآن ،
وأشياء كثيرة منسوبة اليه في آلة الحرب الى
الآن ... لكنه كان سيء الخلق ، سفاكا للدماء ،
قتل جماعة كثيرة من الأمراء ومن ممالكه من غير
ذنب ، ولا سيما قتله لأستاده السلطان حسن .
وقيل انه غضب يوما على « مثقال » مقدم الممالك
فضربه ستمائة عصا وسط القصر الكبير . وكان
من سيئاته جور ممالكه على الناس بالأذى ، لكنه
رأى في مبتدأ أمره من العز والعظمة ونفاذ الكلمة
ما لا يراه غيره من الأمراء قبله ولا بعده ، وكان
كما قيل :

خذ من زمانك ما أعطاك مغتتما

وأنت ناه لهذا الدهر أمره

فالعمر كالكأس تستجلى أوائله

لكنه ربما مجت أوآخره

قيل كان الأتابكي يلغا اذا طلع الى القلعة تركب
ممالكه ويصطفون من بيته الذي في الكبش الى
باب المدرج ويشق هو بينهم حتى يطلع الى القلعة ،
وكانت ممالكه نحو ثلاثة آلاف مملوك . وقيل
ان الوزير « قروينه » كان يحمل الى يلغا في كل
يوم ألف دينار برسم سماطه .

ولما قتل يلغا اضطربت أحوال القاهرة ، فطلع
الأمراء الى القلعة وقبضوا على الأمراء ممن كان
من عصابة الأتابكي يلغا — وهم الأمير قرايغا
البدري ، والأمير يعقوب شاه ، والأمير طيغا العلائي
حاجب الحجاب ، وغير ذلك من الأمراء الطليخانات
والعشراوات — فقيدوهم وأرسلوهم الى السجن
بشفر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على من يذكر
من الأمراء وهم : المقر السيفى أستدمر الناصري

واستقر به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا العمري ،
 وخلع على المقر السيفي قنطرة المنصوري واستقر
 به حاجب الحجاب عوضا عن طيغا العلاني ، وخلع
 على المقر السيفي أيدير الشامي واستقر به دوادارا
 كبيرا وأضاف إليه نظر الأحباس مع الدوادارية ،
 فكان أول من تكلم في نظر الأحباس من الدوادارية.
 وفيها قبض السلطان على صاحب فخر الدين
 ابن قروينه وسلمه الى الأمير قراغا الصرغتمشي ،
 فلا زال يعاقبه حتى مات تحت الضرب . قيل انه
 أحرق أصابعه بالنار وأحمى له خوذة في النار
 وألبسها له حتى مات .

ولما كان يوم الخميس سادس عشر رجب من
 سنة ثمان وستين وسبعمائة (١٣٦٦/٦٧ م) ، ثارت
 فتنة بين الأمراء فلبسوا آلة الحرب وطلعوا الى
 الرملة ، فنزل اليهم جماعة من المماليك السلطانية
 والتقوا معهم فكسروهم ومسكوا منهم جماعة من
 الأمراء ، منهم الأمير قراغا الصرغتمشي ، والأمير
 برمش العلاني ، والأمير أيوبك البدرى ، والأمير
 ايسان الرجبي ، والأمير قراغا العزى ، والأمير
 مقبل الرومى . فلما قبضوا عليهم طلعوا بهم الى
 القلعة فرسم السلطان بتقييدهم وارسالهم الى
 السجن بشعر الاسكندرية .

فلما جرى ذلك عز على بقية الأمراء فركبوا
 أجمعين ، وثار فتنة عظيمة ، ولبسوا آلة الحرب
 وطلعوا الى الرملة ، فنزل السلطان الى الحراقة ،
 ودقت الكنوسات حريبا ، وأرسل السلطان يقول
 للأمراء : « ايش سبب هذه الفتنة ؟ » فقالوا :
 « سلمونا الأمير أستدر أمير كبير » ... وكان
 أستدر هذا لما قتل يلبغا استقر عوضه أميرا كبيرا
 وسكن في بيته الذى فى الكيش ، والتف عليه
 جماعة من ممالك يلبغا ، ومشى على نظام يلبغا
 فى الحرمة والشهامة .

فلما أرسل الأمراء الذين قد ركبوا يقولون
 للسلطان : « أنت أستاذنا ، وما نموت الا تحت
 أقدامك . ولكن سلموا لنا أستدر ، فانه هو الذى
 يرمى الفتن بيننا وبين السلطان » ... فلما سمع
 الأمير ذلك نزل هو وجماعة من الأمراء الذين كانوا
 فى القلعة عند السلطان والمماليك السلطانية من باب
 الدرفيل ، وجاءوا من وراء القلعة ، وطلعوا من
 رأس الصوة ، فلم يشعر الأمراء الذين فى سوق
 الخيل الا وقد دهاهم الأتابكى أستدر هو ومن
 معه من العسكر ، واجتمع معه الجم الغفير من الزعر
 والعوام ، وبأيديهم المقاليع بالحجارة . فلما رأى
 الأمراء الذين فى سوق الخيل ذلك هربوا أجمعين
 ولم يثبت منهم أحد ، ودخل فى قلوبهم الرعب
 فانهزموا من سوق الخيل ، ولم يثبت من الأمراء
 غير الأمير الجاى اليوسفى والأمير أرغون شاه تتر ،
 فوقعوا مع الأتابكى أستدر ومن معه من ممالك
 يلبغا واقعة عظيمة كانت من أول النهار الى ما بعد
 الظهر ، فلم يطلع اليهم أحد من الأمراء ، ولا
 ساعدهم . فأنكسر الأمير الجاى ، والأمير أرغون
 شاه تتر وهربا ، وانتصر عليهم الأتابكى أستدر
 ومن معه من ممالك يلبغا .

ثم ان الأتابكى أستدر كبس على الأمراء الذين
 أنكسروا وقبض عليهم من بيوتهم — وهم : الأمير
 چركس أمير سلاح ، والأمير أيدير الشامى
 الدوادار ، والأمير الجاى اليوسفى ، والأمير
 قطلوبغا ، والأمير أرغون شاه تتر ، والأمير طيغتمش
 النظامى ، والأمير قجماس الطازى ، والأمير أقطاي
 اليلغاوى ، والأمير اقبغا الأحمدى ، وغير ذلك
 جماعة كثيرة من الأمراء الطيلخانات والعشراوات —
 فقيدهم الأمراء المقدمين وأرسلهم الى السجن بشعر
 الاسكندرية ... فكان عدة من قبض عليه من
 الأمراء المقدمين فى هذه الحركة ثمانية أمراء ، ومن

الأمراء الطبلخانات وغير ذلك من العشروات نحو أحد عشر أميرا .

ثم ان بعض الأمراء قال للأتابكى أستدر : « اقبض على السلطان وتسلطن أنت » ... فأبى من ذلك وأبقى السلطان على حاله . فلما راقى مدة الفتنة عمل السلطان الموكب وخلع علي من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى ، والطنبغا المنجكى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى والطنبغا اليلبغاوى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على المقر السيفى بيرم الغزى قطقطاى واستقر به دودارا كبيرا عوضا عن أيدير الشامى ، وخلع على المقر السيفى سلطان شاه واستقر به حاجب الحجاب ، وخلع على الأمير قطلقتمر العلائى واستقر به أمير جاندار .

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى أزدمر العمرى الناصرى الشهير بالخازندار — وهو جد مؤلفه كما تقدم — وكان السلطان قلعه من نيابة طرابلس الى نيابة حلب ثم أرسل خلفه ، فلما حضر الى القاهرة خلع عليه واستقر به أمير سلاح عوضا عن الأمير قطلوبغا جركس . وكان الأمير أزدمر هذا تولى أمير سلاح أيضا فى دولة الملك الناصر حسن فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة بعد قتلة الأتابكى شيخو العمرى . وكان شيخو وأزدمر خشداشين من فرد تاجر . فلما كانت دولة الملك الأشرف شعبان أحضر الأمير أزدمر وأعاده كما كان . ثم ان السلطان أنعم على جماعة حاشيته بأمريات طبلخانات وأمريات عشراوات ، واستقام أمر السلطان فى هذه الحركة وزال عنه جماعة من الأمراء المتمردين الذين كان يخشى هو منهم .

وفى هذه السنة — وهى سنة ثمان وستين وسبعمائة — كانت وفاة العلامة الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن حسين بن حسن بن

صالح بن على بن نباة الفارقى المصرى الجدامى تغمده الله برحمته . وكان من فحول المولدين وله شعر جيد فاق به على من تقدمه من الشعراء . وكان مولده فى سنة ست وثمانين وستمائة . وكان منشؤه بنشئة المهرانى بزفاق القناديل ، وكانت مدة حياته اثنتين وثمانين سنة ، وتوفى فى سنة ثمان وستين وسبعمائة كما تقدم . وما وقع للشيخ جمال الدين هذا أنه كان يخترع المعنى الغريب فى شعره الذى لم يسبق اليه ، فيعارضه فيه صلاح الدين الصفدى ويأخذه عنه وزنا وقافية وينسبه الى نفسه ، كما قيل فى المعنى :

وفتى بقول الشعر الا أنه

فيما علمنا يسرق المروقا

قال الشيخ جمال الدين : « فلما طال على الأمر فى ذلك ، جمعت كتابا فيما قلته وسرقه منى ونسبه الى نفسه ، وسميت هذا الكتاب « خبز الشعير » ، لأنه مأكول مذموم ... فمن جلسة ذلك انى قلت فى هذا المعنى :

بروحى عاطر الأنفاس الملى

ملى الحسن حالى الوجنتين

له خالان فى دينار خد

تباع له القلوب بحبتين

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى وقال :

بروحى خده المحمر أضحت

عليه شامة شرط المحبة

كأن الحسن يعشقه قديما

فنقطبه بدینار وجبة

قال الشيخ جمال الدين : « فلما وقفت على هذا المعنى قلت : لا اله الا الله ... سرق الشيخ صلاح الدين الصفدى — كما يقال — من الحبطين حبة » .

سنة تسع وستين وسبعمائة (١٣٦٧/٦٨ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن الفرنج جاءوا الى قلعة اياس وحاصروها ، فخرج اليهم الأمير منكلى بغا الشمسى نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة اياس ثم قصدوا نحو طرابلس ، وكانوا ثلاثة ملوك — وهم : صاحب قبرص ، وصاحب رودس ، وصاحب الاستبار — فجاءوا فى مائتى مركب حربية ، فلما جاءوا الى طرابلس كان النائب غائبا عن المدينة ، فطسع الفرنج فى أخذ المدينة . ثم خرج اليهم بعض عسكر طرابلس ، فوقعوا معهم ، فأنكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج الى المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة مسلمين نحو ألفى انسان . فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاءوا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم ، فأنكسرت ملوك الافرنج كسرة قوية ، ورحلوا عن ساحل طرابلس .

فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى ، اضطرب السلطان من ذلك والأمراء ، وقصدوا أن يعينوا لهم تجريدة ... وكان فى تلك السنة بالقاهرة فناء عظيم حتى كان يخرج من أبواب القاهرة فى كل يوم اثنا عشر ألف جنازة ، وكان أكثر عمله فى الأطفال والغرباء . وقد قيل فى المعنى :

وما الدهسر أهل أن تؤمل عنده

حياة ، وأن نشتا في فيه الى النسل

وقال آخر :

لحن بنو الموت فما بالنسا

لعماف ما لا يد من شربه

تبخل أيدينا بأرواحنا

على زمان من كسبه

سنة سبعين وسبعمائة (١٣٦٨/٦٩ م) :

فى يوم الجمعة سادس صفر ، بعد صلاة الجمعة ، ركب جماعة من ممالك يلبغا ودخلوا الى بيت

الأتابكى ، فقال لهم : « ايش قصدكم ؟ » ... فقالوا : « قصدنا نمسك خمسة من الأمراء ، وهم الأمير أزدمر أمير سلاح المعروف بالخاندار ، والأمير بريم العزى الدوادر ، والأمير جركتسر المنجكى أمير مجلس ، والأمير يلبغا القوصونى أمير أخور كبير ، والأمير كبك الصرغتمشى الجوكندار » ... فركب معهم الأتابكى أستدر ومسك هؤلاء الأمراء من بيوتهم .

فأما الأمير أزدمر أمير سلاح فانه قيد وأرسل الى قلعة الصيية فسجن بها . وأما بقية الأمراء فقيدوا وأرسلوا الى السجن بشغر الاسكندرية .

ثم ان الأتابكى أستدر الناصرى قصد القبض على السلطان ، فتعصب له جماعة من الأمراء ، فطلعوا الى القلعة ، ونزل السلطان الى الأسطبل ، وجلس بالمقعد المطل على الرملة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكثومات حربيا ، فطلع اليه غالب العسكر ، فاجتمع تحته فى الرملة الجهم الغفير من الزعر والعوام وبأيديهم المقاليع والحجارة ... وكل هذا بغض فى الممالك الذين قد التفوا على الأتابكى أستدر ، وكانو ممالك يلبغا ، وقد جاروا على الناس وصاروا يهجمون على النساء فى الحمامات ، ويخطفون قماش الناس من الأسواق ، فتغيرت منهم القلوب وأبغضهم الناس قاطبة .

فلما ركب الأتابكى أستدر وممالك يلبغا ، توجهوا من وراء القلعة كما فعلوا تلك المرة . فلما زحفوا وأقبلوا من عند الصوة لاقتهم الزعر والعوام بالحجارة والمقاليع ، فألقى الله تعالى الرعب فى قلوب الممالك ومن كان معهم من الأمراء ، فأنكسر ممالك يلبغا أنجس كسرة ، وهرب الأتابكى أستدر من رأس الصوة ، وكان يظن أنه ينتصر

كما وقع له تلك المرة ، فكان كما قيل في المعنى :
أتطمع أن يبقى السرور لأهله

وهذا محال أن يدوم سرور

وتتقضى الليالي باجتماع وفرقة

ويحدث من بعد الأمور أمور

فلم يكن الا ساعة يسيرة وقد أمسك الأتابكي
أستدمر وجماعة معه من الأمراء ممن كان من
عصبته ، وقد أمسكوا من بين الترب ، فصار
العوام يقبضون على كل من يروونه من ممالك
يلبغا ويعروونه ويقتلونه شر قتلة ، واستمروا على
ذلك الى آخر النهار .

فلما أمسك الأتابكي أستدمر ومن معه من
الأمراء مثلوا بين يدي السلطان ، فأراد أن يقيد
الأتابكي أستدمر ، ويرسله الى السجن بشعر
دمياط ، فشفع فيه الأمراء وعرفوا السلطان بأن
الأتابكي أستدمر مع ممالك يلبغا تحت الضنك ،
ولا يقدر على ردهم ، فرسم السلطان للأتابكي
أستدمر أن ينزل الى بيته ، وأرسل معه الأمير
خليل بن قوصون — وكان الأمير خليل بن
قوصون ابن عم السلطان الملك الأشرف شعبان —
فلما نزل الأمير خليل مع الأتابكي أستدمر الى
بيته ، اتفق معه على العصيان ، وتحالفا على ذلك .
فتسامع بهم بقية الأمراء والممالك الذين كانوا
قد اختفوا فجاءوا تحت الليل الى الأتابكي أستدمر
حتى ضاق بهم المكان من الازدحام لكثرتهم .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر صفر من سنة
سبعين وسبعمائة ، ركب الأتابكي أستدمر والأمير
خليل بن قوصون وجماعة من الأمراء الذين من
عصبة الأتابكي أستدمر ، فطلعوا الى الرملة ووقفوا
بسوق الخيل ، فنزل السلطان الى المقعد المظل
على الرملة وعلق الصنجق ، ودقت الكنوسات
حريرا ، فحصل في ذلك اليوم واقعة عظيمة بين

الفرقتين ، وظن السلطان أنه مأخوذ لا محالة ،
فكان كما قيل في المعنى :

ولا ترج الا الله في كل حالة

ولا تعتمد يوما على غير فضله

فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى

وخيرته فيها على رغم أنفه

فلم تكن الا ساعة يسيرة ، وكسر الأتابكي
أستدمر والأمير خليل بن قوصون وبقية الأمراء
الذين ركبوا مع أستدمر ، فنهب العوام بيوتهم ،
وصاروا يمسكون ممالك يلبغا من الاصطبلات
ويودعونهم في الحبوس ، ثم قيدوا الأتابكي
أستدمر والأمير خليل بن قوصون وبقية الأمراء
الذين ركبوا مع أستدمر وأرسلوهم الى السجن
بشعر الاسكندرية . وأما ممالك يلبغا فنفوا منهم
وغرقوا منهم جماعة ، وهرب منهم جماعة الى بلاد
المشرق ، وانتصر عليهم السلطان الملك الأشرف
شعبان . وقد قال المعيار :

مسسلطاننا دامت له عزه

ونصرة من أجل هاتين

دمر كبشعين ومن مسعده

ما انتطحت في ذاك شساتين

وقال الشيخ شهاب الدين بن العطار :

هلال شعبان جهرا لاح في صفر

بالنصر حتى أرى عيدا بشعبان

وأهل كبش كاهل الفيل قد أخذوا

رجا وما انتطحت في الكبش غزنان

ثم ان السلطان ، لما خمدت الفتنة ، رسم
بالافراج عن من يذكر من الأمراء ممن كان
مسجوناً بشعر الاسكندرية ، وهم : الأمير يلبغا
آص ، والأمير الجاي اليوسفي ، والأمير ملكنسر
الشيخوني الخازندار ، والأمير أيدهر الخطائي .

فلما أقروا -

يلبغا آ

عوضا

الجاي آ

الأمير آ

الأمير آ

الأشرف

بتقدمة آ

الخازندار

والأمير

الأخضر

ثم آمد

السلطان

الأمير م

بلغ السد

التف عا

الركوب

بأمر الي

وقيدهم

وفي ذلك

يد

و

و

و

و

و

و

و

و

و

و

و

و

ما أفرج عنهم وطلعوا الى القلعة خلع على الأمير بغا آص المنصوري واستقر به أتابك العساكر وضاً عن أستدمر الناصري ، وخلع على الأمير بجای اليوسفي واستقر به أمير سلاح عوضاً عن أمير أزدمر العمري الناصري الخازندار ، وكان أمير الجاي اليوسفي زوج أم السلطان الملك شرف شعبان . وأنعم على الأمير أيذمر الخطائي مقدمة ألف ، وأنعم على الأمير ملكتمر الشيخوني خازندار بتقدمة ألف .

والأمير ملكتمر هذا هو الذي عمر الجامع الأخضر الذي عند فم الحور بين الغيطان .

ثم استمر الحال ساكناً مدة يسيرة ، وقبض لسلطان على يلبغا آص المنصوري ، وعلى أمير ملكتمر الشيخوني . وسبب ذلك أنه قد لغ السلطان أن يلبغا آص لما حضر الى القاهرة لتف عليه جماعة من الأمراء ، وقد عول على لركوب على السلطان . فلما تحقق السلطان ذلك ادر اليه وقبض عليه وعلى الأمير ملكتمر قيدهما وأعادهما الى السجن بغير الاسكندرية . في ذلك يقول ابن العطار :

يلبغا آص تولى جمعة
فبغى واختار حرباً وأدعى
ويح من جاء لحكم زائراً
ثم ما سلم حتى ودعا

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفي منكلى بغا الشمسي نائب حلب ، فلما حضر خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضاً عن يلبغا آص . ثم أرسل خلف الأمير على المارديني نائب الشام ، فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية وكان من خيار الأمراء . وفي هذه السنة توفي الملك المنصور غازي

صاحب ماردین ، وتولى من بعده ابنه الملك الصالح محمود .

ومن الحوادث في هذه السنة : جاءت الأخبار من دمشق أنه قد نزل بها جراد عظيم لم يسمع بمثله . وقد أتى هذا الجراد من مكة الى دمشق ، فأكل الأشجار وسد أعين المياه ، وكان معظم أمره في قرى دمشق مثل حوران وعجلون . فلما كان يوم الجمعة دخل الجراد الى جامع بنى أمية حتى ملأ صحن الجامع وصار يترامى على الخطيب وهو فوق المنبر حتى شغله عن الخطبة ، ثم كثر حتى جافت منه القرى والبلدان ، فوخم منه الناس حتى صاروا يشمون منه القطران من كثرة رائحته الكريهة ، ثم تناقص من بعد ذلك حتى ارتفع عن البلاد الشامية .

سنة احدى وسبعين وسبعمائة (١٣٦٩ / ٧٠ م) :

فيها خلع على المقر السيفي قشتمر المنصوري ، واستقر به نائب حلب عوضاً عن منكلى بغا الشمسي ، ثم رسم بالافراج عن الأمير أزدمر العمري الناصري — جد مؤلفه — وقد تقدم أنه نفي الى الصبيية في وقعة الأتابكي أستدمر بسبب ممالك يلبغا ، فأقام بالسجن في الصبيية مدة ثم رسم بالافراج عنه ليوليه نيابة الشام عوضاً عن الأمير على المارديني . فلما وصل الأمير أزدمر الى العرش مرض هناك ودخل الى القاهرة وهو غليل ، فأقام مدة يسيرة ومات الى رحمة الله تعالى ودفن بالقرافة الصغرى ، بالقرب من زاوية الشيخ أبي العباس البصير رضى الله عنه .

وكان الأمير أزدمر هذا أميراً جليلاً ديناً خيراً له بر ومعروف وآثار ، فمن ذلك أنه لما كان نائب حلب أنشأ خاناً بها يعرف بخان مراقب . ولما كان نائب طرابلس أنشأ حوضاً وسبيلاً على الدرب

السلطان في قرية من أعمال جبل نابلس تسمى قرية حلمة بنى سعد . وله أوقاف على الحرمين الشريفين والذرية . وكان قليل الأذى كثير الجود كما قيل :
وليس سحيق المسك ريا حنوطه

ولكنه ذاك الثناء المخلف

وولى من الوظائف أمير سلاح بالديار المصرية مرتين ، وولى نيابة حلب ونيابة طرابلس ونيابة صفد وغير ذلك من الوظائف . وكانت وفاته — أى الأمير أزدمر أبو ذفن — فى يوم الأربعاء سادس ربيع الآخر سنة احدى وسبعين وسبعمائة . ولما توفى الأمير أزدمر خلع السلطان على المقر السيفى منجك اليوسفى ، واستقر به نائب الشام عوضا عن الأمير أزدمر العمري ، وكان قد عين له نيابة الشام .

وفى خلع السلطان على الأمير الكز الكشلاوى واستقر به وزيرا واستادارا .

وفى توجة السلطان الى بر الجيزة ونزل عند الأهرام على سبيل التنزه ، فأقام هناك سبعة أيام ثم رحل من هناك وتوجه الى البحيرة ، ثم رحل من هناك وتوجه الى نجر الاسكندرية — وكان ذلك فى أيام النيل — فحصل للعسكر مشقة عظيمة بسبب الخايض فى الطريق . فلما دخل السلطان الى مدينة اسكندرية دخل من باب رشيد ، والأمراء مشاة بين يديه من باب رشيد الى باب البحر ، وفرش له نائب الاسكندرية الشقق الحرير تحت حواقر فرسه ونثر على رأسه الذهب والفضة ، وكان له يوم مشهود ، فأقام هناك ثلاثة أيام ، ودخلت عليه التقادم والهدايا ، ثم رحل من الاسكندرية ورجع الى القاهرة وطلع الى القلعة . ومن الحوادث فى هذه السنة أن جماعة من العوام وقفوا تحت القلعة ، ومنعوا الأمراء عن الطلوع الى القلعة ، وصاروا يرجمون الناس ،

فأرسل اليهم السلطان بعض الأمراء وهو يقول لهم : « ايش قصدكم ؟ » ... فأرسلوا يقولون للسلطان : « تسلمنا علاء الدين بن كيك شاد الدواوين ووالى القاهرة » ... فوقفوا تحت القلعة الى ما بعد العصر . وحصل منهم غاية الفساد ، فرسم السلطان للماليك بأن ينزلوا اليهم ، فنزلوا ورموهم بالنشاب ، فتشتتوا وهربوا من الرميطة ، فأمسكوا منهم جماعة وأودعوهم فى الحبس ، وقتل منهم جماعة بالنشاب وهرب الباقون فارين على وجوههم ، وغلقت فى تلك الليلة المدينة قاطبة ، ولم يقد وقوفهم فى الرميطة شيئا ، فكان كما قيل فى المعنى :

سل السيف عن أهل الفخار وفرعه

فانى رأيت السيف أصدق مقولا

ثم ان السلطان نادى للعوام بالأمان والاملثان ، وعزل عنهم والى القاهرة ، وولى الأمير حسين ابن الكوراني واليا على القاهرة عوضا عن بكتسر السيفى .

وفى جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب قشتمر المنصور قد قتل هو وقلد محمد . وسبب ذلك أن شخصا من آل فضل يسمى الأمير جبار وقع بينه وبين نائب حلب تشاجر ، فخرج اليه نائب حلب مع العساكر الحلبية ، فتقابل مع الأمير جبار ، فقويت العربان على نائب حلب فقتل هو وقلده فى المعركة .

ثم ان السلطان خلع على الأمير عشقتمر الماردىنى — وهو صاحب الخانقاه التى فى باب القرافة — واستقر به نائب حلب عوضا عن قشتمر المنصورى ، وأرسل خلعة الى الأمير زامك من آل فضل بأن يكون عوضا عن الأمير جبار بن مهتا ، فخرج الأمير عشقتمر وتوجه الى حلب .

ثم ان السلطان عمل الموكب وأعلم على من يذكر

من الأمراء بتقادم ألف ، منهم : الأمير بشتاك الكريسي ، فخلع عليه واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير خليل بن قوصون . وأنعم على الأمير بهادر الجمالي بتقدمة ألف . وأنعم على جماعة من الخاصكية بأمريات مبلخانات وعشراوات .

وفي هذه السنة حجّت خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان ، فخرجت من القاهرة في موكب عظيم في محفة زركش والأمراء مشاة قدامها . وخرج صاحبها المعصائب السلطانية والكنوسات ، وحج معها الأمير بشتاك رأس نوبة النوب ، والأمير بهادر الجمالي ومائتا مملوك من المماليك السلطانية .

سنة اثنين وسبعين وسبعمائة (١٣٧٠ / ٧١ م) : فيها رجعت خوند أم السلطان من الحجاز الشريف ، ووصلت الى القاهرة في سادس عشر المحرم ، فخرج اليها السلطان ولاقاها من البويب . وكان يوم دخولها يوما مشهودا حتى طلعت الى القلعة .

وفي هذه السنة توفي الأمير على الماردني الناصري نائب السلطنة بمصر ، وكان أميرا دنا خيرا كثير البر والصدقات ، قليل الأذى ، كثير الخير ، قريبا من الناس . تولى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة السلطنة بمصر ، ومات والناس راضون عنه ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس . ولما مات خلع السلطان على الأمير طشتمر العلاني واستقر به نائب السلطنة بمصر عوضا عن الأمير على الماردني الناصري .

سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (١٣٧١ / ٧٢ م) :

فيها رسم السلطان بأن السادة الأشراف قاطبة يجعلون في عمائمهم شطفات خضر حتى يمتازوا عن

غيرهم ، وتعطيهم لقدرهم ، فنودي لهم في القاهرة بذلك ، فامتثلوا أمره المتدارك . وفي هذه الواقعة يقول الشيخ شهاب الدين بن جابر الأندلسي :

جعلوا لأبناء الرسول علامة

ان العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة في كريم وجوههم

يقنى الشريف عن الطراز الأخضر

وقال الشيخ بدر الدين بن حبيب :

عمائم الأشراف قد تميزت

بخضرة رقت وراقت منظرا

وهذه اشارة أن لهم

في جنة الخلد لباسا أخضرا

وقال الشيخ شمس الدين بن المزين :

أطراف تيجان أمت من سندس

خضر كأعلام على الأشراف

والأشراف السلطان خصصهم بها

شرفا لنعرفهم من الأطراف

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة :

لآل رسول الله جاء ورفعمة

بها رفعت عنا جميع النوائب

وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم

إذا ما بدوا للناس تحت المعصائب

وفي هذه السنة عزل السلطان قاضي القضاة

الشافعي بهاء الدين السبكي ، وأرسل خلف الشيخ

برهان الدين بن جماعة خطيب بيت المقدس ، فلما

حضر خلع عليه وولاه قاضي قضاة الشافعية بالديار

المصرية عوضا عن بهاء الدين السبكي . وكان

الشيخ برهان الدين هذا ابن أخي قاضي القضاة

عز الدين بن جماعة المقدسي .

سنة اربع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٢ / ٧٣ م) :

فيها توفي الأتابكي منكلى بغا الشسى ، وكان من خيار الترك . ولما توفي خلع السلطان على المقر السيفى الجاى اليوسفى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن منكلى بغا الشسى بحكم وفاته . وفيها أنعم السلطان على ولده الأمير على بتقدمة ألف .

وفى هذه السنة كانت وفاة خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان ، وكانت ذات حسن وجمال ، وذات دين وخير ولها بر ومعروف . وهى التى أنشأت المدرسة التى بالتبانة ، ورتبت بها دروسا للمذاهب الأربعة ، وحضورا فى كل يوم للصوفية ، ومكتبا للإيتام ، وحوضا وسبيلا . ولما ماتت دفنت بهذه المدرسة وحزن عليها السلطان حزنا شديدا . وكانت ذات عقل ورأى سديد . وقد رثاها الشهابى بن الأعرج بقوله :

فى الثان والعشرين من ذى قعدة

كانت صبيحة موت أم الأشرف

فالله يرحمها ويعظم أجرها

ويكون فى عاشوراموت اليوسفى

فكان الفأل بالمنطق ... كما يقال :

لا تنطقن بما كرهت فربما

نطق اللسان بحادث سيكون

سنة خمس وسبعين وسبعمائة (١٣٧٣ / ٧٤ م) :

فيها فى يوم الثلاثاء سادس شهر الله المحرم وثب على السلطان الأتابكى الجاى اليوسفى زوج أمه ، ولبس آلة الحرب ، وطلع الى الرميلى هو ومماليكه . وكان سبب ذلك أنه قد حصل بينه وبين السلطان حظ نفس بسبب ميراث أم السلطان ، فحنق الأتابكى الجاى من السلطان فوثب عليه . ثم ان السلطان نادى للعسكر والأمراء بأن يركبوا

ويحاربوا الأتابكى الجاى ، فركب جميع الأمراء والعسكر وطلعوا الى الرميلى ، ووقعوا مع الجاى واقعة عظيمة قتل فيها جماعة كثيرة ، وآخر الأمر انكسر الأتابكى الجاى وهرب نحو بركة الحبش ، ثم طلع من عند الجبل الأحمر وأتى الى قبة النصر فأقام بها ، فأرسل اليه السلطان خلعة بأن يكون نائب حماء ويخرج من هناك ... فأبى الجاى من ذلك وأقام بقبة النصر الى يوم الخميس وهو لا لبس آلة الحرب ، فنادى السلطان للعسكر والأمراء بأن يتوجهوا اليه بقبة النصر ويحاربوه ، فتوجهوا اليه وحاربوه ، فانكسر الجاى ثانيا وهرب الى نحو شبرا ، فساقوا خلفه فأدركوه فرمى نفسه فى البحر وهو راكب فرسه ، ففرق الجاى ومات وطلع فرسه من بر انبابه من عند الوراق ، وقبض العسكر على مماليكه وخيوله وسلاحه وأحضروهم بين يدى السلطان وحكوا له ما جرى .

ثم ان السلطان أرسل جماعة من الغطاسين الى نحو شبرا فغطسوا هناك وطلعوا بالجاى ، فأحضروا له تابوتا ، وأتوا به الى القاهرة فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ، ودفنوه بمدرسته التى أنشأها فى سويقة العزى ، وكان ذلك فى يوم الجمعة عاشر المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما قولوا عليه .

وكان الأتابكى الجاى أميرا جليلا مهيبا ، كثير البر والصدقات ، يحب فعل الخير ... ولو أنه حضر بين يدى السلطان وهو فى قيد الحياة ما كان يحصل له من السلطان الا كل خير ، فانه كان زوج أمه ، وكان له على السلطان تربية قديمة ، ولكن كان ذلك مقدرا عليه .

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى أيدير نائب طرابلس ، فلما حضر خلع عليه واستقر به

والصلحاء والفقراء والرجال والنساء والأطفال
وطائفة اليهود وطائفة النصارى ، وحضر الخليفة
محمد المنوكل على الله والقضاة الأربعة ، ولم يزل
السلطان معهم ، ثم توجهوا من وراء قبة النصر
ونصبوا هناك منبرا وصعد اليه قاضى القضاة
الشافعى ، وهو الشيخ شمس الدين بن
القسطالانى ، وخط خطبة بليغة فى الامتسقاء ،
ولما حول رداءه كشف عن رأسه ودعا الله تعالى ...
وكان ذلك اليوم يوما مشهودا تسكب فيه العبرات .
ولما رجع الناس ولبثوا تلك الليلة هبط الماء
جملة واحدة ، وتزايد سعر الغلال وبلغ ثمن كل
اردب مائة وعشرين درهما ، ومن الشعير كل اردب
بثمانين درهما ، وبلغ ثمن الرغيف الخبز الكشكار
أربعة دراهم ، وبلغ الرطل اللحم الضانى درهماين
ونصفا كل رطل ، واللحم البقرى كل رطل بدرهم
ولصاف ، وبلغ ثمن البيضة عشرة دراهم كل
واحدة ، وبلغ ثمن الراوية الماء خمسة دراهم .
ومات تلك السنة أكثر الدواب من قلة العلف ،
وغلاسر كل شئ من أصناف البضائع . وجاء عقيب
ذلك فناء عظيم حتى بلغ ثمن البطيخة الصيفى مائة
درهم ، والرمانة ستة عشر درهما ، وصار القمح
كل يوم يتزايد سعره .

فلما اشتد الأمر وشرقت البلاد رسم السلطان
للأتابكى منجك بأن يجمع الحرافيش الذين فى
القاهرة ويفرقهم على الأمراء وأعيان التجار ففعل
ذلك ، ورسم السلطان بأن يعطوا لكل فقير رغيفين
وما يشاكل ذلك من الطعام ... واستمر الأمر على
ذلك نحو سنة ، ولم يتراجع السعر ولم ينحط عن
ذلك حتى صار الناس يأكلون خبز القول وخبز
النخال والذرة ، واستمر الحال على ذلك .

أتابك العساكر عوضا عن الجاى اليوسفى ، فأقام
أيديمر فى نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ثم توفى
الى رحمة الله تعالى فأرسل السلطان خلف المقر
السيفى منجك اليوسفى نائب الشام ، فلما حضر
خلع عليه السلطان واستقر به أتابك العسكر عوضا
عن أيديمر ، وأضاف اليه نيابة السلطنة مع
الأتابكية ، وفوض اليه أمور الملكة قاطبة من
الديار المصرية والبلاد الشامية ، ورسم له بأن
يخرج الاقطاعات من غير مشورة السلطان من
أربعمائة دينار الى ستمائة دينار ... وكانت عادة
نواب السلطنة من قديم الزمان ألا يخرجوا من
الاقطاعات أكثر من أربعمائة دينار الى ما دون .
وفيهما خلع السلطان على مملوكه الأمير أرغون
شاه الأشرقى واستقر به رأس لوبة النوب .
وفيهما جاءت الفرنج الى رشيد ، فخرج اليهم
الأتابكى منجك مع جماعة من العسكر فكسروهم
وهربوا منهم الى بلادهم ... وفى ذلك يقول ابن
أبى حجلة :

أمنجك سل فى الأعداء بترك
ولا تترك من الافرنج بترك
تداركت المعالى بالعوالى
ولكن فضل جودك ليس يدرك
وقد آنت مصر حين قالت

تولى الله حيث حللت نصرك
ومن الحوادث فى هذه السنة أن النيل توقف
عن الوفاء ، ثم هبط ونقص أصبعين ، فضج الناس
لذلك وماجت مصر وتشحطت الغلال وامتنع الخبز
من الأسواق ، فرسم السلطان للناس بأن يخرجوا
ليستسقوا . فلما كان يوم الخميس ثانى ربيع الآخر
من السنة المذكورة ، خرج الناس قاطبة الى
الصحراء ، واجتمع هناك الجهم الغفير من العلماء

سنة ست وسبعين وسبعمائة (١٣٧٤ / ٧٥ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب خرج الى مدينة سيس هو والعساكر الحلبية وفتح مدينة سيس ، وكانت في أيدي الأرمن . فلما جاءت الأخبار بذلك فرح السلطان ، وأمر بدق الكاسات سبعة أيام ، وزينت القاهرة سبعة أيام ، وأرسل نائب حلب صاحب سيس ، وهو أسير ومقيد — وكان اسمه تكنور — فرسم السلطان باعتقاله ، ورتب له في كل يوم ما يكفيه من النفقة وهو في السجن . وقد هنا بعض الشعراء السلطان بقصائد في فتح مدينة سيس حيث قال :

الملك الأشرف سلطاننا

أيده الله بعز نقيس

ساق الى نحو العدا أدهما

وجاءه النصر على أخذ سيس

وفيها جاءت الأخبار من بغداد بأن القان أويس صاحب بغداد قد توفي الى رحمة الله تعالى ، وتولى من بعده ابنه حسين ، وكانت مدة ملكة القان أويس على توريث وبغداد تسع عشرة سنة .

وفيها كانت وفاة الأتابكي منجك اليوسفى . وكانت وفاته في يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة سنة ست وسبعين وسبعمائة ، ودفن في خانقاه التي أنشأها في رأس الصوة تجاه الطبلخانات السلطانية ، ومات وله من العمر نحو سبعين سنة . وكان أميراً جليلاً عظيماً كثير البر والصدقات ، وله آثار ومعروف ببصر والشام ، وقد تولى نيابة حلب ونيابة الشام ونيابة السلطنة ببصر وATABEK العساكر بالديار المصرية .

سنة سبع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٥ / ٧٦ م) :

أقول : وهذه السنة عزيزة الوفوع ، لأنه قد اجتمع فيها ثلاث مباح ، فهي سبع وسبعون

وسبعمائة ، وهذا غير ممكن أن يتفق مثلها من سنى الهجرة النبوية من الأعوام القابلة ، ولم يتفق مثلها في مبتدأ الاسلام غيرها من السنين .
ففيها ختن السلطان أولاده وأقام لهم مهرجاناً في القلعة سبعة أيام ، وكان ذلك تاسع المحرم . وفيها كملت عمارة السلطان التي أنشأها في رأس الصوة تجاه الطبلخانات . ولم يحدث في هذه السنة من الحوادث شيء ، وكان غالب الناس يتطير منها فلم يحصل فيها الا خير .

سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (١٣٧٦ / ٧٧ م) :

فيها أبطل السلطان ضمان المغاني من سائر أعمال مملكته ، وكان ذلك عبارة عن مال كثير مقرر على سائر المغاني من رجال ونساء يؤدونه في كل سنة الى الخزائن الشريفة ، فأبطل ذلك . ومن جملة ما أبطله ضمان القراريط ، وكان عبارة عن أن الشخص اذا باع ملكاً يؤخذ منه لبيت المال عن كل ألف درهم عشرون درهماً ، فأبطل ذلك وصار في صحيفته الى يوم القيامة .

وفيها توعك السلطان وأقام في الفراش منقطعاً مدة ، ثم شفى وخرج الى الموكب .

ثم ان السلطان قوى عزمه على أن يحج في هذه السنة ، فأشار عليه بعض الصلحاء بترك الحج في هذه السنة فلم يسمع ، وأخذ في أسباب عمل البرق . فلما كان يوم السبت ثانى عشر شوال حرج السلطان من القاهرة ، ونزل من القلعة في موكب عظيم وطلب ، وخرج من الميدان الذى تحت القلعة . وقد اشتمل الطلب السلطاني من الهجن على عشرين نوبة بقماش زركش ، وخمس عشرة نوبة بقماش حرير ملون ، ونوبة هجن ملبسة خليفتى ، ونوبة هجن ملبسة أبيض برسم الاحرام . وكان في الطلب مائتا فرس ملبسة بركشتونات مخمل ملون وشي

قولاذ مكنت بالذهب ، وفيه كجاوتين زركش ، وكان فيه عشر محفات زركش برسم الحريم ، وكان فيه ستة وأربعون زوجا محايير مخمل ملون برسم السراى والعيال ، وكان فى السنيح خمسائة جبل محملة سكر وحلوى وفاكهة وغير ذلك برسم ما يحتاج اليه المطبخ ، وكان فيه قطاران من الجبال محملة أشجارا مزهرة فى طينها وهى فى صناديق خشب مزفته .

فلما انتهى أمر الطلب خرج السلطان من الميدان فى موكب عظيم ، وقدامه سائر الأمراء من كبير وصغير ، وكان له يوم مشهود . ولما نزل من القلعة توجه الى نحو بركة الحاج على العادة . فلما أقام هناك خلع على الشيخ ضياء الدين الغنوى واستقر به شيخ مدرسته التى أنشأها برأس الصوة ، وقرر بها حضورا من بعد العصر وصوفية . وكانت هذه المدرسة من محاسن الدنيا فى الزخرفة والبناء ، وقد هدمت هذه المدرسة فى دولة الملك الناصر فرج ابن برقوق كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ثم ان السلطان رحل من بركة الحاج ، وكان صحبته من الأمراء المقدمين تسعة ، وهم : المقر السيفى أرغون شاه الأشرفى ، والمقر السيفى صرغتمش الأشرفى أمير سلاح ، والمقر السيفى يلبغا السابقى أمير مجلس ، والمقر السيفى بهادر الجمالى أمير أخور كبير ، والمقر السيفى صراى ترمحمدى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى طشتمر العلائى الدوادار ، والأمير مبارك شاه الطازى ، والأمير قطلقتمر العلائى الطويل ، والأمير بشتاك العمرى ومن أمراء الطبلخانات خمسة وعشرون أميرا .

ثم ان السلطان جعل المقر السيفى أقتمر بن عبد الغنى — نائب السلطان — مقيما بالقاهرة ، وجعل الأمير أيدير الشمسى نائب الغيبة ، ورسم للأمراء المقيمين بالقاهرة بأن يطلعوا الى القلعة فى كل يوم

اثنين وخميس ، ويعطوا الخدمة للأسياذ — أولاد السلطان — فصار الأمراء بعد توجه السلطان يطلعون الى القلعة ويجلسون على باب الستارة ، ويخرج اليهم ابن السلطان الأمير على — وكان أكبر أولاد السلطان — فيجلس مع الأمراء ساعة لطيفة على باب الستارة ، ويحضر لهم السكر فيشربون وينصرفون ، واستمروا على ذلك مدة يسيرة .

وكان السلطان الملك الأشرف شعبان لما قصده التوجه الى الجواز الشريف ضبط أمور المملكة قبل خروجه ، وأخذ معه من الأمراء من كان يخشى أمره ، وترك بالقاهرة من الأمراء من كان يركن اليه ، وظن أن الأمور قد استقامت له واقتدى بما فعله من رأيه كما قيل :

ياحاسبا لأمر تعتريه ، لقد

حسبت شيئا وغابت عنك أشياء

فلم يتم بذلك مراده ، وجنى عليه اجتهاده ، كما قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما رحل السلطان من بركة الحاج ، ورجع كل أحد الى بيته — وكان يوم السبت ثالث ذى القعدة — وثب جماعة من الأمراء ، ولبسوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرميلة . وكان القائم فى ذلك الأمير طشتمر المحمدى المعروف باللقاف أحد الأمراء العشراوات ، والأمير قرطاي الطازى أحد رؤوس النوب ، والأمير أستندر الصرغتمشى ، والأمير اينبك البدرى — ولم يكن فيهم أمير مقدم ألف .

فلما طلعوا الى الرميلة التف عليهم جماعة كثيرة من المماليك السيفية ومماليك الأسياذ ، فهجموا

عليهم سجنوهم بالقلعة ثم قالوا لوالى القاهرة :
« ناد فى المدينة بالأمان والاطمئنان والدعاء للملك
المنصور على » ... فنزل الوالى ونادى بذلك فى
القاهرة ، وكان ذلك فى يوم السبت ثالث
ذى القعدة من السنة المذكورة .

فلما كان يوم الأحد صبيحة ذلك ، والناس
ماتحة فى بعضهم ، اشتاعت الأخبار بين الناس بأن
شخصا من المماليك السلطانية قبض على شخص
من المماليك الذين كانوا فى الحجاز يقال له فزان
اليرقتى من جملة الأمراء الأخورية ، وكان صحبة
السلطان ، فوجدوه فى المدينة وهو متنكر ،
فقبضوا عليه وأحضروه الى الأمير أيدمر الشمسى
نائب الغيبة ، فسأله عن سبب ذلك وحضوره الى
القاهرة ، فمغنى فى الكلام ، وتلجلج بلسانه ، فعراه
الأمير أيدمر وأراد توسيطه ، فقال له : « امهلني
حتى أخبرك بما جرى هناك » ... فألبسه أثوابه
وقال له : « احك » . فقال : « لما وصل السلطان
الى العقبة دخلها فى يوم الثلاثاء وأصبح فى يوم
الأربعاء ، وقف عليه جماعة من المماليك السلطانية
وطلبوا منه العليق ، فقال لهم اصبروا الى الأزل ،
فرجعوا وهم على غير رضا منه . فلما مد السماط
لم يحضر من المماليك السلطانية أحد ، فظهر
للسلطان منهم الغدر . ثم ان المماليك توجهوا الى
جماعة من الأمراء — منهم الأمير طشتير العلائى
الداودار الكبير ، والأمير مبارك شاه الطازى ،
والأمير صراى تمر الحمدي ، والأمير قطقتير
العلائى الطويل — فاتفقوا معهم على الوثوب على
السلطان ...

« فلما كان يوم الخميس ركب هؤلاء الأمراء
على السلطان ، والتف عليهم جماعة كثيرة من
مماليك الأمياد ، فلما تحقق السلطان ذلك ركب
هو وجماعة من الأمراء — منهم الأتابكى أرغون

كلهم وطمعوا الى القلعة ووقفوا على باب الستارة
ودفوا الباب ، فخرج اليهم الأمير مثقال الجمالى
الزمام . والأمير جلبان اللالا ، والأمير قطلوبغا
جركس اللالا : فقالوا للمماليك : « ما الخبر ؟ » ،
فقالوا : « قد سمعنا أن السلطان لما وصل الى
العقبة وثب عليه المماليك وقتلوه . فأخرجوا الينا
الأمير على حتى نسلطنه » ... ولم يكن لهذا
الكلام صحة ، ولكن كان القال بالمنطق كما يقال
فى المعنى :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى

ان البلاء موكل بالمنطق

فلما سمع الأمير الزمام ذلك توقف ساعة ،
فأغلظ عليه المماليك فى القول ، وعينوا له القتل .
فلما رأى منهم الجد دخل الى دور الحرم وأخرج
الأمير على ابن الملك الأشرف شعبان ، فجلس على
باب الستارة ساعة ، ثم توجه المماليك الى الأمير
أيدمر الشمسى نائب الغيبة وأحضروه الى القلعة ،
فلما حضر أخذوا الأمير عليا ، وتوجهوا به الى
الايوان الكبير ، وأجلسوه على سرير الملك ،
وقبلوا له الأرض ، ثم أرسلوا خلف من كان فى
القاهرة من الأمراء فطمعوا الى سوق الخيل ،
فظميهم ليطلعوا القلعة فأبوا من ذلك ، فركبوا
الأمير عليا ونزلوا به الى باب السلسلة ، وجلس فى
الحزاة التى فى الاسطبل السلطانى ، ونادى لسائر
الأمراء بأن يطلعوا الى باب السلسلة ، فطلعوا
فحلفوهم ، وقبلوا للأمير على الأرض ، ولقبوه
بالمك المنصور .

ثم ان المماليك أمسكوا فى ذلك اليوم جماعة
من الأمراء العشراوات وهم : الأمير طشتير
الصالحى ، والأمير بلاط السيفى الجاى ، والأمير
حطط اليلغاوى أحد رؤوس النوب ... فلما قبضوا

شاه الأشرفي ، والأمير صرغتمش الأشرفي أمير سلاح ، والأمير بشتاك العمري رأس نوبة النوب ، والأمير يبيغا السابق ، والأمير يلبغا الناصري ، والأمير أرغون كنتك — فركب هؤلاء الأمراء مع السلطان ووقعوا مع المماليك هناك واقعة عظيمة ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وانكسر السلطان ومن معه من الأمراء وهربوا الى نحو عجرود .

فلما منع الأمير الشمسي بذلك ركب ، هو والأمير أستدر الصرغتمشي ، والأمير طولو ، وجماعة من الأمراء السلطانية ، وتوجهوا الى نحو بركة الحاج ، فتلاقوا هم والأمراء الذين كانوا بصحبة السلطان في العقبة . فلما تلاقوا معهم لم يجدوا السلطان صحبتهم ، ولا الأتابكي أرغون شاه ، ولا الأمير يلبغا الناصري ... فوقعوا هناك في بعضهم وقتلوا الأمراء الذين حضروا من العقبة ، وقطعوا رؤوسهم ودخلوا بها الى القاهرة ، وعلقوها على باب القلعة .

هذا ما كان من أمر الأمراء . وأما ما كان من أمر السلطان الملك الأشرف شعبان فانه لما هرب بعد الكسرة من العقبة قال له محمد بن عيسى شيخ العائد : « آخذك وأتوجه بك من هنا الى غزوة فتقيم بها حتى تتسامع بك العساكر ، وتجتمع عليك العرب ، وترجع الى القاهرة ، وتأخذ الملك بالسيف » ... فوافقه السلطان على ذلك ، فمنعه الأتابكي أرغون شاه من ذلك .

ثم انه دخل الى القاهرة وهو مختف ، فبات تلك الليلة في تربة في الصحراء الى آخر الليل ، ثم قام من هناك الى حارة الجودرية واختفى عند امرأة يقال لها آمنة زوجة ابن المشتولي — وكانت من عيال أم السلطان — فخافت من عقبى ذلك على نفسها من القتل ، فان الأمير أيدمر الشمسي نائب السلطنة نادى في القاهرة : « كل من وجد

السلطان الملك الأشرف شعبان في بيته ولا يقر به ، يشنق على باب بيته » ... فلما سمعت آمنة المذكورة ذلك توجهت الى الأمير أينبك البدرى وقالت له : « ان السلطان مختف عندى في البيت » .

فلما سمع الأمير أينبك بذلك أرسل معها مائة مملوك ملبسة ، ومعهم أمير يقال له الطنينا السلطاني ، فتوجهوا الى الجودرية وكبسوا على بيت آمنة زوجة ابن المشتولي . فلما أحاطوا بالبيت هرب السلطان وطلع الى سطح البيت ، فلما دخلوا البيت لم يجدوا فيه أحدا ، فظلموا الى السطح فوجدوا السلطان مختفيا في الباذنج — وهو بطاق القميص — فقبضوا عليه ، والذي كان خائفا منه وقع فيه ، كما قيل في المعنى :

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا

فلما دهنتى لم تزدنى بها علما

فلما قبضوا على السلطان نهبوا جميع ما كان في البيت ، ثم أركبوا السلطان فرسا وهو مغطى الوجه ، فظلموا به الى القلعة بعد المغرب ، وتسلمه الأمير أينبك البدرى . ولما دخل الليل خلا الأمير أينبك بالسلطان وبات في تلك الليلة يعاقبه ويقرره على الأموال والنخائر .

فلما كانت ليلة الثلاثاء دخل چركس — مملوك الأتابكي الجاي اليوسفي ، وكان في قلبه من السلطان من أيام أستاذة الجاي شيء — فتسلم السلطان وخنقه بوتر حتى مات ، ثم وضعه في قفة وكسر ظهره وخيط بلاسى وأرسله تحت الليل على حمار ورماه في بئر عند باب الزغلة .

وكانت قتلته في ليلة الثلاثاء ثالث ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة . ومات وله من العمر نحو أربع وعشرين سنة . وكان مولده في سنة أربع وخمسين وسبعمائة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية أربع عشرة سنة

وشهرين ويوما . وزال عنه الملك كأنه لم يكن .
فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير . وقد قيل
في المعنى :

ومن يامن اندنيا يكن مثل قابض

على الماء خاتته فزوج الأصابع

ثم ان الملك الأشرف شعبان لما رموه في البئر
كما تقدم ، أقام فيها أياما فظهرت رائحته وطف
على الماء ، فمر به بعض الطواشي ، فلما تحقق
أنه السلطان صبر حتى دخل الليل ، وأحضر له
تابوتا وملعه من البئر وجبله فيه وأتى به الى
مدرسة والدته التي في التبانة ، فغسله هناك وكفنه
وصلى عليه ، ثم دفنه في القبة التي تجاه
المدرسة .

وكان الملك الأشرف شعبان من محاسن الزمان
في العدل والحلم ، وكان ملكا هينا لينا محبا
للناس متقادا للشرعة ، ويحب أهل العلم ويعسن
لهم ، وكان كثير البر والصدقات على الفقراء
والمساكين ، وكان محبا لأقاربه وأبناء عمه بخلاف
من تقدمه من بنى قلاون . وكانت الدنيا في أيامه
هادئة من الفتن والتجاريد الى البلاد الشامية
وفساد العرب . وساس الناس في أيام دولته أحسن
سياسة ، وكانت الناس راضية عنه حتى مات
رحمه الله . وقد قال فيه القائل :

للك الملك الأشرف السلطان سيدنا

مناقب بعضها يبدو به العجب

له خلائق بيض لا يغيرها

صرف الزمان كما لا يبدأ الذهب

ولما مات الأشرف شعبان خلف من الأولاد منته
ذكور وسبع بنات . فأما الذكور فسيدي على الذي
تسلطن بعده ، وسيدي أمير حاج الذي تسلطن بعد
أخيه على ، وسيدي قاسم ، وسيدي محمود ،

وسيدي اسماعيل ، وسيدي أبو بكر . وولد له
بعد موته سيدي أحمد الذي من خولده سمراء .
وأما فتوحاته فمن المدن فمدينة سويس ، ومدينة
منجار ، ومدينة دوركي .

وأما ما أنشأه في القاهرة من العناير فالمدرسة
التي كانت في رأس الصوة تجاه الطبلخانات
السلطانية ، والقاعة الأشرفية التي بالقلعة داخل دور
الحرم . وله غير ذلك آثار كثيرة وتذكّار .
وكان في أيامه جماعة كثيرة من أولاد الناس
طبلخانات وأمراء عشراوات .

فأما الأمراء الطبلخانات فالأمير علي بن منجك
اليوسفى ، والأمير أحمد بن يلغا العبرى ، والأمير
عبد الله بن بكتمر الحاجب ، والأمير موسى بن
دندار ، والأمير قرطقا بن صوصون ، وأمير حاج
ابن مغلطاي ، والأمير محمد بن تنكز بغا .

وأما من كان منهم من أمراء العشراوات فمنهم
الأمير أبو بكر بن منقر الجمالي ، والأمير أحمد
ابن محمد بن قطلوبغا الحمدي ، ومحمد بن منقر
المحمدي ، والأمير خضر بن عمر بن أحمد ابن
الأتابكي بكتمر الساقى .

وكان من أولاد الناس في أيامه جماعة كثيرة
لواب في البلاد الشامية .

وبالجملة ان الملك الأشرف شعبان كان آخر
بنى قلاون في الحرمة والعظمة ونفاذ الكلمة ، وكان
عارفا بأحوال أمور المملكة ، حسن التدبير ، ماشيا
على القواعد المرضية ، مستجلبا لخواطر الرعية .
وكان حسن الشكل ، سخي النفس ، شجاع
القلب ... ولكن خاتمه الدهر ، وسطا عليه بالقهر ،
فعاجله المنون ، وخابته فيه الظنون .

هذا ما كان من أمر الملك الأشرف شعبان بعد
رجوعه من العقبة . وأما ما كان من أمر الأمراء
الذين خامروا على السلطان في العقبة ، فانه لما

هرب السلطان من هناك اجتمعوا ودخلوا على
الخليفة المتوكل على الله محمد — وكان قد سافر
صحبة السلطان هو والأربعة قضاة — فقالوا له :
« تسلطن ... أنت أحق بالسلطنة » . فامتنع من
ذلك غاية الامتناع ، وطال بينه وبين الأمراء الجدل
فلما صمم الخليفة على الامتناع عينوا مع الحجاج
الأمير بهادر الجمالى أمير أخور كبير ، فتوجه
صحبة المحمل مع الحجاج وساروا ركبا واحدا .
ثم ان الأمراء أخذوا الخليفة والقضاة الأربعة
وقصدوا التوجه الى الديار المصرية ، وصحبهم
حريم السلطان الملك الأشرف شعبان . ثم ان
القضاة سألوا فضل الأمراء أن يزوروا بيت
المقدس ، فأنعى لهم بذلك ، وأرسلوا معهم
جماعة من المماليك السلطانية ، فتوجهوا من هناك
الى بيت المقدس .
فلما وصل الخليفة والأمراء الى عجرود جاءت
الأخبار بما جرى فى القاهرة من قتل السلطان
وسلطنة ولده الأمير على .

ومن غريب الاتفاق آن اليوم الذى خامر فيه
المماليك وركبوا على السلطان فى العقبة ، وافق
اليوم الذى ركب فيه الأمراء بالقاهرة وسلطنوا
سيدي عليا ابن السلطان . فلما سمعوا ذلك
ووصلوا الى بركة الحاج جاءت الأخبار بذلك الى
القاهرة ، وتوجه اليهم جماعة من الأمراء والمماليك
السلطانية ، فوقعوا معهم عند المطرية ، فانكسر
الأمراء الذين جاءوهم من القاهرة ، وساق خلفهم
الأمير قطلقتسر الملائى الطويل الى رأس الصوة ،
فتكاثروا عليه المماليك السلطانية حتى أمسكوه
وحضروا به الى نائب السلطنة فلم يشوش عليه ،
ثم دخل الأمير طشتسر الدوادار الكبير واختفى فى
تربة فى الباب المحروق ، فتم عليه الغلمان ، فجاءوا
اليه وقبضوا عليه وقيدوه وأرسلوه الى نصر

الاسكندرية ، وقبضوا معه على جماعة من الأمراء
وتفوههم الى الاسكندرية ، وخمدت الفتنة وسكن
الاضطراب ، واستمر سيدي على سلفانا كما
سيذكر ذلك فى موضعه .

ولما مات الأشرف شعبان رثاه القيم خلف
الغبارى بهذه القطعة الزجل فقال :

عن منازل طالع القلعة
كوكب السعد اختفى حين بان

اقتران زحل مع المريخ
كسوف شمس انتقل شعبان

صار محرما يوما لما
صفر المنزل من الأشرف
واخبر منار يعنى عيش
وجسادين فتكهم أسرف

ورجب فيه الملك شعبان
دور المحمل ولا أشرف

رمضان صاموا وفى شوال
شال وذى القعدة بدا الحرمان

فيه جرت سيره لذى الحجة
ماجرت فى سائر الأزمان

قد فهمنا أصل ذى النوبه
بساع ما جا من الأخبار

فى حصار شعبان وفى ضربوا
نوبتين والخنق بالأوتار

ولذا صار قلبنا موصول
بالهجوم والعقل منا طار

وخروج السهم لو تشيب
فى القصب من داخل الأبدان

والسيوف غنت لرقص الخيل
والأنامل هزت الميدان

للحجاز لما نوى الأشرف
ورحل مع جملة العشاق

خامرت ميه من العسكر
ولرصد الغدر جو أجواق

قتلوه شرکه وتاريخو
للعراق والأصبهان الساق

وقد أضحي في الرمال مدفون
والذى ييه في طرب فرحان

صار محير والحمام في الدوح
ناح لفقدو باختلاف ألحان

الذخائر ذاهبة حين صار
واسطة عقد الجيوش غايب

والعقيق كنواقد اتخضب
بالدما حين هربو كارب

وسلوك الدر والياقوت
عقلها انقرط من التيجان

وأصبح الجوهر بتيتم بعدو
ودموع العين عليه مرجان

ذى الذى كان الملك ايدو
وايدهم في فرد زبديه

جوه بعمله غدر مدفونه
وخيول في السر مخفيه

وقلوب بالقلب مفسومه
وكبود بالفين مشويه

وأصور مزورة لكن
قبل ما اسقوه الهوان ألوان

طبخوا القدره وقد صاروا
حولها مستجمعين اخوان

في أتاك مصر كنت اعهد
قوم عزيزين جبر للمكسور

منهم أرغون وضرغتمش
والشهير بالسابقى المنصور

والأمير بشتاك مع الأفرم
بأمر من لو الحكم والمقدور

جا القضا عاجل خد الخمسة
وقد أضحي عزهم منهان

هكذا الدنيا وقد قالوا
في المثل ما عز شئ الا وهان

جاءك بنفسو ذ الملك لما
جا يصيب دستو عليه مقلوب

وأخذ فيكو صريح شامات
وانكشف رخو وصار مغلوب

هكذا في وقعة الدنيا
دست هذى الملكة المنسوب

ذا يكن راكب فرس عزوا
عاليه فرحان يعود في احزان

والذى في الحاشية بيدق
ينتقل حتى يصر فرزان

مصر وادى تيه وصارت غاب
وسكنوا ابراج حوت رفعه

وأماراتهم الذين كانوا
في هنا من قبل ذى الوقمة

للملك خلان وهم غزلان
وأسود وأقمار لهم طلعه

خفيت الأقمار من الأبراج
وخلا المسكن من الخلان

وعن الغاب غابت الآساد
وأقفر الوادى من الغزلان

ضم الأشرف قبر ليت شعرى
هو لقنديل نور ضياه جامع

أو صدف فيه خالص الجوهر
أو فلك فيه غاب قمر طالع

أو نقول غاب فيه أسد ضارى

أو جفير جواه حسام قاطع

أو كناس فيه أحسن الغزلان
أو حى فيه أفرس الفرسان

أو جسد فيه روح من الأرواح
أو سواد مقلة وفيه السان

نسألك يا الله بجاء موسى
وبعيسى وأحمد المحبوب

غيث الأشرف واوهبوا رحمة
وعليه أفرغ صبر أيوب

فارق اذكرنا فراق يوسف
مثل ما أورثنا حزن يعقوب

والخيل منا غدا قائل
لخيلو حين يراه لهفان

في سفين الحزن بعدو نوح
واجبر دمعك في الحدود طوفان

نصر شعبان بهم بالكامل
لعلى والحكم للقادر

نسألك يا حق يا عادل
كن لجيش المسلمين ناصر

وارزق العالم عمل صالح
واصلح الباطن مع الظاهر

واخذ الفتنا وطننا
لا تشتنا من الأوطان

وانصر المنصور على واعفو
عن آية الأشرف السلطان

يا من امسى مثل ما أصبح
في فرح بالجاء وكنز المال

قط لا تركن لذى الدنيا
واحذر احذر حالها ان حال

كم عزيز ذلته صار يطلب
جاء يجيه ماجاه ومالو مال

فالبس البس حلة التقوى
قبل لبسك شقة الأكوان

لا تفرك زينة الدنيا
كل ما تنظر عليها فان

آخر الثامن مع السبعين
بمد تاريخ سبعمائة عام

يا غبارى قلت في الأشرف
نظم شاع في أقاليم مصر والشام

وانت في فن الرجل قيم
بدروج تشهد بها الحكام

وبتنظم النشر من فكرك
كم، وكم صنت من ديوان
والبديع لك صارت الفرسان
فيه رجال والقيمة أدوان

وفي أيامه توفي الشيخ نور الدين على بن سعيد
المغربى الأندلسى ، وكان من فحول الشعراء وله
شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

واطول شوقى الى ثغور
ملأى من الشهد والرحيق

عنها أخذت الذى تراه
يعذب من شعري الرقيق

الملك المنصور على

هو الملك المنصور على ، ابن الملك الأشرف
شعبان ، ابن الملك الأمجد حسين ، ابن الملك الناصر
محمد ، ابن الملك المنصور قلاوون ، وهو الثالث
والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار
المصرية . بويح بالسلطنة عند ما حضر أمير المؤمنين
المتوكل على الله من العقبة فبايعه بالسلطنة ، ولبس
خلعة السلطنة وجلس على سرير الملك ، وجميع
الأمراء قبلوا له الأرض ، وتلقب بالملك المنصور ،
ونودى باسمه في القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ،
فلبس خلعة السلطنة من باب الستارة ، وركب لابسا
شعار الملك والأمراء مشاة بين يديه ، والقبة والطير
على رأسه ، حتى وصل الى الايوان وجلس على
سرير الملك ساعة ، ثم دخل الى القصر الكبير ومد
السماط في القصر وجلس عليه وهو لابس شعار
الملك — وكانت هذه عادة قديمة أن السلطان يوم

يتولى يمد في القصر سماطا ويجلس عليه وهو
بشعار الملك — فلما فرغ من الأكل خلع على المقر
السيفى أقتمر الصاحبى الشهير بالحنبلى واستقر به
نائب السلطنة بالديار المصرية عوضا عن الأمير
أقتمر عبد الغنى ، وخلع على المقر السيفى طشتمر
المحمدي الشهير باللفاف واستقر به أتابك العساكر
بمصر ، وكان طشتمر المحمدي هذا أمير عشرة
فبقى أتابك العساكر في يوم واحد عوضا عن
الأتابكى أرغون شاه الأشرفى ، وأنعم عليه ببركة
وماليكه ، وكان ذلك في يوم الأحد سادس
ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكان
السلطان الملك المنصور له من العمر يومئذ نحو
سبع سنين وأشهر .

فلما كان يوم الاثنين سابعه ، عمل السلطان
الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم :
الأمير قرطاي الطازى ، واستقر به رأس نوبة
النوب ، ورسم له بترك الأمير صرغتمش الأميرى
الأشرفى . وخلع على الأمير أستدر الصرغتمشى
الناصرى ، واستقر به أمير سلاح . وخلع على الأمير
قطلوبغا البدرى ، واستقر به أمير مجلس عوضا
عن يلبغا السابقى . ثم خلع على الأمير طشتمر
العلائى ، واستقر به نائب الشام ، ورسم له بأن
يخرج من القاهرة في يومه . وخلع على الأمير اياس
الصرغتمشى ، واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن
طشتمر العلائى . وخلع على الأمير آينبك البدرى ،
واستقر به أمير أخور كبيرا عوضا عن الأمير بهادر
الجمالى . وأنعم على الأمير بلاط السيفى الجاى
بتقدمه ألف ، وكذلك الأمير دمرداش اليوسفى ،
وكذلك الأمير يلبغا النظامى ، وكذلك الأمير الطنبغا
السلطانى .

وأنعم على جماعة كثيرة من الأمراء بأمريات
طبليخانات وأمريات عشراوات .

عليه جماعة من الزعر والعياق ، فلما طلع النهار نزل السلطان المنصور الى باب السلسلة ، وجلس في المقعد المطل على الرملة ، وعلق الصنجق السلطاني ، ودقت الكنوسات حريبا ، فطلع بقية الأمراء واجتمع الممالك السلطانية ، فأقام الحرب بينهم عمالا الى يوم الاثنين ثاني عشرى صفر .

فلما طار البنج من رأس الأمير قرطاي وصحا من سكره ، ركب واجتمع بالأمراء فأشاروا عليه بأن يرسل فيسأل فضل السلطان في ذلك بأن يكون نائب حلب ، فأرسل يسأل السلطان في ذلك ، فأرسل له السلطان خلعة بأن يكون نائب حلب ، ورسم له بأن يخرج من يومه ، فخرج وتوجه الى نحو سرياقوس ... فلما أن خرج الأمير قرطاي أمسك السلطان جماعة من الأمراء ممن كان من عصبة الأمير قرطاي . ثم ان الأمير أقتمر الحنبلي نائب السلطنة أشار على السلطان بأن يقبض على الأمير أينبك البدرى .

فلما كان يوم الثلاثاء الثاني^١ والعشرين من صفر ركب الأمير أقتمر الحنبلي نائب السلطنة ليسير نحو المطرية ، فأرسل اليه الأمير أينبك البدرى هناك جماعة بخلعة وقال له : « توجه من هناك الى دمشق واستقر نائب الشام ، وان رجعت الى بيتك في هذا اليوم قتلتك » ... فما وسع الأمير أقتمر الا الطاعة ، وتوجه من هناك الى الشام . فلما توجه الأمير أقتمر الى الشام ، عمل السلطان الموكب وخلع على الأمير أينبك البدرى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن الأمير طشتمر المحمدى المعروف باللقاف ، وقبض على الأمير طشتمر اللقاف ونفاه الى القدس بطالا ، ثم أفرج عن الأمير أقتمر عبد الغنى وأعادته الى نيابة السلطنة كما كان أولا عوضا عن الأمير أقتمر الصاحبى

(١) كذا في الأصل . وهو يبنى « الثالث »

فأما الأمراء الطبلخانات فهم ييقجا الجمالى ، وقطلوبغا البشيرى ، وقطلو بك النظامى ، وأحمد ابن التركمانى ، وقطلو تجاه أخو أينبك البدرى ، وتربغا البدرى ، والطنبغا المعلم اليلغاوى ، وبلكتمر المنصورى ، ومقبر الرومى ، واستبغا الدارمى ، وأطلمش الطازى ، وأربغا السيفى جبغا ، وأبراهيم بن قلقتمر العلائى ، وعلى بن أقتمر عبد الغنى ، واستبغا النظامى ، وماتمور القلمطارى ، وأطلمش الأرغونى .

وأما العشراوات فمنهم : محمد بن قرطاي الطازى ، وخضر بن الطنبغا السلطاني ، ومحمد بن شعبان بن يلبغا العمرى ، وتكا الشمسى ، واستبغا المحمودى ، وطيج المحمدى ، وتلكتمر المنجكى ، وأقبغا السيفى الجاى ، وچركس السيفى الجاى — وهو الذى خنق الملك الأشرف شعبان — وطفتمش السيفى يلبغا ، وطوغان العمرى الشاطر ، وخليل بن أمتدمر العلائى ، ورمضان بن صرغتمش الناصرى ، وأخوه حسن ، ويوسف بن شادى ، وخضر الرسولى ، وقطلوبغا أمير علم ، وسودون العثمانى شاد الزردخاناه ، وأستمر الشرفى ، ومنكلى بغا الطرخانى ، ومغلطاي الشرفى .

ثم نفى جماعة من الأمراء ، وأفرج عن جماعة منهم ممن كان فى السجن بغير الاسكندرية من أيام الأشرف شعبان .

سنة تسع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٧ / ٧٨ م) :

ففيها فى يوم الأحد الحادى والعشرين من شهر صفر عمل المقر السيفى قرطاي الطازى رأس نوبة النوب وليمة ، فأهدى اليه المقر السيفى أينبك أمير أخور ششن ، وعمل له فيه بنجا مرقدا ، فلما شرب منه الأمير قرطاي تبنج ونام حتى طلعت الشمس ، فركب الأمير أينبك البدرى ولبس آلة الحرب وطلع الى الرملة هو ومماليكه ، والتف

الشهير بالحنبلى ، وخلع على الأمير الطنبغا السلطانى واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير قطلوبغا البدرى ، وخلع على الأمير دمرداش اليوسفى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير قرطاي الطازى ، ثم نفى جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وأنعم على جماعة كثيرة من غيرهم باقطاعاتهم ، وخدمت هذه الفتنة .

ثم ان الأتابكى أئبىك البدرى وقع بينه وبين الخليفة المتوكل على الله أمور ، وخلعه من الخلافة وولى زكريا بن ابراهيم بن عم المتوكل على الله من غير مبايعة ولا عهد ، وتلقب زكريا بالمعتصم بالله ، وكانت ولايته من نوع التعصب على المتوكل ، واستمر الحال ساكنا .

ثم ان الأتابكى أئبىك أسكن جماعة من مماليكه فى مدرسة السلطان حسن ، وأسكن جماعة من مماليكه أيضا فى مدرسة الأشرف شعبان التى كانت فى رأس الصوة ، وصار يتصرف فى أمور المملكة بحسب ما يختار من ذلك . وكان له ولد صغير فأعطاه مقدمة ألف .

ولم يزل على ذلك حتى جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن النواب جميعا خامروا وخرجوا عن الطاعة . فلما تحقق الأتابكى أئبىك ذلك علق من يومه الجاليش السلطانى على الطبلخانات ، وعين الأمراء والعسكر الى التجريدة نحو بلاد الشام . ثم انه عرض العسكر وأنفق عليهم ، وخرج مسرعا على جرد الخيل ، وأخذ معه السلطان الملك المنصور عليا فى محفة ، وخرج فى تاسع عشر ربيع الأول من السنة المذكورة وتوجه الى هناك .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى السابع والعشرين من تموز من الشهور الرومية ، أظلم الجو ، وأمطرت السماء مطرا شديدا برعد وبرق

حتى سأل المطر كالغدران . ولما أراد السلطان أن يخرج الى التجريدة فصل الخليفة زكريا من الخلافة ، وولى محمدا المتوكل كما كان أولا ، وأخذه معه فى التجريدة ، فكانت مدة الخليفة زكريا فى الخلافة عشرين يوما لا غير ، وأعيد المتوكل الى الخلافة كما كان . فكانت خلافة زكريا كسنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم .

فلما رحل السلطان من القاهرة ووصل الى بلبس رجع الى القاهرة على حين غفلة . وكان سبب ذلك أن الأمير قطلوفجاء — أخا الأتابكى أئبىك البدرى — كان فى الجاليش قدام العسكر ، فبلغه أن جماعة من المماليك السلطانية قصدوا أن يكبسوا عليه ليقتلوه ، فهرب تحت الليل هو وثلاثة من الأمراء ودخلوا الى القاهرة . فلما تحقق أئبىك ذلك ، وأن العسكر قد انقلبوا عليه ، أخذ السلطان الملك المنصور عليا ورجع الى القاهرة فطلع السلطان الى القلعة وقد ماجت المدينة وكثر القال والقليل بين الناس .

فلما كان يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر من السنة المذكورة رجع الأمراء والعسكر الذين كانوا صحبة السلطان فدخلوا الريدانية ، وهم على حمية ، فلبسوا آلة الحرب من وقتهم واجتمعوا فى سوق الحيل . وكان العسكر جميعهم مقلوبا على الأتابكى أئبىك البدرى . فلما تحقق أئبىك أن الركبة عليه ، نزل من القلعة هو وجماعة من الأمراء والمماليك السلطانية فوقعوا مع العسكر الذين فى الرميعة ، فكان بينهم واقعة عظيمة حتى جرى الدم مثل الماء ، فانكسر الأمير قطلوفجاء أخوه الأتابكى أئبىك ، وقبضوا عليه . فلما رأى الأتابكى أئبىك ذلك ساق فرسه وهرب من باب القرافة وتوجه الى نحو الكيمان التى بمصر العتيقة ، فساق خلفه الأمير أيدمر الخطائى مع جماعة من الأمراء والمماليك

السلطانية فأدركه ، فنزل عن فرسه ورمى ملابسه بين الكيمان وهرب وهو ماش فاخفى هناك .

فلما هرب أينبك طلع الأمراء الى باب السلسلة ، وصار المتحدث يومئذ في أمور المملكة المقر السيفي قطلقتمر العلائي الطويل ، فملك باب السلسلة وأقام بها ، فاجتمع الأمراء وضربوا بينهم مشورة ، وطلعوا الى باب السلسلة ، وقبضوا على الأمير قطلقتمر العلائي وقيده .

ثم في صبيحة يوم الأحد ظهر الأتابكي أينبك في مكان في كوم الجارح ، فأرسل الأمير يلبغا الناصري فقبض عليه وقيده ، وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية ، وأرسل معه جماعة من الأمراء ممن كانوا من عصيته . وفيه يقول الشيخ شهاب الدين ابن العطار المصري رحمه الله :

من بعد عز قد ذل أينبكا

وانحط بعد السمو من فتكا

وراح يبكي الدماء منفردا

والناس لا يعرفون أين بكى

فلما توجه أينبك الى السجن جرى له ماجرى ، وانتفى مع الجماعة من الأمراء .

وأينبك هذا هو صاحب الدرب الذي في السبع سقايات .

ثم ان جماعة من الأمراء لبسوا آلة الحرب واقتتنوا في بعضهم ، وكان رأس الفتنة الأمير برقوق العثماني ، والأمير بركة الجوباني ، والأمير يلبغا الناصري ، والأمير بوري الحلبي الأحمدى — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمير أقبغا أمن الشيخوني ... فاتفق هؤلاء الأمراء مع جماعة من الأمراء ، فانكسر منهم طائفة وهم : الأمير دمرداش اليوسفي ، والأمير تمرباي الحسيني ، والأمير قطلوبغا الشعباني ، والأمير

دمرداش اليمان تمرى العلم ، والأمير أستدمر العثماني ، والأمير يجمان العلائي أمير مشوى ، والأمير استبغا التلكي . فلما انكسر هؤلاء الأمراء ، قبضوا عليهم وقيدهم وأرسلوهم الى السجن بشعر اسكندرية .

ثم ان الأمير يلبغا الناصري أقام في باب السلسلة ، وملك الاسطبل السلطاني ، وصار يحكم فيه بين الناس . فاستمر على ذلك سبعة أيام فلم يطق ذلك الأمير برقوق والأمير بركة ، فهجموا على الأمير يلبغا الناصري وقت الظهر ، وأنزلوه من باب السلسلة الى بيته فأقام به .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع فيه على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفي برقوق العثماني واستقر به أمير أخور كبير ، وخلع على المقر بركة واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير الطنبغا السلطاني .

ثم أرسل خاصكيا مطردا على جرد الخيل ليحضر المقر السيفي طشتمر نائب الشام ، فلما حضر خرج السلطان الى تلقيه وسائر الأمراء ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن أينبك البدرى .

ولما أن حضر الأمير طشتمر نائب الشام حضر صحبته جماعة من الأمراء الذين كانوا بدمشق وهم : الأمير تمرباي الدمرداش ، والأمير تغرى برمش العلائي ، والأمير سودون الشيخوني ، والأمير طقتمش اليلبغاوي . فلما حضروا أنعم عليهم السلطان بتقادم ألوف ، وخلع على الأمير تمرباي الدمرداش واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير دمرداش اليوسفي .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن جماعة من الأمراء ممن كانوا مسجونين بشعر الاسكندرية ، وهم : الأمير سودون المنجكي ، والأمير قطلوبغا

البدري ، والأمير الطنبغا السلطاني ، والأمير إياس الصرغتمشي ، والأمير قطلو بغا البشيرى ، والأمير أصبغا الناصرى الصارمى — وهو صاحب الخوض المنسوب اليه — وغير هؤلاء جماعة كثيرة ممن كان منفيًا في البلاد الشامية وغيرهم .

وفيها — في ثالث عشر شوال — توجه الأمير بلاط السيفى الجاى أمير حاج الى نحو الريس بشبرمنت . فلما أقام هناك أرسل اليه السلطان خلعة ورسم له بأن يتوجه الى طرابلس يستقر بها نائباً ، فأجاب بالسمع والطاعة ، وخرج من هناك من يومه . فلما وصل الى غزة رسم له بأن يقيم في القدس بطالا .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير يلبغا الناصرى واستقر به أمير سلاح عوضاً عن بلاط السيفى الجاى .

وفيها ثارت فتنة بين ممالك الأتابكى طشتمر وبين ممالك الأمير الزينى بركة الجيوبانى ، فلبسوا آلة الحرب وتقاتلوا فى الرملة أشد القتال . فلما طال الأمر بينهم ركب الأتابكى طشتمر بعد العصر وطلع الى باب السلسلة عند المقر السيفى برقوق أمير أخور كبير . فلما طلع اليه قبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بشفر الاسكندرية هو وأمير حاج بن مغطاي .

فلما مضى ذلك عمل السلطان الموكب وخلع على المقر السيفى برقوق العثمانى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضاً عن طشتمر العلائى ، وخلع على المقر السيفى أيتمش البجاشى واستقر به أمير أخور كبير عوضاً عن برقوق . ثم ان الأتابكى برقوق قبض على الأمير يلبغا الناصرى أمير سلاح ، وقيده وأرسله الى السجن بشفر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على المقر

السيفى اينال اليوسفى واستقر به أمير سلاح عوضاً عن يلبغا الناصرى .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى ليلة الأحد الخامس والعشرين من ذى الحجة وقع حريق بظاهر باب زويلة عند باب دار التفاح ، فاحترق دار التفاح والربع الذى كان حوله ، ووصلت النار الى البراذعين ثم الى الموازين ، ولولا سور القاهرة لاحترق نصف المدينة فى تلك الليلة . فلما زاد الأمر ركب الأمير بركة والأمير أيتمش البجاشى ، والأمير قرا دمرداش الأحمدى ، والأمير تغرى برمش حاجب الحجاب ... فاجتمعوا هناك هم ومماليكهم وأخذوا السقائين من بيوتهم وصاروا يطفئون النار وهى لا تزداد الا وهجا واشتعالا ، فأقامت النار وبات الناس على وجل من ذلك ، وأعيوا عن اطفائها ، فأقامت على ذلك يومين بلياليهما والناس مائجة على بعضها . وفى ذلك يقول الشيخ شهاب الدين بن العطار فى المعنى :

أرتنا دار تفاح بليلى

حريقاً وقده أمسى عظيماً

ونالت بعد ذاك النور ناراً

وكانت جنة فعدت جحيماً

وقال الشيخ زين الدين بن حبيب العلبي :

يساب زويلة وفى حريق

أزال مصانى الحسن المصون

ودمر كل عال من بناء

وصير كل عال مثل دون

وعبرة عبرة الرائي أجسرى

يقينا كالعيسون من العيون

وما برح الخلائق فى ابتهال

لمحى الأرض من بعد المنون

الى أن قال فى لطف خفى

وفضل عناية : يا نار كونى

فاحترق في ذبك اليومين أكثر من خمسمائة دار
ودكان ، حتى لطف الله تعالى وانطفأت النار .

سنة ثمانين وسبعمائة (١٣٧٨ / ٧٩ م) :

فيها - في سادس ربيع الأول - قبض الأتابكى
برقوق على جماعة من الأمراء ، وهم : الأمير الطنبغا
العلائى ، والأمير قطلوبغا أمير علم ، والأمير استبغا
النلكى ، والأمير بلك الأحمدي ، والأمير غريب
الأشرفى ، والأمير جوبان الطيدمرى ، والأمير ثمان
تمر العثمانى ، والأمير فرطقا بن صوصون ، والأمير
يجمان العلائى أمير مشوى ، والأمير أقبغا بلشون
... فلما قبض على هؤلاء الأمراء قيدهم وأرسلهم
الى السجن بشغر الاسكندرية .

ومن الحوادث في هذه السنة أن في يوم الاثنين
رابع عشر شعبان ركب الأتابكى برقوق ليسيروا
نحو المطرية ، وكان الأمير بركة الجوبانى مسافرا
في اقطاعه نحو البحيرة ، فاغتنم الأمير اينال اليوسفى
أمير سلاح هذه الفرصة ، فركب هو ومماليكه ،
ولبسوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرملة ، فتسامعت
به جماعة من الأمراء ، فركبوا وطلعوا الى الرملة .
وكان الذين ركبوا مع الأمير اينال اليوسفى هم
الأمير سودون جركس المنجكى ، والأمير سودون
النوروزى ، والأمير صصلان الجمالى ، والأمير
جمق الناصرى ، والأمير حطط ، وغير ذلك من
المماليك السلطانية ... فاجتمعوا في الرملة .

ثم ان الأمير اينال اليوسفى حطم وطلع الى باب
السلسلة وجلس في الحراقة التى في الاصطبل ، ثم
انه فتح زردخانه الأتابكى برقوق وأخرج ما فيها
من السلاح ، ووجد بعض مماليك صغار من مماليك
برقوق فألبسهم آلة الحرب وأوقفهم على سور باب
السلسلة فقال الأمير سودون المنجكى للأمير اينال :
« دعنى آخذ معى جماعة من المماليك وأخرج الى

برقوق وأقاتله حتى أن يرجع » ... فلم يوافقه الأمير
اينال على ذلك ، ولو فعله لكان صوابا .

فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك ، رجع من أثناء
الطريق ، ودخل الى بيت الأمير أيتمش البجاشى ،
فقام الأمير أيتمش وفتح زردخانه وألبس مماليكه
ومماليك الأتابكى برقوق ، وخرجوا على حمية ،
وطلعوا الى الرملة ، فوقعوا مع الأمير اينال
اليوسفى والأمير سودون المنجكى وبقية الأمراء
واقعة قوية ، وقتل فيها جماعة من المماليك
السلطانية .

ثم ان برقوق حاصر باب السلسلة ، فلما رأى
مماليك برقوق الذين أقعدهم الأمير اينال على سور
باب السلسلة استأذهم يحاصر باب السلسلة رموا
الأمير اينال بالنشاب وهو جالس في الحراقة ،
فجاءت نشابة في رقة الأمير اينال فتأثر لها ، فقام
من وقته وهرب من باب الاصطبل الذى في باب
القراقة ، فاخفى هناك في بعض الترب ، فطلع
الأتابكى الى باب السلسلة وملكه ، وانقض ذلك
المجمع .

ثم في أواخر النهار قبض بعض المماليك على
الأمير اينال اليوسفى والأمير سودون المنجكى
وأحضرهما بين يدى الأتابكى برقوق ، فقيدهم
وأرسلهم الى السجن بشغر الاسكندرية . وفي ذلك
يقول ابن العطار :

قد ألبس الله برقوقا مهابته

نهار الاثنين في عز وتمكين

وراح اينال مع سودون وانكسرا

وكان يوما عسيرا يوم الاثنين

وقوله أيضا فيه :

بغى اينال واعتقد الأمانى

تساعده فما نال المؤمل

ومد لأخذ برقوق يديه

ولم يعلم بأن الخوخ أسفل

وكان الأمير اينال صاحب الأمير بركة ، ولما جرت هذه الحركة كان الأمير بركة غائبا في البحيرة كما تقدم ، فلم يجد له اينال من ناصر ولا معين على ما جرى له . وفي ذلك يقول شهاب الدين بن العطار رحمه الله :

ما بال اينال أتى في مثل هذى الحركة
مع علسه بأنها خالية من بركة
ثم ان السلطان عمل الموكب وقبض على جماعة
من الأمراء ، منهم : الأمير سودون جركس المنجكي
والأمير سودون النوروزي ، والأمير صلان
الجمالي ، والأمير جيق الناصري ، والأمير قماري
الخازندار ... فلما قبض عليهم قيدهم وأرسلهم الى
السجن بئر الاسكندرية ، فهذا ما كان من حوادث
سنة ثمانين وسبعماية .

سنة احدى وثمانين وسبعماية (١٣٧٩ / ٨٠ م) :

فيها - في يوم الأربعاء مابح عشر صفر - أرسل
الأمير بركة يقول للأتابكي برقوق ان الأمير أيتمش
البجاشي ألبس مساليكه آلة الحرب ، وهو قاصد
الركوب ، فاضطرب الأتابكي برقوق من ذلك
وأرسل الى بيت أيتمش يكشف عن ذلك الخبر ،
فلم يجد لهذا الكلام صحة ولا خبرا .

فلما بلغ الأمير أيتمش ذلك ركب وطلع الى
الأتابكي برقوق في باب السلسلة . ثم ان برقوق
أرسل يطلب الأمير بركة بأن يطلع الى باب السلسلة
ويحقق ما ذكره في أمر أيتمش ، فأبى الأمير بركة
من الطلوع الى برقوق ، فترددت بينهم الرسل ،
والأمير بركة يمتنع من الصلح مع الأمير أيتمش .
ثم ان الأتابكي برقوق أرسل الى الشيخ أكمل
الدين الحنفي شيخ الحائقاء الشيخوية ، والى

الشيخ أمين الدين الخلوتي بأن يركبا ويتوجها الى
الأمير بركة ويسعوا في الصلح بين الأمير بركة وبين
الأمير أيتمش البجاشي ، فتوجه الأمير أيتمش صحبة
الشيخين ودخلوا الى بيت الأمير بركة ، فما وسع
الأمير بركة الا أنه خلع على الأمير أيتمش خلعة نح ،
وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فطلع الأمير
أيتمش وقبل يد الأتابكي برقوق ، وخمدت الفتنة
التي كانت .

فلما كانت ليلة الجمعة تاسع عشر صفر ركب
جماعة من الأمراء ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى
الرميلة . وسبب ذلك أن الأمير بركة ألبس مساليكه
آلة الحرب وقصد الركوب . فلما تحقق الأمراء
ذلك ركبوا قاطبة ، وطنعوا الى الرميطة واضطربت
الأحوال ، فعند ذلك أرسل الأتابكي برقوق خلف
القضاة الأربعة ورسم لهم بأن يتوجهوا الى بيت
الأمير بركة ، ويسعوا بينه وبين الأمراء في الصلح
واخماد الفتنة ، فأصلح القضاة بينهم ، وتحالفوا
وزال ما كان في خواطرهم من الحقد ، وطلعوا الى
القلعة في يوم السبت ولعبوا الكرة والصولجان ،
وأقاموا على ذلك مدة يسيرة والأمر مبنى على
السكون .

فلما كان يوم الاثنين سابع ربيع الأول ركب
الأتابكي برقوق ليسير نحو المطرية ، وركب معه
جماعة من الأمراء ممن كانوا من عصبته . فلما
رجعوا ، طلع الأتابكي برقوق الى باب السلسلة ،
ورجع الأمراء الذين كانوا معه الى بيوتهم .

ثم ان الأتابكي برقوق جاءه ولد ذكر من سرية
فسماه محمدا ، فلما كان يوم سابعه عمل له الأتابكي
برقوق عقيقة ، واستدعى سائر الأمراء فلم يتأخر
عنه أحد من الأمراء غير الأمير بركة الجوباني فإنه
لم يطلع اليه - وكانت قد دبّت بينهما عقارب

الفتن — وكان الأمير بركة صاحب الأتابكى برقوق
صحية مؤكدة لا يعرف أحد ما بينهما ، فلا زال
الأمراء يرمون بينهما الفتن حتى أوقعوا بينهما ،
وصار كل منهما غدوا لصاحبه ، كما قيل : « مثل
بعض الحكماء : كيف يمكن أن يبقى الصديق عدوا
ولا يمكن أن يبقى العدو صديقا ؟ فقال : لأن
تخريب العامر أسهل من عمارة الخراب ، وتكسير
الزجاج أسهل من تصحيحه اذا كان مكسورا ... »

فلما تخلف الأمير بركة عن الطلوع الى الأتابكى
برقوق ، مد السباط ، وأكل الأمراء ونزلوا الى
بيوتهم ، فقبض الأتابكى في ذلك اليوم على ثلاثة
من الأمراء ممن كان من عصابة الأمير بركة — وهم :
الأمير قرا دمرداش الأحمدي ، والأمير طيح المحمدي
والأمير أقتمر العثماني — وأمسك معهم أخا الأمير
بركة ، وهو صراي الرحبي الطويل .

ثم ان الأتابكى برقوق ألبس مماليكه آلة الحرب
وأوقفهم على سور باب السلسلة ، ونزل الأمير
نزلار العمري وهو سائق الى مدرسة السلطان
حسن ، فدخلها مع ممالك الأتابكى برقوق ، فطلعوا
الى سطح المدرسة ، ورموا بالنشاب على الأمير
بركة وهو جالس في مفعده ... وكان الأمير بركة
ساكنا في بيت شيخو الذي عند باب الرميلة .

فلما رأى الأمير ذلك ركب وخرج من الباب
الكبير الذي بحدرة البقر هو وممالكه لأبسین آلة
الحرب — وكان معه بعض أمراء — فمر بالمدينة
وخرج من باب الفتوح وتوجه من هناك الى نحو
قبة النصر . ولما خرج الأمير بركة من بيته نادى
الأتابكى برقوق للعوام بأن ينهبوا بيت الأمير بركة ،
فأحرق العوام باب بيت بركة ، ودخلوا اليه ،
ونهبوا جميع ما كان فيه حتى أخذوا رخامه وأبوابه
وشبابيكه .

ثم ان الأمير بركة أقام في قبة النصر ذلك اليوم
فاجتمع عنده طائفة كثيرة من خشداشينه .

ثم ان الأتابكى برقوق عين الأمير ألان الشهباني
والأمير أيتش البجاشي ، والأمير قرطاي التركماني
وجماعة كثيرة من الممالك السلطانية ، وتوجهوا
الى الأمير بركة في قبة النصر وقت الظهر ، فوقعوا
هناك معه واقعة قوية ، فكسرهم الأمير بركة
وسحبهم الى تحت القلعة فحال بينهما الليل عن
القتال .

فلما أصبحوا يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع
الأول نزل السلطان الملك المنصور على الى باب
السلسلة ، وجلس في المقعد المطل على الرميلة ،
وعلق الصنجق السلطاني ودقت الكاسات حربى ،
فاجتمع الأمراء والممالك السلطانية ... فلما كان
وقت القائلة بعد الظهر أرسل الأمير بركة يقول
للأتابكى برقوق : « ايش أنت قاعد تعمل ؟ اما أن
تجيبني أو أنا أجيبك الى الرميلة ... فأرسل يقول
له الأتابكى برقوق : « اختر أنت في أى مكان
نلاقك ، ويعطى الله تعالى النصر لمن يشاء وتخذ
هذه الفتنة عن المسلمين » .

فلما سمع ذلك الأمير بركة حنق ، وكان السلطان
أرسل اليه خلعة وهو في قبة النصر بأن يستقر نائب
طرابلس ويتوجه من هناك ، فلم يوافق الأمير بركة
على ذلك ، واستمر القال والقال بينهما عمالا .

ثم ان بعض خشداشين الأمير بركة أشار عليه
بأن يركب في ذلك الوقت ويحطم الى الرميلة ، فان
العسكر الذين مع برقوق مقيلون في هذا الوقت
في بيوتهم ، والرميلة خالية من العسكر ، وكان
ذلك اليوم شديد الحر ... فركب الأمير بركة في
ذلك الوقت وقسم العسكر الذين معه فرقتين ، وأمر
فرقة أن تنضى من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة
تنضى الى الرميلة .

دخلا عليه أخذه وأركباه على فرس وطلعا به الى القلعة ، فلما طلع قيدوه وأرسلوه الى السجن بشعر الاسكندرية . وفي ذلك يقول ابن حبيب الحلبي :
يا ويحها من حالة وشؤمها من حركة
وقبحها من فتنة فيها أزال بركة
وقال القيم خلف الغباري :

مصر صارت بعد اقتباس في انشراح
وقلمها مزخرف والقصور
يا الهى احفظ لنا برقوق
واحرس الجند وانصر المنصور

جمل الله لكل وقعة سبب
ونقول لك سبب هذه الوقعة
بركه راد يعمل على آيتش
والى الشام يسيروا سرعه
طلب الصلح بينهم برقوق
فأرسلوا له اخلع عليه خلع

وبقى بعض ما بقى فى النفوس
والعليل ما اشتفى بصل الصدر
وقد أمسوا على حذر بايتين
وايش يفيد الحذر مع المقدور

أصلحوا بينهم نهار جمعه
وصفى ودهم وطابوا الجميع
جا آيتش عصبة الأمير برقوق
وبقى كل أحد لأمرو مطيع
فمسك فى نهار الاثنين طيح
ودمرداش الدوادار سريح

بركه حين سمع بذلك طلب
قبلة النصر خوف من المقدور
كان حذور حتى وقع فى الشرك
والمثل قال ما يقع الا العذور

فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك أرسل جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية الى الفرقة التى فيها الأمير بركة ، فلاقوه بين الترب فوقعوا معه هناك واقعة قوية من بعد الظهر الى قرب المغرب ، فانكسر الأمير بركة وهرب ، وتفرق من كان معه من المسكر من شدة الحر .

ثم ان طائفة من المماليك سجدوا الأمير بركة حتى تقنطر من على فرسه ، فقام وهرب وهو ماش حتى اختفى .

وأما الفرقة التى أرسلها من تحت الجبل الأحمر فانه كان فيها الأمير يلغا الناصرى أمير سلاح ، فتوجه اليه الأمير آيتش البجاشى ووقع معه ، وتقدم اليه الأمير آيتش وضربه بطير كان معه على وجهه فسقط الى الأرض مغشيا عليه وانكسر من كان معه من المسكر ، فنهب الزعر المسكر الذين كانوا مع يلغا ، وقتل من المماليك الذين كانوا معه ما لا يحصى ومن الغلمان كذلك ، فأخذ الأمير آيتش صنجق يلغا الناصرى وطلباخته وأتى بهما الى الأتابكى برقوق ، وقبض على جماعة كثيرة من المماليك السلطانية ممن كان راكبا مع الأمير بركة . وجرح فى هذه الواقعة من المسكر والغلمان ما لا يحصى .

وقيل : لما هرب الأمير بركة اختفى فى بستان حتى دخل الليل — وكان معه شخص من الأمراء العشراوات يقال له أقبغا ميوان — فتوجه الأمير بركة الى شخص من الصالحين يقال له الشيخ محمد المقدسى ، وكان مقيما فى جامع المقس الذى فى باب البحر ، فاخفى بركة عنده ، فلما طلع النهار أرسل الأمير بركة يعرف الأتابكى برقوق بأنه فى جامع المقس عند الشيخ محمد المقدسى ، فأرسل اليه الأتابكى برقوق فى ساعته الأمير الطنبغا الجوبانى ، والشرفى يونس دوادار الأتابكى برقوق . فلما

ولما وقعت هذه الفتنة أقامت أبواب مصر هي والأسواق مقفلة ثلاثة أيام حتى أمسكوا بقية الأمراء الذين ركبوا مع الأمير بركة ، وهم : الأمير قرا كشك اليلغاوى ، والأمير أيديمر الخطائى ، والأمير سودون الطيقتى ، والأمير يلغا المنجى ، والأمير قرا بلاط الأحمدي ، والأمير قرا بغا أبو بكرى ، والأمير تبرغا الشمسى ، والأمير كرك القرمى ، والأمير قطلو بك النظامى ، والأمير أقبا صيوان ، والأمير طولوتنو الأحمدي ، والأمير تنكر العثمانى ، والأمير غريب الأشرفى ، والأمير الطنبغا الأرغونى ، وأمير حاج بن مغلطى ، والأمير طوجى الحسنى ، ويوسف بن شادى ... فلما أمسك هؤلاء الأمراء قيدوا وأرسلوا الى السجن بشعر الاسكندرية ، وأرسلوا طائفة منهم الى ثغر دمياط ، وطائفة منهم الى قوص ، وراقت هذه الفتنة وخمدت .

ثم ان السلطان أفرج عن جماعة من الأمراء ممن كانوا بالسجن معتقلين ، وأنعم عليهم باقطاعات من نفى من الأمراء عوضا عنهم ، واستمر الحال ساكنا .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من الشام بأن نائب الشام يدمر الخوارزمى خامر وخرج عن الطاعة ، ولما أن خامر قبض عليه عسكر دمشق وقيدوه وسجنوه بقلعة دمشق وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، وأنه أخرج بركة وعياله من الشام وقصد الهرب الى نحو بلاد التركمان ، فقبضوا عليه وسجنوه بقلعة دمشق الى أن يفعل فيه السلطان ما يريد . فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك أرسل يطلب يدمر الخوارزمى الى القاهرة ، وعين لذلك خاصكيا .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الأمير ألان الشعبانى ، واستقر به أمير سلاح عوضا عن

يلغا الناصرى ، وخلع على الأمير الطنبغا الجوبانى واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير بركة الجوبانى ، وخلع على الأمير ألان بغا العثمانى واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير الطنبغا المعلم واستقر به رأس نوبة النوب ثانى .

ثم ان السلطان عمل الموكب الثانى وخلع فيه على من يذكر من الأمراء وهم : الأمير چركس الخليلى واستقر به أمير أخور كبير . وخلع على الأمير كشبغا الأشرفى واستقر به شاد الشربخانات السلطانية . وأنعم على جماعة كثيرة من الخاصكية بامريات عشرة ، منهم : أقبا الناصرى المعروف بالقندسى ، ومنهم تنكر بغا السيفى يلغا ، ومنهم قطلوبغا الكوكاى فخلع عليه واستقر به حاجبا ، ومنهم الأمير سودون باق ، ومنهم طوجى العلائى وفارس الصرغتمشى ، وكشتبغا الخاصكى ، ويرم العلائى ، وقوصون المحمدي الأشرفى ، وأقبا الأجنبى ، وبيرش الشان ترمى ، وغير ذلك من الأمراء جماعة كثيرة — منهم طبلخانات ومنهم عشراوات — فاستقامت الأحوال ، وسكن الاضطراب .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن جاءت الأخبار من البحيرة بأنه قد جاءت على دمنهور طائفة من العربان نحو خمسة آلاف انسان ، وكان كبير العربان يسنى بدر بن سلام ، فكبسوا على دمنهور ونهبوا أسواقها والبيوت ، وأخربوا عدة بلاد . فلما سمع الأتابكى برقوق بذلك عين فى ذلك اليوم ثمانية أمراء مقدمين — وهم الأمير ألان الشعبانى أمير سلاح ، والأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس ، والأمير أيتمش البجاشى رأس نوبة النوب ، والأمير نأموور القلطاوى أحد المقدمين ، والأمير بلاط الصرغتمشى أحد المقدمين ، والأمير بهادر الجمالى ، والأمير نزار المعرى الناصرى

أحد المتقدمين — فهذه ثمانية أمراء مقدمين .
وعين من الأمراء الضليخانات عشرة ، ومن الأمراء
العشراوات اثني عشر ، ومن الممالك السلطانية
نحو أربع مائة مملوك ، وأمرهم بأن يخرجوا من
يومهم .

فلما كان يوم الجمعة رابع عشر جمادى الأولى
من السنة المذكورة ، صلى الأمراء صلاة الجمعة
وخرجوا قاطبة مع العسكر ، وعدوا من بر مصر
الى الجزيرة ، فقام العسكر مشقة عظيمة في
التعدية حتى عدوا . فلما تكامل العسكر رحلوا
من الجزيرة وتوجهوا الى نحو البحيرة . فلما مضى
ثلاثة أيام حضر أمير أخور كبير أيتمش البجاشي
وأخبر بأن العسكر لما وصلوا الى البحيرة وضربوا
خيامهم وباتوا في تلك الليلة ، أراد العرب أن
يكبسوا على العسكر وهم في الخيام ، فجاء
شخص من العرب الى الأمراء وأخبرهم بأن العرب
قصدون أن يكبسوا على العسكر وهم في الخيام
تحت الليل . فلما سمع الأمراء والعسكر ذلك
خرجوا من الخيام تحت الليل وأكتموا كميناً بالقرب
من الخيام . فلما انتصف الليل هجم العرب على
الخيام فوجدوها خالية ليس بها أحد ، فرجع عليهم
الترك ولعبوا فيهم بالسيف ، وأحاطوا بهم فقتلوا
منهم نحو ألف انسان وأسروا منهم أكثر من ذلك
من نساء وصغار وبنات ، ولم ينج منهم الا القليل ،
وأخذوا جملهم وأغنامهم وخيولهم وأموالهم
وأولادهم .

وأما بدر بن سلام كبير العربان فإنه لما رأى
ذلك هرب تحت الليل الى نحو الجبال . فلما
حصلت هذه النصرة للعسكر قصدوا التوجه الى
نحو الديار المصرية ، فكان يوم دخولهم الى
القاهرة يوماً مشهوداً ، فدخلوا بالأماري وهم في

(١١) لم يذكر سوى سبعة .

زناجير ، والنساء في جبال وهن حاملات أولادهن
مشاة ، فلما حصل ذلك خرج أهل مصر جميعاً
للفرجة عليهم ، فكان لهم يوم عظيم في القصص
والفرجة عليهم .

وفي هذه الواقعة يقول القيم خلف الغباري هذه
القطعة الزجل :

باسم رب السما أبتدى فارج الهم والكرب
ويفيد للذي حضر قصة الترك والعرب

جاء الخبر يوم الأربعاء بأن في ليلة الأحد
جاء منهور عرب خذوا سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذي للجميع حشد

فبرز أيتمش سريع بمالك وروس نوبه
وعدد ما لها عدد ويطلبوا لهم طلب

والأماري المعينين كل واحد بجيش بدا
عدا بعد الصلا وراح وغدا قصد للعدا
في المعادى رأيت لهم يوم زحام فايش غدا

لتروجا تروحوا واستراحوا من التعب
ونصب كل أحد خيام ولصيد العدا انتصب

حضر ما التقوا أحد من جميع العرب حضر
وابن عرام أتى لهم بعثوه يكشف الخبر
ما عرف للعرب طريق بعد وجا عبدو في الأثر

لايتمش حدثوا الصحيح قام سريع أيتمش ركب
ما ترك تركي في الوطاق والخيام حيل قد نصب

راحت الترك من مكان وأتى بدر من مكان
وتفرعن وجا الوطاق ولهم قال أنا فلان
ولموسى بن خضر صاح مات بطعنة من السنان

ورأى الترك داركوه	في طلوع النهار هرب	باب نزيل نزل الدما	من ماله الجلب
شحتوا أيتش سريع	ورقاب من معو ضرب	البهميره من الفتن	سعددها زال واختفى
واقعة حرب ذى العرب	لاغنا مالها لبنا	وبقى فرحها حزن	وقد تكدر الصفا
بدر في الليل بعاديات	جا البلد والنسا سبا	والناس قالت ايش جرا	والذى قد جرى كفى
طلبوا النصر جالهم	مالهم في القصص سبا	قالوا من تحت راس يديره	مالو بتقلو قد انتهب
في القتال كان لهم نهار	لو تراه ساعة اقترب	وبنات الخدور سبوا	قلت سبوه فهو السبب
يوم قيسامه وكم عرب	جائية فيه على الركب	جا ابن سلام معو رجال	كل حد شهوتو رغيف
جس ذى النوب بالسماع	قد فهمنا من الأصول	ذا على رقتو تفال	وذا في رقتو شليف
في الخروج ثابت العرب	فازت الترك بالدخول	وذا لو درع سيسبان	وذا لودرع خوص وليف
والسهم شبيت على	جس الأوتار بالفضب	والقى قسى من نخيل	وخرايطهم الجعب
غنت البيض على الخود	رقصوا الخيل من الطرب	وصواريهم الجريد	وخودهم قصع خشب
وابن سلام مع الأجل	فاز بنفسو على فرس	فاعل النحاس في القياس	ما عرف صنعة البنا
والأمير أيتش رحل	لتروجا سريع كبس	جا بنى شىء بلا أساس	هصدت الترك ما بنى
في البيوت حارت النفوس	ما التقى حد لو نفس	وتروجا المعسره	خربت حين لها دنا
نبشوه من الشون	قببوه من القب	قلعوا أبوابها الجميع	والمسكات مع العتب
وخدوا فضة الجميع	وجميع مالهم ذهب	يسكوا بدر يعتبوه	وعليه يوقع العتب
وقع القتل في الرجال	وقد انتهك الحريم	بصدر تبت يدا أباه	لصالح النسا فسد
والذى كان مقيم رحل	ما عليها أحد مقيم	كم مليحه أنت وفي	جيدها حل من مسد
وكم انسان بسيف وقوس	ما عرف له هناك غريم	ولى قال شخص من حنين	بدر في ذى الذى قصد
جيد السيف من الجفير	ولراس من لقيه ضرب	أبو جهسل قلت لا	الا قلبو أبو لهب
وان حماء مشترى النفاذ	سرعا بالقوس عليه عقب	قال لى وامر توايش تكون	قلت حمالة الحطب
لما تروا السيوف دما	ساعة النحر في النحور	حسن غلب منى راجحى	وانكسر كسر ما انجبر
اعتقدت انها تحيض	صرت تعجب لذي الأمور	قالت أقوام بعد سوء	أنت قيسم ديار مصر
قال فتى بابلى اللحاظ	كيف يحضو وهم ذكور	جا الحكم طابقى وقال	يا غبارى جرى خبر
ألا ذا ساحر القتال	أيتش للسيوف كتب	لديار مصر قيسين	في الزجل ذا يكن عجب
		قلت ذا قيم السفه	وأنا قيسم الأدب

ان بعض المماليك شق بطنه بالسيف وأخرج كبده وجعل يمضغه من شدة خنقه . ثم ان بعض الناس جمع أعضاء خليل بن عرام ودفنها في مدرسته التي أنشأها عند قنطرة الأمير حسين بن جندر على الخليج الحاكمى ... وصارت هذه الواقعة مثلاً عند أهل مصر ، يقولون : « نعوذ بالله من حمل ابن عرام » ...

وكان الأتابكى برقوق أرسل الى ابن عرام مراسيم في الدس بقتل الأمير بركة ، فأنكر برقوق ذلك وأرسل أخذ منه تلك المراسيم ، وراحت هذه الواقعة في رقبة ابن عرام وراح مظلوما في ذلك بين برقوق ومماليك الأمير بركة .

وقد قال بعضهم في المعنى :

مخالط السلطان في محنة

يرتقب الأوقات في عكسه

ان سره أسخط خلاقه

أوسبائه خاف على نفسه

وفي واقعة خليل ابن عرام يقول شهاب الدين بن العطار المصرى رحمه الله :

بدت أجزاء ابن عرام خليل

مقطعة من الضرب الثقيل

وأبدت أبجر الشعر المرائى

محيرة بتقطيع الخليل

وقيل ان الشيخ يحيى الصنافيرى والشيخ بهار ،

بشرا عن خليل بن عرام أنه ما يموت الا مسرعا

مقطعا . وقال المقرئى ان خليل بن عرام كان شرع

قبل موته في كتابة تاريخ يذكر فيه أشياء من وقائع

الأحوال ، فلما جرى له ماجرى قال فيه ابن العطار :

أيا ابن عرام قد سمرت مشتهرا

وصار ذلك مكتوبا ومحسوبا

ومن الحوادث في هذه السنة قد جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الأمير بركة الجوبانى قد مات وهو بالسجن ، فأرسل الأتابكى برقوق دوا داره الشريفى يونس لكشف أخبار موته على حين غفلة . فلما توجه الشريفى يونس الى ثغر الاسكندرية وكشف عن ذلك ، وجد خليل بن عرام نائب الاسكندرية قد قتله ودفنه في بعض التراب هناك ، فنبش عليه الشريفى يونس وأخرجه من القبر فوجد ثلاث ضربات في رأسه وهو مدفون في ثيابه من غير غسل ولا تكفين ، فغسله الشريفى يونس وكفنه وصلى عليه ودفنه خارج باب رشيد وبنى عليه قبة وكتب بذلك محضرا .

ثم انه أخذ خليل بن عرام صحبته وأتى به الى القاهرة وهو في الحديد . فلما حضر الشريفى يونس وطلع الى القلعة أودعوا خليل بن عرام في خزانة الشمالى وباتوا يعاقبونه ويعصرونه لأنه قد قيل عنه انه لما قتل الأمير بركة كان في رأسه فصوص مثمثة فأخذها منه ، فلم يقر ابن عرام بشيء من ذلك .

فلما كان يوم الخميس خامس عشرى رجب طلب الأتابكى برقوق خليل بن عرام فأخرجوه من خزانة الشمالى ، ومثل بين يدى الأتابكى برقوق ، فرسم بضربه بالمقارع فضرب مئة وثمانين شبيبا ثم رسم بتسميره ، فأخذ الأمير مأمور القلمطاوى حاجب الحجاب والأمير قطلقتمر أمير جاندار ، فأحضر له جبلا ولعبه وسمره عليه ، فلما نزلوا به من القلعة وهو مسر ، ووصلوا به الى باب السلسلة ، جاء اليه مماليك الأمير بركة وضربوه بالسيوف حتى مات ، ثم أنزلوه من على الجبل ، وصاروا يقطعونه بالسيوف قطعا ، فقطع بعضهم رأسه وأخذها وعلقها على باب زويلة ، وصار كل واحد من مماليك بركة يقطع من أعضائه قطعة ، وقيل

مازلت تجهد في التاريخ تكتبه

حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا

ومن الحوادث في هذه السنة أن في يوم الثلاثاء ثامن ذي القعدة حضر من بلاد الجراكسة والد الأتابكي برقوق ، فخرج الناس لملاقاته قاطبة ، فلاقوه من العكرشة — وقيل هو المكان الذي التقى فيه يوسف الصديق مع أبيه يعقوب عليهما السلام — فلما تلاقى برقوق مع أبيه تعانقا ثم ركبا ورجعا الى سرياقوس ، فمد له برقوق هناك سباطا عظيما ، وأقاما في سرياقوس الى ما بعد الظهر ، فجاءت اليه سائر الأمراء وأرباب الدولة حتى القضاة الأربعة .

ثم ان الأتابكي برقوق ركب من سرياقوس ودخل القاهرة ، فدخل من باب النصر ، وزينت له المدينة فشق من القاهرة وطلع الى القلعة . وكان والد الأتابكي برقوق جركسيا مغلقا ، لا يعرف ولا كلمة بالعربي . وكان اسمه « أنص » ، وقيل « أنس » بالسين . فلما كان يوم الموكب تقدم أيدير الشمسي أحد الأمراء المقدمين وقبل الأرض ، وسأل الأتابكي برقوق بأن يكون طرخانا ويرتب له ما يكفيه ، وأن تكون امرته الى والد الأتابكي برقوق ، فشكره الأتابكي على ذلك ورتب له ما يكفيه وجعله طرخانا كما طلب ، وأنعم السلطان بامرته على والد الأتابكي برقوق ، فلم يقيم الأمير أيدير الشمسي بعد ذلك الا ثلاثة أشهر ومات ، واستمر والد برقوق مقدم ألف .

وفي هذه السنة شرع الأتابكي برقوق في عمارة جسر الشريعة الذي بطريق الشام عند قرية أريحا على النهر الذي هناك ، وجعل طوله مائة وعشرين ذراعا وعرضه نحو عشرين ذراعا ، فصرف على ذلك جملة مال ، وكان به نفع عظيم للمسافرين ، وقد قيل في المعنى :

أيا ملكا بنى جسرا بعدل

به حمل الأنام على الشريعة

له شرف على الجوزاء سام

وفوق الحوت أركان منيعة

وفي هذه السنة توفي الشيخ ابراهيم المعمار صاحب الأشعار اللطيفة والأبيات العامرة بالمحاسن والتورية ، وقد رثاه الشيخ برهان الدين القيراطي بهذه الأبيات فقال :

مذعر المعمار دار البلى رمى بيوت النظم بالنقض
فياله من شاعر ميت بكى عليه طوبة الأرض

سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة (١٣٨٠ / ٨١ م) :

فيها جاءت الأخبار من البحيرة بأن سائر قبائل عربان البحيرة تحالفوا على العصيان ونهبوا البلاد ، فخرج اليهم ألان الشعياني أمير سلاح مع خمسمائة مملوك . فلما وصلوا اليهم وقع معهم ، فكسره العرب وقتلوا جماعة كثيرة من المماليك السلطانية . فلما جاءت الأخبار بذلك اضطربت أحوال الديار المصرية ، وعلق السلطان الجاليش ، وقصد التوجه الى البحيرة . ثم ان بعض الأمراء أشار بعدم خروج السلطان ، وأن سائر الأمراء يخرجون اليهم ، فجاءت الأخبار عن ذلك بأن نائب الاسكندرية حضر هناك وصحبته عربان كثيرة من عربان الغربية ، فوقعوا مع العربان فكسروهم كسرة قوية وهربوا الى نحو برقة ، فبطل العسكر الذين كانوا قد توجهوا اليهم .

وفيها توفي الأديب أحمد سميكة ، وكان شاعرا ماهرا في طبقة ابراهيم المعمار ، ومن شعره قوله :
شهر الصيام مبارك لو لم يكن في شهر آب
خفت العذاب فصته ف وقعت في وسط العذاب

سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (١٣٨١ م) :

فيها هجم النوباء بالديار المصرية ، ووقع الغلاء أيضا في تلك السنة .

الملك الصالح أمير حاج

هو الملك الصالح أمير حاج ، ابن الملك الأشرف شعبان ، ابن الأجد حسين ، ابن محمد بن قلاوون ، وهو الرابع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويج بالسلطنة بعد موت أخيه الملك المنصور على في يوم الاثنين رابع عشر صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (١٣٨١ م) . وتولى الملك وله من العمر نحو إحدى عشرة سنة .

وكانت صفة ولايته أن أمير المؤمنين محمدا المتوكل حضر والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني وسائر الأمراء ، فاجتمعوا عند باب الستارة وطلبوا من بقى من أولاد الملك الأشرف شعبان ، فوقع الاتفاق على تولية سيدي أمير حاج — وكان أكبر أخوته — فولوه السلطنة ولقبوه بالملك الصالح ، وأحضروا له خلعة السلطنة فلبسها . وركب من باب الستارة والأمراء مشاة بين يديه حتى وصل الى الايوان ، فجلس على سرير الملك ، والأتابكي برقوق حامل القبة والطيور على رأسه ، ثم دخل الى القصر ومد السباط ونادى باسمه في القاهرة وضج الناس له بالدعاء .

فلما تم أمره في السلطنة رسم بالافراج عن يدمر الخوارزمي نائب الشام — وكان معتقلا بشعر دمياط — فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب الشام على عادته .

ثم جاءت الأخبار من البلاد الحلبية بأن طائفة من التركمان لهبوا بعض ضياع حلب وحصل منهم غاية الفساد . فلما بلغ الأتابكي برقوق ذلك عين لهم تجريدة ، وخرج اليهم ثلاثة من الأمراء المقدمين وخمسائة مملوك ، فلما توجهوا الى هناك التقوا

وفيها حضر الى القاهرة الشيخ الصالح الزاهد الناسك العارف بالله تعالى الشيخ على الروبي ، أعاد الله علينا من بركاته . فلما حضر عند الأتابكي برقوق ، وأقام عنده يومين ، بشره من نفسه بأنه سيلى السلطنة في يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة . ومما بشر به الناس أنه بعد مضي شهر يرتفع الوباء من القاهرة ، ويستاقص الغلاء ، ثم يموت عقيب ذلك الملك المنصور على بن الأشرف شعبان .

وأقام الشيخ على الروبي في مصر أياما ثم توجه الى بلاده ، فما مضى قليل حتى أشيع بين الناس أن الملك المنصور عليا قد طعن وهو في حال العدم . فلما كان يوم الأحد ثالث عشر صفر فيه توفي الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان ، وكانت وفاته بعد الظهر ودفن في يومه ، وتولى تجهيزه الأمير قطلو بنا الكوكاي ، فغسله وكفنه وصلوا عليه بالقلمة ودفنوه في مدرسة جدته خوند بركة أم الملك الأشرف شعبان التي بالتبانة .

ومات الملك المنصور على وله من العمر نحو اثنتي عشرة سنة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية خمس سنين وثلاثة أشهر ونصفا . وكان جميل الصورة ، حسن الشكل ، قليل الأذى في حق الرعية . وكان مع الأتابكي برقوق في غاية الضنك ، ليس له في السلطنة الا مجرد الاسم فقط ، والأمر كله للأتابكي برقوق .

ولما مات الملك المنصور على لم يجسر برقوق أن يتسلطن بعده ، فأخرج سيدي أمير حاج أخا الملك المنصور على وسلطته عوضا عن أخيه على .

مع التركمان وكسروهم ، وقتلوا منهم جماعة كثيرة ، ونهبوا أموالهم وطردوهم الى ملطية ، ثم رجع العسكر الى القاهرة وهم في غاية النصرة .

وفيهما توفي الشيخ نظام الدين ، وهو صاحب النظامية التي بطاوق جبل القلعة .

ومن الحوادث في هذه السنة أن الأمير جركس الخليلي أمير أخسور كبير حسن للأتابكي برقوق وجماعة من الأمراء أن يعمل جسرا ما بين الروضة وبين جزيرة أروى - وكان البحر قد احترق في تلك السنة احترافا زائدا - فحفروا في وسط البحر خليجا من الروضة الى الزريبة ، وشرعوا في عمل جسر طوله نحو ثلثمائة قصبة وعرضه عشرة أقصاب ، وجعلوا بظاهر هذا الجسر خوازيق سنط كل خازوق نحو من ثمانية أذرع ، وسمروا عليها أفلاق خشب نخل وردموا عليها بالتراب ، وأعجز العمل من هذا الجسر في نحو من شهرين . وكان مبتدأ ذلك في ربيع الأول سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وفي ذلك يقول الأديب عيسى بن حجاج :

جسر الخليلي المقتر لقد رسا
كالطود وسط النيل كيف يريد
فاذا سألتهم عنهما قلنا لكم :
ذا ثابت دهر ، وذاك يزيد
وقال ابن العطار رحمه الله :

راع الخليلي قلب الماء حين طغى
بنى عليه لذا جسرا وجبره
رأى ترمل أرضيه وحدتها
والنيل قد خاف يغشاها فجسره

فلما زاد الماء وبلغ ثمانية عشر ذراعا أكل ذلك الجسر الذي تعب عليه الخليلي ، ولم يفد من ذلك

شيئا ، وزاد النيل في تلك السنة زيادة لم يعمد مثلها ... وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

قد قطع النيل جسرمصر ولم يراعى له خليل
تياره صال مثل سيف يقطع والمال له نصول

وفي هذه السنة زاد شر العربان في البحيرة حتى نهبوا المغل في البلاد . فلما بلغ الأتابكي برقوق ذلك عين لهم تجريدة فيها ستة أمراء مقدمين وخمسائة مملوك . فلما توجه الأمراء الى هناك هرب منهم العرب فغنم منهم العسكر نحو ثلاثة آلاف رأس غنم ، ومثلها جمال ، ومثلها معز ، فأخذ العسكر ذلك ورجعوا الى القاهرة .

ومن الحوادث في تلك السنة أن في يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان رقد الأتابكي وقت القائلة في البيت الذي بباب السلسلة ، وكان عنده شخص من الخاصكية يكبسه يقال له الشيخ الصفوى ، فلما أراد برقوق أن يستغرق في النوم اتكا الشيخ الصفوى على جنبه بالقوى ، فقعد برقوق على حيله وقال : « ايش الخبر ؟ » ... فقال له الشيخ الصفوى : « ان مملوكك أيتش الخاصكى اتفق معه جماعة من ممالك الأسياذ أنهم يدخلون عليك في هذه الساعة ويقتلونك » ... فسكت برقوق ساعة ثم ان أيتش المذكور دخل البيت على برقوق فقام اليه برقوق وأخذ قوس كباد كان الى جانبه وضرب به أيتش ضربة فرماه الى الأرض . فلما وقع قال له برقوق : « يا ... الذى يريد قتل المملوك يقع الى الأرض من فرد ضربة ؟ » ... ثم قام برقوق وقبض عليه وسجنه في بعض أبراج باب السلسلة ، ثم خرج وجلس في المقعد الذى يطل على الرميطة وطلب بطا الأشرفى ، فلما طلع اليه قبض عليه وسجنه . ثم انه طلب تقيب الجيش وقال له : « در على الأمراء وقل لهم يطلعوا في

هذه الساعة ... فدار عليهم نقيب الجيش ،
فطلعوا الى باب السلسلة ، فلما تكاملوا وحضروا
بين يديه تلا عليهم ما بلغه عن ممالك الأسياد ،
وأخبرهم بما وقع له معهم ، فأشاروا عليه
بمسكهم ، فقبض في ذلك اليوم على خمسة وستين
مملوكا من ممالك الأسياد وأرسلهم الى خزانة
شبايل . وأما أيتمش الخاصكى وبطال الأشراف
فنفاهما الى الشام ، ونفى من أحيان ممالك
الأسياد الى قوص نحو من أربعين مملوكا .

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان
من السنة المذكورة طلب الأتابكى برقوق الخليفة
المتوكل على الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء ،
فلما اجتمعوا في باب السلسلة قام القاضى بدر
الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف فى وسط
المجلس وقال : « يا أمير المؤمنين ، ويا سادات
القضاة ، ان أحوال الملكة قد فسدت ، وزاد
فساد العربان فى البلاد ، وخامر غالب النواب فى
البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة ، والأحوال غير

مستقيمة ، وان الوقت قد ضاق ، ومحتاجون الى
اقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن
الاضطراب ... »

فتكلم القضاة مع الخليفة فى سلطنة الأتابكى
برقوق ، فخلعوا الملك الصالح أمير حاج من
السلطنة وسلطنوا الأتابكى برقوق .

ثم ان الملك الصالح أمير حاج دخل الى دور
الحرم عند اخوته . وكانت مدة سلطنته بعد أخيه
على بالديار المصرية سنة وسبعة أشهر وأياما .
واستمر الملك الصالح مقيما فى دور الحرم الى أن
عاد الى السلطنة مرة أخرى كما سيأتى ذكر ذلك
فى موضعه .

وأمير حاج هذا هو آخر من تولى السلطنة من
ذرية بنى قلاون ، وبه زال الملك عن بنى قلاون
كأن لم يكن ... فسبحان من لا يزول ملكه
ولا يتغير .

وقد أقامت السلطنة فى قلاون وذريته مائة سنة
وثلاث سنين وأشهر ، وزال عنهم الملك ...



دولة الجراكسة

على سرير الملك ، ونودي باسمه في القاهرة ،
وضج الناس له بالدعاء من العام والخاص .
ولما تسلطن الملك الظاهر برقوق أقامت القاهرة
سبعة أيام وهي مزينة ، والناس في فرح وسرور
بسلطنته .

وكان أصل الملك الظاهر برقوق من ممالك
الأتابكي يلبغا العمري الناصري ، جلبه الى مصر
الخواجا عثمان بن مسافر فاشتراه منه الأتابكي يلبغا
وأقام عنده مدة ثم أعتقه . فلما مات يلبغا وجرى
لماليكه ما جرى ، هرب برقوق وتوجه نحو الشام ،
فخدم عند منجك نائب الشام ، فلما توفي منجك
صار برقوق من جملة ممالك السلطان . فلما كانت
دولة الأشرف شعبان بقى برقوق أمير عشرة ، ثم
بقى أمير أربعين ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى أمير
أخو كبير ، ثم بقى أتابك العساكر في دولة الملك
المنصور على ابن الأشرف شعبان ، ثم بقى سلطانا
بمصر بعد خلع الملك الصالح أمير حاج .

وكان برقوق من خلاصة الجراكسة ، فلما تم
أمره في السلطنة عمل الموكب وخلع فيه على من
بذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفي سودون
الفخري الشيوخوني ، خلع عليه واستقر به نائب
السلطنة بمصر . وخلع على المقر السيفي أيتمش
البجاشي واستقر به أتابك العساكر عوضا عن
نفسه ، وخلع على المقر السيفي الطنبغا المعلم
واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفي
الطنبغا الجوباني واستقر به أمير مجلس ، وخلع
على المقر السيفي جركس الخليلي واستقر به أمير

الملك الظاهر برقوق

هو الملك الظاهر سيف الدين ، أبو سعيد
برقوق ابن أنص ، وقيل أنص ، العثماني الجركسي .
وهو أول ملوك الجراكسة بالديار المصرية ، وهو
الخامس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم
بالديار المصرية .

بويح بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح
أمير حاج ، ابن الملك الأشرف شعبان ، ابن الأمجد
سيدي حسين ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون .
تولى الملك في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان
من سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، الموافق لآخر يوم
من هاتور من الشهور القبطية . وفي حال جلوسه
على سرير الملك أمطرت السماء مطرا خفيفا ،
فاستبشر الناس بذلك .

وكانت صفة ولايته أنه لما صلى الظهر بايعه
أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بحضرة القضاة
الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ،
وهو الذي لقبه بالملك الظاهر ، لأنه تولى الملك
وقت الظهر . فلما بايعه الخليفة أحضروا له خلة
السلطنة — وهي جبة سوداء ، وشاش أسود
ملفوف غمامة ، وللجبة طرز زركش وسيف بداوي
مقلد حمائل — فركب من الحراقة التي في باب
السلسلة ، والأمراء مشاة بين يديه ، والمقر السيفي
أيتمش البجاشي حامل القبة والطير على رأسه
الى أن طلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس

قد شنت من وصفها مسمى
لأنه من كل وجه دقيق
وفي هذه السنة توفي الشيخ يحيى الصنافي
رحمة الله عليه ودفن بالقرافة عند الشيخ أبي
العباس البصير .

سنة خمس وثمانين وسبعمائة (١٢٨٣ م) :

فيها قبض السلطان على الخليفة المتوكل على
الله محمد وقيده وسجنه في البرج الذي بالقلعة .
وسبب ذلك أنه بلغ السلطان عن الخليفة ما غير
خاطره عليه ، فخلعه من الخلافة وسجنه وولى الخلافة
عمر أخا زكريا ولقبه بالواثق بالله . وكانت مدة
خلافة المتوكل على الله في هذه المرة نحو اثنتين
وعشرين سنة ونصف . فلما خلعه من الخلافة وسجنه
قال شهاب الدين بن العطار :

أبشر أمير المؤمنين ، فما جرى
أقوى دليل أن عزك مرمد
لا تختشى ، قيد العدا مغلولة
ويد الخلافة لا تطاولها يد

وفي هذه السنة توفي الشيخ على الروبي ، وقد
تقدم أنه بشر برقوق بالسلطنة قبل أن يليها بمدة
طويلة .

سنة ست وثمانين وسبعمائة (١٢٨٤ م) :

فيها حضر المقر السيفي بيدمر الخوارزمي نائب
الشام الى الأبواب الشرفة ليزور السلطان ،
وأحضر صحبته تقادم عزيمة للسلطان والأمراء
فخلع عليه السلطان وأكرمه وجعله فوق الأمير
سودون الفخرى نائب السلطنة ، فأقام في القاهرة
مدة ثم رجع الى الشام على عادته .

وفي هذه السنة تغير خاطر السلطان على القاضي
تقي الدين ناظر الجيوش المنصورة ، فضربه علة

أخور كبير على عادته ، وخلع على المقر السيفي
قردم الحسني واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع
على المقر السيفي قطلوبغا الكركائي واستقر به
حاجب الحجاب ، وخلع على المقر السيفي يونس
النوروزي داوداره واستقر به داودارا كبيرا .

ثم أنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ،
وأنعم على جماعة بأمرات أربعين ، وعلى جماعة
بأمرات عشرة ، وأرضى الجند بالاقطاعات ، وأنفق
عليهم نفقة السلطنة واستقامت أموره في الملكة .

وكان من العادة أن السلطان اذا خرج من الباب
الى صلاة العيد تحمل القبة والطير على رأسه . فلما
تسلطن برقوق أبطل ذلك ثم قبض على جماعة من
الأمراء وأرسلهم الى السجن بشعر الاسكندرية ،
ونفى جماعة كثيرة من المماليك الأشرفية وحلف سائر
الأمراء لنفسه .

ودخل الرعب في قلوب الرعية والعسكر منه
حتى كان العوام يقولون للفاكهاني : « عندك
شقيز ؟ » ... ولا يقولون « برقوق » تعظيما لاسمه .

ثم غير جماعة من قضاة القضاة ومن المباشرين
من أرباب الدولة ، منهم القاضي بدر الدين بن
فضل الله ... فصله من كتابة السر واستقر بالقاضي
أوحد الدين الحنفى كاتب السر الشريف بمصر
عوضا عن ابن فضل الله ، وغير جماعة كثيرة من
المباشرين .

وفي هذه السنة عمل الخليلي جركس المراكطي
أمير أخور كبير طاحونة لطيفة تدور بالماء ، فوضعها
في مركب ، وأوقفها عند المقياس ، فكانت تطحن
الدقيق من غير تعب ولا كلفة ، فكان الناس يخرجون
زمرا يتفرجون عليها . قال ابن العطار :

مر لطاحون الخليلي التي
تدور بالماء بمصر حقيق

في القصر نحو مائة وخمسين عصا ، فنزل الى بيته وهو محمول على بغل ، فأقام في بيته يومين ومات ، فكانت وفاته في يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة . وفيه يقول ابن العطار :
يكفى التقى كرامة أبدت له

نيل الشهادة واغتدى بأمان
بشرى الذي قد عاش طول حياته
عيش الملوك ومات بالسلطان

فكان لسان حال القاضي تقى الدين مع السلطان
برقوق كما قد قيل في المعنى :

أحمل نفسي كل وقت وساعة
هموما على من لا أفوز بخيره
كما سود القصار في الشس وجهه

حريصا على تبيض أثواب غيره
ولما توفي القاضي تقى الدين خلع السلطان على
القاضي موفق الدين أبى الفرج ، واستقر به ناظر
الجيوش المنصورة عوضا عن القاضي تقى الدين ،
وقد راحت القلعة في كيسه .

وفي هذه السنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم
العلامة أكمل الدين محمد ، ابن الشيخ نيس
الدين محمد ، ابن الشيخ جمال الدين أبى الشفاء
محمود الرومى البابر تى الحنفى شيخ الخاقاه
الشيخونية . وكانت وفاته في ليلة الجمعة تاسع عشر
شهر رمضان من سنة ست وثمانين وسبعمائة المقدم
ذكرها ، ودفن في يوم الجمعة قبل الصلاة ، وكانت
جنازته مشهورة ، وحضر السلطان جنازته ،
وأخرجوه من الخاقاه الشيخونية والسلطان ماشن
قدامه من الخاقاه الى سبيل المؤمنين ، وأراد أن
يحمل نعشه فلم يمكنه الأمراء من ذلك ، فصلوا
عليه في سبيل المؤمنين ثم انهم أعادوه الى الخاقاه
والسلطان ماش قدامه حتى طلوعوا به الى الخاقاه

فدفنوه داخل القبة الى جانب قبر الأتابكى
شيخو والسلطان حاضر دفنه .

وكان الشيخ أكمل الدين من أكابر علماء
الحنفية . وكان بارعا في العلوم . وله عدة
مصنفات في أنواع العلوم ، وكان السلطان يثنيه
أن يتولى قاضى القضاة الحنفية فيأبى من ذلك ،
وكان الأتابكى شيخو جعله ناظرا على وقفه ، وكان
له في مصر حرمة وافرة وكلمة نافذة عند الحكام
والأمراء ، ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين
سنة .

وقد رثاه ابن أبى حجلة بقوله :
شيخ الى سبيل الرشاد ملك
وسيله في العلم ما لا يجهل
شيخ تبحر في العلوم فسن رأى
بحرا يسوغ لوارديه المنهل
شيخ عليه من المهابة رونق
كالبدر لكن وجهه متهلل
شيخ تقدم في العلوم لأنه
ان عد أرباب الفضائل أول
شيخ بحسن بيانه وشروحه
ما بات بالمفتاح باب مقفل
ما قيل هذا كامل في ذاته

الا وقلت الشيخ عندى أكمل
وفي هذه السنة كانت وفاة القاضي أوحده الدين
الحنفى كاتب السر الشريف ، وكان القاضي أوحده
الدين سبط قاضى القضاة جمال الدين بن التركمانى
الحنفى .

وفيها توفي قاضى القضاة أمين الدين بن الأقى
المالكى نائب الحكم بدمشق .

وفيها توفي الأمير كافور الهندى الشبلى ، وكان
من خدام الملك الناصر محمد بن قلاون المتولى

الزامية في دولة السلطان حسن ، وكان قد قارب من العمر نحو مائة سنة . وكان في سعة من المال ، وهو صاحب التربة التي تحت الجبل المقطم ، ولما مات دفن بها . وكانت وفاته في ثامن ربيع الأول من السنة المذكورة . وكان الأمير كافور هذا حسن المحاضرة حلو الكلام ، وكان ينظم الشعر وله شعر جيد . فمن ذلك ما نظمته وكتبه على رفرف مقعد بيته وهو قوله :

خدمنا بأبواب السلاطين قبلكم
وكانت لنا أهل الممالك تخدم

فما أبطرتنا — يعلم الله — نعمة

ولا نيل منا بالأذية مسلم

وكان الأمير كافور قد اقتنى من الكتب أشياء كثيرة من سائر العلوم ، فلما مات أودعها في تربته التي تحت الجبل المقطم .

ولما مات كافور خلع السلطان على الأمير صواب السعدى واستقر به في الزمامية عوضا عن الأمير نصر البالى .

سنة سبع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٥ م) :

فيها خلع السلطان على القاضي جمال الدين بن خير المالكي السكندري واستقر به قاضي القضاة المالكية بالديار المصرية عوضا عن القاضي ولى الدين بن خلدون المغربي بحكم انفصاله عن القضاء .

وفيها اشترى السلطان مملوكه تمرغا الأفضل المعروف بمنطاش — وهو أخو الأمير تمرباى الدمرداشى — فأقام مدة ، ثم إن السلطان أعتقه وأخرج له خيلا وقماشًا وصار جمدارا .

وفيها أرسل الأمير بهادر المنجكي استادار العالية الى يلغا الناصرى نائب حلب فقال له : « قم كلم السلطان » . فلما خرج من حلب ووصل الى غزة

قبض عليه ، وقيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية

وكان سبب تغير خاطر السلطان على يلغا الناصرى أنه بلغه عنه أنه متواطىء مع الأمير سولى ابن ذى الغادر أمير التركمان ، وقد اتفقا على العصيان . فلما تحقق السلطان ذلك أرسل قبض على يلغا الناصرى وسجنه بشعر الاسكندرية .

ثم إن السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير سودون المظفرى واستقر به نائب حلب عوضا عن يلغا الناصرى . ثم إن السلطان أرسل الأمير جمال الدين محمود شاد الدواوين الى حلب بسبب الحوطة على موجود يلغا الناصرى ، وتوجه الأمير محمود الى حلب بسبب ذلك .

وفي هذه السنة قبض السلطان على الأمير الطنبا الجوبانى أمير مجلس . فلما قبض عليه السلطان شفع فيه الأمراء ، فخلع عليه ورسم له بأن يكون نائب الكرك ، فخرج اليها من يومه وتوجه الى هناك .

وفيها خلع السلطان على القاضي محب الدين بن الشحنة الحنفى ، واستقر به قاضى القضاة الحنفية بحلب عوضا عن قاضى القضاة جمال الدين بن العديم بحكم وفاته . وكان ابن العديم هذا من أعيان علماء الحنفية ، وكانت وفاته بحلب ، وعاش من العمر نحو ثمان وسبعين سنة .

وفي هذه السنة — وهى سنة سبع وثمانين وسبعمائة — رسم السلطان الملك الظاهر برقوق بإبطال ما كان يعمل في يوم النوروز ، وهو أول يوم من السنة القبطية . ومما كان يعمل في ذلك اليوم بالديار المصرية أنه كان يجتمع في ذلك اليوم السواد الأعظم من الناس الأسافل ، فيقفون على أبواب الأكابر من أعيان الدولة ، فيكتب أمير النوروز وصولات بالجمل الثقال ، وكل من امتنع

من النوروز ، وأرسل الحجاب مع جماعة من المماليك السلطانية ووالى الشرطة فطافوا فى أماكن المتفرجات وفى الطرقات ، فمن وجدوه يفعل ذلك يضربونه بالمقارع ، وصاروا يفظعون أيدي جماعة ممن كانت يفعل ذلك . وقاموا فى ذلك قياما عظيما حتى بعض ذلك من القاهرة ، وأشهروا النداء بتهديد من بعض ذلك بالشنق ، فانكف الناس من يومئذ عن ذلك وصاروا يفعلون بعض شئ فى أماكن المتفرجات من الخلجان والبرك ونحو ذلك .. وهذه الواقعة ذكرها المقرئ فى حوادث سنة سبع وثمانين وسبعمائة .

سنة ثمان وثمانين وسبعمائة (١٢٨٦ م) ٤

فيها تزوج السلطان الملك الظاهر برقوق بنت الأمير منكلى بغا الشسى ، وهى بنت أخت الملك الأشرف شعبان ، فكان له مهم عظيم بالقلعة ، وحمل بين يديه خمسمائة شعة .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة قاصد صاحب ماردین ، وأخبر بأن خارجيا من التار الجغتائية يقال له تمرلنك قد استولى على البلاد ، وقد وصل جاليش عسكره الى مدينة تبريز وأخربها وقتل من أهلها خلائق كثيرة ، وإن القان أحمد بن أويس انتقل الى بغداد وحصنها وأخذ حذره من تمرلنك .

وفيها رسم السلطان بنقل الأمير يلبغا الناصرى من ثغر الاسكندرية الى ثغر دمياط ، فنقله الى ثغر دمياط وكسر قيده .

وفيها ضرب السلطان القاضى موفق الدين أبا الفرج ناظر الجيوش المنصورة ، فضربه مائة وخمسين عصا ، كما ضرب القاضى تقي الدين بن محب الدين التيمى ، ثم فصل موفق الدين من نظارة الجيش وخلع على القاضى كريم الدين بن

من الاعطاء من الأكابر بهدلوله وسبوه سبا قبيحا ، ولا يزالون مترسمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقرون عليه من الدراهم بحسب ما يقرره عليه أمير النوروز ، فيأخذوا ذلك منه غصبا ويمضوا وكان ذلك السواد الأعظم العياق ، يقفون فى الطرقات ويتراشون بالماء المنتجس ، ويتراجعون بالببيض النى فى وجههم ، ويتصافعون بالألطاف والأخفاف ، ويقطعون على الناس الطريق ، ويمتنع الناس من الخروج فى ذلك اليوم الى الأسواق ، وتغلق فى ذلك اليوم أسواق القاهرة ودكاكينها ، وكل من ظفروا به فى الطرقات بهدلوله — ولو أنه مير أو من أعيان الناس — فيرشونه بالماء المنتجس ، وبرجمونه بالببيض النى فى وجهه ، يصفعونه بالأخفاف ، فتتعطل الناس فى ذلك ليوم عن البيع والشراء .

وكان الناس فى ذلك اليوم يتجأرون بشرب الخمر وكثرة الفسق فى أماكن المتفرجات حتى خرجوا فى ذلك عن الحدود بما كان يقتل منهم جماعة يعربدون على بعضهم ، وكان هذا الأمر مستورا فى كل سنة على القاعدة القديمة من الدول اضية ولا ينكر ذلك بين الناس .

وكان يوم النوروز من أجلّ المواسم بالديار صرية ، وكان يحمل فى ذلك اليوم لأكابر مصر من القبط والمباشرين من أصناف الفواكه الرمان عراجين الموز ومشنات السفرجل والتفاح الشامى نفق البسر وأقصاص العنب والتمر القوصى لبطيخ الصيفى والرطب والخوخ المشعر وفدور بريسة المعولة من لحوم الدجاج ومعها بطط بلاب وصحون الحلاوى القاهرية وغير ذلك من نواع اللطيفة .

فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق وتم أمره فى سلطنة ، أمر بإبطال ما كان يعمل فى يوم

مكاسر واستقر به في نظارة الجيوش عوضا عن
موفق الدين .

وفيها حضر الى الأبواب الشرفية ابن ملك
الكرج ، وأخبر السلطان بأنه قد رأى في المنام
النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : « امض الى
مصر ، وأسلم على يد خادم الحرمين » ... فقال له
الرجل ابن ملك الكرج : « ومن هو خادم
الحرمين ؟ » .. فقال : « برقوق سلطان مصر » ..
فلما سمع السلطان ذلك أكرمه وأحضر القضاة
واستلمه بحضرتهم ، ثم ان السلطان أنزله في
قصر خوند الحجازية بنت الملك محمد بن قلاوون
— وكان هذا القصر عند حبس الرحبة — ورتب
له ما يكفيه الى أن سافر الى بلاده .

وفي هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان
التي بين القصرين ، فلما كملت نزل السلطان اليها
وذلك في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى
من السنة المذكورة . فلما نزل السلطان اجتمع
بالمدرسة القضاة الأربعة وسائر الأمراء ومقرئي
البلد . ثم ان السلطان مد هناك سباطا عظيما ،
وملا الفسقية التي في صحن المدرسة سكرا وفرقه
على الناس بالطاسات . وفي ذلك اليوم خلع
السلطان على الشيخ علاء الدين السيرامي
وامتقر به شيخ المدرسة ، فأضاف اليه تدريس
الحنفية . وخلع على الأمير جركس الخليلي أمير
أخور كبير ، وكان شاد العمارة . وخلع على معلم
المعلمين الشهابي أحمد بن الطولوني قباليخ ،
وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وخلع على
خمسة وعشرين مملوكا من ممالك جركس
الخليلي ، وخلع على المهندسين والمرخمين
والنجارين والدهانين والبنائين لكل واحد خلعة ،
وفرق على الفعلة لكل واحد أشرفين ... وفي ذلك
يقول ابن العطار :

قد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة
فاقت على ارم مع سرعة العمل
يكفي الخليلي أن جاءت لدعوته
صم الجبال لها تسعى على عجل
وقوله فيها أيضا :

قل للمليك الظاهر المرتضى
هنيت بالمدرسة الفائقة
لخنت حسادك قهرا بها
فيالها من مدرسة خانقة

قيل كانوا يقطعون حجارة هذه المدرسة من
الجبل ويجعلونها على عجل تسحبها الأبقار من
الجبل الى بين القصرين ، وهي التي تسمى الحجارة
العجالية .

وفي هذه السنة خلع السلطان على المقر الشهابي
أحمد ابن الأتابكي يلغا العمرى واستقر به أمير
مجلس كما كان عوضا عن الطنبغا الجوباني .

وفيها أفرج السلطان عن الأمير عشقتمر
المارديني ، وهو صاحب الخانقاه التي عند باب
الترافة — وكان مقيما في القدس بطالا — فأرسل
اليه خلعة ، ورسم له بأن يكون نائب الشام .

وفيها عزل السلطان الخليفة الواثق بالله عمر ،
وخلع على الخليفة زكريا ابراهيم واستقر به خليفة
عوضا عن أخيه عمر .

وفيها حضر الى الأبواب الشرفية قاصد القان
أحمد بن أويس صاحب بغداد وأخبر بأن الخارجي
تمرلنك قد وصل الى مدينة فرباغ ونهبها وسبى
أهلها ، فأرسل القان أحمد يعرف السلطان بذلك
ليكون على حذر من أمره .

وفيها جاءت الأخبار من مكة أن أمير مكة
أحمد بن عجلان قد قتل . وكان سبب ذلك أن
المحمل لما دخل الى مكة خرج الأمير أحمد يلاقيه ،

فلما نزل عن فرسه ليقبل رجل جمل المحمل على العادة ضربه فداوى بسكين في جنبه فمات من يومه ، فاضطربت أحوال مكة ، وكادت العرب تنهب الحجاج ... فلبس أمير الحاج والمماليك الذين معه آلة الحرب ، وأقاموا على ذلك سبعة أيام . ثم ان أمير المحمل خلع على الأمير عنان بن مغامس واستقر به أمير مكة عوضا عن الأمير أحمد ، فسكن الاضطراب قليلا .

وفيها توفي الخليفة المنفصل عن الخلافة ، لوائق بالله عمر .

وفيها توفي الشيخ محمد بن عثمان القرمي القادري ، وكان من أكابر الأولياء ، فمات بالقدس في شهر رجب ودفن هناك ، وقد رثاه ابن العطار فقال :

محمد القرمي قطب الزمان قضى
نحبا وصار لدار الخلد والنعم
والقدس كان حوى نعم الخليل به

ومصر والشام كانا في حمى القرمي
وفيها توفي الشيخ شمس الدين القنوي
الرومي الحنفي ، وكان من أعيان علماء الحنفية
وله عدة مصنفات في أنواع العلوم .

وفيها توفي الشيخ بدر الدين ، وكان من أولاد
الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وكان من أعيان
علماء الشافعية مفتيا .

وفيها توفي الشيخ برهان الدين القيراطي ، وكان
من فحول الشعراء وله شعر جيد في علم البديع .

سنة تسع وثمانين وسبعمائة (١٢٨٧ م) :

فيها في المحرم جاءت الأخبار من تلمسان ببلاد
الغرب بأنه وقع بها فتنة عظيمة ، وقتل في المعركة
مالا يحصى من عساكر الغرب ، وقتل ملكها أبو حمو
المعز .

وفي صفر استقر الطنغا الجوباني في نياية
الشام عوضا عن أشقتر .

وفيه توفي محمد بن عقيل ابن قاضي القضاة
بهاء الدين الشافعي .

وفي ربيع الأول جرت واقعة غريبة ، وهي أن
السلطان دخل الى القصر الكبير في غير يوم
الموكب ، فلما جلس بالشباك رأى خيمة على بعد
مضروبة في الروضة على شاطئ النيل ، فبعث من
كشف عن خبرها ، فلما عاد القاصد أخبر السلطان
أن بتلك الخيمة كريم الدين صاحب بن مكافس
ومعه جماعة وهم يشربون الخمر ، فأرسل اليهم
جماعة من المماليك فأحضروهم بتامهم وكملهم
بين يدي السلطان ، فأمر بضرب صاحب كريم
الدين بالمقارع وقرر عليه خمسين ألف دينار ، ثم
عفا عن الباقيين ... وهذه من الغرائب .

وفي ربيع الآخر ابتداء السلطان بلعب الرمح بعد
الظهر ، وأمر المماليك أن ينزلوا من الطباق ويلعبوا
الرمح الى العصر . وهو أول من أحدث ذلك من
الملوك ، ورسم لهم أن يلعبوا في الحوش السلطاني
من الظهر الى العصر ، واستمر ذلك بعده الى الآن .
وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا وجعل لها
دائرا وفيها اسمه ، فتنقول الناس بأنه تدور عليه
الدوائر ويسجن ، وكان الأمر كذلك كما قيل في
ذلك :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى

ان البلاء موكل بالمنطق

ويقرب من ذلك أن الملك المنصور عثمان ابن
الملك الظاهر جتمق لما تسلطن ضرب دنانير - وهي
المناصرة - فجعلوا اسمه في دائرة ، فلما رآها
يوسف ناظر الخاص قال لمعلم دار الضرب . « قد
ضيق على عثمان قوى » ... فكان الأمر كذلك .

ووقع مثل ذلك للملك المؤيد أحمد بن اينال ،
فنه لما تسلطن ضرب دراهم فضة ، فجعلوا اسمه في
دائرة ، فلما عرضوا ذلك عليه تطير منه ورسم لمعلم
دار الضرب أن يغير تلك السكة ، ومع ذلك
فيدوه ... وهذا مجرب .

وفيه جاءت الأخبار بأن المدينة الشريفة — على
صاحبها أفضل الصلاة والسلام — نهبا الشرف
على بن عطية أمير المدينة . فلما تحقق السلطان ذلك
كتب الى أمير مكة المشرفة بأن يتوجه الى المدينة
المشرفة — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام —
ويحارب على بن عطية .

وفيه توفي الحافظ ناصر الدين بن عشائر الحلبي ،
وكن فيها محدثا بارعا في كل علم .

وفي جمادى الأولى توفي أشقتر المارديني نائب
الشام ، فلما مات أفرج السلطان عن الطنبغا
الجوباني — وكان بالكرك — فأرسل اليه خلعة
واستقر نائب الشام عوضا عن أشقتر المارديني .
وفيه توقف النيل عن الزيادة والوفاء ، ونقص عما
زاده ، واضطربت الأحوال وقلق الناس لذلك ، ثم
رد النقص وأوفى على العادة . وقد قال بعضهم :

النيل قد أوفى بحمد الهنا

وجرى على العادات بعد توقف

وغدا يقول لأهل مصر وغيرهم :

من ذا ينفي في مصر أن أنا لم أف ؟

وفي جمادى الآخرة ظهر في السماء كوكب من
جهة الشمال الى جهة العرب ، وكان غرب الصفة
له ثلاث شعب ، في لحداها ذنب طويل قدر رمح ،
وله ضوء زائد كضوء القمر ، فأقام مدة ثم تحول
من جهة المغرب الى جهة الجنوب ، فلما تحول سمع
له صوت شديد مثل الرعد ، وكان ذلك بعد
العشاء .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير طغاي

— وكان قد توجه الى بلاد الشرق لأخبار تمرلنك —
فلما حضر أخبر السلطان أن جاليش تمرلنك قد
وصل الى الرها وكسر قرا محمد أمير التركمان ،
وأن بوادر عساكر تمرلنك قد وصلت الى ملطيه .

فلما تحقق السلطان ذلك أمر بمقعد مجلس بالقصر
الكبير ، وطلب القضاة الأربعة والخليفة وشيخ
الاسلام سراج الدين عمر البلقيني وأعيان المشايخ
المفتين وحضر سائر الأمراء . فلما تكامل المجلس
تكلم السلطان مع الخليفة والقضاة الأربعة في أمر
تمرلنك . ثم ان السلطان تكلم في أخذ مال الأوقاف
من الجوامع والمدارس وغيرها ، فلم يوافق شيخ
الاسلام على ذلك ولا القضاة الأربعة ، فشكا لهم
السلطان بأن الخزائن خالية من الأموال ، والعدو
زاحف على البلاد ، وان لم تخرج العسكر بسرعة
والا وصل الى حلب والشام ... والعسكر لا تنسافر
بلا نفقة . فوقع في المجلس جدال عظيم ، ودافعوا
السلطان وأغلظوا عليه في القول .

فلما طال الأمر وقع الاتفاق — بحضور الخليفة
والقضاة الأربعة — بأن يؤخذ من مال الأوقاف
أجرة الأماكن وخراج الأراضي سنة كاملة ، وتبقى
الأوقاف على حالها . وانفصل المجلس على ذلك ،
ورسم السلطان لمحتسب القاهرة بأن يتولى جبي
الأموال من الناس ، فأخذوا في أسباب ذلك .

ثم ان السلطان عين تجريدة وعين لها جماعة من
الأمراء ، وهم : الطنبغا المعلم أمير سلاح ، وقردم
الحسني رأس نوبة أمير كبير ، ويونس النوروزي
الدوادر ، وسودون باق أحد المقدمين . وعين من
الأمراء والطلبخانات رأس نوبة كبير ثمانية ، ومن
الأمراء العشراوات عشرة ، وعين من المماليك
السلطانية ثلثمائة مملوك ، وأنفق عليهم وأخذوا
في أسباب السفر والتوجه الى حلب والاقامة بها
الى حضور السلطان .

ثم ان السلطان رسم بأخذ زكاة الأموال من التجار ، وندب الى ذلك القاضي الطرابلسي الحنفى . وفي رجب خرجت التجريدة من القاهرة في تجمل زائد ، واستمرت الأطلاب تنسحب من باكر النهار الى قريب الظهر ، وكان يوما مشهودا ...

فلما خرجت التجريدة اشتد الأمر على الناس ، وجبيت الأموال منهم غصبا بالعصا ، فجبوا ذلك من الناس في يوم واحد ، ثم فرج الله عنهم ، وجاءت الأخبار بأن تمرلنك رجع الى بلاده ، وأن ولده قد قتل ... فسكن الاضطراب ، ورسم السلطان بإعادة ما أخذوه من الناس ، فتزايدت أدعيتهم له بالنصر ، وقد قيل :

فصبرا : ان عقبى الصبر خير

ولا تجزع لنائبة تنوب

فان اليسر بعد العسر يأتى

وعند الضيق تنكشف الكروب

وقد جزعت نفوس من أمور

أتى من دونها فرج قريب

وفي شعبان انفصل قاضى القضاة الشافعى بدر الدين أبو البقاء السبكى ، وخلع السلطان على الشيخ ناصر الدين محمد بن الميلىق ، واستقر قاضى القضاة الشافعية عوضا عن بدر الدين أبى البقاء . وقد امتنع ابن الميلىق من لبس الخلعة غاية الامتناع ، فألزمه السلطان بذلك على كره منه .

وفيه توفى الصاحب شمس الدين ابراهيم بن كاتب أربلان القبطى . فلما مات خلع السلطان على علم الدين عبد الوهاب بن القسيس المعروف بابن كاتب سيدى ، وكان مستوفيا في ديوان المرتجع ، فبقى وزيرا بالديار المصرية .

وفي رمضان في يوم الأحد ثامن نزل السلطان الى الاصطبل الذى بباب السلسلة ، وحكم به ، ونادى في القاهرة : « من كان له غلامه أو خصومة

يحضر بين يدى السلطان في كل يوم أحد وأربعه ... وهذا لم يقع لسلطان قبله ، وهو أول من أحدث ذلك من الملوك . واستمر ذلك بعده الى الآن .

وفيه حضر الى الأبواب الشرفه أمير مكة المشرقة على بن عدنان ، فلما حضر أكرمه السلطان وأتبعه عليه وخلع عليه وجعله شريكا لعنان بن مغايس في امرة مكة المشرفة وأصلح بينهما .

وفيه طلب السلطان يلبغا الناصرى من ثغر دمياط ، فلما حضر أكرمه وخلع عليه واستقر نائب حلب على عادته .

وفي شوال قدم البريد من حلب وأخبر أن منطاش ، ملوك السلطان الذى قد استقر نائب السلطنة ، قد خرج عن الطاعة وخامر .

وفيه حضر رأس بدر بن سلام كبير عربات البحيرة ، وكان قد ظهر منه غاية الفساد .

وفي ذى القعدة قرر أمير حاج بن مغطاي في نيابة الاسكندرية عوضا عن يجبان المحدى .

وفيه جاءت الأخبار بأن الوائق بالله محمد بن أبى الحسن صاحب قاس قد خلع من الملك وأعيد أبو العباس أحمد ، وسجن الوائق بطنجة . وحصل بفاس فتنة عظيمة في أواخر هذه السنة .

وفي ذى الحجة جاءت الأخبار ببوت ملك التكرور موسى ، وكان حسن السيرة عادلا في الرعية .

وفيه خلع السلطان على الأمير ايدكار المعرى وقرر حاجب الحجاب .

سنة تسعين وسبعمائة (١٢٨٨ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشرفه جرای تمر دوداوى المقر الشرفى يونس أمير دودار ، وصحبته قاصد نائب حلب المقر السيفى يلبغا الناصرى ، فأخبر بأن العسكر الذى توجه من القاهرة لما وصل الى

سيواس توقع مع جاليش تمرلنك واقعة قوية ، وقد
انكسر عسكر تمرلنك ، وأن الغلاء وقع في العسكر
وعزت سائر البضائع . فلما بلغ السلطان ذلك
أرسل للعسكر نفقة ليستعينوا بها على ذلك .

وفيها خلع السلطان على الأمير محمود بن علي
الظاهرى شاد الدواوين واستقر به استادار العالية
عوضا عن الأمير بهادر المنجكى .

وفيها رجع العسكر الذين توجهوا الى حلب
وهم في غاية النصر على عسكر التتار .

وفيها قبض السلطان على جماعة من الأمراء
الذين كنوا في التجريدة ... وهم : الأمير الطنبغا
المعلم أمير سلاح ، والأمير قردم الحسى رأس
نوبة النوب ... وأرسلهم الى السجن بشعر
الاسكندرية ، ثم أرسل السلطان بالقبض على
الطنبغا الجوباني نائب الشام وسجنه ، وأرسل
خلعة انى الأمير طرنتاي حاجب دمشق بأن يستقر
نائب الشام عوضا عن الطنبغا الجوباني ، وأرسل
خلعة الى الأمير استدمر حاجب طرابلس بأن يكون
نائب طرابلس ، واستقر بالأمير سودون العثمانى
نائب حماة .

وفيها توفى قاضى القضاة الشافعى برهان
الدين بن جماعة الحموى الكنانى . وتوفى الشيخ
علاء الدين السيرامى الحنفى شيخ المدرسة
البرقوقية . وتوفى صاحب علم الدين بن القسيس
المعروف بكتاب سيدى . وتوفى الأمير بهادر
المنجكى الذى كان استادارا . وتوفى الشيخ
شهاب الدين بن النقيب من أعيان العلماء .

سنة احدى وتسعين وسبعمائة (١٣٨٩ م) :

فيها - في أوائل صفر - ابتدأ السلطان
بشرب القنز ، وهو عبارة عن لبن مصنوع محمض ،
وكان الملوك تعودوا ذلك ، فرسم السلطان للأمراء

بأن يجتمعوا في كل يوم أربعاء في الميدان الذى
تحت القلعة ويشربوا القنز ، وكان ذلك من جملة
شعائر المملكة ، فتجتمع الأمراء بحضرة السلطان
ويجلسون في مراتبهم ، ويبقى الأوزان عمال ،
والأمراء بالشاش والقماش ، والسقاة يسقونهم
القنز في الزبادى الصينى . وكان القنز يسكر
مثل الشرس ، ويسمى قراقنز .

وفيها وقع الطاعون بمصر ، ومات من الناس
من كبار وصغار ما لا يحصى عددهم ، وأقام مدة ،
وكرت الأمراض حتى بيعت البطيخة الصيفى
بأشرفيين ولا توجد ، ولكن بطل ذلك من بعد
الملك الظاهر برقوق .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار بأن يلبغا
الناصرى نائب حلب خامر وخرج عن الطاعة وقتل
الأمير سودون المظفرى الذى كان نائب حلب
قبله ، وقتل أربعة أنفس من مماليك سودون ،
وأمسك حاجب الحجاب بحلب وجماعة من أمرائها .
وسبب ذلك أنه كان قد وقع بينه وبين سودون
المظفرى تشاجر ، فأرسل سودون يشتكى من يلبغا
لناصرى الى السلطان بما وقع منه في حقه . فلما
بلغ السلطان ذلك أرسل الأمير تلكتنر المحمدي
الدوادار الثانى الى حلب ليصلح بين يلبغا الناصرى
وبين سودون المظفرى . وقيل ان السلطان أرسل
فى الدس مراسيم على يد الأمير تلكتنر الى
سودون المظفرى بأن يقبض على يلبغا الناصرى
نائب حلب . فلما وصل الأمير تلكتنر الى حلب بلغ
يلبغا الناصرى أمر المراسيم التى جاء بها الأمير
تلكتنر ، فخرج الى تلقيه - وكان بين يلبغا
الناصرى وبين الأمير تلكتنر صفة مؤكدة فما
أمكنه أن يخفى منه أمر المراسيم - فلما وقف
عليها يلبغا الناصرى أخذها وأخفاها ، ثم توجه
الى دار السعادة وطلب قضاة حلب والأمير سودون

السنة المذكورة نزل السلطان الى الميدان الذي تحت القلعة ، ونصب هناك عدة صواوين للأمراء . ثم انه أرسل خلف الأمراء ، فلما تكاملوا مد لهم سماطا عظيما ، فلما فرغوا من الأكل جلس معهم السلطان ، وذكروا لهم ما وقع من يلغا الناصري من أمر عصيانه ، ثم أحضر لهم مصحفا شريفا ، وحلف عليه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر بأن يكونوا معه كلمة واحدة وعصبة واحدة على يلغا الناصري ، فحلفوا على ذلك جميعهم وانفض المجلس على ذلك .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشرى صفر عرض السلطان العسكر ، وعين تجريدة الى يلغا الناصري ، وعين خمسة أمراء من المقدمين ، وأربعمائة مملوك ، ثم جاءت الأخبار من طرابلس بأن عسكر طرابلس ركبوا على النائب ، وقتلوا من أمراء طرابلس جماعة وهرب النائب الى يلغا الناصري .

وجاءت عقب ذلك أخبار من حماه بأن نائبها سودون العثماني حضر الى دمشق وهو هارب ، ومبب ذلك أن ممالكه ركبوا عليه مع عسكر حماه وأرادوا قتله ، فهرب منهم الى دمشق ، وقد وقعت القتن في سائر البلاد الشامية . فلما تحقق برقوق أن البلاد قد افتتنت خاف على نفسه ، وأمر نائب القلعة بأن يضيق على الخليفة المتوكل ويمنعه من الاجتماع بالناس ، فانه كان مسجوناً في البرج الذي بالقلعة وهو مقيد . ورسم السلطان للأمير مقبل الزمام بأن يضيق على الأسياد أولاد السلاطين الذين في دور الحرم ، وينع من كان يدخل لهم . ثم ان السلطان أرسل خلعة الى الأمير طقيتمير القيسلاوي بأن يستقر في نيابة طرابلس عوضاً عن النائب الذي كان بها .

ثم حضر قاصد من عند الأمير خليل بن قراجاين

المظفرى ليقرأ عليهم المراسيم التي جاءت بالأمر بالصلح بين يلغا وسودون . فلما أرسل خلف سودون لم يحضر الى دار السعادة ، فأرسل خلفه أربع مرات والقضاة جالسون والأمير تلكتمر ... فلما حضر سودون الا بعد جهد كبير ، فطلع سودون وهو لابس زردية من تحت ثيابه . وكان يلغا الناصري ركن جماعة من ممالكه في دار السعادة وهم لابسون آلة الحرب . فلما دخل سودون من باب دار السعادة تقدم اليه مملوك من ممالك يلغا وجس كتف سودون فرآه لابسها من تحت ثيابه ، فقال له : « يا أمير سودون ... الذي يريد الصلح يدخل الى دار السعادة وهو لابس آلة الحرب ؟ » ... فلكمه سودون ، فصاح على ذلك الكمين فخرجوا الى سودون ، فقتلوه في دار السعادة ، وقتلوا معه أربعة ممالك من ممالكه . ثم ان يلغا الناصري أظهر العصيان والتف عليه جماعة كثيرة من ممالك الأشرف شعبان . وكان من جملة من التف على يلغا تمرغا الأفضلى المدعو منطاش مملوك الظاهر برقوق — وكان له مدة وهو منفي في المدن الشامية — فالتف على يلغا الناصري .

ثم ان الأمير تلكتمر ، لما جرى ما جرى بحلب ، رجع وأخبر السلطان بما وقع لسودون المظفرى مع يلغا . فلما تحقق السلطان عصيان يلغا الناصري أرسل خلعة الى الأمير اينال اليوسفى بأن يستقر نائب حلب عوضاً عن يلغا الناصري ، وكان اينال أتابكي العساكر بدمشق ، وكان يلغا الناصري في نفسه من الملك الظاهر برقوق عداوة قديمة كامنة في قلبه كما قيل :

الجرح يبرا ولكن كلما نظرت

عين الجريح اليه جدد الوجعا

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر صفر من

ذو الغادر ، فأخبر أن الأمير سنقر نائب سيسى قد خامر وخرج عن الطاعة ، ووافق يلبغا الناصرى على العصيان ، ورحل من سيسى وأتى الى حلب . فلما تحقق السلطان أن النواب قد خامروا عليه أنفق على العسكر وأخرج التجريدة التى كان عينها الى حلب ، وكان بها من الأمراء الأتابكى أيتمش البجاشى ، والأمير أحمد بن يلبغا الناصرى أمير مجلس ، والأمير جركس الخليلي أمير أخور كبير ، والأمير يونس النوروزي الدوادار الكبير ، والأمير ايدكار العمري حاجب الحجاب ، وجساعة من الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات وأربعمائة مملوك ، فخرجوا من القاهرة في عظمة زائدة .

فلما خرجوا من القاهرة ووصلوا الى دمشق جاءت الأخبار من هناك مع الساعة بأن العساكر لما وصلت الى دمشق وجدوا يلبغا الناصرى قد ملك الشام حتى قلعتها ، فلما وصل العسكر اليه أوقعوا معه بظاهر دمشق واقعة عظيمة حتى جرى الدم بينهم ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر انكسر عسكر السلطان الذى أرسله ، واقتصر عليهم يلبغا الناصرى ، وقتل الأمير جركس الخليلي أمير أخور كبير ، وهرب الأمير أحمد بن يلبغا العمري أمير مجلس والأمير ايدكار العمري حاجب الحجاب والأمير يونس الدوادار . وأما الأتابكى أيتمش فانه أسر وسجن بقلعة دمشق ، وأما بقية الأمراء والمماليك السلطانية فشيء أسر وشيء هرب وشيء قتل ... وكانت هذه الواقعة بدمشق في يوم الاثنين حادى عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة .

فلما أن جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الناس من هذه الأخبار ، وماجت على بغضها ، وكثر القيل والقال بين الناس بسبب ذلك ، وارتج الأمر على السلطان ... فعمل الموكب بالقصر ،

وفرق أمریات من قتل من الأمراء في هذه المعركة ، فأنعم على الأمير قرايغا أبو بكرى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير بجاس النوروزى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير شيخ الصفوى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير قرقماس الطشتى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير أقبا الماردى بتقدمة ألف ، وأنعم على جماعة كثيرة من الخاصكية بأمریات أربعين ، وعلى جماعة بأمریات عشرة ، ثم انه رسم بالافراج عن جماعة من المماليك الأشرفية ومماليك الأسياد - وكانوا في السجن بغزاة شمائل - وصار يرضى خاطر العسكر بكل ما يمكن حتى يحو ما وقع منه في حق العسكر .

ولما كان يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى حضر تمرىغا الفخارى السواق ، وكان قد توجه الى نحو الشام بسبب كشف أخبار يلبغا الناصرى . فلما وصل الى غزة رأى طوابع جاليش يلبغا الناصرى قد وصل غزة ، فلما دخلوا مدينة غزة أنزلهم الأمير حسام الدين بن باكيش نائب غزة في الميدان الكبير . فلما باتوا تلك الليلة كبس عليهم وأمسكهم عن آخرهم وقيدهم وسجنهم في دار السعادة ، وكانوا نحو مائة انسان وفيهم ثلاثة أمراء من حلب . فلما سمع السلطان هذا الجبر فرح وخلع على ذلك السواق كاملية بسمور .

ثم في يوم الأحد خامس جمادى الأولى قدم السلطان في مقام سيدى محمد الرديى الذى هو داخل الحرم ، وطلب الخليفة المتوكل من البرج ، فخرج وحضر وهو مقيد ، وكان له نحو ست سنين في البرج بالقلعة وهو مقيد ، وقد أفحش في حقه الملك الظاهر برقوق ، وتمادى على طغيانه في حق المتوكل وهو في القيد هذه المدة الطويلة . فلما حضر بين يدي السلطان قام اليه وأمر بنزع قيده ، وصار يعتذر اليه مما وقع منه في حقه .

ثم طلب القضاة الأربعة ، وأعاد المتوكل الى الخلافة كما كان ، وخلع عليه وأركبه فرسا وسرج ذهب وكنبوش ، ونزل من القلعة في موكب عظيم والقضاة قدامه ، وزينت له الصليبة وجامع ابن طولون ، وكان يوما مشهودا .

فلما نزل الى بيته أرسل اليه السلطان قماشاً بنحو ألف دينار ما بين صوف وسمور ووشق وسنجاب وبعلبكي وغير ذلك ، وأرسل اليه ألف دينار ذهب عين . ثم أن السلطان نزل الى الميدان الذى تحت القلعة وعرض هناك العسكر وهم لابسون آلة الحرب راكبون على خيولهم ، وصار يسأل من كل واحد منهم ما هو عاوز من آلة الحرب فيعطيه الذى يعوزه من خيل وسلاح وغير ذلك .

ثم ان السلطان عمل الموكب فى القصر ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير سودون الصيغى تمرباى باقى واستقر أمير سلاح ، وخلع على الأمير قرايغا الأوبكرى واستقر أمير مجلس عوضا عن الأمير أحمد بن يلبغا العمري ، وخلع على الأمير قرا دمرداش الأحمدي واستقر رأس نوبة النوب ، وخلع على الأمير قرقماس الطشتى واستقر دوادارا كبيرا عوضا عن الشرفى يونس ، وخلع على الأمير اقبغا الماردينى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن الأمير ايدكار العمري .

ثم فى يوم الاثنين حضر الى الأبواب الشريفة العلاءى على بن الطشلافى والى قطيا وأخبر السلطان بأن جاليش يلبغا الناصرى قد وصل الى قطيا، ثم بعد ذلك جاءت الأخبار بأن يلبغا الناصرى قد وصل الى الصالحية . فلما تحقق السلطان ذلك نزل الى باب السلسلة ، وجلس فى الحراقة ، وأمر بشد الخيول ، وعلق الصنجق السلطانى ، ونادى العسكر بأن يطلعوا الى الرميلى وعليهم آلة الحرب ،

فطلع اليه من الأمراء الأمير سودون الفخرى نائب السلطنة ، والأمير تمربغا المنجكى ، والأمير أبو بكر بن سنقر الجمالى ، والأمير بييرس التمان تمرى ، والأمير سودون الطرنطاوى ، والأمير قجماس ابن عم السلطان . فلما تكامل العسكر ركب السلطان وخرج من باب السلسلة وعلى رأسه الصنجق السلطانى ، فتوجه هو والعسكر الى نحو المطرية ، فأقام السلطان هناك يوم الأربعاء ويوم الخميس ، فصار جماعة من المماليك السلطانية يتسحبون من عند السلطان ويتوجهون الى يلبغا الناصرى ، فتوجه اليه جماعة كثيرة من المماليك السلطانية ومن المماليك السيفية . فلما رأى السلطان ذلك رجع من هناك وطلع الى القلعة .

فلما كان يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى جاءت الأخبار بأن أوائل عسكر يلبغا الناصرى قد وصل الى أوائل الترب . فلما تحقق السلطان ذلك نزل من القلعة ، ودقت الكنوسات حربى ، وجمع العسكر وتوجه الى نحو قبة النصر ، فوقف هناك على كوم عال فوق بين الفريقين بعض قتال هين ، فأقام السلطان هناك الى آخر النهار ثم رجع الى القلعة وقعد فى باب السلسلة وبات به .

فلما كانت تلك الليلة توجه أكثر الأمراء الى يلبغا الناصرى ، فلم يبق مع السلطان الا بعض جماعة من الأمراء ، منهم الأمير قجماس ابن عم السلطان ، وسيدى أبو بكر الجمالى سنقر ، والأمير تمربغا المنجكى ، والأمير سودون الطرنطاوى ، وبعض مماليك من الجمدارية . فلما رأى السلطان عين الغلب أراد أن يسلم نفسه ويختفى فى البحرة ، فمنعه الأمراء من ذلك . فأقام الى العصر فى باب السلسلة ، فبلغه أن الأمير نزار العمري ، والأمير الطنبغا الأشرفى والأمير طقطاى الطشتى — ومعهم جماعة من المماليك نحو خمسمائة مملوك —

قد وصلوا الى القلعة ، فعين لهم السلطان بطا الخاصكى ، وسكرباى الخاصكى ، ومعهما نحو عشرين مملوكا ، فنزلوا اليهم وأوقعوا معهم فى الرميلة واقعة قوية ، فكسر عسكر يلبغا الناصرى وطردوهم الى تحت المنجكية . فلما بلغ يلبغا الناصرى أن جاليشه قد انكسر هم بالهروب من هناك ، وأرسل بركه وقماشه الى القنطرة التى عند المرج والزيات خوفا من النهب .

فلما كانت ليلة الاثنين سابع عشرى جمادى الأولى تسحب من كان بقى عند السلطان من الأمراء والمماليك ولم يبق عنده سوى سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى ، وييدمر المجدى شاد القصر ، فقال السلطان لسيدى أبى بكر : « خذ الترس والنمشاه وامض الى يلبغا الناصرى ، وقل له السلطان يسلم عليك ، ويقول لك بأنك تؤمنه على نفسه من القتل ... فمضى سيدى أبو بكر وييدمر المجدى الى الأمير يلبغا ، وذكر له ما قاله السلطان ، فقال الأمير يلبغا : « هو آمن على نفسه من القتل ، ولكن قول له يختفى من القلعة حتى تنكسر حدة العسكر الذى حضر من الشام عنه ، وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء ، وما يكون الا خير » .

فلما رجع سيدى أبو بكر بن سنقر وييدمر من عند الأمير يلبغا الناصرى بهذه الرسالة ، وأخبراه بما قاله الأمير يلبغا ، أقام فى باب السلسلة والخليفة المتوكل عنده الى أن صلى العشاء ، وقام الخليفة من عنده فبقى هو وخمسة من المماليك الجمدارية فأمرهم بالانصراف . فلما انصرفوا قام السلطان ودخل المبيت ، وقلع تخفيفته ولبس له عمامة وجوخة من فوق ثيابه ، وأخذ فى يده عصاه ونزل من باب السلسلة بعد العشاء واختفى .

فلما نزل السلطان من باب السلسلة وقع النهب

فى الحواصل السلطانية ، وذلك فى ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

فلما أصبح يوم الاثنين وصل الأمير يلبغا الناصرى ، وصحبته الأمير تمرغا الأفضلى المعروف بمنتاش مملوك الملك الظاهر برقوق . فلما وصلوا الى الرميلة وقفوا بسوق الخيل هم والعسكر الذى حضر معهم من البلاد الشامية فوققوا ساعة . ثم ان الخليفة المتوكل أتى الى الأمير يلبغا وسلم عليه ، ثم طلع الأمراء والخليفة الى باب السلسلة واشتدروا فى ذلك اليوم فيمن يولونه سلطانا ، وبات فى تلك الليلة العسكر بغير سلطان .

فلما أصبحوا يوم الثلاثاء وقع الاتفاق بين الأمراء على عود الملك الصالح أمير حاج ، ابن الأشرف شعبان الذى خلعه برقوق من السلطنة ، وكان مقيما بدور الحرم فطلبوه ، فخرج اليهم ، فاجتمعوا بالحوش السلطاني ، فلما رأوا الملك الصالح قد حضر ، باس له الأرض سائر الأمراء ، ثم طلبوا القضاة الأربعة ، وبايعه الخليفة بالسلطنة ثانيا ، وكان عوده الى الملك على غير القياس ، فكان كما قيل فى المعنى :

أيها الانسان صبرا

ان بعد العسر يسرا

كم لزمنا الصبر حتى

عاد ليل الهم فجرا

فكانت مدة سلطنة الملك الظاهر برقوق فى هذه المرة ست سنين وثمانية أشهر وسبعة عشرين يوما ، وكانت مدة اقامته فى الأتابكية خمس سنين الا أشهرا ، فحكم بالديار المصرية أتابكا وسلطانا احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما . فهذه كانت مدة سلطنة برقوق الأولى ، وسيعود الى السلطنة ثانى مرة كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

غزو الملك الصالح أمير حاج

حين عاد الملك الصالح أمير حاج ، ابن الملك الأشرف شعبان بن حسين الى السلطنة — وهى السلطنة الثانية — جلس على سرير الملك بعد أن بايعه الخليفة بحضرة القضاة الأربعة ، وبأس له الأمراء الأرض ، وركب بشعار الملك من الحوش السلطانى الى القصر الكبير ، فمد هناك السباط وجلس عليه وهو بشعار الملك .

ثم ان الأمير يلغا الناصرى لما تولى الملك الصالح هذه المرة غير لقبه ولقبه بالملك المنصور ، وهذا لم يتفق قط — فان الملك الناصر محمد بن قلاوون لما خلع من الملك وعاد اليه ثلاث مرات لم يتغير لقبه — ثم نادوا باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء . فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وطلع اليه سائر الأمراء . فلما تكامل الأمراء فى الموكب تقدم الأمير يلغا الناصرى وقبض على المقر السيفى سودون الفخرى الشيخونى نائب السلطنة ، وقبض على الأمير سودون باق ، وقبض على الأمير سودون الطرنطاي ، وقبض على سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى — وكان سيدى أبو بكر هذا حاجب الحجاب فى دولة الملك الظاهر برقوق — وقبض على الأمير بجاس النوروزى ، وقبض على الأمير أقبا الماردنى ، والأمير شيخ الصفوى والأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق ، وقبض على الأمير محمود بن على الظاهرى استادار العالية ، فكان عدة من أمسك فى ذلك اليوم من الأمراء المقدمين تسعة .

وقبضوا فى ذلك اليوم على ثمانية وستين أميراً ما بين أمراء طبليخانات وأمراء عشراوات ، حتى ارتجت فى ذلك اليوم القاهرة وكادت أن تخرب عن آخرها .

وكان الأمير يلغا ومنطاش لما أتوا الى القاهرة دخلوا ومعهم السواد الأعظم من التراكمة ومن العربان وغير ذلك من عساكر البلاد الشامية والبلاد الحلبية . فلما أرادوا أن يدخلوا الى المدينة وجدوا أبواب القاهرة مقفلة ، فجاء الأمير ناصر الدين استادار الأمير ارغون اشكى — وكان قد حضر من الشام صحبة العسكر — فأتى الى باب النصر فوجده مقفلاً ، فدق الباب فلم يفتحو له ، فدخل من باب سر جامع الحاكم وهو راكب على فرسه وفتح باب النصر وباب الفتوح ، فدخل السواد الأعظم الى القاهرة ، فنهبوا عدة دكاكين من سوق باب النصر من البضائع والمأكول وغير ذلك ، واستمر النهب عمالاً من باب النصر الى الركن المخلق ، وقد تدرجوا الى نهب البيوت ، واضطربت القاهرة وماجت بأهلها .

فلما بلغ الأمير يلغا ومنطاش ذلك أرسلوا جماعة من رعوس النوب ومن الحجاب وطرّدوا من يفعل ذلك ، ونادوا فى القاهرة بالأمان والاطمئنان ، وأن من نهب شيئاً يرده والا يشنق ، فانكف الناس عن النهب ، وتركوا جماعة من الحجاب فى أماكن من القاهرة ، فسكن الأمر قليلاً وحدث الفتنة .

ثم ان الأمراء تكلموا مع الأمير يلغا الناصرى ومنطاش فى أمر هؤلاء الأمراء الذين أمسكوا ، فأفرج الأمير يلغا عن جماعة من الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات أحدا وعشرين أميراً ، وأفرج عن الأمير شيخ الصفوى ورسم له بأن يتوجه الى القدس بطالا ، ورتب له ما يكفيه . ثم ان الأمير يلغا قيد بقية الأمراء وأرسلهم الى السجن بشعر الاسكندرية . وقد تقدم ذكر أسمائهم .

ثم ان الأمير يلغا رسم بأن يفرج عن جماعة من

الأمراء ، ممن كان مسجوناً بشعر الاسكندرية ، فحضروا الى القاهرة ، وهم : الأمير الطنبغا الجوباني ، والأمير الطنبغا المعلم ، والأمير قردم الحسنى ، وغير ذلك من الأمراء الذين كانوا في السجن بشعر الاسكندرية .

فلما تم الأمر للملك المنصور أمير حاج في السلطنة ، عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى يلبغا الناصرى واستقر أتابكى العساكر بالديار المصرية عوضاً عن الأتابكى أيتمش البجاشى ، وخلع على المقر السيفى قرا دمرداش الأحمدي واستقر أمير سلاح عوضاً عن سودون السيفى تمر باى باق ، وخلع على المقر الشهابى أحمد ابن الأتابكى يلبغا العمري واستقر أمير مجلس على عاداته ، وخلع على المقر السيفى الطنبغا الجوباني واستقر رأس نوبة النوب عوضاً عن قرا دمرداش الأحمدي ، وخلع على المقر السيفى تمر باى الحسنى واستقر به حاجب الحجاب عوضاً عن سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى ، وخلع على المقر السيفى الألبغا العثمانى واستقر دواداراً كبيراً عوضاً عن الأمير يولس النوروزى ، وخلع على الأمير أقبغا الجوهري واستقر به امتادار العالية عوضاً عن الأمير محمود بن على الظاهري ، وخلع على الأمير الطنبغا الأشرفى واستقر به رأس نوبة ثانى ، وخلع على الأمير قطلو بك السيفى يلبغا واستقر به أمير جاندار وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، وعلى جماعة بامريات أربعين ، وعلى جماعة بامريات عشرة . ثم عمل الموكب الثانى وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى نزلار العمري واستقر به نائب الشام ، وخلع على المقر السيفى كمشبع الحموى واستقر به نائب حلب ، وخلع على المقر السيفى

قطلوبغا الصفوى واستقر به نائب صفد ، وخلع على المقر السيفى سنجق الحسنى واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على المقر الشهابى أحمد ابن المهندار واستقر به نائب حماه ، وخلع على الأمير بغاجق السيفى صرغتمش واستقر به نائب ملطية ... ثم رسم للنواب الذين استقروا بأن يتوجهوا الى البلاد الشامية ، ويستقر كل واحد في نيابته ، ويعمر ما فسد من أحوال البلاد الشامية ، فخرجوا من القاهرة على حمية ، جميعهم بالسوية .

ثم ان الأتابكى يلبغا الناصرى نادى في القاهرة بأن ممالك الظاهر برقوق لا يقيم منهم أحد في القاهرة ، وأن يخدموا عند النوب ويخرجوا معهم ، وكل من وجد منهم من بعد ذلك شق من غير معاودة ثانية . وصاروا يكررون المناداة بذلك ثلاثة أيام متوالية .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور أمير حاج بعد عوده الى الملك .

وأما ما كان من أمر الملك الظاهر برقوق بعد اختفائه ، فان الأمير يلبغا الناصرى صار ينادى في القاهرة : « كل من كان الملك الظاهر برقوق عنده ولا يقصر عليه يشنق على باب داره من غير معاودة » ...

فبينما الأتابكى يلبغا الناصرى جالس في باب السلسلة وقت الظهر ، ادخل عليه مملوك من ممالك أبى يزيد الخازن يقال له سنقر الرومى ، فقال للأتابكى يلبغا الناصر : « ان السلطان برقوق مختف عند أستاذى في بيت شخص خياط » ... فلما سمع الأتابكى يلبغا بذلك طلب أباً يزيد الخازن وقال له : « انزل أحضر الملك الظاهر برقوق من عندك والا شنتك على باب بيتك » ... فلما سمع أبو يزيد بذلك أنكر ، فأمر الأتابكى يلبغا

بتوسيطه ، فلما تحقق ذلك أقر بأنه عنده ، فقال له يلبغا : « أنت ما سمعت المناداة بأن من خبى السلطان برقوق عنده ولا يقر به شئ على باب داره ؟ » ... فقال أبو يزيد : « ياخوند ، ان الملك برقوق كان له على احسان عظيم ، وجاء الى تحت الليل فما أمكنتى رده » ... فقال له يلبغا : « انزل اليه وأحضره » . ثم أرسل معه الأمير الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب ومعه عشرون مملوكا ، فلما وصلوا البيت الذى فيه السلطان برقوق طلع اليه الأمير الطنبغا الجوبانى بمفرده ، فلما وقعت عينه على الملك الظاهر برقوق جرى الطنبغا وقبل يد الملك الظاهر برقوق وقال له : « أنت أستاذنا كلنا ونحن ممالكك » ... ثم ان برقوق قام معه ، ولبس له عمامة على رأسه ، وعمل فوقها طيلسانا ، وركب فرسا وركب الطنبغا الجوبانى الى جانبه ومعهما أبو يزيد فى الترسيم ، فطلعوا الى باب السلسلة ، فنزل السلطان برقوق من على الفرس ، فطلعوا به من باب سر القصر الكبير الذى من الاسطبل ، فأدخلوه الى قاعة النحاس التى لها شبايك مطلة على الايوان .

ثم ان الأتابكى يلبغا قال لأبى يزيد : « احضر لنا ما كان مع السلطان من المال لما دخل عندك » ... فأخرج لهم كيسا فيه ألف دينار وقال : « والله ما أودع عندي غير هذا الكيس ، وما أعلم ما فيه » ... فقال له الأتابكى يلبغا : « لقد خاطرت بنفسك ، ولولا خاطر الملك الظاهر برقوق كنت شئتكتك » ... فقال أبو يزيد : « يا خوند ، أنا ما فعلت ذلك الا وقد فرغت عن نفسى وحسبت حساب التلف » .

وقد قيل فى المعنى :

إذا اعتذر الجانى مع العذر ذنبه

وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب

فقال له يلبغا :

« خذ لك الكيس بما فيه ، ومثلك من يخدم الملوك » ... ثم خرج عنه ونزل الى بيته .

ثم ان الأتابكى يلبغا الناصرى رتب للملك الظاهر برقوق سباطا فى كل يوم بكرة وعشية ، وجعل عنده ثلاثة ممالك صغارا يخدمونه ، وأقام فى قاعة النحاس الى الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، فطلع اليه الأمير الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب فقيده ونزل به من القلعة فى نصف الليل من باب الدرفيل ، فأركبه على هجين وركب معه الأمير الطنبغا الجوبانى وبعض ممالك ، وتوجهوا به على قبة النصر وقصدوا به نحو عجروود . وقد زالت دولة الظاهر برقوق كأنها لم تكن ، وقد قاسى مشقة ورعبا فى مدة اختفائه ، وقد قيل فى المعنى :

انى تأملت للعليا فلم أرها

تنال الا على كد من التعب

ثم ان الأمير عيسى بن مهنا ، شيخ العرب ، تسلم السلطان برقوق وتوجه به الى نحو الكرك ، ورجع الأمير الطنبغا الجوبانى الى القاهرة . فلما وصل السلطان برقوق الكرك سجن بالقلعة التى به وهو فى القيد . وكان نائب الكرك يومئذ الأمير حسام الدين الكجكنى ، فأكرم الملك الظاهر غاية الاكرام ، وأنزله فى مكان عند الطارمة .

وكان سبب هذه العداوة التى وقعت بين يلبغا الناصرى وبين السلطان برقوق أن برقوق قبض على يلبغا الناصرى وقيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية مرتين : مرة فى دولة الملك المنصور على بن الأشرف شعبان ، والمرة الثانية فى دولة الظاهر برقوق لما كان يلبغا نائب حلب . ثم ان برقوق أرسل مراسيم على يد الأمير تلتكتمر الى الأمير سودون المظفرى بقتل يلبغا الناصرى ،

فاطلع عليها يلبغا الناصرى وجرى ما تقدم ذكره ... فهذا كان سبب العداوة بين يلبغا الناصرى وبين برقوق . واستمرت العداوة بينهما حتى بلغ يلبغا من برقوق مناه ، وقيده ونفاه ، كما تقدم .

توقع كيد من خاصست يوما

ولا تركن الى ود الأعداى

فان الجرح ينكت بعد حين

اذا كان البناء على فساد

وكان توجه السلطان برقوق الى الكرك فى ليلة الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة لحدى وتسعين وسبعمئة . فلما مضى أمر الظاهر برقوق واستقر بالكرك وقع الخلاف بين الأمير تمر بغا منطاش وبين الأتابكى بلبغا الناصرى ، ودبت بينهما عقارب الفتنة ، فظهر الأمير منطاش أنه ضعيف واقتطع فى بيته أياما . فلما بلغ الأمراء ذلك توجه الأمير الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب ليسلم عليه ، فلما دخل الى بيته قبض عليه ، وكان ذلك فى يوم الاثنين سادس عشر شعبان من سنة احدى وتسعين وسبعمئة .

فلما كان وقت الظهر ، والناس مقيمة فى بيوتهم ، ركب الأمير منطاش هو ومماليكه وهم لابسون آلة الحرب — وكانوا نحو من أربعين مملوكا — فهجموا على باب السلسلة ، وأخذوا الذى بالاسطبل السلطانى ، ثم توجهوا الى بيت أقبغا الجوهري استادار العالية فنهبوا كل ما فيه ، والتف على منطاش السواد الأعظم من الزعر والغلمان والعبيد ، فهرب أقبغا الجوهري من بيته الذى على بركة الفيل .

ثم ان منطاش أرسل الأمير تنكز بغا اليلبغاوى ، ومعه جماعة من المماليك ، فطلعوا الى سطح مدرسة السلطان حسن وصاروا يرمون على كل من يمشى فى الرميلى أو سوق الخيل ، فتسامعت

به ممالك الظاهر برقوق الذين كانوا قد اختفوا ، فظهروا وجاءوا الى منطاش ، وكذلك ممالك الأشرف شعبان وممالك الأسياد . فاجتمع عند منطاش فى أواخر انهار نحو خمسمائة مملوك ، وكان معه أول ماركب دون الأربعين مملوكا . فلما تسامع الأمراء والعسكر بذلك طلعوا الى الرميلى وهم لابسون آلة الحرب ، فنزل اليهم الأتابكى يلبغا الناصرى ومن كان من عصيته من الأمراء والمماليك ، فأوقعوا معهم واقعة عظيمة لم يسمع بمثلا ، وذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان . وصار العوام والزعر يساعدون منطاش بالحجارة والمقاليح ، ثم يلتقطون النشاب الذى يرمونه جماعة يلبغا الناصرى ويحضرونه الى منطاش . ثم تكامل عند منطاش نحو ألفى مملوك ، وحضر عنده من الأمراء المقدمين أربعة ، وهم : المقر الشهابى أحمد بن يلبغا العمري أمير مجلس ، والأمير قرا دمرداش الأحمدى أمير سلاح ، والأمير الطنبغا المعلم ، والأمير عبد الرحيم ابن منكلى بغا الشمسى ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات .

ثم ان الأمير منطاش قال للأمير ناصر الدين ابن الطرابلسى الزردكاشى : « انصب على مدرسة السلطان حسن مكحلة » ... فامتنع ناصر الدين ابن الطرابلسى من ذلك ، فعراه وقصد توسيطه . ثم انه نصب مكحلة على المدرسة ، ورمى بها على باب السلسلة ، فهرب المماليك الذين كانوا فى الاسطبل .

ثم ان الأتابكى يلبغا نصب مكحلة على المدرسة الأشرفية التى كانت فى رأس الصوة ورمى بها على سوق الخيل فلم يفد من ذلك شيء .

ثم ان جماعة من المماليك السلطانية ، لما رأوا أن الأمير منطاش منتصف على الأتابكى يلبغا ، صاروا

يتسحبون من عند يلبغا وينزلون عند منطاش ،
وامتدح الحرب سائرا بينهما يومين . فلما رأى
الأتابكي يلبغا عين الغلب هرب تحت الليل هو
وجماعة من الأمراء ، وهم . الأمير مأمور القلمطاوى
أحد المقدمين ، والأمير الألبغا العثماني الدوادر ،
والأمير أقبغا الجوهري استادار العالية ، والأمير
كشكلي أحد المقدمين ، وبعض مماليك نحو مائتى
مملوك ... فخرجوا من باب القرافة ، وتوجهوا الى
الجبل المقطم ، وخرجوا من عند وادى السدرة
وقصدوا نحو البلاد الشامية .

وكان الأتابكي يلبغا يظن أنه ينتصف على
منطاش ، كما أنه قد انتصف على الملك الظاهر
برقوق ... وما كل مرة تسلم الجرة . فكان كما
قيل فى المعنى :

وانى رأيت المرء يشقى لعكسه

كما كان قبل اليوم يسعد بالسعد

هذا ما كان من أمر الأتابكي يلبغا الناصرى .

وأما ما كان من أمر الأمير تمبرغا الأفضلى
منطاش فانه لما هرب الأتابكي يلبغا ، ركب وطلع
الى باب السلسلة واستولى على حواصل يلبغا .

فلما كان فى يوم الخميس تاسع عشر شعبان
جاءت الأحبار بأن يلبغا الناصرى قد مسك هو
والأمراء الذين كانوا أصحابه من بلبيس فلما حضر
يلبغا حبسه منطاش فى المكان الذى حبس فيه
الظاهر برقوق — والمجازاة من جنس العمل —
فأقام أباما ، ثم قيده وأرسله الى السجن بشعر
الاسكندرية ، وأرسل معه الأمراء المقدم ذكرهم ،
فنفى فى هذه الحركة تسعة أمراء وغير ذلك من
الأمراء العشراوات ممن كان فى عصابة يلبغا .

ثم ان الأمير منطاش رسم بالافراج عن جماعة
من الأمراء الذين كان قد سجنهم يلبغا الناصرى ،

فحضر من ثغر دمياط المقر السيفى سودون الفخرى
نائب السلطنة ، ثم أرسل باحضار الأمير شبيخ
الصفوى من المقدس ، وأفرج عن الأمير الطنبيغا
العثمانى ، والأمير بطا الطولوتى ، والأمير
الطنبيغا شادى .

ثم ان الأمير منطاش عرض مماليك الظاهر برقوق
فى باب السلسلة ، ومسك منهم نحو مائتى مملوك
وحبسهم فى أبراج القلعة .

ثم ان السلطان الملك المنصور أمير حاج عمل
الموكب فى القصر ، وخلع على من يذكر من الأمراء
وهم : المقر السيفى تمبرغا الأفضلى منطاش واستقر
به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا الناصرى ، وخلع
على الأمير استدر الشرفى واستقر به أمير مجلس ،
وخلع على الأمير تمان تمر الأشرفى واستقر به رأس
نوبة النوب ، وخلع على الأمير الطنبيغا الحلبى
واستقر به دوادرا كبيرا ، وخلع على الأمير اياس
الأشرقى واستقر به أمير اخور كبير . وأنعم على
جماعة من الأمراء ممن كان من عصبته بتقادم
ألوف ، وبامريات أربعين ، وبامريات عشرة . وفرق
الاقطاعات على المماليك ، وأقام له عصابة قوية ،
وظن أن الوقت قد صفا له .

ثم فى العشر الأخير من شهر رمضان جاء الخبر
من الكرك بأن الملك الظاهر برقوق قد ملك قلعة
الكرك وعصى بها . وكان سبب ذلك أن الأتابكى
منطاش أرسل شخصا من البريد يقال له الشهاب ،
وأرسل على يده مرسوما شريفا الى نائب الكرك
بقتل الملك الظاهر برقوق .

ومن العجائب أن منطاش مملوك الملك الظاهر
برقوق ، اشتراه فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة ،
ورباه صغيرا ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشيا .
وكان منطاش شجاعا بطلا ، فظهر منه بعض افساد

في القاهرة ، فضربه السلطان برقوق علقة قوية ونفاه الى البلاد الشامية . فلما عصى يلغا الناصري التفت عليه منطاش ، وحضر معه الى القاهرة ، وحارب أستاذه برقوق أشد المحاربة ، وقيده ونفاه الى الكرك ... وما كفاه ذلك حتى أرسل مراسيم بقتله ، فكان حال السلطان برقوق مع مملوكه منطاش كما قيل في المعنى :

كنت من كربتي أفر اليهم

فهمو كربتي فأين المفر ؟

فلما دخل الشهاب البريدى الى الكرك بلغ ذلك الملك برقوق . وكان للملك الظاهر في المكان الذي حبس فيه شباك الى جهة بلاد الخليل عليه الصلاة والسلام ، فكان برقوق في كل يوم يقف في الشباك ويقول : « يا خليل الله ، أنا في حبسك من منطاش » ... قيل ان شخصا من الصالحين رأى الخليل عليه الصلاة والسلام في المنام ، فقال له ان برقوق يعود الى ملكه ، وينصر على منطاش ...

فلما حضر الشهاب البريدى الى الكرك ، تنسم منه الحاج عبد الرحمن البابا الذي كان بخدمة الملك الظاهر برقوق بأنه جاء بقتل أستاذه برقوق . وكان أصل الحاج عبد الرحمن البابا من الكرك ، وله أقارب هناك . فلما كانت تلك الليلة التي قدم فيها الشهاب البريدى كانت نوبة أبي علوان السجان ، وكان من أقارب الحاج عبد الرحمن البابا ، فأنزّلوا ذلك البريدى في مكان يسمى الطارمة بجانب المكان الذي فيه السلطان برقوق ، وكان نائب الكرك في كل ليلة من شهر رمضان لا يفطر الا عند السلطان برقوق . فلما كانت تلك الليلة لم يحضر فيها نائب الكرك المذكور ، فاضطرب الظاهر برقوق لذلك ، وقال : « لا آكل شيئاً حتى يحضر النائب » ... ثم بعد ساعة حضر وأكل مع السلطان . فلما فرغوا

دخل أقارب الحاج عبد الرحمن البابا على الشهاب البريدى وهو في الطارمة فقتلوه ، ثم أرادوا قتل نائب الكرك فاستجار بالسلطان فمنعهم من قتله ، فقبضوا عليه وسجنوه ، وملك الملك الظاهر قلعة الكرك ... فهذه كانت مبدأ سعد الملك الظاهر برقوق ، وقد قاسى من المحن والأهوال أمراً عظيماً ، فكان كما قيل في المعنى :

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه

ويعرف عند الصبر فيما يصيبه

ومن قل فيما يتقيه اضطباره

فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

فلما جاءت الأخبار بأن برقوق قد ملك قلعة الكرك ، اضطربت أحوال الأتابكي منطاش ، وخانه المراد ، وجنى عليه الاجتهاد . ثم انه أحضر العسكر وعين تجريدة الى برقوق .

ثم في أثناء ذلك حضر شخص من العربان الشامية وأخبر بأن الملك الظاهر برقوق قد طرده أهل الكرك وأنزلوه من القلعة وهرب الى خارج المدينة ، وان العربان قد أحاطوا به ... ولم يكن لذلك صحة ، وانما السلطان برقوق أرسل هذه الهجان بهذا الخبر الى مصر حتى يبطل أمر التجريدة التي كانوا عينوها له الى أن تستقيم أحواله .

فلما سمع الأتابكي منطاش بهذا الخبر فرح ، وخلع على ذلك الهجان كاملية بسمور ، وبطل أمر التجريدة ، فكانت هذه أول مكيدة صحت بيد برقوق .

ثم في خامس عشر شوال جاءت الأخبار من قوص بأن ممالك الظاهر برقوق الذين كانوا هناك قد توجهوا الى الكرك من وادي القصب الى السويس ، وقد قتلوا والى قوص .

ثم في أثناء ذلك جاءت الأخبار من حلب بأن

كمشبعاً الحموي نائب حلب خامر وخرج عن الطاعة .

ثم جاءت الأخبار بأن الظاهر برقوق قد خرج من الكرك وهو قاصد نحو الشام ، فلاقاه حسام الدين بن باكيش نائب غزة ومعه جماعة من عربان جبل نابلس نحو خمسة آلاف انسان ، فأوقعوا مع الظاهر برقوق في الطريق واقعة قوية ، وكان الظاهر برقوق قد التفت عليه من عربان الكرك نحو ألف انسان . فلما خرج من الكرك تسامعت به الناس فجهأوا اليه ، وصار كلما مر بقرية يخرج اليه أهلها ويلاقونه ومعهم العليق والضيافة . فلما لاقاه ابن باكيش نائب غزة ، وانكسر من كان مع ابن باكيش من العسكر ، لهبهم عسكر برقوق وغنموا منهم خيولا وسلاحا وقماشاً وبركا ، فقوى عسكر برقوق بتلك الغنيمة . فلما وصل برقوق الى شقحب خرج اليه عسكر دمشق ، وأوقعوا معه هناك واقعة عظيمة ، فقتل بها من أمراء دمشق ستة عشر أميراً ، ومن المماليك نحو خمسين مملوكاً ، وقتل من عسكر برقوق نحو ذلك .

ثم جاءت الأخبار بأن الأمير اينال اليوسفي خرج من السجن وملك قلعة صفد . وسبب ذلك ان اينال اليوسفي كان مسجوناً بقلعة صفد . وكان داودار نائب صفد شحصاً يقال له يلبغا السالمى ، وكان أصله من ممالك الظاهر برقوق . فلما خرج نائب صفد من المدينة وتوجه الى نحو دمشق ليساعد نائب دمشق على قتال الظاهر برقوق بقيت صفد خالية بلا نائب ، فاتفق يلبغا السالمى مع حاجب صفد ونائب القلعة ، وأخرجوا الأمير اينال اليوسفي من السجن ، وأخرجوا معه جماعة من المماليك الذين كانوا معه في السجن وملكوا قلعة صفد . فلما بلغ ذلك نائب صفد رجع الى صفد وأراد أن يدخل الى دار السعادة ، فرموا عليه بالمدافع وطرده من

المدينة ، واستولى اينال اليوسفي على قلعة صفد ، ونهب حواصل قتلوك بك نائب صفد ، فقويت شوكة الظاهر برقوق .

ثم جاءت الأخبار بأن نائب صفد ونائب حماه قد وصلا الى قطيا وهما هاربان من الظاهر برقوق ، فدخلوا الى القاهرة في يوم الأحد خامس عشرى شوال ، فأخبروا الأتابكى منطاش بأن أكثر النواب خامر مع الظاهر برقوق .

فلما سمع منطاش ذلك عقد مجلساً عظيماً في القصر الكبير ، وأرسل خلف أمير المؤمنين محمد المتوكل والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني . فلما تكامل المجلس عرض عليهم الأتابكى منطاش سؤالاً شرحه : « ما تقول السادة العلماء في رجل خلع الخليفة وسجنه وقيد من غير موجب لذلك ، وقتل رجلاً شريفاً في الشهر الحرام في البلد الحرام ، واستحل أخذ أموال الناس بغير حق ، واستعان بالكفار على قتال المسلمين ؟ » ... ثم كتبوا من هذا السؤال عدة نسخ . فقال القضاة : « ما نكتب على هذا السؤال حتى يكتب شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني » . فكتب الشيخ سراج الدين البلقيني : « اذا قامت عليه البينة بذلك وجب قتاله ومحاربته ، فهو خارجى » . فلما كتب شيخ الاسلام ذلك كتب بعده القضاة ومشايخ العلماء ، وكتبوا من هذا السؤال عدة فتاوى ، ثم أرسلوها الى ثغر الاسكندرية ودمياط وغير ذلك من الثغور ... وكان الظاهر برقوق في أول سلطنته وقع منه أمور فاحشة في حق الرعية ، فكان كما قيل : « اذا حملت الأنفسي ما لا تطيق ، نطق الألسن بما لا يليق » ...

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن الظاهر برقوق بعد أن دخل الى دمشق ، وملك المدينة ، ونزل في

الميدان ، كبس عليه أهل دمشق ، وأخرجوه من المدينة الى ظاهر البلد . وكان سببه أن الظاهر برقوق لما وصل الى دمشق نزل عند قبة اليلبغا خارج دمشق . فأقام هناك ، فجاء اليه كمشبعاً الحموى نائب حلب ، فوجد الظاهر برقوق في خيمة خلقة صغيرة ، فأحضر له خيمة مدورة عظيمة ، وأحضر طشتخاناه وشربخاناه وفرشخاناه وغير ذلك مما يحتاج اليه الملوك من أوان وفرش حتى أحضر له الخليفة برسم النوبة ، وصار الظاهر برقوق سلطاناً كما كان أولاً بعدما كان قد تلاشى أمره ، فكان كما قيل :

الصبر مثل اسمه في كل نائبة

لكن عواقبه أحلى من العسل

فأصبر لها غير محتال ولا ضجر

في حادث الدهر ما يغنى عن الحيل

ثم ان الظاهر برقوق لما استقامت أموره ، حضر بمن معه من العساكر ودخل الى دمشق ، وملك المدينة ، ونزل بالميدان الكبير ، فجاء اليه الناس من كل فج و قدموا اليه الخيول والقمماش والمال وغير ذلك . فبينما هو في الميدان اذ قامت بدمشق عركة ، ورجموا الملك الظاهر برقوق وأخرجوه من الشام . وكان سبب ذلك أن بعض مماليك برقوق عبث على بعض سوقة دمشق وأخذ منه شيئاً من البضائع بالغصب ، فاستغاث ذلك السوقى ، فحضر اليه جماعة من أهل دمشق وتعصبوا له ، فهاش عليهم ذلك المملوك وضربهم ، فرجيه أهل دمشق ، فجاء خشدائى ذلك المملوك ورموا على عوام دمشق بالنشاب ، فتكاثرت على المماليك العوام بالحجارة والمقاليح ، فكسروا المماليك كسرة قوية . فركب الظاهر برقوق ومن معه من الأمراء وخرجوا من دمشق الى قبة يلبغا ، فدخل العوام الى الميدان ،

ونهبوا برك الظاهر برقوق ، وغلقت أبواب دمشق بعد ما كانت مفتحة ، وكان برقوق أشرف على أخذ قلعة دمشق وراج أمره ، فتعطل بسبب ذلك كما قيل : « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

ويقرب من هذه الواقعة ما ذكره بعض المؤرخين أن أهل قريتين تقاتلوا حتى تفانوا عن آخرهم على قطرة عسل . وسبب ذلك أن رجلاً نحالاً يبيع العسل وقف على زيات لبيعه عسلاً . فبينما الزيات يزن في العسل ، قطرت منه قطرة على الأرض ، فوقع عليها رنبور ، فوثب عليه قط كان في دكان الزيات وهو عزيز عنده ، فخطف ذلك الرنبور ، فرآه كلب كان مع صاحب العسل وهو عزيز عنده ، فوثب على قط الزيات فقتله وأكله . فلما رأى الزيات قطه قد مات ضرب كلب صاحب العسل فقتله . فلما رأى صاحب العسل كلبه قد مات خرج من عقله — وكان ذلك الكلب عزيزاً عنده — فضرب الزيات ضربة فقتله . فلما رأى أخو الزيات أخاه قد قتل ، وثب على صاحب العسل فقتله . وكان صاحب العسل من قرية والزيات من قرية ، فتسامع أهل القريتين بذلك فلبسوا السلاح ، وما زالوا يتقاتلون بالسيف والرمح ، والحرب سائرة بينهم ، حتى تفانوا عن آخرهم ... وكان سبب ذلك القطرة العسل النى أثارت هذه الفتنة العظيمة .

فنعوذ بالله من آفة الجهل ، وقلة العقل ، كما قيل في المعنى .

ألم تر أن العقل زين لأهله

ولكن تمام العقل طول التجارب

ومن هنا نرجع الى أخبار الأتابكى منطاش ... فانه لما سمع ذلك عن الظاهر برقوق لم يثق بهذا الكلام ، وأخذ في أسباب خروج العسكر ، والسلطان الملك المنصور أمير حاج ، الى لحو

الشام لقتال الظاهر برقوق . فلما تحرك أمر التجريدة حصل للناس غاية الصرر من الأتابكى منطاش ، وتمنى كل أحد عود الملك الظاهر برقوق الى الديار المصرية . وكان قد جرى من الأتابكى منطاش عند خروج التجريدة أمور منها أنه أخذ خيول الطواحين جميعها حتى غلا الدقيق وأكل الناس بعضهم بعضا ، ومنها أنه نادى فى القاهرة بأن لا فقيه ولا متعمم يركب فرسا ، ومنها أنه أمسك جماعة من ممالك الظاهر برقوق وسجنهم بخزائن شمائل ، ومنها أنه سد باب الفرج — وكان ذلك فلا عليه — وسد باب حمام أيدغمش ، ومنها أنه رمى على جماعة من المباشرين بالايوان الشريف خمسمائة فرس من الخيول الخاص ، ومنها أنه رمى على أولاد الناس أجناد الحلقة كل واحد فرسا أو ثمنه ، ورمى على الحجاب المقيمين بالقاهرة كل واحد ثمن فرس خمسين دينارا ، وفرع من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، فكان كما قيل فى المعنى :

كفى المرء نقصا أن يرى عيب غيره

وما عاب منه الناس غير معيب

ثم ان السلطان علق الجاليش وأنفق على العسكر، فرسم الأتابكى منطاش لكل مملوك من الممالك السلطانية بنفقة دون المائة دينار ، فأخذوا ذلك على كره منهم وأظهروا العصيان ، وكثر القيل والقال فى حق المقر الأتابكى منطاش . ثم أشيع بين الناس أن الملك الظاهر برقوق قد انكسر وهرب ، وأن رأس اينال اليوسفى قد قطعت وهى واصلة الى القاهرة ، فدقت البشائر لذلك ثلاثة أيام ، وزينت القاهرة ... وكل ذلك أخبار مصنوعة ليس لها صحة ، وإنما هى اشاعة لتطمئن خواطر العسكر وهذه حيل منطاش .

ثم ان السلطان برر خيامه فى الريدانية وكذلك سائر الأمراء .

فلما كان يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجة سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، نزل السلطان الملك المنصور أمير حاج من القلعة ، وصحبته الخليفة المتوكل على الله محمد ، والقضاة الأربعة — وهم : قاضى القضاة أبو البقا السبكى الشافعى ، وقاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى الحنفى ، وقاضى القضاة جمال الدين بن خير المالكى ، وقاضى القضاة ناصر الدين بن العسقلانى الحنبلى — وسائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، فنزل فى موكب عظيم الى الريدانية .

ثم ان السلطان ترك بالقاهرة من الأمراء المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ورسم له بأن يقيم فى القلعة الى أن يعود السلطان ، وجعل الأمير تكا الأشرفى نائب الغيبة مع الأمير صراى تمر ، والأمير قطلوبغا السيفى تمر باى حاجبا ثانيا ومعه جماعة من الحجاب ، وترك جماعة من الممالك السلطانية نحو خمسمائة مملوك ، ورسم لهم بأن يتوزعوا فى أبراج القلعة وجوانب المدينة .

ثم ان فى يوم الجمعة رحل السلطان من الريدانية فلما وصل الى العكرشا وقع من أعلى الفرس الى الأرض فتفائل له الناس بعدم النصرة . وكان أكثر العسكر مائلا الى الملك الظاهر برقوق ، وما مع الأتابكى منطاش من العسكر الا القليل .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور أمير حاج والأتابكى منطاش .

وأما ما كان من أمر الأمراء الذين بالقاهرة بعد خروج السلطان فان الأمير صراى تمر نائب الغيبة ، لما رحل السلطان من القاهرة ، أمر بسد أبواب القلعة ، وهى : باب الدرفيل ، وباب الميدان ، وباب

القرافة ، وسد بعض أبواب القاهرة الصغار . ثم ان نائب الغيبة رمى على أولاد الناس المقيمين بالقاهرة كل واحد فرسا أو ثمنه ، فحصل للناس منه غاية الضرر الشامل ، وصارت القاهرة كل يوم في اضطراب وقلة أمن .

وفي هذه السنة توفي الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى ، وكان من أعيان العلماء وله شعر جيد في البديع ، فمن ذلك قوله في الصاحب كريم الدين ابن الغنام :

وزير الملك عيـد ألف عيد
فأنت الصاحب الخلق الجليل
فمنك غنيت في الأضحى بكبش
ملئ بالغنـا كاف كفيل

سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة (١٣٩٠ م) :

فيها جاءت الأخبار من غزة بأن أكثر العسكر تسحب من عند الملك المنصور وتوجهوا الى الظاهر برقوق .

ومن الحوادث بالقاهرة أن جماعة من مماليك الأمراء اتفقوا مع مماليك الأمير صراى تمر نائب الغيبة على قتل أستاذهم صراى تمر . فلما تحقق صراى تمر ذلك أرسل الأمير قطلوبغا الحاجب ، ووالى القاهرة ، فكبسا على جماعة من المماليك الذين هم رأس الفتنة في مكان في البرقية ، فمسكا منهم ستة أنفس وهم لابسون آلة الحرب . فلما قبضا عليهم أحضرهم الى الأمير صراى تمر نائب الغيبة فعاقبهم وقرره فأقروا بأنهم قصدوا قتل جماعة من الأمراء ، فسجنهم بخزانة شمائل .

ثم ان الأمير صراى تمر أرسل يعرف الأمير تكا الأشرفى رأس نوبة ثانى عما وقع من هذا ، فلما أشيع ذلك بين الأمراء قبض كل أمير من الأمراء على جماعة من مماليكه ، فمسكوا منهم نحسو

خمسین مملوكا وسجنوهم . ثم ان الأمير صراى تمر أرسل فقبض على سيدى بيبرس ابن أخت الملك الظاهر برقوق وسجنه بالقلعة .

ثم ان الأمير صراى تمر نائب الغيبة نادى في القاهرة بأن كل من مسك مملوكا من مماليك الظاهر برقوق يأخذ له عشرين دينارا . فلما جرى ذلك اضطربت القاهرة ، وأشاعوا بأن المماليك الذين في القاهرة يقصدون الوثوب على الأمراء . فلما تحقق الأمير صراى تمر ذلك ما وسعه الا أنه رسم بالافراج عن سجن من المماليك قاطبة ، والافراج عن سيدى بيبرس ابن أخت الملك الظاهر برقوق ، ونزل الى بيته .

ثم في يوم الخميس حضر هجان من الشام وعلى يده مراسيم الى الأمراء بأن السلطان الملك المنصور دخل الى الشام وملكها ، وأن الملك الظاهر برقوق هرب من وجهه ولم يقابله ، فخلعوا على الهجان الذى جاء بهذا الخبر خلعة عظيمة ، ودقت البشائر ثلاثة أيام ... ثم ظهر بأن هذا الخبر كذب مصنوع ليس له صحة ، وفعلوا ذلك لتطمئن الرعية .

ثم في يوم الأحد سابع عشرى المحرم من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة أشيع بين الناس بالقاهرة بأن الظاهر برقوق قد انتصر على الملك المنصور أمير حاج ، ثم انقطعت هذه الأخبار مدة طويلة فلما كان ليلة الأربعاء مستهل شهر صفر حدث في تلك الليلة أن جماعة من المماليك السلطانية كانوا بآتين في القلعة ، فنقبوا حائطا وأخرجوا جماعة من المماليك الذين كانوا في السجن بالقلعة ، فلما كثروا جاءوا الى باب القلعة الذى ينزل الى باب السلسلة فوجدوه مقفلا فعبثوا فيه بعتلة حديد ، فلما أحس بهم الحراس ضربوا أحد الحراسين بالسيف فمات من وقته ، فهرب بقية الحراس لما رأوا ذلك ، فخلع

الممالك الباب ، ونزلوا الى الاسطبل السلطاني ، وجاءوا الى باب السلسلة ، فوجدوا الحراس قد ناموا وكان ذلك في آخر الليل ، فضربوا من الحراس اثنين فماتا ، وأخذوا منهم مفتاح باب السلسلة ففتحوا الباب ونزلوا الى الرميلة ... هذا كله والأمير صراى تمر نائم في حريمه لم يشعر بشيء من ذلك . فلما أحس بهذا الأمر نزل من سور الاصطبل في حبل الى الرميلة ، ثم توجه الى بيت الأمير قطلوبغا الحاجب .

ثم ان الممالك تحايوا وكثروا ، فلما أصبح الصباح فتحو أبواب القلعة وأخرجوا من كان في الأبراج من الممالك مسجوناً ، وكذلك من كان في خزنة شمائل ، ثم طلعوا الى الاسطبل السلطاني وأخذوا ما كان به من الخيول ، وطلعوا الى الطبلخانات السلطانية ، وأحضروا جماعة الغلمان والعبيد وقالوا لهم دفقوا الكتوسات حربياً .

ثم ان الأمير صراى تمر نائب الغيبة والأمير قطلوبغا الحاجب ركبا ولبسا آلة الحرب ، ووقفا بسوق الخيل — وكان الأمير بطا الطولوتى قد ملك باب السلسلة — فلما طلع الأمير صراى تمر والأمير قطلوبغا الى سوق الخيل نزل اليهم الأمير بطا مع جماعة من الممالك الظاهرية ، فأوقعوا معهم واقعة قوية ، فالتكر الأمير صراى تمر نائب الغيبة ، والأمير قطلوبغا الحاجب ، فنهب العوام بيوتهم ومن كان من عصبتهم من الأمراء والممالك .

ومن غرائب صنع الله تعالى أن القاهرة اضطربت لهذه الواقعة ، وكانت المدينة سائبة — لا سلطان بها ولا قاضى ولا حاكم — ومع هذا لم يفقد لأحد من الناس ما قيمته الدرهم الفرد ، وكانت الزعر مائجة في المدينة ، ولم يتعرضوا لأحد من الناس بسوء ، ولا نهبوا لأحد شيئاً من الدكاكين ولا

البيوت ولا الأسواق ، وكان حفظاً من الله تعالى ، فكان كما قيل في المعنى :

لم لا نرجى الفضل من ربنا
أم كيف لا نطمع في حلمه
وفي الصحيحين أتى أنه
بعبده أشفق من أمه

ثم ان الأمير بطا خلع على شخص من أولاد الناس يقال له محمد بن العادلى واستقر به والى القاهرة عوضاً عن حسين بن الكورانى . ثم ان محمد بن العادلى نادى في القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش على أحد ، والدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق بالنصر ، فضج الناس له بالدعاء ... وهذا كله جرى بالقاهرة ولم يعلم للملك الظاهر برقوق خبر ، ان كان قد انتصر أو انكسر .

ثم ان المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ركب بنفسه وشق القاهرة ، ونادى قدامه بالأمان والاطمئنان ، والدعاء للملك الظاهر برقوق ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فنودى للخطباء بأن يخطبوا باسمه في ذلك اليوم .

ثم ان الأمير صراى تمر ، والأمير قطلوبغا ، وجماعة من الأمراء طلعوا الى باب السلسلة صحباً المقر السيفى سودون النائب وفي رقابهم مناديل . فلما طلعوا الى باب السلسلة قيدهم الأمير بطا وسجنهم بالقلعة . وكان الأمير بطا من ممالك الظاهر برقوق ، وكان يومئذ أمير عشرة ، ولكن خدم سعدة لسعد أستاذه برقوق كما قيل في المعنى :
ملك نداه المبتدا للناس والمدح الخبر
أمضى لسان سيفه حكم القضاء والقدر
فلما كان يوم السبت أواخر شهر صفر حضر الى القاهرة جلبان الخاصكى وصحبته الأمير عيسى بن

مها شيخ العرب ، وأحبروا بأن الملك الظاهر برقوق قد انتصر على منطاش ، وهو واصل الى غزة . فلما سمع ذلك الأمير بطا دق الكؤوسات ، ونادى بالزينة في القاهرة . وكتب مراسيم وأرسلها الى ثغر الاسكندرية ودمياط والصعيد بنصرة الملك الظاهر برقوق على منطاش .

ثم ان الأمير بطا خلع على الأمير حسين بن الكوراني ، واستقر به والى القاهرة كما كان أولا . ثم في يوم الأحد ثاني ربيع الأول حضر هجان على يده مراسيم شريفة متوجة بخط الملك الظاهر برقوق ، مضمونها أن الأمير بطا يجهز الاقامات الى قطيا .

ثم بعد ذلك حضر شيخ العرب زيد بن عيسى شيخ العائد وأخبر بما جرى للملك الظاهر برقوق مع الملك المنصور أمير حاج ومع الأتابكي منطاش . فأخبر أن الملك المنصور لما وصل شقحب تلاقي هناك هو والملك الظاهر برقوق ، فحصل بين العسكرين واقعة عظيمة لم يسمع بمثلا ، وذلك في يوم الأحد رابع عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . فلما التقوا هناك على شقحب انكسر الملك الظاهر برقوق كسرة قوية وهرب ، وأسر الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر وجرح . فلما انكسر الظاهر برقوق وولى دخل الأتابكي منطاش الى الشام ومعه الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق وهو أسير . ثم ان الأتابكي منطاش قال لنائب الشام الأمير نجر دمر : « اخرج أنت وعسكر الشام ولاقي الملك المنصور » ... وكان الملك المنصور لما انكسر برقوق أخذ الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة وخزائن المال وبعض جماعة من العسكر ، ونزل تحت جبل خارجا عن الشام بيوم .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور والأتابكي منطاش .

وأما ما كان من أمر الملك الظاهر برقوق بعد كسرتة ، فانه هرب هو والأمير كمشبحا الحموى نائب حلب فأما نائب حلب فتوجه تحت الليل الى حلب ودخلها ، ثم حصن المدينة وظن أن الظاهر برقوق قد تلاشى أمره . وأما الملك الظاهر برقوق فانه لما انكسر هرب في نفر قليل من العسكر وتوارى خلف الجبل الذي تحته الملك المنصور والخليفة والقضاة ، فأتى اليه بعض العرب وأخبره بأن الملك المنصور تحت ذلك الجبل ، فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر — وكانوا نحو أربعين اسانا — فألقى الله الرعب في قلوب عسكر المنصور ، وغلت أيديهم عن القتال ، فنزل عليهم الظاهر برقوق كالبار على الطائر ، واحتوى على كل ما معهم من البرك والقماش والسلاح وخزائن المال . فلما جرى ذلك تسامع به الناس فجاءوا اليه أفواجا من كل مكان ، كما قيل : « اذا استقام نجم سعدك ، فاصنع مع السعد ما شئت » ... فبات برقوق هناك تلك الليلة .

فلما بلغ ذلك منطاش حضر — ومعه عساكر الشام والسواد الأعظم من دعر دمشق فحصل بينهم واقعة أعظم من الواقعة الأولى ، وقتل بها ما لا يحصى من الخلائق ، واستمرت الحرب سائرة بينهم من باكر النهار الى غروب الشمس ، فانكسر الأتابكي منطاش وعسكر الشام كسرة قوية ، فولوا هاربين الى نحو دمشق ، وصار القتلى على الأرض مثل الحصا من أهل الشام وعسكر مصر ، وربما عوقب من لم يجن كما قيل :

حب السلامة يشنى عزم صاحبه

عن المعالي ويغرى المرء بالكسل

فلما جرى ذلك أقام الظاهر برقوق بمنزلة شقحب يومين . ثم ان شخصا من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفي مشى بين الملك

الظاهر برقوق وبين الملك المنصور أمير حاج في أن يخلع نفسه من الملك ويسلم الأمر الى الملك الظاهر برقوق ، فأجاب الملك المنصور الى ذلك ، وأحضر الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة ، وخلع نفسه من الملك وأشهدوا عليه بذلك .

ثم ان الخليفة والقضاة بايعوا الملك الظاهر برقوق بالسلطنة ، وذلك بمنزلة شقحب .

ثم ان الظاهر برقوق أقام هناك تسعة أيام ، فوقع في العسكر الغلاء وعز الشعير والتبن والقمح حتى بيعت كل بقسمطة بخمسة دراهم شامية ، وبيع كل فرس بعشرين درهما شامية — لعدم العليق — وكل جمل بعشرة دراهم ولم يوجد من يشتريه بهذا السعر ، وبيعت القطعة السكر بثقلها فضة ولم توجد ... فقلق العسكر قاطبة وهموا بالوثوب على برقوق ، فلما رأى ذلك عزم على التوجه الى نحو الديار المصرية ، فخلع عند رحيله على الأمير اياس الجرجاوى واستقر به نائب صفد ، وخلع على الأمير قديد القلمطاوى واستقر به نائب الكرك .

ثم انه أمر العسكر بأن يرحلوا أولا بأول ، فرحلوا من شقحب وبقي الظاهر برقوق والخليفة والملك المنصور وبعض أمراء ومماليك سلطانية ، فلما بلغ منطاش ذلك خرج من الشام ومعه نحو مائتى السان من عسكر دمشق ، ووقف على تل عال خارج عن دمشق ، فلما بلغ الظاهر برقوق ذلك ركب وخرج اليه ، فوقف كلاهما هناك ساعة ولم يقع بينهما قتال .

ثم ان منطاش رجع الى الشام ، ورجع برقوق ثم رحل من شقحب وقصد نحو الديار المصرية ، فسار هو والخليفة والقضاة الأربعة والملك المنصور .

فلما وصل الظاهر برقوق الى غزة قبض على

نائب غزة الأمير حسين بن باكيش — وكان وقع منه في حق الظاهر برقوق لما خرج من الكرك ما قد تقدم ذكره — ثم قيده وأخذته صحبته الى القاهرة . وخلع على الأمير علاء الدين بن أقبا السلطانى واستقر به نائب غزة عوضا عن ابن باكيش .

ولما كان يوم الأربعاء ثامن صفر حضر الى القاهرة أقبا الطولوتى المعروف بالكاش — وهو أخو الأمير بطا وكان قد أرسله الى كشف الأخبار — فلما رجع أخبر بأن الملك الظاهر برقوق قد خرج من غزة وهو قاصد نحو الديار المصرية ، فنادى الأمير بطا بالزينة ، فزينت القاهرة ودقت البشائر سبعة أيام . ثم ان الأمير بطا أرسل بالافراج عن جماعة من الأمراء قد كانوا بالسجن بشعر الاسكندرية ودمياط ، وهم الأمير الطنبغا العثمانى ، والأمير عبدون العلانى ، والأمير مامق .

ثم ان الأمير بطا قبض على الأمير حسام الدين ابن الكورانى ، والى القاهرة ، وضربه وسجنه . وسبب ذلك أنه كان يكبس على مماليك الظاهر برقوق ويقبض عليهم من اصطبلات الحارات ، فلما انتصر برقوق قال له الأمير بطا : « اقبض على مماليك منطاش كما كنت تقبض على خشداشيننا من الاصطبلات » ... فصار يختلع في ذلك ، فقبض عليه الأمير بطا وضربه وسجنه ، ثم استقر بالصارمى والى القاهرة عوضا عن ابن الكورانى ... هذا كله قبل وصول الملك الظاهر برقوق .

فلما كان يوم الخميس تاسع صفر ، حضر الى القاهرة الأمير سودون الطيار وعلى يده مثالات شريفة الى سائر الأمراء بالسلام ، وأخبر الأمير سودون بأنه قد فارق السلطان فى الصالحية ، فخرج أكثر الناس الى ملتقاه .

فلما كان يوم الثلاثاء وصل الى بركة الحاج ، فخرج اليه الناس قاطبة من الأمراء والعلماء وأعيان الناس وسائر الرعية من العوام وغيرهم ، حتى طائفة الصيادين بشبكاتهم ، وطائفة الجيوش ومعهم صنجق وطبل وهم يرقصون ، وخرج اليه طائفة اليهود وطائفة النصارى وفي أيديهم الشموع والرايات ...

فلما كان يوم الأربعاء خامس عشر صفر ، دخل السلطان الملك الظاهر برقوق وطلع الى القلعة ، فكان له موكب عظيم ، فشقق من بين التراب ، واليهود والنصارى قدامه بالشموع تشعل ، وهو راكب والأمراء مشاة بين يديه ، والخليفة المتوكل قدامه والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ، وسائر الأمراء من الأكابر والأصاغر قدامه ، وسائر الجند من شيخ وصبي . وكان الملك المنصور أمير حاج راكبا عن يمينه وحملت القبة والطير على رأسه ، ولعبوا قدامه بالفواشي الذهب ، وانطلقت له النساء بالزغاريط . فلما وصل الى تربة طيغا الطويل فرشت له الشقق الحرير . فلما وصل الى أوائل الشقق ثنى عنان فرسه عن الشقق ، وأشار الى الملك المنصور أمير حاج بأن يمشى بفرسه على الشقق جبرا لقلبه ... فدعا له الناس بالنصر .

فلما أن وصل الرميطة ، طلع الى باب السلسلة وجلس به ، واجتمع الخليفة والقضاة الأربعة ، فجددوا له البيعة ثانيا ، وأشهدوا على الملك المنصور بالخلع .

فلما انقضى المجلس قال الملك الظاهر برقوق للملك المنصور أمير حاج : « اطلع سلم على أمك » ... فقام الملك المنصور وقدموا له الفرس ، فركب من المقعد الذى فى الاصطبل . فلما ركب قام له الملك الظاهر وعضده من تحت ابطه حتى ركب ، وبالع في تعظيمه ، فدعا له الناس بالنصر .

فلما طلع المنصور من الاصطبل السلطاني توجه الى دور الحرم ، فدخل اليها وهو في غاية التعظيم بخلاف من تقدم من أقاربه . فلما دخل الى دور الحرم أقام بها في غاية الحفظ ، فكان آخر من تولى السلطنة بالديار المصرية من ذرية بنى قلاون ، وبه قد زال عنهم الملك كأنه لم يكن .

ومن جملة سعد الملك الظاهر برقوق أنه من حين خلع من السلطنة وعاد اليها لم يجلس أحد على مرتبته الى أن عاد اليها . وكانت سلطنة الملك المنصور أمير حاج عبارة عن نيابة عن الملك الظاهر برقوق الى أن عاد الى السلطنة ، وكان أمر السلطنة جميعها بيد الأتابكى منطاش .

وكان من جملة سعد الملك الظاهر برقوق ، أنه من حين خرج من الكرك وتوجه الى الشام ، وخرج اليه المنصور وجرى في القاهرة ما تقدم ذكره من مسك الأمراء وغير ذلك ، كانت الخطبة باسم الظاهر برقوق على منابر القاهرة قبل دخوله اليها ، ودخل الى القاهرة من غير قتال ولا حرب . وقد تقدم ما فعله الأمير بطا قبل دخول الظاهر الى القاهرة ، وخدم سعد برقوق في هذه الولاية الثانية الى أن مات على فراشه وهو سلطان كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

ومن جملة سعد برقوق أن الملك المنصور نزل له عن السلطنة بدمشق طائعا ، ولم يختلف عليه اثنان .

ومن غرائب الاتفاق أن قلاون لما تولى الملك تلقب بالملك المنصور ، وآخر من تولى الملك من ذريته تلقت بالملك المنصور .

وأغرب من هذا أن الملك المنصور قلاون الألفى كان قد أخذ الملك من أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، والملك الظاهر برقوق أخذ الملك من أولاد الملك المنصور قلاون — وفي المثل

« كما تدين تدان » - فكانت مدة سلطنة الملك المنصور أمير حاج في هذه المرة ثمانية أشهر وستة عشر يوما الى يوم خلعه بشقحب ، وكان الأتابكي منطاش في هذه المدة هو السلطان ، يعزل من يشاء ويولى من يختار من عصبته ، وقد قال بعض الزجالة هذا المطلع :

من الكرك جانا الظاهر وجب معو أسد الغابه
ودولتك يا أمير منطاش ما كانت الا كدابه
ولما دخل الملك أمير حاج الى دور الحرم أقام بها الى أن مات على فراشه في ليلة الاربعاء تاسع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة ، وذلك في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق ، وصلى عليه بالقلمسة ودفن في تربة جدته خوند بركة التي بالتبانة ، ومات وله من العمر نحو سبع وأربعين سنة ، وقيل انه مات وهو مقعد في الفراش مما حصل له في يوم وقعة شقحب لما كبس عليه الملك الظاهر برقوق ، واستمرت الطربة معه حتى مات . وقد قال القائل في المعنى :

اصبر لدهر نال منك فهكذا مضت الدهور
فرحا وحزنا تارة لا الحزن دام ولا السرور

عَوْدُ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ بَرْقُوقَ

عاد الى السلطنة الملك الظاهر برقوق بن أنص --- وقيل أنص --- العثماني ، وهي السلطنة الثانية .

لما حضر من دمشق ، ودخل القاهرة ، جلس في باب السلسلة كما تقدم ذكر ذلك . فلما بايعه الخليفة بحضرة القضاة أحضروا له خلعة السلطنة فلبسها ، وركب من المقعد وطلع من باب سر القصر وجلس على سرير الملك ، وذلك في يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة .

ومن العجائب أن سلطنته الأولى كانت في يوم الأربعاء وسلطنته الثانية كانت في يوم الأربعاء .

ولما جلس على سرير الملك نودي باسمه في القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، وبطل القيل والقال من بين الناس ، وقد قال القائل في المعنى :

ملك به اخضر الزمان كأنما

أيام دولته ربيع ثانی

فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفي سودون الفخري الشيخوني واستقر به نائب السلطنة على عادته ، وخلع على المقر السيفي اينال اليوسفي واستقر به أتابك العساكر عوضا عن تمرغا الأفضلي منطاش ، وخلع على المقر السيفي كمشبحا الأشرفي المعروف بالخاصكي واستقر به أمير مجلس ، وخلع على الأمير الطنبغا الجوباني واستقر به رأس نوبة النوب على عادته ، وخلع على الأمير بطا الذي جرى منه ما تقدم ذكره واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير تكلمش العلاني واستقر به أمير أخور كبير ، وخلع على الأمير تنجاص السودوني واستقر به حاجب الحجاب .

ثم رسم بالافراج عن المقر السيفي يلغا الناصري الذي كان نائب حلب وخامر على السلطان ، وجرى منه ما جرى ، وكان سببا لزوال ملك الملك الظاهر برقوق كما تقدم . فلما عاد الملك الظاهر في هذه المرة زال ما كان بينه وبين يلغا الناصري من العداوة ورسم بالافراج عنه . فلما حضر خلع عليه واستقر به أمير سلاح . ولما نفى يلغا الناصري كان أتابك العساكر ، فلما رجع في هذه المرة استقر أمير سلاح .

ثم ان الملك الظاهر أفرج عن جماعة كثيرة من الأمراء ممن كانوا في السجن بشعر الاسكندرية . فلما حضروا خلع على الأمير الطنبغا الجوباني

سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، جلس السلطان في الميدان الذى تحت القلعة ، وحكم بين الناس على عادته ، ثم بعد مدة أيام قبض على جماعة من الأمراء وهم : يلبغا المنجكى ، وطشبعبا السيفى تمر باى ، وصربغا الناصرى ، وتلكتمر المحمدى ، وعلى الجركتمرى ، ومنكلى بغا المنجكى . فلما قبض عليهم قيدهم وأرسلهم الى السجن بشعر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على القاضى سعد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن موفق الدين أبى الفرج ، وخلع على الصاحب علم الدين سنبرة واستقر به ناظر الدولة الشريفة ، وكان في قديم الزمان أن الوزير اذا انفصل من الوزارة يستقر ناظر الدولة طوعا أو كرها ويلزمه السلطان بذلك .

ثم لما كان يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول حضر الى الأبواب الشريفة السيفى كزل مملوك يلبغا الناصرى ، وصحبته جماعة من أعيان دمشق ، فأخبروا بأن منطاش قد ملك مدينة بعلبك ، وقد التفت عليه جماعة من عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس ، والتفت عليه جماعة كثيرة من عربان جبل نابلس ، وقد نهب عدة ضياع من البلاد الشامية ، فأخذ السلطان حذره من ذلك . وفيها في يوم الأربعاء سادس عشر ربيع الأول خلع السلطان على الأمير جمال الدين محمود ابن على الظاهرى ، واستقر به استادار العالية وناظر الخواص الشريفة ومشير الدولة ، فتزايدت عظمتها الى الغاية ، وخلع السلطان على الأمير علاء الدين ابن الطبلاوى واستقر به والى القاهرة عوضا عن الصارمى .

وفي يوم الخميس حادى عشرى رجب جاءت الأخبار من حلب بأن منطاش أرسل شخصا يسمى

واستقر به نائب الشام ، ثم خلع على الأمير قرا دمرداش الأحمدى واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير القلمطاوى واستقر به نائب حماه ، وخلع على الأمير أرغون الغلمانى واستقر به نائب ثغر الاسكندرية ، وخلع على الأمير مقبل الرومى واستقر به أمير خازندار . وأنعم على جماعة كثيرة من الأمراء بتقادم ألوف وامريات أربعين وامريات عشرة . واستقامت أموره في السلطنة أعظم من المرة الأولى . ثم بعد ذلك خلع على جماعة من أرباب الدولة من المباشرين ، فخلع على القاضى علاء الدين الكركى العامرى واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وخلع على القاضى موفق الدين أبى الفرج واستقر به ناظر الجيوش المنصورة ووزير الديار المصرية على عادته ، وخلع على القاضى كريم الدين بن عبد العزيز واستقر به ناظر الخواص الشريفة ، وخلع على للأمير قرقماس الطشتمرى واستقر به استادار العالية ... فثبت قواعد دولته ، وأجرى كل أحد على عادته ، فكان أحق بقول القائل :

تاب الزمان اليك مما قد جنى

والله يأمر بالمتاب ويقبل

ان كان ماض من زمانك قد مضى

بامساء قد سرك المستقبل

هذا بذاك فشفع الثانى الذى

أرضاك فيما قد جناه الأول

واليسر بعد العسر موعود به

والنصر بالفرج القريب موكل

والله قد أولاك أمر عباده

لما ارتضاك ولاية لا تعزل

واذا تولاك الاله بنصره

وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

فلما كان يوم الثلاثاء خامس ربيع الأول من

تمان تمر الأشرفى الى مدينة حلب ، وكان نائب حلب كشيغا الحموى قد ثقل أمره على أهل حلب ، فما صدقوا بهذه الحركة ، فحاصروا نائب حلب أشد المحاصرة وتعصبوا الى منطاش ، فنقبوا القلعة من ثلاثة مواضع ، فصار كمشيغا نائب حلب يقاتلهم من داخل النقب على البرج ، واستمروا على ذلك نحو ثلاثة أشهر ، فانتصر كمشيغا نائب حلب على تمان تمر الأشرفى الذى ولاه منطاش على حلب ، فانكسر تمان تمر وولى هارباً .

ثم أن كمشيغا نائب حلب أخذ فى أسباب عمارة ما تهدم من المدينة وزاد ، ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن منطاش توجه الى طرابلس ومعه جماعة من العسكر ، فحاصر المدينة حتى ملكها وهرب من كان بها من الأمراء والنائب ، وهرب أكثر أهلها الى دمشق . ثم بعد مدة جاءت الأخبار من دمشق بأن منطاش حاصر دمشق بمن معه من العسكر ، وكان عوام دمشق يميلون الى منطاش ويكرهون الملك الظاهر برفوق ، فاتفقوا مع منطاش بأن يسلموه المدينة تحت الليل . فلما بلغ ذلك الأمير أيتمش البجاسى ، والأمير يلبغا الناصرى ، والأمير الطنبغا الأشرفى ، ركبوا بعد العشاء وخرجوا الى ظاهر دمشق وأوقعوا مع منطاش ومع عوام دمشق واقعة عظيمة ، فقتل فى تلك الليلة من الفريقين نحو ألف انسان ، ثم رجع عسكر دمشق الى المدينة .

وفى عقيب هذه الواقعة وثب مماليك الطنبغا الجوبائى نائب الشام على أستاذهم فقتلوه ، وهربوا من دمشق وتوجهوا الى منطاش . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل تقليدا الى يلبغا الناصرى واستقر به نائب الشام عوضاً عن الطنبغا الجوبائى . ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن الأمير جببق الكمشيناوى خرج من دمشق وقصد التوجه نحو

طرابلس ، فأخذ عربان نعيم وأحضروه الى منطاش فقتله بين يديه .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن منطاش توجه الى نحو عنتاب ، فالتف عليه جماعة كثيرة من التركمان ، فحاصر مدينة عنتاب أشد ما يكون من المحاصرة ، فملكها وهرب النائب الذى كان بها . فلما دخل الليل جمع نائب عنتاب جماعة كثيرة من التركمان وكبس على منطاش ، فقتل من عسكره نحو مائتى انسان وهرب منطاش نحو الفرات . فلما بلغ السلطان هذا الخبر انشرح له ونزل الى الرماية فى بركة الحج . ولما عاد من الرماية دخل من باب النصر ، وشق من بين القاهرة ، وزينت له ولايته اليهود والنصارى ومعهم الشموع موقدة .

وفى ذلك اليوم دخل السلطان الى بيت الأمير بطا الداودار الكبير وسلم عليه فانه كان مريضاً . ثم أن السلطان طلع الى القلعة وكان له يوم مشهود ، فانه من حين أتى من الكرك لم يشق من القاهرة سوى ذلك اليوم ، فضج الناس له بالدعاء .

وفى هذه السنة عملت خوند - أخت الملك الظاهر برفوق - كسوة جليلة للحجرة الشريفة ، وستارة زركش لباب الحجرة الشريفة ، فشقت بذلك من القاهرة وكان يوماً مشهوداً . وسبب ذلك أنها نذرت لئن عاد أخوها الى السلطنة تكسو الحجرة الشريفة ففعلت ذلك . وفى هذه السنة عزل السلطان صاحب سعد الدين بن البقرى ، واستقر بالجناب الناصرى محمد بن الحسام الصقرى عوضه فى الوزارة . فلما نزل الى بيته طلب الوزراء المنفصلين ، فلما حضروا ، استقر بالصاحب شمس الدين المقسى ناظر الدولة ، واستقر بالصاحب سعد الدين بن البقرى ناظر البيوتات ومستوفى الدولة ، واستقر بالصاحب موفق الدين أبى الفرج مستوفى الدولة ، فأطلق عليه وزير

نائب غزة ، فلما حضر بين يديه عراه وضربه بالمتارح ثمانين شبيبا . وكان ابن باكيش هذا وقع منه في حق السلطان — لما خرج من الكرك — أمور عظيمة ، وجمع له العربان ، وحاربه أشد المحاربة حتى كاد السلطان أن ينكسر ، فبقى عند السلطان هذا الكمين حتى اقتص منه ، فكان كما قيل :

وقد يرجى لجرح السيف برء
ولا يرجى لالجرح اللسان

وفيها حضر الأمير أيتمش البجاسي من الشام هو وجماعة من الأمراء ، وكانوا توجهوا إلى الشام بسبب منطاش ، فبلغ السلطان أنهم كانوا متعاملين على الفساد مع منطاش ، فلما حضروا فيد منهم جماعة ونفاهم إلى نهر الاسكندرية .

وفيها جاءت الأخبار بأن منطاش قد ملك حماه وحمص وبلبك ولم يشوش على أحد من أهلها ، فمال إليه الرعية وصاروا يسلسونه المدين من غير قتال . ثم أن منطاش توجه إلى الشام وحاصر المدينة ، فخرج إليه نائب الشام ، فهرب منطاش إلى جبل بقرب من طرابلس ، فقتله نائب الشام ، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل وجاء إلى دمشق فلم يجد بها أحدا من الأمراء ولا النائب ، ففتح له عوام دمشق باب كيسان الصغير ، فدخل منه إلى المدينة ونهب الأسواق وأخذ أموال التجار ، وكبس على الاصطبلات التي بالشام وأخذ منها نحو مائة فرس ، والتف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته وراج أمره . فلما بلغ السلطان ذلك نادى للعسكر بالعرض ، وقوى عزمه على الخروج إلى منطاش ، وعلق من يومه الجاليش ثم عرض العسكر وأنفق عليهم في يومه .

فلما كان يوم الاثنين ثاني عشر من شهر شعبان ، خرج السلطان وتوجه إلى نحو الريدانية في موكب

الوزراء ، لأنه كان مستوفى على آرباب الوظائف بالديوان المفرد ... واستمروا على ذلك مدة يسيرة . ثم أن السلطان غضب على صاحب فخر الدين بن مكاس وضربه علقه قوية ، ثم علقه من رجليه بسرياق ، فأقام وهو منكوس على رأسه نصف نهار ، ثم إن بعض الأمراء شفع فيه فأنزلوه فقال في هذه الواقعة :

وما تعلقت بالسرياق منتكسا
لزلة أوجبت تعذيب ناسوتي
لكنني مذ نفتش السحر من غزلي
عذبت تعذيب هاروت وماروت

وفي هذه السنة كانت وفاة الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، وكان من أعيان فحول الشعراء وله شعر جيد في فن البديع ، وله تذكرة لطيفة وعدة مصنفات جليلة غريبة المعاني في أيام الملك الظاهر برقوق . وكانت وفاة الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة ، وكان أصله مغربيا من تلمساذ ، وكان من أهل الفضل والعلم وله شعر جيد في فن البديع ، وهو صاحب كتاب السكردان وكتاب ديوان الصبابة ، وله غير ذلك مصنفات كثيرة ، وكان شيخ المدرسة المنجية التي عند الصورة ١ .

سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة (١٣٩١ م) :

فيها حضر إلى الأبواب الشريفة المقر السيقي كمشبغا الحموي نائب حلب ، وأخبر السلطان بأن أكثر التركمان والعربان خامروا وخرجوا عن الطاعة والتفوا على منطاش . فلما سمع السلطان ذلك اجتمع بالأمراء وضربوا مشورة في أمر منطاش . وفيها طلب السلطان الأمير حسنين بن باكيش

(١) في شلرات الذهب أن الصفدي توفي بدمشق في شوال سنة ٧٦٤ ، وإن ابن أبي حجلة توفي في مستهل ذي الحجة سنة ٧٧٦

عظيم ، وطلب طلبا عظيما ، وخرج معه أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . فلما استقر بالريداية طلب الأمير حسين بن باكيش نائب غزة — وكان مسجوناً بخزانة شمائل — فلما حضر بين يديه أمر بتوسيطه ، وأحضر جماعة من الأمراء كانوا في خزانة شمائل من عصابة منطاش فأمر بتوسيطهم ، فهلكوا أجمعون .

ثم ان السلطان جعل المقر السيفي كمشبة الحموي نائب الغيبة بمصر الى أن يعود اليها السلطان . وكان كمشبة الحموي — من حين حضر من حلب — مقيما بالديار المصرية ، وكان الملك الظاهر يميل اليه دون غيره من سائر الأمراء ، فاختره بأن يكون نائب الغيبة الى أن يعود السلطان الى مصر . ورسم السلطان للمقر السيفي سودون الفخرى نائب السلطنة بأن يقيم في القلعة الى أن يعود السلطان . ورسم للأمير بجاس النوروزي بالاقامة في الايوان الذي بالقلعة وترك عنده ستمائة مملوك ، وترك بالقاهرة من الأمراء : المقر السيفي قطلوبغا الصفوي حاجب الحجاب ، والأمير تنجاص السودوني . وترك بالقاهرة من الأمراء العشراوات والحجاب نحو عشرين أميرا

ثم ان السلطان رحل من الريداية وقصد التوجه الى الشام . فلما رحل السلطان عن القاهرة عرض نائب الغيبة أولاد الناس أجناد الحلقة وعين منهم نحو مائتي انسان بأن يتوجهوا نحو الصعيد ، وقيموا عند الكاشف بسبب فساد العربان ، ثم بعد مدة أيام حضر الأمير سودون الطيار على خيل البريد وعلى يده مثالات شريفة الى الأمراء الذين بالقاهرة ، فكان من مضمونها أن السلطان لما وصل الى الشام هرب منطاش من وجهه الى بلاد التركمان . فلما سمع الأمراء بذلك دقوا الكتوسات ونادوا بالزينة ، فزينت القاهرة سبعة أيام ...

قل لما دخل السلطان الى دمشق خاف أهل دمشق وهموا بالهرب من المدينة . وقد تقدم أن أهل دمشق لما خرج الملك الظاهر برقوق من الكرك ودخل الى الشام رجموه وأخرجوه من الشام هاربا على وجهه ، ونهبوا بركه وقماشه كما تقدم . فلما أن دخل اليهم هذه المرة ، وبلغه أنهم خائفون منه ، نادى لهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن الماضي لا يعاد ، ونحن أولاد اليوم ... فضج أهل دمشق له بالدعاء ، وسكن ما كان عندهم من الاضطراب .

ثم ان السلطان أقام في دمشق أياما وتوجه الى حلب . فلما خرج من دمشق جاء نعيم بن حيار أمير آل فضل ونهب ضياع دمشق — وكان نعيم عاصبا على السلطان وهو ملتف على منطاش — وأخرب غالب البلاد الشامية ونهب ضياعها ، فلما بلغ نائب الشام مجيء نعيم خرج اليه وأوقع معه واقعة قوية في مكان يسمى الكسوة ، فانكسر نائب الشام وقتل من عسكر دمشق نحو خمسة عشر أميرا ، ثم رجع نعيم الى بلاده ، ورجع نائب الشام الى دمشق .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار من حلب بأن السلطان قد قبض على يلبغا الناصري وعلى جماعة من الأمراء وسجنهم بقلعة حلب ثم قتلهم عن آخرهم ، وكانوا نحو ثلاثة وعشرين أميرا . وكان سبب ذلك أن الأمير سالم الدوكاري أمير التركمان أرسل يعرف السلطان بأن يلبغا الناصري أرسل اليه كتابا وهو يقول فيه : « خذ منطاش واهرب به الى بلاد الروم ، فانه ما دام منطاش موجودا فنحن موجودون » ...

ثم ان الأمير سالم الدوكاري أرسل كتاب يلبغا الناصري على يد قاصده ، فلما تحقق السلطان

صححة ذلك طلب الأمراء ، فلما حضروا قرا عليهم كتاب يلغا الناصري الذي أرسله الى الأمير سالم الدوكاري . ثم ان السلطان وبخ يلغا الناصري بالكلام في ذلك المجلس ، فلم ينطق بحجة وانعقد لسانه عن الكلام ، فنعوذ بالله من زلة العقل كما قيل :

وانى رأيت المرء يشقى بعقله

كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل
ثم ان السلطان قبض على يلغا الناصري وعلى جماعة من الأمراء وسجنهم بقلعة حلب ، ثم أمر بقتلهم فقتلوا .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان استقر بالأمير بطا الدوادار نائب الشام ، واستقر بالأمير جلبان الكمشباوى نائب حلب ، واستقر بالأمير الجرجاوى نائب طرابلس ، واستقر بالأمير قرا دمرداش المحمدي نائب حماه ، واستقر بالأمير أبى يزيد دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير بطا .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان خرج من حلب وهو قاصد نحو الديار المصرية ، وقد أنفق على هذه التجريدة جملة مال ولم يظفر بمنطاش .

وفى هذه السنة توفى الشيخ شهاب الدين بن النقيب وكان من أعيان العلماء ، وتوفى الشيخ بهاء الدين السبكى أخو الشيخ تاج الدين ، وتوفى الشيخ جمال الدين الاسنوى ، وتوفى الشيخ شهاب الدين بن حبيب ، وتوفى ابن رافع ، وتوفى الشيخ عماد الدين الحسباني وكان من أعيان العلماء بمصر وحمهم الله تعالى أجمعين .

سنة أربع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٢ م) :

فيها في ثاني عشر المحرم حضر الى الأبواب الشريفة الأمير بهادار الشهابي — مقدم المماليك السلطانية — وصحبته حريم السلطان ، فان السلطان كان قد تزوج في دمشق بينت الأمير

على بن أستدرم نائب الشام ، وأخبر بأن السلطان خرج من غزة .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل الى بلبس ، فخرج الأمراء الى تلقيه ، ونادوا في القاهرة بالزينة . فلما كان يوم الخميس سابع عشر المحرم وصل السلطان وطلع الى القلعة من بين التراب ولم يشق من المدينة ، ففرشت له الشقق الحرير من قبة النصر الى رأس الصوة ، وحملت على رأسه القبة والطيور ، ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب ، فطلع الى القلعة في موكب عظيم وكان له يوم مشهود .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الجناب الركنى عمر بن قايماز — وهو صاحب الحوض والسيل خارج الحسينية — واستقر به وزيرا بالديار المصرية عوضا عن الناصري محمد بن الحسام الصقري بحكم وفاته . وخلع السلطان على الجناب الناصري محمد ابن الأمير جمال الدين محمود الاستادار واستقر به نائب ثغر الاسكندرية .

وفيها تزوج السلطان بينت الشهابي أحمد بن الطولوني معلم المعلمين ، وهو جد الزيسى حسن . وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير بطا الذى تولى نائب الشام قد انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى ، فخلع السلطان على الأمير سودون الطرنطاي واستقر به نائب الشام عوضا عنه .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن جماعة من المماليك — نحو خمسة عشر مملوكا — هجموا على باب قلعة دمشق وقت الظهر ، وتوجهوا الى نحو السجن الذى بها وأخرجوا من كان به من المحاييس الذين من عصابة منطاش ، وكانوا نحو مائة مملوك . فلما أخرجوا هؤلاء المحاييس قويت شوكتهم ، فهجموا على نائب القلعة فقتلوه وملكوا

القلعة . فلما بلغ ذلك من كان بدمشق من العسكر لبسوا آلة الحرب وركبوا وحاصروا من بالقلعة ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام ، فقتل من عسكر الشام جماعة كثيرة . ثم بعد ذلك هجم عسكر دمشق على باب القلعة وأحرقوه ، ودخلوا الى القلعة ، ثم قبضوا على المماليك كلهم ووسطوهم تحت باب القلعة .

وفيها في يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى طلع الأمير جمال الدين محمود الاستادار الى القلعة على جارى العادة . فلما نزل من القلعة رجه المماليك الذين بالطباق فهرب منهم ، فسحبوه الى الرملة وضربوه بالدبابيس ، وضربوا القاضى سعد الدين بن تاج الدين موسى ناظر الخواص الشريفة . فلما بلغ الأمير أيتمش البجاسى ذلك ركب هو ومماليكه ، وردوا المماليك عنهم ، وأدخلهم الى بيته وأغلق عليهم الباب ، فأقاموا عنده الى آخر النهار ، فأرسل معهم مماليكه حتى أوصلوهم الى بيوتهم ، فأقاموا في بيوتهم مدة لم يركبوا حتى اصطلحوا مع المماليك .

وفيها خلع السلطان على القاضى تاج الدين بن أبى شاکر واستقر به وزيراً عوضاً عن عمر بن قايماز

وفيها في العشرين من شعبان توعك جسد السلطان ، وأقام مدة وهو منقطع في الحريم ، ثم حصل له الشفاء فخرج الى الخدمة ، وبودى في القاهرة بالزينة فزيت سبعة أيام .

وفيها جاءت الأخبار بأن نائب الشام سودون الطرطاي قد انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى ، فخلع السلطان على المقر السيفى كمشيعاً الأشرى الخاصكى أمير مجلس ، واستقر به نائب الشام عوضاً عن سودون .

وفيها تغير خاطر السلطان على جماعة من الأمراء ، فقبض عليهم وسجنهم في أبراج القلعة ، ثم أمر بخنقهم فخنقوا تحت الليل ودفنوا .

وفيها في شوال عمل السلطان الموكب ، وخلع على المقر السيفى بكلمش العلانى واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفى شيخ الصفوى واستقر به أمير مجلس ، وكان الأمير شيخ من مماليك الظاهر برقوق .

وفيها في العشرين من شوال عمل السلطان الموكب ، وخلع على المقر السيفى ثانى بك الحيوى واستقر به أمير اخور كبير عوضاً عن بكلمش العلانى ، وخلع على قاضى القضاة جمال الدين العنبرى الحنفى واستقر به ناظر الجيوش المنصورة مضافاً لما بيده من قضاء الحنفية ومشيشة الخاقاه الشيخونية ، وهذا لم يتفق لأحد قبله من الأعيان فيما تقدم .

وفيها جاءت الأخبار بأن منطاش حضر الى حلب مع جماعة من التركمان فحاصر المدينة ، فخرج اليه عسكر حلب وأوقعوا معه واقعة فكسروه ورجع هارباً الى الفرات . ثم حضر قاصد نعيم على يده كتاب من عند نعيم ، فكان مضمونه أنه أرسل يطلب من السلطان أربع بلاد وهو يلتزم بمسك منطاش ، فقال السلطان للأمير أبى يزيد الدوادار : « اكتب له كتاباً ، عن لسانك ، أنك ان أمسكت منطاشاً نعطيك جميع ماطلبته وزيادة على ذلك » ... فأرسل اليه الأمير أبو يزيد الدوادار بذلك .

وفي هذه السنة كانت وفاة الشيخ عماد الدين ابن كثير المؤرخ صاحب كتاب البداية ، وتوفى الشيخ مراج الدين الهندى شارح البديعية ، وتوفى الشيخ شهاب الدين الأوزاعى ، وتوفى القاضى أبو البقاء السبكى الشافعى .

وفيهما في ذى الحجة توفي الصاحب فخر الدين بن مكناس القبطي صاحب الأشعار اللطيفة ، تولى عدة وظائف بمصر .

سنة خمس وتسعين وسبعمائة (١٣٩٣ م) :

ففيها خلع السلطان على الشيخ صدر الدين المناوري ، وولاه قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن قاضى القضاة عماد الدين الكركي .

وفيهما خلع السلطان على المقر السيفي تنم الحسنى واستقر به نائب الشام عوضا عن كمشيفا الأشرقي بحكم وفاته .

وفيهما جاءت الأخبار من حلب بأن منطاش ونعيرا توجهوا ببن معهم من العساكر الى مدينة حماه ، فخرج اليهم نائب حماه فأوقع معهم واقعة قوية ، فانكسر نائب حماه وهرب ، فدخل منطاش ونعير الى المدينة ونهبوا أسواقها وأخذوا أموال التجار . فلما بلغ نائب حلب ذلك ركب هو وعساكر حلب ، وكبس على بلاد نعير ونهب أمواله وأخذ أولاده ونساءه وأحرق بيوته وقتل من عربانه ما لا يحصى عدده .

وفيهما خلع السلطان على المقر السيفي قلمطاي العثماني واستقر به دوا دارا كبيرا عوضا عن الأمير أبى يزيد بحكم وفاته .

وفيهما مرض السلطان مرضا شديدا حتى أشرف على الموت وأرجفت القاهرة بموته من شدة قهره من منطاش ، ثم شفى وركب وشق القاهرة فزيت له وكان له يوم مشهود وموكب عظيم .

وفيهما حضر الى الأبواب الشريفة مملوك نائب حلب وأخبر بأن نعيرا قبض على منطاش وسلمه الى نائب حلب ، فكان — كما يقال — « سيف السلطان طويل » . وقد قيل في المعنى :

قالت : ترقب عيون الحى ، ان لها عيننا عليك اذا ما نمت لم تنم

وكان سبب امساك منطاش أن نعير بن جبار أرسل يطلب من نائب حلب أولاده ونساءه الذين أسرهم كما تقدم ، فأرسل نائب حلب يقول له : « ما أطلق لك أولادك ونساءك حتى تسلمنا منطاش » ... وكان منطاش قد تزوج من بنات نعير واستنسل منهم . فلما رأى نعير أن السلطان ونائب حلب عليه ، وقد نهبوا أمواله ومواشيه ، وأسروا أولاده ونساءه ، قصد أن يرضى السلطان بامساك منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه في حق السلطان كما تقدم .

ثم ان نعيرا ندب الى منطاش أربعة عبيد غلاظ شداد ، فلما أتوا اليه أحس بالشر ، وكان راكبا على هجين ، فنزل عنه وركب على فرس ، فأمسك بعض العبيد لجام الفرس وقال له : « كلم الأمير نعيرا » . فقال منطاش : « وايش يعمل بى نعير ؟ » ... فتكاثر عليه العبيد وأنزلوه عن فرسه وأخذوا سيفه منه ، فقال لهم منطاش : « دعولى حتى أبول » ... فقصد الى جانب حائط ، وكان في تكته خنجر فشق به بطنه ، فغشى عليه ، فحمله العبيد وأتوا به الى نعير ، فقيده وأرسله الى نائب حلب ، وأرسل معه جماعة من العربان حتى أسلمه الى نائب حلب ، وكان له يوم مشهود . فتسلمه نائب حلب وسجنه بالقلعة ، وكتب بذلك محضرا وأرسله الى السلطان فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر خلع على القاصد خلعة عظيمة ، ودقت الكؤسات ، وزينت له القاهرة سبعة أيام ، ونسى السلطان — لما ظفر بمنطاش — ما قاساه من التعب ومن القهر ومن المال الذى صرفه على التجاريد « فكان كما قيل في المعنى :

إذا ظفرت من الدنيا بقربكم

فكل ذنب جناه الدهر مغفور

ثم ان السلطان عين الأمير طولو بن على شام الى حلب ليحضر منطاش . فلما وصل الى حلب تسلم منطاش وجعل يعاقبه ويعصره ويقرره على الأموال التي غصبها من البلاد فلم يقر بشيء . ودخل عليه النزاع فقطع الأمير طولو رأسه ووضعها في علة ، ثم خرج من حلب وجعل يطوف برأس منطاش في كل مدينة يدخلها حتى وصل الى القاهرة ، فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت المدينة زينة عظيمة ، فشقوا برأس منطاش في القاهرة ، ثم طلعوا بها الى القلعة . فرسم السلطان بأن تعلق على باب زويلة ، فعلقت ثلاثة أيام ثم دفنت وقلعت الزينة ، وانقضى أمر منطاش . وقد هنى السلطان بعض الشعراء بهذين البيتين فقال :

كان فجاج الأرض يملك ان يسر

بها خائف تجمع عليه الأنامل

فأين يفر المرء منك بجرمه

إذا كان تطوى في يديك المراحل

ثم ان السلطان أرسل الى نعيم خلعة وأقره على عادته أمير آل فضل ، فما صدق الناس بأن فتنة منطاش قد خمدت عنهم حتى استؤنفت لهم فتنة أخرى ، وما هي الا أنه في عقيب ذلك حضر طواشي رومي يسمى صفى الدين جوهر ، أرسله صاحب ماردين فأخبر بأن تمرلك قد أخذ تبريز ، ثم حضر عقيب ذلك قاصد صاحب بسطام فأخبر بأن تمرلك قد أخذ شيراز ، ثم حضر قاصد نائب الرحبة وأخبر بأن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد وصل الى الرحبة وهو هارب من تمرلك ، وقد احتاط على غالب بلاده وملكها .

وكان سبب أخذ تمرلك بلاد القان أحمد بن أويس أن تمرلك أرسل الى القان أحمد كتابا يترفق له فيه ويقول له : « أنا ما جئتك محاربا ، وإنما جئتك خاطبا أتزوج بأختك وأزوجك بنتي » ... ففرح القان أحمد بذلك ، وظن أن هذا الكلام صحيح ، فكان كما قيل في المعنى :

لا تركزن الى الخريف فماؤه

مستوخم وهــسواؤه خطاف

يشى مع الأجسام مشى صديقها

ومن الصديق على الصديق يخاف

وكان القان أحمد استعد لقتال تمرلك وجمع له العساكر ، فلما أتى اليه قاصد تمرلك بهذا الخبر ثنى عزمه عن القتال ، واستعاد من العسكر الذين قد جمعهم ما أعطاهم من آلة القتال ، وصرف همته عن القتال ، فلم يشعر الا وقد دهته عساكر تمرلك من كل مكان ، فضاق بهم رجب الفضاء ، فخرج اليهم القان أحمد بمن بقي معه من العساكر... فبينما القان يقع مع عسكر تمرلك اذ فتح أهل بغداد بقية أبواب المدينة وقد خافوا على أنفسهم مما جرى عليهم من هلاك في أيام الخليفة المستعصم بالله .

فلما رأى تمرلك أبواب المدينة مفتحة دخل الى المدينة وملكها ولم يجد من يرده عنها . فلما بلغ القان أحمد ذلك ما أمكنه الا الهرب ، فأتى الى جسر هناك فعدى من فوقه ثم قطعه ، فلما بلغ عسكر تمرلك ذلك تبعوا القان أحمد وخاضوا خلفه الماء فهرب منهم ، فتتبعوه مسيرة ثلاثة أيام ، فلما حصلت له هذه الكسرة قصد التوجه الى نحو الديار المصرية .

ثم حضر قاصد نائب حلب وأخبر بأن القان أحمد بن أويس قد وصل الى حلب ، فلما تحقق

السلطان صحة هذا الخبر جمع الأمراء واستشارهم فيما يكون من أمر القان أحمد ، فوقع الاتفاق من الأمراء على أن السلطان يرسل اليه الاقامات ويلاقيه ، فعند ذلك عين السلطان الأمير أزدمر الساقى - وصحبته الاقامات وما يحتاج اليه القان أحمد من مال وقماش وغير ذلك - فخرج الأمير أزدمر على جياذ الخيل .

ثم في عقيب ذلك حضر الى الأبواب الشريفة قاصد أبى يزيد بن مراد بك بن عثمان ملك الروم على يده تقادم عظيمة للسلطان . وكان سبب مجيء قاصد ابن عثمان أنه أرسل يخبر السلطان بأمر تمرلنك ويحذره عن الفتنة في أمره ، وأرسل يطلب من السلطان حكيما حاذقا في صنعة الطب ، وأدوية توافق مرضه الذى كان يشكو به ، فانه كان يشكو بضربان المفاصل . فلما وقف السلطان على مطالعة ابن عثمان ، وعلم ما فيها ، عين له الرئيس شمس الدين بن صغير ، وأرسل صحبته حملين من الأدوية التى توافق مرضه ، وأرسل اليه هدية عظيمة على يد قاصد من عند السلطان ، فتوجهوا الى ابن عثمان .

ثم في عقب ذلك حضر قاصد صاحب مارددين وأخبر بأن تمرلنك ملك بلاد الأكراد وأخبر بأن الملك محمود شاه - استاذ تمرلنك - قد توجه الى نحو البصرة وحاصر أهلها ، فجمع صاحب البصرة جماعة كثيرة من العساكر والعربان والتقى مع عساكر الملك محمود شاه ، فكان بينهما واقعة عظيمة لم يسبق بمثلا ، فقتل بها الملك محمود شاه استاذ تمرلنك ، وأسر بها ابن تمرلنك ، فأرسل تمرلنك يطلب من صاحب البصرة الأمان ، وأنه يطلق اليه ولده ومن عنده من الأمرى ، فأرسل صاحب البصرة يقول له : « ما أطلق ولدك ولا

الأمرى الذين عندي حتى تطلق ابن القان أحمد بن أويس الذى عندك وجميع من عندك من الأسرى » ... فلما سمع تمرلنك هذا الجواب حنق منه وأرسل عسكرا ثقيلا وحاصر البصرة ، فلم يقدر عليها ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده ، ودخل عليه الشتاء فرجع الى بلاده ليجمع العساكر ويرجع الى حصار البصرة . فلما تواترت الأخبار بذلك ومن السلطان للأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة بأن ينادى فى القاهرة للعسكر بالعرض فى الميدان بسبب تمرلنك الخارجى ، وجعل يكرر هذه المناداة ثلاثة أيام متوالية بالآلة يتأخر عن العرض لا كبير ولا صغير ، وعلق الجاليش ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وما صدق العسكر بأن فتنة منطاش قد خمدت فانتشت لهم هذه الفتنة العظيمة ، فكان كما قيل فى المعنى :

وثقيل ما برحنا تتمنى البعد عنه
غاب عنا ففرحنا جاءنا أثقل منه

وفى هذه السنة توفى من الأعيان عبد الرحمن أبو تاشفين صاحب تلمسان ملك الغرب وتولى من بعده أخوه محمد ، وتوفى قاضى القضاة ناصر الدين الكنانى العسقلانى الحنبلى وتولى بعده القاضى موفق الدين الحجازى المقدسى الحنبلى ، وتوفى قاضى القضاة شهاب الدين الزهرى الشافعى ، وتوفى صاحب شمس الدين المقسى وزير الديار المصرية وناظر الخواص الشريفة ودفن فى جامعته الذى أنشأه فى باب البحر المطل على الخليج الناصرى ، وتوفى الشيخ سراج الدين ابن الملقى والقاضى أبو البقاء السبكى وغير ذلك من الأعيان .

سنة ثمان وتسعين وسبعمائة (١٣٩٤ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن القان أحمد بن أويس قد وصل الى غزة ، فأرسل السلطان لملاقاته . ثم

ان القان أحمد وصل الى الريدانية في يوم الثلاثاء
سابع ربيع الأول سنة ست وتسعين ، فنزل السلطان
من القلعة ، وخرج الى تلقيه . فلما وقعت عين
السلطان على القان أحمد بن أويس ، ترجل له عن
فرسه ، وترجل القان أحمد أيضا . ثم ان السلطان
أثنى بقاء حرير بنفسجى مغرى بفاقم بطرز ذهب
عريض فألبسه للقان أحمد ، وأحضر اليه فرسا
بسرّج ذهب وكنبوش فأركبه اياه ، وركب السلطان
ومشى القان أحمد عن يمينه ، وطلعا من بين الترب
فلما وصلا الى رأس الصوة صوب السلطان وثنى
عنان فرسه ، فنزلت الأمراء مع القان أحمد الى
بيت الأمير طقزدمر المثل على بركة الفيل ، فنزل به
ونزل معه الأمراء ، فمد له السلطان هناك سمطا
عظيما ، فأكل وأكلت معه الأمراء ، ثم قام الأمراء
وتوجهوا الى بيوتهم ، وقام القان أحمد ودخل الى
البيت .

ثم ان السلطان أرسل الى القان أحمد مقدمة
عظيمة ، وهى طوالة خيل خاص بسروج ذهب
وكنائش ، وعشرون مملوكا صغارا ، وعشرون
جارية أبكارا ، ومائتا تفصيلة اسكندرانية ، وخمسة
آلاف دينار برسم النفقة .

ثم بعد أيام جاءت الأخبار من نائب حلب بأن
چاليش تمرلك قد وصل الى الرها . فلما تحقق
السلطان ذلك عرض العسكر باللبس الكامل فى
الميدان بحضرة القان أحمد ، فصار السلطان يعطى
كل من عرضه من الممالك النفقة — وهى دون المائة
دينار — فامتنعوا عن الأخذ ... فصار السلطان
يعطى النفقة من يده للممالك ، فأخذوا النفقة على
كره منهم . ثم ان السلطان بعث النفقة للأمراء
المقدمين وغيرهم .

فلما كان يوم الأحد سابع ربيع الآخر برزت
خيام السلطان الى الريدانية .

فلما كان يوم الخميس عاشر ربيع الآخر رتب
السلطان الطلب ونزل من القلعة ، فجد الطلب من
باب الميدان الذى تحت القلعة ، وصار السلطان
يرتب الطلب بنفسه ويسوق فى الرميّة ذهابا وإيابا
حتى انتهى الطلب الى آخره ، وكان ما اشتمل
عليه الطلب مائتى فرس ملبسة بركستوانات حرير
ومخمل ملون وكجاوتين زركش . فلما تكامل
خروج الطلب ، خرج بعده السلطان والقان أحمد
ابن أويس صحبته ، والخليفة محمد المتوكل ،
والقضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير
ثم ان السلطان رسم للعسكر بأن يخرجوا وهم
لابسون آلة الحرب .

وقد قيل لما تجهز السلطان للسفر طلب تجار
الكارم ، فحضر المحلى والخروبى وابن مسلم ،
فاستقرض السلطان منهم مائتى ألف دينار وكتب
عليه بذلك مسطورا ، وضمن فيه الأمير محمود
الاستادار .

وسار السلطان فى ذلك الموكب العظيم حتى
وصل الى الريدانية ، فنزل بالمخيم الشريف . ولما
نزل من القلعة توجه الى الريدانية من بين الترب ،
فلما خرج طلب السلطان ترادفت من بعده أطلاب
الأمراء فى الخروج ، فما زالوا يتسحبون الى الظهر
حتى انتهوا عن آخرهم . فلما استقر السلطان
بالمخيم الشريف قبض هناك على صاحب سعد
الدين بن البقرى وعلى ولده القاضى تاج الدين .
ثم ان السلطان خلع على الجناب الناصرى محمد بن
رجب بن كلبك واستقر به وزيرا عوضا عن سعد
الدين بن البقرى . ثم ان السلطان رحل من
الريدانية ، وصحبته القان أحمد بن أويس وسائر
الأمراء ، وجد فى السير حتى وصل الى دمشق فى

يوم الاثنين ثانی عشری ربیع الآخر . فلما دخلها نزل بالقصر الأبلق الذی فی المیدان ، وحکم بین الناس ، وأقام بالشام أياما ثم رحل منها وتوجه الى حلب .

فلما أقام بحلب حضر اليه قاصد من عند ابن عثمان وعلى يده مطالعات مضمونها أن يكون هو والسلطان عوناً واحدة على دفع العدو الباغي تمرلنك ، فأجابه السلطان الى ذلك ورد له الجواب عن ذلك بما يطيّب به خاطره .

ثم حضر اليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالعات تتضمن ما قاله ابن عثمان ، فأجابه السلطان كما أجاب ابن عثمان .

فلما أقام السلطان بحلب بلغه أن جاليش عسكر تمرلنك قد وصل الى اليبيرة ، فصار جماعة من عسكر السلطان يعدون تحت الليل من الفرات ويكبسون عليهم ، فغنموا من عسكر تمرلنك أشياء كثيرة ، فقليل ان عسكر مصر كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل ويعدون من الفرات تحت الليل حتى يقعوا مع عسكر تمرلنك ، وفي ذلك يقول القائل :

ولما ترامينا الفرات بخیلنا

سکرنا نهارا بالقوى والقوائم

فأوقفت التيار عن جريانه

الى حيث عدنا بالغنى والغنائم

ثم بلغ السلطان أن تمرلنك رجع الى بلاده . فلما تحقق السلطان ذلك قصد الرجوع الى نحو الديار المصرية ، وكذلك القان أحمد بن أويس رجع الى بلاده . ولم يقع بين تمرلنك وبين الملك الظاهر برقوق قتال في هذه المرة ، بل رجع كل من الفريقين الى بلاده .

ثم ان السلطان رجع الى الشام فأقام بها أياما ،

وخلع على المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا واستقر به نائب حلب ، ونقل الأمير أرغون شاه من نياية صفد الى طرابلس ، وخلع على الأمير أقبغا الجمالى واستقر به نائب صفد عوضا عن أرغون شاه ، وخلع على الأمير دقماق الحمدي واستقر به نائب ملطية ، وخلع على الأمير مقبل كاور واستقر به نائب طرسوس ، وخلع على الأمير منكلى بغا الأشبغاوى واستقر به نائب الرها ، وخلع على الأمير طفنجى واستقر به نائب قلعة المسلمين .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن ابن أبى السباع صاحب تونس قد توفي الى رحمة الله تعالى واستقر ولده أبو فارس عبد العزيز — ويعرف بعزوز — عوضه في مملكة تونس . وتوفي أبو العباس أحمد بن أبى سالم صاحب مدينة فاس ، وتوفي أبو الحجاج يوسف المعروف بابن الأحمر صاحب بلاد الأندلس وتولى من بعده ابنه أبو عبد الله محمد الأندلسي . وكان ابن الأحمر ملك الأندلس هذا شاعرا ماهرا وله شعر جيد في البديع ، فمن ذلك قوله مخاطبا لمحبوته حمدونة الأندلسية :

ايا ربة الخال التي أذهبت لسكى

على أى حال كان لا بد لى منك

فاما بذلّ وهو أليق بالهوى

واما بعزّ وهو أليق بالملك

وفي هذه السنة توفي أبو العباس أحمد صاحب بلاد مسنطينية الهواء ببلاد المغرب . وفيها توفي القاضى محبى الدين يحيى بن فضل الله كاتب السر الشريف بالديار المصرية وتولى من بعده القاضى بدر الدين أبو الثناء محمود الكلستانى الجنفى ، وتوفي الصاحب موفق الدين أبو الفرج ، وتوفي الرئيس علاء الدين بن صفيير رئيس الأطباء ، توفي

عند رجوعه من بلاد ابن عثمان ، وقد تقدم أن
السلطان أرسله الى ابن عثمان ليطلبه .

سنة سبع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٥ م) :

فيها حضر الى الديار المصرية مملوك الأمير
جمال الدين محمود الاستادار وأخبر بأن السلطان
خرج من دمشق .

وفي هذه السنة كان مولد شيخ الاسلام الشيخ
أمين الدين يحيى الأقصري الحنفى ، ولد في هذه
السنة .

وقد توجه السلطان الى زيارة بيت المقدس ، ثم
جاءت الأخبار بعد ذلك بأن السلطان قد وصل الى
الصالحية راجعا .

فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر وصل الى
القاهرة ودخلها في موكب عظيم ، وشق من بين
الترب ، وفرشت له الشقق الحرير الملون من قبة
النصر الى القلعة ، وحملت على رأسه القبة والطير ،
ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب ، وضج الناس له
بالدعاء ... وكان قدامه الخليفة محمد المتوكل
والقضاة الأربعة وسائر الأمراء من الأكابر
والأصاغر . فلما طلع الى القلعة خلع على أرباب
الوظائف من المباشرين وغيرهم .

وفي هذه السنة ، في يوم السبت سادس شوال
الموافق آخر يوم من أيّيب من الشهور القبطية ، زاد
الله في النيل المبارك أربعين أصبعا في يوم واحد ، ثم
في ثانى يوم — وهو أول يوم من مسرى — زاد
الله في النيل المبارك اثنين وستين اصبعا ، وذلك
ذراعان ونصف وأصبغان ، فبقى عليه من الوفاء
ذراعان . ثم في يوم الوفاء الموافق لثالث يوم من
مسرى زاد الله في النيل المبارك خمسين أصبعا
فأوفى وزاد أصبعين ، فكانت جملة ما زاده في أربعة
أيام سبعة أذرع ونصف ذراع وأصبعين ، وكان

الوفاء في ثالث يوم من مسرى . وهذه الزيادة لم
يعهد مثلها فيما تقدم من السنين الخالية ، ولا سمع
بمثل ذلك ، وفي ذلك يقول الشاعر :

النيل زاد جورا بحكمه المطاع
يعمل في الرعايا بالباع والذراع
وقال آخر في المعنى :

النيل أفرط فيضا بفيضه المتتابع
فصار مما دهانا حديثنا بالأصابع

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من مكة بأن أمير
مكة الشريف على بن عجلان قد قتل والذين قتلوه
من أقاربه . وفيها كثر الموت بالديار المصرية ،
ومات للسلطان ولدان وهما سيدى محمد وسيدى
قاسم . وفيها توفى قاضى القضاة ناصر الدين محمد
ابن الميلى الشافعى ، وتوفى الشيخ زين الدين
أبو بكر الموصلى الواسطى ، وتوفى الشيخ
غياث الدين العاقولى — وكان زين الدين الموصلى
من أعيان الصوفية — وفيها كانت وفاة المقر البدر
ابن فضل الله كاتب السر الشريف وأخيه حمزة بعد
شهر واحد ، وفيهما يقول عويس العالية :

قضى البدر بن فضل الله نجبا
ومات أخوه حمزة بعد شهر
فلا تعجب لذى الأجلين يوما
فحمزة مات حقا بعد بدر

سنة ثمان وتسعين وسبعمائة (١٣٩٦ م) :

فيها في يوم السبت سادس صفر تغير خاطر
السلطان على الأمير جمال الدين محمود الاستادار ،
فأرسل اليه طواشى يسمى شاهين الحسنى الجمدار ،
فأخذ ولده الأمير محمدا وأخذ نساءه وسراريه ،
وطلع بهم الى القلعة ، فسجن الأمير محمدا في
البرج ، ورسوموا على النساء ، فاختفى الأمير
محمود . ثم ان القاضى سعد الدين ابراهيم

جميعه الى الخزائن الشريفة على يد الطواشي زين الدين صندل المنجكي الخازندار ، فأودع ذلك بالخزائن الشريفة . وقد قال القائل في المعنى :

رأيت الدرهم المضروب أضحى
كلص ما له أبدا أمانه
ألم تر كل انسان حريصا

يحصله ويرميه الخزانه ؟

ووجد له عند مملوك لأجنبي ثلاثون ألف دينار ،
ووجد له عند مملوكه شاهين أربعون ألف دينار ،
ووجد له عند امامه سراج الدين ثلاثون ألف
دينار ، ووجد له عند قاضي القضاة ولى الدين
ابن خلدون المالكي عشرون ألف دينار ، ووجد له
عند فراشه شقير زير كبير فيه سبعون ألف دينار ،
ووجد له عند باب سره في مكان بكتلتان نحاس فيهما
ثلاثة وستون ألف دينار ، ووجد له في سطح
مدرسته التي في القرييين خمس قدور فيها نحو
خمسین ألف دينار ، ووجد له في مكان عند الجامع
الأزهر زير كبير فيه مائة ومبعة وثلاثون ألف
دينار ، ووجد له مكان عند البرقية عند جارية
سوداء زير كبير فيه مائة ألف دينار ، وثلاث براني
فيها لؤلؤ كبير وفصوص مختلفة الألوان ... فتسلم
ذلك جميعه الزينى سندل المنجكى الخازندار ،
فكان كما قيل :

قد يجمع المال غير آكله

ويأكل المال غير من جمعه

ويقطع الثوب غير لابسه

ويلبس الثوب غير من قطعه

ووجد له عند شخص اسكافي بقج فيها طرز
زرکش وحوائل ذهب وكنائش زركش ما يعلم
عدد ذلك ، ووجد له في مكان عند حارة بنى سيس
خلف بيته زلعة فيها ذهب عين ، جملة ذلك مائة ألف
دينار وثمانية وثلاثون ألف دينار ، ومن الفضة

ابن غراب وكيل بيت المال نزل الى بيت الأمير
محمود - هو والأمير على باى الخازندار -
فاحتاطوا على موجود الأمير محمود ، فظهر له في
أول يوم في مكان عقد تحت سلم مائة ألف دينار
 وخمسون ألف دينار .

فلما كان يوم الاثنين ثامن صفر خلع السلطان
على الأمير قطلو بك العلاني واستقر به استادارا
عوضا عن الأمير محمود بن على الظاهري ، وخلع
على القاضي بدر الدين بن غراب واستقر به ناظر
الديوان الشريف المفرد ، وخلع على الأمير مبارك
شاه واستقر به وزيرا عوضا عن الناصري محمد
ابن رجب بن كلبك .

ثم ان السلطان اشتد غضبه على الأمير محمد ابن
الأمير محمود الاستادار فسلمه الى الأمير
علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة ، فعاقبه
أشد عقاب ، وقرره على الأموال ... فعند ذلك
اتسع الخرق على الراقع ، وثخن جراحات الأمير
جمال الدين محمود ، وكثرت فيه المرافعات من
الناس ، كما قيل في المعنى :

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت

ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

ثم ظهر للأمير جمال الدين مكان خلف مدرسته
التي في القرييين ، فوجد فيه سبعة أزيار كبار
وزلعتان فيها فضة ودرهم نقرة ، ووجد له في
ذلك المكان جرتان كبيرتان فيهما ذهب عين ، ثم
قبضوا على بوابه موسى وعصروه فأقر على مكان
بالاسكندرية في مخزن حمار ، فأرسل اليه من حفر
في ذلك المكان فوجدوا فيه ستة وثلاثين ألف دينار
هنا ، ووجدوا له في مكان آخر بالاسكندرية
مائتي ألف دينار ، وفي مكان آخر بالاسكندرية
أيضا ثلاثين ألف دينار ذهباً ... فأحضروا ذلك

الدرهم زلعتان ... هذا كله خارج عما وجد له من القماش والفرش والخيول والبرك وغير ذلك من حلى نسائه وسراريه ، وغير ما وجد له من الأملاك والضياع والمراكب والمعاصر والجواري والعبيد والممالك والطواشية وغير ذلك ، وقد ضاع له عند الناس أضعاف ذلك . ووجد له من الغلال في الشون ما لا يحصى من المغل ... وهذا الموجود يقارب موجود الصاحب علم الدين بن زنبور .

ثم ان بعض الناس قبض على الأمير محمود من مكانه من كوم الجارج وأحضره الى السلطان ، فلما مثل بين يديه رسم بتسليمه هو وولده محمد الى شاد الدواوين ، فسجنهما بخزانة شمائل ، فزالت عنه الدنيا كأنها لم تكن . وقيل في المعنى :

وان امراً دنياه أكبر همه

لمستمسك منها بحبل غرور

وفي هذه السنة وقع الغلاء العظيم بمصر ، فرسم السلطان بأن يعمل في كل يوم عشرون اردبا من الدقيق خبزا ويفرق على الفقراء والمساكين وفي الزوايا . فلما اشتد الأمر بذلك توجه شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني الى الجامع الأزهر ، واجتمع من الخلائق ما لا يحصى ، ودعوا الله تعالى في كشف ذلك عن الناس ... وقد اجتمع الغلاء والفناء في تلك السنة .

وفي أواخر هذه السنة حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند قرا يوسف بن قرا محمد ، وحضر صحبته شخص من التتر قيل انه من قرابة تمرلنك ، وذكروا أن تمرلنك لما رحل جعله نائبا عنه بالرها ، فنزل في بعض الأيام ليتصيد ، فسمع به قرا يوسف ، فركب مع جماعة من التركمان فقبض عليه وهو سكران وقيده وأرسله الى السلطان ، فلما مثل بين يديه أمر بسجنه في خزانة شمائل .

وفيها خلع على الصاحب سعد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن مبارك شاه ، وخلع على القاضي بدر الدين بن الطوخي واستقر به ناظر النظار .

وفي هذه السنة كانت وفاة المقر السيفي سودون الفخري الشيخوني نائب السلطنة بالديار المصرية ، وتوفي الصاحب محمد بن رجب بن كلبك ، وغير ذلك جماعة من الأعيان والعلماء .

سنة تسع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٧ م) :

فيها حضر قاصد من عند تمرلنك يطلب أطمش الذي كان قد أمسكه قرا يوسف كما تقدم ، فأرسل السلطان يقول لتمرلنك : « ما أطلق لك أطمش حتى تطلق أنت من عندك من النواب ومن الأسرى الذين أسرته من البلاد » ... فعاد الجواب الى تمرلنك بذلك .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفي تنم الحسنی نائب الشام . فلما بلغ السلطان وصوله الى الريدانية نزل السلطان من القلعة ولاقاه وخلع عليه وأنزله بالميدان الكبير الذي عند الناصرية ، فقدم نائب الشام الى السلطان عشرة ممالك جراكسة ، وعشر جوار ، وعشرة آلاف دينار ، ومصحفا شريفا مكتوبا بالذهب ، ونمجا مسقطا بالذهب ومرصعة بفصوص ياقوت وفيروز ، وأربعة كنايش زركش ، وأربعة سروج ذهب ، وأربع بدلات ذهب زنة كل بدلة أربعمئة مثقال شغل المعلم بهرام ، وعشرة كواهي برسم الصيد ، ومائة وخمسين حملا ما بين سمور ووشق وسنجاب وقاقم وقرضيات ، وأثواب صوف ملون ، ومائة فرس خاص ، وخمسين بغلة ، وخمسين جملا ، وعشرين حمل أثواب بعلبكي ، وثلاثين حمل فاكهة

وحلوى شاميه ، وعشرين حمل مخللات ، وحملين
علب سكر نبات حموى ، وحملين سواقة فى علب
كبار ، وغير ذلك أشياء كثيرة .

ثم ان السلطان عدى الى بر الجيزة وعزم نائب
الشام ، ثم توجه الى بلاده على عادته .

وفى هذه السنة حضر قاصد صاحب اليمن
— وهو الملك الأشرف محمد بن الفضل — وحضر
صحبه القاضى برهان الدين المحلى التاجر الكارمى
وأحضرا صحبتها هدية عظيمة للسلطان لم يسمع
بمثلها على أنواع مختلفة ، فخلع السلطان على
قاصد ملك اليمن وأكرمه غاية الاكرام .

وفى هذه السنة خلع السلطان على القاضى تقي
الدين الزبيرى واستقر به قاضى القضاة الشافعية
بالديار المصرية ، عوضا عن القاضى صدر الدين
المنافى الشافعى .

وفىها جاءت الأخبار من دمشق بأن عوام دمشق
قتلوا شحصا من الناس يقال له ابن النشو ، ولما
قتلوه أحرقوه بالنار ، وكان سبب ذلك أن هذا
الشخص كان يشتري الغلال فى أيام الرخص
ويخزنها حتى تنتشط المدينة من الغلال فيبيعها
بأغلى ثمن ، فتحملت منه الناس وتعاونوا على قتله
فقتلوه وأحرقوه ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفىها خلع السلطان على الأمير يلبغا الأحمدي
المعروف بالمجنون واستقر به استادارا عوضا عن
قطلو بك العلائى .

وفىها جاءت الأخبار من حلب بأن جاليش
تمرنك قد وصل الى أطراف بلاد الروم وأخذ
مدينة تسمى أرزنكان ، وقتل أهلها ونهب ما فيها .
فلما سمع السلطان ذلك أرسل الى سائر النواب
بأن يتوجهوا الى شاطيء الفرات ويحصنوا البلاد ،

فخرج سائر النواب الى شاطيء الفرات وأقاموا
هناك .

وفىها حصل للسلطان توعك فى جسده ، وأقام
منقطعا فى الحريم أياما لم يعمل الموكب ، ثم عوفى
بعد ذلك ودخل الحمام ، ثم ركب من بعد ذلك
وشق القاهرة وزينت له ففرحت الناس بعافيته .
فلما طلع الى القلعة انتكس من يومه وضعف أكثر
ما كان أولا ، وكثر فى القاهرة القيل والقال بين
الناس ، فأقام على ذلك أياما ثم عوفى وركب وتوجه
الى سرياقوس ، ثم انه رجع الى القلعة .

وفىها توفى سيدى اسماعيل ابن السلطان حسن ،
وتوفى الصاحب سعد الدين بن البقرى ، وتوفى
قاضى القضاة جمال الدين القيصرى الحنفى ، وتوفى
قاضى القضاة شمس الدين الطرابلسى الحنفى ،
وتوفى السيد الشريف الأخلطى الحنفى ، وتوفى
الأمير جمال الدين محمود بن على الظاهرى
الاستادار كان ، وقد تقدم أن السلطان سجنه هو
وولده محمد فى خزانة شمائل ، فاستمر مقيما بها
الى أن مات فغسل وكفن وصلى عليه ودفن فى
مدرسته التى أنشأها خارج باب زويلة ، وقد قاسى
من الشدائد ما لا خير فيه ، وآخر الأمر ذهب ماله
ومات وهو فى السجن ولم يوجد له ثمن كفن ، حتى
ان بعض مماليكه أخرجه من عنده ، فكان كما قيل
فى المعنى :

أف لديانا وأفعالها فانها اللهم مخلوقة
همومها لا تنقضى ساعة عن ملك فيها ولا سوقه
واعجبا منها ومن فعلها عدوة للناس معشوقة
سنة ثمانمائة من الهجرة (اولها ٢٤ سبتمبر
١٣٩٧ م) :

وانقضى قرن السبعماية وقد جرى فيه من
الحوادث ما تقدم ذكره . وقد ورد فى الأخبار :
«على رأس كل قرن فتنة» ... وهذا حديث صحيح .

فيها رسم السلطان باحضار السيفى المقر تغرى
بردى بن يشبغا نائب حلب ، فتوجه لاحضاره أخو
الأمير بكتمر جلق .

ومن الحوادث فيها أن السلطان تغير خاطره
على الأتابكى كشبغا الحموى ، وعلى المقر السيفى
بكلمش العلائى أمير سلاح ، فقيدهما فى يوم واحد
وأرسلهما الى السجن بشجر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل موكبا وخلع على المقر
السيفى أيتمش البجاسى واستقر به أتابك العساكر
بمصر عوضا عن كمشبغا الحموى ، وأنعم على
الأمير نوروز الحافظى بتقدمة ألف . ثم حضر المقر
السيفى تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب ، فلما
حضر أنزله السلطان فى بيت الأمير طاز الذى عند
حمام الفارقانى ، ثم عمل بعد أيام الموكب وخلع
على جماعة من الأمراء ، وهم المقر السيفى تغرى
بردى بن يشبغا نائب حلب واستقر به أمير سلاح
عوضا عن الأمير بكلمش العلائى ، وخلع على الأمير
أقبغا اللكاش واستقر به أمير مجلس عوضا عن
الأمير شيخ الصفوى ، وخلع على الأمير نوروز
الحافظى واستقر به أمير أخور كبير ، وخلع على
الأمير بيسر قريب السلطان واستقر به دوادار
كبير ... فلبس هؤلاء الأمراء كلهم فى يوم واحد .
وأنعم السلطان على مملوكه على باى بتقدمة ألف ،
وأنعم على الأمير يشك الشعبانى بتقدمة ألف ،
وأنعم على جماعة بامريات أربعين وامريات عشرة .
وفيهما خلع السلطان على الأمير بيتقجاه طيفور
الشرفى واستقر به نائب غزة عوضا عن الأمير أحمد
ابن الفبيخ على ، ونقل الأمير أحمد بن الشيخ على
الى بياطة صفد ، ونقل نائب صفد الى نيابة طرابلس .
وفيهما أرسل السلطان خلف القاضى جمال الدين
الملطى من حلب ، فلما حضر الملطى خلع عليه
واستقر به قاضى القضاة الحنفية بالديار المصرية

عوضا عن القاضى شمس الدين الطرابلسى الحنفى
بحكم وفاته . ثم بعد مدة عمل السلطان الموكب
وخلع على مملوكه على باى - ويدعى المايى -
واستقر به رأس نوبة النوب .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان تغير
خاطره على الأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى
القاهرة ، فقبض عليه وعلى أخيه وابن عمه وجميع
أصحابه وحاشيته وغلماناه وأودعهم فى الترسيم
بالقلعة . فلما كان يوم السبت طلع جماعة من العوام
الى الرملة ومعهم مصاحف وأعلام فوققوا
واستغاثوا فأرسل اليهم السلطان وجاقا ، وقال لهم :
« ما شأنكم ؟ » ... فقالوا : « نسال السلطان فى
أن يفرج عن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى
الوالى » ... فلما سمع السلطان ذلك حنق على
العوام ، وأرسل اليهم جماعة من المماليك فشتتهم
من الرملة .

واستمر علاء الدين بن الطبلاوى فى الترسيم ،
ثم قال : « ان لى كلاما مرا ما أقوله الا فى أذن
السلطان » ... فلم يوافق السلطان على ذلك .
ورسم للأمير يلغا الأحمدي الاستادار بأن يتسلم
ابن الطبلاوى ويستخلص منه الأموال . فلما أراد
أن ينزل به من القلعة قعد ابن الطبلاوى على باب
الزردخانه وأخرج من وسطه خنجرا صغيرا وشق
به بطن نفسه ، فأمسك الناس يده فلم يؤثر فيه
ذلك ، فلما بلغ السلطان هذه الواقعة تحقق أن ابن
الطبلاوى ما كان يريد القرب من السلطان الا
ليضربه بذلك الخنجر ، فاشتد عليه غضبه وأمر
يلغا الأحمدي بأن يعاقبه ، فنزل به الى بيته وعاقبه
وعصره بالمعاصير فى أكعابه ، وسقاه الجير بالملح ،
وضربه بالكسارات ، وأذاقه ما كان يفعله بالناس .
وقد قيل فى المعنى :

جرع كأسا كان يسقى بها . والمرء مجزى بأعماله

فظهر له من المال في مكان ستون ألف دينار ،
وفي مكان عشرون ألف دينار . ثم ان يلغا الأحمدي
احتاط على موجوده جميعه فباعوه بمائة ألف
دينار ، فلم يكتفوا بذلك وعاقبوه ثانيا وألبسوه
خوذة حديد محمية بالنار ، فأقر أن له عند ابن عمه
مائتي ألف درهم فضة نقرة ، وأقر بأن له عند أخيه
مثل ذلك . ثم أقر بأن له عند قريبه تقى الدين
الخطيب خمسين ألف دينار ، وعند دوا داره على بن
عمر عشرة آلاف دينار ... فحمل ذلك جميعه الى
الخزائن السلطانية ، وذهب ما كان جمعه ابن
الطبلاوي من حلال وحرام ، وبقي عليه اثم ذلك ،
فذهبت عنه الدنيا والآخرة ، وقد قيل في المعنى :

النار آخر دينار نطقت به

والهم آخر هذا الدرهم الجارى

والمرء ما دام مشغوقا بحبهما

معذب القلب بين الهم والنار

ثم ان السلطان رسم بسجن علاء الدين بن
الطبلاوي في خزانة شمائل فسجن بها .

وفي هذه السنة وقع الرخاء بمصر حتى بيع كل
أربعة أرطال خبز بدرهم ، ولا أحد يشتريه .

ومن الوقائع اللطيفة أنه في يوم السبت ثاني
عشر ذى القعدة لعب السلطان بالكرة والصولجان
مع الأتابكي أيتمش البجاسي في الحوش السلطاني ،
فغلب السلطان المقر الأتابكي أيتمش ، فقبال له
السلطان : « جاء عليك يوم بالفقيرى » فأراد
الأتابكي أيتمش أن يعمل وليمة من ماله ، فقال له
السلطان : « أنا أقوم عنك بذلك من مالى » ...
فضرب خيمة كبيرة مدورة وعدة صواوين في الميدان
الذى تحت القلعة ، وأرسل خلف سائر الأمراء من
الأكابر والأصاغر ، ورسم للوزير وناظر الخاص
بأن يتكلفوا بأمر ذلك المهم ، فعمل فيه من اللحم

الضأن عشرين ألف رطل ، ومن الأوز مائتي زوج ،
ومن الدجاج ألف طير ، ومن الحبول للذبح عشرين
فرسا ، ومن السكر ثلاثين قنطارا ، ومن الفاكهة
مائتي علبة ، ومن الحلوى مائتي مجمع ، ومن
الزبيب برسم الأقسمة ثلاثين قنطارا ، ومن الدقيق
ستين أردبا برسم البوزة ... فعملت البوزة والشش
في أدنان ، وأحضر السلطان مغاني البلد جميعها
والأوزان .

ثم ان السلطان صلى الصبح ونزل الى الميدان ،
ورسم بالألا يمنعوا أحدا من الدخول الى الميدان .
فلما تكاثر الناس في الميدان أشار بعض الأمراء على
السلطان بأن يمد السماط الى القلعة ، فمد السماط
وأكل هؤلاء والأمراء ، ثم خلع على الوزير وناظر
الخاص ، ثم ركب وطلع الى القلعة من وقته ...
وكان قصد السلطان أن يقيم في الميدان الى آخر
النهار ويجتمع هناك أرباب الملاحى والملاعب ، فما
تم له ذلك . فلما ركب وطلع الى القلعة تكاثر العوام
ودخلوا الى الميدان ونهبوا الدنان البوزة والشش ،
وحصل في ذلك اليوم بعض اضطراب بسبب ذلك .
وقال بعض الشعراء :

سلطان مصر دام فضل علائه

قد عمنا بالفضل والاحسان

لم أنس يوم السبت حسن مهمه

قد كان يوما جاء بالسلطان

ومن الحوادث في هذه السنة أنه في يوم الأحد
تاسع عشر ذى القعدة كان وفاء النيل المبارك ،
فنزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس ليخلق
العمود ويكسر السد على العادة . فلما دخل الى
المقياس وخلق العمود ونزل الى الحرافة لتكسير
السد ، جاء اليه مملوك من خشداشينه من ممالك
الأتابكي يلغا العمرى يقال له سودون الأعور -

وكان مساكننا في البيوت التي بأعلى الكبش — فجاء الى السلطان وأسر اليه حديثا في أذنه ، فكان مضمون ذلك أنه قال له : « رأيت في بيت الأمير على باى الذى تحت الكبش ممالك لابسة آلة الحرب ، وقد دخلوا تحت بوائك الخيل وسترها على البوائك بانخاخ حتى لا يراهم أحد » ... وكان هذا البيت محل سكن على باى .

فلما سمع السلطان ذلك أنكره . وكان الأمير على باى من ممالك السلطان الخواص وقد رقاها حتى جعله رأس نوبة النوب . وكان الأمير على باى قبل هذه الواقعة انقطع في بيته أياما وأظهر أنه مريض ، وظن أن السلطان اذا رجع من كسر السد يدخل يسلم عليه ، فاذا دخل يسلم عليه تخرج تلك الممالك من تحت البوائك التي سترها بالانخاخ فيقتلون السلطان . وظن أن هذه الحيلة تصعد من يده ، فكان تدميره في تدميره كما قيل في الأمثال :

وان من حارب من لا يقوى

لحربه ، جر اليه البلوى

فحارب الأكفاء والأقرانا

فالمرء لا يحارب السلطانا

ثم ان السلطان أرسل الأمير أرسطاي أحد رؤوس النوب الى بيت الأمير على باى ليكشف له الخبر عن صحة ذلك ، فتوجه الأمير أرسطاي الى بيت الأمير على باى ، وأعلم جماعته بأن السلطان اذا رجع من السد يدخل يسلم على الأمير على باى . فلما فتح السلطان السد ورجع توجه الى بيت الأمير على باى . فلما أراد أن يدخل الى بيته نادته امرأة من أعلى البيوت التي في الكبش وقالت له : « لا تدخل له » ... وقد قيل ان تلك المرأة رمت على السلطان — لما أراد أن يدخل الى بيت على

باى — قلة ، فلما شال السلطان وجهه اليها قالت له لا تدخل اليه ، فثنى السلطان عنان فرسه ومضى ، فأشار عليه بعض الأمراء بأن ينقل في مشيه ، فنقل وساق هو والأمراء ، فتقنطر في ذلك اليوم الأمير فارس حاجب الحجاب والأمير بيبرس الدوادار الكبير ثم ركبا . فلما تحقق على باى رجوع السلطان الى القلعة خرج من بيته وماليكه — وكانوا نحو أربعين مملوكا — فساقوا خلف السلطان الى الرميلة .

وكان من جملة سعد السلطان لما مضى من بيت على باى أنه ساق وطلع الى الرميلة فوجد باب السلسلة مفتوحا ، فطلع منه هو والأمراء ثم أغلقوه خلفهم . فلما جلس في المقعد الذي في الاسطبل السلطاني طلع على باى خلفه الى الرميلة ، فوقف في سوق الخيل هو وماليكه ساعة ، فنزل اليه جماعة من الأمراء والممالك السلطانية ، فأوقعوا معه واقعة قوية ، فقتل فيها من الممالك السلطانية خاصكى يقال له يسق المصارع ، وجرح فيها جماعة كثيرة من الممالك السلطانية .

فلما رأى على باى عين القلب هرب وانكسر ، وكان معه الأمير يلغا الأحمدي الاستادار . فلما هرب على باى قبضوا على يلغا الأحمدي وطلعوا به الى باب السلسلة ، فأراد الممالك السلطانية قتله فمنعهم السلطان من ذلك ، ثم قيدوه ورموه في البرج .

ثم ان ممالك السلطان مسكوا مملوكا من ممالك على باى — وهو شاد الشربخانا عند — كان يقاتل في ذلك اليوم قتالا شديدا ، فلما قبضوا عليه وأحضروه بين يدي السلطان أمر بقتله فقتلوه قدام السلطان بالسيوف .

فلما انكسر على باى وهرب من الرميلة نهب العوام بيته الذي تحت الكبش ، وأخذوا جميع

ففسلوه وكفنوه ودفنوه تحت الليل وانقضى أمره ، وصار ذلك مثلاً بين الناس يقولون : « زلة على باى » فكان كما قيل فى المعنى :

واذا كانت النفوس كبارا
تعبت فى مرادها الأجسام

ثم ان السلطان أفرج عن الأمير يلبغا الأحمدي استادار ونزل الى بيته ، وخلع على الأمير أرسطاي ابن خجا على واستقر به رأس نوبة النوب عوضاً عن على باى ، وخدمت هذه الفتنة عن الناس .

فلما كان يوم الاثنين وقت الظهر ماجت الرميلة ولبس الممالك آلة الحرب ووقفوا فى الرميلة ، فغلقوا باب السلسلة وأشاعوا بين الناس أن الأمير أقبغا اللكاش والأمير يلبغا الأحمدي الاستادار قد ركبوا على السلطان ... وليس لهذا الكلام صحة .

وكان سبب هذه الفتنة أن بعض الممالك السلطانية رأى مملوكاً من ممالك على باى فساق خلفه وتبعه وسيفه مسلول ، فظن الناس أن العسكر قد ركب على السلطان ، فلبس الممالك آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، وأشاع العوام بأن يلبغا الأحمدي وأقبغا اللكاش قد ركبوا على السلطان . ثم ان يلبغا الأحمدي وأقبغا اللكاش طلعا الى القلعة وقالوا للسلطان : « يا خوند ، هذا كذب العوام ، فالسلطان لا يصدق فينا كلام . » ثم ان السلطان قبض على يلبغا الأحمدي وأرسله الى ثغر دمياط ، وخلع على الناصري محمد بن سنقر البجكاوى واستقر به استاداراً عوضاً عن يلبغا الأحمدي .

وفى أثناء هذه الواقعة قبض السلطان على سبع أنفس من جماعة على باى ورسم للوالى بأن يسمرهم ، فسمروا وطاقوا بهم فى القاهرة على الجمال ، وكان فيهم شخص عجيب يسمى رمضان ، وكان على باى يقول له يا أبى ، وفيهم مملوك

بركه وقماشه حتى أخذوا رخام بيته وأبوابه ونهبوا بيوت حاشيته وغلمانه . فلما دخل الليل ظهر الأمير على باى فى مستوقد حمام بالقرب من بيته ، فأتى اليه الأمير بييرس الدوادار الكبير وقبض عليه وطلع به الى القلعة ، فأمر السلطان بسجنه .

وكان سبب ركوب على باى على السلطان أن مملوكاً من ممالكه أفسد جارية من جوارى الأمير أقباي الطرطاي وكان ساكناً بجوار بيت على باى . فلما علم الأمير أقباي بذلك قبض على مملوك الأمير على باى وضربه أربعاً عَصاً . فلما بلغ الأمير على باى ذلك تعصب لمملوكه وطلع الى القلعة واشتكى الأمير أقباي الى السلطان ، فلم يلتفت السلطان الى كلام على باى ، فحنق من السلطان وقال أنا آخذ ثأرى بيدي ، ثم انقطع على باى فى بيته أياماً وأظهر أنه مريض ، وأضر فى نفسه أن السلطان اذا سمع أنه مريض يدخل يسلم عليه ، فاذا دخل اليه يقتله وتصد هذه الحيلة من يده ... فكان الأمر بخلاف ذلك ، وخانه المراد ، وجنى عليه الاجتهاد .

فلما ركب على باى وجرى منه ما جرى قبضوا عليه ، فلما طلعوا به الى القلعة سجنه السلطان ، ثم طلبه فى قاعة البحرة وخلا به وقال له : « من ألجأك الى هذا الذى قد فعلته ؟ » ... فقال : « ما ألجأنى أحد لذلك ، ولكن فعلت ذلك من قهرى منك حيث لم تأخذ بثأرى من أقباي » .

ثم ان السلطان أحضر اليه المعاصير وعصره بحضرتة ، وقرره ان كان لأحد من الأمراء خبرة فى ذلك ، فبراً سائر الأمراء ، فصار السلطان يعصر على باى فى كل يوم مرتين ويقرره فلم يقر بشيء ، فتزايد حنق السلطان عليه فضربه بكاز فولاد كان فى يده فخسف به صدر على باى فمات من وقته ،

أقبغا الفيل كان أغات على باى ، فوسطوا الجميع عند بركة الكلاب .

وفى هذه السنة توفى القاضى برهان الدين صاحب سيواس ، وتوفى الأمير جالى بك اليحياوى أمير آخور كبير ، وتوفى الأمير قلمطاي العثمانى ، وتوفى القاضى أمين الدين الحمصى كاتب السر بالشام ، وتوفى القاضى تاج الدين بن الشهيد ، وتوفى القاضى نجم الدين بن الطميدى محتسب القاهرة ، وغير ذلك من الأعيان .

سنة احدى وثمانمائة (١٣٩٨ / ١٣٩٩ م) :

فيها ، فى يوم السبت ثالث عشر صفر ، نزل السلطان الى الاصطبل السلطانى وحكم بين الناس . وكان ، من حين جرى من على باى ما جرى ، لم ينزل الى الاصطبل ولم يحكم به . فلما نزل فى ذلك اليوم تغير خاطره على الأمير نوروز الحافظى أمير آخور كبير ، فقبض عليه وسجنه بقاعة الفضة المظلة شبائيكها على الايوان . وكان سبب تغير خاطر السلطان على الأمير نوروز الحافظى ما قيل من أنه نقل عنه كلام أنه اتفق مع جماعة من المماليك على قتل السلطان ، فلما تحقق السلطان ذلك بادر وقبض على الأمير نوروز الحافظى أمير آخور كبير ، فقبض عليه وسجنه بقاعة الفضة ، وقيدته وأرسله الى السجن بشفر الاسكندرية ، ونفى معه جماعة من الخاصكية ممن كان من عصيته .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير سودون قريب السلطان واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن نوروز الحافظى ، وخلع على الأمير أرغون شاه الأقبغاوى واستقر به أمير مجلس عوضا عن أقبغا اللكاش ، وخلع على أقبغا اللكاش واستقر به نائب الكرك ورسم له بأن يخرج اليها .

فلما خرج من القاهرة ووصل الى غزة أرسل السلطان فقبض عليه وقيدته وأرسله الى السجن بقلعة الصليبة .

ثم ان السلطان أنعم على الأمير تمرآز الناصرى بتقدمة ألف .

وفيها جاءت الأخبار بأن نائب حلب أرغون شاه الابراهيمى قد توفى الى رحمة الله تعالى ، فرسم السلطان للأمير أقبغا الجبالى نائب طرابلس بأن ينتقل الى نيابة حلب عوضا عن أرغون شاه ، فتوجه الى تقليده الأمير اينال باى بن قجساس قريب السلطان ، وأرسل تقليدا الى الأمير يولس المطاوى الظاهرى بأن يكون نائب طرابلس ، وأرسل تقليدا الى الأمير دمرداش المحمدي بأن يكون نائب حماه على يد الأمير شيخ المحمودى ، وأرسل تقليدا الى الأمير سودون الظريف بأن يكون نائب الكرك .

وفى هذه السنة نادى السلطان للناس بأن يحجوا رجبيا ، وكان ذلك قد بطل من سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ، فرسم باعادته على جارى العادة .

وفى هذه السنة أنعم السلطان على جماعة من الخاصكية بامريات عشراوات ، منهم تغرى بردى الجلبانى ، ومنكلى بغا الناصرى ، وبكتمر جلق الناصرى ، وأحمد بن قطينة . وأنعم على جماعة بامريات أربعين ، منهم بسباى بن باكى ، وتمر بغا بن باشاه ، وشاهين بن اسلام ، وجوبان العثمانى ، وجكم العوضى .

وفى هذه السنة قبض السلطان على صاحب بدر الدين بن الطوخى ، وخلع على الأمير تاج الدين عبد الرزاق والى قطيا واستقر به وزيرا عوضا عن ابن الطوخى .

وفيها رسم السلطان بالافراج عن الأمير يلغا

الأحمدى الاستادار وأعيد الى وظيفته كما كان
أولا .

وفيها خلع السلطان على القاضى فتح الله
واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية
عوضا عن القاضى بدر الدين الكلستانى الحنفى
بحكم وفاته . وفيه يقول بعض الشعراء :

فتح الله بعلمو اشتهر فسبحان من أعطاه
وتبت يد الكافرين اذا جاء فتح الله

وفيها خلع السلطان على الأمير فرج استادار
الذخيرة واستقر به نائب نجر الاسكندرية عوضا
عن الأمير صرغتمش المحمدى بحكم وفاته .

وفيها ، فى يوم الثلاثاء سابع عشر شهر
رمضان ، رسم السلطان بالافراج عن الأمير علاء
الدين بن الطبلوى والى القاهرة — وكان له مدة
وهو فى السجن بخزانة شمائل كما تقدم — فتجمع
وقت خروجه الجرم الغفير من الناس ، وأوقدوا له
الشموع على الدكاكين ، وتخلق الناس فى ذلك
اليوم بالزعران حتى قيل اشترى الناس فى ذلك
اليوم زعفران بعشرين أشرفى . فلما خرج ابن
الطبلوى من خزانة شمائل أقام مدة فى بيته ثم
رسم له السلطان بأن يتوجه الى الكرك ويقيم بها .

وفيها ، فى يوم الثلاثاء خامس شوال ، لعب
السلطان بالرمح فى الحوش ، وكان ذلك اليوم
شديد الحر ، فلما فرغ من لعب الرمح أكل عسل
نحل كخناوى فطاب له فأكل منه كثيرا ، وشرب
عقيب ذلك أقسمة محرفة ، فاستحال خلطا
صفراويا ، فاشتدت به الحمى فضعف من يومه
وثقل فى المرض الى يوم السبت بعد العصر ،
فأشيع بين الناس أنه فى النزاع ، فأقام على ذلك
الى يوم الأربعاء ثالث عشر شوال ، فطلع عليه
الورشكين ، ثم حصل له الفواق فاضطربت فى
ذلك اليوم القاهرة وضجت ، فركب والى القاهرة

ونادى فى المدينة بالأمان والاطمئنان والبيع
والشراء .

فلما كان يوم الخميس رابع عشر شوال حصل
للسلطان افاقة ، فطلب أمير المؤمنين المتوكل على
الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأرباب
الدولة ، فلما تكامل المجلس عهد السلطان بالملك
من بعده الى ولده المقر الزينى فرج ، ثم من بعده
الى ولده المقر العزى عبد العزيز ، ثم من بعده
الى ولده المقر الصارمى ابراهيم . ثم ان السلطان
كتب فى ذلك المجلس وصية فأوصى فيها لزوجاته
وسراريه وخدامه بمال جملته مائتا ألف دينار ،
وأوصى بأن تعمر له تربة بشمانين ألف دينار ،
ويشترى لها أوقاف بعشرين ألف دينار ، وأوصى
بأن يدفن فى لحد لا فى فسقية ، وأن يكون دفنه
بين الفقراء الذين هناك ، وأوصى بأن يكون سائر
أملأكه أوقافا على تربته ، وأوصى بأن يكون المقر
الأتابكى أيتمش البجاسى وصيا على أولاده ،
وفوض اليه أمر الولاية والعزل . ثم جعل أمير
المؤمنين المتوكل على الله وصيا على أولاده من
بعده ، وجعل المقر السيفى تغرى بردى أمير سلاح
وصيا ، والأمير بيبرس الدوادار وصيا ، والأمير
يشبك الشعبانى وصيا ، وجعل المقر السيفى تتم
الحسنى نائب الشام وصيا . ثم خلع على الأتابكى
أيتمش خلعة ، ونزل الى بيته ومعه سائر الأمراء .
واستمر السلطان ملازم الفراش ... قال الأمير
صندل المنجكى الخازندار ان السلطان تصدق فى
هذه الضعفة فى مدة انقطاعه على الفقراء والعلماء
بمائتين وخمسين ألف دينار .

فلما كان ليلة الجمعة خامس عشر شوال من
سنة احدى وثلاثمائة توفى السلطان الملك الظاهر
برقوق بن أنص العثمانى رحمة الله تعالى عليه ،
وكانت وفاته وقت السحر ، فكانت مدة سلطنته

بالديار المصرية والبلاد الشامية الى أن مات على فراشه ست عشرة سنة وأربعة أشهر وسبعة وعشرين يوما ، فكانت كما قيل في المعنى :
ترجو البقاء بدار لا ثبات لها

فهل سمعت بظل غير منتقل

وكانت مدة سلطنته الأولى ست سنين وثمانية أشهر الا يوما ، ومدة السلطنة الثانية الى أن مات تسع سنين وثمانية أشهر الا يوما ، ومدة خلعه بين السلطنتين ثمانية أشهر وأياما ، وكانت مدة أتاكيتته بمصر أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ، فكانت مدة حكمه بالديار المصرية أتاكبا وسلطانا احدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوما ، وزال ملكه كأن لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

ومات الملك الظاهر برقوق وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة ، وخلف من الأولاد ستة : ثلاثة ذكور وهم : سيدى فرج وسيدى عبد العزيز وسيدى ابراهيم ، وثلاث بنات . وخلف من المال في الخزائن ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ، وخلف من الخيول اثني عشر ألف فرس ، ومن الجمال خمسة آلاف جمل ومثلها من البغال .

قال الأمير شهاب الدين بن قطينة : « لما كنت متولى الاستدارية كان عليق السلطان الظاهر برقوق في أيامى في كل شهر اثني عشر ألف أردب شعير ، ومن اللحم ستة وعشرين ألف رطل في كل يوم » .

وبلغت عدة ممالكه المشتراة سبعة آلاف مملوك چراكسة خارجا عن أصحاب الجوامك . وكان كثير البر والصدقات ، فمن ذلك أنه أوقف بلدا في بر الجيزة على سحابة تطلع في كل سنة الى الحجاز الشريف برسم الحجاج المنقطعين . وكان له في كل يوم من شهر رمضان عشرون بقرة تطبخ في فايزية وتفرق على الجبوس والزوايا وعلى الفقراء

ومعها ألف رغيف ، وكان يفرق في كل سنة من القمح سبعة آلاف أردب في الزوايا والمزارات ، وأبطل في أيامه مكوسا كثيرة بمصر والشام كانت تحصل مع غاية الضرر ... فأبطل ذلك جميعه . وعظم أمره حتى خطب باسمه في أماكن لم يخطب فيها لأحد قبله من الملوك ، فخطب باسمه في بربز العجم وفي الموصل وفي ماردين وفي سنجار وفي دوركى وفي أرض الروم وفي أرزنكان ، وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن .

وأما ما أنشأه في أيامه من العماثر فهو جسر الشريعة بالغور ، وجدد بناء خزائن السلاح بشعر الاسكندرية ، وجدد عمارة زريبة البرزخ بشعر دمياط بعد ما كان قد ظهر منها عظام الشهداء ، وعمل سورا على مدينة دمنهور ، وعمر قناة العروب بالقدس الشريف ، وجود عمارة المجرة التي تجرى من بحر النيل الى قلعة الجبل ، وعمر فساقى بطريق المدينة الشريفة عند رأس وادى بنى سالم ، وعمر سور الميدان الذى تحت القلعة بعد ما كان قد خرب ، فرمى بأرضه أحمال طين ثم سقاه بماء النيل وزرع فيه القرظ فلم يطلع فيه شيء غير النجيل ، وعمر صهريجا كبيرا بالقلعة ، وعمل السبيل والمكتب الذى قدام دار الضيافة بظاهر القلعة ، وعمر بالقلعة طاحونا ولم يكن بها قبل ذلك طاحون ، وعمر المدرسة العظيمة التى بين القصرين والوكالة التى تجاه باب الجوانية ، وله غير ذلك آثار كثيرة بمصر والشام .

وكانت دولته ثالثة القواعد . فأما قضاته الشافعية بمصر فالقاضى برهان الدين بن جماعة ، والقاضى ناصر الدين بن الملىق ، والقاضى بدر الدين بن التقي السبكى ، والقاضى عماد الدين الكركى ، والقاضى صدر الدين المناوى ، والقاضى تقي الدين الزبيرى . وأما قضاته الحنفية فالقاضى

صدر الدين بن منصور ، والقاضى شمس الدين الطرابلسى ، والقاضى مجد الدين الكنانى ، والقاضى جمال الدين محمود القيصرى ، والقاضى جمال الدين الملقى . وأما قضاته المالكية فالقاضى جمال الدين بن خير ، والقاضى ولى الدين بن خلدون المغربى ، والقاضى شمس الدين الركراكى ، والقاضى شهاب الدين النحريرى ، والقاضى ناصر الدين بن التونسى . وأما قضاته الحنابلة فالقاضى ناصر الدين العسقلانى وولده برهان الدين . وأما كتاب مره بالديار المصرية فالقاضى بدر الدين بن فضل الله ، والقاضى علاء الدين الكركى ، والقاضى بدر الدين محمود الكلستانى ، والقاضى فتح الدين فتح الله . وأما نظار جيوشه فالقاضى تقى الدين عبد الرحمن ، والقاضى موفق الدين بن الفرغ ، والقاضى جمال الدين القيصرى ، والقاضى كريم الدين بن عبد العزيز ، والقاضى شرف الدين ابن الدمامينى ، والقاضى سعد الدين بن غراب ، وأما وزراؤه بمصر فالصاحب شمس الدين بن كاتب الأزلان ، والصاحب علم الدين بن القسيس ، والصاحب كريم الدين بن الغنام ، والصاحب موفق الدين أبو الفرغ ، والصاحب سعد الدين ابن البقرى ، والصاحب ناصر الدين بن الحسام الصفوى ، والصاحب ركن الدين عمر بن قيمان ، والصاحب تاج الدين بن أبى شاكر ، والصاحب ناصر الدين محمد بن كلبك ، والصاحب مبارك شاه الظاهرى ، والصاحب بدر الدين بن الطوخى ، والصاحب تاج الدين عبد الرزاق ، والصاحب شهاب الدين أحمد بن قطينة . وأما استادارياته بمصر فالأمير قرقماس السيفى طشتمر ، والأمير جمال الدين محمود بن على الظاهرى ، والأمير عمر بن

قيماز ، والأمير قطلو بك العلانى ، والأمير بلبغا الأحمدي المعروف بالمجنون ، والأمير ناصر الدين محمد بن سنقر البجكاوى ، والأمير بهادر المنجكى ، والأمير بلبغا السالمى . وأما نظار خواصه فالقاضى سعد الدين موسى ، والقاضى سعد الدين ابن البقرى ، والقاضى موفق الدين أبو الفرغ ، والقاضى سعد الدين بن غراب .

قال المقرئى : « ان الذى أبطله الملك الظاهر برقوق فى أيامه من المكوس هو ما كان يؤخذ على الدريس والحلفاء بظاهر باب النصر . وأبطل ما كان مقررا لنائب طرابلس عند توجهه اليها ، وذلك أنه كان يؤخذ ممن يسرح للأمراء نحو العباسية من التجار وأعيان الناس من كل واحد فرس أو جمل أو ثمن ذلك ، وأبطل ما كان يرمى على البلاد من الأبقار عند فراغ الجسور السلطانية ، وأبطل ما كان يؤخذ على معمل الفراريج بناحية النحريرية ، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط بالديار المصرية والبلاد الشامية ... واستمر ذلك بطلا الى الآن فى صحيفة الملك الظاهر برقوق رحمة الله تعالى عليه .

وقد رثاه الشيخ شمس الدين الزركشى بقصيدة منها :

فى باطنى للملك الظاهر
حزن مرى منى فى سائرى
قد صير الندب لنا سنة
عليه من باد ومن حاضر
فبعده للملك يتم غدا
تبكى عليه أعين الناظر
لكن أتنا فرج عاجلا
من بعده بالملك الناصر

الملك الناصر فرج

لما توفي الملك الظاهر برقوق ، نزل من بعده ابنه فرج . وهو الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج ، ابن الملك الظاهر برقوق بن أنص عثمانى ، وهو السادس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثانى من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر .

تولى الملك بعهد من أبيه ، وجلس على سرير الملك فى يوم الجمعة خامس عشر شهر شوال سنة احدى وثمانائة ، فبايعه أمير المؤمنين المتوكل بحضرة القضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى ، وبحضرة الأتابكى أيتمش البجاسى وسائر الأمراء ، فألبسوه خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء بطرز زركش — وركب من الاصطبل السلطانى ، وطلع من باب سر القصر الكبير والأتابكى أيتمش حامل القبة والطير على رأسه ، فجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض .

وفى حال جلوسه على الكرسي جاء ابن الرداد ببشارة النيل المبارك بما جاءت به القاعدة ، فاستبشر الناس بذلك ، ثم دقت الكنوسات ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء وخطب باسمه فى ذلك اليوم على منابر القاهرة .

قيل ان الملك الناصر فرجا تولى الملك وله من العمر نحو اثنتى عشرة سنة ، وكانت أمه رومية الجنس تسمى شيرين الطويلة . وفيه يقول بعض الشعراء :

مضى الظاهر السلطان أعظم مالك
الى ربه برقى الى الخلد فى الدرج
وقالوا ستأتى شدة بعد موته
فأكذبهم ربى وما جا سوى فرج

فلما انقض امر الموكب شرع الأمراء فى تجهيز الملك الظاهر برقوق ، ففسلوه وكفنوه وصلوا عليه بالقلعة ، ونزلوا به والأمراء مشاة قدامه ، وكانت جنازته مشهودة بخلاف من يموت من الملوك ، وكثر عليه الأسف والحزن والبكاء من الناس حتى وصلوا به الى البقعة التى اختار الدفن فيها ، فحفروا له هناك قبرا ودفنوه فيه بين قبور المشايخ والفقراء الذين هناك ، ونصبوا على قبره خيمة كبيرة ، وأقام القراء يقرءون على قبره ثمانى ليال متوالية ، وكان القائم بأمر الماتم الأمير يلبغا الأحمدي الاستادار ، والناصرى محمد بن سنقر البجكاوى استادار الذخيرة .

فلما كان يوم السبت ثانى يوم موت الملك الظاهر طلع الأتابكى أيتمش هو والأمراء الى القلعة ، وعينوا الأمير سودون الناصرى الطيار بأن يتوجه الى تهم الحسنى نائب الشام بالتعزية بموت الملك الظاهر والبشارة بسلطنة ولده الملك الناصر ، وعينوا الأمير يلبغا الحافظى الى نائب حماء وكذلك الى نائب غزة وكذلك الى نائب الكرك ، وعينوا الأمير سنبغا الى الأمير نصير شيخ آل فضل ، وأرسلوا اليه خلعة بأن يكون على عادته .

ولما كان يوم الاثنين ثامن عشر شوال عمل السلطان الموكب فى القصر واجتمع الأمراء ، فلم يطلع الأمير سودون أمير آخور كبير — وكان من قرابة الملك الظاهر برقوق — فلما امتنع من الطلوع الى القلعة أرسل خلفه الأتابكى أيتمش فلم يطلع ، فأرسل خلفه ثانيا فلم يطلع . وكثر القال والقليل بين الناس ، فأرسل الأتابكى أيتمش يقول له انزل من الاصطبل الى بيتك ، فامتنع من ذلك وأرسل الى الأتابكى أيتمش جوابا يابسا ، فحنق منه أيتمش فأرسل اليه جماعة من المماليك فقبضوا

عليه وقيده وأرسلوه الى السجن بشعر الاسكندرية ... فهذه كانت أول ما جرى من الحوادث في دولة الملك الناصر فرج .

ثم ان الأتابكي أيتمش تحول وطلع الى باب السلسلة وسكن به .

ولما كان يوم الخميس حادى عشرى شوال عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم الأتابكى أيتمش البجاسى أتابك العساكر على عادته واستقر أمير آخور كبير أيضا ، وخلع على المقر السيفى تغرى بردى واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفى أرغون شاه واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى أرسطاي واستقر به رأس لوبة النوب ، وخلع على المقر السيفى بيمرس واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على المقر السيفى فارس واستقر به حاجب الحجاب ، وخلع على الأمير يلبغا الأحمدي واستقر به استادارا على عادته ، وخلع على صاحب تاج الدين بن أبى شاهر واستقر به وزيراً ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف وامريات أربعين وامريات عشرة ، وخلع على الشيخ بدر الدين محمود العبنى الحنفى واستقر به محتسب القاهرة عوضاً عن تقى الدين المقرزى ، وهذه أول وظائف للعينى بمصر .

وفى ذلك اليوم قبض الأتابكى أيتمش على جماعة من الأمراء وهم : الأمير تراز الناصرى ، والأمير ترمبغا المنجكى ، والأمير طقلجى السبفى يلبغا ، والأمير بلاط السعدى ، والأمير طولو ... فقيدهم وأرسلهم الى السجن بشعر الاسكندرية . ثم بعد أيام تغير خاطر الأتابكى أيتمش على الأمير يلبغا الأحمدي الاستادار فقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية .

ثم خلع على الأمير مبارك شاه الظاهرى واستقر به استادارا عوضاً عن يلبغا الأحمدي ، فأقام بها

مبارك شاه دون الشهر واستغنى منها ، واستقر بها صاحب تاج الدين بن أبى شاهر فصار وزيراً واستاداراً .

وفى أواخر هذه السنة حضر الأمير سودون الطيار — الذى كان قد توجه الى تنم نائب الشام — فأخبر بأن تنم نائب الشام دخل تحت طاعة السلطان الملك الناصر ، وبأس له الأرض ، ونادى في مدينة دمشق بالزينة سبعة أيام ، ودقت له بها البشائر . فلما حضر سودون الطيار بالبشارة خلع عليه السلطان واستقر به أمير آخور كبير . وأنعم على الأمير انال باى من قرابة الملك الظاهر برقوق بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير طاز بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير أقبای الطرنطاوى بتقدمة ألف . ثم خلع على الأمير سودون الماردبنى واستقر به رأس نوبة النوب عوضاً عن الأمير أرسطاي ، وخلع على الأمير يلبغا السالمى واستقر به استاداراً عوضاً عن صاحب تاج الدين عبد الرزاق ، وخلع على الأمير شهاب الدين أحمد ابن عمر الحسنى بن قطينة واستقر به وزيراً بدلاً عن تاج الدين عبد الرزاق .

وفىها جات الأخبار من القدس الشريف بأن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى قد هرب من القدس وتوجه الى تنم نائب الشام ... وقد تقدم أن الملك الظاهر برقوق نفاه الى الكرك .

وفى أواخر هذه السنة انفصل ابن قطينة من الوزارة واستقر بها القاضى فخر الدين بن غراب .

وفى أواخر هذه السنة جاءت الأخبار من حلب بأن ابن عثمان ملك الروم قد تحرك على بلاد السلطان ، وقد وصل أوائل جاليشيه الى بلاد الأبلستين وهو قاصد حلب . فلما بلغ السلطان والأمراء هذا الخبر أمر الأتابكى أيتمش بعقد مجلس بالقصر الكبير ، فحضر أمير المؤمنين المتوكل

والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين البلقيني وسائر الأمراء وضربوا مشورة في أمر ابن عثمان ، فوقع الاتفاق على محاربته والخروج اليه ، وأن يؤخذ من أجرة الأملاك شهر واحد يتفقوا بها العسكر على دفع العدو .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن ابن عثمان وصل الى ملطية ومكثها ولم يشوش على أحد من أهلها ، وأمر عسكره ألا ينهاهوا لأحد من الرعية شيئا ، فأقام بملطية أناما ثم رجع الى بلاده فبطل أمر التجريدة وسكن الحال .

وفي هذه السنة توفي الأمير بكلمش العلاني بالقدس الشريف . وتوفي في هذه السنة أيضا الأمير شيخ الصفوي أمير مجلس ، وكانت وفاته بالقدس الشريف أيضا . ومات الأتابكي كمشيفا الحموي بالسجن بغير الاسكندرية ، وتوفي أرغون شاه الابراهيمي نائب حلب ، وتوفي قاضي القضاة الشافعي عماد الدين الأزرقى وهو صاحب تاريخ مكة ، وتوفي قاضي القضاة المالكي ناصر الدين بن الوئسى ، ومات فيها جماعة كثيرة .

سنة اثنتين وثمانمائة (١٣٩٩ - ١٤٠٠ م) :

فيها في يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم ، ركب الملك الناصر ونزل من القلعة وزار قبر والده برقوق وشق من القاهرة ودخل من باب النصر ، وكان له موكب عظيم ، وزينوا له المدينة وضجوا له بالدعاء ، فشق من المدينة وطلع الى القلعة ... وهذا كان أول مواعبه .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن تنم نائب الشام خامر وأظهر العصيان ، وخرج عن الطاعة ، وأطلق من كان مسجوناً من الأمراء بقلعة دمشق من أيام الملك الظاهر برقوق . فلما بلغ السلطان

ذلك طلب المقر الأتابكى أيتمش ، فلما حضر قال له : « أنا قد بلغت الحلم ، وقصدي أن أترشد » . فقال الأتابكى أيتمش . « نعم ... السمع والطاعة » . ثم أرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ، فلما تكامل المجلس قام المقر السعدى سعد الدين بن غراب وكيلا عن السلطان ، وادعى في المجلس بين يدي القضاة ، فأعذر له الأتابكى أيتمش وثبت رشده في ذلك اليوم وحكم به القضاة وأعذر له أمير المؤمنين .

ثم ان السلطان خلع على أمير المؤمنين وعلى القضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين البلقيني والأتابكى أيتمش ونزلوا الى بيوتهم . ثم ان السلطان نادى في القاهرة بالزينة فزيت له سبعة أيام ، ودقت البشائر ، ونودي بالأمان والأطمئنان والبيع والشراء والدعاء بالنصر للسلطان ، فضج الناس له بالدعاء .

فلما كان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانمائة ركب المقر الأتابكى أيتمش على السلطان ، وألبس مماليكه آلة الحرب وطلع الى الرملة بين المغرب والعشاء ، فاجتمع عنده جماعة من الأمراء المقدمين وهم : الأمير تغرى بردى أمير سلاح ، والأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس ، والأمير فارس حاجب الحجاب ، وغير ذلك جماعة من الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات ، واجتمع عنده من المماليك السلطانية والسيفية ما لا يحصى .

واجتمع عند الملك الناصر بالقلعة جماعة من الأمراء المقدمين وهم : الأمير يشبك الشعباني ، والأمير طاز والأمير سودون المارديني ، والأمير بيبرس الدوادار ، والأمير اينال باى بن قجماس ،

وجماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات
وجماعة كثيرة من المماليك الظاهرية .

فلما لاح الصباح نزلوا الى باب السلسلة
وأوقفوا مع أيتمش واقعة عظيمة من طلوع الفجر
الى بعد الظهر .

ثم ان الأتابكي أيتمش نادى للعوام بأن كل
من أمسك مملوكا من مماليك الظاهر برقوق يأخذ
عريه وفرسه . فلما سمع المماليك الذين كانوا مع
أيتمش هذه المناداة تسحبوا من عنده وقالوا :
« نحن نقاتل معه وهو يريد مسك خشداشيننا ... » .
فطلعوا الى القلعة فلم يبق مع أيتمش الا بعض
مماليك صغار ، فلما تلاشى أمره فل الأمراء
الذين كانوا عنده ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد
انكسر الأتابكي أيتمش وهرب نحو قبة النصر .
وقد قتل في هذه الواقعة بعض أمراء وجرح منهم
جماعة وقتل جماعة كثيرة من المماليك الذين كانوا
معه .

ولما انكسر أيتمش ومن كان معه من الأمراء
نهب العوام بيوتهم وأخذوا كل ما فيها حتى الرخام
والأبواب ، ثم نهبوا مدرسة أيتمش التي عند باب
الوزير ، وأحرقوا ربه المجاور للمدرسة ، ثم حفروا
قبر أولاده وقد ظنوا أن فيه مالا فلما لقوا فيه شيئا
غير العظام ، ونهبوا آق سنقر المجاور لبنت أيتمش ،
ونهبوا قبة خوند زهرة بنت الملك الناصر محمد بن
قلاؤن المجاورة لبنت أيتمش ، ونهبوا وكالة أيتمش
التي عند مدرسته ، ونهبوا مدرسة السلطان حسن
وأحرقوا بابها لكون أيتمش كان يحاصر القلعة منها
ثم نهبوا بيوت الأمراء الذين ركبوا مع أيتمش ...
واستمر النهب في المدينة يومين .

ثم ان الزعر زاد أمرهم حتى كسروا باب حبس
الرجبة وأطلقوا من كان به من المحاييس . وصارت

المدينة مائجة نيس بها حاكم ولا وال ولا حاجب ،
والسلطان صغير ليس له حرمة ولا كلمة ، واضطربت
الأحوال ، ولولا لطف الله تعالى بالناس لنهبوا
القاهرة عن آخرها في هذه الحركة .

ثم جاءت الأخبار بأن الأتابكي أيتمش ، ومن
معه من الأمراء ، لما انكسروا توجهوا الى نحو باب
الشام ، فلما وصلوا الى هناك تلقاهم تنم نائب
الشام وأزلهم بالقصر الأبلق الذي بالميدان ، ومد
لهم سباطا عظيما ، وأنعم عليهم بكسوة وخيول
ومال ، ورتب لهم في كل يوم ما يكفيهم من سباط
وعليق وغير ذلك . وكان وصول الأتابكي أيتمش
والأمراء الذين معه الى دمشق في يوم الاثنين رابع
عشر ربيع الأول من السنة المذكورة ، وكان يوم
دخولهم الى دمشق يوما مشهودا وموكبا عظيما .

فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر اجتمع
هو والأمراء وضربوا مشورة في هذا الأمر ، ثم
وقع الاتفاق على أن يفرجوا عن جماعة من الأمراء
من كان مسجونوا شعر الاسكندرية ، فرسم
السلطان بالافراج عمن يذكر من الأمراء وهم :
الأمير نوروز الحافظي ، والأمير تراز الناصري ، والأمير
أقباي السيمي طرنتاي ... فلما حضروا عمل
السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء
وهم : المقر السيفي بيبرس واستقر به أتابك
العساكر عوضا عن أيتمش البجاسي ، وخلع على
المقر السيفي بكتمر الركني واستقر به أمير سلاح
عوضا عن تغري بردى بن يشبغا ، وخلع على المقر
السيفي تراز الناصري واستقر به أمير مجلس ،
وخلع على المقر السيفي نوروز الحافظي واستقر به
رأس نوبة النوب — والأمير نوروز الحافظي هو
الذي جدد القبة على فسقية الخانقاه الشيخونية لما

بقى رأس نوبة النوب ولم يكن بها قبل ذلك قبة —
وخلع على المقر السيفى سودون قريب السلطان
واستقر به دودارا كبيرا ، وخلع على المقر السيفى
أقبای الطرنطاوى واستقر به حاجب الحجاب عوضا
عن الأمير فارس ، وخلع على المقر السيفى سودون
ابن على باى واستقر به أمير آخور كبيرا عوضا
عن سودون الطيار .

وألعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء وهم :
الأمير اينال باى بن قجماس ، والأمير سودون بن
زاده — وهو صاحب الجامع الذى فى سويقة
العزى — والأمير اينال العلانى حطب .

وألعم على جماعة بامريات أربعين وامريات
هشرة . واستقامت أموره فى السلطنة .

وفيهما فبص السلطان على الصاحب فخر الدين
ابن غراب وفصله من الوزارة ، وقبض على أخيه
القاضى سعد الدين بن ابراهيم ناظر الجيش وناظر
الخاص ، وفبص على الأمير شهاب الدين أحمد بن
قطينة الاستادار ، وقبض على الشريف علاء الدين
البغدادى شاد الدواوين ... وسلمهم جميعهم الى
الأمير أزبك الرمضانى رأس نوبة ثانى ليستخرج
منهم الأموال ، فأقاموا فى بيت الأمير أزبك أياما ،
ثم ان الأتابكى بيبرس شفع فيهم فأفرج السلطان
عنهم وخرجوا الى يوتهم بطالين .

ثم ان السلطان خلع على الصاحب بدر الدين
الفلوخى وأعادته الى الوزارة ، وخلع على القاضى
شرف الدين بن الدمامنى واستقر به ناظر الجيش
وناظر الخاص ووكيل بيت المال ، فأقام هؤلاء فى
هذه الوظائف نحو ثلاثة شهور .

ثم ان السلطان رضى على الصاحب فخر الدين
ابن غراب وأعادته الى الوزارة ، وأعاد أخاه القاضى
سعد الدين بن غراب الى وظائفه كما كان ، وخلع

على القاضى شرف الدين بن الدمامنى واستقر به
قاضى نجر الاسكندرية عوضا عن أخيه .

وفيهما خلع السلطان على الشيخ أنبىا التركمانى
واستقر به شيخ الشيوخ بخانقاه سرياقوس عوضا
عن الشيخ اسلام الحنفى .

وفيهما جاءت الأخبار من دمشق بأن تنم نائب
الشام جمع عسكرا عظيما من الشام وهو قاصد
نحو الديار المصرية ، وقد وصل أوائل عسكره
غزة . فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر علق
الجاليش ، ونادى للعسكر بالعرض ، وأنفق عليهم
فى يومه ، ثم برز خيامه الى الريدانية .

فلما كان يوم الخميس رابع رجب من السنة
المذكورة طلب السلطان ونزل من القلعة ، وخرج
فى موكب عظيم ومعه أمير المؤمنين المتوكل والقضاة
الأربعة وسائر الأمراء ، فتوجه الى نحو الريدانية
وخرج من بعده أطلاب الأمراء المسافرين معه .

ثم ان السلطان جعل الأتابكى بيبرس نائب
الغية بمصر الى أن يعود السلطان الى الديار
المصرية ، وترك بمصر جماعة من الأمراء العشراوات
والحجاب وبعض ممالك سلطانية . ثم ان الملك
الناصر عين جماعة من الأمراء بأن يتقدموا أمام
العسكر ، وهم الأمير بكتمر الركنى أمير سلاح ،
والأمير تراز الناصرى أمير مجلس ، والأمير شيخ
المحمودى الحاصكى أحد الأمراء المقدمين ، والأمير
سودون قريب السلطان ، والأمير دقماق المحدى ،
وجماعة من العسكر والممالك السلطانية نحو ألف
مملوك ... فتقدموا أمام العسكر .

فلما كان يوم الجمعة ثامن رجب رحل السلطان
من الريدانية وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية
ومن هنا نرجع الى أخبار تنم نائب الشام .
فانه لما تولى الملك الناصر فرج خرج عن الطاعة

وأظهر العصيان ، ووضع يده على البلاد الشامية .
وقد وافقه على العصيان نائب حلب ونائب حماه
ونائب صفد ونائب طرابلس ، والتف عليه من
العسكر والعربان ما لا يحصى عددهم . فلما ركب
الأتابكي أيتمش بمصر وانكسر كما تقدم ، توجه
إليه هو والأمراء الذين ركبوا معه . فلما توجهوا
إليه قويت شوكة وعظم أمره ، فصار تتم يركب
في كل يوم بالشام في المواكب العظيمة مثل مواكب
السلطان ، والأمراء والنواب قدامه ، والدفع
والشبابة والأوزان والجوايشية والشعراء قدامه ،
وكان يركب في خدمته من الأمراء المقدمين ما يزيد
على خمسة وعشرين أميراً ، واجتمع عنده من
النواب ومن عساكر البلاد الشامية نحو أربعة آلاف
إنسان ما بين تركمان وعربان وغير ذلك من العساكر
... فحدثت نفس تتم أنه صار سلطاناً لا محالة ،
وعظم في نفسه .

هذا ما كان من أمر تتم نائب الشام ، وأما
ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد خروجه من
مصر ، فإنه لما خرج من مصر كان أكثر الناس
لا يشكون أنه هو المكسور لا محالة ، وأن تتم هو
المنتصر عليه ، والله غائب على أمره . وكان أكثر
الأمراء والعساكر خامروا على السلطان في الباطن ،
ومالوا إلى تتم نائب الشام ، والسلطان بينهم مثل
العصفور في يدي النسور ، فخرج من مصر وهو
في غاية الضنك ، فكان كما قيل في المعنى :

خف إذا أصبحت ترجو وارج أن أمسيت خائف
رب مكروه مخوف فيه لله لطائف

فلما وصل السلطان كان أقبغا اللكاش نائب
غزة خرج هو ونائب حماه ونائب صفد إلى قتال
الملك الناصر : فألقى الله تعالى الرعب في قلوب
النواب ... فأول من دخل تحت طاعة السلطان

دمرداش نائب حماه ، وكذلك نائب صفد . فلما
رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان
خامر الجميع على تتم نائب الشام ودخلوا تحت
طاعة السلطان وتوجهوا إليه في غزة . ثم إن نائب
غزة أقبغا اللكاش هرب من وجه الملك الناصر ،
فملك السلطان مدينة غزة . فلما بلغ ذلك تتم نائب
الشام خرج من الشام هو والأتابكي أيتمش وبقيّة
الأمراء وأتوا إلى مدينة الرملة ، فصار السلطان في
غزة وهم في الرملة .

ثم إن السلطان أرسل إلى تتم نائب الشام ،
والى الأتابكي أيتمش قاضي القضاة صدر الدين
المنأوى الشافعي ، والأمير ناصر الدين بن الرماح
بأن يمشوا في أمر الصلح بينهم وبين السلطان ...
فتوجهوا إليهم ثم إنهم عادوا بالجواب بأنهم قد
أبوا الصلح ولم يوافقوا على ذلك .

فلما سمع السلطان جوابهم ركب من غزة هو
والأمراء والعسكر وتوجهوا إليهم ، وذلك في يوم
السبت ثاني عشرين رجب ، فتلاقى العسكران
على مكان يسمى الحبطين ، فكان بينهم هناك واقعة
عظيمة لم يسمع بمثلاً ، فلم تكن إلا ساعة بسيرة
حتى وقعت الكسرة على تتم نائب الشام وأمسك ،
واحتاطوا على بركه ودوابه .

ثم إن الأتابكي أيتمش وبقيّة الأمراء هربوا
وتوجهوا إلى نحو الشام ، ثم إن العساكر المصرية
نهبوا مدينة الرملة وسبوا أهلها .

ثم إن الأمير جكم العوضى توجه خلفه الذين
هربوا إلى الشام فقبض على الأتابكي أيتمش
البجاسي ، وعلى الأمير تغرى بردى أمير سلاح ،
وعلى الأمير أقبغا اللكاش نائب غزة ، والأمير
بيقجا طيفور حاجب الحجاب بدمشق ، والأمير
أرغون شاه البيدمري أمير مجلس ، والأمير يعقوب
شاه الكشيغاوي ، والأمير فارس حاجب الحجاب

... فلما قبض عليهم قيدهم وحبسهم بقلعة دمشق ،
ونادى فى الشام بالأمان والاطمئنان ، والبيع
والشراء ، والدعاء بالنصر للسلطان الملك الناصر ،
فضج أهل الشام له بالدعاء . ثم بعد أيام وصل
السلطان الى دمشق ، وكان يوم دخوله ايها يوما
مشهودا ، ودخل فى موكب عظيم وقدامه تنم نائب
الشام وهو مقيد راكب على كديش أبلق ومعه
عشرة من أمراء دمشق وهم فى قيود ، فحبسهم فى
قلعة دمشق عند الأتابكى أيتمش ... وفيه يقول
بعض الشعراء :

أملت أنك لاتزال بكل من
عاداك بالنصر القريب مظفرا
ورجوت أن تظا الكواكب رفعة
من فوق أعناق العدا وكذا جرى

ولما دخل السلطان الى دمشق نزل بالقصر
الأبلى . تم انه شرع فى القبض على أصحاب تنم
نائب الشام وحاشيته ، فكان من جملة من أمسك
من الأمراء الأمير علاء الدين بن الطبالوى - وقد
تقدم أن الملك الظاهر برقوق نفاه الى القدس -
فلما مات الملك الظاهر هرب وتوجه الى تنم نائب
الشام ، وصار يفرع الظلم بدمشق كما كان يفعل
بمصر .

ثم أراد السلطان أن يقبض على الناصرى
محمد بن تنكز نائب الشام فهرب تحت الليل
وتوجه الى بلاد التركمان ، فكان كما قيل فى
المعنى :

من عاشر الزبدانى فاحت عليه روايحو
ويحترق بشرارو من عاشر الحداد

فلما كان يوم الخميس خامس عشر شعبان
حضر الى القاهرة قمعج الخاصكى وعلى يده
مثالات شريفة تتضمن أخبار هذه النصرة التى
حصلت للسلطان ، وقد حضر قمعج المذكور من

البحر المالح من على الطينة لأن الدرب السلطاني
كان مضطرب الأحوال بسبب فساد العربان .
فلما جاء هذا الخبر الى القاهرة نادى نائب الغيبة
فى القاهرة بالزينة ، فزينت سبعة أيام .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن الأمير بلغا
الأحمدى المعروف بالمجنون - وكان استدارا
بالديار المصرية - لما توجه السلطان الى الشام
صار يرمى الفتنة بين الأمراء الذين كانوا فى
القاهرة ، فوثبوا على بعضهم ووقع بينهم الخلف ،
وصار كل واحد منهم كل يوم فى فتن ،
واضطربت أحوال الديار المصرية ، وتخبطت البلاد
الشرقية والغربية ، وكثرت المناصر فى القاهرة حتى
صار فى كل حارة مركز يغفرونها فى الليل من
الحرامية ، وصاروا يخطفون العمائم فى الحارات
الظهر .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن السلطان لما قام
من دمشق بعد هذه النصرة خلع هناك على من
يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى سودون
قريب السلطان واستقر به نائب الشام عوضا عن
تنم الحسنى ، وخلع على المقر السيفى دمرداش
المحمدى ونقله من نيابة حماه الى نيابة حلب ،
وخلع على المقر السيفى شيخ المحمودى واستقر
به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير دقماق
المحمدى واستقر به نائب حماه عوضا عن دمرداش
المحمدى ، وخلع على الأمير الطنبغا العثمانى
واستقر به نائب صند على عادته ، وخلع على الأمير
جنتمر التركمانى واستقر به نائب بعلبك .

ثم ولى جماعة من القضاة بدمشق منهم :
القاضى تقي الدين ابن المكفرى الحنفى ، وولى
القاضى شمس الدين النابلسى الحنبلى .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن السلطان قتل
جماعة من الأمراء وهم : الأتابكى أيتمش

السلطان بدمشق قيده وأرسله هو والقاضى ناصر الدين بن أبى الطيب كاتب سر الشام صحبة ابن غراب ، فلما وصل الى غزة أرسل السلطان بقتل علاء الدين بن الطبلاوى فمات مخنوقا بغزة ودفن هناك ، وقد قاسى شدائد عظيمة فى أيام الملك الظاهر برقوق وفى أيام ابنه فرج ، وآخر الأمر مات قتيلا بعد ما قاساه ، فكان كما قيل :

ترجو الوليد وقد أعياك والده

فما رجاؤك بعد الوالد الولدا

ثم وقعت شفاعة من الأمراء فى القاضى ناصر الدين بن أبى الطيب كاتب سر الشام بعد ما كان قد رسم بقتله ، فعفا عنه من القتل وحضر صحبة ابن غراب الى مصر .

ولما كان يوم الجمعة سادس عشرى شهر رمضان وصل السلطان الى الدار المصرية ، ودخلها فى موكب عظيم ، وزينت له القاهرة ، فلم يطلع الا من بين التراب ، فشدت له البشائر ، وفرشت له الشقق الحرير من عند تربة طيغا الطويل الى رأس الصوة ، وحملت القبة والطير على رأسه ، وكان له يوم مشهود حتى طلع الى القلعة وجلس على سرير الملك . ثم عمل الموكب وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء منهم : قطلونغا الكركى ، وأقباي الاينالى ، وجركس القاسمى ، وجكم العوضى . ثم خلع على الأمير مقبل واستقر به زماما ، وخلع على الأمير صواب الجنكلى واستقر به مقدم الممالك السلطانية ، وخلع على فارس الدين شاهين الحلبي واستقر به نائب مقدم الممالك .

وفيهما ، فى يوم الثلاثاء رابع عشر شوال ، جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن الناصرى محمد بن عمر الهوارى كبس على الأمير يلبغا الأحمدى فمسك جماعة من أصحابه وغلماؤه وهرب يلبغا الأحمدى .

البجاسى ، والأمير فارس حاجب الحجاب ، والأمير أقبغا الككاش نائب غزة ، والأمير جلبان الكمشبغاوى ، والأمير بيقجا طيفور حاجب الحجاب بدمشق ، والأمير أرغون شاه الأقبغاوى ، والأمير يعقوب شاه الكمشبغاوى ، والأمير بيقوت اليحياوى ، والأمير مبارك شاه المعروف بالمجنون ، والأمير بهادر العثمانى نائب البيرة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء مصر والشام ... فكان عدة من قتل فى هذه الحركة نحو أربعة عشر أميرا ، فذبخوا الجميع ببرج الحمام بقلعة دمشق .

ثم ان السلطان أرسل رأس الأتابكى أتمش البجاسى ورأس الأمير فارس حاجب الحجاب الى القاهرة فى علبة ، فطافوا بهما فى القاهرة ، ثم علقوهما على باب زويلة .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد خنق تتم نائب الشام ، والأمير يونس نائب طرابلس . قيل انما آخر تتم نائب الشام بعد قتل الأمراء ليستصفى أمواله ويفرره على الأموال التى أخذها من البلاد لما أظهر العصيان ، ولعبت به الدنيا ثم رمته وتخلت عنه . فكان كما قيل فى المعنى :

إذا امتحن الدنيا لييب تكشف

له عن عدو فى ثياب صديق

ولما كان يوم الاثنين ثامن شهر رمضان ، حضر خاصكى وأخبر بأن السلطان خرج من دمشق وهو قاصد نحو الديار المصرية .

ثم فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر رمضان حضر الى القاهرة المقر السعدى سعد الدين بن غراب وصحبته حريم السلطان الملك الناصر ، وأخبر بأن السلطان قد وصل الى الصالحية . ولما حضر ابن غراب أشيع بين الناس أن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى لما قدم على

وكان سبب ذلك أن يلبغا الأحمدى لما سافر السلطان صار يرمى الفتن بين الأمراء الذين كانوا بمصر حتى افتتنوا في بعضهم ووثبوا على بعضهم ، فقصد نائب الغيبة بأن يقبض على يلبغا الأحمدى فهرب وتوجه الى نحو بلاد الصعيد فلما أراد محمد بن عمر الهوارى أن يقبض على يلبغا هرب فتبعوه فنزل عن فرسه ورمى نفسه في البحر فغرق ، ثم بعد أيام طلّعوا به وقد أكل السمك وجهه فدفنوه ومضى أمره بعد ما أخرب بلاد الصعيد ونهب أموال الناس .

وفيهما ، في ثاني ذى القعدة ، حضر مملوك نائب حلب وأخبر بأن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد ، وقرا يوسف أمير التركمان ، حضر اليهم چاليش تمرلنك فأوقعوا معهم واقعة عظيمة ، فأنكسر چاليش تمرلنك ، فلما انكسروا أتوا الى نحو ملطية — وكانوا نحو سبعة آلاف انسان — فأرسلوا الى نائب حلب يقولون له : « عين لنا مكانا ننزل به » ... فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو ونائب حماء وتوجهوا الى عسكر تمرلنك ، فأوقعوا معهم واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فأنكسر نائب حماء ، وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة ، منهم جالى بك اليجياوى أتاكبك العساكر بحلب ، وأسر نائب حماء دهباق المحمدى حتى اشتري نفسه منهم بمال جليل ، ورجع نائب حلب الى حلب وهو مكسور ... وكانت هذه أول الفتن بين عسكر مصر وبين تمرلنك . فلما بلغ السلطان ذلك رسم انائب الشام ونائب صدد ونائب طرابلس بأن يجمعوا العساكر ويتوجهوا الى حلب يقسمون بها

وفيهما حضر نجات من مكة المشرفة وأخبر بأن الحرم احترق منه نحو الثلث ، ومن الأعمدة الرخام مائة وثلاثون عمودا ، وعملت النار من

باب عزورة الى باب العمرة ... وكان هذا حادثا عظيما لم يسمع بمثله . فلما بلغ السلطان ذلك عين الأمير يسق الشيخى لعمارة ما احترق من الحرم ، وأرسل معه الخواجا برهان الدين المحلى التاجر الكارمى ، وبعث معه السلطان عشرة آلاف دينار بسبب العمارة فعمروه كما كان ، ولم يجددوا أعمدة رخام فعملوا عوض ذلك حجرا أسود .

وفيهما ظهر الأمير صرق وكان مختفيا من حين خامر تنم نائب الشام . فلما ظهر أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بحلب فسافر الى حلب من يومه .

وتوفى في هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة مجد الدين الكنانى الحنفى ، وقاضى القضاة برهان الدين العسقلانى الحنبلى ، والشيخ اسلام الاصبهانى الحنفى ، والأمير بهادر الشهابى مقدم المماليك السلطانية ، وغير ذلك من الأعيان .

سنة ثلاث وثمانمائة (١٤٠٠ / ١٤٠١ م) :

ففيها حضر مملوك من عند نائب حلب وأخبر بأن چاليش تمرلنك قد وصل الى سيواس ، وأن ابن تمرلنك فى چاليش ومعه عساكر عظيمة ، وأن ابن عثمان والقان أحمد بن أويس وقرا يوسف توجهوا الى مدينة برصا وتركوا بلادهم من خوفهم من تمرلنك ، وقد أشيع عنه أنه لما دخل الى سيواس نهبها وقتل أهلها ، وكان يحفر للناس حفيرة ويدفنهم فيها وهم بالحياة ، وكان يحرق بعضهم بالنار وكانت فتنة تمرلنك أول فتنة وقعت على رأس القرن الثامن .

ثم جاءت الأخبار من حلب بأن تمرلنك قد ملك البهشا وعتتاب ، وقد وصل الى الباب ، وبزاعا بالقرب من حلب

ثم ان تمرلنك أرسل الى نائب حلب قاصدا ،

ومعه مكاتبات من عند تمرلنك فيها عبارة خشنة لنائب حلب .. فلما سمع نائب حلب ذلك حنق وأمر بضرب أعناق قصاد تمرلنك ، فعند ذلك اضطربت أحوال مدينة حلب وحصنوا سورها بالمدافع والمكاحل والمقاتلين . فلما بلغ تمرلنك ما فعلوا بقصاده زحف الى قرية من قرى حلب يقال لها جيلان ، واحتاط بمدينة حلب ونهب ما حولها من الضياع .

فلما كان يوم السبت حادى عشر ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانمائة خرج عساكر حلب وسائر النواب بعساكرهم ، وأوقعوا مع تمرلنك ، فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي ، وقد دهمتهم عساكر تمرلنك كأمواج البحار المتلاطمة ، ومالت عليهم كتائب الجنود المتزاحمة ، فلم تثبت معهم عساكر حلب وولوا على أعقابهم مدبرين ، وأقبلوا نحو المدينة منهزمين ، وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة ، وحل بهم من البؤس كل داهية طامة . وكان قد احتوى بالمزارات والمساجد الجم الغفير من النساء والأطفال ، فدخلوا اليهم وأمروهم وقرلوههم بالحبال ، وأسرفوا في قتل النساء والرجال ، وصارت الأبيكار تفتض في المساجد ، ولم يراعوا حرمة المساجد ، فلم يرثوا لبكاء الرضع ، ولم يخشوا دعاء الركع ، وقد صارت المساجد كالمجزرة من القتلى ... فلا حول ولا قوة الا بالله . واستمر هذا الأمر الشنيع يتزايد من يوم السبت الى يوم الثلاثاء .

فلما رأى دمر داش نائب حلب عين القلب نزل من القلعة ، هو وبقيّة النواب ، وأخذوا في رقابهم مناديل وتوجهوا الى تمرلنك يطلبون منه الأمان ، فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل أحمر ، وألبسهم تيجان مذهبة ، وقال لهم : « أتم صرتم نوابى » ... تم أرسل معهم جماعة من أمرائه

يتسلمون القلعة ، فاستنزلوا من كان بها وهم في قيود . واستمر مقيما على حلب نحو شهر ، وعسكره ينهبون القرى التى حول المدينة ويقطعون الأشجار التى بها ، ويهدمون البيوت ، وقد أسرفوا في القتل ونهب الأموال ، وصارت الأرجل لا تطأ الا على جثة انسان لكثرة القتلى حتى قيل انه بنى من رءوس القتلى عشر مآذن ، دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعا ، وصعودها في الهواء مثل ذلك ، وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح ، وتركوا أجساد القتلى في الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش ، فكان عدة من قتل في هذه الواقعة من أهل حلب — من صغار وكبار ونساء ورجال — نحو من عشرين ألف انسان ، هذا خارج عما هلك من الناس تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب المدينة وقت الهزيمة ، وهلك من الجوع والعطش أكثر من ذلك .

فلما ملك تمرلنك مدينة حلب والقلعة نهب جميع ما في المدينة والقلعة ثم ان تمرلنك أقام على حلب نحو شهر ثم رحل عنها بعد ما جعلها خاوية على عروشها وقد تعطلت في مدة هذه المحاصرة عن الأذان والاقامة وعن صلاة الجمعة .

ومما يحكى عن أخبار عسكر تمرلنك فيما فعلوه بعسكر حلب ، قيل كانوا يطئون الأبيكار في محراب المساجد وآبأؤهن بشاهدون ذلك بعينهم . ولقد حكى من أمر معهم من حين استولوا على حلب الى حين رحلوا عنها لم يسمع في عسكرهم أذان ، وأنهم يجامعون النساء في المحيض ، ولا يعاودون الوطء الا بعد اغتسال — ولو كان في قلب الشتاء — بالماء البارد . وقيل ان تمرلنك كان يحتجب عن عسكره نحو أسبوعين فلا يجتمع على أحد من عسكره ، وينعكف على شرب

قتال تمرلنك ، فاضطربت أحوال القاهرة في ذلك اليوم جدا .

وكان الملك الناصر كلما طرقت هذه الأخبار يتغافل عنها ويتشاغل بشرب الراح وحب الملاح ، حتى تمكن تمرلنك من البلاد ، وعم فعله من الفساد . فعند ذلك خرج الملك الناصر وطلب ونزول من القلعة في يوم الأحد ثالث ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانمائة ، فخرج في موكب عظيم ، وكان صحبته أمير المؤمنين محمد المتوكل والقضاة الأربعة وهم : قاضى القضاة الشافعى صدر الدين المناوى ، وقاضى القضاة جمال الدين يوسف الملقب الحنفى ، وقاضى القضاة نور الدين بن الجلال المالكى ، وقاضى القضاة موفق الدين الحنبلى ، وخرج معه سائر الأمراء من المقدمين والأربعينات والعشراوات وسائر العسكر ، فأقام في الريدانية يومين . ثم عين ستة من الأمراء المقدمين يتقدمون چاليش العسكر وهم : الأتابكى بىرس الركنى ، والمقر السيفى بكتمر أمير سلاح ، والمقر السيفى نوروز الحافظى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى أقبای الطرناى حاجب الحجاب ، والمقر السيفى اينال باى بن قجماس ، والمقر السيفى يلغا الناصرى .

ثم ان الملك الناصر رحل من الريدانية وترك المقر السيفى تراز الناصرى أمير مجلس نائب الغيبة بمصر الى أن يحضر السلطان ، والأمير جكا أحد المقدمين وجماعة من الحجاب والمماليك السلطانية . فلما وصل السلطان الى غزة جاءت الأخبار الى القاهرة بأن السلطان لما دخل الى غزة خلع على المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا واستقر به نائب الشام ، وخلع على المقر السيفى أقبغا الجمالى واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على المقر السيفى تمربغا المنجكى واستقر به نائب صفد ،

الخمور . ففى مدة انعكافه تنهب عساكره البلاد ، ويفسقون فى أهلها ، فلم يجدوا من يمنعهم عن ذلك ولا يردهم ، فيستمرروا على ذلك .

ولما كان يوم السبت خامس عشرى ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانمائة ، حضر مملوك بكلمش العلانى وأخبر بما قد جرى من تمرلنك ، وبما وقع فى حلب ، وبما جرى على السواب ... فعند ذلك اضطربت أحوال الديار المصرية مما جرى فى البلاد الشامية ، فعين السلطان فى يومه الأمير سودون بن زاده ، والامير اينال حطب رأس نوبة ثانى ، فتوجهوا الى السفر من يومهم لكشف الأخبار عن صحة ذلك .

ثم جاءت الأخبار عقيب ذلك بأن تمرلنك لما أن رحل عن حلب الى حماه فعل بأهلها كما فعل بأهل حلب من القتل والنهب كما تقدم من أفعاله الشنيعة . ثم حضر نجاب من عند نائب الشام وأخبر بأن چاليش تمرلنك قد وصل الى الشام عند جبل الثلج . فلما تحقق السلطان ذلك علق الچاليش ونادى للعسكر بالعرض ، فعرض وأنفق على العسكر ، وبرز خيامه الى الريدانية ، فاضطربت فى ذلك الوقت أحوال الديار المصرية ، وماجت القاهرة بأهلها ، فكان كما قيل فى المعنى :

كم لى أبه مقله من نائم

لم يهد غير سروره الأحلام

فكأنه اذا جئته مستصرخا

طفل يحرك مهده فينام

قيل لما علق السلطان الچاليش بسبب خروجه الى تمرلنك ركب شيخ الاسلام سراج الدين البلقبى والقضاة الأربعة وحاجب الحجاب ووالى القاهرة ونادوا فى الشوارع بأن النفير عام بسبب

وخلع على المفز السيقى طولو بن على شاه واستقر به نائب غزة ، وخلع على الأمير صدقة بن الطويل واستقر به نائب القدس الشريف .

ثم ان السلطان رحل من غزة في يوم الاثنين خامس عشر ربيع الآخر وقصد التوجه الى الشام . ولما رحل السلطان من غزة أرسل يطلب من نائب الغيبة ألف فرس وألف جمل يتقوى بها العسكر . ثم جاءت الأخبار بأن الأمير ابن رمضان أمير التركمان جمع عساكر كثيرة من التركمان وجاء الى حلب وطردها من بها من عسكر تمرلنك الذين نزلوا بحلب ، وأرسل يكاتب السلطان بذلك .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن تمرلنك نازل بالقرب من سلمية ، وأنه أرسل جماعة من عسكره الى نحو طرابلس فتاهوا عن الطريق ، فدخلوا في واد بين جبلين ، فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والحجارة فلولوا مدبرين .

ثم ان السلطان دخل الى دمشق في يوم الخميس سادس جمادى الأولى ، ونزل بالميدان الكبير ، وجلس بالقصر الأبلق ، وحكم بين الناس ، وصلى الجمعة بدمشق ، ثم برز خيامه الى قبة يلغا . فلما كان وقت الظهر جاء چاليش تمرلنك من تحت جبل الثلج - وكانوا نحو ألف فارس - فبرز اليهم چاليش السلطان - وكانوا نحو مائة فارس - فأوقعوا مع عسكر تمرلنك واقعة قوية ، فالكسبر چاليش تمرلنك وولوا مدبرين .

ثم في تلك الليلة جاء جماعة من أمراء تمرلنك ومن عسكره ودخلوا تحت طاعة السلطان ، وأخبروا بأن ولد تمرلنك كان في الجاليش فقتل وكذلك صهره ، وقد حصل لتمرلنك على ولده غاية همزني ... فخلع السلطان على أمراء تمرلنك وأنزلهم بدمشق .

ثم حضر عند السلطان الأمير نعيم بن حيار أمير آل فضل . وجمع من العربان مالا يحصى عددهم من عربان حارنه وغير ذلك من القبائل .

ثم بلغ السلطان بأن عسكر تمرلنك قد تغلبوا عليه ، ومات من عسكره جماعة كثيرة تزيد عن خمسة آلاف انسان من الثلج الذي ينزل من الجبل . وصار يحضر الى السلطان في كل يوم جماعة من عسكر تمرلنك ويدخلون تحت الطاعة ، والتف على السلطان جماعة كثيرة من العربان وغيرهم حتى قيل انه تكامل عنده نحو اثني عشر ألف انسان خارجا عن عسكر مصر . وكانت طوابع الملك الناصر في مبتدأها سعيدة ، والنصر لائح عليه ، ولكن كما قيل في المعنى :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله الا ما أراد
فلما كان يوم الخميس خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة حضر السلطان الملك الناصر فرج الى الديار المصرية على حين غفلة ، وطلع الى القلعة ، وحضر صحبته الخليفة المتوكل ، وجماعة من النواب وهم : نائب الشام ، ونائب صفد ، ونائب غزة ، وغالب أمراء دمشق . وحضر مع السلطان من العسكر نحو ألف مملوك ، وحضر مع كل أمير مملوك من مماليكهم وليس معهم برك ولا خيول ولا قماش . وكان سبب حضور السلطان على هذا الوجه أن عسكر السلطان بعد أن أوقع مع عسكر تمرلنك مرتين وهو ينكسر ، أرسل تمرلنك يطلب من السلطان الصلح ، وأرسل الى السلطان أميرا من أمرائه يقال له الأمير حسين ، وأرسل معه ابن بنته يمشون بينه وبين السلطان في أمر الصلح . فلما أن حضروا الى السلطان خلع عليهم وأحسن اليهم ، وأرسل تمرلنك يسأل السلطان أن يطلق له قريبه أطليش الذي أسر في

أيام الملك الظاهر برقوق كما تقدم ، وأن تمرلنك يطلق من عنده من الأسرى جميعهم ، وصارت الرسل تتردد بين السلطان وبين تمرلنك مرارا عديدة ، وآخر ذلك كان ليلة الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة ، فأقام رسل تمرلنك عند السلطان الى ثلث الليل ، واتفق معهم على أنه في باكر النهار ينعقد الصلح بينهما ، فبلغ السلطان أن العسكر تقلبوا عليه في تلك الليلة ، وهرب منهم جماعة من الأمراء وقصدوا بذلك التوجه الى نحو الديار المصرية . وكان الذى قد تسحب من الأمراء تحت الليل الأمير سودون الناصرى الطيار ، والأمير قانى باى العلائى ، والأمير أحمد بن الشيخ على ، والأمير جقمق . ومن الخاصكية يشبك العثماني ، ويشبك الساقى الأعرج ، وقمچ الحافظى ، وبرسبغا ، وطراباى بن عبد الله ، وجماعة من المماليك السلطانية نحو من أربعين مملوكا .

فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة قام الأمراء على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا به من دمشق قرب التسبيح ... وقد جعل الله لكل شىء سببا حتى ينفذ القضاء والقدر .

فلما خرج السلطان والأمراء من دمشق طلوعا على عقبة قدومر ، ونزلوا على ساحل البحر المالح وتوجهوا الى صفد ، فأخذوا نائب صفد معهم وتوجهوا الى غزة . فلما دخل السلطان الى غزة وجد الأمراء الذين تسحبوا من دمشق هناك ، فتوجهوا مع السلطان الى مصر .

قليل وكان سبب تسحب الأمراء من دمشق أن جماعة تقلبوا هناك على الملك الناصر وخرجوا من الشام وقصدوا أن يتوجهوا الى مصر ويسلطنوا الأمير لاجين الجركسى . فلما تحقق الأمراء ذلك قاموا على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا به من دمشق . فلما دخل السلطان الى القاهرة رسم للأمير

يلبغا السالمى استادار العالية بأن يشرع فى عمل برك للسلطان وكسوة للأمراء والخليفة — فانهم خرجوا من الشام ولا برك ولا قماش — فشرع الأمير يلبغا السالمى فى ذلك .

ثم ان السلطان قوى عزمه على أن يخرج الى الشام ثانيا مرة ، فعلق الجاليش ورسم بأن يأخذ من بلاد المقطعين على العبرة القديمة ، وأن يأخذ من أملاك القاهرة وضواحيها أجرة شهر واحد ، ومن الرزق عن كل فدان عشرة دراهم ، ومن البساتين عن كل فدان مائة درهم . ثم صاروا يفتحون حواصل التجار أصحاب الأموال ويزعمون أن السلطان يقترض أموال التجار على ذمته الى أن يجيء له مال من البلاد فيعيد لهم ما أخذ من المال ... فكانوا يكبسون حواصل التجار ، فان وجدوا صاحب الحاصل أخذوا من ماله النصف وتركوا له النصف ، وان لم يجدوا صاحب الحاصل أخذوا جميع ما فى الحاصل من قماش أو مال ، ولم يتركوا للتجار شيئا .

ثم أخذ من أوقاف الجوامع والمساجد أجرة شهر واحد — حتى من أوقاف الليمارستان المنصورى — فحصل للناس من ذلك غاية الضرر ، وصاروا فى التراسيم والمصادرة ، وكان المتكلم فى ذلك الأمير يلبغا السالمى الاستادار .

فلما تكامل جبى الأموال تكلم الناس فى حق يلبغا السالمى بأنه أخذ لنفسه فى هذه الحركة من الناس أضعاف ما أورده للسلطان . فلما كثر الكلام فى حقه قبض عليه السلطان وخلع على المقر السعدى سعد الدين ابراهيم بن غراب واستقر به استادارا فصار ناظر الجيوش المنصورة وناظر الخواص الشريفة واستادار العالية . ثم ان السلطان سلم اليه الأمير يلبغا السالمى ، وكذلك صاحب شهاب الدين أحمد بن قطينة سلمه الى ابن غراب أيضا .

ثم ان السلطان عرض أجناد الحلقة والبحرية ، فكل من يكون قادرا على السفر يأمره بالسفر ، وكل من يكون عاجزا عن السفر يقيم له بديلا أو يأخذ منه نصف خراج اقطاعه عن سنة كاملة . وفرع أشياء كثيرة من أبواب هذه المظالم ، فجمع من ذلك جملة كبيرة ، وقوى عزمه على العود الى الشام ليقوم مع تمرلنك مرة أخرى ، وينفق ما جمعه من المال على العسكر .

ثم أخذ في أسباب جمع عربان ، فحضر كاشف البحيرة وصحبته ستة آلاف فارس من عربان البحيرة ، وحضر شيخ العرب ابن بقر وصحبته ألفان وخمسائة فارس من عربان الشرقية ، وحضر شيخ بنى وائل وصحبته ألف وخمسائة فارس من بنى وائل ، وجاءت الأخبار من عند الأمير نعيم شيخ آل فضل بأنه قد جمع خمسة آلاف فارس من عربان جبل نابلس . ثم صار العسكر الذي انقطع في الشام يدخلون الى مصر وهم في أنحس حال من العرى والجوع ، فصار السلطان ينعم على كل مملوك بجامكية شهرين معجلا ، وينعم عليه بألف درهم خارجا عن الجامكية ، ليرقع أحوالهم . وقد شرع في أمر النفقة عليهم والعود الى السفر نحو الشام . هذا ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد حضوره من دمشق .

وأما ما كان من أمر أهل دمشق مع تمرلنك بعد خروج السلطان منها فإنه خرج الى الشام في ليلة الجمعة حادى عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فأصبح الناس في يوم السبت مائجين في بعضهم ، وغلقوا أبواب المدينة وركبوا على الأسوار ، وصاروا يترامون بالنشاب على عسكر تمرلنك . وصار أهل دمشق يسحبون بعضهم بعضا

على القتال ، فكان بينهم في أول يوم واقعة عظيمة ، فقتل في ذلك من عسكر تمرلنك نحو ألفى السان . فلما كان يوم الأحد أرسل تمرلنك يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم حتى يمشى بينه وبين أهل دمشق في الصلح . فلما أتى قاصد تمرلنك بهذه الرسالة استور أهل دمشق فيمن يرسلونه الى تمرلنك ، فوقع الاختيار أن يرسلوا اليه القاضي تقى الدين بن مفلح الحنبلى ، فإنه كان انسانا طاق اللسان يعرف بالتركى وباللسان العجمى ، فأرخواه من أعلى السور بسرياق ومعه خمس أنفس من أعيان دمشق ، فغاب عند تمرلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بأن تمرلنك تلتطف معه في القول وقال له : « هذه بلد فيها الأنبياء وقد اعتقتها لهم » ... وذكر عنه أنه قد زار قبر أم حبيبة إحدى أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما زاره قال : « يا أهل الشام ، مثل هذا القبر يكون بلا قبة ؟ ألا ان شاء الله تعالى أبنى عليه قبة » ... وذكر عنه أنه كان في مجلسه كثيرا ما يذكر الله تعالى ويستغفر من ذنوبه ، وأن السبحة لا تزال في يده دائما كما قال ابراهيم المعمار :

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح

وشرح ابن مفلح عن تمرلنك محاسن كثيرة ، وجعل يخذل أهل الشام عن قتال تمرلنك ويرغبهم في طاعته ... فصار أهل البلد فرقتين : فرقة ترى ما رآه ابن مفلح ، وفرقة ترى محاربته ولم تسمع قول ابن مفلح . وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح ، ولم يرجعوا عن قتال تمرلنك وهم الجهم الغفير من أهل دمشق . فباتوا على ذلك ليلة الاثنين ، فلما أصبحوا يوم الاثنين غلب رأى ابن مفلح وأصحابه على تلك الطائفة المخالفة لذلك .

ثم ان ابن مفلح قصد أن يفتح باب النصر الذي بدمشق ، فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق وقال لهم : « ان فعلتم ذلك أحرقت البلد جميعها » .

ثم ان ابن مفلح أخذ أعيان أهل دمشق من العلماء والقضاة والمشايخ وتوجهوا الى تمرلنك من أعلى السور بسرياقات . فلما توجهوا الى تمرلنك باتوا في وطاقه تلك الليلة وأضافهم ، فلما أصبحوا رجعوا الى دمشق وعلى أيديهم مثال من عند تمرلنك مكتوب فيه تسعة أسطر يذكر فيها أمانا لأهل دمشق ، فقرأ ذلك المرسوم على أهل دمشق في جامع بنى أمية ، وفرح أهل دمشق بذلك وفتحوا باب المدينة وهو الباب المسمى بالصغير ، فحصل لهم طمأنينة وما يعلم ما في القلوب الا الله . وقد قيل في المعنى :

لقد ضرني من كنت أرجو به نفعا
وقد ساءني أفعاله خلته أفعي

إذا ما بدا لي ضاحكا زدت خيفة
وفي ضحكة الأفعى فلا تأمن السعا

فلما فتحوا باب دمشق دخل الى المدينة أمير من أمراء تمرلنك وجلس على الباب وأظهر أنه يحفظ المدينة من أذى عسكرهم .

ثم ان تمرلنك أرسل خلف ابن مفلح وقرر معه بأن يجبي له من أهل دمشق ألف دينار . فلما رجع ابن مفلح من عنده شرع في استخراج ذلك من أهل دمشق . فلما كملت تلك الأموال وحملت الى تمرلنك حنق ولم يرض بذلك وقال لابن مفلح : « أنا قررت معكم أن تجمعوا من دمشق ألف ألف تومان . والتومان عندنا كل تومان عشرة آلاف ألف دينار ... فرجع ابن مفلح من عند تمرلنك بخفي حنين .

فلما رجع ابن مفلح الى دمشق أطلق بأهلها

النار ، واستخرج من أهلها الأموال بالضرب والمصارات ، فأخذ على رأس كل انسان من كبير وصغير عشرة دراهم شامية ، وفرض على أوقاف الجوامع والمساجد والزوايا أجرة ثلاثة أشهر ... فعند ذلك تزايدت البلىا وعظمت الرزايا في استخراج الأموال من الناس .

وفي مدة هذه المحاصرة عزت الأقوات بدمشق حتى بيع كل مد من القمح بأربعين درهما شامية . وفي هذه المدة تعطلت صلاة الجمعة والخطبة بدمشق ، ونزل في جامع بنى أمية أمير من أمراء تمرلنك يقال له شاه ملك ، فدخل بحرمه في الجامع وأغلق بابه وأخذ بسط الجامع وحصره فستر بها على البوابك ، وصاروا يشربون الخمر في الجامع ويضربون بالطنبور ويلعبون بالكعاب . وفي هذه المدة تعطلت الصلوات الخمس من مساجد دمشق ، وتعطل الأذان والبيع والشراء ، وتعطل الأسواق ، وصار عسكر تمرلنك يدخلون المدينة في كل يوم قليلا قليلا حتى امتلأت منهم المدينة ، وصاروا يحاصرون القلعة أشد المحاصرة . فلما رأى نائب القلعة عين الغلب سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوما ، فملكوها واحتاطوا على كل ما فيها من صامت وناطق ، واستولوا على المدينة بأسرها .

ثم ان ابن مفلح جمع الأموال ثانيا وأحضرها بين يدي تمرلنك فقال لابن مفلح : « هذه بحسابنا ثلاثة آلاف ألف دينار ، وبقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار » . وكان تمرلنك أول ما فرض على أهل دمشق القدر الأول — وهو ألف ألف دينار — فقرر مع ابن مفلح أن هذا القدر يكون خارجا عما تركه العسكر والأمراء لما رحل السلطان من دمشق من برك وقماش وسلاح ودواب وغير ذلك .

فلما رجع ابن مفلح من عند تمرلنك أمر المنادى بأن ينادى في دمشق بأن كل من كان عنده ودائع للأمراء والعسكر والسلطان يحضر ذلك من غير تأخير ، فامتثل الناس ذلك وأحضروها بين يدي تمرلنك ، فقال لابن مفلح : « قد بقي عليك أن تجمع لنا أموال التجار الغائبين وأعيان البلد » . فجتمع له ذلك وأحضره بين يديه ، فقال لابن مفلح : « قد بقي عليك أن تجمع لنا كل دابة في البلد من فرس وبغل وجمل وحمار » فلما رجع ابن مفلح من عنده جمع كل دابة في البلد ، فكان عدتها اثني عشر ألف دابة . فلما أحضر ذلك بين يديه قال لابن مفلح : « اجمع لنا ما في البلد من سلاح من جليلها لحقيرها » . فلما جمع له ذلك وأحضره بين يديه قال له : « قد بقي عليك أن تكتب لنا أسماء حارات دمشق جميعها والخطوط » . فرجع من عنده وكتب له ذلك وأحضره إليه . فلما قدمت إليه القوائم وعلم أن الطلب قد انتهى قال لابن مفلح : « قد بقي تكلمة ما تقرر عليه الحال من تفريضة المال الذي وقع عليه القرار ، وهو سبعة آلاف ألف دينار » فقال له ابن مفلح : « لم يبق في البلد لا درهم ولا دينار » ... فحنق من ابن مفلح وقبض عليه وعلى أصحابه وأودعهم في الحديد ... وآخر الطب الكى . فكان كما قيل في المعنى :

ان الملوك ظروف الصبر داخلها

وفوق أفواها شيء من العسل

تحلو لذائقها حتى اذا انكشفت

له تبين ما تحويه من دغل

ثم ان تمرلنك فرق تلك الأوراق التي بأسماء الحارات على أمرائه فتقامسوها ، ثم دخل الى المدينة السواد الأعظم ، فنزل كل أمير من أمرائه في حارة ، وطلب سكانها وفرض عليهم من المال

ما لا يقدرון على شيء منه ، فكان الرجل يقام على باب داره وهو في أنحس هيئة ويقولون له : « هات ما عليك من المال » ... فيقول : « ما عندي شيء من المال » ... فيضرب ضربا شديدا ، فيخرج جميع ما في بيته من قماش ونحاس وغير ذلك ، حتى يخرج بأولاده ونسائه وعياله ، فتوطأ نسائه وبناته بين يديه وهو يشاهد ذلك بعينه ، فتفتض أبكار بناته ، ويلاط بولده بين يديه . فاذا قضوا من الوطء أوطارهم أوجعهم بعد ذلك ضربا ، هذا وصاحب البيت قائم يضرب في وسط داره .

ولقد تنوعوا في عذابهم أنواعا ، فكان أحدهم يشد رأس الرجل بحبل قنب ثم يلويه ليا عنيفا حتى يغوص ذلك الحبل في رأسه ، ثم يؤخذ من تحت ابطيه وتربط ابهام يديه من وراء ظهره ثم يلقي على ظهره ويغم بخرقه فيها رماد سخن ، أو يعلق الرجل من ابهام رجله في سقف الدار ثم يوقدون تحته النار حتى يموت من ذلك العذاب أو يسقط من الحبل في النار . ففعل عسكر تمرلنك بأهل دمشق من هذا النمط وأمثاله ما تشيب من سماعة النواصي ، فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوما وهم على ما ذكرناه من أنواع هذا العذاب . فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشرى رجب من سنة ثلاث وثمانمائة دخل في ذلك اليوم الى دمشق عسكر كأمواج البحر وهم مشاة وبأيديهم سيوف مسلولة ، فنهبوا ما بقي في المدينة ، وأسروا النساء والشباب والرجال وساقوهم في حبال لا يعلمون أين يذهبون بهم ، ثم تركوا الأطفال الرضع ومن عمره أربع سنين والشيوخ الفاية والمجانز بالمدينة . وكان من جملة من أسروه في هذه المعركة قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى وغيره من العلماء والفقهاء وقضاة دمشق وأعيان دمشق من التجار

وغيرها ، وأسروا جماعة كثيرة من عسكر مصر
وأمرائها وقضاتها وغير ذلك . وكان من أسره
تمرلنك من النواب المقر السيفى دمرداش نائب
حلب ، والمقر السيفى سودون قريب المقام الشريف
نائب الشام ، والمقر السيفى شيخ المهودى نائب
طرابلس ، والمقر السيفى دقماق المحمدي نائب
حماء . وأمر من العساكر الحلبية والشامية ومن
أمرائهم ما لا يحصى عددهم ، فقيدهم وزجرهم
وساقهم قدامه .

وقيل انه لما توجه الى بلاد ابن عثمان حاصرها
وانكسر ابن عثمان — وهو بايزيد بن مراد —
فلما أسره جعله في قفص من حديد وبقي يعجب
عليه في البلاد التي بدخلها . وأمر جماعة من ملوك
الهند ، وأخرب بلاد الشرق ونهب ما بها .

فلما كان يوم الخميس مستهل شهر شعبان أمر
تمرلنك باحراق مدينة دمشق ، فأضرم بها النار
حتى صارت ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالات
صفر . وأحرقوا جامع بنى أمية حتى بقى جدارا
قائما بغير سقوف ولا أبواب ولا رخام ، وأحرقوا
غالب جوامع دمشق ومساجدها ، وأحرقوا
الأسواق التي بها والقياسر بعد ما نهبوا ما فيها ،
وأحرقوا غالب حاراتها التي صارت لا تعرف ، كما
قيل في المعنى :

وأمر بالأوطان والسكن الذي

قد كنت أعهده بخير واقس

لم ألق غير البوم فيها ساكنا

تبا له من طير نحس وأكر

وقد أصبحت دمشق ، بعد البهجة والسرور ،
والنضرة والحبور ، أطلالا بالية ، ورسوما خالية ،
قد خوت على عروشها ، وأقهرت من زخرفها
وقوشها ، لا نرى بها دابة تدب ، ولا حيوانا
يهب ، سوى جثث قد احترقت ، وصور في الثرى

قد تغفرت ، وقد صارت تكسى من الذباب ثوبا ،
ومغنا للكلاب ونها ، لا يستهدى اللبيب فيها الى
داره ، ولا يظن الذكي الى محل سكنه من
مزاره ... فانا لله وانا اليه راجعون لعظم هذه
المصائب ، وشناعة هذه النوائب . فلم توقظنا
حوادث الأيام ، ونحن في ليل الغفلة نيام ، فلا
نعتبر بما جرى للأنام ، ولا نرجع عن ذنوبنا
والآثام . وقد قال القائل في المعنى :

ان ترمك الأقدار في أزمة

أوجبها أجرامك السالفه

فادع الى ربك في كشفها

ليس لها من دونه كاشفه

وقد هلك في هذه النازلة من الناس ما لا يحصى
عددهم ، فجماعة بالقتل وأنواع العذاب ، وجماعة
بالجوع والعطش في مدة هذه المحاصرة لعدم
الأقوات . فكانت هذه الفتنة من أعظم فتن قرن
الثمانائة .

روى في بعض الأخبار عن موسى عليه الصلاة
والسلام أنه قال : « يارب ... أنت في السماء
ونحن في الأرض ، فما علامة غضبك من
رضاك ؟ » ... فأوحى الله تعالى اليه :
« يا موسى ... اذا استعملت عليكم خياركم فهي
علامة رضائي ، واذا استعملت عليكم شراركم
فهي علامة سخطي . فلا تشتغلوا بسب الملوك ،
وتوبوا الى أعطف عليكم قلوب الملوك » ...

فلما كان يوم الجمعة ثاني شهر شعبان ، رحل
تمرلنك عن دمشق بعد ما فعل الذي فعله ، فأخذ
عسكره وخرج من دمشق . وكانت مدة اقامته
بدمشق الى أن رحل عنها نحو ثمانين يوما .

قيل ان تمرلنك لما أراد أن يرحل عن دمشق
جمعوا له أطفال المدينة الذين أسر أهلهم ، فكانوا
ما بين ابن خمس سنين الى شهر وشهرين ، فركب

تمرلنك وأتى الى ذلك المكان الذى هم به خارجا عن المدينة . فلما أتى اليهم وقف ساعة وهو ينظر اليهم ويتأملهم ، ثم قال للعسكر : « سوقوا عليهم بالخيول ... فساقوا بالخيول فماتوا أجمعين ، وكانوا نحو عشرة آلاف طفل . فلما رجع لأمه أمراؤه على ذلك فقال : « ما نزل على قلبى فيهم رحمة » . فكان تمرلنك يقول : « أنا غضب الله فى أرضه ، يسلطنى على من يشاء من خلقه » . فكان حال الأطفال مع تمرلنك كما قيل فى المعنى :

وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جانبه العذاب ولما رحل تمرلنك عن دمشق صار من بقى فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون وينرافقون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية ، فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون ما معهم ويعرونهم ولم يتركوا لهم غير اللباس فى وسطهم ، فجرى عليهم من العربان والعشير ما لم يجز عليهم من عسكر تمرلنك ، فكان أكثرهم ينزل من البحر المالح ويحىء من جهة دمياط فيدخلون الى مصر وهم فى أنحس حال . وقد ذهبت حرمة المملكة ، ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة . فعزم السلطان الناصر على الغود الى دمشق ثانيا ويوقع مع تمرلنك مرة أخرى . ثم حضر الطنبغا العنبرى وأخبر الملك الناصر بأن تمرلنك رحل عن دمشق وهو مريض ، وقد طلعت له حمرة فى جسده وقد تألم لها . فلما تحقق السلطان ذلك أبطل أمر التجريدة ولفظ الله تعالى بالناس كما قيل فى المعنى :

اصبر قليلا فبعد العسر تيسير
وكل شئ له وقت وتقدير
وللمهين فى أحوالنا نظر
وفوق تدبيرنا الله تدبير
ثم حضر سودون نقيب قلعة دمشق وعلى يده

فلما حضر كتاب تمرلنك الى السلطان جمع الأمراء واستشارهم فى ذلك وما يصنع ، فأشاروا عليه بأن يطلق أطلمش ويرسله اليه فرسم باطلاقه ، وكان فى البرج بالقلعة . ثم عين معه الأمير النوروزى أغات سودون بقجة ، وعين معه الأمير شهاب الدين بن غلبك من أمراء حلب ، فتوجهوا الى تمرلنك وصحبتهم أطلمش وقد كساه السلطان وأحسن اليه . فلما وصلوا الى تمرلنك أكرمهم وقبل مراسيم السلطان ، وتفارش وبكى ، واعتذر مما وقع منه ، وقال : « هذا كان مقدرا » ...

وقيل كان تمرلنك — مع هذه السطوة العظيمة — أعرج بوركه الأيمن ، وكان اذا أراد أن يركب تحمله الرجال على أكتافهم حتى يركب . وكان قصير القامة ، غليظ الجسد ، مستدير اللحية ، قد وكره الشيب . وكان ثقیل الحركة ، ولكن كان له سعد خارق حتى جرى منه ماجرى ، وملك البلاد ، وقهر العباد ، ونهب الأموال وأسر النساء والرجال ، ويتم الأطفال . وقد قيل فى المعنى :

رزق الضعيف بعجزه فاق القوى الأغلبا
فالنسر يأكل جيفة والنحل يأكل طيبا
فلما تسلم تمرلنك أطلمش أطلق من كان عنده من الأسرى جميعهم وأرسلهم صحبة قانباى النوروزى ، وأرسل للسلطان هدية صحبة الخواجا مسعود الكججاوى ، وكان من جملة الهدية فيل عظيم الخلقة وعلى ظهره صندوق خشب يجلس

ففيه نحو عشر أنفس يضربون بالكؤوسات .
وأرسل مع الفيل أشباء كثيرة جليلة غير ذلك .

فلما دخل قانباى النوروزى الى القاهرة كان
له يوم مشهود ، ودخل لابسا خلعة تمرلنك وهى
مخمل أحمر مزهر ، وعلى رأسه تاج مخمل
مذهب ، وقدامه الأسرى الذين كانوا عند تمرلنك
وقد خلع عليهم ، فلما رأى أهل مصر ذلك الفيل
تعجبوا من خلقته غاية العجب ... ولما عاد قانباى
النوروزى من عند تمرلنك كان يدعى قانباى
التمرلنكى . ثم بعد مدة خلع السلطان على قانباى
المذكور واستقر به نائب الكرك ، فأقام هناك مدة
يسيرة ثم نقله الى نيابة الاسكندرية

فلما سكن أمر تمرلنك وتحقق رجوعه الى
بلادته ، عمل السلطان الموكب ، وخلع على من
يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى نوروز
الحافظى وجعله مشير الدولة ومدير المملكة ،
فعظمت حرمة على الاطلاق ، ونفذت كلمته فى
الآفاق . وخلع على المقر السيفى تغرى بردى
واستقر به نائب الشام عوضا عن سودون قريب
السلطان . فلما خلع عليه رسم له بأن يخرج الى
الشام من يومه ليعمر ما أفسده تمرلنك من دمشق ،
فخرج على جياذ الخيل من غير طلب .

ثم فى أثناء ذلك حضر المقر السيفى شيخ
المحمودى ، وكان أسيرا عند تمرلنك فهرب من
عنده وحضر الى القاهرة . فلما حضر فرح به
السلطان وخلع عليه واستقر به نائب طرابلس على
عادته ، فخرج اليها من يومه بسبب عمارة البلاد .
ثم فى أثناء ذلك حضر المقر السيفى دقماق
المحمدي نائب حماء ، وكان أميرا عند تمرلنك
فهرب من عنده وحضر الى القاهرة ، فلما حضر
خلع عليه السلطان واستقر به نائب حماء على
عادته ، ورسم له السلطان بأن يخرج من يومه

لعمارة ما أفسده تمرلنك من حماء ، فخرج على
جرائد الخيل من غير طلب .

ثم فى أثناء ذلك خلع السلطان على الأمير ترمبغا
المنجكى واستقر به نائب صفد ، وخلع على
الأمير تنكز الحططى واستقر به نائب بعلبك ،
وخلع على الأمير طولو ابن على شاه واستقر به
نائب نجر الاسكندرية عوضا عن قانباى النوروزى
وأُنعِمَ على قانباى النوروزى بتقدمة ألف بمصر .
وفيهما ، فى يوم الخميس تاسع عشر شعبان ،
خلع السلطان على القاضى ناصر الدين الصالحى
واستقر به قاضى القضاة الشافعية بمصر عوضا عن
قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى بحكم
أسره عند تمرلنك ، وخلع على القاضى أمين الدين
الطرابلسى الحنفى واستقر به قاضى قضاة الحنفية
بمصر عوضا عن القاضى جمال الدين الملطى الحنفى
بحكم وفاته فى البلاد الشامية ، وخلع على القاضى
جمال الدين الأقفهسى المالكى واستقر به قاضى
قضاة المالكية بمصر عوضا عن نور الدين بن الجلالى
بحكم وفاته ، وخلع على القاضى مجدد الدين بن
سالم الحنبلى واستقر به قاضى قضاة الحنابلة بمصر
عوضا عن القاضى موفق الدين الحنبلى بحكم
وفاته . ثم ان القاضى جمال الدين الأقفهسى المالكى
أقام فى القضاء الى ثالث عشرى شهر رمضان وعزل
عنه وتولى عوضه القاضى ولى الدين بن خلدون
المالكى المغربى .

وفيهما خلع السلطان على المقر السيفى يشبىك
الشعبانى واستقر به دوادارا كبيرا ومشير المملكة مع
نوروز الحافظى ، وخلع على الأمير يشباى بن باكى
واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن أقباى
الطرنطاي ، وخلع على الأمير تمر البريدى واستقر
به مهندارا عوضا عن الطنبغا المعروف بسيدى ،
وأُنعِمَ على الطنبغا المذكور بتقدمة ألف بحلب .

نفس الملك الناصر يخشى من الأمير جكم هذا ،
كما قيل في المعنى :

ان الأسود لتخشى وهى ساكنة

والكلب يخشا لعمري وهو باح

وفي هذه السنة توقف النيل عن الزيادة ، ووقع
الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال حتى بلغ
سعرها الى أربعة أشرفية كل أردب ... فأقام على
ذلك أياما ثم ان النيل زاد في يوم واحد ثمانية
وأربعين اصبعاً وبقي على الوفاء ستة عشر اصبعاً ،
ثم أوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع . قال القائل
في المعنى :

يا بيل مصر كم يد لك بالوفا

أوليتنا بالكسر جبراً دائماً

أوفيت قبل الكسر خمس أصابع

كرما فكانت للوفاء خواتما

وأما من توفي في هذه السنة من الأعيان فهم المقر
السيفى سودون نائب الشام ، مات مأسوراً عند
تمر لنك . وتوفي الأمير بجاس النوروزى أحد
الأمراء المقدمين ، وتوفي قاضى القضاة بدر الدين
أبو البقاء السبكى الشافعى ، وكانت وفاته في ليلة
السبت سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة .
وتوفي قاضى القضاة جمال الدين يوسف الملقب
الحنفى ، وتوفي قاضى القضاة نور الدين بن الجلال
المالكى ، مات في تجريدة تمر لنك بالهجون من
طريق الشام لما توجه مع السلطان في تجريدة
تمر لنك . وتوفي قاضى القضاة شهاب الدين أحمد
النحري المالكى ، مات وهو منفصل عن القضاء .
وتوفي القاضى شرف الدين بن الدمامينى قاضى
القضاة بشعر الاسكندرية ، وتوفي الشيخ الحافظ
المحدث علاء الدين بن اللحام الحنبلى الدمشقى ،
وتوفي سيدى أبو بكر ابن الملك الأشرف شعبان ،

وتوفي الصاحب فخر الدين بن مكائس صاحب
الأشعار اللطيفة ، وقيل توفي الصاحب فخر الدين
ابن مكائس في دولة الملك الظاهر برقوق كما تقدم
والله أعلم . وقد تولى الوزارة مرتين ، وتولى ناظر
الجيش وناظر الخاص ، وياشر وظائف كثيرة ،
وكان من أهل الفضل والعلم ، وكان شاعراً ماهراً
وله شعر جيد ومصنفات لطيفة . ومن شعره قوله
في الامام على كرم الله وجهه :

يا ابن عم الرسول ان أناسا

قد تولوك بالسعادة فازوا

أنت للعلم في الحقيقة باب

يا اماما وما سواك مجاز

وتوفي في هذه السنة أيضا الشيخ بهاء الدين
أبو الفتح أخو الشيخ سراج الدين عمر البلقينى
الشافعى ، وتوفي الشيخ شمس الدين بن المكين
المالكى شيخ الحديث الشريف ، وتوفي سيدي
خليل بن تنكز نائب الشام ، وكان ابن بنت الناصر
محمد بن قلاون . وتوفي قاضى القضاة بدر الدين
الأفقهسى ، وتوفي الخواجا نور الدين بن الخروبي
التاجر الكارمى ، وهو صاحب المدرسة التى في مصر
بالقرب من شاطئ النيل ، وكانت وفاته في عاشر
رجب من هذه السنة . وتوفي الشيخ الصالح
المجنوب سيدى أبو بكر صاحب الكلوتة ، وكان
من كبار الأولياء .

سنة أربع وثمانمائة (١٤٠١ / ١٤٠٢ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن عربان بنى عقبة قد تعرضوا
للحجاج ونهبوا ما معهم ، فأوقع معهم أمير الحاج
فكسرهم وأسر شيخهم منجد بن خاطر وأحضره
بين يدي السلطان فأراد توسيطه ، فالتزم بره
ما نهب للحجاج ، فسجن حتى شرع في رد ذلك .
وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن أهل دمشق

رجعوا نائب الشام تغرى بردى وأرادوا قتله
فهرب عند نائب حلب ، فلما بلغ السلطان ذلك
أرسل تقليدا الى المقر السيفى أقبغا الجمالى بأن
يستقر نائب الشام عوضا عن تغرى بردى .

وفيهما تزوج المقر السيفى نوروز الحافظى بأخت
الملك الناصر فرج — وهى بنت الملك الظاهر
برقوق — فكان لهما مهم عظيم ، ودخل عليها فى
العشرين من المحرم وفى أثناء ذلك تزوج أيضا
المقر السيفى اينال باى بن قجساس بأخت السلطان
الصغرى ، ودخل عليها فى نصف صفر ، وكان لهما
مهم عظيم .

وفيهما فى يوم الأربعاء خامس عشرى صفر ،
بلغ الأمراء بأن السلطان قد أسكن آلان الخاصكى
فى القاعة الأشرفية وفتح لها من دهليز القصر بابا ،
فتخوف الأمراء من ذلك وامتنعوا من الطلوع الى
القلعة ، وأقاموا على ذلك أياما ، فأرسل اليهم
السلطان الأمير أقباى حاجب الحجاب وهو يقول
لهم : « لم لا تطلعوا تبيتوا فى القصر على جرى
العادة ؟ » ... فقالوا : « ما نطلع الى القلعة حتى
يمسك لنا السلطان ثمانية من الأمراء
العشراوات » ... فرسم السلطان لهم بالخروج
الى ثغر دمياط ، وجماعة منهم الى الشام ، فركب
المقر الأتابكى بيبرس وأتى الى بيت الأمير نوروز
الحافظى ، فشفع عنده فيهم ، فلم يوافقهم بقية
الأمراء على ذلك ، وأرسلوا اليهم حاجب الحجاب
فأخرجهم من بيوتهم . فلما أتى الى بيت الأمير
سودون بقچه ، وأراد القبض عليه ، رمى نفسه
من الطاق الى بركة الفيل وهرب . ثم توجه الى
غيره من الأمراء فلم يجد منهم أحدا فى بيته . وكان
السلطان أرسل بقول لهم : « تغيبوا من
بيوتكم » .

ثم ان السلطان رسم للخليفة والقضاة الأربعة

بأن يتوجهوا الى بيوت الأمراء ويشفعوا فى هؤلاء
الأمراء ، فتوجهوا اليهم وتحدثوا معهم فى ذلك ،
فوقع الاتفاق على أن الأمير سودون الحمزاوى
يستقر فى نيابة صنف ويخرج إليها من يومه ،
وبقية الأمراء يخرجون الى الشام كما تقرر عليه
الحال أولا ، ولم يقبلوا شفاعة الخليفة ولا القضاة
الأربعة .

فلما كان يوم الاثنين خامس عشرى صفر طلع
الأمير سودون الحمزاوى الى القلعة ، فأحضروا
له خلعة ليستقر نائب صنف كما تقرر . فلما
أحضروا له الخلعة لم توافق المماليك السلطانية
على ذلك ، ومنعوه من لبس الخلعة ، فحصل فى
ذلك اليوم بعض اضطراب بين العسكر .

وفيهما أرسل السلطان تقليدا الى دقماق المحمدى
نائب حماء بأن يستقر نائب حلب عوضا عن المقر
السيفى دمرداش المحمدى ، ورسم لدمرداش
المحمدى بأن يحضر الى القاهرة لما تقتضيه الآراء
الشريفة .

وفيهما حضر الى الأبواب الشرفية الطواشى
عبد اللطيف الساقى ، وكان ممن أسر عند تمرلنك
فهرب من عنده بعد أن قاسى من الشدائد ما لا
خير فى ذكره ، وأخبر بأن ابن تمرلنك توجه الى
ماردين ثم الى بغداد ، وأوقع مع أهل بغداد واقعة
عظيمة فكسره أهل بغداد كسرة قوية ... هذا
بعد أن رجع من الشام . فلما بلغ تمرلنك أن ولده
قد انكسر توجه هو بنفسه الى بغداد وحارب أهلها
وأخربها ، وفعل بها كما فعل بالشام . وأخبر أيضا
عن تمرلنك أنه وضع قاضى القضاة صدر الدين
المنابى الشافعى فى تليس وأغرقه فى نهر الفرات
عند القنطرة .

وفيهما فى يوم الاثنين رابع جمادى الآخرة خلع
الملك الناصر على الشيخ جلال الدين عبد الرحمن

مع ضوء الشمس ويقيم الى وقت الظهر ، ثم اختفى من بعد ذلك .

ومن الوقائع اللطيفة أنه في يوم الاثنين مستهل شهر شعبان من هذه السنة أخرجوا الفيل الكبير الذى كان تمرلنك ارسله الى الملك الناصر صحبة قانباى النوروزى - وتقدم ذكر ذلك - فلما أخرجوه ليسيروا به توجهوا به الى نحو بولاق ثم رجعوا به من على قنطرة الفخر ليطلعوا به على باب البحر ، فلما عدوا به على قنطرة الفخر وأتوا به الى رأس العطفة التى تخرج الى الخليج الناصرى وهناك يجمون ، فداس الفيل على ذلك البجمون فانخسف به فغاصت رجله فيه الى فخذه فلم يقدر أحد من الناس أن يخلصه ، فأقام على ذلك ساعة ثم مات . فلما أشيع أمره فى القاهرة خرجت اليه الناس زمرا يتفرجون عليه . وقد غلقت الأسواق فى ذلك اليوم بسبب الفرجة ، وكان يوما مشهودا ، وقد رثاه بعض الزجالة بهذا الزجل اللطيف :

تعا اسمعوا بالله يا ناس اللى جرى
الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطرة
لما أفلسوا غلمان الفيل راموا الجراف
خدوه وراحوا صوب بولاق يجبوا المطاف
رأوا شويخ من أهل الله ما فيه خلاف
جوا ياخدوا شاشو منو بالزنطره
دعا على الفيل انتظرو فى القنطره

قالوا بأنو فى البجمون مغروس يصيح
فقلت حتى أروح أبصر ان كان صحيح
أجى ألاقى الفيل ميت ملقى طريح
والناس تطلع فوق ظهره مستظهره
لما وقع يوم الاثنين فى القنطره

ابن شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ، واستقر به قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن القاضى ناصر الدين بن الصالحى

وفيهما جاءت الأخبار من غزة بأن الأمير صرق الظاهرى نائب غزة قد خامر وخرج عن الطاعة ، فلما تحقّق السلطان ذلك خلع على الأمير الطنبغا العثمانى واستقر به نائب غزة عوضا عن صرق ، ثم بعد أيام حضر مقدم البريدية ومعه سيف صرق وأخبر بأن أمير جرم مع عربان نابلس أوقعوا مع صرق فانكسر صرق وقتل فى المعركة ، فأرسلوا سيفه الى السلطان واحتاطوا على موجوده . وفى أثناء ذلك جاءت الأخبار من طرابلس بأن نائب طرابلس شيخ المحمودى قد خرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان ، وأمسك حاجب طرابلس وجماعة من أمرائها سجنهم بسجن المرقب ، وأنه قد استخدم جماعة كثيرة من التركمان والعشير ، وعمل له برك عظيم .

وفيهما جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير دقماق المحمدي ، لما استقر نائب حلب وتوجه اليها ، خرج اليه دمرداش نائب حلب وأوقع معه واقعة قوية ، فانكسر دمرداش ونهب بركه وهرب الى نحو ملطية .

وفيهما فى يوم الاثنين رابع عشرى رجب خلع السلطان على القاضى جمال الدين البساطى المالكي واستقر به قاضى القضاة المالكية عوضا عن قاضى القضاة ولى الدين بن خلدون المغربى الحضرمى المالكي .

ومن الحوادث الفلكية أن نجماً طلع فى الجانب الغربى وله ذؤابة صاعدة الى السماء ، فاستمر يطلع فى كل ليلة بعد المغرب ويقيم الى ثلث الليل ، فأقام على ذلك الى أواخر شهر شعبان ، فكان يطلع بالنهار عند طلوع الشمس ، فكان يرى بالنهار

وأولاد ديار مصر الساده حولو زمر
يتعجبوا من هذا الفيل الى انحصر
رأوا دموع عينو تجرى مثل المطر
ولو جعير والعالم دول متفكره

لما وقع يوم الاثنين في القنطره
فقلت لو يا فيل مرزوق يا اسود دغوش
أين حرمتك بين العالم واتساهوش
وكنت يا فيل السلطان زين الوحوش

وكنت بالاعجاب تزهو في المخطر
وقد بقيت اليوم مطروح في القنطره
والفيل لسان حالو ناطق للناس يقول
كم كنت نا ادور في الزفه فوقى طبول
وكنت نا ادور في المحمل ولى قبول

كنى عروسه حين تجلى في المنظره
واليوم كان آخر مشيى في القنطره
وقالت الفيله امراتو من لى معين
سهم الفراق قد صاب قلبي يا مسلمين
ونا غريبه هنديه قلبى حزين
وكان هذا الفيل زوجى لا معيره

واليوم كان آخر عمرو في القنطره
وعيطت حتى أبكت جيرانها
من كتر ما لاحت ناحو لأحزانها
من ارها صارت تلطم بودانها
حتى الزرافة جاءتها متحيرة

تبكى على الفيل اللى مات في القنطره
لما ظهر دا في شعبان آخر رجب
لاحت لنا فيه نجمه لها ذنب
فقال العالم أجمع دا لو سبب

وايش دلايل ذى الكوكب يامن درى
دلت على الفيل اللى مات في القنطره

يا ناصر الدين من عمرى أدر الدخول
والناس تقول انى قيم صاحب قبول
لما هلك ذا الفيل مرزوق فصرت أقول

تعا اسمعوا بالله يا ناس اللى جرى
الفيل وقع يوم الاثنين في القنطره

ومن الحوادث في هذه السنة أنه في يوم الجمعة
ثانى شوال وقعت الفتنة بين الأمير نوروز
الحافظى ، وبين الأمير جكم العوضى والأمير
سودون طاز أمير آخور كبير ، فلبسوا آلة الحرب
في ذلك اليوم ، ووقفوا بسوق الخيل ، ونزل
السلطان الى باب السلسلة ثم جلس في المقعد
المطل على الرميّة ، وطلع الأمراء الذين هم من
عصبة السلطان الى باب السلسلة ، وتقاتلوا مع
هؤلاء الأمراء أشد القتال . ثم ان السلطان رسم
للخليفة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى
والقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى الأمراء يعيشوا
بينهم بالصلح مع بعضهم ، فتوجهوا اليهم وسعوا
بينهم بالصلح ، فاصطلحوا صلحا على فساد ،
وصارت القلوب معمرة بالعداوة لبعضهم كما قال
بعضهم في المعنى :

أعدى عدوك أدلى من وثقت به
فحاذر الناس واصحبهم على دخل
فأعنا رجل الدنيا وواحدنا
من لا يعمل في الدنيا على رجل
فطلع السلطان الى القلعة وخمدت الفتنة
قليلا .

ثم في يوم السبت رسم السلطان للخليفة
والقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى الأمراء
ويحلفوهم للسلطان ، فتوجهوا الى بيت الأمير
بيبرس وحلفوه ، ثم توجهوا الى بيت الأمير
الحافظى وحلفوه ، ثم توجهوا الى بيت الأمير

سودون طاز أمير آخور كبير ، وكذلك بقية
الأمراء ، فكانت أيمانهم كاذبة كما قيل في المعنى :

حلفتهم لا يخونوا في الهوى ذمى
كأنما حلفوا لى أن ما حلفوا

فلما كان يوم الاثنين خامس شوال طلع الأمراء
الى القلعة — وباسوا الأرض للسلطان —
واصطحبوا ، فخلع على جماعة منهم ونزلوا الى
بيوتهم . فلما نزل الأمير حكم الى بيته أرسل
السلطان اليه خلعة وقال : « هذه لأخيك قانباى
رسم له السلطان بأن يستقر نائب حماء » ...
فلما سمع الأمير حكم ذلك عز عليه وتوجه الى
نحو بركة الحبش وأخذ معه أخاه قانباى العلائى
والأمير قرقماس الاينالى ، فلما بلغ ذلك الى
المماليك السلطانية توجه اليه منهم جماعة نحو
خمسائة مملوك ، فأقاموا هناك يوم الخميس
ويوم الجمعة .

فلما كان يوم الجمعة طلع الأمير نوروز القلعة
وصلى مع السلطان صلاة الجمعة ، ثم نزل الى بيته
فأقام ساعة ، فأرسل اليه السلطان جمدارا وقال له :
« قم كلم السلطان » فقال : « أنا كما نزلت من
عند السلطان ايش يعمل بى ؟ ولكن غدا أنا بين
يديه » ... فلما رجع من عنده الجمدار أقام في بيته
الى بعد العشاء ثم أرسل خلف الأمير تمر بغا
المشطوب ، والأمير سودون زاده ، وجماعة من
الأمراء العشراوات . فلما تكاملوا ركب الأمير
نوروز ومعه الأمراء الذين أرسل خلفهم وتوجهوا
جميعا الى الأمير العوضى .

فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، ونزل
الى باب السلسلة ، وجلس في المقعد المظل على
الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت
الكنوسات حربى ، فطلع اليه جماعة من الأمراء

والمماليك السلطانية ، فوقفوا في سوق الخيل ،
فأقاموا على ذلك يوم السبت ويوم الأحد فلم يجرى
اليهم أحد من الأمراء الذين توجهوا الى بركة الحبش .

فلما كان يوم الأحد توجه المماليك السلطانية
الى نحو باب الزغلة عند زاوية القاضى بكار ، فبعد
ساعة واذا بجاليش الأمير حكم العوضى قد أقبل
من نحو بركة الحبش ، فتلاقوا هناك وأوقفوا مع
عسكر السلطان ، فكان بينهم واقعة قوية ، فقتل
في ذلك اليوم ثلاثة من المماليك السلطانية وجماعة
من العلمان ، فكان عدة من قتل وجرح من الناس
والعلمان نحو ستين انسانا ، وأسر من المماليك
السلطانية اثنا عشر انسانا ، ثم حال بينهم الليل .
ففى تلك الليلة تسحب جماعة من الأمراء من عند
السلطان الى الأمراء الذين في بركة الحبش . وكان
من الذين تسحبوا الأمير سودون البجاسى ، والأمير
تربغا الطرنطاي ، والأمير سودون الجلب ، وتسحب
معهم نحو مائة مملوك من المماليك السلطانية .

فلما كان يوم الثلاثاء أشهر السلطان المنادى
للمماليك السلطانية بالعرض ، فعرضوا في يوم
الأربعاء .

فلما كان يوم الخميس فرق السلطان خيولا
ولبوسا على المماليك الذين عرضهم . ثم انه ركب
وخرج من باب السلسلة ووقف بسوق الخيل ساعة
حتى تكامل العسكر ، وأرسل خلف أمير المؤمنين
المتوكل والقضاة الأربعة ، فلما حضروا جميعا
توجه السلطان والأمراء والعسكر الى باب القرافة ،
فتقدم جاليش السلطان وكان فيه من الأمراء الأمير
يشبك السودونى ، والأمير سودون تلى ، ثم تبعهما
الأتابكى يبيرس ومعه نحو من ألف مملوك . فلما
وصلوا الى مصلت خولان التى بالنقعة ، أقبل
جاليش الأمراء الذين في بركة الحبش ، فأوقع
الفريقان هناك واقعة قوية ، ثم بعد ساعة واذا

بالمملك الناصر قد أقبل ومعه السواد الأعظم ، فوقع في قلوب الأمراء الذين أتوا من بركة الحبش الرعب من السلطان ، فلما وقع القتال بينهما انكسر الأمراء الذين كانوا في بركة الحبش . فأول من أمسك منهم الأمير تمر بغا المشطوب ، والأمير سودون بن زاده ، والأمير على بن اينال ، وجرح الأمير يشبك الساقى ، والأمير قمج الحافطى ، وأسر جماعة كثيرة من الأمراء العشراوات والخاصكية والممالك السلطانية ، وهرب بقية الأمراء منهزمين الى نحو بركة الحبش وقد تمزقوا كل ممزق من الطفشان . فلما حصلت هذه النصره للملك الناصر — وكانت على غير القياس — رجع الى القلعة ومعه الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء الذين أسروا قدامه مشاة ، وهم في زناجير حديد ، حتى طلع الى القلعة وهو في غاية النصر ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

المملك الناصر أعظم به
من ملك جاء بأمر عجيب
قد كتب السعد باقباله
نصر من الله وفتح قريب

هذا ما كان من أمر الملك الناصر فرج .
وأما ما كان من أمر الأمير جكم العوضى ، والأمير نوروز الحافطى ، والأمير قابلى العلانى ، والأمير يشبك بن أزدر أخى اينال ، والأمير قرقماس وبقية الأمراء ، لما أن وقعت عليهم الكسرة وهربوا ، استمروا الى أن وصلوا الى الميمون ، فأقاموا هنالك يومين ثم عدوا الى بر الجيزة ، فأخذوا خيول الدشار والهجن التى هناك ، وأقاموا في الجيزة ثلاثة أيام . ثم ان الأمير نوروز الحافطى حضر تحت الليل الى القاهرة ، وتوجه الى بيت الأتابكى بيبرس ، فطلع به الى السلطان وقابل به ، فان نوروز كان صهر الملك الناصر فرج زوج أخته .

فلما أن قابله رسم له السلطان بأن يستقر نائب الشام ، وأرسل اليه خلعة ورسم له بأن يخرج من يومه .

وكان من جملة سعد الملك الناصر أن في تلك الليلة اتفق جماعة من الممالك السلطانية نحو من ألف مملوك بأن يتوجهوا الى الأمير نوروز والأمير جكم ، فلما حضر الأمير نوروز رسم له بأن يستقر نائب الشام ، فلما برز خيامه في الريدانية وخرج اليها أرسل اليه السلطان من قيده ثم أرسله من هناك الى ثغر الاسكندرية فسجن بها . فلما بلغ الأتابكى بيبرس ذلك عز عليه لكونه حلف لنوروز بالطلاق أنه اذا قابل به السلطان لا يشوش عليه . فلما فعل به السلطان ذلك عز على الأتابكى بيبرس .

هذا ما كان من أمر الأمير نوروز الحافطى .
وأما ما كان من أمر الأمير جكم العوضى فانه أرسل يسأل السلطان أن يرسم له بأن يتوجه الى ثغر دمياط من غير سجن ، فرسم له بذلك ، فتوجه اليه الأمير اينال حطب رأس نوبة ثانى فأحضره الى القاهرة في ليلة الأربعاء . فلما حضر طلع الى باب السلسلة عند الأمير سودون أمير آخور كبير ، فشاور عليه السلطان فرسم بتقييده ، فقيده هو والأمير سودون زاده وجماعة من الأمراء الذين قد خامروا على السلطان وتوجهوا الى الأمير جكم ، فقيدوا أجمعين ، وأرسلوا الى السجن بثغر الاسكندرية ، وكان المتسفر عليهم 'الأمير سودون تلى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن الأمير يشبك الشعبانى — وكان بالسجن بثغر الاسكندرية — فلما حضر خلع عليه واستقر به دوا دارا كبيرا عوضا عن الأمير جكم العوضى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن الأمير قطلوبغا

الحسنى والأمير أقبای الكركى والأمير جركس
القاسمى المصارع ، فتوجه لاحضارهم الأمير
سودون بقجة ، فأخرجهم من السجن بثغر
الاسكندرية ، فلما حضروا طلّعوا الى القلعة وباسوا
الأرض ، فأنعم عليهم السلطان بتقادم ألوف عوضا
عن الأمراء الذين توجهوا الى السجن بثغر
الاسكندرية كما تقدم ، فكانوا مثل بابات خيال
الظل ، فشىء يجرى وشىء يروح ، كما قد قيل
في المعنى :

رأيت خيال الظل أعجب منظرا

لمن هو فى علم الحقيقة راقى

تمر وتمضى بابة بعد بابة

وتفنى جميعا والمحرك باقى

وفى هذه السنة ، فى يوم الثلاثاء ثالث عشر
شوال ، ورد كتاب من ثغر الاسكندرية حضر من
بلاد ابن عثمان على يد جماعة من التركمان فأخبروا
فيه بأن تمرلنك قد هلك عن يقين^١ . قال القاضى
تقى الدين المقرئى محتسب القاهرة : « كنت عند
القاضى فتح الله كاتب السر الشريف فجاءه كتاب
ابن عثمان يذكر فيه موت تمرلنك ، وأن القان
أحمد بن أويس رجع الى بلاده وكذلك قرا
يوسف ، وأخبر بأن الحمرة التى طلعت فى جسده
تمرلنك وهو على دمشق استمرت ترعى فى جسده
حتى مات بها وعجل الله بروحه الى النار » . كما
قد قيل :

زبانية النيران تكره وجهه

ومنه استعاذت مذ رأته جهنم

قيل انه لما دفن كان يسمع عواء فى قبره مثل
عواء الكلاب . وقال بعض السياح انه قد شاهد
الدخان يطلع من قبره . وقيل انه لما دفن لم تقبله

(١) فى « المنهل الصلى » و « الشلوات » وغيرهما ان تمرلنك
توفى سنة ٨٠٧ هـ .

الأرض ، فصنعوا له صندوقا من خشب ووضعوه
فيه وعلقوه بين السماء والأرض . وقيل ان تمرلنك
كان قد جمع عساكر كثيرة وقال : « ما أرجع حتى
أدخل مصر وأفعل بها ما فعلت فى دمشق » ...
فأخذ الله تعالى وكفى الناس شره . وقد قال
القائل :

مات تمرلنك وجاءت لنا

أخباره فيما تأتى اليه

وقد كفانا ربنا شره

والله كافى من توكل عليه

وفى هذه السنة تأخر خروج المحمل من القاهرة
الى ثمانى عشرى شوال ، وهذا لم يعهد قط . وكان
أمير المحمل فى تلك السنة الأمير نكسييه
الأزدمرى ، فكان تأخير المحمل الى هذه المدة لأمر
حصل للأمير الحاج فعاقه عن الخروج
ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأمراء دخلوا
بيت الأتابكى ييبرس ولعبوا معه بالكرة ، فلما
فرغوا وقصدوا التوجه الى بيوتهم خرج اليهم فى
أثناء الطريق جماعة من المماليك الناصرية فضربوا
الأمراء ، فهرب الأمير يشبك الشعبائى الدوادار
فطلع الى باب السلسلة وأقام فيه الى العصر فلما
بلغ ذلك الى السلطان رسم لوالى القاهرة بأن
يحضر المماليك الذين فعلوا هذه الفعلة ، فأحضر
منهم ثلاثة مماليك فضربهم السلطان بالمقارعة
وأشهرهم فى القاهرة ، فخمدت الفتنة قليلا .

وفى هذه السنة تزايدت عظيمة المقر السعدى
ابراهيم بن غراب ، وحظى عند الملك الناصر حتى
انه استقر به أمير مجلس ، وصار صاحب الحل
والعقد بالديار المصرية ، وصار يجلس مع الأمراء
المقدمين تحت أمير كبير .

وفىها جاءت الأخبار من البحيرة بأن العسربان
نهبوا البلاد وأخذوا المغل وقتلوا جماعة كثيرة من

الفلاحين ، فأرسل اليهم السلطان تجريدة وكان بها من الأمراء المتقدمين عشرة وهم : الأمير بكتمر الركنى أمير سلاح ، والمقر السعدى ابراهيم ابن غراب أمير مجلس ، والمقر السيفى يشبك الشعبانى أمير دوا دار ، والأمير سودون الماردىنى ، والأمير يلغا الناصرى ، واينال باى بن قجماس ، والأمير سودون بن على باى ، والأمير قطلوبغا الكركى ، والأمير ألان الياوى ، والأمير اينال العللى نائب حلب . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات أربعة عشر أميرا ، ومن المماليك السلطانية أربعمائة مملوك — فخرجوا من القاهرة على حية وتوجهوا الى البحيرة فأوقعوا مع العربان فطردوهم الى برقة ونهبوا أموالهم ومواشيهم .

سنة خمس وثمانمائة (١٤٠٢/١٤٠٣ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على المقر الاتابكى بيبرس ، فرسم له بأن يتوجه هو وعياله الى ثغر دمياط ، فأخذ في أسباب توجهه الى دمياط ، فطلع سائر الأمراء المتقدمين وشفعوا فيه عند السلطان فبطل أمر سفره الى دمياط ورضى عليه .

سنة ست وثمانمائة (١٤٠٣/١٤٠٤ م) :

فيها وقع الخلف بين الأمراء بمصر ، وجاءت الأخبار بأن عربان الشرقية والغربية قد كثر منهم الفساد . ثم جاءت الأخبار من البلاد الشامية والحلبية بأن النواب قد خامروا وخرجوا عن الطاعة ، وصار القيل والقال في كل يوم عمالا بين الناس ، والأمراء فرقتان : فرقة مع الملك الناصر ، وفرقة عليه .

سنة سبع وثمانمائة (١٤٠٤/١٤٠٥ م) :

فيها وقع الوباء بالديار المصرية ، وكثر موت الفيحاة ، وتحركت دموية بالناس ، وكان ذلك في قوة البرد والشمس في برج الدلو ، وكثر بالناس

السعال والانحذار ، فمات في مدة سبعة عشر يوما — وقيل في دون الشهر — كثير من الناس ، وصاروا يتساقطون في الطرقات موتا ... فأقام مدة سيرة ثم ارتفع . فمات في هذه المدة اليسيرة نحو ما كان يسوت في الفصول الكبار ، ولكن لم يظهر فيه طعن بل كان أهوية متحركة وأوخاما ، ولأجل ذلك لم يعده الشيخ شهاب الدين بن حجر رضى الله عنه من جملة الطواعين التى وقعت بمصر لأنه لم يظهر فيه طاعون ، وقد فرق بين الوباء وبين الطاعون في كتابه المسى ببذل الماعون في أخبار الطاعون .

فلما وقع هذا الوباء بمصر فتح المقر السعدى ابن غراب مغسلا يرسم الأموات عند بيته الذى عند جامع بشتك الناصرى ، فكانوا يأتون اليه بالأموات على عتالين يطرحونهم على بابه حتى يخرجهم من مغسله ، فكفن في تلك السنة من ماله جماعة كثيرة من الغرباء وغيرهم لا يحصى عددهم ، فسمى فصل ابن غراب .

وفيها توفى سيدى على ابن سيدى محمد وفى رضى الله تعالى عنه .

سنة ثمان وثمانمائة (١٤٠٥/١٤٠٦ م) :

فيها خلع على سعد الدين بن غراب واستقر كاتب السر الشريف بمصر عوضا عن فتح الله بعد القبض عليه والمصادرة وأقيم في الترسيم .

وفيها جاءت الأخبار بأن دمرداش نائب حلب قد أطلق الأمير جكم العوضى من السجن ومعه جماعة من الأمراء وتوجه بهم الى حلب ، فاضطربت أحوال الملك الناصر بسبب ذلك ، وضاعت عليه الأمور ، وصار في غاية الضنك مع الأمراء بخلفهم ، وتعصب عليه الاتابكى بيبرس وجماعة من الأمراء ، وصاروا يعاكسونه في الأمور .

فلما تسلطن له يتم أمره في السلطنة ، ولا ساعدته
الأقدار ، ولم يبلغ المراد كما قيل في المعنى :
ما كل من نال المعالي ناهضا
فيها ، ولا كل الرجال فحول

فلما تسلطن المنصور صار الأتابكى يبيرس
صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار
يتصرف في أمر المملكة بحسب ما يختار من ذلك ،
فانخفضت كلمة المقر السيفى يشبك الشعبانى
الدوادر ، فعز ذلك عليه وتمنى عود الملك الناصر
فرج ، فشكا ذلك الى المقر السعدى ابن غراب في
خلوة ، فقال له ابن غراب : « لا تهتم لذلك ...
الملك الناصر عندى مختفى » ... ففرح يشبك
بذلك ، وقام الى ابن غراب وقبل رأسه ثم أخذ في
أسباب ظهور الملك الناصر فرج .

فلما كان يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ظهر
الملك الناصر من بيت سودون الحمزاوى الذى عند
البركة الناصرية . فلما أشيع ذلك اضطربت القاهرة
وماجت ، ولبس العسكر آلة الحرب ، وصار
الأمرء والعسكر فرقتين : فرقة مع الملك الناصر ،
وفرقة مع أخيه عبد العزيز . وكان من عصبة
الملك المنصور عبد العزيز : الأتابكى يبيرس ،
والأمير سودون المحدثى ، والأمير اينال باى ابن
قجماس ، والأمير سودون الماردىنى ، وجماعة من
الأمرء الطبلخانات والعشراوات ، وجماعة من
العسكر . وكان من عصبة الملك الناصر فرج : المقر
السيفى يشبك الشعبانى الدوادر ، وجماعة كثيرة
من الأمرء . وكان أكثر العسكر مع الملك الناصر ،
فلبسوا آلة الحرب واقتتلوا في ذلك اليوم أشد
القتال ، فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر
الأتابكى يبيرس ومن معه من الأمرء ، وانتصر
عليهم الملك الناصر فرج ، فركب من بيت سودون
الحمزاوى وطلع الى القلعة وملكها . فرسم لأخيه

فلما كان يوم الأحد خامس عشرى ربيع الأول
من السنة المذكورة نزل الملك الناصر من القلعة
بعد العصر وهو ماش متسكر ، فاختنفى في مكان
لا يعلم . فلما نزل من القلعة وبلغ ذلك الأمرء
ركبوا وطلعوا الى باب السلسلة ، فلما اجتمعوا
ضربوا مشورة فيمن يسلطونه ، فوقع الاتفاق على
سلطنة أخيه المقر العزى عبد العزيز ، فطلبوه من
دور الحرم وسلطوه في ذلك اليوم ، ولقبوه بالملك
المنصور ، وخلع الملك الناصر فرج من السلطنة ،
فكانت مدة سلطنته في هذه المدة ست سنين وخمسة
أشهر وعشرة أيام ... ثم يعود الى السلطنة من بعد
ذلك مرة ثانية — كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه
ان شاء الله تعالى — والله سبحانه وتعالى أعلم .

الملك المنصور عز الدين

هو الملك المنصور عز الدين أبو العز ابن الملك
الظاهر برقوق بن أنص العثمانى الجركسى ، وهو
السابع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بمصر ،
وهو الثالث من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار
المصرية ، بويح بالسلطنة بعد العشاء ، وتلقب بالملك
المنصور ، وجلس على سرير الملك ليلة الاثنين
سادس عشرى ربيع الأول من سنة ثمان وثمانمائة
بعهد من آيه الملك الظاهر برقوق كما تقدم ،
فباسوا له الأرض ، ونودى باسمه في القاهرة ،
وضج الناس له بالدعاء ، ولم تدق له الكؤوسات .
فلبس خلعة السلطنة من القصر الكبير ، وحملت
القبة والظير على رأسه ، وجلس على سرير الملك .
قال المقرزى : « تسلطن الملك المنصور
عبد العزيز وله من العمر عشر سنين ، وكانت أمه
أم ولد رومية الجنس تسمى تنق باى » .

عبد العزيز بأن يدخل الى دور الحرم فدخلها وأقام بها محتفظا ، فكانت مدة سلطنته بمصر شهرين وعشرة أيام ، وكان في السلطنة آلة لا ينتفع بها والأمر كله في هذه المدة للأتابكي بيبرس .

عَوْدُ الْمَلِكِ النَّاصِرِ فَرَجٍ

قال المقرئى : « عاد الملك الناصر فرج الى السلطنة وجلس على سرير الملك في يوم الخميس رابع جمادى الآخرة من سنة ثمان وثمانمائة ، وبايعه الخليفة ثانيا .

فلما جلس على سرير الملك قبض على الأتابكى بيبرس ، وقيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية ، وأرسل معه جماعة من الأمراء الذين كانوا سببا لسلطنة أخيه عبد العزيز ... والذي كان قصد الملك الناصر يفعله بالأتابكى بيبرس في الأول فعله في الآخر ، كما قيل في المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها

عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

ثم ان الملك الناصر عمل الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى تغرى بردى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن بيبرس ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف عوضا عن نفى من الأمراء ، فاستقامت أموره في هذه المرة ، ولم يختلف عليه اثنان كما قيل : « وربما صحت الأجسام بالعلل » .

ومن الحوادث في هذه السنة وفاة أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله ، ابن الخليفة المعتضد بالله أبى بكر بن المستكفى بالله ابن الامام احمد الحاكم بأمر الله . وكانت وفاته في ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب من سنة ثمان وثمانمائة . فكان مجموع خلافته بالديار المصرية الى أن مات نحو من خمس

وأربعين سنة — بما فيها من عزل وولايه — وكان كريسا جوادا ممدوحا لا يرد سائلا ، كما قيل :

كأنه في العطاء بحر ندى

وبذله النقد فيه تيار

ولكن قاسى من الملك الظاهر برقوق شدائد عظيمة ، وتركه في القيد وهو مسجون ببرج الحية الذى بقلعة الجبل نحو سبع سنين . وكان اماما عظيما ، كفئا للخلافة ، كثير البر والصدقات ، يحب فعل الخير . فلما مات دفن عند أقاربه بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ولما مات خلف من الأولاد سبعة وهم : العباس وكان أكبرهم ، وداود وسليمن وحزمة ويوسف ويعقوب وموسى ، وكل منهم ولى الخلافة الا يعقوب وموسى لم يليا الخلافة .

وقيل جاء للمتوكل نحو مائة ولد من صلبه ما بين ذكور وإناث وسقوط . وهذا لم يقع لخليفة قبله سوى عبد الملك بن مروان الأموى ، فانه لما مات خلف من الأولاد أربعة وهم : الوليد وسليمن ويزيد وهشام ، وكل منهم ولى الخلافة .

ولما توفى محمد المتوكل تولى الخلافة من بعده ابنه العباس ، وتلقب بالمستعين بالله .

ومن الحوادث أن ابن نعيم أرسل الى السلطان رأس جكم العوضى الذى تسلطن بحلب وتلقب بالملك العادل ، فخرج من حلب الى قتال قرا ملك أمير التركمان فقتل في المعركة بين بساتين آمد ولا يعلم من قتله ، فكانت مدة سلطنته بحلب نحو من شهرين ، فعلق رأسه على باب زويله ، وكان له يوم مشهود ، وكفى الملك الناصر شره .

وفيهما توفى الأمير بيبرس الفارقانى — وهو صاحب الحمام الذى تجاه المدرسة البندقارية — وكان بيبرس هذا من المعمرين ، وكان من أهل الدين والصلاح وله مشاركة في العلم ، وكان له

شعر جيد ، وكان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يزن الشعر بالطباع ، وينظم منه ما لا تمجه الأسماع ، فمن ذلك قوله :

من لى بظبي غرير باللحظ يسبى الممالك
إذا تبدى بليلى جلا سناء الحوالمك
من حور رضوان أبهى لكنه نجل مالك
ذكر ذلك صاحب كتاب زهر الخمائل فيمن نظم الشعر من الترك الأصائل .

سنة تسع وثمانمائة (١٤٠٦ / ١٤٠٧ م) :

فيها أخرج الملك الناصر أخاه عبد العزيز الذى تسلطن الى ثغر الاسكندرية فسجن بها ، وأرسل معه أخاه سيدى ابراهيم ، وذلك فى ثامن صفر . وأقاما بثغر الاسكندرية نحو أربعين يوما ، ثم جاءت الأخبار بموتهما فى يوم واحد ، وكانت وفاتهما فى ليلة الاثنين سابع ربيع الأول من سنة تسع وثمانمائة . فقبل ان الملك الناصر أشغلها فى حلوى أرسلها اليهما ، فلما بلغه موتهما أرسل فأحضرهما ودفنهما فى الخانقاه البرقوقية التى فى الصحراء .

وفيهما خلع على البدرى حسن بن نصر الله واستقر به وزيرا بمصر عوضا عن ابن البقرى . وفيها عزل جلال الدين البلقينى عن القضاء وأعيد اليه الاثنائى ، فأقام به مدة ثم أعيد اليه الجلال البلقينى .

سنة عشر وثمانمائة (١٤٠٧ / ١٤٠٨ م) :

فيها أفرج السلطان عن الأمير جكم العوضى والأمير نوروز . فلما حضرا خلع على الأمير نوروز الحافظى واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير جكم العوضى واستقر به نائب حلب . فلما توجها الى البلاد أظهر كل منهما العصيان والمخامرة على السلطان .

فأما جكم العوضى فانه تسلطن بحلب ، وبأس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك العادل ، وصار واضع اليد على البلاد الحلبية ، وأخرج أوقاف الناس وجعلها اقطاعات وفرقها مثالات على عسكر حلب ، وصار يحكم من الشام الى الفرات ، فانتزعت يد الملك الناصر من البلاد الشامية والحلبية ، وصار حكمه لا يجاوز غزة ، فضاق الأمر على الملك الناصر حتى كادت روحه تزهى . فما مضى قليل حتى جاءت الأخبار من حلب بأن جكم العوضى قد قتل ولا يعلم من قتله . وكان سبب ذلك ان خارجيا من التركمان من أولاد قرا يوسف خرج عليه فخرج اليه جكم مع العساكر الحلبية فالتقى معه فكان بينهم واقعة عظيمة ، فقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وفقد جكم العوضى فى المعركة ولا يعلم له خبر ولا عرف كيف قتل . فلما جاءت الأخبار الى مصر بذلك مر الملك الناصر وقد كفاه الله تعالى أمر جكم بعد غيره كما قد قيل :

الصبر أولى برقرار الفتى من قلق يهتك ستر الوقار
من لزم الصبر على حالة كان على أيامه بالخيار
وفى المعنى :

صبرا على جور الزمان وربما

تفرج أيام الكريهة بالصبر

فلما قتل جكم التف الأمير نوروز الحافظى على الأمير شيخ المحمودى نائب طرابلس وأظهروا العصيان ، والتف عليهم جماعة من النواب وصاروا يأكلون البلاد الشامية والحلبية من غزة الى الفرات ، وصار بيد الملك الناصر مصر وأعمالها فقط ، وهو فى غاية الحصر مع ممالك أبيه بمصر ، فكان يسلى همه بكثرة السكر لا يصحو منه ليلا ولا نهارا ، كما قيل فى المعنى :

وما اجتمعت والهم يوما لأنها
بكاساتها صفراء للهم فاقعة

سنة احدى عشرة وثمانمائة (١٤٠٨ / ١٤٠٩ م) :

قيها ظهر في السماء بعد معيب الشفق حمرة
عظيمة من الجهة الغربية ، ثم اشتدت تلك الحمرة
حتى صارت كالنار الموقدة ، ثم جاور تلك الحمرة
برق ساطع ، فصار كلما لمع يحيل للناظر أنها نار
لا محالة ، ثم انتشرت تلك الحمرة حتى كادت أن
تغطي ثلث السماء . واستمر الحال على ذلك الى
نصف الليل ، فخاف الناس من ذلك وتضرعوا الى
الله بالدعاء ، فانكشفت تلك الحمرة قليلا قليلا ،
وصحت السماء فأصبح الناس يتحدثون بما وقع
في تلك الليلة من العجائب . وقد قال القائل :

ما خاب عبد على الله الكريم له

توكل صادق في السر والعلن

حاشاه أن يحرم الراجي اجابته

إذا دعاه لكشف الهم والحزن

ومن الوقائع الغربية جاءت الأخبار بأن جاليش
الأمير شيخ المحسودى والأمير نوروز قد جاء من
غزة وهم في عساكر لا تحصى . فلما سمع الملك
الناصر بذلك خرج هو والأمراء على الهجن ،
فتلاقى العسكران على السعيدية وكان بينهما
واقعة تنظيمية ، فانكسر الملك الناصر ورجع الى
القاهرة وهو مهزوم ، فتبعه شيخ وبوروز ودخلا
الى القاهرة ، فقوى حال الملك الناصر على شيخ
ونوروز فكسرهما كسرة قوية ، فرجعا الى الشام
مهزومين وانتصر عليهما الملك الناصر ، ولكن قتل
في هذه الحركة جماعة كثيرة من الأمراء والمماليك .

وفيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم بطل نوروز
من نيابة الشام وأرسل السلطان تقليدا الى شيخ
بنيابة الشام وتقليدا الى دمرداش بنيابة حلب ،

ثم عين نوروز الى القدس بطالا ، ثم كتب الى
دمرداش نائب حلب بالحضور الى مصر ، ورسم
لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب ، وهذا من
العجائب ... ثم ان شيخ بعد ذلك خامر على
السلطان ، فجرد اليه ورجع من غير طائل .
وفيها توفي الأمير باش باى رأس نوبة النوب .

سنة اثنتى عشرة وثمانمائة (١٤٠٩ / ١٤١٠ م) :

فيها تزايد جور الملك الناصر في حق ممالك
أبيه ، فصار ينفي منهم جماعة ويفرق منهم جماعة ،
فكان الأتابكى تغرى بردى ينهى الملك الناصر عن
هذه الأفعال الشنيعة فلا يلتفت الى كلامه . فلما
ثقل عليه أمره خلع عليه واستقر به نائب الشام .
فلما توجه تغرى بردى الى الشام أسرف الملك
الناصر في قتل ممالك أبيه ، فكان يسكر الى
نصف الليل ويخرج الى الحوش وهو سكران ،
فيعرض الممالك الذين في السجن بالأبراج
فيحضرونهم في زناجير فيقدمون اليه واحدا بعد
واحد ، فيقول : « من هذا ؟ » ... فيقولون له
هذا فلان من الطبقة الفلانية ، فيقول : « قدموه »
... فيطرحونه على الأرض فيذبحه بيده ثم يدوس
على وجهه برجله وربما كان يبول عليهم أو يصب
عليهم النبيذ ... وكل هذا من شدة قهره وما قاساه
منهم ، فكان يذبح من الممالك في كل ليلة بحسب
ما يختار في تلك الليلة ، وذكروا عنه أشياء شنيعة
من هذا النمط . فاستمر على هذه الحالة مدة
طويلة حتى قيل انه ذبح في هذه المدة من ممالك
أبيه نحو من ألفى مملوك ، وقد تجرأ على القتل
حتى صار يقتل في كل ليلة نحو عشرين
مملوكا ...

وكان الملك الناصر معذورا فيهم ، فانه كان
يسامح الواحد منهم المرة والمرتين والثلاث وهم
يغدرونه ويخامرون عليه ، حتى كان يقول الملك

وفي هذه السنة وفي النيل المبارك في أول يوم من مسرى ، وبلغت الزيادة في تلك السنة اثنين وعشرين ذراعا واصبعا من الثالث والعشرين ، فحصل للناس في تلك السنة غاية الضرر الشامل ، وغرقت أكثر البساتين ، وانقطعت الطرقات حتى قيل في المعنى :

قد زاد هذا النيل في عامنا
فأغرق الأرض بانعامه

وكاد أن يعطف من مائه
عرى على أضرار أهرامه

وفيها جاءت الأخبار بأن نوروز الحافظي وشيخ المحمودي قد قويت شوكتهما والتف عليهما سائر النواب وغالب عسكر مصر ، والتف عليهما جماعة كثيرة من العشير ومن عربان جبل نابلس ، واجتمع عندهما من الأمراء ما يزيد على أربعة وعشرين أميراً من أمراء مصر والشام . فمنهم الأمير قرقماس المعروف بسيدى الكبير ، والأمير بكتمر جلق ، والأمير سودون المحمدي ، والأمير شاهين الأفرم ، والأمير طوغان الحسنى ، وغير ذلك من الأمراء المصرية والشامية .

فلما تحقق الملك الناصر ذلك عرض العسكر ، وأنفق عليهم ، وبرر خيامه الكل في جمعة واحدة ، ثم نزل من القلعة في موكب عظيم ، وطلب طلبا عظيما ، وأمر العسكر بأن يخرجوا وهم لابسون آلة الحرب . وكان صحبته الخليفة العباس والقضاة الأربعة ، منهم قاضى القضاة الشافعى جلال الدين بن سراج الدين البلقينى ، وبقية القضاة ما يحضرنى أسماؤهم الآن ، ومن المباشرين القاضى فتح الله كاتب السر الشريف ، وسائر الأمراء والعسكر ، فتوجه الملك الناصر الى نحو الريدانية فأقام بها يومين ، ثم انه رحل منها وقصد التوجه الى نحو الشام .

المؤيد شيخ في بعض مجالسه بعد قتل الملك الناصر فرج : « ما صبر أحد من الملوك كصبر الملك الناصر على ممالك أبيه » ... فانه ما كان يقتل الواحد منهم حتى يكون قد سامحه مرارا عديدة وهم يغدرونه ... وقد جرى له معهم من الوقائع ما يطول شرحه عن هذا المختصر ، وهم مع ذلك لا يزدادون عليه الا طغيانا ولو أسرف في قتلهم .

سنة ثلاث عشرة وثمانمائة (١٤١٠/١٤١١) :

فيها وقع الطاعون بالقاهرة ، وكانت قوة عمله في شهر رمضان ، وفي ذلك يقول القاضى مجد الدين بن فضل الله :

تزايد الطاعون لما أتى
شعبان والحمى به صعبه
ودام في الصوم على فتكه
وفطر الضعيف على كبه

وفيها انتهت زيادة النيل الى أحد وعشرين ذراعا ، وكان الوفاء أول مسرى .

وفيها جاءت الأخبار بأن شيخ المحمودي ونوروز الحافظي قطعا اسم الملك الناصر من الخطبة بدمشق وأعمالها .

وفيها توفي جلال الدين بن خطيب داريا ، وكان عالما فاضلا بارعا في فن البديع وله شعر جيد حسن .

سنة أربع عشرة وثمانمائة (١٤١١/١٤١٢ م) :

فيها نفرت قلوب الممالك من الملك الناصر ، وصار منهم جماعة يتسحبون تحت الليل ويتوجهون الى نوروز الحافظي وشيخ المحمودي ، فكانوا يتوجهون من العقبة الى غزة ومن غزة الى الشام ، فتسحب من العسكر نحو الثلث .

وكانت هذه التجريدة الثالثة تجريدة خرج فيها الملك الناصر بنفسه .

فان أول تجريدة جردها الى الشام كانت بسبب تنهم الحسنى نائب الشام لما أظهر العصيان كما تقدم .

والتجريدة الثانية كانت بسبب تمرلنك لما وصل الى الشام وجرى منه ما جرى كما تقدم .

والتجريدة الثالثة كانت بسبب نوروز الحافظي وشيخ لما أظهروا العصيان فخرج اليهما الملك الناصر بنفسه .

سنة خمس عشرة وثمانمائة (١٤١٢ م) :

فيها دخل الملك الناصر الى الشام وأقام بها أياما ، ثم توجه خلف النواب ، فكانوا يتوجهون في كل يوم من بلد الى بلد والملك الناصر يسوق خلفهم ليلا ونهارا فاتعب العسكر ، وانقطع منهم جباة من شدة السوق والتعب .

فلما كان يوم الثلاثاء خامس عشرى المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وصل الملك الناصر الى اللجون - وهى من ضياع الشام - فتلاقى هنالك الملك الناصر والنواب بعد العصر ، وكان الملك الناصر قد اصطحب وهو لا يعي من شدة السكر ، فأراد الكبس على النواب في تلك الساعة ، فمنعه الأمراء من ذلك فلم يسمع لهم ، فتقدم اليه القاضى فتح الله كاتب السر وتكلم معه في أن ينزل هناك ساعة حتى يستريح العسكر من شدة السوق فلم يلتفت الى كلامه وقال : « أنا لى سنين أنتظر هذا اليوم . ومتى نزلت هنا ساعة هربوا من وجهي الى مكان آخر » ...

فلما رأى الأمراء والعساكر هذه الأحوال الفاسدة تسحبوا من عنده الى النواب ، فأول من تسحب من عنده من الأمراء الأمير قجقار أمير

سلاح فتوجه الى النواب . فلما رأى العسكر ذلك صاروا يتسحبون من عنده قليلا قليلا حتى لم يبق معه الا القليل من العسكر ، فبان عليه عين الغلب ، فكبس على النواب وقت غروب الشمس ، فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر الملك الناصر وهرب بمن بقى معه من العسكر ، فولى مدبرا الى نحو الشام ، فكان كما يقال في المعنى :

ما تفعل الأعداء في جاهل

ما يفعل الجاهل في نفسه

فدخل الى الشام وبات في تربة تنم في ليلة الأربعاء سادس عشرى المحرم . فلما ولى الملك الناصر استولى الأمير نوروز وشيخ على بركة وخزائن المال وملكوها ، وقد انتصر شيخ ونوروز على الملك الناصر ، وفي ذلك يقول الشيخ تقي الدين بن حجة الحموى من قصيدة يمدح بها الملك المؤيد شيخ :

وجمعت باللجون جم عساكر

دارت عليهم من سطاك دوائر

وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة

فكأن هاتيك السروج مقابر

فلما دخل شيخ ونوروز الى الشام طلوعوا الى دار السعادة ، واجتمع هناك سائر الأمراء وأحضروا القضاة الأربعة ورسوموا بأن يكتبوا محضرا بأفعال الملك الناصر ، بأنه سفاك للدماء ، مدمن للخمر . فكتبوا محضرا بذلك وشهد فيه جماعة كثيرة من أعيان الناس ، ثم خلعوا الملك الناصر من السلطنة . واشتوروا فيمن يولونه السلطنة ، فقال نوروز لشيخ : « لا أنا ولا أنت تتسلطن ، ولكن اجعلوا الخليفة العباس ... هذا هو السلطان . ويكون الأمير شيخ أتابك العسكر ومدبر المملكة بمصر ، ويكون الأمير نوروز نائب الشام ، ويحكم في البلاد الشامية من غزة الى

الفرات ، يولى بها من يختار ويعزل من يختار ... فتراضوا على ذلك ، وحلف جميع الأمراء على ذلك ، وتعاهد الأمير شيخ ونوروز على ذلك ، وأن الخليفة اذا بقى سلطانا بمصر لا يعزل ولا يولى حتى يراجع فى ذلك الأمير شيخ والأمير نوروز . ثم سلطنوا الخليفة العباس كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

واستقر الأمير شيخ أتابك العساكر بمصر ، واستقر الأمير نوروز الحافظى نائب الشام كما تقرر الحال عليه .

هذا ما كان من أمر النواب .

وأما ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد الكسرة التى وقعت له على اللجون ، فانه لما جرى له ما جرى ولى منهزما فتوجه الى نحو الشام ، وأقام فى تربة تم ، وأرسل الى الأمير شيخ يطلب منه الأمان . وكان الأمير نوروز صهر الملك الناصر زوج أخته ... فلو طلب منه الأمان أولا ما أصابه شئ . ولكن قصد الأمير شيخ فأرسل اليه من قيده وأحضره الى السجن بقلعة دمشق . ثم انهم أثبتوا عليه الكفر كما قيل ، والله اعلم بحقيقة ذلك .

فلما كانت ليلة السبت سادس شهر صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة دخل على الملك جماعة من الفداوية وقتلوه بالخناجر فى تلك الليلة وهو بالبرج بقلعة دمشق ، فلما أصبحوا وأشيع ذلك بين الناس لم يصدقوا بذلك ، فأخرجوه من البرج وألقوه على مزبلة خارج البلد وهو عريان مكشوف الرأس ليس عليه غير اللباس فى وسطه ، وصار الناس يأتون اليه أفواجا ينظرون اليه ، ولو أمكن ممالك أبيه أن يحرقوه لفعلوا به ذلك مما قاسوه منه . فأقام على ذلك ثلاثة أيام لم يدفن ، ثم غسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه بمقبرة باب الفراديس بدمشق ... هذا ما جرى

للملك الناصر فرج والله أعلم . فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ، وذلك خارج عن مدة خلفه بأخيه عبد العزيز ، وهى شهران وعشرة أيام . وقتل وله من العمر نحو ست وعشرين سنة والله أعلم . وقد قيل فى المعنى :

يا نفس صبرا والا فاهلكى جزعا

ان الزمان على ما تكبرهين بنى

لا تحسبى نعمة سرتك صبحتها

الا بمفتاح أبواب من الحزن

ولما توفى الملك الناصر خلف من الأولاد سبعة :

ثلاثة صبيان وأربع بنات . فأما الصبيان فهم : محمد وفرج و خليل الذين تفاهم المؤيد شيخ الى ثغر الاسكندرية ، وأقام خليل هناك الى أن توفى فى أثناء دولة الملك الأشرف اينال ، ولقل بعد موته ودفن بتربة جده الملك الظاهر برقوق التى بالصحراء . وأما البنات فخوند شقرا ، وخوند آسية ، وخوند زينب ، وخوند هاجر .

وكان الملك الناصر فرج شجاعا بطلا مقداما كريما ، غير أنه كان سفاكا للدماء ، مسرفا على نفسه ، منهمكا فى شرب الخمر وسماع الزمور ، عنده كثرة الجهل مع قلة الدين . وكانت الدنيا على أيامه جائلة ، وحقوق الناس ضائعة ، وقد خربت غالب البلاد الشامية فى أيامه ... من تمرلك ومن عصيان النواب ، وخربت أوقاف الناس التى بالبلاد الشامية فى أيامه لما عصى جكم العوضى وتسلطن بحلب . وكم قتل من أبطال ، ويتم من أطفال ، وجرت فى أيامه أمور شتى يطول شرحها عن هذا المختصر ، حتى فرج الله تعالى بموته وزوال دولته . وكانت الناس معه فى غاية الضنك . وكانت صفته أبيض اللون يميل الى صفرة ، أشهل العينين ، وافر الأنف ، نحيف الجسد ،

معتدل القامة ، عربى الوجه ، مستدير اللحية ،
أشقر الذقن ، مهيب الشكل . وكانت أمه رومية ،
فجمع بين قبح الفعل والشكل . وكان كل من يراه
يرعد لشدة بأسه وعظمة سطوته .

وأما ما أنشأه بالديار المصرية من العمارات فهو
المدرسة التى تجاه باب زويلة التى تسمى الدهيشة ،
وعمر الجامع الذى هو داخل الحوش السلطاني
بالقلعة ، وجدد بالدهيشة التى بالقلعة أشياء كثيرة ،
وعمر الربيعين اللذين عند جامع الصالح خارج باب
زويلة ، وله غير ذلك أشياء كثيرة من الانشاء بالديار
المصرية .

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فمنهم شيخ
الاسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى ، وتوفى
القاصى تقى الدين بن الشهيد صاحب ديوان
الانشاء . وتوفى فى أيامه القيم خلف الغبارى
صاحب الأرجال اللطيفة ، وكان فريد عصره فى
هذا الفن الشريف بدمشق . وتوفى الشيخ شمس
الدين الشهير بالزوين ، وكانا من أعيان دمشق .
فلما بلغ الشيخ عز الدين الموصلى وفاتها - وكان
من أضداده - أنشد يقول :

دمشق قالت لنا مقالا

معناه فى ذا الزمان بين

اندمل الجرح واستراحت

ذاتى من الفتح والمزين

وتوفى الشيخ زين الدين بن العجمى عين كتاب
الانشاء بالديار المصرية ، وكان له شعر جيد ، فمن
ذلك قوله :

انظر الى الغدران كيف تجعدت

أمواجهها فزهت وراقت منظرا

وحكت سطورا فى طروس خطها

قلم النسيم بلطفه لما انبرى

وتوفى الشيخ علاء الدين بن أيبك الدمشقى ،
وكان من فحول الشعراء .

سلطنة الخليفة المستعين بالله

هو أبو الفضل العباس ، ابن الامام محمد
المتوكل على الله ، ابن المعتضد بالله ، ابن المستنصر
بالله ابن الامام أحمد الحاكم بأمر الله . تسلطن
بدمشق بعد خلع الملك الناصر فرج بن برفوق فى
يوم الاثنين سابع عشرى المحرم من سنة خمس
عشرة وثمانمائة . فمن المؤرخين من عدده من جملة
السلطين بالديار المصرية ، ومنهم من عدده من
جملة خلفاء بنى العباس . وهذه القواعد لم تتفق
لخليفة قبله من بنى العباس أنه تسلطن بمصر
وحكم بها على هذا الوجه . وفيه يقول بعض
الشعراء :

سلطاننا حاز الفخار بأمره

وبأمره مجموع كل الناس

ولقد روى الضحاك عن ثغر له

والجفن فى الاغضا عن العباس

وكان سبب سلطنة الخليفة العباس أنه لما عصى
نوروز الحافطى وشيخ الحمودى جرد اليهم الملك
الناصر . فلما انكسر الملك الناصر خلعوه من
السلطنة ، واتفق رأى نوروز وشيخ على سلطنة
الخليفة العباس كما تقدم ذكر ذلك ، فأحضروا له
خلعة السلطنة ، وألبسوها له وباسوا له الأرض .
وكان القائم فى سلطنة الخليفة الأمير نوروز
الحافطى . قيل لما أرادوا أن يولوا الخليفة السلطنة
امتنع من ذلك غاية الامتناع ، فقال له الأمير
نوروز : « لا تخف ، أنا ظهرك ، لا يصيبك
الا ما يصيب رقبتى » . فشرط عليه الخليفة
العباس قبل أن يلى السلطنة شروطا كثيرة ، منها

أنه اذا خلع من السلطنة يستمر في الخلافة على حاله الأول ، فأجابوه الى ذلك .

فلما ولوه السلطنة خلع على المقر السيفي نوروز الحافظي واستقر به نائب الشام ، وأضاف اليه جميع خراج البلاد الشامية ، وسلم اليه قلعة دمشق ، ثم خلع على المقر السيفي شيخ الحمودي واستقر به أتابكي العساكر بمصر ومدبر المملكة ونظام الملك ، وصار نوروز يحكم من غزة الى الفرات ، والخليفة والأتابكي شيخ يحكمان من قطيا الى أقصى بلاد الصعيد وأعمال الديار المصرية قاطبة .

فلما وقع الاتفاق على ذلك خرج الخليفة من دمشق وصحبته الأتابكي شيخ وبقية الأمراء والعساكر ، فلما توجهوا قاصدين مصر كان الخليفة العباس في مدة السفر في غاية العز والعظمة ، نافذ الكلمة ، وأطاعه سائر العسكر .

فلما دخلوا الى مصر كان للخليفة العباس موكب عظيم ، وحمل الأتابكي شيخ على رأسه القبة والطير . فلما طلع الخليفة الى القلعة وسكن بها سكن الأتابكي بباب السلسلة ، فكانت الأمراء اذا نزلوا من عند الخليفة يدخلون الى المقر الأتابكي شيخ في باب السلسلة ، ويعطونه الخدمة ثانيا ، فيقع بين يديه الأبرام والنقض ، والحل والعقد .

وكان الأتابكي شيخ لا يمكن الخليفة من كتابة مربعة أو منشور أو مرسوم حتى يعرض عليه ذلك جميعه .

فاستمر الأمر على ذلك مدة يسيرة . ثم ان الأتابكي شيخ بدا له أن يتسلطن ويخلع الخليفة العباس من السلطنة ، فعند ذلك أحضر القضاة الأربعة ومسائر الأمراء وكتب محضرا بأن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا من الطاعة ، وكثر

الفساد في البر والبحر ، واضطربت الأحوال ، وأن الوقت محتاج لاقامة سلطان تركي له سطوة يجمع أهل الفساد وتنصلح الأحوال على يده . فعند ذلك خلعوا الخليفة العباس من السلطنة ولم يخلعوه من الخلافة ، فبايع الأتابكي شيخ بالسلطنة .

فلما تسلطن شيخ استمر الخليفة العباس بالقلعة في مكان محتفظا به لا يجتمع به أحد ، فأقام على ذلك مدة يسيرة . ثم ان شيخ خلعه من الخلافة أيضا وولى أخاه داود وتلقب بالمعتضد بالله .

وكان الخليفة العباس لما خلع من الخلافة عهد الى ولده ، فلم يمض الملك المؤيد شيخ عهده ، وولى أخاه داود ، ثم أرسل الخليفة العباس الى السجن بشعر الاسكندرية . وكانت مدة سلطنته بالشام ومصر ستة أشهر الاياما ... فما كان أغناه عن هذه السلطنة !

وكان في مدة سلطنته مع الأتابكي شيخ في غاية الضنك ، ليس له في السلطنة غير مجرد الاسم فقط ، والأمر كله للأتابكي شيخ . وكانت مدة خلافته دون السلطنة ثمانى سنين وأشهر .

واستمر الخليفة في السجن بشعر الاسكندرية الى دولة الملك الأشرف برسبای ، فأخرجه من السجن وأسكنه في بعض دور الاسكندرية . واستمر على ذلك الى أن مات في الوباء الذي وقع في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، وكانت وفاته في يوم الأربعاء حادى عشرى جمادى الآخرة من تلك السنة ، ودفن هناك رحمة الله عليه .

ومن الحوادث في أيامه ما نقله الشيخ شهاب الدين بن حجر في تاريخه أن قاضى قضاء الحنفية ، صدر الدين بن العديم ، تولى الحسبة في تلك الأيام مضافا لما بيده من قضاء الحنفية ، وهو أول من جمع بين القضاء والحسبة في وقت واحد ، ولم

يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الدول الماضية . وفيه
تقول بعض الشعراء :

من ولى الحسبة يصبر على
تعرض الخارج والعاير
فليس يحطى بالمئى والغنى
فيهم سوى المحتسب الصابر

الملك المؤيد المحمدي

هو الملك المؤيد أبو النصر شيخ ابن عبد الله
المحمودي الظاهري ، وكان يعرف بالخاصكى .
وهو الثامن والعشرون من ملوك الترك وأولادهم
بالدبار المصرية ، وهو الرابع من ملوك الجراكمة
وأولادهم .

بويح بالسلطنة بعد خلع الخليفة العباس في يوم
الاثنين مستهل شهر شعبان سنة خمس عشرة
وثمانمائة (١٤١٢ م) ، فلبس خلع السلطنة من
باب السلسلة وطلع الى القصر الكبير ، وجلس على
سرير الملك وباسوا له الأرض ، وتلقب بالملك المؤيد ،
ودقت له البشائر ونودي باسمه في القاهرة ، وضج
الناس له بالدعاء من الخاص والعام . وفيه يقول
الشيخ ناصر الدين بن كميل الشاعر :

تسلطن الشيخ وزال العنا
فالناس في بشر وتيه وفيخ
فلا تقاتل بصبي ولا

تلق به جيشا وقاتل بشيخ

وكان أصله من ممالك الملك الظاهر برقوق ،
اشتراه من الحواجا محمود شاه وأعتقه ، وأخرج
له خيلا وقماشاً وصار جداراً ، ثم بقى خاصكيا ،
ثم بقى ساقيا . وكان يعرف بشيخ المجنون ، ثم
بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير أربعين . وسافر الى
الحجاز أمير حاج في سنة احدى وثمانمائة ، ثم

بقى مقدم ألف في دولة الملك الناصر فرج بن
برقوق ، ثم بقى نائب طرابلس ونائب الشام أيضا .
وأسره تمرلنك على حلب كما تقدم ووقع له في
دولة الملك الناصر فرج أمور شتى ومحن عظيمة ،
وسجنه الملك الناصر بخزانة شمائل ، فأقام بها
مدة ، ثم خرج الى الشام والتف على حكم
العوضى ونوروز الحافظي ، ولم يزل في عصيان
وهجاج في البلاد الشامية حتى مضى أكثر عمره ...
فلما جرد الملك الى نوروز وقتل الملك الناصر كما
تقدم ، وتسلم الخليفة العباس ، بقى أتابك
العساكر بمصر ونظام المملكة ، ثم انه خلع الخليفة
من السلطنة وتسلمن عوضه .

فلما تسلمن وتم أمره في السلطنة قبض على
جماعة من الأمراء وأرسلهم الى السجن بشعر
الاسكندرية ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم
ألوف ووظائف سنية ، وأنعم على ولده المقر الصارمي
ابراهيم بتقدمة ألف ، وأقام له من الأمراء عصبة ،
وأرضى الجند بالاقطاعات ، ثم قرب جماعة حضروا
معه من البلاد الشامية فرقاها الى وظائف سنية ،
فمنهم المقر الزينى عبد الباسط بن خليل ، ومنهم
المقر الناصري ناصر الدين بن البارزى ، ومنهم
القاضى علم الدين داود بن الكويز ، والقاضى
بدر الدين بن مزهر ، والأمير ناصر الدين التاج
وأخوه ، والشبيخ تقى الدين بن حجة الحموى
عين أعيان الشعراء ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة
حضروا معه من البلاد الشامية الى الدبار المصرية .

ثم انه قبض على القاضى فتح الله كاتب السر
الشريف واحتاط على موجوده من صامت وناطق ،
ثم انه خنقه ودفنه تحت الليل . فلما مضى أمر
فتح الله خلع على المقر القاضى ناصر الدين بن
البارزى واستقر به كاتب السر بالديار المصرية
عوضا عن فتح الله ، واستقر بالمقر الزينى

جل جلاله في كل يوم مرة ، فاعتقده جماعة كثيرة من عوام مصر فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان بأن يعقدوا له مجلسا بالصالحية ، فاجتمع له هناك القضاة الأربعة ، فأراد القاضي المالكي أن يثبت عليه الكفر ، فشهد جماعة من أهل الطب بأن في عقله خللا فسجنوه ولم يثبت عليه الكفر ... وهذه الواقعة متفق على صحتها في زمن المؤيد شيخ .

سنة سبع عشرة وثمانمائة (١٤١٤ م) :

فيها قوى عزم الملك المؤيد شيخ بأن يخرج الى الشام بسبب عسيان نوروز ، فعلق الجاليش وعرض العسكر وأنفق عليهم ، وخرج من القاهرة في موكب عظيم وصحبته الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . وقرر الأمير ططر نائب الغيبة الى أن يحضر السلطان ، والأمير سودون قرا سنقر حاجب الحجاب يحكم بين الناس . فلما وصل الى دمشق وجد نوروز قد حصن دمشق وركب على سورها المدافع من كل جانب ، فحاصره الملك المؤيد شيخ أشد ما يكون من المحاصرة ، ونصب حول مدينة دمشق صاعدة مناجيق ، ولا زال يحاصر نوروز مدة طويلة حتى ضجر نوروز وأرسل بطلب من شيخ الأمان على نفسه ، وكان بقلعة دمشق . فما زالوا على ذلك حتى غلب نوروز وسلم نفسه الى شيخ . وآخر الأمر قطع شيخ رأس نوروز في قلعة دمشق وأرسلها الى القاهرة وعلقت على باب زويلة ثلاثة أيام ثم دفنت .

وكان شيخ باغيا على نوروز ، فكان لسان حاله ، نوروز يقول :

يا غادرا بي ولم أغدر بصحبته
وكان منى مكان السمع والبصر

عبد الباسط كاتب الخزانة الشريفة ، ثم جعله والى القاهرة وناظر الجوالى وناظر الكسوة الشريفة . واستقر بالقاضى علم الدين بن الكويز ناظر الجيوش المنصورة ، واستقر بالأمير ناصر الدين التاج استادار الصلبة ، وقرر كل واحد منهم في وظيفة تليق به . ثم انه قرب من الأمراء من شاء منهم ، وأبعد من شاء منهم ، واستقامت أموره في السلطنة ، وأطاعه الجند ولم يختلف عليه اثنان من العسكر .

سنة ست عشرة وثمانمائة (١٤١٣ م) :

فيها جاءت الأخبار من دمشق بأن نوروز الحافظى لما بلغه أن شيخ خلع الخليفة العباس من السلطنة وتسلطن عوضه ، عز ذلك عليه ، ولم يقبل الأرض للملك المؤيد شيخ ، وأظهر العصيان وتعجب من شيخ كيف خان الأيمان والعهود التى كانت بينه وبين نوروز — وكانوا أعظم من الاخوة ينامون على مخدة واحدة — فخان شيخ الأيمان والعهود وتسلطن بمصر ، فكان كما قيل:

وحلفت أنك لا تميل مع الهوى

أين اليمين وأين ما عاهدتني ؟

واستمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباس على منابر دمشق وأعمالها ، ولم يخطب باسم الملك المؤيد شيخ ، ولا ضرب باسمه سكة ، واستمر واضعا يده على البلاد الشامية من غزة الى الفرات .

وفي هذه السنة خلع السلطان على منكلى بغا الشمسى وولاه محتسبا بالقاهرة ، وهو أول من تولى الحسبة من الأتراك ولم يتولها قبله أحد من الأتراك .

ومن الحوادث في تلك السنة أنه ظهر بالقاهرة شخص يدعى أنه يصعد الى السماء ويكلم البارى

قد كنت من قلبك القاسى أخاف جفا

فجاء ما قتلته نقشاً على حجر

قال الشيخ تقي الدين بن حجة الشاعر . وفى النيل المبارك فى سنة ست عشرة وثمانمائة فى أوائل مسرى ، فنزل الملك المؤيد وخلق المقياس وكسر السد على العادة — وذلك قبل أن يتوجه الى دمشق بسبب نوروز — فألشدته فى ذلك اليوم مهنتاً :

أيا ملكا بالله صار مؤيدا

ومتصباً فى ملكه نصب تمييز

كسرت بمسرى سد مصر وتنقضى

وحقق بعد الكسر أيام نوروز

فكان الفأل بالنطق . وتوجه الملك المؤيد عقيب ذلك الى نوروز وقطع رأسه وأرسلها الى مصر صحبة الأمير جرباش قاشق ، وذلك فى جمادى الأولى سنة سبع عشرة وثمانمائة ، فارتجت لها مصر ، وأقام بعد ذلك فى دمشق أياماً حتى مهد البلاد الشامية ، وعزل من عزل ، وولى من ولى وخلع على قانباى المحدث واستقر به نائب الشام عوضاً عن نوروز الحافظى ، وخلع على الأمير اينال الصصلاى واستقر به نائب حلب ، وخلع على الأمير سودون بن عبد الرحمن واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير جانى بك البجاسى واستقر به نائب حماه ، ثم قصد التوجه الى نحو الديار المصرية ، فلما دخل الى مصر كان له يوم مشهود ، وزينت له القاهرة ، وحملت على رأسه القبة والطير حتى طلع الى القلعة .

سنة ثمانى عشرة وثمانمائة (١٤١٥ م) :

ففيها جاءت الأخبار بأن النواب المقدم ذكرهم قد أظهروا العصيان وخرجوا عن الطاعة ، فجرد اليهم الملك المؤيد ثانياً ، وخرج اليهم بنفسه وأوقع

معه فانتصر عليهم وقبض على قانباى المحدثى نائب الشام وقطع رأسه ، ثم قبض على اينال الصصلاى وقتله على صدر أبيه ، ثم قتل الأب بعد ذلك . ثم انه ولى جماعة من الأمراء نواباً غير هؤلاء ورجع الى الديار المصرية ، فلم يقيم سوى مدة يسيرة . وقد جاءت الأخبار بأن النواب قد خامروا وأظهروا العصيان ، فجرد اليهم ثالث مرة وخرج بنفسه . فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من وجهه وتوجهوا الى قرا يوسف أمير التركمان ، فاستقر بنواب غيرهم ممن يثق بهم . وفى هذه المرة مهد البلاد الشامية والحلبية ، وقطع جادة هذه النواب الذين كانوا مخامرين عليه .

ثم رجع الى الديار المصرية ، وقد صفا له الوقت ، وانشأ له ممالك كثيرة ، وجدد له أمراء وحسنت أوقاته بمصر . فكان ينزل من القلعة ويتوجه الى بولاق ويقيم عند القاضي ناصر الدين ابن البارزى فى بولاق . وكان يعمل المواكب هناك وتجتمع الأمراء المقدمون عنده . وكان ينزل يعوم فى بعض الأوقات فى البحر وحوله الأمراء والخاصكية .

وكان يتباهى فى يوم كسر سد النيل المبارك ، ويلزم الأمراء المقدمين بأن كل واحد منهم يزين له حراقة ويجعل فيها الصناجق والكتوسات ، فاذا وفى النيل يحضرون له بالذهبية الى بولاق ، ويتوجه الى المقياس يخلق العمود ويكسر السد ، والأمراء المقدمون حوله فى الحراريق المزينة حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب ، ويكون له يوم مشهود لهم يسمع بشله فيما تقدم . وقد فاق فى ذلك على ما كان يصنعه فى ذلك اليوم أستاذة الملك الظاهر برقوق . وكان يتباهى فى المواكب الجليلة الى الغاية . وكان رجلاً كثير التنزه ، لا يقيم بالقلعة الا قليلاً وأكثر أيامه فى بولاق . وقيل كانت الرماحة

تلعب قدامه في بولاق وهو ينظر اليهم من البارزية
ولم يمش أحد من الملوك على طريقته في اللهو
والقصف .

سنة تسع عشرة وثمانمائة (١٤١٦ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، وقتك غاية
الفتك في البرية ، وقد قال بعض الشعراء :

رعى الرحمن دهرًا قد تولى
يجازى بالسلامة كل شرط

وكان الناس في غفلات أمن
فجأ طاعونهم من تحت ابط

سنة عشرين وثمانمائة (١٤١٧ م) :

فيها ظهرت أعجوبة . ولدت جاموسة بمدينة
بليس مولودة لها رأسان وأربع أيد وسلستا
ظهر ، ولها دبر واحد وفرج واحد ، ولها رجلان
في حقوها ، فأقامت أياما وماتت .

ومن العجائب أيضا ما ذكره العلامة شهاب
الدين بن حجر في تاريخه أن المصونة فاطمة بنت
قاضي القضاة جلال الدين بن سراج الدين عمر
البلقيني ولدت ولدا ذكرًا له ذكر وفرج ، وله يدان
زائدتان في كتفيه ، وله قرنان في رأسه مثل قرون
الثور ، فأقام ساعة ومات .

وذكر أيضا في تاريخه أن جملا ذبح بمدينة
غزة بعد العشاء فأضاء لحمه في الليل كما يضيء
الشمع . وقيل رمى بقطعة من لحمه لكلب فلم
يأكل منها شيئا ، ولم يعلم سبب ذلك ... وهذا
من العجائب التي وقعت في تلك السنة .

سنة احدى وعشرين وثمانمائة (١٤١٨ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، واستمر
يسلسل حتى دخلت سنة الثنتين وعشرين ، فكان
تارة يزيد وتارة ينقص .

وفي سنة احدى وعشرين وقع الغلاء أيضا
بالديار المصرية ، ونزل الملك المؤيد شيخ واستسقى
كما جرت بذلك العادة . وقيل ان الملك المؤيد
لما نزل الى الاستسقاء لبس جبة صوف أبيض
وعلى رأسه عمامة صغيرة جدا بعذبة مرخية
خلفه ، وعلى كتفه مئزر صوف أبيض ، وركب
فرسا بغير قماش حرير ولا سرج ذهب ، وذبح
هناك بيده أغناما وأبقارا وفرقها على الفقراء ،
وفرق في ذلك اليوم على الفقراء ثلاثين ألف
رغيف ، وصلى على الرمل من غير سجادة .
وتواضع الى الله تعالى في ذلك اليوم ، فزاد النيل
ووفى في أواخر توت ثم انهبط بسرعة ، وشرقت
أكثر البلاد ، واستمر الغلاء بمصر سنة كاملة ،
وعزت الأقوات .

سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة (١٤١٩ م) :

فيها كملت عمارة جامع الملك المؤيد شيخ الذي
هو داخل باب زويلة ، وكان مكان هذا الجامع
سجنا يحبس فيه أصحاب الجرائم ، وكان يعرف
بخزانة شمائل . وكان شمائل هذا من جملة
جماعة والى القاهرة ، فلما خرج الملك الكامل
صاحب المدرسة الكاملية الى قتال الفرنج لما أخذوا
نغر دمياط ، كان شمائل هذا يشي في ركاب الملك
الكامل ، ويسبح في البحر تحت الليل ، ويكشف
عن أخبار الفرنج ويأتى الملك الكامل بالأخبار ،
فحظى عنده بذلك . فلما انتصر الملك الكامل
على الفرنج جعل شمائل هذا والى القاهرة ، فبنى
له هذا السجن فنسب اليه ، وقيل « خزانة
شمائل » .

وكان الملك المؤيد شيخ من جملة من حبس في
خزانة شمائل في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق
فقاسى بها شدايد عظيمة ، فنذر في نفسه ان يخلص
من هذه الشدة وبقي سلطانا يهدم هذا السجن

ويبنى مكانه جامعا فلما تولى الملك ببصر هدمه
وبنى مكانه هذا الجامع وقد تنهى في زخرفته
ورخامه وسفوفه وأبوابه ، فلم يبن في القاهرة
مثله ولا مثل سقفه ، ولكنه ظلم أعيان الناس في
تحصيل رخامه ، وصاروا يكسبون البيوت
والحارات بسبب الرخام ، فظلم خلق الله حتى
حصل هذا الرخام ومن جملة ظلمه فيه أنه أخذ
باب مدرسة السلطان حسن والتنور الكبير
وجعلهما في جامع ، وأعطى فيهما أبخس الأثمان .
وأخذ العمودين السماق اللذين في المحراب من
جامع قوصون الذى بالقرب من بركة الفيل ،
ووزع أخشاب سقفه ودهانها على أعيان المباشرين
فكان كما قيل :

بنى جامعا لله من غير حله

فيجاء بحمد الله غير موفق

كمطعمة الأيتام من كد فرجها

فليتك لا تزنى ولا تتصدقى

ولما تم بناء هذا الجامع وقف عليه الأوقاف
الجليلة من بلاد ومستققات ، وقرر فيه حضورا من
بعد انصر ، ورتب لهم جوامك وخبزا ، وقرر شيخ
الحضور الشيخ شمس الدين الديري الحنفى ،
وجعل الخطابة للقاضى ناصر الدين بن البارزى ،
وأودع بهذا الجامع خزانة كتب نفيسة .

قيل لما كملت عمارة هذا الجامع رسم السلطان
بأن تملأ الفسقية التى فى صحن الجامع سكرا وماء
ليموت ، فملئت سكرا ووقف رءوس النواب يفرقون
السكر على الناس بالطاسات ، وخلع فى ذلك اليوم
على جماعة كثيرة من المشدين والمهندسين والبنائين
والمرخين والنجارين . فلما كان يوم الجمعة حضر
بالجامع القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأرباب
الوظائف وأعيان العلماء ، وخطب فى ذلك اليوم
القاضى ناصر الدين بن البارزى كاتب السر الشريف

خطبه بليغة ، وكان يوما مشهودا . فلما كان وقت
الحضور فى الجامع اجتمع الطلبة وخرج الشيخ
شمس الدين الديري من الخلوة وقدامه ولد
السلطان المقر الصارمى ابراهيم ، وهو حامل سجادة
الشيخ شمس الدين الديري حتى فرشها له فى
المحراب ، وفى ذلك يقول بعض شعراء العصر :

ان يقولوا سجادة فوق بحر

لولى يمشى عليها كرامه

قلت هذى سجادة فوقها البح

سر فحدث عنه بغير ملامه

ومن الحوادث أنه لما بنوا مئذنتى هذا الجامع
مالت احدهما الى السقوط عند ما كملت ، فرسم
بهدمها فهدمت ثم أعيدت ثانيا ، فقال العلامة شهاب
الدين بن حجر يداعب قاضى القضاة بدر الدين
محمود العيى الحنفى فى هذه الواقعة :

لجامع مولانا المؤيد رونق

منارته تزهر من الحسن والزين

تقول وقد مالت عليهم ترفقوا

فليس على هدمى أضر من العين

فأجابه عن ذلك بدر الدين بن العيى :

منارة كعروس الحسن اذ جلوت

وهدمها بقضاء الله والقدر

قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط

ما أوجب الهدم الا خسة الحجر

ومما عد له من المحاسن أنه أبطل مكس الفواكه
قaptive ، ونقش ذلك على رخامة وجعلها بباب هذا
الجامع لما كمل بناؤه .

سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة (١٤٢٠ م) :

فيها توفي المقر الصارمى ابراهيم ابن السلطان
المؤيد شيخ . وقيل ان أباه المؤيد سمه فى حلوى ،

وسبب ذلك أن سيدى ابراهيم كان شجاعا بطلا لا يمل من الحرب والقتال ، فمالت اليه قلوب الجند . وكان الملك المؤيد لا يزال يعتره ضربان المفاصل ، وكان قد ثقل عن الحركة ، فكان يحمل على اكتاف المماليك اذا نقل من مكان الى مكان ، فقال القاضى ناصر الدين بن البارزى للملك المؤيد : « ان العسكر يقصدون خلعتك من السلطنة ويولون سيدى ابراهيم » ... فحسن له أن يشغله . فلما شغله ومات حزن عليه الناس حزنا شديدا ، ودفن داخل القبة التى فى الجامع المؤيدى .

فلما كان يوم الجمعة حضر السلطان المؤيد فى الجامع ، وصلى الجمعة فى مأتم ابنه ، فخطب القاضى ناصر الدين بن البارزى فى ذلك اليوم خطبة فى معنى ذلك حتى ينفى عنه كلام الناس ، فروى وهو على المنبر هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما أن دخل على ولده ابراهيم وجده يجود بنفسه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت عيناه تذرفان وقال : « ان العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا تقول الا ما يرضى ربنا ، واننا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون » فلما سمع الملك المؤيد ذلك شق عليه وقال فى نفسه : « يغرنى على ولدى حتى أقتله ثم يندمنى عليه ؟ » ... فلما فرغ القاضى ناصر الدين من صلاة الجمعة قدم اليه سلطانية سكر وشغله فيها ، فتوجه الى بيته وأقام أياما ومات ، والمجازاة من جنس العمل .

سنة أربع وعشرين وثمانمائة (١٤٢١ م) :

فيها ثقل الملك المؤيد فى الضعف ولزم الفراش ، واستمر على ذلك أياما حتى مات فى يوم الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، فغسل فى القلعة وكفن وصلى عليه ونزلوا به من القلعة

والأمراء مشاة قدماه حتى توجهوا به الى جامعهم ، فلم يدخلوا به من باب زويلة ودخلوا به من الباب الذى عند الخضرين .

وقيل مات وله من العمر خمس وستون سنة ، وخلف من الأولاد صبيا وبنتين ، وهو سيدى أحمد الذى تسلطن بعده ، وهو ابن خوند سعادات . وكانت احدى بناته متزوجة بالأتابكى قرقياس الشعبانى ، والأخرى متزوجة بالأمير يشبك الفقيه الدوادار ، وهى أم ولده سيدى يحيى .

فكانت مدة سلطنة الملك المؤيد شيخ بالديار المصرية والبلاد الشامية ثمانى سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام . وكان ملكا جليلا كفئا للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة ، وافر العقل ، مقداما فى الحرب ، وله مكاييد وحيل وثبات وقت التقاء الجيوش حتى ضرب به المثل ، فكان يقال : نعوذ بالله من ثبات شيخ ، ومن حطمة نوروز الحافظى .

وكان المؤيد كريما على من يستحق الكرم ، وشحيحا على من يستحق الشح . وكان يضع الشيء فى محله . وهو الذى مهد البلاد الشامية والحلبية ، وقطع جدر تلك النواب العصاة الذين أخربوا غالب البلاد الشامية . وكان يميل الى اللهو والطرب ، ويستعمل الراح ويميل الى الملاح . وكان يستعمل الأشياء المخدرة من المصطلات . وكان يقرب أرباب الفنون . وكانت أرباب الفنون تتباهى فى أيامه فى فنونهم لجودة فهمه وحسن معرفته . وكان يغنى من فن الموسيقى ويركز الفن وينظم الشعر . ومن نظمه الرقيق قوله من قصيدة :

فتنتنا سواف وخدود

وعيون نواعس وقدود

أمرتنا الظبا وهن ناعس

وخضعنا لها ونحن الأسود

ولم يزل يركز هذه الأبيات الى الاستشهاد
باسمه فقال :

وأنا الخاصكى شيخ المؤيد

نظم شعري جواهر وعقود
وله أشياء كثيرة من الفن دائرة بين المغنين
الى الآن .

وكان منقادا الى الشريعة ويجب أهل العلم
ويقرب الفقهاء والصلحاء ويبرهم ويجب فعل الخير ،
وله أوقاف كثيرة على جهات بر وصدقة . ولكن
ذكر له المقرئ أشياء كثيرة من المساوىء ، منها
أنه كان جهوري الصوت ، سفيها في كلامه . وكان
غير مقبول الشكل ، واسع العينين ، كبير الكرش ،
درى اللون ، أكث اللحية ، معتدل القامة ، متركن
الوجه ، كبير الأنف . وكان سفاكا للدماء ، قتل
جماعة كثيرة من النواب والأمراء . وكان اذا ظفر
بأحد من أعدائه لا يرحمه . وكان كثير المصادرات
للريعية . وأحدث في أيامه أشياء كثيرة من أبواب
المظالم لما كان يخرج الى التجاريد .

وأما ما أنشأه من العماثر بالديار المصرية فهو
الجامع الكبير الذى هو داخل باب زويلة ، وعمر
الجامع الذى فى رأس الصوة مكان المدرسة
الأشرفية التى هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق ،
وعمر الجامع الذى عند المقياس ، وعمر الخلاوى
والمثذلة التى فى المدرسة الخروبية التى فى بر
الجزيرة ، وجدد عمارة القبة التى فى قاعة البحرة ،
وجدد عمارة التاج والسبعة وجوه التى كانت
بالقرب من الكوم الأبيض ، ولكن هدم ودرست
معالمه فى دولة الملك الظاهر جقمق ، وكان من جملة
المفترجات القديمة بمصر فهدمه الناصر محمد بن
إينال قريب الملك الظاهر جقمق .
وللملك المؤيد آثار كثيرة غير ذلك بمصر
والشام .

وكانت دولته ثابتة القواعد ، وصير الذئب
والغنم يمشيان فى صعيد واحد .

فأما قضااته الشافعية فالقاضى جلال الدين بن
سراج الدين البلقينى الشافعى ، والقاضى ولى الدين
العراقى الشافعى . وأما قضااته الحنفية فالقاضى بدر
الدين محمود العيني الحنفى ، والقاضى التفهنى ،
والقاضى صدر الدين بن العديم الحنفى . وأما
قضااته المالكية فالقاضى نصر الدين بن التونسى
المالكى . وأما قضااته الحنابلة فالقاضى علاء الدين
ابن مغلى الحنبلى

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فقاضى القضاة
جلال الدين بن سراج الدين البلقينى الشافعى .
قليل انه توفى بمنزلة الصالحية عند عود الملك المؤيد
من البلاد الشامية . فلما توفى جلال الدين فى
الصالحية ودخل السلطان الى الديار المصرية
اشتدوا فيمن يولونه قاضيا عوضا عن جلال
الدين ، فأخبروا السلطان بذكر ابنه تاج الدين
وأخيه علم الدين صالح ، فلما بلغ الشيخ شهاب
الدين بن حجر ذلك أنشد يقول :

مات جلال الدين قالوا ابنه

يخلفه أو فالأخ الكاشح

فقلت تاج الدين لا لائق

بمنصب الحكم ولا صالح

ثم وقع الاختيار على تولية الشيخ ولى الدين
العراقى فولى عوضا عن جلال الدين البلقينى .

وتوفى فى أيام المؤيد من الأعيان الشيخ
شمس الدين البنانى وكان من كبار الحنفية ، وتوفى
الشيخ مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس ،
وتوفى الشيخ خلف النحريرى وكان من كبار
المالكية ، وتوفى الشيخ جمال الدين بن ظهيرة
قاضى القضاة الشافعية بمكة ، وتوفى الشيخ

فلما تولى الملك المؤيد شيخ تعصب مماليكه وقالوا : « ما نسلطن الا ابن أستاذنا » . وكان المماليك المؤيدية نحو خمسة آلاف مملوك . فلما حضر الخليفة والقضاة الأربعة وقصدوا المبايعة لأحمد ابن الملك المؤيد عارض الخليفة في ذلك وقال : « هذا صغير وتضيع أحوال المسلمين بين الأمراء » ... فقال المماليك : « الأمير ططر يكون مدبر المملكة الى أن يحضر الأتابكي الطنبغا » ... فما وسع الخليفة الا أنه بايعه على كره منه ، فسلطنوه ولقبوه بالملك المظفر ، ونودى بناسه في القاهرة ، ثم أجلسوه على سرير الملك وهو في حجر المرضعة .

وكانت العادة اذا تسلطن سلطان وجلس على سرير الملك في القصر الكبير تدق الكنوسات داخل القصر . فلما أجلسوا الملك المظفر أحمد على سرير المملكة وهو في حجر المرضعة دقت الكنوسات في القصر ، فاضطرب الملك المظفر اضطرابا شديدا وأغمى عليه ، فحصل له في الحال حول في عينيه من الرجفة ، واستمر في كل وقت يضطرب الى أن مات . فلما تم أمره في السلطنة ثار المماليك المؤيدية على الأمير ططر بسبب الامريات والوظائف ، وصار ططر معهم في غاية الضنك ، فما وسعه الا أن يرضيهم بكل ما يمكن ، فخلع على الأمير على باي المؤيدى واستقر به دوادارا كبيرا وكان أمير عشرة ، وخلع على الأمير تغرى بردى بن قصروه واستقر به أمير آخور وكان أمير عشرة ، ثم جعل جماعة من الأمراء المؤيدية مقدمى ألوف ، وجماعة منهم أمراء طبليخانات ، وجماعة منهم أمراء عشراوات . ثم انه فرق الاقطاعات السنينة على المماليك المؤيدية . ثم جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن جقمق الأرغونى نائب الشام قد خامر وخرج عن الطاعة ، وكذلك يشبك المؤيدى نائب حلب قد خامر أيضا

برهان الدين بن رفاعة الدمشقى وكان من أعيان دمشق وله شعر جيد ، وتوفى ابن هشام العجمي ، وتوفى القاضى ناصر الدين بن البارزى الجهنى الشافعى كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وتوفى الشيخ عز الدين الموصلى صاحب شرح البديعية ، وتوفى الشيخ جمال الدين بن خطيب داريا وكان من فحول الشعراء ، وتوفى الشيخ علاء الدين بن أينك الدمشقى وكان من فحول الشعراء ، وتوفى في أيامه جماعة كثيرة من الأعيان . ولما توفى الملك المؤيد شيخ تولى من بعده ابنه الملك المظفر .

الملك المظفر أبو السعادات

هو الملك المظفر أبو السعادات أحمد ، ابن الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى . وهو التاسع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد .

تسلطن بعد موت أبيه الملك المؤيد شيخ في يوم الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة . تسلطن وله من العمر سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام ، فكان مرضعا . وكانت ولايته تقرب من ولاية سابور ذى الأكتاف الذى تولى الملك وهو في بطن أمه ، فوضعوا على بطنها تاج الملك وسابور حمل . فكانت ولاية الملك المظفر أحمد تقرب من ذلك . وكانت أمه خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش الناصرى .

فلما تسلطن كان الأتابكى الطنبغا القرشى غالبا في التجريدة هو وجماعة من الأمراء نحو البلاد الشامية بسبب عصيان النواب ، وكان بمصر من الأمراء المقهر السيفى ططر أمير مجلس .

وخرج عن الطاعة ، وكذلك بقية النواب قد خامروا وخرجوا عن الطاعة . وكان الأتابكى الطنبغا القرشى لما توجه الى الشام بسبب عصيان النواب أوقع معهم بمن معه من الأمراء فهربوا الى نحو صرخد .

ثم ان الأتابكى الطنبغا لما توجه الى صرخد جمع العربان والعشير ورجع الى دمشق وأوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق منه وهرب الى نحو حلب ، فملك الأتابكى الطنبغا دمشق وقلعتها . فلما بلغه وفاة الملك المؤيد وسلطنة ابنه أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، وأقام بدمشق وحصنها ونصب على سورها المكاحل بالمدافع ، والتفت عليه العربان والعشير . فلما بلغ الأمراء ذلك خلعوا على ططر واستقروا به أتابكى العسكر عوضا عن الطنبغا القرشى .

ثم اتفق الحال على أن الأتابكى ططر يأخذ السلطان معه في محفة ويتوجه هو والعسكر الى دمشق بسبب الطنبغا القرشى والنواب . فخرج ططر من القاهرة وصحبته الملك المظفر أحمد في محفة ، والمرضة معه ، وخرج من مصر وسائر الأمراء والعسكر ، وكانت خوند سعادات صحبة ابنها في المحفة لما خرج الى الشام حتى تأمن عليه من القتل .

وكانت خوند سعادات لما انقضت عدتها مشيت الأمراء بينها وبين ططر بأن يتزوج بها . فلما خرج ابنها الى الشام خرجت معه ، فلما وصلوا به الى الشام ألقى الله تعالى الرعب في قلب الطنبغا القرشى وجقمق نائب الشام . فلما دخل الملك المظفر الى الشام حضر اليه الطنبغا القرشى وفي رقبته منديل فباس الأرض قدام الملك المظفر وهو في المحفة . فلما وقعت عليه عين الأتابكى ططر قبض عليه وسجنه بقلعة دمشق ، ثم قبض على جقمق نائب

الشام وسجنه بقلعة دمشق أيضاً . ثم انه أمر بخنقه وبخنق الطنبغا القرشى فخنقا تحت الليل ، ثم قبض على جماعة من النواب وقتلهم .

وأخذ في أسباب القبض على جماعة من الأمراء المؤيدية ، فاحتال عليهم وأظهر أنه قد مرض وأقام بقلعة دمشق . ولما بلغ الأمراء ذلك طلوعوا يسلمون عليه ودخلوا عليه ، فقبض على جماعة منهم حتى قيل قبض في يوم واحد على أربعين أميرا من الأمراء المؤيدية وحسبهم بقلعة دمشق ، ثم قبض على جماعة من المماليك المؤيدية نحو ثلثمائة مملوك وحسبهم بقلعة دمشق . فعند ذلك صفا لطر الوقت ، والتفت عليه خشداسينه القاهرية ، وفرق عليهم الاقطاعات والوظائف ، وقويت شوكتة وعصبته ، وصار يمهّد لنفسه في الباطن ...

فعند ذلك خلع الملك المظفر أحمد من السلطنة ، وتسلمن عوضه بدمشق . وكان الخليفة المعتضد بالله داود صحبته ، والقضاة الأربعة ، فبايعوا ططر وسلطنوه ، وذلك في يوم الجمعة تاسع عشر شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، وتلقب بالملك الظاهر ، وخطب باسمه في ذلك اليوم على منابر دمشق .

فلما تم أمره في السلطنة هناك طلق مُموند سعادات أم الملك المظفر أحمد وقد خاف على نفسه منها . والذي خاف منه وقع فيه كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ، فلم ينل من الدهر قصده .

فلما تسلمن قصد التوجه الى نحو الديار المصرية ، وأخذ الملك المظفر معه وأمه ورجع الى مصر . فلما دخل الى القاهرة كان له يوم مشهود ، وزينت له المدينة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب الى أن طلع القلعة . فلما جلس على سرير الملك أرسل الملك المظفر أحمد الى السجن بشعر الاسكندرية ، وأرسل معه المرضعة

الملك الظاهر ططر

هو الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهري الجركسى . وهو الثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالدنار المصرية . وهو السادس من ملوك الجراكسة في العدد .

كان أصله من مساليك الظاهر برقوق من مشروعاته ، ثم أعتقه وأخرج له خيلا وقماشاً وصار من جملة المماليك السلطانية الجمدارية ، ثم هرب من الملك الناصر فرج وتوجه الى حلب والتف على حكم العوضى لما تسلطن بحلب ، فلما قتل حكم التف ططر على شيخ وبوروز لما أظهر العصيان بالشام ، فلما قتل الملك الناصر بالشام وتسلطن الخليفة العباس أنعم على ططر بامرية عشر . ثم بقى أمير أربعين في دولة الملك المؤيد شيخ ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، ثم بقى أمير مجلس ... كل ذلك في دولة المؤيد شيخ . فلما مات الملك المؤيد وتسلطن ابنه الملك المظفر بقى ططر مدبر المملكة ، فلما أظهر العصيان الأتابكى الطنبغا القرشى ، لما كان بالشام ، بقى ططر أتابك العساكر عوضاً عنه . فلما خرج الى الشام صحبة الملك المظفر أحمد وظفر بالأتابكى الطنبغا القرشى والأمير قجقار القرمدى أمير سلاح ونائب الشام حقمق الأرغون شاوى وجماعة من النواب ، وقتلهم كما تقدم ذلك ، قبض على جماعة كثيرة من الأمراء المؤيدية وسجنهم بقلعة دمشق ، فعند ذلك صفا له الوقت وقويت شوكته ، والتفت عليه خشداشيينه الذين كانوا مفرقين في بلاد الشرق ، فخلع الملك المظفر من السلطنة وتسلطن عوضه بالشام ، وطلق خوند سعادات أم الملك ، فقليل انها أشغلته في مندبل الفرش لما خلع ابنها من السلطنة فمرض ططر بالشام

والدادة ، فكانت مدة سلطنته بمصر سبعة أشهر وعشرين يوماً ... فما كان أغناه عن هذه السلطنة ، والحول الذى حصل في عينيه لما دقت الكؤوسات في القصر يوم سلطنته كما تقدم ، وآخر الأمر سجن ! وأقام في السجن الى أن مات بشعر الاسكندرية في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة في دولة الأشرف برسباى . ومات بالطاعون ، ثم نقل بعد موته الى القاهرة ودفن على أبيه داخل القبة التى في الجامع المؤيدى الذى هو داخل باب زويلة . ومات وله من العمر نحو احدى عشرة سنة ، ولم يع أيام سلطنته وانما وعى نفسه في السجن الى أن مات فيه . وقد دخل ممالك أبيه في خطيئته حيث سلطنوه وهو في هذه السن .

وكان المظفر هذا حسن الشكل جميل الصورة ، وانما حدث له ذلك الحول في عينيه من يوم سلطنته كما تقدم .

ومن الحوادث في أيامه أن في هذه السنة — وهى سنة أربع وعشرين وثمانمائة — زاد النيل المبارك زيادة مفرطة ، واستمر ثابتاً الى آخر هاتور من الشهور القبطية ، وهذا قط لم يعهد في الاسلام . وحصل للناس في تلك السنة الضرر الشامل واستبحرت الأراضى وغرق أكثر البساتين ، وفات الزرع عن أوانه ، واقتطعت الطرق من الماء . وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

يا رب ان النيل زاد زيادة

أدت الى هدم وفرط تشتت

ما ضره لو جا على عاداته

في دفعه أو كان يدفع بالتى

وتوفى في أيامه قاضى القضاة الشافعية ولى الدين العراقى ، والشيخ شمس الدين الديرى الحنفى . وقيل بل مات في أثناء دولة الملك الأشرف برسباى والله أعلم بذلك .

ودخل الى مصر وهو عليل ، واستمر يسلسل في المرض ولزم الفراش ، فهو كما قيل في المعنى : فكان كالمتمنى أن يرى فلما

من الصباح فلما أن رآه عمى فلم يزل عليلا حتى مات في يوم الأحد رابع ذى الحجة من سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، ومات وله من العمر نحو خمس وخمسين سنة ، ودفن بجوار قبر الامام الليث بن سعد رضى الله تعالى عنه ... فكانت مدة سلطنته بالشام وبمصر ثلاثة أشهر وأياما . وقد تحمل في هذه المدة اليسيرة اثم من قتله من الأمراء والمماليك في طلب السلطنة ، وقد مهد لغيره فكان كما قيل في المعنى :

الا انما الأرزاق تحرم ساهرا
وأخر يأتي رزقه وهو لائم
ولما مرض ططر عهد بالسلطنة الى ابنه محمد .

الملك الصالح ناصر الدين

هو الملك الصالح ناصر الدين محمد ، ابن الملك الظاهر ططر ، وهو الحادى والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم ، وهو السابع من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية في العدد .

بويغ بالسلطنة بعد موت أبيه ططر في يوم الأحد رابع ذى الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة . تسلطن وله من العمر نحو احدى عشرة سنة . فلما بايعه الخليفة أحضروا له خلعة السلطنة ، وتلقب بالملك الصالح ، ودقت له البشائر ، ونودي باسمه في القاهرة ، وجلس على سرير الملك .

فلما تم أمره في السلطنة خلع على المقر الأتابكى جاني بك الصوفى واستقر به أتابك العساكر على عادته ، ومدبر المملكة . فصار الأتابكى جاني بك في تلك الأيام صاحب الحل والعقد والابرار

والنقض ، فعز ذلك على بقية الأمراء ، وصار الأمير طراباى الظاهرى حاجب الحجاب يرمى الفتن بين الأتابكى جاني بك الصوفى وبين المقر السيفى برسباى الدقماقى أمير دوادار كبير ، فوثب الأمير برسباى على الأتابكى جاني بك الصوفى ، فهرب في أواخر النهار ، فقبض عليه بعض المماليك وأحضروه الى الأمير برسباى ، فقيده وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية ، فاجتمعت الكلمة من بعد ذلك في برسباى ، وصار صاحب الحل والعقد .

ثم ان برسباى وقع بينه وبين الأمير طراباى حاجب الحجاب ، فقبض عليه وأرسله الى السجن بشعر الاسكندرية ، فعند ذلك صفا للأمير برسباى الوقت ، وقويت شوكته ، فتعصب له جماعة من الأمراء وخلعوا الملك الصالح محمد بن ططر من الملك وتسلمن برسباى . فكانت مدة سلطنة الملك الصالح بمصر ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما لا غير . وكان ليس له في السلطنة الا مجرد الاسم فقط .

فلما خلعه برسباى من السلطنة عطف عليه ولم يسجنه بشعر الاسكندرية كعادة أولاد الملوك ، بل أدخله دور الحرم وأسكنه في قاعة البربرية هو وأمه خولد بنت الأمير سودون الفقيه . ثم ان الأشرف برسباى زوج الملك الصالح بينت الأتابكى يشبك الأعرج . واستمر الملك الصالح ساكنا في القلعة بدور الحرم ، ورسم له الملك الأشرف برسباى بأن ينزل ويركب في كل جمعة ويزور قبر والده ططر . فكان يركب صحبة المقر الناصرى محمد الملك الأشرف برسباى ويسرون نحو المطرية .

وسيدى محمد هذا كان ابن الأشرف برسباى ، وكان أكبر من ولده سيدى يوسف ولكن توفي في حياة والده عقيب الفصل الذى جاء في سنة ثلاث

وركب من المقعد ، وحملت على رأسه القبة والطير حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وبأس له الأمراء الأرض من الأكابر والأصاغر ، وتلقب بالملك الأشرف ، ودقت له البشائر ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضحج الناس له بالدعاء من الخاص والعام .

قل لما خلع الملك الصالح محمد بن ططر من السلطنة حضر أمير المؤمنين المعتضد بالله داود والقضاء الأربعة ، وحضر الأتابكي ببيغا المظفرى وسائر الأمراء فاشتوروا فيمن يولونه السلطنة ، فقال الأتابكي ببيغا : « الأمير برسباي يكون سلطانا ، وهو أحق بها مني » ... فأثره بالسلطنة على نفسه .

وكان الملك الأشرف برسباي يومئذ دوادارا كبيرا ولم يكن أتابك العساكر . وأصله چركسى الجنس ، جلبه بعض التجار الى البلاد الشامية فاشتراه الأمير دقماق المحمدى نائب ملطية مع جملة ممالك صغار . ثم انه قدمه الى الملك الظاهر برقوق فأخذه وجعله من جملة الممالك السلطانية ونزل بطبقة الزمامية . وكان أغا له الأمير جركس القاسمى المصارع .

ثم ان الملك الظاهر برقوق أعتقه وأخرج له خيلا وقماشاً ، ثم بقى خاصكيا ، ثم ساقيا في دولة الملك الناصر فرج ، ثم التف على شيخ ونوروز لما خامرا بالشام ، فلما قتل الملك الناصر فرج وتسلطن الملك المؤيد شيخ جعله أمير عشرة ، ثم بقى أمير طبلخانات ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم تولى نيابة طرابلس ، ثم قبض عليه الملك المؤيد وسجنه بقلعة المرقب مدة طويلة ، ثم أطلقه وأنعم عليه بتقدمة ألف بدمشق . فلما خامر نائب الشام جقمق الأرغون شاوى قبض على برسباي وسجنه بقلعة الشام . فلما توجه ططر الى الشام وقبض

وثلاثين وثمانمائة . وكان الملك الصالح محمد بن ططر هذا يبهل كثير الحباط . فكان يسمى الفرس البوز (الفرس الأبيض) ، فقال بعض الخدام لاتقل الفرس الأبيض وقل الفرس البوز ، فحفظ منه ذلك الاسم ، فطلب يوما سلطانية صينية أبيض فقال : « هاتوا السلطانية البوز » ... فنهره بعض الخدام ونهاه عن ذلك ، فقال له : « لالأتى علمنى هذا » ... وكان له من أنواع الخباطة أشياء كثيرة ليس هذا محلها ، فكان كما قيل في الأمثال :

في الناس من تسعده الأقدار

وفعله جميعه ادبار

واستمر الملك الصالح على ذلك حتى توفي في ليلة الخميس ثاني عشرى جمادى الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، ومات بالطاعون الذى وقع في تلك السنة ، ودفن على والده ططر بجوار قبر الامام الليث . ومات وله من العمر اثنتان وعشرون سنة .

ولما مات الملك الصالح محمد رسم الملك الأشرف برسباي لأولاد الأمياد الذين كانوا في دور الحرم من داخل بأن ينزلوا يسكنون المدينة . وأنعم على كل واحد منهم بفرس ومائة دينار ، فنزلوا من يومئذ ومسكنوا بالمدينة ، وبطل أمرهم .

الملك الأشرف برسباي

هو الملك الأشرف أبو النصر برسباي الدقماقى الظاهري ، وهو الثانى والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الثامن من ملوك الجراكسة وأولادهم . بويغ بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح محمد بن الظاهر ططر في يوم الأربعاء ثامن ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة (١٤٢١ م) ، فلبس خلعة السلطنة من باب السلسلة

على جقمق نائب الشام وحبسه في قلعة دمشق
أفرج عن برسباى وأحضره صحبته الى القاهرة لما
تسلطن بدمشق . ثم انه خلع عليه واستقر به
دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير على باى المؤيدى .
واستمر برسباى على ذلك حتى توفى الظاهر
ططر وتسلطن ابنه الصالح محمد ، ف وقعت الفتن
بين الأتابكى جاني بك الصوفى وبين الأمير برسباى
فقبض عليه الأمير برسباى وأرسله الى السجن بشغرى
الاسكندرية . فعند ذلك خلع الملك الصالح محمد
من السلطنة وتسلطن عوضه كما تقدم .

فلما تم أمر برسباى في السلطنة عمل الموكب
وخلع من يذكر من الأمراء وهم : المقر الأتابكى
يبغا المظفرى واستقر به أتابك العساكر على عادته .
وكان يبيغا هذا عظيم اللسان قليل الكلام بالعربى
يابس الطباع ، سبىء الخلق ، فلم توافق العسكر
على سلطنته ، ففزع يبيغا بالأتابكية دون السلطنة .
فكان كما قيل في المعنى :

إذا منعتك أشجار المعالى

جناها الغض فاقنع بالشميم

وخلع على الأمير جقمق العيسوى واستقر به
أمير سلاح على عادته ، وخلع على الأمير أقبا
التمرازى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على
الأمير سودون بن عبد الرحمن واستقر به دوادارا
كبيرا ، وخلع على الأمير قصرود بن عثمان واستقر
به أمير آخور كبير ، وخلع على الأمير أزبك
المحمدى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع
على الأمير جقمق العلائى واستقر به حاجب
الحجاب ، وخلع على المقر السيفى جاني بك
البجاسى واستقر به نائب الشام ، وأنعم على جماعة
من الأمراء بتقادم ألف ، وعلى جماعة بامريات
طبلخانات ، وعلى جماعة بامريات عشرة ، ثم أنفق
على العسكر وفرق الاقطاعات على جماعة منهم .

واستقامت أحواله في السلطنة ، وراق له
الوقت . ثم أخذ في أسباب تقرب جماعة من
حاشية الملك المؤيد شيخ ، فخلع على المقر الزينى
عبد الباسط بن القرشى خليل واستقر به ناظر
الجيش المنصورة ، وقد رقى في أيامه الزينى
عبد الباسط حتى صار صاحب الحل والعقد في
تلك الأيام . وكان الملك الأشرف لا يتصرف في
شئ من أحوال المملكة الا برأى القاضى عبد
الباسط . فعظم أمره في تلك الأيام حتى أطلق
عليه عظيم الدولة في أيامه ، واستمر على ذلك في
مدة دولة الملك الأشرف كلها . ثم قرب الأمير ناصر
الدين التاج واستقر به والى القاهرة على عادته ،
وكان أصل التاج من الشوبك ، وكان جده من
النصارى ، وكان ينادم الملك الأشرف ولا ينشرح
الا به . وكان التاج واسطة خير ، قليل الأذى ،
لا تتكلم في حق أحد الا بخير ، ليس عنده ضرر .
وفيه يقول الشيخ تقي الدين بن حجة :

سبع وجوه لتاج مصر

تقول ما في الوجود شبهى

وعندنا ذو الوجوه بهجى

وأنت تاج بفرد وجهه

وقرب أيضا القاضى بدر الدين بن مزهر حتى
صار كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وقرب
جماعة كثيرة من حاشية الملك المؤيد شيخ غير
هؤلاء .

سنة ست وعشرين وثمانمائة (١٤٢٢ م) :

فيها وفي النيل المبارك في ثامن عشر أبيب من
الشهور القبطية ، ولم يسمع بمثل هذا فيما تقدم
من السنين الماضية . وفيه يقول بعض الشعراء :

لما وفي النيل المبارك عاجلا

عم البلاد وللروابى طففا

نشروا القلوع وبشروا بوفائه

فالراية البيضاء عليه بالوفا

برسباى ، وهى أم ولده المقر الجمالى يوسف ،
وكان المتسفر عليها القاضى عبدالباسط .

سنة تسع وعشرين وثمانمائة (١٤٢٥ م) :

فيها أرسل السلطان تجريدة الى قبرس ، فأعطاه
الله تعالى النصر ، وفتح مدينة قبرس فى تلك السنة
وأسر ملكها وجرى به الى القاهرة أسيرا . فكان
يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت
المدينة سبعة أيام . ودخل عسكر الفرنج وهم فى
زناجير وملكهم راكب وعليه آلة الحرب . وكانت
هذه النصره على غير القياس .

وفى هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان
— وهى المدرسة الأشرفية التى عند سوق
الوراقين — فلما وقعت هذه النصره وأسر ملك
الفرنج فى تلك السنة رسم السلطان بأن تعلق
خوذة ملك الفرنج على باب هذه المدرسة لتكون
تذكارا له . وهى الى الآن معلقة فى باب هذه
المدرسة .

سنة ثلاثين وثمانمائة (١٤٢٦ م) :

فيها جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن
الأتابكى جانى بك الصوفى قد كسر قيده وهرب
من السجن . وقيل ان جارية دخلت اليه فى السجن
وقد تحملت بمبرد لطيف فى فرجها ، فبرد به قيده
وهرب من أعلى حيطان البرج وتدلّى فى جبل صغير
وهرب . فلما بلغ الملك الأشرف ذلك اضطربت
جميع أحواله ، وصار يكبس البيوت والحارات ،
وقبض على أصهار جانى بك الصوفى وعاقبهم ،
وكذلك عياله ومماليكه ، وجرى بسبب ذلك على
الناس مالا خيرا فيه ، وصار كل من له عدو يكذب
عليه ويقول جانى بك الصوفى مخبأ عنده ،
فيكبسون عليه بيته وينهبون ماله ويعاقبون ذلك
الرجل أشد العقوبة . واستمر الملك الأشرف على

وفى هذه السنة رسم السلطان للأمير جرباش
الكريشى المعروف بقاشق — بأن يتوجه الى
ثغر الاسكندرية بسبب حفر خليج الاسكندرية ،
لأنه قد طم بالرمال وضعف جريان الماء فيه . فتوجه
اليه الأمير جرباش وجمع ما قدر عليه من الرجال
فجمع ثمانمائة وسبعين انسانا ، وابتدأ فى حفره فى
حادى عشر جمادى الأولى من تلك السنة
المذكورة ، فاتهى العمل منه ومشى فيه الماء فى مدة
أربعة أشهر فسر الناس بذلك .

سنة سبع وعشرين وثمانمائة (١٤٢٣ م) :

فيها تزايدت عظمة الأمير جانى بك مملوك الملك
الأشرف برسباى وصار أمير طبلخاناه دوا دار ثانى ،
واجتمعت فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد
فى دولة أستاذه . وهو صاحب المدرسة التى
بالقرب من المنجكية .

ومما يحكى عنه أنه نفى الأتابكى يبيغا المظفرى
الى ثغر الاسكندرية من غير علم السلطان . فلما
علم السلطان بذلك لم يقل له ليش فعلت ذلك .
وتناهت عظمته حتى التف عليه جميع العسكر ،
وكان الأمراء المقدمون ينزلون معه من القلعة الى
بيته الذى بالقرب من سوق الجوار . ولم يزل
جانى بك على ذلك حتى تخيل منه الملك الأشرف
أن يشب عليه فشغله فى حلوى فاستمر عيلا ملازم
الفراش حتى مات فى أثناء دولة أستاذه . ولو عاش
لوثب على أستاذه وتسلطن .

ومن الحوادث فى أيامه أن شخصا من العوام
شنى نفسه ، وسبب ذلك أنه كانت له زوجة
يجها فطلقها فتزوجت بغيره ووكلته فيه ، فشنى
نفسه من قهره منها فمات .

سنة ثمان وعشرين وثمانمائة (١٤٢٤ م) :

فيها حجت خوند جلبان زوجة الملك الأشرف

ذلك وهو لا يهنا له عيش حتى ظهر جاني بك في بلاد التركمان عند أولاد قرا يوسف ، فعند ذلك سكن الاضطراب من القاهرة .

وفيها قبض السلطان على صاحب بدر الدين نصر الله وعلى ولده صلاح الدين ، وقرر عليهما مالا .

وفيها تولى قاضى قضاة الشافعية العلامة الحافظ شهاب الدين بن حجر الكنانى العسقلانى الشافعى - وهو أول ولايته - فنزل من القلعة الى بيته في موكب .

سنة احدى وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٧ م) :

فيها ابتدا السلطان الملك الأشرف بعمارة مدرسته التى فى خانقا سرياقوس ، وقد تنهى فى رخامها وزخرفها ، ثم عمل فيها خطبة ، ولم يعمل مثلها فى ذلك المكان وكان أول من خطب فيها الشيخ عبد الرحيم الحموى الواعظ ، وقد قرره السلطان فى الخطابة بل كان خطيبا فى الأشرفية التى عند سوق الوراقين أيضا .

سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٨ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير حقيق العلانى واستقر أمير آخور كبير عوضا عن الأمير فسروه ابن عثمان .

وفيها نزل السلطان الى الرماية ، وشق من المدينة وزينت له ، وكان له يوم مشهود والله سبحانه وتعالى أعلم .

سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٩ / ١٤٣٠ م) :

فيها وقع الطاعون العظيم بالديار المصرية . وكان هذا الطاعون مخالفا لبقية الطواعين ، فان عادة الطعن يقع فى فصل الربيع ، وهذا وقع فى وسط الشتاء . واستمر يسلسل أربعة أشهر . وكانت

قوة عمله فى الغرباء والأطفال والماليك والعييد والجوار ، فمات فيه من الناس ما لا يحصى عددهم . حتى قيل انتهى من مات فى يوم واحد الى أربعة وعشرين ألف جنازة ، حتى ضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بعضا . وفى ذلك قول القائل :
قد نقص الطاعون ثلث الورى

وأهلك الوالد والوالده

كم منزل كالشمع سكانه

أطفاهمو فى نفخة واحد

وفى أول شعبان لم يست غير طفل صغير مريض ، وارتفع الوباء بالكلية فى ليلة واحدة ، فسبحان الحى الذى لا يموت ... ولكن ما ارتفع حتى أخلى عدة أماكن .

ومات فيه من الأعيان الملك الصالح محمد بن ططر ، وسيندى محمد بن الملك الأشرف برسبای . وجاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بسوت الخليفة العباس الذى تسطن ، ومات هناك أحمد ابن المؤيد شيخ .

قال الحافظ بن حجر : « لما كثر الطاعون بمصر اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ودعوا الله برفعه . فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص » .

سنة اربع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٠ / ١٤٣١ م) :

فيها كسفت الشمس وقت العصر حتى ظهرت النجوم بالنهار ، واستمرت مكسوفة نحو ساعة الى قريب الغروب .

سنة خمس وثلاثين وثمانمائة (١٤٣١ / ١٤٣٢ م) :

فيها حصر الى الأبواب الشريفة بعض التراكمة وصحبتهم رأس الأتابكى جاني بك الصوفى ، قطعها بعض التراكمة الذين كان عندهم وأرسلها الى السلطان ليحظى عنده بذلك . فلما حضرت الرأس رسم السلطان بأن يطوفوا بها فى القاهرة ، فطافوا

بها ثم علقوها في باب زويلة ثلاثة أيام ، ثم رسم السلطان بأن ترمى ميضة جامع الحاكم فرميت بها وبطل أمر جاني بك الصوفي .

سنة ست وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٢ / ١٤٣٣ م) :

فيها جاءت قصاد قرا ملك الى السلطان وطلعوا الى القلعة وصحبته هدية للسلطان ، فمن جملتها فرس مرآة مكفتة بذهب ، ومن جملتها خروف باليتين ، وخلعة للسلطان مخمل أحمر مرقومة بالذهب ، وبعض أثواب مخمل ، وصقورة برسم الصيد .

فلما رأى السلطان تلك الهدية استقلها وعز عليه أمر الخلعة . ثم انه عزم قصاد قرا ملك في البحيرة ، ثم أحضر تلك الخلعة وألبسها لشخص من الشهدارية — وكان مضحكا — فرقص بها قدام السلطان فضحك عليه . ثم أحضر ناراً وأحرق تلك الخلعة بحضرة القصاد ، وذبح الخروف ثم قال للقصاد : « استاذكم ان أراد أن يبهل أحدا ايش يعمل فيه ؟ » ... فقالوا له : « يرميه في الماء » ... فرسم السلطان برميهم في البحيرة ، فرموهم فيها ، فأقاموا ساعة ثم أطلعوهم ، فرسم السلطان بقص أذنان خيلهم ، وقال لهم : « اخرجوا سافروا في هذا الوقت ، وقولوا لأستاذكم يلاقيني على الفرات » ...

فلما جرى ذلك علق السلطان الجاليش ونادى للعسكر بالعرض ، وأخذوا في أسباب الخروج الى التجريدة .

وقد أولوا الخروف بأنكم عندنا مثل النعاج ، والمرآة بأنكم مثل النساء ... انظروا وجهكم في هذه المرآة . وأولوا الخلعة بأنك نائب من تحت يدنا ...

ثم ان السلطان أنفق على العسكر ، وعين من الأمراء أربعة مقدمين يقيمون بالقاهرة مع جماعة

من الحجاب ، وعين جماعة من الأمراء يتوجهون معه الى البلاد الشامية .

فلما انتهى شغل السلطان عزم على السفر ، وكان نائب الغيبة أقبغا المعروف بالتمرازي أمير مجلس وجماعة من الحجاب وبعض مماليك سلطانية . وبرز خيامه الى نحو الريدانية .

ثم ان السلطان طلب وخرج من الميدان الذي تحت القلعة ، فكان في طلبه مائتا فرس ملبسة بالبركستوفات الفولاذ والحريير الملون ، وكان فيه كجاوتان زركش ، وكان فيه خمسون فرسا بسروج ذهب وكنائش ، وكان له يوم مشهود بموكب عظيم . وكان صحبتته أمير المؤمنين المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة وهم : ابن حنبل ، ويدر الدين العيني ، وشمس الدين البساطي ، ومحب الدين البغدادي الحنبلي . وخرج معه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر . فأقام بالريدانية يومين ثم رحل وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية ، فكان له في الشام موكب عظيم وكذلك في حلب .

ثم خرج من حلب وقصد التوجه نحو آمد من ديار بكر . فلما وصل الى هناك حاصر قلعة آمد أشد المحاصرة ، ونصب عليها عدة مجاليق فلم يقدر عليها ، فأقام هناك مدة ، فوقع في العسكر الغلاء ، فقلق من ذلك ، وكانت العوام تغنى وتقول : « في آمد رأينا العونه ، في كل خيمه طاحونه ، الغلام نهاره يطحن ، والجندي يجيب المونه » ... فلما سمع المماليك ثارت أخلاقهم على السلطان وقصدوا الوثوب عليه هناك ، فخشى الملك الأشرف أن تقع هناك فتنة ، فلم يقع بينه وبين قرا ملك واقعة ولا قابلة ، فمضى بعض الأمراء بين قرا ملك وبين السلطان بالصلح ، فأرسل اليه السلطان القاضي محب الدين بن الأشقر نائب كاتب السر ، فحلف قرا ملك أنه لا يتعدى على بلاد السلطان ولا يحصل منه فساد .

وفيهما توفى الشيخ صلاح الدين الأقفهسى وكان من أعيان العلماء .

سنة أربعين وثمانمائة (١٤٣٦/١٤٣٧ م) :

فيها شوش السلطان على أولاد الناس من أجناد الحلقة ، وصادرهم بسبب اقطاعاتهم ، وأخذ منهم على العبرة القديمة ، فحصل لهم الضرر الشامل . وكان المتكلم في ذلك المقر السيفى أركس الظاهرى أمير دوادار كبير ، فجار عليهم وحصل لهم منه غاية الضرر . وكان سبب ذلك أنه بلغ السلطان أن شاه رخ بن تمرلك تحرك على البلاد ، فقصده السلطان أن يعرج إليه بنفسه ثانيا ، فصادر أجناد الحلقة بسبب ذلك .

وفيهما توفى الشيخ بدر الدين بن الدمايى المالكى المخزومى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله فى قاضى القضاة ناصر الدين التونسى المالكى لما ولاه أمر العقود فى مبادئ عمره :

يا قاضيا ليس يلفى نظيره فى الوجود
قد زدت فى الفضل حتى قلدتني بالعقود
وفيهما كانت وفاة الشيخ زين الدين الخراط الأديب الفاضل ، وله شعر جيد .

سنة احدى وأربعين وثمانمائة (١٤٣٧/١٤٣٨ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، وهو الطاعون الثانى الذى جاء فى آخر دولته . وكان خفيفا بالنسبة الى الطاعون الذى كان قبله ، فمات فى هذا الفصل ما لا يحصى عددهم من ممالك وأطفال وجوار وعبيد وغير ذلك . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

تغير فى مصر الهسواء بأهلها
بدا وعليه صفرة ونحول

ثم ان السلطان قصد التوجه الى نحو الديار المصرية . قيل ان السلطان صرف على هذه التجريدة من المال خمسمائة ألف دينار ولم يظفر بطائل . فلما رجع عاد قرا ملك الى ما كان عليه من العصيان .

سنة سبع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٣/١٤٣٤ م) :

فيها عاد الملك الأشرف برسباى الى نحو الديار المصرية ، فدخل الى القاهرة فى موكب عظيم ، وحملت على رأسه القبة والظير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير حتى طلع القلعة ... وهو آخر من جرد من الملوك وخرج بنفسه الى البلاد الشامية . فلما وصل السلطان خرج ولده المقر الجبالى يوسف الى تلقيه من العكرشة .

سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٤/١٤٣٥ م) :

فيها خلع على المقر السيفى جقمق العلانى واستقر أمير سلاح . وتوفى الشيخ تقى الدين الحسنى شارح كتاب أبى شجاع على مذهب الإمام الشافعى .

وفيهما خلع على القاضى أمين الدين بن الهيصم واستقر فى الوزارة عوضا عن كريم الدين بن كاتب المناخات .

سنة تسع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٥/١٤٣٦ م) :

فيها استقر المقر السيفى جقمق العلانى أتابك العساكر بالديار المصرية .

وفيهما تزايدت عظمة الملك الأشرف برسباى حتى صارت ممالكه المشتروات خمسة آلاف . وفيها عمر السلطان الملك الأشرف تربته التى فى الصحراء عند تربة الظاهر برفوق وجعل فيها مدرسة ،

وفيهما نزل السلطان الى الزمالة ، وشق فى القاهرة وزينت له .

وصح بها موت النسيم وكيف لا
وقد جاءه الطاعون وهو غليل

ثم ان الملك الأشرف برسباى مرض عقيب
ذلك وسلسل في المرض ، فحصل له مالىخوليا وخفة
عقل ونزق ، فرسم بنفى الكلاب الى بر الجيزة ،
فصار كل من أمسك كلبا يأخذ له نصف فضة من
صيرفى باب السلسلة ، فأمسك العياق من الكلاب
نحو ألف كلب فنفوهم الى بر الجيزة .

ثم انه نادى بأن امرأة لا تخرج من بيتها مطلقا ،
فكانت الفاسلة اذا أرادت التوجه الى ميتة تأخذ
ورقة من المحتسب ، وتجعلها فى رأسها حتى تمشى
فى السوق .

ثم انه نادى فى القاهرة بأن فلاحا لا يلبث زمطا
مطلقا ، لا من كبير ولا صغير ، فامتلئ الناس ذلك .

ثم انه رسم بتوسيط الحكماء ، فوسط الرئيس
خضر ، ووسط الرئيس شمس الدين بن العفيف .
واستمر على هذه الخرافات الى أن مات ،
فكانت وفاته فى يوم السبت بعد العصر ، فبات
بالقلعة وأخرجوه فى يوم الأحد ثالث عشر ذى الحجة
سنة احدى وأربعين وثمانمائة ، ودفن بتربته التى
أنشأها عند البرقوقية بالصحراء ، وصلى عليه
العلامة ابن حجر .

ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة .
وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية
ست عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، فكثر
عليه الحزن والأسف من الناس . فان مصر كانت
هادية فى أيامه من الفتن والحروب التى كانت فى
الدول الماضية . وقد قال القائل :

والمرء كالظل ولا بد أن

يزول ذلك الظل بعد امتداد

قيل ان الملك الأشرف لما ثقل فى المرض أحضر
ال خليفة الى داره والقضاة الأربعة وسائر الجند

والأمراء ، وحلف المساليك ثم أنفق عليهم لكل
واحد ثلاثون أشرفيا ، وعهد الى ولده يوسف
بالسلطنة ، وجعل الأتابكى جقمق العلائى وصيا
عليه ونظام المملكة . ثم انه رسم بأن يعاد الى
أجناد الحلقة من أولاد الناس ما أخذ منهم بسبب
الاقطاعات كما تقدم ، فرسم للأمير أركماس
الظاهرى بأن يعاد الى كل واحد ما أخذ منه بالتام
والكمال ويكتب عليه شهادة بذلك ، فأعادوا الى
أجناد الحلقة ما كان أخذ منهم .

وكان الملك الأشرف برسباى ملكا جليلا مبجلا
فى موكله ، وكان متقادا الى الشريعة ويحب أهل
العلم ويقربهم . وكانت معاملته أحسن المعاملات
من أجود الذهب والفضة ، ولا سيما الأشرفية
البرسيهية ، فانها من خالص الذهب ، والى الآن
يرغب اليها الناس فى المعاملة .

وكانت صفة الملك الأشرف برسباى أنه عربى
الوجه ، طويل القامة ، أبيض اللون ، مستدير اللحية
شائب الذقن ، حسن الشكل ، صبيح الوجه ،
عليه سكية ووقار ومهابة مع لين جانب . وكان
عنده معرفة بأحوال السلطنة ، كفتا للملك ، كثير
البر والصدقات ، وله معروف وآثار ... لكنه كان
عنده طمع زائد فى تحصيل الأموال ، محبا لجمع
الأموال من المباشرين وغيرهم .

ومما أنشأه من العمائر فى أيامه المدرسة التى
عند سوق الوراقين ، والمدرسة التى فى الصحراء
التى دفن فيها ، والمدرسة التى فى خاقاه سرياقوس ،
وعمر الوكالة التى فى الصليبة والربعين اللذين بها
وله انشاءات كثيرة بالديار المصرية وغيرها . وكان
الأمير حاسوك شادا على عمائره .

وخلف من الأولاد صبيين وهما يوسف وأحمد .
وكان من أزواجه خوند جلبان وهى أم ولده
يوسف ، وخوند فاطمة بنت الظاهر ططر ، وخوند

، الأتابكى يشبك الأعرج ، وأرسل فأحضر بنت عثمان ملك الروم لكنه لم يدخل عليها . وكان رملوك الجراكسة كما قيل فى المعنى :

قالوا فهل جاد الزمان بمثله

قلت الزمان بمثله لشحيح

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فهم قاضى ضاة الهروى ، وقاضى القضاة علاء الدين بن نى الحنبلى ، وقاضى القضاة التنهنى الحنفى ، لشيخ ناصر الدين الديرى الحنفى ، وابن النقاش ، أعيان علماء الشافعية ، والشيخ شهاب الدين ريزى المؤرخ ، والأتابكى بيبغا المظفرى ، وغير ك من الأعيان .

الملك العزيز أبو المحاسن الدقماقى الظاهرى

هو الملك العزيز أبو المحاسن جمال الدين سيف ، ابن الملك الأشرف برسباى الدقماقى ظاهرى ، وهو الثالث والثلاثون من ملوك الترك ولادهم بالديار المصرية ، وهو التاسع من ملوك جراكسة وأولادهم فى العدد .

بويح بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الأشرف ، يوم السبت ثالث عشر ذى الحجة سنة احدى ربيعين وثمانمائة ، وتسلمن وله من العمر نحو ربع عشرة سنة ، وتلقب بالملك العزيز . وأمه أم لد جركسية تسمى جلبان .

فلما بايعه الناس بالسلطنة جلس على سرير ملك ، وحمل الأتابكى چقمق القبة والطير على أسه من باب الستارة الى القصر الكبير . فلما بلس باسم له الأمراء الأرض ، فاستقر بالأتابكى چقمق العلائى نظام المملكة وصاحب الحل والعقد .

سنة اثنتين واربعين وثمانمائة (١٤٣٨ / ١٤٣٩ م) ؛ فيها دبت عقارب الفتنة بين الأتابكى چقمق

وبين الأمراء الأشرفية ، وصاروا يعاكسون الأتابكى چقمق فيما يفعله من الأمور . وصار الملك العزيز مع چقمق مثل اللولب يدوره كيف شاء ، فليس له فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط لأجل كتب العلامة على المراسيم . وكان الأتابكى چقمق مع الأمراء الأشرفية فى غاية الضنك ، وقصدوا قتله فى القصر عدة مرار . ولولا أن فى أجله فسحة لقتل من يوم مات الأشرف .

ثم ان جماعة من الأمراء المؤيدية والناصرية التفوا على چقمق وتعصبوا له ، فوثبوا على الملك العزيز ، والتف عليهم جماعة كثيرة من المماليك السيفية فأوقعوا مع المماليك الأشرفية ، فلم تكن الا ساعة من النهار حتى انكسر المماليك الأشرفية ، وأحاط بهم كل رزية ، فتشتتوا وتفرقوا ، بيد النوى وتمزقوا . فلما انكسروا وقع الاتفاق وتحقق على سلطنة الأتابكى چقمق ، فأحضروا الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة ، فخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا الأتابكى چقمق ، فكان الذى خلع الملك العزيز قاضى القضاة شهاب الدين ابن حجر .

فلما تولى الأتابكى چقمق رسم بأن العزيز يدخل الى دور الحرم ولم يسجنه بشجر الاسكندرية كعادة أولاد الملوك ، فأخلى له قاعة البربرية وأقام بها . وكان قصد السلطان چقمق بأن يزوج الملك العزيز ويستمر ساكنا بالقلعة ، فما صبر الملك العزيز ووقع منه ما سيأتى ذكره فى موضعه . فكان كما قيل فى المعنى :

قد يدرك المتأنى جل مقصده

وقد يكون مع المستعجل الزلل

فكانت مدة سلطنة الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباى بالديار المصرية ثلاثة أشهر وخمسة أيام كأنها أضغاث أحلام .

الملك الظاهر حقمق

هو الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد حقمق العلاني الظاهري ، وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو العاشر من ملوك الجراكسة وأولادهم .

بوع في السلطنة بعد خلع الملك العزيز يوسف ابن الأشرف برسباي في يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ، فحضر الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة فخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا حقمق ولقبوه بالملك الظاهر ، ثم أحضرت له خلعة السلطنة فلبسها من باب السلسلة ، وركب فرس النوبة ، وحمل القبة والغير على رأسه المقر السيفي قرقماس الشعباني أمير سلاح ، وقد تقدم أنه حضر مع العسكر الذين كانوا في التجريدة .

فلما ركب من المقعد وطلع من باب سر القصر الكبير جلس على سرير الملك ونودي باسمه في القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، ودقت له البشائر في ذلك اليوم بالقلعة ، وفرح غالب الناس بتوليته لكونه كان رجلاً ديناً خيراً قليل الأذى .

وكان أصل الملك الظاهر حقمق جركسي الجنس ، جلبه الحواجا كزل فاشتراه منه العلاني على بن الأتابكي اينال اليوسفي وقدمه الى الملك الظاهر برقوق فصار من جملة المماليك السلطانية ، ثم بقي خاصكبا ، ثم بقي ساقيا ، ثم أمسك وحبس في دولة الملك الناصر فرج ، ثم أطلق وصار أمير طبلخاناه خازندار في دولة الملك المؤيد شيخ ، ثم تقدم ألف في دولة الملك الظاهر ططر . ثم بقي حاجب الحجاب في دولة الملك الأشرف برسباي ، ثم بقي أمير آخور كبير ، ثم بقي أمير سلاح ، ثم

بقي آتابك العساكر ... كل ذلك في دولة الملك الأشرف برسباي . فلما مات الأشرف وتولى ابنه العزيز يوسف بقي حقمق نظام المملكة ومشيرها ، فبقي مع المماليك الأشرفية في غاية الضنك ، وأقام على ذلك مدة يسيرة ، ثم تعصب له جماعة من الأمراء المؤيدية والناصرية وخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا حقمق .

فلما جلس على سرير الملك وتم أمره في السلطنة وبأس له الأمراء الأرض قبض في ذلك اليوم على الأمير جوهر الزمام اللالا وسجنه في البرج بالقلعة . ثم قرر في وظيفة الزمامية فيروز الساقى ، ثم توفي جوهر اللالا في أثناء ذلك من الرجفة ، ثم عمل الموكب في القصر الكبير وخلع على من يذكر من الأمراء وهم المقر السيفي قرقماس الشعباني واستقر به آتابك العساكر بمصر عوضا عن نفسه وقرره في إقطاعه وهو نظام المملكة وزاد عليه امرية أربعين بدمشق ، وخلع على المقر السيفي أقبغا التمرازي واستقر به أمير سلاح عوضا عن قرقماس الشعباني ، وخلع على المقر السيفي يشبك السودوني واستقر به أمير مجلس عوضا عن أقبغا التمرازي ، وخلع على المقر السيفي تراز القرمشي واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن الأمير جانم الأشرفي ، وخلع على المقر السيفي قراقجا الحسنى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن تراز القرمشي ، وخلع على المقر السيفي تغرى بردى البكلمشي — الشهير بالمؤذى — واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن يشبك السودوني ، وأقر المقر السيفي أركماس الظاهري دوادارا كبيرا على عادته كما كان في دولة الملك الأشرف برسباي ... فهذا كان ترتيب الأمراء المقدمين أرباب الوظائف في مبتدأ دولته ، ثم انتقلت الوظائف من بعد ذلك الى

جماعة من الأمراء حسبما يأتي ذكر ذلك في مواضعه عند انتقال الوظائف .

ثم ان الملك الظاهر أنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، وأنعم على جماعة بامريات طبلخانات ، وعلى جماعة بامريات عشرة ، وأرضى جماعة المؤيدية والناصرية بكل ما يمكن من ذلك .

ثم انه أنفق على العسكر نفقة السلطنة ، وفرق الاقطاعات على المماليك السلطانية والمماليك السيفية الذين كانوا سببا لسلطنته ... فأقام في السلطنة مدة يسيرة والأمراء ساكن ، ثم بات الناس وأصبحوا وقد أشيع في ليلة عيد الفطر — والناس في اضطراب — أن الملك يوسف قد تحسب من القلعة ونزل بعد المغرب في صفة صبي طباح ، وعليه ثياب رثة ، وعلى رأسه دست طعام ، وقد لوث وجهه بسواد الدست فكان ذلك فألا عليه . فلما وصل الى باب القلعة ضربه الطباخ الذي وراءه واستخفه في المشى . فلما نزل من القلعة اضطربت الأحوال ، وكان ممالك أبيه أوقعوه في هذه البلية ، فلما وقع تخلوا عنه وتبرأ كل أحد منه . فكان كما قيل في المعنى :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار

فلا تبال أغابوا عنك أو زاروا

أخلاقهم حين تبلوهن أوعار

وفعلهم مأثم للمسرء أو عار

لهم لديك اذا جاءوك أوطار

اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

ثم ان الملك العزيز استمر مختفيا نحو شهر ، والوالى في كل ليلة يكبس البيوت والحارات بسبب الملك العزيز ، وصار كل من كان له عدو يكذب عليه فيكبسون بيته . واستمر الناس في جمرة نار مطلوقة الى أن توجه الملك العزيز الى بعض الأمراء فنه عليه . فلما بلغ بلباي المؤيدى ذلك — وكان

ساكنا في زقاق حلب — جاء ماشيا وقبض على الملك العزيز وتوجه به الى باب السلسلة ، فأنعم عليه السلطان بخمسائة دينار وجعله أمير أربعين ، وقيد العزيز ، ودقت الكؤوسات تحت الليل بسبب ذلك . فلما أصبح الصباح ونزلوا بالملك العزيز من القلعة ، توجهوا به الى البحر ومضى الى الاسكندرية فسجن بها ، وآخر الطب الكى ، وكم عجلة أعقبت ندامة... وكان قصد الملك الظاهر أن يزوج الملك العزيز ويبقى ساكنا في القلعة ، فما سلم من ممالك أبيه ، وحسنوا له الهروب حتى هرب ، وقد دخلوا في خطيئته برأيهم المعكوس . وفي هذه الواقعة يقول بعض الشعراء من أبيات :

ولم يدخلوه السجن الا مخافة

من العين أن تطرا على ذلك الحسن

وقلنا له شاركت في الاسم يوسف

فشاركه أيضا في الدخول الى السجن

واستمر الملك العزيز في السجن مدة دولة الملك الظاهر حتى قُتِلَ كلها . فلما كانت دولة الملك الأشرف اينال رسم للملك العزيز بالافراج ، وأن يسكن في بعض دور الحرم بشعر الاسكندرية ، وأن يركب الى الجامع وقت صلاة الجمعة . واستمر على ذلك الى دولة الملك الظاهر خشنقدم ، فتوفي بشعر الاسكندرية كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

ومن هنا نرجع الى أخبار دولة الملك الظاهر حتى قُتِلَ ، فانه لما رجع العسكر الذى كان قد توجه الى البلاد الشامية ، وحضر صحبة العسكر المقر السيفى قرقماس الشعبانى فوجد الملك العزيز قد تسلطن ، وكان قرقماس فى نفسه من السلطنة شيء ، فلما تسلطن حتى قُتِلَ جعله أميرا كبيرا فاستمر على ذلك أياما ثم لعب الأكرة مع السلطان ، فقصد الأتابكى قرقماس أن يقبض على السلطان وهو

يلعب الأكرة ، فدنا منه وأراد أن يقبض عليه وهو راكب على الفرس ، فانجذب منه السلطان وساق الى الدهيشة .

فلما انقضت الأكرة ونزل الأمراء الى بيوتهم لبس الأتابكي قرقماس آلة الحرب وطلع الى الرميثة ، فالتفت عليه جماعة من الأمراء والماليك السلطانية ، ولكن كان أكثر الأمراء والعسكر مع الملك الظاهر حقيق . فلما ركب قرقماس وطلع الى الرميثة وقف بسوق الخيل ، فنزل السلطان الى باب السلسلة وجلس في المقعد المطل على الرميثة . فلما تسامعت الأمراء الذين من عصابة السلطان طلع الى الرميثة تسعة أمراء مقدمون منهم الأمير بيغا الطيار ، والأمير تمرى ، والأمير قراقجا الحسنى ، والأمير يشبك السودونى ، والأمير تمرى القرمشى ، والأمير تغرى بردى المؤذى ، وغير ذلك من الأمراء المتقدمين وغيرهم ، فأوقعوا مع قرقماس واقعة قوية ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد كسر الأتابكي قرقماس وهرب واختفى في غيظه الذى عند الجزيرة الوسطى . وسبب ذلك أن مملوكا يسمى بلبان كان في باب السلسلة ، فحرر على قرقماس وضربه بسهم نشاب فجاء في يده فخرفها من وسط كفه ، فتألم لذلك قرقماس وهرب من وقته وانكسر . فلما بلغ ذلك السلطان أنعم على بلبان المذكور باقطاع ثقل وجعله خاصكيا .

ثم ان قرقماس أقام في غيظه ثلاثة أيام وأرسل يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل اليه بعض الأمراء ، فطلع به الى القلعة ، فقيده السلطان وأرسله الى السجن بئر الاسكندرية ، وخمدت الفتنة ولم ينل قرقماس مقصوده ، فكان كما قيل في المعنى :

يا خاطب الدنيا الى نفسه

تنح عن خطبتها تسلم

ان التى تخطب غدارة

قريبة العرس من المآثم

ثم ان السلطان خلع على المقر السيفى أقبغا التمرازى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن قرقماس الشعبانى ، وجعله أيضا نائب السلطنة ، وصار يحكم بين الناس وعلى يابه رأس نوبة وتقباء ، وهو آخر من تولى نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وكانت هذه الوظيفة قد بطلت من أيام محمد بن قلاون — وكانت أكبر من الأتابكية — ويخرج النائب الاقطاعات الخفية من غير مشورة السلطان .

وفيها توفى قاضى القضاة المالكى شمس الدين البساطى وولى القضاء البدر التونسى عوضه .

سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة (١٤٣٩ / ١٤٤٠) :

فيها جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن اينال الجكمى نائب الشام قد خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ، وكذلك تغرى برمش نائب حلب ، فعين السلطان لهم تجريدة ثم خلع على المقر السيفى أقبغا التمرازى واستقر به نائب الشام عوضا عن اينال الجكمى ، وخلع على المقر السيفى يشبك السودونى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن أقبغا التمرازى .

فلما توجه العسكر الى البلاد الشامية أوقعوا مع النواب ، فانكسر النواب ، وأسروهم وقطعوا رؤوسهم وأرسلوها الى القاهرة ، فعلقوها على باب زويلة .

وقد وقع للملك الظاهر في أوائل دولته محن عظيمة ، منها تسحب الملك العزيز من القلعة ، ومنها وثوب الأتابكى قرقماس عليه ، ومنها عصيان النواب ، وحصل له غاية الاضطراب . ثم انه أثبت

على الأتابكي قرقماس كفرا ، وحكم به قاضى
القضاة المالكي شمس الدين البساطى .

ومن النوادر ما حكاه بعض المؤرخين أن
الأتابكي قرقماس هذا لما أرادوا ضرب عنقه وهو
فى السجن أحضروا له المشاعلى فضربه ثلاث ضربات
بالسيف فلم يؤثر فيه ذلك ، ففتشوه فوجدوا فى
فيه خاتم فضة . وكان قرقماس أصله من مماليك
الظاهر برقوق ، وكان ضرب عنقه وهو بشعر
الاسكندرية فى السجن .

ثم ان الملك الظاهر صفا له الوقت من بعد ذلك ،
وعاش فى أرغد عيش ، ودام فى السلطنة الى أن
مات على فراشه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .
فكان كما قيل فى المعنى :

لا تسأل الدهر فى بأساء يكشفها
فلو أردت دوام البؤس لم يدم

سنة أربع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٠ / ١٤٤١ م) :

ففى خلع السلطان على القاضى جمال الدين بن
البارزى واستقر به كاتب السر الشريف بالديار
المصرية . وكان القاضى جمال الدين بن البارزى
صهر الملك الظاهر جقمق زوج أخته ، فرقى فى تلك
الأيام الى الغاية . وخلق على القاضى جمال الدين
يوسف بن كاتب حكم واستقر به ناظر الخواص
الشريفة على عادته ، ثم قبض على القاضى
عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة وصادره
واستصفى أمواله فأخذ منه نحو مائتى ألف دينار ،
ثم نفاه الى مكة ، ثم نقله الى الشام . ولما انفصل
القاضى عبد الباسط من نظارة الجيش استقر بها
القاضى محب الدين بن الأشقر عوضا عن القاضى
عبد الباسط .

وفى عزل السلطان قاضى القضاة شهاب
الدين بن حجر من القضاء وولى القاضى علم الدين

صالح البلقينى ، فقال القاضى شهاب الدين بن
حجر :

يا أيها السلطان لا تستمع
فى أمركاضيك كلام الوشاه
والله لم نسمع بأن امرأ
أهدى له قط ولا قدر شاه
فأقام القاضى علم الدين البلقينى فى قضاء القضاة
مدة يسيرة وعزل عنها ثم أعيد ابن حجر الى القضاء
ثانى مرة .

سنة خمس وأربعين وثمانمائة (١٤٤١ / ١٤٤٢) :
ففى كانت وفاة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى
الفتح داود بن المتوكل ، وكانت خلافته ثمانيا
وعشرين سنة وشهرين . وقد بايع فى أيامه من
السلطين ستة وهم : المظفر أحمد بن المؤيد شيخ ،
والظاهر ططر ، وابنه ، والأشرف برسبى ، وابنه ،
والملك الظاهر جقمق .

ولما مات الخليفة داود نزل السلطان وصلى
عليه ، وكان كثير البر والصدقات . وكانت وفاته
فى يوم الأحد رابع ربيع الأول من هذه السنة .
وفى هذه السنة كان وفاء النيل رابع عشر
أبيب ، وقد وقع مثل ذلك فى أيامه مرتين .
وفى عزل البدر العينى عن الحسبة ، وتولى
الشيخ على العجمى الخراسانى .
وفى توفى الشيخ تقي الدين المقرئى المؤرخ ..
والأصح أنه توفى سنة ست وأربعين لا فى السنة
المذكورة .

ولما مات المعتضد تولى من بعده أخوه سليمان
ابن المتوكل ، ولقب بالمستكفى بالله ، فقال الناس :
ورث سليمان داود .

سنة ست وأربعين وثمانمائة (١٤٤٢ / ١٤٤٣ م) :

ففى من الحوادث أن طائفة من العبيد السود
خامروا على أستاذهم ، وعدوا بر الجيزة فأقاموا

الله أعطاني وكيلا رضا
فحسبى الله ونعم الوكيل

سنة ثمان وأربعين وثمانمائة (١٤٤٤ م) :

فيها أرسل السلطان خلف القاضى عبد الباسط
— وكان منفيًا بمكة — فلما حضر أكرمه السلطان
وأقام في بيته بطالا وفي غاية العز والعظمة ...
وكان يطلع الى السلطان في رأس كل شهر ويهنئ
به ، فيكرمه السلطان ويعظمه . واستمر على ذلك
حتى مات .

وفيها وثب ممالك الأمير تغرى بردى المؤذى
عليه وهو في بيته ، فرموا عليه بالنشاب وهو جالس
في المقعد فهرب ودخل الى البيت وأغلق عليه الباب ،
فاستمروا يحاصرونه من أول النهار الى العصر ،
واستمر من الطرية مريضا الى أن مات . فلما مات
خلع السلطان على الأمير اينال العلائى واستقر به
دوادارا كبيرا عوضا عنه .

سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٥ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، ومات فيه من
الناس ما لا يحصى عددهم ، لكنه كان خفيفا بالنسبة
الى الطاعون الذى جاء في أيام الأشرف برسباي .
وفيه يقول الشيخ شمس الدين النواجي :

يا لها أهدي الى الخلق رحى
بوباء جم الشواب العظيم
قد شريت النفوس منا فخذها
بالرضا في قضاك والتسليم

وفيها كان مولد الشيخ جلال الدين بن الشيخ
كمال الدين الأسيوطى ، وذلك في جمادى الآخرة
من تلك السنة .

وفيها توفي الأتابكى يشبك السودونى ، واستقر
في الأتابكية اينال العلائى الأجرود ، وكان دوادارا

هناك وأفهموا العصيان ، وجعلوا لهم سلطانا
وزيرا وأميرا كبيرا ودوادارا . وصار سلطانهم
يركب وعلى رأسه صنجق أصفر وحوله جماعة من
العبيد نحو من خمسمائة عبد ، فصاروا يسدون
هناك وينهبون ما يمر عليهم من غلال وغير ذلك ،
فحصل للناس منهم غاية الأذى . فلما بلغ السلطان
ذلك عين لهم بعض الأمراء ومعه جماعة من المماليك
السلطانية ، فعدوا اليهم وأوقعوا معهم ، فانكسر
العبيد وأسر سلطانهم ومسك منهم جماعة وهرب
الباقون ورجعوا الى القاهرة ، فرسم السلطان
ونادى في القاهرة بأن كل من كان له عبد كبير
يطلع به الى باب السلسلة ويقبض ثمنه اثني عشر
دينارا ، فامتثل الناس ذلك ، فاشتري منهم السلطان
جماعة وأرسلهم الى بلاد ابن عثمان ورسم بيعهم
هناك ، فتوجهوا بهم في مركب وهم في الخشب
وباعوهم هناك ، وقطع جادة العبيد الشناترة من
مصر ، وخمدت تلك الفتنة التي كانت بين العبيد .

وفيها كان قاضى القضاة بدر الدين محمود
العينى الحنفى محتسب القاهرة ، فكان يعزر
السوق بذهاب المال ، فمن وجد في بضاعته غشا
يرسلها الى الجبوس فيأكلها المحبوسون ، فكان
يعزر بذلك .

سنة سبع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٣/١٤٤٤ م) :

فيها تزايدت عظمة القاضى زين الدين أبى الخير
ابن النحاس حتى صار وكيل بيت المال وناظر
الكسوة وناظر الجوالى ، فانفرد بالسلطان حتى
قليل كان السلطان قصد أن يزوجه باحدى بناته ،
وقد صار عزيز مصر في أيامه ، وأبطل كلمة جميع
المباشرين ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب
الحل والعقد بمصر كما قيل في المعنى :

يقول بيت المال لما رأى

تدييره ذاك الجلى الجليل

كبيرا . واستقر بالأمير قانباي الجركسى دوادارا
كبيرا عوضا عن الأمير اينال العلأى .

وفىها تولى الشيخ شمس الدين محمد القاياتى
قاضى القضاة الشافعية عوضا عن ابن حجر ، فقال
الشهاب المنصورى فى القاياتى تعصبا لابن حجر :

ان كان شمس الدين قاياتيكم
مستثقل الحركات والسكنات

لا غرو أن أضحي جبانا فى الورى
فالجن منسوب الى القايات

وفىها تزايدت عظمة الأمير زين الدين الحبى
استادار العالية ، ورقى فى أيام الملك الظاهر هذا
الى الغاية ، وهو صاحب الجامع الذى بالحباية ،
والجامع الذى فى بولاق ، والجامع الذى بين
السورين ، وله عدة جوامع بسصر وغيرها . وكان
له حرمة وافرة وكلمة نافذة ، وكان الملك الظاهر
منقادا له لا يسمع فيه مرافعة ، ولم يجرى بعده من
يناطيه فى الاستدارية ، بل كان آخرهم .

سنة خمسين وثمانمائة (١٤٤٦ م) :

فىها تغير خاطر السلطان على الأمير جاني بك
الظاهرى حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الكاشف
الذى كان قد اشتهر بالصلاح ، فنفى الأمير جاني
بك الى نغر دمياط لأمر أوجب ذلك .

وفىها رسم السلطان باعادة مولد سيدى أحمد
البدوى بعد ما كان بطل .

وفىها هجم الفيل الكبير على سايسه وقتله .
فلما بلغ السلطان رسم بقتل الفيل .

وفىها أحضر السلطان الأمير خشقدم الناصرى
من الشام ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمه ألف .

سنة احدى وخمسين وثمانمائة (١٤٤٧ م) :

فىها تغير خاطر السلطان على الشيخ برهان الدين

البقاعى ، وقد وقف شخص وشكاه للسلطان ، فأمر
بسجنه بالمقشرة ، وأخرج عنه وظيفته فى قراءة
الحديث ، ثم نفاه الى الهند حتى شفيع فيه بعض
الأمراء .

سنة ائنتين وخمسين وثمانمائة (١٤٤٨ م) :

فىها كانت وفاة الشيخ الصالح السيد الشريف
الحسيب النسيب شمس الدين محمد الطباطبى أعاد
لله علينا من بركاته ، ودفن بالقرافة الكبرى عند
الشيخ فضل الله بن فضالة .

وفى هذه السنة كان مولدى ، وذلك فى يوم
السبت سادس ربيع الآخر من السنة المذكورة .
هكذا نقلته من خط والدى رحمة الله عليه .

وفىها من الحوادث أن السلطان رسم بسد
خوخة الجسر التى ببركة الرطلى لأمر أوجب ذلك ،
فحصل عند الناس اضطراب زائد بسبب ذلك . ثم
تكلم فى ذلك الجمالى يوسف ناظر الخاص فرسم
بإعادة كل شىء على حاله .

وفىها تولى قاضى القضاة الشافعية الشيخ شرف
الدين يحيى المناوى ، وكان قاضيا على القدر دينا
خييرا من أهل العلم والصلاح .

وفىها من الحوادث أن شخصا أعجميا يسمى
الشيخ أسد الدين كان يدعى أنه شريف ، فجاء الى
الشيخ على المحتسب وقال له : « اجمعنى على
السلطان فانى أعرف صنعة الكيمياء » .. ! فجمعه
عليه فأوحى اليه أنه يطبخ له كيمياء ، وأن هذا وجه
حل ، فانطاع السلطان الى كلامه وأجرى عليه
ما يحتاج اليه من أسباب ذلك ، وصرف عليه جملة
مال نحو من عشرة آلاف دينار ، ولم تصح معه
الكيمياء ، فكان يأخذ الحرير الأحمر بالأرطال
ويوقده فى النار ، ولا يأكل شيئا فيه روح ، فأتلف

على ملك الظاهر جنبه مال ولم يفد ذلك شيئا .
فكان كما قيل في المعنى :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معا
لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وقد تحدث قوم باجتماعهما
وما أظنهما كانا ولا اجتماعا

فأوحوا الى السلطان أن هذا يعبد النار ،
وتحدثوا في حقه بكلمات كثيرة ، فأرسله السلطان
الى المدرسة الصالحية فحكم فيه بعض نواب
القاضي المالكي بدر الدين التونسي بأنه كفر ،
فضربوا عنقه تحت شباك الصالحية ، وكان له يوم
مشهود .

سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة (١٤٤٩ م) :

فيها توقف النيل عن الوفاء ثلاث أصابع وقيل
أربعا ، وأقام على ذلك أياما لم يزد شيئا ، فرسم
السلطان بأن يخرج الناس للاستسقاء ، فخرج
القضاة الأربعة وأمير المؤمنين المستكفي بالله
سليمان ومشايخ العلم والصلحاء وأعيان الناس ،
ولم ينزل السلطان فعز ذلك على الناس . وقد
تقدم أن الملك المؤيد شيخ نزل بنفسه واستسقى
مع الناس ، وكان عليه جبة صوف أبيض ، فلم
يوافق الملك الظاهر على ذلك . ثم خرج أطفال
المكاتب وعلى رؤوسهم المصاحف ، وخرج طائفة
اليهود وعلى رؤوسهم التوراة ، وخرج طائفة
النصارى وعلى رؤوسهم الانجيل ، وأخرجوا
معهم بعض أبقار وأغنام ، وخرج معهم السواد
الأعظم من رجال ونساء وأطفال رضع ، والخلق
يستغيثون : « يا الله ارحمنا » ... وكان يوما
تسكب فيه العبرات ، فتوجهوا نحو الصحراء
عند الجبل الأحمر ، وأحضروا هناك منبرا ، وكان
قاضي القضاة الشافعية يومئذ القاضي شرف الدين

يحيى المساوي ، فصعد المنبر وخطب خطبة
الاستسقاء على جاري العادة ، فلما أراد أن يحول
رداءه - كما جرت به العادة في خطبة الاستسقاء -
سقط الرداء الى الأرض ، فتطير الناس من ذلك .
الناس بذلك . وأنعم السلطان على ابن أبي الرداد
ومعه رايات زعفران ونادى بزيادة أصبع ففرح
الناس بذلك . وأنعم السلطان على ابن أبي الرداد
بمائة دينار بسبب هذه الزيادة . ثم ان البحر
نقص في تلك الليلة أصبعين .

ومن النكت اللطيفة أن بعض العلماء خرج في
بغداد ليستسقى بالناس ، وكان في السماء بعض
سحاب وقت خروجه ، فلما خرج ودعا للناس
ورفع يديه بالدعاء تقطع السحاب وصحت السماء
من الغيم ، فخجل ذلك العالم ودفع الى منزله .
وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

خرجنا نستسقى بفضل دعائه
وقد كاد سحب الغيم أن يلحق الأرضا

فلما ابتدا يدعوا تكشفت السما
فما تم الا والسحاب قد انفضا

فلما نزل البحر ، وقد بقى على الوفاء ثمانية
أصابع ، رسم السلطان بأن يكسروا السد ان زاد
البحر أو لم يزد ، فكسروا السد فلم يجر الماء الا
قليلا ، فدخل غالب الماء الى بركة الفيل من
البحر ، ثم نزل البحر من بعد ذلك ولم يزد
شيئا ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وماجت
الناس على بعضها ، وحصل الضرر الشامل ،
وشرقت البلاد ، وعزت الأقوات وشحط السعر في
القمح والشعير والفول وسائر الحبوب ، وتزايد
سعر كل شيء وتناهى سعر القمح الى خمسة
أشرفية كل أردب ، ثم تناهى الى سبعة أشرفية كل
أردب ، وغلا سعر كل شيء من البضائع حتى روايا
الماء ، وعم الغلاء سائر البلاد ، وشرقت غالب

البساتين وماتت الأشجار وماتت البهائم . فلما جرى ذلك حول الأمراء شونهم الى بيوتهم ومعهم مماليتهم ملبسة خوفا من العوام أن ينهبوا القمح .

ثم ان العوام رجموا القاضى أبا الخير بن النحاس وكيل بيت المال ، وقد بلغهم عنه أنه قال للسلطان : « ان العوام يأكلون بذهبهم حشيشا ، ويأكلون فوقه بأربعة أنصاف حلوى . فالذى يأكلون به حلوى يأكلون به خبزا » ... فرجموه وهو نازل من القلعة ، وخطفوا عمالته من على رأسه ، وأخذوا خواتمه من أصابعه . ثم رجموا العلائى على بن القيسى محتسب القاهرة بسبب الخبز ، فانه وصل سعر كل رطل خبز نصفى فضة ، وقاسى صاحب أمين الدين بن الهيصم والأمير زين الدين الاستادار فى هذه الغلوة من المماليك ما لا خير فيه ، وصاروا يضربونهم ويرجمونهم ، وتشحط اللحم والجبن وسائر البضائع ، حتى الروايا الماء . واستمرت هذه الغلوة نحو سنتين . وقد رثى بعض الشعراء الخبز لما عز وتشحط بقوله :

قسما بلوح الخبز عند خروجه

من فرنه وله الغداة فوار

ورغائف منه تروك وهى فى

سحب الثفال كأنها أقمار

من كل مصقول السوالف أحر

خدين للشوليز فيسه عذار

كالفضة البيضاء لكن يغتدى

ذهبا اذا قويت عليه النار

تلقى عليه فى الخوان جلالة

لا تستطيع تحده الأبصار

فكان باطنه بكفك درهم

وكان ظاهر لونه دينار

ما كان أجهلنا بواجب حقه

لو لم تبينه لنا الأسعار

ان دام هذا السعر فاعلم أنه

لا حبة تبقى ولا ميسار

ثم وقع الطاعون فى هذه السنة أيضا بالديار المصرية ، ومات فيه ما لا يحصى عددهم من مماليك وأطفال وجوار وعبيد ومرباء حتى قيل كان يموت فى كل يوم نحو عشرة آلاف انسان ، وفى ذلك يقول شمس الدين النواجى :

رب نج الأنام من هول طعن

قد قضى غالب الورى فيه نجبه

رخصت قيمة النفوس فأضحت

كل روح تباع فيه بجبه

وفى أواخر هذه السنة كانت وفاة القاضى عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة كان . فكانت وفاته فى سادس شوال من السنة المذكورة ، وكان له بر ومعروف وفعل خير ، وأنشأ عدة مدارس بمصر ومكة والمدينة وبيت المقدس ، وكان له سحابة تطلع فى كل سنة يرسم الحجاج المنقطعين ، وقطع من طريق العقبة ، وأرسل حجارين قطعوا منها ما كان يشوش على الحجاج . وكان القاضى عبد الباسط عزيز مصر فى أيامه ، فلما مات تزوج الملك الظاهر ببنته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سنة أربع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٠ م) :

فيها كانت وفاة شيخ الاسلام قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى الكنانى الشافعى رحمة الله تعالى عليه ١ ، وكانت جنازته مشهودة . ولما مات لم يخلفه أحد من العلماء من بعده ، وقد رثاه الشيخ شهاب الدين المنصورى بقصيدة منها :

(١) في « الشرح » وغيره ان وفاة ابن حجر كانت سنة ٨٥٢

بكك العلم حتى النحو أضحى
مع التصرف بعدك في جدال
وقد أضحى البديع بلا بيان
وقد سلفت معانيه الغوالي
وقد درست دروس العلم حزنا
وقد ضل الجواب عن السؤال
تكرت المعارف في عياني
وتميزى غدا في سوء حال
وما عوضت من بدل وعطف
سوى توكيد سقمى واعتلالى
وكم جنت المتون على كرام
وجندلت الكمى بلا قتال
فيا قبرا ثوى فيه تهنى
فقد حزت الجميل مع الجمال
سئلك الله عينا سلسيلا
وأمنع ما عليك من الظلال

سنة خمس وخمسين وثمانمائة (١٤٥١ م) :

فيها وفاة أمير المؤمنين المستكفى بالله سليمان
ابن المتوكل على الله محمد . وكانت وفاته في يوم
الجمعة ثاني المحرم من السنة المذكورة ، فكانت
مدة خلافته نحو عشر سنين . ولما مات نزل
السلطان وصلى عليه ومشي في جنازته حتى دفن
عند أقاربه بالمشهد النفيسى . ومات ولم يعمد
لأحد من اخوته .

فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم عقد
السلطان مجلسا بالقصر الكبير ، وجمع فيه القضاة
الأربعة وهم : قاضى القضاة الشافعية شرف الدين
يعنى المناوى ، وقاضى قضاة الحنفية سعد الدين
الديرى ، وقاضى القضاة الحنابلة عز الدين
العنبلى ، وقاضى القضاة المالكية شمس الدين
البساطى .

وكان المتكلم في ذلك المجلس القاضى كمال
الدين محمد بن البارزى كاتب السر الشريف .
فلما تكامل المجلس وقع الاختيار على تولية
حمزة بن المتوكل - وكان أسن اخوته - فولاه
السلطان . ثم ان القاضى كمال الدين بن المبارك
البارزى استرعى السلطان مبايعة الخليفة حمزة ،
ولقبوه بالقائم بأمر الله ، ثم أحضروا له التشريف
فالبسوه له ، ونزل من القلعة في موكب عظيم
وقدماه القضاة الأربعة وأعيان الناس حتى وصل
الى بيته وهو في غاية العظمة ، فكان أحق بقول
القائل :

كل يهنئك بالتشريف محتفلا
يا من بأيامه المعروف معروف
لكنى بك أختار الهناء له
فان قدرك للتشريف تشريف

ومن الحوادث أن السلطان رسم بحرق
شخص خيال الظل جميعها وأبطلها ، ورسم
بإبطال نوبة خاتون التى كانت تعزف بالقلعة بعد
العشاء .

وفيها توفى العلامة قاضى القضاة بدر الدين
محمود العينى الحنفى صاحب التاريخ البدرى .

سنة ست وخمسين وثمانمائة (١٤٥٢ م) :

فيها توفى القاضى كمال الدين ابن القاضى ناصر
الدين البارزى كاتب السر الشريف بالديار
المصرية . فلما أن توفى القاضى كمال الدين بن
البارزى خلع الملك الظاهر على القاضى محجب الدين
ابن الأشقر واستقر به كاتب السر الشريف بالديار
المصرية ، عوضا عن القاضى كمال الدين بن
البارزى ، وخلع على القاضى جمال الدين يوسف
واستقر به ناظر الجيوش المنصورة مع ما بيده من
نظارة الخاص .

وكان القاضي كمال الدين بن البارزى من أهل الفضل والعلم ، وله خط جيد وعبرة حسنة . وكان له نظم رقيق ، وقد فاق والده القاضي ناصر الدين البارزى .

ومن النكت اللطيفة قيل كتب القاضي ناصر الدين البارزى تقریظا ، وقد استوفى الى آخر الورقة ، فلما فرغ قالوا له : « لابد من كتابة ولدك القاضي كمال الدين على هذا التقریظ » . فأمره بأن يكتب تحت خطه — ولم يبق من الورقة الا قدر أصبعين — فكتب القاضي كمال الدين تحت خط والده :

مرت على فهمى وحلو لفظها

مكرر ، فما عسى أن أصنعاً ؟

ووالدى — دام نقاء مؤدده —

لم يبق فيها للكمال موضعا

فالظر الى حسن أدبه ، مع بلوغ الفصد وحسن ما وقع له بالتورية مع تضمين اسمه وعدم الحشو ، وحسن المقابلة بين الحلو والمر ، وهذا في غاية الرقة .

ومن الحوادث في أيام الملك الظاهر جقمق أن البلاد لما شرقت رسم للمقطعين بأن البلاد التى رويت من ماء النيل فى تلك السنة يأخذون عنها من الفلاحين القطيعة قطيعتين ، ففعلوا ذلك ومشى هذا الأمر .

ومن الحوادث فى أيامه أن بركات ، أمير مكة ، كان قد أظهر العصيان ، فتوجه اليه القاضي شرف الدين الأنصارى فحضر صحبته ، فلما وصل نزل اليه السلطان ولاقاه من المطعم ، فدخل صحبته وطلع الى القلعة ، فخلع عليه وأكرمه وزالت تلك الوحشة التى كانت بينهما .

سنة سبع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٣ م) :

فيها توعك جسد السلطان ولزم الفراش وسلسل فى المرض . فلما ثقل عليه الضعف أرسل خلف أمير المؤمنين القائم بالله حمزه والقضاة الأربعة ، فلما حضروا عهد بالملك الى ولده المقر الفخرى عثمان ، وخلع نفسه من السلطنة ، واستمر عيلا ملازم الفراش الى أن توفى فى ليلة الثلاثاء رابع شهر صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، فغسلوه وكفنوه وصلى عليه الخليفة حمزة بالقلعة ، ونزلوا به من باب المدرج ، وتوجهوا به الى تربة قانباى الجركسى التى عند دار الضيافة فدفن هناك ، وكثر عليه الحزن والأسف من الناس .

وقيل مات وله من العمر نحو احدى وثمانين سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك أربع عشرة سنة وعشرة أشهر ويوما وقيل يومين .

وكان ملكا عظيما جليلا دينا خيرا متواضعا كريما يحب فعل الخير . وكان عنده لين جانب ، يحب العلماء وينقاد الى الشريعة ، ويقوم الى العلماء اذا دخلوا عليه . وكان يحب الأيتام ويكتب لهم الجوامك ، ولا يخرج اقطاع من له ولد الا الى ولده . وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن والتجاريد . وكان يحسن للأمرء التراكمة ويعطيهم العطايا الجزيلة ، فكانوا تحت طاعته فى مدة ولايته .

وكان الملك الظاهر طاهر الذليل عفيفا عن ... و

وكانت صفته : معتدل القامة ، غليظ الجسد ، درى اللون ، مستدير الوجه ، مستدير اللحية ، حسن الشكل ، عليه وقار ومكينة ، مهيبا فى العيون . وكان فصيح اللسان بالعربية ، متفهما

وله مسائل في الفقه عويصة ترجع له فيها العلماء ..
لكنه كان صاحب ودينة ، ماشيا على قاعدة
الأثر : عنده الدعوى لمن سبق ، وكان عنده
حدة زائدة وبادرة في الأمر .

ومن مساويه أنه كان عنده خرق في حق
العلماء ، منها أنه سجن قاضي القضاة ولي الدين
السقطي في المقشرة ، ومنها أنه عزز الشيخ شمس
الدين الكاتب في وسط الصالحية وكان يكره
جماعة الأشرف برسباي ونفى منهم جماعة ،
ونفى أبا الخير بن النحاس — الذي ما كان عنده
أعظم منه — وسجنه بالديلم أياما ، وسجن جماعة
كثيرة من العلماء بالمقشرة ، وصادر القاضي
عبد الباسط وأخذ أمواله ، وأثبت على الأتابكي
قرقماس الشعباني كفرا وأرسل يضرب عنقه بشعر
الاسكندرية ، وأثبت على الأمير بخشاي كفرا
وضرب عنقه . وكان إذا سمع بأن أحدا يسكر
ينفيه ويقطع جامكته ويخرج اقطاعه . وغضب
في وقت على النصاري فهدم جانباً من
كنائسهم ، وحجر على بيع النبيذ ، وكتب على
اليهود والنصارى قسائم ألا يعصروا خمرا ، ثم
كبس البيوت والحارات بسبب ذلك وأراق من
الخور أشياء كثيرة ، ثم أمر بسد خوخة باب
الجسر التي عند بركة الرطلي فأقام مسدودا أياما
ثم رسم بفتحه . وكان له أشياء كثيرة من هذا
النمط بحسب الوسائط. السوء ... وبالجمله كانت
محاسنه أكثر من مساويه ، وكان خيار ملوك
الترك من الجراكسة بالنسبة الى غيره من الملوك
كما قيل في المعنى .

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها

كفى المرء فضلا أن تعد معاييه

ولما مات الملك الظاهر خلف من الأولاد ثلاثة

صبيا وبنتين ، وهم : الملك المنصور عثمان الذي

تسلطن بعده . وأما البنتان فاحدهما من خولد
التي هي بنت البارزي تزوجت بالأتابكي أزبك ،
والأخرى تزوجت بالأمير جانبك الظريف أولا ثم
تزوجت بالأتابكي أزبك بعد موت أختها

وأما نساؤه فخوند بنت البارزي أولا ، وخوند
بنت الأمير جرباش الكريمي قاشق أمير سلاح ،
وخوند بنت ابن عثمان ، وخوند الجركسية ،
وتزوج بينت عبد الباسط ناظر الجيش .

وكانت دولته ثابتة القواعد وأما أمراؤه
الأتابكية فالأمير قرقماس الشعباني أولا ، ثم
الأمير أقبغا التمرزي ، ثم الأمير يشبك السودوني
ثم الأمير اينال العلاني .

وأما دوااريات فالأمير اركماس الظاهري
أولا ، ثم الأمير تغري بردي المؤذي ، ثم الأمير
اينال العلاني ، ثم قانباي الجركسي ، ثم الأمير
دولاتباي المؤيدي .

وأما قضاته الشافعية فالقاضي شهاب الدين بن
حجر أولا ، ثم القاضي علم الدين صالح البلقيني
والقاضي شمس الدين القاياتي ، والقاضي ولي
الدين السقطي ، والقاضي شرف الدين يحيى
المنأوي . وأما قضاته الحنيفية فالقاضي سعد الدين
ابن الديري . وأما قضاته المالكية فالقاضي شمس
الدين محمد البساطي أولا ، ثم القاضي بدر الدين
ابن التونسي ، ثم القاضي ولي الدين الأموي . وأما
قضاته الحنابلة فالقاضي محب الدين العسقلاني
أولا ، ثم القاضي بدر الدين البغدادي ، والقاضي
عز الدين الحنبلي .

وأما كتاب سره فالقاضي بدر الدين بن مزهر
أولا ، والقاضي كمال الدين بن البارزي ، والقاضي
محب الدين بن الأشقر من بعده .

وأما نظار جيوشه فالقاضي عبد الباسط أولا ،

ثم القاضي محب الدين بن الأشقر ، والقاضي جمال الدين يوسف بن كاتب حكيم .

وأما نظار الخواص الشريفة فالقاضي جمال الدين يوسف بن كاتب حكيم المذكور .

وأما وزراؤه فالصاحب كريم الدين ابن كاتب المناخات ، والصاحب أمين الدين بن الهيصم .

وأما استدارياته فالأمير عبد الرحمن بن الكويز والأمير زين الدين يحيى . وتولى غير هؤلاء جماعة لهم تظل مدتهم فلم نذكرهم ههنا .

وأما من تولى الحسبة في أيامه فالقاضي محمود العيني ، والشيخ على العجمي ، والعلائي على بن القيسي ، وعبد العزيز بن محمد الصغير أيضا .

وأما ولاية القاهرة في أيامه فنصور بن الطبلأوى وجاني بك ، وقراجا ، وعلى بن القيسي ، وغير ذلك من الأتراك وغيرهم .

وأما من توفي في أيامه من الأعيان فهم الخليفة داود ، والخليفة سليمان ، وقاضي القضاة شمس الدين البساطي المالكي ، وقاضي القضاة ولي الدين السقطي الشافعي ، وقاضي القضاة محب الدين العسقلاني الحنبلي ، وقاضي القضاة بدر الدين البغدادي الحنبلي ، وقاضي القضاة بدر الدين التولسي المالكي ، وقاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي — وهو صاحب التاريخ البدرى — وكان العيني من أهل الفضل وله عدة مصنفات في علوم جلية ، وكان له شعر جيد . وفيه يقول بعض الموالاة هذه الأبيات المواليا ، وقد جمع فيها الفنون السبعة وهو قوله :

قوما لدو بيت قاضي قد زجل شيني

بكان وكان امتدح بين الوري زيني

وانقل موشح مواليا بلا ميني

فأبهر الشعر مجراها من العيني

وتوفي في أيام الملك الظاهر ولده المقر الناصري

محمد ، وتوفي القاضي الوفاي ، وابن الجزري شيخ القراءات . وتوفي الحافظ عبد الرحيم الحموي المحدث ، وتوفي شيخ الزهاد محمد بن سلطان ، والشيخ كمال الدين المجذوب ، والشيخ عبادة المالكي ، والشيخ شمس الدين الحنفي ، والشيخ أبو الفتح بن أبي الوفاء ، والأمير جوهر اللالا الزمام القنقباي الخازندار .

وتوفي في أيامه جماعة كثيرة من الأمراء المقدمين وأعيان الناس من الأكابر .

وتوفي في أيامه من الشعراء الشيخ تقي الدين ابن حجة صاحب شرح البديعية ، توفي بحماه . وتوفي الشيخ شهاب الدين بن مبارك شاه ، وكان من أعيان الشعراء . وتوفي الشيخ شمس الدين بن كميل ، وكان له شعر جيد . وتوفي البدر البشتكي من أعيان الشعراء ، وتوفي الشيخ شمس الدين النواجي صاحب حلبة الكميث ، وكان من أعيان الشعراء ، وقد رثاه الشهاب المنصوري حيث قال :

رحم الله النواجي فقد

فقد الدنيا وأبقى ما روى

وانطوى في شقة البين فيا

حسرة العشاق من بعد النوا (جى)

الملك المنصور أبو السعادات

هو الملك المنصور أبو السعادات ، فخر الدين عثمان ، ابن الملك الظاهر چقمق العلاني ، وهو الخامس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الحادي عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد .

بويج بالسلطنة بعد خلع أبيه من السلطنة في يوم الخميس حسادي عشرين المحرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٣ م) .

تسلطن وله من العمر نحو تسع عشرة سنة . وكانت أمه أم ولد رومية الجنس ، فلبس خلعة السلطنة من الدهيشة ، وركب وتوجه الى القصر الكبير والأتابكى اينال العلائى حامل القبة والطير على رأسه . فلما جلس على سرير الملك باست له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضع له الناس بالدعاء — هذا كله ووالده الظاهر فى قيد الحياة — فأقام اثنى عشر يوما حتى توفى والده .

فلما تم أمره فى السلطنة خلع على الأمير تمرغا واستقر به دوادرا كبيرا عوضا عن الأمير دولاتبای المؤيدى .

ثم انه قبض على الأمير زين الدين استادار ، وكان بينه وبينه حظ نفسى من أيام والده ، فلما قبض عليه لم يرث له وسلمه الى الأمير فيروز الزمام . ثم خلع على الأمير جاني بك نائب جدة واستقر به استادارا عوضا عن زين الدين ، ثم نقل زين الدين من عند فيروز الزمام وسلمه الى الأمير جاني بك نائب جدة فعاقبه وأحضر اليه المعاصير وعصره فى أركابه حتى كسرهما ، واستخرج منه نحو أربعين ألف دينار ، واستمر فى العقوبة أياما . وفيه يقول بعض الشعراء :

أخبار زين الدين قد شاعت بها

أعداؤه بين الورى تتعهد

لا غرو ان هم بالغوا فى عصره

فالكرم يعصر والجواد يقيد

ثم ان الملك المنصور أخذ فى أسباب نفقته على العسكر ، ولم يكن فى الخزائن شىء من المال .

فقبل خلف الملك الظاهر حقمق فى الخزائن من المال ثلاثين ألف دينار لا غير ، فشكا ذلك الى القاضى جمال الدين يوسف ناظر الخاص ، فقال :

« على ذلك » . ثم ضرب دنانير ذهب ينقص كل دينار عن الأشرفى قيراطين ، وسماها المناصرة ، ف ضرب منها جملة كثيرة ، وأراد أن ينفق ذلك على العسكر

ولما كان يوم الاثنين مستهل ربيع الأول من سنة سبع وخسين وثمانمائة وثب الممالك الأشرفية والمؤيدية ، والتف عليهم جماعة من الممالك السيفية . فلما وثبوا توجهوا الى بيت الأتابكى اينال العلائى فأركبوه غصبا ، وأتوا به الى البيت الكبير الذى عند حدرة البقر . فلما استقر به أرسل خلف أمير المؤمنين حمزة ، فلما حضر أخذ فى أسباب خلع الملك المنصور عثمان فكتبوا محضرا وشهد فيه جماعة الخاصكية بما يوجب خله ، فخلع من السلطنة وبويع الأتابكى اينال بالسلطنة . واستمرت الحرب ثائرة بين الفريقين من يوم الاثنين الى يوم الأحد سابع ربيع الأول ، فانكسر الملك المنصور عثمان فى ذلك اليوم .

وكان الملك المنصور أرسل يحضر عربانا من الشرقية وعربانا من البحيرة ، فمنعه من ذلك الأمير قانباى الجركسى وما مكنه من ذلك ، وقال : « تطمع العرب فى الترك » ... ولا زال اينال يحاصر الملك المنصور وهو بالقلعة ، وقطع عنه الماء ومنع عنه الأكل ، حتى ضجر وانكسر ، فملك اينال باب القلعة وولوا الظاهرية منهزمين كأنهم لم يكونوا .

فلما تسلطن اينال قبض على الملك المنصور وقيده وسجنه بالبحرة وهو مقيد فأقام بها الى يوم الأحد ثامن عشرى ربيع الأول ، فأنزله من القلعة من باب القرافة وهو مقيد الى أن وصلوا به البحر فأنزله فى الحراقة وتوجهوا به الى السجن بشعر الاسكندرية ، وكان المتسفر عليه الأمير خير بك الأشقر أمير آخور ثانى . فلما وصل الى الاسكندرية سجن بها ورجع الأمير خير بك ... فكانت مدة

الملك الأشرف إينال

هو الملك الأشرف أبو النصر ، سيف الدين إينال ، العلاني الظاهري ، وهو السادس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثاني عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم .

بويح بالسلطنة بعد خلع الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر چقمق ، وذلك يوم الاثنين ثامن ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، وتلقب بالملك الأشرف .

وقد تقدم أن جماعة من الأشرفية والمؤيدية والمماليك السيفية ، لما وثبوا على الملك المنصور ، توجهوا الى بيت أتابكي إينال وأركبوه غصبا وأتوا به الى حجرة البقر في بيت قوصون فجلس به ، وأرسل خلف أمير المؤمنين حمزة ، فلما حضر قام في سلطنة الأتابكي إينال غاية القيام ، وخلع الملك المنصور من السلطنة قبل أن ينكسر ، وباع الأتابكي إينال ، ونودي باسمه في القاهرة . واستمرت الحرب نائرة بينهم سبعة أيام ، وقتل في هذه المدة من الناس ما لا يحصى . وآخر الأمر انكسر الملك المنصور وملك إينال باب السلسلة .

فلما استقر يباب السلسلة بعث جماعة من الأشرفية قبضوا على الملك المنصور وقيده وأدخلوه البحرة ، وقبضوا على جماعة من الظاهرية فبات ليلة الاثنين في باب السلسلة .

فلما كان يوم الاثنين أحضر اليه شعار الملك ، وأقيض عليه ، وقدمت له فرس النوبة فركب من سلم الحراقة ، وحملت القبة والطير على رأسه وولده الشهابي أحمد ، ومشى قدامه الأمراء حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وبأس له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر

سلطنة الملك المنصور عثمان ثلاثة وأربعين يوما ، وكانت كسنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم ، كما قيل في المعنى :

فلم يقم الا بمقدار أن

قلت له أهلا أخى مرحبا

واستمر الملك المنصور بشعر الاسكندرية الى دولة الملك الظاهر خشقدم ، فرسم بالاطلاق ، وأن بسكن في بعض دور الاسكندرية ، وأن يركب الى صلاة الجمعة . واستمر على ذلك الى دولة الأشرف قايتباي ، فنقله الى ثغر دمياط ، وكان يركب ويتصيد ثم طلب من السلطان اذنا بأن يحج فانعم له بذلك ، فحضر الى القاهرة وطلع الى القلعة ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، ثم أقام له بركا وسنيحا وتوجه الى الحجاز فحج وعاد الى القاهرة ، وأقام بها نحو من شهرين ... ففى هذه المدة كان يطلع القلعة ويضرب الأكرة مع السلطان ، ورسم له السلطان بأن يتوشح ببند أصفر حين يلعب الأكرة ، فكان في غاية العز والعظم .

وكان الملك الأشرف قايتباي مملوك أبيه الظاهر چقمق ، والأتابكي مملوك أبيه وصهر زوج أخته ، ومائر الأمراء الظاهرية ممالك أبيه . وكان الأتابكي تمتاز الشمسى متزوجا ببنت الملك المنصور ... فساعدته الأقدار من كل جانب .

ثم رسم له السلطان بالعود الى ثغر دمياط ، وأقام فيها حتى توفي بها أثناء دولة الملك الأشرف قايتباي ، ونقل بعد موته من دمياط ودفن في تربة أبيه الملك الظاهر .

ومات الملك المنصور وله من العمر أربع وخمسون سنة . وكان كريما سخيا لين الجانب .

بالقلعة ، ونودى باسمه في القاهرة ، وارتفعت الأصوات بالدعاء له من الخاص والعام .

وكان أصل الملك الأشرف اينال چركسى الجنس جلبيه الخواجا علاء الدين على فاشتراه منه الملك الظاهر برقوق وصار من جملة مماليكه . فلما توفي الملك الظاهر برقوق وتولى بعده ابنه الناصر فرج أعتقه وأخرج له خيلا وقماشاً وبقي جمدارا ، ثم بقي أمير عشرة في دولة الملك المظفر أحمد ابن المؤيد شيخ ، ثم بقي أمير طبلخاناه رأس نوبة ثاني في دولة الملك الأشرف برسباي ، ثم بقي نائب غزة مع الأشرف برسباي . ولما توجه الى آمد جعله نائب الرها ، وذلك في سنة ست وثلاثين وثمانمائة .

ثم أحضره الأشرف برسباي الى القاهرة وأنعم عليه بتقدمة ألف — واستمرت نيابة الرها بيده زيادة عن التقديم — ثم نقله الأشرف الى نيابة صمد وخرج اليها في سنة أربعين وثمانمائة ، واستمر بصمد الى دولة الظاهر چقمق ، فبعث خلفه . فلما أحضره قرره في مقدمة تغرى بردى المؤذى . فلما توفي الأتابكى يشبك السودولى قرر في الأتابكية عوضا عن يشبك السودولى ، وذلك في سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، واستمر على ذلك حتى توفي الظاهر چقمق وتولى ابنه الملك المنصور عثمان ، فوثب عليه العسكر وتوجهوا الى بيت الأتابكى اينال فأركبوه غصبا ، وأقام الحرب ثائرة بينهما سبعة أيام ، فلما انكسر المنصور وقع الاتفاق على سلطنته فسلطنوه ، وتلقب بالملك الأشرف .

فلما تم أمره في السلطنة وجلس على سرير الملك أخذ في تدبير أمره واصلاح شأنه . ثم انه عين الأتابكية لولده المقر الشهابى أحمد ، فعز ذلك على الأمراء ، فقرر فيها ثانى بك البردبكى وخلع عليه وأقره في الأتابكية عوضا عن ولده ، وأنعم على ولده الشهابى أحمد بتقدمة ألف .

ثم عمل الموكب وخلع على الأمير خشتقدم وقرره أمير سلاح عوضا عن تتم بن عبد الرزاق ، وخلع على طوخ بويتنى بازق وقرره أمير مجلس ، وخلع على فرقماس الجلب وقرره رأس نوبة النوب عوضا عن اسنبغا الطيار ، وخلع على چرباش كرت وقرره أمير آخور كبير عوضا عن قانى باي الچركسى ، وخلع على يونس الأقبای المؤيدى وقرره في الدوادارية الكبرى عوضا عن تمرىغا الظاهرى ، وخلع على جان بك القرمانى وقرره حاجب الحجاب عوضا عن خشتقدم الناصرى ، وخلع على تميزاز الاينالى الأشرفى وقرره في الدوادارية الثانية عوضا عن اسباي ، وخلع على جانى بك القجماسى الأشرفى وقرره في شادية الشراب خانة عوضا عن لاجين الظاهرى ، وخلع على خير بك الأشقر وقرره أمير آخور ثانى ، وخلع على جانبك نائب جدة واستمر متحدثا في الاستادارية ، وخلع على قانى باي الأعمش وقرره في نيابة القلعة ، وخلع على يونس العلانى وقرره في نيابة الاسكندرية ، وخلع على يشبك الناصرى وقرره رأس نوبة ثانى .

وأنعم على جماعة من الأمراء بتقدّم ألوف منهم أرنبغا اليونسى وبرسباي البجاسى وغير ذلك من الأمراء .

ثم أنعم بامرية طبلخانات وعشراوات على جماعة كثيرة من الأمراء منهم جانبك الظريف وقرره في الخازندارية الكبرى عوضا عن أربك بن ملطخ ، وأنعم على بردبك زوج ابنته بامرية عشرة ، وقرر يشبك الأشقر في استدارية الصحبة عوضا عن سنقر أحد أمراء الظاهرية .

ثم انه شرع في ارسال الملك المنصور الى ثغر الاسكندرية ، فنزل به من باب الدرفيل وهو مقيد ، فتوجهوا به الى الاسكندرية فسجن بها بعد أن أنزلوه الى البحر في الحراقة وتوجهوا به ،

وكان المتسفر عليه خير بك الأشقر أمير آخور
ثاني ، فسجنه ورجع .

ثم أنزل من قبض عليه من الأمراء ، وهم :
ابن عبد الرزاق أمير سلاح ، وفاني باي الجركسي
أمير آخور كبير ، وتمربغا الدوادر الكبير ، ولاجين
شاد الشراب خاناه ، وأزبك بن ططخ خازندار
كبير ، وستقر العايق ، وجانم الساقى ، وجاني بك
وسودون الأفرم ... فتوجهوا بالجميع الى ثغر
الاسكندرية فسجنوا بها وهم في قيود حديد .

وفي ربيع الأول ابتدا السلطان بتفرقة النفقة
— وهى نفقة البيعة — على الجند ، وكانت قد
ضربت قبل ذلك ، وهى الدنانير المناصرة تنقص عن
وزن الأشرفي قيراطين من ذهب . وكان القائم في
ذلك ناظر الخاص يوسف . فلما تسلطن اينال ضربت
باسمه وأنفقها على الجند . وجلس السلطان
للتفرقة على الجند ، فأنتق على جماعة من الجند
مائة ، وعلى جماعة منهم خمسين دينارا ، وعلى
جماعة منهم خمسة وعشرين دينارا ، وعلى جماعة
عشرة دنانير ... وهو أول من شح في نفقة البيعة
وميز الجند بعضا على بعض ، فكلمه بعض الأمراء
في ذلك فأجاب بأن الأمير تمربغا الدوادر رتب
ذلك في قوائمه في دولة المنصور ، وقد مضى ذلك
على هذا الحكم ، فما تنبغى الزيادة على ذلك
والخزائن مشحونة من المال ، وان هذا القدر
ما تحصل الا من المصادرات من ناظر الخاص يوسف
وزين الدين الاستادار وغير ذلك من المباشرين .
وهذا أول تصرفات اينال في أحوال أمور المملكة
في الولاية والعزل

وفيه توفي جقمق اليشبكي الخاصكى أحد
معلمي الرمح ، وكان ترشح أمره الى نيابة القلعة
بمصر . وكان شجاعا مقداما في الحرب ، جرح في
هذه الواقعة واستمر ملازما للفراش حتى مات .

وتوفي الشيخ على الرفاعي شيخ المدرسة الأشرفية
— أشرفية برسبای — التي بالصحراء وتوفي
شمس الدين الأبح كاتب الممالك ، وتوفي الأمير
أرنبغا اليونسي الناصري الذي تقرر في مقدمة
الألف . وتوفي جانبك الوالى الزردكاش الكبير
وكان من ممالك يشبك الجكمى ، فلما مات خلع
السلطان على نور كار الحاجب الثاني ، وقرر في
الزردكاشية الكبرى عوضا عن جانبك انوالى ،
وقرر في الجبوية الثانية سماس الحسنى . وقد
قرر السلطان جماعة كثيرة من الأشرفية البرسيهية
في عدة وظائف سنية ، وقرر منهم جماعة كثيرة
رءوس نوب حتى بلغ عدتهم في أيام دولته فوق
الخسة والعشرين أميرا رأس نوبة ، وقرر عدة
دوادرية فوق عشرة أنفار ، وعدة سقاة وبوايين ،
وفرق الاقطاعات على غالب الممالك الأشرفية .
وقبض على جماعة كثيرة من ممالك الظاهر ،
ونفى منهم جماعة من أعيانهم الى بلاد الشام ،
ونفى منهم جماعة الى الوجه القبلى نحو قوص
فاستقامت أموره في السلطنة ، وثبتت قواعد
دولته ، واستمر في السلطنة الى أن مات على
فراشه كما سيأتى ذكر ذلك .

وفي ربيع الآخر قدم جانم الأشرفي الذى كان
أمير آخور كبير ونفى الى صفد ، وحضر جاني بك
قلقسير الأشرفي الذى كان نفى الى طرابلس فحضر
من غير اذن ، فأنعم عليه السلطان بامرية عشرة .
وفيه حملت نفقات الأمراء اليهم على جارى
العادة .

وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من
ممالك القاضى عبد الباسط يقال له لبان ، فوسطه
— ومعه اثنان من أصحابه — وسبب ذلك أنهم كانوا
يحضرون عندهم بنات الحظ ، فاذا بتن عندهم
يقتلونهن ويأخذون ما عليهن من القماش . ففعلوا

ذلك غير مرة حتى غلب عليهم فأشهروهم في القاهرة
وقدامهم أقباص حمالين فيها عظام الأموات التي
كانوا يقتلون منها النساء ، وكان لهم يوم مشهود .
وفيه قرر في قضاء الشافعية بحلب القاضي تاج
الدين عبد الوهاب وصرف عنها الزهرى .

وفيه عقد السلطان لولده المقر الشهابى أحمد
على بنت الأمير دولاب باى الدوادار الكبير .

وفى جمادى الأولى توفى الشيخ سراج الدين
عمر التبانى الحنفى . وكان عارفا بفن علم الرمل ،
وله فى ذلك يد طائلة ^١ ، وكان من خواص المؤيد
شيخ ، وكان رئيسا حشما وله شهرة زائدة .

وفيه قبض السلطان على قراجا الخازندار ،
وكان من المقدمين الألوف ، ورسم باخراجه الى
القدس بطالا ، ولم يكن له ذنب غير أنه أخذوا
منه التقدمة وقرروا فيها جانم الأشرفى .

وفيه قرىء تقليد السلطان بالقصر على العادة ،
وحضر الخليفة والقضاة الأربعة ، فلما انتهى
المجلس خلع السلطان على الخليفة والقضاة ونزلوا
الى بيوتهم .

وفيه توفى قاضى القضاة الحنبلى بدر الدين
عبد المنعم بن محمد بن محمد بن عبد المنعم
البغدادى ، وكان عالما فاضلا معظما عند الناس
وأرباب الدولة وله حرمة وافرة ، ومولده سنة
أحدى وثمانمائة . وكان أعور بأحدى عينيه ولكنه
كان من أعيان علماء الحنابلة من أهل الفضل .

وقد قال فيه بعض الشعراء يداعبه :

ورب أعمى قال فى مجلس

يا قوم ما أصعب فقد البصر

أجابه الأعور من خلفه

عندى من دعواك نصف الخبر

فلما خلع السلطان على الشيخ عز الدين الكنانى

(١) تامل ١

ابن قاضى القضاة برهان الدين ، ابن قاضى القضاة
مجد الدين بن نصر الله ، وقرر فى قضاء الحنابلة بمصر
عوضا عن قاضى القضاة بدر الدين البغدادى
بحكم وفاته .

وفيه جاءت الأخبار بقتل سونجىغا اليوسى ،
وتغرى بردى القلاوى ، وكان كاشف الوجه القبلى ،
وكان قرر فى الوزارة فى أواخر دولة الظاهر جقمق .

أخذ الوزارة عن أمين الدين بن الهيصم ، وكان
فرج بن النحال ناظر الدولة يومئذ ، وكان أصله
من مماليك الظاهر جقمق ، فتوجه سونجىغا للقبض
عليه فتخافقا وهما على الخيل ، فقتل كل منهما
صاحبه بالخناجر ، فماتا معا فى يوم واحد . وكان
سونجىغا من مماليك الناصر فرج بن برقوق ، وكان
من جملة أمراء الطبلخانات ، وسافر أمير الحاج
غير مرة ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على برسباى المؤيدى باقطاع
تغرى بردى القلاوى ، وقرر بلباى الاينالى فى
امرية سونجىغا .

وفيه توفى الشيخ محب الدين أبو القاسم محمد
النويرى المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية ،
وكان ذكر للقضاء غير ما مرة ولم يشم له ذلك .
ومولده سنة احدى وثمانمائة .

وفيه قرر فى تقديمة المماليك الطواشى لؤلؤ
الرومى الأشرفى وصرف عنها مرجان العادلى
وفيه قرر فى كشف الوجه القبلى قراجا العمري
عوضا عن القلاوى .

وفيه توفى الشيخ عز الدين التكرورى المالكى
وكان عالما فاضلا أديبا بارعا ، وكان له خط جيد
وشعر رقيق . وكان مولده سنة احدى وستين
وسبعمائة .

وفيه قدم القاضى محب الدين بن الشحنة الى
القاهرة من غير طلب ، فأراد السلطان أن يرده الى

حلب ، فأوعد ببال ، فأذن له بالدخول الى مصر
فدخل على كره من الجبالى يوسف ناظر الخاص .
وفيه توفى الأمير قانصوه النوروزى ، وكان من
أعيان الرماة بالنشاب ، مشهورا بالفروسية بين
الأتراك .

وفى جمادى الآخرة توفى الأمير دولاب باى
المحمودى المؤيدى ، أمير دوادار كبير كان . وكان
أصله من مماليك المؤيد شيخ ، وكان حج في تلك
السنة . فلما عاد قبض عليه الملك المنصور وبعث
به الى السجن بئر الاسكندرية . فلما تسلطن
الأشرف اينال رسم بالافراج عنه ، فحضر الى
القاهرة وقرر في مقدمة ألف ، فأقام مدة يسيرة
وتوفى . وكان أميرا جليلا عارفا بأحوال المملكة ،
سيوسا في أفعاله . ومات وله من العمر نحو ستين
سنة . وكان منهمكا في لذات نفسه ، يميل الى
شرب الراح وحب الملاح . وهو والد سيدى
عمر . وكان لا بأس به .

ولما مات قرر في تقدمته خير بك المؤيدى
المعروف بالأجرود ، وقرر قايتباى المحمودى في
تقدمة ألف بدمشق ، وهى مقدمة قانصوه
النوروزى .

وفيه خرجت تجريدة الى البحيرة بسبب فساد
العربان ، وكان باش العسكر طوخ بانى بازق أمير
مجلس .

وفى رجب رسم السلطان بدوران المحمل ونودى
في القاهرة بالزينة — وكان له مدة وهو بطل —
فساقوا الرماحة في تلك السنة . وكان جاني بك
الظريف هو باش الرماحة .

وفيه قرر القاضى زين الدين أبو بكر بن مزهر
في نظر الاصطبل ، وقرر القاضى محب الدين بن

الشحنة باستمراره في قضاء حلب وتوجه الى
حلب .

وفيه تزوج الأمير جاني بك الظريف بنت الملك
الظاهر جقمق ، وهى أخت زوجة الأمير أربك بن
مطخ .

وفيه جاءت الأخبار بقتل قشم المحمودى
الناصرى كاشف البحيرة ، قتله عربان البحيرة
غدرا . فلما قتل قشم قرر عوضه في كشف البحيرة
حسن الدنكرى .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى ثالث
عشرى مسرى ، فنزل لكسره المقر الشهابى أحمد
ابن السلطان ، وكان له يوم مشهود ، وهو أول
فتحة للسد .

وفى شعبان كانت وليمة عرس خوند فاطمة بنت
السلطان ، على الأمير يونس البواب أمير دوادار
كبير ، وكان مهما حافلا بالقلعة وأقام ثلاثة أيام
متوالية ، ثم نزلت في محفة الى دار زوجها وكانت
ليلة حافلة عند نزولها من القلعة .

وفيه جاءت الأخبار ب وفاة نائب صفد يغوت
ابن صفر خجا المؤيدى المعروف بالأعرج ، وكان
أميرا جليلا ، ولى نيابة حماه ونيابة صفد ثم سجن
ثم عاد الى صفد ومات بها .

وفيه ثارت فتنة كبيرة ، وركب المماليك وطلعوا
الى الرملة واضطربت الأحوال ، وسبب ذلك أن
المماليك طلبوا من السلطان نفقة البيعة ، وقالوا
ان التى قد أنفقها السلطان انما هى نفقة الملك
المنصور ونحن نطلب منك نفقة ثانية ، فبعث
يعتذر اليهم ويقول لهم ان الخزائن خالية من
المال ، وهذه النفقة من المصادرات لجماعة من
المباشرين ... فسكنت الفتنة قليلا ، وكانت هذه
تعلية من المماليك السيفية .

وفي رمضان جاءت الأخبار بوفاة جفونس
الناصرى نائب بيروت .

وفيه اختفى الناصب أمين الدين بن الهيصم .
فما اختفى خلع السلطان على سعد الدين فرج بن
لنحال كتب الممالك وقرره في الوزارة عوضا عن
ابن الهيصم ، وكان عين للوزارة ناظر الخاص
يوسف ، فاستغنى من ذلك ، فقرر بها سعد الدين
فرج ، وقرر عوضه في كتابة الممالك ابن عمه
عبد الرحمن . وفيه خلع السلطان على اياس الطويل
وقرره في نيابة صفد عوضا عن ييغوت الناصرى .
وكان اياس الطويل أتابك المساكر بطرابلس ،
وكان خشدش السلطان . وقرر في أتابكية
مرايلى حفظ الناصرى ، وكان من العشراوات
بضرابلس ، وقرر في امرية حطط جاني بك
المحمودى المؤيدى وكان منفيا بطرابلس .

وفيه توجه القاضى عبد الكافى بن الذهبى كاتب
السر بدمشق ، وكان من أعيان الدماشقة ، حسن
الخط والعبارة .

وفي شوال كن العيد يوم الجمعة ، وخطب
مرتين ، فلهج الكثير من الناس بزوال السلطان
فلم يصح ذلك .

وفيه قرر جاني بك في نيابة جدة على عادته .
وفيه خرج الحاج من القاهرة . وكان أمير ركب
المحمل جاني بك الظريف ، وأمير ركب الأول
عبد العزيز بن محمد الصغير ، وكان لهما يوم
مشهود .

وفيه اختفى زين الدين الاستادار . وكان
الأشرف اينال ، لما استغنى منها جاني بك نائب
جدة ، خلع السلطان على زين الدين وولاه
الاستادارية على كره منه . فلما اختفى خلع
السلطان على العلائى على بن محمد الاهناسى ،

وكان برد دار بالمفرد عند زين الدين الاستادار ،
ثم كان استادارا عند المقر الشهابى أحمد بن الملك
الأشرف اينال . فلما غيب زين الدين سعى في
الاستادارية الكبرى ، فخلع عليه السلطان وولاه
الاستادارية عوضا عن زين الدين ، وهذه أول
عظمة العلائى على بن الاهناسى .

وفيه وصل قاصد ملك الروم محمد بن عثمان
يخبر السلطان بفتح القسطنطينية العظمى ، وقد
صنع المكاييد في فتحها ، وكان الفتح في يوم
الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى من هذه
السنة . فلما بلغ ذلك دقت البشائر بالقلعة ،
ونودى في القاهرة بالزينة . ثم ان السلطان عين
برسباى أمير آخور ثانى رسولا الى ابن عثمان
يهنئه بهذا الفتح العظيم ، فخرج برسباى وتوجه
الى بلاد ابن عثمان .

وفي ذى القعدة لبس السلطان الصوف في
سادس هاتور القبطى ، وقد عجل السلطان
بلبسه .

وفيه خلع السلطان على محب الدين بن الشحنة
وقرره في كتابة السر بمصر ، وصرف عنها محب
الدين بن الأشقر ، وهذا أول عظمة ابن الشحنة
بمصر . وكان قرر في قضاء الحنفية بحلب ،
فتكاسل عن التوجه الى حلب ، وسعى في كتابة
السر حتى قرر بها .

وفيه خرج المقر الشهابى أحمد ابن السلطان الى
الرماية وصحبته خشددم أمير سلاح وبرسباى
البحاسى فلما عاد زينت القاهرة وكان له يوم
مشهود .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدي
درويش الرومى الاقصرائى نزيل الخاكة ، وكان
من الصالحين ، وظهرت له كرامات خارقة .
وفيه توفى القاضى ضياء الدين بن النفيسى

الشافعى الحلبي كاتب السر بحلب ، وكان من أعيان الناس الرؤساء بحلب .

وفيه قرر شمس الدين محمد بن أصيل في نظر الجوالي عوضا عن شرف الدين الأنصارى . وفيه طلع شخص الى السلطان وأخبره بأن في زيادة جامع الحاكم صندوقا من البلور فيه أوراق تدل على خبيثة في الجامع من أعظم الخبايا ، فأمر السلطان القاضي ناظر الخاص يوسف أن يتوجه الى هناك ، فتوجه وحضر قاضى القضاة علم الدين الباغينى ، واجتمع بهم الغفير من الناس وحفروا ذلك المكان الى أن كاد ينبع الماء من أرضه فلم يجدوا فيه شيئا ، وانفض ذلك الجمع من غير طائل ، ولم يظفروا بشيء مما قالوه .

وفيه قبض السلطان على المحتسب على العجمى وصادره وقرر عليه مالا وأقام في الترسييم عند الزمام حتى يورد المال ، وقرر عوضه في الحسبة عليا بن أحمد الكاشف المعروف بابن ارم .

وفي ذى الحجة قرر في نيابة اسكندرية جاني بك النوروزى نائب بعلبك عوضا عن يونس العلانى ، وقدم يونس العلانى الى القاهرة وقرر في امرية طبليخاناه .

وفيه توفي حطط الناصرى ، وكان ولى نيابة غزة وأتابكية طرابلس ، وكان لا بأس به . وفيه جاءت الأخبار بأن قد ظهر شخص يقال له ابن الفلاح المشعشع وقد حصل منه غاية الفساد ، وقتل من الناس ما لا يحصى ، ونهب الركب العراقى . وقد أعيا أمره نائب الشام ، فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفيه ظهر زين الدين الاستادار ، وطلع الى القلعة وقابل السلطان ، فأمره بملازمة داره وألا يجتمع بأحد من الناس .

سنة ثمان وخمسين وثمانمائة (١٤٥٤ م) :

في المحرم قرر في كتابة السر بدمشق الحافظ قطب الدين الخضيرى عوضا عن صلاح الدين بن السابق ، وهذه أول ولاية الخضيرى لهذه الوظيفة . ثم بعد مدة جمع بين قضاء الشافعية بدمشق وكتابة سرها .

وفيه قرر أقبردى الظاهرى الساقى في أتابكية حلب عوضا عن على باى العجمى ، وقرر في نيابة حلب عوضا عن أقبردى قاسم بن القشاشى .

وفيه وصل قاصد على باى الحزاوى نائب حلب وعلى يده تقدمه حافلة الى السلطان ، وكان قد أشيع عنه العصيان والمخامرة ، فبطل ذلك .

وفيه خلع السلطان على الشيخ محبى الدين الكافيجى وقرر في مشيخة الخاققاء الشيخونية عوضا عن العلانى كمال الدين بن الهمام الحنفى بحكم رغبته عنها ومجاورته بسكة المشرفة .

وفي صفر رسم السلطان بنفى زين الدين الاستادار الى القدس وقيم به . فلما خرج الى سبيل ابن قايمز بعث السلطان اليه من فتشه فلم يجد معه شيئا غير ثلثمائة دينار وبعض فضة ، وقد كان وشى به عند السلطان بأن معه مالا ، ثم رسم باعادته الى القاهرة ، وطلع الى القلعة فأدخلوه البحرة ، وأحضر اليه السلطان في يومه المعاصير وعصره فلم يقر بشيء من المال ، فأجاب بأن يبيع أوقافه ويرضى السلطان ، فتكلم ناظر الخاص يوسف في أمره وأحضره بين يدى السلطان وهو محمول بين أربعة . وقيل ان السلطان لم يعصره في هذه المرة بل ضربه في الدهيشة فحوا من خمسمائة عصا ، فلما حضر بين يديه تكلم له تمرار الدوادار الثانى فخلع عليه السلطان وأعادته الى الاستادارية

وصرف عن علي بن الأهناسى . ثم ان السلطان خلع
عنى زين الدين وقرره كاشف الكشاف بالوجيين
غلبى والبحرى : مضافا الى الاستدارية ، فراج
أمره قبيلا .

وفيه رسم السلطان بالافراج عن أبى الخير بن
النحس من السجن وأن يقيم بطرابلس بطالا .

وفي ربيع الأول قرر حزة بن البشيرى فى نظر
الدولة خوفا عن التاج الخطيرى .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو
الصحراء بسبب تربته التى أنشأها هناك ، فلما
عاد شق من القاهرة وصعد الى القلعة — وهذا
نول ركوبه فى سلطنته — وكان له يوم مشهود .
وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ،
وكن حافلا .

وفيه انتهت عبارة جامع برد بك صهر السلطان
الذى أنشأه بخط قناطر السباع المثل على الخليج .

وفي ربيع الآخر توفى الناصرى محمد بن المخلطة .
وكن فضلا مالكى المذهب ... ولى نظر
البيسرستان ، وكان محمود السيرة .

وفيه قدم جليان نائب الشام على السلطان ،
وكن أشبع عنه العصيان .

وفيه توفى تقي الدين الأذرعى الشافعى ، وكان
عنا فضلا ، نائبا فى الحكم بدمشق ، وكان لا بأس
به .

وفي جمادى الأولى عزل تمرز عن الدوادارية
الثنية ، وكن ذلك من تلقاء نفسه .

وفيه جاءت الأخبار من نجر دمياط بوفاة سيدى
خليل ابن الملك الناصر فرج بن برقوق . وكان دينا
خيلا رئيسا حثما ، ومولده سنة أربع عشرة

وثمانمائة . فلما مات رسم السلطان بنقل جثته الى
القاهرة ، فنقل ودفن فى تربة جده الظاهر برقوق ،
وأظهرت عليه أخته خوند شقرا غاية الحزن ، وعملت
له نعيًا بالمغانى تعزف بالطارات نحو سبعة أيام
حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه قرر فى الوزارة الصاحب أمين الدين بن
الهيصم على عادته ، وصرف عنها سعد الدين قرج
ابن النحال .

وفيه طلعت مقدمة جليان نائب الشام الى
السلطان ، وكانت مقدمة حافلة ، ومثلها للمقر
الشهابى أحمد ، ثم بعد أيام أضافه السلطان وخلع
عليه ورسم له بالعود الى الشام على عادته .

وفيه خلع السلطان على الأمير برد بك صهره ،
وكان من أعيان مماليكه وقرره فى الدوادارية
الثانية عوضا عن تمرز الأشرفى ، ورسم الى تمرز
أن يتوجه الى القدس بطالا . وكان تمرز رجلا
أحمق سيئ الخلق غير محبب للناس .

وفي جمادى الآخرة توفى قاضى نجر اسكندرية
شمس الدين محمد بن عامر المالكى ، وكان من
الأفاضل فى مذهبه .

وفيه قرر قانى باى الموساوى فى نيابة ملطية ،
وقرر فى نيابة البيرة الناصرى محمد والى الحجر
عوضا عن قانى باى الموساوى .

وفيه خلع على القاضى تاج الدين بن المقسى
وقرر فى كتابة الممالك عوضا عن عبد الرحمن بن
النحال ابن عم الصاحب سعد الدين فرج .

وفيه خرجت تجريدة الى نحو البحيرة ، وكان
باش المسكر جانم الأشرفى وبرسباى البجاسى
وجماعة من الجند ، وخرجوا لأجل عرب البيد .

وفيه عزل محب الدين بن الشحنة عن كتابة
السر ، وأعيد اليها محب الدين بن الأشقر .

وفي رجب أدير المحمل على العادة .

وفيه سافر الأمير برد بك صهر السلطان ،
والقاضي شرف الدين الأنصارى ، وتوجها الى
القدس . وسبب ذلك أن السلطان صنع كسوة الى
ضريح سيدنا الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة
والسلام . وكان لخروجهما يوم مشهود .
وفيه توفي جاني بك مملوك القاضي عبد الباسط
الذى كان ولي الاستاذارية في أيام الأشرف
برسبای ، وكان لا بأس به .

وفيه أعيد الشيخ على العجمي الى الحبسة ،
وصرف عنها عبد العزيز بن محمد الصغير .
وفيه قدم برسبای الذى توجه قاصدا الى محمد
ابن عثمان ، وخلع عليه .

وفي شعبان، عرض السلطان جماعة من العسكر،
وقطع جوامك أولاد الناس ممن تجدد في أيام
الظاهر جقمق ، وقد انشحت الديوان من كسوة
العسكر وشكا الاستادار من ذلك . ثم انه بعد
ذلك شفّع فيهم الأمير يونس الدوادار الكبير
فأبقاهم على حالهم ، ورد اليهم جوامكهم التى
قطعت عنهم ، والله الحمد .

وفيه سر السلطان شخصا من العربان يقال له
الفضل — وقد كان مشتهرا بالشجاعة وقتل
النفوس — فاشهره في القاهرة هو وأولاد عمه ثم
سلخوهم وبعثوا بهم الى بلاد الشرقية ، وكانوا من
المفسدين .

وفيه توفي قاضى القضاة الحنفية بمكة المشرفة
— وهو رضى الدين أبو حامد بن الضياء — وكان
من أعبان العلماء الحنفية بمكة وله نظم جيد ،
ومولده سنة احدى وتسعين وسبعمائة .

وفيه ، في ثالث عشر مسرى ، كان وفاء النيل

المبارك . ونزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان
وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفي رمضان جاءت الأخبار بوفاة صاحب
الأبلستين — وهو سليمان بن محمد بن قراجا بن
دلغادر التركمانى — وكان من خيار التراكمه ، لم
تتحرك في أيامه فتنة ، وكان مثقلا بالشحم جدا .
وفيه قدم جان بك نائب جدة من الحجاز ، فحلح
عليه السلطان خلعة سنية .

وفي شوال وصل ركب من المغرب من عند صاحب
تونس ، وصحبته هدية حافلة ، وخرج صحبة
الحاج الى مكة .

وفيه قرر في الاستاذارية الناصرى محمد بن أبى
الفرج قليب الجيش ، وقرر سعد الدين فرج بن
النحال في الوزارة عوضا عن أمين الدين ابن الهيصم
بحكم اختفائه ، ثم أعاد كتابة المماليك الى سعد
الدين فرج ، وصرف عنها تاج الدين بن المقسى ،
فصار سعد الدين فرج بعده معه الوزارة وكتابة
المماليك .

وفي ذى القعدة تغير خاطر السلطان على زين
الدين الاستادار وضربه ضربا مبرحا ، وتسلمه
الجمالى يوسف ناظر الخاص على مال يورده .
وفيه جاءت الأخبار بأن أصلان بن سليمان بن
دلغادر تملك الأبلستين عوضا عن أبيه بحكم وفاته .

وفي ذى الحجة استقر تقى الدين ابن نصر الله
في نظر الدولة ، وكانت شاغرة مدة طويلة .

وفيه توفي الناصرى محمد الصغير معلم الشباب ،
وكان أستاذًا في هذا الفن ، وقد جاوز الثمانين

سنة من العمر . وهو والد عبد العزيز الذى ولى
حسبة .

وفيه ثارت جماعة من المماليك الجلبان وزلوا الى
بيت ابن أبى الفرج الاستادار على حين غفلة ونهبوا
ما فيه من آخيه ، واخفى هو ثم طلع الى السلطان
واسعفى من الاستادارية فاعفاه السلطان من ذلك ،
وقرر فيها واسم الكاشف ، وبقي ابن أبى الفرج فى
نقابة الجيش على عادته .

وفيه قدم نجاب ببشارة الحاج وأخبر بأن المبرر
قد عوفه العبدان فى الطريق ، فلم يحضر أحد من
الجند بالبشارة على عادة .

سنة سبع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٤ / ١٤٥٥ م) :
فيه ، فى الحرم ، قدم قاصد من عند الأمير
ابراهيم بن فرمان أمير التركمان وعلى يده مكاتبة
مضمومة أنه أرسل يشكو فيها من ملك الروم
محمد بن عثمان فما اكرت السلطان لذلك ، ثم
انه أرسل اليه بجواب هين ، وما أكرم قاصده ...
فمضى غير راض . وكان هذا سببا لعصيان ابن
فرمان كما بتى الكلام على ذلك .

وفيه تغير ماء النيل المبارك تغيرا فاحشا ، وغلبت
عليه الخضرة جدا حتى تعجب الناس من ذلك .
وفيه نودى فى القاهرة بخروج المماليك البطالة
من القاهرة ، وهدد من تأخر منهم بعد سماع
النداء .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وأخبر بما قاساه
من شدة السيول وموت الجمال وقطع الطريق من
الريان ، وقد أخذ ركب المغاربة ، وكانت سنة
صعبة مهولة ، وقد جاء عليهم السيل فى وادى عفان
فاحتل الجمال بأحمالها وقذفها فى البحر الملح .
وفيه توفى الشيخ شرف الدين أبو الفتح محمد

الراعى الشافعى المدنى العثمانى ، وكان من أعيان
العلماء الشافعية ، وله سند فى الحديث .

وفيه وقع أمر عجيب ، وهو أن جماعة من مماليك
الأمير برد بك — صهر السلطان — ماتوا
بالطاعون ، وقد ظهر ذلك بداره فقط ولم يظهر
ذلك بغير بيت برد بك .

وفيه ارتفع سعر الذهب حتى بلغ الدينار الأشرفى
ثلثائة وسبعين درهما .

وفى صفر جاءت الأخبار بسوت جلبان نائب
الشام . وكان جلبان هذا دينا خيرا ، وأصله من
أتباع الملك المؤيد شيخ . وهو جركسى الجنس ،
وقيل غير جركسى . ويقال انه مسلم الأصل ، ومات
وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وتولى عدة
ولايات ، منها ولاية نيابة حماة ونيابة طرابلس
ونىابة حلب ونيابة الشام . وقد طالت أيامه فى
السعادة . فلما توفى عين السلطان نيابة الشام الى
قانى باى الحمزاوى نائب حلب ، وخرج الى تقليده
يونس العلانى . ثم ان السلطان خلع على جانم
الأشرفى وقرره فى نيابة حلب عوضا عن قانى باى
الحمزاوى ، وعين الأمير برد بك الدوادار الثانى
صهر السلطان لتقليده ، ثم يعود الى دمشق لضبط
موجود جلبان نائب الشام . ثم ان السلطان أنعم
على يونس العلانى بتقدمة ألف ، وهى تقدمه جانم
الأشرفى بحكم انتقاله الى نيابة حلب .

وفيه توفى يشبك الناصرى رأس نوبة ثانى .
فلما مات قرر فى رأس نوبة الثانية سودون قراقاش
المؤيدى ، وقرر فى امرية سودون قراقاش مغلباى
طاز ، وقرر النوروزى فى امرية عشرة .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولود الشريف
على العادة ، وكان مولدا حافلا .

وفيه حصلت زلزلة خفيفة بمصر ، واستمرت
تعاود الناس أياما .

وفيه وصلت مقدمة من عند الملك أصلان صاحب
الأبلستين ، وكانت مقدمة حافلة ما بين خيول وبغال
وجمال بخاتي وقماش حرير وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على شمس الدين نصر الله بن
النجار الكاتب القبطي وقرره في الوزارة عوضا عن
سعد الدين فرج ، فلم يقيم بها ابن النجار الا قليلا
واختفى .

وفي ربيع الآخر خلع السلطان على سعد الدين
فرج وأعاده الى الوزارة كما كان ، وقرر حمزة بن
الشيرى في نظر الدولة وصرف ابن كاتب الشعير
عنها .

وفيه توفي صاحب أمين الدين بن الهيصم ،
وهو ابراهيم بن عبد الغنى بن ابراهيم القبطى ،
وقيل كان ينسب الى المقوقس صاحب مصر ،
وكان حشما رئيسا يسيل الى أهل العلم ، وله اشتغال
بالفقه على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه . ولم يكن
شافعيًا ، وولى الوزارة غير ما مرة . وكان مولده
سنة ثمانمائة ، وكان نادرة في أبناء جنسه ، مسددا
في أمر الوزارة في الغلوة التى وقعت في أيام الظاهر
جقسق لما شرقت البلاد ، وكان لا بأس به في
المباشرين .

وفيه خرج جانم الأشرفى الذى قرر في نيابة
حلب ، وكان له يوم مشهود وتجمل عظيم .

وفيه أنزلت خوند زينب الخاصكية زوجة
السلطان الى بولاق ، فأقامت في القطينية التى
ببولاق ، وكان قد حصل لها توقع شديد في
جسدها ، فنزلت لترى البحر حتى يذهب عنها
الوخم ، فنزل اليها السلطان وأعادها . فلما حصل
لها الشفاء أحرقوا في بولاق حراقة نطف هائلة

حافلة ، وخرجت البنت من خدرها بسبب الفرجة ،
وكامت تلك الليلة في بولاق من الليالى المشهورة .
فلما عوفيت طلعت الى القلعة في محفة وحولها
الخوندات والستات وأعيان ساء الأمراء
والمباشرين حتى طلعت الى القلعة ، وكان لها مهم
حافل بالقلعة .

وفيه توفي الأمير خاير بك الأجرود المؤيدى
أحد الأمراء المقدمين بمصر . فلما مات أنعم
السلطان بتقدمته على الأمير قانم التاجر بن صفر
خجا المؤيدى ، وهذه أول تقدمته بمصر .

وفي جمادى الأولى تزايد شر المماليك الجلبان ،
وتوجهوا الى بولاق ، ونهبوا شون الأمراء لأجل
الشعير ، فانه كان مشحوتا ، وصاروا ينزلون
الفقهاء والمباشرين عن خيولهم وبغالهم ويأخذونها
من تحتهم ، وحصل منهم في حق الناس غاية الضرر
— ولا سيما التجار في الأسواق — فكان المماليك
يخطفون القماش من الدكاكين وسائر البضائع ...
واستمروا على ذلك حتى وقع فيهم الطاعون كما
يأتى ذكر ذلك .

وفيه توفي الأدب البارع شاعر العصر شمس
الدين محمد بن حسن بن على بن عشان النواجى
الشافعى^(١) ، ومولده سنة ثمان وثمانين وسبعائة .
وكان عالما فاضلا ، أديبا بارعا ، وله شعر جيد .
فمن ذلك قوله من نوع الاكتفاء :

خليلى هذا ربع عزة فاسعيا
اليه وان سالت به أدمعى طوقا (ن)
فجفنى جفا طيب المنام وجفنها
جفانى ، فيالله من شرك الأجفا (ن)

ومثله له :

(١) تقدمت وفاة النواجى في حوادث سنة ٨٥٧ ، والصواب
ثمانمائة .

با ضيف يت الله نلت المنى
منذ تحصنت بأم القرا (ن)

لب بحج واعتصار وقل
ته ما أسعد هذا القرا (ن)

ونه :

فتنت بحسن عواد بديع
مليح الشكل معشوق الشمايل
يحرك عوده فينا بلطف
فيقتلنا بأطراف الأنايل
وقوله ملغزا في اسم سعيد :

ما اسم لعبد ان تزل عينه
يعد في الحال لنا سيدا

عليه فرض الصوم لكنه
اذا مضى الربع له عيدا

ومن مصنفاته البديعة « حلبة الكميت » في
وصف الخمرة وما قيل فيها ، و « تأهيل الغريب »
في الأدبيات المطولة ، و « مراتع الغزلان في وصف
الحسان من الغلمان » ، و « الشفا » وله غير ذلك
من المصنفات العربية . ولما مات رثاه الشهاب
المصوري بقوله :

رحم الله النواجي فقد
فقد الدنيا وأبقى ما روى
وانطوى في شقة الين فيا

حسرة العشاق من بعد النوا (جى)

وفي جمادى الآخرة توفي الشيخ الصالح سيدى
محمد المغربي المجذوب رحمة الله عليه . ولما مات
أخذه السلطان اينال ودفنه بجوار تربته تبركا به .

وفيه خلع السلطان على عبد العزيز بن محمد
الصغير ، وقرر في الحسبة مضافا لما في يده من
تقابة الجيش ، وكان قد تغير خاطر السلطان على

الشيخ على العجمى وصرفه من الحسبة و
عبد العزيز بن محمد الصغير .

وفيه تغير خاطر السلطان على فخر الد
السكر والليمون ناظر ديوان المفرد ، وضر
يديه بسبب تأخر جوامك الجند ، وكان ا
في غاية الشحنة .

وفيه توفي القاضى صلاح الدين خليل
السابق ، وكان فاضلا رئيسا حشما ، ولى
مر حلب وكتابة سر دمشق ونظر جيشهم
ذلك من الوظائف ، وكان حسن السيرة

وفيه ثارت فتنة عظيمة . وسبب ذلك أن
من المماليك الظاهرية استمالوا بعض جلب
السلطان . وكان السلطان عين تجريدة قبل
للبحيرة ، وكتب غالب الجند فيها من المما
الظاهرية ، وعين الباش عليهم الأمير خشقد
سلاح . فلما جرى ذلك وقفوا في الرميعة
نزل الأمير يونس الدوادار الكبير ، ف
بالدبابيس ، وجرح في ذلك اليوم شخصه
المماليك وقطعت أصابعه . ثم ان الأمير
الدوادار تحيل في صعوده الى القلعة
السلطان بذلك ، فطلب السلطان جاني بك ا
ومرجان مقدم المماليك ، وبعث بهما لكش
الأخبار ، وما سبب وثوب المماليك على
يونس الدوادار . ثم ان نوكار الزردكاشر
الى المماليك الجلبان الذين وثبوا مع طائفة
المماليك الظاهرية ليستميلهم عن ذلك ويسترض
فعاد الجواب الأول بأن يسلمهم الأمير
الدوادار ، وقد صمموا على ذلك ، وكانت
الحركة في سلخ جمادى الآخرة .

فلما استهل رجب بدأ السلطان بضرب الأ
فلم يطلع غالب الأمراء الى القلعة . ثم ان المم

أصبحوا لابسين آلة الحرب ، ووقفوا بسوق الخيل . وقد اشتد الأمر ، ومنعوا الأمراء من الصعود الى القلعة ، فبعث السلطان يقول للخليفة : « غيب من بيتك حتى تسكن هذه الفتنة » . فلم يغيب من بيته ، فتوجه اليه المماليك وأركبوه من بيته وآتوا به الى البيت الكبير الذى عند حدره البقر ، فأقام به ، واشتد القتال . فلما بلغ السلطان ذلك نزل الى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطاني على رأسه ، ودقت الكنوسات حربيا ، فوقع في ذلك اليوم قتال هين ... فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انفض ذلك الجبع وفر المماليك شيئا بعد شيء ، فلما رأى ذلك المماليك الظاهرية تسحبوا من الرميلة — وقد اشتد الحر — وتوجه كل أحد من المماليك الى داره . وكان رأس الفتنة من المماليك الظاهر يشبك بن مهدي ، وكان يومئذ جنديا من جيلة المماليك السلطانية . فلما انفض الجمع قام السلطان من المقعد وطلع الى القلعة ، وقام الخليفة أيضا وتوجه الى داره ، ونجحت هذه الفتنة ، وكان الخليفة يظن أن هذه الحركة يحصل له فيها نفع كما حصل له في حركة الملك المنصور مع الأشرف اينال . فانه لما تسلطن أنعم على الخليفة حمزة بإقطاع ثقل ومال وخلع وخيول وغير ذلك ، فظن الخليفة أن هذه الحركة مثل الأولى ، فجاء الأمر بخلاف ذلك ... وكم من عجلة أعقبت ندامة ، فكان كما قيل في المعنى :

إذا ما أراد الله خيرا لعبده

ينله ، وما للعبد ما يتخير

وقد يهلك الانسان من باب أمنه

وينجو ، بعون الله ، من حيث يحذر

وكان الخليفة قام في سلطنة الأشرف اينال قياما عظيما ، وخلع الملك المنصور قبل أن ينكسر ، وأمر

بحرق سبيل المؤمنين حتى أخذوا الميدان ... فظن الخليفة أن تكون هذه الفتنة يحصل له فيها مثل تلك المرة ، فلما توجه الخليفة الى بيته أرسل السلطان خلفه وقد بقي له ذنب ، اذ أرسل السلطان يقول له : « غيب من بيتك حتى تخمد هذه الفتنة » ... فاستتر في بيته حتى أركبوه المماليك برضاه وجاء الى البيت الكبير كما تقدم ذكر ذلك . فلما طلبه السلطان وحضر بين يديه ، وبخه بالكلام فلم ينطق بالجواب وأمسك لسانه عن ذلك ، وكان به بعض صمم فكان كما قيل :

إذا كان وجه العذر ليس بواضح

فإن اطراح العذر خير من العذر

ثم ان السلطان أمر بادخاله الى البحرة ، فدخل اليها وأقام بها أياما وهو في الترسيم . ثم ان السلطان رسم باخراجه الى السجن بشعر الاسكندرية ، فنزل من القلعة بعد المغرب في سابع رجب ، وصحبته جاني بك الترماني حاجب الحجاب ، فأوصله الى البحر حتى نزل في الحراقة وسار الى الاسكندرية ، فسجن بها الى أن مات في أواخر دولته ، ودفن بشعر الاسكندرية على شقيقه العباس الذي ولي السلطنة بعد قتله الناصر فرج بن برقوق ، فكانت مدة الخليفة حمزة في الخلافة أربع سنين وستة أشهر وأياما . وكان رئيسا حشما كفئا للخلافة ، وكان له حرمة وافرة ، وشهامة زائدة ، بايع الملك المنصور عثمان والأشرف اينال .

ومن النكت الغريبة اللطيفة ، قيل لما أرادوا خلع الخليفة حمزة من الخلافة قال : « اشهدوا على أنى قد خلعت نفسي من الخلافة ، وخلعت السلطان اينال من السلطنة » . فاضطرب المجلس لذلك ، فقال قاضى القضاة علم الدين صالح البلقيني : « ان خلعه للسلطان لا يصح وقد بدأ بخلع نفسه أولا ثم

وسجنهم بالبرج ، واختفى منهم جماعة كثيرة ، ونفى منهم جماعة الى البلاد الشامية . وفيه قدم الأمير برد بك — صهر السلطان — وكان قد توجه الى القدس كما تقدم . فلما حضر أتى صحبته زين الدين الاستادار ، وكان السلطان نفاه الى القدس . فلما عاد خلع عليه السلطان وأعادته الى الاستادارية ، وصرف عنها قاسم الكاشف .

وفيه أدير المحمل على العادة ، وساق الرماحة أحسن سوق .

وفيه توفيت خوند زاده بنت أورخان بن محمد ابن عثمان ملك الروم ، وهى زوجة الظاهر جقمق ، وتزوجت أيضا بالأشرف برسبای ، وماتت فى عصمة برسبای البجاسى حاجب الحجاب .

وفيه قبض السلطان على يشبك النوروزى نائب طرابلس ، وحمل الى قلعة المرقب فسجن بها .

وفى شعبان جاءت الأخبار بوفاة السيد الشريف بركات سلطان مكة . وهو بركات بن عجلان بن رميثة الحسنى ، وكان من خير أمراء مكة ، ومولده سنة اثنتين وثمانمائة .

وفيه ، فى خامس عشر مسرى ، كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان وفتح السد على العادة .

وفيه خلع السلطان على اينال اليشبكى ، وقرر فى نيابة طرابلس عوضا عن يشبك النوروزى ، وقرر فى نيابة صنفد جاني بك التاجى عوضا عن اياس الطويل ، وقرر فى نيابة غزوة خاير بك النوروزى أحد الأمراء بصنفد ، وقرر فى نيابة ملطية أقبردى الساقى أتابك العسكر بحلب عوضا عن قايتباى الناصرى ، وقرر فى أتابكية حلب

شمس بن حاج السلطان وهو غير مولى للخلافة ... فلم ينسج منه عزته لسلطان ، فعدت هذه من النوادر . فمما عزل الخليفة حمزة من الخلافة تكلموا فيمن يلى بعده بالخلافة ، فوقع الاتفاق على ولاية أخيه نجم الدين يوسف بن محمد المتوكل .

خلافة المستنجد بالله أبى المحاسن

هو المستنجد بالله ، أبى المحاسن يوسف بن محمد المتوكل على الله . وهو الثالث عشر من خلفاء بنى العباس يستمر . بويج بالخلافة بعد خلع أخيه حمزة فى يوم الخميس ثالث عشر رجب سنة تسع وخسين وثمانمائة . وكانت صفة ولايته أن عمل موكب بالنصر ، وطلع القضاة الأربعة وهم : عثم بن صالح البلقينى الشافعى ، وسعد الدين الحنفى ، وولى الدين السنباطى المالكى ، وعز الدين الحنبلى . فلما تكامل المجلس سكنت القضاة ساعة لم يتكلم منهم أحد فى شىء ، فقال قضى القضاة علم الدين صالح البلقينى : « قل بعز علماء مذهبى أن السلطان له أن يعزل الخليفة ويبنى غيره ... فهذا كان حاصل المسألة فى خلع الخليفة حمزة وولاية أخيه الجمالى يوسف ... » فعند ذلك قام القاضي كاتب السر محب الدين بن الأشقر ، وقال فى المجلس : « نشهد عليك — يا مولانا السلطان — أنك عزلت الخليفة حمزة من الخلافة ووليت أخاه الجمالى يوسف ... » فقال : « نعم » ... فأحضروا له التشريف ، وأفيض عليه ، وتلقب بالمستنجد بالله ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، والقضاة الأربعة قدامه ، وأعيان الناس ، حتى أوصلوه الى بيته وهو فى غاية العظمة ، وقد طالت أيامه فى الخلافة جدا .

ثم إن السلطان قبض على جماعة من المماليك الظهريه ، ممن كانوا سببا لاقامة هذه الفتنة ،

سودون الناصري أتابك طرابلس — وكان هذا كله بتدبير الجمالى يوسف ناظر الخاص وفيه زاد النيل زيادة مفرطة حتى قطع الجسور وغرق غالب البلدان ، فبعد ما جرى ذلك هبط النيل بسرعة ، وشرق جانب من البلاد ، وارتفع سعر الغلال بسبب ذلك .

وفي رمضان قرر ابن الوجيه في نظر الجيش بحلب عوضا عن ابن السفاح . وفيه قرر في قضاء الشافعية بمكة محب الدين الطبرى ، وصرف عنها أبو السعادات بن ظهيرة ، وقرر في نظر الحرم الشريف برهان الدين بن ظهيرة الذى عظم أمره فيما بعد وانتهت اليه رئاسة مكة .

وفيه قدم جاني بك نائب جدة وسعى الى السيد الشريف محمد بن بركات المتوفى في امرية مكة عوضا عن أبيه بخمسين ألف دينار ، فولاه السلطان وأقام بها حتى توفي في صفر سنة ثلاث وتسعمائة وكان من خيار أمراء مكة .

وفي شوال رسم السلطان بعمل كسوة للحجرة الشريفة ، فلما انتهى العمل منها عرضها ناظر الخاص يوسف على السلطان ، فألبسه كاملية حافلة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل يبيرس الأشرفى .

وفيه تغير خاطر السلطان على نقيب الجيش ابن محمد الصغير وهو عبد العزيز ، فضربه بين يديه ضربا مبرحا ، وأمر بتنفيه الى دمياط لأمر أوجب ذلك . ثم ان السلطان خلع على العلائى على بن القيسى وقرره في نقابة الجيش عوضا عن عبدالعزیز ابن محمد الصغير ، وكان السلطان عينها الى خشكلدى الزردكاش ، فوقع الاختيار بعد ذلك على ابن القيسى .

وفي ذى القعدة قرر جمال الدين الباعونى في قضاء الشافعية بدمشق وصرف عنها سراج الدين الحمصى ، وأمر أن يخرج الى حمص ويقيم بها . وفيه شرع الجمالى ناظر الخاص في بناء مدرسة بالصحراء ، فجاءت مدرسة حافلة لم يعمر في الصحراء مثلاً . وكان مصروف ذلك من مال ناظر الخاص يوسف دون مال السلطان ، فقليل له انه صرف عليها اثني عشر ألف دينار وزيادة على ذلك . وأنشأ زاوية تجاه المدرسة ، وحوشا لدفن جماعة السلطان .

وفي ذى الحجة قرر في الحسبة الشيخ على العجمى على عادته ، وكان يعرف بيار على .

وفيه توفي العلامة محب الدين محمد بن أحمد ابن أبي يزيد الأقصرائى الحنفى ، وكان عالما فاضلا بارعا في العلوم ، وكان امام الأشرف برسبای ومولده سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، وهو الشيخ أمين الدين الأقصرائى .

وفيه توفي أقبردى الساقى الظاهري نائب ملطية وكان لا بأس به .

وفيه توفي الشهاب أحمد الحاضرى الحنفى ، وكان عارفا بالقراءات السبع وتعبير الرؤيا .

وفيه توفي خليفة سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه ، وكان مالكى المذهب وله اشتغال بالعلم ويعرف بسنان الأبودرى .

وفيه صلى السلطان صلاة عيد النحر ، وخرج من الجامع مسرعا ، وتوجه الى الحوش ونحر به وخالف العادة ... وسبب ذلك أنه قويت الاشاعات بوقوع فتنة في ذلك اليوم من الممالك الجلبان ، فبادر السلطان وتوجه الى الحوش ونحر به فسكن الاضطراب قليلا .

سنة ستين وثمانمائة (١٤٥٥/٥٦ م) :

فيها ، في المحرم ، قرر آقبای الجكمى في نيابة
ملغية عوضا عن أقبردى الساقى ، وقرر في نيابة
طرسوس آقبای السيفى جارقلطو ، عوضا عن
آقبای الجكمى . وتوفى الناصرى محمد بن الحلبي
والى الحجر .

وفيه وصل الحاج وأخبر بأنه لم يحج في هذه
السنة أحد من العراق خوفا من المشعشع الذى
ظهر منه الفساد ، وقد شاع خبره فيما تقدم .
وكان في تلك السنة الأمير برد بك البجمقدار
أمير الحاج هو والأمير بيبرس الأشرفى ، وكانت
سنة صعبة على الحاج .

وفي صفر ثار المماليك الجلبآن على ناظر
الخاص يوسف وضربوه ، وأخذوا عمامته من
فوق رأسه وصار مكشوف الرأس ، ولولا أنه
هرب لقتلوه لا محالة ، وكانت المماليك تزايد
شرهم جدا .

وفيه ثارت الغلمان والعبيد على الوزير ،
ونزلوا من القلعة وتوجهوا الى بيت الوزير وصاروا
ينهبون بعض دكاكين القاهرة ، وخطفوا عمام
الناس ، حتى وصلوا الى دار سعد الدين فرج
فاختفى من داره فنهبوا ما وجدوه في الدار ،
وسبب ذلك انشحات اللحم المقرر للجند .

وفيه خرج يونس العلائى - أحد الأمراء
المتقدمين - الى بر الجيزة لحفظ الخيول التى في
الربيع ، وكانت عربان البید قد أفسدوا بر الجيزة
وأخذوا خيول الأمراء والجند من مراعيها .

وفي ربيع الأول أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى
قيل أمطرت في قلوب بردا وزن كل بردة خمسون
درهما ، وهلك به بعض مواش وأفسد الزرع .
وفيه ظهر صاحب فرج بعدما كان مختفيا ،

فخلع عليه بالاستمرار ، وخلع على فخر الدين بن
السكر والليمون وقرر في نظر الدولة وكانت
شاغرة .

وفي ربيع الآخر عمر السلطان الربيع والحمام
وما بينهما الذى بين القصرين .

وفيه خرج جماعة من الأمراء والجند الى نحو
الجون على العادة لاحتضار الأخشاب .

وفي جمادى الأولى توفى المسند جمال الدين
عبد الله بن محمد بن أحمد التستري ، وكان على
السند ، من أهل الفضل والعلم .

وفيه وصل الخواجا جمال الدين عبد الله
القابونى رسولا من عند بن عثمان ملك الروم
محمد ، وعلى يده مكاتبة تتضمن ما فتحه من
الفتوحات السنية ، فأكرمه السلطان غاية الاكرام .
ولما أراد التوجه الى ابن عثمان عين معه السلطان
قانى باى اليوسفى المهندار وعلى يده هدية من
عند السلطان الى ابن عثمان ، وأخذ قانى بك
اليوسفى في أسباب تعلق السفر الذى عين فيه .

وفي أثناء هذا الشهر ظهر في السماء نجم بذب
طويل جدا ، وكان يظهر من جهة الشرق ، ودام
يطلع نحو من شهرين - وكان من نواذر
الكواكب - فتكلم فيما يدل عليه من الأمر ،
وزاد الكلام بسببه ، ثم اختفى ذلك النجم وأقام
مدة طويلة نحو من ثلاث سنين حتى وقع بمصر
الطاعون ووقع بمصر أيضا الحريق كما سيأتى ذلك
في موضعه .

قال صاحب « مرآة الزمان » ان أول ما ظهر
نجم الذنب عندما قتل قابيل أخاه هابيل ، وظهر
عند وقوع الطوفان ، وعند وقود نار ابراهيم الخليل
عليه السلام ، وظهر عند هلاك قوم عاد وثمود ،

وظهر عند هلاك فرعون ، وظهر عند قتل الامام
عثمان بن عفان ، وظهر عند قتل الامام على كرم
الله وجهه ، وظهر عند قتل جماعة كثيرة من الخلفاء .
وفي الغالب يحدث عند ظهور نجم الذنب حادث
عظيم — وقد جرب ذلك وصح — من فناء وقتل
وفتن ، وخسف وزلازل وغير ذلك .

وفي جمادى الآخرة توفى القاضى الذى
بالاسكندرية شهاب الدين أحمد المحلى الشافعى
وكان فاضلا ، فى سعة من المال ، وكان تاجرا فى
البهار ، وسعى فى قضاء الاسكندرية على خلاف
ما جرت به العادة من ولاية المالكية ، وقد سعى
بمال حتى تولى ومات وقد جاوز السبعين من العمر .
وفيه قبض السلطان على زين الدين الاستادار
وضربه بين يديه علة قوية بسبب تأخيرهِ للجامكية
ورسم عليه فى طبقة الزمام وهو فى الحديد . ثم
انه خلع على سعد الدين فرج بن النحال ونقله من
الوزارة الى الاستادارية ، وخلع على العلائى على
ابن محمد الاهناسى وقرره فى الوزارة عوضا عن
سعد الدين فرج ، وهذه أول عظمة علاء الدين
على فى الوزارة ، وهو على بن الاهناسى .

وفي رجب كانت نهاية عمارة مدرسة السلطان
التي أنشأها فى الصحراء ، وخطب بها وعمل
السلطان هناك وليمة حافلة ، وحضر بها القضاة
الأربعة وسائر الأمراء وأعيان الناس ، ومد بها
الأسطة الحافلة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه طلع الأمير يونس الدوادار الكبير الى
القلعة ، وكان مريضا وشفى ، فخلع عليه السلطان
خلعة حافلة ، ونزل الى دواره فى موكب حافل
وقد امه الأمراء وأرباب الدولة من المباشرين
وغيرهم .

وفيه أفرج السلطان عن زين الدين الاستادار

وتسلمه ناظر الخاص يوسف على مال .

وفيه أدير المحمل على العادة ، وساقوا الرماحة
بحضرة قاصد ملك الروم محمد بن عثمان .

وفيه ماتت ملك باى الجركسية سرية الملك
الأشرف برسباى أم ولده سيدى أحمد ، وكان
تزوج بها قرقماس الجلب وماتت معه ، وهو الذى
ربى سيدى أحمد ابن الأشرف برسباى .

وفي شعبان رسم السلطان بنفى زين الدين
الاستادار الى المدينة المشرفة بعد أن أخذ منه
عشرة آلاف دينار ، وتوجه من البحر الى المدينة
الشريفة .

وفيه سافر الخوaja ابن القابونى قاصد ابن
عثمان ، وخرج صحبته قانى باى اليوسفى
المهمندار . وكان أشيع موت ابن عثمان قبل خروج
القاصد ، ثم جاءت الأخبار بأن ابن عثمان قد شفى
وهو فى قيد الحياة ، فرسم السلطان بدق
الكنوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه توفى الأمير اسباى الجمالى الظاهرى من
ممالك الظاهر جقمق ، وكان ولى الدوادارية
الثانية ثم نفى الى القدس فمات به ، وكان لا بأس
به ، لين الجانب متواضعا ، وكان معروفا وموصوفا
بالشجاعة وبالفروسية .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير ابراهيم بن قرمان
أمير التركمان قد زحف على بلاد السلطان ، وقد
أظهر العصيان ، واستولى على طرسوس وأدرنة
وكولك . فلما سمع السلطان ذلك تشوش لهذا
الخبر ، وعين تجريدة الى ابن قرمان ، وجعل باش
العسكر خشقدم الناصرى أمير سلاح ، ومعه جماعة
من الأمراء المتقدمين والطبلخانات والعشروات ، وعين
من الجند نحو من أربعمئة مملوك ، وعين سنقر

يا جوهر الفرد الذى عن جسمه زال العرض
أجفان من أحبيته تحملت عنك المرض

وفى ذى القعدة توفى قانى باى الأعمش الناصرى
نائب القلعة ، فلما مات قرر فى نيابة القلعة عوضه
النوروزى سودون ، وأنعم السلطان بامرية قانى
باى الأعمش على ولده الناصر محمد ، وهو أصغر
أولاده ، وكان أمير عشرة .

وفيه قرر فى نظر الجوالى القاضى زين الدين
أبو بكر بن مزهر ، وصرف عنها ابن أصيل .

وفى ذى الحجة قدم قاصد جهان شاه ، وصحبته
هدية للسلطان ، وعلى يده مكاتبة تتضمن أنه بعث
يشكو الى السلطان من حسن بك الطويل بأنه
جائر عليه وقد زحف على بلاده ، فأرسل اليه
السلطان الجواب عن ذلك .

وفيه نزل السلطان الى المطعم الذى بالريدانية ،
وألبس الأمراء الصوف ، وشق من القاهرة فى
موكب عظيم ، وكان يوما مشهودا .

وفيه توفى الشيخ برهان الدين الرفاعى الشافعى
وكان من أهل العلم والفضل ، مولده بعد
الثمانين والسبعائة .

وتوفى أركماس الشبكي ، أحد الأمراء
العشروات ورءوس النوب

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب اليمن ، وهو
الملك أبو الفتح عمر بن على بن رسول التركمانى ،
وكانت دولة بنى رسول أقامت باليمن نحوا من
مائتين وثلاثين سنة ، وكان سبب تسمية جدهم
برسول أن الخلفاء كانت تبعه رسولا الى البلاد
الشامية وغيرها من البلاد فسمى رسولا ، ومازال
يرتقى حتى ملك بلاد اليمن وانقرض بها ، ومعرفته
مشهورة فى التواريخ القديمة .

قرق شبق الزردكاش بأن يتوجه ، قبل خروج
العسكر ، لكشف الأخبار عن ذلك .

وفيه كان وفاء النيل المبارك فى سادس مسرى .
وفيه نزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان
وفتح السد على العادة .

وفى رمضان تزايد أذى المماليك الجلبان فى حق
الناس ، وصاروا ينهون حواصل البطيخ الصيفى
ومائر البضائع ، حتى امتنعت السوق من البيع ،
وارتفع سعر كل شئ من المأكول وغير ذلك .

وفيه قبض السلطان على عشرة أنفار من
الزغلية وجدوهم يضربون الزغل ، فأمر بتوسيطهم
أجمعين .

وفى شوال خرج الحاج من القاهرة على العادة
وكان أمير ركب المحمل قائم التاجر أحد المقدمين
وأمير الأول عبد العزيز بن محمد الصغير ، وكان
السلطان قد رضى عليه وقرره من جملة الحجاب
بالقاهرة .

وفيه ضرب السلطان خاير بك الوالى بين يديه
ضربا مبرحا لأمر أوجب ذلك .

وفيه حصل للقاضى ناظر الخاص يوسف توعك
فى جسده ، فانقطع عن طلوع القلعة أياما ثم شفى
بعد ذلك وطلع الى القلعة ، فخلع عليه السلطان
خلعة حافلة ، ونزل من القلعة فى موكب حافل
وقداهم أرباب الدولة وأعيان الناس ، فزينت له
القاهرة من داره الى القلعة ، وقعدت له جوق
المغانى على الدكاكين ، وتخلقت الناس بالزعفران
وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، وكان له يوم
مشهود ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

سنة احدى وستين وثمانمائة (١٤٥٦/١٤٥٧ م) :

فيها ، في المحرم ، قرر العلائى على بن القيسى في ولاية القاهرة عوضا عن خاير بك القصروى ، وقد تغير خاطر السلطان على خاير بك وضربه ومسجنه بالقلعة ، وقرر عليه مالا له صورة ، وخلع على الناصرى محمد بن أبى الفرج ، وقرر في نقابة الجيش عوضا عن على بن القيسى .

وفيه نودى على الدينار بثلاثمائة درهم ، وكان قد زاد سعره حتى بلغ ثلاثمائة وسبعين درهما ، وكان قد كثر الغش فيه وفى الفضة .

وفيه قرر كسباى السمين وثانى بك الصغير ، قرر كل منهما رأس نوبة عصاة .

وفيه جاءت الأخبار بأن سنقر الزردكاش لما وصل الى حلب توجه من هناك الى طرسوس ، فتحارب مع نائبها الذى أقامه ابن قرمان ، فقتله وأرسل رأسه الى السلطان ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة ثلاثة أيام . وقد تقدم أن السلطان أرسل لكشف أخبار ابن قرمان .

وفيه توفى الأمير جرباش الكرى صهر الملك الظاهر چقمتق ، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق ، وتولى عدة وظائف منية منها حاجبية الحجاب وامرية مجلس وامرية سلاح ، ولما كبر سنه لزم داره ورتب له ما يكفيه حتى مات وقد تجاوز التسعين سنة من العمر .

وفى صفر ثارت فتنة كبيرة بالقلعة من المماليك الجلبان ، وكان السلطان فى الدهيشة ، فلما تزايد الأمر منهم خرج اليهم السلطان وهو ماش من الدهيشة وقد هموا أن يهجموا عليه ، فلما عاينوه رجموه بالحجارة فولى وهو مستعجل حتى وقعت إحدى نعليه من رجله فلم يلتفت اليها ومر حافيا ،

ويقال انه أصابته ملوبة من الرجم فى ظهره وانعطب بعض الخاصكية من الرجم فى وجهه ، وكانت حادثة شنيعة قل أن يقع فى الحوادث . أشنع منها . فلما دخل السلطان الدهيشة أغلقوا عليه الباب وكان عنده بعض الأمراء . واستمر الحال على ذلك الى العصر ، والأمراء والخاصكية قد تعوقوا بالقلعة ، فترددت الرسل بين السلطان وبين المماليك الجلبان فى هذه الواقعة ، فآل الأمر فيها بأن زادهم ألف درهم فى الكسوة ، فصارت من يومئذ ثلاثة آلاف درهم لكل مملوك ، وزادهم فى الأضحية رأسا من الغنم فى كل سنة ... فسكنت الفتنة قليلا . وقد استطالوا بعد ذلك على الناس ، ووقع منهم أمور شنيعة يطول الأمر فى شرحها ، وعظم أذاهم بالناس جدا ، ووقع منهم أمور ما وقعت من ممالك السلاطين قبلهم قط .

وفيه عقد مجلس بين يدى السلطان ، وحضر القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، فلما تكامل المجلس تكلم الجمالى يوسف مع القضاة بسبب غش الفضة فى المعاملة ، وأحضروا نقود الدول القديمة من أيام المؤيد شيخ الى دولة الظاهر چقمتق ، فسبكت فلم يوجد أكثر غشا وفسادا من ضرب فضة دولة الأشرف اينال ، فأمر السلطان بأشهار المناداة فى القاهرة بإبطال المعاملة الحلية والدمشقية ، فوقف حال الناس وأشيع بين الناس أن العامة ترجم الجمالى يوسف ناظر الخاص . واضطربت الأحوال فنودى فى القاهرة بأن كل شىء على حاله فى المعاملة الحلية وغيرها ، ثم نقض ذلك بعد مدة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم من علماء الحجاز يدعى جلال الدين أبو السعادات ابن ظهيرة الشافعى ، وكان علامة ولى قضاء مكة ونظر الحرم والحسبة ، وكان حسن السيرة .

وفيه توفى الشيخ سراج الدين الحمصى الشافعى

قاضي دمشق ، وكان عالما فاضلا ولى عدة وظائف منها قضاء طرابلس وحلب ودمشق وغير ذلك ، وكان قد ترشح أمره لقضاء مصر — بل وكتابة السر — ولم يتم له ذلك .

وفيه توفي الطواشي عبد اللطيف الرومي المنجكي مقدم الممالك ، وكان لا بأس به بين الخدام .

وفي ربيع الأول توفي القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الزقناوي الشافعي ، نائب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة تسعين وسبعمئة .

وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع السلطان على ولده المقر الشهابي أحمد وقرره أمير ركب المحمل ، ورسم لزوجته خوند زينب وأولاده بأن يحجوا في تلك السنة ، وشرع لهم في عمل برك حافل ، وحجت صحبة ولدها المقر الشهابي أحمد .

وفي ربيع الآخر أعيد خاير بك القسروي الى ولاية القاهرة وصرف عنها على بن القيسى .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأن شخصا من الأشراف يقال له الشريف برغوت تسلق الى سطح الحجرة النبوية الشريفة واختلس عدة قناديل ذهب وفضة ، فأخذها وفر الى ينبع ، فقبض عليه بعد أيام وأخذ ما معه من القناديل وسجن ، وكانت هذه الفعلة من أقبح الفعائل .

وفي جمادى الأولى خرجت التجريدة المعينة الى ابن قرمان ، وكان باش العسكر خشقدم أمير

سلاح ومعه جماعة من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، ومن الممالك نحو من أربعمئة مملوك ، وكان لخروجهم يوم مشهود .

وفيه أرسل السلطان زردخانه حافلة على يد نوكار الزردكاش بسبب العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وكان نوكار مريضا فخرج غصبا على كره منه .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار بوفاة نوكار الزردكاش ، مات بغزة ، وكان من ممالك الناصر فرج بن برقوق وكان لا بأس به . فلما مات خلع السلطان على سنقر الأشقر المعروف بقرقشبق ، وقرر في الزردكاشية عوضا عن نوكار الناصري يحكم وفاته .

وفي رجب طفش جماعة من فرسان العربان ركاب خيول ، وشرعوا يعرفون الناس من الصحراء الى أن وصلوا الى رأس الصوة — وكان ذلك وقت القائلة — فخطفوا عمائم الفقهاء ، وسلبوا قماش الناس عنهم ، ولم يجدوا من يردهم عن ذلك ، وكانت هذه اباحة سعدت من أولئك العربان .

وفيه توفي قاضي قضاة المالكية ولى الدين السنباطي ، وهو محمد بن عبد اللطيف بن اسحق ابن أحمد بن اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموي المالكى ، وكان عالما فاضلا من أعيان المالكية ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمئة . فلما توفي وقع الكلام على من يلى قضاء المالكية ، فوقع الاختيار على ولاية السيد الشريف حسام الدين بن حرير ، فسعى في ذلك بمال جزيل . وكان الساعى له في ولاية القضاء الجمانى يوسف ناظر الخصاص ، وكان يومئذ في المالكية من هو أعلم منه ، ولكن ساعدته الأقدار

وولى قضاء المالكية وأقام بها مدة طويلة الى أن مات .

وفيه أدير المحمل على عادته ، ولكن حصل فيه من المماليك الجلبان غاية الضرر في حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، وعظم الفساد ، وخطف عمائم الناس وغير ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن حسن بك الطويل — صاحب ديار بكر — تحارب مع جهان شاه صاحب تبريز والعراقين ، فجرى بينهم من الحروب ما يطول شرحه ، وآل الأمر الى أن حسن الطويل قد انتصر على جهان شاه . فلما جاءت الأخبار بذلك سر السلطان بنصرة حسن الطويل على جهان شاه . وفيه عاد قاني باي اليوسفي الذي كان توجه الى ابن عثمان ملك الروم وأخبر بأنه أكرمه غاية الاكرام .

وفي شعبان جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر الذي توجه من مصر صحبة الأمير خشقدم أمير سلاح دخل بلاد ابن قرمان ، وشن فيها الغارات ، وأخربوا غالب بلاده ، وقطعوا الأشجار التي بها ، وقتلوا جماعة كثيرة من عسكره . فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

وفي رمضان أرسل السلطان جماعة من العسكر الى اللجون بسبب قطع الأخشاب على العادة ، وكان الباش على العسكر يشبك بن سليمان المعروف بالفقيه المؤيدي أحد الأمراء الطبلخانات يومئذ ، وهو الذي تولى الدواذارية الكبرى فيما بعد .

وفيه توفى عالم الحنفية وشيخهم بالديار المصرية الأستاذ الشيخ كمال الدين محمد بن الهمام الحنفى وهو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواى المصرى الحنفى شيخ الشيوخ

بالخاتقاه الشيعونية ، وكان فريد عصره في علماء الحنفية ، عالما عاملا فاضلا رحمة الله عليه . وكان مولده سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وكان معظما عند الملوك وأرباب الدولة ... ولى مشيخة الأشرفية والشيعونية وغير ذلك من الوظائف السنية .

وفيه وصل سودون القسروى — أحد الدواذارية — وأخبر بنصرة العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وقد استولى العسكر على غالب بلاده وأخربها وأحرق أشجارها ، فلما تحقق السلطان أمر بضرب البشائر بسبب هذه النصرة ، فدقت الكتوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ولد السلطان وفتح السد على العادة وكان يوما مشهودا ، ولكن كان في شهر رمضان ، فقيل أفطر في ذلك اليوم جماعة كثيرة من العياق الأوباش ، وكان يوما شديد الحر .

وفيه عمل السلطان مسابقة حافلة ، وركب معه أرباب الدولة من المباشرين وغيرهم .

وفي شوال توفى الأمير جاني بك القرماني حاجب الحجاب ، وكان لا بأس به ، وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان لين الجانب متواضعا مات في التجريدة التي أرسلت الى ابن قرمان .

وفيه وصل العسكر الذى توجه الى بلاد ابن قرمان ، ودخل باش العسكر الأمير خشقدم أمير سلاح ، وكان يوم دخولهم يوما مشهودا بالقاهرة ، ولكن حصل للعسكر بعد خروجهم من غزة وباء فمات منهم ما لا يحصى ، ودخل الباقون وهم متوعكون ، حتى الأمراء وأكثر الجند .

وفيه قرر في مقدمة جاني بك القرماني أبا يزيد التمرغاوى ، وقرر في امرية أبى يزيد برسباى المؤيدى .

قاضي دمشق ، وكان عالما فاضلا ولى عدة وظائف منها قضاء طرابلس وحلب ودمشق وغير ذلك ، وكان قد ترشح أمره لقضاء مصر — بل وكتابة السر — ولم يتم له ذلك .

وفيه توفي الطواشي عبد اللطيف الرومي المنجكي مقدم الممالك ، وكان لا بأس به بين الخدام .

وفي ربيع الأول توفي القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الزقناوي الشافعي ، نائب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة تسعين وسبعائة .

وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع السلطان على ولده المقر الشهابي أحمد وقرره أمير ركب المحمل ، ورسم لزوجته خوند زينب وأولاده بأن يحجبوا في تلك السنة ، وشرع لهم في عمل برك حافل ، وحجت صحبة ولدها المقر الشهابي أحمد .

وفي ربيع الآخر أعيد خاير بك القصري الى ولاية القاهرة وصرف عنها على بن القيسى .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأن شخصا من الأشراف يقال له الشريف برغوت تسلق الى سطح الحجرة النبوية الشريفة واختلس عدة قناديل ذهب وفضة ، فأخذها وفر الى الينبع ، فقبض عليه بعد أيام وأخذ ما معه من القناديل وسجن ، وكانت هذه الفعلة من أقبح الفعائل .

وفي جمادى الأولى خرجت التجريدة المينة الى ابن قرمان ، وكان باشا العسكر خشدقدم أمير

سلاح ومعه جماعة من الأمراء المقدمين والطلخانات والعشراوات ، ومن الممالك نحو من أربعمائة مملوك ، وكان لخروجهم يوم مشهود .

وفيه أرسل السلطان زردخانه حافلة على يد نوكار الزردكاش بسبب العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وكان نوكار مريضا فخرج غصبا على كره منه .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار ب وفاة نوكار الزردكاش ، مات بغزة ، وكان من ممالك الناصر فرج بن برقوق وكان لا بأس به . فلما مات خلع السلطان على سنقر الأشقر المعروف بقرقشبق ، وقرر في الزردكاشية عوضا عن نوكار الناصري بحكم وفاته .

وفي رجب طفش جماعة من فرسان العربان ركاب خيول ، وشرعوا يعرفون الناس من الصحراء الى أن وصلوا الى رأس الصوة — وكان ذلك وقت القائلة — فخطبوا عمائم الفقهاء ، وسلبوا قماش الناس عنهم ، ولم يجدوا من يردهم عن ذلك ، وكانت هذه اباحة صعدت من أولئك العربان .

وفيه توفي قاضي قضاة المالكية ولى الدين السنباطي ، وهو محمد بن عبد اللطيف بن اسحق ابن أحمد بن اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموي المالكى ، وكان عالما فاضلا من أعيان المالكية ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعائة . فلما توفي وقع الكلام على من يلى قضاء المالكية ، فوقع الاختيار على ولاية السيد الشريف حسام الدين بن حرير ، فسعى في ذلك بمال جزيل . وكان الساعى له في ولاية القضاء الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وكان يومئذ في المالكية من هو أعلم منه ، ولكن ساعدته الأقدار

وولى قضاء المالكية وأقام بها مدة طويلة الى أن مات .

وفيه أدير المحمل على عادته ، ولكن حصل فيه من الممالك الجلبان غاية الضرر في حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، وعظم الفساد ، وخطف عمائم الناس وغير ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن حسن بك الطويل — صاحب ديار بكر — تحارب مع جهان شاه صاحب تبريز والعراقين ، فجرى بينهم من الحروب ما يطول شرحه ، وآل الأمر الى أن حسن الطويل قد انتصر على جهان شاه . فلما جاءت الأخبار بذلك سر السلطان بنصرة حسن الطويل على جهان شاه . وفيه عاد قانى باى اليوسفى الذى كان توجه الى ابن عثمان ملك الروم وأخبر بأنه أكرمه غاية الاكرام .

وفي شعبان جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر الذى توجه من مصر صحبة الأمير خشتقدم أمير سلاح دخل بلاد ابن قرمان ، وشن فيها الغارات ، وأخربوا غالب بلاده ، وقطعوا الأشجار التى بها ، وقتلوا جماعة كثيرة من عسكره . فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

وفي رمضان أرسل السلطان جماعة من العسكر الى اللجون بسبب قطع الأخشاب على العادة ، وكان الباش على العسكر يشبك بن سليمان المعروف بالفتية المؤيدى أحد الأمراء الطليخانات يومئذ ، وهو الذى تولى الدواديرية الكبرى فيما بعد . وفيه توفى عالم الحنفية وشيخهم بالديار المصرية الأستاذ الشيخ كمال الدين محمد بن الهمام الحنفى وهو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسى المصرى الحنفى شيخ الشيوخ

بالخانقاه الشيعونية ، وكان فريد عصره في علماء الحنفية ، عالما عاملا فاضلا رحمة الله عليه . وكان مولده سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وكان معظما عند الملوك وأرباب الدولة ... ولى مشيخة الأشرافية والشيعونية وغير ذلك من الوظائف السنية .

وفيه وصل سودون القصرى — أحد الدواديرية — وأخبر بنصرة العسكر المتوجه الى ابن فرمان ، وقد استولى العسكر على غالب بلاده وأخربها وأحرق أشجارها ، فلما تحقق السلطان أمر بضرب البشائر بسبب هذه النصرة ، فدقت الكتوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ولد السلطان وفتح السد على العادة وكان يوما مشهودا ، ولكن كان في شهر رمضان ، فقيل أفطر في ذلك اليوم جماعة كثيرة من العياق الأوباش ، وكان يوما شديد الحر .

وفيه عمل السلطان مسابقة حافلة ، وركب معه أرباب الدولة من المباشرين وغيرهم .

وفي شوال توفى الأمير جاني بك القرماني حاجب الحجاب ، وكان لا بأس به ، وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان لين الجانب متواضعا مات في التجريدة التى أرسلت الى ابن قرمان .

وفيه وصل العسكر الذى توجه الى بلاد ابن قرمان ، ودخل ياش العسكر الأمير خشتقدم أمير سلاح ، وكان يوم دخولهم يوما مشهودا بالقاهرة ، ولكن حصل للعسكر بعد خروجهم من غزة وباء فمات منهم ما لا يحصى ، ودخل الباقون وهم متوعكون ، حتى الأمراء وأكثر الجند .

وفيه قرر في مقدمة جاني بك القرماني أبا يزيد الترمغاوى ، وقرر في امرية أبى يزيد برسباى المؤيدى .

وفيه خلع السلطان على القاضى صلاح الدين
المكينى وقرره فى الحسبة .

وفى ذى الحجة ثار المماليك الجلبان بالقلعة ،
ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، وذلك بسبب
زيادة رأس غنم فى كل سنة ، فشج السلطان فى
ذلك ، ثم رسم لكل واحد بزيادة رأس غنم فى
الأضحية وخمدت الفتنة قليلا .

وفيه ، فى ثامن عشره ، قدم مبشر الحاج
— وهو دمرداش الطويل — وأخبر بأن الحاج قاسى
عطشة عظيمة فى أثناء الطريق ، ومات من الناس
ما لا يحصى ، وأخبر بسلامة خوند وأولاد السلطان
فضربت البشائر بالقلعة لهذا الخبر .

وفيه توفى أذربك الشسمانى أحد الأمراء بصصر .
وفيه أخرج السلطان مقدمة طوخ بونى بازق
بحكم عجزه عنها ، وكان مريضا ، وقرر فى تقدمته
برسباى البجاسى . وقرر فى مقدمة برسباى البجاسى
بيرس خال الملك العزيز ، وقرر فى امرية مجلس
جرباش المعروف بكرت عوضا عن طوخ بونى بازق
وقرر يونس العلائى أمير آخور كبير عوضا عن
جرباش كرت بحكم انتقاله الى امرية مجلس .

سنة اثنتين وستين وثمانمائة (١٤٥٧/١٤٥٨ م) :

فيها ، فى المحرم ، أنعم السلطان على قايتباى
المحمودى بامرية عشرة ، وكان أحد الدوادارية
وقايتباى هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ، وكان
بين تأميره وسلطنته تسع سنين وبعض شهور .
وفيه قرر فى نيابة ملطية تغرى بردى .

وفيه توفى القاضى شهاب الدين السيرجى أحد
نواب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم
والفضل ، وكان مولده سنة ثمان وسبعين وثمانمائة

وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ،
وخرج ابن السلطان فى موكب حافل . وخرجت
والدته خوند زينب فى محفة زركش هى وأولاده
خوند زوجة الأمير برد بك ، وزوجة الأمير يونس
البواب أمير دوادار كبير ، وخرج ولد السلطان
سيدى محمد صحبة أخيه المقر الشهابى أحمد ،
وكان لهم يوم مشهود .

وحج فى تلك السنة جماعة كثيرة من أعيان
المباشرين ، منهم القاضى محب الدين بن الأشقر
كاتب السر ، والقاضى علم الدين شاكى بن الجيعان
وجماعة من أولاده ، والقاضى أبو بكر بن مزهر
ناظر الاصطبل ، وغير ذلك من الأعيان .

وفيه حضر جاني بك نائب جدة ، وحضر صحبته
زين الدين الاستادار ، وقد تقدم أن السلطان نفاه
الى المدينة الشريفة ، ثم رضى عليه وأحضره الى
القاهرة .

وفيه أنعم السلطان على جاني بك الاسماعيلى
— المعروف بكوهية — بامرية عشرة .

وفيه خلع السلطان على برسباى البجاسى وقرر
فى حجوية الحجاب عوضا عن جاني بك القرمانى
بحكم وفاته .

وفى ذى القعدة قدم قاصد صاحب بغداد بهدية
للسلطان ومكاتبة أنه كسر الخارجى الذى يقال له
المشعشع ، وقتل غالب عسكره ، وأن الحاج العراقى
تجهز فى تلك السنة بعد ما كان له مدة وهو منقطع
بسبب أمر المشعشع ، فآكرم السلطان ذلك القاصد
وأقام أياما وسافر .

وفيه توفى الشيخ سراج الدين عمر الوردى
الشافعى ، وكان من أهل العلم .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، ووصل ابن السلطان ووالدته واخوته ، وكان لهم يوم مشهود وموكب حافل ، ولأقاربهم الأمراء وأرباب الدولة من البويب ، ومشت الأمراء قدام محفة خوند حتى طلعت الى القلعة والأمراء مشاة قدامها من البويب ، ثم طلعت هي وأولادها وحمل الأمير فيروز الزمام على رأسها القبة والطير ، وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارة الى أن جلست على المرتبة بقاعة العواميد ، وتشر على رأسها خفايف الذهب والفضة ، ثم دخلت اليهم التقدم من الأمراء والمباشرين لخوند وأولادها . وكان ما أهداه الجمالى يوسف ناظر الخاص قندورة لخوند الكبرى مثلث ذهب ولؤلؤ وریش ، فكان مصروفها ما يزيد على اثني عشر ألف دينار ، وهذا خارج عن بقية التقدم لها ولأولادها لكل منهم مقدمة على انفراده ، ولا سيما ما أهداه للمقرر الشهابي أحمد ولد السلطان وأخيه الناصري محمد ، حتى قيل انه صرف في هذه الحركة نحو مائة ألف دينار ما بين تقدم وأسطة وغير ذلك ، وهذا من ماله دون مال غيره . وأفعال ناظر الخاص يوسف في أخباره تقارب أخبار جعفر البرمكى ، وهذا الأمر مشهور بين الناس .

وفيه وصلت مقدمة من عند قانى باى الحزراوى نائب الشام ، ومن جملتها خيول نحو ثمانين فرسا ، أحدها مسروج بسرج بلور من نوادر السروج .

وفي صفر رسم السلطان باحضار أربك بن مطبخ الظاهري — وكان مقيما بطلا — فلما طلع الى السلطان بالقلعة ألبسه سلاريا من ملابسه ونزل الى بيته ، فأنعمر عليه بامرية عشرة .

وفيه مات الشيخ عبد الكريم — خليفة سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه — مات قتيلا ولا

يعلم من قتله . وكان غير مشكور في سيرته ، ولى خلافة سيدى أحمد البدوى مدة طويلة . فلما مات ولى بعده صبي من أقاربه اسمه عبد المجيد .

وفيه توفى القاضى علاء الدين على بن أقبرس التركى الأصل ، وكان عالما فاضلا على مذهب الشافعى . وكان رئيسا حشما ، ولى عدة وظائف سنه منها الحسبة ونظر الأوقاف وناب في القضاء ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، ومونده سنة احدى وثمانمائة .

وفي ربيع الأول نودى في القاهرة بتسعين الذهب والفضة ، وضرب السلطان فضة جديدة . فسمى الدينار الذهب بثلثمائة ، والفضة الجديدة كل أشرفى بخسة وعشرين ونصفا عديدة جيدة من خالص الفضة ، وأبطل سائر المعاملات من تلك الفضة المغشوشة التى كان وصل الدينار منها الى أربعمائة وستين درهما ... فخر الناس في هذه الحركة تلك أموالهم ، ولكن انصلح أمر المعاملة بعدما كانت فسدت ، وفرح طائفة من الناس بذلك واغتم آخرون . وكان القائم في ذلك الجمالى يوسف ناظر الخاص ، فاضطربت الأحوال لذلك مدة ، ثم مشت تلك المعاملة الجديدة وسكن الاضطراب قليلا قليلا ، وصار كل من قبض عليه السلطان من الزغلية يوسطه أو يقطع يده ، فوقع الرعب في قلوب الزغلية ، وكان ذلك سببا لاصلاح المعاملة ، وقد انصلحت بعد جهد كبير . وقال الشهابى المنصورى فيسن أهدى اليه دينارا عند المناداة على الذهب :

أمولاي قد آثرتنى متفضلا

وأهديت دينارا قد استغرق الوصفا

ولكنه قد خاف أمر مليكه

ألم تره من خوفه نقص النصف

وفيه توفى الشيخ الصالح الملك المعتقد سيدى
مدين ، وكان من الأولياء وللناس فيه اعتقاد .
وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن مبارك
شاه ، وهو أحمد بن محمد بن حسين بن ابراهيم
بن سليمان القاهري الحنفى . وكان عالما فاضلا
شاعرا ماهرا وله نظم جيد ، وألف الكتب النفيسة
فى الأدبيات وغير ذلك ، منها كتاب يقال له
السنية ، كله محاسن وفوائد ، ومولده سنة ست
وثمانمائة . ومن شعره — عشرة مقابلة بعشرة —
قوله :

فرع ، جبين ، محيا ، قامة ، كفل
صدغ ، فم ، وجنات ، ناظر ، ثغر
ليل ، هلال ، صباح ، بانة ، ونقا
آس ، أقاح ، شقيق ، نرجس ، درر

وفى ربيع الآخر توفى جانم البهلوان الأشرفى —
أحد الأمراء العثراوات رعوس النوب — وكان
رئيسا حثما شجاعا بطالا بارعا فى فنون الفروسية .
وفيه حصل للسلطان توعك فى جسده ثم شفى ،
فضربت البشائر بالقلعة بسبب ذلك وبأبواب
الأمراء .

وفيه توفى الأمير طوخ بن تراز الناصرى
المعروف ببونى بازق ، وكان أصله من مماليك
الناصر فرج ابن الظاهر برقوق ، ومات بطالا
بعدما كان أمير مجلس ، وكان كبير سنه وعجز عن
الحركة .

وفيه توفى القاضى شهاب الدين أحمد المعروف
بقرقماس ، وهو أحمد بن على بن محمد بن مكى
ابن محمد بن عبيد بن عبد الرحيم الأنصارى
الدماصى الحنفى . وكان عالما فاضلا ، وناب فى
القضاء بخط بولاق . وكان مولده سنة تسعين
وسبعمائة .

وفيه توفى سودون النوروزى نائب القلعة . فلما
مات قرر بعده فى نيابة القلعة كمسباى السمين ،
وقرر جانى بك كوهية أحد رعوس النوب عن
كمسباى السمين .

وفيه توفى الناصرى محمد بن لاجين الجندى
الحنفى ، وكان من أعيان الحنفية .

وفى جنادى الأولى خلع السلطان على الطواشى
مرجان العادلى وقرره فى مقدمة المماليك .
وفيه قرر فى نظر الدولة منصور بن الصيفى ،
وهذا أول ظهوره فى الرئاسة .

وفيه توفى المغنى الأستاذ فى فن النشيد ، فريد
عصره ووحيدهم ، ناصر الدين محمد المازونى
القاهري . وكان بارعا فى فن الغناء ، وكان يضرب
به المثل فى حسن النغم ومعرفة الفن ، ولم يجرى
بعده من هو فى طبقته الى يومنا هذا . وقد رثاه
الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

يا نزهة السمع سكنت الثرى
فلللاهى أيمى لهفى
كم لطفة من قدم أو يد
فى خدى الدوكة والدف
وقوله أيضا :

كانت به لذاتنا موصولة
فاقطعت بسوته اللذات
وكانت الأصوات تزهو بهجة
فارتفعت لموته الأصوات

وكان حصل للمازونى خلط فالج فأقام به مدة
طويلة حتى مات ، فكان يقول : « ارحموا من سكت
حسه ، وبطل نصفه » .

وفيه نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء
وأرباب الوظائف من الدولة ، فساروا الى نحو
جزيرة أروى ثم توجه الى بولاق ، وكان له يوم
مشهود . فلما شق من بولاق أمر بهدم ما كان بها

من الأخصاص — وكانت تضيق الطريق على السالك — فهدمت من يومها .

وفيه مات الشيخ شهاب الدين أحمد بن الأوجاقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ذكيا .

وفيه صرف القاضى صلاح الدين المكينى عن الحسبة ، وقرر بها قانى باى اليوسفى المهندار ، وكان جماعة من الجلبان ثاروا على المحتسب فكان هذا سببا لصرفه عن الحسبة .

وفيه قدم قاصد من عند ابن قرمان وعلى يده مكاتبة يعتذر فيها عما حصل منه من الخروج عن الطاعة ، وأرسل يسأل السلطان فى العفو عنه والصلح معه ، فاجابه السلطان الى ذلك .

وفيهما نزلت صاعقة عظيمة ببولاق حتى كادت تحرق عن آخرها ، وكان ذلك يوم الجمعة من شهر رجب . واستمر فى كل ليلة يحترق فى مصر والقاهرة حريق ، وأقام على ذلك نحو سنة حتى ضج الناس من ذلك .

سنة ثلاث وستين وثمانمائة (١٤٥٨/١٤٥٩ م) :

فيها توفى القاضى محب الدين بن الأشقر كاتب السر الشريف . فلما توفى خلع السلطان على القاضى محب الدين بن الشحنة ، واستقر به كاتب السر الشريف عوضا عن ابن الأشقر . وكانت وفاته فى رجب .

وفيهما توفى الشيخ على العجمى المحتسب . وفيها توفى قانبائى الحمزاوى نائب الشام واستقر بها جانم الأشرفى .

وفيهما ظهر فى السماء نجم له ذنب طويل نحو سبعة أذرع ، فكان يطلع من جهة الشرق ، ثم صار يظهر من جهة الغرب ، فأقام على ذلك مدة ثم اختفى .

ومن الحوادث فى أيامه أن حضر الى الأبواب

الشريفة جاكم ابن ملك قبرس وطلب من السلطان نجدة ، فعين السلطان معه تجريدة ، وكان باش العسكر الأمير يونس الدوادار . ثم ان السلطان شرع فى عمارة مراكب أغربة بالجزيرة الوسطى . وكان الشاد على عمارة هذه الأغربة الأمير منقر قرق شبق الزردكاش ، فحصل منه غاية الظلم لأرباب الغيطان بسبب الأخشاب . فلما كملت عمارة تلك الأغربة نزل السلطان بنفسه ، وكشف على عمارة الأغربة ، وكان له يوم مشهود ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم ، وتوجه الى الجزيرة الوسطى فرموا قدامه الأغربة فى البحر — والنقط والطلل عمال — حتى انتهى ذلك ، ثم رجع الى القلعة . فلما خرجت التجريدة وتوجهوا الى بلاد الافرنج لم يحصل من العسكر الذى توجه نتيجة ، ورجع الأمير يونس الدوادار من التجريدة بسرعة وترك بقية العسكر فى قبرس ، ورجع الى القاهرة فما شكره أحد من العسكر على ذلك ، وبقي مبقوتا عندهم الى أن مات .

وفيهما توفى الأمير يونس العلانى الناصرى أمير آخور كبير ، فخلع السلطان على الأمير برسباى البجاسى ، واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن يونس العلانى ، وخلع على الأمير سودون قراقاش واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن برسباى البجاسى ، وأنعم على الأمير جالى بك نائب جدة بتقدمة ألف .

سنة أربع وستين وثمانمائة (١٤٥٩/١٤٦٠ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، وكان مبدؤه من الشام ، وكان طاعونا عظيما جدا مات فيه ثلث الممالك والأطفال والجوارى والعبيد والغرباء ، واستمر عمالا نحو خمسة أشهر . وكان الورد فى تلك السنة كثيرا ، فصاروا يعملون على التوايت قواصير جريد يغرزون فيها الورد . وقد

اتمتت الجنائز في كل يوم الى اثني عشر ألف جنازة . وقد قال القائل :

أسفى على سكان مصر اذ غدا

للطن فيها ذات وخز ماري

الموت أرخص ما يكون بحبة

لكن هذا صار بالقنطار

وفيهما توفي العلامة الشيخ جلال الدين المحلى الشافعى . وفيها توفي الزينى أبو الخير بن النحاس . وفي هذه السنة كانت وفاة القاضى برهان الدين ابراهيم بن الجيعان كاتب الخزان الشريفة ومستوفى ديوان الجيش .

سنة خمس وستين وثمانمائة (١٤٦٠ / ١٤٦١ م) :

قيها توجه الأتابكى أحمد ابن المقام الشريف الى السرحة ، فلما عاد زينت له القاهرة ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وطلع الى القلعة في موكب عظيم .

وفيهما توفي الناصر محمد بن أيتمش الخضيرى — ابن أخت خوند بنت خاصبك — توفي يوم دخول الأتابكى أحمد الى القاهرة ، فكدر عليهم ذلك اليوم .

واستمر الملك الأشرف اينال قائما في ملكه وهو في أرغد عيش ، وأولاده حوله ، وكان غالب الأمراء أصهاره ، والعسكر في قبضة يده . واستمر على ذلك حتى مرض بآلم الخصية ، وسلسل في المرض حتى مات . وكانت وفاته يوم الخميس بعد العصر خامس عشر جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة ، ودفن من يومه في تربته التى أنشأها له القاضى ناظر الخاص يوسف بالقرب من تربة القاضى عبد الباسط التى فى الصحراء ، فكثر عليه الحزن والأسف كما قيل فى المعنى :

هى الدنيا اذا كملت وتم سرورها خذلت
وتفعل بالذين بقوا كما فيمن مضى فعلت

وتوفى الملك الأشرف اينال وله من العمر احدى وثمانون سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثمانى سنين وشهرين وستة أيام ، وخلف من الأولاد أربعة وهم : الأتابكى أحمد الذى تسلطن بعده ، والمقر الناصر محمد أخوه الصغير ، وابنته خوند بدرية زوجة برد بك ، وابنته خوند فاطمة زوجة يونس البواب الدوادر الكبير .

ولم يتزوج اينال غير أم أولاده خوند زينب بنت خاصبك .

ولما ثقل فى المرض عهد بالملك الى ولده الأتابكى أحمد ، فتسلطن ووالده فى قيد الحياة . وكانت صفة الملك الأشرف اينال : طويل القامة ، أسمر اللون ، عربى الوجه ، خفيف العوارض ، وكان يعرف باينال الأجروود . وكان ملكا هينا لينا قليل الأذى ، ولولا جور ممالكه فى حق الناس لكان خيار ملوك الجراكسة . وكان كل من يقع له من الزغلية يوسطه وكانت أيامه كلها لهوا وانسراحا . وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فكانوا يخطون له على المراسيم حتى يمشى عليها بالقلم . وقيل انه فى مدة سلطنته لم يسفك دما قط بغير وجه شرعى ، فعد ذلك من النوادر .

ومن الحوادث فى أيامه أنه كان يقع بالقاهرة فى كل ليلة حريق فى عدة أماكن ، حتى ضج الناس من ذلك ، ولم يعلم سبب هذه النازلة ولا من كان يفعل ذلك . فاستمر الأمر على ذلك مدة ثم بطل . وفى أيامه تحرك ابن قرمان على بلاد السلطان ، فأخرج اليه تجريدة — وكان باش العساكر المقر السيفى خشقدم أمير سلاح — فلما توجهوا الى بلاد ابن قرمان لم يقاتلهم ولم يقع بينهم قتال ، فرجع العسكر الى الديار المصرية وهم سالمون . ومن الحوادث فى أيامه أن خوند زوجة

السلطان مرضت فنزلت الى بولاق وأقامت في القطبية ، فنزل السلطان وسلم عليها فلما حصل لها الشفاء أخرجوا في بولاق حراقة فقط ، فخرجت في تلك الليلة البنت من خدرها بسبب الفرجة على ذلك ، وكانت من الليالي المعدودة في القصف والفرجة .

وكانت دولة الملك الأشرف اينال تاتة القواعد . فأما أتابكيته فالمقر السيفى ثانى بك الظاهرى ، وولده المقر الشهابى أحمد .

وأما دواذارياته فالمقر السيفى يوس البواب صهره ، والأمير برد بك الدواذار الثانى مملوكه وصهره أيضا .

وأما قضاته الشافعية فالقاضى علم الدين صالح البلقينى وأما قضاته الحنبلية فشيخ الاسلام سعد الدين الدبرى وأما قضاته المالكية فالقاضى ولى الدين السنباطى ، ثم السيد الشريف حسام الدين بن حريز وأما قضاته الحنبلية فالقاضى عز الدين أحمد بن نصر الله الحنبلى

وكان الجمالى يوسف ناظر الخاص مدبر مملكته ، كما كان القاضى عبد الباسط فى دولة الأشرف برسباى .

وكان ينقاد الى الشريعة ، ويجب العلماء ، قليل العزل للقضاة وأرباب الوظائف .

وكان معظم مساويه مماليكه الجلبان . وبالجملة كان الأشرف اينال من خيار ملوك الجراكسة .

الملك المؤيد أبو الفتح العلانى الناصرى

هو الملك المؤيد أبو الفتح شهاب الدين أحمد ، ابن الملك الأشرف اينال العلانى الناصرى . وهو السابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد .

بويح بالسلطنة فى حياة والده . وكانت صفة مبايعته بالسلطنة أن أباه لما أشرف على الموت طلع الأمير برد بك — صهر السلطان — واجتمع بخوند زوجة السلطان ، وذكر لها أن الأحوال فاسدة ، والأمور فى اضطراب . ومن رأى أن السلطان يعهد الى ولده بالسلطنة . فدخلت حوند على السلطان وذكرت له ذلك ، فأمر باحضار الخليفة والقضاة الأربعة ، فحضر الخليفة الجمالى يوسف ، والقضاة الأربعة وهم : علم الدين صالح البلقينى الشافعى ، وسعد الدين الدبرى الحنفى ، وحسام الدين بن حريز المالكى ، وعز الدين الحنبلى ، وحضر أرباب الدولة من أرباب الحل والعقد . فلما تكامل المجلس دخل بعض الشهود على السلطان ، وشهدوا عليه بخلع نفسه من السلطنة وتولية ولده .

ثم ان الخليفة بايع الأتابكى أحمد بن اينال بالسلطنة عوضا عن أبيه وتلقب بالملك المؤيد . فلما تمت له البيعة احضر له شعار الملك ، وهو العمامة السوداء والجبّة والسيف البداوى ، وأفيض عليه الشعار ، وقدمت اليه فرس النوبة ، وركب من باب الدهيشة ، وحمل الأمير حشقدم أمير سلاح على رأسه القبة والطير ، وقد نرشح أمره لأن يلى الأتابكية

فلما ركب من الدهيشة مشيت قدامه الأمراء قاطبة — والخليفة عن يمينه — حتى دخل القصر الكبير ، ونزل عن فرسه ، وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، ودقّت له البشائر بالقلعة .

ثم نزل والى ونادى فى القاهرة بالأمان والاملئنان والدعاء للملك المؤيد ، فارتفعت الأصوات بالدعاء

وكان محببا للناس ، قليل الأذى . ثم خلع على الخليفة والأمير خشقدم ، ونزلا الى دورهما .

وكان له من العمر لما تولى السلطنة نحو من ثمان وثلاثين سنة أو زيادة على ذلك . وكانت أمه نخولد زينب بنت خاصبك . وكان كامل الهيئة ، حسن الشكل ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، طويل القامة ، غليظ الجسد ... وكان كفئا للسلطنة ... ولكن لم يساعده الزمان ، وجنى عليه وخان ، كما قيل :

إذا طبع الزمان على اعوجاج

فلا تطمع لنفسك في اعتدال

فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب وجلس على سرير الملك ، وقال فيه القائل :

بمهجتي أفدى مليكا غدا

مؤيدا بالنصر كالشمس

فلو تراه فوق كرميه

لقلت هذا آية الكرسي

ثم أخذ في تدبير ملكه ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفي خشقدم الناصري أمير سلاح ، فقرره في الأتابكية عوضا عن نفسه ، وأخرج له مكتوبا باقطاعه الذي كان بيده . وخلع على جرياش المحمدي — المعروف بكرت — وقرره في امرية سلاح . وخلع على قرقماس الجلب وقرره في امرية مجلس عوضا عن جرياش كرت . وخلع على قائم التاجر وقرره رأس نوبة النوب عوضا عن قرقماس الجلب . وقرر في مقدمة جرياش كرت بيبرس خال الملك العزيز . ثم شغرت مقدمة فأراد أن ينعم بها على صهره الأمير برد بك الدوادار الثاني ، فوقف اليه جاني بك الظريف وبأس الأرض وطلب المقدمة التي شغرت ، فأبى السلطان من ذلك ، وحصل بين جاني بك الظريف وبين الأمير يونس الدوادار الكبير في ذلك اليوم

تشاجر بسبب ذلك ، ونزل جاني بك الظريف من عند السلطان غير راض ، وكان ذلك سببا في سرعة زوال الملك المؤيد أحمد عن قريب .

ثم ان السلطان نادى في الحوش للعسكر بأن نفقة البيعة في يوم الثلاثاء عشرين هذا الشهر لكل مملوك عشرون دينارا ، فسر الجند بذلك وارتفعت له الأصوات بالدعاء ... هذا كله جرى ووالده الأشرف في قيد الحياة ، الى أن مات في يوم الخميس بعد العصر . وذلك في خامس عشر جمادى الأولى من تلك السنة . فلما مات شرعوا في تجهيزه ، وأخرجوه عند باب الستارة ، وصلى عليه الخليفة وولده الملك المؤيد أحمد ، ثم نزلت جنازته من سلم المدرج وتوجهوا به الى تربته التي أنشأها بالصحراء كما تقدم .

ثم ان السلطان بعث نفقات الأمراء فحمل الأتابكي خشقدم أربعة آلاف دينار ، ولأرباب الوظائف من الأمراء والمقدمين لكل واحد منهم ألفان وخمسمائة دينار ، ولبقية المقدمين لكل منهم ألفا دينار ، وحمل للأمراء الطبلخانات لكل واحد منهم خمسمائة دينار ، وحمل للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائتا دينار

ثم اتفق على الجند — على العادة القديمة — من مائة دينار الى ما دون ذلك الى عشرة دنانير .

ثم أنعم السلطان على يشبك البجاسي الأشرفي ، ويشبك هذا كان من مماليك الأشرف اينال ، وكان في أيام أمताذه مقدم ألف بحلب ، ثم حضر الى القاهرة فبقى مقدم ألف بمصر .

وفي جمادى الآخرة عين السلطان جماعة من خواصه من الأمراء والخاصكية بالتوجه الى البلاد الشامية وغيرها ببشارة السلطنة الى النواب وغيرهم .

وفيه جاءت الأخبار من قبرس بأن جاني بك الأبلق — الذى كان مقيما بقبرس مع جماعة من المماليك السلطانية — أرسل يخبر بأن أخت جاكم صاحب قبرس فرت الى رودس لتستجد بصاحبها ليمدها بعسكر حتى تحارب أخاها وتأخذ منه مدينة شيرينه ، فأرسل جاني بك الأبلق يستحث السلطان فى ارسال تجريدة تنجده سريعا ، وكان يظن أن الأشرف اينال فى قيد الحياة .

وفيه خلع السلطان على مجد الدين بن البقرى وقرره فى الاستادارية عوضا عن منصور بن الصفى بحكم صرفه عنها ، وهذه أول ولاية مجد الدين للوظائف السنية .

وفيه توفى الطواشى مرجان العادلى مقدم المماليك ، وكان حبشى الجنس ، وكان عنده شدة بأس وعسوفة زائدة ، فلما مات قرر فى تقدمته جوهر النوروزى .

وفيه توفى جليل بن أحمد بن عميرة شيخ العرب بالكفور بالغربية ، وكان ظالما عسوفا ، وكان فى سعة من المال وهو بخيل جدا .

وفيه توفى صاحب سعد الدين فرج ابن ماجد النحال . وكان أصله من الأقباط ، ولى عدة وظائف سنية منها الوزارة والاستادارية غير ما مرة ، وولى أيضا كتابة المماليك وغير ذلك من الوظائف . وكان رئيسا حشما دينا خيرا مشكورا فى مباشرته ، وكان عنده حدة مزاج فى ذاته ، ومولده فى سنة احدى وثمانمائة .

وفيه كان قراءة تقليد السلطان بالقصر الكبير . وحضر الخليفة والقضاة الأربعة وأرباب الدولة ، وجلس القاضى كاتب السر محب الدين بن الشحنة على كرسى وقرأ التقليد على العادة . ثم ان السلطان خلع على الخليفة والقضاة الأربعة ونزلوا من القلعة فى موكب حافل .

وفيه ثارت عربان ليبد ، ووصلوا الى البحيرة ، وشنوا بها الغارات ، ونهبوا الغلال . فلما بلغ السلطان ذلك بادر وأرسل خلفهم تجريدة ولم يرسل من المماليك الجلبان أحدا ، فعز ذلك على المماليك القرانصة وأضرموا له السوء .

وفى رجب ظهر فى القاهرة وضواحيها الأمن والعدل والرخاء ، وأحب الرعية السلطان حبا شديدا ، ومالت اليه النفوس قاطبة كما قيل :

دولته للأنام عيد باق وأيامه مواسم
قد أظهر العدل فى الرعايا وأبطل الجور والمظالم
وصير الشاة فى حماه تمشى مع الذئب والضياغم
لو نطقت مصرنا لقات يا ملك العصر والأقالم
ملأ قلب الملوك رعبا أغنى عن السمر والصوارم

وفيه هجم المنسر على المتفرجين بجزيرة بولاق ، وكان فى الظلمة نصف الليل ، فنهبوا من الناس شيئا كثيرا ، وكان الناس قد خرجوا عن الحد فى الفتك والقصف بسبب الفرجة ، ونصبوا هناك الخيام حتى سدوا رؤية البحر ، وصاروا يقيمون فى الرمل ليلا ونهارا من نساء ورجال وهم فى غاية التزخرف ، فهجم عليهم المنسر على حين غفلة ونهب ما قدر عليه ، ولم ينتطح فى ذلك شاتان .

وفيه قدم الأشرفى الذى كان دوادارا ثانيًا بنصر ونفى فى دولة الأشرف اينال ، فلما مات اينال قدم الى القاهرة من غير اذن السلطان . فلما حضر نزل عند الأتابكى خشقدم . فلما بلغ السلطان ذلك شق عليه وأمر باخراجه من حيث جاء ، فخرج من يومه ، وأمر بسجنه ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بدمشق ، وألبسه كاملية سمور ، وخرج من مصر سريعا ، فشق ذلك على جماعة الأشرفية ، وكثر القيل والقال بين الناس ، ولهجوا بوقوع فتنة عن قريب .

وفيه وصل الطواشى شاهين غزالى الذى توجه

عقولهم ، وضحكوا عليهم ، فلبسوا آلة الحرب
وظلموا الى الرميّة . فلما عظم الأمر نزل السلطان
الى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطل على الرميّة ،
فاستد الحر في ذلك اليوم ، واستمروا على ذلك
حتى حال بينهما الليل .

فلما أصبح يوم الأحد ثامن عشر رمضان نزل
السلطان الى المقعد المطل على الرميّة وثبت للقتال ،
فلما رأى ممالك أبيه قد وثبوا عليه تحقق أنه
مكسور لا محالة ، فكان كما قيل :

كنت من كربتى أفر اليهم

فهو كربتى فأين المفر ؟

ثم كانت الكسرة على أحمد ، فطلع من باب
السلسلة وتوجه الى قاعة البحرة ، ثم طلب أخاه
الناصرى محمدا وأمرهم أن يغلقوا عليها الباب .
فلما بلغ العسكر أن الملك المؤيد قد اختفى توجهوا
الى بيت الأتابكى خشقدم ، فأركبوه غصبا حتى
طلعوا الى باب السلسلة . وحضر الخليفة والقضاة
الأربعة ، فخلعوا الملك المؤيد أحمد من السلطنة
وباعوا الأتابكى خشقدم ، فكانت مدة الملك المؤيد
في السلطنة أربعة أشهر وثلاثة أيام .

وكان الممالك كاتبوا جالهم نائب الشام أن
يحضر الى مصر ليلى السلطنة ، وأرسلوا اليه صورة
حلف ، وكتب فيه الأمراء الأشرفية خطوط أيديهم
بأنهم ارتضوا بجانم أن يكون هو السلطان عليهم ،
وأرسلوا يستحثونه في الحضور فأبطأ عليهم ،
فما صبروا الى أن يحضر ، فوثبوا على المؤيد في
رمضان وحاربوه ثلاثة أيام ، فلما انكسر التفوا
على الأتابكى خشقدم وولوه السلطنة عارية الى أن
يحضر جالهم نائب الشام ، فصار الهزل جدا وكان
كما قيل في المعنى :

وان صبايتى كانت مزاحا

فصيرها الهوى حقا يقينسا

وكان الملك المؤيد أحمد كمنّا للسلطنة ، ذا

الى دمشق لضبط تركة زوجة قانى بك الحزاوى
نائب الشام . واشتملت تركتها على أشياء غريبة من
تحف ومعادن نفيسة وأقمشة مثنة وأوانى فضة
وبلور مما لا يسمع بمثله ، فكان هذا الموجود أعظم
من موجود الخوندات ، فأمر السلطان ببيعه
في كل يوم ثلاثاء ، فأقاموا لحوا من شهر وهم
بيعون في ذلك الموجود .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو القرافة
وعاد سرعيا ، وهذا أول ركوبه في السلطنة ...
وكان آخر ركوبه .

وفيه أمطرت السماء بردا كبارا كل حصوة قدر
بيضة الحمامة ، وكان غالب ذلك بيلاد الشرقية ،
وتلف بها أكثر الزرع وهلك بها بعض بهائم .

وفيه توفى الأمير فيروز الزمام الخازندار
الكبير ، وكان أصله من خدام فيروز الحافظى .
وكان رئيسا حثما ، وولى عدة وظائف منها
الزمامية والخازندارية الكبرى وغير ذلك من
الوظائف . وكان سىء الأخلاق حاد المزاج ، وكان
في سعة من المال ، ووجد له من الأصناف والمال
ما يزيد على مائة ألف دينار . قيل ابتيع له حاصل
فيه فحم بألف دينار . ومات وله من العمر ما يزيد
على ثمانين سنة ، ولم يجرى بعده مثله من الخدام .

وفي رمضان أشيع بين الناس أن السلطان عول
على امساك جماعة من الأمراء الأشرفية . ثم انه
أمر تقيب الجيش بأن يدور على الأمراء ويأمرهم
بالصعود الى القلعة وما عرف السبب لذلك ،
فأخذوا حذرهم وباتوا على وجل ، ولم يطلع اليه
أحد .

فلما كان ليلة السبت سابع عشر رمضان وثب
جماعة من الممالك الأشرفية والظاهرية ، واستمالوا
معهم غالب الممالك الاينالية ، ولعبوا بهم وأفسدوا

عقل ورأى ، كامل الهيئة ، ساس الناس في أيامه أحسن سياسة ، وقمع ممالك أبيه عما كانوا يفعلونه من تلك الأفعال الشنيعة . وكان بصيرا بمصالح الرعية ، ولو أقام في السلطنة لحصل للناس به غاية النفع ... ولكن خانه الزمان ، وأخذ من حيث كان يرجو الأمان ، كما قيل :

واذا جفأك الدهر — وهو أبو الوري

طرا — فلا تعتب على أولاده

الملك الظاهر أبو سعيد

هو الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصري المؤيدي ، وهو الثامن والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو أول ملوك الروم بمصر ... ان لم يكن أيك التركماني من الروم ، ولا لاجين من الروم ، فخشقدم أول ملوك الروم بمصر .

وكان الظاهر خشقدم أصله رومي الجنس ، جلبه الخواجا ناصر الدين — وبه يعرف بالناصرى — فاشتره منه الملك المؤيد شيخ ثم أعنته ، وأخرج له خيلا وقماشاً وصار جمداراً ، ثم بقى خاصكياً في دولة الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ . ودام على ذلك دهرا طويلا الى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فأنعى عليه بامرية عشرة ، وذلك في سنة ست وأربعين وثمانمائة (١٤٤٢ / ١٤٤٣ م) ، وصار رأس نوبة . واستمر على ذلك الى سنة خمسين وثمانمائة (١٤٤٦ م) ، فأنعى عليه السلطان بتقدمة ألف بدمشق ، فتوجه اليها ودام بدمشق الى أن تغير خاطر السلطان على الأمير قاني بك الظاهري حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الكاشف الذي كان قد اشتهر بالصلاح ، فعند ذلك نفى السلطان الأمير قاني بك الى ثغر دمياط .

فلما جرى ذلك سعى القاضي أبو الخير ابن النحاس وكيل بيت المال — هو والأمير تبرضا الدوادار الثاني — للأمير خشقدم ، فأحضره السلطان من دمشق ، وأنعم عليه باقطاع الأمير قاني بك حاجب الحجاب ، وذلك في صفر سنة أربع وخمسين وثمانمائة ، فأقام على ذلك الى أن مات الملك الظاهر جقمق وتسلطن الملك الأشرف اينال ، فبقى الأمير خشقدم أمير سلاح في دولة الأشرف اينال ، وسافر في أيامه باش العسكر في التجريدة التي توجهت الى حلب بسبب ابن قرمان . فلما رجع من التجريدة أقام أمير سلاح الى أن توفي الملك الأشرف اينال وتسلطن ولده الملك المؤيد أحمد ، فاستقر بالأمير خشقدم أتابك العساكر عوضا عن نفسه ، وذلك في سنة خمس وستين وثمانمائة .

فلما وثب المماليك على الملك المؤيد في شهر رمضان — كما تقدم ذكر ذلك — اتفق رأى الأمراء على سلطنة الأتابكي خشقدم الى أن يحضر المقر السيفي جانم نائب الشام فيسلطونه . فلما أبطأ عليهم الأمير جانم سلطنوا الأتابكي خشقدم لياية عن جانم ، فكانت سلطنة خشقدم فلتة كما قيل في المعنى :

وان صبابتي كانت مزاحا

فصيرها الهوى حقا يقينا

وكانت سلطنة الأتابكي خشقدم في يوم السبت سابع عشر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة (١٤٦٠ / ١٤٦١ م) ، فصلى الظهر وجلس في المقعد الذي في باب السلسلة ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة وهم على الوصف المقدم ذكره ، فخلعوا الملك المؤيد أحمد من السلطنة وبايعوا الأتابكي خشقدم ، فأحضروا له خلعة السلطنة فلبسها من المقعد الذي في باب السلسلة ، وركب من هناك فرس النوبة وطلع الى باب القصر الكبير ، وحمل

على رأسه القبة والطير المقر السيفى جرباش كرت أمير سلاح .

فلما جلس على سرير الملك باس له الأمراء الأرض وتلقب بالملك الظاهر ، ودقت له البشائر ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضح الناس له بالأدعية الفاخرة .

ثم انه أرسل قيد الملك المؤيد وأخاه في البحرة . ثم نزل بهما وقت الظهر من القلعة وخلفهما أوجاقية بخناجر وأرسلهما الى السجن بثغر مدينة الاسكندرية وأرسل معهما الأمير قراجا الطويل الاينالى . وكان المتسفر عليهما الأمير خير بك المصارع ، فتوجه بهما الى ثغر الاسكندرية وسجنهما بها .

ثم ان السلطان رسم على خوند الخاصبكية — أم الملك المؤيد — وجعل عليها عشرة من الخدام ، منهم خشقدم اللالا ، فصار يقسو عليها ثم انه أخذ للسلطان من خوند المذكورة جملة كثيرة من المال نحو مائة ألف دينار .

ثم انه في أواخر شهر رمضان توفي الأمير يونس البواب الدوادر الكبير — وكان صهر الملك الأشرف اينال — فكثر عليه الحزن والأسف .

ثم ان السلطان عمل الموكب في القصر الكبير ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى جرباش المحمدى المعروف بكرت ، فخلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه . وخلع على المقر السيفى قرقماس الجلب واستقر به أمير سلاح عوضا عن جرباش . وخلع على المقر السيفى قائم التاجر المؤيدى واستقر به أمير مجلس . وخلع على المقر السيفى بلباى المؤيدى واستقر به حاجب الحجاب . وخلع على المقر السيفى جاني بك نائب جدة واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير يونس البواب بحكم وفاته كما تقدم . ثم انه

قل المقر السيفى برد بك الجمقدار واستقر به حاجب الحجاب . وخلع على المقر السيفى بيرس خال العزيز واستقر به رأس نوبة النوب ، ثم خلفه تمر بغا لما جاء من مكة حين أمسك الأمير بيرس ونفى كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه . وكان تمر بغا بمكة ، فلما حضر لمصر استقر به رأس نوبة النوب . وخلع على المقر السيفى جاني بك الظريف واستقر به دوادارا ثانيا وأنعم عليه بتقدمه ألف مع الدوادرية . وخلع على المقر السيفى جاني بك الأشرفى ، واستقر به شاد الشربخانا ، وأنعم عليه بتقدمة ألف مع الشادية . وخلع على الأمير اينال الأشقر ، واستقر به والى القاهرة . وخلع على الأمير تنم رصاص واستقر به محتسب القاهرة . وأنعم على جماعة كثيرة من الأمراء الأشرفية بامريات عشرة ... ولم تكن ولاية هؤلاء الأمراء في موكب واحد بل كانت في مواكب متعددة حسبما يأتى ذكر ذلك في موضعه .

ثم ان الأمير جاني بك نائب جدة قرب جماعة من الاينالية ولم يمكن السلطان من التشويش عليهم — منهم : أزدمر الطويل ، وثانى بك قرا ، وجاني بك الخشن ، وشاد بك أبانطة ، وقانصوه المؤيدى ، وغير ذلك من الاينالية جماعة كثيرة — فصار هؤلاء من عصبة جاني بك نائب جدة . وكان متخيلا من جماعة الأشرفية والمؤيدية ، ففويت شوكته ، وتعصبت له الاينالية واجتمعت فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد في تلك الأيام ، والسلطان خشقدم في قبضة يده يدوره كيف شاء .

وكان السلطان خشقدم متخيلا أيضا باطنا وظاهرا ، فلم يزل الملك الظاهر خشقدم ينسبل الى جاني بك نائب جدة ويداريه حتى انتهز الفرصة في قتله وقتله كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ،

فكان لسان حال جاني بك نائب جدة يقول :

لا تأمنن عدوا ولو دنا للمنيعة

فحياة السم تدعى في حالة الموت حية

ثم ان الملك الظاهر خشقدم أنفق على العسكر نفقة كاملة ، وفرق الاقطاعات الثقال على الممالك وأرضى جميع الجند بكل ما يمكن ، فاستقامت أحواله في السلطنة ، وزال عنه الشك .

فلما كان يوم التاسع والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة ، جاءت الأخبار بأن المقر السيفي جاني نائب الشام قد وصل الى خانقاه سرياقوس ، وقد تقدم أن الأمراء الأشرافية أرسلوا كاتبوه بأن يحضر الى القاهرة بسرعة حتى يسلمونوه عوضا عن الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال . فلما أبطأ عليهم وثبوا على الملك المؤيد وخلصوه من السلطنة ، وولوا الأتابكي خشقدم سلطانا ، واستقر المقر السيفي جرياش كرت أتابك العسكر بمصر فلما حضر جاني من الشام وجد القاعدة قد انخرمت ، والوظائف قد انقسمت ، وفاته الشنب ، وعز الطلب ، فكان كما قيل في المعنى :

وثب الشعب يوما وثبة

شغفا منه بعنقود العنب

لم ينله ، قال : هذا حامص

حصرم ليس لنا فيه أرب

فلما بلغ الظاهر خشقدم حضور جاني بك نائب الشام اضطربت أحواله ، وتزايدت أوجاله ، فاجتمع بالأمراء وضربوا في ذلك مشورة ، فوقع الاتفاق بأن جاني يرجع الى الشام ولا يدخل الى مصر ، وأن يكون نائب الشام على عادته . فتوجه اليه صاحب علاء الدين بن الأهناسي وصحبته خلعة الى الأمير جاني بأن يكون نائبا على عادته ، فتوجه اليه في ليلة عيد الفطر ، ومد له في الخانقاه

يوم العيد مدة عظيمة ، ولم يمكن السلطان أحدا من الأمراء المتقدمين بأن يتوجه اليه ، فتوجه اليه بعض أمراء عشراوات من الأشرافية منهم تمارز الشمسي وغير ذلك .

ثم ان السلطان أرسل الى الأمير جاني عشرة آلاف دينار ، وأنعم عليه ببرك الأمير بونس الدوادار جمعه ، وصار يرضيه بكل ما يمكن ، فرجع الأمير جاني الى الشام وهو بخفي حنين . وكان ذلك ترتيبا من الأمير جاني بك نائب جدة فانه كان كثير الحبل والخداع .

فلما رجع الأمير جاني الى الشام أرسل السلطان الى نائب قلعة الشام مراسيم في الدس بأن يقبض على جاني نائب الشام ، فرمى عليه بالمدافع وهو جالس في دار السعادة ، فهرب وقام من وقته وأخذ عياله وأولاده وخرج من الشام هاربا . فلما خرج نهبوا دار السعادة وأخذوا جميع بركه وقماشه . فلما خرج من الشام توجه الى نحو مدينة الرها واستمر في هجاج وعصيان فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بذلك عين له السلطان تجريدة وعين الأمير جاني بك نائب جدة أمير العسكر ، فأخذ في أسباب ذلك .

ثم ان السلطان خلع على خشدادشيه المقر السيفي تم المؤيدي واستقر به نائب الشام عوضا عن جاني الأشرفي لما تسحب من الشام ، فأقام الأمير تنم في نيابة الشام الى أن مات هناك ودفن بالشام ، والله سبحانه وتعالى أعلم

سنة ست وستين وثمانمائة (١٤٦١/١٤٦٢ م) :

فيها عمل السلطات الموكب في القصر الكبير . فلما طلع الأمراء واجتمعوا بالقصر عول في تلك الليلة على مسك جماعة من الأمراء الأشرافية . فلما كان بعد العشاء غلقوا أبواب القلعة ، ودخل على الأمراء وهم في القصر جماعة من الممالك

الظاهرية وهم لابسون الزرديات والخود ، وبأيديهم سيوف مسلولة ، ومع بعضهم قسي ونشاب ، فقبضوا على الأمير جاني بك الظريف ، والأمير جاني بك المشد ، والأمير بيبرس خال العزيز ، وغيرهم من الأمراء الأشرفية نحو من اثني عشر انسانا . فلما قبضوا عليهم قيدوا الأمراء المقدمين ونزلوا بهم من القلعة ، وهم : الأمير جاني بك الظريف ، والأمير بيبرس خال العزيز ، والأمير جاني بك المشد ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات فلما نزلوا بهم توجهوا بهم الى السجن بشعر الاسكندرية .

فلما جرى ذلك وثب جماعة الأشرفية على الملك الظاهر خشقدم ، ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، فنزل اليهم جماعة من المماليك الظاهرية فوقعوا معهم .

ثم ان المماليك الأشرفية توجهوا الى الأتابكي جرباش كرت - وكان في تربة الظاهر برقوق بسبب موت ابنته التي ماتت نفساء ، وهي زوجة الأمير أقبردى اليوسفى - فلما توجهوا اليه اختفى الأمير جرباش منهم في فسقية الموتى ولم يقابلهم ، فلم يزالوا عليه حتى طلعوا به من فسقية الموتى ، وسلوا عليه السيوف وأركبوه غصبا ، وشالوا على رأسه صنجقا ، ودخلوا به من باب النصر وشقوا به من القاهرة ولقبوه بالملك الناصر فصار العوام يضجون له بالدعاء ، حتى وصل الى البيت الكبير الذى عند حدره البقر ، فأقام هناك . ثم ان الأشرفية قاتلوا قتالا هينا وكان رأس هذه الفتنة الأمير منقر قرق شبق الزردكاش وكان من شرار جماعة الأشرفية ، فلم يطبوا طبة ، وصارت أحوالهم مبة .

ثم ان الملك الظاهر خشقدم أرسل الى الأتابكي

جرباش بعض الخاصكية فتلطف به وأخذته وطلع به الى القلعة ، فلما طلع تحيل عليه الأمير جاني بك نائب جدة وقال : « خشكلدى ملك ناصر » ... فلم يرد عليه جوابا . فلما طلع الأتابكى جرباش الى القلعة نزل المماليك الظاهرية ، وأوقعوا مع المماليك الأشرفية واقعة قوية ، فلم تكن الا ساعة غير بطية ، حتى انكسر المماليك الأشرفية كسرة قوية ، وأحاطت بهم كل رزية ، فولوا مدبرين ، ورجعوا خائبين ... فعند ذلك توجه جماعة من المماليك الظاهرية الى بيت الأمير سنقر الزردكاش ونهبوا ما فيه وأحرقوه ، ثم قبضوا على الأمير سنقر الزردكاش وعلى جماعة كثيرة من الأشرفية ونفوههم في أماكن شتى ، وخمدت هذه الفتنة كأنها لم تكن .

ثم ان السلطان قبض على جماعة من الايتالية ونفاهم ، ثم نفى الأمير برد بك - صهر الملك الاشرف اينال - الى مكة .

وفيها خلع السلطان على خشداسيه الأمير جاني بك كوهيه ، واستقر به دوادارا ثانيا عوضا عن الأمير جاني بك الظريف .

وفيها خلع السلطان على الأمير اينال الأشقر والى القاهرة ثم استقر به نائب ملطية . وخلع على الأمير تمر الظاهري واستقر به والى القاهرة عوضا عن اينال الأشقر .

وفيها عزل السلطان ناظر الخاص عبد الرحمن ابن الكويز واستقر بالقاضى شرف الدين الأنصارى ناظر الخواص الشريفة عوضا عن عبد الرحمن بن الكويز .

وفيها فصل السلطان قاضى القضاة علم الدين صالح من القضاء ، وأعاد القاضى شرف الدين يحيى المناوى . وقيل بل عزل القاضى علم الدين وتولى المناوى في دولة المؤيد أحمد بن اينال ، وهذه

ثالثة ولاية للمناوى . وكذلك فصل القاضى
سعد الدين الديرى من القضاء وولى ابن الصواف
عوضا عنه .

وفىها عزل السلطان صاحب علاء الدين بن
الاهناسى ، وخلق على صاحب بن الصنيعة واستقر
به وزيرا .

وفىها عزل السلطان الأمير زين الدين يحيى
الاستادار وولى مجد الدين بن البقرى استادارا
عوضا عنه

ومن الحوادث فى هذه السنة أن النيل المبارك
توقف فى أبيب عند مبتدأ الزيادة ، وأقام فى ذلك
التوقف نحو خمسة عشر يوما ولم يزد شيئا ،
فضج الناس من ذلك ، وتشحطت الغلال ،
وشطط سعر القمح الى ألف درهم كل أردب ،
وحصل للناس الضرر الشامل لقلّة الزيادة وقد
دخلت مسرى ، وقد قيل فى المعنى :

ولقد عهدت النيل سنيا يرى
عمرا ويتبع أمره تسديدا
والآن أضحي فى الورى متشيعا
متوقفا ما ان يحب يزيدا

فلما استقر الأمر على ذلك رسم السلطان
للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا
الى المقياس ، ويبيتوا به ويتلوا هناك القرآن
والحديث الشريف ويدعوا الله تعالى بزيادة النيل .
فتوجه القاضى يحيى المناوى والسيد الشريف ، ابن
حريز المالكي وجماعة من العلماء فأقاموا فى المقياس
أياما ورجعوا ولم يزد النيل شيئا فأرسل السلطان
الى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى يستفتيه
فى ذلك فقال الشيخ أمين الدين . « اجتمعوا بنى
العباس من الرجال والنساء ، من صغارهم لكبارهم
ثم يضعون فى أفواههم شيئا من الماء ويمجونه فى

اناء ثم يصبونه فى فسقية المقياس » ... ففعلوا
ذلك فكانت فيه البركة ١ .

ثم ان القاضى علم الدين صالحا البلقينى توجه
الى المقياس وأقام هناك ثلاثة أيام ، ففى اليوم
الرابع زاد ثلاث أصابع ، ففرح الناس بذلك ،
ورجع القاضى علم الدين وشق من القاهرة وقدامه
رايات زعفران ، وانطلقت له النساء بالزغاريت
من الطيقان ، ثم وفى النيل فى تلك السنة وثبت
ثباتا عظيما الى أواخر توت ، وتوجه المقر السيفى
قائم التاجر وكسر السد ، وقد قال القائل :

سد الخليج بكسره جبر الورى
طرا ، فكل قد غدا مسرورا
البحر سلطان ، فكيف تواترت
عنه البشائر اذ غدا مكسورا

ثم فى عقيب ذلك عزل السلطان القاضى يحيى
المناوى وأعاد القاضى علم الدين صالحا البلقينى .

سنة سبع وستين وثمانمائة (١٤٦٢ / ١٤٦٣ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن جانم نائب
الشام قد قتل ، وقيل ان مماليكه قد قتلوه وهو
فى قلعة الرها . فلما صح هذا الخبر دقت الكؤوسات
ثلاثة أيام ، وبطلت التجريدة التى كانت تعينت اليه .

ثم ان السلطان أرسل قبض على الأمير تمرار
الأشرفى وسجنه بالمرقب ، وأشيع عنه أنه قتل قتيلا
فأثبت عليه السلطان كفرا وأرسل اليه شخصا من
المالكية يقال له الشارعى فضرب عنقه على باب
السجن الذى بالمرقب . وكان تمرار هذا مسمي
الخلق من اللسان مستحقا لكل سوء ، وكان منقيا
فى البلاد الشامية من أول دولة الملك الأشرف اينال ،
وآخر الأمر قتل هناك ومضى أمره .

وفىها أرسل السلطان تجريدة الى نحو بلاد

(١) تأمل غللة الاجداد . . وقاله الله خير الغللة .

الافرنج برودس ، وكان باش العسكر الأمير برد بك .
البيجقدار .

وفيها كسفت الشمس كسوفاً فاحشاً من بعد
الضحى الى قرب العصر ، حتى أظلمت الدنيا في
أعين الناس .

وفيها خلع السلطان على القاضي برهان الدين
ابراهيم بن الديري واستقر به كاتب السر الشريف
عوضاً عن القاضي محب الدين بن الشحنة ، واستقر
القاضي محب الدين بن الشحنة قاضى قضاة الحنفية
عوضاً عن ابن الصواف .

وفيها توفيت والددة المقر الشهابى أحمد بن
العينى ، وكانت وفاتها في يوم السبت ، فتوجه معها
الى التربة الأمير جاني بك نائب جدة ، والقاضي
كاتب السر ابراهيم بن الديري . فلما رجعوا من
التربة خلط ابن الديري مع الأمير جاني بك في
الكلام ، فقال لجاني بك ان هذه الميتة نزلت من
القلعة في يوم السبت ولا بد أن يعقبها أحد كبير
وأظنه السلطان ، فأخذ جاني بك منه الكلام ونقله
للسلطان ، فتغير خاطر السلطان على ابن الديري ،
فلما طلع الموكب قال له : « يا قاضى ، في أى حديث
ورد أن الميت اذا خرج في يوم السبت لابد أن
يتبعه أحد كبير ؟ » . ثم قال له : « الزم بيتك » ...
فكان كما قيل :

العقل زين والسكوت سلامة

فاذا نطقت فلا تكن مكشارا

فلئن ندمت على سكوتى مرة

فلقد ندمت على الكلام مرارا

ثم ان السلطان عزل ابراهيم بن الديري من
كتابة السر بسبب ذلك ، وخلع على القاضي زين
الدين أبى بكر بن مزهر ، واستقر به كاتب السر
الشريف عوضاً عن ابن الديري ، فكانت مدة ولاية

القاضى برهان الدين بن الديري دون الشهرين ،
وقد سعى فيها بخمسة آلاف دينار ...

وفيها أخرج السلطان مقدمة الأمير جاني بك
المرتد الناصرى ، وجعله طرخانا ، ورتب له مايكفيه ،
واستمر على ذلك الى أن مات في أثناء دولته .

وفيها قبض السلطان على المهتار على فطيس
— مهتار الأشرف اينال — وسلمه الى الأمير جاني
بك نائب جدة ، فضربه علقة قوية وأخذ منه خمسة
آلاف دينار ، فباع أملاكه وجميع ما يملكه حتى
سدد ذلك .

وفيها استعفى القاضي شرف الدين الأنصارى
من نظارة الخاص ، فخلع عليه السلطان واستقر به
وكيل بيت المال ، وخلع على عبد الرحمن بن الكويز
وأعاده الى نظارة الخاص .

وفيها استقر مثنال البرهانى مقدم الممالك
عوضاً عن صندل الهندى .

وفيها استقر القاضي تاج الدين بن المقدسى في
نظارة الجيش عوضاً عن الزين بن مزهر .

وفيها توفى شيخ الاسلام قاضى القضاة الحنفى
سعد الدين ابن الديري ودفن بتربة الظاهر خشقدم
وقد تولى القضاء نحو ثلاثين سنة ، وكان من عظماء
الحنفية ، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول من سنة
سبع وستين ، ومات وهو منفصل عن القضاء .

سنة ثمان وستين وثمانمائة (١٤٦٣ / ١٤٦٤ م) :

فيها عزل عبد الرحمن بن الكويز من نظارة
الخاص ، واستقر بها صاحب علاء الدين بن
الأهناسى ، واستقر ناظر الخاص ووزيرا فأقام على
ذلك مدة ثم اختفى وغيب ، فخلع السلطان على
مجد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضاً عن
ابن الأهناسى . وخلع على القاضي تاج الدين بن
المقدسى واستقر به ناظر الخاص . ثم ان مجد الدين
ابن البقرى قبض على الصاحب علاء الدين بن

الأهناسى فسجنه السلطان فى البرج الذى فى القلعة واحتاط على موجوده ، فأخذ منه مائة ألف دينار ورسم بنفيه الى مكة ، فخرج وسافر من البحر الملح .

وفى هذه السنة عظم أمر الأمير جانى بك نائب جدة والتفت عليه جماعة الظاهرية من خشداشيينه ، فكان ينزل من القلعة وعسكر مصر قدامه ، أولهم عند قناطر السباع وآخرهم فى الرميلة ، وسائر المباشرين قدامه ، مستمرا ذلك فى كل يوم . وهو أول من اتخذ الساعة يمشون قدامه كلما ركب ونزل — زيادة فى العظمة — فقتل أمره على الملك الظاهر خشقدم . وكان الظاهر خشقدم أنشأ له ممالك كثيرة ، وثبتت قواعده فى السلطنة ، وصارت خشداشيينه المؤيدية غالبهم أمراء ، فعول على قتل جانى بك نائب جدة فى الباطن وأضر له سوء . ثم ان الأمير جانى بك ، لما كملت عمارة القبة التى أنشأها فى منشية المهرانى ، عمل هناك وفدة عظيمة ، وأحضر سوارى طوالا على البر وعلق فيها قناديل ، وعزم على جماعة من الأمراء ومد مدة عظيمة ، وكانت ليلة لم يسمع بمثلا . وحضر هناك ابن رحاب المغنى ، وإبراهيم بن الجندى ، وجميع بين قراء البلد والوعاظ ، وكان ذلك فى ليلة الجمعة . فلما كان يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجة سنة سبع وستين وثمانمائة طلع الأمير جانى بك نائب جدة الى القلعة على جارى العادة ، وكان معه الأمير تنهم رصاص المحتسب ، وكان السلطان قرر مع جانى بك أنه فى ذلك اليوم يمك الأمير قائم التاجر والأمير قايتباى المحمودى المؤيدى ، فطلع فى ذلك اليوم بدرى ، وكانت المعمولية والطبخة له كما قيل فى المعنى :

وكم من طالب يسعى لشيء

وفيه هلاكه لو كان بدرى

فلما طلع الى القلعة ودخل من بابها ، ووصل

الى الجامع ، خرج اليه كمين من المماليك الأجانب من ممالك الظاهر خشقدم فقتلوه هناك هو والأمير تنهم رصاص ، ورموا على رؤوسهما فص حجر بعد أن طعنوهما بالرماح حتى وقعا الى الأرض موتى . فلما أصبح الصباح غسلوهما وكفنوهما وصلوا عليهما بالقلعة ونزلوا بهما ، فدقن الأمير جانى بك فى تربته التى أنشأها خارجا من باب القرافة . فلما سمع ممالك لبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، فرموا عليهم بالنشاب من باب انسللة قولوا مدبرين ، وراحت على من راحت ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وكان الأمير جانى بك نائب جدة أميرا عظيما ، صاحب حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان صاحب حيل وخداع ، وهو الذى رتب للملك الظاهر خشقدم فى مسك الأمراء الأشرفية ورجوع جانم نائب الشام الى الشام بعدما ترشح أمره الى السلطنة ، فكان حال جانى بك مع الظاهر خشقدم كما قيل فى المعنى :

أعلمه الرماية كل يوم

فلما استد ساعده رمانى

وكان الأمير جانى بك مولعا بغرس الأشجار ، وأنشأ عدة غيطان بالمنشية ، وهى منشية المهرانى . وكان كثير التنزه . وكانت صفته أخضر اللون ، قصير القامة جدا مستدير اللحية ، شائب الذقن ، عارفا بأحوال المملكة ، فصيح اللسان بالعربى ، أصله من ممالك أسنبغا الطيارى وقدمه الى الملك الظاهر جقمق ، فهو معتوق الملك الظاهر جقمق من جملة ممالكه .

سنة تسع وستين وثمانمائة (١٤٦٤ / ١٤٦٥ م) :

قيها خلق السلطان على خشداشيه الأمير يشبك

الفقيه واستقر به دوا دارا كبيرا عوضا عن الأمير
جاني بك نائب جدة .

وفيها أنعم السلطان على خشد اشيه الأمير
جاني بك كوهيه بتقديمه ألف ، وخلع على مملوكه
الأمير خير بك واستقر به دوا دارا ثانيا عوضا عن
جاني بك كوهيه .

وفيها أنعم السلطان على سبطه المقر الشهابي
أحمد ابن العيني بتقديمه ألف وقرره في أمرية الحاج
وقرر في أمرية الركب الشرفي يحيى ابن الأمير يشبك
الفقيه

وفيه اختفى زين الدين الاستادار ، فصرفه
السلطان مجد الدين بن البقري من الوزارة وقرره
في الاستدارية ، واستمرت الوزارة شاغرة أياما
حتى خلع السلطان على الشمس محمد البياوي ناظر
الدولة وقرره في الوزارة عوضا عن ابن البقري .
فلما قرر البياوي في الوزارة عد ذلك من مساوي
خشقدم ، وقالت الناس : « الزفر تولى الوزارة
بمصر » ... ومن يومئذ انحط قدر الوزارة جدا ،
وتبهدل هذا المنصب الى الغاية .

قال الامام أبو شامة المؤرخ : « كانت الوزارة
على عهد الخلفاء وظيفه عظيمة جليلة ، وكان الوزير
يجلس بحضرة الخلفاء على مقدار خمسة أذرع ،
وكان هو المتصرف في أمر المملكة بما يختار . فلما
جاءت دولة الأتراك قدموا نيابة السلطنة على
الوزارة ، فتلاشى أمر الوزارة من يومئذ ، وصارت
الوزارة تنقسم الى أربع جهات ، منها كتابة السر ،
والاستدارية ، ونظر الخاص ، وشاد الدواوين .
وكانت خلعة الوزارة في قديم الزمان غمامة بيضاء
برقعات ذهب شغل تنيس ، وطيلبسان أبيض برقعات
ذهب ، وجبة صوف بيضاء بطرز ذهب ، وفي عنقه
عقد جواهر بعشرة آلاف دينار ، وسيف مقلد به

مسقط بالذهب ، ويركب حجرة بخمسائة دينار ،
وفي قوائمه أربع جواهرات ، وفي عنقه جوهرة
كبيرة بألف دينار ، وترفع على رأسه أعلام بيض ،
ويحمل على رأسه منشور الولاية وهو مكتوب
في حرير أبيض ، فبطل ذلك كله ...

فلما تولى البياوي شق ذلك على الناس لكونه
لم يكن من أهل ذلك . وكان البياوي طباحا ، وكان
أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وفي كلامه غرثلة . وكان
أسود اللحية ، عنده عترة وييس ، وكان أصله
معاملا في اللحم من جملة المعاملين ، ولكن وعده
الله بذلك من القدم . وفيه يقول بعض الشعراء :
قالوا البياوي قد وزر فقلت كلا لا وزر
الدهر كالدولاب لا يدور الا بالقسر
وقال آخر :

تجنب العلم والفضائل
ومل الى الجهل ميل هائم
وكن حنارا مثل البياوي

فالسعد في طالع البهائم
فلما تولى الوزارة جاء فيها على الوضع ،
وسكن في بيت الوزارة التي في بركة الرطل ، وذقت
على بابها الكتوسات ، ولبس الخف والمهاميز . وكان
الظاهر خشقدم قائما معه فهابه جميع المباشرين
وخافوا منه . وكان يكبس البيوت غلى من يجده
يسكر ، ويفرمه جملة مال تحت الليل ، حتى ضجت
منه الناس : وكانت له حزمة وافرة وكلمة نافذة .
وجاء على الناس مجيء وحش ، فكان لا يقبل
رسائل أحد من الأمراء ، وصاخر في مدة ولايته
جماعة من أعيان الناس والتجار ، وكان يكره من
يسكر . ثم أن السلطان سلمه الأمير زين الدين
الاستادار فأحضر له المعاصير وقصد عصره ، فترامى
عليه الأمير زين الدين وصار يقبل رجليه حتى عفا
عنه من العنيتير ، وكذلك جماعة كثيرة غير زين

الدين صاروا تحت أمره وأخذ أموالهم ، وكان كما قيل :

ومن أعظم البلوى كريم أصابه

قضاء وأضحى تحت ذل لثيم

وفيهما توفي قاضى القضاة الشافعى علم الدين صالح الملقبى ، فلما توفي خلع السلطان على القاضى يحيى المناوى وأعاده الى القضاء ، فلم يقدّم الا مدة يسيرة وسعى عليها القاضى صلاح الدين أحمد بن بركوت المكنى الشافعى ، فعزل السلطان القاضى يحيى المناوى وولى صلاح الدين المكنى . وفى ذلك اليوم عزل السلطان القاضى محب الدين ابن الشحنة الحنفى وولى القاضى برهان الدين ابراهيم ابن الديرى قاضى قضاة الحنفية . فتولى القاضيان فى يوم واحد ، ونزلا من القلعة فى موكب واحد وعليهما التشاريف .

وفيهما خلع السلطان على القاضى كمال الدين ابن القاضى جمال الدين ناظر الخاص واستقر به ناظر الجيش ، وكان الساعى له الأمير خير بك الدوادار . فانه كان صهره زوج أخته .

وفيهما أرسل السلطان تجريدة الى البحيرة ، وكان فيها خمسة أمراء مقدمين ، منهم الأمير قرقماس الجلب أمير سلاح ، والأمير جاني بك قلقسير ، وغير ذلك من الأمراء .

وفيهما حجت خوند الأحمديّة زوجة السلطان خشقدم ، وكان المقر الشهابى أحمد بن العيني أمير المحمل ، وكان الشرفى يحيى ابن الأمير يشبك الفقيه أمير أول ، وحج الأمير يشبك الفقيه مع ولده فى تلك السنة .

وقد أظهر المقر الشهابى أحمد بن العيني فى هذه الحجة من الكبرياء والعظمة ما لم يظهره غيره من أبناء الملوك ، فصنع أكوارا من الذهب مرصعة بفصوص ياقوت وبلخش وفيروز ، وصنع

كنائش مثلث بذهب ولؤلؤ وريش ، وخرج من القاهرة فى موكب عظيم وسائر الأمراء والمباشرين قدامه ، وخوند الأحمديّة فى محفة زركش ، فكان له يوم مشهود .

وفيهما توفي الأمير جاني بك المرتد الناصرى ومات وهو طرخان ، وكان السلطان أخرج عنه التقدمة .

وفيهما أمطرت السماء ، وجاء رعد وبرق ، وهبت رياح باردة ، وذلك فى أواخر بشنس بعد أن قلع السلطان الصوف ، فلبس الصوف بعد ذلك أياما .

سنة سبعين وثمانمائة (١٤٦٥/١٤٦٦ م) :

فيها عاد المقر الشهابى أحمد بن العيني من الحجاز الشريف ، وخوند الأحمديّة ، فكان لهم يوم مشهود .

وفيهما كانت وفاة المقر صاحبى العلائى على ابن الأهناسى ، توفي بمكة المشرفة ودفن هناك ، وكذلك الأمير برد بك صهر الملك الأشرف اينال توفي بمكة ودفن هناك . قيل مات قتيلًا من العرب فى رابع ، ثم نقل من رابع الى مكة ودفن بها .

وفيهما كانت وفاة الشيخ شهاب الدين بن أبى السعود أحد شعراء العصر ، وهو من السبعة الشهب .

وفيهما عزل السلطان قاضى القضاة صلاح الدين المكنى وولى القاضى أبا السعادات البلقينى ، فأقام فى قضاء القضاة أربعة أشهر ثم سعى عليه القاضى ولى الدين الأسيوطى ، وكان الساعى له الأمير خير بك الدوادار الثانى ، فتولى الأسيوطى وعزل القاضى أبو السعادات .

وفيهما أعاد السلطان القاضى محب الدين بن الشحنة الى قضاء الحنفية .

وفيهما أخرج السلطان تجريدة الى بر الجزيرة

ثامن عشرى دى الحجة ، نزل صاحب شمس الدين
البيباوى من بيته الذى سكن فيه على بركة الرطلى ،
فنزل فى مركب وتوجه الى نحو قناطر بنى منجا ،
فلما رجع ووصل الى فم خليج الزربية انقلبت به
المركب هناك فغرق قريب البر ، فأطلعوا جميع
ما غرق معه حتى حق الدقاق ، وهو لم يظهر له
خبر ولا وقف له على أثر — حتى ولا فى شطنوف
التى هى محط رحال الغرقى — فكان من بقية قوم
نوح ، أغرقوا فأدخلوا نارا ... وقد قال القائل :

لا تكرهوا الموت ان فيه
حصاد من طاب مع خبيث
فمستريح ومستراح
منه كما جاء فى الحديث

فلما غرق البيباوى خلع السلطان على يحيى ابن
صنيعة ، ثم قاسم — وهو قاسم المعروف بشنيعة —
وعبد القادر ، واشتركا فى التكلم فى الوزارة ، ثم
انفرد بها الزينى قاسم ، واستمر على ذلك مدة
طويلة .

سنة احدى وسبعين وثمانمائة (١٤٦٦ / ١٤٦٧ م) ١

فيها توفى الأتابكى قائم بن صفر خجا المؤيدى
التاجر ، وقد مات فجأة فى ليلة واحدة . فلما مات
خلع السلطان على المقر السيفى بلباى المؤيدى
واستقر به آتابك العساكر عوضا عن قائم التاجر ،
ثم خلع على المقر الشهابى أحمد بن العينى واستقر
به أمير آخور كبير عوضا عن بلباى المؤيدى ،
فتزايدت عظمة المقر الشهابى أحمد ابن العينى فى
تلك الأيام ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار
المصرية ، وصار له حرمة وافرة وكلمة نافذة ، وهو
الذى أنشأ القصر العظيم المطل على البحر بمنشية
المهرانى . ولما كملت عمارة هذا القصر نزل السلطان
اليه ، وأقام هناك الى ما بعد العصر ، وتفرج فى

بسبب فساد العربان ، وكان باش العسكر الأمير
بلباى المؤيدى أمير آخور كبير ، والأمير برد بك
هجين ، فطردوا من هناك العربان وأقاموا مدة
ورجعوا . وقتل من المماليك السلطانية هناك ستة
لما وقعوا مع العربان .

وفيهما نزل السلطان الى الرماية ، وشق من
المدينة ، وزينت له وكان له موكب عظيم .

وفيهما عزم المقر الأتابكى قائم على السلطان فى
الربيع ، فنزل اليه هو وسائر الأمراء والعسكر ،
فمد له الأتابكى قائم هناك سمطا عظيما فيل كان
مصروفه ألف دينار ، ففرق الأكل على جميع
العسكر وأحضر للسلطان هناك أرباب الملاعب من
المشعبدن وغير ذلك ، فانشرح السلطان فى ذلك
اليوم الى الغاية هو والأمراء . ولما رجع السلطان
دخل الى بيت منصور الاستادار ، ثم توجه الى
بيت صاحب شمس الدين البيباوى ، فأقام السلطان
عند قائم الى ما بعد العصر ثم طلع الى القلعة فى
موكب عظيم .

وفيهما نزل السلطان وخلق المقياس وكسر
السد ، وهذا لم ير من بعد الملك المؤيد شيخ بأن
سلطانا نزل وكسر السد بنفسه .

وفيهما خلع السلطان على منصور القبطى
واستقر به استادارا ، فأقام بها مدة ثم قبض عليه
وسجنه بالمقشرة ، ثم خلع على شرف الدين ابن
كاتب غريب واستقر به استادارا ، ثم أثبتوا على
منصور القبطى كفرا وضربوا عنقه تحت شباك
المدرسة الصالحة .

وفيهما توفيت خوند الأحمدية زوجة الظاهر
خشقدم ، وهى جدة المقر الشهابى أحمد بن العينى
فلما ماتت تزوج السلطان بسرته خوند سوارباى
أم ولديه .

وفيهما ، فى أواخر هذه السنة فى يوم الاربعاء

ذلك اليوم على البحر وانشرح ، وكان يوما
سلطانيا .

وفيها توفي قاضى القضاة شرف الدين يحيى
المنائى ، وكان من أعيان خيار علماء الشافعية ،
وتوفى وهو منفصل عن منصب القضاء .

وفيها تغير خاطر السلطان على الرئيس علاء
الدين بن رحاب ، فشكه فى الحديد ورسم بنفيه
الى الشام ، فخرج وتوجه الى قطيا وأقام بها أياما ،
ثم شفع فيه كاتب الممالك بن جلود فرسم السلطان
بعوده . وكان سبب نفى ابن رحاب أنه كان اذا
عمل سماعا فى مكان يقوم فى ذلك المكان عربدة ،
فعمل سماعا فى باب الوزير فقتل فى تلك الليلة
قتيل ، فنفى السلطان ابن رحاب بسبب ذلك .

وفيها نزل السلطان للرماية ، وشق من القاهرة
وزينت له .

وفيها نزل السلطان وكسر السد بنفسه .

وفيها غرق السلطان خازندار الأمير جالى بك
نائب جدة المسمى يرش ، وكان شابا صغيرا فتأسف
عليه الناس .

وفيها توفيت بنت السلطان التى من خوند
سورباى ، وكانت مستحقة للزواج .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ابن
عثمان ملك الروم ، فأكرمه السلطان الى أن عاد
الى بلاده .

وفيها نزل السلطان الى المطعم بالمطرية ، ولبس
الصوف هناك ، وشق من المدينة وزينت له ، وكان
له موكب عظيم .

سنة اثنين وسبعين وثمانمائة (١٤٦٧/١٤٦٨ م) ،
فيها تزايدت عظمة السلطان خشقدم ، وبلغت
عدة ممالিকে نحو أربعة آلاف مملوك ، وصار
غالب خشداشيته مقدمى ألف ، منهم الأمير يشبك
الفقيه ، والأمير مغلباى طاز ، والأمير قنك

المحمودى ، والأمير جالى بك كوهية ، وغير ذلك
جماعة كثيرة أمراء طبلخانات وعشراوات . ثم أمر
جماعة كثيرة من ممالিকে منهم الأمير خير بك
الدوادار الثانى ، ومنهم الأمير خشكلدى
اليسقى ، ومنهم الأمير كباى ، والأمير مغلباى
المحتسب ، والمقر الشهابى أحمد بن العيى ،
وغير ذلك جماعة كثيرة من ممالিকে .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن خارجيا
تحرك على البلاد يقال له شاء سوار ، فرسم
السلطان للأمير برد بك الجمقدار نائب حلب بأن
يخرج اليه فخرج اليه . ثم جاءت الأخبار من بعد
ذلك بأن برد بك نائب حلب لما خرج الى سوار
التف عليه وأظهر العصيان على السلطان وقصدوا
التوجه الى الشام . فلما بلغ السلطان ذلك
اضطربت أحواله وعين الى سوار تجريدة وبها من
الأمراء خمسة مقدمو ألوف .

ثم ان السلطان دور المحمل الرجى فى تلك
السنة على جارى العادة ، فلما كان ليلة حراقة
النفط فى الرميعة احترق بالنفط فى تلك الليلة سقف
الاسطبل السلطانى ، فكان ذلك فألا على السلطان ،
ولم ينجح أمره من بعد ذلك ...

ثم ان النيل المبارك وفى فى أثناء تلك السنة ، فنزل
لكسر السد السلطان بنفسه على جارى العادة ،
فكان له موكب عظيم ، وكان ذلك آخر مواكبه .
فلما كسر السد وطلع الى القلعة حم من يومه ولزم
الفراش ، ثم ثقل فى المرض ومسل .

وكان القائم بتدبير أمور المملكة الأمير خير بك
والمقر الشهابى أحمد بن العيى ، فعينوا الأمير
أزبك بن ططخ — رأس نوبة النوب — بأن يخرج
الى العقبة بسبب فساد العربان ، فخرج وتوجه
الى العقبة ووصل الى الأزلم . ثم عينوا الأمير
قرقماس الجلب أمير سلاح ، والأمير يشبك الفقيه

أمير دوا دار كبير بأن يوجهوا الى نحو الصعيد بسبب فساد العربان — وكل ذلك عن لسان السلطان وهو ملازم الفراش على غير استواء — فخرج هؤلاء مسرعين من غير تأخير . وكان الأمير خير بك متخبلا من هؤلاء الأمراء فأخرجهم بسرعة حتى يصفو له الوقت ويبلغ قصده ، فكان كما قيل :

ومالئتك الليالي فاغتررت بها

وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ولما ثقل السلطان خشف قدم في المرض لزل بفرس من الاسطبل من الخيول الخاص ، وعرضه على الأمراء للبيع ، فاشتراه ابن العيني بخمسائة دينار ، وقيل بألف دينار . فلما أرسل ثمنه للسلطان تصدق بثمنه كله على الفقراء ، وكانت هذه عادة قديمة عند الملوك اذا حصل لهم توقع يفعلون ذلك .

وفي مدة توقع السلطان اضطربت أحوال الديار المصرية ، وصار الأمير تمر الوالى يطوف في كل ليلة في المدينة معه ممالك ملبسة والمشاعلية تنادى : « كل من يمشى في الليل يقطع أنفه وآذانه » ...

واستمر السلطان مريضا نحو أربعين يوما ، فلما كان يوم السبت بعد الظهر عاشر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة توفي السلطان الملك الظاهر خشف قدم ، ودفن في تربته التى أنشأها في الصحراء . ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة ، ومات بحمى كبدية ، وخلف من الأولاد صبيين وهما سيدى منصور وأخوه ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ست سنين وخمسة أشهر وعشرين يوما بما فيها من مدة توقعه وانقطاعه .

وكان ملكا جليلا مهيبا ، كفنا للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة . وكان حسن الشكل ، معتدل

القامة ، مترك الوجه ، أحمر اللون ، مستدير اللحية ، ضخم الجسم ، شائب الذقن ، فصيح اللسان بالعربى . وكان ماشيا على النظام القديم ، تابعا لطريقة الملوك السالفة في عمل الموالب في القصر الكبير والمبيت به في كل ليلة اثنين وخميس . وكان ماشيا على طريقة أستاذة الملك المؤيد شيخ في كسر السد بنفسه ، ولبس الصوف في المطعم . وكان كثير الرمايات في كل سنة ، ويشق من القاهرة في الموالب الجليلة ، وكان بدور في كل سنة المحمل في رجب ، وتسوق الرماحة على جارى العادة أربعين يوما ، ثم يلبسون الأحمر وتزين القاهرة ثلاثة أيام ويخرج الناس في ذلك عن الحد في القصف والفرجة . وكانت أيامه كلها لهوا وانشراحا ، ولم يجيء في أيامه الطاعون بمصر ، ولا جرد تجريدة الى البلاد الشامية .

وكان ترفا في ملبسه ، فصنع له ركبا من ذهب ومهاميز من ذهب . وكان يلبس السمر الأسود الذى على لون الجبر لا يوجد الآن . وكان يلبس القباء الصوف الفاخر ، ويبطنه بالمخمل الأحمر الكفوى . وكان اذا ركب وساق لا ينفرد ذيله من تحت فخذه ولو ساق سوقا قويا . وكان كريما على من يستحق الكرم ، بخيلا على من يستحق البخل .

لكن كان من مساويه جور ممالكه في حق الناس . ومن مساويه أنه كان غير عفيف عن ... و ... ومن مساويه أنه كان مريع العزل للقضاة والمباشرين ، ويأخذ أموالهم ويعزلهم بسرعة . ومن مساويه قتل جاني بك نائب جدة من غير ذنب ، وأخذ أموال ابن الأهناسى — حتى رخام بيته — بغير حق ولم يترك لأولاده شيئا ، وقتل جماعة من الأمراء بغير ذنب . وبالعجلة أنه كان قليل الأذى بالنسبة الى من جاء بعده من الملوك .

وكان يحب العلماء والصلحاء ، وينقاد الى الشريعة ، وكانت البلاد على أيامه هادية من الفتن ، وهو آخر من مشى من الملوك على النظام القديم . فاما أتابكته فالمر السيفى جرباش كرت أولا ، ثم قائم التاجر ، ثم بلباى .

وأما دواادرياته فالأمير جاني بك نائب جدة ، والأمير يشبك الفقيه .

وأما قضاته الشافعية فالقاضى يحيى المناوى — تولى فى أيامه مرتين — والقاضى علم الدين صالح البلقينى ، والقاضى صلاح الدين المكينى ، وأبو السعادات البلقينى ، والقاضى ولي الدين الأسيوطى . وأما قضاته الحنفية فالقاضى سعد الدين الديرى أولا ، ثم ابن الصواف ، ومحب الدين بن الشحنة — تولى فى أيامه مرتين — والقاضى برهان الدين الديرى . وأما قضاته المالكية فالسيد الشريف القاضى حسام الدين بن حريز . وأما قضاته الحنابلة فالقاضى عز الدين الحنبلى .

وأما كتاب السر فالقاضى محب الدين بن الشحنة أولا ، ثم ابراهيم بن الديرى ، ثم أبو بكر ابن مزهر .

وأما نظار جيوشه فتاج الدين بن المقسى ، والقاضى كمال الدين بن ناظر الخاص يومف .

وأما نظار خواصه فعبد الرحمن بن الكوينز أولا ، ثم شرف الدين الأنصارى ، والعلائى بن الأهناسى ، وتاج الدين بن المقسى .

وأما وزراؤه فعلاء الدين بن الأهناسى أولا — وقد تولى الوزارة فى أيامه ثلاث مرات — ثم ابن صنيعة ، ثم مجيد الدين بن البقرى . ثم الشرفى يوسف ، ثم البياوى ، ثم قاسم وشريكه عبد القادر .

وأما استاداريته فزين الدين أولا ، ثم مجيد الدين بن البقرى ، ثم منصور . ثم قاسم الكاشف ، ثم ابن كاتب غريب ... فهذه جملة من تولى فى أيامه من أرباب الوظائف من القضاة والمباشرين .

أما من توفى فى أيامه فهم : قاضى القضاة سعد الدين الديرى الحنفى ، وصالح البلقينى ، ويحيى المناوى ، وشمس الدين القرافى من أعيان لوامب المالكية ، والأتابكى قائم التاجر ، وسيدى محمد ابن الأشرف اينال توفى بشجر الاسكندرية . وتوفى الأمير تنم نائب الشام بدمشق ، وتوفى تمرباى ططر أحد المقدمين ، وتوفى الأمير جالى بك الظريف بسجن المرقب ونقل بعد موته الى مصر ودفن بالصحراء فى القبة التى عمرت له بعد موته . وتوفى الأمير خشكلدى القوامى أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان من أعيان المؤيدية وقيل من الناصرية . وتوفى من العلماء أيضا الشيخ جلال الدين المحلى — وكان من أعيان علماء الشافعية — والأصح أنه توفى فى دولة الأشرف اينال كما تقدم . وتوفى من المشايخ الشيخ عمر الكردي ، والشيخ محمد الشريفى الشاذلى ، والشيخ على الطيبى . وتوفى فى أيامه من الشعراء شهاب الدين بن أبى السعود توفى بمكة ، وسيدى على بن بردبك ، والشيخ شهاب الدين بن صالح وكان من فحول الشعراء ، ومن شعره فيمن أهدى اليه بطيحا وقطرا وقاله ارتجالا :

بعثت الى بطخا وقطرا
يشابه ذلك هذا فى الصفات
هما نوعان عند الذوق كل
تولد فى الحقيقة من نبات

الملك الظاهر بلباى المؤيدى

هو الملك الظاهر أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى . وهو التاسع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الرابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد بمصر ، بويج بالسلطنة بعد موت الملك الظاهر خشقدم .

تسلطن فى يوم السبت بعد العصر ، وهو اليوم العاشر من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة .

وكان أصله جركسى الجنس ، جلبه الأمير اينال ضضع من بلاد الجراكسة فاشتراه منه الملك المؤيد شيخ فى سنة عشرين وثمانمائة ، فأقام فى الطبقة مدة ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشاً وصار جمداراً ، ثم بقى خاصكياً ، ثم ساقياً فى دولة الملك الظاهر جقمق ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير أربعين ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الملك الأشرف اينال ، ثم بقى حاجب الحجاب فى دولة الملك الظاهر خشقدم ، ثم بقى أمير آخور كبير ، ثم بقى أتابك العساكر بمصر بعد موت قائم التاجر فى سنة سبعين وثمانمائة .

فلما توفى الظاهر خشقدم وقع الاتفاق على سلطنته دون الأمراء ، فحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة ، فاستجمعوا فى المقعد الذى فى باب السلسلة فبايعوه بالسلطنة ، ثم أحضروا له خلعة السلطنة فلبسها ، وركب من المقعد وطلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك الظاهر ، ودقت له البشائر ، ولودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالأدعية الفاخرة .

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب بالقصر الكبير وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر

السيفى تمرىغا أمير مجلس ، خام عليه واستقر به أتابك العساكر عوضاً عن نفسه . وخلع على المقر الشهابى أحمد بن العينى واستقر به أمير مجلس عوضاً عن تمرىغا ، فنزل ابن العينى من باب السلسلة وسكن فى بيت جاني بك نائب جدة المطل على الخليج . ثم خلع السلطان على المقر السيفى قبك المحمودى واستقر به أمير سلاح عوضاً عن الأمير قرقماس الجلب . وخلع على المقر السيفى برد بك هجين واستقر به أمير آخور كبير عوضاً عن ابن العينى .

فلما فعل ذلك لم يتم أمره فى السلطنة ، وبان عليه العجز ، وكان خشنا قليل المعرفة ، لأنه كان يدعى بلباى المجنون ، فصار منقاداً مع الأمير خيربك الدوادار بشعرة ، ولا يتصرف فى شيء من أمور المملكة إلا برأيه ، وصار مع المماليك الخشقدمية فى غاية البلية .

ثم ان الأمير خير بك أشار على السلطان بلباى بأن يسك الأمير قرقماس الجلب ، والأمير أرغون شاه استادار الصحبة ، والأمير قلمطاي الاسحاقى ، فأرسل بالقبض عليهم — وكان الملك الظاهر خشقدم أرسلهم الى نحو الصعيد مع الأمير يشبك الفقيه كما تقدم — فأرسل للقبض عليهم من هناك وأرسلهم الى السجن بئر الاسكندرية فلما وقع ذلك نفرت منه قلوب الرعية ، وكان تدميره فى تديره .

ثم لما أنفق على العسكر قطع نفقة أولاد الناس والخدام ، فكثر عليه الدعاء . ثم ان النفقة تشحطت فشكا ذلك الى الأمير خير بك ، فقال له : « يامولانا السلطان ، ان كان فى حاصلك شيء من المال فأنفقه على العسكر ، وقد صارت الخزائن بيدك خذ منها ما شئت ... فسمع له وطلع بماله جميعه جملة واحدة فأنفقه على العسكر ، وقد نفذ منه ما كان حصله من حين كان جندياً .

ثم بعد أيام حضر الأمير أزيك بن ططخ رأس نوبة النوب ، والأمير جاني بك ، والأمير قلقسير حاجب الحجاب — وكان السلطان خشقدم أرسلهم الى العقبة بسبب فساد العربان — فلما حضروا كان صحبتهم جماعة كثيرة من العربان نحو ستين انسانا، وكان الأمير أزيك انتهى في هذا السفر الى الأزم . فلما عرض العربان على السلطان بلباي أمر بتوسيطهم أجمعين ، ولم يعرف الظالم من المظلوم ، فصاروا في ذمته ، وكان فيهم صغار دون البلوغ . ثم لما رجع الأمير أزيك من العقبة أشار خير بك على السلطان بلباي بأن يستقر به نائب الشام . فلما طلع أزيك في يوم الجمعة الى القلعة خلع عليه السلطان بعد صلاة الجمعة — وهو في باب الستارة — خلعة ، واستقر به نائب الشام ، ورسم له بأن يتوجه الى الشام بعد ثلاثة أيام ، فخرج الى الشام في يوم الاثنين في أواخر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة .

فلما توجه الأمير أزيك الى الشام عمل السلطان الموكب ، وخلع على الأمير قايتباي المحمودى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير أزيك لما بقى نائب الشام .

ثم ان الأمير يشبك الفقيه حضر من الصعيد فأقره على حاله دواذرا كبيرا كما كان ... وكل ذلك ترتيب الأمير خير بك الدواذار .

ثم ان الأمير يشبك الفقيه قصد الوثوب على الأمراء الخشقدمية ، وأن يقبض على جماعة منهم ، فجمع خشدداشينه — وهم قنك المحمودى أمير سلاح ، والأمير جاني بك كوهية ، والأمير مغلباي طاز ، والأمير طوخ الزردكاش ، وجماعة المؤيدية كلهم — فلبسوا آلة الحرب وركبوا في يوم الخميس فلما تحقق العسكر ذلك التف عليهم جماعة من الاينالية وجماعة من الأشرفية والمماليك السيفية ،

فتوجهوا الى بيت الأمير يشبك الفقيه . فعند ذلك طلع الأمير يشبك الفقيه الى المدرسة التي تسمى الجاولية ، فقعده هناك وحفر خندقا عند المدرسة الصرغتمشية ، وواحدا عند رأس الكبش ، وواحدا عند فناطر السباع ، ثم ركبوا مكحلة في شباك المدرسة الجاولية ، واستمروا في ذلك اليوم كله يقعون مع المماليك الخشقدمية .

فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة لزل الأمير قايتباي رأس نوبة النوب من القلعة ومعه جماعة من المماليك الاينالية والظاهرية ، فتوجهوا الى الأمير يشبك الفقيه وأوقعوا معه ، فكان بينهم واقعة عظيمة ، وقتل في ذلك اليوم ثلاثة من المماليك السلطانية .

فلما كانت ليلة السبت هرب الأمير يشبك الفقيه ، وهرب بقية الأمراء المؤيدية ، وانكسروا كسرة قوية ، فنهب العوام بيوتهم ، وولى سعدهم ، وأتت عكوسهم ، فخابت آمالهم ، ولم ينفع اجتهدهم ، كما قيل في المعنى :

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهدا

فلما كان يوم السبت سابع جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين اجتمع الأمراء بالقلعة ، وأحضروا الحليفة والقضاة الأربعة ، وخلعوا الظاهر بلباي من السلطنة ، ووقع الاتفاق من الأمراء على سلطنة الأتابكى تمرغا كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ، ثم دخلوا بالظاهر بلباي الى البحرة وقيدوه ، ثم قبضوا على الأمير قنك المحمودى أمير سلاح وقيدوه وأدخلوه الى البحرة . ثم ان الأمير يشبك الفقيه توجه الى الأمير قايتباي ، ثم قبضوا على الأمير جاني بك كوهية ، ومغلباي طاز ، وطوخ الزردكاش ، وبقية المؤيدية من كبير وصغير ولم يتركوا منهم أحدا . فأما الملك الظاهر بلباي فإنه

وكان خيربك جعل السلطان بلباي آلة ، وهو
مهمد لنفسه في الباطن ، وقد طمعت آماله في
السلطنة ، وحدثته نفسه بذلك ، والله غالب على
أمره ...

الملك الظاهر أبو سعيد

هو الملك الظاهر أبو سعيد تبرغا الظاهري .
وهو الأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار
المصرية ، وهو الثاني من ملوك الروم بمصر في
العدد .

كان أصله رومي الجنس من مشتريات الملك
الظاهر چقمق ورباه صغيرا . فلما تسلطن چقمق
جعله خاصكيا ، ثم بقى من جملة السلحدارية ، ثم
بقى خازندارا ، ثم بقى أمير أربعين ، ثم دوادارا
ثانيا في أثناء دولة الملك الظاهر چقمق ، وسافر
الى الحجاز أميرا في سنة تسع وأربعين وثمانمائة ،
ثم بقى مقدم ألف في دولة الملك المنصور عثمان بن
چقمق ، ثم نفى الى ثغر الاسكندرية وسجن بها
نحو ست سنين ، ثم نقله الملك الأشرف اينال الى
مكة فأقام بها نحو ثلاث سنين .

فلما تسلطن الظاهر خشقدم رسم باحضاره من
مكة ، فلما حضر خلع عليه واستقر به رأس نوبة
النوب عوضا عن قرقماس الجلب فأقام على ذلك
مدة ، ثم نفاه الظاهر خشقدم الى ثغر الاسكندرية
فأقام في السجن ثلاثة أيام هو والأمير أذربك ططخ ،
فشغف فيهم الأتابكي قائم التاجر ، فرسم السلطان
باحضارهم . فلما حضروا أقام على ذلك مدة ، ثم
بقى أمير مجلس لما نفى الأتابكي جرباش كرت الى
ثغر دمياط عند ما بقى قائم التاجر أتابك العساكر ،
ثم بقى أتابك العساكر في دولة الملك الظاهر بلباي
عند ما تسلطن .

أقام في البحرة يومين ثم نزلوا به هو والأمير قنبيك
المحمودي ، فتوجهوا بهما الى السجن بشعر
الاسكندرية . وأما الأمير يشبك الفقيه وطوح
الزردكاش فتوجهوا بهما الى ثغر دمياط . وأما
جانبى بك بوهية ومعلباى طاز فما أدرى في أى مكان
توجهوا بهم . أفى ثغر دمياط مع الأمير يشبك
الفقيه أو لا ... فكانت مدة سلطنة الظاهر بلباي
بالدمار المصرية شهرين الا أربعة أيام ، وكانت كأنها
سنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم ، كما فيل
في المعنى :

ركب الأهوال في زورته

ثم ما سلم حتى ودعا
وبه زالت دولة المؤيدية كأنها لم تكن ...
فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

وكان الظاهر بلباي من عمره أرشل قليل
المعركة ، وكان يعرف بلباي المجنون ، وكان عمره
كله في غلاسة هو ومماليكه . وكان ملبسه مغلسا
من عمره ، وشكله سمج ، وتديده سيء ... فجمع
بين قبح الفعل والشكل وسوء الطباع ومقت
اللسان كما فيل :

وفظ غليظ الطبع لا ود عنده

وليس لديه للأخلاء تأنيس

تواضعه كبر ، وتفريه جفا

وترحيه مقت ، وبشراه تعيس

وقد زال سعده جملة واحدة ، فكانت أيامه
شر أيام مع قصرها ، وخرج ماله على أنحس وجه .
وكان مع خير بك الدوادار في غاية الضنك ،
ليس له في السلطنة الا مجرد الاسم فقط ، ولا
يتصرف في شيء من أمور المملكة الا بشورة الأمير
خير بك ، فكان اذا سئل في شيء يقول : « ايش
كنت أنا ؟ ... قل له » ... يعنى قل لخير بك حتى
سمته العوام « قل له » ...

فلما ركب المؤيدية وانكسر الأمير يشبك الفقيه خلعوا، الظاهر بلباي من السلطنة، ثم وقع الاتفاق من الأمراء على سلطنة الأتابكي تمرغا، فأحضروا الخليفة والقضاة الأربعة وبايعوا الأتابكي تمرغا بالسلطنة، وذلك في يوم السبت سابع جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، فلبس خلعة السلطنة من الحراقة التي في باب السلسلة، وركب من سلم المقعد، وطلع من باب سر القصر الكبير، وحمل القبة والطير على رأسه المقر السيفي قايتباي رأس نوبة النوب.

فلما جلس على سرير الملك باس له الأمراء الأرض، وتلقب بالملك الظاهر أيضا، ودقت له الكنوسات بالقلعة، ونودي باسمه في القاهرة، وضج الناس له بالأدعية الفاخرة، وفرح غالب الناس بولايته لأنه كان رجلا عاقلا عارفا بأحوال المملكة.

وكان كفتا للسلطنة، وقد اشتمل على جملة من المحاسن في علم الفروسيه وغير ذلك من سائر الفنون حتى كان يزن بيده في القبان، وكان يعقد البركاوات الحرير بيده، وله غير ذلك محاسن كثيرة في فنون لعب الرمح والشاب... ولكن لم يساعده الزمان، وجنى عليه وخان، فلم تكن حركاته سعيدة، ولم تكن أيامه مديدة، فكان كما قيل في المعنى:

انى تأملت الزمان وفعله

في خفض ذى شرف ورفع الأرذل

كطبائع الميزان في أفعاله

تضع الرواجح والنواقص تعلى

فلما تم أمره في السلطنة عمل الموكب بالقصر الكبير، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم: المقر السيفي قايتباي المحمودى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه، وخلع على المقر السيفي

جاني بك قلقسير واستقر به أمير سلاح عوضا عن قبك المحمودى، وخلع على المقر السيفي خيربك واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن يشبك الفقيه، وخلع على المقر السيفي خشكلدى اليسقى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن قايتباي المحمودى، وخلع على المقر السيفي تمر الوالى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن بردبك هجين لما بقى أمير آخور كبير، وخلع على الأمير كسباي الخشقدمى واستقر به دوادار ثانيا عوضا عن الأمير خيربك. وفي تلك الأيام كتب الأمير كسباي كتابه على خوند بنت الملك الأشرف اينال، ولكنه لم يدخل عليها.

ثم ان السلطان تمرغا رسم بالافراج عن الأمير قرقماس الجلب فأحضره من ثغر الاسكندرية، ثم رسم بالافراج عن الأمير تراز الشمسى فأحضره من ثغر دمياط، وكذلك الأمير دولات باى النجمى... وهؤلاء من ممالك الأشرف برسباي.

ثم أنعم على الأمير مغلباى الخشقدمى بتقدمة ألف، وأنعم على جماعة كثيرة من الخشقدمية بامريات عشرة وامريات أربعين.

ثم انه رسم بتدوير المحمل الرجبي في تلك السنة، فساقوا الرماحة على العادة في القرافة. ومن الحوادث في أيامه أنه قبض على الشرفى يحيى بن الأمير يشبك الفقيه وصادره وأخذ منه نحو عشرة آلاف دينار، وكان قصده يصادر أعيان الناس بسبب النفقة، وقد صار مع الممالك الخشقدمية تحت الضنك والقهر في كل يوم.

فلما كان ليلة الاثنين سادس رجب عمل السلطان الموكب في القصر الكبير وطلع الأمراء على جارى العادة الى القلعة، فطلع الأمير خيربك ودخل الى القصر. فلما كان وقت المغرب غلقت أبواب القلعة ودخل جماعة من الممالك الخشقدمية ومعهم سيوف

مسلوثة فقبضوا على السلطان تمرغا وهو جالس في الخرجة المطلة على الرميلة ، وقبضوا على جماعة من الأمراء وحبسوهم تحت الخرجة التي يجلس فيها السلطان . وكان الأمير خيربك اتفق مع المماليك الاينالية في الباطن بأنه يمسك السلطان والأمراء الظاهرية وتصور الاينالية والخشقدمية شيئا واحدا ، وأنه اذا مسك السلطان من فوق تركب الاينالية من أسفل ، فيمسكوا بقية الأمراء ، وأن خيربك يتسلطن ... فانخرم معهم الحساب ، وضلوا عن الصواب ، كما قيل :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله الا ما أرادا فلما مسك السلطان تمرغا — ومعه جماعة من الأمراء الذين طلوعوا الى القلعة في تلك الليلة — ظن خير بك أنه قد تسلطن ووصل الى ذلك ، فجلس على سرير الملك وتلقب بالملك الظاهر مثل أمستاده خشقدم ، وبأس له الأرض المماليك الخشقدمية ، وأنعم على جماعة منهم بوظائف سنية ، وتصرف في تلك الليلة بما يقتضيه له الاختيار ، ولسان الحال يناديه : « كلام الليل يمحوه النهار ... »

وكان الأتابكي قايتباي غائبا في الربيع لم يطلع في تلك الليلة الى القلعة مع الأمراء ، فلما بلغه خبر مسك السلطان والأمراء ، ركب تحت الليل ودار على جماعة الظاهرية من خشداشينه ، ثم داروا على الاينالية واستمالوهم على خير بك وقالوا لهم نحن نرضيكم ، فوقع الاتفاق في تلك الليلة على خلع السلطان تمرغا ، وأن الأتابكي قايتباي هو السلطان ، وأن يقبضوا على الخشقدمية كلهم .

فلما وقع القرار على ذلك بأس الأرض تحت الليل للأتابكي قايتباي أعيان الاينالية ، وأركبوه وطلوعوا به الى الرميلة . فلما بلغ خير بك ما جرى ، اضطربت أحواله ، وضاق به الأمر ، وأدركه

طلوع النهار ، فأخرج السلطان تمرغا من تحت الخرجة ، والأمراء الذين سجنوا معه ، وأجلس السلطان على مرتبه ، وبأس له الأرض ثم انسطح بين يديه وقال له : « وسطني ... فاني كنت باغيا عليك » . فقال له السلطان : « يا أمير دودار لا أنت ولا أنا بقى لنا بقاء » . فلما طلع النهار ملك الظاهرية والايينالية باب السلسلة ، وانكسر الخشقدمية ، فطلع الأتابكي قايتباي الى باب السلسلة ، وجلس في المقعد الذي يطل على الرميلة ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة ، ثم خلعوا الظاهر تمرغا من السلطنة ، وولوا الأتابكي قايتباي كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه .

فلما طلع السلطان قايتباي الى القلعة ، قبض على المقر السيفي خير بك ، وعلى المقر السيفي الشهابي أحمد بن العيني ، وعلى الأمير كسباي الدودار ، وعلى الأمير خشكلدي المعروف باليسقي ، وعلى الأمير مغلباي ، وعلى جماعة كثيرة من الأمراء الخشقدمية ، فقيدوا الأمير خير بك وابن العيني وسجنوا في مكان بالقلعة ومعهم المهترع عبد الكريم . وأما الملك الظاهر تمرغا فأدخلوه الى البحرة من غير قيد — وهو في غاية العز والعظمة — وأكرمه السلطان قايتباي غاية الاكرام ، فانه كان أغات جميع ظاهرية جقمق ، فالكمل جاءوا من بعده .

ثم ان السلطان رسم للملك الظاهر تمرغا بأن يتوجه الى ثغر دمياط من غير قيد ولا سجن ، ورسم له بأن يركب الى صلاة الجمعة ويتنزه في غيطان دمياط ، فنزلوا به تحت الليل وتوجهوا به في مركب الى ثغر دمياط فأقام بها ، فكانت مدة سلطنته بمصر ثمانية وخمسين يوما لا غير ، فكان كما قيل في المعنى :

لم أستتم عناقه لقدومه
حتى ابتدأت عناقه لوداعه

ولم يعلم بأحد من ملوك الترك أنه خلع من السلطنة في أقل من هذه المدة ، ولم تعد معرفة الملك الظاهر تمرىغا شيئا ، وعارضه الزمان كما قيل في المعنى :

وإذا جفاك الدهر — وهو أبو الورى

طرا — فلا تعتب على أبنائه
وكيف كان تمرىغا يمكث في السلطنة والقسمه كانت من القدم لقايتباى ؟ ... وقد قال القائل في المعنى :

الرزق في الوجوه للمرء ملتزم
ما هو لمن سمي الا لمن قسم
واستمر الملك الظاهر تمرىغا في أرغد عيش بشعر
دمياط حتى حسن له الشيطان أن ينسحب من نعر
دمياط ، فتسحب من هناك كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

الملك الأشرف قايتباى

هو الملك الأشرف أبو المنصور سيف الدين قايتباى المحمودى الظاهرى . وهو الحادى والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر .

كان أصله جركسى الجنس ، جلبه الى مصر الخواجا محمود فى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة ، فاشتراه منه الملك الأشرف برسباى هو وعدة ممالك صغار ، ضريبة كل مملوك خمسون دينارا . فلما اشتراه أنزله بالطبقة وصار من جملة الممالك الكتائية ، واستمر على ذلك حتى توفى الأشرف برسباى ، وتسلم الظاهر جقمق ، فاشتراه من بيت المال على يد حاسوك — وصى الملك الأشرف برسباى — هو وعدة ممالك كتائية . واستمر فى رق الظاهر جقمق حتى أعتقه ، ثم أخرج له خيلا

وقماشاً وصار جمادارا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى دوادارا كبيرا . فلما توفى الظاهر جقمق وتسلم الظاهر بلباى جعله رأس نوبة النوب عوضا عن أربك بن ططخ لما بقى نائب الشام . ثم أتولى الظاهر تمرىغا جعله أتابك العساكر عوضا عن نفسه ، فلما وثب خير بك على الظاهر تمرىغا ووقع له ما تقدم ذكره ، وقع الاتفاق من العسكر على سلطنته وخلع الظاهر تمرىغا ، وكان القائم فى ذلك طائفة الاينالية والظاهرية .

فلما انكسر خير بك وطائفة الخشقدمية حطم الأمير يشبك بن مهدى كاشف الوجه القبلى مع جماعة من العسكر ، فملكوا باب السلسلة وقبضوا على خير بك ، فتقلب العسكر على الظاهر تمرىغا وأشرف على الخلع . فعند ذلك طلع الأتابكى قايتباى الى باب السلسلة وجلس بالمقعد الذى به ، واشتوروا فيما يكون من الأمر فى الظاهر تمرىغا ، فلم يوافق العسكر على إبقاء الظاهر تمرىغا فى السلطنة ، فأرسلوا خلف أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف ، فحضر وحضر القضاة الأربعة — وهم ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفى ، وحسام الدين بن حريز المالكى ، وعز الدين الحنبلى — وحضر جماعة من الأمراء .

فلما تكامل المجلس عملت صورة شرعية فى خلع الظاهر تمرىغا من السلطنة ، فخلعه الخليفة فى الحال وبايع الأتابكى قايتباى ، وتلقب بالملك الأشرف . ثم أحضروا له شعار الملك — وهى العمامة السوداء والعجة السوداء التى بالطراز الذهب والسيوف البداوى — فلما أرادوا أن يفيضوا عليه شعار الملك تمنع من ذلك وبكى ، فألبسوه ذلك الشعار غصبا وهو يمتنع غاية الامتناع ثم قدمت اليه فرس النوبة ، فركب من سلم الحراقة ،

وأذن للأمير جاني بك قلقسير أمير سلاح بأن يفرد الصنجق السلطاني على رأسه لعدم حضور القبة والطير من الزردخاناه ، فرفع الصنجق على رأسه ، وقد ترشح أمره للأتابكية .

فلما ركب سار ومشت قدامه الأمراء بالشاش والقماش ، وركب الخليفة عن يمينه ، وسار حتى طلع من باب سر القصر الكبير .

فلما طلع جلس على سرير الملك ، وقبلت له الأمراء الأرض ، وذلك يوم الاثنين سادس رجب من السنة المذكورة .

فلما تمت بيعته وراج أمره خلع على الخليفة ونزل الى داره ، ثم خلع على المقر السيفي جاني بك قلقسير الأشرفي برسباي وقرره في الأتابكية عوضا عن نفسه ، ونزل الى داره في موكب حافل .

وقيل تولى الملك الأشرف قايتباي الملك وله من العمر نحو من خمس وخمسين سنة وقد وكزه الشيب قليلا ، ثم دخل يشبك بن مهدي وتمراز الشمسي على الظاهر تمرغا ، وأقاموه من فوق مرتبته وأدخلوه الى قاعة البحرة وهو في غاية الاكرام ، ثم أخذوا منه النجاء والترس والدواة وأحضرها بين يدي الأشرف قايتباي . ثم ان الأشرف قايتباي رسم بتقييد خير بك ، فقييد هو وابن العيني ، وأدخلوهما الى مكان بالقرب من القصر الكبير ، وأدخلوا معهما عبد الكريم — مهتار الملك الظاهر خشقدم — وهو أول حكم وقع للأشرف قايتباي . ثم ضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه في القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ، وفيه يقول الشهاب المنصوري :

سلطاننا الأشرف في بذله

وعدله قد جمع فضلا

تقبل الله الذي عزه

بالنصر منه الصرف والعدلا

وكان لما أراد أن يلبس شعار الملك شرط على العسكر أنه لا ينفق عليهم نفقة البيعة فرضوا بذلك ، فلما تسلطن لم ينفق على العسكر شيئا . ثم أخذ السلطان في أسباب القبض على أعيان الخشقدمية ، فقبض على كسباي الدوادر الثاني وقد ظهر من بيت يشبك بن مهدي ، وقبض على مغلباي ورسم باخراجه الى القدس يقيم به بطالا ، ورسم باخراج كسباي الى حلب ، واختفى خشكلدي البيسقي . ثم صار في كل يوم يقبض على جماعة من الخشقدمية ، ويشئت شملهم ويسجنهم بالقلعة ، ما بين أمراء وخاصكية

ثم ان السلطان رسم باحضار قرقماس الجلب من دمياط ، واحضار جماعة من الأشرفية ، منهم بيبرس خال العزيز ، ومنهم جاني بك المشد وبيبرس الطويل ... وكانوا بالقدس . ثم أشار بعض الظاهرية على السلطان بعود هذه الجماعة الأشرفية الى القدس على عاداتهم ، فخرج الأمر من السلطان بأن يعادوا بعد ما كانوا قد وصلوا الى قطيا ، فعادوا الى القدس .

وفي ثامن هذا الشهر رسم السلطان باخراج الظاهر تمرغا الى ثغر دمياط ، فخرج وهو في غاية العز والاكرام من غير تقييد ، وقد رفق به ، وكان السلطان يرسل اليه في كل يوم أسمطة حافلة وهو بالبحرة . وعند ما خرج للسفر اجتمع به السلطان واعتذر اليه في أمر السلطنة ، وأن ذلك لم يكن باختياره وكان على كره منه ، وكان بين تمرغا وبين قايتباي أيمان عظيمة بأنه لا يغدر ولا يتسلطن ، فلم تتم هذه الأيمان .

ثم ان السلطان ودع الظاهر تمرغا ونزل من القلعة وهو راكب على فرس من مركب السلطان ، ونزل من باب القرافة بعد العشاء ، وتوجه الى ساحل البحر ، ونزل في الحراقة ، وتوجه الى ثغر دمياط . فلما وصل الى دمياط نزل في

أحسن دورها ، وكان يركب الى صلاة الجمعة . واستمر بدمياط الى ان كان من أمره ما سنذكره . وفيه أشار بعض الظاهرية على السلطان بأن يطلق من كان سجنه من الخشقدمية .

ثم ان السلطان أخذ في أسباب مصادرة خير بك الذى تسلطن هو وابن العيني ، فطلب السلطان من خير بك نحو من ستين ألف دينار خارجا عن يركه وخبوله وسلاحه وغير ذلك ، وعلى ابن العيني نحو من مائتى ألف دينار وذلك خارج عن يركه وسلاحه وغير ذلك .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : برد بك هجين وقرره فى امرية سلاح عوضا عن قانى بك المحمودى ، وخلع على يشبك بن مهدى وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن خير بك . ولما حضر قرقماس الجلب من دمياط خلع عليه وقرره فى امرية مجلس عوضا عن ابن العيني ، وكان قرقماس الجلب لما نفى الى الاسكندرية أمير سلاح فنزل درجة الى أسفل . وقرر فى الدوادارية الثانية قان بردى الابراهيمى الاينالى ، عوضا عن كسباى الخشقدمى وقرر فى ولاية القاهرة قانى باى الحسنى الاينالى ، عوضا عن اصباى البواب الخشقدمى . وأنعم على قراجا الطويل الاينالى بتقدمة ألف . ثم ان بعض الأمراء شفع فى الناصرى محمد ابن الأتابكى جرباش كرت — وكان مقيما بدمياط من حين نفاه الظاهر خشقدم فى واقعة يرش مملوك چانى بك نائب جدة وقد تقدم ذكر ذلك — فلما حضر خلع عليه كاملية بسنمور ونزل الى داره .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب تعيين تجريدة الى شاه سوار بن دلغادر — وقد تقدم ما وقع منه فى أيام الظاهر خشقدم — وقد قويت شوكته والتف عليه عسكر ثقليل من التركمان وغيرهم ، وقد

أظهر العضيان والمخامرة ، فخشى السلطان من أمره وأراد أن يأخذ أموره بالقوة . وكان يمكنه أن يرسل الى سوار خلعة وهدية وتخدم هذه الفتنة ، فلم يوافق على ذلك ، وأخذ الأشياء بالترسة ، فعين له تجريدة ثقيلة وعين بها الأمير قلقسير الأتابكى ، ويرد بك هجين أمير سلاح ، ولانق رأس لوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وعدة أمراء مبلخانات وعشراوات ، وعدة وافرة من الجند — والغالب فيهم من الممالك الخشقدمية — وجعل السلطان ذلك عوضا عن تقيهم .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : جاني بك النقيه الظاهري وقرره فى الأميراخورية الكبرى عوضا عن برد بك هجين ، وقرر فى الأميراخورية الثانية يشبك حسن عوضا عن جاني بك النقيه بحكم اتقاله ، وقرر فى حسبة القاهرة قانصوه الخفيف تاجر الممالك وأنعم عليه بامرية عشرة .

وفيه رسم السلطان باخراج خير بك الذى تسلطن — وقد سمته العوام « سلطان ليلة » — فخرج تحت الليل وهو مقيد راكب فرسا والأوجاقى يردفه على جارى العادة . فلما وصل الى شاطئ البحر نزل فى الحراقة وانحدر حتى وصل الى ثغر اسكندرية فسجن بها ، ورجع من كان معه من الاينالية .

وبه زالت دولة الخشقدمية كأنها لم تكن ... فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

وفيه نودى من قبل السلطان بإبطال المشاهرة التى تتعلق بالمحاسب — وهى نحو ألف دينار فى كل شهر — فبطل ذلك مدة يسيرة ثم عاد بعد ذلك كل شئ على عادته .

وفيه ابتدأ السلطان بتفرقة الأقطايى على الجند — وكان أكثرهم اينالية — وأمر منهم جماعة

كثيرة حتى رضوا ، وكان قصدهم اثارة فتنه ،
واتفقوا مع الخشقدمية على ذلك ، ثم غلب سعد
الأشرف قايتباى على ما قصدوه وخمدت تلك
الفتنة .

وفيه قرر فى آتابكية دمشق شادى بك الجلبانى
عوضا عن سرامرء العثمانى بحكم القبض عليه .
وفيه وصل سودون البرقى من دمشق من غير
اذن السلطان — وكان عين من جملة المقدمين
بمصر — فلما حضر أنعم عليه السلطان بتقدمة
ألف ، وعين للتجريدة وكان مريضا فأعفى من السفر
وأقام بمصر مدة ومات .

وفيه أحضر أزدمر الابراهيمى الطويل — وكان
مسجوناً بقلعة دمشق — فلما حضر أنعم عليه
السلطان بتقدمة ألف ، وقد صار يدارى الاينالية
مدارة .

وفيه عرض السلطان العساكر بسبب التجريدة
لسوار ، واستمر جالسا على الدكة وهو يعرض
ويكتب الى ما بعد العصر ، ثم ضيق على أولاد
الناس ، وألزمهم بالسفر الى سوار أو يقيموا لهم
بدلاً ، فصار يأخذ من كل واحد — ان كان لا
يسافر — مائة دينار عوضاً عن البديل الى السفر ،
وقرر على جماعة من المباشرين جملة مال وأمرهم
باحضاره بسرعة ليستعين به على نفقة العسكر ...
فهذه أول شدة وقعت منه فى حق الناس . واستمر
الأمر منه يتزايد فى كل يوم حتى جاوز الحد فى
ذلك ، وكان ما سذكركه فى موضعه . فلما تكامل
حضور المال حملت النفقات للأمراء المعينين للسفر ،
فحمل للآتابكى جاني بك قلقسير أربعة آلاف
دينار ، ثم حمل لبقية الأمراء المقدمين لكل واحد
ثلاثة آلاف دينار ، وللأمراء الطبلخانات لكل واحد
خمسائة دينار ، وللأمراء العشراوات لكل واحد
مائتا دينار ، وأنفق على الجند لكل واحد من
الماليك مائة دينار ، وهذا على العادة القديمة

الجارية بها العوائد . فلما تزايد أمر التجاريد
تضاعفت النفقات جدا حتى بلغت نفقة الآتابكى
ازبك بن ططخ نحواً من ثلاثين ألف دينار فى كل
سفرة على ما سيأتى ذكر ذلك فى محله .

وفى شعبان خلع السلطان على يشبك السيفى
على باى وقرره فى نيابة قلعة دمشق ، وقرر فى
حجوبية الحجاب بدمشق ابراهيم بن بيغوت ،
وقرر فى نيابة قلعة حلب تمر باى أخا ألماس .

وفيه أحضر السلطان الشهابى أحمد بن العينى
بين يديه فى الدهيشة ووبخه بالكلام بسبب ما قرر
عليه من المال الذى لم يورد منه شيئاً ، فسطحه
على الأرض بالدهيشة وقام وضربه بيده نحواً من
عشرين عصاً حتى شق كعبه وأدماه وأغمى عليه ،
فشفع فيه بعض الأمراء وتوجهوا به الى طبقة
الزمام فأقام بها أياماً ، ثم تسلمه يشبك بن مهدى
أمير دوادار كبير فنزل به الى داره ليورد ما قرر
عليه من المال . وكان ابن العينى لما قرر فى أمرية
مجلس ونزل من باب السلسلة سكن فى بيت جاني
بك نائب جدة المشهور ، فلما انكسر خير بك
وزال أمر الخشقدمية نهبوا بيت ابن العينى عن
آخيه حتى قيل نهب له من البرك والقماش شيء
بنحو من خمسين ألف دينار . وكان ابن العينى
ماشياً على طريقة أولاد السلاطين حتى أطلق عليه
عزيز مصر ، وربما تعصب له بعض جماعة من
الخشقدمية بأنه يتسلطن بعد خلع الظاهر بلباى
من السلطنة ولم يتم له ذلك . وقد لطف الله تعالى
به حيث لم يتسلطن فكان يقضى عمره كله فى القيد
والسجن الى أن يموت .

وفيه ، فى يوم الاثنين ثمانى عشره ، خرج الأمراء
والعسكر المعينون للتجريدة ، وكان لهم يوم
مشهود — وهذه أول تجريدة خرجت من مصر الى
شاه سوار — فكانوا نحو عشرين أميراً ما بين

مقدمى ألوف وطبلخانات وعشراوات ، ومن الجند فوق ألف مملوك . ثم فى لىالى السفر أنفق السلطان جامكية أربعة أشهر معجلا ، وصرف لهم الكسوة ، وأعطى لكل واحد منهم جملا ، وأرضى العسكر بكل ما يمكن .

وفيه ركب السلطان ودار على الميدان حول القلعة . فلما عاد طلع من باب السلسلة ، وكان نزل الى الميدان ، وهو أول ركوبه ونزوله من القلعة وهو سلطان . ثم تكرر ركوبه من بعد ذلك ليلا ونهارا حتى خرج ذلك عن الحد ، فترك بعض المؤرخين ضبط ركوبه ونزوله من القلعة اذ لم يحص ذلك بعد أن كان ركوب السلطان نادرة مما يؤرخ فى التواريخ القديمة .

وفيه اختفى الوزير قاسم شغيته . فلما اختفى خلع السلطان على عبد القادر ناظر الدولة بالتحديث فى الوزارة حتى يقرر بها من يختار .

وفيه قرر دمرداش العثمانى فى نيابة القدس عوضا عن محمد بن حسن بن أيوب ، وقرر فى نظر القدس برد بك التاجى عوضا عن حسن التيمى . وفيه خلع السلطان على شاهين الجمالى وقرره فى نيابة جدة ، وقرر أبو الفتح المنوفى — موقع السلطان وهو أمير — فى نظر جدة مستوفيا على شاهين .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد بن العينى ، وخلع عليه كاملية بسمور ، ونزل الى داره ، وقد تحفظ أمره بواسطة الأمير يشبك الدوادار . والتزم ابن العينى بأن يورد فى كل شهر عشرين ألف دينار من الذهب النقد ، فكان جملة ما أوردته للخزانة الشريفة مائة ألف دينار وتسعة وثلاثين ألف دينار ، وذلك خارج عن تعلقاته وجهاته . وهذه من النوادر الغريبة حيث جمع ابن العينى هذه الأموال الجزيلة فى دون الأربع سنين

منذ قرر فى التقدمة الى آن قبض عليه ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه ركب السلطان ونزل الى القرافة وزار الأولاء ، وعاد من طريق قناطر السباع ، ودخل الى دار سودون البرقى وعاده فى مرضه ، وأقام عنده ساعة ، ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه أخرج السلطان جماعة من الخشقدمية الى جهة الوجه القبلى مع الكشاف وغيرهم كما كانت عادة المماليك الاينالية .

وفيه قرر بيبرس الأشقر فى أتاككية صفد وفيه توفى سودون البرقى — وكان يعرف بالتمشى — وكان أصله من ممالك الظاهر . جقمق وقاسى محنا وشدايد ونفى واختفى وكان انسانا حسنا ، وعندما بقى مقدم ألف مات فى سنته .

وفيه خلع السلطان على صاحب شمس الدين محمد — والد صاحب علاء الدين الاهناسى — وقرره فى الوزارة عوضا عن قاسم شغيته ، وقرر ولده محمدا فى نظر الدولة عوضا عن عبد القادر . وفيه أشيع أنه فقد من الخزينة السلطانية نحو عشرين ألف دينار ، فظهر أن خوند سوارباى وسرارى الظاهر خشقدم قد سرقوا ذلك ، فرسم السلطان على خوند سوارباى وأقامت فى الترميم مدة حتى أرضت السلطان .

وفيه وصل الى الأبواب الشريفة السيد على بن بركات الحسينى وقد غضب من أخيه محمد سلطان مكة . فلما طلع الى القلعة أكرمه السلطان وخلع عليه واستمر مقيما بمصر ورتب له ما يكفيه الى أن مات بعد مدة طويلة . وكان السيد محمد سلطان مكة أرسل للسلطان ستين ألف دينار على أنه يعوقه عنده بمصر حتى لا يقيم فتنة بمكة ، شرفها الله وعظمها .

وفيه ركب السلطان ونزل الى القرافة وزار الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما

ورحمهما ، ثم سار الى بركة الحبش ولعب بالكرة ،
ثم عاد الى القلعة وخلع على تانى بك المعلم كاملية
بسمور وقد أعجبه ضربه للكرة .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة - وهو أول
بخارى ختم للسلطان - وكان يوما مشهودا .
وحضر القضاة الأربعة وأعيان العلماء ، وفرقت
الصرر على من له عادة ، وكذلك الخلع فرقت على
أعيان العلماء ، وكان ختما حافلا .

وفي شوال وقعت غلوة خفيفة بالقاهرة ،
وتشحطت الغلال وارتفع سعرها ، فاشتكت الناس
للسلطان ، وصار اذا شق من القاهرة يسمونه
الكلام المنكى .

وفيه توعك السلطان وانقطع من الموكب أياما ،
ثم شفى فاقبمت الخدمة بالقصر لأجل خروج
الحاج .

وفيه قدم جاني بك حبيب من بلاد الروم
- وكان هاربا من أيام الظاهر خشقدم - فتوجه
الى بلاد ابن عثمان . فلما حضر أكرمه السلطان
وخلع عليه وبعث اليه الأمير يشبك الدوادار بألف
دينار ليرقع أحواله .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة نظام الدين بن مفلح
قاضى القضاة الحنبلى بدمشق ، وكان من أهل
العلم

وفيه صعدت الى القلعة خوند فاطمة بنت
العلائى على بن خاصبك ، فكان لها يوم مشهود .
وكافت مقيمة بدار السلطان التى بسوق الغنم الى
أن طلعت القلعة فى ذلك اليوم

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بأن العسكر
الذى توجه الى شاه سوار قد انكسر كسرة
شنيعة ، وأسر الأتابكى قلقسير ، وقتل جماعة من
الأمراء والجند وقتل منهم ما لا يحصى ، وكان

غالب العسكر من الخشقدمية ، وقتل من الأمراء
المقدمين الأمير برد بك هجين المحمودى الظاهرى
أمير سلاح ، وأصله من مماليك الظاهر چقمق ،
وكان لا بأس به . وجرح الأمير تمر حاجب الحجاب
فى وجهه . وأما من قتل من الأمراء العشراوات
فمنهم أيدك الأشرفى ، واسنبغا بن صفر خجا
المؤيدى نائب باب القلعة ، وتغرباى الساقى
الأشرفى ، وقانصوه النوروزى ، وتغرباى قزل
الظاهرى ، وتانى بك السيفى ، وجانى بك الثور ،
وجانى بك البواب المؤيدى ، وقطلوباي المحمودى
الأشرفى العزيزى ، ومغلباى الخليلى الأشرفى ،
ويشبك الغزى الظاهرى ، ويشبك الأشقر . قيل
انه فوجر على سوار ف ضرب عنقه بين يديه . وأما
من قتل من الخاصكية والمماليك السلطانية فما
ضبطوا . وقد نهب برك الأمراء والعسكر قاطبة ،
والذى سلم دخل الى حلب فى أسوأ حال من
العرى والمشى ، وقد قوى أمر سوار ، وتوجه الى
عينتاب وحاصر قلعتها وملك البلد ، وأشيع بين
الناس أن ابن عثمان ملك الروم أرسل نجدة من
عسكره الى سوار .

وفيه جاءت الأخبار من البحيرة بأن العربان قد
تحالفوا على الخروج عن طاعة السلطان ، فوثبوا
هناك وأحرقوا الجرون ونهبوا بلاد المقطعين فلما
بلغ السلطان ذلك عين تجريدة بها عدة من الأمراء ،
وعين تجريدة الى الشرقية وتجريدة الى الوجه
القبلى بسبب أولاد ابن عمر ، ثم خلع على شيخ
العرب صقر وقرره فى مشيخة عربان البحيرة ، ثم
عزل خشقدم ، كاشف البحيرة ، وولاهما لمحمد
الصغير . فلما وردت أخبار كسرة العسكر على يد
سوار اشتغل السلطان بذلك عن كل شيء ، ودهمته
هذه الأمور الشنيعة عن التجاريد التى عينها .

وفيه ابتداء السلطان بوقوع المساوى منه ،
فأخرج قرية ابابه عن الخليفة المستجد بالله

يوسف ، وكانت بيده من حين تسلطن المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، وكان أقطعها له لما تسلطن فأخرجها السلطان عنه باسم جاني بك حبيب . ثم بعد مدة يسيرة أخرج عنه جزيرة ابن الصابوني وأقطعها لبعض مماليكه ... فعند ذلك من مساويه .

وفيه وصل قائلوه الجيلاني الحاجب بدمشق وعلى يده مكاتيب أربك نائب الشام يخبر فيها بكسر العسكر ودخولهم الى حلب وهم في أسوأ حال ، وأن أربك نائب الشام دخل الى حلب وهو معجروح في وجهه ، وليس له برك ولا قماش ولا ممالك ، ودخل نائب حلب ونائب طرابلس على هذا الوجه ودخل غالب العسكر عرايا مشاة . وكانت هذه الواقعة في يوم الاثنين سابع ذي القعدة من السنة المذكورة . فلما وردت هذه الأخبار ماجت القاهرة وحرار السلطان في أمره ، وما يظن أن سوارا يقوى على العسكر لكثرتة .

وفيه جاءت الأخبار عقيب ذلك بأن سوارا سجن الأتابكي جاني بك قلقسير في جب ، وأن عسكر سوار قد قوى بما نهبه من العسكر من خيول وسلاح وبرك ، وقد عزم سوار بأن يزحف على حلب فلما تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس بالقلعة ، فحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة — وهم ولي الدين الأسيوطي الشافعي ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفي ، وحسام الدين بن حريز المالكي ، وعز الدين الحنبلي — وحضر شيخ الاسلام أمين الدين يحيى الاقصراني ومشايخ من العلماء ، وحضر سائر الأمراء ، وكان هذا المجلس بالحوش السلطاني . فلما تكامل المجلس قام القاضي كاتب السر أبو بكر بن مزهر ، وتكلم عن لسان السلطان ، ووجه الخطاب الى الخليفة والقضاة

ومشايخ العلم بما معناه من كلام طويل بأن بيت المال مشحوت من المال ، وأن سوار الباغي قد استطال على البلاد وقتل العباد ، ولا بد من خروج تجريدة عسكر لتحمي بلاد السلطان ، وأن العسكر يحتاج الى نفقة ، وليس في بيت المال شيء ، وأن كثيرا من الناس معهم زيادة في أرزاقهم ووظائفهم ، وأن الأوقاف قد كثرت على الجوامع والمساجد ، وأن قصد السلطان يعنى لهم ما يقوم بالشعائر فقط ويدخل الفائض الى الذخيرة ... فقال الخليفة وقضاة الجاه الى شيء من معنى الاجابة الى ذلك . فبينما هم على ذلك اذ حضر شيخ الاسلام أمين الدين الاقصراني الحنفي — وكان قد تأخر عن الحضور فأرسل خلفه السلطان — فلما حضر أعاد اليه كاتب السر الكلام الذي وقع في أول المجلس . فلما سمع هذا الكلام أنكره غاية الانكار وقال في الملأ العام من ذلك المجلس : « لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس الا بوجه شرعي واذا نفذ جميع ما في بيت المال ينظر الى ما في أيدي الأمراء والجند وحلى النساء فيأخذ منه ما يحتاج اليه . واذا لم يوف بالحاجة ، ففي ذلك ينظر في المهم : ان كان ضروريا في المنع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة ... وهذا هو دين الله تعالى ، ان سمعت آجرك الله على ذلك ، وان لم تسمع فافعل ما شئت ، فانا نخشى من الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ويقول لنا : لم لا نهيموه عن ذلك وأوضحتم له الحق ؟ ... ولكن السلطان ان أراد أن يفعل شيئا يخالف الشرع فلا يجمعنا ، ولكن بدعوة فقير صادق يكفيكم الله مؤنة هذا الأمر كله » ... ثم قام ... فانجبه منه السلطان ، وانفض المجلس من غير طائل ، وكثر القال والقليل ، وشكر الأمراء الشيخ أمين الدين على ذلك وغالب الناس ، وكثر الدعاء في ذلك اليوم للشيخ أمين

الدين رحمه الله ، وعد هذا المجلس من النوادر .
ثم ان السلطان نادى للجند بالعرض وأخذ في
أسباب خروج تجريدة . فلما أن دخل الدهيشة
وهو في غاية الحدة من الشيخ أمين الدين
الأقصرائي ، واذا بالأخبار جاءت اليه من ثغر
دمياط بفرار الظاهر تمرغا من دمياط ، وأن شيخ
العرب محمد بن عجلان وعيسى بن سيف الدين
أنزلوه في مركب وطلعوا به من الطينة وقصدوا به
نواحي حلب . فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت
أحواله ، وضاق الأمر عليه من كل جانب ، ونسى
ما كان فيه من أمر سوار وعرض العسكر .

ثم زاد القال والقليل في هروب الظاهر تمرغا من
دمياط ، فعند ذلك عين السلطان يشبك الدوادار
بأن يخرج ويلاقى الظاهر تمرغا من غزة فخرج على
جرائد الخيل مسرعا .

ثم ان السلطان نادى في القاهرة بأن لا يخرج
أحد من بيته بعد صلاة العشاء ولا يحمل سلاحا
ولا يحصل كلام ، وحصل للناس في تلك الأيام
غاية القلق .

وفيه قرر في قضاء الشافعية بدمشق قطب الدين
الخيضري عوضا عن ابن الصابوني مضافا لما بيده
من كتابة السر . ثم قرر في نظر الجيش البدر ابن
المزلق عوضا عن ابن الصابوني أيضا بحكم
القبض عليه .

وفيه جاءت الأخبار بأن سبع وسباع — ولدى
هجار — وثبا على الينابة . وكان قد خرج اليهما
على بن بركات — أخو صاحب مكة المشرفة —
فكسروه ... وهذه أول فتنة الينبع .

وفيه عين السلطان تجريدة الى سوار — وهي
التجريدة الثانية — فعين بها من الأمراء قرقماس
الجلب أمير مجلس باش العسكر ، وسودون
القصري ، وقراجا الطويل الاينالي ، وازدمر

الطويل الاينالي ، وعدة أمراء طبلخانات
وعشراوات ، وعين من الجند فوق الألف مملوك .
وفيه جاءت الأخبار بأن سوارا قد أطلق
الأتابكي جاني بك قلقسير وقد وصل الى قرب
حلب .

وفيه جاءت الأخبار بقتل سبع وسباع ولدى
هجار أمير الينبع ، وقد وقعت فتنة عظيمة بالينبع
بين خافر وبينهما حتى قتلها ، وكان سبع وسباع
حصل منهما غاية الضرر الشامل .

وفي ذي الحجة توفي شخص يسمى عصام الدين
البخاري الحنفي ، وكان من أهل العلم ، وكان
أكثر اقامته بدمشق ، واشتغل بدمشق على جماعة
على مذهب أبي حنيفة ، وكان من الأفاضل .

وفيه جاءت الأخبار من غزة بأن أرغون شاه
الأشرفي قد قبض على الظاهر تمرغا . فلما وصل
الأمير يشبك الى بلييس تلقاه وحمله في محفة
وتوجه به من هناك الى ثغر الاسكندرية من غير
تقييد . ثم ان السلطان رفق به ولم يسجنه ، وقد
رسم له بأن يسكن بدار الملك العزيز التي
بالاسكندرية ، وأن يركب الى صلاة الجمعة
والعيدين . ثم ان الظاهر تمرغا كتب للسلطان
كتابا بخط يده وقال فيه : « المملوك تمرغا يقبل
الأرض » ... وأرسل يعتذر اليه مما وقع منه
بسبب تسجبه من دمياط ، واعتذر بأنه قصد
التوجه الى شاه سوار ليصلح بينه وبين السلطان
وتخمد هذه الفتنة ، كما قيل :

إذا كان وجه العذر ليس بواضح

فإن اطراح العذر خير من العذر

وكان الظاهر تمرغا أرسل قليل الحظ معكوس
الحركات في أفعاله ، ليس له سعد ولا قسم له ،
كما قيل :

دع النعرض ان الأمر مقدور
وليس للسعى في الادراك تأثير

والمرء يعجز عن تحصيل خردلة
بالسعى ان لم تساعده المقادير

وفيه أيضا وصل أرغون شاه وعلى يده محضر
بأنه سلم الظاهر تمرغا الى الأمير يشبك الدوادار
الكبير وتوجه من بليس الى الاسكندرية . وكان
أرغون شاه قبض على تمرغا لما خرج من الطينة ،
فلما حضر أرغون شاه بين يدي السلطان شكره
على ذلك ، وخلع عليه خلعة حافلة ، وأركبه على
فرس بسرج ذهب وكنبوش ... فعز ذلك على
جميع الظاهرية لكونه قبض على تمرغا ، ولم
يكن هذا قصدهم

وفيه تزايد سعر القمح وانتهى الى سبعمائة
درهم كل أردب ، ففتح السلطان شونه وباع منها
بأقل من سبعمائة فحصل للناس بذلك بعض
رفق .

وفيه ثارت الممالك بالقلعة ، ومنعوا الأمراء من
الطلوع اليها ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة .
وسبب ذلك تأخر الوزير عن حمل اللحم المرتب
والخبز .

وفيه قبض السلطان على صاحب شمس الدين
محمد والد صاحب علاء الدين الاهنسى ووكل
به في طبقة الزمام .

وفيه توقف النيل عن الزيادة ثلاثة أيام ، فقلق
الناس لذلك وزاد سعر القمح ، ثم بعث الله تعالى
بالزيادة حتى حصل الوفاء .

وفيه توفي الشيخ تقي الدين أحمد بن محمد بن
محمد بن حسن بن علي الشمني القسطيني ثم
السكندري الحنفي . وكان اماما عالما فاضلا خيرا
دينا عارفا بالفقه والأصول ، وله تصانيف وتأليف

في فنون العلم ، أجاز به البلقيني وابن الملقن والعراقي
 وغير ذلك من العلماء ، وكان عين للقضاء الأكبر
غير ما مرة وهو يستنح من ذلك .

وفيه قبض على شخص سرق ستر الامام الليث
ابن سعد رضي الله عنه ، فرسم السلطان بقطع يده ،
فشهر وقطعت يده .

وفيه توفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن أسد بن
عبد الواحد السيوطي ثم السكندري الشافعي .
وكان عالما فاضلا بارعا في العلم ، عارفا بالقراءات
بالروايات السبع ، ومولده سنة ثمانمائة .

وفيه أفرج عن صاحب شمس الدين الاهنسى ،
وخلع عليه باعادة الوزارة ، وصرف ولده محمد
عن نظر الدولة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أبي القاسم بن جيهان
شاه صاحب كرمان ، وكان لا بأس به . ولى على
كرمان بعد أبيه ، وجرى عليه أمور شتى ، وآخر
الأمر قتل .

وتوفي الشيخ أبو عبد الله محمد التونسي
الموصلى المالكي رحمه الله تعالى . وكان عالما فاضلا
من أكابر علماء تونس ، وعاش نحو من سبعين
سنة .

وتوفي قانصوه خوتى الأشرفي أحد مقدمي
الألوف بدمشق رحمه الله تعالى .

وتوفي قراكير العثماني ، المعروف بجماز
الخاصكي ، وكان لا بأس به رحمه الله تعالى .
وتوفي طوغان ميق العمرى المؤيدى أحد الأمراء
العشراوات .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب طرابلس
الغرب .

وفيه توفي القاضي علم الدين أبو الفضل بن
جلود كاتب الممالك ، وكان أصله من الأقباط

يسى ابن اسحق ، وكان من أعيان المباشرين .
ورأى من العز والعظمة غاية .

وخرجت هذه السنة وقد وقع فيها من الفتن
والشرور والأنكاد مالا يكاد أن يضبط ، وقتل
فيها من العسكر والأمراء ما لا يحصى . وتولى فيها
ثلاثة سلاطين بل أربعة : بخير بك سلطان ليلة .
وتوفى فيها الظاهر خشقدم ، وتبدد شمل جماعة
الخشقدمية ، وزالت دولتهم ، ووقع فيها غاية
الفساد في البلاد الحلبية بسبب عصيان شاه سوار .
وقد تقدم ما جرى من الضرر في حق العسكر .

سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة (١٤٦٨ / ١٤٦٩ م) :

فيها ، في المحرم ، صعد القضاة الى القلعة للتهنئة
بالعام الجديد . فأمر السلطان بعقد مجلس بسبب
مشتري ممالك الظاهر خشقدم ، فاشترى من
الممالك الكتانية نحو من خمسمائة مملوك ،
ضريبة كل مملوك عشرة آلاف درهم ، وقد طمع
في حق أولاد الظاهر خشقدم .

وفيه خلع السلطان على عبد الكريم بن علم
الدين بن جلود ، ، وقرره في كتابة الممالك عوضا
عن أبيه بحكم وفاته ، وكان شابا لم يفتح بعد

وفيه عينت الأتابكية لأزبك بن ططخ نائب
الشام ، عوضا عن الأتابكي جاني بك قلقسیر ،
بحكم أسره عند سوار ، فخرجت اليه البشارة
بذلك وطلب الى مصر سريعا ليلى الأتابكية .

وفيه ارسل السلطان بالقبض على تاني بك
المعلم ، الذي توجه أمير ركب المحمل ، فقبض عليه
من عقبه وحمل للقدس بطالا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الحواجا شهاب الدين
ابن المزلق الدمشقي ، وكان من اعيان التجار
بدمشق ، ولم يكن يلي شيئا من الوظائف كأخيه

وفيه توفى جاني بك قجا التمشي المؤيدي مات
بطالا ، وكان بيده امرية عشرة .

وفيه ، في ليلة خامس عشره خسف جميع جرم
القمر حتى أظلمت الدنيا ، ودام على ذلك الى قرب
آخر الليل حتى انجلي .

وفيه توفى شاد بك شبق الأشرفي نائب ملطية
أولا ، ثم بقي مقدم ألف بدمشق .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، فلمما وفي توجه
الأمير قرقماس الجلب أمير مجلس ، وفتح السد
على العادة .

وفيه توفى أصيل الحصري ، وهو ابن محمد بن
ابراهيم بن علي بن عثمان بن يوسف بن عبد الرزاق
ابن عبد الله المغربي — كان مالكي المذهب ، وكان
عشير الناس ، كثير المداعبات والنوادر ، لطيف
الذات محبا لأرباب الدولة ، وعاش مدة من العمر
طويلة ، وكان مولده سنة ثمان وثمانين وسبعمائة .

وفيه حضر الزيني عبد الرحمن بن الكوير
الذي كان ناظر الخاص ، وقرر في دولة الظاهر
خشقدم ، فوجه الى ابن عثمان ملك الروم ، فأقام
عنده حتى توفى الظاهر خشقدم فحضر الى القاهرة .
فلما مثل بين يدي السلطان خلع عليه ونزل الى داره .
وفيه حضر قاصد حسن الطويل ، وعلى يده
مكاتبة بالتهنئة للسلطان بالملك ، وصحبته هدية
حافلة .

وفي مستهل صفر توفى العلامة شمس الدين
محمد بن ابراهيم الشرواني الشافعي . وكان اماما
عالما فاضلا نادرة عصره ، بارعا في فنون العلم ،
خضعت له الناس من أهل زمانه ، وشهرته تغنى عن
مزيد ذكره ، ومولده سنة ثمانين وسبعمائة .

وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة وتوجه الى نحو طره والعدوية على سبيل التنزه ، فأقام هناك الى آخر النهار ، ومد هناك أسمطة حافلة ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه توقف النيل عن الزيادة وقلق الناس لذلك ، وارتفع سعر الغلال ، وتكالب الناس على مشتري القمح ، ثم بعث الله بالزيادة .

وفيه خلع السلطان على بلباي الظاهري أحد العشراوات ، وقرر في نيابة الاسكندرية عوضا عن قانصوه اليحياوى — وقرر قانصوه اليحياوى نائب طرابلس عوضا عن اينال الأشقر — وقرر اينال الأشقر في نيابة حلب عوضا عن برد بك البجمقدار ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام عوضا عن أزيك بن ططخ ، بحكم انتقاله الى الأتابكية عوضا عن جاني بك قلقسير ، بحكم أسرهم عند شاه سوار .

وفيه نودى على الفلوس الجدد بأربعة وعشرين الرطل وكانت ستة وثلاثين ، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة الأمير مغلباوى طاز أبو بكرى المؤيدى ، أحد مقدمى الألواف بمصر . مات بدمياط بطالا ، وكان خيرا دينيا ، موصوفا بالشجاعة ، وهو صاحب الجامع الذى أنشأه بدرب الخازن — ومات وقد نيف على الثمانين سنة من العمر رحمه الله تعالى ، وتقل بعد موته الى القاهرة ودفن بتربته التى أنشأها .

وفيه وصل المقر السيفى أزيك نائب الشام ، فلما صعد الى القلعة أكرمه السلطان وخلع عليه ، وقرره فى الأتابكية ، عوضا عن جاني بك قلقسير بحكم أسرهم عند سوار ، فنزل الى داره فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة

خوند فاطمة بنت الأشرف اينال . وكانت توجهت الى الاسكندرية بسبب ختان أولاد أخيها الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، فطعنت هناك وماتت ، وكان الطعن عمالا بالاسكندرية ، فحملت الى القاهرة ، ودفنت بتربة أبيها الأشرف اينال . وكان تزوج بها كسبى الدوادر الثانى الخشقدمى ولم يدخل عليها ، وكانت قبل ذلك تزوجت بالأمير يونس البواب الدوادر الكبير ، وماتت وهى فى عصمة كسبى . وكانت شابة جميلة لها من العمر نحو من سبع وعشرين سنة ، فكثر عليها من الناس الأسف والحزن والبكاء . وكانت من الأخيار .

وفيه توقف السلطان عن صرف جوامك أولاد الناس وجماعة من الفقهاء والمتعممين ، وأحضر قوسا ثقيلًا وبه سهم نشاب طومار ، وصار يدفعه لأولاد الناس . فكل من لا يقدر على سحبه يقطع جامكيته . فحصل لأولاد الناس فى ذلك اليوم كسر خاطر ، واقتضح منهم جماعة ، ووبخهم بالكلام ، ونزلوا من القلعة ، وهم فى غاية الفكر ، وقطع فى ذلك اليوم عدة جوامك ، فكثر الدعاء عليه بسبب ذلك .

وفيه توفى الطواشى سرور الطلايهى شيخ الخدام بالحرم النبوى ، وكان قد طعن فى السن جدا . وتوفى القاضى شرف الدين عيسى العطولى الشافعى ، أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة ، وكان يوما حافلا مشهودا .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة السلطان الملك الظاهر بلباي المؤيدى ، مات وهو

بالسجن بالطاعون ، وقد قاسى شدائد ومحن وأخر
الأمر مات قهرا ، وقد تقدم ذكره .

وفيه هبط النيل سريعا فى أثناء توت فتزايد أمر
الغلال ، وشطح سعر القمح ، وابتدأ وقوع الطاعون
بالقاهرة .

وفيه عين السلطان الأمير أزدمر الطويل الانالى
بأن يخرج ومعه خمسمائة مملوك من الممالك
السلطانية الى حفظ البلاد الحلبية ، ويقوم بحلب الى
أن تحضر التجريدة ويخرج عقيب ذلك . وكان بلغ
السلطان بأن عسكر سوار نزل على قلعة دريدة
وحاصرها فبادر الأمير أزدمر وخرج فى قلب
الشتاء ليحفظ حلب . وكان ذلك عين الصواب
وفيه جاءت الأخبار بوفاة قائم طاز الأشرفى أحد
مقدمى الألفوف بحلب ، مات وهو فى أسر سوار ،
وكان موصوفا بالشجاعة والفروسية ، ومات وقد
جاوز الستين من العمر

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى خاقاه
سرياقوس ، ونصب هناك الخيام وأقام بها يومين ،
وعمل هناك أسطة حافلة ، وحضر هناك مع
السلطان قاصد حسن الطويل ، وقاصد ملك الهند ،
فكانت اقامتهم هنا مشهورة . وحصل للسلطان
بذلك انشراح ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه قبض السلطان على صاحب شمس الدين
الاهناسى والد صاحب علاء الدين — وسلمه
الى الأمير يشبك الدوادار ، فعاقبه وسجنه عنده
أياما ، ثم قرر عليه ألفى دينار وأطلقه .

وفيه جلس السلطان على الدكة بالحوش لتفرقة
الجامكية ، فقطع عدة جوامك لأولاد الناس
والمتممين ، وأحضر عنده ثلاثة أقواس بعضها
أقوى من بعض ، وصار كلما دعا باسم شخص من
أولاد الناس ، يدفع اليه من الأقواس قوسا ويأمره
بجذبه ، فإن أوفى جذبه كتبه للتجريدة ، أو يحمل

مائة دينار عن بدل السفر ، وإن لم يجذبه قطع
جامكيته . وصار بعض الأمراء يشفع فيمن له ألف
جامكية بأن يبقى على حاله ، ومنهم من ألزمه
بخمسين دينارا لمن له ألف جامكية ، فحصل لأولاد
الناس الضرر الشامل بسبب هذه المصادرة ، وهان
عليهم ترك الجامكية من كثرة توبيخ السلطان لهم .
وفيه أنعم السلطان على برقوق شاد الشراب
خاناه بتقدمة ألف ، وعلى قنبردى الدوادار الثانى
بتقدمة ألف ، ثم فى آخر الجوامك قطع عدة جوامك
للفقهاء والمتعممين ، وفعل بهم كما فعل بأولاد الناس
فى مصادراتهم .

وفيه أمر السلطان باحضار علاء الدين بن
الصابونى فى الدهيشة . فلما حضر أمر بضربه بين
يديه ، فضرب ضربا مبرحا على رجليه ، وألزمه
بحمل مائة ألف دينار ، فأذعن الى ذلك ثم حمل
الى طبقة الزمام فى الترسيم ، ووكل به جماعة من
الخاصكية الى أن يورد ما قرر عليه من المال

وفيه خلع السلطان على يشبك الدوادار خلعة
حافلة كخلعه الأتابكى ، وقرره فى الوزارة مضافا
للدوادارية الكبرى ، فأخذ الوزارة عن صاحب
شمس الدين والد صاحب علاء الدين الاهناسى ،
وقرر فاسم شغيته فى نظر الدولة ، عوضا عن محمد
ابن شمس الدين الاهناسى . فلما تم أمر يشبائك
فى الوزارة أخذ فى قطع مرتبات اللحم التى كانت
للفقهاء والمتعممين فاطبة ، وكان ذلك باذن
السلطان . ففتك يشبك الدوادار غاية الفتك ،
ورسم على جماعة من المتممين ، وقصد أن يأخذ
منهم ما أكلوه فى الماضى . وكان منهم من له أربع
زيادى لحم ، والخمسة زيادى ، بل وأكثر من ذلك ،
فرسم على بدر الدين الدميرى كتكوت حتى شفع
فيه بعض الأمراء ، وهرب ، واختفى حمزة بن

البشرى ، واستمر مختفيا حتى مات بعد مدة ، وحصل للفقهاء والمتعممين في هذه الحركة غاية الضرر والبهدة ، وما أبقى مكننا في ذلك . وقطع لحوم جماعة كثيرة من أولاد الناس والفقهاء والمتعممين والنساء ، وكان القائم في ذلك قاسم شغيته ، وحسن للسلطان ذلك . وهذا أول فتح باب المظالم . وصار الأمر يتزايد من بعد ذلك .

وكان في الزمن القديم تباع الزبادى اللحم ، وتشترى النساء والفقهاء وغير ذلك من الناس ، فامتنع هذا الأمر في تلك الدولة ، وصار اللحم يصرف للماليك فقط . وكان الوزراء المتقدمون يسدون هذا المسد للديوان أحسن السداد ، مع كثرة اللحوم المرتبة للناس على ذلك الديوان ، وآخر من كان قائما بسداد هذا الديوان : الصاحب علاء الدين ابن الالهنامى ، ثم ابن البباوى ، ثم ابن الصنيعة وغيره من الوزراء ، حتى ولى قاسم شغيته ، فحسن ليشبك الدوا دار ذلك حتى فعل بالناس ما فعل .

وفيه خرج الأتابكى أزبك بن ططخ الى جهات البحيرة بسبب فساد العربان ، فأقام هناك مدة ثم عاد .

وفيه قرر سودون القصرى رأس نوبة النوب عوضا عن فائق الظاهرى ، بحكم وفاته .

وفيه قرر تالى بك الاينالى فى الدوا دارية الثانية عوضا عن قنبردى الاينالى ، وقرر قانصوه الخفيف الاينالى فى شادية الشرايخانة ، وقرر جانى باى الخفيف الاينالى فى تجارة الماليك ، وقرر مثقال الحبشى الساقى فى مشيخة الحرم الشريف النبوى ، عوضا عن مرور الطلايى بحكم وفاته . وكان مثقال هذا عشير الناس كثير الانهماك على شرب الراح ، فمقتته السلطان ، وألبسه مشيخة الحرم الشريف لعله يتوب . وفيه يقول المنصورى :

بم لى كف مثقال فراحتہ
فہا لمن أمہ جود وأفضال

واعجب له فرعاه الله من رجل
فيه قناطير خير وهو مثقال
وفيه أنفق السلطان على العسكر المعين للتجريدة
الى سوار ، فأعطى لكل مملوك مائة دينار .

وفيه خلع السلطان على يشبك جن وقرره فى
الحاج بركب المحمل ، وكان قد قرر قبل ذلك فى
امرية الأخورية الثانية . وخلع على يشبك الجمالى
وقرره فى امرية الحاج فى الركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار بأن حسن الطويل قد
استولى على ممالك العراق ، وطرد من كان بها من
الملوك ، وقد تزايدت عظمته جدا ، فخشى السلطان
منه فى الباطن ، وأخذ حذره ، ولكن شغله عنه
أمر سوار .

وفيه أرسل السلطان نفقات الأمراء المعينين الى
التجريدة ، فحمل لأزدر الطويل ستة آلاف دينار ،
وحمل لقجساس الطويل أحد الأمراء الطبلخانات
خمسائة دينار ، وحمل للأمراء العشراوات لكل
واحد منهم مائتى دينار ... فكان الذى صرف على
هذه التجريدة التى خرج فيها أزدر الطويل ، ومن
عين معه من الأمراء ومن الجند — وهم نحو من
خمسائة مملوك — ما يزيد على مائتى ألف دينار .
فخرج أزدر الطويل ومن عين معه من الأمراء ومن
الجند ، فى أوائل الشتاء ليقیم فى حلب .

وفيه خرج علاء الدين بن الصابونى الى دمشق .
وخرج معه خاصكى يقال له جانى بك الأشقر ،
ليحضر ما بقى عليه من المال الذى التزم به ، فخرج
الى دمشق فى الترسيم .

وفى ربيع الآخر طلع القضاة الى التهنئة بالشهر ،

فتكلم السلطان معهم في المجلس في قطع جوامك العواجز من الجند والنساء . وأخذ يشكو للقضاة من انشحات الديوان ، وخراب البلاد ، وصار يدعو على نفسه بالموت حتى يستريح مما هو فيه من التعب ... فطال الكلام في ذلك المجلس بسبب ذلك ، ثم انفض الأمر من غير طائل ، وقام القضاة ونزلوا من القلعة . فلما فرق الجامكية في الشهر الأول المذكور ، جلس على عادته ، واستدعى بالجامكية ، وصار يقطع عدة جوامك للعواجز من الجند والأيتام والنساء . وصار في كل شهر على عادته ، تفرق الجامكية بحضرته ، ويقطع في كل شهر للناس بحسب ما يختار منها . وهو أول من جلس على تفرقة الجامكية بنفسه من الملوك ، واستمر ذلك من بعده تفعله الملوك الى يومنا هذا في كل يوم تفرق فيه الجامكية . ولم يعهد هذا من ملك قبله أنه حضر تفرقة الجامكية بنفسه .

وفيه قرر يشبك البجاسي الذي كان نائب حلب وعزل . قرره السلطان في نيابة حماه عوضا عن محمد بن مبارك فعد هذا من النوادر ، لكونه قرر في نيابة حماه بعد نيابة حلب .

وفيه خلع السلطان على يشبك الجمالي ، وقرره في الحسبة عوضا عن قانصوه الخفيف ، بحكم انتقاله الى شادية الشرابخانا . فجاء يشبك الجمالي في الحسبة على الأوضاع ، وصار له حرمة وافرة .

وفي جمادى الأولى توفي الأمير جوهر التركماني اليشبكي الخازندار الكبير والزمام ، وكان هندي الجنس ، سييء الخلق ، غير محمود السيرة .

وفيه خرج تراز الشمسى قريب السلطان وتوجه

الى الغريبة للكشف على الجسور ، وصار يتوجه اليها في كل سنة ، ويفيم بها أشهراً .

وفيه توفي العرس خليل والد شيخنا الشيخ عبد الباسط الحنفي ، وهو خليل بن شاهين الصفوي الأشرفي ، وكان ذكيا لبيبا عارفا . تولى عدة وظائف سنية من الوزارة ونيابة الكرك ، ونيابة القدس ، ونيابة ملطية ، وأتابكية حلب ، ونيابة الاسكندرية ، وتقديم ألف بدمشق ، وحج بالناس أمير المحمل . وكان من أعيان الرؤساء ، وكان نادرة في أولاد الناس ، وكان مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وكان حنفي المذهب ، اشتغل على جماعة من العلماء ، وأجازه في الحديث الحافظ بن حجر .

وفيه خلع على الطواشي جوهر النوروزي الحبشي ، وقرره في الزمامية والخازندارية الكبرى عوضا عن جوهر التركماني .

وفيه توفي الشيخ المسلك العارف بالله تعالى حسام الدين حسين بن محمود الأصفهاني الرفاعي الشافعي ، وكان ديناً خيراً لا بأس به .

وفيه عاد الأمير يشبك الدوادار من الوجه القبلي . وقد نهب البلاد ، وأسر نساء العربان وأولادهم ، حتى قيل أحضر معه نحواً من أربعمائة امرأة ، وقد مات منهن من الجوع عدة كثيرة . فلما عاد يشبك حصل من العربان بسبب ذلك ما لا خير فيه في البلاد ، وسلب المسافرين ، ووقع منهم غاية الفساد .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة شيخ العرب حسن بن بغداد ، أحد مشايخ الغريبة ، وكان في سعة من المال ، فأحاط السلطان على موجوده قاطبة .

وفي جمادى الآخرة ارتفع سعر الغلال عما كان ،

واشتد الغلاء على الناس ، وجاءت الأخبار بإفشاء
العلعون بأقليم البحيرة .

وفيه توفي الطواشي شاهين غزالي الظاهري
الرومي ، وكان بارعا في الجمال ، وافتن به كثير
من النساء والرجال ، وكان حسن الشكل ، وافر
العقل ، كثير الأدب ، حشما في نفسه . وكان في
سعة من المال ، غاويا متجرا ، وكان منهمكا في
ملاذ نفسه . فلما مات نزل السلطان وصلى عليه ،
ثم توجه من الصلاة الى بركة الحبش ، وأقام بها
الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة . وفي شاهين
غزالي يقول الشهاب المنصوري :

قد صاغك الله من لطف ومن كرم
وزاد حسنك بالاحسان تزيينا
فاخفض جناح الرضا واصطد طيور وغي
من جو اخلاصنا ان كنت شاهينا
وقال آخر :

أيها العشاق اصغوا واسمعوا حسن مقال
كل عاشق لو غزال وأنا شاهين غزالي
وفيه ذكرت أعجوبة ... نقل شيخنا الشيخ
عبد الباسط بن خليل الحنفى في تاريخه أن شخصا
من الجنود يقال له يوسف السيفي يشبك الصوفى ،
خرج ليسير نحو الجبل المقطم ، فرأى حصاة مرمية في
الأرض ، فأخذها فاذا عليها مكتوب بخط جيد
قديم : « قد قرب الوقت فاعتبروا واتقوا الله » وهى
كتابة بغير نقط ، ولا شكل ، فأحضرها بين يدي
الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، حتى رآها وتعجب
من ذلك ، ولكن طعن فيها بعض الناس ، وقال انها
مصنوعة ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وأخذ في
أسباب خروج العسكر الى سوار ، وهى التجريدة
الثانية ، فعين باش العسكر الأتابكى أربك بن ططخ

وقرقماس الجلب أمير مجلس ، وسودون القسروى
رأس نوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وقراجا
الطويل الاينالى .. ومن الأمراء الطبلخانات خاير
بك ابن حديد ، وجانى بك الزينى ، ومن الأمراء
العشراوات زيادة على العشرين أميرا . ثم رسم
لأولاد الناس : من أراد السفر فليسافر ، ومن لم
يسافر يحمل الى بيت المال مائة دينار ويقدمها بدلا
عنه ، وهذا لمن يكون له جامكية واقطاع ، ومن لم
يكن له اقطاع وله ألف دينار أو له جامكية ألف
درهم ، يحمل خمسة وعشرين دينارا .

وفيه قبض السلطان على الشهابى أحمد بن
العينى ، وسجن بالقلعة ليورد بقية المال الذى
كان قرر عليه ، فأقام بالقلعة أياما حتى حمل ما عليه
من المال المقرر . فعند ذلك خلع عليه السلطان ونزل
الى داره .

وفيه أنفق السلطان على العسكر لكل مملوك
مائة دينار ، ولكل أمير مقدم ألف : ألفا دينار . وحمل
للأمراء الطبلخانات لكل واحد خمسمائة دينار ،
وللأمراء العشراوات لكل واحد مائتا دينار . فكان
جملة ما صرف على هذه التجريدة نحو من
أربعمائة ألف دينار ... فلما كان يوم الموكب طلع
قرقماس الجلب الى القلعة ، وطلب من السلطان
الاعفاء من السفر ، وأظهر العجز ، وأن يكون
طرخانا فى أى مكان يختار السلطان . فلم يجب الى
ذلك وخاشنه السلطان فى اللفظ ، وألزمه بالسفر ،
وأكد عليه . فلما نزل الى داره كثر القيل والقال ،
بأن مستكون فتنة . فلما بلغ السلطان ذلك لم يؤثر
عنده ، ونزل الى خليج الزعفران وأقام به الى آخر
النهار . ثم عاد الى القلعة وبطلت تلك الاشاعة .

وفى رجب حضر من البحيرة الأتابكى أربك فلما
نزلت له النفقة تمنع من السفر ، وزعم أنه لا يطيق

ممالك السلطان اذا عمل باش العسكر ، فما زال يتلطف به حتى أجاب الى السفر ، وقبل منه النفقة .

وفيه وصل قاصد حسن الطويل ، وعلى يده هدية للسلطان ، ومكاتبة تتضمن ما ملكه من القلاع من ملك العراقيين ، وعلى يده عدة مفاتيح لعدة قلاع وحصون . وأرسل يتملق للسلطان بأن كل ما يملكه من البلاد هو زيادة في ممالك السلطان ، وأنه النائب عنه فيها ، فأكرم السلطان قاصده ، وأضافه ، وخلع عليه كاملية حافلة ، وأرسل الى حسن الطويل هدية حسنة سنية ، وأذن للقاصد بالسفر . وكان هذا من حسن الطويل عين الخداع لما يأتى منه بعد ذلك .

وفيه توفي القاضي معين الدين ابن الطرابلسي الحنفي ، وهو محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن أبي بكر الطرابلسي وكان عالما فاضلا ، ناب في القضاء مدة . ثم نزل عن ذلك ، ولزم العبادة والتصوف حتى مات .

وفيه أكمل السلطان تفرقة النفقة على العسكر المعين الى تجريدة سوارا . ثم ابتدأ بتفرقة الجمال . ثم عجل لهم جامكية أربعة أشهر ، وأعطاهم الكسوة أيضا ، وأرضاهم بكل ما يمكن . ووقع في يوم تفرقة الجمال نادرة غريبة : وهي أن الهجانة لما أحضروا الجمال وساقوها الى الميدان ، تزاوجت عند باب الميدان وقت دخولها ، فمات منها في ساعة واحدة ، نحو من ثلثمائة بعير ، فتشام الناس لذلك وصرخوا بعدم نصره العسكر ، وكذلك جرى .

وفيه كان ابتداء وقوع الطاعون بالقاهرة وهو أول طاعون وقع في دولة الأشرف قايتباي .

وفي شعبان توفي قاضي القضاة المالكي حسام الدين بن حريز بن أبي القاسم الهاشمي القرشي العلوي الحسني ، وكان أصله مغربيا من طريطاي ،

ثم نشأ بمنفلوط ، وولى القضاء بها مدة طويلة ، وكان عالما فاضلا جوادا سمحا ، في سعة من المال ، سمع على ولي الدين العراقي وغيره من العلماء ، وآل أمره الى أن ولى القضاء الأكبر بمصر ، وصفا له الوقت ، وطالت أيامه بها ، وعظم أمره في القضاء ، وكان مولده سنة أربع وثمانمائة . وكان يعاب بكثرة القيام في أغراض نفسه . ولما مات تولى من بعده أخوه عمر سراج الدين ، وقرر في قضاء المالكية عوضا عن أخيه . وتوفي المسند شمس الدين محمد بن النقاش الوقائي الصوفي الشافعي . سمع الحديث من والده الشيخ سراج الدين عمر بن عمر بن حسن .

وفيه تزايد أمر الطاعون جدا ، وعمل في الأطفال والممالك والعبيد والجواري والغرباء عملا بليغا ذريعا ، حتى عظم الأمر في ذلك . وفيه يقول الشهاب المنصوري :

يا نعم عيشة مصر وبئس ما قد دهاها
لما فشا الطعن فيها حاكي السهام وبها

وفيه خلع السلطان على المقر السيفي يشبك الدوادر ، وقرره في الاستدارية ، مضافا لما بيده من الدوادر والوزارة وكشوفية الكشاف ، فعظم أمره جدا . وما أظن أن هذه الوظائف قد جمعت لأحد من الأمراء قبله . فكان الانسان اذا قرب من بابه يستعيذ بالله من هول ما يرى من الظلمة التي يبابه . فلما ولى يشبك الاستدارية قبض على مجيد الدين بن البقري ، وشرف الدين بن كاتب غريب ، وطلب منهما مالا . فحصل من ابن البقري خمسة آلاف دينار . وأما ابن كاتب غريب فانه أظهر العجز ، وحلف أنه لا يملك شيئا ، وكان متمرضا ، فرسم السلطان بحمله الى البرج الذي بالقلعة ، فسجن به .

وفيه خرج العسكر المعين الى سوار ، فخرجوا من القاهرة في تجمل زائد ، وطلبوا أطلابا حافلة ... فخرج الأتابكي أذربك ومعه من العسكر والأمراء ما تقدم ذكره ، وخرج قبل ذلك الأمير أزدمر الطويل ، ومعه خمسمائة مملوك . فصار الطاعون عمالا ، والتجريدة خارجة ، والعسكر في غاية الضرر على أولادهم وعيالهم . ومات في أثناء الطريق جماعة كثيرة بعد خروجهم من الريدانية . وقيل ان السلطان نزل تحت الليل الى الأتابكي أذربك ، وأقام عنده ساعة وودعه ، وعاد الى القلعة كل ذلك تحت الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس . وفيه توفي الأديب البارح الفاضل الشهاب بن صالح ، وهو أحمد بن محمد بن صالح بن عثمان ابن محمد الشافعي . وكان عالما فاضلا شاعرا ماهرا من فحول الشعراء . وله نظم حسن السبك ومولده سنة عشرين وثمانمائة . ومن شعره الرقيق فيمن أهدى اليه بطيخا وقطرا قوله :

بعثت الى بطيخا وقطرا

يشابه ذاك هذا في الصفات

هما نوعان عند الذوق كل

تولد في الحقيقة من بسات

وله في اسم فرج :

شكا فؤادي هم الصد يافرغ

وفيك أصبح صدرى ضيقا حرجا

واستياأس القلب حتى رحت أنشد

يامشتكى الهم دعه وانتظر فرجا

والتورية فيه ثلاثية

وفيه عظم أمر الطاعون بالقاهرة . وصارت

الغرباء يموتون في الطرقات بعضهم على بعض ،

فشرع الأمير يشبك الدواidar في بناء مغسل بالقرب

من مدرسة السلطان حسن . وصارت تحمل إليه

الطرحاء من الموتى ، فيكفنتهم ويخرجهم ويدفنتهم ويصرف عليهم من ماله ، فحصل للناس بذلك غاية الرفق في تلك الأيام .

وفي رمضان اشتد الغلاء والفناء بمصر والشام وحلب ، حتى قيل بيعت الفرارة القمح بدمشق بنحو من أربعين دينارا ، وزيادة .

وفيه مات للسلطان ولد اسمه سيدي أحمد ، وهو أول أولاده من خوند الخاصكية ، وكان عمر ابن السلطان نحو من أربع سنين ... ثم ماتت له ابنة اسمها ست الجراكسة ، وعمرها نحو من ست سنين من خوند أيضا .

وفيه توفي الطواشي لؤلؤ الزمام الأشرفي ، وكان خازندار كبير زمام . وتوفي يشبك خازندار الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، وكان أمير عشرة . ومات مغلباي الخشقدمي ، وكان من الأمراء العشراوات ، ومات ابن أخت السلطان وكان شابا حسنا صغير السن ، ومات جان بلاط الاينالي أحد الأمراء العشراوات . ومات جكم المحمدي الخشقدمي أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان حاجب ثاني . ومات اينال باي ميق الأشرفي أحد الأمراء العشراوات ، ومات آقبردي الهواري الاينالي أحد الأمراء العشراوات . ومات قاني باي الحسنی الاينالي رأس النوب . ومات آنص باي الأعور الاينالي أمير آخور التبن والدريس ، ومات أركماس قرا أحد الأمراء العشراوات ، ومات قاني باي الحسيني الاينالي أحد العشراوات وكان والي القاهرة ، وكان غير عيسوف في ولايته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بيبرس خال الملك العزيز ، ومات بالقدس بطالا . وكان في عشر الثمانين . وولى عدة وظائف سنية ، وجرى عليه

شدائد ومحن ، وكان الخشقدمى لا بأس به في جماعة الأشرية .

وفيه توفي الشيخ جمال الدين أبو الفضل خطيب مكة ، وهو محمد بن محمد بن أحمد العقيلي النويري الشافعي ، وكان عالما فاضلا ، سمع على جماعة من العلماء ، وولى خطابة مكة ، ثم قدم الى مصر وأقام بها الى أن مات . وكان معظما عند أرباب الدولة ، وقد ترشح أمره لأن يلى القضاء بمصر ، فما تم له ذلك .

وفيه حصل للأمير يشبك الدوادر توعك في جسده . فنزل اليه السلطان وعاده .

وفي شوال تناقص أمر الطاعون ، وأخذ في الارتفاع ، بعد ما فتك في الناس فتكا ذريعا .

وفيه خلع السلطان على قاني باي آنص الساقى وفرره في الحجوية الثانية عوضا عن حكم ابن أخت السلطان بحكم وفاته .

وفيه كان وصول الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان بشعر الاسكندرية ، فاستأذن السلطان في الحضور ليحج ، فأذن له في ذلك فحضر . فلما صعد الى القلعة ووقف بين يدي السلطان ، وأراد أن يقبل الأرض ، نهاه السلطان عن ذلك ، وبالنح في اكرامه ، ثم أحضر اليه كاملية بسمور ، وفوقاني أخضر بطرز ذهب ، وقدم اليه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فركب من الحوش ، ونزل من القلعة في موكب حافل ، وقدامه الأمراء ، فتوجه الى دار الأتابكي أربك عند أخته زوجة أربك ، وكان غائبا في التجريدة ، فأقام عندها ، ثم بعد أيام أضافه السلطان بالبحرة ، ثم بعد ذلك ألبسه كاملية بسمور وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ونزل في موكب حافل . فعد مجيئه الى مصر ، وظلوعه

الى القلعة ، من النوادر ، ثم ان السلطان أخذ في أسباب عمل برك للملك المنصور لأجل الحج .

وفيه خلع السلطان على خشقدم الأحمدي الطواشي ، وقرر رأس نوبة السقاة عوضا عن شاهين غزالي . وخلع السلطان على مرجان النقوى الحبشي وقرره في مشيخة الخدام بالمدينة الشريفة . وفيه توفي أقباي اليحياوي الاينالي أحد الأمراء العشروات ، وكان شابا شجاعا بطلا .

وفيه أرسل السلطان الى الظاهر تمرغا ، وهو بالاسكندرية ، فرسا بسرج ذهب وكنبوش وكاملية بسمور ، وأذن له في الركوب الى الصلاة في الجمعة والعيدين ، والى حيث شاء من أماكن الاسكندرية

وفيه توفي الأمير قان بردى الابراهيمي الاينالي أحد مقدمي الألف بمصر .

وفيه جاءت الأخبار بقتل السلطان أبي سعيد بن أحمد بن سعيد بن سعدان شاه تمرلنك ، وكان متملكا على سمرقند وبخارى ، وقتل على يد حسن الطويل ، وكان من أجل ملوك الشرق قدرا . فلما قتل تولى من بعده أحمد ، وهو باق على ملكه الى يومنا هذا .

وفيه خلع السلطان على يشبك بن حيدر الاينالي وقرره في ولاية القاهرة ، فحسنت أوقاته بها ، ودام في الولاية نحو من عشرين سنة .

وفيه استقر في مشيخة المدرسة الصلاحية — المجاورة لقبة الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه — الشيخ كمال الدين ابن امام المدرسة الكاملية عوضا عن زين العابدين ابن قاضي القضاة يحيى المناوى بحكم وفاته .

وفيه خرج الحاج على العادة ، وخرج صحبتهم الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق ،

فأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة من برك و سنيح وغير ذلك .

وفيه لبس السلطان البياض في يوم الاثنين سادس عشره - الموافق الثالث عشر بشنس - فخرج من الدهيشة لابس البياض . وقد خالف العادة في ذلك بعدم لبسه له يوم الجمعة وهى العادة القديمة ، فعيب ذلك عليه .

وفيه عاد القاضى شرف الدين الأنصارى من جبل نابلس ، وكان خرج بسبب جمع العشير المتوجه مع التجريدة فقليل انه صرف على جمع العشير من النفقة نحو من مائتى ألف دينار .

وفيه نزل السلطان نحو قليوب ، ثم عرج على جسر أبى المنجا ، ثم عاد الى تربة يشبك الدوادار ، فأقام بها الى ما بعد العصر ثم عاد الى القلعة .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر لما وصل أخذ باب الملك ، وأنهم فى استظهار على العدو سوار . ثم جاءت الأخبار من نائب حلب بقتل مال باى الأقطع أخى سوار وجماعة كثيرة من عسكره ، وبعث برأس مال باى الأقطع ومعها رأسان من أمرائه ، فلما حضرت تلك الرؤوس طيف بها فى القاهرة ، ثم علقت بباب زويلة وباب النصر .

وفيه جاءت الأخبار بموت خاير بك البهلوان ، وكان أحد الأمراء بدمشق ، قتل هو وجماعة من العسكر فى واقعة مال باى أخى سوار . وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو طرا فأضاف هناك محمد بن البلاح ، فأقام الى آخر النهار وعاد .

وفيه سافر السلطان الى جهة بحيرة تنيس ، وكان معه من الأمراء المقدمين برقوق الناصرى ، واستمر فى هذه السفرة أياما ، واقتطع خبره عن الناس

مدة ، وقد قرب عيد النحر ، فبعث مرسوما بطلب قاضى القضاة الشافعى ولى الدين الأسيوطى ليصلى به صلاة عيد النحر بفارسكور ، فخرج القاضى بسرعة وأخذ معه أشياء من نوع المأكلى هدية للسلطان ، فتوجه الى نحو فارسكور ، فعيد السلطان هناك وقطع أضحية جماعة من أولاد الناس والفقهاء والنساء ، حتى الخوندات وجماعة كثيرة من الجند ، فحصل للناس كسر خاطر بسبب ذلك ... وكان العسكر فى هذا العيد غائبا فى التجريدة ، والسلطان مسافر ، وكان عقيب الفصل وقد فقدت الناس أولادهم وعيالهم ، وقطعت ضحاياهم المرتبة لهم بالديوان السلطانى من قديم الزمان .

وفى يوم عيد النحر كانت بشارة النيل المبارك بما جاءت به القاعدة ، ثم نودى عليه من غد .

واستمر السلطان فى هذه السرحة غائبا نحو من أربعين يوما ، وطاف عدة بلاد من الشرقية والغربية ، فدخل عليه جملة تقادم من مشايخ العربان والمدركين من خيول ومال وغير ذلك .

وكان خروجه الى السفر على حين غفلة ، ولم يكن معه من الأمراء المقدمين سوى برقوق وبعض أمراء عشراوات وبعض عسكر . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قصد العود الى الديار المصرية ، وقد وصل الى بليس . فلما وصل الى الغناقه خرج اليه أرباب الدولة قاطبة ، ثم نودى فى القاهرة بالزينة فزيت زينة حافلة . فلما كان يوم الخميس تاسع عشر الشهر المذكور دخل القاهرة من باب النصر فى موكب حافل ، وقد حمل القبة والطين على رأسه المقر السيفى برقوق أحد المقدمين ، وموجب ذلك غياب الأتابكى أذربك بالتجريدة ، وكان له يوم مشهود ، ومشى قدامه الجنائب بالأرقاب الزركش ، ولاقاه الأوزان والشعراء والشبابا السلطانية ، وفرشت تحت حافر فرسه

الشقق الحرير من عند مدرسة أم السلطان التي بالتبانه الى القلعة ، ونثر على رأسه خفافيف الذهب والفضة ، ومشت قدامه الأمراء الرؤوس النوب بالشاش والقماش من بين القصرين الى القلعة ، واصطفت له المغاني من النساء في الدكاكين ، واستمر في ذلك اليوم موكب حافل حتى طلع الى القلعة ، وهذا أول مواكبه الحافلة .

وصادف أن قاصد حسن الطويل كان حاضرا ، وصار متعجبا من حسن هذا الموكب ، وكان قد حضر وعلى يده رأس أبي سعيد ملك سمرقند ، وقد تقدم أنه قتل على يد حسن الطويل فلما علم السلطان الى القلعة وجلس على الدكة بالحوش حضر قاصد حسن الطويل ورأس أبي سعيد معه في علبة ، وكان العسكر بالشاش والقماش ، وكان الموكب عاما . فلما انقضى الموكب أقام السلطان بعد ذلك أياما ثم حضر ثاني بك الظاهري أحد رؤوس النوب - وكان من جملة من خرج في التجريدة - فأخبر بكسر العسكر ورجوعه من حلب .. وهذه ثاني كسرة وقعت لعسكر مصر مع سوار . فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت أحواله وماجت القاهرة بسن فيها . وكان سبب انكسار العسكر أن سوار تحيل عليهم حتى دخلوا في مواضع ضيقة بين أشجار ، فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان بالقسي والنشاب والسيوف والأطبار ، فقتلوا من العسكر ما لا يحصى عددهم .

وأخبر ثاني بك بقتل الأمير قرقماس الجلب ، وكان يعرف بقرقماس بن يشبك خجا الأشرفي ، وكان أميرا جليلا حشما رئيسا يقرب للأشرف برسباي ، وولى عدة وظائف سنية ، منها رأس نوبة النوب وامرية مجلس وامرية السلاح ، ثم جرى عليه في دولة الظاهر بلباي ما تقدم ذكره وسجن ثم أطلق

وتوجه الى دمياط ثم عاد الى مصر في دولة الأشرف قايتباي ، وأعيد الى امرية مجلس ، وخرج الى التجريدة وقتل في المعركة .

وأخبر بموت جماعة من الأمراء وغيرهم ، منهم سودون القسروي رأس نوبة النوب ، مات بحلب وكان مجروحا فحمل الى حلب ومات بها ، وكان قد طعن في السن ونيف على الثمانين سنة في العمر . وكان انسانا حسنا دينيا خيرا ، وهو صاحب المدرسة التي بخط الباطلية بجوار داره . وولى عدة وظائف سنية ، منها ليابة قلعة مصر ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب ومات بحلب ، وكان أصله من ممالك قسروه نائب الشام ، وكان هواداره

وتوفي برسباي أمير آخور ثاني ، وكان يعرف ببرسباي الأبو بكري ، وكان أمير عشرة ورأس نوبة .

وتوفي اينال باي بن ميق الاينالي ، وكان أمير عشرة . وتوفي تغري بردى الأرمني المنصوري . وتوفي طقطمش المحمدي الأشرفي برسباي ، قيل رماه سوار من أعلى السور فمات لوقته ، وكان شجاعا بطلا . ونوروز الدوادار ، وفارس البكتمري أحد العشراوات ، وقجماس الطويل الحسن الظاهري أحد الأمراء الطبلخانات ، ونوروز شكال ابن تغري بردى الأرمني المنصوري أحد العشراوات ، ونوروز قمر العلائي الأشرفي برسباي قيل رماه سوار من أعلى السور فمات لوقته ، وكان شجاعا بطلا ، ونوروز الدوادار بن عيني الأشرفي أحد العشراوات وكان أمير خازندار ، وقائم بيضا اليوسفي الظاهري أحد العشراوات . وقتل أيضا من أمراء دمشق : الشرفي يحيى بن جانم نائب الشام أحد مقدمي الألوف بدمشق ، وكان يوصف بالشجاعة . وقتل محمد بن تنم بن

عبد الرزاق نائب الشام أحد الأمراء الطبلخانات بدمشق وحاجب ثاني بدمشق ، وفارس الشهيم أحد الأمراء بدمشق ، وشاد بك آمر الاينالى أتاك بدمشق ، وتمر باى الجلبانى أحد الأمراء بدمشق ، وإبراهيم بيغوت نائب حماء وكان حاجب الحجاب بدمشق ، وجانى بك السيفى تغرى برمش دودار السلطان بدمشق ، وشاد بك الحسنى الشعبانى أحد أمراء دمشق ، وعبد الرحمن الحمزاوى أحد الأمراء الطبلخانات بدمشق .

وأما من قتل من الجند والمماليك السلطانية ومشايخ عربان جبل نابلس والعشير والتركمان والغلمان فما أمكن ضبطه . وكانت هذه من الوقائع المشهورة التى لم يسمع بمثلا فلما شاع بين الناس ذكر من قتل من الأمراء والعسكر صار بالقاهرة فى كل حارة نعى ليلا ونهارا مثل أيام الوباء ، فزاد قلق الناس من سوار ، ودخل الوهم فى قلوب العسكر مثل أيام تمرلك ، وصاروا يرددون من ذكره . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

يا رب ان سوارا قد بغى وبه
قد أصبح الناس فى ضيق وفى قلق
فاكسر سوارا ودعه فى السلاسل فى
خواتم الأمر يستعطى من الحلق
وقال آخر :

ان سوارا قد غدا مخلصلا
عسكره قد حل فى دار البوار
يارب شئت شمله حتى نرى
خواتم الأمر له كسر سوار
وصار العسكر بعد ذلك يدخلون الى القاهرة
فى أنحس حال من العرى والجوع ، وبعضهم
مجروح وبعضهم ضعيف ، وكان يدخل بعضهم
وهو راكب على حمار أو جمل أو يدخل ماشيا

وهو عريان ، ولم يلاقوا فى هذه التجريدة خيرا ،
فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وفى ذى الحجة خلع السلطان على الأمير برقوق
الناصرى وفرره كاشف التراب بالشرقية ، وحصل
به نفع لقمع العربان المفسدين وعمارة الجسور .
وفيه توفى القاضى فتح الدين ابن وجيه الدين
ابن سويد المالكى المصرى ، وهو محمد بن
عبد الرحمن بن حسن ، وكان عالما فاضلا فى
مذهبه وناب فى القضاء ، وهو والد جلال الدين ،
وكان لا بأس به .

وفيه توفى من الأتراك جانبهم المجنون الخشقدمى
وكان أحد الأمراء العشراوات . وتوفى جقمق
المؤيدى وكان أحد الأمراء العشراوات . وتوفى
اياس البجاسى نائب القدس ، وكان لا بأس به .

وتوفى العلائى على ابن القيسى ، وهو على ابن
اسكنور بن تمار تمر ، مات مع السلطان لما أن خرج
الى السرحة مرض فى أثناء الطريق ومات ثم نقل
الى القاهرة على جمل ودفن فى تربته التى بباب
الوزير ، وكان رئيسا حشما ، ولى عدة وظائف
منها الحسبة وولاية القاهرة وحاجب الحجاب
بمصر ، وكان عنده بعض خفة ووهج مع عسوفة
وبطش ، وكان مولده سنة ثلاثين وثمانمائة .

وفيه توفى الواعظ البارع المنشد عبد القادر بن
محمد الوفائى ، وكان ممن له ذكر وشهرة فى فنه
وكان لا بأس به .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر
مريع ، وقد وقع فيها أمور شتى ... الغلاء والفناء
والفتن ببلاد الشرق ، وقتل أمراء وعسكر ممن
تقدم ذكرهم ، ووقع فيها مصادرات بسبب التجاريد
وقطع أرزاق الناس من جوامك وغيرها ، وفقدت
الناس فيها أولادهم وعيالهم ، وما لاقى أحد فيها
خيرا .

سنة اربع وسبعين وثمانمائة (١٤٦٩ / ١٤٧٠ م) :

فيها ، في المحرم ، خلع السلطان على الزينى أبى بكر بن القاضى عبد الباسط وقرره في نظر الجوالى عوضا عن الشهابى أحمد بن ناظر الخاص يوسف . وفيه أخرج السلطان خرجا من جلبانه نحو المائتى ممنوك — وهذا أول خرج أخرجه في سلطنته — وسماهم الأشرفية .

وفيه خرج الأمير يشبك الدوادار الى الوجه القبلى بسبب جمع المغل من البلاد القبلية . وفيه جاءت الأخبار بوفاة ترمباى السيفى أخى الماس نائب قلعة حلب ، وكان شابا حسنا جميل الصورة وأصله من الاينالية .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، ودخل صحبتهم الملك المنصور عثمان ابن الظاهر جقسق فحج وعاد فلما طلع الى القلعة أجله السلطان وأكرمه ، وخلع عليه كاملية بسمور وفوقها فوقانية أخضر بطرز زركش عريض حافل ، ونزل في موكب حافل الى ان أتى دار الأتابكى أزبك .

وفيه عقد الأمير يشبك الدوادار على خوند فاطمة بنت السلطان المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، وكان العقد بالجامع الذى بالقلعة بين يدى السلطان ، والقضاة الأربعة حاضرون وسائر الأمراء .

وفي صفر كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك الرابع والعشرين من مسرى فلما وفى نزل الأمير لاجين الظاهرى — أحد مقدمى الألوف — وفتح السد على العادة .

وفيه أضاف السلطان ، الملك المنصور عثمان بالبحيرة ، وخلع عليه وأذن له بالتوجه الى ثغر دمياط . فخرج وانحدر من يومه . وقد وقع له أمور لم تقع لأحد من أبناء السلاطين قبله . وكان

لما حضر أذن له السلطان بأن يلعب معه الكرة ، فكان يلعب مع السلطان والأمراء المتقدمين وهو بيند أصفر مثل السلطان ، وقد بلغ السلطان في تعظييه جدا .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن قرقماش الصغير نائب ملطية تقاتل مع عسكر سوار ، فكان بينهما واقعة عظيمة ، وقتل فيها من عسكر سوار فوق خمسمائة انسان ، وأسر جماعة كبيرة من أمرائه وأقاربه ، وكان ذلك بمكيدة صعدت بيد قرقماش حتى بلغ فيها ذلك .

وفيه توفى طومان باى المحمدى — المعروف بدش سر الظاهرى — أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه توفيت خوند فاطمة ابنة الظاهر ملطر ، وأخت الملك الصالح محمد بن ططر وزوجة الملك الأشرف برسباى ، وماتت وعليها جملة ديون .

وفي ربيع الأول أنعم السلطان على يشبك جن بتقدمة ألف ، وأنعم على قانصوه الأحمدى المعروف بالخفيف بتقدمة ألف ، وقرر في شادية الشريخاناه دولات باى حمام الأشرفى عوضا عن قانصوه الخفيف ، وقرر في رأس النوبة الثانية برد بك المشطوب يشبكى عوضا عن دولات باى حمام

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا .

وفيه توفى بنجاص العثمانى الظاهرى أحد العشراوات وكان حاجبا ثانيا .

وفيه خلع السلطان على جاني بك حبيب العلائى الاينالى ، وقرره في الأمير آخورية الثانية عوضا عن يشبك جن ، ودام في هذه الوظيفة عدة سنين .

وفيه توفى الشيخ نور الدين على البيطمى

الضرير ، وكان من أعيان أهل العلم والفضل وكف بصره في سابع سنة من عمره بجدرى أصابه في عينه ، كان يعرف بابن شاوور البرلسى ومولده مئة ست أو سبع وثمانائة ، وكان له نظم جيد .

وفيه خلع السلطان على يشبك الجمالى المحتسب وقرره في امرية سلاح يركب المحمل ، وقرر في امرية أول أقبردى بن أصبى الأشرفى برسباى .

وفيه توفى مغلباى لزن سقل الظاهرى الخشقدمى ، وكان من أحد المقدمى الألوف بمصر ثم أخرج الى القدس بطالا فمات به . وكان أميرا دينيا خيرا ولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشون وحسبة القاهرة ، ثم بقى مفدم ألف بمصر ، ثم نفى الى القدس ومات به .

وفيه أرسل السلطان وقبض على زين الدين الاستادار وكان بطالا مقيما في داره . فلما قبض عليه أحضره بين يديه ووبخه بالكلام ثم أمر بضربه بين يديه فضرب ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك ، ثم سجنه بالبرج الذى بالقلعة وصار يحضره بين يديه كل يوم بعد يوم ويضربه أشد الضرب ، فمات وهو في البرج . فلما أعلموا السلطان بذلك لم يصدق بموته وأمر بإحضاره بين يديه وهو ميت ، فكشف عن وجهه ورفسه برجله ثم أمر بحمله الى داره ليغسلوه ويدفنوه ، فحمل من القلعة الى داره .

وكان بين السلطان وبين زين الدين الاستادار عداوة قديمة من حين كان السلطان جنديا الى أن تسلطن ، فأخذ بثأره منه وقتله ، وكان يظن أن مع زين الدين الاستادار مالا فعاقبه وطلب منه من المال ما لا يقدر عليه ، فمات تحت العقوبة . وكان أصل زين الدين من الأرمن ، وكان اسمه يحيى

ابن عبد الرزاق الأرمنى ، وكان يعرف بالأشقر ابن كاتب علوان ، وكان يقرب لابن أبى الفرج . وقد رأى في دولة الظاهر جقمق من العز والعظمة ما لم يره أحد بعده من الاستادارية ، وعظم أمره جدا ، وأنشأ بالقاهرة وغيرها عدة جوامع يخطب فيها وعدة مدارس ، وولى الاستادارية غير ما مرة وغيرها من الوظائف ، وباشر الاستادارية أحسن مباشرة ، وأنشأ فيها من المظالم ما لم يسمع بمثله ، وجرى عليه من الشدائد والمحن والأفكاد ما لا يعبر عنه ، وصودر غير ما مرة ، وغرم الأموال الجزيلة ، وعصر في أكعابه وضرب غير ما مرة ، وغرم الأموال في دول غير أيام قايتباى ، ونفى الى المدينة المنورة الشرفه والى القدس الشريف وغير ذلك من الأماكن . وكان مولده قبل قرن الثمانمائة ، ولم يلق في آخر عمره خيرا ، وله أخبار يطول شرحها ... رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه .

وفيه توفى شمس الدين محمد بن عبد الرزاق ابن عبد القادر بن تقيس الأذرعى الشافعى . وكان من أهل العلم والفضل ، سمع على جماعة من العلماء رضى الله عنهم ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الآخر توفى القاضى شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السوسى المالكى المغربى قاضى قضاة المالكية بدمشق ، وولى قضاء الاسكندرية ، وكان من أهل العلم والفضل وجرت عليه أمور شتى ، وأذهب أموالا جمة على وظيفة القضاء . وتوفى السيد الشريف أبو هاشم حمزة بن أحمد ابن على الحسنى الدمشقى الشافعى ، وكان من أهل العلم والفضل .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى قائلصوه اليحياوى باستقراره في لياية حلب عوضا عن

اينال الأشقر ، وكتب الى اينال الأشقر بالحضور الى القاهرة على مقدمة ألف بها .

وفيه أرسل السلطان الى يشبك الجاسى نائب حماه باستقراره في نيابة طرابلس ، وقرر موضعه في نيابة حماه بلاط يشبكى أحد مقدمى الألوف بدمشق ، وقرر في مقدمة بلاط بدمشق تميزاز أتاك حلب ، وقرر في أتاكية حلب تغرى بردى ابن يونس ، وقرر في حجوية الحجاب بدمشق محمد بن مبارك عوضا عن ينفوت الماضى خبر موته في واقعة سوار .

وفيه قرر لاجين الظاهري في كشف الجسور باليهنساوية .

وفيه قرر يشبك جن في كشف الجسور بالبحيرة .

وفيه توفي قانصوه الساقى التمشى الأشرقى أحد الأمراء العشراوات ، وكان ممرضا من حين عاد من التجريدة .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن رمضان — أمير التركمان — أخذ جماعة من التركمان وكبس على أعوان سوار وأخذ منهم قلعة سيس ، فسر السلطان بهذا الخبر وأرسل الى ابن رمضان خلعة سنية .

وفيه جاءت الأخبار من نجر الاسكندرية بوفاة قانى بك المحمودى المؤيدى الذى كان أمير سلاح بمصر ونفى الى الاسكندرية في دولة الظاهر قريبا ، فأقام بالبرج الى أن مات . وكان قد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان في أوائل عمره شجاعا بطلا وولى عدة وظائف سنية منها أمير مجلس وامرية سلاح وقاسى شدائد ومحنا في آخر عمره الى أن مات .

وفي جمادى الأولى حضر الى القاهرة قراجا السيفى جاني بك نائب جدة أحد الأمراء العشراوات ،

وأخبر بأن شاه سوار أطلق الأتابكى جاني بك قلقسير وبعث به الى حلب وقد آكرمه غاية الاكرام ، وقصد بذلك أن يرضى خاطر السلطان . وقرر مع الأتابكى جاني بك قلقسير بأن يكون سفيرا بينه وبين السلطان في أمر الصلح .

وفيه نزل السلطان الى الرماية ببركة الحاج ، وعاد من يومه وطلع من بين التراب .

وفيه ارتفع سعر الغلال حتى بلغ كل أردب قمح أربعة أشرفية ، وبلغ سعر كل أردب فول أو شعير سبعمئة درهم ، وبلغ ثمن الحمل التبن نحو أشرفى ذهب ، وعمت هذه الغلوة سائر البلاد حتى البلاد الشامية وغيرها .

وفي جمادى الآخرة نزل السلطان ، وتوجه الى خليج الزعفران على سبيل التنزه ، وأقام هناك ثلاثة أيام ثم عاد الى القلعة .

وفيه وصل اينال الأشقر الذى تقدم ذكره ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ونزل الى دار أعدت له . ثم انه بعد أيام خلع السلطان عليه وأقره في رأس نوبة النوب الكبرى عوضا عن سودون القسروى بحكم وفاته بسبب تجريدة سوار كما تقدم ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من يومئذ .

وفيه توفي خشكلى القوامى الناصرى ، وكان أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان جركسى الجنس من مشروعات الناصر فرج بن برقوق . وكان ديننا خيرا متواضعا ، وكان قد جاوز الثمانين من العمر . وفيه توفي قاضى قضاة المالكية بدمشق محيى الدين عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الوارث البكرى المصرى المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية ، وناب في الحكم بمصر مدة ثم ولى قضاء دمشق . وتوفي تمر باى التمرازى

أحد أمراء العشراوات ، وكان ولى المهندارية وأقام بها مدة .

وفيه قرر أبو الفتح المنوفى كاتب السلطان — وهو أمير — فى نظر الأوقاف واليىمارستان بالقاهرة . وأشيع بين الناس أن سبب ذلك تحكير الأمير يشبك الدوادر الكبير على الغلال بالوجه القبلى ومنع المراكب من حملة . وفيه يقول الشهاب المنصوري :

وظالم منه أناثا الغلا

يا ويله فى الحشر من ربه

فادعوا وقولوا ربنا اطمس على

أمواله واشدد على قلبه

وفيه خلع السلطان على لاجين ، وقرره أمير مجلس عوضا عن قرقماس الجلب ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين قتل قرقماس الجلب فى واقعة سوار . ثم بعد أيام وصل الأتابكى قلقسیر وصعد الى القلعة فقام له السلطان واعتنقه ثم خلع عليه كاملية بسمور ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وركب من باب البحرة ونزل من القلعة فى موكب حافل . ثم بعد أيام خلع عليه السلطان وقرره فى امرية سلاح ، عوضا عن برد بك هجين بحكم وفاته فى واقعة سوار ، وكانت الوظيفة شاغرة . ومن المعجائب أن السلطان بعث برسوم بمنع جاني بك قلقسیر من الدخول الى مصر ، وأن يقيم بجلب ، فقدم جاني بك قبل وصول المرسوم الى حلب بسبعة أيام . فلما حضر قرره فى امرية سلاح بعدما كان أميرا كبيرا .

وفيه قرر جقمق الظاهرى فى نيابة دمياط .

وفى شعبان كانت نهاية بناء السبيل الذى أنشأه السلطان بخط القشاشين من تحت الربع ، فجاء

السبيل والمكتب فوقه نهاية فى الحسن ، ولا سيما فى ذلك المكان .

وفيه عاد الأمير يشبك الدوادر من الوجه القبلى — وكانت مدة غيبته نحو من سبعة أشهر — ففعل ببلاد الصعيد من المظالم ما لا يسمع بمثله ، حتى انه شوى بالنار محمودا شيخ بنى عدى ، وخوزق من العربان جماعة ، وسلخ جلد جماعة ، ودفن جماعة فى التراب وهم أحياء ، وفعل بالعربان من أنواع هذا العذاب ما لم يفعله أحد قبله ... فدخل الرعب فى قلوبهم . فلما صعد الأمير يشبك الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة سنية ، ونزل الى داره فى موكب حافل ثم بعد ذلك قدم للسلطان مقدمة سنية مما ينيف على مائة ألف دينار ما بين ذهب عين وخيول وقماش ورقيق وغلال وسكر وعسل وغير ذلك .

وفيه توفى سنطباى بن قسرويه الأشقر الأشرفى أحد الأمراء العشراوات ، وكان مريضا من حين عاد من التجريدة .

وفى رمضان أمر السلطان بفتح شوتتين ، وبيع القمح منهما سعر ألف درهم الأردب ، وكان وصل سعره الى أربعة أشرفية كل أردب ، فحصل للناس بعض رفق وكثر الخبز على الدكاكين .

وفيه نودى من قبل السلطان بأن من أخذ منه شئ من أولاد الناس وغيرهم بسبب بعث البدل الى التجريدة ، فليصعد الى القلعة فى ثامن هذا الشهر ليرد اليه ما أخذ منه من المبلغ . فلما صعد أولاد الناس الى القلعة رد اليهم ما أخذ منهم بحكم النصف ، فتعجب الناس لذلك وما السبب فيه ... فعد ذلك من النوادر .

وفيه توفى القاضى حسام الدين بن بريطع الحنفى

وكان عالما فاضلا ، بارعا في الفقه ، عارفا بمذهب الشافعية ، عالم الشام على الاطلاق . وترشح أمره لقضاء دمشق غير ما مرة ، ومولده في سنة ست وثمانمائة .

وفي شوال خلع السلطان على البدرى بدر الدين محمد بن الكويز ، وقرره في معلمة المعلمين عوضا عن البدرى حسن بن الطولوني .

وفيه خرج الحاج من مصر في تجمل زائد عن العادة ، وخرج صحبتهم الشيخ كمال الدين ابن امام المدرسة الكاملية وكان متوعكا في جسده ، فلما وصل الى ثغرة حامد مات هناك . وكان عالما فاضلا بارعا سمع على جماعة من العلماء منهم ولي الدين العراقي وابن الجزرى والحافظ بن حجر وغيرهم من العلماء ، وولى عدة تداريس جليلة . وكان من أعيان علماء الشافعية ومولده سنة ثمان وثمانمائة .

وفيه وقعت كائنة عظيمة لجلال الدين عبد الرحمن ابن سويد المالكي ، وطلب الى بيت اينال الأشقر رأس نوبة النوب بسبب أوقاف باعها كانت موقوفة على مدرسة جده ، فغرم بسبب ذلك مالا له صورة ، وحصل له غاية البهدة من اينال الأشقر ، وما خلص الا بعد جهد كبير ، وافترق حاله عقيب هذه الكائنة وباع جميع ما يملكه حتى سد ما جاء عليه من المال .

وفيه تزايد ظلم اينال الأشقر حتى صار غالب الناس ما تشتكى الأمر عنده . واشتكى بعض الناس من شخص شاهد ، فضربه وقطع أكماله وركبه على ثور وأشهره بالقاهرة .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة تربته التي أنشأها بالصحراء وجعل بها جامعا بخطبة ، وقرر به صوفية

الدمشقي قاضي قضاة الحنفية بدمشق ، وكان من أعيان الحنفية ، ولى قضاء غزة وصفد وطرابلس ودمشق غير ما مرة . وكان رئيسا حشما وله نظم ونثر جيد وخط جيد ، وألف الكتب الجليلة .

وفيه حضر الأتابكى أزبك ، وكان مقيما بحلب من حين كسر العسكر ، فدخل القاهرة هو ومن بقى معه من الأمراء والعسكر وصحبته شاه بضاع أخو سوار الذى أخذ منه سوار البلاد . فلما صعد الأتابكى أزبك الى القلعة خلع عليه السلطان وعلى من معه من الأمراء وعلى شاه بضاع ، وكان معه يحيى كاور أخو سوار أيضا وكان مسك قبل ذلك . فلما مثل بين يدى السلطان أمر بسجنه في البرج الذى بالقلعة .

وفيه اختفى القاضى تاج الدين بن المقسى ناظر الجيوش ... فلما اختفى خلع السلطان على الزينى عبد الرحمن بن الكويز وأعادته الى نظر الخاص .

وفيه صعد قاصد سوار الى القلعة وصحبته هدية للسلطان ، فلم يؤذن له في صعودها معه ، وحضر بسكاتبه سوار فكان مضمونها أنه يطلب الصلح من السلطان لكن على شروط منه لم يقبلها السلطان ، منها أن يكتب له السلطان تقليدا بامرية الأبلستين ، وأن ينعم عليه بتقدمة ألف بحلب ... وان فعل ذلك يسلم عينتاب للسلطان . فطال الكلام من القاصد والسلطان ولم ينتظم الأمر بينهما في شيء من الصلح ، ونزل القاصد بغير خلعة .

وفيه خلع السلطان على الجمالى يوسف بن فطيس وقرره في نيابة القدس عوضا عن دمرطاش العثماني بحكم انتقاله الى نيابة سويس .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم دمشق الشيخ بدر الدين ابن قاضى شعبة ، وهو محمد بن أبى بكر بن أحمد الأسدى الشهبى الدمشقى الشافعى ،

وحوضا وصهريجا وأشياء كثيرة من وجوه البر
والمعروف .

وفي ذى القعدة قلع السلطان الصوف ، ولبس
البياض وابتدأ بضرب الكرة مع الأمراء .

وفيه جاءت أخبار بقتل تراباي الظاهري
الخشقدمي ، وكان أميرا بحلب قتله بعض العربان
بالبلاد الحلبية ، وكان شجاعا وولى حسبة القاهرة
وكان من أعيان الخشقدمية .

وفي ذى الحجة طلب السلطان الشيخ بقى
الدين الحصني ، وقرره في مشيخة تدريس قبة
الامام الشافعي رضي الله عنه عوضا عن الشيخ
كمال الدين الإمام بالمدرسة الكاملية الماضى ذكر
وفاته بطريق الحجاز

وفيه انتهى ضرب الكرة وأضاف السلطان
الأمراء ثم اشتغل بتفرقة الضحايا على العسكر .
وفيه كانت وفاة الجمالي يوسف ابن الأتابكي
تغرى بردى الشيبغاوى الرومى نائب الشام .
وكان الجمالي يوسف رئيسا حشما فاضلا حنفى
المذهب وله اشتغال بالعلم . وكان مشغوبا بكتابة
التاريخ وألف في ذلك عدة تواريخ ، منها تاريخه
الكبير الموسوم « بالنجوم الزاهرة » و « المنهل
الصافي » و « مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة
والخلافة » . وله تاريخ آخر في وقائع الأحوال
على حروف الهجاء ، وله غير ذلك عدة مصنفات .
وكان نادرة في أولاد الناس ، ومولده سنة ثلاث
عشرة وثمانمائة .

وفيه توفي حذيفة بن أحمد الدكمارى المنوفى
الحنفى . وكان فاضلا خيرا دينيا له شهرة وذكر وكان
لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم سمرقند ، وهو
الشيخ عبد الله بن عبد الواحد ، وكان من ذرية
أبى الليث السمرقندى فضل الله . وكان عالما فاضلا
بارعا في العلوم والزهد ، وله شهرة زائدة ببلاد
سمرقند ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أمير المدينة المشرفة
— وهو السيد الشريف زهير بن سليمان بن هبة
الحسنى — وكان ولى امرية المدينة بعد ضيغم
والى امرية مكة الى أن مات قتيلا . وتوفى من
الأتراك بيبرس بن ططخ الأشرفى ، وكان ولى مقدمة
ألف بدمشق . وتوفى جاني بك الحسنى الاينالى
أحد الأمراء العشراوات ورءوس النوب . وتوفى
دولات باى الاينالى أحد العشراوات ، وكان
متمرضا حين عاد من التجريدة ومات بغزة .

وفيه من الحوادث أن السلطان طلب مالا من
الست سارة والدة القاضى ناظر الخاص يوسف بن
كاتب حكيم ليتساعد على خروج التجريدة الى
سوار ، فتشكت من ذلك وأظهرت العجز ، فحلف
وحياة رأسه لم يأخذ منها أقل من مائة وخمسين
ألف دينار ، وصمم على ذلك وقرر معها أنها لا تباع
ملكها ولا ضيعة ولا بستانا ، ولم يقدر أحد من
الأمراء ولا غيرهم يخفض عنها شيئا من ذلك ...
فاستمرت توردد ذلك المال على حكم مقرر عليها
عدة شهور حتى غلقت ذلك القدر بالتمام والكمال
ولم تبع لا ضيعة ولا ملكا . فلما غلقت المال
جميعه أرسل خلفها ، فلما حضرت قام اليها وعظمها
وخلع عليها كاملية مخمل بسمور ، وأكرمها غاية
الاکرام ، ونزلت الى دارها مكرمة معظمة .

سنة خمس وسبعين وثمانمائة (١٤٧٠ / ١٤٧١ م) :

فيها ، في المحرم ، كانت الأسعار غالية في جميع
أصناف المأكولات من الحبوب وغيرها ، وعز وجود

الأرر والدجاج من مصر جدا ، وتشحط الخبز من الأسواق ، وصار الناس يستعملون خبز الذرة والدخن . وهذا قط موقوف ولا في الغلاء الذي جاء في دولة الملك الظاهر جقمق ، وتناهى سعر القمح الى سبعة أشرفية الاردب ، ولم يأكل الناس الذرة ولا الدخن في تلك الأيام .

وفيه كثر القول والقليل بين العلماء بالقاهرة في أمر الشيخ العارف بالله تعالى سيدي عمر بن الفارض نفعا الله تعالى به والمسلمين ببركته ... وقد تعصب عليه جماعة من العلماء بسبب آيات قالها في قصيدته الثائية ، واعترضوا عليه في ذلك وصرحوا بفسقه بل وتكفيره ، ونسبوه الى من يقول بالحلول والاتحاد ... وحاشاه أن ينسب اليه هذا المعنى ، ولكن قصرت أفهام جماعة من علماء هذا العصر ولم يفهموا معنى قول الشيخ عمر رضى الله عنه في هذه الآيات ، فأخذوا بظاهرها ولم يوجهوا لها معنى ، فكان كما قال المتنبي :

وكم من عائب قولاً صحيحاً

وأفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الأذهان منه

على قدر القرائح والفهوم

وكان رأس من تعصب على الشيخ عمر بن الفارض برهاد الدين البقاعي ، وقاضى القصاصة محب الدين بن الشحنة ، وولده عبد البر . وبور الدين المحلى ، وقاضى القضاة عز الدين المحلى ، وتبعهم جماعة كثيرة من العلماء يقولون بفسقه . وأما من تعصب من العلماء للشيخ ، فهم : الشيخ محيى الدين الكافيجى الحنفى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى ، والشيخ بدر الدين بن الغرس ،

ونجم الدين يحيى بن حجي ، وشيخنا الجلال بن الكمال الأسبوطى ، والشيخ زكريا الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف فلما زاد الرهج في هذه المسألة كتبت الفتاوى في أمر ابن الفارض التى ظاهرها الخروج عن قواعد الشريعة ، فكتب الشيخ محيى الدين الكافيجى على هذا السؤال ما هو أحسن عبارة وأقرب الى الانصاف ، وألف الجلال السيوطى في ذلك كتاباً سماه « قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض » ، وألف البدر بن الغرس في ذلك كتاباً شافياً في هذا المعنى واضحاً في الرد على من تعرض لابن الفارض ، وصنف بعض العلماء كتاباً سماه « درياق الأفاعى في الرد على البقاعى » . ووقع في هذه المسألة مشاحنات بين العلماء يطول شرحها في هذا المعنى ، ثم هجوا البقاعى وابن الشحنة وغيرهما من العلماء ممن تعصب على ابن الفارض ، وصاروا يكتبونها ويلصقونها في مزاره فمن ذلك قول الشهاب المنصورى في البقاعى وأجاد :

ان البقاعى بما قد قاله مطاب

لا تحسبوه سالماً فقلبه يعاقب

وقوله من قصيدة مطولة مصممة لأبيات سيدي

عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه :

بين البقاعى وبين التاج من شرف

ما بين معترك الأحداق والمهج

يقول من صح فيه سهم صاحبه

أنا القتيل بلا اثم ولا حرج

كلاهما مدع حوضاً بفكرته

في كل معنى لطيف رائق بهج

يقول هذا لهذا غير مكترث

دع عنك لومى وعدعن نصحك السمج

ماذا تقول ولي في الشرع أجوبة
عنى تقوم بها عند الهوى حججى

دع التعارض لا تشهر بواتره
فكم أماتت وأحيت فيه من مهج
فلو سلكت سبيلى كنت متبعا
أوفى محب بما يرضيك مبتهج

لو سلم المعتدى للمهتدى لرجا
قول المبشر بعد اليأس بالفرج
فمن يكن منهما ناج فعصيته
هم أهل بدر فلا يخشون من حرج
وهذه مطولة وهذا القدر منها كاف .

ومن نظم الأقدمين فى سيدى عمر بن الفارض
رضى الله تعالى عنه :

جز بالقرافة تحت ذيل العارض
وقل السلام عليك يا بن الفارض
أبرزت فى نظم السلوك عجائبا
وكشفت عن سر مصون غامض

وشربت من بحر المحبة والولا
فرويت من بحر محيط فائض
وقال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

عمر بن الفارض الحبر الذى
قصرت عن فهم ما رام الفكر

لم يكن يؤذيه الا جاهل
فارفضوه وتروضوا عن عمر
ولبعضهم بهجو ابن الشحنة :

اصبحت يا ابن الشحنة الحنفى فى
كل القبائح أوحى الأزمان

فى مصر علم أبى حنيفة تدعى
جهلا وأنت معرة النعمان
وقال أبو النجا القمى :

أقعدت يا حليبي للفارضى يا كا
لما ادعيت فسقا للفارضى يا كا (فر)
وما خلصت حتى أقمت شاهداكا

ثم ان بعض الأمراء تعصب لسيدى عمر بن
الفاض رضى الله عنه ، وتعصب له السلطان أيضا
ورسم لكاتب السر ابن مزهر بأن يكتب صفة
سؤال الى الشيخ أبى يحيى زكريا الشافعى ،
فكتب السؤال وهو هذا : « مايقول الشيخ الامام
العالم العلامة ، البحر الفهامة ، زكريا الأنصارى
الشافعى ، نفع الله المسلمين به ، عن قال بكفر
سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله سيدى عمر بن
الفاض ، نغمده الله تعالى برحمته ورضوانه ،
فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على ما فهمه من
كلامه فى مواضع مرجعها الى اطلاقات معلومة عنده
السادة الصوفية باصطلاح تخطبهم لا محذور
فيها شرعا ... فهل يحمل كلام هذا العارف على
اصطلاح أهل طريقتة أم على اصطلاح أهل ملة غير
الاسلام ؟ فما الجواب عن ذلك ؟ آفتونا
أجورين » .

ثم قدم هذا السؤال الى الشيخ زكريا ، فامتنع
عن الكتابة غاية الامتناع ، فألح عليه أيا ما حتى
كتب ، فأجاب بقوله : « يحمل كلام هذا العارف —
رحمة الله عليه ، ونفع ببركاته — على اصطلاح أهل
طريقتة ، بل هو ظاهر فيه عندهم ، اذ اللفظ المصطلح
عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحي مجاز فى غيره كما
هو مقرر فى محله ، ولا ينظر الى ما يوهمه تعبيره فى
آيات فى التائية من القول بالحلول والاتحاد ،

فانه ليس من ذلك فى شىء بقرينتى حاله ومقاله
المنظوم فى تأييده بقوله من أبيات القصيدة :
ولى من أتم الرؤيتين اشارة
تنزه عن رأى الحلول عقيدتى

« وهذا يصدر عن العارف بالله اذا استغرق فى
بحر التوحيد والعرفان بحيث تضحل ذاته فى
ذاته ، وصفاته فى صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه
بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة
عن بيان حالته التى يرقى اليها كما قاله جماعة من
علماء الكلام رضى الله تعالى عنهم . ولكن ينبغى
كنتم تلك العبارات عن لم يدركها فما كل قلب
يصلح للسر ، ولا كل صدف ينطبق على الدر ،
ولكل قوم مقال ، وما كل ما يعلم يقال . وحق
لمن لم يدركها عدم الطعن فيها كما قيل :

واذا كنت بالمدارك غمرا
ثم أبصرت حاذقا لا تمارى

واذا لم تر الهلال فسلم
لأناس رأوا بالابصار
ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر
عليه ، كما قال القائل :

ولو يذوق عاذلى صبابتى
صبا معى لكنه ما ذاقها
« والحالة هذه ، والله يمنح بفضلته ، ويمنع من
يشاء بعدله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم ، وكتبه زكريا بن محمد
الأنصارى الشافعى » .

فلما كتب الشيخ زكريا على هذا السؤال سكن
الاضطراب الذى كان بين الناس بسبب ابن الفارض
رضى الله تعالى عنه ، ونفع به وببركاته المسلمين
أجمع آمين .

وفيه عقيب ذلك عزل ابن الشحنة عن قضاء
الحنفية ، وحصل له عقيب ذلك فالج ، وذهل
وسلب من العلم ، وحصل لولده عبد البر مع التقليل
ما سنذكره فى موضعه .

وأما البقاعى فكادت العوام أن تقتله ، وحصل
له من الأمراء ما لا خير فيه ، فهرب واختفى حتى
توجه الى مكة فمات هناك .

وأما امام المدرسة الكاملية فخرج وهو مريض
الى الحجاز فمات فى أثناء الطريق بعد خروجه من
القاهرة بستة أيام .

وقد جرى على من تعصب على ابن الفارض
ما لا خير فيه ، وظهرت بركته فى المتعصبين عليه
شيئا فشيئا الى الآن .

وقد روى فى بعض الأخبار عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان الله تعالى قال : « من عادى لى
وليا فقد آذنته بالحرب » ، أى أعلمته بأنى محارب
له — أورده النووى فى الأربعين حديثا .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه سوار تقاتل مع
ابن رمضان أمير التركمان ، فانكسر ابن رمضان
وملك سوار قلعة اياس . فانزعج السلطان لهذا
الخير وأخذ فى أسباب تجريدة الى سوار .

وفيه بعث الأمير يشبك خيرا من البحيرة يطلب
نجدة بسبب عربان لبيد ، فعين السلطان الأتابكى
أزبك ومعه عدة من الأمراء والجند ، فخرج الى
البحيرة .

وفيه وقعت أعجوبة غريبة ، وهى أن امرأة ولدت
مولودا وهو جسد بلا رأس ولا له يدان ولا
رجلان ، فسبحان القادر الصانع يخلق ما يشاء !
فعاش ساعة ومات .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة برد بك البجمقدار
نائب الشام ، وكان يعرف ببرد بك الفارسى

الظاهرى ، ويعرف أيضا بالأقرع ، وكان من أعيان الناس وجماعة الظاهريه ، وكان امير عشرة فى دولة أستاذة الظاهر جقمق ، ثم بفى أمير طبلخانات رأس نوبة ثانى فى دولة الأشرف اينال ، ثم بفى مقدم ألف وحج أمير محمل غير ما مرة ، ثم ولى حاجب الحجاب ، ثم بقى نائب حلب فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم قبض عليه وحمل الى القدس بطالا ، ثم أعيد الى نيابة حلب ، ثم بقى نائب الشام فوليهما مرتين ومات بها ، وكان أسيرا عند سوار وهو نائب حلب ، وأطلق بعد موت الظاهر خشقدم وقاسى شدائد ومحن .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وكان الركب الأول والمحمل ركبا واحدا ، وكان الحاج قاسى فى السنة المذكورة مشقة زائدة من العطش وموت الجمال ، فأرسل يشبك الدوادر شقادر وزادا وماء الى المنقطعين من الحاج ، فلاقوهم من قريب لينبع وحصل بذلك لهم غاية النفع .

وفيه توفى أبو بكر بن على دوادار برد بك البجمقدار نائب الشام ، ويقال انه سم أستاذة برد بك ، فمات أبو بكر قبل أستاذة بأيام . وكان أبو بكر رقى فى أيام أستاذة حتى صار له ذكر وشهرة طائلة بحلب والشام .

وفيه حضر قاصد حسن بك الطويل وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أنه قتل جماعة من أولاد تمرلنك وملك بلادهم .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم يخبر أنه افتتح عدة بلاد من بلاد الافرنج البنادقة .

وفيه عين السلطان الأمير اينال الأشقر رأس نوبة النوب ، ومعه عدة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وعدة من الجند بسبب قتال سوار . وقد خشى السلطان من سوار أن يكبس حلب على

حين غفلة ، فأرسل هذه التجريدة يقيمون بحلب الى أن يرسل تجريدة ثقيله بعد ذلك . فلما عينه بعث اليه النفقة من يومه ، وقد حمل اليه اثنى عشر ألف دينار ، ثم أنفق على بقية الأمراء والجند وألزمهم الخروج بسرعة ، فخرجوا عقيب ذلك من غير أطلاب ولا أشلة ، وقد عز ذلك على اينال الأشقر لكونه خرج فى قلب الشتاء ...

وفى صفر توفى الأمير برد بك المشطوب يشبكى أحد الأمراء الطبلخانات ورأس نوبة ثانى ، وكان لا بأس به ، وأصله من ممالك يشبك نائب حلب .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وكان الوفاء ثانى عشرى مسرى . فلما أوفى توجه قلقسير الأتابكى كان ، وهو على امرية سلاح ، ففتح السد على العادة ، وكان الأتابكى أزبك غائبا فى البحيرة .

وفيه عمل السلطان الموكب وخلع على الأمير برقوق الناصرى وقرره فى نيابة الشام عوضا عن برد بك البجمقدار بحكم وفائه . وكان برقوق يومئذ أحد مقدمى الألو فى مصر ، فانتقل الى مدينة الشام فى مدة يسيرة ، فعد ذلك من النودار . وفيه ظهر القاضى تاج الدين بن المقسى وكان مختفيا ، فخلع عليه السلطان وأعادته الى نظرى الخاص ، وعزل عنها عبد الرحمن بن الكوين . وكان القائم فى عودة ابن المقسى الى نظارة الخاص الأمير يشبك الدوادار ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ومعه الأمير يشبك الدوادار وأعيان الدولة حتى قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى .

وفى ربيع الأول ، فى مستهله ، ركب السلطان وتوجه الى طرا ، فصعد القضاة للتهنئة بالشهر فلم يجدوا السلطان بالقلعة ، فأخبرهم بقيب الجيش

عن لسان السلطان بأن يصعدوا للسلطان اذا حضر بعد العصر . وفيه دخل خاير بك الظاهري الخشقدمي الذي كان تسلطن ليلة واحدة ، فنزل في بولاق في بيت صهره ناظر الخاص يوسف ، وكان السلطان رسم له بأن يتوجه الى مكة ويقيم بها . وكان الساعي له في ذلك الأمير يشبك الجمالي ، فأقام ببولاق أياما حتى عمل له برك وخرج الى مكة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوي ، وكان حافلا ، وجلس برقوق الذي قرر في نيابة الشام رأس المينة .

وفيه نزل السلطان الى جهة المطرية ، ونصب هناك الخيام ورسم للأمراء بالتوجه معه ، وأقام هناك أياما على سبيل التنزه ، وصنع هناك الأسطة الحافلة ، حتى قيل كان مصروف الأسطة ألف دينار . وفيه خلع السلطان على قاصد حسن الطويل .

وفيه توفي الأمير ثاني بك المعلم المحمدي الأشرفي ، مات بالقدس بطالا ، وكان عارفا بفتون لعب الرمح .

وفي ربيع الآخر صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر ، فلما أرادوا الانصراف أخذ السلطان في الكلام معهم بسبب محراب جامع ابن طولون بأن في أصل وضعه الانحراف عن جهة القبلة ، فقال كاتب السر : « هذا الجامع تحت نظر قاضي القضاة الشافعي » ... فقال القاضي : « ينبغي أن يتغير هذا المحراب ويجدد غيره الى جهة القبلة » ... وانفض المجلس على ذلك ولم يغير فيه شيء الى الآن .

وفيه خرج برقوق الى محل نيابة الشام ، وطلب طلبا حافلا وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن حسن الطويل تحرك على أخذ البلاد الحلبية ، وأنه أظهر العداوة للسلطان ، وقد طمع في عسكر مصر بموجب ما فعله معهم سوار . فثار السلطان لهذا الخبر وقصد أن يخرج الى حلب بنفسه .

وفيه نادى السلطان في القاهرة بأنه قد أبطل عدة مكوس ، منها مكس قطيا ومكس الخشب والأطرون بالبحيرة ، وغير ذلك عدة مكوس أبطلها بمصر وجدة ، فدعا له الناس بسبب ذلك .

وفيه عين السلطان القاضي شرف الدين الأنصاري وكيل بيت المال بأن يخرج الى جبل نابلس لجمع العشير بسبب التجريدة الى سوار ، فخرج هو ودولات باي الخازندار .

وفيه عين في امرية الحاج بالمحمل يشبك الجمالي ، وفي امرية الأول اقبردي الأشرفي على عادتتهما في العام الماضي .

وفيه قرر السلطان في الزردكاشية الكبرى جانم السيفي تمرباي عوضا عن فارس الذي توجه الى دمشق .

وفي جمادى الأولى أرسل السلطان بعزل بلاط الشبكي عن نيابة حماه وقد أرسل يستغنى من ذلك .

وفيه عين السلطان تجريدة ثقيلة الى سوار ، وعين بها من الأمراء المقدمين يشبك دوادار كبير باش العسكر ، وتمرار التمشي ابن أخت السلطان أحد المقدمين ، وخاير بك حديد الأشرفي ، وأزدر الطويل الابراهيمى ولم يتم السفر ، ثم عين قانصوه الخفيف ولم يتم له السفر . وعين تمر حاجب الحجاب ولم يتم له السفر . وعين عدة أمراء طبلخانات وعشراوات ، وعرض الجند وكتب منهم

عدة أمراء وأعلمهم بأن السفر يكون بعد أن يربح الخيل .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى خاير بك القصري بأن يستقر نائب حماه عوضا عن بلاط الشبكي ، فلما وصلت اليه الخلعة باستقراره في نيابة حماه مات فجأة قبل دخوله الى حماه . وكان أميراً جليلاً تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة القلعة بمصر ، ونيابة غزة ، ثم نيابة صنف ، ثم قرر في مقدمة ألف بدمشق ، ثم قرر في أتاككية طرابلس ، ثم في نيابة حماه ... فمات ولم يدخلها .

وفيه توفي قاضي القضاة الشافعي بحلب — وهو السيد الشريف تاج الدين عبد الوهاب بن عمر بن حسن بن علي بن حمزة الحسيني الحلبي الشافعي — وكان من أهل العلم والفضل .

وفيه توفي الأمير يشبك جن الاسحاقى الأشرفي أحد مقدمى الألوف بمصر — وكان يعرف بالبهلوان — ومات وله من العمر نحو من سبعين سنة . وكان حاد المزاج سيئ الخلق .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قرق شبق الأشرفي الذى كان زردكاش بمصر ، ثم نفى ومات وهو مقدم ألف بدمشق . وكان علامة في لعب الرمح .

وفي جمادى الآخرة أنعم السلطان على برسباى قرا المحمدى بتقدمة ألف ، وهى مقدمة يشبك جن ، وقرر في الخازندارية قجماز الاسحاقى الظاهرى عوضا عن برسباى قرا بحكم انتقاله الى التقدمة ، وكان قجماز هذا أغا السلطان قديما .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى الخانقاه ، ثم سار الى العكرشا وهو راكب الهجن . ثم عاد الى القلعة بعد أيام

وفيه توفي جكم الأجروود الأشرفي نائب صنف .

وفي رجب نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قناطر العشرة وأقام هناك سبعة أيام ، وتوجه الى الأهرام وهو ماش وحوله الأمراء ، وكانت تلك الأيام مشهودة في القصف والفرجة ، ونصب له أشاير على رءوس الأهرام ، وعملت له هناك أسطة فاخرة حافلة ، وصار ابن رحاب المغنى عمال في كل ليلة ، وبقية مغانى البلد ، وابتيع المجمع الحلوى هناك بنصفين ، والصحن الطعام الحاص بنصف فضة . ثم ان السلطان رحل من هناك بعد مضي سبعة أيام وتوجه الى الفيوم ، فلما دخلها زينت له وكان يوم دخوله الى الفيوم يوما مشهودا ، ودخل عليه جملة تقادم من الكاشف ومشايخ العربان ، فكانت مدة غيبته في هذه السقرة نحو من عشرين يوما ، وكان ذلك في قلب الشتاء في زمن الربيع ، ثم عاد السلطان الى القلعة .

وفيه وقع العدل والعطاء بالديار المصرية ، حتى بيعت البطة الدقيق بستة أنصاف ، والرطل الخبز بدرهم نقرة ، وبيع الفدان البرسيم المخضر بدينار ، وكثرت اللحوم والأجبان ، وانحط سعر سائر البضائع .

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه اليحياوى — نائب حلب — قد وقع بينه وبين نائب قلعة حلب ، فبعث يشكوه للسلطان ، فأنصف السلطان نائب حلب على نائب القلعة .

وفيه خلع السلطان على قجماز الاسحاقى وقرره في نيابة الاسكندرية عوضا عن بلباى العلانى بحكم استقراره في نيابة صنف عوضا عن جكم الأشرفي المعروف بالأجروود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن سوارا قد

استولى على سيس وقلعتها ، ففزع السلطان لهذا الخبر .

وفي شعبان عزل قاسم شغيته عن نظر الدولة ، ورسم عليه الأمير يشبك الدوادار وطلب منه مالا ، وعين السلطان الأمير برسباي قرا أحد المقدمين بأن يخرج جاليش العسكر الى سوار قبل خروج الأمير يشبك ، فخرج ومعه عدة من الجند ، وبعث اليه السلطان أربعة آلاف دينار .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهي أن السلطان أعاد الى جماعة ما كان أخذه منهم من المال ، لما صادرهم بسبب التجريدة الأولى ، فأعاد الى فارس الركبي ألفا وخمسمائة دينار ، وأعاد الى الشهابي أحمد بن أسنبغا الطيار ألف دينار ، وأعاد الى فارس السيفي دولات باي ألف دينار ، وبعث لا بن العيني خمسة عشر ألف دينار من بعض ما أخذه منه ، وأعاد الى جماعة كثيرة ما كان أخذه منهم في المصادرة ... فتعجب الناس من ذلك لكونه فعل ذلك من تلقاء نفسه ، وأشيع بين الناس أنه رأى في المنام ما أوجب هذا من رد المال على أربابه ، فكان حال الناس معه كما قال القائل في هذا المعنى :

كنا نؤمل أن تنال بجاهكم
خيرا يكون على الزمان معينا

والآن تقنع بالسلامة منكم
لا تأخذوا منا ولا تعطونا

ولكن فعل بعد ذلك بالناس من المصادرات وأخذ الأموال ما يعجز عنه الواصفون .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن العين التي أجراها السلطان الى عرفات قد انتهى العمل منها ، ووصل مأوها الى عرفات ، وحصل به غاية النفع لأهل مكة المشرفة . وكان لهذه العين نحو من

مائة سنة وكسور وهي معطلة عن الجريان . وكان حوبان أجرى ماءها فتعطلت من بعده حتى أجراها السلطان .

وفي رمضان أنفق على الجند الكسوة وأنفق على المماليك المعينين للتجريدة نفقة السفر لكل مملوك عشرون دينارا وكسوة عشرة دنانير ، واستمر ينفق عليهم ثلاثة أيام متتالية .

وفيه كانت وفاة الأديب البارع الفاضل الشهاب الحجازي أحمد بن محمد بن علي بن حسن بن ابراهيم الأنصاري الخزرجي الشافعي . وكان عالما فاضلا بارعا في الأدب وله عدة مصنفات في الآداب . منها كتاب « روض الآداب » و « القواعد في المقامات » و « شرح المعلقات » و « وقلائد النحور في جواهر البحور » و « التذكرة » وغير ذلك من الكتب النفسية . وكان ظريفا لطيف الذات ، كثير النواذر ، عشير الناس ، حسن المحاضرة ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله :

في حندس الليل أتنا فتى
ونادم القوم فبئس النديم
قلت لأصحابي لما أئمتي
قد جاءنا في جنح ليل بهيم

ومن قصائده :

قصدت رؤية خصر مذ سمعت به
فقال لي بلسان الحال ينشدني :
انظر الى الردف تستغنى به وأنا

مثل المعيدى فاسمع بي ولا ترني
وكان مولده في أوائل قرن الثمانمائة ، فلما مرض الشهابي الحجازي بعث اليه الشهاب المنصوري بهذين البيتين :

قيل الشهاب سقيم قلت وا أسفا

ما بال أحمد لا يخلو من العلل

وزن الرقائق من أضحي يجوزها

ووصفه بفنون العلم والعمل

ولما توفي الشهاب الحجازي رثاه الشهاب
المنصوري بهذه الأبيات :

زادني فقد الحجازي شجي

هل يطيب العيش فقدان الحجا

لو درى القمري أبدى نوحه

أو غراب البين أضحي مسحجا

صار في زورق نعش قاطعا

منك يا بحر المنايا لججا

وامتطى طرف الردى مستوقرا

طالبها من هم ديساه النجا

ان يكن في الترب أمسى هابطا

فسيرقى في الجنان الدرجا

أو يكن ليل الضريح عاكرا

فسيلقاه شهابا أبلجا

فلتطب أرجاء قبر زارها

انها حاكنه في حسن الرجا

فالحجازي مكة تبصره

والشهاب اشتاقه بدر الدجا

قلت كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا في

عصر واحد ، وكل واحد يدعى بشهاب ، فكان

يقال السبعة الشهب ، وهم : الشهاب بن حجر

رحمه الله عليه ، والشهاب ابن الشاب التائب ،

والشهاب بن أبي السعود ، والشهاب بن مبارك شاه

الدمشقي ، والشهاب بن صالح ، والشهاب

الحجازي ، والشهاب المنصوري . فلما مات الستة

رثاهم الشهاب المنصوري بهذه الأبيات :

خلت سماء المعاني من سنا الشهب

فالآن أظلم أفق الشعر والأدب

تقطب العيش وجها بعد رحلة من

تجانبوا بالمعاني مركز القطب

تعطلت خسر الأيام من درر

كانت تحلى بها منهم ومن ذهب

لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت

بهم كما يطر الانسان بالنسب

ولو درى المسك أن الأرض قبرهم

لود نشقة عرف من شذى الترب

وهذا اختصار من القصيدة التي لهم رحمة الله

عليهم أجمعين .

وفيه توفي كسباى الزينى المؤيدى الذى كان

نائب الاسكندرية وعزل عنها .

وفي شوال كان خروج العسكر المعين الى

سوار ، فخرج الأمير يشبك الدوادر الكبير ،

وأردم الاستادار ، وكاشف الكشاف ، وباش

العسكر ، فكان في غاية العز والعظمة ، وقد فوض

اليه السلطان أمور البلاد الشامية والحلييه وغير

ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل في جميع

أحوال المملكة ، وكتب معه خمسمائة علامة ،

ويكتب على البياض ، وجعل له التصرف في جميع

النواب والأمراء ما خلا نائب حلب ونائب الشام

فقط ... فكان له لما خرج يوم مشهود ، وطلب طلبا

حافلا بحيث لم يعمل مثله قط ، وجر في طلبه عدة

خيول ملبسة بركستونات فولاذ مكفتة بالذهب

وبركستونات مخمل ملون ، وصنع في رنكه صفة

سبع . وقد اقترح أشياء عجيبة غريبة لم يسبق

اليها ، ورسم لماليكه بأن تخرج في الطلب باللبس

الكامل ، وخرج صحبته الأمراء الذين تقدم

ذكرهم ، ومن الجند نحو من ألفى مملوك ،

فرجت لهم القاهرة ، واستمرت الأطلاب تنسحب

الى قريب الظهر . فلما كانت ليلة الرحيل ، نزل

السلطان عند يشبك ، وتكلم معه طويلا ، ثم أضافه الأمير يشبك وركب من عنده وتوجه الى الخاقاه ، ثم عاد الى القلعة . ثم فى ثانى ليلة نزل الأمير يشبك بعد العشاء ، ورحل من الريدانية قاصدا الشام . ثم خرج العسكر أفواجا أفواجا حتى سد الفضاء ، وكانوا من أعيان الشجعان . فتفاهل الناس بأن هذا العسكر ينتصر ، وأن سوارا مأخوذا لا محالة ، وكذا جرى ... وقد عيب على السلطان نزوله الى الأمير يشبك فى الوطاق مرتين ، وهذا بخلاف عادة الملوك وقواعدهم القديمة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان لهم يوم مشهود . ولكن تأخر الى يوم عشره بسبب فرار غلمان أمير حاج .

وفى ذى القعدة ولد للأمير يشبك ولد من زوجته خوند ، ابنة الملك المؤيد أحمد بن الملك الأشرف إيتال ، فسموه منصورا . وكان له مهم حافل .

وفيه خلع السلطان على السيد الشريف سبع ابن ظافر ، وقرره فى امرية ينبوع عوضا عن ظافر . وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو صقيل ، وقد أضافه القاضى كريم الدين بن جلود كاتب الممالك ، فأقام هناك الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

وفى ذى الحجة خلع السلطان على شيخ عربان الشرقية صقر بن بقر وقرره فى مشيخة الشرقية عوضا عن قريه عيسى بن بقر ، وسجن ابن بقر بالمقشرة ، بعد ما ضرب بين يدي السلطان ضربا مبرحا .

وفيه عين السلطان الأمير تمر حاجب الحجاب ،

والأمير قانصوه الخفيف الاينالى ، بأن يخرج الى الشرقية بسبب فساد العربان . ورسم السلطان لهما بأن من وجدوه من بنى سعد وبنى وائل يقبضون عليه .

وفيه كان ابتداء عمارة الايوان الكبير الذى بالقلعة . فأمر السلطان بتجديده واصلاح ما فسد من بنائه . وكان الشاد على عمارته القاضى كاتب السر ابن مزهر ، والبدرى بدر الدين بن الكوين ومعلم المعلمين ، فصرف عليه نحو من عشرين ألف دينار . وكان قصد السلطان أن تقام الخدمة على العادة القديمة ، ويركب منه ، فلم يتم له ذلك ... واستمر الأمر على حاله الى الآن .

وفيه توفى الاستاذ المغنى الموسيقى محمد المعروف ببرقوق التونسى ، وكان بارعا فى الغناء والانشاد ، وكان له شهرة طائلة . قدم من الغرب يروم الحج فتوفى بالقاهرة .

سنة ست وسبعين وثمانمائة (١٤٧١/١٤٧٢ م) : فيها ، فى المحرم ، فى أول يوم كانت بشارة النيل ، فتفاهل الناس بأنها سنة مباركة .

وفيه توفى قاضى القضاة برهان الدين بن الديرى الحنفى ، وهو ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن سعد بن مصلح العيسى القصبى الحنفى ، مات وهو منفصل عن القضاء . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما . وولى عدة وظائف منية ، منها نظر الاسطبل ، ونظر الجيش ، وكتابة السر ، وقضاء الحنفية ، ومشيخة الجامع المؤيدى ، وغير ذلك من الوظائف .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه نحو شيبين القناطر ، وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء ، فبينما هو سائر فى أثناء الطريق ، اذ شب فرس الأتابكى أزبك على فرس السلطان

ورفسه ، فجاءت الرفسة فى قصبة ساق السلطان فانكسرت ، فنزل بشيين وهو فى غاية الألم من ساقه ، وأرسل يطلب محفة حتى يعود فيها الى القاهرة . فلما وصل هذا الخبر الى القاهرة كثر بها القتل والقتل بسبب عود السلطان فى المحفة . فلما عاد طلع الى القلعة وهو فى المحفة حتى نزل على باب البحرة ، وكانت القاهرة قد زينت لقدمه . فلما طلع تحت الليل هدمت الزينة وأشيع أن السلطان على غير استواء ، حتى نزل المنادى ونادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وسلامة السلطان ، وان تعاد الزينة كما كانت ، فزينت القاهرة ثانياً ثم ان السلطان خرج وجلس على الدكة ، وعلم المراسيم ، وجهاز مراسيم الى البلاد الحلبية بسلامته من هذا العارض ، حتى سكن ذلك الاضطراب ، وخمدت هذه الاشاعات من البلاد الشامية والحلبية .

وفيه توفى تغرى بردى بن يونس أتابك حلب ، وكان لا بأس به .

وفيه حضر صحبة الحاج القاضى كمال الدين ابن ظهيرة قاضى جدة ، أخو القاضى برهان الدين ابراهيم بن ظهيرة قاضى مكة المشرفة ، ليسعى لأخيه فى عوده الى القضاء . وكان قد صرف عنه .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه سوار قتل قرقماس الصغير نائب ملطية ، وقد تقدم ما فعله قرقماس بجماعة سوار . فلما ظفر سوار بقرقماس قتله أشر قتلة . قيل انه أوقفه فى مكان وبنى عليه حائطا . وقيل بل علقه فى شجرة واستمر يرمى عليه بالنشاب حتى مات . وكان قرقماس الصغير هذا أصله من مماليك الأشرف اينال ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب . وكان لا بأس به

وفيه عين السلطان نيابة ملطية لاینال الحكيم عوضا عن قرقماس الصغير بعد قتله .

وفيه خلع السلطان على الشيخ سيف الدين الحنفى وقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى عوضا عن برهان الدين الديرى بحكم وفاته . وكانت هذه الوظيفة مع أولاد الديرى بحكم شرط الواقف الملك المؤيد شيخ ، فأخرجها السلطان عنهم للشيخ سيف الدين ، ولم يلتفت الى شرط الواقف

وفى صفر جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك الدوادار أخذ قلعة عينتاب من جماعة سوار ، وأن سوارا أخذ أولاده وعياله وماله وأودعهم بقلعة زمنوطو ، وصار عنده التتر من العسكر ، بخلاف العادة .

وفيه عاد الأمير حاجب الحجاب من الشرقية . وقد قبض على جماعة من العربان المفسدين ، وفيهم موسى بن عمران ، وآخر يقال له طاجن — وكان من أعيان العربان المفسدين — فرسم السلطان بتوسيط موسى ومعه جماعة من بنى سعد ، وبنى حرام ، وبنى وائل . فلما بلغ العربان قتل هؤلاء أظهروا العصيان ، وأفسدوا فى البلاد ... فرسم السلطان للأمير تمر باى بعوده الى الشرقية ، فعاد عن قريب .

وفيه ركب السلطان وصلى صلاة الجمعة بالقلعة ، وكان له مدة لم يركب بسبب كسر قصبة ساقه ، فلما ركب كان له يوم مشهود بالقلعة .

وفيه رسم السلطان لابن الطولونى بأن يجدد عمارة الميضاة التى بجامع القلعة ، فوسعها ورسم بعمارة الجامع ، فصرف على ذلك ألف دينار .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك أخذ من سوار ما كان استولى عليه من أدنه وطرسوس ،

وتحارب مع جماعة سوار أشد المحاربة ، حتى طردهم من تلك البلاد وملكها .

وفيه كان وفاء النيل المبارك في سادس عشرى مسرى ، فتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه توفى أسنبغا التترى الشبكي الناصرى أحد الأمراء العشراوات ، ورءوس النوب ، وكان لا بأس به .

وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة وتوجه الى جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وكشف عما تهدم من حيطانه وسقوفه وأمر ببنائه من ماله ... وشرع في ذلك .

وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا .

وفيه نودى من قبل السلطان بالآ يشكو أحد أحدا للسلطان الا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، فاذا لم ينصفه يقف بعد ذلك للسلطان . وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان ، حتى ان امرأة شكت زوجها لأجل أنه وطئ جاريتها في ملكه ، فما أطاقت زوجته الغيرة وشكته للسلطان بقصة .

وفيه خلع السلطان على الأمير يشبك الجمالى وقرره في امرية الحاج بركب المحمل على عادته . وكان السلطان عين برسباى الشرفى ، فاستعفى من ذلك فعفا عنه .

وفي ربيع الآخر نزل السلطان الى نحو خليج الزعفران على سبيل التنزه ، وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء ، فأقام هناك الى آخر لنها ، فلما عاد ووصل الى الحسينية وجد في

طريقه جنازة ، وهى امرأة غريبة ليس معها أحد من الناس سوى الحمالين ، فنزل عن فرسه ومن معه من الأمراء ، فصلى عليها في قارعة الطريق . وقدم الجماعة الذين حضروا الصلاة فعد ذلك من النوادر . وقد وقع مثل هذه الواقعة للأمير أحمد ابن طولون ، واستمر ماشيا قدام الميت حتى واره التراب .

وفيه بعث السلطان الى الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين ، فخلع عليه وقرره في نيابة عينتاب ، فنزل الى داره وهو مهموم ، وأقام على ذلك أياما حتى شفيع فيه الأتابكى أزبك وأعفى من ذلك .

وفي جمادى الأولى حضر محمد بن نائب بهنسا بمكاتبة يذكر فيها انحلال أمر سوار من الأمير يشبك ، وأن عسكر سوار قد فل عنه ، وهو خائف من العسكر . ثم أرسل الأمير يشبك يطلب من السلطان نفقة للعسكر يتوسع بها ، فان العليق كان هناك مشحوتا ، فبعث السلطان مائة ألف دينار تفرق على العسكر هناك .

وفي هذا الشهر كانت وفاة قاضى القضاة عز الدين أحمد الحنبلى ، وهو أحمد بن ابراهيم ابن نصر الله بن أحمد بن محمد بن هاشم بن اسماعيل بن نصر الله بن أحمد العسقلانى الحنبلى ، وكان عالما فاضلا متواضعا فكه المحاضرة ، بقية الناس ، سمع على جماعة من العلماء وأجازوه ، وناب في الحكم مدة ، ثم ولى القضاء الأكبر بعد وفاة قاضى القضاة بدر الدين البغدادى في سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، واستمر في هذه الولاية مدة طويلة نحو من عشرين سنة ، وباشر منصب القضاء بعفة ونزاهة ، وحمدت عند الناس سيرته ، واثنت اليه رياسته مذهبه ، وولى عدة تداريس

جليلة ، وعاش من العمر مدة طويلة وقد قارب الثمانين سنة ، ومولده سنة ثمانمائة ، فلما مات استمر منصب القضاء شاغرا لم يتول به أحد ، فأقام نحو من أربعة أشهر وكان السلطان أرسل خلف برهان الدين بن مفلح من الشام ليلي القضاء ، وكان السلطان رسم لبدر الدين السعدى تلميذ قاضى القضاة عز الدين الحنبلى ، بأن ينظر فى الأحكام المتعلقة بمذهبه الى أن يحضر البرهان ابن مفلح من الشام . فلما عاد القاصد الذى توجه الى ابن مفلح أخبر بأن ابن مفلح مريض ، وأرسل يعتذر للسلطان فى عدم الحضور الى القاهرة ، وتعلل بأشياء تدل على عدم قبوله للولاية . فلما عاد هذا الجواب على السلطان أخذ القاضى كاتب السر ابن مزهر يسعى للسعدى فى أن يلى القضاء ، وكان يومئذ فى الحنابلة من هو أفضل من السعدى ، ولكن الحظوظ تختلف . فلما كان ختم البخارى فى رمضان أحضر السلطان خلعة ، وخلع على بدر الدين السعدى ، واستمر به قاضى القضاة الحنبلية بمصر عوضا عن القاضى عز الدين بحكم وفاته . فنزل من القلعة فى موكب حافل جدا ، وقد استكثر الناس غالبهم على السعدى ذلك ، وكان شابا لم يظهر البياض بلمته . وقد داعبه بعض الشعراء بهذه المداعبة وهى :

قاضيكم ما مثله فى حكمه

عفيف ذيل ليس يدعى زائيا

قد ساس أمر الناس فى أحكامه

فلم ترى أسوس منه قاضيا

وفيه أيضا :

حضرت فى الدرس على قاضى

نص على التقليد فى درسه

فيحسن البحث على وجهه

ويوجب الدخل على نفسه

وفيه خرج السلطان الى الرماية ببركة الحبش ، وكان معه الأتابكى أزبك وبقية الأمراء هناك ، ثم عاد الى القلعة ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ، واصطاد فى ذلك اليوم ثلاثة كراكى وبلشون .

وفى جمادى الآخرة قدم قاصد من عند صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين ، وأحضر على يده هدية الى السلطان ، والى الخليفة المستنجد بالله يوسف ، وأرسل يطلب منه تقليدا بولايته على إقليم الهند عوضا عن كان قبله من ملوك الهند ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، وكتب له الخليفة تقليدا بما سأل .

وفيه وصل قاصد من عند الأمير يشبك الدودار وعلى يده مكاتبة من يشبك يذكر فيها أنه وقع بينه وبين عسكر سوار واقعة مهولة على نهر جيحون ، وجرح فيها الأمير تراز التمشى فى يده بسهم نشاب . وكان أول من ألقى نفسه فى النهر هو ... فلما بلغ العسكر رموا أنفسهم فى النهر خلفه ، فجرح تراز وأغمى عليه ، فحملوه ورجعوا به الى الوطاق . ثم ان الأمير يشبك ثبت وقت الحرب ، وزحف بالعسكر على عسكر شاه سوار ، وكان بين الفريقين ساعة تشيب منها النواصي ، فانكسر عسكر سوار كسرة بليغة ، وقتل منهم ما لا يحصى عدده ، وكان النصر لعسكر مصر على عسكر سوار كما قيل :

جيوشنا كالأسود أضحت

تقتحم الحارب بالعزائم

وسيف سلطاننا طويل

له بقوس العسا غنائم

فالنصر بالفتح منذ آتاه

صير قلب الحسود واربم

فياله في الوري مليك

لتمع أهل الفساد صارم

فلما رأى سوار الكسرة عليه هرب في نفر
قليل من عسكره ، وطلع الى قلعة زمنوطو
واختفى . فلما بلغ الأمير يشبك أن سوارا في
قلعه زمنوطو ، حاصرها أشد المحاصرة ، ورمى
عليها بالمدافع واستمر محاصرا لها حتى كان من
أمره ما سنذكره . فخلع السلطان على القاصد
الذى جاء بهذه الأخبار والبشارة ، وكذلك الأمراء
خلعوا عليه ، وانشرح السلطان بهذا الخبر
وفيه نزل الى الرماية وغاب يوما وليلة ، فلما عاد
منع من الصليبة في موكب حافل .
وفيه خسف جرم القمر جميعا ، وكان خسوفا
مهولا فاحشا

وفي رجب صار السلطان ينزل الى الاصطبل
ويحكم فيه بين الناس يوم السبت والثلاثاء .
فتكثرت عليه المحاكمات ، وتزايدت شكاوى
الناس اليه . فوقف شخص يقال له محمد القليلي
واشتكى من ناظر الحاص تاج الدين أحمد بن
المقنى . وكان السلطان متحاملا عليه فأمر بضربة
بمغارع بين يديه ، فضرب نحو عشرين شيئا حتى
أدمى ، وكان يوما شديد البرد جدا ، وأمر بسجنه
في البرج الذى في القلعة ، فطلع وهو ماش من باب
السلسلة الى البرج عريانا مكشوف الرأس ، والدم
يسيل من أجنابه ، فعد ذلك من مساوى قايىبائى .
وفيه ضرب انسان من أولاد الناس امرأة
يسكن في جنبها وهى ماشية بين الناس في الطريق
فماتت في الحال ، فلما تحقق موتها هرب ولم يعلم
السبب ذلك .

وفيه نزل السلطان الى نحو المطرية ، ثم عاد من
جهة قنطرة الحاجب ، فأذن عليه المغرب عندما
وصل الى المدرسة الجيعانية التى بالقرب من بركة
الرطلى ، فنزل وصلى المغرب هناك خلف من صلى
من العوام ، وكان الامام في ثانى ركعة ، فصلى مع
الجماعة ، فلما فرغت الصلاة وجد الامام صيبا أورد
فأعاد الصلاة ثانيا . ثم ركب من هناك وطلع الى
القلعة .

وفيه رسم السلطان ليشبك الجمالى المحتسب
بأن ينادى في القاهرة بأن امرأة لا تلبس عصابة
مقنزعة ، ولا سراقوس حرير ، وأن تكون العصابة
طولها ثلث ذراع ، وهى يختم السلطان من الجانبين .
وكتب بذلك قسائم على من يبيع عصابات النساء
وصمم السلطان على يشبك المحتسب في تكرير
المناداة في ذلك ، وصارت رسل المحتسب يطوفون
في الأسواق ، فإن وجدوا امرأة بعصابة مقنزعة
أو سراقوس ، يضربونها ويجرسونها ، والعصابة
معلقة في رقبتها . فقلق النساء من ذلك ، وصارت
المرأة اذا خرجت لنحو حاجة خرجت من غير عصابة
مكببة رأسها ، أو تلبس عصابة طويلة فلما طال
عليهن الأمر لبسن العصابات الطوال التى رسم
بها السلطان . وكن يلبسها اذا خرجن الى الأسواق
فقط على كره منهن . ويلبسن العصابات المقنزعة
في بيوتهن . وفي هذه الواقعة يقول الأديب
زين الدين بن النحاس الشاعر :

أمر الامام مليكنا بعصابات

في لبسها عسر على النسوان

فقلقن ثم أظعنهن ولبسنها

ودخلن تحت عصابات السلطان

واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة ، ثم رجعن
الى ما كن عليه من لبس العصابات المقنزعة

والسراقوس ، ولم يلتفتن الى تحجير السلطان في ذلك .

وفيه خلع السلطان على برسباى الشرفى وقرره فى امرية الحاج بالمحمل ، وكان قد أعفى من ذلك . وقرر يشبك الجمالى فى امرية الحاج ، ثم بطل وقرر فيها برسباى الشرفى .

وفيه خلع السلطان على البدرى بدر الدين بن مزهر القاضى كاتب السر ، وقرره فى نظر الخاص عوضا عن تاج الدين بن المقسى ، بحكم صرفه عنها . وكان بدر الدين بن مزهر صغير السن ، لم يلتج ، حين قرره فى نظارة الخاص .

وفى شعبان نزل السلطان الى خليج الزعفران وقد أضافه الزينى أبو بكر بن عبد الباسط ، فأقام عنده الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

وفيه انتهت مواكب الاسطبل وضبط مافرقه السلطان على الفقراء وأرباب الديون فى هذه المدة . فكان نحو من ثمانمائة دينار .

وفيه ظهر بالسماء نجم له ذنب مستطيل ، وكان يظهر من جهة الغرب ، ثم صار يظهر من الشرق .

وفيه خرج الأمير قانى باى صلق وتوجه الى جهة حلب ، وعلى يده كوامل الشتاء للنواب ، وعدة خلع للأمير يشبك الدوادار ، وبرسم من يرد عليه من التركمان ، وأرسل على يده نحو من أربعين ألف دينار برسم توسعة للعسكر .

وفيه عرض السلطان محاييس المقشرة وأطلق منهم جماعة ، وكان بها شخص له نحو من ثلاثين سنة ، فعمل مصلحته ووزن عنه للمدينين مبلغ له صورة وأطلقه .

وفيه نزل السلطان وعدى الى بر الجزيرة ، فأضافه

شخص من عرب اليسار يقال له محمد بن برقع ، فمد له أسبطة حافلة ، وبات عنده ، ثم عدى وتوجه الى شبرى ، وطلع من هناك وتوجه الى العباسية ، فأضافه هناك الشيخ بيبرس بن شعبان شيخ العرب . وأقام بالعباسية أياما ثم عاد الى القلعة . وفيه توفى الأمير طوخ الأبوبكرى المؤيدى الذى كان زردكاش ، ونفى الى ثغر دمياط ، ثم شفع فيه وعاد الى القاهرة . ثم مات وهو بطل ، وكان لا بأس به .

وفى رمضان رسم السلطان للقاضى عبد الغنى بن الجيعان بأن يفرق على الفقهاء والعلماء توسعة فى رمضان لعيالهم ، واستمر ذلك عمالا فى كل شهر رمضان مدة أيام الأشرف قايتباى الى أن مات ، ثم تناقص ذلك من بعده .

وفيه رسم السلطان باحضار الأتابكى جرباش كرت ، وكان مقيما بثغر دمياط ، وكذلك الأمير يشبك المؤيدى ، الذى كان دوادارا كبيرا ، فتكلم لهما بعض الأمراء بأن يحضرا الى القاهرة ويكونا فى دورهما بطلين ، الى أن تنقضى أعمارهما ، فأجاب السلطان الى ذلك ، وأمر باحضارهما ، وكان الشرفى يحيى بن يشبك الفقيه ممرضاً ، فلما حضر أبوه أقام مدة يسيرة ومات ، وكان شابا حسنا حشما رئيسا شجاعا بطلا ، حوى أنواع الفروسية ، وساق من جملة الرماحة بالمحمل ، وكان الظاهر خشققدم أنعم عليه بامرية عشرة ، وكانت أمه خوند بنت المؤيد شيخ ، وكان نادرة فى أبناء جنسه . ومولده سنة ثمان وثمانمائة .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده هدية للسلطان . وقد حضر يروم الحج . وفيه ختم البخارى وخلع فى ذلك اليوم على

بدر الدين السعدى ، وقرره فى قضاء الحنابلة
عوضا عن عز الدين الحنبلى .

وفيه سعد فى يوم عيد الفطر سيدى منصور بن
الظاهر خشددم الى القلعة ليهنئ السلطان بالعيد ،
وكان السلطان جالسا على الكرسى بالقصر الكبير .
فلما وقف سيدى منصور بين يديه خلع عليه
متمر ، ثم طلبه وأجلسه معه على الكرسى — وكان
صغير السن دون البلوغ — فعد جلوسه مع
السلطان على الكرسى من النوادر التى ما وقعت قط .
وفيه جاءت الأخبار من عند يشبك الدوادار بأن
شاه سوار قد تلاشى أمره ، وفل عنه غالب
عسكره ، وأرسل يطلب الصلح من الأمير يشبك ،
وأن يكون نائبا عن السلطان فى قلعة درندة ، وأنه
يرسل ولده بمفاتيح القلعة ، فما وافق السلطان
على ذلك الا أن يحضر سوار بنفسه ، ويقابل
السلطان .

وفيه توفى القاضى نجم الدين المعجلونى محمد
ابن عبد الله بن عبد الرحمن الزرعى الدمشقى
الشافعى مذهباً ، وكان عالماً فاضلاً ، قدم الى
القاهرة يطلب من السلطان ليلى القضاء ، فتوكل
فى جسده فمات ، ودفن بالقاهرة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب
المحمل برسبائى الشرفى ، وأمير ركب الأول الشهابى
أحمد ابن الأتابكى تانى بك البرديكى الظاهرى
برقوق .

وفيه وقعت حادثة غريبة وهى أن نجارا كان
عمالا بالقلعة فى بعض طباق الممالك ، فسقط من
مكان فمات لوقته ، وكان له أولاد وعيال وهو
فقير ، فوقف أولاده وعياله بقصة للسلطان
يلتمسون منه شيئا من الصدقة ، فأمر لهم بمائة
بنار ، وأمر للميت بشوب بعلبكى وثلاثة أشرفية

يجهزونه بها ، فعد ذلك من محاسن الأشرف
قايتباى .

وفيه رسم السلطان بشنق جارية بيضاء ومعهما
غلام ، فشهروهما فى القاهرة على جبلين ، وكان
سبب ذلك أن الجارية اتفقت مع الغلام على قتل
سيدهما ، وأخذ ماله ويهربان ، فقتلاه ودفناه فى
الاصطبل . فلما ظهر أمرهما ، رسم السلطان
بشنقهما فشنقا .

وفيه توفيت خوند مغل بنت البارزى زوجة
المملك الظاهر جقمق ، وكانت دينة خيرة ولها بر
ومعروف ، وهى التى عمرت جامع الشيخ مدين
بالمقس ، ووقفت عليه أوقافا كثيرة ، وكانت ناظرة
الى فعل الخير .

وفيه كانت نهاية عمارة الجامع الذى قد أنشأه
تمراز أحد الأميران خورية بجوار قنطرة عمر شاه .

وفى ذى القعدة غرقت مركب ببحر النيل ، وكان
فيها بضائع كثيرة لتجار من الأروام ، ولم ينج
منها سوى ثلاثة أنفار ، فعين السلطان شرف
الدين بن كاتب غريب ، ومعه القاضى جلال الدين
ابن الأمانة أحد نواب الشافعية ، الى المكان الذى
غرقت فيه المركب لضبط ما يظهر من تلك البضائع
التي غرقت هناك ، فلم يظهر من ذلك الا اليسير
وغرق الأكثر .

وفيه قدم قاصد من عند حسن الطويل ، وعلى
يده هدية للسلطان ومكاتبة فيها أشياء سرا ، فلم
ينشرح السلطان لقدم هذا القاصد ، ولم يعلم
ما فى المكاتبه .

وفيه توفى يوسف بن مغلطاي نائب نجر دمياط
وكان لا بأس به .

وفيه وقعت فتنة كبيرة بين بنى حرام وبنى

وائل . وكثر الفساد من العربان بالشرقية ، حتى امتنع مرور الناس من الأسفار الى الشرقية من كثرة القتل ، وقطع الطريق ، وسلب أثواب المسافرين .

وفي ذى الحجة وصل قاصد من عند يشبك الدوادار ومعه مكاتبة ، يخبر فيها أن سوارا أرسل يطلب الأمان لنفسه ، وأنه يقيم بقلعة زمنوطو هو وعياله . فقال له الأمير يشبك : « حتى نكتب السلطان بذلك » .

وفيه قدم اياس الطويل المحدثى الذى كان نائب طرابلس ، فآكرمه السلطان وخلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ورسم له بأن يعود الى طرابلس ، وأنعم عليه بامرية بطرابلس يأكلها وهو طرخان . وكان قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه وصل الأتابكى جرباش كرت من نغر دمياط هو ويشبك الفقيه ، الذى كان دوادارا كبيرا وشفع فيه بعض الأمراء بأن يكون بداره بطالا حتى ينتهى أجله . فرسم السلطان باحضاره هو ويشبك الفقيه ، فلما طلع الأتابكى جرباش الى السلطان عظمه ، وقام اليه وأجلسه الى جانبه . ثم ان الأتابكى جرباش قام وقبل يد السلطان فى أن يشفع فى جاني بك كوهيه ، بأن يحضر هو أيضا الى القاهرة ، وكان بنغر دمياط . فأجابه السلطان الى ذلك ، ورسم باحضاره ، ثم خلع على الأتابكى جرباش ويشبك الفقيه ، ونزلا الى دارهما .

وفيه أمر السلطان بإنشاء البرج العظيم بقرب نغر رشيد ، فجاء غاية فى الحسن من البناء والاتقان وفيه تزايد فساد بنى حرام وبنى وائل ،

وفسدت أحوال الشرقية ، فعين لهم السلفان تجريدة ، وكان بها من الأمراء الأتابكى أزيك وجاني بك قلقيسر أمير سلاح وأزدر الطويل ، أحد المقدمى الألوف . وعين معهم جماعة كثيرة من الجند ، وأمرهم بالخروج الى الشرقية سريعا .

وسبب ذلك أن العربان من بنى وائل وبنى حرام ، هجموا على القاهرة حتى وصلوا الى رأس خط الحسينية ، ونهبوا الدكاكين ، وسلبوا أثواب الناس . واستمر الحال على ذلك من بعد العصر الى ما بعد المغرب ، فرجعوا حيث جاءوا . فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم هؤلاء الأمراء ، فخرجوا من يومهم سريعا ... ثم ان الأتابكى أزيك عاد الى القاهرة بعد أيام ، ومعه بعض عربان ، فأودعهم فى المقشرة . وأما بقية الأمراء ، فرسم لهم السلطان بالاقامة فى الشرقية لرد العربان المفسدين .

وفيه ولدت امرأة أربعة أولاد فى بطن واحد وهم صبيان وبنات ، وكان أبوهم فقيرا فحملهم الى السلطان ، فلما وضعوا بين يديه تعجب منهم ، ورسم لأبيهم بعشرة دنانير ، وخمسة أراذب قمح . وفيه جاءت الأخبار بوفاة أزدر الصغير الابراهيمى الظاهري ، أحد الأمراء العشراوات ، ورعوس النوب ، مات قتيلًا على حصار قلعة زمنوطو ، وكان شجاعا بطالا عارفا بأنواع الفروسية . وتوفى حسن التيمى ابن بيرم بن طغر نائب القدس والخليل ، وكان لا بأس به .

وفى هذه السنة كانت الفتن المهولة ببلاد فارس ، واستمرت الفتن عمالة حتى ملكها بنو أوطاس . وكانت الفتن ببلاد الشرق بين حسن الطويل وبين ملوك هراة وسمرقند . وكانت الفتن عمالة بسبب سوار . وخرجت السنة المذكورة عن شرور وفتن فى بلاد الشرق وغيرها .

سنة سبع وسبعين وثمانمائة (١٤٧٢/١٤٧٣ م) :

فيها ، في المحرم ، وقع بين الأتابكي أزبك وتغرى بردى ططر بسبب ضرب الكرة ، وقد زاحم فرس تغرى بردى ططر ، فرس الأتابكي أزبك ، فحنق منه فزاحمه عدة مرار وهو صابر له ، ثم حنق منه فضره بالصولجان حتى تكسر على ظهره . وتغرى بردى يسب الأتابكي أزبك ، ويشتمه شتما فاحشا ، حتى وقف بينهما الأمير جانى بك قلقيسر ، فثنى الأتابكي عنان فرسه ، ونزل الى داره كالغضبان . فتكد السلطان غاية النكد بسبب ذلك .

وفيه توفى قلمطاي الأشرفي الاسحاقى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية .

وفيه حضر قانى باى صلق وعلى يده مكاتبة الأمير يشبك الدوادار ، تتضمن القبض على شاه سوار وتزوله من قلعة زمنوطو ، وقد وصل قانى باى صلق من حلب الى مصر فى ثلاثة عشر يوما . فلما صحت الأخبار عند السلطان سر بذلك ، وخلع على قانى صلق خلة حافلة ، وكذلك سائر الأمراء خلعوا عليه حتى المباشرون . فحصل له جملة خلع سنية .

وكان من ملخص أخبار القبض على شاه سوار أنه لما طلع الى قلعة زمنوطو واختفى بها ، حاصره الأمير يشبك الدوادار أشد المحاصرة ، وقد فل عن سوار عسكره وأراد الله خذلانه ، فأرسل يطلب الأمير تمتاز التمشى ، قريب السلطان ، فتلطف الأمير يشبك بالأمير سراز حتى وافقه الى طلوعه الى سوار ، فطلع الى قلعة زمنوطو وصحبته القاضى شمس الدين أجا الحلبي قاضى العسكر ، وهو والد القاضى كاتب السر الآن . فلما طلع الأمير تمتاز الى سوار واجتمع به ، تملل سوار بأنه

يلبس خلة السلطان ، ويوس الأرض ولا يقابل الأمير يشبك . فما وافقه الأمير تمتاز على ذلك ، فقال له سوار : « أنا قتلت من العسكر جماعة كثيرة وأخشى اذا نزلت اليهم يقتلونى » . فقال الأمير تمتاز : « ضمانك على فما يصيبك شىء » . فما وافق سوار على نزوله من القلعة . فقام الأمير تمتاز والقاضى شمس الدين بن أجا من عنده والمجلس مائع .

فلما عاد الأمير تمتاز بالجواب على الأمير يشبك ، لم يوافق على ذلك ، وحاصر سوارا ، وضيق عليه ، ورمى عليه بالمدافع فما أطلق سوار ذلك ، فأرسل يطلب الأمير تمتاز والقاضى شمس الدين بن أجا ثانيا ، على أنه ينزل صحبتهما ، فطلع اليه الأمير تمتاز وابن أجا ثانيا ، فطال بينهما المجلس ، وقيل ان سوارا أضاف الأمير تمتاز وابن أجا بقلعة زمنوطو . فلما طال جلوس الأمير تمتاز وابن أجا بقلعة زمنوطو عند سوار ، ماج العسكر على بعضه ، وأشيع بأن سوارا قد قبض على الأمير تمتاز وابن أجا بقلعة زمنوطو ، فلما مضى من النهار النصف نزل الأمير تمتاز هو والقاضى ابن أجا وصحبتهما شاه سوار ، وهو فى نفر قليل من عسكره ، فتوجه الى وطاق الأمير يشبك الدوادار ونزل عن فرسه ودخل على الأمير يشبك فى الخيمة فقام اليه ورحب به وأحضر اليه خلة وألبسها له . فلما أراد الانصراف من عنده ، قال الأمير يشبك : « امض الى نائب الشام وسلم عليه » وكان يومئذ برقوق نائب الشام . فلما توجه اليه سوار نزل عن فرسه ، ودخل الى برقوق نائب الشام ، وصحبته الأمير تمتاز . فلما وقف بين يدي برقوق قال له برقوق : « من أنت ؟ » قال له : « أنا سوار » . قال : « أنت سوار ؟ » قال : « نعم أنا سوار » .

فجعل يكرر عليه هذا الكلام فيقول له : « نعم أنا سوار » . ثم قال له برقوق : « أنت الذى قتلت الأمراء والعسكر ؟ » فسكت سوار . ثم قال برقوق : « أحضروا له خلعة » . فأتوا اليه بخلعة وفى ضمنها جنزير . فلما ألبسوها له وضعوا الجنزير فى عنقه . فلما رأى جماعة سوار أنه وضع فى جنزير ، ثاروا على جماعة برقوق وسلوا سيوفهم . وكان برقوق أكن كميناً حول الخيمة ، وهم لابسون آلة الحرب ، فهجموا على جماعة سوار ، وقطعوه ثم قبضوا على سوار وأدخلوه فى بعض الخيام . فلما رأى الأمير تراز ذلك شق عليه وقال لبرقوق : « أنا نزلت بسوار من القلعة وحلفت له أنكم لا تشوشوا عليه ، فكيف يبقى أحد يأمن لكم ؟ » . فأخرق برقوق بالأمير تراز خرقاً فاحشاً ، وربما لكمه . فخرج تراز من عند برقوق وهو غضبان . وكان الأمير يشبك حلف للأمير تراز أنه اذا قابله سوار لا يقبض عليه ولا يشوش عليه . فلما نزل اليه سوار ندب برقوق الى مافعله بسوار . وكان هذا عين الصواب . ودع الأمير تراز يغضب . فلما تحقق العسكر القبض على سوار ، قاموا على حمية ، وقصدوا التوجه الى الديار المصرية . وهذا ملخص ماوقع فى أمر القبض على سوار . واستمر الأمير تراز غضبان من الأمراء حتى دخل القاهرة . فلما قبض على سوار خلع الأمير يشبك على شاه بضاع أخى سوار وقرره عوضاً عن أخيه فى امرية الأبلستين .

وفى صفر جاءت الأخبار بأن تافى بك السيفى ألماس الأشرى نائب البيرة ... (بياض بالأصل) . وفيه توجه الأتابكى أربك الى نحو البحيرة فغاب أياماً ثم عاد من هناك ومعه جماعة من العربان

المفسدين ، وهم فى الحديد ، فرسم السلطان بسجنهم فى المشرة .

وفيه عرض السلطان أولاد الناس وأمرهم بأن يلعبوا بالرمح بين يديه حتى يمتحنهم فى ذلك ، ويعلم من يلعب بالرمح ، ومن لا يلعب .. فحصل لهم غاية المشقة لأجل ذلك ، ووبخهم بالكلام ، وربما قصد الاخراق بهم .

وفيه عزل السلطان قاضى القضاة سراج الدين ابن حريز المالكى ووكّل به بالطبقة ، ثم خلع على برهان الدين اللقانى أحد نواب الحكم ، وقرره فى قضاء المالكية عوضاً عن ابن حريز . واستمر ابن حريز فى الترسيم .

وفيه كتب السلطان عدة فتاوى ، وأخذ عليها خطوط مشايخ العلم والقضاة فى أمر سوار فأفتوه بأنه خارجى ، وأنه لا يبقى فى قيد الحياة .

وفيه ضرب السلطان ثلاثة من مماليكه الجلبان ومعهم آخر من المماليك الخشقدمية ، فضربهم ضرباً مبرحاً ، وقد بلغه بأنهم مكروا وعربدوا على الناس . ثم نفى المملوك الخشقدمى الى البلاد الشامية .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو دمياط ورشيد وغير ذلك من البلاد ، فسار فى البحر فى عدة مراكب ، وكان صحبته الأتابكى أربك والأمير أربك اليوسفى ، وغير ذلك من الأمراء . واستمر السلطان غائباً فى هذه السفرة نحواً من ثلاثة عشر يوماً ، وقد تنزه فى هذه السفرة ، وطاف عدة بلاد ، ثم عاد الى القلعة ..

وفيه أحضر الى القاهرة جماعة من الافرنج قبض عليهم نائب ثغر الاسكندرية ، وكانوا يعيشون بسواحل البحر الملح . فلما عرضوا على السلطان

رسم بسجنهم في المقشرة ، فأسلم منهم جماعة ،
وجماعة سجنوا بالمقشرة .

وفيه حضر الشيخ علاء الدين الحصنى ، وكان
خرج بصحبة الأمير بشبك الدوادار فغضب عليه ،
وحصلت له كائنة عظيمة مع يشبك ، فهرب منه
وأتى الى القاهرة واختفى بها .

وفي ربيع الأول جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك
دخل الى الشام وصحبته سوار ، فزينت له الشام
زينة حافلة ، وكان له يوم مشهود ، فأقام بالشام
ثلاثة أيام ورحل عنها الى غزة . فلما سمع السلطان
بهذا الخبر أمر بتبييض باب النصر وباب زويلة ،
وضرب عليهما الرنوك الذهب . ثم أخذ في أسباب
ملاقاة الأمراء ، فكسا الأمراء المتقدمين كل واحد
أربع بدلات ، وجهاز لهم ملاقة الى الصالحية .
وفيه كان وفاء النيل المبارك حادى عشرى
مسرى ، فنزل الأتابكى أربك ، وفتح السد على
العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه دخل الأمير يشبك وبقية الأمراء والعسكر
الى الخانقاه السرياقوسية ، وصحبته سوار
واخوته وهم في زناجير . فلما وصل الأمير يشبك
الى الخانقاه : خرج الأمراء وأرباب الدولة الى
ملاقاته ، ثم رحل من الخانقاه ونزل الى الريدانية
فخرج القضاة الأربعة وأعيان مشايخ العلماء . ثم
ان السلطان نادى في القاهرة بالزينة فزينت زينة
حافلة ، ورجت القاهرة لدخول سوار ، حتى بلغ
أجرة كل بيت على الشارع أربعة أشرفية ، وأجرة
كل دكان أشرفى ذهب ، بسبب الفرجة على
سوار . فخرجت البنت من خدرها تنظر الى سوار
الذى قتل العباد ، ويتم الأطفال ، ونهب الأموال .
فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول

سنة سبع وسبعين وثمانمائة ، دخل الأمير يشبك
الدوادار الى القاهرة ، وصحبته شاه سوار . وكان
الأمير تمرار التمشى دخل الى القاهرة وهو منفرد
عن الأمراء ، لم يرافقهم ، واستمر غضبان بسبب
ماحصل له مع برقوق نائب الشام ، لأجل قبضه
على سوار . وقد تقدم ذكر ذلك ... ثم ان سوارا
أدخل قدام الأمير يشبك وهو راكب على فرس ،
وعليه خلعة تماشيح على أسود ، وعلى رأسه
عمامة كبيرة ، وهو في زنجير كبير طويل ، وراكب
الى جانبه شخص من الأمراء العشراوات ، يقال
له تم الضبع من الظاهرية الجقمقية — وهو
مشكوك مع سوار في الزنجير — وكان قدام
سوار اخوته وأقاربه وأعيان من قبض عليه من
أمرائه ممن نزل معه من قلعة زمنوط ، فكانوا
نحوا من عشرين انسانا ، وهم راكبون على
أكادش ، وعليهم ملايط بيض ، وعلى رؤوسهم
عمائم ، وهم في زناجير ومشكوك معهم جماعة من
أعوان الوالى . فشق الأمير يشبك من القاهرة وهو
في موكب حافل ، وقدامه الأمراء ممن كان معه
في التجريدة ، وممن كان مقيما بمصر . وسارت
الأطلاب أمامه شيئا بعد شيء ، واصطفت الناس
على الدكاكين ، وكان له يوم مشهود بالقاهرة لم
يقع نظيره في الفرجة ، وكان من نوادر الزمان .
واستمر الأمير يشبك في ذلك الموكب حتى طلع
الى القلعة ، فعمل السلطان الموكب في القصر
الكبير ، وقبل الأمراء الأرض . ثم انتقل الى
الايوان ، فجلس به ، وكان من حين جدد معالمه
لم يجلس به سوى ذلك اليوم ، قصدا أن يعرض
سوارا هناك ، فتزاحمت عليه الناس ، فانتقل
السلطان الى الحوش ، وجلس على الدكة ، وطلب
سوارا هناك . فلما مثل بين يديه وبخه بالكلام ،

وعاتبه عتاباً لطيفاً ، وسوار ساكت لم يتكلم . ثم ان السلطان رسم بتسليم سوار الى الوالى يشبك ابن حيدر ، فتسلمه هو واخوته . ثم أخرجوا أخاه يحيى كاور الذى كان فى البرج ، وقد قبض عليه قبل ذلك ، وكان مسجوناً فى القلعة ، وسلمه للوالى فلما تسلمهم والى القاهرة نزع الخلعة عنه فى الحال ، وأحضروا لهم جمالاً ، فأركبوا سواراً على جمل ، وألبسوه ملوطة بيضاء ، وجعل فى عنقه طوق حديد ، وفيه عمود من حديد طويل ، وفى رأس العمود جرس ، حسبما قد رسم السلطان له بذلك . ثم سمروا اخوته وأقاربه على جمال ، وهم عرايا ورءوسهم مكشوفة . واخوة سوار الأربعة هم : أردوانة الأحذب ، وحذاد ، ويحيى كاور ، وسلمان ، وجماعة من أمرائه ... فلما سمروهم وأركبهم على ظهور الجمال ، نزلوا بهم من الصليية ، والمشاعلية تنادى عليهم : « هذا جزاء من بخامر على السلطان » . واستمروا على ذلك حتى وصلوا الى باب زويلة ، فشنكلوا سواراً ، وغلقوه فى وسط باب زويلة ، وأخوه يحيى كاور عن يمينه فى الدخول من باب زويلة لصوب باب النصر ، وأردوانة عن شماله كذلك ، وغلقوا حداذاً داخل الباب . وأما سلمان فكان أمرد مليح الشكل ، فرق الناس له ، فشنع فيه الأمير يشبك وخلصه من الشنكلة . ثم توجهوا بالباقي الى باب النصر فوسطوهم بأجمعهم . واستمر سوار معلقاً حتى مات هو واخوته ، فأقاموا معلقين يوماً وليلة — والناس ينظرون اليهم — ثم أنزلوهم وغسلوهم وكفنوهم وصلوا عليهم ، وتوجهوا بهم الى تل غال بالقرب من زاوية كهنبوش فدفنوهم هناك ، ثم قلعوا الزينة ، وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهب عليها أموال وأرواح ، وقتل بجماعة كثيرة من

الأمراء ، وكسر الأمراء ثلاث مرات ، ونهب بركهم . وقد انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم ، حتى ان الفلاحين طمعوا فى الترك ، وتهدلوا عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار . وكادت أن تخرج المملكة عن الجراكسة ، وقد أشرف سوار على أخذ حلب ، وقد خطب له فى الأبلستين ، وضربت هناك السكة باسمه ... ولولا لطف الله تعالى بالناس ، واخذال سوار لفسدت أحوال المملكة جداً .

وكانت صفة سوار أنه جميل الصورة ، حسن الشكل ، مستدير الوجه ، أبيض اللون ، مشرب بحمرة ، أشهل العينين ، أسود اللحية ، معتدل القامة ، ضخم الجسد . وكان فى عشر الأربعين من العمر ، وكانت مخايل الحشمة والראسة محصورة فيه ، يقرب فى الشكل من القاضى ناظر الخاص تاج الدين بن المقسى ، وكان شجاعاً بطلاً ، وكان له سعد خارق فيما وقع له من النصرة على عسكر مصر غير ما مرة ، وكان من أعظم أولاد دلفادر ، وقد وقع له ما لم يقع لأحد من أجداده قبله ، وقد شق على الأمير تميزا قتل سوار على هذا الوجه ، واستمر غضبان مدة . وفى واقعة سوار قال المنصورى :

يا أيها الملك الذى سطواته
تغنى عن العسال والبتار
علق سواراً فوق باب زويلة
ان كنت منه آخذاً بالثار
فلأنت تعلم أن ذلك معصم
ما كنت تتركه بغير سوار
وقوله أيضاً فى الأمير يشبك لما حضر الى القاهرة وصحبته سوار :
منذ وافى الأمير يشبك مصر
حبذا مصر موطن الأوطار

لبست حجل نيلها وتحلى

زند بابى زويلة بسوار

وفيه حضر الى القاهرة كسباى الظاهري
الحشقدى ، الذى كان دوادارا ثانيا ونفى الى الشام
فأرسل الأمير يشبك يشفع فيه ، فأجيب الى ذلك ،
فأحضر كسباى صحبته ، واستمر فى داره بظلالا
حتى مات كما سيأتى الكلام عليه .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على برسباى
الشرفى ، وقرره فى امرية الحاج بالمحمل ، وقرر
الشهابى أحمد بن الأتابكى تانى بك البردبكى
بامرية الركب الأول ، وكان متوعكا فى جسده
فأخذ يستغفى من السفر فما أغفى من ذلك .

وفيه توفى جاني بك الأبيض أحد الحجاب ،
وكان قد جاوز السبعين سنة وكان لا بأس به .

وفيه توجه القاضى شرف الدين الأنصارى الى
جهة الطينة ، وكان معه مائة مملوك من ممالك
الأمير يشبك الدوادار ، فلما وصل الى هناك وجد
فى البحر الملح مراكب فيها أفرنج يعبثون بالمسلمين
المسافرين ، فقبض على مركب منها وأسر من فيها
من الفرنج ، وأحضرهم صحبته لما عاد .

وفيه عزل قاضى القضاة الحنفى ابن الشحنة ،
وأمر بالتوكيل به ببطقة الزمام ، وذلك بسبب
ما وقع فى عقد المجلس الذى كان بين خوند شقرا
وبين أختها خوند آسية ، بسبب وقف الظاهر
برقوق ، فتعصب ابن الشحنة لخوند شقرا ،
فحنق السلطان منه وعزله ، وكان فى نفسه منه شىء
بسبب ولده عبد البر ، وكانت هذه آخر ولايته
للقضاء ، ولم يل بعدها القضاء . واستمر فى
الترسيم ببطقة الزمام بسبب تعلقات أوقاف
'حنفية' . ثم ان السلطان خلع على الشمسى شمس
ندين محمد الامشاطى ، وقرره فى قضاء الحنفية

عوضا عن محب الدين بن الشحنة بحكم انفصالة
عن القضاء ، فأفيض عليه شعار القضاء ونزل من
القلعة فى موكب حافل ، وكان قد تمنع من الولاية
غاية التمتع ، فألزمه بذلك السلطان .

وفيه شفع الأتابكى فى قاضى القضاة محب الدين
ابن الشحنة ، فنقل الى بيت كاتب السر حتى يقيم
حساب أوقاف الحنفية .

وفى جمادى الأولى توفى دقماق الأشرفى
الايئالى نائب القدس ، وكان شابا حسن الشكل
موصوفا بالشجاعة .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن
حسن بك الطويل ، ملك العراقين ، قد جمع من
العساكر ما لا يحصى ، وهو زاحف على بلاد
السلطان ، وقد بعث ولده محمدا مع عسكر
ثقليل ، وقد وصلوا الى الرها ... فكثرت القتال
والقتيل بين الناس بسبب ذلك ، فما صدق العسكر
أن خمدت عنهم فتنة سوار ، فانتشى لهم فتنة
حسن الطويل . وزاد الكلام بين الناس بأن هذا
ما هو مثل شاه سوار ، وأن هذا لا يطاق . فقلق
السلطان والعسكر لهذا الخبر فكان كما قيل فى
المعنى :

شكوت جلوس اسان ثقل

فجانا آخر من ذاك أثقل

فكنت كمن شكا الطاعون يوما

فجاء له على الطاعون دمل

وفى جمادى الآخرة عين السلطان تجريدة الى
حسن الطويل ، وعين بها من الأمراء المقدمين
ثلاثة ، وهم : جاني بك قلقيسر أمير سلاح ،
وسودون الأقرم ، وقراجا الطويل الاينالى ، وعدة
من الأمراء الطبلخانات ، والعشراوات ، ومن

الجند نحو من خمسمائة مملوك . فلما عينهم أنفق عليهم وأمرهم بالمسير الى حلب بسرعة من غير تأخير .

وفيه وقع تشاجر عظيم بين الأمير يشبك الدوادار ، وبين الأمير خاير بك بن حديد ، وذلك بحضرة السلطان . وكان سبب ذلك صحصاح الكاشف ، فانه وقع بينه وبين الأمير خاير بك بسبب بلاده التي في الفيوم ، فتعصب الأمير يشبك الصحصاح ، فوقع بينهما ما لا خير فيه .

وفيه أخرج السلطان مقدمة سودون الأفرم وقد استعفى من السفر الى حسن الطويل ، فلما أخرج عنه التقديم أنعم بها على قجماس الاسحاقى ورتب لسودون الأفرم ما يكفيه ، وبقي طرخانا بمصر . وفيه شفع في جاني بك المشد الأشرفى برسباى وكان مقيما بالقدس بطالا ، فحضر الى القاهرة ، ورتب له ما يكفيه ، واستمر مقيما بداره مدة حتى مات .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر حسن الطويل قد استولى على كحنا وكركر ، وبعث مكاتبة مكتوبة بماء الذهب الى شاه بضاع صاحب الأبلستين ، بأن يسلم اليه القلاع التي حوله ولا يخرج عن طاعته . وأرسل له في المكاتبة ألفاظا مزعجة بما معناه « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ثم هدده في مكاتبته بأنه متى خالفه يحصل له منه ما هو كيت وكيت . فأرسل بضاع المكاتبة للسلطان ، فلما قرأها السلطان وعلم ما فيها ، انزعج لذلك ، وتأثر . ثم عين الأمير يشبك الدوادار باش العسكر . وعين تجريدة أعظم من الأولى التي عينها قبل ذلك . فعين بها من الأمراء المقدمين يشبك الدوادار ، واينال الأشقر ، وبرسباى قرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات عدة وافرة . وكتب من

الجند فوق ألفى مملوك . ثم أنفق عليهم وأخذوا في أسباب الخروج الى السفر ، فخرجت التجريدة الأولى قبل ذلك . وكان باش العسكر جاني بك قلقيسير أمير سلاح ، ومن معه من الأمراء . فلما رحل من الريدانية خرج الأمير يشبك ومن معه من الأمراء ، فرجت لهم القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود .

وفي رجب لما صعد القضاة للتهنئة بالشهر صعد معهم الشيخ أمين الدين الأقصراني ، فأخذ السلطان يتكلم معه بسبب حسن الطويل ، فتكلم الشيخ أمين الدين بكلام انزعج منه السلطان ، وقد تقدم له معه في واقعة سوار بما تكلم به في ذلك المجلس ، وقد تأثر منه السلطان في الباطن . وفيه أرسل نائب الشام مكاتبة حسن الطويل الى السلطان ، وكان أرسل يهدده في هذه المكاتبة ، ويأمره بأشياء لا يمكن شرحها . وكتب في صدر المكاتبة « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن ورديش نائب البيرة قد قبض على جماعة من عسكر حسن الطويل ، وكسر جاليشه ... فسر السلطان بهذا الخبر .

وفيه وصل الى القاهرة من بلاد جركس ، أخت السلطان واسمها جان كين ، ومعها ولدها ، فصعدت الى القلعة في محفة وحولها الخدام ، وحضر معها عدة نساء جراكسة .

وفيه رحل الأمير يشبك هو وعسكره من الريدانية ، وكان مصروف السلطان على هذه التجريدة فيما أنفقه مبلغ أربعمائة ألف دينار ، وعشرين ألف دينار ، خارجا عن أشياء كثيرة بعثها للأمراء . فلما وصل الأمير

يشبك الى الخاقاه ، نزل اليه السلطان وودعه هناك ، واجتمع به في خلوة ، وعرض عليه مكتابة حسن الطويل التي بعثها الى نائب الشام .

وفي شعبان ثارت جماعة من المماليك الجلبان ، على شرف الدين بن كاتب غريب ، وكان متكلماً في الوزارة والاستدارية عن الأمير يشبك ، فتوجهوا الى داره ، وكسروا أبوابه ، فهرب واخفى . وكانت هذه أول حوادث الجلبان في الفتنك . واستمرت الحوادث منهم تزايد حتى كان منهم ما سنذكره في موضعه .

وفيه حضر قاصد نائب حلب وأخبر أن نائب حلب قبض على عثمان بن أغلبك ، وشخص آخر كان استاداراً على مقدمة حسن الطويل التي كانت بحلب ، وقبض على جماعة آخرين لحصوا من أربعين نفراً ، وقد نسبوا الجميع الى المواطاة مع حسن الطويل ، وكانوا يكاتبونه بأخبار المملكة . فأمر نائب حلب بشنقهم .

وفيه هلك بترك النصارى الملكية ، وهو فخر ابن الصيفى ، وكان فى النصارى لا بأس به .

وفيه كانت وفاة الشيخ فخر الدين المسمى ، وهو عثمان بن عبد الله بن عثمان بن عفان الشافعى . وكان من أعيان علماء الشافعية ، وكان عالماً فاضلاً بارعاً فى الفقه ، دينا خيراً وافر العقل . وذكر بأن يلى القضاء الأكبر غير ما مرة . وولى عدة تداريس جليلة ، منها مشيخة الحديث بالشيخونية ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر . فلما مات قرر فى مشيخة الحديث بالشيخونية الشيخ جلال الدين السيوطى عوضاً عن الفخر المسمى .

وفى رمضان نزل السلطان الى دار ترم يعوذه ، وكان نقطعاً عن الركوب ، فسلم عليه وعاد الى القلعة .

وفيه وصل ركب من المغاربة من تونس ، وكان صاحبهم الحرة زوجة صاحب تونس . وحضر صاحبها قاضى الجماعة الشيخ أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عمر القلجاني ، وكان من فضلاء علماء المالكية ، فأكرمه السلطان والأمراء ، ورأى من العز والعظمة حظاً وافراً .

وفيه صلب على باب زويلة جارية سوداء قد قتلت ستها ، فأمر القاضى اللقائى المالكى بصلبها حتى تموت .

وفيه توفى جاني بك قرا العلائى الأشرفى أحد الأمراء العشراوات وشاد الشون وكان لا بأس به .

وفيه توفى أيضاً أرغون شاه استادار الصحبة ونائب غزة . وكان هو الذى قبض على الظاهر تمرغنا لما تسحب من دمياط ، وكان أصله من ممالك الأشرف برسباى ، وكان محمود السيرة . وفيه ختم البخارى بالقلعة ، وكان ختما حافلاً وخلع فيه السلطان على القضاة ومشايخ العلم . وفرقت الصرر على الفقهاء .

وفى شوال جاءت الأخبار بوفاة برقوق الناصرى الظاهرى نائب الشام ، وكان أصله من ممالك الظاهر جقمق ، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً فى الحرب ، عارفاً بأنواع الفروسية فى فنون لعب الرمح والرماية بالنشاب ، وولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشربخانة ، ثم مقدمة ألف ، ثم نيابة الشام ، ومات بها — وكان قد جاوز الستين سنة من العمر — فلما حضر سيفه أظهر السلطان الحزن والبكاء وتأسف عليه ، وكان عنده بمنزلة الأخ . ثم أمر بإحضار أولاده وعياله الى القاهرة ، ثم رسم بنقل جثته الى القاهرة ليدفن فى تربته التى بباب القرافة ، وكان لبرقوق بر ومعرفة . وهو الذى أنشأ القبة على ضريح العارف بالله

الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى ورضى عنه .
وفيه توفي الأتابكي جرباش كرت المحمدي
الناصري وكان طرخانا الى أن مات بمصر . وكان
قد قارب التسعين سنة من العمر ، وأصله من
ممالك الناصر فرج . وكان أميرا جليلا حشما
رئيسا ، ولى عدة وظائف سنية ، منها الأمير آحورية
الكبرى وامرية مجلس ، وامرية سلاح . ثم بقى
أتابك العساكر بمصر ، وترشح أمره الى أن يلى
السلطنة لما وثبت جماعة الأشرفية على الظاهر
خشدتم ، كما تقدم ، وكان متزوجا بخوند شقرا
بنت أستاذ الناصر فرج . ثم نفى بعد ما وقع له
ما ذكر الى دمياط . ثم أحضر الى القاهرة ومات بها
وجرى عليه شدائد ومحن ، كما قيل :

إذا طبع الزمان على اعوجاج

فلا تطمع لنفسك في اعتدال

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك
الدوادار دخل الى حلب ، وكان له يوم مشهود ،
فلما استقر بحلب قدم عليه قاصد من عند حسن
الطويل ، وعلى يده مكتابة شرحها أنه أرسل
بطلب جماعته الذين أسروا وسجنوا بحلب ، وأنهم
إذا أطلقوهم يطلق من عنده من الأسرى . وكان
عنده دولات باى النجمي الذي كان نائب ملطية ،
وجماعة آخرون ، فلم يلتفت اليه يشبك ولا أجابه
عن ذلك بشيء .

وفيه توفي الزيني عبد الرحمن بن الكويز الذي
كان ناظر الخاص ، وهو عبد الرحمن بن داود بن
عبد الرحمن بن خليل . وكان أصلهم نصارى من
الشوبك ، وحضر جدهم داود صجبه المؤيد
شيخ لما قدم الى مصر . وكان عبد الرحمن رئيسا
حشما في سعة من المال ، وولى عدة وظائف سنية ،
منها يابة الاسكندرية ، ثم ولى الامتادارية ونظر
الخاص . ثم جرى عليه شدائد ومحن ، وفر الى

بلاد ابن عثمان ملك الروم ، وأقام هناك مدة ثم عاد
الى مصر . وكان يدعى أنه يعرف علم الحرف ، وكان
له نظم سافل ومولده في سنة ثمانمائة .
وفيه توفي نوروز الأشرفي ، كاشف الوجه القبلي ،
وكان لا بأس به .

وفيه خرج الحاج على العادة ، وكان الشهابي
أحمد ابن الأتابكي تاني بك أمير ركب الأول
مريضا على غير استواء ، فلم يرق له السلطان ،
وخرج على غير استواء ، وهو في محفة في النزاع .
فلما وصل الى بركة الحاج مات ليلة الرحيل ، وكان
حشما متادبا رئيسا ، وكان من الأمراء العشراوات ،
وتوجه الى الحجاز أمير ركب الأول غير ما مرة .
وكان مولده بعد العشر والثمانمائة ، فلما بلغ
السلطان موته طلب جاني بك الأشقر أحد مماليكه
وخواصه ، ورسم له بأن يتوجه أمير ركب الأول
عوضا عن الشهابي أحمد بن تاني بك ، فتسلم
جميع بركه وجماله ، وسافر على الركب الأول ، ثم
حمل الشهابي أحمد الى القاهرة وغسل وكفن وصلى
عليه ودفن ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، ولم
يكن يمر الحج على بال جاني بك في هذه السنة
فكان كما قيل :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا

وآخر يأتي رزقه وهو نائم

وفيه أرسل السلطان خلعتين : احداهما الى جاني
بك قلقسير أمير سلاح ، بأن يستقر في نيابة الشام
عوضا عن برقوق بحكم وفاته — وكان المشار اليه
بالتجريدة — فتوجه الى الشام واستقر بها . وأما
الخلعة الثانية فبعث بها الى اينال الأشقر ، بأن
يستقر في امرية سلاح عوضا عن المذكور المتقدم .

وفي ذي القعدة طلع الخليفة المستنجد بالله

يوسف ومعه القضاة الأربعة ليهنوا السلطان بالشهر على العادة ، فتكلم الخليفة مع السلطان في أمر ابنته ست الخلفاء ، التي كان عقد عليها خشكلدى السيني . فطال الكلام في ذلك وانفض المجلس على غير طائل . ثم فسح عقدها عن خشكلدى فيما بعد . وفي هذا المجلس تكلم السلطان مع قاضي القضاة الحنفى شمس الدين الامشاطي ، في اقامة قاضي برسم حل الأوقاف والامتبدالات ، فقال : « ان السلطان له ولاية التفويض الى من شاء من النواب ، وأما أنا فلا ألقى الله تعالى بحل وقف ، ولا بعمل امتبدال » وقام من المجلس كالغضبان . فتأثر السلطان منه في الباطن رحمه الله تعالى ورضى عنه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك بعث جماعة من العسكر الى البيرة لقتال عسكر حسن الطويل ، وقد بلغه أن حالهم تلاشى الى الفرار ، وأن حسن الطويل أرسل يكتاب الإفرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر ، وهذا أول ابتداء عكسه لكونه أرسل يستعين بالافرنج على قتال المسلمين .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان ملك الروم أرسل قاصده الى الأمير يشبك ، بأن يكون عوناً للسلطان على قتال حسن الطويل ، فآكرم القاصد ، وأرسل صحبته القاضي شمس الدين بن أجا قاضي العسكر ، بأن يتوجه الى ابن عثمان وعلى يده هدية حافلة ، ومكاتبة بأن ينتهى بينه وبين السلطان مودة ، بسبب أمر حسن الطويل .

وفيه وصل الى السلطان مكاتبة من عند ابن الصوا من حلب ، يخبر فيها بأن الأمير يشبك قد اتصر على عسكر حسن الطويل ، ورحلهم عن البيرة ، وأن والد حسن الطويل قد جرح جرحات

بالغة ، وآخر من أولاده أصيب في عينه ، ووقع بين الفريقين مقتلة شديدة ، وقتل في المعركة شخص من الأمراء العشراوات يقال له قرقماس المصارع ، المعروف بالعلائي أمير آخور رابع ، وكان صهر مؤلف هذا التاريخ ، زوج أخته ، وكان ابننا حسنا دينا خيرا موصوفا بالشجاعة والفروسية علامة في رمى النشاب والصراع ، أصيب بسهم في صدغه فمات لوقته . ولم يقتل في هذه المعركة أحد من العسكر سواه . ثم رحل عسكر حسن الطويل من البيرة ، وقد خذلهم الله تعالى بعد ما عبدوا من الفرات ، وطرقوا البلاد الحلبية من أطرافها ، فردهم الله تعالى عن المسلمين . وقد قالت الشعراء في هذه النصرة عدة مقاطيع ، فمن ذلك قول شمس الدين القادري :

أيا حسن الطويل بعثت جيشا
كأغنام وهن لنا غنائم
فغار الحرب قد قتلت سوارا
وأنت لسببكها لا شك خاتم
وقال المنصوري :

هل عارف بالخارجي المعتدى
يخبر الينا باسمه وصفاته
قالوا نعم حسن فقلت هلاكه
قالوا الطويل فقلت ليل شتاته
وقوله أيضا :

أيها العسكر الذي سار قصدا
لقتال الطويل لا تنظروه
لا تطيلوا مع العدو كلاما
في وغي الحرب والطويل اقصروه
وقال محمد بن شادبك :

عروس الحرب تقطعها المواضي
بأرواح الأعراب والأعاجم

وقد جليت وفي يدها سوار
وها حسن لكف الحرب خاتم
وقوله أيضا :

أيا حسن الطويل قصرت عمرا
وفاتتك المعالي والمغانم
سوار قد سبكناه ابتداء
وأنت بناره للسبك خاتم

وفي هذا الشهر كسفت الشمس كسوفاً عاماً ،
وأظلمت الدنيا ، واستمر الكسوف نحواً من ثلاثين
درجة .

وفيه قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ،
وقد أتى من جهة البحر الملح ، فأكرمه السلطان ،
وأحضر صحبته مكاتبة حسن الطويل إلى ملوك
الافرنج بأن يمشوا على ابن عثمان و السلطان مصر
من البحر ، وهو يمشى عليهم من البر ، وقد ظفر
هذا القاصد بقاصد حسن الطويل ، وهو قاصد
نحو بلاد الافرنج ، فقبض عليه في أثناء الطريق وهو
في مركب وأسره . ثم ان القاصد أقام بمصر أياماً
وأضافه السلطان وأذن له في السفر وخلع عليه . ثم
ان السلطان عين دولات باي حمام الأشرفي ، بأن
يتوجه قاصداً نحو ابن عثمان .

وفي ذي الحجة تغير خاطر السلطان على الأمير
خاير بك بن حديد الأشرفي ، وأمره بلزوم داره ،
وهذه أول كائنة وقعت له . ثم جرى عليه بعد ذلك
ما هو أعظم من ذلك ، فأقام بداره أياماً لا يركب .
ثم بعث السلطان خلفه إلى ضرب الكرة . فلما
طلع إلى القلعة وضرب الكرة ، إتفق أن السلطان
قد سقط من يده الصولجان ، فترجل خاير بك عن
فرسه وناوله للسلطان ، فخلع عليه وأركبه فرساً
من خيوله ، ونزل إلى داره وهو مكرم .

وفيه توفي جانم اللفاف المؤيدي ، وكان أمير
عشرة ولكن مات طرخانا .
وتوفي طوخ النوروزي وكان أمير عشرة ومات
طرخانا .

وفيه حضر مبشر الحاج ، وأخبر بأنه لما وصل
المحمل العراقي ، ودخل المدينة الشريفة ، كان
أميرهم شخص يقال له رستم ، وصحبته قاض
يقال له أحمد بن وجيه ، فضيقوا على قضاة المدينة ،
وأمرهم بأن يخطبوا في المدينة باسم الملك العادل
حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين . فلما خرجوا
من المدينة وقصدوا التوجه إلى مكة ، كاتب أهل
المدينة أمير مكة بما وقع منهم ، فخرج اليهم
الشريف محمد ابن الشريف بركات ، ولأقاهم من
بطن مر قبل أن يدخلوا إلى مكة . وقبض على
رستم أمير ركب المحمل العراقي ، وقبض على
القاضي الذي صحبته ، وعلى جماعة من أعيانهم ،
وأودعهم في الحديد ليعيئهم إلى السلطان . ثم أطلق
بقية من كان في ركبهم من الحجاج ، ولم يتعرض
لهم .

وفيه جاءت الأخبار ب وفاة الشيخ المسلك العارف
بالله تعالى سيدي ابراهيم بن علي بن عمر المتبولي
رحمه الله تعالى . توفي بأسدود بالمنوفية ، ودفن
بها . وكان خرج إلى زيارة بيت المقدس فأدركته
المنية هناك فمات . وكان خيراً ديناً مباركاً ول للناس
فيه اعتقاد حسن . وكانت شفاعته عند السلطان
والأمراء لا ترد . وكان له بر ومعروف ، وأنشأ
ببركة الحاج حوضاً وسبيلاً وبستاناً . وكان يأوي
الفقراء والمنقطعين ، وكان نادرة في عصره صوفي
وقته .

وفيه جاءت الأخبار ب وفاة عالم سمرقند العلامة
الشيخ علاء الدين علي بن محمد الطوسي

البتاركانى الحنفى ، وكان له شهرة ببلاد سمرقند .
والف فى العلوم الجليلة ، وكان من أعيان علماء
الحنفية .

وفيه توفى اياس الطويل المحدثى الناصرى ،
الذى كان نائب طرابلس ، الذى تقدم ذكره .

وفيه من الوقائع أن البرهان البقاعى وقاضى
الجماعة أبو عبد الله القلجانى المغربى المالكى وقع
بينهما بحث فى بعض المسائل ، فوقع من البرهان
البقاعى فى ذلك المجلس جواب ضبطه عليه قاضى
الجماعة ، وصرح بكفره وأشهد عليه وأراد أن
تقام عليه الدعوى عند قاضى القضاة المالكى . فلما
علم كاتب السر ابن مزهر بذلك ، طلب البقاعى
عنده ، وحكم بعض القضاة بحقن دمه . ولولا
كاتب السر ما حصل للبقاعى خير . والذى جرى
على البقاعى بسبب سيدى عمر بن الفارض رحمه
الله ورضى عنه ، فانه كان رأس المتعصين عليه .
واستمر البقاعى فى عكس حتى مات .

سنة ثمان وسبعين وثمانمائة (١٤٧٣ / ١٤٧٤ م) ؛

فيها ، فى المحرم ، وقع الرخاء بالديار المصرية ،
حتى ابتاع الرطل اللحم السليخ بثمانية نقره ،
والبطة الدقيق بأربعة أنصاف . ووقع الرخاء فى
سائر الحبوب ، وابتاع القنطار البطيخ العبدلاوى
بثلاثة أنصاف . ووقع الرخاء فى سائر المأكولات
قاطبة .

وفيه جاءت الأخبار من الاسكندرية بأن
الافرنج قد عبثوا ببعض سواحلها ، وأسروا من
المسلمين تسعة أنفار ، وفعلوا مثل ذلك بشجر
دمياط . فلما جرى ذلك عين لهم السلطان فى الحال
الأمير محمد بن قجماس الأسحاقى أحد مقدمى
الألوف ، وأمره بالخروج من يومه . فخرج بعد

العصر وسافر من البحر فى عدة مراكب ، وأمره
السلطان أن يتبع الفرنج حيث ساروا .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نوى ،
وقد أضافه هناك ابن طفيش ضيافة حافلة ، وأقام
عنده الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

وفيه رسم السلطان بعزل القاضى القمى المالكى ،
أحد نواب الحكم ، بسبب حكم حكمه . فشكاه
الخصم الى السلطان بأنه جار عليه ، فحقق منه
السلطان وأمر بعزله .

وفيه وصل الحاج وصحبته ابن أمير مكة ،
والقاضى برهان الدين بن ظهيرة الشافعى ، وولده
أبو السعود وأخوه ، وأحضروا صحبتهم رستم
أمير الحاج العرقى . والقاضى اللذين بعث بهما
حسن الطويل وصحبتهما كسوة الكعبة المشرفة ،
وأمر أهل المدينة والكعبة بأن يخطبوا فيهما باسم
العادل حسن الطويل ، فسجن السلطان رستم
والقاضى فى البرج الذى بالقلعة ، وتأخر الحاج فى
السنة المذكورة عن مياعده ثلاثة أيام ، بسبب موت
الجمال وقلة المياه . ثم أرسل خاير بك الخشقدمى
الذى سمي « سلطان ليلة » ، يسأل فضل السلطان
بأن ينقله من مكة الى القدس ليقيم بها حتى
يموت ، فشنع فيه الأمير يشبك الجمالى ، فأجيب
الى ذلك ، ونقل من مكة الى القدس . وحضر
صحبة الحاج الشيخ ساد الأذربيجانى الحنفى ،
وهو شيخ تربة الأمير يشبك الدوادار .

وفى صفر خلع السلطان على القاضى ابراهيم بن
ظهيرة ، وأعادة الى قضاء الشافعية بمكة ، ونزل
من القلعة فى موكب حافل ومعه القضاة الأربعة ،
وأعيان الدولة .

وفيه خلع السلطان على تيمراز التمشى ، وقرره

في رأس النوبة الكبرى عوضا عن اينال الأشقر
بحكم انتقاله الى امرية سلاح .

وفيه عين السلطان برسباي الأشرفي استادار
الصحبة ، بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ملك
الروم وصحبته هدية سنية .

وفي ربيع الأول كان وفاء النيل المبارك ، وقد
أوفى خامس مسرى الموافق لخامس ربيع الأول .
فلما أوفى توجه الأمير لاجين الظاهري أمير مجلبين
وفتح السد على العادة . وفي ذلك اليوم نودي
على النيل بزيادة اثني عشر اصبعاً بعد سبعة عشر
ذراعاً ، فكان زيادته ثلاثة أذرع في ستة أيام .

وفيه عمل السلطان المولد النبوي بالقلعة ، فلم
يحضر فيه من الأمراء المقدمين سوى ثلاثة أنفار .
وكان أكثر الأمراء غائباً في التجريدة .

وفيه توفي القاضي زين الدين عبد القادر بن
عبد الرحيم بن الجيعان . وكان رئيساً حشماً كثير
العشرة للناس ، ومات وهو في عشر الخمسين .

وفيه جاءت الأخبار بهلاك صاحب قبرس ، وهو
جاكم بن جوان بن حينوس الكيتلاني ، وكان من
أعيان ملوك الافرنج ، وهو الذي حضر الى الديار
المصرية في دولة الأشرف اينال ، وكان شاباً حسناً
في شكله ، فلما هلك تولى من بعده أخوه .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان بعث عسكراً
لمحاربة حسن الطويل ، فسر السلطان لذلك .

وفيه توفي الأمير يشبك الفقيه ابن سلمان شاه
المؤيدي الذي كان دواداراً كبيراً في دولة الظاهر
خشقدم ثم نفى الى دمياط . ثم شفع فيه وعاد الى
القاهرة ، وأقام بها بطالاً حتى مات . وكان ديناً
خيلاً ، وله اشتغال بالعلم . وكان قد شاخ سنه ،
وقاسى شدائد ومحناً ومات ولده قبله بمدة يسيرة ،

وغص عليه ، وكان ولده شاباً حسناً مديح الشكر
مشهوراً بالفروسية . وقد تقدم ذكر ذلك .

وفي ربيع الآخر أطلق السلطان رستم أمير الحج
العراقي ، وأطلق القاضي الذي صحبه ، وخلع
عليهما وبعثهما الى بلادهما ترضياً لحاضر حسن
الطويل ، وقد أشار بذلك الأمير بشيخ الدوادار .

وفي جمادى الأولى جاءت الأخبار بوفاء الأشرفي
استادار الصحبة ، الذي توجه قاصداً الى
بلاد ابن عثمان ، وكانت وفاته بحلب ، وكان لابن
به في ذاته .

وفيه خلع السلطان على الماس الأشرفي أحد
خواصه . وقرره في استدارية الصحبة عوضاً عن
برسباي الشرفي بحكم وفاته . وعين قاصداً الى
ابن عثمان .

وفيه خلع السلطان على جاني بك الأشقر
الدوادار ، وقرره في امرية الحاج بركب المحمل ،
وخلع على قانصوه خمسمائة الخاصكي ، أحد
ماليك السلطان ، وقرره في امرية الركب الأول ،
وقانصوه هو الذي تسلطن ولم تتم له السلطنة .
وجرى له ما جرى .

وفيه أمر السلطان بتوسط عبد صغير السن
قد ذبح سيده وأخذ مالها وهرب ، فقبض عليه من
ليته .

وفي جمادى الآخرة ثار جباة من الممالك
الجلبان ، على السلطان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء
من الصعود ، واستمر الحال على ذلك غداً ذلك
اليوم ، حتى سكن الأمر قليلاً بعد ما قصدوا
جماعة من خواص السلطان .

وفيه من الوقائع الغريبة أن شحصاً حليلاً كان

عنده مسن من الرخام الأخضر له عنده نحو من ثلاثين سنة . فاتفق أن ذلك المسن سقط من يد صاحبه فانكسر نصفين ، فخرجت منه دودة غريبة الشكل ، فمد الحلبي يده اليها ، وأخذها يقلبها فلدغته في اصبعه ، فاضطرب ساعة ووقع لوقته ميتا . وهذا من غريب الاتفاق .

وفيه أرسل يشبك يسأل في الحضور . فان العسكر قد قلق من قلة العليق ، فلما بلغ السلطان حنق واغتاظ . ثم أذن لهم بالحضور بعد ذلك .

وفي رجب نزل السلطان ، وتوجه الى الرماية ببركة الحبش ، فاصطاد ثلاثة كراكي ، وعاد من يومه ، وشق من القاهرة في موكب حافل .

وفيه ثار جماعة من الجلبان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء والمباشرين من الصعود الى القلعة ، وكان رأس الفتنة شخصا من ممالك السلطان يقال له على باي الخشن . فلما خمدت هذه الفتنة ضربه السلطان نحو من ألف عصا ، ونفاه الى الشام . فجاءت الأخبار بعد مدة بأنه سقط عليه حائط ومات تحت الردم . ففرح فيه غالب الناس .

وفيه جاءت الأخبار باستقرار قراجا الطويل الاينالى في نيابة حماه ، عوضا عن بلاط اليشبكي بحكم صرفه عنها . وحمل بلاط عقيب ذلك الى السجن بقلعة دمشق . ومات في السجن بعد مدة يسيرة . وكان قد شاخ وجاوز السبعين سنة من العمر .

وفي شعبان عاد الأتابكي أذربك من البحيرة ، وخلع عليه السلطان ، ونزل الى داره في موكب حافل .

وفيه حضر من الجند جماعة كثيرة ممن كان في

التجريدة ، صحبة الأمير يشبك الدوادار ، فلما حضروا اختفوا بالقاهرة ، ولم يظهروا . وفيه وقعت نادرة غريبة : وهى أن أبا بكر بن مزهر كاتب السر ، عطس بحضرة السلطان ، فشتمه السلطان مرتين ، فعد ذلك من النوادر .

وفي رمضان أنعم السلطان على تغرى بردى ططر بتقدمة ألف ، وهى مقدمة قجماس الاسحاقى ، مضافة الى مقدمة قراجا الطويل الاينالى ، وقد انتقل الى نيابة حماه .

وفيه قرر ملاح اليوسفى الظاهرى في نيابة القلعة .

وفيه كان دخول الأمير يشبك الدوادار الى القاهرة وقد عاد من التجريدة . فكان يوم دخوله يوما مشهودا ، فخلع عليه السلطان ، ونزل الى داره في موكب حافل .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، وخلع في ذلك اليوم على قضاة القضاة ومشايخ العلم ، وفرقت الصرر على الفقهاء .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم دمشق الشيخ زين الدين خطاب بن عمر بن مهنا بن يوسف بن يحيى العجلونى . وكان عالما فاضلا مفتيا من أعيان الشافعية . ومولده سنة تسع وثمانمائة .

وفي شوال كان موكب العيد حافلا ، حضر في ذلك اليوم بالقلعة قاضى مكة البرهان بن ظهيرة وولده أبو السعود وأخو البرهان بن ظهيرة ، وكان الشريف بركات ابن أمير مكة حاضرا وجماعة من أعيان مكة . فخلع السلطان على الجميع في ذلك اليوم .

للناس ، من نهب وخطف بصائع الناس . وغير ذلك .
فبات السلطان تلك الليلة في جامع زين الدين
الأستادار الذي ببولاق ، فأضافه تلك الليلة بعض
قصاة بولاق ، وهو القاضي تقي الدين البرمزي
امام الجامع المذكور وخشيته . ضيفة حافة .
فشكر له السلطان ذلك .

وفي ذي الحجة قصد جماعة من المماليك الجبلان
الآخرين بالأمير يشبك الدوادار . وفصدوا منه .
ففر منهم ، وتوجه الى نواحي الجيزة حتى بعد
الفتنة . فاستمر غائبا نحو من حسنة عشر يوما
ففي هذه المدة كثر القتل والقتل بين الناس . وامتنع
الأمراء من الصعود الى القلعة والسلطان منهم
بالدهيشة ، كالعضبان من ممالكه ، والأبواب مغلقة
عليه . فطلع الأتابكي أزبك ، وأزبك اليوسفي ،
وتمر حاجب الحجاب ، وكاتب السر ، وشرف الدين
الأنصاري ، وآخرين من الأمراء ... على بهم
يتلفون بالسلطان ، ويمشون بينه وبين ممالكه
بالصلح . فامتنع السلطان من ذلك ، وصمم على عدم
الصلح مع المماليك . ثم خرج الى الحوش وجلس
على الدكة ، وطلب من كان رأس الفتنة في هذه
الحركة ، وهو شخص من المماليك يعرف بالأقطش ،
فأمر بتوسيطه فجردوه من ثيابه في الحال ، فشتم
فيه الأمراء فما أجاب الا بعد جهد كبير ، ثم ضرب
ذلك المملوك فوق ألف عصا ، وسجنه بالبرج .
وهذا كله جرى والأمير يشبك غائب في الجيزة لم
يحضر الا بعد أيام ، حتى سكنت هذه الفتنة .

وفيه حضر الملك المنصور عثمان بن الظاهر
جقمق بطلب من السلطان — وهذه ثاني مرة حضرها
الى القاهرة — فلما حضر أكرمه السلطان ، وخلع
عليه ، ونزل في دار الأتابكي أزبك عند أخته . ثم
أمره بالصعود الى القلعة لضرب الكرة مع الأمراء ،

وفيه خرج الحاج على العادة وكان أمير ركب
المحمل جاني بك الأشقر ، وأمير ركب الأول
فانصوه خمسمائة ، فالتزم الأمير يشبك بعمل يركه
من ماله . وكان الأمير يشبك قد عقد على أخت
قائصوه وصاهره ، وخرج صحبة الحاج شاهين
نائب جدة ، وخرج القاضي ابراهيم بن ظهيرة
وجماسته ، وابن أمير مكة قاصدين التوجه الى مكة
المشرفة شرفها الله تعالى وعظمها . وقد أوردوا
للسلطان في هذه الخطرة نحو من مائة ألف دينار .
فأكرمهم السلطان وأجلهم ، ورب لهم ما يكفيهم
من الأسطة وغير ذلك . وأنزلهم في بيت أم ناظر
الخاص يوسف الذي ببركة الرطلي ، ورأوا فيها
بهجة أيام النيل . ثم بعد ذلك سافروا .

وفيه وقف الأمير يشبك الدوادار الى السلطان ،
واستعفى من الوزارة ومن الاستادارية ، فأجابه
السلطان الى ذلك ، ولكن حتى يعلق سنته . وكان
من أمره ما سنذكره .

وفي ذي القعدة رسم السلطان ليشبك الجمالي ،
بأن يخرج قاصدا لابن عثمان ملك الروم ، وأبطل
الملاس الذي كان قد تعين قبل ذلك .

وفيه تزوج أزدمر الطويل الاينالى بنت الملك
المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان له مهم
حافل .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجبلان ونزلوا الى
جهة بولاق فنهبوا ما فيها . ثم قصدوا شونة الأمير
يشبك الدوادار ، فنهبوا ما فيها ، وصاروا يأخذون
جمال السقايين ، ويحملونها ما نهبوه من الشعير .
فلما تزايد الأمر منهم نزل السلطان وهو سائق ،
ومعه مقدم المماليك ، ولكن ما نزل الا بعد فوات
الأمر . وحصل منهم في ذلك اليوم غاية الضرر

الاشاعة . وقد ذكر موته غير ما مرة ، ثم يظهر أنه كذب .

وفي صفر أمر السلطان بقطع خصيتي شخص من الأتراك ، يقال له شاهين ، وهو خازن دار اينال الأشقر . وكان ثقل عنه للسلطان أنه فعل الفاحشة ببعض مماليكه الأحداث ، وأنه كثير العشرة لهم . فخصاه السلطان بمصر العتيقة وبريء من ذلك بعد مدة . وعاش مدة طويلة ومات . وكان ذلك في أيام ظهور شخص يهودى بمصر العتيقة ، عارف بالاختصاص ، وفعل ذلك مع جماعة كثيرة من الناس ، وبرئوا من ذلك .

وفي ربيع الأول تغير خاطر السلطان على الأمير قانصوه الخفيف الاينالى ، أحد مقدمى الألوف ، فرسم لنقيب الجيش بأن يتوجه الى داره ويخرجه منفيا الى دمياط ، فتوجه اليه وأخرجه من يومه . وحصل لقانصوه الخفيف منه غاية البهدة . وأخرجه خروج الشؤم . فكثر القال والقليل بسبب ذلك .

وفيه في ليلة الخميس عاشره ثارت فتنة عظيمة من المماليك الجلبان ، وقصدوا قتل الأمير يشبك ، وهو في داره . فلما بلغ السلطان ذلك بعث للأتابكى أزبك وبقية الأمراء أن يلبسوا آلة الحرب ، وأن يشبوا على المماليك الجلبان . فاضطربت الأحوال ، وماجت القاهرة ، وغلقت الأسواق ، واتسع أمر الفتنة . فأشار بعض الأمراء على السلطان بخمود هذه الفتنة . وخشوا من أمر طائفة الاينالية ، لأنهم تأثروا لنفى قانصوه الخفيف . فبعث السلطان ألماس استادار الصحبة ، ومعه عدة وافرة من المماليك الجلبان ، الى دار الأمير يشبك الدوادار ، فقبلوا يده ،

وعومل معاملة السلاطين في ارخاء البند الأصقر ، وتغيير الفرس في مكان يغير فيه السلطان فرسه ، حتى عد ذلك من النوادر التي ما وقعت قط . وأقام الملك المنصور بالقاهرة نحو شهرين حتى عاد الى دمياط . وكان في غاية العز والاكرام . ووقع له أمور ما وقعت لأحد من أبناء الملوك قبله . وكان حضوره الأول بسبب الحج ، وهذه المرة بسبب زيارة السلطان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة البدرى حسن بن المزلق ناظر جيش دمشق . وكان رئيسا حشما ، ولى عدة وظائف سنية .

وفيه توفي الأمير سودون الأفرم المحدثى الظاهرى ، وكان أحد مقدمى الألوف ، ولكن مات وهو طرخان . وكان بيده امرية عشرة يأكلها حتى مات .

وفيه توفي الشيخ الصالح المعتقد سيدى محمد الاسلابولى رحمة الله تعالى عليه . وكان بعرف بالأقباعى ، وكان من عباد الله الصالحين ، وله كرامات ومكاشفات خارقة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة ملك التكرور رحمه الله تعالى . وكان من أجل ملوك التكرور قدرا .

وفيه توفي عبد القادر بن جانم نائب الشام . وكان شابا حسنا لا بأس به . وتوفى في هذه السنة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الاطالة

سنة تسع وسبعين وثمانمائة (١٤٧٤/١٤٧٥ م) :

فيها ، في المحرم ، قدم قاصد حسن الطويل وعلى يده مكاتبة تتضمن الاعتذار عما كان منه ، وأن ذلك لم يكن باختياره . فأكرم السلطان ذلك القاصد ، وأظهر العفو عما جرى منه . وكان أشيع عن حسن الطويل أنه قتل . وأظهر بعض التركمان قميصه وهو ملطخ بالدم ، ثم ظهر كذب هذه

واعتذروا له بما وقع منهم ، فأكرمهم وخلع على
الماس كاملية بسمور ، وأرضى الجلبان بالكلام ،
وسكنت الفتنة قليلا .

وفيه أنعم السلطان على ورديش نائب البيرة
بتقدمة ألف . وهى مقدمة قانصوه الخفيف بحكم
نفيه الى دمياط .

وفيه توفى تم العجصى بن ططخ الظاهرى ، أحد
الأمراء العشراوات . وكان خشداس الأتابكى أربك
وكان لا بأس به .

وفيه رسم السلطان بنفى سودون المؤيدى ،
فنفاه الى مكة . وكان قد نسب الى شىء من أمر
الفتنة الماضية مع المماليك الجلبان ، وقد وشى به
بعض المماليك عند السلطان فنفاه .

وفيه فى ليلة عيد ميكائيل نزلت النقطة ، وأمطرت
السماء فى تلك الليلة مطرا غزيرا ، حتى عد ذلك
من النواذر .

وفيه بعث الأمير يشبك الدوادر الى القاضى
علم الدين شاكر بن الجيعان ، يسأله فى استبدال
قاعات البرابخية التى ببولاق ، ودفع لهم الثمن من
ذلك خمسة آلاف دينار . وكان قاضى القضاة
الحنفى شمس الدين صمم على عدم الاستبدالات
قاطبة . فضيق عليه الأمير يشبك حتى استبدل له
البرابخية ، فقامت عليه الألسنة بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من القدس ب وفاة خاير بك
الظاهرى الخشقدمى ، الذى سموه سلطان ليلة ،
وكان رئيسا حشما ، وجرى عليه شذائد ومجن ،
ونفى فى عدة أماكن من البلاد ، وآخر الأمر توفى
بالقدس الشريف .

وفيه وفى النيل المبارك وقد توقف أياما ، وحصل
للناس غاية القلق ، حتى بعث الله تعالى بالوفاء ،
وكان لعشرين من مسرى . فلما وفى نزل الأتابكى

أربك وفتح السد على العادة ، وصر الناس بذلك .
وفيه كان المولد النبوى وكان له يوم مشهود .

وفى ربيع الآخر ظهر بالسماء نجم له ذنب طويل .
وكان يظهر بعد العشاء ، واستمر على ذلك مدة ،
ثم اختفى .

وفيه كانت وفاة العلامة الشيخ زين الدين قاسم
ابن قطلوبغا السودانى الحنفى ، وكان عالما فاضلا
فقيها حاذقا كثير النواذر ، مفتيا من أعيان الحنفية ،
وكان مولده فى سنة احدى وثمانمائة وكان نادرة
عصره .

وفيه خلع السلطان على جاني بك الأشقر ، وقرره
فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر جاني بك
الخشن الاينالى فى امرية الركب الأول .

وفيه نفى السلطان جماعة كثيرة من مماليكه ،
منهم اينال الخفيف الذى ولى حاجب الحجاب
فيما بعد ، وغيره من المماليك السلطانية ، ممن أثار
تلك الفتن الماضية .

وفيه قدم للسلطان قاصد من عند ابن عثمان ملك
الروم ، وعلى يده مكاتبة تتضمن الشفاعة فى اينال
الحكيم ، وكان قد جرى عليه كائنة ، وفر الى ابن
عثمان ، فقبل السلطان شفاعته وأكرم ذلك القاصد
وخلع عليه ، وأقام بمصر مدة ثم عاد الى بلاده .

وفى جمادى الأولى ، فى ليلة الجمعة ، كانت وفاة
الامام العالم العلامة محيى الدين الكافيجى ، وهو
محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى ،
الحنفى . وكان اماما عالما فاضلا بارعا فى العلوم ،
ماهرا فى الفقه والحديث والعلوم العقلية وغير ذلك ،
وانتهت اليه رئاسة مذهبه بمصر ، وصار مفتيها على
الاطلاق ، وألف فى العلوم الجليلة ، وكان مهيبا

معظما عند السلطان والأمراء ، ولى عدة وظائف منها مشيخة الخانقاه الشيخونية ، ومشيخة تربة الأشرف برسباى ، وغير ذلك ، وشهرته تغنى عن مزيد التعريف به . ومولده سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وكان من أفاضل الحنفية رحمه الله تعالى . وفيه يقول المنصورى وقد أضافه فى خلوته بحلاوة قرع فقال فيه :

يا عين أعيان الزمان ويا

محيى بمصر سنة الشرع

لم يقرع الباب امرؤ نحوكم

الا وذاق حلاوة القرع

ولما مات رثاه المنصورى بهذه الأبيات :

بكت على الشيخ محبى الدين كافيحى

عيوننا بدموع من دم المهج

كانت أسارير هذا الدهر من درر

تزهى فبدل ذاك الدر بالسبع

فكم ترى من سماح من مكارمه

فقرى وقوم بالاعطاء من عوج

يانور علم أراه اليوم منطفئا

وكانت الناس تمشى منه فى سرج

فلو رأيت الفتاوى وهى باكية

رأيتها من نجيع الدمع فى لجج

ولو سرت بثناء عنه ربح صبا

لاستنشقوا من شذاها أطيب الأرج

ياوحشة العلم من فيه اذا اعتركت

أبطاله فتواتر فى دجى الرهج

لم يلحقوا شأو علم من خصائصه

أتى ورتبته فى أرفع الدرج

قد طال ما كان يقربنا ويقرئنا

فى حالتيه بوجه منه مبتهج

سقيا له وكساه الله نور سنا
من سندس بسدا الغفران منتسج
وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو
طرا ، وأقام بها الى آخر النهار ، وعاد .
وفى عقيب ذلك رسم السلطان بنفى اثنين من
الايالية ، وهذا أول الفتك بهم .

وفيه توفى سودون المنصورى مات قتيلا ، سقط
من سطح ، وكان مشغول الرأس فمات لوقته ،
وكان شابا حسن الشكل ، كثير الاسراف على
نفسه ، فقصد السلطان أن يصلى عليه ، فلما علم
كيفية موته لم يصل عليه ، نعوذ بالله من ذلك .

وفيه خلع السلطان على خشقدم الأحمدي
الطواشى ، وقرره فى الوزارة عوضا عن الأمير
يشبك الدوادار ، بحكم استعفائه عنها ، وقرر قاسم
شغيته فى نظر الدولة . فلما أحضروا لخشقدم
الخلعة شرع يلطم يديه على وجهه ويبكى ، وصار
يدعى الفقر والعجز ، ويكرر الاستعفاء ، والسلطان
لم يلتفت لكلامه ، فلبس الخلعة ونزل الى داره .
وفيه حضر قاصد من عند ملك الهند ، وعلى يده
هدية للسلطان ، ومن جملتها سبع عظيم الخلقة ،
وخيمة كبيرة ، وغير ذلك . فأكرمه السلطان ، وخلع
عليه .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى خليج الزعفران ،
ونصب هناك تلك الخيمة التى أهداها له ملك الهند
وكانت غريبة . فأقام هناك ثلاثة أيام فصادف دخول
الأمير يشبك الجمالى ، الذى كان توجه الى ابن
عثمان ملك الروم ، فعاد من سفره ، وقابل السلطان
فى خليج الزعفران ، وعليه خلعة ابن عثمان ،
ومكاتبة تتضمن التودد بينهما ، فأنسر السلطان
بذلك .

وفيه أمر السلطان ببناء ما تهدم من جامع عمرو

ابن العاص رضى الله عنه ، ف قيل انه صرف عليه خمسة آلاف دينار .

وفي جمادى الآخرة خلع السلطان على الشيخ سيف الدين الحنفى ، وقرره فى مشيخه الخاقاه عوضا عن محبى الدين الكافيجى ، وخلع على ابن قاضى القضاة سعد الدين الديرى ، وقرره فى مشيخة الشيخونية ، وكانت مشيخة المؤيدية مع أولاد ابن الديرى بحكم شرط الواقف ، فعادت اليهم . وفيه أعيد السيد الشريف موفق الدين أحمد الحموى فى نظارة الجيش لدمشق ، عوضا عن ولد برهان الدين النابلسى ، وكان قد وليها بعد وفاة البدر بن مزلق .

وفيه وقعت تشحيطة صعبة بالقاهرة ، وعز وجود الخبز من الدكاكين ، وتزاحم الناس على شراء القمح ، واستمر ذلك مدة حتى دخل المغل الجديد .

وفى رجب قرر السلطان الشيخ أبا عبد الله القلجاني المغربى ، قاضى الجماعة ، فى مشيخة تربة السلطان ، وقرر فى خطبتها الشيخ أبا الفضل الحرقى ، وقرر بها ثلاثين صوفيا ، يحضرون فى الخمسة أوقات ، وقرر فيها شيخ الميقاتية بدر الدين الماردينى ، وقرر فى قراءة المصحف بها ناصر الدين الأخميمى ، وخازن الكتب بها العلائى على بن خاص بك ، وبني للصوفية حول التربة عدة بيوت يسكنون بها دائما ، ثم رتب لهم الجوامك والخبز والزيت والصابون وغير ذلك من أنواع البر والمعروف ، وخطب بها فى الشهر المذكور ، وحضر الأمراء والقضاة الأربعة وأرباب الدولة قاطبة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع على القاضى أبى الفتح المنوفى ، وقرره

فى نيابة جدة عوضا عن شاهين الجمالى ، وأضيفه اليه الصرف أيضا ، عوضا عن محمد بن عبد الرحمن . وفيه غضب السلطان على شادبك أبازا الاينالى الأشرفى ، أحد العشراوات ، فألبسه زنا غنيشا وأمر بحمله الى خان الخليلى ليباع ، وقد ثبت أنه باق على ملك المنصور عثمان بحكم أنه ورثه من قانى باى الجركسى . فأمر السلطان بأن يباع ويحمل ثمنه الى الملك المنصور ، فشفع فيه الأتابكى أوزبك ، فما قبل منه . وآل الأمر الى أن حمل شادبك أبازا وآخر من الاينالية يقال له خاير بك ، وآخى يقال له سيباى ، فحملوا الى الملك المنصور فأشهد على نفسه بعنتهم . ثم نفى شادبك الى دمشق ، وخاير بك الى طرابلس ، وشفع فى سيباى بأن يقعد بمصر بطالا . وقد بلغ السلطان ما غير خاطره عليهم ، قيل انهم قصدوا الوثوب على السلطان لما وثب المماليك على الأمير يشبك الدوادار ، فانكشف رخ جماعة الاينالية فى هذه الحركة ، وصار السلطان ينفى منهم جماعة بعد جماعة ، ممن كان رأس الفتنة فى هذه الحركة .

وفيه طلع الى السلطان شخص من الفقهاء يقال له شهاب الدين القلقلى ، ورفع قصة يشكو فيها الشيخ عبد البر بن الشحنة ، بأنه سلب غلماناه وعبيده عليه ، فضربوه ضربا مبرحا . وذكر فى آخر القصة أن عبد البر جاهل ما يحسن قراءة الفاتحة ، وأن الصلاة خلفه لاتصح . فمال السلطان مع القلقلى على عبد البر ، فرسم السلطان باحضار عبد البر وجماعة من مشايخ القراء ، وقرأ عبد البر بحضرتهم والسلطان جالس ، والقلقلى حاضر . فلما سمعه المشايخ القراء شكروا قراءته ، فمال السلطان على القلقلى ، وكان قد حلف برأس السلطان أن عبد البر ما يحسن قراءة الفاتحة ، فلما ظهر للسلطان كذب القلقلى أمر بضربه ، فضرب بين يديه ضربا

ميرجا ، وأمر بحمله الى القاضى المالكى ليفعل به ما يوجبه المشرع . وانتصر عبد البر عليه .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الناصرى محمد بن شاد بك التركمانى الجلبى نائب طرابلس .

وفيه توفى يشبك الظاهرى السيفى على باى نائب قلعة دمشق ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان للرمية ، فلما عاد شق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه وقع بين الأمير يشبك الدوادار وخشقدم الوزير . حتى صرح الأمير يشبك بعزل نفسه من الدوادارية وأغلق بابه ولم يجتمع بأحد من الناس ، حتى ركب اليه الأمير الكبير أزيك وجماعة من الأمراء ، وتلطفوا به حتى طلع معهم الى القلعة ، وخلع السلطان عليه كاملية بسمور ، وأصلح بينه وبين خشقدم الوزير ، وبأس خشقدم يد الأمير يشبك ، وخمدت هذه الفتنة التى بينهما .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بلباى العلافى الظاهرى نائب صفد ، وكان لا بأس به ، وولى نيابة الاسكندرية . ثم نيابة صفد ، ومات وهو فى عشر الستين .

وفى شعبان توفى بكتمر البواب أبو بكرى الأثرى ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان الى الاسطبل ، وحكم به ، وكاتب السرى بين يديه على دكة لأجل قراءة القصص . وحضر يتسبك الدوادار وشكا كاتب السر ، وهو واقف بين يدى السلطان ، فأمره أن ينزل ويفف بين يديه بازاء خصمه ، حتى يدعى عليه ، وحضر وشكا جاني بك الفقيه ، ففعل به كذلك .

وفيه توفيت خوند بدرية بنت الأشرف اينال وكانت لا بأس بها ، وتركت عدة أولاد ذكور وإناث .

وفيه وصل قاضى القدس وهو فى الحديد ومعه جماعة من أعيان أهل القدس ، وهم فى الحديد بسبب هدم كنيسة هناك ، وقد تار بسبب ذلك شر كبير بين العلماء ، وكتبت عدة فتاوى بسبب تلك الكنيسة ، وصار يفتى بعضهم بالهدم ، وبعضهم بالابقاء .

وفيه هجم طائفة من العربان المفسدين ، على جماعة من الناس فى أثناء طريق المنية ، واستمروا يعرفون الناس من المنية الى قنطرة الحاجب ، وكان ذلك بعد العصر ، وكان أول الربيع . وسلبوا أثواب المتفرجين ، وطلعوا من على قناطر الأوز ، وخرجوا الى الفضاء ، وكانوا نحوا من عشرين خيالا . فكان من جملة ما سلبوه أثواب شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له كسباى المغربى ، وكان راجعا من طريق المنية ، فأخذوا سلاريتته من فوقه . وفيه توفى تانى بك الأزدمرى الحاجب الثانى وكان قد شاخ وبلغ من العمر نحوا من تسعين سنة .

وفيه عرض السلطان من فى السجون ، فأطلق منهم أربعة أنفار لا غير وأعاد البقية الى السجون .

وفى رمضان صعد القضاة الأربعة ومتايخ العلم ليهنئوا السلطان بالشهر ، فأمر السلطان بعقد مجلس بين يديه بسبب كنيسة اليهود التى هدمت بالقدس ، فأفتى الشيخ أمين الدين الأقصرائى بجواز هدمها . وكذلك شمس الدين الجوجرى ، وزين الدين الأبناسى . وأفتى الشيخ سراج الدين العبادى ، وقاضى الجماعة القلجائى المغربى المالكى ، وآخرون من العلماء بعدم جواز

الهدم ، وأنها تعاد الى ما كانت عليه ... فوقع في المجلس القال والقليل من العلماء ، وكثر الخبط ، وانقض المجلس على غير طائل . وأمر السلطان بعقد مجلس آخر في دار يشبك الدوادار ، وكان السلطان مائلا الى عدم هدم الكنيسة واعادتها الى ما كانت عليه ، وقد مال جماعة من العلماء مع غرض السلطان ، وحكم باعادتها الى ما كانت عليه ، ووقع بين قاضى القضاة المالكى اللقمانى وقاضى الجماعة ما لا خير فيه . وكذلك سراج الدين العبادى والجورجى . ومما هجى به السراج العبادى :

أيا سراج اليهود طرا

ومن لدين العزير أفتى

عصبة أهل الكتاب قالوا

لن ترضى عنك اليهود حتى

وقيل في قاضى الجماعة من جملة أبيات في ذلك المعنى :

تفتى بعود كنيسة يامغربى ما أنت الا

وفيه توفى اينال الأشقر البجاوى الظاهرى أمير سلاح ، وكان أميرا جليلا شجاعا بطلا ، وكان ظالما غشوما عسوفاً ، كثير الاسراف على نفسه ، وكان عنده كرم زائد مع اتضاع ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق . وولى عدة وظائف سنية ، منها ولاية القاهرة ، ونيابة ملطية ونيابة حلب ، ورأس نوبة كبير وامرية سلاح ، وغير ذلك من الوظائف . وكان في آخر عمره ظهر به جذام وبرص فاحش جدا .

وفيه قرر يشبك قرقماس. الأشرفى في نيابة دمياط .

وفيه توجه السلطان نحو الطرانة ، وكان معه الأتابكى أزبك ، فأقام هناك أياما وعاد .

وفيه قرر مغلباى سرق الأشرفى في حجوية الحجاب بدمشق .

وفيه فر من العربان من حبس الدلم شخص من بنى حرام يقال له عسر بن معروف ، وفر من سجن القاعة شخص يقال له محمد بن زامل ، وفر من سجن المنشرة أيضا شخص يقال له ابن صالح ... الكل فروا في مدة بسيرة من هذا الشهر .

وفي ثالث شوال خرج الأتابكى أزبك مسافرا الى الحجاز ، وصحبته زوجته بنت الملك الظاهر جقمق ، وخرج معهم الأمير أزبك اليوسفى ، ومعه زوجته خوند بنت عم الملك الظاهر جقمق وخرج معهم الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، وولده أبو السعود ، فحج الشيخ أمين الدين في محفة ، وقد بعث له السلطان سبعمائة دينار يستعين بها على الحج . وخرج صحبتهم الكثير من الناس . وقد سبقوا الحاج بعشرين يوما .

وفيه خلع السلطان على قريبه أزدمر بن مزيد وقرره في نيابة صفد عوضا عن بلباى العلائى الظاهرى بحكم وفاته .

وفيه خرج الحاج على العادة . ولما حج الشيخ أمين الدين الأقصرائى في المحفة قال فيه بعض شعراء العصر هذين البيتين :

محفة الشيخ الأقصرائى

تنشد جدواه في المشاهد

تقول طوبى لمن مثل هذا

قد حج بالناس وهو قاعد

وكان أمير الركب في السنة المذكورة جاني بك

الأشقر ، أحد خواص السلطان . وبالركب الأول جاني باى الخشن الاينالى تاجر المماليك .

وفي السنة المذكورة حجت خوند فاطمة ، زوجة السلطان ، بنت العلائي علاء الدين بن خاص بك ، فكان يوم خروجها يوما مشهودا ، وكان لها موكب حافل ، وخرجت في محفة زركش برصفيات لؤلؤ مرصعة بأنواع المعادن المثمنة ، وخرجت صحبتها أخت السلطان في محفة زركش . وخرج معها خمسون جملا من المحابر المخمل الملون ، ومشى قدام محفتها بالرميلة جميع أرباب الوظائف والدولة ، وغير ذلك من المباشرين . ومشى الزمام ومقدم الممالك ، وأعيان الخدام بأيديهم العصي ، وقدامها من الحداة أربعة ، منهم ابراهيم بن الجندی المغني ، وأبو الفوز الواعظ ، وغير ذلك . فكان تجملا زائدا قل أن يقع لأحد من الخوندات مثله ، فعد ذلك من النوادر . وكان المتسفر عليها والدها العلائي على بن خاص بك ، وبرسبای المحمودی الخازن دار .

وفيه من الحوادث أنه قبل خروج خوند الى السفر رسم السلطان بشنق جارية بيضاء جركسية فشنت على جميزة بالقرب من حدرة ابن قميحة عند الأحواض التي بطريق مصر العتيقة . وكانت هذه الجارية حملت من بعض ممالك السلطان ، فلما علم السلطان بذلك شنق الجارية ، وأغرق المملوك ، وقيل بل خصاه ونفاه الى الشام . وفيه اضطربت أحوال الشرقية بسبب فساد العربان من بنى حرام وبنى وائل ، فعين السلطان لهم الأمير يشبك الدوادار فخرج مبادرا .

وفي ذى القعدة هجم عرب غزاة على ضواحي الجيزة ، ونهبوا خيول الممالك ، وقتلوا جماعة من الغلمان ، وأطلقوا من كان في السجن . فتنكد السلطان لهذا الخبر ، وعين عدة من الأمراء

والجند ، فخرجوا على حمية . فأقاموا هناك أياما وعادوا ولم يظفروا بأحد من العربان المفسدين . وفيه توفي بيبرس الطويل الأشقر بن ططخ أحد مقدمي الألف بدمشق ، وكان لا بأس به .

وفي ذى الحجة جاءت الأخبار من الاسكندرية بوفاة الملك الظاهر ترمبغا ، أبي سعيد الظاهري الرومي ، مات بشعر الاسكندرية وقد جاوز الستين سنة من العمر . وكان ملكا جليلا شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية ، وافر العقل كامل الهيئة . واليه تنسب أشياء كثيرة من آلة الحرب ، ورمى الشباب ، ولعب الرمح . وكان من خيار الظاهرية ... اشتراه الملك الظاهر جقمق في سنة سبع وعشرين وثمانمائة وأعتقه ، ثم آل أمره الى أن بقى سلطانا ، وجرى عليه شذائد ومحن ونفى عدة مرار وجرى عليه من الممالك الخشقدمية ما لا خير في اعادته . وخلع من السلطنة بعد ثمانية وخمسين يوما ، وآخر الأمر مات قهرا كما قيل في المعنى :

هي الدنيا اذا كملت وتم سرورها خذلت
وتفعل بالذين بقوا كما في من مضى فعلت

وفيه أمر السلطان بتوسيط كاشف البحيرة ، وهو شخص يسمى خشقدم الزيني ، فوسطه هو وشخص من الكتاب يقال له ابن الطواب . وقد تجمد عليهما مال لم يقوما به .

وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا . ثم نودي عليها كل رطل بستة وثلاثين . ونودي على الفلوس العتق كل رطل بأربعة وعشرين . فخسر الناس في هذه الحركة ثلث أموالهم . وكانت الفلوس تخرج بالعدد كل أربعة أفلاس بدرهم .

وفيه قدم مبشر الحاج ، وأخبر بالأمن والسلامة . وكان المبشر يومئذ شخصا من الخاصكية يقال

له جان بلاط الغورى ، فأخبر بوفاة أبى السعود محمد ابن الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، مات وهو عائداً من مكة ، ودفن فى أثناء الطريق ، وكان شاباً حشماً رئيساً من أهل العلم والفضل . وتوفى كاتب انسر الذى بطرابلس ، السيد الشريف تقى الدين أبو بكر بن أحمد ، وكان لا بأس به .

سنة ثمانين وثمانمائة (١٤٧٥ / ١٤٧٦ م) :

فيها ، فى المحرم ، خلع السلطان على الشيخ بدر الدين بن الغرس الحنفى ، وقرره فى مشيخة تربة الأشرف برسباى ، عوضاً عن الكافيحى بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان بتوسط عمر ابن أبى الشوارب شيخ قليوب ، وقد ضرب بالمقارع بين يدى السلطان ، وشهر على جل ، ووسط بقليوب . وفيه فى سابع عشره كان وصول الأتابكى أزبك من مكة المشرقة . وحضر صحبته الشيخ أمين الدين ، وهو فى غاية التشويش على فقد ولده أبى السعود ، وقد وقع له ما يشبه الذهول فلم يلبث بعد دخوله القاهرة سوى تسعة أيام ومات . فلما طلع الى السلطان خلع عليه ، وعلى الأتابكى أزبك ونزلا الى دورهما .

وفيه فى رابع عشره دخل الحاج الى القاهرة ، وقد تأخر عن ميعاده بأربعة أيام ، وحصل للحاج عطشة شديدة عند العود ، وكان الحاج فى تلك السنة كثيراً . ثم دخلت خوند زوجة السلطان الى بركة الحاج وهى فى تجمل زائد ، ولاقاها الأمراء قاطبة — حتى القضاة — وترجلوا اليها من البيوت بغالهم وهى فى المحفة ، ولاقتها المغانى من البيوت ومدت لها هناك أسمطة حافلة . فلما طلعت الى القلعة رفعت على رأسها القبة والطير ، ونثرت عليها صنائف الذهب والفضة . وكان لها بالقلعة

يوم مشهود . ودخل اليها انتقاداً من أرباب الدولة وأعيان الناس .

وفيه فى سابع عشره كانت وفاة شيخ الاسلام أمين الدين يحيى بن محمد الأقصرائى الحنفى رحمه الله تعالى . وكان قد نيف على اثنائين سنة من العمر ، وكان مولده سنة سبع وتسعين وسبعمائة . وكان اماماً عالم فاضلاً مفتياً به نفع للمسلمين ، من أجل علماء الحنفية ، بارعاً فى الفتنة ديناً خيراً قائماً فى الحق . يخاشن الملوك والسلاطين ويغفلظ عليهم فى القول ، ولا يخشى الا الله تعالى . وكان فى سعة من المال ، وولى عدة وظائف سنوية منها مشيخة المدرسة الأشرفية ، ومشيخة المدرسة الصرغتمشية والأيتمشية والجانبكية ، وكان بيده عدة تداريس ، وطلب ليلى القضاء غير ما مرة وهو يتمنع .

وفى صفر خلع السلطان على قريبه جانم الشرفى ، وقرره فى نظر الجوالى ... وهذا أول استظهاره فى الوظائف .

وفيه توفى الأمير قانى باى الساقى الطويل الظاهرى أحد الأمراء الطبلخانة ، والحاجب الثانى وكان رئيساً حشماً لا بأس به .

وفيه نزل السلطان الى طرا ، ومعه الأتابكى أزبك ، فبات هناك . ومد له الأتابكى أسمطة حافلة ، فبات وعاد من غده .

وفيه توفى الشيخ نجم الدين اسحق القرشى الحنفى ، كان من أعيان علماء الحنفية ، ومولده قبل التسعين وسبعمائة . وكان لا بأس به .

وفيه توفى تمر حاجب الحجاب ، وهو تمر بن محمود شاه الظاهرى ، وكان ظالماً غشوماً عسوفاً شديد القسوة . تولى ولاية القاهرة ، وحجوبية

الأشرفية ، عوضا عن الشيخ أمين الدين الأقصري
بحكم وفاته .

وفيه أشيع بين الناس أن السلطان يقصد السفر
والخروج بنفسه الى البلاد الشامية ، فنزل بالميدان
الكبير الذي بالناصرية ، وعرض هناك خيول
الدشار . ثم توجه الى بولاق ، ونزل في بيت شرف
الدين الأنصاري الذي ببولاق ، فأضافه الأنصاري
هناك ضيافة حافلة ، وكان الأنصاري قد أنشأ
غرايا تحت داره . فنزل السلطان فيه ، وتوجه الى
شبري ، ثم عاد قريب المغرب وطلع الى القلعة .
وفيه في ثاني عشر مسرى كان وفاء النيل
المبارك . ونزل الأتابكي أزيك وفتح السد على
العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن أعزلو بن
حسن الطويل قد وقع بينه وبين أبيه ، وقد بعث
يستتجد بنائب حلب على أبيه ، فجهز نائب حلب
معه جماعة من عساكر حلب ، وجعل عليهم باش
إينال الحكيم أتابك حلب ، وجانم السيفي ، وجاني
بك نائب جدة . وكان يومئذ نائب البيرة ، ودولات
باي المحوجب ، وآخرين من أمراء حلب فلما
خرجوا الى عسكر حسن الطويل ، تقاتلوا معهم ،
فانكسر عسكر حلب ، وجرح محمد أعزلو
جرحا بليغا ، ورجع الى حلب في خمسة أنفار ،
وأن إينال الحكيم فقد في المعركة ، وأن دولات
باي أسر في المعركة ، وقتل من عسكر حلب جماعة
كثيرة . فلما بلغ السلطان هذا الخبر تشوش له ،
وعين جماعة من الأمراء . منهم الأتابكي أزيك ،
ويشيك الدوادار ، وتمراز رأس نوبة النوب ،
وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وبرسباي قرا
وخابر بك بن حديد ووردش ، وعين من الأمراء
الطبلخانات والعشراوات عدة وافرة ، وأمرهم بأن
يتجهزوا ويكونوا على يقظة حتى يرد عليهم من

الحجاب ، وكان في أيام ولايته صارما على العبيد
والغلمان وغير ذلك ، وقتل منهم جماعة كثيرة ،
حتى قيل أحصى من قتله في أيام ولايته ، فكان
زيادة على السبعمئة انسان ... فلما مات قال
جماعة من أهل الصحراء انهم سمعوه يعوى في
قبره كما تعوى الكلاب ، نعوذ بالله من ذلك .
وفيه طلع القلعة شخص من الأمراء العشراوات —
يقال له دولات باي حلاوة المحمودي — فبينما
هو واقف بين الأمراء اذ اضطرب فحملوه الى
تحت الكرمة التي بالحوش ، فمات لوقته ، فأحضر
له تابوت ، وأنزلوه الى داره ، ودفن من يومه ،
وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوي ،
وكان حافلا ، وحضره القضاة الأربعة وأعيان
الناس من الأمراء وغيرهم .

وفيه خلع السلطان على القاضي تاج الدين ابن
المقسي ، وأعيد الى نظر الخاص ، وقد نسي العلقمة
بالمقارع التي دخلت في أجنايه ، وانفصل عنها
القاضي بدر الدين بن كاتب السر بن مزهر .

وفيه خلع السلطان على الأمير أزدمر الابراهيمي
الطويل الأينالي ، وقرر في حجوية الحجاب عوضا
عن تمر بحكم وفاته .

وفيه قرر انسلطان في الحجوية الثانية سيباي
الظاهري الذي كان أمير آخور ثاني . وقرر أزدمر
المسرطن في الخازندارية الكبرى ، عوضا عن
أزيك اليوسفي ، بحكم انتقاله الى مقدمة ألف .

وفيه توفي الأمير يشبك جلس بن أقبردي
الأشرفي أحد الأمراء العشراوات . وكان دينا خيرا
لا بأس به .

وفي ربيع الآخر خلع السلطان على الشيخ برهان
الدين بن الكركي ، وقرره في مشيخة المدرسة

أمر حسن الطويل ما يكون ... فاضطربت أحوال
العسكر . فبينما هم على ذلك اذ ورد كتاب من ابن
الصوا يخبر فيه بأن عسكر حسن الطويل عاد الى
بلادهم ، ولم يحصل منه ضرر . فأنشراح السلطان
لهذا الخبر ، وبطلت التجريدة التي تعينت الى
حسن الطويل فكان كما قيل :

وكم هم تساء به صباحا فتأتيتك المسرة بالعشى
وفيه توفي عضد الدين السيرامي شيخ المدرسة
البرقوقية ، وهو عبد الرحمن بن يحيى بن سيف
ابن محمد بن عيسى ، الحنفى السيرامى . وكان
عالما فاضلا رئيسا حشما من أعيان علماء الحنفية ،
بارعا فى الفقه مفتيا ، وكان لا بأس به . فلما توفي
خلع السلطان على قاضى القضاة شمس الدين
الامشاطى ، وقرره فى مشيخة البرقوقية عوضا عن
السيرامى .

وفيه خلع السلطان على أربك فشق الظاهرى ،
وقرره فى امرية الآخورية الثالثة عوضا عن سيباى
بحكم انتقاله الى الحجوية الثانية .

وفيه خلع السلطان على ولد برهان الدين
النابلسى ، وأعيد الى نظارة الجيش بدمشق ،
وصرف عنها الشريف موفق الدين الحموى .

وفيه توفي جمال الدين الباعونى قاضى القضاة
الشافعية بدمشق . وكان عالما فاضلا رئيسا
حشما . وكان قد ترشح أمره ليلى قضاء مصر فلم
يتم له قضاء مصر . وكان مولده سنة خمس
وثمانمائة .

وفى جمادى الأولى خلع السلطان على قجماس
الاسحاقى ، وقرره فى الأمير اخورية الكبرى ،
عوضا عن جاني بك الفقيه الظاهرى بحكم انتقاله

الى امرية سلاح عوضا عن اينال الأشقر بحكم
وفاته ، وخلق على قائم قشير الظاهرى أحد
العشراوات ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا
عن قجماس الاسحاقى ، بحكم انتقاله الى امرية
الآخورية الكبرى .

وفيه خلع على برد بك السيفى جرباش كرت ،
وقد ظهر أنه قريب السلطان ، فقرره فى نيابة صفد
عوضا عن أزدمر بن مزيد قريب السلطان أيضا ،
وفيه نقل أزدمر المذكور الى نيابة طرابلس عوضا
عن شبك البجاسى ، وكان برد بك السيفى يومئذ
شاد الطرانة ، فاستكثر عليه الناس نياية صفد
دفعه واحدة .

وفيه توجه الى دمشق برهان الدين النابلسى ،
وكيل بيت المال ، وقد خرج فى بعض أشغال
السلطان .

وفيه وصل القاضى شمس الدين بن أجأ قاضى
العسكر ، وكان قد توجه قاصدا الى حسن
الطويل ، فأخبر بأن الطاعون قد هجم فى بلاده
ومات من عسكره ما لا يحصى ، وقد تلاشى أمره .
فسر السلطان بهذا الخبر .

وفيه قدمت الى القاهرة زوجة حسن الطويل
أم ولده محمد أعزلو ، تستجير لولدها محمد
بالسلطان بأن يشفع له عند أبيه ، ويصلح بينهما .
فلما قدمت أكرمها السلطان وأنزلها بدور الحريم .
وفيه تقبعت قاعة الذهب ، وسرق منها عدة
سبائك وشريط ذهب . فلما بلغ السلطان ذلك
ضيق على والى القاهرة حتى يفحص عن فعل
ذلك . ثم بعد أيام ظهر أن شخصا يقال له
يوسف ، وكان من جملة صناع القاعة ، أنه هو

الفاعل لهذا فتبض عليه ، وعرض على السلطان ، وأخذ ما كان معه من السبائك الذهب ، وسجن بالمقشرة الى أن يرد أمر مولانا السلطان فيه بما يقتضيه .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار من دمشق بأن برهان الدين النابلسي وكيل السلطان ، لما دخل الى دمشق ، صدرت منه القبائح العظيمة بأهل دمشق ، فما أطاقوا ذلك ، ورجعوه ورموا عليه بالسهم ، وأحرقوا داره بالنار ، وأرادوا قتله ، فركب نائب قلعة دمشق بنفسه ، وتلطف بالعوام حتى سكنت هذه الفتنة قليلا . وقد كادت أن تخرب دمشق في هذه الحركة بسبب ظلم النابلسي . وكان قد طغى على الناس وتجبر ، وكان هذا أكبر أسباب الفساد في حقه ، حتى آل أمره الى ما سنذكره في موضعه .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو طرا ، فأضافه هناك ابن البلاح ، وكان أحضر بين يديه قدورا مختومة بها شهد ، ففتحت منها قدرة بين يدي السلطان وهو جالس على السباط . فلما فتحت خرج منها نحلة كبيرة فقصدت وجه السلطان دون الجماعة الذين على السباط ، فلدغته في جفن عينه فورم وجهه في الحال ، وتشوش لذلك ورجع من وقته . فطلع الى القلعة ، فاقطع عن إقامة الخدمة أياما حتى شفى .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الشرق بوقوع فتنة بين شاه بضاع بن دلغادر ، وصاحب الأبلستين ، وبين ابن قرمان ، ووقع بينهما مقتلة عظيمة . ووقع أيضا بين حسن الطويل وبين أخيه أويس ، وبعث

اليه طائفة من عسكره بالرها فحاربوا أويسا وقتلوه ومن معه من العسكر .

وفيه توجه السلطان الى ثغر دمياط ، وقد توجه الى دمياط مرة أخرى قبل ذلك . وفي هذه السفرة الثانية توجه الى دمياط من البحر في عدة مراكب كثيرة نحو من مائة مركب ، وكان معه من الأمراء يشبك الدودار ، وآخرون من الأمراء المقدمين والعشراوات ، وجماعة من المباشرين والخاصكية من المماليك السلطانية . ووقع له وهو حادر في البحر ، أنه رمى على كركي من الكراكى بجزيرة في البحر ، فصرع الكركي ، فتحامل وألقى نفسه في البحر ، فبادر اليه بعض السلحدارية ، ونزل في البحر ليحضر الكركي ، فقوى عليه التيار فغرق من وقته . فتنكد السلطان بسبب ذلك . فلما طلع الى ثغر دمياط لاقاه النائب ومد له مدة حافلة ، فأقام بها أياما وهو في أرغد عيش ، وتنزه في غيطان البلد ، وتوجه الى مكان يصاد فيه السمك البورى ، ونزل في مركب صغير وعين كيف يصاد البورى ، وانشرح في هذه السفرة الى الغاية . فلما أراد العود الى القاهرة عاد في البحر أيضا ، ونزل في المركب قاصدا الديار المصرية . فلما أن وصلوا الى بولاق ، سيب النفطية صواريخ نفض ، فجاء منها صاروخ في مركب الأمير يشبك الدودار ، فعملت النار في قلع المركب فاحترق . فاضطرب الأمير يشبك من ذلك ، وصار يدفع عن وجهه النار بالمخدة ، فأدركه طواشى يقال له مرجان الحبشى ، فبينما هو يطفىء النار اذ سقط عليه الصارى فمات لوقته ، هو وشخص من المماليك السلطانية . فكانت مدة غيبة السلطان في هذه

السفرة نحواً من خمسة عشر يوماً ، وطلع الى القلعة في سلخ الشهر .

وفي رجب صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر وقدم السلطان من السفر ، فخلع في ذلك اليوم على أبى البقا ابن قاضى القضاة ابن الشحنة ، وقرر فى قضاة الشافعية بحلب ، عوضاً عن عز الدين الحساوى ، بحكم صرفه عنها . وفى أثناء هذا خرج السلطان على حين غفلة ، وقصد التوجه الى القدس الشريف ، وكان معه الأتابكى أذربك ، ويشبك الدوادار ، وآخرون من الأمراء والخاصكية ، وجماعة من أعيان المباشرين وغيرهم . فلما دخل الى القدس أظهر به العدل ، وأقام به ثلاثة أيام . ثم زار الخليل عليه السلام ، وتصدق فى القدس والخليل بستة آلاف دينار وأزال بهما ما كان من المظالم التى كانت حادثة هناك . ولما مر بالقرين أمر ببناء جامع وسبيل هناك ، وحصل له جملة تقادم حافلة من أعيان الناس هناك . ولما دخل الى غزة خلع على سيباى الظاهرى أحد العشراوات ، وقرره فى نيابة غزة ، عوضاً عن يشبك العلائى ، بحكم انتقاله الى أتابكية دمشق . ثم ان القاضى تاج الدين بن المقسى ناظر الخاص قدم من عند السلطان ، وأخبر أنه قد وصل الى قطيا ، فخرج جماعة من الأمراء الى لقائه .

وفى عشرى شعبان وصل السلطان ودخل الى القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء بالشاش والقماش . وخرج طائفة اليهود والنصارى وبأيديهم الشموع الموقدة ، وشق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود حتى طلع الى القلعة . وكان فيه ختان

بدر الدين ابن القاضى كمال الدين ناظر الجيش ، وكان له مهم حافل .

وفيه توفى القاضى محبى الدين الطوخى أحد نواب الشافعية ، وهو عبد القادر بن محمد بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالماً فاضلاً وجيهاً عند الناس ... ناب فى القضاء مدة طويلة ، وحسنت سيرته ، وكان لا بأس به .

وتوفى السيد الشريف أمير جان تاجر الماليك ، وكان رئيساً حشماً فى سعة من المال ، وكان وجيهاً عند الناس والملوك والسلاطين ، وجلب غالب أمراء عصرنا ، وصاروا يعرفون بالشريفى الى الآن .

وفيه حضر مهنا بن عطية بين يدى السلطان ، وقد بعث اليه بمنديل الأمان ، وكان رأس العربان المفسدين ، وقد أعيا الأمراء والكشاف ومشايخ العربان ، ولم يقدروا على تحصيله ، فترامى مهنا بن عطية على أحمد بن طفيش حتى قابل به السلطان ، وخلع عليه خلعة الرضا ودخل تحت طاعة السلطان . وفيه توفى جاني بك الأشقر الدوادار أحد خواص السلطان ، وكان رئيساً حشماً عارفاً سيوساً توجه الى الحجاز أمير حاج غير ما مرة ، وكان مقرباً عند السلطان ، وكان أصله من ممالك قانى باى فرفور واتصل بخدمة جماعة من الأمراء ، ثم خدم الأشرف قايتباى — من حين كان أمير طبلخاناه الى أن بقى سلطاناً — فأنعم عليه السلطان بأمرية عشرة . وكان فى سعة من المال .

وفيه توفى شاهين الفقيه الزينى وكان من أعيان الخاصكية ، محمود السيرة ديناً خيراً لا بأس به .

وفى رمضان خلع السلطان على الأظاهرى أمير مجلس ، وقرره أمير ر

عوضاً عن جانى بك الأشقر المتوفى ، وكان قرره أمير ركب المحمل قبل موته .

وفيه وصل دولات باى المحوجب ، وكان قد أسر عند حسن الطويل ، فأطلقه وخلع عليه .

وفيه توفى سيباي أمير آخور ثالث ، وكان قد ولي حاجب ثان ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق . وكان يعرف بسيباي بن بخشباي ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من نجر الاسكندرية بأن بعض تجار الافرنج احتال على تجار الاسكندرية حتى أسروهم ، وكان فيهم تجار السلطان ، وهم ابن عليه يعقوب ، وعلى الكيزاني ، وعلى التمرأوى . فلما أسروهم خرجوا بهم من الاسكندرية في الوقت والساعة ، وتوجهوا بهم الى بلاد الافرنج . فاضطربت أحوال الاسكندرية وكادت أن تخرب ، فلما كاتبوا السلطان بذلك تأثر لهذا الخبر ، وعين في الوقت خاصكيا من خواصه يقال له قيت الساقى ، الذى تولى ولاية القاهرة فيما بعد . وكتب معه مراسيم شريفة لنائب نجر الاسكندرية بالقبض على جميع تجار الافرنج الذين بالاسكندرية . فلما توجه قيت الساقى هناك قبض على تجار الافرنج من سائر السواحل ، وضيق عليهم ، وأودعهم في الحديد ، وألزمهم بأن يكتبوا ملوك الافرنج بما جرى عليهم من السلطان ، بسبب التجار . وقد قام السلطان في هذه الحادثة قياماً تاماً ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها . وآخر الأمر اشترى التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الافرنج بمال له صورة حتى أطلقوهم ، وأتوا بهم الى الاسكندرية ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفيه خلع السلطان على قانى باى جشحة العلائى

الظاهرى الرماح ، وقرره في الحجوية الثانية ، عوضاً عن سيباي الظاهرى بحكم وفاته . وخلع على دولات باى الحسنى ، وقرره في شادية الشون عوضاً عن قانى باى جشحة .

وفيه توفى الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن اسماعيل الكركى الحنفى ، والد برهان الدين امام السلطان ، وكان ديناً خيراً من صوفية خانقاه الشيخونية وكان لا بأس به .

وفيه توفى مقبل الدوادار وكان أصله من مماليك تغرى بردى المؤيدى ، وكان متكلماً على شعير الذخيرة .

وفيه قرر في مشيخة الحرم الشريف النبوى اينال الاسحاقى ، وكانت عادة مشيخة الحرم للخدام الطواشية من قديم الزمان . وقرر في باشية الجند بمكة المشرفة قانى باى اليوسفى .

وفي شوال خلع السلطان على أبى الفتح المنوفى وقرره في نيابة جدة على العادة .

وفيه خلع السلطان على شخص من النصارى يقال له ميخائيل من نصارى منفلوط وقرره بترك النصارى .

وفيه خرج الحاج وكان أمير ركب المحمل لاجين الظاهرى ، أمير مجلس . وبالركب الأول جانى باى الخشن الاينالى ، وخرج صحبة الحاج شرف الدين الأنصارى . وكان الأمير يشبك الدوادار حاطاً عليه ، فخرج الى مكة المشرفة ، وكان آخر عهده بالقاهرة . وقد تسلط عليه برهان الدين النابلسى ، وأخذ منه وكالة بيت المال ، فضاقت الأمور عليه فترك مصر ومضى عنها كما قيل في المعنى :

لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

وفي ذي القعدة أشيع بين الناس أن خزانة
السلطان سرق منها مال له صورة ، فظهر بعد أيام
أن الفاعل لذلك جماعة من بوابي الدهيشة
الألواحية ، فقبض السلطان على بعضهم وضربه ،
فأحضر المال . فرسم بسجنه في المقشرة فسجن .
وفيه سافر السلطان الى الفيوم ، وهي السفرة
الثانية ، وكان معه الأتابكي أزيك ، ويشبك
الدوادر ، وجماعة من المقدمين والعشراوات .
وكان سبب توجهه الى الفيوم أن خاير بك بن
حديد أنشأ هناك ضيعة ، وجعل بها طاحونا تدور
بالماء ، وأنشأ بها بستانا هائلا ، فتوجه السلطان
ليرى ذلك .

وفيه خسف القمر خسوفا تاما حتى أظلم الجو .
وأقام الخسوف نحو من أربعين درجة .

وفي ذي الحجة كان عيد النحر يوم الجمعة .
وخطب فيه خطبتان .

وفيه قدم قطب الدين الخضيرى من دمشق ،
وقد أتى يشكو من بدر الدين النابلسى وقد تزايد
ظلمه وجوره في حق الناس جدا .

وفيه كان ختان أولاد الملك المنصور عثمان بن
الظاهر جقمق ، وكان الختان بشعر دمياط ، فبعث
السلطان اليه بألفى دينار بسبب احتياج المهم ،
وتوجه بن رحاب المغنى ، وصار بخدمته حتى
انقضى مهمه ، وكان له مهم حافل .

وفيه وصل مبشر الحاج ، وأخبر بالأمن
والسلامة ، وأخبر بوفاة القاضي المالكي محيي

الدين عبد القادر بن أبى القاسم بن أحمد بن محمد
ابن عبد الله بن عبد المعطى ، الأنصارى السعدى ،
المالكي ، قاضى مكة المشرفة ، وكان عالما فاضلا
فقيها نحويا ، ولى قضاء مكة مدة طويلة ، وكان
محمود السيرة .

وفيه توفي تم الفقيه أبو بكرى المؤيدى أحد
الأمراء العشراوات . وكان صهر الشيخ أمين الدين
الأقصرائى ، وكان لا بأس به .

وتوفى اينال الابراهيمى الحكيم الأشرفى أتابك
حلب ، وكان لا بأس به .

وتوفى جقمق المؤيدى أحد العشراوات ، وكان
دينا خيرا انسانا حسنا لا بأس به .

وفي هذه السنة المذكورة — أعنى سنة ثمانين
وثمانمائة (١٤٧٥ م) — كان ابتداء منشأ الأربكية
على يد المقر الأتابكى أزيك بن ططخ الظاهرى ،
والذى نسبت الأربكية اليه .

وكانت هذه البقعة أرض ساحة خرابا ، ذات
كيما في أرض مباح ، وبها أشجار أثل وسنط ،

وبها مزار سيدى عنتر وسيدى وزير ، وغيرهما من
الأولياء رضى الله عنهم ورحمهم . وكان في هذه
الأرض جامع الجاكى وهو باق الى الآن . وكانت
هذه الأرض قديما عامرة ، بها المناظر والبساتين ،
وتسمى مناظر اللوق ، وكانت قريبة من بحر النيل .

ثم ان بعض الملوك حفر بها خليجا ، وأجرى اليه
الماء من فم الخور . وصار هذا الخليج يعرف بخليج
الذكر ، وبقي من جملة متنزهات القاهرة ، وبنى
على هذا الخليج قنطرة وفوقها دكة للمتفرجين
يجلسون عليها للفرجة ، وفيها يقول ابراهيم
المعمار :

باطالب التكة نلت المنى
وفزت منها ببلوغ الوطر

قنطرة من فوقها تكة

وتحتها تلقى خليج الذكر

واستمرت هذه البقعة على ماذكرناه الى سنة خمس وخمسين وستمائة (١٢٥٧ م) . فلما تلاشى أمرها ، وضعف جريان الماء في خليج الذكر ، وحفر الملك الناصر بن قلاوون خليجه المسمى بالخليج الناصري ، وذلك في سنة أربع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٣ م) ، طم خليج الذكر ، وخربت مناظر اللوق التي هناك ، وصارت هذه البقعة خربة مقطوع طريق ، واستمرت على ذلك مدة طويلة لم يلتفت اليها أحد من الناس . ثم ان شخصا من الناس عمر حماما كان هناك ، وفتح له بجمونا من الخليج الناصري ، فجرى فيه الماء في أيام زيادة النيل . فلا زال يجريه حتى أوصله بأرض الأزبكية ، فصار يدخل اليها الماء في آخر الزيادة ، ويروى بها بعض أراضيها ، ويزرع بها البرسيم والشعير ، واستمرت على ذلك مدة الى سنة ثمانين وثمانمائة (١٤٧٥ م) في دولة الأشرف قايتباي . فحسن بيال الأتابكي أريك أن يعمر هناك مناخا لجماله . وكان ساكنا بالقرب من هذه البقعة . فلما أن عمر المناخ ، حلت له العمارة هناك ، فبنى القاعات الجليلة ، ثم الدوار والمقعد ، والمبيتات والحواصل ، وغير ذلك . ثم انه أحضر أبقارا ومحاريث ، وجرف الكيمان التي كانت هناك ومهداها ، ثم حفر بها هذه البركة الموجودة الآن ، وأجرى اليها الماء من الخليج الناصري وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر التي كانت قديمة . ثم بنى على هذه البركة رصيفا محتاطا بها ، وتعب في ذلك تعباً عظيماً حتى تم له ما أراد من ذلك . وكان في قوة الحر يدور خلف المحاريث في الكيمان وغيرها ، وصرف على ذلك مالا له صورة يزيد على مائتي ألف دينار ... وكان

ذلك في غير طاعة الله تعالى ، ولا به نفع للمسلمين .

ثم شرعت الناس تبني على هذه البركة القصور الفاخرة ، والأماكن الجليلة . ولا زالت تتزايد في العمارة الى سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٥ م) وقد رغب الكثير من الناس في سكنى الأزبكية وصارت مدينة على انفرادها ، ثم أنشأ بها الجامع الكبير ، وجعل به خطبة ، وأنشأ به منارة عظيمة ، فجاء غاية في الحسن والتزخرف والبناء .

وفيه يقول شمس الدين القادري :

بنى جامعاً لله يلتمس الرضا
به ونجاة من أليم عقابه
وفكر في الحشر الذي عقباته
طوال يهول المرء قطع عقابه
فأكرم به من جامع من ثوى به
فلم يخل منشيه اذا من ثوابه
فيا فوز عبد مؤمن قد جنى به
ثمار أجور من رياض جنابه
عظيم أجور لا ينوب منابه
سواء لأجر نال كل المنى به

ثم أنشأ حول هذا الجامع الربوع ، والحمامات والقيصر والطواحين والأفران ، وغير ذلك من المنافع . وسكن في تلك القصور ، وتمتع بها مدة طويلة ، حتى مات . وبقي له تذكارات الأزبكية على مر الأيام والأوقات . وقال فيه شمس الدين القادري رحمه الله تعالى :

لأزبك مولانا المقر عمارة

بها السعد يسمو للنجوم الشوابك
بملكة الاسلام لم أر مثلاً
ولا الناس طرا في جميع الممالك
بنى جامعاً للحسن أصبح جامعاً
تقر به العينان من كل ناسك

وفيه توفي الشيخ تقي الدين الحصني الشافعي وهو أبو بكر بن محمد بن شادي ، وكان عالما فاضلا بارعا في الفقه والعربية وغير ذلك من العلوم ، وكان ديننا خيرا لا بأس به . ولى عدة وظائف ، أتي تداريس ، منها تدريس المدرسة الصلاحية ، التي بجوار قبة الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه . فلما مات قرر بها الشيخ زين الدين زكريا الأنصاري عوضا عن الحصني .

وفيه توفي قاضي القضاة شهاب الدين أحمد المعروف بالمكيني ، وهو أحمد بن محمد بن بركوت الحبشي التاجر الكارمي . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، ربيب قاضي القضاة صالح البلقيني ، وولى عدة وظائف سنية ، منها حاسبة القاهرة ، ثم ولى قضاء الشافعية ، وغرم بسببها مالا له صورة ، ولم يمكث في القضاء سوى مدة يسيرة ، وعزل عنها .

وفيه حضر نجاب من مكة ، وأخبر بوفاة القاضي شرف الدين الأنصاري ، وهو موسى بن علي بن سليمان التتائي الشافعي ، وكان رئيسا حشما ، غير خال من فضيلة ، عارفا بأحوال المملكة ، سيوسا حسن الرأي ، وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الجيش ، ونظر الخاص ، ووكالة بيت المال ، وغير ذلك من الوظائف السنية ، حتى عد مدبر المملكة ، وكان مولده بعد العشرين وثمانمائة .

وفيه أرسل نائب الشام جاني بك قلقيسر ، هدية للسلطان ، من جملتها من الذهب النقد عشرة آلاف دينار ، وعدة حمالين ما بين سمور ، ووشق وسنجاب وصوف ، وغير ذلك .

وفي ربيع الآخر وقع حريق عظيم بباب السلسلة ، فاحترق من خيول السلطان الخاص ستة أرؤس .

وقد أعيى المماليك طففيه . وهدم من سور باب السلسلة جانب عظيم . وفيه في ثالث مسرى كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكي أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا . وفيه توفي نائب الاسكندرية قانم قشير الظاهري ، وكان لا بأس به .

وفي جمادى الأولى عاد الأمير يشبك من بلاد الصعيد ، ولم يظفر بأولاد ابن عمر . وفيه قرر في امرية الحاج بركب المحمل تاني بك الجمالي الظاهري ، أحد مقدمي الألوف ، وقرر اقبردى الأشرفي أمير ركب الأول .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قانصوه اليحياوي نائب حلب ، وكان قد أشيع عنه أنه خرج عن الطاعة ، فلما حضر خلع عليه السلطان باستمرار ، وبطلت تلك الاشاعة عنه . وكان القائم في أمر مساعدته الأتابكي أزبك أمير كبير .

وفي جمادى الآخرة نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى خليج الزعفران ، لضيافة أبي بكر بن عبد الباسط ، فأضافه ضيافة حافلة . ثم ركب من خليج الزعفران وتوجه الى الخانقاه ، فصلى بها صلاة الجمعة . وأضافه هناك الأمير يشبك الدوادار ضيافة حافلة .

وفي رجب وقع بالقاهرة زلزلة في الليل عظيمة ، وقع منها بعض أماكن ، ولو أنها دامت درجة أخرى لحصل منها غاية الضرر للناس .

وفيه تعطلت أسباب الناس لأجل الفلوس العتق ،

وكثر الضرر منها على البائع ، وصار النصف الفضة يصرف بثمانية عشر من الفلوس العتق ، وصارت البضائع بسعيرين : سعر الفضة ، وسعر الفلوس . فحصل للناس بذلك غاية المشقة .

وفيه وقع بين الأمير يشبك الدوادار الكبير وبين خاير بك بن حديد تشاجر بالقلعة . فحنق منه الأمير يشبك الدوادار ولكمه بيده ، فرمى تخفيفته عن رأسه . فدخلت بينهما الأمراء ، وخلصوا بينهما . واستمرت القلوب معمرة بالعداوة حتى كان من أمر خاير بك بن حديد ما سنذكره .

وفي شعبان نزل السلطان الى الرماية ، وعاد في موكب حافل ، ولكنه لم يشق من القاهرة ، وطلع من بين التراب . وقد تكرر نزوله في الشهر المذكور ثلاث مرات ، وهو يطلع من بين التراب ، ولا يشق المدينة . وسبب ذلك الفلوس الجدد ، حتى لا يشكو له الناس من ذلك .

وفي رمضان نودي على الفلوس بستة وثلاثين الرطل ، وصارت بالميزان ، وأبطل عددها . ونودي على الفضة المضروبة بالألا يتعامل بها الا بالميزان ، وكذلك الذهب . وبطل أمر العادة .

وفيه أشيع بين الناس بأن السلطان يتزيا بزى المغاربة وينزل الى الجامع الأزهر ويصلى به ، وكان يسأل في بعض الطرقات من الناس عن سيرة نفسه ، ووقع له بين الناس في هذا الأمر أشياء غريبة يطول الشرح في ذكرها . وبعض الناس كان يحط عليه في أفعاله ، وهو يسمع كلامه بأذنه ممن يسأله .

وفيه توفي جاني بك المشد ، وكان موته فجأة بعد أن صلى التراويح . وكان قد شاخ وكبر منه . وأصله ممن مماليك الأشرف برسمباي ، وولى شادية الشراب خاناه في دولة الأشرف اينال . ثم

بقي مقدم ألف ، ونفى الى دمياط في دولة الظاهر خشقدم ، ثم حضر الى القاهرة في دولة الأشرف قايتباي ومات بها وهو طرخان .

وفيه كان ختم البخاري بالقلعة على العادة . وفرقت الخلع والصرر على الفقهاء .

وفيه فشا أمر الطاعون بالقاهرة . وهذا هو الطاعون الثاني الذي وقع في دولة الأشرف قايتباي .

ومات به في الشهر المذكور الفاضل عبد الكريم ابن جلود ، وهو عبد الكريم بن أبي الفضل بن اسحاق القبطي . وكان رئيسا حنسا ، وولى كتابة الممالك بعد أبيه ، وكان في حداثة سنه لم يلتج ، وباشرها أحسن مباشرة . وكان له حرمة وافرة ، وكان مولده قبل السبعين والثمانمائة .

وفيه توفي قانصوه رفر ، وكان من أعيان الخاصكية مقربا عند السلطان ، شابا مليح الشكل ، حسن الهيئة ، كثير الأدب والحشمة ، عارفا بالفروسية ، وكان لا بأس به .

وفي شوال تزايد أمر الطاعون ، وقتك بالممالك والأطفال والعبيد والجواري والغرباء فتكا ذريعا . وكان طاعونا مهولا يسوت فيه الانسان من يومه .

وفيه يقول الشهاب المنصوري رحمه الله تعالى :
لهقى على مصر وولداها
أضحوا الى الموت يساقونا

ما نشر الفصل سهام الردى

عليهم الا طواعينسا

وفيه حضر دولات باي النجمي الأشرفي ، حاجب الحجاب بدمشق ، وكان السلطان قد تغير خاطره عليه . ولما حضر خلع عليه ، وأظهر له الرضا .

وفيه وصل السيد الشريف على بن بركات أخو أمير مكة المشرفة . وكان حصر قبل ذلك الى

القاهرة ، فمضى السلطان بنه وبين أخيه بالصلح .
وتوجه الى مكة المشرفة ، فأقام بها مدة يسيرة ،
ورجع بينه وبين أخيه ثانيا ، فعاد الى القاهرة هو
وولده ، فأكرمه السلطان ورتب له ما يكفيه ، وأقام
بمنصر حتى مات .

وفيه خلع السلطان على قراجا السيغى جاني
بك نائب جدة ، وقرره في نيابة جدة ، عوضا عن
أبي الفتح المنوف بحكم انفصاله عنها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة على عادته ، وكان
يعود مشهودا .

وفي ذي القعدة تنهى أمر زيادة الطاعون ، ومات
فيه من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم الشيخ المسلك
العارف بالله تعالى ، الولي الصالح محمد بن أحمد
ابن محمد التونسي الشاذلي الوفاي ، المعروف
بأبي المواهب رحمة الله عليه ، وكان أصله مغربيا
يعرف بابن رعدان . وكان عالما صوفيا محققا أخذ
عن أبي السعادات بن أبي الوفاء ، وألف عدة أجزاء
جيلة ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر ،
ودفن بتربة الشاذلية .

وتوفيت أخت السلطان ، خوند جان باي
الجركسية وكانت لا بأس بها .

ومات جكم المصارع الأشرفي الخاصكي وكان
لا بأس به .

ومات طوغان المحمدي الأشرفي ، وكان في عشر
الثمانين سنة ، وله اشتغال بالعلم .

ومات الشيخ عبد الكريم السيواسي الحنفي ،
وكان من أهل العلم والفضل .

ومات عيسى بك أخو شاه سوار ، وكان مقيما
بالقاهرة .

ومات كسباي بن ولي الدين الظاهري

الخشقدمي ، الذي كان دوادارا ثانيا في دولة
الظاهر تمرغا .

ومات تمرغا كاشف الشرقية وكان من مماليك
السلطان وكان أمير عشرة ، فلما مات قرر عوضه
على باي الذي ولي نيابة الاسكندرية فيما بعد .

ومات كرتباي كاشف البحيرة وكان أصله من
مماليك جاني بك نائب جدة ، ثم ظهر أنه من قرابة
السلطان .

وفيه مات الامام العالم العلامة الشيخ سيف
الدين الحنفي وهو محمد بن محمد بن عمر بن
قطلوبغا التركي القاهري ، وكان عالما فاضلا ،
ورعا ، زاهدا ، خيرا ، دينيا ، صالحا ، ماهرا في
الفقه والحديث . ولي مشيخة الجامع المؤيدي ،
ومشيخة الخاقاه الشيخونة ، وغير ذلك من
التدريس . وكان متقشفا زاهدا عن أبناء الدنيا .
ومولده سنة ثلاث وثمانمائة . وكان من خيار
الحنفية ، ولما مات رثاه الشيخ العلامة العمدة
الجلال السيوطي بهذه الأبيات :

مات سيف الدين منفردا وغدا في اللحد منغدا
عالم الدنيا وصالحها لم تزل أحواله رشدا
ناصر دين النبي اذا ما أتاه ملحد كندا
في الذي قد كان من ورع لم يخلف بعده أحدا
لم يكن في دينه وضر لا ولا للكبر منه ردا
عمره أفناه في نصب لاله العرش مجتهدا
ليت شعري من يؤمله بعد هذا الجبر ملتحدا
ثلثة في الدين موته ما لها من جابر أبدا
قد روينا ذاك في خبر وهو موصول لنا سندا
فعليه هاملات رضا ومن الغفران سحب ندا
وبعثنا ضمن زمرة مع أهل الصدق والشهدا

بِذَائِعِ الزَّهْوِ
فِي وَقَائِعِ الدَّهْوِ



السيرة . وعنده عسف وظلم ، فبات والناس عنه
عز راضين

وبينه سرع الأمير يشبك الدوادار في أمر
نوسج الطرفات والشوارع والأزقة . فأمر الناس
فتح الدين السوهاجي ، أحد نواب الشافعية ، بأن
يحكم بهدم ما وضع في الشوارع والأسواق بغير
طريق شرعى . من أبنية وربوع وحوائيت ،
وسقاييف ورواشن ومساطب ، ونحو ذلك .

واسر الحان في أمر الهدم ، حتى دخلت سنة
ثلاث وثمانين وسبعمائة ، فحصل بذلك بعض نفع
في توسعة الطرقات ، ولكن حصل غاية الضرر
لجساعة من الناس بسبب هدم ربوعهم وحوائيتهم .
وهدم لخوند شعرا ، أنة الملك الناصر فرج ، ثلاثة
ربوع في الموازين : أحدها كان لجامع الصالح
خارج باب زويلة ، فاضطرب أحوال القاهرة ،
وكرر الهدم في الأماكن — ولا سيما المطلة على
الشوارع — وحصل للقاضي فتح الدين السوهاجي
غاية المقت بين الناس بسبب حكمه بهدم الأماكن .
وفي هذه الواقعة يقول الشهاب المنصوري :

نكتشف، عن محبا مصر الاستار

وخف عنها من الأثقال أوزار

واهترت الأرض منها بهجة ورنث

ولاح فيها اضاءات وأقوار

كانت كصبح تعالت فوقه ظلم

شتى ، فجاء لها بالنور اسفار

كانت كسمس تغشاها الغمام ضحى

فنزقته من الأرياح اعصار

فاليوم أعطافها بالبشر مائسة

وقدها في حلى السعد خطار

وكانت الطرق قد شابت مفارقها

والشيب ان شان ما في أخذه عار

ومها :

لما سكا الناس من مصر مضايقتها

وحار فيها من الحكام أفكار

فما بلغى آجور القاطنين بها

الا الأمير الذى بالعرف أمار

فهو الهام النظام المرتضى درجا

ت الفضل يشبك مولانا الدوادار

وهذا اخصار الفصيذة المطولة .

وفيه تغير خاطر السلطان على برهان الدين
النايسى ، وكيل بيت مال المسلمين ، فقبض عليه
وسلحه للأمير يشبك الدوادار ، ليستخلص منه
الأموال ... فاستتر الأمير يشبك يعاقبه ،
واستخلص منه جملة أموال لها صورة . وآخر
الأمر مات تحت العقوبة شر موته . وقد أذاقه
أنواع العذاب ، وتقنن في عذابه تفننا زائدا .
قيل انه ضربه عدة مرار نحو من ألفين وستمائة
عصا ، وפלغ أضراسه ودفعا في رأسه ، وغير ذلك
من أنواع العذاب . وكان أصله من دمشق ، وهو
ابراهيم بن ثابت ، وكان أحد نواب الشافعية ،
وله اشتغال بالعلم ، لكنه أدخل نفسه في أمور
السلطنة ، وطاش وظلم وجار عليهم ، ولم يفكر
في عقبى ذلك ، فأخذ من الجانب الذى أمن اليه ،
بعد أن عادى جميع الناس ممن ببصر والشام ،
حتى الأمراء وأعيان الناس ، وأعيان الدولة ،
وشقى لنفع غيره حتى سلب من المال والروح .

وفيه قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ،
وعلى يده مكاتبة ، فأكرمه السلطان ، وعاد له
الجواب ، وسافر بعد أيام .

وفي ربيع الأول خلع السلطان على صاحب
نخسقدم الأحمدي ، وقرره في الخازندارية الكبرى

والزينة صافية ، حرمها من جوارح الثور وري ... فعمم
أمره جدا ، وسار فريرا ، خاندارا وزماما . وقرر
مقابلة السبي الطاهري رأس نوبة السفاة ، وكان
بيد خستهم أيضا .

وقيه خلع السلطان على القاضي ناج الدين بن
المضحي ، وقرره في الاسنادارية عوضا عن الأمل .
ينسب الدودار . - وقد استغنى منها . فصار ابن
المضحي اسنادارا ، نثر الخاض ، فعمم أمره جدا
وكان ذلك بهابه وانتهاء سعده .

وقيه على السلطان المولد النبوى بالقلمه وكان
يوما حافلا . وحضر النضاة الأربعة ، وجييع
الأمراء . فلما انتهى أمر المولد نزل السلطان من
القلعة ، وبعث النوجه الى نهر الاسكندرية ،
فسافر من البر ، وجهز سنيحه في المراكب . وسافر
صحبته من الأمراء : الأتابكي أزيك أمير كبير ،
ويتشيك الدودار ، ونسارز رأس نوبة الموب ،
وأزهر الطويل حاجب الحجاب ، وعدة من الأمراء
الطيلخانات ، والعسراوان ، والجسم العفير من
الخاصكية ، والماليك السلطانية . وسافر معهم
سائر المبشرين . وكان القاضي كاتب السراين
مزهر متوعكا في جسده ، وخرج وسافر مع
السلطان وهو غليل .

وكان علم الدين شاكر بن الجيعان مريضا ،
على غير اسواء ، فتخلف بالقاهرة . وانسا سافر
معه والده عبد المغنى . فلما وصل السلطان الى
مدينة الاسكندرية ، زينت له زينة حافلة ، وخرج
الى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ،
وهو يالتاش والفساس . وكذلك قجساس الاسحاقى
نائب نهر الاسكندرية ... واصطف الناس في
شوارع المدينة بسبب الفرجة . فدخل السلطان
في موكب حافل ، وجميع من معه من الأمراء
والعساكر ملبسين بألة السلاح بالعدد الكاملة .

والأتابكي أزيك حامل القبة والطير على رأسه ،
والملك المؤيد بين يديه قدام الأمراء ، وقدامه أعيان
المبشرين ، وأرباب الدولة ، وطلب طلبسا حافلا ،
وحر فيه مائتين وخمسين فرسا ، منها خمسون فرسا
بالسروج الذهب والكنائيس ، والبقية ملبسا
بأنواع الجوانعين المكفتة ، والبركستوانات من
المخل الملون ، وفي الطلب كجاوش زركش ، وهى
اللى تعرف الآن بالجوشن ، ولعبوا قدامه بالقواش
والذهب ، والأوزان عسال ، والسبابة . ومُسب
قدامه الأمراء رعوس النوب بالعصى ، وشق المدينة
في ذلك الموكب الحافل ، وكان له يوم مشهود .

ثم ان بعض نجار الافرنج شر على رأسه ألب
بسدفي ذهبا ، فتزاحست عليه المالكيل يلتقطون
ذلك الذهب من الأرض ، فكاد السلطان يسقط
عن ظهر فرسه من شدة ازدحام الناس عليه ، حتى
أدركه الأمير نمرار ويده عصا ، ف ضرب الناس
حتى حلتص السلطان ومنى . واستمر في ذلك حتى
خرج الى باب البحر الذى هناك ، فنزل بالمخيم
الذى نصب له على ساحل البحر الملح . وكان من
العادة القديمة أن السلطان اذا دخل الى مدينه
الاسكندرية ، تفك أبواب المدينة ، وتلقى على
الأرض الى أن يرحل السلطان عن المدينة ... فلم
يوافق السلطان قايتباى على ذلك ، وأبى كل نبي
على حاله . ولم يدخل الاسكندرية سلطان من عهد
الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ،
وفد دخلها مرين : الأولى في سنة سبع وسعين
وسبعائة ، لما طرق الافرنج نهر الاسكندرية ،
فدخلها على جرائد الجبل . والثانية كانت في سنة
احدى وسبعين وسبعائة ، فأوكب بها في هذه
المره ، وزينت له مدينة الاسكندرية ، وفرش له
خليل بن غرام نائب الاسكندرية التمتع الحرير ،
ونثر على رأسه خفاف الذهب والفضة ، ومُسب

بن يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشيد ، فانه كان في نروجة . ووجه من هناك الى الاسكندرية ، فأقام بها ثلاثة أيام وعاد الى القلعة .

ثم توجه بعده الى الاسكندرية الملك الناصر فرج بن برقوق ، في سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود . فوقف له بعض تجار المغاربة بفصة يشكوه له من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم ، من الثلث الى المسر ، فارتفع له الأصوات بالدعاء . وعد ذلك من محاسن السلطان فرج .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف قايتباي ، فلما نزل بالمخيم مد له هنا قجباس نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم خلع على الملك المؤيد ونائب الاسكندرية ، ورجعا الى دورهما ، وصحبتهما الأمراء فاطمة . فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب الكرة في الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه . ودخل عليه من تجار الاسكندرية نعام حافلة . ثم انه توجه نحو المنار القديم ، الذي كان بتغر الاسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجاً ، فبنى به برجاً عظيماً ، وهو الموجود الآن . ثم ان السلطان رحل من الاسكندرية وتوجه الى نحو ادكو ودمهور وغير ذلك من البلاد الغربية ، وانتشرح السلطان في هذه السفرة الى الغاية ، واستمر يرحل من مكان الى مكان على سبيل التنزه ، نحو من أربعين يوماً ، حتى عاد الى القلعة المنصورة .

ومن الحوادث أنه جاء في غيبة السلطان قاصد من عند قراجا الطويل ، نائب حماء ، وأخبر أن نائب حماء ثار عليه أهل البلد ورجموه وأخرجوه منها ، وقتلوا دواذره وأحرقوه بالنار ، بسبب ظلامه وعسفه في حق الرعية . فلما بلغ السلطان

هذه الخبر ، عين من هنالك خادماً ليكيا لنفسه الأخبار ، ليرى الظالم من المظلوم .

وفيه حضر قاصد من مكة المشرفة ، وأخبر بزول صاعقة عظيمة عند باب السلام ، فاحترق منها عدة أماكن ، وأخبر بوفاة قاضي القضاة المالكية بمكة المشرفة ، وهو محمد أبو اليمن بن أبي السعادات ، وكان من أهل العلم والفضل .

وأخبر أيضاً بوفوع فتنة مهولة بين الشريف محمد بن الشريف بركات ، وبين قبيلة بني جازان وحصل بينهما ما لا خير فيه . وآل الأمر الى أن الشريف محمد قد قبض على شيخ بني جازان .

وفي ربيع الآخر كان وفاء النيل المبارك ، وقد وفي آخر يوم من أييب . وكسر في أول يوم من مسرى ، فعد ذلك من النواذر ، وفيه يقول القائل :

أرى بيل مصر قد غدا يوم كسره

إذا رام جرياً في الخليج نقنطرا

ولكن بهذا الكسر زاد تجبراً

وأفرط هجماً في القرى ونجسراً

وقال آخر :

ان بحر النيل قد وفي لنا

ما عليه من قديم قرراً

وفضانا الدين الا أنه

حين وفي ما عليه انكسراً

وكان الوفاء في غيبة السلطان ، فتوجه الأمير لاجين أمير مجلس ، وفتح السد على العادة بأمر تقدم من السلطان له . وكان يوماً مشهوداً .

وفيه كانت وفاة القاضي علم الدين شاکر بن الجيعان بن عبد الغنى بن شاکر بن حامد بن عبد الوهاب بن يعقوب الديماطي الأصل القبطي المصري متولى ديوان الجيش . وكان رئيساً حشماً وجيهاً عند الملوك والسلاطين . وكان عنده تواضع

بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشيد ، فانه كان في تروجه . ووجه من هناك الى الاسكندرية ، فأقام بها ثلاثة أيام وعاد الى القلعة .

ثم توجه بعده الى الاسكندرية الملك الناصر فرج بن برقوق ، في سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود . هوفف له بعض نجار المغاربة بضعة يتسكو له من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم ، من الثالث الى المسر ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء . وعد ذلك من محاسن السلطان فرج .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف قايتباي ، فلما نزل بالمخيم مد له هنا قجساس نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم خلع على الملك المؤيد ونائب الاسكندرية ، ورجعا الى دورهما ، وصحبتهما الأمراء قاطبة . فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب الكرة في الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه . ودخل عليه من تجار الاسكندرية فادام حافلة . ثم انه توجه نحو المنار القديم ، الذي كان بنى الاسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا ، فبنى به برجا عظيما ، وهو الموجود الآن . ثم ان السلطان رحل من الاسكندرية وتوجه الى نحو ادكو ودمهور وغير ذلك من البلاد الغربية ، وانشرح السلطان في هذه السفرة الى الغاية ، واستمر يرحل من مكان الى مكان على سبيل التنزه ، نحو من أربعين يوما ، حتى عاد الى القلعة المنصورة .

ومن الحوادث أنه جاء في غيبة السلطان قاصد من عند قراجا الطويل ، نائب حماء ، وأخبر أن نائب حماء ثار عليه أهل البلد ورجموه وأخرجوه منها ، وقتلوا دواذره وأحرقوه بالنار ، بسبب ظلمه وعسفه في حق الرعية . فلما بلغ السلطان

هذا الخبر ، عين من هسالك حارسا ليليا له من الأخبار ، ليرى النقال من المملوك .

وفيما حضر فاحمد من مكة المصرية ، وأخبر بزول صاعقه عظيمة سد باب السلام ، فاحترق منها عدة أماكن ، وأخبر بوفاة فاضل الهندسة المالكية بمكة المشرفة ، وهو مصد أبو اليمن بن أبي السعادات ، وكان من أهل العام والدملج وأخبر أيضا بوفوع فتنة مهولة بين الشريف محمد بن الشريف بركات ، وبين قبيلة بني جزازان وحصل بينهما ما لا خير فيه . وآل الأمر الى أن الشريف محمد قد قبض على شيخ بني جزازان .

وفي ربيع الآخر كان وفاء النيل المبارك ، وقد وفي آخر يوم من أبيب . وكسر في أول يوم من مسرى ، فعد ذلك من النوادر ، وفيه يقول القائل :

أرى بيل مصر فد غدا يوم كسره

إذا رام جريا في الخليج نقنطرا

ولكن بهذا الكسر زاد تجبرا

وأفرط هجما في القرى وجسرا

وقال آخر :

ان بحر النيل قد وفي لنا

ما عليه من قديم قررا

وقضانا الدين الا أنه

حين وفي ما عليه انكسرا

وكان الوفاء في غيبة السلطان ، فتوجه الأمير لاجين أمير مجلس ، وفتح السد على العادة بأمر تقدم من السلطان له . وكان يوما مشهودا .

وفيه كانت وفاة القاضي علم الدين شاکر بن الجيعان بن عبد الغنى بن شاکر بن حامد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدمياطي الأصل القبطي المصري متولى ديوان الجيش . وكان رئيسا حشما وجيها عند المملوك والساطين . وكان عنده تواضع

زائد للناس قاطبة . وله اشتغال بالعلم . ومولده في سنة سبعين وسبعمائة ، وهو الذي أنشأ الجامع الذي بالقرب من بركة الرطلى . وكان نادرة في بنى الجيعان .

وفيه وصل السلطان الى القاهرة ، وطلع الى الفلعة . وكانت مدة غيبته في هذه السفرة نحو شهر وأيام ، ودخل له تقادم حافلة . فلما استقر بالقلعة خلع على الشرفى يحيى بن شاکر بن الجيعان ، وقرره في وظيفة والده . ومولده سنة عشرين وثمانمائة .

وفي جمادى الأولى عرض السلطان جماعة من اولاد الناس ، وقرر منهم من اختاره في وظائف مثل طبردارية وجمدارية ، وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على شمس الدين بن القوصوى ، وقرره في رئاسة الطب ، عوضا عن ابن العفيف .

وكانت انتهت عمارة فاعات الأزيكية ، التى أنشأها الأنابكى أزبك ، فعزم على السلطان هناك فنزل اليه وبات عنده فأضافه ضيافة حافلة . ثم قدم له تقادم هائلة فشكره على ذلك ، ولم يقبل منها شيئا . فلما أصبح توجه هو والأمير يشبك الدوادر الى جهة المطرية ، فأضافه هناك الأمير ينسبك فى القبة التى أنشأها هناك . فأقام عنده يوما وليلة ، وانشرح هنالك الى الغابة ، وشكر عمارة الأمير ينسبك على عمارة الأنابكى أزبك . ثم طلع الى القلعة ، وبعث اليه الأمير بشبك تقادم حافلة ، فقبل منها شيئا وردّ منها شيئا .

وفيه انتهت زيادة النيل الى أصبح واحدة وعشرين ذراعا . وثبت الى آخر بابة ، وقد كسر الجسور وقطع الطرقات ، وغرقت أراضي المية . وكان نيلا عظيما .

وفيه خلع السلطان على قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وقرره في مشيخة الخانقاه التسيحونية ، عوضا عن الشيخ سيف الدين الحنفى ، بحكم وفاته رحمه الله تعالى . وكان ابن الشحنة منفصلا عن القضاء .

وفيه ، فى أنثائه ، خرج السلطان على حين غفلة من العسكر ، وتوجه الى الصالحية . ثم بعد أيام أتبع بأن السلطان توجه من هناك الى البلاد الشامية ، فنعجب الناس من ذلك ، وكان فى نفر يسير من العسكر بحيث انه كان معه من المماليك نحو من أربعين مملوكا من خواصه ، وكان معه بعض أمراء عشراوات ، وتانى قرا الدوادر الثانى وآخرون من الأمراء . وكان معه من المباشرين القاضى كاتب السر أبو بكر بن مزهر ، وأبو البقاء ابن الجيعان ، وشهاب الدين بن التاج الموقع . وبرهان الدين بن الكركى الامام ، وغير ذلك مما لا يحضرنى أسماؤهم . وترك بالقاهرة الخليفة المستنجد بالله والقضاة الأربعة ، والأتابكى أزبك ويسبك الدوادر ، وسائر الأمراء المتقدمين ، والطبلخانات والعشراوات ، وجميع العسكر قاطبة ، لم يتبعه أحد منهم . فصار الناس فى شك من سفره على هذا الوجه ، ولم يتفق لأحد من السلاطين مثل هذه الواقعة .

وفى جمادى الآخر ورد هجان من عند السلطان وعلى يده مراسيم الى الأمراء الذين بالقاهرة . فكان من مضمونها أن السلطان توجه الى نحو البلاد النمامية ليكشف عن أمر النواب والقلاع بنفسه . وأرسل يقول للأمراء بأن يتوصوا بالرعية والجد فى الأحوال ، وأن يحضروا الجامكية مادام السلطان غائبا . وكان المشار اليه فى غيبة السلطان

الأمير أربك ، وقد علم أمره جدها والده المماليك عليه دونه الأمراء .

وفيه في تيمية السلطان توفي الصاحب نور الدين ابن الأيبكي ، نائب كاتب السر ، وكان رئيسا جنسا عارفا بأحوال المملكة ، وكان اسافا حسنا لا بأس به رحمه الله تعالى .

وفي رجب توجه النضاف الأربعة الى بيت الانابكي أربك والأمير يسيل الدوادار ، وهو ههنا بالشهر .

وفيه خرج الانابكي أربك الى السرحه ، فغاب أياما وعاد الى القاهرة .

ومن جملة الطاف الله تعالى أن في غيبه السلطان لم يفسح الخلف بين الأمراء ، بل كان الأمان والاطمئنان في القاهرة وجميع ضواحيها ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفي شعبان وصل هجان من عند السلطان ، وأخبر بأن السلطان دخل الى حلب ، وأقام بها ، وهو فاسد الى جهة القرات ، وقد عرج قبل دحواله الى حلب نحو طرابلس .

ثم حضر هجان من وإلى بدم مراسيم للأمراء بالسلام ، ومكاتبة للأنابكي أربك بأنه يوجه الى المطعم بالربدانة ، ويلبس الأمراء هناك الصوف وأن يصرف الكسوة للجند . فخرج الأنابكي أربك الى المطعم ومسجته الأمراء فاطبة والعسكر وكان له يوم مسهود . فلبس الأمراء هناك الصوف كعادة السلاطين . وخام في ذلك اليوم على الأمراء جناني بك الفقيه أمير سلاح ، وفرره في امرية الحاج بركب المحمل ، وفرر اقبردى الأشرفي بالركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة السهابي أحمد بن أبي المرح ، نقيب الجيوش ، وهو أحمد بن محمد بن عبد الغنى ، وتوفي بحلب . وكان خرج صحبة السلطان فمات هناك .

وفيل أنه حصل له رجفة من السلطان فاضطرب ومات غيبا ذلك . وكان شابا قليل الأذى للناس لا بأس به .

وفي رمضان وقع بالقاهرة بعض اضطراب ، وسبب ذلك مضي الثلاثين من شعبان ، ولم ير الهلال ، فأكل غالب الناس في أول رمضان ، فنادى الغاضى النسافعى بالامساك فتار عليه العوام ، وتصدوا الاخراف به ، فثبت رمضان برؤية الهلال فربط الطهر . ولكن أظفر غالب الناس في ذلك اليوم .

وفيه وقع بين نهم الضبع أخى نيك الجبالى ، وبين النساخى ابي الفتح السوهاجى ، تناسج بسبب هدم مكان . نسب الأمير تنم الضبع السوهاجى ، فسكا الى الأمير ينسك . فطلب تنم فلما حضر أمر بصره بين يديه ، فغضب ولم يوقره لأخيه نيك الجبالى ، فحصل بسبب ذلك بعض ملطلة بين الأمراء .

وفيه جاءت الاخبار من حلب ، بأن السلطان لما توجه الى القرات أقام هناك أياما . ثم عاد الى حلب ورجل عنها ، ومصد التوجه الى حماة ، فلما دخلها وأقام بها ، حصل له هناك مرض في جسده ، فلما نقل في المرض وعجز عن الحركة ، أحضروا له مخففة فحمل بها ، وتوجه الى دمشق فدخلها وهو مريض على غير استواء . فكثرت القبل والقال بين الناس ، ومصار في كل يوم يشاع بالقاهرة خبر جسده بأن السلطان مات ودفن هناك ...

يده مكاتبات للخليفة والقضاة الأربعة ، والآتابلى
أزبك ، والأمراء قاطبة . فكان من مضمونها أن
السلطان قد حصل له توعك فى جسده ، وقد
بعث الله تعالى له بالعافية والشفاء ، وحصل له
البرء . فضربت البشائر بالقلعة ، ودخل على برد
بك سكر عذو كوامل بسمور من الأمراء ،
والخليفة ، وقضاة القضاة ، وأرباب الدولة ، ودق
له البشائر على أبواب الأمراء ، ونودى فى القاهرة
بالزينة سبعة أيام ... فزينت وأظهرت الناس الفرح
والسرور بعافته . وسكن الاضطراب الذى كان
بالقاهرة ، وبطل القيل والقال الذى كان بين
الأمراء . وفى ذلك نقول الشهاب المنصورى :

بعافة السلطان مولى الأنام قد

تهلل وجه الدهر فهو جبل
وقد صحت الدنيا لصحة جسده

وليس بها غير النسيم عليل

وكان الأمير يشبك الداودار من جن نوجه
السلطان للسفر ، وهو مجتهد فى توسيع الطرقات
واصلاح وجوه أبواب الجوامع والمساجد ، وجلى
رخامها ، وبيض حيطانها ، وكشف عن أبواب جامع
الملك الصالح ، وظهر منه عواميد رخام فجلاها ،
وأمر بتبييض الدكاكين ، ووجوه الربوع التى تطل
على الشوارع ، وخلع على شخص من أبناء الناس ،
وجعله منسد الطرقات ، فصار يستحث الناس فى
سرعة البياض والدهان ، حتى صارت القاهرة كأنها
استجدت فى بنائها ونزخرفها ... وصارت مسلى
العروس التى تجلى .

ثم ان الأمير يشبك أمر بملع عتبة باب زويلة
وأعلى العتبة وأصلحها . فان الأرض كانت علت
على لعتبة ، فقطع الأرض ، ومهد قدام الباب .
واستمر باب زويلة مغلقا أياما حتى انتهى العمل
منها ، فعاد ذلك من النوادر .

فاضطربت أحوال الأمراء فى بعضهم ، وأظهر كل
واحد منهم ما فى نفسه من السلطنة . وأرجفت
القاهرة بموت السلطان غير ما مرة . ونقل للأمير
يشبك الداودار بأن برد بك جيش ، أحد الأمراء
الآخورية ، وكان من أخصاء جانبك الفقيه أمير
سلاح ، قد منى بين طائفة المماليك الخشقدمية ،
بأن يكونوا من عصابة جانبك الفقيه . واذا صح
موت السلطان يقومون معه ويسلطونه

وكان جاني بك الفقيه تحدثه نفسه بالسلطنة ،
ويقرب الفلكية والمنجمين ، وحظى عنده جماعة
بسبب ذلك .

ثم ان الأمير يشبك أرسل خلف برد بك جيش ،
وذكر له ما نقل عنه ، فأنكر ذلك وحلف أبمانا
عظيمة أنه لم يصدر منه شيء من ذلك ، فقامت عليه
البينة وكذبوه فى وجهه . فسكت ولم ينطق بحرف
واحد ، فعند ذلك أمر الأمير يشبك بضربه ، فصر
بين يديه ضربا مبرحا حتى أشرف منه على الهلاك .
ثم أقامه وأحضر له عمامة يهودى صفراء ، وألبسها
له ، وقصد يشهره بالقاهرة . فتنفع فيه بعض
الأمراء ، فأركبه على حمار وجرسه بين يديه فى
الدور . ثم شكه فى الحديد ، وأمر بتفنيه الى
الواح .

كل ذلك جرى والسلطان غائب ، لم يعلم له
خبر ، وكانت هذه الواقعة سببا لنفى جاني بك
الفقيه أمير سلاح كما سيأتى الكلام على ذلك

وفيه ختم البخارى بالجامع الأزهر ، وحضر به
القضاة الأربعة ، وفرقت هناك الخلع والصرر على
الفقهاء والعلماء ، وكانت قراءة البخارى من اول
رمضان فى الجامع الأزهر ، وعند الدعاء يدعون
للسلطان بالسلامة .

فبينما القاهرة فى اضطراب واذا بخاصكى حضر
من عند السلطان ، يقال له برد بك سكر ، وعلى

وكان اسمه حسين بك وقيل مرزاه ، وهو المشهور
عند الناس .

ولما رجع السلطان من هذه السفرة عظم أمره
جدا ، وكان انتهاء سفره الى الفرات ، وكشف على
عدة قلاع بنفسه ، ودخل الشام وحلب وطرابلس
وحماة ، وغير ذلك من البلاد الشامية . ودخل عليه
من النواب وأعيان الناس جملة تقادم وأموال لها
صورة . وعدت هذه السفرة من النوادر الغريبة .

وكانت مدة غيبة السلطان في سفرته نحو من
أربعة أشهر . وفي هذه الواقعة يقول الشيخ محمد
ابن الزيتوني هذه القطعة الزجل ، وهي من محاسن
هذا الفن ، كلها غرر وجناس تام ، وهي هذه :

سلطاننا الأشرف خرج في أربعين
من العساكر حين سافر حساه
ومن حلب عدا يروم الفرات
فأسقى الخيول من ماء وره حماه

في مصر فرسان أربعين بالعدد
لدورة المحصل يسوقوا الجياد
ورعبهم ساكن قلوب الملوك
يردوا الخارج وأهل العناد
في ذا العدد راح الملك واقتخر
بهم على سائر ملوك البلاد

وخو سوار لاقاه وفي صحبته
ولد حسن بك بالخدم ما أباه
وخلع عليه اطن وخلع على
ولد حسن خلعه وشتت أباه

كامل مظفر بالعدا لم يزل
يجري دماهم في الفيافي نهر

وفيه حضر هجان من شدة السلطان ، وأخبر أن
السلطان خرج من الشام بعد ما جلس بالقصر الذي
بالميدان ، وحكم بين الناس ، وارتفعت الأصوات
له بالدعاء . وخلعت الأمراء على الهجان . ثم حضر
عميب ذلك هجان ثان ، وأخبر بأن السلطان خرج
من غزة ، وهو فاسد الديار المصرية ، فسرعت
الأمراء في الخروج الى ملافاة السلطان . ثم جاءت
الأخبار بأن السلطان وصل الى قطيا .

وفي سؤال جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل
الى القاهرة . وصلى بها صلاة العبد ، وهو سعيد
القدر . فعند ذات خرج الانباكي أرباب والأمير
بتسبك الدوا دار . وبفه الامراء فاطيه ، الى ملافاة
السلطان . ثم وصل الى الخاشاه ، فخرج اليه
القضاة والعسكر بأجمعهم . وبودى في القاهرة
بالزينة . فزيت زينة حادله .

فلما كان يوم الخميس رابع سوال ، دخل
السلطان الى القاهرة في موكب حافل ، وغداه
التفاه الأربعة . والامراء والعسكر . على ما جرت
العاده به في المراكب . وكان له موكب عظيم وبوم
مشهود ، الى أن صاح الى القاعة . ففعل له حينئذ
ما يناسب الملوك ، الى أن دخل الحوس ، فبدأت
الأسطى الى القاعة . ثم انتهت دجاج على من كان
مسافرا مسجبه .

ولما وصل السلطان الى الفرات ، قدم عليه
شخص من اولاد حسن الخويل . وهو ابن محمد
انزله بن حسن السوار . وقد شابه جمل الصورة
له من العمر نحو من عشرين سنة ، وخافت
عليه انه ان يسلمه أسداه . فدعا به الى السلطان ،
فحضر به الى القاهرة وحسن عده . وكان عند
مروره من القاهرة . معه ستمائة كالموك والامراء .
واسنم بمصر حتى مات كما سبني الكلام عليه .

خرج لتطمين العباد في السلاسل
فكم شكر عادل وظالم لهم

امامنا الأعظم مليك الزمان
بالعدل في هذا الوجود اتتهن

كشف عن النواب فمن خان وجار
أنكر عليه فعله وبالعدل جاء

ومن رآه عادل وفعلوا حسن
خلع عليه وأعطاه منازل وجاء

هذا الملك صالح وسرو ظهر
لا شك انو قطب في الدائرة

لما خرج في الأربعين خلتهم
بدر الدجى حولو نجوم زاهره

له منازل كل حد منزله
شئ للرصد شأنه وشئ سامره

كشف بلاده واعتبر أهلها
واحد رفع قدره وآخر ساء

وطلعتو فاقت شمس الضحى
وأخفت البدر المنير في مساه

لما دخل للشام وكان قد ضعف
من الهوا والشرب من ماء العيون

وربنا عافاه وجابو لنا
سالم وقرت به جميع العيون

عادل وره بالظفر أيده
عجب لسلطان حازر جميع الفنون

ومهد الدنيا بعدلو وان
راد ينشئ عزمو الشديد ما ثناه

وفاز بتاريخ ما فرح به ملك
قبيلو ونال قصده وسخر ناه

أهل الفضائل والعلوم وزخو
وكل واحد في الكتابه ذهب

يكتب تواريخ الملوك بالمداد
الا لقايتبى كتب بالذهب

هو فارس الاسلام وليث الوغى
وقهلوان الحرب مثل العجب

وخالفه علا مقامه الشريف
على الملوك وأنشاه ومن ما براه

وكل ذا في اللوح قديم في الأزل
خطو القلم جل الذي قد براه

تاريخ سنة اثنين جسادى الأخير
يلى ثنائين مع ثمان من مئين

من هجرة الهادى عليه السلام
خير النبيين سيد المرسلين

تجهز السلطان يريد السفر
وأخفى عن العسكر خرج في أربعين

وفر لبت المال خزائن ذهب
ما تحصرو أقلامنا مع دواه

وربح العسكر وكم من ضعيف
كان التخلف في بلاده دواه

لاجل الدوا دار الكبير قد برز
أمره بتوسيع الطريق المضيق

وكشف أبواب المساجد وما
بين المدارس كان على غير طريق

وصلح الأبواب وشيء ييشه
وأخلع على واحد مشاء الطريق

ووكله بالقاهرة كل يوم
بقي يدور راكب وفي ابده عصاه
فيأمر الناس بالبياض والدهان
مناع الجميع أمره وما واحد عصاه

صارت مدينتنا عروس للملك
وذا عجب كيف العريس هو الولي
وتقشوها بالدهان في البياض

وأضحت عروسه بالطراز تنجلي
ومدت المدات نهار الفرح
وزينوها بالحلل والحلى

وبان لها سيقان عواميد رخام
جلاهم الصانع ونعم جلاه
ودقت الكوسات نهار الدخول

وكان دخوله في المواكب جلاه

وقبل ذا صلوا على المصطفى
خير الخلائق واغانوا بالسلام
بكل مرة من صلاتك عليه

جزاك الله عشره بالصلاه يا كرام
وبالشفاعة يدخلك جنته

من بابها الأول لدار السلام

هو أول الرسل الكرام في الوجود
وهو لهم خاتم وما حد تلاه
وانزل القرآن عليه العزيز

على لسان جبريل مفرق تلاه

في ليلة المعراج بخير الأنام
ساقوا حديث مسند صحيح السياق

نزل عليه جبريل وقال له الاله
يدعوك الى الحضرة على ذا البراق
ركب عليه حتى صعد للسا

وصار الى السبع العوالى الطباق
لجنة المأوى رقى وارتقى
وزج به في النور وزاد في شفاء

وأفرض عليه الخمس كان أصلها
خمسین وفيها خطابه شفاء

هذا المعاني والبديع والجناس
من نظم زيتوني لفقته دخول
أبو النجا العوفي نظم في الملك

من حين خروجه في السفر للدخول
فان تجد عيا فسد الخل
اذا سمعته في نظامه يقول

سلطاننا الأشرف خرج في أربعين
من العساكر حين سافر حماه

ومن حلب عدى يروم الفرات
فأسقى الخيول من ماء وره حماء

وفيه ، في ثامن عشر منه ، خرج الحاج وكان أمير
ركب المحمل الأمير جاني بك الفقيه ، أمير سلاح
وبالأول أقبردى الأشرفي ، فلمسا خرج جاني بك
الفقيه رسم السلطان بهدم سبيله الذي قد أنشاه
بالرميلة . فأخذ الناس يلهجون بأنه لا يعود الى
القاهرة ، وكذا جرى ...

وفي ذى القعدة قدم قجماس الاسحاقى نائب
الاسكندرية ، وأقام بالقاهرة بباب السلسلة . وكان

قد جبع بين نيابة الاسكندرية وبين امرة الآخورية الكبرى .

وفيه نزل السلطان ونوجه الى بر العيزة وكشف عن خيوله ، وأقام هناك أياما . ثم توجه الى جهة منوف العليا ، وكشف عن جسورها ، وأمر بإصلاحها ، وأقام هناك أياما وعاد الى العيزة . ثم سافر من هناك الى الفيوم ، وكان معه في هذه المرة الأتابكي أزيك ، وتمرز التمشي رأس نوبة كبير . وكان معه من الأمراء العشراوات ، ومن الخاصكية عدة وافرة . فلما دخل الى الفيوم تلقاه خاير بك ، وكان مقيما بالفيوم ، فخلع عليه خلعا فاخرة ، وأقام هناك أياما ، وهو في أرغدعيس ، على سبيل التنزه .

فبينما هو على ذلك اذ ورد عليه من جهته الصعيد ، بأن عرب هواراة ثاروا مع يوس بن عمر ، على برسباي كاشف الوجه القبلي فكسروه . ووقع بينهما مقتلة ، قتل فيها جماعة كثيرة من الجند والبلاصية ، فتأكد السلطان لهذا الخبر . وقصد أن يتوجه من هناك الى بلاد الصعيد ، فمنعه الأمراء من ذلك . وكان الأمير يشبك ممرضاً برجله ، وهو بالقاهرة ، فأرسل السلطان يستحثه في سرعة السفر الى جهة الصعيد .

وفي ذي الحجة عاد السلطان من سفره من الفيوم ، فلما استقر بالقلعة ، خلع على بركات بن يحيى بن الجيعان ، وقرره نائب كاتب السر عوضا عن نور الدين الانبأبي ، بحكم وفاته... وهذا أول ضخامة الزيني بركات بن الجيعان .

وفيه توفي الناصري محمد بن قرقماس الحنفي ، وكان عالما فاضلا من أعيان الحنفية ، وكان يدعى معرفة علم الحرف وعلم الكيسيا ، وكان ولي مشيخة تربة الظاهر خشقدم . ومولده سنة اثنتين وثمانمائة

وكان ناظما ناثرا ، وله عدة مصنفات ، منها « كتاب زهر الريح في شواهد البديع » وغير ذلك من التأليف ، وله معارضة مقامات الحريري ، « كان يدعى دعاوى عريضة ، ومن نظمه :

إذا من من تهوى عليك بنظرة
أماط الجوى من قلبك الياس والماوى

فكن شارباً صبراً لم صدوده
فما ذاق من الوصل من هم بالسوى

وفوله في مليح من ركاب الخيل وأجاد :
وظبى من العرب الكرام سألته
لمن في الورى عزى فقال مؤنبى

أنا ابن الذى نشئ الملوك أمامه
إذا ما رأوه راكباً يوم موكب
وفيه خرج الأمير ينسبك الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب تلك الفتنة التى وضعت بين يوس ابن عمر ، وبين داود بن عسر فريبه ، وأخذ معه جماعة كثيرة من الجند .

وفيه توفي حسن بن محمد بن أيوب الكردي ، نائب القدس ، ونائب الكرك ، وكان رئيساً حشوا لا بأس به . وكان قد شاخ وناف على الثمانين سنة .

وتوفي القاضى شهاب الدين أحمد الطولوني الحنفي ، أحد نواب الحكم . وكان مفرداً في السن جداً ، بحيث لم يكن في عصره أسن منه . ومما وقع له أن جماعة من الفلاحين نحاكموا سنده على دين ، فأنكر الذى عليه الدين ، فألزمه القاضى باليمين ، فلما أراد أن بطلف ، قال له الخصم : ان كنت ما أخذت منى شبنأ نسمى في سمن هذا القاضى ، فاعترف لحصمه بالدين ولم ينكره .

سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة (١٤٧٨ م) :

فنها . في المحرم ، خلع السلطان على العلاني
على بن الصابوني ، وفهره في وكالة بيت المال ،
عوضا عن النابلسي ، وعمره في قضاء النافعية
يحب ، عز الدين الخسفاني ، وصرف عنها
أبو البقاء ابن السجنة .

وفيه جاءت الأخبار بأن السلطان قبض على
جاني بك الفقيه ، أمير سلاح الذي توجه أمير
ركب المحلل ، فقبض عليه من العقبة ، وأرسله
من هناك إلى القدس بطالا .

ونفى أيضا قايتباي الخشندمي إلى جهة حلب ،
ونفى أيضا يشبك جنب الظاهري جنس إلى جهة
دمشق . لكونهما كانا من أصحاب جاني بك
المنه .

وفي دخل الحاج إلى القاهرة ، وقد قاسى في
السنة المذكورة شدائد عظيمة من الغلاء ، وموت
الجمال ، وانقطع جماعة من الحاج من رجال
ونساء . ومثل في السنة المذكورة قاضي المدينة
المثربة وخطيبها . وقد قتله بعض الرض ...
وسبب ذلك أن الخوارج تنس الدين بن الزمن
ابتداء بعبارة مدرسة السلطان ، فأخذ مكانا كان
يسكنه هذا الرافض ، ودخله في بناء المدرسة ،
فتعصب القاضي على الرافض في هدم مكانه ،
وكان ذلك سببا لقتله .

أقول : وأنا حججت تلك السنة ، وشاهدت
الواقعة ، ونفى جاني بك المنه من العقبة .

وفيه خلع السلطان على جاني قربه وفهره في
نظر الأحوال ، وهو جاني الشريف . وهذا أول
انتهار جاني الشريف في الوظائف . فأقام في نظر
الجوالي مدة يسيرة . ثم أنعم عليه بتقدمة ألف .
وهي نفقة جاني بك الفقيه أمير سلاح . فعظم أمر
جاني جدا ، وكان أمره لم يلتج .

وفي صفر خلع السلطان على شاد بك الصغير ،
وقرره في نيابة سويس ، عوضا عن أزدمر قرب
السلطان ، وفهم أزدمر إلى القاهرة .

وفيه كان عقد جاني الشريف ، قريب السلطان ،
على خوند ، ابنة العلاني ، على بن خاص بك .
وكان بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة ،
وأرباب الدولة . وكان عقدا حافلا ، وخلع فيه
على قاضي القضاة ، ولي الدين الأسيوطي لكونه
نولي العقد . وخلع على كاتب السر ابن مزهر
لكونه كان وكلا عن جاني .

وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوي ،
وكان حافلا .

وفيه عين السلطان وردبش الظاهري ، بأن
يخرج إلى اللجون ، بسبب احضار الأخشاب .
وعين معه جماعة من الجند ، وأمرهم بأن يدخلوا
إلى قبرس ، ويطلبوا أصحابها بالجزية ، ويتوجهوا
من هناك إلى اللجون ، لاحضار الأخشاب .

وفيه وقف الشهابي أحمد بن أسبغا الطيار ،
إلى السلطان بقصة يشكو فيها قانصوه خسائنة ،
بسبب المكان الذي أنشأه بقناطر السباع ، تجاه
يب ابن أسبغا الطيار ، وذكر في القصة أن
قانصوه خسائنة فد جار عليه ، وفتح من عنده
بابا بغير طريق شرعي ، وقطع من عنده عدة
أشجار ، وقد أضر ذلك بحاله . فلما سمع السلطان
ذلك وبخ قانصوه خسائنة بالكلام ، وأمره
بأن يسد الباب الذي فتحه ، ويرضيه في قيمة
الأشجار التي قطعها من عنده . وأنصف السلطان
ابن أسبغا الطيار على قانصوه ، فعهد ذلك من
النواذر لكونه أنصف ابن أسبغا على قانصوه ،
مع خصوصيته بالسلطان ، ولكن كان قانصوه
متعديا على ابن أسبغا الطيار .

أرى النيل قد وافى وزاد ولم يزل
يجود على أهل القرى بالمسكارم
أفاض عليها الماء من بسط راحه
أصسابها فاقت أيادي حساتهم

وفي جمادى الأولى جاءت الأخبار من حماة ،
بأن سيف بن نعيم الغاوى وقرابته قد خرجوا عن
الطاعة ، وأن نائب حماة تقاتل مع الغاوى فكسر
نائب حماة ، وقتل من عسكره ما لا يحصى . ثم
خرج اليه نائب حلب وأوقع معه ففر منه ، فتنبعه
وقد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك .

وفيه ثارت فتنة كبيرة بالقلعة بين المسالك
الجلبان ، حتى تقارعوا بالسيوف ، فحقق منهم
السلطان ، ورمى النمجة والترس من يده ، ونزل
من القلعة ، وتوجه الى نحو شطونوف ، فلما تحقق
الجلبان ذلك أخذوا في أسباب تلافى خطره ،
وسكن أمر الفتنة التي كانت بينهم . ثم توجه
الأتابكى أزبك ، وكاتب السر الى السلطان ،
وتلافوا خطره ، وتلفقوا به في عوده الى القلعة ،
فما زالوا به حتى عاد الى القلعة بعد جهد عظيم .
وفيه وصل الأمير يشبك الدوادار من جهة
الصعيد ، وحضر صحبته جماعة من بنى عم يونس
وأقاربه ، وهم في الحديد ، وأحضر الأمير أحمد
ابن عمر الهوارى أخا يونس الذى قطعت رأسه ،
فلما تمثل بين يدي السلطان خلع السلطان على
الأمير يشبك خلعة حافلة ، ونزل الى داره ، معه
أحمد بن عمر في الحديد .

وفي جمادى الآخرة عرض أحمد بن عمر على
السلطان ، فرسم بتسليمه الى الوالى هو ومن
معه ، وكانوا سبعة أنفار ، فأركبهم على جمال ،
ونزلوا بهم الى باب زويلة ، فكلبوا الجميع ،

وفي ربيع الآخر خلع السلطان على قجباس
الاسحاقى ، أمير آخور كبير وقرره في امرية
الحاج ، يركب المحمل ، وخلع على فارس الركى ،
وقرره بامرية الركب الأول ، فاستغنى فارس من
ذلك فأعصاه السلطان ، وقرر عوضه أقيردى
الأشقر على عادته . وقيل ان فارسا استغنى بسال
عن امرية الحاج .

وفيه جاءت الأخبار بأن يشبك الدوادار قبض
على يونس بن عمر الهوارى ، وقد تنبعه الى بلاد
النوبة ، وجرى معه أمور يطول شرحها . وآخر
الأمر قبض عليه وقطع رأسه ، وقبض على أخيه
أحمد ، وعلى جماعة من أقاربه ، وانتصر على
بنى عمر نصره عظيمة ، وبعث برأس ابن عمر يونس
الى القاهرة ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة
أياماً .

وكان يونس هذا من خيار بنى عمر ، وهو
يونس بن اسماعيل بن يوسف أمير عربان هواره ،
وكان مشهوراً بالشجاعة .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد وفى في رابع
مسرى ، فتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على
العادة .

ومن الحوادث الغريبة أن في ليلة الوفاء انقطع
جسر أبى المنجا ، وانقلب عن آخره ، فحصل للبلاد
التي تحته غاية الضرر ، وغرق الكثير من أموال
الناس والمقطعين .

ومن العجائب أن البحر لم يتأثر لقطع جسر
أبى المنجا ، ووفى في تلك الليلة . وزاد عن الوفاء
اثنتي عشرة أصبعا . فعد ذلك من النوارد .

ثم في ثالى يوم من كسره زاد ست عشرة أصبعا ،
وأكل الذراع السابعة عشرة في يومين ، حتى
تعجب الناس من ذلك وقد قال القائل :

وفي شعبان نخلع على بدر الدين بن محمد ابن الكوايز وقرر في نظر الخاص ، عوضا عن تاج الدين بن المقسى بحكم انفصاله عنها ، وفيه خلع السلطان على محمد بن عجلان ، وأعادته الى منبج العرب بالشرقية . وكان له نحو من عشرين سنين وهو في البرج بالقلعة .

وفيه خلع السلطان على آقباي الطويل ، وفرره في كشف الشرقية ، واقباي هذا هو الذي ولي نيابة غزة فيما بعد .

وفيه توفي دولات باي سكسكان الاشرفي برسباي توفي بحماة ، وكان آتابك العساكر بها ، وكان من أعيان الأشرية ، ولا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بسون حسن الطويل ، ملك العراقيين ، وأن ولده خلل تولى على العراقيين بعده . وقيل ان موته كان في رجب ، وكان ملكا جبلا عاقلا سبوسا ، كثير الحيل والخداع ، اقتلع ملك العراقيين من أخيه جهان كبير ، بحيل غريبة ، وقتل عمه الشيخ حسن ، واقترضت دولة بنى أيوب على يده . ثم قوى على جهان شاه ، وحاربه حتى كسره ، وقتله وشتت أولاده ، وملك تبريز والعراقيين ، وبلغ مبلغا لم يصل اليه أحد من أجداده ، ولا من أقاربه .

وقد تحرش بابن عثمان ملك الروم ، بأن يأخذ من ملكه شيئا ، فما قدر عليه

ثم تحرش بسلطان مصر وجرى له مع الأشرف قاينباي أمور يطول شرحها . وكان الأشرف قاينباي يخشى من سطوته ، فلما مات عد ذلك من جملة سعد الأشرف قاينباي . وقد قيل في المعنى :

أيا ملكا صار من سعده

بسوت الأعادى حقيقا يفوزا

لقد أهلك الله عنك العداة

وينصرك الله نصرا عزيزا

وعلقوهم بباب زويلة ووسطوا منهم جساعة ، وكان لهم يوم مشهود ، ونأسف عليهم الكثير من الناس ، فانهم كانوا خيار بنى عمر ... ولكن كان للأمير سببك عليهم نأر فديهم ، فاقتصه منهم . كما مل « الموت في طلب النار ، ولا الحياة في العار » وفيه نزل السلطان الى قبة شبك التي بالمطرية فأضافه هناك كاتب السر ابن مزهر ضيافة حافلة ، وباب هناك ثم طلع الى القلعة .

وفي شهر رجب خلع السلطان على التترف سبع ، وفرره في امربة البنبع ، عوضا عن صفر بحكم القبض عليه .

وفيه خلع السلطان على يوسف بن ابي الفتح المنوفى ، نائب جدة ، وفرره في كتابة الممالك ، عوضا عن عبد الكريم بن جلود بحكم وفاته . وكان متحدثا فيها بغير تقرير

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جاني بك الفقيه ، الذي كان أمير سلاح ، ونفى من العقبة الى القدس ، فمات هناك . وكان أصله من ممالك الظاهر جقمق . وكان يعرف بجاني بك بن ططخ . وكان انسانا حسنا ، وكان له اشتغال بالعلم ، وتولى عدة وظائف سنة منها أمير آخور تانى ، ثم بقى أمير آخور كبير ، ثم بهى أمير سلاح ، ثم نفى الى القدس ، ومات به بطالا .

وفيه توفي دولات حسام الأنرفى وكان يعرف بدولات باي بن تغرى بردى ، ومات وهو نائب الاسكندرية ، وكان لا بأس به .

وفيه عزل تاج الدين بن المقسى من الاستدارية ، وأعيد اليها الأمير يشبك الدوادار ، وأقام ابن المقسى في الترسيم على مال يورده وكان ذلك آخر سعده .

نوبة الجمدارية ، وهو والد الناصري محمد
أبى يزيد ، وكان لا بأس به .

وفي ذى الحجة نزل السلطان من القلعة ، و
الى بر الجيزة ، وكشف عن القناطر التي
بأنشائها على يد الأتابكي أزبك ، وكان ال
محتاجا لاصلاح تلك القناطر ، وكانت قد تهده
فصرف عليها جملة مال حتى جردها ، وهى باقية
الآن .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة قائمها
بك قلقسیر ، وكان أميراً جليلاً ، رئيساً حش
وأصله من ممالك الأشرف برسيای ،
موصوفا بالشجاعة والفروسية ، وتولى عدة و
سنية ، منها : حجوية الحجاب الكبرى ، و
مجلس ، وامرية سلاح ، ثم ولى الأتابكية
وترشح أمره للسلطنة غير ما مرة ، ثم أسر
سوار ، ثم أطلق وأعيد الى امرية سلاح ، ثم
نيابة الشام ، ومات بها . وكان كفئاً للم
والمهمات وغير ذلك .

وفيه أرسل السلطان الخوجا محمد بن م
المغربى ، الى ملك التليان الأفرنجى ، وأر
على يده هدية حافلة فصار اليه ، وفي عقيب
أرسل صاحب قبرس ما عليه من الجزية الم
وقصد السلطان أن يجهز له تجريدة ، فحس
ما عليه سكن الأمر .

وفيه توفيت خوند فاطمة ، بنت المؤيد أح
الأشرف اينال ، وهى زوجة الأمير يشبك الد
أم ولده منصور ، وكانت شابة جميلة وحيها
فحزن عليها الناس .

وفيه توفى شاهين الظاهري أحد
العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو
القشرين ، ثم الى الخطارة ، وكشف عن الجامع
والسييل اللذين أنشأهما هناك ، والحوض الذى
أنشأه هناك ، على الدرب السلطاني . وكان المشد
على العمارة الأمير يشبك الجمالى ، فجاءت هذه
العمارة فى غاية النفع .

وفي رمضان خلع السلطان على اينال الأشرفى ،
مملوك السلطان ، وقرره فى بيابة الاسكندرية ،
عوضاً عن دولات باى حمام
وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، على العادة
وكان ختما حفلاً .

وفي شوال فى يوم عيد الفطر ، خلع السلطان
على الأمير يشبك بن مهدي الدودار ، وكاشف
التراب ، ومدير المملكة ، وغير ذلك فصار رأس
مجلس الميسرة ، وهو بالقصر ، ويقف فى الحوش ،
ولم تجتمع هذه الوظائف فى أحد من الأمراء قبله .
وفيه توفى شمس الدين العاقل أحد الموقعين
والشهود العدول ، ولا بأس به .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ،
وكان أمير الركب بالمحمل قجماس أمير آخور كبير ،
وأمر ركب الأول اقبردى الأشرفى .

وحج فى السنة المذكورة الشيخ صلاح الدين
الطرابلسى الحنفى .

وفي ذى القعدة قصد قانصوه الألفى أن يسافر
الى بلاد جركس ، وكان قد حصل له توعك فى
أذنه وعينه ، فتوجه هناك للتداوى — وكان
يومئذ خاصكيا — فغاب هناك مدة طويلة ، ثم
عاد الى القاهرة .

وفيه توفى أبو يزيد بن طراباى الأشرفى رأس

سنة أربع وثمانين وثمانمائة (١٤٧٩ م) .

خلافة المتوكل على الله العباسي

هو المتوكل على الله ، أبو العز عبد العزيز ، ابن يعقوب ، ابن محمد المتوكل على الله ، ابن المعتض بالله أبي بكر ، ابن المستنكى بالله سليمان ، ابن الامام الحاكم بأمر الله أحمد العباسي الهاشمي . وهو الرابع عشر من خلفاء بني العباس بمصر . بويع بالخلافة بعد موت عمه الجمالي يوسف بعهد منه . وكانت ولايته في يوم الاثنين سادس عشرى المحرم من السنة المذكورة ، فطلبه السلطان ، فحين حضر حضر القضاة الأربعة ، وأرباب الدولة ، وكان يومئذ عه موسى موجودا ، ولكنه كان غير صالح للخلافة . فلم يكن في بني العباس يومئذ أمثل من العزى عبد العزيز ، فوقع الاتفاق من السلطان والأمراء على ولايته ، فتولى الخلافة في ذلك اليوم ، ولم يل الخلافة من اسمه عبد العزيز سواه . ثم انه أراد أن يلقب نفسه بالمنصور بالله ، فعورض في ذلك ولقبوه بالمتوكل على الله ، كلقب جده محمد المتوكل ، فأحضر اليه شعار الخلافة ، وأقيض عليه ، وقدمت اليه فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش . ونزل من القلعة في موكب حافل ، وأمامه قضاة القضاة ، وأعيان الدولة . فتوجه الى مكان تسكن فيه الخلفاء . ثم تحول من يومه وطلع الى القلعة ، وسكن بدار عمه يوسف ، التي هي داخل الحوش السلطاني ، وطالت أيامه في الخلافة وكان كفئا لذلك . وكانت سنة لما تولى الخلافة نحو من اثنتين وستين سنة أو أكثر من ذلك . وكان مولده سنة تسع عشرة وثمانمائة ، وكانت أمه تسمى حاج ملك بنت مقل ، وهو شخص من المماليك السلطانية .

وفي صفر تغير خاطر السلطان على أزدهر

نمها ، في المحرم ، توجه الأمير يشبك الدوادار الى نجر دمياط . وكان السلطان قد جعله متحدا عليها ، فلما توجه هناك أنشأ على فم البحر الملح عند برج الملك الظاهر ببيرس البندقدارى سلسلة من حديد زنتها نحو من مائتين وخمسين قنطارا . وكانت هذه السلسلة قديما هناك ، ثم بطل أمرها فجددها الأمير يشبك الدوادار ، في السنة المذكورة ، وحصل بها النفع ، لطرده المراكب التي المفرنج .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة وحسدت سيرة الأمير قچاس أمير المحمل .

وفيه في يوم السبت رابع عشرى ، كانت وفاة أمير المؤمنين الجمالي يوسف رحمه الله تعالى المستنجد بالله العباسي ابن محمد المتوكل على الله ابن المعتض بالله أبي بكر بن المستنكى بالله سليمان ابن الامام أحمد الحاكم بأمر الله العباسي الهاشمي . وكان الثالث عشر من خلفاء بني العباس بمصر . تولى الخلافة بعد أخيه حمزة ، ودام في الخلافة نحو من خمس وعشرين سنة وأشهر . وكان رئيسا حشما ، وعنده لين جانب ، مع تواضع زائد ، ورأى في خلافته العز وقلد فيها خمسة من السلاطين ، وهم : المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، والظاهر خشقدم ، والظاهر بلباي ، والظاهر ترمبغا ، والأشرف قايتباي ، ومات وله من العمر زيادة على الثمانين سنة . ومولده بعد التسعين والسبعمائة . ولما مات دفن عند أفاربه بجوار مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها . وهو أول خليفة يسكن بالقلعة ، ودام بها حتى مات ، ومات عن غير واه ذكر ، بل خلفه بنتا تسمى ست الخلفاء ، فعهد بالخلافة بعده لابن أخيه العزى عبد العزيز .

بسرّج ذهب وكنبوش ... وكانت هذه الوليمة من
نوادير الضيافة الحافلة .

وفي ربيع الآخر كانت نهاية ضرب الكرة ،
وأضاف السلطان الأمراء ضيافة حافلة . ونزلوا
الى دورهم .

وفيه كانت وفاة الأمير جانم الشريفى ، قريب
السلطان أحد المقدمين . وكان من حين أضافه الأمير
يشبك وهو مريض ، حتى اتهم الأمير يشبك بأنه
قد شغله في ذلك اليوم في شيء من المأكول ، فلما
تزايد به المرض وتورمت قدماءه ، حمل في محفة
وتوجهوا به الى بولاق ، فأقام هناك بعض أيام
ومات . فأمر السلطان بحمله الى داره في محفة ،
فغسل وكفن وصلى عليه بسبيل المؤمنين ، وكان له
يوم مشهود . ثم توجهوا به الى تربة السلطان فدفن
بها . واستمر العزاء عمالا بالقلعة ثلاثة أيام بدور
الحريم . وتأسف عليه السلطان غاية الأسف . وقيل
ان السلطان جلس بقاعة البحرة ، ورسم لنساء
عرب اليسار أن يدقوا ويلطموا على الأمير جانم
وهو ينظر اليهن . وقد جلس للعزاء وصارت
الأمراء تتلطف به وتسليه . وقيل ان جانم كان
يقرب للسلطان من جهة النساء ، وكان جميل
الصورة حسن الهيئة ، قد بدا عذاره . وكان رئيسا
حشما وافر العقل جليل القدر ، ورأى غاية العز
والعظمة على صغر سنه ، وأقام بالطبقة مدة
يسيرة ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى أمير عشرة ،
ثم بقى ناظر الجوالى ، ثم بقى شاد الشراابخانا ،
ثم بقى مقدم ألف . وجاءت اليه السعادة سريرا ،
وزالت عنه في مدة يسيرة ، وقد دهمه الموت فتوفى
وله من العمر نحو عشرين سنة ، وكان كريما سخيا
بالعطاء حتى قيل فيه :

الطويل الابراهيمى الاينالى ، حاجب الحجاب ،
فرسم بنفيه وبعث اليه بألفى دينار يتجهز بها .
رفيه نزل السلطان وتوجه الى منف ، وأقام بها
أياما ، ثم عاد الى القلعة .

وفي ربيع الأول أنعم السلطان على تانى بك قرا
الايالى بتقدمة ألف ، وهى مقدمة أزدمر الطويل ،
وعين الدوادارية الثانية الى قانصوه خمسمائة ،
وخلع عليه بها بعد أيام .

وفيه نقل السيفى قانصوه اليحياوى من نيابة
حلب الى نيابة الشام ، عوضا عن المرحوم جاني بك
قلقسير ، بحكم وفاته . ونقل أزدمر قريب السلطان
من نيابة طرابلس الى نيابة حلب عوضا عن قانصوه
اليحياوى ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام . وقرر
في نيابة طرابلس يرد بك المعمار نائب صفد ، عوضا
عن أزدمر بن مزيد ، قريب السلطان . وقرر عوضه
في نيابة صفد جاني بك أحد مماليك السلطان ،
وكان مقيما بالشام بطلا .

وفيه توفى جانم الأعور بن بلباي أمير شكار ،
أحد العشراوات ، وأصله من ممالك الأشرف
برسباى .

وفيه ضرب الأمير يشبك الدوادار الكبير الكرة
مع السلطان ، فسقط صولجان الأمير يشبك من
يده ، فترجل الأمير جانم الشريفى قريب السلطان ،
أحد المقدمين عن فرسه ، وأخذ الصولجان من
الأرض وناوله للأمير يشبك ، فلما كان في اليوم
الثانى صنع الأمير يشبك وليمة حافلة جدا ، وعزم
على جانم وقانصوه خمسمائة وآخرين من الأمراء
فلما حضروا أصلح الأمير يشبك بين جانم وبين
قانصوه خمسمائة . وكان بينهما وحشة . ثم خلع
على كل واحد منهما كاملية بسمور ، وأركبه فرسا

فتت الكرام في السورى
يا مطلب الراسم
ما أنت الا حاتم

تصحفت بجسانم

وكان قد تزوج بحوند أخت حويد روجة
السلطان ، وكان له مهم حافل ، وكان له زفاف ليلة
خلا بزوجه لم يسع بسنله . وزينت له القاهرة
بالمصاييح والنسوع ، وعاشت ليلة زفاف عرسه
التناير بها الفناديل من سويقة العزى الى ما بين
العصرين . ومنى أمامه الأمراء المقدمون ، وكان
الأمير يشبك ماسكا غنان فرسه من جهة الميمنة ،
وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ماسكا لجام فرسه
من جهة اليسرة ، وبقية الأمراء مشاة قدامه
بالنسوع ، من سويقة العزى الى بيت العلانى على
ابن خاص بك ، وكان المهم هناك . فزف وزفت له
العروس فكان أبهى من العروس كما قيل :

ما سعننا فبسا سعننا قدبنا

بعروس يجلى عليها عروس

وكان زفاف الأمير جانم من المعدادات ، بحيث
لم ينع بعده صله .

فلما انتفض وفاء الأمير جانم كثر الكلام في حق
الأمير يشبك بسبب جانم ، ونسب الى قتله بالسهم ،
وصار في تهديد ووغيه من المماليك الجلبان . ووقع
بسبب هذه الحادثة أمور شنيعة يطول الكلام في
سرحها . وقصدوا قتل الأمير يشبك غير ما مره .
وصار السلطان يرجع المماليك عن الأمير يشبك ،
وصار الأمير يشبك يترضى خاطر المماليك الجلبان
بكل ما يمكن ، حتى سكنت هذه الفتنة قللا .
وصار على رأس الأمير يشبك طيرة من الجلبان ،
حتى كان من أمره ما سذكروه .

وفيه قدم الملك المؤيد أحمد من الاسكندرية .
وكان سبب قدومه أن والدته خوند حصل لها توعك

شديد وقد أشرفت فيه على الموت ، فأتى اليها الأمير
يشبك ليعودها . فسألت فضله أن يسأل السلطان
في حضور ولدها الملك المؤيد الى مصر لتنتظره قبل
أن تموت . فلما طلع الأمير يشبك الى القلعة ، تكلم
مع السلطان في ذلك ، فرسم باحضاره . فلما حضر
طلع الى القلعة ودخل الحوش وهو راكب ، وكان
معه ولده على ، فقام له السلطان ورحب به وخلع
عليه وعلى ولده . ونزل من القلعة في موكب حافل
ومعه الأمير يشبك الدوادر ، وتانى بك قرا وآخرون
من الأمراء . فنزل في داره التى بالجسر الأعظم عند
والدته .

وفي ثالث جمادى الأولى كان وفاء النيل ، وقد
أوفى في تاسع عشرى أييب القبطى ، وكسر في آخر
يوم من أييب ، فعد ذلك من النوادر .

فلما وفى توجه الأتابكى أزبك وفتح السد
على العادة وكان يوما مشهودا . ثم بعد يومين زاد
النيل عشرين أصبعا فغلق الذراع السابعة عشرة
وست أصابع من الذراع الثامنة عشرة . فعد ذلك
من النوادر .

وفيه خلع السلطان على ألماس الأشرفى وقرره في
تسادية الشرابخاناه ، وفرر يبرس الرحبى قريب
السلطان في استدارية الصحبة عوضا عن ألماس .

وفيه سافر السلطان الى تفر الاسكندرية ، وهى
السفرة الثانية ، فتوجه من البحر في عدة مراكب
كثيرة . وكان سبب توجه السلطان من البحر كثرة
ماء النيل في طرقات البلدان . وكان معه من الأمراء
الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادر ، وخاير بك ابن
حديد ، وأزبك اليوسفى ، وآخرون من الأمراء
المقدمات ، وعدة وافرة من الأمراء الطبلخانات
والعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية من
المماليك السلطانية . وكان معه من المباشرين القاضى

كاتب السر ابن مزهر ، وغيره من أعيان المباشرين . وكان النهابي أحمد بن العيني ، وسيدى منصور بن الملك الفاهر خشنقدم ، وغير ذلك من الأعيان . وكان له ببولاق يوم مشهود عند نزوله الى البحر . وكان سفر السلطان الى الاسكندرية في هذه المرة لأجل البرج الذى أنشأه هناك . وقد انتهى العمل منه فتوجه اليه ليرى هيئته . فلما دخل مدينة الاسكندرية لم يركب بها مثل أول مرة ، ولأحملت القبة والطير على رأسه . فلما نزل بالمخيم مد له نائب الاسكندرية مدة حافلة . ثم توجه الى رشيد وكشف عن البرج الذى أنشأه هناك بها ، ثم كشف عن البرج الذى أنشأه ببحر الاسكندرية مكان المنار القديم ، فجاء من محاسن الزمان ، ومن أعظم الأبنية ، وأجل الآثار الحصنة . ومن نوادر أفعال الملوك كما قيل :

ليس الفتى بفتى يستضاء به

حتى يكون له في الأرض آثار

وفيل ان صفة بيان هذا البرج ، أن دهليزه غدد على قناطر في البحر الملح ، من الساحل حتى ينتهى الى البرج ، وأنشأ بهذا البرج مقعدا مطلا على البحر ينظر منه من مسيرة يوم الى المراكب وهى داخلة الى المينا ، وجعل بهذا البرج جامعا بخطبة ، وطاحونا وفرنا وحواصل . وشحنها بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلا ونهارا ، لئلا تطرق الافرنج الثغر على حين غفلة ، وجعل بها جماعة من المجاهدين قاطنين به دائما ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب في كل شهر ، وجعل شادا من خواصه وهو باش عليهم ، يقال له قانصوه المسمى الخاصكى ، وهو الذى تولى نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجى . وقيل ان السلطان صرف على بناء هذا البرج زيادة عن المائة ألف دينار ، وأوقف

عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار والمعروف .

ثم ان السلطان أقام ببحر الاسكندرية أياما ورحل عنها . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان دخل الى دسوق ، وزار سيدى ابراهيم الدسوقى ، وهو ماش وحوله الأمراء . واستمر السلطان غائبا في هذه السفرة الى أواخر الشهر المذكور .

وفيه توفيت خوند زينب والدة الملك المؤيد أحمد ، وهى زوجة الأشرف اينال ، وكانت من أجل الخوندات قدرا ، ورأت في دولة زوجها الأشرف اينال غاية العز والعظمة ، حتى صارت تدبر أمور المملكة ، من ولاية وعزل . وكانت نافذة الكلمة وافرة الحرمة ... في سعة من المال ، ولم تتزوج غير الأشرف اينال ، ولم يتزوج هو أيضا غيرها . وصادها الملك الظاهر خشنقدم غير ما مرة ، وأخذ منها جملة مال ، وهى باقية ، وعقد ناموسها لم يتغير الى أن ماتت . وقد جاوزت من العمر نحو الثمانين سنة . وهى زينب بنت حسن ابن خليل بن خاصبك ، لم يجرى بعدها في الخوندات مثلاً . وكانت من مشاهير الخوندات ، وكانت اذا دخلت على الأشرف قايتباى يقوم لها ويعظمها . ولما ماتت لم يحضر جنازتها ، ولم يحضرها أحد من المقدمين ، غير تانى بك قرا . وسبب ذلك أن السلطان كان غائبا ، فلم يجسر أحد من الأمراء أن يجيء عند ولدها الملك المؤيد ، وبعد هذا ما سلم الأمر من القال والقليل ، فحضر جنازتها قضاة القضاة ، وأعيان الدولة .

ثم في سلخ الشهر المذكور حضر السلطان من السفر في البحر أيضا ، وطلع من بولاق ، وكان له يوم مشهود . وقد عد سفره من النوادر ، وكونه توجه الى ثغر الاسكندرية ، وترك الملك المؤيد بالقاهرة ، مع أن ممالك أبيه الأشرف اينال كانوا

في غاية التمرد ، ينتظرون وقوع الفتن . وظهر منهم في عيبة السلطان بعض حركة ، وانكشف رخ جماعه منهم في هذه الحركة ، ونفى فيما بعد منهم جماعة كثيرة كما سبأى الكلام على ذلك .

وفي جمادى الآخرة أضاف السلطان الملك المؤيد سباهه حافلة بالبحر ، وخلع عليه وعلى ولده ، وأذن لهم بالعود الى الإسكندرية ، وقدم الملك المؤيد للسلطان نقدة حافلة من مال وتحف ، بسبب موجود والدته الذي خلفته .

وفيه نبت النبل المسارك على عشرين أصبعا وعشرين ذراعا ، فوافق ذلك مثل العام الماضي ، حتى عد من النوادر .

وفي رجب سافر الملك المؤيد الى الاسكندرية وفد أقام بالقاهرة نحو شهرين الا أباما

وصه ظهر للسلطان أن طائفة الانالية قصدوا اتارده فتنة في غيبة السلطان ، فلما تحقق ذلك صار نفى منهم جماعة بعد جماعه شنا فتينا . ثم نفى مملوكه برد بك سكر الحاصكى الى البلاد الشامية ، وكان قد نسب الى أشياء من هذه الاشاعة . وقد نصرت قلوب الأمراء بعداوة الأمير بسبك الدوادار . وقد أشيع أنه قد سم الأمير جانم حرب السلطان . ذاتطلع بسبك عن طلوع القلعة آماما ، وكثر الكلام في حقه بسبب ذلك .

وفيه خلع السلطان على باى مق الذى كان كاشف السرفة ، وقرره في نانة سبس عوضا عن أزدمر قريب السلطان ، وقرر أزدمر في نابة حماه عوضا عن قراجا الطويل الانالى ، بحكم صرفه عنها وسجنه بقاعة دمشق

وفيه رسم السلطان بنفى ستة انفار : منهم ثلاثة من طائفة الانالية ، وهم أبو يزيد ، ومشمدة

وشاد بك ، كل منهم أمير عشرة . وثلاثة من الستة من مشترياته ، فتوجهوا بهم الى نحو البلاد الشامية ثم تتابع النفى بجماعة من الانالية ، وكثر الكلام في ذلك جدا .

وفيه قرر في قضاء الحنفية بدمشق تاج الدين بن عرب شاه ، عوضا عن ابن عيد .

وفي شعبان رسم السلطان بنفى الطواشى معروف الشبكي شاد الحوش الى جهة قوص ، لأمر أوجب ذلك .

وفيه خلع السلطان على برسباى قرا المحدثى الظاهري ، وقرره في حجوية الحجاب ، عوضا عن أزدمر الطويل بحكم نفيه . وقرر في شادية الحوش سرور السيفى بن جرباش كرت ، عوضا عن معروف الشبكي .

وفيه وصل قانصوه الألفى الذى كان قد توجه الى بلاد الجركس ، فأحضر معه عدة من أقارب السلطان ، فخلع عليه ، ونزل الى داره .

وفيه حضر قاصد من عند بعض ملوك الهند صحبة أبى الفتح نائب جدة ، على يده هدية حافلة الى السلطان .

وفيه أسمع السلطان على قريب له بتقدمة ألف ، وهى مقدمة جانم الشريفى ناظر الجوالى . ثم بعد مدة أرسل له شاشا ، ورسم له بأن يلف تخليفة ، وكذلك فأنصوه خمسمائة ، فانه بقى دوادار نانى وهو بكوفية بفندس .

وفيه توفى جانم السيفى نمر باى الزردكاش الكبير ، وكان أحد الأمراء الطبليخانة .

وفي رمضان احتفل صاحب خندقدم في مسامرة هائلة ، كان قرر في امرية الحاج بركب المحمل . وقرر شاهين الجبالى في امرية الركب الأول . وكان

قرر بها أولا جانبهم الزردكاش الذى توفى . فكان
للساحب خنقدم يوم مشهود بتلك المسيرة .
وفد أشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يحج
فى السنة المذكورة ، فعمل هذه المسيرة بسبب
نسوق السلطان الى الحجاز .

وفيه خلع السلطان على مملوكه قنبردى أحد
الخاصكية ، وقرره فى كشف الشرقية ، عوضا عن
على باى ميق ، الذى استقر فى نيابة سييس . وفرر
اقبال الطويل فى كشف الغربية .

وفيه قدم برد بك جبس ، وكان منفيا بالبلاد
الشامية ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فرسم السلطان
باحضاره ، فحضر ورضى عليه .

وفيه توفى الشبكى الطواشى شاد الحوش ،
ومان وهو منفى بالواحات ، وجرى عليه ما لا خير
فيه ، وكان لا بأس به . غير أنه كان عنده تكبر فى
نفسه ونعاطم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة شاد بك الابراهيمى
الايئالى . وكان من الأمراء العشراوات ، فنغير
خاطر السلطان عليه ، ونفاه الى الشام ، فمات
بها .

وفيه رسم السلطان بنفى جاني بك الخشن
الايئالى تاجر الممالك ، أحد الأمراء العشراوات ،
ونفى أبى زيد أربك الخاصكى الايئالى . ونفى
تغرى برمش أحد الأمراء العشراوات ، والكل
ايئالية ، وقد سقط نجمهم ، وبدا عكسهم . وصار
السلطان بنفى فى كل شهر منهم جماعة فى أماكن
شتى .

وفى شوال خلع السلطان على يشبك الجمالى ،
وقرره فى الزردكاشية الكبرى ، عوضا عن جانب
السيفى تمر باى . وقد جمع يشبك الجمالى بين
الحسبة والزردكاشية الكبرى .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ،
وفد احفل الأمر خنقدم ببرك عظيم بسبب
السلطان ، لسفره الى الحجاز ، فكان معه نحو
من مائتى جمل وخمسين جملا . وقيل ان السلطان
بعث اليه ثلاثين ألف دينار بسبب عمل هذا البرك .
وكان لخروج صاحب خنقدم يوم مشهود .

وفيه رسم السلطان بنفى مئثال الطواشى ،
مقدم الممالك — وكان يعرف بمئثال البرهانى —
فخرج منفيا الى طرابلس . وكان هذا كله بسبب
خروج السلطان الى البلاد الشامية ، وتوعكه
هناك ، وقد تزايدت الأفعال بموته ، وحصل بين
الأمراء نفل كلام فيمن بلى من بعده السلطنة ،
وانكشف رخ جماعة من الايئالية فى هذه الحركة
ولم يعلم باطن الأمر فى حقيقة ذلك . وصار
السلطان بنفى كل قبل جماعة من الايئالية ، ومن
مماليكه ، واستمر الأمر على ذلك . فلما خرج
الحاج من القاهرة ورحل المحمل من بركة الحاج ،
نزل السلطان من القلعة فى يوم الخميس ثالث
عشرى شوال ، ولم يشعر بسفره أحد من الناس .

وخرج على حين غفلة ، فسافر معه بعض أمراء
عشراوات ، منهم شبك الجمالى الزردكاش ،
وآخرون من الأمراء من أخصائه ، وعدة وافرة من
الخاصكية ، والممالك السلطانية ، وجماعة من
المباشرين ، منهم أبو البقاء بن الجيعان ، وغير
ذلك من الأعيان ، منهم برهان الدين الكركى
الامام . فخرج السلطان من بين التراب وسافر بعد
صلاة الظهر فنزل معه الأتابكى أربك ، ويشبك
الدوادار ، فودعاه ورجعا من أثناء الطريق ،
فأوصاهما السلطان بحفظ الرعية . ثم سافر على
ظهر البويب ، ولم يتوجه معه أحد من الأمراء
المقدمين ، فعد سفره على هذا الوجه من النوادر .

وفى ذى القعدة رسم الأمير يشبك الدوادر
ليشباك بن حيدر والى القاهرة ، بأن يتحدث فى
الحسبة ، عوضا عن يشبك الجمالى بحكم سفره
مع السلطان . وكان الأمير يشبك الدوادر هو
المشار اليه فى غيبة السلطان .

وفيه شرع الأمير يشبك فى بناء القبة التى
أنشأها فى رأس دور الحسينية . وخرب عدة ترب
كانت هناك . ثم أنشأ بهذا المكان غيطانا ، ومجارى
وساوى ، وقصد أن يجعله من جملة منتزهات
القاهرة . ولو عاش لفعل ذلك فجاءت القبة من
محاسن البناء فى ذلك المكان .

وفى ذى الحجة كان انتهاء عمارة الربع الذى
أنشأه السلطان بحدرة الكبش . وكان الشاد على
العمارة نافق المؤيدى أحد الأمراء العشراوات .

وفيه قدم مبشر الحاج ، وهو شخص من
الخاصكية يقال له اسنباي ، وقد استمر اسمه
بالمبشر بعد ذلك . فأخبر بسلامة السلطان وأنه
دخل الى مكة ، فى موكب حافل ، وكان له يوم
مشهود ، ولاقاه أمير مكة من مسيرة يومين ...
وأنه تصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار ،
وتواضع تواضعا وخضوعا الى الغاية . وكان بطول
الطريق لا يتكلم فى شئ يتعلق بالأحكام بين الناس
وفعل فى الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر
 والمعروف ، فحصل لأسنباي المبشر جملة خلع ،
ومال له صورة ، من الأمراء وأعيان الناس ، ومن
خوند زوجة السلطان ، وغير ذلك من أرباب
الدولة .

وفيه جهز الأتابكى أربك ، ويشبك الدوادر ،
وجماعة من الأمراء اقامات لملاقة السلطان من
العقبة . وخرج الأمير أربك اليوسفى أحد الأمراء
المقدمين صحبة ذلك . وخرج معه جماعة كثيرة

من أرباب الدولة ، لملاقاة السلطان من العقبة .
واهتم الأمير يشبك الدوادر ببياض أماكن بالقلعة
ودهان أبوابها ، وضرب الرنوك عليها ، وجلا
واجهة القصر الأبلق ، وما يليه ، حتى ظهر رخامه
الملون ، وقد احتفل فى اصلاح ذلك جدا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة خليل بك بن حسين
الطويل ، ملك العراقيين — وكان أكبر أولاد حسن
الطويل — ثار عليه بعض الأمراء فقتله . ولما مات
ولى بعده أخوه يعقوب ، وكان من خيار بني
حسن الطويل ... وتوفى تانى بك الأشقر المحمدى
البواب أحد الأمراء العشراوات ، وكان كاشف
المنوفية .

سنة خمس وثمانين وثمانمائة (١٤٨٠ م) :
فيها ، فى المحرم بعث السلطان نجابا الى الأمراء
وأخبر النجائب بأن السلطان دخل الى المدينة
الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ،
وزار النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنعم على
الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل
نحو الينبع قاصدا للعقبة . ثم رحل عنها وهو
واصل عن قريب ، ثم رسم لهم ألا يخرج الى
ملاقاته أحد من الأمراء . وان السلطان ينزل بقبة
الأمير يشبك التى بالمطرية . فبادر الأمراء
بالخروج الى هنالك ونصبوا الخيام . ثم جاءت
الأخبار بأن السلطان قد وصل الى البويب ،
فلما تحقق الأمراء ذلك ، ركب الأتابكى
أربك ، والأمير يشبك الدوادر ، وبتية الأمراء ،
من المطرية وتوجهوا الى ملاقة السلطان . فلما
وصلوا الى البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وماروا
قدامه حتى وصل الى الوطاق الذى بالمطرية . وكان
له هنالك موكب حافل . وكان دخوله فى ثانى
عشر المحرم ، قبل دخول الحاج بشانية أيام ، فلما
نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أربك الأتابكى

هناك مدة حافلة جدا ، وبات السلطان هناك ، وبات
عنده حصاة النضاة ، ومشايخ العلم ، وهنؤه
بهدومه .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ، ركب السلطان
من هناك وحمل الأتابكي أزيك على رأسه القبة
والطير ، وركب قدامه الأمراء والعسكر ، وهم
موكبون كالإعياد ، وسارت الأمراء والقضاة
الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من
الغاهرة ، وقد زينت له زينة حافلة ، واستمر في هذا
الموكب العظيم . وطلب طلبا حافلا ولعبوا قدامه
بالغواشي الذهب . وكان له يوم مشهود الى أن
طلع الى القلعة ... فلما طلع فرئت له خوند عدة
سحق من باب القلعة الى الحوش ، ونثرت على رأسه
خفاف الذهب والفضة ، وتوشحت الخدام بالبندود
الذهب والحريير الأسفر . وتخلقت بالزعفران . فلما
دخل السلطان الى الحوش ، مد له هناك الأمير
يسبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزيك التي
مدها له بالقبة . ثم ان السلطان خلع على من كان
معه من أرباب الوظائف ، ونزلوا الى بيوتهم ،
وانقض ذلك الموكب . وعدت هذه الحجة من
الوادع الغريبة ... ودخل عليه جملة تقادم من مال
وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة المشرفة
وقضاها ، ومن أمير ينبع وغير ذلك . وقد نظم
الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد ، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان

من حجه المقبول بالرضوان

سلطاننا الملك الهمام الأشرف الرا

قى سماء الحسن والاحسان

فهناؤنا ببقائه ، في نعمة

وسلامة ، فرض على الأعيان

ولقد غلسنا أن طاعة أمره

أو نهيه دين من الايمان

لما نوى حجا ولبي محرمنا
عم الأمان مراتع الغزلان
والوحش في آياتها والدوح في
انباتها والطير في الطسيران

ثم الصلاة على النبي المصطفى

عدد الرمال بجملة الكثران

فلما استقر السلطان بالقلعة ، أخذ في أسباب تفرقة
الهدية على الأمراء . فابتدأ بالأتابكي أزيك ثم بقية
الأمراء كل من هو في منزلته ، ثم المباشرين وأرباب
الدولة . وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان
أبضا تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش وغير
ذلك .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وحدث سيرة
الصاحب خشقدم الزمام .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى القرافة فزار ورجع
من جهة مصر العتيقة ، وطلع من جهة قناطر السباع ،
وأتى الى الكبش فكشف عن عمارته التي أنشأها
هناك . ثم طلع الى القلعة من جهة الصليية وكشف
عن عمارة سبيله الذي أنشأه برأس سويقة
عبد المنعم التي بالرميلة . وكان الشاد على عمارته
ثاني بك قرا أحد المقدمين ثم طلع من باب السلسلة
الى القلعة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قراجا الطويل الاينالى ،
الذى كان نائب حماء ، ومات بطلا بالقدس ، وكان
لا بأس به .

وفيه ضرب السلطان قانم الأشرفى الذى كان
كاشف الشرقية ، ف ضرب بين يديه ورسم بنفيه الى
طرسوس .

وفي صفر قرر خالص التسكروى الطواشى في
تقدمة المالك ، عوضا عن مثقال البرهاني . وقرر
سرور الشامي نائب المقدم عوضا عن خالص .
وفيه قدم تميز التمشى رأس نوبة النوب من

الجبره . وقد أتى للمنىء السلطان بعوده من الحجار .

وبه جاءت الأخبار بوموع منة كبره بحماه ، وفصل فيها نائب حماد أردمر بن أربك قريب لسلطان . وسبب ذلك أن سيف أمير آل فضل ، كان قد خرج عن الفناء . فجاربه أردمر نائب حماد المقدم ذكره . فصل في المعركة ، وقتل معه جمع من أمراء حماد . فارتفع السلطان لهذا الخبر جدا .

وفي ربيع الأول عمل السلطان المواد البنىء بالقلعة وكان حافيا . وسما وقع في ذلك اليوم أن لسلطان لما ساءل المجلس بالفضاء الأربعة ، والأمراء . رادى أمر السباض . حضر نائب السر ابن مرهر . وأبو الرماء بن الجيعان ، وخسقدم الرمام . وخطيبه . منة أطباء على رؤوس ستة ملواسة . فحلف بن بدى السلطان بحضوره الفضاة والأمراء . وأقسم : أنها فاداهى سنون ألف دينار ذهب سن . فاحذ نائب السر بهل في المجلس العام أن السلطان نصره الله تعالى لما حج في العام الماضي ، رأى أهل المدينة المسرفه في فاقة زائدة من عدم الأوقاف . فمدبره لانا السلطان بأن يفعل بالمدينة التبرقة خيرا دون مسسرا من بعده . وقد خرج من هذا المال لله تعالى وهو من وجه حل ، من خالص ماله دون ما من بيت المسلمين . لسترى به ما يوقعه على فقراء المدينة من ضماح ، وأماكن وربوع ، وغير ذلك . مما يصنع في كل يوم من الدسبسة والخبز والربى . وغير ذلك كما يفعل بمدينة الخليل عليه وعلى نبينا أفضل السلاة والسلام . فارتفعت له الأصوات بالدعاء في ذلك المجلس ، ثم أمر السلطان بد أن يكون هذا المال تحت يد فاضى القضاة الشافعى ، حتى يسترى به أماكن أو ضماعا . فامتنع القضاى من ذلك ، واعتذر عن تسلبه . حتى أعفى من ذلك .

ثم شرع السلطان في بناء تلك الربوع التى أنشأها في باب النصر ، وفي البنسداقائين والخشابين والدجاجين وغير ذلك من الأماكن .

وفيه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك ، فلما عاد وقف له جماعة من العوام ، وشكوا له من أمور الحسبة بأنها ضائعة ، وأنه من بعد العصر ما يوجد الخبز على الدكاكين . فلما طلع الى القلعة وأصبح ، رسم للصاحب قاسم شغيته بأن يتكلم في الحسبة ، عوضا عن يشبك الجسالى . وكان لما تولى الزردكاشية أهمل أمر الحسبة ، وضاعت المصالح في أمور البضائع وغيرها ، وسعر الغلال ، ووقع بالقاهرة تشجيطه في الخبز في تلك الأيام ، وكادت أن تكون غلوة .

وفيه عين السلطان الأمير يسبك الدوادار للخروج الى حماد ، بسبب قتال سيف أمير آل فضل الذى مل أردمر نائب حماد ، كما تقدم ذكر ذلك ... وهذه السفرة كانت آخر العهد بالأمير يشبك ، ولم يعد منها الى مصر ، وعين معه من الأمراء المقدمين برسباى قرا ، وتانى بك قرا ، وعدة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وعدة وافرة من الجند . وقد ليج الناس بأن هذه التجريدة خرجت الى سيف ، وكان الأمر كذلك . وراح أكثر الأمراء والعسكر على السيف كما سيأتى الكلام على ذلك في موضعه ، فكان كما قيل في المعنى :

لا تنطقن بسا كرهت فربما

نطق اللسان بحادث سيكون

وفال آخر :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى

أن البلاء موكل بالمنطق

وكان الأمير يسبك له غرض تام في السفر الى دار بكر . وقد سأل السلطان في ذلك بنفسه .

والسبب في ذلك أن الأمير يشبك كان قد وقع بينه وبين جليان السلطان بسبب جانم الشريفى ، وقد اتهم به أنه شغله ، فصار معهم في تهديد وقصدوا قتله غير ما مرة ، فحسن له بعض الأعاجم أن ملكة حسن الطويل سائبة ، وأن العسكر مختلف على ابنه يعقوب ، ومتى حاربتهم لا يقدرّون على محاربتك ويسلسونك ملكة العراق قاطبة . فانصاع الأمير يشبك لهذا الكلام ، وسأل السلطان السفر بنفسه ، حتى يجعل الله لكل شيء سبيبا ، لنفوذ القضاء والقدر كما قيل في المعنى :

أتطمع من ليلى بوصل وانما

تقطع أعناق الرجال المطامع

فلما عين السلطان الأمراء ، وعرض من بعد ذلك الجند ، وكتب منهم نحوا من خمسمائة مملوك ، وكان الأكثر منهم من طائفة الاينالية ، فلما عرضهم أنفق عليهم ، وأمرهم بسرعة التجهيز والخروج صحبة الأمير يشبك . فبلغت النفقة عليهم في هذه الحركة زيادة عن المائة ألف دينار .

وفيه خلع السلطان على الأمير تغرى بردى لطر أحد المقدمين ، وقرره أمير المحمل ، وقرر يشبك بن حيدر والى القاهرة أمير أول .

وفيه توفى الشهيد الشريف زين العابدين ، وهو محمد بن محمد بن على بن على بن حسين القرشى الهاشمى السنجارى الحنبلى ، وكان رئيسا حشما في سعة من المال ، كثير التواضع ، حسن الملتقى . وفيه خلع السلطان على قانصوه دوادار الأمير يشبك ، وجعله متحدثا في الاستادارية الى أن يعود أستاذة . فاستعفى من ذلك وأظهر السفر صحبة أستاذة .

وفيه قرر جانم دوادار الأمير يشبك في كنف أسيوط ، عوضا عن قرقماس الأعور ، فاستعفى

جانم من ذلك ، واستقر بها سيباي ، وطلب قرقماس السفر صحبة يشبك .

وفيه في سلخه كانت وفاة شيخ مذهب الشافعية بصير الشيخ سراج الدين عمر بن حسن بن حسين العبادى الشافعى . وكان عالما فاضلا بارعا في العلوم ، مفتيا ، وصار أحفظ أهل زمانه بمذهبه بمصر ، منطرح النفس جدا . وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الأحباس ، ومشيشة خاتناه سعيد السعداء ، وغير ذلك من الوظائف . ومولده سنة احدى وثمانمائة .

وفيه نادى السلطان بأن معاملة الفضة بالميزان وكانت قد خفت جدا .

وفي ربيع الآخر خرج الأمير يشبك الدوادار الى التجريدة من غير طلب لذلك ، وكان عليه خدمة زائدة ، فتفاهل الناس أنه لا يعود الى مصر أبدا ، وكذا جرى . وكان الناس يقولون خرج لسيف ، وكان هذا فألا عليه

وفيه قرر السلطان جانم الأعرج السيفى جاني بك نائب جدة في نيابة حماه ، عوضا عن أزدمر قريب السلطان .

وفيه برز أمر السلطان الى سيباي كاشف الوجه القبلى ، بأن يقطع رأس أزدمر الطويل الاينالى . وكان نفى الى مكة المشرفة ، ثم بعد مدة نقل الى أسيوط ، وسجن . وكان بينه وبين الأمير يشبك عداوة . وقصد أزدمر قتل يشبك غير ما مرة ، بل وقتل السلطان أيضا . فلما برز الأمير يشبك بالريدانية للتجريدة ، أرسل يشبك يقول للسلطان : « ما أرحل من هنا حتى تقطع رأس أزدمر الطويل ، وتجيء الى » . وتأخر أياما ينتظر ذلك ، فأرسل السلطان يوسف السوام الذى كان والى قوص ،

وفيه تغير خاطر السلطان على القاضي تاج الدين ابن المقسى ناظر الخاص كان ، فرسم بتسميره ، فسر على جبل ، وطيف به في القاهرة ، وتوجهوا به الى قنطرة الحاجب ليوسطوه هناك . وكانت هيئته وهو مسر على الجمل أنه على رأسه عمامة صغيرة ، وهو لابس كبر أبيض . فلما وصل هناك وقعت فيه شفاعاة ، فعادوا به وقد أركبوه على فرس ، وفرح الناس بسلامته .

وفي جمادى الآخرة رسم السلطان بشنق تاج الدين بن المقسى ، بعد أن عفى عنه ، فتوجهوا به الى غيط الحاجب ، فشنقوه على جسيمة هناك . وشنق معه في ذلك اليوم قاسم بن بقر أمير عربان جذام بالسرقة ، وكان لها يوم مشهود . وكان اسمه عبد الله بن نصر الله القبطي ، وكان رئيسا حنسا كيسا حسن الهيئة ، لطيف الذات ، وولى عدة وظائف سنية ، منها كتابة الممالك ونظر الدولة ونظر الجيش ، ونظر الخاص والأستادارية ، وغير ذلك من الوظائف . ومات وهو في عثر الحسين وكثر عليه الحزن من الناس . وقاسى في أواخر عمره أهوالا وشدائد ومحن ، وضرب بالمقارع في يوم شديد البرد ، وآخر عمره شنق .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكي أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه نزل السلطان في موكب ونوجه نحو قليوب ، ثم طاب له رؤية البحر ، فأقلع من هناك وتوجه الى الوجه القبلي ، حتى وصل الى نحو صيدا ، ثم عاد الى القلعة .

وفي رجب جاءت الأخبار بقتل سييى العلانى

الى سييى كاشف الوجه القبلى ، بقطع رأس أرذمر الطويل ، فتوجه في الخفية الى أسيوط ، وعلى يده مرسوم السلطان الى سييى ، بقطع رأس أرذمر . فقطع رأسه بأسيوط ، ووضعت في علبة ، وأحضرت بين يدي السلطان ، فنظر اليها ثم أرسلها الى الأمير سبك نظر اليها ، وكنم هذا الأمر عن الناس ، وما خفى بل استتر من يومه . وكان أرذمر هذا من أعيان الاينالية شجاعا ، بطلا مقداما في الحرب ، عارفا بأنواع الفروسية .

ثم ان الأمير سبك رحل من الريدانية وقد نال فصده من أرذمر . ثم قطع رأس الأمير يتسبك بعد ذلك بسنة يسيرة والمجازاة من جنس العمل . وفيه توفى برد بك التاجى الأشرفى أحد العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه تغير خاطر السلطان على فاضى التضاة الشافعية ولى الدين الأسيوطى ، وعلى فاضى قضاة الحنابلة بدر الدين السعدى ، فعزل القاضي الشافعى ورسم بنفى القاضي الحنبلى الى فوس . ولم يكن بم أمر كبير بسنق هذه الكائنه ، بل ما نكب القاضي الشافعى الا بسبب نركة انسان ، والقاضى الحنبلى بسبب كتاب وقف . ونحو ذلك . واستمر أمرها في اضطراب مدة أيام ، وتكلسوا مع السلطان فيسن يلى قضاء الشافعية وقضاء الحنابلة . وكتب فائسة بأساء جماعة من طائفتى المذهبين ، ثم عاد الأمر الى إعادتهما الى ما كانا عليه بشفاعة الأتابكى أزبك ، فخلع على القاضيين ، ونزلا الى دورها وكان لها يوم مشهود .

وفي جمادى الأولى توفى القاضي شرف الدين يحيى ابن الجيعان . مستوفى ديوان الجيش ، وهو يحيى بن شاكر بن عبد الغنى الشافعى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حنسا وله اشتغال بالعلم والقرائن .

الايثالي ، كاتشف الوجه القبلى ، قتله بعض العرب
بخنجر فى بطنه وهو راقد على فراشه . وكان شابا
حسنا شجاعا بطلا ، من خيار الايتالية . وهو الذى
قطع رأس أزدمر الطويل ، فكان بينه وبين قتل
أزدمر الطويل شهران وبعض أيام .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة برهان
الدين ابراهيم بن عسر بن حسن بن على بن أبى
بكر الحرباذى البقاعى الدمشقى الشافعى ، وكان
عالما فاضلا محدثا ماهرا فى الحديث ، ليس من
مساويه سوى حظه على الشيخ عمر بن الفارض
رحمه الله ورضى عنه . فلما قامت الدائرة بسبب
ابن الفارض ، توجه الى دمشق فمات بها .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك الدوادار
لما دخل الى الشام أخذ معه نائب الشام قانصوه
اليحياوى وتوجه الى حلب ، وأن قانى بك صلق
نوفى بحلب ، وكان صحبة الأمير يشبك . وكان
قانى بك صلق أصله من مماليك شادبك الجكمى ،
وارتقى حتى بقى أمير طبلخاناه ورأس بوبة ، وكان
لا بأس به ، ورأى غاية العز فى دولة الأشرف
قايتباى .

وفى شعبان كان انتهاء القناطر التى بالجيزة .
وخلع السلطان على الأتابكى أزبك بسبب كونه
كان شادا على العمارة ، فجاءت من آثار الملوك .
وقيل ان السلطان صرف على هذه القناطر نحو
من مائة ألف دينار .

وفيه توفى مجد الدين بن الكوين ، وهو محمد
ابن سليمان بن عبد الرحمن بن داود بن خليل
الشوبكى ، وكان رئيسا حشما ، وولى عدة
وظائف سنية ، منها معلم المعلمين ، ونظر الخاص ،
وغير ذلك . ومولده سنة ثمان وعشرين وثمانمائة .

وفى رمضان كان ختم البخارى بالقلعة ، وفترقت
الخلع والصرر على القضاة ومشايخ العلم . وكان
قارىء الحديث الشريف برهان الدين بن الكرعى
امام السلطان ، فخلع عليه . ونزل من القلعة فى
جمع حافل .

وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة الإمام الشافعى
رحمة الله عليه ورضى عنه ، وكان الشاد على
عمارتهما الخواجا شمس الدين بن الزمن

وفيه كانت وفاة قاضى القضاة الحنفى شمس
الدين الأمشاطى محمد بن محمد بن أحمد بن
حسن بن اسماعيل بن يعقوب العيتابى الكحكاوى
الحنفى . وكان عالما فاضلا بارعا فى علوم مذهبه ،
وافر العقل ، فكه المحاضرة ، وكان ناب فى القضاء
مدة طويلة ، ثم تولى القضاء الأكبر ، وباشره بعفة
زائدة وحرمة وافرة ، وحدث سيرته ، وامتاز على
غيره من قضاة عصره ، وصمم على عدم حل
الأوقاف فى أيامه ، وجمع بين القضاء ومشيخة
البرقوقية ، وكان نادرة فى عصره . فلما توفى
الأمشاطى تكلموا مع السلطان فى القضاء
عوضا عن الأمشاطى ، فلم يوافق على أحد يوليه
من أهل مصر . ثم أرسل خلف شخص من الشام
يقال له شرف الدين موسى بن عيد ، ليلى القضاء ،
واستمر منصب قضاء الحنفية شاغرا الى أن حضر
ابن عيد .

وفى شوال جاءت الأخبار من الرها بوقوع
كائنة عظيمة طامة ، قتل فيها الأمير يشبك
الدوادار ، وانكسر العسكر قاطبة ، وقتل الأكثر
منهم . وكان سبب ذلك : أن الأمير يشبك لما دخل
الى حلب ، كان صحبته نائب الشام ، ونائب حلب
ونائب طرابلس ، ونائب حماة ، والعسكر الشامى
والحلبى والمصرى ، وغير ذلك من العساكر ... فلما

استقر بحلب بلغه أن سيف أمير آل فضل الذي خرج بسببه قد فر ، وتوجه الى نحو الرها ، فقوى عزم الأمير يشبك بأن يعدى من الفرات ، ويتبع سيفا في أى مكان كان فيه . فكان كما قيل في المعنى :

وكم من طالب يسعى لشيء

وفيه هلاكه لو كان يدري

فعدى من الفرات ، هو والعساكر ، فاجتمع معه فوق العشرة آلاف انسان . فلما عدى توجه الى نحو الرها ، وكان المتولى أمرها يومئذ شخص يقال له بابندر ، أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل ، فحاصر الأمير يشبك مدينة الرها أشد المحاصرة ، فلما أشرف على أخذها ، أرسل بابندر يتطلف بالأمير يشبك ، ويقول له : « ضمان مسك سيف على » . وأرسل يقول له : « ارحل من الرها ، وأنا أجمع لك من المدينة مالا له صورة » . فأبى الأمير يشبك من ذلك ، لما رأى من كثرة العساكر التى كانت معه . فطمعت آماله فى أخذ مدينة الرها ، ويزحف بعد ذلك على ملك العراق ، كما حسنوا له ذلك . فزعم النفير وركب العسكر قاطبة ، فبرز بابندر ومن معه من العسكر ، وتحارب معهم ، فلم تكن الا ساعة يسيرة ، وقد انكسر عسكر مصر قاطبة ، وبقية العساكر قاطبة ، فأسر الأمير يشبك وهو راكب على ظهر فرسه ، فأتوا به الى بابندر ، وأسروا نائب الشام قانصوه اليجياوى ، ونائب حلب أزدمر ، ونائب حماه جانم الجداوى ، وقتل برد بك قريب السلطان نائب طرابلس ، وأسر برسباى قرا حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا أحد المقدمين ، وقتل من الأمراء العشراوات ، ومن أمراء الشام وحلب ما لا يحصى ، وقتل من العساكر التى كانت مع الأمير يشبك ما لا يحصى عددهم ، وكانت حوافر الخيل لا تظأ الا على جثث القتلى

من العسكر . فكان من قتل من أعيان العسكر . برد بك قريب السلطان نائب طرابلس ، وهو برد بك المعمار السيفى جرباش كرت ، وجانى باى أخو سيباى أحد الأمراء العشراوات ، وجانى باى أخو تانى بك قرا ، وسوازار الأشقر الأشرفى ، وكان علامة فى الرمي بالنشاب ، وطقطمش الخشقدمى أحد الأمراء بحلب ، وسليمان بك من أقارب سوار ، وقانصوه البواب الاينالى أحد الأمراء العشراوات ورءوس النوب ، وقرقاس المحمدى الظاهرى ، أحد العشراوات ورءوس النوب . وأما الذى قتل من الخاصكية والمماليك السلطانية ، فما ضبط لكثرتهم . وقتل من العساكر الشامية والحلبية وغير ذلك ما لا يحصى عددهم . وكانت مصيبة عظيمة مهولة قل أن يقع مثلها لعسكر مصر .

وأما ما كان من أمر يشبك الدوادار فانه أقام فى الأسر نحو ثلاثة أيام ، ثم فى اليوم الرابع بعث اليه بعبد أسود من عبيد التركمان قطع رأسه تحت الليل ، وأحضرها بين يدى بابندر . وقيل انه حز رأسه بالسيف عدة مرار وهى لا تنقطع فقطعها بسكين صغير وعذبه غاية العذاب . فلما طلع النهار وجدوا جثته بغير رأس وهى مرمية على قارعة الطريق ، وعورته مكشوفة ، حتى ستره بعض الغلبان بحشيش من الأرض . فسبحان من يعز ويذل ، ويده كل شيء وهو على كل شيء قدير . وقيل فى المعنى :

ما أعجب الدهر فى قلبه

والدهر لا تنقضى عجائبه

فكم أرانا الدهر من أسد

بالت على رأسه ثعالبه

فلما قطعت رأس الأمير يشبك بعث بها بابندر الى بلاد العجم ، عند يعقوب بن حسن الطويل ،

فكان له يوم مشهود بمدينة ماردين ، وطاقوا بها بلاد العجم ، وهى على رمح ، وألبسوا رأس الأمير يشبك تخفيفته الكبيرة لما طافوا بها ، وطاقوا بالنواب والأمراء الذين أسروا وهم فى قيود وجنازير ، والمماليك الذين أسروا مشاة . وأرسل بابندر الى يعقوب بن حسن بجميع ما نهبه من العسكر من مال وخيول وسلاح وقماش وبرك وغير ذلك مما لا يحصى . وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة . وكانت قتلة الأمير يشبك فى العشر الأخير من رمضان سنة خمس وثمانين وثمانمائة بالرها ... وكان الأمير يشبك أميراً جليلاً معظماً فى سعة من المال ، ذا شهامة زائدة وحرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان أصله من مشترىات الظاهر حقيق . وكان يعرف بيشبك بن مهدى ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، حتى صار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، واجتمع فيه عدة وظائف سنية ، منها الدوادارية الكبرى ، وأمرية سلاح ، والوزارة والاستادارية الكبرى ، وكاشف الكشاف ، ومدير المملكة ، وغير ذلك . فعظم أمره جداً ، ووقع له أشياء غريبة ، لم تقع لغيره من أبناء جنسه فى عصره . ومات وله من العمر نحو من ست وخمسين سنة ، وقد وكزه الشيب قليلاً . وكان صفته أبيض اللون مدور الوجه ، أشهل العينين ، أشقر اللحية ، طويل القامة ، ملئ الجسد . وأنشأ أشياء كثيرة من العمارات بالديار المصرية ما بين ربوع وحوانيت ودور جلييلة وصهاريج ومغسل وأسبله وزوايا . وأنشأ قبة بالمطرية ، وقبة برأس الحسينية ، وكان له فى كل سنة عدة شقائف محملة على جمال ومعها الزاد والماء تلاقى الحجاج من العقبة بسبب المنقطعين من الحجاج . وله غير ذلك أشياء كثيرة من وجوه البر

والمعروف . وكانت له محاسن ومساو ، وفيه الخير والشر . وقد ساقه أجله حتى خرج فى هذه التجريدة بسبب سيف أمير آل فضل فكانت منيته بالرها . وكان الأمير يشبك باغياً على بابندر ، فانه قصد محاربته من غير سبب ، ولا موجب لذلك ، فكان كما قيل :

من لاعب الثعبان فى وكره

يوماً فلا يأمن من لسعته

وقد نهى بعض الحكماء عن التوجه الى بلاد الشرق من غير حاجة فقال :

إذا شئت أن تلقى دليلاً الى الهدى

لتنفو آثار الهداية من كافى

فخل بلاد الشرق عنك فانها

بلاد بلا دال وشرق بلا قاف

ولكن قدر فى الأزل بأن قبض الأمير يشبك يكون بالرها ، فسبب له الأسباب لذلك . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له اليها حاجة » .

ومن النكت اللطيفة ، ما روى فى بعض الأخبار : أن ملك الموت زار سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل ينظر الى رجل من جلسائه ، ويطل النظر . فقال الرجل لسليمان عليه السلام : « ومن هذا الرجل الذى يطل الى النظر ؟ » ، فقال سليمان عليه السلام : « هذا ملك الموت عليه السلام » . واضطرب الرجل وقال : « يابى الله أقسمت عليك بالله تعالى الا ما أمرت الريح تحملى من هنا وتلقينى خلف جبل قاف » . فأمر سليمان عليه السلام الريح بأن تحمل ذلك الرجل ، وتلقيه خلف جبل قاف . فلما حملته الريح الى هناك ، قال سليمان بعد ذلك لملك الموت : « لماذا

مشهود . وفوض السلطان أمر البلاد الشامية والحلبية للأتابكي أزيك ، وجعل له التكلم في أمور المملكة من ولاية وعزل . ولما أراد الرحيل من الريدانية نزل اليه السلطان ، وودعه وجلس عنده ، واشتورا فيما يكون فيه المصلحة بسبب هذه الكائنة . ثم ان الأتابكي أزيك سافر .

وفيه عين السلطان تراز التنشى قريه لنيابة الشام . فامتنع من ذلك ، وادعى الفقر وعدم البرق ، فوبخه السلطان بالكلام . فحنق منه تراز ونزل الى داره وأغلق بابه ، ولم يجتمع بأحد من الناس ، وصرف تقبائه عن بابه . وكثر القال والقليل في ذلك . فأرسل السلطان يقول له توجه الى مكة وأقم بها بطالا . واستمر في هذه الحركة أياما وهو في اضطراب ، والسلطان يستحثه في سرعة الخروج الى مكة . ثم ان الأتابكي أزيك مشى بينه وبين السلطان بالصلح ، فطلع الى التلعة ، وقابل السلطان ، فخلع عليه ونزل الى داره في موكب حفل ، وقد زال ما بينه وبين السلطان من الوحشة بسبب نيابة الشام . ثم تحول أمر نيابة الشام الى قجماس الاسحاقى أمير آخور كبير ، فخلع عليه وقرره في نيابة الشام ، عوضا عن قانصوه اليحياوى ، بحكم أمره .

وفيه عقب ذلك وقف الأمير خاير بك بن حديد الى السلطان ، وسأله في اقطاع الأمير يشبك الدوادار . فنتر فيه السلطان ، فنزل الى داره مغضبا ، وأغلق بابه ، وصرف غلمانه ، وامتنع من الاجتماع بالناس ، وتكلم بكلمات كثيرة في حق السلطان . وكان الأمير خاير بك صعب المراس ، شديد الخلق قوى الرأس . فلما بلغ السلطان ذلك بعث باحضاره فاخفى خاير بك ، وخرج من داره وهو لابس جبة صوف أبيض ، وتعمم بمئزر صوف أبيض ، وأخذ بيده سبحة ،

كنت تطيل النظر في الرجل الذى كان جالسا عندي . فقال ملك الموت عليه السلام : « كان نظرى الى هذا الرجل تعجبا منه ، لأننى أمرت بقبض روحه خلف جبل قاف ، وقد وجدته بحضرتك ، فصرت متعجبا من ذلك » . فلما مضى الرجل خلف جبل قاف ، قبض ملك الموت عليه السلام روحه هناك كما أمر . وهذا مصداق للحديث الشريف .

فكان قبض الأمير يشبك بالرها . فلما ورد هذا الخبر الى السلطان ، اضطربت أحواله ، وماجت القاهرة عن آخرها ، وكان يوما مهولا . ثم أشيع بين الناس أن الأمير يشبك في الحياة ، وهو في الأسر عند بابندر . وقيل انه فر بنفسه وهو مختلف عند بعض التركمان . واختلفت الأقوال في أمره ، وصارت دكة النقباء على بابه بعد قتله مدة طويلة ، ونظامه باق على حاله ، ووقع الشك في حقيقة قتله . ثم أشيع بين الناس أن السلطان قصد السفر الى حلب بنفسه ، وقيم بها ، خوفا من عسكر يعقوب بن حسن ، أن يطرق بلاد حلب والشام . فان النواب قاطبة كانوا في الأسر عند يعقوب بن حسن .

ثم ان السلطان عين الأتابكي أزيك الى حلب ، وعين معه وردبش أحد المقدمين ، وخلع عليه ، وأقره في نيابة حلب ، عوضا عن أزدمر . وعين من الأمراء العشراوات ، والطبلخانات ، عدة وافرة . منهم : جاني بك حبيب أمير آخور ثانى ، وآخرين من الأمراء . ثم عرض الجند ، وكتب منهم جماعة ، واستحثهم على الخروج بسرعة قبل أن تهجم عساكر الشرق على حلب . ولولا فعله ذلك لخرج من يده غالب جهات حلب .

ثم بعد أيام خرج الأتابكي أزيك من القاهرة هو والعسكر في تجميل زائد ، وكان لهم يوم

وأدعى انه قد ترك الدنيا وبقي قسيرا مجردا ،
ينوجه الى جامع قيدان ، الذى بقناطر الأوز .

وفى ذى القعدة وصلت جنة الأمير يشبك
الدوادار من الرها ، وهى فى سحلية ، وهى جنة
بغير رأس ، فوق السك فيها هل هى جنته ، آه
لا . فوجدوا بها أمارات تدل على أنها جنته ،
فكفنها ودفنوها فى تربته التى أنشأها عند زاوية
كهنبوش . وتحقق موته وانقطعت الاشاعات بأه
فى قيد الحياة . وحضر صحبة جنته قانصو
دواداره وأخبر بحقيقة موته ، وكيفية أم
الواقعة ، ومن أسر من الأمراء . وأخبر بقتل قائم
قريب السلطان ، الذى كان أتابك العساكر بحلب
قتل على ماردين من جملة من قتل من العسكر
وكان شجاعا بطلا لا بأس به . فلما ثبت مو
يشبك زال أمره كأنه لم يكن .

وفيه وصل شرف الدين بن عيد الدمشقى
الذى تقدم ذكره . فلما طلع الى القلعة خلع عا
السلطان ، وأقره فى قضاء الحنفية ، عوضا .
الأمشاطى .

وفى ذى الحجة خلع السلطان على تغرى مر
بن بلباى الظاهرى ، خازن دار يشبك الدواحد
وقرره فى الاستادارية ، عوضا عن مجد
ابن البقرى . ورسم السلطان على مجد
ليقيم الحساب . وكان فى ذلك دماره .

وفيه توفى دولات باى بطيخ الأبوي
المؤيدى ، أحد العشراوات ورءوس النوب ،
لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بقتل محمدا
حسن بن الصوا الحلبي نائب قلعة حلب .
من أخصاء السلطان ، ثار عليه أهل حلب .

وكان أنشأ به جوستقا مطلا على البركة التى هناك ،
فأقام به أياما . فلما بلغ الأمير تراز ذلك توجه اليه ،
وتلطف به فى عوده الى داره ، فلم يوافق على
ذلك ، واستمر مصمما على عدم عوده . وبقي
هناك أياما .

ثم ان السلطان أرسل اليه قانصو خمائة ،
وشبكه فى الحديد ، وطلع به الى القلعة وهو
ماش . فلما مثل بين يديه ، وبخه بالكلام ، وقصد
أن يفتك به ، ثم آل أمره من بعد ذلك الى أن
أخرجه منفىا الى دمشق ، صحبة الأتابكى أزبك ،
لما خرج الى التجريدة المقدم ذكرها . فسجن
هناك ، وجرى عليه شذائد ومحن الى الغاية ،
واستمر منفىا الى أن مات بمكة المشرفة كما
سيأتى الكلام على ذلك . وكان خاير بك من
أخصاء السلطان ، وكان من أكبر أصحابه ، من
حين كان السلطان خاصكيا ، فاقلب عليه كأنه لم
يعرفه قط . فكان كما يقال : « ثلاث لا يؤمن
اليهم : المال وان كثر ، والملوك وان قربوا ، والمرأة
وان طالت صحبتها » .

وفيه طلع الأمير لاجين الظاهرى الى السلطان ،
واستغنى من أمرية مجلس ، وذكر للسلطان أنه
قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة . فأعفاه
السلطان من ذلك ، ورتب له ما يكفيه ، واستمر
طرخانا الى أن مات .

وفيه خلع السلطان على الشيخ ناصر الدين بن
الأخيمى الحنفى ، أحد أئمة السلطان ، وقرره
فى مشيخة البروقية ، عوضا عن قاضى القضاة
الأمشاطى .

وفيه خرج المحمل فى تجميل زائد من القاهرة ،
وكان أمير الركب بالمحمل ، تغرى بردى ططر ،

مظالم أحدثها بحلب ، فقتله العامة . وقتل فرج ابن أعلبان ، حاجب الحجاب بحلب . وكان رئيسا حسنا من أعبان أهل حلب ، وكان لا بأس به .

وفيه مات مشنوقا شيخ عربان الشرقية قاسم ابن يبرس بن بئر ، وكان من خيار بني بئر . وتوفي أبو بكر جركس مقدم البريد وأحد الحجاب بصر ، وكان رئيسا حسنا لا بأس به .

سنة ست وثمانين وثمانمائة (١٤٨١ م) :

وفيه . في رابع المحرم ، خلع السلطان على أقبردى بن على باى نزيه ، أحد المتقدمين ، وفرره في الدوادارية الكبرى ، عوضا عن يتبك بن مهدي بحكم قتله في الرها . نزل من القلعة في موكب حافل ، وسكن في دار الأمير يشبك ، ورسم له السلطان بجميع ما كان في بيت الأمير يشبك . فجاءت إليه السعادة من قماش وأوان وخيول وبرك ، وهو لا يشعر بها ، فسبحان المعطي الكريم وهو على كل شيء قدير . وقد قيل « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وفيه خلع السلطان على الماس ، وفرره في نيابة سفد فخرج عن مريب ، وخرج صحبته تائب بك الجمالي أحد المتقدمين إلى حلب ، عوناً للأتابكي أزيك ، فطلب وخرج ، وكان له يوم مشهود . وفيه دارت ريح عاصفة ، وبار فيها غبار أصفر يأخذ بالأنفاس ، واستمر من قبل الزوال إلى نصف الليل .

وفيه ، في سابع عشره ، كانت زلزلة عظيمة بمصر والقاهرة ، ماجت الأرض وتحركت المواد ومالت ، وسع للأرض دوى كدوى الرحي . وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ، واستمرت نحو

ثلاث درج وهي في اضطراب ، حتى دهشت منها الناس ، وخرجت النساء من الحمامات والبيوت وهن حاسرات عن وجوههن . وحصل للناس غاية الرعب ، ومات من هذه الزلزلة قاضي القضاة شرف الدين بن عيد الحنفي ، وكان جالسا يايوان المدرسة الصالحية ، فقام حين وقعت الزلزلة ، فسقط عليه ساظ من أعلى الأيوان ، فمات لوقته . وكان عالما فاضلا دينيا خيرا بعث السلطان خلفه من دمشق إلى مصر ، وولاه قضاء الحنفية ، فأقام بها ثمانية وخمسين يوما ، ومات بهذا السبب . وكان أصله من عجلان ، وهو موسى بن أحمد بن عيد الدمشقي الحنفي ، وكان نولي قضاء دمشق ، ثم طلب وتولى قضاء مصر ، وكان مولده سنة ثلاثين وثمانمائة . فلما أخرجت جنازته نزل السلطان ، وصلى عليه ، ودفن بالصحراء .

وتوفي من الزلزلة عقيب ذلك الزيني أبو بكر بن الناضي عبيد الباسط ، ناظر الجيش كان ، وكان رئيسا حسنا نادرة في أبناء الزمان ، ذا شهامة وعظمة ، وكان من أخصاء السلطان ، وكان عللا فمات مرجوفا من الزلزلة حين ماج به البيت . وكان في سعة من المال والقماش والبرك ، وولى من الوظائف نظر الجوالي ، وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على قانصوه بن طراباي ، المعروف بحسمانة الأشرفي ، وقرره في امريه الآخورية الكبرى ، عوضا عن فجساس الاسحاقى ، بحكم انتقاله إلى نيابة الشام . وكان قانصوه يومئذ شابا بدا عذاره ، وولى الدوادارية ، وهو لايس الكوفية القندس . فلما بقى أمير آخور كبير ، بعث له السلطان بشاش فلف له تخفيفة كبيرة ، وكان حين لبس الدوادارية الثانية ، قبل أن يلبس أقبردى التقدمة ، والأمير آخورية الكبرى بعد

التي بالمطرية . وتوجه قاضي القضاة الشافعي وخطب به هناك .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة ب وفاة
إينال الأسحاقى الظاهري ، أحد العشراوات ،
وشيخ الحرم الشريف النبوى . وكان السائنا حسنا
خيرا ديننا وله اشتغال بالعلم ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له شمس
الدين العزى بن المغربى وقرره فى قضاء الحنفية
عوضا عن ابن عيـد ، ولم يكن هذا العزى أهلا
لولاية قضاء الحنفية ودلس على السلطان أمره .
وكان الساعى له فى هذه الوظيفة تغرى بردى
الاستادار ، ويعقوب شاه المهندار ، وقد عز ذلك
على جماعة من الحنفية ، وكان فيهم يومئذ من هو
أولى بذلك من العزى .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأتابكى
أزبك لما وصل الى حلب وجد أمر الفتنة التي
وقعت بين عسكر مصر وبين بابندر ، قد سكن
أمرها ، وأن يعقوب بن حسن الطويل شق عليه
ما فعله بابندر من سرعة قتله للأمير يشبك الدوادار ،
ولامه على ذلك . ثم ان الأتابكى أزبك أرسل جاني
بك حبيب قاصدا الى يعقوب بن حسن ، فتلطف به فى
الكلام . وكان الأمير جاني بك حبيب سيوسا دربا ،
حلو اللسان ، فأكرمه يعقوب ، وأجله . ثم أطلق
من كان عنده من الأسرى من النواب والأمراء ،
وغير ذلك ، فسلمهم للأمير جاني بك حبيب ، فأتى
بهم الى حلب صحبتـه . فلما بلغ السلطان هذا الخبر
سر به جدا .

وفيه خلع السلطان على البدرى حسن بن
الطولونى ، وأعادته الى معلمة المعلمين ، وكانت قد
أخرجت عنه مدة طويلة .
وفيه نزل السلطان وتوجه الى الخانكاه ،

ما لبس أجردى الدوادارية . والمقصود أنه صار
مقدم ألف قبله ، وأخذ الدوادارية بالمنزلة فى محله ،
وقانصوه نك من الدوادارية الثانية الى
الأمير اخورية الكبرى . فكان بينه وبينها عدة
وفائف .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الأمراء
مقدم ألف ، منهم أزدمر تمساح ، ويشبك الجمالى
الزردكاش الكبير ، وأزدمر المسرطن الظاهري .

وفيه قرر فى قضاء الحنفية بدمشق مجد الدين بن
النصف ، عوضا عن العبدوى ، وعزل العبدوى .
وكان ابن فرفور قرر قبل ذلك فى نظـر الجيش
بدمشق ، فجمع بين نظارة الجيش وبين قضاء
الشافعية . وعزل عن نظارة الجيش الشريف موفق
الدين الحموى ، وأودع فى السجن بقلعة دمشق .
وخلع على قطب الدين الخضيرى ، وقرره فى كتابة
السر بدمشق ، فانفرد بكتابة السر دون قضاء
الشافعية ، وكان قبل ذلك متوليا قضاء الشافعية
بدمشق .

وفيه قدم قاصد ملك الحبشة ، فأوكب له
السلطان موكبا بالحوش ، وكان موكبا حافلا ،
وأحضر صحبتـه هدية حافلة للسلطان . فأكرم ذلك
القاصد جدا . وسبب حضوره أنه جاء يسأل البترك
أن يولى شخصا يكون عنه ببلادهم .

وفى صفر خلع السلطان على قانى بك جشحة ،
وقرره فى الرأس نوبة الثانية ، عوضا عن أزدمر
تمساح بحكم انتقاله الى التقدمة ، وقرر فى
الحجوية الثانية تانى بك الاينالى ، عوضا عن
قانى بك جشحة بحكم انتقاله الى رأس نوبة ثانى .
وفيه نزل السلطان الى جهة قلوب وكان يوم
الجمعة ، فلما عاد صلى الجمعة فى قبة الأمير يشبك

في نيابة جدة ، ويخرج صحبته الشهابي أحمد ناظر
الجيش ، ويكون هو المتكلم على الحجاج بالركب
الأول .

وفي ربيع الآخر نزل السلطان ، وتوجه الى قبة
سبكت التي بالمطرية ، وياتيها وصلى صلاة الجمعة
هناك ، وخطب به محمد بن دمرداش امام القبة .
وعمل هناك بعد العصر ميعادا بحضرة السلطان ،
فأنعم عليه بمائة دينار .

فيه نزل السلطان ، وعدي الى جهة الروضة ،
وأمر بتجديد الجامع الذي هناك تجاه المنشية ،
وكان ثلاثي أمره ، فأمر بهدمه وتجديده ، وكان
الساد على عمارته البدرى حسن ابن الطولوني .
ثم ان السلطان توجه الى المقياس ونزل عن فرسه ،
ودخل الى قاعدة المنياس ، وأمر بتجديد بعض
أماكنه ، وإصلاح أساسه ، وغير ذلك . ثم ان
السلطان صار يتردد الى الروضة ، ويكشف عن
بناء هذا الجامع ، حتى انتهى العمل منه في سنة
سب وثمانين وثمانمائة ، وقد جاء في غاية الحسن
والتزخرف ، وصار يعرف بجامع السلطان . وكان
أصل من أنشأ هذا الجامع الفخر ناظر الجيش ،
وهو صاحب قنطرة الفخر التي أنشأها في دولة
الناصر محمد بن قلاوون . ثم جدد بناءه صاحب
شمس الدين محمد بن المقشى فعرف به . ثم جدد
بناءه الأشرف قانباي فعرف به ، وجاء من أحسن
البناء هناك .

وفي جمادى الأولى توفي علان الأشتر بن
منطخ الأشرفي أحد العناصرات ورءوس النوب ،
وهو الذي أنشأ الحوض والسيل بطريق بركة
الحاج ، وكان لا بأس به .
وفيه خلع السلطان على اينال السلحدار ، نائب

فأعجه مكان مناد قناطر المرح والزيات ، فأمر ببناء
زاوية هناك وحوض وسيل . وأخذ في أسباب
ذلك ، وجاء من أحسن البناء .

وفيه توفي القاضي سعد الدين الكماخي أحد
نواب الخنفة . وهو إبراهيم بن محمد بن محمد بن
مطلوباك شيخ المدرسة الظاهرية الخنفة . وكان
عالما فاضلا رسا حسنا دربا عسودا في فضائه ،
وكان لا بأس به .

في ربيع الأول حارب الاحبار بوفاد السلطان
المعظم المعظم انتحار المعساري . ملك الروم ،
وصاحب القسطنطينية العظمى ، وهو محمد بن
مراد بن محمد بن عثمان ، وكان ملكا حليلا عظيما
سار على بنى سنان كلهم ، وانشر ذكره بالعدل
في سائر الآفاق ، ودار الفضل والعلم والعدل
والكرم الزائد ، وسعة المال وكثرة الجوش ،
والاستيلاء على الأقاليم الكفرية ، وفتح الكثير من
حصونها وقلاعها . وكان نائب ملك مملكة الروم ،
في حياة أبيه ، ثم استغل به من بعده ، ومك به
مدة طويلة تزيد عن إحدى وثلاثين سنة ، ومولده
بعد الأربعين وثمانمائة . ولما مات تولى بعده ولده
أبو يزيد بلدرهم ، الموحود الى تاريخه . فلما سمع
ذلك السلطان أظهر الحزن والأسف عليه .

وفيه خلع السلطان على العثلاثي على بن
الصابوني ، وورده في نظر الخاص عوضا عن
بلدر الدين بن الكوين بحتكم وهاته . وقد جمع
بين نظر الخاص ووكالة بب المال

وفيه خلع السلطان على شبكت بن حيدر والي
القاهرة ، وورده في اميرة الحاج بركب المرحل ،
وقرر الشهابي أحمد بن الجمالي ناظر الخاص في
اميرة الحاج بالركب الأول ، وورده ناهين الجمالي

الاسكندرية ، وقرره في نيابة طرابلس ، عوضا عن
يرد بك المعمار بحكم قتله في واقعة بابندر . وخلع
على جكم قرا أمير آخور الجمالي الظاهري ، وقرره
في نيابة الاسكندرية عوضا عن اينال السلحدار
بحكم اتفاله الى نيابة طرابلس .

وفيه توفي الأمير لاجين الظاهري ، أمير مجلس
كان . وجاوز التسعين سنة من العمر ، وكان ديناً
حبراً رئيساً حشماً . وكان من الشجعان قبل أن
يهزم ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها الزردكاشية
الكبرى . ثم شادية الشراب خاناء ، ثم بقى مقدم
ألف ، ثم بقى أمير مجلس واستغفى من ذلك .
ومات بطلا ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على قائم الفقيه الظاهري
الأشقر ، بمشيخة الحرم الشريف النبوي ، عوضا
عن اينال باي الاسحاقى بحكم وفاته .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار من حلب ،
من عند الأتابكى أزبك ، بأن الجام بن عثمان ، ملك
الروم ، قد وقع بينه وبين أخيه أبى يزيد ، وأن
الجام وصل الى أطراف بلاد السلطان ، وبعث
يستأذن في الدخول الى حلب ، فعاد من السلطان
للأتابكى أزبك بأن يحضر الى القاهرة في قليل من
عسكره . ثم ان السلطان أخذ في أسباب تجهيز
الملاقاة اليه الى أن يصل الى مصر .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى في
خامس عشر مسرى . فلما أوفى رسم للأمير أزبك
السيفى بأن يتوجه ويفتح السد .

وفي رجب طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ،
فوقع بالمجلس كلام بتعلق بالشهابى أحمد بن
العمى ، بسبب تركه شرف الدين ابن كاتب غريب

وكان بعض نواب المالكية سمع دعوى ابن العيني
وحكم له . ثم ان أمر هذه الدعوى وقف مدة
طويلة ، فلما طلع القضاء في الشهر المذكور ، أخذ
السلطان يسأل القاضى المالكى والشافعى عن السبب
في تأخر ذلك بعد أن نبت حق ابن العيني ، وحكم
له بذلك . فطال الكلام في المجلس بين القضاة ،
فحنق منهم السلطان ، فقام كاتب السر يتكلم للقضاة
من نوع المساعدة لهم فقال له السلطان : « أنت
معزول ، والقاضى الشافعى معزول ، والقاضى
المالكى معزول » . فنزلوا الى دورهم وهم في غاية
التكد . وكان آخر عزل ولى الدين الأسيوطى ولم
يل بعد ذلك القضاء ، وكذلك برهان الدين
اللقانى ، فكانت مدة ولى الدين الأسيوطى في
قضاء الشافعية نحو من ست عشرة سنة . وكان
مشكور السيرة في قضائه .

ثم أخذ السلطان في أسباب من يلى قضاء
الشافعية ، فترشح أمر الشيخ زين الدين زكريا ،
فطلب وخلع عليه وتولى القضاء ، وقد تمنع من
ذلك الى الغاية . ثم شرط على السلطان شروطا
كثيرة ، فأجيب الى بعضها ، ونزل من القلعة في
موكب حافل ، واستمر في هذه الولاية مدة طويلة
وقد أخذها عن ولى الدين الأسيوطى بحكم صرفه
عنها . وكان الشيخ زكريا يومئذ رأس الشافعية
ثم ان السلطان طلب محيى الدين بن تقى الدين
المالكى ، وخلع عليه ، وقرره في قضاء المالكية .
عوضاً عن برهان الدين اللقانى بحكم صرفه عنها ،
واستمر في هذه الولاية الى أن مات .

وأما القاضى كاتب السر ابن مزهر ، فانه أقام
في داره نحو ثمانية عشر يوما وهو منفصل عن كتابة
السر . ثم ان بعض الأمراء مشى بينه وبين السلطان
في عوده بعد ما كاذ ، ترشح أمر قطب الدين
الخصيرى بأن يلى كتابة السر . ثم ان ابن مزهر

أورد للسلطان مالا له صورة حتى رضى عليه . فلما
طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ، وأعاد وظيفته ،
ونزل من القلعة في موكب حافل ، وتخلق جماعته
بالزعران ، وزينت له حارته وهناك الأديب أبو الخير
ابن النحاس بقوله فيه :

مقام ابن مزهر فوق السها
وقد زاد ربي اجلاله
وظيفته الدهر تسمو به
ولم تك تصلح الا له
وقال آخر :

يا كاتب الأسرار يا من فصله
قد جسل الدنيا وزان المصبا
هذه وظيفتك التي فارقتها
عادت اليك فرحبا بك مرجبا

وفيه حضر برقوق الساقى الاينالى ، أحد الأمراء
العشراوات ، وكان من أسر عند بابندر ، وحضر
صحبه اياس سلوك الأتابكى أزبك ، وأخبر بأن
النواب والأمراء الذين كانوا في الأسر عند بابندر
قد أطلقوا أجسمين ، ودخلوا الى حلب صحبة
جاني بك حبيب ، وقد خلع عليهم يعقوب بن حسن
الطويل . ثم أخبر اياس المذكور أن الجمجمة بن
عثمان ، قد خرج من غزة وهو قاصد للديار
المصرية . فلما أخبر السلطان بذلك أخذ في أسباب
ملاقة الجام .

وفيه توفيت خوند بنت الملك المصور ، وهى
زوجة تميز التمشى ، رأس نوبة النوب . وكانت
شابة جميلة ماتت نقساء بعد أن وضعت .

وفيه قرر عماد الدين اسماعيل الناصرى الحنفى
الدمشقى ، فى قضاء الحنفية بدمشق ، عوضا عن
ابن القصيف بحكم انفصاله عنها .

وفى شعبان نخرج صاحب نخشقند الزمام الى
ملاقة الجام بن عثمان ، ومد له أسمطة حافلة
ببليس والخانكاه ، ثم لاقته الأمراء المقدمون ،
والعسكر ورعوس النوب والحجاب من المخرج
والزيات ، فسار فى موكب حافل حتى طلع الى
القلعة من بين التراب . فأقام له السلطان الموكب
بالحوش . فلما مثل بين يدى السلطان وهو جالس
على الدكة ، تحرك ولم يقم له ، فعد ذلك ناقصة
من الأشراف قايتباى . ثم خلع على الجام كاملية
بسمور حافلة ، وأركبه فرسا خاصا من مراكه
بسرج ذهب وكنبوش زركش ، ونزل من القلعة فى
موكب حافل ، وقدامه الأمراء ورعوس النوب وكان
له يوم مشهود . وقد قيل فى المعنى :

يا أيها الملك الهمسام ومن له
أسد الفلا تأتي اليه ملجئة
قد فاق قدرك فى الملوك تعاظما
مد صح بين يديك نطق الجمجمة

وأنزلوه بدار ابن جلود ، كاتب المساليك ، التى
بفهم الخور ، وقد حضر بصحبة الجمجمة والدته
وأولاده وعياله . وقد فر من أخيه أبى يزيد خوفا
على نفسه من القتل ، فالتجأ الى سلطان مصر .
وفيه قبض يشبك بن حيدر والى القاهرة ، على
امراة يقال لها خديجة الرحاية ، وكانت من أعيان
مغنيات مصر ، ولها انشاد لطيف ، وكان أصلها من
مغنيات العرب ، ثم عظم أمرها جدا وحظيت عند
أرباب الدولة ورؤساء مصر . وكانت جميلة حسنة
الغناء فافتتن بها الكثير من الناس ، وقد قال فيها
بعض الشعراء :

رحابية يخفى الشسوس جبالها
لها حسن انشاد يزين مقالها
وقد خايلت بالبسدر ليلة تمه
فما زال من عيني وقلبي خيالها

فلما قبض عليها يشبك ، كانت في بعض الأفراح
فسمس عليها من هناك ، فلما مثلت بين يديه قال
لها : « أنت التي أقصدت عقول الناس » . ثم أمر
بصربها بن يديه نحوا من خمسين عصا ، وقرر
تلبسها مبلغا له صورة ، وكتب عليها قسامة بأنها
لا تقضى ولا تحضر في مقام . فلما خلصت من ذلك
أدوات مريضة مدة من الرجفة التي وقعت لها ، ثم
ماتت غيب ذلك . وكان لها من العمر نحو
الثلاثين سنة ، فتأسف عليها الكثير من الناس .

وفيه كان ختان أولاد القاضي كاتب السر ابن
مزهر ببركة الرطلى . وكان له مهم حافل جدا .
وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدمين والعشراوات
وحضر عنده جمجمة بن عثمان ، وبات عنده ، وكان
النبلى في أواخره ، فأمر كاتب السر سكان بركة
الرطلى بأن يوقدوا في البيوت وقدة حافلة . وشرع
يرسل الى كل بيت في البركة عشرة أرطال زيت ،
وطبيلة فيها أكل فاخر من طعام ذلك المهم ، فاحتفلوا
في الوقدة ، وعلقوا في الطيقان الأحمال والتنانير ،
حتى كانت ليلة مشهودة ، يكاد الانسان أن يدخل
الخيط في خرم الأبرة من عظم ضوء النور . وأحرق
حراقة عظيمة لم يسمع بمثلها حتى جاءت اليها
الخلائق من كل مكان بسبب الفرجة . وبلغ كراء
كل مركب أربعة أشرفية . واستمرت هذه الوقدة
والحراقة ثلاثة أيام متوالية ، حتى عد ذلك من
النوادر التي لم يقع مثلها . واجتمع بالبركة نحو
من أربعمئة مركب موسوقة بالخلائق ، وصار ابن
رحاب عمالا ، ومغانى البلد من نساء ورجال في
كل ليلة . وأنفق في تلك الليلة من الأموال ما لا
يحصى ، حتى قبل ابتاع من عصفور الجبان على
المتفرجين بنحو من مائة وعشرين ديناراً جينا
مقلدا ، وكذلك ابن الزبيق الحلوانى ابتاع منه

حلوى يمثل ذلك . وقد خرجت الناس في القصف
والفرجة عن الحد . وقد رسم السلطان للقاضي
كاتب السر ألا يبقى ممكنا في هذا المهم لأجل
جمجمة بن عثمان لكونه كان حاضرا في هذا
المهم . وفي هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

طابت على بركة الرطلى ليلتنا
حتى تباغت على الخلجان والبرك
خفت بضوء مصابيح زهت وغدت
تضىء في حندس الديجور والحلك

فكان لما تناهى حسن وقدها
تخفى شمس الضحى في دارة الفلك
وقال شمس الدين القادري :

تاه الأنام بجنح الليل فاتخذوا
لهم دليلا لدى الظلما من اللهب
حتى كأن جلايب الدجى رغبت
عن لونها وكان الشمس لم تنب
وفيه عزم السلطان على الجمجمة بن عثمان ،
وأضافه بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية ، وحضر
ذلك الأمراء المقدمون . وكانت ضيافة حافلة جدا ،
وخلع السلطان على الجمجمة كاملية بسمور

وفيه قرر الجمالى يوسف بن جاهين الكركى
سبط ابن حجر في قراءة الحديث الشريف بالقلعة
عوضا عن برهان الدين بن الكركى الامام . وكان
السلطان تغير خاطره على ابن الكركى واختفى مدة
طويلة .

وفيه أحضر شخص من العرب بين يدي السلطان
سنا من نواجذ بنى آدم ، من نسل العمالقة ، فكان
وزنه ستة أرطال ونصفا ! فتعجب السلطان من
ذلك .

وفي رمضان ثارت رياح من جهة الغرب ، وكانت عاصفة جدا ، وأظلم بسببها الجو وأرعد وأبرق ، ثم أمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان المطر في غير أوانه في أواخر بابه . ثم جاءت الأخبار من دمياط بأن هذا الريح كانت قوته بدمياط ، وقد قلع عدة أشجار ، وهدم بعض أماكن ، وأغرق عدة مراكب من مراكب الفرنج . وكان ريحا مهولا جدا .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن في ليلة ثالث عشر الشهر المذكور ، سقطت صاعقة عظيمة في أواخر الليل على المسجد الشريف النبوي ، فاحترقت منها المنارة التي تجاه الحجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، واحترقت سقوف المسجد جميعها والمنبر والحيطان والأعمدة والأبواب ، وما سلم من ذلك سوى القبة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وبعض حيطان المقصورة . وقتل المؤذن الذي كان على المئذنة وقت نزول الصاعقة ، وقتل جماعة أيضا من كان بالحرم الشريف ، فكتب بذلك محضر ، ونبت على يد قضاة المدينة . وكان مما كتب في المحضر أن المؤذن لما طلع على المئذنة الشرقية ، لأجل التسييح ، رأى صاعقة عظيمة نزلت من السماء على المسجد الشريف النبوي ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فعملت فيه النار . فلما عاين المؤذن ذلك خرس ، ونزل من المئذنة ، فأقام ساعة ومات . وقد عاين الناس عدة أطياف بيض بأعناق طوال ، طائفة حول المسجد ، تمنع النار أن تحرق البيوت التي حول المسجد . وأن المسجد جميعه قد احترق حتى صار كالتنور . فلما سمع السلطان ذلك بكى وبكى من كان حوله . وتعجب الناس لهذه الواقعة كيف جرت في هذا

المكان الشريف ، فأخذ شيخنا شمس الدين القادري يعتذر عن ذلك :

بطيبة سيئات الركب بذلها
رب العلا حسنت عندما زاروا
وعندما قبلت ضاهت لدى حرم الـ
مختار من أكلت قربانه النار
واعتذر آخر :

لم يحترق حرم النبي لحادث
يخفى عليه ولا دهاه العار
لكنما أيدي الروافض لامست
ذاك الجنب فظهرته النار
واعتذر آخر :

قالوا لقد غاب الصواب لحادث
تبنى عليه رضاهم الكفار
بل ضم شمل السحت وهو محرم
عند الرسول فحرقته النار

ثم ان السلطان شرع في تجديد المسجد الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، فعين الخوaja شمس الدين محمد بن الزمن بأن يتوجه الى المدينة الشريفة ، وأرسل معه عدة من البنائين والتجارين والمرخين ، وغير ذلك . وأمر بهدم القبة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام واعادتها وتجديدها ، وتجديد غيرها من الحديد المخرم ، وكانت قبل ذلك من الخشب ، وتغيير المنبر والمواد التي كانت بالحرم . ثم توجه ابن الزمن الى هناك وشرع في البناء حتى انتهى منه العمل ، في أواخر سنة سبع وثمانين وثمانمائة . فجاء غاية في الحسن من أجل الأبنية ، وأعظمها ، حتى قيل ان السلطان صرف على بنائه نحو من مائة ألف دينار ، وجدد معاله ، وتناهى في زخرفته الى الغاية .

ورجع منى هذه العتادة في حرق المسجد الشريف على صاحبه افضل الصلاة والسلام سنة احدى وخسين وسنة في اواخر دولة ابيك اسركاني .

وفيه وصل فاسد من عند يعقوب بن حسن النويل ، وعلى يديه مكتوبة من عند يعقوب ، وهو بعد فيها ما وقع من باندري ، وأن ذلك لم يكن بعلمه . فكتب السلطان على القاصد بسبب ما وقع من باندري ، وسرعة قتله للأمير يشبك . ثم أضاف القاصد وخلع عليه وأذن له بالسفر .

وفيه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك الدوادار التي في رأس دور الحسينية ، فكشف عليها ورسم للأمير تغري بردي الاستادار بأن يكسل عسارنها : فان الأمير يشبك مات ولم يتم عمارتها . فلما رجع السلطان شق من القاهرة ، فقام اليه الناس فاطبة ، وضجوا له بسبب الفلوس الجدد وغلو البضائع . فلما طلع الى القلعة ، رسم بعقد مجلس بالمدرسة الصالحية . فاجتمع القضاة الأربعة وكاتب السر وناظر الخاص العلاءي ابن الصابوني والمحاسب ، ثم أخذوا يتكلمون في أمر الفلوس . وكان ناظر الخاص ضرب فلوسا جددا عليها اسم السلطان ، وقصد أن يخرجها بأعلى من الفلوس العتيق . فلما تكلموا في أمر الفلوس العتيق ، أخذ ناظر الخاص يعارض في ذلك لأجل غرضه . فلما سمع العوام بذلك ثاروا عليه في وسط المدرسة الصالحية ورجموه ، ولولا كاتب السر لقتلوه ... فلما طال المجلس في ذلك اتفق الحال على أن تكون الفلوس كلها — العتيق والجدد — بالميزان بستة وثلاثين الرطل . فنادوا في القاهرة بذلك ، فسكن الأمر قليلا .

وفي شوال كان موكب العيد حافلا ، ورسم

السلطان للجام بن عثمان بأن يلبس النقاش والنقاش ويطلع ويصلي مع السلطان صلاة العيد ، فطلع وصلى وحضر الموكب ، وخلع عليه السلطان مترا وفوقاني بطرز عريض ، ونزل مع الأمراء المقدمين وهو بالشاش والقماش .

وفيه خلع السلطان على بيبرس الرحبي قرييه ، وقرره في شادية الشراب خاناه ، عوضا عن ألماس ، بحكم اتفاله الى نيابة صفد .

وفيه خلع السلطان على قرييه تراز التمشي ، وقرره في امرية سلاح . وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين قتل الأمير يشبك الدوادار .

وفيه خرج الحاج من القاهرة في تجمل زائد ، وكان أمير المحمل يشبك بن حيدر والي القاهرة ، وأمير الركب الأول الشهابي أحمد بن الجمالي يوسف ناظر الخاص . وسافر صحبته الجام بن عثمان هو وأمه وعياله . وقد هيا له السلطان بركا عظيما صرف عليه جملة مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الأمير أزيك الى غزة ، وصحبته النواب والأمراء الذين كانوا أسروا عند باندري ، فأرسل السلطان هجانا للأتابكي أزيك بأن يقبض على قانصوه اليحياوي ، الذي كان نائب الشام وأسر عند باندري ، ويرسله الى القدس بطالا ، وأن بقية الأمراء والنواب يحضرون الى القاهرة . وكان قد بلغ السلطان بأن قانصوه اليحياوي كان سببا لكسرة العسكر وقتل يشبك . فعمل له ذنب كبير بسبب ذلك . فكان كما قيل :

له ألف ذنب لا تعد بواحد

ولى فرد ذنب لا يعادله ألف

وفيه كان وصول الأتابكي أزيك الى القاهرة ، فدخل في موكب حافل ، وصحبته أزدمر نائب حلب الذي كان أسرا عند باندري ، وكذلك يرسباي قرا

وفيه توفي طوخ الذى كان زردكاش ، ونفى الى دمياط ، ثم شفع فيه وعاد الى مصر بطلا ، فمات بها . وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ ، وكان لا بأس به .

وفيه توفي شيخ عربان الشرقية محمد بن عجلان ابن بفر ، وكان لا بأس به ، وجرت عليه شذائد كثيرة ومحن ، وكان قد شاخ وكبر سنه وتوفي أبرك الظاهري أحد العشراوات . وتوفي جاهين التاجى دودار جانم نائب الشام وكان لا بأس به . وتوفي فى أواخر السنة المذكورة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الإطالة .

سنة سبع وثمانين وثمانمائة (١٤٨٢ م) :

فيها ، فى المحرم ، جاءت الأخبار بموت حكم قرا العلائى الظاهري ، نائب نجر الاسكندرية ، وكان لا بأس به .

وفيه قدم الحاج الى القاهرة ، وحضر الجمجمة ابن عثمان صحبة الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ، ناظر الخاص أمير ركب الأول ، فأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة .

وفيه أفرج السلطان عن أمير ركب محمل العراق ، والقاضى الذى كان معه ، وكانا بالبرج الذى بالقلعة من أيام حسن الطويل ، وقد تقدم سبب ذلك .

وفيه قلق جمجمة من اقامته بمصر ، وطلب التوجه الى بلاده ليحارب أخاه ، فجمع السلطان الأمراء واستشارهم فى ذلك ، ثم أحضر الجمجمة وتكلم مع الأمراء بكلام كثير ، فأغلظ عليه الاتابكى أربك فى القول ، وهو لا ينتهى عن السفر الى بلاده . فطال الكلام بينه وبين الأمراء فى ذلك ثم انقض المجلس وقد أذن له السلطان بالسفر الى بلاده على كره منه . وكان ذلك عين الخطأ ،

حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا أحد المقدمين — وكانوا أسروا أيضا — فكان لدخولهم يوم مشهود وأحضر الاتابكى أربك مثقال البرهاني الذى كان مقدم المماليك ونفى الى القدس بطلا . فلما حضر من غير اذن السلطان شق عليه ذلك ، وأمر بنفيه الى مكة المشرفة ، فلحق بالحجاج .

ثم أن الاتابكى أربك شفع فيه ، وبأس رجل السلطان مرارا ، فرسم بعوده الى القاهرة بطلا ، فعاد من أثناء الطريق .

وفى ذى القعدة خلع السلطان على قريبه أزدمر الذى كان نائب حلب ، وفرره فى امرية مجلس ، وكانت شاغرة من حين عفى منها لاجين الظاهري ففرر بها أزدمر بغير اقطاع ، فكان له فى كل شهر ألف وخمسمائة دينار مرتبة على الذخيرة . ثم خلع على برسباى قرا ، وقرره فى الرأس نوبة الكبرى عوضا عن تراز التشى ، بحكم انتقاله الى امرية سلاح . وخلع على تغرى بردى ططر ، وقرره فى حجوية الحجاب ، عوضا عن برسباى قرا بحكم انتقاله الى الرأس نوبة الكبرى . وخلع على قانصوه العورى ، وقرره فى كشف الوجه القبلى .

وفى ذى الحجة قرر سيباى نائب غزة فى حجوية الحجاب بدمشق ، عوضا عن يشبك العلائى ، بحكم انتقاله الى نيابة حماه ، عوضا عن جانم الجداوى ، بحكم انتقاله الى آتابكية دمشق ، عوضا عن شادبك الجلبانى . وقرر سودون الطويل الاينالى فى مقدمة ألف بدمشق ، وقرر فى نيابة غزة دولات باى الأجرود الاينالى ، عوضا عن سيباى ، الذى قرر فى حجوية دمشق .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وكسب عن الجامع الذى أنشأه هناك .

وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها ، وسنذكر ذلك في موضعه .

وفي صفر خلع السلطان على شخص من الأراذل يقال له محمد بن العظمة ، وكان صنعته فراء ، ثم سعى له عند السلطان وسائط السوء بأن يفره في نظر الأوقاف ، فخلع عليه بذلك . فلما استقر في الوظيفة حصل على الناس منه غاية الضرر الشامل ، والتزم بمال يورده في كل شهر له صورة . فصار يرسل خلف الناس من رجال ونساء ويرسم عليهم بسبب الأوقاف ، ويحاسبهم على الماضي والمستقبل ، ويأخذ منهم جملة مان ، وصار بابه أنحس من باب الوالى ، والتف عليه جماعة من المناحيس ، وصاروا يفرعون له الأذى نفريعا وكان ذلك في صحيفة قايتباى ، رحمه الله ، الذى قرب مثل هذا وسلطه على الناس ، فكان كما قيل :

لبابك بواب عن الخير مانع

يضم لقبح الوجه سوء خطابه

فساويت فيه من غدا يمنع القرى

ومن يربط الكلب المغفور ببابه

وكان يورد هذه الأموال للسلطان ، لا يدرى أمن

حلال هى أم من حرام ، كما قيل في العنب :

قيل للصب فيه خمر حرام

فتمنى حرامه وحلاله

وفيه توفى جاني بك كوهية الاسماعيلى المؤيدى الذى تقدم ذكره ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على موفق الدين بن الحمصى الأسلمى ، وقرره في نظارة الدولة ، وكان في خدمة صاحب خشقدم ، وهى أول شهرته .

وفيه توفى أقبردى تمساح بن اسباى الأشرفى أحد العشراوات ورعوس النوب ، وكان من

مساليك الأشرف برسباى ، وسافر الحجاز أمير الركب الأول غير ما مرة ، وكان لا بأس به ، ومات فجأة ، وكان قد جاوز السبعين سنة من العمر .

وفي ربيع الأول غفد الأمير أقردى على خوند أحت زوجة السلطان ، وهى بنت العلاتى بن خاص بك ، التى كانت روجه الأمير جابم الجوالى قريب السلطان ، وكان يوم دخولها مهما حافلا .

وفيه ، في أول يوم من بشنس ، قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وقد خالف العادة في قلع الصوف بأيام ، ثم عمل المولد النبوى وصرب الكرة .

وفيه ضرب السلطان شخصا يقال له بلبان الكاشف ، فلما ضربه لم يعجبه ضرب رعوس النوب فنزل من فوق الدكة ، وتولى ضربه من عظم حننه عليه .

وفي ربيع الآخر وقع بين قاضى القضاة زين الدين زكريا ، وبين الأمير دولات باى الحسنى شاد الشون ، فكانت حادثة عظيمة قام فيها القاضى الشافعى ، فما حصل له من ذلك طائل . وهذه الواقعة مشهورة بسبب وقف .

وفيه خلع السلطان على الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين ، وقرره في امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر دولات باى الحسنى شاد الشون في امرية الركب الأول .

وفيه كان ختان أولاد الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال بشغر الاسكندرية ، وكان حافلا ، فأرسل يطلب على بن رحاب المغنى بسبب الزفة .

وفيه خلع السلطان على الشيخ صلاح الدين الحنفى الطرابلسى ، وقرره في مشيخة المدرسة

الاشرفية التي يجوار الوردافين ، عوضا عن البرهان
ابن الكركى بحكم اخنقائه لما نغبر خاطر السلطان
عليه .

وفيه خلع السلطان على واحد من مماليكه
يقال له « على باى » وقرره فى نيابة الاسكندرية
عوضا عن حكم قرا بحكم وفاته . وكان على باى
هذا كاشف السرقة يومئذ .

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار بقتل سيف
أمير آل فضل ، الذى خرج الأمير يشبك الدوادار
بسببه كما تقدم . فله ابن عه غسان فى بعض
بلاد العراق .

وفيه خرج السلطان وسافر على الهجن ، ولم
يعلم الى أين يتوجه ، وكثر الكلام فى حقه فى ذلك
بسبب سفره . ثم ظهر بعد ذلك أنه سافر نحو
جهات العباسية وغيرها ، ثم رجع بعد أيام .

وفيه جاءت الاخبار من مكة المشرفة بوفاة
الأمير خاير بك بن حديد ، الذى كان احد المتقدمين
بمصر ، ونغبر خاطر السلطان عليه ، كما تقدم ،
فنفاه الى الشام ، فأقام بها مدة ثم نقله الى مكة
المشرقة ، فمات بها . وكان أصله من ممالك
الأشرف برسباى ، وكان دينا خيرا عارفا بأنواع
الفروسية ، وله استغال بالعلم ، وحذق جيد ،
وفصاحة بالعربية . مات وله من العمر زيادة عن
الستين سنة ، وكان من جملة الأمراء المتقدمين
بمصر ، وهو صاحب المدرسة التى بزقاق حلب .
وفيه كانت وفاة شاعر العصر ورأس الأدباء
على الاطلاق الشيخ شهاب الدين أحمد المنصورى ،
وهو أحمد بن محمد بن خضر بن على السلمى
المنصورى ، المعروف بالهائم ، القاهرى ...
الحنبلى ، وكان له شعر جيد ، ونظم رقيق جدا ،
وفيه يقول الناصرى محمد بن شادى خجا العنبرى :

أخبرتنا ملوك علم القوافى
فى بديع المنظوم والمنشور
ما وجدنا خليفة فى المعانى
ملكا فى البيان كالمصورى
وكان الشهاب هذا جميل الهيئة ، نير الوجه ،
متعففا عن الناس . ولما بلغ خمسا وسبعين سنة من
العمر قال :

بلغت من دنياى سنا به
وقعت فى السبعين والخمس
فالحمد لله الكريم الذى
متعنى بالسمن والفرس
ولما بلغ الثمانين سنة من العمر قال :
نحو الثمانين من العمر قد
قطعتها مثل عقود الجمان
وما أحوجت يوما يمينى الى
عصا ولا سمعى الى ترجمان
ثم عرض له فى أواخر عمره فالج ، فلزم الفراش
مدة طويلة ، وانقطع فى داره عن الحركة ، فأشأ
يقول :

آه يا درهمى ويادينارى
ضعت بين الطيب والعطار
كنت أنسى فى وحدتى وشفائى
من سقامى وصحتى فى انكسار
كنت تقضى مما حلا من غداء
وعشاء ، منيتى أوطارى
قد حماني الطبيب عن شهواتى
فاحم يارب قلبه بالنار
طال شوقى الى الفواكه والبط
شيخ والجبن واللبن والخيار
ضاع لى على مقاساة لب الـ
مقرع والهندبا وبزر الشمار

وفد ذهب جميع ما كان معه من ما ن وفاس وغيره
وكان خروجه من مصر عين الغلط .

وفيه هلك بترك النصارى اليعاقبة ، وكان عند
أهل ملته مشكورا .

وفي شعبان صنع الأتابكى أزيك في الأزيكية
حرافة نط ووقدة عظيمة ، وكانت ليلة مشهودة .
وفيه رسم السلطان بعمارة سور البيرة ، فجاء
من أحسن البناء ، وأنفق عليه مالا له صورة .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، على
صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن السلطان
أنشأ هناك مدرسة ، وجعل لها شبايك مطلة على
الحرم الشريف النبوى ، فقامت على السلطان أسئلة
بسبب ذلك ، وأفتى بعض العلماء بأن ذلك لا يجوز
فان حرمة النبى صلى الله عليه وسلم وهو ميت ،
كحرمة وهو حى صلى الله عليه وسلم . وقد أجاز
ذلك بعض علماء الجاه .

وفيه توفى الناصرى محمد ابن الأتابكى جرياش
كرت ، وهو ابن خوند شقرا . فكان بينه وبين
وفاة أمه نحو من شهر ، وقد مات فجأة ، وقيل وفع
بينه وبين سرور مشد الحوش السلطاني ، وكان
طواسى والدته قديما ، فحق منه الناصرى محمد ،
فتناول فصا من اللباس وابتلعه فمات من ليلته .
وكان رئيسا حشما لطيف الذات لا بأس به .

وفي رمضان توجه صاحب خندق الى الوجه
القبلى ، بسبب ضم المغل .
وفيه كان ختم قراءة صحيح البخارى ، وفرقت
الصرر والخلع على القضاة والعلماء ، وكان ختما
حافلا .

وفيه خسف جرم القمر ودام في الخسوف نحو
من خمسين درجة .

كلما أجمع اختيارا عظاما
فرقته منى يد الاضطراب

ليت شعري وللزمان خطوب
وبلاء يختص بالأحرار

هل ليت قضى عليه طيب
من كليل أو آخذ باتار
واستمر بهذا الفالج الى أن مات ، وكان مولده
سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان بالقلعة ،
وقصدوا قتل مقدم الممالك ، حتى فر منهم واختفى
وأحرقوا باب الزردخانه . وكانت فتنة كبيرة ، ثم
سكن الحال قليلا .

وفيه جاءت الأخبار بأن الجاه لما خرج من مصر ،
وتوجه الى بلاد ابن قرمان ، بعث اليه أخوه جماعة
من عسكره فتحاربوا ، فانكسر وفر هاربا وندم
على خروجه من مصر ، ولم يعلم أين يتوجه .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى
أزيك وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه هجم اللصوص على قيسارية جركس
وقتلوا البواب ، وأخذوا من الدكاكين أشياء كثيرة
ولم ينتطح في ذلك شاتان .

وفيه أنعم السلطان على الناصرى محمد ابن
الأتابكى أزيك بامرية عشرة ، وأرسل اليه شاتان
فللف له تخفية .

وفيه توفيت خوند شقرا بنت الملك الناصر
فرج ابن الظاهر برقوق ، زوجة الأتابكى جرياش
كرت ، وكانت من مشاهير الخوندات ، فنزل
السلطان وصلى عليها .

وفيه جاءت الأخبار بأن الجمجمة بن عثمان لما
فر من عسكر أخيه ، نزل في مركب في البحر الملح
فخرج عليه بعض الفرنج ، في مراكب ، فأسروه ،

وفيه توفي فاضى المحلة أوجاد الدين بن العجمي
وكان رئيسا حشما لا بأس به .

ومنه رسم السلطان بنفى دولات باى بن
مصطفى ، نائب غره ، فنفى الى مكة المسرفة .

وفى نسوالم ظهر فاسم شعينة ، الذى كان وزيرا
وكان له مده وهو محتف . فلما ظهر خلع عليه
السلطان كامله حافله ، وقرره فى نظر الدولة ،
سوفنا عن موقف الدين بن الحمى الأسلمى .

وفى حصر الصاحب خستدم من السفر ، فلما
حضر رسم السلطان غلبه لعمل الحساب .

وفى به والد للسلطان ولد ذكر من سربه أصل
بائى الجركبة . سماد محمدا . وهو الذى تسلطن
بعده .

وفى به خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ،
وكان أمير ركب المحمل أربك البوسفى ، أحد
المقدمين . وبالركب الأول دلال بائى الحسنى
ساد السون

وفى ذى القعدة رسم السلطان للفصاف والشهود
ألا يعقدوا المملوك من ممالكه . حتى يأخذوا له
أدنا من أعانه . وفى هذه الأيام رايد شر جماعة
من المماليك الجلبان ، وماروا بأخدون أشياء الناس
نلاس ، من دكاكين التجار وغيرهم ، وحصل للناس
منهم غابة الضرر السامل .

وفى نوى محب الدين كلب العجم ، واسمه
عبد الرحمن بن حسن بن الهمين العلوى الحنفى ،
توفى بالبيمارستان . وكان فاضلا شاعرا ماهرا ، وله
خطف جيد . وكان غمير الناس ، ذكاه المحاضرة ،
وكان من أخصاء الأمير ينسبك بن مهدى الدوادار ،
لكنه كان مسرنا على نفسه ، بميل الى محبة
الأحداث ، وله فيهم أشعار كثيرة ، وكان جاهلا
محترفا .

وفى نوى الفتح محمد المنصورى ، أحد
المباشرين ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفى قدم الأمير تماراز التمشى من البحيرة ،
وكان مسافرا بها ، فخلع عليه السلطان ، ونزل الى
داره .

وفى ذى الحجة كانت الأضحى غالية ، ولا
توجد الا قليلا ، فحصل للناس غاية القلق بسبب
ذلك .

وفى قبض السلطان على شخص يقال له
السرف الأكفانى زعموا أنه قد قتل قتيلا وهو
زوجته ، فصر ب بين يدى السلطان ، فلم يقر بشيء
فرسم بسجنه فسجن مدة طويلة . ثم آل أمره الى
أن صالح الورثة بمال ، وأطلق بعد ما قاسى شدايد
ومحنا .

وفى كان عيد النحر يوم الجمعة ، وقد ثبت
النهر بالأرباء فى اليوم التاسع من ذى الحجة ،
فحق السلطان من القاضى زكريا ، وأشيع عزله .
وقد فأت الناس صوم يوم عرفة ، والتكبير فى
صبيحته ، وانطلقت السنة العامة على القاضى زكريا
وسبوه جهرا .

وفى وصل مبشر الحاج ، وأخبر أنه وقع بمكة
المسرفة سيل عظيم ، حتى دخل الحرم ، وعام منه
المبر ، ووصل الى قريب عتبة البيت الشريف ،
فمل بالغرق بسببه نحو من سبعين انسانا ، وهدم
عدة دور ، وكان أمرا مهولا . وأخبر المبشر بوفاة
بدر الدين الدميرى المعروف بكتكوت ، أحد نواب
الساقية ، مات بالأزلم من طريق الحجاز ، وهو
محمد بن يوسف بن على بن محمد بن أحمد بن
سلطان الدميرى الشافعى . وكان فاضلا عارفا
بصناعة التوقيع ، وكان موقع الدست ، وأحد نواب
الحكم ، وكان فكه المحاضرة ، كثير العشرة للناس ،

مطلق اللسان في حق الناس . وكانت الشعراء تهجوه كثيرا ، فمن ذلك قول بعضهم :

قد عيل صبرى من خطب ألم به
عقلى وطرفى مذهول ومبهوت
فان غدا الديك سلطانا فلا عجب
فقد غدا قاضيا في الناس كتكوت
وفيه يقول الأديب على بن برد بك :

ان الدميرى صديفى فلا
أسمع فيه قول واش ولاح
ولا أرى كالفسير نقييحه

بل هو عندى من ملاح الملاح
والنكتة هنا أن الكتاكيت ينادى عليها : ياملاح الملاح

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله بن حسن بن على بن أبى سعد بن الأحمر قد ثار على ابنه الغالب بالله ، صاحب غرناطة ، وملكها من ابنه ، وجرت بينهما أمور بطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك الى خروج الأندلس عن المسلمين ، وملكها الفرنج والأمر لله في ذلك .

وفيه توفى طرناى الممودى أحد الأمراء العشراوات ، وأصله من ممالك الأشرف برسباى ، وكان جلب هو والسلطان قابتبای في سنة واحدة . وتوفى يونس الكاتب المجيد ، وكان أكتع ، ويكتب بيده اليسرى خطا جيدا . وتوفى أواخر السنة المذكورة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الإطالة :

سنة ثمان وثمانين وثمانمائة (١٤٨٣ م) :

فيها ، في المحرم ، خلع السلطان على محمد بن عبد الرحمن ، وقرره في نيابة جدة ، عوضا عن أبى الفتح المنوفى بحكم صرفه عنها .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى سنيت ، بسبب الكشف على الجسور ، ثم زار سنيدي أحمد البدوى رحمة الله عليه ورضى عنه .

وفيه كان الغلاء ببصر قليلا والأسعار مرتفعة في سائر البضائع والغلال .

وفيه توفى الشيخ علاء الدين الحصنى الشافعى وكان عالما فاضلا رئيسا حشما متواضعا .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة ، وقاسى مشقة زائدة ، ولم تحمد سيرة أمير الركب بالمحمل أزبك اليوسفى .

وفى صفر وقع بين كرتباى بن مصطفى المعروف بالأحمر الذى توفى في انسابه فيما بعد - وكان يومئذ أحد الدوادارية - وبين ناظر الجيش كمال الدين بعض تشاجر ، فلکمه كرتباى الأحمر ، فأطاح عمامته عن رأسه بالحوش في وسط الناس ، وراحت في كبسه .

وفيه توفى الصارمى ابراهيم بن منجك ، وكانت وفاته بدمشق ، وكان رئيسا حشما من الأعيان .

وفيه توفى الشيخ أبو حامد المقدسى ، وهو محمد بن خليل المقدسى الشافعى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وله عدة مصنفات ، ومولده بعد العشرين والثمانمائة ، لكنه كان سهلا ، بليد الذهن قليل الفهم . ومما وقع له أن الزينى أبا الفتح ابن النحاس الشاعر ، دعبه بهذين البيتين ، وكتبهما اليه في ورقة ، ودفعهما له في مجلس القاضى كاتب السر ابن مزهر . فلما قرأهما استحسناهما ، ولم يفهم ما فيهما من الدسيسة عليه ، فكتبهما بخطه في بعض مصنفاته ، وأوردهما لابن النحاس وهما :

أبا حامد أنت الذى شاع ذكره

بكثرة تأليف وجمع به انفراد

فأنت الذى ما مثل حفظك فى الورى

وآنت الذى ما مثل ذهنك فى البلد

وفيه جاءت الأخبار ب وفاة جانم الجداوى ،
نائب حماء ، وآتابك دمشق ، وكان لا بأس به .

وفيه أشيع عن متقال الساقى الطواشى الظاهرى
رأس نوبة السفاة ، بأنه بضرب فى بينه الزغل ،
فأرسل السلطان من كبس داره وقبض عليه .

وفى ربيع الأول رسم السلطان بعمل حساب
قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الغزى ، بدار
الأمير برسباى قرا رأس نوبة ، وقاسى من البهدة
والأنكاد ما لا يعبر عنه .

وفيه تار بالناس فى فصل الربيع دموية وأمراض
حادة ، ومات بذلك جماعة كثيرة ، حتى أطلق عليه
الفصل الصغير . ومات به من أعيان الناس سيدى
فرج ابن تنم نائب الشام ، وكان شابا جميل الوجه
لم يفتح بعد فتأسف الناس عليه قاطبة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ،
واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة ، وكان السلطان
شرع فى عمل خيمة كبيرة مدورة برسم المولد
الشريف ، فنصبها فى ذلك اليوم بالحوش .

وفيه توفى القاضى نجم الدين يحيى بن حجي ،
وهو يحيى بن محمد بن أحمد بن حجي بن موسى
ابن أحمد الحسبانى الدمشقى ، ثم القاهرى
الشافعى . وكان عالما فاضلا رئيسا حثما ، وعد
من العلماء ، وكان كريما سخيا ، وولى نظارة
الجيش بمصر ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر
والشام ، فلما مات وجد عنده زيادة عن ثلاثة آلاف
مجلد من الكتب النفيسة .

وفيه ، فى آخر يوم من برمودة ، قلع السلطان

الصوف ، ولبس البياض ، وقد سجل بلبس البياض
قبل أوانه بعشرة أيام .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف ، بأن
قانسوه اليحياوى الذى كان نائب التمام ، ونفى
الى هناك بطلا ، قد أجرى عين ماء بالقدس ،
وكانت معطلة مدة طويلة ، فصرف عليها مالا له
صورة من ماله ، وحصل بها غاية النفع .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على أزدمر
تساح ، أحد الأمراء المقدمين ، وقرره فى امرية
الحاج فى ركب المحمل ، وقرر أزدمر الأشقر أحد
العشراوات فى امرية الركب الأول .

وفيه قرر شادبك المحمدي الظاهرى ، أحد
العشراوات ، فى نيابة دمياط

وفيه توفى أبو الفداء الواعظ النائر المادح ،
وكان من أعيان دواخل مصر فى حسن الصوت
وجودة الغناء ، وكان لا بأس به .

وفيه ثارت فتنة كبيرة بين مماليك أقبردى
الدوادار ، وبين مماليك أزدمر نائب حلب ، ووقع
بينهم فتنة بالرميلة ، حتى شهبوا السلاح على
بعضهم ، فثار جماعة من مماليك السلطان ، مع
مماليك أقبردى الدوادار ، فكادت أن تكون فتنة
عظيمة بين الأمراء . ثم سكن الأمر قليلا .

وفيه توفى الشيخ الصالح سيدى أبو الفضل ،
من أولاد سيدى على وفا . وكان حصل له انجذاب
واسلتمر به الى أن مات ، وكان من بيت كبير
الولاية .

وفيه زلزلت القاهرة بعد العشاء ، لكنها كانت
خفيفة ولم تدم ، ولو دامت قدر درجة لحصل
منها غاية الفساد .

وفيه أخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة ستة
أذرع وأربع أصابع .

وفيه سافر الأمير أقيردى الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب ضم المغل ، وكان صحبته أمير عربان هواره داود بن عمر . وكان قد أعاده السلطان الى امرئته بالوجه القبلى ، وصرف محمد ابن يونس ولد عمه .

ومن الحوادث أنه فى جمادى الأولى فى يوم الثلاثاء عاشره ، ثار جماعة من الممالك الجلبان ، وتوجهوا الى دار برسباى قرا ، ونهبوا كل ما فيها وأحرقوها عن آخرها ، ونهبوا الربوع التى بجوارها ، وأحرقوها حتى نهبوا بسط المدرسة الأيوبكية ، والفخريّة ، حتى أخذوا القناديل التى بها ، وكانت مصيبة شنيعة ، وهذا أول فتك الجلبان بالقاهرة ، واستخفاهم بالسلطان . واستمرت الفتن من يومئذ تتزايد ، حتى كان منهم ماسنذكره فى موضعه .

وكان سبب كائنة برسباى قرا أن شخصا من الممالك الجلبان دخل الى سوق الشرب ، ليشتري ثوبا بعلبكيا من بعض التجار ، فتعترس المملوك على التاجر ، وضربه ضربا مبرحا ، وأخذ منه الثوب البعلبكي غصبا ، فشكا التاجر من باب برسباى قرا ، وكان يومئذ رأس نوبة النوب ، فطلب ذلك المملوك . فلما حضر ، قامت عليه البينة بما فعله فى سوق الشرب ، فأدبه وضربه بين يديه ، فلما بلغ خشدأشيه ذلك ، ثاروا على برسباى قرا ، وفعلوا به ما فعلوا ، وراموا أن يحرقوا سوق الشرب ، حتى أخلوا منه التجار قاطبة ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة تعم البلد . ثم ان الأتابكى أزيلك جرى بين الممالك الجلبان وبين برسباى قرا بالصلح ، وسكن الحال قليلا .

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن على دولات بن دلغادر ، قد أتى الى ملطية فى جمع كثير من العساكر ، وقد حاصر البلد أشد المحاصرة ، فانزعج السلطان لهذا الخبر . وفيه توفى فانى باى الفلاح الأشرفي أحد العشراوات ، وأصله من ممالك الأشرف برسباى ، وكان بارعا فى فنون الرمح .

وتوفى مغلباى الفقيه أحد العشراوات ، وكان أصله من ممالك العزيز ، وكان له اشتغال بالعلم وفيه عرض السلطان الجند ، وعين تجريدة الى حلب بسبب على دولات بن دلغادر ، وعين بها من العلماء أزدمر أمير مجلس ، الذى كان نائب حلب ، والأمير تغرى بردى ططر حاجب الحجاب الثانى ، ومن الأمراء الطبلخانات قانى بك جتسحه رأس نوبة ثانى ، ومن الأمراء العشراوات ثانى بك الاينالى الحاجب الثانى ، وسودون الصغير العلائى ، وبرد بك المحمدى الخازندار الثانى ، ومن الجند نحو من خمسمائة مملوك ، وأنفق عليهم فبلغت النفقة على الأمراء والجند زيادة عن سبعين ألف دينار .

وفيه حصر شمس الدين الحلبي تركة يحيى بن حجي ، فرأى بين كتبه كتاب الفصوص لابن عربى ، فقال : « هذا الكتاب ينبغى أن يحرق ، وأن ابن عربى كان كافرا أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان » . فقال له بعض الحاضرين : « كيف تحرق كتاب الفصوص ، وفيه آيات من كتاب الله تعالى ؟ » . فقال : « ولو كان » . فمسكوا عليه ذلك ، وأرادوا تكفيره ، فبادر وتراعى على كاتب السر ابن مزهر ، فقام معه ، وآل أمره الى أن عزروه ، وكشفوا رأسه ، ثم حكم بإسلامه ، وحقق دمه ، وقد قامت عليه الدائرة بسبب ذلك وفيه يقول أبو النجا القمنى :

أقعدت يا حليبي بالصنع في قفاكا
لما ادعيت جهلا حرق الفصوص ياكاً
وما خلصت حتى أقمت شاهداكا

وفيه توفي قانصوه المداقف المحمدى ، أحد
الأمراء العشراوات ، وكان أصله من مماليك الظاهر
جقمق ، وكان علامة في الدقاف .

وفي رجب خرج الأمراء والعسكر الى التجريدة
التي عينت الى على دولات بن دلغادر ، وكان آخر
العهد بالأمير آزدر أمير مجلس ، الذي كان نائب
حلب ، فلم يدخل الى مصر بعد ذلك .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، أوفى ثاني عشر
مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكى أزبك وفتح
السد على العادة .

وفيه توفي برد بك الطويل المحمدى ، أحد
الأمراء العشراوات ، وكان شادا على أوفاف
الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة ، بوفاة
محمد بن عبد الرحمن ، ناظر جدة ، وكان رئيسا
حشما لطيف الذات عشيرا للناس . ولما مات دفن
بسكة المشرفة أعزها الله تعالى .

وفي شعبان عرض السلطان المقصورة الجديدة
التي صنعها للحجرة الشريفة النبوية على صاحبها
أفضل الصلاة والسلام ، فنصبها بالحوش في أول
الشهر المذكور ، وكان زتها أربعمئة قنطار من
الحديد ، فحملت الى المدينة الشريفة على صاحبها
أفضل الصلاة والسلام على سبعين جملا .

وفيه توفي جانم البهلوان أحد الأمراء
العشراوات ، وكان أصله من مماليك الظاهر

٥ (١) ياكاً . . . فر

جقمق ، وكان رأسا في الصراع ، توفي بحلب .
ومات أيضا بحلب صنطباى العلانى الظاهرى أحد
العشراوات ، وكان رأسا في الرمي بالنشاب ، وكان
من مماليك الظاهر جقمق .

وفي رمضان خسف جرم القمر خسوفا تاما ،
حتى أظلمت الدنيا ، ودام في الخسوف نحو من
خسعين درجة .

وفيه ، في يوم ختم البخارى ، وقع بين الشيخ
بدر الدين بن الغرس الحنفى ، وبين الشيخ صلاح
الدين الطرابلسى تنافس ، حتى خرجا عن الحد
بسبب الجلوس ، فيمن يرتفع عن صاحبه ، وكان
الصلاح الطرابلسى متعديا على ابن الغرس ، فما
شكر على ذلك ، وكان مجلسا فاحشا لا خير فيه .

وفي شوال خرج من القاهرة المحمل ، في تجمل
زائد ، وكان يوما مشهودا . وخرج معهم شاد بك
أحد الأميراخورية ، لكنه كان ضخما ، ويلبس
كما قصيرا ، وقد قرر على باشية الجند بمكة ومعه
خمسون مملوكا ، وأرسل معه السلطان المقصورة
الحديد التي صنعها للحجرة النبوية على صاحبها
أفضل الصلاة والسلام . ثم أرسل معه مصحفا
كبيرا حمل على جمل بمفرده ، كان من النوادر
كتبه شاهين النورى ، ومات ولم يكمله ، فأكملة
الشيخ خطاب بأمر السلطان ، وهو باق الى الان
في الحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة
والسلام .

وفيه كان عرس الركنى عمر بن أبى البقاء ابن
الجيغان ، وكان مهما حافلا .

وفي ذى القعدة خلع السلطان على أقبای كاشف
الشرقية ، وقرر في نيابة غزة ، عوضا عن دولات

بإى بن مصطفى ، الماضى خبره بما جرى عليه ،
الى أن نفى الى مكة المشرفة .

وفيه أنعم السلطان على ستة أنفار من الخاصكية
الظاهرية بأمرات عشرة . منهم يشبك دجاج ، وأبو
يزيد ، ويبرس اليوسفى ، وملاج الأشقر ، وجانى
بك البواب ، وقائم السواق ، وأنعم باقطاع جانم
البهلوان المسافر فى التجريدة ، على سودون
الصغير ، وقانصوه قرا ، وكسباى الشرفى ،
وآخرين من جلبانه . وكان هذا اقطاع امرية
عشرة ، وخرج بحكم وفاة جانم البهلوان .

وفى ذى الحجة قرر محمد بن السلاح فى التكلم
على جهة الجيزة ، عوضا عن ابن الصعدي .

وفيه كان عيد النحر يوم الجمعة ، وكانت
الأضحية مشحوة وغالية ، بسبب قلة الجالب ،
من أذى الممالك الجلبان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قاضى الجماعة
الغرناطى المالكى ، توفى بغرناطة ، وكان من أهل
العلم والفضل .

وفى أواخر السنة المذكورة كثر الأذى من
العبيد والزعر ، وكثر قتل القتلى حتى ان شخصا
من البيطرة قتل بالجزيرة الوسطى ، ولا يعلم من
قتله . ووجد شخص من الممالك الاينالية مقتولا
بمنزله ولا يعلم من قتله . وقتل غير ذلك جماعة
كثيرة .

سنة تسع وثمانين وثمانمائة (١٤٨٤ م) :

فيها ، فى المحرم ، توفى الجمالى يوسف الحنبلى
ابن الشهابى أحمد بن نصر الله بن أحمد البغدادى ،
قاضى قضاة الحنابلة ، وكان رئيسا حشما ، تولى
عدة مدارس الحنابلة ، منها المدرسة البرقوقية ،
وكان شاهد ديوان الأمير تمتاز التمشى أمير

سلاح ، وكان لطفه الذات ، عشير الناس ،
لا بأس به .

وفيه أعيد أبو الفتح المنوفى الى نياابة جادة ،
عوضا عن عبد الرحمن بحكم وفاته .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد المجذوب
سيدى على القليوبى رحمه الله ورضى عنه . وكان
له مكاشفات وكرامات خارقة .

وفيه قبض على شخص بالقرافة بتزيا بزي أهل
الصلاح ، وله شعر فى رأسه ، فدخل الى مزار
سيدى أبى العباس الحرا ، وسرق الستر من فوق
ضريحه ، وقد فعل ذلك فى عدة مزارات ، وكان فى
زى حسن لا يظن به سوء فلما اشتهر بذلك
ضرب وشهر بالقاهرة .

وفيه توفى الشيخ ولى الدين أحمد ، شيخ الآثار
النبوية وقاضى ثغر دمياط ، وكان ديننا خيرا حسن
السيرة لا بأس به .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد تأخر دخول
المحمل الى رابع عشره ، مما حصل لهم فى السنة
المذكورة من المشقة الزائدة ، من موت الجبال ،
والعطش .

وفيه عين السلطان تجريدة ثالثة تقوية لمن ندم
من العسكر ، فعين سراز التمشى أمير سلاح باش
العسكر ، ومن المتقدمين أزبك اليوسفى ، وعين من
الجنود نحو من أربعمئة مملوك من الممالكة
السلطانية . وكان سبب تعيين هذه التجريدة ، أن
السلطان قد بلغه أن ابن عثمان ملك الروم ، قد
أمد على دولات بعساكر كثيرة . وهذا أول تحول
ابن عثمان على بلاد السلطان . واستمرت الفتن
بعد ذلك تتزايد ، الى أن كان ما سنذكره فى
موضعه .

وفى صفر توفى الشيخ شهاب الدين الأبناسى ،

وهو احمد بن ابراهيم بن على بن احمد بن محمد الشافعى ، وكان عالما فاضلا دينيا خيرا منقطعا الى الله تعالى .

وفيه توفى يحيى بن شاد بك المعروف بتقاصد الحبشة ، أحد أجناد الحلقة ، وكان رئيسا حشما عارفا بلغة الحبشة ، فكه المحاضرة . ومولده بعد العشرة والثمانمائة .

وفيه توفى شيخ عربان جبل نابلس ، وهو حرب ابن أبى بكر بن محمد بن على بن عبد القادر ، مات وهو مسجون بالبرج فى القلعة ، وجرى عليه سداً ومحن ، وآل أمره الى أن مات مسجوناً .

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار بأن العسكر الذى خرج من القاهرة ، قد تقاتل مع على دولات أخى سوار ، وقد كسر العسكر ، وقتل منهم جماعة كثيرة من الأمراء والجند... فقتل الأمير قانى بك جشحة رأس نوبة ثانى ، أحد الأمراء الطبلخانات ، وقتل معه جماعة من أمراء حلب والشام . وكان قانى بك هذا أميراً انساناً حشماً حسناً شجاعاً بطلاً . تولى من الوظائف شادية الشنون ، ثم الحجوبية الثانية ، ثم رأس نوبة الثانية بقى أمير أربعين . وأصله من ممالك الظاهر جقمق ، وكان لا بأس به .

وفيه رسم السلطان بعمل مولد للسيدة نفيسة رضى الله عنها ورحمها ، ورسم للخليفة أن يحضر به والقضاة الأربعة وأعيان الناس . واجتمع هناك قراء البلد قاطبة ، ومد هناك أسمطة حافلة ، وهو أول من أحدث هذا المولد ، بالمشهد الشربى ، وصار يقال له مولد الخليفة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة على العادة ، وكان حافلاً .

وفيه توفى المسند رضى الدين الأوكالى ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن العز ، الشافعى القاهرى ، وكان عالماً فاضلاً محدثاً مسنداً القاهرة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ عباس الفاسى نزيل القاهرة وكان لا بأس به .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على الجمالى يوسف بن الزرازيرى كاشف البهمنسا ، وقرره فى الوزارة ، عوضاً عن خشقدم الطواشى ، بحكم صرفه عنها ، وقرر قاسم شغيته فى نظر الدولة .

وفيه كان تفرقة النفقة على الجند المعينين فى التجريدة بسبب على دولات ، ثم بعث النفقة الى الأمراء الذين تقدم ذكرهم . وكان تعين أقبردى الدوادار الى التجريدة . ثم بطل بعد ذلك فشقى على العسكر بطلانه ، وكثر القيل والقال بسبب ذلك .

وفيه توفى أقبردى اليوسفى أحد العشراوات ، وكان أصله من ممالك الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قانصوه الغورى بامرية عشرة ، وعينه الى التجريدة ... وقانصوه هذا هو قانصوه سلطان مصر الآن .

وفيه توفى تانى بردى الشرف الاينالى ، وكان لا بأس به ، تأمر بحلب امرية عشرة .

وفى جمادى الأولى توفى تاج الدين محمد بن الكردى الحنفى ، وكان عالماً فاضلاً لا بأس به . وفيه توفى الخواجا الكارمى بدر الدين حسن ابن ابراهيم بن عليبة السكندرى ، أخو الخواجا عبد القادر تاجر السلطان ، وكان لا بأس به .

السلطان ، وكان شابا صغير السن جليل الصورة
لا بأس به ، ذا عقل وحشمة .

وفيه توفي سيدي محمد السدار ، رحمه الله
ورضى عنه ، وكان له كرامات ومكاشفات خارقة .

وفي رجب توفي العلامة شمس الدين الجوهري
وهو محمد بن عبد المنعم بن اسماعيل القاهري
الشافعي ، وكان عالما فاضلا بارعا في العلوم ، عارفا
بمذهب الامام الشافعي رضى الله عنه ورحمه . وله
عدة مصنفات ، وتولى عدة تداريس ، وشهرته
نغنى عن مزيد التعريف به .

وفيه توفي نور الدين على السنهاورى المالكي ،
وهو الشيخ على بن عبد الله بن على الأزهرى ،
وكان اماما في مذهب المالكية ، وله شهرة طائلة ،
وكان بارعا في الفقه والعربية ، والقراءات السبع ،
وغير ذلك من العلوم ، وألف الكتب النفيسة في
العلوم الجليلة ، ومات وهو كيف . وكان ديننا
خيرا صالحا مباركا ، ومولده سنة خمس عشرة
وثمانمائة . وكان عنده اطراح نفس ، مع تواضع
ونقشف ، وقد كف في آخر عمره فكان كما قيل :

كيف بالافساده لى كليل

ضير ما له فينا ضرب

سليب الكبير ذو قلب سليم

قرين للتقى منا قريب

وفيه خلع السلطان على شمس الدين محمد بن
بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقي ، وقرر في
قضاء الشافعية بدمشق ، عوضا عن الشهابي أحمد
ابن فرفور بحكم صرفه عنها .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى في ثاني

وفيه كان خروج الأمير تراز التمشي ، أمير
سلاح ، وأزبك اليوسفي ، ومن عين معهما من
الأمراء العسراوات والجنسد ، فكان لهم يوم
منهود . وكان عدة الجنسد الذين خرجوا مع
الأمراء نحو ألف مملوك .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية ، حتى ابتيعت
البطة الدقيق بأربعة أنصاف ، وكل أردب قمح
بنصف دينار . وانحطت الأسعار في سائر البضائع
بعد تلك الغلوة التي تقدمت . وكان قد اشتد
الأمر جدا وانفجر عن قريب .

وفيه توفي التاجر نور الدين بن مقلاج المصري ،
وكان في سعة من المال . وتوفي السيد الشريف
شهاب الدين أحمد الأرسوني المالكي ، أحد نواب
الحكم ، وكان عالما فاضلا مفتيا متواضعا علامة في
مذهبه . ومولده سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

وفي جمادى الآخرة توقف النيل عن الزيادة ،
وقلق الناس ، ثم تزايد ، واستمرت الزيادة عمالة
حتى كان الوفاء .

وفيه عزل الجمالى يوسف بن الزرايرى عن
الوزارة ، وقرر بها قاسم شغيته على عادته .

وفيه خلع السلطان على القاضي شهاب الدين
أحمد الدرسمالى ، وقرره في قضاء الاسكندرية ،
عوضا عن عفيف الدين بحكم صرفه عنها .

وفيه كثرت المرافعات في قاضى القضاة الحنفى
شمس الدين الغزى ، بسبب أوقاف الحنفية ،
فرسم السلطان بأن يتوجه الى بيت برسباى قرا
رأس نوبة النوب ، وتحضر القضاة الثلاثة ، ويعقد
مجلس بسبب أوقاف الحنفية . فلما حضر الى
هناك حصل له غاية البهدة من الجباة وغيرهم .
وفيه توفي جاني بك بن تمر باى ، ابن أخت

عشرى مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكى أربك ،
وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .
وفيه قبض السلطان على محمد بن العظمة ناظر
الأوقاف ، وسلمه الى خشقدم الزمام ، وألزمه
بمحاسبته .

وفي شعبان خلع السلطان على شرف الدين عبد
الباسط بن البقرى ، وقرره في نظر الأوقاف ،
عوضا عن ابن العظمة ، بحكم صرفه عنها .
وفيه توفي جاني بك الشمسى ، نائب الكرك ،
وكان لا بأس به .

وفيه توفي القاضى ولى الدين بركات بن الجيعان ،
وهو أبو البركات أحمد بن يحيى بن شاعر القاهري
الشافعى . وكان لا بأس به ، رئيسا حشما عارفا
بأحوال المملكة . تولى نيابة كتابة السر ، وصار
من أخصاء السلطان ، وترشح أمره لكتابة السر ،
وهرعت الناس الى يابه ، ومات وهو شاب في عشر
الثلاثين . وكان جميل الهيئة حسن الوجه ، عاقلا
بشوشا ، وله بر ومعروف وصدقات كثيرة ، وفيه
يقول الشهاب المنصورى :

قال العواذل ما لمدحك قد غدا

يزداد في الحركات والسكنات

فأجبتهم : لا تعجلوا وتأملوا

ما زاد الا وهو في بركات

فلما مات تأسف عليه السلطان ، وقال : « لو
كان يفدى بمال لفديته » . وكان يتصرف في أشغال
السلطان كما ينبغي . ولما توفي القاضى بركات قرر
أخاه صلاح الدين في نيابة كتابة السر ، عوضا عن
أخيه بحكم وفاته .

وفيه هبط النيل سريعا ، وقد ثبت على اثنتين
وعشرين أصبعا من الذراع الثامن عشر ، فشرق
أكثر البلاد ، وزاد سعر الغلال ، ولا سيما القمح ،

وكان هذا سببا للغلوة التى وقعت في السنة الآتية .

وفي رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن ورد بشر
نائب حلب ، خرج في جمع من العساكر ، وتقاتل
مع على دولات أخى سوار ، وقد أمدته ابن عثمان
بجمع كثير من عساكره . فلما التقى العسكران ،
وقع بينهما واقعة مهولة ، فانكسر العسكر الحلبى ،
وقتل وردبش نائب حلب ، وجساعة كثيرة من
العسكر الحلبى والمصرى . وكان وردبش شجاعا
بطالا ، وأصله من ممالك الظاهر جقمق ، يعرف
بوردبش بن محمود شماه . وتولى عدة وظائف
سنية ، منها نيابة سيسى ، ثم نيابة قلعة الروم ، ولم
يباشرها . ثم تولى نيابة البيرة ، ثم بقى أتابك
العساكر بحلب ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، ثم
بقى نائب حلب ، واستمر بها الى أن قتل على يد
على دولات باى . قيل انه ضرب عنقه بين يديه .
وقتل في هذه المعركة جماعة كثيرة ، منهم الماس
نائب صفد ، وكان دينا خيرا ، عارفا بأنواع
الفروسية ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها
استدارية الصحة ، وشادية الشرابخانة ، ثم بقى
نائب صفد ، واستمر بها حتى قتل . وكان شابا
عاقلا حشما لا بأس به .

وقتل أيضا أزبردى الأشرفى ، أحد الأمراء
العشراوات بحلب . وقتل تراز حشيش بن
حشاش الاينالى ، أحد الخاصكية . وقتل أيضا
طرباى الأشقر الابراهيمى الاينالى أحد الأمراء
بحلب . وتغرى بردى بن محمد بن قاسم أحد
الأمراء العشراوات بحلب . وغير ذلك جماعة كثيرة
من العسكر .

وتوفى طقطباى المحمدى الأشرفى نائب قلعة
حلب ، وكان لا بأس به .

تفرقة الدشيثة التي رتبها هناك . وحج في هذه السنة المذكورة عالم سمرقند الشيخ أبو بكر الليثي ، وولده العلامة ، وكانا قدما من سمرقند لأجل الحج . وحج في السنة المذكورة الشيخ عبد اللطيف شيخ ركب المغاربة ، وكان قدم صحبة الركب من تونس يروم الحج ، وكان بالركب نحو من ألف وخمسمائة انسان من المغاربة يقصدون الحج .

وفيه رسم السلطان بنفى مثقال الطواشي ، رأس نوبة السقا ، فخرج صحبة الحاج منفيا الى مكة المشرفة ، وقد بلغ السلطان عنه أنه يضرب دراهم مغشوشة ، فقبض عليه ، وعلى شخص من ممالك الأتابكي أزبك ، يقال له ترمبغا . فوجدوا في بيتا مثقال آلة الضرب التي يصنعون بها الدراهم الزغل ، فرام السلطان قطع أيديهما ، فشفع فيهما من القطع ، فنفى مثقال الساقى ، وسجن ترمبغا على مال ، حتى مات في السجن .

وفيه مات على بن قمتى رأس نوبة النقباء ، وكان من كبار الظلمة ، مات تحت العقوبة . وكان من أعيان الناس ، خدم جان بك نائب جدة لما كان دوادرا كبيرا ، وخدم السلطان قايتباي لما كان رأس نوبة النوب ، وخدم يشبك الدوادار ، ثم تكلم في بعض جهات السلطان ، فوقف عليه مال ، واستمر تحت العقوبة حتى مات ، وكان من الأشرار .

وفيه توفى سودون الصغير العلاني الظاهري ، أحد الأمراء الطيلخانات توفى بحلب . وكان يعرف بسودون الخازندار ، وكان لا بأس به .

وفيه ضرب السلطان محمد بن العظمة ، ناظر الأوقاف ، بالمقارع في وسط الحوش ، وكتب عليه قسامة ألا يعود قط يسعى في نظر الأوقاف ،

ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن الأمير تراز ، لما حصلت هذه الكسرة لعسكر حلب ، ركب هو والأمير أزدمر أمير مجلس ، والعسكر المصري ، وتوجهوا الى على دولات فتقاتلوا معه ، فانكسر على دولات وعسكره وعسكر ابن عثمان ، ونهبوا جميع بركهم ، وأخذوا صناعق ابن عثمان ، ودخلوا بها الى حلب ، وهي منكسة . وكانت هذه الحركة أول الفتن مع ابن عثمان ، واستمرت من يومئذ عمالة مع سلطان مصر ومعه ، حتى كان من أمرها ما سنذكره . وكان أصل هذه الفتنة تعصب ابن عثمان لعلى دولات ، وكان ابن عثمان متحلا على سلطان مصر في الباطن ، بسبب أشياء لم تظهر للناس .

وفيه رسم السلطان بنقل قانصوه الخفيف الاينالى ، من دمياط ، الى مكة المشرفة ، وقد بلغه عنه ما يوجب تغير خاطره عليه .

وفيه زاد النيل زيادة مفرطة في غير أوانها ، بعد انهباطه ، وقد شرق غالب البلاد فدخل الماء الى الخليج ، بعد ما كان قد تشف ، فتعجب الناس من ذلك ، ولكن لم تفد هذه الزيادة شيئا في رى البلاد التي شرقت قبل ذلك .

وفي سؤال خرج الحاج من القاهرة ، وأمير المحمل كان الأمير أزدمر تمساح أحد المقدمين . وبالركب الأول برسباى العلاني أحد العشراوات ، وحج صحبته سيدى منصور ابن الظاهر خشقدم . وكان برسباى العلاني زوج أم سيدى منصور . وحج في السنة المذكورة أبو البقاء بن الجيعان ، وصحبته جان بلاط ، وماماي الخاصكيان . وقد توجه بسبب ما رتبه السلطان في المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، من أمر

ومتى سعى فيه بكون دمه هدرًا ، ثم سجن بالمفطرة وكتب من هذه القسامة أربع نسخ ، وبعث الى كل قاص سحة منها .

وفيه توفى فرقماس بن بحشباى البواب ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان موته فجأة . وكان من خواص السلطان .

وفيه توفى أربك أبو زيد الانالى أحد أمراء حماه ، وكان لا بأس به

وفيه توفى المسند الشريف أبو السعود محمد العلوى الهاشمى الشافعى وكان من الفضلاء بارعا فى الحديث .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بأن على دولات ، فد أطلق ابنال السلحدار نائب طرابلس ، وكان عنده مأسورا .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى أزدمر أمير مجلس ، ورسم له بعمده الى بابه حلب ، كما كان أولا ، عوضا عن وردبش بحكم قتله عند على دولات .

وفيه خلع السلطان على مملوكه ابنال الخفيف ، الذى كان آتاك العساكر بحلب ، ورسم له بأن يكون نائب صفد . وكان من أخصاء السلطان ، ثم تغير خاطره عليه ، فنفاه الى البلاد الشامية ، فأقام بها مدة ثم رضى عليه وولاه نيابة صفد بعد نيابة سيس ، وآتابكية حلب ، ثم ولاه فيما بعد نيابة حماه .

وفيه اقترن المشتري وزحل ببرج العقرب ، وذكر أرباب علم الفلك أن هذا القران لم يقع من منذ مائتين وستين سنة ، وأن ذلك يدل على وقوع فتن عظيمة ، وكان الأمر كذلك كما سيأتى الكلام عليه فى محله .

وفيه حضر قاصد من عند ملك الهند ، فأكرمه السلطان ، وخلع عليه .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا من الجند يقال له جرباش المجنون ، وكان غاية فى الرمى بالنشاب ، وقف للسلطان فى طلب اقطاع عن شخص توفى ، فلم يجبه السلطان الى ذلك ، فلما نزل الى داره ذبح نفسه بيده من حنقه من السلطان ، فراحت روحه ولم يرث له أحد .

وفيه توفى الزينى عبد الباسط ابن علم الدين شاكر بن الجيعان . وكان رئيسا حشما متحدا على مباشرات عديدة من مدارس وجوامع وأوقاف ، وكان دينا خيرا عفيفا عن الرشوة صلبا فى أموره ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه عز وجود القطن جدا حتى بلغ سعر كل قنطار ألفين وأربعمائة درهم ، ولا يوجد .

وفيه خلع السلطان على قرييه يبيرس الرحبي ، وقرره فى نيابة طرابلس ، عوضا عن اينال السلحدار ، بحكم أسره عند على دولات .

وفى ذى الحجة ارتفع سعر البرسيم حتى بلغ سعر كل فدان عشرة أشرفية .

وفيه عز وجود الضحايا من الغنم والبقر بواسطة أذى المالبك الجلبان .

وفى يوم عبد النحر أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت الأرض ، وحصل للناس مشقة فى مرورهم فى الشوارع الى صلاة العيد .

وفيه حضر جماعة من الجند ممن كان أسر عند على دولات ، وقد قطع أصابع جماعة منهم من عند الابهام وأطلقهم .

وفيه جمع السلطان الأمراء وضربوا مشورة فى أمر ابن عثمان بسبب ما وقع منه فى تعصبه لعلى

دولت ، فأشار السلطان هو والأتابكى أزبك وغيره من الأمراء ، بأن السلطان يرسل هدية على يد قاصده ، وتزول هذه الوحشة من بينهما . فانصاع السلطان لهذا الكلام ، وعين في ذلك المجلس الأمير جاني بك حبيب ، أمير آخور ثاني ، وكان حلو اللسان سيوسا دريا وقد تقدم أنه توجه الى يعقوب بن حسن الطويل ، وتلطف به في الكلام ، حتى أطلق من كان عنده من الأمراء والنواب والجند ، كما تقدم .

وفيه خرج بيبرس الرحبي ، الذي قرر في نيابة طرابلس ، وكان له يوم مشهود .

وفيه توفي ناظر جيش غزة ابراهيم بن عبد الرحمن ، وكان رئيسا حشما لا بأس به . وتوفي الشيخ المعتقد أحمد السبوعي ، وكان من أعيان الصوفية ، وله اختصاص بالأتابكى أزبك .

وفيه وصل مبشر الحاج ، وهو شخص من الخاصكية يقال له قايتباي ، من ممالك السلطان ، وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن القاضي كمال الدين ناظر الجيش اختار المجاورة بمكة المشرفة ، وكان حج في السنة المذكورة . وحضر صحبة المبشر دولت باي بن مصطفى ، الذي كان نائب غزة ونفاه السلطان الى مكة المشرفة ، فبعث بحضوره ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف بدمشق ، فتوجه اليها .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب قونية من بلاد ابن قرمان ، وهو عبد الله أخو الجمجمة بن عثمان ، تولى على قونية بعد أخيه جمجمة ، وكان حسن السيرة لا بأس به .

سنة تسعين وثمانمائة (١٤٨٥ م) :

فيها ، في المحرم ، كانت وفاة قاضي القضاة محب

الدين ابن الشحنة الحنفي ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازي الثقفي ثم الحلبي . كان عالما فاضلا بارعا في مذهب أبي حنيفة . وكان ناظما ناثرا رئيسا حشما ، جميل الهيئة حسن الشكل . تولى عدة وظائف سنية منها كتابة سر مصر ، ونظر جيشها ، وتولى قضاء قضاء الحنفية عدة مرار ، ثم ولى مشيخة الخانقاه الشيعوية ، ومات وهو شيخ بها ، وجرى عليه شذائد ومحن شتى ، واعتراه في آخر عمره مرض الفالج ، واستمر به الى أن مات وقد ذهل في عقله . وكان مولده سنة أربع وثمانمائة ، ومات وقد قارب التسعين سنة من العمر ، وكان من أعيان الناس ، ورؤساء مصر ، وله عدة تأليف جليلة . ومن شعره قوله :

قلت له لما وفي موعدي

ان سلوى عن هواكم تفارق

وجاد بالوصل على وجهه

حتى سما كل حبيب وفاق

فلما مات تولى ابنه الشيخ سري الدين عبد البر مشيخة الخانقاه الشيعونية ، عوضا عن أبيه وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وحضر أبو البقاء ابن الجيعان وجانبلاط وماماي ، وجماعة من أقارب السلطان كانوا في الحجاز في تلك السنة .

وفيه وصل قرقماس التتني نائب طرسوس ، وكان ممن أسر عند على دولت .

وفيه توفي يشبك العلائي نائب حماه ، وكان لا بأس به ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها امرية عشرة بمصر ، وبقي من جملة رءوس النوب . ثم تولى نيابة الكرك ، ثم نيابة غزة ، ثم حجوية الحجاب بدمشق ، ثم نيابة حماه ومات بها .

وفي صفر أرسل السلطان الى سيباى الطيورى
صاحب دمشق ، وقرره فى نيابة حماه ، عوضا عن
سبك العلائى بحكم وفاته ، وقررا فى حجوية
دمشق بلباى ، أحد الدوادارية بدمشق ، وقرر فى
الدوادارية جاني بك الطويل أحد مماليك
السلطان .

وفيه كان توجه جاني بك حبيب ، أمير آخور
ثانى ، الى ابن عثمان وقد تقدم القول فى ذلك ...
فتوجه اليه من البحر المالح من الاسكندرية .
وأرسل السلطان صحبته تقليدا من الخليفة الى
ابن عثمان ، بأن يكون مقام السلطان على بلاد
الروم وما سيفتحه الله تعالى على يديه من البلاد
الكفرية . وأرسل اليه أيضا الخليفة مطالعة تتضمن
تخميد هذه الفتنة التى قد انتشت بينه وبين
السلطان ، وفى المطالعة بعض ترفق له .

والذى استفاض بين الناس أن سبب هذه الفتنة
الواقعة بينه وبين السلطان أن بعض ملوك الهند
أرسل الى ابن عثمان هدية حافلة على يد بعض تجار
الهند . فلما وصل الى جدة احتاط عليها نائب
جدة ، وأحضرها صحبته الى السلطان ، وكان من
جملة تلك الهدية خنجر قبضته مرصعة بفصوص
مثمثة . فطمع السلطان فى تلك الهدية ، وأخذ
الخنجر . فلما بلغ ابن عثمان ذلك حنق . وجاء فى
عقب ذلك أن على دولات ترمى على ابن عثمان ،
وشكا له من أفعال السلطان وما يصدر منه ...
فتعصب لعل دولات وأمدته بالعساكر ، واستمرت
الفتنة تتسع حتى كان منها ما سنذكره فى موضعه .
وقد طمع غالب ملوك الشرق فى عسكر مصر ،
بموجب ما وقع لهم مع سوار وبابندر ، وغير ذلك من
ملوك الشرق . ثم ان السلطان أرسل الخنجر
المذكور والهدية التى بعث بها ملك الهند ، وأرسل

يعتذر الى ابن عثمان عن ذلك بعد أن صار
ما صار ، فكان كما قيل :

جرى ما جرى جهرا لدى الناس وانسبط
وعذر أتى سرا يؤكد ما قسرت
ومن ظن أن يمحو جلى جفائه
خفى اعتذار فهو فى غاية الغلط

ثم ان جاني بك لبس خلعة السفر ونزل فى
موكب حافل ، وتوجه الى ثغر الاسكندرية ،
ونزل من هناك فى مراكب ، وتوجه الى بلاد ابن
عثمان من البحر الملح .

وفيه قرر فى الأتابكية بحلب قرقماس التتى ،
عوضا عن اينال الخفيف ، بحكم انتقاله الى نيابة
صفد . وقرر فى نيابة الكرك أمير زاده بن حسن
الدوكارى ، عوضا عن جاني بك الطويل .

وفيه توفى خليفة سيدى ابراهيم الدسوقي ،
رحمه الله ورضى عنه ، وهو خير الدين أبو الكرم
الشافعى وكان لا بأس به .

وفى ربيع الأول عرض السلطان العسكر وعين
تجريدة الى على دولات ، وعين بها من الأمراء
برسباى قرا رأس نوبة النوب ، وثانى بك الجمالى
أحد المقدمين ، ورسم لهم بأن يتقدموا جاليش
العسكر الى أن يخرج الأتابكى أربك . ثم أنفق
على العسكر الذى تعين للتجريدة فبلغت النفقة
زيادة عن مائة ألف دينار .

وفيه توفى قاضى قضاة الشافعية كان ، وهو بدر
الدين محمد أبو السعادات ابن محمد بن عبد
الرحمن بن عمر الكنائى الشافعى ، وكان عالما
فاضلا بارعا . تولى قضاء الشافعية بمصر فى دولة
الظاهر خشقدم ، ولم تطل مدته بها ، وكان عنده
خفة روح زائدة ، ورهيج فى الأمور .

وفيه توفى عبد القادر الحماوى الجابى ، وكان رئيسا حشما سيوسا ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل السلطان المولد ، وكان حافلا ، ونصب فى ذلك اليوم الخيمة العظيمة التى أقامها على يديه ، وجاءت فى غاية الحسن والتزخرف . وحضر فى هذا المولد ملك التجار أحمد بن محمود ابن كاوان ، وكان جاء صحبة الحجاج من مكة المشرفة ، فعظم أمره بمصر جدا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف ب وفاة الواعظ المحدث شهاب الدين أحمد العميرى المقدسى ، وكان عالما فاضلا علامة فى فن الوعظ ، دينا خيرا ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه توفى برسباى بن تمرىفا الظاهرى المعروف بحشيش ، وكان من الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل مولد السيدة نفيسة رحمها الله ورضى عنها ، وحضره الخليفة والقضاة الأربعة ، وكان حافلا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف ب وفاة الشيخ سعد الله الهندى الحنفى امام المسجد الأقصى . وكان من أهل العلم والفضل ، عارفا بالقراءات السبع ، وكان أحد نوب النوب بدمشق .

وفيه جاءت الأخبار ب وفاة يشبك البجاسى ، الذى كان نائب حلب ، وعزل عنها ، مات بصفد ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، ولا سيما ما وقع مع النابلسى وكيل بيت المال . وكان رئيسا حشما تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة ملطية ، ونيابة حماه ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حلب ، وصور وسجن بدمشق ، ثم نقل الى صفد فمات بها .

وفيه رسم السلطان للقضاة والشهود « ألا

يعقد أحد منهم نكاحا على جلب من ممالبكه » ، فقلق الممالك من ذلك ، ثم توجهوا فيما بعد للزواج ، ولم يلتفتوا الى قول السلطان .

وفى ربيع الآخر وجد شخص من الممالك السلطانية ، يقال له فارس الزردكاش ، مقتولا بالصوة ، ولا يعلم من قتله ، وجد بعد صلاة الصبح .

وفيه خرج العسكر المعين الى على دولات ، وكان باش العسكر برسباى قرا رأس نوبة النوب ، وصحبته تانى بك الجمالى أحد المقدمين ، وعدة من الأمراء العشراوات . وقد خرج المقدمون من غير طلب .

وفيه قبض آقبردى الدوادار على جماعة من أولاد ابن عمر وسجنهم فى البرج الذى بالقلعة ، وقد أحضرهم صحبته لما توجه الى الوجه القبلى ، وقد تغير خاطر السلطان على بنى عمر .

وفى جمادى الأولى قرر فى امرية الحاج بالمحمل أزدمر المسرطن أحد المقدمين ، وبالأول برسباى اليوسفى أحد الأمراء الطبلخانات

وفيه قرر دولات باى الحسنى الظاهرى ، شاد الشون ، فى رأس النوبة الثانية عوضا عن قانى بك جشحة ، وكانت هذه الوظيفة شاعرة مدة طويلة . وفيه توفى قراجا نائب جدة ، وكان أصله من ممالك جانى بك نائب جدة ، وكان لا بأس به .

وفيه وصل الى القاهرة اينال السلحدار الأشرفى الذى كان نائب طرابلس ، فأكرمه السلطان ، وخلع عليه ، وأقره فى شادية الشراب خاناه .

وفيه توفى الشيخ المعتقد نور الدين على من

أولاد سيدى يوسف العجمى ، رحمة الله عليه ،
وكان لا بأس به

وفيه أخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة فى العام
المذكور ثمانية أذرع وعشرين أصبعا ، فعد ذلك
من النوادر .

وفيه أعيد القاضى شهاب الدين بن فرفور
الدمشقى ، الى قضاء الشافعية بدمشق ، مضافا
الى نظر الجيش ، وصرف عنها ابن المزلق .

وفيه هجم المنسر على الناس ، وهم فى زيارة
الامام الليث بن سعد رحمه الله ورضى عنه ، فأخذوا
عمائم الزوار حتى أزر النساء ، وعروا النساء فى
الطريق بطولها ، حتى وصلوا الى باب القرافة ،
وكانت كائنة عظيمة .

وفى جسادى الآخرة ، ضرب السلطان السيد
الشريف الذى كان كاتب سر دمشق ، وأودعه
بالمقشرة ، ولم يرث الى شرفه .

وفيه قرر الشيخ كمال الدين ابن أبى شريف
المقدسى ، فى مشيخة مدرسة السلطان التى أنشأها
بالقدس الشريف ، وجاءت غاية فى الحسن .

وفيه خلع السلطان على السيد الشريف ، موفق
الدين الحموى ، وقرره فى كتابة السر بدمشق .

وفيه رسم السلطان بقطع يد مملوك من
جلبانه ، قد سرق غير مأمرة ، فلما أراد قطع يده
شفع فيه بعض الأمراء ، فحنق منه السلطان ، ورسم
بقطع رجله أيضا .

وفيه رسم السلطان للأمير أفبرى الدوادر ،
وأبى البقاء بن الجيعان ، وجانبلاط ، ومامى ،
ورمضان ، بأن يتوجهوا الى القدس وصحبهم من
القراء والوعاظ جماعة ، وأن يعمل وليمة لمدرسة
السلطان التى أنشأها بالقدس ، وقد انتهى منها

العمل . وخرج ابن أبى شريف صحبتهم ، وقد تقدم
تقريره بالمدرسة .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر ابن
عثمان قد استولى على قلعة كوك ، وكان بها
شخص من المماليك السلطانية يقال له طوغان
الساعى . فلما حاصروه أسلمها اليهم بالأمان .
وكانت هذه أول وقائع ابن عثمان ، ثم اتسع الأمر
بعد ذلك ، وكان ما سنذكره فى موضعه .

وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس ،
صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن على
ابن سعد بن محمد بن الأحمر . وكان من خيار
ملوك العرب ، مشتهرا بالعدل ، عارفا بتدبير
المملكة ، حسن السيرة لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن
الأمطار كانت قليلة بها جدا ، وأن الآبار قد
نشت ، وأن العين التى أجراها السلطان قد
وقفت ، وحصل لأهل مكة الضرر الشامل بسبب
ذلك .

وفيه تزايد شر المماليك الجلبان ، والزعر
والعييد ، حتى أعيأ أمرهم الوالى وحاجب
الحجاب ، وصارت الأحوال فى اضطراب .

وفى ثانى شعبان كان وفاء النيل المبارك وقد
أوفى فى العشرين من مسرى ، فلما أوفى توجه
الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما
مشهودا .

وفيه قرر البدرى محمود بن أجا ، فى قضاء
الحنفية بحلب ، عوضا عن ابن الحلاوى وكان
هذا أول شهرة البدرى محمود بن أجا .

وفيه كان أول فتح خليج الأزبكية وكان يوما
مشهودا . وعزم الأمير أزبك على الأمراء المقدمين ،

بالقصر المطل على البركة ، و مدت لهم الأسسطة الحافلة .

وفيه جاءت الأخبار بأن الفتن قائمة ببلاد المغرب ، بتونس وفاس وغير ذلك من البلاد ، وأن الفرنج قد استولت على مدينة مالقة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بيبرس الرجبى قريب السلطان ، الذى كان نائب طرابلس ، وكان قد أشبع ذلك وقد صح .

وفيه جاءت الأخبار بأن عساكر ابن عثمان ، قد استولوا على أطراف بلاد السلطان . وأرسل أزدمر ، نائب حلب ، يستحث السلطان بخروج تجريدة ثقيلة ، أو يخرج السلطان بنفسه . فتكدر السلطان لهذا الخبر ، ونادى للعسكر بالعرض ، ثم عرض الجند بحضرة الأتابكى أربك ، وكان هو المشار اليه في تعيين الجند ، مما يختاره منهم . ثم عرض القرائصة وأولاد الناس ، وصار الذى لا يطيق السفر منهم يقيم له بديلا كاملا بخيوله ولبسه ، وغير ذلك ، ويورد مائة دينار من له افطاع وجامكية . ثم ان المماليك المعينة للسفر ، أطلقوا فى الناس النار ، وصاروا يأخذون بغال الناس وخيولهم غصبا ، حتى أخذوا بغال الطواحين والأكاديش التى بها ، ونعطلت الطواحين بسبب ذلك ، وتشحط الخبز من الدكاكين ، وكادت أن تكون غلوة كبيرة ، حتى وبخ السلطان المماليك بالكلام ، ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان ، وأن كل من أخذ له بغل أو فرس يطلع الى أمير أخور كبير يخلصه ، فتسكن الحال قليلا .

وفى رمضان توفى برسباى الخازندار المحمودى ، وكان من أخصاء السلطان ، وهو من الأمراء العشراوات ، وكان لا يأس به .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة

الغاضى كمال الدين ناظر الجيش ، وكان مجاورا بسكة المشرفة ، فأناه الأجل هناك ، وهو محمد بن يوسف ناظر الجيش ، المعروف بابن كاتب جكم ، وكان رئيسا حثما وله اشتغال بالعام ، وبولى نظر الجيش وهو فى حداثة سنه ، وبأشر ذلك أحسن مباشرة ، وحمدت سيرته بها حتى مات . وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، وكان حافلا جدا ، وفرقت الخلع والصرر على الفقهاء والعلماء .

وفى شوال خرج العسكر المعين الى على دولات . وكان باش العسكر الأتابكى أربك ، وكان صحبته : قانصوه خمسمائة أمر أخور كبير ، ونانى بك قرا أحد المدمى الألوف ، وقد تقدم قبلهم ستة من الأمراء المقدمين أزدمر أمير مجلس ، ونغرى بردى ططر ، وفرر بعدهم تراز أمير سلاح ، وأربك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين . ثم خرج من بعدهم برسباى قرا رأس نوبة النوب ، ونانى بك الجبالى أحد المقدمين ... فكان جملة الذين خرجوا أولا وآخرنا نسعة أمراء بالأتابكى أربك . ومن الجند نحو من ثلاثة آلاف مملوك مما تقدم فى الأول والآخر . وكانت هذه التجريدة من أعظم النجاريذ . وطلب الأتابكى أربك طلبا حافلا ، حتى رجعت له القاهرة . وكذلك فانصوه خمسمائة كان طلبه غاية فى الحسن بحيث لم يعمل مثله قط ، قيل كان مضروف طلب قانصوه خمسمائة نحو من تسعين ألف دينار . وخرج العسكر وهم لابسون آلة الحرب ، وكان لهم يوم مسهود . وكان مع الأمير أربك عدة أمراء طلبخانات ، وعشراوات ، والجسم الغفير من الخاصكية ، والمماليك السلطانية ، فعادت هذه التجريدة من النواذر .

وفيه كانت وفاة الخوجا محيى الدين عبد القادر ابن ابراهيم بن حسن ، المعروف بابن عليبة

السكندري ، تاجر السلطان . وكان رئيساً حشماً من أعيان التجار .

وفيه خلع السلطان على القاضي شهاب الدين أحمد بن ناظر الخاص يوسف ، وقرره في نظر الجيش ، عوضاً عن أخيه كمال الدين

وفيه خلع السلطان على بن عامر ، وقرره في امريّة آل فضل بحماه ، عوضاً عن عساف بحكم قتله .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب المحلل أزدمر المسرطن ، وبالركب الأول برسباي اليوسفي .

وفيه طيف برأس شخص من العربان المفسدين ، قال له محمد بن عامر . أحمد مشايخ هواره ، وبعث بها ابن الزرايري الكاشف ، وعدة رؤوس من العربان المفسدين .

وفي ذي القعدة ، في نالت عشر هانور ، زاد النيل زيادة مفرطة نحو الذراع ، حتى تعجب الناس من ذلك .

وفيه عاد جاني بك حبيب الذي توجه الى ابن عثمان قاصداً ، وكان قد سافر أولاً من البحر المالح ، وعاد من على ملطية . فلما طلع بين يدي السلطان ، كان عليه خلعة ابن عنمان ، فخلع عليه وعلى من كان معه من الخاصكية . ثم ان جاني بك حبيب خلا بالسلطان ، وأخبره عن أحوال ابن عثمان بأنه ليس يراجع عن آذاه لعسكر مصر ، وأنه لم ير منه اقبالاً ولا أكرمه ، وأنه غير ناصح للسلطان . فكثر القتل والتبيل بسبب ذلك .

وفيه توفي شمس الدين الوفائي قاضي الخانقاه ، وكان رئيساً حشماً لا بأس به .

وفي ذي الحجة توفي قائم الفقيه الظاهري ،

أحد الأمراء العشراوات ، وكان بأش المجاورين بسكة المنرفة ، وكان ديناً خيراً لا بأس به .

وفيه أعيد الزيني أمير حاج الى نقابة الجيش على عادته ، وصرف عنها موسى بن الترجمان بعد كائنة عظيمة وقعت له ، وكان غير محمود السيرة سييء التصرف في أفعاله .

وفيه قرر السلطان كرتباي بن مصطفى المعروف بالأحمر ، في كشف البحيرة ، عوضاً عن قراكرز مسلوك تراز أمير سلاح .

وفيه جاءت الأخبار من نائب حلب بأن على دولات أرسل يسأل في الصلح ، بعدما اتسع الخرق على الراقع ، كما قيل في المعنى .

أتروخ نفسك بعد ما هرمت ومن الغناء رياضة الهرم

وفيه توفي قاضي الجباعة أبو عبد الله محمد بن محمد التلجاني التونسي المالكي ، وكان عالماً فاضلاً بارعاً في مذهبه ، قدم الى مصر ، وأقام بها مدة ، ثم عاد الى بلاده فسات بها .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة المستنصر بالله محمد ، من أولاد الملك مسعود ، صاحب تونس . وكان أكبر أولاده مستولياً على إحدى جهات المغرب . وكان شاباً حسن السيرة عادلاً في الرعية ، فتأسف عليه والده جداً .

وقد خرجت السنة المذكورة عن فتن وشورور ببلاد الشرق وبلاد الغرب . وحصل في مصر سحيفة في سائر الغلال واشتد السعر ، ووقع الاضطراب بسبب ذلك لأهل التجاريد . وحصل للناس من الممالك ما لا خير فيه ، من أخذ البغال والخيول وغير ذلك ، مما حصل به الضرر الشامل ، وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة ، وحصل للناس وقوف حال ، بسبب ضرب الفلوس الجدد ، وبطيل الفلوس العتق ، والأمر لله تعالى في ذلك .

« احدى وتسعين وثمانمائة (١٤٨٦ م) :

« . في المحرم ، كان خليفة الوفت الامام امير
« . المتوكل على الله ابو العز عيسى العزيز ،
« . العصر الملك الأشرف قايتباي أبو النصر ،
« . المعروف بالمحمودى الظاهرى . وأما القضاة
« . فمئة فهم : قاضى القضاة زين الدين زكريا
« . شاذى الشافعى ، والقاضى شمس الدين محمد
« . بنى الحنفى ، والقاضى محيى الدين بن تقى الدين
« . بنى ، والقاضى محمد السعدى الحنبلى . وأما
« . المقدمون ، فمنهم أرباب الوظائف سنة وهم :
« . بكى أزبك بن ططخ أمير كبير ، وتمراز
« . بنى أمير سلاح . وأما أمرية مجلس فكانت
« . من حين عزل منها أزدمر قريب السلطان
« . بنى نيابة حلب ، وبرزباي المحمدي الظاهرى
« . بنى نوبة النوب ، وقانصوه بن طراباى المعروف
« . بمسائة أمير آخور كبير ، وأقبردى بن على باى
« . بنى دوا دار كبير ، وتفرى بردى ططر حاجب
« . بنى . وأما الأمراء المقدمون غير أرباب الوظائف :
« . بنى اليوسفى المعروف بالخازندار ، وتانى بك
« . بنى ، وتانى بك قرا الاينالى ، وأزدمر تمساح ،
« . بنى المرطن ، ويشبك الجمالى . وأما الأمراء
« . بنى ففكانت عدتهم يومئذ نحو عشرة . وأما
« . بنى العشراوات فكانت عدتهم يومئذ نحو من
« . بنى أميرا . وأما أرباب الوظائف من المتعممين :
« . بنى كاتب السر زين الدين أبو بكر بن
« . بنى ، ونائبه صلاح الدين بن الجيعان ،
« . بنى الجيش الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ،
« . بنى الخاص ، ومستوفى ديوان الجيش القاضى
« . بنى البقاء بن الجيعان ، وناظر الخاص علاء الدين
« . بنى الصابونى ، وقد جمع بين نظارة الخاص ووكالة
« . المال . والوزارة بيد فاسم شغيته متحدثا فيها ،

وشرف الدين بن البقرى ناظر الدولة ، وقد جمع
بين نظارة الدولة وبين نظارة الأوقاف فى تلك
الأيام . والبدرى بدر الدين بن مزهر محاسب
القاهرة ، ووالى الشرطة يشبك بن حيدر الاينالى ،
واستادار العالية تغرى برسى المعروف بالقادرى ،
ونقابة الجيوش بيد أمير حاج بن أبى الفرج ، وكتابة
الخزانة بيد عبد الغنى بن الجيعان ، وكتابة الممالك
بيد يوسف بن أبى الفتح نائب جدة ، ونظارة
الاصطبل بيد بحى بن البقرى ، ونظارة الزردخانه
بيد عبد الباسط بن تقى الدين ، ونظارة الكسوة
الشريفة بيد رمضان المهتار ، ونظر الجوالى بيد
نور الدين على البتنوبى المعروف بالحنبلى . وأما
أرباب الوظائف من الطواشية : فحشقدم الزمام
الأحمدى ، وخالص التكرورى مقدم الممالك ،
ونائبه عنبر ، وسرور شاد الحوش وغير ذلك من
أرباب الوظائف لم نذكرهم خوف الاطالة فى ذلك ،
وانما ذكرنا الأعيان منهم . فهذا كان ترتيب أرباب
الوظائف فى مستهل السنة المذكورة على حكم
ماذكرناه . ثم انقلبت الوظائف الى جماعة كثيرة
من الأتراك والمباشرين كما سيأتى ذكره فى
موضعه .

وفيه ، أعنى هذا الشهر ، نوفى السيد الشريف
أبو عوانة ، واسمه أحمد بن أبى بكر النوسى
المالكي رحمه الله ، وكان يعرف بالعوانى ، وكان
دينا خيرا جميل الصورة حسن الشكل ، ومولده
بعد الأربعين والتمانمائة .

وفيه توجه السلطان الى جهة الشرقية ليكشف
على الجسور ، فغاب هناك أياما ثم عاد الى القلعة .
وفيه تنسأهى سر البرسيم ، كل فدان محضر
بائتى عشر دينارا ، وبيع الدريس الحوفى كل مائة
قنة بأربعمائة درهم حتى عد ذلك من النوادر ...
وسبب ذلك أن حب البرسيم التقاوى كان غاليا ،
وكان النيل خسيسا ، والذى طلع من البرسيم

أكلت غالبه الدودة ، وكان سعر الغلال مرتفعاً في السنة المذكورة ، حتى غلا سعر الماء والروانا من عدم العلف لجمال السقائين .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وعدى وهو راكب ، وكان معه القاضي قطب الدين الخضيرى ، وجساعة من الخاصكية ، فتوجه الى خرطوم الروضة ، وعدى وأقام به الى آخر النهار ، ونصب له هناك خيمة سحابة وموخر ، فطاب له ذلك المكان ، فأمر ببناء قصر مطل على الأربع جهات هناك ، فلم يتم له ذلك .

وفيه كان دخول الحاج فى خامس عشره ، وقد حصل لهم بموت الجمال وشدة الغلاء مشقة زائدة . وكان أمير ركب المحمل أزدر ، وبالركب الأول برسباى اليوسفى . وقد جاور أكثر الناس ، واقطع جساعة بالينبع ، ولم يدخلوا القاهرة الا بعد أيام .

وفيه توجه أقبردى الدوادر الى جهة الصعيد ، بسبب فساد أولاد ابن عر .

وفيه توجه السلطان الى قبة يشبك الدوادر التى بالمطرية ، فلما رجع نزل عن فرسه وزار تربة الظاهر برقوق ، وكشف عن أحوالها . ثم عاد الى القلعة ، وألزم سرورا شاد الحوش بعمل مصالح الصوفية التى بتربة الظاهر برقوق .

وفى صفر قتل الفاضى تقي الدين أبو بكر المعروف بخروف ، قتل ببولاك ولا يعلم من قتله . وكان رئيساً حشماً لا بأس به . وكان ترشح أمره بأن يلى قضاء الحنفية فى دولة الظاهر خشقدم ، وقد سعى له ابن العينى .

وفيه خسف جرم القمر ، وأظلم الجو ، واستمر على ذلك نحو من خمسين درجة .

وفيه توفى سيدى موسى بن الخليفة المشوكلى على الله ، عم أمير المؤمنين أبى العز عبد العزيز ، وكان رئيساً حشماً وفاته بالخلافة عدة مرار . وقلة تولى أربعة من اخوته وهو مبعد لقلة حظه . وكان مولده قبل العشرين والثمانائة .

وفيه جاءت الأخبار بوفور فتنة عظيمة بين عربان جبل نابلس ، وقتل فيها أقبردى بن بخشايش الاينالى استادار الأغوات . وقتل أيضاً جماعة كثيرة من العربان . منهم : أبو بكر أمير حزم ، ويوسف بن الجيوسى أحد المشايخ بنابلس ، وجماعة كثيرة من أولاد اسماعيل ، وأولاد عبد القادر ، وكانت فتنة شنيعة مهولة . فلما بلغ السلطان ذلك عين أقبردى الدوادر الكبير بأن يتوجه الى جبل نابلس ويخمد هذه الفتنة التى بين العربان ، فخرج مبادراً الى ذلك .

وفيه كانت وفاة قاضى قضاة الشافعية كان ، وهو ولى الدين أحمد الأسىوطى ابن أحمد بن عبد الخالق بن عبد العزيز بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالماً فاضلاً محموداً فى أيام قضاائه ، رئيساً حشماً سيوساً فى أفعاله . ولى القضاء الأكبر ومشيخة الجمالية ، والناصرة ، وعدة تداريس ، وأقام فى القضاء ، وهو مع الناس فى أحسن سيرة ، ودام فيها ست عشرة سنة ، والناس راضون عنه ، وكان مولده سنة ثلاث عشرة وثمانائة .

وفيه جاءت الأخبار من حلب ، بأن العسكر المصرى تقاتل مع عسكر ابن عثمان ، وانتصر على عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم جماعة كثيرة نحواً من أربعين ألفاً من توابع عسكره ، وقبض على أحمد بك بن هرسك ، وكان باش عسكر ابن عثمان وأجل أمرائه — ومعه جماعة من الأمراء أصحاب

بن عثمان ، وأسروهم وأودعوه في
سجن ، فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

مع الأول عمل السلطان المولد النبوي ،
لكن كان أكثر الأمراء غائباً بالتجريدة .
بصر من الأمراء المقدمين سوى ثلاثة

توفي القاضي حسن بن عرب ، وهو على
الطنبدي الشافعي ، أحد نواب الشافعية
بإديار المصرية ، وكان لا بأس به .

اختفى القاضي شهاب الدين أحمد ناظر
أخو القاضي كمال الدين ، فلما اختفى
سلطان على البدرى محمد ابن القاضي
الدين ناظر الجيش ، وقرره في نظر الجيش ،
عن عمه الشهابي أحمد بحكم اختفائه .
البدرى هذا حديث السن ، لما تولى نظر
لم يلتج بعد .

قرر شاهين الجمالي في مشيخة الحرم
بني .

توفي المسند شمس الدين محمد البساطي
، وكان علامة في الحديث ، وكان ديناً
لا بأس به .

وصل دوادار نائب حلب ، وأخبر بصحة
ابن عثمان ، والقبض على أحمد بك بن
وجاعة من أمراء ابن عثمان ، وأعيانهم .
أخذ العسكر المصري من النهب ما لا يحصى
وجمال ومسالخ وبرك وقماش وغير
، وأخذوا صنائعهم ، وكانوا نحواً من مائة
صنجقاً ، وقد قطعت عدة وافرة من رؤوس
ابن عثمان ، وسينحرون صلبة قيت الرحبي

الساقى الخاصكى ... قرر السلطان لهذا الخبر ،
وخلع على دوادار نائب حلب خلعة حافلة .

وفيه سقط الصاري الخشب الذي تعلق فيه
الفناديل في رمضان بمتار جامع القلعة ، فأخذ
الناس يتفألون بشيء يحدث للسلطان عن قريب .
فلما كان اليوم الثاني من انكسار الصاري ، ركب
السلطان على فرس وسير في الحوش ، ثم ساق
ونزع الفرس بالجرام ، فشب به وانقلب على
السلطان ، فسقط الى الأرض وبقيت رجله تحت
جنب الفرس ، فانكسرت رجل السلطان من عند
عظمة فخذه كسراً بليغاً ، فأغمى عليه ، وسال منه
الدم ، فأرجفت القلعة بموت السلطان ، واضطربت
أحوال القاهرة بسبب ذلك ، وكثر القال والقليل
بين الناس ، ولم يشك في موته أحد ، بل تيقنوا
ذلك . فحمله بعض الخاصكية ، وهو مغمى عليه ،
وأدخله الى قاعة الدهيشة . فتسامع الأمراء بذلك
فطلعوا اليه ، ثم طلع كاتب السر ابن مزهر ، فلما
دخل عليه قال له اكتب في الحال في هذه الساعة
مراسيم ، وأرسلها الى نائب حلب ، لتطمئن الأمراء
والعسكر بسلامة السلطان من هذا العارض . وقد
حصل له السلامة والشفاء عن قريب ، فكتبت
المراسيم بصورة الحال ، وأدرجت على يد هجان
في أثناء ذلك اليوم ، وتوجه الى حلب ، وقد نظم
بعض شعراء العصر يعتذر عن هذه الواقعة بهذين
البيتين وهما قوله :

وقد زعموا أن الجواد كبا به

وحاشاء من عيب يضاف اليه

ولكن رأى سلطان عز وهية

فقبل وجه الأرض بين يديه

وفيه توفي الشيخ صالح زين الدين عبد الرحيم

ابن ابراهيم بن حجاج الأبناسي القاهري الشافعي ،

وكان عالما فاضلا دينيا خيرا صالحا ، منجمعا عن أبناء الدنيا ، متصوفا على طريقة السلف ، متواضعا جدا ، وطلب للقضاء غير ما مرة ، وهو يأبى من ذلك ، ولما مات دفن بزاوية الشيخ شهاب الدين النى بجدره القول عند بركة الرطلى .

وفى ربيع الآخر طلع القضاء الى القلعة للتهنئة بالشهر ، فأذن لهم بالدخول على السلطان وهو فى القاعة التى بالدهيشة ، وهى قاعة الحريم ، فلما دخلوا عنده وجدوه على سرير وقد قوروا له الفرش من تحته ، ورجله قدماه ، وهو لا ينام ولا يتحرك ، وكان الأمراء والمباشرون يدخلون عليه كل يوم ، ويعطونه الخدمة ، وهو جالس على ذلك السرير فيدعون له وينصرفون .

وفيه وصل قيت الساقى من حلب ، ومعه عدة وافر من الرؤوس التى قطعت من عسكر ابن عثمان . فلما دخل الى القاهرة ، زينت له زينة حافلة ، واصطفت الناس للفرجة ، فدخل وقدمه الرؤوس محمولة على الرماح ، وكان عدتها ما يزيد على مائتى رأس . فلما طلع الى القلعة ، دقت له البشائر ، وأقيمت الخدمة بالحوش ، ووقف أرباب الدولة كل واحد فى منزلته ، على العادة ، وغطيت الدكة التى يجلس عليها السلطان بالملاءة الحرير ... فلما استقر قيت الساقى بالحوش ، باس الأرض الى نحو الدكة ، فأحضرت له خلعة ولمن كان صحبتته من المماليك السلطانية ، فلبسوا تلك الخلع ، ونزلوا فى موكب حافل . وكل ذلك والسلطان منقطع فى القاعة ، وهو فى غاية التألم من رجله . وقيل ان السلطان فرق على الفقراء ، فى مدة انقطاعه بهذا العارض ، نحو من ألف دينار على يد قطب الدين

الخضيرى ، ثم انه بعد أيام علم على أربعة مراسيم . وكانت العلامة قد تعطلت أيام مرضه .

وفيه توفى الشيخ جلال الدين البكرى ، وكان علامة فى مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ورحمه . وكان اسمه محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد الديروطى الشافعى . وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، ناب فى القضاء مدة طويلة ، وتولى قضاء الاسكندرية ، ثم تولى مشيخة الخاقاه البيرسية ، وكان بيده عدة تداريس ، ومولده سنة سبع وثمانائة .

وفيه رسم السلطان على لسان القاضى كاتب السر ابن مزهر بأن يجمع رؤوس النوب ، والنقباء الذين بأبواب الحكام ، ويكتب عليهم قسائم أنهم لا يأخذون من الأخصام عند انفصالهم من الحكم ، أكثر من نصفين ، فجمعهم وكتب عليهم قسائم بذلك ، فأقام هذا الأمر مدة يسيرة ، ثم عادوا لما كانوا عليه .

وفيه قرر شيخنا الجلال السيوطى فى مشيخة البيرسية ، عوضا عن الجلال البكرى ، بحكم وفاته . وكان الساعى له السيد الخليفة عبد العزيز . وفيه هجم المنسر على سوق باب الشعرية ، وقتلوا البواب ، وفتحوا عدة دكاكين ، وأخذوا ما فيها ، وخرجوا من الباب ، وتوجهوا من حيث أتوا .

وفى جمادى الأولى حملوا السلطان وهو على السرير ، وخرج الى الدهيشة ، وجلس بالشباك المطل على الحوش ، وعرض قدماه عدة خيول ، فحصل للناس الاطمئنان عليه .

وفيه حصل للسلطان الشفاء ، ودخل الحمام . فلما كان يوم الجمعة ركب من باب الدهيشة وتوجه الى الجامع ، وصلى الجمعة ، وكان له بالقلعة يوم

مشهود ، وتخلق الخدام بالزعران ، وفرت خونه على الناس البنود الحسير الأصفر ، للخدام والخاصية ، والزمام ومقدم المالك والغلمان السلطانية قاطبة ، وأعيان الناس من الحجاب ، ورءوس النوب ، وتقباء الجيش وغير ذلك من الأعيان . ولما رجع السلطان من الجامع لاقته النسوة بالتهاني ، ونشرت خوند على رأسه خفاف الذهب والفضة ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حوافر فرسه ، وكان يوما حافلا بالقلعة . وخلع على الأطباء والمزنيين الخلع السنية ، ودقت له البشائر بالقلعة ، ونودي بالزينة في القاهرة .

فلما كان الثاني من يوم ركوبه حضر الخليفة والقضاة الأربعة وهنأوا السلطان بالعافية ، وجلس بالدكة ، وحكم بين الناس . وكان مدة انقطاعه لهذا العارض نحو من ثلاثة وخمسين يوما . وكان الناس قد أيسوا منه ، وعد ركوبه من النوادر بعد ذلك العارض المهول عند الكبير . وقد قال القائل في ذلك :

الله يدفع عن نفس الامام لنا
وكلنا للمنايا دونه غرض

فليت هذا الذي يعرفه من مرض
بالعائدين جميعا لا به المرض

ففى الامام له من غيرنا عوض
وليس في غيره منه لنا عوض

فما أبالى اذا ما نفسه سلمت
لو باد كل عباد الله واقترضوا

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان ، لما حصلت لهم تلك الكسرة ، تجمع جيشا كثيفا ، ورجع الى المحاربة ثانيا ، وأن عسكر السلطان بعد أن رجع الى حلب ، خرج ثانيا الى نحو كولاك . فتتكد السلطان الى الغاية لهذا

الخبر . ونادى للعسكر بالعرض ، فعرض وعين جماعة من الأمراء المقدمين والجند ، فكانوا نحو من خمسمائة مملوك . وكان الباش عليهم يشبك الجمالى الزردكاش الكبير أحد المقدمين ثم ألق عليهم واستحثهم على الخروج الى حلب . وضاق الأمر بالسلطان حتى قصد أن يخرج الى التجريدة بنفسه . وأرسل السلطان الى كرتباى الأحمر كاشف البحيرة بأن يجمع له من طائفة العربان الذين بالبحيرة ما يقدر عليه ، ثم عرض جماعة من الزعر ، وقصد أن ينفق عليهم لكل واحد ثلاثين دينارا ، وأن يخرجوا صحبته ، وصار ينظر ما يرد عليه من الأخبار .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة ببلاد فاس ، من أعمال المغرب ، وقد حصل بين صاحب فاس والفرنج ما لا خير فيه من الحروب وقتل العساكر ، وأن صاحب غرناطة توجه الى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة ، وأن الفتن هناك قائمة والأمر لله .

وفيه خرج الأمير يشبك الجمالى ومن عين معه من الجند الى جهة حلب ، فكان لهم يوم مشهود .

وفي رجب جاءت الأخبار بوفاة دولات باى المحوجب الشرفى نائب ملطية ، وكان عنده شجاعة وفروسية . وتوفى قائم أمير شكار المحدى الظاهرى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى السيد الشريف على ، أخو أمير مكة المشرفة ، وهو على بن بركات بن حسن بن عجلان الهاشمى العلوى . وكان مقيما بالقاهرة من حين فر من أخيه وحضر الى مصر ، فأتاه الأجل بها ، وكان رئيسا حثما فاضلا ذكيا لا بأس به . ومولده بعد الخمسين والثمانمائة .

وفي شعبان طلع الفضة الأربعة الى القلعة
للنهضة بالشهر ، فكثرت المرافعات في تاضي قضاة
الحنفية شمس الدين الغزى ، فحنق منه السلطان ،
ورسم لنقيب الجيش بالقبض عليه في المجلس ،
وتوجه به الى المدرسة الصالحية ليفهم حساب
أوقاف الحنفية ، وجرى عليه ما لا خير فيه ،
واسنمر في الترسيم الى أن عزل .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وفد أوفى في ثانی
عشر مسرى فتوجه الأمير أزدر تمساح وفتح
السد . وكان الأتابكى أزبك غائباً في التجربة .

ومن النواذر أن النيل زاد في ذلك اليوم عشرين
أصبعا من الذراع السابع عشر في يوم كسره ،
واستمرت الزيادة عمالة حتى أنه زاد في ثلاثة أيام
متوالية من الوفاء تسعة وتسعين أصبعا ، حتى عد
ذلك من النواذر الغريبة ، الزيادة . وفد قيل في
المعنى :

وفي النيل اذ وفي البسيطة حقها

وزاد على ما جاده من صنائع

فماذا يقول الناس في جود منعم

يشار الى انعامه بالأصابع

رفيه نزل السلطان الى الميدان ، وجلس بالمقعد
الذى به ، وعرض المحاييس من رجال ونساء ،
وأطلق منهم جساعة . ثم أمر بتوسيط أحسد بن
بشارة شيخ العشير ببلاد صفد .

وفيه عاد الأمير أقبردى الدوادار من جبل
نابلس ، ومعه عدة من العربان ، وهم في الحديد .
وفد قبض على أعيان مشايخهم .

وفي رمضان كان أول ما خطب بمدرسة
الصاحب الزمام التى أنشأها بخط باب الرملة ،
وقد جاءت من أحسن البناء ، وكان أصلها قاعة ،
فصنع بها محرابا واتخذها مدرسة وخطب بها .


وفيه توفي شمس الدين محمد الديجورى ،
أحد نواب الحكم من الشافعية ، وكان انسافا
حسنا لا بأس به ، ومولده سنة تسع وعشرين
وتمانمئة .

وفيه قبض على انسان وهو سكران في
رمضان ، فضرب بالمقارع ، وجرس بالقاهرة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة العلالى على بن
شاهين العثمانى نائب قلعة دمشق . وكان رئيسا
حسنا لا بأس به .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة في الحوش .
وكان ذلك على خلاف العادة .

وفيه تغير خاطر السلطان على خشقدم الزمام
لأمر وقع له وكانت كائنة عظيمة . وقصد الأخراق
به وأمر بضربه ، حتى شفع فيه ، ثم آل أمره بعد
ذلك الى أن نفاه الى جهة قوص ، كما سيأتى ذكر
ذلك .

وفي شوال جاءت الأخبار بوفاة  بك سكر
أتابك العساكر بطرابلس ، وكان شابا رئيسا حسنا
حشما لا بأس به ، ولكن وقع له شدة أذى ومحن
ونفى من مصر ، وكان من خواص السلطان ، ثم
تغير خاطره عليه وجرى له أمور شتى .

وفيه خلع السلطان على الشيخ ناصر الدين
محمد بن الأخيصى شيخ المدرسة البرقوقية ،
وقرره في قضاء الحنفية ، عوضا عن شمس الدين
الغزى ، بحكم انفصاله عنها . وجرى على الغزى
أمر يطول شرحها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة في تجمل زائد ،
وكان أمير ركب المحمل أزدر تمساح على العادة .
وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من أعيان
المفسدين في الأرض ، يقال له حمور ، ووسط معه
جماعة آخرين مفسدين في الأرض ، فنزل حمور

فأنفق الأتابكي أزبك عليهم هناك لكل مملوك
خمسین ديناراً ، حتى خمدت الفتنة .

وفيه ثار جماعة من الممالیک الجلبان ، وتوجهوا
الى بيت البدری بدر الدين ابن مزهر المحتسب ،
وقصدوا حرق بيته فاختموا ، وذلك بسبب تسعير
البضائع من اللحم والخبز والجبن وغير ذلك ،
ثم توجهوا الى الشون وكسروا أبوابها ، ونهبوا
ما فيها من القمح والشعير ، وفعلوا ذلك بشون
السلطان والأمراء . وكانت فتنة مهولة . فلما بلغ
السلطان ذلك ، بعث اليهم جماعة من الخاصكية ،
ومقدم الممالیک فما قدروا على ردهم . فركب
السلطان بنفسه بعد العصر ، وتوجه الى بولاق .
فلما رأوه فروا من وجهه ، ثم أتوا الى دار
الصاحب قائم ، فنهبوا كل ما فيها . فلما أصبحوا
لم ينتهوا عما هم عليه ، ولم يطلع أحد من
المباشرين الى القلعة . ثم ان القاضي كاتب السر
ترامى على السلطان ، وقبل رجله ثلاث مرات ،
بأن يعفى ولده بدر الدين من الحسبة ، فما أجاب
الا بعد جهد جهيد .

وفيه توفي الكاتب المجيد الزينى خطاب بن عمر
ابن خطاب الأزهرى الشافعى وكان فاضلاً وله
اشتغال بالعلم ، وكتب المنسوب من الخط الجيد ،
وكان له فى ذلك دعاوى عريضة جداً . وفيه يقول
الشهاب المنصورى :

بذى التهذيب خطاب تسامت
صحائف زانها خطاً وضبطاً
فلو نطق الطروس لفضلته
وقالت أجود الكتاب خطاً ١

وفيه وصل قيت الساقى الخاصكى ، الذى كان
قد توجه الى يعقوب بن حسن الطويل ، فعاد ومعه
مكاتبة باظهار التودد وصدق المحبة للسلطان .

(١) خطاً ١٠٠ ب ١٠٠

من القلعة وهو مسمر على لعبة من الخشب ، غريبة
الهيئة تجر بالعجل ، ولها حركات تدور بها ، فرجت
القاهرة فى ذلك اليوم ، وكان يوماً مشهوداً .
وتوجهوا به الى جزيرة الفيل ، فوسطوهم هناك
وأراح الله الناس منهم .

وفيه أرسل السلطان تجريدة الى البحيرة
بسبب فساد محمد الجويلى شيخ عربان البحيرة ،
وكان باش الجند قرقاس المعلم ، أحد الأمراء
العشراوات ، واسباى المبشر وأزبك قفص ومامى
ونحو من مائتى مملوك من الممالیک السلطانية ،
فلما وصلوا الى البحيرة تقاتلوا مع الجويلى أشد
القتال ، وقتل من الترك والعرب جماعة كثيرة ،
ورجع العسكر من غير طائل ، ولا حصلوا من
الجويلى على شيء .

وفيه وقعت نادرة : وهو أن مركبا يبولاق
عدت تحت الليل ، فغرقت فى وسط البحر بمن فيها
من الناس والدواب . ومن العجائب أنه كان بها
انسان علامة فى السباحة الى الغاية فغرق ولم يعلم
له خبر ، وكان الى جانبه صبي صغير لا يعرف
السباحة فنجا من الغرق ، وطلع فعند ذلك من
النوادر ، كما قيل فى المعنى :

وقد يهلك الانسان من باب أمانه

وينجو بعون الله من حيث يحذر

وفيه توفي الشيخ قلع الرومى الأدهمى ،
شيخ زاوية السلطان بالمرج والزيات ، فلما مات
قرر فى مشيخة الزاوية امرأة ، وهى زوجة قلع
المذكور ، فعند ذلك من النوادر ، وكانت المرأة
تقرب لجهان شاه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر قد
ثار على الأتابكى أزبك ، وقصد العود الى
القاهرة ، فتشوش السلطان لهذا الخبر . وشكوا
من الانشعاعات . فأرسل السلطان اليهم نفقة هناك .

وفيه توفيت خوند آسية بنت المؤيد شيخ ،
وهي والددة سيدى يحيى بن يشبك الفقيه ، الذى
كان دوادار كبيرا . وكان حصل لها تأسف على
ولدها يحيى لما مات فكف بصرها فى أواخر عمرها .
ومولدها سنة اثنتى عشرة وثمانمائة وكانت آخر
من توفى من أولاد الملك المؤيد شيخ .

وفى ذى العقبة ظهر برهان الدين بن الكرعى
امام السلطان ، وكان مخفيا من حين تغير خاطر
السلطان عليه ، فشفع فيه بعض الأمراء حتى ظهر
وقابل السلطان ، ونزل الى داره بطالا .

وفيه خلع السلطان على أقبردى الدوادار وقرره
فى الوزارة ، وكان متكلم فيها بغير تقرير . وقرر
موفق الدين بن القمص الأسلمى فى نظر الدولة ،
عوضا عن قاسم شغيتة ، بحكم صرفه عن الوزارة
ونظر الدولة ، فوكل به ، وأقام فى الترسيم حتى
يعمل الحساب .

وفيه خلع السلطان على كسباى الشرىفى ،
وقرره فى الحسبة عوضا عن البدرى ابن مزهر
بحكم استعفائه .

وفيه رسم السلطان بنوسيط عبد العزيز
المعروف بعزوز ، من أولاد بنى عمر أمير عربان
هواره ، ووسط معه جماعة من أقاربه ، وهم يعقوب
ابن سليمان ، وموسى بن عبد الله وموسى بن أبى
لاسون ، وعلى أخو عزوز ، ومحمد بن بشارة ،
فكانت آجالهم متقاربة من بعضها .

وفيه بلغ سعر الأرز الى ستة أشرفية كل أردب
ولا يوجد . ثم عز جدا حتى تناهى سعره الى
اثنى عشر دينارا كل أردب ، حتى عد ذلك من
النوادر .

وفيه رسم السلطان بنوسيط شخص من كبار

المفسدين ، يقال له أحمد الدنف ، وله حكايات فى
فن السرقة يطول شرحها .

وفيه حضر جماعة من الجند ممن كان مسافرا
فى التجريدة ، وقد حضروا من غير اذن من السلطان
وقصدوا الاخرق بالأتابكى أزبك باش العسكر ،
وهو بحلب ، فقال لهم : « الذى يقصد الرواح الى
مصر يروح ويقابل أستاذة » . فساروا فى الدس
ثم قويت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، وصار
جماعة من المماليك الجلبان يقفون للأمرء بالسلم
المدرج ويقولون لهم : « قولوا للسلطان ينفق علينا
والا يقع منا فتنة كبيرة » . وصاروا يغلفون عليهم
فى القول ، وصار القال والقليل عمالا كل يوم بينهم
وبين الأمراء ، والاشاعات قائمة بوقوع فتنة ،
وقصدوا الاخرق بالأمير أقبردى الدوادار غير
ما مرة ، حتى امتنع أياما من طلوع القلعة .

وفيه قرر فى قضاء الحنفية بدمشق ، القاضى
زين الدين عبد الرحمن الحسبانى ، عوضا عن
عماد الدين اسمعيل الناصرى بحكم صرفه عنها .
وفيه جاءت الأخبار ب وفاة قاضى مكة المشرفة ،
البرهان بن ظهيرة الشافعى . وهو ابراهيم بن على
ابن محمد بن حسين بن على بن أحمد . وكان عالما
فاضلا بارعا فى العلوم رئيسا حثما ، انتهت اليه
رياسة مكة المشرفة ، وكان المرجع اليه بها . ولما
مات قرر فى قضاء الشافعية بمكة المشرفة ولده
أبو السعود عوضا عنه .

وفيه كان دخول الأتابكى أزبك وبقيّة الأمراء
والجند ممن كانوا مسافرين فى التجريدة الى على
دولات والى عسكر ابن عثمان ، فلما دخلوا الى
القاهرة كان لهم يوم مشهود . وقدامهم الأسراء
من عسكر ابن عثمان ، وهم مزنجرين والصنائق
منكسة ، وكان صحبتهم جماعة من أعيان أمراءه ،
وهم بزناجير على خيولهم ، وصحبتهم أيضا باش

عليهم لكل مملوك مهم خمسون دينارا ، ثم نادى في القاهرة بأن النفقة ستكون في أول السنة الجديدة ، فخذت هذه الفتنة شيئا قليلا .

وفيه جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وحضر الأتابكي أزبك و فرقت الأقاطيع الشاغرة عن توفى في هذه التجريدة من الجند ، وصار الأتابكي أزبك هو المشار اليه في هذا الأمر .

وفيه أنعم السلطان على آقبای بن جانم الظاهري خشقدم بامرية عشرة ، وهى امرية أصباى السيفى قرقناش الشعبانى بحكم أنه كان مريضا منقطعا في داره . وأنعم على أبى شعرة بامرية عشرة ، وهى امرية قراكرز بحكم عزله أيضا . وفيه كانت الضحايا قليلة جدا ولا سيما الغنم .

وفيه جلس السلطان لتفرقة الجامكية ، فامتنع الماليك من أخذها وصسوا وقالوا : « ما نأخذ الا النفقة مع الجامكية ، ولا نصبر الى الشهر الآنى » ... فلما رأهم قد صسوا على ذلك أنفق عليهم ، فأعطى الماليك الجلبان كل واحد منهم خمسين دينارا ، وأعطى القرائصة كل واحد منهم خمسة وعشرين دينارا ، ولم يعط الدين لم يتوجهوا نحو التعجريدة المقيمين ، ووقع القال والقليل بسبب ذلك ، فلم يلتفت الى شئ من كلامهم وخذت هذه الفتنة .

سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة (١٤٨٦ م) :

فيها ، في المحرم ، كانت الأسعار متشعبة ومشطية في سائر البضائع ، وتشحط الخبز من الدكاكين حتى بيع كل رطل من الخبز بنصف فضة ، وكانت أحوال الناس واقفة بسبب الفلوس الجدد حتى غلا سعر راوية الماء ، وعز وجود جمال السقائين ، وصار الغلاء في المأكول والمشروب ... هذا والماليك قد طغوا في حق الناس ، وتزايد

عسكر ابن عثمان ، وهو أحمد بك بن هرسك ، وهو راكب وفي عنقه زنجير . وقيل ان ابن هرسك كان أميرا كبيرا أتابكى ابن عثمان . فلما عرضوا على السلطان وهو بالحوش ، عاتب أحمد بن هرسك ووبخه بالكلام . ثم سلمه الى الأمير فانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، ثم وزع بقية الأسراء على جماعة من المباشرين ، حتى قضاة القضاة . ثم خلع على الأتابكى أزبك وعلى بقية الأمراء ونزلوا الى دورهم . وفي عقيب ذلك ثار جماعة من الماليك الجلبان على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب ، وأشهروا السلاح — وكان ذلك في سلخ الشهر المذكور — فاضطربت الأحوال ، ووزع أكثر الأمراء والناس حوائجهم في الحواصل ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، وجاءت الزعر أفواجا أفواجا .

وقبل ذلك توجه جماعة من الماليك الجلبان الى بيت أفبردى الدودار ، وتكلموا معه في أن يتكلم مع السلطان بأن ينفق عليهم في نظير تعب سرهم بسبب هذه النصرة التي وقعت لهم على عسكر ابن عثمان ، وسألوه أيضا فيمن يعمل مصالحهم في مرتب اللحم والعليق . فلما اجتمع أفبردى بالسلطان كلمه في ذلك غير ما مرة وهو مصمم على عدم اجابتهم الى ما سألوه فيه ، فلما عاد الجواب لهم بعدم الإجابة في ذلك ثاروا عليه ، واتسعت الفتنة ، وغلقت الأمراء أبوابها ، واستمر الحال على ذلك .

وفي ذى الحجة لم يطلع أحد من القضاة الى القلعة بسبب التهنئة بالشهر ، وكانت الفتنة قائمة كما تقدم ، ثم طلع الأتابكى أزبك الى القلعة واجتمع بالسلطان وكلمه في أمر النفقة على الماليك ، وتلطف به في القول فما أجاب الى ذلك الا بعد جهد كبير ، فقرر الحال على أنه ينفق

أردب ، وصار المحتسب يضرب الكثير من السوق
على عدم بيع الخبز وإظهاره على الدكاكين .

وفيه أنعم السلطان على مسلوكة قيت الساقى
بأمريّة عشرة ، وكذلك مغلباى بجمقدار ، وقرر
قيت الرحبى بجمقدارا عوضا عن مغلباى .

وفيه حضرت جثة الملك المنصور عثمان من
ثغر دمياط ودفن على أييه الظاهر جقمق بترية قانى
باى الجركسى .

وفيه قدم اينال الخسييف نائب صفد أحمد
مساليك السلطان ، فلما حضر أرسل السلطان خلعة
وتقليدا الى يلباى حاجب دمشق وقرره فى نيابة
صفد عوضا عن اينال ، الخسييف ، ثم بعد مدة قرر
اينال الخسييف فى حجوية دمشق عوضا عن يلباى
بحكم انتقاله الى نيابة صفد .

وفيه توفى الشيخ شمس الدين محمد بن سوله
الفارسكورى ، وكان من أعيان الشافعية من أهل
العلم والفضل وكان لا بأس به .

وفيه توفى المنشد المطرب الواعظ المادح شمس
الدين محمد بن حلة ، وكان من مشاهير الوعاظ
وله نظم جيد ، ومولده قبل العشرين والثمانمائة .

وفيه انحل سعر القمح وبيع للأردب القمح
بأربعة دنانير بعد ستة أشرفية بواسطة كثرة جلب
الذرة ، وقد حصل للناس به غاية الرفق .

وفى صفر خسف جرم القمر وأظلم الجو ودام
فى الخسوف نحو من خمسين درجة ، فلهج الناس
بأن زوال السلطان قد قرب ... وما كان شئ مما
لهجوا به ، وأقام السلطان بعد ذلك مدة طويلة ،
فكان كما قيل فى المعنى :

لا تفعل الشمس شيئا ولا القمر

وعن خسوفهما لا يصدر الكدر

منهم الضرر الشامل ، والعربان قد تزايدت شرورهم
فى البلاد من الشرقية والغربية ، وابن عثمان فى
غاية التحرك على البلاد الحلبية ، والسلطان فى غاية
الظلم والمصادرات للناس بسبب خروج التجريدة
الى ابن عثمان ثانيا . وصار العسكر فى أمر مريب
بسبب ذلك ، والأشاعات قائمة بوقوع فتنة بين
الجلبان ، وقد صاروا فرقتين : فرقة مع قانصوه
خمسائة ، وفرقة مع أقبردى الدوادار ...
والاضطراب بينهما عمال .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة الملك
المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق . وكان
ملكا جليلا وله اشتغال بالعلم على مذهب أبى
حنيفة رضى الله عنه ورحمه ، حتى صار مفتيا فى
طبقة العلماء ، ومات وهو فى عشر الخمسين من
العمر . فلما بلغ السلطان وفاته رسم بنقل جثته
الى مصر ودفن على أييه الملك الظاهر جقمق ،
وشرع فى أسباب ذلك ، وعين من يتوجه الى هناك
ليحضره .

وفيه رسم السلطان بفك قيد أحمد بن هرسك
الذى قد أسر ، وكذلك فك قيود من أسر من
عسكر ابن عثمان . وأخذوا فى أسباب تجهيزهم
الى بلادهم ، وقد أشيع أمر الصلح بين السلطان
وابن عثمان .

وفيه اشتد أمر الغلاء جدا حتى بيع القمح
كل أردب بستة أشرفية ، وبيعت البطة الدقيق
بأربعمائة وخمسين درهما ، وبيع خبز الذرة ...
ولم يظهر خبز الذرة فيما تقدم من الغلوات
المشهورة حتى صنف العوام رقصة وهم يقولون :
زويجى دى المسخرة يطعمنى خبز الذرة

وصار يموت الكثير من الفقراء على الطرقات
من شدة الجوع . ثم ان السلطان فتح عدة شون
وباع منها القمح على حكم خمسة أشرفية كل

قبل — فلما جرى ذلك نشفت الملاحه في تلك
السنة حتى عز وجود الملح جدا .
وفيه عمل السلطان المولد النوى ، وكان حافلا
على العادة .

وفي ربيع الآخر توفي الشيخ الصالح المعتقد
سيدي عبد العظيم السدار ، الذي كان يبيع
السدر والحناء عند الغرابيين ، وكان للناس فيه
اعتقاد زائد . وهو عبد العظيم بن ناصر الدين بن
خلف المصرى ، ومولده بعد العشرين والثمانمائة .
وفيه توفي الشيخ محيى الدين عبد القادر
الفرضى ، وكان علامة في الفرائض . وهو عبد
القادر بن على بن شعبان القاهري الحنفى ، وكان
امام جامع أصلا .

وفي جسادى الأولى توفي الشيخ بدر الدين
محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن عمر البلقينى
الشافعى ، وكان فاضلا ناب في الحكم ، وكان
محمود السيرة .

وفيه جاءت الأخبار من عند الأمير أقبردى
الدوادار بأنه قد انتصر على العرب الأحامدة ،
وكان توجه الى بلاد الوجه القبلى بسبب ذلك
فقتل منهم ما لا يحصى ، وأسر نساءهم وأولادهم
وبعث بهم الى مصر وباعوهم كما يباع الرقيق من
الزنج . ووقع لأقبردى مع الأحامدة أمور غريبة
يطول شرحها ، وعذب جماعة منهم بالدفن في
التراب وهم أحياء ، ونوع لهم العذاب تنويعا ،
وقد طهر بلاد الصعيد منهم ، وكانوا أظهروا
الفساد بها جدا .

وفيه توفي القاضى سراج الدين عمر بن حريز
المالكى . وهو عمر بن أبى بكر بن محمد بن
محمد بن محرز ، الهاشمى القرشى العلوى

وفيه توفي الشيخ نظام الدين محمد بن الحبيبا
الحنفى التركى ، وكان عالما فاضلا من أعيان
الناس ، وكان رئيسا حشما وجيها عند الناس ،
في سعة من المعيشة ، وفيه يقول المنصورى :

سبحان من من بحسن الكلام

على نظام الدين دون الأنام

فلفظ أهل العلم در ، ولا

يترن ذاك الدر الا النظام

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة
الأمير قانصوه السيفى الأحمدي الاينالى الذى
كان أحد المقدمين ، وتفى الى دمياط ثم نقل الى
مكة المشرفة فمات بها ، وجرى عليه شذائد
ومحن ، وكان من أعيان طائفة الاينالية ، وهو
الذى تعصب للأشرف قايتباى حتى تسلطن فما
ناله منه خير كما يقال :

رب من ترجو به دفع الأذى

سوف يأتيك الأذى من قبله

وقيل انه كان يقول في مجالس بسطه : « لولا
أنا ما فرح قايتباى بالسلطنة قط » ... فلما سمع
السلطان قايتباى ذلك جرى على قانصوه ما لا خير
فيه . وكان يطلق لسانه في حق السلطان بسا
لا يلبق ، فحقده عليه السلطان بسبب ذلك كما قيل
في المعنى :

وقد يرجى لجرح السيف برء

ولا برء لما جرح اللسان

وفي ربيع الأول توفي الأمير ملاح اليوسفى
نائب القلعة ، وكان أصله من مماليك الظاهر
چقمق ، وكان دينيا خيرا رئيسا حشما عاقلا عارفا
بفنون الفروسية ، وكان لا يأس به .

وفيه تولى شخص من العوانية واحتكر بيع
الملح وضمنه بمكس — ولم يكن يعهد ذلك من

الحسنى المنفلوطى المالكى . وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، وتولى قضاء المالكية بعد أخيه حسام الدين ، وجرى عليه شذائد ومعن ، وعزل عن القضاء ودام معزولا حتى مات .

وفيه افتتنت طائفتان من الزعر ووقع بينهم أمور وشذائد يطول شرحها ، وصار يقتل بعضهم بعضا جهارا حتى أعيأ الوالى أمرهم .

وفى جمادى الآخرة توفى برد بك طرخان الظاهرى چقمق . وكان انسانا حسنا لا بأس به ، وكان بيده امرية عشرة يأكلها وهو طرخان .

وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة قناطر بنى منجا ، فخرج البدرى حسن بن الطولونى ومعه جماعة من البنائين والمهندسين بسبب العمارة ، وصرف على ذلك نحو من سبعة آلاف دينار . وكانت هذه القناطر قد تشعث وآلت الى السقوط ، فتدارك السلطان ذلك ، وجاءت من أحسن البناء .

وفيه توفيت ست الخلفاء بنت الخليفة المستنجد بالله سيدى يوسف ، وكانت بارعة فى الحسن ، فكثر عليها الحزن والأسف من الناس . وكانت أمها بنت قاضى القضاة البلقينى . وكان عقد لها على الأمير خشكلدى البيستى ثم فسخ العقد قبل الدخول ، ثم تزوج بها كاتب السر ابن مزهر ، ثم تزوجت بالقاضى قطب الدين الخيضرى ، ثم تزوجت بعده بالسيد الشريف اسحاق البردينى وماتت تحته ، وكان مولدها سنة ستين وثمانمائة .

وفيه ، فى يوم الجمعة ، كان عقد قانصوه خمسمائة على بنت الأتابكى أزبك من خوند بنت الظاهر چقمق ، عقد بجامع القلعة ، وحضر القضاة

الأربعة وأعاب الناس . وكان عقدا حافلا ، وأحضر السلطان عدة زبady صينى فيها سكر ومتنات فاكهة فرقت فى القلعة ، فكان كما قيل :

على أيمن الساعات عقد مبارك

بهى كما شاء الاله وأظهرا

سنى المعالى يسرت حركاته

إذا الله سنى عقد أمر تيسرا

وفيه جاءت الأخبار بأن جانم الأجرود الاينالى كاشف منفلوط قد فر الى بلاد النوبة ، وكان السلطان أرسل بالقبض عليه ففر من الخوف على نفسه ، وأقام مدة وهو هارب حتى بعث السلطان له بالأمان .

وفى رجب لما سعد القضاة للتهنئة بالشهر أمر السلطان بالقبض على جماعة القاضى الشافعى زين الدين زكريا ، فقبض على علاء الدين الحنفى النقيب ، وعلى أمين الحكم الصابونى ، وعلى جماعة من الجباة ، ووكل بهم لعمل الحساب لأجل أوقاف الشافعية التى تحت نظر قاضى القضاة الشافعى ، فاستمروا فى الترسيم بسبب هذه الواقعة نحو من ثلاث سنين والسلطان يتغافل عنهم .

وفيه خلع السلطان على القاضى نور الدين الحساوى ، وأعادته الى قضائه بحلب عوضا عن ابن الشحنة أبى البقاء .

وفيه توقف النيل عن الزيادة اثنى عشر يوما متوالية الى تاسع أيب ، فزاد قلق الناس بسبب ذلك ثم بعث الله بالزيادة واستمرت الى أن وفى .

وفيه كان دخول قانصوه خمسمائة على بنت أزبك أمير كبير ، فحمل الجهاز من الأزيكية الى دار قانصوه خمسمائة التى بقناطر السباع ، فلما

أخذ العلم عن أبيه ، ومولده سنة خمس
ونمائئة .

وفيه كان وفاء الليل المبارك في ثاني عشر
مسرى ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على
العادة .

وفيه قرر السلطان قرقماس بن ولى الدين في
امرية الآخورية الثانية وكانت شاغرة مدة ، وقرر
في باشية الجند بسكة المشرفة أزدمر الأشرفى
برسبای عوضا عن شاد بك أمير آخور الظاهرى
بحكم وفاته .

وفي رمضان خلع السلطان على الشيخ بدر
الدين بن الديرى وقرره في مشيخة الجامع
المؤيدى عوضا عن عمه تاج الدين ، فأقام بها مدة
يسيرة وسعى عليه محبى الدين عبد القادر ابن
الدهانة الحنفى فقرره السلطان بها وقد أورد مالا
له صورة .

وفيه وصل الأمير أقبردى الدوادار ، وكان
مسافرا نحو الوجه القبلى بسبب فساد عربان
طائفة الأحامدة ، وقد تقدم ما جرى عليهم منه .

وفيه خلع السلطان على الشيخ بدر الدين ابن
قاضى القضاة صلاح الدين المكينى وقرره في
مشيخة الخشائية عوضا عن الشيخ فتح الدين
محمد بن قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى
الشافعى بحكم وفاته في شهر رجب ، وقد سعى
فيها بدر الدين المكينى بمال له صورة حتى قرر
بها .

وفيه توفى القاضى عبد الغفار الميديمى الشافعى
أحد نواب الحكم ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ختم قراءة البخارى الشريف بالقلعة
— وكان بالحوش كالعام الماضى — وفرقت
الصرر على الفقهاء بحكم النصف ، وقطعت صرر

شق من القاهرة كان له يوم مشهود ، وكان
الحمالون الذين ينيلون الأمتعة زيادة على أربعمئة
حمال ، وقيل صرف على هذا الجهاز نحو من
مائتى ألف دينار . ولما كانت ليلة العرس عمل
بالأزبكية ، وكان مهما حافلا . ثم ان قانصوه
خسمائة ركب من باب السلسلة ، ومشت قدماه
الأمراء المقدمون بالشاش الذى يلبس في الجمعة
والأعياد ، وكذلك الخاصكية وبأيديهم الشموع
الى أن وصل الى الأزبكية ، وعد هذا الزفاف من
النوادر الغريبة ... لكن حصل للناس في تلك
الليلة غاية الضرر من الجلبان ، وخطفوا العمائم ،
وضربوا جماعة من الأمراء المقدمين ، وخطفوا
النسج من أيدي الخاصكية ، وما حصل تلك
الليلة منهم خير ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة .

وفيه رسم السلطان لكسبای المحتسب بأن
تجمع له أعيان التجار الذين بالأسواق . فلما
عرضوا على السلطان قال لهم : « ساعدوني بشيء
على خروج التجريدة » ... ثم فرض عليهم أربعين
ألف دينار ، فضجوا من ذلك وقالوا : « ما تقدر
على هذا القدر » ... فما زال يحط عنهم من ذلك
القدر والتجار يقولون ما تقدر على ذلك . فلما
طال الأمر بينهم وبين السلطان تقرر الحال على أن
يوردوا اثنى عشر ألف دينار اذا خرجت
التجريدة ، وانفض المجلس على ذلك .

وفي شعبان توفيت فاطمة بنت الجمالى يوسف
ناظر الخاص التى كانت زوجة الأمير خاير بك
سلطان ليلة ، وكانت رئيسة حشمة لا بأس بها .
وفيه توفى الشيخ تاج الدين ابن قاضى القضاة
سعد الدين الديرى الحنفى ، وكان تولى بعد
أبيه مشيخة الجامع المؤيدى . وكان عالما فاضلا

من له خلع ، وقد شح السلطان في الأيام التي
خلت في الشهر المذكور جدا

وفي سؤال جاءت الأخبار بوفاة نائب الشام
قجساس الاسحاقى الظاهري . وكان ديناً خيراً في
عابه الاحتشام مع لين جانب ، وكان انساناً حسناً
لا بأس به ، وهو الذى أنشأ المدرسة التى عند
الدرب الأحمر بفرب سوق العنم ، وأنشأ مثلها
بدمشق ، وله آثار حسنة غير ذلك .

وفيه تعير خاطر السلطان على شبك بن حيدر
والى القاهرة ، فأمر بنفيه الى الكرك ، فسمع فيه
أزبك الأمير الكبير ورده من الخائفاء ، فعزل من
الولاية وقرر في امرية عنرة .

وفيه بوفى الجلال أبو البقاء ابن النحنة
الحلبى الشافعى قاضى القضاة بحلب . وكان عالماً
فاضلاً تقلد بمذهب الامام الشافعى رضى الله عنه
ورحمه ، وكان والده حنفى المذهب ، فقدم الى
القاهرة معزولاً ومات بها ، وكان لا بأس به .

وفيه أرسل السلطان خلف قانصوه اليحياوى
الذى كان نائب الشام الذى كان بالقدس الشريف
وهو معزول بسبب ما تقدم ذكره ، فلما حضر خلع
عليه السلطان وقرره في نيابة الشام عوضاً عن
قجساس الاسحاقى بحكم وفاته .

وفيه خلع السلطان على مغلباى الشريفى الذى
كان استادار صحبة ، وقرره في ولاية القاهرة عوضاً
عن شبك بن حيدر ، ثم بعد مدة طويلة خلع على
اسبابى المبشر وقرره في استاداريته عوضاً عن
مغلباى .

وفيه جاءت الأخبار بفرار شاه بضاع بن دلغادر
وكان مسجوناً بقلعة دمشق ، فلما بلغ السلطان
ذلك تنكد الى الغاية ، ورسم بشنق نائب قلعة
دمشق ، ثم جاءت الأخبار بأن شاه لما فر من قلعة

دمشق توجه الى ابن عثمان فآكرمه وأقام عنده
الى أن كان من أمره ما سنذكره في موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير المحمل
أزدمر تمساح ، وبالركب الأول خاير بك كاشف
المحلة .

وفيه توفى مجد الدين اسماعيل الشطرنجى .
وكان علامة في نقل الشطرنج ، وجيهاً عند الأمراء
كثير العشرة للناس ومولده بعد الثلاثين
والثمانمائة

وفيه تغير خاطر السلطان على موفق الدين بن
القمص الأسلمى ناظر الدولة فضربه بالمقارع بين
يديه بالحوش ، وسلمه للأمير أقبردى الدوادار .
ثم خلع السلطان على شرف الدين بن البدرى
حسن وقرره في نظر الدولة عوضاً عن موفق
الدين الأسلمى .

وفي ذى القعدة جاء قاصد من عند ملك الغرب
صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله
تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعيينه على قتال
الفرنج ، فانهم أشرفوا على أخذ غرناطة ، وهو
في المحاصرة معهم ، فلما سمع السلطان ذلك
اقتضى رأيه أن يبعث الى القسوس الذين بالقمامة
التي بالقدس ، بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس
من أعيانهم الى ملك الفرنج ، صاحب نابل ، بأن
يكتب صاحب أشبيلية ، بأن يحل عن أهل مدينة
غرناطة ويرحل عنهم ، والا يشوش السلطان على
أهل القمامة ، ويقبض على أعيانهم ويمنع جميع
طوائف الفرنج من الدخول الى القمامة ، ويهدمها .
فأرسلوا قاصدهم ، وعلى يده كتاب الى صاحب
نابل ، كما أشار السلطان ، فلم يفد ذلك شيئاً
وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد .

وفيه توفى الشهاب الأبشيهى أحمد بن محمد

المحلى الشافعى ، وكان عالما فاضلا وثاب في الحكم مدة طويلة وكان رئيسا حشما وجيها عند الناس . وفيه توفى أزيك الأشرفى أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه كان علف الدواب غاليا ففرق السلطان الأضحية على الأمراء والجند قبل عيد النحر بخمسة وعشرين يوما فعد ذلك من النوادر .

وفى ذى الحجة فى سابع عشره خرج قانصوه اليحياوى الى نيابة الشام .

وفيه سقطت قبة جامع القلعة على المحراب والمنبر ، وقتل تحتها بواب الجامع وولده فرجت له القلعة وخرج السلطان وهو ماش حتى يرى ما سقط فى الجامع . وكان ذلك قبل يوم الجمعة بثلاثة أيام . فأمر السلطان بشيل الأتربة من الجامع ثم أخذ فى أسباب عمل قبة غيرها فجدد هذه القبة الموجودة الآن وجدد المنبر ، وكان قبل ذلك من الخشب فجعله من الرخام الملون ، وجدد عمارة الميضأة التى بالجامع فجاءت من أحسن البناء .

وفيه خلع السلطان على شخص من مماليكه يقال له سيباى بن بخت خجا وقرره فى نيابة سيسى عوضا عن قانصوه الجمالى بحكم وفاته .

وفيه تغير خاطر السلطان على الجمالى يوسف كاتب الممالك وأخذ منه تسعة آلاف دينار . وجدت عليه وعلى والده أبى الفتح نائب جدة أمور يطول شرحها حتى آل أمره الى ذهاب عقله واعتراه جنون .

وفيه قويت الاشاعات بثوران فتنة من الممالك الجلبان ، وكثر الثال والقتيل فى ذلك ونقل غالب الأمراء وأرباب الدولة أمتعتهم من الدور خوفا من النهب عند وقوع الحركة . فلما تزايد الكلام

فى ذلك صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم بعد الصلاة جلس بالحوش ، ثم أحضر أغوات الأطباء وأعيان المساليك الجلبان ، وكلمهم كلاما كثيرا ووبحهم بالكلام حتى قال : « اذا كان قصدكم قتلى فدوكم ذلك » فاستغفروا له . ثم آل الأمر الى صلحهم مع السلطان ، وسكون هذه الفتنة قليلا . فلما خرجوا من عنده عادوا لما كانوا عليه من ثوران الفتنة حتى أشيع بين الناس أن السلطان قد تهيأ للفرار بنفسه ، ولم يعلم أين يتوجه ، وقد تزايد القول فى ذلك فكان كما يقال :

لعمري ما صاقت بلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقد خرجت السنة المذكورة عن الناس وهم فى أمر مريع وكانت الأسعار مرتفعة فى سائر البضائع ، والاشاعات قائمة برجوع عسكر ابن عثمان وزحفهم على البلاد الحلية ، والاشاعات قائمة بثوران فتنة كبيرة بمصر بين الجلبان والأمراء واقفة ، والسلطان ناظر الى الظلم وأخذ أموال الناس ، والأمر لله .

سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة (١٤٨٧ م) :

فيها ، فى المحرم ، سافر قانصوه اليحياوى الى الشام — وقد تقدم أنه تقرر فى نيابة الشام — فخرج فى موكب حافل

وفيه سمح خاطر السلطان بأن ينفق على مماليكه توسعه على نزول خيولهم من الربيع ، فأعطى لكل مملوك عشرة دنانير ، والقراصة خمسة دنانير ، والسبفية ثلاثة دنانير ، فصرف فى هذه الحركة جملة مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بقتل احسن بن سليمان بن عيسى بن عر الهوارى ، أخى داود بن عمر أمير

هواره . قتله بعض أعدائه من العربان وكان شابا حشما لا بأس به .

وفيه توفى جاني بك حبيب العلاني الاينالى أحد الأمراء الطبلخانات وأمبر آخور ثاني ، وكان رئيسا حثما حلو اللسان حسن العبارة سيوسا دريا عارفا فصيح اللسان بالعربي . توجه فاصدا الى يعقوب بن حسن الطويل ، ثم توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، وكان مقبول الشكل حسن الوجه ومات ولم يظهر الشيب بلحيته ، وجرى عليه شذائد ومحن في دولة الظاهر خشقدم ، وفر الى بلاد العرب وأقام بها حتى توفى الظاهر خشقدم ، فعاد الى مصر وصار له خصاصة بالأشرف قايتباي .

وفيه توفى بيبرس اليوسفي الظاهري أحد العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه بلغ سعر الراوية من الماء نحو ثلاثة أنصاف ، وذلك بسبب عدم وجود الجمال لتسلط الممالك الجبلان على السقائين لأجل الدريس ، فحصل للناس غاية المشقة بسبب ذلك .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة . وكان أشيع عنهم أمور شريعة فظهر أن ذلك كذب . وكان أشيع عنهم أن طائفة عربان الأحامدة قد استولوا على الحجاج ولم نج منهم أحد .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان أرسل عسكريا عظيما ، وقصد محاربة عسكر مصر . فتأكد السلطان لهذا الخبر .

وفيه حضر خضر بك نائب القدس فحضر بين يدي السلطان ضربا مؤلما ، وأقام بالترسيم حتى أورد مالا له صورة ، وكانت كثرت فيه الشكاوى عند السلطان ، وآل أمره الى أن عزل عن نيابة القدس .

وفيه قرر السلطان دقماق السيفي اينال الأشقر

في نيابة القدس عوضا عن خضر بك بحكم صرفه عنها .

وفيه جاءت الأخبار من نغر الاسكندرية بوفاة السلطان الملك المؤيد أبي الفتح أحمد ابن الملك الأشرف اينال العلاني الجركسي ، وكانت وفاته في ليلة رابع عشر الشهر المذكور . فلما بلغ السلطان ذلك أخذ في أسباب احضار جثته الى القاهرة ودفنه على آبيه الأشرف اينال ، وكان المؤيد هذا رئيسا حثما قليل الأذى وجرى عليه شذائد ومحن ونفى الى الاسكندرية ودام بها الى أن مات وهو في عشر الخمسين .

وفيه وقع من الوقائع الغريبة أن محب الدين أبا الطيب الأسيوطي بلغه أن السلطان تغير خاطره عليه ، وقصد الاخراق به . فلما تحقق ذلك توجه الى المقياس ، وألقى نفسه في البحر عمدا فغرق ومات ، وكان عالما فاضلا من ذوى العقول رئيسا حثما وجيها عند الأمراء وأرباب الدولة ، وكان من أعيان موقعي الحكم وكان عارفا بأمر صنع التوقيع ، وكان اسمه محمد بن محمد بن علي بن عمر بن حسن القاهري الشافعي ، ومولده سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ولكن هانت عليه نفسه لما تأمل ما سوف يجري عليه . وكان له أعداء كثيرة فخاف على نفسه من السلطان فكان كما قيل في المعنى :

لا تظهرن لعداذل أو عاذر

حاليك في السراء والضراء

فلرحمة المتوجعين حرارة

في القلب مثل شماتة الأعداء

وفي ربيع الأول قرر السيد الشريف موفق

الدين الحموي في نظر الجيش بدمشق ، عوضا

عن محيي الدين عبد القادر بحكم وفاته ، وقرر ولده عبد الرحيم في كتابة السر بدمشق .

وفيه قرر ايدكى الأشرفى في نيابة القلعة بدمشق عوضا عن على بن چاهين بحكم صرفه عنها .
وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا على العادة في العام الماضى .

وفيه أحضر السلطان بترك النصارى ورئيس اليهود وقرر على طائفة اليهود والنصارى مالا له صورة بسبب خروج التجريدة الى ابن عثمان ، وهذا أول فتح باب المصادرات للناس .

وفيه قرر السلطان بركب المحمل چان بلاط الأشرفى الخاصكى أحد الدوادارية ، وقرر بالركب الأول كرتباى كاشف البحيرة .

وفيه أنعم السلطان على مملوكيه — وهما قانصوه الألفى وقانصوه الشامى — بتقدمة ألف

وفيه من الحوادث أن السلطان رسم بتوسيط مجد الدين ابن البقرى ، وقد جرى عليه شذائد ومحن وسجن بالمقشرة زيادة على ست سنين . وكان السلطان يكرهه طبعاً . وقد بلغه أن مجد الدين هذا لما قتل يشبك الدوادار ، أظهر الشماتة به وتخلق عياله بالزعران . وكان حصل له مع يشبك كائنة عظيمة ، فلما فرح به وأظهر السرور بلغ السلطان ذلك ، فتأثر منه وجرى له ما جرى . وكان مجد الدين رئيساً حشماً ولى الاستادارية غير ما مرة ، وكذلك الوزارة ، وكان أصله من القبط ، واسمه شاکر بن علم الدين ، ووسطوه ببركة الكلاب ، ثم حملوه الى تربة ابن عمه بحى فدفن بها ، وكان عنده عنف وظلم .

وفيه عمل السلطان الموكب وخلع على جماعة من الأمراء ، فقرر برسباى قرا في امرية مجلس

عوضا عن أزدر قريب السلطان بحكم عوده الى نيابة حلب ، وكانت امرية مجلس شاغرة في هذه المدة . وقرر يعرى بردى ططرفى الرأس نوبة الكبرى عوضا عن برسباى قر' ، وقرر تانى بك الجمالى في حجوية الحجاب عوضا عن تغرى بردى ططر بحكم انتقاله ، وقرر شبك بن حيدر الذى كان والى القاهرة أمير آخور ثانى عوضا عن جاني بك حبيب وكان بيده امرية طبلخانات ، وقرر شاد بك ابن مصطفى المعروف بالخوخ في نيابة القلعة عوضا عن ملاح بحكم وفاته .

وفي ربيع الآخر خلع السلطان على اسنباى المبسر الأشرفى ، وقرره في استادارية الصحبة عوضا عن مغلباى بحكم انتقاله الى ولاية الشرطة ، وقرر ابنال الفقيه الظاهرى في الحجوية الثانية عوضا عن تانى بك الأبناسى ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة . وقرر كرتباى ابن أخت السلطان في معلية الدالين ، وهى وظيفة تاجر الممالك ، عوضا عن قانصوه الشامى بحكم انتقاله الى التقدمة .

وفيه أنعم السلطان بامريات عشرة على جماعة من خاصكيته ، منهم قانصوه السيفى أقبردى ، وقانصوه بن فارس المعروف بقرار ، ودولات باى الفلاح ، وجان بلاط الغورى ، وسودون العجمى واصطمر بن ولى الدبن ، وآخرون .

وفيه صرف، شرف الدين بن البدرى حسن عن نظر الدولة وضرب بين يدى السلطان . وخلع على قاسم شغيته وأعيد الى نظر الدولة .

وفيه من الحوادث أنه في يوم الخميس عاشره جلس السلطان على الدكة بالحوش على العادة فثارت ريح عاصف فوفعت من شدتها السحابة التى بالحوش فأصاب جماعه من الأمراء وجرح تانى بك

الجمالى حاجب الحجاب فى وجهه ، وقد وقع عمود السحابة التى بالحوش عليه وجرح أيضا دولات باى الحسنى وطاحت خفائف الأمراء وعنائم المباشرين فقام السلطان من وقته ودخل الى البحرة ، وتهارب العسكر وظنوا أنها القيامة ، وهرب الفراشون أصحاب النوبة خوفا على أنفسهم من السلطان ، وقد أظلم لجو ظلمة شديدة وقام رعد وبرق تم أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى جرى السيل فى الأسواق والشوارع ، وكان يوما مهولا .

وفيه جاءت الأخبار من سيس بأن فى ذلك اليوم وقتت بها صاعقة مهولة هدمت سور قلعتها وقتل بها من الناس جماعة

وفيه توفى شرف الدين عبد الباسط ابن البقرى أخو مجد الدين شقيقه ، وكان رئيسا حشما ولى عدة وظائف سنية منها نظر الاصطبل ونظر الأوقاف ونظر الدولة وكان وجيها عند الناس حسن الهيئة ، وكان بين موته وموت أخيه نحو من شهر وقيل مات مسموما .

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار من حلب بأن ابن عثمان جهز عسكرا وقد وصل الى اذنة . فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، ونادى بالعرض . فحضر الأتابكى أزيك باش العسكر فكتب بحضرته من الجند نحو من أربعة آلاف مملوك . وعين من الأمراء المقدمين أحد عشر أميرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات زيادة عن ستين أميرا ، حتى عدت هذه التجريدة من نوادر التجاريد . وفد بلغ السلطان أن ابن عثمان جمع من العساكر ما لا يحصى . فلما عرض الجند وعين الأمراء أخذ فى أسباب تفرقة النفقة . ثم انه عين ثلاثة من الخاصكية بأن يسيروا على الهجن لكشف

أخبار ابن عثمان ، وما يكون من أمره ، واستحثهم على الخروج ورد الجواب عليه بسرعة . ثم عين أقبردى الدوادر وكتب السر أن يتوجها الى جبل نابلس بسبب جمع العشراوات من جبل نابلس . وفيه جاءت الأخبار بأن يعقوب بن حسن الطويل وقع بينه وبين صاحب هراة من الفتن ما لا يعبر عنه ، وآل أمره الى كسرة يعقوب وانهزامه ، وقتل من عسكره ما لا يحصى ، فشق ذلك على السلطان .

وفيه قرر السلطان شرف الدين ابن البدرى حسن فى نظر الأوقاف عوضا عن شرف الدين ابن البقرى بحكم وفاته . وقد وليها ابن البدرى حسن غير ما مرة .

وفيه تغير خاطر السلطان على الأمير دولات باى الحسنى وأمر بنفيه الى مكة ، فخرج الى الخائقاء ثم طلع أزيك الأمير الكبير وشفع فيه حتى عاد الى داره .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جاني بك الابراهيمى الطويل الأشرفى ، نائب صفد ثم دوادار السلطان بحلب وكان لا بأس به ، وقرر بدوادرية السلطان بحلب أركماس بن ولى الدين عوضا عن دوادار السلطان بحكم وفاته .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر ابن عثمان قد استولى على قلعة اياس من غير قتال ولا مانع ، فتأكد السلطان لهذا الخبر .

وفى جمادى الآخرة بعث السلطان ثقات الأمراء المقدمين والعشراوات فبلغت النفقة على الأمراء خاصة دون الجند مائة ألف دينار وثلاثة آلاف دينار ، والأمراء المعينون الى التجريدة كما تقدم هم الأمير الكبير أزيك وتمراز أمير سلاح وبرسباى قرا أمير مجلس وقانصوه خمسمائة أمير آخور

بالريداية واستمروا هناك الى أن رحلوا ولم تخرج
من مصر نجريدة أعظم من هذه لا في زمن الظاهر
برقوق ولا غيره .

وفيه قبض السلطان على أبي الفتح المتوفى نائب
جدة ورسم عليه ببطيخة الزمام ، وكان حصل له
ماليخوليا وطرف جنون . ثم خلع على جاهين
الجمالى وقرره في نيابة جدة عوضا عن أبي الفتح
ثم أمر السلطان بتوجه أبي الفتح الى البيمارستان
فانه لما أحضره السلطان وكله رد له جواب من في
عقله خلل ، فأمر بضربه بالمقارع فشفع فيه بعض
الأمراء . وشهد جماعة من المباشرين بأنه قد
حصل له ماليخوليا ، وأمر بأن ينزلوا به الى
البيمارستان ، وهو ماش مكشوف الرأس عريان
وفي عنقه زنجير ، ورسم بأن يدعوه عند المجانين
ففعلوا به ذلك فأقام بالبيمارستان أياما ثم شفع
فيه فعاد الى طبقة الزمام وأقام في الترسيم . وكان
أبو الفتح في خدمة السلطان مذ هو شاد
الشراپ خاناه . وكان عنده من المقربين ثم غربه
ووقع له أمور يطول شرحها .

وفيه توفي برسباى الطلاشى الشسى الظاهرى
أحد العشراوات وكان من خشداسى السلطان وكان
لا بأس به .

وفي رجب بلغ السلطان أن العربان قالت ان
مصر ما بقى بها من العسكر الا قليل ، وزاد طمعهم
في الترك . فرسم السلطان لمن بقى بالقاهرة بأن
يركبوا في كل يوم أحد وأربعاء ويتوجهوا نحو
المطرية ويعودوا ويشقوا من القاهرة ، وفي أوساطهم
السيوف والطرايش فصاروا يفعلون ذلك في كل
يوم أحد وأربعاء ، ويدخلون من القاهرة أفواجا
أفواجا وتقعده الناس على الدكاكين لرؤيتهم ،
فأقاموا على ذلك مدة ثم بطل .

كبير وتغرى بردى مطر رأس نوبة النوب وتانى بك
الجمالى حاجب الحجاب ، ومن الأمراء المقدمين
غير أرباب الوظائف أزيك اليوسفى المعروف
بالخازندار وتانى بك قرا الاينالى ، ويشبك الجمالى
السينفى ناظر الخاص وقانصوه الألفى وقانصوه
الشامى ، ونحو من خمسين أميرا من الأمراء
الطبلخانات والعشراوات ، ثم أنفق على الجند
على العادة فكانت جملة النفقة على الأمراء والجند
نحو من ألف ألف دينار حتى عد ذلك من النواذر
ولم يسمع فيما تقدم من الدول الماضية أن أحدا
من السلاطين فعل مثل ذلك . وكانت نفقة أزيك
الأمير الكبير وحده ثلاثين ألف دينار . وكانت
عادة نفقة الأتابكية الى دولة الظاهر برقوق عشرة
آلاف دينار ، ولم يسمع بأوسع من هذه النفقة
قط فكان كما قيل :

تهب الألوفا ولا تهاب ألوفا

هان العدو عليك والدينار

فلما أخذ الماليك النفقة أطلقوا في الناس النار
وأخذوا البغال والخيول حتى أكاديش الطواحين ،
وحصل منهم الضرر الشامل في حق التجار وغيرهم .
وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب باستيلاء
ألفنش صاحب قشتيلة على مدينة مالقة من بلاد
الأندلس ، وكانت كائنة عظيمة وقعت هناك .

وفيه كان خروج أزيك أمير كبير ومن عين معه
من العسكر ، وكان يوما مشهودا . واستمرت
الأطلاب تتسحب من اشراق الشمس الى ما بعد
الظهر ، وخرج العسكر وهم لابسون آلة السلاح
حتى عد ذلك من النواذر . وكان طلب أزيك أمير
كبير وقانصوه خمسمائة غاية في الحسن حتى
قيل كان مصروف طلب قانصوه خمسمائة نحو
من ثمانين ألف دينار . ثم ان الأمراء برزوا ونزلوا

وفيه كان انتهاء القبة التي جددتها السلطان بالجامع بالقلعة عوضا عن التي سقطت ، وجدد المنبر فجاء من أحسن ما يكون من البناء

وفيه من الحوادث أن السلطان جدد مظلمة شنيعة . وهو أنه أرسل لكشاف الغريبة والشرفية بأن يأخذوا من البلاد الخمس من خراج المقطعين ، بسبب تجهيز خيالة من الشرقية من عربائها العشير يتوجهون نحو العسكر عونه بسبب قتال عسكر ابن عثمان . فحصل للمقطعين غاة الضرر من كبس البلاد وقبض الفلاحين ونسب ذلك الى شرف الدين بن البدرى حسن فانه كان هو القائم في ذلك الوقت ، فوعده المماليك الجلبان بالقتل ونهبوا بيته فيما بعد . وفد جبي الخمس مرتين من خراج المقطعين سنتين متواليتين ولم تخرج خيالة من الشرقية ، وكانت زيادة مظلمة أخرى .

وفيه وصل الزينى أبو بكر بن مزهر كاتب السر وفد تقديم القول أنه خرج الى نابلس صحبة الأمير أقبردى الدوادر بسبب جمع العشير من جبل نابلس لأجل التجريدة الماضى ذكرها ، فحضر وهو متوعك في جسده فلم يقابل السلطان ولا طلع الى القلعة ، واستمر ملازم الفراش حتى مات ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفيه وصل قاصد ملك الفرنج الأنكيروس من بنى الأصفر وصحبته هدية حافلة للسلطان فأكرمه وأنزله في مكان أعده له .

وفيه توفى دولات باى بن مصطفى الأشرفى المعروف بالأجرود نائب غزة ثم بفى أحد الأمراء المقدمين بدمشق وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم ابن على الشافعى ، شيخ مدرسة كاتب السر بن مزهر التي أنشأها بحارة برجوان ، وكان من أهل

العلم والفضل وله شهرة بمصر وكان لا بأس به . وفيه جاءت الأخبار بوفاة تغرى بردى ططر التشى الظاهرى جقمق رأس نوبة النوب توفى بحلب ، وكان من أجل الأمراء وتولى عدة وظائف سنية منها نيابة القلعة بمصر ثم بفى مقدم ألف ثم بفى حاجب الحجاب ثم بفى رأس نوبة كبيرة ، ومما وقع له أن الأمراء كلهم خرجوا بالأطالاب ما عداه فانه خرج من غير طلب ، فلما طلع الى القلعة مقتته السلطان بسبب ذلك ، فقال له تغرى بردى ططر : « لا تمقتنى ولا أمقتك أنا ما بقيت أرجع من هذه السفرة » . وكان الأمر كذلك ، كما يقال : « ان البلاء موكل بالمنطق » .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن ابن عثمان بعث عدة مراكب من البحر وهى مشحونة بالسلاح والعسكر ، وقد وصلت الى جهة باب الملك ليقاطع بها على العسكر المصرى ، فما تم له ذلك وخذله الله تعالى ، وكانت النصره لعسكر مصر كما سيأتى ذكره .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد وفى حادى عشر مسرى فتوجه أقبردى الدوادر وفتح السد على العادة ، ولم يقع لأقبردى أنه نزل وفتح السد غير هذه السنة بموجب غياب الأمير الكبير وبقيّة الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفيه خلع السلطان على فارس المنصورى وقرره في نيابة دمياط عوضا عن شاد بك الأشقر بحكم صرفه عنها .

وفى ثالث رمضان كانت وفاة الزينى أبى بكر ابن مزهر ، كاتب السر بالديار المصرية ، وهو أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن عثمان ، المعروف بمزهر الدمشقى الأنصارى الشافعى . وكان عالما فاضلا ، عارفا

بالفقه رئيسا حنسا انتهت اليه رياسة عصره ، وكان
وحبها عند الملوك والساطين ، ونولى من الوظائف
السنية عدة . منها نظر الاصطبل ونظر الجيش
وكتابة السر ، ودام بها نيفا وعشرين سنة حتى مات
وهو مفرر بها ، وتكلم في وظيفة قضاء الشافعية
مدة ، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة وكان
قد تناخ وكبر سنة فلما مات رثيته بهذين البيتين
من قصيدة قتلها فيه :

صارت مرامله كشل آراملى
تبكى بأعينها دما وتترب

وكذا الدواة تسودت أقلامها
حزنا عليه وأقسمت لا تكب

وكانت جنازته مشهودة ، وغطى نعشه بمرقعة
من الصوف . فلما توفى خلع السلطان على ولده
المفر البدرى محمد ، وقرره في كتابة السر بمصر
عوضا عن أبيه بحكم وفاته . وذلك في يوم الخميس
سادس عشره ، وأخذ منه مالا له صورة حتى تولى
هذه الوظيفة ، وكان شابا في عشر الثلاثين لما قرر
في كتابة السر وكان السلطان محتفلا به فاستخلص
منه أموال أبيه بحسن عبارة . ولما تولى كتابة السر
فلت فيه هذين البيتين :

تشرف ذا الانشاء من آل مزهر
بنجل سما قدرا وشاع له ذكر

أضاعت به الأيام في مصر بهجة

ولم لاوقد أضحي يلوح لها البدر
وفيه جاءت الأخبار أن أربك الأمير الكبير ملك
باب الملك ، واستخلصه من أيدي عسكر ابن
عثمان بعد أن أتوا اليه في ستين مركبا وهى
مشحونة بالسلاح والمقاتلين ، فقلق العسكر من
ذلك واقطعت قلوبهم وظنوا أنهم المأخوذون .
فبينما هم على ذلك اذ بعث الله تعالى بريح عاصفة

ففرق غالب تلك المراكب في البحر الملح ، والذي
فر من البحر من العسكر العسائى وطلع الى البر
فتسله العسكر المصرى . وكانت البصره لهم على
العثمانية وكانت على غير القياس . فلما تحقق
السلطان هذا الخبر سر به ولم يصدق بذلك .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بوفاة
صاحب تونس السلطان المتوكل على الله عثمان بن
محمد بن محمد بن العزيز أحمد الهنائى
الموحدى ، وكان ملكا جليلا أقام في الملك نحو
من أربع وخمسين سنة ومات وهو في عشرين التسعين
سنة . ومما مدحه به بعض شعراء الغرب :

بفيت ولا أبقي لك الدهر حاسدا
فانك في هذا الزمان فريد

علائك سوار ، والممالك معصم
وجودك طوق ، والبرية جيد

ولما توفى تولى بعده ولد ولده يحيى المعروف
بالحفيد فلم تطل أيام مدته ، وقتل واستطال عليه
أعمامه .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة سيباى بن تانى باى
الطيورى الظاهرى نائب حماه وكان لا بأس به .

وفيه ورد الخبر من أربك الأمير الكبير بأنه في
ثامن رمضان وقعت معركة عظيمة بين عسكر مصر
وعسكر ابن عثمان فقتل من الفريقين ما لا يحصى ،
وكان ممن قتل من أمراء مصر دولات باى الحسينى
رأس نوبة ثانى أصيب بمدفع ، وقتل من ممالك
السلطان عدة وافرة ومن العسكر العثمانى أكثر .
وقد هزموا العثمانية وغنم منهم عسكر مصر أشياء
كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك ، فلما سمع
السلطان بهذا الخبر أمر بدق البشائر بالقلعة
سبعة أيام .

وفيه أعيد زين الدين الحسيني إلى قضاء الحنفية بدمشق وصرف عنها مجد الدين الناصري وسجن بقلعة دمشق .

وفيه توفي الناصري محمد بن محمد بن صلاح الدين ابن الملك الظاهر بيبرس البندقداري وكان رئيساً حشماً من مشاهير أولاد الأسياد .

وفي ذي القعدة توفي القاضي خير الدين الشنشي محمد بن عمر بن محمد بن حسن بن موسى القاهري الحنفي ، وكان من أعيان نواب الحنفية ، وكان عالماً فاضلاً عارفاً رئيساً حشماً وترشح أمره لأن يلي قضاء الحنفية بسمر ، ولم يل ذلك وما تم له . ومولده سنة أربعين وثمانمائة .

وفيه قرر شخص يقال له محب الدين ، وكان أصله من الأقباط ، فقرر في نظر الجيش بدمشق عوضاً عن السيد الشريف موفق الدين بحكم صرفه عنها . فعيب ذلك على السلطان ، واتفق أن محب الدين المذكور لما دخل إلى الشام أقام بها أياماً ومرض ومات . وكان قد جد في السعي على الشريف موفق الدين وأورد مالا له صورة .

وفيه ضرب السلطان شخصاً من نواب الحنفية يقال له شهاب الدين بن القصيف ، ورسم بنفيه إلى الواح ، فشفع فيه وكتب عليه قسامة بأنه لا ينوب في الحكم قط ولا يسعى في ذلك بل ولا يشهد في شيء من الأمور الشرعية لأمر أوجب ذلك .

وفيه أحضرت جثة دولات باي الحسني رأس نوبة ثاني من أدنة ودفنت بمصر في تربته .

وفي ذي الحجة توفي الشيخ تقي الدين السخاوي واسمه أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد القاهري الشافعي ، وكان عالماً فاضلاً بارعاً

وفي شوال وصل مغلباي البجقمدار أحد الأمراء العشراوات من مساليك السلطان وصحبته عدة رءوس قطعت من عسكر ابن عثمان وكانت نحواً من مائتي رأس ، فشق مغلباي من القاهرة وقدمه تلك الرءوس وهي على الرماح ، وكان له يوم مشهود . فخلع عليه السلطان ونزل في موكب حافل ، ثم أخبر بوفاة مغلباي القهلوان المحمدي الأشرفي الإينالي أحد الأمراء العشراوات رءوس النوب ، وكانت وفاته بحلب ، وكان عارفاً بفن الصراع علامة فيه .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر العثماني بعد ما حصلت له هذه الكسرة عاد أيضاً إلى أدنة ، وأن العسكر المصري شرع في حصارهم بها ، وقد تسادى الأمر في ذلك حتى أخذت بعد مضي ثلاثة أشهر ، وقتل في مدة هذه المحاصرة من الفريقين ما لا يحصى ، وآل الأمر إلى أخذها بالأمان ، وجرى في ذلك أمور يطول شرحها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركبهم المحمل جان يلاط الخاصكي أحد الدوادارية ، وبالركب الأول كرتباي الكاشف . وحج في تلك السنة داود بن عسر أمير عربان هواره .

وفيه توفيت دولات باي الجركسية سريّة الظاهر جقمق ، وهي زوجة برقوق نائب الشام . وكانت دينة خيرة لا بأس بها .

وفيه أرسل السلطان مخلعة إلى اينال الخصيف باستقراره في نيابة حمّاه وقد سعى له أزبك الأمير الكبير في ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قائم دهيشة بن أزدمر الأشرفي الخاصكي الساقى أحد خواص السلطان . خرج إلى دمشق في بعض مهمات السلطان بدمشق فمات بها وكان شاباً جميل الصورة حسن الشكل لا بأس به .

، الحديث ، سمع على الحافظ بن حجر وغيره ،
كان لا بأس به .

وفيه قدم الزينى محسود بن أجا قاضى قضاء
حنفية بحلب ، فأقام بالقاهرة مدة ، ثم عاد الى
لب على وظيفته .

وفيه توفى يرسباى العلائى الطويل الظاهرى
بد الأمراء الطبلخانات وكان يعرف بالبواب فمات
الك لما خرج فى التجريدة .

وتوفى قرقاس المحمدى الظاهرى المعروف
لمعلم ، وكان أحد الأمراء العشراوات ، وكان
رفا بفنون الرمح علامة . وتوفى ملاج الظاهرى
يقيمى أحد الأمراء العشراوات وكان دينا خيرا
، ذوى العقول . ومما وقع له أنه كان ييده اقطاع
إب وعنده عيال كثيرة وأولاد عدة فوقف الى
سلطان وشكا له حاله ، وأن اقطاعه خراب
يحصل له منها شيء ، فلم يلتفت السلطان الى
دمه ، فنزل الى داره ودخل الى طبقة مهجورة
دم ، وعمد الى سلبة وربطها فى سقف الطبقة ،
مل فيها خية وشنق نفسه بها فمات . وقد هانت
ه نفسه من شدة قهره ، وكان ساكنا فى الجودرية
اح القتل فى كيسه ولم يرث له أحد .

وفيه جاءت الأخبار بقتل صاحب طرابلس
سرب ، واسمه أبو بكر بن عثمان بن محمد
نفسى ، قتله صاحب تونس وقتل ولده أيضا
حاعة من أعوانه .

وتوفى فى السنة المذكورة جماعة كثيرة من
بيان منهم قاضى الاسكندرية وهو محمد بن
مد عوض المالكى ، وكان لا بأس به .

بـ أربع وتسعين وثمانمائة (١٤٨٨ م) :

فيها ، فى المحرم ، لما طلع القضاة لتهنئة السلطان

رسم يعرض نواب الشافعية ونواب الحنفية وكلهم
كلاما مزعجا وأمر بإبطال جماعة منهم وجرت أمور
يطول شرحها ، ثم آل الأمر الى التحجير عليهم فى
الأحكام الشرعية وألا يسجنوا الخصم الا باذن
من القاضى الشافعى والحنفى ، وعم ذلك سائر
النواب .

وفيه تغير خاطر السلطان على الطواشى خشقدم
الزمام وخازن داره ووزيره أيضا ، فرسم بالقبض
عليه فى وسط الحوش وهم بضربه ، ثم آل الأمر
الى أن خرج منفا الى سواكن ، واحتاط على
موجوده قاطبة واستمر منفا الى أن مات هناك .
وكان عنده عسف وظلم وشدة بأس وسفاهة لسان
وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا يقال
له عبد القادر بن الرماح وكان له خصاصة بالسلطان
قال له ان الشيخ عبد القادر الدشوطى رحمه الله
ورضى عنه شخص من عباد الله الصالحين ، وكان
قصد السلطان الاجتماع عليه ، فأخبره أنه يتردد
الى جامع محسود فى مكان عنده بالقرافة تحت
الجبل المقطم ، فقال له السلطان : « ان حضر هناك
أعلمنى » . فعسده عبد القادر بن الرماح الى شخص
كان شبيها بالشيخ عبد القادر الدشوطى ، وكان
يدعى أنه شريف ، فأعلم السلطان بأن الدشوطى
يحضر تلك الليلة الى المكان المذكور ، فصلى
السلطان العشاء ونزل وصحبته ثلاث أنفس فأتى
الى ذلك المكان ونزل عن فرسه ، فوجد ذلك
الشخص جالسا ورأسه فى عبه ، فشرع السلطان
يقبل رجله ويقول : « ياسيدى اجمل حملتى مع ابن
عثمان » . فصار ذلك الشخص يغرب عليه ، ويقول
له : « أنت ما ترجع عن ظلم العباد » . فطال المجلس
بينهما . ثم ان السلطان دفع له كيسا فيه ألف
دينار ، وقيل خمسمائة دينار ، فصار يمتنع من ذلك

والسلطان يتلطف به ويقول له : « فرق ذلك على الففسراء » . ثم ركب ومضى وهو يظن أنه الدشوطى .

ثم بعد أيام انكشفت هذه الواقعة ، وظهر أنها مفتعلة . فلما تحقق السلطان ذلك ، أحضر عبد القادر بن الرماح والشخص الذى تزيا بزي الدشوطى وخدام المكان الذين كانوا به ف ضربوا بين يدى السلطان بالمقارع . وأما عبد القادر ابن الرماح الذى كان سببا لذلك فرسم السلطان بحلق ذقنه وشهره فى القاهرة على حجارة ، ثم سجنه بالمقشرة الى أن مات عقيب ذلك . وكانت هذه الواقعة من أغرب الوقائع التى لم يسمع بشئها مع أن عبد القادر بن الرماح كان من ذوى العقول ، ولكن قد بخبو الزناد ويكبو الجواد ، كما يقال :

وانى رأيت المرء يشقى بعقله

وقد كان قبل اليوم يسعد بالعقل

وفى صفر أنعم السلطان على مملوكه جان بلاط بن يشبك بامرية عشرة ، وهى أول استظهاره فى العلو والرفعة ... وجان بلاط هذا هو الذى تسلطن فيما بعد .

وفيه جاءت الأخبار أن صاحب فاس من بلاد الغرب قد غزا الفرنج ، واستخلص منهم عدة بلاد كانت أخذت من أيدي المسلمين ، فأعادها لهم ، وقتل أخوه فى المعركة .

وفيه صار العسكر الذين من مماليك السلطان يدخلون الى القاهرة شيئا فشيئا قبل حضور الأتابكى أزيك فتأكد السلطان لذلك .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى وكان غالب الأمراء مسافرين فى التجريدة ، وكان أمر السباط فيه بحكم النصف على العادة .

وفيه بلغ السلطان أن المماليك الذين تحضروا من التجريدة قصصوا أن يشيروا فتنة كبيرة ، ويطلبوا من السلطان نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم . ثم بلغ السلطان أن المماليك قالوا ان كان السلطان لا يعطينا نفقة قتلنا الأمراء والمماليك الذين كانوا بمصر ولم يسافروا ، وذكروا كلمات كثيرة من هذا النمط . فلما تحقق السلطان ذلك أخذ فى أسباب نحصيل المال ، واجتمع السلطان بالقضاة الأربعة ، وذكر لهم أن الخزائن تفقد ما كان فيها من المال ، وأن المماليك يقصصون نفقة ، وان لم أنفق عليهم شيئا يشيروا فتنة كبيرة ... فاتفق الحال على أن يؤخذ من أرباب الأملاك والأوقاف التى بمصر والقاهرة أجرة شهرين مساعدة للسلطان على النفقة . وانفض المجلس على ذلك .

ثم ان السلطان أمر تغرى بردى الاستادار بأن يتكلم فى ذلك هو وناظر الخاص ابن الصابونى ، فاقتمسوا التصرف فى ذلك ، وشرعوا فى جباية المال .

وفيه دخل الأمير الكبير أزيك ومن كان معه مسافرا فى التجريدة من الأمراء وبقية العسكر ، وكان لهم يوم مشهود . ومن العجائب أنه فى حالة دخولهم الى القاهرة أشيع بين الناس عودهم الى حلب عن قريب ، لأن عسكر ابن عثمان قد استولى على سيس ، وعلى طرسوس ، وغير ذلك من البلاد الحليية . وحضر مع أزيك الأمير الكبير جماعة كثيرة من عسكر ابن عثمان ، أتوا طائعين باختيارهم ، فأنزلهم السلطان فى ديوانه ، وقرر لهم الجوامك ، وهم الى الآن باقون فى الديوان يسمون العثمانية .

ثم قويت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، وأن

عليك قد صمموا على أخذ النفقة لكل واحد
مائة دينار ، فقلق السلطان لهذه الاشاعات ،
استند عليه الأمر .

وفي يوم السبت رابع ربيع الآخر جلس السلطان
الدكة بالحوش ، وأرسل خلف القضاة الأربعة
سائر الأمراء ، فلما تكامل المجلس قال السلطان
للمراء والقضاة : « هؤلاء المماليك يرومون مني
نفقة ، وقد نفذ جميع ما كان في الخزائن من المال
للمتجاريدين ، ولم يبق بها شيء من المال » . ثم
قسم بالله أنه نفذ منه على التجاريد من حين ولي
سلطنة الى الآن سبعة آلاف ألف دينار ومائة
 وخمسة وستون ألف دينار . ثم قال للأمراء :
« اختاروا من تسلطونه غيري ، واشهدوا على أيها
القضاة أنني خلعت نفسي » . وشرع يفكك أزراره
يقصد الدخول الى قاعة البحرة فتعلق به القضاة
منعوه من ذلك . وشرع قاضى القضاة المالكية
يتم تقى ييكى وأظهر التأسف لهذه الواقعة وصار
تفاوض ويترب . ثم ان الأمير تميز أمير سلاح
سار يمشى بين الجلبان وبين السلطان في عمل
لمصلحة ، فكثرت القال والقيل في ذلك ، وضج
للعسكر ، وترددت الوسائط بين السلطان وبين
الجلبيان . ثم استقر الحال بعد جهد كبير على أن
للسلطان ينفق على الجلبان لكل واحد منهم
خمسون دينارا من ذلك أربعون دينارا معجلة ،
ويؤخر عشرة ينفقها عليهم بعد مدة شهرين ، وأن
القضراصة ينفق عليهم خمسة وعشرين دينارا فاستقر
الحال على ذلك وسكن الاضطراب قليلا .

ثم ان السلطان أرسل خلف الخليفة المتوكل
عليه الله عبد العزيز - وكان ساكنا عنده
بالحوش - فلما حضر جدد له مبايعة ثانية

بحضرة القضاة الأربعة . فكانت مدة سلطنته في
هذه المرة الأولى الى يوم خلعها هذا احدى وعشرين
سنة وسبعة أشهر . ثم قام الخليفة ونزل القضاة
الى دورهم ، وانفض الموكب وكان يوما مهولا .

ثم ان السلطان أخذ في أسباب تحصيل المال
لأجل النفقة واستحث في احضار ما يجيء من المال
بسبب الشهرين اللذين فرضهما على أرباب الأملاك ،
ثم فرض على المماليك القرائصة وأولاد الناس
الذين لم يسافروا في التجريدة : على كل من له
جامكية ألفان أربعون دينارا ، ومن له ألف جامكية
بحكم ذلك ، ومن لم يورد شيئا من ذلك تقطع
جامكيته ستة أشهر حتى يغلق ما فرض عليه . ثم
أنفق على المماليك فيما بعد . ثم ان الأمير تميز
شفع في القرائصة وأولاد الناس ألا يوردوا
شيئا مما قرر عليهم ، وكان الغالب منهم أورد شيئا
فراح عليه والمتأخر لم يحط شيئا بسبب الشفاعة .

وفيه ثار جماعة من العوام على الشيخ شهاب
الدين أحمد الشيشي الذي تولى قضاء الحنابلة
فيما بعد ، وكادوا أن يقتلوه لولا أنه اختفى مدة
طويلة حتى سكن الأمر . وسبب ذلك ما نقل عنه
أنه قد أفتى السلطان بحل ما يجيء اليه من أجرة
الأملاك في الشهرين الماضى خبرهما . فلما بلغ
العوام ذلك ثاروا عليه وقصدوا قتله ... واستمر
مختفيا حتى توجه الى مكة وجاور بها مدة .

وفيه كانت وفاة الشيخ بدر الدين بن الغرس
وهو محمد بن محمد بن محمد بن خليل القاهري
الحنفى ، وكان عالما فاضلا عارفا بأصول الفقه وله
نظم جيد وولى عدة وظائف سنية ، وناب في القضاء
مدة ثم تولى مشيخة تربة الأشرف برسباي ودام
بها حتى مات ، وكان من أعيان الحنفية وذكر الى
قضاء الحنفية غير ما مرة . ومن نظمها قوله :

ان جاءكم صب بكم فأكرموا

مشواه تجزون خيار الثواب

وجاوبوا العذال عن غدا

من سقسقه لا يستطيع الجواب

ولما مات رثاه الشيخ عبد الباسط بن خليل

الحنفى بقوله :

لقد أظلمت مصر وأقفرت الدنيا

لموت عديم المثل بل أوحده العصر

سأعجب ان ضاعت لىالى عصرنا

وكيف يكون الضوء مع عدم البدر

وفيه كانت الأسعار مرتفعة فى سائر البضائع .

وسبب ذلك اهمال كسبائ المحتسب ، فانه لم ينظر

فى أحوال المسلمين فوبخه السلطان بالكلام ، ثم

بطحه وضربه بين يديه نحواً من عشرين عصاً . فلما

نزل من القلعة أطلق فى السوقه النار وكذلك

سماسرة القمح ، وجرى بسبب ذلك أمور شتى .

وفيه كانت وفاة الحافظ قطب الدين الأخرى

محمد بن محمد بن عبد الله بن خيضر بن سليمان

ابن داود بن فلاح بن ضمرة الرملى الشافعى ،

وكان عالماً فاضلاً محدثاً رئيساً حشماً ، وكان من

أخصاء الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف

سنية : منها كتابة سر دمشق ونظر جيشها وقضاء

الشافعية بها وغير ذلك من الوظائف ، ومولده بعد

الثلاثين والثمانمائة .

وفيه بعث السلطان بالقبض على مملوكه أذربك

النصرانى ، وكان قرر فى نيابة كركر ، فوقع منه غاية

الفساد هناك ، وآل أمره الى أن حزت رأسه وعلقت

على باب كركر وكان من أشرار الناس .

وفيه من الحوادث : أنه أشيع بين الناس بأن

فرس البحر قد ظهرت عند شبرا وصارت تتراءى

للناس مدة ، ثم اختفت وتحققت الأقوال بذلك .

وفيه خلع السلطان على أذربك اليوسفى المروقه

بالخازندار ، وقرره فى رأس نوبة كبير عوضاً عن

تغرى بردى ططر بحكم وفاته . وخلع على شاد بك

الخوخ بن مصطفى وقرره فى الدوادارية الثانية

عوضاً عن قانصوه الألفى بحكم انتقاله الى التقدمة

وكانت الدودارية الكبرى شاغرة مدة طويلة . وأنعم

على مملوكه طقطباى بامرية عشرة وجعله متحدثاً

فى نيابة القلعة فاستمر بها من غير أن يخلع عليه

بها . وأنعم على يشبك بن حيدر الذى كان والى

القاهرة بتقدمة ألف مضافاً لما بيده من الآخورية

الثانية . وأنعم على مملوكه جانم الذى كان بالشام

أميراً بتقدمة ألف ، وكتب له بذلك البشارة وهو

بالشام . وقرر مملوكه مغلباى الشرفى فى تقدمة

ألف مضافاً لما بيده من ولاية القاهرة ، فأقام على

ذلك مدة حتى تقرر غيره .

وفيه كان ابتداء تفرقة النفقة على الجند كما

استقر الحال عليه فيما تقدم .

وفيه توفى تقي الدين ناظر الزردخانه فلما مات

قرر ولده عبد الباسط فى نظر الزردخانه عوضاً عن

أبيه .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه بضاع بن دلغادر

حضر الى الابليستين ، ومعه طائفة من عسكر ابن

عثمان ، وكبس على أخيه على دولات وقبض على

اثنين من أولاده ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد

لهذا الخبر جداً .

وفيه قرر الشهابى أحمد ابن الجمالى يوسف

ناظر الخاص فى نظر الجيش وصرف عنها بدر الدين

ابن أخيه كمال الدين .

وفيه عين السلطان عدة من أمراء البلاد الشامية ،

فقرر فى حجوية دمشق يونس نائب البيرة ، وقرر

فى نيابة البيرة اينال باى من جلبانه ، وكان يقرب

ثم أنفق عليهم وعلى الأمراء وأمرهم بسرعة الخروج
الى التجريدة من غير اهمال .

وفي جمادى الأولى توفي الشيخ محب الدين أخو
قاضي القضاة الشافعي ولي الدين الأسيوطي، وكان
علما فاضلا وناب في الحكم وتولى خطابة الجامع
المؤيدي، وكان لا بأس به .

وفيه توفي القاضي بدر الدين محمد بن الحليس
أحد نواب الحنابلة وكان من أعيان الناس مشكور.
السيرة .

وفيه أنعم السلطان على طوخ المحمدي البجقदार
بأمرية عشرة .

وفي جمادى الآخرة رسم السلطان بسلخ شخص
يسمى أحمد بن الديوان من أهل حلب فسلخه في
المقشرة، وسلخ معه والده محمد وأشهرهما في
القاهرة على جمال . وكان أحمد بن الديوان من
أعيان الناس الرؤساء بحلب، وكان من أخصاء
السلطان، فنقل عنه أنه كاتب ابن عثمان في شيء
من أخبار المملكة . فلما بلغ السلطان ذلك تغير
خاطره عليه، وجرى عليه أمور يطول شرحها .
وكانت من الوقائع المهولة .

وفيه خرجت التجريدة ومن عين بها من الأمراء
والعسكر وكان يوما مشهودا . قيل قد بلغت النفقة
على الأمراء والجند في هذه التجريدة الخفيفة نحو
من مائة وخمسين ألف دينار غير جامكية أربعة
أشهر، وثمن الجمال . وكان السلطان دريا في
خروج هذه التجريدة لصون مدينة حلب .

وفيه قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن
عثمان يشير على السلطان بأن يبعث قاصدا الى ابن
عثمان لعل أن يكون الصلح . فرد له الجواب :

« وقرر باكير بن صالح الكردي حاجب حلب في
قلعة الروم، وقرر مملوكه قانصوه الغوري
مجبوبة حلب عوضا عن باكير... وقانصوه هذا
الذي تولى السلطنة فيما بعد. وقرر أركماس بن
الدين في دوايرية السلطان بدمشق،
سرر قاني بك البهنسا في دوايرية السلطان
لب، وقرر في نيابة البهنسا كرتباي الأشرفي من
ليكة . فخرجت اليهم المراسيم بمعنى ذلك .

وفيه أراد السلطان أن يقرر ثاني بك الجمالي
س نوبة كبير فامتنع من ذلك وصمم أنه ما يلي
أمرية مجلس عوضا عن برسباي قرا بحكم
اته في التجريدة بحلب، فتغير خاطر السلطان على
ب بك الجمالي، وقصد نفيه الى مكة بسبب
ك، وأقام على ذلك أياما لا يطلع القلعة . ثم
سل خلفه ووعد به، وصار يتكلم فيها على
ه منه .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى عبد الرازق أخى
بن دولات، وقرره في أتاكية حماء عوضا عن ابن
غل وقتل ابن طرغل الى نيابة طرسوس .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن
سكر ابن عثمان لما بلغهم رجوع العسكر المصري
عوا في أخذ البلاد الحلبية، وأرسل يستحث
سلطان في خروج تجريدة بسرعة لحفظ مدينة
لب . فلما بلغ السلطان ذلك عرض العسكر وعين
بريدة، وكتب عدة وافرة من الجند الذين كانوا
يقيمون بالقاهرة، وجعل الباشا على هذه التجريدة
نصوه الشامى أحد المقدمى الألوف، ومن
أمراء الطبلخانات يشبك رأس نوبة ثاني، وأزمر
نخقيه الظاهري، وكرت باي بن تتر باي ابن أخت
سلطان، واصطمر بن ولي الدين أحد العشراوات .

« اذا أطلق تجار الممالك الذين عنده ، وبعث مفاتيح القلاع التي أخذها ، كاتبناه في أمر الصلح ، وأرسلنا له قاصدا » ... ولكن جرى بعد هذه الواقعة أمور شتى .

وفي رجب خلع السلطان على تاني بك المحمدي الاينالى أحد العشراوات وقرره في شادية الشون وأشركوا معه أقبردى ططر الظاهري أحد الأمراء العشراوات أيضا .

وفيه توفي جمال الدين الكوراني شيخ خاتقاه سعيد السعداء ، وهو عبد الله بن محمد بن حسن ابن خضر بن محمد الأردبيلي الشافعي وكان عالما فاضلا دينا خيرا ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفي شعبان قرر في مشيخة خاتقاه سعيد السعداء الشيخ زين الدين عبد الرحمن القناوى الشافعي عوضا عن جمال الدين الكوراني بحكم وفاته . وفيه ثارت فتنة من الممالك الجبلان ، بسبب العشرة دنائير التي تأخرت لهم من الخمسين التي استقر الحال عليها في أمر النفقة فما سكنت الفتنة حتى أنفقها لهم .

وفيه حضر اسكندر بن جيحان أحد الأمراء المقدمين لابن عثمان ، وقد أسره بعض النواب ، وكان على دولات هو القائم في القبض عليه فكان له بالقاهرة لما دخل يوم مشهود . وأسر معه جماعة من العثمانية ، فلما عرضوا على السلطان رسم بسجنهم .

وفيه توفي سودون الثور أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به . وتوفي الطواشى مرجان الجمالى المعروف بستمائة وكان من أعيان الطواشية .

وفيه في آخر يوم منه كان وفاء النيل المبارك .

وفي مستهل رمضان كان فتح السد عن الوفاء ، ووافق ذلك سادس مسرى فنزل أزيك أمير كبير وفتح السد على العادة . وقيل ان جماعة من أوباش العوام أفطروا في ذلك اليوم من شدة الحر والعطش . وفي أثناء ذلك عمل الأتابكى أزيك وقدة هائلة وحراقة نفط في بركة الأزيكية ، وعزم على الأمراء وكانت ليلة حافلة .

وفي شوال كان أول توت وهو يوم النوروز عند القبط وكان عيد الفطر عند المسلمين ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه خرج الحاج على العادة وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح ، وكان الحج في تلك السنة قليلا .

وفيه جاءت الأخبار من سواكن بوفاة صاحب خشقدم الأحمدي ، وكان رئيسا حشما من أعيان الطواشية وتولى عدة وظائف سنية منها الوزارة والزمامية والخازندارية الكبرى ، وكان ظلما غشوما عسوقا من وسائل سوء .

وفيه توفي الشيخ أبو الفضل محمد المحلى الحنفى ، وكان من أعيان الحنفية .

وفي ذى القعدة توفي الطواشى مرجان ، وكان لا بأس به .

وفيه توفي نوروز أخو برسبائى قرا أمير مجلس وكان من الأمراء العشراوات من خيار الظاهرية وكان لا بأس به .

وفيه توفي الشيخ جعفر بن ابراهيم السنهورى الشافعي شيخ القراء بمصر ، وكان يقرأ بأربع عشرة رواية . وكان علامة في القراءات .

وفيه جاءت جماعة من تجار الاسكندرية يشكون من نائبها على باى بأنه جار عليهم بالظلم والمصادرات فأرسل اليه السلطان يحذره من ذلك .

وفي ذي الحجة أنعم السلطان على سييى نائب
يسى بامرية عشرة ، وكذلك كسبى بن أزبك
ساقى .

وفيه توفى شعبان الزواوى شيخ القبائين .
كان علامة فى صنعة القبانة والتحرير فى الأوزان .
وفيه توفى سليمان بن محمد المغربى ، وكان
ضلا فى علم الميقات وله شهرة فى ذلك .

مئة خمس وتسعين وثمانمائة (١٤٨٩ م) :

فيها ، فى المحرم ، كسفت الشمس كسوفاً تاماً
حتى أظلمت الدنيا ، وثار عقيب ذلك رياح عاصفة
حتى فزع الناس من ذلك .

وفيه قدم الى القاهرة شاه بضاع بن دلغادر ،
يقدم القول بأنه هرب من قلعة دمشق ، وكان
سجوناً بها . فلما هرب توجه الى ابن عثمان
والثف على عسكره وملك الأبلستين ، واستمر فى
عصيانه مدة طويلة . ثم وقع بينه وبين ابن عثمان
فتنة وقصد قتله ففر منه والتجأ الى السلطان . فلما
جاء اليه أكرمه السلطان وخلع عليه . ثم بعد مدة
أرسله الى منفلوط ليقوم بها وأجرى عليه ما يكفيه
فعد ذلك من جملة سعد السلطان وكانت من
النوادر .

وفى صفر توفى الطواشى سرور السيفى قراقجا
الحسنى وكان لا بأس به وتولى رأس نوبة السقا
وغير ذلك

وفيه كان اقتران المريخ مع زحل فأفرط البرد فى
تلك الأيام حتى أحرق الأشجار وجمدت المياه .
وذكر بعض المنجمين أن هذا الاقتران يدل على
وقوع فتن ، وأن البرد يستمر أياماً متوالية فى
تزايد من الإفراط ، وصار الثلج ينزل فى الليل ،
وينعقد على الجدران بناحية الجيزة ، ومات الكثير
من الحرافيش من شدة البرد ، فكان كما قيل :

ويوم برد مد أنفاسه
يخمش الأوجه من قرصها

يوم تود الشمس من برده
لو جرت النار الى قرصها
وفيه كثرت الشكاوى فى محمد بن اسماعيل
قاضى الواح ، فأمر السلطان باحضاره ، فلما حض
ضربه بالمقارع ، ثم أشهره بالقاهرة وهو على حمار
ثم سجنه بالمقشرة فمات بها بعد أيام وكان من كيا
الظلمة من المفسدين فى الأرض . فلما خرج
جنازته ثار عليه جماعة كثيرة من أولاد أخ
ورجموه بالحجارة وهو فى النعش ، وأراد
حرقه ، فما خلصوه ودفنوه الا بعد جهد كبير .

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار من عند
دولت بأن ابن عثمان اهتم فى تجهيز عساكر و
وصل أوائلهم الى كوك . فلما بلغ السلطان ذلك
نكد ، وجمع الأمراء وأخذ رأيهم فى ذلك فو
الاتفاق على خروج تجريدة صحبة أمير كبير ،
أخذ السلطان فى أسباب جمع الخمس من بوا
الشرقية كما فعل عند خروج التجريدة الماض
لأجل فرسان العرب لتخرج صحبة أمير كبير
العسكر ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاية الإ
وقطع الخمس من خراجهم مرتين .

وفيه عرس السلطان أولاد الناس أص
الجوامك من ألف درهم فما دونه -- وكان أم
أن يتعلموا رمى البندق الرصاص قبل ذلك
فلما عرضهم ورموا قدامه كتبهم فى التجريد
وأفق عليهم كل واحد ثلاثين ديناراً ، وكل
أشركهم فى جمل أعطاه لهم وخرجوا ص
التجريدة

وفيه خلع السلطان على قيت بن قائم الم
وقرره فى ولاية القاهرة ، عوضاً عن مة

الشريفى بحكم انتقاله الى التقدمة وكان متكلماً في الولاية مع التقدمة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلاً .
وفيه نادى السلطان للعسكر بالعرض وأشيع أمر التجريدة الى ابن عثمان . فلما عرصهم السلطان بادر اليهم بتفرقة النفقة ، ثم وقع في ذلك اليوم بعض اضطراب من المماليك الجلبان ، وقام السلطان من الدكة ونزل وقال : « أنا أنزل لكم عن السلطنة وأمضى الى مكة » ، فتلطف به الأمراء . ثم آل الأمر بعد ذلك الى أن أئفق عليهم لكل مملوك مائة دينار على العادة ، وجامكية أربعة أشهر ، وثمان جمل سبعة أشرفية . فأئفق في ذلك على عدة طباق . واستمر على ذلك حتى أكمل النفقة ثم حملت نفقة الأمراء المقدمين والطلبخانات والعشراوات وقد تعينوا للسفر أجمعين . ولم يبق بمصر سوى أقبردى الدوادار وأزدمر تمساح ، فكانوا على الحكم الأول كما تقدم ، فبلغت النفقة على الأمراء والجند نحواً من خمسمائة ألف دينار . وكانت هذه التجريدة آخر تجاريد الأشرف قايتباى الى ابن عثمان وغيره ولم يجردها بعدها أبداً ثم نادى للعسكر بالآلا يخرج منهم أحد قبل الباش ، فما سمعوا له شيئاً .

وفيه قرر تتم الرحبى الخاصكى الخازندار في نيابة جدة عوضاً عن جاهين الجمالى ، وقد سئل الاعفاء عن ذلك .

وفيه تعين كرتباى كاشف البحيرة في امرية الحاج بركب المحمل ، وعين اينال الفقيه الحاجب الثانى في الركب الأول .

وفي خامس عشر ربيع الآخر خرج أمير كبير أزبك من القاهرة ، قاصداً البلاد الحلية ، وصحبته الأمراء والعسكر وكانت عدتهم عشرة

وهم على ما ذكرناه في التجريدة الماضية ، وأما الأمراء العشراوات والطلبخانات فكانوا زيادة على الخمسين أميراً . وأما المماليك السلطانية فكانوا زيادة عن أربعة آلاف مملوك ، فكان لهم يوم مشهود ، حتى رجت لهم القاهرة . واستمرت الأطلاب تتسحب من اشراق الشمس الى قريب الظهر ، وخرج مماليك الأمراء وهم باللبس الكامل من آلة السلاح ، فعدت هذه التجريدة من نوادر التجاريد . وقد طال الأمر بين السلطان وبين ابن عثمان في أمر الفتن والأمر لله .

وفي جمادى الأولى رسم السلطان بنقل اسكندر ابن النحال من البرج الذى في باب السلسلة الى دار كاتب السر البدرى ابن مزهر ، وأمره بالحفظ عليه .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوقوع سيل عظيم في خامس صفر ، وقيل انه بلغ الى الحجر الأسود وهدم عدة أماكن ، وحصل منه غاية الضرر .

وفي جمادى الآخرة قويت الاشاعات بسفر السلطان بنفسه الى حلب . ونزل الى الميدان وعرض الهجن وعين جماعة من الخاصكية للسفر معه ، وأمر من بقى من العسكر بعمل بركهم ، وأن يكونوا على يقظة من السفر .

وفيه وصل أقبردى الدوادار من البحيرة ، وكان قد خرج بسبب فساد العربان .

وفي رجب كان ختان ابن السلطان المقر الناصرى محمد الذى تسلطن بعده وكان عمره يومئذ نحواً من سبع سنين وأشهر ، وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية ، وكان من فوادر المهمات فاجتمع به سائر مغانى البلد ، ورسم السلطان أن تزين القاهرة فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل

ودخل به قاعة البيرية فكان الختان بها ، وقبل
دخل على المزين نحو من خمسة آلاف دينار .
فأنعم عليه من ذلك بألف دينار ، والباقى تقاسمه
الرؤساء من المزينين ، وعد هذا الختان من النوادر .
ثم نزل ابن الجمجمة وأولاد العلأى على بن خاص
بك ونوجهوا الى بيوتهم ، فشفوا من القاهرة فى
موكب حافل ، ورسم للقضاة الأربعة بأن يركبوا
قدامهم ففعلوا ذلك .

وفيه كانت وفاة الزينى خضر بن سنان النوروزى
الجركسى وكان رئيسا حشما من أعبان الناس وله
استغال بالعلم على مذهب أبى حنيفة رضى الله
عنه ورحمه . وكان فى سعة من المعيشة ، ومات وهو
فى عشر الستين .

وفيه خسف القمر ودام فى الخسوف نحو من
أربعين درجة حتى انجلى .

وفيه عين السلطان جماعة من الجند الى مكة
وجعل عليها باش أقبرى تمساح الظاهرى أحد
الأمراء العشاوات ، وعين الطواشى اياس الشامى
فى مشيخة الحرم النبوى على صاحبه أفضل الصلاة
والسلام .

وفيه ثار مماليك أقبرى الدوادار عليه ،
وحاصروه وهو فى داره ، وطلبوا منه زيادة فى
جوامعهم . فبعث اليه السلطان بالوالى فقبض على
جماعة منهم وضربهم بالمقارع وقطع أيدي جماعة
منهم وفر الباقون الى الجامع الأزهر ، وأقاموا به
أياما ، ثم آل الأمر الى أن نفى طائفة منهم الى
جهة فوس وطائفة الى البلاد الشامية ، فسكن
الحال قليلا .

وفيه وصل هجان من عند العسكر ، وأخبر
بأن العسكر قصد التوجه الى بلاد ابن عثمان وقد
أرسلوا مامى الخاصكى رسولا الى ابن عثمان ،
فلما أبطأ عليهم خبره زحف العسكر المصرى على

سواق المشهورة وغير ذلك ، وخرج الناس فى
سفه والفرجة عن الحد . وكان العسكر غائبا فى
جريدة والناس فى أمن من أذى المماليك . وكان
فى الأيام منهودة لهم يسمح بسلها ، ودخل على
سلطان من التقدام ما لا يحصى من مال وجول
ماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك مما يزيد
فى خمسين ألف دينار . وكان من جملة ما أهدها
سهاى أحمد بن العينى طسنت وأبريق ذهب
ته ستمائة مثقال يرسم الختان ، وأشياء كثيرة
ير ذلك . واختن مع ابن السلطان جماعة كثيرة
ن أولاد الأمراء والأعيان والخاصكية فكانوا
يأذة عن أربعين ولدا . فرسم لكل صبى منهم
كسوة على قدر مقام أبيه فكان من جملة أولاد
لأعيان ابن الخليفة أمير المؤمنين عبد العزيز وهو
بنة سيدى عمر وابن الجمجمة بن عثمان ، وأولاد
لعلأى على بن خاص بك وغير ذلك من أولاد
الأمراء والأعيان . فلما كان يوم الخميس عشيره
اجتمع الأمراء والأعيان من الناس بالحوش
السلطانى ، وركب ابن السلطان من قاعة البحرة
ومشت قدامه الأمراء والخاصكية وهم بالشاش
والقماش ، ومشى قاضى القضاة الحنفى ناصر الدين
الاخيمى ، وسائر أعيان المباشرين وأولاد
الجعيان ، وأعيان الخدام ، وكان ماسك لجام
الفرس الأمير أقبرى الدوادار والشهاى أحمد
ابن العينى وهم بالشاش والقماش ، ولم يكن بمصر
من الأمراء المقدمين غير الأمير أقبرى الدوادار
والأمير أزدمر تمساح والأمير أزدمر المسرطن .
واستمر ابن السلطان فى ذلك الموكب من قاعة
البحرة الى باب الستارة والسلطان جالس فى
المقعد ينظر اليه ، وفرشت تحت فرسه الشقى
الحريز ، وثر على رأسه خفائف الذهب والفضة ،
ولاقتة المغانى فنزل عن فرسه بباب الستارة

أطراف بلاد ابن عثمان ووصلوا الى قيسارية ،
وفتكوا بها ونهبوا عدة من ضياعها وأحرقوها ، ثم
فعلوا مثل ذلك بعدة أماكن من بلاد ابن عثمان
واقسموا فرقتين ، فرقة الى ماوند وفرقة مقيمة
بكولك ينتظرون ما تكون من هذا الأمر ، ثم
حضر جان بلاط الغورى أحد ممالك السلطان
وكان من الأمراء العشراوات يومئذ وأخبر بأن
العسكر فى قلق زائد بسبب الذى هناك ، وأن
العليق ما يوجد ، وأنهم قد عولوا على المجيء
الى مصر ، فما سر السلطان ذلك .

وفى شعبان رفعت امرأة قصة للسلطان تشكو
فيها من بدر الدين بن القرافى أحد نواب المالكية ،
فأمر السلطان بإحضاره فلما حضر ضربه بين يديه
ضربا مؤلما ، وآل أمره الى أن غرم فى هذه الكائنة
مالا له صورة بعد عقد مجلس بينه وبين المرأة التى
رافعت فيه .

وفيه كانت البشارة بالنيل المبارك وجاءت
القاعدة سبعة أذرع الا ثمانى أصابع .

وفيه قرر شهاب الدين بن الصيرفى فى تدريس
الشافعية بالخاقاه الشبخوية عوضا عن جلال
الدين ابن اللبانة بحكم نزوله عنها ، ولم ينزل أحد
عن هذه الوظيفة قبل اليوم قط الا أن تخرج عنه
بحكم وفاته .

وفيه تغير خاطر السلطان على دقاق نائب القدس
الشرىف ، وفجر الدين بن نسيبة من أعيان بيت
المقدس ، فرسم بإحضارهما ، فلما حضرا أمر
بضربهما ، فلما ضربا بين يديه أمر بنفى ابن نسيبة
الى الواح حتى شفيع فيه .

وفى رمضان قبض الوالى على جماعة من الممالك

الأروام وجدهم يشربون الخمر فى رمضان نهارا
فضربهم ، وأشهرهم بالقاهرة وسجنهم .

وفيه أخبرنى من أتق به ، أنه رأى بأسوان
شخصا أسمر اللون وله عين واحدة فى جبهته ، وله
أنف نابت فى وجهه تحت تلك العين ، وبين أنفه
وفسه نحو من أربع أصابع ، فكان من جملة
الأعاجيب .

وفيه ظهرت فى القاهرة امرأة ولها ثلاثة أبنار ،
أحدها تحت ابطنها .

وفيه فى رابع مسرى كان وفاء النيل المبارك
ونزل أذمر تمساح وفتح السد على العادة ، وكان
الوفاء فى عاشر شهر رمضان . ومن النوادر أنه زاد
فى اليوم الثالث من مسرى ثلاثة وثلاثين اصبعاً فى
دقة واحدة .

وفيه توفى برهان الدين التتائى أخو شرف الدين
الأنصارى ، وهو إبراهيم بن على بن سليمان
التتائى الأنصارى المالكى ، وكان رئيسا حشما وله
اشتغال بالعلم . ومولده سنة عشرين وثمانمائة .

وفيه حضر هجان وأخبر بأن العسكر على
حصار قلعة كواره ، ومات فى مدة المحاصرة
قانسوه بن فارس المعروف بقرا وهو من ممالك
السلطان ، وكان من الأمراء العشراوات ، ثم أخذت
هذه القلعة فيما بعد وهدمت الى الأرض .

وفى شوال كان الموكب السلطانى فى يوم عيد
الفطر بالحوش على العادة التى استجدها السلطان
فى غيبة الأمراء ، فلم يحضر فى موكب العيد سوى
الأمير أذمر تمساح ، وكان أقبردى الدوادار
مسافرا الى جهة البخيرة بسبب فساد العربان ،
فجلس السلطان بالحوش على الدكة ، وخلع على
المباشرين وأرباب الدولة وانقض الموكب سريعا .

ذلك أنه أخذ جمال المستقائين ليجمل سنيحه حتى عز وجود الماء وغلا سعر الراوية بسبب ذلك وضاق الأمر .

وفيه خلع السلطان على الطواشي فيروز وقرره في الزامية عوضا عن صاحب خشقدم بحكم لفيه الى قوص .

وفيه جاءت الأخبار بموت أقبردى ططر الظاهري حقمق أحد العشراوات وشاد الشون ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بأخذ قلعة كواره من يد عسكر ابن عثمان فسر السلطان بذلك . ثم بعد مدة وردت عليه الأخبار بأن العسكر قلق وهو طالب المجيء الى مصر . فتأكد السلطان لذلك ، وأرسل عدة مراسيم للأمرء بالاقامة فما سمعوا له شيئا . ثم جاءت الأخبار بأن أربك أمير كبير قد دخل الى الشام هو والأمراء والنواب والعسكر قاصدين الدخول الى القاهرة من غير اذن . وقد جاءوا طالبين وقوع فتنة وصرحوا بذلك . ثم نودى من قبل السلطان بأن العسكر الذى قدم من التجريدة يصعد الى القلعة ، فامتنع المساليك من ذلك ولم يصعدوا الى القلعة .

وفيه جاءت الأخبار من تغر الاسكندرية بأن الفرنج قد استولوا على مدينة غرناطة ، وهى دار ملك الأندلس ، ووقع بسبب ذلك أمور شتى يطول شرحها ، وقتل من عساكر الغرب والفرنج مقتلة عظيمة ، ثم بعد ذلك وقع الصلح بين أهل غرناطة والفرنج . وقرر للفرنج في كل سنة شئ من المال يوردونه لهم .

وفيه توفى قاضى قضاة المالكية محبى الدين ابن تقى وهو عبد القادر بن أحمد بن محمد بن على ابن تقى الديميرى المالكى . وكان عالما فاضلا من أعيان المالكية رئيسا حشما ، وناب في الحكم مدة

وفيه تزايد شر العبيد حتى خرجوا في ذلك عن الحد وصار يقتل بعضهم بعضا حتى أعيأ الوالى أمرهم وصاروا طائفتين ، طائفة تعادى طائفة .

وفيه قرر في قضاء الشافعية بحلب شمس الدين محمد بن عثمان الزعيم ، عوضا عن عز الدين الحسينى .

وفيه قرر شمس الدين محمد بن أبى الفتح الكتبى في مشيخة القبايين ، ثم تولى بعده ذلك التحدث على مباشرة بندر جدة .

وفي ذى القعدة رسم السلطان بنقل سوق الحمير من عند باب الميدان الى جهة مدرسة قالى يابى الجركسى ، واستمر على ذلك الى الآن .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة المكان الذى أنشأه على بركة الفيل برسم ولده المقر الناصرى ، وكان يظن أن ولده يسكن بعده فيه ويستمر مقيما بمصر فجاء الأمر بخلاف ذلك .

وفيه أفرج السلطان عن علاء الدين الحنفى تقيب قاضى القضاة الشافعى ، وكان قاسى شدائد ومحن ، وأقام في الترسيم مدة طويلة ، وغرم جملة من المال .

وفيه رسم السلطان بقلع عيني شخص يقال له على بن محمد المرجوشى ، وقطع لسانه أيضا . وسبب ذلك أنه أوحى الى السلطان بأنه يعرف علم صنعة الكيبياه ، فانصاع له السلطان حتى أتلغ عليه جملة مال له صورة ، ولم يستفد من ذلك شيئا . وفعل نظير ذلك بالأمير تراز الشمسى أمير سلاح فأتلغ عليه جملة مال ولم يستفد من هذا شيئا . فحنق منه السلطان وفعل به ما فعل .

وفيه خرج الأمير أقبردى الدوادار مسافرا الى جهة نابلس ، وحصل منه غاية الضرر للناس ، من

وكان لا بأس به ، وأخذ العلم عن جماعة من
الأفنديين كالبساطي والنسيخ عبادة والنسيخ طاهر
وغير ذلك من المنايخ .

وفي السنة المذكورة كانت وفاة الشيخ الصالح
المعتقد سيدي أحمد بن عقبة البمنى وكان من كبار
أولياء الله تعالى . وتوفي القاضي فتح الدين محمد
السوهاجي ولد من اعيان نواب السافعيه ، وتوفي
زين الدين الطوخى الخالدي وكان من الفضلاء
وله نظم جيد .

سنة ست وتسعين وثمانمائة (١٤٩٠ م) :

فيها ، في مستهل المحرم ، كان دخول أزبك أمير
كبير ومن معه من الأمراء والعسكر ، ودخلوا الى
القاهرة في موكب حافل ، وكان لهم يوم مشهود .
فلما طلوعوا الى القلعة خلع السلطان على أزبك
أمير كبير وعلى بقية الأمراء ، ونزلوا الى دورهم
وهذه آخر تجاريد أزبك أمير كبير الى البلاد
الحليية .

وفيه قرر السلطان كرتباي ابن أخته في شادية
الشراب خاناه ، وقرر مسلوكة جان بلاط بن يشبك
في تجارة المسالبك .

وفيه أشيع بين الناس أن المماليك يقصدون
اثاره فيه ، ويرومون بعه على جارى العادة ،
فأقسم السلطان بالله العظيم أنهم ان طلبوا نفقة
بنوجه نحب الليل الى مكة المشرفة ويقيم بها

وفيه توفي فاضى القضاة المالكية كان ، وهو
ابراهيم بن عسر بن محمد بن موسى بن جيسل
اللقاني المالكي الأزهرى ، وكان عالما فاضلا بارعا
في مذهبه دينيا خيرا رئيسا حشما مات وهو منفصل
عن القضاء ، وكان محسود السيرة في أفعاله .

وفيه توفي الشيخ سنان الأونجاني الحنفى وهو
يوسف بن موسى بن سعد الدين ، وكان قرر في
منايحه نربة الأمير يشبك الدوادار وكان من
أعيان الناس الحنفية .

وفيه توفي النسيخ زين الدين عبد الرحمن
الشتاوى شيخ خاتناه سعيد السعداء ، وكان عالما
فاضلا دينيا خيرا لا بأس به .

وفيه توفي الشيخ حافظ العجى المقرئ وكان
لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على أربعة من خاصكيته
بأمريات عشرة منهم برد بك بن بير على الذى كان
بقى مقدم ألف وخرج الى مكة المشرفة بعد كائنة
أقبردى الدوادار ، وأمر أيضا قيت الرحبى الذى
تولى الأتابكية فيسا بعد ، وأمر أيضا مصرباي
الذى تولى الدوادارية الكبرى فيسا بعد ، وأمر
أيضا كشتبعاي الذى تولى نيابة الاسكندرية
ومات بها .

وفي صفر أنعم السلطان على جانم الذى كان
نائب قلعة حلب بتقدمة ألف ، وقد تعينت له قبل
أن يحضر الى القاهرة ، فأقام جانم في هذه التقدمة
نحو من سنة ومات بالطاعون في السنة الآتية .

وفيه قدم الشهابى أحمد بن فرفور من دمشق
وأشيع عنه بين الناس أنه جاء يسعى في كتابة السر ،
فما وافق السلطان على ذلك . فأقام في مصر مدة
ثم عاد الى دمشق .

وفيه جلس السلطان لتفرقة الجامكية فقطع في
ذلك اليوم عدة جوامك من جماعة الجند نحو من
ثمانين انسانا من الشيوخ والعواجز والضعفاء ،

فكثر عليه الدعاء من الناس في ذلك اليوم بسبب ذلك .

وفي ربيع الأول خلع السلطان على الشيخ عبد الغنى بن نقى وقرره في فضاء المالديه عوضا عن أخيه محيى الدين بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان للأتابكى أزبك بأن يتوجه الى شبرمنت بنواحي الجيزة بسبب عسكرة القناطر التي هناك ، فصرف عليها السلطان نحواً من خمسة آلاف دينار بسبب ترميمها ، فجاءت من أحسن البناء . وبنى هناك رصيفاً به نفع للمسافرين في أيام النيل ، وبنى هناك لنفسه منظره وعيطة على بركة هناك ، فجاء ذلك غاية في الحسن من أجل المتنزعات وهو باق الى الآن .

وفيه من الحوادث الموهلة أنه في أثناء الشهر المذكور توجه السلطان الى قبة يشبك الدودار كان ، التي هي في رأس دور الحسينية فجلس هناك وأرسل خلف القضاة الأربعة فحضر القاضي السافى زين الدين زكريا ، والقاضى الحنفى ناصر الدين بن الأخمى ، والقاضى المالكى عبد الغنى بن نقى ، والقاضى الحنبلى بدر الدين محمد السعدى . فلما تكامل المجلس شرع السلطان في التكلم معهم فذكر لهم أن ابن عثمان ليس برابع عن محاربة عسكر مصر ، وأن أحوال البلاد الحليبه قد فسدت ، الت الى الخراب ، وأن التجار منعوا ما كان يجلب الى مصر من الأصناف ، وأن المماليك الجلبان يرومون مى نفقه ، وان لم أنفق عليهم شيئاً نهبوا مصر والقاهرة ، وحرقوا البيوت ، ومتى رجع عسكر ابن عثمان الى البلاد الحلية لا يخرج العسكر من مصر حتى أنفق عليهم ... ثم شرع يقسم بالله تعالى أنه ما بقى في الخزان شيئاً من المال لا كثير ولا قليل . والقصد

أن أفرض على الأوقاف والأموال التى بصرة والقاهرة من أماكن وغيطن وحمامات وطواحين وأفراذ ومراكب وغير ذلك أجرة سنة كاملة أسنعين بها على خروج التجريدة . فسكت المجلس ساعة .

ثم قال القاضى الشافعى « لعل الله تعالى بكفيكم مؤنة ذلك » . وقال القاضى المالكى : « ان أجرة سنة كاملة تثقل على الناس ولا يطيقون لك ، فان كان ولا بد من ذلك فلنفرص عليهم أجرة خمسة أشهر . وقبل ذلك فرض عليهم أجرة شهرين ، فهذه سبعة أشهر وما يطيق الناس أكثر من ذلك » . فتوقف السلطان ، ثم آل الأمر الى ما قاله قاضى القضاة المالكى ، وانفض المجلس على ذلك . فلما بلغ الناس ما وقع ، اضطرب الأحوال وكثر القال والقليل في ذلك ، وأشيع عن السلطان أنه نفرص على الجماجم من كل ذكر وأنسى من كبير وصغير على كل رأس دينارين ذهباً ، وتكلموا من هذا النمط بأشياء كثيرة . ثم بعد أيام رسم السلطان لتعزى بردى الاستادار بأن يكون متكلماً في جباية الامار . من باب رويله الى دير الصين . ورسم لابن الصابونى ناظر الخاص بأن يكون متكلماً في جباية الأملاك من باب رويله الى خارج الحسينية . فعند ذلك اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ، ونوجه الرسل العلاظ الترداد ، ولم يراعوا الوداد ، وأكثر الناس صاروا رسلاً . وطلبوا أعيان الناس ، واقطع الرجاء بالياس ، وصار الانسان يخرج من داره فبرى أربعة من الرسل في استنظاره . فيكون بهاره أعبر . ويخرج وهو في أذياله يتعثر ، فيقدحون فيه الزناد ، ولا برى له من اعتماد ، وقد قال بعض الموالاة في هذا المعنى :

عزمت شهرين عن أجرة مكاني أمس
وأصبحت معبوس في بحر المغارم غمس

رب الخلاق والفر والشمس

ما طقت شهرين كيف أقدر أطيق الخمس
ند جرى في هذه الواقعة أمور عجيبة ،
بات غريبة ، فمن ذلك أن بعض الرسل توجه
لحسينية ، فأتى امرأة ساكنة في حوش
مد عندها شيئاً من متاع الدنيا ، فطالبها ذلك
بأجرة الحوش الذي هي ساكنة فيه ،
بليها من الأجرة عشرون نصفاً عن مدة خمسة
، فلم تجد شيئاً تعطيه للرسول فأغلظ عليها
منه الحد . فلما رأت منه ذلك وكان عندها
رة نبق في الحوش ، فقالت له اقطع هذه
رة وبها وخذ ثمنها في نظير ما جاء على ...
ر القطاعين وقطع تلك السدرة وحملها ومضى .
حصل للمرأة غاية الضرر لقطع شجرتها التي
تستظل تحتها في أيام الصيف . وكانت هذه
نة من أشنع الحوادث في دولة قايتباي .
ه صرف هذا المال في شيء عاد نفعه على
، ولكن صرفه في غير مستحقته وراح في
، ولم ينتفع به كما سيأتى ذكر ذلك .

به عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلاً .
فيه كانت مصادرة المهتار رمضان ، فضيق عليه
لان حتى أخذ منه ستين ألف دينار ، وقيل
من ذلك . وكان المهتار متحصله في كل يوم
الأربعين ديناراً خارجاً عن جهاته وحماياته ،
ذلك . وكان متحدثاً في نظر الكسوة وغير
من الجهات السلطانية ، ورأى من العز
نسة ما لم يره غيره من المهاترة السلطانية .

ه ربيع الآخر ثارت الممالك الجلبان على
لان ، فطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة
وقعت لهم . فلما رأى منهم عين الجد أنفق
م على العادة ، كما تقدم شرح ذلك .

وفيه عين السلطان قرقماش أمير أخور تانى
ليتوجه الى دمشق بسبب جباية أملاك دمشق عن
خسة أشهر ، كما وقع بمصر . وعين قاصداً أيضاً
الى ثغر الاسكندرية ودمياط ، وكانت هذه المصيبة
عامة على الناس ، حتى أخذ من أوقاف اليمارستان
خسة أشهر ، واقتطع معلوم الأيتام الضعفاء في
رواتبهم مدة خمسة أشهر ، وكذلك سائر أوقاف
الجوامع والمدارس والتراب . وقطع معلوم الصوفية
والصدقات الجارية . فلما توجه قرقماش المذكور
الى دمشق أظهر بها من المظالم أشياء كثيرة لم
يفعلها هناد في زمانه . وقرقماش هذا هو الذى تولى
نيابة حلب فيما بعد ، وقبض عليه طومان باي
الدوادار لما خرج الى الشام بسبب عصيان قصره
نائب الشام . فسجن قرقماش هذا بقلعة دمشق ثم
عاد الى مصر ، وقد تولى الأتابكية .

وفى جمادى الأولى خلع السلطان على تانى بك
الجمالى وقرره في امرية مجلس عوضاً عن برساي
قرا المحمدى بحكم وفاته في حلب . وكانت امرية
مجلس شاغرة مدة طويلة . وكان تانى بك الجمالى
متكلماً فيها بغير تقرير .

وفيه انتهت عمارة ابن الجيعان أبو البقاء من
تجديد ما عمره في الزاوية الحمراء التى عند قناطر
الأوز ، وصارت من جملة متفرجات القاهرة . وفى
ذلك يقول بعض الشعراء :

عجبت لجامع قد زاد حسنا

وأبدع في التزخرف والبناء

به الأنهار تجري في جنان

وقصر شاهق لأبى البقاء

وصنع هناك جامعا بخطبة وجاء من أحسن

البناء .

وفيه انفصل على باى عن نيابة ثغر الاسكندرية
وأتى الى مصر معزولا .

وفيه قدم اقبردى الدوادر وكان مسافرا الى
جهة نابلس فأهلك الحرث والنسل في هذه السفرة
وحضر صحبته أركماس بن ولى الدين دوادر
السلطان بدمشق ، وقد كثرت فيه الشكاوى
فاستجار بالأمير أقبردى وحضر صحبته .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الكرك بأنه ظهر
بها في قبيلة بنى لام رجل من بنى آدم ذقنه فدر
غربال القمح ، وكان يأكل اللحم النى بعظمه ،
ويأكل الجيف من على الكيمان ، وربما افترس من
بنى آدم جماعة ، وكان يفترس البقر والغنم ،
وكانوا يخرجون اليه جماعة من بنى لام ويرمونه
بالنشاب ، فلا يؤثر ذلك فيه ولو ضربوه بالسيوف
وكان اذا صرخ تسقط منه الحوامل . فلما قوى
تسلطه على ذلك المكان رحل عنه بنو لام وتركوه
له . وقد أعيا الناس أمره ... وهذه الواقعة مشهورة
بين الناس ، وقد وصل مطالعة الى السلطان بسجنى
ذلك .

وفيه أرسل السلطان مراسيم الى نائب الشام
بأن يجمع أعيان التجار بها ومساكين الناس ،
ويفرض عليهم الأموال الجزيلة كل واحد على قدر
مقامه مساعدة للسلطان على خروج التجريدة ، كما
فعل بمصر . وكتب بسعنى ذلك مراسيم الى
الاسكندرية ودمياط . وأشيع بين الناس أن
السلطان يخرج هذه المرة بنفسه . وقد قويت
الاشاعات بذلك .

وفي جسادى الآخرة وقعت بالقاهرة زلزلة خفيفة
وماجت الناس ، ثم سكنت بعد أن ماجت منها
الأرض بعد المغرب .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند

ابن عثمان ، صحبه مامى الخاصكى ، الذى توجه
قبل تاريخه الى ابن عثمان . وكان هذا القاصد
الذى حضر من أجل قضاة ابن عثمان . وكان متوا
القضاء بمدينة بروسه ، وهو شخص من أهل العا
يقال له الشيخ على جلبى . فلما صعد الى القلا
أكرمه السلطان وبالف في تعظيمه جدا ، وأحضر عا
يديه مفاتيح القلاع التى كان ابن عثمان قد استول
عليها فسلمها الى السلطان . وأشيع أمر الصلا
فنزل القاصد في مكان عد له وهو في غاية الإكرا
ثم ان السلطان أطلق اسكندر بن ميجال الذى كا
أسر وسجن كما تقدم ، وأقام مدة طويلة ، فلم
أطلقه السلطان أحسن اليه وكساه ، وكذلك أطلا
الأسراء الذين كانوا مأسورين من عسكر ا
عثمان وكساهم وأحسن اليهم . وتوجهوا ا
بلادهم صحبة القاصد لما سافر ... وهذا ما كان .
ملخص أمر الصلح بين السلطان وبين ابن عثمان
وفيه أمر السلطان بضرب أبى يزيد الصغير آه
الجمقدارية ، وكان من خواصه ، ولكن ضربه لأ
أوجب ذلك . وأبو يزيد هذا هو الذى صار را
نوبة ثانى فيما بعد ، وقبض عليه العادل طومان با
وسجنه بقلعة دمشق لما توجه الى هناك وتسلطن
وفيه كسفت الشمس كسوبا تاما ودامت
الكسوف نحو من ثلاثين درجة وعادت الزلز
التي كانت بالأمس وكانت خفيفة جدا .

وفي رجب طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالش
وحضر قاصد ابن عثمان فعرض السلطان في ذا
اليوم كسوة الكعبة ومقام ابراهيم عليه السلام
وزف معهما المحمل الشريف ، وكان يوما مشهود
وفيه توفى بركات الصالحى وكيل بيت الم
وكان من أعيان الموقعين ، وهو بركات محمد
محمد بن أبى بكر القاهرى الشافعى الصالحى . وك

غير محمود السيرة في أفعاله كثير الظلم والعسف .
ومولده سنة احدى وثانمائة . وكان اعتراه آكلة في
رجله فاستمر بها الى أن مات . وفيه يقول بعض
الشعراء مداعبة لطيفة :

بركات زاد الظلم في أيامه
وعلى الورى قد جار في توكيله

وبرجله كان الهلاك بعاهة
فمشى الى نار الجحيم برجله

وهو الذى كان سببا لايقاف جماعة قاضى القضاة
زين الدين زكريا الشافعى ، واستمر الشيخ برهان
الدين القلقشندى في التوكل به حتى مات بركات
الصالحى ، فأفرج عنه بعد أن غرم أموالا لها
صورة .

وفيه كان انتهاء العمل من جامع السلطان الذى
أنشأه بالروضة وجاء في غاية الحسن ، وكان
البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين يصنع
في كل ليلة رابع عشر الشهر ليلة حافلة بالجامع ،
ويسمونها البدرية وينصب على شاطئ البحر قدام
الجامع من الخيام ما لا يحصى ، وتجتمع المراكب
هناك حتى تسد البحر ، ويجمع الجهم الغفير من
العالم ويوقد بالجامع وقدة عظيمة . ويحضر هناك
قراء البلد قاطبة والوعاظ ، وتكون ليلة حافلة لم
يسمع بشئها فيما تقدم . واستمر الحال على ذلك
مدة ثم بطل هذا الأمر .

وفيه أشيع بين الناس أن الشيخ جلال الدين
الأسيوطى أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل
الروضة . لأن الاجماع منعقد على منع البناء في
شطوط الأنهار الجارية . وأما ذكر أن ذلك يجوز
في مذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ورحمه
فباطل وليس له صحة في كتب الشافعية قاطبة .

وفيه خرج جان بلاط بن يشبك قاصدا من عند

السلطان الى ابن عثمان ، فخرج في تجمل زائد
وموكب حافل . وجان بلاط هذا هو الذى تولى
السلطنة فيما بعد بعشر سنين .

وفي شعبان قرر السلطان كرتباى بن مصطفى
المعروف بالأحمر في حجووية الحجاب بطرابلس ،
ونظر جيشها وغير ذلك من الوظائف بها .

وفيه ظهرت أعجوبة ، وهى انه ولد مولود لستة
أشهر ، فلما نظروا اليه وجدوا في وجهه لحية وعلى
فمه شارب ، وقد دارت لحيته في وجهه ، وفي فمه
أسنان مفلجة وكان عليه بشاعة ، فعاش ثلاثة أيام
ومات .

وفي رمضان خلع السلطان على يشبك بن حيدر
الذى كان والى القاهرة وصار مقدم ألف ، وقرره
في نيابة حماه عوضا عن اينال الخفيف في مقدمة
ألف بسصر فيسا بعد .

وفيه تغير خاطر السلطان على أزدمر السرطن
أحد مقدمى الألو ف بسصر وقرره في نيابة صفد
عوضا عن يلباى المؤيدى بحكم وفاته عنها . وكان
أزدمر هذا من خواص السلطان ، وكان عنده من
المقربين وكان أغات أقبردى الدودار ، ثم وقع بينه
وبين السلطان في الباطن ، فمقتته وولاه نيابة صفد
عوضا عن يلباى المؤيدى بحكم وفاته ، واستمر بها
الى أن مات .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية في سائر البضائع
حتى بيع كل ثلاثة أرادب فسح بدينار ، ورخص
سائر الغلال جدا .

وفي شوال ليلة عيد الفطر كان وفاء النيل
المبارك فأخر السلطان فتح السد في ذلك اليوم ،
وفتح في اليوم الثانى من شوال . ووافق ذلك
خامس عشر مسرى القبطى فصار العيد عيدين ، فعد

كبيرة في طرابلس الغرب ، وقتل شاسي بن أبي النصر بن رجاء الخير قائد طرابلس ، وكان من خيار أعيان بلاد الغرب .

سنة سبع وتسعين وثمانمائة (١٤٩١ م) :

فيها ، في المحرم ، كان دخول المحمل الى القاهرة وحجت في تلك السنة زوجة أقبردى الدوادار ، وهى بنت العلائى على بن خاص بك أخت خوند زوجة السلطان قايتباى ، وكان طريق الحجاز في تلك السنة مخوفا بسبب فساد العربان .

وفيه تغير خاطر السلطان على مجدد الدين اسماعيل الناصرى ، قاضى قضاة الحنفية بدمشق ، فلما أحضر ضرب بين يديه ضربا مؤلما ، وقيل بل ضرب بالمقارع نحو من عشرين شييا .

وفي صفر توفى نور الدين على بن محمد بن عبد المؤمن البتتوني الشافعى ناظر الجوالى ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه توفى يشبك حبيب بن ططخ الظاهرى جقمق أحد الأمراء الطيلخانات رأس نوبة كبير ، وكان لا بأس به ، وقد تجاوز السبعين سنة من العمر .

وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا .

وفيه قرر الناصرى محمد بن جرباش فى مشيخة المدرسة الظاهرية التى بين القصرين .

وفيه توفى تاج الدين بن الجيعان ، وهو عبد اللطيف بن عبد الغنى بن علم الدين شاكى ، وكان متحدثا فى كتابة السر ، وكان شابا حسنا محمود السيرة فى أفعاله . مات وهو فى عشر الثلاثين .

من النوادر . وفى هذه الواقعة يقول شيخنا لال الدين الأسيوطى هذه الأيات :

يوم عيد الفطر وفى بهاء وسعاده
ختم الصوم وأوفى النيل فى أحسن عاده
ياله من يوم عيد فيه حسنى وزياده
وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب لمحمل الأمير أزدى تساح .

وفى ذى القعدة توفى تقي الدين بن نصر الله وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت لا بأس به . وفيه جاءت الأخبار من حلب بوقوع فتنة كبيرة بين نائب حلب وبين جماعة من أهلها ، وقتل فى هذه الحركة من ممالك أزدى نائب حلب سبعة عشر مملوكا ، وقتل من أهل حلب نحو من خمسين انسانا ، وأحرقوا جماعة من حاشية النائب بالنار ، وكادت حلب أن تخرب عن آخرها ، ولولا أن قانصوه الغورى حاجب الحجاب بحلب قام فى اخماد هذه الفتنة حتى سكنت ما كان يحصل خبر فى هذه الحركة . فلما سمع السلطان بذلك تنكد جدا ، وعين مامى الخاصكى بأن يتوجه الى حلب ليكشف عن هذه الفتنة ، وأخذ فى أسباب السفر الى حلب .

وفى ذى الحجة كان ابتداء الفتنة بين قانصوه خمسمائة أمير أخور كبير ، وبين أقبردى الدوادار وقد وقع بينهما بسبب نوتى واستمرت الفتن تتزايد بينهما حتى كان من أمرهما ما سنذكره فى موضعه .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الشرق بوقوع فتنة كبيرة بين ملوك الشرق ، وأن يعسوب بن حسن الطويل قد قتل أخاه ، ووقع أيضا فتنة بين خليل الصوفى وسليمان ماجان ، واستمرت الفتن قائمة هناك فى جهات متعددة ، ووقعت أيضا فتنة

وفيه نوفي أبو يزيد قصيما الظاهري جقمق
وكان من الأمراء العشراوات .
* * *

وفي ربيع الآخر تزايدت الأقوال بوقوع الطاعون
حتى حكى أن شخصا من الأتراك رأى في منامه
ملك الموت عليه السلام ، فقال له : « من أنت ؟ »
قال : « أنا ملك الموت جئت الى أخذ أرواح الكثير
من الناس ، فان الطاعون قد دخل الى مصر » .
فقال له ذلك الجندى : « فهل تقبض روحى في
هذا الوباء ؟ » فقال له : « قد بقى من عمرك
سبعة أيام » .

فانتبه الجندى من المنام وهو مرعوب . فلما
أصبح كتب وصية ، ثم انه فى اليوم السابع مات
كما رأى . فعد ذلك من النواذر الغريبة .
وفيه جاءت الأخبار بأن مملكة حسن بك
الطويل فى اضطراب ، وأن ابن عثمان قد أشرف
على أخذ بلاد حسن الطويل من يد أولاده ، فلما
بلغ السلطان ذلك قصد أن يخرج تجريدة صحبة
حسين بن أعزلو بن حسن الطويل الذى كان
مقيما بالقاهرة . ثم آل الأمر الى اهمال خروج
التجريدة . ومات حسين فيما بعد لما حج ، ودفن
بالمدينة الشريفة .

* * *

وفي جمادى الأولى قويت الاشاعات بوقوع
الطاعون ، وزعموا أن انسانا رأى النبى صلى الله
عليه وسلم فى المنام فقال له : « ان الطاعون كان
واقعا عليكم ، فشفت فيكم ، عند ربى ، وقل
للناس يصومون سبعة أيام متوالية » فصار الكثير
من الناس يصوم سبعة أيام متوالية فلم يفد ذلك
شيئا ، ووقع الطاعون بالديار المصرية . وكان
طاعونا مهولا « قلت » ولم يقع الطاعون بمصر
من سنة احدى وثمانين وثمانمائة الا فى هذه
السنة . وقد غاب الطاعون ست عشرة سنة لم

يدخل مصر ، وكان هذا الطاعون من الطواعين
المشهورة بموجب أبطائه هذه المدة ، وهو الطاعون
الثالث الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى وكان
مبدأ هذا الطاعون من حلب ، وكان فى مدة انقطاعه
عن مصر كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر
وأكل الربا وجور الممالك فى حق الناس وقد
روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« ما من قوم يظهر فيهم الزنا الا اخذوا بالفناء » .
قال العلامة شهاب الدين بن حجر : والحكمة فى ذلك
أن الزنا حده ازهاق الروح فى المحسن ، فاذا لم
يقم فيه الحد يسلط الله عليهم الجن فيقتلونهم .
ولما كان الزنا يقع من بنى آدم سرا سلط الله عليهم
الجن يقتلونهم سرا من حيث لا يرونهم . وقاعدة
العذاب أنه اذا نزل يعم المستحق له وغيره ...
والرحمة لا تكون الا مخصوصة . ثم يوم القيامة
يبعثون على قدر نياتهم . وقال ابن مسعود رضى
الله عنه : « اذا بخرس المكياى حبس القطر ، واذا
كثر الزنا وقع الطاعون ، واذا كثر الكذب وقع
الهرج » .

* * *

وفي جمادى الآخرة هجم الطاعون بالقاهرة ،
وفشا جملة واحدة ، وقتك فى الناس فتكا دريما ،
وكانت قوة عمله فى الممالك والعييد والجوارى
والأطفال والغرباء ، ووقع فى هذا الطاعون أمور
غريبة وحكايات عجيبة . منها أن الكشرى بيعت
كل رطل بأشرفين ولا توجد ، وبيعت الواحدة
منها يائسى عشر نصفا . ومنها أن انسانا كان معه
خمسة أولاد فطعن الخمسة فى يوم واحد وماتوا
فى يوم واحد . ومن العجائب أن جماعة كثيرة
فروا من الطاعون لما دخل الى مصر ، فتوجهوا الى
أماكن عديدة ، فلما ارتفع الطاعون عادوا الى
مصر ، ولم يفقد منهم ولا من أولادهم أحد ،
فسبحان القادر على كل شيء . ولما كثر الموت عز

وجود البعلبكي ، وأضر ذلك بحال الناس ، وكفوا موتاهم في الخام والملحم ، وغير ذلك .

وفيه توفي برسباي الخازندار أحد خواص السلطان والمتكلم على أوقافه ، وكان شابا رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه توفي مغلباي الشريفي ابن الطويل ، وكان لا بأس به ، وهو أحد مقدمي الألوف ، وأصله من مسالك الأشراف قايتباي .

وفيه توفي جانم بن مصطفى الذي كان نائب قلعة حلب ، ثم بقى مقدم ألف بمصر .

وفيه توفي قيت الساقى أحد العشراوات ووالى القاهرة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفي مغلباي الأشراف أحد الأمراء العشراوات ، وأصله من ممالك قايتباي .

وفيه توفيت بنت أربك الأمير الكبير زوجة الأمير قانصوه خمسمائة أمير أخور كبير ، وكانت شابة جميلة .

وفيه توفيت أختها بعدها بأيام وكانت بكرا .

وفيه توفي نامق المؤيدى أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفي رجب توفيت بنت السلطان قايتباي وكانت تسمى ست الجراكسة ، وكانت شابة جميلة مستحقة للزواج ، وكانت من سريته ، فماتت هي وأمها في يوم واحد ، وأخرجت قدام نعش انتها ، وكانت جنازة بنت السلطان حافلة ، وأخرجت في بشخان زركش وقدامها كفارة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه جان بلاط بن يشبك بتقدمة ألف ، وبعث اليه باليلب . وجان بلاط هذا هو الذي تسلطن فيما بعد . وأنعم أيضا على مملوكه شاد بك بن مصطفى الخوخ الدوادر

الثاني بتقدمة ألف ، ثم حضر جانم المعروف بالمصبغة من الشام الى مصر ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بمصر ، وأنعم على كرتباي قريبه بتقدمة ألف ، وقرر ماماي الخاصكى في الدوادرية الثانية عوضا عن شادبك الخوخ بحكم انتقاله الى التقدمة ، وقرر قيت الرحبي في ولاية القاهرة عوضا عن قيت الساقى بحكم وفاته بالطاعون .

وفيه كانت وفاة الشاب الماضل على باي بن برقوق نائب الشام ، وكان شابا رئيسا حشما دينا خيرا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان له نظم جيد . ومولده سنة ست وستين وثمانمائة . ومن شعره الرقيق قوله :

عود خيار شنبير قد جاءنا بالعجب
أزهاره أبدت لنا شمسارخا من ذهب
ومسا مدحه به المنصوري قوله :

محيا على باي بن برقوق مشرق
كطرة وسنى ليس بينهما فرق

فان يك سباقا الى الفضل والندى
فلا تعجبوا منه فوالده برقوق . (ق)
ومن النكت اللطيفة ، قيل وقع بين الشهاب أحمد ابن الشيخ على المقرئ وبين سبدي على باي هذا بعض وحشة ، فسطا على سبدي على باي وسماه زلاية مضافا الى اسم نحص من الأتراك كان مضحكا تعبت به الناس ، ويقولون له زلاية فيرجمهم ، فلما أشيع ذلك بين الناس أخذ بعض شعراء العصر هذا المعنى وعمل في ذلك مداعبة ، وقال :

قد شبهوه بمن يدعى زلاية
وصح تشبيههم والأب برقوق
لكنهم فاتهم في الوز نسبته
فان اسم آييه نصفه فوق

وفيه توفي جكم كاشف منف ، وشادبك كاشف
 قليوب ، ومن الخشقدمية جماعة كثيرة منهم : قان
 بردى الطريف ، وكسبائى المحمدى ، واقبائى
 الطويل ، وقانصوه قمر ، واينال الأشقر ، وغير ذلك
 جماعة كثيرة من ممالك السلطان والأمراء . ومات
 من العبيد والجوارى والأطفال والفسرياء
 ما لا يحصى عددهم ... وفى أواخر الشهر المذكور
 تناقص أمر الطاعون وخف بالنسبة لما كان عليه
 بعد ما جرف الناس جرفا وأخلى الدور من أهلها .
 وقيل أحصى من مات فى هذا الطاعون بمصر ،
 وورد اسمه لديوان المواريث خارجا عن الغرباء
 ومن لم يرد اسمه الى الديوان ، فكانوا زيادة عن
 مائتى ألف ، فمن ذلك بنات بكر اثنا عشر ألف بنت
 من مصر والقاهرة والضواحي . وقد قال الفائل فى
 المعنى :

زالت محاسن مصر فى عيني من هم ودعش
 كادت بنو نعش بهما أن يلحقوا ببنات نعش
 وقال الشيخ بدر الدين الزيتونى العوفى هذا
 الرجل يرثى به أهل مصر لما وقع الطاعون بهما
 وهو :

وحسد ومن قد حكم بالموت
 ونقد حكمه بما يختار
 واحتجب عن العيون سبحانه
 جل من لا تدركو الأبصار

بالمساة رب البشر لما
 قد حكم فى الكائنات باجمع
 اختفوا فى ذا الوجود وأضحوا
 ما لهم من ذا القضاء مدفع
 جا أخذ منهم ملاح كانوا
 شبه أقمار البدور طلح

فاندبوا يأهلى الحنى وابكوا
 واجعلوا دمع العيون مدران
 واحزنوا على الذين ماتوا
 واختفوا عن أعين النظار

كنت أجد أقمار بدور طلع
 وشموس تشرق على الأطلال
 حسنهم سما وقد كانوا
 فى هنا بالجاء وكتر المال
 جا الممات سرعه وعاندهم
 اختفوا حين عاينوا الأهوال

وبقوا تحت الثرى غياب
 بعد ما كانوا يروا أجهار
 يا أسف قلبى وطول حزنى
 عنى قد غابت شمس واقمار

حين أتى كأس الممات للناس
 وبقي ما بينهم داير
 وسقاهم فى المقسام شربه
 حتى صار فى سرهم ساير
 أصبحوا فى حضرتو غياب
 بعد ما كان كل أحد حاضر

سكروا فى حضرة الساقى
 لما كاس الموت عليهم دار
 وبقوا ندمان وقد غابوا
 من شراب ما هو خمر خمار

 ركب الطاعون وقد طلب
 وحمل فى عسكر الأطفال

كم جرح قلوب وكم أفنى
من جموع لما عليهم مال

كم ترك مطعون بقي مطروح
كم كسر شجعان وكم أبطال

كم رأيت مقتول بذى الوقعة
بعد كسرو ما يجد اجبار
والقضا فرق جموع الناس
كن كان فى أيدى القضا بتار

كم رأيت ملسوع بسم الموت
قد لسع ولا يجد ترياق
كم رأيت منصاب من افعالو
جت اليه آفة بلا تساق
كم رأيت ثكلى وهى حية
شعرها ناشر من الأشواق

كم رأيت فارس بقى ملقى
بعد ما كان فى الوجود/سيار
كم رأيت من دار خلاها الموت
ما ترك فيها ولا ديار

يا فهم انظر لدى الدنيا
كيف بقت تحكى لنا بستان
والبشر قد أصبحوا فيها
كأنهم آثار على الأغصان
ومليك الموت بأمر الله
قد بقى فيها شبيه جنان

كلما انتهى الى واحد
وبلغ حدو الى المقدار

جا اليه بأمر الذى أنشاه
قطعوا من بين دى الأنهار

نالك يا رب يا رحمن
يا الله يا أول ويا آخر
يا لطيف بالخلق يا حافظ
يا عليم بالذنب يا غافر
يا بصير يا فرد يا واحد
يا سميع يا حق يا قادر

ارفع الطاعون بجاء أحمد
المجيد صاحب الأنوار
وانزل الرحمة ومتعنا
بالرضا والعفو يا ستار

وأنا العوفى ولى أزجال
من نظام تحكى عقود جوهر
كلما كررتها تحلو
ما أحسن السكر اذا تكرر
فاسمعوا لى ما أقول واصفوا
يا جبيع من حل دا المحضر

وحدوا من قد حكم بالموت
ونفذ حكمه بسا يختار
واحتجب عن العيون مسبحان
جل من لا تدركو الأبصار

وفى شعبان ارتفع الطاعون عن مصر وانقاهرة
جملة واحدة ومشى نحو بلاد الصعيد .
وفيه توفى الشيخ شمس الدين الحمصانى
محمد بن أبى بكر بن محمد القاهرى الشافعى
الكاتب المجيد ، وكان عالما فاضلا عارفا بالقراءات

السبع . وكان امام جامع ابن طولون ، وكان خيرا دينا لا بأس به ، ومولده سنة عشر وثمانمائة .

وفيه توفي محمد العجمي الذي كان مفيما بجامع كراى وكان من أولياء الله تعالى مشهورا بالصلاح .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن الفتنس صاحب قشتيلة الفرنجي قد ملك غرناطة التى هى دار مملكة الأندلس وكانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع الموهولة فى الاسلام .

وفى رمضان قرر ناصر الدين محمد الصفدى فى وكالة بيت المال وحصل منه الظلم والعسف فى الناس .

وفيه ثارت فتنة بين المماليك الجلبان بسبب تفرقة الأقاطيع التى توفرت عن المماليك الذين ماتوا بالطاعون .

وفى شوال خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل تانى بك الجمالى أمير مجلس ، وبالأول كرتباى قريب السلطان .

وفيه تغير خاطر السلطان على صاحب قاسم فعزله ، وكان يومئذ ناظر الدولة ، فلما صرف عنها قرر بها عبد القادر الطويل عوضا عن قاسم شيعته .

وفى ذى القعدة ابتداء السلطان بتفرقة الأقاطيع المتوفرة عن مات بالطاعون فى السنة المذكورة فصار يفرق أقطاع كل من توفى من الطباق لأهل طبقته ، ولا يخرج من ذلك شيئا لغير أهل طبقته . وكانت أغوات الأطباق والمماليك الجلبان يتراصون مع بعضهم بالنوبة ويحضرون ويعرضون ذلك على السلطان فينعم لهم بذلك ، فمنهم من يكون

ملبقة فيها أقطاعات كثيرة متوفرة ، ومنهم من يكون فيها شيء قليل فتأخر من المماليك الجلبان جماعة بلا أقاطيع . وذلك الى آخر خرج المماليك فى السنة المذكورة سنة سبع فعرضهم السلطان فيما بعد وأخرج لهم أقاطيع كانت متوفرة فى الذخيرة ،

ففرقها على المماليك الذين لم يخصهم شيء من الأقطاعات المتوفرة من الطاعون ... وصار الديوان يستدعيهم بأسمائهم ، والسلطان يعطيهم ، ويكتب حتى لم يبق من جلبان قايتباى أحد بلا أقطاع الا الذين استجدوا من بعد الفصل ، وكانت الأقطاعات التى فرقت أكثرها ثلاثون ألفا وأقلها خمسة عشر ألف درهم . والأقطاعات التى توفرت من جماعة المماليك الاينالية فرقها على خشداشينهم الاينالية فوق اقطاعاتهم ، والتى توفرت من الخشقدمية أعطاها لخشداشينهم من الخشقدمية . وأعطى لبعض خشداشينه وبعض أولاد الناس ممن كان منزلا بالديوان وهو بالطبقة ، أقطاعات خفيفة . واستمرت تفرقة الاقطاعات مدة ثلاثة أشهر .

وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة الميدان الناصرى ، وكان أربك أمير كبير شادا على العمارة حتى انتهى منه العمل .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ونزل أربك أمين كبير وفتح السد على العادة .

وفيه اختفى تغرى بردى الاستادار وقد تغير خاطر السلطان عليه . فلما طال اختفاؤه خلع السلطان على الأمير أقبردى الدوادار وقرره فى الاستادارية عوضا عن المذكور ، مضافا لما بيده .

وفيه فرق السلطان على جميع العسكر من القرائصة والجلبان وأعطى لكل واحد منهم فرسا

وديعة من موجود الذين ماتوا بالطاعون ، وذلك لأجل كثرة الخيول وقلة الغلمان لخدمتها .

وفي ذى الحجة جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة الخولجا شمس الدين بن الزمن ، وكان من مشاهير التجار في سعة من المال ، وله بر معروف . وهو صاحب المدرسة التي ببولاق عند الرصيف ، وكان ديناً خيراً وكان لا بأس به .

وفيه توفي شيخ جبل نابلس يونس بن اسماعيل وتوفي يوسف بن برد بك العجمي ، وكان شجاعاً حسناً لا بأس به ، وتوفي على بن الجمجمة الذي كان مقيماً بمصر واختتن مع ابن السلطان .

سنة ثمان وتسعين وثمانمائة (١٤٩٢ م) :

فيها ، في المحرم ، لم يحضر مبشر الحاج وصار الناس في قلق بسبب ذلك ، وكان المبشر في السنة المذكورة تانى بك الأيبح أحد المماليك السلطانية ، فاعترضه بعض العربان في أثناء الطريق ، وأعاقوه عندهم أياماً .

وفيه توفي برهان الدين بن النعمان المحدث ، وكان انساناً حسناً لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من نجر دمياط بأنه نزل برد تحت الليل فكان قدر كل بردة مثل بيضة النعام ، ونزل بها بردة كبيرة فكانت زيتها خمسة وسبعين وطناً بالمصرى ، فقتل بسبب ذلك بهائم وطيور وغير ذلك ، وكان أمراً مهولاً .

وفي صفر خرج الأمير أقبردى الدوادار الى جهة نابلس ، وخرجت تجريدة الى جهة البحيرة ، وكان الباش عليها الأمير أزيك اليوسفى رأس نوبة النوب وعدة وافرة من الأمراء العشراوات والجند .

وفيه عاد الطاعون الى القاهرة ثانياً لكنه كان خفيفاً بالنسبة لما قبل ذلك . ومات به جماعة من المماليك والأطفال ، ومن كان فر — قبل دخول الطاعون — من القاهرة في السنة الماضية .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قانى باى قرا الرماح بامرية عشرة ، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة قرره في نيابة صهيون . وقد سعى في ذلك بمال له صورة وقانى باى هذا هو الذى بقى أمير آخور كبير فيما بعد .

وفي ربيع الأول أنعم السلطان على مملوكه اكسباى الشريفى بامرية عشرة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلاً على العادة وحضر القضاة الأربعة والأمراء .

وفي ربيع الآخر عين قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير في امرية الحاج بركب المحمل ، وعين الناصرى محمد بن أزيك أمير كبير بالركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأنه في ليلة تاسع عشر صفر سقطت صاعقة عظيمة في المسجد الشريف ، فأحرقت منه جانباً وتساقطت في تلك الليلة عدة صواعق خارج المدينة الشريفة ، فلما بلغ السلطان ذلك أمر باصلاح ما فسد من المسجد الشريف .

وفي جمادى الأولى توفي بركات بن الظريف المقرئ وكان علامة في قراءات الرياسة بالجوق .

وفيه توفي الناصرى محمد بن برد بك ، وهو سبط الأشرف اينال ، وكان رئيساً حشماً من أعيان أولاد الناس ، وكان مفزطاً في السمن جداً ، وكان لا بأس به .

وفيه توفي الخواجه عمر بن غازي وكان رئيساً
حسناً في سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفي جمادى الآخرة خسف القمر جميعه .
وفيه توفي النهابي أحمد بن برفوق نائب
النمام ، وهو أخو سيدي علي باي بن نائب الشام ،
فكان بينه وبين موت أخيه دون السنة ، وكان شاباً
حسناً جميلاً لم يلتح بعد .

وفي رجب نار جماعة من الماليك الجلبان على
السلطان ووقفوا بالرميلة ومنعوا الأمراء من الطلوع
الى القلعة ، وآل الأمر الى طلب نفقة من السلطان .
فمضى بعض الأمراء بينهم وبين السلطان في ذلك
فوعدهم بالنفقة بعد مضي شهر ، فسكن الحال
فليلاً ، ولكن استمرت الدكاكين مغلقة ، وكذلك
الأسواق ... حتى نودي لهم بعد أيام بالأمان
والاطمئنان .

وفيه وصل قاصد من عند رستم بن قراماك
صاحب العراقين ، وكان ملك العراقين بعد أمير
يقول شرحها .

وفيه توفي القاضي نور الدين علي بن قاسم
أحد نواب الحكم الشريف المالكي وكان عالماً
فاضلاً لا بأس به .

وفيه توفي صندل الحبشي نائب المقدم .

وفيه توفي برسباي أمير جندار وكان قد طعن
في السن .

وفي شعبان توفي شاد بك الأشتر المحمدي
الظاهري چتمق ، أحد الأمراء العشراوات ونائب
نغر دمياد وشاد الحجر ، وكان لا بأس به
وفيه عين السلطان قانصوه المحمدي المعروف
بالبرجي أحد الأمراء العشراوات بأن يتوجه قاصداً

من السلطان الى ملك الشرق رستم أحمد أولاد
حسن الطويل متولى العراقين . وقد جرى بينه وبين
أخوته ما لا خير فيه . حتى تولى بعد أمور وقعت
له ، فخرج قانصوه المذكور بعد أيام في تجمل
زائد .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن أهلها قد
رجعوا النائب قانصوه اليحاوي ، وقد ثارت
بدمشق فتنة كبيرة .

وفي رمضان نودي بالصوم بعد ضحوة النهار ،
وفد ثبت الهلال بعد طلوع الشمس بثلاثين درجة .
وقد آكل غالب الناس في ذلك اليوم ، ولا سيما
العوام ، فثقل عليهم الامساك في ذلك اليوم بعد
الافطار .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة سودون
الطويل الاينالي أحد الأمراء المتقدمين بدمشق ،
وكان لا بأس به .

وفيه كان ختم البخاري بالقلعة . فخلع على
النضاة ومشايخ العلم ، وفرت الصرد على
الفقهاء ، ووقع في ذلك اليوم بحث بين البرهان
الدميري أحد نواب المالكية وبين بعض الطلبة ،
فأنكروا على البرهان الدميري بما أجاب به في
المسألة ، وكان الختم حافلاً جداً .

وفي شوال كان وفاء النيل المبارك ووافق ذلك
ثاني عشر مسرى القبطي ، وتوجه أزبك أمير كبير
وفتح السد على العادة .

وفيه خرج الأمير قانصوه خمسمائة بركب
المحمل ، والناصري محمد بن أزبك أمير كبير
بالركب الأول ، فكان لهما بالقاهرة يوم مشهود .
وطلب الأمير قانصوه ذلك الطلب الذي تقدم ذكره
في التجربة . ومن غريب الاتفاق أن النيل أوفي

وغالبا الناس في بركة الحاج مشغولون بالحجاج .
فلما بلغ أربك وفاء النيل حضر تحت الليل حتى
فتح السد وعاد .

وفي ذى القعدة جاءت الأخبار بوفاة الشيخ
المحدث الواعظ برهان الدين ابراهيم بن الحموي
رحمه الله ورضى عنه ، مات بطريق الحجاز قبل
وصوله الى العقبة ودفن هناك . وكان عالما فاضلا
محدثا بارعا في الحديث ، وكان ديننا خيرا من أهل
الصلاح ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .
وفيه خلع السلطان على داود بن سليمان من
أولاد ابن عمر أمير عربان هواره ، وقرره في امرية
الوجه القبلى ببلاد الصعيد .

وفي ذى الحجة توفي ابن العيسى ناظر الأحباس
وهو عبد العزيز بن محمد بن محمد بن أحمد
العيسى الشافعى ، وكان رئيسا حشما محمود
السيرة لا بأس به ، وتوفى السيد محمد الشريف
القادرى أخو زين العابدين ، وكان لا بأس به .
سنة تسع وتسعين وثمانمائة (١٤٩٣ م) :

فيها ، في المحرم ، صعد القضاة الى القلعة
للتهنئة بالعام الجديد ، وصعد أيضا الشيخ جلال
الدين الأسيوطى . فلما جلس سألته السلطان عن
أى سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم
يفعلها ، فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك
بشئ مع غزارة علمه وقوة اطلاعه . وكان السلطان
عنده كتاب يسمى حيرة الفقهاء ، ثم أجاب الشيخ
جلال الدين بعد ذلك بجواب حسن كافى في هذه
المسألة بأنه قصد بذلك الأذان فإنه سنه ولم يفعله ،
والأصح أنه أذن في وقت وورد في ذلك حديث .
وعمل في هذه المسألة كراسا مطولا ، وذكر فيه
أشياء كثيرة مما سنه النبى صلى الله عليه وسلم
ولم يفعله .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من مماليكه
بامريات عشرة ، منهم مامى جوشن ومصرى
أخو مغلبى وبرسبى العلائى واسنبى الأصم
وآخرون .

وفيه وصل الحجاج ولم يثنوا على قانصوه جيلا
ولا حمدت سيرته في هذه السفرة ، وحكوا عنه
أمورا غير صالحة ، فانه رمى الناس وأخذ جمالهم ،
وترك جماعة منهم بالينبع ، حتى أتوا من البحر
الملح فيما بعد . وشال له الحجاج راية سوداء وهم
داخلون البركة . وما لاقى الحجاج في السنة
المذكورة خيرا . وكانت سنة صعبة على الناس من
الغلاء ، وموت الجمال ، واستمر قانصوه خمسمائة
في عكس ، ولم ينجح أمره من بعد ذلك ، حتى
كان من أمره ما سنذكره .

وفيه توفي الشيخ جمال الدين يوسف بن
جاهين الكركى سبط الحافظ ابن حجر القاهرى
الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا رئيسا حشما
لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بأن العربان تغلبوا على
الكرك والشوبك ، وحصل هناك فتن مهولة .

وفي صفر نزل ابن السلطان من القلعة في موكب
حافل وتوجه الى داره التى أنشأها له السلطان على
بركة الفيل فأقام بها ساعة ثم عاد الى القلعة .
وهذا أول ظهوره للناس ونزوله الى المدينة . وكان
معه أقبردى الدوادار والجم الغفير من الجند .
وكان نزوله سببا للانفاق على الجند لكل واحد
منهم خمسون دينارا ، وسموها نفقة نزول ابن
السلطان . وكان قاصد ابن عثمان حاضرا لدى
يشاع ذلك بحضرته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أزدمر المسرطن فائب

ذلك ، ولم يكن له ذنب يوجب ذلك ولكن خرج خلق السلطان في ذلك اليوم جدا .

وفي ربيع الآخر توفي القاضي تاج الدين ابن الامام وهو محمد بن أحمد بن محمد الامام ، وكان أحد نواب الحكم من الخفية ، وكان غير مشكور في قضائه وعنده خفة ورهج كما قال فيه الشهاب المنصوري :

قالوا علا التاج وهو فاض

فقلت ياضية الحقوق

غايته أنه تويج

ملقى على مفرق الطريق

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأنه سقط بها ثلج حتى عم الأسطحة والشوارع مثل ثلج الشام ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه عين السلطان أزدمر تمساح أمير حاج ركب المحمل ، وعين الناصري محمد بن العلائي على ابن خاص بك أمير الركب الأول ، وعين يشبك الأشقر باش المجاورين بمكة المشرفة .

وفيه عين السلطان الأمير ماماي بن خداد الدوادار الثاني بأن يتوجه رسولا الى ابن عثمان ، وقد توجه قبل ذلك مرة أو مرتين ، وهذا آخر قصاد السلطان الى ابن عثمان ، فشرع ماماي في عمل برق عظيم وصنع له دركا ببركة الرطلى في زمن الشتاء ، وصار يوقد في كل ليلة هناك وقدة حافلة ، وهرعت الناس الى هناك بسبب الفرجة ، وعمل الجسر ، وسكن به الناس أياما في قلب الشتاء ، حتى عد ذلك من النوادر . وكان يعمل هناك في كل ليلة خيال ظل ، ومغانى عرب ، أو ابن رحاب المغنى ، أو جوق المحبطين ، وكانت ليالى مشهودة في التصف والفرجة ، حتى خرج الناس في ذلك عن الحد ، وأقاموا على ذلك نحوا من

سند الظاهري جقمق ، وكان من أعيان الأمراء جليلا سليم الفطرة ومات وهو في عشر الستين .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة أزدمر نائب حلب قريب السلطان وكان انسانا حسنا لا بأس به .

وتولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة طرابلس ،

نيابة صفد ونيابة حلب ، وامرية مجلس بمصر ،

غير ذلك من الوظائف والنيابات ، ومات وهو في

سشر الستين . وكان في أوائل عمره في قلة وخمول ،

أقام على ذلك دهرا طويلا . فلما تسلطن السلطان

نايتباي ظهر أنه من قرابته ، فجاءت اليه السعادة

ختة فأقام فيها مدة ومات . وكان أصله من ممالك

لظاهر جقمق ، وهو أزدمر بن مزيد . ثم بعد موته

وسل السلطان خلعة الى اينال السلحدار نائب

طرابلس ، ونقله الى نيابة حلب عوضا عن قريبه

زدمر بحكم وفاته . وكان اينال هذا تولى نيابة

سند أيضا بعد أزدمر المسرطن وقتل في واقعة

قبردى الدوادار لما سافر الى حلب .

وفي ربيع الأول توفيت خوند بنج زوجة الأمير

زبك اليوسفى رأس نوبة كبير وكانت زوجة تتم

لؤيدى نائب الشام وكانت من مشاهير الخوندات

هى والددة سيدى فرج الماضى ذكر وفاته ،

كانت لا بأس بها ، وكانت تقرب للملك الظاهر

جقمق

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفيه توفي الشيخ أحمد بن زروق المغربى

الكى وكان من أهل الصلاح والدين .

وفيه قبض السلطان على بدر الدين الاينالى

اب جيش الشام فضربه بالمقارع بين يديه وأمر

طع لسانه حتى شفع فيه بعض الأمراء فعوفى من

عشرين يوماً ، ثم سائر الأمير مامان ، وخرج في
تجمل زائد ، وموكب حافل فتوجه الى بلاد ابن
عثمان .

وفيه تغير خاطر السلطان على فبروز الطواشي
الزمام وأمر بسجنه فسجن في البرج الذي بالقلعة
أياماً حتى شفّع فيه وأطلق ، وسبب ذلك أن سهاب
الدين الكختي رافع فيه عند السلطان فتغيظ
عليه .

وفي جمادى الأولى أمر السلطان بتجديد عمارة
باب القرافة فعمره ، وأنشأ هناك الربوع والسبل
وجاء من أحسن البناء ، ثم بعد مدة يسيرة أنشأ
جامعا بخطبة خارج باب القرافة فعمره ، فجاء في
غاية الحسن ، وحصل به النفع للناس .

وفيه قرر رد بك الطويل في دوايرية السلطان
بدمشق ، وقرر برسبای الصغير في الحجووية
الثانية .

وفيه توفي القاضي محمى الدين بن مظفر ، وهو
عبد القادر بن محمد بن أحمد بن على بن مظفر
أحد نواب الحكم الشافعى وكان عالماً فاضلاً رئيساً
حشماً محمود السيرة في قضائه وكان لا بأس به .

وفيه توفي السبخ الصالح سيدي على الجبرتي ،
مقيماً بالجامع الأزهر ، مات وجأة وهو بالحمام
وكان رجلاً مبارکاً .

وفي جمادى الآخرة كان الحريق المهول بالقلعة
في حواصل السلطان التي عند ناعة البحرة ، وكان
فيها خيام كثيرة فاحترق غالبها ، ولعبت فيها النار ولم
يسلم منها شيء سوى خيمة المولد الشريف فقط ،
فقومت الخيام التي احترقت فكانت نحواً من
مائتي ألف دينار ، وفيل بل أكثر من ذلك ، ولم
يعلم سبب وقوع النار هناك ، فقام السلطان بنفسه

وبنى يظمى الحريق مع المماليك ، فأقامت النار
تعمل هناك ثلاثة أيام ، فلما طلع النهار صعد
الأمراء الى القلعة وصاروا يسلمون على السلطان
بسبب ذلك الحريق ، وفد نأثر السلطان لذلك ،
وشق عليه حرق تلك الخيام ، وشرع كل من طلع
اليه من الأمراء يشكو له بأنه لم يبق عنده من
الخيام شيء . فصارت الأمراء كل من كان عنده
شيء من الخيام الجدد يقدمه للسلطان ، ففعل
ذلك الكثير من الأمراء والمباشرين ، ثم أشيع بعد
ذلك أن النار كانت من مطبخ بيت الخليفة ، وكان
الخليفة ساكناً بالقلعة داخل الحوش بجوار قاعة
البحرة ، فعند ذلك رسم السلطان للخليفة بأن
بزل من القلعة ويسكن بالمدنسة . وما حصل
للخليفة خير بسبب ذلك ، ونزل هو وعياله من
القلعة وسكن بالقاعة التي بطريق السيدة نفيسة
رضى الله عنها ورحمها . وكانت اشاعة النار بأنها
من مطبخ الخليفة باطلة ليس لها صحة ، وإنما
ذلك كلام الأعداء في حق الخليفة .

وفيه خسف جرم القصر خسوفاً تاماً حتى
أظلمت الدنيا وأقام في الخسوف نحواً من ثلاثين
درجة .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأنه وقع
الغلاء المهول حتى مات من أهلها نحو من ألفين
وخمسمائة انسان من شدة الجوع ، وأكلوا
الجيف والمبثات .

وفيه أمر أربك الأمير الكبير بتجديد عمارة
المدرسة المنصورية التي يدهليز البيمارستان وعمل
على النسمية التي بها قبة ، وجدد بها منبراً ، وأقام
بها خطبة ولم يعهد قبل ذلك أن أحداً من الأتابكيا
قبله أقام بها خطبة ، فعند ذلك من النوادر
ولقد رام الأتابكى أيتمش الجاسى في دولة الناصر
فرج بن برقوق في سنة اثنتين وثمانمائة أن يفعل

ذلك فتعذر عليه وأفتاه بعض العلماء بأنه لا يجوز له ذلك وأن فيه مخالفة لشروط الواقف . فرجع عن ذلك فلما تولى الأتابكية تميز الشمسى بعد أزبك أبطل الخطبة منها . فلما قتل تميز وأعيد أزبك الى الأتابكية ثانيا أعاد بها الخطبة ، واستمرت الى الآن .

وفيه ثارت ريح مزعجة حتى ارتاع الناس منها ، فلما أصبح الناس اجتاز بعض الناس بالكيمان التي خلف المجرة فرأى في الأرض أثر قدم انسان فكان طوله فوق الذراع ، وقد أثر ذلك في التراب خلف المجرة ، فأشيع ذلك بين الناس ولا يعلم ما سبب ذلك .

وفي رجب كانت وفاة الشيخ صلاح الدين الطرابلسي ، وهو محمد بن محمد بن يوسف الحنفي ، وكان عالما فاضلا مفتيا بارعا في مذهبه ، وتولى عدة مدارس ، ثم تولى مشيخة المدرسة الأشرفية التي تجاه سوق الوراقين ، ومات وهو في عشر السنين ، وكان لا بأس به .

وفيه قدم شخص من ماردین يقال له نور على وقد فر من رستم صاحب العراقين لذب أوجب ذلك ، فانتسب الى سلطان مصر ، فلما حضر أكرمه السلطان ورتب له ما يكفيه . وأقام بمصر مدة طويلة حتى توفي الأشرف قايتباي ففر الى بلاده . وفيه توفي يشبك قرقماس الحسيني الأشرفي برسباي أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفي شعبان أعيدت مشيخة المدرسة الأشرفية لبرهان الدين الكركي الامام عوضا عن الصلاح الطرابلسي بحكم وفاته .

وفيه كانت وليمة عرس الأمير جان بلاط على

ابنه القاضي كاتب السر ابن مزهر ، وهي أخت البدرى كاتب السر ابن مزهر وكان مهما حافلا . وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب تونس ومدينة افريقية وهو زكريا بن يحيى بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبي فارس الحفصي ، مات بالطاعون ، فلما توفي قرر ولده عمر في مملكة افريقية عوضا عن أبيه زكريا .

وفي رمضان رخص سعر البطيخ العبدلي حتى بيع كل حمل بنصفين فضة ، ولولا المكس لبيع كل حمل بأقل من ذلك ، وبيع في الحوانيت كل قنطار بنصفين فضة .

وفيه كانت وفاة العلاني على بن خاص بك صهر السلطان ، وهو على بن خليل بن حسن خاص بك التركي الأصل ، وكان رئيسا حشما دينيا خيرا من أعيان أولاد الناس ، وقد كبر سنه وشاخ ، ومولده قبل الثلاثين والثمانمائة ، وكانت جنازته حافلة وأخرج بكفارة ، ونزل السلطان وصلى عليه في سبيل المؤمنين ، ومشت قدماه الأمراء للتربة ، وكان له اشتغال بالعلم وكان ينظم الشعر وله شعر جيد فمن ذلك قوله في مؤذن :

ومؤذن في حسنه أنا مغرم لا أصبر
لما طلبت وصاله أضحي على يكبر
وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على جماعة من الخاصكية ، منهم طوغان باي الثور وتمر القصير الذي بقي زرد كاش ، ثم بقي مقدم ألف ، وقايتباي الأشقر ، وآخرون .

وفي شوال كان عيد الفطر يوم الجمعة ، ولهج غالب الناس بزوال السلطان عن قريب ، وما ذاك الا أن العيد كان يوم الجمعة ويخطب في ذلك اليوم خطبتان ، ويدعى للسلطان في ذلك اليوم مرتين ، فلهج الناس بأن فيه كمال سعد السلطان ، وهو

وجبة العلة في هذه المسألة . وقد جاء في أيام
الأشرف قايتباي خمسة أعياد بالجمعة ولم يضره
ذلك . ومكث هذه المدة الطويلة ولم يؤثر فيه
ذلك شيئا . فمن ذلك كان عيد الفطر بالجمعة سنة
ثمان وسبعين وثمانمائة ، وعيد فطر بالجمعة
أيضا سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وعيد نحر
بالجمعة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، وعيد نحر
أيضا بالجمعة سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وعيد
فطر أيضا سنة تسع وتسعين وثمانمائة ، فهذه
خمس أعياد قد مرت عليه وهي بالجمعة وهو ثابت
في مملكته لم يتزعزع عن ملكه منذ ثلاثين سنة
إلا أياما وأشهرًا ، فكان كما يقال :

لا ترقب النجم في أمر تحاوله

فالله يفعل ... لا جدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر

فلا يضرك مريخ ولا زحل

وفيه توفي الأديب الفاضل محمد بن شادى
خجا المحدث ، وكان شاعرا ماهرا وله نظم جيد
قائما في المعاني . ومن شعره الرقيق قوله :

ما حيلتى فيمن بنى في الحشا

بيتا من الحب لو اش وشى

رشا له لحظ اذا مارنا

أنساك فيه النعى عين الرشا ١

ومولده بعد الخمسين وثمانمائة ، ومما قاله

فيه الشهاب المنصوري من المديح وأجاد :

أنت شاد بنعمة الشحورود

في رياض المنظوم والمنشور

وادكارى بالعنبر الرطب منه

ضائع عند طيب ذاك العبير

عجبا لي مكاتب ورقيق

مع أنى أحاج للتدبير

(١) الرشا ... د . د .

يا ابن شاد مذ صار مدحك ذكرى
قلت انى من حسنه في قصور
وفيه خرج المحمل من القاهرة وكان أزدمر
تمساح بالمحمل واينال الفقيه بالأول .

وفيه توفي تانى بك الخازندار ، وكان من
خواص السلطان لا بأس به .

وفيه قرر في قضاء الحنابلة بسكة المشرفة
الشيشى ، وهو قاضى قضاة الحنبلىة الآن بمصر .

وفيه توفي جاني بك المحمودى الظاهري جقمق
خنداش السلطان . وكان من الأمراء العشراوات ،
ورأى غاية العز في أيام السلطان قايتباي ، وكان
لا بأس به .

وفيه توفي الشيخ أبو الكرم المغربى ، وكان
فاضلا في علم الفلك ومعرفة أحواله .

وفي ذى القعدة توقف النبل عن الزيادة أياما
حتى قلق الناس لذلك وارتفع سعر الغلال ،
وتكالب الناس على شراء الفصح والشعير وغير
ذلك من الغلال ، واستمر النيل واقفا وربما نقص
الذى كان زاده . ثم بعث الله تعالى بالزيادة واستمر
حتى كان الوفاء ، وفي هذه الواقعة يقول الناصري
محمد بن قانصوه وهو قول ابن صادق :

قلعت أصابع نيلنا عين الذى خزن الغلال
وغدت تقول النقص كان على الوفا قطعا وزال

وقال شيخنا عبد الباسط الحنفى :

النيل وفي ووفى مبشرا بالمنافع

وخازن القوت عينيه قلعت بالاصابع

وفيه كان الوفاء في آخره ، وحصل للناس غابة

الجبر بكسره ، بعد أن كان قد نقص وأيس الناس

من طلوعه في السنة المذكورة ، فتوجه أمير كبير

أزبك وفتح البعد على العادة ، وكان يوما

مشهودا .

رفيه توفي عبد العظيم أحد كتاب المسالك . وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الاخبار بوفاة يسبك بن حيدر نائب حساه ، وكان أصله من مسالك الأشرف اينال ، وبولى عدة وظائف سنية منها ولاية القاهرة والأمير آخورية النانية ، ثم بقى مقدم ألف بصر ثم بقى نائب حساه وكان لا بأس به ، ومات وهو نائب حساه ودفن بها . فلما مات يشبك خلع السلطان على أقبای العلويل وفرره في نيابة حساه عوضا عن يسبك بن حيدر بحكم وفاته .

وفيه من الحوادث أنه وقع واقع وهو منقطع بالجبل المنقطع على جباعه من الحجارين فمانوا تحته ، ومن الممالك ثلاثة أنفار كانوا هناك بسبب النقارة . ومات تحت الواقع عدة جبال وحسب كانت هناك لأجل حمل النقارة . وكان وقع على حين غفلة وكان أمرا مهولا . ومن العجائب ان نسخا من المسالك الذي كانوا هناك ووقع الواقع عليهم تصلب عليه سىء من الأحجار فأقام تحت الردم ثلاثة أيام ، فعسل له ثوب وخلصوه وهو فيه الروح وعاش بعد ذلك مدة طويلة .

وفي دى الحججه فتح الاتابكى أزبان سد بركه الأربكيه وكان يوما مسهودا . تم بعد أيام صنع وفده حافلة وحرافة فقط ، وعزم على ابن السلطان ، منزل البه وبات عنده في النصر المظل على البركه ، ومد له أسفحه حافله ، وقدم له نغادم حافله ما بين مسالك وخيول وقماس وغير ذلك ، ثم طلع ابن السلطان الى القلعه في اليوم الثاني أواخر النهار ، ولم ينس ابن السلطان من المدييه سوى ذلك اليوم من منذ نسا ، وكان متيسا بالقلعه لم ير البحر قط . وفيه جاءت الاخبار بوفاة صاحب سرقند وهو

الملك المعظم أحمد بن أبى سعيد ، فلما مات تولى على سرقند بعده أخوه محسود صاحب بلخشان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب فرغانة من بلاد المشرق وهو عمر بن أبى سعيد ، وكان فيه الخير والعدل في الرعية ، ولما مات تولى من بعده على مدينة فرغانة أخوه أحمد .

سنة تسعمائة (١٤٩٤) :

فيها ، في المحرم ، صعدت الفضاة الأربعة الى القلعة للتهنئة بالعام الجديد ، فلما جلسوا أمر السلطان بعقد مجلس في المدرسة الصالحية بسبب نسس الدين ابن الطواى المغربى القاضى المالكي بدمشق ، وكان قد حضر الى القاهرة لأمر أوجب ذلك .

وفيه انتهى العمل من تجديد عمارة الجامع الأزهر ، وقد جدد الخواجا مصطفى بن محسود ابن رستم الرومى وصرف عليه من ماله نحو من خمسة عشر ألف دينار ، وجاء غاية في الحسن وهو على ما جدد به الآن .

وفيه تغير خاطر السلطان على شخص يسال له سس الدين محسد بن عمران المقدسى ، وكان رفيقا لأحمد الحسينى فضرب بين يديه ضربا مؤلما فما أطاق ذلك ومات بعد أيام قلائل .

وفي سمر جاءت الاخبار بوفاه يونس الانسرفى حاجب دمشق ، فلما مات قرر في حجویية دمشق فانى بك نائب غزة عوضا عن يونس المذكور .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن الحج النسامى لما رجع الى الشام خرج عليهم في أثناء الطريق طائفة من عربان بنى لام فاحتاطوا على الركب جميعه ، وسبوا الحريم ، ونهبوا الأموال وأسروا أمير الركب

أركسان ، وكان أمرا مهولا ، فتسكده السلطان
وانزعج لذلك .

وفيه توفي كسباى بن أربك الساقى أحد الأمراء
العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفى ربيع الأول توفي القاضى نور الدين الصوفى
الحنفى أحد نواب الحنفية . وكان رئيسا حشما
لا بأس به ، وكان من أعيان الناس .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا
على العادة .

وفيه هجم المنسر على سوق باب اللوق وأخذ
منه أشياء كثيرة من القماش والأمتعة ، وقتل نحت
الليل جساعة من أرباب الدرك .

وفيه نوى يشبك بن قصروه المعروف يشبك
سحاب ، وكان من الأمراء العشراوات ،
وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على كرتباى أخى
الأمير أقبردى الدوادار وقرره فى نيابة صفد .

وفيه توفي جاني باى الحسنى الظاهرى جقمق
أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفى جمادى الأولى قرر عفيف الدين بن الشحنة
فى قضاء الشافعية بحلب ، وقد سعى فى ذلك بمال
له صورة .

وفيه قرر مصرباى بن على باى فى نيابة قلعة
حلب .

وفيه تعين تانى بك الجمالى فى امرية الحجاج
بركب المحمل وعين كرتباى ابن أخت السلطان فى
امرية الركب الأول .

وفى جمادى الآخرة توفي الأمير أزدمر تمساح
ابن يلباى الظاهرى جقمق أحد المقدمى الأتوف .
وكان رئيسا حشما محمود السيرة ولا سيما فى
سفر الحجاز . وقد سافر أمير حاج بركب المحمل
عدة مرار والناس عنه راضون والثناء عنه جميل .

وفيه توفي الصاحب قاسم شغيته . وكان من
الأعيان ، وتولى نظر الدولة والوزارة غير ما مرة ،
وجاء فى الوزارة على الوضع ، وكان كفؤا للمنصب ،
سائرا بالسداد ، منقادا فى مباشرته ، وجرى عليه
شدائد كثيرة ومحن ومات وهو فى التوكل به ...

وربما قيل انه كان فى الخشب حتى مات ، وباشر
ديوان الوزارة مدة طويلة وآل أمره الى أن مات
شر ميتة . نقل بعض المؤرخين أن قاسم هذا كان
فى مبتدأ أمره خبازا وأن صلاح المكينى أشهره فى
القاهرة لما كان محتسبا ، ثم أن قاسم هذا صار من
جملة صيارف اللحم ، فلما قرر شمس الدين محمد
البيباوى تحشر فيه وصار من جملة المباشرين
بالدولة ، فلما غرق البيباوى تكلم فى الوزارة هو
وعبد القادر الطويل ، ثم أن قاسم راج أمره وترشح
للوزارة حتى استقر بها وصار من أعيان الرؤساء
بمصر ، وباشر الوزارة أحسن مباشرة ، وتنج فى
السداد بها وقد قيل فيه :

وكم سيد يستوجب الرفع قدسه
غدا شاكيا من لحن ألفاظه خفضا
وكم جاهل يدعى رئيسا لقوة
كذلك الخصى يدعى رئيسا من الأعضاء

وفى رجب كانت وفاة القاضى شرف الدين يحيى
بن البدرى حسن ناظر الأوقاف ، وكان رئيسا
حشما ، لكنه أظهر للسلطان تتيعة وعادى الناس
قاطبة ولا سيما الأتراك بسبب ماقرضه على البلاد

لأجل الحسن كما تقدم ذكر ذلك ، ونهب الممالك داره في بعض الركبات واستمر في عكس الى آن مات . ولم يبق أحد علمه حيرا في مده ولابنه لنظر الأوغاف كما يقال :

بولاهها ولهم له حدير

وفاردها ولهم له صادق

وفيه توفى قاضي بولاق بن قرداس أحد نواب الجنبه . واسمه عبد القادر بن أحمد بن علي بن محمد بن أبي بكر الدماصي . وكان يعرف بأبن قرداس : وكان من اعوان الجنبه مسكور السيرة في فضائه وكان لا بأس به .

وفيه وقع الرخاء بالدبار المصرية حتى بيع كل سره أرادب صبح ببلابه دناسر . حتى عد ذلك من الدواذر .

وفيه توفى الطواشي سرور ساد الحوش ، وكان اسمه سمود رائده وحسنه وفلم . وهو الذي أحدث بالملاحه المسجون المسسى بالعرفانة من داخل الحوش ، وكان يحبس فيها من يختار من أصحاب الجرائم . واستمر بعده الى الآن بسجن به .

وفيه توفى المسند عبد القادر بن الزيات المساوي ، وكان لا بأس به .

وفيه تعبط السلطان علي ولده الناصر محمد وألبسه زينة حبسا ولجر حام وبرل به الى طبقة الرمام . وقال لأغات الطبقة نورور المجنون : « دعه تكس الطبقة ويعد على السقرة آخر الممالك ، وان يموت رأسه اضربه غائنه ثويه ، وعامله معاملة الممالك الجلبان » ... فأقام في الطبقة أياما حتى طاع الأناطكي أرباب وشفع فيه ، واستمر عنده ممقوتا حتى مات .

وفي شعبان وصل الى القاهرة شخص جركسى ،

وهو جلب قح وقد جاوز الستين سنة من العمر ، ومعه اثنان من الأولاد وهما شباب ملاح الهيئة ، فذكروا أن ذلك الشيخ أخو السلطان ، وأنه يسع ببلاد الفرنج . وكان مقبلا بها ، فلما حضر استسلمه السلطان وسماه قيت ، واستسلم أولاده وسمى احدهما جانم والآخر جاني بك ، وأنزلهم بالطبقة ورب لهم جوامك ، وصاروا من جيلة الممالك السلطانية .

وفيه قدم الى القاهرة شهاب الدين أحمد بن قردور الدمنفى ، قاضى القضاة بها الشافعى . فلما حضر جرى عليه أنكاد ومحن من السلطان ، وغرم مالا له صورة . حتى استمر في قضاء الشافعية بدمشق على عادته .

وفيه توفى أحمد حزينات ، وكان أستاذًا في فن الموسيقى . وعنده فكاكة وحسن محاضرة .

وفيه أنشع الخبر بسوت الجنبه بن محمد بن عثمان ملك الروم بنابل من بلاد الفرنج . وجرى عليه أمور يطول شرحها ، ومات وهو في أسر الفرنج . وقد تقدم سبب ذلك .

وفيه غرفت معدية بساحل بولاق فسات بها كبير من الناس من رجال ونساء وأطفال وبهائم .

وفي رمضان توعك السلطان في جسده حتى أرجف بموته . ونسب الى قانصوه خمسمائة في مدة توعك السلطان أنه تقجم على السلطنة فمنع من الدخول على السلطان في مدة انقطاعه . ثم ان السلطان حصل له السفاء ونودي في القاهرة بالزينة واستمرت الزينة أياما في شهر رمضان حتى تعطلت الناس عن البيع والنراء .

وفيه أقيمت الخطبة بالجامع الذى أنشأه الأمير
أزبك اليوسفى رأس نوبة كبير بدرب البابا .
وفيه توفى تغرى برمش الاينالى أحد الأمراء
العشراوات وكان لا بأس به .

وفى شوال ليلة عيد الفطر خرج الأمير قانصوه
خمسمائة مسافرا الى بعض بلاده ، ولم يحضر موكب
العيد فكثر القال والقييل فى ذلك اليوم ، وكان سفره
برأى السلطان ، فلما كان يوم العيد ثارت فتنة من
الماليك الجلبان ، وركب الكثير منهم فى ذلك اليوم ،
وتوجهوا الى دار قانصوه خمسمائة ونهبوا ما فيها .
وأحرقوا بعض أماكن بها وأخربوا غالبها ، وهى
الدار التى أنشأها فى قناطر السباع المطلة على
الخليج الحاكسى . وكان الذى أثار الفتنة طائفة
من المالك من عصبة أقبردى الدوادر فحصل
الاضطراب فى ذلك اليوم ، ثم سكن الحال قليلا .
وفيه خرج المحصل من القاهرة ، وكان أمير ركب
المحصل تانى بك الجمالى ، وبالأول ابن أخت
السلطان .

وفيه توفى القاضى نور الدين على بن داود
الصيرفى الاسرائيلى الحنفى أحد نواب الحكم ،
وكان من أعيان الحنفية ، وكان يكتب التاريخ
مجازفة لا عن قائل ولا عن راو ، وله فى تاريخه
خطبات كثيرة وجمع من ذلك عدة كتب من تأليفه
فكان كما يقال :

يا من يقول بأن فى التاريخ كتبنا كامله
لك بالأباعر نسبة لم تدر ما هى حامله
وكان مولده سنة سبع عشرة وثمانمائة . وكان
لا يخلو من فضيلة .

وفى ذى القعدة وصل سيف قان بردى نائب
قلعة دوركى وكان غير محمود السيرة .
وفيه كان وفاء الببل المبارك ، وتوجه الأتابكى
أزبك وفتح السد على العادة وكان هذا آخر فتح
أزبك أمير كبير للسد .

وفيه وقع الرخاء بالدبار المصرية حتى بيع كل
شائبة أرغفة من الحبز البائب بثلاثة دراهم فلوس
حتى عد ذلك من النواذر .

وفيه ابتداء بالسلطان بوغك فى جسده وظهر عليه
أشايير الموت ، وضرب الكرة فى السنة المذكورة
ضربا هينا بالنسبة لما كان عليه قبل ذلك من القوة
فسبحان مغير الأحوال .

وفيه توفى سدى عبد الرحمن البمى وكان من
أولياء الله تعالى .

وفيه توفى أقبردى التماسيحي الظاهرى جفمق
وكان من الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه توفى أزدمر بن مراد خجا الأشرقى برسبای ،
وكان أحد الأمراء العشراوات وبأس مكة ، وكان
لا بأس به .

وفيه ظهرت أعجوبة وهى أن امرأة ولدت مولودا
سورته كصوره الفيل وله زلومة سوداء وكان
بشع المنظر فمات من يومه

وفيه توفى الطواشى سرور السيفى نائب المقدم
وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب خراسان وهو
حسين بن ييمرا بن منصور وييمرا جده ، قيل انه
مات بعله النفرس .

وفي يوم الخميس مستهل ذي الحجة جرت كائنة عظيمة ، وهى أن قانصوه خمسمائة لما توجه الى اقطاعه فى ليلة عيد الفطر ، كما تقدم ، توجه طائفة من الممالك الى داره ونهبوا ما فيها واحرقوا غالبها . فلما رجع قانصوه خمسمائة من السفر ، تعمزت القلوب بالعداوة بينه وبين أقبردى الدوادار ، وصارت العداوة كل يوم فى مزيد . فلما كان يوم الخميس المذكور ركب قانصوه خمسمائة ولبس آلة الحرب ، والتف عليه جماعة من أخصائه وخشداشيه ، مثل قانصوه الألفى ، وقانصوه الشامى ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات جملة كثيرة ، منهم : برسباى الخسيف ، وقرقماس الشريفى ، واسنباى المبشر ، وقايتباى المبشر أيضا ، وأزبك قفص ، وقيت الرحبى ، وغير ذلك من الأمراء ، والجم الغفير من الخاصكية والممالك السلطانية ... فلبسوا آلة الحرب وتوجهوا الى بيت الأتابكى أزبك الذى أنشأه فى الأزبكية . فاجتمع هناك من العسكر ما لا يحصى . فلما بلغ الأمير يشبك الجمالى الزردكاش الكبير ، أن العسكر قد اجتمع عند أزبك حضر عنده ، وكمل هناك أربعة أمراء مقدمين ، وجاء العسكر أفواجا أفواجا ، ولا بقى يعلم ان كانت الركبة على السلطان أم على الأمير أقبردى الدوادار ؟ فلما اشتد الأمر طلع تانى بك قرا حاجب الحجاب الى السلطان ، ونصحه وخلا به وقال له : « انما هذه الركبة على السلطان وأن العسكر قائمة مع أزبك أمير كبير لأجل قانصوه خمسمائة ، فانه كان صهره » . فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت أحواله ، وخشى من اتساع الفتنة ، فنزل وجلس فى المقعد المطل على الرميطة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكنوسات حربى . ثم نادى للعسكر : « من كان طائعا لله ولرسوله

وللسلطان فليطلع الى الرميطة ويقف تحت الصنجق السلطانى » . فلما بلغ الأمراء المتقدمين ذلك طلع تراز الشمسى أمير سلاح ، وتانى بك الجمالى أمير مجلس ، وأقبردى الدوادار الكبير ، وأزبك اليوسفى رأس نوبة كبير ، وتانى بك قرا حاجب الحجاب ، وجان بلاط بن يشبك ، وشاد بك الخوخ ، وبقية المتقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات . فلما بلغ من بالأزبكية من العسكر أن السلطان نادى بأن العسكر يطلعون الى الرميطة ويقفون تحت الصنجق ، صاروا فى الحال يتسحبون من هناك شيئا فشيئا ويطلعون الى الرميطة حتى لم يبق فى الأزبكية الا ممالك الأمراء الذين هناك . فظهرت الكسرة على قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء . وهذه أول حركات قانصوه خمسمائة ، وكان معكوس الحركات فى سائر أفعاله كما قيل :

وأخرنى دهرى وقدم معشرا

على أنهم لا يعلمون وأعلم

فمذ أفلح الجبال أعلم أنتى

أنا الميم والأيام أفلح أعلم

فبينما الأتابكى جالس بمقعده ، واذا بالأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة النواب دخل اليه ، وصحبته الحاج رمضان المهتار بالطشتخانه ، فقال له : « قم كلم السلطان فى خبر » ، فقام من وقته ، وتوضأ وصلى ركعتين ، وركب وهو بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء ، وهو مفكك الأزرار فطلع صحبتها الى القلعة . فلما رآه الممالك الجلبان ، كادوا أن يقطعوه بالسوف . وقيل ان الأمير أقبردى الدوادار لكه وشتمه . فلما وقف بين يدى السلطان قام له وأمر مادخاله الى قاعة البحرة خوفا عليه من الممالك الجلبان أن يقتلوه . فلما بلغ قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء ، أن أزبك أمير كبير قد عوقوه

وطاش وخف الى الغاية ، واجتمعت فيه الكلمة ،
وصار صاحب الحل والعقد ، ليس على يده يد ،
وكان ذلك من أكبر الفساد في حقه كما قبل :

كل شيء اذا تناهى تواهى
فاتتقاص البدور عند التمام

ثم ان أقبردى الدوادار فرق في تلك الأيام
المذكورة أضحية جزيلة على العسكر ، فكانت
تعادل ضحايا السلطان ، من بقر وغنم ، حتى غمر
العسكر بالاحسان ، فكان كما يقال في المعنى :

أنا أسمر والراية البيضاء لى
لا للسيوف وسل من الشجعان

لم يحل لى عيش العداة لأتتى
نوديت يوم الحرب بالمران

هذا ما كان من أمر هؤلاء - وأما ما كان من
أمر أزيك أمير كبير ، فانه أقام بقاعة البحرة ثمانية
أيام ، فلما كان يوم الجمعة رسم له السلطان بأن
يصلى معه بالشاش والقماش على عادته ، فخرج
وصلى مع السلطان الجمعة . فلما فرغ من صلاة
الجمعة أراد أن ينزل فقبل له ان المماليك واقفة
بالرميلة ، ومتى نزلت يقطعوك ويقتلوك لا محالة ،
فخاف عليه السلطان وأدخله الى قاعة البحرة . ثم
انه اجتمع بالسلطان وقال له : « أنا ما بقى لى
اقامة ببصر ، يقتلنى المماليك الجلبان ، وقصدى
أتوجه الى مكة المشرفة » ، فأجابه السلطان الى
ذلك .

فلما كان يوم السبت ثامن ذى الحجة من
تلك السنة نزل الأتابكى أزيك من القلعة وهو
راكب على أكديش ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة ،
وعليه ملوطة بيضاء من غير تقييد ، ولا أوجاقى
خلفه ، فتوجه الى مكة المشرفة من الطور مسافرا
بالبحر ، الى أن يصل الى جدة ، ويرحل من جدة
الى مكة المشرفة ، ورسم له السلطان أن يأخذ

بالقلعة ، ركب وتوجه من على قنطرة الحاجب
واختفى من حيث لا يعلم له خبر وكذلك قانصوه
الألفى ، وقانصوه الشامى وبقبة الأمراء ممن كان
من عصبة قانصوه خمسمائة . فلما اختفى الأمراء
انقض ذلك الجمع الذى كان بالأزبكية كأنه لم
يكن . وكان قانصوه بخسمائة في السنة المذكورة
جدد سور باب السلسلة ، وأنشأ المقعد المطل على
الرميلة ، والبيت ، وحوله أبراج موجودة به الى
الآن ... ثم ان السلطان نادى للعسكر أن يلقموا
آلة الحرب ، ويتوجهوا الى بيوتهم . ونادى
للناس بالأمان والاطمئنان . وسكنت تلك الفتنة .

فلما كان يوم الجمعة صبيحة ذلك اليوم قبض
بعض مشايخ العربان على قانصوه الألفى ، وكان
قد توجه الى ير الجيزة ، فقبض عليه من هناك ،
وأحضره الى بيت أقبردى الدوادار ، فقيده
وأرسله الى السجن بقلعة صفد . ثم ان قانصوه
الشامى أرسل يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل
له في ذلك اليوم مندبل الأمان . فلما قابل السلطان
نخلع عليه وقرره في نيابة جماء ، ورسم له أن
يخرج من يومه الى السفر . ثم ان الأمير أقبردى
الدوادار صار يقبض على جماعة من الأمراء
الطليخانات والعشراوات ، ممن كان من عصبة
قانصوه خمسمائة ، فقبض على قيت الرحبى ،
وبرمباى الثور الشريفى ، فقيدهما وتوجهوا بهما
الى السجن بالصليبية ، ثم على جماعة آخرين
منهم ، وهم : يرسباى الخسيف ، وقرقماس
الشريفى ، واسنباى المبشر ، وقايتباى المبشر
أيضا ، وأزيك ققص ، ولكن فر من أثناء الطريق .
وقبض على سودون الفقيه . فنفى هؤلاء الجماعة
عن آخرهم . واستمر قانصوه خمسمائة مختفيا ،
حتى كان من أمره ما سيأتى ذكره في موضعه .
وقد اقتصفه أقبردى الدوادار على جماعة قانصوه
خمسمائة ، وبدد شملهم ، وفتك في تلك الأيام

ولده يحيى معه الى مكة المشرفة ، وكانت نكبة
بغثة على حين غفلة كما يقال :

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه
ويعرف عند الصبر فيما يصيبه

ومن قل فيما يتقيه اصطباره

فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

وكانت مدته فى الاتابكية نحو من سبع عشرة
سنة وسوف يعود الى الاتابكية ثانيا ، كما
سيأتى الكلام عليه

وفيه ، فى ذلك اليوم ، رسم السلطان باخراج
شبكة الجمالى الزردكاش الكبير ، وأحد
المقدمين ، فخرج منفيا الى القدس ، ولم يكن له
دنب غير أنه كان من جماعة أمير كبير ، وحضر
يوم الركبة ، فصار له ذنب . وكان يشبك الجمالى
من خواص السلطان ، ثم اقلب عليه ، فأقام
بالقدس منفيا الى أن مات عن قريب . فكان كما
قيل :

يعدون ذنبا واحدا ان جنيته

على وما أحصى دنوبهم عدا

وفيه جاءت الأخبار من تونس بأن بها ثارت
قتنة عظيمة ، وحصل لساكر المغرب مقتلة مهولة ،
والأمر لله تعالى فى ذلك

سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٥ - ١٤٩٦ م) :

ختمها الله بخير وهى أول القرن العاشر وكان
مستهلهما بالأحد وهو أول أسابيع الأيام ، وأول
افتتاح العالم بالأحد .

ففى المحرم كان خليفة الوقت ، الامام المتوكل
على الله أبو العز عبد العزيز العباسى . وسلطان
العصر : الملك الأشرف أبو النصر قايتبى
المحمودى الظاهرى جقمق وقاضى القضاة
الشافعية : زين الدين زكريا الأنصارى

والقاضى الحنفى : ناصر الدين محمد الأخمى .
والقاضى المالكى : عبد الغنى بن تقى الدين .
والقاضى الحنبلى : بدر الدين محمد السعدى .

فمن حوادث هذه السنة أن السلطان أحدث
مكسا على بيع الغلال ، وجعل على كل أردب
نصف فضة ، ولم يعهد هذا قبل ذلك وكانت
هذه الفعلة من أقبح مساويه . واستمر ذلك فى
صحيقته الى الآن .

وفيه قدم على باى نائب الاسكندرية فقرره
السلطان فى مقدمة ألف ، وصار من جملة الأمراء
المقدمين .

وفيه قدم الحاج وقد قاسى فى السنة المذكورة
مشقة زائدة ، ولم يجدوا الماء بنخل . فخرج بهم
أمير الحاج ، الى جهة عيون موسى ، حتى وجدوا
الماء ، وأخبر بعض الحجاج أنه سمع ، وهو واقف
بعرفة ، ما جرى بمصر من ركوب المماليك وغيره
من الأول الى الآخر . فعد ذلك من النوادر ،
كيف أشيع ذلك بعرفة من غير مخبر أتى هناك .
وفيه قدم للسلطان أترجة غريبة الشكل ،
اجتمع فيها سبع عشرة أترجة من أصل واحد ،
فكانت بديعة الخلقة جدا .

وفيه عاد الشيخ عبد المؤمن المعجمى ، شيخ قبة
السلطان التى بالمرج والزيات وكان قد توجه
الى ابن عثمان قاصدا عن لسان السلطان ،
وصحبه هدية حافلة الى ابن عثمان ، من حملتها
قماش فاخر ، وسبع ، وزرافة ، وبيغا حمراء
اللون ، وغير ذلك أشياء كثيرة فلما عاد عبد
المؤمن أخبر بأن ابن عثمان قد تلاشى أمر
عسكره ، وبطلت همته عن محاربة عسكر مصر ،
فسر السلطان بهذا الخبر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة صالح
الكردى ، حاجب حلب ، وشيخ الأكراد بها ، مات
قتيلا .

وفيه جاءت الأخبار من حلب أيضا بقتل محمود ابن أبي سعيد ، صاحب سمرقند ، قتله محمود ابن يونس كان ، صاحب شاس ، وملك من بعده سمرقند . وكان محمود هذا آخر ذرية تمرلنك ، وبه زالت دولتهم كأنها لم تكن . وهو محمود بن أبي سعيد بن أحمد بن ميرزا شاه بن تمرلنك ، وكان من أعيان ملوك الشرق .

وفيه ترشح أمر تراز الشمسى بأن يلى الأتابكية .

وفى صفر فى مستهله يوم الاثنين عمل السلطان الموكب ، وخلع على جماعة من الأمراء : فقرر تراز الشمسى فى الأتابكية ، عوضا عن الأتابكى أذربك بن ططخ ، بحكم نفسه الى مكة المشرفة . وخلع على تانى بك الجمالى ، وقرره فى امرية مجلس عوضا عن تراز بحكم انتقاله الى الأتابكية . وقرر أذربك اليوسفى فى امرية سلاح ، عوضا عن تانى بك الجمالى بحكم انتقاله الى امرية مجلس . وقرر تانى بك قرا الاينالى رأس نوبة كبير ، عوضا عن أذربك اليوسفى بحكم انتقاله الى امرية سلاح ، وقرر اينال الخفيف فى حجووية الحجاب ، عوضا عن تانى بك قرا بحكم انتقاله الى رأس نوبة كبير . وأنعم فى هذا الشهر بتقادم ألف على جماعة من مماليكه منهم : مامى ابن خداد ، وفانصوه المحدى المعروف بالبرجى ، وكرتباى الأحمر كاشف البحيرة ، وقانم قريه ... وأنعم على جماعة كثيرة ممن هم من عصابة أقبردى بأمرية طبلخانات وعشراوات ، منهم : اقباى الطويل ، وخاير بك الدوادر ، وطقطباى من طبقة الأربعين ، وطقطباى أيضا من طبقة الطازية ، وغير ذلك جماعة كثيرة يأتى الكلام عليهم فى موضعه .

وفيه خلع السلطان على قانى بك الشريفى ،

وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن على باى ، بحكم انتقاله الى التقدم . وفيه توفى المسند شرف الدين القبائى وكان من أهل الفضل لا بأس به . وفيه خلع على الأتابكى تراز وقرره فى نظر البيمارستان المنصورى ، فتوجه الى هناك فى موكب حافل .

وفى ربيع الأول خلع السلطان على شمس الدين محمد بن مزاحم ، وقرره فى نظر الأوقاف والأعباس ونظر القرافتين . وكان أصله من طرابلس ، وكان غير مشكور فى أفعاله . وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، وهذا آخر موالد السلطان قايتباى . ولم يحضر بعد ذلك مولدا .

وفيه خلع على تانى بك قرا وقرره فى امرية الحاج يركب المحمل ، وقرر برد بك فى امرية الركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بوفاة يشبك الجمالى ، الذى تقدم ذكره . وكان دينا خيرا وأصله من ممالك ناظر الخاص يوسف ابن كاتب جكم ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية منها حسنة القاهرة ، والزردكاشية الكبرى ، ثم بقى مقدم ألف ، وجمع بين الزردكاشية والتقدمة وسافر أمير حاج بركب المحمل غير ما مرة .

وفيه وقع بين الأمير أقبردى الدوادر وقرقماس ابن ولى الدين أمير آخور ثالث ، واستمرت العداوة بينهما تتزايد حتى كان ما سنذكره .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على شاه بك بن مصطفى المعروف بالحوخ ، وقرره أمير آخور كبير

وعوضا عن قانصوه خمسمائة بحكم اختفائه . وقرر
برد بك المحمدى الاينالى امير آخور ثانى - وقرر
صولان باى بن عيسى الاينالى فى الزردكاشية
الكبرى ، عوضا عن بتبك الجمالى بحكم وفاته

وفى جمادى الأولى رسم السلطان بقطع أيدي
ثمانية أنفار ممن يعمل الدراهم الزغل ، وكان فيهم
شيخ قد أناف على الثمانين سنة من العمر ، فقطعت
أيديهم وشهروا بالقاهرة .

وفيه توفى قايتباى الناظر الظاهرى خشنقدم ،
وكان من الأمراء الطبلخانات بدمشق .

وفيه أذن السلطان للقاضى بدر الدين محمود
ابن آجا بأن يتوجه الى حلب على وظيفته فى قضاء
الحنفيه ، وكان قد حج فى العام الماضى .

وفى جمادى الآخرة نزل جماعة من المنسر على
العلائى على بن الصابونى ناظر الخاص ، وكان فى
تربته التى أنشأها فى رأس دور الحسينية ، فأخذوا
جميع ما كان عنده ، وجرح ابن الصابونى فى يده ،
وكانت واقعة مهولة .

وفيه مات ينسبك دجاج المحمدى الظاهرى
جفمق أحد العشراوات .

وفى رجب توفى الشيخ تاج الدين عبد الوهاب
ابن عربشاه الدمشقى الحنفى . شيخ المدرسة
الصرغتمسية ، وكان من أهل الفصل وكان لا بأس
به . وقرر عوضه فى متسيخة الصرغتمسية شمس
الدين الغزى .

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه نائب دوركى ،
سئق قاضى المدينة سبف الدين يوسف الحنفى ،
وقد بلغه أنه يكاتب ابن عثمان بأخبار هذه المملكة
ويدعوهم لذلك .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة ، على
ساحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن أمير المدينة
وجماعته هجموا على حواصل المال التى بها من قبل
النذور ، فاستولى على اثنى عشر ألف دينار ،
وأخذ عدة قناديل ذهب كانت معلقة بالحجرة
النبوية الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة
والسلام ، وخرج الى جهة العراق فلم يدرك .
وفيه أخبر جماعة من الفلكية بأن زحلا قد
اقترن مع المريخ فى برج الجوزاء ، وذكروا أن هذا
القران سيقع فيه فتن عظيمة غن قريب ، فأجاب
شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى عن ذلك
بقوله :

ليس القران بفاعل كلا ولا بمؤثر
ان المؤثر من له خلق القران ففكر
فالفعل عنه صادر كم يا منجم تفكرى

وفيه توفى بيغوت قرا بن قنچق قرا الأشرفى
برسباى أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .
فلما مات أعم السلطان بأمرته على ثانى بك
الأبج .

وفي شعبان كانت وفاة القاضي عبد الغنى بن
الجبعة ، وهو عبد الغنى بن علم الدين شاعر ،
وكان متولي كتابة الخزانة ، وكان من خيار بني
الجبعة ، رئيسا حشما موصوفا بالكرم الزائد
ويحكى عنه أشياء في بره للناس ما لا يحكى عن
البرامكة في أيامهم ، ومات وهو في عشر الثمانين
وكانت جنازته حافلة وكان أحق بقول القائل :

فلو أن البرامك عاينوه

وأعنه تعم الخلق سقيا

فينضب جعثر ، ويعوز فضل

ويلى خالد ، ويموت يحيا

وفيه هجم المنسر على سوق التجار بجامع ابن
طلون ، وكسروا منه عدة دكاكين ، وأخذوا ما كان
فيها من القماش ، وراحت على أربابها .

وفي رمضان توفي سودون أكرش الظاهري
جقيق ، أحد العشراوات ، وكان لا بأس به
وفيه من الحوادث في الشهر المذكور : أن
السلطان نادى للعسكر بالعرض ، فلما طلوعوا الى
القلعة أحضر لهم المصحف الشريف الكبير العثماني
وحلقهم عليه قاطبة — وكذلك الأمراء — ألا
يخرجوا عن طاعته ، ولا يخالفوه فيما يأمر .

وفيه أنفق السلطان على العسكر ، وفيل صدقة ،
ففرق على المسالك القرائصة والسيفية الدين كانوا
منزلين بالديوان قبل سلطنته ، هم وجلبانه ، لكل
واحد منهم مائة دينار . والسيفية الذين نزلوا أيام
سلطنته لكل واحد منهم خمسون دينارا . ولأولاد
الناس أصحاب الجوامك ألفين ، لكل واحد عشرون
أو ثلاثون دينارا . وقيل انه فرق بعد ذلك على
الخدم الطواشية لكل واحد منهم عشرون دينارا
واثنا عشر دينارا . ثم أرسل نفقة للخليفة ، ولبعض

الأمراء فبلغت هذه النفقة زيادة عن أربعمائة ألف
دينار . ولا يعلم ما سبب هذه النفقة التي أنفقت
من غير موجب لذلك ، والذي أشيع بين الناس
أن السلطان قال : « أنا لما تسلطت لم أنفق على
العسكر شيئا فهذه في نظير ذلك » ، والأصح ذلك
لأنه أنفق على القرائصة العتق ، والسيفية العتق ،
مائة دينار لكل واحد . وعلى الذي تجدد من
القرائصة السيفية في أبامه خمسين دينارا لكل
واحد ، وسماها صدقة . والوجه الثاني ما قيل أن
السلطان قصده ظهور قانصوه خمسمائة ، وكانت
له به عناية تامة ، فأنفق على العسكر حتى أرضاهم
بسبب ظهور قانصوه خمسمائة ... فما سهل ذلك
على أقبردى الدوادار وأخذ حذره كما سيأتى .

ومن العجائب أن مال هذه النفقة كان مجمدا
حاضرا ، وهو من الخمسة أشهر التي أخذها من
أجرة الأملاك والأوقاف ومن أوقاف الجوامع
والمدارس والبيمارستان ، وصادر فيها طائفة اليهود
والنصارى ، وتجار الفرج وتجار المغاربة والبرانسة
 وغير ذلك من أعيان التجار ومشاهير الناس . وكان
هذا المال الذي جىء من هذه الجهات تحت يد
القاضي على بن الصابوني ناظر الخاص ، والأمير
تغرى بردى الاستادار . فلما خمدت فتنة ابن عثمان
التي كانت سببا لذلك لم يوفق الله تعالى السلطان
أن يرد للناس ما أخذه منهم ، كما فعل الأشرف
برسباى ، لما أخذ من أجناد الحلقة عن اقطاعاتهم ،
بسبب تجريدة شاه روخ بن تمرلنك لما تحرك عليه
في سنة احدى وأربعين وثمانمائة . فلما بطل أمر
التجريدة ، وحصل للأشرف برسباى توعك في
جسده ، رد لأجناد الحلقة ما كان أخذه منهم ،
وكتب ذلك في صحيفته الى يوم القيامة . والأشرف
قايتباى جمع هذا المال من وجوه المظالم ، وحصل

للناس بذلك مشقة زائدة ، وأخرجه في غير مستحقه
لا في وجه فيه منفعة للمسلمين كما قيل .

لست أعطى في حرام أبدا الا حراما

وفي سوال فرر غير التكرورى في نيابة مقدمة
الماليك ، تم بمى بعد ذلك مقدم الماليك .

وفيه توفى نم الصبح الظاهرى چقمق أحد
الأمراء العشراواب ، وكان آخو نانى بك الجمالى
أمير سلاح . فلما مات تم الضبح وقف شخص من
الأمراء ، يقال له ملاج بن ططخ الظاهرى چقمق ،
يطلب من السلطان اقطاع نم الضبح ، فلم يوافق
السلطان على ذلك ، فحق ملاج من السلطان .
فلما نزل ملاج الى داره شنق نفسه من شدة قهره
فمات هو وتم الضبح في يوم واحد . وقد تقدم
القول على وفاة ملاج .

وفيه وقعت الوحشة بين أفبردى الدوادار وبين
جان بلاط . وسبب ذلك أن جان بلاط طلب امرية
الأخورية الكبرى وعينت له . فوقف أفبردى وبأس
الأرض على أن يكون شاد بك الخوخ أمير آخور
كبير ، فأعم السلطان على شاد بك بها ، فمن حينئذ
وقعت الوحشة بينهما . وفد التف على كرتباى
الأحمر ويشبك فمر ، وكان جان بلاط أعز أصحاب
أفبردى .

وفيه خرج الحاج من القاهرة في تجمل زائد ،
وكان أمير المحمل الشريف تانى بك قرا ، وأمير
الركب الأول برد بك نائب جدة .

وفيه توفى أركماس الحلبي نائب القلعة ، وكان
لا بأس به .

وفيه توفى محمد بن نوروز المحدثى الميقاتى ،
وكان علامة في فن الميقات .

وفيه ظهر الأمير فانسوه خسمائة ، وكان مدة
اختفائه تسعة أشهر فلما طلع الى القلعة رسم

السلطان له بأن يأخذ ثوبا بعلبكيا حتى يرق عليه
قلب المسكر . يعنى جاء وكفنه تحت ابطه . فلما
وقف بين يدى السلطان قيسل الأرض وخلع عليه
كاملية صوف صينى بسمور ، ورسم له بأن يتوجه
الى داره . ونزل من القلعة في موكب حافل ،
وصحبته الأتابكى غمراز وأقبردى الدوادار ،
فأوصلاه الى داره ورجعا .

وفي ذى القعدة تارت فتنة كبيرة من الماليك
الجلبان ، ممن هم من عصبة قانسوه خسمائة ،
فلبسوا آلة السلاح ، وطلعوا الى الرميلى ،
وحاصروا أفبردى الدوادار ... فلما تزايد الأمر
أحرفوا الربع الذى عند سوق الحلاق . فلما بلغ
السلطان ركب ونزل الى باب السلسلة ، وجلس
بالمقعد المثل على سوق الخيل بالرميلى ، فلم تحش
منه الماليك ، وتزايد الأمر . ومما أفحش به
الماليك في حق السلطان أنه قبل ذلك بمدة طويلة ،
كان السلطان ينسام في الصيف على الدكة التى
بالحوش ، فدخل بعض الحاصكة عليه في الليل ،
وقالوا : « ان الماليك الذين في طبقة المطلع قد
عولوا على أن ينشبو على السلطان وهو راقد على
الدكة » . فلما بلغ السلطان ذلك ، قام وبادر وراح
من على الدكة . فلما أصبح وجد ثلاثة أسهم من
النشاب في المحدة واللحاف الذى كان للسلطان
بسبب انوم والتعطية عليه . فما وسع السلطان الا
أنه فرق الماليك الذين بطبقة المطلع على الأطباء ،
وجعل على حائط طبقة المطلع بناء يستتر منه رؤية
الحوش ... وقيل ان الذى فعل به ذلك ورمى
هو شخص خاصكى من أخصائه يسمى شرامنت ،
فأحضره وضربه بين يديه نحو من ألفى عصا حتى
قبل انه مات ، وضرب معه جماعة من أصحابه

وسجنهم بالرح ، وقطع جوامكهم ، وأبطل شرامنت من الجاسسية ، وذلك قبل فتنة ابن عثمان مع السلطان ... واستمر السلطان جالسا بالمقعد الذى يباب السلسلة الى ما بعد العصر ، فبلغه أن أقبردى الدوادار قد غيب من داره ، فعند ذلك قام السلطان وقد حم في جسده ، فركب وطلع الى القلعة . وكان هذا آخر ركوبه ورؤية الناس له . فلما دخل الى الحوش طلع الى المقعد ، ودخل الى البيت الذى كان به فلزم الفراش ، وثقل في المرض من ليلته . ولما غيب أقبردى نهب العوام داره ، ودور الأمراء الذين من عصبته ، منهم اينال الحسيف ، وشاد بك ، وفانم ، وجانم مصبغة وغيرهم . وهذه أول كسرة أقبردى فكان كما قيل :

لا تعجبوا للدهر في أفعاله

ان أضحك الباكي وأبكى الضاحكا

ثم ان السلطان تزايد به الألم ، وقوى عليه أمر الاسهال المفرط ، وعجز عن الحركة ، وكثر القيل والقال بين الناس .

ثم ان النيل أوفى في تلك الأيام فرسم السلطان لتراز أمير كبير بأن يتوجه ويفتح السد ، والناس في غاية الاضطراب . ثم طلع الأتابكي تراز الى القلعة ، ولبس خلعة بسبب فتح السد ... هذا كله والسلطان على غير استواء ، وأشيع أنه في النزاع وقد خرس .

فلما كان يوم الجمعة خامس عشره طلع الأتابكي تراز الى القلعة ، ودخل على السلطان في البيت فوجده في السياق ، فقال له : « يا مولانا السلطان ان الأحوال قد فسدت ، ومن رأى أن تسلطن سيدى محمد » فلم يرد السلطان له جوابا . فأخذ سيدى محمد ابن السلطان ، ونزل به الى باب السلسلة ، فأجلسه في المقعد الذى هناك ، وجلس

معه ليوليه السلطنة . فانتظر الأمير أقبردى الدوادار أن يطلع اليه ، فاخفى أقبردى ، ولم يطلع الى القلعة في ذلك اليوم . فلم يشعر تراز الا وقد هاجمته العساكر كالجراد المنتشر ... وذلك أن قانصوه خمسمائة وكرتباى الأحمر لما بلغهما أن تراز الأمير الكبير يباب السلسلة ، ومعه ابن السلطان ، لبسوا السلاح وهجموا ودخلوا الميدان من عند حوش العرب ، وطلعوا الى باب السلسلة من الاصطبل ، فقبضوا على تراز الأمير الكبير ، وقيدوه وسجنوه بالبرج الذى يباب السلسلة ، ثم في عقيب ذلك اليوم نزلوا به وهو مقيد بقيدين أحدهما برجليه ، والآخر بركبتيه ، وخلفه أوجاقى بخنجر . فنزلوا به من باب الميدان الذى عند الحوش ، وتوجهوا به من جهة المجرة الى البحر ، فأنزروه في الحراقة وتوجهوا به الى الاسكندرية ، فسجن بها . وكان المتسفر عليه جانم بن برسباى أخو قانصوه الألفى . وبطلت الاشاعات بسلطنته . فلما جرى ذلك ، وقع النهب في داره ، وفي دار أقبردى الدوادار وجماعة من الأمراء ممن كانوا في عصابة أقبردى الدوادار . ثم ان قانصوه خمسمائة وكرتباى الأحمر وجماعة من الأمراء ممن هم في عصابة قانصوه خمسمائة ، باتوا بباب السلسلة واشتوروا فيمن يلى السلطنة فترشح أمر سيدى محمد ابن السلطان ، ووقع الاتفاق على سلطنته .

فلما كان يوم السبت سادس عشرى ذى القعدة اجتمع الأمراء والعسكر بباب السلسلة . وأرسلوا خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز ، فحضر وحضر القضاة الأربعة ، وهم قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى ، وقاضى القضاة ناصر الدين محمد الاخميمى الحنفى ، وقاضى القضاة عبد الغنى بن تقي المالكي ، وقاضى القضاة

بدر الدين محمد السعدى الحنبلى . فلما تكامل المجلس نكلموا فى خلع الأشرف قايتباى ، بحكم أنه قد أشرف على الموت ، فخلع ، وبابيع الخليفة ولده الناصرى محمد بالسلطنة عوضا عن أبيه الأشرف قايتباى ، وشهد عليه القضاة بذلك ... هذا كله والسلطان فى النزاع ، لم يشعر بشيء مما جرى .

فلما كان يوم الأحد سابع عشرى الشهر المذكور ، من سنة احدى وتسعمائة ، كانت وفاة السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى الى رحمة الله تعالى فى ذلك اليوم بعد العصر .

ومات بالقلعة ، وأخرج صبيحة يوم الاثنين ثامن عشرى ذى القعدة . وتوفى وله من العمر نحو من ست وثمانين سنة . ومات وهو بعلة الدييلة ، واعتزته علة البطن أيضا ، وامتنع عن الأكل مدة انقطاعه حتى مات .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحدا وعشرين يوما ، بما فيه من مدة انقطاعه عند توقع جسده ... فانه تسلطن يوم الاثنين سادس رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، وتوفى يوم الأحد سابع عشرى ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة .. وهذه المدة لم تتفق لأحد من الملوك غيره قبله ، وعاش عمره كله وهو فى عز وشهامة من حين كان خاصكيا الى أن بقى سلطانا ، وما نقى قط ، ولا سجن ، ولا تقيد . وكانت عليه سكينة ووقار ، ومهييب الشكل فى العيون ، جميل الهيئة ، مبجلا فى موكب ، كفؤا للسلطنة ، وافر العقل سديد رأى عارفا بأحوال المملكة ، يضع الأشياء فى محلها . ولم يكن عجولا فى الأمور ، بطيء العزل لأرباب الوظائف ، يتروى فى الأمور أياما قبل وقوعها . وكان لا يخرج اقطاع أحد من الجند الا بحكم

وفاته ، ولا من أبناء الناس المقطعين الا بحكم وفاته ، ويرسل يكشف عليه وهو ميت حتى يصدق بموته . وكانت صفته : طويل القامة ، عربى الوجه مصفر اللون ، نحيف الجسد ، شائب اللحية . تولى الملك وله من العمر أربع وخمسون سنة . وكان موصوفا بالشجاعة ، عارفا بأنواع الفروسية ولا سيما فى فن لعب الرمح ، علامة فى فنه .

لكنه كان محبا لجمع الأموال ، ناظرا لما فى أيدي الناس ، ولولا ذلك لكان يعد من خيار ملوك الجراكسة على الاطلاق . ولكنه كان معذورا فى ذلك ... تحرك عليه فى أيام سلطنته شاه سوار ، وحسن الطويل ، وابن عثمان ، وغير ذلك من ملوك الشرق وغيرهم . وجرى عليهم عدة تجاريد كثيرة ، وهو ثابت على سرير ملكه ولم يتزحزح ، حتى قيل ضبط ماصرفه على نفقات التجاريد التى جردها فى أيام سلطنته الى أن مات ، فكانت نحو من سبعة آلاف ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار ، خارجا عما كان ينفقه عند عودهم من التجاريد . وهذا من العجائب التى لم يسمع بمثلا .

وكان مغرما بشراء الممالك ، حتى قيل لولا الطواعين التى وقعت فى أيامه ، لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك . ومن العجائب أنه من بعده قد انحصرت مملكة مصر فى ممالكه فقط دون غيرهم . وتسلطن منهم الى الآن أربعة سلاطين ... وكان متقيا فى نفسه ، لم يشرب قط خمر ، ولا كان يستعمل شيئا من الأشياء المخدرة . وكان له اشتغال بالعلم ، كثير المطالعة فى الكتب ، وله أذكار وأوراد جلية الى الآن تتلى فى الجوامع . وكان له اعتقاد فى الفقراء ، ويعظم العلماء ، عارفا بمقام الناس ، ينزل كل أحد منزلته .

وكان تابعا لطريقة الصوفية فى التقشف ، وكان لا يوصف بالكرم الزائد ، ولا بالبخل المفرط ، وكان

ووقف عنده جهاب على وجوه
سرا وجسده ، باب محاسنه أكثر من مساويه ،
رحمه الله ، له يخلف من الأولاد سوى ولده
محمد الذي سلف من بعده ، وكان من سريره
الصغير ولم يزوج مدة عمره سوى فاطمة
بنت العلاء على بن خاص بك ، واستمرت معه
حتى أتت مات رحمه الله تعالى عليه .

وفي أيامه تولى الأديب زين الدين أبو الخير بن
النحاس ، وكان من أعان السعراء في عصره ،
وكان وفاته بالشام .

ولما مات الأشرف فإيتبى رثاه الشيخ بدر الدين
محمد بن الزبوني بهذا الزجل فقال :

يرحمهم الله سلطاننا الأشرف

كان مؤيد على العدا ظاهر
وكذا ابنو المظفر المنصور
ب نصر الله العادل الناصر

لما زاد الضعف بقايتبى
والدوادار في غاية الامكان
وتوافق مع الأمير تماراز
وطلع قانصوه الى الميدان
واتى القلعة مع كرتبى
والأمانة وهدموا البنيان

هرب قيردى وقيدوا تماراز
وتولى سلطاننا الناصر
من يحالف أمره ومن يعصيه

رد مقهور والأمر للقاهر

فولى الملك سادس العشرين
من شهر ذى القعدة طلوع شمسو
بعد واحد من السنين تالى
سعاية بعد انقضا أسو

وتوفى أبوه أخير النهار
في صباحو واروه حلول رمسو

بعد ملكه تسعة وعشرين عام
وأربعة أشهر بالكاتب الحاصر

ويليها واحد وعشرين يوم
لا تزيد أول ولا أخسر

مات الأشرف والقبر صار حاويه
بعد لسعو بالموت وسو حاق

وسرا فيه سم الديب حائق
ما وجدلو من ذى القضا تريق

وفد أمسى مرهون بأفعالو
وأئت لو آفة قضاه تنساق

لهف قلبى عليه شجاع وقتو
والخوندات تبكى عليه باكر
كم رأينا ثكلى وهى حية
شعرها صار من حزنها فاشر

لهف قلبى على الأمير تماراز
كان موقر وهو الأمير كبير
والدوادار حولو رجال واعوان
يضربوا بالحسام ومالو كتير
قالوا لتماراز ما عندنا غيرك

كن مساعد وانت النظام والمشير

جت جماعة لقانصوه بالخبر
خبر وييه ركب وكان صابر
وطلع للقلعة مسك تماراز

وظفر ييه وصار عليه ظافر

العجب فى الركبة نهار جمعة
من سنة كان فى الأربكية القوم

كيف توافق لشهر ذى القعدة
والعدد فيه خمسة وعشرين يوم

مثل يومو في الشهر والجمعة
والعدد فيه فاعجب لهذا دوم

والجزا من جنس العمل قالوا
وبهذا صار المثل سائر

كل من كان يحفر لآخيه حفرة
ما يقع في الحفرة سوى الحافر

الدوادر وشاد بك والخسيف
هم وجانم غابوا عن الحضار

والجمالى نظام أمير سلاح
بالمقعد وكرتباى قد صار

هو المقدم وكاشف الكشاف
ومدبر وزير واستادار

وعلى الكل قانصوه عالى
خسماية هو الشاطر الماهر

قد تولى أتابك العسكر
والأمير كبير وهو الناظر

خلت دوله كركعة الشطرنج
والدوادر وقانصوه فى رهان

كم رأينا ييدق من الحاشية
قد تقدم عندو وصار فرزان

لما ساق الفرس يريد الفيل
غالبهم فى حرمة الميدان

ضربوا شاه لما انكشف رخو
ما وجدلو فى رقعتو سائر

ماتت النفس وانقلب دستو
وهرب مرماه وهو الخاسر

ضربو تخت الرمل للغياب
جو دلتهم دلت على الحضرة

ورأينا الألفى تقاخذو
فى بياضو قد أشرفت حمرة

واجتماعو بأصحابو بالاجباب
وكذا اشكال يلقى بهم نصره

وظهرلو راية فرح فى الطريق
مع جماعة بالعز تتباهر

بانو يطلع وينظر السلطان
مرحبا بالطالع وبالناظر

اعتذارى للى سمع قولى
ان صحبى والقرب يأتونى

يطلبونى ويقصدوا فنى
وان توانيت بالعجز يرمونى

أستحى أن أظهر ضعيف نظى
وأحمالى تنسب لزيتونى

ولكنى أبو النجا العوفى
ان تجدنى فيما أقول حاضر

استر العيب واربح نواب سترى
جل من لا عيب فيه وهو الغافر

لو تكون البحار مع الانهار
وجميع المياه وسيل الغمام

حبر جارى وسائر الأعشاب
والنبات والشجر جميع أقلام

والسموات والارض والأكوان
تبقى أوراق طباق ليوم القيام

وجسيع العالم يجو كتاب
بكتبوا المدح في النبي الطاهر
للفيامة ما يحصروه ذر
من مديحو ووصفه الفاخر

كان للأشرف خصال ملاح فاسم
ما وأينما في عصرنا مثلو
يا الذي جا يسمع بديع نظمى
خذ وحزر عنى جميع تفلو
وان آتى لك من يطلب التاريخ
والوقائع عن الملوك قلو

يرحم الله سلطانتا الأشرف
كان مؤيد على العدا ظاهر
وكذا ابنو المظفر المنصور
ينصر الله العادل الناصر

وأما ما أنشأه الأشرف قايتباى في أيام دولته
من البنيان الفاخر فأشياء كثيرة منها : أنه جدد
عمارة المسجد الشريف النبوى ، على صاحبه أفضل
الصلاة والسلام ، لما احترق ، وأنشأ قبة عظيمة
على القبر النبوى الشريف على صاحبه أفضل
الصلاة والسلام ، وأنشأ هناك مدرسة مطلة على
الحرم النبوى على صاحبه أفضل الصلاة
والسلام ، وأنشأ مدرسة بمكة المشرفة عند باب
السلام وعدة ربوع وأماكن بمكة المشرفة

وأنشأ مدرسة بيت المقدس ومدرسة ويوتا
ودكاكين بدمشق ، ومدرسة بغزة ، ومدرسة بغير
دمياط ، ومدرسة بغير الاسكندرية ، والبرج
العظيم الذى أنشأه مكان الفناء القديم ، والبرج
الذى بغير رشيد .

وأما ما أنشأه من البنيان بالديار المصرية : فالجامع
الذى بالصحراء مكان تربته ، وجامع بالروضة .
وجامع برأس الكيش : وجامع بباب الخرق عند
الشيخ سلطان شاه ، والسبيل والمكتب الذى بتراب
تحت الربع ، وجامع لطيف خارج باب القرافة .
وجدد عمارة قبة الامام الشافعى رضى الله عنه
ورحمه . وأنشأ زاوية بالمرج والزيات ، ومدرسة
بالخانقاه ، وغير ذلك من الجوامع والمدارس فى
أماكن شتى من البلاد ... وأنشأ السبيل الذى
برأس سويقة عبد المنعم . وأنشأ بالقاهرة عدة
زوايا وأسبلة وصهاريج وغير ذلك ، وعدة ربوع
وحوانيت فى مواضع متفرقة ، وجعلها وفقا على
الدشيشة التى قد كان قررها بالمدينة الشريفة على
صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وأما ما أنشأه بالقلعة : فالمقعد الذى أنشأه داخل
الحوش ، والمبيتان اللذان حوله ، والحواصل التى
يجوار تاعة البحرة ، وجدد عمارة الايوان
الناصرى الذى بالقلعة ، وأنشأ مواضع كثيرة
بالقلعة .

وجدد عمارة قناطر أبى المنجا ، والقناطر التى
بشبرمنت بالحيزة . وأنشأ هناك رصيفا وحصل به
غاية النفع فى أيام النيل للسافرين . وجدد عمارة
قنطرة باب البحر . وجدد عمارة الميدان الكبير الذى
يجوار البركة الناصرية ، وصرف عليه جملة مال .
وجدد مقام سدى أحمد البدوى ، وبناء حافلا
ووسعه . وجدد بناء زاوية الشيخ عماد الدين
رحمه الله . وجدد عمارة باب القرافة . وأنشأ هناك
الربوع . وأنشأ مقعدا ومبيتا وجنيئة بدار البقر
التى تحت القلعة . وجدد عمارة جامع الرحمة الذى
بغيط جاني بك نائب جدة . وأنشأ عدة ربوع
بالخساين والبندقين ، وبالجامع الأزهر وغير
ذلك .

وله عدة أماكن قد أنشأها وحصل بها النفع العام للمسلمين .

وأما ما أبطله في أيام سلطنته من شعار المملكة ، فخدمة القصر بالشاش والقماش . وقد قرره الملوك السالفة لاقامة الحرمة ونظام المملكة . وأبطل الرمايات التي تعمل ببركة الحبش ، ودخول الملوك الى القاهرة والعسكر قدامها بالشاش والقماش ، ويكون يوما مشهودا . وأبطل لبس الصوف بالمطعم --- وكان الملك يشق من القاهرة وهو لا لبس الصوف هو والأمراء ويكون لهم يوم مشهود --- وأبطل المركب المسماة بالذهبية ، وكانت من شعار المملكة ، ولا سيما في يوم الوفاء بالنيل ، وكانت الملوك تتوجه فيها الى المقياس ، وكان بها ستون مقذافا ... وأبطل المركب المسماة بالدرمونة ، وكانت تحمل مغل الحرمين الشريفين ، وكانت غريبة الهيئة في شكلها . وأبطل دوران المحمل الرجبي في أيام سلطنته وما كان يعمل فيه . وأبطل المسابرات التي كانت تعمل في تلك الأيام ، وكان ينفق في مدة دوران المحمل ما لا ينحصر ... وأبطل في أيام سلطنته أشياء كثيرة من شعار المملكة لم نذكرها خوف الاطالة . ولكن آخر من مشى من السلاطين على النظام القديم ، مما ذكرناه ، الظاهر خشقدم رحمه الله تعالى .

وأما ما عُد له من المساوى : فإنه لما تولى السلطنة ندب يشبك الدوا دار لما نولى الوزارة ، فقطع لحوم جماعة من الناس كانت مرتبة لأيتام وساء أرامل ، وكانت تباع وتشتري من الناس من الديوان الى آخر دولة الظاهر خشقدم . وكانت الوزراء تنتج بالسداد لذلك . ثم فعل مثل ذلك بالجوامك ، وقطع عدة جوامك لجماعة من أولاد الناس . والذي أبقاء أخذ منه مائة دينار ممن له جامكية

ألفا درهم ، وأخذ ممن له جامكية ألف درهم خمسين دينارا ، وذلك بسبب بدل تجريدة سوار ممن لم يسافر للتجريدة . وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف من الجوامع والترب بالقاهرة وغيرها أجرة سبعة أشهر ، وحصل للناس بذلك الضرر الشامل . وصادر اليهود والنصارى في أيامه مرتين . وصادر جماعة من أعيان التجار ، ومن تجار الأرياف والبراسة . ورمى على البلاد التي في الشرقية شيئا يقال له الخمس ، بسبب خيالة تخرج مع التجريدة الى ابن عثمان ، وفعل مثل ذلك بمربان جبل نابلس ، ثم قطع هذا الخمس من خراج المقطعين .

ومنها أنه كان ولي جماعة من ممالكه عوضا عن مشايخ العربان ، فجاروا أيضا على الفلاحين ، وأخذوا منهم غير العادة أضعافا . وكذلك الكشف يقرر عليهم الأموال فيجورون أيضا على البلاد ، ويأخذون المال أمثالا ... فمن يومئذ تلاشى أمر البلاد ، وانحط خراج المقطعين جدا .

ومنها أنه أحدث مكسا على بيع الغلال ، وجعل على كل أردب نصف فضة خارجا عن نمته لمن يشتري أو يبيع . وقد تزايد الأمر بعده في ذلك حتى صار على كل أردب نصفان . وهو أول من أحدث تفرقة الجامكية بحضرته ، وضيق على الناس ، ولم يفعل ذلك أحد قبله من الملوك . وكان مقدم الممالك ، وأحد رءوس النوب يتولى تفرقة الجامكية في الابوان ، ولم يشعر السلطان بذلك . فبطل ذلك ، واستمرت من يومئذ تنفق بحضرة السلطان الى الآن .

ومنها أنه فعل بجماعة من المباشرين وغيرهم الأفعال الشنيعة . منها شق القاضي ابن المقسى ، ونوسيط مجده الدين ابن البقرى الاستادار ، وغير ذلك مما تقدم ذكره . وقطع يد ابراهيم بن فريعين

صرفى الحامكة وكان فى سن الشيخوخة ، وعاش بعد ذلك مدة طويلة وهو أقطع . وقد رتب له السلطان ما يكفيه الى أن مات . وهو أول من أحدث بروداربه السلطان ، ولم تكن هذه الوظيفة قبل ذلك تعرف ، فصارت زيادة مظلمة أخرى .

ومن محاسن الأشرف قايتباى رحمة الله عليه أنه كان فى شدة غضبه يستحيل فى الحال راضيا ، ويحول ما كان عنده من الحدة ، وهذه من أجمل الخصال . وبالجملة كانت محاسنه أكثر من مساويه . وكان من خيار ملوك الترك بالنسبة لمن جاء بعده من السلاطين . ولو لم يكن عنده بعض طمع لكان أجل ملوك الجراكسة . وكان من خيارهم ولكن كما يقال :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها

كفى المرء نبلا أن تعد معاياه

وقال بعض الشعراء :

إذا أنت لم تنفع فاضر فأنما

يرجى الفتى كيما يضر وينفع

ولما مات تولى ابنه محمد .

الملك الناصر أبو السعادات

هو الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد ابن الملك الأشرف أبى النصر قايتباى المحمودى الظاهرى .

وهو الثانى والأربعون من ملوك الترك وأولادهم فى العدد وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية .

تقدم أنه بويغ له بالسلطنة يوم السبت سادس عشرى ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٦ م) . وقد تقدم أن قانصوه خمسمائة ، وكرتباى

الأحمر والأمراء الذين يلونهم ، لما هجموا على الامير تمتاز بباب السلسلة - قبصوا عليه وفيد وأرسل الى السجن بشعر الاسكندرية . فلما جرى ذلك ، وقع الاتفاق على سلطنة الناصر محمد ابن السلطان قايتباى ... فأحضروا الخليفة ، والقضاة الأربعة . وخلعوا الأشرف قايتباى من السلطنة ، وبايعوا ولده - من غير عهد له من أبيه - ولقبوه « بالملك الناصر » وكنى « بأبى السعادات » وكان تلقب بالمنصور أولا ، ثم قرر لقبه بالناصر . فلما انقضى أمر المبايعه ، أحضر اليه شعار الملك ، وهى الجيه السوداء ، وقد فصلت على قدره ، ولقت له عمامة لطيفة مناسبة له ، وتقلد بالسيف الجمالى ، وقدمت اليه فرس النوبة ، بالسرج الذهب والكنبوش ، وركب من سلم الحراقة .

وكانت مبايعته فى الساعة الرابعة من النهار ، والماضى من الشروق ثمان وأربعون درجة ، والطالع بالميزان .

فلما ركب تقدم قانصوه خمسمائة ، وحمل القبة والطير على رأسه - وقد ترشح أمره لأن يلى الأتابكية - فركب السلطان والخليفة معه ، ومشى بين يديه الأمراء ، حتى طلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض ، وضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ... وفى حال جلوسه على سرير الملك خلع على الخليفة ، ونزل الى داره ، وخلع على قانصوه خمسمائة ، وقرره أميرا كبيرا عوضا عن تمتاز الشمسى . وخلع على جان بلاط بن يشبك وقرره فى الدواذارية الكبرى عوضا عن أقبردى الدواذار . وخلع على تافى بك الجمالى وصيره نظام الملك مضافا لما بيده من امرية سلاح . وكان القائم فى هذه الأمور وتديرها كرتباى الأحمر .

هذا كله جرى والأشرف قايتباى فى النزاع لم يشعر بما وقع من هذه الأمور ، ولو كان واعيا لما مكن الأمراء أن يسلطنوا ولده ، ولا كان هذا قصده .

وكان الملك الناصر لما تولى الملك له من العمر نحو أربع عشرة سنة وأشهر ، وقد قارب البلوغ ، وكان مولده سنة سبع وثمانين وثمانمائة . وكانت أمه جركسية تسمى أصلباى من مشترى الأشرف قايتباى . وكان الملك الناصر محمد هذا جميل الهيئة ، مليح الشكل ، وعنده عترسة ، وجراة فى الأمور ، متحركا فى نفسه ، وعنده رهج وخفة ، ومما مدح به قول القائل :

ان العناصر فى سلطاننا اجتمعت

شمائل بهرت من حين مولده

قد ناسب النار عزما ، والهوا خلقا

والبحر جودا ، وملك الأرض فى يده

ولما كان يوم الأحد سابع عشرى هذا الشهر ، كانت وفاة الملك الأشرف قايتباى رحمة الله عليه . توفى بعد العصر من ذلك اليوم ، وبات بالقلعة . فطافت له نذراء بالقاهرة ، وهم يقولون : « يصلى غدا باكر النهار على العبد الفقير الى الله تعالى ، الملك الأشرف قايتباى ، رحمه الله » . فتأسف عليه الكثير من الناس .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرىه ، وهو اليوم الثالث من سلطنة ولده ، شرع الأمراء فى تجهيزه واخراجه . فغسل فى البيت الذى مات فيه ، وأخرج نعشه قدام الدكة التى بالحوش ، وصلى عليه هناك ، ونزلوا به من سلم المدرج ، ومشت قدومه الأمراء والعسكر قاطبة ، وكانت جنازته مشهودة ، بخلاف من يموت من الملوك . فتوجهوا به الى تربته التى أنشأها بالقرب من زاوية سيدى عبد الله

المنوفى رحمه الله . فدفن بها وانتضت مدته من الدنيا كأنها لم تكن ، وزال ملكه بعد أن حكم بالبلاد الشامية والبلاد المصرية تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحدا وعشرين يوما ، وهذه المدة لم تتفق لأحد من ملوك الترك قبله . وقد قيل فى المعنى :

ان الذى اغتر بالدنيا وزيتها

وظل فيها يخب المال مفتونا

آت اليه المنايا وهى مسرعة

فأصبح الجسم تحت التراب مدفونا

قد فارق الأهل والأوطان وانقطعت

آماله وغسدا فى القبر مرهونا

خلا بأعماله ما كان من حسن

أو من قبيح به قد صار مقرونا

وفى ذى الحجة فرق السلطان الملك الناصر الضحايا على العادة للعسكر .

وفيه أنعم السلطان بتقادم ألوف ، على جماعة من الأمراء منهم : أربك اليوسفى الظاهرى حقيق المعروف بقشيق ، وكسباى الزينى ، ويشبك العجمى المعروف بقمر ، وقرقاس بن ولى الدين .

وفيه كتب المراسيم بحضور الأمراء الذين كانوا أخرجوا الى النفى من حين كانت وقعة قانصوه خمسمائة وأقبردى ، وكتب بحضور قانصوه الشامى الذى كان قرر فى نيابة حماه ، وقرر عوضه بنيابة حماة أركماس أحد المقدمين بدمشق . وكتب بحضور قانصوه الألفى أيضا وبقيّة الأمراء المنفيين . وفيه ظهر تغرى بردى الاستادار ، وكان له مدة وهو مختلف تزيد على أربع سنين ، وكان قد فرخوفا من السلطان قايتباى لما تجمد عليه مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بقتل أحمد بن بهادر نائب قلعة صفد ، وكان لا بأس به ، وقد قتله كرتباى أخو أقبردى الدوادار . وكان كرتباى يومئذ نائب صفد ، فخرجت المراسيم بقبضه على يد خاصكى يقال له ألماس بن ولى الدين . فلما تحقق كرتباى ذلك ، ضرب عنق ألماس ، وأحمد بن بهادر نائب القلعة ، وخرج من مدينة صفد .

وفيه عينت نيابة صفد لبرد بك الطويل ، عوضا عن كرتباى بحكم صرفه عنها

وفيه قرر القاضى عبد القادر القصرى فى نظر الجوالى ، وهذه أولى وظائفه .

وفيه عظم أمر الأتابكى قانصوه خمسمائة الى الغاية ، حتى انه لم يصل مع السلطان صلاة عيد النحر ولا صلاة الجمعة . ثم أمر باخراج ممالك أقبردى الدوادار الى أماكن شتى من البلاد ، وكان قد تخوف منه .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى على الغزال ، وكان مقима بخانقاه سرياقوس .

وفيه فرق الملك الناصر جملة أقاطيع كانت فى الذخيرة من أيام الأشرف قايتباى ، وكانت نحواً من ألف اقطاع ، ففرقت على الممالك جميعاً ما بين أقاطيع ورزق وغير ذلك .

وفيه قرر جان بلاط الغورى فى نيابة القلعة عوضاً عن أيدكى .

وفيه قرر طراباى الشرفى أمير آخور رابع ، عوضاً عن تغرى بردى يونس السيفى الدوادار ، بحكم انتقاله الى أمرية الأخورية الثالثة .

وفيه قرر السيد الشريف عبد الرحيم الحموى فى كتابة سير دمشق ، عوضاً عن محب الدين الأسلمى ، فأقام بها مدة وعزل عنها ، وتوجه الى ابن عثمان فأكرمه .

وفيه قرر بخشباى فى مقدمة ألف بدمشق ، ثم تولى نيابة حماه فيما بعد

وفيه قرر كرتباى الأحمر فى الوزارة والاستدارية وكاشف الكشاف ، مضافاً لما بيده من مقدمة ألف ، وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام ، فأظهر أشياء كثيرة من أنواع العدل ، منها أنه أبطل وظيفة نظر الأوقاف ، ونودى بذلك فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وأبطل عدة مكوس ومظالم ، وحجر على البردارية والرسل والنقباء ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصفى فضة ، وأن أحداً منهم لا يقرر على أحد رسماً ... ولو دام كرتباى بمصر لحصل للناس به خير .

وفيه قبض على القاضى أبى المنصور صاحب ديوان أقبردى الدوادار ، فتسلمه الأمير جان بلاط الدوادار وضربه ضرباً مبرحاً ، وقرر عليه مالا له صورة .

وفيه خلع على الأمير أقبای الطويل نائب غزة واستمر على نيابته بغزة ، وكان أشيع عزله لأنه كان من عصبة أقبردى الدوادار ... فلما أراد أن يتوجه الى غزة أخذ معه أقبردى الدوادار فى الخفية ، فلما بلغ قانصوه وكرتباى الأحمر أن أقبردى الدوادار خرج صحبة أقبای الطويل ، بعثا اليه والى الشرطة الى الخانقاه ، ففتشوا جموله حتى الحوايجخاناه ، وستر الله تعالى على أقبردى حتى خرج من القاهرة ، ولم يظفر به أحد . وهذا كان سبب خروج أقبردى من مصر وتوجهه الى غزة ، وكبسوا بسببه فى ذلك اليوم عدة أماكن ودور بالخانقاه ، حتى هجموا هناك الجوامع والزوايا ، وحصل الضرر الشامل بسبب ذلك للناس . وقيل انه لما خرج من الخانقاه ، فتشوا سنيح الأمير أقبای الطويل أيضاً ، وكان قد

اختفى أقبردى فى الدست الكبير الزخمية ، لما حملوها على الجمل ، فستر الله عليه

وفيه نزل السلطان الملك الناصر من القلعة ، ونوجه الى القرافة ، فزار وعاد الى القلعة ، وهذا أول ركوبه فى حال السلطنة .

وفيه حضر الأمير خشكلى السيفى ، وكان مفيما بدمشق من أيام الأشرف قايتباى رحمه الله تعالى . فلما حضر أكرمه السلطان وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه كثرت الاشاعات بوقوع فتنة ، فبادر الأتابكى قانصوه وقبض على جماعة من طائفة الاينالية ، نحو ستة عشر نفرا ، وأخرجوا مع قبيب الجيش شيئا فشيئا ، وتوجهوا نحو البلاد . فكان منهم برد بك المحدى ، وبرقوق ، ودولات باى بن عيسى ، وآخرون .

وفيه قوى الفحص والتفتيش على أقبردى الدوادار ، وهجموا بسببه عدة دور فلم يجدوه ، ولم يعلموا أنه خرج صحبة أقبای نائب غزة .

سنة اثنتين وتسعمائة (١٤٩٦ — ١٤٩٧ م) :

فيها ، فى الحرم ، كان خليفة الوقت يومئذ الامام المتوكل على الله عبد العزيز العباسى . وكان سلطان العصر يومئذ الناصر أبو السعادات محمد ابن الأشرف قايتباى . والقضاة الأربعة على الحكم الأول كما تقدم ... وكان الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ونظام الملك تانى بك الجمالى الظاهرى ، والدوادار الكبير جان بلاط بن يشبك ، والاستادار كرتباى الأحمر .

وفيه خرج اصطر بن ولى الدين ، ومعه عدة من الجند ، بسبب القبض على أمير الحاج تانى بك قرا الاينالى ، فلاقاه من عجروود وقيده ، وبعث به

من هناك الى ثغر الاسكندرية ، فسجن بها مع نسرأز أمير كبير كان .

وفيه جاءت الأخبار بقتل عساف الحبشى ، نائب صيدا وبيروت ، وكان من مشاهير الرؤساء ، وله شهرة زائدة بتلك البلاد .

وفيه كانت نفقة البيعة على الجند ، فأنفق على الجند على العادة ، ولكن لم يعط مائة دينار كاملة لغير القايتباهية ، وأعطى من دون ذلك لكل واحد خمسون دينارا ، وأنفق على أولاد الناس ثلاثين دينارا .

وفيه أحضر السلطان المصحف العشائى ، وحلف عليه سائر الأمراء والعسكر . ولم يطلع الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ولا حلف ... ولكن طلع بعد أيام ، وحلف أيما غير صادقة ، كما يقال فى المعنى :

خان اليمين وعهد الود قد فسحا

ولا ترى قط صدقا خالصا فسحا

وفيه قرر دولات باى بن أركماس الساقى فى نيابة البيرة ، وخرج اليها عن قريب . ودولت باى هذا هو الذى تولى الأتابكية بمصر .

وفيه قبض كرتباى الأحمر على شمس الدين القرنوى امام أقبردى الدوادار ، وعاقبه أشد العقوبة ، وتسلم أيضا المنصور وعاقبه أشد العقوبة ، وجرى لهما أمور يطول شرحها ، وما خلاصا الا بعد جهد كبير . وكان السلطان له عناية فى الباطن بجماعة أقبردى الدوادار .

وفيه قبض كرتباى الأحمر على جماعة من الأمراء العشراوات ممن كان من عصبه أقبردى الدوادار منهم : اسنباى الأبراهمى المعروف بالأصم ، وبرسباى السلحدار ، وجانى بك بن أزدمر المعروف بالصغير ، وبخشباى بن عبد الكريم ، ومقطبباى ابن برد بك الدوادار . ومن الخاصكية : تراز

جوشن ، وابنال السلحدار ، وقانصوه الساقى ،
وأبو يزيد الصغير وآخرون غيرهم ولم يكن
ذلك باختيار السلطان .

وفيه توفى الشيخ حمزة بن محمد ابن حسن
ابن على بن عبد الحليم المغربى البجياوى المالكى ،
وكان عالما فاضلا مقيما بالخانقاه الشيخونية ،
وكان لا بأس به

وفيه رسم السلطان للخليفة بأن يطلع الى
القلعة ليسكن فيها كما كان ساكنا من قبل . وكان
السلطان قايتباى رسم له بأن ينزل ويسكن
بالمدينة عندما حرق حاصل الخيام كما تقدم .

وفيه من الحوادث أن السلطان ضرب امرأة
بين يديه بالمقارع ، وشهرت على حمارة وفى عنقها
زنجير ، وهذا لم يعهد قط فلما طاش الملك
الناصر وخف ، وكل كرتباى الأحمر أربعة من
الخاصكية يمنعون من اللعب مع أولاد العوام ،
ومن كل تصرف فى شىء ، وصار تانى بك الجمالى
نظام الملك ، يبيت عنده كل ليلة بالقلعة ومع ذلك
ما ارعوى ، وما حصل من هذا طائل ، وزاد فى
الطيشان حتى خرج فى ذلك عن الحد . وكان منه
ما سنذكره فى موضعه .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد تفى تانى
بك قرا من عجرود ، فلما دخل المحمل طلبه
السلطان عنده بالقلعة ليراه ، ولم يكن رآه قط
قبل ذلك

وفيه أنعم السلطان بتقدمة تانى بك قرا على
قيت الرحبى

وفيه أن من جملة طيشان الملك الناصر أنه خرج
لصلاة الجمعة ، وهو بغير كلوته بل بتخفيفه
ومعيرة ، فشق ذلك على الأمراء ، وعابوا عليه
هذه الفعل .

وفى صفر خلع السلطان على قانصوه الشامى ،
الذى كان نائب حماء ، وقرره فى الرأس نوبة
الكبرى ، عوضا عن تانى بك قرا لما بقى أمير
مجلس ونفى الى الاسكندرية

وفيه قرر فى مشيخة تربة الأمير يشبك بن
مهدى الدوادر الكبير كان ، الشيخ أبو النجا
الفوى الواعظ ، وكان من أهل الفضل .

وفيه من الحوادث أن الخليفة المتوكل على الله
عبد العزيز ، عهد للشيخ جلال الدين الأسيوطى
بوظيفة لم يسمع بمثلها قط ، وهو أنه جعله على
جميع القضاة قاضيا كبيرا يولى منهم من يشاء ،
ويعزل منهم من يشاء ، مطلقا فى سائر ممالك
الاسلام وهذه الوظيفة لم يلها قط سوى القاضى
تاج الدين ابن بنت الأعز فى دولة بنى أيوب . فلما
بلغ القضاة ذلك شق عليهم ، واستخفوا عقل
الخليفة فى ذلك ، وقالوا ليس للخليفة مع وجود
السلطان حل ولا ربط ولا ولاية ولا عزل ، ولكن
الخليفة استخف بالسلطان لكونه صغيرا فلما
قامت الدائرة والألسنة على الخليفة رجع عن
ذلك . وقال : « ايش كنت أنا ؟ الشيخ جلال
الدين هو الذى حسن لى ذلك ، وقال لى : هذه
كانت وظيفة قديمة ، وكان الخلفاء يولونها من
يختارونه من العلماء » . ثم أشهدوا على الخليفة
بالرجوع عن ذلك ، وبعث أخذ العهد الذى كان
كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطى ، وكادت أن
تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك ، ووقعت أمور
يطول شرحها ، ثم سكن الحال بعد مدة .

وفيه أشيع أن الأتابكى أزيك قد حضر من مكة
فى الخفية ، فاضطربت أحوال المماليك الجلبان ،
وكادوا أن ينشئوا فتنة . ولم يكن لتلك الاشاعة
صحة

وفيه عزل الشهابى أحمد ناظر الجيش ، وتولى

القاضي محيى الدين عبد القادر القصرى ، وكان الساعى فى ذلك جان بلاط الدوا دار ، وكان من أخصائه

وفيه ابتداء الأمراء المقدمون فى لبس التخافف التى بالقرون الطوال ، وقد خرجوا فى ذلك عن الحد . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

يقول أميرنا لما تبدى

أنا فى الحرب ذو القرنين دعنى

أنا كبش وأعدائى معاج

إذا برزوا فأنطحها بفرنى

وفيه خلع السلطان على قانصوه الألفى ، وقرره أمير آخور كبير ، عوضا عن شاد بك الحوخ ، بحكم اتقاله .

وفيه انعم السلطان على دولات باى الفلاح ، بتقدمة ألف ، وصار من جملة المقدمين

وفيه خلع السلطان على بحشباى ، وقرره فى نيابة قلعة دمشق ، بعد ما كانت يد عيره . وجرى بسبب ذلك أمور بطول شرحها

وفيه جاءت الأخبار بوفاة كرباى نائب ابيرة ، وكان قصد الحضور الى مصر فمات بعلبك .

وفى ربيع الأول خلع السلطان على الناصرى محمد بن الشهابى أحمد بن العيسى ، وقرره فى نظر الجوالى عوضا عن عبد القادر القصرى

وفيه عزل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وهذا أول موالده فلما جلس بين الأمراء اعتراه النعاس ، حتى رش الماء على وجهه كى يستنيق .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى تربة والده ، فزار قبره ، ثم توجه من هناك الى قبة الأمير يشبك الدوا دار التى بالمطرية ، ثم عاد الى القلعة ، وشق من القاهرة فى موكب حافل

وفيه خلع السلطان على كرباى ابن عمه السلطان ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل . وفيه قرر قانصوه الدوا دار يشبك فى امرية ميسرة بحلب ، ثم جرى عليه بعد ذلك أمور شتى وفيه قرر قصره فى نيابة الكرك ، كما كان أولا .

وفيه قرر طومان باى الخازندار فى نيابة الاسكندرية ، فأقام بها مدة يسيرة ، ثم عاد الى القاهرة ... وطومان باى هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ، وتلقب بالعا دل .

وفيه حضر الى القاهرة قانى باى الرماح ، وكان أتابكا بحلب وصرف عنها .

وفى ربيع الآخر سافر سيباى الدوا دار الثانى الى جهة سزة بسبب أقبردى الدوا دار وقد ثبت أنه عند أقبای نائب غزة ثم جاءت الأخبار بأن أقبردى الدوا دار خرج من غزة هو وأقبای نائب غزة ، وتوجها الى البلاد الشامية ... فتأثر الأمراء لذلك ، وضربوا مشورة فى أمره ، فوقع الاتفاق على أن يكتبوا له بأمان من السلطان والأمراء ، فكتبوا له أمانا وأرسلوه له . وكل هذا عين الخداع .

وفيه فر محمد بن أبى يزيد ، فى نظر البيمارستان المنصورى ، وكان فد عظم أمره فى تلك الأيام جدا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانصوه نائب قلعة الروم ، وكان لا بأس به .

وفى جمادى الأولى نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى قبة يشبك الدوا دار التى فى المطرية وبات بها ، ثم طلع الى القلعة وشق من القاهرة ، وزينت له وكان يوما مشهودا

حتى تنصف الليل ... فلم بشعروا الا وقد دخل عليهم مصرباى الثور والى القاهرة ، فقبض على الثلاثة ، وتوجه بهم الى نحو الجزيرة الوسطى ، فقبل انه أغرفهم هناك . وكان هذا آخر العهد بهم كما قيل فى المعنى :

لما رأيت العسدر منهم بدا
والبغض من أعينهم لى يلوح
فقلت للقلب ارتجع عنهم
ما فصدهم منك سوى أخذ روح

فلما كان يوم الثلاثاء ليلة الأربعاء ثامن عشره ، صلى الأتابكى قانصوه العشاء ، وركب بمن معه من الأمراء والعسكر ، وهجم وملك باب السلسلة — وكان قانصوه الألفى أمير آخور كبير ، فما أحوجه يدق باب السلسلة ، ولا ينتظر الجواب .

فلما كان يوم الأربعاء صبيحة تلك الليلة جلس الأتابكى قانصوه خمسمائة فى الحراقة التى بباب السلسلة ، وأرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز ، فحضر وحضر القضاة الأربعة . واجتمع عنده أربعة عشر مقدم ألف ، والعسكر قاطبة ، من الأمراء والجند . فلما تكامل المجلس ، مشوا مع الخليفة فى خلع الملك الناصر وتولية قانصوه خمسمائة ... فخلع الناصر من السلطنة بصورة شرعية ، وكتب بذلك صورة محضر ، وشهد فيه جماعة كثيرة ، وبويع قانصوه خمسمائة بالسلطنة ، وتلقب « بالأشرف أبى النصر » على لقب أستاذة الأشرف قايتباى . فلما تمت بيعته قبل له الأمراء الأرض والعسكر قاطبة ، ونودى له فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ، وخلع على شخص يسمى جانم أخا قانصوه الألفى ، وجعله والى القاهرة ، وكان قانصوه خمسمائة محبا للناس قاطبة ، بخلاف أقبردى ،

وفيه تزايدت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، وفعل الناس أمتعتهم من الدور . فلما كثر الكلام فى ذلك أحضر السلطان المصحف العثمانى ، وطلع به الى القلعة ، وحلف عليه الأمراء والجند بأن يكونوا كلمة واحدة ، ويكونوا عباد الله اخوانا ، وأن الأمراء الذين هم من عصبه الأمير أقبردى الدوادار يظهرون ويكونون واياهم شيئا واحدا . فوافق الأتابكى قانصوه خمسمائة على ذلك ، وكذلك كرتباى الأحمر وبقيه الأمراء . فلما جرى ذلك نادى السلطان فى القاهرة بأن الغياب الذين من عصبه أقبردى يظهرون ، ولهم الأمان من السلطان ... فعند ذلك ظهر شاد بك الخوخ الذى كان أمير آخور كبير ، واينال الخسيف الذى كان حاجب الحجاب ، وقانم قريب السلطان أحد المقدمين بمصر ، وجانم مصبغة . فلما ظهوروا وطلعوا الى القلعة ، خلع عليهم السلطان كوامل بسور ، وذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشرى الشهر المذكور .

ثم رسم لهم السلطان بأن يتوجهوا الى دار الأتابكى قانصوه خمسمائة التى بقناطر السباع ، ويقبلوا يده . فتوجهوا الى هناك ، وقبلوا يد الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ورجعوا الى بيوتهم . فلما كان آخر النهار من ذلك اليوم ، أرسل الأتابكى قانصوه خلفهم وزعم أنه يضيفهم ويد لهم مدة ، فحضر اليه شاد بك الخوخ ، واينال الخسيف ، وقانم قريب السلطان ، ولم يحضر صحبتهم جانم مصبغة ، وكان صاحب رأى فى فى عدم حضوره . فلما اجتمعوا عند الأتابكى قانصوه طاولهم بالكلام ، ثم أحضر لهم سفرة الشراب ، فشربوا ولم يجلس معهم شاد بك . ثم فتحوا بينهم باب العتاب ، واستمروا على ذلك

فلما لم يبق سوى أن يفاض عليه شعار الملك ، ويركب فرس النوبة ، ويحمل على رأسه القبة والطير ، ويصعد الى القلعة ، ويجلس على سرير الملك ... وقع عند ذلك العجائب والغرائب كما يقال في المعنى :

ستقضى لنا الأيام غير الذي قضت

ويحدث من بعد الأمور أمور

ثم ان قانصوه خمسمائة بعث بعض الأمراء الى القلعة ، بأن يقبض على الملك الناصر ، ويدخله الى قاعة البحرة . فتعصب له جماعة من ممالك آييه الذين كانوا بالطباق وجمادريته وكتابه ، وكانوا يحوا من ألف مملوك . وكان رأس الجلبان قانصوه خال الملك الناصر ، فمنعوه من دخول قاعة البحرة ومن اعطائه الترس والنمچاه ولم يكن عند الناصر أحد من الأمراء ، فقام قانصوه في محاربة قانصوه خمسمائة أشد القيام . وقاتل هو والجلبان قتال الموت ، فملكوا في ذلك اليوم رأس الصوة وسلم المدرج والطبلخاناه ... وعمد قانصوه خال السلطان الى الزردخانه ففتحها ، وأخرج منها زرديات ، وخودا وقسيا ونشابا ، وفرفها على الممالك الجلبان . وكان البدرى حسن بن الطولونى نائبا بالقلعة ، فأحضر النجارين والحجارين ، فعملوا أشياء من الطوارق والمدافع . وكان عند الملك الناصر عدة وافرة من العبيد رماة ، ما بين بندق رصاص ونفطية ، فحاصروا قانصوه خمسمائة وهو بباب السلسلة أشد المحاصرة ثم ان كرتباى الأحمر توجه خلف القلعة ، ونصب مكحلة على الجبل المقطم تجاه القلعة ، ورمى بها على الحوش السلطانى فلم يفد ذلك شيئا ... ثم ان قانصوه خمسمائة نادى فى القاهرة بأن أولاد الناس النفطية تطلع الى باب السلسلة ويبيتون بها ، فلم يطلع اليه أحد منهم ، فاستمر قانصوه فى

المحاصرة ، وهو مقيم بباب السلسلة ، والخليفة والقضاة الأربعة والأمراء عنده واسمر على ذلك يومى الأربعاء والخميس .

فلما كان يوم الجمعة ، مستهل جمادى الآخرة ، وقع فى ذلك اليوم واقعة مهولة وقت صلاة الجمعة ، وأحرق الممالك الذين بالقلعة سقيفة الاصطبل السلطانى بحراريق وبارود رموه عليها ، فاحترق الاصطبل ، وصار المقعد الذى بباب السلسلة مكشوبا ، فخاف قانصوه خمسمائة على نفسه أن يرموا عليه شيئا من فوق . وكانت سقيفة الاصطبل تمنع الرمى عن المقعد الذى بباب السلسلة . فلما رأى قانصوه خمسمائة عين الغلب ، ركب ونزل من باب السلسلة ، ووقف عند سبيل المؤمنين ، فحرر عليه بعض الرماة بكفيه وقيل ببندقية ، فجاءت على طرق أذنه جواز ، فسقط عن فرسه الى الأرض ، وقد أغمى عليه وغاب عن الوجود ، فحملة الغلمان على أعناقهم ، وبقي لباسه بتكته بائنا للناس ، ورأسه مكشوف وعليه زنط أقرع . فنزلوا به من الصليبة وهو على هذه الهيئة . فلما وصلوا به الى المدرسة الجاولية أركبوه على حمار . وهو مغمى عليه لا يدري ما جرى له فلما وصلوا به الى درب الشمسى اختفى فى مكان هناك . وكانت هذه الواقعة من أعجب الوقائع كما قيل :

وبين اختلاف الليل والصبح معرك

يكر علينا جيشه بالعجائب

فلما انكسر قانصوه ، وخرج من باب السلسلة على أنحس حال ، نزل الممالك الجلبان من القلعة الى باب السلسلة ، ونهبوا كل ما فيه من سلاح وقماش وغير ذلك ، ونهبوا طشتخاناة الأمراء والخليفة ، وخطفوا عمائم القضاة ونوابهم ، وما

سلم الخليفة والفضة من القتل الا السلامة . وقتل
في هذه الحركة جماعة من الجند ، وقتل شخص من
الأمراء العنبروات ، يقال له كمشبغا ، وكانت
النصرة للملك الناصر على قانصوه خمسمائة على
غير القياس ، بعد أن ملك باب السلسلة ، وبايعه
الخليفة ، ولقب بالأشرف ، واجتمع عنده سائر
الأمراء المقدمين — من الظاهرية الحقيقية ،
والفاطمية وسائر العسكر من كبير وصغير —
وقبلوا له الأرض قاطبة . فأورث الخذلان واتصر
عليه الملك الناصر ... وكان قد استخف به لصغر
سنه وفلة عصبته ، فكان كما قيل في المعنى :

ولا تحقرن صغيرا رماك

وان كان في ساعده قصر

فان السيوف تحز الرقاب

وتعجز عما تنال الابر

وقال آخر :

لا تحقرن كيد الصغير قريبا

تموت الأفاعى من سموم العقارب

وقال آخر :

لا تحقرن صغيرا في مخاصمة

ان الذبابة تدمى مقلة الأسد

فلما كان يوم السبت مستهل جمادى الآخرة
طلع الخليفة الى القلعة والقضاة الأربعة يهتفون
السلطان بالشهر ، وبهذه النصرة التي حصلت له .
ثم ان الخليفة أعاد الناصر الى السلطنة وبايعه ثانيا ،
وكان خلع من السلطنة ، وأقام ثلاثة أيام الى أن
عاد اليها . وقيل ان الملك الناصر رشد في ذلك اليوم
وثبت رشده . وأباحوا له التصرف في المملكة بما
يختار . ثم انه خلع على الخليفة ، ونزل الى داره ،
وضربت البشائر بالقلعة . وتخلق جماعة السلطان

بالزعفران ، وفرق على الخاصكية سلاريات حرير
أصفر يسنجاب ، وتوشحوا بالبندود الحرير الأصفر .
وفي ذلك اليوم رسم السلطان بالافراج عن
الأتابكي تمتاز الشمسى ، وتانى بك ، فتوجهوا
بالمراسيم الى ثغر الاسكندرية الى مغلباى الشريفي
وهو الآن الزردكاش الكبير . وكتب السلطان أيضا
مراسيم الى أقبردى الدوادار بالحضور ، وتوجه
اليه جاني باي .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على اينال
السلحدار ، وقرره في ولاية القاهرة ، عوضا عن
مصرياى الثور ، بحكم اختفائه . وصرف نظر
الجيش عن عبد القادر القسوى ، وأعيد اليها
الشهابى أحمد بن ناظر الخاص يوسف . وقرر
البدرى محمد بن كمال الدين ناظر الجيش في نظر
الجوالى عوضا عن الناصرى محمد بن العيني بحكم
صرفه عنها . وقرر شمس الدين الفرنوى في نظر
الأعباس ، عوضا عن محمد بن مزاحم الطرابلسى .
وعين الأمير سودون العجمى في نيابة الاسكندرية
عوضا عن قانى بردى البهلوان ، وأرسل بالقبض
عليه . فلما جرى ذلك وقع النهب في بيوت الأمراء
الذين اختفوا لما انكسر قانصوه خمسمائة . وأقامت
القاهرة نحوا من أربع عشرة ليلة لم يدق فيها
طبلخانات بموجب اختفائهم . واضطربت الأحوال .

وفي هذه المدة كانت القلعة شاغرة لم يشم بها
خدمة ، ولا يصعد اليها أمير ، والاشاعات كل ليلة
قائمة بوقوع فتنة . وكثر القال والقليل في ذلك ،
وامتنع الناس من السفر الى الشرقية والغربية ،
لتزايد فساد العربان في الطرقات ، والقاهرة مائجة
بأهلها يتربصون فتنة كبيرة .

وفيه من الوقائع أنه لما انكسر قانصوه خمسمائة
توجه في ذلك اليوم قانصوه الشامى ومصرياى .

والى القاهرة ، فخرجا على جرائد الخيل الى بر
الجيرة ، وبوجها من هالك الى نهر الاسكندرية ،
ليقتلا الأتابكى تراز وتانى بك قرا - وكانا
بالسجن كما تقدم - وكان قسانى بردى
البهلوان ، أخو قانصوه خمسمائة ، يومئذ نائب
الاسكندرية ... فلم يشكا بأن نائب الاسكندرية
يمكنهما من قتل الأتابكى تراز وتانى بك قرا .
وكان تدبيرهما فى بد غيرهما ، فبينما هما فى أثناء
الطريق ، اذ خرج عليهما جماعة من العربان فى
تروجة فتحاربوا معهم ، فانكسروا وقبضت عليهما
العربان ، فقتل مصرباى الثور ، وحزت رأسه
وعلقت على باب الاسكندرية . وأما قانصوه الشامى
فقبضوا عليه ، وأحضروه الى الاسكندرية ، فسجن
بالبرج الذى كان فيه الأتابكى تراز ... والمجازاة
من جنس العمل . وكانت مدة سجن الأتابكى
تمراز بالاسكندرية ستة أشهر وأياما ، وكذلك
تانى بك قرا بعده بمدة يسيرة ، وأخرجا من
السجن معا . وقد قيل :

وكم من طالب يسعى لشيء

وفيه هلاكه لو كان بدرى

فأقام قانصوه الشامى أياما فى السجن بشعر
الاسكندرية .

وفيه بعث السلطان مراسيم على بد قانصوه
دوادار الأمير شاد بك الخوخ الذى قتل ، بضرب
عنق قانصوه الشامى . فلما وصلت المراسيم الى
نهر الاسكندرية أخرج قانصوه الشامى من برج
الاسكندرية ، وتوجه به الى آخر المدينة وضرب
عنقه . قيل وكان المشاعلى غائبا والذى ضرب عنقه
كان صبى المشاعلى . وقيل انه ضربه ثلاث ضربات
حتى أطاح رأسه وعذبه غاية التعذيب . وذلك أن
قانصوه دوادار شاد بك الخوخ أخذ بشأر أستاذة

منه ، وعلقت رأسه على باب الاسكندرية ، وهى
مشهورة ، فكان أول من قتل من الأمراء . وكان
شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية وكان لا بأس به
وفى أثنائه وصل الأتابكى تراز وتانى بك قرا
فخرج الناس الى ملتقاهم ، وطلعا الى القلعة فى
موكب حافل ، وعليهما الملايط الطرح . فلما قابلا
السلطان خلع عليهما ، ثم أعاد تراز الى الأتابكية
عوضا عن قانصوه خمسمائة . وخلع على تانى بك
قرا وقرره فى امرية مجلس ، عوضا عن أزبك
اليوسفى المعروف بالخازندار ، وأنعم على قانى بك
المعروف بنائب الاسكندرية ، وقرره من جملة
المقدمى الألو ف . وقرر خشكلدى فى استدارية
الصحة وعزل اينال السلحدار عن ولاية القاهرة ،
وقرر بها قانصوه الفاجر عوضا عن اينال .

وفيه أنعم السلطان على مصرباى الشرفى شاد
الشرابخانة بتقدمة ألفه ، وخلع على خاله المقصر
السينى قانصوه بن قانصوه ، وقرره فى شادية
الشرابخانة وأنعم عليه بامرية طبلخاناه وهذا أول
ظهوره بمصر واشتهاره ... وكان من جملة ممالك
السلطان العبدارية ، ولم يكن خاصكيا ، فخدمه
السعد جملة واحدة ، واستمر يرتقى الى أن بقى
سلطانا ، كما سيأتى ذكره فى موضعه ... فلما بقى
شاد الشرابخانة اجتمعت فيه الكلمة ، وصار
صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار يسعى
لأرباب الوظائف من بابه ، وعولت الناس على
أشغالها فى رد أجوابه فهذا كله جرى وقانصوه
خمسمائة من حين انكسر مختف . والاشاعات قائمة
بوقوع فتنة كبيرة . وصار الناس على رءوسهم
طيرة .

ثم أشيع بين الناس أن الممالك الذين من عصبة
قانصوه خمسمائة ، يفسدون قتل الأتابكى تراز

وتانى بك قرا ، فرسم لهما السلطان بأن يطلعا الى
العلمه ، ويفيما بها حتى يكون من الأمر ما يكون
فطلع الأتابكى تراز وتانى بك قرا وأقاما فى الجامع
الصغير . الذى هو داخل الحوش السلطانى أياما .

فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة ،
ظهر الأشراف فانصوه خمسمائة من مكان فى درب
المرسنة ، الذى عند قناطر السباع ، وكان قد
أشيع بأنه قد خرج على وجهه من حين انهزم من
الرميلة . فلما ظهر تسامع به من كان من عصبته ،
وأتوا اليه أفواجا أفواجا . فركب من هناك وتوجه
الى الميدان الناصرى الذى عند البركة ، وعلى رأسه
صنّجق . فلما تسامع به العسكر حضر عنده جماعة
من الأمراء ، ممن كان من عصبته واختفى يوم
الهمزيمة ... فحضر قانصوه الألفى وجان بلاط بن
يشبك ، وماماي ، وقرقماس بن ولى الدين ،
وقانصوه المحمدى ، وقيت الرحبى ، وكرتباى
الأحمر . وكسباى الشريفي . ويشبك قمر ... فهؤلاء
مقدمو أوف . وحضر من الأمراء الطبلخانان
والعشراوات جماعة كثيرة . فلما تكاثر هناك
العسكر ضاق بهم الميدان ، فحسن ببال قانصوه
خمسمائة أن يأخذ العسكر ويتوجه الى الأذربكية ،
فتوجه الى هناك ، ونزل بدار الأتابكى أزيك ، فلم
يحضر اليه من العسكر الا قليل ، فتلاشى أمره وبان
عليه الخذلان ، وهو لا ينتهى عما هو فيه . كما يقال
فى الأمثال : « الموت فى طلب الثار ، ولا الحياة
فى العار » .

وقال آخر :

فموتى فى الوغى عيشى لأنى

رأيت العيش فى أرب النفوس

فبات تلك الليلة هناك فى الأذربكية ، فلما أصبح

يوم الأربعاء انسحب من كان عنده من العسكر ،

ولم يبق عنده منهم لا قليل ولا كثير ، وتوجه الأمير
كرتباى الأحمر الى المطرية وخليج الزعفران ،
لأجل أخذ الخيول ، فانها كانت فى الربيع . وبلغ
فانصوه خمسمائة أن المماليك الجلبان نازلة من
الطبقات وهم مشاة ، وقد وصلوا الى رأس
البندقانيين . فلما تحقق ذلك ، طلب الفرس وركب
هو ومن عنده من الأمراء المقدمين والطبلخانان
والعشراوات ، نحو من عشرين أميرا والطواشى
فيروز الزمام ، ومنهم قايتباى الأقرع الزردكاش ،
وبرسباى الخفيف أمير آخور ثانى ، وقرقماس
الشريفي المحتسب ، واسنباى المبشر ، وتمراز
الشيخ ، ودولات باى المصارع ، وأزدمر الخازندار
ودولات باى جركس ، وتمرباى المحمدى كاشف
الشرقية ، وسودون اندوادر ، وطومان باى أخو
الأمير جانم ، وآخرون من الأمراء . فخرجوا من
الأذربكية بعد طلوع الشمس ، وهم على جرائد
الخيول ، وتوجهوا نحو خاققاه سرياقوس بعد أن
أخذوا خيول السلطان وغيره من الربيع ، وكان
آخر العهد بهم ، وقد قتلوا أجمعين كما سيأتى
ذكره . فكانت هذه ثالث كسرة وقعت لقانصوه
خمسمائة . وكان أرشل معكوس الحركات فى سائر
أفعاله لم يطب طبه ، وكان ذلك خذلانا من الله
تعالى له . وقد قيل فى المعنى :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه

وليس عليه أن يساعده الدهر

فان نال بالسعى المنى تم سعده

وان حالت الأقدار كان له العذر

فلما وصل المماليك الجلبان الى الأذربكية ،

وجدوا قانصوه قد تسحب منها . وكان الأتابكى

تمراز نزل مع جماعة من الجلبان من على باب

الخرق ، وأتوا الى الأذربكية ، والجماعة الثانية مع

ثاني بك قرا نزلوا وتوجهوا من البنداقين من على
قنطرة الموسيقى . وأبوا الى الأزيكية من هناك
فلم يجدوا بها أحدا ... فأحرقوا طبلخانة الأمير
أزبك ، ونهبوا داره والربوع التي هناك ، ونهبوا
قناديل الحمام والحصر التي به . وكان هناك
حواصل للأتابكي منها خيام ونشاب فنهبوا ذلك
جميعه ، ونهبوا دور سكان الأزيكية . فكان كما
يقال :

عيرى جنى وأنا المعذب فيكم

فكأننى سبابة المتندم

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه خسمائة لما
خرج من الأزيكية قصد التوجه الى غزة ، لبقث
أقبردى الدوادار ولكن فاته الشنب . وكان مقيما
عند اقباى نائب غزة ، وكان السلطان أرسل خلفه
ليحضر الى القاهرة ، وكان يظن أن الوقت قد صفا
له بكسره قانصوه خسمائة . فقصد التوجه الى
الديار المصرية ، فلما خرج من غزة ووصل الى خان
يونس الذى هناك ، فلم يشعر الا وقد دهمته
عساكر قانصوه خسمائة ، ولم يكن عنده علم
بذلك فأحاطوا به . وكان بينهما واقعة فوية مهولة
فانكسر أقبردى الدوادار ودخل الى خان يونس ،
وأغلق عليه الباب ، فحاصره قانصوه خسمائة أشد
المحاصرة ، وأحرق باب الخان ، وأشرف أن يظفر
به . فلما رأى أقبردى عين الغلبة طلب من قانصوه
خسمائة الأمان ، فلم يعطه الأمان . فبينما هو على
ذلك وقد دنت النسس للغروب ، واذا باقباى
نائب غزة ، واينسال باى نائب طرابلس ، وشيخ
العرب ابن نبيعه ، ومعهم جماعة من العربان والعشير
أتوا ليتوجهوا مع أقبردى الى القاهرة ، فوجدوه
في المحاصرة وهو في خان يونس ، فكان كما يقال
« في أضيق الوقت يأتى الله بالفرج » ، فكان بينهما

واقعة لم يسمع بشئها ، فلما حال بينهما الليل
انكسر قانصوه خسمائة ومن معه من الأمراء
والعسكر ... وهذه رابع كسرة وقعت لقانصوه
خسمائة ، فكان كما يقال :

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة

حتى نروم التي من دونها العطب

فكان أول من أسر من الأمراء ماماي بن
خداد ، فحزت رأسه بين يدي أقبردى ، ثم حزت
رأس فيروز الزمام ، وحزت رأس سودود
الدوادار . وأما قانصوه خسمائة ، فمن الناس
من يقول انه قتل في المعركة وحزت رأسه ،
وأخذت فرسه ، والهيكل التي كان حاملها ، ومن
الناس من يقول انه لما انكسر ، وحال بينهما الليل
ركب فرسه ، وكان مجروحا فنجبا بنفسه ، ولم
يعلم له خبر . والأصح أنه قتل وحزت رأسه ،
وأحضرت بين يدي أقبردى ، ودخلت رأسه الى
القاهرة وهي على رمح . وصار الناس بعد ذلك
يشكون في قتله الى الآن ، ريزعون أنه باق في
فيد الحياة الى الآن ، وهذا من الأمور المستحيلة .
وقد قضى الأمر في قتله . فلما كان صبيحة يوم
الواقعة ، صار أقبردى يفيض على الأمراء الذين
كانوا صحبة قانصوه خسمائة ، ففيض عليهم من
الغيطان التي هناك والخانات فأمسك منهم
قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قسر .
ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات زيادة عن
عشرين ممن تقدم ذكرهم ، فلما قبض عليهم
قيدهم ، وقبض على جماعة من الخاصكية ممن
كان صحبة قانصوه خسمائة . واستمروا في
أسره حتى كان من أمرهم ما سنذكره في موضعه .
هذا ما كان من أمر قانصوه خسمائة وأقبردى
الدوادار . وأما ما كان من أمر الملك الناصر بعد
حركة قانصوه خسمائة ، فانه صار مع ممالك

أييه في الضنك وهو يهدد كل يوم بالقتل ، حتى امتنع من صلاة الجمعة ، وصار الأتابكي تمارز في غاية المشقة ، وقد وعد بالقتل غير ما مرة

وفيه ، في يوم السبت تاسع عشره ، وقعت قلقلة بين المماليك والأمراء بالقلعة ، فقال المماليك للأمراء : « غيروا لقب السلطان ولقبوه بالأشرف على لقب أييه » ، فطال الكلام في ذلك . فقالت الأمراء : « كيف يكون هذا الأمر بعد ما خرجت عدة مناشير ومربعات الى البلاد الشامية باسم الملك الناصر . فكيف يغير لقبه بالملك الأشرف ؟ » فقال المماليك : « لا بد من ذلك » وصمموا على قولهم . فعند ذلك غير لقبه ، ونودى في القاهرة بأن السلطان تغير لقبه وتلقب بالملك الأشرف ... فتعجب الناس من ذلك ، وصار الخطباء منهم من يخطب باسم الملك الناصر ، ومنهم من يخطب باسم الملك الأشرف . وكان سبب تغير لقب السلطان أنه أخرج خرجا من المماليك ، فصاروا يسمون الناصرية ، ومماليك أييه يسمون الأشرفية ، فصارت المماليك الناصرية أرجح كفة من المماليك الأشرفية ، فما أطاقوا ذلك ، وقالوا « لقبوا السلطان بالأشرف ، ونصير كلنا أشرفية » . فما زالوا على ذلك حتى فعلوه . وتقرب هذه الواقعة مما اتفق للملك الصالح أمير حاج ابن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون الألفى ، أنه تسلطن أولا وتلقب بالملك الصالح ، الى أن خلعه الظاهر برقوق من السلطنة وتسلطن عوضه فلما أعيد الى السلطنة ثانيا ، وخلع برقوق من السلطنة في فتنة يلغا الناصري ومنطاش ، غيروا لقبه بعد مضي ثمانية أشهر ، ولقبوه بالملك المنصور . وقد تقدم سبب ذلك . وفيه كثر الاضطراب بالديار المصرية ، وامتنع الأمراء من طلوع الخدمة ، وكثر بين الناس القال

والقيل بأن المماليك يقصدون الهجوم على السلطان ويقتلونه ... فرسم السلطان بسد باب السلسلة ، وباب الميدان ، وباب الحوش الذي يلي العرب ، فسدوها بالحجر واستمروا على ذلك مدة طويلة . فكان الناس يطلعون الى القلعة من باب المدرج فقط ، ويطلعون الى باب السلسلة من الباب الذي عند الصورة تحت الطبلخانات .

وفي رجب خلع السلطان على ابن سيف وقرره في أميرة آل فضل عوضا عن أييه . وفيه رسم السلطان بنفى أربك قشق الظاهري جقمق .

وفيه أنعم السلطان بتقادم ألوف على برد بك نائب جدة ، ومصرياى وقرقماش التنى . ولكن لم يتم له ذلك فيما بعد ، وقرر في نيابة غزة عوضا عن أقبای كما سيأتى الكلام عليه .

وفيه أنعم السلطان أيضا على قانى بك نائب الاسكندرية ، وصار من جملة المقدمين ، وقرر مغلباى البجمقدار فى الخازندارية الكبرى .

وفيه هجم المنسر على سوق باب اللوق ، وأخذوا أموال التجار ، وفتحوا عدة من الدكاكين ، وفعلوا مثل ذلك بسوق تحت الربع ، وكسروا منه عدة دكاكين ، وأخذوا ما فيها .

وفيه قبض الملك الناصر على القاضى كاتب السر بدر الدين ابن مزهر ، وأودعه بالطشتخاناه التى بجوار البحرة ، وقرر عليه أموالا لا يقدر عليها ... وهذه أول نكباته ، وقاسى من البهدة والانكاد ما بطول شرحه ، واستمر بعد ذلك فى النكبات ، وهى تترادف عليه شيئا بعد شيء ، حتى كان فيه هلاكه كما سيأتى ذكر ذلك ... وكان سبب ذلك أنه يوم مبايعة قانصوه خمسمائة ، كان هو المذبذب له ، وأظهر البشر والفرح فى ذلك

اليوم ، فصار له ذنب عند الملك الناصر بسبب ذلك . ومن جلسة ما قاساه أن الناصر لكمه على عينه فنفرت من مكانها ، وكادت أن تذهب ، وأقام أناما وعينه مرفودة وهو في التوكل به أياما حتى أورد مالا له صورة مسا قرر عليه .

وفيه رسم السلطان للأتابكي تراز والأمير تاني بك قرا بأن ينزلا الى دورهما ، وكانا بجامع القلعة من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر ، كما تقدم ذكر ذلك . وخلق عليهما ، ونزلا الى دورهما في غانه التعظيم

وفيه جاءب الأحبار بنصرة أقبردى الدوادر على قانصوه خمسمائة ، فلما تحقق السلطان ذلك نادى في القاهره بالزنة ، ودق البشائر بالقلعة .

وفيه في يوم الخميس رابع رجب جاءت رؤوس من قبل في المعركة على خان يونس ، كما تقدم ذكر ذلك . فكان عدده الرؤوس التي حضرت الى القاهرة أربعة وثلاثين رأسا ، وهي معلقة على رماح ، وبنادى عليها : « هذا جزاء من يخامر وبمضى على السلطان » . وكان من جملة تلك الرؤوس رأس ماماي بن خداداد أحد المتقدمين ، وكان رئيسا حشما وافر العقل شجاعا بطالا ، وكان من خواص الأشرف قايتباي ... توجه فاصدا الى ابن عثمان غير ما مرة ، وتولى من الوظائف الدوادرية النابتة : ثم بفي مقدم ألف ، وهو الذي جدد الدار المعظمة التي بين القصرين ، وحسرف عليها جملة مال عظيم . ومن جملة الرؤوس رأس فيروز الطواشي الزمام ، فلم يرث له أحد من الناس ، ولا أنسى عليه خيرا ، وكان عنده خنفة وطيئش . ومن الأمراء العشراوات : بخشباي ابن عبد الكريم . و تسرباي كاشف الشرقية ، وسودون الدوادر . ومن الخاصكة عدة وافرة ، منهم قايتباي بن قيب الرحبي ، وخاير بك دوادر

الأتابكي أزيك ، وأزيك البيري السيفي جاني جدة وآخرون من الخاصكية المماليك السلطانية . وكان آخر الرؤوس الذي تسلطن — وما كان أغناه عن هذه السلطنة — فصنعوا له عيونا من زجاج حتى يعرف بها من بين الرؤوس .

وكان قانصوه خمسمائة أميرا جليلا موصوفا بالشجاعة ، وافر العقل ، كثير الأدب والحشمة . ويقال كان أصله من ممالك الملك الظاهر خضقدم ومن كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباي ، وأعتقه فهو من عتقائه . ونولى من الوظائف الدوادرية الثانية ، والأمير اخورية الكبرى ، ثم بقى أتابك العساكر بمصر ، ثم تسلطن وتلقب بالأشرف ، وأقام في السلطنة ثلاثة أيام ، وخرب بسببه عدة دور ، وقتلت جماعة كثيرة من الأمراء . وكان قانصوه خمسمائة ليس له سعد في حركاته ، وقتل وهو في عشر الخمسين . فلما عرضوا تلك الرؤوس شك أكثر الناس بأن هذه ليست برأس قانصوه خمسمائة ، واستمروا على ذلك الى الآن . والأصح أنها رأسه ... فأمر السلطان أن تعلق بباب زويلة وباب النصر ، واستمرت الكتوسات تدق بالقلعة سبعة أيام ، وكذلك بيوت الأمراء المتقدمين .

ثم أن أقبردى الدوادر أرسل يشاور السلطان في أمر هؤلاء الأمراء الذين أسروا بخان يونس ، فبرزت اليه المراسيم الشريفة بقتلهم أجمعين . فلما وصل أقبردى الى الخطارة سلم هؤلاء الأمراء الى شيخ العرب أحمد ابن قاسم بن بقر ، فأثنى بهم الى فافوس وقتلهم أجمعين تحت جميزة كانت هناك . ثم رموهم بيثر كانت هناك ، واقتضت أخبارهم . وقيل ان الذي باشر قتلهم تاني بك أبو شامة ، وقتل تاني بك أبو شامة بعد مدة يسيرة كما سبأتي الكلام عليه ... ومثل ما تعمل شاة الحمى

قتله كما تقدم . وقرر عبد اللطيف الرومى فى
الخازندارية الكبرى ، عوضا عن فيروز أيضا .
وفيه أنعم السلطان على قانى باى الرماح بتقدمة
ألف ، وكان أمير عشرة ، وولى نيابة صهيون قبل
ذلك .

وفيه خلع السلطان على أبى يزيد الصغير ، وقرره
فى باشية مكة المشرفة ، وكان ذلك باختياره خوفا
على نفسه من القتل والفتن .

وفيه من الحوادث أن ممالك الأتابكى تمراز
قتلوا شخصا من خواصه يقال له محمد البارنبالى ،
وكان من وسائط السوء عند تمراز ، وكان صاحب
ديوانه ومباشره . فما أطاق الممالك فعله فقتلوه
وهو جالس بباب الأتابكى تمراز . وتمصب لهم
بعض ممالك السلطان ، فلم يطلع من يد الأتابكى
تمرز فى حقهم شئ ، وراح القتل فى كيس محمد
البارنبالى .

وفيه ابتدأ الملك الناصر فى الطيش ومخالطة
الأوباش والأطراف ، وحملت اليه مركب صغيرة
فجعلها فى البحرة ، ووضع بها حلواء وفاكهة وجبنا
مقلية ، وصار ينزل فى المركب بنفسه ، ويبيع كما
يصنع البياعون فى المتفرجات ... وكان كل ذلك
خفة لصغر سنه . ثم انه عرض المحاييس فأطلق
منهم جماعة ، وأمر باتلاف سبعة أنفار من المفسدين
كانوا معهم فى السجن ، ثم أدخلهم الى الحوش
الذى قدام باب قاعة البحرة ، فوسطهم بيده وعلمه
المشاعلى كيف يوسط ، ثم قطع أيديهم وآذانهم
وألسنتهم بيده ، والمشاعلى يعلمه كيف يصنع .
وهذا كله من أقبح الفعال التى لا تليق بالملوك ،
ولكن قصد أن يمشى على طريقة الملك الناصر
فرج بن برقوق ، وهى أنحس طريقة .

وفى يوم الأحد رابع عشر رجب ، كان دخول
أقبردى الدوادار الى القاهرة ، فزينت له ودخل

فى القرظ يعمل القرظ فى جلدها . فكان عدة من
قتل هناك من الأمراء نحو من خمسة عشر أميرا .
منهم مقدمو ألوف ثلاثة ، وهم قانصوه الألفى ،
وكسباى الزينى ، ويشبك قمر . وكان قانصوه
الألفى من خواص الأشرف قايتباى ، وتولى من
الوظائف الدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ،
ثم بقى أمير آخور . وكسباى الزينى تولى حاسبة
القاهرة ، والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف .
ويشبك قمر تولى ولاية القاهرة ، ثم مقدم ألف ...
ومات بقية الأمراء شرميتة ، حتى قيل ان العرب
قطعوا أرجلهم بالخناجر حتى أخذوا منها القيود
الحديد ، وألقوهم هناك فى بئر خراب .

وأما من قتل هناك من الأمراء الطبلخانات .
فالأمر قايتباى الأقرع الزردكاش الكبير ،
وبرسباى الحسييف أمير آخور ثانى ، وقرقماش
الشرفى المحتسب ، واسنباى المبشر استادار
الصحة ، وتمر باى ، وتمرز الشيخ ، ودولات
باى بن جركس ، وأزدمر الخازندار ، ودولات
باى المصارع وآخرون من الأمراء العشراوات .
وقد تقدم القول على ذلك . وكانت هذه الواقعة
من أشنع الوقائع وأبشعها . وكان قانصوه
خمسائة لما تسحب من الأزبكية وقصد التوجه
الى غزة ، أخذ عدة خيول للسلطان وللناس ،
كانت فى المرباط على البرسيم فى زمن الربيع
فحصل بسبب ذلك غاية الضرر . وكانت تلك
الأيام كلها اضطرابا .

وفيه أرسل السلطان الملك الناصر يستحث
أقبردى الدوادار على الدخول الى القاهرة ، وكان
ظن أن الوقت قد صفا له ، ولكن حدث بعد ذلك
أمور يأتى الكلام عليها .

وفيه خلع السلطان على جوهر المعينى ، وقرره
فى الزمامية ، عوضا عن فيروز الرومى ، بحكم

في موكب حافل ، وطلب طلبا عظيما ، وكان له يوم مشهود . ودخل معه من الأمراء أقبای نائب غزة ، واينال باى نائب طرابلس ، وشيخ العرب ابراهيم ابن نبيعة ، وجماعة من الأمراء والخاصكية ممن كان من عصبته وفر معه ، منهم : برد بك المحمدى الخازندار الاينالى ، ودولات باى ، ومغلباى عسل نحل ، وجانم الأجرود ، فهؤلاء من الاينالية . وأما من كان من القايتباهية فهم : اسنباى الأصم ، وبرسباى السلحدار ، وجانى بك الصغير ، وآخرون . وأحضر صحبته جماعة ممن كان فر مع قانصوه خمسمائة من الخاصكية والماليك السلطانية ممن أسر منهم ، وهم فى جنازير حديد ، فقصده أقبردى أن يدخل بهم قدامه وهم فى جنازير ، وكانوا نحو مائتى انسان ، فتعصب لهم خشداشينهم وقالوا : « متى فعل ذلك قتلناه » فرجع عن ذلك . وكان أحضر معه رأس قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر ، الذين قتلوا فى الخطارة . وقصد أن يشهرهم على الرماح قدامه لما يدخل الى القاهرة ، فلم يجسر يفعل ذلك . ولكن عرضهم على السلطان فيما بعد فى الخفية ، ولم يشعر بهم أحد . فلما شق القاهرة وطلع الى القلعة خلع السلطان عليه وعلى من جاء صحبته من الأمراء ، وعلى شيخ العرب ابن نبيعة ، ونزلوا الى دورهم .

ثم ان الملك الناصر قصد أن نفتك بالماليك الذين حضروا صحبة أقبردى ، ممن أسر على خان يونس ، فما جسر على ذلك وخشى من وقوع فتنة ، فما وسعه الا أن عفا عنهم ، وأنفق على كل واحد منهم عشرة دنانير وأطلقهم ، وخمدت فتنة قانصوه خمسمائة .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وحضر الأتابكى تراز ، وتانى بك فرا أمير مجلس ، وأقبردى

الدوادار . ثم أحضر المصحف العثمانى الى القلعة فحلف عليه الأتابكى تراز وتانى بك قرا وأقبردى الدوادار — ولم يكن حلفهم قبل اليوم — بأنهم لا يخامرون ولا يعصون ولا يركبون على السلطان ، فحلفوا على ذلك .

ثم انه خلع على أقبردى الدوادار ، وقرره فى امرية سلاح عوضا عن تانى بك الجمالى بحكم أنه اختفى ، وقرره أيضا فى الدوادارية الكبرى عوضا عن جان بلاط بن يشبك بحكم اختفائه ، وقرره أيضا فى الوزارة والاستادارية الكبرى ، وكاشف الكشاف ، عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم اختفائه أيضا . فصار كما كان يشبك بن مهدى ، وكان نهاية سعد أقبردى فأقام على ذلك مدة يسيرة نحو من شهرين . وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه قرر كرتباى أمير آخور كبير ، عوضا عن قانصوه الألفى بحكم قتله .

وفيه خلع السلطان على أقبای نائب غزة وقرره فى رأس نوبة الكبرى عوضا عن قانصوه الشامى بحكم قتله بالاسكندرية . وأنعم على جانم الأجرود كاشف منفلوط بتقدمة ألف ، وأنعم على برد بك المحمدى بتقدمة ألف ، وأنعم على كرتباى أخى أقبردى بتقدمة ألف ، وقرر اينال باى نائب طرابلس على حاله ، فأقام فى القاهرة أياما ورجع الى طرابلس على عادته .

وفيه رسم السلطان لكاتب السر وناظر الجيش ألا يخرجوا مراسيم سلطانية ولا مربعات ولا مناشير الا بختم من وراء العلامة السلطانية ، وأن يكتبوا أيضا وراء العلامة ما تضمنه ذلك المرسوم .

وفيه قويت الاشاعات بوقوع فتنة ، وأخذ

السلطان في بعض الفلحة ، ونقل اليها أشياء كثيرة من الدقيق والبسمام والاحصاف والماء والعليق ؛ وعبر ذلك . وكانت الاحوال في عاياه الاضطراب . وظهر غالب من كان اخفى من عصبه فانصوه جسمانه . واسموا الى فانصوه خال السلطان ، والنفوا عليه بعضا في أقبردى الدوا دار . وقد نالشي أمره لما ساد في هذه المرة وسار مهددا بالقتل في كل ليلة ، ولم تنفذ له كلمة ، كما يقال :

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها

فحينما انقلب يوما به انقلبوا

يعظمون آخا الدنيا فان وتبت

يوما عليه بما لا يشهى وتبوا

فكان روار أقبردى عن قريب .

وفي شعبان أنعم السلطان بامرية عشرة على مراكز البهلوان ، وهي امرية قايتباي الشرفى الذى قتل بغزة .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة برد بك الطويل نائب صفد . فلم يأذن له السلطان بالاجتماع به ، ومنع من الطلوع الى القلعة عند حضوره . وقاسى من أقبردى الدوا دار غارة البهدة

وفيه أمر السلطان بأن تقطع الحيات التى تصنع في اليمارستان بحضرته حتى تنفجر عليها ... فأحضرها بين يديه بقاعة البحرة ، فقطعت بحضرته وهو ينظر اليها . وخلق على ربس الطب شمس الدين القوصوبى وولده والحاوى الذى أحضر الحيات وآخرين منهم .

وفيه أنعم السلطان على طومان باى الخاصكى بالخازندارية وامرية عشرة ، وكان قد قدم من البلاد الشاميه وطومان باى هذا هو الذى تسلطن

فيما بعد ، وتلقب بالملك العادل ، وكان بين امرية العشره وسلطنته دون الأربع سنين .

وفيه هجم المنسر على سوق أمير الجيوش ، وأخذوا منه أشياء كثيرة من عدة دكاكين ، وقتلوا الخفير ، وراحت على أصحابها

وفيه خلق السلطان على جانم المصبغة ، وقرره في حجوية الحجاب عوضا عن انال الحسيف . وفيه رسم السلطان بشنق عبد القادر صبى القصديرى .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بقتل شمس الدين ابن بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقى ، مات مذبوحا بدمشق ، وهو في داره ، وكان متولى قضاء الشافعة بدمشق

وفيه جاءت الأخبار بوفاة رستم صاحب العراقين وديار بكر ، وكان لا بأس به .

وفيه ثارت فتنة من المماليك الجلبان على السلطان ، وطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت له ، فأنفق عليهم بعدما كانت فتنة كبيرة بسبب ذلك ، فبلغت هذه النفقة نحواً من خمسمائة ألف دينار . وصودر منها جماعه كثيرة من المباشرين وغيرهم .

وفيه صار السلطان يخرج اقطاعات الناس والرزق والأملاك ويفرقها على ممالكه الجلبان .

وحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك . وفيه قرر السلطان تماراز جوشن أمير آخور ثانى ، وقرر قصره في نيابة القلعة

وفيه قبض أقبردى الدوا دار على داود بن عمر أمير هواه ، وقد آل أمره فيما بعد الى أنه شنق على باب شونة منفلوط بالوجه القبلى لأمر حقهدها عليه .

وفيه جاءت الأخبار من نواحى هرمز بأن خسف بها مدينة كاملة بأهلها .

وفيه أكمل السلطان النفقة على الجند والأمراء .
وفيه توفي شهاب الدين أحمد بن عامر المغربي
المالكي ، شيخ تربة الأشرف فايتباى ، وكان عالما
فاضلا صالحا متقشفا لا بأس به
وفيه جاءت الأخبار بأن الطاعون قد وقع بمدينة
غزة ، وهو زاحف نحو البلاد المصرية .

وفيه خلع السلطان على وفاء الماوردى وقرره فى
امرية دون أميرشكار ، وأمر له بأن يتزيا بزي
الأتراك ويلبس التخفيف التى بالقرون والسالرى
القصير الكم — وكان عاميا يلبس لبس العوام —
فعد ذلك من نواقص الملك الناصر .

وفيه تزايد أذى الجلبان فى حق أقبردى وصار
مهيدا بالقتل فى كل يوم ، حتى سأل السلطان أن
يولىه بابة الشام ، ويخرج إليها خوفا على نفسه
من الجلبان ، فلم يسمح له السلطان بذلك .

وفى رمضان فى أول ليلة منه لم يطلع أحد من
الأمراء ، ولا أفطر عند السلطان على جارى
العادة ، وكثرت الاشاعات بوفوع فتنة كبيرة
بسبب أقبردى .

فلما كان يوم السبت رابع شهر رمضان ركب
الأمير أقبردى ، ووافعه على ذلك نانى بك فرا أمير
مجلس ، واهبائ نائب غزه رأس نوبه النوب ،
وجاهم مصبعة حاجب الحجاب ، وجاهم الأجرود
كاشف منسلوط أحد المقدمين ، وغير ذلك من
الأمراء الطبلحانات والعسراوات ، والجم الغفير من
الجند ، ممن كان من عصبه أقبردى ، فوقع فى ذلك
اليوم واقعه مهولة ، فانكسر أقبردى بعد العصر
واختفى فلما دخل الليل هرب أقبردى هو
ومماليكه ، وأخذ صحبته آقبائ نائب غزه رأس
نوبه كبير فلما هرب توجه نحو الصعيد فأقام به
حتى كان من أمره ما سندكره .

وفيه توفي خالص الطواشى التكرورى مقدم
المماليك ، وكان عنده لين جانب وكان لا بأس به .
فلما مات قرر فى مقدمة المماليك مثقال الحبشى
البرهانى ، الذى كان مقدم المماليك ، ونهى الى
القدس وأعيد الى القاهرة .

وفيه اشتد الحر وعز وجود السقائين ، وتكالب
الناس على الروايا والجمال حتى تخافقوا بالعصى ،
وبلغ سعر راوية الماء ثلاثة أنصاف .

وفيه من الوقائع الغريبة أنه فى اليوم التاسع
والعشرين من الشهر المذكور ، أمر السلطان بأن
تدق الكتوسات بالقلعة ، وقال : « أنا أعمل العيد
فى الغد من هذا الشهر ان رأوا الهلال أو لم
يروا » .

فلما أشيع ذلك بين الناس ركب قاضى القضاة
الشافعى زين الدين زكريا وطلع الى القلعة ، فاجتمع
بالسلطان وعرفه بأن العيد لا يكون الا اذا رؤى
الهلال فى تلك الليلة . فشق ذلك على السلطان ،
وهم بعزل القاضى فى ذلك اليوم . فلما دخل الليل
لم ير الهلال فى تلك الليلة ، وجاء العيد بالجمعة .
وكان الناصر تطير بالعيد أن يجيء يوم الجمعة ،
فكان ذلك على رغم أنه .

وفى شوال لم يخرج السلطان الى صلاة العيد ،
ولا طلع الأتابكى تماراز الى القلعة ، ولا بقية
الأمراء المقدمين ، فبعث السلطان الخلع اليهم فى
بيوتهم . وفى أواخر ذلك اليوم طلع الخليفة ليهنى
السلطان بالعيد ، وكان بقاعة البحرة مع الأوباش
الذين يعاشرهم ، فلم يخرج اليه السلطان ، وأرسل
يتشكر منه ، وأمره بالانصراف ، فعد ذلك من
نواقص الملك الناصر . وكان الملك الناصر فى تلك
الأيام فى غاية الطيشان .

وفيه أنعم السلطان على قصره بتقديم ألف

محمد ، وخلع على عمه فت وقرره في نيابة القلعة
عوضا عن قصره ، بحكم انتداله الى التقدمة ،
وفرر ولده جهم في الزردكاشبه عوضا عن أبيه .
وفيه رسم السلطان لشخص من الأمراء يقال
له قانصوه الساقى ، بأن يكون آمينا على باب القلعة
عند سلم المدرج ، يحيط علما بمن يطلع الى القلعة
أو ينزل منها ، فعند ذلك من النوادر .

وفيه جاءت الأخبار من المدنة المشرفة ، على
صاحبها أفضل الصلوة والسلام ، ب وفاة الحافظ
شمس الدين السخاوى ، وهو محمد بن عبد
الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان ، وكان
علما فاضلا بارعا في الحديث ، وألف تاريخا فيه
أشياء كثيرة من المساوى في حق الناس ، وكان
مولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار من الصعيد بأنه قد قامت
هناك فتنة كبيرة بين حميد بن عمر أمير هواره ،
وهو أخو داود الماصى خبره ، فوقع بين حميد وبين
فريبه ابراهيم فتنة مهولة يأتى الكلام عليها .

وفيه كانت الفتن قائمة بين طائفة بنى حرام ،
وبنى وائل ، حتى أعيان جان بردى الكاشف أمرهم ،
وخرجت اليهم تجريدة ، وبها عدة من الأمراء . ولم
نفذ ذلك شيئا .

وفيه عين السلطان أبا يزيد الصغير بأن توجه
الى أوبردى الدوادار للصعيد ، وصحبته خلعه
وفرس سرج ذهب ونبوش ، وعلى يده مراسيم
شرفه لأوبردى الدوادار ، بأنه على عادته في وظائفه
حتى بصير له حرمة على العربان ثم حضر الى
القاهرة عن قريب وكان من أمره ما سذكروه في
موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير رك
المحمل مصرى أحد المقدمين ، وبالركب الأول

الناصرى محمد بن العبنى . وكان الحاج في تلك
السه قبللا .

وفيه سعد سليمان ابن فرطام أحد مشايخ بنى
حرام الى القلعة ، وعلى رأسه منديل الأمان من
السلطان . فلما مثل بين يديه لكمه قانصوه الفاجر ،
والى الشرطة ، وأخذ منه منديل الأمان ، والسلطان
ساكت لم يتكلم . وثار عليه جماعة من الممالك
السلطانية ، وقالوا : « هذا قتل خشداشينا الذين
قتلوا بالخطارة ، فكيف تعطونه منديل الأمان » .
فشق ذلك على السلطان ، وقام من فوق الدكة وهو
غضبان من الممالك .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق ب وفاة قانصوه
اليحياوى نائب الشام ، وحضر سيفه . وكان أصله
من ممالك السيفى جقمق ، وكان لا بأس به تولى
عدة وظائف سنية ، منها نيابة الاسكندرية ، ونيابة
صفد ، ونيابة طرابلس ونيابة حلب ، ونيابة الشام .
وجرى عليه شذائد ومحن ، وأسر عند يعقوب بك
ابن حسن الطويل في كائنة يشبك الدوادار مع
بابندر ونفى الى القدس ، ثم تولى بعد ذلك نيابة
الشام ومات بها وهو على نيابته . وكان من أجل
الأمراء وأعظمهم قدرا

وفيه توفى الشيخ الصالح المسلك نور الدين
الذاكر ابن عين الغزال ، وكان معروفا بالصلاح
لا بأس به .

وفى ذى القعدة توفى قاضى القضاة الحنبلى
بدر الدين السعدى . وهو محمد بن محمد بن أبى
بكر بن خلف بن ابراهيم الحنبلى ، وكان عالما فاضلا
عارفا بمذهبه تولى القضاء بمصر وهو فى عنفوان
شبابيته ، وأقام به مدة طويلة حتى مات وهو فى
وظيفته ، وكان لا بأس به توفى وهو فى عشر الستين .

وقرره في استيفاء الجيش ، مضافا لما بيده من نيابة كتابة السر .

وفيه تزايد شر المماليك الجلبان ، وضيقوا على السلطان ، وصار معهم في غاية الضنك . فأرسل يستبث أقبردى الدواidar في سرعة المجيء .

وفيه ، في رابع عشر الشهر المذكور يوم الخميس ، وصل أقبردى الى بر الجيزة ، فلما تسامع به الأمراء خرجوا اليه قاطبة ، وكذلك العسكر ، ولم يخرج اليه قانصوه خال السلطان ، فتلطف به الأتابكي تراز حتى ركب معه ، وتوجها الى نحو السواقى التى عند الهمة بالقرب من درب الخولى ، فقصد خال السلطان أن يعدى من هناك ويتوجه الى أقبردى ليسلم عليه فنعه المماليك من ذلك ، وقالوا له : « متى عدت ورحت اليه يقبض عليك » فتخيل من ذلك ، ورجع من حيث أتى ... فعند ذلك كثر القال والقليل ، واضطربت الأحوال ، وصار العسكر على ثلاث فرق : فرقة مع أقبردى الدواidar ، وفرقة مع قانصوه خال السلطان — وهى الفرقة التى كانت من عصبة قانصوه خمسمائة فالتفوا على خال السلطان — وفرقة وافرة من المماليك الجلبان مع السلطان . ثم ان طائفة من المماليك لبسوا آلة السلاح ، وتوجهوا الى بيت أقبردى الدواidar عند حدره البقر ، فأحرقوا مقعده ونهبوا رخامه وأخشابه وأبوابه ، وذلك قبل دخول أقبردى الى القاهرة .

فلما كان يوم الجمعة خامس عشر الشهر المذكور عدى أقبردى من الجيزة الى مصر ، فلما وصل مصلاة خولان التى بالقرافة الكبرى ، لاقاه الأتابكي تراز وتانى بك قرا — وقد ظهر وكان مختفيا من حين كسرة أقبردى في شهر رمضان ،

فلما مات أرسل السلطان خلف شهاب الدين الشيشي ، وكان بمكة المشرفة ، فلما حضر خلع عليه السلطان ، وأقره في قضاء الحنابلة بمصر ، عوضا عن بدر الدين السعدى بحكم وفاته . وهو باق على وظيفته الى أن مات بها ، لكن بعد عزل واعادة .

وفيه ظهر قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى ، أحد الأمراء المتقدمين ، وكان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر . فلما ظهر أمنه السلطان على نفسه ، وأقام بداره .

وفيه من الحوادث أن القضاى أبا البقاء بن الجيعان ، كان طالعا الى القلعة فصلى صلاة الفجر ، وخرج من داره . فلما وصل الى الحمام الذى هو خارج من زقاقهم ، خرج عليه بعض المماليك بخنجر فضربه في بطنه ضربة بالغة فمات من وقته ، وما عرف قاتله ، واتهم به جماعة من المماليك . وكان رئيسا حشما فاضلا عالما عارفا بأحوال المملكة ، وكان مقربا عند السلطان الأشرف قايتباى ، ترقى في أيامه وانتهت اليه الرياسة ، وفاق على من تقدم من أقاربه . وكان أدوبا حلو اللسان سيوسا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان من نوابغ أولاد ابن الجيعان ، وهو أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر ، وله بر ومعروف ، وهو الذى أنشأ عمارة الزاوية الحمراء ، وجعل بها خطبة وحوضا وسيلا ، وأنشأ هناك القصور والمناظر والغبط ، وصار ذلك المكان من جملة متفرجات القاهرة ، تسعى اليه الناس في زمن النيل بسبب الفرجة هناك ، وصار عوضا عن التاج والسبعة وجوه التى كانت من المتفرجات القديمة . ومات أبو البقاء ، وقد قارب الستين سنة من العمر ، فلما مات خلع السلطان على أخيه صلاح الدين

كما تقدم — وتوجه الى أقبردى الجهم الغفير من
العسكر . وكان أقبردى أرسل خلف جماعه من
عربان عزالة وبنى وائل . ثم ان العربان كانوا في
ملائع عسكر أقبردى وأتوا معه ووصلوا الى باب
الزغلة وقد كان توجه اليهم جماعة من المماليك
الذين هم من عرضى قانصوه خمسمائة . فالتقى
معهم حابر بك الكاشف وجماعة من المماليك الذين
هم من عصبة أقبردى ، فكسروهم وطردهم هم
والعرب الى أن وصلوا المجرة التي عند باب
الزغلة وصار العرب يشوشون على الناس الذين
يتوجهون من هناك ، ويعرونهم ويأخذون عمامتهم
وأثوابهم . وقتل في ذلك اليوم جماعة من العلمان
واثنان من المماليك السلطانية .

فلما كان يوم سادس عشرى الشهر المذكور
دخل أقبردى الدوا دار من مصلاة خولان ، ودخل
المدينة على مشهد السدة قسيمة رضى الله عنها
ورحمها ، ولم يشق من الصليبة بل توجه الى بيته
من درب الحازن . فلما استقر بداره أتى اليه الأمراء
والعسكر أفواجا أفواجا ، ولو حطم في ذلك اليوم
وطلع الى القلعة للملكها من غير مانع . وكان ذلك من
عين الصواب لكن أشار عليه الأتابكى تمرار بالمجيء
الى داره والتثبت في ذلك . فكان كما يقال في
المعنى :

وربما فات بعض الناس حاجته

مع التأني وكان رأى لو عجلا

فلما بلغ قانصوه حال السلطان أن أقبردى
دخل الى القاهرة ، وأحضر صحبته عربان من بنى
وائل وعزالة ، اضطربت أحواله . ولم يكن عنده
بالقلعة من العسكر الا القليل ، فعند ذلك طلع الى
القلعة الأمير كرتباى الأحمر ، وكان مختفيا من عهد
واقعه خان يونس . فلما بلغ جماعة قانصوه خمسمائة
بأن كرتباى قد طلع الى القلعة بادروا اليه بالطلوع .

وكان قد حضر من الشام ممالك قانصوه اليحياوى
وصعدوا الى القلعة استنزلهم السلطان في الديوان ،
فأقاموا بالجامع وصاروا من عصبة الفوافة . وكان
أكثرهم رماة بالمدافع والسبقيات والبندق الرصاص
وهم الذين كانوا سببا في كسرة أقبردى فقيوت
شوكة خال السلطان بهم وبالأمر كرتباى الأحمر .
وصاروا جماعة المماليك طالعين الى القلعة أفواجا
أفواجا ، وقويت الفوافة . وأرسل خال السلطان
خلف طائفة عربان من بنى حرام . وأحضر قراجا
نائب غزة كان ، عربان السواملة ، فصارت العربان
يقاتل بعضهم بعضا . فلم يحصل بالطائفتين تقع بل
حصل منهم غاية الضرر ، وصاروا يعرفون الناس ،
ويحفظون العمامة بالمطربة وبولاق ومصر العتيقة
والقرافة ، وصاروا ينهبون التراب ومزارات
الصالحين ، حتى مزار الامام الشافعى ، والامام
الليث رضى الله عنهم ورحمهم . وأظن أن هذا هو
الذى كان سببا في كسرة أقبردى .

ثم ان أقبردى أحصر أشياء كثيرة من الأخشاب
وشرع في عمل طوارق ، وأحضر عدة قناطير نحاس
وشرع في سبك مكحلتين كسار ، وأحضر المعلم
دميلكو السباك وشرع في سبكها . وأظهر أقبردى
الدوا دار في هذه الحركة همة عالية . وكان عنده
من الأمراء الأتابكى تمرار وتانى بك قرا الاينالى
أمير مجلس ، وكرتباى ابن عمه السلطان أمير آخور
كبير ، واقباى نائب غزة رأس نوبة النوب ، وجانم
مصبغة حاجب الحجاب ، وتانى بك الشريفى نائب
الاسكندرية أحد مقدمى الألوف ، وجانم الأجرود
أحد المقدمين ، وبرد بك المحمدي الاينالى أحد
المقدمين ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات
زيادة على ثلاثين أميرا ، منهم : مغلباى صصرق
الإشرقى برسباى ، وغير ذلك من الأمراء . واجتمع
عنده الجهم الغفير من العسكر من سائر الطوائف .

فكان أقبردى فى كل يوم يمد للأمراء والخاصكية أسمطة حافلة فى أول النهار ، وفى آخره ، ثم يحضر لهم السكر والحلواء والفاكهة والبطيخ الصيفى واستمر الحرب تائرا بين الفريقين ، وحاصر أقبردى من بالقلعة أشد المحاصرة ، ومنع الغلمان والعبيد أن يصعدوا الى القلعة بشيء من الأكل ، وقطع آذان جماعة من العبيد وأيديهم بسبب ذلك .

وفى ذى الحجة فوى عزم أقبردى على محاصرة القلعة ، وكان يركب كل يوم هو والأتابكى تميز والأمرء ، وعلى رأسه الصنجق السلطانى يخفق . وقد أرسله اليه الملك الناصر فى الدس ، وكان له به عناية فى الباطن ، فصار أقبردى يظهر أنه لم يكن راكبا على السلطان ، وانما له غرماء من الأمراء ، وقصده القبض عليهم .

هذا ما كان من أمر أقبردى الدوادار ... وأما ما كان من أمر الملك الناصر فانه لم يكن عنده من الأمراء سوى قانصوه خاله . ثم صعد فى ذلك اليوم كرتباى الأحمر على الفور ، وكان مختفيا وجلس بالمقعد الذى برأس سلم المدرج . وكان الأمير سودون العجمى ، وجان بلاط الغورى ، وقانى باى الرماح ، وطومان باى الشريفى ، ودولات باى قرموط ، وغيرهم من الأمراء — قد ركبوا المكاحل حول القلعة والسبقيات ، وركبوا المكحلة المسماة بالمجنونة على باب السلسلة .

وكان غالب مماليك قانصوه اليحياوى — نائب الشام الذى توفى وحضرت مماليكه فى تلك الأيام — كلها رماة بالسبقيات والبندقيات الرصاص . فأخذ بخاطرهم كرتباى الأحمر ، وخال السلطان قانصوه ، وأنزلوهم فى الديوان السلطانى ، وصرفوا اليهم الجامكية ، حتى انهم

صاروا معهم ، وكانوا زيادة عن مائتى انسان . وصار الحرب تائرا بين الفريقين . فبعى مع الفرقة التى بالقلعة من باب المدرج ، الى رأس الصوة ، الى باب زويلة ، الى باب النصر ، الى المطرية .

وصار مع الفرقة الى مع أقبردى من باب القرافة الى الصليية ، الى قناطر السباع ، الى مصر العتيقة ، وبولاك . وصار يقتل فى كل يوم من طوائف العربان مقتلة كبيرة ، من بنى وائل وبنى حرام ، وكانوا يدخلون براءوس القتل فى آخر النهار فى شباك التبن . فقتل فى هذه المعركة من العربان نحو من ألف انسان وزيادة على ذلك . فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وكانت الأتراك تقاتل مع بعضها ، والعربان تقاتل مع بعضها . فلما قرب عيد الأضحى ، فرق أقبردى على الأمراء والعسكر الذين ركبوا معه عدة أبقار وأغنام كثيرة . ثم أنفق لهم جامكية ذلك الشهر ، والأضحى من ماله دون مال السلطان ، فصرف فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينار ، وباليات هذا أفاده شيئا ثم ان أقبردى أحضر دميلىكو السباك ، واستحثه فى سرعة عمل سبك المكحلة ، فأخذ فى أسباب ذلك ... ثم ان أقبردى وزع الأمراء فى أماكن شتى بسبب حصار القلعة ، فكان كرتباى ابن عمه السلطان أمير آخور كبير ، وتانى بك قرا أمير مجلس وجماعة من العسكر ، فى مدرسة السلطان حسن ، بسبب حصار القلعة . فكانوا يرمون عليها فلم يقد شيء من ذلك .

ثم انهم رموا بالمكحلة المسماة بالمجنونة على من فى مدرسة السلطان حسن ، فخرق المدفع شباك المدرسة ، ودخل فقتل ثلاثة أنصار من المماليك الذين هناك ، فحصل للعسكر من ذلك زمقة ، وكان لهم يوم عيد النحر واقعة قوية تشيب منها النواصى . وقتل فى ذلك اليوم شخص

من الأمراء العشراوات يقال له جانم بن فايتباى ،
وآخر من الأمراء يقال له طومان باى نائب
البهسا ، وشخص يسمى قصروه نائب سنجر ،
وكان حضر صحبة الأمير أقبردى الدوادار من
البلاد الشامة

وقتل من كان بالقلعة شخص من الأمراء
النبيلحات يقال له برسباى اليوسفى أبو ذقن ،
وكان من ممالك الظاهر چقمق . مات فجأة بالقلعة
في مدة المحاصرة ، وكان لا بأس به فلما طال
على العسكر الذين كانوا مع أقبردى أمر الحصار ،
وأبأ عليهم دملكو بفراغ المكحلة التى شرع في
سبكها ، وصار يقتل كل يوم من جماعة أقبردى
جماعة كثيرة ، فبقى يتسحب منهم جماعة ويطلعون
الى القلعة شيئا فشيئا . فبان على أقبردى أمر
التلاشى ، فلما حييت الطائفة الفوقانية ، ظهر جان
بلاط بن يشبك الذى كان دوادارا كبيرا ، وظهر
الأمير قرقماس بن ولى الدين ، وفيت الرحبى ،
وقانصوه المحمدى المعروف بابرجى ، وكان ظهر
قبل هذا اليوم عند دخول أقبردى القاهرة كرتباى
الأحمر ثم ظهر أذربك اليوسفى الظاهرى ، وتابى
لك الجمالى ، وغير ذلك من الأمراء ممن كان
محتفيا من حين ركب قانصوه حمسمائة وانكسر .
فلما ظهروا وطلعوا الى القلعة . قويت شوكتهم ،
وحدوا في القتال ولو حطم أقبردى أول يوم
دخل فيه الى المدينة ، وطلع الى القلعة ، لكان
ملك القلعة في ذلك اليوم من غير مانع ، ولم
يكن بها أحد من العسكر ، وكانت قلوب العسكر
معيرة منه بالكرب الشديد واستخف أقبردى
بمن في القلعة ، وسمع أى الأتابكى تمرآز ، وتوجه
الى بيته حتى كان ذلك سببا لقلعة نصرته . ولم يعلم
ما وراء ذلك

فاشتد أمر القتال ممن كان بالقلعة ، واستطالوا

على التختانيين الدين من حلف أقبردى بالنشاب
والبنشق الرصاص والمدافع ، حتى أهلكوا منهم
ما لا يحصى . وكان مع أقبردى مدرسة السلطان
حسن ، وسبيل المؤمنين ، وسويقة عبد المنعم .
وصار أقبردى معه صنجق سلطاني ، ويقول :
« الله ينصر السلطان الملك الناصر » . وكرتبأى
الأحمر وبقية الأمراء معهم صنجق سلطاني وهم
يقولون : « الله ينصر السلطان » . فجار الناس بين
الفريقين ، ولم يبق يعلم هذه الركبة على من : هل
هى على السلطان ؟ أو على الأمراء في بعضهم ؟
واستمر الحال على ذلك حتى كان ما سنذكره في
موضعه

وفيه توفى من الأعيان قاضى القضاة ناصر الدين
محمد بن الأخيمى الحنفى ، وهو محمد بن أحمد
ابن الأنصارى القاهرى الحنفى ، وكان عالما فاضلا
يقراً بالسبع روايات ، وكان ضنينا بنفسه ، وكان
امام السلطان الملك الأشرف قايتباى ، ثم قرر في
قضاء القضاة ، واستمر به الى أن مات . وكان
موته فجأة فأخرجت جنازته ولم يشعر به أحد من
الناس بسبب تلك الفتن القائمة

وفيه توفى القاضى أبو الفتح المنوفى ، كاتب
الممالك ونائب جدة ، وكان من أعيان المباشرين ،
ورأى من العز والعظمة ما لا يوصف . وفي آخر
عمره قاسى شدائد ومحن ، واعتراه جنون
وماليخوليا ، واستمر على ذلك حتى مات
وفيه توفى سيدى ابراهيم بن أبى الفضل بن أبى
الوفاء ، وكان شابا صالحا لا بأس به
وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة تمرغا
الترجمان ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى شمس الدين محمد بن الخادم
الحنفى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكان
لا بأس به .

وفيه توقف النيل عن الزيادة في ليالى الوفاء ، وكان كل أحد مشغولا بنفسه عن ذلك ، والفتن قائمة .

وفيه في يوم الاثنين ثانى عسرى الشهر المذكور (الموافق لسابع عشرى مسرى) وفي النيل المبارك وكسر في الثامن والعشرين من مسرى ، وفد أبطاً عن مياعده . فلما وفي شاوروا الأمير أقبردى في فتح السد ، فبعث اليه والى القاهرة ليفتحه ، فوجد الشيخ عبد القادر الدشطوطى رضى الله عنه ، قد فتح جانبا منه قبل مجيء والى ، ولم يتوجه أحد ليتفرج على فتح السد على جارى العادة ، لكون القاهرة كانت في غاية الاضطراب من عدم الأمن ، وفساد الأحوال ، من هذه الشرور والفتن . فكان كما قيل :

أتطلب من زمانك ذا وفاء

وتنكر ذاك جهلا من بنيه

لقد عدم الوفاء به وانى

لأعجب من وفاء النيل فيه

فلم يقم النيل سوى أيام قلائل ، وهبط بسرعة ، وشرق غالب البلاد ، وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل .

ولما وقعت بصر الفتن بين الأتراك ، وفعت البقن أيضا بين العربان ، وأحرقوا القمح والشعير وهو في الجرون ، ونهبوا عدة بلاد ، فوقع الغلاء بالديار المصرية ، وانتهى سعر القمح الى ألف درهم كل أردب ، واستمر على ذلك مدة طويلة ... وكانت الأحوال في تلك الأيام في غابة الفساد ، واستمر الحرب ثابتا على ما ذكرناه من القتل ، والنهب حاصل ، والحصار ليلا ونهارا حاصل في القلعة .

وفيه ، في يوم الجمعة سادس عشرى الشهر

المذكور ، تسحب من كان عند أقبردى الدوادار من العسكر جبلة ، ولم يبق معه سوى مساليكه وبعض مساليك السلطان والأمراء المقدمين . وكان الأمير جانم الاينالى ، كاشف منفلوط وأحد المقدمين ، فد جرح واختفى ، ومات من ذلك ولم يشعر به أحد . ثم ان الأمير أقبردى اضطربت أحواله ، وتشتت عنه جماعته ، بعد ما أكلوا عيشه ، وأخذوا أضحيته وجامكيته ، وصرف عليهم جامكية شهرين من ماله ، ولم يراعوا له حق ذلك ولا أنمر فيهم ما فعله بهم ... فكان كما قيل في المعنى :

لفاء أكثر من تلقاك أوزار

فلا تبالى أصدوا عنك أو زاروا

أخلافهم حين تبلوهن أوعار

وفعلهم مأثم للسوء أو عار

لهم لديك اذا جاءوك أوطار

اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وكان أحسن لغالبهم ، وأنفق على بعضهم ، وأرضاهم بكل ما يمكن ، بعد ذلك بعضهم رماه وطلع الى القلعة .

فلما كان وقت المغرب من ليلة السبت ، نزل كرتباى الأحمر من القلعة ، وصحبته جميع من كان بالقلعة . وكان خشكلدى البيسقى قد ظهر وطلع الى القلعة ، فنزل صحبة الأمراء ممن كان بالقلعة ، والمساليك الكبار والصغار الذين كانوا بالطباق ، فزحفوا زحفة واحدة وهجموا على جماعة أقبردى ، فانكسروا وفروا ، فهجموا على من كان بمدرسة السلطان حسن ، وأحرقوا بابها ، ودخلوا على من بالمدرسة من الأمراء ، فأخرجوا كرتباى ابن عمه السلطان وهو مجروح جرحا بليغا ، قتل منه وهو أمير آخور كبير . وهرب ثانى بك قرا ، فلم يظفروا

به ، وهرب من كان بمدرسة السلطان حسن من
الأمرء والماليك ، فنهب الجلبان جبيع ما كان
بالمدرسة من طشتخانات الأمرء ، ونهبوا بسط
المدرسة ، والفناديل ، وقلعوا شبايك القبة التى
بالمدرسة ، وأخذوا رخامها ، وأحرقوا الربع
الذى عند سوق الرملة ، بجوار بيته ، وربع
يشبك الدودار ، وربع خشكلدى البيسقى ،
وسبيل المؤمنين ، وبعضا من بيوت الصوة ، وغير
ذلك .

فلما دخل الليل ركب أقبردى فى نفر قليل من
مماليكه ، وطلع الى الرملة ، فلم يطب طبه ،
واستتر على ذلك طول الليل . فلما أصبح يوم
السبت سابع عشرى الشهر المذكور وهو ذو
الحجة ، انكسر أقبردى كسرة مهولة ، ورجع الى
داره وأخذ بركه ، وزردخاته ، والطشتخاناته ،
وخرج من داره وعلى رأسه صنجق ، وقدامه
طبلان وزمران ، ومماليكه حوله وهم لابسون آلة
السلاح . وخرج صحبته من الأمرء تانى بك قرا
أمير مجلس ، وأقبای نائب غزة رأس نوبة كبير ،
وجانم مصبغة حاجب الحجاب ، وقانى بك نائب
الأسكندرية أحد المقدمين ، وكرتباى أخو أقبردى
الدودار أحد المقدمين . ومن الأمرء الطبلخانات
والعشراوات جماعة كثيرة نحو من عشرين أميرا ،
فمن جبلتهم : اينال السلحدار المعروف بالصغير ،
ومن المماليك السلطانية والسيفية نحو من ألف
مملوك . فلما خرج من داره دخل من الدرب الذى
عند حمام الفارقانى ، وخرج من الدرب الذى تجاه
المدرسة الصرغتمشية ، وتوجه من هناك الى
بولاق ، وطلع على جزيرة الفيل ، ثم خرج الى
الفضاء ، وقصد التوجه الى البلاد الشامية ، فدخل
خاقناه سرياقوس ، فلم يقيم بها . واستمر يجد
السير حتى وصل الى بليس ، فلم يتبعه أحد من

الأمرء ولا العسكر ، حتى خرج وتوجه الى البلاد
الشامية . وجرى منه أمور يطول شرحها ... يأتى
الكلام على بعضها فى مواضعه .

والذى وقع لأقبردى الدودار لم يقع لمنطاش
الناصرى فى أيام الظاهر برقوق ، وكانت مدة
محاصرته للقلعة أحدا وثلاثين يوما ، ولم يسمع
بمثل هذه الواقعة فيما تقدم ، قال بعض المؤرخين :
« لم يقع بمصر من يوم فتحها الى الآن ، مثل واقعة
أقبردى الدودار ، فكانت من غرائب الوقائع .
وفى مدة هذه المحاصرة كانت الأسواق معطلة ،
والدكاكين مقفلة ، وامتنع البيع والشراء ، ولم
تظهر فى تلك الأيام امرأة بالأسواق ، ولا
بالطرق ، وكثر القتل والنهب ، وكان الناس فى
أمر عظيم » ... قيل : لما طال أمر هذه الفتنة ،
دخل على الأمير أقبردى ، جماعة من الفقراء
الرفاعية والقادرية والأحمدية ، وجماعة من
الصوفية ، سألوه أن يكف عن هذا القتال ، وأن
يقع الصلح بين الطائفتين ، فأبى أقبردى ذلك . ثم
نزل اليه مثقال مقدم المماليك رسولا عن لسان
السلطان ، بأن يكون الصلح بينه وبين الأمرء
على يد السلطان ، فأبى أقبردى ذلك .

وكان دميلىكو قد فرغ من المكحلة وركبها ،
ورمى بها أول حجر ، فكسر باب السلسلة ،
فاضطرب من كان بالقلعة ، وهجموا على المكحلة ،
ودقوا بها مسمارا وكانت معيبة ، فلما خرقوا
منافضها وشتت النار ، خرج الحجر منها على حين
غفلة ، وانكسر أقبردى . وكانت هذه ثالث كسرة
وقعت لأقبردى ، وكانت آخر العهد به ، فلم يدخل
بعدها الى مصر ، وقاسى شدائد ومحن يأتى الكلام
عليها .

فهذا ماكان من أمر أقبردى الدودار .
وأما ما كان من أمر الأتابكى تراز فانه كان مقيما

بالبيت الذى بجوار بيت يشبك الدوادر ، الذى كان عند المدرسة البندقارية ، وكان متوعكا فى جسده ، فلم يشعر بكسرة أقبردى ، فلما أراد أقبردى أن يفر أرسل خلف الأتابكى تراز وأعلمه بما جرى ، وأراد أن يأخذه معه ، فأبطأ عليه وخشى من العسكر أن يهجموا عليه ويقتلوه ، فأسرع فى الخروج من داره وترك الأتابكى تراز فى داره ومضى . ثم ان الأتابكى لبس فماشه ، وركب وخرج من البيت الذى كان به ، فلما وصل الى بيت تانى بك قرا ، لاقاه جماعة من المماليك الفواقة وقبضوا عليه ، وقصدوا قتله ، وأدخلوه الى بيت تانى بك قرا ، ثم بدا لهم أن يطلعوا به الى القلعة . فلما خرجوا به من بيت تانى بك قرا ومشوا الى رأس الصليية ، لقيه طائفة من المماليك الفواقة غير هؤلاء فقتلوه عن فرسه فوقع الى الأرض ، وطلعوا به الى دكان هناك ونزعوا ثيابه عنه ، وحزوا رأسه على الدكان بالسيف ، فلم تنقطع ، فكسروها حتى خلصت عن جثته . وكان الذى قتله من أرذل المماليك السيفية يقال له برد بك الأشقر . ثم أخذ رأسه ، وقبض عليها من ذقنه ، وطلع بها الى القلعة . فلما عرست على الملك الناصر شق عليه ذلك ، لكونه كان من قرابة أبيه الملك الأشرف قايتباى رحمه الله . ثم أمر بلفها فى فوطة ، وأرسل معها ثوبين بعلبيين ، وثلاثين ديناراً . ثم ان بعض جماعة الأتابكى تراز أحضروا له نعشا ، وأخذوا فيه جثته وتوجهوا بها الى مكان بالقرب من بيت تغرى بردى الاستادار ، وخيطوا رأسه على جثته ، وغسلوه ، ثم أحضروا كرتباى ابن عمه السلطان الذى قتل فى مدرسة السلطان حسن ، فغسلوه مع الأتابكى تراز ، وأخرجوهما فى يوم واحد ، وصلوا عليهما فى مصلى باب الوزير ، ثم توجهوا بهما الى تربة الأشرف قايتباى ، فدفن

الأتابكى تراز داخل القبة ، ودفن كرتباى ابن عمه السلطان على جانب قريب السلطان الذى كان ناظر الجوالى ومقدم ألف . وكان الأتابكى تراز أميرا جليلا معظما دينا كثير البر والصدقة محسنا للناس ، جميل الهيئة ، وله آثار ومعروف . منها ما فعله فى الجسور التى صنعها بالغربية ، وهو كاشف التراب بالغربية ... وكان أصل الأتابكى تراز من مماليك الأشرف برسباى فأعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشاً ، وصار من الجمدارية . ثم بقى خاصكيا ساقيا فى دولة الأشرف اينال ، ثم أنعم عليه بامرية عشرة وصار عنده من المقربين ، ثم نفى الى دمياط فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم حضر الى القاهرة فى دولة الظاهر ترمبغا ، ثم ظهر أنه ابن أخت السلطان الأشرف قايتباى ، فلما تسلطن جعله مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير سلاح ، ثم بقى أتابك العسكر عوضا عن أزيك بن ططخ لما نفى الى مكة المشرفة كما تقدم ... وكان تراز أميرا كبيرا ، كان اذا جلس فى أى مكان ودخل اليه الأدنى أو الأعلى يقوم له القيام الكلى ويجلسه ، وكان لا يجلس بمقعده الا وهو مزرر الملوطة ، وهو بالخف والمهماز ، ولم تبين له رجل وهو جالس ، وهذا من النوادر فى زمننا هذا . فلما مات رئيته بهذه الأبيات ، وهى قولى مع التضمين :

أرغمت يا دهر أنوف الورى

بقتل تراز ويتم العباد

أتابك العسكر ذو رافة

بالجود قد شاع لأقصى البلاد

أخطأت يا قاتله كيف قد

قتلت من يقيم أهل العناد

مصيبة جلت فمن أجلها

قد أطلقت فى كل قلب زناد

لكن له في قتله أسوة
الى الحسين بن علي الجواد
من أودعوه الرمس ما أنصفوا
بل كان يخبى في صميم الفؤاد
فاته يأجره على ما جرى
من قتله بالعفو يوم المعاد
ومات الأتابكي تمتاز وهو في عشر الثمانين ،
وكان لين الجانب واسطة خير ، وكان يظن كل أحد
أنه يتسلطن . وقد ترشح أمره إليها غير ما مرة ،
وكان اذا سأله أحد في حاجة يقول له : « اصبر علينا
حتى يجيء وقتها » . وكان طامعا في السلطنة
فخابت فيه الظنون ، وجاء الأمر بخلاف ما أمل
أن يكون .

وفيه جاءت الأخبار بأن أقبردى لما مر على
الشرقية ، كادت طائفة عريان بنى حرام أن تقتله ،
فرجموه حتى جاءت رجمة في وجهه ، وسبوه سبا
قبيحا ، وفعلوا به ذلك في عدة أماكن ، وما خلاص
منهم الا بعد جهد كبير ... وسبب ذلك أنه سلب
عليهم بنى وائل ، وقتل منهم في مدة المعركة ما لا
يحصى ، فلما انكسر وصر بهم انتقموا منه ، وجرى
عليه منهم ما لا خير فيه . فلما هرب أقبردى وقتل
تمراز اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ،
ونزل الماليك من القلعة ، وعطعوا في المدينة ،
وصاروا يدخلون الحارات وينهبون البيوت ، حتى
نهبوا الربوع التي هي سكن العوام . ثم توجهوا
الى حارة زويلة ونهبوها بسبب أنه كان لأقبردى
حاصل هناك فيه مال ، فنهبوا ما كان فيه ، حتى
قليل كان فيه ما يزيد على مائة ألف دينار غير الخيام
والقماس الذي كان به . ونهبوا بيوت اليهود الذين
حوله ، ودخل الزعر والعبيد فنهبوا القبة التي في
مدرسة السلطان حسن ، وأخذوا الرخام الذي
بها ، والشبابيك النحاس التي بها ، والأبواب ...

ومن يومئذ تلاشى حال المدرسة الى الآن . واستمر
النهب والقتل دائرا ثلاثة أيام متوالية . ولم يجدوا
من يردهم عن ذلك ، والمدينة مائجة . وقد تعطلت
الخطبة ، واقامة الصلاة من مدرسة السلطان
حسن ، نحا من ستة أشهر . وكان كل من ظفروا
به من جماعة أقبردى يقتلونه شر قتلة . ثم قبض
على المعلم دميكو ، وأحضره عند الأمير كرتبای
الأحمر فقطع رأسه وعلقها على باب السلسلة ، كما
قيل في الأمثال : « وربما عوقب من لا جنى » .
وقد خرجت السنة المذكورة على ما شرح فيها
من الفتن والانكاد والفساد وخراب البلاد . ووقع
فيها الغلاء ، وتشحطت الغلال ، وقتل فيها من
الأمراء نحو من خمسين أميرا ، ما بين مقدمي ألوف
وطبلخانات وعشراوات . وقد تقدم ذكر ذلك عند
وقوع كل حادثة ، من أوائل السنة المذكورة الى
آخرها ، حسبما أوردناه من الوقائع . وقتل من
الجند والعرب نحو من ألف انسان ، فلا حول ولا
قوة الا بالله العلي العظيم . وما حصل لعسكر مصر
بعد وفاة الأشرف قايتبای خير ، وجاءت الأمور
بضد ما أملوه من بعده ، فكان كما يقال :

يسعى ابن ادم في قضا أوطاره
والموت يتبعه على آثاره
يلهو وكف الموت في أطواقه
كالكبش يلعب في يدي جزاره
يسى وقد أمن الحوادث ليله
فلربما تطرفه في أسحاره
من رام ينظر كيف تصبح داره
من بعده فليعتز بجواره

سنة ثلاث وتسعمائة (١٤٩٧/١٤٩٨ م) :
كان مستهل المحرم يوم الثلاثاء ، ووافق ذلك
اليوم يوم النوروز للقبض بموجب تحويل السنة
القبطية الى السنة العربية . فصعد القضاة الى

التهنئة بالشهر والعام الجديد ، وبهذه النصرة التي وقعت للسلطان . ولم يحضر الخليفة في ذلك اليوم بسبب أنه كان متوعكا في جسده ، وهو مقيم بالقلعة ، فنزل الى داره في محفة ، وكان ذلك انتداء ضعف الموت .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على برهان الدين ابن الكركي الامام ، وقرره في قضاء الحنفية عوضا عن ناصر الدين بن الأحمي بحكم وفاته ، وهذه أول ولاية ابن الكركي . وخلع على الشيخ سري الدين عبد البر بن الشحنة ، وقرره في مشيخة المدرسة الأشرفية ، عوضا عن البرهان الكركي ، فلم يقيم بها عبد البر غير ثلاثة أشهر ، وأعيد اليها ابن الكركي ، مضافا لما بيده من قضاء الحنفية

وفيه تحوف السلطان على نفسه من الأمراء ، فأحضر لهم المصحف العثماني ، وحلف عليه الأمراء الذين هم من حزب قانصوه خمسمائة ، بأنهم لا يخونونه قط ولا يغدرود به ولا يركبون عليه ، وهذا رابع يمين حلفه السلطان للأمراء على المصحف العثماني ... وكل ايمانهم كانت كاذبة فاجرة .

وفيه عزل السلطان الموكب ، وخلع على جباة من الأمراء منهم : المقر السيمي قانصوه خال السلطان وقرره في الدوادارية الكبرى ، عوضا عن أقبردى بحكم هروبه . وخلع على كرتباى الاحمر وقرره في امرية سلاح وخلع على جان بلاط بن يشبك وقرره في نيابة حلب ، وخرج اليها عن قريب .

وفيه دخل مبشر الحاج ، وهو شخص من العرب ، وقد تأخر عن عادته ستة أيام لفساد طريق الحجاج . وفيه توفي الزينى قاسم بن فاسم المالك أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا متفنا لا بأس به

وفيه قرر كمشبا الشريفي في نيابة الاسكندرية عوضا عن اسنباى .

وفيه عين السلطان خاير بك أخا قانصوه ، بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم .

وفيه قرر عبد القادر بن النقيب في مشيخة خاقاه سعيد السعداء ، وكانت عينت للمسلمي ، ولم يتم له ذلك .

وفيه توفي الشيخ بدر الدين محمد الوفاي ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على طرباي الشريفي وقرره أمير آخور ثاني ، وهذه أول وظائفه . وخلع على دولات باي الأجروود وقرره في ولاية الشرطة . وفيه وقع الاتفاق من الأمراء على عود الأتابكي أربك ، وحضوره من مكة المشرفة ليلي الأتابكة ، عوضا عن تراز . فكتبت له المراسيم بالحضور ، وتوجه بها طراباي الشريفي ، الذي قرر أمير آخور ثاني ، فخرج على الفور بسبب ذلك .

وفيه خلع السلطان على قاني باي الرماح ، وقرره أمير آخور كبير ، عوضا عن كرتباى بحكم قتله بمدرسة السلطان حسن في واقعة أقبردى . وخلع على قانصوه المحمدي المعروف بالبرجي ، وقرره في امرية مجلس ، عوضا عن ثاني بك قرا الاينالى بحكم هروبه مع أقبردى . وخلع على قيت الرحبي ، وقرره حاجب الحجاب ، عوضا عن جانم مصبغة بحكم اختفائه وهروبه مع أقبردى وخلع على طومان باي ، وقرره في الدوادارية الثانية ، عوضا عن سيباي سيسى . وخلع على سيباي ، وقرره في مقدمة ألف ، وهي مقدمة جانم الأجروود الاينالى كاشف منفلوط ، بحكم أنه خرج في واقعة أقبردى ومات عقيب ذلك . وخلع على تراز الزردكاش الكبير ، وقرره بها عوضا عن قيت الأحول أخى الأشراف قايتباي . وقرر

ببرس في نيابة الثلعة ، عوضاً عن قيت عم الملك
الناصر ، فعزل عن الزردكاشية الكبرى ، ونيابة
الثلعة ، وقد نسب الى ميل مع عصية أقبردى
الدوادار .

وفيه خلع السلطان على أزيك اليوسفى ،
المعروف بالخازندار ، وقرره مضم ألف مشير
الملكة . وقرر قانصوه كرت في الخازندارية
الكبرى .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة بعد ما قبض على
أمير الحاج مصرباى فى عجرو د ، وتوجهوا به من
هناك الى السجن بئر الاسكندرية ، فسجن بها .
وفيه جاءت الأخبار بأن أقبردى الدوادار لما
تخرج من مصر بعهد فراره استولى على غزة ،
وملكها ، فاتفق رأى الأمراء على تجريدة اليه .
وفيه خلع السلطان على جان بلاط الغورى ،
وقرره فى رأس نوبة كبير ، عوضاً عن اقبای نائب
غزة بحكم فراره مع أقبردى . وقرر أزيك قفص
فى الرأس نوبة الثانية .

وفيه أشيع بين الناس أن الخليفة المتوكل على
الله عبد العزيز قد اشتد به المرض ، وأشرف على
الموت ، وقد عهد بالخلافة الى ولده الشرفى
يعقوب ، وحكم بذلك قاضى القضاة المالكى عبد
الغنى بن تقي ، ونفذه بقية القضاة ، وعهد أيضاً
لولده محمد من بعد أبيه يعقوب ... فلما بلغ
ذلك ابن عمه خليل ، اضطربت أحواله ، وضافت
عليه الدنيا بما رحبت ، وكان منتظراً للخلافة بعد
عمه عبد العزيز ، فلم ينله من ذلك شيء ، وفاته
المطلوب . ففدح فى الشرفى يعقوب بكلمات قبيحة
من نار قلبه ، فلم يفده من ذلك شيء ، ولم يلتفت
اليه أحد من القضاة ولا السلطان . وتولى الخلافة
يعقوب ، على رغم أنف خليل ، كما سيأتى ذكر
ذلك ، وقد قلت مع التضمنين فى هذه الواقعة :

قالت العليا لمن حاولها
سبق المولى وقد حل عراها

قدعوا الحاسد فيها انها
حاجة فى نفس يعقوب قضاها

فلما كان يوم الخميس سلخ المحرم من سنة
ثلاث وتسعمائة ، كانت وفاة أمير المؤمنين أبى
العز عبد العزيز ، وهو عبد العزيز بن يعقوب بن
محمد المتوكل على الله . ولم يل والده يعقوب
الخلافة ، بل جده محمد المتوكل على الله . وكان
الخليفة عبد العزيز رئيساً حشماً ذا شهامة ، جميل
الهيئة كفواً للخلافة ، وافر العقل سديد الراى ،
وله اشتغال بالعلم وحفظ جيد مع حسن عبارة ،
وكان عنده لى جانب واتضاع ، كثير العشرة
للناس . وتوفى وله من العمر نحو من أربع وثمانين
سنة . ومولده بعد العام السابع عشر والثمانمائة ،
وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وأياماً . وحضر
مبايعة الملك الناصر محمد بن قايتباى الأشرف
رحمهم الله تعالى ، ومبايعة قانصوه خمسمائة ...
وكان من خيار بنى العباس ، وكان له مشهد عظيم .
ونزل الملك الناصر وصلى عليه بسبيل المؤمنين ،
ودفن بجوار مشهد السيدة نقيسة رضى الله عنها
ورحمها ورحمهم ، داخل القبة التى بها مشاهد
الخلفاء . ثم بعد وفاته تولى بعده ولده يعقوب .

خلافة المستمسك بالله أبى الصبر

هو أمير المؤمنين المستمسك بالله أبو الصبر
يعقوب بن عبد العزيز بن يعقوب بن محمد
المتوكل على الله ، وهو الرابع والخمسون من خلفاء
بنى العباس فى العدد ، وهو الخامس عشر من
خلفاء بنى العباس بمصر . وهو من خلاصة بنى
العباس لكونه هاشمى الأيوين ... ولم يل الخلافة

هذا من النوادر . وفيل ان الشيخ جلال الدين الأسيوطي هو الذي كناه ولقبه بهذا اللقب . ومن الغرائب أنه لم يل الخلافة من بنى العباس ، ولا من بنى أمية ، من اسمه يعقوب سواء . فلما تمت بيعته أحضر اليه التشريف ، وأفيض عليه ، فصار في غاية الأبهة والوقار . وفي الحقيقة انه من عباد الله الصالحين ، لم يعهد له صوبة منذ نشأ الى الآن رضى الله عنه . وفيه أقول مضمنا :

يا أمير المؤمنين اقبل ولا
ترتجى غير الذى قد شرفك
لو أنى العباس أضحى قائلا
يرحم الله الذى قد خلفك

وكان له من العمر ، لما تولى الخلافة ، نحو من خمسين سنة . وقد وخطه الشيب . فنزل من القلعة في موكب حافل ، حتى وصل الى داره ، واستمر في هذه الولاية مدة طويلة ، حتى كان من أمره ما سذكره في موضعه .

وفي ربيع الأول خلع السلطان على قانصوه خاله ، وقرره في الاستنادارية والوزارة عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم استغفائه من ذلك . وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة ، بوفاة السيد الشريف الحبيب النسيب محمد بن بركات أمير مكة المشرفة . وكان رئيسا حششا في سعة من المال ، كفؤا لامرية مكة المشرفة ، وكان لا بأس به . وفيه جاءت الأخبار بوفاة اينال باى الابراهيمى نائب طرابلس ، وكان من حلف أقبردى الدوادار . وفيه جاءت الأخبار أيضا بوفاة اينال باى ، وبوفاة كرتباى أخى أقبردى الذى كان نائب صفد ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، وفر مع أخيه أقبردى فمات في أثناء الطريق ودفن هناك .

من هو هاشمى الأيوين غير أربعة من بنى هاشم ، وهم : الامام على كرم الله وجهه وكانت أمه هاشمية وهى فاطمة بنت أسد بن هاشم . ثم ابنه الحسن رضى الله عنه ورحمه ، وأمهم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم محمد الأمين ابن زبيدة ، وكانت أمه هاشمية . ثم يعقوب بن عبد العزيز ، وأمهم هاشمية تسمى آمنة بنت أمير المؤمنين المستكفى بالله ، أبى الربيع سليمان ... فهؤلاء الأربعة هاشميو الأيوين ، وغيرهم من الخلفاء كانوا من سرارى مولدات وحشش وغير ذلك .

وكانت صفة ولاية الشرفى يعقوب : أنه لما كان يوم السبت ثالث صفر بعث الملك الناصر خلف الشرفى يعقوب ، فحضر وحضر ابن عمه خليل ، فعرض العهد المقدم ذكره على السلطان ، فشرع خليل يتكلم في حق الشرفى يعقوب بكلمات فاحشة ، منها أنه قال : « انه قليل النظر ولا تصح ولايته » ، فلم يلتفت السلطان الى كلام خليل وقال : « أهذا أبوه كان خليفة ؟ » ، فقليل له : « لا » ، فقال : « ما يلى الخلافة الا من كان أبوه خليفة » . وشرع كرتباى الأحمر ، وأزبك اليوسفى مشير المملكة ، وتغرى بردى الاستادار - يساعدون الشرفى يعقوب ، فترشح أمره لأن يلى الخلافة ... وفي الحقيقة لم يكن يومئذ من بنى العباس من يصلح للخلافة غير الشرفى يعقوب ، في الدين والخير والصلاح ، فاتفق رأى الأمراء على ولايته ، ونزل خليل من القلعة بخفى حنين .

فلما حضر القضاة وتكامل المجلس ، لم يحتج الى مبايعة ثانية ، لأنه استقر في الخلافة بعهد من أبيه له عند موته ، فاستكفى القاضى الشافعى بذلك . ثم أحضر اليه شعار الخلافة ، فأفيض عليه ، وتلقب « بالمستمسك بالله أبى الصبر » وعد لقبه

وفيه خلع السلطان على تغرى بردى القادرى ، وفرره فى الاستدارية نائبا عن قانصوه خال السلطان . وفيه فى أوائل يابه أمطرت السماء مطرا مهولا حتى وقعت منه عدة أماكن ، وخسف غالب القبور التى بالقرافة والصحراء . وكان من نوادر الوقائع . وفيه خلع السلطان على كرتباى الأحمر وقرره فى نيابة الشام ، عوضا عن قانصوه اليحياوى بحكم وفاته . وكان كرتباى الأحمر هو الساعى فى ذلك خوفا على نفسه من الملك الناصر أن يسلط عليه الماليك الجلبان يقتلونه ، وقد هم بذلك غير مامرة لأجل أن كرتباى الأحمر كان يحجر على الملك الناصر ويمنعه عن الأفعال الفاحشة الشنيعة ، فكرهه بسبب ذلك ، وقصد قتله ... حتى قيل انه ذبح يوما كبشا بيده وقال : « هكذا أفعل بكرتباى الأحمر عن قريب » . فلما خرج كرتباى الأحمر من القاهرة كان له يوم مشهود ، وطلب طلبا حافلا .

وفيه عين السلطان تجريدة بسبب أقبردى الدوادار ... فانه لما انكسر وخرج من مصر هاربا حاصر الشام ، وقصد أن يملكها فما قدر . فذهب الضياع التى حول دمشق ، وخرب غالبها ، وفعل مثل ذلك بضياع حلب . فوقع الاتفاق من الأمراء على خروج تجريدة له ، فعينوا ذلك . وأتفق السلطان على العسكر المعينين للتجريدة ، وبعث ثقة الأمراء الذين عينوا للخروج الى التجريدة ، وهم قانصوه البرجى أمير مجلس ، وقيت الرحبى حاجب الحجاب ، وقانصوه الغورى أحد المقدمين ، وهو الذى تسلطن فيما بعد ، واصطمر بن ولى الدين أحد المقدمين ، وقصروه أحد المقدمين ، ومن الأمراء الطبلخانات والمشراوات عدة وافرة .

وفيه جاءت الأخبار بأن أقبردى بعد أن حاصر الشام نحو من شهرين لم يقدر عليها ، وحاربه

الأمراء الذين بالشام ، ورموا عليه بالمدافع ، وفر الى حلب . فلما توجه الى حماه حاصرها ، وأخذ منها أموالا لها صورة . فلما وصل الى حلب حاصرها نحو من شهرين ، وكان اينال السلحدار يومئذ نائب حلب ، وكان من عصبة أقبردى فقصد أن يسلمه مدينة حلب ، فرجعه أهل المدينة وطردوه منها ، وحصنوا المدينة بالمدافع على الأسوار ... فعند ذلك فر أقبردى ومن كان معه من الأمراء والعسكر ، وكذلك اينال نائب حلب صحبتهم ، وفروا أجمعين ، وتوجهوا الى على دولات والتجأوا اليه . فلما بلغ الأمراء ذلك اضطربت أحوالهم فوقع الاتفاق على أن يولوا جان بلاط بن يشبك الذى كان دوادارا كبيرا نيابة حلب ، عوضا عن اينال الذى كان بها بحكم قراره مع أقبردى .

وفيه خلع السلطان بعد خروج كرتباى الأحمر الى محل نيابة الشام على محمد بن العظمة ، وأعادته فى نظارة الأوقاف . وكان الساعى له فى ذلك عبد القادر بواب الدهيشة ، فكثر عليه الدعاء من الناس بسببه .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا . وفيه فى يوم الخميس ثانى عشره كان دخول الأتابكى أربك الى القاهرة ، وقد حضر من مكة المشرفة . فلما حضر خلع عليه السلطان وأعادته الى الأتابكية عوضا عن تميز الشمسى بحكم وفاته ، فكانت مدة غيبته بمكة سنتين وثلاثة أشهر .

وفيه خلع السلطان على جان بلاط الموتر ، أحد العشراوات ، وقرره فى الحسبة ، عوضا عن تانى بك بن حديد بحكم وفاته .

وفى تلك الأيام اشتد الغلاء ، وانتهى سعر القمح الى ثلاثة أشرفية كل أردب .

وفيه هجم المنسر على سوق تحت الربع ، وسوق الحاجب ، وفتحوا عدة دكاكين . فلما بلغ

الوالى ذلك ركب وتحارب مع المنسر ، وقتل جماعة من أعوانه ، ولم يبلغ من المنسر أربا ، وراحت على التجار أموالها .

وفى ربيع الآخر ، يوم الثلاثاء رابعه ، كان خروج الأمراء الذين عينوا للتجريدة ، فكان لهم يوم مشهود ، حتى ارتجت لهم القاهرة . وقد تقدمهم كرتباى الأحمر الذى تقرر فى نيابة الشام ، وجان بلاط بن يشبك الذى تقرر فى نيابة حلب ، واستمرت الأطلاب تنسحب الى قريب الظهر ، والعسكر خارجون أفواجا أفواجا .

وفيه ظهر ثانى بك الجمالى ، وكان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر ، فلما ظهر خلع عليه السلطان وأعادته الى امرية سلاح عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم انتقاله الى نيابة الشام . وفيه أعيدت مشيخة المدرسة الأشرفية الى برهان الدين بن الكرلى ، وانفصل عنها عبد البر ابن الشحنة .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى قبة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، فلما أصبح شق من القاهرة فى موكب حافل ، وصحبته قانصوه خاله وبعض أمراء ، وجعل قدامه طبليين وزمريين ، وعبدا سودا ترمى بالنفوط قدامه على هيئة الكشاف . وقد تهتك حرمة السلطان ، والمسلكة ، ولم يفع من أبناء الملوك من السوافظ ما وقع للناصر هذا ، كما سيأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفيه حضر الشهابى الششيني من مكة المترفة وقد أرسل اليه السلطان مرسوما بالحضور ليلى قضاء الحنابلة ، فلما حضر خلع عليه السلطان وقرره فى قضاء الحنابلة ببصر عوضا عن بدر الدين السعدى .

وفيه نادى والى القاهرة على لسان السلطان بأن أهل الأسواق والحارات يعملون عليهم دروبا ،

فامتثلوا ذلك وبنيت بالقاهرة عدة دروب ، منها على سوق نحت الربع ، رسوق أحمد بن طولون ، وسوق أمير الجيوش ، وغير ذلك من الأسواق والحارات . وكانت المناسر قد كثرت فى تلك الأيام جدا ، وصاروا يهجمون على الأسواق والحارات ويعطعون بها .

وفيه من الحوادث الشيعة نادى السلطان فى القاهرة بأن الأمراء المختفين ، الذين هم من عصبه أقبردى ، يظهرون وعليهم أمان الله تعالى . وأشيع أن أقبردى قد ظهر وأنه عند السلطان بالقلعة ، فعند ذلك ظهر برد بك المعروف بنائب جدة الذى كان من جملة المقدمين ، وظهر برد بك المحمدي الاينالى ، وأبو يزيد الصغير ، وبرسباى السلحدار ، وبرقوق المحتسب . وشاد بك ، وبيرس ، وقانصوه التاجر ، وكرتباى الكاشف ، وخاير بك الكاشف ، وقانصوه الساقى ، ردولات باى بن عيسى ، وآخرون من الخاصكية . وكان قبل ذلك رسم السلطان بالافراج عن مصرباى — وكان فى السجن بشعر الاسكندرية — فحضر ، وحضر أيضا قنبك أبو شامة ، وثانى بك المحمدي الاينالى ، وجانى باى ... وكان هؤلاء فى السجن من حين ركب أقبردى الدوادار وانكسر . فلما ظهر هؤلاء كثر القال والقييل فى سبب ظهورهم . ثم ان السلطان صرح فى فوله وقال : « أنا ما رسمت بالافراج الا لأصلح بينهم وبين الطائفة التى من عصبه قانصوه خمسمائة » . فلما ظهروا وطلعوا الى القلعة قرى السلطان تلك الليلة ختمة ، ومد أسمطة حافلة ، وباتوا عنده ... فلما صلوا العشاء أحضر عدة خلع ، فخلع على مصرباى وعينه أمير آخور كبير ، وخلع على أبى يزيد الصغير وعينه دوادارا ثانيا ، وخلع على قنبك أبى شامة وعينه نائب القلعة ، وقرر آخرين منهم فى تقادم ألوف ،

وآخرين في امريات عشرة . وكل هذا خفة وطيش
وصينة من الملك الناصر . وقد طاش الى الغاية
لما خرج كرتباى الأحمر الى الشام ، وكان يظن
أنه ما بقى على يده يد . وكل هذا من عقل الصغار
فكان كما قال المعمار :

دى دولة خواطر تسويقه معتر
خليلى وشامى والخيار مقصر
فلما جرى ذلك تحت الليل ، بلغ الأمراء الذين
من عتبة فانصوه ما وقع من السلطان تلك الليلة .
فلما طلع النهار لبسوا آلة الحرب ، وصعدوا الى
القلعة ، ووثبوا على بعضهم بها ، وكانت فتنة
مهولة ، فقتلوا الأمير أبا يزيد الصغير ، والأمير
برسباى الأشقر ، وهرب الأمير مصرباى ، وقتل
قنبك أبو شامة ، واتسعت الفتنة ، وقتل في هذه
المعركة جماعة من الخاصكية ، وقد هموا بقتل
السلطان لولا أنه اختفى ، ثم نزلوا بجثة أبى يزيد
على حمار ، وتوجهوا بها الى داره ليغسلوه
ويدفنوه . ثم نزل جماعة من الممالك ونهبوا بعض
أماكن الأمراء الذين من حلف أقبردى ، ونهبوا
بيت الناصرى محمد بن خاص بك لكونه كان
صهر أقبردى الدوادار . فلما بلغ الأتابكى أزبك
ما جرى طلع الى القلعة ، واجتمع بالسلطان ، ولامه
على هذه الأفعال الشنيعة التى تصدر منه ، فلم
يلتفت الى كلامه .

ثم نزل الأتابكى أزبك الى داره ، وقد خمدت
هذه الفتنة قليلا ، وكان ذلك في يوم الخميس
حادى عشرى ربيع الآخر .

وفي جمادى الأولى وقع من الناصر غاية القبح
في حق الأمراء المقدمين ، بأشياء ماسبقه اليها أحد ،
وهو أنه أضاف لكل أمير مقدم ألف ثلاثين مملوكا
من الممالك الجلبان ، يأخذون من اقطاعه في كل
سنة ، كل واحد منهم عشرة آلاف درهم . وأضاف

الى أمير كبير أربعين مملوكا لكل واحد كما تقدم ،
وأضاف الى كل أمير طبليخانات عشرة من الممالك
يأخذون من اقطاعه كما تقدم . وأضاف الى كل
أمير عشرة خمسة ممالك يأخذون منهم كما تقدم ،
فحصل من الممالك في حق الأمراء ما لا خير فيه .
وصاروا يدخلون بيوت الأمراء وهم راكبون ،
ويشوشون على مباشرهم بالضرب والسب ، حتى
يأخذوا منهم ما قرر لهم . فأضر ذلك بحال الأمراء
وما أطاقوا ذلك ، ولكن لم يطلع من أيديهم شيء
بسبب اضطراب الأحوال في تلك الأيام ، فكان
كما يقال :

أخضع لقرد السوء في زمانه
وداره ما دام في سلطانه

وفيه أمر السلطان بهدم كنيسة اليهود التى في
دموه ، فتوجه الى هناك بنفسه ، وهدمت بحضرته ،
ثم عاد الى القلعة .

وفيه تزوج الأمير طومان باى الدوادار الثانى
بنت الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، فكان
لها مهم حافل .

وفيه كانت وفاة شيخنا علامة العصر الشيخ
شمس الدين محمد بن أبى بكر بن حسن بن عمران
ابن نجيب المعروف بالقادري ، وكان شاعر العصر
على الاطلاق بعد الشهاب المنصورى ، وكان مولده
بعد الثلاث والثلاثين والثمانمائة ، وكان شاعرا
ماهرا وله شعر جيد . فمن ذلك قوله في ميقاتى
وأجاد :

في صنعة الميقات بدر نجمه
بالسعد يخدمه مدى الساعات

حجت عيون الناس كعبة حسنة

وقضت مناسكها من الميقات

وقوله في فرس محجل الثلاثة مطلق اليمين :

وطرف زانه التحجيل يحكمه

لمن يحكيك بالسحر المبين

جواد رام أن يخفى نوالا

فأسبل كفه فوق اليمين

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأنه وقع بين السيد الشريف بركات ، وبين أخيه هزاع ، فتنة كبيرة ، وكادت أن تخرب فيها مكة المشرفة .

وفيه توفي امام الكاملية وابن امامها ، وكان من عباد الله الصالحين ، دينا خيرا لا بأس به .

وفي جمادى الآخرة وقعت الوحشة بين السلطان والأمراء ، بل وبين خاله قانصوه ، بسبب ما تقدم من تلك الفتنة التي وقعت من حلف أقبردى . وقد نسب فيها السلطان الى غرض .

وفيه قرر يحيى بن سبغ فى امرية الينبع عوضا عن دراج بحكم صرفه عنها .

وفيه جاءت الأخبار بقتل الطواشى لؤلؤ الرومى ، رأس نوبة السقا والخازندار ، وكان قد خرج الى الوجه القبلى فى بعض أشغال ليتوجه الى مكة المشرفة . وكان صحبتته السجيني المرافع فخرج عليهم جماعة من العربان ، فقتلوا لؤلؤا والسجيني ومن معهم .

وفيه نزل السلطان وبات فى تربة آبيه ، وحصل منه تلك الليلة عدة مساوى لا ينبغى شرحها .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الطاعون الى قطيا ، وقد فشا بها وهو زاحف نحو الديار المصرية .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة ومصر بأن تعلق على الحوانيت قناديل وكذلك البيوت المظلة على الشوارع . وصار يركب هو بنفسه فى كل ليلة بعد العشاء وقدامه فانوسان آكره ، وأربعه مشاعل ، ومعه أولاد عمه قيت — وهما جانم وأخوه

جائى بك — وقدامه عدة عبيد سود معهم بندقيات فقط . وكان اذا طاف بالقاهرة بعد العشاء ورأى أحدا يمشى ، يقطع أذنه مع أنفه ، ومنهم من يضربه بالمقارع ، ومنهم من يوسطه ... فقتل من الناس جماعة فى مدة يسيرة . وكان اذا مر بدكان ولم ير عليها قنديلا يأمر بتسميرها وهو واقف بنفسه عليها حتى يسروها ، وكل هذا خفة وطيش . وقد بهدل جرمة المملكة فى أيامه ، ولم يتبع طريقة الملوك السالفة فى إقامة حرمة السلطان . وصار على طريقة والى الشرطة .

وفيه قبض بعض الخاصكية والماليك على عبد من عبيد السلطان يقال له فرج الله ، وكان مقربا عنده الى الغاية ، فضربوه وقتلوه بالرميلة ، فشق ذلك على السلطان ، وتأسف عليه ، ولم يقدر أن يحميه من الماليك ، فانهم كانوا يومئذ طالبين للشر مع السلطان بسبب هذه الأفعال التى تصدر منه .

وفيه قرر شاهين الجمالى فى نظر الحرم الشريف ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، على عادته ، فخرج الى السفر عن قريب ، وأمره السلطان بأن يتوجه الى يحيى بن سبع أمير الينبع ويصلح بينه وبين أمير مكة المشرفة ، وكان قد وقع بينهما فى تلك الأيام وحشة .

وفى رجب ظهر الطاعون بالقاهرة ومات بها جماعة .

وفيه تخوفت خوند أصل باى أم الناصر على ولدها من خاله قانصوه ، وكانت الماليك قد التفت عليه ، فأحضرت المصحف العثماني بين يديها فى قاعة العواميد ، وحلفت عليه أخاها قانصوه ، وابنها الملك الناصر محمد ، بوفاء كل منهما لصاحبه ، ولم تفد تلك الأيمان شيئا .

وفيه خرج خاير بك بن قانصوه البرجى ، قاصدا

الى ابن عثمان ، فخرج في تجمل زائد ، وصرف في هذه الحركة مالا له صورة .

وفيه توفي الشيخ داود المالكي ، وكان من أعيان علماء المالكية . من أهل العلم والدين ، وكان لا بأس به .

وفي شعبان تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية ، ومات من الممالك والأطفال والعبيد والجواري جانب . فلما كثر الموت في الممالك صنع السلطان ثلاثين نعشا برسم من يموت بالقلعة ، وحصل بذلك النفع .

وفيه توفي اينال الفقيه الحسى الظاهري جفمق أحد الأمراء الطبلخانات حاجب تاني ، وكان دينا حيرا لا بأس به .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهي أن شخصا من الممالك السلطانية مات وغسل وكفن ، ووضع في نعشه ، وحمل ليدفن ... فبينما هو في أثناء الطريق اضطرب وتحرك في أكفانه ، فوضع على الأرض . وحلوا أكفانه ، فاستوى قائما ، وعاش بعد ذلك مدة .

وفيه توفي العزى عبد العزيز بن البرهان ، وكان من مشاهير الناس لا بأس به ، ومات بالطعن .

وفيه من الحوادث أن الصوفية الذين بالحاقاه البيبرسية ثاروا على شيخهم الشيخ جلال الدين الأسيوطلى ، وكادوا أن يقتلوه . تم حملوه بأثوابه ورموه في القسقية ، وجرى بسبب ذلك أمور بطول شرحها . وكان طومان باى الدوادار محظا عليه ، فلما نسلطن فبما بعد ، اختفى الشيخ جلال الدين الأسيوطلى ، في مدة سلطنته ، حتى كان من أمره ما سذكروه .

وفيه خلع السلطان على ماماي جوشن ، وقرره في الحجوية الثانية .

وفيه صارت معاملة الفلوس الجدد بالعدد ، وبطل أمر وزنها بالميزان .

وفيه تزايد شر الممالك ، وجاروا على الناس بخطط القماش من الدكاكين ، والبضائع من الأسواق ، وصاروا يستخفون بالسلطان والأمراء .

قيل ان بعض الممالك كان راكبا على فرس حرون ، فصادف جنازة في وجهه فجفل منها فرس ذلك المملوك ووقع على الأرض ، فقام وهاش وضرب الحمالين الذين كانوا يحملون الميت . فلما عاين ذلك الحمالون ، ألقوا الميت على الأرض ، وهربوا فلما هربوا وقع المملوك في الميت ، وضربه بالدبوس ، حتى اشتفى . وصار الميت ملقى على الأرض الى آخر النهار . وقد جرت هذه الواقعة في سويقة صفية .

وصار الطعن عمالا ، والممالك جائرة في حق الناس بالأذى حتى قلت في ذلك هذه المداعبة ، وهي قولي :

قد قلت للطعن والممالك

جاوزتما الحسد في النكاية

ترققا بالورى قليلا

في واحد منكما كفاية

وكان الناس على ما ذكرناه من هذه الأفعال الشنيعة ، والملك الناصر في طيشانه ولعبه .

وفيه نزل الناصر الى بولاق ، ليلة سيدي اسماعيل الأمبابى ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ، وشق البحر في مركب ومعه جماعة من العوام يغنون على النداء والاجهار ، وكان معه أولاد عمه وهما جانم وأخوه جاني بك ، وأحرق تلك الليلة ببولاق حراقة نقط عظيمة ، وبات في المركب تلك الليلة وكانت من الليالى المشهورة . وفعل مثل ذلك عدة مرار .

وفيه مات بالطاعون شاه بضاع بن دلغادر أمير التركمان ، وكان مقيما بالقاهرة .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذين توجهوا الى مواجهة أقبردى ، قد تبعوه الى عين تاب ، وتقاتلوا معه هناك ، ووقع بينهم واقعة عظيمة ، فانكسر أقبردى كسرة مهولة ، وقتل من عصبته جماعة كثيرة ، منهم اينال السلحدار نائب حلب الذى كان معه ، وقتل لعللى دولات معه ولدان ، وقتل من الخاصكية والممالك الذين كانوا معه جماعة كثيرة . وقد حاربه كرتباى الأحمر نائب الشام أشد المحاربة وكان قد توجه اليه صحبة العسكر ، الى عين تاب ، حتى تحارب معه وانكسر وهرب ، وطلع على جبل الصوف ... وقيل انه لما انكسر وصعد على جبل الصوف توجه الى نحو الفرات بمن معه من الأمراء والممالك .

وفى رمضان تزايد أمر الطاعون ، وفتك فى الممالك والأطفال والغرباء والعييد والجوارى فتكا ذريعا ، حتى قيل انه انتهى الى ثمانية آلاف من الأموات ، فكان كما قيل :

ألا ان بحر الوباء قد طغى

وقد أرسل الطعن طوفانه

ولا عاصم اليوم من أمره

سوى رحمة الله سبحانه

ومات من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم . الناصرى محمد ابن الشهابى أحمد بن العينى ، وكان شابا رئيسا حشما أديبا عاقلا ، تولى من الوظائف حسبة القاهرة ، ونظر الجوالى ، ووكالة بيت المال ، وتوجه الى الحجاز أمير أول فى دولة الملك الناصر ، وكان عنده من أخصائه . ومات بيبرس ابن حيدر الأشرفى قايتباى ، نائب القلعة . ومات الأمير جان بلاط النورى ، رأس نوبة النوب ، وكان قليل الأذى

لا بأس به ، وكان أصله من ممالك الأشرف قايتباى . ومات صنتباى المبشر الأشرفى قايتباى ، أحد الأمراء الطبلخانات . وماتت شاشة أم أقبردى الدوادار الجركسية ، فنزل السلطان وصلى عليها وحمل نعشها قانصوه خال السلطان ، ومشى به خطوات . وماتت أم الجمجمة بن عثمان ، سرية أبيه محمد بن عثمان ، ملك الروم . وكان اسمها ججك ، وكانت لابأس بها . ومات قيت الأشرفى أحد العشراوات ، وشاد الطرانة . ومات عبد القادر الألواحى بواب الدهيشة ، وكان عند الملك الناصر من جملة المقربين ، وكانت الناس تسعى فى الوظائف على يديه .

وفيه من الوقائع أن شخصا من الممالك الجلبان طعن ، فلما أشرف على الموت أحضر شهودا وأخرج بين أيديهم جملة قماش ، ما بين بشاخين ومقاعد ومخدرات وبسط وغير ذلك ، ومبلغا نحو من ثلاثة آلاف دينار ، وأخبر أنه نهب ذلك من مكان سماه . ثم قال لعلامه : « امض وائتنى بأصحاب ذلك القماش » . فمضى الغلام والشهود جالسون عنده فغاب ساعة ، ثم أحضر أصحاب القماش ، فعرفهم ذلك المملوك فسلمهم تلك الأموال والقماش بحضرة الشهود . وسألهم المحاللة فلما حاللوه ومضوا مات من ليلته ... فعد ذلك من الوقائع . ومات آخر من الممالك الجلبان فوجد عنده خمسة عشر ألف دينار ، فذكر غلامه أنه نهب ذلك من حاصل أقبردى الدوادار ، فى حارة زويلة ، فحمل ذلك المال الى خزائن السلطان . ومات مصرباى بن على باى الذى كان نائب قلعة حلب وعزل عنها .

وفيه رسم السلطان لما كثر الموت بعمارة سبيل المؤمنين ، وهى المصلى التى بالرميلة ، وكان خرابا من حين حاصر أقبردى القلعة .

وفيه جدد الأمير طومان باى الدوادار الثانى ما فسد من مدرسة السلطان حسن ، من حين كانت وافسة أقبردى الدوادار ... فجدد باب المدرسة الذى كان احترق ، وسد شبايك القبة ، وأصلح ما فسد منها ، وأقيمت الخطبة بها وصلاة التراويح ، وكانت معطلة نحو من عشرة أشهر بسبب ما تقدم .

وفيه قبض على انسان زعموا أنه ينش القبور على الموتى ، ويسرق أكفانهم ، فأمر السلطان بسلخ وجهه وهو حى ، فسلخوه من رأسه الى رقبته ، وأرخوه على صدره ، وصار عظم رأسه ظاهرا ، وطاقوا به فى القاهرة ، ثم علقوه على باب النصر ، واستمر معلقا الى أن مات . ثم لودى للحفارين بحفظ أكفان الموتى .

وفى أواخره تناقص أمر الطاعون ، وكانت مدته ثلاثة أشهر ، ومات به زيادة على مائتى ألف انسان ، من كبير وصغير ، ومن الممالك السلطانية نحو من ألف ومائتى انسان .

وفى شوال خلع السلطان على قرقماس بن ولى الدين ، وقرره فى رأس نوبة كبير ، عوضا عن جان بلاط النورى بحكم وفاته .

وفيه قرر بلباى المؤيدى ، من جملة المقدمى الألوف بمصر .

وفيه فى رابع عشره وصل سودون الدوادارى ، أحد الأمراء العشراوات ، وصحبته عدة رءوس ممن قتل فى المعركة التى وقعت بين أقبردى والعسكر ، الذين خرجوا من مصر ، كما تقدم . فكان عدة تلك الرءوس احدى وثلاثين رأسا .

وكان فيها رأس اينال السلحدار ، نائب حلب الذى فر مع أقبردى ، وفيها رأس ابن على دولات الذى قتل فى المعركة . وقيل ان الذين قتلوا اثنان وثلاثون ... فكان لدخولهم فى القاهرة يوم

مشهود ودخلت الرءوس وهى مشهورة على رماح ، وشقوا بها من القاهرة والمشاعلى بنادى عليها ... فلما عرضوا على السلطان ، رسم بأن يعلقوا على أبواب المدينة ، فعلقت رأس اينال ، ورأس ابن على دولات ، على باب زويلة . والباقي على باب النصر وغيره ... وكل هذا يشق على الملك الناصر فى الباطن . وكانت له عناية بأقبردى وتعصب . وأخبر سودون الدوادارى أن كرتباى الأحمر نائب الشام رجع الى الشام ، وأن جان بلاط نائب حلب رجع الى حلب ، وأن العسكر واصل عن قريب .

وفيه جاءت الأخبار أن كرتباى الأحمر لما استقر فى نيابة الشام ، استولى على يابة قلعة الشام أيضا ، مضافا لما ييده من نيابة الشام ، وهذا الأمر عزيز الوقوع جدا

وفيه امر السلطان ببناء جامع الفيوم ، وكان القائم فى ذلك الشيخ عبد القادر الدشوطى . وأرسل السلطان صحبته جماعة من البنائين والمهندسين .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن كاتب السر بدر الدين بن مزهر لما توجه الى مكة أصلح بين أمير مكة المشرفة وأخيه بمرسوم السلطان . وجاءت الأخبار من مكة المشرفة أيضا بوفاة برد بك نائب جدة ، وكان أحد المقدمين بمصر ، وخرج منفيا الى مكة المشرفة بعد كسرة أقبردى ، فمات بها . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ابتداء الوحشة بين السلطان وخاله ، وصار بعض الأمراء يرمى بينهما الفتن ، حتى بلغ بذلك مقاصده ، وخیلوا الملك الناصر من خاله ، وخیلوا خاله منه بأشياء من أنواع الحيسل والخداع ، وأخذوا فى أسباب ما تتم به الحيلة

على قتل الملك الناصر ، وقد سمعوا في ذلك سعى الشطار ، حتى كان من أمره ما سنذكره في موضعه . وقد قيل في معنى ذلك :

صف بالدهاء الذى يخشى الدهاء فما

ينام خيفة أن تبدو له الحيل
فقد يبيت يقلب ضمه أسد

ولا يبيت بقلب ضمه رجل
وفيه خرج الحاج من القاهرة في تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل تانى بك الجمالى ، وأمير ركب الأول جان بلاط الموتى المحتسب .

وفيه جدد الأمير قانصوه خال السلطان خطبة في المدرسة الشيرية التى يدرب الخازن ، ولم يكن بها قبل ذلك خطبة ، فجدد الخطبة بسبب ممالكه ، وكان ساكنا بالقرب منها .

وفيه قبض الوالى على شخص من السراق ، فلما عرضه على السلطان أمر بقطع يده ورجله ، وألزم ذلك السارق أن يقطعها بيده ، ففعل ذلك بحضرة السلطان .

وفيه دخلت التجريدة التى توجهت الى أقبردى الدوادار ، وقد حضروا من غير اذن السلطان ، فشق عليه ذلك وأخذ حذره من الأمراء لكونهم دخلوا من غير اذن منه .

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن أقبردى الدوادار لما بلغه أن التجريدة عادت الى مصر ، عاد الى عين تاب ، وصار ينهب البلاد ، ويقطع الطريق على التجار . فلما بلغ الأمراء ذلك أعياهم أمره .

وفيه تزايد أمر العربان بالشرقية ، حتى خرج اليهم قانصوه خال السلطان ، وقرقماس رأس نوبة كبير . فلما خرج قانصوه خال السلطان سرح في بلاد الشرقية والغربية سرحا عظيمة ، وغاب نحو من شهر ، ودخل عليه جملة تقادم حافلة

من الكشاف ومشايخ العربان وغيرهم .
وفيه قصد السلطان أن يخرج الى مولد سيدى أحمد البدوى رحمه الله ورضى عنه ، فلم يمكنه الأمراء من ذلك .

وفيه توفى الخطيب الوزيرى شمس الدين محمد ابن ابراهيم بن عثمان المالكى ، وكان من أهل العلم والفضل لا بأس به .

وفى ذى الحجة عاد قانصوه خال السلطان من السرحة ، فنادى له السلطان فى القاهرة بالزينة فزينت له . ثم انه دخل فى موكب حافل ، وطلع الى القلعة ، فخلع عليه السلطان خلعة سنية . فلما نزل من القلعة ، ووصل الى رأس الصوة ، لاقاه جماعة من الممالك السلطانية الجلبان ، وبأيديهم دبابيس مسحوبة ، فقالوا له : « قل للسلطان ينفق علينا بسبب نصرته على أقبردى » . واستمروا يحاصرونه من رأس الصوة الى أن دخل بيته الذى عند درب حمام الفارقانى . فلما دخل الى بيته وقفوا له على الباب حتى قلع الخلعة وأكل المدة ، وأركبوه ثانيا وطلعوا به الى القلعة ، وهو مهدد معهم بالقتل . فلما طلع الى السلطان لم يوافقه على ذلك ، فرد الجواب على الممالك بالمنع من السلطان ، فاستمروا صابرين حتى مضى عيد النحر وانقضى أمر تفرقة الأضحية ، فلبسوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرملة ، وحاصروا السلطان وهو بالقلعة — وكان قانصوه خاله عنده فوق القلعة — وتوجهوا الى بيت الأتابكى أزيك فأركبوه غصبا وطلعوا به الى القلعة ، فتكلم مع السلطان فى ذلك فامتنع ساعة . ثم انه وقع الاتفاق على أنه ينفق عليهم بعد مضى شهر ، لكل مملوك خمسون دينارا . فلما نزل الأتابكى أزيك من القلعة ، رد عليهم الجواب بذلك فخذت تلك الفتنة وقلعوا آلة السلاح .

أبى البقاء ورام توسيطه ، فألقى والده نفسه عليه واقتداه بألف دينار . قيل كان سبب ذلك أن الناصر بلغه أن زوجة أبى البقاء جميلة ، فهجم عليه بسببها فأخفوها منه ، فجرى بسبب ذلك ماجرى . وهذا الكلام مستفاض بين الناس والله أعلم . وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن المسلمين أخذوا حصن جربة من أيدي الفرنج ، وكانوا قد استولوا عليه نحو من سنة وأشهر ، فكانت النصرة للمغاربة على الفرنج .

وفيه كثرت الفلوس الجدد بأيدي الناس ، حتى صار النصف الفضة يصرف بأربعة عشر من الفلوس الجدد . وصار الدينار الذهب يصرف من الفلوس بثلاثين نصفاً . وصارت البضائع تباع بسعرين : سعر بالفضة ، وسعر بالفلوس الجدد . وأضر ذلك بحال الناس . وقد وقع في دولة الأشرف قايتباي أن النصف الفضة وصل صرفه بالفلوس أربعة وعشرين .

وفيه تزوج قايتباي قمر أمير آخور كبير ، بنت يشبك الدوادار التي كانت زوجة كرتباي ابن عمه السلطان الأشرف قايتباي الذي قتل في واقعة أقبردى بمدرسة السلطان حسن

وفيه خرج نوروز الخوخ أحد الأمراء العشراوات قاصداً إلى كرتباي الأحمر نائب الشام ، وعلى يده مراسيم بالعتب عليه لكونه استولى على نيابة قلعة الشام من غير إذن السلطان . فتوجه إليه وعاد بعد مدة بغير طائل .

وفيه توفى أقبای استادار الذخيرة ، وكان لا بأس به . وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة أسنبای الذي كان نائب الاسكندرية ، واتهم بموته كاتب السرب لما توجه إلى هناك . وقد خرجت السنة المذكورة عن الناس وهم في أمر عظيم ، ووقع بها الغلاء والفناء والمصادرات ،

وفيه أخذ السلطان في أسباب جمع الأموال ، فورع على المبشرين جانباً ، وعلى قضاة القضاة جانباً ، وعلى أعيان الناس من التجار ، وغير ذلك حتى على اليهود والنصارى قاطبة ، ومشاهير السوق والمتسبين . وكان القائم في ذلك قانصوه خال السلطان وأعوانه ، وهم ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال ، وإبراهيم المهاجرى امام الأمير قانصوه خال السلطان ، وقانى بك الدوادار . فجلس قانصوه خال السلطان في داره التي عند درب حمام الفارقانى ، وأحضر المعاصير والكسارات ، وأحصى خود حديد على النار ، وطلب الناس بالرسل الغلاظ الشداد . فأما قاضى القضاة المالكى ابن تقى فانه اختفى في بيته ، وكذلك قاضى القضاة الحنبلى الشهاب الشيشينى . وطلب القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش فامتنع مما قرر عليه ، فطرح على الأرض ليضرب . وكذلك ناظر الخاص علاء الدين بن الصابونى . وعلى هذا فقس بقية الناس من الأعيان والمشاهير . فجمعت تلك الأموال من الناس بالضرب والحبس والتراسيم ، وحصل لهم غاية المشقة بسبب ذلك ، فكثرت الدعاء على الناصر وخاله . وقد تزايد الظلم والجور في تلك الأيام إلى الغاية ، حتى فرج الله تعالى عن قريب ، وكان كما قيل :

وماذا ينفع الترياق يوماً

إذا وافى وقد مات اللدين

فلما تكامل جمع الأموال ابتداء السلطان بتفرقة النفقة ، فأعطى لطائفة المماليك القايتباهية ، لكل واحد منهم خمسون ديناراً ، وما عدا ذلك خمسة وعشرين ديناراً .

وفيه أن من أخبار الملك الناصر التي هي في غاية البشاعة ، أنه دخل إلى حارة الروم ، وهجم على دار إبراهيم مستوفى الخاص ليلاً ، وقبض على ولده

وجور السلطان في حق الناس ؛ كما تقدم ، وأذى الممالك في حق الرعية ، وقد كان الناس في غاية الاضطراب . وما كفى هذا كله حتى فشا في الناس داء يقال له الحب الفرنجي^(١) — أعادنا الله تعالى منه والمسلمين أجمعين بمنه وكرمه — وقد أعيا الأطباء أمره ، ولم يظهر هذا بمصر قط الا في أوائل هذا القرن ، ومات به من الناس ما لا يحصى .

سنة اربع وسعمائة (١٤٩٨ — ١٤٩٩) :

في المحرم ، كان خليفة الوقت المستمسك بالله آبا الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، وسلطان العصر الملك الناصر آبا السعادات محمد ابن الأشرف قايتباي رحمه الله . وأما القضاة الأربعة : فالقاضي زين الدين زكريا النسافعي ، والقاضي برهان الدين بن الكرشي الامام الحنفي ، والقاضي عبد الغني بن تقي المالكي ، والقاضي شهاب الدين أحمد بن الشنيسي الحنبلي .

وأما الأمراء المقدمون فقد تقلبت أحوالهم بموجب ما جرى من الفتن والقتل ، كما تقدم في أخبار السنة الخالية . فكان الأتابكي أزيك بن ططخ أمير كبير يومئذ . وتانى بك الجمالى الظاهري جفوق أمير سلاح . وقانصوه المحمدى المعروف بالبرجى أمير مجلس ، وقاى باى الرماح أمير آخور كبير ، وقانصوه خال السلطان دوا دار كبير واستادار كبير وكاشف الكشاف ، وقرقماس بن ولى الدين رأس نوبة كبير ، وقيت الرحبى حاجب كبير . وبقيت الأمراء على حكم ما تقدم من أخبارهم . وأما المباشرىون فالقاضي بدر الدين بن مزهر كاتب السر ونائبه ، وصالح الدين بن الجيعان ، والقاضي شهاب الدين أحمد ناظر الجيش ، والقاضي علاء الدين بن الصابونى ناظر

(١) هو « الزهرى » ، عادته كولومبس وملاحوه من امريكا ، ولم يترك معروفا في العالم اقدم من قبل .

الخاص ، ووكيل بيت المال ، وبقيت المباشرين على حكم ما تقدم .

وفيه من الوقائع أن النيل أوفى تاسع عشر مسرى الموافق لرباع المحرم . وكان السلطان عول على أن ينزل ويفتح السد بنفسه ، وأخذ في أسباب ذلك فلم يسكنه الأمراء من ذلك خوفا عليه من القتل ، فشق عليه ذلك . فلما صلى العشاء نزل من القلعة على حين غفلة ، وقدامه عدة فوانيس ومشاعل ، ومعه أولاد عنه وبعض خاصكية نحو من مائة خاصكى . فتوجه الى السد وفتحته تحت الليل ، ثم توجه الى سد قنطرة قديدار ففتحته أيضا ثم عاد الى القلعة ، وكل هذا تحت الليل . فلما طلع النهار وجد الناس الماء في الخلجان والبرك قد غمرت بالمياه فتعجبوا من ذلك . وما وقع قط في الجاهلية ولا في الاسلام أن السد فتح بالليل . وقد قطع على الناس فرحتهم بيوم الوفاء ، وما كان فيه من القصف والفرجة المعتادة . وفي هذه الواقعة يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

منذ للسلطان قالوا للورى بالكسر جبر
كسر السد بليل فغدا للناس كسر

وفيه توجه السلطان الى قناطر أبى المنجا ، وفتح سدها أيضا ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه ضرب السلطان الكرة بالحوش في غير موكب . وكان معه بعض أمراء الطبليخانات والعشراوات ، منهم الأمير طومان باى الدوا دار الثانى ، فاقتحم على أخذ الكرة من السلطان ، فحنق منه السلطان وضربه على ظهره بالصولجان غير ما مرة ، فكان ذلك من جملة ما حقه طومان باى ، حتى كان سببا لقتله عن قريب .

وفيه مر السلطان من بين القصرين بعد العشاء

فرأى شخصا ماشيا في السوق ، وقد خرج من
البحمام . فصيل له هذا الرجل سكران ، فوسطه
ولم يفحص عن أمره ، وراح ذلك الرجل ظلما .
وكان الناصر قد تزايد شره في تلك الأيام الى
الغاية .

وفيه نادى السلطان لسكان بركة الرطلى بأن
يوقدوا بها وفدة سبع ليال متوالية فامتثلوا ذلك .
وصار ينزل في المراكب ، ويطوف البركة هو وأولاد
عنه ، وان رأى امرأة جميلة في بيتها هجم عليها ،
وطلع لها من الطاق ، وأخذها غصبا ، وضرب زوجها
بالمقارع في وسط بيته . فارتاب الناس منه ، وبقي
على رموسهم طيرة .

وفيه من الحوادث أنه أشيع بين الناس أن
السلطان عمل له برقا حافلا بترية أبيه ، وقد عول
على أن يسافر في الدس الى نحو البلاد الشامية
بسبب أقبردى الدوادار ليكون له عوناً على نصرته
ودخوله الى مصر . وكان الناصر له عناية بأقبردى
ظاهرا وباطنا . فلما بلغ الأمراء ذلك توجهوا الى
المكان الذى فيه السنيح ونهبوه الى آخره ،
وضربوا الغلمان الذين تعينوا الى السفر مع
السلطان . وكادت أن تكون فتنة مهولة بسبب
ذلك ، وقصدوا أن يلبسوا آلة السلاح ، ويشيروا
فتنة عظيمة ، ثم سكن الأمر قليلا .

وفيه وصل الحاج ودخل الى القاهرة بعد أن
قاسى مشقة زائدة وعطشا وقلة أمن من فساد
العربان . وأشيعت الأخبار بوفاة يوسف بن أبى
الفتح ، كاتب الممالك ، مات بمكة المشرفة وكان
مجاورا بها ، وكان لا نأس به .

وفيه وقعت نادرة ، وهى أن المحمل لما دخل
الى القاهرة صحبة الحجاج شق المدينة ، فلما أن
وصل الى جامع الماردانى بركوا جمل المحمل هناك .

وأرادوا أن ينزعوا ما عليه من القماش ، واذا بقاصد
من عند السلطان يطلب المحمل ، وكان بقبة يشبك
التي بالمطرية . فتوجهوا به اليه ، فشقوا به من
القاهرة ثانيا ، حتى رآه السلطان وهو بالقبة ، ثم
عادوا به فشق القاهره ثالث مرة ، فعد ذلك من
النوادر التى قط ما وقعت .

وفى صفر جاءت الأخبار من البحيرة بأن
الجويلى ومرعى أثاروا فتنة مهولة بالبحيرة ، ونهبوا
البلاد وأسروا النساء وقتلوا الأطفال ، وأشيع أن
الجويلى حلف أنه لا يمكن أحدا من أرباب الدولة
أن يأخذ خراجا من بلاد الغربية والبحيرة فى السنة
المذكورة . فلما تحقق السلطان ذلك عين تجريدة
الى البحيرة فلم يوافق أحد من الأمراء ولا العسكر
على ذلك ، وكان النيل فى قوة زيادته . ثم ان
السلطان نادى للعسكر بالعرض فى الميدان ، فلما
حضر العسكر لم ينزل اليهم السلطان ، وقد تخوف
على نفسه ، فانفض ذلك الجمع ، وكثر القتل والقتل
بين الناس . وكانت أيام الناصر كلها فتنا وشرورا .
وفيه ظهر البدرى بن مزهر كاتب السر ، وكان
مختفيا ، فأرسل له السلطان بالأمن والأمان .

وفيه قرر السلطان قانصوه جركس ، المعروف
بابن اللوقا ، فى حجویة الحجاب بدمشق .
وفيه قرر ابراهيم بن يحيى المهاجرى فى نظر
الدبوان المفرد بواسطة قانصوه خال السلطان ،
فانه كان أمامه .

وفيه نودى فى القاهرة من قبل السلطان بأن
جميع الحوائت التى بالأسواق والشوارع يبيضون
وجوهها ويخرفونها بالدهان ، فحصل للناس
بسبب ذلك غاية المشقة . ثم رسم بتبييض وجوه
الرروع المطلة على الشوارع . وكل هذا من وسائل
السوء التى حوله وعقل الصغار .

وفيه تزوج السلطان بمصرباى الجركسية ،
زوجة كرتباى أخى أقبردى الدوادر ، الذى كان
نائب صفد ، ووقع بين السلطان وأمه بسبب زواج
مصرباى ما لا خير فيه ، وكانت عليه كعب الشوم ،
فأقام معها دون الشهر وقتل .

وفى ربيع الأول طلع القضاة الأربعة للتهنئة
بالشهر ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان
المصحف العثمانى بين يديه وحلف العسكر قاطبة
عليه ، ثم حلف الأمراء . فلما حلفوا قالوا مثل
ما حلفنا للسلطان يحلف لنا هو أيضا أنه لا يمسك
منا أحدا بغير سبب ، فتوقف السلطان فى ذلك
اليمين ، وكان المتكلم بين السلطان والأمراء ثانى
بك الجمالى أمير سلاح . فانفض المجلس على مانع
ونزل الأمراء من غير رضا .

فلما كان يوم الجمعة لم يطلع من الأمراء أحد
الى صلاة الجمعة مع السلطان ، واجتمعوا فى بيت
قانسوه خاله ، ولم يمكنوه من الطلوع الى القلعة .
واستمر الحال الى يوم الاثنين ثم ان السلطان
أرسل نقيب الجيش الى طومان باى الدوادر
الثانى وطراباى أمير آخور ثانى ، وأزدمر شاد
الشراب خاناه ، وأسنباي . فقال لهم نقيب الجيش
عن لسان السلطان : « رسم السلطان لكم بأن
تكتبوا وصية وتخرجوا فى عقيب هذا اليوم
وتتوجهوا الى مكة المشرفة من البحر » . فلم
يلتفتوا الى كلام نقيب الجيش ، وقالوا له :
« ما نخرج من مصر لموضع ، ومهما يفعله بنا
يفعل » . فعند ذلك أضمرؤا له السوء ، وتغيرت
عليه خواطر الأمراء قاطبة وهو فى غفلة عما يراد
به . وقد حقدوا عليه قبل ذلك مما يقع منه من
هذه الأفعال الشنيعة ، وصار كل أحد من الناس
حاقدا عليه باطنا وظاهرا من سوء تدييره . كما قيل :

ما تفعل الأعداء فى جاهل
ما يفعل الجاهل فى نفسه
وفيه ظهر مصر باى وآخرون من الأمراء ممن
كانوا مختفين من عصابة أقبردى الدوادر . فلما
ظهروا طلعوا الى القلعة ، وهم : مصرباى ،
وقانبك أبو شامة ، وقانسوه التاجر ، وتمراز
جوشن ، وقانسوه الساقى ، وآخرون من
الخاصكية . وكان ظهورهم بأمر السلطان وجماعة
من الاينالية ، منهم : دولات باى بن عيسى ،
وبرقوق الساقى . فلما قابلوا السلطان خلع
عليهم وعلى خاله ، وأشيع بأن الصلح قد وقع
بين حلف أقبردى الدوادر وبين حلف قانسوه
خمسائة . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق
الملك الناصر ، وأخذ عقيب ذلك بأيام .
وفيه نزل السلطان بقبة يشبك الدوادر التى
بالمطرية فأقام بها الى آخر النهار ، وعاد الى
القلعة . وكان هذا آخر ركوبه الى جهة قبة يشبك .
وفيه عمل السلطان المولد النبوى على صاحبه
أفضل الصلاة والسلام ، فلم يطلع الى القلعة من
الأمراء سوى أزبك أمير كبير ، وثانى بك الجمالى
أمير سلاح ، وبعض أمراء عشراوات ، والقضاة
الأربعة . ولم يطلع خاله قانسوه ، ولا أحد من
الأمراء ، ولا حضروا المولد . ووقع فى ذلك اليوم
من المماليك الجلبان فى حق الأمراء والفقهاء ما لا
خير فيه ، ورجموا الأمراء من الأطباق ، وكبوا
عليهم الماء المتنجس بالأوساخ ، وخطفوا عمائم
الفقهاء ، وكان يوما مهولا . فلما انقضى يوم المولد
بعث السلطان يقول لطومان باى دوادار ثانى :
« اخرج فى هذه الساعة على جرائد الخيل الى جهة
البحيرة بسبب فساد جويلى ومرعى » . فخرج
طومان باى من يومه ، وأتى الى بر الجزيرة ،
ونصب بها خيامه .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر الشهر المذكور نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو القناطر العسر ، وكان ذلك في أواخر النيل . فعدى الى بر الجيزة وسبقه الخيام والمطبخ . وكان عنده جانب كبير من بقية احتياج المولد . فلما وصل السلطان الى الوطاق نزل به ، ولم يكن معه سوى أولاد عمه قيت ، وهما جانم وجانى بك أخوه ، وجماعة من الخاصكية . ولم يتوجه معه أحد من الأمراء ، ولا خاله . فأرسل أحضر أبا الخير ومعه خيال الظل ، وجوق مغانى العرب ، وبرابوه رئيس المحبطين . فأقام هناك ثلاثة أيام وهو فى أرغد عيش . وقد خرج عن الحد فى اللهو والخلاعة والانشراح . ومد هناك أسطة حافلة وحلوى وفاكهة وغير ذلك ، وأنعم على جماعة من الخاصكية بخيول وقماش ومال ، وانشرح فى تلك الأيام بخلاف العادة ، وتلاعبت به الدنيا كما تلاعبت بأمثاله من المقدمين . فكان كما قيل :

تزود من الدنيا فانك لا تدري
إذا جن ليلك هل تعيش الى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة
وكم من عليل عاش حيناً من الدهر
وكم من فتى يمسى ويصبح آمناً
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

فلما كان يوم الأربعاء خامس عشر الشهر المذكور أدركت السلطان تفرقة الجامكية ، فأذن للخاصكية الذين كانوا معه أن يتقدموا قبله كي لا يزاحموه وقت التعديّة ... فتقدم جماعة منهم وراحوا الى بيوتهم ... فصرى السلطان العصر وركب ولم يبق معه سوى ابني عمه وبعض سلحداريتّه . فلما ركب مر على الطالبيه ، وكان الأمير طومان باى هناك بقصد التوجه الى البحيرة ،

كما تقدم ذكره . فلما مر عليه خرج له طومان باى مسرعا وعزم عليه فلم ينزل عنده ، فخرج اليه بجفنة فيها لبن فاخر ، فوقف السلطان وهو راكب على فرسه ، فقدموا له الجفنة اللبن ومعلقة ، فمد يده الى الجفنة وأكل من اللبن . فبينما هو يأكل والأمير طومان باى ماسك لجام فرسه ، فلم يشعر الا وقد خرج علبه كمين من الخيام التى هناك ، نحو من خمسين مملوكا وهم لابسون آلة السلاح ، فاحتاطوا به وعاجلوه بالحسام قبل الكلام . فقتلوه شر قتلة ، وحملوا عليه أى حملة . فجاءته ضربة على عاتقه وكتفيه فهلكته ، وطعن فى جوفه فوق عن فرسه الى الأرض ، وقتلوا ولدى عمه الاثنين جانم وأخيه جاني بك وكافا شابين جميلين ، وقتل معهما شخص من السلحدارية يقال له أزيك الغمري الخاصكى المعروف بالبواب ، وكان من خواص السلطان . وتقرب هذه الواقعة من واقعة الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاوون . وقد قتل مثل هذه القتلّة بعيتها فى تروجة بمكان يعرف بالحمامات ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وسبعائة . قتله مناليك أييه أيضا .

وكانت قتلة الملك الناصر فى يوم الأربعاء بعد العصر خامس عشر ربيع الأول سنة أربع وتسعمائة ، وقتل بأرض الطالبيه . وقد نسب قتله الى طومان باى وأزيك وأزدمر وبعض مناليك أييه . فكان كما قيل فى المعنى :

كنت من كسرتى أفر اليهم
فهو كسرتى فأين المفسر
أو كما قيل :

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها
فكيف اذا الرعاة هى الذئاب
فلما قتل الملك الناصر صارت جثته مرمية

وكان الملك الناصر حسن الشكل ، أبيض اللون ،
عربي الوجه ، نحيف الجسد ، معتدل القامة ، وكان
ضعيف الخط في العلامة . قتل وله من العمر نحو
من سبع عشرة سنة . وكان مولده سنة سبع وثمانين
وثمانمائة . وكان يوصف بالكرم الزائد والشجاعة
لكنه كان جاهلا عسوفاً جرىء اليد سفاكاً للدماء
سيئ التدبير ، كثير العشرة للأوباش من أطراف
الناس . ووقعت منه أمور شنيعة في مدة سلطنته
لا ينبغي شرحها . وليس له من المحاسن الا القليل .
وسار في المملكة أقبح سير ، ولم يقع من أبناء
الملوك من السوء قط ما وقع منه في سائر أفعاله ،
حتى جاوز الحد في ذلك . وفيه أقول :

سلطاننا الناصر المفسدى
أخباره قلها صحيح

بالجهل أضحى قبيح فعل
فلم يفسد شكله المليح

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية نحو من
ستين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً . وكانت
أيامه كلها فتناً وشروراً وحروباً قائمة ، كما تقدم
ذكر ذلك من الوقائع وما كان قصد السلطان
الأشرف قايتباى أن يتسلطن ولده خوفاً عليه من
ذلك .

ولما قتل الملك الناصر تولى بعده خاله المقر
السيفى قانصوه الدوادر الكبير .

الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه

هو الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه ابن قانصوه
الأشرفى ، وهو الثالث والأربعون من ملوك الترك
وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السابع عشر
من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد . وكان

على الأرض ، ومن قتل معه . فلما دخل الليل حملته
جماعة شيخ الطالبية ، وأدخلوه مسجداً هناك ،
وألقوه على حصير هو ومن معه وهو ملطخ في دمه ،
ورأسه مشتبكة في جثته ببعض شيء . فبات هناك
في تلك الليلة . فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما
وقع للناصر من قتله اضطربت أحوال المدينة
وماجت بأهلها . ولبس العسكر آلة الحرب ، وكانوا
تلك الليلة في اضطراب . وكان جماعة من الأمراء
قرروا مع الأمير قانصوه ، خال السلطان ، أنه اذا
قتل الناصر يكون هو السلطان بعده فتغافل
عن هذه الواقعة حتى قتل الناصر ، ولولا أنهم
استمالوا خاله لما قدروا عليه ولا قتلوه .

فلما كان يوم الخميس صبيحة ذلك الأمر ، بعث
خال السلطان ثلاثة نعوش الى الطالبية ، فأحضروا
جثة السلطان وأولاد عمه جانم وأخيه جاني بك
وأزبك بك الخاصكى . فلما عدوا بهم من الجيزة
أتوا بهم الى بيت الأشرف قايتباى الذى أنشأه
بقرب حمام الفارقانى ، فغسلوا السلطان وأولاد
عمه والخاصكى ، وأخرجوا ولم يكن معهم غير
الحمالين فقط . فأتوا بهم الى باب الوزير فلم
يجدوا من يصلى عليهم حتى أمسكوا بعض الفقهاء
وصلى عليهم . ثم توجهوا بهم الى تربة الأشرف
قايتباى فدفنوا الملك الناصر على أبيه داخل
القبة ، وأولاد عمه على جانبي قريب السلطان ،
وأزبك الخاصكى وحده بعيداً عنهم في التربة .
وقد رثيت الملك الناصر لما مات بهذين البيتين وهما
قولى :

يا قبر لا تظلم عليه فطالما
جلى بطلعته دجى الاظلام
طوبى لقبر قد حواه وكيف لا
يحكى السماء وفيه بدر تمام

وحضر قانصوه خال السلطان الناصر من بينه المشهور ، وصعدوا الى باب السلسلة ، ووقع الاتفاق على سلطنته . وكان القائم في ذلك طومان باى الدوادار الثانى ، فأرسل خلف أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة . وهم زين الدين زكريا الشافعى ، والبرهان بن الكركى الحنفى ، وعبد الغنى بن تقي المالكى ، والشهاب الششينى الحنبلى ، فبايعه الخليفة بالسلطنة وشهد عليه القضاة الأربعة بذلك . وتلقب « بالملك الظاهر أبى سعيد » وذلك في يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول من سنة أربع وتسعمائة . وذلك في أثناء الساعة الرابعة وهى لزحل ، فأحضر شعار الملك وهو الجبة والعمامة السوداء والسيف البداوى . فأفيض عليه شعار الملك ، وقدمت له فرس النوبة ، وركب من سلم المقعد الذى بباب السلسلة ، ومشت الأمراء بين يديه ، وركب الخليفة معه ، وتقدم الأتابكى أربك وحمل القبة والطيور على رأسه ، وكان هو أولى بالسلطنة من كل أحد ، وقد فاتته عدة مرار كما قيل :

إذا رفع الزمان محل شخص
وكان سواه أولى لو تصاعد

فكم في العرس أبهى من عروس

ولكن للعروس الوقت ساعد

فلما طلع الظاهر الى القصر جلس على سرير الملك فأول من قبل له الأرض الأتابكى أربك ، ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا . وقيل ان الذى لقبه بالملك الظاهر هو ثانى بك الجبالى أمير سلاح .

فلما جلس خلع على الخليفة ونزل الى داره ، وخلع على الأتابكى أربك بالاستمرار فى الأتابكية وخلع على طومان باى الدوادار الثانى وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن نفسه . ثم دقت البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت

أصله جركسى الجنس ، اشتراه الأميين قانصوه الألفى مع جملة ممالك وقدمهم للسلطان الأشرف قايتباى فى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة . فأنزل بالطبقة مع جملة الممالك الكتابية ، فأقام بها مدة بسيرة . ثم ظهر أنه أخو سرية السلطان أصل باى الجركسية ، أم ولده محمد الذى تسلطن ... فأخرج له السلطان خيلا وقماشاً وصار من جملة الممالك الجسدانية ، فأقام على ذلك حتى توفى الأشرف قايتباى ، وتسلطن ولده الناصر محمد . فجعله خازن دارا كبيرا ، وبقي يسمى خال السلطان . فلما وثب قانصوه خمسمائة على الملك الناصر كما تقدم ، لم يكن عنده بالقلعة الا خاله قانصوه هذا وجماعة كثيرة من الممالك الجلبان . فقام قانصوه بنصرته هو والممالك الجلبان ، وقاتلوا قتال الموت بعدما أرسل قانصوه خمسمائة بادخال الناصر الى قاعة البحرة وتقييده . فلما انتصر الناصر على قانصوه خمسمائة ، خلع على خاله قانصوه ، وقرره أمير طبخانات وشاد الشراب خاناه دفعة واحدة ، فعظم أمره وشاع بين الناس ذكره .

ولما ركب أقبردى الدوادار وانكسر ، وتوجه الى البلاد الشامية ، خلع السلطان على خاله وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن أقبردى . ثم قرره فى الوزارة والاستادارية فعظم أمره جدا . فلما قتل الناصر وقع الاضطراب بين الأمراء فيمن يتسلطن بعد الناصر . فاجتمع الأمراء بدار الظاهر ترميغا ، وحضر الأتابكى أربك وبقية الأمراء ، وأشيع فى ذلك اليوم أن قانصوه خمسمائة فى قيد الحياة ، فنودى له بالأمان وأن يظهر فلم يكن لهذا الكلام تأثير ، وبطلت هذه الاشاعات . ثم قالوا للأتابكى أربك تتولى السلطنة أنت ، فحلف بالطلاق ثلاثا من بنت الظاهر بأنه ما يتسلطن ، وأن يعود الى مكة المشرفة كما كان . ثم صعدوا الى باب السلسلة

الأصوات له بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس
بسلطنته ، بغضا في الملك الناصر مما كان يفعله
من الأفعال الشنيعة . فلما كان وقت صلاة الجمعة
من ذلك اليوم ، خطب باسم الملك الظاهر على
المنابر . وجاء في حال سلطنته بأشياء على الوضع
وانصلحت الأحوال في أيامه على قدر ما كان جلبا .
فتولى الملك وله من العمر دون الثلاثين سنة . وكان
له عقل وافر وثبات جنان . والذي وقع له لم يقع
لأحد من مبتدا دولة الأتراك الى الآن ، فانه كان
من دخوله الى مصر واقامته في الطبقة وحضوره
من بلاد جركس وامرته وسلطنته دون الست سنين ،
وهذا لم يتفق لأحد من الأتراك قبله . وكان من
جملة الجمدارية في دولة الأشرف قايتباي ، ثم
صار في دولة الناصر كما تقدم ، وكان له سعد
خارق من العناية الأزلية في القدم كما قيل :

إذا خصص الرحمن عبدا بنعمة

فكل حسود بعد ذلك مقمع

فباطال العلياء مهلا ولا تطل

فليس بسعى المرء ما شاء يصنع

وفي حال سلطنته حضر سيف كرتباي الأحمر
نائب الشام لموته ، وقد مات الناصر بحسرة أن
يسمع بذكر موته . ويقال ان الناصر رشا على
قتل كرتباي الأحمر بألف دينار . قيل ان بعض
غلمانه سمه في زيق الكوفية ، وقيل في قبة العرقية
فلما لبسها وعرق سرى السم فيه فورم وجهه
ووصل الورم الى قلبه فمات . وقد تست حيلة
الناصر عليه . وكان كرتباي الأحمر أميرا جليلا ،
رئيسا ، وكان يحجر على الناصر وينهاه عن هذه
الأفعال الشنيعة ، فكرهه بواسطة ذلك . وكان
الناصر يصور أوراقا بقاعة البحيرة بهيئة كرتباي
الأحمر وهو مسر على جمل والناس تنسبه . وكان

كرتباي يصرخ في وسط مجلسه في الشام ، ويقول:
« أنا من تحت حكم صبي أو امرأة » يعنى الناصر
وأمه . ولما استقر كرتباي في نيابة الشام ملك قلعته
وطرد نائبها ، ووقع منه أمور شتى في حق السلطان
الناصر يطول شرحها .

وفي ذلك اليوم ثار جماعة من المماليك الجلبان
على ناصر الدين الصفدي وكيل بيت المال ،
فضربوه ضربا مبرحا حتى كاد أن يموت .

وفيه عمل السلطان الموكب بالقصر ، وخلع على
قصوره بن اينال ، وقرره في نيابة حلب عوضا عن
جان بلاط بن يشبك ، وأرسل الى جان بلاط خلعة
ونقله من نيابة حلب الى نيابة الشام عوضا عن
كرتباي الأحمر بحكم وفاته .

وفيه قرر الأمير طومان باي في الوزارة
والاستدارية مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى
وفيه ثار جماعة من المماليك الناصرية على الأمير
طومان باي ورجموه من الطباقي ، وقصدوا قتله
غير ما مرة ، وقد أشيع عنه أنه كان سببا لقتل
الناصر . فلما بلغ السلطان ذلك رسم بسد جميع
الطباقي والشبابيك والمناور التي تطل على دهاليز
القلعة من طباقي المماليك .

وفيه خلع السلطان على طراباي الشريفى ،
وقرره في الدوادارية الثانية عوضا عن طومان باي
المذكور . وقرر تانى بك الجمالى ، أحد الأمراء
العشراوات ، في الخازندارية ، وقرر أقباي الطويل
في نظر الجوالى ، وأنعم على بيبرس الأشقر بامرية
عشرة .

وفيه قبض الأمير طومان باي على بن رحاب
المعنى ، وضربه بالمقارع وشهره بالقاهرة ، وهو
عريان مكشوف الرأس على حمار . وكان على بن
رحاب طالما أدخل نفسه فيما لا يعنيه ، وتعصب

لأقبردى الدوادار ، وصار يسب الأمراء سبا فيبحا
فى المجالس جهارا ، ويهجوهم الهجو الفاحش ،
ويصرح بذلك فى السماعات وهو على الدكة .
وكان كرتباى الأحمر قبض عليه قبل ذلك وأراد
ضربه ، ثم وبخه بالكلام وعفا عنه . فلما زاد فى
هذا الأمر ضربه طومان باى وشهره فى القاهرة ،
والمشاعلى ينادى عليه « هذا جزاء من يكثر كلامه
ويدخل نفسه فيما لا يعنيه » .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب تحصيل الأموال
لأجل النفقة على الجند ، فقرر على الشهابى أحمد
ناظر الجيش مبلغا له صورة فاخفى . فلما اختفى
خلع السلطان على القاضى عبد القادر القصرى ،
وقرره فى نظر الجيش ، عوضا عن الشهابى أحمد
بحكم اختفائه .

وفيه اختفى الشهابى أحمد بن العينى بسبب
مال فرض عليه ، واختفى جوهر المعينى الزمام
بسبب مال فرض عليه . وقبض على محسن
الطواشى الخازندار وآخرين من الطواشية وقرر
عليهم الأموال ، وتسلم طراباى محسن الخازندار
والطواشية وعاقبهم ، واستخلص منهم الأموال ،
حتى باعوا جميع ما يملكونه من بيوت وقماش ولم
يبق مما فرر عليهم شئ . وكان من جملة الطواشية
مسك الساقى وغيره من الطواشية .

وفى ربيع الآخر خرج قصره فى نيابة حلب ،
وخرج صحبته أقباى الذى قرر فى نيابة قلعة
الشام .

وفيه تعين قرقماس بن ولى الدين رأس نوبة
كبير فى امرية ركب المحمل ، وتعين أذربك المكحل
أحد الأمراء الطبلخانات فى امرية الركب الأول .
وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن أقبردى الدوادار
قد حاصر حلب أشد المحاصرة ، وأحرق ما حولها

من الضياع ، وأشرف على أخذ المدينة . وقد
التم عليه الجهم الغفير من الناس والتركمان ،
وحصل منه غاية الضرر . فلما تحقق السلطان ذلك
عين تجريدة ثقيلة الى أقبردى . وكان باش العسكر
تانى بك الجمالى أمير سلاح ، وبها من الأمراء
المقدمين : قانى باى أمير آخور كبير ، وسودون
العجمى ، وبلباى المؤيدى ، وجماعة من الأمراء
الطبلخانات والعشراوات وعدة وافرة من العسكر
فأنفق عليهم « واستحثهم على الخروج الى حلب
بسرعة .

وفيه توجه جانم طاز الأبراهيمى أحد العشراوات
الى على دولات بن دلفادر ، وصحبته خلعة
وتقليد الى على دولات باستمراره على امرية
التركمان على عادته .

وفيه أمر السلطان بتوسيط شخص من المماليك
بقال له ألماس ، وقد قتل قتيلا ، فوسطه السلطان
بسبب ذلك .

وفى جمادى الأولى ، فى يوم الاثنين عاشره ،
خرجت التجريدة المعينة الى اقبردى الدوادار ،
وكان لخروجها يوم مشهود
وفيه صنع السلطان مولدا فى غير وقته .
وحضر فيه القضاة الأربعة على العادة ، وكان
يوما حافلا سلطانيا .

وفيه أنعم السلطان على جان بردى الأشقر
الكاشف بامرية عشرة .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة هلال
الطواشى الرومى ، وكان صار مقدم المماليك ،
وكان لا بأس به .

وفيه كان ابتداء نفقة البيعة على الجند .
وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن قصره
الذى قرر نائب حلب ، لما دخل الى الشام

وفيه قبض السلطان على الناصري بن خاص بك ، أخى خوند زوجة الأشرف قايتباي ، فأقام في الترسيم مدة ، وطلب منه مال له صورة ، وعرض للضرب غير ما مرة ، وقد آل أمره الى أن يخرج أمير حاج بالركب الأول ، وأمره بأن يقوم بما يحتاج اليه من ماله ، ولا يأخذ من السلطان شيئا . ثم قبض على أخت خوند بنت خاص بك التي كانت زوجة أقيردى الدوادر ، ورسم عليها وطالبها بمال له صورة ، وزعم أن أقيردى أودع عندها مائة ألف دينار ، وأجرى عليها ما لا خير فيه من الإنكاد والضرر .

وفيه غمز بعض التجار على قنبك أبي شامة أحد الأمراء ، وكان مختفيا في مكان في رأس حارة زويلة ، فكبس عليه والى الشرطة ، ومعه جماعة من المماليك . فلما دخلوا عليه هاش عليهم بالسيف ، فتكاثروا عليه ، ومسكوه وقتلوه بالدار التي كان بها . وكان قنبك أبو شامة من الأمراء الطبلخانات ، وكان من أكبر أصحاب أقيردى الدوادر ، وقد فاته القتل عدة مرار ، وكان غير مشكور السيرة في أفعاله .

وفي رجب أنعم السلطان على أنس باي وقرره في شادية الشراب خاله ، عوضا عن أزدر بن علي باي بحكم انتقاله الى التقدم .

وفيه خلع السلطان على بخشباي ، وقرره في نيابة حماه وخرج اليها فيما بعد .

وفيه قرر شخص يقال له محمد الباسطي في التكلم على جهات الحسبة ، وجرى من الباسطي هذا أمور يطول شرحها ، وآل أمره الى أن ضرب بالمقارع وشهر على جمل في دولة العادل طومان باي .

وضع يده على مال كرتباي الأحمر جميعه ، وكان مبلغا ثقيلا نحو من سبعة وستين ألف دينار ، وكان هذا أول عصيان قصرود واستخفافه بالسلطان فلما بلغ السلطان ذلك اتسكده لهذا الخبر ، وعين مشد أحد الدوادرية بالتوجه الى قصرود ، وأن يأمره برد ما أخذه من مال كرتباي الأحمر . فلما توجه الى قصرود لم يلتفت الى مراسيم السلطان ، ولا رد شيئا من المال الذي أخذه ، واعتذر بأشياء لم تقبل

وفيه قبض السلطان على شخص من الحرامية يقال له ابن الوارث ، فقطع لسانه ، وكحلت عينه بالنار ، ومع هذا لم يرتجع عن الحرام والسرقة . وقد قبض عليه بعد ذلك وعلى رأسه عملة ... والطبع في الانسان لا يتغير .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة كمشبا الشريفي نائب الاسكندرية ، وكان لا بأس به .

وفيه أخرج السلطان مقدمة أزبك اليوسفي بحكم أنه كبر سنه وعجز عن الحركة . فلما أخرجت عنه ، أنعم السلطان بها على أزدر بن علي باي الذي كان شاد الشراب خاله .

وفي جمادى الآخرة ، عاد الأمير طومان باي الدوادر من السرحة التي سرحها نحو بلاد الصعيد . وأحضر صحبته من الأغنام فوق الأربعة آلاف رأس زعموا أنها من أغنام عرب عزالة . وجرى فيما بعد أمور غريبة بسبب ذلك يأتي الكلام عليها .

وفيه قرر السلطان أزبك المكحل في نيابة الاسكندرية عوضا عن كمشبا الشريفي وفيه كثرت المصادرات للمباشرين وأعيان الناس بسبب النفقة ، وقد عجز السلطان عن سدها . وفيه عين السلطان البدرى بن مزهر كاتب السر بأن يخرج الى مكة المشرفة في بعض المهمات الشريفة .

وفي شعبان غرق محب الدين محمد ابن قاضي
القضاة الشافعي زين الدين زكريا . قيل انه كان
في مركب فغرق قدام المقياس . وكان غير مشكور
السيرة

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير طومان باي
الدوادار لما توجه الى جهة الصعيد ، احتال على
حميد بن عمر أمير عربان هواره ، فلما ظفر به
قتله وحز رأسه وأرسلها الى مصر ، فعلقت
بباب زويلة ثلاثة أيام .

وفيه ، في حادي عشر ، وصل خاير بك أخو
قائصوه البرجي ، الذي توجه قاصدا الى ابن
عثمان ملك الروم ، وكان الملك الناصر أرسله
قاصدا عن لسانه الى ابن عثمان ، فأكرمه وأظهر
الفرح بسلطنة الملك الناصر ، فلما بلغه قتلة الملك
الناصر شق عليه ووبخ خاير بك بالكلام

وفيه تغير خاطر السلطان على جان يردى
الغزالي ، كاشف الشرقية ، وأمر بتوسيطه حتى
شفع فيه

وفيه عاد الطاعون الذي كان في العام الماضي ،
ومات فيه كثير من الناس من الغرباء ممن فر
وعاد بعد رفع الطاعون . وفي هذه السنة كان
الطاعون خفيفا جدا .

وفيه جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان
زحفوا على بلاد السلطان ، وآل الأمر الى أن
ابن عثمان أرسل يقول لنائب حلب : « اعزل ابن
طرغل » ، فأجابه نائب حلب الى ذلك وعزل ابن
طرغل

وفي رمضان خلع السلطان على بهاء الدين عبد
الرحمن بن قدامة الدمشقي ، وفرره في قضاء
الحنبلية ، وصرف عنها الشهاب أحمد بن
الشيثيني فأقام ابن قدامة في منصب القضاء

شهر واحد وأربعة أيام ، وعزل عنها ، وأعيد
الشيثيني الى القضاء ثانيا .

وفيه تغير خاطر السلطان على الشيخ سر
الدين عبد البر بن الشحنة ، ورسم بنفيه
قوص ، فشفع فيه بعض الأمراء من النفي ، فر
له بأن يلزم داره ولا يركب ولا يجتمع على آ
من الناس ، وجرت عليه أمور مهولة في ث
الأيام .

وفيه اجتمع السلطان والأمراء في قاعة
البحرة ، وضربوا مشورة في أمر أقبرد
الدوادار ، فوقع الاتفاق في ذلك اليوم على
أقبردى يستقر في نيابة طرابلس ، وأن آق
الذي كان رأس نوبة كبير يستقر في الأتابكية
بدمشق ، وأن تاني بك قرا يتوجه الى القند
بطالا ، فانفصل المجلس على ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على جان به
الأبج نائب القلعة ، وأمر بنفيه نحو البه
الشامية ، حتى شفع فيه بعض الأمراء من النص
وفيه وقع للناصري محمد ابن بنت جم
الدين الاستادار كائنة عظيمة ، وهي أن شخص
تخاصم معه ، فشكاه من بيت طراباي — وآ
يومئذ دوادارا ثانيا — فوقع من ابن بنت جم
الدين في المجلس بعض كلام في حق خصمه
فبطحه طراباي بين يديه ، وضربه ضربا مبر
حتى كاد أن يهلك
وفيه قرر ابن قدامة في قضاء الحنابلة بدمشق
وتوجه اليها فيما بعد .

وفيه ، في يوم الأربعاء عشرينه ، كانت وفاة
الأتابكي أزبك بن ططخ . وقد زعموا أن ولد
يحيى قد سحره حتى مات . وقبض على شخص
يقال له القصديري وصبيه اتهم أنه الذي سحر
حتى مات . وجرى بسبب ذلك أمور يطو

شرحها . وكان أوزبك من أجل الأمراء قدرا ، وأعظم ذكرا ، وكان أميراً جليلاً في سعة من المال ، وافر الحرمة نافذ الكلمة وكان أصله من عشاء الظاهر چقمق ، يقال ان أصله من كناية الأشرف برسبای ، واشتراه الظاهر چقمق من بيت المال ، وأعتقه فصار من عتقائه ، وصاهره مرتين في ابنته . وتولى عدة وظائف سنية بمصر ، منها حجوية الحجاب ، ورأس نوبة كبير ، ثم بقى نائب الشام في دولة الظاهر بلباي ، ثم عاد الى مصر ، وتولى الأتابكية في دولة الأشرف قايتباي ، سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ، وأقام بها نحو ثلاثين سنة . وكان من مبدأ أمره رئيساً حشماً ، قرر في امرية العشرة في سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، ولا زال يترقى حتى كان من أمره ما ذكرناه وقاسى شدائد ومحنا ونقى نحواً من أربع مرات ، وسجن بالاسكندرية مرتين ... وكان كفؤاً للمهمات السلطانية والتجاريد ، وقد سافر في عدة تجاريد . ويطلب الأطلاب الحافلة ، وصرف على التجاريد من ماله ما لا يحصر وكان مسعود الحركات في سائر أفعاله ، ذا شهامة وعلو همة ، وأظهر العزم الشديد في قتال عسكر ابن عثمان ، ولم بجىء في الأتابكية بعده مثله ، ومات وله من العمر نحو من خمس وثمانين سنة ، وخلف من الأولاد ولده الناصري محمد الذي من بنت الظاهر چقمق ، وولده بحیی ، وصاهره قانصوه خمسمائة في احدى بناته ، ومات معه . فلما مات ترفع محمد ويحيى بين يدي السلطان ، فوضع السلطان يده على تركته من صامت وناطق قيل وجد له من الذهب العين سبعمائة ألف دينار ، وخارجاً عن البرك والخيول والقماش والتحف ، وخارجاً عن جهاز ابنته التي ماتت مع قانصوه خمسمائة . وقد قوم ذلك بنحو من مائة ألف دينار ، فحمل

ذلك جميعه الى الخزائن الشريفة وقد قال أوزبك أمير كبير من الدنيا منالا عظيماً فكان كما قيل :
أتلهو من نعيمك في قصور
وأنت من الهلاك على شفير
فيا من غره أمل طويل
يؤديه الى أجل قصير
أتفرح والمنية كل يوم
ترك مكان قبرك في القبور ؟
هي الدنيا فان سرتك يوماً
فان الحزن عاقبة السرور
سنسلب كل ما جمعت منها
كعارية ترد على المعير

ولولا الذي صرفه أوزبك أمير كبير على التجاريد ، وعمارة الأتابكية ، ما كان ماله ينحصر . وكانت تركته تعادل موجود سلار نائب السلطنة . وقد تقدم ذكر ذلك ومن أراد أن يعلم علو همة الأتابكي أوزبك ، فلي نظر ما صنعه من عمارة الأتابكية ، وقد أنشأها في سنة احدى وثمانين وثمانمائة وقد تقدم ذكر ذلك كما يقال :
ليس الفنا بقاء يستظل به

حتى يكون له في الأرض آثاراً
ومما عد من مساوى أوزبك أمير كبير ، أنه كان شديد الخلق صعب المراس ، اذا سجن أحداً لا يطلقه أبداً ، وكان عنده حدة زائدة ، وشح في نفسه ، جرىء اللسان مع تكبر وبطش . وقد فاته السلطنة عدة مرار فكان كما يقال :
اذا منعتك أشجار المعالي

جناها الغض فاقنم بالشميم
فلما علم السلطان بموته نزل وصلى عليه ، وكان له يوم مشهود ، ودفن بتربة أستاذه الملك الظاهر چقمق . فلما نزل السلطان وصلى عليه ، قيل له ان الأمير أوزبك اليوسفى أمير مجلس في

النزع وسيموت في هذه الساعة فجلس السلطان على مدورة في سبيل المؤمنين ، ينتظر أزيك اليوسفى حتى يموت ويصلى عليه ، فلم يمت في تلك الساعة فقام السلطان وطلع الى القلعة . فلما كان وقت العصر من ذلك اليوم نوفي فيه الأمير أزيك اليوسفى ، فهبىء وصلى عليه السلطان وطلعت جنازته من الصليبة . فلما رجعوا به نوجهوا به الى مدرسته التى أنشأها ودفن بها . وكان أميراً جليلاً ديناً خيراً لين الجانب . وكان أصله من مماليك الظاهر چقمق ، وكان يعرف بأزيك الخازندار وناظر الخاص ... مات وهو طرخان وقد كبر سنه وشاخ وناف عن الثمانين سنة من العمر .

وكان قليل الأذى ، كثير البر والصدقات ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها الخازندارية الكبرى ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير مجلس ، ثم مشير الملكة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم أخرجت عنه التقدم الى أزدمر بن على باى ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ومات .

وفى شوال ، فى يوم عيد الفطر ، جاءت الأخبار بأن عربان عزالة ثاروا على الكاشف بالبحيرة . فحاربهم ففروا منه ، وعدوا من الوراق ، وطلعوا بالقرب من شسبرا ، وتوجهوا من خلف الجبل الأحمر ، وطلعوا من بحر بلامه قبالة طرا ، ثم نزلوا بالمعصرة ، وهى ضيعة هناك . فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم تجريدة ، فخرج اليهم فى الحال قانصوه البرجى أمير مجلس ، وقرقماس بن ولى الدين رأس نوبة النوب ، وقيت الرحبى حاجب الحجاب ، وسنباى نائب سيس أحد المقدمين . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات منهم طراباى الشرفى دوادار ثانى والجم الغفسير من

العسكر ، فلبسوا آلة السلاح وخرجوا يوم عيد الفطر ، فتوجهوا الى نحو المعصرة فوجدوا هناك عزالة نازلين ، فتقاتلوا معهم قتالاً عظيماً ، فانكسر الأتراك وتشتتوا ، وقتل من الأتراك من المماليك السلطانية نحو من خمسين مملوكاً ، ومثل ذلك من الغلمان والعبيد ، وجرح الأمير قرقماس رأس نوبة كبير فى وجهه ، وكذلك قيت الرحبى . وأما طراباى فقتل انه جاءته حربة فى نحره دبخته من وريده لكنه لم يمت من ذلك ، وجرح من العسكر ما لا يحصى ... ثم ان العرب نهبوا بركهم عن آخره ، وتوجهوا الى نحو بلاد الصعيد فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت وماجت ، فنادى السلطان للعسكر قاطبة للخروج الى المعصرة وهم لابسون آلة السلاح ، فلما وصلوا الى هناك وجدوا العرب قد رحلوا ، والذين قتلوا من العسكر مطروحين على الأرض ، فأرسلوا يطلبون من القاهرة عدة نعوش بسبب من قتل هناك ، فأرسلوا لهم نعوشاً فى سراكب من البحر الى طرا ، فأحضروا فيها من قتل . وصار العيد مثل المأتم ، فى كل حارة نعى ، كأيام الفصول ، بسبب من قتل . وموجب ذلك أن الترك استخفوا بالعرب ، فأكمنوا لهم أكمنة ، فخرجت الترك وخرجت العرب من ورائهم ، فانكسروا وقتل منهم من قتل ، وكانت هذه الحادثة من الحوادث المهولة . وقد قلت فى معنى ذلك :

ألا قولوا لأعراب تجسروا
تلى حرب فهل يخشوا عقيبه
سهام مليكتنا أضحت نفودا
ونرجو أن تكون لكم مصيبه

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الأمير دولات باى الفلاح ، أحد المقدمين ، خرج فى يوم الأربعاء

يسير الى نحو الرصد ، فلعب هناك بالكرة ، وساق الفرس في أرض محجرة ففنطرتة ، فمات لوقته ، فحملوه على قفص حمال وأتوا به الى بيته حتى غسلوه وكفنوه ، وأخرجوه يوم الخميس ، ونزل السلطان وصلى عليه . ثم ان السلطان بعد أن صلى عليه توجه الى بيت طراباى الدوادار الثانى وسلم عليه بسبب ما وقع له من عرب عزالة .

وفيه تغير خاطر السلطان على قراجا نائب غزة فأحضره الى القاهرة وهو فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه . ثم آل أمره الى أن تولى نيابة طرطوس وقتل .

وفيه دخل الأمير طومان باى الدوادار الكبير الى القاهرة وكان مسافرا فى جهة الصعيد ، فلما بلغه ما فعلت عرب عزالة ، كما تقدم ذكره ، كبس عليهم فى مكان بالوجه القبلى ، وقبض على جماعة منهم نحو من ثلثمائة انسان من رجال ونساء وصغار ، فوصلوا بهم أليزية ، وعدوا بهم ، وطلعوا بهم من الصليبة قدام الأمير طومان باى فكان يوما مشهودا ، فوضعوا الرجال فى زناجير ، والنساء والصغار فى جبال ، وعلقوا رؤوس من قتل من الرجال فى رقاب النساء وكانت واقعه من الوقائع الغريبة ، ولم يتفق مثل ذلك الا فى أيام الظاهر برقوق ، بما وقع لبدر بن سلام كبير عربان البحيرة . وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار الظاهر برقوق . فلما طلع الأمير طومان باى الى القلعة ، صادف ذلك اليوم خروج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل قرقماس رأس نوبة كبير ، وبالأول الناصرى بن خاص بك ، فلما عرضوا عرب عزالة على السلطان ، رسم بتسميرهم على جمال فسمروهم وشقوا بهم من القاهرة . وكان يوما مشهودا ، وصارت الفرجة فرجتين على المحمل وعلى

عربان عزالة . ثم انهم كلبوهم وعلقوهم على أبواب المدينة ، على كل باب نحو من عشرة أنفار ، حتى على باب القنطرة وباب الشعرية ، وغير ذلك من الأبواب . ثم ان السلطان رسم بأن سائر الناس يرجمون العربان بالأحجار ، حتى يكون من أمرهم ما يكون ... وقد قام الأمير طومان باى بنصرة الأتراك على العرب بعد كسرتهم التى تقدمت . وفى هذه الواقعة يقول الشيخ بدر الدين الزيتونى :

نحمد الله ونشكرو خالق الجسم والعصب
اذ نصرنا على العرب بالدوادار والعصب

والعرب أكثروا الفساد من عزاله وعزلوا
جاء وعدوا وشرفوا وعلى الحرب عولوا
وأهلكوا الحرث والنسل فى الضواحي وحملوا

من عزاله عرب طعوا عمرهم فى الوغا ذهب
جتهم الترك أرخوا واقعتهم بما الذهب

صار عزيز العرب دليل وبقي فى الوجود عدم
وجميع ما جرى لهم بالمقدر وبالحكم
كان مسطر على الجبين وبهذا جرى القلم

نحمد الله ونشكرو خالق الجسم والعصب
اذ نصرنا على العرب بالدوادار والعصب

وهذا الزجل يقرب من الزجل الذى قاله الغبارى فى واقعة العرب التى كانت فى سنة احدى وثمانين وسبعمائة ، فى دولة الظاهر برقوق ، وقد وقع فيها ما يشبه ذلك . وهذا الزجل الذى تقدم من اختصاره .

وفيه قرر شمس الدين بن مزاحم الطرابلسى ، فى نظر الاصطبل ، عوضا عن يحيى بن البقرى بحكم صرفه عنها . ومات يحيى عقيب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن أقبردى الدوادار دخل الى حلب طائعا ، وقد تم الصلح

بينه وبين الأمراء الذين توجهوا من مصر . وسبب ذلك أن العسكر الذين توجهوا الى قتال أقبردى وجدوه بالمرعش عند على دولات ، فلما طال الأمر على العسكر — وكان الفلاء موجودا بحلب ، والعليق لم يوجد — أرسل قاصروه نائب حلب يسأل أقبردى في الصلح ، فتوجه اليه قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، فمشى في أمر الصلح — وكان السلطان والأمراء مائلين الى ذلك — فلما وثق أقبردى بذلك حضر صحبة قانى باى الرماح ، ودخل الى حلب طائعا مختارا ، فلاقاه قاصروه نائب حلب وسائر الأمراء الذين كانوا هناك ، وكان له بحلب يوم مشهود .

وكان الأمير أقبردى متوعكا في جسده ، فلما استقر بحلب كاتبوا بذلك السلطان ، فعين له خلعة حافلة وفرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وكتب له تقليد نياحة طرابلس ومالها في كل سنة ، ثم أخذوا في أسباب التوجه اليه .

وفيه توفي برهان الدين مستوفى الخاص ، وكان لا بأس به .

وفيه أرسل السلطان الأمير تراز الزردكاش ، الى المقر السيفى جان بلاط بن يشبك نائب الشام ، يسأله في الحضور الى مصر ليلى الأتابكية عوضا عن أزيك بحكم وفاته . فخرج تراز بسبب ذلك .

وفي ذى القعدة جاءت الأخبار بوفاة أقبردى بن على باى الدوادر الكبير ، وكان أميرا جليلا ، رئيسا حشما ، بشوشا متواضعا ، كريما سخى النفس في سعة من المال مثريا جدا . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى رحمه الله تعالى ، ثم ظهر أنه قريه ، ورقى في أيامه الى منتهى الرياسة ، وتولى عدة وظائف سنية منها امرية السلاح ، والدوادرية الكبرى ، والاستادارية ، والوزارة ، وكاشف الكشاف ، ومدير المملكة ، وصاحب الحل

والعقد بالديار المصرية . وكان قريب السلطان وعديله تزوج بأخت خوند الخاصكية ، وكان وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، شديد العزم ، شجاعا بطلا مقداما في الحرب ، تولى الدوادرية الكبرى بعد يشبك بن مهدي سنة سبع وثمانين وثمانائة ، وأقام فيها نحوا من ست عشرة سنة . وكان مشهورا بالعطاء الجزيل على الأمراء والعسكر ، وجرى عليه شدائد ومحن ، ونهبت أمواله أربع مرات ، وقاسى من الشدائد والضيق ما يطول شرحه . واستمر يحارب عسكر مصر بمفرده ثلاث سنين ، وكان غالبا للعسكر ، وتوجه الى آخر الصعيد ، ثم توجه الى الشام وحاصرها ، وكذلك حماء وحلب ، ثم توجه الى بلاد التركمان ولم يظفر به أحد ، ولم يسلم نفسه عن عجز ، ولا سجن قط ولا تقيد ... وآخر الأمر مات على فراشه من غير أن يقتل فكان كما قيل :

أنا أسير والراية البيضاء ،

لا للسيوف وسل من الشجعان

لم يحل لى عيش العداة لأثنى

نوديت يوم الحرب بالمران

قيل ان أقبردى لما دخل الى حلب وأقام بها اعترته أكلة في فمه ، وقيل في وجهه ، رعت فيه حتى مات بحلب ، ودفن عند سيدي سعد الأنصارى رحمة الله عليه . ثم نقلت جثته الى القاهرة في أواخر صفر سنة خمس وتسعمائة ودفن بتبريته التى أنشأها له في الصحراء ، ومات وله من العمر دون الخمسين سنة . وكان أسير اللون ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، غير عبوس الوجه ، وكان لا بأس به . وكان الأمراء والسلطان يخشون من سطوته ، فلما مات كفى كل أحد شره . وقد قلت في ذلك مع التضمين والاقباس هذه الأبيات :

مات أقبردى الأمير وولى

بعد عز وحاز جهاها ومالا

فأتاه من بعد ذا ريب دهر
نال منه من العنا ما نالا
وقضى نجبته بغير قتال
وكفى الله المؤمنين القتالا

فلما تحقق السلطان موت أقبردى ، جهز
مراسيم للأمراء الدين كانوا صحبة أقبردى . وهم
ثاني بك قرا الذى كان أمير مجلس ، وأقبای نائب
غزة الذى كان رأس نوبة كبير ، وجانم مصبغة
الذى كان حاجب الحجاب ، وقنبك نائب
الاسكندرية أحد الأمراء المقدمين بمصر . فأما تانى
بك قرا وأقبای فرسم السلطان لهما بأن يتوجها
الى القدس ويقيما به بظالين . وأما جانم مصبغة
وقنبك فرسم لهما أن يتوجها الى الشام بظالين .
فاستمروا مقيمين بالشام والقدس حتى كان من
أمرهم ما سنذكره . وأما اينال الصغير السلحدار
الذى كان واليا أحد العشراوات ، قيل انه قتل ،
وقيل انه غرق فى بعض الأنهار . وأما بقبة العسكر
الذين كانوا مع أقبردى فمات منهم جماعة كثيرة ،
ودخل الباقون الى مصر ، وخمدت فتنة أقبردى
كانها لم تكن . بعد ما جرت منه أمور مهولة بمصر
والشام وغير ذلك . وهذا ملخص واقعه .

وفى ذى الحجة فرق السلطان الضحيا على
العسكر وكان عيدا حافلا ، وجاء العيد بالجمعة ،
فلهج الناس بزوال السلطان عن قريب . وكان
الأمر كذلك . ولم يعم الى العيد الثانى .
وفيه توفى الطواشى مقبل الرومى رأس نوبة
السفافة الأشرفى اينال وكان لا بأس به . فلما مات
خلع السلطان على الطواشى محسن الحبشى
الأشرفى قاينباى ، وفرره رأس نوبة السفافة عوضا
عن مقبل الرومى بحكم وفاته . وقد قاسى محسن
هذا فيما بعد غاية الشدائد والمحن .
وفيه انتقل قصره من نيسابة حلب الى نياية

الشام ، عوضا عن جان بلاط نائب الشام ، بحكم
انتقاله الى الأتابكية بمصر . وانتقل دولات باى
ابن أركماس نائب طرابلس ، الى نيسابة حلب
عوضا عن قصره . وقرر بلباى المؤيدى فى نياية
طرابلس عوضا عن دولات باى ، وأضيف الى
بلباى حجوية طرابلس مع النياية .

وفيه دخلت مسرى من الشهور القبطية فكافت
زيادة النيل فى ثالث مسرى ثلاثين أصبعا . وفى
الرابع منها أربعين أصبعا ، وفى الخامس منها عشرين
أصبعا ، وفى فى خامس مسرى ، وكسر فى اليوم
السادس منها الموافق لحادى عشرى ذى الحجة .
فرسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار الكبير
بأن يتوجه ويفتح السد ، وكانت الأتابكية شاغرة
من حين توفى أزيك ، وكانت الأمراء غائبين فى
التجريدة بسبب أقبردى ، فلم يكن بمصر أكبر
من طومان باى ، فتوجه الى المقياس فى الحراقة
وفتح السد ، وكان له يوم مشهود . وكان نيلا
عظيما فى تلك السنة ، وثبت فى أواخر بابه . كما
قيل :

وفت أصابع نيلنا وطغت وطافت فى البلاد
وأنت بكل مسسرة ما ذى أصابع ذى أيايد
وفيه دخل الأمراء الذين كانوا توجهوا الى

التجريدة بسبب أقبردى ، فحضر صحبتهم من كان
مع أقبردى من الأمراء العشراوات ، منهم : استباى
الأشم ونوروز أخو يشبك الدوادار كان ، وجانم
أقچى الابراهيمى ، وآخرون من الخاصكية ، ممن
كان من عصابة أقبردى . فأقاموا بالقاهرة مدة
يسيرة ، ثم عادوا الى البلاد الشامية .

وفيه توفى شرف الدين بن الأشقر وكان من
أعيان المباشرين .

وفيه توفى جلال الدين الصالحى وكان لا بأس
به ، وقاسى شدائد ومحن فى آخر عمره .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة داود باشا وزير ابن

عثمان ، ملك الروم ، وكان رئيسا حشما مدبر
المملكة الرومية ، سديد رأى ، وافر العقل ،
مشكور السيرة .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة ببلاد
الغرب ، بين ملوك الفرنج وملوك الغرب ، وكانت
النصرة للمسلمين على الفرنج والله الحمد .

وفيه ابتداء السلطان بعمارة تربته التي
بالصحراء ، وحصل للناس منه غاية الضرر بسبب
ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة بين الشريف
محمد أمير مكة المشرفة ، وبين أخيه هزاع ،
واستمرت الفتنة قائمة هناك فيما بعد حتى كان
ما سنذكره في موضعه .

سنة خمس وتسعمائة (١٤٩٩ / ١٥٠٠ م) :

فيها ، في المحرم ، كان الخليفة أمير المؤمنين
المستمسك بالله ، أبا الصبر يعقوب العباسي ،
الهاشمي الأبوين . والسلطان الملك الظاهر أبا سعيد
قانسوه خال الناصر . وأما القضاة الأربعة فعلى
حكم السنة الماضية ، وكذلك الأمراء المقدمون من
أرباب الوظائف غير الأتابكية ، فانها عينت الى جان
بلاط المقدم ذكره ، وكتب له بالحضور .

وفيه توفي يحيى بن البقرى الذى كان ناظر
الاصطبل وصرف عنه ، وكان لا بأس به

وفيه تغير خاطر السلطان ، على القاضى علاء
الدين بن الصابونى ، ناظر الخاص ، فعزله ورسم
عليه . ثم خلع على شهاب الدين الرملى ، وقرره
في نظر الخاص ، عوضا عن ابن الصابونى . ولم
يكن شهاب الدين هذا تقدم له رياسة بمصر ، ولا
ولى قط تلك الوظيفة السنية . وكانت ولايته من
غلطات الزمان . وفي ذلك يقول شيخنا عبد الباسط
الحنفى :

قد ولى الرملى على منصب الـ
خاص برأس العام يا خلى

من عدم الدست ومن جهل من

يطبخ حتى انحط للرملى

وفيه استعفى هلال الرومى من تقدمه المماليك ،
وسأل أن يتوجه الى الشام ، ويكون بها على امرية
عشرة فأجيب الى ذلك . ثم ان السلطان خلع عليه
بذلك ، وخلع على عنبر التكرورى وقرره في تقدمه
المماليك عوضا عن هلال الرومى .

وفيه توفي أزبك قفص الأشرى قايتباى ، أحد
الأمراء الطبلخانات الرأس نوبة الثانى ، ثم بعد
موته خلع السلطان على أبى يزيد المحمدى وقرره
في رأس نوبة ثانى عوضا عن المذكور بحكم وفاته
وفيه كانت اقامة الخطبة بالجامع الذى أنشأه
بركات بن قريمىط بحارة زويلة ، وجاء في غاية
الحسن ولا سيما في ذلك الخط .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة وقد قاسى في
تلك السنة مشقة زائدة ، وخرج طائفة من العربان
على الركب الغزاوى بالقرب من الشرفة ، فاستولوا
عليه من أوله الى آخره ، وأسروا النساء وقتلوا
الرجال . ولولا أنهم أدركهم قرقماس أمير كبير ،
بعد أمير ركب المحمل ، لأخذوا جميع من في الركب
الغزاوى . وقد نهبوا أطراف الركب الأول من
الناصرى محمد ، وكان أمير الركب الأول الناصرى
محمد بن خاص بك أخو خوند .

وفيه توفي الشيخ خالد الوقاد النحوى
الأزهري الشافعى ، وكان فاضلا في النحو وله في
ذلك عدة تصانيف .

وفي صفر كان دخول المقر السيفى جان بلاط
نائب الشام ، فلما حضر خلع عليه السلطان وقرره
عوضا عن أزبك في الأتابكية بحكم وفاته ، وسكن

بالأزبكية . فلما أقام بمصر شرع في بناء تربته التي بجوار باب النصر ، وصنع بها جامعا بخطبة ، ولم تتم الا بعد موته ودفن بها .

وفي ثالثه توفي الشيخ الصالح الزاهد الورع أبو العباس أحمد بن محمد العسري ، رحمه الله ورضي عنه ، ودفن بجامعه الذي أنشأه بالقرب من مرجوش وباب القوس .

وفيه حضرت جثة أقبردى الدوادار ، ودفنت في تربته التي أنشأها بالصحراء ، وقد نقلت من حلب الى مصر بعد دفنه في تربة سيدي سعد الأنصاري رحمه الله ورضي عنه .

وفي ربيع الأول عين السلطان ، قانصوه كرد أحد الأمراء الطبلخانات والخازندار الثاني ، بأن يتوجه الى ابن عثمان ملك الروم ، قاصدا . فخرج بعد مدة وجرى عليه أمور شتى من بعد ذلك وفيه جاءت الأخبار بوفاة أبديكى حمار الإشرقي قايتباي نائب قلعة الشام ، وجرى عليه قبل موته شذائد ومحن شتى .

وفيه عمل السلطان المولد النبوي ، وكان حافلا .

وفيه عين السلطان الأمير قانصوه البرجي المجدى أمير مجلس ، أمير ركب المحمل ، وعين جان أبلاط الموتر المحتسب أمير الركب الأول .

وفيه جاء للسلطان ولد ذكر من زوجته خوند جان كلدى الجركسية ، فسماه أحمد فلما كان يوم سابعه اجتمع سائر الخوندات ونساء الأعيان بالقلعة ، وكان مهما حافلا ، وحمل الزمام جوهر المعينى ، القبة والطير على رأس خوند جان كلدى . وكان لها يوم مشهود .

وفيه تزوج السلطان بخوند مصرباي زوجة الناصر ، وكانت عليه كعب الشوم ولم يسن معها .

وفي ربيع الآخر جاءت الأخبار بأن قصره الذى تولى نيابة الشام قد عصى ، وخرج عن الطاعة ، واستولى على قلعة دمشق ، كما فعل كرتباي الأحمر ، واستمر العصيان يتزايد من قصره حتى كان من أمره ما سنذكره في موضعه . وفيه قبض السلطان على خير بك الكاشف ، فأحضر في الحديد ، فأمر بنفيه الى قلعة المرقب ، فسجن بها ، ثم أطلق ، وجرى عليه من الإنكاد ما لا خير فيه ، وصودر غير ما مرة .

وفيه قدم البدرى محمود بن أجا وقد انفصل من قضاء الحنفية بحلب ، وأتى الى مصر ، وأقام بها ، وكان من أمره ما سنذكره .

وفيه قرر فارس المنصورى نائب دمياط ، في كشف الغريبة ، عوضا عن خير بك الماضى ذكره . وفيه قبض على سليمان بن قرطام وكان من كسار المفسدين بالشرقية ، فلما قبض عليه رسم السلطان بأن يشنكلوه على باب زويلة ، وأقام معلقا ثلاثة أيام بلياليها .

وفيه قبض السلطان على أخت خوند بنت خاص بك زوجة أقبردى فرسم عليها بالقلعة وقرر عليها مالا له صورة ، وقد رافعها أبو المنصور مباشر أقبردى ، وزعم أن أقبردى أودع عندها مالا ، فأقامت في الترسيم حتى أوردت ما قرر عليها . وفعل مثل ذلك بأختها خوند الكبرى زوجة قايتباي ، وقرر عليها مالا له صورة ، ووكل بها خمسة من الطواشية ، حتى أوردت ما قرر عليها ، وباعت أشياء كثيرة من قماشها . وقد حصل عليها ما هو أعظم من ذلك ... وهو أنه في دولة الملك الناصر محمد بن قايتباي

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار بو
هلال الرومى الذى كان مقدم المم
بدمشق وكان لا بأس به .

وفيه ، فى يوم الجمعة ثامنه ، عقد ل
بلاط على خوند أصل باى الجركسي
الناصر ، وأخت الملك الظاهر قانصوه .
بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة
حافلا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بو
الطويل ، الذى كان نائب غزة ، ثم يق
كبير ، وفر مع أقبردى الدوادار لما انك
من مصر وآل أمره الى أن أقام بالقدس
مات . وكان أصله من مماليك الأشرا
وقيل انه مات مسموما . وكان شجاعا
عليه شدائد ومحن ، وقاسى ما لا
بسبب صحبته لأقبردى الدوادار ، وه
سببا لنصرته على قانصوه خمسمائة
بخان يونس ، الذى بقرب غزة .

وفيه قرر على بن طرغل فى نيابة =
وفيه توفى شمس الدين محمد الذى
كان امام أقبردى الدوادار ثم بقى فاضل
وكان يكتب الخط الجيد المنسوب .
الشدائد والمحن ما لا يعبر عنه ، وه
الأحمر بأنواع العذاب .

وفيه توفى الشيخ أحمد المجذوم
يجلس تحت الكوم الذى عند القنطر
وكان من كبار الصالحين .

وفيه خرج الأمير طومان باى الدو
الى الشرقية والغربية ، فسرح فى الب
عشرين يوما ، ثم عاد الى القاهرة ، وه
خيول وجمال وأغنام من العربان .

توجه طائفة من المماليك الجلبان الى دارها ،
وقصدوا أن يهجموا عليها ، ثم قالوا لبعض
الطواشسية ادخلوا قولوا لخوند تنفق علينا ،
لكل مملوك خمسون دينارا ، فلما بلغ خوند ذلك
غيب من البيت . وكان سبب ذلك أنه أشيع عنها
أنها تزوجت بقانصوه خمسمائة فى الخفية ، فلما
قتل قانصوه تحرشت المماليك على خوند وطلبوا
منها النفقة ، كما تقدم . وكان الذى تحرش على
خوند ، جماعة من عصبة أقبردى . فلما بلغ ذلك
الملك الناصر قام مع خوند قياما تاما ، ونادى فى
القاهرة لجميع العسكر حسبما رسم السلطان
المقام الشريف ، أن لا يتوجه أحد من العسكر الى
بيت خوند زوجة الأشرف قايتباى ، ولا يقف لها
على باب ، وكل من خالف مرسوم السلطان شنى
بلا معاودة . فانكف المماليك عن التوجه الى بيت
خوند من حين نادى . وكان تقدم ذكر ذلك فى دولة
الملك الناصر ، وقام بنصرتها بعد ما قصدت أن
تسافر الى المدينة ، مع أن الملك الناصر صادر
خوند فى أيامه بحسن عبارة ، وأخذ منها جملة مال ،
وحصل لها عقيب ذلك طلوع فى وجهها واستمر بها
ذلك العارض حتى ماتت ، كما سيأتى الكلام على
ذلك فى موضعه .

وفى جمادى الأولى ، فى اليوم الثانى منه ، نزل
السلطان الى قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية ،
وبات بها ، فلما أصبح ركب وشق من القاهرة
وزينت له ، ثم طلع من الصليية — والأمراء
والمباشرون قدامه — واستمر فى ذلك الموكب
الحافل حتى طلع الى القلعة .

وفيه قرر ابن النيربى فى نظر الجيش بدمشق ،
وقد سعى فى ذلك بمال له صورة .

وفي رجب تزايدت عظمة الملك الظاهر قانصوه ،
خال الناصر ، فجلس على الدكة التي بالحوش
ونصب سحابة جديدة صنعها من المخمل المذهب ،
وبها رنوك زركش ، فجاءت غاية في الحسن .
فجلس على الدكة والسحابة على رأسه ، وطلع
القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان موكبا
حافلا .

وفي حادى عشر منه تغير خاطر السلطان على
القاضى كاتب السر بدر الدين ابن مزهر ، فقبض
عليه وسجبه بالعرقانة ، ثم طلب أخاه كمال الدين
محمد ، وقرره فى كتابة السر عوضا عن أخيه بدر
الدين .

وفيه قرر سيابى فى نيابة صهيون ، عوضا عن
قنبك الشيخ بحكم فراره عند ابن عثمان ، وخوفه
على نفسه من القتل .

وفيه كان دخول خوند أصل يابى أم الملك
الناصر ، على جان بلاط أمير كبير ، فنزله جهازها
من القلعة فى يوم السبت خامس عشره ، وشق من
القاهرة ، واستمر ينسحب من ضحوة النهار الى
وقت الظهر ، وتوجهوا به الى الأربكية ، فكان عدة
الحمالين أربعائة حمال ، والبعال نحو من مائتى
بغل ... فرجت له القاهرة ، وكان يوما مشهودا .
وكان فيه من الأمتعة والتحف ما يعجز عنه
الواصفون .

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشره نزلت خوند
أخت السلطان فى محفة زركش ، وتوجهت الى
الأربكية ومشى قدامها جماعة من المباشرين منهم
كاتب السر كمال الدين بن مزهر ، وناظر الجيش
عبد القادر بن القصرى ، وصلاح الدين بن
الجييعان نائب كاتب السر ، وآخرون من المباشرين
والطواشبة ، وبعض أمراء عشراوات ، وهم
بالشاش والقماش ، وعدة وافرة من الخاصكية .

فلما وصلت الى باب البيت الكبير الذى
بالأربكية ، فرشت لها الشقق الحرير
تحت حوافر بغال المحفة ، وثرث على رأسها
خفائف الذهب والفضة ، وكان يوما مشهودا ،
ولكن جرى بعد ذلك أمور شتى وأنكاد مترادفة
يأتى الكلام عليها فى موضعها . كما يقال :

أمور تضحك السفهاء منها

ويبكى من عواقبها الليب

وفى شعبان فى يوم السبت سادسه جاءت الأخبار
من القدس بقتل الأمير تانى بك قرا ، وكان مقيما
بالقدس كما تقدم ذكر ذلك . وكان من عصبه
أقبردى ، وفر معه ، فلما استقر بالقدس توجهت
المراسيم بخنفة فخنق وهو بين أولاده وعياله ،
وكانوا توجهوا اليه . وكان قتله يوم الأحد تانى
عشرى رجب ، ودفن بالقدس . فلما جاءت الأخبار
بوفاته تأسف عليه الكثير من الناس . وكان أميرا
جليلا رئيسا حشما لين الجانب قليل الأذى ، كثير
الخير ... ومن آثاره السبيل والصهيرج الذى
أنشأهما برأس سويقة ابن عبد المنعم ، تجاه
الرميلة ، وصرف على ذلك من ماله مالا له صورة .
فلما كمل بناء ذلك قدم هذا السبيل والصهيرج
للسلطان قايتباى ، فصار ذلك يعرف بسبيل
السلطان . ومن آثاره المسجد اللطيف الذى
أنشأه بجوار بيته عند خوخة القردمى . وكان أصله
من مماليك الأشرف اينال ، ورقى فى دولة الأشرف
قايتباى ، وتولى عدة وظائف ، منها تاجر المماليك ،
والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى
حاجب الحجاب ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم
بقى أمير مجلس ... ووقع له من الشدائد والمحن
ما يطول شرحه . وفاته القتل عدة مرار ، وفر مع
أقبردى الى البيرة ، وعدى الى الفرات ، وكان
موصوفا بالفروسية والشجاعة ، ومات وله من

العمر زيادة عن ستين سنة والله أعلم ولما مات
رسمه بهذه الأبيات :

من طالع التاريخ يوما أو فسرا
دروى صروف الدهر عن تنبك فرا
شاع الحديث بحقه فلاجل ذا
خفت بعبرتها الورى مستعبرا
قد خانه ريب الزمان بفعله
والدهر ان بصفو يعود مكذرا
قد كنت أحذر من وقوع حمامه
والآن دمعى كالدماء وقد جرى
لهفى عليه من أمير صارم
فى يوم حرب للعداة مدمرا
لم يقتلوه فوق ظهر جواده
لكن قاتله تعدى وافترى
يا لهف قلبى قد تجرع فقده
ونجددت أحزانه بين الورى
يا لهف فلبسى كم أمير كان فى
عز وجاه فانطوى تحت الثرى
قد غادر الأمراء جور زمانهم
فالحكم للرحمن فيما قدرا
يا رب فاجعل قبرهم فى روضة
واجعل برحمتك الجنان لهم قرا

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الخوaja مصطفى بن
محمود بن رسم الرومى ، توفى ببلاد ابن عثمان ،
وكان لا بأس به . وهو الذى جدد عمارة الجامع
الأزهر ، وصرف على ذلك مالا له صورة من
ماله . وكان متكورا السيرة

وفيه طلع الأتابكى جان بلاط الى القلعة ،
وضمن بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، فان
الأتابكى جان بلاط كان زوج أخت بدر الدين بن
مزهر . فلما ضمنه تسلمه من السلطان على مال
قرره عليه . فلما استقر عنده هرب تلك الليلة فى

مكان بالأزمكية فتشوش الأتابكى جان بلاط
لذلك . ثم عمزوه على بدر الدين بن مزهر ، فقبض
عليه عقيب ذلك ، وآل أمره الى كل سوء .

وفيه توفى ابن السلطان الماضى حديث وضعه ،
وكانت مدة حياته أربعة أشهر وثلاثة عشر يوما ،
فأظهروا عليه الحزن والأسف ، ودفن فى تربة أبيه
التي أنشأها بالصحراء ، فكان كما يقال فى المعنى :
بدا وفى حاله توارى فيا لها طلعة شريه
جوهرة ما علمت الا دموع عيني لها عقيقه
وفيه توفى القاضى شهاب الدين بن الصيرفى ،
وهو أحمد بن صدقة الاسرائيلى الشافعى ، أحد
نواب الحكم بالديار المصرية ، وكان عالما فاضلا
مفنا ، من أعيان النواب ، وله تصانيف ونظم
جيد ، ومات وقد قارب السبعين سنة

وفيه جاءت الأخبار بقتل قراجا نائب سيسى ،
وكان بولى نيابة غزة ، وكان موصوفا بالشجاعة
وفيه توفى الناصرى محمد بن أبى يزيد ، وكان
رئيسا حشما من أعيان الناس

وفيه عين السلطان نيابة حلب للأمير قرقماس
ولى الدين ، فلما قرر فى نيابة حلب ، أخرج عنه
وظيفة رأس نوبة الكبرى ، وقرر بها الأمير
قانسوه الغورى ، ولم يتم أمر قرقماس فى نيابته
بحلب ، وأعد الى مقدمة ألف ، ووقع بعد ذلك
أمور شتى

وفى رمضان عرض السلطان المحاييس من
الرجال والنساء التى بالحجرة ، وعمل مصالح
أرباب الديوان ، وصالح عنهم أرباب الحقوق ،
ووزن عن جماعة من ماله ، وأطلق فى ذلك اليوم
نحو من مائتى انسان ، وضاع للناس بمضى
حقوقها ممن كان له دين على من أطلقه من
المحاييس . فكان كما يقال فى المعنى :

رام نفعاً فضر من غير قصد
ومن البر ما يكون عقوقاً

وفي يوم الاثنين رابع عشره عين السلطان
تجريدة الى الكرك ، بسبب عربان بنى لام ، وقد
تقدم منهم في حق الحجاج غاية الضرر ، وكان
باش العسكر سنباى نائب سيسى أحد المقدمين ،
وجماعة من الجنود ، فخرجوا في أثناء ذلك
اليوم مسرعين .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن قصره نائب
الشام خرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان جملة
واحدة ، وحضر قانصوه بن سلطان چركس ،
المعروف بابن اللوقا حاجب دمشق ، وأخبر أن
قصره نائب الشام صرفه عن الحجوية ، وقصد
القبض عليه ففر منه ، وأخبره بأن قصره نائب
الشام قد استولى على قلعة الشام ، وعلى ما فيها
من المال فلما تحقق السلطان ذلك تنكد الى
الغاية ، واضطربت أحواله ، وأظهر أنه يخرج الى
الشام بنفسه ، وشرع في أسباب ذلك . ثم نزل الى
الميدان وعرض ما عنده من الهجن ، وأمر صلاح
الدين بن الجيعان بأن يحضر قوائم مصروف
الأشرف برسباى عند توجهه الى آمد ... وكل
هذا هيت وتهيت على الأمراء والعسكر . ثم عين
قائى بك أحد الدوادارية أن يتوجه لكشف
الأخبار عن الحقيقة .

وفيه أفطر السلطان ليلة العيد بالقصر الكبير ،
 واجتمع عنده الأمراء وضربوا مشورة في أمر
قصره ، فعد فطوره في الايوان من النوادر .

وفي شوال صادف أن في يوم عيد الفطر قلع
السلطان الصوف في ذلك اليوم ، ولبس البياض ،
 وخرج الى صلاة العيد وهو راكب على فرس
أبيض قرطاسى بسرج فضة بيضاء من غير طلاء ،

وعبادة حرير أبيض ، وخف أبيض ومهاميز بيض ،
حتى قلع الكلفتاه ، حتى المشاية التي في رجله
كانت برغالى أبيض فعد ذلك من النوادر . وكان
لبس البياض فألا عليه ، فانه خلع من السلطنة
عقيب ذلك .

وفيه صلى الأمير طومان باى الدوادار الكبير
صلاة الجمعة مع السلطان بالقلعة فلما انقضت
الصلاة خلع عليه السلطان ، ونزل متوجها للوجه
القبلى ... وكان في تلك الأيام قويت الاشاعات
بأن السلطان يقصد القبض على الأمير طومان
باى ، وكان وقع بينهما في الباطن بسبب قصره
نائب الشام . وكان الأمير طومان باى متواطئاً مع
قصره على السلطان . وكان طومان باى يقصد
التمهيد لنفسه حتى يتسلطن . وقد ظهر مصداق
ذلك فيما بعد كما يقال :

بت في قلوب أسود لا في قلوب رجال
فالكيد للناس لا للجهائم الجهمال

وفيه أشارت الأمراء على السلطان بأن يبعث الى
قصره قاصداً ، وعلى يده مراسيم بأن يكون
على نيابة الشام ، وأن يسلم قلعة الشام الى
نائبها ، ولا يؤاخذ بهما فعل . فعين له أقبای
الطويل ناظر الجوالى فخرج عن قريب .

وفيه خرج المحمل من القاهرة في تجمل زائد
وكان أمير المحمل قانصوه البرجى ، وبالأول جان
بلاط الموتى المحتسب . فلما توجه الى بركة الحاج
استمر المحمل مقيماً بالبركة الى خامس عشرى
شوال ، حتى عد ذلك من النوادر . وسبب ذلك
أن غلبان أمير الركب الأول هرب أكثرهم ،
وتعطلت أحواله بموجب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن قصره قد استولى
على مدنة طرابلس ، وقبض على نائبها بلبساى
المؤيدى وسجنه بقلعة دمشق .

وفي دى الفعدة خلع السلطان على فيت الرحبى ،
حاجب انجباب ، وفسرره فى نياابة طرابلس ،
عوضا عن بلباى المؤيدى ، ولم يتم له ذلك فيما
بعد

وفيه خلع السلطان على شخص من خواصه
بقال له نمر بن جانم ، وقرره فى الحسبة عرصيا
عن جان بلاط الموتى وهو غائب بالحجاز ، فلم
يتنج أمره هذا ، وفبض عليه فيما بعد .
وفيه أنعم السلطان على أنس باى شاد الشراب
خاناه ، وقرره فى تقدمه ألف .

وفيه فى ثالث عترة حضر أقبابى الطويل الذى
توجه الى قصره كما تقدم ، فعاد اجواب على
السلطان بأن قصره مستمر على العصيان ، ولم
يدخل تحت الطاعة . فعنسد ذلك عرض السلطان
العسكر ، وعين تجريدة الى قصره ، وعين بها
من الأمراء المقسدين ثمانية ، ومن الأمراء
الطبلخانات والعشراوات نحو من ثلاثين أميرا ،
ومن المماليك السلطانية ألقى مملوك ، وأظهر
السلطان أنه يخرج الى الشام عقيب ذلك بنفسه .
وفيه جاءت الأخبار بقتل قانى بك أحد
الدوادرية الذى كان توجه الى قصره لكشف
الأخبار ، وكان قد سافر من البحر الملح لموجب
فساد الطرقات .

وفيه قويت الاشاعات أن السلطان أرسل
بالتبض على الأمير طومان باى الدوادر ، وهو
بالصعيد . وكانت هذه الاشاعات من أكبر الفساد
فى زوال ملك الظاهر قانصوه . فلما قويت
الاشاعات بذلك نادى السلطان فى القاهرة بأن
أحدا لا يكتر كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأمير
طومان باى دوادر كبير على عادته . وكان ترك
هذه المنادة أصوب ، وقد تأكد الأمر بذلك .
وفيه هجم المنسر على سوق الوراقين ، وسوق

الهرامزة ، وكسروا عدة حوانيت ، ونهبوا ما فيها
وقتلوا ثلاثة من الغفراء . وكان المنسر نحو من
مائة نفر ما بين مشاة وركاب ، ومعهم فسى
ونشاب ، فنهبوا قماشيا بنحو عشرة آلاف دينار .
وكانت هذه من الوقائع الموهلة .

وفيه كانت وفاة الرئيس نور الدين بن رحاب ،
الغنى الناشد المادح ، فريد عصره ووحيد دهره .
وكان من نوادر الزمان ينظم الشعر ويلحن
الخفائف بالحن عريية ، وكان آخر مغانى الدكة
فى الدخول والطرب ، ولم يجيء بعده أحد فى
الدخول مثله . وقد رثيته بعد موته بهذه الأبيات :

توفى نزهة الأسماع طرا
وصار العيش منا فى ذهاب
وناحت بعده الآلات حزنا
وأظهرت الصراخ مع انتخاب
وأبدى الدف والماصول زعقا
كمن جاء المآثم فى المصائب
وأضحى الناس فى قلق ولم لا

وقد ضاق الوجود بلا زحاح
وفى آخره حضر الأمير طومان باى الدوادر ،
وكان مسافرا الى جهة الصعيد . فلما حضر الى
الجيزة خرج الأمراء والعسكر قاطبة الى ملاقاته ،
فأقام بالجيزة ولم يعد ، فتوجه اليه الأمير طراباى
أحد المقدمين ، وعلى بده صورة حلف عن لسان
السلطان ، أنه لا يشوش عليه اذا قابله ولا يقبض
عليه . فلما توجه اليه طراباى ، لم يشق الأمير
طومان باى بذلك الحلف وأظهر العصيان . فرجع
الأمير طراباى بجواب غير صالح ، وقد تقلب على
الظاهر قانصوه ، خال الناصر ، غالب العسكر .
فلما رأى أحواله مضطربة تحقق وقوع فتنة ،
فأخذ فى أسباب تحصين القلعة ، ونقل اليها أشياء
كثيرة من البقسماط والجبن ، وملا الصهاريج

وقائلة : لم دهتك الهموم
وأمرك متشعل في الأمم ؟

فقلت : ذريني على غصتي
فان الهموم بقدر الهمم

فلما انكسر الظاهر قانصوه لم يجسر الأمية
طومان باي أن يتسلطن ، وكان قدامه الأتابكي
جان بلاط ، فاستمرت القاهرة بلا سلطان يوم
السبت ويوم الأحد . وقد أشيع وجود قانصوه
خمسائة الذي تسلطن فنودى في القاهرة « ان
كان قانصوه خمسائة موجودا فليظهر وله
الأمان » فلم يكن لهذه الاشاعة صحة . فعند ذلك
وقع الخلاف بين الأمراء فيمن يلي السلطنة .
فذكر تاني بك الجمالي ، فلم يرض به العسكر .
ثم ذكر الأتابكي جان بلاط ، فلم يرض به
العسكر . فتعصب له الأمير طومان باي حتى
تسلطن : كما سيأتي ذكره في موضعه .

وكانت مدة الظاهر قانصوه في السلطنة سنة
وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما . وكان ملكا هينا
لين الجانب قليل الأذى ، كثير البر والمعروف ،
وكان مسلوب الاختيار مع الأمراء مهما يقولوا له
يقول : « بخشى » ، فسمته العامة « بخشى » ، كما
سموا الظاهر بلباي « ايش كنت أنا ؟ قل له » .

وكانت أيام الظاهر قنصوه أصلح حالا من
أيام الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباي ...
وقد انصلحت أحوال البلاد الشرقية ، وقل الأذى
من العربان ، وكذلك البلاد الغربية ، ووقع
الرخاء في أيامه في سائر البضائع ، وانكفت الممالك
عما كانوا يعملون من الأذى في أيام الملك الناصر .
وساس الناس في أيامه أحسن سياسة ، وخلق
والناس عنه راضون ... وكانت صفته أبيض اللون

التي بالقلعة ، وفرق السلاح على ممالিকে ، وانتظر
ما يكون من الأمير طومان باي . فلما عدت اليه
الأمراء قبض على جماعة ، منهم الأمير قاني باي
الرماح أمير آخور كبير ، فلما قبض عليه شكه في
الحديد ، وقبض على القاضي عبد القادر القسروي
ناظر الجيش ، وعلى آخرين من الأمراء .

فلما كان يوم الأربعاء ، سادس عشر
ذي القعدة ، عدى الأمير طومان باي من معادي
امبابة ، وطلع من بولاق بمن معه من العسكر ،
وتوجه الى الأزبكية بعد العصر ، وبات بها .
وكان الأتابكي جان بلاط ساكنا هناك . فاجتمع
الأمراء عنده ، وضربوا مشورة في أمر الظاهر
قانصوه ، فوقع الاتفاق على خلع من السلطنة .
فلما كان يوم الخميس ، سابع عشره ، لبس
العسكر آلة الحرب ، وركب الأتابكي جان بلاط ،
والأمير طومان باي ، وبقية الأمراء من الأزبكية
وتوجهوا الى بيت الظاهر ترمبغا ، الذي عند
سوق السلاح بالقبو ، فعند ذلك ركبوا وتوجهوا
لحصار القلعة ، ولم تكن عند الظاهر من الأمراء
سوى جان بلاط الأبح نائب القلعة ، وبعض أمراء
عشراوات ، ومن الجند نحو ألف انسان .
واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين ثلاثة أيام وذلك
على قلة من عنده من العسكر بالقلعة . وكان
الظاهر قانصوه حصن القلعة وسد باب الاصطبل
الذي من جهة باب القرافة .

فلما كان يوم الجمعة بعد العصر ، ملك الأمير
طومان باي باب السلسلة .

فلما كان يوم السبت ، تاسع عشره ، انكسر
الظاهر قنصوه ، وتشتت من كان عنده بالقلعة ،
فلما رأى عين الغلب دخل الحريم وتزيا بزي
النساء ، ونزل من القلعة ، وتوجه الى نحو
الترب ، فاختمى فكان كما يقال :

الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط

هو الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفي . وهو الرابع والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثامن عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد . وكان أصله جركسي الجنس ، اشتراه الأمير يشبك بن مهدي أمير دودار كبير ، وأقام عنده مدة ، وحفظ القرآن . ثم إن الأمير يشبك قدمه مع جملة ممالك إلى الأشرف قايتباي رحمه الله تعالى . ثم أخرج له خيلا وقماشاً وصار من جملة الممالك الجبدارية ، ثم بعد مدة بقي خاصكيا . ثم بقي دودار سكين ، وسافر أمير حاج بالركب الأول وهو خاصكي غير ما مرة ، ثم أنعم عليه السلطان بامرية عشرة في سنة أربع وتسعين وثمانمائة ، وسافر إلى الحجاز أمير ركب المحمل وهو أمير عشرة ، وقرر في نظر الخاقان ، ثم توجه قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم في سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وكان يومئذ أمير طبلخاناه تاجر الممالك . ثم بقي مقدم ألف في آخر دولة الأشرف قايتباي ، ثم بقي دودارا كبيرا عوضا عن أقبردي في دولة الناصرية . ثم قرر في نيابة حلب وخرج إليها . فلما تولى السلطنة الظاهر قانصوه نقله إلى نيابة الشام عوضا عن كرتباي الأحمر بحكم وفاته . ثم حضر إلى القاهرة وقرر في الأتابكية عوضا عن الأتابكي أذربك بحكم وفاته . ثم تزوج بخوند أصلباي أم الملك الناصر ، واستمر على ذلك حتى وثب طومان باي على الظاهر قانصوه وخلعه من السلطنة وانكسر ، فوقع الاتفاق على سلطنته على كره من الأمراء والعسكر .

بميل إلى الصفرة ، نحيف الجسد قصير القامة ، أسود الشعر عربي الوجه ، مستدير اللحية جميل الهيئة ، حسن الشكل في المنظر ، جركسي الجنس ، فليل الكلام بالعربي ، الغالب عليه الجلوية ... تولى الملك وله من العمر دون الثلاثين سنة ، وكان وافر العقل ثابت الجنان ، مع سكون وعدم رهج .

وأما ما عد من مساويه : فقتله الأمير ثاني بك قرا من غير ذنب ، أرسل بخنقه وهو بين عياله وأولاده بالقدس . ومنها أنه صادر خوند الخاصبكية زوجة أستاذه الملك الأشرف قايتباي ، ووكل بها طواشيته حتى باعت قماشها مثل التركة وأوردت ما قرر عليها من المال . وصادر أختها زوجة أقبردي ، ووكل بها بالقلمة ، وطالبها بمائة ألف دينار ، وزعم أن أقبردي أودع عندها مالا . وصادر أخاها الناصري محمد بن خاص بك ، وعرضه للضرب غير ما مرة ، وألزمه أن يسافر أمير حاج بالركب الأول من ماله ، ولم يعطه شيئا كعادة أمراء الحاج من النفقة . ومنها أنه ظلم جماعة من أعيان المباشرين من رجال ونساء ، وأخذ أملاكهم غصبا ، وهدمها بسبب البيت الذي أنشأه على بركة الفبل لأجل أخيه قائم . وفعل مثل ذلك بالتربة التي أنشأها بالصحراء ، وضيق بها الطريق على المارين هناك ، وأعمى ترب الناس التي بجواره . ومنها أنه كان متواطئا مع الأمراء على قتل الملك الناصر محمد ابن أخته ، ولولا تراخيه لما قدروا على قتله . ومنها أنه رسم بشنق بدر الدين بن مزهر ، كاتب السر ، حتى شفع فيه طومان باي الدودار . ومنها أنه كان غير عفيف الذيل على ما قيل والله أعلم .

وكانت صفة مبايعته : أنه لما نسحب الظاهر قانصوه من القلعة ، واختفى كما تقدم ، أقامت القاهرة يومين بغير سلطان . فلما كان يوم الاثنين ثانى ذى الحجة ، صعد الأمراء والعسكر الى باب السلسلة ، واشتوروا فيمن يلى السلطنة ، وكانت قصد الأمير طومان باى الذى نسلطن فيما بعد ، ولكن كان قدماه جان بلاط ، وتانى بك الجمالى أمير مجلس ، فلم يجسر أن يتسلطن . وكان العسكر غير راض بجان بلاط ، فما وسع طومان باى الا أنه تعصب له وسلطنه ... فأرسل خلف أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة — وهم زين الدين زكريا الشافعى ، والبرهان بن الكركى الحنفى ، وعبد الغنى بن نقى المالكى ، والشهاب الشيشينى الحنبلى — فلما تكامل المجلس عملوا صورة محضر لخلع الظاهر قانصوه ، فخلع من السلطنة فى الحال . ثم ان الخليفة بايع الأتابكى جان بلاط بالسلطنة ، وتلقب بالأشرف ، وكنى بأبى النصر ، على لقب أستاذه الأشرف قايتباى . فلما تمت بيعته ، أحضر اليه شعار الملك ، وهو الجبة والعمامة السوداء ، فأقيض عليه ذلك الشعار ، وقدمت اليه فرس النوبة ، فركب من سلم الحراقة الذى يباب السلسلة ، ورفعت على رأسه القبة والطيء ، وركب الخليفة عن يمينه ، ومشى الأمراء بين يديه ... واستمر فى ذلك الموكب حتى طلع من باب سر القصر ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، ثم خلع على الخليفة وألزمه أن ينتقل من يومه ويسكن بالقلعة . ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء . وكان ملء العيون ، كفتا للسلطنة ، وافر العقل سديد رأى .

وفى حالة سلطنته رسم بالافراج عن الأمير قانى

بك الرماح أمير آخور كبير ، وكان مشكوكا فى الحديد عند الأمير طومان باى الدوادر ، وقد قاسى من البهدة والأنكاد ما لا يعبر عنه . وكذلك الأمير طراباى عنده فى الترسيم أيضا . فخلع السلطان على قانى باى الرماح ، وأعادته الى الأميراحورية الكبرى ، وأطلق طراباى وأنس باى شاد الشراب خاناه ، وأبقاهما على وظائفهما . ثم انه عين الأتابكية الى قصره نائب الشام ، وكان يظن أنه يدخل تحت طاعته ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، وقيل انه تسلطن فى ساعة الشمس .

وفى يوم الثلاثاء ثالثه جلس فى شباك الدهيشة ، وعرض ممالك الظاهر قانصوه ، ومسح منهم جماعة . وفيه ، فى ذلك اليوم ، بعث الأمير طومان باى الدوادر نحو من ثلثمائة فرس من خيوله الخاصة التى كانت عنده لما حضر من الشام .

وفى يوم الخميس خامسه فرق السلطان الأضحية على الأمراء والجنود ومن له عادة . ثم خلع على بدر الدين بن مزهر وأعادته الى كتابة السر ، وعزل أخاه كمال الدين عنها . وأعيد الشهابى بن ناظر الخاص الى نظر الجيش ، وعزل عبد القادر القسروى وأعادته فى الترسيم ، وقرر عليه مالا له صورة . وخلع على جلال الدين بن الصابونى وأعادته الى نظر الخاص . وعزل شهاب الدين بن الرملى عنها وسلمه الى طراباى على مال قرر عليه .

وفيه خلع السلطان على قيت الرحبى ، وأعيد الى حجوية الحجاب ، وبطل سفره الى طرابلس نائبا . وخلع على أزبك الناشف ، وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن جان بلاط الأبح ، بحكم اختفائه . ثم عين قصره الصغير بأن يمشى الى قصره نائب الشام بالبشارة بسلطنته ، وظن أن قصره سر بسلطنته ، فما ازداد الا عصيانا . وأرسل اليه

بالحضور ليلى الأتابكية ، فلم يجب قصره الى ذلك ، وتمادى على ما هو عليه من العصيان .

وفيه قبض السلطان على تمر قريب السلطان الظاهر قانصوه ، الذى كان محتسبا ، ووكل به وقرر عليه مالا . وكذلك قبض على تانى بك الخازندار وفرر عليه مالا .

وفيه عين السلطان لدولات باى مقدمة ألف ، وكذلك برد بك المحمدى ، وكذلك خاير بك أخو قانصوه البرحى .

وفيه قوى الفحص والتفتيش على الظاهر قانصوه ، وصار والى الشرطة فى كل يوم وليلة يكبس الحارات ويهجم البيوت ، وحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل من الكبس والهب . فلما طال الأمر قبض السلطان على الطواشى مسك وضربه ، فأقر بأن زوجته خوند جان كلدى تعرف طريقه فبعث اليها السلطان الأمير طراباى فسألها عنه ، فلم تقر بشئ . فأحضر اليها المعاصير وعصرها فى رجليها فلم تقر بشئ . فأحضر الوالى وعاقب الجوارى ، وآخرين من جماعتها فلم يقرروا بشئ .

ولما اشتد الأمر بسبب ذلك ، حضر شخص من أولاد الناس يقال له محمد بن اينال — وكان ساكنا فى سويقة صفية عند الزير المعلق — فأسر للأمير أزدمر ، أحد الأمراء المقدمين ، أن الظاهر قانصوه عنده فى بيته فلما تحقق الأمير أزدمر ذلك ، طلع وأعلم السلطان ، فأرسل جماعة من الخاصكية مع والى الشرطة الى ذلك المكان ، فقبضوا عليه ، وأركبوه على بغل — وعلى رأسه زنط ، وعليه كبر أبيض — وأتوا به على بركة الناصرية ، وقاسى من البهدة والأنكاد ما لا يعبر عنه . وقيل انه وقع من فوق البغل فى أثناء الطريق وتعترس عليهم ، فأركبوه غصبا . وكان

القبض عليه فى يوم الأحد ثانى عشرى ذى الحجة وكانت مدة اختفائه أربعة وعشرين يوما ، فجرى عليه هذا كله وهو ساكت لا يتكلم ، فكان كما يقال :

الصبر أولى بوقار الفتى
من قلق يهتك ستر الوقار
من لازم الصبر على حاله

كان على أيامه بالخيار واستمر على هذه الحالة حتى أتوا به الى بيت أزدمر فلما رآه قام له وأدخله الى البيت فلما كانت ليلة الثلاثاء خامس عشرى رسم السلطان باخراج الظاهر الى ثغر الاسكندرية فسجن بها وقيل ان السلطان جان بلاط أنعم عليه بحمسة آلاف دينار لكونه كان صهره زوج أخته . وكان المتسفر عليه الأمير أزدمر بن على باى ، فأوصله الى ثغر الاسكندرية وسجنه بها ، وعاد وخمدت فتنة الظاهر كأنها لم تكن .

وفيه قامت الممالك على الأشرف جان بلاط بسبب نفقة البيعة ، فلما رأى مهم الجد ، أخذ فى أسباب جمع الأموال ، فأطلق فى الناس نار المصادرة ، وقبض على جماعة من الأعيان ، ووزع على قاضى القضاة مالا له صورة ، فشفع الخليفة فى قاضى قضاة المالكية عبد الغنى بن تقى ، فعفى عما قرر عليه لفقره .

وفيه قبض السلطان على الحاج رمضان المهتار ، وسلمه الى طراباى فعاقبه ، وعصره واستخلص منه ثلاثين ألف، دينار . وقد صودر غير ما مرة وهذه آخر مصادراته ، فباع جميع ما يملكه حتى بيوته وشوار نسائه ، وانكشف حاله جملة واحدة . وكان رئيسا حشما ، أقام فى مهترته بالطشبخاناه نحو من ثلاثين سنة ، ونال من العز والعظمة فى دولة الأشرف قايتباى ما لا رآه غيره من المهاترة .

قف وقفة وانتظر عند الامام ترى
جيوش أجفائه بالسود قد كسرت

ومن توفد نيران الحشيش عدت
عياه ترمى جمارا كلسا نفرت

وفي هذه السنة اقطع البلسان من مصر وهو
البلسم ، وكان من آثار عيسى بن مريم عليهما
السلام ، وكانت الفريج يجيئون من أقصى البلاد
حتى يشتروا من دهن هذا البلسم ويتغالوا في ثمنه .
وفد أحضر حب البلسان البري من الحجاز وزرعوه
بأرض المطرية ، وعالجوه فلم ينبت . واقطع من
مصر بالكلية ، كأنه لم يكن قط بعين تسس . وهو
أجل نبات بها وهذا لم يتفق قط . وكان قبل ظهور
الاسلام بمدة طويلة ، وكان زكى الرائحة أشبه
شيء بورق الملوخية ، وكان دهنه ينفع للأمراض
الباردة ، كوجع الظهر والركب وغير ذلك من
الأمراض الباغية . وكان يستخرج دهن هذا
البلسم في رابع عشر بشنس القبطي ، وكان في
الزمن القديم يحضر يوم استخراج دهنه بعض
الأمراء ، وقيل الخازن دار الكبير وأجود ما طبخ
دهنه في برمهات ، وكان يزرع حبه في بؤونة الى
هاتور ، وكان معدودا من جملة محاسن مصر ،
وكان اقطاعه من مصر في رأس القرن العاشر .
ومن حوادث هذا القرن أيضا الحب الفرنجي ،
أعاذنا الله منه ، فثما في الناس جدا ، وقد أعيا
الأطباء أمره ، واستمر يعرض للناس الى الآن .

سنة ست وتسعمائة (١٥٠٠ - ١٥٠١) :

فيها كان خليفة الوقت المستمسك بالله أبا الصبر
يعقوب الهاشمي الأيوبي ، والسلطان الملك
الأشرف أبا النصر جان بلط بن يشبك الأشرفي .
والقضاة الأربعة على حكم ما تقدم . وكانت
الإتابكية شاغرة . وقد تعينت لقصروه نائب
الشام .

وفيه اشتد الأمر على الناس بسبب المصادرات ،
وفاسى أعيان الناس من البهدة والأنكاد ما لا يعبر
عنه . وكان المتكلم في أمر هذه المصادرات بدر
الدين بن مزهر كاتب السر ، فأظهر النتيجة لصهره
الأشرف جان بلط ، وحصل منه للناس عاية الضرر
الشامل . وشوش على الكثير منهم . وقد عقب
ذلك عليه حتى كان من أمره ما سنذكره . وعمت
هذه المصادرة طائفة اليهود والنصارى وجماعة من
أعيان التجار والطواشية ، منهم مسك ومحسن
ومختص وغيرهم ، وكانت حادثة مهولة .

وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على خير بك
العلائي أحد خواصه ، وعلى جانم المحمدي
الظاهري خشقدم ، وعلى على باي دوا دار خشكلدي
البيسقي ، وآخرين من الخاصكية .

وفي ليلة الجمعة سبع عشرية وقعت بالقاهرة
زلزلة خفيفة بعد العشاء ، وأقامت نصف درجة ،
وقد شاهدوا بعض النجوم في السماء تتناثر .

وفيه نزل السلطان وتوجه نحو تربة الأشرف
قايتباي ، فزار قبره ثم توجه الى باب النصر ،
وكشف عن عمارة مدرسته التي أنشأها هناك . ثم
دخل من باب النصر وشق المدينة ثم أتى الى بيت
الأشرف قايتباي الذي أنشأه ببركة الفيل ،
فكشف عن زوجته خوند أم الملك الناصر ، وكانت
مقيمة هناك فزارها ، ثم عاد الى القلعة

وفيه أعيد الطواشي محسن كما كان ، وقد
قاسى من الأنكاد ما لا خير فيه

وفيه كانت وفاة صاحبنا تقي الدين بن محمود
أحد أعيان الشهود بالمدرسة الصالحية ، وكان
رئيسا حشدا عسيرا للناس ، فكه المحاضر ، لكنه
كان ملسنا ، كثير التعلق بالناس ، لا بفوته أحد
من كبير وصغير ، وكانت أعيان الناس يخشون من
كلامه ولسانه ، حتى قضاة القضاة وقد هجاء
الأديب زين الدين ابن النحاس بقوله فيه :

وفي يوم الثلاثاء ، مستهل المحرم ، كان صعود خويد أصلباي ، زوجة الأشرف جان بلاط ، وهي أم الناصر وسرية الأشرف قايتباي ، وأخت الظاهر قانصوه ، فكان يوم صعودها الى القلعة يوما مشهودا . فشقت من الصليبة ، وهي في محفة زركش ، وحولها الخدام من أعيان الطواشية ، وقدامها أعيان المباشرين ، وجماعة من الخاصكية نحو من خمسين انسانا ، وهم بالشاش والقماش ، وجماعة من الممالك نحو من مائة انسان ، وبأيديهم العصي يفسحون الناس . فاستمرت في هذا الموكب الحافل حتى صعدت الى القلعة ، ومعها نحو من مائتي امرأة على مكارية .

وفيه فرق السلطان نفقة البيعة على العسكر ، وقد جمع هذا المال من وجوه الظلم والمصادرات . ففرق على جماعة مخصوصة من العسكر ، وقطع للأكثر من الجند ، وأولاد الناس وغيرهم .

وفي يوم الخميس ثالثه حضر قصره الصغير ، الذي كان قد توجه الى قصره نائب الشام بيشارة سلطنة الأشرف جان بلاط . فلما عاد أخبر أن قصره نائب الشام باق على عصيانه ، ولم يدخل تحت طاعة الأشرف جان بلاط ، ولم يلبس خلعتة ، ولا قبل له الأرض . فلما تحقق السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وكان يظن أن قصره يدخل تحت طاعته ، فجاء الأمر بخلاف ذلك .

وفي يوم الجمعة رابعه صلى السلطان صلاة الجمعة ، وجلس بباب الستاره ، وخلع على الأمير تاني بك الجبالي ، وقرره في الأتابكية عوضا عن نفسه . وكان السلطان آخر الوظيفة لقصره ، فلما تمادى على عصيانه قرر بها تاني بك الجبالي ، وخلع على الأمير طومان باي ، وقرره في امرية السلاح ، مضافا لما بيده من الدوادرية الكبرى . وقرره أيضا في الوزارة والاستادارية ، وكشوفية

الكشاف — كما كان الأمير يشبك بن مهدي — فمظم أمره جدا ، وصار صاحب الحل والعقد في تلك الأيام .

وفيه استمر قرقماس بن ولي الدين في ولاية حلب كما قرره الظاهر قانصوه . وقرر برد بك الطويل في نيابة طرابلس عوضا عن قيت الرحبي الذي كان تعين اليها . وقرر قانصوه بن سلطان چركس المعروف بابن اللوقا في نيابة حماه ، وكان قرره قبل ذلك في نيابة غزة . ثم بطل أمر هؤلاء النواب جميعا . وحدثت أمور بعد ذلك يأتي الكلام عليها في موضعها .

وفي يوم السبت خامس المحرم ، الموافق لثامن مسرى ، وفي النيل المبارك ، وكسر يوم الأحد سادس المحرم . فلما وفي توجه الأمير طومان باي الدوادر ، وفتح السد على العادة ، فأظهر في ذلك اليوم غاية العظمة ، وفرق على المتفرجين نحو من مائتي مجمع حلوى ، ومائتي مشنة فاكهة ، حتى فرق البطيخ الصيفي ، ونثر للعوام فضة لما أراد أن يركب عند السد ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء وكان له يوم مشهود وكان هذا آخر فتحة للسد . وعقب ذلك تسلمن ، وجرت عليه أمور يأتي الكلام عليها . فابتهج الناس بيوم الوفاء لكون النيل كان وفاؤه مسرعا ، وحصل به غاية النفع ، وكان نيلا عاليا مباركا ، فكان كما يقال :

كأن في يوم الوفا نيلنا

أتقن علم الحرف بالضبط

اذ بالصبا صفحات خلجانه

تجدولت بالكسر والبسط

وفيه تكلم وسائط السوء مع السلطان في اعادة وظيفة نظر الأوقاف . فلما عرضوا ذلك على الأمير طومان باي ، لم يوافق على اعادة هذه الوظيفة . وكان الملك الناصر أبطلها بواسطة

كرتبای الأحمر . فلما توجه كرتبای الأحمر الى الشام ، وطاش الملك الناصر بعده . سعى محمد ابن العظمة الذى كان ناظر الأوقاف فى اعادته الى هذه الوظيفة . وكان الساعى له عبد القادر البواب بواب الدهيشة ، فقرره السلطان فى نظر الأوقاف . فأقام بها مدة يسيرة ، وضح منه الناس ، فشكوه للملك الناصر فقبض عليه ، وضربه ضربا مبرحا ، ونفاه الى قوص . وقد تولى هذه الوظيفة غير ما مرة ولم ينتج أمره ، وقد تولاه جماعة كثيرة . منهم شخص يسمى الفار الوكيل فلم ينتج أمره ، وتولى بها أيضا شرف الدين بن البدرى حسن فلم ينتج فيما تقرر عليه من المال . وقد تولاه جماعة كثيرة ، ولم يمكنهم السداد — وهى وظيفة شر وظلم — فشكر الناس فعل الأمير طومان باى الدوادار على ابطال هذه الوظيفة فى تلك الأيام المسيئة .

وفيه قبض السلطان على شمس الدين بن مزاحم ناظر الاصطبل ، وقرر عليه مالا له صورة يورده للخزائن الشريفة .
وفيه عاد سنبای نائب سيسى أحد المقدمين ، وكان توجه الى الكرك لقتال بنى لام ، وعاد من غير طائل .

وفيه اجتمع السلطان بالأمراء وضربوا مشورة فى أمر قاصروه نائب الشام ، فأشاروا على السلطان بأن يرسل إليه قاصدا ، فعين شخصا من الأمراء العشراوات ، وهو أزدرم الفقيه ، وعين معه الأمير أصبای فتوجها اليه عن قريب . وفى أثناء ذلك حضر خاير بك الكاشف الذى كان الظاهر نفاه ، وفر من أثناء الطريق وتوجه الى قصره ، وأظهر العصيان معه ... فلما بلغه سلطنة الأشرف جان بلاط ، فر من عند قصره ودخل تحت طاعة

الأشرف جان بلاط . فلما حضر خلع عليه ، ووعدته بتقدمة ألف .

وفى خامس عشره كان دخول الحاج الى القاهرة ، وقد حصل لهم مشقة زائدة ، وعوقبهم العرب حتى فات ميعاد دخولهم .

وفيه تعين تمربای خازندار الأمير طومان باى ، وأظهر للسلطان أنه يروم الصلح بينه وبين قصره ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، وانما أرسل تمربای فى عمل مصلحة نفسه ، وقد ظهر ذلك فيما بعد ، وتلاعب بالأشرف جان بلاط ، وهو بظن أنه له من الناصحين وهو بضد ذلك . كما يقال فى أمثال « الصادح والباغم » :

جهد البلاء صجة الأضداد
كأنها كى على الفؤاد
ومنها :

كذلك من يستنصح الأعداى
يردونه بالغش والفساد
ومنها :

أعظم ما يلقي الفتى من جهد
أن يتلى من جنسه بالضد
وفيه جاءت الأخبار بأن قصره قد استولى على غزة وأعمالها ، والقدس وغير ذلك من النواحي .

وفى صفر عظم أمر الأمير طومان باى جدا ، وتصرف فى أحوال المملكة كما يختار ، وصار الأشرف جان بلاط معه كالمحجور عليه ، لا يقضى أمرا دونه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن دولات باى نائبها أظهر الطاعة للسلطان ، وأنه ليس مع قصره نائب الشام . وهذا كله حيل وخداع وترتيب من

الأمير طومان باى . حتى كل عزم السلطان عن ارسال بجريده الى قاصروه نائب الشام . وكانت آحواله كلها معكوسة ، وصار طومان باى يمهّد نفسه فى الباطن .

وفيه توعك قاضى القضاة زين الدين زكريا وحصل له ضعف فى بصره ، فأغلق عليه بابه ، وأظهر أنه قد عزل نفسه عن القضاء ، فلم يلتفت السلطان اليه .

فلما كان يوم الاثنين عشريه خلع السلطان على محيى الدين عبد القادر بن النقيب وقرره فى قضاء الشافعية ، عوضا عن القاضى زكريا بحكم انفصاله عنها ، فكانت مدة ولاية الشيخ زكريا فى قضاء الشافعية نحواً من عشرين سنة . فانه تولى فى دولة الأشرف قايتباى فى سادس رجب سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وعزل فى صفر سنة ست وتسعمائة . وهذه المدة لم تقع لأحد من قضاة الشافعية ، فى ولاية واحدة غيره ، فعّد ذلك من النوادر . وسيمود الى القضاء ثانياً عن قريب . فلما تولى عبد القادر بن النقيب ، شق على كل أحد من الناس ولايته ، ولاموا السلطان على ذلك . وكان يومئذ فى الشافعية من هو أولى بالقضاء منه . ولكن سعى بمال له صورة حتى تولى على كره من الناس فكان كما يقال دوييت : فى مصر من القضاة قاض وله

فى آكل موارث اليتامى وله

ان رمت عدالة فقم مجتهدا

من عد له دراهما عدله

وهو أول قضاؤه بصر ، وقيل انه سعى بسبعة آلاف دينار حتى تولى ، وسيعزل عن قريب . وفيه جاءت الأخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف للمسلمين ، وقالوا

من دخل فى دننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه . فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ثم ثار عليهم المسلمون ثانياً وانتصفوا عليهم بعض شئ . واستمر الحرب ثائراً بينهم ... والأمر لله تعالى فى ذلك .

وفى ربيع الأول نزل السلطان الى بيت الأمير طومان باى ، وترجل ونزل عن فرسه ، ودخل هو واباه الى البيت ، وأقام عنده ساعة يتحدثان فى أمر قاصروه ثم ركب وطلع الى القلعة . وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلاً وهو أول موالده .

وفيه ، فى يومه ، عين السلطان خير بك أخا قانصوه البرجى ، ومعه جماعة من العسكر ، وأمرهم أن يقيموا بغزة ، خشية من قاصروه أن يطرق غزة على حين غفلة . فخرج خيربك والعسكر مسرعين .

وفيه ماتت خوند حبيبة ابنة الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقيق ، وهى زوجة الأمير طومان باى الدوادار ، وكانت جنازتها حافلة .

وفيه عين السلطان الأمير سودون العجمى ، أحد المقدمين ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وعين دولات باى قرموط والى القاهرة بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وعين تجريدة الى قاصروه نائب الشام . وقد تمادى على العصيان والخروج عن الطاعة ، واضطربت أحوال البلاد الشامية ، وامتنع ورود القماش والفاكهة وغير ذلك مما كان يجلب من البلاد الشامية ... فلما عرض العسكر ، عين نحواً من ألفى مملوك ، ومن الأمراء المقدمين أحد عشر أميراً . وكان الباش على هؤلاء الأمراء المقر السيفى طومان باى دوادارا كبيراً ،

وأمر سلاح ، ووزيرا واستادارا ، وكاشف
الدشاف ، ومشير المملكة ، وما مع ذلك من
الوظائف .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وأنفق عليهم ،
وبعث نفقة الأمراء ، ثم استحثهم على الخروج
بسرعة ، ورسم لهم أن يخرجوا شيئا بعد شيء .

فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشره ، خرج
جماعه من الأمراء الطبلخانات المعينين في هذه
التجريدة فكان جاليش العسكر قيت الرحبي
حاجب الحجاب ، واصطمر بن ولى الدين أحد
المقدمين ، وسودود الدوادار أحد المقدمين ، وخرج
صحبهم خمسمائة مملوك من الممالك السلطانية .
وفيه قرر الأمير قاد بردى اليوسفى في شادية
الشرابخانة مع امرية أربعين ، وكان من خواص
الأمير طومان باى الدوادار ، وقرر قليج في نيابة
البيرة ، ثم لم يتم له ذلك وقرر في نيابة
الاسكندرية ، ثم نفى في دولة العادل طومان باى
الى البلاد الشامية .

وفيه قرر الشيخ صنطباى في نظر المدرسة
السنقرية التى بباب النصر وأخرج النظر عن
قاضى القضاة الشافعى بأمر السلطان .

وفيه قرر السلطان أنس باى الذى كان شاد
الشرابخانة في تقديم ألف ، وكان من خواص الأمير
طومان باى .

وفيه قرر طقطباى في كشف أسبوط ، وصرف
عنها يوسف النوام وقرر جانم المحمدى الحشقدى
في كشف منفلوط ، وصرف عنها حيدر السيفى
أزبك اليوسفى .

وفي يوم السبت مستهل ربيع الآخر خرج من
تعين من النواب المقدم ذكرهم ، وهم قرقماس
ابن ولى الدين المعين لنيابة حلب وبرد بك الطويل

المعين لنيابة طرابلس ، وقانصوه ابن سلطان
جركس ، المعروف بابن اللوقا ، المعين لنيابة حماه ،
وقد تعينت لدولات باى نائب حلب نيابة الشام ،
عوضا عن قصروه اذا قبض عليه . وكانت هذه
التراتب كلها في البطل ، وآل الأمر الى خلاف ذلك
كما يأتى الكلام عليه في موضعه .

وفي يوم الاثنين رابعة خرج المقر السيفى طومان
باى أمير سلاح وما مع ذلك فلما خرج طلب
طلبا حافلا حتى رجت له القاهرة . فلما طلع الى
القلعة ، أفاض عليه السلطان خلعة حافلة ، وهى
فوقانى حرير أزرق بوجه أخضر بطرز بلباغوى
عريض ... قيل كان طوله ثلاثة أذرع في عرض
ذراعين ونصف من الذهب الخالص البندقى ، وكان
ما دخل فيه ثمانمائة مثقال بحيث لم يعمل قط مثله
ولا سمع بمثل ذلك . وكان الأشرف جان بلاط
يقاقل على رضا الأمير طومان باى بكل ما يمكن ،
ومع هذا كان الأمير طومان باى يضمر له كل
سوء فكان لسان حال جان بلاط يقول :

أقاسى المنون لنيل المنى

ويا ليت هذا بهذا نفى !

وكان الأمير طومان باى باغيا على الأشرف جان
بلاط ، فكان كما يقال :

والغدر بالعهد قبيح جدا

شر الورى من ليس يرعى عهدا

فلما خرج كان صحبتة من الأمراء المقدمين
فانى باى الرماح أمير آخور كبير ، والأمير قانصوه
الغورى رأس نوبة كبير ، والأمير أزدمر بن على
باى أحد المقدمين ، وأنس باى أحد المقدمين .
فكانوا بمن تقدمهم من الأمراء المقدمين أحد عشر
أميرا ، ومن الممالك السلطانية نحو من ألفى مملوك
وزيادة . وكانت هذه التجريدة المعينة الى

قصوره نائب الشام ، تعادل تجريدة ابن عثمان ،
وفد تقدم ذكر ذلك في دولة الملك الأشرف
قايتباي .

فلما شق الأمير طومان باي من القاهرة كان له
يوم مشهود ، وارفعت له الأصوات بالدعاء ،
وكان محبوبا للناس ، ولا سيما العوام ، فلهج
الناس بأنه سيعود سلطانا ، وكان الأمر كذلك .
واستمر في ذلك الموكب حتى نزل بالريدانية في
الوطاق فأقام به أياما . وقيل ان السلطان نزل
اليه هناك في الخفية تحت الليل ، وجلس عنده
وتحدثا فيما يكون من أمر قصره ، وأنعم عليه
السلطان بأشياء كثيرة ، من مال وقماش وتحف
حتى بأحجار حيوانية لمنع السموم القاتلة ، ثم
ودعه وطلع الى القلعة . وكان يظن أن الأمير
طومان باي ناصحا له ، وكان الأمر بخلاف ذلك .

وفيه من الحوادث أن السلطان تغير خاطره
على القاضي كاتب السر بدر الدين بن مزهر ،
فقبض عليه وعلى حاشيته وسجنه بالعرقانة ،
وضربه ضربا مبرحا غير ما مرة ، وسبب ذلك أن
السلطان لما صادر الناس كما تقدم ، نذب القاضي
بدر الدين الى ذلك ، فأظهر من الظلم والعسف
والتشويش على الناس ما يطول شرحه ، وأظهر
النتيجة في ذلك للأشرف جان بلاط ، فانه كان
صهره ، فكثر الدعاء عليه وأخذ الله من الجانب
الذي يأمن اليه ، وكان كما يقال :

فكان كالمتمنى أن يرى قلعا

من الصباح ، فلما أن رآه عمى

ثم انه قرر عليه مالا ، وأقام في العرقانة حتى يورد
ما قرر عليه من المال ، وكان من أمره ما سنذكره
في موضعه .

فلما كان يوم الخميس ثاني عشره خلع

السلطان على صلاح الدين بن يحيى بن شاعر بن
الجيغان ، وقرره في كتابة السر ، عوضا عن بدر
الدين بن مزهر ، بحكم صرفه عنها . وهذه آخر
ولايته لكتابة السر ، فلم يعد اليها بدر الدين
بعد ذلك .

وفي ليلة الجمعة ثالث عشره خسف جرم القمر
خسوفًا تاما ، وأقام في الخسوف الى قريب
التسبيح ، وغرب وهو مكسوف .

وفيه توفي القاضي جلال الدين بن الأمانة أحد
نواب الشافعية ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن
عبد العزيز ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ،
وفاته منصب القضاء غير ما مرة ، وهو آخر من
روى صحيح مسلم عن الزيتي الزركشي بالسماح ،
وكان قد طعن في السن وقارب التسعين من العمر .
وفيه نودي من قبل السلطان بإبطال ما تجدد
من المكوس والمظالم الحادثة من بعد موت
الأشرف قايتباي .

وفيه عاد تمر باي خازندار الأمير طومان باي
الدوادر الذي كان توجه الى قصره نائب الشام ،
ليمشي بينه وبين السلطان بالصلح ، فلم يوافق
قصره على ذلك .

وفيه توفي أصباي الأشرفي قايتباي ، وكان أحد
الدوادرية ، وكان لا بأس به

وفي جمادى الأولى ، في يوم الاثنين خامسه ،
وصل هجان من الشام في الخفية ، وعلى يده
مكاتبات الى تمرباي خازندار طومان باي ،
ليفرقها على الأمراء . فكان مضمونها أنه تسلطن
بالشام وتلقب بالملك العادل . واستفاض هذا
الكلام بين الناس وفشا ... فلما فرق تمرباي
المكاتبات على الأمراء خاف على نفسه ، ففر تحت
الليل ، وستر الله عليه حتى خرج من القاهرة .

وفيه جاءت الأخبار مفصلة بصحة ما جرى . وهو أن العسكر لما وصل الى الشام ، نزل في مكان يسمى سميع بالقرب من دمشق ، فركب قصره نائب الشام في نفر قليل من عسكره ، وأظهر أنه طائع ، فاطمأن له العسكر ، وكان غالب الأمراء خشداً شينيه . فلما حضر اليهم دخل معهم الى الشام ، واجتمعوا في القصر الأبلق الذي في الشام بالميدان . ولما حضر قصره نائب الشام ذكروا له أنه يطلع الى القلعة ويقرأ مراسيم السلطان ، فطلع وطلع الأمراء الى القلعة . فعند ذلك قرأوا عليه مراسيم السلطان ، فلم يلتفت الى ذلك . ثم تفاوض هو والأمراء في الكلام ، ثم ثارت فتنة كبيرة بالقلعة ، ثم أمر قصره والأمير طومان باي بالقبض على جماعة من الأمراء ، وهم : قرقاس ابن ولي الدين نائب حلب الذي قسر ربها ، وأزدر بن علي باي أحد الأمراء المقدمين ، وخاير بك أخو قنصوه البرجي ، أحد الأمراء المقدمين ، وسودون بن يشبك الدوادار أحد الأمراء المقدمين ، وقانصوه بن سلطان جركس الذي قرر في نيابة حماه . وقبض على آخرين من الأمراء الطبلخانات والعشراوات . فلما قبض عليهم قيدهم وسجنهم بالقلعة بدمشق .

وفي أثناء ذلك حضر الى دمشق دولات باي بن أركماس نائب حلب الشهير بأخي العادل ، فلما حضر تعصب للأمير طومان باي ، وتكلم في سلطنته ، فأحضر قضاة الشام ، وكتب صورة محضر في خلع الأشرف جان بلاط من السلطنة ، وبايعوا طومان باي من غير خليفة ، وتلقب بالملك العادل أبي النصر ، وأحضر له شعار الملك فأفيض عليه ، وفيل له الأمراء الأرض . فأول من قبل له الأرض قصره نائب الشام ، ثم بقية الأمراء شيئاً فشيئاً . فلما تم أمره في السلطنة عين الأتابكية

مصر لقصره نائب الشام ، وعين نيابة الشام لدولات باي نائب حلب ، وعين نيابة حلب الى أركماس بن ولي الدين ، وعين نيابة طرابلس لبرد بك الطويل ، وعين نيابة صفد لجانم ، وقرر قيت الرحبي في امرية سلاح عوضاً عن نفسه ، وقرر قانصوه الغوري في الدوادارية الكبرى والاستادارية والوزارة وكاشف الكشاف عوضاً عن نفسه ، وقرر قاني بك ، نائب الاسكندرية ، في الرأس نوبة الكبرى ، وقرر اصطر بن ولي الدين في الحجوية الكبرى ، وعين عدة امريات ألوف ، وامريات طبلخانات وعشراوات لجماعة من عصبة .

ثم إنه رسم بشنق أحد مشايخ العربان من أولاد ابن نبيعة ، وشنق شخصاً آخر من مشايخ بني حرام يقال له ثابت . فلما تم أمره في السلطنة خطب باسمه على منابر دمشق ، ثم أخذ في أسباب الحضور الى مصر . فلما سمع الأشرف جان بلاط هذه الأخبار ، اضطربت أحواله ، وضاقته به الدنيا . ثم أخذ في أسباب تقرير الوظائف للأمراء الذين بمصر ، عوضاً عن أظهر العصيان بدمشق ، فاستمال قلوبهم حتى يكونوا له عوناً ، ويدخلوا طاعته ... فأحضر لهم المصحف العثماني ، وحلف عليه سائر الأمراء من كبير وصغير بعد صلاة الجمعة ، بحضرة الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ... وكان قاضي القضاة الشافعي عبد القادر بن النقيب ألف صورة أيمان مغلظة بالله ، وبالمصحف ، وبالحج ، وبالعتق والطلاق ثلاثاً ، وغير ذلك من التأكيد في الأيمان المغلظة ، وكتب ذلك في سجل ، ودفعه الى صلاح الدين بن الجيعان كاتب السر ، ليحلف عليه الأمراء . وكان هذا سبباً لا انتقام العادل من ابن النقيب لما حضر الى مصر ، وتم أمره في السلطنة ، فجرى على ابن النقيب منه أمور مهولة يأتي الكلام عليها .

فلما تكامل المجلس حلف الأمراء بتلك الأيمان
التي تقدمت ، أنهم لا يخونون ، ولا يغدرون ،
ولا يميلون مع العادل اذا حضر ، فحلفوا على
ذلك . ثم أحضر لهم عدة تشاريف ، فحلف على
قائضه المحدث المعروف بالبرجى ، وقرره في
أمرية السلاح ، عوضا عن طومان باى بحكم
سلطنته بدمشق . وقرر خشكلى اليسقى
الظاهرى خشدتم في أمرية مجلس ، عوضا عن
قائضه البرجى بحكم انتقاله الى أمرية سلاح .
وقرر مصر باى في الدوادرية الكبرى ، عوضا
طومان باى بحكم سلطنته بدمشق . وقرر سنباى
نائب سيس في الأميراخورية الكبرى ، عوضا عن
قائى باى الرماح بحكم عصيانه مع طومان باى .
وقرر سودون العجمى في الرأس نوبة الكبرى ،
عوضا عن قائضه الفورى بحكم عصيانه مع
طومان باى . وقرر برد بك المحدث الاينالى في
حجوية الحجاب ، عوضا عن قيت الرحى بحكم
عصيانه . وقرر قائضه الصغير في ولاية القاهرة ،
وقرر تانى بك الأبح في شادية الشراب خاناه ،
وقرر اقبائى الطويل في تجارة الممالك ، وقرر
تمر باى أمير شورى في استدارية الصحبة ، وقرر
جان بردى رأس نوبة ثانى . وأنعم بتقادم ألوف
على جماعة من الأمراء ، منهم يبيرس القهلوان ،
وأزبك المكحل ، وخشكلى الذى كان استادار
الصحبة ، ودولات باى قرموط الذى كان والى
القاهرة ، وأزبك الناشف ، وتمراز جوشن ،
وتمراز الزردكاش ، وقرقماس الشرايى ، وخير
بك الكاشف ، وغير ذلك من الأمراء ممن خامر
مع طومان باى . ثم فرق عدة أقاطيع على
الخاصكية عوضا عن كان صحبة طومان باى .
ثم أخذ في أسباب تحصين القلعة ، فركب حولها
المكاحل المعيرة بالمدافع ، وأصلح سورها

وأبراجها ، وبنى فوق سلم المدرج بابا — وهو
موجود الى الآن — ثم بنى برجا محيطا على باب
السلسلة ، فبناه بالفص الحجر ، وصنع فيه
مرامى وأبوابا صغارا . ثم سد باب الميدان ، وباب
حوش العرب ، وباب الأصطبل الذى عند الصوة ،
وصنار ينزل في النهار مرتين يكشف على
العمارة بنفسه . ثم رسم بهدم مدرسة السلطان
حسن فهدم منها بعض شىء من وراء ظهر محراب
القبة ، فأقاموا يهدمونها ثلاثة أيام فلم يقدروا على
هدم ذلك ، فتكلم الأمير تغرى بردى الاستادار
مع السلطان في عدم ذلك ، فرجع السلطان وترك
الهدم . وقد تأسف الناس على هدمها لأنه لم يعمر
في الدنيا مثلها ، ولو هدمها ما كان يفيد من
هدمها شىء ، وما كان يقدر على هدمها ، فكان
ترك ذلك أوجب ، وقد ظهر عجزه عن ذلك . وفي
هذه الواقعة يقول شيخنا عبد الباسط بن خليل
الحنفى :

هتكت قبة الحسن وانتفى وصفها الحسن
ان في ذا لعبرة لكن المستفيق من
وقال محمد بن قائضه بن صادق سامحه الله :
حسن السلطان قد هتكت
— خيفة المحذور — قبته

تس الراضى بذأ ، وغدت
مثلا في الهتك حرمة

ثم ان السلطان نقل الى القلعة من البقساط
والجبن والغنم والبقر والأوز والدجاج والقمح
والشعير وأشياء كثيرة من احتياج المطبخ ما يكفى
للمحاصرة نحو الشهرين . ثم نادى في القاهرة
باصلاح الدروب ، واصلاح باب المدينة ...
فاضطربت الأحوال ، وتزايدت الأقوال ، وكثر
القليل والقال ، ووزعوا قماشهم في المخايب ، وظن

كل أحد أن هذه فتنة مهولة ما تنجلي إلا عن أمور شتى . وصار الناس في رعب من ذلك ، وقد اشتد الأمر جدا .

وفيه قبض السلطان على اسماعيل زامل وشنقه على باب الميدان . وسبب ذلك أنه هرب تهرباى خازندار طومان باى الذى تسلم بالشم ، مكنه أن يتوجه الى الشام ، وما أعلم السلطان بذلك ، فشقه لأجل ذلك ، وصار له ذنب كبير . ثم ان السلطان أراد أن يقبض على الأمير طراباى ، وعوفه بالقلعة ساعة ، ثم بدا له ترك هذا الأمر . ثم ان السلطان رسم بقطع سلالم مدرسة السلطان حسن ، وأمر بنقض أماكن من دار يشبك الدوادر ونقل الى القلعة أخشابا كثيرة صنع منها عدة طوارق ، وسلالم خشب ، وغير ذلك من آلة الحرب . ثم فتح الزردخانه ، وفرق منها على جماعة من الجند عدة سيوف ، وزرديات ، ولبوس وتراكس وقصى ونشاب وغير ذلك . ثم فرق عليهم عدة خيول خاص من خيول الأمراء الذين خامروا مع طومان باى ... فأخذ خيولهم وفرقها على العسكر ، وفرق عليهم من خيوله الخاص أيضا ، وأرضى العسكر بكل ما يمكن ، وأنعم على أكثرهم بوظائف واقطاعات ، وفرق مشالات تكتب على بياض على جميع من كان عنده ... ولم يفده من ذلك شيء ، فكان كما قيل :

إذا طبع الزمان على اعوجاج

فلا تطمع لنفسك في اعتدال

وفي جمادى الآخرة ، في يوم الأربعاء مستهله ، خلع السلطان على الأمير عبد اللطيف الطواشي وقرره زماما وخازندارا كبيرا ، عوضا عن جوهر المعنى بحكم وفاته كما تقدم .

وفيه توفي الشيخ الصالح المعتقد سيدى عبيد القفاص ، وكان من الصالحين

وفي يوم السبت رابعة جاءت الأخبار بأن العادل طومان باى خرج من الشام ، هو وقصروه نائب الشام ، ودولات باى نائب حلب ، وجماعة من النواب ، والتف عليهم الجيم الغفير من عسكر الشام ، وعربان جبل نابلس والعشير ، وغير ذلك . وقد وصل الى غزة . فلما تحقق السلطان ذلك ، علق الصنجق السلطاني على باب السلسلة ، ونادى للعسكر بأن يطلع الطائع الى القلعة ، ومعه آلة الحرب وأن سائر الأمراء تطلع الى القلعة صغارهم وكبارهم . ثم رسم لقصة القضاة بأن يطلعوا الى القلعة فطلعوا الى القلعة ، وكذلك سائر المباشرين من أرباب الوظائف ، يطلعون الى القلعة أجمعين فامتثلوا ذلك ، وطلعوا الى القلعة ، وأقاموا بها ، واحتاط في الأمور بكل ما يمكن ، ولم يفده من ذلك شيء . فكان كما يقال :

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما كان يوم الخميس تاسعه ، وصل العادل بمن معه من العساكر الى خاقاه سرياقوس ، ودخل أوائل عسكره الى القاهرة ، فهاجت القاهرة واضطربت ، وقلق الأشرف جان بلاط وضاعت عليه الدنيا بما رحبت . فكان كما يقال في المعنى :

قد كان يرجف في ليالي وصله

قلبي ، فكيف الآن عند صدوده

وفيه جاءت الأخبار بوصول عسكر العادل الى المطرية ، فخرج اليه بعض العساكر السلطانية ، وتقاتلوا معهم هناك قتالا هينا . ففر منهم أزيد النصراوى ، ودخل تحت طاعة العادل ، وقبل له الأرض ، فخلع عليه العادل هناك ، وقرره والى

الشرطة بالقاهرة . ثم ان بعض المماليك توجه الى بيت العادل الذى كان ساكنا به ، وهو بيت الظاهر تمرىفا الذى عند سوق السلاح بالقبو ، فأحرقوا مقعده ومبيته ، ونهبوا منه بعض أثاث .

وفى يوم السبت حادى عشره ، كان دخول العادل طومان باى الى القاهرة ، فدخل من باب القتوح ، ورفع على رأسه صنجق خليفتى . وكان معه من الأمراء قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، وقانصوه الغورى رأس نوبة كبير ، وقيت الرحبى حاجب الحجاب . وكان معه من النواب قسروه نائب الشام ، ودولات باى نائب حلب ، وبرد بك الطويل نائب طرابلس ، وجانم نائب حماه ، وغير ذلك من الجند والعربان والعشير ... فشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان محببا للناس فاطبة ، فنادى بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وألا يشوش أحد على أحد من الرعية . فتزايدت له الناس بالدعاء . وكان الناس يظنون أن العادل طومان باى يخرب مصر عن آخرها بسبب ما يقع من القتن ، وأن الأمر يطول فى ذلك ، فما حصل الا كل خير ، وانفرج الأمر عن قريب . فاستمر العادل طومان باى فى ذلك الموكب ، وكان له يوم مشهود ، حتى توجه الى بيت قانى بك قرا الذى عند حمام الفارقانى فنزل به ، ونزل قسروه بالأزبكية بدار الأتابكى أزبك ، ونزل دولات باى نائب حلب بجامع شيخو ، ونزل نائب طرابلس بدار أزبك اليوسفى أمير مجلس ، الذى كان بدرب ابن البابا بالقرب من الصليبية . وتوزع الأمراء والنواب الذين حضروا صحبة العادل كل واحد فى مكان بالقرب من الصليبية . ثم ثار الحرب بين الفريقين وعظم الأمر جدا . وكان القائم بنصرة العادل

قسروه نائب الشام ، فأمر بحفر خنادق فى الطرقات ، ووراءها سوز من الحجارة فحفروا خندقا برأس الرميلى عند سوق ابن عبد المنعم ، وخندقا عند حدرة البقر ، وخندقا عند باب الوزير ، وخندقا برأس سوق جامع أحمد بن طولون ، وخندقا عند سوق القبو عند مدرسة السلطان حسن ، فكانت خمسة خنادق .

ثم ان العادل أحضر عدة أخشاب لاطات ، وجزم وصوارى ، وأحضر جماعة نجارين ، فصنعوا منها عدة طوارق وسلالم ، وشرعوا فى عمل مجانيق ، وسدوا عدة أماكن شتى ، وبنوا عليها دروبا ، وصاروا يغلقونها ، وظنوا أن هذه الفتنة يطول أمرها

ففى اليوم الثالث من المحاصرة ، ملك قسروه مدرسة السلطان حسن ، وركب المكاحل المعمرة بالمدافع ، ووقف بها ، ورموا على من بالقلعة بالسفريات ، وبالبندق الرصاص ، فقتل ممن كان بالقلعة جماعة كثيرة ، وجرح آخرون فضعف عزيمتهم عن القتال ، وبانت الكسرة عليهم . ولم يكن عند الأشرف جان بلاط بالقلعة سوى الأتابكى تانى بك الجمالى ، والأمير طراباى ، والأمير مصرباى ، والأمير قانصوه البرجى ، وخشكلىدى البيسقى ، ونائب سنباى ، وآخرين من الأمراء المقسدين ، وغيرهم . وكان الرماة أشاعوا عن السلطان جان بلاط ، لما وصل العادل الى المطرية ، أن يخرج اليه الأتابكى تانى بك الجمالى ، وآخرون من الأمراء ويحاربونه ، وكان هذا عين الصواب لو فعلوه . كما يقال فى الأمثال :

واتهز الفرصة ان الفرصة

تصير ان لم تنتهزها غصة

واسبق الى الأجود سبق الناقد

فسبقك الحصم من المكاييد

ثم ان العادل قصد أن يحضر جماعة من فرسان عربان الشرقية بقاتلون معه ، كما فعل أقبردى الدوادار ، فلم يوافقهم الأمراء على ذلك ، وقالوا هذا يحصل منه غاية الفساد .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره اشتد الحرب بين الفريقين ، ووقع بينهما واقعة مهولة بباب الوزير فجرح فيها شخص من الأمراء الطبلحانات ، فقال له تمرى بال طويل استادار الصجبة ، فلما جرح أغمى عليه فسقط عن فرسه ، فأخذوا لبسه وسلاحه ، وحمل الى داره فمات بعد أيام . وفى ذلك اليوم تقنطر الأمير مصرى الدوادار بالتبانة ، وأخذوا فرسه من تحته ونجا بنفسه ، وهرب . وجرح فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من الفريقين . وقتل فى ذلك اليوم أيضا الأمير قانى بك نائب الاسكندرية ، أحد الأمراء المقدمين ، قتل بكفيه ، وكان من عصبة الأمير أقبردى الدوادار ، وحضر الى القاهرة صحبة قصره نائب الشام ، وكان مقيما بالشام . وقتل جماعة من الخاصكية فى ذلك اليوم .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره استمر الحرب ثائرا بين الفريقين الى يوم الخميس سادس عشره ، فأثفق العادل طومان باى على العسكر الذين من عصبته جامكية شهر ... وصار الأشرف ينفق الجامكية بالقلعة على من عنده من العساكر ، والعادل طومان باى ينفق الجامكية فى بيت تانى بك فرا على من عنده من العسكر . فلما تلاشى أمر الأشرف جان بلاط ، وترشح أمر العادل طومان باى ، ولاحت عليه لوائح النصر ، صار جماعة من الأمراء والعسكر يتسحبون من القلعة ،

وينزلون عند العادل طومان باى ... فنزل اليه قانصوه الفقيه ، وتمر الظاهرى ، وجان بلاط الأبح ، وقانى بك الأبح ، وغير ذلك من الأمراء والخاصكية ثم نزل فى ذلك اليوم القاضى عبد القادر القصرى ، وتوجه الى العادل فخلع عليه ، وأقره فى نظر الجيش ، عوضا عن الشهابى أحمد ناظر الجيش ، وكان الأشرف جان بلاط وعد العسكر أنه ينفق عليهم مع الجامكية ، فلم ينفق عليهم شيئا ، فاثقلوا عليه وتسحب غالبهم ، وأتوا الى العادل فرحب بهم .

فلما كان يوم الجمعة سابع عشره خرج العادل من بيت تانى بك قرا ، وهو راكب ، وعليه سلاوى شوح أحمر بعرو سمور ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة ، والأمراء حوله ، فتوجه الى جامع شيخو ، فصلى به صلاة الجمعة . فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان يوما مشهودا . فلما خطب الشرفى يحيى بن العداس ، خطيب جامع شيخو ، دعا فى آخر الخطبة باسم الملك العادل ، فهى أول خطبة خطبت باسم العادل فى القاهرة قبل أن يخلع جان بلاط من السلطنة . وقد خاطر الشرفى يحيى بن العداس بنفسه فى ذلك ، فعد ذلك من النوادر . فلما تسلطن العادل وتم أمره فى السلطنة ، كتب للشرفى يحيى بن العداس ، جامكية فى كل شهر ألف درهم ، فى نظير ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشره وقت صلاة الفجر ، نزل من القلعة جماعة من الأمراء العشراوات ، منهم جان يردى الغزالى ، وخايزيك الكاشف ، وآخرون من الخاصكية ، فتوجهوا الى العادل . ثم ان جان بلاط رسم بتفرقة الجامكية الثانية فى الاصطبل السلطانى ، وحضر هناك العسكر وهم لابسون

آلة الحرب ... فبينما العسكر الذين بالقلعة مشغولون بنفقة الجامكية ، واذا بالقلعة قد ماجت واضطربت ، وثار الجهم الخفير بالرميلة من الممالك الذين من عصبية العادل ، فنهبت الجامكية عن آخرها التى أنفقت بالاصطبل . وكان سبب ذلك ما استفاض بين الناس أن الملك الأشرف جان بلاط كان مقيما في مدة حصاره بالقلعة بالقصر الكبير ، وعنده جماعة من المشايخ الصوفية ، ومن يعرف بالصلاح . فلما ضاق الأمر على الأشرف جان بلاط قام ودخل الى دور الحريم ، فأبطأ فيه ساعة طويلة ، فعمد الأمير طراباى الى النمجة والترس فأخذهما ونزل بهما من القلعة ، وتوجه الى العادل طومان باى ، وأشاع أن الأشرف جان بلاط قد هرب من القلعة . فلما سمع بذلك الأتابكى قصروه — وكان مقيما بمدرسة السلطان حسن — حطم بمن معه من الجند فملك باب السلسلة ، وسلم المدرج ، من غير مانع ، ولم يفد تحصين الأشرف جان بلاط شيئا ، ولا بناية تلك الأبراج ، ولا تركيب المكحلة الكبيرة التى يقال لها المجنونة . وكان هذا خذلانا من الله تعالى له . وقد قلت في

المعنى مع التضمين :

تحصن خوفا جان بلاط بقلعة

فلم تدافع الأعداء عنه المدافع

وكانت مدافعه كفارغ بندق

خلى من المعنى ولكن بفرقم

فلما كانت الكسرة على الأشرف جان بلاط ، وقع النهب بالقلعة في الحواصل السلطانية ، فنهبوا أشياء كثيرة من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك ، مما هله الأشرف جان بلاط الى القلعة ، من أغنام وأبقار وبقسماط وسكر واحتياج المطبخ وغير ذلك .

ثم انه في ذلك اليوم رسم العادل بالافراج عن القاضي بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، وكان الأشرف جان بلاط سجنه بالعرقانة وقرر عليه مالا له صورة ، وأقام بالعرقانة مدة طويلة فأفرج عنه ونزل الى داره في ذلك اليوم فلما حصلت هذه النصر من غير قتال مهول ، ركب العادل طومان باى من بيت تانى بك قرا ، وعلى رأسه الصنجق السلطاني ، وصعد الى باب السلسلة من غير مانع وملكه ، وكان من أمر سلطنته ما سيأتى الكلام عليه في موضعه .

وفي أثناء ذلك اليوم قبض على الأشرف جان بلاط ، قيل وجد في مكان مهجور بدور الحريم ، فأمسك من هناك . فلما قبضوا عليه أدخلوه الى قاعة البحرة ، وقيدوه بقيد ثقيل ، ووكلوا به جماعة من الخاصكية ، وفيهم شخص من ممالك أقبردى الدوادر ، فحصل للأشرف جان بلاط منه غاية الضرر والبهدة وما لا خير فيه . فكان كما يقال في أمثال « الصادح والباغم » :

عند تمام المرء يبدو نقصه

وربما ضر الحريص حرصه

ومنها :

كم عشت، في لذة عيش وهنا

فأصبر الآن لهذى المحنا

ثم نقل الأشرف جان بلاط من البحرة الى المبيت الذى بجوار المقعد الذى بالحوش ، فأقام نحو من ثمانية عشر يوما . وقيل كان تأخير الأشرف جان بلاط هذه المدة لأجل أن يورد ما قرره عليه العادل من المال .

فلما كان يوم الاثنين خامس رجب توجهوا بالأشرف جان بلاط الى السجن بشجر الاسكندرية ، فنزلوا به من باب الدرفيل وقت الظهر ، وهو مقيد ، وخلفه أوجاقى بخنجر ، فتوجهوا به من

الملك العادل

هو الملك العادل طومان باى ابن قانصوه ، أبو النصر الأشرف قايتباى . وهو الخامس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم فى العدد ، وهو التاسع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية ، وكان أصله جركسى الجنس ، اشتراه قانصوه اليحياوى نائب الشام ، وقدمه مع جملة الممالك الى الأشرف قايتباى ، فأقام بالطبقة مدة طويلة ، ثم أعتقه وأخرج له خيلا وقماشاً ، وصار من جملة الممالك السلطانية جمدارا ، ثم بقى خاصكيا خازن دار كيس فى سنة ثمان وتسعين وثمانائة ، ثم بقى أمير عشرة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم قرره فى نيابة الاسكندرية فى سنة اثنتين وتسعمائة ، وتوجه اليها وأقام بها مدة يسيرة ، ثم عاد الى مصر ، ثم بقى مقدم ألف دوادارا كبيرا فى دولة الظاهر قانصوه ، ثم بقى أمير سلاح ، ودوادارا كبيرا ، واستادارا ، ووزيرا ، وكاشف الكشاف ، ومدير المملكة فى دولة الأشرف جان بلاط .

ثم سافر لما عصى قصره نائب الشام فتسلطن هناك ، وعاد سلطانا كما تقدم . فلما دخل الى القاهرة وصحبه قصره وبقية النواب ، قام قصره بنصرته قياما حافلا ، وصار ينفق على حفر الخنادق ، ويشيل التراب بالقفة على رأسه وكتفه ، هو ومماليكه مع الفعلاء ، ونصب المكاحل على مدرسة السلطان حسن ، ووقف الرماة بالبندق الرصاص ، واستمر يحاصر القلعة سبعة أيام .

فلما كان يوم السبت عشر هذا الشهر انكسر الأشرف جان بلاط ، فحطم العادل وملك باب

جهة المجرة الى البحر ، فنزلوا به فى الحراقة وساروا الى الاسكندرية . وكان المتسفر عليه الأمير أنس باى أحد المقدمين ، والأمير قان بردى أحد الأمراء العشراوات ، وجماعة من الخاصكية ، فتوجهوا به الى الاسكندرية ورجعوا .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ستة أشهر وثمانية عشر يوما . وكان فى هذه المدة فى غاية الضنك مع الأمير طومان باى . وآخر الأمر وثب عليه وخلعه من السلطنة ، وحاصره وهو بالقلعة نحو من سبعة أيام ... فانه دخل الى القاهرة يوم السبت حادى عشر هذا الشهر ، وهو جمادى الآخرة ، وملك القلعة يوم السبت ثامن عشره . وتعب فى تحصين القلعة ، ونقل اليها أشياء كثيرة من كل صنف كما تقدم ، وظن أن حصار القلعة يطول فما أفاده ذلك شيئا .

وكان الأشرف جان بلاط أرشل غليظ القلب ، قليل الحظ ، عسوفاً ظالماً ، حصل منه فى مدة سلطنته للناس غاية الضرر من المصادرات وأخذ الأموال . ولو أقام فى السلطنة لحصل للناس منه غاية المشقة من الظلم والأذى ... فعجل الله تعالى به . ومن مساويه ما وقع له مع أقبردى الدوادار ، فانه كان من أعز أصحابه ، وقيل ضبط ما وهبه له أقبردى ، فكان ينيف عن خمسين ألف دينار ، ثم بعد هذا الاحسان انقلب عليه كأنه لم يعرفه . وكانت صفته أبيض اللون ، طويل القامة ، مستدير الوجه ، أسود اللحية ، جميل الهيئة حسن الشكل . تولى الملك وله من العمر نحو من أربعين سنة . وكان من خواص الأشرف قايتباى ، وساعدته الأقدار حتى تسلطن ، وأقام هذه المدة اليسيرة ، وآل أمره الى أن خنق وهو مسجون بالبرج ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

السلسلة من غير مانع . فلما استقر بباب السلسلة
فبض على قاضى القضاة الشافعى محبى الدين عبد
المادر بن النقيب ، ووكل به جماعة من الأوجاقية ،
وفرر عليه مالا له صورة ، فنزلوا به وهو ماش على
أقدامه ، وحوله أوجاقية ورسل قابضون عليه من
أكمامه ، فتسقوا به من الصليبة ، وهو على هذه
الهيئة ، فسبه العوام وكادوا أن يرحموه ، حتى
حماه بعض الأتراك . واستمر على ذلك حتى أتوا
به الى بيت على بن أبى الجود البزدار — وكان
ساكنا فى ربح الأشرف برسباى الذى بالصليبة —
فأقام هناك فى الترسيم حتى يورد المال الذى قرر
عليه ، وكان قد بلغ العادل ما رتبته من الأقسام
المغلظة التى حلفها الأشرف جان بلاط للعسكر ،
لما بلغ ابن النقيب سلطنة العادل بدمشق ، فانتقم
منه العادل بسبب ذلك ، وعزله عن القضاء ، فكافت
مدته فى هذه الولاية ثلاثة أشهر وثمانية وعشرين
يوما ، وسيعود الى القضاء ثانيا عن قريب . وقد
فلت فى ذلك :

ولوك أشرف منصب يا قاضيا

لكن ان عدل الزمان ستسخ

طبخوا بنار العزل قلبك بعد ذا

وكذا القلوب على المناصب تطبخ

نم ان الملك العادل طلب قاضى القضاة زين الدين
زكريا ، فلما توجهوا اليه امتنع من الحضور واعتذر
بأنه متوعك فى جسده ، فلا زالوا به حتى أركبوه
وطلعوا به الى القلعة ، فخلع عليه العادل وأعادة الى
القضاء عوضا عن ابن النقيب بحكم عزله كما
تقدم . ثم حضر قاضى قضاة الحنفية ابن الكركى ،
وقاضى قضاة المالكية عبد الغنى بن تقى ، وقاضى
قضاة الحنابلة الشهاب الشيشينى . ثم حضر أمير
المؤمنين أبو الصبر المستمسك بالله يعقوب . فلما
تكامل المجلس عملوا صورة شرعية فى خلع للأشرف

جان بلاط ، وولاية العادل طومان باى . فخلع
جان بلاط من السلطنة . وبايع الخليفة طومان باى
بالسلطنة ، وجدد له مبايعة ثانية ، زيادة على ما بيده
من مبايعته بالشام . واستمر على لقبه بالعادل الذى
تلقب به بالشام . وكان أولا تلقب بالملك المؤيد وهو
بالشام ، ثم تحول لقبه الى الملك العادل . فلما
انكسر الأشرف جان بلاط ، كما تقدم ، وطلع
العادل الى القلعة ، لم يجلس بالمقعد الذى يساب
السلسلة ، بل طلع الى القصر الكبير وجلس به ،
وحضر الخليفة العباسى والقضاة الأربعة ووقعت
مبايعته هناك ، وأفيض عليه شعار الملك . واجتمع
عليه هناك الأمراء والعسكر وأرباب الدولة قاطبة ،
واستمر على ذلك حتى جلس على سرير الملك ورفع
الزردكاش القبة والظير على رأسه ، وكان قانى بك
الجمالى أمير كبير مختفيا . وقبل له الأمراء الأرض
قاطبة ، ثم خلع على الخليفة العباسى — وكان ساكنا
بالقلعة — ثم قرر قصره فى الأتابكية عوضا عن
قانى بك الجمالى بحكم اختفائه ، فخلع عليه فى
ذلك اليوم فوقانى الذى كان الأشرف جان بلاط
صنعه له عند توجهه الى دمشق ، وكان فوقانى
حرير أزرق ، بوجه مخمل أخضر ، بطرز يلبغاوى
عريض ، طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين ونصف ،
قيل فيه من الذهب ثمانمائة مثقال بحيث لم يعمل
مثله قط . ثم قام العادل لقصره وقبل رأسه ،
ونزل من القلعة فى موكب حافل ، فتوجه الى
الأزبكية بدار الأتابكى أزبك . وكان هذا كله عين
الخداع من العادل فى حق قصره ، كما سيأتى
الكلام على ذلك فى موضعه . فكان كما يقال
فى المعنى :

إذا رأيت ثنايا الليث كاشرة

فلا تظن بأن الليث بتسم

ثم ضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى

القاهرة ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء . وكان محببا للناس ، ولا سيما العوام ، فزينت له القاهرة سبعة أيام متوالية . وخرج الناس في القصف والفرجة عن الحد حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، وصار كل أحد في فرح بسلطنته ، وانفجرت تلك الفتنة عن الناس عن قريب ، وكان يظن كل أحد أن أمر الفتنة يطول ويتسع ، فأل الأمر الى خير بخمود الفتنة عن قريب . فكان كما يقال :

ملك نداء المبتددا

للناس والمدح الخبر

أمضى لسان سيفه

حكم القضاء والقدر

فلما تم أمره في السلطنة كان أول شيء صدر منه من الأفعال الشنيعة ، أنه قبض على خوند أصل باي أم الناصر ، وزوجة الأشرف جان بلاط ، وأخت الظاهر قانصوه ، فوكل بها عشرة من الخدام ، وقرر عليها نحوا من خمسين ألف دينار ، وقيل عشرين ألف دينار ، فباعت أشياء كثيرة من قماشها وأخذت في أسباب وزن ما قرر عليها من المال . ثم انه عزل برهان الدين ابن الكركي عن قضاء الحنفية ، وقرر بها الشيخ سري الدين عبد البر ابن الشحنة ، وهذه أول ولايته لقضاء الحنفية .

وفيه قرر قرقماس المقرئ في الحسبة ، فلما قرر بها قبض على محمد الباسطي الذي كان متكلمًا في الحسبة في دولة الناصر محمد بن قايטباي . فلما قبض عليه ضربه بالمقارع في يوم شديد البرد ، وأشهره في القاهرة على جمل ، فما أطلق ذلك ومات عن قريب . وكان من الظلمة الكبار .

وفيه خلع على أنسباي الأصم وقرره في الحجوية الثانية ، وقرر نوروز أخا يشبك الدوادار في رأس النوبة الثانية ، وقرر طومان الأشرفي في الأميراخورية

الثانية ، وقرر القاضى عبد القادر القصري في نظر الجيش ، وصرف عنها الشهابي أحمد ابن ناظر الخاص .

وفيه رسم السلطان برم ما فسد من حيطان مدرسة السلطان حُسن في مدة محاصرة القلعة ، فرم ذلك جميعه .

وفيه توفي الشرفي يونس بن محمد أينبك أحد الزردكاشية ، وكان لا بأس به .

وفي ليلة الخميس مستهل رجب ، جرى من الحوادث الغريبة أن الأتابكي قصره طلع الى القلعة ليبيت عند السلطان ... وكان يبيت بالقلعة ليلة الاثنين وليلة الخميس في تلك الأيام . فلما طلع على جرى العادة وأكل السماط ، وجلسوا ساعة يتحدثون ، قال له السلطان : « قلبى خائف منك يا أمير كبير » . فلما صلى العشاء مع السلطان أمر بعض الخاصكية بالقبض عليه ، فأقاموه من مجلس السلطان ، وتوجهوا به الى المكان الذى أنشأه الظاهر قانصوه بجوار الدهيشة ، فأقام هناك أياما ثم أمر بخنقه فخنق تحت الليل ، وغسل وكفن ، وأنزلوه من باب الدرفيل ، فدفن في تربة الصاحب خشقدم الزمام التى بالقرب من حوش العرب .

وكان قصره أميراً جليلاً رئيساً حشماً مهيباً مبجلاً ، وأصله من ممالك الأشرف قايتباي ، وتولى عدة وظائف سنية منها نيابة حلب ، ونيابة الشام ، والأتابكية بمصر . وكان في أيام العادل له الأمر والنهى في الموكب . وإذا نزل من القلعة يتوجه معه الأمراء الى الأربكية ، وجميع قراء البلد والوعاظ . وعزم على سائر الأمراء في ليلة ، وعمل أسمطة حافلة جدا ، وحضر عنده جميع الأمراء أكابرهم وأصاغرهم وباتوا عنده ، وأنعم في تلك الليلة على جماعة من الأمراء بخيول ومال ، حتى استمال

فلوبهم . وكان يوصف بالكرم الزائد مع الشجاعة ،
فوعده العسكر بكل جميل ، فمالوا اليه ، وعولوا
في السلطنة عليه ... فلما بلغ العادل ذلك المجلس
استغتم الفرصة ، وبادر بالقبض عليه ، وخنقه تحت
الليل ودفنه ، فكان كما قيل في الأمثال :

وانتهز الفرصة ان الفرصة
تصير ان لم تنتهزها غصة
وفد قلت في واقعة قصروه عدة مقاطيع منها :
اعجبوا من أمر قصروه الذي
ملكه بالشام جهلا قد ترك
وأتى مصر فما نال المنى
ورماه الدهر في وسط الشرك
وقولى فيه :

كان قصروه قصيرا عمره
خانه الدهر فولى مرعا
طلبوا التسليم منه فأبى
ثم ما سلبم حتى ودنا
وقولى فيه أيضا مضمنا :

لم ينل قصروه ما أمله
من علو فاته في دهره
رام كيذا للمليك عادل
فرماه كيده في نحره

ولكن كان العادل باغيا على قصروه ، ووشى بينهما
الأعدى بالكلام حتى وقع بينهما وجرى ما جرى
من القتل . وكان قصروه سببا لنصرته بالشام
وبمصر ، وكان في الحصار بمصر معه بكل ما يمكن
كما تقدم ، وكان يشيل التراب مع الفعلاء على كتفه
عند حفر الخنادق وقت محاصرة القلعة عند
حضوره من الشام ، وما أبقى مكنيا في نصرته العادل
على جان بلاط ، وآخر الأمر قتله ظلما ، فلم يعيش
الملك العادل بعده إلا أياما قلائل وقتل . قال على

كرم الله وجهه : « من سلب سيف البغى قتل به » .
وفي الأمثال :

البغى داء ما له دواء
ليس للملك بعده بقاء
وكان بين العادل طومان باي وبين قصروه
أيمان غليظة ، وعهود ومواثيق ، وما كان قصروه
يظن أن العادل يخون تلك الأيمان والعهود كما
قيل :

وحلف أنك لا تميل مع الهوى
أين اليمين وأين ما عاهدتني
وكان قصروه غفيرا عن المنكرات ، شجاعا بطلا
سخى النفس ، غير أنه كان عنده طيش ، وخفة
وسلامة باطن ، ومات وقد قارب الخمسين سنة
من العمر ، ووكره الشيب . فلما مات تأسف عليه
الكثير من الناس ، وزال حب طومان باي من
قلوب الناس كأنه لم يكن . ولم يستحسن أحد
منهم قتله لقصروه الذي كان سببا لنصرته ...
فنفرت عنه قلوب الرعية ، وكان هذا على غير
القياس . كما يقال :

لا تشكرون امرا حتى تجربه
ولا تذمنه من غير تجريب

فشكرك المرء ما لم تختبره خطا
وذمه بعد شكر محض تكذيب
ويقرب من واقعة قصروه مع العادل طومان
باي ، ما وقع لطشتمر حصص أخضر وقطلوبغا
الفخرى مع الملك الناصر محمد بن قلاوون ... فان
طشتمر وقطلوبغا الفخرى كانا سببا لنصرته لما
حضر من الكرك . فلما تسلطن قبض عليهما ،
وقيد طشتمر وقطلوبغا ولم يرع لهما ودا ، ثم
أمر بتوسيطهما عند عوده من الكرك ، ولم يكن
لهما من الذنب ما أوجب ذلك . وهذه الأفعال
ما تصدر الا من جاهل أحقق بعد من جملة

المجانين . وكانت هذه الواقعة في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . وفعل العادل هذه الفعلة مع قصره بعد ما خدعه وألبسه الأتابكية ، وخلع عليه وعلى الأمراء الذين كانوا معه بالوظائف السننية ، منهم : قيت الرحبي خلع عليه وقرره في امرية سلاح ، وقانصوه المحدثى البرجى خلع عليه وقرره في امرية مجلس ، وقانصوه الغورى خلع عليه وقرره في الدوادارية الكبرى ، وخلع على قاتى باى الرماح وقرره في الأميراخوريه الكبرى ، وخلع على طراباى الشريفى وقرره في الرأس نوبة الكبرى ، وخلع على طشتى وقرره حاجب الحجاب وأنعم على جماعة بأمریات تقادم ألوف ، منهم : خضر بك أخو قانصوه البرجى ، أنعم عليه بتقدمة ألف ، وطلبخانات ، وعشراوات ، ووظائف ممن كان في عصبته .

وفيه قبض السلطان العادل على نخشبای ، الذى كان نائب حماه ، ثم بقى مقدم ألف في دولة الأشرف جان بلاط . وقبض على تمرار جوشن أمير آخور ثانی ، ثم شفع فيه بعض الأمراء فقرره بصحبوية الحجاب بدمشق ، وأخرج من يومه . ثم قبض على جان بردى الغزالى كاشف الشرقية ، وعلى جماعة آخر من الأمراء العشراوات والخاصكية ممن كان من عصبة قصره .

وفي يوم الخميس ثامن رجب قبض السلطان على الأمير قانصوه البرجى المحدثى أمير مجلس ، وأمر بنفيه الى مكة المشرقة بطالا ، فتوجه من البحر الملح . ثم قبض على قلع نائب الاسكندرية وبعثه الى الشام بطالا . وقبض على جان بلاط الموتى الذى كان محتسبا ونفاه .

وفيه خرج الأشرف جان بلاط منفيا الى نهر الاسكندرية وهو مقيد كما تقدم .

وفي يوم الجمعة عاشره عقد السلطان طومان باى

على خوند فاطمة ابنة العلائى على بن خاص بك زوجة الأشرف قايتباى ، فعقد لها عليه بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة العقد ، وكان يوما مشهودا .

وفيه أنعم السلطان على قان بردى اليوسفى بتقدمة ألف ، وقرره في الدوادارية الثانية عوضا عن طراباى الشريفى بحكم انتقاله الى الرأس نوبة الكبرى .

وفيه عمل الموكب ، وخلع على جماعة من الأمراء ، فخلع على دولات باى المشهور بأخى العادل وقرره في نيابة الشام ، وقرر أرقباس بن ولى الدين في نيابة حلب عوضا عن دولات باى ، وخلع على جانم بن قجماس وأقره في نيابة طرابلس عوضا عن برد بك الطويل ، وخلع على الأمير سنبای نائب سيسى وقرره في نيابة حماه ، وخلع على قانصوه الفاجر وقرره في نيابة صغد ، وخلع على ملاج الأشرفى قايتباى وقرره في نيابة القدس ، وخلع على قصره الصغير وقرره في نيابة البيرة ، وخلع على جانم وقرره في نيابة طرسوس . فلما خلع عليهم استحثهم في الخروج بسرعة الى محل ولايتهم ، فخرجوا بغير أطلاب .

وفيه أمر بنفى جماعة من الأمراء العشراوات الى نحو قوص ، منهم جان بردى الغزالى ، وقرقماس قرا ، وقايتباى ، وآخرون من الخاصكية . وقيل انه فقد منهم جماعة .

وفيه ، في يوم السبت سادس عشره ، خلع السلطان على جاني بك السيفى أقبردى الدوادار وقرره في شادية الشراب خاناه ، وقرر طوخ المحدثى في نيابة القلعة ، وقرر تمرباى أحد خواطه في الخازندارية الكبرى .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بتقدم ألف ، منهم : طقطباى ومامای جوشن .

وفيه حضر خاير بك أخو قانصوه البرجى ، وكان ممن سجن بقلعة دمشق مع الأمراء المقدم ذكرهم ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف . واستمرت الأتابكية شاغرة من حين قتل قصروه ، فرسم السلطان للأمير طراباى أن يتكلم فى جهات الأتابكية حتى يقرر فيها من يختار .

وفيه عزل السلطان القاضى عبد البر الحنفى ، وأعاد البرهان بن الكركى ، فكانت مدة القاضى عبد البر فى القضاء أياما وعزل عنها . وقد قلت فى ذلك :

ولوك قاضى القضاة لكن

جاءوك بالعزل عن قريب

فمدة الحكم منك كانت

أقصر من جلسة الخطيب

ولما أعيد قاضى القضاة برهان الدين بن الكركى

الى القضاء ، قلت فى ذلك :

بقاضى القضاة استبشرت مصر فرحة

بعودته فى منصب للشرائع

فمذ قيل من أولى بمرتبة القضا

على مذهب النعمان من كل بارع

أشار اليه بالإيادى مليكها

وأوما اليه نيلها بالأصابع

وقد سعى ابن الكركى فى عوده الى القضاء بمال

له صورة .

وفيه اختفى شيخنا جلال الدين السيوطى ،

وقد طلبه ليفتك به ، وكان بينهما حظ نفس

من حين كان السلطان العادل فى الدوادرية

الكبرى ، وجرى بينهما أمور شتى يطول شرحها .

فلما اختفى قرر السلطان الشيخ يس البلييسى فى

مشيخة الخاتقاء البيبرسية عوضا عن الجلال

السيوطى بحكم صرفه عنها .

وقد جاءت الأخبار بالقبض على مغلباى زجاج

حاجب دمشق ، ونائب قلعتها أيضا . ثم ان السلطان قرر فى حجوية دمشق برد بك تفاح ، وقرر تىر بن جانم الظاهر فى حجوية حلب عوضا عن تىراز جوشن ، وكانت حيلة عليه ، فلما خرج أرسل بالقبض عليه ، ومضوا به الى القدس بطالا .

وفى شعبان المبارك كانت تفرقة السلطان لنفقة البيعة .

وفيه حضر قاصد على دولات وعلى يده مكاتبات للسلطان تتضمن أنه أرسل يشفع فى الأمير أرقماس نائب البيرة ، وكان فر الى ابن عثمان وعاد ، فأقام عند على دولات حتى شفع فيه عند السلطان .

وفيه عول السلطان بالقبض على الأمير خشكلدى البيسقى ، فلما بلغه ذلك فر من داره ، واستمر مختفيا حتى جرى للمعادل ما جرى .

وفيه طلع جهاز خوند الخاصكية الى القلعة ، فشق من الصليبة وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الاثنين رابع الشهر المذكور جاءت الأخبار من نغر الاسكندرية بقتل الأشرف جان بلاط مخنوقا ، وهو بالبرج بالاسكندرية ، قاتل الله من فعل به ذلك . وكان قد أرسل العادل مرسومه على يد مصرباى الصغير الى نائب الاسكندرية بخنقه وهو فى قيده . وقيل لما أرادوا خنقه أحدث فى ثيابه وصار شيخيره كالثور العظيم . فلما مات غسل وكفن وصلى عليه ودفن بمقابر الاسكندرية . ثم نقل بعد موته كما سيأتى الكلام عليه فى موضعه . وكان الأشرف جان بلاط ملكا جليلا وافر العقل ، جميل الهيئة ، وكان من خواص الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها تجارة الممالك ، وتقدمة ألف والدوادرية الكبرى ونيابة حلب ونيابة الشام ، والأتابكية بمصر ، ثم تولى السلطنة ، وأقام بها ستة أشهر وثمانية عشر

يوما ، وآل أمره الى أن مات مخنوقا بالسجن ،
وقاسى شدائد ومحنا ، كما يقال في الأمثال :

والمرء لا يدرى متى يمتحن

فانه في دهره مرتين

ولما مات الأشرف جان بلاط كان له من العسر
زيادة على الأربعين سنة . ولما مات على تلك الحالة
رثيته بهذه الأبيات :

جان بلاط بدا له	طالع النحس طرده
نجمه لاح مخبرا	بعكوس مؤبده
عند ما ظن أنه	نال بالملك مقصده
جاء الموت عاجلا	في بروج مشيده

وفي يوم الخميس سابعه صعدت خوند
الخاصكية زوجة الملك العادل طومان باى الى
القلعة . فخرجت من بيتها الدي بقنطرة سنقر ،
وهي في محفة زركش ، ومشى قدامها رعوس النوب
والحجاب والخاصكية ، وهم بالشاش والقماش ،
ومشى أيضا قدامها الوالى ، ونقيب الجيش ،
وعبد اللطيف الزمام ، وأعيان الأكابر والمباشرين ،
منهم : كاتب السر صلاح الدين بن الجيعان ،
وعبد القادر القسروى ناظر الجيش ، وعلاء الدين
ابن الصابونى ، وناظر الخاص ، وبقية المباشرين
قاطبة ، وأعيان الطواشية ، منهم : عنبر مقدم
الماليك ، وآخرون من الخدام ، وكان معها من
نساء الأمراء والأعيان نحو مائتى امرأة .

فلما وصلت الى باب الستارة فرشت لها الشقق
الحرير تجت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفافف
الذهب والفضة ، وحمل الزمام القبة والطير على
رأسها حتى جلست بقاعة العواميد ، والنوبة
السلطانية عمالة ، وكان يوما بالقلعة مشهودا .
واستمر المهم بالقلعة عمالا ثلاثة أيام ، وكان لها
موكب حافل لما شقت من الصليبة ، وكان قدامها
المجمع السلطاني ، والبجج وطشت وابريق بلور ،

ومدورة زركش ... ولم يثفق لاحدى الحوندات
قبلها أنها نزلت من القلعة ، وعادت اليها على هذا
الوجه ، سوى هذه وخوند أصل باى ، أم الملك
الناصر ، ولكن هذه أعظم وأحكم موكبا ، وقلت
في هذه الواقعة أبياتا لطيفة المعنى :

عادت خوند الى سرور تان

مذ زوجت بالعادل السلطان

في وجهها الاقبال والبشر الذى

يتناولون به بكل لسان

طلعت كتسس الأفق ضمن محفة

تجلى كحور العين وسط جنان

في موكب يحكى مواكب قيصر

فاقت على كسرى أنو شروان

لما آتت عند الصعود لقلعة

نثرت عليها الدر كالعقيان

عادت الى الأوطان في بشر وفي

عز واقبال وصفو زمان

نالت مراتب عزها مذ أقبلت

عاد السرور بمقدم السكان

واستبشرت دار بها سكنت وقد

رقصت بها طربا على العيسدان

وتبسمت أزهار أغصان الربا

فرحا بها في روضة البستان

بحر السماح غدا براحة كفها

يروى العطاش بمنهل الاحسان

وتجود من فيض الندى بمكارم

فيكون منه شفاء للظمان

فالله يكفيها مؤنة حاسد

ويطيل أياما لها بأمان

ما ماس غصن في الرياض وكللت

أيدي الغمام شقائق النعمان

وقد عرضت هذه القصيدة على خوند واستحسنتها .

وفيه خلع السلطان على طوخ المحمدي وقرره في نيابة القلعة عوضا عن طقطباى بحكم اختفائه . وفيه قرر شمس الدين أبو النصر في كتابة الخزانة مشاركا لصلاح الدين بن الجيعان .

وفيه قبض السلطان على القاضي ناظر الجيش عبد القادر القصروي ووكل به . وخلع على القاضي شهاب الدين أحمد وأعاده الى نظر الجيش عوضا عن القصروي .

وفيه تغير خاطر السلطان على الأمير اصطمر بن ولي الدين ، وفصد الاخراق به لكونه صهر البيسقي ، وصار ممقوتا عنده .

وفي مستهل رمضان رسم السلطان للخليفة أن ينزل ويسكن بداره ، وكان الملك الأشرف جان بلاط رسم له أن يسكن بالقلعة .

وفي يوم الاثنين خلع السلطان على المقر البدرى بدر الدين محمود بن آجا الحلبي الحنفي ، وقرره في كتابة السر بالديار المصرية ، عوضا عن صلاح الدين بن الجيعان بحكم استعفائه منها . وقد تقدم للبدرى محمود أنه ولي قضاء الحنفية بحلب غير ما مرة ، وكان والده القاضي شمس الدين محمد بن آجا الحلبي رئيسا حشما من الأعيان ، وتولى قضاء العسكر في أيام الأشرف قايتباى . وكان من خواص الأمير يشبك الدوادار ورأى الأوقات الحميدة

وفيه توفي العلائي على بن الصابوني ، ناظر الخاص ، وهو على بن أحمد بن محمد بن سليم البكري الدمشقي الشافعي . وكان رئيسا حشما وتولى عدة وظائف سنية ، منها قضاء الشافعية بدمشق ، ووكالة بيت المال ، ونظر الخاص بمصر ، ومات وله من العمر خمس وثمانون سنة . فلما مات خلع السلطان على علاء الدين على بن حسن

الامام ، وكان من جملة مباشرى الخاص ، وتولى نظارة الطور . وكانت نظارة الحاص تعينت الى ناصر الدين الصفدي ، ثم تحولت الى علاء الدين ابن الامام .

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر على العادة .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى قانصوه قرا الذي كان كاشف الشرقية ثم بقى نائب غزة ، وقرره في نيابة حلب . فاستعظم الناس عليه ذلك ، ولاموا السلطان على هذه الفعل . فخرج اليه بالتقليد شخص من بعض الدوادارية يقال له أيديكي .

وفيه قرر السلطان في نيابة غزة على باى السيفي ابن يشبك ، عوضا عن قانصوه الشهير بفرا رجله ، بحكم انتقاله الى نيابة حلب . وفرر بلباى المؤيدى في دوادارية السلطان بدمشق ، وفي نظارة الجيش بها أيضا ، حتى عد ذلك من النوادر . وقرر قانصوه الجمل في الأتابكية بدمشق ، عوضا عن قرقماس التنمى بحكم صرفه عنها

وفيه مات فجأة كسباى المغربى الاينالى ، أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به ;

وفيه تزايد شر العادل ، وصار يكبس البيوت والحارات بسبب الأمراء الذين اختفوا منه ، وهم مصر باى ، وطقطباى باى ، وتمر باى ، وكرتباى ، وخشكلىدى ، وجماعة آخرون . وصار طراباى ، وأنس باى ، وبيبرس البهلولان ، وقان بردى الغورى ، وأزبك النصراوى ، ووالى الشرطة يطوفون بعد العشاء ومعهم جماعة وافرة من مماليك السلطان ، فيشوشون على الناس ، ويكبسون عليهم البيوت تحت الليل ، ويسبون حريمهم ... فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، فما كان عن قريب حتى هرب العادل واختفى ، وصاروا يكبسون عليه البيوت

والحارات ، ويطلبونه أشد الطلب ، وكما يدين
الفتى يدان .

وفيه حضرت الى القاهرة زليخا خاتون ابنة
خليل بن حسن الطويل ، ملك العراقيين ، حضرت
تروم الحج ، فأكرمها السلطان ، ورسم لها بعمل
برك .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، واجتمع القضاة
الأربعة ، وأرسل السلطان خلف قانصوه الغورى
أمير دوا دار كبير ، وقيت الرحبى أمير سلاح —
وكان يوما حافلا — فلم يحضر قانصوه الغورى ،
ولا قيت الرحبى ، وقد أحسبا عول عليه السلطان
من مسكهما .

وفيه دارت عدة طواشية على الخيل ، وأشيع
بالعرض للعسكر ، وأن السلطان يريد القبض
على جماعة من الجند والمماليك . فتخلوا من ذلك ،
ولم يطلع أحد منهم الى القلعة ، وقد تغيرت عليه
خواطر العسكر قاطبة .

وفيه أخرج السلطان جماعة من مماليكه وسماهم
العادية

وقد استمر الحال فى اضطراب الى يوم
الأحد سلخ شهر رمضان ، فلبس العسكر آلة
السلاح ، ووثبوا على العادل . وكان القائم بهذه
الفتنة قيت الرحبى ومصرياى ... فلما اتسعت الفتنة
ظهر جماعة من الأمراء المختفين منهم خشكلدى
البيسقى ، وجان بردى الغزالى ، وآخرون من
الأمراء ممن كان مختفيا . فلما تحقق العادل أن
الركبة عليه ، نزل الى باب السلسلة وعلق الصنجق
السلطانى ، ونادى للعسكر أن تطلع الى القلعة ،
فلم يطلع اليه أحد من الأمراء ولا من العسكر ، ولم
يكن عنده أحد من الأمراء سوى الأمير قان بردى
الدوا دار الثانى أحد المقدمين — وكان من عصبته
ومن خواصه ، وقد أشيع بين الناس أنه سيوليه

الأتابكية عوضا عن قصره — وكان عنده قرقاش
المقصرى المحتسب ، وطراباى رأس نوبة كبير ،
وأنس باى وآخرون من الأمراء وبعض مماليك
سلطانية ... فجلس فى المقعد المطل على الرميلة فلم
يطلع اليه أحد من العسكر .

وفى ذلك اليوم وقع قتال هين وجرح الأمير
أقبردى فى وجهه . فلما كان وقت الغروب من سلخ
شهر رمضان نزل الأمير قانى باى الرماح من باب
السلسلة ، ومعه ماماى جوشن ، ونزل طراباى
وأنس باى . فلما رأى ذلك من كان عند العادل من
المماليك السلطانية ، تسحبوا جميعا ، وتمت الكسرة
على العادل . فلما دخل الليل قام ونزل من القلعة ،
واختفى ، وكانت ليلة عيد الفطر ، فاضطربت
الأحوال ، ولا سيما فى تلك الليلة ، وقد قلت
فى المعنى :

فى ليلة العيد أتى سلطاننا كل الضرر
فلم تكن كسرتة الا كلمح بالبصر

وكان سبب هذه الفتنة ، أنه قد أشيع بين الناس
فى ليلة العيد ، أن السلطان قد عول على مسك
جماعة من الأمراء يوم العيد وهم فى الجامع . فلما
بلغهم ذلك وثبوا عليه تلك الليلة . فلما نزل من
القلعة واختفى ، وقع النهب فى الاسطبل السلطانى
والزردخانة ، فنهب منها أشياء كثيرة بنحو من
ستين ألف دينار على ما قيل . فلما كان يوم العيد
لم يصل أحد من الأمراء صلاة العيد ، واشتغل كل
أحد بما هو فيه ، ووقع الخلاف بين الأمراء فيمن
بلى السلطنة ، وكان من الأمر ما سنذكره . فكانت
مدة السلطان الملك العادل طومان باى بالديار
المصرية ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، خارجا عن سلطنته
بدمشق .

وكان ملكا جليلا ، مهيبا مبجلا ، تولى
الملك وقد جاوز الأربعين سنة . وكانت صفته :

طويل القامة ، أبيض اللون ، مشربا بحمرة ، مدور الوجه ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، الغالب عليه الشقرة . وكان متليء الجسد جميل الهيئة ، وافر العقل سديد الرأي ... غير أنه كان سفاكا للدماء عسوقا ظالما : قتل الأتابكي قصره ظلما ، وأرسل بخنق الأشرف جان بلاط وهو بالبرج ، وعول على خنق الظاهر قانصوه أيضا وهو بالبرج ولكن كان في أجله تأخير ، ونفى جماعة كثيرة من الأمراء والخاصكية والماليك في هذه المدة اليسيرة . ولو دام في السلطنة لوقع منه أمور شتى ، ولكن يقتل غالب الأمراء وثلاث العسكر .

وكانت مدة سلطنته كلها شرور وفتن مع قصرها ، وآخر الأمر هرب واختفى ، واستمر مختفيا حتى ظهر وقبض عليه ، وقطعت رأسه ، كما سيأتى الكلام على ذلك في موضعه ، وآل الأمر الى أن خلع من السلطنة ، وتسلمن بعده قانصوه الغورى كما سنذكره في محله .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن بيبردى الغورى الأشرفى . وهو السادس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو العشرون من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد . وقد قلت في ذلك ابتداء :

أصنى التاريخ حكى بسجعه الشحرورى
فاق التواريخ بما أوردته للغورى

وكان أصله جركسى الجنس من مماليك الأشرف قايتباى وأعتقه فهو من معاتيقه ، ثم أخرج له خيلا وقماشاً ، وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بقى خاصكيا ، ثم قرر في كشف الوجه القبلى سنة ست وثمانين وثمانمائة بواسطة الأمير قانصوه

خمسائة ، ثم أنعم عليه الأشرف قايتباى بامرة عشرة في سنة تسع وثمانين وثمانمائة ، وخرج في بعض التجاريد الى البلاد الحلبية ، ثم قرر في نيابة طرسوس . ثم انه عاد الى حلب وقرر في حجوبيتها عوضا عن باكير بن صالح الكردي وذلك في سنة أربع وتسعين وثمانمائة ، ثم بقى نائب ملطية بعد حجوبية الحجاب بحلب ... وكل ذلك في دولة الأشرف الملك الناصر محمد بن قايتباى ، وأنعم عليه بتقدمة ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب في دولة الملك الظاهر قانصوه خال الملك الناصر ، وذلك في ثالث ذى القعدة سنة خمس وتسعمائة ، وسافر الى الشام صحبة الأمير طومان باى لما خرج الى محاربة قصره نائب الشام لما أظهر العصيان على الأشرف جان بلاط . فلما تسلمن طومان باى بالشام ورجع الى القاهرة وهو سلطان ، خلع عليه وقرره في الدوادارية الكبرى والوزارة والاستدارية عوضا عن نفسه ، فاستمر على ذلك حتى وثب العسكر على العادل في سلخ شهر رمضان سنة ست وتسعمائة ، واختفى في ليلة عيد الفطر بعد العشاء .

فلما أصبح ذلك اليوم ، وأشيع هروب العادل ركب الأمير قيت الرحبى أمير سلاح ، وقانصوه الغورى أمير دوادار كبير ، وطراباى ، وقانى باى قرا أمير آخور كبير ، ومصر باى ، وأسطمر ، وأنس باى ، وبيبردى الفهلوان ، وطقطباى ، وماماي جوشن ، وخاير بك — أخو قانصوه البرجى — وآخرون من الأمراء المقدمين . ثم ظهر خشكلدى اليبسقى ، وكان مختفيا من العادل لما أراد القبض عليه . فلما تكاملوا اجتمعوا بيت قانصوه خمسائة الذى بقناطر السباع ، فحضر اليهم الأتابكى تانى بك الجمالى — وكان مختفيا من حين كسر الأشرف جان بلاط وتسلمن العادل — فلما حضر وقع الاتفاق

زين الدين زكريا والبرهان الدين بن الكركي الحنفى حتى يقع رأى الأمراء فيمن يولونه السلطنة . فكتب القاضى الحنبلى صورة محضر فى خلع العادل من السلطنة ، وشهد فيه جماعة كثيرة من الناس بأنه سفاك للدماء . ثم حضر القاضى الشافعى والقاضى الحنفى وعقدت البيعة لقانصوه الغورى وبايعه الخليفة ، وكانت سلطنته فى يوم الاثنين مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، ثم أحضر اليه شعار السلطنة وهى الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك ، كل هذا وهو يمتنع ويبكى ... فلقبوه بالملك الأشرف ، وسما فى علوه وأشرف ، وكنوه بأبى النصر قانصوه الغورى ، وبه صارت مصر مشرفة بالنورى ، وقيل :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

ثم قدمت اليه فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، فركب من على سلم الحراقة التى بباب السلسلة ، فتقدم قيت الرحبى وحمل القبة والطير على رأسه وقد ترشح أمره الى الأتابكية ، فركب الخليفة عن يمين السلطان ، ومشت بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش ، حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، والباقي للزوال نحو من خمس وعشرين درجة ، وكان الطالع بالسرطان ، فأول من قبل له الأرض قيت الرحبى ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا ، ثم خلع على الخليفة ونزل الى داره ، وخلع على مصرباى وقرره فى الدوادرية الكبرى والوزارة والاستادارية — عوضا عن نفسه — فنزل الى داره فى موكب حافل .

ثم دقت له البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت الأصوات له بالأدعية الفاخرة ، وزال ما كان من الشكوك والظنون ، وأقرت من

على سلطنته أولا ، فركب من هناك وعلى رأسه الصنجق السلطانى وقد ترشح أمره الى السلطنة . فلما طلع الى باب السلسلة ليلى السلطنة ، أشيع فى ذلك اليوم أن الأشرف قانصوه خمسمائة باقى فى قيد الحياة ، فأشهروا النداء فى القاهرة بأن قانصوه خمسمائة ان كان موجودا فليظهر وله الأمان ، وان لم يظهر بعد ستة أيام فلا أمان له . فلما طال المجلس انفض العسكر من الرميطة ونزل غالب الأمراء الذين كانوا قد اجتمعوا فى الحراقة بباب السلسلة .

وكان يوم عيد الفطر يوم الاثنين ، فاختار كل أحد عوده الى داره حتى يقع اختيار الأمراء على من يولونه السلطنة ، فأعرض غالب العسكر عن الأتابكى تانى بك الجمالى ولم يرض به أحد منهم . وكان الأتابكى تانى بك الجمالى أرشل معكوس الحركات فى أفعاله ، وطاش لما ذكر للسلطنة ، ثم آل أمره بعد ذلك الى كل سوء ، فلم تقم له السلطنة ، وكانت من نصيب قانصوه الغورى كما سيأتى الكلام على ذلك ، فكان كما يقال :

تنافس الناس فى الدنيا وقد عظمت

فصفوها لك ممزوج بتقدير

لم يرزقوها بسعى عند ما قسمت

لكنما رزقوها بالمقادير

لو كان عن طلب بالسعى ندرتها

طار البزاة بأرزاق العصافير

فلما رأوا المجلس مانع ، تعصب الأمير فيت الرحبى أمير سلاح والأمير مصرباى الى قانصوه الغورى وقالوا : « ما نسلطن الا هذا » ، فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكى ، وربما كلمه مصرباى ومزق طوق ملوطته وهو يمتنع غاية الامتناع ، فحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب وقاضى القضاة عبد الغنى بن تقي المالكى والشهاب الشيشينى الحنبلى ، وتأخر قاضى القضاة الشافعى

كان من عصبية العادل ، وجانى بك شاد الشراب خانا ، ومسايد ناظر الجوالى ، ومصر باى الصغير ، وأزبك النصرانى وآخرين من الأمراء من كان من حلفه .

وفى ذلك اليوم ظهر الشيخ جلال الدين الأسىوطى ، وكان مختفيا من العادل فى مدة سلطنته ، وكان يفصد الاخراق به فكفاه الله مؤثته ، وذكر أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وبشره بزوال العادل عن قريب .

وفيه كتبت المراسيم السلطانية بحضور الأمير قانصوه المحمدى البرجى : وكتبت المراسيم أيضا بالافراج عن سجنه العادل بقلعة دمشق وهم قرقماس وأزدمر وقانصوه بن اللوقا وسودون الدوادارى وآخرون من الأمراء ممن كان سجنهم العادل بقلعة دمشق وقد تقدم ذكرهم

وفى يوم الخميس رابعه عمل السلطان الموكب بالحوش ، وهو أول مواكبه ، فخلع على جماعة من الأمراء خلع العيد ونزلوا من القلعة فى موكب حافل ، وكذلك أرباب الوظائف من المباشرين .

وفى يوم السبت ، السادس من شوال ، خلع السلطان على جان بردى الغزالى وقرره فى الحسبة عوضا عن قرقماس المقرى ، وقرر نانى بك أخو مامى فى الخازندارية الكبرى عوضا عن تمر باى خازندار العادل ، وخلع على أقبى الطويل وقرره فى شادبة الشراب خانا عوضا عن جانى بك المتد ، وقرر تمر باى أمير مسوى فى نظر الجوالى ، وقرر مغلباى الشريفى فى الزردكاشية الكبرى عوضا عن تمر الحسنى بحكم انتقاله الى التقدمة .

ثم ان السلطان قبض على الأتابكى تافى بك الجمالى ووكل به بالقلعة وأمره بالخروج الى مكة صعبة الحاج .

وفيه أنعم السلطان على قانصوه الفاجر بتقدمة

الناس بسلطنته العيون ، فكانت سلطنته على غير القياس ، وأشيع بأن بنيانه على غير أساس ، فصار منه بعد ذلك الهزل جدا ، ومكث فى السلطنة مكثا جاوز الحد ، فزال عنه الأضرار والبأس ، وامتألت منه أعين الناس ، فتولى الملك وله من العمر نحو من ستين سنة ، ولم يظهر بلحيته الشيب حتى عد ذلك من جملة سعده .

ومن العجائب أن أرباب الملاحم قالت للعادل طومان باى : « ما يأخذ الملك منك الا حرف القاف » ... فظن أنه « قصروه » ، فقتله ظلما ولم يكن يحسب لقانصوه الغورى حسابا ، فكان كما قال :

الرزق لم يزل للمرء ملتزم
ما المن سعى الا لمن قسم

ومن الحوادث فى يوم سلطنته أن طائفة من المساليك الجلبان توجهوا الى بيت فخر الدين كاتب الممالك الذى فى الأزيكية فاحرقوه ونهبوا ما فيه ، ثم توجهوا الى بيت شمس الدين أبى المنصور مباشر العادل فنهبوا ما فيه ، ثم توجهوا الى بيت قرقماس المقرى المحسب وبيت أزبك النصرانى والى القاهرة فنهبوا ما فيها ، ثم توجهوا الى بيت عبد العظيم الصيرفى فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس نقيب الجيش ، وحصل فى ذلك اليوم غاية الاضطراب ولا سيما فى مثل يوم العيد .

ثم ان السلطان خلع على شخص من الأتراك يسمى طومان باى الجلب وقرره فى ولاية القاهرة عوضا عن أزبك النصرانى ، فركب ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمان وأن المساليك تكف عن النهب ، فسكن الاضطراب قليلا .

وفى ذلك اليوم اختفى جماعة من الأمراء ممن

ألف ، وكذلك قرقماس التتلى ، وأنعم أيضا على دولات باى قرموط بتقدمة ألف ، وكذلك طقطباى ابن ولى الدين .

وفيه هجم الوالى على بيت قاضى القضاة الحنفى برهان الدين بن الكركى بسبب التفتيش على العادل فلم يجدوه عنده ، فنهبوا بيته وأخذوا منه علبة كان فيها مال الأوقاف الذى كان تحت يده . وفيه ، فى ثامن عشره ، خرج الحاج من القاهرة . وكان أمير ركب المحمل سودون العجمى أحد المقدمين ، وبالركب الأول دولات باى قرموط ، وخرج صحبته الأتابكى تانى بك الجمالى فرسم له بالاقامة فى مكة فخرج وهو فى التوكيل به ، ورسم السلطان لخاتون ابنة خليل بن حسن الطويل صاحب العراقين بعمل برك ، وحجت فى تلك السنة .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه خلع السلطان على الشيخ سرى الدين عبد البر بن الشحنة وقرره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن برهان الدين بن الكركى بحكم صرفه عن القضاء ، وقد قاسى غاية المشقة بما جرى عليه بسبب اختفاء العادل .

وفيه كثر شر المماليك على السلطان بسبب طلب الأقاطيع والوظائف ، حتى أنه تبرأ من السلطنة وهم بأن يختفى بنفسه حتى يولوا من يختارونه من الأمراء .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بفرار دولات باى نائب الشام ، وقد بلغه ما جرى على العادل وكان من أقاربه ، فخاف على نفسه ، فأخذ يركه وحريره وخرج من الشام وتوجه الى نحو بلاد ابن عثمان ملك الروم .

وفيه رسم السلطان باحضار جماعة من الأمراء — وكان العادل نفاهم الى دمياط — منهم برد بك المحمدى الاينالى الذى كان الأشرف جان بلاط قرره

فى حجوية الحجاب ، وأرزمك الناشف الذى كان مقدم ألف ، ومامش الرحبى ، وتمر باى الشيخ ، وآخرون من الخاصكية ، وكان عدتهم نحو من ثمانية عشر نفرا .

وفيه زاد أمر التفتيش على العادل وصار والى القاهرة يركب ومعه حاجب الحجاب والأمير طراباى رأس نوبة النوب ، ومعهم الجم الغفير من المماليك وهم بالآت السلاح ، فيهمجمون البيوت والحارات تحت الليل بسبب العادل . وكان العادل يكبس البيوت والحارات بسبب الأمراء الذين اختفوا منه ، فما عن قريب حتى صاروا يكبسون البيوت والحارات بسببه ... والمجازاة من جنس العمل .

وفيه عرض السلطان ممالك العادل ، وأمر باخراجهم الى جهة الصعيد ، وكان العادل أخرج خرجا من المماليك وسماهم العادلة .

وفيه توفى على باى الظاهرى تمرغا وكان من الأمراء العشرات ، ومات وهو طرخان وكان لا بأس به .

وفى الثانى والعشرين من شوال أحضرت جثة الأشرف جان بلاط من نغر الاسكندرية ، وقد تقدم أن العادل بعث بخنقه وهو فى البرج فخنق ودفن بالاسكندرية ، ثم وقف ممالك جان بلاط الى السلطان وسأله فى نقله الى القاهرة فرسم لهم بذلك ، فقتل وهو فى سحلية ، فلما حضرت جثته دفن أولا بتربة الأشرف قايتباى وأقام بها أياما ، ثم تعصبت له ممالكه وقالوا : « ما ندفن أستاذنا الا فى تربته التى بباب النصر » ، فرسم لهم السلطان بذلك ، فنقلوه ودفنوه فى تربته التى بباب النصر . وهذه ثالث نقلة وقعت له ، وكان نقله الى تربته فى ليلة الجمعة سادس عشرين هذا الشهر .

وفيه ، فى تاسع عشرينه ، خلع السلطان على قيت الرحبى وقرره فى الأتابكية عوضا عن قصروه

نائب الشام بحكم موته . وكانت الأتابكية شاغرة من يومئذ حتى قرر بها فيب ، وكان المتكلم في جهات الأتابكية في هذه المدة الأمير طراباي رأس نوبة النوب .

وفيه قرر شمس الدين أبو المنصور القبطي في نظر البيمارستان المنصوري .

وفي أوائل هذا الشهر نوفيت عزيزة بنت السطحي ، وكانت من أعيان مغاني مصر ، فريدة عصرها في النشيد مع حسن الصوت وفصاحة بأعراب الشعر ، فلم يخلقها من بعدها أحد من النساء المغاني ، ورات من الأعيان وأرباب الدولة غاية العز والعظمة ما لا رآه غيرها من أرباب هذا الفن ، وماتت وهي في عشر الثمانين ، وكان لها بمصر شهرة زائدة . ومما قاله فيها الشهاب المنصوري :

وفتاة نزهت طرفي فيها
شفت مسمعى بجوهر فيها
منذ نارت محبتها وتغنت
كاد يرمى بنفسه من أيها

وفي ذي القعدة ثار طائفة من المماليك ولبسوا آلة السلاح ، وطلبوا من السلطان نفقة البيعة ، فوعدهم حتى يجمع المال ، فسكن الأمر قليلا . وفيه اجتمع القضاة الأربعة والخليفة وقرىء عهد السلطان بحضرتهم وكان موكبا حفلا .

وفيه قبض على قاضى القضاة برهان الدين بن الكركى الحنفى ، ثم توجهوا به الى دار الأتابكى قيت فوكلوا به بالمدرسة الباسطية ، وقد تكلم بعض الناس في حقه بأن العادل قد أودع عنده مالا فأقام في الترسيم يوما وليلة ، ثم تكلم بعض الأمراء مع السلطان في أمره فرسم بالافراج عنه فعاد الى داره ، وكان معه في التوكيل بدر الدين

السعودى تقييه المعروف بابن الوقاد ، قال أمره أن طلب منه مال وأخذ منه فيما بعد .

وفي يوم الثلاثاء سابعه خلع على الأمير خشكلدى البيسقى وقرره في امرية مجلس ، وكان مختفيا من العادل لما أراد القبض عليه .

وفيه تزايد أمر التفتيش على العادل فهجموا بسببه دار سيدى على بن المؤيد أحمد بن الأشرف اينال فلم يجدوا بها أحدا ، وهجموا زاوية الشيخ أبو شامة التى بالناصرية ، وصاروا يهجمون عليه عدة بيوت وأماكن . وكان العادل في مدة اختفائه يكتب أوراقا ويرسل يعلقها عند سوق السلاح بالقبو وغير ذلك من الأماكن التى يجتمع بها الأتراك ، ويكتب فيها انه اذا عاد الى السلطنة ينفق على العسكر مائتى دينار لكل واحد منهم وفرس ، وأن الذى وقع منه في الماضى لا يعاد ، ونحن أولاد اليوم .

وفي يوم الاثنين ثالث عشره ، حضر قانصوه الخازندار ، وكان الظاهر قانصوه خال الناصر أرسله قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فكانت مدة غيبته في هذه السفرة سنة وثلاثة أشهر ، فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه .

وفيه قبضوا على العادل طومان باى من مكان بالقرب من بيت الأتابكى جرباش كرد الذى عند زاوية الشيخ خلف ، وكان من ملخص أمره أنه لما طال اختفائه ، وصارت الأمراء على رؤوسهم الطيرة منه ، ولا ينامون في بيوتهم الا ومماليكهم لابسون آلة السلاح ليلا ونهارا ، فلما تزايد الأمر أخذوا في أسباب عمل الحيلة على العادل ، فاستمالوا جاني بك الذى كان شاد الشراب خاناه وجاني بك الشامى وكان من أخصاء العادل ، فوعدوا كلا منهما بتقدمة ألف ، وكانا يجتمعان

على العادل في مدة اختفائه ، فحسنوا للعادل بأن
يجيء الى بيت جاني بك الشامي الذي بجوار بيت
الأتابكي جرباش كرد ، وكان الأمير مصر باي
الدوادار ساكنا في بيت الظاهر تمر بغا الذي عند
سوق القبو خلف بيت الأتابكي جرباش ، فقررروا
مع العادل أنه اذا حضر الى بيت جاني بك الشامي
يهجمون على مصر باي بعد العشاء وهو جالس
في مقعده ، فيدخلون عليه من باب سر الأتابكي
جرباش الذي خلف بيت تمر بغا فيقتلونه تحت
الليل على حين غفلة ، فاذا قتل مصر باي يركب
العادل من هناك ويحطم باب السلسلة فيملكه ،
فانصاع العادل الى هذا الكلام وحضر الى بيت
جاني بك الشامي ... وكان هذا عين الخداع ،
وصار من تدبيره ، ما عاد في تدبيره . فلما صار
عنده في البيت مد له أسطة حافلة وبات عنده ،
فأرسل جاني بك الشامي أعلم مصر باي بذلك ،
فبينما العادل في أرغد عيش فما شعر الا وقد
هجموا عليه وأحاطوا بالمكان الذي به وقد تمت
الحيلة عليه ، كما يقال :

لا تركن الى الخريف فمأوه

مستوخم وهوأوه خطاف

يمشي مع الأجسام مشي صديقها

ومن الصديق على الصديق يخاف

قيل لما هجموا عليه قام وهرب فتسلق من على
حائط ورمى بنفسه من أعلى الحائط فوق علي
فخذه فانكسر نصفين ، فأدركه شخص من مماليك
الأشرف جان بلاط يقال له أرزمك فقطع رأسه ،
وصار كل من مماليك جان بلاط وقصروه ، يشتفي
منه ويضربه بالسيف حتى هروه ، فلما قطعوا رأسه
أحضروها بين يدي مصر باي الدوادار ، فوضعها
في طبق من النحاس ، وأخرجها من بيته والمشاغلية

تنادي عليه : « هذا جزء من يسفك الدماء ويقتل
الأمراء بغير حق » ، فعز ذلك على بعض الأمراء .
فلما عرضت رأسه على السلطان رسم بدفنه وأرسل
معه ثوبا بعلبكيا وعشرين دينارا ، فأعادوا رأسه
الى جتته ، وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ، ثم
توجهوا به الى تربته التي أنشأها بالقرب من المطعم
السلطاني فدفن بها ، ولما أرادوا التوجه به أدخلوه
من باب زويلة ومعه والى القاهرة وجماعة كثيرة
من المماليك السلطانية وهم لابسون آلة السلاح ،
وكان هذا خوفا على العادل من مماليك الأشرف
جان بلاط ومماليك قصره أن يحرقوه وهو في
التابوت ... وكان قصدهم ذلك حقيقة فما قدروا
على ذلك . وواقعة العادل طومان باي تقرب من
واقعة الأتابكي تراز الشسي وقد تقدم ذكر ذلك .

وكان العادل طومان باي ملكا جليلا مهابا ذا
شهامة زائدة وحرمة وافرة ، وكان من مبتداه الى
منتهاه وهو في عز ووضخامة ، لكنه لما ولي السلطنة
ظهر منه أمور فاحشة وأخرق في سفك الدماء وقتل
الأمراء ، ولو دام في السلطنة كان يظهر منه أمور
شنيعة ويقتل غالب الأمراء ، وكان عنده مكر
وخداع ... لكنه كان يظهر العدل في بعض الأمور
وكان محببا للناس ، ولا سيما طائفة العوام ، وقد
تقدم ما أوردناه من أخباره ، وما ولي من الوظائف
السنية ، وما وقع منه من الأمور في تغيير الدول ،
وما فعل بالملك الناصر والظاهر قانصوه والأشرف
جان بلاط وغير ذلك من الأمراء ، وقد قلت في ذلك :

العادل السلطان لا تعجب له

فيما جرى منه بتغيير الدول

أعماله ردت عليه بما جنى

والدهر قد جازاه من جنس العمل

وكانت مدة اختفائه من حين تسحب من القلعة ليلة عيد الفطر الى حين قبض عليه اثنين وأربعين يوما ، فلما قبضوا عليه وجدوا شعر رأسه قد طال حتى صار كفروة الغنم ، وكانت الناس في مدة اختفائه في جمرة نار من هجم البيوت وكبس الحارات ، وقاسوا غاية المشقة بسبب ذلك حتى ظهر . وكانت واقعة من النوادر الغريبة ، فكانت تقرب واقعة من واقعة الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباي لما اختفى وحصل للناس الضرر بسببه .

فيل لما قتل العادل تخلق بدمه عيال خوند أم الناصر وأظهروا الفرح والسرور في ذلك اليوم . وكانت معذورة فيما فعلت ، فانه قتل ابنها الناصر ، وسجن أخاها الظاهر قانصوه ، وقتل زوجها الأشرف جان بلاط . وعد قتل العادل من جملة سعد الغوري .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له قرقماس اليسيقي تنم نائب الشام وقرره في نيابة القدس ، وكان أحد الأمراء العشراوات .

وفي ذى الحجة حضر من كان سجنه العادل من الأمراء بدمشق وهم قرقماس بن ولي الدين ، وأزدر بن علي باي ، وقانصوه بن سلطان جركس الذي كان نائب حماة ، وسودون الدواداري . فلما مثلوا بين يدي السلطان خلع عليهم ووعدهم بكل جميل .

وفيه ظهر تمر باي خازندار العادل ، وكان مختفيا ، فلما ظهر قرر عليه مال وأقام في الترسيم حتى يورد ما قرر عليه من المال .

وفي يوم الخميس ثامن ذى الحجة عزل قاضي القضاة زين الدين زكريا الشافعي عن القضاء ،

وهذا كان آخر عزله وولايته للقضاء ، وقد كف بصره غيب ذلك . فلما عزل زكريا سعى محيي الدين عبد القادر بن النقيب في عوده الى القضاء ، وقد أورد مالا له صورة ، فخلع عليه وأعيد الى القضاء عوضا عن زكريا بحكم انفصاله عنها ، وهذه ثاني ولاية وفعت لابن النقيب .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر وقطع أضحية لبعض جماعة من الفقهاء والخدام .

وفيه أنعم السلطان بعدة تقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، منهم قرقماس بن ولي الدين قرره في امرية السلاح عوضا عن قيت الرحي بحكم انتقاله الى الأتابكية ، وقرر أصطمر بن ولي الدين في امرية مجلس عوضا عن خشكلدي اليسيقي ، وبقي خشكلدي اليسيقي مقدم ألف بغير وظيفة وكان يجلس فوق أصطمر ، وقرر أزدر بن علي باي في حجويية الحجاب عوضا عن أصطمر بن ولي الدين بحكم انتقاله الى امرية مجلس ، وأنعم على أرزمك الناشف الذي كان نائب القلعة بتقدمة ألف ، وكذلك قانصوه الخازندار الذي كان توجه قاصدا الى ابن عثمان ، وكذلك قانصوه الفاجر ، وخشكلدي الذي كان أستاذار الصحة ، وكان الأشرف جان بلاط أنعم عليه بتقدمة ولم يتم له ذلك من بعده وصار أمير طبلخاناه ، وغير هؤلاء جماعة آخرون .

وفيه رسم السلطان باحضار جماعة من الأمراء العشراوات وكان العادل تفاهم الى دمياط فحضروا جملة واحدة ، وكانوا نحو من ثمانية أنفار .

ومن الحوادث الشيعة أن طائفة المساليك وقفوا وقت طلوع الفجر الى القاضي شمس الدين

يوم متهود لما شق من القاهرة وهو لابس التشریف ، وكان كفوا للمنصب .

وفيه اضطربت الأحوال وأرتج الأمر على السلطان من قبل الممالك بسبب نفقة البيعة ، فشكا السلطان بأن الخزائن خالية من المال ، فان الممالك تأثرة بسبب النفقة وقد كثر العسكر من سائر الطوائف ما بين ظاهرية وأشرفية وإينالية وخشقدمية وقايتبايية وناصرية وممالك الظاهر قانصوه وممالك الأشرف جان بلاط وممالك العادل طومان باي وممالك النواب والأمراء الذين قتلوا ممن تقدم ذكرهم ، وفد صار كل أحد منهم يروم له رزقا ، وأن الملك الناصر بن الأشرف فايتباي فرق الأقاليم التي كانت في الذخيرة جميعا فمن أين أسد هؤلاء الممالك ؟

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرين ذى الحجة اجتمع الأمراء عند السلطان في الدهيشة وضربوا مشورة في ذلك اليوم ، وأقاموا في القلعة الى بعد العصر ، فلما نزلوا أشيع بين الناس أن السلطان يقصد يخرج أوقاف الجوامع والمدارس ويبقى لهم ما يقوم بالشعائر فقط ، وأنه يفرق بلاد الأوقاف بمتالات على الأمراء والممالك ، فلما بلغ الناس ذلك اضطربت الأحوال وكثرت في ذلك الأقوال .

سنة سبع وتسعمائة (١٥٠١/١٥٠٢ م) :

فيها ، في المحرم ، صعد الخليفة المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب والقضاة الثلاثة — وهم برهان الدين بن أبي شريف الشافعي ، وعبد الغنى بن تقي المالكي ، والشهاب أحمد الشيشيني الحنبلي — وتأخر قاضي القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، ولكن طلع فيما بعد ، فلما طلوعوا الى القلعة ليهنوا

أبى المنصور مباشر العادل فقتلوه وهو خارج من بيته الذى بالمقس طالع الى القلعة ، فقتله بعض الممالك بخنجر في بطنه فمات من يومه ولم تنتطح في ذلك شاتان ، كما وقع لأبى البقا بن الجيعان في البندقانيين وهو طالع من بيته الى القلعة ، وكان أبو المنصور من أعيان المباشرين ورأى غاية العز والعظمة أيام أقبردى الدوادار ، وباشر عدة جهات سنية في أيامه ، ثم من بعد أقبردى التجأ الى العادل طومان باي من حين كان دوادارا كبيرا وخرج معه الى الشام في تجريدة « قصروه » ، فلما عاد وهو سلطان تزايدت عظمة أبى المنصور عنده وجعله متكلم في الخزائن الشريفة مع صلاح الدين ابن الجيعان ، وكان أصله من بنى الأقباط وكان لا بأس به .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشرين^١ تغير خاطر السلطان على قاضى قضاة الشافعية محبى الدين عبد القادر بن النقيب فعزله عن القضاء ورسم بنفيه الى قوص ، فتوجه اليه نقيب الجيش وأركبه على حمار وتوجه به الى البحر ، فشفع فيه بعض الأمراء من النفى وقرر عليه مال ، فكانت مدته في هذه الولاية الثانية ثلاثة عشر يوما لا غير ، فانه أعيد الى القضاء بعد عزل قاضى القضاة زكريا في يوم الخميس ثامن ذى الحجة ، وعزل عن القضاء في يوم الثلاثاء حادى عشرين ذى الحجة فهي ثلاثة عشر يوما سوى .

وفي يوم الخميس ثانى عشرين^١ طلب السلطان الشيخ برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى ، فخلع عليه وقرره في قضاء الشافعية بمصر عوضا عن عبد القادر بن النقيب ، فكان له

(١) تأمل .

الصفدى وكيل بيت المال ، وأن أرباب الأملاك والحوانيت يتوجهون الى بيت الأمير مصرباى الدوادار .

ثم ان السلطان رسم لثمانية من الأمراء المقدمين بأن يتكلم كل واحد منهم على فرع من أبواب هذه المظالم ، فتكلم الأتابكى قيت فى جهات الأوقاف قاطبة واقطاعات الحلقة ، وقد تقدم ذكر ذلك . وتكلم مصرباى فى جهات الأملاك قاطبة ، فكتبت القوائم بأسماء الأقطاع والرزق من بيت أولاد الجيعان وطلبت أعيان الناس بالرسل الغلاظ الشداد ، وطلب مصرباى أرباب الأملاك التى هى من الصلية الى مصر العتيقة الى دير الطين ، وتكلم الأمير قرقماس أمير سلاح على جهات البيوت التى هى داخل بابى زويلة قاطبة ، وتكلم الأمير أربك المكحل أحد المقدمين فى جهات البيوت التى هى خارج باب الشعرية من جزيرة النيل الى المطرية ، وتكلم قانى باى قرا أمير آخور كبير فى جهات المراكب والسواقى قاطبة ، وتكلم الأمير طقطباى أحد المقدمين على جهات الغيطان قاطبة ، وتكلم طراباى رأس نوبة النوب على جهات مصادرات التجار ومساير الناس ، وتكلم أنص باى أحد المقدمين هو وأزدر بن على باى على مصادرات طائفة اليهود والنصارى وقد قرر عليهم نحوا من ثلاثين ألف دينار ، وتكلم ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال على جهات رزق النساء من الخوندات والأعيان من الستات . ثم قرر السلطان مالا على جماعة من الخدام منهم محسن ومختص وغير ذلك من الخدام ، وأطلق فى الناس جمر نار المصادرات ، وصار كل منهم فى أليم الغمرات .

السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى بالعام الجديد تكلم مع القضاة فيما تقدم ذكره فى أمر الأوقاف ، فلم يوافق القاضى الشافعى على ذلك ولا القاضى المالكى ولا الحنبلى ، ثم ان القاضى الحنبلى أغلظ على السلطان فى القول فانحرف منه وقال له : « اذا ركبوا الممالك وطلبوا منى نفقة أنا أبعثهم لك فى بيتك كلمهم مثل ما تعرف » . فانقض المجلس مانعا ونزل القضاة الى دورهم على غير رضا من السلطان ، ثم طلع القاضى الحنفى عبد البر الى السلطان فى أواخر النهار فتكلم معه فى ذلك ، فمشى عبد البر فى غرض السلطان بما يريد ، ثم اجتمع الأمراء عند السلطان فى مجلس ثان وضربوا مشورة فى معنى ذلك . فوقع الاتفاق على أن الأوقاف تنقى على حالها ويؤخذ من ريعها سنة كاملة ، ومن أجرة أملاك القاهرة من بيوت وربوع وحوانيت وحمامات وغيطان ومراكب وغير ذلك يؤخذ منهم أجرة عشرة أشهر كاملة ، حتى من وقف اليمارستان المنصورى وسائر الأوقاف من عال الى دون ، وكتبت المراسيم بمعنى ذلك الى نجر الاسكندرية ودمياط حتى الى دمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية والحلبية . وكان القوائم فى هذه المظلمة الأتابكى قيت الرحبى . وصار الأتابكى قيت الرحبى يرسم على أعيان الناس بسبب ذلك بالمدرسة الباسطية حتى يردوا الأموال ، لا جزاه الله خيرا !

ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن كل من كان ناظرا على وقف ، وكل من كان له اقطاع من أجناد الحلقة أو غيرها ، يتوجه الى بيت الأتابكى قيت الرحبى ، وأن أرباب الرزق من النساء والخوندات والستات يتوجهن الى بيت القاضى ناصر الدين

ان يوم الاثنين رابع المحرم وثب جماعة
 ك على السلطان ولبسوا آلة السلاح ،
 لك أن السلطان قد أبطأ عليهم بتفرقة
 ثة أشهر فوثبوا عليه وطالبوه بالنفقة ،
 م : حتى تجبى الأموال ... فلم يرضوا
 تادى لهم أن النفقة تكون بعد مجيء
 كن الحال قليلا ، وآل الأمر الى الحث
 المصادرات في سرعة استخراج الأموال ،
 بهم نيران الأهوال ، وعملوا فيهم بالبيع
 ، ولم يجدوا لهم من حميم ولا شفيع
 ان أصحاب الأملاك ضيقوا على السكان
 بأن يعجلوا لهم من أجرة الدكاكين
 عشرة أشهر معجلا لأجل هذه الغرامة ،
 م بسبب ذلك الضرر الشامل ، وتعطلت
 من البيع والشراء ، وغلقت غالب دكاكين
 ووقع الاضطراب للغنى والفقير ، وصار
 جمرتين ، ويطلبون في اليوم الواحد من
 ساعة كثيرة من الحكام مرتين ، حتى
 ذلك ، وقلت في المعنى :

١. أملاك مصر والقري

في عام سبع مئضى الاهلاك

ير يا له من حادث

قد ضج منه الأرض والأملاك

ن يوم الجمعة ثامن المحرم تزايد الأمر ،
 من الجوامع ، ومنعوا منها الخطبة في ذلك
 بها جامع الجنيد الذى هو داخل الدرب
 سرب من قناطر السباع ، وجامع آخر
 وق ، وغير ذلك عدة جوامع . فلما
 كى قيت الرحبى الى القلعة وضلى
 السلطان ونزل ، وقفت له جماعة كثيرة
 وشكوا له أن أصحاب الأملاك ضيقوا
 لبوهم بعشرة أشهر معجلا بسبب هذه

الغرامة وما لهم قدرة على ذلك ، فلم يلتفت الى
 كلامهم ، فلما وصل الى الجامع الصالح الذى تجاه
 بابى زويلة فكبروا عليه العوام ورجموه فجاءته
 رجمة في كلوته ، وكان الى جانبه الأمير طراباى
 رأس نوبة النوب فجاءته رجمة في جبهته حتى سال
 منه الدم ، فلما عاينوا المالك ذلك سلوا
 أسيافهم ووقعوا في العوام وجرح منهم جماعة
 وقتل في ذلك اليوم نحو من ثلاثة أئصار ثم ان
 الزعر والعييد نهبوا عدة دكاكين من البسطيين الى
 داخل باب زويلة ، واستمر النهب والقتل عمالا
 الى قريب المغرب ، ونهب للناس مال له صورة
 وبضائع كثيرة ، حتى قيل نهب لشخص حريرى
 خمسمائة دينار ذهب عين ، وغير ذلك من شمع
 وفاكهة وسكر . فلما تزايد الأمر ركب والى
 القاهرة وقبض على جماعة من الزعر والعييد
 ووسط منهم نحو من أربعة عشر انسانا ، وكادت
 القاهرة أن تخرب عن آخرها مما جرى في هذا
 الحادث العظيم .

فلما كان يوم السبت صبيحة ذلك اليوم وقف
 جماعة من السوق من أهل الصليبة الى الأمير
 أزدمر بن على باى أحد المقدمين وشكوا له حالهم
 وكلموه بلطافة وحشمة عن أمر أجرة العشرة
 أشهر ، فلما طلع الى القلعة اجتمع بالسلطان وتكلم
 معه في ذلك ، فاتفق الحال على أن يحط من
 العشرة أشهر ثلاثة أشهر وتصير سبعة كلما فعل
 الأشرف قايتباى . ثم ان السلطان نادى في القاهرة
 للناس بالأمان والاطمان والبيع والشراء وأن
 السلطان حط من أجرة البيوت والدكاكين ثلاثة
 أشهر وصارت سبعة ، فسكن الحال قليلا .

وفي يوم الثلاثاء ثانى عشره قبض السلطان على
 الأمير مصرباى الدوادار وهو بالقلعة ، وقد وقع
 اختيار الأمراء على ذلك . فلما قبضوا عليه أدخلوه

البحرة وقيده . وقبضوا في ذلك اليوم على آخرين من الأمراء العشراوات من غير سبب .

وفي يوم الخميس رابع عشره خلع السلطان على الأمير أزدمر بن على باى وقرره في الدوادارية الكبرى عوضا عن مصرباى بحكم القبض عليه ، وأخلع على الأمير خاير بك أخى قانصوه البرجى ، وقرر في حجویة الحجابى عوضا عن أزدمر بحكم انتقاله الى الدوادارية الكبرى ، وخلع على الأمير طقطباى بن ولى الدين وقرر في التقدمة والوزارة والأستادارية عوضا عن مصرباى .

وفي أثناء هذا الشهر توفى الأمير قان بردى الدوادار الثانى أحد المقدمين ، وكان من خواص العادل وترشح أمره بأن يلى وظيفة الأتابكية بعد قصره ، وما تم ذلك وجرح لما وثبوا على العادل في رمضان واستمر من ذلك الجرح عيلا حتى مات .

وفيه تقرر جان بلاط الموتى في الحسبة عوضا عن جان بردى الغزالى بحكم انفصاله عنها .

وفي يوم السبت سادس عشر المحرم أشيعت الأخبار بأن جاني بك الشامى الذى كان من أخصاء العادل وخاير بك كاشف الغريبة الشهير باللامى قد تسحبا من البرج الذى بالقلعة وقت الظهر وقتلوا السجان ، وتسحب معهم عدة ممالك كانوا بالبرج ، فلما تسحبوا اختفوا بالقاهرة فاضطربت الأحوال وكثر القيل والقال ، فلما بلغ السلطان ذلك أحضر المصحف العثمانى وحلف عليه سائر الأمراء بحضرة الخليفة والقضاة الأربعة ، فحلفوا بأنهم لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يركبون عليه .

وفي يوم الاثنين ثامن عشر المحرم الموافق لتاسع مسرى أوفى النيل المبارك ، فلما أوفى لم يجسر

الأتابكى قيت بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فتوجه لفتحه مغلباى الشريفى الزردكاش

وكان في ذلك اليوم تفرقة الجامكية فلم يطلع الى القلعة أحد من العسكر . ثم في ذلك اليوم لبسوا آلة السلاح وثاروا الفتنة مهولة واستمر الأمر على ذلك الى قريب المغرب ، وكان القائم في هذه الفتنة مساليك الظاهر قانصوه ومماليك الأشرف جان بلاط ومماليك العادل طومان باى ، فلما ركبوا طلوعوا الى الرملة فلم يفد من ركوبهم شيئا ، ونزل اليهم الأمير طراباى رأس نوبة النوب ومعه جماعة من الأمراء ، فلما عاينوهم هربوا من وجوههم وتمت الكسرة على طائفة المماليك الذين وثبوا .

وفي يوم السبت ثالث عشرينه نادى السلطان في القاهرة بأن ممالك الظاهر قانصوه والأشرف جانبلاط والعادل طومان باى يخرجون الى جهة الصعيد ويقيمون بها ، وكل من تأخر من بعد المناداة شتى بلا معاودة . وصاروا يكررون هذه المناداة ثلاثة أيام متوالية ، فصاروا يخرجون الى جهة الصعيد شيئا فشيئا وهم في غاية الذل .

وفيه خلع السلطان على الأمير بيبردى الفهلوان وقرره في الدوادارية الثانية عوضا عن قان بردى بحكم وفاته .

* * *

وفي صفر — في أول يوم منه — نزلوا بالأمير مصرباى من القلعة وهو مقيد ، فتوجهوا به الى السجن بشجر الاسكندرية فسجن بها .

وفي يوم الاثنين ثانيه أنفق السلطان على العسكر نفقة البيعة ، وقد صبرهم نحو من أربعة أشهر حتى جمعت الأموال من المصادرات ، فأنفق على طبقتين لا غير وصبر الباقين حتى تجمع الأموال ،

ولم يعط لأحد من الممالك مائة دينار كاملة سوى الممالك القاتباية فقط .

وفيه قبض السلطان على الأمير عبد اللطيف الزمام وقرر عليه مالا له صورة ، فسلمه الى الأمير طراباى وأقام عنده فى التوكل به حتى يرد ما قرر عليه من المال ، فباع أملاكه وقماشه حتى سد ذلك ، وصودر عنبر مقدم الممالك ونائبه وشاد الحوش وجماعة آخرون من الخدام . وقد عمت هذه المصادرة حتى غلمان الاسطبل السلطاني والأوجاقية والسرايورية وبقعاء القصر والمعاملين والطباخين ، حتى الفراشين والباية والشربدارية ، وغير ذلك من غلمان السلطان قاطبة ممن له جامكية فى باب السلطان — وكل هذا لأجل النفقة على الممالك — وكانت حادثة عامة على غالب الناس من الأعيان وغيرهم ، وقد وقع الاضطراب فى أوائل سلطنته الى الغاية .

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر توفى الأمير بىردى الفهلوان الذى قرر فى الدوادارية الثانية ، فأقام بها مدة يسيرة ومات . فلما مات خلع السلطان على جانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن بىردى الفهلوان بحكم وفاته .

وفى سلخ هذا الشهر خلع السلطان على طقطباى العلى وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن طوخ المحمدى .

وفيه هجم المنسر تحت الليل على سوق الجمelon وسوق الخشبية والوراقين ، ونهبوا منها نحو من عشرين دكانا ... ولم تنتطح فى ذاك شاتان ، وراحت على التجار أموالهم .

وفيه ضيق بعض الأمراء الذين تولوا جباية الأملاك عن السبعة أشهر ، فأرسلوا الى أصحاب

الأملاك مهندسين صجبة خاصكى من قبل السلطان ، فطافوا الحارات وهجموا البيوت وقطعوا آجرة الأملاك ثانيا ولم يرضوا بما أخذه الأشرف قايتباى بمقتضى وصولات معهم عما أوردوه فى مغرم السبعة أشهر كما تقدم ، فكانت النكسة أمر من الضعف ، وأخذوا منهم مظلمة ثانية وشددوا عليهم واستوفوا آجرة ثانية .

وفيه أرسل السلطان قبض على خوند أصل باى أم الملك الناصر ، وطلع بها الى القلعة ، ووكل بها عدة من الطواشية ، وأقامت فى الترسيم مدة أيام وقاست غاية البهدة ، وقرر عليها مال له صورة فلم تورد منه شيئا وأظهرت العجز ، فرسم السلطان بنفيها الى مكة ، فشفع فيها الأمير قرقماس أمير سلاح والأمير طراباى من النفى ، وأوردت من المال الذى قرر عليها بعض شىء .

وفى هذا الشهر أنفق السلطان على العسكر نفقة البيعة ، فأنفق على طبقتين كالحكم الأول ، فكان مجموع ما أنفقه فى هذه المدة على أربعة طباق لا غير .

وفيه تعطلت الأسواق من البيع والشراء بسبب فلوس جدد ضربها السلطان تخسر فى المعاملة الثلث .

وفيه جاءت الأخبار بقتل كاشف الشرقية ، قتله العرب . فلما قتل خلع السلطان على آقباى وقرره فى كشف الشرقية عوضا عن الذى قتله العرب .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى بالحوش ، واجتمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، وكان يوما مشهودا ، وهذا كان أول موالد السلطان .

وفيه انتهت زيادة النيل المبارك الى سبعة عشر

أصبعا من عشرين ذراعا واستمر ثابتا الى نصف بابه .
وفي يوم السبت سابع عشرينه خلع السلطان
على موفق الدين بن القمص القبطى وقرره فى
التحدث على أوقاف الزمامية نيابة عن عبد اللطيف
الزمام .

وفي سلخ هذا الشهر كانت وفاة قاضى القضاة
المالكي عبد الغنى بن تقى ، وكان عالما فاضلا من
ذوى البيوت ، مات وهو فى عشر السبعين ، وكان
لا بأس به .

وفي ربيع الآخر جاءت الأخبار من ثغر
الاسكندرية بأن الأمير مصرباى الدوادر قد كسر
قيده وهرب من البرج ، وقد قيل ان شخصا من
مماليكه يقال له اياس صنع له مبردا من فولاذ
وجعله ضمن موكبة شمع وأدخلها لأستاذه وهو فى
البرج فبرد به قيده ونزل من أعلى السور ، وأحضر
اليه مركبا صغيرا فنزل به وقد ستر الله عليه وتمت
حيلته فحضر الى القاهرة فى الخفية ، فلما أشيع هذا
الخبر اضطربت أحوال الأمراء وبقي على رؤوسهم
منه طيرة ، وصار الوالى فى كل يوم ليلة يكبس
بسببه البيوت والحارات ، وحصل للناس غاية
الضرر .

وفي جمادى الأولى ، فى يوم الخميس ثامنه ،
خلع السلطان على العلامة برهان الدين ابراهيم
الدميرى ، وقرره فى قضاء المالكية عوضا عن
ابن تقى بحكم وفاته . وقد اشتبه على ولاية قاضى
القضاة برهان الدين الدميرى هل كانت فى شهر
ربيع الآخر أو فى جمادى الأولى .

وفيه قبض السلطان على جماعة من الأمراء ،
منهم قانصوه الفاجر أحد الأمراء الطبلخانات ،

وتانى بك الأبح ، واسنبای الأصم ، وآخرون من
الأمراء . فأرسل قانصوه الفاجر الى السجن بشعر
الاسكندرية ، ثم ان الأتابكى قيت شفع فى تانى بك
الأبح واسنبای الأصم .

وفيه خلع السلطان على الأمير علان بن قراجا ،
وقرره فى ولاية الشرطة بالقاهرة عوضا عن طومان
باى الجلب ، وخلع على تانى بك الخازندار وقرره فى
الحسبة على شخص يسمى محمد بن يوسف ،
وكان جابى أوقاف الجامع المؤيدى ، فقرره فى نظر
الأوقاف كما كان محمد بن العظمة ، فحصل للناس
منه غاية الضرر ، وصار يشوش على أعيان الناس
ويهدلهم ، وصار يعضده شخص من الأمراء
العشراوات حتى لا يختمى عليه أحد من الناس ،
فوقع منه أمور مهولة فى حق الناس ، فكان
كما يقال :

ما كنت أحسب أن يمتد بى زمنى
حتى أرى دولة الأوغساد والسفل

هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا
من قبله فتمنى فسحة الأجل

وفيه وثب العسكر وليس آلة السلاح ، ولم
يكن لهذه الركبة سبب ، فأسفرت القضية على أن
هذه حيلة على الأمير مصرباى حتى يظهر ان كان
هو مختفيا بمصر فيظهر . فلما علم أنها حيلة عليه
لم يظهر ، فخدمت تلك الفتنة فى أواخر النهار عن
غير طائل .

وفيه طلع مجد الدين بن كراوية ناظر الدولة ،
وشكا الى السلطان انشحات الديوان وعدم وجود
اللحم ، فوكل السلطان به بالقلعة ، وأقام نحوا من
اثنى عشر يوما وطباق المماليك معطلة من اللحوم ،
فضج العسكر . من ذلك ثم ان السلطان رسم
بقطع لحوم أولاد الناس والمباشرين والفقهاء وغير

عنه أنه يرمى الفتن بين الأمراء فصار يضربه غير ما مرة .

. وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن أهل الشام قد رجموا النائب وأخرجوه من البلد . وكان سبب ذلك أن السلطان لما جىي أملاك مصر والقاهرة بسبب السبعة أشهر التي رسم بها فأرسل مراسيم الى نائب الشام يأخذ أجرة سبعة أشهر من أملاك أهل الشام ، فجاء على أهل الشام بسبب ذلك ، فما طاقوا هذا الحال فرجموه حتى أخرجوه من البلد ، وكادت دمشق أن تخرب عن آخرها في هذه الحركة .

وفي رجب كانت وفاة الأمير أقباي الطويل شاد الشراب خاناه ، فنزل السلطان وصلى عليه وكانت له جنازة حافلة .

وفيه طلع الى السلطان شخص يقال له صلاح الدين بن الجنييد ، وكان أصله رسولا عند ناظر الخاص علاء الدين بن الصابوني ، فلما طلع الى السلطان اجتمع به وعرض عليه قوائم فيها أسماء جماعة من أعيان التجار ومساير الناس ، حتى من أعيان النساء المسائير من الخوندات والستات ، وقرر أنه يأخذ على كل رأس من عبد وجارية دينارا ، ثم قال للسلطان : « ألبسني خلعة وأنا أضمن لك مائتي ألف دينار من غير ضرر ولا أشلة » . فأنصاع السلطان الى كلامه ، وأراد أن يلبسه خلعة . فلما بلغ الأمراء ذلك شق عليهم ، وكادت أن تنور فتنة بسبب ذلك ، فاستدرك السلطان فارطه وأحضر ذلك الرجل المرافع وضربه بالمقارع وأمر بقطع لسانه وأشهره في القاهرة على جمل وهو عريان . فلما شق المدينة كادت العوام أن ترجمه أو تحرقه ، ثم توجهوا به الى المقشرة فسجن بها ، وعد ذلك من النوادر . وكان ضربه

ذلك من الناس قاطبة حتى رواتب الخوندات ، وألا يصرف سوى للماليك فقط ... فما عن قريب حتى وصل الأمير طقطبى بن ولى الدين وزير الديار المصرية — وكان مسافرا الى جهة الصعيد — فأحضر صحبته اثني عشر ألف رأس من الغنم ، فعد ذلك من جملة سعد السلطان .

وفيه خلع السلطان على ناصر الدين الصفدى ، وقرره في نظارة الخاص ، عوضا عن علاء الدين ابن الامام بحكم صرفه عنها ، فجمع الصفدى بين وكالة بيت المال ونظارة الخاص كما كان ابن الصابوني .

وفيه نادى السلطان في القاهرة بأن الأمير مصرى وبقية الأمراء المختفين، يظهرون وعليهم أمان الله تعالى ، فلم يظهر سوى جان يردى الغزالي . فلما ظهر خلع عليه السلطان وقرره في حجوية الحجاب بحلب فخرج عن قريب .

وفي جمادى الآخرة دخل الأتابكى قبت الى القاهرة — وكان توجه الى نحو العباسية على سبيل التنزه — فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ونزل الى داره في موكب حافل .

وفيه أفرج السلطان عن القاضى فخر الدين بن العفيف كاتب الممالك — وكان له مدة وهو في الترسيم — فقرر عليه مالا وأطلقه ، وكذلك الصيارف .

وفيه قبض السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له الماس ، فضربه ضربا مبرحا ، وضرب معه شخصا آخر يسمى جاني بك الأشرفي جان بلاط ، فمات تحت الضرب فوق الخمسمائة عصاة ، ورماه في البرج . وكان سبب ذلك قد أشيع

بالحوش بين يدي الأمراء حتى أرضاهم بذلك .
وفي يوم الاثنين رابع عشره خلع السلطان على
ولده المقر الناصري محمد وقرره في شادية الشراب
خاناه عوضا عن أقبای الطويل بحكم وفاته ، وكان
ابن السلطان حديث السن وقد قامت الأمراء على
السلطان حتى قرره في شادية الشراب خاناه ، وكان
القائم في ذلك الأتابكي قيت الرحبي والسلطان
يتمتع .

ومن الحوادث أن السلطان عين شخصا من
الخاصكية يقال له نائق الخازن بأن يتوجه الى جهة
البلاد الشرقية والغربية ليستوفي على المقطعين
ما كانوا أوردوه من الخراج عن السنة التي أفردوا
السلطان على المقطعين . فلما توجه نائق المذكور الى
هناك ضيق على الفلاحين وفحص عن أصل خراج
كل حصة وما تعمل في كل سنة من الخراج ،
فصارت المقطعون في وجل بسبب ذلك ، ورحل
غالب الفلاحين وقد طالبهم ببقية الخراج زيادة عما
أورده المقطعون في بيت الأتابكي قيت الرحبي ،
فأرسل الفلاحون يطلبون من المقطعين الرجعات
بما أوردوه بيت الأتابكي قيت ، فغرم الفلاحون
لنائق المذكور جملة من المال حتى حل عنهم . وقد
ضاع خراج تلك السنة أيضا على المقطعين بين
الفلاحين وبين نائق المذكور ، ثم آل أمر هذه
الحركة الى السكون . وقد تقدم ما وقع لأصحاب
الأملاك ما يقرب من ذلك وغرموا مغرما ثانيا كما
تقدم ، وقد ضاق الأمر على الناس جدا .

وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا وقد نقش
عليها هيئة شباك ، فوقف أمر الفلوس التي كانت
قبل ذلك وصارت السوق لا تأخذ الا الفلوس التي
منقوش عليها الشباك ، فوقف حال الناس وصارت
البضائع تباع بسعرين : بسعر من الفلوس الجدد ،
وسعر بالفلوس العتيق . وفوق هذا كله ما قرره

المحتسب على السوق من مال يردونه في كل
شهر . وقد أحال السلطان بما تقرر على الحسبة
لبعض الأمراء المقدمين وبعض أمراء عشراوات
عوضا عن الأقاطيع ، وكان ما قرر على الحسبة في
كل شهر فوق الألفى دينار وقيل أكثر من ذلك ،
وصارت مقررة على سائر السوق والطحانين وغير
ذلك ، ومن يومئذ تحسنت البضائع في الأثمان
بموجب المشاهدة التي تقررت على السوق .

وفي يوم الخميس تاسع شعبان عرض السلطان
أولاد الناس أصحاب الجوامك والأيتام من نساء
ورجال ، فلما عرضهم قطع عدة جوامك ممن له
أشرفى أو مائتان فأضر ذلك بحال الأيتام من نساء
وصغار ، ثم قطع عدة جوامك لجماعة كثيرة من
أعيان أولاد الناس والمباشرين ووبخهم بالكلام ،
وقطع جوامك جماعة من الأوجاقية وتقباء القصر
والسراخورية وغللمان الاسطبل السلطاني ، وسائر
من له جامكية في باب السلطان من الفقهاء
والمتمميين حتى جماعة من الخوندات والستات ،
فجماعة أبقي لهم النصف من جوامكهم وشيء
قطع أهم الجوامك كلها وصار بالقسم والنصيب ،
وكان القائم في هذه المظلمة أيضا الأتابكي قيت
الرحبي لا جزاء الله خيرا ، فحصل للناس في ذلك
اليوم كسر خاطر ، ونزلوا من القلعة بغير طائل ،
فكان كما يقال في المعنى :

يا طالب الرزق مهلا . فلا بسعيك تطمع
وثق برب كريم . فالله يعطى ويمنع
وفيه عين السلطان الأمير قانصوه بن سلطان
جركس بأن يتوجه الى الشرقية كاشفا ، فلما
توجه الى هناك لم يقابله من العريان أحد وازدادوا
عصيانا فوق عصيانهم ، وسموه « هات لبن » ،

فأقام بالشرقية نحواً من أربعين يوماً ورجع من غير طائل .

وفيه أكمل السلطان نفقة البيعة على العسكر ، وقد طاول العسكر هذه المدة الطويلة واعتذر عن ذلك حتى جمع الأموال ثم أكمل لهم النفقة بعد ذلك .

وفي أواخر هذا الشهر توفي القاضى زين الدين سالم صاحب ديوان الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان من أعيان المباشرين ورأى غاية العز والعظمة فى أيام الأتابكى أزبك ، وكان فى سعة من المال وله ثروة زائدة وكان لا بأس به ، ومات وقد جاوز السبعين سنة من العمر .

وفيه توجه الأمير طقطبى وزير الديار المصرية الى جهة الصعيد لجمع المغل ، فصلى الجمعة مع السلطان ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأمراء المقدمون ، وكان له يوم مشهود .

وفى رمضان ، فى يوم مستهله ، نادى السلطان فى القاهرة بأن أولاد الناس والأيتام من النساء والصغار يطلعون الى القلعة ، وأشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يرد جوامك الأيتام التى قطعت - وكان قصده ذلك حقيقاً - فلما طلعوا الى القلعة لم يمكنه الأتابكى قيت من ذلك ، فرد فى ذلك اليوم لبعض جماعة من المماليك ، ونزل البقية خائبين من غير طائل ، كما قيل :

سل الله ربك من فضله

إذا عرضت حاجة مقلقه

ولا تسأل الترك فى حاجة

فأعينهم أعين ضيقه

ومن الحوادث أن فى ليلة الاثنين الثانى عشر شهر رمضان طلع الأمراء الى القلعة ليفطروا مع

السلطان على العادة ، فلما فطروا ونزلوا من القلعة ووصلوا الى رأس الصوة وإذا بطائفة من المماليك نحو من اثنى عشر مملوكاً قد أحاطوا بهم ، فأسفرت هذه الواقعة بأن الأمير مصرباى الدوادار ظهر والتفت عليه طائفة من أخمل المماليك فقصده أن يقطع الطريق على الأمراء وهم نازلون من القلعة ، فوقفوا لهم عند باب السلسلة . فلما نزلوا من القلعة خرج عليهم مصرباى بمن معه من تلك المماليك اليسيرة ، فرموا على الأمراء بالنشاب ، فجرح الأمير طراباى والأمير تمر الزردكاش ، لكنه جرح خفيف فما تأثروا له ، ولكن قتل فى تلك الليلة شخص بالرملة من المماليك يقال له جاني بك ، قيل انه قرابة الأمير طراباى . وكان قصد مصرباى قتل أذمر الدوادار وقيت الرجبى وبقية الأمراء فما قدر على ذلك وانكشف ربه وافتضح ، وكانت هذه غاية الخفة من مصرباى ، فلما جرى ذلك اضطربت الأحوال تلك الليلة ولبس العسكر آلة السلاح وباتوا على وجل ، فوقف مصرباى بالرملة ساعة فلم يحضر عنده أحد من العسكر ، فنزل من الرملة بغير طائل ، ثم رجع الأمير أذمر الى القلعة وبات بها عند السلطان تلك الليلة ونزل الأتابكى قيت الى داره ، وقد أشيع أن السلطان كان مع مصرباى فى الباطن ، ولم يكن لهذا الكلام صحة . فلما رجع مصرباى من الرملة دار على الأمراء تحت الليل فلم يطاوعه أحد على الركوب معه ، فعند ذلك توجه الى الأزيكية وبات بها وانتظر أحداً يأتيه من المماليك السلطانية فلم يجيء أحد له . فلما طلع النهار اجتمع عنده بالأزيكية نحو من عشرين مملوكاً أو دون ذلك ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل اليه طائفة من المماليك صحبة الأمير علان والى القاهرة فحاربوه هناك ، فلم يكن إلا

ساعة يسيرة وقد كسر الأمير مصرباى وقتل بالأزبكية شر قتلة ، فحصله بعض المماليك قدماه على الفرس وهو ميت وطلع به الى القلعة . فلما عاينه السلطان أمر بدفنه ، فغسل وكفن وصلى عليه ودفن ، وكانت واقعته من أبشع الوقائع وأنحصها ، وقد خطر بباله أنه يقتل الأمراء ويملك القلعة بهذه الطائفة اليسيرة التى معه من المماليك وهى دون عشرين مملوكا ، وكان هذا غاية الخفة منه ، مع أنه كان من ذوى العقول وعنده ثبات جنان ، وكان دينا خيرا . وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وساعدته الأقدار حتى ولى الدوادارية الكبرى بمصر فى دولة الغورى ، ثم قبض عليه وسجن بثغر الاسكندرية ، ثم تسحب من البرج الذى كان به مسجوننا وجرى بسببه على الناس ما لا خير فيه من كبس بيوت وحارات وغير ذلك ، ثم ظهر بعد ذلك بالرملة كما تقدم فلم يطب طبه ، وكانت الأمراء على رؤوسهم طيرة منه ، فلما توجه الى الأزبكية وبات بها وأصبح فجمع صغار باب اللوق ، ودق له هناك طبلخاناه ، وكانت طبلخانة فشار ، وآخر الأمر كسر وقتل فى يومه ، كما تقدم ذكر ذلك ، فكان كما يقال :

ما تبلغ الأعداء من جاهل

ما يبلغ الجاهل من نفسه

وكان الأمير مصرباى سببا لقتل الملك العادل طومان باى ، وقد عمل عليه حيلة حتى ركن اليه ثم غدره حتى قتل ، ووضع رأسه فى طبق وأشهره بالرملة والمشاعلية تنادى عليه ، وأفحش فى حقه الى الغاية ... فما عن قريب حتى أخذ مصرباى وجرى عليه شذائد ومحن ، وافتضح وهو طالع الى القلعة ميت على فرس وخلفه من

يحضنه والناس ينظرون اليه ، وهذا غار والمجازاة من جنس العمل ، كما يقال :
إذا ما الدهر جر على أناس
كلاكله أناخ بآخرينه
فقل للشامتين بنا مهिला
ستلقوا عن قريب ما لقيته
وكان فى هذه الواقعة عبرة لمن اعتبر
قتل مصرباى خمدت تلك الفتنة ، وه
جملة سعد السلطان .

ثم فى يوم السبت سابع عشر رمه
السلطان ممالك أقبردى الدوادار وو
جماعة منهم الى البلاد الشامية ، فنفى
ثمانين مملوكا فأخرجهم وهم فى زناجير
وقد أشيع عنهم بالركوب مع مصرباى
ذنب كبير .

وفى شوال لم تثبت رؤية الهلال
العشاء ، وكان العيد بالجمعة ، فحصل
تلك الليلة توعك فى جسده فلم يصل
واحتجب عن الناس وكثر القيل والقال
فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره خرج
القاهرة فى تجميل زائد ، وكان أمير ر
أصطمر بن ولى الدين أمير مجلس
الأول الناصرى محمد بن العلاء على
بك . فلما خرج المجل رسم السلط
قائم أخى الظاهر قانصوه صحبة الحاج
بمكة بطالا ، وكان صحبته قانصوه ال
وفيه خلع السلطان على أقبای به

(1) الرواية الصحيحة :

فقل للشامتين بنا انيقوا

سيلقى الشامتون كما لقيته

وقرره فى كشف الشرقية عوضا عن قانصوه بن سلطان جركس .

وفى هذا الشهر تحول الأتابكى قيت من بيت الأشرف جان بلاط الذى بحارة عبد الباسط وسكن بالأزبكية فى بيت الأتابكى أزبك .

وفى ذى القعدة كان ختان ابن على بن أبى الجود برددار السلطان .

وأما برددارية السلطان فهى وظيفة حادثة لم تعهد فى الدول الماضية وانما حدثت فى دولة الأشرف قايتباى . وأول من تولى بها محمد بن الحمامية ، فلما مات تولاها من بعده جماعة كثيرة ، واستمرت الى الآن حتى تولاها على بن أبى الجود ، ففتك بها فتكا ذريعا . فلما كانت زفة ولده رجت لها القاهرة وزينت الدكاكين ، وأوقدوا له الشموع والقناديل من المدرسة الأشرفية الى الصليبة ، ومشى بها أعيان الناس من المباشرين والتجار حتى تغرى بردى الأستاذار وبعض أمراء عشراوات منهم تغرى برمش وجماعة من الطواشية وغير ذلك من الأعيان ، وكان لها يوم مشهود مثل دوران المحمل حتى عد ذلك من النواحر ، ثم اشتهر أمر على بن أبى الجود من بعد ذلك حتى كان ما سنذكره فى موضعه

وفيه كانت الأسواق معطلة والبضائع مشحونة بسبب الفلوس الجدد حتى يعمل لهم معدل .

وفى ذى الحجة — فى يوم الخميس رابعه — كانت وفاة ناصر الدين بن الصفدى ناظر الخاص ووكيل بيت المال ، مات فجأة . قيل طلب منه السلطان مالا فلم يقدر على ذلك ، فيقال انه ابتلع فصا من الماس فمات من ليلته ، وكان لا بأس به ، وعد من أعيان مصر .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العادة ، ولكن قطع لجماعة من الفقهاء والطواشية والنساء .

وفيه حضر الأمير طقطباى الوزير وكان مسافرا نحو بلاد الصعيد ، فلما حضر خلع عليه السلطان ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه رسم السلطان لعلى بن أبى الجود بأن يتكلم فى جهات الخاص الى أن يتولى من يختاره السلطان عوضا عن الصفدى .

وفيه ختم السلطان ضرب الكرة ، وعزم على الأمراء فى الدهيشة ومد لهم أسمطة حافلة .

وفيه توفى القاضى شهاب الدين بن البرقى ، وكان من أعيان نواب الحنفية وله شهرة بين الناس وكان لا بأس به .

وفى أواخر هذه السنة صار يحترق فى كل ليلة عدة أماكن بالقاهرة بسبب الدريس ، وحصل للناس الضرر الشامل .

وقد خرجت هذه السنة من الناس وهم فى أمر مريب بسبب ما وقع فيها من الفتن والمصادرات ، وكانت سنة كثرت فيها الحوادث والوقائع صعبة شديدة ، فانقضت على خير .

سنة ثمان وتسعمائة (١٥٠٢/١٥٠٣ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان خليفة الوقت يومئذ الامام المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى .

وأما القضاة الأربعة فالقاضى برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى ، والقاضى سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحلبي الحنفى ، والقاضى البرهان ابراهيم الدميرى المالكي ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشينى الحنبلى .

ابن ولى الدين أمير آخور ثانى ، وتانى بك بن
يشبك محتسب القاهرة وخازن دار ثانى ، وعلان
والى القاهرة ويعرف بعلان بن فراجا ، وقانصوه
ابن دولات بردى أستاذار الصعبة ... فهؤلاء
أرباب الوظائف .

وأما الأمراء الذين بغير وظائف فهم : قرقماس
الشريفى — وكان الأشرف جان بلاط أنعم على
خشكلى بن ولى الدين بتقدمة ألف وعلى
قرقماس الشريفى فلم يتم لهما ذلك من بعده وآل
أمرهما الى أمرة طبلخاناه — وأزدر بن يشبك ،
وخشكلى بن ولى الدين ، وقانصوه بن بردى ،
وجانى بك بن أزدر . وبرزباى العلانى ، وطوخ
المحمدى الذى كان نائب القلعة ، وقانصوه
الابراهيمى ، وتانى بك المعروف بالأبيض ، وتانى
بك النجمى ، وفيت الأحول ، ويشبك بن تبوك ،
وبرقوق بن خجا بردى ، وشاد بك الناصرى ،
وجانبباى المحمدى ، وجانبلاط بن ولى الدين
أيضا ، وقرقماس بن يشبك ، وتمر باى بن سيباى ،
وبكبلات بن أباى ، وقانى باى بن يشبك ،
وجانم الابراهيمى ، وأزبك الشريفى ، ومصرباى
الشريفى ، وطومان باى بن طوبزه ، ونوروز
الشريفى ، وبلاط بن حيدر ، ومامش الرجبى ،
وكرتباى بن حيدر ، ومغلباى بن بختجا ، وجان
بلاط بن قانصوه ، وأصطمر بن بشمان ، وقانى
باى بن أزدر ، وسودون بن مصطفى ، وألماس
ابن برد بك ، وقنبك بن شاد بك ، وجانم بن
خضر ، وجان بردى بن قانم ، وبرزباى الدمرداشى
وتمر الابراهيمى ، وجانى بك الشريفى ، وتتم بن
شاد بك ، ومامباى بن قيت ، وقانصوه بن يشبك ،
وقان بردى بن قانصوه ، وأرزمك بن برد بك ،
وتمر باى السيفى قجماس خازن دار العادل طومان

فلما دخلت هذه السنة ، وتم أمر السلطان فى
السلطنة ، وتبنت فواعد دولته ، قرر الأمراء المقدمين
أربعة وعشرين أميرا مقدم ألف منهم أرباب الوظائف
وهم الأتابكى فيت الرحبى أمير كبير ، وقرقماس
ابن ولى الدين أمير سلاح ، وأصطمر بن ولى الدين
أمير مجلس ، وقانى باى قرا بن ولى الدين أمير
آخور كبير ، وطرباى الشريفى رأس نوبة النوب ،
وأزدر بن على باى دوادار كبير ، وخاير بك بن
ملباى حاجب الحجاب — وهو أخو قانصوه
البرجى نائب الشام — فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء المقدمون الذين بغير وظائف فهم :
خشكلى البيسقى الظاهرى خشقدم ، وقانصوه
ابن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير
سودون العجمى ، ومامباى المحمدى المعروف
بجوشن ، وأنصباى بن مصطفى ، وتمر الحسنى ،
وطقطباى العلانى نائب القلعة ، وطقطباى بن ولى
الدين وهو الوزير والأستاذار ، ودولات باى
قرموط ، وقانصوه بن طراباى المعروف بكركت ،
وأرزمك الشريفى الناشف ، وأزبك بن طراباى
المكحل ، ونوروز بن أزبك أخو يشبك الدوادار ،
وأبو يزيد المحمدى ، وعلى باى السيفى يشبك
الذى كان نائب غزة ، وخاير بك السيفى اينال
ابن اينال كاشف الغريبة ، وجانبلاط المحمدى
أخو قانصوه البرجى

ثم قرر من الأمراء الطبلخانات خمسة وسبعين
أميرا ، منهم أرباب الوظائف عشرة وهم : عبد
اللطيف الزمام والخازن دار الكبير ، والمقر الناصرى
محمد بن السلطان شاد الشراپ خاناه ، وجانم
قريب الأشرف قانصوه خمسمائة أمير دوادار ثانى ،
ومغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، وتمراز
جوشن رأس نوبة ثانى ، وجان بردى تاجر
الممالك ، وطومان باى قرا حاجب ثانى ، وقلج

باي ، وجانم بن قانصوه ، ومسايد بن حيدر ، وبرش بن عبد الكريم ، ومسايد أيضا بن قانصوه ، وجاني بك قرا الشريفي ، وطراباي الشريفي ، وقايتباي بن جاني بك المعروف بالأشقر ، وشادي بك اليحياوي ، وقانصوه بن يشبك ، وتاني بك السيفي أقبردي ، ودولات باي بن مصطفى ، وقاني بن سودون الابراهيمي ، وجانم بن قجماس ، وطراباي بن جانم ، ومغلباي بن جانم ، ومصرباي الأبو بكرى ، وجاني بك بن حيدر .

ثم قرر الأمراء العشراوات مائة وخمسة وثمانين أميرا وهم : عنبر مقدم الممالك ، وخشكلكدي الشريفي ، وتبك الناصري ، وأسنباي ابن برسباي ، وقرار الشريفي ، وجاني باي بن يشبك ، وبكتمر بن ولي الدين ، وسنقر العلائي ، وقلج السيفي قانصوه خمسمائة ، وجانم السيفي قايتباي ، وأسنباي بن قروس ، وطقطمش السيفي اينال ، وسيباي الأبو بكرى ، واينال بن جانم ، وقانصوه الابراهيمي ، وسودون بن حيدر ، ويوسف بن مصطفى ، وعلاز بن ولي الدين ، وأقبردي الحسي ، وقنبك الشريفي ، وبهادر بن قرقماس ، وأزدمر بن عبد الرحيم ، وبيردي بن جانبلاط ، وبرد بك الشريفي ، وبيردي بن كسباي وأركماس السيفي قانصوه ، وبكباي بن قراجا ، وطوماي باي بن مصطفى ، وأقبردي الشريفي ، واينال باي بن مصطفى ، وخاير بك بن قجماس ، وجاني بك بن مهدي ، وأقباي السيفي يشبك ، وطوبى الناصري ، وبرسباي بن بردبك ، وبكبلات المحمدي ، وأزدمر بن تمر باي ، وناق بن يخشباي ، ونوروز بن يلباي . وشاهين الجمالي يوسف ناظر الخاص ، وجانم السيفي قايتباي ، ونوروز السيفي قاني باي ، وقنبك السيفي يونس

ودولات باي الابراهيمي ، وجاني باي الحسني ، وسنطباي المحمدي ، وتغري بردى الشرفي ، ودولات باي السيفي يشبك ، وجاني بك بن جانبلاط ، وأزدمر السيفي اينال ، وقانم بن ناق ، وقنبك بن قاني باي أمير جندار ، وقصروه بن قانصوه ، وتغري بردى الترجمان ، وقرقماس المحمدي ، وجان بردى بن ولي الدين ، وتغري بردى الحسني ، وأزدمر المهندار ، وأزبك النصراني أمير شكار ، وقانصوه بن أبي يزيد ، وقانصوه الناصري ، وأبرك السيفي لاجين ، ويلباي بن علي باي ، وأبو يزيد بن قانصوه ، ومغلباي بن اياس ، ودولات باي المحمدي ، وقانصوه بن جانم ، وناق بن أنت ، وتبك بن أزم ، وقطلو باي بن عبد الرحيم ، وقاني باي ابن أزم ، وسودون بن ولي الدين ، وسيباي بن جاني باي ، واينال بن بيردي ، وقرقماس الابراهيمي ، ومغلباي بن حيدر ، وعلي باي بن تبتان ، وأسنباي اليوسفي ، ودولات باي الابراهيمي ، وأزبك بن قانصوه ، وماما بن قييد ، وجانم بن قجماس ، وقانصوه العلائي ، وقلج الشريفي ، وعلي باي بن صدقة ، وبكبلات ابن فانصوه ، واياس المحمدي ، وقانصوه بن يشبك ، وبرسباي بن جاني بك ، وقانصوه بن عبد الرحيم ، وطراباي السيفي أزبك ، ونوروز العلائي ، وملاج بن برد بك ، وبرسباي السيفي يشبك ، وجاني باي الحسني ، وكريم بردى بن قروس ، وأزبك بن مصطفى ، وقانصوه بن جان بلاط ، وقرقماس الشريفي ، وتمر بن ولي الدين ، ودولات باي بن أزبك ، وأزبك الشريفي ، وجان بلاط بن مغلباي ، وبكباي السيفي أزبك ، وتغري بردى المحمدي ، ونبك المحمدي ، وبرد بك

السيفى قانى باى ، وييرس بن قرقماس ،
وأركماس الابراهيمى ، وأركماس السيفى أزبك ،
ويوسف البدرى كاشف البحيرة — وهو الوزير
الآن — وييرس بن يشبك ، وخاير بك العلائى
وأقبای بن يشبك ، وتبك بن اياس ، وجانم بن
يشبك ، وقانصوه بن جانم ، ومصرياى بن لاجين،
وخاير بك الشريفى ، وجانم المحمدى ، وعلى باى
السيفى خشكلدى ، وجانى بك الناصرى كاشف
منفلوط ، وجان بلاط الشريفى ، وقان بردى
الشريفى ، وأزبك الابراهيمى ، وقانم بن كرتباى ،
وتغرى برمش السيفى كسباى ، وأبرك الشريفى ،
وجانم بن مصطفى ، وأزبرد بن قلع ، وأقطوه
ابن قانصوه ، ويوسف بن مصطفى ، وقانصوه بن
عبد الرحيم ، وتمرباى بن چكم ، وييسق
اليوسفى ، وأقطوه بن يشبك ، وبرسباى بن
قراجا ، وجان بردى بن مصطفى ، وتنم بن قانى
باى ، وأقبردى المحمدى ، وقانى باى بن حمزة ،
وأقبردى المحمدى أبضا ، وبرمش بن بيردى ،
وبرد بك بن أيدكى ، وأسنبای بن برد بك ،
وقطلوباى بن تمر ، وقايتباى بن طوبرزه ،
وكرتباى السيفى يشبك ، وقان بردى بن قجماس ،
وأركماس السيفى قانصوه ، وتنم السيفى أرغون
شاه ، وقراکز بن يشبك ، وجانى بك السيفى
برسباى ، وقراکز السيفى چكم ، وبكبلاط
الأبو بكرى ، ونوروز بن ألماس ، وبرد بك السيفى
يشبك ، واينال السيفى أزبك ، وقانصوه بن
درويش ، وتمراز بن اينال باى ، وخشكلدى بن
أركماس ، وقيت بن حيدر ، وقانى باى الرضائى،
وجانى بك بن ولى الدين ، وألماس بن قردمش ،
وتمرباى السيفى أزبك ، وجان بلاط بن جانم ،
ومغلباى بن قيت ، وتمراز بن أقبای ، وقرقماس

وشاهين معلم الدبوس .
واجتمع فى هذه السنة من الخاصكية ثمانمائة
خاصكى على ما قيل ، ثم تزايد عدد الخاصكية
فيما بعد حتى صاروا ألفا ومائتى خاصكى .

وأما النواب بالبلاد الشامية فكان ممن فر
بها من أوائل هذه السنة وهم . قانصوه المحمدى
المعروف باليرجى نائب الشام ، وسيباى المعروف
بنائب سيس قرر فى نيابة حلب ، وفرر جانم فى
نيابة حماة . وفرر دولات باى نيابة العادل فى
نيابة طرابلس ، وكان قبل ذلك نائب الشام وفر ،
ثم عاد وقرر فى نيابة طرابلس ، وقرر سودون
الدوادارى فى نيابة صفد ، وقرر فى نيابة غزة
قانصوه قرا ويعرف بقانصوه الجبل ، وكان العادل
قرره فى نيابة حلب وما تم ذلك وهو الآن مقدم
ألف بمصر ، وقرر ملاج فى نيابة القدس ، وقرر
أيدكى فى نيابة قطية ، ونائب الاسكندرية قانصوه
خمسائة السيفى يشبك الدوادار ، ونائب دمياط
شخص من الأتراك يسمى فارس المنصورى
عثمان ، فهذا كان حكم النواب بالبلاد الشامية فى
أوائل هذه السنة ، ثم تغيرت الأحوال من بعد
ذلك ، وانتقلت النيابات الى آخرين من الأمراء
يأتى الكلام عليهم .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين وهم :

القاضي بدر الدين محمود بن أجا الحلبي الحنفى
 كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، والقاضي
 شهاب الدين أحمد بن الجمالي يوسف ناظر
 الجيوش المنصورة ، والقاضي صلاح الدين بن
 الجيعان مستوفى ديوان الجيش وناظر الخزائن
 الشريفة ، والقاضي محيي الدين عبد القادر
 القسروى ناظر الجيش كان ، وهو الآن ناظر
 الكسوة الشريفة وناظر الجوالى ، والشهابى أحمد
 ابن الجيعان نائب كاتب السر ، وشمس الدين
 محمد بن مزاحم ناظر الاسطبل الشريف ، ومجد
 الدين بن كراوية ناظر الدولة والصحة الشريفة ،
 وكان على بن أبى الجود متحدثا فى جهات الخاص
 يومئذ من حين توفى ناصر الدين الصفدى ، ثم فى
 عقب ذلك تولى نظارة الخاص علاء الدين بن
 الامام وهذه ثانى ولاية . وقد راج أمره فى هذه
 المرة الى الغاية ، وكان يومئذ القاضي فخر الدين
 ابن العفيف كاتب المماليك السلطانية ، وموفق
 الدين بن القمص الأسلمى ناظر الذخيرة والمتحدث
 على أوقاف الزمامية ، وعبد الباسط بن تقى الدين
 ناظر الزردخانه ، والشرفى يونس النابلسى ناظر
 الديوان المفرد ، ومحمد بن يوسف ناظر الأوقاف ،
 وصاحب ديوان الأحباس شمس الدين بن العيسى ،
 وصاحب ديوان جيش الشام بدر الدين ابن
 الانبأى وشريكه يوسف بن السيرجى .

وأما الوظائف التى غير هؤلاء فكان تقيب الجيش
 يومئذ الشرفى يونس بن الأقرع ، ومعلم المعلمين
 يومئذ البدرى حسن بن الطولونى . . . فهذا كان
 ترتيب دولة الغورى فى أوائل سنة ثمان وتسعمائة
 ثم انتقلت من بعد ذلك الأمريات والوظائف الى
 جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين يأتى الكلام
 عليها فى موضعه من ولاية وعزل .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن مضى الخامس
 عشر من المحرم ولم يعلم للحجاج خبر ولا حضر
 المبشر ، فكثرت القيل والقال بسبب ذلك ، فلما كان
 يوم الأحد تاسع عشره حضر هجنان وأخبر أن
 أحوال الحاج مضطربة الى الغاية ، وأن الجازانى
 ابن أمير مكة قد أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ،
 والتف عليه يحيى ابن سبع أمير ينبع ، ومالك
 ابن رومى أمير خليص ، وطائفة من عرب الحجاز
 يقال لهم بنى ابراهيم ، قد خرجوا على ركب الحاج
 الشامى فى رابع قبل أن يدخلوا الى مكة فنهبوا
 الركب عن آخره ، وقتلوا الرجال ، وأسروا النساء ،
 وفعلوا بهم ما لا فعله تمرلنك لما دخل الى الشام .
 فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة ، اضطربت
 أحوال الناس لهذه الأخبار ، ثم انقطعت أخبار
 الحاج مدة طويلة لم يأت من عندهم خبر .

وفى يوم الخميس ثالث عشره — الموافق
 لرابع مسرى — زاد الله فى النيل المبارك أربعين
 أصبعا فى يوم واحد .

وفى يوم الجمعة خامس مسرى زاد الله فى النيل
 المبارك عشرين أصبعا .

ثم أوفى فى يوم الأحد ثامن مسرى وزاد عن
 الوفاء احدى عشرة أصبعا ، فكان فتح السد
 فى يوم الاثنين تاسع مسرى — الموافق لسابع
 عشرين المحرم — وهو سابق النيل الماضى بيوم
 واحد والفضل بينهما سبع عشرة أصبعا عن النيل
 الماضى ، فكان كما قيل :

النيل قال وقوله اذ قال ملء مسامعى
 فى غيظ من طلب الغلا . عم البلاد منافعى
 وعيونهم بعد الوفا قلعتها بأصابعى
 فلما أوفى توجه الأتابكى قيت الرجبى وفتح
 السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

أخى بركات ودعنا تقتتل في بعضنا وخذ أنت الحاج وامض » ، فلم يسمع أصطر من ذلك .

ثم حضر يحيى بن سبع أمير الينبع وصار عوناً مع الجازاني ، فاتقوا مع الشريف بركات ، ودخل أصطر بينهم ونادى في الركب بأن من كان معه سلاح يحضر عوناً على قتال الجازاني ، فاجتمع الجمل الغفير من الجمالة والعكام والضوية ، فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي . وآل الأمر الى كسرة أصطر أمير ركب المحمل ، وقتل ممن كان معه من الممالك السلطانية نحو من مائة مملوك ، غير العلمان والطفش ، وتمت الكسرة على من كان بركب المحمل في ذلك اليوم ونهب كل ما فيه حتى عروا النساء من أثوابهن وأخذوا عصايهن من على رؤوسهن ، وقاسين من الشدة ما لا خير منه .

وتخلف غالب الحاج بالينبع وصاروا ينزلون في مراكب من الحر الملح ويدخلون الى القاهرة بعد مدة طويلة وهم في أنحس حال ، وقاسوا في هذه السنة غاية المشقة وجرى عليهم كل سوء ... وقيل ان الجازاني لم يفحش في حق من بالركب الأول كما فعل بمن في ركب المحمل . وقد راعى الناصري محمد بن خاص بك دون أصطر وكان متأثراً من أصطر ، فلما جرى ذلك رجع الشريف بركات الى مكة وهو مهزوم من أخيه الجازاني ، فلما رجع من بقي من الحجاج الى الأزم ، وجندوا الآبار قد ردمت بالحجارة فمات من الحجاج جماعة كثيرة بالعطش .

فلما وصل الحجاج الى العقبة لاقاهم جماعة من عربان بنى لام فعوقوهم عن طلوع العقبة ، وأفردوا عليهم ثلاثة آلاف دينار ، فجى أمير الحاج ذلك من الحجاج ، ودفعها للعرب حتى مكنوهم من طلوع العقبة ، ودخلوا الى بركة الحاج وهم في أسوأ حال .

وفي صفر في مستهله نزل الحاج الى البركة على حين عطفه . ثم في يوم السبت تانيه ، دخل المحمل الى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أصطر بن ولى الدين أمير مجلس ، وبالركب الأول الناصري محمد بن خاص بك ، ودخل الحاج وهو في غاية النكد بسبب ما جرى على الناس في طريق الحجاز .

وكان من ملخص وافعة الحجاج - وهو ما استفاض بين الناس - أن أصطر أمير الحاج لما وصل الى بطن مرو قبل أن يدخل الى مكة ، لاقاه الجازاني من هناك ، فأحضر اليه أصطر خلعة وقال له « ان كنت تستقر أمير مكة احمل للسلطان خمسين ألف دينار » . فقال الجازاني : « نعم أنا أحمل للسلطان هذا القدر » ، فألبسه الخلعة حتى طمنه ، وقد أظهر العصيان من قبل ذلك وجرى منه أمور شتى .

ثم ان أصطر أرسل في الدس مكاتبة للشريف بركات أخى الجازاني بأن يجتمع العربان ويلاقيه حتى يقبض على الجازاني ، فلما أحس الجازاني بذلك تسحب تحت الليل من بطن مرو . وكان أصطر أرسل قليل الدربة ، فلما تسحب الجازاني لاقى الركب انشامى في رابع وجرى منهم ما تقدم ذكره من قتل ونهب وأسر النساء .

فلما دخل الحاج الى مكة وبلغه ذلك ، اضطربت الأحوال الى الغاية ، ووقف الحاج بالجبل ، وهم على وجل من الجازاني وعرب بنى ابراهيم ، فلما انتهى الوقوف بالجبل وخرج الحاج من مكة قال أصطر للشريف بركات : « اخرج معنا ولاق الجازاني » .

فلما خرج الشريف بركات صحبة الحاج ووصل الى مكان يسمى الدهنة ، لاقاه أخوه الجازاني في جمع كثير من عرب بنى ابراهيم ، فأرسل الجازاني يقول لأصطر : « لا تدخل بينى وبين

قرقماس أمير سلاح وتسلمه من السلطان ، وشفع فيه حتى حظ عنه خمسة آلاف دينار ، واستمر عند قرقماس في الترسيم نحو من ثلاثة أشهر حتى غلق ما قرر عليه من المال ، وآنى الى بيته وحصل له غاية الضرر .

وفي أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من حلب ان خارجيا تحرك على البلاد يقال له شاه اسماعيل الصوفى . فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الأحوال ، وجمع السلطان الأمراء ، وضربوا مشورة في أمر الصوفى ، وعين السلطان تجريدة . ثم انه قبض على جماعة من المباشرين ووزع عليهم مالا له صورة بسبب أمر التجريدة . فقبض على الشهابى أحمد ناظر الجيش وسلمه الى الأمير طراباى رأس نوبة النوب فعرضه للضرب غير ما مرة حتى أورد ما قرر عليه من المال . وقبض على صلاح الدين بن الجيعان ووكل به بالقلعة ، وقبض على فخر الدين بن العفيف كاتب المماليك ، وقبض على موفق الدين بن القمص القبطى ووكل به بالقلعة ، وقبض على عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخانة وقرر عليه مالا له صورة فلم يشر به^١ فضربه بالحوش ضربا مبرحا ، وضرب أيضا موفق الدين بن القمص وفخر الدين كاتب المماليك ، وقبض أيضا على شمس الدين بن مزاحم ناظر الاسطبل ، فأقام هؤلاء في الترسيم والضرب حتى غلقوا ما قرر عليهم من المال .

ثم في أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر انصوفى رجع الى بلاده وخمدت فتنته وبطل أمر التجريدة . ولكن استمرت المصادرات عمالة في المباشرين وغير ذلك .

ومن الحوادث أن في ليلة السبت ثالث عشرين هذا الشهر ، هجم المنسر على سكان المسطاحى

(١) أى : فلم يسطيع الوفاء به .

فلما طلع الأمير أصطمر والناصرى محمد بن خاص بك الى القلعة ووقفوا بين يدى السلطان ، وبخهما بالكلام بسبب ما جرى على الحجاج من الجازانى وابن سبع . ثم رسم بادخال أصطمر الى قاعة البحرة ورسم أيضا على الناصرى محمد بن خاص بك ووكل به ، ثم أرسل بالقبض على قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ووكل به ، وقد وشى به عند السلطان بأنه كاتب يحيى بن سبع ، وأيقظه بأن السلطان يقصد القبض عليه ، فأوسع خياله حتى عصاه على ما قيل .

وكذلك قبض السلطان على أزدمر المهندار ، قيل ان يحيى بن سبع كاتبه ولم يعلم السلطان بذلك ، فصار لكل واحد منهم دnb واستمر الحال على ذلك .

وفي الثلاثاء خامس صفر توفى جانبلاط المجهدى أحد مقدمى الألوف ، وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فلما مات دفن في تربة أخيه خاير بك التى أنشأها بباب الوزير ، وكانت مدته في التقدم يسيرة ومات عقيب ذلك .

وفي تاسع صفر رسم السلطان باخراج أصطمر منفيا الى ثغر دمياط فنزل من القلعة بعد العشاء ، وتوجهوا به الى البحر ، وسار في مركب الى دمياط وهو مقيد بقيد ثقيل . وأما قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، فرسم السلطان بنفيه الى قوص ، وكان بيت قبيب الجيش هو وأزدمر المهندار ، فشفع فيهما الأتابكى قيت الرجبى . ثم بعد أيام خلع السلطان على القاضى عبد البر وأعاده الى القضاء على عادته ، وشفع فى أزدمر المهندار أيضا .

وأما الناصرى محمد بن خاص بك فانه أقام في التوكيل مدة أيام وقرر عليه السلطان عشرين ألف دينار ، واستمر على ذلك حتى ضمنه الأمير

فى الترسيم بسبب ما قرر عليه من المال ، وقد أشرف على تغليق ذلك .

وفى يوم الخميس خامسه ، خلع السلطان على الأمير سودون العجمى وقرره فى أمره مجلس عوضا عن أصطر بن ولى الدين بحكم توجهه الى دمياط .

وفى ما بعد توفى الجمالى يوسف بن الزرايرى — كاشف الوجه القبلى ، وتولى الوزارة أيضا — بالمقشرة مغضوبا عليه وقاسى شدائد ومحنا ، وكان لا بأس به .

وفى عمل السلطان المولد النبوى بالحوش واجتمع به القضاة الأربعة ، ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرون ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة . ومن الحوادث أن فى ليلة تفرقة الجامكية ، طلع حمل المال من حارة زويلة وقت صلاة الفجر ، فلما وصلوا به الى رأس البندقانيين فى أثناء الزقاق المظلم خرج عليهم جماعة من الأتراك فى زى العرب ، فحاشوا البغل الذى عليه المال برسم الجامكية واقتلعوه من الموكل به ، وربما أشيع قتله ، فأخذوا البغل بماعليه من المال ومضوا ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان . وكان قدر المبلغ اثنى عشر ألف دينار مما جمعه على بن أبى الجود من وجوه المصادرات بالضرب والحبس لأعيان التجار ومشاهير الناس وغير ذلك ، فذهب ذلك المال ولم ينتفعوا به ، فكان كما يقال :

« لست أعطى فى حرام أبدا الا حراما »

وفى أواخر هذا الشهر أكمل السلطان نفقة البيعة على الجند ، وقد طاولهم نحو من سنة ونصف سنة وهو يحتج بجمع المال ، حتى راج أمره فى السلطنة وتمت قواعد دولته ، وكان هذا بتدبير الأتابكى قيت الرحبى حتى خمدت تلك الفتن القائمة .

التي بجوار قنطرة الحاجب ، فقتلوا من الخفراء واحدا ونهبوا عدة بيوت ، ثم دخلوا الى الجسر الذى بجوار بركة الرطلى ، وكان النيل فى قوة الزيادة والجسر عامرا بالسكان ، فخطفوا عدة عمائم وشهود ، وكانوا نحو من ستين رجلا ومعهم قسى ونشاب ، فحططوا تلك الليلة فى الجسر والمسطاحى وقام العياط من الطيقان وكانت ليلة مهولة .

فلما بلغ علان والى القاهرة ما جرى بالجسر تلك الليلة ، أخذ جماعة من المماليك وساق خلف المنسر بطول الليل ، فظفر منهم بثمانية أنفس فقبض عليهم من ناى وطنان وهرب الباقيون . فلما طلع النهار وصل بهم الى باب القلعة ، ثم عرضهم على السلطان فرسم بشنقهم على قنطرة الحاجب فسمروهم على جمال ، وطاقوا بهم القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود ، فأقوا بهم الى قنطرة الحاجب ، فشنق منهم جماعة ، ووسط منهم جماعة ، وانطلقت لهم الزغاريت من النساء . ولبس علان الوالى خلع حافلة فى ذلك اليوم لكونه بيض وجهه وقبض على المنسر فى ليلته ، وعد ذلك من النوادر ، كما يقال :

كأن فجاج الأرض يملك ان يسر
بها خائف تجمع عليه الأنامل

فأين يفر المرء منك بجرمه
إذا كان تطوى فى يديك المراحل

وفى يوم الاثنين ، خامس عشرين هذا الشهر ، كانت وفاة القاضى بدر الدين محمد النويرى الحنفى أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما لا بأس به .

وفى ربيع الأول فى مستهله أفرج السلطان عن صلاح الدين بن الجيعان ونزل الى داره ، وكان

وفيه أفرج السلطان عن فخر الدين كاتب المماليك وكان له مدة في الترسيم حتى غلق ما قرر عليه من المال ، واستسر على وظيفته .

وفيه خلع السلطان على تانى بك النجمى أحد الأمراء الطبلخانات ، وقرره في نيابة الاسكندرية عوضا عن قانصوه خسسائه بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان بشنق التاجر ابن الملقى وشخص آخر من الأتراك قيل انه كان خازن دارا لجانى بك الشامى ، وكان جانى بك الشامى محتفيا فلم يفر بسكانه فسمره السلطان على جمل هو وابن الملقى ونزلوا بهما من القلعة ، فأرسل الأتابكى قيت شفع فيهما فتوجهوا بهما الى المقشرة فسجنوا بها .

وفيه فبض السلطان على محمد بن يوسف ناظر الأوقاف ، وسجنه بالعرقانة بسبب مال فد انكسر عليه ولم يقيم به .

وفيه غمز على جانى بك الشامى وخاير بك اللامى في مكان عند المدرسه القجماسية ، فتوجه اليهما علان والى القاهرة وهجم ذلك المكان وكانا في ريع هناك ، فقبض على جانى بك الشامى وخاير بك اللامى وعلى صاحب البيت الذى كانا فيه ، وكان صاحب البيت يبيع البطيخ ، فلما قبضوا عليهما وطلعوا بهما الى القلعة ، رسم السلطان بتوسيطهما عند سلم المدرج ، فوسطوا خاير بك اللامى وجانى بك الشامى هناك ، ثم رسم السلطان بشنق صاحب البيت الذى وجدوا فيه ، فشنق على دكانه وراح ظلما ، فكان كما يقال :

من لا تجانسه احذر تجالسه

فالشمع آفته من صحبة القتل

وكان أصل جانى بك الشامى ، وخاير بك اللامى ، من مماليك الأمير أقبردى الدوادار ، وكانا يعرفان بالشجاعة والاقدام في الحرب ،

ومن الحوادث أن في يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع الأمير أزدمر الدوادار الى القلعة وقت صلاة الصبح ، فلما وصل الى باب القلعة التى بالقلعة ، لم يشعر الا وقد جاء سهم نشاب من بعض طباق المماليك ، فجاء السهم من تحت ابطه فأخرق الملوطة التى عليه . فلما جرى ذلك أخذ السهم النشاب ، ودخل به الى السلطان وقال له : « ان كنت تقصد قتلى فلا تخلى المماليك الجلبان يقتلونى » فحلف السلطان على المصحف الشريف أن لم يكن له علم بذلك ولا جبرة . ثم بعث خلف أغوات الطباق ، وضرب منهم جماعة ، وقرره عن فعل ذلك ، فأسفرت القضية على أن شخصا من المماليك ، قيل هو أخو الأتابكى قيت الرحبى ، الذى فعل ذلك . فأمر السلطان بنفيه الى الشام فخرج من يومه ، وكان هذا المملوك من شرار المماليك وقيل له عدة قتلى .

وفي ربيع الآخر — في يوم مستهله — طلع ابن أبى الرداد ، وثبت النيل المبارك على خمس أصابع من عشرين ذراعا ، وكان في العام الماضى أرجح من ذلك .

وفيه كسفت الشمس عند طلوعها وقت الاشراق وأقامت على ذلك ساعة حتى انجلت .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة نائبها قانصوه خمسمائة ، وكان أصله من مماليك يشبك الدوادار ، وكان لا بأس به .

وفي ليلة الأحد رابع عشره خسف جرم القمر أيضا ، فكان بين كسوف الشمس وكسوف القمر أيام قلائل ، حتى عد ذلك من النواذر .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص من أهل حلب انكسر عليه مال ، فشنقه على باب زويلة وهذا أول ما نفذ من أمر القتل في أيام دولته .

لا يفزعان من الموت . فلما تسلطن العورى قبض عليهما وقيدهما وسجنهما فى البرج الذى بالقلعة . فلما كان ليلة وحاء النيل فى عام سنة سبع وتسعمائة تسجبا من البرج ، وكسرا قيودهما وقتلا السجناء ونزلا من القلعة وقت الظهر والناس مقيمة ، واستمرا فى اختفاء وهما بالقاهرة ، فكان السلطان والأمراء على رءوسهم الطيرة منهما ولا سيما الأمير طراباى . وصار الوالى يكبس البيوت والحارات لأجلهما ، واستمروا على ذلك مدة طويلة حتى ظفروا بهما ، وجرى منهما أمور غريبة فى مدة اختفائهما ، حتى قيل انهما اللذان قطعا الطريق على حمل الجامكية وهو خارج من حارة زويلة وقد تقدم ذكر ذلك ، وكانت الأمراء فى وجل منهما .

ومن الحوادث أن الأمير طقطباى الأستاذار ، حسن للسلطان أن يبطل المعتدات التى كانت فى الديوان المفرد ، فأضر ذلك بحال المقطعين .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد فاظر الجيش ، وألبسه خلعة ونزل الى داره ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر وهو فى التوكل به فى بيت الأمير طراباى بسبب المصادرة كما تقدم ، فباع أملاكه وغيظه الذى أنشأه بفهم الخور ، وباع أشياء كثيرة من وقف والده حتى سد ذلك القدر الذى قرر عليه .

وفيه أفرج أيضا عن الناصرى محمد بن خاص بك ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر وهو فى الترسيم ببيت الأمير قرقماس أمير سلاح ، حتى أورد ما قرر عليه من المال وهو خمسة عشر ألف دينار ، وكان فى هذا الأمر مظلوما .

وفى جمادى الأولى — فى يوم مستهله — خلع السلطان على ابن أبى الجود وقرره فى نظر الأوقاف عوضا عن محمد بن يوسف ، فتزايدت عظمة على ابن أبى الجود ، ولبس الطوق وركب

الخيول بالأخفاف والمهاميز وصار يعد من جملة رؤساء مصر ، فاجتمع فيه وكالة بيت المال ، ونظر الأوقاف ، وبرددارية السلطان ، وتكلم فى ديوان الوزارة والأستادارية وديوان الخاص ، وغير ذلك من الوظائف ... فاجتمعت فيه الكلمة ، وتصرف فى أمر المملكة بما يختار ، وقمع سائر المباشرين ، وصار فى خدمته الناس قاطبة ، ولا يحتذى عليه أحد من التجار ولا المباشرين ... فأظهر الظلم الفاحش بالديار المصرية ، حتى فاق على هناد الذى أحدث المظالم . فكان الناس على رءوسهم طيرة منه ، ودخل فى قلوبهم الرعب الشديد بسببه ، فكان العبد يرافع سيده ويشكوه من باب على بن أبى الجود ، فينتصف العبد على سيده . وكذلك المرأة اذا تخاضعت مع زوجها تشكوه من باب على بن أبى الجود . وكان من له عدو يشكوه من بابه ويكذب عليه ، ويقول : « هذا لقي مال » ، فيسلب بعة ذلك الرجل ، ويأخذ منه ما لا يقدر عليه . فأطلق فى الناس النار ، وصار على بابه نحو من مائة رسول . فكانت أرباب الصنائع تترك أشغالها ويعملون رسلا على باب ابن أبى الجود ، وصار غالب الناس لا يشكون خصماءهم الا من باب على بن أبى الجود ، حتى صار بابه أعظم من أبواب أرباب الوظائف من الأمراء المقدمين . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق على بن أبى الجود ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى هذه الأيام تزايد ظلم على بن أبى الجود ، حتى شاع ذكره فى بلاد ابن عثمان ملك الروم ، وفى بلاد الشرق من ديار بكر وغير ذلك من البلاد ، بسبب مصادرات تجار الأروام وجوره عليهم ، وكان السلطان قرر على بن أبى الجود فى كل شهر اثنتى عشر ألف دينار يردها على الجوامك ليس تحتها جهة من الجهات ، وانما هى من أبواب المظالم

فطاش ابن أبى الجود فى تلك الأيام الى الغاية ،
وعادى أرباب الدولة قاطبة ، من أمير ومباشر وغير
ذلك حتى ملوك الشرق لأجل تجار الأروام مما
يشكون منه من كثرة المصادرات لهم ، وكان هذا
كله دمارا فى حقه ، كما قد قيل :

أقول له اذ طيسته رياسة
رويدك لا تعجل فقد غلط الدهر
ترفق يراجع فيك دهرك رأيه
فما سدت الا والزمان به سكر
وقد قلت فيه أيضا :-

بالذى أركبك البغلة بعد المشى حافى
وكسا جسمك بعد العرى خزا ونصافى
لا يكن خلقك يوما يا علاء الدين جافى
وكان أصله سوقيا من الصليبة ، قيل فى الأمثال :
ما طاب فرع أصله خبيث
ولا زكا من مجده حديث

وكان أبوه أصله نجارا ، يقال له المعلم حسن ،
ثم بعن على صنعة الحلوى ، وسمى نفسه « ابو
الجود » ، وأقام مدة طويلة يبيع الحلوى على باب
حمام شيخو ، واستمر على ذلك حتى مات ،
فاستقر ابنه على فى دكانه ، وكان يقلى المشبك بيده
فى رمضان ، واستمر على ذلك مدة طويلة ، ثم انه
تكلم فى بعض جهات الوزر ، وأبطل بيع الحلوى ،
ثم بقى برددارا عند تغرى بردى الأستاذار ، ثم
سعى فى برددارية الأمير طومان باى لما كان دوادارا
كبيرا ، فلما تسلطن وقرر فى الدوادارية الكبرى
الأمير قانصوه الغورى سعى عنده فى البرددارية ،
فلما تسلطن الغورى حظى عنده وطاش وجرى منه
ما تقدم ذكره ، وجار على الناس بالظلم ، حتى
أخرب نغر الاسكندرية ، ودمياط ، وبندر جدة ،
وغير ذلك من الثغور ، بسبب مصادرات التجار ،

فتلاشى أمر الثغور والبنادر من يومئذ ، وتضاعف
أمر المكوس جدا حتى جاوزت الحد فى ذلك ،
فهابت الناس على ابن أبى الجود قاطبة وصارت
له حرمة وافرة بمصر ، فكان كما يقال فى المعنى :

اذا ما اللثيم رقا رتبة
تملق له وانتظر وضعها
وقبل يديه اذا مدها

اذا كنت لهم تستطع قطعها
وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ابن
عثمان ملك الروم ، وصحبته مقدمة حافلة الى
السلطان ، فأوكب السلطان فى ذلك اليوم موكبا
عظيما بالحوش ، وكان يوما مشهودا ،

وفى جمادى الآخرة ، عزم السلطان على قاصد
ابن عثمان فى الميدان الذى تحت القلعة ، وأحضر
فى ذلك اليوم عدة ممالك يرمون بالنشاب على
الخيول ونصب لهم هناك القبق يرمون عليه ، وأحرق
النفط بالنهار قدام القاصد ، وكان يوما مشهودا .
وفيه رسم السلطان بشنق شخص من مشايخ
عربان بنى وائل يقال له شرف الدين بن موسى ،
فشنقه على باب زويلة .

وفى سابع عشره كانت وفاة الشيخ العارف
بالله برهان الدين ابراهيم المواهبى الشاذلى ، تلميذ
الشيخ العارف بالله أبى الصفا محمد بن أحمد بن
محمد التوئسى الشاذلى الوفائى ، المعروف بأبى
المواهب ، قدس الله روحه . وكان الشيخ ابراهيم
عالما فاضلا ، ورعا زاهدا ، من أعيان مشايخ
الصوفية ، وكان لا بأس به .

وفى رجب فى خامسه توفى الأمير طقطبى بن
ولى الدين أحد المقدمين الألوف ، وزير الديار
المصرية وأستاذار العالية ، وكان ظالما غاشما كثير

الأذى جاهلا لا يعرف الحلال من الحرام ، وهو الذى كان سببا لقطع المعتدات التى كانت تخرج من الديوان المفرد ، وكانت الملوك تسامح بذلك فى الدولة الماضية ، فقطع ذلك فى هذه الدولة ، وحصل للمقطعين بسبب ذلك الضرر الشامل .

وفيه — فى يوم السبت خامس عشره — توفى الأمير خشكلدى البيسقى الظاهرى خشدقم ، وكان أميرا جليلا دينا خيرا من ذوى العقول ، تولى من الوظائف رأس نوبة النوب ، ثم بقى أمير مجلس ، ثم صرف عن أمرة مجلس وبقى مقدم ألف ، ومات عقيب ذلك ، وقاسى فى أثناء عمره شدائد ومحن ونفى الى الشام ، وأقام بها مدة طويلة ، ثم عاد الى مصر وبقى أمير مجلس ، ومات فى عشر السبعين من العمر ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره توجه الأمير أزدمر الدوادار الى نحو قناطر العشرة ، وكان فى زمن الربيع ، فعزم على قاصد ابن عثمان هناك ومد له أسمطة حافلة ، وأظهر العظمة من الفتك هناك الى الغاية ، وأقام من يوم الثلاثاء الى يوم السبت وهو فى أرغد عيش ثم عاد الى داره .

وفيه عزم السلطان على قاصد ابن عثمان فى الميدان ، وأضافه وألبسه خلعة السفر .

وفيه ، فى يوم الأحد ثالث عشرينه ، توفى الأمير شاد بك الفهلوان ، أحد الأمراء العشراوات ، مات فجأة ، وكان لا بأس به .

وفى شعبان خلع السلطان على الأمير أزدمر الدوادار ، وقرره كاشف الكشاف مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى .

وفى يوم الجمعة ثالث عشره توفى والدى المرحوم الشهابى أحمد ابن المرحوم اياس الفحرى بن جنيد ،

وكان أصله من مساليك الظاهر برقوق ، وقرر دوادارا ثانيا فى دولة الناصر فرج بن برقوق . وأما والدى فانه عاش من العمر نحوا من أربع وثمانين سنة ، وجاءته من الأولاد خمسة وعشرون ولدا ما بين ذكور وإناث ، غير المسقوط ، وعاش له من ذلك ثلاثة أولاد صبيان وبنت ، وكان كثير العشرة للأمراء وأرباب الدولة رحمة الله عليه ، وكان من مشاهير أبناء الناس .

وفيه خلع السلطان على الأمير تغرى برمش ، وقرره فى الوزارة عوضا عن طقطبى بحكم وفاته ، وقرر الأمير تغرى بردى فى الأستادارية عوضا عن طقطبى أيضا . وكان على بن أبى الجود هو المشار اليه فى الديوانين وتزايدت عظمتة جدا .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الجازانى ابن أمير مكة تحارب مع أخيه الشريف بركات فكسره ، ثم ان الجازانى جمع عربان بنى ابراهيم وهجم على مكة ولعب فى أهلها بالسيف ، ونهب أموال التجار والسرحات التى بمكة ، فكان الشخص الواحد من بنى ابراهيم اذا غرس رمحه على باب بيت من بيوت مكة ، أو سرحة ، فيملك جميع ما فيها من قماش أو بضائع أو بهار ، ويخرج صاحب البيت بمفرده لا مال ولا قماش وربما يقتلونه .

ثم ان الجازانى هجم على تانى بك الجمالى الذى كان أتابك العسكر بمصر ونفى الى مكة ، فلما هجم عليه طلب منه مالا فاعتذر عن ذلك ، فربط خصيته بوتر واستمر يعاقبه الى أن مات ، وأخذ ماله .

وهجم على الناصرى محمد بن جانم نائب الشام ، فأخذ ما فى داره من أثاث وقماش وغير ذلك ، فمات الناصرى محمد بن جانم من الرجفة

عقيب ذلك ، هو وأمه خوند الجركسية زوجة
الظاهر جقمق

وهجم على الشهابى أحمد ابن العينى ، وكان
مجاورا بمكة ، فنهب جميع ما فى داره ، وهرب
ابن العينى هو وعياله الى نحو المدينة الشريفة .

وهجم على دولات باى السيفى قنبك باش
المجاورين ونهب جميع ما فى داره ، وقتل جماعة
كثيرة من المجاورين ، ومن أهل مكة نحو من
سبعمائة انسان ، حتى هرب غالب أهل مكة ،
وحضر الى القاهرة من البحر الملح ، والذين تخلفوا
بمكة اشتروا أنفسهم منه بمال جزيل ، وكانت واقعة
الجازانى من أبشع الوقائع وأنحسها ، وقد قلت
فى المعنى :

تقول مكة واحرباه

مما جرى من جازانى

سيأخذو ربي وأقول

هذا جزاء من جازانى

وقد كادت مكة أن تخرب فى هذه الواقعة عن
آخرها ، وتقرب واقعة الجازانى من واقعة أبى
ظاهر القرمطى ، وما فعله بمكة من النهب وقتل
الناس ، وكان ذلك فى زمن الخليفة المقتدر بالله
خليفه بعداد ، سنة ثمان عشرة وتلثمائة ، وقد انقطع
الحج من بعداد وغيرها من البلاد نحو من تسع
عشرة سنة لم يحج فيها أحد الى مكة ، وانقطع
بسبب ذلك هذه المدة ، وكانت هذه الواقعة من
أعظم المصائب الكبار ، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا
فى الجزء الثانى من تاريخ الخلفاء .

فلما بلغ السلطان هذه الأخبار اضطربت
أحواله الى الغاية ، وعين الأتابكى قيت الرحبى
أمير ركب المحمل ، وعين أنص باى أحد المقدمين
بالركب الأول ، وعين صاحبتهم نحو من ستمائة

مملوك من المماليك السلطانية ، ثم بعد أيام اتفق
على المماليك المعينة الى مكة ، لكل مملوك مائة
دينار . وأخذوا فى أسباب عمل بركهم الى السفر ،
ثم ان السلطان رسم لأقباي كاشف الشرقية ، بأن
يرمى على بلاد المقطعين جمالا بسبب التجريدة
المعينة الى مكة ، فشرع يرمى على كل بلد جليل أو
ثمن ذلك خمسين دينارا ، فأضر ذلك بحال المقطعين ،
وقطع هذا القدر من خراجهم ، وخربت عدة بلاد
بسبب ذلك .

وفى رمضان عرض السلطان المحاييس من الرجال
والنساء وأطلق منهم جماعة ، وأبقى أصحاب
الجرائم على حالهم .

وفى يوم السبت ، سابع عشرين رمضان ، عرض
السلطان كسوة الكعبة الشريفة والمحمل وخلع
العيد ، وكان يوما مشهودا .

وفى سلخ هذا الشهر تغير خاطر السلطان على
العلاء على بن أبى الجود ، ووكل به بطبقة
الخازندار ، ثم قبض على حاشيته وغلماناه ، وختم
على حواصله ويوته ، ورسم على نسائه ، وأحاط
به البلاء من كل جانب . وكان هذا آخر سعه
وأول عكسه ، فكان كما يقال :

إذا كنت فى نعمة فارعها

فإن المعاصى تزيل النعم

وإذا تم أمر بدا نقصه

توقع زوالا إذا قيل تم

واستمر على بن أبى الجود فى التوكل به مدة
أيام ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفى شوال أشيع أمر الركوب على السلطان ،
ووزع الناس قماشهم فى الحواصل ، فلما بلغ

السلطان ذلك أحضر المصحف العثماني ، وحلف عليه سائر الأمراء بحضرة قاضي القضاة المالكي برهان الدين الدميري ، فلما حلفوا حلف هو لهم أيضا أنه لا يسك منهم أحدا بغير ذنب ، وحلف بعد ذلك المماليك الذين في الطباق طبقة بعد طبقة على المصحف العثماني ، فسكن الأمر قليلا وهدئت تلك الاشاعات الفاسدة .

وفيه خلع على قانصوه اليحيياوى الذى كان أتابك العساكر بغزة ، وقرره في نيابة حماة عوضا عن جانم الذى كان بها .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره خلع على علاء الدين ابن الامام ، وقرر في نظر الأوقاف مضافا لما بيده من نظارة الخاص ، وكانت نظارة الأوقاف بيد على ابن أبى الجود .

وفيه خلع على معين الدين بن شمس وقرر في وكالة بيت المال عوضا عن على بن أبى انجود ، فاجتمع مع معين بن شمس وكالة بيت المال ونظر البيمارستان المنصوري فعظم أمره جدا .

وفيه خلع على الحاج بركات بن موسى وكان أبوه موسى من العرب وأمه تسمى عنقا ، ثم بقى ركاب الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، فاستقر برددار السلطان ومتحدثا على جهات البهار ، وغير ذلك من أمور الملكة ، عوضا عن على بن أبى الجود . وهذا أول ظهور بركات بن موسى ، واشتهره في الرئاسة ، فعظم أمره جدا وصار معدودا من أعيان رؤساء مصر ، وتزايدت عظمته من بعد ذلك حتى كان من أمره ما سنذكره في موضعه ، فكان كما يقال في المعنى :

هذا الزمان على ما فيه من كدر
من انقلاب لياييه بأهليه
غدير ماء تراءى في أسافله
أشخاص قوم قياما في أعاليه

وكان بركات بن موسى من جملة صبيان البزادة الذين يحملون الطير على أيديهم .

ثم ان السلطان سلم على بن أبى الجود الى الحاج بركات بن موسى ليحاقبه ، ويستخلص منه الأموال ، فنزلوا باين أبى الجود من القلعة وهو في الحديد ، وتوجهوا به الى دار بركات بن موسى . وفي يوم الاثنين في العشرين منه خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأتابكي قيت الرحبي ، وبالركب الأول أنص باي أحد المقدمين ، ثم نادى السلطان في القاهرة بأن امرأة لا تحج في هذه السنة خوفا على الحجاج من فساد العربان ، وقد تقدم ما فعله الجازاني بمكة .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشرينه عرض السلطان على بن أبى الجود بالحوش ، وضربه باللقار عشرين شجيا حتى خرق جنبه ، وأشرف على الموت ، فلم يرث له أحد من الناس ، بموجب ما كان يفعله من أنواع المظالم بالناس ، وقد أخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه .

وفي يوم الاثنين ثالث عشرينه خرج الأمير أزدمر الدوادار الى نحو جبل نابلس بسبب جمع الأموال من مشايخ عربان نابلس ، كما كان يصنع الأمير أقبردى الدوادار ، فتوجه الأمير أزدمر وصحبته جماعة من الأمراء العشراوات والمماليك السلطانية .

وفيه خرج الأمير قرقماس أمير سلاح ، وتوجه الى نحو المنزلة بسبب حفر فم البحر الصغير ، الذى تروى منه جهات المنزلة وما حولها .

ومن الحوادث ، أن في أواخر هذا الشهر هجم المنسر على سوق جامع أحمد بن طولون ، وكسر في تلك الليلة نحو من أربعة وعشرين دكانا ، ونهبوا ما فيها من قماش وغير ذلك ، فلما جرى ذلك وقف جماعة من التجار ممن أصيب في ماله الى السلطان ، وشكوا له مما أصابهم من أمر نهب

الدكاكين وذهاب أموالهم . فلما وقعوا الى
السلطان ، رسم للوالى بتحصيل غرماهم ، فلا زال
يفحص عن فعل ذلك ، حتى قبض على جماعة
منهم نحو من عشرين نفرا من المنسر ، فوسطهم
الوالى فى وسط سوق جامع ابن طولون ، ولبس
علان الوالى خلعة بسبب ذلك .

وفى ذى القعدة رسم السلطان بنقل على بن
أبى الجود الى بيت الوالى ليعاقبه ، فلما تسلمه
الوالى عصره فى رجليه ويديه ، حتى أورد بعض
شئ من المال الذى قرر عليه .

وفى هذا الشهر تزايد الفساد من العربان
والعشير فى جهة الشرقية والغربية ، وجهة الصعيد ،
حتى كادت أن تملك العربان البلاد من أيدي
المقطعين ، فعند ذلك جمع السلطان الأمراء فى
الدهشة ، وضربوا مشورة بسبب فساد آحوال
البلاد الشرقية والغربية ، فعين فى ذلك اليوم
جماعة من الأمراء بأن يخرجوا لمحاربة العربان
وطردهم عن البلاد ، فعين طراباى رأس نوبة النوب
الى جهة الغربية ومعه جماعة من المماليك السلطانية ،
وعين الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير الى جهة
الشرقية ، وعين خاير بك حاجب الحجاب ، وقانصوه
ابن اللوقا أحد الأمراء المقدمين ، الى جهة الصعيد ،
وعين أربك المكحل أحد المقدمين ، ودولات باى
قرموط أيضا ، بأن يتوجها الى جهة البحيرة ،
فخرج هؤلاء الأمراء وصحبهم الجم الغفير من
العسكر ، ثم بعد أيام جاءت الأخبار بأن عربان
الشرقية قد كسروا الأمير قانى باى أمير آخور
كبير ، وقطعوا طبوله وجرح فى وجهه ، فعند ذلك
أرسل له السلطان نجدة ، فعين الأمير تمر
الزردكاش أحد الأمراء المقدمين ومعه جماعة من
المماليك السلطانية فتوجهوا اليه .

وفى سابع عشره — الموافق لثامن عشر بشنس
القبلى — فيه خلع السلطان الصوف ، ولبس
البياض ، وابتدأ بضرب الكرة . وكان غائبا من
الأمراء المقدمين ثلاثة عشر أميرا ، فجماعة منهم الى
جهة الحجاز ، وجماعة مفرقة فى البلاد الشرقية
والغربية والصعيد وغير ذلك من البلاد . ثم ان
الأمراء الذين توجهوا الى محاربة العربان ، صاروا
يقطعون رؤوس شبان العرب ، ويرسلونها الى
القاهرة فى شلف التبن على الجمال . وأشيع عن
الأمير طراباى أنه كان ينشر جماعة من العربان
بالمشمار من رؤوسهم الى أقدامهم ، وسلخ منهم
جماعة كثيرة وراح الصالح مع الطالح حتى مهدوا
البلاد ، وقتل من العربان زيادة على ألفى انسان .
فمن يومئذ سكن الاضطراب انذى كان بالشرقية
والغربية قليلا ، وخف أمر العشير الذى كان
طائشا فى البلاد .

وفى ذى الحجة حضر الى الأبواب الشريفة
جانم الذى كان نائب حماة وانفصل عنها ،
فأكرمه السلطان وأمره بالاقامة فى القاهرة .

وفى ليلة عيد النحر من هذا الشهر ، انتهى
العمل من بناء مدرسة السلطان التى أنشأها فى
الشرابشين ، فعمل هناك فى تلك الليلة وليمة
حافلة ، وحضر فيها الخليفة المستمسك بالله
يعقوب ، والقضاة الأربعة ، واعيان الناس من
المباشرين والأمراء . وحضر فى تلك الليلة قرلة
البلد والوعاظ ، ومد أسمطة حافلة ، وعمل
هناك وقدة حافلة ، وزينت الدكاكين التى هناك
من باب زويلة الى الشوايين ، وعلقت تناير بها
قناديل موقودة ، وكانت تلك الليلة من الليالى
المشهودة .

وغير ذلك من الأماكن التي استجدها ، وقد قلت
في معنى ذلك :

بنى الأشرف الغورى للناس جامعا
فضاع ثواب الله فيه لطالبه
كمثل حمام جمعت في شباكها
متى ألق عنها طار كل لصاحبه

وفيه حضر الناصرى محمد بن قانصوه البرجى
نائب الشام ، وكان السلطان وقع بينه وبين أبيه ،
فحضر وعلى يده مقدمة حافلة ، وشرع يستعطف
خاطر السلطان ، وكان السلطان منع المكاتبه اليه
من المراسيم وغيرها ، فلما حضر ابن نائب الشام ،
خلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ،
ونزل بدار عمه خاير بك حاجب الحجاب .

وفي يوم الجمعة ثامن عشرينه ، حضر مبشر
الحجاج وأخبر أن الأتابكى قيت طرد عربان بنى
ابراهيم عن مكة ، وهرب الجازانى من وجهه ولم
يقابله ، وأنه مهد مكة وقبض على بركات وأخيه
قايتباى ، وجماعة من اخوته ، ووضعهم في الحديد
وهو واصل بهم . فلما تحقق السلطان ذلك ، أمر
بدق الكوسات بالقلعة ، وعلى أبواب الأمراء ،
ونادى في القاهرة بالزينة سبعة أيام ، فزينت زينة
حافلة حتى زينوا داخل الأسواق ، وأقامت مزينة
سبعة أيام ، وخرج الناس في القصف والفرجة
عن الحد .

وفيه توفي الشيخ بدر الدين محمد بن
عبد الرحمن الديرى الحنفى شيخ الجامع
المؤيدى ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا من كبار
علماء الحنفية ، ومات وهو في عشر السبعين من
العمر ، وكان الأشرف قايتباى أخرج مشيخة
الجامع المؤيدى عن أولاد الديرى ، وقرر بها
الشيخ سيف الدين الحنفى ، فلما مات قرر بها
شمس الدين بن الدهانة . وكان المؤيد شيخ قرر

وكان أصل من بنى أساس هذه المدرسة الطواشى
« مختص » الذى كان رأس نوبة السقاة في دولة
الظاهر قانصوه ، خال الملك الناصر محمد . فلما
تسلطن قانصوه الغورى ، تغير خاطره على
مختص ، فقبض عليه وصادره ، وقرر عليه مالا
له صورة ، فأعطاه هذه المدرسة من جملة ما قرر
عليه من المال ، وكان بنى منها بعض شئ . فلما
ملكها الغورى ، هدم ما بناه مختص ، ثم أوسع
في بنائها ، وأخذ سوق الجبلون وما حوله من
الأسواق ، وتناهى في زخرفها ورخامها وبنائها ،
فجاءت في غاية الحسن والظرف والرويق ، بحيث
لم يعمر في عصرنا مثلها . ولكن شنت على
الناس ، أن مصروف عبارة هذه المدرسة ، كان
من وجوه المظالم ومصادرات الناس ، وأخذ
غالب رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان ،
وخرب قاعة شموال اليهودى الصيرفى ، وأخذ
رخامها وأبوابها ، وفعل مثل ذلك بعدة قاعات .
وقد سمي بعض اللطفاء هذه المدرسة « المسجد
الحرام » لما وقع فيها من غصوبة الأرض ،
ومصروف العمارة من مال فيه شبهات . وقد
شنع الناس قبله على المؤيد شيخ ، لما بنى جامع
الذى بجوار باب زويلة ، أكثر ما شنعوا على الملك
الأشرف قانصوه الغورى ، وأهل مصر ما يطاقون
من ألسنتهم اذا أطلقوها في حق الناس ، فكان كما
قيل :

ومن سوء حظ المرء في الدهر أنه

يلام على أفعاله وهو محسن

ثم ان السلطان رسم باستبدال قيسارية الأمير
على التي تجاه جامع ، وكانت جارية في أوقاف
المدرسة الناصرية التي بين القصرين ، فلما استبدلها
من الجكندار شخص يخص يقال له « بره » هدمها
وبنى مكانها القبسة والمدفن والصهريج والسيل

ابن قرطام من النوادر ، فانه كان في تحصيله
فرصه .

وفي يوم الاثنين ثالث عشرينه رسم السلطان
بشنق على بن أبي الجود ، فششق على باب زويلة ،
واسنمر معلقا ثلاثة أيام ، لم يدفن حتى تتن
وجاف ، ثم نزلوا به ودفن ، ولم يرث له أحد
من الناس ، ولا ترحم عليه ، مما سبق منه في حق
الناس من الأفعال الشنيعة كما تقدم ذكر ذلك .
وكان السلطان استنصفى أمواله ، وعاقبه وعصره ،
ودق القصب في أصابعه ، وأحرقها بالنار ، وقاسى
شدائد ومحنا ، وكان قد طاش وركب في غير
سرجه ، وكثر في الناس هرجه ، فأغواء الشيطان ،
حتى أطاع أمر السلطان . ثم انه انقلب عليه ،
وأخذ من الجانب الذي كان يأمن اليه . فكان
كما يقال في المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمله
رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

وفي صفر — في يوم الثلاثاء ثامن — كان
وفاء النيل المبارك ؛ وقد أوفى تاسع مسرى ،
فتوجه الأمير سودون العجمي أمير مجلس ، وفتح
السد على العادة ، وكان الأتابكي قيت اغاغا في
مكة كما تقدم .

وفي الخميس عاشره ، دخل الأمراء الذين فد
توجهوا الى الشرقية والغربية بسبب فساد العربان
كما تقدم .

وفيه ابتداء السلطان بعمارة الميدان الذي تحت
القلمة ، فعلى حيطان سوره ، ورمى في أرضه
الطين الكثير قدر أربع أذرع ، وجعل ذلك في

بها شمس الدين الديري ، وجعل مشيخة هذا
الجامع بيد أولاد الديري ، واستمروا على ذلك
الى دولة الأشرف قايتباي فلما توفي قاضي
القضاة برهان الدين بن الديري ، أخرجت مشيخة
الجامع عن أولاد الديري الى جماعة كثيرة من
الحنفية ، واستمروا على ذلك الى أن تسلطن
الغوري فأعاد المشيخة الى الشيخ بدر الدين بن
الديري كما كان أولا ، فسد ذلك من محاسن
الغوري ، واستمر بها الشيخ بدر الدين الى أن
مات ، فخلع السلطان على شخص من أبناء العجم
يقال له الشيخ حسين الشريف الحنفي ، فقرره
في مشيخة الجامع المؤيدى عوضا عن الشيخ
بدر الدين بحكم وفاته ، واستمر بها الى الآن .

سنة تسع وتسعمائة (١٥٠٣ - ١٥٠٤ م) :

فيها — في المحرم — جاءت الأخبار من مكة
بأن الأتابكي قيت قد قبض على الجازاني ، فخرج
السلطان لهذا الخبر ، ونادى في القاهرة باعادة
الزينة ثم ظهر بأن هذا الخبر ليس له صحة ،
وهو باطل ، ولم يفيض على الجازاني ، فشقق على
الناس اعادة الزينة حين راحت في البطال .

وفيه خرج الأمير تاني بك الخازندار الذي
تعين قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فخرج
وصحبته هدية حافلة الى ابن عثمان .

وفيه قبض شيخ العرب نجم ، على شخص من
العرب العصاة من مشايخ بنى حرام ، يقال له
علاء الدين بن قرطام ، فلما قبض عليه قطع رأسه
وأرسلها الى القاهرة ، ، وقد قبض عليه من جبل
الطور ، وحز رأسه هناك وبعث بها الى القاهرة ،
فطيف بها وعلقت على باب زويلة ، ثم نقلت الى
خاتمة سرباقوس فعلقت بها أباما . وقد عد قتل

وهم الجميع في زناجير حديد . فما شكر الأتابكي قيت على تلك الفعلة ، فلم يقدر على تحصيل الجازاني ، فقبض على اخوته هؤلاء ، وأحضرهم في الحديد وعمل حكمه فيهم . وأظهر بمكة غاية الجور والمظالم ، وما حصل بتوجهه الى مكة خير ، بل تزايد أمر الفتنة التي كانت بين أولاد أمير مكة ، ووقع من بعد ذلك أمور يأتى الكلام عليها في مواضعه ، فكان كما يقال :

حجبت البيت لبتك لا تحج

فظلمك قد فشا في الناس ضج

حجبت وكان فوقك حمل ذنب

رجعت وفوق ذاك الحمل خرج

فلما طلع الأتابكي قيت الى القلعة ، وعرض الشريف بركات واخوته على السلطان ، رسم بفكهم من الحديد ، ونزلوا مع الأتابكي قيت الى داره ، وأقاموا بها حتى كان من أمرهم ما سنذكره في مواضعه .

ولما دخل الحاج الى القاهرة أشيع بين الناس وفاة الشهابي أحمد بن العيني ، توفي بالمدينة الشريفة ، وكان لما توفي ولده الناصر محمد توجه الى مكة وأقام بها نحو من ست سنين . فلما جرى من الجازاني ما تقدم ذكره ، فر منه الشهابي أحمد بن العيني الى المدينة الشريفة فأدركته المنية هناك ، فمات بها ودفن بالبقيع . وكان رئيسا حثما . وهو أحمد بن عبد الرحيم بن قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي رحمة الله عليه . وكانت والدته ربيعة الملك الظاهر خشقدم ، فلما تسلمن رقي الشهابي أحمد بن العيني في أيامه الى الغاية ، وصار صاحب الحل والعقد في تلك الأيام ، حتى صار في زمرة أولاد السلاطين . وأنعم عليه الظاهر خشقدم بتقدمة ألف ، وهي مقدمة قائم التاجر لما قرر في الأتابكية ، ثم بقى أمير آخور كبير

الجهة الغربية من الميدان ، ثم ساوى أرضه وفرش بها النقارة . ثم شرع في بناء مقعد وبيت بالميدان برسم المحاكمات ، وأنشأ في الجهة الغربية من الميدان قصرا حافلا ، ومنظرة ، وبحرة ، وغير ذلك من البناء الفاخر . ثم شرع في قتل أشجار من سائر الفواكه وأصناف الأزهار والرياحين وغير ذلك ، فغرست بالميدان في الجهة الغربية ، ثم أجرى اليه المياه من السواقي التي بباب القرافة ، وأجرى اليه المياه أيضا من السواقي التي بحدرة البقر . ثم أنشأ قصرا على باب الميدان مطلا على الرملة ، وصنع مشاة من القلعة الى الميدان بسلالم متصلة الى ذلك القصر المطل على الرملة ، وجعل للميدان بابا كبيرا ، وعليه سلسلة حديد ، والى جانبه باب صغير أيضا ، وعليه سلسلة من الحديد مثل الباب الكبير . ثم أمر بعمارة سبيل المؤمنين ، وعقد سقفه بالحجر النحيت ، وأنشأ الى جانبه حوضا وساقية ، وصنع هناك مغسلا برسم الأموات ، وميضة وغير ذلك مما ينتفع به . وقيل ان السلطان صرف على بناء هذا الميدان من مبدئه الى منتهاه نحو من ثمانين ألف دينار ، ولكن وقع له في بناء هذا الميدان أمور غريبة لم تقع لأحد قبله من الملوك ، وكان غالب مواكبه به ، ووقع له به محاكمات غريبة ، وأوقات عجيبه ، يأتى الكلام عليها في مواضعه .

وفي ربيع الأول — في يوم الخميس ثانيه — دخل الأتابكي قيت الرحبي وصلحبه الحجاج الذين حجوا معه تلك السنة ، فلما دخل الى القاهرة كان له يوم مشهود ، وكان صحبته أولاد أمير مكة ، وهم الشريف بركات ، وأخوه قايتباي ، وبقية اخوته ، والوزير عنقا ، وأخوه ،

ى المؤيدى لما قرر فى الأتابكية بعد موت
ن قانم التاجر . ثم بقى أمير مجلس فى دولة
رى بلباى ، لما قرر تمرىغا فى الأتابكية ،
على ذلك حتى تسلطن الأشرف قايتباى ،
عليه وضر به كما تقدم ، واستصفى أمواله ،
منه فوق المائتى ألف دينار . وقاسى بعد
لظاهر خشقدم شدايد ومحن ، وآخر الأمر
طن الغورى أرسل يطلبه فى الحديد ، فلما
الأتابكى قيت الى المدينة الشريفة وجده قد
وكان السلطان رسم للأتابكى قيت الرحبى
بضى على ابن العينى ويحضر به فى الحديد
خل المدينة وجده قد مات ودفن بالبقيع وكفاه
ر الغورى . وقد تقدم من أخباره ما يغنى عن
.

كان السلطان رسم للأتابكى قيت عند عوده
سكة أن ينقل قانصوه الفاجر ، وقانم أخا
ر قانصوه ، من مكة الى القدس ، وكان
طان نقاهما الى مكة ، ثم بدا له نقلهما الى
س ، فلما حضرا صحبة قيت شق ذلك على
طان وبعث بهما الى القدس ، ولم يقبل فيهما
نة . وكان من أمر قانصوه الفاجر ما سنذكره
وتسعه .

فيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا
العادة ، وخلع السلطان على الأمير أنص باى
المقدمين ، وقرره أمير ركب المحمل ، وفرر
كب الأول تانى بك الأبح .

فى ربيع الآخر — فى يوم الجمعة مستهله —
ب فى جامع السلطان الذى أنشأه فى الشرايشين
تم بناؤه وجاء غاية فى الحسن والتزخرف ،
منح به مئذنة لها أربعة رءوس ، وهو أول من
ند ذلك ، واتهى العمل من المدرسة التى تجاه

الجامع ، وعقد هناك قبة كبيرة على المدفن ، وغلفها
بقاشانى أزرق ، فلم ينطل ذلك على الناس . فكان
أول من خطب بهذا الجامع قاضى قضاة دمشق
الشهاب أحمد بن فرفور الدمشقى الشافعى ، فلبس
السواد وخطب ، وكان المرقى قدامه القاضى
عبد القادر القصرى . وحضر فى ذلك اليوم الخليفة
المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ، وهم :
برهان الدين بن أبى شريف الشافعى ، وعبد البر
ابن الشحنة الحنفى ، وبرهان الدين الدميرى
المالكى ، والشهاب الشيشينى الحنبلى . وحضر
غالب الأمراء المقدمين ، وولد السلطان المقر الناصرى
وأعيان المباشرين قاطبة ، والجم الغفير من الأمراء
العشراوات والخاصكية وأعيان الناس ، وزيت
الشرايشين فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا .
وخلع السلطان فى ذلك اليوم ، على قاضى القضاة
عبد البر بن الشحنة ، لكونه حكم بصحة الخطبة فى
هذا الجامع ، وخلع على اينال شاد العمارة خلعة
حافلة ، وأنعم عليه بأمرة عشرة ، وخلع فى ذلك
اليوم على عدة وافرة من المهندسين والبنائين
والمرحمين والتجارين وغير ذلك من أرباب الصناعات
ممن كان بالجامع ، وأنعم على الفعلاء لكل واحد
بألف درهم .

ثم فى الجمعة الثانية رسم السلطان لقاضى القضاة
عبد البر بن الشحنة بأن يخطب بهذا الجامع ، فخطب
تلك الجمعة خطبة بليغة ، ولكن ميزوا خطبة قاضى
القضاة عبد البر عن خطبة ابن فرفور .

وفى ربيع الآخر ثبت النيل المبارك على احدى
عشرة أصبعا ، من تسع عشرة ذراعا ، وكان نيلا
شحيحا وشرق غالب البلاد ، ولكن ثبت الى
العشرين من توت .

وفيه حضر الأمير أزدمر الدوادار وكان مسافرا
الى جهة نابلس ، وكان صحبته ماماي جوشن ،

وكانصوه كرت ، فلما صعدا الى القلعة خلع عليه
السلطان ونزل الى داره في موكب حافل .

وفي جمادى الآخرة ، خرجت الرماحة المعينون
للعرب الرمح ، فلعبوا عند زاوية الشيخ أبو العباس
الحرار رحمة الله عليه .

وفيه خلع السلطان على شرف الدين الصغير
وقرره في نظر الدولة ، عوضا عن مجد الدين بن
كراوية بحكم صرفه عنها .

وفيه كان انتهاء عمارة المقعد والمبيت التي أنشأها
بالميدان ، فجلس السلطان في المقعد ، ورسم
للمراحة بأن يسوقوا قدامه في الميدان ، فساقوا
وهو جالس وحوله الأمراء . فلما ساقوا عييت
عليهم الممالك القرانصة ، وخطأهم في طريقة لعب
الرمح عما كان يفعل الأقدمون من البنود التي
كانت تقع في لعب الرمح على العادة القديمة .

وفي يوم الخميس ثالثه كانت وفاة الشيخ
الصالح المعتقد سيدى أبو الخير الكليباتى المجذوب
رحمة الله عليه ، وكان من أعيان الأولياء ، فلما
توفي دفن بجوار جامع الحاكم وبنى له السلطان
هناك زاوية .

وفي رجب حضر الأتابكى قيت ، وكان توجه الى
العباسة على سبيل التنزه ، فأرسل له السلطان
خلعة بسبب دوران المحمل .

وفيه ثار ريح أسود حتى أظلم منه الجو ، ووقع
في ذلك اليوم بيوت وعدة أماكن ونخيل ، ثم في
حقيب ذلك جاءت الأخبار من ثغر دمياط ، بأن في
ذلك اليوم هاج الرياح هناك جدا ، حتى فاض ماء
البحر الملح ، وأغرق عدة بساتين من دمياط ،
وكذلك بفارسكور وحصل هناك للناس الضرر

وكانصوه كرت ، فلما صعدا الى القلعة خلع عليه
السلطان ونزل الى داره في موكب حافل .

وفيه خلع السلطان على الأمير جانم وأعادته الى
نيابة حماة كما كان ، وصرف عنها قانصوه اليحياوى
الذى كان أتابك العسكر بغزة .

وفي جمادى الأولى ، نادى السلطان في القاهرة
بأن أصحاب الدكاكين قاطبة يقطعون الطرقات من
الشوارع قدر الذراع بالعمل ، وكانت الطرقات قد
عليت جدا ، فلما رسم السلطان بذلك ، حصل
للناس الضرر الشامل بسبب الكلفة على ذلك ، وقد
استحشوا الناس في سرعة العمل ، وعز وجود الترابية
وصار الطلب في ذلك حثيثا ، وقد قلت :

من دولة الغورى ومن جورده

لقد حملنا فوق ما لا نطيق

وقد كفى من فعله ما جرى

من قلة الأمن وقطع الطريق

وفي خامس عشره خلع السلطان على شخص من
الأمراء العشراوات يقال له « قنبك » فقرر في نيابة
غزة وخرج عن قريب .

وفيه قوى عزم السلطان على أن يدور المحمل
في رجب ، وتلعب الرماحة على العادة القديمة ،
وكان هذا الأمر قد بطل من سنة اثنتين وسبعين
وثمانمائة ، من دولة الظاهر خشقدم ، ونسئ هذا
الفن من يومئذ ، فأراد السلطان أن يجدد هذا
الأمر حتى يصير له التذكار بين الملوك بتجديد هذا
الفن ، فعين الأمير تسر الحسنى المعروف بالزردكاش
بأن يكون معلم الراحة ، وعين معه من الباشات
أربعة وهم : أبو يزيد أحد الأمراء المقدمين ، وجانم
الدوادر الثانى ، وهو قرابة قانصوه خمسمائة ،
وعلان والى القاهرة ، وقرقماس المقرى . وعين من

الشامل ، وغرق في ذلك اليوم عدة مراكب بناسها
من المسافرين وكان أمرا مهولا .
وفي يوم الخميس ثامنه ، نادى السلطان في
القاهرة بالزينة بسبب دوران المحمل .

ثم في يوم السبت عاشره لبس الرماحة الأحمر
على العادة القديمة ، وطافت المسابقات بالقاهرة .
ثم في ليلة الاثنين ثاني عشره بات السلطان
بالقصر ، وأحرق تلك الليلة احراقة تقط بالرملة ،
وكانت ليلة مشهودة ، ورأت الناس أشياء كانت
قد نسيته . فلما كان يوم الاثنين جلس السلطان
في الخرجاة المطلة على الرملة ، وساق الرماحة
قدامه بالرملة ، ثم طافوا بالكسوة الشريفة والمحمل
على العادة مرتين ، باكر النهار ، وبعد الظهر ، كما
كان يفعل فيما قبل . فخرجت البنت من خدرها
تتفرج على المحمل بعد ما كان قد نسي أمره ،
فجاءت الناس أفواجا من الخائفين ، ومن بلييس ،
وغير ذلك من أماكن شتى بسبب الفرجة على
الرماحة ودوران المحمل ، حتى صنف العوام رقصة
وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيع لى لحافى ذى المخمل حتى أرى شكل المحمل
وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد
فلما انقضى ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير
تمر معلم الرماحة أطلسين ، وخلع على الباشات
الأربعة كوامل بسمور ، ونزلوا الى دورهم ،
وانقضى أمر المحمل ، فعد ذلك من محاسن الغورى
حيث فرج الناس على أشياء كانت قد نسيته
فجدها ، حتى يصير له بذلك التذكار بين الملوك
بعد ما نسي هذا الأمر .

وفي يوم دوران المحمل توفى الأمير مغلباى
صصرق ، وكان من أعيان اشرفية برسباى ، وكان

وفي شعبان قبض قاضى القضاة الشافعى برهان
الدين بن أبى شريف المقدسى ، على محمد بن
يوسف ، الذى كان ناظر الأوقاف ، فضربه ضربا
مبرحا ، وأشهره فى القاهرة على حمار وهو عريان
مكشوف الرأس ، لأمر أوجب ذلك . وكان منفصلا
عن نظر الأوقاف ، والمتحدث بها يومئذ ناظر الخاص
علاء الدين بن الامام .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن بك باى
دوادار الأتابكى أزبك قد احتال على الجازانى ابن
أمير مكة الذى جرى منه ما تقدم ذكره ، فقتلته
المماليك المجاورون بمكة حين دخل الى الحرم ، فلما
تحقق ذلك سر الناس لهذا الخبر . وكان الجازانى
هذا جاهلا عسوف سفاكا للدماء ، وجرى منه أمور
شتى ، والتف عليه عربان قبيلة بنى ابراهيم ،
وحصل منه غاية الضرر كما تقدم .

وفي رمضان خسف جرم القمر عند آخر الليل ،
واستمر فى الخسوف نحو من عشرين درجة .
ومن الحوادث أنه فى سابع عشر هذا الشهر
قبض الوالى على أربعة أنفار من العوام وجدهم
فى بستان ومعهم امرأة ، وهم يأكلون ملوحة
بالنهار ، وربما قيل كانوا سكارى . فلما قبض عليهم
هربت تلك المرأة فقبض على الرجال ، وضربهم
بالمقارع ، وأشهرهم فى القاهرة ، ثم سجنهم بالمقشيرة
فأقاموا مدة طويلة .

وفى شوال وقعت حادثة ، وهى أن الشريف
بركات أمير مكة ، الذى كان مقبلا ببیت الإتابكى

قيت ، هرب هو واخوته من بيت الأتابكى قيت الذى بالأزبكية . وكان السلطان قرر على الشريف بركات واخوته مالا له صورة ، فما وافقوا على ذلك ، وهربوا على حين غفلة . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد ولام الأتابكى قيت على ذلك ، ووقع فى المجلس بعض تنافس بين الأمير قرقماس أمير سلاح والأتابكى قيت ، وقال قرقماس لقيت : « هذا كله شغلك أنت الذى هربته من بيتك » ، فانسع بينهما الكلام حتى دخل بينهما السلطان بالصلح ، فاصطلحوا صلحا على فساد ، وكان من أمرهما ما سنذكره فى موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأمير أنص باى أحد المقدمين ، وبالركب الأول تانى بك الأيچ أحد الأمراء الطبلخانات ، ولم يحج فى تلك السنة امرأة لفساد العربان بطريق مكة .

وفى ذى القعدة حضر تانى بك الخازندار ، وهو المحتسب أيضا ، الذى كان قد توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الزوم ، فكافت مدة غيبته فى هذه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم أنعم عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم أنعم عليه فيما بعد بتقدمة ألف .

وفيه أرسل أقبای الكاشف برأس شخص من عربان الشرقية ، وكان من العصاة ، يقال له ابن يسار وله حكايات غريبة يطول شرحها ، وكان من شرار العربان . فلما أحضرت رأسه بين يدى السلطان ، رسم بتعليقها على باب زويلة .

وفى عقيب ذلك قبض أقبای الكاشف أيضا على شخص من العربان المفسدين يقال له ابن

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض وابتدأ بضرب الكرة .

وفيه رسم السلطان بأن يقطعوا الخلجان على قدر ثلاثة أذرع ونصف ، فشق ذلك على أصحاب الأملاك ، وحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك وعز وجود الترابية لأجل شيل التراب ، فلما عظم الأمر ، باع غالب الناس أملاكهم التى على الخلجاذ بأبخس الأثمان ، فى نظير شيل التراب .

وفى ذى الحجة أشيع بين الناس بأن عنبر مقدمه المماليك ، قد هرب وتوجه الى نحو بلاد التكرور . وسبب ذلك أن السلطان طلب منه مالا لم يقدر عليه ، فهرب وظن أنه يختفى أمره . ثم بعد مضي أربعة أيام قبضوا عليه وأحضروه بين يدى السلطان فرسم بسجنه فى العرقانة . قيل لما قبض عليه : ووقف بين يدى السلطان ، وبخه بالكلام وقال له : « من ايش هربت وانت بقيت مقدم المماليك أمير عشرة » ، فقال له عنبر : « من عادة العبيد السودان الهروب » . فاستحسن السلطان منه ذلك الجواب .

وفى أواخر هذا الشهر قوى أمر الطاعون بالقاهرة ، وفشا أمره بعد مضي أيام فطر النصارى ،

وهي التي يسمونها الخماسين . وقد ظهرت الثريا ، واستمر الطعن عمالا حتى دخل شهر بؤونة القبطى ونزلت النقطة ، وهذا بخلاف العادة حتى عد من النوادر . لكنه كان خفيفا بالنسبة لما جاء بعده في سنة عشر وتسعمائة . وقد وقع الطاعون في سنتين متواليتين حتى عد من النوادر .

وفي يوم الأربعاء ثانى عشرينه ، كانت وفاة خوند فاطمة ابنة العلاء على بن خاص بك ، وهي زوجة الملك الأشرف قايتباى ، تم نكاحها بعده بالعادل طومان باى ، وقيل تزوجت بالأشرف قانصوه خمسمائة في الخفية على ما يقال ، وكانت من مشاهير الخوندات في سعة من المال وقد ظهر لها فيما بعد تركة حافلة ، وأقامت في الخونداتية وهي صاحبة القاعة نحو من ثلاثين سنة ، وأظهرت من الفتك والعظمة ما لا أظهره غيرها من الخوندات ، وماتت وهي في عشر السنين سنة من العمر . ولما ماتت أخرجت في بشخانة زركش ، ومشت قدامها القضاة الأربعة والأمراء المقدمون . ونزل السلطان وصلى عليها في سبيل المؤمنين ، ونهب العوام الكفارة من قدامها ، حين وصلت الى رأس الصليبية ، وكان لها جنازة حافلة .

وجرت عليها في أواخر عمرها شذائد ومحن ، منها أن المماليك الجلبان ، هجموا عليها وهي في دارها التي بجوار قنطرة سنقر ، وطلبوا منها نفقة ، وأغلظوا عليها في القول ، وقصدوا الإخراق بها . وكان القائم في ذلك طائفة من المماليك ، من حلف الأمير أقبردى الدوادار . فلما بلغ الملك الناصر ذلك تعصب لها ، ونادى في القاهرة بأن طائفة المماليك قاطبة لا يتوجهون الى بيت خوند زوجة الأشرف قايتباى ، ولا تقفون لها على باب ، وكل من فعل ذلك شنىق بلا معاودة ، فانكفوا عنها من

يومئذ . وسبب ذلك أنه قد بلغ المماليك بأن خوند قد تزوجت بقانصوه خمسمائة في الدس ، فلما قتل تحرشوا بها وطلبوا منها نفقة ، واستمرت مختفية عن بيتها مدة من بعد ذلك .

ومنها أن الظاهر قانصوه صادرها ، وأخذ منها مالا له صورة ، ووكل بها جماعة من الخدام حتى أوردت ما قرر عليها . وكذلك الملك الناصر أخذ منها جملة مال . ثم انها تزوجت من بعد ذلك بالعادل طومان باى فأقامت معه نحو من شهرين ، وجرى له ما جرى . واستمرت من بعد ذلك مريضة وقد طلع لها في خدها أكلة ، وأقامت بها مدة طويلة ، فلما ثقلت في المرض توجهت الى بولاق ، ثم ماتت هناك ، وحملت وهي ميتة الى دارها التي بجوار قنطرة سنقر ، فأخرجت جنازتها من هناك .

وفي أثناء هذه السنة كانت وفاة العلامة الحافظ . فخر الدين عثمان الديمى شيخ الحديث ، وكان عالما فاضلا محدثا دينا خيرا ، ومات وهو في عشر الثمانين ، وكان لا بأس به .

وفيها توفي أيضا القاضى ولى الدين محمد النحريرى المالكى أحد نواب المالكية ، وكان رئيسا حشما فاضلا في مذهبه من أعيان المالكية ، وكان لا بأس به .

سنة عشر وتسعمائة (١٥٠٤ — ١٥٠٥ م) :

فيها — فى المحرم — خلع السلطان على عنبر الطواشى وأعادته الى مقدمة المماليك كما كان أولا ، وقد قاسى شذائد ومحن وسجن فى العرقانة مدة ، ثم رضى عليه السلطان وأعادته الى وظيفته ، وقد استحسن منه السلطان جوابه أن من عادة السودان الهروب فعفا عنه فيما بعد .

وفيه أخذ قاع النيل فجاءت القاعدة ست أذرع
على حكم السنة الماضية .

وفيه ، فى الثالث والعشرين ، دخل الحاج الى
القاهرة مع السلامة .

وفيه أشيع بين الناس بوقوع فتنة كبيرة فوزع
الناس فباشهم فى الحواصل : فلما بلغ السلطان
ذلك جمع الأمراء ، وأحضر لهم المصحف العثماني ،
وحلهم عليه ، فخدمت تلك الاشاعات الفاسدة .

وفى صفر عرض السلطان جماعة من أولاد
الناس ، ومن المماليسك السيفية ، ممن كان قطع
جوامكهم ، وقرر لجماعة منهم جوامكهم وجماعة
بحكم النصف .

وفيه توقف النيل عن الزيادة ستة أيام ، فقلقت
الناس لذلك ، وتشحطت الغلال ، وتكالب الناس
على مشتري الغلال ، ثم تراءفت الزيادة من بعد
ذلك حتى أوفى عن قريب .

وفى ربيع الأول ، خلع السلطان على الشهاب
أحمد بن فرفور الدمشقى قاضى القضاة بدمشق ،
وقرره فى قضاء الشافعية بمصر ، عوضا عن القاضى
برهان الدين بن أبى شريف المقدسى بحكم صرفه
عنها . وقد جمع الشهاب بن فرفور بين قضاء
الشافعية بمصر والشام فى وقت واحد ، فعاد ذلك
من النوادر .

وفى سابعه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى
فى خامس عشرين مسرى ، فتأخر عن النيل الماضى
سبعة عشر يوما ، فزاد عن الوفاء فى ذلك اليوم
خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة ، فكان كما
قيل فى المعنى :

يانيل مصر كم بد لك بالسوفا
أوليتنا بالكسر جبراً دائماً

قد زدت قبل الكسر خمس أصابع
كرما فكانت للوفاء خسواتما

فلما أوفى توجه الأتابكى قيت وفتح السد على
العادة ، وكان يوما مشهودا . وهذا كان آخر فتح
الأتابكى قيت للسد وقد أخذ عقيب ذلك وكان
من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه حضر سيف قانصوه المحدثى المعروف
بالبرجى نائب الشام ، وكان أصله من ممالك
الأشرف قايتباى ، وولى عدة وظائف سنية وآل
أمره الى أن بقى نائب الشام ومات بها .
وفيه عمل السلطان المولد البوى وكان حافلا .

وفيه خلع السلطان على قانى باى قرا أمير
أخو كبير وقرر فى أمرة ركب المحمل ، وقرر
بالركب الأول جان بردى تاجر الممالك .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شيخ العرب
بيرس بن أحمد بن بقر ، وأعادته الى مشيخته كما
كان أولا .

وفيه خسف جرم القمر عند طلوعه واستمر فى
الخشوف نحو من خمسين درجة .

وفيه خلع السلطان على قن بك بن شاد بك ،
وقرر فى رأس نوبة الثانية ، عوضا عن تراز
جوشن بحكم وفاته بدمشق ، وكان قد توجه
فى بعض مهمات السلطان فمات هناك .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره قبض السلطان
على القاضى بدر الدين محمد بن مظهر ، الذى كان
متوليا لكتابة السر وعزل عنها . فأرسل اليه
السلطان بعض البايية ، فتوجه الى بيته الذى ببركة
الرطللى ، فقال له : « قم كلم السلطان » فقام وطلع

معه الى القلعة ، فلما وقف بين يدي السلطان وبخه بالكلام ، ثم شكه في الحديد ، وسجنه بالعرفانة ؛ وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان بأن بدر الدين بن مزهر اجتمع بالأتابكى قيت الرحبى ، وقال له : « قم وتسلطن وضمان نفقة البيعة على » ، وقيل انه كتب فوائهم بأسماء جماعه من حاشيه السلطان ، ووزع عليهم مالا له صورة ، وذكر في القوائهم جماعة من المباشرين وغير ذلك ، حتى أسمى فيهم ابن السلطان ، وخاير بك الخازندار ، وبركات ابن موسى ، وآخرين من جماعة السلطان ، فتكلم الأعداء في حق بدر الدين بن مزهر بسبب ذلك ، وغيروا خاطر السلطان عليه ، وآل أمره من بعد ذلك الى كل سوء ، حتى كان ما سنذكره في موضعه .

* * *

وفي ربيع الآخر ، عمل السلطان الموكب بالحوش ، وخلع على الأمير سودون العجمي ، وقرره في نيابة الشام عوضا عن قانصوه البرجى بحكم وفاته . وخلع على الأمير خابر بك ، أخى قانصوه البرجى الذى كان نائب الشام ، وقرره في نيابة حلب عوضا عن سيباى الذى كان بها ، ورسم لسيباى بأن يحضر الى القاهرة ليلى أمرة مجلس عوضا عن سودون العجمي بحكم انتقاله الى نيابة الشام ، فلم يتم هذا الأمر وكان ما سنذكره في موضعه .

وفي هذا الشهر ثبت النيل المبارك على ثلاث عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وقد ثبت الى ثامن عشرين توت .

وفيه خلع السلطان على الأمير أنص باى بن مصطفى ، وقرر في حجوبة الحجاب ، عوضا عن خاير بك بن يلباى ، أخى قانصوه البرجى الذى

كان نائب الشام ، بحكم انتقاله الى نيابة حلب كما تقدم .

وفي هذا الشهر اهتم السلطان بعمارة قاعة البيسرية وقاعة العواميد ، وغير ذلك من الأماكن التى بالقلعة ، فجدد ما فيها من العمارة ، وزخرفها الى الغاية . اكن حصل منه عاية الضرر ، منها أنه رسم للقاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بأن يفك رخام قاعة والده ناظر الخاص يوسف ، التى سماها نصف الدنيا ، وكان فيها الرخام المثلث الذى لا يوجد . وفد أفنى ناظر الخاص يوسف عمره على بناء هذه القاعة ، فلا زال به السلطان حتى فك رخام نصف الدنيا ، ونقله الى قاعة البيسرية ، وقاعة الأعمدة ، وغير ذلك مما أنشأ بالقلعة ، فحصل على أولاد ناظر الخاص ، بسبب ذلك ، ما لا خير فيه . وكانت هذه الواقعة من أقبح الوقائع . ولو أن السلطان نقل هذا الرخام الى مدرسته لكان أولى من وضعه في قاعة البيسرية . كما يقال : « فأفقرنى فيمن أحب ولا أستغنى » . وقد قلت في هذه الواقعة مطلع زجل في معنى ذلك : سلطاننا الغورى قد جار والصبر مناقد أعيا وصار في ذا الجور عمال حتى خرب نصف الدنيا وفيه جاءت الأخبار من غزة بوفاة الشيخ الصالح المعتقد المسلك ، سيدى محمد الغزاوى ، رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الصوفية .

* * *

وفي جمادى الأولى كملت عمارة مدرسة السلطان التى أنشأها تجاه جامعها الذى بالشرابشين ، وأنشأ هناك مدفنا له ، وعقد فوقه قبة ، وأنشأ صهريجا ومكتبا ، وقرر بهذه المدرسة حضورين وصوفية ، يحضروا بكرة والعصر ، وجعل قاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف شيخ

الحضور باكر النهار ، ومحب الدين الحلبي الامام
شيخ الحصور العصر ، كما أمر بذلك . فجاءت
هذه المدرسة من محاسن الزمان ، ولا سيما في هذا
الخط الذي لم يتفق لأحد من الملوك البناء فيه ،
فعد ذلك من جملة سعد قانصوه الغورى . وكان
أصل هذا المكان قيسارية تسمى قيسارية الأمير
على ، فاستبدلت من وقف الناصر محمد بن
قلاوون .

ووقع للغورى أشياء غريبة لم تقع لغبره من
الملوك ، منها : أنه نقل الأثر الشريف النبوى من
مكانه الذى كان به المطل على بحر النيل ، فجعله
في مدرسته ، حتى عد ذلك من النوادر . وقد تعب
الصاحب بهاء الدين بن حنا في نقل هذا الأثر
الشريف . وكان عند جماعة من بنى ابراهيم
بالينبع ، فلا زال يتلطف بهم حتى اشتراه منهم
بستين ألف درهم بالدرهم القديمة ، ثم نقله الى
الديار المصرية وبنى له مسجدا مطلا على بحر
النيل . وكان الناس يقصدون الزيارة اليه في كل
يوم أربعاء . فلما تلاشى أمر ذلك المكان الذى كان
به الأثر الشريف استفتى السلطان العلماء ، فأفتوه
بنقله الى مدفنه بالقبة ، وهذا بخلاف شرط
الواقف .

ثم ان السلطان قتل المصحف العثماني الى
مدرسته أيضا ، وعد ذلك من النوادر . ثم نقل الى
المدرسة أيضا الربعة العظيمة المكتوبة بالذهب التى
كانت بالخانقاه البكتيرية التى بالقرافة . قيل ان
مشتراها على الواقف ألف دينار ، ولم يكتب نظير
هذه الربعة ، سوى ربعة أخرى بخانقة سرياقوس ،
اشتراها الملك الناصر محمد بن قلاوون بألف دينار
أيضا . وأخرى بالمدينة الشريفة ، وأودعها بهذه
الخانقة .

وقد وقع للأشرف قانصوه الغورى في مدرسته

من المحاسن ما لا وقع لأحد قبله من الملوك ، وحاز
فيها أشياء غريبة عزيزة الوجود . ولما نقل الأثر
الشريف والمصحف العثماني الى مدرسة السلطان ،
كان له يوم مشهود ، ونزل قدامه القضاة الأربعة ،
والأتابكى قيت ، وجماعة من الأمراء المقدمين
والفقراء أرباب الزوايا بالأعلام وهم يذكرون .

وفي ذلك اليوم ، خلع على الشيخ برهان الدين
ابن أبى شريف ، وقرره في مشيخة هذه المدرسة .
وقد صرف عن قضاية القضاة ، وانفرد بمشيخة
مدرسة السلطان ، واستمر بها الى الآن . وقد قلت
من قصيدة مدحت بها السلطان ، وقد عرضت عليه
واستحسنها ، فمن أبياتها قولى في جامعته الذى
أنشأه ، وهو قولى :

بنى بمصر لله بيتا رخامه قائم ونائم
فجاء في حسنه فريد من كل عيب يقال سالم
فليس يبنى له نظير في سائر المدن والأقالم
وفيه — في يوم الخميس — ثمانى عشرينه —
عرض السلطان القاضى بدر الدين بن مزهر
بالحوش بين العسكر ، وهو في الحديد فوبخه
بالكلام ، ثم نطحه وضربه ضربا مبرحا حتى كاد
أن يهلك وهذا أول عقابه .

وفيه أحضرت جثة قانصوه المحمدي البرجى
الذى كان نائب الشام ، فلما حضرت دفنت بتربة
أخيه الأمير خاير بك التى أنشأها بباب الوزير .

وفي جمائى الآخرة رسم السلطان للراحة بأن
يسوقوا على العادة ، ويدور المحمل في رجب كما
فعل في العام الماضى .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن سيباى نائبها ،
امتنع عن الحضور الى القاهرة ، ولم يوافق بأن
يلى أمير مجلس ، وقد أظهر العصيان . فلما تحقق
السلطان ذلك ، بطل أمر سودون العجمي من نيابة

خسديه ، وقاسى ما لا خير فيه ، وعذب بأنواع العذاب الشديد . وكان المتولى عقابه الحاج يركات ابن موسى ، ومعين الدين بن شمس وكيل بيت المال ، وابراهيم دوادار الوالى ، والريس كمال الدين المزين ، فما أبقوا ممكنا فى عذابه . وكان هذا من مقت الله تعالى فى حق بدر الدين بن مزهر ، وقد روى فى بعض الأخبار أن الله تعالى يقول « اذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى » .

وفى رجب — فى يوم الأربعاء رابعه — توفى القاضى بدر الدين بن مزهر بالقلعة ، وقد مات تحت العقوبة ، فغسل بالقلعة وكفن وصلى عليه ، ونزلوا به من القلعة وتوجهوا به الى تربة أبيه فدفن عليه . وكان رئيسا حشما تولى عدة وظائف سنية منها نظارة الخاص ، والحسبة ، وكتابة السر تولاهما عن أبيه ، وكان جميل الهيئة مليح الشكل ، وتوفى عن ثلاث وخمسين سنة من العمر ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر أنصارى الأصل ، وهو محمد بن أبى بكر بن محمد بن محمد بن محمد ابن أحمد بن عبد الخالق بن عثمان ، الشهير بمزهر الدمشقى الأنصارى الشافعى ، وكان له اشتغال بالعلم لكنه كان يتقرب الى خواطر الملوك بإيذاء الناس ، فأخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه ، وقد رثيه بقولى مع التضمين :

خسف البدر المفدا وبسحب الترب غابا
يا ترابا ضم بدرى ليتنى كنت ترابا
وفى هذا الشهر جاءت الأخبار بأن دولات باى أخا العادل توجه الى حماة ونهب غالب ضياعها ، وفر منها النائب الذى كان بها ، وقبض على أعيان أهلها . فلمسا بلغ السلطان ذلك عين تجريدة الى البلاد الشامية ، وعين الأتابكى قيت باش العسكر وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين ، ثم بطل ذلك

الشام ، وأعيد الى أمرة مجلس كما كان ، وأرسل السلطان خلعة وتقليدا الى أركمساس نائب طرابلس ، بأن يكون نائب الشام عوضا عن سودون العجمى الذى كان قد قرر بها .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره ، توفى الحافظ تقى الدين بن الأوجاقى ، وكان من أعيان مشايخ الحديث ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، بقية السلف ، وعمدة الخلف ، ومات وقد جاوز المائة سنة من العمر .

وفى يوم الأحد تاسع عشره توفى ابن المحرقى ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه خرج الأمير خاير بك الذى قرر فى نيابة حلب ، فكان له يوم مشهود ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه الأمراء قاطبة .

وفيه جاءت الأخبار بأن دولات باى ، قرابة العادل طومان باى ، الذى كان نائب الشام ، وولى أيضا نيابة طرابلس ، وقد أظهر العصيان ، والتف على سيباى نائب حلب ، وقد توجهوا الى دمشق ، وحاصروا المدينة ، وقد أشرفوا على أخذها . فلما تحقق السلطان ذلك ، اضطربت أحواله ، وأراد أن يبطل دوران المحمل فى رجب ، فمنعه الأمراء من ذلك . ثم انه جمع الأمراء فى قاعة البحرة ، وضربوا هناك مشورة فى أمر سيباى نائب حلب ، ودولات باى ، فأقام الأمراء عند السلطان الى قريب العصر .

وفيه عاقب السلطان بدر الدين بن مزهر ، وعصره فى أكعابه وركبه ، ودق القصب فى أصابعه ، وأحرقها بالنار حتى وفعت عقد أصابعه ، ثم نوعوا له أنواع العذاب ، فأخذوا له كماشة حديد ، وأحموها بالنار واختطفوا بها أبزازه وأطعموها له ، ثم أخذوا له جبل قنب ولووه على أصداعه حتى نفرت عيناه من وجهه وسالت على

فيما بعد وعين الأمير أزدمر الدوادار باش
المسكر ، وصحبته جماعة من الأمراء غير تلك
الطائفة التي تعينت صحبة قيت ، ولم يتم ذلك
أيضا وكان من الأمر ما سنذكره

وفيه ترفع الشيخ أبو شامة مع خليفة سيدي
أحمد البدوي رضى الله عنه ، فرسم السلطان
بايداع خليفة سيدي أحمد البدوي في الترسيم ،
ثم ان السلطان خلع على ولد خليفة سيدي أحمد
البدوي ، وقرره في المشيخة ، عوضا عن أبيه ،
وأشرك معه شخصا من الأتراك يقال له لاجين
رأس نوبة الجمدارية ، وقرره أيضا ناظرا على
مقام سيدي أحمد البدوي رضى الله عنه .

وفي يوم تاسعه نودي في القاهرة بالزينة ،
بسبب دوران المحمل ، ولبس الرماحة الأحمر
على العادة ، وكان معلم الرماحة تمر الحصى
الزردكاش أحد المقدمين والباشات الأربعة على
حكم السنة الماضية غير أنه لما توفي الأمير
أبو يزيد ، وكان أحد الباشات ، قرر عوضه
شخص من الأمراء الطبلخانات ، يقال له
مصرباي ، فساقوا في هذه السنة أحسن مما ساقوا
في العام الماضي ، وبات السلطان بالقصر وأحرقوا
قدامه احراقة فقط حافلة ، ودارت المسابقات في
القاهرة على العادة القديمة ، ثم ساقوا الرماحة
بالرملة مرتين على العادة ، ونزلوا عن خيولهم
وباسوا الأرض للسلطان في الرملة عند انتهاء
اللعب ، كما كان يفعل للملك الظاهر خشددم ،
فأول من أحدث ذلك السلطان قايتباي لما كان
يسوق في المحمل ، ثم دار المحمل وكسوة الكعبة
الشريفة ومقام ابراهيم عليه السلام ، فلما انقضى
أمر المحمل خلع السلطان على المعلم والأربعة
باشات ونزلوا الى دورهم .

وفي هذا الشهر خلع السلطان على شيخ

العرب بيرس بن بقر وقرره في شياخة العرب
على عادته ، وقرر أقبای في كشوفيه الشرقية على
عادته ، وكانت الشرقية يومئذ في غاية الاضطراب
بسبب فساد العربان .

ومن الحوادث أنه في يوم الاثنين سادس عشر
رجب ، قبض السلطان على الأتابكي قيت الرحبي ،
وهو واقف بالحوش بين الأمراء فأدخلوه قاعة
البحرة ، وقبضوا معه على الأمير أربك المحكل ،
فكثرت القيل والقال في ذلك اليوم ، ثم ان السلطان
نادى في القاهرة بالأمان والاطمان ، والبيع
والشراء ، فسكن ذلك الاضطراب قليلا . وكان
الأتابكي قيت ظالما غاشما عسيفا ، واسطة سوء
قليل الخير كثير الأذى ، وهو الذي كان سببا لأخذ
أجرة الأملاك سبعة أشهر ، وكذلك خراج الاقطاعات
والرزق عن سنة كاملة ، ثم تسبب في قطع جوامك
أولاد الناس والأيتام والنساء ، وحصل منه غاية
الضرر للناس قاطبة ، وكان اذا استعمل صانعا
يقطع أجرته ، وقد اجتمع فيه أشياء كثيرة من
المساوىء . وقد اسود وجهه من كثرة المظالم ،
فكان كما يقال في المعنى :

يا مشبها في فعله لونه

لم تخط ما أوجبت القسمه

فعلك من لونك مستخرج

والظلم مشتق من الظلمه

ولما قبض السلطان على قيت ووبحه بالكلام
أنكر ما قتل عنه ، فأحضر له السلطان عدة مراسيم
بما كان يكتب بها النواب مما قتل عنه ، فعند ذلك
تبين صحة ما قتل عنه ، واقتضح بين الأمراء . وكان
سبب تغير خاطر السلطان على الأتابكي قيت
الرحبي ، أنه كان له الغرض التمام بأن يتسلطن ،
فكاتب سيباي نائب حلب بأن يظهر العصيان ، حتى

يخرج اليه قيت في التجريدة ، فاذا توجه الى البلاد الشامية ، التف عليه دولات باى الذى كان نائب طرابلس ، وسيباى نائب حلب ، وغير ذلك من النواب ، ويتسلطن هناك كما فعل العادل طومان باى . فلما تحقق السلطان ذلك ، أبطله من باشية العسكر ، بعد أن عينه صحبة التجريدة التى تعينت الى سيباى نائب حلب . ثم لما اقضى أمر المحمل ، قبض عليه عقيب ذلك ، وأدخله الى قاعة البحرة ثم قيده وزنجره ، وقبض معه على الأمير أزيك المكحل . ثم ان السلطان احتاط على موجود الأتابكى قيت من صامت وناطق ولم يترك له شيئا ، فوجد عنده أشياء كثيرة من آلة السلاح ، ووجد له من الذهب العين ستين ألف دينار ، ومن البرك والخيول والقماش أشياء كثيرة ، فاحتاط السلطان على ذلك جميعه ، واستمر قيت في التوكيل به في قاعة البحرة .

وفي سلخ هذا الشهر ، بات السلطان بالقصر ، وعمل الموكب بالشاش والقماش ، فلما أصبح يوم الاثنين ، خلع على المقر السيفى قرقماش بن ولى الدين أمير سلاح ، وقرره أتابك العساكر بمصر — عوضا عن قيت الرحبى — بحكم القبض عليه ، فنزل من القلعة في موكب حافل ، وقدامه سائر الأمراء وغالب العسكر .

وفي شعبان — في يوم السبت حادى عشره — رسم السلطان باخراج قيت الرحبى الى ثغر الاسكندرية ، فنزلوا به من القلعة وهو مقيد مزنجر وخلفه أوجاقى بخنجر ، وقدامه أزيك المكحل أحد الأمراء المقدمين .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان بنفى شخص من الأمراء الطبلخانات ، يقال له يلباى ، قيل انه قرابة سيباى نائب حلب .

فنزلوا بالأتابكى قيت ومن معه من الأمراء بعد العصر من باب الدرفيل وتوجهوا به من خلف القلعة الى البحر فأنزلوه في مركب وأقلعوا به في يوم هوا مرسى ، وكان المتسفر عليه الأمير جانم الدوادر الثانى ، وعلان والى القاهرة ، ونحو من خمسين مملوكا من المماليك السلطانية ، فسجنوا قيت بثغر الاسكندرية . وكان يومئذ خدابردى مملوك السلطان متوليا نيابة الاسكندرية ، فسب قيت الرحبى عند ما سجن بالبرج ، وما قاسى منه خيرا ، وكان خدابردى تقرر في نيابتها — عوضا عن تانى بك النجمى — بحكم انتقاله الى التقدمة من نيابة الاسكندرية . وتوجهوا بأزيك المكحل الى نحو دمياط فسجن بها ، فعد نفى الأتابكى قيت من جملة سعد السلطان ولم تنتطح في ذاك شاتان ، وقد قلت في ذلك :

قد كان قيت باغيا ولكل شر يسرع
فجنى عليه بغيه ولكل باغ مصرع

وفيه خلع على الأتابكى قرقماش بن ولى الدين خلعة الأنظار ، فنزل من القلعة ، وتوجه الى البيمارستان المنصورى ، وكان يوما مشهودا .

وفيه خلع على الزنى بركات بن موسى وقرر في حسبة القاهرة ، وقد عد من جملة أعيان الرؤساء بمصر ، وقد عظم أمره جدا ، وقد قيل في المعنى :

من ولى الحسبة يصبر على
تمرض الواقع والمأين
فليس يحظى بالمنى والغنى
فيهم سوى المحتسب الصاب

وفيه رجع الأمراء الذين توجهوا صحبة الأتابكى قيت فسجنوه بالاسكندرية ورجعوا .
وفيه عرض السلطان المحاييس من الرجال

كمال الدين مات مطعوناً ، فكانت آجالهم متقاربة
من بعضهم ، وكانوا أشكالا حسنة ولا بأس بهم .

وفي شوال كان العيد بالجمعة ، وخطب في ذلك
اليوم خطبتان ولهج الناس بزوال السلطان عن
قريب ولم يكن ذلك .

وفيه حضر قاصد على دولات وقد أرسل يشفع
عند السلطان في سييأى نائب حلب ، ودولات باى
نائب طرابلس ، وكان قد أشيع عنهما العصيان ،
وأنها من عصبة قيت الرحبى ، وقد تقدم القول
على ذلك .

وفيه تزايد أمر الطاعون ، وقتك في الأطفال
والماليك والعبيد والجوار والغرباء ووصل الى
أربعة آلاف جنازة كل يوم ، وعز وجود السكر
النبات حتى بيع كل رطل بثمانية أنصاف ، وعز
وجود البطيخ الصيفى والرمان .

وفيه توفى القاضى ابراهيم اللادنى مستوفى
الزردخاناه ، ومات ابنه محمد عقيب موته
رحمهما الله تعالى ، وكان رئيسا حشما من أعيان
المباشرين .

وفيه نودى في القاهرة من قبل السلطان بأن
لا يعمل عزاء بطارات ولا فائحة تنوح على ميت ،
ثم غمز على نائحة عملت عزاء بطارات ، فجرسها
بركات بن موسى على حمار ، والطارات معلقة في
عنقها ، ووجهها ملطخ بالسواد ، فلما جرى ذلك
رجع النساء عن تلك الأفعال الشنيعة . ثم نادى
الوالى أن النساء لا يخرجن في نعى بالليل .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب
المحمل ، قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وبالركب
الأول جان بردى تاجر الماليك ، فلما تزايد أمر
الطاعون نادى السلطان بأن أرباب الوظائف من

والنساء ، فأفرج عن جماعة منهم ، وصالح عنهم
أرباب الديون وأبقى أصحاب الجرائم والفلاحين .

وفي رمضان خلع السلطان على الناصرى محمد
ابن القمارى ، وقرره أمير شكار ، عوضا عن محمد
ابن أحمد بن أسنبغا الطيارى بحكم صرفه عنها .

وفيه تسحب من سجن العرقانة التى بالحوش
السلطانى ، شخص من الأتراك يقال له أرزمك ،
وكان له مدة طويلة وهو فى السجن ، وقيل انه هو
الذى قتل العادل طومان باى فلما تسحب خنق
السجان حتى مات ، وأخذ ثيابه ولبسها ونزل من
باب السبع حدرات ، فاضطربت القلعة في تلك
الليلة ، وهرب بعض الطواشية ، ثم بعد ثلاثة أيام
أرسل يطلب من السلطان الأمان وقد شفع فيه
الأتابكى قرقماس ، فعفا عنه السلطان من القتل
ورسم بنفيه .

وفي أثناء هذا الشهر افشا الطاعون بالديار
المصرية ، وقد وقع في أواخر السنة التى قبلها ،
وكان تارة يقوى ، وتارة يخف ، ثم قوى أمره في
هذه السنة ، وهجم في هذا الشهر جملة واحدة ،
فلما تزايد الأمر فتح السلطان مغسلا للأموات
بجوار سبيل المؤمنين فحصل به للناس غاية
النفع .

وفي يوم السبت تاسع عشره توفى القاضى كمال
الدين بن مزهر أخو القاضى بدر الدين كاتب السر
كان ، وكان شابا رئيسا حشما وولى كتابة السر
بعد أخيه بدر الدين في دولة الظاهر قانصوه .

ومن العجائب أن أولاد القاضى أبو بكر بن
مزهر كاتب السر ماتوا الثلاثة في سنة واحدة ،
فبدر الدين مات تحت العقوبة كما تقدم ، وأخوه
يوسف شقيق نفسه من خوفه من السلطان ، وأخوه

وفيه توفى للأمير طراباي ابن صغير عمره دون
العشر سنين ، وتوفى له عبد حبشى كان جمقدارا
له ، فوجد عنده من الذهب العين ثمانية آلاف
دينار غير القماش ، وتوفى له بواب الواحى فوجد
له من الذهب العين ألف دينار خارجا عن مساطير
على الناس .

وفى هذا الشهر أظهر السلطان العدل فى الرعية
ونادى فى القاهرة بأن المشاهدة التى كانت مقرر
على الحسبة قد أبطلها السلطان ، فارتفعت له
الأصوات بالدعاء ، وفرح الناس بذلك ، فلما مضى
أمر الطاعون أعيدت كما كانت وزيادة .

وفى يوم الجمعة سادسه كانت وفاة المقر الناصرى
محمد ولد السلطان ، وكان متولى شادية الشراب
خاناه ، وكان شابا جميل الصورة ، مليح الشكل ،
بهى المنظر ، توفى وله من العمر نحو من ثلاث
عشرة سنة ، وكان وافر العقل ، قليل الأذى ، فكثر
عليه الأسف والحزن من الناس ، وكانت وفاته بالقلعة
وصلى عليه بعد صلاة الجمعة عند باب الستارة ،
ونزلوا به من سلم المدرج ، ومشت قدماه الأمراء
فتوجهوا الى الدرب الأحمر وأدخلوه من خوخة
أيدغمش ، وكانت له جنازة مشهودة ، ونهب
العوام الكفارة من قدماه عند باب الوزير ،
واستمر الأمراء ماشين حتى أتوا به الى مدرسة
أبيه فدفن بها داخل القبة ، وقد رثيته بقولى :

لهفى على من كان ظنى أنتى
أفنى المدائح فى الثناء قوافيا
فمضى وأثكلنى فيها أنا ناظم
تلك المعانى الغر فيه مراثيا

ثم فى عقيب ذلك توفيت للسلطان سرية جركسية
وهى أم ولده الصغير فدفنت داخل القبة أيضا .
وفى يوم الثلاثاء عاشره توفى جان قلج الخازندار

الأمراء ، يمنعون النقباء من جلوسهم على أبوابهم
قاطبة ، وألا يشتكى أحد خصمه الا من الشرع
الشريف ، ثم رسم السلطان لحاجب الحجاب ،
ووالى القاهرة ، بأن يكبسوا بيوت النصارى
ويكسروا ما عندهم من جرار الخمر ، ويحرقوا
أماكن الحشيش والبوزة ، ولا يبقوا فى ذلك
مكانا ، وقد وقع فى دولة الأشرف شعبان
ابن حسين ما يقرب من هذه الواقعة حتى قال
فى ذلك الأديب ابراهيم المعمار مواليا فى المعنى :

يا من على الخمر أنكر غاية النكران
لا تمنع القس يملأ الدن والمطران

وأمر بيلع الحشيشة تكتسب أجران
وتغتتم دعوة المصطول والسكران

وكان ذلك فى سنة تسع وستين وسبعمائة .

وفى خامس عشرينه خلع السلطان على قاصد على
دولت ، وأذن له بالعود الى بلاده ، وكتب له
الجواب عن أمر سيباى نائب حلب ودولت باى
نائب طرابلس .

وفى ثامن عشرينه توفيت للسلطان ابنة وكانت
مستحقة للزواج ، فأخرجت فى بشخانة زركش
وقدامها كفارة ، وصلى عليها فى الجامع الأزهر ،
ودفنت فى مدرسة أبيها داخل القبة ، وكان لها
جنازة مشهودة .

وفى ذى القعدة — فى يوم مستهله — توفى
الأمير جانم الدوادار الثانى ، وكان يقرب الى
الأشرف قانصوه خمسمائة ، وكان شابا جميل
الهيئة ، شجاعا بطلا مشهورا بالفروسية ، وكان
لا بأس به .

وفيه توفى جماعة كثيرة من الأمراء العشراوات
ومن الخاصكية .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة القاضى بهاء الدين بن قدامة الحنبلى ، وكان تولى قضاء مصر ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ، ثم قرر فى قضاء الحنابلة بدمشق فخرج اليه ومات فى أثناء الطريق .
وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وذلك فى حادى عشرين بشنس القبطى ، ثم ابتدأ بضرب الكرة .

وفيه دخلت خماسين النصارى والطعن عمال ، وقد فتك فى الناس فتكا ذريعا وأفنى من الممالك والعبيد والجوار والأطفال والغرباء ما لا يحصى ، وفى هذه الواقعة يقول شيخنا جلال الدين الأسيوطى من أبيات :

يا رب بالهادى النبى المجتبى
أغمد عن الاسلام أسياف الوباء
يارب لا تشكو أليم عذابه
الا اليك فقد أخاف وأرعبا

كم حل فى دار فبدد شمل من
فيها فلا يجدون منه مهربا
يا رب لطفنا بالعباد، فما لهم

رب سواك يقيم المستصعبا
انا اعترفنا بالذنوب فكلنا
عاص مسىء للعذاب استوجبا
الكن اذا قرنت عظيم ذنوبنا
بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا

ان كان لا يرجوك الا محسن
فى العالمين فمن يجير المذنب
وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر
مريب بما وقع فيها من الفناء والغلاء وفساد العربان
بالشرقية والغربية حتى بأرض الحجاز ، والأمر الى
الله تعالى .

سنة احدى عشرة وتسعمائة (١٥٠٥ — ١٥٠٦) :
فيها ، فى المحرم ، اهتم السلطان باصلاح بناء

أحد الأمراء العشراوات ، وكان من خواص السلطان
وكان شابا جميل الهيئة مليح الصورة ، وقد أقيمت
له الدنيا ، وكان تعين للدوادارية الثانية قبل موته .
وفى يوم الاثنين سادس عشره خلع السلطان
على علان بن قراجا والى القاهرة ، وقرره فى
الدوادارية الثانية — عوضا عن جانم قريب قانصوه
خمسائة — بحكم وفاته . وخلع على قانصوه
المعروف بأبى سنة ، وقرره فى ولاية القاهرة عوضا
عن علان بحكم انتقاله الى الدوادارية الثانية ،
وخلع على الأمير طومان باى قريب السلطان وقرر
فى شادية الشراب خاناه عوضا عن ابن السلطان
بحكم وفاته .

وفى يوم الأربعاء خامس عشرينه ، توفى الناصرى
محمد بن الأمير تانى بك قرا أمير مجلس كان ،
وكان من أعيان أولاد الأمراء رئيسا حشما
لأبأس به .

وفى سادس عشرينه توفى أنليك النصرانى أحد
الأمراء العشراوات أمير شكار ، فكان غير مشكور
السيرة .

وفى يوم الجمعة سابع عشرينه توفى الشهابى
أحمد خليفة سيدى أحمد بن الرفاعى رضى الله عنه
وكان من أعيان مشايخ الصوفية ، وكان رئيسا
حشما لأبأس به .

وفى ذى الحجة خلع السلطان على القاضى محيى
الدين عبد القادر القصروى ، وقرر فى نظر الجيش
عوضا عن الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ناظر
الخاص .

وفيه رسم السلطان باحضار أربعة من الأمراء
العشراوات الذين كانوا نفوا الى ثغر دمياط ، فلما
حضرُوا ألبسهم سلاريات بسنجاى ونزلوا الى
دورهم .

الدهيشة ، وسد البحرة التي كانت بها ، وفرش أرضها بالرخام الملون ، وصارت مدهشه للناظرين ، ولكن حصل منه الضرر الشامل ، وذلك أنه رسم بفك رخام فاعات كاتف السر أبو بكر بن مزهر ونقله الى الدهيشة ، وجددها من سقوفها وأبوابها وما بها من المعالم قاطبة .

وفيه في ثامنه ، حضر هجان من الحجاز وأخبر أن المبشر معوق عند العرب ، وأخبر ب وفاة مختص الطواشي ، وكان من أعيان الحدام رئيسا حشما جميل الهيئة ، وهو الذي بنى أساس جامع السلطان الذي بالشرابشين ، وكان عمره أولا لنفسه ، ثم أخذه منه السلطان ، وزاد في اتساعه كما تقدم ذكر ذلك .

ومن الحوادث أنه في يوم عاشوراء سقط ربع من داخل المشهد الحسيني ، فمات في ذلك اليوم تحت الردم نحو من عشرين انسانا من رجال ونساء .

وفيه أنعم السلطان على تاني بك النجمي بتقدمة ألف وبقي من جملة الامراء المقدمين .

وفيه خلع السلطان على ترمباي خازن دار العادل طومان باي ، وقرر في الاستادارية الكبرى ، عوضا عن تغري بردى بن يلباي بحكم صرفه عنها

وفيه أخذ قاع النيل وجاءت القاعدة سبع أذرع ، وكانت الزيادة في أول يوم من المناداة خمس أصابع

وفي الرابع والعشرين منه دخل الحاج الى القاهرة وقد قاسى في هذه السنة مشقة زائدة من موت الجمال والعطش وفساد العربان .

وفي صفر تغير خاطر السلطان على الأمير محسن الخازن الطواشي الحبشي ، فرسم بنفيه الى

سواكن ، ورسم بنفى جوهر الشمسي شاد الحوش فنفاه الى مكة ، وكان سبب ذلك أنه غفل عن أرزمك الذي تسحب من العرفانة .

وفيه خلع السلطان على سرور الزينى ، وقرره في شادية الحوش — عوضا عن جوهر الشمسي بحكم نفيه الى مكة .

وفيه خلع السلطان على شحص من «الأمراء العشراوات يقال له أزبك الصوى ، وفرره في يابة القدس — عوضا عن ملاح — بحكم صرفه عنها . وفيه أذن السلطان لحريمه أن يصعدن الى القلعة ، وكان في هذه المدة لم تصعد خوند زوجة السلطان الى القلعة ، وكانت مقيمة بيت الأمير ماماي الذي بين القصرين . فكان يوم صعودها الى القلعة يوما مشهودا ، فصعدت الى القلعة في محفة زركش وكان لها موكب حافل . فلما صعدت الى القلعة حملت على رأسها القبة والطير ، وثرت عليها خفائف الذهب والفضة ، وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارة الى قاعة العواميد ، ومشت قدامها الخوندات حتى جلست على المرتبة ، وكان السلطان في هذه المدة جدد عمارة قاعة العواميد وزخرفها بخلاف ما كانت عليه أولا .

وفي ربيع الأول — في يوم السبت ثانيه — كان وفاء النيل المبارك ، وفد وافق ذلك تاسع مسرى ، فتوجه الأتابكي قرقماس ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، وقد أوفى وزاد عن الوفاء ثلاث أصابع ، وكان نيلا عظيما كما يقال :

ذا النيل ما يبرح في سعده

وحاله الماشي حالا

يجرى لنا ماض ومستقبلا

لا أوقف الله له حالا

وكان من مبتدأ زيادته الى هبوطه لم يتوقف يوما واحدا .

وفي يوم الاثنين رابعه حضر الى الأبواب الشريفة ، سييى نائب حلب ، الذى كان قد أظهر العصيان بسبب واقعة قيت الرحبى ، فلما جرى له ما جرى ونفى أرسل سييى يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل له منديل الأمان ، ورسم له بالحضور الى القاهرة ، فلما طلع بين يدى السلطان ، حمل تحت ابطه ثوبا بعلبكيا ، وفكك أزواره كما فعل قانصوه خمسمائة لما قابل الأشرف قايتباى ، فلما قابل السلطان ، خلع عليه كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا .

وفيه خسف جرم القمر خسوفا فاحشا واستمر فى الخسوف الى آخر الليل .

وفي حادى عشرينه عمل السلطان الموكب ، وخلع على سييى نائب حلب ، وقرره فى امرة السلاح ، عوضا عن قرقماس بن ولى الدين بحكم انتقاله الى الأتابكية .

وفيه خلع السلطان على أيديكى والى قطيا ، وقرره فى نيابة القدس عوضا عن أزيك الصوفى ، ونقل أزيك الصوفى الى نيابة غزة عوضا عن ملاج الذى كان نائب القدس ، وسجن ملاج .

وفي يوم الجمعة ثامن عشرينه توفى الأمير تغرى بردى بن يلباى المعروف بالقادري أمير أستادار العالية ، فلما مات دفن بجوار الامام الشافعى رضى الله عنه بترته التى أنشأها هناك ، وكان أميرا جليلا دينيا خيرا رئيسا حشما ، وكان من جملة الأمراء العشراوات ، وولى الأستادارية الكبرى غير ما مرة ، وأقام بها مدة طويلة ، وكان

ينتج بالسداد والناس عنه راضية ، وكان أقل ظلما من غيره من الأستادارية وكان لا بأس به .

وفي ربيع الآخر خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له قايتباى من طويزه ، وقرره فى نيابة الكرك فخرج اليها عن قريب .

وفيه عرض السلطان العسكر وعين ثلاث تجاريد ، واحدة الى مكة بسبب يحيى ابن سبع أمير الينبع ، وواحدة الى الكرك بسبب فساد عربان بنى لام ، وواحدة الى الهند بسبب تعبت الفرنج بسواحل الهند ، فعين فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من العسكر وأخذوا فى أسباب عمل اليرق .

وفيه خلع السلطان على القاضى ابراهيم الشرايشى ، المعروف بابن البابا ، مباشر الأتابكى قيت الرحبى ، وقرره متحدثا على أوقاف الزمامية وناظر النخيرة ، وغير ذلك من الجهات السلطانية ، عوضا عن شهاب الدين المرقبى بحكم صرفه عنها . وفيه استعفى الأمير تمر باى خازندار العادل من الأستادارية ، فأعفاه السلطان منها ولم ينتج بالسداد فيها .

وفي جمادى الأولى - فى يوم مستهله - خلع السلطان على القاضى شرف الدين يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد وقرره فى الأستادارية الكبرى عوضا عن الأمير تمر باى بحكم انفصاله عنها ، وهذه الوظيفة لم يلها متعمم من بعد القاضى تاج الدين بن المقسى ، لما جمع بين نظارة الخاص والأستادارية فى سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة فى دولة الأشرف قايتباى ، سوى شرف الدين يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد .

وفيه ثبت النيل المبارك على احدى عشرة أصبا

من عشرين ذراعا ، واستمر في تبات الى آخر بابه
وكان نيلا مباركا .

وفي يوم الخميس تاسع هذا الشهر كانت وفاة
شيخنا الحافظ العلامة جلال الدين الأسيوطي .
وهو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق
ابن أبي بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن
أيوب بن محمد بن الهمام الحيزري الأسيوطي
الشافعي . وكان عالما فاضلا ، بارعا في الحديث
الشريف ، وغير ذلك من العلوم . وكان كثير
الاطلاع ، نادرة في عصره ، بقية السلف ، وعمدة
الخلف ، وبلغت عدة مصنفاته نحو من ستمائة
تأليف ، وكان في درجة المجتهدين في العلم والعمل ،
وكانت مدة حياته نحو من ائتين وستين سنة
وأشهر ، وكان مولده في جمادى الآخرة سنة تسع
وأربعين وثمانمائة ، ولما مات دفن بجوار خانقة
قوصون ، التي هي خارج باب القرافة ، قيل لما
غسل أخذ الغاسل قميصه ، وقمعه ، فاشتري بعض
الناس قميصه من الغاسل بخمسة دنانير للتبرك به ،
وإبتاع قبعه الذي كان على رأسه بثلاثة دنانير
للتبرك به ، ولما مات رثاه شيخنا عبد الباسط بن
خليل الحنفى بهذه الأبيات وهو قوله :

مات جلال الدين غوث الورى

مجتهد العصر امام الوجود

وحافظ السنة مهدي الهدى

ومرشد الضال لنفع يعود

فيا عيون انهملى بعده

ويا قلوب انقطرى بالوفود

واظلمى دنيائى اذ حق ذا

بل حق أن ترعد فيك الرعود

وحق للضوء بأن ينطفى

وحق للقائم فيك القعود

وحق للنور بأن يحنفى
ولليالى البيض أن تبق سود

وحق للناس بأن يحزنوا

بل حق أن كلا بنفس يجود

وحق للأجبال خرا وأن

تطوى السماء طبا كيوم الوعود

وأن يفور الماء والأرض أن

تسيد اذ عم المصاب الوجود

مصيبة جلت فحلت بنا

وأورثت نار اشتعال الكبود

صيرنا الله عليها وأو

لاه نعيما حل دار الخلود

وعمه منه بوبل الرضا

والغيث بالرحمة بين اللحود

وفيه مالت مئذنة جامع السلطان الذى أنشأه
بالشرابيين . فلما تشققت وآلت الى السقوط
رسم بهدمها ، وقد ثقلت من علوها كون أنها
بأربعة رءوس ، فلما هدمت أعيدت على الصحة ،
وقد بنى علوها بالطوب وصنعوا عليه قاشانى
أزرق . وقد تقدم مثل هذه الواقعة للمؤيد شيخ ،
فلما بنى جامعته الذى هو داخل باب زويلة مالت
مئذنته الشرقية عند انتهاء العمل منها فأمر بهدمها ،
فهدمت وأعيدت على ما كانت عليه وذلك في سنة
احدى وعشرين وثمانمائة .

وفي جمادى الآخرة — في يوم مستهله — أنفق
السلطان على من تعين من العسكر صحبة التجريدة
المعينة الى بلاد الهند ، فأعطى لكل مملوك عشرين
دينارا وصرف لهم جامكية أربعة أشهر معجلا
وكذلك العليق ، فكان جملة ما صرف لهم نحو

من خمسين ديناراً لكل شخص ، وكان العسكر الذى خرج فى هذه التجريدة ملففاً ما بين أولاد ناس ، وبعض ممالك سلطانية ، والغالب فيهم مغاربة وعبيد سود رماة وتراكمة وغير ذلك ، وأرسل السلطان صحبتهم جماعة كثيرة من البنائين والنجارين والفعلاء ، بسبب تلك الأبراج التى أنشأها السلطان فى جدة وأنشاء السور .

وفى يوم الخميس ثانيه ، كانت وفاة قاضى القضاة الشافعى شهاب الدين أحمد المعروف بابن فرفور الدمشقى ، وكان عالماً فاضلاً ، رئيساً حشماً ، فى سعة من المال ، ذا شهامة وعظمة ، وقد جمع بين قضاء الشافعية بمصر والشام وهذا لم يتفق لأحد قبله من القضاة ، ولما توفى الشهاب بن فرفور رسم السلطان لقاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد البر بن الشحنة ، بأن يخطب به ويصلى صلاة الجمعة بالقلعة الى أن يلى قاض شافعى .

فلما كان يوم الجمعة خرج عبد البر وخطب بالسلطان وهو لابس السواد ، فصعد المنبر وخطب خطبة مختصرة .

وفى يوم الاثنين سادسه ، خرجت تلك التجريدة المعينة الى بلاد الهند ، وكان لها يوم مشهود ، فكان باش الممالك الذين توجهوا فى المراكب الى جدة ، والتركان والعبيد الذين بها ، حسين المشرف ، وباش المغاربة الذين بها ، الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى ، فلما خرجوا توجهوا الى نحو السويس ونزلوا من هناك فى مراكب الى جدة ، وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح وغير ذلك .

وفيه كانت وفاة الشيخ الصالح سيدى محمد المغربى الشاذلى رحمة الله عليه ، وكان من مشاهير الأولياء .

وفى يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على الشيخ ولى الدين محمد ولد قاضى القضاة شهاب الدين بن فرفور وقرره فى قضاء الشافعية بدمشق عوضاً عن أبيه بحكم وفاته ، وكان شاباً لم يلتج بعد .

وفى يوم الجمعة رسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر بن الشحنة بأن يخطب به ويصلى الجمعة كما فعل فى الجمعة الماضية .

وفيه قلع السلطان البياض ، ولبس الصوف ، ووافق ذلك حادى عشر هاتور القبطى .

وفى يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان على الشيخ جمال الدين القلقتندى وقرره فى قضاء الشافعية بمصر عوضاً عن شهاب الدين بن فرفور بحكم وفاته .

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن شخصاً من الأمراء العشراوات ، يقال له مغلباى المقترع ، قتله عبده تحت الليل ، فلما بلغ السلطان ذلك ، شتق العبد على باب سيده فى مكان قتله به .

وفى سلخ هذا الشهر خلع السلطان على أقبای كاشف الشرقية ، وقرره فى نيابة غزة ، عوضاً عن أزبك الصوفى الذى كان بها وصرف عنها .

وفى رجب — فى يوم مستهله — كانت وفاة الناصرى محمد بن الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان شاباً رئيساً حشماً ، أصيلاً عريقاً ، سبط الملك الظاهر جقمق ، وأمه خوند بنت البارزى ، ابنة الظاهر جقمق ، وكان من جملة الأمراء العشراوات . وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس رابعه خلع السلطان على شخص يقال له أقطوه ، وقرره فى كشف الشرقية ، عوضاً عن أقبای بحكم انتقاله الى نيابة غزة .

وفي يوم الأحد سابعه جلس السلطان بالميدان عرضوا عليه أبقار الجراريف وأبقار الدواليب ، ما عرضوا على السلطان ، ورجعوا ، نهب صبيان بخولة عدد دكاكين من باب النصر الى باب زويلة . كادت القاهرة أن تخرب في ذلك اليوم عن آخرها سح أصحاب البضائع واستغاثوا وطلعوا الى سلطان وقد نهب لهم بضائع وقماش ، نحو من خمسمائة دينار ، فلما بلغ السلطان ذلك تشوش في الغاية ، ووبخ الجمالي يوسف بن أبي أصبح — وكان هو المتحدث على تلك الجهات — وألزمه حضار من فعل ذلك من صبيان المربعين ، فنزل تربي بركات بن موسى ويوسف بن أبي أصبح يحررا ما نهب للناس ، ويرضاهم في بضائعهم حسبما رسم السلطان بذلك ، فلما نزل ابن موسى يوسف بن أبي أصبح قبضا على جماعة ممن حمل ذلك ، فرسم السلطان بشنق أربعة أنفس منهم ضرب جماعة منهم بالمقارع ، وكانت هذه الواقعة من أشنع الوقائع .

وفيه خرج الأمير قايتباي الرمضاني ، الذي رلى بيابة الكرك ، الى محل ولايته وخرج صحبته العسكر المعين الى الكرك بسبب فساد عربان بنى لام .

وفي شعبان جاءت الأخبار بوفاة نائب صفد للأمير قانصوه قرا ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي ، وكان لا بأس به .

وفيه عرض السلطان المحاييس فأطلق منهم جماعة ، وأبقى أصحاب الجرائم والفلاحين .

وفيه خرج الأمير آقباي كاشف الشرقية الذي قرر في نيابة غزة الى محل ولايته بها .

وفيه خلع السلطان على الأمير خاير بك كاشف

الغربية أحد الأمراء المتقدمين وقرره أمير حاج يركب المحمل ، وقرر قنبيك رأس نوبة ثاني بالركب الأول ، ولم يتم ذلك وبطل .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأمراء الطليخانات يقال له قاني باي العثماني ، وقرره في نيابة صفد — عوضا عن قانصوه قرا — بحكم وفاته .

وفيه حضر شخص من فقراء الصعيد يقال له مهدي ، فلما مثل بين يدي السلطان قامت عليه البيعة بأنه زنديق ساحر يتوضأ بالبن ويستنجي به ، وذكروا عنه أشياء كثيرة من هذا النمط تخالف الشريعة ، فأرسله السلطان الى قاضي القضاة المالكي ، فحكم بكفره ، بموجب ما قامت به عليه البيعة ، وضرب عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية ، بعد أن أشهروه على جبل وهو عريان . وفيه كان دخول الأمير طراباي رأس نوبة النوب ، على أخت خوند الخاصبكية وهي زوجة الأمير أقبردي الدوادار ، فكان لهما مهم حافل . وفيه خرج قاني باي العثماني الذي قرر في نيابة صفد الى محل ولايته بها .

وفيه وقعت نادرة لطيفة وهي أن الشيخ جمال الدين السلموني الشاعر ، هجا القاضي معين الدين ابن شمس ، وكيل بيت المال هجوا فاحشا ، فمن جملة ذلك هذا البيت :

وحرفته فاقت على كل حرفه

يركب ياقوتا على فص خاتمه

فلما بلغ معين الدين ذلك ، شكوا السلموني الى السلطان ، فقال له ان وجب عليه شيء بالشرع أدبه ، فنزل ووضع السلموني في الحديد ، وأتى به الى بيت قاضي القضاة الحنفي عبد البر بن الشحنة ، وأدعى عليه ، فضربه عبد البر وعززه وأشهره على حمار وهو مكشوف الرأس . وقد

ورد في بعض الأخبار أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من عاقب على الهجاء ، وقد قال بعض شعراء العصر في واقعة السلموني بيتين هما :

وشاعر قد هجا شخصاً فحل به
من حاكم الشرع توبيخ وتعزير

فأشهره وجازوه بفعلته

تبأله شاعر بالهجو مشهور

فلما بلغ السلطان ما فعله معين الدين بن شمس بالسلموني ، شق ذلك عليه ووكل به وأمر بقطع لسانه ، فانه قال السلطان رسم لى بأن أشهر السلموني ، ولم يكن السلطان رسم بشيء من ذلك ، واستمر ابن شمس في الترسيم مدة طويلة حتى تراضى السلطان بمال له صورة ، حتى رضى عليه وألبسه خلعة .

وفي رمضان تغير خاطر السلطان على شخص من الأتراك ، يقال له الشيخ سنطباى ، وكان يدعى التصوف ، وكان مقيماً بالمدرسة السنقرية التى تجاه خانقة سعيد السعداء ، فوشى به عند السلطان أنه يضرب الدراهم والدنانير الزغل ، فأرسل قبض عليه ، فوجد عنده عدة ضرب الزغل ، وكان عنده جماعة يفعلون ذلك ، فأمر السلطان بقطع أيديهم ، وأما الشيخ سنطباى فشنع فيه الاتابكى قرقماس من قطع اليد ، فرسم له السلطان بأن يتوجه الى القدس ويقيم به بطالا . وكان الشيخ سنطباى أصله من ممالك الأشرف قايتباى ، وكان يدعى صلاح فأنكشف ربه وظهر للناس أمره ، وقد قال فيه القائل :

يا من بضرب الفلوس صار مشتغل

وما رأيناه قط يضرب ذهب

الا بطول الدهر ضراب فلوس

ولحد ضرب الفلوس عقله ذهب

وفيه جاء شخص من بلاد جركس وهو صبي صغير زعموا أنه أخو السلطان ، وكذلك حضر آخر زعموا أنه أخو الأمير أزدمر الدوادار فأنزلوهما بالطبقة .

وفيه كان ختم قراءة صخيخ البخارى ، وكان الختم بالحوش السلطاني ، وقد نصبت هناك خيمة كبيرة ، وكانت العادة القديمة بأن البخارى يقرأ بالقصر ، ويختم بالقصر الكبير ، ويكون له يوم مشهود ، وتفرق هناك الخلع على القضاة ومشايخ العلم وكذلك الصرر ، فبطل ذلك وصار البخارى يقرأ بجامع القلعة ، ويختم بالحوش ، فتكون ساعة يسيرة ، ثم ينفض ذلك المجلس عن أمر هين .

وفي شوال كان موكب العيد حافلاً وفُرقت الخلع على الأمراء ونزلوا الى دورهم ، وكان يوما مشهودا .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق ، بأن أهل المدينة ثاروا على نائبها أركماس بن طراباى ، ورجموه وأخرجوه من المدينة ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل بالحضور الى أركماس نائب الشام ، وعين نيابة الشام الى سيباى أمير سلاح . ثم ان السلطان قبل أن يخلع عليه ، رسم له بأن يتوجه الى بيت الأمير أزدمر الدوادار ، وأن يحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ، ويحلفوه بحضرتهم . فلما تكامل المجلس أحضروا سيباى وحلفوه على مصحف شريف ، وكتبوا عليه صورة حلف بأنه لا يعصى على السلطان ، ولا يخامر ولا يخون الإيمان ، وشهد عليه الخليفة والقضاة الأربعة بذلك .

ثم في يوم الخميس سابع عشره خلع السلطان على سيباي وقرره في نيابة الشام عوضا عن أركماس الذي كان بها ، فنزل من القلعة في موكب حافل .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الأحوال فاسدة ، وأن عربان بنى ابراهيم قد التفوا على يحيى بن سبع أمير الينبع ، ومالك بن رومي أمير خليص ، وقد اشتد الأمر في ذلك جدا ، فلما تحقق السلطان ذلك أمر بإبطال التوجه الى الحجاز في هذه السنة من مصر والشام وسائر الأعمال قاطبة وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب والثلث في الدين . وقد حضر الركب التكروري والركب المغربي ولم يحج منهم أحد في تلك السنة . ثم ان السلطان أرسل كسوة الكعبة الشريفة ، وصرر الحرمين ، والزيت ، من البحر المالح في مراكب من الطور ، ويتوجهون من هناك الى جدة .

ثم ان السلطان عزل يحيى بن سبع عن أمرة الينبع وولى بها شخصا من أولاد دراج الذي كان أمير الينبع قبل ذلك ، ولم يسمع من مبتدأ دولة الأتراك والى الآن ، بأن الحجاج امتنع خروجهم الى مكة سوى هذه السنة ، وهي سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وقد تقدم ما وقع من الجازاني في حق الحجاج بالركب الشامي والعراقي والمصري ، وما صنع بالمجاورين بمكة في سنة ثمان وتسعمائة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وقد جرى على الناس من الحوادث القديمة ما هو أعظم من ذلك ، وهو أن في سنة ثمانى عشرة وثلثمائة ، في دولة الخليفة القاهر بالله أبى منصور محمد بن الخليفة المعتضد بالله العباسي ، خليفة بغداد ، لما تغلبت على الخلفاء طائفة من العربان يقال لهم القرامطة ، وكان أميرهم شخصا يسمى أبو ظاهر القرمطى ، وكان يدعى أنه علوى . من

أولاد الامام على رضى الله عنه ، وكان يقول نحن أفضل من بنى العباس ، وكانت هذه القبيلة دون الألف انسان ، وكان أبو ظاهر القرمطى خارجيا سفاكا للدماء جاهلا ، وكانت قبيلة هذه القرامطة يسكنون بهجر ، فلما خرج ركب الحاج من بغداد ، وكان أمير الركب يسمى منصور الديلمى ، فلما وصل بالحاج الى مكة ، وأقام بها الى يوم الصعود ، هجم عليهم أبو ظاهر القرمطى بمن معه من العربان ، فقتل محارب أمير مكة ، وقتل منصور الديلمى أمير الركب ، ونهب جميع الأموال التي بمكة ، وقتل الحجاج عن آخرهم ، وأسر النساء والصبيان الصغار ، فكان عدة من قتل في هذه الحركة نحو من خمسة وثلاثين ألف انسان ، وطرح غالب القتلاء ببئر زمزم حتى امتلأت بالقتلاء ثم دخل الى البيت الشريف وأخذ ما كان فيه من القناديل الذهب والفضة ، وقلع باب الكعبة الشريفة ، وقلع الحجر الأسود وعرى الكعبة ونزع الكسوة عنها ، وكانت هذه الحادثة من أجل المصائب وأعظمها .

ثم ان أبا ظاهر القرمطى نقل ما نهبه من الأموال وغيرها الى هجر ، واستمر الحج منقطعاً من بغداد وغيرها من البلاد نحو من عشرين سنة لم يحج فيها الى البيت أحد .

فلما كانت خلافة الراضى بالله أحمد بن المقتدر ، مشى أبو على بن يحيى العلوى بين طائفة هذه القرامطة وبين الخليفة بالصلح ، حتى أذنوا للناس بالحج ، وجعلوا على الحجاج في كل سنة نحو من خمسين ألف دينار تعطى حتى يمكنهم من الدخول الى مكة ، وهذا أول مكس أخذ على الحجاج من يومئذ ، وكان ذلك في سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة . وقيل ان أبا على بن يحيى العلوى تلىظف بالقرامطة حتى ردوا الحجر

الأسود وباب الكعبة الى مكانهما بعد جهد كبير .
أورد ذلك ابن الجوزى ، انتهى ما أوردناه من
هذه الواقعة ، ومن هنا نرجع الى أخبار دولة
الغورى .

وفى ذى القعدة ، ركب القاضى كاتب السر
محمود بن أجا ، وطلع الى القلعة ، وكان له مدة
طويلة وهو منقطع فى داره بسبب توعك جسده
حتى شفى ، فلما طلع الى القلعة ، خلع عليه
السلطان ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه
القضاة الأربعة وأعيان المباشرين قاطبة .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الأمير جانم
المصبغة ، الذى كان حاجب الحجاب بمصر ،
وخرج مع الأمير أقبردى الدوادار لما انكسر ، فلما
مات أقبردى أقام جانم هذا بدمشق ، وقد نسى
أمره مدة طويلة ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فرسم
السلطان بإحضاره الى القاهرة ، فلما وصل الى
غزة مرض واستمر عيلا حتى دخل خانقة
سرياقوس ، فمات بها ولم يدخل الى القاهرة ،
فلما مات هناك حملت جثته ودفن بالصحراء .
وكان أميراً جليلاً ، رئيساً حشماً ، وولى عدة
نيابات سنية ثم بقى حاجب الحجاب بمصر ، وكان
من حلف أقبردى الدوادار ، وجرى عليه شذائد
ومحن ، وفاته القتل مرارا عديدة ، وكان من خيار
ممالك الأشرف قايتباى .

وفيه سافر تغرى بردى الترجمان الى نحو بلاد
الفرنج ، وأخذ معه كتاب البترك ، وكان قد تزايد
تعبث الفرنج بالسواحل وأخذ أموال التجار .

وفى يوم الخميس ثانى عشر منه ، خلع السلطان
على قاضى القضاة الشافعى ، محبى الدين
عبد القادر بن النقيب ، وأعادته الى قضاء الشافعية
— عوضا عن جمال الدين القلقشندى — بحكم

صرفه عنها ، فكانت مدة جمال الدين القلقشندى
فى القضاء نحو من ستة أشهر ، وقد سعى فيها
بثلاثة آلاف دينار ، ثم سعى عليه ابن النقيب
بخمسة آلاف دينار ، وغرم نحو من ألفى دينار
للذى سعى له من الأمراء وغيرهم ، وكان الساعى
له الأمير أزدمر الدوادار وغيره من خواص
السلطان ، وهذه ثالث ولاية وقعت لابن النقيب
بمصر ، وقد نفذ منه مال له صورة على ولاية
القضاء ، ولم يقيم بها فى الثلاث مرات الا مددا
يسيرة ويعزل عنها ، فكان كما يقال فى المعنى :

يفنى البخیل بجمع المال مدته
وللحوادث والأیام ما يدع
كدودة القز ما تبنيه تهدمه
وغيرها بالذى تبنيه ينتفع
وكان غير مشكور السيرة ، رث الهيئة ، يجافى
النفس ، يزدريه كل من يراه ، وقد قال فيه بعض
شعراء العصر مداعبة لطيفة ، وهو قوله :

قاض اذا انفصل الخصمان ردهما
الى جدال بحكم غير منفصل
يبدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها
جهرًا ويقبل سرا بكرة الجمل
وقال آخر وقد أفحش فى حقّه جدا ، فلا حول
ولا قوة الا بالله وأنا استغفر الله تعالى من ذلك :

ياأيها الناس قفوا واسمعوا
صفات قاضينا التى تطرب

يلوط . يزنى . ينتشى . يرتشى
ينم . يقضى بالهوى . يكذب

وفى هذا الشهر كثر الحريق بالقاهرة ، وصار
فى كل ليلة يحترق عدة أماكن ، بسبب الدريس ،
الذى يكون بيوت الأتراك ، وكانت الممالك

لجبرهم لقلوب الجند اذ لعبوا

مع الملوك وهم بعض المساكين

وفيهما أنعم السلطان على قرابته الأمير طومان
باى ابن أخيه بتقدمة ألف ، مضافا لما بيده من
شادية الشراب خاناه .

وفيه جاءت الأخبار من الشرقية بأنه وقعت هناك
معركة مهولة بين شيخ العرب بيبرس بن بقر ،
وبين نجم شيخ العايد ، فقتل في هذه المعركة
جماعة كثيرة من العربان ، واستمر الحرب ثائرا
بين الفريقين ، ودخل أقطوه الكاشف الى القاهرة
وهو مشحوت من العرب .

وفيه حضر شخص من أولاد على دولات ،
أخى سوار ، أمير التركمان وصحبته تقدمه حافلة
للسلطان ، فأكرمه وخلع عليه ، ثم قرره في تقدمه
ألف بحلب فيما بعد .

وقد وقع في هذه السنة الخصب والرخاء في
سائر الغلال والبضائع ... وكانت سنة هادئة من
الفتن بين الأتراك ، ولكن كان معظم الأمر فيها
بطلان الحاج بسبب عصيان يحيى بن سبع أمير
الينبع ، ومالك بن رومى أمير خليص ، ولم يبطل
الحاج في هذه السنة كبير أمر أوجب ذلك ، وانما
السلطان أهمل الأمور في أول الأمر حتى تزايدت
الفتن بين قبيلة بنى ابراهيم والتفوا على الجازائى ،
وجرى منهم ما تقدم ذكره ، وغلب القضاء والقدر
في هذا الأمر . والحكم لله فيما يريد .

سنة اثنتى عشرة وتسعمائة (١٥٠٦ - ١٥٠٧) م

فيها — في المحرم — جاءت الأخبار من الكرك
بأن أهل الكرك قد وثبوا على النائب الذى توجه
اليها ، فخرج منها هاربا وأتى الى غزة ، وسبب
ذلك أن نائب الكرك لما تولى عليها أراد أن يظهر

أكثر من خزن الدريس في هذه السنة ، وصارت
الممالك يسكون الناس من الطرقات غصبا ،
ويحبسونهم عندهم أيا ما بسبب ثقل الدريس ،
وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك ، حتى صنف
العوام رقصة وهم يقولون :

اهرب يا تعيس ... والا يحملوك الدريس

وفي ذى الحجة — في يوم الخميس سابعه —
خرج سيباى الذى قرر في نيابة الشام ، فكان له
يوم مشهود .

وفيه ، في ثامنه ، حضر المقر السيفى أركماس
الذى كان نائب الشام وانفصل عنها ، فلما حضر
وقابل السلطان أكرمه ، وخلع عليه ورسم له بأن
ينزل في الأزبكية ، ويسكن في بيت الأتابكى أزبك .
وفيه بلغ السلطان أن طائفة من الممالك الذين
توجهوا الى الكرك ، صعبة التجريدة ، قد دخل
منهم جماعة في الخفية الى القاهرة من غير اذن
السلطان ، فصار يكبس عليهم ، وحصل لهم
الضرر الشامل من السلطان ، ونادى لهم بأن
يعودوا الى الكرك ، والا تقطع جوامكهم ويحصل
عليهم ما لا خير فيه ، فخرجوا من يومهم على
وجوههم .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ،
وذلك في ثالث عشر بشنس القبطى ، ثم ابتدأ
بضرب الكرة ، وكانت الأمراء المقدمون جميعهم ،
حاضرة بمصر لم يكن منهم أحد غائبا في السفر ،
فكانت للسلطان في هذه السنة مواكب مشهودة
حافلة ، كما يقال في المعنى في ضرب الكرة :

يا حسنها كرة كالنجم سائرة

قد طال تردادها بين الجواكين

تسرق الهمة اذ كانت مؤلفة

بين القلوب بأراء السلاطين

له حرمة ، فشئق حاجب المدينة وأخاه وأولاده ، فما طاق ذلك أهل الكرك ووثبوا عليه ، فلما بلغ السلطان ذلك تغير خاطره على نائب الكرك ، ورسم بنفيه الى القدس بطالا .

وفيه كبا الفرس بالأمير طراباي رأس نوبة النوب وهو يضرب الكرة مع السلطان فانزعجت يده ، ومات الفرس الذي كان تحته ، فأنعى السلطان عليه بفرس غيرها .

وفيه ، في يوم عاشوراء ، أمر السلطان بأن تجتمع الفقراء والحرافيش عند سلم المدرج ، فاجتمع هناك الجهم الغفير من الفقراء والحرافيش ، ونزل السلطان بنفسه ، ووقف وهو راكب على فرسه تحت سلم المدرج ، وصار يعطى لكل انسان من الفقراء من رجل وامرأة ، وكبير وصغير ، أشرفيا ذهابا ، فوقع الازدحام بين الفقراء ، حتى قتل منهم في ذلك اليوم ثلاثة أنفار ، من شدة ازدحامهم ، فكان كما يقال في المعنى :

افيا له من عمل صالح

يرفعه الله الى أسفل

وقيل انه فرق في ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف دينار ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فلما رأى ازدحام الفقراء ، لم ينزل مرة أخرى ، ولم يفرق شيئا ، وكان قصده يفرق على الفقراء مرة أخرى .

وفيه خلع السلطان على ملاج وأعاده الى نيابة القدس ، كما كان أولا ، وأضاف اليه نيابة الكرك والتحدث على مدينة لد والرملة ، وكان ملاج غير مشكور السيرة سيء التدبير في أفعاله .

وفيه حضر نجاب من مكة ، وأخبر أن طائفة بنى ابراهيم قد دخلوا تحت طاعة أمير مكة ، وتلاشى أمر يحيى بن سبع ، فلم يثق السلطان بذلك .

وفي ثامن عشره طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع وعشر أصابع أرجح من النيل الماضى بعشر أصابع .

وفي يوم سلخه خرج ملاج الى محل نيابته بالقدس ، وخرج صحبته المماليك الذين كانوا حضروا من الكرك بغير اذن كما تقدم .

وفي صفر كان ختام صرب الكرة ، فجمع السلطان الأمراء ، ومد لهم مدة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفيه أخرج السلطان له خرجا من المماليك ، نحو من أربعمئة مملوك ، وأخرج لهم خيلا وقماشاً ، ولم يخرج من بعد انفصل خرجا سوى هذا ، وصاروا يسمون الأشرقية الغورية .

وفيه حضر القضاة الأربعة ببيت الأمير أزدمر الدوادار بسبب عقد مجلس ، فوقع في ذلك المجلس بعض تشاجر بين قاضى القضاة الشافعى محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، وبين قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، فتفاوضا في الكلام حتى خرجا في ذلك عن الحد ، فدخل بينهما الأمير أزدمر الدوادار حتى سكن الأمر بينهما قليلا ، وسبب ذلك لأجل خزانة الكتب التى بالمدرسة المحمودية ، وأمر هذه الواقعة قد اشتهر بين الناس .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن حضر الى مكة بسبب الحج جماعة كثيرة من اليمن والعراق ، وغير ذلك من البلاد ووقفوا بالجبل ، ففتكد السلطان بسبب ذلك لعدم خروج المحمل من القاهرة ، ورأى ذلك فى حقه نقصا بين ملوك اليمن وغيرها .

وفيه جاءت الأخبار من اليمن بأن التجريدة

اضطربت أحوال الجهات الشرقية الى الغاية فخرج قانصوه المذكور ، وصحبته جماعة كثيرة من العسكر ، وكان السلطان قرر قانصوه هذا من جملة الأمراء المقدمين فعظم أمره جدا .

وفي ربيع الأول طلع القضاة الأربعة الى القلعة لأجل التهنئة بالشهر ، فلما تكامل المجلس أصلح السلطان بين القاضي الشافعي عبد القادر بن النقيب ، وبين القاضي الحنفي عبد البر بن الشحنة ، وكان بينهما وحشة كما تقدم ، فلما اصطلحا خلع السلطان عليهما ونزلا الى دورهما .

وفيه جاءت الأخبار من الشرفية بأن العرب العصاة قطعوا جسر سنيت والحفاية على الجرون حتى غرقت ، وكان النيل قد أشرف على الوفاء ، وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل ، وتوقف النيل عن الزيادة لأجل المقاطع التي قطعت عليه . وفيه عمل السلطان المولد النبوي وكان حافلا .

وفي العشرين منه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى في العشرين من مسرى وكبر في الحادى والعشرين منها ، فلما أوفى توجه الأتابكي قرقماس ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

ومن الحوادث في ذلك اليوم أن الأتابكي قرقماس ، لما أراد أن يطلع من الحراقة ، عند المقياس نثر خازن داره على رأسه خفاف الذهب والفضة ، فتكاثر عليه الناس ، فجفل الفرس به فقلبه في البحر ، فلاقته النواتية وطلعوا به في المركب ، وقد انبل شاشه وقماشه حتى غيرهما ، وتوجه الى نحو المقياس وهو ماش ، وقيل ان الفرس غرق ، وطلعوا به وهو يعرج . وحصل للأتابكي قرقماس في ذلك اليوم مشقة زائدة بسبب ذلك .

التي خرجت الى الهند ، بسبب تعبث الفرنج ، لما وصلوا الى الينبع اتفقوا مع يحيى بن سبع أمير الينبع فهرب من وجههم ، وكانت الكسرة عليه وقتل من عربائه لجماعة كثيرة ، وأحرقوا الدور التي على ساحل البحر الملح التي بيندر الينبع ، وخربوا غالب دكاكينه ، وشتتوا العربان التي به . ثم جاءت الأخبار بأن العسكر لما وصل الى جدة ، شرع حسين باش العسكر وسنقر أحد الزردكاشية ، وعلى المسلاتى المغربى ، فى بناء أبراج على ساحل بندر جدة ، وكان هذا عين الصواب ، ومن أحسن المباني .

ثم جاءت الأخبار بأن العسكر لما وصل الى سواكن ملكوها بالأمان واحتاطوا على ما فيها من بهار وغيره وشتتوا أهلها عنها ، فانشرح السلطان لهذه الأخبار .

وفيه خلع السلطان على ابن على دولات وأذن له بالسفر الى أبيه ، وعين معه شاد بك نائب المهندار ، وأرسل صحبته مقدمة حافلة الى على دولات .

وفيه وقعت فتنة كبيرة بين الزعر فى الرملة تحت القلعة ، فلما بلغ الوالى ذلك ركب ومعه جماعة من المماليك وهم لابسون آلة السلاح ، فاتفقوا معهم فى وسط الرملة فقتل من الزعر فى ذلك اليوم سبعة أنفار وانهزم الباقون .

ومن الحوادث أن جارية سوداء قتلت سبتها وابن سبتها وأخا سبتها ، فلما عرضت على السلطان رسم بقطع يدها وشهت فى القاهرة ، ثم كلبت وعلقت عند خوخة المغازلين فى مكان قتلت فيه سبتها .

وفيه خلع السلطان على قانصوه روح لو ، وأعيد الى كشوفية الشرقية كما كان أولا ، وقد

ومن الحوادث في هذا الشهر كان انتهاء العمل من الجامع الذي أنشأه الشيخ عبد القادر الدشوطي ، بجوار بركة الرطلي ، على أرض الطبالة ، وبركة القرع ، فلما كمل خطب به الشيخ علاء الدين الاخميمي النقيب ، واجتمع به في ذلك اليوم قضاة القضاة وأعيان الناس ، وكان يوما مشهودا . ثم ان الشيخ عبد القادر أشار بفتح فم بركة القرع ، حتى تدخلها المراكب مثل بركة الرطلي ، ففتح لها مسرب من الخليج الحاكمي ، من عند ديل التمساح ، فلما كان يوم الجمعة دخل فيها المراكب وانطلقت لها ألسن النساء بالزغاريت ، وكان يوما مشهودا ، وعد ذلك من النواذر ، وصارت المراكب تدخلها في كل سنة من يومئذ .

وفي ربيع الآخر تغير خاطر السلطان على أربعة من الأمراء الطليخانات ، فقبض عليهم ، وهم جان بردي تاجر الماليك ، وقلج أمير آخوور ثاني ، ويبردي أخو جان بلاط الذي تسلطن ، وتتم المقرى . فلما قبض عليهم قيدهم . وسبب ذلك أنه بلغ السلطان أن هؤلاء الأمراء كانوا قد اتفقوا على قتله لما ينزل الى الميدان وقت الظهر ، وقد أقر بعضهم على نفسه بصحة ما نقل عنهم ، فلما تحقق السلطان ذلك قبض عليهم ورسم بنفيهم . وفيه توفي القاضي شمس الدين محمد بن مزاحم الطرابلسي ناظر الاسطبل ، وكان رئيسا حشما ، وولى عدة وظائف سنبة ، لكنه كان غير مشكور السيرة ، وعنده ظلم وعسف .

وفيه خلع السلطان على الأمير ماماي جوشن ، وقرره كاشف الغريبة ، عوضا عن الأمير خاير بك ابن اينال الذي كان بها ، وقد نعين باش التجريدة الى الحجاز .

وفيه وقع أن شخصا من الأتراك ، يسمى ماماي الداودي ، أبا الأمير أبي يزيد أحد المقدمين ، ضرب شخصا من تجار الأروام بسبب مشترى بغل ، فلما ضربه سال دمه ، فطلع التاجر شكاه الى السلطان ، فرسم لنقيب الجيش بالقبض عليه ، وأن ينفيه الى الواح . فلما قبض عليه نقيب الجيش هرب من عنده تلك الليلة ، فحصل على نقيب الجيش ما لا خير فيه بسببه ... فلما هرب ماماي المذكور ، اختفى الأمير أبو يزيد بسبب ذلك ، ثم ان ماماي توجه الى الأتابكي قرقماس ليشمع فيه عند السلطان ، فطلع به وقابل السلطان ، فحط عليه وقصد ضربه ثم رسم بنفيه الى الواح . وكان ماماي هذا من شرار المماليك ، وكان مشددا على جهات المكوس بقطبا

وفي هذا الشهر وقع الاضطراب بين الأمراء ، وأشيع أمر الوثوب على السلطان بسبب الأمراء الذين رسم بنفيهم كما تقدم ، وقد صمم على نفيهم لأمر أوجب ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على الزيني فرج الحاجب ، ورسم بتسليمه الى بركات بن موسى ، وقرر عليه عشرة آلاف دينار ، ثم آل أمره الى أن حط عنه خمسة آلاف دينار ، ويرد خمسة آلاف ، فباع جميع قماشة ورزقه وما بملكه ، وأقام مدة طويلة وهو في التشكيل به ، وقاسى شدائد ومحنا عظيمة . وسبب ذلك أن أنصبای حاجب الحجاب أمره أن يحرس بعض الجسور في أيام النيل ، فامتنع من ذلك ، فطلع أنصبای وشكاه الى السلطان ، فجري عليه ما جرى ، وموجب هذا كله خسة نفسه وشحه أوجب ذلك ، كما يقال : ورب جار لنا شحيح ليس له بالجميل عاده أعظم شيء تراه منه مساكم الله بالسعادة

وفيه كانت الأسعار مشتتة في سائر البضائع
والغلال .

وفي جمادى الأولى تغير خاطر السلطان على
القاضي فخر الدين بن العفيف كاتب الممالك ،
ورسم عليه أربعة من الخاصكية ، وأقام مدة وهو
في الترسيم ، وقرر عليه مالا حتى يردده لما تقتضيه
الآراء الشريفة في أمره .

وفي يوم الاثنين عاشره أنفق السلطان على
المسكر المعين الى تجريدة الحجاز ، فأنفق لكل
مملوك مائة دينار وسبعة أشربة ثمن جمل ، وقرر
معهم بأن يكون السفر أول رجب ، فشرعوا في عمل
البرق .

وفيه خلع السلطان على القاضي فخر الدين
كاتب الممالك ، وأعادته الى وظيفته ، بعد أن أورد
نحوها من ألفي دينار وكسور .

وفيه ثبت النيل المبارك على تسع عشرة ذراعا
وأصبعين من عشرين ذراعا ، وهبط قبل دخول بابه
وكان نيلا متوسطا .

وفيه عقد للأمير طومان باي قريب السلطان ،
على ابنة الأمير أقبردي الدوادار ، وكان العقد
بالقلعة وحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان
الناس ، وكان الأمير طومان باي يومئذ في غاية
العظمة ، وقد جمع بين شادية الشرايخانة وتقديم
ألف .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص يسمى عمر
— وكان مباشرا بالواح — فشنق على باب زويله ،
وشنق معه شخص آخر يسمى الشيخ حسن ، من
مباشري الواح أيضا .

وفي أواخر هذا الشهر رسم السلطان بعقد
مجلس في الميدان ، فاجتمع هناك القضاة الأربعة ،

وفيه جلس السلطان بالحوش ، وأحضر المصحف
العثماني ، وحلف عليه سائر الأمراء من الأكاير
والأصاغر ، وموجب ذلك كثرة الاشاعات بأمر
الوثوب على السلطان .

وفي ذلك اليوم خلع على الأمر نوروز أغات
أزدمر الدوادار وقرره تاجر الممالك عوضا عن
الأمير جان بردي المغضوب عليه .

وفيه خلع على بيبرس قريب السلطان ، وقرر
أمير آخور ثاني ، عوضا عن قلع المغضوب عليه .
وفيه خلع السلطان على شمس الدين محمد
ابن فخر الدين ، كاتب الممالك ، وقرره في نظر
الاسطبل عوضا عن ابن مزاحم بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان باخراج هؤلاء الأمراء الذين
قبض عليهم ، فنفي بيبردي أخا الأشرف جان بلاط
وتنم المقرى الى البلاد الشامية ، فتسلمها الوالى
وهما في قيود ، وتوجه بهما الى الخانكاه ، فرسم
لأحدهما بالتوجه الى طرابلس ، والآخر الى حلب .
وأما جان بردي وقلج فاستمرا في البرج ، وهما
في قيود وزناجير حتى يكون من أمرهما ما يكون .

وفيه جاءت الأخبار من الكرك بأن عربان بنى
لام كسروا ملاج نائب القدس ، وقتلوا من
الممالك السلطانية الذين خرجوا معه في التجريدة .
جانبيا كبيرا ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى
الغاية ، وكتب عدة مراسيم الى نائب الشام ، ونائب
طرابلس ، ونائب صنف ، بأن يجمعوا العساكر
ويزحفوا على العربان من بنى لام .

وفي هذا الشهر تزايد فساد العربان بالشرقية
والغربية ، حتى أعياء الكشف أمرهم ، واضطربت
الأحوال جدا .

وفيه توفي الصارمى ابراهيم بن جكم ، وكان
من أعيان أولاد الناس وكان لا بأس به .

وذلك بسبب شحص يسمى شمس الدين بن أبى عبيد ، وفصته مشهورة بين الناس ، فوقع فى ذلك المجلس بسببه بين القضاة ما لا حير فيه ، وآل أمره بأن السلطان رسم بعزله عزلا مؤبدا ، وانفصل المجلس على ذلك .

وفى جمادى الآخرة قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وقد خالف العادة فلبس الصوف فى سادس عشرين بابه قبل دخول هاتور بأربعة أيام ، ولم يكن الحال يقتضى ذلك ولا أفرط البرد فى تلك الأيام ، فعند ذلك من النوادر ، ولم يعلم ما سبب ذلك .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن شخصا من أبناء التجار ، يقال له عمر بن عبد اللطيف ، وكان والده من أعيان التجار ، فأشيع عنه أنه قد قتل زوجته ، بتيه خشب ، وأحرقها بالنار لأمر وقع منها ... وكانت هذه الواقعة برشيد . فلما بلغ السلطان ذلك ، أحضره فى الحديد ، فلما حضر عاقبه على ذلك أشد العقوبة فلم يقر بشيء ، فاحتاط على موجوده جميعا وسلب نعمته ، وكان فى سعة من المال ، ثم سجنه وأقام به مدة طويلة ، نحو من أربع سنين ، وقاسى شدائد ومجنا وأمره مشهور .

وفيه أنعم السلطان على أركماس بن طراباى الذى كان نائب الشام ، وحضر الى القاهرة بتقديم ألف ، وحمل له مرتبا على النخبة من غير اقطاع ، ورتب فى كل شهر له ألف دينار ، وفى كل سنة ألف أردب قمح ، ورسم له بأن يقف فى المواكب فوق الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وأحضر له تخفيفه من تخافيه التى بالقرون الطوال فألبسها له ، وقلع من عليه سلارى وشق وألبسه له ، فحصل له فى

ذلك اليوم غاية الجبر من السلطان ، واستمر ساكنا بالأزبكية .

وفيه توفى الركنى عمر بن تغرى بردى السيفى ، سودون بقجة ، الذى كان دوادار الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز ، وكان رئيسا حشما كبير العشرة للناس ، وكان لا بأس به فى أولاد الناس .

وفيه سافر ناظر الخاص علاء الدين بن الامام الى جهة الطور ، بسبب تجهيز العليق لأجل العسكر المعين الى مكة ، فخرج ومعه جماعة من المماليك السلطانية .

وفى رجب خلع السلطان على شرف الدين النابلسى الأستاذار ، باستمراره فى الأستاذارية ، وكان أشيع عزله .

وفى يوم الاثنين سابعه حضر دولات باى ، قرابة العادل طومان باى الذى كان نائب الشام ، وولى نيابة طرابلس أيضا ، وكان أظهر العصيان والتف على سييى نائب حلب . فلما حضر سييى وقابل السلطان ، فر دولات باى والتجأ الى على دولات وأقام عنده . فأرسل على دولات ولده الى السلطان ليشفع فى دولات باى ، فأجابه السلطان الى ذلك ، وأرسل له أمانا على يد شاد بك نائب المهندار . فلما وثق من ذلك حضر الى القاهرة ، وقد حدثت من دولات باى هذا أمور شتى ، وتوجه الى بلاد ابن عثمان ، على أن يثير فتنة كبيرة ، فما طلع من يده شيء ، وآل أمره الى أن حضر بالأمان ، فلما قابل السلطان حمل تحت ابطه ثوبا بعلبكيا أى كفته ، كما فعل قانصوه خمسمائة فعفا عنه السلطان ، وخلع عليه كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعة فى موكب حافل .

وزنبق ، وغير ذلك من الأزهار الشامية ، حتى أحضر اليه شجرة جوز هند بطينها ... فغرس ذلك جميعه بالميدان الذى تحت القلعة ، فكانوا نحوا من مائة وخمسين حملا ، فعد ذلك من النوادر اللطيفة .

وقد تقدم أنه أنشأ به مناظر ومقاعد وأماكن للمحاكمات ، ورمى بأرضه الأحمال الطين . وكان السلطان مولعا بغرس الأشجار ، وحب رؤية الأزهار ، والرياضات . وهذه الأخبار تقرب من أخبار خمارويه بن أحمد بن طولون ، حيث أنشأ بستانا بالقرب من جامع أبيه الذى أنشأه بأعلى الكبش ، وقد تقدم ذكر ذلك . ولما كملت عمارة هذا الميدان صار مكن جملة متزهات الديار المصرية ، وصار السلطان ينزل اليه فى كل يوم ، ويعمل به المواكب فى غالب الأيام ، وكان أكثر إقامته به لأجل التنزه . وقد صار هذا الميدان مثل غوطة دمشق ، ما بين أشجار ومياه جارئة حتى عد ذلك من النوادر ، وقد قلت فى المعنى :

عاينت بالميدان بستانا زها
أشجار أومت لنا بسلام
والزهر مختلف به ألوانه
ولقد يجل ثراه عن نمام

ولقد وقع للأشرف قانصوه الغورى أشياء كثيرة من الغرائب لم تقع لغيره من الملوك السالفة ، وربما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من الطور ، بأنه قد غرقت مراكب مسمارى كبار ، فيها قمح للدشيشة التى رتبها الأشرف قايتباى الى المدينة الشريفة ، وكان فى تلك المراكب أصناف بضائع بنحو عشرة آلاف دينار للأتابكى قرقماس ، فغرق جميعه ، وغرق فيها ما لا يحصى من رجال ونساء

وفى هذا الشهر خرج العسكر المعين الى مكة ، وكان باش العسكر خاير بك بن اينال كاشف الغربية ، أحد المقدمين ، وصحبته فنبك بن شاد بك رأس نوبة ثانى ، وخرج صحبتهم جماعة من الأمراء العتراوات ، ومن المماليك السلطانية نحو من خمسمائة مملوك ، وخرج صحبتهم هجار بن دراج الذى فرر فى امرة الينبع ، عوضا عن يحيى بن سبع ، وخرج صحبتهم المحمل الشريف ، فكان لهم يوم مشهود ... لكن رسم السلطان بأن امرأة لا تخرج صحبة العسكر ، ومنعوا من ذلك ، وخرج صحبة الأمير خاير بك نحو من مائة قواس ، فأقام المحمل لما خرج بالريدانية الى يوم الأربعاء تاسعه ، ثم رحل من هناك صحبة العسكر . ولما خرج الأمير خاير بك رسم السلطان لجان بردى ، تاجر المماليك الذى كان غضب عليه وسجنه بالبرج ، بأن يخرج صحبة العسكر منفيا الى مكة ويقيم بها .

وفى ذلك اليوم رسم باخراج قلج أمير آخور ثانى الى حلب منفيا ، وقد تقدم أنه غضب عليه . وفى يوم الجمعة حادى عشره صلى السلطان بالجامع ، وجلس على باب الستارة ، وخلع على الأمير دولات باى المقدم ذكره ، وقرره فى امرة السلاح عوضا عن سيباى بحكم انتقاله الى بيابة الشام .

وفى شعبان عرض السلطان المحاييس والنساء التى بالحجرة ، وأطلق منهم جماعة وصالح عنهم من أرباب الديون من ماله .

وفيه وصل الى السلطان من البلاد الشامية صناديق خشب وفيها أشجار بطينها ما بين تفاح شامى وكمشرى وسفرجل وقراصية وكروم عنب ، وأشجار مزهرة ما بين ورد أبيض ، وسبوسان ،

وصغار عند بركة غرنديل ، فشق ذلك على الناس ،
ولا سيما أهل المدينة الشريفة فمد كان بها الغلاء
الشديد .



وفي رمضان في مستهله عرض القاضي شرف
الدين الصغير ، ناظر الدولة ، اللحم والحبز والديق
والسكر على السلطان وهو بالميدان ، وطلع به
مزفوفاً على رءوس الحمالين على جاري العادة ،
فخلع عليه وعلى الزينى بركات بن موسى
المحتسب ، وخلع في ذلك اليوم على شيخ العرب
نجم ، شيخ العايد ، باستمراره على عادته ، وطلع
القضاة الأربعة والخليفة على الدكة بالحوش
جلوساً عاماً ، وكان يوماً مشهوداً .

وفي ذلك اليوم حضر علاء الدين ناظر
الخاص ، وكان توجه الى الطور بسبب ارسال
عليق العسكر الى المتوجه الى التجريدة ، فأرسله
في مراكب من البحر الملح الى جدة .

وفي يوم الاثنين خامسه طلع الأمراء الى
الخدمة ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان
المصحف العثماني بين العسكر ، وحلف عليه
الأمير دولات باي الذي قرر في امرة السلاح ،
وحلف أيضاً أركماس الذي كان نائب الشام ،
فحلفا للسلطان بأن يكونا تحت طاعته ، فلما حلفا
ألبس كلا منهما سلارى صوف بسمور ، وانقض
الموكب على ذلك .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره ، خلع السلطان
على قاضي القضاة جمال الدين القلقشندى وأعادته
الى قضاء الشافعية ، وهذه الولاية الثانية ، وعزل
عبد القادر بن النقيب ، فكانت مدته في هذه
الولاية تسعة أشهر ، وعشرين يوماً وهي الولاية
الثالثة . وكان في هذه الولايات في غاية الضنك
وكان غير محبوب للناس .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره توفى الأمير
طقطبى قرابه آقبردى الدودار ، وكان أحد
الامراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفي ثامن عشره حضر هجان من مكة ، وأخبر
بأن العسكر الذي توجه الى مكة قد انتصر على
عربان بنى ابراهيم ، وهرب يحيى بن سبع ، وقتل
من العربان ما لا يحصى ... فلما تحقق السلطان
ذلك أمر بدق الكوسات ثلاثة أيام ، وسر الناس
قاطبة لهذا الخبر .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره عرضت كسوة
الكعبة على السلطان ، وهي مزفوفة على رءوس
الحمالين ، وشقوا بها من القاهرة ، وكان يوماً
مشهوداً .

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر
الخاص خلع العيد على السلطان وهي مزفوفة ،
فألبسه السلطان خلعة حافلة ، لكونه سار في هذه
السنة بالسداد .



وفي شوال في يوم عيد الفطر خلع السلطان
على من له عادة ، وكانت الخلع في غاية الوحاشة
من القماش القطنى الملون ، تساوى الخلعة من ذلك
نحو ثلاثة دنائير ، وكانت الخلع من قديم الزمان
من المنسوجات الحرير الملون بفرو وسنجا .

ومن جملة ما بطل من شعائر المملكة ،
موكب الوزير في يوم العيد ... فكان ينزل من
القلعة وهو راكب بغلة بزئارى ، وعلى رأسه
طرحه بيضاء ، وتحت عمامته عرقه بذهب — وهي
التى يسمونها الطاسة — ويتقلد بسبحة بأكر من
عنبر ، وتركب قدامه الأوجاقية وهي بالترتبات
الحرير الأصفر قائدة الجنائب ، وقدامه مبخرة
السلطان بالبخور ، ويستمر في هذا الموكب الحافل
حتى يصل الى داره . وآخر من أدركناه يفعل

ذلك صاحب علاء الدين على بن الأهناسى ، فصار الآن تغرى برمش الوزير ، اذا نزل من القلعة فى يوم العيد ، لم يشعر به أحد من الناس اذا شق من القاهرة .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة للمقطعين بأن كل من كان له حصّة خراب ينزل يعمرها ، ويجرف جسورها ، ويرد فلاحيتها المتسحين حيث كانوا .

وفيه جاءت الأخبار بأن العربان بالشرقية قد قطعوا الطريق على القفل الذى جاء من المحلة ونهبوا كل ما فيه ، وكان فيه حمل مال للسلطان فأخذ مع جملة ما أخذ .

وفيه رسم السلطان بشنق ثلاثة أنفار ، قيل انهم من سياس الأمير أزدمر الدوادر ، وسبب ذلك أنهم قتلوا قتيلا فى بولاق فشنقوا هناك .

وفيه حضر أقبای نائب غزة ، وقد حصل بينه وبين ملاح نائب القدس تشاجر فشكاه أقبای الى السلطان ، فأرسل باحضر ملاح فلم يحضر ، وأظهر العصيان ، فتغير خاطر السلطان عليه .

وفيه تغير خاطر السلطان على تغرى برمش الوزير ، وشرف الدين الصغير ناظر الدولة ، وقد رافعهما بعض العمال على أنهما يأخذان الغلال من البلاد بالكيل الكبير ، ويصرفانه من الشئون بالكيل المصرى ، فقرر السلطان عليهما فى نظير ذلك عشرة آلاف دينار يردانها للخزائن الشريفة .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الخاصكية بامريات عشرة ، فأمر فى هذا الشهر نحسوا من أربعين أميرا ، زياة على ما ذكرناه فى أخبار سنة ثمان وتسعمائة .

وفى يوم الاثنين رابع عشره ، حضر شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له خاير بك المعمار ،

وصحبته نحو من خمسين رأسا ممن قتل فى الواقعة من العربان من بنى ابراهيم ، وهى الواقعة الأولى . فلما حضر خاير بك المعمار الى القاهرة أنعم عليه السلطان بامرة طبلخاناه بمصر ، فلما حضروا زينت لهم القاهرة ، ودقت الكنوسات ، ودخلت تلك الرؤوس وهى مشهورة على رماح ، والمشاعلية تتنادى عليهم : « هذا جزاء من يقطع الطريق على الحجاج ، وينهب أموالهم » . فلما عرضوا على السلطان خلع على خاير بك المعمار ، ورسم بتعليق تلك الرؤوس على أبواب القاهرة . وقد قامت حرمة المملكة بعد ما كانت قد انتهكت ، وتهدلت الأتراك ، وكاد الحاج أن ينقطع عن التوجه الى مكة .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره ، توفى الشهابى أحمد بن الأمير تمرباى رأس نوبة النوب ، وكان قد كبر وشاخ وقارب التسعين سنة من العمر . وكان لا بأس به رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس .

وفى يوم الاثنين سلخ هذا الشهر رسم السلطان للأمير أزدمر الدوادر ، بأن يخرج على حين غفلة ، ويسافر الى جهة الكرك ونابلس بسبب فساد العربان من بنى لام ، فخرج عن قريب ، وعين معه نحو من خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية .

وفى ذى القعدة ، فى يوم مستهله ، خلع السلطان على أقبای نائب غزة ، وسافر اليها على عادته . وقد تقدم سبب حضوره الى القاهرة .

وفى ذلك اليوم حضر عدة هجانة من مكة ، وأخبروا بأن العسكر المتوجه الى يحيى بن سبع ، قد انتصر عليه نصرة ثانية ، وكان من ملخص أخبار هذه النصرة ، أن العسكر لما اتفق مع يحيى ابن سبع ، وانكسر أولا ، توجه الى طائفة من العربان

يقال لهم العنزة ، وهم من بنى لام ، فالتجأ اليهم واستمر مقيما في مكان بالقرب من الينبع .

فلما مضى شهر رمضان ، ودخل شوال حضر الشريف بركات أمير مكة ، وحضر أخوه الشريف قايتباي ، وحضر معهما من العربان نحو من ألف انسان .. فركب الأمير خاير بك باش العسكر ، ووزع تلك العربان ، وأكمنهم في مواضع متفرقة ، فلما وصل العسكر الى مكان يسمى السويق ، بالقرب من الينبع ، أتى اليهم بن سبع ، وقد اتف عليه مالك بن الرومي . أمير خليص ، وأمير المدينة ، وحميضة أخو الجازاني ، فاتقوا هناك وقعة مهولة ، فقتل بها من العربان ما لا يحصى ، ومن الأتراك أيضا ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انكسر يحيى بن سبع ومن كان صحبته من العربان . فلما انهزموا خرج عليهم الأكمنة التي أكمنها الأمير خاير بك فاحتاطوا بهم ولم ينج منهم الا القليل ، بعد ما قتل منهم نحو من ثمانمائة انسان ، وأسر منهم قدر ذلك . وجرح في هذه الواقعة الشريف بركات أمير مكة في وجهه ... فلما هرب يحيى بن سبع وقع النهب في نجع العرب فغنم منهم الأتراك أشياء كثيرة ، من جمال وأغنام وقماش ، مما نهبوه من ركب الحاج الشامى والعراقي كما تقدم . وقد تمت الكسرة على يحيى ابن سبع ، وأمير المدينة ، وحميضة أخى الجازاني ، فهربوا ولم يعلم لهم خبر .

فلما صحت هذه الأخبار زينت القاهرة سبعة أيام ، واستمرت الكوسات عمالة ، وصارت الأمراء تخلع على الهجانة الذين أتوا بهذه البشارة ، كوامل وسلاريات ، وكانت هذه النصرة على غير القياس . ثم في عقيب ذلك جاءت الأخبار بأن الشريف بركات وأخاه قايتباي ، لما رجعوا من الينبع ،

وأثوا الى خليص ، اتفقوا مع مالك بن الرومي أمير خليص واقعة مهولة ، فانكسر ابن الرومي وهرب ، فلما هرب غنم منه عربان الشريف بركات أشياء كثيرة ، من جمال وأغنام وقماش وسلاح ، مما كان نهبه من الحجاج .

وفي هذا الشهر كان دخول الأمير طومان باي قريبا السلطان على ابنة الأمير أفردي الدوادار فكان لها مهم حافل ، وزف لها الجهاز الحافل ، حتى رجت له القاهرة . فلما كان ليلة الدخول مشى في زفة الأمير طومان باي الأتابكي فرماسى وسائر الأمراء قاطبة ، وبأيديهم الموكيات الشمع الموقدة . وكانت هذه الزفة تعادل زفة الأمير جانم قرابة الأشرف قايتباي لما تزوج بأخت خوند ابنة خاص بك .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، فأكرمه السلطان وأحسن اليه .

وفي أثناء هذه السنة توفى الشيخ بدر الدين محمد المارديني ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكانت له يد طائلة في علم الميقات ، وغير ذلك من العلوم .

وفي هذه السنة توفى أيضا خشكلدي المعروف بنصف وجه ، وكان أحد الحجاب بالديار المصرية ، وكان مفردا في فتنه ، بعثوا عليه الناس حتى السلطان وكان قد كبر وشاخ .

ومن الحوادث ، أن شخصا من المماليك القرانصة في سن الشيخوخة ، طلع الى القلعة وقت صلاة الصبح ، وكان يوم الجامكية ، فبينما هو طالع برأس الصوة واذا بثلاثة أنفار من المماليك الجلبان خرجوا عليه هناك ، فقتلوه بختنجر في بطنه فمات لوقته ، وقتلوا عبده أيضا وكان ماشيا معه حاملا قماشه التي يلبسها عند طلوعه الى القلعة ،

دينار ، ما بين ذهب وفضة ، ووجد عندها أمطار
فيها فلوس جدد ، ووجد عندها ربع غزل ، نحو
من ثمانمائة ربة ، فتعجب الناس من ذلك .

وفي ذى الحجة ، في يوم سابعه ، خرج
الأمير أزدمر الدوادار مسافرا الى جهة الكرك ،
ونابلس ، بسبب فساد بنى لام ، وخرج صحبته
الأمير قانصوه بن سلطان جركس ، والأمير تاني
بك النجمي ، وجماعة كثيرة من الأمراء العشراوات ،
ومن المماليك السلطانية نحو من خمسمائة مملوك ،
فكان له يوم مشهود .

وفيه خلع السلطان على قانصوه كاشف
الشرقية ، وعلى ماماي جوشن كاشف الغريبة ،
بأن يكونا على عادتهما ، وكان أشيع عزلهما .

وفيه ركب القاضي كاتب السر محمود بن أجا ،
وكان عليلا منقطعا عن الركوب . فلما طلع الى
القلعة ، خلع عليه السلطان كاملية ونزل من
القلعة في موكب حافل .

وفيه قلع السلطان الصوف ولبس البياض ،
ووافق ذلك خامس بشنس القبطي ، ثم ابتداء
يضرب الكرة ، ففي أول يوم من ذلك تقنطر أمير
كبير قرقماس ، ووقع الى الأرض ثم قام وركب .

وفيه هجم المنسر على شخص من الأمراء
العشراوات ، يقال له خشكلدي الهواري ، وكان
دوادار الأتابكي قيت الرحبي ، وكان ساكنا بالقرب
من حدرة الكماجيين ، فلما هجم عليه المنسر تحت
الليل ، ذبحوه وهو راقد في فراشه ، وأخذوا كل
ما في البيت ولا يعلم من فعل ذلك . وقد أشيع بين
الناس أن زوجة خشكلدي المذكور كانت هي
السبب في قتله ، فأقامت مدة وهي في الترسيم
بيت بركات بن موسى .

قال أمره بأن ذلك الجندي كان له اقطاع فرض ،
فلما ثقل في المرض طلع هؤلاء المماليك يطلبون
اقطاعه ، فقال لهم السلطان : « حتى يموت
خذوه » . ثم ان الجندي عوفى من ذلك المرض ،
فلما طاب وطلع الى القلعة ، قتله هؤلاء المماليك من
قهرهم منه . وأعجب من ذلك أن السلطان أخرج
الاقطاع الى غير هؤلاء المماليك الذين قتلوا
الجندي ، بسبب اقطاعه ، فكان كما يقال :

فغض الطرف انك من نمير

فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومن الحوادث في هذا الشهر ، أن الأمير طراباي
رأس نوبة النوب ، كان له حاصل في درب الخازن ،
وفيه دريس فحرق بالنهار وقت الظهر ، فذكر
بعض التجيران أنه رأى شخصا في صفة فلاح ، كان
هناك في عمارة مع جملة الفعلاء ، فرمى في ذلك
الدريس قارا ، وربما كان هذا الكلام كذبا عليه ،
فأرسل من قبض عليه وضربه بالمقارع ، ثم قطع
يده اليمين ، وأشهره في القاهرة ، ثم أراد حرقه
بالنار فشفع فيه بعض الأمراء .

وفي سادس عشره ، توفي القاضي بدر الدين
محمد ابن القاضي شمس الدين بن محمد القرافي
المالكي ، وكان من أعيان نواب المالكية ، وكان
ينتسب الى الشيخ عبد الله بن أبي جمرة رحمة الله
عليه .

وفيه توفي شخص حريري ، كان له دكان على
رأس عطفة الماطيين ، تجاه سوق اليوسفية ، فوجد
عنده في دكانه أربعة آلاف دينار ما بين ذهب وفضة
وهي موزعة في براني في سقف الدكان ، وكان رث
الهيئة يدعى الفقر .

ويقرب من ذلك أن امرأة كانت تستعطي عند
جامع ابن طولون ، فلما ماتت وجد عندها سبعمائة

وفيه حضر مبشر الحاج ، وأخبر بأن العسكر لما انتصر على يحيى بن سبع ، توجه الى مكة ووقف بالجبل ، وأخبر بأن العيد كان هناك يوم الجمعة ، وأن مكة مغلقة ^(١) ، وأخبر أيضا أن الفرنج كثر تعبهم ببحر الهند ، وأن حسين باش العسكر المتوجه الى هناك يشرع في بناء أبراج على ساحل جدة وصور ، وقد جهزوا المراكب الى الخروج الى عدن ، فسر السلطان لهذا الخبر ... لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز ، حتى بلغوا فوق عشرين مركبا ، وصاروا يبعثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة ، يأخذون ما معهم من البضائع ، حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها من البلاد .

وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذي صنعه الاسكندر بن فلبس الرومى . وكان هذا قبا في جبل بين بحر الصين وبحر الروم ، فلا زال الفرنج يبعثون في ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح وصارت تدخل منه المراكب الى بحر الحجاز ، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد (١) .

وفي أواخر هذه السنة ظهر الطاعون ببلاد الصعيد ، ولم يقع بها في سنة عشر وتسعمائة لما ظهر بالقاهرة

وفي هذه السنة طلع الى السلطان شخص يسمى أبو الخير المرافع ، وقال له : « أنا ألتم لك بمائتين وخمسين ألف دينار ، أستخلصها لك ممن أعرفه ، ولا تنتطح في ذاك شاتان » ! فقال السلطان الى كلامه ، وقصد أن يخلع عليه ويشرع في ذلك ، فاجتمع بعض الأمراء بالسلطان ورجعه عن ذلك فرجع والله الحمد .

(١) مغلقة : أى بها حامية (٢)

وفي هذه السنة تزايد ظلم الأمير طراباى رأس فوية النوب ، وشرع يأخذ أوقاف الناس ، من بلاد وبيوت وغير ذلك ، فيحطبها في ساعة واحدة ، ويرسم عليهم ، ويأخذ أماكنهم بأبخس الأثمان ، وكل من امتنع من ذلك يضربه ضربا مبرحا ويدعه في الترسيم حتى يعذر له ، ولا سيما ما وقع ليونس ابن جانم الزردكاش ، أخذ منه بيت أبيه الذى أنشأه بزقاق حلب ، فامتنع يونس من ذلك ، فضربه ضربا مؤلما حتى أعذر له ، وهو تحت العقوبة ، وفعل مثل هذه الواقعة بجماعة كثيرة يطول الشرح في ذكرهم

ومن الحوادث اللطيفة ما وقع في أواخر هذه السنة ، أن السلطان أبطل المجرة القديمة التى كانت عند درب الحولى بمصر العتيقة ، وشرع في بناء مجرة جديدة ، فجمع المهندسين فاختروا أن يكون مبتدأها من عند موردة الخلفاء ، بالقرب من الجامع الجديد ، فأنشأ هناك بئرا ، وجعل لها مسربا من بحر النيل ، وصنع على هذه البئر عدة سواقي ثقالة ، وأنشأ من هناك مجرة على قناطر معقودة على دعائم متصلة الى باب الزغلة ، ومن هناك تتصل الى الميدان والقلعة ، فجاءت هذه المجرة من العجائب والغرائب ، لكن صرف على بنائها ما لا يحصر من الأموال ، وغالبه من وجوه الظلم والمصادرات .

وقد وقع في زمن الشيخ زين الدين بن الوردى رحمة الله عليه ما يشبه ذلك ، وهو أن بعض الملوك أجرى قناة بدمشق الى بعض الجوامع ، وكان ذلك المصروف من مال فيه شبهة ، فأنشأ الشيخ زين الدين في هذه الواقعة وهو يقول :

كرهت وضوءا من قناة تساق من
دماء الرعايا أو بمال محرم

سيشرق في يوم الحساب ندامة

كما شرقت صدر القناة من الدم

وفي هذه السنة طلعت جزيره ببولاق تجاه ربع
قائم التاجر ، فصارت هذه الجزيرة في كل سنة
تزرع أمقته ورياحين ، فتوجهت اليها الناس ،
وخرجوا في القصف والفرجة هناك عن الحد ،
وضربوا الخيام الكثيرة ، وتعمل هناك أخصاص
للمتفرجين بها ، وصاروا يبيتون هناك ليلا ونهارا ،
وصار الناس يخوضون في البحر الى نصف الليل ،
وقد قال القائل في المعنى :

في جزيرة بولاق رأينا عجب

أسد ساروا معهم طلبا شاردين
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح
أذهلونا خضنا مع الخايضين

وقال آخر وأجاد :

امض لبولاق ترى بجزيرة

حور وولدان لها تأنيق

لى من تحابى وردها نشر زها

ولها بقلبي هزة وعلوق

وقد خرجت هذه السنة على الناس وهم في أمن
وسلامة ، وكانت سنة مباركة على الناس ، أخصب
فيها الزرع ، ووقع بها الرخاء في سائر البضائع
والغلال ، وكانت سنة هادئة من الفتن بين الأتراك ،
وقد حصلت بها هذه النصر العظيمة على عربان
الحجاز ، بعد ما كاد الحاج أن ينقطع من فساد
الطرق الى مكة من عرب بنى ابراهيم فله الحمد .

سنة ثلاث عشرة وتسعمائة (١٥٠٧/١٥٠٨ م) :

فيها — في المحرم — كان خليفة الوقت : الامام
المستمسك بالله أبو النصر يعقوب ، الهاشمي
الأبوين ، ابن المتوكل على الله عبد العزيز .
والسلطان يومئذ : الملك الأشرف ، أبو النصر
قائصوه بن ببرد الغوري عز نصره .

والقضاة الأربعة : جمال الدين ابراهيم

القلقشندى الشافعي ، وسرى الدين عبد البر بن
الشحنة الحنفي ، وبرهان الدين ابراهيم الدميري
المالكي ، وشهاب الدين أحمد الشيشيني الحنبلي .

وأما الأمراء أرباب الوظائف من المقدمين فهم :
الأتابكي قرقماس بن أركماس بن ولي الدين أمير
كبير ، ودولات باي قرابة العادل أمير السلاح ،
وسودون العجمي أمير مجلس ، وقاني باي قرا
الرماح أمير آخور كبير ، وطراباي الشريفى رأس
نوبة النوب ، وأزدمر بن على باي دوا دار كبير ،
وأنصباي بن مصطفى حاجب الحجاب .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين : فالقاضي
محب الدين محمود بن أجا الحلبي كاتب السر
الشريف ناظر ديوان الانشاء بالديار المصرية ،
والقاضي محيي الدين عبد القادر القصوى ناظر
الجيش ، والقاضي علاء الدين بن الامام ناظر
الخاص ، والأمير تغرى برمش متحدث مع القاضي
شرف الدين الصغير في الوزارة ، وشرف الدين
يونس النابلسي متحدث على وظيفة الأستاذية
الكبرى ، وبقية المباشرين من أرباب الوظائف على
حكم ما شرح في السنة الخالية .

وفي هذا الشهر وقع لقاضي القضاة الحنفي عبد
البر بن الشحنة واقعة غريبة ، وهي أن جمال
الدين السلموني الشاعر هجا القاضي عبد البر بن
الشحنة هجوا فاحشا . بقصيدة مطولة يأتي الكلام
عليها . وسبب ذلك أن السلموني كان قد هجا معين
الدين بن شمس وكيل بيت المال ، وقد تقدم ذكر
ذلك ، فشكاه معين الدين الى القاضي عبد البر ،
فأحضر السلموني بين يديه ، وضربه وعززه وأشهره
في القاهرة ، وهو عريان مكشوف الرأس . فلما
بلغ السلطان ذلك ، أرسل من خلصه من القاضي

عبد البر . فلما خلع هجا عبد البر بهذه القصيدة الفاحشة ، وقد دارت بين الناس ، فلما بلغ القاضي عبد البر ذلك ، شكوا السلموني الى السلطان لما طلع الى القلعة في يوم التهئة بالشهر ، وعرض عليه تلك القصيدة التي هجاه بها ... فأحضر السلطان السلموني بين يديه ، ووبخه بالكلام وقال له : « أتتهجو شيخ الاسلام بهذا الكلام الفاحش ؟ » ، فأنكر السلموني ذلك وقال : « أنا ما قلت فيه هذا كله » ، فقامت عليه البيئة بأن هذا نظمه ، فرسم السلطان لقاضي القضاة عبد البر بأن يتوجه بالسلموني الى المدرسة الصالحية ، ويعمل معه ما يقتضيه الشرع الشريف ، فنزل بالسلموني وهو في الحديد . وكان السلطان له عناية بالسلموني في الباطن . فلما أتوا به الى الصالحية ، تعصب عليه القضاة قاطبة وقصدوا ضربه بالسياط ، واشهاره في القاهرة ... وهذه ثاني واقعة وقعت للسلموني بسبب الهجاء .

وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أول من عاقب على الهجاء ... فلما أرادوا ضرب السلموني وتعزيره ، تعصب له جماعة كثيرة من العوام ، وقصدوا يرحمون قاضي القضاة عبد البر وهو في وسط ايوان المدرسة الصالحية ، وجمعوا له الحجارة في أكمامهم ، فما وسع القاضي عبد البر الا أنه عفا عن السلموني من التعزير والاشهار في القاهرة . ثم ان القضاة أمروا بسجن السلموني ، فسجن وأقام مدة طويلة في السجن ، يأتي الكلام عليها . وأما القصيدة الموعود بذكرها فهي قصيدة مطولة فيها ألفاظ فاحشة الى الغاية ، واساءة مفرطة لا ينبغي أن تذكر ، ولكن نورد منها بعض آيات مما نظمه جمال الدين السلموني ، وهو قوله من آيات :

فشا الزور في مصر وفي جنباتها
ولم لا وعبد البر قاضي قضاتها
أينكر في الأحكام زور وباطل
وأحكامه فيها بمختلفاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة
يرى أنه حل على شسبها
فاسلام عبد البر ليس يرى سوى
بعمته والكفر في سنماتها
أجاز أمورا لا تحل بملة
يحل ويرم مظهرا منكراتها
ألست ترى الأوقاف كيف تبدلت
وكانت على تقديرها وثباتها
وقد وثبت فيها فضايها بالأذى
وبالبيع شبه الأسد في وثباتها
فان كان في الأوقاف تم بقية
تكذبنى فيما أقول فهايتها
ولا بد من بيع الجوامع تارك
الجماعات منها مبطل جمعاتها
ولا بد أن يستبدل الناس أعبدا
بأحرارها يبعنا لنفس ذواتها
ولو أمكنته كعبة الله باعها
وأبطل منها الحج مع عمراتها
ومصدق قولي أنه كان مقريا
ليحيى بن سبع في خراب جهاتها
وقد كان ذنبا لابن سبع وقومه
يطالع بالأخبار قبل روايتها
ولو يعط ديناراً وطاوعه الوري
لأسقط عنها صومها وصلاتها
شكت ملة الاسلام مما ينالها
بأفعاله ، يا هل تزيل شكاتها ؟
فبيكى على الدين القويم وشرعه
وأحكامه فيها بمنعوجاتها

نمى مذهب النعمان من قبج فعله
على فتوات الزور لا عن ثقاتها
تعقب يعقوبا وخالف رأيه
فكم حل من وقف وأبدى شتاتها
وعن زفر قد زفر النقل كاذبا
بتزويج أرحام لحين براتها
وقد خان قاضى خان فى فتواته
بتغييرها عن مقتضى موجباتها
فلا تخش اثما أن تخوض بعرضه
فغييته للناس خير لغاتها
فماذا على الاسلام حل من الردى
بأيام عبد البر مع سنواتها
اتمى ذلك على سبيل الاختصار ، وأنا أستغفر
الله العظيم وأتوب اليه .

وفى رابع هذا الشهر ، خرج الأتابكى قرقماس
الى نحو الشرقية والغربية ، وقد سرح فى البلاد
وغاب فيها .

وفى حادى عشره كان ببولاق ليلة حافلة بسبب
وقت مولد سيدى اسماعيل الانبأى رحمة الله
عليه ، فضربت فى تلك الجزيرة التى تجاه بولاق
نحو خمسمائة خيمة ، صنعوا سوقا بدكاكين ،
وخرج الناس فى الفتك والفرجة عن الحد ، وأقاموا
هناك ليالى متوالية ، وموجب ذلك أن كان الرخاء
والأمن موجودين .

وفى عقيب ذلك عمل مولد الشيخ سويدان
المجذوب ، فى مدرسة ابن الزمن التى ببولاق عند
الرصيف ، فكان له مولد حافل ، وضربت هناك
الخيام الكثيرة عند المدرسة ، لكن حدث تلك الليلة
حادثة مهولة ، وهو أن امرأة طبخت على شاطيء
البحر ، فطار من شراة فتعلقت بمركب هناك

كان فيها كتان فعملت فيه النار ، وكان تلك الليلة
الريح عاصفا ، فمشت النار الى شونة تبين فى معصرة
هناك فعملت فيها النار فاحترقت المعصرة ، ونهب
ما فيها من قصب وسكر وعسل ، وحصل للناس
تلك الليلة غاية النكد ، ولولا لطف الله تعالى ،
ثم بركة الشيخ سويدان ، لاحتترقت تلك الأماكن
التي هناك عن آخرها .

وفيه تغير خاطر السلطان على أبى الخير المرافق «
بعد أن قرب ، وكان قد أخذ فى أسباب مصادرات
الناس ، ولو دام لحصل للناس منه كل سوء »
فتسلمه الزينى بركات بن موسى ، فنزل به من
القلعة وهو فى الحديد ، فلما شق من القاهرة
كادت العوام أن ترجمه ، وارتفعت الأصوات لابن
موسى بالدعاء لأنه كان سببا لذلك . فلما أتى الى
داره ضرب أبا الخير المرافق بالمقارع ، وبعث به
منفيا الى الواح .

ومن الحوادث أن مملوكا من المماليك الجلبان
نزل الى سوق الرقيق ليشتري عبدا أو يرد عبدا «
فوقع بينه وبين الدلال تشاجر . فلما تزايد الأمر
بينهما ضربه المملوك بقبقاب على رأسه فى السوق
بين الناس ، فحمل الى داره ، فأقام نحو شهر ثم
مات ، فلم تنتطح فى ذاك شاتان .

وفى عقيب ذلك ، ضرب الأمير أرزمك الناشف «
أحد الأمراء المقدمين ، شحصا من النواتية فمات
تحت الضرب . وسبب ذلك أن هذا النوتى حمل
للأمير أرزمك مغلا فنقص ، فضربه بسبب ذلك .
فلما مات النوتى وقف أولاده للسلطان ، فلما علم
بهذه الواقعة تغافل عن ذلك وقال للأمير أرزمك :
« ارض أولاد هذا المقتول » ، وانفض المجلس على
ذلك وراحت على من راح .

وفيه رسم السلطان بشنق أحمد بن مهنا شيخ بنى وائل ، فسبروه هو وأقاربه ، وطاقوا بهم القاهرة ، ثم شنقوا أحمد بن مهنا على باب النصر . وكان ذنبه أنه هرب من السجن ، وقتل السجناء وكسر القيد ، وكان من شرار العربان ، فلما ظفر به شنقه .

وفي يوم الثلاثاء عاشره ، كان دخول العسكر المتوجه الى الحجاز بسبب محاربة يحيى بن سبع ، فدخل الأمير خاير بك باش العسكر ، وقنبك رأس نوبة ثانى المتوجه صحبته ، وبقية الأمراء والعسكر ، فكان لهم يوم مشهود . ودخل المحمل صحبته ، فزينت لهم القاهرة ، ودقت لهم الكوسات بالقلعة ، ودخل صحبته ثمانمائة رأس من رعوس العربان ، من بنى ابراهيم الذين قتلوا في المعركة ، فأشهرهم على رماح ، والمشاعلية تنادى عليهم .. فلما طلع الأمراء الى القلعة خلع عليهم السلطان ، ونزلوا الى دورهم . فكانت مدة غيبتهم في هذه التجريدة ثمانية أشهر وأياما . وقد ييضوا وجههم بهذه النصرة التي وقعت لهم ، وفتحوا درب الخطاز فتحا ثانيا في الاسلام ، بعد أن كاد الحج ينقطع ، فله الحمد على ذلك ... وقد شق على السلطان مجيء العسكر ، وكان

قصده أن يتبعوا يحيى بن سبع حيث توجه حتى يقطعوا جادرة بنى ابراهيم عن آخرهم . وكان العليق هناك ما يوجد ، والموت في الجمال كثيرا فتقلق العسكر ، وطلب المجيء .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى ، واجتمع القضاة الأربعة والأمراء المقدمون على العادة ، ونصب الخيمة الكبيرة المدورة التي صنعها الأشرف قايتباى وصرف عليها نحو من ثلاثين ألف دينار ، وكان مولدا حافلا .

وفي صفر كان ختام ضرب الكرة ، ثم ان السلطان أضاف الأمراء بالبحر ، ومد لهم أسمطة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفيه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع ، وكانت الزبادة في أول يوم من المنادة خمس أصابع .

ومن الحوادث أنه في يوم الخميس ثالث عشره تسحب من سجن القلعة ، وقت الظهر ، نحو سبعين انسانا من المحاييس ، ما بين مشايخ عربان وفلاحين وغير ذلك فاضطربت القاهرة بسبب ذلك ، فمضوا ولم تنتطح في ذاك شاتان .

وفيه جاءت الأخبار أن عربان الشرقية هاجوا ونهبوا الضياع ، فعين لهم السلطان في ذلك اليوم تجريدة ، وعين بها من الأمراء سودون العجمي أمير مجلس ، وأنصباى حاجب الحجاب ، وتمر الزردكاش أحد المقدمين ، ودولات باى قرموط ، ومن المماليك السلطانية نحو من خمسمائة مملوك ، فخرجوا من يومهم ... وقد تقدم القول بأن الأتابكى قرقماس خرج قبل ذلك الى نحو الشرقية والغربية ، فلما سمع بمجيء العسكر لاقاهم من هناك .

وفي ربيع الأول رسم السلطان للقاضي علاء الدين ناظر الخاص بأن يتوجه الى جدة . وقد بلغ السلطان أنه وقع تشاجر بين حسين باش العسكر الذى هناك ، وبين على المسلاتى المغربى ، فخرج ناظر الخاص ليكشف عن حقيقة ذلك ، وعين معه السلطان نحو من خمسين مملوكا تقوية للعسكر الذى هناك .

وفيه كان رجوع الأمراء والعسكر الذين توجهوا للشرقية ، بسبب فساد العربان ، فرجعوا بغير طائل من ذلك .

سد الخليج بكسره جبر الورى
طرا فكل قد غدا مسرورا

البحر سلطان فكيف تواترت
عنه الأشائر اذ غدا مكسورا

وفيه توفى شرف الدين بن أبى الخير كاتب
الجرافة مباشر الأمير طراباى ، وكان من وسائل
السوء عنده .

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على القاضى
شرف الدين الصغير وقرر فى كتابة الممالك عوضا
عن فخر الدين بن العفيف بحكم صرفه عنها ،
فتضاعفت عظمة شرف الدين الصغير ، وصار ناظر
الدولة كاتب الممالك مستوفيا على الدواوين وغير
ذلك من الوظائف .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن
اسماعيل شاه بن حيدر الصوفى ، المتقدم ذكره ،
قد تحرك على بلاد السلطان ، ووصل أوائل
عسكره الى ملطية ، وحكوا عنه أمورا شنيعة فى
أفعاله .. فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية ،
وجمع الأمراء وضربوا مشورة فى أمر الصوفى ،
فأشار الأمراء على السلطان بأن يرسل اليه
تجريدة ، فنادى للعسكر بالعرض ، فطلع العسكر
قاطبة الى القلعة فعرضهم — وكان فاصد ابن عثمان
حاضرا ، و خليل بيك بن رمضان أمير التركمان —
فكتب من العسكر نحو من ألف وخمسمائة
مملوك ، وعين من الأمراء المتقدمين فى ذلك اليوم
خمسة ، وهم : قانى باى قرا أمير آخور كبير ،
وجعله باشا على العسكر ، وصحبته أوزمك
التاشف أحد المتقدمين ، ودولات باى قرموط ،
وقانصوه كرت ، وتانى بيك الخازندار . وعين من
الأمراء الطبليخانات والعشراوات نحو من عشرين
أميرا . ثم عين بيبرس أمير آخور ثانى قرابته

وفى رابع عشره جاءت الأخبار من عند الأمير
أزدمر الدوادار أنه لما توجه الى الكرك ونابلس ،
قاتل عربان بنى لام الذين كانوا من عصابة يحيى بن
سبع ، فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة كثيرة ،
وأسر من كبارهم نحو عشرة أنفار ، وملك منهم
مدينة الكرك . فلما تحقق السلطان ذلك أمر يدق
الكوسات بالقلعة ، وكانت القاهرة مزينة من حين
دخل العسكر ، فصارت الفرحة فرحتين .

وفى يوم الخميس تاسع عشره ، خلع السلطان
على الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وقرره فى
امرة ركب المحمل ، وقرر قانصوه أبا سنة والى
القاهرة بالركب الأول .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان فى القاهرة بأن
الناس تحج فى هذه السنة مطلقا من رجال ونساء
على العادة ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، وكان
من أعظم فرحات الاسلام .

وفيه تغير خاطر السلطان على القاضى فخر الدين
ابن العفيف كاتب الممالك ، فعزله ورسم عليه ،
وقرر عليه ألفى دينار يوردها للخزائن الشريفة ،
وكان هذا آخر عزل القاضى فخر الدين وولاياته .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك عاشر
مسرى ، وفتح السد فى اليوم الحادى عشر من
مسرى ، ووقع فى زيادة هذا النيل أمور غريبة ،
وهو أنه سلسل فى أول الزيادة ، فلما كان سادس
مسرى زاده الله ثلاثين أصبعا فى يوم واحد ، ثم فى
اليوم السابع منها زاد الله فيه عشرين أصبعا ، ثم
فى اليوم الثامن منها زاد الله فيه أيضا عشرين
أصبعا ، وكانت زيادته سبعين أصبعا فى ثلاثة
أيام ... واستمرت الزيادة عمالة مترادفة حتى أوفى
الله ، فتوجه الأتابكى قرقماس ، وفتح السد على
العادة ، وكان له يوم مشهود ، كما يقال فى المعنى :

ذلك اليوم غاية العظمة في الفرش وفي الأسطة والفواكه والحلوى ، وملأ صحن فرعون الذي تحت شباك قاعة البحرة سكراماء الليمون ، برسم جماعة القاصد ، وعند الانصراف خلع على القاصد كاملية مخملا أحمر بسمور فاخر ، وكان يوما حافلا جدا .

وفي تاسع عشره حضر الى الأبواب الشريفة ، شخص يقال له كمال ، من خواص جماعة ابن عثمان ، وقد ترجموا كمال هذا بتراجم عظيمة ، بأنه لا يكمل ولا يمل من للجهاد في الفرنج ليلا ونهارا ، حتى أعيى الفرنج أمره ، وأنه رأس المجاهدين المرابطين في الاسلام . فلما حضر أكرمه السلطان وبألف في أكرامه وخلق عليه ، فأقام بمصر مدة يسيرة ورجع الى بلاده .

وفي العشرين من هذا الشهر جاءت الأخبار من غزوة ، صحبة هجان ، بوفاة الأمير أزدمر بن علي باي الأشرفي أمير دوادار كبير ، توفي بغزة يوم الخميس خامس عشر هذا الشهر ، وقد مرض مدة ثلاثة أيام ومات . فلما جاء هذا الخبر تأسف عليه الكثير من الأمراء ممن كان من عصبته ، وكان موته بغتة على حين غفلة ، وأشيح بين الناس أنه مات مشغولا ، وكان أميراً جليلاً رئيساً حشماً ، لين الجانب قليل الأذى ، وكان في عنفوان شبوبيته ، وكان مرموقاً بالشجاعة والفروسية .. وهو من مشتريات الأشرف قايتباي ، وولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشراب خافاه ثم بقى مقدم ألف ، ثم ولى الدوادارية الكبرى بعد الأمير مصرباي في سنة سبع وتسعمائة ، فكانت مدته في الدوادارية الكبرى نحواً من ست سنين وخمسة أشهر الا أياماً . فلما تحقق السلطان موته ، ضرب الحوطة على

بأن يتوجه الى حلب ، ويعلم النواب بمجيء العسكر ، وليجتهدوا في عمل اليرق ، وأن نائب حلب يجمع عساكر حلب ، ويخرج ليحرس أطراف البلاد ويكشف الأخبار ، ثم بطل ذلك جميعه فيما بعد ، كما يأتي الكلام على ذلك في موضعه .

وفي جمادى الأولى - في ثامن - حضر أبرك نائب قلعة حلب ، وقد انفصل عنها ووقع بينه وبين نائب حلب تشاجر ، وأصله من ممالك السلطان . فطاش وقتك بحلب له ولم يستثن لنائب حلب بشأن .

وفيه جاءت الأخبار بأن عساكر الصوفي عدت من الفرات ، ووصل جاليشهم الى أطراف بلاد السلطان ، وأن على دولات جمع التركمان ، وخرج اليهم وتحارب معهم .

فلما جاءت هذه الأخبار ، اضطربت القاهرة وماجت ، ونادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم الاثنين . وكان قد أشيع بين الناس بأن التجريدة بطالة ، فأهمل العسكر ذلك حتى طرقتهم هذه الأخبار ، فعند ذلك شرع الممالك يكسبون على الطواحين والاسطبلات بسبب البغال والأكاديش ، وكان السلطان آخر أمر النفقة الى أن يحضر الأمير أزدمر الدوادار ، وكان توجه الى الكرك ونابلس بسبب عربان بنى لام . فلما جاءت هذه الأخبار أنفق السلطان على العسكر المعين للتجريدة ، فأعطى لكل مملوك مائة دينار على العادة ، وجامكية أربعة أشهر معجلاً ، وثمن جمل سبعة أشرفية ... فكان ما خص كل مملوك نفقة وجامكية وثمن جمل مائة دينار وثلاثين ديناراً . ثم شرعوا في عمل اليرق .

وفي يوم الأربعاء ، رابع عشره ، عزم السلطان على قاصد ابن عثمان في قاعة البحرة ، فأظهر في

موجوده ، ورسم على جماعته وغلماؤه ومباشره
وقرر عليهم مالا له صورة .

وفيه حضر تغرى بردى الترجمان ، وكان توجه
الى بلاد الفرنج ، وأقام بها نحو من ستين ، فلما
حضر خلع عليه السلطان وأقره على وظيفته .

وفيه ثبت النيل المبارك على ثمانى عشرة أصبعا
من تسع عشرة ذراعا ، وكان فى العام الماضى أرجح
من ذلك بشمانى أصابع .

وفيه توفى القاضى جمال الدين الأتيمى أحد
نواب الحكم الشافعى ، وكان لا بأس به

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن شخصا يقال
له عمر بن علاء الدين النقيب الحنفى المحلى ، وكان
خطيبا ببعض الجوامع ، فقبل عنه انه وقع فى حق
سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام بكلام فاحش
لا ينبغى أن يذكر ، فضبطوا عليه ذلك ... ثم ان
بعض القضاة استتوبه ، وحكم شمس الدين
الحلبى بحقن دمه . فلما بلغ السلطان ذلك تعصب
لابراهيم الخليل عليه السلام ، وقال : « ما أرجع حتى
أضرب عنق هذا القائل لهذا الكلام » . فأمر بعقد
مجلس بحضوره وجلس فى الدهيشة وأرسل خلف
القضاة الأربعة ، فحضر جمال الدين القلقشندى
الشافعى ، وسرى الدين عبد البر بن الشحنة
الحنفى ، وبرهان الدين الدميرى المالكى ، والشهاب
أحمد بن الشيشينى الحنبلى ، ثم أمر السلطان
بإحضار القضاة المنفصلين ، فحضر شيخ الاسلام
زين الدين زكريا الشافعى ، وحضر برهان الدين
ابن أبى شريف الشافعى ، وبرهان الدين بن
الكركى الحنفى ، وجماعة من مشايخ العلم ، منهم
الشيخ نور الدين المحلى ، والشيخ عبد الحق
السنباطى الشافعى وغير ذلك من المشايخ والعلماء .
فلما تكامل المجلس تباحثوا فى هذه المسألة ، فقال

الشيخ زكريا : « مذهبتنا أن هذا القائل اذا تاب الى
الله تعالى واستغفر تقبل توبته » . ووافقه على ذلك
ابن أبى شريف ، فحصل فى ذلك المجلس بعض
تساجر بين قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة وبين
الشيخ نور الدين المحلى ، وأحضر كل من العلماء
النقول فى هذه المسألة ... وانفصل المجلس مانعا على
أن هذا القائل يسجن مدة طويلة حتى يتوب ، ثم
انقض المجلس على ذلك ، والسلطان قد صمم
على ضرب عنق هذا القائل ، فتوجهوا به الى
السجن فسجن ، وهذا ما كان من ملخص هذه
الواقعة .

وفيه حضر الأمراء الذين كانوا توجهوا صحبة
الأمير أزدمر الدوادار الى نابلس ، وأحضروا
صحبتهم جثة الأمير أزدمر وهى فى سحلية ،
فدفن فى تربته التى أنشأها بالقرب من باب الزغلة ،
وانطوى أمره ، وخلا منه المكان ، ودخل فى خير
كان .

وفى جمادى الآخرة ، فى يوم السبت ثائيه ، رسم
السلطان بتوسيط شخص من العربان المفسدين ،
يسمى عبيد بن أبى الشوارب ، فوسطه عند
قنطرة الحاجب ، ووسط معه أيضا شخصا يسمى
قاسم الغريب ، وكافا من كبار المفسدين بالشرقية .

وفى يوم الاثنين رابعة خلع السلطان على الأمير
طومان باى ابن أخيه وقرر فى الدوادارية الكبرى
عوضا عن الأمير أزدمر بن على باى بحكم وفاته ،
فنزل من القلعة فى موكب حفل ، وسكن فى دار
الأمير أزدمر فيما بعد ، ورسم السلطان للأمير
يشبك الفقيه ، الذى كان دوادارا عند الأمير
أزدمر ، أن يستمر دوادارا عند الأمير طومان باى
على عادته ، فامتنل ذلك .

وفيه خلع السلطان على شيخ العرب عبد الداييم بن أبي الشوارب ، وقرر في مشيخة العرب بالقلبيية .

وفيه خلع السلطان على مملوكه أبرك الذى كان نائب قلعة حلب وحضر الى مصر ، فقرره في شادية الشراب خاناه عوضا عن الأمير طومان باى بحكم انتقاله الى الدوادارية الكبرى .

وفى يوم الثلاثاء سادسه حضر قاصد من عند على دولات ، وأخبر أنه لما توجه الى عسكر الصوفى ، تحارب معهم فكسرهم كسرة قوية ، فانهزموا نحو بلادهم مكسورين ، وقتل منهم جماعة كثيرة . وأرسل على دولات عدة رهوس ممن قتل من عسكر الصوفى ، وفيهم شخص من أمرائه بالحياة وعلى رأسه طرطور أحمر ... فلما عرضوا على السلطان سر بهذه الواقعة ، وأمر بأن تعلق تلك الرهوس على باب زويلة . فلما تحقق صحة هذه الواقعة بطل أمر تلك التجريدة التى كان عينها الى الصوفى ، ورسم باعادة النفقة التى كان أنفقها على العسكر بسبب التجريدة ، فتوجهت اليهم الطواشية واستعادوا منهم النفقة ، فشق ذلك على المماليك ، وكانوا قد تصرفوا فى غالبها . فلما بلغ السلطان ذلك رسم بأن يترك لهم ثمن الجمل الذى كان أعطاه لهم ، وقدره سبعة دنانير ويعيدوا الباقي ، فامثلوا ذلك وأعادوا ما أخذوه ، والذى تأخر عليه من ذلك شيء قطع من جامكيتته .

وفى يوم الاثنين حادى عشره ، خلع السلطان على قاصد أبى يزيد بن عثمان خلعة سنية ، وألبس جماعته سلاريات وشقا وسمورا وأذن لهم بالعود الى بلادهم ، فمضوا وهم شاكرون من السلطان . وفى يوم الخميس رابع عشره ، خلع السلطان

على الأمير طومان باى الدوادار خلعة الأنظار ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه قلع السلطان البياض ، ولبس الصوف ، ووافق ذلك عاشر هاتور .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الشريف بركات أمير مكة ، توجه الى مالك بن الرومى أمير خليص ، وكبس عليه على حين غفلة ، فظفر به وجز رأسه وحز رهوس جماعة من أقاربه ، وأن ناظر الخاص علاء الدين واصل بذلك عن قريب ... فسر السلطان لهذا الخبر .

ومن الحوادث فى أواخر هذا الشهر ، وقعت فتنة مهولة ببولاق حتى كادت تخرب عن آخرها . وسبب ذلك أن جماعة من الجوابر الذين ببولاق وقع بينهم وبين جماعة من النفر ، بسبب ضائع ضاع لهم ، فتعصب الجوابر على النفر وضربوهم وجرحوا منهم جماعة ، واستخلصوا منهم الضائع . فلما بلغ ذلك طائفة النفر اجتمع منهم السواد الأعظم ، وتوجهوا الى بولاق ، ووثبوا على الجوابر ، ونهبوا ما فى مراكزهم من الغلال ، ونهبوا دكاكين بولاق ، وخطفوا عمائم الناس ... فلما تزايد الأمر من النفر ثار عليهم الجوابر والنواتية الذين ببولاق ، وأتوا اليهم بالسيوف والمقاليع فسقط بينهم ساقط ، فاتسعت الفتنة واستمرت على ما ذكرناه ثلاثة أيام متوالية . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد ، وكانت الجوابر فى حماية الأتابكى قرقماس ، والنفر فى حماية قانى باى قرا ، أمير آخور كبير ، فتعصب كل منهما لجماعته فتحبر بينهما السلطان ، وراح على الناس ما نهب لهم فى هذه الحركة .

وفى رجب كان انتهاء العمل مما جددده السلطان

السلطان قبض على مملوك خاير بك الذى فعل هذه الفعلة ، فوسطه فى الرملة ، حتى خمدت هذه الفتنة قليلا .

وفى يوم الاثنين سادس عشره ، دخل القاضى علاء الدين ناظر الخاص ، وقد تقدم أنه توجه الى جدة ، بسبب تجهيز المراكب صحبة العسكر الذى توجه الى عدن ، بسبب تعثب الفرنج هناك . فلما تم أمره من جدة ، وقصد الرجوع الى مصر ، أرسل صحبته الشريف بركات أمير مكة رأس مالك ابن الرومى أمير خليص ، وعدة رءوس ممن قتل معه من العربان فى المعركة كما تقدم ، فكان عدتهم نحو من تسعة وعشرين رأسا ، فارتجت لهم القاهرة ، وأشهروا على رماح ، فلما عرضوا على السلطان وهو بالميدان ، خلع على ناظر الخاص كاملية مخملا أحمر بسمور ، وأركبه فرسا بسرج مغرق وكنبوش ، وتوجه الى داره فى موكب حافل وصحبته قضاة السلطان ، ورسم بأن تعلق تلك الرؤوس على أبواب القاهرة .

وفى يوم السبت سابع عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعزم على قاصد الصوفى هناك ، وأحضر قدامه ممالك يرمون بالنشاب على الخيل ، وهم بألة السلاح ، فأظهروا فى فنون النشاب أشياء غريبة ، وأحرق قدام القاصد احراقه فقط بالنهار ، ثم مد له أسمطة حافلة وخلع عليه وعلى جماعته ، وأذن لهم بالعودة الى بلادهم فسافروا فيما بعد .

وفيه كانت واقعة الناصرى محمد ابن بنت جمال الدين الأستاذار ، مع الناصرى محمد بن قجق نديم السلطان . وملخص هذه الواقعة أن محمد ابن بنت جمال الدين ، كان له عبد حبشى ، فأفسد جارية لمحمد بن قجق ، فشكاه للسلطان ، فطلب ابن بنت جمال الدين ، وقصد الصلح بينه وبين

من العمارة بالقصر الكبير ، فلما تم ذلك صنع به وليمة حافلة ، وعزم على القضاة الأربعة ، والأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأحضر قراء البلد قاطبة والوعاظ ، ومد به أسمطة حافلة ، وبات تلك الليلة هناك .

وفيه نزل السلطان الى خلف القلعة عند قبة الهوا ، وجربوا قدامه مكاحل نحاسية كان سبكها ، فأقام هناك ساعة يسيرة ثم عاد الى القلعة .

وفيه تغير خاطر السلطان على عبد العظيم الصيرفى فضر به ، ووكل به ثلاثة من الممالك الخاصكية ، وسبب ذلك أن المعسكر تضرر من كثرة النفضة النحاس التى يجدونها فى الجامكية فشكوه الى السلطان ، فقبض عليه وقرر عليه مالا له صورة بسبب ذلك .

وفى شعبان ، حضر قاصد من عند اسمعيل شاه الصوفى ، وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أن الذى وقع من عسكره فى دخولهم الى أطراف بلاد السلطان ، لم يكن ذلك عن اذنه ولا علم بذلك ، فأكرم السلطان ذلك القاصد وأوكل له بالحوش موكبا حافلا ، وكان هذا القاصد هو وجماعته فى غاية الغلاسة ، وعلى رءوسهم طراير حمراء ليس عليهم رونق بخلاف قصاد ابن عثمان .

وفيه وقعت فتنة مهولة بين ممالك السلطان وبين ممالك الأمير خاير بك الخازندار بسبب حمير النقارة ، فقتل من ممالك السلطان مملوك ، فتعصب له خشداشيينه ، ونزلوا من الطباقي مشاة وتوجهوا الى بيت خاير بك ونهبوا ما فيه وأحرقوا بابه ، فهرب منهم واختفى وطلع الى السلطان . وقد اتسعت هذه الفتنة . فلما جرى ذلك أرسل

بالميدان فأطلق منهم جماعة من رجال ونساء ،
وأبقى منهم أصحاب الجرائم والفلاحين .

وفيه وقف شخص من الغلمان للسلطان وهو
مقطوع اليد ، وأنهى في قصته أن الأمير طراباي
قطع يده لأجل بغلة ماتت منه في الربيع فلم ينصفه
السلطان من طراباي .

وفي يوم الجمعة خامسه ، أفرج عن عبد العظيم
الصيرفي ، وقد أورد نحو من عشرة آلاف دينار ،
وقرر عليه باقى المال .

وفيه توفى أحمد بن اسمعيل رأس نوبة الأمير
طراباي ، وكان على عوج فيه خيرا من غيره من
الظلمة .

وفيه رسم السلطان بالافراج عن جمال الدين
السلمونى الشاعر ، وكان فى السجن من حين وقع
له مع قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ما تقدم
ذكره ، وكان السلطان له عناية بالسلمونى فى
الباطن .

وفيه خلع السلطان على مملوكه الأمير أبرك ،
وأعادته الى نيابة قلعة حلب ، كما كان أولا ، مع
استمراره على شادية الشراب خاناه بمصر ، وصار
يحمل اليه معلوماها وخراج الاقطاع وهو بحلب ،
فعد ذلك من النوادر . ثم خرج فى أثناء هذا الشهر
الى حلب متكلما على نيابة القلعة بها ، ومتوليا
شادية الشراب خاناه بمصر . وأعجب من هذا
أن السلطان أنعم عليه فيما بعد بتقديم ألف
بمصر ، وصار يحمل اليه خراج اقطاع التقديم
وهو بحلب .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن جماعة من
السراق تقبوا قاعة الذهب ، وذبحوا البواب ،
وأخذوا من القاعة سبائك ذهب وفضة بنحو

ابن قجق ، وأن يرضيه فى جاريته ، فتواحش ابن
بنت جمال الدين فى حق ابن قجق ، وسبه فى
مجلس السلطان ، وكان ابن بنت جمال الدين
أهوج أحرق رهاجا . فلما جرى ذلك تغير خاطر
السلطان عليه ، ورسم بتسليمه الى تقيب الجيش ،
فاتسعت هذه الواقعة على ابن بنت جمال الدين ،
وقرر عليه السلطان عشرة آلاف دينار ، فاستمر
فى الترسيم وضرب فى بيت الوالى ، وباع جميع
موجوده ولم يف بهذا القدر ، وآخر الأمر رسم
السلطان بنفيه الى الواح ، فنفى وجرى عليه شذائد
ومحن . وكان قليل الدربة ، فلو سد هذه القضية
بدون الخمسين دينارا كانت تستد ، ولا كان
يجرى عليه هذا كله ... وهذه الواقعة تقرب من
واقعة الزينى فرج الحاجب ، وقد تقدم ذكر ذلك
فيما جرى عليه . ويقرب من هذه الكائنة ، ما وقع
لشخص من أبناء الناس ، يقال له محمد بن سودون
السودونى ، وقد تغير خاطر السلطان عليه ،
وحصل له منه ما لا خير فيه ، وسجنه وقاسى
شذائد ومحن وأمره مشهور .

وفى اسلخ هذا الشهر حضر الأتابكى قرقماس
وكان مسافرا فى اقطاعه بالمنزلة ، ودخل صحبته
بعده رءوس من العربان العصاة ، فعرضوا على
السلطان بالميدان ، فخلع عليه ونزل الى داره فى
موكب حافل .

وفى رمضان - فى يوم مستهله - عرض القاضى
شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، والزينى بركات
ابن موسى المحتسب ، اللحم والغنم والدقيق
والسكر ، على السلطان وهو بالميدان ، فطلعا به
مزفوقا على العادة فخلع عليهما .

وفى يوم الخميس ثالثه عرض السلطان المحاييس

عشرة آلاف دينار ، فراحت ولم تنتطح في ذلك شاتان .

وفي هذه الليلة تقبوا من سوق مرجوش أربعة دكاكين .

وفي ليلة الثلاثاء ثانی عشرینہ ہجہم ذلك المنسر على شخص أعجمی تاجر ، وكان في سعة من المال ، وكان ساكنا عند باب سر المدرسة الصالحية ، فذبحوه وذبحوا عبده معه ، وأخذوا كل ما في داره من مال وقماش ، ففتبع الوالى أمر هؤلاء السراق ، حتى ظفر بجماعة منهم فشنقوا على باب ذلك التاجر الذى قتل .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشرینہ ، كانت وفاة قاضى القضاة المالكى برهان الدين ابراهيم الدميرى ، وكان عالما فاضلا ، دينا خيرا ، رئيسا حشما ، لين الجانب كثير التواضع ، وانهت اليه رياسة المالكية في عصره ، ولم يكن يومئذ في المالكية أعلى طبقة منه على الاطلاق ، ومات وهو في عشر الثمانين ، وكانت مدته في منصب القضاء ، الى حين توفى رحمة الله عليه ، ست سنين وستة أشهر الا أياما ، وكان نادرة عصره في الخط الجيد ، والعبارة الحسنة ، وكان عارفا بالأحكام الشرعية . فلما بلغ السلطان وفاته ، نزل من القلعة ليصلى عليه فتبين أنهم توجهوا به الى الجامع الأزهر فصلوا عليه هناك .

فلما تحقق السلطان ذلك توجه الى نحو القرافة وزار الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، فنزل عن فرسه ودخل فزارهما بقواضع . وتصديق في ذلك اليوم بمبلغ له صورة ، وكان ذلك أول نزوله في حال السلطنة .

وفيه توفى ابن سلطان العلایا الذى كان مقيما بمصر .

وفي سلخ هذا الشهر ، نزل السلطان على حين غفلة ، وتوجه الى المجرة التى أنشأها فكشص عن بنائها ، وكان معه الأمير طومان باى الدوادار وبعض أمراء عشراوات ، ومن مماليكه نحو من خمسمائة مملوك ، وأول ما نزل من القلعة خرج من باب القرافة ، وتوجه الى تربة الأمير أزدمر الدوادار ، ونزل عن فرسه وزار قبره . ثم ركب من هناك ، وتوجه الى نحو كوم الجارح ، وزار الشيخ أبا السعود الذى كان هناك مقيما . ثم توجه من هناك الى المجرة وكشف عليها وغسل وجهه من ماء النيل .

فلما رجع الى القلعة ، رجع من على مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وزار وهو راكب على فرسه ، ورسم لخدام السبدة بعشرة دنانير ، ثم خرج من باب القرافة ، وطلع الى القلعة وتصديق في ذلك اليوم بمال له صورة ، وأنعم على البنائين والمهندسين في ذلك اليوم بمائة دينار .

وفي شوال عمل السلطان موكب العيد ، وكان حافلا وفرق الطع على العادة .

وفي يوم الخميس ثامن ، عرضت كسوة الكعبة على السلطان ، ومقام ابراهيم عليه السلام ، وقد شقوا من القاهرة ، وهى على رءوس الحمالين مزفوفة ، فلبس القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصرى في ذلك اليوم خلعة كونه كان ناظر الكسوة أيضا .

ومن الحوادث في هذا الشهر أن المماليك الجلبان ، وثبوا على السلطان بالقلعة ، ونزلوا من الطباقي بكباشيات مقلوبة ، فحططوا بالقلعة ، وأظهروا العصيان ، وحصل منهم في ذلك اليوم غاية الفساد ، وقصدوا أن يهجموا على السلطان

وهو جالس في الدهيشة ، فخرج اليهم جماعة من الأمراء العشراوات وتكلموا معهم فلم يسمعوا لهم ، وقالوا ما نرجع حتى ينفق علينا لكل واحد مائة دينار ، فباتوا وأصبحوا على ذلك ، ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، فلم يخرج السلطان في ذلك اليوم ، ولا فعد على السباط ، وقصد أن ينزل من القلعة ويختفى من قهره من المماليك ، فلم يمكنه الأمير طومان باي الدوادار من ذلك ، فاستمرت هذه الفتنة قائمة ثلاثة أيام والقلعة مائجة ، ثم سكن الحال قليلا عن غير رضا من المماليك .

وفي يوم السبت سابع عشره خلع السلطان على الشيخ محيي الدين يحيى ابن قاضي القضاة برهان الدين الدميري المالكي وقرر قاضي قضاة المالكية عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، وقد ولي منصب القضاء وهو شاب ، وكان حسن السيرة وله اشتغال بالعلم ، فما استكثر عليه أحد ذلك ، وخضعت له المالكية قاطبة .

ومما وقع لوالده قاضي القضاة برهان الدين الدميري ، أن السلطان رسم لقضاة القضاة بأن يخطب به كل واحد منهم جمعة ، وكان قاضي القضاة الشافعي جمال الدين القلقشندي غير ماهر في الخطبة ، فرسم له السلطان ألا يخطب به ، فخطب به قاضي القضاة الحنفي سري الدين عبد البر بن الشحنة عدة مرار ، فلما جاءت نوبة قاضي القضاة برهان الدين الدميري المالكي صعد المنبر بجامع القلعة فأرتج عليه أمر الخطبة ، وأنجبه من ذلك وتعفش ووقع عند نزوله من المنبر ، فلما صلى ونزل من القلعة مرض ولزم الفراش واستمر عليلا الى أن مات عقيب ذلك بمدة يسيرة .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره خرج المحمل من القاهرة في تيجل زائد ، ولا سيما قد أذن

السلطان للناس في الحج بالتوجه الى الحجاز على العادة ويكون ذلك مطلقا من نساء ورجال ، فخرج في هذه السنة من الناس ما لا يحصى ، وكان أمير ركب المحمل طراباي رأس نوبة النوب ، وبالركب الأول قانصوه أبو سنة والى القاهرة ، فكان لهما يوم مشهود . وحج في هذه السنة من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم القاضي صلاح الدين بن الجيعان ، والقاضي شمس الدين التتاي المالكي ، وكان قاضي المحمل . وحج جماعة من الأمراء العشراوات ، وحجت خوند أصل باي أم الملك الناصر ، سريّة الأشرف قايتباي ، وحجت خوند جان كلدي زوجة الظاهر قانصوه ، خال الملك الناصر ، وحجت زوجة الأمير تاني بك قرا وهي ابنة الأمير برد بيك صهر الأشرف اينال ، وحج غير ذلك من الأعيان جماعة كثيرة .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرينه توفي الركني عمر ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز ، أخو أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وكان شابا رئيسا حشما ، أسمر اللون جدا ، أمه جارية حبشية ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشرينه توفي الشيخ أبو الفضل بن المحرقى ، وكان من خيار الناس لا بأس به .

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه ، حضر الأمير بيبرس قريب السلطان ، وكان مسافرا نحو البلاد الشامية بسبب الكشف على القلاع .

وفي ذلك اليوم حضر الأمير علان الدوادار الثاني ، وكان توجه الى نحو عجرود بسبب اصلاح السواقي التي في مناهل الحاج . فعمر ما فسد منها ورجع .

وفي هذا الشهر لم ينزل السلطان الى الميدان ولا جلس به ، وسبب ذلك أنه قد تخيل من المماليك

الجلبان ، وقد تقدم ما وقع له معهم ، وطلبوا منه نفقة فلم يعط لهم شيئا ، واستمر مصمما على عدم ذلك ، فلم ينزل الى الميدان حتى يرى ما يكون من أمر الممالك .

وفي ذى القعدة عين السلطان تجريدة الى بلاد الفرنج ، وقد تزايد منهم الأذى والتعبث بالناس في البحر الملح ، وكان الباش على هذه التجريدة الأمير محمد بيك قريب السلطان ، وصحبته جماعة من الممالك السلطانية ، وأولاد الناس وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك ثالث بشنس القبطى .

وفي يوم الاثنين حادى عشره ، توفى الشهاب أحمد ابن الشيخ على المقرئ ، وكان علامة في عصره شيخا عارفا بطريقة القراءة ، وكان رئيسا حثما عشير الناس ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على الأمير بيبرس قرابته بتقدمة ألف ، وخلع على أقبأى الطويل وقرره أمير آخور ثانى ، عوضا عن بيبرس ، بحكم انتقاله الى التقدمة .

ومن الحوادث أن جماعة من عبيد السلطان تحاسدوا في بعضهم فقتلوا منهم واحدا كان مقربا عند السلطان من بينهم ، فلما قتلوه رموه في سراب من أسرية القلعة ، فلما فحص السلطان عن أمره طلع به من ذلك السراب ، ثم قبض على من فعل ذلك من العبيد ، فوسط منهم أربعة في الرملة وهرب منهم جماعة .

وفيه وجدت امرأة موسطة نصفين كل نصف منهما مرمى في حارة فلا يعلم من فعل ذلك بها .

وفيه غمز على فران قتل صبيا كان عنده ، ورماء

في جورة الفرن فاحترق وهرب الفران ، ولم تنتطح في ذلك شاتان .

وفيه قتل بعض العلما ببيع لبن لأجل شقفة لبن لم يبعها له اللبان فقتله ، فلما بلغ السلطان ذلك وسط الغلام الذى قتل اللبان ، فراح هذان الرجلان لأجل شقفة لبن ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وفي أثناء هذه السنة توفى الأستاذ على بن غانم وكان علامة في ضرب الطنبورة ومعرفة الأنعام ، وهو الذى أظهر الخفائف النجدية بمصر ، ولحنها في التلاحين الغربية ، حتى أبطل بها فن الموسيقى .

وفي ذى الحجة فرق السلطان الأضحية على العسكر ، وقطع أضحية كثيرة لجماعة من المباشرين والفقهاء وغير ذلك .

وفيه توفيت امرأة يقال لها خديجة الكليباتية ، وكانت تدعى الصلاح ، وتدخل بيوت الأكابر ، فوجد لها ذهب عين ثلاثة آلاف دينار ، وأثاث البيت بنحو من خمسمائة دينار ، فعد ذلك من النواذر ، ومع ذلك كانت تأخذ من الناس الصدقة . وفي يوم الخميس تاسع عشره توجه ناظر الخاص علاء الدين ، الى نحو الاسكندرية ورشيد ، بسبب تجهيز المراكب التى عينها السلطان للتجريدة صحة محمد بيك .

وفي رابع عشرينه حضر مبشر الحاج وأخبر عن الحجاج بالأمن والسلامة والرخاء .

سنة أربع عشرة وتسعمائة (١٥٠٨ - ١٥٠٩) :

فيها ، في المحرم ، ابتداء السلطان بضرب الكرة وكان أكثر ضربه للكرة في الميدان ويعمل به المواكب الحافلة .

وفيه رسم السلطان بشنق ثلاثة أنفار ممن كان

سرق السبائك الذهب من قاعة الذهب ، وكان منهم شخص يسمى يوسف المصارع ، وكان مقربا عند السلطان ، فظهر أنه كان موالسا مع السراق ، فمات تحت العقوبة بالمقشرة ولم يشنق معهم .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة ، ابن يحيى ابن سبع الذى جرى من أيبه على الحجاج ما جرى ، فحضر بالأمان من السلطان ، فلما قابله خلع عليه وقال له : « على أيبك يحضر وعليه منى أمان الله تعالى » .

وفيه جاءت الأخبار من غزة بأن قد ظهر بساحل البحر الملح سمكة عظيمة الخلقة ، قيل أن طولها سبع وعشرون ذراعا ، وعرضها عشرة أذرع ، فأرسل السلطان يقول لنائب غزة ان كان ممكن احضارها الى القاهرة فيحضرها ، فتعذر ذلك عليه . ثم أرسل نائب غزة فيما بعد عظمتين من أضلاعها حتى شاهدها السلطان ، وقد وضعهما عند باب القلعة تجاه السيل الذى هناك ، وهما بإقبتان الى الآن ، وهما عظمتان من أضلاعها على ما قيل .

وفيه تزايدت عظمة الأمير طومان باى الدوادار ، واجتمعت فيه الكلمة ، ومما عد من محاسنه أنه حجر على النقباء والرسل الذين على بابه ، ورسم لهم بالآ يأخذوا من الغرماء الذين يطلبون من بابه أكثر من نصفين فضة ، ومن يأخذ أكثر من ذلك لا يقف له على باب ، وضيق عليهم أياما بسبب ذلك ... وبالجملة فعنده لين جانب ، وقلة أذى ، بخلاف من تقدمه من الدوادارية .

وفى يوم السبت عشرينه ، دخل الحاج الى القاهرة مع السلامة ، فطلع الأمير طرباى أمير ركب المحمل ، وقانصوه أبو سنة أمير ركب الأول ، فخلع عليهما السلطان ونزلا فى موكب حافل . ثم شاعت الأخبار بأن السلطان رد خوندد أصل باى

أم الملك الناصر من الينبع ، ورسم لها بأن تقيم بمكة ، وقد تغير خاطره عليها ، فرجعت من الينبع الى مكة واستمرت هناك حتى كان من أمرها ما سنذكره فى موضعه .

وفيه قبض السلطان على عبد العظيم الصيرفى ثانيا ، بعد ما أفرج عنه ، فتسلمه الزينى بركات بن موسى ، فعاقبه وقرر عليه مالا له صورة .

وفى يوم الأربعاء ، خامس عشرينه ، توفى نور الدين على المسلاتى المغربى ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، وكان توجه صحبة العسكر الذى خرج الى التجريدة ، نحو بلاد الهند ، ورجع مع ناظر الخاص وهو فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه .

وفى تاسع عشرينه ، جاءت الأخبار بوفاة جان بلاط نائب غزة ، وكان من نواب طقطباى نائب القلعة ، فأقام فى نيابة غزة مدة يسيرة ومات . وفى سلخه وقعت زلزلة خفيفة بعد العشاء ، وأقامت نحوا من ربع درجة والأرض تضطرب .

وفى صفر كانت ليلة سيدى اسماعيل الانبائى ، ونصبت الخيام فى الجزيرة التى تجاه بولاق ، وخرجت الناس فى تلك الليلة عن الحد فى القصف والفرجة ، وكانت ليلة حافلة .

وفيه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة ستة أذرع وعشر أصابع ، وكان فى العام الماضى أرجح من ذلك .

وفى يوم السبت خامس عشرينه ، كان ختام ضرب الكرة ، وعزم السلطان على الأمراء بقساعة البحرة ، ومد لهم أسمطة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفى يوم الخميس سلخه ، عزل السلطان قاضى

القضاة الشافعي جمال الدين القلقشندي ، وخلق على الشيخ كمال الدين محمد الطويل ، المعروف بالقادري ، وفرره في قضاء الشافعية بمصر ، عوضا عن جمال الدين القلقشندي بحكم صرفه عنها . وقد اجتمع مع الشيخ كمال الدين مشيخة الخانقاه البيهرية ، وقضاة القضاة الشافعية ، ولم يتفق مثل ذلك سوى للعلامة شهاب الدين بن حجر ، وشمس الدين القايتي . وكان أصل قاضي القضاة كمال الدين هذا من أبناء الأتراك ، وهو كمال الدين أبو الفضل محمد بن نور الدين علي بن الناصري محمد بن السيفي بهادر العمري القادري .

وفي ربيع الأول كان مستهله بالجمعة ، فطلع قاضي القضاة كمال الدين في ذلك اليوم ، وخطب بالسلطان خطبة بليغة فأعجب السلطان والأمراء ، وقد جاء في القضاء على الوضع .

وفي سادسه توفي الأمير علي باي السيفي يشبك أحد الأمراء المقدمين ، وكان لا بأس به .

وفيه أظلم الجو ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان ذلك في أيب من الشهور القبطية ، وكان النيل في قوة الزيادة فلم يتأثر البحر لذلك حتى عد من النواذر .

وفيه عمل السلطان المولد النبوي على العادة وكان حافلا ، واجتمع القضاة الأربعة والأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو المجرة وكشف على عمارتها ، ثم عاد الى القلعة !

وفي ربيع الآخر جاءت الأخبار بأنه وقع خسف بجزيرة تجاه مدينة اقریطش ، فهلك به من الناس والبهاائم ما لا يحصى .

وفيه غرق شخص من الخاصكية يقال له أقباي ، وكان دوادارا سكيرا ، توجه الى نحو

الجزيرة الوسطى ، ونزل وعام في البحر وهو سكران ، فغرق تحت الساقية التي بالجزيرة ، وكان غير محمود السيرة في أفعاله .

وفيه نزل السلطان ، وتوجه الى القرافة وزار الامام الشافعي والامام الليث رضى الله عنهما ، ثم توجه الى نحو المجرة فكشف عليها وعاد الى القلعة .

وفيه أمطرت السماء أيضا بعد العشاء مطرا غزيرا ، ووافق ذلك ثالث مسرى ، والنيل في قوة الزيادة ، فلم يتأثر البحر لذلك . وقد وقع أمر هذا المطر في هذه السنة مرتين والنيل في الزيادة فتعجب الناس من ذلك .

وفيه خلق على ماماي جوشن وقرر أمير الحاج بركب المحمل ، وقرر قانصلوه أستادار الصحة بالركب الأول .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان لخاير بك المعمار بأن يتوجه الى عقبة أيلة ، ويأخذ معه جماعة من البنائين والمهندسين . وقد شرع السلطان في بناء خان بالعقبة ، والبروج وفساقي ، برسم ملاقة الحجاج ، وعمر رصيفا على البحر عند العقبة ، ورسم بإصلاح العراقيب التي بالعقبة ، وكانت تتضرر منها الحجاج ، فقبل أصلح ذلك وجاء من أحسن المباني في ذلك المكان .

وفيه أنعم السلطان على جان يردى تاجر الممالك بتقدمة ألف ، وهي مقدمة علي باي المقدم ذكر وفاته .

وفيه ، في حادي عشر مسرى ، زاد الله في النيل المبارك خمسين أصبعا دفعة واحدة ، وكان قبل ذلك توقف أياما ، فرسم السلطان لقضاة القضاة بأن يتوجهوا الى المقياس ويبيتوا به ، فتوجهوا الى هناك ، واجتمع قراء البلد ، ومد السلطان بالمقياس أسمة فاخرة وكانت ليلة حافلة . ثم

في القاهرة بما ذكرناه ، ولم يتم ذلك ، وعاد كل شيء على حاله .

وفيه رسم السلطان بنفى ابراهيم ، والى مصر العتيقة ، فنفى الى الواح ، وكان مستحقا لذلك ، وهو الذى كان متوليا عقاب بدر الدين بن مزهر الذى كان كاتب السر ، فعذبه بأنواع العذاب . وفيه تعير خاطر السلطان على مغلباى الزردكاش ، ومباشرى الزردخاناه ، وقرر عليهم عشرة آلاف دينار ، فرسم على عبد الباسط بن تقى الدين ووضعه فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه .



وفى جمادى الأولى ، فى يوم مستهله ، كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية .

وفى يوم الأربعاء ثانيه توفى الامام العالم العامل ، الورع التقى ، الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الرحمن الديرى الحنفى شيخ الجامع المؤيدى ، وكان عالما فاضلا ، رئيسا حشما ، من أعيان علماء الحنفية ، ومات فى عشر السبعين ، وكان لا بأس به ، رحمة الله عليه . فلما مات خلع السلطان على شخص من أبناء العجم يقال له الشريف حسين ، وقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى ، عوضا عن الشيخ بدر الدين الديرى بحكم وفاته ، وخلع على قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وقرره فى مشيخة المدرسة الصرغتمشية ، عوضا عن القاضى نور الدين على الدمياطى الحنفى بحكم انفصاله عنها .

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن بعض الفلاحين كان معه جملان محملان كتانا ، فدخل بهما وقت العشاء ، وشق بهما من السوق التى عند بيت الخليفة ، فتعلق فى ذلك الكتان الذى على ظهرهما نار من مسارج البياعين الذين هناك ...

فى اليوم الثانى ، وهو ثانى عشر مسرى ، زاد الله فيه عشرين أصبعا ، ثم فى ثالث عشر مسرى زاد الله فيه عشرين أصبعا ، فكانت زيادته فى ثلاثة أيام تسعين أصبعا ، ولم تقع مثل هذه الزيادة من مبتدأ الاسلام سوى مرتين . مرة فى دولة الظاهر برقوق سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، فانه زاد فى أول يوم من مسرى اثنتين وستين أصبعا فى يوم واحد ، ثم فى ثالث يوم من مسرى زاد خمسين أصبعا ، فكانت زيادته فى أربعة أيام سبع أذرع ونصف وأصبعين ... ولم يسمع بمثل ذلك من مبتدأ الاسلام حتى الآن . والمرة الثانية فى دولة الأشرف برسباى ، سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، فانه زاد فى يوم واحد خمسين أصبعا دفعة واحدة ، وكان الوفاء فى تاسع عشرين أييب . ثم فى هذه السنة فى دولة قانصوه الغورى زاد تسعين أصبعا فى ثلاثة أيام كما تقدم ، وكان الوفاء فى رابع عشر مسرى . فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، كما قال :

لله در الخليج ان له تفضلا لا لطيق فشكره
حسبك منه بأن عاداته يجبر من لا يزال يكسره

وفيه رسم السلطان بقتل عبد العظيم الصيرفى من بيت الزينى بركات بن موسى الى بيت الوالى ليعاقبه ، فتسلمه الوالى وعاقبه أشد العقوبة وعصره فى رأسه وأكعابه ، واستمر فى العقوبة مدة أيام ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأن أحدا من الناس لا يرافع فى أحد ، ولا يأخذ منه شيئا بغير حق ، وأن من ظلم فعليه بالأبواب الشريفة ... فارتفعت الأصوات له بالدعاء . فكان سبب ذلك أن بعض التجار وقف للسلطان وشكا فى بركات ابن موسى بحضرة الأمراء ، وكان ذلك التاجر مظلوما ، فاستحى السلطان من الأمراء ، ونادى

فلما أحس الجملان بالنار طفشا في الناس ، فمات بعض صغار ، وداسا الناس ، فتعطب جماعة كثيرة ، ودهكت بضائع الناس ... وكانت ساعة مهولة ، فلم يقدر أحد من الناس على مسك الجملين ، واستمرا طاغشين حتى وصلا الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فوقع هناك أحد الجملين فمات .

وفي جمادى الآخرة — في يوم الخميس ثانيه — توفي الشيخ بدر الدين محمد بن جمعة الحنفى ، ودفن في قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية ، وكان من أهل العلم والفضل وله شعر جيد ونظم رقيق ، ومن مخترعاته وهو قوله :

ورب غزال بالقرافة شتمه
مجاور قبر الليث بارقة الغيث
فلم أر قبل اليوم خشعا من الطبى
تألس حتى في مجاورة الليث
ومات وهو عن ستين سنة ، وكان يقول فيه
الشهاب المنصورى :

بدر تم مذقر طرفى منه
بطلوع شاهدت أحسن طلعه
عجبا كيف فاق أهل المعانى
في فنون العلوم وهو ابن جمعه
وفيه يقول الشهاب بن صالح :
لا يشبه بالبدر بدرى سناء
وسنا فهو منه أكمل طلعه
ذاك تم ابن جمعتين سناء
وحبيبي أتم وهو ابن جمعه

ومن الحوادث الشنيعة في هذا الشهر ، أن السلطان شرع يخرج اقطاعات أولاد الناس من أجناد الحلقة ، وغير ذلك من النساء اللاتى لهن

الرزق وربما تعرض للرزق الأجاسية والأوقاف ، فأخرج نحو من ثلثمائة اقطاع ورزقة من غير جنحة ولا سبب ، وصار ينعم بها على الممالك بمكاتبات ، وهذا الأمر ما سبقه به أحد من الملوك السالفة . . . فحصل للناس الضرر الشامل ، ولا سيما أولاد الناس صارت الممالك يهجمون عليهم ، ويأخذون منهم مناشيرهم غصبا عنهم ، ويهدلونهم بالضرب ، وكانت حادثة مهولة لم يسمع بمثلها ، وأنا من جملة من وقع له ذلك ، وخرج اقطاعى لأربعة من الممالك ، ولكن أعان الله تعالى ورجع الى اقطاعى والله الحمد ، وقد قلت هذين البيتين المواليا في المعنى :

يا مالك الملك يامن بالعباد ألطف
دبر عبيدك وأصلح دولة الأشرف
كم من أقاطيع أخرجها وما أنصف
وأطغى الممالك ذا يهجم وذا يخطف
وفي ذلك يقول محمد بن قانصوه بن صادق :
أيا بنى الأتراك أرزاقكم
ما قطعت الا لأمر عجيب

لا تضجروا من قطعها واصبروا
ستكشف الغمة عنكم قريب
لا تضجروا ترجع فادعوا بنا
في السر والجهر السميع المجيب
واحتسبوا من رموا سهام الدعا
فكل سهم حيث يرمى مصيب
ومن الحوادث أن عبد العظيم الصيرفى ، رافع صلاح الدين بن الجيعان ، وقال : « أنا أثبت في جهته أربعمئة ألف دينار أخذها من الخزانة أيام الملك الناصر محمد بن قايثباى » ، فقال السلطان الى هذا الكلام ، ورسم على صلاح الدين بن الجيعان ، وعلى علم الدين كاتب الخزانة ،

وبأنوب النصراني ، وقرر عليهم مائة ألف دينار .
ثم قبض على تاج الدين ابن كاتب الدواليب ،
وقرر عليه عشرة آلاف دينار ، واستمروا على
ذلك وهم في الترسيم حتى يكون من أمرهم
ما يكون .

وفيه ثبت النيل المبارك على تسع عشرة ذراعاً ،
وثبت الى العشرين من بابه ، ثم هبط . وكان نيلاً
عظيماً قوى العزم مباركاً ، وحصل به غاية النفع ،
فكان كما يقال في المعنى لبعضهم :

كان النيل ذو فهم ولب
لما يبدو لعين الناس منه

فيأتي عند حاجتهم اليه
ويمضي حين يستغنون عنه

وفي النيل يقول محمد بن قانصوه :

اضمر على النيل فانظر ما تسر به
إذا ضمرت فما في الفال اشكال

نصالك الماء رمل والنسيم به
مبدي ضميرك والتجعيد أشكال

ومن الحوادث : أن في هذا الشهر وقع غالب
البيوت التي بالروضة من قوة عزم الماء ، وقد هوى
البحر الجانب الغربي ، فرمى البيوت المحكمة البناء ،
وهذا قط ما اتفق سوى في هذه السنة .

وفيه كان انتهاء العمل من المجرة ، التي أنشأها
السلطان كما تقدم ، فدارت هناك الدواليب ،
وجرى الماء في المجرة ، حتى وصل الى الميدان
الذي تحت القلعة ، ثم ان السلطان صنع هناك
سواقى نقالة ، وبنى ثلاثة صهاريج تمتلىء من
ماء النيل ، يرسم المماليك الذين يلعبون الرمح في
الميدان ، وشرع في بناء بحرة في وسط ذلك
البستان الذي أنشأه بالميدان ، فكان طول تلك
البحرة نحواً من أربعين ذراعاً ، وقيل أكثر من

ذلك ، وبنى هناك عدة مقاعد ومناظر مطلات علم
ذلك البستان ، وفك رخام قاعات الأتابكي أزيلا
التي أنشأها بالأزبكية ، ونقل ذلك الى الأماكن
التي أنشأها بالميدان ، وصارت هذه البحرة تمتلئ
كل يوم بماء النيل ، وفائضها يسقى البستان
فجاءت كما يقال في المعنى :

تهناً بها يا أيها البحر بحرة
حككتك فما تنفك باسطة بدا
لها في هبوب الريح تجعيد مبرد
فمن أجل ذا تجلو عن المهج الصدا
وقال آخر :

عجبت منها بحرة بيضت
بخافقي كسنا البارق

كيف غدا الماء بها ساكنا
يرهو وقلب الماء خافق

وفي رجب حضر يحيى بن سبع ، الذي كا
أمير الينبع ، وجرى منه في حق الحجاج ما تقد
ذكره ، فأرسل اليه السلطان منديل الأمان ، فحظ
وقابل وكان قد أظهر العصيان مدة طويلة . فط
وعلى رأسه منديل الأمان ، فخلع عليه السلطان
فلما نزل من القلعة ، كادت العوام أن ترجمه
وسبوه سباً فاحشاً ، ولولا كان صحبة الإ
الدوادار لرجموه لا محالة ، فلما بلغ السلط
ذلك نادى في القاهرة بأن لا أحد من النا
يتعرض لابن سبع ، ولا يسبه ، ومن فعل ذا
شنق من غير معاودة ، فتكلم الناس في
السلطان ، بأنه أخذ من ابن سبع مالا له صو
وضيع حقوق الحجاج فيما فعل بهم .

وفي يوم الجمعة الموافق لثامن هاتور القبطي
قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وكان أشد

بين الناس أن السلطان ينزل الى المطعم ، ويلبس
الأمراء الصوف هناك ويوكب ويشق القاهرة ، فلم
يتم ذلك وبطل هذا الأمر ، فلبس الصوف يوم
الجمعة وخرج الى الجامع .

وفي هذه السنة كبرت الأمراء تخافهم ،
وطولوا قرونها ، حتى خرجوا في ذلك عن الحد ،
وقد قال القائل في المعنى :

قد لبس الصوف كل كبش

قرونها يا لها قرون

فرحت من ذلك مستريحا

لا صوف عندي ولا قرون

وفيه خلع السلطان على شمس الدين بن
عوض ، واستقر به مستوفى الدواوين .

وفيه تغير خاطر السلطان على شرف الدين
يونس النابلسى الأستاذال ، فرسم عليه ووضعه في
الحديد ، وسجنه بالعرقانة هو وأخاه زين الدين .
وفيه حضر علاء الدين ناظر الخاص ، وكان
مسافرا نحو الرشيد بسبب أمر المراكب التى عمرها
السلطان لأجل التجريدة ، فلما قابل السلطان خلع
عليه ونزل الى داره في موكب حافل .

وفي ذلك اليوم حضر الأمير محمد بيك ، وكان
توجه بسبب عرض المراكب المعينة للتجريدة .

وفي هذا الشهر وقعت تشحيطة بالقاهرة ، وعز
وجود الخبز من الأسواق ، وبلغ سعر القمح كل
أردب خمسمائة درهم ، وعز وجود التبن أيضا
وتناهى سعره كل حمل بدينار .

وفي شعبان طلع القضاة الأربعة للتهنئة
بالشهر ، وطلع الخليفة المستمسك بالله
يعقوب ، فوقع بينه وبين ابن عم أبيه خليل

تساجر فاحش بمجلس السلطان ، فقال
خليل للخليفة يعقوب . « أنت ولايتك ما تصح
فائك أعمى » ، وكان الخليفة يعقوب بعينيه
ضعف ، فقام اليه الناصرى محمد بن الخليفة ،
وقال له « وأنت ما تصح خلفك صلاة لأنك
ما تحسن قراءة الفاتحة » ، وكان خليل ألثغ لا
ينطق بحرف الراء ، ثم ألزمه السلطان بأن يقرأ
بحضرة القضاة فلما قرأ تعفش في القراءة بين
الناس ، ثم سكت ولم يكمل قراءة الفاتحة ،
وانقض المجلس مانعا وكان مجلسا مهولا ، فقال
السلطان : « يوم الاثنين نعقد مجلسا في أمر من
يصلح للخلافة » . فقام الخليفة يعقوب والقضاة
على أن الميعاد يوم الاثنين ، وقد ترشح أمر
الناصرى محمد ابن الخليفة يعقوب ليلى الخلافة
عوضا عن أبيه ، وكان السلطان محطا على الخليفة
يعقوب ، رائما منه مالا ، كما سيأتى الكلام على
ذلك .

وفي يوم السبت ثانيه توفي الأمير أربك اليوسفى
المعروف بفستق ، وكان أصله من ممالك الظاهر
جقمق ، وقرر في مقدمة ألف في دولة الناصر محمد
ابن الأشرف قايتباى ، وكان شاخ وكبر ومات وهو
في عشر الثمانين ، ومات وهو طرخان ، وكان له
مرتب على الذخيرة حتى مات ، وكان لا بأس به .

في يوم الاثنين رابعه حضر القضاة الأربعة
والخليفة يعقوب وولده محمد وابن عمهم خليل ،
وكان الخليفة يعقوب عهد لولده محمد بالخلافة عندما
حصل له ذلك في المجلس المقدم ذكره ، فعرض
ذلك العهد على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين
الطويل ، وكان الخليفة عبد العزيز عهد بالخلافة
من بعده لولده يعقوب ، ثم من بعده لولد ولده
محمد ، فلما وقف قاضى القضاة على هذين

العهدين قال : « الحق للناصرى محمد بن الخليفة يعقوب » .

ثم ان الخليفة قال للسلطان : « أنا قد شخت وكبر سنى ، وقد عزلت نفسى من الخلافة ، وعهدت الى ولدى بالخلافة ، فان شاء السلطان يوليه أو لا » ، فقال السلطان : « قد وليت ولدك » . وساعدته الأمراء على ذلك ، فتقدم كاتب السر محمود بن أجا ، واسترعى الشهادة على السلطان بولاية الناصرى محمد بن يعقوب ، ثم خطب خطبة بليغة وقال : « يا مولانا السلطان ، نشهد عليك أنك وليت الخلافة للناصرى محمد ابن الخليفة يعقوب فقال : « نعم » . فشهد القضاة عليه بذلك .

فقام الخليفة يعقوب وودع السلطان ، فأكرمه وعظمه ، ونزل الى داره ، وهو فى غاية العز والعظمة ، وألبسه السلطان سلارى صوف أبيض بسمور من ملايسه ، وألبس سيدى خليل أيضا سلارى من ملايسه ، وألبس ولديه أيضا سلارين بسنجا ، ثم أحضروا للناصرى محمد شعار الخلافة ، فأقيض عليه ، وتلقب بأبى عبد الله المتوكل على الله ، فولاه السلطان الخلافة على أتم وجه جميل ، ولم يراع من الأنام خليل ... فكان السادس عشر من خلفاء بنى انعباس بمصر . فلما لبس الشعار جلس بين يدى السلطان ، ثم ان القضاة شهدوا عليه بأنه فوض للسلطان الملك الأشرف قانصوه العورى ، ما فوضه اليه والده المستمسك بالله يعقوب ، فقال : « نعم » ، ثم قام وقد ارتفعت الأصوات للسلطان بالدعاء ، كون أنه لم يخرج الخلافة عنهما ، وكان ابن عمهم خليل سعى على الخلافة بمال جزيل ، فلم ينل من ذلك مناه ، فما كان عن ذلك السعى أغناه ، فولى خليل بوجه طويل ، ونزل من القلعة وقد اشتعل قلبه بنار الخليل ، فكان كما يقال فى المعنى :

ألا قل لمن كان لى حاسدا
أندرى على من أسأت الأدب

أسأت على الله فى فعله
لأنك لم ترض لى ما وهب
فجازاك عنه بأن زادنى
وسد عليك وجوه الطلب

ثم ان المجلس انفض ، وقام الخليفة المتوكل على الله ، وقد تلقب بلقب جده عبد العزيز ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته القضاة الأربعة وأعيان الناس وزينوا له حارقه ، وأوقدوا له الشموع بالصليية ، وكان له يوم مشهود ، وولى الخلافة وهو شاب ، وكان مولده سنة سبعين وثمانمائة ، ولم يتفق لأحد من خلفاء مصر بأنه ولى الخلافة ووالده فى قيد الحياة ، مقيما معه فى بيت واحد ، سواء .

وكانت مدة خلافة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب اثنتى عشرة سنة الا ثلاثة أشهر ، فانه ولى الخلافة يوم السبت ثالث صفر سنة ثلاث وتسعمائة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، وخلع نفسه من الخلافة رابع شعبان سنة أربع عشرة وتسعمائة ، وقيل انه تكلف فى هذه الحركة الى اثنتى عشر ألف دينار ، ولولا فعل ذلك كان اتقى الى دمياط أو الى القدس ، فكان ما فعله عين الصواب كما يقال :

يعوض الله مالا أنت متلفه

وما عن النفس ان أتلقتها عوض

وهذا ما كان من ملخص أخبار الخليفة يعقوب وولاية ولده الناصرى محمد .

وفى يوم الجمعة ثامنه ، نزل السلطان الى الميدان ، ورسم بجمع الحرافيش ، فاجتمع هناك السواد الأعظم من رجال ونساء ، ففرق على

كل واحد منهم نصفين فضة ، فقليل انه فرق في ذلك اليوم نحواً من أربعمئة دينار .

وفيه نزل السلطان من الدهيشة ، وتمشى ودخل الى الزردخانه ، وعرض الأسلحة التي كانت في الزردخانه من قديم الزمان ، فرأى أشياء كثيرة منها تلفت من الصدأ ، فطلب عبد الباسط ناظر الزردخانه ووبخه بالكلام ، ثم قصد شنقه في ذلك اليوم على باب الزردخانه ، فألزم باصلاح ما قسد من الأسلحة ، واستمر في الترسيب بعد ذلك مدة طويلة وهو في الحديد .

وفي يوم الاثنين حادى عشره عزل السلطان شرف الدين النابلسى الأستاذار ، وخلع على الأمير طومان باى الدوادار ، وقرره فى الأستاذارية ، عوضاً عن شرف الدين النابلسى ، فصار الأمير طومان باى أمير دوادار كبير وأستاذار العالية ، وكاشف الكشاف كما كان الأمير أقبردى . وخلع على شمس الدين بن عوض وقرره ناظر ديوان المفرد.

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه الى نحو بلاد الهند صحبة الأمير حسين قد انتصر على الفرنج الذين كانوا يتعشون فى البحر ، وغنم منهم العسكر غنائم كثيرة ، فسر السلطان لهذا الخبر ، وأمر بدق الكوسات ، فدقت ثلاثة أيام متوالية ، ثم ان حسين أرسل يطلب عسكراً ثانياً حتى يتقوى به على من بقى من الفرنج .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وعرض المحاييس ، فأطلق منهم جماعة من رجال ونساء ، وأبقى الفلاحين وأصحاب الجرائم .

وفي يوم السبت ثالث عشرينه حضر مراكب أغربة عدتها ست ، وهى التى كان ناظر الخاص توجه الى رشيد بسبب عمارتها ، فلما وصلت أرسى بها عند رأس الجزيرة الوسطى ، فخرج

الناس يتفرجون عليها ، وقد زينت بالصناجق والشطقات ، ودقت فيها الطبول ، وزعقت الزمور ، واجتمع هناك الناس أفواجا أفواجا .

فلما كان يوم الثلاثاء ، سادس عشرينه ، نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء قاطبة والمباشرون ، وتوجه الى نحو طرا ، وضربت له هناك الخيام . ثم أحضر بين يديه تلك المراكب الأغربة ، فلعبوا قدامه فى البحر ذهاباً وإياباً والطبول والنفوط عمالة ، ورموا قدامه فى البحر عدة مدافع ، وكان له يوم مشهود ، واجتمع هناك الجهم الغفير من الناس . وأقام السلطان هناك الى بعد العصر ، ومد له هناك ناظر الخاص أسمطة حافلة ، ولم يقم للسلطان من حين تسلطن يوم مثل ذلك اليوم فى القصف والفرجة . فلما ركب من هناك خلع على ناظر الخاص كاملية بسمور ، وخلع على رئيس المراكب وجماعته الخلع السنية ، ثم عاد الى القلعة .

وفي رمضان — فى يوم مستهله — نزل السلطان الى الميدان ، وطلع اليه الخليفة محمد المتوكل على الله بن يعقوب وهناً بالشهر ، وهو لابس العمامة البغدادية ، وهذا أول مواكبه فى الخلافة ، فقام اليه السلطان وعظمه الى الغاية ، فلما قام دخل بعده قضاة القضاة .

وفي ذلك اليوم طلع شرف الدين الصغير ، ناظر الدولة ، والزينى بركات بن موسى المحتسب ، وعرضوا عليه اللحم والغنم والخبز والدقيق والسكر وهو فوق على رءوس الحمالين ، فخلع عليهما السلطان ، وخلع على تغرى برمش الوزير ، وكان يوماً مشهوداً .

وفي يوم الأحد تاسع شهر رمضان ، حضر الى الأبواب الشريفة قاصد صاحب بغداد ، وهو شخص يسمى ييرك . فلما بلغ السلطان حضوره

أنزله بدار الأشرف جان بلاط التي بحارة عبد
الباسط ، ورتب له ما يكفيه .

فلما كان يوم الخميس ، ثالث عشر رمضان ،
أوكب السلطان بالحوش بغير شاش ولا قماش ،
 واجتمع بالحوش سائر الأمراء ، ورسم بأن يزينوا
باب الزردخانه الذي عند الجامع ، فزينوه
باللبوس وآلة السلاح والصناجق السلطانية ... ثم
طلب السلطان القاصد ، فطلع صحبة المهندار
وقابل السلطان ، وقرأ كتابه الذي حضر على يده .

وكان سبب حضور هذا القاصد أن متملك بغداد
مراد خان بن يعقوب بن حسن الطويل ، كان متوليا
على بغداد ، فزحف عليه شاه اسمعيل ابن حيدر
الصوفي فتغلب عليه عسكره ومال الى الصوفي ،
فلما رأى ذلك هرب ودخل الى بلاد السلطان
وأرسل قاصده الى السلطان بأن يمدّه بعسكر
حتى تحارب الصوفي ، فأكرم السلطان ذلك القاصد
وأحسن اليه ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة القان
أحمد ابن أويس ، متملك بغداد ، وقد زحف عليه
تمرلنك ، فهرب منه والتجأ الى الملك الظاهر
برقوق ، وقد تقدم القول على ذلك في موضعه .

وفيه ترافع شمس الدين ابن عوض والمعلم
يعقوب اليهودي ، فقال ابن عوض أنا أثبت في جهة
يعقوب ستين ألف دينار بطريق شرعي ، فمال
السلطان الى كلام ابن عوض واعتدل على يعقوب
اليهودي ، وأودعه في الترسيم على مال يرده .

وفيه أرسل خاير بيك المعمار ، الذي توجه الى
عقبه أيلة ، بسبب عمارة الأبراج التي أنشأها
هناك ، والخان والحواصل واصلاح طريق العقبة ،
فأرسل للسلطان حجارة زعم أن داخلها معدن
النحاس الأصفر ، وأنه وجد تلك الأحجار في واد
بالقرب من العقبة ، فرسم السلطان بسبك تلك

الأحجار ، فظهر منها بعض شيء من النحاس
لا يساوي تبعه ، فرجع عن ذلك .

وفي سابع عشره ، خلع السلطان على الجمالي
يوسف البدرى ، وقرره في الحسبة عوضا عن
الزيني بركات بن موسى ، بحكم انفصاله عنها ،
وخلع على أحمد بن العكام وقرر في بردارية
السلطان عوضا عن بركات بن موسى ، وكان
السلطان تغير خاطره على بركات بن موسى ، وأخذ
في أسباب الهبوط حتى أخرج عنه التحدث على
خاتناه سرياقوس ، والتحدث على جهات البرلس
وجعلها لناظر الخاص ، وغير ذلك من الجهات
التي كان يتحدث عليها ، فانه كان متحدثا على
ست عشرة جهة .

وفيه خلع السلطان على معين الدين بن شمس ،
وقرره نائب كاتب السر عوضا عن الشهابي أحمد
ابن الجيعان بحكم انفصاله عنها ، وقد اجتمع مع
معين الدين هذا وكالة بيت المال ونيابة كتابة السر
وغير ذلك من الوظائف ، وكان هذا من أكبر
أسباب الفساد في حقه كما يأتي الكلام على ذلك
في موضعه ، وقد سعى معين الدين بن شمس بمال
له صورة حتى استقر في نيابة كتابة السر ، وكان
معين هذا شنيع المنظر ، بشع الوجه ، فكان اذا
وقف وقرأ القصص بين يدي السلطان يقول
السلطان : « والله تعالى اني لأستحي من العسكر
لما يقف ابن شمس يقرأ على القصص قدامهم » .

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر فجلس
بالميدان وكان يوما مطرا .

وفيه قويت الاشاعات بأن الصوفي زاحف على
بلاد السلطان ثم خمدت تلك الاشاعات عن قريب .

وفي ثامن عشرينه ، جاءت الأخبار من دمياط
بوفاة الأمير أصطمر بن ولي الدين الذي كان أمير
مجلس ، ونفى الى دمياط بسبب واقعة الحجاج ،

وقد تقدم ذكر ذلك . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي ، وكان أميراً جليلاً رئيساً حشماً وكان عنده لين جانب ، وكان لا بأس به .

وفيه عرض على السلطان خلع العيد وهو بالميدان ، وكان يوماً مشهوداً .

وفي سلخه حضر كاشف الشرقية وصحبته شيخ العرب عبد الدايم بن الأمير أحمد بن بقر ، وقد قبض عليه بحيلة عملها حتى مسكه ، وكان له مدة طويلة وهو عاص يفسد في البلاد ، فلما قابل السلطان رسم بتقييده وايداعه في البرج .

وفي شوال كان موكب العيد حافلاً ، وكان يترك قاصد صاحب بغداد حاضراً فألبسه السلطان سلارى صوف بسمور من ملايبسه ونزل صحبة الأمراء .

وفي يوم الخميس ، رابعه ، نزل السلطان الى الميدان ، وجلس بالمقعد الذي به ، واجتمع حوله الأمراء ، ثم حضر قاصد صاحب بغداد . وفي ذلك اليوم ساق الرماحة بالميدان قدام السلطان ، ودخل المحمل وكسوة الكعبة ، وطافوا بها في الميدان ، واجتمع هناك الجهم الغفير من الناس بسبب الفرجة ، وكان يوماً مشهوداً ، ولا سيما كان ذلك بحضور قاصد صاحب بغداد .

ثم بعد أيام عزم السلطان على القاصد بالميدان وأحضر قدامه جماعة من المماليك ، وهم لا بسون آلة السلاح ، فرموا في ذلك اليوم رماية نشاب على الخيول ، وأظهروا أنواعاً غريبة في فن النشاب ، أدهشوا ذلك القاصد ، وأحرق السلطان في ذلك اليوم احراقة نطف بالنهار في الميدان ، وقد فعل مثل ذلك مرتين بحضرة القاصد وهو بالميدان .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة قرقماس الشريفى باش المجاورين ، فلما تحقق السلطان

موته ، عين باشية مكة الى شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له جان بردى بن قائم .

وفي يوم الخميس ثامن عشره ، خرج المحمل من القاهرة في تجميل زائد ، وكان أمير ركب المحمل مامى جوشن ، وبالركب الأول قانصوه بن دولات بردى استادار الصحبة أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان يوماً مشهوداً .

وفي ذى القعدة جاءت الأخبار من الطينة بأن الأمير تمر باى الهندى لما توجه الى هناك بسبب عمارة الأبراج التى أنشأها السلطان هناك على ساحل البحر المالح ... فبينما هو هناك جاءت اليهم مركب فيها فرنج فتعشوا بالسواحل ، فجمع الأمير تمر باى جماعة من الخفراء الذين هناك ، ومن كان معه من المماليك ، وتحارب مع تلك الفرنج ، فانتصر عليهم وأسر منهم نحواً من سبعة وعشرين نفراً وملك مركبهم وما كان فيها ، وأرسل الفرنج الأسرى ومركبهم الى السلطان فسرهم ذلك

وفيه حضر قاصد من عند صاحب قبرس وعلى يده مقدمة حافلة للسلطان ، فأكرمه وخلع عليه .

وفيه خلع السلطان ، على الزينى بركات بن موسى وأعادته الى الحسبة ، وعزل يوسف البدرى عنها . وكان قد وقع في تلك الأيام تشحيطة في القمح وارتفع الخبز من الأسواق ، وكادت العوام أن ترجم يوسف البدرى . فلما خلع على ابن موسى وأعادته الى الحسبة ، فرح به الناس قاطبة ، وسكن ذلك الاضطراب .

وفيه خلع السلطان على قاصد صاحب بغداد وأذن له بالسفر . وكان يروم أن السلطان يمد صاحب بغداد بعساكر من مصر حتى يحارب الصوفى ، فما طاول السلطان على ذلك .

وفيه جلس السلطان في الدهيشة ، وعرض
الأستادار شرف الدين النابلسي ، وكان له مدة
وهو مسجون بالمرقانة في قيد وزنجير ، وقاسى
ما لا خير فيه ، فشفع فيه بعض الأمراء فأفرج عنه ،
وقد ضمنه الزيني بركات فيما بقى عليه من المال ،
وفيه يقول محمد بن قانصوه :

يارب نج الخلق من ذى حسبة
في كعبه التعسير لا التيسير
ان سعر الأشياء غلت من كعبه
وغلت وزاد بكعبه التسعير

وفي ذلك اليوم عرض السلطان عبد الباسط بن
تقى الدين ناظر الزردخانا ، وكان له مدة طويلة
وهو في الترسيم بجامع القلعة وهو في الحديد .
وكان السلطان أوعده بالشنق ، فأفرج عنه في
ذلك اليوم ، وأورد بعض ما قرره عليه من المال ،
وضمنه في الباقي الأمير مغلباى الزردكاش ، وكان
السلطان قد قرر على مغلباى الزردكاش ،
وعبد الباسط الناظر ، وعبد الكريم بن اللاذني
المستوفى ، ويحيى بن يونس أحد الزردكاشية ...
فقرر عليهم السلطان عشرة آلاف دينار ، فأوردوا
منها شيئا ، وتأخر عليهم باقى ذلك حتى يعلقوه .
وكان قد رافعهم أحمد بن قراكرز أحد الزردكاشية ،
ومحمود وعلى باى وغير ذلك من الزردكاشية ،
فخلع السلطان على مغلباى الزردكاش ، وعلى
عبد الباسط ، وعلى عبد الكريم اللاذني ، ونزلوا
الى دورهم بعد ما قاسوا شدايد ومحن .

وفيه قبض السلطان على يوسف ابن أبى أصبح
الحلبى — وكان من خواصه — فقاسى غاة الضرر
والأنكاد ، وأمره قد شهر بين الناس بما جرى عليه
من الضرر البالغ .
واستمر المعلم يعقوب اليهودى في الترسيم ،

وعلم الدين المتحدث في الخزانة ، وبانوبه
النصرانى ، حتى يعلقوا ما قرر عليهم من الأموال
الجزيلة . وكذلك صلاح الدين بن الجيعان ، وقد
تقدم القول على ذلك بما قرر عليهم من المال .
وفيه أفرج السلطان عن عبد العظيم الصيرفى ،
وكان له مدة طويلة وهو في الحديد موكل به في
جامع القلعة ، فأورد مما قرر عليه من المال شيئا ،
وبقى عليه من ذلك المال بعض شيء ، فضمنه بعض
الأمراء ، وتكلم له مع السلطان بأن يطلقه حتى
يسعى في بقية المال . وقد قاسى عبد العظيم من
الشدة ما لا خير فيه ، وضرب وعصر غير ما مرة
في أكعابه وأصداعه وأضلاعه ، وغير ذلك من
أنواع العذاب .

وفي ذى الحجة ، خرج الأمير طومان باى
الدوادر ، وسافر الى جهة الصعيد ، فنزل من
القلعة في موكب حافل .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر ومن
له عادة .

ومن النوادر أن شخصا من الناس ، قيل هو
بواب جامع الحاكم ، طلع الى السلطان وذكر له
أنه رأى في المنام قائلا يقول له . قل للسلطان ان في
جامع الحاكم في بعض دعائمه دعامة تحتها دنائير
ذهب لا ينحصر عددها . فلما سمع السلطان ذلك
مال لكلامه ، وظن أنه حق ، فأرسل الأمير خاير
بيك الخازندار ، وبركات بن موسى ، وجماعة
آخرين من أخصائه ، وأخذوا معهم جماعة من
المهندسين والبنائين ، وأحضروا ذلك الرجل القائل
وقالوا له : « أرنا الدعامة التى تحتها الذهب » .
فقال : « لا أعلم أيها الدعامة التى تحتها الذهب » .

قال المهندسون : « ما يظهر حتى تهدم جميع الدعائم
تى هنا » .

فاجتمع فى ذلك اليوم الجهم الغفير من الناس
لجامع ، وكثر القال والقليل فى ذلك ، وكذبوا
لك الرجل . ثم شاوروا السلطان على هدم دعائم
جامع ، فلم يوافق على ذلك ، ورجع عن هذا
أمر من قريب ... وقد وقع مثل ذلك فى دولة
للك الأشرف برسباى ، وفى أيام الظاهر جقمق
الظاهر خشقدم ، ونزل الأمير خاير بيك
خازندار الى هناك .. ثم وقع مثل ذلك فى دولة
أشرف قايتباى ، ولم يظهر من هذه القضية
نتيجة قط ، ولم يفد من هذا الكلام شئ .

وفى ثالث عشرينه حضر مبشر الحاج ، وأخير
الأمن والسلامة ، وقد جد فى السير حتى وصل
، هذه المدة اليسيرة .

وفيه وقع تشاجر بين أنصباى حاجب الحجاب ،
بين الأمير نوروز أحد الأمراء المقدمين ، فوصل
مرهما الى السلطان ، فأ نصف السلطان أنصباى
لى نوروز . وكان سبب ذلك أن ربعا بجوار
نطرة الموسيقى ، وهو بالقرب من بيت نوروز ،
كان يسكن به بنات الخطأ يعملن الفاحشة ،
قصد أنصباى حاجب الحجاب كبس ذلك الربع ،
كان الربع للأتابكى أزبك ، فتوجه اليه دوا دار
نصباى وجماعة من النقباء ، فلما وصلوا الى
نساك ، ثارت عليهم غلمان نوروز وعبيده ،
ضربوا جماعة حاجب الحجاب ، ومنعوه من
بس ذلك الربع . فلما بلغ أنصباى ذلك ركب
نفسه ، وكبس ذلك الربع ، وضرب النساء اللاتى
ن به ، وأشهرهن فى القاهرة على حمير . فطلع
روز ، وشكا أنصباى الى السلطان ، فخط
لسلطان على نوروز وقصد الاخراج به وانتصف
ليه أنصباى .

وفيه وقعت زلزلة خفيفة بعد العشاء ولم يشعر
بها أحد من الناس الا القليل .

وفى هذه السنة صار السلطان يعمل غالب
المواكب بالميدان ، وأبطل لبس الشاش والقماش
فى المواكب ، وصار لا يلبس الا فى يوم الجمعة فقط
عند صلاة الجمعة وفى الأعياد وعند خروج الحاج ،
أو عند حضور قاصد ... وقد أبطل أشياء
كثيرة كانت من شيمعار المملكة ، مما كان يعمل
من النظام القديم .

وفى هذه السنة كثر الموت فى الدجاج حتى
شح جماعة من الفلاحين من ذلك ، وصار يموت
منهم فى كل يوم ما لا يحصى عدده .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه ، حصل للسلطان
توعك فى جسده واسهال مفرط ، وامتنع عن
الخروج الى الأمراء أياما ، ثم عوفى من ذلك
وخلع على الحكماء .

ومن النوادر أن البلسان ، وهو الذى يسميه
الناس البلسم ، كان قد انقطع زريعته من أرض
المطرية من أوائل سنة تسعمائة من القرن التاسع ،
وكانت مصر تفخر بذلك على سائر البلاد ، وكانت
ملوك الفرنج تنغالى فى دهن هذا البلسم ويشترونه
بثقله ذهبيا ، ولا يتم عندهم التنصر حتى يضعوا
من دهنه شيئا فى ماء المعمودية وينغمسوا فيه .
وكان يستخرج دهنه شيئا فى فصل الربيع فى
برمات ... فلما انقطعت زريعته من أرض المطرية
تنكد السلطان لذلك ، ولا زال يفحص عن أمره
حتى أحضر اليه بلسان برى من بعض أماكن
بالهجاز ، وهو فى طينه فزرعه بالمطرية فى مكانه
المشهور به ، فنتج وطلع لما سقى من ماء تلك البر
التي هناك ، فنتج فى هذه السنة وطلع ما كان قد

بظل أمره من مصر ، فعد ذلك من محاسن الملك
الأشرف قانصوه الغوري .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ،
وكانت سنة كثيرة الحوادث ، وقد وقع فيها عزل
وولاية ومصادرات ... فمن ذلك عزل الخليفة
المستمسك بالله يعقوب وولاية ولده محمد المتوكل
على الله .

ومنها عزل قاضي القضاة الشافعي برهان الدين
القلقشندي وولاية الشيخ كمال الدين الطويل .
ومنها عزل شرف الدين يونس النابلسي
الأستادار وولاية الأمير طومان باي الدوادار
واستقراره في الأستادارية مع ما بيده من
الدوادارية الكبرى .

ومنها عزل الشهابي أحمد بن الجيعان عن نيابة
كتابة السر وولاية معين الدين بن شمس .
ومنها عزل الزيني يركات بن موسى عن الحسبة
وولاية الجمالي يوسف البدرى .

وكانت سنة شديدة البرد حتى عدم أشياء
كثيرة من الفواكه والقضاء وغير ذلك ، ووقع فيها
أيضا تشحيطة في القمح حتى بلغ سعره الى
أشرفين كل أردب ، وعز وجود التبن والدريس .
ومنها عزل فخر الدين بن العفيف عن كتابة
الممالك وولاية شرف الدين الصغير لها .

ومنها مرافعة عبد العظيم الصيرفي لصلاح الدين
ابن الجيعان ، وعلم الدين المتحدث في الخزانة
الشريفة ، وبانوب النصراني . وقد صودروا ،
وأخذ منهم مال له صورة بسبب مرافعة عبد العظيم
الصيرفي لهم .

ومنها مصادرة مغلباي الزردكاش ، ومباشري
الزردخاناه ، وجماعة من الزردكاشية .

ومنها مصادرة يوسف بن أبي أصبع الحلبي
وكان من أخصاء السلطان .

ومنها مصادرة المعلم يعقوب اليهودي . وصودر
تاج الدين بن كاتب الدواليب ، وقرر عليه نحو
عشرة آلاف دينار . وصودر في هذه السنة جماعة
كثيرة من أعيان الناس .

ومنها ما وقع لأولاد الناس من أجناد الحلقة
وغيرها ، في خروج اقطاعاتهم من غير سبب ولا
موجب لذلك ، فأخرج السلطان في هذه السنة
نحو من أربعمائة اقطاع ورزقة ، حتى الرزق التي
كانت بيد النساء ، وربما تعدلوا الى الجهات التي
هي موقوفة على جهات بر وصدقة ورواج
الصالح . وقاست أولاد الناس من الممالك ما لا
خير فيه ، وصاروا يهجمون عليهم في بيوتهم ،
ويضربونهم وييهدلونهم أشد البهذلة والأمر لله .
وجرى في هذه السنة من الحوادث ما لا يحصى .

سنة خمس عشرة وتسعمائة (١٥٠٩ - ١٥١٠ م)
فيها ، في المحرم في رابعه ، الموافق لأول
يوم من بشنس القبطي ، أظلم الجو وأمطرت
السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت منه الأسواق ،
واستمرت تمطر يومين متواليين ، حتى عد ذلك من
النوادر ، حيث أمطرت في بشنس .

وفي حادي عشره خرج علاء الدين ناظر الخاص ،
وتوجه الى نحو الطور لأجل عمارة المراكب التي
أنشأها السلطان هناك بسبب تجريدة الهند

ومن الوقائع اللطيفة ، أنه في يوم الخميس ليلة
الجمعة ، خامس عشره ، نزل السلطان الى الميدان
ونصب به خيمة كبيرة مدورة ، وملا البحرة التي
أنشأها هناك من ماء النيل من المجراة التي أنشأها ،
ثم رسم بجمع كل ورد في القاهرة ووضع في تلك

بمعجود ، وبرجا بنخل ، وأصلح عدة مناهل بطريق مكة ، وبنى هناك أشياء كثيرة من هذا النمط ، وحصل بها غاية النفع ، وأنشأ بالأزلم برجا أيضا ، وجعل به جماعة من المماليك يقيمون به وكلما مضت سنة يحضرون ، ثم يتوجه غيرهم^١ .

وفيه عين السلطان الأمير علان الدوادار الثانى ، بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، وكان قد أشيع فى تلك الأيام بأن ابن عثمان قد مات ، وربما صلوا عليه صلاة الغيبة فى جامع الأزهر ، ثم ظهر بأن هذا الكلام كذب ، وأسفرت هذه الاشاعة عن أنه كان مريضا وشفى ، فعين السلطان علان بأن يتوجه اليه ويهنئه بالعافية .

وفيه حصل للسلطان بعض قولنج ، فامتنع أياما عن ضرب الكرة ، ثم شفى من هذا العارض وضرب الكرة فى الميدان ، وهذا بخلاف العادة القديمة أن الكرة تضرب فى الميدان .

وفى صفر جاءت الأخبار من دمياط بأن شخصا من أولاد ابن عثمان يقال له قرقد بيك ، قد وصل الى دمياط . فلما تحقق السلطان ذلك عين الى ملاقاته الأمير أقبای أمير آخور ثانى ، وأزدر المهندار ، وناق الخازن . وأرسل صحبتهم ملاقة حافلة من كل نوع فاخر . وجهاز المراكب حتى الحراقة الكبيرة التى يكسر فيها السد ، برسم ابن عثمان ، ليحجى فيها فى البحر . وجهاز له احراقة نطف تحرق قدومه فى البحر لما أن يقلع ، وما بقى من اكرامه ممكن . فتوجهوا الى دمياط بسبب الملاقاة .

وفى يوم السبت سابعه ، قبض السلطان على الشهابى أحمد بن الجيعان ووكل به وقرر عليه خمسة آلاف دينار ، وكان فى هذه المصادرة مظلوما .

(١) لعله يعنى : « يتوجهون » ثم « يحضرون » غيرهم هـ

البحرة ، وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ . وعلق أحمالا بها قناديل ، وفرش حول البحرة الفرش الفاخرة ، وعزم على القضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير ، وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأعيان الناس قاطبة ، وبات السلطان تلك الليلة بالميدان ، وبات عنده الأتابكى قرقماس وجماعة من الأمراء . ومد تلك الليلة أسمطة حافلة ، أعظم من سماط المولد ، فمد فى السماط أربعمئة صحن صينى . ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية ، وكل قطعة نصف رطل ، وكان من الأوز والدجاج والغنم ما لا ينحصر ، ومن اللحم ألف وخمسمئة رطل ، ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز خمسمئة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسون معلوفا ، ومن الرمان الرضع أربعون رميسا ، حتى قيل صرف على ذلك السمات فوق الألف دينار بما فيه من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك ، وكانت ليلة مشهودة .

وفيه قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك تاسع بشنس القبطى ، ثم فى عقيب ذلك ابتداء يضرب الكرة .

وفيه نزل السلطان الى الميدان ، وأحضر جماعة من المماليك يرمون بالنشاب على الخيل ، وهم بالة السلاح ، وأحرق فى ذلك اليوم احراقة نطف بالنهار ، وكان له يوم مشهود .

وفيه ، فى ثانى عشرينه ، دخل الحاج الى القاهرة مع الأمن والسلامة ، وكانت سنة رخية مباركة . ولما رجع الحجاج ، أخبروا بما فعله السلطان من وجوه الخير من العمارة بالعقبة ، وقد أنشأ هناك خانا وفيه عدة حواصل ، برسم الودائع ، وأبراجا ، وجعل بها جماعة من الأتراك قاطنين هناك ، يقيمون بها سنة ثم يعودون الى مصر ، ويتوجه جماعة غيرهم الى هناك ، وأصلح طريق العقبة وقطع الأماكن الصعبة التى كانت بها العراقيب ، وأنشأ برجا

وفيه أفرج السلطان عن شرف الدين يونس النابلسي الأستاذار ، وقرر عليه عشرة آلاف دينار وقد قاسى شدائد ومحنا ، وأقام في السجن بالعرقانة نحو من عشرة أشهر وهو في زنجير وقيد مخشب اليدين .

وفي يوم الأربعاء ، حادى عشره ، كانت ليلة سيدى اسمعيل الانبأبى ، وكانت ليلة حافلة . وضرب في الجزيرة التي تتجاء بولاق نحو من خمسمائة خيمة ، وخرج الناس في القصف والفرجة عن الحد .

وفيه ، في ليلة الأحد ، خامس عشره ، خسف جرم القمر وأقام في الخسوف نحو احدى وأربعين درجة

وفي يوم الاثنين سادس عشره ، تسحب جمال الدين الزغلى من المقتشرة وهرب ، وكان التزم بدار الضرب وقرر عليه للسلطان في كل شهر مال له صورة ، فأتلف سائر المعاملة من الذهب والفضة ، وظهر بها الزغل كالشمس ، حتى ضج من ذلك سائر الناس والأمراء ، وصارت معاملة السلطان لا تمتشى في غالب البلاد ، وامتنع الذهب البرسبية والجقمقى والأينالى والخشقدمى والقائيتية ، وصار الذهب الغورى والفضة هي التي عليها العمل مع ما بها من الغش الفاحش . فلما تزايد الأمر في ذلك شكوا بعض الأمراء هذا الحال الى السلطان فقبض على جمال الدين الزغلى وضربه ضربا مبرحا وسجنه بالمقتشرة ، فأقام بها أياما وهرب . فلما هرب مقتى السلطان قانصوه أبا سنة الوالى بسبب ذلك ، وقصد الاخراق به ، ثم قرر عليه خمسة عشر ألف دينار . وهرب معلو المقتشرة واختفوا ، وضرب بسبب ذلك يحيى بن نوكار دوادار الوالى ، وحصل على جماعة من الناس بسبب جمال الدين الزغلى

ما لا خير فيه ، كما سيأتى الكلام على ذلك في موضعه .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر صفر وصل قرقد بيك بن عثمان الى شبرا ، وهو قرقد بن أبى يزيد ابن محمد بن مراد بيك المتصل النسب الى جدهم عثمان . فلما وصل الى شبرا أخلى له السلطان قاعات البرابخية التي ببولاق ، ورسم لناظر الخاص بأن يحضر اليه جميع ما يحتاج له من فرش وأوان وصينى وغير ذلك من الاختياج ، فخرج جماعة من الأمراء الى ملاقاته . وكان السلطان رسم للكشاف ومشايخ العربان ، بأن يلاقوه بطول الطريق ، ويصنعوا له الأسطة والمعدات الخافلة ، فرموا على بلاد المقطعين أشياء كثيرة من أغنام وأوز ودجاج وغير ذلك ، فاستمر على ذلك حتى وصل الى قاعات البرابخية وهو في الحراقة التي يكسر فيها السد . فلما دخل البرابخية مد له السلطان هناك مدة حافلة .

ثم توجه اليه الأتابكى قرقماس والأمراء المقدمون قاطبة فسلموا عليه . ثم توجه اليه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف فشرع يقوم لكل من يجيء اليه من الناس ...

واستمر على ذلك الى يوم الاثنين ثالث عشرين صفر ، فأرسل السلطان عشرين فرسا له ولمن معه ... منهم أربع جنائب بالسروج الذهب والكنائش الزركش والغواشى الحرير الأصفر .

ثم ان السلطان رسم لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء قاطبة ، ويعلمهم بأن الموكب في الحوش بالشاش والقماش . ثم ان السلطان نصب السحابة الزركش على الدكة وغشى الدكة بالأطلس الأصفر ، ورسم بأن تزين القلعة عند باب الزردخاناة بالصناجق السلطانية وآلة السلاح ، وأن تصف المكاحل الكبار ، على باب الزردخاناة ... ثم

رسم للمهندار ورءوس النوب ، بأن يتوجهوا الى ابن عثمان وهم بالشاش والقماش ويطلعوا قدامه الى القلعة ، فتوجهوا الى بولاق وأركبوه من البرابخية على فرس بسرج ذهب وكنبوش ، وقدامه الجنائب السلطانية ، فطلعوا به من على المقس وأتوا به من على سوق مرجوش ، وشقوا به القاهرة ، فكان له يوم مشهود . وخرج الناس أفواجا أفواجا لرؤيته .

واستمر في ذلك الموكب الحافل حتى وصل الى القلعة ، فطلع وهو راكب الى عند الحوش السلطاني ونزل على مصطبة باب الدهيشة ، ففرشوا له هناك مقعدا حريرا ، فاستراح ساعة نحو درجة ثم دخل الحوش . فلما وصل الى أوائل البساط نزل السلطان من على الدكة واستمر واقفا حتى وصل اليه ابن عثمان فتعانقا ، وقيل ان ابن عثمان باس يد السلطان ووضعها على عينيه . ثم تحدث معه السلطان ساعة وهو واقف على أقدامه ، فلما خلع عليه السلطان وخرج من الحوش ركب من على مصطبة شاد الحوش .

وكان سبب مجيء قرقد بن عثمان الى مصر ، قيل حصل بينه وبين أبيه حظ نفس ، فأتى الى السلطان ليصلح بينهما .

وكانت صفة قرقد بيك بن عثمان رجلا شابا في عشر الأربعين : معتدل القامة ، عربي الوجه ، يميل الى الصفرة ، نحيف الجسد ، أسود اللحية ، جميل الهيئة ، وعلى رأسه عمامة تركمانى ، وهى صغيرة دون عمام جماعته . وقيل انه كان أكبر أولاد أبى يزيد بن عثمان .

ثم ان السلطان طلب خلعة فأحضر اليه خلعة جر ذهب منسوجة شغل القاعة تلمع كالبرق ، فأقيضت على قرقد بيك بن عثمان ، وكان عليه لما طلع الى القلعة دلامة حرير أصفر وفوقها جندة

صوف أخضر مفتوحة ، فنزع ذلك من عليه ولبس خلعة السلطان . وقد بالغ السلطان في اكرامه جدا ، بخلاف ما وقع لجمجمة بن عثمان مع الأشرف قايتباى ، فانه لما دخل عليه لم يقيم له ، ولا وصل الى الحوش وهو راكب ، ولا أنعم عليه بأشياء حافلة كما فعل الغورى مع قرقد هذا .

وفى ذلك نكتة لطيفة وهى أن الجمجمة لعلها لقب لقب بها ، بعض أولاد آل عثمان وليس علما ، لواحد منهم ، ومع ذلك ما اشتهر بها رجل منهم في بلاد الروم وغيرها اللهم الا في مصر ، ثم أخى يعتقد أن المراد به هو السلطان جم ابن السلطان أبى الفتح محمد خان ، هرب الى مصر لما تسلطن أخوه السلطان بايزيد خوفا منه على نفسه . وقضيته مشهورة لم يل ملك الروم ، وقرقد ولى على اسطنبول كرسى مملكة الروم مدة يسيرة لما مرض أبوه وأشرف على الموت ، فولى على الروم عوضه حتى شفى ، وكان أكبر أولاده .

ثم ان السلطان رسم للأمراء بأن ينزلوا صحبة قرقد بن عثمان ، فنزلوا معه الى الصليبة ، فحلف عليهم بالرجوع الى دورهم ، وتوجهوا به الى بولاق من على الجزيرة الوسطى ، وصحبته الرءوس النوب بالشاش والقماش حتى وصل الى البرابخية ، ثم انقض ذلك الموكب . ومد له السلطان هنا مدة حافلة . ثم فى أثناء ذلك أرسل اليه السلطان مقدمة حافلة . قيل بعث اليه بعشرين ألف دينار ، عشرة فضة وعشرة ذهب وعدة بقج فيها قماش مفتخر ، ما بين سكندرى ومنزلاوى ، وغير ذلك . ثم قدم ابن عثمان للسلطان فيما بعد مقدمة حافلة ما يحضرنى قدرها .

وفى هذا الشهر توفى الأمير مغلباى دجاج أحد الأمراء الطيلخانات .

الجيعان ، وكان له مدة وهو في الترسيم حتى غلق
ما قرر عليه من المال .

وفي ربيع الأول طلع ابن أبي الرداد ببشارة
النيل ، وجاءت القاعدة ست أذرع وثمانى عشرة
أصبعاً ، وكانت أزيد من العام الماضى بشمانى أصابع .
ومن النوادر اللطيفة أن بركة الرطلى زرعت في
هذه السنة حشيشاً ، وهذا لم يتفق قط . وكان
الذى زرع الحشيش كمال الدين بن قوسان ، وقد
استأجر أرض بركة الرطلى ، فكان كل من دخل
اليها يبتهج بذلك ، ولا سيما أصحاب الكتبة من
الحشاشين ، فجاءت اليها الناس أفواجا يتفرجون
على ذلك الحشيش ، وقد وضع من أهله في محله ،
حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، وفيه يقول
بعض شعراء العصر :

تساهت بركة الرطلى حسنا

وضارت جنة فيها عروش

ومذ زرعوا الشراق في ثراها

بيدو نسيمها طلع الحشيش

وفي يوم الثلاثاء ، ثامنه ، عزم السلطان على قرقد
بيك بن عثمان في الميدان ، ولعب السلطان والأمراء
قدامه بالكرة ، ومد له أسمطة حافلة بالبحرة التى
بالميدان ، ولم يحضر في ذلك المجلس سوى
عثمان وجماعته . ثم ان ابن عثمان تكلم مع
السلطان في أمر الأمير أزيك المكحل الذى نفى
الى دمياط بسبب الأتابكى قيت الرحبى ، كما
تقدم ، فلما قدم ابن عثمان الى دمياط ترمى عليه
أزيك المكحل بأن يشفع فيه عند السلطان أن يعود
الى مصر ، ويقيم بها بطلا ، فشفع فيه ابن عثمان
في ذلك المجلس وبأس يد السلطان ، فرسم باحضاره
الى مصر ، فلما أراد ابن عثمان الانصراف ، خلع

(1) اسم «الحشيش» باللاتينية «Cannabis indica»

وتوفى أيديكى دوادار علان الدوادار الثانى ،
وكان غير مشكور السيرة في أفعاله .

ومن الحوادث أن في يوم الخميس ، سادس
عشرينه ، توفى أحمد بن العكام برداد السلطان ،
وقد مات قتيلًا . وسبب ذلك أن بعض أعدائه سلط
عليه من قتله بخنجر في البندقابين وهو طالع الى
القلعة بعد صلاة الصبح ، كما جرى لأبى البقا ابن
الجيعان ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه توجهت طائفة من الممالك الى بيت
شخص من الأمراء الرؤوس النوب يقال له اينال
باى ، فأحرقوا بيته ونهبوا ما فيه . وكان سبب
ذلك أن صبيًا أمرد كان بجمقدارا عند بعض
الممالك ، فهرب من عنده واحتفى بهذا الأمير ،
فدخل اليه المملوك يطلب الصبي من عنده ، وادعى
أنه سرق من عنده شيئاً ، فأغلظ المملوك على ذلك
الأمير في القول ، فأدبه وضربه . فتعصبت له
خشداشينه وأتوا الى بيت اينال باى المذكور
ونهبوا ما في مراكبهم أجمعين ، فتأكد السلطان
يلتفت الى كلامه وراح النهب في كيسه .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه
الى الهند صحبة حسين المشرف قد كسرهم
الفرنج كسرة فاحشة ، وقتلوا العسكر عن آخره ،
ونهبوا ما في مراكبهم أجمعين ، فتأكد السلطان
لهذا الخبر .

وفيه سافر ناظر الخاص ، والأمير محمد بيك
قريب السلطان الى ثغر الاسكندرية ، بسبب تجهيز
المراكب التى يتوجه فيها الأمير علان الى بلاد ابن
عثمان .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد بن

عليه السلطان كاملية تماسيح على أحمر ، وأركبه فرس بوز بسرج ذهب وكنبوش .
وفي يوم الجمعة ، حادى عشره ، عمل السلطان المولد النبوى ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة على العادة ، وحضر قرقد بيك بن عثمان ، فلما طلع قام له السلطان وأجلسه عن يمينه فوق المرتبة التى هو جالس عليها ، فوق القاضى الشافعى . وفي ذلك اليوم لبس السلطان الشاش والقماش ، ولم يكن عادة أن السلطان يلبس الشاش والقماش فى المولد . وانما فعل ذلك لأجل ابن عثمان ، وأظهر السلطان فى ذلك اليوم غاية العظمة بخلاف كل سنة .

وفي ربيع الآخر قبض على جمال الدين الزغلى الذى تسحب من المقشرة ، فرسم السلطان بشنقه ، فأشهره وهو عريان على حمار ، والمشاعلية تنادى عليه حتى أتوا به الى بيت شخص من الأمراء العشراوات يقال له تمرباى ، وكان ساكنا فى مصر العتيقة على البحر ، فشنق هناك على بابه ، وشنق معه خمسة أنفار كانوا يعملون الزغل معه . وسبب ذلك أن تمرباى المذكور كان هو الذى عرف بين السلطان وبين جمال الدين وقال للسلطان ان جمال الدين يعرف صنعة الكيمياء ، فظهر أن ذلك كذب .

وفيه فى ليالى وفاء النيل وقع ببركة الرطلى حريق فى بعض بيوت الجسر التى بها ، فاحترق نحو سبعة أماكن ، ولا يعلم من فعل ذلك . وكان الجسر خاليا بغير سكان .

وفيه تغير خاطر السلطان على علاء الدين ناظر الخاص بسبب العجمى الذى كان عند السلطان الشنشى ، وهذه الواقعة مشهورة بين الناس بما كان سببها ، فكادت ديار ناظر الخاص أن تخرب فى هذه الحركة ، وألزمه السلطان بأن يعتق عبيده وجواريه قاطبة .

وفيه وقع تشاجر بين قاضى القضاة الحنفى وبين كاتب السر البدوى محمود بن أجا بسبب وقف كان بينهما بحلب ، فرسم السلطان بعقد مجلس بينهما بالمدرسة الصالحية ، فلما توجهوا الى هناك انتصف كاتب السر على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة واستخلص منه الوقف الذى

عليه السلطان كاملية تماسيح على أحمر ، وأركبه فرس بوز بسرج ذهب وكنبوش .

وفي يوم الجمعة ، حادى عشره ، عمل السلطان المولد النبوى ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة على العادة ، وحضر قرقد بيك بن عثمان ، فلما طلع قام له السلطان وأجلسه عن يمينه فوق المرتبة التى هو جالس عليها ، فوق القاضى الشافعى . وفي ذلك اليوم لبس السلطان الشاش والقماش ، ولم يكن عادة أن السلطان يلبس الشاش والقماش فى المولد . وانما فعل ذلك لأجل ابن عثمان ، وأظهر السلطان فى ذلك اليوم غاية العظمة بخلاف كل سنة .

وفي يوم الخميس ، سابع عشره ، خلع السلطان على الأمير طقطباى نائب القلعة أحد الأمراء المقدمين ، وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وقرر مغلباى الزردكاش بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان جماعة من الممالك وأولاد الناس ، وعين منهم جماعة الى الطينة يقيمون بها سنة فى الأبراج التى أنشأها هناك ، ويصيرون بالنوبة ، كلما مضت سنة يأتى تلك الجماعة ويتوجه خلافتهم الى هناك ، ويقيمون بها سنة كاملة .

وفي يوم السبت ، تاسع عشره ، حضر أزبك الملكحل من دمياط ، وكان مضييا بها ، فشنق فيه قرقد بيك بن عثمان كما تقدم ذكر ذلك . فلما حضر خلع عليه السلطان ونزل الى داره ، ورتب له ما يكفيه من الذخيرة بغير اقطاع ، واستمر طرخانا .

وفيه خلع السلطان على علوى البرماوى وقرره فى بردداية السلطان ، عوضا عن أحمد بن العكام بحكم موته ، وصار البرماوى من تحت يد الزينى بركات بن موسى .

وفيه كان ختم ضرب الكرة ، وحضر ابن

بحلب ، وكان السلطان قائما مع كاتب السر ، ومحطاً على عبد البر بن الشحنة .

وفيه تغير خاطر السلطان على سودون نائب دمياط بسبب ما وقع منه في حق ابن عثمان لما دخل الى دمياط ، فلما حضر سودون المذكور ضربه بين يديه وقرر عليه مالا له صورة .

وفيه حضر ترمباي الهندى أحد الأمراء العشراوات الذى كان توجه الى الطينة بسبب عمارة الأبراج التى أنشأها السلطان هناك ، فلما انتهى منها العمل وحضر خلع عليه بسبب ذلك .

وفيه انقطع جسر أم دينار الذى بالجيزة ، وكان ليالى وفاة النيل فاضطربت الأحوال لذلك ، وخرج قانى باي قرا أمير آخور كبير على جرائد الخيل ، وعدى الى الجيزة فأعياه سده ، فأرسل يطلب من السلطان عونة على ذلك ، فرسم السلطان لجماعة من الأمراء المقدمين بأن يتوجهوا الى هناك ويتعاونوا على سده ، فتوجه الأمير دولات باي أمير سلاح ، والأمير طرا باي رأس نوبة النوب ، والأمير ترم الحسنى أحد المقدمين ، والأمير ماماي جوشن وجماعة آخرون من الأمراء العشراوات . فلما توجهوا الى هناك أعياهم سد ذلك الجسر ، وحصل للناس بسببه الضرر الشامل ، وصاروا يمسكون الناس من الطرقات ويرمونهم في الحديد ويتوجهون بهم الى جسر أم دينار ، وحولوا اليه بأخشاب كثيرة وسلب ، ومع هذا أعياهم سده ، حتى عد ذلك من الوقائع الغريبة . وفيه يقول محمد بن قانصوه :

مذ نقص النيل ليالى الوفا

وأمتع البشر من البر

رأى لقلبي البر في كسره

فخصه بالجبر في الكسر

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة خوند

أصل باي أم الملك الناصر ، وسرية الملك الأشرف قايتباي ، وأخت الملك الظاهر قانصوه ، وزوجة الملك الأشرف جان بلاط ، توفيت بمكة ودفنت هناك . وقد تقدم القول بأن خاطر السلطان قد تغير عليها ، فلما حجت وقصدت العود الى مصر أرسل السلطان مراسيم بعودها الى مكة ، فعادت اليها من أثناء الطريق ، واستمرت مقيمة بمكة الى أن ماتت بها بعد مضي سنين .

وفيه كان وفاء النيل المبارك الموافق ذلك لربيع عشر مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكي قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه شرع السلطان يقبض على جماعة خوند أم الناصر ، وقد ظهر لها أشياء كثيرة من أموال وتحف في عدة حواصل ، وقد حصل على جماعة من النساء بسببها ما لا خير فيه ، وضربوا وعصروا غير ما مرة ، وما قاسوا خيرا في جرتها ، واستمروا في التراسيم مدة طويلة وهم الى الآن على ذلك . وفيه كان انتهاء العمل من الجامع الذى أنشأه السلطان خلف الميدان عند حوش العرب وخطب به ، وقد جاء في غاية الحسن .

وفي جمادى الأولى ، حضر الأمير طومان باي الدوادار ، وكان قد سافر الى جهة بلاد الصعيد ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ، ونزل الى داره في موكب حافل .

وفي يوم الخميس ، سادسه ، توجه الأمير علان الدوادار الثانى الى السفر ، وقد تقدم أن السلطان عينه قاصدا الى ابن عثمان ، وكان اتقرر الحال أولا على أنه يسافر من البحر الملح فما تم له ذلك وسافر من البلاد الشامية ، فخرج في ذلك اليوم في موكب حافل .

وفيه ملع الأمير طومان باي الدوادار الكبير
بتقدمة حافلة الى السلطان ، كون أنه جاء من
الصعيد ، فكان من جملة التقدمة : عشرة آلاف
دينار ، ومائة فرس ، ومائة بقرة ، وخمسمائة رأس
غنم ، وثلاثون رأس رقيق ، وغير ذلك أشياء كثيرة.
وفيه رسم السلطان بشنق شخص زغلي ،
فشنق على باب زويلة .

ومن الحوادث أن شخصا شابا يقال له سكيكر
أشيع عنه أنه قد قتل أباه ، فلما عرض على السلطان
لم يقر بشيء ، فرسم بتسليمه الى الوالى ، فعاقبه
فلم يقر بشيء ، فسيجن بالمقشرة حتى يكون من
أمره ما يكون .

وفيه حضر علاء الدين ناظر الخاص ، وكان
توجه الى ثغر الاسكندرية بسبب تجهيز المراكب
المعينة صحبة الأمير محمد قريب السلطان .
وفي هذا الشهر وقعت زلزلة خفيفة بعد العصر
فلم يشعر بها الا القليل من الناس .

وفي جمادى الاحره ، فى يوم تاسعه ، نزل
السلطان الى الميدان وحضر عنده ابن عثمان .
ووقع فى ذلك اليوم خصمانية فى لعب الرمح ،
وأحرق السلطان قدامه احراقه نفض بالنهار فى
الميدان ، وكان يوما مشهودا .

وفيه ثبت النيل المبارك على اثنتين وعشرين
أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وقد ثبت الى أواخر
يابه .

وفيه ظهرت امرأة غريقة عند قناطر الأوز ،
ووجد عليها ثياب فاخرة ، وفى آذانها حلق بلخش ،
وفى يدها سوار ذهب ، فطلع بها والى القاهرة
ووضعها فى تابوت عند جامع الظاهر ، فأقامت يوما
وليلة ولم يظهر لها معرفة فدفنت بعد ذلك .

وفيه وقع ربح فى الكدشين ، وكان مطلا على

الخليج ، فقتل تحت الردم شخص يقال له شمس
الدين البهواشى ، أحد نواب الحكم من الشافعية ،
وكان لا بأس به ، وقتل شخص معلم صاجاتى ،
وقتل جماعة آخرون ممن كانوا ساكنين فى ذلك
الربيع ، وكانت حادثة مهولة .

وفى رجب نادى السلطان بأن لا يتجاهر الناس
بالمعاصى ، ولا يمشى بسلاح من بعد المغرب ، وأن
الناس يواظبون على الصلوات الخمس فى الجوامع ،
فسمعوا من أذن وخرج من أخرى .

وفيه قبض السلطان على الشمسى محمد ابن
فخر الدين كاتب الممالك ، الذى قرر فى نظر
الاسطبل السلطاني ، كما تقدم ، فلما قبض عليه
قرر عليه مال ووكل به ، وكان مظلوما فى هذه
الواقعة .

وفيه قبض السلطان على جلال الطنبدي ، أحد
نواب الحنابلة ، وقد كذب عليه بعض أعدائه
وأوحى للسلطان بأن قانصوه خمسمائة الذى
تسلطن قد أودع عنده مالا ، فطلبه السلطان
ورسم عليه ، وقاسى شدائد ومحنا ، وصور غير
ما مرة بسبب قانصوه خمسمائة فانه كان من جملة
أصحابه .

وفيه توفى والد معين الدين بن شمس وكيل
السلطان ، مات بغتة ، قيل طلب منه السلطان مالا
فابتلع فضا من الماس فمات فى ليلته ، فكانت
الواقعة تقرب من واقعة ناصر الدين الصفدى
وكيل بيت المال ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه قبض الوالى على امرأة تسمى أنس ،
وكانت قبيحة السيرة تجمع عندها بنات الخطاء ،
وكانت ساكنة بالأزبكية ، فلما تولى الأتابكى
قرقماس توجهت الى قليوب ، فأرسل السلطان
بالقبض عليها ، فلما قبضوا عليها رسم السلطان

بتعريقها ، ويقال انها فدت نفسها بخمسمائة دينار ورسم بنفيها .

وفيه خلع السلطان على آقبای وأعاده الى كشف الشرقية ، كما كان قبل ذلك ، وصرف عن كشف الشرقية كرتباى مملوك السلطان .

وفي هذه السنة أرسل السلطان تقليدا الى يوسف الناصرى وقرره في نيابة حماة عوضا عن جانيه الذي كان بها ، وقرر جان بردى الغزالى في نيابة صفد عوضا عن سودون الدوادارى ، وقرر سودون الدوادارى في نيابة طرابلس ، وقرر في نيابة الكرك يوسف دودار ملّاج نائب القدس .

ومن الحوادث في هذا الشهر ، أن قرقماس المقرى ، أحد الأمراء العشراوات كان ساكنا في زقاق الكحل فسرق من بيته عملة بألف دينار ، فقبض على جيران الحارة أجمعين ، وسلمهم الى الوالى فعاقبهم أشد العقوبة ، وغرمهم أضعاف ما سرق له ، وكانوا في هذه الواقعة ليس لهم ذنب ، وقد ظهرت هذه العملة فيما بعد عند جماعة قرقماس المقرى ، بعد ما عاقب جماعة من مشاهير الناس ، منهم أولاد ابن البقرى ، وغير ذلك من جيران الحارة من أعيان الناس .

وفي يوم الخميس حادى عشره جاءت الأخبار بأن سيباى نائب الشام قد وصل الى خاقنة سرياقوس ، وقد حضر ليزور السلطان ، وكان قد وقع بينه وبين حاجب دمشق حظ نفس ، فحضر الى السلطان يشكو له من ذلك . فلما حضر دخل الى القاهرة ليلة الجمعة ، ونزل في مدرسة السلطان التى أنشأها في الشرايشين فبات بها ، فلما أصبح يوم الجمعة ، ودخل وقت صلاة الجمعة ، أرسل السلطان خلفه فطلع الى القلعة وهو بالشاش والقماش ، وأرسل اليه السلطان

جنائب بسروج ذهب وكناييش ، فركب من المدرسة وطلع الى القلعة وصلى مع السلطان صلاة الجمعة وجلس معه في المقصورة ، فلما انقضى أمر الصلاة خلع عليه السلطان ونزل من القلعة ، وصحبته الأمراء المقدمون وهم بالشاش والقماش ، وقدامه تلك الجنائب . واستمر في هذا الموكب الحافل حتى أنزله في بيت قرقماس الجلب الذى بالتبانة ، وقد خلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، وكان له يوم مشهود ، وقيل وصل من الشام الى القاهرة في سبعة أيام وقد جاء على جرائد الخيل ، وكان قد بلغه أن أركماس يسعى عليه في نيابة الشام فاضطربت أحواله ، وجد في السير حتى أتى الى مصر في سبعة أيام .

وفيه قبض السلطان على أصيل برددار الأتابكى قيت الرجى وسلبه الى الوالى ، فعاقبه وضربه كسارات حتى مات تحت العقوبة . وكان سبب ذلك أن قد وشى به عند السلطان أنه يعانى صنعة الزغل ، وقد اشتهر بذلك بين الناس ، وكان أصيل هذا من وسائط السوء ظالما غاشما يستحق كل أذى .

وفيه عزم السلطان على سيباى نائب الشام في الميدان ، وجلس هو وایاه على البحرة التى به ، ومد له أسمطة حافلة ، وأقام عنده الى أواخر النهار ، ثم ألبسه كاملية بسمور ، وتوجه الى المكان الذى نزل به ... ولما حضر سيباى نائب الشام لم يحضر مواكب السلطان بالقلعة . وسبب ذلك أن الأمير دولات باى أمير سلاح لم يوافق على أن سيباى نائب الشام يجلس فوقاً منه . وقد تقدم أن الأمير دولات باى ولى نيابة حلب ونيابة الشام قبل سيباى ، فبموجب ذلك لم يوافق الأمير دولات باى على أن سيباى يجلس فوقاً منه .

لع السلطان على أبي البقا ابن ابراهيم
الخاص ، وقرره في نظر الاسطبل
عوضا عن محمد بن فخر الدين كاتب
حكم صرفه عنها . وقد جمع أبو البقا
الخاص ونظر الاسطبل .

الجمعة لبس السلطان الصوف وقلع
ووافق ذلك سادس هاتور القبطى .

عاد خاير بيك المعمار من بناء الخان
لتى أنشأها السلطان في العقبة ، فلما
دته يسيرة ورسم له السلطان بأن يتوجه
من البحر الملح ، ويأخذ صحبته جماعة
من التجارين والمهندسين ، وقد أمر
، ببناء مارستان ورباط في مكة ، وأن
م ويجرى عين ماء بازان الى مكة ، فخرج
هذا الشهر وتوجه الى الطور .

وقعت فتنة بين العبيد وصاروا يقتلون
ضما حتى أعياء والى أمرهم .

جاءت الأخبار من نهر الاسكندرية بأن
محمد بيك لما توجه الى الجون بسبب
الأخشاب صادف مراكب فيها فرنج
، البحر على التجار فتحارب معهم
بليهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وأسر
، منهم ، وغنم ما كان معهم في المراكب ،
كثيرة تقدر بنحو من مائة ألف دينار ،
لمطان لهذا الخبر .

نزل السلطان الى الميدان ، وحضر
لدى بيك بن عثمان . ورسم للرماحة الذين
في أيام المحمل بأن يسوقوا في الميدان
، عثمان حتى يتفرج عليهم ، فساقوا وهم
آلة السلاح ، وكان يوما مشهودا .
أفرد السلطان على طائفة المغاربة اثنين

وثلاثين ألف دينار . وكان سبب ذلك أن تغرى
بردى الترجمان لما توجه الى بلاد الفرنج اشترى
من ملوك الافرنج عدة أسرى من المغاربة بنحو من
خمسين ألف دينار ، فلما خلصوا أراد السلطان
أن يوزع ما غرمه من المال على طائفة المغاربة التى
بمصر وبالاسكندرية في نظير ما غرمه .

وفيه ظهر في السماء ، من جهة القبلة ، نور ساطع
مثل قلع المركب ، يظهر وقت طلوع الفجر ثم
يختفى ، فأقام على ذلك مدة ثم اختفى ولم يعلم
ما سبب ذلك .

وفيه لما قوى البرد ، رسم السلطان لابن عثمان
بأن يتحول من بولاق ، ويسكن في بيت الأشرف
جان بلاط الذى في حارة القاضي عبد الباسط ،
فأقام به مدة يسيرة ثم عاد الى بولاق كما كان .

وفي شعبان ، خلع السلطان على سيى نائيب
الشام وأذن له بالعودة الى محل نيابته ، فسافر
في أثناء ذلك .

وفي رابع عشره توفى الطواشى عبر التكرورى
مقدم المماليك ، وكان دينا حيرا لين الجانب ، وكان
أصله من طواشية الأمير جاني بيك المرتد .

وفي يوم الخميس ، سادس عشره ، حضر الأمير
محمد بيك الذى كان قد توجه الى الجون بسبب
احضار الأخشاب ، وحضر صحبته تلك الفرنج
الذين أسرهم كما تقدم ، فكانوا نحوا من خمسين
نقرا ، فشق بهم من القاهرة وهم في زناجير ، وكان
لهم يوم مشهود . فلما عرضوا على السلطان ،
وهو بالميدان ، خلع على الأمير محمد بيك ورسم
بسجن الفرنج فسجنوا بالمقشرة ، وقيل أسلم منهم
خمسة أنفار .

وفي ذلك اليوم كان قدام السلطان رماية
نشاب على الخيل ، وأحرق قدامه في ذلك اليوم

احراقه فقط بالميدان بالنهار ، وكانت نوبة آنياب
الأمير بهادر القورى ، وكان ابن عثمان حاضرا
والأمراء المقدمون ، وكان يوما مشهودا .

ومن الحوادث أن الأمير طومان باى الدوادر
خرج يسير نحو المطرية وصحبته الأمير خاير بيك
كاشف الغريبة أحد المقدمين ، فساقوا فى الرمل
فتقنطر الفرس بالأمير خاير بيك فانكسر بعض
أعضائه ، ورد وهو محمول وقد أشرف على
الموت ، وأقام أياما وهو فى الفراش منقطعا حتى
شفى بعد مدة طويلة .

وفى رمضان ، كان مستهله يوم الخميس ، فنزل
السلطان الى الميدان ، وعرضوا عليه اللحم والخبز
والدقيق والسكر والغنم وهو مزفوف على رؤوس
الحمالين على جارى العادة ، وخلع فى ذلك اليوم
على تغرى برمش الوزير ، وعلى شرف الدين
الصغير ناظر الدولة ، وعلى الزينى بركات بن
موسى المحتسب .

وفيه كان انتهاء العمل من المقعد الذى أنشأه
السلطان خلف جنيئة البحرة ، المطل على الحوش
السلطاني ، وقد جعل طوله ستين ذراعا وعرضه
نحو عشرين ذراعا ، وجعل له شبائيك على الحوش ،
وشبائيك على جنيئة البحرة ، وجعله مقعدا قبطيا
بغير أعمدة ، ورخمه وزرة عالية . فلما كان أول
ليلة من شهر رمضان أفطر فيه واجتمع عنده الأمراء
ومد السباط به ، وأظهر غاية العظمة فى تلك الليلة .

وفيه خلع السلطان على الأمير شاهين الجمالى
وقرره فى مشيخة الجرم النبوى كما كان أولا .

وفيه ظهرت بقلوب ، وقيل بقلمة ، ابنة صغيرة
دون البلوغ ، قيل انها رأت النبى صلى الله عليه
وسلم فى المنام مرارا متعددة ، وظهر لها كرامات
خارقة ، فتوجه اليها الناس أفواجا أفواجا ،

واشتهر عنها أنها تقيم المقعد وترد بصر الأعمى ...
وحكى عنها من هذا النمط أشياء غريبة ليس لها
صحة ، فبلغ كرى كل حمار من القاهرة الى قليوب
أشرفيا ، وتوجه اليها جماعة من الخاصكية والأمراء
العشراوات وأعيان الناس ، ووقع لها سمعة زائدة
بالقاهرة .

وفى هذا الشهر ، أو فى الذى قبله ، توفى الشرفى
يونس بن الأمير طوخ بونى بازق ، وكان أبوه أمير
مجلس فى دولة الأشرف اينال ، وكان الشرفى
يونس من أعيان أولاد الناس ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس خامس عشره ، خلع السلطان
على الطواشى سنبل العثماني الهندي وقرره فى
تقدمة الممالك عوضا عن عنبر التكرورى ، بحكم
وفاته ، وخلع على الطواشى جوهر الزومى وقرره
نائب مقدم الممالك عوضا عن سنبل ، بحكم
انتقاله الى تقدمية الممالك ، وخلع على الطواشى
بشير وقرره رأس نوبة السقام عوضا عن خشقدم
الرومى بحكم وفاته .

وفيه نزل السلطان الى الميدان فوقف اليه جماعة
من المغاربة ، نحو من سبعين انسانا ما بين رجال
ونساء ، وقد قصدوا الحج فى هذه السنة ، فرسم
لهم السلطان بأشرفى لكل واحد منهم ثمن بقسماط .
وفيه ، فى يوم الجمعة ثالث عشرينه ، طلع
قرقد بن عثمان الى القلعة ، وأفطر عند السلطان
تلك الليلة وبات ، فلما أصبح ألبسه السلطان
سلارى صوف أبيض بسمور من ملايسه .

ومن الحوادث أن فى ليلة الأحد خامس عشرينه
وجد اثنان من ممالك السلطان من طبقة الصندلية
قتلى عند بركة باب اللوق ، بالقرب من اشطام
الخليج ، ولا يعلم من قتلهم ، فلما طلع النهار نزل
من القلعة الجم الغفير من الممالك من خشدشين
أولئك الممالك الذين قتلوا ، فنهبوا عدة دكاكين

من كان من أعيان علماء الحنفية ، وكان ديننا خيرا
لا بأس به .

وفي شوال كان موكب العيد حافلا ، وحضر
قرقد بيك بن عثمان وصلى مع السلطان صلاة
العيد ودخل في المقصورة وهو بغير كلفته . وكان
الجمجمة ابن عثمان لما حضر مع الأشرف فايتباى
صلاة العيد ألبسه الكلفته وصلى بها معه ، فلما
خرج السلطان من الجامع مشى قدماه فرقد بيك
ابن عثمان مع الأمراء من الجامع الى الحوش ،
فلما خلع على الأمراء خلع على ابن عثمان أيضا
كاملية تماسيح على أحمر بفرو سمور ، ورسم
له بأن يركب من الحوش ، فركب ونزل مع الأمراء
في موكب حافل ، حتى وصل الى بولاق ونزل
بالبرابخية . ومن جملة ما بالغه السلطان في اكرام
قرقد بيك بن عثمان أنه أرسل اليه بكتاب على يد
كاتب السر بأن يرتب له في كل شهر ألفي دينار
برسم نفقته ما دام بمصر ، فكانت تصرف له من
الذخيرة في مدة اقامته بمصر .

وفي يوم الاثنين عاشره نزل السلطان الى الميدان
وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام ابراهيم
عليه السلام ، وطاقوا بهم في القاهرة مع المحمل ،
وكان لهم يوم مشهود .

وفيه حضر القاضي محب الدين كاتب سر دمشق
فأكرمه السلطان الى الغاية ، وحضر صحبته مقدمة
حافلة للسلطان .

وفيه توفي للأمير طومان باي الدوادار ولد
صغير من سربة ، وعمره نحو من ثلاث سنين ،
فتأسف عليه ودفن وقت صلاة الفجر على
القوانين ، فرسم السلطان بأن يدفن في مدرسته
التي بالشرابشين فدفن بها .

من باب اللوق ، وكادوا أن يحرقوا البيوت التي
هناك حتى أدركهم الوالى ، فلما بلغ السلطان ذلك
تنكد وألزم الوالى بتحصيل من فعل ذلك ، فنزل
الوالى وقبض على جماعة كثيرة من أرباب الأدراك
الذين هناك ، ومن الغيطانية والمرايعين ، وغير ذلك
ممن لا ذنب له في ذلك ، وربما عوقب من لا جنى .
فلما عرضوا على السلطان أمر بسجنهم في المقشرة .
وفي أثناء هذا الشهر ظهر محمد بن العظمة الذى
كان ناظر الأوقاف ، فترامى على بعض الخاصكية
بأن يسعى له عند السلطان في عوده الى نظر
الأوقاف ، فلما ذكر للسلطان مال اليه ، فلما بلغ
محمد بن العظمة ذلك طاش وشرع يطلب أعيان
الناس بالرسل الغلاظ الشداد . وكان علاء الدين
ناظر الخاص متحدثا في نظر الأوقاف ، فلما بلغه
ما فعله ابن العظمة طلع الى السلطان وشكا له من
ابن العظمة ، فقال له السلطان : « أنت تشتكى
عندى من هذه الوظيفة وتقول باخسر فيها » !
فقال ناظر الخاص : « أسد فيها بسعادة السلطان » .
فألبسه كاملية ونزل الى داره ، فلما نزل فقبض
على محمد بن العظمة وضربه وسجنه بالمقشرة
واستمر بها مدة طويلة .

وفي خامس عشرينه كان ختم البخارى بالقلعة ،
ونصب السلطان خيمه بالحوش واجتمع القضاة
الأربعة ومشايخ العلم ، وفرفت الخلع والصرر على
العادة ، وكان ختما حافلا .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشرينه عرض ناظر الخاص
خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة على رؤوس
الحمالين ، فخلع عليه السلطان .

وفيه وصل الى السلطان مقدمة حافلة من عند
نائب الشام ، وهى ما بين خيول وممالك وقماش
ومال وغير ذلك .

وفيه توفي الشيخ ناصر الدين محمد بن جرياش ،

الحبش ووصل الى طرا ، ثم عاد من يومه وشق
من على ساحل البحر .

ثم فى يوم الأربعاء ، حادى عشره ، نزل من القلعة
وتوجه الى نحو الصحراء وزار سيدى عبد الله
المنوفى رحمة الله عليه ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه ضيق السلطان على جماعة من المباشرين
وأفرد عليهم نحو من ستمائة ألف دينار . وسبب
ذلك أن كل من كان عليه مال منكسر فى الديوان
من قديم وحديث يرده ، فجلس بنفسه فى الدهيشة
وعمل حسابهم بحضرته فاضطربت أحوال المباشرين
قاطبة ، وضيق عليهم فى سرعة استخراج تلك الأموال
على تفرقة الأضحية . وكان غالب هذه الأموال بقايا
مصادرات قديمة على صلاح الدين بن الجيعان
وعلم الدين المتحدث فى الخزانة وبانوب النصرانى
وشمس الدين بن عوض وشرف الدين التابلسى الأستاذار
ويوسف بن أبى أصبع الحلبي وفخر الدين بن
العفيف الذى كان كاتب الممالك . ومنهم ناظر
الجيش عبد القادر القسروى وبركات بن موسى
وغير ذلك جماعة آخرون ، فنزلوا من القلعة وهم
سكارى بغير مدام .

وفى يوم السبت ، رابع عشره ، نزل السلطان
وسير وتوجه الى نحو تربة الأشرف قايتباى ، فنزل
عن فرسه ودخل وزار قبره وبكى هناك وتمرغ على
قبره وقرأ له الفاتحة ، ثم رسم للبوايين وللصوفة
بمائة دينار ، وركب من هناك وتوجه الى تربة
العادل طومان باى ، فنزل عن فرسه وزار قبره
وقرأ له الفاتحة ورسم للصوفة بمائة دينار ، ثم
ركب من هناك ورجع الى تربة الأمير يشبك
الدوادار فنزل عن فرسه وزار قبره وقرأ له
الفاتحة ، ثم ركب من هناك ونزل من على سوق

وفى يوم الاثنين سابع عشره خرج المحمل من
القاهرة فى تجميل زائد ، وكان أمير ركب المحمل
مقطباى نائب القلعة أحد المقدمين ، وبالركب الأول
مغلباى الزردكاش أحد الأمراء الطبلخانات ، فكان
لهما يوم مشهود ، وحضر أمير من أمراء ابن عثمان
الكبير يروم الحج وصحبته نحو من أربعين ألف
دينار أرسلها ابن عثمان على يده ليفرقها على فقراء
مكة والمدينة ، فسافر صحبة الحجاج .

ومن الحوادث أن شخصا يسمى بركات من
فراشى الأمير طومان باى الدوادار قتل صبيا من
صبياناه وكان شابا صغيرا جميل الصورة ، فلما عرض
بركات المذكور وغرماءه على السلطان دفعهم الى
قاضى القضاء المالكى ، فحل فى أمر بركات لما علم أنه
من فراشى الدوادار ، فسجنوه حتى تقام عليه البينة
بأنه قتل . وفى عقيب ذلك قتل ساعى الدوادار
أيضا قتيلا وهو شخص يعرف بالشقيقاتى ، وكان
شيخا مسنا . فلما عرض الساعى على السلطان
وعلم أنه من جماعة الدوادار دفعه للشرع أيضا ،
فحلوا عنه ولم يجيء أحد يشهد عليه بأنه قتل ،
وكان قتله بالتهار بعد العصر فى وكالة الأشرف
برسباى التى بالصليبية ، وراح أمر القتيلىين على
أقاربهما وأولادهما ، والأمر الى الله تعالى .

وفى ذى القعدة الشريفة ، فى يوم الخميس
خامسه ، حضر سودون الدوادارى الذى كان
نائب طرابلس ، وقد حصل بينه وبين أهل طرابلس
تشاجر ، فأرسل السلطان خلفه بأن يقيم بمصر .
وفيه نزل السلطان وسير نحو المجرة ، ولما عاد
الى القلعة طلع من الصليبية فى موكب حافل .
ثم فى يوم الأحد ، ثامنه ، نزل وسير نحو بركة

الدريس وأتى الى تربة الأشرف جان بلاط التي
بباب النصر فنزل عن فرسه وزار قبره وقرأ له
الفاتحة ورسم للصوفة بمائة دينار ، ثم ركب من
هناك وعاد من الصحراء وطلع الى القلعة وكان في
نفر قليل من العسكر .

وفيه توفي جانم كاشف الوجه القبلى ، وكان
من الأمراء العشراوات .

وفيه توفي القاضى صالح بن طه أحد نواب
الشافعية ، وكان من قضاة الجاه .

وفيه توفي الخوaja عطية ، وكان في سعة من
المال ، وكان أغلس خلق الله على الاطلاق ، وهو
من البخل على جانب عظيم ، كما قيل :

لبست ثياب لثوم عنك شقت

ومن يكسى ثياب العار عارى

قلو لبس الحمار ثياب خز

لقال الناس : يالك من حمار !

وفيه توفي الشيخ عبد القادر الدماصى ، وكان
فاضلا ناضحا نائرا فكه المحاضرة ، بقية السلف ،
عشير الناس . وكان له شعر جيد . ومن نظمه ما
ألغزه في غزال وبعث به الى الشهاب المنصورى :

مولاي ما اسم لوحش ناقر أنس

في مأربى منه أشياء جمعت فيه

حروفه أربع لكنها عجب

ان زال أول حرف زال باقيه

فأجابه الشهاب المنصورى عن ذلك :

مولاي ألغزت فيما ناب عن قمرى

جيذا وحاكى سوادا فى أماقيه

فالبعض لام حكى لامات سالفه

وبعضه قد غزا فى الله باقيه

وفى ذى الحجة قبض السلطان على المعلم على
الصغير أحد معاملى اللحم ، فلما قبض عليه قرر

عليه ستين ألف دينار وأستمر فى التوكيل به ، وكان
المعلم على هذا من خيار الناس ، ناتجا بالسداد ،
وله شهرة طائلة وبر ومعروف . وكان كثير الحشمة
فى حق الناس .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر ،
وقطع أضحية كثيرة لجماعة من المباشرين والفقهاء
كانت على الذخيرة ، حتى قطع السكاكين التي
كانت تفرق على الناس فى عيد النحر من الزردخانة
وكانت من العادات القديمة ، فأبطلها فى هذه السنة
بواسطة شخص من الزردكاشية يقال له أحمد بن
قراكرز .

وفيه كان الأتابكى قرقماس مسافرا فى بعض
جهاته ، وقد فر لأجل تفرقة الأضحية .

وفيه توفي الأمير قانصوه جوشن أحد الأمراء
الطبلخانات ، وكان لا بأس به .

وفيه كان موكب العيد حافلا وأوكب السلطان
على العادة ، فلما انقضى يوم العيد نزل السلطان
فى اليوم الثانى من العيد وتوجه الى قبة الأمير
يشبك الدوادار التى بالمطرية وأقام هناك الى بعد
العصر . ووافق ذلك اليوم عيد النصارى وأول
الخمسين فأنشراح هناك ومد أسبطة حافلة . وحضر
عنده جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، ورسم
لبعض الأمراء العشراوات بأن يرقص فقام ورقص بين
يذى السلطان فرسم له بمائة دينار . ولما صار العصر
وركب من هناك أخذ فى جيبه كيسا فيه ذهب وصار
يفرق منه بطول الطريق على الفقراء ومن يقف له
من الناس ، فشرع يعطيهم من يده بغير واسطة
بحسب ما يقسم لهم ، واستمر على ذلك حتى طلع
الى القلعة وكان يوما بالسلطاني .

ولما مضى العيد وأيام التشريف عزل السلطان
قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وخلع
على الشيخ بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة

صلاح الدين المكيى وقرره فى قضاء الشافعية بمصر
عوضا عن كمال الدين الطويل بحكم صرفه عنها ،
وقد جمع بدر الدين المكيى بين قضاء الشافعية
ومشيخة الخشابية والشريفية ، وقد سعى فى ولاية
القضاء بثلاثة آلاف دينار ، وياليتيه ما سعى فكان
سعيه غير مشكور ، فكان كما يقال فى المعنى :

الحمد لله كم أسعى بعزى فى

نيل القضا وقضاء الله بنكسه

وكان غالب الأمراء والعسكر مائلا الى قاضى
القضاة كمال الدين وسيعود الى القضاء عن قريب .

وفيه توفيت الست آمنة والددة أمير المؤمنين
المستمسك بالله يعقوب ، وهى ابنة أمير المؤمنين
أبى الربيع المستكفى بالله سليمان ، وكانت دينة
خيرة سالحة ، وقد كف بصرها فى أواخر عمرها .
وكانت لا بأس بها .

وفيه وصل مبشر الحاج فى ثلاثة عشر يوما ،
وأخبر بالأمن والسلامة لجميع الحجاج .

وفيه توفى الرئيس بركات السكندرى رئيس
الطب ، وكان عارفا بأمر الطب لطيف الذات عثير
الناس ، وكان لا بأس به .

وتوفى القاضى شمس الدين محمد بن بدر الدين
ابن عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الوارث
أحد نواب الحكم المالكي ، وكان عالما فاضلا شابا
رئيسا حشما لا بأس به .

وقد خرجت هذه السنة على الناس على خير ،
وكانت سنة مباركة رخية خصبة ، وكان نيلها نبلا
مباركا عاليا ، وثبت الى نصف هاتور القبطى ،
وزاد فى هاتور ثمانى أصابع حتى عد ذلك من
النوادر الغريبة ، ولكن حصل منه للناس بعض
ضرر وغرق البذار الذى كانوا بذروه فى أراضي
الجيزة عند هبوط النيل ، ثم زاد بعد ذلك هذه

الثمانى أصابع ، فرسم السلطان للقضاة الأربعة بأن
يتوجهوا الى المقياس ويدعوا الى الله تعالى فى
هبوطه ، فتوجهوا الى هناك وباتوا بالمقياس ، وقرأ
السلطان تلك الليلة ختمة شريفة ومد أسمطة
حافلة ، فانهبط فى تلك الليلة نحو من نصف دراع .
فعد ذلك من الوقائع الغريبة .

وفى هذه السنة أينعت الأشجار التى غرسها
السلطان بالميدان ، وأخرجت ماשתله به من الأزهار
ما بين ورد ياسمين وبان وزنبق وسوسان ، وغير
ذلك من الأزهار العربية . ولقد عاينت به وردا
أبيض دكى الرائحة ، وهو غير أنواع الورد التى
بمصر وقد ثقل من الشام ، وكان يطرح فى أوان
الصيف والنيل فى قوة الزيادة ، وهو نوع غريب
لم يوجد بمصر . فكان السلطان يضع له دكة كبيرة
مطعمة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعدا
مخملا بنطع ويجلس عليه ، وتظله فروع الياسمين
وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات
ينشون عليه ، ويعلق فى الأشجار أقفاص فيها طيور
مسموع ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير
وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع .
ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى
وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة ، وقارة
يجلس على البحرة التى طولها أربعون ذراعا
وتمتلىء كل يوم من ماء النيل بسواقى تقالة من
المجرة تجرى ليلا ونهارا ، فيجلس على سرير
هناك فى غالب أيام الجمعة ولا يدخل عليه من
الأمراء أحد الا من يختاره . وقد وقع له من
المحاسن أشياء غريبة لم تقع لغيره من السلاطين ،
وقد صار هذا الميدان جنة على وجه الأرض ، كما
يقال فى المعنى :

وشدت على العيدان ورق أطربت
بغنائها من غاب عنه المطرب

فالورق تشدو والنسيم مشبب
والماء يسقى والجداول تشرب
وإذا تكسر ماؤه أبصرته
في الحال بين رياضه يتشعب
ومما وقع لى أن السلطان كان قد أخرج اقطاعى
فى حركة الممالك لما أخرج اليهم أقطاع أولاد
الناس كما تقدم ذكر ذلك ، فوقفت اليه بقصة فى
الميدان ، فرد الى اقطاعى وحصل لى منه غاية
الجبر وبصرنى على الممالك الدين كانوا أخذوا
اقطاعى ، فعند ذلك امتدحته بهذه القصيدة ،
وذكرت فيها أشياء كثيرة مما وقع له من المحاسن ،
وقدمتها اليه على يد شخص من خواصه . وهى
هذه القصيدة :

بالأشرف الغورى المفدا
أصبح نغر الزمان باسم
يا قانصوه العلى قدرا
فقت على من مضى وقادم
فكل يوم تراه عيدا
به فأوقاتنا مواسم
تشرف الغور باسمه مذ
رفرف طير السرور حاتم
اختاره الله من امام
لقمع أهل الفساد صارم
فالشكر لله مذ تولى
على جميع الأنام لازم
هذا الذى عنه أخبرتنا
طوالع النجم والملاحم
يصير الشاة فى حماه
تمشى مع الذئب والضراغم
قد جاءه السعد عبد رق
والنصر أضحى لديه خادم

له بقلب الملوك رعب
أغنى عن السمر والصوارم
وسيفه فى الوغى طويل
له نفوس المدى غنائم
جيوشه كالأسود أضحت
تقتحم الحرب بالهزائم
تاريخه فى الملوك أضحى
يحير العرب والأعاجم
فاكتبه بالتبر لا بحبر
واصغ لأخباره العظام
ليس له فى الملوك ند
فى البأس والجود والمكارم
مظفر ظاهر عزيز
مؤيد عادل الأقاليم
بنى بمصر لله يتنا
رخامه قائم ونائم
فجاء فى حسنه فريدا
من كل عيب قال سالم
فليس يبنى له نظير
فى سائر المدن والأقاليم
وقلعة السعد مذ حواها
جدد بها سائر المعالم
بعزمه الماء جاء يجرى
بمجرة تحتها دعائم
دارت دواليبها فهامت
لحسن أصواتها البهائم
فاقت بناء الملوك طرا
فالمدح فى وصفها يلائم
تسقى ببيدانه رياض
ناحت بأغصانه الحمام

أشجاره بالنسيم مالت
وزهرها فاح في الكرائم
وأنشأ به بحرة تحاكي
كالنبل أمواجها ملاطم
وغردت حولها القمارى
سماعها هيج العزائم
فعلن هنئنا بملك مصر
في نصره دائم الدوائم
ما رقص الريح غصن روض
ونقطت لؤلؤ الغمام
ابن اياس محمد قد
أتى بدر المديح ناظم
عرائسا بالعقود تجلى
تأليفها حير النواظم
ختمتها بالصلاة منى
على نبي للرسول خاتم
محمد أشرف البرايا
في الخلق والخلق والعزائم
صلى وسلم عليه ربي
ما دام هذا الوجود قائم
والآل والصحب ما تعنى
حاد بواد العقيق هائم
اتتهى ما أوردناه من أخبار سنة خمس عشرة
وتسعمائة ، وقد نظم الشيخ بدر الدين الزيتوني
في معنى ما قلته هذه الأبيات ، وهو قوله من
قصيدة مطولة :
يا حبذا الميدان من جنة
مسكن الولدان والحدود
أغصانه هب عليها الهوى
من كل ممدود ومقصود

أطيّاره في دوحها غردت
من كل مسموع وعصفور
وكل سن ضاحك مطرب
وكل حسون وزرور
وبلبل هيج بلبالنا
ومن هزار حول شحور
وبحرة مذهب فيها الهوى
جعلها تنقيش تصوير
في جمع تصحيح ترى ماءها
وبالهوى في جمع تكسير
ومجرة الميدان انشاء
عقودها دور على دور
وعمر الروضة صارت به
أماكن عامرة الدور
وجدد المقياس حتى غدت
تزهر بمنظوم ومنثور
وفي طريق الحج كم منهل
عمره في غاية الحير
وعين بازان جرى ماؤها
تجديدها آمنا من الغور
وأنشأ بمصر جامعا لم يزل
يبتا بذكر الله معصور
والقبة الزرقاء وصهريجها
والماء والكيان والوزير
كأن برد الثلج في مائه
لكل عطشان ومحور
وكم له قنطرة جددت
بأمره من غير مأمور
على الخليج الحاكي وضعها
قد شاع في طول وتقصير

كم ناصب أعرب في رفعها
لمركب في الكسر مجرور
أكرم به من ملك أشرف
مؤيد بالعز منصور
ينصره الله ويجعل لنا
أيامه أمنا بلا جور
ما أقبل الصبح بأنواره
وأدبر الليل بديجور
اتهى ذلك ، ثم قال في استشهاده منها :
وصل يا رب على المصطفى
منقذنا من كل محذور
صلاة عوفي برى نشرها
أطيب من مسك وكافور
والآل والأنصار مع صحبه
أهل الشنا والفضل والخير
ما ماس من غصن بروض زها
وغردت في دوحه الطير

سنة ستة عشرة وتسعمائة (١٥١٠ - ١٥١١ م) :

فيها ، في المحرم ، نزل السلطان الى الميدان ،
وطلع اليه القضاة الأربعة يهتئون بالعام الجديد ،
وحضر قاضي القضاة الشافعي بدر الدين المكي
وهذا أول تهنئته بالشهر ، فلما انقض المجلس قام
السلطان ودخل الى البحرة التي أنشأها بالميدان
وعزم على الأمراء وحضر الأتابكي قرقماس والأمراء
المقدمون ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان فومطة
فيها ورد من بستان الميدان ، فأخذ من ذلك الورد
وردة وشمها ثم دفعها الى الأتابكي قرقماس فأخذها
وقام وقبل الأرض ، ثم أخذ وردة أخرى وشمها ثم
دفعها الى دولات باي أمير سلاح فأخذها وقام وقبل
الأرض ، ثم أخذ وردة أخرى وشمها ثم دفعها الى

سودون العجبي أمير مجلس ، فأخذها وقام وقبل
الأرض . ثم فرق على جميع الأمراء المقدمين لكل
واحد وردة فيأخذها ويقوم ويقبل الأرض ، فقبل
له الأرض الأمراء المقدمون جميعهم في ذلك اليوم
لأجل الورد ، حتى عد ذلك من النواذر ، ثم مد لهم
في ذلك اليوم أسمطة حافلة وأقاموا عنده الى بعد
الظهر ، وأبطل المحاكمات في ذلك اليوم .
وفيه نزل السلطان وسير الى نحو المطرية وعاد
الى القلعة ، ثم نزل بعد ذلك وسير الى نحو طرا
وعاد الى القلعة ، وفي مدة سلطنته لم يشق من
القاهرة قط .

وفي يوم السبت ، حادى عشره ، ثار جماعة من
المماليك الجلبان ورجعوا الناس من الطباق ،
فأسفرت هذه الواقعة على أن المماليك يرومون من
السلطان نفقة لكل مملوك مائة دينار . وكان في تلك
الأيام اللحم معطل بسبب المعلم على الصغير فانه
كان في الترسيم ... فلما جرت هذه الحركة أراد
السلطان أن يوسط المعلم على الصغير فشفع فيه
بعض الأمراء . ثم ان المماليك نزلوا من الطباق وهم
مشاة وتوجهوا الى بيت الأتابكي قرقماس فأركبوه
غصبا وقالوا له : « اطلع الى السلطان وقل له ينفق
علينا » ، ثم توجهوا الى سودون العجبي أمير
مجلس وأركبوه غصبا ، ثم توجهوا الى الأمير
طراباي رأس نوبة النوب وأركبوه غصبا ، ثم توجهوا
الى الأمير طومان باي الدوادر وأركبوه غصبا ،
فلما طلوعوا بهم الى القلعة تكلموا مع السلطان في
أمر النفقة فامتنع من ذلك غاية الامتناع وكاد أن
يخلع نفسه من السلطنة ، فلما ردوا الجواب على
المماليك بأن السلطان امتنع من اعطاء النفقة فاستعت
الفتنة ونزل المماليك من الطباق أفواجا أفواجا
وهم بزموط وكباشيات ومطارق في أيديهم ،
فتوجهوا الى سوق جامع أحمد بن طولون فنهضوا

منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين الصليبية ، ثم توجهوا الى سوق تحت الربيع فنهبوا منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين البسطيين وغير ذلك من الأسواق حتى كادت مصر أن تخرب عن آخرها في ذلك اليوم . وأغلقت الأمراء أبوابها خوفا من المماليك ، فاستمروا ذلك اليوم على هذا الحال والأمر مضطرب ، وقد نهب للناس أشياء كثيرة بنحو عشرين ألف دينار . والتف على المماليك الجهم الغفير من الغلمان والعبيد ... وبات الناس تلك الليلة على وجل ولم يجدوا من يرد المماليك عن ذلك ، وكانت ليلة مهولة وكل مفعول فيها جائز ، وقد قلت في ذلك :

يارب ان المماليك جاروا علينا بعسف واستفتحوا العام فينا بوقع نهب وخطف ثم أصبحوا يوم الأحد على ما هم فيه من النهب والخطف ، وتزايد الأمر جدا ومنعوا الأمراء من الركوب والمرور في الطرقات ، وغلقت الأسواق ، ثم ان السلطان نادى للمماليك بالعرض في الحوش ، فلم يطلع منهم أحد ، واستمروا على ذلك الى يوم الاثنين فلبسوا آلة السلاح وتوجهوا الى الأزبكية وهجموا على الأمير دولات باى أمير سلاح وأرادوا أن يسلطوه ، ففر منهم وطلع الى عند السلطان . ثم ان المماليك بلغهم أن الأمراء يقصدون الوثوب عليهم ويقبضون منهم على جماعة فعند ذلك قلعوا آلة السلاح وطلعوا الى الطباق ، ثم ان والى نادى في القاهرة بأن لا مملوك ولا عبد ولا غلام يمشى في الأسواق من بعد المغرب ، وصار كل من رآه يمشى من بعد المغرب يوسطه . فوسط في ذلك اليوم من العبيد والغلمان جماعة كثيرة ، فسكن الحال قليلا . ثم ان الأمير طومان باى الدوادر صار يركب في عدة مماليك ويطوف الأسواق والحارات ويكبس على المماليك في اسطبلاتهم فمن

وجد عنده شيئا من النهب أخذه ورده الى أصحابه . وصار الناس يغمزون على كل من كان عنده نهب فيكبسون عليه ويأخذون ما عنده من النهب ، فردوا منه لأصحابه بعض شيء . ثم ان تجار جامع ابن طولون وتجار تحت الربيع وقفوا الى السلطان بقصة وسكوا له ما أصابهم من المماليك ، فرسم السلطان الى بركات بن موسى بأن ينزل ويحرر عن أمر النهب ، فوجد ما نهب للناس خمسمائة وسبعون دكانا ، وراحت على الناس أموالها . وقد قدروا ما نهب للناس في هذه الحركة أشياء بنحو من عشرين ألف دينار . فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم !

وفيه غيب شرف الدين الصغير ناظر الدولة بسبب نعتل اللحم في تلك الأيام ، وهذا كان سببا لاقامة الفتنة المقدم ذكرها .

وفي يوم الأربعاء ، خامس عشره ، توفي القاضي صلاح الدين بن الجيعان وهو محمد بن يحيى بن شاعر ، وكان رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم واجتمعت فيه الرياسة دون بنى الجيعان ، وولى من الوظائف استيفاء الجيش والتكلم على الخزائن الشريفة ونيابة كتابة السر ، ثم ولى كتابة السر في دولة الأشرف جان بلاط ، وجرى عليه شذائد ومحن ، وصودر في دولة الغورى غير ما مرة ، ومات وهو في عشر السبعين .

وفي يوم الجمعة ، سابع عشره ، توفي الأمير جان بردى أحد الأمراء المقدمين ، وكان لا بأس به .

وتوفي أسنباى أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس ، ثالث عشرينه ، دخل المحمل الى القاهرة ، وقد تأخر بعد دخول الركب الأول بيومين .

وفيه ظهر شرف الدين الصغير ، وكان مختفيا من حين ركب المماليك بسبب تعطل اللحم ، فلما قابل السلطان خلع عليه وأقره في نظر الدولة كما كان .

وفي يوم الخميس ، ثالث عشرينه أيضا ، توفي الشيخ أبو السعود بن الشيخ الصالح المسلك سيدى مدين رحمة الله عليه ، وكان ديناً خيراً رئيساً حشماً ، وكان لا بأس به .

وفيه أشيع أن طومان باى قرا الحاجب الثانى قد قتل دوا داره وخنقه بوتر ودفنه فى الاسطبل ، وقد فعل ذلك وهو سكران ، فلما بلغ السلطان ذلك تغافل عن هذه الواقعة .

وفيه رسم السلطان بتسليم يوسف بن أبى أصبع الى الوالى يعاقبه ، وكان له مدة طويلة وهو فى السجن بالعرقانة ، وقرر عليه نحواً من أربعين ألف دينار فتراقد عن وزن المال فسلمه الى الوالى ، وكان يوسف بن أبى أصبع من خواص السلطان . وفي يوم الأحد سادس عشرينه أخرج السلطان خرجاً من المماليك نحواً من خمسمائة مملوك وفرق عليهم زرديات وسيوف وتراكيش .

وفي يوم الاثنين سابع عشرينه خرج الأمير طومان باى الدوا دار وسافر الى جهة الصعيد ، وقد بلغه أن قد وقعت هناك فتنة مهولة بين قبيلة بنى عدى وبين بنى كلب ، وكادت جهات الصعيد أن تخرب عن آخرها . فتوجه بسبب ذلك وكان أوام ضم المغل .

وفيه جلس السلطان على الدكة وأحضر المصحف العثمانى وحلف عليه المماليك الجلبان كل طبقة على انفرادها ، وحلف أغواتهم أيضاً ، فحلفوا على العثمانى أنهم لا يشيرون فتنة ولا يركبون ولا يرمون فتناً فى بعضهم ، ثم فرق عليهم الرماح ورسم بأن

يلعبوا الرمح فى الميدان ، ورسم لكل مملوك بثلاثة أشرفية ثمن البعلبكي ، وانقض المجلس على ذلك وخمدت تلك الفتنة .

وفي يوم الجمعة قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك سابع عشر بشنس ، وكان الوقت فى تلك الأيام رطباً والبرد موجوداً .

ومن الوقائع أن الأمير قرقماس المقرئ كان قد سرق له من داره عملة بنحو ألف دينار فاتهم بها الجيران أضعاف ما سرق له ، وقد تقدم القول على ذلك ، ثم ظهر بعد ذلك أن الذى سرق العملة مملوكه وهرب وسافر الى الحجاز من البحر المالح ، فلما توجه الحجاج الى مكة قبض أمير الحاج على مملوك قرقماس المقرئ ووضعه فى الحديد وأحضره صحبته الى القاهرة ، فسلمه الى أستاذة فضربه وقرره ، فاعترف أنه هو الذى سرق الذهب ، وقد تصرف فى غالبه وهو بمكة وقتك هناك وقد بقى معه البعض من المال . فلما بلغ الجيران ذلك طلعوا الى السلطان وشكوه بقصة فيما فعل بهم ، فطلبه ، فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام وسبه وألزمه بأن يرضى الجيران فيما تكلفوه من الغرامة بسبب ذلك ، فلما نزل أرضاهم فى جميع ما تكلفوا من الغرامة فقد ذلك من النوادر ، واستمر قرقماس المقرئ مقنوطاً عند السلطان ، وكان غير محمود السيرة .

ومن الحوادث أن شخصاً يقال له تقى الدين بن الرومى أحد نواب الحنفية ، قيل عنه انه وقع فى حق النبى صلى الله عليه وسلم بكلمات غير مشكورة ، فضبط عليه ذلك جماعة كثيرة ممن كان حاضراً فبلغ السلطان ذلك .

وفي صفر طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فلما اجتمعوا بين يدى السلطان قال لهم : احصوا عن أمر ابن الرومى فيما قيل عنه

الكرة في الميدان ، ففى ذلك اليوم تقنطر من على
الفراس الأمير نوروز أخو يشبك الدوادار أحد
المقدمين ، فأغمر عليه وتشوش لذلك ونزل الى
داره وهو محمول .

وفى حادى عشره كانت ليلة سيدى اسماعيل
الانبايى وكانت ليلة حافلة ، ونصب فى الجزيرة
التي تجاه بولاق نحو من خمسمائة خيمة ، وخرجت
الناس فى القصف والفرجة عن الحد .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره أنفق السلطان على
جماعة مخصوصة من الخاصكية الأعيان ، ممن كان
يرمى بالشباب على الخيل فى الميدان ويلعب الرمح ،
لكل واحد منهم عشرة آلاف درهم ، وأعطى لجماعة
منهم ستة آلاف درهم ، ولم ينفق لبقية الممالك
شيئا ، فبلغت هذه النفقة اليسيرة نحو من أربعين
ألف دينار ، وقد تأثرت بقية الممالك لذلك ولكن
لم يلتفت السلطان اليهم .

وفيه تعير خاطر السلطان على مهتار الطشتخاناه
محمد ومنعه من الطلوع الى القلعة وأقام بداره
أياما وهو مخفف ، فتكلم له مع السلطان الأمير
طومان باى وبأس رجله بسبب ذلك حتى رضى
عليه ، ولكن فيل انه أورد للخزائن الشريفة خمسة
آلاف دينار حتى رضى عليه وأعاده كما كان وخلق
عليه ، وكان سبب تغير خاطر السلطان على المهتار
محمد أن شخصا شابا يقال له محمد بن سعيدة
كان قد تحشر فى السلطان وصار يتقرب اليه بمرافعة
الناس ، فراجع فى محمد المهتار وجماعة آخرين من
خواص السلطان فوزع عليهم مالا له صورة بسبب
ذلك .

وفيه عين السلطان معين الدين ابن شمس نائب
كاتب السر بأن يتوجه قاصدا الى ملك الهند ، ثم
يطل سفره الى بلاد الهند ، وكان غير مقبول الشكل
يشبه وجه المصاصة العتيقة ، وقبض عليه السلطان

ثم راجعوني فيما يثبت عليه ، وكان ابن الرومى
قد اختفى بسبب ذلك ، فانفض المجلس من
قدام السلطان على احضار ابن الرومى ، واستمر
فى طلب من السلطان حثيث وأمره فى ذلك الى الله .

وفيه خلع السلطان على الشهابى أحمد بن
الجيغان وقرره فى استيفاء الجيش والتكلم فى
الخزانة الشريفة عوضا عن عمه صلاح الدين بحكم
وفاته ، وأشركوا معه أولاد عمه صلاح الدين فى
الوظيفة ، فتضاعفت عظمة الشهابى أحمد وصار
بيده هذه الوظائف مضافا لما بيده من نيابة كتابة
السر ، وكان كاتب السر البدرى محمود بن أجا
حصل له عارض فى جسده وانقطع فى داره عن
الركوب نحو من عشرة أشهر ، وصار التكلم فى
هذه المدة للشهابى أحمد وصار هو كاتب السر
لا محالة واجتمعت فيه الكلمة وكان أهلا لذلك .

وفى يوم الاثنين خامسه خلع السلطان على
الجمالى يوسف البدرى وقرره فى الوزارة عوضا
عن تغرى برمش بحكم انفصاله عنها ، واستمر
شرف الدين الصغير على حاله فى نظر الدولة .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على مملوكه
كرتباى الذى كان كاشف الشرقى وقرره فى ولاية
القاهرة عوضا عن قانصوه أبى سنة بحكم انفصاله
عنها ، وصار قانصوه أبى سنة من جملة الأمراء
المقدمين وجلس معهم وبقي مقدم ألف ، ورتب له
فى نظر الاقطاع شيئا من الذخيرة .

وفى ذلك اليوم قبض على شخص من غلمان
الأمير أقبردى الدوادار ، وكان مطلوبا بما يقال
عنه انه عنده سروج مغرق وكناييش للأمير أقبردى ،
فقبضوا عليه من المحلة وأحضروه فى الحديد ، فلما
عرض على السلطان لم يقر بشيء فرسم بتوسطه
فوسطوه .

وفى يوم السبت تاسعه ابتداء السلطان بضرب

عقيب ذلك وسجنه بالعرقانة وقد وشى به عند
السلطان بأنه يدعو عليه ويقصد زواله .

وفيه حضر قاصد الملك محمود شاه صاحب
كنايه ، وآخرين من ملوك الهند ، وعلى أيديهم
مثالات للسلطان تتضمن سرعة تجهيز تجريدة الى
جهات الهند بسبب تعبث الفرنج هناك ، وقد تزايد
أمرهم وطمعوا في أخذ البلاد ، من حين كسروا
حسين الذى أرسله السلطان باش التجريدة التى
أرسلها الى هناك .

وفيه فى سلخه خلع السلطان على الشيخ حسام
الدين محمود بن قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن
الشحنة ، وقرره فى نظر البيمارستان المنصورى
عوضاً عن معين الدين بن شمس بحكم تغير خاطر
السلطان عليه ، وقد تقدم للبدرى محمود هذا أنه
ولى قضاء الحنفية بحلب فيما بعد وأقام بها مدة
يسيرة وعزل عنها .

وفى ربيع الأول — فى يوم مستهله — خلع
السلطان على قاضى القضاة محبى الدين عبد القادر
ابن النقيب ، وقرره فى قضاء الشافعية عوضاً عن
بدر الدين المكينى بحكم صرفه عنها فكانت مدة
ولاية بدر الدين المكينى فى وظيفة قضاء الشافعية
شهرين وأربعة عشر يوماً ، وقد سعى فيها بثلاثة
آلاف دينار وأقام فيها هذه المدة اليسيرة وعزل عنها
والناس غير راضية عنه ، كما يقال :

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق
وكان فى هذه الولاية فى غاية العكس ومنعه
السلطان ألا يخطب به فى مدة ولايته ، وقد سعى
عليه ابن النقيب بمال حتى عزله وتولى ، وهذه
رابع ولاية وقعت لابن النقيب فى قضاء الشافعية
بمصر ، وقد نفذ منه فى هذه الأربع ولايات نحو

من سبعة وعشرين ألف دينار وهو غير مشكور ،
وكان عزله عن قريب فى هذه الولاية .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على الشهابى
أحمد بن الجيعان وأعاده الى نيابة كتابة السر
عوضاً عن معين الدين بن شمس بحكم تغير خاطر
السلطان عليه ، ومما قلته فيه من المديح :

وكم حاز الأكابر من ثناء
به حمدوا ولكن أنت أحمد
قفقت على بنى الجيعان قدرا
وسعدك فى الورى قد صار أسعد

وتعينت وكالة بيت المال الى شمس الدين بن
عوض .

وفيه عين السلطان تجريدة الى الجون وكتب
بها نحواً من مائتى مملوك وأنفق عليهم ، وعين
الأمير محمد بيك قريبه باشا على ذلك العسكر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن جماعة من
عسكر الصوفى طرّقوا أطراف ضياع البيرة ونهبوا
أغنام جماعة من الأكراد ، فلما بلغ نائب البيرة ذلك
ركب واتّبع معهم ثم خمدت هذه الاشاعة .

وفى يوم الاثنين عاشره وصل الأمير علان
الدوادار الثانى الذى كان السلطان أرسله قاصداً
الى ابن عثمان ملك الروم ، فلما طلع الى القلعة
خلع عليه السلطان خلعة سنّية ونزل فى موكب
جافل ، وقيل ان ابن عثمان بالغ فى إكرامه وأحسن
اليه ، ثم ان السلطان فى عقيب ذلك أنعم على الأمير
علان بن قراجا بتقدمة ألف مضافاً لما بيده من
الدوادارية الثانية .

وفيه قبض السلطان على عبد العظيم الصيرفى
وسجنه بالعرقانة ، وقرر عليه مالا له صورة .

وفى حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى
على العادة وكان مولداً جافلاً ، وحضر ذلك قرقد

بيك بن عثمان وأجلسه السلطان معه على المرتبة وبالغ في إكرامه ، وحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء المقدمين .

وفي يوم الخميس ، ثالث عشره ، طلع ابن أبي الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع زيادة عن العام الماضي بعشر أصابع ، وكانت الزيادة في أول يوم من المناداة خمس أصابع .

وفي هذا الشهر ارتفع سعر البصل حتى بلغ سعر كل قنطار اثنين وعشرين نصفا ولا يوجد ، حتى عد ذلك من النواذر .

وفي يوم الاثنين ، سابع عشره ، خرج الأمير تمرباي الهندي أحد الأمراء العشراوات ، وقد عينه السلطان قاصدا الى اسماعيل شاه الصوفي متملك العراق ، فخرج مسافرا في ذلك اليوم وكان له موكب حافل .

وفيه خلع السلطان على قانصوه بن سلطان جركس أحد الأمراء المقدمين وعينه أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير نوروز تاجر الممالك وعينه أمير حاج بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان معين الدين بن شمس الذي تغير خاطره عليه كما تقدم ، فضربه بالمقارع بين يديه نحو من مائة شبيب حتى أشرف على الموت ، وقد أخذ بخطيئة كاتب السر بدر الدين بن مزهر فانه كان متوليا عقابه فعذبه بأنواع العذاب ولم يرث له فيما جرى عليه ، فما عن قريب حتى أذاقه الله تعالى طعم العذاب ، فكان كما يقال :

جرع كأسا كان يسقى بها

والمرء مجزى بأعماله

ظن بأن الدهر يصفى له

فخبيت من ذاك آماله

وفي رابع عشره خرج الأمير محمد بيك الذي تعين الى نحو الجون بسبب قطع الأخشاب لأجل

عمارة المراكب المعينة الى تجريدة الهند ، فخرج في موكب حافل ، وكان ذلك آخر سعيه .

وفيه خرج الطواشي بشير رأس نوبة السقاة وقد عينه السلطان بأن يتوجه الى بلاد الهند ، وقد كاتب السلطان جماعة من ملوك الهند بأن يكونوا مع السلطان عوناً على قتال الفرنج الذين صاروا يتعشون بسواحل بلاد الهند وقد كثر منهم الفساد هناك ، وبلغت عذة المراكب التي يعبتون بها في السواحل نحو من خمسين مركبا ، والأمر الى الله في ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على شرف الدين النابلسي الأستاذار بسبب انشجحات الجامكية ، فبطحه بين يديه وضربه نحو من مائة عصا .

وفيه تغير خاطر السلطان على محمد بن سعيدة المقدم ذكره الذي كان عوانيا عند السلطان وينقل له أخبار الناس ، وكان حظى عنده بحيث أنه كان يجلس معه على المرتبة ويلعب معه الشطرنج ، واشتهر بين الناس بالمرافعة ، وهو الذي سعى لقاضي القضاة محيي الدين ابن النقيب في عوده الى القضاء ، ثم وقع بينه وبين محمد بن سعيدة فطلع ابن النقيب وشكاه الى السلطان بأنه سبه وشتمه ، فحرق السلطان من محمد بن سعيدة وكان قد طاش في تلك الأيام الى الغاية ، وعادى الناس بسبب مرافعته لهم ، وكثر الكلام في حق السلطان بسبه — فانه كان جميل الصورة — فلما تغير خاطر السلطان عليه طلبه وبطحه بين يديه وضربه ضربا مبرحا ورسم بنفيه الى الواح فنفى ، فكان كما يقال في المعنى :

اياك أن تفرط في حق من

يعرف بالجود فقد يحرق

ولا تقل ذا حلمه واسع

فالماء ان اسخنه يحرق

وفيه تسحب من البرج الذى بالقلعة أربعة أنفار منهم شيخ العرب ابن مهنا وآخرون من العربان ، فلما تسحبوا قبض شيخ العرب ابن بغداد على ابن مهنا الذى تسحب من البرج ، فقطع رأسه ورأس آخرين ممن تسحب معه وأرسل بهم الى السلطان .

وفى ربيع الآخر كان ختم ضرب الكرة ، وعزم السلطان على الأمراء ومد لهم أسمطة حافلة وجلس فى المقعد الذى أنشأه بالميدان عن قريب .

وفى يوم الخميس رابعه طلع قرقد بيك بن عثمان الى القلعة واستأذن السلطان فى عوده الى بلاده فأذن له فى ذلك ، وخلع عليه خلعة سنية وهى منسوجة بالذهب شغل القاعة ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأتابكى قرقماس وبقية الأمراء المقدمين وجماعة من الرؤوس النوب ، فاستمروا معه الى بولاق فقدموا له الحراقة التى يكسر فيها السلطان السد ، وجهز معه عدة مراكب فيها زوادة برسم الاقامات ، وأرسل معه السلطان أزدى المهندار وناق الخازن وغير ذلك من غلمان السلطان يستمرون فى خدمته حتى يصل الى رشيد . وقد بالغ السلطان فى اكرام قرقد بن عثمان هذا ووقع له معه أشياء غريبة لم تقع لغيره من الملوك السالفة فيما تقدم ، ولا وقع قبل ذلك للقان أحمد ابن أويس صاحب بغداد لما حضر الى مصر فى دولة الظاهر برقوق لما حضر بسبب تمرلك فى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، فما فعل الظاهر برقوق معه كما فعل الأشرف قانصوه الغورى مع قرقد بيك ابن عثمان ، ولا بالغ فى اكرامه مثله ، فانه رتب له فى كل شهر ألفى دينار بسبب نفقته ، وكان كلما طلع اليه يلبسه سلارى بسمور من ملابسه قيمته مائتا دينار ، ويركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ،

وذلك غير ما يرسل اليه من الانعامات وغير ذلك ، وكان يقوم له كلما طلع اليه ويجلسه فوق أمير كبير معه على المرتبة ، وقد بالغ فى اكرامه جدا ، وكذلك الأمراء المقدمون أرسلوا اليه تقادم حافلة له ولجماعته ، فما خرج من مصر الا شاكرا ناشرا ، كما يقال فى المعنى :

طوقتني نعمافها أنا ساجع

شكرا ولا عجب لسجع مطوق

وفيه خرج الأتابكى قرقماس الى السرحة نحو الشرقية والغربية .

وفيه حضر أمير عربان الوجه القبلى عمر من أولاد ابن عمر أمير هواره ، فأقام فى الترسيم بيت الأمير الدوادر الكبير ، وقد قرر عليه السلطان مالا له صورة .

وفيه غيب المعلم خضر أحد معاملى اللحم ، وقد قرر عليه السلطان مالا فما أقام به وفر خوفا من السلطان .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة جان بردى الغزالى نائب صفد ، وقد حضر بطلب من السلطان ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان وأقام بمصر أياما .

وفيه توفى الشرفى يحيى الرشيدى خطيب جامع الأزبكية ، وكان من أهل الفضل ماهرا فى الخطب .

وفيه حضر الى السلطان فيل من بلاد الزنج ، وكان صغيرا قدر الجاموسة ، عمره نحو من سنة ، فلما طلع الى السلطان رجت له القاهرة ، وكانت الأفيال قد انقطعت من مصر نحو من أربعين سنة حتى نسي بين الناس هيئته فصاروا يعجبون منه ، ثم بعد مدة حضر فيل آخر وقد أشيع بين الناس وصوله عن قريب ، ومما وقع لابن المعتز فى تشبيه الفيل وأجاد بقوله :

كأنما الفيل الذى يبدو تعجبنا به

ليل قد افترس النهار فبان فى أنيابه

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن ثلاثة من المماليك قد خطفوا نسوة من طريق المقس كانوا مع مودنات كعادة النساء فى الأعراس ، فلما قبضوا عليهن خلصت منهن واحدة وتوجهوا بالبقية الى اسطبلاتهم ، فلما بلغ الوالى ذلك ركب وهجم على أولئك المماليك وقبض عليهم أجمعين ، فلما عرضوا على السلطان ضرب المماليك ضربا مبرحا حتى كادوا يهلكون ورسم بسجنهم فى المقشرة ، وكان عرضهم يوم الجامكية فرسم السلطان لكاتب الممالك أن يدفع جامكية الممالك الى تلك النسوة فى نظير ما شوش عليهن الممالك ، فدفعوا لكل امرأة ألفى درهم ، فعد ذلك من النواذر الغريبة . وفى يوم الثلاثاء سلخه وقعت طبقة الحوش ، فقتل تحت الردم خمسة من المماليك وتعطب آخرون منهم ، وكانت حادثة مهولة .

* * *

وفى جمادى الأولى فى ثانيه قرأ السلطان ختمة فى المقياس ، ومد هناك أسمطة حافلة ، وحضر القضاة وأعيان الناس ، وسبب ذلك أن البحر سلسل فى الزيادة وقد مضى من مسرى ستة عشر يوما ولم يف ، فلما توجه القضاة الى هناك زاد النيل تلك الليلة ثمانى أصابع ، ثم فى الليلة الثانية زاد خمس عشرة أصبعا ، واستمرت الزيادة عمالة حتى أوفى فى العشرين من مسرى ، وفتح السد فى الحادى والعشرين من مسرى الموافق لثامن جمادى الأولى ، وقد تأخر الوفاء عن العام الماضى سبعة أيام ، فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، وكان هذا آخر فتح الأتابكى قرقماس للسد ، وقد مات فى أواخر هذه السنة كما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأحد ثانى عشره توفى قاضى القضاة بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة صلاح الدين أحمد بن محمد بن بركوت المكينى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما تولى مشيخة الخشائية والشريفية ، ثم سعى فى قضاة القضاة بثلاثة آلاف دينار فأقام بها شهرين وأربعة عشر يوما وسعى عليه محبى الدين بن النقيب فعزل ، فلما عزل حصل له غاية القهر فاعتل ومات ، فكان بين عزله وموته شهران واثنى عشر يوما فمات قهرا لا محالة ، وكان له من العمر نحو من ستين سنة ، فجاءه القضاء الأكبر وفاته القضاء الأصغر ، كما قيل :

حضيت عزمى شوقا اليكم

فلم أطلق مكثه بأرض

وجئت لم أحظ بالتلاقى

فغائيتى أن ألوم حضى

وفى يوم الجمعة ، سابع عشره ، طلب السلطان قاضى القضاة كمال الدين الطويل وخلع عليه وأعادته الى قضاء الشافعية كما كان ، وعزل عنها محبى الدين بن النقيب فكانت مدته فى هذه الولاية شهرين وستة عشر يوما ، ونقد منه مال له صورة على هذه المدة اليسيرة ، فكان كما يقال :

لم أستتم عناقه لقدمه

حتى ابتدأت عناقه لوداعه

ثم وكل به السلطان وبعثه الى بيت ناظر الخاص وقد بقى عليه ألف دينار من بقية ما سعى به فلم يتركها له السلطان ، فلم يرث له أحد من الناس فيما جرى عليه ، ولم ينطل على أحد منهم ، وقد تعصبت الأمراء قاطبة لقاضى القضاة كمال الدين حتى أن بعض الأمراء لم يصل بالقلعة فى مدة ولاية ابن النقيب ولم ينطل على أحد منهم . فلما كان يوم الجمعة المذكور طلب السلطان قاضى القضاة كمال الدين وهو بالميدان فخلع عليه هناك ،

وشق من القاهرة في موكب حافل ، وزينت له الدكاكين بالشسوع والأمتعة الفاخرة ولاقته المغاني والطبل والزمر وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، واستمر في هذا الموكب الحافل حتى وصل الى الخانقاه البيبرسية . فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم طلع وخطب بالسلطان خطبة بليغة في معنى عوده الى القضاء ، وقرأ في الحراب « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . فلما انقضى أمر الصلاة خلع عليه ثانيا وأشيع أنه قرر في مشيخة الخشائية والشريفية عوضا عن بدر الدين المكينى ، وقد صار بيده مشيخة الخانقاه البيبرسية ومشيخة الخشائية والشريفية مع قضاية القضاة وهذا لم يتفق لغيره من القضاة ، بل وقع لابن حجر والقاياتى أنهما جمعا بين قضاية القضاة وبين مشيخة الخانقاه البيبرسية وهذا عزيز الوقوع جدا ، وقيل ان قاضى القضاة كمال الدين سعى في قضاية القضاة ومشيخة الخشائية والشريفية بخمسة آلاف دينار ، وكانت مشيخة الخانقاه البيبرسية بيده من قبل ذلك .

وفي يوم السبت ثامن عشره رسم السلطان للزنى بركات بن موسى بأن يتسلم جماعة كانوا في الترسيم بسبب ما قرر عليهم من المال فتراقدوا عن ايراد ذلك ، فرسم لابن موسى بأن يتسلمهم ويعاقبهم على استخراج الأموال ، فتسلم بهاء الدين مباشر قانصوه خمسمائة وكان له نحو من ست سنين وهو في الترسيم ، وتسلم معين الدين ابن شمس الذى كان وكيل السلطان ، وتسلم علم الدين الذى كان يتحدث في الحزاة ، ومحمد ابن فخر الدين كاتب الممالك وقاضيا حنفيا من قضاة الشام ، فلما تسلمهم ابن موسى أقاموا عنده أياما ولم يردوا شيئا من المال فشاور عليهم السلطان فرسم للوالى بأن يتسلم بهاء الدين وابن شمس وعلم الدين وقاضى الشام وشفع في

محمد بن فخر الدين كاتب الممالك ، فلما تسلمهم الوالى عاقب بهاء الدين وابن شمس وعلم الدين أشد العقوبة وبعث بهم الى المقشرة ، وكان من أمرهم ما سنذكره في موضعه

وفي هذا الشهر كثرت مصادرات السلطان للمباشرين ، حتى انه صادر عرب اليسار الذين يسكنون تحت القلعة وقرر عليهم مالا له صورة ، وقال لهم : « اتتو عملتو كيما تراب تحت القلعة من عفشكم ما يشتال ولا بعشرة آلاف دينار » ، وجعل ذلك حجة عليهم .

وفيه نوفي تغرى بردى السيفى يونس الدودار ، وكان أمير آخور ثالث وأحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن الفرنج قد ملكوا مدينة طرابلس الغرب ، وهذه المدينة من أجل مداين الغرب وهى مدينة عاصية ولولا أن الفرنج تحايلا على أخذها لما قدروا على ذلك ، وقد أحاطوا بها برا وبحرا فوقع بين الفريقين واقعة عظيمة وقتل من المسلمين نحو من أربعين ألف انسان ، وكانت هذه الحادثة من معظم الحوادث المهولة ، وقد جاءها الفرنج من البحر في مائة مركب ، ومن المراكب طلوعوا الى البر ووقع بينهما القتال حتى ملكوها ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاة وكذلك الناس قاطبة

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الشريف بركات أمير مكة قبض على ثلاثة أنفار من الفرنج دخلوا الى مكة وهم فى زى الأروام ، فلما قبض عليهم وجدهم بغير ختان فتحقق أنهم فرنج وأنهم دواسيس من عند بعض ملوك الفرنج ، فقبض عليهم ووضعهم فى الحديد ، وبعث بهم الى السلطان .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب البيرة بأنه

معهم الأمير محمد بنفسه وقد فر عنه من كان معه من العسكر ، فقتل ، وقتل من كان معه من الجند ، وأخذوا ما كان معه من المراكب المشحونة بالسلاح وآلة الحرب وكانت نحواً من ثمانية عشر مركباً ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكده إلى الغاية وامتنع عن الأكل يومين ، وقد تزايد شر الفرنج في هذه السنة وكثر تعبتهم بالناس في البحر الرومي والبحر الهندي والأمر إلى الله تعالى ، وقد ارتج الأمر على السلطان في هذا الشهر من جهات عديدة واضطربت أحواله جداً ، فكان كما يقال في المعنى :

لا تجزعن قبعد العسر تيسير

وكل شيء له وقت وتدير

وللمهمين في أحوالنا نظر

وفوق تديرنا الله تدير

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره نزل السلطان إلى نحو تربة العادل التي بالريدانية وجربوا قدامه تلك المكاحل التي سبكها كما تقدم ، فلما أطلقوا فيهم البارود تفرقوا أجمعين وبقي نحاسهم طائر مع الهوا ولم تصح منهم واحدة ، وكانوا نحواً من خمس عشرة مكحلة ، فتزايد نكد السلطان في ذلك اليوم إلى الغاية ورجع إلى القلعة سريعاً ، وكان عول على أن يمد هناك أسطة للأمراء وينشرح في ذلك اليوم فلم يتم ذلك .

وفيه أرسل السلطان بالقبض على الرهبان الذين بالقيامة التي بالقدس ، وكذلك قبض على سائر الفرنج الذين بالاسكندرية ودمياط وغير ذلك من السواحل ، وهذا بسبب الفرنج الذين قتلوا الأمير محمد وأخذوا مراكب السلطان .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره خلع السلطان على جان بردى الغزالي ، وأقره في نيابة صفد على عادته وأضاف إليه نيابة الكرك أيضاً ، فخرج إليها من يومه وتوجه نحوها ، وخلع على « قانصوه روح

قبض على جماعة من عند اسمعيل الصوفي وعلى أيديهم كتب من عند الصوفي إلى بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عوناً على سلطان مصر ، وأنهم يجوا إلى مصر من البحر ويجي هو من البر ، فقبض نائب البيرة عليهم وبعث بهم إلى السلطان . وفيه جاءت الأخبار بأن صاحب تلمسان من بلاد الغرب قد انتصر على الفرنج الذين كانوا قد أخذوا مدينة طرابلس الغرب وطردهم عنها ، وكانت النصرة للمسلمين عليهم ، فسر السلطان والناس قاطبة لهذا الخبر .

وفي جمادى الآخرة حضر الأمير طومان باي الدوادار ، وكان مسافراً إلى جهة الصعيد وصحبته أخاير بيك كاشف الوجه الغربي أحد المقدمين ، وكان طومان باي الدوادار له نحو من خمسة أشهر وهو مسافر في الصعيد ، فلما طلع إلى القلعة خلع عليه السلطان وعلى الأمير أخاير بيك ونزلاً في موكب حافل .

وفيه جاءت الأخبار بوقاة خليل بيك بن رمضان أمير التركمان ، وكان رئيساً حشماً لا بأس به .

وفي يوم الأربعاء سادسه انتهى العمل من مكاحل سبكها السلطان ، فرسم بنقلها إلى نحو تربة العادل التي بالريدانية ، فسحبوها على العجل وكانوا نحواً من خمس عشرة مكحلة فحاسبوا في نقلها ما لا خير فيه ، وقتل في ذلك اليوم شخص من العتالين يقال له المقدم خطاب وتعطب منهم جماعة آخرون من النجارين ، وكان يوماً مهولاً .

وفي يوم الأحد عاشره جاءت الأخبار من عند نائب طرابلس بأن الفرنج خرجوا على الأمير محمد بيك قريب السلطان الذي كان قد توجه إلى الجون بسبب احضار الأخشاب ، فخرج عليه طائفة من الفرنج بالقرب من ساحل قلعة اياس ، فتحارب

توت والنيل في قوة الزيادة ، حتى عند ذلك من النواذر .

وفيه قام الأتابكي قرقماس على السلطان ومنعه من السفر الى ثغر الاسكندرية وقبل له الأرض عدة مرار ، وقال له ان الطرقات وحل من ماء النيل وسلوك البر صعب في هذه الأيام ، وكان يقصد السفر من الزبر فبطل ذلك .

وفيه نمت النيل المبارك على احدى وعشرين أصبعا من ثمانى عشرة ذراعا وانهدت في أواخر توت ولم يثبت ، وكان نيلا شحيحا فشرق غالب البلاد ولولا لطف الله تعالى لوقع غلاء عظيم ، وكان عند جماعة الأقباط عادة أن في ليلة عبد ميكائيل صبحه نزول النقطة يزنون الطينة وعدودها على ستة عشرة قيراطا فمهما زادت عن القيراط يكون بقدرها أذرع في زيادة النيل ، فوزنوها في هذه السنة وجاءت قريب عشرين قيراطا ، فتفأل الناس بأن النيل يبلغ في هذه السنة عشرين ذراعا فلم يكن ذلك ، وهذه القاعدة قط ما أخرمت عند القبط سوى هذه السنة ، فعد ذلك من النواذر .

وكذلك البئر التي في منيل أبى شعرة بنواحي البهنسا ، قيل ان في ليلة الخامس والعشرين من بشنس يطف ماء تلك البئر في الليل ، فمهما تغطى من الدرج التي في تلك البئر يكون فألا للنيل ، فطف مأوها وغطى نحو من عشرين درجة من درج البئر ، فتفأل الناس بأن النيل يبلغ في هذه السنة نحوا من عشرين ذراعا فلم يكن ذلك وأخرمت هذه القاعدة أيضا . وقيل ان امرأة صالحة رأت في المنام أن ملكين نزلا من السماء وتوجها الى البحر فرفسه أحدهما برجله فانهدت سريعا ، ثم قال أحدهما الى الآخر : « ان الله تعالى كان أمر النيل أن يزيد الى عشرين ذراعا فلما تزايد الظلم بمصر أذن له بالهبوط وهو في ثمانى عشرة ذراعا »

او « أحد الأمراء المقدمين ورسم له بأن يتوجه الى قطيا ويقيم بها دائما خوفا من الفرنج أن يهجموا على من بالطينة ، وجعل « قانصوه روح لو » باشا على العسكر الذى بالقلعة التى أنشأها السلطان بالطينة ، وأنعم عليه بخراج قطيا ما دام هناك وعين معه جماعة من المماليك السلطانية .

ومن العجائب أن « قانصوه روح لو » الذى ولى نيابة قطية كان قبل ذلك نائب غزة ، فلما تسلطن العادل قرره في نيابة حلب وأرسل اليها متسلمه فلم يتم له ذلك ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم آل أمره الى أن بقى نائب قطية وهذه سفلى درجة الى الغاية ، فعد ذلك من النواذر الغربية .

وفيه خلع السلطان على عمر من أولاد ابن عمر أمير عربان هواره وأقره على عادته في امرة هواره . وخلع على شخص من أولاد ابن رمضان وأقره أميراً للتركمان عوضا عن خليل بيك المقدم ذكر وفاته ، وخلع على الشيخ أبى بكر الجيوسى وقرره في مشيخة جبل نابلس .

وفيه قوى عزم السلطان على أن يتوجه الى ثغر الاسكندرية ليتفقد الأبراج التى هناك خوفا من طروق الافرنج لثغر الاسكندرية ، فنزل الى الميدان وعرض مماليكه وفرق عندهم عدة خيول وبغال وسلاح من سيوف وزرديات وغير ذلك ، وأخذ في أسباب عمل يرق ثقيل وأشيع سفره بين الناس حقيقا .

وفيه جاءت الأخبار بأن وقع باسطنبول زلزلة مهولة حتى رمت المآذن وخربت عدة أماكن وهلك بسببها من الناس ما لا يحصى ، وهذه كرسى مملكة ابن عثمان ، وكانت حادثة عظيمة .

وفيه ثارت رياح عاصفة وأمطرت السماء مطرا غزيرا وقام الرعد والبرق ، وكان ذلك في أواخر

قلما انتهت من المنام انهبط النيل في تلك الليلة دفعة واحدة .

وفيه توفي جانيه الابراهيمي أحد الأمراء الطبليخانات وكان مسرفا على نفسه ، مات قتيلا . وقد وقع من مكان عال وهو سكران فمات لوقته .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص من العربان المفسدين يقال له عمر بن موسى النفعي من عربان ثعلبة ، وكان من شجعان العرب .

وفيه نزل السلطان الى عند قبة الهوى التي تحت القلعة وجربوا قدامه مكاحل ، وأقام هناك الى بعد العصر ثم طلع الى القلعة .

وفي رجب خرج الأتابكي قرقماس وتوجه الى ثغر الاسكندرية وصنعبته الأمير علان الدوادار الثاني ، وكان سبب ذلك أن السلطان لما قصد أن يسافر الى الاسكندرية ليكشف على الأبراج التي هناك ويصلح ما فسد منها فقال له الأتابكي قرقماس أنا أسافر وأكشف عن ذلك عوضا عن السلطان ، فسافر بسبب ذلك .

وفيه توفي بهاء الدين مباشر قانصوه خمسمائة ، مات وهو بالمشرة وقاسى شدائد ومحن ، وأقام في الترسيم نحو من ست سنين ، وآخر الأمر سلمه السلطان للوالى فعاقبه الى أن مات .

وفيه توفي الصارمي ابراهيم بن الأمير برد بيك صهر الملك الأشرف اينال ، وكان لا بأس به .

وفيه طلع الى السلطان شخص من أبناء الناس يقال له يونس بن سودون الفقيه ، وكان ساكنا بالقرب من زقاق جلب على بركة الفيل ، فأنشأ عنده جنيته وزرع فيها شجرة جوز شامي فنتجت وطلع فيها الجوز بعد ثلاثين سنة حتى طرحت ، فجمع من ذلك الجوز ستين جوزة وطلع بها الى

السلطان فابتهج بها ولم يصدق بأن هذا الجوز يطرح بمصر ، فكشف عن حقيقة ذلك حتى ظهر له مصداق ذلك ، فأنعم على يونس المذكور بعشرة دنانير وبالغ في اكرامه .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة رهبان القيامة التي بالقدس ، كان السلطان أرسل خلفهم بسبب الفرنج الذين قتلوا الأمير محمد بيك قريب السلطان ونهبوا ما في المراكب التي جهزها السلطان صحبته ، فلما وقفوا بين يدي السلطان وبخهم بالكلام على لسان تغرى بردى الترجمان ، وقال لهم : « كاتبوا ملوك الفرنج بأن يردوا ما أخذهم الفرنج من المراكب والسلاح وان لم يردوا ذلك هدمت القيامة وأشنق الرهبان » ، فتسلمهم ناظر الخاص على ما يحرر من أمرهم ، وكانوا نحو من عشرين راهبا . وفي عقيب ذلك قبض نائب الاسكندرية على جماعة من تجار الفرنج الذين كانوا بشغر الاسكندرية وبعث بهم الى السلطان ، وكانوا نحو من خمسين انسانا .

وفيه توفي القاضي تقى الدين محمد بن بدر الدين محمد الزجاجي أحد نواب الحنفية ، وكان فاضلا رئيسا حشما ، وكان لا بأس به .

وفيه أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت الأسواق وحصل للناس وقوف حال بسبب ذلك وتعطلت الأسباب عن البيع والشراء ، واستمرت تمطر ثلاثة أيام متوالية حتى انخسف غالب القبور التي بالصحراء ، وكان ذلك في أوائل هاتور .

وفيه توفيت زوجة الأتابكي قائم التساجر ، وكانت جركسية ، وكانت في سعة من المال ، فاحتاط السلطان على موجودها قاطبة .

وفيه خلع السلطان على مهتاره محمد مهتار الطشتخاناه وأعاده على ما كان عليه ، وكان تغير خاطره عليه وصادره كما تقدم ذكر ذلك ، فشنع

ففيه الأمير طومان باي الدوادار وباس رجل
السلطان بسبب ذلك حتى رضى عليه .

وفيه عين السلطان الأمير آقبای الطويل أمير
آخور ثمانى بأن يتوجه الى القدس ويحتاط على
مال الفرنج الذى فى القيامة ، فخرج وسافر من
يومه .

وفيه حضر يونس العادلى وكان السلطان أرسله
الى بلاد ابن عثمان ليشتري له أخشابا وحديدا
وبارودا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المال الذى
كان مع يونس العادلى وقال : « أنا أجهز من
عندى زردخاناه للسلطان » ، فحضرت فيما بعد .
وفيه خلع السلطان على آقبای كاشف الشرقية
وأعاده الى كشف الشرقية عوضا عن كرتباى الذى
كان بها ، وخلع على يخشبای قرا أخى الوالى
وقرره فى شادية الشون عوضا عن تانى بيك الأبح
بحكم صرفه عنها ، وأشرك معه فى الشادية شخصا
من الأمراء العشراوات يقال له خشقدم .

وفيه حضر الأتابكى قرقماس والأمير علان
الدوادار الثانى وكانا قد توجهما الى ثغر
الاسكندرية ، بسبب الكشف على الأبراج التى
هناك ، فخلع عليهما السلطان ونزلا من القلعة فى
موكب حافل .

وفى شعبان قلع السلطان البياض ولبس
الصوف ، ووافق ذلك حادى عشر هاتور القبطى .
وفى ليلة الجمعة ثانى عشره كان دخول الأمير
أنصباى حاجب الحجاب على ابنة الأشرف قانصوه
خمسمائة ، فكانت له زفة حافلة مشى فيها الأتابكى
قرقماس وبقية الأمراء المقدمين وهم بالشماش
والقمماش وبأيديهم الشموع الموقدة ، وشق من
الصليبية فى هذا الموكب الحافل حتى دخل الى قاعة
الفرح بيت يشبك الدوادار الذى بخدرة البقر .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره نزل السلطان
وتوجه الى نحو المطرية عند تربة العادل ، وكان
المعلم حسن بن الصياد المهندس خط له بالجيس
فى الأرض صفة مدينة ثغر الاسكندرية وعدد
أبراجها وأبوابها وهيئة سورها والمنار التى كان
بها وقدر عرضها وطولها ، فنزل السلطان بسبب
ذلك حتى تأملها وتفرج عليها ثم عاد الى القلعة من
يومه .

وفى هذا الشهر كثرت الأمراض بالناس وحدث
لهم السعال وذات صدر حتى صاروا يتساقطون
على بعضهم ، ولكن كان الغالب فيه السلامة .

وفيه توفى القاضى نور الدين على الدمياطى
أحد نواب الحنفية ، وكان لا بأس به ، وقاسى
شدائد ومحن ، وصودر وأخذ منه مال له صورة .

وفى رمضان فى يوم مستهله عرض الوزير
الجمالى يوسف البدرى اللحم والخبز والسكر
والدقيق والغنم ، فطلع بذلك وهو مزفوف على
رعوس الجمالين ، وكان السلطان فى الميدان فخلع
عليه وعلى الزينى بركات بن موسى ناظر الحسبة
الشريفة .

وفى يوم الأربعاء عاشره توفى القاضى ابراهيم
بن البابا المعروف بالشرائيشى ناظر الذخيرة
والمتحدث على أوقاف الزمامية ، وكان رئيسا
حشما لين الجانب ، ومات وهو فى عشر الثمانين
وزيادة ، وكان لا بأس به ، فلما توفى خلع
السلطان على ولده الشمسى شمس الدين محمد
وقرره فى تلك الجهات كما كان والده .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره توفى القاضى كمال
الدين محمد بن القاضى خير الدين الشنشى أحد
نواب الحنفية ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفي ليلة الثلاثاء ثالث عشرينه كانت وفاة الأتابكي قرقماس بن ولي الدين أتابك العساكر بالديار المصرية ، فرجت لموته القاهرة ، وكانت جنازته مشهودة ومشى فيها القضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير ، وكذلك أعيان المباشرين ومشاهير الناس بحيث لم يتأخر منهم أحد ، وكانت جنازته حافلة وأخرجوا قدامه كفارة ما بين خبز وتمر وغنم ، فلما وصلوا به الى مدرسة السلطان حسن نهب العوام تلك الكفارة عن آخرها ، ثم ثروا على نعشه الفضة في عدة أماكن ، وكثر عليه الحزن والبكاء من الناس فانه كان لين الجانب وعنده تواضع ، فلما وصل الى سبيل المؤمنين خرج السلطان من الميدان وهو راكب وأتى الى سبيل المؤمنين فنزل عن فرسه ودخل الصلاة ، فلما وضعوا نعشه بين يديه قبله وهو في النعش وبكى عليه بكاء كثيرا ، فلما صلوا عليه حمل نعشه ومشى به خطوات حتى أخذه منه الأمراء وتوجهوا به وهم قدامه مشاة الى تربته التي أنشأها بالصحراء ، بجوار تربة الأشرف اينال ، فدفن بها داخل القبة رحمة الله عليه ، وقد رثيته وهو قولي :

يا عين جودي بفيض دمع
وأكثرى في البكا انتحايك

على قرقماس قد رزينا
واستوحشت مصر للأتايك

وكان الأتابكي قرقماس أميرا جليلا مبجلا معظما ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي وأعتقه فهو من معاتيقه ، وولى من الوظائف امرة أخورية الثانية ثم بقى مقدم ألف ثم بقى رأس نوبة النوب وقرر في نيابة حلب في دولة الأشرف جان بلاط ولم يتم ذلك ، ثم سجن بقلعة الشام لما

توجه مع الأمير طومان باي الدوادار ، فلما تسلمن هناك سجنه مع جملة من سجن من الأمراء بقلعة دمشق ، فلما تسلمن قانصوه الغوري أفرج عنه من سجن قلعة دمشق ، فلما حضر قرره في امرة السلاح ثم بقى أتابك العساكر بمصر عوضا عن قيت الرحبي لما نفى الى ثغر الاسكندرية سنة عشر وتسعمائة . فأقام في الأتابكية ست سنين وشهرين الا سبعة أيام ومات وهو في عشر الستين وزيادة ، وكانت مدة توعكه أربعة أيام ، وخلف أولادا صغارا ما بين ذكور وإناث عدتهم أربعة ، وظهر له من الموجود نحو من سبعين ألف دينار خارجا عن بركه ، وأعتق جميع من عنده من مماليك وعبيد وجوار . فلما مات استمرت الأتابكية بعده شاغرة لم يلها أحد من الأمراء ، ورسم السلطان للزني بركات بن موسى أن يتحدث في جهات الأتابكية الى أن يليها من يختاره السلطان .

وفيه ، في ثامن عشرينه ، كان ختم البخاري بالقلعة على العادة وحضر القضاة الأربعة ، ونصب السلطان خيمة كبيرة بالحوش وحضر بين القضاة في ذلك اليوم ، وخلع على من له عادة من الفقهاء وفرقت الصرر ، وكان ختما حافلا .

وفي تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان ، وطلع بها الى القلعة وهي مزفوفة على رعوس الحمالين .

وفي ليالى العيد اشتد البرد وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت منه الأسواق ، وجاءت الأخبار من الشرقية والمنوفية بأن قد وقع في تلك الأيام برد كل واحدة قدر أحد عشر رطلا فقتلت عدة بهائم وتعطب منها أولاد الفلاحين ، وأفسدت بعض الزروع ، وكانت حادثة مهولة .

وفي شوال — في يوم سابعه — حضر الأمير أقبای الطویل أمير آخور ثانی الذي كان قد توجه الى القدس بسبب القيامة ، وأشيع بين الناس أنه احتاط على ما في القيامة من مال الفرج ، وربما يحصل من هذه الحادثة مفسدة كبيرة من قبل الفرنج .

وفي يوم الخميس تاسعه حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفي خاير بيك بن ملبای نائب حلب ، وقد حضر ليرى وجه السلطان ويزوره ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان متمر وفوقه فوقاني بطرز يلغاوى عريض مثل خلعة الأتابكية . ونزل من القلعة في موكب حافل وتوجه الى بيت الأمير قرقماس الجلب الذي بالتبانة فنزل به . وقد عظمه السلطان الى الغاية وأوكب بالقصر ولبس الأمراء الشاش والقماش بسببه .

وفي يوم السبت ثامن عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة في تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل قانصوه ابن سلطان جركس ، وبالركب الأول نوروز تاجر الممالك أحد الأمراء الطبلخانات وكان لهما بالقاهرة يوم مشهود .

وفيه تغير خاطر السلطان على جماعة من الزردكاشية فقبض على شخص يسمى أحمد بن قراکز ، وعلى شخص يسمى محمود الأعور ، وغيب عبد الكريم بن اللاذني مستوفي الزردخاناه ، ورسم على عبد الباسط بن تقى الدين الناظر ، فسلمهم السلطان الى الأمير ملبای الشريفى الزردكاش ، ووضع أحمد بن قراکز في الحديد ثم ضربه فيما بعد هو وابنه ، وقد قرر عليهم السلطان عشرة آلاف دينار ، وكان أحمد بن قراکز هذا

سببا لمصادرة ملبای الزردكاش وعبد الباسط الناظر ، وغرموا مالا له صورة ، وقد تقدم ذكر ذلك . وكان أحمد بن قراکز ما أبقي ممكنا في مرافعة ملبای الزردكاش وعبد الباسط الناظر ومباشري الزردخاناه ويحيى بن يونس أحد الزردكاشية ، وكان حظى عند السلطان بسبب المرافعة وداخله في أمور شتى ، فما عن قريب حتى تغير خاطر السلطان عليه ورافعه جماعة وأئخذوا جراحاته عند السلطان ، فغضب عليه وسلمه الى الأمير ملبای الزردكاش فظفر به واشتفى منه ، فكان كما يقال في المعنى :

قل للعذول يرعوى

وينتهى عن عتبه

ولا يكون في الهوى

يشمت بي أشمت به

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا من الممالك السلطانية يقال له شاهين ، وهو في سن الشيخوخة ، فصد الحج في هذه السنة ، فخرج هو وزوجته الى بركة الحاج ، ثم عرضت له حاجة في بيته فرجع تحت الليل ، فخرج عليه جماعة من العربان فقتلوه عند سبيل علان ، فحملوه وآتوا به الى داره حتى غسلوه وكفنوه ودفنوه ، فرجعت زوجته من بركة الحاج ولم يقسم لهما الحج في هذه السنة ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه طلعت الى السلطان مقدمة حافلة من عند نائب حلب وهى أطباق فيها ذهب عين وممالك جراكسة نحو من ثلاثة وأربعين مملوكا ، ومن الحیول خمسين فرسا منها فرس بصرج بلور وكنبوش ذهب وأنعاله من الذهب ، قيل ان مشتراه

ألف دينار ، وعدة حمالين عليها زردبات وصوفة ، وسمور ووشق وسنجاب وغير ذلك من الأصناف الفاخرة .

وفيه أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وجعل للمماليك الذين استجدهم طبقه جامكية خامسة في أواخر الجوامك تصرف لهم على انفرادهم .

وفيه غيب المعلم على الصغير ، وكان السلطان قرر عليه مالا لم يفدر عليه فهرب ، وقرر عوضه المعلم خضر ، وقد تعطل اللحم في هذه الأيام الى الغاية .

وفيه توعك جسد السلطان وأقصده واحتجب عن الناس ولم يخرج الى صلاة الجمعة ، فكثرت القيل والقال بسبب ذلك . واستمر منجيبا أياما فطلع اليه الخليفة المتوكل على الله وعاده ، ثم طلع اليه القضاة الأربعة وعادوه ، ثم بعد أيام شفى وخرج الى صلاة الجمعة وهو راكب ، فخطب قاضى القضاة الشافعى خطبة بليغة مختصرة ، ثم انقضى أمر الصلاة وعاد السلطان الى القبة التى أنشأها الأشرف جان بلاط بجوار الدهيشة فأقام بها .

وفيه توفى قاضى قضاة غزة شمس الدين محمد ابن النحاس الشافعى ، وكان من خواص السلطان ، وكان لطيف الذات عشير الناس رئيسا حشما ، وكان لا بأس به .

وفيه وصلت عدة مراكب من عند ابن عثمان ملك الروم فيها زردخاناه للسلطان ، فوصلت الى بولاق عند الرصيف وشرعوا يحولون ما فيها الى القلعة ، فكان من جملة ذلك مكاحل سبقيات العدة

ثلاثمائة ، ونشاب ثلاثين ألف سهم ، وبارود مطيب أربعون قنطارا ، ومقاذيف خشب ، العدة ألفا مقذاف ، وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب ، ومراسى حديد ، وغير ذلك مما تحتاج اليه المراكب ، فشكره السلطان على ذلك ، وكان السلطان أرسل مالا على يد يونس العادلى الى بلاد ابن عثمان ليشتري له بها أخشابا ونحاسا وحديدا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد عليه المال وجهاز ما ذكرناه من عنده مقدمة للسلطان .

وفى نوى القعدة جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب تلمسان تحارب مع الفرنج وقتل منهم نحو من عشرين ألف انسان ، واستخلص منهم ما كانوا قد استولوا عليه من جهات الأندلس وغيرها ، فسر الناس قاطبة لهذا الخبر .

وفيه ، فى يوم الاثنين حادى عشره ، نزل السلطان الى الميدان وعزم على خاير بيك نائب حلب ، واجتمع الأمراء المقدمون ، وساق قدامهم فى ذلك اليوم الرماحة وهم لابسون الأحمر وآلة السلاح ، كما يفعلون فى أيام دوران المحمل . وكان معلم الرماحة الأمير تمر الحسينى أحد المقدمين المعروف بالزردكاش ومعه أربعة باشات ، فساقوا أحسن سوق ونزلوا عن خيولهم وباسوا الأرض للسلطان على جارى العادة ، فخلع على المعلم وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وخلع على الأربعة باشات ، ثم خلع فى ذلك اليوم على الأمراء المقدمين كوامل الشتاء ، ثم تحول ودخل الى البحرة التى بالميدان ومد الى نائب حلب هناك أسمطة حافلة

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بشنق ثلاث جوار وغلام قد قتلوا سيدهم ، وهى أم كسبای

الذى كان دوا دارا ثانيا وقتل في معركة قانصوه
خمسمائة كما تقدم ذكر ذلك ، فشنقوا على باب
سيدتهم في مكان قتلوها فيه .

وفيه نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء
المقدمون قاطبة وعليهم كوامل الشتاء التى ألبسها
لهم السلطان ، وصحبته أيضا أعيان المباشرين ،
فشق من الصليبة وتوجه من على قناطر السباع
الى الجزيرة الوسطى ، ثم أتى الى بولاق ومر من
على الرصيف ووقف عند مدرسة ابن الزمن ، وزار
سيدى سويدان الذى هناك مقيما بالمدرسة ، ثم
خرج من على جزيرة القيل وأتى الى شبرا ، واستمر
على ذلك حتى وصل الى قناطر أبى المنجا حتى
كشف على الأخشاب التى أرسلها ابن عثمان
وكانت هناك فى حاصل ، ثم رجع من على المنية
وطلع من على قنطرة الحاجب ودخل من باب
الشعرية ، فزينوا له الحشايين وارتفعت له الأصوات
بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان .
ثم خرج من باب القنطرة وخرج من بين الصورين
وطلع من باب الخرق وشق من سبوق تحت الربع .
ثم طلع من على البسطين واستمر على ذلك حتى
طلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود . ومن حين
سلطنته الى ذلك اليوم لم يضع له موكب مثل
ذلك .

وفى هذه السنة تعطبت سائر الفواكه ، حتى
البطيخ والثوم والبصل وغير ذلك من الفواكه
والخضر ، حتى الرباحين والأزهار والغلال ، وكانت
غالب الأراضي مجدية .

وفيه قبض السلطان على شرف الدين الصغير
كاتب الماليك وعلى شرف الدين النابلسى

الأستادار ، وقرر عليهما مالا له صورة ، ووضعهما
فى الحديد وسجنهما بالعرقانة ، واستمرا على
ذلك حتى يكون من أمرهما ما يكون .

وفى يوم السبت سادس عشره حضر قاصد من
عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبسة
للسلطان ، فلما ناولها له قبلها السلطان ووضعها
على عينيه ، ثم ناولها الى كاتب السرفقراها بحضرة
السلطان والأمراء ، وكانت ألفاظ هذه المكاتبسة
مرجزة ، صنعة البديع ، وقد نعت فيها السلطان
نعتا عظيما . وكان من مضمونها ، أنه أرسل
للسلطان عدة مراكب فيها زردخانا فما يدرى هل
وصلت الى السلطان أم لا ، وأخبر فيها أن الرئيس
كمال المجاهد قد غرق ولا يعلم له خبر ، فأقام
القاصد بمصر أياما قلائل وكتب له الجواب عن
مكاتبته وأذن له بالسفر الى بلاده .

وفى هذا الشهر أنعم السلطان على الأمير خاير بيك
الخازندار بتقدمة ألف ، وصار من جملة الأمراء
المقدمين .

وفيه توفى شمس الدين محمد الصالحى وكيل
الشرع الشريف ، وكان علامة فى صنعة التوكيل
عارفا بأموال الشرع ، وكان لا بأس به .

ومن النوادر اللطفة ما وقع فى هذا الشهر وهو
أن السلطان رسم بشيل الدكة التى كانت بالحوش
يجلس فوقها السلاطين للمحاكمات ، وقد جلس
فوق هذه الدكة جماعة كثيرة من الملوك ونفذوا
عليها الأحكام السلطانية ، وكانت عوضا عن كرسى
المملكة ، فعز على الناس تغييرها ولم يتفاءلوا
بذلك ، ثم انه بنى مكان هذه الدكة مصطبة بالحجر
الفص وزخرفها بالرخام السماقى والزرزورى
والمرسينى وغير ذلك من أصناف الرخام الملون
الفاخر ، ونقش بروزها وألبسها بالذهب وجعل

لها أفريزا من الرخام الأبيض وله رماتسا رخام ،
وكسا هذا الأفريز بالذهب وتقش عليه اسمه ،
وصنع فوق هذه المصطبة وزرة من الرخام
الملون طولها أربع أزرع ، فجاءت هذه المصطبة
غاية في الحسن بحيث لم يعمل مثلها قط ولا سبقه
أحد من الملوك الى ذلك ، وقد قلت في هذه الواقعة
هذه الأبيات وهو قولي :

قد جدد الأثر فسلطاناً

مصطبة أوصافها تحكه

رخامها شبت ألوانه

جواهر في عقد مشتبكه

ألبسها الحسن لباس البها

حتى غدت تزهو على الدكه

يجلس للموكب من فوقها

يظهر في أحكامه فتكه

فاق ملوك الترك فيما مضى

ولم يضاه ملوكهم ملكه

بخدمة البيت وما حوله

وفارس البيداء في المعركة

قد خصه الرحمن بالملك في

مصر ، ومن عاداه في هلكه

أيده الله بطول البقا

ما طافت الحجاج في مكة

وقولي أيضا :

بنى الأثر الفوري في الحوش بسطة

ليغنى بها عن دكة الحكم بالأمس

فجاءت من الآيات كرسى ملكه

وطلعت فافت على البدر والشمس

فحضنته لما استوى بجلوسه

عليها يرب الناس مع آية الكرسي

وفيه جاء الى السلطان شخص شريف وأخبره
أنه وجد معدن البارود في بلد خراب بالقرب من
الكرك ، وتراها كلة من ذلك البارود ، فطبخوه
فوجدوه بارودا جيدا ، ففرح السلطان بذلك وأنعم
على ذلك الرجل الذي أحضره بعشرة دنانير وأرسل
يحضر منه أشياء كثيرة . وقبل ذلك بمدة ظهر معدن
الرخام السماقي والزرزوري في جبل بالقرب من
البدرشين ، فأرسل السلطان وقطع منه فوجده
رخاما جيدا ففرح بذلك وعد من النوادر .

ومن الوقائع أن الأمير أركماس الذي كان نائب
الشام طلع الى السلطان بقطعة فولاذ هيئة الكرة
وزعم أنها صاعقة نزلت ببعض الجبال وأن أعرايا
أهداها اليه ، ففرح السلطان بذلك وجمع السباكين
فقالوا انها صاعقة لا محالة ، فنظر اليها بعض
الزردكاشية فأفكر ذلك وقال : هذه حجر مرقشيتة
وهو حجر صلب ، فلما سمع السلطان ذلك شق
عليه ونزل الى الميدان وجمع السباكين وحضر
الأمير أركماس ، ووضعوا ذلك الحجر الذي على
هيئة الفولاذ في النار ، فمجرد ما وضعوه في النار
صار مثل الخرنفش وتفتت ، فخجل الأمير أركماس
من ذلك ، وانتصف عليه ذلك الزردكاش ، وهو
الجمالى يوسف أخو مؤلفه ، وعدد ذلك من النوادر .

ومما حكى عن أمر الصاعقة الحقيقية : أن سنة
ست وتسعين وثلاثمائة وقعت صاعقة عظيمة
بجرجان ، فرجت لها الأرض وسقطت من هولها
الحوامل ، فخرج الناس الى مكان سقطت فيه ،
فوجدوها قد ساخت في الأرض على قدر قامة ،
فنبشوا عليها فوجدوها قد بقيت قطعة حديد قدر
مائة وخمسين منا ، وهى أجزاء جاروشية صغار
مستديرة قد التصق بعضها ببعض ، فسمع بذلك
السلطان محمود بن سبكتكين صاحب خراسان ،
وهو أول من تلقب بالسلطان ، فكتب الى عامل

جرجان بنقل هذه القطعة الحديد فتعذر عليهم نقلها ، فحاولوا كسر قطعه منها فلم تعمل فيها الآلات ، فعولج كسر قطعة منها بعد جهد كبير فحملت اليه ، فرام أن يصنع منها سيفاً له فتعذر عليه ذلك ولم يتم له ما أراد .

وفي يوم السبت ثالث عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعرضوا عليه قناصة الفرنج ، منهم القنصل الذى بغير الاسكندرية ، والقنصل الذى بدمشق ، والقنصل الذى بطرابلس . فلما وقفوا بين يديه وبجهم بالكلام ووعدهم بالشنق . وسبب ذلك أن نائب البيرة قبض على دوايس من عند اسمعيل الصفوى^١ ، وعلى أيديهم مكاتبات الى القناصل بأن يكتابوا ملوك الفرنج بأن يأتوا فى سراكب من البحر ، وأن يزحف هو ومن معه من العساكر من البر على سلطان مصر وعلى ابن عثمان ملك الروم ، فانكشف رخصهم وافتضحوا فى هذه الواقعة ، فرسم السلطان بتسليمهم الى ناظر الخاص ليقررهم عن حقيقة ذلك ، وان لم يقرروا يسلمهم الى الوالى ، فانفضوا على ذلك .

وفي ذلك اليوم عرض السلطان الدنوشرى مباشر الأتابكى قرفماس ، وقد غمز عليه بأن عنده مالا لأمر كبير ، فلما عرضه لم يقر بشئ فرسم بتسليمه الى عقيب الجيش فقبض عليه وعلى الخازندار أيضاً ، واستمر فى الترسيم لما تقتضيه الآراء الشريفة فى أمرهما .

وفي ذلك اليوم توفيت خوند جان كلدى زوجة

(١) هو اسماعيل شاه بن حيدر الصفوى . وقد ورد اسمه « الصفوى » خطأ بين الصفحات ٧٥٧ و ٨٠٠ من الكتاب . وهو مؤسس الأسرة الصفوية التى حكمت فارس من سنة ١٤٩٩ الى سنة ١٧٣٦ . وقد نبهنا الى ذلك الدكتور جمال مرسى بدر جزاء الله خيراً .

الملك الظاهر قانصوه المسجون بغير الاسكندرية ، فأخرجت وعلى نعشها بشخانة زركش ، وكانت ذات عقل ودين لا بأس بها ، ولكن فاست شدائد ومحنا ، وعصرت فى أكعابها وأكتافها حتى أشرفت على الموت . وسبب ذلك أن زوجها الظاهر قانصوه لما وتبوا عليه وانكسر نزل من القلعة واختفى أماما فلم تفر بمكانه ، فعوقبت بسبب ذلك .

وفي أواخر هذا الشهر أنفق السلطان الجامكية الخامسة التى استجدها بسبب الممالك الدين استجدهم ما بين تراكمة وأعجام وأولاد ناس وغير ذلك من الطوائف ، فجعل لهم جامكية خامسة تصرف لهم على انفرادهم دون جوامك العسكر . وقد تزايد أمر هذه الممالك الأراذل الذين صار يستكثر منهم فى الديوان ، ففهم من لا يعرف يجذب القوس ولا يمسك الرمح وهذا أمر عجيب ! يشح فيمن يستحق الجامكية ، ويعطيها لغير مستحقها ... كما قيل :

انى أشح بدرهم متصدقا

وأجود فى قدح بما ملكت يدى

وفيه وصل الى السلطان فيل صغير غير ذلك القيل المقدم خبره لما وصل .

وفيه توفى تانى بيبك النجمى المعروف بالأبج الذى كان شاد الشون وصرف عنها ، وكان من الأمراء الطبلخانات ، وكان لا بأس به .

وفي عقيب ذلك توفى أيضا شخص من الأمراء العشراوات يسمى تميز الشهابى .

وفي ذى الحجة كان مستهل الشهر يوم السبت ، فعمل السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وجلس

على المصطبة التي أنشأها بالحوش مكان الدكة ،
وقد تقدم ذكر ذلك . وكان سبب هذا الموكب أن
السلطان خلع على خاير بيك نائب حلب وأذن له
بالسفر الى محل ولايته بحلب على عادته ، وخلع
في ذلك اليوم على الأمير طومان باي الدوادار
وخرج الى السفر نحو الشرقية والغربية ، وقد
غيب لأجل أمر الأضحية ولعله يغيب في هذه السفرة
نحو من شهرين .

وفي ذلك اليوم طلع الخليفة والقضاة الأربعة
للتهنئة بالشهر ، وكان موكبا حافلا ، ولا سيما
كان أول جلوس السلطان على هذه المصطبة فكان
لها موقع عظيم .

وفيه أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت
الأسواق والشوارع ، وكان ذلك ليلة الأحد ثانيه ،
ولم يقع في هذه السنة من الأمطار أعظم من هذه
المطرة .

وفيه عين السلطان شادية الشراب خاناه الى
ولده الصغير ، عوضا عن أخيه المقدم ذكر وفاته .

وفيه ، في يوم الثلاثاء رابعه ، فرق السلطان
الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفيه كانت الأضحية غالية ومشحوة بسبب
تشويش المماليك على المتسبين ، وقد صاروا
يخرجون الى المطرية ويقطعون الطريق على ضيافات
الأمراء حتى صارت الأمراء يرسلون مماليكهم
يلاقون ضيافاتهم . وقد خرج المماليك عن الحد
في الأذى للناس في هذه السنة الى الغاية ، وحصل
منهم غاية الضرر والفساد في حق الناس ، والأمر لله .
وفيه — في يوم الجمعة سابعه — وقعت زلزلة

خفيفة بعد العصر وارتجت منها الأرض ، ولم يشعر
بها من الناس الا القليل .

وفيه كان موكب العيد حافلا ، وجلس السلطان
بالحوش على المصطبة التي أنشأها وضحي بالايوان
الكبير على العادة .

وفيه ، في يوم عيد النحر ، وقعت حادثة مهولة ،
وهو أن شخصا من أبناء الأتراك صغير السن دخل
الى اسطبل أبيه فرفسه بغل على قلبه فمات في ذلك
اليوم ، فحصل على أهله من الأnkاد ما لا خير فيه
بسبب فقد ولدهم ولا سيما في يوم العيد .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأمراء
العشراوات يقال له أزدمر ، وهو أنى الأمير قاني باي
قرا أمير آخور كبير ، وقرره في نيابة عينتاب .

وفيه جلس السلطان على المصطبة التي أنشأها
مكان الدكة وأنفق الجامكية على العسكر ، فقام
له الأمراء المقدمون ، وقبلوا له الأرض وهنوه
بجلوسه على تلك المصطبة حيث كملت ، ومن
العسكر من لم ينظر عليه ذلك وقال : « الدكة
كانت أعظم حرمة من هذه المصطبة » .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الصفوى قد
اتصر على أذربك خان ملك التتر وقتله وقطع
رأسه ، فتأكد السلطان لهذا الخبر وأقام عنده
الأمراء الى قريب الظهر وهم في ضرب مشورة
بسبب ذلك . وكان أذربك خان ضد الصفوى وكان
مشغولا بمحاربته عن ابن عثمان وسلطان مصر ،
فلما أشيع قتل أذربك خان خشى السلطان من أمر
الصفوى أن يزحف على البلاد .

وفي أواخر هذه السنة توفي الشيخ أبو النجا

(١) يريد أن يقول ابن أمير العشرة أزدمر كان مملوكا «يقنتيه»
الأمير قاني باي قرا ..

القننى ، وكان شاعرا لطيف الذات عشير الناس ،
وقد ناف عن السبعين

وفيه توفى رضى الدين حسن بن عبد القادر
ابن حسين المقرئ ، وكان لا بأس به .

وفى عقيب موت رضى الدين توفى أيضا الناصرى
محمد بن عبد العزيز المقرئ ، وكان علامة فى فن
القراءات حسن الصوت عارفا بطريقة القراءات ،
وكان لا بأس به .

وفيه نادى السلطان بألا يمشى أحد من الناس
من بعد العشاء فى الطرقات ، ومن وجدوه يمشى
ومعه سلاح بشنق من غير معاودة فسكن الأمر
قليلا وكان قد فسدت الأحوال فى تلك الأيام الى
الغاية .

سنة سبع عشرة وتسعمائة (١٥١١ م) ؛

فيها - فى المحرم - كان مستهل الشهر
بالأحد . ففيه ، فى يوم الجمعة سادسه ، كانت وفاة
الأمير طراباى الشريفى رأس توبة النوب . وكان
أصله من ممالك الأشرف قايتباى فهو من معانيقه ،
وولى من الوظائف السنية الدوادارية الثانية ، ثم
بقى رأس توبة النوب فى دولة الأشرف جان بلاط
عوضا عن قرقماس بن ولى الدين الذى ولى
الأتابكة فيما بعد . وكانت وفاة الأمير طراباى فى
ليلة الجمعة ، ودفن صبيحة يوم الجمعة ، وكانت
جنازته مشهودة ، ونزل السلطان وصلى عليه فى
سبيل المؤمنين ، وأخرجت قدامه كفارة ونهبت من
على بابه ، ودقت عليه زوجته بالطارات فى العزاء ،
وكانت مدة انقطاعه بهذا العارض نحو شهر ، وقد
اعتراه ورم فى رجله وركبته ، وكان له بمصر حرمة
وافرة وكلمة نافذة وسطوة زائدة لم تقع لأحد من
الأمراء فى عصرنا غيره . فرجت لموته القاهرة وفرح
بذلك غالب الناس ، فانه كان صارما عسوفاً شديداً

البأس زائد القسوة ، وقع منه أشياء كثيرة من
أنواع المظالم بالديار المصرية لم تقع من غيره من
الأمراء فيما تقدم ، وحصل منه الضرر الشامل
لجماعة كثيرة من الناس من مصادرات وأخذ بيوت
ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده . وقد
قلت فيه هذه الأبيات :

بموت طراباى أفرج الله كربة
عن الناس من خلق السموات والأرض

فهذا فتوح عاد فى مصر ثانيا
وعمت به الأقطار فى الطول والعرض

وقد كان جارا عنيذا معاندا
فكم جار فى الأحكام بالبرم والنقض

ويطل حق الناس من كل واجب
ويقضى خلاف الشرع فى الندب والفرص

ولما طغى ظلما وزاد تجبرا
فعجل عزرائيل للروح بالقبض

وأسكنه ضيق اللحد معذبا
وأخلى منزله فى طرفة الغض

وقد جاء يسعى للجحيم برجله
وأجزم بعد الرفع بالنصب والخفض

ومذ شاع بين الناس أخبار موته
فصار بهنى بعض من سر للبعض

فيا رب سابه بما يستحقه
وأودعه فى الأغلال للبعث والعرض

كان الأمير طراباى من مبتدأ أمره وهو فى عز
وشهامة لم ينتكب ولم نف قط ، واستمر فى سعده

الى أن مات ، ومات وهو فى عشر السبعين . فلما
كان يوم السبت صبيحة موته عرض على السلطان

مما ليكه فوزعهم فى الطباق ، وأشيع بين الناس بأن
ظهر له من الموجود ما لا ينحصر من أموال وخيول

ويصلح بينهما ، ورسم له بخمسة آلاف دينار
تسفيراً عليهما .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره توفيت الست
زينب ابنة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبي العز
عبد العزيز ، وهى أخت أمير المؤمنين المستمسك
بالله يعقوب ، وعمه ولده المتوكل على الله محمد
خليفة الوقت الآن ، وكانت لا بأس بها

وفي يوم الاثنين ثالث عشرينه حضر الأمير طومان
باى الدوادار الكبير ، وكان مسافراً نحو الشرقية
والغربية ، فأهلك الحرث والنسل وأفرد على سائر
البلاد التى بالشرقية والغربية الأموال الجزيلة ،
حتى أفرد على بلاد الأوقاف التى على الجوامع
 والمدارس ، فضج من ذلك المقطعون ، وما حصل
على الناس بنزوله الى البلاد خير .

وفي يوم الخميس سادس عشرينه دخل الحاج
الى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل قانصوه بن
سلطان جركس ، وبالركب الأول توروز تاجر
المماليك . وقد قاست الحجاج فى هذه السنة
مشقة زائدة من الوحى وموت الجمال ، وقد ضبط
من مات من الحجاج فى هذه السنة فكان جملة
ذلك ألفاً وثمانمائة انسان . وكانت سنة شديدة
صعبة على الحجاج والذين سلموا ردوا ضعافاً ،
حتى قانصوه أمير ركب المحمل رد وهو عليل

وفيه نادى السلطان بأن أصحاب الأملاك التى
على الخلجان يقطعون أراضي الخلجان قدر ثلاث
أذرع ونصف ، فامتلوا ذلك ولكن حصل للناس
غاية الضرر من الغرامة والبهدة من جماعة حاجب
الحجاب بسبب شيل التراب ، وكان السلطان نادى
بأن الذى يعجز عن القطع يكون بيته للسلطان ،
فقاست أصحاب الأملاك التى بالجزيرة الوسطى
ما لا خير فيه بسبب ذلك .

وجمال وسلاح وبرك وغير ذلك ، فكان موجوده
أعظم من موجود الأتابكى قرقماس بأشياء كثيرة ،
وكان بين موت الأتابكى قرقماس وبين موت الأمير
طراباى ثلاثة أشهر واثنا عشر يوماً ، حتى عد ذلك
من جملة سعد السلطان قانصوه الغورى الذى ورث
هذين الأميرين فى هذه المدة اليسيرة واحتاط على
موجودهما من صامت وناطق .

وفي يوم الاثنين تاسعه حضر الطواشى بشير
الذى كان توجه الى بلاد اليمن قاصداً الى بعض
ملوكها ، فلما حضر خلع عليه السلطان خلعة سنية
ونزل الى داره ، ثم بعد أيام أهدى الى السلطان
هدية خافلة .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره قبض السلطان
على تغرى بردى الترجمان ، ووضع فى الحديد
ووكل به ، وأرسل ختم على بيته واحتاط على
موجوده ورسم على عياله ، وسبب ذلك أنه قد بلغ
السلطان أن تغرى بردى كاتب ملوك الفرنج
بأحوال مملكة مصر ، وأن السلطان ليس له همة
الى ارسال تجريدة ، وأن السواحل خالية ليس بها
مانع . وقد أحضروا الى السلطان مكاتبات بخط
تغرى بردى بمعنى ذلك ، فأحضر السلطان تغرى
بردى وأوقفه على تلك المطالعات ، فأنكر ذلك ،
فغضب عليه وشكه فى الحديد ووكل به وأحضر
خيوله وقماشه ، واستمر فى الترسيم الى الآن .

وفي يوم الاثنين سادس عشرينه خلع السلطان
على شخص من الخاصكية يسمى طومان باى ،
وهو خازندار كيس ، ورسم له بأن يتوجه الى
الشام ليصلح بين سيباى نائب الشام وبين جان
بردى الغزالى نائب صفد . وكان قد بلغ السلطان
بأن قد حصل بينهما تشاجر مفرط حتى خرجا فيه
عن الحد ، فرسم السلطان لطومان باى بأن يتوجه

وفيه جاءت الأخبار صعبة الحجاج بوفاة هجار أمير الينبع الذى كان السلطان ولده امرة الينبع عوصا عن يحيى بن سبع ، وحصر جماعة من أقاربه يسعون فى امرة الينبع ، فتم الأمر

وفى يوم الجمعة سابع عشرينه توفى شاهين معلم الدبوس ، وكان أحد الأمراء العشراوات ، وكان علامة فى فن الدبوس .

وقه توفى معين الدين بن شمس الذى كان وكيلا بيت المال ونائب كاتب السر ، مات بالمقشرة وقد قاسى شدايد ومحن ، وضرب بالمقارع غير ما مرة وعصر فى أكعابه وأخذ منه جملة مال . وكان تجهيز مشكور ، فما رنى له أحد من الناس فيما جرى عليه

وفى يوم الاثنين سلخ المحرم حضر الى الأبواب الشريفة الأمير يوسف الناصرى الذى كان نائب حماة وعزل عنها ، فنقل السلطان نائب طرابلس الى حماة عوصا عن يوسف الناصرى ، وقرر فى نيابة طرابلس أبرك ، مملوك السلطان الذى كان نائب قلعة حلب ، وقرر فى نيابة قلعة حلب شخص من مماليك السلطان . ولما حضر يوسف الناصرى حلق عليه السلطان ، ونزل الى داره واستمر طرخانا .

وفى صفر صعد الخليفة الى القلعة ليهنىء بالشهر ، وكذلك القضاة الأربعة ، فحصل فى ذلك اليوم للقاضى شمس الدين انجليبى غاية المقت من السلطان وكاد يبطش به . وسبب ذلك أنه حكم فى بعض الوفائع بما اعترض عليه فى ذلك فتغير خاطر السلطان عليه ولم يفبل له فى ذلك عدرا ، وحط على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل بسببه ، وكان مجلسا مهولا .

وفى يوم الخميس ثالث نزل السلطان وشق من الصليبة ، وتوجه الى المنشية فكشف عن مراكب عمرها هناك ، ثم توجه الى الجزيرة الوسطى وكشف عن قطع الخليج ، ودخل من تحت قنطرة قديدار ، وشق من بطن الخليج وكشف على القطع واستحث الناس على ذلك ، فبينما هو شاقق من بطن الخليج كبا به الفرس فى جورة من القطع التى هناك ، فلم يتأثر الى ذلك واستمر شاققا من بطن الخليج حتى وصل الى قناطر الأوز ، فطلع من هناك وشق من الحسينية ، ثم دخل من باب النصر أو باب الفتوح وشق من القاهرة على حين غفلة ، فوقدت له الشموع على الدكاكين ، وانطلقت له الزغاريت من النساء فى الطيقان ، ثم ارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام ، وكان له موكب حافل وقدامه جماعة من الأمراء والمباشرين . ولكن شق من القاهرة وهو لايس تخفيفه صغيرة مملسة . وسبب ذلك أنه كان قدطلع له دمل فى رأسه فلم يستطع لبس التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال .

واستمر فى هذا الموكب حتى خرج من باب زويلة وقد زينت له ، ثم طلع من البسطين ، وشق من على بيت الظاهر تمر بغا وطلع من هناك الى الرملة ودخل الميدان . ولم يشق من القاهرة منذ تسلطن سوى فى ذلك اليوم فقط ... ومما أحدثه عند دخوله من القاهرة فى ذلك اليوم أنه أمر المشاعلية تنادى قدامه بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن أحدا لا يشوش على أحد ، وكان ذلك غاية الخفة منه ، وترك هذا كان أوجب .

وفى يوم الثلاثاء ثامنه نزل السلطان من القلعة أيضا ، وسير من على ساحل البحر حتى وصل الى البهظة ، فقدمت له الحراقة التى يكسر فيها السد ، فنزل بها وعدى الى المقياس ، فطلع من

السلم التي تجاه بر الجزيرة ، وتمشى ودخل الى المقياس ، نزل الى الفسفة التي يقاس بها النيل فتوضاً منها ، وطلع وصلى هناك ركعتين ... ثم نحول ودخل الى قاعة المقياس ، فمد له هناك علاء الدين ناظر الخاص وبركات بن موسى المحنسب اسطه حافلة ولم يبقوا في ذلك مكانا ، وكان مع السلطان من الأمراء المقدمين الأمير طومان باى الدوادر الكبير ، والأمير خاير بك كاشف الغربية أحد المقدمين . والأمير خاير بك الخازندار أحد المقدمين ، وجماعة من الأمراء العشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية . وكان معه من المباشرين القاضي عبد القادر القصرى ناظر الجيش ، وعلاء الدين ناظر الخاص ، والشهابى أحمد بن الجعان نائب كاتب السر وغير ذلك من الأعيان .

فلما فرغ من الأكل ، أمر بإصلاح ما فسد من عمارة المقياس ، وأمر ببناء جامع بجوار المقياس تجاه دير النحاس فأخذوا في أسباب ذلك . ثم نزل في الحرافة ونصب له سحابة حرير أصفر ، وأحضرت حوله مراكب كثيرة برسم العسكر ، وفيهم غراب قد زين بالصناجق والشطقات ، ثم شق من على بر الروضة فانطلقت له النساء بالزغاريت ، واستمر على ذلك حتى طلع من عند قصر ابن العيني الذي بالمنشية ، ثم شق من بطن الخليج ، وطلع من الناصرية من على بيت قانصوه خمسمائة ، وطلع من على قناطر السباع ، وشق من الصليية وقدامه المشاعلية تهادى بالأمان والاطمان كما فعل لما شق من القاهرة .

وفي يوم الخميس عاشره عمل السلطان الموكب بالقصر الكبير وأمر الأمراء والعسكر بلبس الشاش والقماش ، فلما تكامل الموكب خلع على المقر

السيفى دولات باى بن أركماس المعروف بالساقى أمير سلاح . فقرره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن الأتابكى قرقماس بن ولى الدين بحكم وفاته . وكانت الأتابكية شاغرة نحو أربعة أشهر ونصف شهر من حين توفى الأتابكى قرقماس في ثالث عشرين شهر رمضان سنة ست عشرة وتسعمائة

وخلع في ذلك اليوم على المقر السيفى سودون العجمى ، وقرره في امرة السلاح عوضا عن دولات باى بحكم انتقاله الى الأتابكية

وخلع على المقر السيفى أركماس بن طراباى ، وهو الذى ولى نيابة الشام قبل ذلك ، فقرره في امرة مجلس عوضا عن سودون العجمى بحكم انتقاله الى امرة السلاح .

وخلع على المقر السيفى سودون الدوادرى الذى كان نائب طرابلس وقرره راس نوبة النوب عوضا عن طراباى الشريفى بحكم وفاته ، فلبس هؤلاء الأربعة أمراء هذه الوظائف السنية في يوم واحد ، وكان لهم يوم مشهود وموكب حافل .

وفي ذلك اليوم توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له يسق اليوسفى ، وأصله من مماليك الأشرف اينال فيما يقال ، وكان لا بأس به

وفي يوم الجمعة قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك سابع بشنس القبطى وفي يوم الجمعة حادى عشره كانت ليلة سيدى اسمعيل الانبائى ببولاق ، وكانت من الليالى المشهودة في القصف والفرجة وخرج الناس فيها عن الحد ، وصربت نحو من خمسمائة خيمة في الجزيرة التي طلعت تجاه بولاق . وصنعوا هناك سوقا بدكاكين مبنية ونقلوا اليه من سائر البصائع الفاخرة ، وكانت ليلة هادئة من الفتن والشور .

وفي يوم السبت ثاني عشره ابتدأ السلطان بضرب الكرة في الميدان ، واجتمع سائر الأمراء المقدمين وهم بالشاش والقماش ، والأوزان عمال والمغانى على جارى العادة

وفي يوم الأحد ثالث عشره جاءت الأخبار من الغربية بقتل شيخ العرب عيسى بن يوسف المعروف بابن جميل ، وكان من أعيان مشايخ الغربية وكان في سعة من المال ، فقتلوه شر قتلة وقتلوا ولده معه وجماعة من حاشيته ونهبوا أمواله وأغنامه ، ولم تنتطح في ذلك شاتان ، وكانت في تلك الأيام الفتن قائمة بالشرقية والغربية واقلیم الصعيد ، والأمر لله .

وفي يوم الاثنين رابع عشره خلع السلطان على شخص يقال له أجود بن مسفار — وهو ابن عم هجار — فقرره في امرة الينبع عوضا عن هجار بحكم وفاته ، وقد سعى يحيى بن سبع بأن يعاد الى امرة الينبع كما كان ، فلم يوافق السلطان على ذلك .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره جاءت الأخبار من الغربية بأن الجويلي قبض على جماعة من العربان الذين قتلوا عيسى بن جميل ، فحاشهم في مكان مضيق وأرسل يعلم السلطان بذلك ، فرسم السلطان للأمير طومان باي الدوادار بأن يخرج من يومه على جرائد الخيل ويتوجه الى الغربية ، فخرج تحت الليل . وصحبته خاير بك الكاشف أحد المقدمين وآخرين من الأمراء والعسكر

وفي يوم الخميس سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر وشرع كل من أخذ جامكيته يقول له : « عبيء بركك للسفر » . وأشيع بين الناس أنه يعين أربع تجاريد ، وانفض الموكب على ذلك . وفي هذا الشهر رسم السلطان بعمارة قنطرة الخروبي وعلاها مقدار ثلاث أذرع ، وكذلك قناطر

السباع ، فانه كان حصل لهما تشعث وآل أمرها الى السقوط .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرينه ضرب السلطان الكرة بالميسدان ، ففي ذلك اليوم تقنطر من على الفرس بهادر الغوري أحد الأمراء الطبلخانات وكان من خواص السلطان ، فلما تقنطر أغمى عليه فنزل الى داره وهو محمول على بغل وقد انقطع نخاعه ، فلما وصل الى داره مات من وقته ، وكان من المتكبرين وعنده الشمم الزائد فعد موته من الغرائب ، فكان كما يقال في المعنى :

فكم من صحيح مات من غير علة
وكم من غليل عاش حيناً من الدهر

وكم من فتى يمسى ويصبح آمناً
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

وفي يوم الأربعاء ثالث عشرينه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو طرا ونصب له هناك وطاqa عظيما ، وكان معه بعض أمراء مقدمين ، فان الأتابكي دولات باي كان مريضا على خطة ، وكذلك سودون العجمي أمير سلاح ، وكان الأمير طومان باي الدوادار مسافرا نحو الغربية بسبب فساد العربان مما تقدم ذكره من قتل عيسى بن جميل ، وكان سبب نزول السلطان الي هناك فيل انه عرض المركب الكبير الغليون الذي عمره في بولاق عند الرصيف ، فلما كمل زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل وتوجهوا به الى طرا وعرضوه على السلطان في البحر ، ورموا فدامه بالمدافع ذهابا وايابا كما فعل قبل ذلك لما عرض المراكب الأغربة ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فمد هناك أسمطة حافلة وابتهج في ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا ، وأقام هناك الى بعد العصر ، فلما رجع من طرا رجع من البحر فأحضروا له الحراقة التي بكسر فيها السد فنزل بها ، ونزل الأمراء والعسكر في عدة

مراكب ، واستمر حادرا في البحر حتى طلع من رأس الجزيرة الوسطى من تحت قصر ابن العيني ، ثم طلع من هناك الى القلعة وشق من سوق جامع ابن طولون ، وكان يوما بالسلطاني .

وفي يوم الجمعة خامس عشرينه كانت وفاة الأتابكي دولات باي بن أركماس المعروف بالساقى ، وكان أصله من مساليك الأشراف قايتباي ، وقد ساعدته الأيام حتى ولى عدة وظائف سنينة منها نيابة حلب ونيابة الشام ونيابة طرابلس ، ثم حضر الى مصر ، وولى امرة السلاح في دولة الأشراف فانصوه العورى وأقام بها مدة طويلة ، ثم بقى أتابك العساكر بالديار المصرية بعد وفاة الأتابكي قرقماس بن ولى الدين ، فأقام في الأتابكية خمسة عشر يوما ومات ، فانه ولى يوم الخميس عاشر صفر ومات ليلة الجمعة خامس عشرينه ، فكانت مدته في الأتابكية خمسة عشر يوما لا غير وقد قلب في معنى ذلك :

ان دولات باي لما أن رقى امرة الكبراء ولى مسرعا جاء للمنصب يحكى زائرا ثم ما سلم حتى ودعا وكانت جنازته حافلة ونزل السلطان وصلى عليه ، ثم توجهوا به الى تربة العادل طومان باي فدفن بها فانه كان فرايته . وكان الأتابكي دولات باي أميراً جليلاً جميل الصورة مليح الهيئه طويل القامة أبيض اللون مسندير اللحية أسود الشعر شاباً في عنفوان شبابه ، مات وله من العمر نحو من أربعين سنة ، فكثر عليه الأسف والحزن من الناس فانه كان لين الجاب قليل الأذى لا ينسب اليه خير ولا شر ، وكان مشغولاً بملاذ نفسه ، وكانت مدة نوعه خمسة أيام حتى أتبع بين الناس أنه مات مشغولاً ، وكان موته فجأة ، وخلف من الأولاد صبيين ، قيل وبنات أيضاً ، وظهر له من الموجود أشياء كثيرة ما بين مال وفماش وبرك وغير ذلك مما لا ينحصر ،

فكان بينه وبين موت الأمير طراباي دون الشهرين . وقد توفي في مدة يسيرة من الأمراء المقدمين ثلاثة كانوا نوابغ الأمراء وهم : الأتابكي قرقماس ابن ولى الدين ، وطراباي رأس نوبة النوب ، والأتابكي دولات باي ، هذا غير ماتوفى من الأمراء الطبلخانات والعشراوات .

وفي يوم السبت سادس عشرينه ظهر المعلم على الصغير أحد معاملى اللحم ، وكان له مدة وهو مختف ، فقابل السلطان في ذلك اليوم وقيل خلع عليه كاملية بسمور .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشرينه حضر الأمير طومان باي الدوادار ، وكان توجه الى نحو الغربية بسبب فساد العربان ، وقد خرج اليهم على جرائد الخيل تانيا ، فلما وصل الى هناك هربت العرب من وجهة فتبعهم الى قريب السباح ، فلم يظفر بأحد منهم وقاسى من المشقة ما لا خير فيه ، فلما رجع وطلع الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة حافلة ونزل الى داره في موكب عظيم .

وفي أثناء هذا الشهر وقع حريق مهول عند قنطرة الأمير حسين ، وكانت ليلة شعث قام فيها ريح عاصف ، فاحترق تلك الليلة نحو من أربعين داراً ، وكان ذلك وقت المغرب ، فلعبت النار في البيوت وأعيى الناس طفيها ، واستمرت على ذلك أياماً ، وذهب للناس جملة أموال وقمات وبضائع وغير ذلك .

وفي أواخر هذا الشهر تشحط القمح وارتفع سعره الى أشرفى كل أردب بعد ما كان كل أردبين بأشرفى ، وسبب ذلك أن النيل كان في العام الماضى خسيساً وشرق غالب البلاد ، ثم حدث أمر القار تسلط على الجرون وصار يقرض القمح والشعير

وهو في سنبله . وهذا الفار أمر من الله تعالى لا يقدر أحد على رده ولا يطاق لكثرتة .

ووقع في هذا الشهر من الحوادث أشياء كثيرة .

وفي ربيع الأول في يوم الاثنين سادسه خلع السلطان على جاني بك دوا دار الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وقرره في نظر الديوان الشريف المفرد لمشاركة الأمير طومان باى الدوا دار الكبير في الاستدارية ، وهذه مصادرة لجاني بيك في أخذ ماله بحسن عبارة وأقرب طريقة .

وفي يوم السبت حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، واجتمع به القضاة الأربعة والأمراء ، ولم يكن تقرر أحد في الأتابكية من بعد الأمير دولات باى الى يوم تاريخه .

وفي ذلك اليوم توفى القاضى تاج الدين ابن القاضى شمس الدين نصر الله المعروف بابن النجار ، وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت ، تولى والده القاضى شمس الدين الوزارة في دولة الأشرف اينال سنة تسع وخمسين وثمانمائة فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ، ومات القاضى تاج الدين وهو في عشر السبعين ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب جربة انتصر على الفرنج نصرة عظيمة ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وقتل منهم نحو من سبعة آلاف انسان ، وأسر منهم جماعة كثيرة ، ثم بعثوا للسلطان مكحلة نحاس كبيرة وأشياء كثيرة من أنواع الهدية وشخصين من أسرى الفرنج وعليهم آلة السلاح ، فشكر لهم السلطان ذلك ، وسر بهذه النصرة التي وقعت لهم .

وفي يوم الأربعاء خامس عشره توفى الشهاب أحمد المحلاوى مؤذن السلطان ، وكان حسن

الصوت مطبوعا في فنه مقاتلا على الدخول ، وكان لا بأس به ، ومات وقد ناف عن الأربعين سنة من العمر ، وقيل جاوز الخمسين .

وفي يوم الجمعة سابع عشره في ليله توفى الرئيس شمس الدين محمد القوصونى ، وكان علامة في فن الطب ، فريد عصره في ذلك ، وكان رئيسا حشما في سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفي يوم السبت ثامن عشره دخل قاصد اسماعيل شاه الصفوى فأنزله في بيت قانى باى سلق الذى في رأس الرملة عند سوق الجلاق ، فاستقر هناك الى أن يطلع الى القلعة ويقابل السلطان .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان للأمراء والعسكر بأن يخرجوا الى المطرية ويلاقوا القاصد ففعلوا ذلك ، وخرج الجهم الغفير من العسكر حتى ضاق بهم رحب الفضاء ، ولكن وقع من السلطان في ذلك اليوم غابة الخفة وهو أنه نزل وسير الى نحو المطرية فوقف عند تربة الملك العادل طومان باى ليرى القاصد والعسكر عن بعد ، فانعقد هناك الغبار فلم يتمكن السلطان من رؤية القاصد والعسكر فرجع الى القلعة ، فعد هذا من النوادر الغريبة ، فلما طلع الى القلعة دخل الى القصر الكبير ليرى القاصد من الرملة وهو داخل الى بيت قانى باى سلق ، وكان ذلك غاية الخفة من السلطان .

وفي يوم الاثنين عشرينه عمل السلطان الموكب بالحوش بغير شاش ولا قماش ، وجلس على المصطبة الجديدة التي أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش ، ورسم يتزين باب الزردخاناة فزينوه بالصناجق السلطانية والشطافات وآلة السلاح من بركستوانات وزرديات وأطبار وسيوف وغير ذلك ، فلما تكامل الموكب واجتمعت

وفاته كما تقدم ، فنزل من القلعة في موكب حافل وكان له يوم مشهود ، وكانت الأتابكية شاغرة من حين توفى دولات باى . ولما قرر سودون العجمى فى الأتابكية قلت فى ذلك :

أميرنا الأكبر المشهور بالعجمى
وجوده فى الورى قد آل للعدم
تقول مصر لأن ولوه سلطنة
ياضيعة الناس بين العرب والعجم

وفى ذلك اليوم حضر الرئيس حامد المغربى وصحبته جماعة من الفرنج نحو من مائتى انسان وجدهم يتعشون بسواحل البرلس فقبض عليهم وشكهم فى زناجير ، وشق بهم من القاهرة وطلع بهم الى القلعة ، فلما عرضوا على السلطان أمر بسجنهم حتى يحرر أمرهم فيما يكون .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرينه عزم السلطان على قاصد الصفوى فى الميدان وضرب الكرة هو والأمراء المقدمين قدامه ، فلما انتهى ضرب الكرة دخل السلطان الى البحرة التى أنشأها بالميدان ، فلما جلس عليها طلب قاصد الصفوى وأضافه هناك ضيافة حافلة وألبسه سلارى صوف فستقى بسمور من ملايسه ، ثم عاد الى المكان الذى أنزلوه به .

وكان السلطان وكل به جماعة من الخاصكية يمنعون من بدخل اليه من الناس قاطبة ، ولا يمكنون أحدا من جماعة القاصد بخرج الى الأسواق ولا يجتمع بأحد من الناس ، ثم انه فى هذه المدة ركب مرة وصحبته أزدمر المهندار فزار الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، ثم عاد الى المكان الذى أعد له .

ومن النكت اللطيفة ما أشيع بين الناس أن القاصد لما قابل السلطان أول مرة وصحبته رأس

الأمراء أذن الى قاصد اسماعيل شاه الصفوى بالطلوع الى القلعة فطلع من بيت فانى باى سلق الذى بارمله ، وطلع صحبته المهندار ووالى القاهرة ، فلما مثل بين يدى السلطان ، قبل الأرض وباس رجل السلطان ، ثم قرئت مكاتبته بين يدى السلطان ، ثم ان القاصد قدم للسلطان مصحفا شريفا وسجادة برسم الصلاة ، فقبل السلطان ذلك المصحف وأخذه ، ثم أحضر القاصد صندوقا لطيفا ففتح بين يدى السلطان فوجد به رأس شخص من ملوك التتار يسمى أزبك خان وهو الذى قتله الصفوى وأخذ بلاده ، فرسم السلطان بدفن تلك الرأس ، ثم أحضر القاصد صحبته قوسا عريضا عرضه نحو شبر ، فنديب السلطان شخصا من الزردكاشية ، وهو انزردكاش الثانى ، يقال له الأمير يوسف ، فجذب القوس بحضرة السلطان فكسره وذلك بعد نزول القاصد ، وكان ذلك الموكب حافلا من الموكب المشهودة .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على المقر السيفى طوماى باى الدوادار الكبير وقرر أمير الحاج بركب المحمل ، وخلع على شخص من الأمراء العشراوات بقال له بك باى وقرر أمير الحاج بالركب الأول ، وكان بك باى هذا أصله من مماليك الأتابكى أزبك وولى نيابة القدس وصار من الأمراء العشراوات .

وفى يوم الجمعة رابع عشرينه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وجاءت القاعدة ست أذرع سوى ، وكانت فى العام الماضى أرجح من ذلك

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه عمل السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وخلع على المقر السيفى سودون العجمى واستقر به أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن دولات باى بن أركماس بحكم

أزبك خان ملك التتار والقوس العريض المقدم
ذكر ذلك ، فلما قرئت مطالعة الصفوى بين يدى
السلطان وجدوها مكتوبة باللغات الأعجمية ،
فأحضروا من قرأها وهو شخص شريف يقال له
الشيخ حسين من أبناء العجم ، ثم وجدوا ضمن
تلك المطالعة هذين البيتين ، الحمد لله ، ولما أرسل
الصفوى فى كتابه بهذين البيتين الى السلطان أرسل
الى سليم شاه بن عثمان أيضا بهذين البيتين وهو
يقول :

نحن أناس قد غدا شأننا

حب على بن أبى طالب

يعيينا الناس على حبه

فلعنة الله على العائب

فأجابه ابن عثمان عن ذلك :

ما عيبكم هذا ولكنه

بغض الذى لقب بالصاحب

كذبتمو عنه وعن ابنته

فلعنة الله على الكاذب

وأرسل يهدد أهل مصر لما قتل أزبك خان ملك

التتار بهذين البيتين وهما :

السيف والخنجر ربحاننا

أف على الترجس والآس

مدامنا من دم أعدائنا

وكأسنا جمجمة الراس

وكان لما حز رأس أزبك خان ملك التتار جعل

جمجمة رأسه كأسا يشرب فيها الخمر فى المقامات

كما قيل عنه .

وقد أشيع فى بلاد الصفوى بأن السلطان قد

اشتغل بما أنشأه فى الميدان من غرس الأشجار

وشتول أنواع الأزهار والرياحين ، فقصدوا ينكتون

عليه بذلك ، وهذا من نوع التهكم على السلطان ،
فأجبت عن ذلك بقولى :

بالسيف والخنجر تقنى العدا

وكم لنا فى الحرب من بأس

نسلب بالرعب عقول الورى

وعقلنا وافر فى الراس

وقد عمل فى ذلك جماعة كثيرة من الشعراء عدة

مقاطيع على أنواع مختلفة ، وقد قلت أيضا :

ندفع بالصدى كيد العدا

ونرفض الباغى الذى يأسى

ومن نراه زاغ عن شرعنا

جوابه بالسيف فى الراس

وقيل ان السلطان لم يعجبه شئ من هذه

الأجوبة التى أجابت بها الشعراء ، وانما أعجبه

قول صفى الدين الحلى فكتبه عن جواب الصفوى ،

وهو قوله :

ولى فرس للخير بالخير ملجم

ولى فرس للشر بالشر مسرج

فمن رام تقويمى فانى مقوم

ومن رام تعويجى فانى معوج

وقلت أيضا بخلاف ما تقدم من المعنى من زيادة

فيها :

بالسيف والخنجر تقنى العدا

وكم لنا فى الحرب من بأس

وليس شرب الدم فى شرعنا

بجائز والذم للآسى

من يبغض الصديق أو صحبه

فذاك أشقى الخلق فى الناس

ان كان قد ضلت عقول لكم

فعقلنا الواقع فى الراس

ومن مخترعاتي قولي في أشكال الشطرنج ملتزما
القافة على المعنى بما تقدم :

عساكر الصفوى ان فرزنت
فرخهم مكشوف للناس

ونفسهم قد أوجست خيفة
من عزمنا مع شدة الباس

وفيلهم قد صار ناموسة
مذ قابل الأسد بأفراس

ودستهم نصبا على رقعة
ان ديدبوا مرماهم خاسي

فان مثنى من جيشنا يبدق
يسوت شاه طايح الراس
وقولي أيضا في مديح السلطان :

سلطان مصر لم يزل شأنه
على ملوك الأرض ذا باس

أعيذه من شر أعدائه
بسورة الفتح وبالناس

عسكره يوم الوغى طعنهم
فاق على طاعون عمواس

وان أناه الخارج المعتدى
يجعله جسما بلا راس

ينسى الورى طاعون عمواس
وقال الأشموني :

يراغنا الرمح وقرطاسنا
صادر عدو منكر الباس

مدادنا من دمه خطنا
تاريخ طعن مذكر الناس

وقال ابن الجبار :

يا قائلا أف على نرجس
أف على الباغي على الناس

فان خير الناس من لا يرى
شرب دم المسلم في الكاس

وللناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

والعسل والحلم لنا حلة
حيكت مع القوة والباس

وسنة المختار طرز لها
وذكرنا تاج على الراس

وقوله أيضا :

نحن نجوم والسما ملكنا
يهدى بنا من ضل في الناس

كم من مريد صار من شهينا
شبه مريد وهو ذو باس
وقال الشريينى :

مغارس السنة بستاننا
تقطع منه هامة الراس

والدم لا يشرب في شرعنا
لكن فينا قوة الباس

والعلم ثم الحلم من شأننا
كذا الحجا كالجبل الراسي

وفي ميادين الوغى عزمنا
يعجب منه سائر الناس

وقوله أيضا :

السب لا ينسب من شأننا
لكل سنى من الناس

وجيشنا كالرمل تعسده
ولم يرعنا بعشة الراس

وقال على الغزى :

نحن أسود الحرب غاباتها
رماحنا للطعن والباس

وخيلنا تسرع في سوقها
شدت لحرب المعتدى القاسى
وسيفنا الهندى رقا للوغى
يمسح للكف مع الراس
فدأبنا يوم لقتل العدا
ويسوم للرجس والآس
والمجد لا ينسب الا لنا
مقامنا الأشرف عباسى
من خالف السنة فى شرعنا
رد على أعقابيه خاسى
ولا بن العاقل :

نلاوة القرآن ريحاننا
نشق منه خير أنفساس
شرابنا الذكر به يرتوى
سمناء قلب غافل قاسى
والعدل والانصاف من دأبنا
من أجل ذا سدنا على الناس
تأؤنا بين الورى نمره
أذكى من الترجس والآس
والحمد لله على أننا
أهل العلا والأيد والباس
من أظهر الغدر لنا فالجفا
منا له والسيف للراس
ومن آتانا مخلصا وده
له لدينا كل اينساس

وقال آخر :

صحابة المختار ساداتنا
وما على المحسن من باس
نزهتنا وصل طراد العدا
وسيفنا يقطع للراس

ومن أسا ييأس من عقونا
أف على الأيس والآسى
وقال الشريف العباسى :
وسنة المختار خير الورى
جتتنا من كل وسواس
العدل والانصاف ريحاننا
خل شذى الترجس والآس
وشربنا من صفو توحيدنا
ليس من الجرة والكاس
وشأنا الحلم على من جنى
وديننا صون دم الناس
وقال شهاب الدين البحرى المالكى :

السيف والخنجر ريحان من
يخشى من الضراء والباس
والعادل المنصف إذا الحجا
ريحانه الاحسان للناس
شرابنا الذكر بكاس الهنا
أف على جمجمة الراس
وقال الشيخ ناصر الدين بن الطحان :
أسد الوغى فرساننا كم نسقت
كأس المنيا باعيا آسى
ومن يزغ عن أمرنا طاغيا
نذقه مر الباس والكاس
وقوله أيضا :

شجعان مصرهم أسود الوغى
بقوة السطوة واباس
وفخرهم بالسيف والرمح قد
خص بهم عن سائر الناس

وقوله أيضا :

شم الرياحين يزيد القوى
وشدة البطشه والباس
والفتك في الحرب هو الفخر لا
لعق الدما كالكلب في الراس

وقال الفقيه موسى بن بقسماطة :

ان كان جبد السيف ريحانكم
وكاسكم جمجمة الراس
وشربكم من دم أعدائكم
أف عليكم أرذل الناس
نحن تشرفنا على غيرنا
بخدمة البيت فلا باس
أعداؤنا من تحت أقدامنا
وليس نخشى قط من خاسي

وقال الشيخ جمال الدين السلمولى :

أف على أفك يا خارجا
حباك محتاج الى الآس
ما أنت الا جعلى على
رفضك شم الورد والآس

ولنور الدين بن حشيش :

ان كان ضرب السيف ريحانكم
وكأسكم جمجمة الراس
وشربكم من دم أعدائكم
أف عليكم أرذل الناس
وللناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :
السمر والبيض غراس لنا
فى وسط النمام والآس
وحلمنا ستر لمن قد جنى
ان لم يكن فى الناس ذا باس

وقال محمود الحللى :

العز والسطوة ريحاننا
لا من شذى النرجس والآس
شرابتنا التسويد لا من دم
يشرب من جمجمة الراس

وقال اسماعيل :

خدمة بيت الله والمصطفى
كلاههما لى نوره كاسى
وملء ذاك الكاس توحيد من
شرفنا بالملك فى الناس
وصرت فى مصر عزيزا بها
لا أختشى من كيد خناس
كنانة الله فمن شأنها
أهلكه ذو الأيد والباس

وقد نظم فى هذا المعنى جماعة كثيرة من فضلاء
العصر فوق المائتى انسان ، وقد جمعوا بين الغث
والسمين ، وهذا ما وقع عليه اختيارى من هذا
المعنى بحسب ما تيسر لى من المقاطيع الرقيقة من
هذه الأجوبة والخنجر المقدم ذكر ذلك فى أول
المقاطيع من هذا المعنى ، فمن ذلك قولى :

من عاب للنرجس والآس
أف عليه فى الورى آسى
ومن يكون السيف ريحانه
لا رافة فى قلبه القاسى
من كان شرب الدم من شأنه
وكأسه جمجمة الراس
فذاك كالكلب العقور الذى
لا يختشى فى الناس من باس

اتتهى ما أوردناه من هذا المعنى . ويقرب من واقعة هذين البيتين اللذين أرسلهما الصفوى فى معنى : السيف والخنجر ريجاننا ، فقد تقدم أن هلاكو ملك التتار لما استولى على بغداد وخربها وقتل الخليفة المستعصم بالله وقتل سائر أمرائه . فلما فعل ذلك ببغداد طمع فى أخذ مصر فأرسل كتابا الى سلطان مصر والى أمرائه ، وذكر فيه ألفاظا فى ذيل كتابه هذين البيتين وهما :

آين المفسر ولا مفر لهارب
ولنا البسيطان الثرى والماء
ذلت لهيتتا الأسود وأصبحت
فى يدنا الأمراء والخلفاء
وقال بعد ذلك :

ستعلم ليلى أى دين تداينت
وأى غريم بالتقاضى غريمها
وكان سلطان مصر يومئذ المظفر قطز المعزى ، فلما سمع ذلك جمع العساكر ، وخرج الى هلاكو بعد أن وصل الى أطراف البلاد الشامية فتحارب معه ، فانكسر هلاكو كسرة مهولة وغنم منه عسكر مصر أشياء كثيرة من سلاح ودواب وغير ذلك . وقد أوضحنا ذلك فى أوائل ابتداء الدولة التركية فى الجزء الرابع من التاريخ ، فالصفوى بالنسبة الى هلاكو لا شىء ، وقد قال القائل :

لو كل من قال نارا أحرقت فيه
لما تفوه باسم النار مخلوق

وفى ربيع الآخر أمر السلطان بحفر الخليج ثانى مرة ، ورسم للأمير أنص باى حاجب الحجاب بأن يتوجه الى قناطر الأوز ويياشر حفر هذا الخليج بنفسه ، فتوجه الى هنالك وأقام به وضرب له

الخيام ، واهتم بحفر الخليج من القنطرة الجديدة الى قناطر الأوز الى سد الخشب الذى عند ناي وطنان ، فاحتفل بحفره الى أن كاد أن ينبع الماء من أرضه وأحضر الجرارييف والأبقار ... ولكن حصل من هذه الحركة غاية الضرر وهو أن السلطان رسم بأخذ خراج الحصى والرزق قاطبة التى تروى من هذا الخليج ، فأخذوا منهم خراج سنة كاملة وتحصل من هذه الجهة نحو من خمسين ألف دينار على ما قيل ، فصرف منها البعض على حفر الخليج وحمل الباقي الى الخزائن الشريفة وحصل للمقطعين الضرر الشامل .

وفيه أمر السلطان بعمل جسر فى خليج الزربية ، فوضعوه عند قنطرة موردة الجبس ، فامتنت المراكب من الدخول الى الزربية ، وحصل لسكان الجزيرة الوسطى غاية الضرر ، ولم سكن من بيوتها فى هذه السنة الا القليل وبارت من الكرى الذى جرت به العادة ، وكانت تتزاحم الناس على كراها ولا تلحق ، وكان القائم فى عمل هذا الجسر ابن فرو شيخ جهات المطرية ، وقد حسن للسلطان بأن بسد خليج الزربية من جهة بولاق ، ويصير الماء يدخل بعزم من تحت قصر ابن العينى الذى بالمنشية ويدخل الى الخليج الناصرى ليمكث الماء فى الخليج حتى تروى منه أراضي المطرية والبلاد التى تحتها .

وفى يوم الثلاثاء خامسه كان ختام ضرب الكرة بالميدان . فلما اتتهى ذلك أحضر السلطان ثيرانا وكباشا يتساطحون قدامه ، ووقع فى ذلك اليوم خصمانية بين المماليك فى لعب الرمح وكان قاصد الصفوى حاضرا ، فلما انقضى أمر الكرة طلع السلطان من الميدان الى الحوش وجلس بالمقعد الذى أنشأه هناك ومد به أسمطة حافلة ، وكانت

الأمراء حاضرين ، وانشرح السلطان في ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره نزل السلطان وتوجه الى نحو خليج الزعفران وكشف على حفر الخليج الذي رسم به ، وكان معه جماعة من الأمراء المقدمين وبعض خاصكية . فلما نظر الى ما حفروه من الخليج لم يعجبه ، ومقت الأمير أنص باى حاجب الحجاب فيما صنعه ، ثم توجه من هنالك الى تربة العادل التي بالريمانية فأقام بها الى بعد العصر ، وجرب هناك مكاحل ، ومد له بركات ابن موسى المحتسب هناك مدة حافلة ، ثم ركب بعد العصر وطلع الى القلعة .

وفي يوم الخميس رابع عشره قبض نائب الغيبة بالشرقية على شخص من العربان العصاة يقال له أحمد بن شكر ، وكان من شرار المفسدين ، فلما قبض عليه سلخ جلده وحشاه تبنا وأرسله الى السلطان ، فسر الناس لذلك فانه كان من كبار المؤذين وكان بشوش على المسافرين ففرح به كل أحد من الناس ، فكان كما يقال : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وفي يوم الأحد سابع عشره نزل السلطان أيضا وتوجه الى تربة العادل ، وجربوا قدامه مكاحل غير تلك المفدم ذكرها .

وفي ذلك اليوم توفي أيديكى دوادار سكين ، وقد بقى من الأمراء العشراوات ، وكان لين الجانب قليل الأذى ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره جلس السلطان في المقعد الذى بالميدان وسامت الرماحة قدامه وهم لا يسون الأحمر والخوذ كما يفعلون عند دوران المحل في رجب ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام متوالية ، وكان المعلم نمر الحسنى أحد المقدمين الألوفا

فساقوا أحسن سوق ، وكان قاصد الصفوى فتعجب من ذلك غاية العجب .

وفي هذا الشهر أمر السلطان بهدم خان ا وقد ملكه بطريق شرعى ، فلما هدمه أنشأه جديدا وجعل به الحواصل والدكاكين ، و تزخرفه جدا .

وفي أواخر هذا الشهر توفيت الريسة ا ريصة خوند الخاصكية ، وكانت من أعيان البلد ، وكانت لا بأس بها .

وفي جمادى الأولى ، في يوم الاثنين ثانيه ختام سوق الرماحة ، وخلع السلطان على والأربعة باشات على جارى العادة ، وكاز مشهودا .

وفي يوم الجمعة سادسه خلع السلطا قاصد الصفوى وأذن له بالعود الى بلاده ، فى باكر النهار ، ولم يعلم ما أجابه به السلطا جواب البيتين اللذين تقدم ذكرهما فى م السيف والخنجر ريحانا ، ولم يكتب له شيء أجاب به الشعراء ، وفى مدة اقامته بمصر و السلطان جماعة من الخاصكية ومنعوا الاجتماع بالناس قاطبة .

وفيه قبض السلطان على المعلم على الص وأخيه المعلم أحمد والمعلم خضر المعاملين فى ال فلما قبض عليهم وضعوهم فى الحديد وس بالعرقانة . وسبب ذلك أن ديوان الدولة ك غاية الانشحات واللحوم معطلة ، وانكسر لل نحو من ثلاثة أشهر لم يصرف فيها لهم نحو وقد جرى بسبب ذلك ما لا خير فيه ، و الكلام على ذلك فى موضعه .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره تسلسل النيل الزيادة بعد ما كان قد أشرف على الوقاء ، فر

السلطان لحاجب الحجاب والوالى بأن يتوجها
ويكبسا على المتفرجين الذين فى الحيام بالروضة ،
فتوجه الى الروضة أنص باى حاجب الحجاب
والوالى القاهرة ، فلم يشوشا على أحد من
المتفرجين ، وناديا بالأمان والاطمئنان ، وأن أحدا
لا يتجاهر بالمعاصى ، وخرقا بعض خيام ، وكان
يوما مهولا .

وسبب ذلك أن النيل كان قد أشرف على
الوفاء ، وبقي عليه من الوفاء خمس أصابع ، فزاد
فى تلك الليلة أصبعين وتأخر عن الوفاء ثلاث
أصابع ، ثم زاد من بعد ذلك أصبعين وتأخر عن
الوفاء يومئذ أصبعا واحدة فصبح الناس من ذلك ،
وأشيع بين الناس أن الروضة كثر فيها الفسق
والمعاصى ... فعند ذلك رسم السلطان لحاجب
الحجاب والوالى بكبس الروضة ، فتوجها الى
هناك ، وكبسا على الناس الذين بالحيام ولم
يفحشا كل الافحاش فى ذلك . وكان السلطان
قبل ذلك توجه الى المقياس وصلى هناك ودعا الى
الله تعالى بالوفاء ، ثم انه رسم للقصة الأربعة بأن
بتوجهوا الى المقياس ويبيتوا به ، وقرأوا هناك
ختمة ، ومد أسمطة حافلة ، واجتمع هناك أعيان
الناس من العلماء والفقهاء وغير ذلك من مشاهير
الناس

ثم فى يوم الخميس ثانى عشره نزل السلطان الى
المقياس ، فقدموا له الحرافة المعدة لكسر السد ،
فنزل بها ونوجه الى المقياس ، فطلع من على القصر
الذى أنشأه على بسطة المقياس ، فأقام هناك الى
بعد الظهر ، ومد هناك مدة حافلة ، ثم نزل من
المقياس فى الحرافة وشق من بر الروضة . فارتفعت
الأصوات له بالدعاء ، وانطلقت له النساء من
الطيقان بالزغاريت ، ولا سيما كانت ليلة وفاء
النيل وكانت الروضة فى غاية البهجة وهى محتبكة
بالخيام ، فكان له يوم مشهود ، فاستمر شاققا فى

البحر حتى طلع من عند قصر ابن العينى . فلما
طلع الى القلعة أوفى النيل فى تلك الليلة ، وكسر
فى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى الموافق
لخامس عشر مسرى ، فاستبشر الناس بنزول
السلطان الى المقياس وكونه أوفى النيل تلك الليلة
بقدومه الى المقياس .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو قناطر الأوز
وكشف على الحفر الذى حفره أنص باى حاجب
الحجاب ، وشق من بطن الخليج فلم يعجبه القطع
فأمر بإعادته ثانيا ففعلوا ذلك . فكان كما قيل فى
المعنى :

مولاي ان النيل لما زرته
حياك وهو أبو الوفا بالأصبع
أرعى عليه الستر لما جئته
خجلا ومد تضرعا بالأذرع

وكان النيل قد توقف عن الوفاء على أصبع
واحدة فأوفى تلك الليلة وزاد عن الوفاء أصبعين .
وكان مع السلطان لما نزل الى المقياس الأتابكى
سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس
والأمير طومان باى الدوادار الكبير ، وغبر ذلك
من الأمراء المقدمين والعشراوات . فلما وفى النيل
علقوا الستر فى شباك القصر الذى أنشأه السلطان
على بسطة المقياس ، ثم رسم السلطان للأتابكى
سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السد على
العادة ، فنزل فى الحرافة وأتى للمقياس وخلق
العمود ، ثم توجه الى فتح السد ، وكان له يوم
مشهود ، وهذا أول فتحه للسد وهو فى الأتابكية
فأظهر فى ذلك اليوم أنواع العظمة ولكن لم يصل
فى ذلك الى من تقدمه من الأتابكية . فلما فتح
السد قدموا له فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ثم
طلع الى القلعة وخلع عليه السلطان خلة حافلة
على العادة . وقد سر الناس بوفاء النيل قاطبة

بعد ما كان قد تسلسل في الانكسار وتشحطت
الغلال فجاء الفرج من عند الله تعالى ، فكان كما
قيل في المعنى :

ان بحر النيل قد وفى لنا
ما عليه من قديم قررا
وقضانا الدين الا أنه
حين وفى ما عليه انكسرا

ومما وقع في يوم فتح السد من الوقائع المهولة
أن الناصرى محمد بن العلاء على بن خاص بك
توجه الى دار عند قنطرة سنقر ليتفرج هناك على
قتال الزعر ، فلما قعد في تلك الدار اجتمع فوق
سطحها نحو من مائتى انسان بسبب الفرجة ،
فهجم عليهم طائفة من المماليك ، وطلعوا فوق
السطح فوقع بهم على من في الدار فقتل من المماليك
سبعة أنفس وقتلت امرأة صاحبة الدار وجاريتها
ومن كان عندها من العيال ، ثم وقع سقف الدار
على الناصرى محمد بن خاص بك فتصلب عليه
الخشب هو وولده فلم يضره ذلك لكن حصل له
تشویش في بعض أعضائه وانزعاج وكانت سلامته
على غير القياس هو وولده ، ومات من جماعته
شخص يسمى أحمد كنيوا وكان من أولاد الناس
وهو حوالیه يتقاضى أشغاله وكان لا بأس به ،
فرجع ابن خاص بك الى بيته وهو محمول ودفن
أحمد كنيوا في ذلك اليوم ، وكان عدة من قتل
في ذلك اليوم تحت الردم سبعة عشر انسانا ما بين
رجال ونساء ، وكانت حادثة مهولة لم تكن لأحد
في اكتلاء والمقدر كائن ، كما يقال في أمثال الصادح
والباغم حيث يقول :

والمرء لا يدري متى يمتحن
فانه في دهره مرتين

وقوله أيضا :

وليس في العالم ظلم جارى
اذ كان ما يجرى بحكم البارى

وفيه أفرج السلطان عن أبى البقا ناظر الاسطبل
بعد ما قاسى شدائد ومحن وضرب بين يدي السلطان
وصودر ، فطلع علاء الدين ناظر الخاص وتسلمه
من قدام السلطان وضمنه في ثمانية آلاف دينار ،
فخلع عليه السلطان ونزل الى داره واستمر يورده
ما قرر عليه من المال .

ومن الوقائع أن السلطان قبل وفاء النيل أمر
بعمل جسر على خليج الزريبة من عند قنطرة موردة
الجبس ، حتى يحوش الماء ويدخل الى الخليج
الناصرى وتروى منه جهات المطرية . فلما صنع
هذا الجسر حصل لسكان الزريبة غاية الضرر ،
وامتنعت عنها المراكب من نحو بولاق ، وصار ماء
الخليج راكدا ، فلم يسكن بالزريبة بيت في هذه
السنة ولا عمل بها مقصف ولا فتح بها دكان وآل
أمرها الى الخراب . وكان القبايم في عمل هذا
الجسر ابن فرو شيخ جهات المطرية حتى يحوش
الماء من الخليج الناصرى ، وكان النيل في هذه
السنة عاليا فلم يحتج الى عمل هذا الجسر .

وفى هذا الشهر منع السلطان جماعة من المباشرين
ألا يسكنوا في بركة الرطلى ، وضيق عليهم في
ذلك ، وقال لهم : « أأنتم تضيعون مالى في بركة
الرطلى فلا يسكن أحد منكم بها » ، فلم يسكن بها
أحد من المباشرين في هذه السنة حتى ولا القضاة
فكانت بركة الرطلى في هذه السنة في غاية الانهمال
وقلة البهجة ، حتى ولا بيوت الجسر لم يسكن بها
الا القليل .

وقد أشيع بين الناس أن السلطان يقصد سد فم
البركة ويمنع المراكب من الدخول اليها ، فحصل
للناس غاية المشقة بسبب هذه الاشاعات ، فلم يكن

لهذا الكلام صحة ، ولكن لم سكن بها أحد من المباشرين في هذه الليلة . وقد تقدم ما أشيع من أن الملك الظاهر جفقي أمر بسد خوخة باب الجسر ومنع الناس من سكنته ، فسدت خوخة باب الجسر وأقامت وهي مسدودة أياما حتى تكلم ناظر الخاص يوسف مع السلطان في أمرها فرسم بفتحها على العادة .

وفي يوم الخميس تاسع عشره حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ملك الكرج ، فأكرمه السلطان وقرأ مطالعته ، وأوكل له في الحوش ، وجلس على المصطبة التي أنشأها عوضا عن الدكة بالحوش .

وفي يوم الأحد رابع عشرين مسرى زاد الله في النيل المبارك بعد الوفاء ثمانى أصابع دفعة واحدة فعد ذلك من النواذر ، وقد بلغ الى ثمانى عشرة ذراعا قبل مضي مسرى .

وفي ليلة الثلاثاء رابع عشرينه أشيع بين الناس أن المعلم على الصغير معامل اللحم قد تسحب من السجن المسمى بالعرقانة التي هي من داخل الحوش السلطاني ، قيل انهم صبوا حائط السجن ونزلوا في حبال الى تحت الملعة ، وكان بالعرقانة جماعه من المعاملين وهم المعلم على الصغير وأخوه المعلم أحمد والمعلم خضر وأخوه المعلم محمد ، فأما المعلم على الصغير لما تدلى في الحبل انقطع به فنزل على ضلعه فانكسر فأغمى عليه ، واستمر باركا مكانه حتى قبضوا عليه . ثم في صبيحة ذلك قبضوا على المعلم خضر والمعلم أحمد أخى الصغير وآخرين منهم ، فلما عرضوا على السلطان وبجهم بالكلام واشتد غضبه عليهم ورسم بتسليمهم الى الوالى .

ومما وقع للسلطان في أمر المصادرات من الغرائب ، أنه في أوائل دولته قبض على شموال اليهودى الصيرفى وعاقبه وعصره هو وزوجته ،

واستخرج منه فوق الخمسمائة ألف دينار ، حتى أخذ رخام بيته الذى في حارة زويلة فوضعه في مدرسته ، واستمر يعاقب شموال هو وزوجته حتى ماتا تحت العقوبة .

وفي يوم الثلاثاء المذكور قبض السلطان على شمس الدين بن عوض وعلى ولده ووكل بهما في الجامع الذى بالحوش ، وكان شمس الدين بن عوض رأس المرافعين في المباشرين قاطبة وهو غير محبب للناس .

وفي يوم السبت ثامن عشرينه فيه ثارت فتنة كبيرة من المماليك الجلبان ، وركبوا وطلعوا الى الرملة وهم بزموط وكبورة . وكان سبب ذلك أن اللحم الذى كان يصرف للمماليك في كل يوم تعطل بواسطة المعلم على الصغير والمعلم خضر بسبب ما تقدم لهما ، وكان العليق أيضا معطلا ، فما طاق المماليك ذلك فثارت الفتنة من كل جانب وركبوا على السلطان ، وقصدوا قتل الوزير يوسف البدرى فهرب وغيب من بيته ، ثم ان المماليك طلبوا من السلطان نفقة لكل مملوك مائة دينار ، وكان للمماليك مدة يقصدون الوثوب على السلطان فما صدقوا بأمر اللحم والعليق فجعلوا ذلك حجة . فلما ثارت هذه الفتنة اضطربت أحوال القاهرة ووزع الناس قماشهم وغلقت الأسواق والدكاكين خوفا من النهب كما فعل المماليك قبل ذلك من أمر النهب كما تقدم لهم ، فبات الناس على وجل .

فلما كان يوم الأحد صبيحة ذلك خشى السلطان من اتساع الفتنة فنادى للممالك بأن بنفق عليهم لكل مملوك مائة دينار في أول شهر رجب ، فلما سمع المماليك ذلك خمدت الفتنة قليلا ، وسكن الحال بعد ذلك الاضطراب .

وفي هذا الشهر أفرج السلطان عن القاضى

شرف الدين الصغير ناظر الدولة وكاتب الممالك ، وكان له مدة وهو في الترسيم بجامع القلعة ، وأفرج عن عبد الكريم بن الجيعان وابن عمه محمد بن صلاح الدين وكان في الحديد وهما في الترسيم بجامع القلعة ، وأفرج عن علم الدين المتحدث في الخزائن الشريفة ، وأفرج عن المعلم يعقوب اليهودي وبانوب النصراني الكاتب في الخزانة ، فلما أفرج عن هؤلاء وزع عليهم أربع مائة ألف دينار ، فقرر على عبد الكريم بن الجيعان وابن عمه محمد خمسين ألف دينار ، وقرر على شرف الدين الصغير عشرين ألف دينار ، وقرر على علم الدين خمسين ألف دينار ، وقرر على المعلم يعقوب اليهودي مائة وأربعين ألف دينار ، وأفرج عن شمس الدين بن عوض وعن ولده ، وقرر على شمس الدين بن عوض مائة ألف دينار ، وقرر على بانوب النصراني عشرين ألف دينار ، وهذا على ما أشيع بين الناس ان كان صحيحا ، فقليل كتبوا خطوط أيديهم بذلك .

وفي جمادى الآخرة ، في يوم الخميس ثالثه ، نزل السلطان من القلعة وشق من القاهرة وقدامه ولده ، فزيت له القاهرة ، واستمر حتى نزل في جامعته الذي أنشأه في الشراشيين ، فكشف عليه وعلى المدرسة ، فمد له هناك الأمير خاير بك مدة حافلة ، وأنعم في ذلك اليوم على صوفية المدرسة لكل واحد منهم ، وأنعم على البوابين والفراشين وأيتام المكتب ، ففرق في ذلك اليوم نحو من خمسمائة دينار بأشرفي ، وأنعم على مشايخ الدرس لكل واحد بعشرة أشرفية ، وحضر قدامه قراء البلد والوعاظ ، وكان له موكب حافل ، ومشت قدامه الأمراء الرؤوس النوب بالعصى من باب زويلة الى

الجامع ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له الزغاريت من الطيقان ، ولم يقع له من حين عمر الجامع والمدرسة أنه نزل وكشف على عمارتهما سوى هذه المرة ، وكان له يوم مشهود .

ومن الحوادث في ذلك اليوم أن السلطان لما طلع الى المدرسة تزاحمت الناس على سلم المدرسة فوقق الاقريز الرخام الذي كان على السلم فانهط من تحته شخص كان تحت السلم فانكسرت رجله ، وحصل لجماعة آخرين الضرر الشامل بسبب ذلك . وكان معه من الأمراء الأتابكي سودون العجمي ، وأركماس أمير مجلس ، والأمير سودون الدوادري رأس نوبة النوب ، والأمير طومان باي الدوادري قريب السلطان ، وآخرون من الأمراء المقدمين والعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكة والجندارية .

وفيه توفي شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له أزبك الشريفي ، وكان يعرف بأزبك اليهودي ، وكان غير مشكور السيرة .

وفي يوم السبت خامسه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو المطرية ، ثم رجع ودخل من باب النصر وأتى الى خان الخليلي وكشف عن العمارة التي أنشأها هناك ، وقد ملك خان الخليلي وهدمه وأنشأ عمارة جديدة .

وفي يوم الاثنين رابع عشره عمل السلطان الموكب في الحوش بالشماش والقماش وخلع على الأتابكي سودون العجمي خلعة الأنظار ، وكذلك سودون الدوادري رأس نوبة النوب .

وفي يوم الخميس سابع عشره عرض السلطان المعلم على الصغير وأخاه المعلم أحمد والمعلم خضر وكانوا في الترسيم مدة ، فلما عرضوا على السلطان قرر عليهم اثني عشر ألف دينار وألزمهم بأن يحضروا ذلك في تلك الساعة وكان يوم الجامكية ، فقالوا

ما تقدر على ذلك ، فحقن السلطان منهم ، فأمر بضربهم بالمقارع فضربوا ضربا مبرحا حتى أشرفوا على الموت ، ولم بقدر أحد من الأمراء بشفع فيهم ، وقد قيل في المعنى :

ومن خدم السلطان أكرم نفسه
ولكنه عما قليل أهانها

كمن عبد النيران لم تنتفع بها
ولم يلق الا حرها ودخانها

وفي يوم الأحد عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو المطعم السلطاني ، فجربوا هناك قدامه عدة مكاحل فصح منها بعض شيء ، ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشرينه توجه السلطان الى سد أبي المنجا ففتح بحضرته ، وكان يوما مشهودا ، ثم توجه من هناك ونزل في الحراقة الى نحو المقياس فمد له هناك الزيني بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة فأقام هناك الى بعد الظهر ، ثم نزل في الحراقة وأتى الى بولاق فكشف عن المراكب التي أنشأها هناك ، ثم عزم عليه الأمير خاير بك الخازندار في السبكية التي ببولاق فمد له هناك مدة حافلة ، فأقام هناك الى بعد العصر فركب وشق من على جزيرة الفيل من بين الغيطان ، واستمر شاققا حتى طلع من على قنطرة باب البحر وشق من المفس ، ثم أتى الى باب القنطرة وكشف على الربيعين اللذين أنشأهما هناك ، ثم شق من سوق مرجوش الى القاهرة وخرج من باب زويلة وطلع من هناك الى القلعة ، وانشرح في ذلك اليوم الى الغاية

وفي يوم السبت سادس عشرينه رسم السلطان بتوسيط تسعة أنفار ، منهم مشايخ عربان ومنهم جماعة كانوا نقبوا حائط المقشرة وقصدوا التسحب من هناك فأدركوهم وقبصوا عليهم ، ثم وسطوهم في أماكن شتى .

وفي هذا الشهر عم النيل أراضي الديار المصرية وتطنبت منه الحلجان ، وكانت البهجة في هذه السنة للخليج الحاكمي لتكون أن السلطان على قنطرة الخروبي وقنطرة باب القنطرة ، وصار يدخل من تحتها المراكب المسترة بالدلور ، فصار الناس ينزلون في المراكب ويشقون الخليج الحاكمي الى عند قنطرة السد ويرجعون ، فحصل للمتفرجين بهجة ثانية . ونظم الشيخ بدر الدين الزيتوني في هذه الواقعة بديعية كلها غرر ، وذكر فيها ما جده السلطان من قناطر وعمائر وغيطان وغير ذلك من التذكار الحسن بالديار المصرية وغيرها من الجهات ، كما سيأتي الكلام على ذلك في القصيدة التي نورها هنا وهي هذه :

قد جدد الغورى سلطاننا
قناطر للأجر والخير

أكرم به من ملك أشرف
مؤيد بالعز منصـور

على الخليج الحاكمي وضعها
قد شاع في طول وتقصير

قناطر الور لقد أقلت
تزهو ببشـنين وفرفور

كذا بنى وایل معمورة
بأمره من غير مأمور

وجددت قنطره بعـدها
بالكل قد ضاءت من النور

قنطرة الحاجب نجـديده
والعين للحاجب ذو نور

فاق على الخروب فيما بنى
من ضسيق بنيان وتحقير

وكان في مجددها حكمة
لم يحكمها صاحب السور

قنطرة الباب ترى فوقها
بابا بها يسمى بتقدير
على بناها صار في وسعة
يدخل فيها كل شخّور
بعده القلع وان شاء في
مستر فيها بدلور
لا يقطع الموصول مع منشد
غنى على دف وطنبور
وكل عواد نرى عوده
صحبة جنكلى وسنطير
ناصبها أعرب في رفعها
مركب في الكسر مجرور
والموسكى صلح ببيانها
بسرعة منه على الفور
كذا حسين صار مع سنقر
بناها في مصر كالطور
وباب خرق حار لما رأى
قنطرة فاقت على السور
طقزدمر شيد بنيانه
كذا عمر شاه بعد تأخير
وكم سباع قادها نصره
تسلست من غير تنكير
ومن بكى في السد يوم الوفا
بجبر قلب غير منكور
فهو نهار الكسر مع جبره
ما بين مكسور ومجبور
وجسر البحر بزارية
فجاء جسر غير مشكور
واقطعت لذات سكانها
من مقلع يأتى ومحدور

وجدد المقياس حتى غدا
يزهو بمنظوم ومنتور
ومجرة الميدان انشاء
عقودها دور على دور
ميدانه يحكى لنا جنة
مساكن الولدان والخور
أغصانه هب عليها الهوى
من كل مدود ومقصود
أطيّاره في دوحها غردت
من كل مسموع وعصفور
وكل سن ضاحك مطرب
وكل حسون وزرور
وبلبل هيج بلبالنا
وكل قمرى وشحرور
ومن هزار بات مع الفه
مطوقا بالوصل مسرور
وفاخت في شكره دائما
في ضيقة الأقفاس مأسور
وبجرة هب عليها الهوا
جمعها تنقيش تصوير
في جمع تصحيح رى ماءها
وبالهوا في جمع تكسير
وعمر القلعة صارت به
أماكن عامرة الدور
وقد حوى في مصر من جامع
فرد بذكر الله معمور
والقبة الزرقا وصهرجها
والماء والكيزان والزير
كأن برد الثلج في مائه
لكل عطشان ومحور

وفى طريق الحج كم منهل
 عمره قصدا الى الخير
 وعين بازان جرى ماؤها
 تجديدها أمنا من الغور
 فالله ينصره ويبقى لنا
 أيامه أمنا بلا جور
 وصل يا رب على المصطفى
 منقذنا من كل محذور
 صلاة زيتون يرى شرها
 أطيب من مسك وكافور
 والآل والأنصار مع صحبه
 أهل الثنا والفضل والخير
 ما أقبل الصبح بأنواره
 وأدبر الليل بديجور
 * * *

وفى رجب — فى يوم مستهله — توجهت طائفة
 من المماليك الجلبان الى شونة السلطان ونهبوا
 أشياء كثيرة من الشعير ، فعز ذلك على السلطان ،
 وكانت المماليك متقحمة على الشر ، وأشيع أمر
 الركوب وكثر القاتل والقتيل بين الناس بسبب ذلك
 وفى يوم الجمعة ثلثه ، الموافق لسابع عشرين
 توت القطى ، ثبت النيل المبارك على تسع أصابع
 من عشرين ذراعا ، وكان نبلا جدا لكن كان حب
 البرسيم غاليا وتناهى سعره الى خمسة أشرفية كل
 أردب ، وارتفع سعر سائر الغلال ، واستمر النيل
 ثابتا الى أواخر بابه .

وفى يوم الأحد خامسه ، قوى أمر الاشاعة
 بركوب المماليك ووزع التجار ما كان عندهم من
 القماش وغلقت الأسواق قاطبة ، وسبب ذلك أن
 السلطان رجع عن أمر النفقة بعد أن لادى فى

القاهرة للعسكر بأن النفقة مع جامكية شهر رجب
 فلما رجع عن ذلك أشيع أمر الركوب .

وفى يوم الأحد خامسه . عرض السلطان
 المماليك فى الحوش وهم مماليكه الجلبان فقط ،
 فلما عرضهم وبجهم بالكلام وقال : أنا أخلع نفسى
 من السلطنة وولوا من تختارونه ، فأقام يعرض
 المماليك الى بعد العصر ، قال الأمر الى أن وقع
 الاتفاق على أنه ينفق على مماليكه المشتريات فقط
 وأن النفقة تكون أربعين دينارا . فامتنع المماليك
 من ذلك ، فتكلم بعض الأمراء مع السلطان بأن
 تكون النفقة خمسين دينارا وهو يقول : « ما أقدر
 على ذلك » ، فانفصل المجلس على أنه بنفق عليهم
 لكل مملوك خمسين دينارا ، ثم ان السلطان شرع
 فى بيع أملاك ورزق مما كان أوقفهم على مدرسته
 بسبب تحصيل المال لأجل النفقة ، وأظهر أن الخزائن
 مشحونة من المال وأنه عاجز عن تحصيل المال .

وفى ليلة الثلاثاء رابع عشره فيها خسف جرم القمر
 خسوفا فاحشا ، وأقام فى الخسوف نحو من
 خمسين درجة حتى أظلمت الدنيا ، ولم ينجل الى
 قريب التسبيح ، وفى وافة حال الخسوف يقول
 بعض الشعراء :

كأنما البدر وقد شانه
 خسوفه فى ليلة البدر
 وجه مليح حسن وجهه
 جارت عليه ظلمة الشعر

ثم ان السلطان رمى على التجار قاطبه شاشات
 وأزرا وأثوابا صوفا ، ورمى على السوفة ريتسا
 وعسلاوزيبيا وأصناف بضائع يحسرون فيها الثلث .
 وصاروا يستحثونهم فى سرعة الثمن لأجل النفقة ،
 فغلقت الأسواق بسبب ذلك وأقامت وهى مغلقة
 أياما ، ثم ان السلطان رمى على بعض جماعة من
 الأمراء المقدمين ررق مشترياته ، وحثهم فى سرعة

قبض ثمن ذلك ، ورمى على جماعة من أعيان اولاد الناس قبل ذلك وحثهم فى سرعة قبض نمن ذلك . ومن جملة اولاد الناس الناصرى محمد بن خاص بك ، وغيره من اولاد الناس أيضا وحصل للناس الضرر الشامل بسبب هذه النفقة ، ثم ان السلطان أفتق على ممالكه المشتريات فقط ولم يعط الممالك القرائنة شيئا ولا ممالك الأشرف قايتباى ولا الممالك السيفية ، فأفتق على ممالكه لكل مملوك خمسين ديناراً ، فعز ذلك على الممالك القرائنة وكثر القال والقيـل فى ذلك ، وأشبع أمر الركوب على السلطان بسبب ذلك ، فلم يطلع من يدى الممالك القرائنة شئ وراحت على من راحت ، وأكمل السلطان النفقة على ممالكه ولم يعط القرائنة شيئا .

وفى يوم الأحد سادس عشرينه تشحط اللحم من القلعة وأقام أياما لم يصرف للعسكر لحم سوى للمساكين الذين فى الطباق فقط ، فنهـب الممالك القرائنة اللحم وهو طالع الى القلعة ففعلوا ذلك مرتين فى هذا الشهر

* * *

وفى شعبان — فى يوم الخميس مستهله — خلع السلطان على الأمير يوسف الناصرى ، الذى كان نائب حماة وولى نيابة ملطية وحماة ونيابة قلعة حلب بم حصر الى الديار المصرية ، فقرره فى شادية الشراب خاناه ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين توجه الأمير أبرك مملوك السلطان الى حلب وأعيد الى نيابة قلعتها كما كان ، وذلك قبل أن يلى نيابة طرابلس .

وفى هذا الشهر تشحط اللحم البقرى والضانى أيضا واضطربت أحوال القاهرة ، وكان سبب ذلك أن السلطان قد رمى على الجزارين نيران الأكرّة

وأقامها عليهم كل ثور بأربعين ديناراً ، فهرب الجزارون من هذه الرماية وتعطل بيع اللحم البقرى والضانى ، فأقامت المدينة معطلة أياما حتى تراجع الأمر قليلا ، وكانت لحوم العسكر معطلة نحو من أربعة أشهر لم تصرف بسبب ما جرى للمعلم على الصغير والمعلم خضر كما تقدم .

وفى يوم السبت عاشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو تربة العادل وجرب هناك مكاحل ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الأحد ثامن عشره نزل السلطان وشق من القاهرة وتوجه الى خان الخليلى وكشف عن عمارته التى أنشأها هناك ، ثم توجه الى باب الفتوح وكشف عن عمارة الأتابكى قرقماس التى أنشأها هناك ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو بولاق وكشف على المراكب التى عمرها هناك ، ثم نزل فى الحراقة وتوجه الى المقياس وجلس فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، ثم صلى العصر وعدى من المقياس الى بر مصر وطلع الى القلعة وشق من الصليبة فى موكب حافل وفى يوم الجمعة ثالث عشرينه ، الموافق لسابع عشر هاتور القبطى ، فيه قلع السلطان البياض ولبس الصوف .

ثم فى يوم السبت صبيحة ذلك نزل السلطان وتوجه الى نحو مدرسته التى بالشرابشين ، فمد له هناك الأمير خاير بك الخازندار مدة حافلة فأكل منها ، ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه أنعم السلطان على الأمير أزبك المكحل بتقدمة ألف كما كان أولا ، وكان من حين شفع

فيه قرقد بك بن عثمان وحضر من دمباط وهو
طرخان ، وأنعم على قانصوه الفاجر بتقدمة ألف
أيضا .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشرينه نزل السلطان
وتوجه الى المقياس وقرأ هناك ختمة ومد سماطا
حافلا ، وأقام هناك الى بعد العصر ، وعدى من
هناك الى نحو بولاق فكشف على المراكب تم عاد
الى القلعة .

وفي رمضان — وكان مستهله يوم السبت —
طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وطلع
الوزير يوسف البدرى الى القلعة والزينى بركات
ابن موسى المحتسب ، وطلعوا باللحم والخبز
والدقيق والسكر وهو مزفوف على رؤوس الحمالين
وكان السلطان فى الميدان فخلع عليهما ، وكان يوما
مشهودا .

وفيه وزع السلطان على اليهود السمرة نحو من
سبعين ألف دينار فتشكوا من ذلك ، وسبب توزيع
هذا المال أن المعلم يعقوب اليهودى لما صادره
السلطان قرر عليه مائة ألف دينار فشكا من ذلك
وأظهر العجز ، فرسم السلطان بأن طائفة اليهود
السمرة والربان تساعد المعلم يعقوب فى هذه
المصادرة ، فوزعوا ذلك على السمرة والربان
والقراء وجماعة من التجار اليهود ، فحصل لهم
الضرر الشامل قاطبة ، وقيل تضاعفت هذه المصادرة
الى دون المائة ألف دينار .

وفي هذا الشهر جاءت الأخبار من البلاد الحلبية
والشامية بأن الموت قد كثر فى الأبقار فمات منها
ما لا يحصى ، وقد وقع مثل ذلك بالديار المصرية
فى أيام الخلفاء الفاطميين .

وفي يوم الأحد تاسعه نزل السلطان من القلعة
وصحبته ولده ، فتوجه الى نحو المطعم السلطانى

وجلس على المصطبة التى هناك ، فرموا قدامه رماية
بالبطور والكلاب وانشرح فى ذلك اليوم ، وسير
الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، ثم عاد الى
القلعة من يومه .

وفي يوم الخميس ثالث عشره حضر الى الأبواب
الشريفة قانصوه خازندار الأمير أزدمر الدوادار
الكبير كان ، وكان السلطان قرر قانصوه هذا فى
نيابة عينتاب فسعوا عليه حتى عزل ورجع الى مصر
وهو معزول ، بعد أن سعى فى ذلك بسال له صورة
فأقام مدة يسيرة وعزل عنها .

وفيه تغير خاطر السلطان على الرئيس كمال
الدين بن شمس المزين ، وكان من خواصه ، فمنعه
من الطلوع الى القلعة ورسم له بأن يتوجه الى
بلادهم وقيم بها .

وفي يوم الأحد سابع عشره توفى الأمير عبد
اللطيف الزمام وكان أصله من خدام الأشرف اينال
وكان دينا خيرا لبن الجانب قليل الأذى ، وكان
قد كبر سنه وشاخ وناف عن الثمانين سنة من العمر
وكان رومى الجنس أبيض اللون طويل القامة
نحيف الجسد .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشره تغير خاطر السلطان
على القاضى أبى البقاء ناظر الاسطبل ومستوفى
الخاص ، فوضعه فى الحديد وعراه من أثوابه
وكشف رأسه وكان ذلك فى قوة البرد ، فسلمه الى
الوالى فى ذلك اليوم ونزل من القلعة وهو ماشى
عريان مكشوف الرأس فى الحديد ، وحلف السلطان
بحياة رأسه أنه لا يلبس أثوابه ولا عمامته حتى
يغلق ما قرره عليه من المال ، ورسم للوالى بأن
يقعده على البلاط من غير فرش ، وهذه ثانى نكبة
وقعت لأبى البقاء مع السلطان وكان مظلوما مع
السلطان فى هذه الواقعة ، فان أمره كان رائجا
وله دوايب قصب بدمياط تسد ما عليه فوضع

السلطان يده على الدواليب وطلب منه بعد ذلك المال الذى قرره عليه فحصل له الضرر الشامل بسبب ذلك ، فكان كما يقال فى المعنى :

يا من يرى خدمة السلطان عمدته

هل أرث ذلك الا الهم والهم

فقلبه وجل والنفس خائفة

وعرضه عرض والدين ملتئم

هذا اذا كان فى أيام دولته

فكيف بالمرء ان زلت به القدم

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر وكانت

فى غاية الانشحات من تعطيل المباشرين .

وفى يوم السبت ثمانى عشرينه حضر الى الأبواب

الشريفة شخص من أمراء عربان الشام يقال له

محمد بن ساعد ، وكان من العصاة لم يدخل قط

تحت طاعة السلاطين ولا نواب الشام ، وكانوا

يخشون من بأسه ، فحضر فى دولة الغورى الى

الديار المصرية وصحبته مقدمة حافلة الى السلطان

ما بين مال وخيول وسلاح وغير ذلك ، فعد حضور

ابن ساعد الى مصر من جملة سعد السلطان قانصوه

الغورى وكيف دخل تحت طاعته ، وقد قيل فى

المعنى :

أيامليك العصر لا زلت فى

عز وتأيسد ونصر وفى

صارمك المشهور ماضى الشبا

ونورك بالسعد لا ينطفى

وفى يوم الأحد ثالث عشرينه نزل السلطان من

القلعة وصحبته ولده ، فتوجه الى المقياس وأقام

به ساعة ، ثم نزل فى الحراقة وأتى الى بولاق

وكشف على المراكب التى عمرها هناك ، ثم ركب

من هناك وأتى الى قنطرة الحاجب فطلع من عليها

ودخل من باب الشعرية ، ثم أتى الى باب القنطرة

وكشف على الربع الذى عمره على القنطرة من

الجهتين ، وخرج من باب القنطرة وشق من سوق

مرجوش ، ثم شق من القاهرة وطلع من بابى زويلة

الى القلعة ، وكان فى نفر قليل من العسكر ، ومشى

الوالى ورءوس النوب قدامه بالعصى والزينة

بركات بن موسى المحتسب من بولاق الى القلعة .

وفى يوم الأربعاء سادس عشرينه نزل السلطان

وسير الى جهة المطرية ثم عاد الى القلعة .

وفى ذلك اليوم كان ختم البخارى بالحوش

السلطانى فى خيمة كبيرة وحضر القضاة الأربعة

ومشايع العلم ، وفرقت الصرر على من له عادة من

الفقهاء ، وخلع على القضاة الأربعة ومن له عادة

من العلماء ، وكان ختما حافلا .

وفى هذا الشهر كان سعر الحلوى المشبك

والمنفوش فى غاية الارتفاع بموجب غلو السكر

والفستق فرفعت هذه القصيدة الى القاضى بركات

ابن موسى المحتسب بمعنى أنواع الحلوى وذكرت

فيها أشياء لطيفة فمن ذلك قولى :

لقد جاد بالبركات فضل زماننا

بأنواع حلوى نشرها بتضوع

حكمتها سفاه الغايات حلاوة

ألم ترنى من طعمها لست أشبع

فلا عيب فيها غير أن محبها

يبدد فيها ماله ويضيع

فكم ست حسن مع أصابع زينب

بها كل ما تهوى النفوس مجمع

وكم كعكة تحكى أساور فضة

وكم عقدة حلت بها البسط أجمع

كفوف من الحلوى غدت مبسوطا

لكم بدعاء صالح تتضرع

(١) الشطرة مكسورة .

وكم قد حلا في مصر من قاهرة
كذلك المشبك وصله ليس يقطع

وفي ثوبه المنفوش جاء برونق
فيا حبذا أنواره حين تسطح

وقد صرت في وصف القطايف هائما
تراني لأبواب الكنافة أقرع

فيا قاضيا بالله محتسبا عسى
ترخص لنا الحلوى نطيب وترتع

وفي يوم السبت تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص
خلع العيد على السلطان وهي مزفوفة على رؤوس
الجمالين ، وكانت في هذه السنة في غاية الوحاشة
وهي من القماش القطنيات الملون التي مثل
العنكبوت وغالبها بلا طرز ، ولم يعطوا لأحد عاداته
غير أصحاب الوظائف فقط ، فحل عند الناس كسر
خاطر وراحت على من كان له عادة بخلعة في العيد ،
وكان ناظر الخاص في هذه السنة في غاية الانشحات
والمطل للناس .

وفي يوم الأحد ، وهو الثلاثون ، غمى الهلال
ولم ير ، وكان في أوائل رمضان جاءت الأخبار
بأن أهل الاسكندرية ودمياط والمحلة قد صاموا
يوم الجمعة ، فكان يمكن أن يجيء رمضان ناقصا
بناء على أن غالب البلاد قد صاموا يوم الجمعة ،
وكان الصيام في مصر يوم السبت ، وكان ذكر في
التقاويم على أن رمضان يجيء ناقصا فجاء تماما ،
فقامت الأشلة على قاضي القضاة الشافعي كمال
الدين الطويل وقالوا : « قد فطرنا في أول رمضان
وصومنا في يوم العيد » . وقال :

يا قاضيا بات أعسى عن الهلال السعيد
أفطرت في رمضان وصمت في يوم عيد
وقال آخر :

ان قاضينا لأعسى أم على عمد تعامى
سرق العيد كان ال هيد من مال اليتامى

وقد وقع مثل ذلك في أيام الهروي وكان سببا
لعزله من القضاء .

وفي شوال ، كان مستهل الشهر يوم الاثنين ،
وكان موكب العيد حافلا ، فخلع على الأمراء
وأرباب الوظائف . وكانت الخلع سبة من السبب ،
وكان القاضي كاتب السر محمود بن أجا متوعكا
في جسده وكان له مدة وهو منقطع في داره فحصل
له الشفاء ، فدخلت إليه في يوم العيد وسلمت عليه
وهنيته بالعيد وبالشفاء وقدمت إليه هذين البيتين
وهما :

قد عم بالعيدين فرحات الوري
بشفائكم وبعيد فطر أشرفا

فالشكر لله الذي عافاكمو
لما توسلنا بآيات الشفا

وكان حاضرا في المجلس جماعة من الأعيان
فطربوا لذلك ، ولى فيه قبل ذلك من المديح وقد
صرحت باسمه بما وافق التورية في المعنى ، وهو
قولي :

يا قاضيا شأنه الأسرار يكتمها
لا يعدم الناس جودا فيك موجود

فالناس تحمد من فعل تسود به
وأنت في سائر الأفعال محمود

وفي يوم السبت سادسه نزل السلطان وتوجه
الى المقياس ، وصنع له الزيني بركات بن موسى
المحتسب طواجن بوزى ومأمونية وحلوى وأشياء
مؤتقة ، فأقام هناك الى بعد العصر ، وانشرح في
ذلك اليوم الى الغاية .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه نزل السلطان وتوجه الى
خان الخليلي وكشف على عمارته التي أنشأها هناك

المحمل الأمير صومان باى الدوادار الكبير ابن أخى
السلطان . وبالركب الأول الأمير بك باى أحد
الأمراء العشراوات الذى كان نائب القدس قبل
ذلك .

وفى هذه السنة حج جماعة كثيرة من الأعيان
منهم الأمير خير بك ، أحد المقدمين الألوف الذى
كان كاشف العسرية قبل ذلك ، وحج الشرفى
يونس بن الأقرع نقيب الجيوش المنصورة ، وغير
ذلك جماعة من الرؤساء بالدبار المصرى . وحجت
فى هذه السنة زوجه الأمير طومان باى ابنه الأمير
أقبردى الدوادار ، ووالدتها بنت خاص بك ،
وحجت ايضا زوجه الأتابكى سودون العجمى ،
وغير ذلك جماعة من مشاهير الستات ، وحج شيخ
العرب الأمير أحمد بن بفر ، وحج حسام الدين بن
بغداد وجماعة من مشايخ عربان هواره . وغير
ذلك من الأعيان .

وفى يوم الاثنين ثاى عشرينه حضر الى الأبواب
الشريفة يخشىباى حاجب حجاب دمشق ، وكان
ولى نيابة صفد ونيابة حماة ثم ولى نيابة طرابلس
ثم بقى بعد ذلك حاجب حجاب دمشق ، وكان
صهر الأتابكى دولات باى قرابة العادل ، فحضر
الى الديار المصرية بطالا ، فعين له السلطان لما حضر
تقدمة ألف وصار يقف مع الأمراء المقدمين

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه رسم السلطان
بتوسيط أربعة أنفار قد سرقوا وقتلوا ووجب
عليهم القتل ، فوسطوهم فى الرملة .

وفى ذى القعدة — فى يوم الأربعاء ثاى —
نزل السلطان وتوجه الى المقياس وأقام به الى
بعد العصر ، وطلع وشق من الصليبية فى موكب
حافل

وفى يوم الخميس ثالثه قبض السلطان على

ثم عاد الى القلعة من يومه ، وقد أضر الناس كثرة
نزول السلطان ونعطلت أحوال الرعيه من عدم
المحاكمات فى أشغال الناس وقد قلت العلامة على
المراسيم ، فكان السلطان يفعد نحو من أربعين
يوما لا يمسك فيها قلما ، ولا يعلم على مرسوم ،
حتى عزت العلامات جدا . وييعت ، وكان السلطان
يكره المحاكمات ويكره العلامات على المراسيم ،
وكان دأبه الركوب فى كل يوم والاشتغال برؤية
التنزه والرياضات دائما .

وفى يوم الاثنين ثامننه حضر الى الأبواب الشريفة
أبرك نائب طرابلس ، وهو من مماليك السلطان ،
وكان ولى نيابة قلعة حلب ، ثم حضر الى القاهرة
فى سنه احدى عشرة وتسعمائة ، فلما حضر قرره
السلطان فى شادية الشراب خافاه عوضا عن ولده
لما توفى ، فأقام بمصر نحو من شهر وعاد الى
حلب وفرر فى نيابة قلعتها ، ثم ولى نيابة طرابلس
فتغير خاطر السلطان عليه فأرسل خلفه فحضر ،
فلما قابل السلطان لم يخاطبه ولا خلع عليه ،
ثم نزل فى مكان أعد له

وفى يوم الاثنين خامس عشره جلس السلطان
فى الميدان جلوسا عاما ، ثم عرض كسوة الكعبة
الشريفة البرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل
الشريف ، فشقوا بهم من القاهرة ، وكان لهم يوم
مشهود

وفيه ظهر بالقبة التى أنشأها السلطان فى
مدرستهم تشقق فاحش حتى آلت الى السقوط ،
فأمر بهدمها فهدمت من سفليها ، ثم علقوها ورموها
رما حافلا ، وقد تقدم أن المنشذنه التى بالجامع
هدمت قبل ذلك وأعيدت ثانيا .

وفى يوم الخميس ثامن عشره خرج المحمل
الشريف من القاهرة فى تجميل زائد ، وكان له يوم
مشهود حتى ارتجت له القاهرة ، وكان أمير ركب

شمس الدين بن عوض ووكل به بجامع القلعة الى أن يكون من أمره ما يكون .

وفي يوم الاثنين رابع عشره نزل السلطان وتوجه الى المقياس ، وعزم على الأمراء المقدمين قاطبة ، وجلس هو واياهم في القصر الذي أنشأه على بسطة المقياس ، ومد لهم في ذلك اليوم أسمطة حافلة ، ونصبت الأمراء لهم صواوين على شاطئ البحر الذي تجاه الجيزة ، وأغدق عليهم في ذلك اليوم بأشياء كثيرة من حلوى وفاكهة وغير ذلك ، فأقام هناك الى قريب العصر ثم نزل في الحراقة وتوجه الى بولاق ، ونصب له في الحراقة سحابة أطلس أصفر ، وقيل انه ألبس الأمراء المقدمين في ذلك اليوم لكل واحد منهم سلاوى ما بين وشق وسمور ، وكان ذلك اليوم بالسلطاني .

وفيه أحصروا بين يدي السلطان شخصا من الشحاتين الجعيدية ، وجدوا معه مائة وسبعين دينارا ، وهى ضرب الأشرف برسباى ، فقال له السلطان : « من أين لك هذا الذهب ؟ » فقال : « ورثتها من أمى » . فأخذ السلطان منه ذلك الذهب وسلمه الى محمد مهتار الطشتخاناه ، ورسم بأن يشتري للشحات من ذهبه جوخة وقميصا وعمامة ، وأن يصرف له في كل يوم نصفين فضة يأكل بها حتى تفرغ فلوسه ، فلم يرض الشحات بذلك ، وصار يقول : « عبدوا لى ذهى ومالى حاجة بكسوتكم » . واستمر الذهب تحت يد محمد المهتار .

وفي ذى الحجة — في يوم الاثنين خامسه — فرق السلطان الأضحية على العسكر ، وقطع لجماعة كثيرة من الفقهاء والأيتام ، وضيقوا كتاب الممالك على الناس في هذه السنة في تفرقة الوصولات الى الغاية ، وراحت الأضحية في هذه السنة على كثير من الناس .

وفي يوم الخميس^١ خامس عشره ركب القاضى كاتب السر محمود بن آجا وطلع الى القلعة ، وكان له مدة خمسة أشهر لم يركب وهو منقطع في داره فركب في ذلك اليوم ، وخلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل الى داره وهو في غاية العظمة ، وقد قلت في ذلك :

سیدی أنت معدن التشریف

بدرتم منزله عن خسوف

فابق واسلم ودم وعش في شفاء

لألوف من كل عصر ألوف

وفي هذا الشهر نادى السلطان على الفلوس الجدد والعق بأن الرطل منهم بثمانى عشرة نقرة ، وضرب فلوسا معاددة تخسر فيهم السوقة الثلث ، وهم في غاية الخفة ، فصارت البضائع تباع بسعرين : سعر بالفلوس الجدد ، وسعر بالفلوس العتق .

وفي يوم الخميس^١ خامس عشره المذكور أعلاه توفي الشيخ علاء الدين الملة على العجى الشافعى شيخ تربة جاني بك نائب جدة ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، وله شهرة في مصر بين العلماء ، وكان لا بأس به .

وفي يوم السبت^١ سابع عشره رضى السلطان على أبى البقا ناظر الاسطبل ، وخلع عليه واستمر على وظيفته كما كان بعد أن قاسى شدائد ومحنا ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه توفي القاضى نور الدين الأشمونى ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، بقية الناس ، وله شهرة بين النواب ، وكان لا بأس به .

وفيه أذن السلطان للخليفة المنفصل المستمسك بالله يعقوب ، والد المتوكل على الله محمد ، بأن

(١) كان في الاصل الثلاثاء خامس عشره ، وصحتها الخميس وكان في الاصل الخميس سابع عشره ، وصحتها السبت كما ائبتهاه .

يركب الى صلاة الجمعة ويسير ويزور القرافة ، وكان من حين انفصل من الخلافة وولى ولده وهو مختف في داره لم يركب ولم يجتمع بأحد من الناس ، حتى أذن له السلطان في الركوب .

وفي يوم الثلاثاء^١ عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد على دولات وصحبته مقدمة حافلة للسلطان ، فمن جملة ما ماليك وخيل وجمال بخاتي ، ومن جملة ذلك خيمة كبيرة منقوشة بحرير ملون صفة أشجار مزهرة وعليها أطيار ، ومن جملة المقدمة خرگاه خشب مدهونة بماء ذهب ولازورد وألوان غريبة وهي منقوشة هيئة وحوش كاسر ومكسور ، ولهذه الخرگاه غشى جوخ أزرق مقصص ، ولها أطناب وعراوى حرير أحمر ولها باب خشب موشق وعليه ضبة ، وتلك الخرگاه بساط مدور على قدرها منقوش صنعة غريبة لم يعمل مثله ، وكانت هذه الخرگاه من تحف حسن بيك الطويل فوصلت الى اسمعيل الصفوى ، والصفوى أرسلها الى على دولات وعلى دولات أرسلها الى السلطان ، فكانت هذه الخرگاه والخيمة من جملة التحف الغريبة ، فأمر السلطان بنصبها في الحوش للفرجة ، وأوكب في ذلك اليوم لأجل القاصد موكبا حافلا بغير شاش ولا قماش .

وفي أواخر هذه السنة توفي القاضى شمس الدين المنوفى أحد نواب الشافعية .

وفي يوم الجمعة ثالث عشرينه حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وكان أشيع بين الناس عن الحجاج أخبار مهولة فبطل ذلك حين جاء المبشر وكان من أهل الفضل .

وفي يوم الثلاثاء^٢ سابع عشرينه عزم السلطان

(١) كان في الأصل الخميس عشرينه ، وصحتها الثلاثاء كما البتناه .
(٢) كان في الأصل الأربعاء سابع عشرينه ، وصحتها الثلاثاء البتناه .

على قاصد على دولات في الميدان ، وجلس هو واياه على البحرة التي في البستان ، ومد له هناك مدة حافلة ، وقد عزم عليه قبل ذلك مرة أخرى فأقام عنده الى بعد الظهر في الميدان ، ثم انصرف القاصد وطلع السلطان الى القلعة ، وألبس القاصد سلارى بسمور من ملايسه .

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه رسم السلطان بتسمير ثلاثة أنفار ، فيل انهم سرفوا حجرة^١ من حجرة السلطان تسوى نحو مائتى دينار ، فسمروهم ووسطوهم ، وفيل ان الحجرة^١ سرت وهي في الربيع في بر الجيزة

اتمى ما أوردناه من أخبار هذه السنة ، وقد خرجت عن الناس على حير ، وكانت سنة مباركة لم يقع فيها طاعون ولا فتن ، غير أن كان البرد فيها شديدا ووقع فيها عدة أيام أفرط فيها البرد حتى جمدت المياه وصارت جليدا ، وأحرق غالب الأشجار ، ووقع فيها تشحيطة في سائر الغلال وتناهى سعر القمح الى أشرفيين كل أردب ، وكذلك الشعير والفلو وجميع الحبوب كانت مشتتة في أسعارها ووقع الغلاء فيها أيضا ، حتى وقع الغلاء في أصناف الحضر أيضا ، وفي سائر البضائع من السكر والعسل والزيت والسمن والسيرج ، حتى الزيت الحار والزبيب والأرز وسائر الأصناف ، حتى البرسيم وغير ذلك .

سنة ثمانى عشرة وتسعمائة (١٥١٢ م) :

فيها - في المحرم - كان مسنهل الشهر بالجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة يهون السلطان بالعام الجديد .

وفي يوم الأحد ثالثه نزل السلطان من القلعة ، وصحبته ولده ، فتوجه الى القرافة وزار

(١) الحجرة : الأثنى من الخيل (المختارة)

الصالحين ، ثم توجه من هناك الى شاطئ البحر فشق من عليه وطلع من على الصليبة الى القلعة .
وفي يوم الاثنين رابعه خلع السلطان على قاصد على دولات وأذن له بالسفر الى بلاده .
وفي يوم الثلاثاء خامسه نزل السلطان وسير الى نحو المطرية ، وكان يوما مطرا مغيمًا ، فنزل من هناك في قبة الأمير يشبك التي بالمطرية ، فأقام بها الى أواخر النهار ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم الأربعاء سادسه توفي الشيخ شمس الدين محمد الغزى خطيب جامع السلطان الذى فى الشرايشين ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكان علامة فى الخطب فصيحًا فى عبارته ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الجمعة ثامنه توفي القاضى عز الدين عبد العزيز بن الأمانة أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به ، وهو ابن أخى القاضى جلال الدين بن الأمانة .

وفي يوم السبت تاسعه طلع الرئيس كمال الدين بن شمس المزين وقابل السلطان ، وقد تقدم القول بأنه قد تغير خاطره عليه ومنعه من الطلوع الى القلعة ، فاختفى هذه المدة ولم يعلم له خبر ، فطلع فى ذلك اليوم وصحبته فقراء من مقام سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه وهم يذكرون ومعهم أعلام ومصاحف فدخلوا الحوش ، وكان السلطان عرض فى ذلك اليوم ممالك كناية وأخرج منهم خرجا على جارى العادة ، وكان ذلك اليوم فى غاية السودة ، فلما دخل أولئك الفقراء عليه وهم على هذه الهيئة ازداد سودة ، فلما وقفوا بين يديه رأى كمال الدين بن شمس وعليه احرام صوف أبيض وهو بطيلسان وغذبة فى عمامته ، فلما رأى ذلك نهر الفقراء الذين معه وشتمهم ، ثم التفت الى كمال الدين بن شمس ،

ووبخه بالكلام وشتمه وسبه سبا فاحشا وقال له : « أنا ما قلت لك لا ترينى وجهك ، فأنا ما شوشيت عليك ولا صادرتك ، فما تروح عى بشحم كلاك ، غبت وجئت الى شيخ من المشايخ ! متى بقى لك سر وبرهان ؟ ! » ، ثم ان السلطان رسم بتسليمه الى الوالى يعاقبه ... ثم فى ثانى يوم أشيع بين الناس أن السلطان أرسل كمال الدين الى المقشرة . فما أحد شكر كمال الدين على ذلك ، وكان عدم مقابلته له أصوب . وكان كمال الدين من خواص السلطان ويكبسه وقت الظهر اذا نام ، ثم تغير خاطره عليه . وكان سبب ذلك أن السلطان حصل له قرو فى محاشمه ففصده كمال الدين فى محاشمه عدة مرار ، فبلغ السلطان أن كمال الدين قد شرع يقول للأمراء والناس : « ان السلطان بقى مقيلط » . فتغير خاطره عليه بسبب ذلك . وقيل كان كمال الدين يبلص الأمراء والمباشرين على لسان السلطان ، فكثرت فيه المرافعات من كل جانب وسقط نجمه من السماء .

وفي يوم الأحد ، وهو يوم عاشوراء ، فيه نزل السلطان وتوجه الى نحو المقياس وجلس فى القصر الذى أنشأه هناك ، وكان معه جماعة من الأمراء ، فأقام هناك الى قريب المغرب ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، ومد هناك أسبطة حافلة ، وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات ... ثم ان شخصا مضحكا يقال له على باى الذى يعمل عفريتًا فى المحمل ، فقام رقص ثم سحب الوالى كرتباى فرقصه ، ثم سحب أمير آخور ثانى أقبای الطويل فرقصه ، ثم سحب بركات بن موسى المحتسب فرقصه ، ثم سحب عبد العظيم الصيرفى فرقصه ، وكان جسيما فضحك عليه السلطان ، وثرثروا بين يديه أشياء من أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى فتخاطف ذلك المماليك ، وابتهج

فى ذلك اليوم ، ثم عدى أواخر النهار من الروضة وطلع من عند قصر ابن العينى الذى بالمنشية ، وطلع من هناك الى القلعة .

وفى يوم الاثنين حادى عشره حضر الى الأبواب الشريفة قصاد من عند ملوك الفرنج الفرناسية ، وكان هؤلاء القصاد من رؤساء الفرنج ، فأرسل لهم السلطان خيولا يركبونها من بولاق الى القلعة ، فلما طلعا أوكب لهم السلطان بالحوش ، وزينوا لهم باب الزردخانة وباب القلعة بالصناجق واللبوس وآلة السلاح ، فلما طلعا الى القلعة فكافوا نحو من خمسين نفرا ، ومن أعيانهم اثنان لابسان ثياب محمل كفى ، فى رفاهما سلاسل من ذهب ، فلما وقفوا بين يدى السلطان أظهروا التعاضم ثم باسوا له الأرض ، فلما قرأوا كتابهم انصرفوا وأنزلوهم فى بيت كاتب السر أبو بكر ابن مزهر الدى فى بركة الرطلى ، ونزل نائب المهندار صحبتهم ، وشقوا من القاهرة ، وكان ذلك يوما مشهودا .

وفى يوم الخميس رابع عشره توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له تمر الذى كان كاشف الجيزة فيما بعد ، وكان موته فجأة .

وفى هذا الشهر قرر السلطان قاضى القضاة المالكى محبى الدين يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى فى خطابة جامعه الذى بالشرابشين عوضا عن شمس الدين الغزى بحكم وفاته ، فلما سعى الشرقى يحيى فى الخطابة رسم له السلطان بأن يحطب به حتى يسمع خطبته ، وكان ذلك فى أول جمعة فى السنة ، وحطب قاضى القضاة الشافعى كمال الدين فى ذلك اليوم فى جامع السلطان ، فلما خطب الشرقى يحيى بالسلطان أعجبه خطبته فقرره فى خطابة جامعه عوضا عن الغزى .

وفى يوم الخميس حادى عشرينه دخل أمير الحاج بالركب الأول وهو الأمير بكباى ثم فى يوم السبت ثالث عشرينه دخل المحمل الى القاهرة صحبتته أمير الحاج طومان باى الدوادر الكبير ، فطلع الى القلعة وخلع عليه السلطان فوقانى بطرز يلغاوى عريض ، وخلع على من حج معه من الأعيان وهم الأمير خير بيك كاشف الغريبة أحد المقدمين ، والشرفى بونس تقيب الجيوش المنصورة ، وشيخ العرب أحمد بن بفر ، وغير ذلك من مشايخ العربان ممن كان فى الحجاز ، ومنهم ابن بعداد وآخرون من الأعيان ، فنزل الأمير طومان باى فى موكب حافل وقدامه الأمراء المقدمون قاطبه ، وكان له يوم مشهود ، وقد رجع من هذه السفرة والناس عنه راضية ، وأشيع عنه أخبار حسنة مما فعله فى طريق الحجاز من وجوه البر والاحسان وفعل الخير وحمل المنقطعين والصدقات بطول الطريق على الفقراء والمساكين ، فشكر له الناس ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرينه ، ورد على السلطان أخبار ردية من البحيرة بأن العربان قد جالت هناك والقتل بينهم عمال ، وقد آل أمر تلك الجهات الى الحراب ، وقيل تحالفت سبع طوائف من العربان بأن يكونوا كلمة واحدة على العصيان ، فلما تحقق السلطان ذلك عين جماعه من الأمراء ، فلم يبادروا بالعزم الى ذلك ، فحنق منهم وقال : « أنا أخرج الى ذلك بنفسى » ، فشرع فى ذلك اليوم بعرض السنيح والخيول والجمال والسفائين ، ورسم بعمل حراقة فقط على أنه يتوجه من هناك الى ثغر الاسكندرية ، فقفى عزمه على ذلك وأقام يعرض أشياء كثيرة فى الميدان الى بعد العصر ، وما يعلم ما بعد ذلك .

وفى يوم الجمعة تاسع عشرينه جاءت الأخبار من البحيرة بأن عرب غزاة وغيرهم من العربان قد

أظهروا العصيان ، وزحفوا على البلاد وأفسدوا
الزروع ونهبوا المغل ، وأن شيخ العرب الجويلي
معه في المحاصرة ، وطردها كاشف المنوفية وغيره
عن البلاد ... فلما تحقق السلطان ذلك عين لهم
تجريدة وبها من الأمراء الأمير طومان باي الدوادر
الكبير قريب السلطان الذي كان في الحجاز ، وعين
أيضا الأمير خاير بك كاشف الغريبة أحد
المقدمين ، وعين الأمير علان الدوادر الثاني أحد
المقدمين ، وآخرين من الأمراء والعسكر ... فصلوا
صلاة الجمعة وخرجوا على جرائد الخيل ، فرجت
لهم القاهرة ، فخرج الدوادر ومن معه من الأمراء
ونزلوا بانابة حتى يتكامل خروج بقية العسكر ،
وقد كثر الكلام وزادت الاشاعات بسفر السلطان
الى ثغر الاسكندرية ، وأنه أرسل يقول للخليفة
والقضاة الأربعة : « جهزوا لكم برك حنى تخرجوا
صحبتى الى ثغر الاسكندرية » ، وكذلك أعيان
المباشرين ، فاضطربت الأحوال بسبب ذلك .

وفي يوم السبت سلخه جلس السلطان بالميدان
وعرض جماعة من العسكر فكتب منهم نحو من
مائتى مملوك ، وأمرهم بسرعة الخروج مع
الدوادر الى البحيرة ، وكتب طائفة من المماليك
الى جهة الفيوم والبهنسا ... فبيما السلطان يعرض
العسكر ، ورد عليه قصاد من عند نائب حلب ،
وأخبروا بأن أوائل عسكر اسمعيل شاه الصفوى
قد وصل الى البيرة ، وأن جماعة من عسكر البيرة
التف على عسكر الصفوى . فتأكد السلطان في
ذلك اليوم لهذه الأخبار ، واضطربت أحواله بين
أمر العربان الذين جالت وبين أمر الصفوى . والله
الأمر في ذلك .

وفي هذا الشهر طلع قاصد ملك الفرنج بتقدمة
حافلة للسلطان ما بين أوانى بلور مزيكة بذهب ،
وحمالين عليهم جوخ ومخمل وتماسيح مذهب ،

وقيل ذهب عين ، وغير ذلك أشياء حافلة تصلح
للملوك .

وفي أواخر هذا الشهر خلع السلطان على شرف
الدين بن روق وقرره في نظير الخزائن الشريفة
وجعله مستوفيا على أولاد الجيعان ، وقد سعى في
ذلك بخمسة آلاف دينار ، فاستخف الناس عفله
على ذلك الذى يستوفى على أولاد بنى الجيعان
وهذه غاية الخفة ، وأشيع أنه متحدث في وكالة
بيت المال أيضا ، وغاية الأمر أن كان معه مال
فأذهبه في البطال على شىء لا يظهر له منه نتيجة ،
وكان ساعيا قبل ذلك في قضاء الشافعية بمصر فما
تم له ذلك ، وقد خف وركب الخبل وطاش في
الحال .

وفي أواخر هذا الشهر توفيت الست بنت خوند
بنت الملك المؤيد شيخ ، وهى بنت الأمير يشبك
الفقيه الذى كان دوادرا كبيرا فيما بعد ، وكانت
من أعيان الستات .

وفي صفر بطل سفر السلطان الى ثغر
الاسكندرية بموجب ما ورد عليه من أخبار
الصفوى فتأكد لذلك .

وفي يوم الاثنين ثانيه خرج الأمير قانصوه بن
سلطان جركس أحد المقدمين والأمير ماماي جوشن
فتوجها الى نحو البهنسا والفيوم ، وخرج
صحبتهما نحو من مائتى مملوك .

وفي يوم الخميس خامسه رسم السلطان بشنكله
شخص من الغلمان زعموا أنه حرق بيت أستاذه
لأجل النهب ، فاحترق في ضميمته عدة بيوت
وربوع ، فلما قبضوا عليه عرضه على السلطان
فرسم بأن يشنكل ويعلق في مكان حرقه ، ففعلوا
به ذلك .

وفي يوم الاثنين تاسعه توفيت الريسة خديجة

أم خوخة ، وكانت من أعيان مغاني الدكة ، ولها في هذا الفن اليد الطويلة ، وقبل ذلك بأيام فلائيل توفيت الريسة بدرية بنت جريعة وكانت من أعيان المغاني أيضا ، ولها شهرة بين المغاني بذلك .

وفي يوم الخميس ثاني عشره توفي الأمير طوخ المحمدي أحد الأمراء الطليخانات ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباي ، وقيل ان أصله كان من مماليك تنم فائب الشام ، وكان لا بأس به عشرة لطيف الذات .

وفي يوم الاثنين سادس عشره حضر الأمير طومان باي الدوادار ، وكان قد توجه الى البحيرة بسبب فساد العربان كما تقدم ذكر ذلك .

وفي يوم الجمعة عشرينه عرض السلطان العسكر في الميدان باكر النهار ، فعين من فرسانهم جماعة يتوجهون صحبة الجويلي شيخ جهات البحيرة ، ورسم السلطان الى العسكر بأن يقيموا بالبحيرة بعد وفاء النيل .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره غيب القاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، فلما غيب اختفى جميع أقاربه حتى غلمانه وحاشيته ، فرسم السلطان للقاضي بركات بن موسى أن يكبس على داره ويفحص عن أمره ، وقد اشتد الأمر في طلبه جدا . وسبب ذلك أن كان عليه تقاسيط من المال على الجوامك في كل شهر فلم يف بذلك فتغيب واختفى .

وفي يوم الاثنين ثالث عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ملك الفرنج البنادقة ، فكان له يوم مشهود ، وأوكب السلطان في ذلك اليوم وزين باب الزردخناه باللبوس والسلاح ، ثم طلع القاصد وصحبته مقدمة حافلة نحو من مائة حمال ما بين أوانى بلور وجوخ ومخمل وأثواب مخمل تماشيح وشقق وحرير أطلس وغير ذلك أشياء حافلة ، فطلع

القاصد وهو راكب على فرس وقدامه سبعة أنفس من أخصائه وهم راكبون على خيول والباقي مشاة ، فكانوا نحو من خمسين انسانا من جماعة القاصد الذين جاءوا صحبته . وكان القاصد رجلا شيخا بذقن بيضاء وهو جسيم وعليه وقار ، وكان لابسا خلعة جر ذهب على حرير أصفر فطلعوا الى القلعة وقابلوا السلطان ، ثم نزلوا الى مكان أعد لهم ، وأشاعوا أن قاصد ملك الفرنج قد جاء يسعى عند السلطان في فتح القيامة التي بالقدس الشريف ، وكان السلطان أغلق بابها ومنع الفرنج من الدخول اليها بسبب ما تقدم منهم .

وفي ذلك اليوم أطلق السلطان شيخ العرب بفر بن الأمير أحمد بن بفر ، وكان له مدة طويلة وهو في البرج بالقلعة ، فأفرج عنه في ذلك اليوم وكان له نحو من اثنتي عشرة سنة وهو في البرج بالقلعة مقيد ، فشفع فيه أبوه الأمير أحمد بن بفر وضمنه حتى أطلقه السلطان .

وفي يوم الجمعة سابع عشرينه قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك ثامن عشر بشنس قبطي ، وقد أبطأ في قلع الصوف هذه السنة بموجب أن الوقت كان رطبا .

ومن الحوادث في أواخر هذا الشهر أن قد سرق من سوق الباسطية ثلاثة دكاكين ، وكذلك من الصاغة ، فراح على التجار جملة أموال لها صورة ولا يعلم من فعل ذلك ولا تقب لهم حائط ، وراحت على من راح .

وفي يوم السبت ثامن عشرينه أرسل الأمير قانصوه بن سلطان جركس الذي توجه الى الصعيد فبعث ثمانية رعوس من عرب عزالة منهم شخص يسمى خضر بن كروان وكان من كبار المفسدين ، وقيل هو الذي كان سببا في قتل ابن جميل ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفي يوم الأحد تاسع عشرينه رسم السلطان
بعرض السادة الأشراف ، وسبب ذلك ان السلطان
فصد أن يخرج عنهم شيئا من الجهاب الموقوفة
عليهم مثل بركة الحبش وبلقس وغير ذلك من
الجهات ، وكان القائم في مرافعتهم الشريف بن
مصبح دلال الأملاك ، فالتزم بأن يوفر للسلطان
من هذه الجهات في كل سنة عشرة آلاف دينار ،
فرسم السلطان بعقد مجلس بالقضاء الأربعة
بسبب الأشراف ، وقد طعنوا في أنساب جماعة
منهم ، وهذه من جملة الوقائع الفاحشة فلا حول
ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وفي ربيع الأول طلع القضاء الأربعة للتهنئة
بالشهر ، فكان في ذلك اليوم عقد مجلس بين يدي
السلطان بسبب بنت يشبك الدوادار زوجة قاني
باي قرا أمير آخور كبير وبنت جاني بك حبيب
زوجة الأمير دولات باي قرموط .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية
الخامسة التي جلددها لأجل الممالك التراكمية
وأولاد الناس الذين نزلهم ، فقليل انه عوق جوامك
جماعة منهم وقطعها .

وفي يوم الخميس رابعة ظهر بركات أخو شرف
الدين الصغير كاتب الممالك ، وكان له مدة وهو
محتف كما تقدم ذكر ذلك .

وفي يوم الاثنين ثامنه خلع السلطان على مملوكه
أبرك وأعاده الى نيابة طرابلس كما كان أولا ،
فنزل من القلعة في موكب حافل وصحبته
الأمراء .

وفي يوم تاريخه رسم السلطان بنقل المكاحل
التي سببها في المسبك الذي بجوار الميدان ،
فأمر بأن يتوجهوا بها الى نحو تربة العادل
حتى يجربها هناك ، فوضعوها على عجل وسحبته

الأبقار ، فنزلوا بها من الصليبة ، فرجت لها
الأسواق وصاروا يتصلبون بين الدكاكين فما
خلصوا الا بعد جهد كبير . فلما وصلوا الى بيت
الأمير تاني بك فرا الذي عند حمام الفارقاني ،
انخسف باحداها سرداب هناك ، فوقعت تلك
المكحلة الكبيرة في السرداب فأعيا الناس طلوعها ،
وأقامت على ذلك الى قريب المغرب وهي على حالها ،
وقيل ان السلطان سبك نحوا من سبعين مكحلة
ما بين كبار وصغار من نحاس وحديد ، فكان منها
أربع كبار فقليل وزن كل واحدة منها ستمائة قنطار
شامي ، فكان طول كل واحدة نحوا من عشر
أذرع ، فحصل في ذلك اليوم غاية المشقة بسبب
ذلك ، وكان صحبة المكاحل الأمير مغلباي الشريفى
الزردكاش فما قاسى في ذلك اليوم خيرا من التعب
الزائد والمشقة .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه توفي الأمير دولات باي
قرموط أحد الأمراء المقدمين ، فنزل السلطان وصلى
عليه ، وكان له جنازة حافلة ، وكان أصله من
ممالك الأشراف قايتباي ، وكان موصوفا
بالشجاعة ، وكان من أعوان المقدمين ، وتولى من
الوظائف ولاية القاهرة ثم بقى مقدم ألف . وقد
توفي من الأمراء المقدمين خمسة في مدة يسيرة ،
وكانوا من أجل الأمراء وأعظمهم ، وقد قلت
في ذلك :

إذا صفا الدهر يوما عن ذلك الصنفو يرجع
هل من لييب تراه بأيسر العيش يقنع
فكم نرى للأمير من مصرع بعد مصرع
وفي يوم الخميس حادى عشره عمل السلطان
المولد النبوى ، وصادف ذلك أنه جاء في ليلة
الجمعة فاجتمع القضاء الأربعة في ذلك اليوم
بالحوش السلطاني ، وسائر الأمراء من الأكابر
والأصاغر ، وكان مولدا حافلا على جارى العادة .

وفي يوم الأحد رابع عشره نزل السلطان وسير الى نحو المطرية وكشف على المكاحل التي توجهوا بها الى هناك حتى يجربوها ، فلما توجه الى هناك أقام ساعة وعاد الى القلعة سريعا .

وفي يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمين طومان باي الدودار وسافر الى جهة الصعيد بسبب ضم المغل ، وسافر معه جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، وكان صحبته الأمير خاير بك الكاشف أحد المقدمين ممن كان من مضافاته ، فخرج في موكب حافل وكان له يوم مشهود .

وفي يوم الخميس ثامن عشره أرسل نائب سيس الى السلطان عشرة رعوس وعليهم طراير حمر ، وزعموا أنهم من عسكر الصفوى كانوا يفسدون في البلاد ، فقبض عليهم نائب سيس وحز رعوسهم وأرسلهم الى السلطان ، فلما عرضوا عليه رسم باشهارهم على رماح فأشهرهم في القاهرة ثم علقوهم على باب النصر وباب الفتوح ، وقد قويت الاشاعات بأن الصفوى متحرك على البلاد ، وأن قاصده واصل الى السلطان .

وفي يوم الاثنين ثانى عشرينه خلع السلطان على الأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش أحد الأمراء المقدمين ، وقرره في أمرة الحاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير يوسف الناصرى شاد الشراب خاناه الذى كان نائب حماة فيما تقدم وقرره في أمرة الحاج بالركب الأول فتشكى من ذلك فلم يقبل .

وفيه رسم السلطان لكاشف الشرقية وكاشف الغريسة بأن ينزلا على البلاد ، ويستخرجوا من الفلاحين الحمايات والشيخة وقدم الكشاف عن سنة ثمانى عشرة وتسعمائة الحراجية قبل أن تدخل ، وقبل أن تنزل النقطة وينادى على النيل ، فحصل للمقطعين غاية الضرر وصارت الكشاف تنزل على

على البلاد وتكبس على الفلاحين ويستخرجون منهم الأموال بالضرب ، والذين يهربون يقبضون على نسائهم وعلى أولادهم . فخرّب غالب البلاد ، ورحل عنها الفلاحون ، فصار الذى تخرب بلاده من المقطعين يأخذون جامكيتة في نظير الحماية والشيخة ، وصارت الكشاف يستخرجون المال من البلاد ، وجانى بك يستخرج من المقطعين بالقاهرة ، فضاع الخراج بينهما ، والذى يكون مسافرا من المقطعين يرسمون على زوجته وأولاده ووصيه حتى يأخذوا منهم الحماية . وكان القائم في ذلك جانى بك الذى كان دودار الأمير طراباي رأس نوبة النوب ، وقد بقى الآن ناظر الديوان المفرد ، فنوع في أيامه أنواع المظالم التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم .

ومن العجائب أن المغل كان قائما على أصوله في الأرض لم يحصد بعد ، والعسكر لم يقلعوا الصوف ، وصار جانى بيك يكبس على بيوت الأمراء العشراوات بالطواشية ويقبض منهم الحماية بالعسف ، ويرسم على الخاصكية ، ويدعهم في التراسيم بسبب الحماية والشيخة وقدم الكشاف ، ولا يعرف ان كانت البلاد خرابا أو عامرة ، فجرى على المقطعين ما لا خير فيه من المغارم والبهدلة .

وفي يوم السبت في العشر الثالث من هذا الشهر ابتداء السلطان بضرب الكرة فلعب هو والأمراء بالميدان .

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه قبض السلطان على المهتار حسن الشراب دار ، ورسم عليه وختم على بيوته وحواصله ، وقرر عليه عشرين ألف دينار فأورد من ذلك نحواً من ثمانية آلاف دينار ، وقسط الباقي عليه في كل شهر ألف دينار على الجوامك ، وكتب عليه بذلك التزام ، واستمر في

الترسيم حتى يعلق ما كتب عليه ، وكان سبب مصادرة المهتار حسن أن شخصا من غلمان الشرايطخانة يقال له أبو الحير الاسمر رافع المهتار حسن عند السلطان ، وقال له لما قتل الملك الناصر محمد بن الأشرف فايماى أحضر نجارا وصنع عدة مفاتيح للحواصل التى بالقلعة وأخذ منها ما قدر عليه ، ومن جملة ذلك سكرجة زمرد وحمل ما أخذه على بغل من بغال الحمامة . فلا زال السلطان يفحص عن حقيقة هذا الأمر ، فأحضر النجار الذى صنع المفاتيح فاعترف بذلك وأحضر الحمار الذى حمل الحوائج من القلعة فاعترف أيضا بذلك وقال : « ما أعرف ما كان فى العلب التى حملتها » ، فعند ذلك قبض السلطان على المهتار حسن ورسم عليه وشكه فى الحديد ، وقرر عليه عشرين ألف دينار ، فأورد منها سبعة آلاف دينار وكسور وحلف أنه لا يملك غيرها ، فلم يقبل منه السلطان ذلك واستمر فى التوكيل به حتى يعلق ما قرره عليه .

ثم بعد ذلك بمدة فعل ذلك بمهتاره الحاج على مهتار الخيل وقرر عليه مالا نحو ذلك ، ورسم عليه حتى يرد ما قرره عليه من المال ، وقيل انه عرض ما كان فى تسليمه من السروج المعرق والكنائش فوجد ذلك قد نقص منه أشياء كثيرة .

وفى أثناء هذا الشهر قبض السلطان على شرف الدين بن روق الذى كان قد سعى فى استيلاء الخزائن الشريفة ، فلم ينتج أمره فى ذلك ولا عرف يباشر فى مصطلح الخزائن ولا عرف يكتب وصولات الرجعات ، وكان رجلا أهوج وعنده خفة ورهيج فلم يرث له أحد فيما جرى عليه . فلما قبض عليه السلطان سلمه الى الزينى بركات بن موسى المحتسب وكان ابن روق هذا زوج أخت

علم الدين الذى كان متحدثا فى الخزانة ، فلما قبض السلطان على علم الدين واختفى فضمنه ابن روق فى عشرين ألف دينار ، فلما قبض السلطان على ابن روق طلب منه ما ضمنه بسبب علم الدين . وكان ابن روق يتهم بسعة المال ، وكان قصده يسعى فى قضاء الشافعية ، فما تم له ذلك ولم يساعده الزمان على ذلك ، وكان من أعيان الشافعية ولكن كان أرشل قليل الحظ ، كما يقال :

إذا أذن الله فى حاجة

أناك النجاح بها يركض

فلا رشد الا بتوفيقه

وان محض الراى من يحض

فمن ذا يدبرنا غيره

ومن يبرم الأمر أو ينقض

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه حضر جماعة من الأمراء الذين كانوا توجهوا الى نحو بلاد الصعيد بسبب فساد العربان ، وكان الذى توجه من الأمراء المقدمين قانصوه بن سلطان جركس والأمير ماماي جوشن ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات والماليك السلطانية . فلما طلوعوا الى القلعة خلع السلطان على الأمراء المقدمين ونزلوا الى دورهم .

وفى ربيع الآخر - فى يوم الأحد سادسه - نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل التى بالريمانية ، وجلس هناك ونصب له سحابة واجتمع حوله الأمراء على المصطبة وحضر الجم الغفير من العسكر ومن الناس المتفرجين ، ثم جربوا قدامه مكاحل كبار وصغار التى كان سببهم بالميدان ، فكان عدتهم سبع وخمسين مكحلة ، فلم يخطئ منها سوى واحدة وقيل اثنتان ، والذى صح من المكاحل فيها من عدى حجره الى قريب بركة الحاج ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية ،

وأقام هناك الى بعد العصر ونصب له خيمة كبيرة
وهي الخيمة التي أهداها اليه على دولات وقد
تقدم ذكر ذلك ، ومد هناك أسمطة حافلة وكان
يوما مشهودا .

وفي ذلك اليوم طلع ابن أبى الرداد ببشارة
النيل ، وجاءت القاعدة ستة أذرع ، أنقص من
العام الماضى بذراع . ولما عاد السلطان الى القلعة
طلع من بين التراب ولم يشق من القاهرة .

وفي يوم السبب ثانى عشره حضر الى الأبواب
الشريفة الأمير تمر باى الهندى أحد الأمراء
العشراوات ، الذى كان قد توجه قاصدا الى
الصفوى شاه اسماعيل ملك العراقين ، وكانت مدة
غيبته فى هذه السفرة نحو من سنتين ، وقد قاسى
شدائد ومحنا ، وماتت خيوله وجماعة من غلمان
ومن الخاصكية الذين كانوا صحبته ، ولم ينصفه
الصفوى ولا أكرمه ، وقيل لم يقابله غير مرة واحدة
ولم يكتب له الجواب عن مطالعة السلطان التى
أرسلها اليه ، وأرسل جوابه صحة قاصده .

فلما نزل تمر باى الى خاتمة سرياقوس أرسل
يعرف السلطان أن قاصد الصفوى جاء صحبته
وقاصد من عند ملك الكرج ، فعين السلطان
الزىنى بركات بن موسى المحتسب بأن يلاقيهم ويمد
لهم هناك مدة ، فتوجه الى الخانكاه ومد لهم هناك
مدة حافلة ، فلما دخل قاصد الصفوى أنزلوه فى
بيت قانى باى سلق الذى فى رأس الرملة عند
سويقة عبد المنعم ، وكان مع هذا القاصد شديد
البأس أغاظ على نائب حلب فى القول لما قدم عليه .
وفى ذلك اليوم ضرب السلطان الكرة فى الميدان
فتقنظر فى ذلك اليوم الأمير سودون الدوادارى
رأس نوبة النوب ، فنزل على كتفه فانصدع فتألم
لذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشره طلع قاصد الصفوى
الى القلعة وقابل السلطان ، فأوكبه السلطان
بالحوش من غير شاش ولا قماش ، وجلس على
المصطبة التى أنشأها ونصب السحابة الزركش ،
وحضر الأمراء المقدمون واجتمع الحسكر ، وأمر
بأن يؤين باب الزردخانه فزينوه فى ذلك اليوم
بآلة السلاح والصناجق واللبوس ، فخرج القاصد
من بيت قانى باى سلق وصحبته آردمر المهندار
والأمير كرتباى والى القاهرة ، فطلع القاصد
وصحبته تقدموا الى السلطان فكانت نحو من
أربعين حمالا ، عليها من الفهود سبعة وقيل كانوا
تسعة فمات منهم اثنان ، فلما طلعا بهم الى القلعة
جعلوا عليهم أجال حريز ، ومن جملة هذه التقدمة
طواله خيل ، ومنها حمال عليه فضيات ما بين
أباريق فضة وشربات وطاسات ذهب ، ومنها
حمالان عليهما زرديات وخوذ خاص وأثواب مخمل
ملون وألبوس خيل مكفتة ، ومنها حمالان عليهما
أقواس حلقة ، وحمالين عليهما شقق حريز برصاوى
مقصب ، وحمالان عليهما بعلبكى ، وغير ذلك أشياء
كثيرة ما بين سجاجيد رومى ومديات وغير ذلك .

فلما طلع القاصد بين يدى السلطان وكانا
اثنين ، قيل هما من أعيان أمراء الصفوى ، فباسا
الأرض للسلطان ، ثم تقدما وباسا وكبة
السلطان ، وقدا اليه مطالعة شاه اسمعيل
الصفوى ، فلما قرئت بين يدى السلطان بحضرة
الأمراء وجد فيها ألفاظا يابسة وكلاما فججا ، فلم
ينشرح السلطان لذلك وظهر فى وجهه الكظم ،
ثم نزل القاصد من عند السلطان الى المكان الذى
أعد له .

ثم فى عقيب ذلك اليوم طلع قاصد ملك
الكرج ، وصحبته تقدموا حافلة للسلطان ما بين

سمور ووشق وسنجاب وصوف ، وغير ذلك أشياء حافلة .

وفيه تغير خاطر السلطان على الناصرى محمد ابن الشهابى أحمد بن الأمير أسنبا الطيارى الكلبكى أمير شكار ، فلما تغير خاطره عليه قبض عليه وأودعه فى الترسيم وقرر عليه ألف دينار فأغلظ على السلطان فى القول ، فحنق منه فرسم بنفيه الى قوص ، فلم يجسر أحد من الأمراء أن يشفع فيه ، وكان الناصرى محمد عنده شمع زائد ورقاعة فلم يرث له أحد من الناس ، فكتب وصيته وتوجه الى نحو الصعيد ، والذي أكله كركى تقاياه بلشون .

وفيه ، فى يوم الأحد عشرينه ، نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل ، وجلس على المصطبة التى هناك ، وجربوا قدامه بقية المكاحل المقدم ذكرها ، وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد هناك سباطا حافلا ، ونصب له هناك وطاقا ، واجتمع عنده جماعة من الأمراء المقدمين ، ثم ركب بعد العصر ودخل من باب النصر وشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان له يوم مشهود .

وفيه ، فى يوم الثلاثاء ثالث عشرينه ، حضر الى الأبواب الشريفة طراباى أخو الأتابكى فیت الرحبى ، وكان مسجوناً بقلعة دمشق ، وكان سبب نفيه الى هناك أنه فى سنة تسع وتسعمائة خلى الأمير أزدمر الدوادار طالعا الى القلعة فلما وصل الى باب القلعة رمى عليه من الطبقة ثلاث فردات تشاب ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فلما بانغ السلطان ذلك نفاه الى دمشق وسجنه بقلعتها . فاستمر هناك حتى شفع فيه الأمير طومان باى الدوادار .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له

طراباى ، وكان طراباى هذا ولى الأتابكية بحلب ثم حضر الى مصر وسعى فى نيابة صند ببال له صورة حتى تولاه من يشبك ، واستقر نائبا بصند عوضا عن جان بردى الغزالى بحكم انتقاله الى نيابة حماة ، وكان طراباى هذا من ممالك يشبك ابن حيدر الذى ولى حماة .

وفيه ، فى يوم الخميس رابع عشرينه ، نادى السلطان فى القاهرة أن لا أمير ولا جندى يركب بغدارة فى سرجه ومن فعل ذلك لا يلوم الا نفسه . وكان سبب ذلك أن مملوكا من ممالك السلطان تشاجر مع شخص من الممالك يقال له جانم ، وكان أصله من ممالك الأمير طراباى رأس نوبه النوب ثم بقى مملوك سلطان ، فلما تشاجر معه لحل عليه الغدارة وضربه على يده قطعها ، فوقف ذلك المملوك للسلطان ويده مقطوعة ، فشق ذلك على السلطان ونادى فى ذلك اليوم بأن لا أحد من العسكر يركب بغدارة قط ، فرجعوا الممالك عن ذلك . ورسم للأمير مغلباى الزردكاش بأن يكتب قسائم على الصناع أن لا يصنعوا لأحد من الممالك غدارة ، وكان بهذه الغدارات يحصل من الممالك الضرر الشامل .

وفيه ، فى يوم الجمعة خامس عشرينه ، رسم السلطان لأزدمر المهندار بأن يأخذ قاصد الصفوى وجماعته ويتوجه بهم الى جامع السلطان الذى أنشأه فى الشرايشين ، فيصلوا الجمعة هناك . فلما حضروا بالجامع اجتمع به القضاة الأربعة وأعيان الناس وجماعة من الأمراء ، فخرج قاضى القضاة المالكى يحيى بن الدميرى ، وكان قرر قبل ذلك فى خطابة جامع السلطان ، فصعد المنبر وهو لابس السواد ، وخطب خطبة بليغة ، وذكر فيها مناقب الامام أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فكان

بالجامع يوم مشهود ، واجتمع به قراء البلد والوعاظ .

ومن النوادر الغريبة أن قاضى القضاة محبى الدين يحيى بن الدميرى لما ولى القضاء لبس له طوقا ، وهذا بخلاف زى القضاة ، ولا يعلم حجته فى ذلك .

وفيه رسم السلطان الى الزينى بركات بن موسى المحتسب بأن يتسلم شرف الدين بن روق الذى كان ولى التحدث على الخزائن الشريفة ، فتسلمه على عشرين ألف دينار . فلما تسلمه شكه فى الحديد ونزل به من القلعة حتى يكون من أمره ما يكون .

وفيه ، فى يوم السبت سادس عشرينه ، خلع السلطان على قاصد ملك الفرنج الفرائسة وأذن له بالسفر .

وفيه عزم السلطان على قاصد ملك الكرج ومد له ساطا بالبحرة التى بالميدان ، وخلع عليه وأذن له بالسفر .

وفيه ، فى يوم الأحد سابع عشرينه ، عزم السلطان على قاصد شاه اسماعيل الصفوى فجلس معه فى المربع الذى بالميدان وفرجه على لعب الكرة ، ثم دخل به الى البحرة التى ببستان الميدان ، وأظهر فى ذلك اليوم أنواع العظمة بحضرة القاصد ، ومد له هناك أسمطة حافلة ، حتى أدهشه مما رأى فى ذلك اليوم من حسن النظام وتزايد العظمة .

وفيه فى يوم الاثنين ثامن عشرينه ، حضر قاصد ابن رمضان أمير التركمان وعلى يده مقدمة حافلة للسلطان .

ومن العجائب أن فى هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدا ، وكل قاصد من عند ملك على انفراده ، فمن ذلك قاصد شاه

اسماعيل الصفوى ، وقاصد ملك الكرج ، وقاصد ابن رمضان أمير التركمان ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقاصد يوسف بن الصوفى خليل أمير التركمان ، وقاصد صاحب تونس ملك الغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ، وقاصد ابن درغل أمير التركمان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين الذى توجه الى الهند ، وقاصد ملك الفرنج الفرائسة ، وقاصد البنادقة ، وقاصد على دولات ، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب .

وفيه ، فى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه ، كان ختام ضرب الكرة بالميدان ، وكانت جماعة من هؤلاء القصاد حاضرين ، فلما انتهى ضرب الكرة قام السلطان وطلع الى الحوش وجلس بالمقعد ، وأحضروا قدامه ثيرانا تتناطح وكباشا ، ومد فى ذلك اليوم أسمطة حافلة وعزم على الأمراء المقدمين قاطبة وكذلك القصاد . فلما صلى الظهر خرج وأحضر مماليك يلعبون بالرمح فوقع بينهم فى ذلك اليوم خصمانية ، حتى تعجب القصاد من ذلك ، وكان يوما مشهودا بالحوش ، فاستمروا على ذلك الى بعد العصر فنزلت الأمراء وانقض ذلك الجمع .

وفى يوم الأربعاء سلخه نزل السلطان وتوجه الى نحو المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وعاد الى القلعة .

وفى جمادى الأولى طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر .

وفى ذلك اليوم طلع قاصد صاحب تونس وصحبته مقدمة حافلة للسلطان ، قيل انها قومت بمشرة آلاف دينار ، وهى ما بين قماش فاخر

وخيول وسلاح وغير ذلك ، فخلع عليه السلطان
كاملية صوف بسمور ونزل من القلعة .

وفيه طلع قاصد ابن عثمان ملك الروم وعلى
يده مطالعة للسلطان ، فأشيع بين الناس أن ابن
عثمان أبا يزيد ضعيف على خطة ، وقد نزل عن
الملك الى ولده الصغير الذى يسمى سليم شاه
وصار متملكا على بلاد الروم عوضا عن أبيه أبى
يزيد ، فجاء القاصد ببشارة ذلك .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية الخامسة
التي استجدها برسم الممالك التراكمة وأولاد
الناس ، كما تقدم ذكر ذلك .

وفى يوم الجمعة ثانى هذا الشهر وردت الأخبار
ب وفاة السلطان المعظم المفحم المغازى المجاهد
المربط ملك الروم وصاحب مدينة الروم
بالقسطنطينية العظمى وما مع ذلك من الفتوحات ،
وهو السلطان أبو يزيد بن السلطان محمد بن
السلطان مراد خان بن أبى يزيد المعروف بيلدرم
ابن أورخان بن عثمان بن أرطغرل بن سليمان
ابن عثمان الأكبر الذى مات شهيدا بالغزاة وكان
مولد السلطان أبا يزيد سنة احدى وخمسين
وثمانمائة ، وولى على ملك الروم وجلس على سرير
الملك يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ست
وثمانين وثمانمائة ، وأقام فيه الى سنة ثمان عشرة
ووتسعمائة ، فقدمت الأخبار بوفاته يوم الجمعة
ثانى جمادى الأولى من هذه السنة ، فكانت مدة
ولايته على مملكة الروم نحو من ثلاث وثلاثين
سنة الا أشهرها ، وفتح فى أيامه عدة مدن من بلاد
الفرنج ، وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق ،
وكان من خيار ملوك بنى عثمان قاطبة .

ولما مات خلف من الأولاد الذكور ثلاثة : هم

قرقد بك وكان أكبرهم ، وأحمد بك ، وسليم
شاه الذى عهد له بالملك بعده ، فتولى على ملك
الروم فى حياة والده أبى يزيد ، وقد جاءت الأخبار
بولايته على مملكة الروم قبل وفاة أبيه .

فلما تحقق السلطان وفاته بكى عليه وأظهر
الحزن والأسف ، ثم صلى عليه صلاة الغيبة
بالقلعة ، فلما شاع الخبر بموته فى ذلك اليوم
بين الناس صلوا عليه صلاة الغيبة بعد صلاة
الجمعة فى الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع
ابن طولون وفى جامع السلطان الذى بالشرابشين
وغير ذلك ، وقد حزن عليه الناس فانه كان قامعا
للفرنج لا يفتر عن الجهاد فيهم ليلا ولا نهارا ،
وكان به نفع للمسلمين .

وفى يوم الأحد رابعه أشيع بين الناس بموت
أمير مكة الشريف قايتباى ، وبموت الشيخ عامر
صاحب اليمن وكان من خيار ملوك اليمن ،
وبموت الخوaja عيسى القارى وكان من أعيان
تجار مكة وهو فى سعة من المال وله شهرة زائدة .

وفى يوم الاثنين خامسه طلع الأمير بيبرس بن
الأمير أحمد بن بقر شيخ العرب الى السلطان
وقابله ، فخلع عليه ونزل الى داره ، وكان له مدة
طويلة وهو عاص على السلطان فقابله فى ذلك
اليوم

وفيه طلع الأمير خاير بيك الخازندار أحد الأمراء
المقدمين الى القلعة ، فخلع عليه السلطان كاملية
بسمور . ونزل الى داره فى موكب حافل وصحبته
الأمراء ، فزينت له القاهرة ، وسبب ذلك أنه كان
قد مرض مرضا خطرا وأشرف فيه على الموت ثم
شفى من ذلك .

وفى يوم الأربعاء سابعه نزل السلطان الى
المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وكان النيل قد

قارب الوفاء فزاد في تلك الليلة أربعاً وعشرين أصبعا في دفعة واحدة ، فتفاهل الناس بنزول السلطان الى المقياس .

وفي يوم الخميس نامنه جلس السلطان في الميدان ، وأحضر قصاص الصفوى وخلع عليهم كوامل مخمل أحمر كهرى بسمور ، وعلى بقية جماعته سلاريات صوف مفرية ما بين سمور ووشق وسنجاب ، ودفع اليهم جواب كتابهم ، ولكن كتب الى الصفوى في جوابه عبارة ألفاظها يابسة في الكلام ، وكان الصفوى أرسل الى السلطان في كتابه ألفاظا فاحشة فأجابه بمثل ذلك وزيادة ، وهذا أول ابتداء وقوع الوحشة بين السلطان وبين شاه اسماعيل الصفوى ، وكان الصفوى قد حصل منه في حق قاصد السلطان الأمير تمرباى الهندى لما توجه اليه غاية الفحش به .

وفي هذا الشهر وقعت نادرة وهو أن أشيع بين الناس أن رودس قد فتحت على يد المسلمين بحيلة من غير قتال ولا حرب ، فقامت الاشاعات بذلك ، وهم أن يدق السلطان الكوسات في ذلك اليوم ويزين القاهرة ، وكان سبب ذلك أن شخصا من أبناء الشام جاء الى شخص من ممالك الأمير خاير بيك كاشف الغريبة أحد الأمراء المقدمين ، وكان هذا المملوك شادا في بلد تسمى زفتة ، فجاء اليه ذلك الرجل الشامى ودفع اليه عدة مطالعات ، وقال له : هذه من عند الأمير محمد بك قرابة السلطان الذى أشاعوا قتله ، وقد ظهر أنه في قيد الحياة وقد تحيل على أهل رودس حتى أخذها منهم وملكها وأسر أهل المدينة بحيلة ، وأن الأمير محمد بك قد وصل الى الطينة وأرسل يطلب فرسا وقماشاً ، فأخذ المملوك منه المطالعات وحضر الى عند السلطان ، فلما قرأ تلك المطالعة انصاع

لذلك الكلام وظن أنه حق ، فخلع على ذلك المملوك حلعة ، وفرق على الامراء مطالعاتهم ، وهم أن يدق الكوسات لهذا الخبر ، وأرسل صاحبه ذلك المملوك فرسا وبقجة فيها قماش ، وكذلك الأمير طقطباى نائب القلعة ، والأمير أنص باى حاجب الحجاب ، فأخذ المملوك القماش والخيول ومضى ، ثم ظهر في عقيب ذلك أن هذا الكلام كذب مصنوع ، فعين السلطان يحيى بن نكار دودار والى القاهرة بأن يتوجه خلف ذلك المملوك ويحضره ويحضر الرجل الشامى الذى دفع اليه المطالعات ، فغاب أباما وأحضر المملوك وما أخذه من الخيول والقماش ، وأحضر ذلك الرجل الشامى الذى جاء بالمطالعة ، فلما حضر بين يدى السلطان حرق عليه بالكلام فاعترف أنه صنع تلك الكتب افتعالا عن الأمير محمد بك ، وأن شدة الفقر أحوجته الى ذلك ، فقال له السلطان : « كنت أنت وقتت الى وطلبت منى شيئا كنت أنعم عليك به » ، ثم عراه بين يديه ليضربه بالمقارع فوجد في أجنابه أثر الضرب بالمقارع ، فسأله عن ذلك ، فاعترف أنه كذب مرة أخرى على خاير بك نائب حلب فضربه بالمقارع وقطع أنفه ، ثم أن السلطان ضربه بين يديه وبعثه الى المقشرة من يومه ، واستعاد الخيول والقماش من ذلك المملوك الذى أتى بالمطالعات .

وفيه أنعم السلطان على تمرباى الهندى الذى توجه قاصدا الى الصفوى بامرة طبلخاناه ، وكان قبل أن يسافر أمير عشرة .

وفي يوم الجمعة تاسعه تلاقى ماء النيل ودخل الى الزريبة ، وكان له يوم مشهود ، وكان السلطان في العام الماضى سد خليج الزريبة وعمل له جسرا من عند قنطرة موردة الجبس ، فلم تسكن بيوت الزريبة في العام الماضى ، ولم يدخل خليجها المراكب

على جارى العادة بالغلل ، فوجدوا فم الخليج قد
تربى فيه الطين نحوا من سبع أذرع ، فرسم
السلطان بإبطال ذلك الجسر ، ففرح به سكان
الزربية .

وفى يوم السبت عاشره خلع السلطان على قاصد
ملك الكرج وأذن له بالسفر الى بلاده .

وفى يوم الاثنين ، ثانى عشره ، كان وفاء النيل
المبارك ، وقد أوفى فى أول يوم من مسرى وفتح
السد فى اليوم الثانى منها ، ووقع مثل ذلك فى
دولة الأشرف قايتباى سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة
أن النيل أوفى فى آخر يوم من أييب وفتح السد
فى أول يوم من مسرى ، فلما أوفى فى هذه السنة
زاد عن الوفاء عشر أصابع من الذراع السابعة
عشرة ، فعد ذلك من النوادر .

وفى اليوم الثانى من بعد الوفاء زاد النيل اثنتى
عشرة أصبعا ، وزاد فى اليوم الثالث ست عشرة
أصبعا فغلق سبع عشرة ذراعا وأربع أصابع من
ثمانى عشرة ذراعا ، حتى عد ذلك من النوادر
الغريبة . فلما أوفى النيل رسم السلطان للأتابكى
سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السد على
العادة ، فتوجه وفتح السد وكان له يوم مشهود ،
وقد قيل فى المعنى :

النيل زاد زيادة قد أذنت

من كل باسقة النخيل بقلعها

فلكم به من مركب فى الجو قد

أمسى عبود الصبح صارى قلعها

وفى بوم الثلاثاء ثالث عشره نزل السلطان الى
المقياس وبات به ، وكانت ليلة البدر فبات بسطح
القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، ومد هناك
أسمطة حافلة ، وقرأ ختمة وحضر سائر قراء
البلد والوعاظ ، وأقام هناك الى اليوم الثانى وطلع

بعد العصر ، وكانت ليلة الجامكة ، وهذا أول
بياته عن القلعة ، ولم يبع له من حين ولى السلطنة
أنه بات عن القلعة سوى هذه الليلة ، وكان ولده
المقر الناصرى محمد صحبته ، قيل انه قرأ فى تلك
الليلة عشرين ختمة بالجبرية ، وانشرح تلك الليلة
الى الغاية ، ثم فى اليوم الثانى نزل السلطان من
المقياس فى الحراقة وتوجه الى بولاق ، وكان
الأمير خاير بيك الخازندار عليلا وهو مقيم فى
البيت المعروف بالسبكية ، فطلع عنده السلطان
وعاده فمد له خاير بك هناك مدة حافلة ، فأكل
منها ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفى هذا السهر تنهى النيل فى الزيادة الى اثنتى
عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وذلك قبل
دخول النوروز بسنة عشر يوما ، حتى عد ذلك
من النوادر ، فأخصبت الفواكه فى هذا الشهر
جدا ، حتى البطيخ الصيفى والعبدلى والعنب
والرمان وسائر الفواكه ، لكن الزبيب كان غاليا
وتناهى سعره الى خمسة أشرفية كل قنطار ،
وصاروا يخلطون مع الأقساماء العجوة ، وكانت
أصناف الغلال جميعها مشططة ، وسائر البضائع
من السيرج والزيت والزيت الحار والسمن مشططة
فى السعر ، وكذلك سائر الأجبان حتى السكر
والقطر ، وتشحط اللحم الضانى والبقرى ، وغلا
سعر الأرز ، والأمر فى ذلك الى الله تعالى .

وفى جمادى الآخرة تغير خاطر السلطان على
الزنى بركات بن موسى المحتسب ، وسبب ذلك
أنه حصل بينه وبين الجمالى يوسف البدرى الوزير
تشاجر بحضرة السلطان ، فخرج الزنى بركات
على البدرى فى القول قدام السلطان وأساء عليه .
فحنق السلطان من الزنى بركات وأمر بالقبض

شخص من الأتراك يقال له دمرداش ، وكان مشدا على دار البطيخ التى بباب النصر ، وقد غمز عليه أنه ينبش على القبور وبأخذ رؤوس الموتى ولحمهم ويبيع ذلك للفرنج يعملون منه المومية ، وقيل السم ، فلما قبضوا عليه وجدوا عنده من عظام الموتى أشياء كثيرة من جماجم وأعضاء ، فحملوا ذلك فى قفاف على حمير وطلعوا بها الى السلطان حتى شاهد تلك العظام . فلما وقف دمرداش المذكور بين يدى السلطان ، سأله عن أمر هذه الجماجم ، فقال : هذه من قبور النواويس يأتيني بها العربان فأصنع منها المومية وأبيع ذلك فى بلاد الفرنج ، ثم وجدوا على العظام لحما طريا ، وشهد عليه الناس أنه فى كل يوم يتوجه الى الصحراء وينبش قبور الموتى المحدد ويأخذ لحمهم وعظمهم يبيع ذلك على الفرنج . فلما تحقق السلطان ذلك أمر بشنقه ، فسروه على جمل وأشهره فى القاهرة حتى أتوا به الى داره بالقرب من دار البطيخ فشنق هناك ، وكان له يوم مشهود .

وقد تقدم مثل هذه الواقعة بعينها فى دولة الأشرف برسباى . وذلك أن رجلا أعجيا كان بمصر ينصب على النساء والأطفال ويقتلهم وينزع لحمهم عن عظمهم ، ويبيع اللحم على الفرنج كل قنطار بخمسة وعشرين دينارا ، فلما غمز عليه قبض عليه السلطان وأشهره فى القاهرة وقطع يديه وعلقهما فى رقبته ثم وسطه ، وكان ذلك فى ستة سبع وعشرين وثمانمائة .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه من بين الكيمان الى أن وصل الى السواقي التى فى الهد ، فنزل من هناك فى الغراب الذى عمره ، ثم انحدر الى المقياس وطلع الى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، ثم ان السلطان

عليه ، ووكل به ألماس دوادار سكين وشخصا آخر من دوادارية السكين ، فأطلعوه الى طبقة الحوش ، ورسم له السلطان بأن يقيم له حساب أربع سنين عن الجهات التى كان يتكلم عليها ، فاستمر فى الترسيم ثمانية أيام وهو فى كل يوم يدفع الى ألماس ورفيقه مائة دينار ، ولم يجسر أحد من الأمراء أن يكلم السلطان فى أمره .

فلما كان يوم السبت تاسع هذا الشهر أفرج السلطان عن الزينى بركات وألبسه كاملية صوف بسمور ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، ومعه جماعة من أرباب الدولة ، فزينت له القاهرة ووقدت له الشموع والقناديل على الدكاكين ، وتخلق الناس بالزعران ، حتى زينت له بيوت بركة الرطلى بالشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون فعلقت فى الطيقان ، وانطلقت له النساء بالزغاريت ولاقته الطبول والزمور ومغانى النساء ، وكان ساكنا ببركة الرطلى فى أيام النيل . وكان الزينى بركات محببا للناس فى أيام ولايته على الحسبة ، ولما قبض السلطان عليه رثى له الناس ، وكانت الأعداء شنت عليه أن السلطان يقصد شنقه مثل على بن أبى الجود ، فنجاه الله تعالى من ذلك ، وقد هنيته لما خلاص بهذين البيتين وهما :

تاب اليك الدهر مما جنى
من فعله فى حكمه الجاير
فما نجا من شر كيد العدا
سوى الفتى المحتسب الصابر

وقيل ان السلطان قرر عليه نحو من ثلاثين ألف دينار ، وقيل أربعين ، يقوم بشىء من ذلك فى كل شهر على الجوامك .

ومن الوقائع الشنيعة أن الوالى قبض على

عزم هناك على الأمراء قاطبة من المقدمين والطبلخانات والعشراوات وغالب العساكر ، فنصب الأمراء لهم خياما على شاطئ البحر الذى تجاه بر الجيزة ، فبات السلطان تلك الليلة فى المقياس هو والأمراء قاطبة ، فمد له هناك القاضى كاتب السر محمود ابن أجا أسمطة حافلة ، وما أبقي فى ذلك ممكنا من أطعمة فاخرة وحلوى وفاكهة وسكر حريف وأقسام وبطيخ صينى وأجبان مقلّى فى الطواري ، وعم ذلك على سائر الأمراء قاطبة ، وممن كان صحبة السلطان من المباشرين وأرباب الدولة ، فألبسه السلطان هناك كاملية مخمل أحمر بسمور من ملايسه ، وشكر له السلطان ما صنعه من ذلك ... فكان مصروف تلك الأسمطة نحو من سبعمائة دينار ، وعزم السلطان هناك على القضاة الأربعة وأعيان الناس ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ . ثم ان السلطان أوقد فى قاعة المقياس وقدة حافلة باطنا وظاهرا ، وعلق أحمالا بقناديل فى القصر الذى أنشأه على شرفات المقياس ، قناديل فى أحمال وأمشاط ، حتى أوقد جامع المقياس والمئذنة ، ثم ان سكان بر مصر وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والأمشاط بطول البرين ، حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه بر الروضة . ثم أحضر السلطان المركب الكبير الغليون الذى عمره وصرف عليه نحو من عشرين ألف دينار فأرسوا به قبالة المقياس ، وصنعوا له ثمانية مراس فى البحر ، وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشاط ، فكان الذى وقد فى المقياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة آلاف قنديل . ثم صنع السلطان فى تلك الليلة حراقة فكان مصروفها نحو من مائة وسبعين دينارا مثل حراقة نפט المحمل التى كانت تصنع بالرملة قدام القلعة ، فشقوا بالنפט من القاهرة وهو مزفوف وقدامه

الطبول والزمور ، فكان عدة قلاع النفط خمسين قلعة ، والمآذن ستين مئذنة ، وأزيار عشرة ، وجزر أربعين جرة ، وصواريخ كبار ثلاثمائة ، ومأويات ألفا ومائتين ، وشجرات عشرة ، وقناير عشرين ، وقطع ألفين ، وشعل أربعين ، فلما وصلوا بالنפט الى شاطئ البحر أنزله فى خمسين مركبا ، وصفوا المراكب قبالة المقياس عند البهظلة . ورسم السلطان للأمراء المقدمين بأن يحضروا طبلخاناتهم فى مراكب عند المقياس ، ففعلوا ذلك ، فكان حس الطبول والزمور مع الكوسات مثل صوت الرعد القاصف . فلما صلى السلطان العشاء جلس على سطح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، والأمراء حوله ، وأحرقوا قدامه النفط ، وكان النيل فى ثلاث أصابع من عشرين ذراعا ، وكانت ليلة البدر ، فكانت تلك الليلة ، فدقت كوسات السلطان مع كوسات الأمراء المقدمين ، وهم أربعة وعشرون مقدم ألف ، فقاموا فى صعيد واحد عند احراق النفط ، فكانت تلك الليلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، ولم يقع لأحد من الملوك قبله مثل هذه الواقعة ، ولا للمؤيد شيخ ولا للناصر فرج ابن برقوق .

وقد وقع للأمير جاني بك فائب جدة أمير دودار كبير أنه لما أنشأ القبة التى فى منشية المهرانى وكملت أوقد فيها تلك الليلة وقدة حافلة ، وأحضر مراكب وعلق فيها أحمالا بقناديل وركز صواري قدام القبة وعلق فيها قناديل فى حبال ، وكانت له ليلة حافلة ، وذلك فى أواخر سنة سبع وستين ، وثمانمائة . وقد تقدم ذكر ذلك فى دولة الظاهر خشقدم ، ولكن لم تعادل ليلة وقعت للأشرف الغورى فانها كانت من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة ، وقد بلغ كرى كل مركب فى تلك الليلة

خمسة دنائير وأكثر من ذلك ، والمراكب التي هي
مرسية على البر اشحنت بالحلايق ، فأخذوا على
كل رأس أربعة أنصاف فتحصل من ذلك جملة
مال للنوانية .

وكان بطول الليل والى القاهرة يدور في مركب
وينادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وأن لا أحد
يشوش على أحد ولا مملوك يعبت على امرأة ،
فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وارتفعت
الأصوات بالدعاء للسلطان ، ولكن عبثت الممالك
في الطرقات على الناس وصاروا يخطفون العمائم
والشدود ، وقتل مملوك امرأة في طريق مصر وقد
ساق الفرس فقوى رأسه عليه فداس امرأة راكبة
على حمار فماتت من وقتها ، وغرقت مركب تلك
الليلة بمن فيها من الناس ، وكانت ليلة كثيرة
الاضطراب ماجت فيها الناس وخرجت البنت في
خدرها حتى تنظر وفدة السلطان وحرقة النفط ،
فأقام السلطان في المقياس يوم الأربعاء ويوم
الخميس الى بعد العصر ثم طلع الى القلعة ، وكان
ولده المقر الناصري محمد صحبته وغالب الأمراء ،
وقد نظمت هذه القصيدة في هذه الواقعة حيث
أقول :

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج
كليلة سمحت للأشرف الغورى

فان ترد وصفها أنشدت مرتجلا
في وقدة الليل بالأملأك والدور

من بر مصر ومقياس يقابله
كان التقابل بين النور والنور

حاكت مصابيحها ضوء النجوم اذا
ما أزهرت بالدجى في ليل ديجور

وكم رأينا قلاعاً في ذخائرها

صوارخ بضياء في الجو منشور

كواكب النفط قد حاكت لنا قمرا
بضوء زهر بدا في الماء منشور

قلوب أزياره صارت مفرقة
من وهج نيرانها في زى مفهور

وصوت باروده مثل الرعود اذا
ما صرخوه يحاكى نفخة الصور

وضاق رجب الفضا في البحر من سفن
لما بدت في ازدحام كل شحور

وكم سمعنا مغن صوته طرب
يشهدو على آلتى عود وطنبور

قالت لنا روضة المقياس ذا عجب
هل بعد يوم الوفا جبر لمكسور

تاريخ سلطاننا فاق المملوك اذا
تفاخروا فهو تاج الكل بالدور

حفت عساكره من حوله زمرا
فكم سبا جمع أحزاب على الفور

لو عاش من أنشأ المقياس قال له
الآن أنت علينا خير مشكور

فلا الرشيد ولا المأمون ناسبه
في أمره ناهيا عن كل منكور

فالله يقيه في عز وفي شرف
أعيذه من شرار الناس بالطور

ما غرد الطير في روض وناشده
على العصون هزار حول شحور

محمد بن اياس نظمته درر
وقد أضاءت بمدح الأشرف الغورى

ثم الصلاة على المختار ما طلعت
شمس الضحى واستتار الأفق بالنور

وفي يوم الجمعة ثالث عشره خلع السلطان

على ناظر الخاص وخرج على الهجن وسافر الى

مكة ، وخرج صحبته جماعة من مصر يرومون الحج .

وفي يوم الخميس رابع عشرينه توفي قراكر الشريفي القهلوان أحد الأمراء العشراوات ، وكان غير مشكور السيرة .

وفي يوم الخميس ثامن عشرينه أشيع بموت علم الدين الذي كان متحدثا في كتابة الخزانة ، وقد قاسى شدائد ومحنا وصودر ، واستمر في المصادرة من سنة أربع عشرة وتسعمائة الى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، وضرب غير ما مرة وعصر وأخذ منه مال له صورة نحو من مائة وعشرين ألف دينار على ما قيل ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وآخر الأمر مات وهو تحت العقوبة في الترسيم .

وفيه قبض السلطان على تاج الدين ابن كاتب الدواليب وسلمه الى الزينى بركات بن موسى ، وسبب ذلك قيل عنه أن عنده لعلم الدين المذكور ودیعة .

وفيه حضر الناصرى محمد بن الشهابى أحمد ابن أسنبغا الطيارى أمير شكار ، وقد تقدم أن السلطان تغير خطره عليه بسبب علم الدين جلبى السلطان فرسم بنفيه الى قوص ، فلما توجه الى هناك كان الأمير طومان باى الدوادار مسافرا نحو الصعيد ، فلما وصل الناصرى محمد الى هناك ترامى على الأمير طومان باى بأن يشفع فيه عند السلطان ، فأرسل شفع فيه ، فرسم السلطان بعوده الى مصر ، فلما طلع السلطان خلع عليه ونزل الى داره ، لكن عزم مالا له صورة .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرينه هجم المنبر ليلة السبت على سكان الزربية من المتفرجين ، فدخلوا المقاصف ونهبوا عائم الناس وقماشهم وعبههم وقتلوا شخصا من الخفراء ، وكانت ليلة مهولة ، وراحت على من راح .

وفي يوم الجمعة المذكور صنع الأمير قانصوه ابن سلطان جركس أحد الأمراء المقدمين وقدة وحراقة نفط في بركة الفرايين ، مكان داره التى أنشأها هناك ، فكانت له ليلة حافلة وعزم على الأمراء عنده ، ونقل مراكب صعارا على جمال الى بركة الفرايين فكانوا نحو من ثلاثين مركبا أو دون ذلك ، وأمر سكان البركة بأن يوقدوا بيوتهم القناديل والثريات والأمشاط ، فأوقدوا وقدة حافلة تلك الليلة ، ومد أسمطة حافلة للأمراء ، ولم يقع قط في بركة الفرايين ليلة مثل تلك الليلة في الفرجة والتقصف .

وفي رجب ، كان مستهله يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فحصل للقاضى الشافعى من السلطان بعض مقت ، وسبب ذلك أن قوس الهلال كان تلك الليلة لا يرى ، فقيل رآه بعض الناس ، وكان قوسه تلك الليلة على درجتين ونصف ، وكان عسر الرؤية وحكم أرباب التقويم أنه لا يرى تلك الليلة ، فثبت رؤيته على قاض فى الصليبية يقال له شمس الدين الأتميدى ، فلما طلع القضاة الى السلطان وقال للقاضى الشافعى : أحضر لى القاضى الذى ثبت عليه برؤية الهلال على درجتين ونصف وهو غير ممكن الرؤية ، فنزل القاضى الشافعى كمال الدين الطويل وهو فى غاية التعفیش وأشيع عزله .

وفي يوم الأربعاء خامسه نزل السلطان الى المقياس وأقام به الى أواخر النهار ، وكان بلعه مجيء الأمير طومان باى الدوادار من الصعيد ، فلما أن وصل بالمركب نزل الى المقياس وسلم على السلطان هناك ، ثم فى ثانى يوم طلع وليس خلعة حافلة ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفي يوم الخميس سادسه خلع السلطان على

قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن النقيب وقرره فى قضاء الشافعية عوضا عن قاضى القضاة كمال الدين الطويل بحكم انفصاله عنها ، وهذه خامس ولاية وقعت لابن النقيب ، وقد سعى فى هذه المرة بثلاثة آلاف دينار وقيل انه تقدم منه فى هذه الخمس ولايات نحو من سبعة وعشرين ألف دينار ، غير ما سعى به للمتكلمين له على ما قيل

وفى يوم الأربعاء ثانى عشره نزل السلطان الى المطرية وأقام فى قبة يشبك الدواidar الى بعد العصر ، وأكل السباط هناك ، ثم عاد الى القلعة . وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، الموافق لأول يوم من بابه ، ثبت النيل المبارك على ثمانى أصابع من احدى وعشرين ذراعا ، واستمر فى ثبات الى نصف هاتور . وقد تقدم القول أن فى سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة فى دولة الأشرف قايتباى ، ثبت النيل المبارك على احدى عشر أصبعا من احدى وعشرين ذراعا ، فكان أزيد من هذا بثلاث أصابع .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه فرق السلطان على الممالك القهرانصة الخيول التى كانت لهم فى الديوان ، فأعطى لهم عن كل فرس فحل خمسة آلاف درهم ، والذى له فحل واكديش ثلاثة آلاف درهم عن الاكديش وأعطاه فحلا مع الثلاثة آلاف ، ومن حين تسلطن الى يوم تاريخه لم ينفق على الممالك القرائضة ثمن خيول الرد سوى فى هذا الشهر .

وفى يوم الأحد سلخ هذا الشهر نزل السلطان الى المقياس وبات به ، وكانت ليلة مستهل الشهر .

وفى شعبان طلع الحليفة والقضاة الأربعة الى السلطان ليهوه بالشهر ، فقيل لهم بأن السلطان فى المقياس لم يطلع الى الآن ، فرجع الخليفة الى

داره ، وقيل ان القضاة عدوا له الى المقياس وهنوه بالشهر هناك ، وكل هذا استخفاف بالناس ، ولم يكن له فى ذلك اليوم شغل يفتضى فعاده فى المقياس ذلك اليوم ، فكان يوم تفرقة الجامكية الخامسة التى استجدها .

وفى يوم الثلاثاء ثانى نزل السلطان الى الميدان وجلس فيه الى قريب الظهر ، ثم طلع الى الدهيشة فلم يأكل السباط على جارى العادة ، وحصل له توعك فى جسده ودخل الى دور الحرم ، وأقام فيه يوم الأربعاء والخميس ، فكسر القال والقييل بين الناس ، وأشيع أنه قد أصابه القولنج . ثم خرج يوم الجمعة وصلى فى الجامع فأبطل ذلك القيل والقال .

وفى هذا الشهر فبض السلطان على أقبای كاشف الشرفية ووكّل به بالقلعة وتعير خاطره عليه ، فنادى فى القاهرة كل من كان له ظلامة عند أقبای كاشف الشرفية فعليه بالأبواب الشرفية . وكان أقبای أفحتس فى الشرفية غاية الافحاش ، حتى ضج منه جميع المقطعين وكثرت فيه الشكاوى من العسكر . ثم رسم السلطان بنزوله الى بيت ققيب الجيش حتى يرضى العسكر فيما أخذه من البلاد غير العادة ، فلم يفد من ذلك . وأرضى السلطان بمال وراح على المقطعين ما أخذه من بلادهم عن سنة ثمانى عشره الخراجية معجلا . وفعل أشياء بالشرفية لم يفعلها غيره من الكشاف . وفى يوم الاثنين خامس عشره خلع السلطان على قانصوه العادلى وقرره كاشف الشرفية عوضا عن أقبای بحكم انفصاله عنها ، وخلع على جان بلاط الأشرف كاشف الغريبة وأقره على حاله بالغريبة ، وكان أشيع عزله .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره رسم السلطان بالافراج عن شرف الدين يونس النابلسى الذى

كان أستاذاراً وعزل عنها ، وقد قاسى شدائد ومحناً ، وأقام نحواً من ثلاث سنين وهو فى الترسيم بالجامع الصغير الذى هو داخل الحوش السلطانى ، وربما كان فى الحديد فى هذه المدة ، وضرب بين يدى السلطان غير ما مرة ، وصودر وقرر عليه مال له صورة يرد منه على الجوامك فى كل شهر خمسمائة دينار .

وفيه كانت كاينة الخواجا شمس الدين الحليى مع السلطان ، وسبب ذلك أن السلطان كان صادرة مراراً عديدة وأخذ منه جملة مال ، فأرسل الحليى الى مكة كتاباً بخط يده الى شخص من أصحابه بمكة وذكر فيه ما فعله به السلطان ، وأرسل يقول له : « ادع على السلطان فى تلك الأماكن الشريفة فانه ما هو مسلم ولا فى قلبه رحمة قليل الدين » .

فظفر بعض أعداء الحليى بهذا الكتاب فأوصله الى السلطان ، فلما قرأه أحضر الحليى وأطلعته على ذلك الكتاب فأكر الحليى ذلك وقال : « هذا ما هو بخطى » . فشهد عليه جماعة أن هذا خطه ، فرسم السلطان عليه وشكه فى الحديد ، وقصد عليه أن يثبت عليه كفر كون أنه عمله قليل الدين وما هو مسلم . ثم آل أمره على أن السلطان قرر عليه مالا له صورة .

وفيه فرق السلطان اطلاقات الطين على الأمراء ، ولكن أحدث شيئاً ما فعله أحد من الملوك قبله ، وهو أنه تقص من اطلاقات الأمراء أشياء كثيرة وأخذ منهم الحلوان زيادة عن العادة ، فنقص من اطلاق أمير كبير سودون العجمى مائتى فدان ، وكان قبل ذلك سلخ من اقطاعه جهات بنحو من عشرين ألف دينار كون أنه كان لين الجانب فاستضعفه ، ونقص من اطلاق بقية الأمراء المقدمين كل واحد مائة فدان ، ومن اطلاقات الأمراء الطبلخانات كل واحد عشرين فداناً ، ومن اطلاقات

الأمراء العشراوات كل واحد خمسة عشر فداناً ، وفرق على أصحاب الوظائف لكل واحد أشرفيين ، وبقية الممالك كل واحد أشرفياً ، وآخرين أشرفياً ونصف .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشرينه نزل السلطان الى المقياس وأقام به الى آخر النهار ، ومد هناك سباطاً حافلاً ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر .

وفى يوم الخميس خامس عشرينه خلع السلطان على المعلم يعقوب اليهودى ، وقرره متحدثاً على دار الضرب ، كما كان ابن نصر الله الذى تسحب كما تقدم ذكر ذلك ، فألبسه كاملية صوف أزرق بسمور ونزل من القلعة وهو فى غاية العظمة .

وفى يوم الجمعة سادس عشرينه ، الموافق لتاسع هاتور القبطى ، فيه قلع السلطان البياض ولبس الصوف .

وفى يوم الأحد ثامن عشرينه نزل السلطان وتوجه الى المقياس ، ثم نزل فى خرطوم الروضة ونصب له هناك خياماً وأقام الى أواخر النهار . وانشرح فى ذلك اليوم ، وكان صحبته ولده المقر الناصرى محمد وجماعة من الخاصكية . وأشيع أن خرطوم الروضة أعجبه فأمر أن يبنى هناك قصر بأربعة أوجه .

وفى أواخر هذا الشهر لم يعرض السلطان المسجونين الذين فى الحبوس على جارى العادة ، وكان له عادة يعرض من فى الحبوس قبل رمضان بأيام قلائل ، ويطلق من المحاييس جماعة ، وينعم على المديونين بشئ ، ويصالح عنهم الغرماء ، ويفعل أشياء كثيرة من هذا النمط ، فلم يعمل فى هذه السنة شيئاً من ذلك وتغافل عن هذا الأمر .

وفى رمضان كان مستهله يوم الأربعاء ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وجلس

السلطان في الميدان وعرض عليه الوزير يوسف البدرى اللحم والخبز والدقيق ، السكر والغنم وغير ذلك ، على جارى العادة ، وهو مزفوف على رءوس الحمالين ، فخلع الوزير على الزينى بركات بن موسى المحتسب ونزلا من القلعة في موكب حافل .

وفي أوائل هذا الشهر عز وجود الحطب قاطبة ، وصار الناس يقدون الجلة والكرس وقش الغيطان ، وتعطلت مطابخ الأمراء بسبب ذلك ولا سيما في رمضان ، واستمر الحال على ذلك الى أواخر الشهر .

وفي يوم الخميس ثانى رمضان حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك الهند ، وصحبته فيلاني عظيم الخلقة ، وعليهما بركستوانات مخمل أحمر بمسامير كف ، وعلى ظهورهما صنماجق ، وعلى أيابهما غلوف من الفولاذ ، فرجت لهما القاهرة لما دخلوا ، وكان السلطان في الميدان فعرضا عليه وقدامهما الطبول والزمر ، فتسارع الفيلان قدام السلطان في الميدان ، وانشرح في ذلك اليوم الى الغابة ، ثم رسم بأن يتوجهوا بهما الى بيت الأتابكى تمتاز الذى عند القبور فأقاما به ، وحضر ضحمة القاصد أولاد الخوارج عيسى القارى الذى توفى بمكة ، فقرّر عليهما مائة ألف دينار ، فتشكوا من ذلك فحلف بحق رأسه ما يأخذ منهم الا مائتى ألف دينار ، فرجعوا من عنده وهم في أسوأ حال .

وفي يوم الأربعاء ثامن نزل السلطان وتوجه الى نحو المطعم الذى بالريداية وجلس على المصطبة التى هناك ، وأطلقوا قدامه الكلاب والصقورة والفهود ، وانشرح في ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفي يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على المقر السيمى طومان باى أمير دوا دار وقرره متحدثا على ديوان الوزارة والأستادارية وسائر الدواوين قاطبة ، وأشيع أنه بفى نظام المملكة ، فتضاعفت عظمتة جدا ، واجتمع فيه عدة وظائف اسنية ولا سيما لكونه قرابة السلطان ، فلما نزل من القلعة كان له يوم مشهود ، ونزل صحبته سائر الأمراء وأرباب الدولة حتى الفيلين المقدم ذكرهما ، وهما مزينان بالصناجق واللبوس ، وقدامهما الطبول والزمر .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الرئيس حامد المغربى وكان السلطان أرسله الى بلاد ابن عثمان ليشتري أخشابا وحبالا ومكاحل نحاس . فلما بلغ ابن عثمان مجيئه أكرمه وأرسل صحبته الى السلطان عدة مكاحل نحاس وحديد وأخشاب وحبال ، وغير ذلك أشياء كثيرة في مراكب موسوقة .

وفي يوم الجمعة عاشره حضر على الجركسى قاصدا من عند خاير بك نائب حلب ، وكان السلطان أنعم على الجركسى بأمرة عشرة بحلب وجعله حاجبا ثانيا هناك ، وذلك لأجل خاطر خاير بك نائب حلب ، ويقال ان على الجركسى هذا كان أصل أبيه فراثا ، وكان على حسن الشكل فأخذه الأمير خاير بك عنده بجمقدار ورباه صغيرا حتى كبر ، فلا زال يرقى حتى بقى حاجبا ثانيا بحلب ، والعبد بسعيه لا بأبيه ولا بجده .

وفيه كان ما وقع لرئيسة المعانى ، وهى امرأة يقال لها هيئة اللذيذة ، وقد رافمها بعض أعدائها بأن لها دائرة كبيرة من المال ولها حلة للكرى ، فلما سمع السلطان ذلك فبض عليها وأقامت في الترسيم ، وعرضت للضرب غير مرة ، وقرر عليها خمسة آلاف دينار ، فباعته الحلى وجميع ما تملكه وأوردت ألف دينار ، وقد تكلم لها القاضى بركات

ابن موسى بأنها لا تملك غير ذلك ، فقرر عليها بعد ذلك خمسمائة دينار ترد في كل شهر مائة دينار على كل جامكية ، وقد طفل السلطان نفسه الى مصادرات المغاني أيضا ، والأمر لله .

وفي يوم الخميس سادس عشره فرق السلطان الكسوة مع الجامكية ، ولكن جعل كسوة أولاد الناس والمماليك العواجز ألفى درهم ، وصار لا يأخذ كسوة ثلاثة آلاف درهم سوى المماليك القرائصة وجلبانه فقط .

وفي ذلك اليوم حضر سيف نائب كختا ، وأشيع أنه مات قتيلا من بعض التراكمة .

وفي يوم الأحد تاسع عشره نزل السلطان وسير الى نحو المطرية ، ثم دخل من باب النصر وشق من القاهرة ونزل في مدرسته وزار قبر أولاده ، ثم عرض الأيتام الذين بالمكتب ورسم لهم بكسوة على العيد ، ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفي يوم الاثنين عشريه خلع السلطان على الشيخ خليل بن اسمعيل بن شبانة ، شيخ عربان جبل نابلس ، وقرره على عادته في مشيخته بجبل نابلس ، وقد سعى في ذلك بمال له صورة .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهي أن شخصا من النصاري يقال له عبد الصليب ، وهو من نواحي دلجة من الجهات القبلية ، فقيل منه انه وقع في حق النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بكلمات فاحشة . فشهد عليه جماعة بذلك وكتبوا به محضرا وثبت على قاضي الناحية ، فلما أحضروا النصرائي بين يدي السلطان اعترف بما قاله في حق النبي صلى الله عليه وسلم ، فعرضوا عليه الاسلام فأبى ، فبعثه السلطان الى بيت الأمير طومان باي الدوادار ، فعقد له مجلس فاعترف بين يدي القضاة بما قاله وصمم على ذلك ، وقد بايع نفسه على عدم تغيير

دينه ، فحكم القضاة بسفك دمه ، وثبت ذلك على بعض نواب المالكية فأركبوه على جمل وهو مسمر وأشهروه في القاهرة حتى أنوا به الى عند المدرسة الصالحية ، فضربوا عنقه تحت شباك المدرسة . ثم ان العوام أحضروا له النار والحطب وأحرقوا جثته في وسط السوق ، فلما دخل الليل أكل الكلاب عظامه ومضى أمره .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشريه عرض السلطان خلع العيد ، وكانت في هذه السنة في غاية الوحاشة ، وهم بحكم النصف عن كل سنة ، وتوقع غالب الخلع . وسبب ذلك أن ناظر الخاص كان مسافرا في الحجاز .

وفي ذلك اليوم كان ختم البخاري بالقلعة ، وحضر القضاة الأربعة ، وفرت الخلع والصرر على من له عادة ، وكان ختما حافلا بالحوش السلطاني في الخيمة المدورة .

وفي يوم الخميس سلخ الشهر حضر الأمير حسين الذي كان توجه باش التجريدة التي توجهت الى بلاد الهند ، وكانت مدة غيبة الأمير حسين في هذه السفرة نحو من سبع سنين وثلاثة أشهر ، وتوجه الى بلاد الهند واتفق هناك مع الفرنج وكسروه ونهبوا ما كان معه من المراكب والسلاح ، وجرى عليه شذائد ومحن ، وهو الذي كان شادا على عمارة الصور والأبراج التي أنشأها السلطان بجدة وجاءت من أحسن المباني . وكان الأمير حسين قرر في نيابة جدة في هذه المدة ، وأظهر هناك الفتك والعظمة ، وجار على التجار في أمر العشر ، وظلم الناس قاطبة حتى ضجوا منه ، وتوجه في هذه المدة الى جماعة من ملوك الهند . ولما حضر الأمير حسين جاء صحبته قاصد من عند الملك مظفر شاه ابن الملك محمود شاه صاحب كنباية ، الذي توفي إلى رحمة الله تعالى ، فحضر

قاصد الملك مظفر شاه حتى يأخذ له من الخليفة
تقليدا بولايته على كنيابة ، فجلع السلطان على
الأمير حسين وعلى قاصد ملك الهند ، ونزلا في
موكب حافل .

وفي شوال كان العيد يوم الجمعة ، وخطب في
ذلك اليوم خطبتان ، وكان موكب العيد حافلا .
وفي يوم الاثنين رابعه طلع الأمير حسين بتقدمة
حافلة للسلطان ، ومثلها تقدمت من عند قاصد ملك
الهند صاحب كنيابة ، وكانت تقدمت الأمير حسين
لها المنتهى من كل صنف فاخر .

وفي يوم الثلاثاء خامسه حضر القاضى علاء
الدين ناظر الخاص ، وقد تقدم القول على أنه
توجه الى مكة لينظر في أمر من يلي امرة مكة
عوضا عن الشريف قانتبای الذى توفى . فلما حضر
ناظر الخاص حضر صحبتته ابن الشريف بركات ،
وحضر صحبتهم موذن عزورة أمير مكة وهو صبي
صغير السن يقال له محمد أبو نى ، وحضر معه
ابن عمه الشريف عرعر ، وحضر صحبتهم قاضى
قضاة مكة الشافعى والقاضى المالكى ، فلما أقبلوا
قام لهم السلطان وأكرمهم غاية الاكرام ، وخلع
عليهم كوامل بسمور ، وعلى ناظر الخاص . وقد
لاقاهم لما دخل قضاة مصر الأربعة والقاضى كاتب
السر ابن أجا وأعيان الناس ، فنزلوا في مكان
أعد لهم .

وفي يوم الأربعاء سادسه نزل السلطان الى قبة
الأمير بشبك التى بالمطرية ، فأقام بها الى ما بعد
الظهر ، ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم الخميس رابع عشره جلس السلطان
بالميدان ، وعرضوا عليه كسوة الكعبة الشريفة

والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل ،
وشفوا بها من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود .
وفي يوم الاثنين ثامن عشره خرج الحاج من
القاهرة وصحبهم المحمل الشريف ، وكان أمير
ركب المحمل تمر الحسنى أحد الأمراء المقدمين ،
وبالركب الأول يوسف الناصرى شاد الشراب
خاناه الذى كان نائب حماة ، وخرج صحبتها
الأمير قطنوبای الذى قرر باش المجاورين ، فكان
لخروجهم يوم مشهود ، وظهر لهم أطلاب حافلة
حتى رحت لهم القاهرة ، وخرج قدام المحمل
الأفيال الكبار وهى مزينة باللبوس ، وعلى
ظهورها الصناجق ، وقدامها الطبول والزمور .
وخرج قدام المحمل القضاة الأربعة وقضاة مكة
الذين حضروا وابن الشريف أمير مكة ، وخرج
قدام أمراء الحاج أعيان الأمراء ، وكان يوما
مشهودا .

وفي يوم السبت ثالث عشرينه نزل السلطان
وتوجه الى نحو قبة مصطفى النى فى المرج والزيات
وبات بها تلك الليلة وأقام هناك .

وفي يوم الأربعاء سابع عشرينه نزل السلطان
الى نحو تربة العادل وجلس هناك ، وجربوا قدامه
عدة مكاحل ، ثم أقام هناك الى بعد العصر وعاد
الى القلعة .

وفيه توفى المعلم عبد القادر الشماع ، وكان
علامة فى فن التقويم وأخبار الملك .

وفي أواخر هذا الشهر توفى الأمير اينال شاد
العوائر السلطانية ، وكان أصله من ممالك
الأتابكى أزبك بن ططخ ، وأنعم عليه السلطان
بأمرة عشرة ، وكان عنده من المقربين ، وكان عارفا
بأمور الهندسة وأحوال البناء وكان لا بأس به .
وفي هذا الشهر رسم السلطان بتجديد عمارة

ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع ،
فشرع فى ذلك وأمر الأمير قانى باى قرا أمير آخور
كبير بأن يتولى أمر العمارة ويأشر ذلك بنفسه .
فامثل ما رسم به وأظهر العزم فى ذلك .

وفى ذى القعدة ، فى يوم الأربعاء خامسه ، نزل
السلطان الى نحو تربة العادل التى تجاه المطرية ،
وجلس على المصطبة التى هناك ، وجربوا قدامه
عدة مكاحل بأحجار كبار ، تم توجه الى قبة
يشبك التى هناك ، وأمر بعمارة فساقى وحفر
بئر بسبب مرور المسافرين من هناك ، وشرع
فى فتح عمارة كبيرة . وجعل الأمير تانى بك
الخازندار أحد الأمراء المقدمين شادا على هذه
العمارة ، فقدروا على مصروف هذه العمارة مالا
جزيلا ، وما كان الوقت محتاجا الى تلك العمارة
هناك ، وتكلموا بأنه ينشئ هناك قصرا عظيما ،
وبحرة طولها نحو من مائة ذراع ، وينشئ هناك
غير ذلك أشياء كثيرة .

ومما وقع فى هذه الأيام أن كلبة فى الأربكية
ولدت أحد عشر كلبا فى بطن واحدة فعد ذلك من
النوادر الغريبة .

وفى يوم الخميس سادسه حضر الى الأبواب
الشريفة أحد أولاد أحمد بك بن عثمان ملك
الروم ، وهو شخص يسمى سليمان بك ، فلما
حضر أكرمه السلطان وألبسه سلارى صوف
بسمور من ملايسه ، وقيل ان والده أحمد بك
فر من أخيه سليم شاه الذى تولى على مملكة
الروم ، وقصد أنه يحضر الى عند السلطان ، فبدا
له من بعد ذلك أمر ، فتوجه الى عند شاه اسماعيل
الصفوى وحضر ابنه الى عند السلطان ، فما انشرح
السلطان لذلك وخشى مما يأتى من هذه الحركة .

وفى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الأمير
أفباى الطويل أمير آخور تانى ، وعينه بأن يتوجه
قاصدا الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، ليهنيه
بالمملك ، وينسج مودة بينهما . فنزل أفباى من
القلعة فى موكب حافل .

وفيه تعير خاطر السلطان على الشرفى يونس بن
الأقرع نقيب الجيوش المنصورة ، وفرر عليه
عشرين ألف دينار وكتب خط يده بذلك ، وكان
سبب هذه الكاينة له أن بوس السيفى قيت
الرحبى كاشف منفلوط تغير السلطان عليه وقرر
عليه مالا له صورة ، وسلمه الى يونس نقيب
الجيش . فلما نزل به الى داره تسحب من عنده
واختفى فتغير خاطر السلطان على نقيب الجيش
وقال : « ما أعترف بالمال الذى عليه الا منك » .
فكان هذا سببا لكاينة نقيب الجيش مع السلطان ،
وكان نقيب الجيش من وسائط السوء اذا وقف
بين يدى السلطان ما يتحدث فى أحد من الناس
بخير ، ويحصل للناس منه الضرر الشامل ، فكان
يستحق كل سوء ، فلما جرى عليه ذلك شرع فى
بيع أملاكه ورزقه وقماشه وخيوله ، وجاء عليه
السلطان مجيء وحش ، والمجازاة من جنس
العمل .

وفى يوم الخميس ثالث عشره خلع السلطان على
قاضى القضاة كمال الدين وأعاده الى منصب
القضاء ، وصرف عنه محبى الدين بن النقيب ،
وهذه ثالث ولاية وقعت لكمال الدين الطويل ،
وقد نقد منه فى هذه الثلاث ولايات فوق العشرة
آلاف دينار ، وأما محبى الدين بن النقيب فانه
تولى خمس ولايات ، فكانت مدته فى هذه الخمس
ولايات سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام لا غير ،
كما يقال فى المعنى :

أعماله ردت عليه بما جنى

والدهر فد جازاه من جنس العمل

وفي يوم الأربعاء ثاني عشره نزل السلطان وكشف على العمارة التي في الميدان ، كما تقدم ذكر ذلك ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفي يوم الجمعة رابع عشره صلى السلطان صلاة الجمعة بالقلعة ، ثم ركب ونزل وشق من الصليبة في موكب حافل وقدامه ثلاث طوايل خيول بسروج ذهب وكنائش ، وقدامه من الأمراء الأمير طومان باي الدوادار الكبير فقط ، ومن الأمراء الطبلخانات أقباي أمير آخور ثاني وكرتباي والي القاهرة ، وجماعة من الخاصكية والسلحدارية ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة لمساء ، وعليه سلاوى صوف فستقى بسمور ، وهو راكب فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وأشيع أنه يتوجه الى نحو الأهرام ويقيم به أياما ، فنصب هناك وطاقا . وأشيع أنه يتوجه من هناك الى الفيوم كما وقع للأشرف قايتباي نظير ذلك ، فرجت القاهرة لسفره على حين غفلة ، وماج العسكر الذي لم يكن على قفظة من احتياج السفر . ولما نزل السلطان من القلعة توجه الى المقياس وبات به ليلة السبت ، فلما طلع النهار عدى من هناك وطلع الى بر الجيزة وتوجه الى الوطاق الذي نصبه عند الأهرام .

وقيل ان السلطان أخذ معه جماعة من المغاني وأرباب الآلات ، فمنهم محمد بن عوينة العواد وجلال السنطيرى والبواقلة وابن الليمونى وغير ذلك من المغاني . فلما توجه الى الوطاق أقام به يوم السبت والأحد ، ثم رحل عن الوطاق يوم الاثنين سابع عشره وقصد التوجه الى نحو الفيوم وكان صحبتته من الأمراء الأتابكى سودون

العجمى وقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وجماعة من الأمراء المقدمين ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية ، فتوجهوا على الهجن وساروا الى الفيوم .

وفي يوم الاثنين المذكور فرقت الجامكية على العسكر فى غيبة السلطان بباب القلعة . واحضر ذلك مقدم الممالك والأمير خاير بك الخازندار والوزير يوسف البدرى ، وغير ذلك من الأعيان مثل القاضى بركات بن موسى المحتسب وغيره

ومن الحوادث فى غيبة السلطان قد حضر المقر علاء الدين بك أخو سليمان بك أولاد المقر الشهابى أحمد بن السلطان أبو يزيد بن عثمان ملك الروم ، وكان توجه الى زيارة بيت المقدس فلم يحضر صحبة أخيه سليمان بك لما حضر ، فأنزلوه عند ما حضر فى بيت الأتابكى تماراز الذى عند القبو الى أن يحضر السلطان

فلما توجه السلطان الى الفيوم وجدها خرابا وشرق غالبها ، وقد تقطع الجسر الذى بها ، فلم يقيم بها السلطان سوى ليلة واحدة ، ورسم للأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين بأن يقيم هناك حتى يعمر الجسر الذى بها ، ثم ان السلطان رسم له بأن يفرد على البلاد التي هناك من اقطاعات ورزق على كل فدان طين عشرة أنصاف ، وقيل أفرد على المقطعين هناك ثلث ما لهم من الخراج ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاة الضرر .

وكان قبل ذلك رسم السلطان بعمارة جسر أم دينار الذى بالجيزة ، فندب الى عمارته الشرفى يونس قيب الجيش وشخصا آخر من المباشرين يقال له جمال الدين ، فأفردوا على البلاد والرزق والاقطاعات التي هناك فى اقليم الجيزة الثلث من الخراج ، فحصل للمقطعين الضرر الشامل ، وصار

يتعسف معهم ويستخرج منهم المال ، وصار
السلطان يعوق جوامك الممالك الدين لهم
اقتطاعات في اقليم الجيزة بسبب عمارة هذا الجسر ،
فما أبقي نقيب الجيش في ذلك ممكنا من باب
المظالم ، لا سيما شدة عسفه في المظالم السلطانية .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد قصد العود
من الفيوم ، فخرج الى تلقيه أمير المؤمنين وهو
المتوكل على الله محمد فلاقاه من دهشور وهى بلد
الخلافة ، فأقبل عليه السلطان ورحب به وبالغ في
اكرامه وتعظيمه وألبسه سلاري صوف فستقى
بسمور من ملابسه ، قيل ان مشترى سموره
ثلثمائة دينار .

وكان الخلافة لما توحه السلطان الى الفيوم مر
من على دهشور بلد الحليفة فقدم اليه الخلافة
مهارة وأغناما وأبقارا وأشياء كثيرة من دجاج وأوز
ومن أنواع الأكل قدور عسل فحل وجرر لبن وغير
ذلك أشياء كثيرة ، فسكر له ذلك .

ثم ان السلطان أتى الى الوطاق الذى تركه
منصوباً تحت الأهرام ومضى الى الفيوم ، فلما نزل
بالوطاق تسامعت به الناس فتوجه اليه قضاة
القضاة ، وهم كمال الدين الطويل الشافعى ومحيى
الدين يحيى الدميرى المالكى والشهاب أحمد
الشيشينى الحنبلى ، وخرج اليه غالب أعيان
الناس ، فنزل السلطان بالوطاق يوم الأربعاء
سادس عشرينه ، فأقام به يومى الأربعاء والخميس
وأحرق هناك احراقة فقط ثانية .

فلما كان يوم الجمعة عدى السلطان من هناك
ونزل بالمقياس فأقام به الى يوم الأحد سلخ الشهر
فتوجه اليه هناك أولاد ابن عثمان الذين حضروا
كما تقدم القول على ذلك .

فلما كان يوم الاثنين مستهل ذى الحجة ، عدى
السلطان من المقياس وأتى الى بر مصر وركب من
هناك ، ومشت قدامه الرؤوس النوب بالعصى ،
ومشى قدامه الجهم الغفير من الخاصكية بغبر
شاش ولا قماش ، وركب قدامه الأتابكى سودون
العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير
طومان باى الدوادار الكبير وحاجب الحجاب
أنص باى ، وجماعة من الأمراء المقدمين والأمراء
الطبلخانات والأمراء العشراوات وأعيان المباشرين
من أرباب الوظائف ، وكان فاضى القضاة الحنفى
عبدالبر بن الشحنة مسافرا صحبه السلطان فركب
قدامه ، فألبس السلطان الأمراء المقدمين كوامل
مخمل أحمر بسمور ، وهم أمير كبير وأمير مجلس
والدوادار الكبير ، وألبس بقية الأمراء المقدمين
كوامل صوف بسمور ، وكذلك جماعة من الأمراء
الطبلخانات من أرباب الوظائف ممن كان مسافرا
مع السلطان ، وألبس قاضى القضاة الحنفى عبد البر
كاملة صوف أبيض بسمور وكان مسافرا معه ،
وركب قدامه العسكر قاطبة ، فشق من الصليبة مع
طلوع الشمس وهو فى موكب حافل ، وعليه كاملية
مخمل أحمر بسمور ، وهو راكب على فرس بسرج
ذهب وكنبوش ، وقدامه ثلاث طوايل خيل بسروج
ذهب وكنابيش ، وقدامه حجورة بسروج بداوى
وركب مغربى ، وكان قدامه أربع نوب هجن فيها
نوبتان بأكوار زركش ، وكان قدامه الفيولان
الكبيران وعليهما البركستوان المخمل الأحمر ،
وعلى ظهورهما الصناجق الحرير الملون ، وكان
قدامه طبلان وزمران والنغير البرغشى والطبردارية .
قد شاهدت هذا كله بعينى ، وركب قدامه أولاد ابن
عثمان ملك الروم ، وركب قدامه جماعة من أولاد
ابن قرمان كانوا بمصر ، وركب قدامه جماعة من

مشايخ عربان جبل نابلس ، وغير ذلك من الأعيان ، فاسمى في هذا الموكب الحافل حتى طلع الى القلعة ، وهذه كانت أول سفرات السلطان ، وكانت مدة غيبته في هذه السفرة سبعة عشر يوما ذهابا وايابا .

ووقع له في هذه السفرة امور غريبة لم يقع للأشرف قايتباي مثلها لما سافر الى الفيوم ، وقد بلغني ممن أثق به أن السلطان فتك في هذه السفرة فتكا زائدا وأظهر أنواعا من العظمة ، وصار يمد للأمراء بطول الطريق أسمطة حافلة وطواري فاخرة في كل يوم أربع مرار ، ما بين حلوى وفاكهة وأجبان مفلى وجلاب وغير ذلك من الأسمطة الحافلة ، ولا يمنع من يأكل على السباط من الغلمان وغيرهم . وكان يطوف على العسكر بالسكر في قرب مع السقاين ويسقيهم السكر بالطاسات ، وحكوا عنه أشياء غريبة من هذا النمط ، ورتب العليق لخيول العسكر بطول الطريق ، وكانت هذه السفرة على سبيل التنزه .

وفد أشيع بين الناس أن السلطان توجه الى هناك بسبب مطلب وجد هناك ، والأصح أنه توجه بسبب الكشف على الجسر الذي هناك ، وهو جسر اللاهون ، وجسر آخر هناك ، فانه كان تقطع حتى شرق منه اقليم الفيوم . فلما توجه السلطان الى هناك صار يتصيد في جهات الفيوم ودخل عليه جملة تقادم من مشايخ العربان وغيرهم .

وقد بلغني ممن أثق به أن السلطان فرق على الأمراء الذين كانوا معه من التقادم التي دخلت عليه ، فأعطى الأتابكي مسودون العجمي ثلاثمائة دينار وفرسين وخمسين رأس غنم وخمس بقرات ، وأعطى الأمير أركماس أمير مجلس مائتي دينار وفرسا وأربعين رأس غنم وأربع بقرات ، وأعطى الأمير طومان باي الدوادار الكبير مثل ذلك ، وأعطى الأمير أنص باي حاجب الحجاب مثل

ذلك ، وأعطى لبقية الأمراء المقدمين لكل واحد منهم مائه وخمسين دينارا وفرسا وبقرتين وأربعين رميسا ، هذا خارجا عن الأوز والدجاج . وأعطى للأمراء الطلبحانات لكل واحد منهم أربعين دينارا وللأمراء العشراوات لكل واحد منهم عشرين دينارا وفرق عليهم أغناما بحسب مقام كل واحد منهم ، وأنعم على جماعة من الخاصكية من أرباب الوظائف بحسب ما يختاره ، ثم أنعم على من كان معه من المغاني لكل واحد منهم بعشرين دينارا وحنين صوف بسنجاب . وهذا على ما نقل ولم ألتزم صحة ذلك .

ثم ان السلطان ألبس الأمراء المقدمين عند عوده الى القلعة لكل واحد من أرباب الوظائف كاملية مخمل أحمر بسمور ، وألبس بقية الأمراء المقدمين كوامل صوف بسمور ، وألبس قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة كاملية صوف أبيض بسمور ، وألبس جماعة ممن كان معه من أرباب الوظائف لكل واحد منهم كاملية صوف بسمور ، وقد تقدم القول على ذلك .

فلما طلع السلطان الى القلعة دخل الى الميدان وكان مستهل الشهر ، فطلع القضاة الى الميدان وهنوه بالشهر ، ثم نزلوا صحبة قاضي القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة . وهذا ملخص ما وقع للسلطان في هذه السفرة الى الفيوم .

وفي يوم الأربعاء ثالثه نزل السلطان الى قبة يشبك التي في المطرية وكشف على العمارة التي أنشأها هناك .

وفي يوم الخميس رابعه ابتداء السلطان بتفرقة الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان بشنق ابن حمادة شيخ العرب بالقليوبية ، فشنق على قنطرة الحاجب .

سنة تسع عشرة وتسعمائة (١٥١٣ م)

وكان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، ففيه في المحرم طلع أمير المؤمنين المتوكل على الله محمداً والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد . وفي ذلك اليوم أمطرت السماء مطرا غريزا وفيه حصى وهبت رياح عاصفة .

وفي يوم السبت رابعه نقلت الشمس الى برج الحمل وهو أول فصل الربيع ، فلما نقلت الشمس الى برج الحمل ظهر الطاعون بمصر ومات به جماعة من الأطفال والعبيد والجواري ، فخرجت طائفة من الواحية وتوجهوا الى بلادهم فرارا من الطعن وقد قضا أمره .

وفي يوم الأحد خامسه نزل السلطان الى فبة يشبك التي بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ، وكلف على العمارة التي أنشأها هناك ، وانشرح في ذلك اليوم ، وطلع القلعة بعد العصر .

وفي يوم الثلاثاء سابعه كانت كايئة قرقماس المقرى ، وذلك أنه قد اتهم بقتل امرأة ومملوك . وسبب ذلك أنه كان ساكنا عند غيط المرستان في زقاق الكحل ، فطلعت غلمانه وعبيده الى هذه المرأة والمملوك وفي أيديهم السيوف وزعموا أنهم منسروا ، فضربوا المرأة والمملوك زوجها ، وقطعوا آذان ابنتها وأخذوا منها الحلق ، فماتت البنت في ليلتها ، فلما طلع النهار وجد في المرأة والمملوك جروح بالغة ، حتى قيل وجد فيه ست عشرة ضربة بالسكاكين ، فحملوهما على أقفاص حمالين وعرضوهما على السلطان ، فقال له المملوك والمرأة : ما لنا غرماء سوى قرقماس المقرى وغلمانه . وكان هذا المملوك ساكنا بالقرب من بيت قرقماس المقرى في زقاق الكحل ، فلما تحقق السلطان من ذلك شك قرقماس المقرى في الحديد

وفي يوم الأربعاء عاشره كان عيد النحر ، وكانت الأضحية في هذا العيد في غاية الانشجحات من الغنم والبقر وذلك بسبب تسلط المماليك الأجلاب على الفلاحين الذين يحضرون البقر والغنم ، فكان المماليك يخرجون الى المطرية والى الخاناتكاه ويخطفون الغنم غصبا ، فحصل للناس غاية الضرر بسبب ذلك ، حتى التفحم كان مشحوتا والحطب في هذا العيد .

وفي يوم الاثنين خامس عشره خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له جان بلاط وقرره في نيابة كختا ، فخرج في ذلك اليوم الى محل نيابته بكختا ، وخرج بطلب لطيف .

وفي يوم الأحد حادى عشرينه نزل القاضى بركات ابن موسى المحتسب ونادى على الفلوس الجدد بأن تكون الفلوس الجدد والعنق بالميزان وهى بنصنين الرطل ، فوقف حال الناس بسبب ذلك .

وفي يوم الاثنين ثامن عشرينه أظلم الجو وثار ريح عاصف واشتد البرد ، وكسفت الشمس في ذلك اليوم كسوبا فاحشا ، وكان ذلك قبل العصر بأربع عشرة درجة ، وأقامت في الكسوف نحو ساعة .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشرينه أمطرت السماء بردا غزيرا مثل الحما التي في الصحراء .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ، وكانت سنة مباركة خصبة تنج فيها الزرع وأفلح فيها البطيخ العبدلي والبطيخ الصواصلى وسائر الفواكه ، ووقع فيها الرخاء ، وكان فيها النيل عاليا وثبت فيها ثباتا جيدا ، وكانت سنة هادئة من الفتن والشروع ، ولم يظهر فيها الطاعون بمصر بل ظهر بشجر الاسكندرية ورشيد وبعض السواحل ولم يدخل منه الى مصر شيء .

وسلمه الى الوالى هو وغلمانه ورسم له بأن يعاقب
الغلمان والعبيد حتى يقرأوا على من فعل ذلك .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان الأمير يخبى
الذى كان كاشف البهنسا ، وعرض أغاته الأمير
قنبك الشيخ أحد الأمراء العشراوات ، وكان له مدة
وهو مختف لأمر أوجه ، فلما عرضوها على
السلطان شك الأمير يخبى فى الحديد وسلمه
للوالى ، وكذلك الأمير قنبك الشيخ ، واستمر
عند الوالى حتى يكون من أمرهما ما يكون .

ثم ان السلطان حل بعد ذلك فى أمر قرقماس
المقرى ، ولم يأخذ بيد المملوك الذى جرح ولا
بيد المرأة التى ماتت ابتها لما قطعوا آذانها ،
وراحت على من راح .

وفى يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان
على شخص من مماليكه يسمى جان بردى وقرره
فى نيابة طرسوس ، وكان من الأمراء العشراوات .
وفى يوم الأحد تاسع عشره كان فيه فطر
النصارى ، فنزل السلطان فى ذلك اليوم الى قبة
يشبك التى بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ،
وعزم على جماعة من الأمراء ومد هناك أسمطة
حافلة وانشرح فى ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة
قبل غروب الشمس ، وكان يوما حافلا .

وفى يوم الاثنين عشرينه كان أول يوم فى
الخمسين وهو عيد النصارى ، فكانت النصارى
فى هذا العيد فى غاية النكد بسبب ما قرر عليهم
السلطان من المال ، وهو نحو من عشرين ألف
دينار ، وذلك بسبب أنهم يشتري لهم جوار
للخدمة ، فتغير خاطر السلطان عليهم ومنعهم من
ذلك ، وقد ترافعوا فى بعضهم فحنق منهم السلطان
وصادرهم وضيق عليهم ، فكانوا فى هذا العيد فى
غاية الضرر .

وفى يوم الاثنين المذكور وقعت زلزلة خفيفة ،
واستمرت تعاود الناس ثلاث مرار والأرض
تضطرب اضطرابا ظاهرا ، وكان هذا كله دلائل
على تزايد أمر الطاعون ، فلما دخلت الخمسين
تزايد أمر الطاعون وفتك فى الناس فتكا ذريعا .

ثم ان بعض الحكماء أشار على السلطان بأن
يلبس فى أصابعه خواتم ياقوت أحمر فانه ينفع
لمنع الطاعون . فأخرج من الذخيرة فصى ياقوت أحمر
مشمع وصاغهما على ذهب خاتمين ، وصار يلبسهما
دائما ويجلس فى الموكب وهو لابس تلك الخواتم
فى أصابعه ، حتى عد ذلك من النوادر ، ولا سيما
من سلطان تركى .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرينه ثارت رياح
عاصفة ، وقام فى الجو رعد شديد وبرق وأمطرت
السماء مطرا غزيرا ، وذلك بعد نقل الشمس الى
برج الحمل بأيام عديدة .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشرينه دخل أمير الحاج
بالركب الأول وهو يوسف الناصرى ، وصحبته
الأمير خاير بك العلاء المعمار باش المجاورين .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه دخل المحمل
الى القاهرة صحبة الأمير تمر الزردكاش أحد
الأمراء المتقدمين ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه
السلطان خلعة سنوية ونزل من القلعة فى موكب
حافل ، ولسكن كان الثناء الحسن من الحجاج
بالركب الأول للأمير تمر يوسف الناصرى ، ولم يشن
الحجاج على الأمير تمر أمير المحمل خيرا ، وشكا
من بخله فى الطريق الحجاج قاطبة .

وفى يوم الجمعة فى الرابع والعشرين منه
أمطرت السماء حصى قدر البندق وذلك وقت صلاة
الجمعة ، حتى أعاق الناس عن دخول الجامع من
شدة الأمطار والوحل ، وذلك بعد نقل الشمس الى
برج الحمل ، فعد ذلك من النوادر .

وفي يوم الاثنين سابع عشرينه خرج الأمير طومان باى الدوادار الكبير وتوجه الى نحو جهات الصعيد بسبب مساحة الأراضى وضم المغل ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وطلب طلبا حرييا ، وكان له يوم مشهود .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرينه نزل السلطان وعدى الى المقياس وأقام به الى أواخر النهار ، وأشيع بين الناس أنه عمر مركبا ببولاق على صفة المركب القديم المسماة بالذهبية ، فلما فرغ منها العمل أمر بأن تزين بالصناجق ويضعوا فيها الطبول والزمر والنفوط ، وتجيء وهى على هذه الهيئة من بولاق الى تحت المقياس حتى يشاهدها السلطان وهو بالمقياس ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية وابتهج ، ثم صلى العصر وعدى وطلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود .

وفي صفر تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وحصل للناس غاية الرعب ، فهرب قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة أولاده من أمر الطاعون فأخرجهم الى نحو جبل الطور ، وله بذلك عادة بأنه يهرب أولاده الصغار الى جبل الطور فى أيام الفصول ويسلمون من الطاعون ويحيئون بعد مضى الفصل وهم سالمون ، لا يفقد منهم أحد حتى ولا من عياله ، ويقال ان تلك الجهات لا يدخلها الطاعون .

ثم ان القاضى عبد البر حسن للسلطان عبارة بأن يرسل ولده الى هناك فلم يوافق على ذلك : ثم ان الأمير قانى باى أمير آخور كبير لما رأى قاضى القضاة عبد البر أرسل أولاده الى الطور ، فقامت زوجته بنت الأمير يشبك الدوادار الى أمير آخور وقالت له : أرسل ولدى صحبة أولاد

القاضى ، فعمل لها سنيح وخرجت فى محفة وابنها صحبتها ، ثم عمل مثل ذلك الأمير جان يردى الذى كان باش المجاورين فأرسل ولده صحبة ابن أمير آخور . ثم ان الأمير نوروز تاجر الممالك أرسل ولده وسراريه صحبة ابن أمير آخور ، ثم ان أنص باى حاجب الحجاب أرسل جماعة من ممالكه الى هناك ، وكذلك الأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين ، وتبعهم جماعة من أعيان الناس على ذلك وأرسلوا أولادهم الى الطور خوفا عليهم من الطعن ، وهذا شيء لم تفعله الأمراء قط سوى فى هذا الفصل من عظم ما وقع فى قلوب الناس من الرعب من هذا الطاعون ، ومع أنه كان خفيفا جدا بالنسبة الى الطواعين المتقدمة .

وفي هذا الشهر أمر السلطان بهدم القبة التى أنشأها بمدرسته التى فى الشرايشين وكانت قد تشققت وآلت الى السقوط ، فهدموها عن آخرها ثم أعادوها ثانية .

وفي يوم الأربعاء سابعه كانت وفاة قاضى القضاة الحنبلى ، وهو شهاب الدين أحمد بن على ابن أحمد الشيشينى الحنبلى ، وكان علامة فى مذهبه من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة أربع وأربعين وثمانمائة ، وكان قد شاخ وكبر سنه وناف عن السبعين سنة من العمر ، ومات بالطاعون ، وصلى عليه فى الجامع الأزهر ، وكانت جنازته حافلة .

وفي يوم الخميس توفى الأمير تغرى برمش السيفى كسباى الششمانى المؤيدى المعروف بالرماح ، وكان تغرى برمش رئيسا حشما تولى الوزارة غير ما مرة وأقام بها مدة طويلة ، وكان قد طعن فى السن وذهل فى عقله ، وقد باشر ديوان الوزارة أحسن مباشرة .

وفي يوم السبت عاشره نزل السلطان وتوجه الى

ميدان المهارة الذي يقناطر السباع وكشف على العمارة التي أنشأها بالميدان ، ثم توجه من هناك الى الروضة وأقام بالمقياس ذلك اليوم .

وفي ذلك اليوم كان عقد مجلس بالمدرسة الصالحية ، وحضر قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وقاضى القضاة المالكى يحيى الدين يحيى ابن الدميرى ، وكان هذا العقد للمجلس بسبب شرف الدين بن روق ، ومن ملخص واقعته أنه كان رجلاً أهوج ، وعنده خفة ورهج ، وكان السلطان حاططاً عليه بسبب علم الدين الذى كان يتحدثاً على الخزانة وقد تقدم القول على ذلك ، وكان شرف الدين بن روق صهر علم الدين زوج أخته ، فلما جرى لعلم الدين ما تقدم ذكره فضمنه شرف الدين بن روق فيما تأخر عليه من المال الذى قرره عليه السلطان ، فلما مات علم الدين رسم السلطان على ابن روق وطالبه بما على علم الدين وجرى على ابن روق بسبب ذلك شذائد ومحن يطول شرحها .

ثم ان ابن روق وقع من لسانه بكلمات فاحشة فى حق قضاة العصر وغيرهم من الناس حتى قيل عنه انه قال : « لم أستكمل الآن أحداً من القضاة ولا غيرهم بأن أصلى خلفه » فضبطوا عليه ذلك ، فلما أحضروه فى المدرسة الصالحية فجر على قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وعلى قاضى القضاة المالكى يحيى بن الدميرى ، وكان شرف الدين بن روق من أهل العلم والفضل بارعاً فى أصول الدين . فلما أفحش فى حق عبد البر بن الشحنة ، عزره قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، ووسطحه على ظهره فى وسط المدرسة الصالحية ، وضربه على رجليه بعض عصيات بسبب اساءته على قاضى القضاة عبد البر ، فلما

جرى ذلك كادت العوام أن ترجم عبد البر بن الشحنة وتعصبوا الى ابن روق ، ثم انقض ذلك المجلس مانعاً ، وكان السلطان قائماً فى أن يثبت على ابن روق كفراً ويضرب عنقه فلم يتم له ذلك ، وكان قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل قائماً فى الباطن مع ابن روق ، فلما بلغ السلطان ذلك مقت القاضى الشافعى بسبب أنه لم يوافق على اتلاف ابن روق .

فلما انقض المجلس من الصالحية تسلم القاضى لبركات المحتسب ابن روق ومضى به الى بيته ليعاقبه ، فوضعه فى الحديد وحصل له غاية البهدة فى ذلك اليوم ، حتى قيل ان ابن موسى ضربه فوق المائة عصاً ، واستمر عنده فى الحديد حتى يستخلص منه المال الذى ضمن فيه علم الدين . وقيل ان شرف الدين ابن روق لما عرضوه على السلطان كلمه بكلام فاحش حتى حنق منه السلطان وقصد أن يوقع فيه فعلاً ويتلفه ، فلم يتم له ذلك .

وفى يوم الأربعاء رابع عشره توفى القاضى شرف الدين يحيى الأنصارى قبيب القضاة الحنفى ، وكان من أعيان نواب الحنفية ، وكان لا بأس به . وفى هذا الشهر تزايد أمر الطاعون وقتك فى الماليك وفى العبيد والجوارى والأطفال والغرباء ، وصار يوماً يزيد ويوماً ينقص ، وتناهت ورقة التعريف فى هذا الشهر بعدة من يموت فى كل يوم ، فبلغت الى ثلاثمائة وخمسة وستين انساناً ممن يرد التعريف ، والعادة فى الفصول الكبار أن الواحد من التعريف بعشرة ممن لا يرد التعريف ، فلما تزايد أمر الموت فتحت مغاسل السبيل على جارى العادة فى الفصول المتقدمة .

ومما أحدثه السلطان من أبواب المظالم فى هذا الفصل أنه رسم للأمير مغلباى الزردكاش بأن

يأخذ من موجود من يموت من الممالك السلطانية ممن له جامكية ، فيرسم على وصى الميت حتى يحضر بسيف مستقط بفضة وزردية وخوذة وتركاش ، فصار الزردكاش يرسم على زوجة الملوك الذى يموت حتى يأخذ منها ما ذكرناه ، ثم رسم للأمير آخور كبير بأن يأخذ من يموت من الممالك ممن له جامكية وعليق فيأخذ من وصيه فرسين أو ثمنهما ، والخاصكى ثلاثة رءوس خيل وبغلة ، وأصحاب الوظائف ممن يموت منهم فيأخذ من وصيه خمسة رءوس خيل وبغلة ، فيرسم على الوصى وزوجة الميت حتى يأخذ منها ما ذكرناه .

وما هو أعظم من هذا كله أنه رسم الى الماس دوادار سكين بأن يأخذ ممن يموت من ممالكه الأجلاب خمسين دينارا ، وهى النفقة التى كان قد أنفقها عليهم ، ويأخذ من الجمدار عشرين دينارا ، فأطلق فى أوصياء الممالك النار وصاروا يمتنعون من الوصية ، فما طاق العسكر ذلك وكادت أن تنشأ من ذلك فتنة كبيرة ، فأقام الحال على ذلك أياما ثم رجع عن بعض شئ من ذلك ، وهذا الأمر لم يقع قط من ملك قبله ولا أحدث هذه المظلمة ، فلما تزايد أمر الموت رسم السلطان بشيل الدكك التى على أبواب الحكام ، ومنع النقباء قاطبة من على أبواب الأمراء أرباب الوظائف ، ووقع له أيضا مثل ذلك فى سنة عشر وتسعمائة لما وقع فيها الطاعون فرسم بشيل الدكك ومنع النقباء قاطبة ، وهذا ثالث فصل وقع فى أيامه فان الطعن وقع فى أيامه سنة تسع وتسعمائة ، وكان خفيفا جدا وتناهت فيه ورقة التعريف الى مائة انسان ممن يريد التعريف ، ثم اختفى الطعن وغاب ثمانية أشهر وظهر فى سنة عشر وتسعمائة وتناهت فيه ورقة التعريف الى أربعمائة

وخمسة عشر انسانا ممن يريد التعريف ، ثم وقع الطاعون فى أيامه فى هذه السنة وهى سنة تسع عشرة وتسعمائة ، ومن العجائب أن هذه الطواعين التى ذكرناها يستمر الطعن فيها عمالا حتى تنزل النقطة ويزيد الليل ، وقد تناهت فيه ورقة التعريف الى ثلاثمائة وخمسة وستين انسانا ممن يريد التعريف .

وفى يوم الأربعاء المقدم ذكره نزل السلطان وتوجه الى العمارة التى أنشأها فى المطرية وكشف عليها ، ثم عاد ودخل من باب النصر وشق من القاهرة ، ثم طلع الى مدرسته وكشف عن القبة التى بها ، وقد تقدم القول على أنها قد تشققت وآلت الى السقوط فأمر بهدمها عن آخرها ، وقد رمها ثلاث مرار ولم يفد من ذلك شيئا ، فلما شق السلطان من القاهرة أسمعتة العوام الكلام بسبب تشحيط الخبز وغلو الدقيق ، وكان القمح الجديد قد وصل وأشيع بين الناس أن السلطان يشتري القمح ويرسله الى الشام فانه كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل وصل فيها كل اردب قمح الى سبعة أشرفية ، وكذلك حلب أيضا ، فكان يشتري القمح من مصر ويرسله الى البلاد الشامية ، فانشطحت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك وكادت أن تكون غلوة مع وجود القمح الجديد ، فلما شق السلطان من القاهرة تسببت عليه العوام بالكلام المنكى وقالوا له جهارا : « الله يهلك من يقصد الغلاء الى المسلمين » فسمع ذلك بأدنه فتنكد فى ذلك اليوم وطلع الى القلعة من بين الدروب ولم يشق من باب زويلة .

وفى يوم الأحد ثامن عشره توفى الرئيس الأصيل العريق ، وهو سليمان بك بن أحمد بك بن السلطان أبو يزيد بن عثمان ملك الروم ، فلما بلغ السلطان وفاته تأسف عليه فانه كان حسن

الشكل جميل الهيئة ، وكان حضر الى مصر فرارا من عمه سليم شاه لما تولى على مملكة الروم ، وقد تقدم القول على ذلك ، فتوفي ببولاقي في المكان الذي أنزلوه به فأخرجت جنازته من هناك ، ومات بالطاعون ، فصنع له السلطان كفارة قدام جنازته ، وأخرجوا قدام جنازته خيوله وهي مقصوصة الأذنان وقد قلبوا سروجها ، ووضعوا عمامته على نعشه ، وكسروا أقواسه ووضعوها على نعشه ، وهذه على طريقة بلادهم ، فنزل السلطان وصلي عليه ، وغائب الأمراء الذين لم يمشوا قدام جنازته من بولاقي ، ثم توجهوا به الى الصحراء فدفنوه في تربة البجاسي .

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه فيه أحضرت جثة كاشف الغريبة وهو الأمير جان بلاط ، وأصله من مماليك الأشرف الغوري ، وكان من الأمراء العشراوات ، فلما أحضرت جثته دفن بالقرافة .

وفي ذلك اليوم توفي منلباي دودار سكين ، وكان من أعيان الخاصكية .

ومن الغرائب ما وقع في أواخر هذا الشهر ، وذلك أن في يوم الخميس المذكور بعد انقضاء الموكب ، نزل الزيني بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة من القلعة ، وقدامه مشاعلين ينادون في مصر والقاهرة حسبما رسم به المقام الشريف بإبطال المساهره والمجاعة . وإبطال المكوس قاطبه التي كانت مقررة على السوق وعلى أصحاب البضائع من المتسبين قاطبة حتى على الطواحين التي في القاهرة قاطبة ، ورسم بإبطال ما كان يؤخذ على مشتري كل أردب من الغلال موجب ، فكان يؤخذ على كل أردب قمح نصف فضة ثم صارت نصفين موجب ، وكيلة فتصل الى ثلاثة أنصاف على كل أردب ، واستمر ذلك على سائر مشتري الغلال ، فلما رسم السلطان بإبطال ذلك ارتفعت له الأصوات بالدعاء ثم انطلقت له النساء بالزغاريت من الطبقان ، وكانت الأسعار قد غلت في سائر البضائع بموجب ذلك وصارت تباع المثل مثلين ولا يقدر أحد يزرع البياعين على ذلك فانه أمر سلطاني ، وكان متحصل هذه الجهات في كل سنة فوق الأربعين ألف دينار ، بل أكثر من ذلك مما كان من مشاهرة وغير ذلك

وفي أثناء هذا الشهر عرض السلطان محاييس الحجرة من النساء وأطلق من كان بها من النساء ، وهن زوجة رمضان المهتار وسريته وقد سجننا بسبب خوند أم الملك الناصر ، وأطلق تحفه النى كانت دودارة خوند أم الناصر ، وأطلق أم معين الدين بن شمس الذي كان وكيل السلطان وجرى عليه ما جرى ، وأطلق فاطمة بنت عاقولة وكانت سجن بسبب بنت خوند بنت المؤيد شيخ ، وأمرها مشهور ، وأطلق زوجة القاضي هاني وكانت مسجونة على دين ، ولم يعرض من في الحبوس من الرجال واستمر الحال على ذلك .

وفي ذلك اليوم توفي الأمير سودون بن حيدر ، ويعرف أيضا بسودود الفقيه ، وكان من الأمراء العشراوات ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي .

وفي ذلك اليوم توفي القاضي كمال الدين محمد الأبو تيجي ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، وكان في سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الاثنين سادس عشرينه نادى السلطان بمنع بيع النبيذ والحشيش والبوزة ، ومنع النساء

من مكوس ، وكان السلطان يحيل بهذا القدر جماعة من الأمراء عوضا عن الاقطاعات ، وهذا كان أشد الظلم على الناس قاطبة أمر هذه المشاهرة والمجاعة ، وكان ابطال ذلك في أيام السلطان من العجائب التي لم يسمع بمثلا ، وسبب ذلك أن الطعن كان كل يوم في تزايد وكان السلطان موهوما على نفسه ، وقد أشيع بين الناس أنه رأى مناما بأن النجوم قد تساقطت من السماء الى الأرض ، ثم بعد ذلك سقط القمر ، فأول ذلك بأن النجوم هي العسكر والقمر هو الملك ، فعند ذلك أخذ في أسباب اظهار العدل وابطال شيء من المظالم ، والله الحمد على ذلك .

وفي يوم الجمعة سلخ هذا الشهر قلع السلطان الصوف ولبس' البياض ، وذلك في حادى عشر بشنس القبطى ، وكان الوقت رطبا .

وفي ربيع الأول كان مستهل الشهر يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة للتهنئة بالشهر ، ففى ذلك اليوم خلع السلطان على العزى عز الدين ابن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد الشيشينى الحنبلى وقرره فى قضاء الحنابلة عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، وكان شابا حسن السيرة لا بأس به ، وقد سعى فى هذه الوظيفة جماعة من الحنابلة منهم شهاب الدين الفتوحى وغيره فلم يوافق السلطان على ذلك ، وأرسل يقول لعز الدين : أورد ألف دينار والبس وظيفة أهلك ، ففعل ذلك .

وفي يوم الاثنين ثالثه نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وأشهر المناذاة عن لسان السلطان بتسعير البضائع حتى الدقيق ، فعز ذلك على السوق وغلقوا الدكاكين أياما واضطربت بسبب ذلك القاهرة ، ثم امتثلوا ذلك وسكن الاضطراب .

وفي يوم الثلاثاء رابعه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من العسكر وعين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى الغربية ، فان العربان من حين مات جان بلاط الكاشف اضطربت أحوال الغربية ، وكان السلطان لما توفى جان بلاط الكاشف خلع على أخيه وولاه على كشف الغربية عوضا عن أخيه ، فلما توجه الى هناك فرغت عليه العربان وطردهوه وقتل خاصكى كان صحبته وجماعة من البلاصية ، فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم تجريدة وخرجت على الفور .

وفي يوم الأربعاء خامسه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له جانم البواب ، وكان أصله من مماليك الأشرف قانصوه الغورى ، وكان لا بأس به .

وفي يوم السبت ثامنه توفى الرئيس الأصيل المريق علاء الدين بك، أخو سليمان بك ابن أحمد بك ابن السلطان أبى يزيد بن عثمان ملك الروم ، وقد تقدم ذكر وفاة أخيه سليمان فتبعه أخوه علاء الدين على بك ، وكان ترابهما بمصر ، وماتا بالطاعون ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلى عليه ، ومشت الأمراء قدام نعشه ، وأخرجوا قدامه كفارة كما فعلوا بأخيه سليمان ، ودفن على أخيه بالصحراء .

وفي يوم الأحد تاسعه نزل السلطان الى مدرسته التى أنشأها بالشرابشين فقام بها الى آخر النهار ، ونصب له سحابة على سطح المدرسة حتى يكشف على عمارة القبة التى هدمت وأعيدت ثانيا .

وفي يوم الاثنين عاشره جاءت الأخبار بوفاة مصرباى أخى جان بلاط الذى قرر فى كشف الغربية عوضا عن أخيه جان بلاط ، فلم يقم فى كشف الغربية بعد أخيه الا أياما ومات ، فلما مات خلع

السلطان في ذلك اليوم على شخص يقال له ألماس الساقى ، فقرره في كشف الغريبة عوضاً عن مصرباى الذى توفى كما تقدم .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى على العادة ، ولكن كان الطعن عمالا والناس في غاية النكد ، ومات بالطاعون من العسكر ما لا يحصى .

وفي هذا الشهر جاءت الأخبار من بلاد ابن عثمان بأن سليم شاه الذى تولى على مملكة الروم بعد أبيه أبى يزيد بن عثمان ، وقد وقع بينه وبين أخيه قرقد شقيقه وهو الذى حضر الى مصر كما تقدم ، فلما وقع بينهما احتال عليه حتى حضر الى عنده فقتله وقيل خنقه بوتر ، وأشيع أيضاً أنه قتل اخاه أحمد بك الذى حضر أولاده الى مصر وماتوا بالطاعون كما تقدم ، وأشيع أنه قتل جماعة من وزرائه ، وقد صار ملك الروم في اضطراب وربما يخشى عليه من الفرنج ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وقد فنى أكثر أولاد ابن عثمان ، وكان ابن عثمان ماسك زمام البلاد لطرده الفرنج عنها .

وفي يوم السبت خامس عشره توفيت ابنة السلطان الأشرف جان بلاط ، فصلى عليها السلطان ودفنت في مدرسة أبيها بباب النصر ، وكان لها من العمر نحو من اثنتى عشرة سنة ، وكانت جنازتها حافلة .

وفي ذلك اليوم نزل السلطان الى مدرسته وكشف على عمارة القبة ، وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة ، ونصب له السلطان سحابة على سطح المدرسة ، ونظر الى عمارة القبة واستحث البنائين على سرعة البناء .

وفي هذا الشهر تزايد أمر الطاعون وفتك في الممالك حتى صار يموت منهم في كل يوم نحو من خمسين مملوكا ، وكان قوة عمله بعد الخماسين وظهور الثريا ، ونزلت النقطة والطعن عمال .

وفي يوم الاثنين سابع عشره احتجب السلطان في الدهيشة ولم يخرج الى الناس ، وتزايد به ذلك العارض الذى في عينه ، وأشيع بين الناس أن جفونه ارتخت على عينه ، ولم يخضر تفرقة الجامكة وكثر القال والقليل بين الناس ، فلما كان يوم الجمعة لم يخرج السلطان الى صلاة الجمعة ، فلما انقضت صلاة الجمعة دخل قاضى القضاة الشافعى والأمراء المقدمون وسلموا على السلطان وهو في الدهيشة فأسقاهاهم سكرا ، ثم سلموا عليه وانصرفوا .

وفي يوم السبت ثانى عشره حضر هجان من مكة في مسافة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج قد ملكوا كمران وأنهم يبحاصروا مدينة سواكن ، وأن الشريف بركات أمير مكة خرج الى جدة هو وباش المجاورين وجماعة من الممالك المجاورين الذين هناك بمكة ، وأقاموا بجدة خوفا على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه ، فأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، فلما جاء هذا الخبر تنكد له السلطان الى الغاية ولا سيما كان منقطعاً في الدهيشة بسبب عينه ، فحصل للناس بهذا الخبر غاية النكد ،

فلما كان يوم الجمعة خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة ، فلما خرج قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ورقى الى المنبر خطب خطبة بليغة في معنى هذه النازلة التى وقعت بسبب الفرنج وأخذهم لعدة بلاد من سواحل اليمن ، فلما قامت الصلاة قال المؤذنون : « القنوت عقيب

الصلاة » . فلما صلى قاضى القضاة صلاة الجمعة قنت فى الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة ، فقنت السلطان والأمراء ومن فى الجامع قاطبة ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأمر بعرض العسكر الذين استجدهم فى الطبقة الخامسة ، فعرضهم وهم لابسون الزرديات والخوذ وفى أوساطهم السيوف ، وكان منهم رماة بالبندق الرصاص . فلما عرضهم كتب منهم جماعة نحو من ثلاثمائة انسان ، وعين باشهم الأمير أركماس أمير مجلس ومعه الأمير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين ، وعين معهم جماعة من المماليك السلطانية ، ورسم لهم بأن يتوجهوا الى السويس ويقيموا به بسبب عمارة المراكب التى عمرها السلطان هناك .

وفيه عين السلطان الأمير حسين بأن يتوجه الى جدة ويستقر فى نيابتها على عادته ، وعين الأمير خشقدم شاد الشون بأن يتوجه الى جدة ويقيم بها لأجل الكشف على أخبار الفرنج وغير ذلك .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من الزردكاشية ورماة البندق الرصاص والنفطية ، وعين منهم جماعة بأن تتوجهوا الى جدة صحبة الأمير خشقدم ويقيموا بها الى أن يعين لهم السلطان تجريدة .

وفيه صلى السلطان صلاة الجمعة ودخل الى الدهيشة واجتمع هو والأمراء وضربوا معه مشورة فى أمر الفرنج الذين تسلطوا على جهات اليمن ، فأشيع بين الناس أن السلطان عين فى ذلك اليوم أربع تجاريد الى جهات معلومة ، فأقام الأمراء عند السلطان فى ضرب هذه المشورة الى قريب العصر وتخففوا من ثيابهم ،

وكان مجلسا حافلا ، ووقع فيه بعض جدال بين السلطان وبين الأمراء بسبب من يسافر منهم . وفيه تزايد أمر الطاعون وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، حتى بلغت ورقة التعريف فى يوم واحد ثلاثمائة وخمسة وستين انسانا ، خارجا عن يخرج من المغاسل والأسبله ، فيقال ان ورقة التعريف فى أيام الفصول الواحد فيها بعشرة ، فعلى هذا يقاس أن كان يموت فى كل يوم ثلاثة آلاف وكسور ، وصار يزيد يوما وينقص يوما ، وكان أكثر فتكه فى الجوارى والعبيد والمماليك والأطفال .

وفيه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له ورديش بن قانصوه ، وتوفى سيدى يحيى بن تانى بك قرا الأينالى أمير مجلس كان ، وكان شابا لا بأس به ، فكان بينه وبين وفاة أخيه سيدى محمد ثمانى سنين .

وفيه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له تراز بن أقبای .

وفيه توفى شخص من أولاد ابن قرمان أمير التركمان يقال له مصطفى بن حمزة ، وكان مقيما بمصر فمات بالطاعون .

وفيه سرفت عملة ثقيلة من بيت الشهابى أحمد ابن الجيعان ، وكانت عملة بنحو خمسة آلاف دينار ، فاتهموا بها جماعة من الجيران منهم ابن اينال باى دوادار سكين وجماعة من العلمان ، فلما بلغ السلطان ذلك رسم للوالى بأن ينزل الى بيت ابن الجيعان ويحرر أمر هذه العملة ويفحص عن فعل ذلك ، فلما حضر الوالى الى هناك وحزق على جماعة ممن اتهم بذلك فظهر من تلك العملة أشياء كثيرة ، منها شبخاناة عنبر ومخدرات

عنبر وصمحنون صينى ونحساس أصفر مكفت وفواتى مقفولة لم يعلم ما فيها ، وغير ذلك من مقاعد وألحفة ، واستمر الوالى يحضر فى كل يوم الى هناك ويقرر من فعل ذلك والعملة يظهر منها شىء بعد شىء ، حتى ظهر غالبها فى عدة أيام متفرقة .

وفى أواخر هذا الشهر رسم السلطان بإبطال مولد سيدى احمد البدوى رضى الله عنه ، وسبب ذلك أن العربان كانت تائرة فى البلاد ، والظعن كان عمالا فى القاهرة ، والأحوال مضطربة من كل وجه ولا سيما بتوعك السلطان بعينه ، والاشاعات قائمة باثارة فتنة كبيرة .

وفى ربيع الآخر ، ففى يوم الاثنين ثانيه ، خلع السلطان على الأمير قانصوه كرت أحد الأمراء المقدمين وقرره فى امرة ركب المحمل ، وخلق على الأمير طومان باى حاجب ثانى وقرره فى امرة الحاج بالركب الأول ، وكان من الأمراء الطبلخاناه .

وفى تلك الليلة نزلت النقطة وكان عيد ميكائيل .

وفى ذلك اليوم كان وفاة على الجركسى ، وكان من أخصاء خاير بك نائب حلب ، فحضر الى مصر فى بعض أشغال نائب حلب فمات بالطاعون بمصر ، وكان رقى فى أيام خاير بك نائب حلب حتى بقى حاجبا ثانيا بحلب ، وهى فى منزلة امرة طبلخاناه بمصر .

وكان أصل على الجركسى هذا ابن فران ، وكان فى صغره مليح الشكل فحظى عند الأمير خاير بك حتى بقى عنده بجمقدارا ، فلما قرر خاير بك فى نيابة حلب سعى له عند السلطان فى الحجوية الثانية بحلب وصار من جملة الأعيان بمصر

وحلب ، وكان حضر الى مصر وتوجه الى الحجاز فحج ورجع من الحجاز وأقام بمصر مدة يسيرة ومات مطعونا ، وكانت له جنازة حافلة .

وفيه أبطل السلطان ضرب الكرة بسبب ذلك العارض الذى حصل له فى عينه ، ولأجل أن الظعن كان عمالا ، وكان غالب الأمراء فى نكد بسبب فقد أولادهم .

وفيه تزايد بالسلطان رخو فى جفونه ، فجمع الأطباء والكحاليين وعقدوا له مجلسا بسبب ذلك الرخو الذى فى جفونه ، فاجتمع رأى الحكماء والكحاليين على أنهم بقصوا من جفنه ما طال ، فلم يوافق السلطان على ما قالوه من قص جفنه ، فطلعت اليه امرأة تركية وقالت له : « أنا أداويك من غير أن أقص جفنك بشىء من الفسولاد » .

فأقامت عند السلطان مدة وهى تعالج فى عينه .

وفى يوم الاثنين تاسعه جلس السلطان فى شباك الأشرفية التى بجوار الدهيشة ، وعرض جماعة من المماليك السيفية وغير ذلك من أولاد الناس ، وكتب منهم نحو من ثلاثمائة مملوك بأن يتوجهوا الى السويس صحبة الأمير أركماس أمير مجلس والأمير قانصوه أبو سنة ، بسبب الكشف على المراكب التى عمرها السلطان هناك واستعجال سرعة العمل فى ذلك ، ثم إن السلطان عين الأمير مغلباى الزردكاش الكبير وعين معه ثلاثين انسانا من الزردكاشية بأن يتوجهوا الى نحو السويس صحبة المكاحل التى يرسلها السلطان الى هناك ، وعين معهم جماعة من التجارين والحدادين ، وعين معهم جماعة من الرماة بالبندق الرصاص وجماعة من النفطية ، ورسم لهم بأن يخرجوا الى هناك بسرعة من غير نفقة فتضرروا من ذلك ، ثم بلغ السلطان أن المماليك المتعنين الى السفر قد صمموا على عدم السفر ،

وكان منهم ناصرية وظاهرية وأشرفية وعادلية وغير ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء عاشره نزل السلطان الى الميدان وجلس به ورسم بعرض الممالك المعينة الى السفر ، فلم يطلع منهم في ذلك اليوم أحد ، فبلغ السلطان أنهم قالوا : « نحن نساfer بلا نفقة سموت في البزاري بالجوع والعطش » . فتأكد السلطان في ذلك اليوم الى الغاية ، وقام من المجلس سريعا ، وكان في غاية التشويش بسبب عينه ، وأشيع في ذلك اليوم الركوب على السلطان .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره نزل السلطان وتوجه الى المطرية وكشف على العمارة التى أنشأها هناك ، ثم أقام في قبة يشبك التى هناك الى بعد العصر ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم الخميس ثانى عشره جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن اسمعيل شاه بن حيدر الصفوى ملك العراقين قد خرج عليه بعض أعدائه من ملوك التتر ، فتحارب معهم فانكسر الصفوى وقتل من عسكره نحو من ثلاثين ألفا ، وأن الصفوى جرح وفقد ولم يعلم له خبر ، فكاتب السلطان بهذا الخبر سبعة من النواب ، فلما سمع السلطان هذا الخبر سر به .

وفيه توفى الرئيس عبد القادر القطبى ، وكان من أعيان الأطباء .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره نزل السلطان وتوجه الى المقياس وصلى هناك صلاة الجمعة ، وتوجه الى هناك قاضى القضاة الشافعى وخطب به في جامع المقياس وصلى صلاة الجمعة هناك ، وأقام بالمقياس الى بعد العصر ، ثم عاد الى القلعة ، فتزايد به رخو الجفون في عينه وأشيع بين الناس أنه قد عمى وغارت عينه ، فاحتجب أياما عن الناس في القبة

الأشرفية ، وكرر القال والقال بين الناس بسبب ذلك ، فتعطلت الناس في هذه المدة من المراسيم لأجل قلة العلامة وعدم المحاكمات ، حتى أشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يحلج نفسه من الملك ويولى ولده عوضا عنه لأجل العلامة على المراسيم والمحاكمات ، فلم تتم تلك الاشاعة التى أشيعت بين الناس بذلك . ومما بلغنى من بعض اخصاء السلطان أنه لما تزايد به هذا العارض في عينيه واضطربت به الأحوال ، كان يقف في شباك قبة الأشرفية بطول الليل ويتضرع الى الله تعالى ويهول . « يا من لا يوصف بالظلم والجور ، ارحم عبدك قانصوه الغورى » . ثم يقول : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . وكان يكثر من قول : يا بصير يا بصير ، وقد خشى مما شاعت به أعداؤه ، ونسى ما قدمت يداه ، وقد قلت في معنى ما وقع له :

سلطاننا الغورى غارت عينه

لما اشترى ظلم العباد بدينه

لا زال ينظر أخذ أرزاق الورى

حتى أصيب بأفة في عينه

وفيه شاوروا السلطان على إعادة الدكك التى على أبواب الحكام فلم يوافق على اعاتها ، وقال : « أنا تركت ما كان على الحسبة من المجامعة والمشاهرة وكانت بنحو ثلاثين ألف دينار في كل سنة ، فكيف ما تبطل الأمراء ما كان يحصل لهم من أمر الدكك ؟ » .

وكان الطعن قد أخذ في التناقص قليلا .

وفي يوم الاثنين سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر .

وفي ذلك اليوم طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاء القاع ست أذرع وست عشرة أصبعا ، فلما أنفق السلطان الجامكية لم يحضر تفرقة الجامكية

الى آخرها ، وكان ذلك اليوم في غاية التشويش من عينه .

وفيه توفي شخص كان من العوانية الخوارج ، يقال له محمد بن طاهر ، يرافع الناس عند السلطان ، فلما وقع الطاعون بمصر طعن ابن طاهر هذا ومات بالطعن ، فأراح الله تعالى المسلمين منه ، فعد موته من حسن الزمان .

ومما وقع له في المرافعة أنه رافع امرأة جارية بيضاء يقال لها زوجة اينال باى ، وكانت ساكنة في درب الحجر بالقرب من قنطرة سنقر ، فرافعها بأن عندها مالا وديعة لبعض الأمراء فطمعت عليه ، فلما سمع السلطان ذلك أرسل قبض على تلك المرأة ورسم عليها عشرة آلاف دينار ، فباعته جميع ما تملكه وأوردت من ذلك شيئا ، فلما رأت أنها لم تقدر على ما قرر عليها من المال وصارت في الترسيم شنقت نفسها بيدها تحت الليل ، ووقعتها مشهورة بين الناس ، ولو عاش ابن طاهر هذا لظهر منه للناس غاية الضرر ، فعجل الله تعالى بروحه الى النار ، كما يقال :

زبانية النيران تكره وجهه

ومنه استعاذت مذ رأته جهنم

ويقال ان ابن طاهر هذا كان من أقارب ابن علم الدين رأس باش الأوجاقية .

وفي يوم الاثنين ثالث عشره قويت الاشاعة بالركوب على السلطان ، ولم يفتح في ذلك اليوم باب السلسلة ولا باب المدرج ولا باب الميدان ، ووزعت الأمراء قماشهم وغالب الناس ، واضطربت الأحوال على السلطان وضاق به الأمر حتى صار يدعو على نفسه بالموت . ثم ان السلطان أرسل خلف الأتابكي سودون العجمي وبقية الأمراء . فلما طلعوا الى القعلة جلس السلطان معهم في

الدهيشة وعينه مرفودة بخرقه بيضاء ، ثم التفت الى الأمراء وقال لهم : « بلعنى أنكم بنوزعوا قماشكم » . فقالوا له : « نعم قد بلغنا أن المماليك الجلبان يقصدون قتلنا ونهب بيوتنا فلما سمعنا ذلك وزعنا قماشنا » . فلما سمع السلطان ذلك أحضر مصحفا وحلف عليه بأنه لا يخونهم ولا يغدرهم ولا يمسك منهم أحدا ، ثم انه حلف الأمراء أيضا بأنهم لا يخامرون ولا يركبون عليه ، فحلفوا بذلك على المصحف ، ثم قامت الأمراء من عنده وانفض المجلس .

فلما نزلت الأمراء رسم السلطان للوالى بأن ينادى في القاهرة للناس بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن أحدا من الناس لا ينقل له قماشا من مكان الى مكان ، ومن فعل ذلك شق من غير معاودة ونهب ما معه من القماش ، وأن لا مملوك ولا غلام ولا عبد يمشى من بعد المغرب بسلاح ، ولا مملوك يعيث على سوقى في دكانه ولا متسبب . ثم بعد ذلك قبض الوالى على غلام الأمير ماماي جوشن أحد الأمراء المقدمين ، فلما قبض عليه بالليل وجد معه بغال محملة قماشا فاخرا ، فأخذ منه القماش وأمر بشنقه حتى شفيع بعض من كان مع الوالى من الأمراء حتى أطلقه ، وقيل عرض على السلطان فأمر بضربه بالمقارع فشفع فيه بعض الأمراء ، وكان الوالى في مدة توعك السلطان يطوف في القاهرة من بعد العشاء ومعه جماعة من الخاصكية نحو من مائة انسان ، وكان غالبهم لابس زرديات وفي أيديهم رماح ، فيطوف في كل ليلة المدينة والحارات والأزقة ويقبض على من يجده يمشى من بعد العشاء .

ومن الحوادث أن جماعة من الصنائع دخلوا الى الزردخاناه ليصحنوا البارود ، فصعد منه الدخان فأحترق سقف الزردخاناه وعملت فيه النار ،

فاضطربت القلعة لذلك ، وكان السلطان في شباك
الأشرفية فقام واختفى من عظم الدخان ، فاحترق
من الصناعات ثلاثة أنفار حتى ذاب لحمهم عن عظمهم
من النار فنزلوا بهم الى بيوتهم فقاموا ثلاثة أيام
وماتوا الثلاثة قاطبة ، فتفاءل الناس بأن حرق
الزردخانه فأل على السلطان .

ولما تزايد بالسلطان ذلك العارض في عينه طلع
ال خليفة وسلم عليه ، فأشيع بين الناس بأن السلطان
أرسل خلف الخليفة ليخلع نفسه من الملك ويولى
ولده ولم يكن لهذا الكلام صحة ، فاضطربت
الأحوال لذلك ، فسلم الخليفة على السلطان ونزل
الى بيته ، فلما نزل خمدت تلك الاشاعات الفاسدة .
وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه جلس السلطان في
القبعة الأشرفية وحضر عنده الأتابكي سودون
العجمي وعلم على المراسيم وحكم وهو جالس في
الشباك ، وأظهر أنه قد شفى من ذلك العارض والا
لما حاذر على عينه الأخرى التي كان ينظر بها ،
وفي هذه الواقعة يقول محمد بن قانصوه بن صادق :

شفاك الله يا ملك البرايا

من الداء الموكل بالعيون

وأذهب عنهما باللفظ منه

سقاما محدثا رخو الجفون

لتبقى في هناء بها قريرا

قريبا والتحرك في سكون

بمن لقتادة قد رد عيننا

وقال كأختكى في الحسن كوني

ومن رمد بتفلقته عليا

شفى في الحال من ألم مبين

ثم ان جماعة من الكحالين قالوا للسلطان :
ما تصح عينك حتى تقطع ما طال من جفنك ، فامتنع

السلطان من ذلك فأحضروا قدامه أربع أنفاس بهم
رخو في جفونهم ، وكان فيهم شخص يسمى
سيدى محمد بن منكلى بغا فقصوا جفنه بحضرة
السلطان على أنه يشجعه على ذلك ، فلم يوافق
السلطان على القص ، فأقام الناصرى محمد
ابن منكلى بغا أياما وشفى مما كان به في عينه وطلع
الى السلطان فرأى عينه وقد طابت .

وفي يوم الأربعاء خامس عشرينه تزايد الأمر في
الاشاعة بالركوب على السلطان ، فلما بلغ السلطان
ذلك نزل الميدان وجلس به وأرسل خلف الأمراء
قاطبة ، فلما طلوعوا اليه وبخهم بالكلام وقال لهم :
« ما هذه الاشاعة التي تبغى عنكم في أمر
الركوب على ؟ ان كان عندكم من تسلطوه فأنا
أخلى لكم القلعة وأنزل أقعد في جامعى الى أن
أموت » ، فقام له الأمراء قاطبة وباسوا له
الأرض واستغفروا له ، ثم التفت الى الأمير
أركماس أمير مجلس ووبخه بالكلام ثم قال له :
« الزم بيتك » . والتفت الى قائمى باى قرا أمير
آخور كبير ووبخه بالكلام وأغلظ عليه في القول لأمر
بلغه عنه في أمر الركوب ، ثم التفت الى الأمير أنص
باى والأمير تمر والأمير سودون الدوادارى
والأمير علان ووبخهم بالكلام لأمر بلغه عنهم ، ثم
ان المماليك الجلبان صارت متفحمة على مسك
الأمراء في ذلك اليوم ، فما نزلوا من القلعة وفي
عينهم قطرة وقد ملثوا منهم رعبا ، فلما نزلوا من
القلعة أشيع الركوب على السلطان ووزع الأمراء
قماشهم في الحواصل .

واشتد وجع عين السلطان وارتخى جفنه على
عينيه واحتجب عن الناس فى الأشرفية أياما ، وكثر
القييل والقال بين الناس ، وأشيع أن السلطان قد
عمى فصار يجلس في شباك الأشرفية قدر درجة
حتى ينظره الناس ، فكانت الكحالين يصنعون له

رفادة على عينيه وفي الرفادة لزق بملوكات حتى يرتفع جفنه قليلا عن عينه وينظر الناس ما دام جفنه مرتفعا فاذا قلعت تلك اللزق ارتخى جفنه كما كان أولا .

وفي يوم الخميس سادس عشرينه توفي شخص من الأمراء العشراوات يقال له جان بلاط بن تعرى بردى ، وكان أصله من ممالك الملك الأشرف قايتباى .

وفي يوم الجمعة سابع عشرينه لم يخرج السلطان ولا صلى الجمعة ، وكثر الاضطراب بسبب ذلك . وفي يوم السبت ثامن عشرينه فرق السلطان على ممالكه سيوفا وزرديات ، وصاروا يياتون في القلعة كل ليلة ومعهم آلة السلاح ، والاشاعات قائمة بوقوع فتنة كبيرة وأن السلطان يقصد القبض على بعض الأمراء ، فأخذت الأمراء حذرهم من السلطان وصاروا لا يطلعون القلعة الا قليلا . وفي هذه المدة أشيع بأن السلطان أرسل الى نجر الاسكندرية مراسم بأن نائب الاسكندرية يضيق على الظاهر قانصوه وهو في السجن ويمنع عنه من كان يدخل اليه من الناس حتى من غلمان الذين كانوا يدخلون عليه ، وصار الظاهر في غاية الضنك ، وقيل ان الأمراء يقصدون عوده الى السلطنة ، فأشيع ذلك حتى أرسل السلطان ضيق عليه .

وفي يوم الأحد تاسع عشرينه أراد السلطان بأن يظهر العدل بين الناس فجلس في شبالك الأشرية وأمر بعرض المحاييس الذين في الحبوس ، فلما عرضوا عليه من في الحبوس الأربعة أمر بعرض من في البرج الذى بالقلعة ومن كان بالعرقانة التى بالحوش السلطاني . فلما عرضوا عليه أمر بإطلاق جماعة منهم ممن كان بالعرقانة ، وهم : الأمير تغرى بردى الترجمان ، والجمالى يوسف بن

أبى أصبع الحلبي وكان من جملة أخصاء السلطان ، ثم نغير خاطره عليه وجرى عليه شذائد ومحن .

وأطلق صهره عبد الرحمن ، وكان له مدة طويلة وهو في العرقانة ورسم السلطان بأنه لا يحلق له رأس ولا يقص له أظفار ، فلما خرج من العرقانة طال شعره حتى صار مثل شعر النساء فعجب منه الناس لما خرج ورأوا شعره .

وأطلق ابن الخولى المتحدث وكان مسجوناً بسبب الممالك الدين فتلوا في باب اللوق . وكان من أمراء الشام . ومن في المقشرة وبقيّة الحبوس جماعة كثيرة منهم الرئيس كمال الدين ابن شمس المزين ، وكان من أخصاء السلطان ، ثم نغير خاطره عليه فسجنه في المقشرة .

وأطلق الشيخ شمس الدين بن روق بعد ما جرى عليه شذائد ومحن ووافعته مشهورة . وأطلق الخواجا شمس الدين الحلبي التاجر ، وأطلق شخص يسمى تمر باى أبو قورة الذى كان أمير الحاج بالركب الشامي وكسره الجازاني ، فغضب عليه السلطان لكونه فرط في أمر الحاج حتى نهب الركب الشامي فأقام في البرج مدة طويلة نحو من عشر سنين .

وأطلق الأمير قنبك الشيخ أحد الأمراء العشراوات وكان في البرج لأمر أوجب ذلك .

وأطلق يخشباى الكاشف خازندار الأتابكي قرقماس ، وكان نغير خاطر السلطان عليه فسجنه ، وأطلق تانى بك ، وشيخ العرب عبد الدائم ابن الأمير أحمد بن بقر ، وكان له مدة وهو في البرج مقيدا بموجب عصيانه على السلطان فضمنه لأبيه وأطلقه وخلع عليه .

وأطلق ابن فتوح برددار الأمير حسين نائب جدة وكان نغير خاطر السلطان عليه كونه أحدث أشياء كثيرة من المظالم بجدة .

وأطلق يحيى بن أحمد بن قراكر أحد الزردكاشبة وكان السلطان سجنه بالمقشرة لما هرب أبوه وواقته مشهورة .

وأطلق شخصا يسمى محمد سكيكر وكان أشيع عنه أنه قد قتل أباه فلما عرضوه على السلطان أطلقه وقال : « اذا كان يوم القيامة ، هو وأبوه يتحاكمان بين يدي الله تعالى » .

وأطلق بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط وكان مسجوناً على مال فلما أطلقه من المقشرة سلمه للزنى بركات بن موسى حتى يغلق ما عليه من المال .

وأطلق أخاه نجم الدين قاضى أسيوط أيضاً وولده محمد ، وأطلق شخصاً شريفاً كان من منفلوط وقد اتهم بقتل شخص ، وأطلق شهاب الدين المرقبى الذى كان متحدثاً فى أوقاف الزمامية وسجنه السلطان على مال ، وأطلق محمد بن العظمة الذى كان ناظر الأوقاف وكان ناظر الخاص وسجنه لكونه قد سعى عليه فى نظر الأوقاف .

وأطلق ابن الطحاوية أحد مشايخ عربان الشرقية ، وأطلق محمد بن سودون السودونى وكان له مدة طويلة وهو فى السجن بسبب احضار مكتوب وقف ، وأطلق الشبراوى التاجر . وفى ذلك اليوم أطلق جماعة كثيرة من مشايخ العربان والمدركين والفلاحين والغلمان ممن كان عليه مال أو دين فسامحهم بذلك جميعه ، وأطلق من كان فى سجنه قاطبة دون من سجن فى أيام غيره ، حتى الحرامية استتوبهم وأطلقهم ، حتى أصحاب الجرائم والزغلية والعمال ممن عليه مال منكسر ، فأطلق فى ذلك اليوم واحداً وثمانين انساناً ، وأظهر العدل فى ذلك اليوم جداً حتى ارتفعت له الأصوات بالدعاء وكبر من كان حاضراً فى الحوش السلطاني من الجهم الغفير من الناس حتى سمعهم من الجبل المقطم ، وكان

يوماً مشهوداً ، فانطلقت النساء له بالزغاريت فى الحوش وضجت له الرعية بالأدعية السنية .

ثم فى ذلك اليوم شاوروه على إعادة الدكك التى كانت على أبواب الحكام فلم يوافق على ذلك وقال : « الذى له حق يتوجه بغريمه الى الشرع ، والحرامية يتوجهون بهم الى بيت الوالى » .

وفى ذلك اليوم أشهر السلطان المناداة للعسكر بالعرض ولا يتأخر منهم لا كبير ولا صغير ، فصار العسكر لا يدرون ما سبب هذا العرض ، وكان الطعن قد أخذ فى التناقص عما كان .

وفى جمادى الأولى طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وجلس السلطان فى المقعد الذى بالميدان ، وطلع اليه العسكر والأمراء قاطبة من كبير وصغير ، فلما قام الخليفة والقضاة وانصرفوا رسم السلطان باحضار المصحف العثماني فتوجه لاحضاره ألماس دوا دار سكين ، فلما أحضروه بين يدي السلطان تقدم القاضى كاتب السر محمود بن أجا وحلف عليه الأمراء المقدمين قاطبة ثم الأمراء الطبلخانات ثم جماعة من الأمراء العشراوات ، فحلفوا على المصحف العثماني بأنهم لا يخامرون على السلطان ولا يركبون عليه ولا يثيرون فتنة بين الماليك وبين السلطان ، فلما حلفوا حلف لهم السلطان أيضاً بأنه لا يغدرهم ولا يخونهم ولا يمسك أحداً منهم لا كبيراً ولا صغيراً ، ثم أحضروا الأمير أركماس أمير مجلس فحضر وهو بتخيفة صغيرة ، وقد تقدم القول على أن السلطان تغير خاطره عليه وقال له ، الزم بيتك أو توجه الى دمياط ، فلما طلع رضى عليه السلطان وألبسه كاملية مخمل أحمر بسمور من ملايسه وأقره فى امرة مجلس على عادته .

فلما نزلت الأمراء التفتت الى العسكر وشرع يأخذ بخواطيرهم وقال لهم : « أنا مقصر في حقكم لا تؤاخذوني ونحن أولاد اليوم فكل من كان له عليق مكسور أو لحم مكسور أصرفه له » ، ثم نادى للعسكر في الميدان بأن النفقة مع الجامكية لكل مملوك ثلاثون ديناراً من كبير وصغير حتى أولاد الناس والأمراء المقدمين ، لكل واحد منهم ألف دينار ، والأمراء الطبلخانات لكل واحد مائتا دينار ، والأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائة دينار ، فلما سمع العسكر ذلك ضجوا له بالدعاء ونزلوا وهم في غاية الجبر من السلطان . وكان سبب هذه النفقة أن السلطان لما حصل له هذا العارض في عينه أشاعوا عنه أنه قد عمى فاتفق رأى الأمراء على خلعه من السلطنة ، وذكر للسلطنة جماعة من الأمراء ثم ذكر الظاهر قانصوه الذي بالسجن بغير الاسكندرية ، وذكر للسلطنة سيباي نائب الشام ، وذكر أيضاً للسلطنة ابن السلطان . وكان العسكر قاطبة مقلوباً على السلطان بسبب أن لهم عليقاً مكسوراً ، وكذلك اللحوم ولم ينفق عليهم شيئاً لما أنفق على ممالكه ، وكانوا يشكون من خراب اقطاعاتهم من جور الكشاف ومشايخ العربان ووزن الحميات فضجوا من ذلك ، فكان كما يقال في أمثال الصادح والباغم وهو قوله :

ومن أضاع جنده في السلم

لم يحفظوه في لقاء الخصم

فالجند لا يرعون من أضاعهم

كلا ولا يحمون من أجاعهم

وأضعف الملوكة طراً عقداً

من غره السلم فأقصى الجندا

فلما رأى السلطان أن العسكر قد تغلب عليه

نادى لهم بالنفقة وشرع يستجلب خواطيرهم مما

تقدم منه قبل أن يتسع الخرق على الراقع .

وفي ذلك اليوم ظهر محمد بن نصر الله الذي كان ناظر دار الصرب واختفى من السلطان مدة طويلة ، فلما أظهر السلطان العدل في هذه الأيام أرسل يطلب منه الأمان فبعث اليه بمنديل الأمان حتى ظهر .

ثم بعده ظهر القاضي شرف الدين الصغير كاتب الممالك وكان له مدة وهو مختف من السلطان ، فلما طلع وقابله خلع عليه ونزل الى داره في موكب حافل ، وكان السلطان قد أرسل اليه منديل الأمان حتى ظهر ولكنه لما خلع عليه لم يعده الى وظيفته في كتابة الممالك كما كان أولاً .

ثم شرف الدين الجويني الذي كان مباشر الأمير أزدمر الدوادر وكان له مدة طويلة وهو مختف فظهر بالأمان من السلطان .

وفي يوم الثلاثاء ثانيه ظهر المعلم على الصغير وأخوه المعلم أحمد ، المعاملين في اللحم ، وكان المعلم على له مدة وهو مختف من السلطان فنادى له بالأمان حتى ظهر هو وأخوه المعلم أحمد .

وفي يوم الأربعاء ثالثه جلس السلطان في شباك الأشرفية وأنفق على الممالك الذين عينهم صحبة الأمير خشقدم شاد الشون ، فأنفق على كل مملوك ثلاثين ديناراً ، وأنفق لكل مملوك جامكية أربعة أشهر ، واستحثهم في سرعة الخروج صحبة قاصد ملك الهند الذي حضر قبل تاريخه .

وفيه ظهر القاضي تقي الدين بن الرومي الحنفي وكان له مدة وهو مختف بسبب ما وقع له من أمر الواقع الكفري الذي وقع فيه ، وكان السلطان متطلبه طلباً حثيثاً ، فلما أفرج السلطان عن المسجونين ظهر في هذه الحركة وقابل السلطان فعفا عنه .

وفي يوم الخميس رابعه شاوروا السلطان في إعادة الدكك التي كانت على أبواب الأمراء

الحكام ، وكان السلطان لما تزايد أمر الطاعون رسم بشيل الدكك من على أبواب الأمراء كما تقدم ، فلما شاوروا السلطان على ذلك قالوا له : « السلطان ما يحكم شيء والأمراء ما بتحكم شيء وضاعت حقوق الناس عليهم » . فعند ذلك أشهر المنادة في القاهرة بإعادة الدكك على أبواب الحكام ، وأن النقباء والرسل لا يجورون على الأخصام في غرامتهم لهم على حق طريقهم ، ولكن المجامعة والمشاهرة التي كانت على الحسبة استمرت بطالة ، وكذلك المكوس التي كانت على القمح والبطيخ وسائر الغلال أبطلها جميعها ، فياليت شعري هل يتم ذلك أم لا !

ثم نادى في القاهرة أن كل من قهر أو ظلم فعليه بالأبواب الشريفة ، وأن لا ظلم اليوم . فارتفعت الأصوات له بالدعاء من الخاص والعام ، وتمنى كل أحد له البقاء على الدوام ، فكان كما يقال في المعنى :

لم يبق للجور في أيامكم أثر
الا الذي في عيون الغيد من حور

فلما أظهر السلطان العدل شفّعوا عنده في الناصري محمد ابن بنت جمال الدين ، وكان السلطان تغير خاطره عليه بسبب واقعة ابن قجق فرسم السلطان بنفيه الى الواح . فلما شفّعوا فيه رسم باحضاره الى مصر ، ثم رسم باحضار شبك حبص الالينالى وكان نقاه الى الصعيد بسبب الأتابكي قيت الرحبي . كونه كان عشيره ، ورسم باحضار ابراهيم بن السكر والليمون وكان تغير خاطر السلطان عليه ورسم بنفيه الى مكة ، فلما شفّعوا فيه رسم بعوده الى مصر .

ومما فعله من وجوه البر والاحسان أن وقف له القاضي فخر الدين بن العفيف الذي كان كاتب

الماليك ، فلما وقف له شكاه من ضيق حاله فرسم له بجامكية ألفى درهم في كل شهر وزبديتين لحم في كل يوم ، ورسم بإعادة جامكية الناصري محمد بن الشهابي أحمد بن أسنغا الطياري الذي كان أمير شكار وكان تغير خاطر السلطان عليه ورسم بنفيه الى قوص وقطع جامكيته ، فلما رضى عليه أعاده الى مصر وصرف له ما قطع من جامكيته .

ثم ذكر له الشرفي يونس النابلسي الذي كان أستاذارا وعزل عنها فسامحه بما بقى عليه من مال المصادرة ، وقيل انه رتب له على الجوالى في كل شهر ثلاثة آلاف درهم ورسم له بإعادة بلد في نابلس كانت أخذت منه في المصادرة ، بعد ما قاسى شدائد ومحن فمظف عليه ورتب له ذلك ... هذا على ما قيل وأشيع بين الناس ولم ألزم صحة ذلك .

وقيل ان السلطان فرق في هذا الشهر نحو من ثلاثة آلاف دينار على مجاورى جامع الأزهر والزوايا التي بالقرافة والمزارات ، وفعل في هذا الشهر أشياء كثيرة من هذا النمط من وجوه البر والاحسان حتى عد ذلك من النوادر الغريبة .

وأشيع بين الناس أن السلطان قد رد لبعض جماعة من أولاد الناس ما كان أخرجه عنهم من اقطاعاتهم ، ووعد برّد الجوامك التي قطعت للنساء والأيتام بواسطة الأتابكي قيت الرحبي أن يعيدها اليهم عن قريب . ومما وقع لى أننى امتدحت السلطان نصره الله تعالى بقصيدة سنية ومن جملة أبياتها :

قد أظهر العدل في الرعايا
وأبطل الجور والمظالم
هذا الذي عنه أخبرتنا
طوالح النجم والملاحم

يصير الشاة في حماء
تمشى مع الأسد والضراغم

فلامنى الناس على قولى :

قد أظهر العدل فى الرعايا

وأبطل الجور والمظالم

وكان السلطان فى فوة عسفه على الناس فى تلك
الأيام فما عن قريب حتى أظهر السلطان هذا العدل
العظيم الذى وقع منه فى هذه الأيام ، فكان الفأل
بالمناطق فى اظهار عدله وقد ألهمه الله تعالى
الى ذلك .

وفى يوم السبت سادسه جلس السلطان فى
شباك الأشرفية وفرق على مماليكه الذين أخرج
لهم الخيل والقماش ففرق عليهم فى ذلك اليوم
سيوفا وأفواسا وتراكيش ونشابا وزرديات ،
وكانوا نحوا من ثلاثمائة مملوك . وفى اليوم الثانى
فرق على ثلاثمائة آخر .

وفى يوم الأربعاء عاشره ابتدأ السلطان فيه
بتفرقة النفقة على الأمراء المقدمين ، فأرسل أولا
الى الخليفة المتوكل على الله ألف دينار على يد
بدر العادلى فراش الخزانة ، فلما أحضر للخليفة
ألف دينار ، ألبسه كاملية صوف بسمور وأعطاه
خمسین ديناراً ، ثم أرسل للأتابكى سودون
العجمى ألفى دينار ، وأرسل لبقية الأمراء المقدمين
لكل واحد منهم ألف دينار ، وأرسل للأمراء
الطبلخانات لكل واحد منهم مائتى دينار ، وأرسل
للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائة دينار .

وفى يوم الخميس حادى عشره ابتدأ السلطان
بتفرقة النفقة على العسكر فأعطى لكل مملوك
ثلاثين ديناراً .

وفى يوم الجمعة ثانى عشره خسر ج الأمير

خشقدم شاد الشون الذى تعين صحبة قاصد
الهند . وفى ذلك اليوم توفى شخص من الأمراء
العشراوات يقال له شاهين ، وكان كاشف البحيرة .
وفى يوم الاثنين خامس عشره فرق السلطان
الجامكية على العادة ومعها النفقة ، فأعطى ثلاثين
ديناراً لكل مملوك ، وأعطى للعواجز منهم عشرين
ديناراً ، وللشيوخ الضعفاء منهم عشرة دنائير ،
وأنفق على المماليك الكتائية لكل مملوك خمسة
دنائير ، وأنفق على بعض جماعة من الأيتام ممن له
جامكية أشرفى فأعطاهم أشرفيين ، وأعطى لمن نه
جامكية ألف عشرة دنائير ، فقليل كان جملة هذه
النفقة على ما قيل ثلاثمائة ألف دينار ، وقيل فوق
ذلك ، حتى عدت هذه النفقة من النواذر الغريبة
كونه صرف ذلك بطيب من خاطره من غير كره
منه ، فكان كما يقال فى المعنى :

كأنه فى العطاء بحر ندا

وبذله النقد فيه تيار

ان استمال القلوب لا عجب

الله عند القلوب أسرار

قد راقب الله خشية وله

عند اكتساب الثواب أوطار

ثم انه فى يوم الثلاثاء سادس عشره نادى فى
الحوش بأن كل من كان قطعت له جامكية من رجال
أو نساء فيطلع فى أول الشهر حتى ينظر السلطان
فى حالهم ويرد لهم ما قطع لهم ، فارتفعت الأصوات
له بالدعاء فى ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس ثامن عشره رسم السلطان بأن
يبطل ما كان على الخانكاه من المشاهرة والمجامعة
التي كانت على الحسبة .

وفيه أرسل السلطان للخليفة المنفصل المستمسك
بالله يعقوب والد المتوكل على الله ، وقد تذكره

وفي يوم الخميس ثانيه خرج الأمير أقبای الطويل أمير آخور ثاني الذي عينه السلطان بأن يتوجه قاصدا الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، فخرج بطلب حافل ، وهذا قط لم تتفق لقاصد قبله أنه خرج على هذه الهيئة الجميلة حتى عد ذلك من السوادر ، فشق ذلك الطلب من داخل الميدان حتى نظر اليه السلطان وهو جالس في المقعد الذي بالميدان .

وفيه حضر قانصوه العادلي كاشف الشرقية وصحبته شخص من أولاد شيخ العرب ابن قرطام يسمى صالح ، وهو من بني حرام ، فسلخ جلده وحشاه تبنا ، وأركبوه على فرسه وألبسه زملطه على رأسه وألبسه كبرة حرير ، وكان شابا جميل الهيئة فتأسف عليه الناس ، فلما عرضه على السلطان شق ذلك عليه ولم يكن يرسم بسلخه قبل ذلك ، فلما جرى ذلك ثارت العربان في البلاد وقطعوا جسر الحلفاية فساح على الأرض في غير مستحقته وكان ذلك ليالى الوفاء .

وفي يوم الجمعة ثالثه خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة وهو بالشاش والقماش وكان له نحو من ست جمع لم يخرج ولم يصل الجمعة بسبب ذلك العارض الذي حصل له في عييه ، فشال الرفادة عن عينه وخرج وصلى الجمعة ، فسر الناس لذلك وتخلقت الخدام بالزعفران وكذلك الغلمان ، وكان شفاؤه على غير القياس ، وكانوا أشاعوا عنه أنه قد عمى لا محالة .

وفي يوم الأحد خامسه كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك رابع عشر مسرى ، فأوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع من سبع عشرة ذراعا ، وكان عرس النيل ، وفتح السد في يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة الموافق لخامس عشر مسرى ، وفي ذلك يقول القائل :

السلطان ، فأرسل اليه نفقة خمسمائة دينار على يد الأمير طقطبای نائب القلعة ، ورسم بأن أحدا لا يكلفه بشيء . فلما نزل اليه الأمير طقطبای قال له : « السلطان يسلم عليك ويقول لك ادعوه له وابرى ذمته ولا تؤاخذ به بما وقع منه في حقك » . فكان في حظ نفس ، فقال له : « والله أنا داعي للسلطان وخاطري طيب عليه وما حصل منه الا خير » . وقد تقدم القول على أن السلطان لما ترفع سيدى خليل مع الخليفة يعقوب تعصب السلطان لسيدى خليل وقال للخليفة يعقوب : « أنت ضعيف النظر فلا تصح ولايتك على المسلمين » . وكسر بخاطره وغرمه مالا وخلعه من الخلافة بغير ذنب كما تقدم ذكر ذلك ، فلما حصل للسلطان هذا العارض في عينه ظن أن ذلك بخطيئة الخليفة يعقوب ، فأرسل الأمير طقطبای نائب القلعة وأحد الأمراء المقدمين يتعطف بخاطره ويسأله له الدعاء وأرسل اليه خمسمائة دينار ... فعد ذلك من النوادر .

وفي يوم الاثنين تاسع عشرينه أنفق السلطان على أولاد الناس والتراكمة الذين في الطبقة الخامسة المستجدة ، فأعطى لكل مملوك عشرة أشرفية ، وأعطى لجماعة منهم ثمانية أشرفية ، وأنفق عليهم النفقة مع الجامكية ، وفي ذلك اليوم فرق السلطان على ممالিকে أتراسا وخودا وكثرت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة .

وفي جمادى الآخرة طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان السلطان بالميدان ، ففرق في ذلك اليوم على جماعة من المماليك القرائصة خيولا نحو من ألف فرس ، وذلك لمن كان له فرس في الديوان مدونا ومات .

قد وفا النيل رابعا عشر مسرى

قبلا بشره فلوب العباد

جاء فى وقته اذا قلت أهلا

بحبيب قد جاء فى الميعاد

فرسم السلطان للأتابكى سودوئ العجمى بأن
يتوجه ونفتح السد على العادة ، فكان له يوم
مشهود ، فلما عاد من فتح السد كان له موكب
حافل ومشت قدماه الأفيال الكبار وهى مزينة
بالصناجق والطبول ، فطلع الى القلعة فألبسه
السلطان خلعة على جارى العادة

وفى يوم السبت حادى عشره ركب السلطان
ونزل من القلعة ، ولم يركب من حين حصل له ذلك
العارض فى عينه ، فلما ركب سير نحو المطرية
وكشف على العمارة التى أنشأها هناك ، فمد له
الزىنى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة
حافلة ، وأقام بقبة الأمير يشبك الى بعد العصر ،
ثم عاد الى القلعة ولم يشق من القاهرة ، وكانت
الناس شرعوا فى الزينة على أنه يشق من القاهرة ،
فقطع من بين الترب ولم يشق من المدينة فى ذلك
اليوم .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره نزل السلطان الى
الميدان وجلس به ، وخلق على الأمير حسين نائب
جدة وأقره فى نيابتها على عادته وسافر من يومه .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان الأيتام من
الرجال والنساء فرد لجماعة منهم ما قطع من
جوامكهم ، وذلك بحكم النصف ، فرد منها شيئا
يسيرا .

وفى يوم الخميس سادس عشره جلس السلطان
على الدكة التى بالحوش وحكم بين الناس وأنفق
الجامكيه ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر لم يجلس
على الدكة ولا حكم بين الناس بالحوش على

جارى العادة . وقد هنيته بهذين البيتين لما شفى
من ذلك العارض الذى حدث له فى عينه من رخوا
الجفون ، فقلت فى ذلك مع اظهار التورية :

بعافية السلطان قرت عيوتنا

ونال الورى منه بلوغ المقاصد

وقالوا به عين أصابت لعينه

فلما شفى غارت عيون الحواسد

فلما قرئنا على السلطان استحسناها وابتهج
بهما

وفى يوم السبت ثامن عشره جاءت الأخبار بوفاة
الناصرى محمد ابن بنت جمال الدين أستاذار
العالية ، وكان من أعيان أولاد الناس ، وجرى
عليه شدائد ومحن ، ونفاه السلطان الى الواح
بسبب جاريه ابن فجق كما تقدم ذكر ذلك . فلما
أظهر السلطان العدل وأطلق من فى السجون قاطبة
شفع بعض أخصاء السلطان فى ابن بنت جمال
الدين فرسم بأحضاره من الواح ، فلما وصل الى
منفلوط مرض هناك ومات فدفن بمنفلوط ولم
يدخل الى مصر .

وفى يوم الاثنين عشرينه حضر الى الأبواب
الشريفة نائب طرابلس ، وهو أبرك مملوك
السلطان ، فحضر هو وعياله بطلب من السلطان ،
فاستمر بالقاهرة حتى يكون من أمره ما يكون

وفى يوم الأربعاء ثانى عشرينه نزل السلطان
وتوجه الى المطرية ، ثم فتح سد الأميرية بنفسه ،
فدخل الماء الى الملقة ثم رجع وشق من باب الشعرية
فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وارتفعت
له الأصوات بالدعاء ، فطلع من على الناصرية
وقناطر السباع وشق من الصليبة ، ثم طلع الى القلعة
وهو فى غاية السودنة ، وقد وقت له العوام
وتسيبوا عليه بسبب الفلوس الجدد ، وقد وصل

سرف النصف الفضة الى عشرين من الفلوس الجدد ، وصارت البضائع باع بسعين سعر بالفضة وسعر بالفلوس ، وتشحط الخبز من على الدكاكين فى تلك الأيام ، وغلقت الأسواق بسبب الفلوس ، وحصل للناس غاية الضرر .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى طومان باى أمير دوا دار كبير ، وكان مسافرا فى جهات بلاد الصعيد ، فحضر فى ذلك اليوم وصحبته جماعة كثيرة من مشايخ عربان الصعيد والمدركين وجماعة كثيرة من الفلاحين والمزارعين وهم فى الحديد بسبب ما تأخر عليهم من المغل من أيام ابن ثعلب وغيره من المباشرين ، حتى فىل كان عليهم نحو من سبعين ألف أردب من القمح . فلما طلع الأمير الدوا دار الى القلعة ألبسه السلطان خلعة سنية ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه أمير كبير وبقية الأمراء المقدمين والجم الغفير من العسكر ، فلما عرضوا على السلطان هؤلاء الفلاحين والمزارعين وهم فى الحديد قال : « ما بال هؤلاء ؟ » . فقالوا له : « ان عليهم مغل منكسر من السنين الخالية من أيام ابن ثعلب وغيره نحو من سبعين ألف أردب » . فسكت ساعة قال : « أطلقوهم أجمعين فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى » . فارتفعت له الأصوات بالدعاء وكان فيهم الشيوخ والضعفاء والعواجز والصبيان الصغار ، فأطلقوهم من الحديد أجمعين وهو بنظر اليهم ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، فكان أحق بقول القائل :

فاذا سطا ملاء القلوب مهابة

واذا سخا ملاء العيون مواهبا

وفى يوم الأحد سادس عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو المطرية وكشف على العمارة التى

هناك ، ثم أتى الى قبة الأمير يشبك فأقام بها الى بعد العصر ، فمد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة فتعشى بعد العصر وطلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه كان يوم النوروز وهو أول السنة القبطية ، ففى ذلك اليوم قبض السلطان على شخص من الأتراك وقد نقل عنه أنه كاتب نائب حلب وجماعة من النواب بأن السلطان قد عمى ولم صار ينظر شيئا ، فأرسلوا المكاتبات الى السلطان ، فلما أحضر السلطان ذلك المملوك وعرض عليه تلك المكاتبات أنكر ذلك ، فلما قامت عليه البينة بذلك رسم السلطان بضربه ف ضربا مبرحا وتسجنه السلطان بالبرج حتى يقر على من الجأه الى ذلك من الأمراء فلم يقر بشيء .

وفى رجب أكان مستهل الشهر يوم الخميس ، فجلس السلطان بالمقعد الذى بالحوش ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة بهنونه بالشهر .

فلما كان يوم الأحد رابعة نزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس وأقام به الى بعد العصر ، ومد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة فأنشراح فى ذلك اليوم الى الغابة ، وكان النيل يومئذ فى عشر أصابع من تسع عشرة ذراعا .

وفى يوم الثلاثاء سادسه نزل السلطان وكشف على العمارة التى بالمطرية ، فلما عاد شق من المدينة ودخل من باب النصر ، فلما أن وصل الى مدرسته نزل عن فرسه ودخل اليها ، فتوشحت العلمان بالبنود الحرير الأصفر حتى توشح بذلك جماعة من المباشرين ، فنهاهم السلطان عن ذلك ، وأقام السلطان هناك الى بعد الظهر ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الخميس ثامنه خلع السلطان على الزينى بركات بن موسى وأقره فى الجلسة الشريفة

على عادته ، وكان أشيع عزله بسبب اضطراب
البلد لأجل الفلوس ، ثم أن السلطان أشهر المنادة
في القاهرة بأن الفلوس تصرف بالميزان بعدما كانت
معاددة ، فخر الناس في هذه الحركة جملة مال له
صورة .

ومن العجائب أن السلطان لما حصل له ذلك
العارض في عينه جاد مع الناس وأبطل المجامعة
التي كانت على الحسبة والمشاهرة وأشيء كثيرة
من المكوس ، مما كان على القمح والبطيخ وغير
ذلك ، فلما شفى من ذلك العارض وشق من المدينة
ضجت له العوام بسبب الفلوس الجدد ، فلما طلع
الى القلعة حنق منهم ورسم بإعادة المجامعة
والمشاهرة والمكوس التي كانت على القمح والبطيخ
وغير ذلك كما كانت وزيادة ، وقال : « أنا أبطلت
عنهم أشياء كثيرة بنحو ألفين دينار في كل شهر
وهم يتضررون من الفلوس ا » . ثم أن السلطان
شرع في مطالبة من كان عليه بواقي مال من
المصادرات التي تقدم ذكرها واعاد القضاى ابن
ثعلب الى المقشرة بسبب ما تأخر عليه من المال ،
وكان أشيع بين الناس أن السلطان لما كان عليلا
بعينه سامح أرباب المصادرات بما عليهم من
الأموال ، فلم يتم ذلك وشرع يطالب كل من كان
عليه شيء من المال وقد ندم على ما فعله من اظهار
العدل في تلك الأيام ، وقد قلت في معنى ذلك :

سلطاننا مذ كان في ضعفه

يمنحنا عدلا واحسانا

فمذ شفاه الله من دائه

أحدث ظلما فوق ما كانا

فكان الفأل بالمنطق ، ورجع كل شيء الى ما كان
عليه من وجوه الظلم كما كان أولا .

وفي هذا الشهر قوى عزم النيل حتى قطع جسر

أم دينار الذي بأراضى الجيزة وشرق غالب أرضها
بسبب ذلك ، وكان السلطان أمر الوزير يوسف
البدري بأن يهتم بعمارة جسر أم دينار هذا .
فندب اليه شخصا من المباشرين يسمى جمال الدين
فما أبقي ممكنا في الظلم ، وأفرد على كل فدان
بأراضى الجيزة ألف درهم ، فحصل على المقطعين
بتلك النواحي ما لا خير فيه وضاع عليهم خراج
تلك السنة من أجل هذا الجسر ، ولم يفد من ذلك
شيئا ، وشرق غالب الأراضى بالجيزة لأجل ذلك
الظلم .

وفي يوم الأحد حادى عشره أشيع بين الناس
أن شخصا من البرابرة قبض على فرس البحر من
بعض جهات الصعيد وأحضرها بين يدى السلطان ،
فلما أحضرت بين يدى السلطان فرح بها وقيل انه
أطلقها في البحرة التي في الميدان ، وقد أخبرنا
بصفاتها الياس أحد الأمراء الآخورية .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره ترافع أحمد ابن
الصايغ برددار الزينى بركات بن موسى ، ترافع
معه ، وكان الزينى بركات تشكى بأنه يخسر في
تلك الجهات التي في تحدته ، فقال أحمد بن
الصايغ : على السداد ، فخلع عليه السلطان كاملية
وأشرك بينه وبين بركات بن موسى في التحدث
على البلاد التي في تقسيطه والحمايات ، ولم يشركه
معه في التحدث في الحسبة الشرفية .

وفي يوم الخميس خامس عشره أنفق السلطان
الجامكية على العسكر ، فحست الجامكية تسعمائة
دينار فغلقها ابن الصايغ من ماله ، فكان هذا أول
عكسه .

وفي يوم الجمعة سادس عشره توفي شخص من
الأمراء العشراوات يقال له مصرباى بن يشبك .

وفيه ثبت النيل المبارك على أربع أصابع من

عشرين ذراعا وكان فى العام الماضى غلق العشرين ذراعا وزاد ثمانى أصابع من واحد وعشرين ذراعا ، واستمر فى ثبات الى نصف هاتور القبطى .

وفى يوم الأحد تامن عشره نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التى فى المطريه ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى مدة حافله . فتعشى هناك ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره جلس السلطان بالمفعد الذى بالحوش ، وخلع على شخص من الأمراء كان بطالا يقال له جانم بن ولى الدين ، واستقر به نائب طرابلس عوضا عن الأمير أبرك مملوك السلطان بحكم انفصاله عنها ، وجانم هذا تقدم أنه تولى نيابة حماة ونيابة طرابلس قبل ذلك ، وكان السلطان عين نيابة طرابلس الى الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب فلم يوافق على ذلك وأبى ، فخلع السلطان على جانم هذا وأقره فى نيابة طرابلس كما كان قبل ذلك ، وقيل انه سعى فى نيابة طرابلس بستين ألف دينار على ما قيل .

وفى يوم الخميس ثمانى عشره احتجب السلطان ولم يخرج الى الأمراء ، وأشيع أنه قد فص ما طال من جفنه وقطبوه له فتشوش من ذلك .

فلما كان يوم الجمعة لم يخرج ولم يصل الجمعة ورسم للأمراء بالآلا يطلعوا الى القلعة بسبب الصلاة ولا يكلفوا خاطرهم فان السلطان شارب فى ذلك اليوم دواء ، فلم تطلع الأمراء فى ذلك اليوم الى صلاة الجمعة فى القلعة .

وفى ذلك اليوم توفى القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب الممالك وعزل عنها ، فأقام مدة وهو بطل حتى مات ، وكان من أعيان المباشرين وقد قارب الثمانين سنة من العمر ،

وقاسى شدائد ومحننا وصودر غير ما مرة ، وكان أصله من أبناء الأقباط .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بفتح سد أبى المنجا ، فتوجه الأمير كرنباى والى القاهرة وفتح السد على العادة .

وفى يوم الأحد سادس عشره توفى الأمير نافع بن يحشباى أمير شكار كان ، وكان أصله من ممالك الظاهر جصق ، وكان من الأمراء المتراوات وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس تاسع عشره عرض السلطان الممالك الذين قررههم فى الطبقة الخامسة ، وهو العسكر الملقق ، فرسم لهم بأن يعملوا برقمهم ويتوجهوا الى السويس لأجل حفظ المراكب التى أنشأها السلطان هناك ، فقالوا : « نحن ما نسافر بلا نفقة » . فحنق السلطان منهم وقال : « أنا أسافر الى السويس بنفسى » . وقد تقدم القول على أن الفرنج قد زاد تشويشهم على التجار فى البحر الملح وصاروا يخطفون البضائع من المراكب ، وقد ملكوا كمران وهى من بعض جهات الهند . وقد تكامل من مراكب الفرنج فى البحر نحو من عشرين مركبا ، فكثرت الاشاعات بسفر السلطان الى السويس .

وفى شعبان كان مسهل الشهر يوم الجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر على العادة ، فلم يجتمعوا بالسلطان وقيل لهم قد دخل الحمام ، وقد حصل له الشفاء لما قطبوا له جفنه ، وكان السلطان يظن الهلال لا يرى تلك الليلة فدخل الحمام فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت ثمانية نزل السلطان الى الميدان وشال الرفادة عن عينه وجلس وحكم بين الناس ، ورسم للعسكر بأن يصرف لهم العليق شعير ،

وكان يصرف لهم العليق مئتين فرسهم لهم بأن
بصرف العليق شعير .

وفي يوم الاثنين رابعة طلعت الأمراء الى القلعة
على العادة ، فخرج لهم السلطان من الدهيشة وهو
ماشى على أقدامه وقد لبس التخفيفة الكبيرة
المسماة بالناعورة ، وهى الآن فى مقام التاج للملوك
مصر من حين تولى بها الأتراك ، وكانت التيجان
يلبسها ملوك الفرس من الأكاسرة ، فصارت
التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال لسلطين
مصر هى التاج لهم ، كما كان التاج للملوك الفرس ،
وقد جاء فى بعض الأخبار أن العمائم تيجان العرب
وكان السلطان له نحو من أربعة أشهر لم يلبس
هذه التخفيفة الكبيرة ولا جلس على المصطبة التى
يحكم عليها بالحوش ، فلما خرج تمشى وجلس
على تلك المصطبة ، فباس له الأمراء الأرض
وهنوه بلبس التخفيفة الكبيرة ، ثم أحضروا له
بالدواة فعلم فى ذلك اليوم على عدة مراسيم وتقد
عدة محاكمات ، ثم قام وطلع الى المقعد الذى
أنشأه بالحوش ، فلما قام نثر على رأسه المعلم
يعقوب اليهودى خفاف من ذهب وفضة ،
فتخاطفتها الخاصكية وتزاحموا على السلطان حتى
كاد أن يقع من شدة الازدحام . فلما طلع الى
المقعد خلع فى ذلك اليوم عدة كوامل صوف
بسمور ، فخلع على الرئيس شمس الدين بن
القيصونى ، وخلع على الرئيس عبد الرحمن بن
الشرىف الكحال ، وخلع على الرئيس تقي الدين
المنوفى الكحال الذى قطب له عينه ، وخلع على
الرئيس صلاح الدين الشامى ، وقيل رسم لكل
رئيس منهم بمائة دينار ، ثم خلع على محمد مهتار
الطشتخاناه كاملية حافلة بسمور ، وخلع على علم
الدين الحلبى كاملية حافلة بسمور ، ثم ان خوند

زوجة السلطان أرسلت لكل واحد من هؤلاء
المذكورين كاملية حافلة بسمور ، ثم ان الحكماء
صاروا يدخلون الى بيوت الأمراء المقدمين
ويبشرونهم بعافية السلطان فيحلعون عليهم
الكوامل الحافلة ، وكذلك أرباب الوظائف من
المباشرين قاطبة وأخصاء السلطان ، فدخل عليهم
عدة كوامل بسمور حافلة ، وقد قلت لما شفى
السلطان ولبس التخفيفة الكبيرة فى ذلك اليوم
فهنيته بهذين البيتين وهما :

لما شفى السلطان من رمد به
بوسيلة من صاحب المعراج
فتفاءلت كل الأنام بأنه
فى الملك باق يوم لبس التاج
وهناه الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق
بهذه الأبيات :

يا ملكا عدله أرانا
تبسما فى فم الزمان
وقد حباننا بحار جود
يقصر عن عدها لسانى
اهناً بيرة يلى بقاء
مؤيدا مظهر التهانى
لا زلت للملك ذا نظام
تبدي به جوهر المعانى

وفى يوم الاثنين المقدم ذكره حضر الأمير أرمك
الناشف أحد المقدمين ، وكان السلطان رسم له بأن
يقيم فى الفيوم حتى يعمر الجسر الذى هناك ،
فأقام بالفيوم مدة حتى انتهى ذلك العمل من
الجسر ، فلما حضر خلع عليه السلطان كاملية بسمور
حافلة ونزل الى داره ، ولكن حصل منه غاية الضرر
على كل من كان له فى الفيوم رزقة أو إقطاع ،
فأفرد عليهم ثلث خراجهم فى هذه السنة بسبب

عمارة الجسر المقدم ذكره الذى سافر السلطان الى الفيوم بسببه ، فجار الأمير أرزمك على أصحاب الرزق والاقطاع غاية الجور ، وراح على المقطعين خراجهم فى هذه السنة بسبب عمارة هذا الجسر .

وفى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته أعيان المباشرين وأرباب الدولة وهم موشحون بالحرير الأصفر لأجل عافية السلطان ، فشق من القاهرة وقدامه الحكماء بالخلع ، فنادى فى القاهرة بالزينة لأجل عافية السلطان ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، ثم ان الزينى بركات بن موسى أشهر المناداة لسكان بركة الرطلى بأن يصنعوا بها وقدة حافلة ويزينوا الطيقان لأجل عافية الملك . فانطلق سكان بركة الرطلى بالزغاريت وعلقوا فى الطيقان الشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون ... ودارت الطبول والزمور فى المراكب يهنون أعيان الناس من سكان البركة بعافية السلطان ، ثم ان سكان البركة شرعوا فى أمر الوقدة فعلقوا فى الطيقان أحمالا وأمشاطا فيها القناديل ، فاحتفل سكان البركة بوقدة عظيمة ثلاث جمع متوالية ، وصارت فى كل ليلة تدور المراكب بالمتفرجين ، ويقع بالبركة من القصف والفرجة ما لا يحصى وصفه ولا سيما قد صار أمرا سلطانيا . وكان النيل فى أواخره فخرج الناس فى ذلك عن الحد ، وصار يقع فى البركة كل ليلة أمور غريبة من سماع معنى لطيفة ووقدة ونفوط تحرق وأشياء حافلة .

وفى يوم الثلاثاء خامسه زينت القاهرة زينة حافلة ، حتى زينوا داخل الأسواق ، وهم سوق الشرب والباسطية وسوق الحاجب وسوق الفاضل وسوق جامع ابن طولون وسوق مرجوش

وسوق الوراقين وسوق الجواهره وغير ذلك من الأسواق ، وزينوا مصر العتيقه وبولاق حتى زينوا أسواق الخانكاه ، وزينوا حارة زويله وخان الخليلى وغير ذلك من أسواق القاهرة ، ثم ان الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من الأمراء الطبلخانات زينوا أبوابهم بالصناجق والحيام الحافلة مثل زينة العيد ، ثم ان الخليفة زين بابه بستور ضريح السيدة نفيسة رضى الله عنها . ثم ان قضاة القضاة زينوا أبوابهم بالشاخين المحمل والنواميس الحرير ، ولا سيما قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة فانه خرج فى الزينة عن الحد ، فزين بابه بالشاخين الزركش والعنبر فعد ذلك من البدع المنكرة ، ثم ان الزينة أقامت سبعة أيام متوالية ، والكوسات عمالة كل يوم نوبتين باكر النهار وبعد العصر ، وهى بالقلعة وعلى أبواب الأمراء المقدمين . ولم يقع قط بمصر مثل هذه الواقعة فى عافية سلطان ولا أمير ، وهذا من باب الوجهة والزوكره للسلطان ، فان قضاة القضاة زينوا أبواب المدارس التى يسكنون بها حتى باب المدرسة الصالحية وخانقاه بيبرس وغير ذلك من الأماكن الجليلة ، فعاب بعض الناس على التضاة هذه الفعلة ، وقد صنع قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ردكا بأشجار وأحواض جلد على باب الخانقاه البيبرسية ، فعد ذلك من البدع المنكرة وقد قال الناصرى محمد بن فانصوه بن صادق :

لبرئك يا ذا الملك سرت نفوسنا

وقد زينت من بعد ما عطلت مصر

وأصبح نغر الدهر مبتسما لنا

وفى وجنة الدنيا غدا ينظر الشر

وكان سبب ايساع هذه الزينة أن الأخبار قد شاعت فى البلاد الشرقية والغربية بأن السلطان قد

عمى بعينه الاثنتين ، فأراد السلطان اظهار هذه الزينة حتى يشاع في البلاد أن السلطان قد شفى وزال عنه الألم الذي كان في عينيه ، فأمر بزيينة القاهرة ودق الكوسات حتى يشاع ذلك بدق الكوسات بالقلعة وعلى أبواب الأمراء .

وفي يوم الخميس سابعه جلس السلطان على المصطبة بالحوش وعين في ذلك اليوم خمسة أنفس من الأمراء المقدمين بأن يعملوا يرقهم ويتوجهوا الى السويس ، ثم بطل ذلك فيما بعد ولم يسافر منهم أحد ، وكان أشيع سفر السلطان بنفسه الى السويس ولم يتم ذلك ، فشرع يقول للعسكر والأمراء : « جهزوا يرقكم فاني أسافر نصف الشهر » ، وصنع أربع محفات ، وجعل يعرض نوب هجن وبغال وغير ذلك .

وفي يوم الاثنين حادى عشره جلس السلطان في الميدان وفرق اطلاقات الطين على العسكر وكان غالب أراضى الجيزة شراقى ، فردوا وصولات الاطلاقات ، وكادت أن تكون فتنة .

وفي يوم السبت نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وبات بها ، ورسم لنقيب الجيش بأن يطوف على الأمراء المقدمين قاطبة ويعلمهم بأن السلطان يوكب من القبة ويشق من القاهرة ، وأرسل يعزم على الأمراء فى القبة ، فحضر اليه الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس وبقية الأمراء المقدمين قاطبة ، فباتوا عند السلطان بالقبة ومد لهم هناك أسمطة حافلة ، فلما كان يوم الأحد ركب السلطان من القبة وقدمه الأمراء المقدمون قاطبة والأمراء الطبلخانات والعشراوات وأرباب الوظائف من المباشرين قاطبة وأعيان الدولة والعسكر قاطبة . وكان السلطان قصد أن تحمل على رأسه القبة

والطير فنهاه الأمراء عن ذلك وقالوا له : « ما هى عادة آن السلطان اذا خرج الى المطرية تحمل على رأسه القبة والطير » ... فرجع عن ذلك .

ثم ان السلطان دخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل ، ولاقته طائفة اليهود والنصارى وبأيديهم الشموع موقدة ، وسارت قدماه أرباب الوظائف من المباشرين وهم متوشحون بالحرير الأصفر ، وكذلك نقيب الجيش والوالى وأعيان الخدام وولد السلطان ، ومشت قدماه الرؤوس النوب بالعصى من باب النصر الى القلعة ثم سعت قدماه الجنايب بالكنايش الزركش ومتى قدماه الأوزان والشبابة السلطانية والنفير البرغشى والمجامع السلطانية بالغشاء الحرير الأصفر ، ولم تلبس الأمراء ولا أحد من العسكر فى هذا الموكب الشاش والقماش ، ولم يستطع السلطان لبس التخفيف الكبيرة من العارض الذى فى عينه ، بل كان فى هذا الموكب بتخفيف صغيرة مكسى وسلارى بعلبكى أبيض ، ومشى قدماه غالب الخاصكية من باب النصر الى القلعة ، فكان له يوم مشهود ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة عليه ، وتركزت له الطبول والزمور فى عدة أماكن من القاهرة ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وكانت القاهرة مزينة زينة حافلة منذ سبعة أيام ، وأوقدوا له الشموع والقناديل فى الأحمال بالنهار على الدكاكين ، وأطلقوا له البخور فى المجامر ، فاستمر السلطان فى هذا الموكب الحافل على ما ذكرناه حتى طلع الى القلعة . وقد قلت فى هذه الواقعة أبيات مواليا وهى هذه :

سلطاننا لو محاسن فيه موصوفه
ولو مواكب لها أوقات معروفه

منخف عنو الرمد بالطاف محفوفه

أوكب لها أوقات مصر مصفوفه

ولما شق السلطان من القاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وقال له جماعة من العوام : ابطل عنا أمر المجامعة والمشاهرة التى على الحسبة ، فلم يلتفت الى كلامهم وتغافل عن ذلك .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن امرأة خرجت تتفرج على السلطان وكانت حاملا ، فجاءتها ضربة على بطنها فنزل الولد من بطنها فى الحال ومات من يومها ، فرجعت الى بيتها فى تابوت وذلك بالقرب من باب النصر .

ثم شرع كل أحد من أعيان المباشرين يقدم للسلطان تقادم حافلة ما بين ذهب وقماش وسكر وأغنام وغير ذلك ، وقدم اليه أيضا جماعة من الأمراء من أخصاء السلطان تقادم حافلة ما بين خيول وصوف ووشق وسنجاب وغير ذلك ، فخلع عليهم فى ذلك اليوم كوامل مخمل أحمر بسمور ، والذي لم يقدم له شيئا لم يخلع عليه .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه عرض السلطان عسكر الطبقة الخامسة التى استجدها ، فلما عرضهم عين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى السويس فشرع مقدم الممالك سنبل يقول لهم : « يا أغاوات عبوا يرفكم حتى تسافروا الى سويسة ! » فضحكت عليه الناس بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه صنع السلطان ستورا من حرير أسود بطرز مزركشة ، وكانوا نحوا من سبعة ستور لبقية الأنبياء الذين هناك ، ولأجل ضريح سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، فشقوا من القاهرة وقدامهم الطبل والخيلة ، وكان لهم يوم مشهود ، وكان خادم حرم الخليل عليه

السلام حاضرا فنزل قدام الستور هو وجماعة من الفقراء .

وفى يوم الخميس رابع عشرينه دخل جماعة من الممالك الذين تعينوا الى السويس على الأمير طومان باى الدوادار وشكوا له سفرهم الى السويس بلا نفقة ، وصمموا على عدم السفر الى السويس ، فطلع الأمير طومان باى وذكر للسلطان ما قاله الممالك ، وكاد أن يقع من ذلك فتنة ، فلما سمع السلطان ذلك أمر بيطلان السفر الى السويس وخشى من اقامة فتنة .

وفى يوم الجمعة نزل السلطان وعدى الى الروضة ، ونصب له خياما على خرطوم الروضة وبات هناك ومد له الزينى بركات بن موسى هناك أسمطة حافلة ، فأقام الى يوم الأحد وطاب له ذلك المكان وانشرح به ، وكان صحبتة مغانى وأرباب الآلات ، فطلع الى القلعة يوم الأحد أواخر النهار .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه خرج الأمير جهم الذى قرر فى نيابة طرابلس كما تقدم ذكر ذلك ، فكان له يوم مشهود .

وفى يوم الخميس من أواخر هذا الشهر كانت وفاة الأمير برد بك تفاح ، وكان من الأمراء الطبلخانات ، وأصله من ممالك الأشرف قايتباى ، وكان أميرا من جملة الأمراء المقدمين الألف بالشام ، فأتى الى مصر ليسعى فى الحجوية الكبرى بالشام فلم يتم له ذلك فاستمر مقيما بمصر ، وكان له مرتب على الذخيرة فى كل شهر حتى مات وكان له مدة وهو عليل ، فلما مات كانت له جنازة حافلة ومشت قدامه خنداشينه من الأمراء وأخرجوا قدامه كفارة ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان وسير الى مصر العتيقة وشق من على ساحل البحر ، ثم طلع من على قناطر

السباع وشق من الصليبة وطلع الى القلعة ، فلما شق من الصليبة ضجت له العوام بالدعاء وذكروا له أمر الفلوس الجدد وأن البضائع صارت تباع بسعرين ، فلما طلع الى القلعة نادى في ذلك اليوم بأن الفلوس تكون بنصفين الرطل ، وكانت بثلاثة أنصاف الرطل ، فخصرت السوق في هذه الواقعة نحو الثلث من أموالها ، وكانت البضائع تباع بسعرين سعر بالفضة وسعر بالفلوس ، ففرح غالب الناس بهذه المنادة .

وفي يوم السبت سلخ الشهر نزل السلطان الى المطربة وتوجه الى قبة يشبك وكشف على العمارة التى هناك ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفي رمضان كان مستهل الشهر يوم الأحد ، فجلس السلطان بالميدان وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر على جرى العادة

وفي ذلك اليوم طلع الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب باللحم والخبز والدقيق والسكر والغنم وهم على رؤوس الحمالين وقدامهم الطبول والزمور ، وشقوا من القاهرة وكان لهم يوم مشهود ، فخلع السلطان على الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى ونزلوا الى بيوتهما فى موكب حافل ، ثم ان السلطان رسم المزينى بركات بن موسى بأن ينادى فى القاهرة بتسعير البضائع : بأن البطة الدقيق بسبعة أنصاف واللحم الضانى بتسع نقر الرطل واللحم البقرى بست نقر الرطل ، وسعر الأجبان والسيرج والزيت وغير ذلك من البضائع ، وأن النصف الفضة لا يصرف بأكثر من اثنى عشر درهما ، وأن الفلوس العتق والجدد بالميزان وكل رطل بنصفين .

وفي يوم الجمعة سادسه قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، ووافق ذلك ثامن هاتور القبطى .

وفي يوم الاثنين سادس عشره أنفق السلطان الكسوة مع الجامكية على العسكر

وفي ذلك اليوم كانت وفاة المعلم على الصغير أحد معاملى اللحم ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، ولكن قاسى فى أواخر عمره شدايد ومحنة وصور غير ما مرة ، وضرب بالمقارع على أجنابه بين يدى السلطان ، وسجن بالعرقانة مدة وتسحب من هناك وتدلى بحبل فانقطع به ووقع على الأرض فانكسر ضلعه ، واستمر مختفيا مدة ، وسافر الى الحجاز وهو مختف ، ثم ظهر عند ما أفرج السلطان عن أصحاب الجرائم كما تقدم ذكر ذلك ، فظهر واستمر عيلا مما قاساه حتى مات ، وكان قد جاوز السبعين سنة من العمر ، وكان من أعيان المعاملين ناتجا بالسداد ، وقد ذكر فى أيام الأمير أقبردى الدوادار بأن يلى الوزارة مثل الببائى فلم يتم له ذلك .

وفي هذا الشهر أشيع بين الناس بأن الناصرى محمد بن أزدمر نائب حلب كان قد قتل فى معركة ببلاد ابن عثمان ملك الروم ، وكان السلطان تغير خاطره عليه فرسم بشنقه فى حلب ، فلما بلغه ذلك فر الى بلاد ابن عثمان فقتل هناك ، وكان غير مشكور السيرة فى سائر أفعاله .

وفي يوم الأحد ثانى عشرينه نزل السلطان وتوجه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وكشف على العمارة التى هناك ، فلما رجع دخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وأقام فى خرطوم الروضة ، وأشيع بين الناس بأن السلطان قصد أن ينشئ هناك قصرا بأربعة وجوه .

وفي يوم الخميس سادس عشرينه كان ختم صحيح البخارى بالقلعة ، ونصب السلطان خيمة

كبيرة بالحوش على العادة ، وحضر هناك القضاة الأربعة ومشايخ العلم وأعيان الفقهاء ففرقت عليهم الخلع والصرر لمن له عادة ، وكان ختما حافلا .

وفي يوم الأحد تاسع عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل التي بالمطرية فجلس على المصطبة التي هناك وجربوا قدامه عدة مكاحل بحجارة كبار ، فأقام هناك ساعة ثم عاد الى القلعة . وفيه عرس ناظر الخاص خلع العيد وكانت في غاية الوحاشة .

وفيه أنفق السلطان الكسوة والجامكية على عسكر الطبقة الخامسة .

وفي شوال كان عيد الفطر يوم الثلاثاء ، فخرج السلطان وصلى صلاة العيد وهو بالشباش والقماش ، وكان موكب العيد حافلا .

وفي يوم السبت خامسه نزل السلطان وعدى الى الروضة وبات بالمقياس تلك الليلة ، وأقام به يوم الأحد الى بعد العصر ، ثم عدى وطلع الى القلعة وشق من الصليية في موكب حافل وقدامه ولده وبعض أمراء ، وكان قدامه قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة وجماعة من الأمراء العشراوات ، والأمير خايم بيك الخازندار أحد الأمراء المقدمين وكان صحبة السلطان في المقياس .

وفي يوم الاثنين سابعه توفي القاضى عرفات بن السجان ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، وكان لا بأس به .

وفي هذا الشهر خلع السلطان على عبد العظيم الصغير وقرره في التحدث في أمر الشئون السلطانية وجهات الذخيرة ، فتعاضم عبد العظيم الى الغاية وكبر عمامته وصار من أعيان الرؤساء ، وركب الخيول ونسى ما جرى عليه من الضرب بالكسارات

وعصر أكعابه بالمعاصير وحرق أصابعه بالنار ، فنى ذلك كله وصار في شمم عظيم .

وفي يوم السبت ثانى عشره نزل السلطان وتوجه الى نحو قبة يشبك الدوادار وبات بها ليلة الأحد ، ثم عاد الى القلعة .

وفي يوم السبت المقدم ذكره وقعت كائنة عظيمة وهى التى عمت وملمت ، وكان سبب ذلك أن شخصا من نواب الحنفية يقال له غرس الدين خليل ، وكانت له زوجة حسناء فهو بها شخص من نواب الشافعية يقال له نور الدين على المشالى واعتشر بها مدة طويلة ، فاتفق أن في ليلة السبت المقدم ذكره طلع غرس الدين خليل الى الامام الليث رضى الله عنه وبات به ، فأرسلت الامراة خلف نور الدين المشالى وأعلمته بأن زوجها خليل بائت في الامام الليث ، فاطمأن بذلك ثم أرسل اليها ما يلائم ، وكان بجوار بيت الامراة شخص تسميه الناس شمس ، وهو ابن أخت القاضى نور الدين الدمياطى ، وكان يهوى هذه الامراة وهى لم ترض به ، فلما تحقق أن نور الدين المشالى بائت عندها تلك الليلة فصبر حتى طلع اليها نور الدين واستقر عندها في البيت ، فركب شمس الدين ابن أخت الدمياطى وتوجه الى الامام الليث وأعلم خليل زوج الامراة بذلك ، فركب خليل من وقته وجاء الى بيته فوجد الباب مقفولا . ودخل الى البيت ، فوجد نور الدين وزوجته في الناموسية وهما تحت اللحاف متعاققان فقبض عليهما باليد .

فلما تحقق نور الدين المشالى أنه تعدى على خليل وطلع الى بيته وفسق في زوجته قصد تستر هذا الأمر فقال لخليل : « أكتب لك على مسطورا بألف دينار ولا تفضحنى بين الناس » . وقالت الامراة : « خذ جميع ما في البيت من الأمتعة وستر هذه القضية والستر مطلوب » . فلم يوافق خليل

وفى ذلك اليوم وقف الى السلطان بشخص
قتيل يفال له قائم المداقف ، وكان من جملة
الزردكاشية ، فأنهوا أولاد القتييل على أن بعض
الممالك الأجلاب عزم عليه وأسكره ثم قام اليه
وخنقه بوتر حتى مات ، وكان بيد قائم هذا اقطاع
تقيل فقتله الجلبان بسبب ذلك ، وكان له أولاد
وزوجة فقتل ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، وحل
السلطان فى أمره ولم يأخذ له بثأر .

وفى ذلك اليوم نوى الحاج رمضان مهتار
الأشرف قايتباى ، وقد قاسى فى أواخر عمره أشياء
كثيرة من شدائد ومحن ، وصودر غير ما مرة ،
وضرب وعصر فى أكعابه ، وباع بيوته فى المصادرة
وجميع ما يملكه ، وصار يستعطى من الأمراء
بالقصص ، وكان أصله من الصعيد ، وخدم الأشرف
قايتباى حين كان خاصكيا الى أن بقى سلطانا ،
ورأى فى أيامه من العز والعظمة ما لا رآه غيره من
المهاترة الذين سلفوا من قبله ، وكان بيده مهترة
الطشتخاناه الشريفة ونظر الكسوة الشريفة
والتحدث على جهات السلطان ، وكان غالب السعى
لأرباب الدولة من بابه ، ويقال كان متحصله فى كل
يوم نحو من أربعين ديناراً ، فسلب ذلك منه
جميعاً ومات فقيراً لا يملك من الدنيا شيئاً ، وكان
قد شاخ وكبر سنه ومات وهو فى عشر الثمانين .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره أرسل السلطان
خلف القضاة الأربعة ، فلما حضروا بين يديه وبخهم
بالكلام الفج وقال لهم : « والله افتخرتم بإقصاة
الشرع : نوابكم شئ يشرب الخمر وشئ يزنئ
وشئ يبيع الأوقاف » . وفى ذلك تسبيعة لقاضى
القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وكان هو
المقصود بذلك الكلام ، ثم طلب المحضر الذى
ثبت على القاضى شمس الدين بن وجيش ، فقال

على ذلك ، ثم أغلق عليهما الباب وأتى الى دار
حاجب الحجاب فقص عليه ما جرى له ، فأرسل
حاجب الحجاب فبض عليهما ، فلما مثلا بين يديه
أقر نور الدين المشالى أنه طلع الى بيت خليل وكان
بينه وبين زوجته ما كان من أمر الزنا ، ثم ان
حاجب الحجاب أحضر القاضى شمس الدين بن
وحيش أحد نواب الشافعية فشهد على نور الدين
المشالى بما أقر به على نفسه بالزنا وكتب خطه بذلك
وكتب بذلك محضراً وثبت عليه . ثم ان حاجب
الحجاب عرى نور الدين المشالى وضربه ضرباً
مبرحاً حتى كاد يهلك ، ثم ضرب المرأة على
أكتاف المشاعلية ضرباً مبرحاً ، ثم أمر بأشهارهما
فى القاهرة ، فأركب نور الدين المشالى على حمار
وألبسه عمامته وأركب المرأة أيضاً على حمار
وقلبوا وجهيهما الى خلف الحمار وطافوا بهما فى
الصلبية والقاهرة وقناطر السباع ، وكان لهما يوم
مهول ، ثم رجعوا بهما الى بيت حاجب الحجاب ،
فقررروا على المرأة مائة دينار لحاجب الحجاب
فقالت المرأة : « أنا زوجى وضع يده على جميع
مالى فلا أملك من الدنيا شيئاً » فقالوا لزوجها :
« هات من مال زوجتك مائة دينار لحاجب الحجاب » .
فلم يوافق على ذلك وامتنع فرسموا عليه ، وكان
لخليل ولد صغير يقرأ مع المقرئين عند السلطان فى
الدهيشة ، فلما رسموا على أبيه طلع الى السلطان
وذكر له ما جرى من أوله الى آخره ، فعند ذلك
اتسع الخرق على الراقع وفشا الكلام بالمواقع ،
فلما اتصل هذا الأمر بالسلطان كان من الأمر
ما سنذكره فى موضعه .

وفى يوم رابع عشره نزل السلطان الى الميدان
وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام ابراهيم
عليه السلام والمحفل الشريف ، وكان يوماً
مشهوداً .

له ابن وحيش : « أنا ثبت عندى رجمهما » .
فانصاع السلطان لهذا الكلام وقصد بذلك اظهار
العدل حتى يكتب ذلك في تاريخه أنه رجم من زنى
في أيامه ، كما وقع في زمن النبي صلى الله عليه
وسلم لما عز وزينب اللذين أمر النبي برجمهما ، فقال
السلطان لابن وحيش : « احكم برجمهما » : فقال ابن
وحيش : « حتى ينفذلى قاضى القضاة الشافعى » .
فقال القاضى الشافعى : « قد نمدت لك ذلك » .
فانفصل المجلس على رجم المشالى والامراة وعلى
أن يحضر لهما حفيرة ويرجما فيها ، ولو فعل
السلطان ذلك في يومه لمشى أمر الرجم وقضى ذلك
الأمر ، لكن عارض السلطان خروج المحمل وأمر
الحجاج ، فأخر هذه القضية لبعده خروج الحجاج .
فلما كان يوم الخميس سابع عشر شوال
المحمل من القاهرة ، تجمل زائد الى الغاية ، وكان
له يوم مشهود ، وحضر في هذه السنة ملكان من
ملوك التكرارة ، فحرجا في ركب وحدهما بعد
خروج الحاج بأيام ورجعا صحبه الحجاج لما
حضر ، وخرج فداهم القضاة الأربعة ، وكان
أمير ركب المحمل قانصوه كرت أحد الأمراء
المقدمين ، وبالركب الأول الأمير طومار باى
حاجب ثانى ، فحرجا في موكب حافل وقدامهما
الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين .
فلما اشتغل السلطان بأمر خروج الحجاج
تعصب لنور الدين المشالى شحص يقال له شمس
الدين الزنكلونى أحد نواب الشافعية ، فكتب
فتاوى على أن الرجل إذا زنى واعترف بالزنا ثم
رجع عن ذلك الاعتراف فهل يسقط عنه الحد أم
لا ، فدار بهذا السؤال على جماعة من العلماء
ومشايخ الاسلام ، فكتب على ذلك السؤال الشيخ
برهان الدين بن أبى شريف المقدسى الشافعى

وكتب عليه جماعة آخرون من العلماء بمعنى ما
أجاب به الشيخ برهان الدين بن أبى شريف أنه
إذا رجع عن الاقرار يسقط الحد من رجم وغير ذلك
من الحدود . فلما بلغ السلطان ذلك اشتد غضبه
على القضاة وقال : « يامسلمين رجل يطلع الى بيت
رجل ونفسق في زوجته ويقبض عليه تحت اللحاف
مع زوجته ويعترف الخصم بذلك ويكتب خط بده
بما وقع منه ... بقولوا بعد ذلك له الرجوع !! » .
فأمر بعقد مجلس بين يديه بالقلعة وأمر بأن القضاة
الأربعة تحضر ومشايخ العلم قاطبة .

فلما كان يوم الخميس رابع عشرين شوال
حضر الأربعة قضاة وهم : كمال الدين الطويل
الشافعى وعبد البر بن الشحنة الحنفى ومحيى
الدين يحيى بن الدميرى المالكى وعز الدين بن
الشيخينى الحنبلى ، فجلسوا عن يمين السلطان
وحضر شيخ الاسلام المنفصل عن القضاء زين
الدين زكريا فجلس رأس الميسرة ، وجلس تحته
الشيخ برهان الدين بن أبى شريف وحضر قاضى
القضاة الشيخ برهان الدين القلقشندى المنفصل
عن القضاء ، وحضر الشيخ برهان الدين بن الكركى
الحنفى ، وحضر غير ذلك من مشايخ العلماء جماعة
كثيرة منهم الشيخ نور الدين المحلى والشيخ عبد
الحق السنباطى الشافعى وآخرون من المشايخ
والفقهاء . فلما تكامل المجلس أخذ السلطان يتكلم
مع الشيخ زكريا والشيخ برهان الدين بن أبى
شريف ، فقال لهم : « كيف يكون رجل متزوج
بامراة ويطلع الى بيته فيجد رجلا أجنبيا راقدا مع
زوجته تحت اللحاف ويعترف بالزنا وتقولوا له
الرجوع ؟ » . فقال له ابن أبى شريف : « شرع
الله هذا » . وأراه النقل في هذه المسألة ، فلم

الاسلام بعسحة الرجوع فهو الحق ، وهو نص ما نقله الامام الشافعي وغيره من العلماء رضى الله عنهم أجمعين بعد القرار في أمر الزنا فلا عبرة باقراره في ذلك » . فقال له السلطان : « ان شاء الله تطلع الى بيتك فتجد من يفعل في زوجتك الفاحشة كما فعل المشالي في زوجة خليل » . فقال له الشيخ نور الدين المحلى : « عافانا الله من ذلك » . فشق كلامه على السلطان في الباطن ، وانفض ذلك المجلس من غير طائل ، وحصل للعلماء في ذلك المجلس غاية البهولة ولا سيما ما حصل للشيخ برهان الدين بن أبي شريف وأمره مشهور . فكان كما يقال في المعنى :

احذر مداخلة الملوك ولا تكن

ما عشت بالتقريب منهم واثقا

فالغيث غوثك ان ظمئت وربما

ترمى بوارقه اليك صواعقا

ويقال ان سبب تغير خاطر السلطان على قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة أنه في أول الأمر وافق السلطان على أن الرجل والامراة يرجمان ، فلما أفتوا أنه اذا رجع عن الاقرار يسط عنه الحد فوافقهم عبد البر على ذلك ، فقال له السلطان : « أنت تقرر معي شيئا وترجع عن ذلك ؟ كنت قلت لى هذا من الأول حتى عرفت أمر الرجوع بعد الاقرار » . فلما تحقق عبد البر أن السلطان متغيظ عليه دار على الامراء وكاتب السر بأن يشفعوا فيه عند السلطان ، ثم ان السلطان رسم الى يحيى بن نكار دوا دار الوالى بأن يسجن نور الدين المشالي الذى زنى ، فتوجه به الى المقشرة وتوجه بالامراة الى الحجرة .

وبعد مضى الحجاج بخمسة أيام خرج ركب التكرور والمغاربة وعين معهم السلطان ثلاثة من الدلة يرشدونهم الى الطريق فتوجهوا بهم من

بلتفت الى القول في ذلك وقال : « أنا ما أنا ولى الأمر ولى النظر العام في ذلك ؟ » . فقال له ابن أبي شريف : « نعم ولكن بموافقة الشرع الشريف . وان قتلتهما تلزمك ديتان عنهما » . فحنق منه وكاد أن يبطش به في المجلس ، ثم التفت الى الشيخ زكريا وقال له : « ايش قلت انت في هذه المسألة ؟ » . قال : « له الرجوع بعد الاعتراف . واذا رجع سقط عنه الحد » . فقال له السلطان : « هذا يبقى في ذمتك » . فقال الشيخ زكريا : « ايش كنت أنا ؟ هذا في ذمة الامام الشافعي صاحب المذهب » . فذكر على أن السلطان قال له : « أنت ذهلت ما بقى لك عقل » . ثم التفت الى قضاة القضاة ووبخهم بالكلام وقال : « اتوا الأربعة قوموا لا ترونى وجوهكم قط » . فقاموا من ذلك المجلس وهم يتعشرون في أذيالهم ، وكان لهم يوم مهول ، فانفصل المجلس مانعا وحصل فيه كل سوء من مقت السلطان لهم .

ثم ان السلطان عزل الشيخ برهان الدين بن أبي شريف من مشيخة مدرسته وأشيع بنفيه الى القدس ، وعزل محيي الدين يحيى بن الدميرى من قضاء المالكية ومن خطابة جامعته ، واشتد غضبه على قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة ، وكاد أن يبطش به . وكان عنده من المقدمين الأخصاء ، وكان يبات عنده ثلاث ليل في الجمعة وكان من ندمائه ، ويسافر معه اذا شوط ، وصار بيده الحل والعقد في أمور السلطنة ، فانقلب عليه كأنه لم يعرفه قط ، وكان بمنزلة جعفر البرمكى من هرون الرشيد ، الحمد لله .

ومما وقع في ذلك المجلس بحضرة السلطان أن الشيخ نور الدين على المحلى قال للسلطان : « يا مولانا السلطان . ان الذى صدر من مشايخ

مخالص غير مخالص الحجاج . وفي هذه السنة حج الأمير بقر بن الأمير أحمد بن بقر شيخ العرب ، وحج صحبته الجهم الغفير من الفلاحين . وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأرسل أحضر شمس الدين الزنكلوني الذي دار على العلماء بالفتوى بسبب نور الدين المشالي حين رجع عن الاقرار ، فلما حضر قال له السلطان : « يا زنكلوني ! حكمك أنت يمشي وحكمي أنا يبطل ؟ » . ثم بطحه على الأرض وضربه نحواً من ألف عصا وضرب أولاده الاثنين كل واحد نحواً من ستمائة عصا . وكان رفيقهم في هذه المسألة ابن شريف الوكيل ، فلما بلغه ذلك اختفى ، وكان المتعصب عليهم في ذلك القاضي شمس بن وحيش وأوحى للسلطان أن الزنكلوني وأولاده قد أسوا عليه ، وسبوه فحرض عليهم السلطان حتى جرى ما جرى للزنكلوني . ثم ان السلطان رسم بنفى الزنكلوني الى الواح فنزلوا بالزنكلوني وأولاده وهم على وجوههم راكبين على حمير والدم يسيل من أعقابهم .

وفي يوم الأربعاء سلخ الشهر أشيع بين الناس بأن الزنكلوني قد مات من شدة الضرب ، وأن أولاده في حال العدم .

وفي ذلك اليوم نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قليوب ، وظن أن الشهر قد هل في ذلك اليوم فنزل حتى لا يقابل القضاة ولا ينظر اليهم ، وقد كثرت الاشاعة بعزل القضاة الأربعة .

وفي ذي القعدة كان مستهل الشهر يوم الخميس فطلع الخليفة وهنا في ذلك اليوم . فلما قام الخليفة من عنده ركب السلطان ونزل الى دار البقر حتى لا يجتمع على القضاة ، وكان القضاة قد جلسوا

في الجامع فلم يجتمع عليهم السلطان ونزل سير ، فلما بلغ القضاة ذلك نزلوا من القلعة بحى حنين . ومن العجائب أن من يوم عقد المجلس المقدم ذكره وحصل ما حصل على القضاة بسبب الفتوى في أمر الرجوع ، فصرح السلطان في ذلك اليوم بعزل القضاة الأربعة ، فأقامت مصر شاعرة نحواً من خمسة أيام لم يعقد فيها عقد نكاح ولا وقع فيها أحكام شرعية ، وأغلقت الشهود دكاكينهم قاطبة ، وتعطلت أحوال مصر واضطربت في تلك الأيام الى الغاية ، ورسم السلطان للوالي وقال له : « كل من وجدته من الفقهاء وهو سكران فاقبض عليه وأنا ألبسك كاملية مخمل بسمور وأركبك فرس بكنبوش » . وأشيع بين الناس أن السلطان قال : « لا يدخل على أحد من المباشرين وهو لابس عمامة » من بغضه في الفقهاء ، فكان القراء اذا دخل أحد منهم على السلطان فيلبس له زمط وعليه شد ملفوف . وأشيع أن الزينى بركات ابن موسى لبس له تخفيفه ودخل على السلطان فضحك عليه ، وكذلك القاضي علاء الدين ناظر الخاص لبس له تخفيفه ودخل على السلطان فقال له : « بقيت مثل الممالك الجراكسة » .

ومن الحوادث في يوم مستهل هذا الشهر سقط ربع تجاه باب الوراقين على رأس عطفة الخراطين فقتل تحت الردم شخص يساع جزر ، فمات هو والحمار من وقته تحت الردم .

وفيه كثر الكلام بسبب عزل القضاة ، فنزل السلطان الى الميدان ، فلما جلس به قام الأتابكي سودون العجمي والأمير أركماس أمير مجلس المقدمين والقاضي كاتب السر ، فقاموا في صعيد واحد وبأسوا الأرض للسلطان ثم شفعوا في القضاة الأربعة ، فلما سمع السلطان ذلك حنق على الأمراء

وحلف، بحياة رأسه أنه ما يعيد أحدا من القضاة
الى وظيفته وصمم على ذلك ، وفد قلت في هذه
الواقعة :

سلطاننا عزل القضاة لحادث

قد شاع في مصر وعم الأسعة
مذ خالفوه وحاودوا عن أمره

نفذ القضا فيهم بعزل الأربعة

ولم يتفق قط أن القضاة الأربعة يعزلون كلهم
في يوم واحد الا في هذه الواقعة التي جرت ، فعد
ذلك من الوقائع الغريبة .

ولما كان يوم الجمعة ثانيه أرسل السلطان يقول
للقاضى كاتب السر : « أبصر لنا من يخطب ويصلى
بنا صلاة الجمعة » . فذكر له الشيخ علاء الدين
الاخميسى السهير بالنقيب ، وكان يخطب في جامع
الشيخ عبد القادر الدشوطى ، وكان علامة في
الخطب والقراءة في المحراب ، فلما ذكر للسلطان
قال : « أعرفه » . وكان تقدم للشيخ علاء الدين أنه
خطب بالسلطان قبل ذلك عدة مرار في أيام قاضى
القضاة ابن أبى شريف وفي أيام قاضى القضاة ابن
فرفور ، وكان الشيخ علاء الدين له شهرة طائلة
عند الأتراك ، وكان علامة في الرمى بالنشاب عارفا
به وكان له اليد الطولى في ذلك ، وكان عارفا باللغة
التركية ، وقد حوى كل فن من علوم شتى وهو
نادرة عصره ، فأرسل القاضى كاتب السر خلف
الشيخ علاء الدين فتوجه اليه الحاج على الأسمر
البرددار ، فقال له : « القاضى يقول لك اطلع
واخطب بالسلطان » . وكان يومئذ علامة عصره في
أمر الخطبة ، فقبل ان الشيخ علاء الدين لما أراد
أن يطلع يخطب بالسلطان توجه الى قاضى القضاة
كمال الدين الطويل واستأذنه في ذلك قبل أن يطلع
فقال له : « اطلع واخطب على بركة الله تعالى » .
فطلع في ذلك اليوم وخطب بالسلطان فترشح أمره

بأن يلى القضاء ، وكان ذلك من الأمور الربانة
والسر المكنون . وقيل في أمثال الصادح والباعم
في المعنى :

الرزق بالحظ وبالتقدير

وليس بالسعى ولا التدبير

ومنه :

تنال بالرفق وبالتأني

ما لم تل بالحرص والتعنى

وفي يوم الثلاثاء سادسه رسم السلطان بتوسيط
مملوك من مماليكه وقد قتل قتيلا ، فلما عرضوه
على السلطان أراد ضربه بين يديه فتعترس قدام
السلطان فحنق منه فرسم بتوسيطه ، فوسطوه
في الرملة .

وفي يوم الأربعاء سابعه كانت كائنة نور الدين
المشالى والامراة ، وذلك أن السلطان رسم
بشنقهما ، فأمر يحيى بن نكار بأن يتوجه الى دار
الشيخ برهان الدين بن أبى شريف وينصب على
بابه مشنقة ، وكان ساكنا في بيت أبى البقا بن
الجيعان في حارة أولاد الجيعان ، وكان السلطان
تقصد ذلك عمدا بسبب المقت في حق ابن أبى
شريف لكونه أفتى بأمر الرجوع ، فاشتد غضب
السلطان عليه بسبب ذلك ، وأشيع بنفيه الى
القدس بطالا . فلما توجه يحيى بن نكار دوا دار
الوالى الى بيت ابن أبى شريف ونصب المشنقة
على باب زن عياله أن الشيخ هو الذى يشنق
فقاموا بالصراخ والللطم والبكاء ، ثم أسفرت
القضية على شنق نور الدين المشالى والامراة ،
فنصبوا لهما مشنقة على باب ابن أبى شريف
وأحضروا نور الدين المشالى من المقشرة وأحضروا
الامراة من الحجرة وشنقوها على باب ابن أبى
شريف ، ورسم السلطان بأن بشنقا في حبل واحد
ويجعلوا وجه الرجل في وجه الامراة ، فصلبت

الامراة وهى بازارها وعليها أثوابها مسبولة ، فلما
شنقا جاء الناس أفواجا أفواجا يتفرجون عليهما
من كل فج عميق ، وقد قلت فى هذه الواقعة :

لقد صلب السلطان من كان زانيا
وأظهر فى أحكامه مسلكا صعبا

فقلت لأرباب الفسوق تأدبوا
فحد الزنا قد صار فى عصرنا صلبا

وفى ذلك يقول الأديب محمد بن الصايغ .

أيا لهما من عاشقين عليهما

قضى من قضى بالموت حتما وأشنقا

فقلباهما عند الحياة تألفا

وجسماهما عند الممات تعلقا

بعضهما متعلقان ولو يكن

لجسميهما روحان كانا تعاقتا

وقد تقدم للأشرف قايتباى أنه صلب جارية
بيضاء جركسية من جوار حريمه وقد حملت من
بعض مماليكه فى طريق الحجاز ، فلما وضعت ذلك
الجنين قتلت من خوفها ، فلما بلغ السلطان ذلك
شنقا لكونها قتلت قتيلًا ، فصلبها فى طريق حدرة
ابن قميحة عند درب نكار على شجرة عند
الأحواض ، فصلت بازارها ، وأما المملوك فخصاه
وقطع محاشمه ، فعد ذلك من النوادر .

فأقام نور الدين المشالى والمرأة التى زنى بها
يومين لم يدفنا ثم شاوروا السلطان فى دفنهما فأذن
فى ذلك ، وكاذ لهما يوم مهول .

وفى ذلك اليوم أرسل السلطان يقول لناظر
الخاص : « اطلع غدا معك بأربعة تشاريف لأجل
القضاة الأربعة » .

فلما كان يوم الخميس ثامن هذا الشهر طلب
السلطان القضاة الذين عزم على ولايتهم فحضر
الشيخ علاء الدين ابن الشيخ جلال الدين
الاخيمى النقيب والشيخ شمس الدين السمديسى

امام مدرسته ومؤدب ولده والشيخ جلال الدين
عبد الرحمن بن الشيخ زين الدين قاسم بن قاسم
والشيخ شهاب الدين أحمد بن عز الدين عبد
العزیز الفتوحى الشهير بابن النجار ، فلما حضروا
أفاض عليهم التشاريف وأحضر لهم أربعة بغال
مكفية بالعدد الفاخرة ، فقرر الشيخ علاء
الاخيمى فى قضاء الشافعية عوضا عن القاضى
كمال الدين الطويل بحكم انفصاله عن القضاء ،
وقرر الشيخ شمس الدين السمديسى فى قضاء
الحنفية عوضا عن القاضى عبد البر بن الشحنة
بحكم انفصاله عن القضاء ، وقرر الشيخ جلال
الدين بن قاسم فى قضاء المالكية عوضا عن
محيى الدين يحيى ابن الدميرى بحكم انفصاله عن
القضاء ، وقرر الشيخ شهاب الدين الفتوحى فى
قضاء الحنابلة عوضا عن عز الدين الشيشينى بحكم
انفصاله عن القضاء ، فخلع السلطان على الأربعة
قضاة فى ساعة واحدة حتى عد ذلك من النوادر
الغريبة ، فلما نزلوا من القلعة تلقاهم جماعة النواب
من الأربعة المذاهب فكانوا نحوًا من ثلاثمائة نائب
فرجت لهم القاهرة .

وفى القاضى علاء الدين الاخيمى يقول
الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

قاضى القضاة علاء الدين أنت لها
كفاء لتنفيذ أحكام بأحكام

خليفة الشافعى فى الحكم صرت فدم
جبرا اذا لاح كسر الدين كلام

يعنى كالمرهم فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا
فشقوا من القاهرة فى موكب حافل ، وكان قدامهم
العلاء ناظر الخاص وجماعة من أعيان الناس ،
فاستمروا فى هذا الموكب حتى نزلوا بالمدرسة
الصالحية النجمية كما جرت به العادة ، فاصطفت
لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، ولاقتهم

الرسول مشاة يقولون : الدعا لمولانا السلطان بالنصر
أدام الله أيامه ، ولم يقع قط فيما تقدم من الدول
الماضية أن السلطان ولي القضاة الأربعة في يوم
واحد ، فعد ذلك من النوادر الغريبة التي لم يسمع
بمثلها قط .

١ وقد وقع في أيام الظاهر خشقدهم أنه ولي قاضي
القضاة صلاح الدين المكي عوذا عن قاضي
القضاة شرف الدين يحيى المناوي ، وولي قاضي
القضاة برهان الدين الدميري عوذا عن قاضي
القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفي ، فنزلا من
القلعة وعليهما التشاري في يوم واحد ، فعدوا
ذلك من النوادر الغريبة ، ولا سيما بولاية هؤلاء
الأربعة في يوم واحد . وأعجب من هذا أن
السلطان لم يأخذ من هؤلاء القضاة الذين تولوا
ولا الدرهم الفدر ، وقدا فاته في ولاية هؤلاء
القضاة الأربعة نحو اثني عشر ألف دينار ، فعد
ذلك من النوادر الغريبة ، ولا سيما من الأشرف
الغوري فكانت ولايتهم على وجه العز والاقبال
من غير سعي ولا كلفة بخلاف ما وقع لغيرهم من
القضاة فيما تقدم ، فعد لهم ذلك من جملة السعد ،
وقد قلت في هذه الواقعة هذه الأبيات :

امام الوري ولي قضاة لشرعنا

فهم أربع وهي البدور الطوالع

فمنهم علاء الدين قاض معظم

بدا نوره بين الوري وهو ساطع

ومنهم امام جيد شاع زهده

على مذهب النعمان لله طائع

ومنهم عريق الأصل من نسل قاسم

أني مالكي للموطأ تابع

ومنهم فقيه تابع لابن حنبل

أنته فتوح العلم أولاه صانع

بهم بنية الاسلام صحت وكيف لا
تصح وهم أركانها والطبائع
فلا عجب ان وسع الله في الهدى
مذاهبا بالعلم فالشرع واسع
وكان السلطان لما ولي هؤلاء القضاة قرر معهم
بأن يخفوا من نوابهم .

فلما كان يوم الجمعة طلع القاضي علاء الدين
وخطب بالسلطان ، فلما انتهى أمر الصلاة عرضوا
على السلطان فوائهم بأسماء النواب من الأربعة
مذهب ، فرسم للقضاة الأربعة بمائة نائب : للقاضي
الشافعي أربعين نائبا ، وللقاضي الحنفي ثلاثين نائبا ،
وللقاضي المالكي عشرين نائبا ، وللقاضي الحنبلي
عشرة نواب . وقرر معهم ألا يولوا أحدا من النواب
الا بأذنه ، فانفصل المجلس على ذلك .

وفي يوم السبت عاشره نزل السلطان من القلعة
وأشيع سفره الى وادي العباسية ، فلما نزل توجه
الى قبة يشبك التي بالمطرية فبات بها ، وكان
صحبه الأتابكي سودون العجمي وبقية الأمراء
المقدمين قاطبة ، خلا أمير آخور كبير وطقطباي
نائب القلعة وخاير بيك الخازندار ، فكان معه
الجم الغفير من الأمراء الطبليحانات والعشراوات
والخاصكية ، فرجت لهم القاهرة في ذلك اليوم .
فأقام السلطان في قبة يشبك الى يوم الأحد فرحل
من هناك هو والأمراء قاطبة ، وكان صحبته من
البريق والسنيع ما يعادل سفر البلاد الشامية .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره توجه قاضي القضاة
الشافعي علاء الدين الأحميمي الى درس المدرسة
الصالحية النجمية ، وهو أول حضوره الى الدرس ،
فتصدر للتدريس بها فأبدى فوائدا كثيرة وقواعد
جليلة مع الفصاحة وحسن التأدية ، فقال في ذلك

صاحبنا الشيخ شمس الدين أبو اليمن السهوى
وأجاد في ذلك حيث قال :

لدرس الصالحة جئت جبا
الى قاضى القضاة أبى العلاء

علاء الدين الأخمى أبدى
قواعد من علوم مع ثناء

ولا عجب لما أبدى فان ال
قواعد من تأليف العلاء

وقال الناصرى محمد بن قانصوه :

قاضى القضاة علاء الدين أنت لها

كفو لتنفيذ أحكام بأحكام

خليفة الشافعى فى الحكم صرت قدم

جبرا اذا لاح كسر الدين كلام

ولما تم أمر القاضى علاء الدين فى القضاء جاء
على الوضع وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، وله يد
طائلة فى معرفة أمور القضاء ، فكان كفوا لذلك ،
وكان دينا خيرا ما عهد له صبوة قط ، مطرح
النفس عفيفا عن الرشوة من حين كان نائبا والى
أن بقى قاضى القضاة ، فهو من أهل الفضل
والدين ، ثم انه قرر الشيخ محلى بأن يتولى أمور
بابه بما يرد عليه من الفتاوى وغير ذلك .

وفى يوم الثلاثاء المقدم ذكره كانت وفاة الأمير
جسانم السيفى قانى باى الفهلوان الذى كان
دوادار الأمير يشبك بن مهدي الدوادار ، وجانم
هذا هو الذى أنشأ المدرسة للطبفة التى تجاء
جامع قوصون ، وكان دينا حيرا لا بأس به ،
وكان قد كبر وطعن فى السن .

وفيه حضر سيف تراز نائب قلعة حلب ، وكان
تولى نبابة قلعة البيرة وعينتاب
وفيه جاءت الأخبار من البحيرة بوفاة الجوىلى

شيخ مشايخ عربان البحيرة ، وكان محمود
السيرة فى طرد العربان المفسدين عن البلاد ، وكان
فى سعة من المال ، فلما مات تقرر بعده ابن أخيه
فى مشيخة البحيرة .

وفى يوم الخميس خمس عشره فرقت الجامكية
فى غيبة السلطان ، فحضر الأمير طقطبى نائب
القلعة والأمير خاير بك الخازندار وشمس الدين
ابن عوض وكتاب الممالك ، وفرقت الجامكية على
العسكر وحصل السداد فى غيبة السلطان .

وفى يوم الجمعة سادس عشره كان السلطان
مسافرا ، فلم يطلع القاضى الشافعى فى ذلك اليوم
ولم يصل بالقلعة ، بل صلى فى جامع الشيخ عبد
القادر الدشوطى ، ولم يخطب هو به فى ذلك
اليوم .

وفى يوم السبت سابع عشره عاد السلطان من
تلك السرحة وقد وصل الى العكرشا ثم عاد ،
فكانت مدة غيبته فى هذه السرحة ثمانية أيام ،
وقد تكلف الأمراء كلفة زائدة ، وكان أشيع أنه
يسرح فى البلاد الشرقية ويتوجه الى وادى
العباسة فلم يصح ذلك ، ولما رجل نزل بالوطاق
بالريدانية وبات به ليلة الأحد وأحرق هناك احراقة
نقط ، فلما كان يوم الأحد أوكب السلطان من
هناك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة
ولبس التخفيف الناعورة ، وركب قدامه الأمراء
قاطبة والمباشرون ، ولاقته القضاة الأربعة من رأس
الحسينية ، ولم تكن هذه عادة أن السلطان اذا
خرج وشوط تلاقيه القضاة الأربعة ، ولكن عملوا
ذلك خدمة له كونهم تولوا جددا ، فشق من
القاهرة فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ،
على حكم الموكب المقدم ذكره قبل ذلك ، وقد

انشرح في هذه السفرة وتصيد ودخل عليه تقادم كثيرة من كاشف الشرقية وشيخ العرب ، من خيول وبقر وغنم وغير ذلك ، ولكن حصل للمقطعين غاية الضرر . وقد أفرد الكاشف وشيخ العرب على البلاد خيولا وأغناما وأبقارا ومبلغا ، وحصل بسبب ذلك ما لا خير فيه . وكان السلطان أخذ معه محفة على أنه يتوجه من هناك الى السويس ، فلم يتم له ذلك ورجع عن قريب .

وفيه كانت وفاة الزينى فرج أحد الأمراء المقدمين الألوف ابن برد بك أحد الحجاب ورأس باش البريدية ، وكان من أعيان أولاد الناس ، وكان رئيسا حشما من ذوى العقول ، وقاسى في أواخر عمره شدايد ومحن ، وصودر وأقام في الترسيم مدة طويلة ، وباع جميع ما يملكه ، وكان شاخ وكبر سنه وجاوز الثمانين سنة من العمر .

وفي يوم الاثنين سادس عشرينه توفيت نور كلدى الجركسية زوجة الأمير خاير بك أحد المقدمين الذى كان كاشف الغربية ، وهى بنت أخت خوند الجركسية قرابة الملك الظاهر جقمق ، وكانت شابة جميلة حسنة ، فكان لها مشهد حافل ، ومشت قدامها الأمراء قاطبة ، وصلى عليها في سبيل المؤمنين .

وفي ذى الحجة كان مستهل الشهر يوم الجمعة ، فصعد الخليفة للتهنئة بالشهر ، وصعد القضاة الأربعة الذين تولوا جددا ، فجلس كل منهم في منزلته على العادة ، وكان السلطان في الميدان .

وفي يوم الاثنين رابعه رسم السلطان لنقيب الجيش بأن يقبض على أولاد الزنكلونى الذى مات تحت الضرب ، فشكهما في الحديد ، ورسم له السلطان بأن يرسلهما الى جهة الواح في مكان

يسمى «موط» ، وهو كثير العقارب والهوام ، فقبض عليهما وأرسل صحبتهما متسفرا ، وأخذ منهما خمسة عشر دينارا . وقد كفى ما جرى عليهما .

وفي يوم الأحد كان عيد النحر ، وكانت الأضحية مشتتة في السعر ولا توجد بسبب أذى الممالك وخطفهم للأغنام والأبقار ، وأعجب من هذا أن الملح خرج السلطان على بيعه وحركه ، فعز وجود الملح حتى يبع كل أردب ملح بثمانمائة درهم . وهذا قط ما اتفق فيما مضى من السنين ، وعز وجود الفحم حتى يبع كل قنطار بثمانية أنصاف ، وكذلك الشعشاع حتى عد ذلك من النواذر الغريبة .

وكان السلطان خرج على بيع الخشب السنط بسبب عمارة المراكب ، وصاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصبا باليد ويرسلونه الى السويس لأجل عمارة المراكب التى هناك ، وعز الكبريت أيضا حتى يبع كل رطل بثمانية أنصاف ولا يوجد الا قليلا .

وفي يوم السبت سادس عشره نزل السلطان باكر النهار وعدى الى بر الجزيرة ، وكان صحبته الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين قاطبة والأمراء الطبلخانات والعشراوات والجم الغفير من الخاصكية والممالك السلطانية ، فنصب له وطاقا في المنية وأشيع بين الناس أنه يتوجه من هناك الى جهة الفيوم حتى يكشف على الجسر الذى عمره الأمير أرزمك الناشف ، وكان تقدم له أنه في أواخر السنة الخالية توجه أيضا الى الفيوم . ثم ان السلطان أخذ صحبته محفة فتحقق عند الناس أنه لا بل أن يشوط من هناك الى مكان يختاره .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره أنفقت الجامكية على العسكر في غياب السلطان .

وفي أثناء هذا الشهر قتل شخص من المماليك السلطانية يقال له برسباى حداية ، وكان أصله من ممالك الظاهر خشدقدم ، فوجدوه مذبوحا في داره هو وعبداه ولا يعلم من قتله . ويقال ان بعض المماليك الأجلاب قتله لأجل اقطاعه ، وكان غير مشكور السيرة .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره جاءت الأخبار بأن السلطان لما توجه الى بر الجيزة نزل بالمنية التي عند انبابة ، ثم توجه من هناك الى المنصورية ونصب بها الوطاق هو والأمراء وأقام بها أياما ، وصار يركب من هناك ويسير ويتصيد ، وقيل أنه توجه الى جسر أم دينار وكشف عليه ثم رجع الى الوطاق .

ثم انه في يوم الجمعة رحل من المنصورية وعاد الى انبابة فأقام بها في ذلك اليوم ، وكان أشيع بين الناس بأن السلطان بحرق هناك في ليلة السبت احراقه فقط ، فتوجهت اليه الناس أفواجا أفواجا بسبب الفرجة فلم يصح أمر النفط هناك ، وقد استخف عقل السلطان جماعة من الأمراء في هذه التشوطة التي شوطها في هذه الأيام الشاتية ، وقد حصل للأمراء والعسكر غاية الكلفة والمشقة من غير سبب يوجب ذلك . وكان السلطان أخذ صحبتته محفة وقويت الاشاعة بين الناس بأن السلطان يتوجه من هناك الى الفيوم وقيل الى ثغر الاسكندرية فلم يصح ذلك .

فلما كان يوم السبت ثالث عشرينه صلى السلطان العصر بالوطاق ، ثم عدى من هناك الى بولاق وقصد التوجه الى القلعة ، فطلع من على قناطر السباع وشق من الصليبة ، وكان في موكب

هين بخلاف ستة أنفس وهم : الأمير طومان باى الدوادر والأمير علان الدوادر الثانى أحد المقدمين والأمير أنص باى حاجب الحجاب والأمير تمر أحد المقدمين والأمير خاير بك الكاشف أحد المقدمين والأمير ماماي جوشن أحد المقدمين وبعض أمراء عشراوات وبعض خاصكية مشاة . وكان قدامه جماعة من أرباب الوظائف من أعيان المباشرين ، خلا القاضى كاتم السر ابن أجا فانه كان عليلا منقطعا عن الركوب ، وكان السلطان والأمراء بتخافيف صغار وسلاليات صوف بسمور . وكان قدام السلطان بعض جنائب ونوب هجن ، وكان قدامه طبلان وزمران والنفير البرغشى فطلع الى القلعة قبل المغرب بخمس درجات . فكانت مدة غيبته في هذه التشوطة ثمانية أيام .

وفي يوم السبت المقدم ذكره حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وقد وصل من مكة الى القاهرة في أحد عشر يوما فعد ذلك من النوادر . وقد خرجت هذه السنة المباركة عن الناس على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة وقع فيها الرخاء في سائر الغلال ، وأخصب فيها الزرع والقواكه والبطيخ ، وكان النيل فيها عاليا وثبت الى أواخر بابه ، وكانت سنة مباركة غير انها كانت كثيرة الحوادث ، ووقع فيها الطاعون في أوائلها ، وحصل فيها توعك للسلطان في عينه حتى أشرف على العمى ثم شفى من ذلك . وحصل فيها عزل للقضاة الأربعة في يوم واحد وولى السلطان أربعة قضاة عوضهم في يوم واحد ، وكان السلطان أبطل المجامعة والمشاهرة التي كانت تؤخذ من جهات العسبة وفرح الناس بذلك . ثم بدا للسلطان إعادة ما أبطله من وجوه المظالم فشق على الناس ذلك ، وكانت جهات الشرقية والغربية في غاية الاضطراب بسبب فساد العربان لموت الجويلي

وجور الكشاف ومشايخ العربان ، والأمر في ذلك كله الى الله تعالى .

سنة عشرين وتسعمائة (١٥١٤ م) :

فيها ، في المحرم ، كان مستهل الشهر يوم الأحد المبارك ، فكان الخليفة يومئذ الامام المتوكل على الله محمد بن الامام المستنكس بالله يعقوب ابن الامام المتوكل على الله عبد العزيز ، وسلطان الديار المصرية الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره . وأما القضاة الأربعة أئمة الدين فالقاضي السافعي علاء الدين الأحمسي ، والقاضي الحنفي شمس الدين بن النقيب محمد السديسي الامام ، والقاضي المالكي جلال الدين عبد الرحمن ابن الشيخ زين الدين قاسم بن قاسم ، والقاضي الحنبلي شهاب الدين أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ، وأما الأمراء المقدمون فالأمير سودون بن جاني بك الشهير بالعجى آتايك العساكر بالديار المصرية ، والأمير أركماس بن ولى الدين أمير مجلس . وكانت امرة السلاح يومئذ شاغرة ، وبقية الأمراء المقدمين على حكم ما ذكر في السنة الخالية . وفي هذه السنة تكاملت عدة الأمراء المقدمين سبعة وعشرين مقدم ألف ، ويأتى الكلام على أسمائهم في مواضعه ، وذلك خارجا عن امرة السلاح فانها كانت شاغرة . وأما أرباب الوظائف من المباشرين فالقاضي بدر الدين محمود بن أجا الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وبقية المباشرين على حكم ما تقدم ذكره في السنة الخالية .

فلما كان مستهل الشهر طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد ، فبالغ السلطان في اكرامهم وقام اليهم فسلموا ونزلوا الى دورهم . وفي يوم الثلاثاء ثالثه جلس السلطان بالميدان وعين الى خاصكيته خوذا ولبوس خيل من خاصات

البركستوانات ، وقبل ذلك بمدة فرق عليهم سيوفا مسقطه بفضة وزرديات عال ، حنى فرق عليهم التراكيش والفسى وقد اعتنى بهم بخلاف من تقدمه من الملوك ، فانه كان ينعم عليهم في الباطن والظاهر بالمال والاقطاعات والقشاش الفاخر وغير ذلك .

وفي يوم الأربعاء رابعة وجد في سوق الغنم شخص من الممالك القرائصة وهو فتيل ، وفد خنق بوتر في رفته وعروه من أثوابه ورموه على قارعة الطريق ولم يعلم من فعله ، فقتل ان ذلك من فعل الممالك الأجلاب بسبب اقطاعه ، وقد فُعلوا مثل ذلك بجماعة كثيرة من الممالك القرائصة بسبب اقطاعاتهم ، فقتلوا ولم تنتطح في ذاك شاتان .

وقد اضطربت الأحوال في هذه الأيام الى الغاية وصار الممالك يقتلون من يلوح لهم عليه مضرب لأجل اقطاعه ، واذا عرضوا من يفضل على السلطان فيتغافل عن ذلك ، والأمر الى الله تعالى .

وفي يوم الخميس خامسه تغير خاطر السلطان على الأمير جاني بك الأستاذار فقبض عليه وأودعه في الترسيم حتى يقيم الحساب ، فانتدب الى عمل حسابه شمس الدين بن عوض والشرفي يونس النابلسي الذى كان استادارا ، فالتزموا بأن يبقوا عليه في حساب الديوان المفرد خمسة وثلاثين ألف دينار ، فاستمر في الترسيم بالقلعة حتى يكون من أمره ما يكون ، وكان جاني بيك ظالما عسوفا غير محبب للناس ، فلم يرث له أحد في هذه الكائنة التى وقعت له .

وفي يوم السبت سابعه تعطل اللحم الذى كان يطلع الى طباق الممالك الأجلاب فضجوا في ذلك اليوم وكادت أن تقع فتنة كبيرة ، وكان الوزير يوسف البدرى مسافرا في جهة البحيرة وديوان الدولة في غاية الاضطراب ، وقد تعطلت لحوم جماعة من الممالك القرائصة نحو من ستة أشهر

الطباق الأربع كما كانوا في الأول ، وأبطل أمر الطبقة الخامسة ، وسار العسكر شيئا واحدا في تفرقة الجامكية .

وفي يوم الخميس تاسع عشره دخل الحاج الى بركة الحاج ، فدخل الركب الأول وقد جد في السير أمير الحاج طومان باي حاجب ثانى ، فخرق العوائد في دخوله في التاسع عشر من المحرم ، فدخل القاهرة وطلع الى القلعة في يوم الجمعة عشرينه ، فخلع عليه السلطان وشكره على ذلك .

وفي يوم السبت حادى عشرينه دخل المحصل الشريف الى القاهرة وطلع أمير ركب المحصل الأمين قانصوه كرت أحد الأمراء المقدمين ، فخلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره في موكب حافل ، ورجعا والحجاج راضية عنهما فيما فعلاه في طريق الحجاز .

وفي هذه السنة رجع من الحجاز القاضى شمس الدين التتاي المالكي أحد النواب ، وكان مجاورا بمكة ثلاث سنين .

ورجع سيدى خليل ابن عم الخليفة ، وكان مجاورا بمكة فرجع وهو مريض على خطة لايمى ، فلما توجه الى داره أقام بها الى يوم الاثنين ثالث عشرينه وتوفى الى رحمة الله تعالى . وهو خليل ابن محمد بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله العباسى الهاشمى القرشى . وكان رئيسا حشما بهى المنظر شائب اللحية ، وكان في عشر السبعين لما مات ، فكان له جنازة حافلة ودفن على آبيه بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وقد كبر سنه وشاخ ولم يل الخلافة ، لاهو ولا أبوه محمد ولا جده يعقوب ، وكان خليل هذا طامعا بأن يلى الخلافة فلم يقسم له ذلك وجاءه الموت على غرة ، فمات وفي قلبه من الخلافة حسرة ، فقاته نيل

لم تصرف لهم من حين عزل المعلم على الصغين ومات عقيب ذلك ، فكثر الكلام في حق السلطان من الممالك وربما ينتشى من ذلك فتنة ، وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشحات والتعطيل ، فان بنذر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه البضائع في السنة الخالية ، وبنذر جدة خراب بسبب تعبت الفرنج على التجار في بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحو من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط ، وكانت جهة البحيرة في هذه الأيام في غاية الاضطراب بسبب فساد العربان من حين مات الجويلى وولى ابن أخيه عوضه .

وفي يوم السبت المذكور نزل السلطان وتوجه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، وأقام بها ذلك اليوم ... كل هذا من ضيقة حضرته من أجل هذه الأحوال التى هى غير صالحة ، والأمر الى الله .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره جلس السلطان بالحوش وعرض جماعة من خاصكته فقط وفرق عليهم خوذا نحو ثمانمائة خوذة ، وفرق عليهم أيضا بركستوانات ما بين مخمل ملون وفولاذ وذلك نحو ستمائة بركستوان ، وكان قبل ذلك بمدة يسيرة فرق عليهم زرديات وأتراسا ورمحا بسن وسيوفا مسقطة بفضة ، وفرق عليهم أيضا تراكيش وقسييا ونشابا . وكان ذلك بالزردخاناه من مواجيد الممالك الذين ماتوا في الفصل في السنة الخالية ، ولم يفرق موجودهم الا في هذا الشهر .

وفي يوم الاثنين سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وفي هذا الشهر حسن ببال السلطان أن يضيف الطبقة الخامسة التى جددتها برسم العسكر الملقق ، فوزع ذلك العسكر على

الخلافة ، وعانده الدهر فيما أملة بخلافه . وقد
فلت في المعنى :

مات سيدى خليل بالقهر لما
لم ينل بالخلافة التفضيلا
وتولى عنه الزمان بريب
وكذا الدهر لا يراعى خيلا

وكان سيدى خليل عنده رهج وخفة وكان أهوج
في نفسه ، وقد جرى بينه وبين ابن عمه أمير المؤمنين
المستمسك بالله يعقوب بسبب الخلافة ما لا خير
فيه . وقد تقدم ما وقع لهما في سنة أربع عشرة
وتسعمائة ، فما أبقي سيدى خليل ممكنا في أذى
ابن عمه الخليفة يعقوب ، وقد ذكرنا ذلك في
موضعه ، ومات والعداوة واقعة بينهما ، وقد كفى
الله الخليفة يعقوب وولده محمد المتوكل على الله
شر خليل بصبرهما عليه . وقد قيل في المعنى :

اصبر على مضض العدو
فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها
إن لم تجد ما تأكله

وفي يوم الاثنين ثالث عشرين المحرم فيه خلع
السلطان على الأمير طقطبى نائب القلعة أحد
المقدمين وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وخلع
على الركنى سيدى عمر ابن الملك المنصور عثمان
ابن الملك الظاهر جقمق وقرره أمير حاج بالركب
الأول فبكى وشكا من ذلك ، وكان فقيرا لا يحمل
حاله ذلك ، فلم يلتفت السلطان الى شكواه ولا رق
له ، وقد خالف السلطان العوائد القديمة في لبس
أمرء الحاج في شهر المحرم ، وكانت العادة القديمة
بأن يلبسوا بعد المولد في شهر ربيع الأول ، فبادر
السلطان وألبسهما في هذا الشهر وعجل بذلك .
وفي أواخر هذا الشهر جاءت الأخبار من مكة
بوفاة قطبى باش المجاورين ، فلما تحقق موته

خلع السلطان على شخص من الأمراء الطبلخانات
يقال له جانى بك قرا وقرره في باشية مكة عوضا
عن قطبى باش بحكم وفاته بمكة .

وفيه خلع السلطان على شخص من المماليك يقال
له يونس ، وقرره ترجمانا عوضا عن تغرى بردى
الترجمان ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين
تغير خاطر السلطان على تغرى بردى كما تقدم ذكر
ذلك . وكان يونس هذا قبل ذلك من جملة
الزردكاشية ثم بقى نائب الترجمان ثم بقى ترجمانا
كما كان تغرى بردى .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه عرض السلطان
جماعة من خاصكيته وعين منهم نحو من ثلاثمائة
خاصكى ليتوجهوا معه الى السويس بصحبته .
ثم عين بعد ذلك جماعة من الأمراء المقدمين
ليتوجهوا صحبته الى السويس ، فعين الأتابكى
سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس
والأمير طومان باى الدوادار قرابة السلطان ، وعين
الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ،
والأمير أنص باى حاجب الحجاب والأمير خاير بك
كاشف الغريبة أحد الأمراء المقدمين ، والأمير علان
الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين . وعين جماعة
من الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف منهم
مغلبى الزردكاش ، وجماعة آخرين من الأمراء
العشراوات ، فلما عينهم شق عليهم سفر السلطان
الى السويس لعدم الماء والكلفة .

وفيه نزل السلطان وعدى الى الروضة وأقام في
خرطوم الروضة ذلك اليوم ، وكان نهار غيم
فانشرح في ذلك اليوم ، وأحضر له الزينى بركات
ابن موسى هنالك مأكلا فاخرة وأسطة حافلة ،
فأقام هناك الى بعد العصر وعدى وطلع القلعة
وشق من الصليبة في نفر قلائل من الخاصكية ،
وكان صحبته الأمير خاير بيك الخازندار أحد

الأمراء المقدمين وآخرون من الأمراء العشراوات .
وفي يوم السبت ثامن عشره صلى السلطان صلاة
الفجر ، ونزل من القلعة فتوجه الى الريدانية ونزل
بالوطاق الذى نصب هناك ، وجلس بالمخيم
الشريف ، وخرج صحبته الأمراء المعينون المقدم
ذكرهم ، فأقام السلطان بالوطاق من يوم السبت
الى يوم الأربعاء ، وقد قصد التوجه الى نحو
السويس ليكشف على المراكب التى أنشأها هناك .
وكان صحبته من المباشرين القاضى شهاب الدين
أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر وأخوه كريم
الدين وأولاد الملكى كاتب الخزانة وأبو البقا ناظر
الاسطبل وناظر الخاص علاء الدين وأولاده ابن
فخيرة كتاب الممالك وآخرون من أعيان
المباشرين .

وأخذ السلطان صحبته الصنيجق السلطانى
والكوسات والطبول والزموور ... وأخذ صحبته
محفة بغشى أطلس أصفر وطلباً حربياً ، ورسم
للعسكر الذين صحبته بأن يأخذوا معهم اللبس
الكامل من زرديات وبركستوانات وخوذ وغير
ذلك من آلة السلاح ، فلما تحقق العسكر خروج
السلطان ماجت القاهرة لخروجه وتكالب العسكر
على مشترى قرب وبقسماط وغير ذلك من احتياج
السفر ، ولم يعهد قط من سلطان أنه خرج الى
السويس وسافر على هذا الوجه . ولما كان
السلطان فى الوطاق خلع على شخص من الأمراء
العشراوات يقال له جانى بك قرا فقرره باش
المجاورين بمكة ، ولما نزل السلطان من القلعة
شق من بين التراب حتى نزل بالوطاق ، فرسم
للوالى بأن يشهر المناداة فى القاهرة عن لسان
السلطان بأن لا مملوك ولا ابن ناس ولا غلام
ولا عبد يخرج من داره من بعد المغرب ، وان
لا أحد يمشى بسلاح ولا مملوك يغطى له

وجه ، ولا يعبث على متسبب . فلما أشهر النداء
بذلك ارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فصار الوالى
يكرر هذه المناداة فى القاهرة ثلاثة أيام متوالية .

وفى صفر كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ،
وكان السلطان مقيماً بالوطاق فتوجه اليه الخليفة
والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فبالغ السلطان
فى اكرامهم ، ولا سيما أمير المؤمنين المتوكل على
الله ، فان فى ذلك اليوم توجه أبو بكر وأخوه أحمد
أولاد سيدى خليل ابن عم الخليفة الذى توفى
فرافعوا أمير المؤمنين المتوكل عند السلطان بسبب
المرتب الذى كان لو والدهم خليل ، فان الخليفة
المتوكل لما ولى الخلافة زاد فى مرتب سيدى خليل
حتى قطع بذلك لسانه عنه ، فلما توفى سيدى
خليل قرر الخليفة ما كان زاده فى مرتب سيدى
خليل لولده سيدى هرون ، فلما سمع السلطان
كلام أولاد سيدى خليل تعصب للخليفة ونهر
أولاد سيدى خليل وقال لهما : « اذا زاد فى معلوم
أبوكم شئ حتى قطع به لسانه عنه فلما مات أقول
له اجعل الذى زدته لخليل من بعده لأولاده .
أنا أحكم عليه فى شئ . اخرجوا عنى لا ترونى
وجوهكم قط » . ثم قال : « والله ان يرجع أحد
منكما يشكو من الخليفة عندى ما يحصل له معى
خير . اخرجوا من وجهى نزقتونى » . وكان الذى
بالغ فى مرافعة الخليفة أبو بكر بن سيدى خليل
وأخوه أحمد ، ثم قال لهما : « كونوا كلكم تحت
طاعة ابن عم أيسكم » فخرجا من بين يديه وهما
يتعثران فى أذيالهما ، ونصر الخليفة المتوكل
عليهما ، وقرر الخليفة ما كان زاده لخليل وجعله
لابنه هرون ، ولم يظلم من يد أولاد خليل فى حق
الخليفة شئ وانتصف عليهما ، ورجع الخليفة من
عند السلطان وهو فى غاية العز والعظمة .

وقال آخر :

سبحان من يحكم في خلقه
بمدله فيهم ولو شاء بطش
خوفهم بالجوع لم ينتهوا
عذبهم من بعده بالعطش
وفي يوم الأربعاء تاسعه جاءت الأخبار بأن
السلطان عاد من السويس ونزل ببركة الحاج ،
فكانت مدة غيبته في هذه السفرة ثمانية أيام .
وقاسى العسكر في هذه المدة اليسيرة غاية المشقة ،
ومات لهم عدة بغال ووقع فيهم عطشة شديدة .
وتكلف الأمراء والعسكر في هذه السفرة كلفة
كبيرة . فلما بلغ الخليفة والقضاة الأربعة مجيء
السلطان توجهوا اليه نحو بركة الحاج ، وذلك في
يوم الخميس عاشر صفر ، فلما سلموا عليه وهنوه
بالسلامة بالغ في إكرامهم ، ثم توجه اليه الأمراء
والعسكر الذين كانوا بالقاهرة فخرجوا اليه قاطبة ،
ولاقاه القاضي كاتب السر ابن أجا وغير ذلك من
الأعيان .

وكان من ملخص أخبار هذه السفرة أن السلطان
لما وصل الى السويس كان يوم دخوله هناك يوما
مشهودا ، وطلب طلبا حافلا ما بين جنائب وهجن
باكوار زركش ، وكان صحبته محفة والكوسات
والطبول والزمر ، وكان هنالك الرئيس سلمان
العثماني وجماعة من العثمانية البحارة فقصده
السلطان اظهرا العظمة لأجل جماعة ابن عثمان حتى
قيل دخل العسكر الى السويس وهو لابس آلة
الحرب ، وكان جماعة ابن عثمان هناك نحووا من
ألقى انسان ، فلما وصل السلطان الى هناك كشف
على تلك الأغربة التي عمرها هناك وكانت نحو
عشرين غرابا ، فالذي انتهى منه العمل أنزلوه الى
البحر الملح بحضرة السلطان ، وكان ذلك اليوم

ثم ان السلطان أقام بالوطاق الى يوم الأربعاء
ثاني الشهر ، فرحل من الريدانية بعد الظهر
وتوجه الى الخانكاه فتعشى هناك ، ثم رحل
وقصد التوجه الى نحو السويس ، ورجع بقية
الأمراء الذين لم يسافروا مع السلطان ، فلما رحل
من الخانكاه جاءت الأخبار بأن الماء الذي حمله
السلطان معه في القرب قد فسد جميعه من القرب
كونها كانت جديدة فصار الماء أحمر كالدم وتتن
ودود ، وكان السلطان حمل معه نحو ثلاثة آلاف
قربة ، ففسد ذلك الماء جميعه .

فلما كان يوم الجمعة رابعه أرسل السلطان الى
الأمير خاير بك الخازندار والزينى بركات بن
موسى المحتسب بأن يرسلوا اليه جمال السقاين
بالروايا والماء ، فعند ذلك قبض الزينى بركات بن
موسى على جمال السقاين الذين بالقاهرة فاخفى
بقية السقاين وأخفوا الجمال ، فعند ذلك ماجت
القاهرة واضطربت لأجل منع الماء ، واشتد عطش
الناس ، وصار الأمراء والعسكر الذين بالقاهرة
ينقلون الماء في الجرر على ظهور الخيل والبغال ،
وبقية الناس ينقلون الماء بالجرر على ظهور
الحمير ، واستمرت القاهرة أربعة أيام لم يلح بها
راوية ماء على جمل . وقبض الزينى بركات بن
موسى على نحو مائة وعشرين جمالا برواياها
وأرسلها الى السلطان . فبلغ بعد ذلك سعر كل
قربة ماء نصفين فضة ولا توجد . وصار الناس
يشربون من الصهاريج والآبار العذبة في مدة
ذلك الاضطراب . وقد قلت في هذه الواقعة :

مذ عطلت مصر من سقا يلوح بها
لما أحل بها السلطان بلواء

وقد بقينا لنفقد الماء من ظمأ
مثل البنات العذارى نشتهى الماء

هناك مشهودا ، وقيل كان مصروف تلك الأغربة بما فيها من مكاحل نحاس وحديد وغير ذلك من آلة السلاح فصرف على ذلك من مال السلطان نحو أربعمائه ألف دينار وكسور على ما قيل ، وكان الرئيس سلمان العنماني هو الشاد على عمارة تلك الأغربة ، وهو المشبار اليه في ذلك ، فلما حضر السلطان مد له هناك الرئيس سلمان مدة حافلة ، فخلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، وأنعم عليه بألف دينار ، وخلع على جماعة من التجارين والحدادين والقلافطة لكل واحد خلعة سنية .

وقيل ان في ذلك اليوم احترق جماعة من الصناع الذين يصحنون البارود فمات منهم نحو عشرين انسانا ، وقيل ان النار تعلقت في قلع غراب من الأغربة فأحرقت عن آخره ، فكان مصروف ذلك القلع نحو خمسمائة دينار لأن قلع بحر الملح بخلاف قلع بحر النيل

وأشيع أن السلطان عبت على بعض الأمراء فأنزلهم في الغراب الكبير الذي يرسم الباش ، وكان به قاعة تحت المقعد الذي يجلس فيه الباش ، فرسم للأمراء بأن ينزلوا الى تلك القاعة ، فنزل الأمير سودون الدواداري رأس نوبة النوب . والأمير أنصبای حاجب الحجاب ، والأمير علان الدوادار الثاني ، وآخرون من الأمراء . فلما استقروا بتلك القاعة طلع الأمير طومان باي الدوادار وأغلق على الأمراء باب الطابقة التي على تلك القاعة وتكاسل عنهم ساعة ، فظن الأمراء أن السلطان قد قبض عليهم بهذه الحيلة التي عملها عليهم ، فأقاموا والطابقة مغلقة عليهم نحو عشر درجات فضاق الأمر عليهم وساء بهم الظن ، فعند ذلك جاء اليهم الأمير طومان باي الدوادار فقال

لهم : من أراد أن يطلع من الطابقة يحضر كل واحد منكم قنطار سكر للسلطان ، فما صدقوا بذلك وقالوا : السمع والطاعة ، ففتح لهم باب الطابقة فطلعوا وهم في غاية الاضطراب ! ..

وكانت اقامة السلطان في السويس ثلاثة أيام . وقد أنشأ السلطان هناك خانا ودكاكين وبعض دور وغير ذلك من الأبنية المفيدة ، وحفر هناك آبارا وصنع عليها سواقي ، فلما عاد السلطان الى بركة الحاج أنعم على الأمراء الذين كانوا بصحبته . فأنعم على الأتابكي سودون العجمي بحمسمائة دينار في نظير كلفته وتعبه ، وأنعم على الأمير أركماس أمير مجلس بأربعمائة دينار ، وكذلك الأمير سودون الدواداري والأمير طومان باي الدوادار والأمير أنصبای حاجب الحجاب وبقية الأمراء المقدمين ممن كان صحبته . وأنعم على الأمراء الطبلخانات ممن كان صحبته وهم : قنك رأس نوبة ناناي ومغلباي الزردكاش وآخرون من الأمراء الطبلخانات فأنعم على كل واحد منهم بمائة دينار في نظير كلفته . وأنعم على الأمراء العشراوات ممن كان صحبته لكل واحد منهم بحمسين دينارا في نظير كلفته ، ثم ان السلطان رحل من بركة الحاج ونزل بالريدانية .

فلما كان يوم السبت ثاني عشر صفر ركب السلطان من هناك ودخل من باب النصر وشق القاهرة في موكب حافل بغير شاش ولا قماش ، وكان قدامه ولده المفري الناصري محمد ، وهو لابس تبع سلطاني ، ولا صنجق سلطاني ولا قبة ولا طير ، فلاقاه القضاة الأربعة من الريدانية ودخلوا القاهرة قدامه ، ولقاءه سائر الأمراء المقدمين قاطبة والمباشرين . وكان الأتابكي سودون العجمي ابنه ضعيف على خطة فدخل قبل السلطان واشتغل بولده ، وكان السلطان ألبس الأمراء

المقدمين الذين كانوا صحبته كوامل مخمل أحمر بسمور ، وشيء كوامل صوف بسمور

فلما تحقق الناس دخول السلطان اصطفوا له على الدكاكين بسبب الفرجة ، واصطفت له الطبول والزمر على عدة دكاكين من القاهرة ، فشق من القاهرة وقدامه طبلان وزمران والنفير السلطاني ، وقدامه عدة نوب هجن فيها أربعة نوب بأكوار زركش ، البقية بأكوار محمل ملون . وكان قدامه من الجنائب نحو أربعين فرسا بعضها بكنائش زركش وسروج مغرق . وكان من جملة الجنائب بغال وحجورة بسروج بداوى ورك بداوى فعد ذلك من النوادر .

وكان قدامه عشر كاشات بأغطية حرير أصفر ، وكان قدامه محفة على بغال بعشى حرير أصفر . فلما مشى الطلب والجنائب والأمراء جاء بعدهم السلطان وقدامه الخاصكية مشاة ورءوس النوب والشباب السلطانية والشعراء . وكان لابسا تخفيف صعيقة ملساء وعليه سلارى صوف أبيض بوجه صوف أخضر ، فشق القاهرة في ذلك الموكب وكان له يوم مشهود ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فطلع من على سويقة العزى من على مدرسة السلطان حسن ، وشق الرملة ثم دخل من باب الميدان بعد أن سلم على القضاة والأمراء وانقض ذلك الموكب . فكانت مدة غيبته في هذه السفرة ذهابا وإيابا ثمانية أيام منها إقامته في السويس ثلاثة أيام .

وفي يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالميدان جلوسا عاما وحكم بين الناس الى قريب الظهر ، وكان له مدة طويلة لم يحكم بين الناس من قبل أن يتوجه الى السويس .

وفي ذلك اليوم رسم بتوسط شخصين من

الغلمان قد سرقوا زردتين لأستاذ بينهما في هذه السفرة ، فوسطهما في الرملة عند سوق الحيل

وفي يوم السبت تاسع عشره فيه ثارت فتنة كبيرة بالقلعة من المماليك الأجلاب ، ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، وبهبوا الدكاكين التي في خرائب التتر ، ونزلوا الى بيت الأمير طومان باى الدوادار وأركبوه من بيته غصبا ، وطلعوا به الى القلعة وقالوا له : قل للسلطان يثفق علينا كما أنفق على الأمراء الذين سافروا صحبته الى السويس . فاستمرت المماليك ثائرة بالقلعة ، وكثر القال والقليل بين الناس بسبب ذلك ، وأغلقت باب السلسلة وباب الميدان في ذلك اليوم ، وكان العسكر قاطبة له أربعة أشهر لم يصرف لهم قبيها لحم ولا عليق .

ثم ان السلطان نادى للعسكر بأن من كان له عليق مكسور أو لحم مكسور يطلع الى القلعة يوم الاثنين فيصرف له ذلك ، فلما كان الاثنين طلع العسكر قاطبة فلم يصرف لهم سوى العليق فقط واستمر اللحم موقوفا ، وكان ديوان المفرد في تلك الأيام في غاية الانشحات ، والوزير يوسف البدرى مع المماليك في غاية الذل ، وهو مهدد منهم بالقتل في كل يوم . وكان السلطان أخرج عن ديوان الوزارة عدة جهات كانت توسعة في الديوان ، منها جهات قطيا وغير ذلك من الجهات ، فأنعم بجهات قطيا على الأمير قانصوه روح لو ، واستمر مقيما هناك على تقدمته ، فانشحت الديوان الى الغاية بسبب ذلك ، وكان العسكر كثيرا ولا سيما ما جددده السلطان من العسكر في الطبقة الخامسة فانشحت الدواوين من الجوامك واللحوم والعليق بسبب ذلك .

وفي يوم الأحد عشرينه جلس السلطان على المصطبة التي بالحوش ، وأحضر الوزير يوسف

السدرى ومباشرى الديوان ، وأحضر المعاملين والطباخين فعملوا حسابهم بحضرة السلطان ، فظهر لهم مال له جرم منكسر فى الديوان ، فرسم على المباشرين بجامع القلعة وأقام فى عمل حسابهم الى بعد الظهر ، وكان ذلك اليوم فى غاية النكد ، هذا والماليك قائمة عند حفظ أنفسهم ، وقد اتسيع بين الناس أمر الركوب على السلطان .

وقيل ان السلطان أحضر بعد العصر جماعة من أعيان خاصكيته وغنهم على هذه الأفعال الشنيعة فأغلظ عليه بعض الخاصكية وقال له : « أنت الذى أشحت الدواوين بهذا العسكر الكثير الذى جمعته وجعلت له طبقة خامسة وقطعت جوامك الأيتام والنساء بسببهم وهم ما بين تراكمة وأعجام وسويخانة وأساكفة وأولاد ناس ملفقين شئ خياط وشئ بخافى » . فقال لهم : « أنا ما جعلت ذلك العسكر المستجد الا أن يكون فداء لكم فى الأسفار والتجاريد » . فقال له الماليك : « هذا ما كان طريقة الملك الأشرف قايتباى وأنت الذى أشحت الدواوين حتى صار اللحم ينكسر خمسة أشهر ، وكذلك العليق يعطوه لنا من الشون قمح مسوس ما تأكله الخيل . والجامكية التى تعطينا لنا ما تكفانا لكراء بيت واسطبل وجامكية الغلام ولكسوتنا ، والقماش كله غالى حتى الخام ما يوجد . والأقسمة صارت غالية كل جرة بنصفين فضة ، فما نشبع فى أيامك لا من اللحم ولا من الأقسمة ، ونحن جياعة عراية » . فسكت السلطان ساعة ثم قال : « لكم الرضا أصرف لكم اللحم المكسور وكذلك العليق أصرفه لكم شعير مغربل وأجعل لكم الأقسمة كل جرة بنصف فضة » . فارتفعت له الأصوات بالدعاء وانصرفوا من بين يديه وهم شاكرون وخمدت تلك الفتنة قليلا .

وكان الماليك الأجلاب عولوا على نهب بيوت الأمراء والمباشرين ونهب أسواق القاهرة والدكاكين

وحرقت البيوت ، فلطف الله تعالى وجاء الأمر الى سلامه والله الحمد ، ولو فعلوا ذلك لطلع ذلك من أيديهم وما كانت تنتطح فى ذلك شانان ، ولكن الله سلم .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه كان أول الحماسين وهو يوم عيد النصارى وفطروهم .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه طلع الجنباب الشرفى يونس ولد الأتابكى سودون العجمى الى القلعة ، فخلع عليه السلطان كاملية محمل أحمر يسور من ملايسه ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، وزينت له دكاكين حارته عند قنطرة سنقر . وكان سبب ذلك أن الشرفى يونس كان مريض مرضا عظيما حتى أشرف فيه على الموت ، ثم بعد ذلك بعث الله تعالى له بالشفاء فشفى من ذلك العارض وطلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود ، وكان قبل ذلك أنعم عليه السلطان بامرة عنزة وصار من جملة الأمراء العشراوات .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية على عسكر الطبقة الخامسة . وحدث فى ذلك اليوم نادرة غريبة ، وهى أن الماليك الأجلاب وقفوا فى الحوش وصار كل من قبض الجامكية من عسكر الطبقة الخامسة يأخذون منه أشرفيا من الجامكية ويقولون له : « نشرب به أقسمة » . فـأخذون منه الأشرفى طوعا أو كرها ، فحصل لعسكر الطبقة الخامسة فى ذلك اليوم من الماليك الجلبان غاية البهولة وما قدر السلطان على منعهم من ذلك ، وصاروا يخطفون الجامكية من يدى من يقبضها ، فمنهم من يأخذ منها أشرفيا ويعيد الباقي الى أصحابه ، ومنهم من يأخذ الجامكية كلها ويهرب ، فأعيا أمرهم الرءوس النوب ، وحصل فى ذلك اليوم غاية الضرر لعسكر الطبقة الخامسة .

وفي ربيع الأول كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ،
فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ،
واتفق أن ذلك اليوم كان أول بشنس من الشهور
القبطية فوافق أن الشهر العربي والقطي كانا في
يوم واحد ، فعد ذلك من النوادر .

وفي يوم الخميس ثانيه خلع السلطان على
القاضي شرف الدين الصغير وأعادته الي نظر الدولة
وكتابه الممالك كما كان أولا ، وجعل له التكلم في
ثلث الوزارة مع يوسف البدرى المتولى للوزارة
فتضاعفت عظمة القاضي شرف الدين الصغير الي
الغابة ، وكان له مدة طويلة وهو بطل مختف في
داره حتى رضى عليه السلطان وأعادته الي وظائفه ،
وقيل سعى في ذلك ثمانية آلاف دينار وخمسة
آلاف أردب شعير ، فلما خلع عليه نزل من القلعة
في موكب حفل وقدامه أعيان المباشرين وغير ذلك
من أعيان الناس ، وكان له يوم مشهود .

وفي يوم السبت رابعه فرق السلطان على الممالك
رمحا بسبب لعب الرمح ، ثم أئق عليهم فأعطى
لكل مملوك ستة أشرفية ثمن خام على جارى
العادة ، وكان في السنة الخالية لم يعطهم شيئا ،
فأعطاهم ست أشرفية عن هذه السنة وما قبلها
حتى يرضيهم وهم غير راضين بذلك والاشاعات
قائمة بوفوع فتنة كبيرة وصار الناس على رءوسهم
طيرة ، ووزع التجار قماشهم من الدكاكين خوفا
من النهب .

وفي يوم الاثنين سادسه خرج الأمير طومان باى
الدوادار الكبير الى بلاد الصعيد بسبب ضم المغل
وجمع الأموال ، فخلع عليه السلطان ونزل من
القلعة في موكب حفل ، وصحبته الأمراء المقدمون
وأعيان المباشرين ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفي يوم الثلاثاء سابعه جلس السلطان على

المصطبة بالحوش وفرق على العسكر ثلاثة أشهر
عن من اللحم المنكسر لهم ، فعلق لهم الى آخر
سنة تسع عشرة وتسعمائة ، وصار لهم من أول
سنة عشرين وتسعمائة ، وصار يستدعى بلقة بعد
طبقة مثل تفرقة الجامكية

وفي يوم الجمعة عاشره قلع السلطان الصوف
ولبس البياض ، ووافق ذلك عاشر بشنس القبطي ،
وكان الوقت رطبا .

وفي يوم السبت حادى عشره عمل السلطان
المولد الشريف النبوى ، ونصب الخيمة الكبيرة
بالحوش ، وحضره القضاة الأربعة الذين تولوا عن
قريب ، وهذا كان أول اجتماعهم في المولد النبوى
بالقلعة ، وحصر الأتابكى سودون العجمى وبقية
الأمراء المقدمين ، فكان المولد في ذلك اليوم
حافلا .

وفي هذا الشهر جاءت الأخبار من الجيزة بأن
عرب عزالة نازلين بالقرب من البدرشين ، فلما بلغ
ذلك الأمير طومان باى الدوادار ركب من وقته
وكبس عليهم ، فقبض على جماعة من مشايخهم
وشكهم في الحديد ، وقيل كان عدتهم غير المشايخ
المذكورين من أعيانهم وكانوا نحو ثمانية عشر
انسانا — مائة خمسة وأربعين انسانا وبعث بهم
الى السلطان ، فلما عرضوا على السلطان قصد
أن يكلبهم على أبواب القاهرة ، فمنعه بعض
الأمراء من ذلك وقال له : « متى أذ قتلت هؤلاء
العربان نهبت عرب عزالة اقليم الجيزة عن آخره » .
فرجع عن قتلهم وأمر بسجنهم في المقشرة .

وفي يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان
على شخص من الأمراء العشراوات يقال له قانصوه
الفقيه ، وأصله من ممالك الأشرف قايتباى ،
فقرره في نيابة عينتاب ، وقيل نيابة سيس ، وكان

قبل ذلك فى نياية سيس ثم عزل عنها ، وكان مقيما
بمصر بطالا حتى خلع عليه وولاه كما كان

وفى يوم الجمعة سابع عشره نزل السلطان وعدى
الى الروضة وأقام بالمقياس وصلى هناك صلاة
الجمعة ، فلما بلغ ذلك قاضى القضاة الشافعى
علاء الاخيمى توجه السلطان الى المقياس ،
فتوجه اليه وخطب به فى جامع المقياس وصلى به
الجمعة هناك . ثم ان السلطان أقام فى المقياس
الى بعد العصر ونزل فى مركب وشق على بر
الروضة وطلع من على الجزيرة الوسطى وأتى الى
القلعة .

وفى يوم السبت ثامن عشره فيه ابتدأ السلطان
بضرب الكرة فى الميدان ، فطلع اليه الأمراء على
جارى العادة ، ولكن كان السلطان محصتا فى
جسده فلم يضرب الكرة الا ضربا هينا ... حتى يقال
ان السلطان ضرب الكرة فى هذه السنة !

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السلطان
على الأمير أربك المكحل كاملية صوف صينى
بسمور ، وألبسه تخفيفة كبيرة التى يسمونها
الناعورة ، وكان امن حين حضر من ثغر دمياط
وهو بتخفيفة صغيرة ولم يدق على بابه طبلخاناه
وكان كهية الطرخان ، فجبر السلطان بقلبه فى
ذلك وخلع عليه وأعاده الى التقدمة كما كان .

وفى ذلك اليوم المذكور حضر قاصد من عند
سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، وكان السلطان
بالميدان ، فلما قرىء على السلطان مطالعة ابن عثمان
أشيع بين الناس أن ابن عثمان يقصد أن يمشى
على شاه اسمعيل الصفوى صاحب العراقين .
فأرسل يعلم السلطان بذلك وأن يكون هو
والسلطان أمرا واحدا وقولا جازما على الصفوى
حتى يكون من أمره ما يكون .

وفى ذلك اليوم توفى الخوaja شمس الدين
محمد الحليى وكان من أعيان التجار فى سعة من
المال ، ولكن جرى عليه شدايد ومحن فى أواخر
عمره ، وصودر وأخذ ماله غير ما مرة ، وقد تقدم
القول بما وقع له مع السلطان من المصادرات
ودخوله الى المقشرة وهو فى الحديد وأقام بها
مدة ، وكان السلطان قصد أن يثبت عليه كفرا
ويضرب عنقه وقد تقدم سبب ذلك فى موضعه ،
وقد مات قهرا مما وقع له .

وفيه توفى صاحبنا أبو الفضل الذى كان متحدثا
فى نظر المواريث ، وكان لين الجانب عشير الناس
وكان لا بأس به ، ومات والناس عنه راضية .

وفى يوم السبت خامس عشرينه نزل السلطان
الى الميدان وعزم على قاصد ابن عثمان وأضافه
وخلع عليه ، وأذن له بالعودة الى بلاده وكتب
له الجواب عن مطالعته .

وفى هذه الأيام اشتد أمر الحر ، فأقام السلطان
فى الميدان أربعة أيام بلياليها وهو فى أرغد عيش ،
وأطلق الماء فى البحرة التى بالميدان ، وصار يمد
السماط هناك ويأكل هو وأخصاؤه ، فشق ذلك
على بقية مماليكه ، فلما نزلوا اليه بالسماط خطفوه
وكسروا الصحون الصينى ، فلما بلغ السلطان
ذلك تنكد وقام من وقته وطلع الى الدهيشة ،
وكان قصده الاقامة فى الميدان الى يوم الجمعة
فنكد عليه المماليك .

وفى ربيع الآخر كان مستهل الشهر يوم الجمعة
فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا بالشهر
وفى يوم الاثنين رابعه حضر الأمير أوزمك
الناشف أحد المقدمين ، وكان له مدة وهو مقيم
بالقيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك كما تقدم

ذكر ذلك ، فلما كمل عبارته حضر الى القاهرة فحلج عليه السلطان كاملية حافلة بسمور ونزل الى داره وصحبته جباة من الأمراء .

وفي يوم الثلاثاء خامسه كانت وفاة شيخنا العلامة زين الدين عبد الباسط بن الغرسى خليل ابن شاهين الصنوى الحنفى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حسنا من ذوى البيوت ، وكان من أعيان الحنفية ، وكان مولده سنة أربع وأربعين وثمانائة فكانت مدة حياته نحو ست وسبعين سنة . وكانت له اليد الطولى فى علم الطب ، وله عدة مصنفات نفيسه منها تاريخه الكبير المسمى بالروض الباسم وآخر دونه يسمى نيل الأمل فى ذيل الدول ، وآخر فى التوفيقات على أحروف المعجم ، وآخر فى علم الطب ، وغير ذلك فى الشروحات على كسب الحنفية ، وكان والده الغرسى خليل من أعيان الناس ولى الوزارة بالديار المصرية وولى عدة نيابات جليلة منها نيابة حماة وصفد والقدس الشريف ونيابة الاسكندرية وغير ذلك من النيابات الجليلة وكان فى مقام الأمراء المقدمين ، وأما الشيخ عبد الباسط رحمه الله فكانت صفته طويل القامة نحيف الجسد ، وكان يربى له ذؤابة شعر فى رأسه على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافر جدا حتى أن بعض شعراء العصر قال فيه مداعبة لطيفة وهو قوله :

أدخلت فى منخرة أصبعى -

وقلت : ما ذا العضو ؟ .. سميته

فقال لى مستعجلا : منخرى

قلت : أنا يا سيدي فيه

وكان الشيخ عبد الباسط ضنينا بنفسه وعنده ييس طباع مع شسم زائد ، وكان معظما عند الأتراك والأمراء ، وكان عارفا باللغة التركية وفيه

جبله محاسن ، وكان بقية السلف وعدة الخلف وكان أصابه علة السل فأقام نحو سنة ونصف وهو عليل منقطع فى داره حتى مات رحمة الله عليه .

وفى يوم الخميس سابعه نزل السلطان وتوجه الى تربة العادل التى بالريدانية ، وجلس هناك على المصطبة ونصب له سحابة ... ثم جربوا قدامه مكاحل نحاس وحديد ، فكان عدتهم نحو أربع وسبعين مكحلة فصح منهم شىء وتفرق شىء .

ثم ان السلطان قام من هناك وتوجه الى قبسة الأمير يشبك التى بالمطرية فأقام هناك الى بعد العصر ، وركب وعاد الى القلعة وشق من القاهرة ودخل من باب الفتوح فى نفر قليل من العسكر ، فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء وقيل انه فرق فى ذلك اليوم نحو مائة دينار وكسور على الفقراء والمساكين والمغانى الذين كانوا صحبته فى القبة ، ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين حادى عشره كان آخر مضى الخماسين ، وصادف أنه فى ذلك اليوم كان عيد ميكائيل ، ونزلت النقطة فى ليلة الاثنين . وقد مضت الخماسين على خير ولم يقع فيها الطاعون ، ولم يدخل الى مصر . وكانت الناس تلهج بوقوع الطاعون فى هذه السنة ويكون أمرا عظيما ، فوقع بعض طعن فى الشرقية وأقام أياما وارفع ولم يغش أمر الطاعون بمصر .

وفى ليلة الثلاثاء ثانى عشره كانت ليلة سبى اسماعيل الانبأبى رضى الله عنه ، وكانت من الليالى المشهودة وخرجت فيها الناس عن الحد فى القصف والفرجة ، وضرب فى الجزيرة التى ببولاق تجاه الرصيف فوق الخمسمائة خيمة ، وكانت الناس فى أمن ورخاء ، وكان فى الرمل سوق حافل بدكاكين مبنية وقلوا اليها أفخر البضائع ، وكثر هناك البيع والشراء على المتفرجين .

وفي يوم الخميس رابع عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أقبای الطويل أمير آخور ثاني الذي كان توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فلما طلع وفابل السلطان خلع عليه كاملية حافلة بسمور ونزل في موكب مشهود ، وحصل له جملة تقادم عظيمة من ابن عثمان ومن النواب ما بين مال وخيول ومماليك وقماش وغير ذلك .

وفيه وقعت مرافعة مهولة بين الزينى بركات بن موسى وبين أحمد بن الصايغ ، وقصد ابن الصايغ أن يتسلم الزينى بركات بن موسى على ثلاثين ألف دينار ، واستمرت هذه المرافعة عمالة بينهما حتى يكون من أمرهما ما سنذكره في موضعه

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن في حادى عشر صفر وقع سيل عظيم حتى دخل الى الحرم ، ووصل الماء الى عتبة البيت الشريف وغطى الحجر الأسود ومقام ابراهيم ، وهدم عدة دور بمكة وغرق فيه من الناس ما لا يحصى ، وكان أمرا من الأمور المهولة ، وتقدم القول على أن في دولة الأشرف قايتباى وقع مثل هذا السيل بعينه حتى عام المنبر الذى بالحرم وامتلات بئر زمزم بالماء وكان أيضا أمرا مهولا .

وفيه رسم السلطان للشهابى أحمد ناظر الجيش المنفصل بأن يطلع الى الخدمة في كل يومى اثنين وخميس ويقف فوق ناظر الجيش عبد القادر القصروى ، فاستمر على ذلك مواظبا للخدمة وهو وهو منفصل عن نظر الجيش ، ولم يعلم ما قطد السلطان بذلك .

وفي يوم الجمعة خامس عشره توفى القاضى رضى الدين الاسحاقى أحد نواب المالكية ، وكان موته فجأة ، وكان رئيسا حشما من أعيان الناس ، وكان لا بأس به في نواب المالكية .

وفي يوم السبت سادس عشره ضرب السلطان

الكرة بالميدان ، ثم بعد ذلك رسم للأمراء بأن يتخففوا من ثيابهم ، ثم دخل هو واياهم في البحرة التي في الميدان وخلا بهم وضربوا مشورة في أمر التجريدة ، فوقع الرأى من الأمراء بأن العسكر يخرج من مصر ويقيم في حلب حتى يظهر ما يكون بين ابن عثمان والصفوى من التقتن ، وأن العسكر لا يدخل بين الفريقين حتى يبدو من أحدهما الغدر الى عسكر مصر ، فأقام عند السلطان الأمراء في هذه المشورة الى بعد الظهر ، وانقض المجلس على ما ذكرناه من خروج العسكر من مصر ويقيم بحلب يحصنها من العدو حتى يكون من هذه الفتنة التي بين ابن عثمان وبين الصفوى ما يكون ، فانقض المجلس على ذلك .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره طلع الأمير أقبای الطويل القاصد بتقدمة حافلة الى السلطان ما بين خيول ومماليك وسلاح وقماش وغير ذلك أشياء فاخرة ، وقيل ذهب عين ما يعلم قدره وقد اختلف فيه .

أقول ولما صار شمس الدين بن عوض من جملة الرؤساء لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى روى عليه ، فكانت عمامته عمامة الفلاحين وكلامه كلام الفلاحين كأنه فلاح قحف كما جاء من وراء المحراث ولم ينطل في رياسته ، فكان كما يقال :

ورب قحف فد أتى لنا به الدهر غلط
سألت عنه قيل لى هذا من النخل سقط
وقال آخر في المعنى :

فقيه ريف يقول : انى

برعت في العلم والرواية

فقلت : لا شك أنت عندى

تصلح للدرس والدرايه

وكان أصل شمس الدين بن عوض فلاحا من

فلاحين منية مسير بالغربية ، وقيل من بانوب والله أعلم .

وفي يوم الثلاثاء المذكور بعد العصر قبض السلطان على شمس الدين بن عوض وعلى ولده الصغير فوضعهما في الحديد ، وكان سبب ذلك أن الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين كان متحدثا على بعض بلاد في تقسيط ابن عوض ، فحصل بينه وبين ابن عوض حظ نفس بسبب ابن جميل أحد مشايخ الغربية وقد شفع فيه عنده فلم يقبل شفاعته . فقال الأمير خاير بك للسلطان : « أنا أثبت لك في جهة ابن عوض مائة وخمسين ألف دينار » . فاعتدل السلطان على ابن عوض وشكه في الحديد هو وولده وأرسلهما الى بيت الأمير خاير بك ، ثم نقلهما من بعد ذلك الى بيت الزينى بركات بن موسى ، وكان الزينى بركات بلغه أن ابن عوض ساعى في القبض عليه فبادر اليه ابن موسى ، وأشيع بين الناس أن الزينى بركات بن موسى التزم بما قرر على شمس الدين ابن عوض من المال وتسلمه ونقله الى داره وشرع في عقابه وضربه وعصره بالمعاصير في أضدائه وأكعابه هو وولده وتفنن في عذابهما تفنيينا ، فلم يرد ابن عوض من المال الذى قرر عليه الا اليسير ، وكلما زاد في عقابهما لم يفده ذلك شيئا ، وكان شمس الدين بن عوض متكلم على عدة جهات من البلاد ، وقبض عليه السلطان ، وابنه متكلم على كتابة الخزائن الشريفة مع مشاركة أولاد الجيعان ، وكان ابن عوض من المقربين عند السلطان فأخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه .

وفيه غيب أحمد بن الصايغ لما رأى السلطان مائلا الى الزينى بركات بن موسى ولم يسمع فيه مرافعة ، فما وسعه الا أن غيب خوفا من ابن موسى . وكان أحمد بن الصايغ باغيا على الزينى

ابن بركات بن موسى فانه هو الذى أنشأه وكان يرددرا عنده ، فلما راج أمر أحمد بن الصايغ صار شريكا للزينى بركات في جميع جهاته التى يتكلم عليها حتى الحسبة الشريفة ، فلم يفتح بهذا كله ففصد أن يشتري الزينى بركات من السلطان بثلاثين ألف دينار فلم يوافق السلطان على ذلك ونهره ، فخاف وغيب واختفى مدة يسيرة وسيظهر بعد ذلك .

وفيه في يوم الجمعة ثانى عشرينه خلع السلطان على قاصد ابن عثمان وأذن له بالعودة الى بلاده وعين صحبته اينال باى دوادار سكين ليوجهه الى هناك ويكشف عن الأخبار الصحيحة ويعلم السلطان بذلك ، وقيل ان السلطان أنعم على اينال باى بخمسمائة دينار لأجل عمل يرقه ، فخرج في ذلك اليوم على جرائد الخيل وقرر معه السلطان أياما معدودة ويرد عليه الجواب عن الأخبار الصحيحة عن مشى ابن عثمان على الصفوى ، فخرج قاصد ابن عثمان واينال باى في ذلك اليوم .

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه خلع السلطان على شخص من أولاد ابن رمضان أمير التركمان يقال له سليم بك ، فخلع عليه وقرره في امرة التركمان عوضا عن ابن عمه محمود بك في امرة شقر أباه .

ومن الحوادث أن شخصا خياطا يقال له نجا بن تمساح زنق صيبا صغيرا عمره نحو عشر سنين ، فزقه في بيت في الجزيرة الوسطى فاستغاث الصبى فذبحه ذلك الخياط ورماه في بئر ، فلما شاع أمره قبضت أم الصبى على الخياط وعرضته على السلطان فاعترف بقتل الصبى ، فرسم السلطان بشنق ذلك الخياط في المكان الذى قتل فيه الصبى وقيل رسم السلطان بأن تقطع محاشمه وتعلق في

عنقه وهو مشنوق ففعلوا به ذلك ، وقد تقدم مثل هذه الواقعة لشخص طحال ورسم السلطان بأن يخوزقوه فخوزقوه في المداين وقد تقدم القول على ذلك .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرينه طلع ابن أبي الرداد بيشارة النيل ، وأخذ القاع فجاءت القاعدة ست أذرع واثنى عشر أصبعا ، وكانت في العام الماضي أرجح من ذلك ، وكانت زيادته في أول يوم خمس أصابع . وفي يوم الثلاثاء المذكور كانت وفاة القاضي فخر الدين والد القاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة و كاتب المالك . وكان القاضي فخر الدين هذا من أعيان الباشرين وياشر ديوان قاني باى أمير آخور كبير وغيره من الأمراء ، وكان رئيسا حشما لا بأس به بين الباشرين .

وفي جمادى الأولى كان مستهل الشهر يوم السبت ، فجلس السلطان بالميدان وطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوه بالشهر .

وفي ذلك اليوم كان ختام ضرب الكرة وختام خصمانية لعب الرمح ، فلما اقضى ضرب الكرة طلع السلطان الى الحوش وجلس بالمقعد الذى به ومد هناك للأمراء مدة حافلة وما أبقى ممكنا من المآكل الفاخرة ، ومد عدة طواري مؤثقة ما بين حلوى وفاكهة وسكر حريف وبطيخ صيفى وأجبان مقلى وجلاب وغير ذلك من المآكل ، وأحضر الأفيال الكبار والسباع والثيران والكباش يرسم النطاح فتناطحوا بين يدي السلطان ، وأقام هناك الى بعد العصر وعنده الأمراء مجتهدين ، وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الخميس سادسه خلع السلطان على

شخص من الأمراء العشراوات يقال له ماماي الحازندار ، وأصله من ممالك السلطان ، فعينه بأن يتوجه الى الشام وعين صحبته الخوaja يونس العادلى ، وسبب ذلك أن السلطان قوى عزمه على أن يزوج ولده بابة سيياى نائب الشام فأرسل هذين اللذين عينهما بالمهر ، وأنهما يعقدان العقد بالشام ، فلما توجهوا الى غرة جاءت اليهما الأخبار بأن بنت سيياى نائب الشام التى توجهوا بسببها قد توفيت الى رحمة الله تعالى ، فأرسلا كتابا للسلطان بذلك وأن لنائب الشام بنتا أخرى صغيرة ، فأرسل السلطان يقول لهما ادفعا لنائب الشام المهر الذى أرسلناه واعقدا العقد على ابنته الصغرى ، فامتثلا لذلك .

وفي عتبيه خلع السلطان على شخص يقال له ابراهيم السمرقندى وعين صحبته خاصكيا ، بأن يتوجهوا الى القدس والكرك في بعض المهمات السلطانية ، ثم بعد ذلك بطل سفرهما الى تلك الجهات لأمر أوجب ذلك .

وفي يوم الخميس المذكور تغير خاطر السلطان على جاني بك دودار الأمير طراباى الذى هو متحدث فى الأستادارية الآن ، وكان السلطان أنعم على جاني بك هذا بامرة عشرة ، وكان سبب تغير خاطر السلطان على جاني بك أن الأمير طومان باى الدودار أرسل مطالعة للسلطان وهو بالصعيد يشكو فيها من جاني بك هذا أنه صار يعارضه فيما يرسم به ويعاكسه فيما يقوله فى أمر الديوان المفرد ، وكان جاني بك غير محبب للناس لا يراعى من الأمراء أحدا ويأخذ الحمایات المقطعين معجلا قبل أن تروى البلاد ، فصار معه سنة معجلة من المقطعين من الحماية والشيخا دایرة فى حساب الديوان المفرد وربما راحت على المقطعين ، ويرسم

تقدم ذكر ذلك ، فأطلق فيها الماء في ذلك اليوم ،
وانشرح السلطان لذلك الى الغاية .

وفي يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الزينى
بركات بن موسى وقرر في استدارية الذخيرة ،
عوضا عن شمس الدين بن عوض بحكم انفصاله
كما تقدم . فنزل من القلعة في موكب حفل وقدمه
أعيان المباشرين ، ورسم له السلطان بأن ينادى
قدامه أن لا أحد من الناس يختمى عليه ولا
يتجأها . فتزايدت عظمة الزينى بركات وصار
محتسبا وأستادار الذخيرة الشريفة وغير ذلك من
الوظائف السنية . وكان الزينى بركات له سعد
خارق وهو مسعود الحركات في أفعاله محببا
للناس ، وأشيع بين الناس أن الزينى بركات تسلم
ابن عوض على مائة وخمسين ألف دينار ، فشرع
في عقابه وضربه وعصره كما سيأتى الكلام على
ذلك في موضعه .

وفي يوم الجمعة ثاني عشرينه خرج اينال باى
دوادار سكين صحبة قاصد ابن عثمان ، وقد تقدم
القول على أن السلطان عين اينال باى بأن يخرج
صحبة القاصد ويقف على صحبة الأخبار في أمر ابن
عثمان والصفوى ويرد الجواب على السلطان
بسرعة ، وقرر معه لا يبطىء عليه بالخبر غير مسافة
الطريق ، وأنعم عليه بخسمائة دينار ، وقد تقدم
القول على ذلك .

وفي يوم الخميس ثالث عشره جلس السلطان
على المصطبة التى بالحوش ونصب السحابة وأمر
بعرض العسكر ، وعين تجريدة كبيرة الى حلب
يقيمون بها حتى يروا ما يكون من أمر ابن عثمان
والصفوى ، وعين في ذلك اليوم تجريدة أخرى الى
نحو بلاد الهند بسبب تعبث الفرنج هناك كما
تقدم ، وعين جماعة من أولاد الناس وغيرهم من

على الأمراء وأعيان الناس حتى يستخلص منهم
جميع ما عليهم من الحمايات في يوم واحد فضج منه
الأمراء والعسكر ، فلما تزايد ظلمه وعسفه
بالعسكر والفلاحين وضعفاء الناس أخذه الله تعالى
من الجانب الذى كان يأمن اليه ، وكان عند
السلطان من المقرين الخواص فانقلب عليه ما كأنه
يعرفه ، وهذا الذى وقع له بدعوة مظلوم ، فكان
كما قيل في المعنى :

ألا قولوا لشخص قد تقوى

على ضعفى ولم يخش رقيبى

بعثت له سهاماً في الدياجى

وأرجو أن تكون له مصيبى

فلما عزل جاني بك من التحدث في الاستدارية
كثرت فيه المرافعات وقال له السلطان : أقيم
الحساب بما قبضته من الأموال في مدة تجمعه
في الاستدارية على ما قيل ، ومن نوقش الحساب
عذب .

وقيل ان جاني بك لما رأى أن الأمير طومان باى
الدوادار محظا عليه سأل السلطان وبأس رجله
بأن يعفيه من التحدث في الاستدارية ، ولا زال
يقسم عليه حتى أعفاه من التحدث في الاستدارية ،
ولما عزل جاني بك وقف على البرماوى برددار
السلطان والتزم بالسداد على الجهات إلى كان
جاني بك متحدثا عليها وضمن ذلك . فقصد
السلطان أن يخلع عليه فقال له : « ما ألبس خلعاً
حتى يجيء الأمير الدوادار » . واستمر متحدثا في
الاستدارية عوضاً عن جاني بك بحكم انفصاله
عنها .

وفي يوم السبت ثامنه نزل السلطان الى قبة
الأمير يشبك التى بالمطرية وبات بها وأقام يومين ،
وسبب ذلك أن السلطان أنشأ هناك فساقى وقد

المماليك لحفظ الجسور التي بالشرقية والغربية ، فلما عرض العسكر كتب منهم جماعة قيل ثلاثة آلاف مملوك وقيل ألفا مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين أربعة وهم : الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير وجعله باش العسكر ، وعين الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، وعين الأمير أرزمت الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وعين الأمير يبيرس قرابته ثم بطل عقيب ذلك ، وتعين عوضه الأمير أبرك الذى كان نائب طرابلس وهو الآن مقدم ألف . وأبرك هذا من مماليك السلطان ، فلما عينه جعله باشا على المماليك الجلبان الذين عينوا الى السفر ، وعين فى ذلك اليوم جماعة من الأمراء الطبليخانات ومن الأمراء العشراوات .

ثم فى يوم السبت خامس عشره نزل السلطان الى الميدان وعرض بقية العسكر ، وكتب الغالب منهم الى حلب .

وفى هذه الأيام تصدى الزينى بركات بن موسى الى عقوبة شمس الدين بن عوض وولده ، فما أبقى مكننا فى ذلك من ضرب كسارات وعصر أكعاب ، وعصرهما فى أصدانغهما وفى أيديهما وحرقت أصابعهما بالنار ، ولم يرد ابن عوض من المال الذى قرر عليه الا القليل وكان جلدا على العذاب . وقد تقدم له مع الأمير أزدمر الدوادار أنه عاقبه أشد العقوبة ولم يقر بشيء من المال .

وفى يوم الاثنين سابع عشره جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش وأنفق الجامكية على العسكر ، ثم أنفق نفقة السفر على العسكر المعين الى حلب ، فدفع الى كل مملوك مائة دينار على العادة وجامكية أربعة أشهر معجلا وثمن جمل سبعة أشرفية ، وقد مشى على طريقة الملك الأشرف قايتباى فى أمر النفقة على العسكر عند توجههم الى البلاد الشامية .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره نزل السلطان وزار ضريح الامام الشافعى والامام الليث بن سعد رضى الله عنهما ، وتصدق فى ذلك اليوم بمبلغ له صورة ، وكان السلطان فى حملة كبيرة بسبب ابن عثمان والصفوى .

وفيه ظهر أحمد بن الصايغ شريك الزينى بركات ابن موسى ، وكان له مدة وهو مختف من الزينى بركات وقد تقدم القول على ذلك ، فطلع به بعض الأمراء وقابل السلطان فلم يخلع عليه لأجل خاطر الزينى بركات .

وفى ذلك اليوم جلس السلطان بالميدان وعرض مماليكه الجلبان وكتب منهم نحو خمسمائة مملوك فكان الذى كتب من القرائصة والجلبان جملة ذلك نحو ألفين وأربعمائة مملوك على ما قيل وعينهم للسفر الى حلب .

وفى يوم الخميس عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة السادة الأشراف اخوة السيد بركات أمير مكة ، وكان سبب حضورهم الى القاهرة أن وقع بينهم وبين أخيهام السيد بركات فتنة مهولة ، وقتل جماعة كثيرة من الفريقين ، فانكسر اخوة السيد بركات وولوا مدبرين ، فما وسعهم الا الحضور الى عند السلطان حتى يكون من أمرهم ما يكون . وأرسل الأمير حسين نائب جدة يعلم السلطان بذلك وأن الفرنج قد زاد تعبثهم بسواحل الهند وملكوا كمران من ضياع جهات الهند . وأرسل يستحث السلطان فى ارسال تجريدة بسرعة قبل أن تملك الفرنج سواحل الهند وربما يخاف على جده من أمر الفرنج . وفى هذا الشهر اضطربت الأحوال على السلطان من جميع الجهات .

وفى يوم الخميس سابع عشرينه حضر الى

الأبواب الشريفة قاصد من عند سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، وهذا القاصد جليل القدر من أعيان أمراء ابن عثمان ، وكان ابن عثمان عين هذا القاصد من حين كان الأمير أفباى الطويل عنده فلم يحضر الى مصر الا الآن ، فلما دخل القاهرة أنزله في بيت الظاهر سريفا الذى عند سوق السلاح بالقبو الى أن يقابل السلطان .

وفى يوم السبت تاسع عشره نزل السلطان الى فبة يشبك وأقام بها الى بعد العصر وعاد الى القلعة .

وفى جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر .

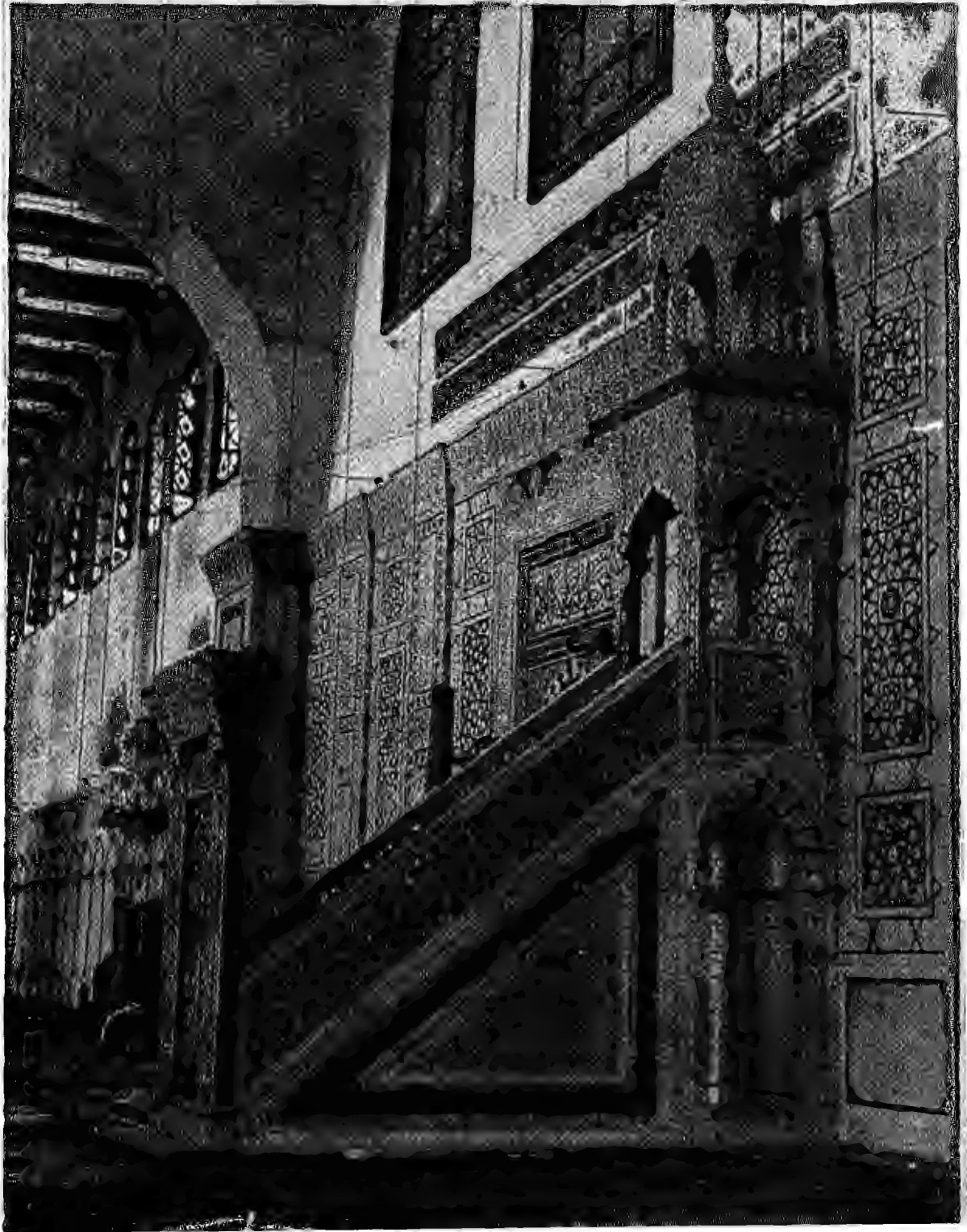
وفى ذلك اليوم طلع قاصد ابن عثمان الى القلعة وقابل السلطان ، فأوكب له بالحوش وجلس على المضضبة ونصب على رأسه السحابة الزركش ، ورسم بأن يزينوا باب الزردخاناه بالسلاح والصناجق فزينوه ، واصطفى الأمراء والعسكر بالحوش من غير شاش ولا قماش ، ثم طلع القاصد وصحبته أزدمر المهندار وجماعة من الرؤوس النوب ، وطلع معه مقدمة حافلة للسلطان تشتمل على خمسة وعشرين حمالا ما بين وشق وسمور وقاقم وأثواب مخمل وبرصاوى وشقق سمرقندى ملون ، وحمال عليه أوانى فضة ، وطلع صحبته بحمسة وعشرين مملوكا صغارا حسان الأشكال . وكان ذلك القاصد جميل الهيئة وصحبته جماعة من العثمانية ذوو هيئات جميلة . فلما طلع وقابل السلطان أكرمه وقرأ مطالعته ثم نزل وانقض الموكب ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الثلاثاء ثابى الشهر نزل السلطان الى المقياس وبات به ، وعزم على قاصد بن عثمان هناك

وجلس معه فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ومد له هناك أسبطة حافلة وأظهر أنواع العظمة الزائدة فى تلك الليلة ، وأحضر قراء البلد وأقام بالمقياس يومين . ثم طلع الى القلعة يوم الأربعاء أواخر النهار وانشرح هناك الى الغاية . وفى يوم الثلاثاء تاسعه أرسل السلطان الى الأمراء المقدمين الذين تعينوا الى السفر فأرسل لهم فى ذلك اليوم النفقة ، فأشيع أنه أرسل الى الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر خمسة آلاف دينار ، وأرسل الى سودون الدوادارى رأس نوبة النوب أربعة آلاف دينار ، وأرسل الى الأمير أرزمك الناشف ثلاثة آلاف دينار ، والأمير أبرك مثله .

وفى ذلك اليوم وقعت كائنة عظيمة للأمير قانصوه أبو سنة أحد الأمراء المقدمين . وسبب ذلك أن علاء الدين ناظر الخاص كان اقترض من الأمير قانصوه هذا مبلغا له صورة وشرع يطله به مدة طويلة ، فحنق منه الأمير قانصوه فركب وجاء الى بيته غوقع بينه وبين ناظر الخاص تشاجر ، ففجر عليه ناظر الخاص فحنق منه الأمير قانصوه وشتمه فأغلظ عليه ناظر الخاص فى القول ، فقام اليه ولكمه على رأسه فطلع ناظر الخاص الى القلعة وشكاه الى السلطان . فلما تحقق السلطان صحة ذلك تغير خاطره على الأمير قانصوه وأرسل يقول له : الزم بيتك . وقصد يختم على حواصله ويحتاط على موجوده . وأشيع نفيه الى دمياط فقبل ان الأتابكى سودون العجمى طلع الى السلطان وشفع فيه من النفى ، ورضى خاطر السلطان عليه واستمر على امرته كما كان .

بَدَائِعُ الزَّهْوَرِ
فِي وَقَائِعِ الدَّهْوَرِ



وفي يوم الجمعة ثاني عشره جاءت الأخبار بأن ابن عثمان أرسل قاصدا آخر مطرا على جرائد الخيل ، فلما وصل الى الصالحية بات بها تلك الليلة فسرق له من تحت رأسه بقجة فيها نماش القاصد وبعض مبلغ ، ومن جملة ذلك مطالعة ابن عثمان الى السلطان . فلما بلغ السلطان ذلك، تنكد الى الغاية ، وقيل انه قبض على لحيته من شدة غضبه ، وعين في الوقت والساعة بابا الى شيخ العرب أحمد بن بقر وعلى يده مراسيم بأن يفحص على من أخذ بقجة هذا القاصد من العربان ، وان ضاعت مطالعة ابن عثمان التي في البقجة كانت روحه قبالة ذلك . فتوجه اليه البابا ، وأشيع فيما بعد بأن شيخ العرب قبض على من أخذ بقجة القاصد وأعيد اليه ما سرق له بالتام من يومه . وقيل ان السلطان حلف بحياة رأسه ان لم يحضر شيخ العرب أحمد بن بقر بهذه البقجة بجميع ما فيها والا بوسط الأمير أحمد في ثيابه ... واستمر الأمر على ذلك حتى يظهر أمر البقجة .

ويقرب من هذه الواقعة ما اتفق في دولة الملك الظاهر جقمق رحمة الله عليه . وذلك أن في سنة ثمان وأربعين وثمانمائة حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند شاه روخ بن تمرلنك ، فلما حضر أنزله في مكان بالقرب من بين القصرين . وكان شاه روخ أرسل الي الملك الظاهر على يد هذا القاصد مقدمة حاقل ، فلما طاع القاصد الى القلعة أدخله السلطان الى البحرة ، فأبطأ عند السلطان ، فأشيع في القلعة أن السلطان قد قبض على القاصد ، فنزلت الممالك الجلبان من الطباق وتوجهوا الى المكان الذي نزل به القاصد فنهبوا كل ما كان فيه . والتف عليهم السواد الأعظم من العوام فلم يبقوا للقاصد شيئا ، وأخذوا المقدمة التي كانت للسلطان حتى أخذوا خيوله .

ولما بلغ الملك الظاهر ذلك تنف لحيته بيده ورسم لحاجب الحجاب وقراجا الوالى بأن يدركوا رد الناس عن النهب ، فنزلوا من القلعة على حمية فلم يردوا من النهب الا بعض شيء ، وراحت على من راح . فقبض الوالى على جماعة كثيرة من العوام وضربهم بالمقارع ، وشيء قطع أيديهم ، وكادت القاهرة أن تخرب في ذلك اليوم لهذه الواقعة . ثم ان الملك الظاهر بعث يعتذر الى القاصد مما جرى وأن ذلك من غير علمه ، ثم أرسل الى القاصد عشرة آلاف دينار أكثر مما نهب له ، وصار القاصد كلما شق من القاهرة بسببه جماعة من العوام ويهدلونه ، وما قاسى خيرا من أهل مصر .

وفي يوم السبت ثالث عشره فيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن شخصا يهوديا يقال له خضير ، وكان بالصلبية ، وهو يدعى الطب ، فتوجه الى عليل من أولاد الناس فوصف له حقنة ، فلما احتقن مات عقيب الحقنة بيومين . فقبضوا على ذلك اليهودي وتوجهوا به الى شاد الشراب خاناه ، فقيل انه من خوفه قصد أن يسلم ، ثم رجع الى دينه ، ولم يثبت عليه قتل ذلك العليل وادعى أن العليل كان قد ضربه الخمر على قلبه فمات عقيب الحقنة بأجله ، فلم يثبت على اليهودي قتله ، وقيل ان اليهودي غرم مبلغا له صورة ، وأدبوه ثم خلص من القتل وراح القتل في كيس العليل . وقد قيل في المعنى :

ليت شعري وللزمان خطوب

وبلاء يختص بالأحرار

هل لميت قضى عليه طيب

من كميل أو آخذ بالشار

وفي يوم الأحد رابع عشره أرسل السلطان النفقة الى الأمراء الطبليخانات والأمراء العشراوات المعينين الى التجريدة ، وذلك على جارى العادة .

هرجه وركب فيها في غير سرجه ، فأخذ في أسباب المرافعات في المباشرين وأعيان الناس حتى ضجت منه الأفلاك والأملالك . وكان انفرد بالسلطان وعول عليه ، فأخذه الله تعالى من الجانب الذي كان يأمن اليه ، فتغير خاطر السلطان عليه وقبض عليه كما تقدم ذكر ذلك ، فتسلمه الزيني بركات بن موسى على مائة وخمسين ألف دينار غير ستين ألف أردب شعير . فلما تسلمه شرع يعذبه بأنواع العذاب من ضرب مقارع وعصره في أكعابه وأصداعه هو وورلده شرف الدين ، وصار ابن عوض يقاسي ذلك العذاب الأليم ولم يرد من المال الذي قرر عليه سوى قدر عديم ، فاستمر تحت العقوبة الى أن مات وولي عمره وفات . فمات وهو في بيت الوالي على حصير والحديد في عنقه ، فما فكوه من عنقه حتى مات شرموتة « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » فلما مات في بيت الوالي حمل الى داره فغسل وكفن ولم يش له أحد في جنازة ، وفي ذلك عبرة لمن يعتل ، وقد قيل في المعنى :

ألا انما الدنيا كمثل أراكاة

إذا اخضر منها جانب جف جانب

هي الدار ما الآمال الا فجائع

عليها ولا اللذات الا مصائب

فكم سحت بالأمس عين قريبة

وقرت عيون دمعها اليوم ساكب

فلا تكتحل عينك فيها بعبرة

على ذاهب منها فانك ذاهب

وكان سبب نكبة ابن عوض قيل وقع بينه وبين الأمير خاير بيك كاشف الغريبة من أجل ابن جميل أحد مشايخ الغريبة ، فطلع خاير بيك وشكا ابن عوض الى السلطان ، وبالح في شكواه حتى غير خاطر السلطان عليه . وقيل ان خاير بيك قال :

وفي يوم الأحسن المذكور كانت وفاة القطب العارف بالله تعالى الوالي الزاهد المجذوب الشيخ محمد بن زرعة الأحمدى البدرشيني رضى الله عنه .

وكان من أعيان الأولياء ، وله كرامات خارقة ومكاشفات صادقة ، ومات وهو في عشر السبعين ، وكانت جنازته مشهودة وصلى عليه في جامع الشيخ سلطان شاه ودفن في زاويته التي بالقرب من قنطرة قديدار ، وكان معتقدا بالصلاح رضى الله عنه .

وفي يوم الأربعاء سابع عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر المعين للتجريدة ، فأنفق عليهم جامكية جمادى الآخرة توسعة عليهم خارجا عما أنفق لهم من الأربعة أشهر المعجلة كما تقدم ذكر ذلك ، وأنفق عليهم عقيق ذلك الشهر ، وفرق عليهم الخيول التي كانت لهم في الديوان ... فجماعة من الممالك أخذوا لهم خيولا شيء فرس وشيء فرسين ، وجماعة منهم أخذوا لهم ثمن فرس خمسة آلاف درهم ، وقد بالغ السلطان في الاحسان اليهم وما أبقى في ذلك ممكنا ووعدهم بأن يصرف لهم ثمن اللحم أيضا عقيب ذلك ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من العسكر .

وفي يوم الخميس ثامن عشره أشيع موت شمس الدين بن عوض أستاذ دار الذخيرة الشريفة وغير ذلك من الوظائف السنية . وهو محمد بن أحمد بن عوض ، وأصلهم فلاحون من منية مسير . وكان شمس الدين هذا في مبتدأ أمره فقيرا جدا فباشر ديوان جباة من الأمراء المقدمين ، منهم الأميين أربك الخازندار والأمير أزدمر الدوادار وغير ذلك من الأمراء ، ثم راج أمره في دولة الأشرف قانصوه الغوري وباشر ديوان السلطان ، وصار أستاذ دار الذخيرة ، وابنه شرف الدين مستوفى على الخزائن الشريفة ، وابنه فخر الدين مباشر عند الأميين طومان باي الدوادار ، فتلاعبت به الدنيا لكثرة

أنا أثبت في جهة ابن عوض مائة وخمسين ألف دينار .

وفي يوم الخميس المقدم ذكره صنع السلطان وليمة حافلة بالمقياس . واجتمع بها القضاة الأربعة وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك ، ومد هناك الأسطة الحافلة ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة . والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل .

وفي سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالى في النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعا دفعة واحدة ، فعد ذلك من النواذر .

وفي يوم الاثنين ثانی عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير طومان باي الدوادار ، وكان له مدة وهو مسافر في الصعيد بسبب المغل .

فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله الى الجزيرة فنزل الى المقياس ولافاه من هناك ، وكذلك قاصد ابن عثمان . فلما طلع الى القلعة يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة في موكب مشهود ، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس ، واستمر على ذلك حتى دخل الى داره . وخلع عليه السلطان في ذلك اليوم فوقاني أخضر بطرز يلبغاوى عريض . ومشت الأفيال وهي مزينة قدامه في ذلك الموكب وشق من الصليبة .

. وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفي الأمير ماماي جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف ، وكان رئيسا حشما جميل الهيئة قليل الأذى بين الأمراء ، ومات وهو في عشر الستين ، وقيل أصله من مماليك الظاهر خشمقدم من كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباي من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباي ومن مماليكه ، فلما بلغ السلطان

وفاته نزل وصلى عليه ، وكانت جنازته مشهودة رحمه الله تعالى عليه

وفي يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك ، أوفى بعد الظهر ، وعلق الستر على شباك القصر الذي أنشأه السلطان على بسطة المقياس ، وقد أوفى الله الست عشرة ذراعا وأصبعين من سبع عشرة ، ووافق ذلك ثاني عشرين مسرى ، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام ، وكانت الناس بسببه في غاية الاضطراب .

وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه ، الموافق لثالث عشرين مسرى ، فتح السد وكان يوما مشهودا قل أن يقع مثله في الفتك والفرجة ، ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فكان له في ذلك موكب حافل ، وخلع عليه السلطان فوقاني أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، وحصل للناس غاة انجير بكسر السد في ذلك اليوم . وقد قيل في المعنى :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة
سرت قلوب العالمين لبشره
ومن العجائب والغرائب أنه
جبرت قلوب المسلمين لكسره
وقبل في المعنى أيضا :

أرى نيل مصر قد غدا يوم كسره
إذا رام جريا في الخليج تقنطرا
ولكن بعد الكسر زاد تجبرا
وأفرط هجما في الصرى وتجبرا

ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الثالث من فتح السد زاد الله في النيل المبارك إحدى عشرة أصبعا في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الخامس من

فتتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعا
من ثمانى عشرة ذراعا وذلك فى أواخر مسرى بعد
الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه خرج جماعة كثيرة
من المماليك السلطانية المعينين الى التجريدة ، وقد
رسم لهم السلطان بأن كل من انتهى شغله يخرج
ويسافر قبل الباش ، فخرجوا أفواجا أفواجا
واستمروا على ذلك فى كل يوم تخرج منهم جماعة
بعد جماعة .

وفى رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ،
فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع اليه الخليفة
والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر .

وفى يوم الخميس ثالثه خلع السلطان على يوسف
البدرى الوزير كاملية مخمل أحمر بسمور ، وخلع
على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ،
وعلى مقدم الدولة ، خلع الاستمرار ، ونزلوا من
القلعة فى موكب حفل ، حتى رجت لهم القاهرة فى
ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس المذكور أشيع أن السلطان
قبض على جاني بيك الأستاذار الذى كان دوا دار
الأمير طراباى ، وكان السلطان ندبه بأن يتكلم فى
الأستادارية نيابة عن الأمير طومان باى الدوا دار ،
فخلع عليه ، فلما تكلم فى الأستادارية أظهر الظلم
والجور ، وصار لا يراعى من الأنام خليلا ، فعادى
سائر الأمراء والعسكر قاطبة بسبب الحماية
وأموار البلاد . فكان يرسم على الأمراء الطبلخانات
والعشراوات بسبب الحماية ، ويرسل الرسل الغلاظ
الشداد الى بيوت الأمراء المقدمين ويطلبهم بالحماية
الطلب العسف ، حتى ضج منه الأمراء والعسكر .
فكان يأخذ حماية سنة معجلا قبل أن يطلع النيل

وكذلك الشياخة ، وكان السلطان قربه أولا وصار
لا يقبل فيه شكوى ، وكان ذلك من أكبر أسباب
الفساد فى حقه ، فلا زال بعض أعدائه يتكلمون فى
حقه عند السلطان حتى غيروا خاطره عليه بالكلية ،
فانقلب عليه كأنه ما يعرفه قط . فلما رسم عليه
انتدب الى حسابه نور الدين على البرماوى
البردار بالخدم الشريفة وجماعة من المباشرين ،
فدققوا عليه الحساب وحاسبوه على الفتيل والنقير
والقطمير والقليل والكثير ، حتى قيل حاسبوه على
ما كان يدخل اليه من الضيافات والتقادم وغير
ذلك ، فقبل بقوا عليه ثلاثة وثلاثين ألف دينار على
ما قيل ، واستمر فى الترسيم حتى يكون من أمره
ما يكون .

وفى يوم الأحد سادسه جلس السلطان بالميدان
وحضر عنده قاصد ابن عثمان وسائر الأمراء
المقدمين ، فجلس قاصد ابن عثمان فوق أمير كبير
سودون العجمى باذن السلطان له ، عند السلطان
فى المقعد ، وساق قدامه الرماحة وهم لابسون
الأحمر كما يفعلون فى لعب الرمح عند دوران
المحمل فى رجب ، وكان لهم مدة طويلة وهم
يدمنون فى لعب الرمح كما جرت به العادة القديمة ،
فكان المعلم تمر الحسنى أحد المقدمين الألوف ،
ويعرف بالزردكاش أيضا ، وأما الباشات الأربعة
وهم الأمير كرتباى بن قصره والى القاهرة والأمير
أزبك بن دولاتبى والأمير اينال الأشقر الأشرفى
والأمير مصرباى الأبو بكرى ، فأظهروا فى لعب
الرمح الفنون الغريبة حتى تحير القاصد من ذلك
وتعجب غاية العجب ، ثم فى أواخر السوق نزل
المعلم والباشات الأربعة والأربعون فارسا وباسوا
الأرض للسلطان ، وقد أحدث ذلك الأشرف
قايتباى لما كان يسوق فى دوران المحمل فكان

ينزل عن فرسه ويبوس الأرض للسلطان خشققدم في وسط الرملة ، وكان السلطان قصد سوق الرماحة قدام القاصد عسدا حتى يريه فروسية عسكر مصر ، وكان ذلك عين الصواب ، فاجتمع في الميدان في ذلك اليوم الجهم الغفير من الخلائق ، وكان يوما مشهودا ، فساق الرماحة في ذلك اليوم مرتين ، ثم لعب بعد ذلك جماعة من الممالك خصمانية في الرمح ، والقاصد ينظر اليهم ويتعجب من ذلك ، فلما انقضى أمر سوق الرماحة قام السلطان ودخل الى البحرة التي أنشأها في الميدان ، وأضاف القاصد هناك هو والأمراء ومد لهم أسطة حافلة وأظهر أنواع العظمة في ذلك اليوم الى الغاية ، ثم خلع على قاصد ابن عثمان خلعة سنية وأذن له في السفر صحبة العسكر ، ثم بدا للسلطان بأن يعوق قاصد ابن عثمان الى أن يحضر اينال باى دوا دار سكين ، فلم يخرج صحبة العسكر كما أشيع قبل ذلك أمر سفره مع الأمراء ، ثم خلع السلطان في ذلك اليوم على الأمير تر المعلم وأركبوه فرسا بسرجه ذهب وكنبوش ، وخلع على الباشات الأربعة كما جرت به العادة القديمة ، وقد جدد السلطان ذلك بعد ما كان قد نسي أمره من أيام الأشرف قايتباى ، فعذ ذلك من محاسن السلطان .

وفي يوم الاثنين سابعه خرج الأمراء المعينون للتجريدة وهم الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر المنصور والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين والأمير أبرك مملوك السلطان أحد الأمراء المقدمين وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، فكان لهم يوم مشهود . واستمرت الأطلاب تنسحب من اشراق الشمس الى قريب الظهر ، فأظهروا غاية العظمة في ذلك اليوم في

تزخرف الأطلاب ، حتى ارتجت لهم القاهرة في ذلك اليوم ، واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وكان طلب أمير آخور كبير غاية في الحسن ما أبقي فيه ممكنا ، وكذلك بقبة الأمراء ، ثم ان السلطان خلع على أمير آخور خلعة السفر ونزل من القلعة في موكب حفل وصحبته الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين ، فاستسروا صحبته حتى نزل في الوطاق بالريدانية .

وفي يوم الثلاثاء ثامنه كان أول يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية ، سنة عشرين وتسعمائة الخراجية وكان هذا اليوم عند الأقباط له شأن عظيم وكان يقع لهم فيه أخبار غريبة . وهو أول الأيام من توت من أول الشهور القبطية .

وفي يوم الأربعاء تاسعه أشيع بين الناس أن السلطان رسم بتسليم جاني بيك الأستاذار الى الزينى بركات بن موسى ليعاقبه حتى يستخلص منه الأموال التي قررت عليه . وكان السلطان قرر عليه ثلاثة وثلاثين ألف دينار فامتنع جاني بيك من ذلك وتكلم بكلام يابس . فلما بلغ السلطان ذلك حق منه ورسم بتسليمه الى الزينى بركات بن موسى .

وفي يوم الخميس عاشره أشيع بين الناس أن سليم شاه بن عثمان ملك الروم قد انتصر على الصفوى وملك منه أرزنكان وتبريز ، فلم يثق السلطان بهذا الخبر وثبت حتى ترد عليه الأخبار الصحيحة فيدق الكوسات ، ولكن سر السلطان بهذه الاشاعة وأمر بأن تقرأ عدة ختمات في أماكن من الجوامع ، فقرئ في مقام الامام الشافعى رضى الله عنه سبعون ختمة بالجبرية ، وقريء في مقام الامام الليث بن سعد رضى الله عنه عدة ختمات ، وكذلك في جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وفي جامع أحمد بن طولون ، وفي الجامع الأزهر

وغير ذلك من الجوامع التى بالقاهرة ، وارسل لكل جامع من الجوامع مبلغا بسبب القراء ، وعمل أسمطة للفقراء فعد ذلك من محاسن السلطان .

وفى يوم الاثنين رابع عشره نزل الزينى بركات ابن موسى من القلعة وقدامه عبد من عبيد ابن عوض وقد رسم السلطان بتوسيطه ، وسبب ذلك أنه قيل عنه كان يعرف ذخائر أستاذة شمس الدين ابن عوض ولم يقر بمكان فيه المال ، وعاقبه ابن موسى وسجنه فى المثشرة مدة ولم يقر بشيء من المال ، فحنق منه الزينى بركات فشاور عليه السلطان فرسم بتوسيطه ، فوسطه عند قطرة الحاجب ولم يقر بشيء من المال الذى كان يعلم به . فراح ظلما ان علم بالمال أو لم يعلم .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو مصر العتيقة بعد أن صلى صلاة الفجر ، فلما وصل الى قم السد نزل من هناك فى مراكب قدمت اليه ، وكان صحبتة جماعة من الأمراء منهم الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادر والأمير أنص باى حاجب الحجاب ، والأمير تمر أحد المقدمين والأمير علان الدوادر الثانى أحد المقدمين ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين والطلبخانات والعشراوات ، وجماعة كثيرة من خاصكية ، فتوجه الى بر الجيزة واستمر حادرا من هناك الى بولاق فطلع الى البرابخية ، وكان القاضى كاتب السر محمود بن أجا عزم عليه هناك ، فلما استقر هناك هو والأمراء أحضر كاتب السر بين يدى السلطان مدة عظيمة ما أبقى فيها ممكنا وأتبعها بطوارى حفلة ما بين حلوى وفاكهة ومخبوز وغير ذلك من المأكول الفاخرة ، فبات السلطان عنده تلك الليلة فى البرابخية ، فكان سماء العشاء أعظم من سماء الغداء ، وقيل أحضر فى الطارى

بعد الظهر أربعين خروفا شوى وقيل ثلاثين وخسين جفنه فيها جذابة ، ثم مد له فى اليوم الثانى سماء للغداء فقيل ان القاضى كاتب السر صرف على تلك المدات فوق الألف دينار ، فلما تغدى السلطان عنده نزل هو والأمراء فى المراكب وتوجه الى المقياس فأقام به الى أواخر النهار . ثم عدى من هناك وطلع الى القلعة ، فلما طلع أرسل اليه القاضى كاتب السر مقدمة حفلة ما بين سمور ووشق وسنجاب وصوف وجوخ وبلبكي وغير ذلك ، وقيل أرسل اليه ذهب عين ما علم قدره ، ومملوكا جركسيا مليحا . قلت والقاضى كاتب السر هذا هو آخر رؤساء مصر من المباشرين .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره وقعت نادرة غريبة وهى أن قاصد ابن عثمان الثانى الذى جاء وزعم أن العرب سرقوا بقجته من تحت رأسه وفيها مطالعة ابن عثمان وتكيد السلطان بسبب ذلك ، فلما حضر بين يدى السلطان صار يعتذر له مما سرق له ، فأقام فى مصر أياما فأرسله السلطان الى القاصد الذى جاء فى الأول فأنكر أمره وقال ان ابن عثمان لم يرسله وأن هذا القاصد لم يكن من جماعة ابن عثمان ، فاستمر بمصر الى أن طلب الاذن من السلطان فى العود الى بلاده فأذن له فى ذلك وأنعم عليه بمال له صورة ، فلما خرج وسافر وقع بينه وبين رفيقه بسبب المبلغ الذى حصل له فلم يعط رفيقه منه شيئا ، فلما وقع بينهما رجوع رفيقه ونم عليه عند السلطان بأن هذا داسوس من عند حسن بن أحمد بيك بن عثمان الذى حضر أبوه الى مصر ومات بها بالطاعون كما تقدم ذكر ذلك ، وهو الآن عند الصفوى مقيم وأرسل هـ . القاصد ليستفهم الأخبار بما جرى فى مصر . وهذا القاصد نصب على النواب وأخذ منهم مبد له صورة ، فلما تحقق السلطان ذلك رسم

القاصد من الطريق ، فلما حضر بين يدي السلطان قصد أن يشنقه ثم سلمه الى الوالى فشكه فى الحديد ونزل به ماشيا على أقدامه والمشاعلية تنادى عليه هذا جزاء من يكذب على الملوك ، ثم توجه به الى المقشرة فسجن بها ، وقيل رسم السلطان الموالى بأن يعاقبه ويستخلص منه ما كان أخذه من النواب من المبلغ والتقدم التى دخلت عليه .

وفى يوم السبت تاسع عشره نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، وأقام هناك الى يوم الأحد أواخر النهار وانشرح الى الغاية .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه أذن السلطان الى فاصد ابن عثمان بالسفر ، وهو الذى حضر أولا ، وكان من أمرائه المقدمين قيل انه أمير آخور كبير عند ابن عثمان ، فلما طلع رسم السلطان بأن يزين باب الزردخاناه بالسلاح والصناجق ، وكذلك باب القلعة وباب سلم المدرج ، فلما طلع القاصد عمل السلطان الموكب بالحوش وحضر الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء ، وكان الموكب حافلا ، ثم خلع السلطان على القاصد خلعة معظمة وهى كاملية جر ذهب شغل القاعة بسمور عال ، وفوقها فوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب ، وخلع على من معه من جماعة ابن عثمان سلاريات صوف بسمور عال ، ونزل القاصد من القلعة فى موكب حافل وصحبته الرعوس النوب ، ثم أخذ فى أسباب الخروج الى السفر .

وفى ذلك اليوم المقدم ذكره حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير اينال باى دودار سككين الذى كان توجه الى سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ،

وقد توجه اليه بعد مجيء أقباي الطويل ، فلما قابل ابن عثمان أكرمه وأقبل عليه وميزه على أقباي واستحسن كلامه فى رد الجواب وشكره على أقباي ، فلما فصد التوجه الى مصر خلع عليه خلعة سنية وأنعم عليه بمال له سورة ، وكتب معه مطالعة للسلطان ونعته فيها بأنعام عظيمة وبأنه فى تعظيمه ، وقيل ان ابن عثمان أظهر فى مكاتبته بعض نواظم بكثرة عساكره وشدة بأسه ، فلم يلتفت السلطان الى شيء من ذلك .

وفى شعبان كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فسلموا على السلطان وعادوا الى بيوتهم .

وفى يوم السبت رابعه أشيع بين الناس أن قد حضر ساع ، وأخبر بأن سليم شاه ابن عثمان قد انتصر على الصفوى وملك بعض ضياع بديار بكر وأشيع أنه ملك تبريز أيضا ، فعند ذلك تشبت السلطان ولم يدق الكوسات حتى ترد عليه الأخبار الصحيحة فى ذلك ، وفى هذه الأيام كثر القيل والقال بين الناس بأن ابن عثمان قد أسر الصفوى ووضعه فى حديد وطاق به فى البلاد ، ولم تصح هذه الأخبار بل اشاعات بين الناس .

وفى يوم الاثنين سادسه حضر سيف جازى طرابلس ، وكان أسله من مماليك الأشرف ديباى وكان لا بأس به .

وفى يوم الجمعة عاشر شعبان رسم السلطان بفتح سد خليج أبى المنجا ، ووافق ذلك ثانى بابه وقد تأخر فتحه عن العادة الى اليوم وفات أوان ميعاد فتحه . وكان النيل يومئذ فى خمس عشرة أصبعا من عشرين ذراعا وقد حصل به غاية المنافع وعم البلاد قاطبة ، واستمر النيل فى ثبات

على ما ذكرناه الى أواخر بابيه لهم يتهبط منه شيء .
وفي ذلك اليوم وقعت حادثة مهولة ، وذلك أن
في يوم فتح سد أبي المنجا توجه الأمير كرتباي
والى القاهرة الى فتحه ، فلما توجه الى هناك
أوسق مركبين فيهما مطابق فيها أكل حلوى وفاكهة
وكان في المركبين شيء من الفرش والقماش
والأواني ، فلما وصلا الى قناطر أبي المنجا قوى
عليهما تيار الماء ، فانقلب هذان المركبان بما
فيهما مما ذكرناه فغرقا بكل ما كان فيهما جميعا
وغرق للوالى مملوك من مماليكه الخاص وبعض
غلمان ، وكان ذلك اليوم مهولا وما جرى على
الوالى في ذلك اليوم خير .

وفي يوم الأربعاء خامس عشر شعبان ، الموافق
لسابع بابيه ، فيه ثبت النيل المبارك على خمس عشرة
أصبعا من عشرين ذراعا ، وكان هذا النيل المبارك
أزيد من نيل السنة الخالية باحدى عشرة أصبعا .
وفي أثناء هذا الشهر نزل السلطان الى قبة يشبك
التي بالمطرية وبات بها ، وكانت ليلة مقمرة ، فمد
له الزينى بركات بن موسى هناك مدات حافلة ،
وما أبقي في ذلك مكانا من أطعمة فاخرة وحلوى
وافاكهة وسمك وخرفان شوى وغير ذلك . وحضر
عند السلطان مغانى وأرباب آلات وانشرح هناك
الى الغاية ، وأقام في القبة يومين ، وكانت الملقاة
معمرة بالماء وهى في غاية البهجة ، ثم طلع الى القلعة
بعد العصر .

وفي هذا الشهر كان الأمير خاير بيك الخازندار
مريضا على خطة وأشيع موته غير ما مرة ، واستمر
على ذلك وهو مريض ملازم للفراش والاشاعات
قائمة بموته في كل يوم .

وفي يوم الخميس كان مستهل شهر رمضان

فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ،
فجلس السلطان بالميدان ، وطلع الوزير يوسف
البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب ،
وعرضا اللحم والدقيق والخبز والغنم والبقر على
السلطان كما جرت به العادة وهو مزفوف على
رؤوس الحمالين ، فخلع السلطان عليهما وخلع
على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الخلع
السنية ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وأما في ليلة رؤية الهلال فحضر القضاة الأربعة
بالمدرسة المنصورية ، وحضر الزينى بركات بن
موسى المحتسب ، فلما ثبتت رؤية الهلال وانقض
المجلس ، ركب الزينى بركات بن موسى من هناك
فتلاقاه الفوائس الأكرة والمجانيق والمشاعل
والشموع الموقودة ، فلم يحص ذلك لكثرتة ،
ووقدوا له الشموع على الدكاكين . وعلموا له
التناير والأحمال الموقودة بالقناديل من الأمشاطيين
الى سوق مرجوش الى الخشابين الى سوقة اللبن
الى عند بيته ، فارتجت له القاهرة في تلك الليلة ،
وكانت من الليالى المشهودة ، وأطلقوا له مجامر
بالبخور بطول الطريق ، وكان ذلك يعادل المواكب
السلطانية ، وكان الزينى بركات بن موسى محبا
للناس قاطبة فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان
له سعد خارق لم يقع لغيره من الناس الا القليل ،
ولا سيما ما اجتمع فيه من الوظائف السنية ما لا
اجتمع في أحد من الأعيان قبله منها الحسبة الشريفة
واستادارية الذخيرة وغير ذلك من الوظائف
والتحدث على الجهات من البلاد السلطانية .

وفي يوم السبت ثالثه جاءت الأخبار من بلاد
الشرق صعبة الساعة من بعض النواب بأن سليم
شاه ابن عثمان سلطان الروم وقع بينه وبين شاه
اسماعيل الصفوى وقعة مهولة تشيب منها النواصي ،

وقتل من عسكر ابن عثمان نحو من ثلاثين ألفا ، وقيل نحو ستين ألفا ، وقتل مثل ذلك من عسكر الصفوى ، فكان بينهما من الحروب المهولة ما يطول شرحه ، وكان ذلك فى سادس رجب سنة عشرين ، وقيل قتل من أمراء ابن عثمان اثنا عشر أميراً مقدّم ألف ، وقتل من عسكر الصفوى أضعاف ذلك ، وقيل كانت هذه الواقعة بالقرب من تبريز العجم ، وكانت الكسرة أولا على ابن عثمان وآخر الأمر أن الصفوى انكسر كسرة قوية ، وقتل غالب عسكره وانهزم الباقون ولم ينج منهم الا القليل ، وأشيع أن الصفوى قد قتل فى المعركة ووجد تاجه مرميا على الأرض ، وقد تواترت الأخبار بذلك وقويت الاشاعات بقتله والله أعلم بحقيقة ذلك .

وأشيع أنه واصل عقيب ذلك عدة رعوس ممن قتل من عسكر الصفوى من أعيان أمراءه وعسكره وقد ملك ابن عثمان غالب بلاد الصفوى من ممالك الشرق ، فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر ، وكذلك الأمراء أخذوا حذرهم من ابن عثمان ، وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك الى جهة بلاد السلطان .

وفى يوم الجمعة تاسع شهر رمضان كانت وفاة الأمير خاير بيك الخازندار الكبير ، أحد الأمراء المقدمين وصهر السلطان زوج أخته فديما ، فأخرجت جنازته من بيته الذى عند جامع الأزهر ، وتوجهوا بنعشه الى سبيل المؤمنين فنزل السلطان له وحضر الخليفة وصلى عليه . وكانت جنازته حافلة ومشيت فيها قضاة القضاة والأمراء المتقدمون وأعيان المباشرين وغير ذلك من الأعيان ، ودفن فى تربته التى أنشأها بالصحراء ، وكان أصله من مماليك الظاهر خشقدم ، وكان متزوجا بأخت السلطان قانصوه الغورى من حين كان جمدارا ، فلما تسلطن الغورى أنعم عليه بامرّه عشرة ، ثم

بقى خازندارا كبيرا عوضا عن عبد اللطيف الزمام بحكم وفاته ، ثم صار أمين السلطان على خزائن الأموال وغيرها ، وصار لا يقضى أمر من أمور المملكة دون علمه ، ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف فتزايدت عظمته وتضاعفت حرمة ، ونال من العز والعظمة ما لا ناله أغاته الأمير خاير بيك الخازندار مملوك الظاهر خشقدم فى دولة أستاذه فى أيام خازنداريته . ولكن كان خاير بيك هذا عنده رهج وخفة وبادرة بسفاهة مع حدة زائدة ، وكان اذا رسم السلطان بأمر لا يراجع فيه الا الأمير خاير بيك ولا يكون الا ما يقوله الأمير خاير بيك ، وكان له محاسن ومساوىء ، وكان له الادلال الزائد على السلطان ، وكان عنده من المقربين . وتوفى الأمير خاير بيك وله من العمر نحو ثمانين سنة ، ولما مات ظهر له من الموجود أشياء كثيرة ما بين مال وقماش وبرك وسلاح وتحف وحيول وبغال وجمال وغير ذلك من الموجود الحافل ، وقد تكلموا على موجوده بأشياء كثيرة لكننى لم أقف على صحتها فلم أوردتها هنا خوف الاعتراض على فى ذلك ، وهذا القدر كاف هنا .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل السلطان الى مدرسته ، وعرض الأيتام والصوفية الذين بها ، ورسم للأيتام بكسوة ، وأقام هناك الى قريب الظهر ، ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الخميس خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة مامى السلحدار أحد الأمراء العشراوات ، الذى كان توجه للشام بسبب تزويج ابن السلطان بينت سيباى نائب الشام ، فتوجه الى الشام بالمهر وعقد العقد لابن السلطان فتعل نائب الشام وقال أنا ابنتى صغيرة عمرها ست سنين لم تستحق للزواج ، وكان له ابنة أكبر من هذه

توفيت في السنة الخالية لما وقع الطعن بالشام وكانت هي المفصودة للزواج ، فلما ماتت قصد السلطان أن يعند لابنه على نيت الصغرى فلم يوافق نائب الشام على ذلك وتعلل بأنواع العلل ، فلما طلع الأمير ماماي الى بين يدي السلطان خلع عليه وعلى الخواجا يونس العادلي ونزلا من القلعة في موكب حافل .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان الكسوة على العسكر مع الجامية . ولما حضر الأمير ماماي الى القاهرة حضر صحبته من الناس ما لا يحصى من أهل حلب وغير ذلك من الناس ، فكان في هذا القفل من أهل حلب عدد كبير ، وسبب ذلك أن العسكر لما دخل الى حلب جرى على أهل حلب من ممالك السلطان الجلبان ما لا خير فيه ، نزلوا في بيوتهم ، ونهبوا أمتعتهم ، وفسفوا في حريمهم وأولادهم وعيالهم ولم يسمعوا للباش ولا نائب حلب ، فوقع بين ممالك السلطان الجلبان وبين ممالك نائب حلب فتنة مهولة وكادت حلب أن تخرب عن آخرها وهم أهلها بالجللاء منها ، وغضب نائب حلب ، وخرج من حلب الى القضاء وأقام به بسبب ممالك السلطان الجلبان فلم يسمعوا من كبير ولا صغير ، وأشيع بين الناس بأن قرقماس المقرئ قد قتل في هذه المعركة ، وقيل أن ممالك الأتابكي دولات باي هم الذين قتلوه ، فانه كان اتهم يقتل أستاذهم دولات باي بأنه قد أشغله ، والله أعلم بحقيقة ذلك ان كان قتل أم لا .

فلما جرى ذلك يحلب خشي غالب أهلها على عيالهم وأولادهم فأرسلوهم الى مصر صحبة ذلك القفل المقدم ذكره . واستمر أهل حلب مع الممالك الجلبان في اضطراب زائد ، وربما يقع بسبب ذلك فتنة كبيرة بين الأمراء وبين ممالك

السلطان الذين هناك ، فإن الأحوال مضطربة والأمور غير صالحة

وأما ما أشيع من الأخبار صحبة هذا القفل الذي خضر من حلب مما كان بين ابن عثمان وبين الصفوى من أمر هذه النصرة على الصفوى ، قيل ان في سادس رجب من هذه السنة وقع بين ابن عثمان وبين الصفوى وقعة مهولة بالقرب من تبريز ، فكسر الصفوى ابن عثمان أولا كسرة فوية وقتل من أمرائه الأعيان اثنا عشر أميراً مقدم ألف غير الأمراء الذين دونهم ، وقتل من عسكره نحو من ثلاثين ألفاً وفيل أكثر من ذلك ، وكانت الكسرة على ابن عثمان أولاً . ثم ان ابن عثمان أحضر اثني عشر ألف رام بالبندق الرصاص وتلاقى مع الصفوى فكسر الصفوى كسره فوية ، وقيل انه جرح وولى مهزوما فلم يعلم له خبر ، وقيل ان ابن عثمان أسر أمراء الصفوى وحز رقابهم وأرسلهم الى بلاد الروم ، فزيت له المدائن بالروم ، مدينة اسطنبول وغيرها من المدائن . وقيل قتل من عسكر الصفوى ما لا يحصى عددهم ، ثم ان ابن عثمان ملك تبريز بالأمان ، وكذلك قاشان وسيواس وغير ذلك من البلاد مما كان بيد الصفوى ، وخطب له باسمه بها على المنابر . وكانت هذه النصرة لسليم شاه ابن عثمان على غير القياس ولم يقع لأحد من أجداده مثل هذه النصرة قط ، والكلام في ذلك كثير ان صحت هذه الأخبار من أمر هذه النصرة .

وفي أثناء هذا الشهر توفي القاضي بدر الدين ابن الانبأى كاتب جيش الشام رحمة الله عليه ، وقرر في وظيفته الشرفي يونس النابلسي الأستاذار كان ، وكان بدر الدين لا بأس به .

وفي يوم الجمعة سادس عشر شهر رمضان قلع السلطان البياض ولبس الصفوف ، ووافق ذلك

سابع هاتور القبطى ، وهى العادة القديمة فى لبس الصوف .

وفى يوم الأحد ثامن عشره توفى الناصرى محمد ابن قجق نديم السلطان ، وكان علامة فى ضرب الطنبورة عارفا بصنعة الأنعام ، وكان لطيف الذات عشير الناس ، فكانت جنازته حافلة ومشى فيها أعيان الناس ، حتى أعيان مغاوى البلد والآلاتية قاطبة فانه كان شيخهم ، وكان من المقربين عند السلطان .

وفى يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن المماليك السلطانية أثاروا بحلب فتنة مهولة وركبوا هناك على الأمراء وطردهم عن حلب وقالوا لهم : أرسلوا قولوا للسلطان ينفق علينا لكل مملوك خمسين دينارا كما أنفق على مماليكه الجلبان قبل ذلك ، وأشاعوا عنهم أخبارا شنيعة الى الغاية ، وأن الأحوال مضطربة بحلب والأمور غير صالحة . فتأكد السلطان لهذا الخبر الى الغاية ، وضرب مشورة هو والأمراء بسبب هذه الحادثة .

وقيل انه عين الأمير اينال باى دوا دار سكين بأن يتوجه الى حلب ، ويكشف عن صحة هذه الأخبار الشنيعة ويطلع السلطان بذلك . وقد كثر القيل والقال بين الناس بسبب ذلك

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرينه ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وفرقت الخلع ، الصرر على القضاة ومشايخ العلم ، وكان ختما حافلا بالمقعد الذى بالحوش السلطانى .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بوفاة الأمير شاهين انجمالى شيخ الحرم النبوى ، وكان أصله من مماليك الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس تأسع عشرينه عرض ناظر الخاص علاء الدين بن الامام خلع العيسد على السلطان وهى مزفوفة على رؤوس الجمالين ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الخميس المذكور حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مطالعة للسلطان تتضمن أخبار هذه النصره التى وقعت له على اسماعيل شاه الصفوى . وذلك أن فى يوم الأربعاء سادس رجب الفرد سنة عشرين وتسعمائة تلاقى عسكر سليم شاه ابن عثمان مع عسكر اسماعيل شاه الصفوى على مكان بالقرب من تبريز يقال له اسكندران ، فكان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وتذهل العقول عند سماعها من كل دان وقاص ، فصيرت الرؤوس عن الأجساد طائفة ، وطفشت العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى أجرى الدماء منهم كالسيل ، واستمر الحرب ثائرا حتى حال بينهما الليل ، فسكروا القوم من خمر ذلك الحرب ، وتراقصت الخيول على وقع السيوف الداخلة فى الضرب ، فقتل من العسكرين ما لا يحصى عددا ، وانهمز الباقون وتبدد شملهم بددا ، فبالها من ساعة مهولة ، لا ترضى الله ولا رسوله ، فوقع الكسرة على عساكر ابن عثمان أولا وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ، حتى قيل قتل من أمرائه سبعة عشر أميرا أصحاب صنایع ، وقتل من عسكره نحو النصف ، فلما عاين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة كادت روحه أن تزهد من شدة فهره ، ثم قام على عسكره وحضهم على القتال فمضى عزم عساكر الروم على القتال وأتوا بالصارم البتار ، وقال لسان حالهم الموت فى طلب الثأر ، خير من الحياة فى العار ، فوثبوا على عساكر الصفوى وثوب الليث الهمام ، وبايعوا أنفسهم فى

بلوغ المرام ، وقيل ان ابن عثمان كان في جاليش
عسكره اثنا عشر ألف رام بالبندق الرصاص ،
فلما زحفوا على عسكر الصفوى عنهم الدهوة ،
ولم يحملوا معهم غلوة ، فانكسر الصفوى وولى
مهزوما وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عساكر
الروم ، فيقال ان الصفوى جرح وهرب في نفر قليل
من عسكره ولم يثبت أنه قد قتل في المعركة كما
أشيع عنه فيما تقدم ، وقيل قتل من أمرائه جماعة
كثيرة منهم صاحب ديار بكر ويسمى سيحلى محمد
وأولاده ، وغير ذلك من أعيان عسكره وأمرائه
ما لا يحصى عددهم ، وكانت النصره لسليم شاه
ابن عثمان على الصفوى من النوادر الغريبة ،
كما يقال :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر
نم ان ابن عثمان حز رقاب من قتل من أمراء
الصفوى وأرسلها الى بلاده ، فطافوا بها هناك
وعلفت على أبواب مدائن الروم . ولم تقع مثل
هذه النصره لأحد من أجداد سليم شاه ابن عثمان ،
ولا لوالده السلطان أبى يزيد المعروف بيلدرم ابن
أورخان ، لما زحف تمرلك كسره وأسره ووضع
في قفص من الحديد وصار يدخل به البلاد ويعجب
عليه ، فما طاق يلدرم ذلك فبلغ له فصا من الماس
فمات وهو في القفص الحديد وأمره مشهور .

ووقع لوالده السلطان أبى يزيد لما زحف على
البلاد السلطانية في أيام الأشرف قايتباى ، فكسر
الأشرف قايتباى عسكره ثلاث مرات ، وقتل من
عسكره ما لا يحصى عددهم ، ودخل بجماعة من
عسكره أسرى الى مصر في الحديد وصنأجق أمرائه
منكوسة ، وحصل على عساكر الروم ما لا خير فيه .
فكان لسليم شاه سعد خارق بهذه النصره على
الصفوى ووقع له ما لا وقع لأبيه ولا لأجداده وهذا
أمر الهى .

فلما وقع لسليم شاه ذلك رجع الى بلاده ليشتى
بها ، وبعد الشتاء ما يعلم ما يكون بينه وبين
الصفوى من الحروب المهولة . فلما رحل ابن عثمان
جعل على تبريز نائباً من أمرائه وكذلك على البلاد
التي ملكها من أبدى الصفوى ، فاستتاب له بها
نواباً من أمرائه ثم رحل عن بلاد الصفوى .

فلما حضر قاصد سليم شاه ابن عثمان بين يدي
السلطان ، وقرئت مكاتبتة بحضرة الأمراء ، خلع
على القاصد الذى حضر بأخبار هذه النصره كاملية
مخمل أحمر كفى بسمور عال من ملايسه ، ثم
نزل القاصد من القلعة ولم يرسم السلطان بدق
الكوسات بالقلعة ، ولم يناد فى القاهرة بالزينة لأجل
هذه النصره ، ولم يعلم ما سبب ذلك . وأشيع عن
قرقماس المقرى بأنه فى قيد الحياة ، ولم يثبت
موته كما أشاعوا عنه بما تقدم من الاشاعات
الفاسدة .

وفى شوال كان مستهل الشهر يوم السبت ،
وكان ذلك اليوم عيد الفطر فخرج السلطان الى
صلاة العيد ، فصلى ثم خلع على الأمراء ومن له
عادة بالخلع السنية ، وكان موكب العيد حافلاً
كما جرت به العادة .

وفى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على
الأمير اينال باى دودار سكين ، وأذن له بأن يتوجه
الى حلب بسبب رد الجواب على الأمراء والعسكر
السلطاني فيما أرسلوا يسألون فيه من أمر النفقة ،
وهى الخمسون ديناراً التى أثاروا الفتنة بحلب
بسببها ، وبهدلوا الباش قانى باى قرا أمير آخور
كبير ، وعين له القتل المماليك القرانصة والجلبان ،
وقالوا : « أنفق فى السنة الخالية على مماليكه
الجلبان لكل واحد منهم خمسون ديناراً ولم يعط

المماليك القرائصة شيئاً ، فمثل ما أنفق على ممالكه
ينفق علينا نحن أيضاً والا نتهب أسواق حلب !
فأرسل لهم السلطان الجواب عن ذلك بما تقتضيه
الآراء الشريفة ، فتوجه اينال باى بمراسيم شريفة
تقرأ على الأمراء والعسكر بحلب عن الجواب فى
ذلك .

ثم ان السلطان بعد أن خلع على الأمير اينال باى
ورسم له بالسفر فعوقه عن السفر من بعد ذلك
أياماً لأمر أوجب ذلك مما عن له ، ثم سافر بعد
ذلك فى العشرين من هذا الشهر ، وكذلك قاصد
ابن عثمان المقدم ذكره .

وفى اليوم المذكور خلع السلطان على قاصد ابن
عثمان الذى حضر بأخبار النصرة على الصفوى
فخلع عليه وأذن له بالعود الى بلاده وكتب له
الجواب بالتهنئة عن أمر هذه النصرة التى تمت .
ومن الحوادث أن السلطان أنشأ سوقاً بالقرب
من خان الخليلى يباع فيه الرقيق ، وأبطل السوق
القديم الذى كان يباع فيه الرقيق ، وصار العمل
على هذا السوق من يومئذ .

ومن النوادر الغريبة أن الأمير خاير بيك
الخازندار لما توفى رسم السلطان للأمير طومان باى
الدوادار والزينى بركات بن موسى المحتسب ، بأن
يتوليا ضبط موجود الأمير خاير بيك الخازندار ،
فلما شرعا فى ذلك ظهر له موجود يقرب من موجود
سلار الناصرى نائب السلطنة كان ، ففتقر له فى
أول يوم من الذهب العين ثلاثة وثمانون ألف
دينار ، وزعم السلطان أنه لما حصل له التوعك فى
عينه أودع عنده خمسمائة ألف دينار فلم يظهر
للسلطان منها شيء وخفيت تحت الأرض ولم يعلم
مكانها ، ومات خاير بيك عن غير وصية ولم يخلص
ذمته فيما عليه من حقوق الناس الذين كان يقطع

مصانعتهم ويأكل حقوقهم ، فلما ضاعت على
السلطان تلك الوديعة صار يقل الرحمة على الأمير
خاير بيك ولم يقرأ له ختمة على قبره ولا صنع له
مأتما ولا تصدى عليه برغيف خبز ، ثم ظهر له من
بعد ذلك من المعادن والجواهر والفصوص الماس
والياقوت الأحمر واللؤلؤ الكبار والتحف الفاخرة
ما قوم بمائة ألف دينار ، ثم ظهر له ألف ثوب
بعلبكي ومن الأثواب الصوف والأبدان السمور
والوشق والسنباب والقطع الجوخ وثياب البدن
من سلاريات وجننيات جوخ وغير ذلك ما قوم
بخمسين ألف دينار ، وظهر عنده بشاخين زركش
وأشياء من ثياب النساء تركة وحليهن ما لا يحصى ،
وسبب ذلك أنه استولى على ست عشرة من تركات
الخوندات والستات وأعيان الرؤساء من الملوك
وغير ذلك ممن توفى فى دولة السلطان قانصوه
الغورى ، وظهر له من الخيول والبغال والجمال
ما لا يحصى ... فدخل ذلك الى الحواصل
السلطانية ، وظهر له من الرزق والأملاك والبيوت
والربوع والحوانيت وغير ذلك ما عنهم من الخراج
وكرامات فى كل سنة فوق العشرة آلاف دينار ،
واستمر الحال على ذلك الى يوم تاريخه يظهر له
فى كل يوم من الموجود أشياء جديدة ولم ينته
ضبطه الى الآن وضاع له تحت الأرض وعند
الناس أضعاف ذلك ، فكان موجوده اذا قوم
جميعه يقارب أربعمائة ألف دينار ... ومع هذا
المال الجزيل لم يلهم الله تعالى الأمير خاير بيك عند
موته أن يبر ابن استاذه الظاهر خشمقدم بشيء من
المال فى الباطن حتى يستعين بذلك على فقره ووفاء
دينه ، فعد ذلك من مساوئ خاير بيك ولم يشن
عليه أحد بعد موته بخير قط ، فذهبت عنه الدنيا
وفاته الآخرة ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى
العظيم .

الشافعي والقاضي شمس الدين السمدسي الحنفي والقاضي جلال الدين ابن قاسم المالكي والقاضي شهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وحضر سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر وحضر القاضي كاتب السر محمود بن آجا وأعيان المباشرين قاطبة . فلما فرغ السلطان من صلاة الجمعة فرشت له مرتبة على باب المقصورة فجلس عليها ، وجلست الأمراء حوله بالنشاش والقماش والقضاة الأربعة ، وجلس نواب القضاة عند المحراب ، ثم خطب قاضى القضاة الشافعى خطبة النكاح ، وطافوا على الحاضرين من الأعيان بنحو عشرين سلطانية صينية فيها سكر ، ثم ان السلطان خلع على القضاة الأربعة كوامل صوف أبيض بسمور ، وخلع على الأتابكى سودون العجمى والأمير طومان باى الدودار كوامل مخمل أحمر بسمور ، كوبهما وكيلين فى العقد ، وخلع على محب الدين الحلبي امام السلطان كاملية صوف بسمور ، ثم قام السلطان وانفض المجلس فى نحو خمس درج ، وقد قال القائل فى المعنى :

على أيمن الساعات عقد مبارك
بهى كما شاء الاله وأظهرا
سنى المعالى يسرت حركاته
إذا الله سنى أمر عقد تيسرا

ولم يقع فى هذا العقد ما هو كبير أمر من الأفعال الملوكية ، وأين هذا مما وقع للخليفة المأمون بن هرون الرشيد لما أن عقد له على بوران بنت الحسن بن سهل وزيره ، قال صاحب كتاب « الاكتفاء فى تواريخ الخلفاء » : « ان الحسن بن سهل الوزير لما عقد المأمون على ابنته بوران ببعداد اجتمع أعيان ببعداد من العلماء والأمراء والحجباب بالجامع الكبير ، فلما انفض ذلك الجمع نشر الوزير

ولما توفى الأمير خاير بيك أشيع أن السلطان عين تقدمه الأمير خاير بيك الى آقبای الطويل امير آخور نانى ، وأنعم على ولده الممر الناصرى محمد بامرة طبلخاناه ، وقرره فى الخازندارية الكبرى عوضا عن خاير بيك بحكم وفاته ، فتزادت عظمة سيدى ابن السلطان وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاث عشرة سنة . وقد تقدم القول على أن السلطان أرسل يخطب بنت ملك الأمراء سيبای نائب الشام الى ولده المذكور ، فتعل نائب الشام على أن ابنته صغيرة ، وكان اسمها فاطمة وتدعى أيضا شقرا ، وفيل انها جميلة عمرها بمائى سنين ولم تستحق للزواج ، فأرسل السلطان يقول له : لا بد من ذلك وأرسل له عشرة آلاف دينار مهرها . فلما رأى السلطان قد صمم على ذلك قبل المهر وأجاب بالسمع والطاعة وأذن فى تزويج ابنته الى ابن السلطان . وسياى الكلام على ذلك فى موضعه . وفى يوم الأربعاء ثانى عشره جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش وفرق على المماليك الذين أخرج لهم الحيل والقماش ، وفرق عليهم فى ذلك اليوم السيوف والزرديات والتراكيش ، وكانوا نحو مائة وستين مملوكا من جلبانه .

وفى يوم الجمعة رابع عشر شوال فيه كان عقد المقر الناصرى محمد بن السلطان على ابنة ملك الأمراء سيبای نائب الشام ، فكان الوكيل عن ابن السلطان الأتابكى سودون العجمى ، والوكيل عن سيبای نائب الشام الأمير طومان باى الدودار الكبير ، وكان جملة الصداق نحو عشرين ألف دينار : من ذلك عشرة آلاف دينار معجلا وعشرة آلاف دينار حال . وكان العقد بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة وهم : علاء الدين الاخيمى

الحسن بن سهل على رؤوس الأعيان من الناس رقاعا مكتوب فيها أسماء ضياع وأملاك ، فمن وقعت بيده رقعة مكتوب فيها اسم ضيعة أو ملك بعث الى صاحب الرقعة بتسليم ما فى الرقعة من ضيعة أو ملك . وهذا من غرائب الأخبار ، وكان ذلك فى سنة عشر ومائتين من الهجرة .

ومما يحكى أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى زوج ابنه الملك السعيد بينت الأتابكى قلاوون الألفى ، وكان الملك الظاهر يظن أنه اذا زوج ابنه بينت الأتابكى قلاوون يكون له من بعده عونا لولده على قلب الزمان ، فجاء الأمر بخلاف ذلك وأخذ قلاوون الملك من أولاده ونفاهم الى الكرك ولم يفده من تلك المصاهرة شئ ولا راعاهم من بعده . وكان ذلك فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، فكان كما يقال فى المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمله

رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

وفى ذلك اليوم سافر مامى الغورى الخاصكى ، الذى عينه السلطان للتوجه الى جبل نابلس وغيرها من الجهات ، بسبب أمر المشاة الذين أفرد السلطان الأموال على البلاد بسببهم لأجل التجربة المقدمة ذكرها ... فخرج مامى هذا ليجبى الأموال التى قررت على البلاد ، حتى قيل قرر على أهل جبل نابلس من الأموال مائة ألف دينار وأربعة وعشرين ألف دينار بسبب المشاة ، ولم يتفق قط هذا لأهل جبل نابلس بل كان الأشرف قايتباى فى التجاريد التى كان يرسلها يتفق على الرجال المشاة من حاصله لكل واحد منهم قدرا معلوما ، فلم يوافق السلطان على شئ من ذلك وأفرد على مشايخ جبل

نابلس ما تقدم القول عليه من المال ، ومشايخ جبل نابلس يفردون ما قرر عليهم من المال على عربان جهة نابلس ، ولم يقدروا على بعض ذلك وسوفهم يخلون أهل جبل نابلس منه عن قريب .

وقرر على أهل الشام مال له صورة بسبب المشاة ، وكذلك أهل غزة ، وكذلك على أهل صفد وطرابلس ، وكتب بمعنى ذلك مراسيم على يد أمير آخور باش العسكر بأن يفرد على أهل حلب مال بسبب المشاة ، وكذلك على أهل حماة ، فقيل قرر على كل انسان من هذه الجهات عشرون دينارا بسبب المشاة ، وهذا كله يؤول أمره الى خراب البلاد وفساد الأحوال وضعف أحوال الجند وعدم عمارة البلاد ... والأمر فى ذلك الى الله تعالى ما شاء يفعل ، فأطلق النار فى تلك البلاد بسبب أمر المشاة .

وفى يوم السبت خامس عشره خرجت المدورة الى بركة الحجاج .

وفى ذلك اليوم نزل السلطان الى قبة شبك التى بالمطرية وبات بها ، ثم ركب يوم الأحد وتوجه الى بركة الحجاج ، ورتب كيف ينصب الوطاق للأمرء الحاج . وكان ممن حج فى هذه السنة من الأعيان وهم المقر الناصرى محمد ابن السلطان ، وخوند زوجة السلطان ، والقاضى كاتب السر محمود بن أجا والأمير نائق الخازن ، وكان هو المتسفر على السنيح وكان من أخصاء السلطان . أما أمراء الحاج الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين أمير ركب المحمل ، والركنى سيدى عمر ابن الملك المنصور ابن الملك الظاهر جقمق أمير الركب الأول ، والأمير جانى بيك قرا أحد الأمراء الطبلخاناه باش المجاورين . فجعل السلطان وطاق ابنه بين وطاق كاتب السر وبين وطاق طقطباى أمير

ركب المحمل ، ثم ان السلطان عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الاثنين سابع عشر شوال فيه خرج المحمل الشريف ، وكان لخروجه يوم متسهود لم يقع قط مثله فيما تقدم من السنين الماضية وذلك قد انسحب فيه أربعة أطلاب حافلة : طلب جاني بيك قرا باش المجاورين وكان حافلا ، ثم انسحب طلب سيدى عمر بن المنصور أمير الركب الأول وكان حافلا ، وظهر له من السنيح العظيم أشياء كثيرة يعجز عنها الأمراء المفسدوم . ثم انسحب طلب المقر الناصرى سيدى ابن السلطان فخرج بطلب حربى وقدامه طبلان وزمران وصناجق سلطانية ، وفيه نوبتان هجن بأكوار زركش من ذهب بنادقة وبقية الأكوار مخمل ملون ، وانسحب فى طلبه عدة خيول بكنايش زركش بغواشى حرير أصفر ، وعدة خيول نحو طوالتين ملبسة ببركستوانات فولاذ مكفتة ، وانسحب فى طلبه نحو عشرين جملا مزينة بالآلات الشراب خاناء من الأوانى الصينى واللازورد والزجاج البلورى وغير ذلك ، وأيضا أحمال مزينة بالآلات الطشتخاناء من الأباريق الكفت والطسوت الكفت والشماعد وغير ذلك مما يحير الأبصار ، ومحفة جوخ أصفر مزهر فى آخر الطلب ، ثم بعد ذلك انسحبت محفة خوند زوجة السلطان فكانت غاية فى الحسن منتهى ما يعمل من المحفات ، فكانت محمل أحمر كفوى وهى مرقومة بالذهب ، طرازها وأرضية الثوب عروق لاعبة زركش من الذهب الخالص البنادقة ، وفوقها خمس رصافيات لؤلؤ وفيها رصعات ذهب بفصوص بلخش وفيروز ، وحول نوب المحفة بهرجان ذهب وفضة شقاق ، وقدام المحفة أربعة مشاعل بنفوط زركش بشراريب مثلث ، وقيل

صنعوا لخوند حماما من نحاس صفايح ودخلها أحواص نحاس وعلايات يصب منها الماء ساخنا ، فعد ذلك من النواذر ... قيل ان مصروف هذه المحفة فوق العشرين ألف دينار . وأما الرصافيات اللؤلؤ زعموا أنها رصافيات خوند زوجة الأشرف قايتباى صنعتها لما حجت فوجدت فى تركتها ، وكان خلف المحفة أربعة جمال غير الذى تحت المحفة ، وعلمها كنايش زركش على محمل أحمر ، وحولها مرتعش ذهب وفضة وقدام المحفة حاديان ، ونحو عشرين نفرا من الخدام حول المحفة ، ثم بعد المحفة انسحب نحو عشرين مطارة مخمل ملون يرسم عيال خوند وغيرها ممن يلوذ بها ، فلما شقت من الرملة ارتجت لها ، ولا سيما اجتمع بالرملة الحزم الغفير من الأمراء والعسكر والخلائق الذين لا يحصون لكثرتهم ، ثم طلعت المحفة من الصوة ونزلت من على باب الوزير وشقت من القاهرة ، فارتجت لها القاهرة فى ذلك اليوم رجا .. ولم يكن من العادة القديمة أن محفة حريم السلطان تشق من القاهرة .

وقد تقدم أن خوند زينب زوجة الأشرف اينال لما حجت لم تشق محفتها من القاهرة ، بل طلعت من بين الترب ، وكذلك خوند الأحمدية زوجة الظاهر خشقدم لم تشق محفتها من القاهرة ، ولا خوند زوجة الأشرف قايتباى لما حجت لم تشق محفتها من القاهرة ، ولكن أشيع أن خوند زوجة السلطان لم تخرج فى ذلك اليوم ولم تنزل من القلعة وشقوا بالمحفة من القاهرة ثم أعادوها من بين الترب الى القلعة حتى تنزل خوند . ويأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، ثم انسحب سنيح خوند وابن السلطان فكان فيه ألف جمال ما بين زاد وقرب ماء وغير ذلك من اليرق الحافل . ثم انسحب طلب الأمير طقطباى أمير ركب المحمل فكان غاية

في الحسن ، وهو منتهى ما يعمل في الأطلاب الملوكة ، فانسحب فيه نحو مائتي فرس ما بين حيول ملبسة بركستوانات فولاذ مكفت ، وغير ذلك من المحمل الملوذ ، وحيول بكنائيش زركنس ، وغير ذلك من المحففات والأحمال المزينة ، فارتجت لهذه الأطلاب الرملة . ثم اسحب المحمل وقدامه ابن السلطان والأمراء الحاج والخاصكيه المسافرين الى الحجاز فطلعوا . وكان السلطان في ذلك اليوم في شباك القصر ينظر البهم من القلعة ، فخلع السلطان على ولده متمرة وفوقاني حرير أخضر بطرز يلبعوى عريض ، وخلع على امراء الحاج مشرات ، وخلع على باش المجاورين كاملية صوف بسمور ، وكان بالقاهرة شخص من قضاة مكة فألبسه السلطان تشريفا وطرحاه هو وفاضى المحمل ، ثم نزل ابن السلطان من القلعة وأمراء الحاج وصحبتهم الأتتبيكى سودود العجمى وبضة الأمراء المقدمين وسائر أعيان المباشرين . وكان قاصد ابن عثمان حاضرا لهذا الموكب العظيم ، فشقوا من القاهرة في موكب حفل لهم نفع مثله في خروج الحجاج فيما تقدم من المواكب ، فلهج الناس بأن ذلك نهاية سعد السلطان مما وقع له من الأمور الخوارق فيما تقدم ذكره .

وفي ذلك اليوم أشيع بأن قاصدا ثانيا واصلا من عند ابن عثمان ملك الروم ، فلما سمع السلطان بمجيء القاصد عوق اينال باى دوادار سكين عن السفر الى حلب حتى يسمع ما جاء فيه القاصد من الأخبار ، وقد تقدم القول على أنه خلع على اينال باى وأذن له بالسفر ثم عوقه عن السفر لأمر بدا له في ذلك .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره نزلت خوند من القلعة بعد صلاة الفجر فجلست في المحفة من باب

الستار ، ثم نزلوا بها من دار البقر الى خلف القلعة وقدامها المشاعل والفوانيس ، وركب قدامها سائر المباشرين ومقدم الممالك وسائر الخدام من الطواشية ، وركب خلف محفتها من الخواندان والستات نحو ألف مكارى ، فاستمرت في هذا الموكب الحافل الى بركة الحجاج .

وفي ذلك اليوم خرج القاضى كاتب السر محمود ابن آجا في محفة على بغال وتوجه الى بركة الحجاج وكان عيلا وله مدة على ذلك ، وكان الحاج في هذه السنة لا يحصون عددا لكثرتهم ، وكان في الركبن فوق العشر محفات للأعيان والأمراء والستات .

وفي يوم الخميس عشرينه أشاعوا أن اينال باى دوادار سكين قد خرج وسافر الى حلب بسبب ما تقدم ذكره من أمر النفقة التى أرسل بطلبها العسكر ، فمضى اليهم الجواب عن ذلك .

وفي يوم الجمعة حادى عشرينه رحل أمير أول من بركة الحجاج . وكذلك باش المجاورين . ثم في ليلة السبت طلوع القمر رحل ابن السلطان وخوند زوجة السلطان والقاضى كاتب السر ، ونادوا في البركة أن أحدا من الحجاج لا يسافر صحبة خوند في ركبها .

ثم في يوم السبت ثانى عشرينه رحل المحمل من البركة ، وقد ضج الناس من كثرة الحجاج في هذه السنة . وربما يحشى عليهم من موت الجمال وشدة البرد .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشرينه جلس السلطان بالميدان وعرض ممالكه الجلبان وهم باللبس الكامل من آلة السلاح الآدمية والحيول ، فعرض في ذلك اليوم اربع طباق فعين منهم نحو مائة وخمسين مملوكا . وسبب ذلك أن السلطان كان له مدة طويله وهو يلهج بالسفر الى الاسكندرية

فقوى نزومه فى هذه السنة على السفر الى ثغر الاسكندرية كما فعل الأشراف قايتباى .

ثم فى ذلك اليوم عرض آلة الطلب وهى الخيول الملبسة بالجواغين الفولاذ المكفت ، وعرض خيول النوبة وهى بالكنايش الزركش والسروج والأرقاب الزركش الذهب والغواشى الذهب ، وعرض التختين وهما بغواشى حرير أصفر ، ثم طلع الى الدهيشة وعرض الصناجق السلطانية والقبة والطير . وقد غير الطير الذهب الذى كان فوق القبة وجعل مكانه هلالا ذهبيا مخرما ، وعرض ست خزائن التى تكون فى الطلب بالأغشية الحرير الأصفر ، وعرض الجوشنين وهما من آلة الطلب ، وعرض محفة على بغال وهى بعشاء من حرير أصفر .

ثم فى يوم الأربعاء سادس عشرينه ركب السلطان ونزل الى الميدان ليعرض ممالكه الخاصكية الذين يسافرون صحبته ، فوجد الميدان فيه وحل من المطر ، فخرج الى الرملة ووقف على باب الميدان وهو راكب وعرض ممالكه الجلبان من الخاصكية فعين منهم فى ذلك اليوم مائة وعشرة من الخاصكية ممن يسافر معه الى الاسكندرية ، فصار كاتب الممالك ماشيا على أقدامه فى وسط الرملة وهو يستدعى أسماء الممالك ، فرجت الرملة فى ذلك اليوم وتحقق سفر السلطان ، واضطربت أحوال العسكر بسبب سفر السلطان فى قلب الشتاء وشدة البرد ، فلما طلع السلطان الى القلعة فتح حواصل الذخيرة وأخرج منها زرديات وخودا وأتراسا ورمحا بسن فولاذ وسيوفا وجواغين ، ففرق منها على خاصكيته أشياء كثيرة مما يحتاجون اليه من آلة السلاح .

وفى يوم السبت تاسع عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من ممالكه الخاصكية وهم

باللبس الكامل من آلة السلاح ، فعين منهم جماعة يسافرون معه الى الاسكندرية . وقد أشيع بأنه يعين معه نحو خمسمائة خاصكى من ممالكه ، وفى ذلك اليوم برز السلطان خامه وتوجه به الى بولاق ثم عدوا به الى بر انبابة ، ورسم بأن ينصب فى المنصورية ذلك الوطاق .

وفى ذى القعدة كان مستهل الشهر يوم الاثنين فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر على العادة ، فجلس السلطان بالميدان وكان فى همة الخروج الى سفر الاسكندرية . فلما قام الخليفة والقضاة الأربعة طلب العلامة وعلم على بعض مراسيم ، ثم ركب من الميدان وانسحب قدامه الطلب فكان طلبا حريبا فيه طبلان وزمران والنفير البرغشى ، ثم انسحب فيه خمس وأربعون فرسا عليها أجلال شعر وفى رقابها مقاود ، ثم انسحب فيه ثلاث عشرة نوبة هجن بأكوار زركش ومخل ملون ، ثم انسحب فيه نحو خمسين فرسا بسروج ذهب وكنايش وغواشى حرير أصفر وتختين بغواشى حرير أصفر ، فكان عدة الخيول به نحو مائة وعشرين فرسا ، ثم تقدمت الخاصكية وبعدهم المباشرون قاطبة ، وبعدهم الأمراء المقدمون وهم : أمير كبير سودون العجمي والأمير أركماس أمير مجلس والأمير الدوادر الكبير والأمير أنص باى حاجب الحجاب وبقية الأمراء المقدمين ، ثم جاء من بعدهم السلطان وهو راكب على فرس بوز ، وعليه سلارى جوخ بنفسجى مفرى وشق ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة مدورة بغير قرون ، فشق من الصليبية فى ذلك الموكب الحفصل ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس ، فقبل انه توجه فى ذلك اليوم الى المقياس هو والأمراء ومد لهم هناك

مدة حافلة وأقام بالقياس ذلك اليوم ، وأشيع غير ذلك أن السلطان لما نزل من القلعة توجه الى بولاق ونزل في مكان يسمى السيكية فبات بها ، وقيل بل بات في المنية بازاء انبابة ، والأقاويل في ذلك مختلفة ، وكان بها الوطاق .

ثم ان السلطان رسم للأمير طومان باي الدوادار بأن يكون نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من السفر ، فتحول من يومه وطلع الى باب السلسلة وأقام به الى أن يعود السلطان الى القلعة .

وفي يوم السبت سادسه رحل السلطان من الوطاق الذي ببر انبابة وقصد التوجه الى نغر الاسكندرية ، ورجع جماعة كثيرة من هناك من الأمراء والعسكر ، ولم يسافر مع السلطان الا جماعة من الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات ، فمن الأمراء المقدمين : الأتابكي سودون العجمي والأمير أركماس بن ولي الدين أمير مجلس والأمير أنص باي بن مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش أحد المقدمين والأمير قانصوه ابن سلطان جركس ، والأمير خاير بيك كاشف الغريبة أحد المقدمين والأمير علان بن قراجا أحد المقدمين دوادار ثانى والأمير يخشبای أحد المقدمين والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين ، وقد قرر في مقدمة الأمير خاير بيك الخازندار عن قريب ، فكان عدة الأمراء المقدمين الذين توجهوا مع السلطان الى نغر الاسكندرية عشرة من المقدمين . وأما من توجه معه من الأمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة منهم : الأمير قن بك الشريفى رأس نوبة ثانى والأمير مغلبای الشريفى الزردكاش ، وآخرون منهم ما يحضرني أسماؤهم . وأما من توجه صحبته من الأمراء العشراوات فجماعة كثيرة نحو عشرين

أميرا ، وقيل كان مع السلطان من خاصكته نحو خمسمائة خاصكي وهيل أكثر من ذلك ، وأما من توجه معه من المباشرين فالقاضي منجى الدين عبد القادر القصري ناظر الجيش والقاضي شهاب الدين ابن الجيمان نائب كاتب السر وأخوه كريم الدين كاتب الخزائن الشريفة والقاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك وأولاد الملكى وأبو البقا ناظر الاصطبل ، والقاضي علاء الدين ناظر النحاس ، وجماعة من كتاب المماليك ، وآخرون من أعبان جماعة المباشرين ، وكان صحبته الشريفى يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة من الأعيان ما يحضرني أسماؤهم الآن .

وقيل كان صحبة السلطان جماعة من المغاني وأرباب الآلات من دواخل البلد في الغناء ، وخرج السلطان بسنيح عظيم وبرك حافل في أرغد عيش من التنزه والفرجة حتى رحل ، فنصب له الوطاق بالمنصورة وتوجه اليها على ما نقل من أخباره الصحيحة عن ذلك .

وأشيع أن السلطان أقام في الوطاق الذي بالمنية ستة أيام . وسبب ذلك أنه كان ينتظر كتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده الذي توجه الى الحجاز وأخبار زوجته خوند ، فلما ورد عليه كتب العقبة بالأمن والسلامة سر لذلك وانشرح ، ورحل من المنية ، وتوجه الى المنصورة ، ونصب بها المخيم الشريف ونزل هناك ، ثم يتوجه من بعد ذلك من مرحلة الى مرحلة حتى يدخل الى نغر الاسكندرية .

وفي يوم الاثنين ثامنه رسم الأمير طومان باي الدوادار نائب الغيبة بأن ينادى في القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن يعلقوا على كل دكان قتيلا من المغرب وأن لا يملوكا ولا غلاما ولا عبدا يخرج من بعد العشاء ومعه سلاح ،

وَأَزْ، لَا مَمْلُوكًا بَعْطَى وَجْهَهُ إِذَا خَرَجَ إِلَى السُّوقِ
وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ شُنِقَ مِنْ غَيْرِ مَعَاوِدَةٍ ، فَضَجَ النَّاسُ
لَهُ بِالْمَدَاءِ .

وَفِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ تَاسِعِهِ تَوَفَّى الْحَاجُّ يَاقُوتَ
فَرَّاشِي الْخِزَانَةِ ، وَكَانَ أَصْلُهُ مِنْ عِيِيدِ الْمُقَرِّ السَّيْفِي
بَرْقُوقِ نَائِبِ الشَّامِ وَأَعْتَقَهُ ، وَسَاعَدَتْهُ الْأَقْدَارُ حَتَّى
صَارَ فِي سَعَةٍ مِنَ الْمَالِ وَصَارَ أَمِينُ السُّلْطَانِ عَلَى
الْخِزَانَةِ الشَّرِيفَةِ . فَلَمَّا مَاتَ فِي غِيَةِ السُّلْطَانِ جَاءَ
الزَّيْنِيُّ بَرَكَاتُ بْنُ مُوسَى وَخَتَمَ عَلَى حَوَاصِلِهِ وَرَسَمَ
عَلَى وَلَدِهِ وَعَلَى عِيَالِهِ إِلَى أَنْ يَحْضُرَ السُّلْطَانُ ،
وَكَانَ يَاقُوتُ مَتَمًّا بِالْمَالِ الْجَزِيلِ ، وَكَانَ هُوَ
وَالْأَمِيرُ خَايَرُ بْنُ الْخَازَنْدَارِ يَتَصَرَّفَانِ فِي الْخِزَانَةِ
الشَّرِيفَةِ كَيْفَ شَاءَا مِنْهَا ، فَكَانَ كَمَا يُقَالُ فِي
الْمَعْنَى :

وَقَائِلَةٌ أَرَى الْأَيَّامَ تَعْطَى
لِثَامِ النَّاسِ مِنْ رِزْقِ خَبِيثٍ
تَمْنَعُ مِنْ لَهُ شَرَفٌ وَفَضْلٌ
فَقُلْتُ لَهَا خُذِي أَصْلَ الْحَدِيثِ

رَأَتْ حُلَّ الْمَكَاسِبِ مِنْ حَرَامٍ
فَجَادَتْ، بِالْخَبِيثِ عَلَى الْخَبِيثِ

وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ حَادِي عَشْرِهِ وَسَطِ الْوَالِي
شَخْصًا مِنَ الْغُلَامَانِ قِيلَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَخْطِفُ الْعِمَائِمَ
فِي الْأَسْوَاقِ بَعْدَ الْعِشَاءِ ، فَلَمَّا قَبِضُوا عَلَيْهِ وَسَطُوهُ
فِي وَسَطِ الصَّلِيَّةِ قَدَامَ حَمَامٍ شَيْخُو ، وَقِيلَ
وَسَطُوا آخِرَ مِنَ الْغُلَامَانِ عِنْدَ الْكَبْشِ ، وَفِي هَذِهِ
الْأَيَّامِ كَثُرَ هَجْمُ الْمَنَاسِرِ فِي الْحَارَاتِ وَالْأَمَاكِنِ مِنَ
الْقَاهِرَةِ وَغَيْرِهَا حَتَّى ضَجَّ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا
سِيْمَا كَانَ السُّلْطَانُ غَائِبًا فِي السَّفَرِ إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ
فَمَاجَتْ الْقَاهِرَةُ لِذَلِكَ .

وَفِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ خَامِسِ عَشْرِهِ فَارَقَتْ الْجَامِكِيَّةُ
فِي غِيَةِ السُّلْطَانِ ، وَحَضَرَ تَفَرُّقَهَا الْقَاضِي جَلَالُ

الدين نائب كاتب الماليك ، وحضر الأمير سنبل
مقدم الماليك ونائبه والزيني بركات بن موسى
المحتسب وغير هؤلاء ، وفُرِقتَ الجَامِكِيَّةُ عِنْدَ
سَلَمِ الْمَدْرَجِ ، وَكَانَتْ فِي غَايَةِ الْإِنْشِجَاتِ .

وَفِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَادِسِ عَشْرِيْنِهِ نُوْدِي فِي
الْقَاهِرَةِ بِالزَّيْنَةِ بِسَبَبِ عَوْدِ السُّلْطَانِ مِنْ ثَعْرِ
الْإِسْكَندَرِيَّةِ .

وَفِي يَوْمِ السَّبْتِ سَابِعِ عَشْرِيْنِهِ سَبَقَ الْمُخِيْمُ
الشَّرِيفُ وَنَصَبَ الْوُطَاقُ فِي الرِّيْدَانِيَّةِ إِلَى أَنْ يَحْضُرَ
السُّلْطَانُ . ثُمَّ أَنَّ السُّلْطَانَ عَدِي مِنْ بَرِ ابْنَابَةِ بَاكِرِ
النَّهَارِ ، وَطَلَعَ إِلَى الْمَكَانِ الْمُسَمَّى بِالسَّبْكِيَّةِ بِبُولَاقٍ
فَتَعَدَّى هُنَاكَ وَأَقَامَ إِلَى الظُّهْرِ ، ثُمَّ رَكِبَ مِنْ هُنَاكَ
وَشَقَّ مِنْ بَيْنِ الْغَيْطَانِ وَطَلَعَ مِنْ عَلَى قَنْطَرَةِ الْفَخْرِ ،
وَطَلَعَ مِنْ هُنَاكَ مِنْ عَلَى كَوْمِ الرِّيشِ حَتَّى وَصَلَ
إِلَى قَنَاطِرِ الْأَوْزِ ، فَطَلَعَ مِنْ عَلَيْهَا إِلَى أَنْ خَرَجَ إِلَى
الْوُطَاقِ بِالرِّيْدَانِيَّةِ فَأَقَامَ بِهِ . فَلَمَّا تَسَامَعَ بِهِ الْأُمَرَاءُ
أَتَوْا إِلَيْهِ وَسَلَمُوا عَلَيْهِ ، ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ
الْمُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ وَالْقَضَاةُ الْأَرْبَعَةُ فَسَلَمُوا عَلَيْهِ ثُمَّ
عَادُوا إِلَى دَوْرِهِمْ ، وَكَانَ السُّلْطَانُ أَرْسَلَ بِأَنْ
يُنَادَى فِي الْقَاهِرَةِ بِأَنْ لَا أَحَدٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْعَسْكَرِ
يَلَاقِي السُّلْطَانَ إِلَّا مِنَ الْوُطَاقِ الَّذِي بِالرِّيْدَانِيَّةِ
فَامْتَثَلُوا لِذَلِكَ .

وَفِي يَوْمِ الْأَحَدِ ثَامِنِ عَشْرِيْنِهِ نَادَى الْأَمِيرُ
الدَّوَادَارُ فِي الْقَاهِرَةِ بِأَنْ يَقْبُوا الزَّيْنَةَ ، فَزِينَتْ
الْقَاهِرَةُ زِينَةً حَافِلَةً ، حَتَّى زِينُوا دَاخِلَ الْأَسْوَاقِ
مِثْلَ سُوقِ الشَّرْبِ وَالْجَمْلُونِ وَالْجَوَاهِرَةِ وَسُوقِ
الْوَرَاقِيْنِ وَالْبَاسْطِيَّةِ وَسُوقِ الْحَاجِبِ وَخَانَ الْخَلِيلِي
وَسُوقِ جَامِعِ ابْنِ طُولُونٍ وَمَرْجُوشٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
أَسْوَاقِ الْقَاهِرَةِ ، حَتَّى مَصَرَ الْعِنِيَّةَ وَبُولَاقٍ وَغَيْرِ
ذَلِكَ مِنَ الْأَمَاكِنِ .

وَفِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ سَلَخَ ذِي الْقَعْدَةِ رَسْمَ السُّلْطَانِ

بعمل احراقه نطف تحرق في الوطاق فحرق ليلة
الثلاثاء بالوطاق ، فحصل للناس في تلك الليلة غاية
الضرر وسرق من الوطاق في تلك الليلة من عدة
خيام ، وأخذ منها بعض قماش وسيوف وبقعج ،
حتى أشيع بين الناس أن الرصافيات الأربعة التي
في محفة السلطان قد سرت تلك الليلة لكثرة
الرهج والاضطراب .

وفي يوم الثلاثاء كان مستهل ذى الحجة الحرام
فتوجه الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة
للتهنئة بالشهر ، وكان السلطان قد أخذ في أسباب
الدخول الى القاهرة وصار يرتب الطلب بنفسه
وهو راكب على فرسه ، فكان من ملخص أخبار
الطلب أنه جر به نحو من مائة وثمانين فرسا ، منها
بيركستوانات مخمل ملون وجواغين فولاذ مكفت
بذهب وفضة نحو ستين فرسا ، ومنها خيول
بسروج ذهب وكناييش نحو عشرين فرسا ، وكان
من جملة السروج ما هو بلور مزيك بذهب وسروج
عقيق مزيكة بذهب وسروج مرصعة بفصوص
مثمثة وطبول بازات فضة مينة وشيء بلور ، ومنها
خيول بعراقى وسروج بغواشى حرير أصفر وطبول
بازات نحو خمسين فرسا ، وجوشنان أحدهما
حرير أصفر والآخر مخمل مزهر ، وتختنان بأغشية
حرير أصفر ، وست خزائن بأغشية حرير أحمر
وأصفر ومحفة بغشى حرير أصفر وهى على بغلين ،
وكان به حجورة بسروج بداوى وركب بداوى
بعراقى نسيج مغربى نحو عشرين حجورة . وكان
قدام الطلب ست عشرة نوبة هجن ، منها ثمانى
نوب هجن بأكوار زركش وكناييش زركش ،
والبقية بأكوار مخمل ملون ، وكان قدام الطلب
أربعة طبول وأربعة زمور ووراء الطلب اثنا عشر

حمل كوسات ، وكان به الأفيال الكبار وهى مزينة
بالصناجق والبركستوانات الحرير الأحمر ، وكان
مع الكوسات العصائب السلطانية ، وكان قدام
السلطان أربع أرؤس خيل بسروج ذهب وكناييش
ذهب وريش وعليها رقاب ذهب وريش وفوقها
غواشى ذهب بطيور ذهب عليها .

فلما انتهى ترتيب الطلب ركب السلطان من
الوطاق الذى بالريدانية ، فركب على فرس بوز
قرطاسى ، وكان عليه الشاش والقماش وكاملية
مخمل أحمر بسمور ، وركب ، وسرج ذهب
وكنبوش ذهب وريش ، وعلى الفرس رقبة زركش ،
فلما تسامعت الأمراء بركوب السلطان ركبوا وهم
بالشاش والقماش ، وجميع الأمراء المتقدمين
والأربعينات والعشراوات ، والرءوس النوب
بالعصى ، ثم ان الأتابكى سودون العجمى تسلم
القبعة والجلالة ورفعها على رأس السلطان ، ومشى
عن يساره ، وركب الخليفة محمد المتوكل على
الله عن يمينه وهو لابس العمامة البغدادية وعليه
قباء صوف أبيض بمقلب صوف أخضر ، وركب
قدامه القضاة الأربعة وهم : علاء الدين الاخيمى
الشافعى وشمس الدين السمديسى الحنفى وجلال
الدين بن قاسم المالكى وشهاب الدين الفتوحى
الحنبلى ، وقد تقدم القول على أنهم أتوا يهنون
السلطان بالشهر وهو فى الوطاق فصادف ذلك
اليوم طلوع السلطان الى القلعة فركبوا صحبته ،
ولم يكن يحزر ركوب الخليفة والقضاة الأربعة مع
السلطان حين جاء من هذه السفرة ، ولكن قصدوا
التوجه الى السلطان ليحظوا عنده بذلك ، وقد
اتفق أن الأشرف قايتباى توجه الى ثغر الاسكندرية
مرتين ، فكان يجيء من السفر ويطلع الصبح الى
القلعة من بين التراب ولم يشعر به أحد من الناس ،
ولكن كل أحد له اختيار بذاته .

فلما ركب السلطان من الريدائية رسم للخادسكية الذين كانوا معه في نغر الاسكندرية بأن يدخلوا الى القاهرة وهم لابسون آلة السلاح كما دخلوا بنغر الاسكندرية وهم لابسون ، فلبسوا آلة السلاح الزرديات والخوذ ، وألبسوا الخيول البركستوانات المخمل ، وأخذوا الرماح بالشطقات بأيديهم وركبوا وراء السلطان في الطلب ، وكانوا نحو أربعمئة خاصكى من جلبان السلطان من أعيانهم فعد ذلك من النوادر ، وركب مع السلطان سائر المباشرين من أرباب الوظائف من المتولين والمنفصلين ، فلما تكامل الموكب مشى السلطان وكان الصنjq السلطاني في كيس حرير أصفر فلم ينشر على رأس السلطان ، فلما وصل الى قبة الأمير يشبك التي في رأس الحسنية لاقاه الشعراء بالشبابة السلطانية والمزاهر ، ولاقاه الطبردارية وفي أيديهم الأطبار فمشوا قدامه ، ثم لاقاه طائفة اليهود والنصارى وفي أيديهم الشموع موقودة .

ومن الحوادث في ذلك اليوم أن السلطان لما وصل الى رأس سوق الدريس فكان هناك حمل معلق فيه قناديل معمرة بالزيت ، فصدم به الأتابكى سودون العجى هلال القبة الذى هو عوض عن الطير الذهب ، فسقطت تلك القناديل على القبة وكلفتة السلطان والكاملية المخمل الأحمر التى عليه فانطرطشوا بالزيت الطيب تطرطشا فاحشا ، فلم يتفائل الناس بذلك على السلطان ، ووقع له أنه لما دخل لمدينة الاسكندرية سقط هلال القبة الذى على رأسه الى الأرض وانكسر نصفين في وسط سوق الاسكندرية ، وكذلك رصافية المحفة سقطت الى الأرض فبادروا اليها ووضعوها على المحفة ، فلم يتفائل الناس بهذا أيضا على السلطان . لكن وقع للأشرف قايتباى أنه لما دخل الى نغر

الاسكندرية وشق من سوقها سقط الطائر الذهب الذى على القبة الى الأرض ، فبادر الأمير يشبك الدواidar الكبير ونزل عن فرسه وركب الطائر على القبة وثبته عليها بيده وأعاده كما كان ، ثم ركب على فرسه ومشى السلطان الى أن خرج من باب البحر ، فتفائل الناس بزوال السلطان بعد ذلك ، فلم يؤثر فيه هذا التطير ومكث من بعد ذلك دهرا طويلا . ثم ان السلطان لما جرى ذلك كظم فى الباطن وعاب على الأتابكى سودون العجى حمل القبة والطير ، وقد حملهما على رأس السلطان بغير معرفة وكان لهما طريقة فى حملهما غير ذلك ، فاستمر السلطان فى هذا الموكب على ما ذكرناه أولا ، فكان النفير السلطاني المسمى بالبرغشى قدام الطلب ووراءه الطبول والزمور ، ثم انسحبت النوب الهجن وانسحب بعدها الجنائب الملبسة بالبركستوانات المخمل الملون ثم انسحب من بعد ذلك الخيول التى بالكنايش والسروج الذهب والبلور والعقيق المزيكة بالذهب ، وكان فى السروج ما هو مرصع بالفصوص المشنة ، وكان على الخيول طبول بازات بلور مزيك بذهب وشىء فضة مينة ، فكان من هذه الأصناف نحو عشرة طبول ، ثم انسحب جوشنان حرير ملون وخزائن المال وعدتهم ست بأغشية حرير أصفر وأحمر ، ثم انسحب المحفة بغشى حرير أصفر مزهر عليه بالتقاصيص الحرير ملون ، ثم وراء ذلك جاء المباشرون ثم الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، ثم جاء الأمراء المقدمون وهم بالشاش والقماش ، ثم جاء القضاة الأربعة ، ثم مشى الشعراء والشبابة السلطانية ، ثم مشى من بعد ذلك الأمراء الرؤوس النوب وبأيديهم العصى . وكان الأمير كرتباى الوالى ماشيا بالشاش والقماش ، وتقيب الجيش

وغير ذلك من الخاصكية ، ثم جاء السلطان وعلمه الشاش والقماش وقد تقدم القول على ترتيب الطلب في الريدانية أولا .

وهذا كان صفته لما شق من القاهرة بالموكب السلطاني وهو لا بس كاملة محمل أحمر بسمور ، والخليفة عن يمينه وهو بالعمامة البغدادية وعليه قباء صوف أبيض ، وكان أمير كبير سودون العجمي عن يساره رافعا القبة على رأسه والجهم الخفير من الخاصكية خلفه وهم بالخوذ والزرديات وبأيديهم الرماح بالشطافات الحرير الملون ، وكان الصنجق السلطاني مطويا في كيس حرير أصفر ، فلما شق من القاهرة كانت مزينة بالزينة الحافلة ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وتركزت له الطبول والزمرور على الدكاكين من باب النصر الى رأس الرملة ، فرجت له القاهرة في ذلك اليوم رجا وابتهجت الناس أى بهجة ، ثم ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام .

وكان هذا الموكب من الوقائع الغريبة في هذا العام ، وكان من المواكب المعدودة والأيام المشهودة ، قل أن بقي يقع لأحد من ملوك مصر مثل هذا الموكب فيما يأتى من الزمان ، ولم يقع للأشرف النورى من حين تسلطن والى اليوم أنه أوكب وشق من القاهرة هو والأمراء بالشاش والقماش غير هذا الموكب ، فاستمر في هذا الموكب حتى طلع من على جامع المارديني ، من على مدرسة السلطان حسن فشق من الرملة ، وقد ماجت له الرملة في ذلك اليوم من العسكر وكثرة الخلائق ، فاستمر على ذلك حتى دخل من باب الميدان ، فوقف له الخليفة هناك والقضاة الأربعة ، فطوبوا له ورجعوا الى دورهم ، ودخل السلطان الى الميدان هو والأمراء .

وكان الأمير طومان باى الدوادار الكبير نصب له بالميدان الخيمة الكبيرة التى تنصب في المولد ، ومد بها مدة حافلة قيل كان مصروف تلك المدة فوق الألف دينار ، وفرش تحت حافر فرس السلطان الشقق الحرير من باب الميدان الى الخيمة ، وقيل نثر على رأسه خفاف الذهب والفضة .

ثم ان السلطان جلس في الخيمة وأكل من المدة هو والأمراء ، فلما انقضى أمر المدة أحضر كوامل مخمل أحمر بسمور فخلعها على الأمراء العشرة الذين كانوا صحبتة بئر الاسكندرية ، وخلع على الأتابكى سودون العجمي كاملية مخمل أخضر بسمور ، وقيل خلع عليهم الكوامل بالريدانية ، وخلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية مخمل أحمر بسمور بسبب تلك المدة التى مدها ، وخلع على بعض خاصكية من السقاة من أرباب الوظائف . ثم ان الأمراء نزلوا من الصليبية في موكب حافل وتوجهوا الى بيوتهم ، وانقضى ذلك اليوم على خير ، وهذه الواقعة من معظم وقائع سنة عشرين وتسعمائة قل أن يقع في التواريخ مثلها من الوقائع الغريبة في أخبار السلاطين ، وقد نظمت في ذلك هذه القصيدة التى لم ينسج مثلها على منوال ، وهى هذه :

سر الأنام لمقدم السلطان
وتباشروا منه بكل آمان
وتغردت أضياف أزهار الربا
فوق الغصون بأطيب الألحان
والروض أضجى زهره متبسما
كتبسم الحسنا بضوء جمان
وتهللت من مصر دوحة روصها
عند القدوم تهلل الفرحان

وتضاحك الميدان مذ غنت به
أطياره سحرا على العيدان
عايته لما بدا في موكب
يزهو على كسرى أنوشروان
لما ارتقى عند الصعود لقلعة
رفعت عليه قبة السلطان
طلع الخليفة والقضاة أمامه
في الموكب المحفوف بالفرسان
قالت مراتب عزه لما أتى
لا تعجبوا فالسر في السكان
لسكندرية كان يوم دخوله
قد عد ذلك اليوم بالسلطان
ما زال أهل الثغر من فرح به
بتباشير في السر والاعلان
لو كان ذو القرنين حيا في الوري
لاقاه بالاكرام والاحسان
واختاره ملكا يلي من بعده
في سائر الأقطار والبلدان
فاق الملوك بمصر ممن قد مضى
أخباره في سالف الأزمان
قد عاد للأوطان في بشر وفي
نصر وتأيد وصفو زمان
فالله يكفيه مؤنة حاسد
ويطيل أياما له بتهان
ما ماس غصن في الرياض وكللت
أيدي الغمام شقائق النعمان
قد ضاء لابن اياس شعر قاله
في الأشرف الغورى العظيم الشأن
ثم الصلاة على النبي المصطفى
خير البرية من بنى عدنان

والآل والأصحاب ما طرد الدجا
ضوء الصباح وعم للأكوان
وأما ما كان من ملخص أخباره عند توجهه الى
ثغر الاسكندرية ، فانه نزل من القلعة وسافر في
يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، فنزل أولا في المكان
المسمى بالسبكية في بولاق ، فتعدى هناك ثم عدى
الى بر انبابة ونزل بالوطاق الذى بالمنية ، فأقام به
خمس أيام ، قيل انه كان منتظرا لكتب العقبة
حتى يعلم أخبار ولده وزوجته خوند ، فلما ورد
عليه كتب العقبة اطمأن ورحل من المنية ، وقد
قاسى العسكر في التعدية ما لا خير فيه ، وجرح
شخص من الخاصكية بالسيف في وجهه من جماعة
من المماليك عند التعدية بسبب ازدحام العسكر .
ثم ان السلطان توجه من المنية الى المنصورة
وأقام بها يوما وليلة ، ثم توجه من هناك الى
البحيرة فأقام بها يوما وليلة ، واستمر يرحل من
مكان الى مكان الى أن نزل بالنجيلة فأقام بها
يومين وليتين ، وأحضر له الصيادون هناك تمساحا
فأمر بتوسيطه بين يديه .
فلما كان يوم السبت ثالث عشره دخل السلطان
ثغر رشيد فأقام به الى يوم الأحد .
ثم أوكب من هناك ودخل الى مدينة الاسكندرية
في يوم الاثنين خامس عشره ، فدخل العسكر وهو
لابس آلة الحرب باللبس الكامل ، وانسحب
الطلب والجنايب كما تقدم القول على ذلك ، ثم
دخلت الأمراء وهم بالشاش والقماش ، ولم يلبس
السلطان الكلفتة بل لبس تخفيفة صغيرة مدورة ،
وعليه كاملبة محمل أحمر بسمور ، وحمل الأتابكى
سودون العجمى القبة والجلالة على رأسه ، وكان
السلطان اقترح على القبة هيئة جلالة ذهب عوضا
عن الطير الذى كان يعمل على القبة ، فشق من

المدينة في موكب حافل ، فنشر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة ، فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ في غاية الترحل والخراب .

ومن الحوادث أنه لما شق من المدينة صدم الأتابكي سودون بالجلالة التي على القبة بعض السقائف التي هناك ، فانكسرت تلك الجلالة نصفين وسقطت الى الأرض ، وكذلك لما مرت المحفة من هناك انكسرت الرصافية التي كانت عليها ، ثم ان السلطان خرج من باب البحر الملح وجلس بالمخيم الشريف ، فأرسل اليه مملوكه خدا بردى نائب الاسكندرية مقدمة حافلة ما بين ذهب عين وممالك وقماش على حمالين وخيول وغبر ذلك ، ثم قدم اليه الخواجا ابن أبى بكر تاجر السلطان مقدمة حافلة ، ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها الى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح .

وكانت الاسكندرية من أجل مدائن الدنيا حتى قيل كان بها لما فتحها عمرو بن العاص رضى الله عنه أربعة آلاف دار محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون ، وفي كل دار منها حمام تحتص بها ، وكان بها اثنا عشر ألف بقال يبيعون البقوليات من بعد العصر الى العشاء ، وكان بها أربعون ألف يهودى ممن وجب عليه الجزية ، وكان بها من الروم والقبط ستمائة ألف انسان ، وكان بها مائة ألف

مركب من مراكب الروم الكبار ، وشتان ما بين هذه الأخبار من هذه الأخبار التي هى بها الآن . ثم ان السلطان ألبس الأتابكي سودون العجمي الكاملة المخمل الأحمر التي كانت عليه ، وخاض على نائب الاسكندرية والخواجا ابن أبى بكر . وفي ذلك اليوم ثارت ممالك السلطان الخاصكة على خدا بردى نائب الاسكندرية ، وقالوا له : أنفق علينا لكل مملوك عشرين أشرفيا كما فعل قجماس نائب الاسكندرية لما دخل الأشرف قايتباى الى الاسكندرية ، فلم يعطهم شيئا فكادوا أن يخرقوا به وما سلم من القتل الا بعد جهد كبير . ثم حضرت التقدم الحافلة للسلطان من الكشف ومشايخ العربان بالغربية وهى ما بين ذهب عين وخيول وأبقار وأغنام وغير ذلك ، ففرق منها على الأمراء ممن كان صحبته أشياء كثيرة من الخيول والأبقار والأغنام ، فلما بات بالمخيم تلك الليلة وقدوا له مآذن المدينة ، وعلقوا على شراريف الصور كل واحدة قنديل ، فلما أصبح السلطان ركب وضرب الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين كانوا صحبته ، ثم توجه وزار الصالحين الذين هناك ، ثم توجه الى البرج الذى أنشأه الأشرف قايتباى فطلع فى البرج هو والأمراء ورموا قدامه فى ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق ، ثم توجه من هناك وكشف على الأبراج التي بثغر الاسكندرية وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل . وفي ذلك اليوم أنعم السلطان على مملوكه يوسف الزردكاش الثانى بامرة طبلخاناه .

ثم فى ليلة الأربعاء سابع عشره أحرق السلطان فى الوطاق احراقة نفض حافلة على شاطئ البحر الملح . ثم فى يوم الأربعاء سابع عشره رحل السلطان

عن ثغر الاسكندرية ا فكان مدة اقامته بها يومين وليتين .

ففى ذلك اليوم الذى رحل فيه أرسل محمد مهتار الطشتخاناه الى الظاهر قانصوه الذى فى البرج والى قيت الرحبى الذى فى البرج ورسم له بأن يكسر قيودهما ، وأرسل على يده لكل واحد منهما ألف دينار وبدنين سمور وبدنين سنجاب وثوبين بعلبكي وغير ذلك من القماش الفاخر ، وأرسل يقول لهما : « لا تجتمعوا على أحد من خلق الله ولا تكتبوا أحدا من الأمراء فما يحصل لكما من السلطان خير » . فباسوا له الأرض فى البرج وأجابوا بالسمع والطاعة واستمروا فى البرج بغير قيود . ثم رحل السلطان عن ثغر الاسكندرية بعد اقامته فيها يومين وليتين ، ثم توجه الى دمنهور فأقام بها يوما وليلة ، ثم توجه من بعد ذلك الى النجيلة عند عوده أيضا .

ومن الحوادث أنه لما أقام فى النجيلة غرق بها شخص من الخاصكية فى البحر فمات هناك .

ثم توجه منها الى الطرانة فأقام بها يوما وليلة ، ثم نزل بالمنصورة وأرسل يقول للأمير طومان باى الدوادار بأن ينادى فى القاهرة بأن لا أحد من العسكر يلاقى السلطان الا اذا نزل بالريدانية فى الوطاق ، فامثلوا ذلك ، ثم ان السلطان رحل من المنصورة الى المنية وعدى من هناك وحضر الى الوطاق بالريدانية ، وهذا ما كان من ملخص أخباره فى هذه السرحة .

وكان أول من دخل الى ثغر الاسكندرية من السلاطين الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون وذلك فى سنة سبع وستين وسبع مائة وكان سبب دخوله الى ثغر الاسكندرية أن الفرنج طوقوا الثغر على حين غفلة وملكوا المدينة ... فلما

جاءت الأخبار بذلك خرج السلطان على جرائد الخيل وصحبته الأتابكى يلغا العمرى وجماعة من الأمراء ، فلما بلغ الفرنج مجيء السلطان رحلوا عن الثغر بعد ما نهبوا المدينة وقتلوا من أهلها ما لا يحصى ، فدخل السلطان ورد الناس الى المدينة وطمئنه ورجع بسرعة الى مصر .

ثم دخلها ثانيا مرة فى سنة احدى وسبعين وسبع مائة ... ففى هذه المرة أوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه ، وكان خليل بن عرام نائب الاسكندرية ففرش له الشقق الحرير من باب رشيد الى باب البحر الملح ، ونثر على رأسه خفاف الذهب والفضة وكان له يوم مشهود بالاسكندرية .

ثم دخلها من بعد ذلك الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق فى سنة أربع عشرة وثمان مائة ، فأوكب بها موكبا حافلا وحملت القبة والطير على رأسه . ومما وقع له أنه لما شق من مدينة الاسكندرية وقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكون فيها من جور القباض ، فلما قرأ تلك القصة ، رسم بإبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثه وكتب لهم بذلك مرسوما شريفا فارتفعت له الأصوات بالدعاء .

ثم دخلها من بعد ذلك الأشرف قايتباى فى سنة اثنتين وثمانين وثمان مائة ، وأوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه . فلما شق المدينة نثر عليه بعض تجار الفرنج البنادقة ألف بندقى ذهب فتزاحمت الناس عليه يلتقطون الذهب ، فكاد السلطان أن يسقط من على ظهر الفرس حتى أدركه تراز الشمسى رأس نوبة النوب فضرب الناس حتى أفسحوا للسلطان ومشى .

ثم دخلها مرة أخرى فى جمادى الأولى سنة أربع

وثمانين وثمانمائة ، فلم يوكب بها مثل المرة الأولى . وكان سبب دخوله هذه المرة لأجل انتهاء عمارة البرج الذى أنشأه هناك فكشف عليه لما كملت عمارته ورجع بسرعة ، وسافر هذه المرة من البحر وكان أيام النيل والأراضى مغمورة بالمياه فأقام بشجر الاسكندرية ثلاثة أيام ، وكذلك فى المرة الأولى . ثم دخلها من بعد ذلك الملك الأشرف قانصوره الفورى فى سنة عشرين وتسعمائة كما تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الأربعاء ثانى الشهر ، نزل السلطان صبيحة يوم طلوعه وشق من الصليبة وهى مزينة ، ثم توجه الى بولاق وكشف على عمارته التى هناك ، ثم رجع من على باب البحر ودخل من باب القنطرة وتوجه الى البندقيين وكشف على عمارته التى هناك وكان فى نفر قليل من المماليك . وأشيع عنه أنه قال للعوام : قووا الزينة ولا تفكوها لبعد مضى عشرة أيام ، وجعل يقول لهم ذلك بنفسه ، فعاب عليه الناس ذلك .

وفى يوم الخميس ثالثه ، ثارت المماليك الجلبان على السلطان بالقلعة ورجموا الأمراء من الطابق ، وقصدوا نزولون لنهب الزينة ، فأغلق عليهم السلطان أبواب القلعة وباب السلسلة وباب الميدان ، فلما بلغ الناس ذلك ارتجت القاهرة وفكوا الزينة فى لمح البصر ، ووزع الناس الأمتعة فى الحواصل ، وكثر القال والقيل بين الناس ، وقعد الأمراء المقدمون فى بيوتهم وأغلقوا أبوابهم . وكان الأتابكى سودون العجمى مسافرا نحو بلاده وقد سافر بعد حصوره مع السلطان . فلما جرى ذلك تنكد السلطان لهذه الواقعة ، وبلغه أن المماليك يرومون منه نفقة لكل واحد منهم مائة دينار حلاوة السلامة . وشرع المماليك القرائنة يورون المماليك الجلبان على ذلك ، وكان العسكر

جميعه غير راض عن السلطان بسبب تعطل اللحم ، فان العسكر قاطبة من نحو سبعة أشهر لم يصرف لهم فيها زبدية لحم ، وحصل لهم بسبب ذلك الضرر الشامل . وكانت الدواوين فى غاية الانشحات لكثرة العسكر فى هذه الأيام ، ولا سيما ما جده السلطان من العسكر فى الطبقة الخامسة . وكانت الاقطاعات خرابا والبلاد معطلة من جور الكشاف ومشايخ العربان وهجاج فلاحي المقطعين عن البلاد ، فصارت المماليك القرائنة ينتظرون حركة مثل هذه الحركة فما صدقوا بهذه الحركة

وفى بقية ذلك اليوم غلقت الأسواق والدكاكين وارتفعت البضائع منها ، ثم فى بقية ذلك اليوم — قرب المغرب — نزل طائفة من المماليك الى الصليبة ونهبوا بعض بضائع من الدكاكين ، ثم ان المماليك قبضوا على شخص من العوام وقالوا له : نادى عن لسان السلطان أن النفقة مع الجامية لكل مملوك من المماليك السلطانية مائة دينار . فما وسع ذلك الرجل الا أنه نادى لهم كما قالوا له ، ولم تكن هذه المناذاة من قبل السلطان .

وفى يوم الجمعة رابعه أشيع أن شخصا من ممالك السلطان يسمى وردبش ، وهو أمير عشرة تدلى بجبل من طبقة الميدان لما ثارت المماليك فانقطع به الجبل ، فسقط الى الأرض فمات من يومه . وقد صارت المماليك فرقتين ، فرقة مع السلطان وفرقة عليه ، فلما كان وقت صلاة الجمعة لم يخرج السلطان ولم يصل صلاة الجمعة ، ولم يطلع من الأمراء غير ثلاثة أمراء مقدمين ، وقد اضطربت أحوال السلطان من بعد مجيئه من هذه السفرة وتكدر عيشه ، وطرقته عين عقيب ذلك الموكب العظيم الذى طلع فيه ، فكان كما يقال فى

أمثال الصادح والباغم :

لا تغتفر بالحفظ والسلامه

فأنما الحياه كالمدايه

والعمر مثل الكاس والدهر القدر

والصفو لا بد له من الكدر

ومن أمثاله أيضا

في لمحة العين بكاء وضحك

وناجذ باد ودمع منسفك

وفي يوم السبت خامسه ابتداء فيه السلطان

بنفرقة الأضحيه على العسكر ومن له عادة .

وفي يوم الاثنين سابعه أشيع أن السلطان رسم

للوالى بأن يتسلم جاني بيك الاستادار ويعاقبه على

بقية المال الذى قرر عليه ، فانه كان قرر عليه

ثلاثة وثلاثين ألف دينار أورد منها ستة عشر ألف

دينار ، فباع بيته وخبوله وقماشه ولم يغلق ذلك

القدر الذى قرر عليه ، فأظهر العجز فلم يقبل له

السلطان عذرا في ذلك وسلمه للوالى ، فأشيع

أنه قد عصر في أكعابه وضرب كسارات على ركه ،

واستمر تحت العقوبة الى الآن . وكان جاني بيك

هذا من الظلمة الكبار اذا ظفر بأحد من الناس

لا يرحمه — ولا سيما ما فعله في ولايته

للأستادارية ، وما جرى على العسكر بسبب

الحمايات وغيرها — فلما جرى له ذلك لم يرث له

أحد من خلق الله تعالى .

وفيه توفي يونس سر آخورى السلطان ، وكان

قبل ذلك في خدمة الأتابكى تراز الشمسى ، وكان

حسن السيرة لا بأس به

وفي يوم الثلاثاء ثامنه جلس السلطان بالميدان

وفرق بقية الأضحيه ، لكنه شح في هذه السنة

وضاقت عينه ، فقطع ضحايا الزوايا والمزارات التى

بالقراة وغيرها من زوايا الأعاجم ، فحصل لهم

كسر خاطر بسبب ذلك .

ثم انه رسم لبعض زوايا بالقراة بصرر فيها

دراهم يسيرة مثل مقام الامام الشافعى والامام

الليث رضى الله عنهما وبعض مزارات بالقراة ،

وتوقف في البقية ، ثم قطع ضحايا الفقهاء والمباشرين

الذين لهم ضحايا في الديوان والذخيرة فقطع

أضحية الذخيرة وأبقى الذى في الديوان . وكانت

الأضحية في هذه السنة في غاية الغلو في السعر

وهى مشحوة لم يظهر منها شيء بسبب تشويش

الماليك على الفلاحين ، فقل الجالب بسبب ذلك

وكانت الأحوال في هذه السنة غير صالحة .

وفي يوم الخميس عاشره كان عيد النحر ، وكان

السلطان في غاية النكد من ممالكه ، وكان

الأتابكى سودون مسافرا في اقطاعه وقد هرب من

تفرقة الأضحيه ، وكذلك الأمير تمر الزردكاش ،

فخرج السلطان وصلى صلاة العيد في الجامع ، ثم

ركب من هناك ودخل الحوش ولم يضح في الايوان

على العادة القديمة . فلما دخل الحوش لم يذبح

بيده شيئا في ذلك اليوم ، ورسم للأمير مغلباى

الزردكاش وبوسف الزردكاش الثانى بأن يذبحا

عنه ، ثم جلس في الحوش ساعة سيرة وقام ودخل

الدهيشة واحضج عن الناس

وفي يوم الاثنين خامسه^١ أشيع بين الناس بأن

الأمير طومان باى الدوادار صمن للماليك الجلبان

بأن السلطان نفق عليهم في شهر صفر لكل مملوك

مائة دينار ، فرضوا بذلك وخمدت الفتنة قليلا .

ثم ان السلطان نادى للناس في ذلك اليوم بالأمان

والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن أحدا لا يكتر

كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأسواق تفتح على العادة

وأن لا أحد يشوش على أحد من المتسبين ،

وكانت الأسواق جميعها مقفلة من حين وقعت هذه

الحركة بسبب الممالك ، فلما أشهر المناداة بذلك

(١) خامسه يوم سبت .

ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس وخمدت تلك الاشاعات بالركوب على السلطان .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأنفق على المماليك الكتانية جامكية هذا الشهر ، ثم أحضر أغصوات الطباقي الأعيان ووبجهم بالكلام وقال لهم : « ان كان لكم قصد أن تسلطنوا أحدا غيرى فأنا أنزل له عن الملك وأرسلونى فى أى مكان تختارونه » . فباسوا له الأرض وقالوا : ما لنا أستاذ الا أنت وما نموت الا تحت رجليك وما لنا حاجة بنفقة من السلطان وقد رضىنا بلا نفقة ان شئت تعطى أو لا تعطى . فقال السلطان : « خلى المشاعلى ينادى بأن النفقة بطالة » . فلم يطلع الوالى ولا المشاعلى فى ذلك اليوم ، فقام الزينى بركات بن موسى المحتسب ونادى بنفسه فى الميدان بين العسكر بأن معاشر الأمراء والعسكر المنصور حسبما رسم المقام الشريف بأن النفقة على العسكر بطالة . ثم بعد ذلك طلع المشاعلى فقال له السلطان : « نادى فى القاهرة بأن النفقة بطالة » . فنزل الزينى بركات بن موسى والمشاعلى قدامه ينادى للعسكر بأن النفقة بطالة ، وقد طمعت آمال المماليك بالنفقة وما يعلم ما وراء ذلك الا الله .

وفي يوم الخميس سابع عشره ، جلس السلطان فى الحوش على المصطبة وأنفق الجامكية على العسكر ، وأشيع أن فى تلك الليلة ثارت المماليك بالقلعة بعد العشاء ، فثار المماليك الذين فى طبقة الطازية على المماليك الذين فى طبقة الزمامية حتى اتقنوا بالدبابيس وقالوا : « اتتو عملتوا لكم وجه عند السلطان وقتلوا ما لنا حاجة بنفقة فتصيروا اتتو أحبابه ونحن نصير أعاديه ، فأحق ما نكون ونحن واتتوا على كلمة واحدة ، وما نرجع عن

طلب النفقة لكل مملوك مائة دينار » . وصمموا على ذلك ، وصار طائفة من المماليك مع السلطان وطائفة عليه .

فلما سمع الناس ذلك شرعوا يوزعون قماشهم وأمتعتهم فى الحواصل ، وكذلك السوق وزعوا ما فى دكاكينهم من البضائع ، ولهج الناس باقامة فتنة كبيرة ، والأمر فى ذلك لله تعالى .

وفي يوم الجمعة ثامن عشره ، ثارت المماليك الجلبان بالقلعة بعد صلاة الجمعة ونزل طائفة منهم الى الصليية فنهبوا ما وجدوه ، واستمروا على ذلك مهما لاح لهم يخطفوه ، فبانوا على أن يصبحوا ينهبوا المدينة وبيوت الأمراء ، وكان أكثر الأمراء وزع قماشهم .

فلما أصبحوا يوم السبت أشيع بأن النفقة عمالة لكل مملوك خمسون دينارا ، وأن القرائصة ما يعطيهم شيئا ، فمن المماليك الجلبان ما رضى بالخمسين دينارا ومنهم من قال : ما نأخذ الا مائة دينار ، وأشيع بأن المماليك القرائصة والسيفية لم ينفق عليهم شئ ، واستمر القيل والقال عمالا بين الناس وقد لهجوا باقامة فتنة كبيرة .

وفي يوم الأحد عشرينه نزل السلطان وسير نحو المطرية ، ثم عاد من يومه الى القلعة ، وشق من القاهرة فى ذلك اليوم ، وسكن أمر حركة المماليك قليلا من حين نادى لهم بأن النفقة فى شهر صفر مع الجامكية لكل مملوك خمسون دينارا .

وفي يوم الاثنين حادى عشرينه^(١) رسم السلطان بسجن جاني بيك الأستاذار الذى كان دوادار طراباى ، فتوجهوا به الى المقشرة وهو راكب على بغلة فبات بالمقشرة ليلة واحدة ثم أعادوه الى بيت

(١) فى الاصل : الاثنين ثانى عشرينه . وفى أيام هذا الشهر اضطراب فى الاصل صحفناه فى طبعتنا .

الوالى ثانيا ليعاقبه على المال الذى تأخر عليه . وكان صحبته لما أدخلوه المقشرة ابن شمس الدين بن عوض ، وقد تقدم القول على أن والده ابن عوض مات وهو تحت العقوبة ، وصار ابنه هذا تحت العقوبة حتى يقر بالمال الذى قرر على أبيه ، وكان صحبتهما شخص من أولاد ابن عمر مشايخ عربان الصعيد ، فباتوا جميعا بالمقشرة ليلة واحدة ثم عادوا بهم الى بيت الوالى ليعاقبهم على المال الذى تأخر عليهم .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه نزل السلطان وسير الى نحو بولاق وكشف على العمارة التى هناك ، ثم عاد الى القلعة من يومه وشق من الصليبة ذهابا وإيابا .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرينه دخل جماعة من العسكر من المماليك السلطانية ممن كان مسافرا يحلب فى التجريدة ، وقد أرسل لهم السلطان مراسيم بالمجىء فما صدقوا بذلك ، وقد قاسوا فى هذه السفرة ما لا خير فيه من الغلاء الذى وقع يحلب ، فباعوا خيولهم وسلاحهم وقماشهم حتى أكلوا بهم ، وما قاسى منهم أهل حلب خيرا ... نزلوا فى دورهم ونهبوا قماشهم وفسقوا فى حريمهم ، وشوشوا على سوقة حلب وأخذوا بضائعهم منهم غصبا ، حتى قيل ان بعض المماليك الجلبان أزال بكارة بنت صغيرة عمرها نحو ثلاث سنين ، وأشيع أنها ماتت ولم يصح موتها ، وقيل كانوا يهجمون على النساء فى الحمامات ويخطفوهن منها غير ما مرة ، وفعلوا أشياء فاحشة من هذا النمط ما فعلها من تقدمهم من المماليك السلطانية ، وثاروا على الباش قانى باى أمير آخور كبير وبهذلوه ، وأخرقوا به عدة مرار وما سلم من القتل الا سلامة ، وخبروا حلب عن آخرها من الظلم والجور ، وكان ترك رواحهم الى حلب أصوب وما أفاد من رواحهم

شيئا بل أفسدوا ما أسلحوا وما حصل برواحهم نفع قط

وفى يوم الحيس رابع عشرينه حضر مبشر الحاج ، وقد جد فى السير فكانت مسافته فى الطريق اتى عشريوما ، فأخبر بالامن والسلامة ، وأن ابن السلطان طيب وكذلك خوند وبقيّة الحجاج طيبون ، وكذلك القاضى كاتب السر محمود ابن آجا طيب فى خير وسلامة ، وكان أشيع موته فما صح ذلك ، ففرح أكثر الناس بسلامته . وكان محببا للناس قاطبة ، وأخبر المبشر بأن عيد النحر كان هناك يوم الجمعة . ثم ان المبشر طاف على الأمراء والمبشرين وأعيان الناس وأخبرهم بسلامة ابن السلطان فأقيمت عليه الخلع السنية من الأمراء وأعيان الناس قاطبة .

ومما أشيع من الأخبار فى كتب الحجاج أن ابن السلطان لما دخل الى مكة لاقاه السيد الشريف بركات أمير مكة ، فلما وصل ابن السلطان الى باب المعلة دخل مكة فى موكب حافل ، وأشيع أن الشريف بركات نزل عن فرسه ومسك بأزكة لجام ابن السلطان ومشى عن ميمنته ، ومشى الأمير طقطبى أمير ركب المحمل عن يساره وهو ماسك بأزكة اللجام ، ومشى أمير ركب الأول ، ثم لاقاه قضاة مكة وأعيان التجار فمشوا قدامه حتى وصل الى باب السلام ، فعذ ذلك من النوادر .

ثم ان الشريف بركات أرسل الى ابن السلطان تقادم حافلة ما بين ذهب عين وقماش ورقيق وغير ذلك ، وأرسل لخوند زوجة السلطان أضعاف ذلك ، ثم قدم اليه قضاة مكة وأعيان التجار الذين بها التقادم الحافلة ، وكذلك الأمير حسين نائب جدة ، فدخل على ابن السلطان وخوند من التقادم الحافلة ما لا يحصى ، وأشيع أن الشريف بركات واصل صحبة ابن السلطان بركب المحمل ، وقيل

ان خوند زوجة السلطان لما دخلت الى مكة حملت محفتها على أكتاف جماعة الشريف يركات من باب المعلة الى باب السلام ، هكذا أشيع فعند ذلك من جملة سعد السلطان . وأشيع في كتب الحجاج بأن الغلاء بمكة في سائر البضائع ، وأن الشاشات والأزر لم يوجد بمكة لعدمها جدا .

وفي يوم الجمعة خامس عشرينه توجه الأمير طومان باي الدوادار الى الخانكاه وقد بلغه أن ممالك جراكسة وصلوا صحبة القفل ، وأن له أقارب جراكسة صحبه المساليك ، وأشيع أن السلطان واصل له أخ جركسى صحبة القفل ، فخرج الأمير الدوادار بسبب ذلك .

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة عشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة هادئة من الفتن ، وأخصب فيها الزرع ووقع فيها الرخاء في سائر الغلال والبضائع ، ولم يقع فيها الطاعون بمصر ولا أعمالها ، وحصل فيها نصره عظيمة لابن عثمان ملك الروم على اسمعيل الصفوى ملك العراقين ، وخرجت من مصر تجريدة بسبب حفظ مدينة حلب ورجع العسكر وهم سالمون من تلك الفتنة .

سنة احدى وعشرين وتسعمائة (١٥١٥م) :

فيها في المحرم ، افتتاح العام كان يوم الخميس المبارك ، وكان خليفة الوقت يومئذ المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف قانصوه الغورى عز نصره . وأما القضاة الأربعة فكان يومئذ القاضى علاء الدين الأحمسى الشافعى والقاضى شمس الدين السمدسى الحنفى والقاضى جلال الدين بن قاسم المالكى والقاضى شهاب الدين الفتوحى الحنبلى . وأما الأمراء المقدمون فكان عدتهم يومئذ سبعة

وعشرون أميرا مقدم ألف وهم : الأتابكى سودون العجمى أمير كبير ، وكانت امرية السلاح شاغرة ، والأمير أركناس بن طراباي أمير مجلس ، والأمير قانى باي قرا أمير آخور كبير ، والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة كبير ، والأمير طومان باي دوادار كبير ابن أخى السلطان ، والأمير أنص باي ابن مصطفى حاجب كبير ، وأما بقية الأمراء المقدمين غير أرباب الوظائف فالأمير قانصوه بن سلطان جركس ، والأمير تمر الزردكاش ، والأمير أرزمك الناشف والأمير طقطباي نائب القلعة ، والأمير قانصوه الفاجر ، والأمير أربك المكحل والأمير تانى بيك النجمى ، والأمير تانى بيك الخازندار ، والأمير نوروز أخو يشبك الدوادار ، والأمير جان بلاط الموتى ، والأمير علان الدوادار الثانى ، والأمير خاير بيك كاشف الغريبة ، والأمير بيمرس قريب السلطان ، والأمير يخشباي والأمير قانصوه روح لو نائب قطيا ، والأمير قانصوه أبو سنة الذى كان والى القاهرة ، والأمير أبرك مملوك السلطان ، والأمير خدا بردى نائب الاسكندرية مملوك السلطان ، والأمير خاير بيك العلانى الشهير بالمعمار وهو آخر من قرر مع المقدمين ، والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثانى .

وأما الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات فازداد منهم جماعة وانتقص منهم جماعة ما يحضرنى اسمائهم الآن .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين فالقاضى كاتب السر محمود بن أجا صاحب ديوان الانشاء الشريف ، ونائبه الشهابى أحمد بن الجيعان ، والقاضى محبى الدين عبد القادر القسروى ناظر الجيوش المنصورة ، وعلاء الدين بن الامام ناظر

الخواص الشريفة ، والجمالى يوسف البدرى وزير الديار المصرية ، وشرفه الدين الصغير ناظر الدولة الشريفة وكاتب الممالك أيضا ، والأمير طومان باى الدواتار متكلما فى الأستادارية وغير ذلك من الوظائف ، والقاضى أبو البقا بن المستوفى ناظر الاسطبل الشريف ، وبقية المباشرين على حكم السنة الخالية ، وكانت وظيفة الزمامية شاغرة من حين توفى الأمير عبد اللطيف الزمام ، وبقية أرباب الوظائف على حكم السنة الخالية .

فكان مستهل السنة يوم الخميس المبارك ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد ، وكان السلطان فى الميدان ، وكان قبل ذلك بأيام نادى للعسكر أصحاب الطبقة الخامسة بالعرض ، وقد أشيع أنه يرسل تجريدة الى بلاد الهند بسبب تعبث الفرنج فى بحر الهند ، فلما طلع العسكر وعرضهم فى ذلك اليوم فلم يقع فيه كتابة ولا تعيين بل قال لهم : اطلعوا يوم الأحد أيضا .

وفى ذلك اليوم حضر قاصد من عند سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبة من سليم شاه للسلطان ، فكان من مضمون تلك المكاتبة أن شخصا من أولاد شاه سوار بن ذالغادر حصل بينه وبين عمه على دولات تشاجر بسبب بلاد أبيه فحنق منه وتوجه الى ابن عثمان ، فتعصب له سليم شاه وأرسل يسأل السلطان فى أن يعطى ابن سوار بلاد أبيه التى بيد على دولات ، فلم يوافق السلطان على ذلك ، وتنكد لهذا الخبر فى ذلك اليوم الى الغاية ، واشتور مع الأمراء فى هذا الأمر ، وربما تنسع هذه الفتنة بين ابن عثمان والسلطان ، والأمر فى ذلك الى الله تعالى .

وفى ذلك اليوم أشيع من الأخبار بأن ابن عثمان آمد ابن سوار بعساكر وتوجه على حين غفلة وكبس على عمه على دولات وحصل بينهم مقتلة

مهولة قتل فيها ابن على دولات وابن ابنه وقتل جماعة كثيرة من عسكره فى المعركة ، وأن على دولات اختفى فى قلعة زمنطوا ، وأن ابن عثمان ما هو راجع عن على دولات ، فشق على السلطان هذه الأخبار ، وأشيع أن ابن عثمان أظهر فى مكاتبته التى أرسلها للسلطان غاية العظمة وقال فيها : ان مقامنا الشريف ، وقال فى حق السلطان : مقامكم العالى ، وهذا من نوع الاستخفاف بالسلطان ، وكان سليم شاه ابن عثمان هذا عنده جهل زائد ويجب اقامة القتن ، وكان سفاكا للدماء فقتل اخوته وأولادهم وكان فيهم من هو مريض ، عما قيل من جهله .

فلما كان يوم الجمعة ثانى الشهر ، صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم حلا هو والأمراء وضربوا مشورة فى أمر ابن عثمان وعلى دولات ، وأشيع أن السلطان عين فى ذلك اليوم أربعة من الأمراء المقدمين يتوجهون الى حلب ، وأشيع أن السلطان أرسل يقول للأمراء الذين فى حلب : لا تجوا حتى ننظر ماذا يكون من أمر ابن عثمان وعلى دولات . ولكن غالب العسكر من الممالك السلطانية دخل الى مصر ، وكان السلطان قبل ذلك بعث اليهم مراسيم بالمجيء الى مصر لما قلقوا من أمر الغلاء الذى بحلب ، ثم بعد ذلك طرقة هذه الأخبار فندم على حضور العسكر ، وكثر فى ذلك القيل والقال بين الناس عن أمر مجيء العسكر حتى أشيع عودهم الى حلب والأحوال غير صالحة .

وفى يوم السبت ثالثه أنفق السلطان على جماعة الأمراء الذين لهم مرتبات على الذخيرة ، وكان لهم من حين توفى الأمير خاير بيك الخازندار لم يصرف لهم شئ ، فغلق لهم فى ذلك اليوم ما كان منكسرا لهم من المرتبات .

وفى يوم الأحد رابعه نزل السلطان الى الميدان وعرض عسكر الطبقة الخامسة وقال لهم : اعملوا يركبكم الى السفر فى أول ربيع الأول ، وسافروا الى الهند بسبب تعبث الفرنج فى بحر الهند .

وقيل انه وعد الذى له جامكية ألف وخمسمائة درهم بأن يكملها له ألفى درهم اذا بيسوا وجوهم فى هذه السفرة وتصير جامكية الكل ألفى درهم ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء فى ذلك اليوم ، وقيل انه كتب عسكر الطبقة الخامسة جميعها وهم ما بين أولاد ناس وممالك وتراكمة وغير ذلك .

وفى ذلك اليوم خرج القاضى شهاب الدين بن الجيعان وتوجه الى العقبة لأجل ملاقة ابن السلطان وخوند والقاضى كاتب السر ، فخرج وصحبته جماعة من الممالك السلطانية وغير ذلك من الأعيان ، وكان صحبته أشياء حافلة من مأكلى ومشرب يرسم المدات التى تعمل هناك ، وحلوى وفاكهة وبطيخ صيفى وغير ذلك من الأشياء الملوكية .

وفى يوم الاثنين خامسه جلس السلطان بالميدان ونادى للعسكر الذى جاء من حلب بأن يطلع الى القلعة ويقابل السلطان وعليه أمان الله تعالى ، وكان العسكر من حين حضر من حلب وهو مختلف فى البيوت لم يظهر منهم أحد .

وفيه حضر للسلطان شخص من بلاد جركس زعموا أنه ابن أخيه ، فطلع فى ذلك اليوم وقابل السلطان وكان رجلا كاملا شابا مستدير اللحية ، وكان يقرب للأمير الدوادار أيضا .

وفى يوم الخميس ثامنسه حضر الى الأبواب الشريفة طراباى نائب صفد بطلب من السلطان ،

وكان أصله من ممالك الأشرف قايتباى ، وقيل كان أصله من ممالك يشبك بن حيدر .

وحضر عقيب ذلك قاصد من عند على دولات وعلى يده مكاتبة للسلطان يذكر فيها ما وقع له مع ابن أخيه سوار ، وأن ابن عثمان منعصب له وقائم معه ، والأمر على ما يراه السلطان . وكان سبب حضور نائب صفد قيل انه وقع بينه وبين أمير كبير حتى يرى الظالم من المظلوم فيحكم بينهم بما تقتضيه الآراء الشريفة فى ذلك .

وأشيع أن الشهابى أحمد بن الجيعان لما خرج الى ملاقة ابن السلطان من العقبة أرسل صحبته السلطان خاتمة سنية الى السيد بركات أمير مكة ، وقد بلغ السلطان حضوره صحبة المحمل مع ابن السلطان وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم السبت عاشره طلع قاصد على دولات وقابل السلطان ، فلما قرأ مكاتبته جمع الأمراء المقدمين قاطبة والأمراء الطبلحانات والأمراء العشراوات وقرأ عليهم مكاتبة على دولات ، ولم ينشر السلطان فى ذلك اليوم ولا الأمراء لهذه الأخبار التى وردت عليه من على دولات بسبب ابن عثمان ، وأنه ما هو راجع عن على دولات وأظهر التعصب لابن سوار ، فأقام الأمراء عند السلطان الى قريب الظهر وهم فى ضرب مشورة بسبب ابن عثمان وعلى دولات . وأشيع أن السلطان عين أربعة من الأمراء المقدمين يتوجهون الى حلب وبقيمون بها زيادة على ما هناك من الأمراء المقدم ذكرهم ، حتى يروا ما يكون من أمر ابن عثمان .

وفى هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا كمال الدين ابن قوسان ، وكان عشير الناس بشوشا مستغرقا

وكان بينه وبين وفاة أخيه شمس الدين دون
السنة ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره نزل الحاج
بالبركة ، فنزل سيدى عمر بن الملك المنصور أمير
ركب الأول ، ونزل الأمير طقطبى أمير ركب
المحمل ، ونزل سيدى ابن السلطان وخوند زوجة
السلطان ، وحضر صحبة ابن السلطان السيد
الشريف بركات أمير مكة وولده وصهره عرعر ،
وحضر القاضى كاتب السر محمود بن أجا ، وحضر
شيخ العرب عبد الدائم بن بقر وأخوه بيسر ،
 وغير ذلك من أعيان الحجاج ، فخرجت الأمراء
قاطبة الى تلقيهم وأعيان الناس ، فكان لدخولهم
الى بركة الحاج يوم مشهود ، ولأقاهم القضاة
الأربعة فأقام ابن السلطان فى بركة الحاج الى بعد
العصر وركب من هناك ودخل الى القاهرة فنزل
فى مدرسة أبيه وبات بها ، وكذلك أمراء الحاج .
وأما خوند زوجة السلطان فانها طلعت الى
القلعة فى المحفة تحت الليل وحولها المشاعل
والفوانيس ، فطلعت من باب الدرفيل ولم يشعر
بها أحد من الناس ، ودخل القاضى كاتب السر الى
بيته تحت الليل ، وكان عليلا ، فدخل فى محفة الى
داره .

فلما كان يوم الخميس ثانى عشرين المحرم جلس
السلطان بالحوش وعمل الموكب بالشاش والتماش
وحضر الأتابكى سودون العجمى أمير كبير وسائر
الأمراء المقدمين غيرهم وأرباب الدولة قاطبة . ثم
ان ابن السلطان ركب من مدرسة أبيه التى
بالشرابشين وركب قدامه الشريف بركات أمير
مكة وولده وصهره وهم بكوامل مخمل أحمر
بسمور ، وكان السلطان أرسل تلك الكوامل الى
الشريف صحبة الشهابى أحمد بن الجيعان الى

فى ملاذ نفسه ، وكان لا بأس به ، فمات وقد قارب
السبعين سنة من العمر .

وفي يوم الأحد حادى عشره نزل السلطان
وعدى الى المقياس وبات به تلك الليلة وانشرح
هناك ، وقيل انه لم يبت بل أقام به الى بعد العصر
وهو فى أرغد عيش من مأكّل ومشرب ، ثم عاد
الى القلعة من يومه .

وفي يوم الاثنين ، ثانى عشره ، عين السلطان
خاصكيا يقال له جانم ، وأصله من ممالك
الأشرف قايتباى ، وكان من ذوى العقول ، بأن
يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ، وكتب على يده
مطالعة الى ابن عثمان بالجواب عن مطالعته بما
تقتضيه الآراء الشريفة فى أمر على دولات وابن
أخيه سوار ، وقرر معه اذا سافر يخرج على
جرائد الخيل حتى يعود بسرعة الجواب عن ذلك .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره أشيع وصول
ابراهيم بن السكر والليمون الى بندر الطور ،
وكان قد تغير خاطر السلطان عليه فنفاه الى مكة
فأقام هناك نحو ثلاث عشرة سنة ، فلما حصل
للسلطان ذلك التوعك فى عينه كما تقدم ورسم
بإطلاق سن فى السجون فتكلم بعض المباشرين مع
السلطان وشفع فى عود ابراهيم هذا الى الديار
المصرية ، فأجاب السلطان الى ذلك ، وكتب له
مراسيم بالحضور الى مصر ، فلم يحضر الا بعد
أشهر ، وقد جاء من البحر الملح فوصل الى الطور
على ما قيل ، وقد قاسى شدائد ومحن عند عوده
وأشيع أن أولاده وعياله وجميع ما يملكه غرقوا
فى البحر ، وأمره الى الله تعالى .

وفي يوم الثلاثاء عشرينه توفى القاضى ابن يبرم
أحد نواب الحنابلة ، وهو أحمد بن على يبرم ،

العقبة لما خرج الى ملاقاته سيدي ابن السلطان ، فلبس الشريف بركات وولده وصهره تلك الكوامل عند طلوعهم الى التناعة ، ولبس سيدي ابن السلطان كاملية تماسيح على أحمر ، فلاقاهم رؤوس النوب وهم بالشاش والقماش ، واستمروا على ذلك حتى وصلوا الى سلم المدرج ، وكان قدماه الشريف بركات وأمراء الحاج ، فلما وصلوا الى سلم المدرج نزل ابن السلطان من على الفرس ، وكان تحته فرس بوز بسرج وكنبوش ، وكذلك الشريف بركات وأمراء الحاج ، من عند المكان الذي تنزل عنده الأمراء المقدمون ، ثم طلعا بالفرس ثانيا الى عند المصطبة التي يجلس عليها نائب القلعة ، فركب ابن السلطان من هناك ثانيا ، ومشى قدماه الشريف بركات ومسك بأزكة لجامه من على الميمنة ومسك بأزكة اللجام من على الميسرة الأمير طقطبای أمير ركب المحمل ، وكان الأمير طقطبای يومئذ مقدم ألف نائب القلعة ، ومشى قدماه الجهم الغفير من الرؤوس النوب والخاصكية وهم بالشاش والقماش ، ومنى قدماه الشباية السلطانية والشعراء والشاوشية ، واستمر في هذا الموكب الحافل حتى وصل الى باب الحوش ، فنزل على مصطبة مشد الحوش ودخل من باب الحوش والموكب عمال . وكان ابن السلطان عمره يومئذ نحو عشر سنين .

ولقد أدركت الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف أينال لما أن حج — وكان اذ ذاك أتابك العساكر — فلما حضر من الحجاز وطاع الى القلعة ما وقع له مثل ما وقع لابن الأشرف الغورى هذا من المواكب الحافلة بالحوش ... فلما وصل الى المصطبة التي جالس عليها السلطان تقدم الشريف بركات الى عند السلطان فقام له نصف قومة ، وباس أمراء الحج له الأرض ، ثم تقدم ابن السلطان

وباس الأرض لأبيه ، فأحضر لهم الخصال : على الشريف بركات مشر وأطلسين ، وخلع على ابن الشريف بركات وصهره كوامل مخمل أحمر بسمور ، وخلع على أميري الحج لكل واحد منهما مشر وأطلسين لكون أن سيدي عمر ابن السلطان ثم أحضروا لابن السلطان فوقاني حرير أخضر بطرز يلغاوى عريض فوق الكاملية المخمل التي بالسمور ، ثم نزل الشريف بركات وولده وصهره من القلعة ، ودخل ابن السلطان الى دور الحرم ، وانقض ذلك الموكب على خير .

فلما نزل الشريف بركات وأمراء الحاج من القلعة نزل صاحبتهم الأتابكى سودون المعصى وجماعة من الأمراء المقدمين ، فشقوا من القاهرة وكان لهم يوم مشهود . فأوصلوا الشريف بركات الى المكان الذي أنزله فيه السلطان ، قيل أنزله السلطان في بيت الأمير جانم مصبغة الذي بالقرب من مدرسة السلطان ، فأوصل الأمراء الشريف بركات الى ذلك المكان ورجعوا الى بيوتهم ، وكذلك أمراء الحاج ، وأما القاضي كاتب السر محمود بن أجا فانه لما رجع من الحجاز كان متوعكا في جسده فلم يطلع الى القلعة ولا قابل السلطان ، وقد هنيته عند عوده من الحجاز بهذين البيتين وهما :

عن كاتب السر شاع فضل

يستوجب الشكر والمحامد

قد عم من به البرايا

وحج في الناس وهو قاعد

فكان لهذين البيتين موقع لما عرضا عليه وقرأهما ، فلما رجع الحجاج الى القاهرة أثنوا بكل خير على سيدي عمر بن الملك المنصور أمير ركب الأول وشالوا له الرايات البيض في وسط الرملة ، بخلاف الأمير طقطبای أمير ركب المحمل .

في استيفاء جيش الشام عوضا عن بدر الدين بن
الانباى بحكم وفاته ، فنزل من القلعة في موكب
حاذل .

وفي يوم الأحد تاسعه نزل السلطان الى المقياس
وعزم على الشريف بركات هناك ، وجلس معه
في القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، وأقام
هناك الى أواخر النهار ، ومد له أسمطة حافلة ،
ثم نزل في مركب وتمق من على الروضة وانطلقت
له النساء من الطيقان بالزغاريت ، واستمر في
المركب حتى طلع من بولاق ثم توجه الى القلعة
من هناك .

وفي الاثنين عاشره أشيع بأن في تلك الليلة سرق
من دار الضرب التى هى بالقلعة داخل الحوش
السلطانى نمابية آلاف دينار وكسور من الذهب
الجديد الذى ضربه السلطان بسبب النفقة ،
فذهبت ولا يعلم من فعل تلك الفعلة ، فلما بلغ
السلطان ذلك ألزم المعلمين الذين في دار الضرب بما
سرق من ذلك القدر ، فمضت ولم ينتطح في ذلك
شأتان .

وفي يوم ثالث عشره صمم المماليك على استعجال
النفقة ، فأخرج السلطان من حواصل الذخيرة
أشياء كثيرة من الأمتعة التى كانت في الحواصل
من ترك الخوندات والستات اللاتى متن واحتوى
السلطان على موجودهن ، ما بين قماش وبشاخين
زركش وعنبر وأوانى بلور وصينى وكفت وغير
ذلك ، وأخرج أشياء كثيرة من شاشات وأزر
وأثواب بعلبكي وأثواب صوف قبرسى وغير ذلك
فقوم ذلك بنحو خمسين ألف دينار ، فطلب التجار
ورمى عليهم تلك الأصناف بأعلى الأثمان فأطلق
في التجار النار ، وكان المتكلم في ذلك محمد
مهتار الطشتخاناه وقد جعله السلطان متكلم
على حواصل الذخيرة من حين تولى الحاج يافوت

وأما خوند زوجة السلطان وولده فلم يثن
عليها أحد بحير ولا ظهر لخوند في المناهل مكارم
أخلاق كما كانت تفعل خوند الخاصكية زوجة
الأشرف قايتباى لما حجت ، فلم ير لهم أحد من
الحجاج رأس سكر ولا مجمع حلوى ، وكل من
كان معهم رد يشكو من الجوع ، فكان كما يقال
في المعنى :

وكم لله من رجل سمن
كثير المال مهزول البذل
كذاك الطبل يسمع من بعيد
وداخله من الخيرات خال

وكان سبب ذلك أن السلطان هذا أخس خلق
الله وأبخلهم على الإطلاق ، فلم يمكن أحدا من
الناس في شيء من أمر السنيح ، وكان ابن السلطان
صغيرا لا يحكم على شيء من أمور السنيح ، حتى
فيل ردوا بالأكل الذى في السنيح لم ينقص منه
الا القليل ، فكان كما يقال :

لا تعجبوا ان سمى كريم
لحاجة في يدى بخيل
فانه كالخلاء حتما
لا بد فيه من الدخول

وفي صفر طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة
بالشهر ، وكان مستهل الشهر يوم السبت .

وفي يوم الأربعاء خامسه جلس السلطان في
القصر الكبير المظل على الرملة ، وعزم هناك على
الشريف بركات أمير مكة ومد له أسمطة حافلة ،
وأقام عنده الى أواخر النهار ، وقدم له السلطان
تقدمة حافلة ما بين خيول وجمال وغير ذلك .

وفي يوم الخميس سادسه خلع السلطان على
الشرقى يونس النابلسى الذى كان أستاذارا وقرره

العسكر بها وجرى بسببها ما تقدم ذكره ، فسلم تكن هذه النفقة عامة على العسكر بل كانت لجماعة مخصوصة من المماليك ، فأعطى للمالিকে الجلبان لكل واحد منهم خمسين ديناراً ، وأعطى مثل ذلك للمماليك الأشرفية القاييتية الشهاب أصحاب الدقون السود دون الشيوخ ، ولم يعط المماليك القرائصة الشيوخ شيئاً ، ولا المماليك السيفية شيئاً ، ولا أولاد الناس شيئاً ، ولا أصحاب الطبقة الخامسة التى تجددت ، فحصل للعسكر فى ذلك اليوم كسر خاطر الى الغاية ، وقيل ان بعض المماليك وقف اليه بسبب النفقة وأغلظ عليه فى الكلام ، فرسم بقطع جامكته فى ذلك اليوم ولو زاد عليه لرسم بنفسه أيضاً ، فلما جرى ذلك اعتبر بقية المماليك عن طلب النفقة .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان فى القاهرة بأن لا مملوكا يركب فى سرج بداوى ولا ركب بداوى ولا يتخلل باحرام صوف أبيض ولا يغطى وجهه اذا ركب ، ولا مملوك ولا غلام ولا عبد يخرج من بعد العشاء ، وصار يكرر هذه المنادة يومين موالية ، فشق على المماليك هذه المنادة وكانوا قد زادوا فى الضرر للناس .

ثم ان جماعة من المماليك توجهوا الى الأمير طومان باى الدوادار ليكلم السلطان فى أمر النفقة على بقية المماليك ، فلما كلمه لم يفد من كلامه شيئاً ، واستمر السلطان باقياً على عدم النفقة على المماليك الشيوخ والعواجز ، فما وسعهم الا الصبر والسكوت عن ذلك ، فكان كما يقال فى المعنى :

أنفقت عمرى وصحتى شغفاً

عليك والصبر آخر النفقة

وفى أثناء هذا الشهر حضر الأمير اينال باى دوادار سكين وكان توجه الى حلب بسبب مجيء

فراش الخزانة ، فشدد محمد المهتار على التجار فى جبي الأموال فجبيت منهم فى مدة يسيرة لأجل النفقة ، وحصل على التجار الضرر الشامل وقد خسروا فى الأتواب الصوف النصف فانها كانت معتوته ، كذلك خسروا فى البعلبكي والأزر والشاشات والأنطاع والمحابس اليسنى وغير ذلك .

ثم ان السلطان أطاق فى المباشرين النار وضيق عليهم بسبب بواقى فضلات الأموال التى قررت عليهم من فضلات بواقى الحسابات ، فكتبوا له قوائهم بما تأخر على المباشرين والعمال والمدركين وأرباب المصادرات فكان ذلك القدر نحو مائة ألف دينار ، فظهر على علاء الدين ناظر الخاص ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، وعلى الزينى بركات بن موسى المحتسب خمسة عشر ألف دينار ، وعلى القاصى شرف الدين الصغير خمسة آلاف دينار ، وغير ذلك من العمال ومن بواقى المصادرات ، فأطلقوا فيهم النار بسبب النفقة على المماليك ، وما قاسى أحد من أرباب الدولة بسبب هذه النفقة خيراً ، وقد استحثهم السلطان فى سرعة ورود المال على النفقة .

وفى يوم الاثنين سابع عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أبرك أحد الأمراء المقدمين ، وأصله من ممالك السلطان ، وكان خرج الى حلب صحبة التجريدة وقد جعله السلطان باشا على المماليك الجلبان ، فلما رسم لهم السلطان بالعود الى مصر حضر الأمير أبرك قبل مجيء الأمراء فدخل الى مصر وسبق الباشا ، ودخل صحبته جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ممن كان التجريدة ، فلما طلع وقابل السلطان خلع عليه ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وأنفق عليهم النفقة التى كان وعد

وكان ابن النقيب أرشل قليل الحظ غير محبب للناس .

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه كان أول يوم من الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم ، ومن جملة لطف الله تعالى لهم يجمع في هذه السنة طاعون بمصر .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشرينه نزل السلطان الى الميدان وساق فداه الرماحة كما يسوفون عند دوران المحمل في رجب ، وكان الشريف بركات أمير مكة حاضرا عند السلطان ، فلما مضى أمر الرماحة دخل السلطان هو والشريف بركات الى البستان الذى بالميدان ومد له أسطة حافلة .

وفيه عين السلطان شخصا من الحاصكية يقال له جانم بأن يتوجه الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ويكشف عن أخباره هل هو يقصد أن يثشى على بلاد السلطان أم على بلاد الصفوى ، فان الاشاعات كانت كثرت بمثنى ابن عثمان على بلاد السلطان ، فخرج جانم هذا بسبب ذلك ، وقيل لأجل أقارب السلطان الذين أتوا من بلاد جركس وأسرههم بعض ملوك التتر ، فتوجه جانم ليشترهم من ملك التتر بمبلغ له صورة .

وفي يوم الخميس سابع عشرينه فيه أكمل السلطان أمر النفقة ، واستمر مصمما على عدم اعطاء النفقة للماليك القرائصة والسيفية وأولاد الناس ، ثم في أثناء ذلك اليوم نادى السلطان في القاهرة بأن الماليك الذين أخذوا النفقة يعملون يرقهم ويكونون على يقظة فان التجريدة عمالة الى حلب ، فلما سمع العسكر ذلك اضطربت أحوالهم .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان بشنق شخص من أولاد الناس كان عاقبا مجرما وله عدة قتلاء ، فشنق على باب الدرب الذى في السبع سقايات .

العسكر وغير ذلك من الأشغال السلطانية ، وحضر الأمير خاير بيك المعمار ، وكان توجه الى العقبة بسبب اصلاح العراقيب التى بطريق العقبة لأجل خوند وابن السلطان قبل أن يجوا الى العقبة .

وفي هذا الشهر كثر الدعاء من الممالك القرائصة على السلطان بسبب منعه لهم من النفقة .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشره أرسل السلطان خلف قاضى القضاة الشافعى محبى الدين بن النقيب المنفصل ، فتوجه اليه بعض مهاترة الطشتخاناه ، فلما طلع به أرسل السلطان يقول له : « أورد ثلاثة آلاف دينار وتول وظيفتك على العادة » . فأرسل يقول للسلطان : « ما معى حاصرا غير ألف وخمسمائة دينار فولونى وقسطوا الباقي على كل شهر مائتا دينار » . فما رضى السلطان بذلك وانفصل المجلس مانعا ، فلما نزل ابن النقيب من عند السلطان أتى اليه الزينى بركات بن موسى ، فأخذه من المدرسة الناصرية ، وأركبه على حمار وتوجه به الى داره ورسم عليه حتى يرد ثلاثة آلاف دينار ان ولى أو لا يلى ، فأقام عنده فى الترسيم أياما ثم توجهوا به الى بيت القاضى كاتب السر وأحضروا له شرف الدين بن الأسيوطى الوكيل ، والقاضى شمس الدين بن وحيش ، ويقصدون أن يدعوا عليه بأن تحت يده ثلاثة آلاف دينار ثمن بدل عن وقف ابتاعه وأن ذلك القدر تحت يده ، فاعترف ابن النقيب بذلك وقال : « قد دفعت من ذلك القدر ألفين ومائتى دينار للسلطان » . وأظهر رجعة ذلك ، وذكر أن باقى ذلك المبلغ فقد من حاصله ، فانصرف فى الترسيم الى بيت ابن موسى يرد ثلاثة آلاف دينار فقاسى من البهدة ما لا خير فيه واستمر فى الترسيم مدة حتى يرد ذلك القدر ، ثم أشيع ولايته الى القضاء أياما وخمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن ،

وفي يوم الأحد سلخ هذا الشهر نزل السلطان وتوجه الى نحو فبة يشبك الدوا دار التي بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفي ربيع الأول طلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، ثم عادوا الى بيوتهم .

وفي يوم الاربعاء ثالثه ورد على السلطان أخبار غير صالحة بأن سليم شاه ابن عثمان قد جهز عساكر عظيمة ورمى عدة مراكب في البحر ، وأنه زاحف على على دولات بنفسه ، فتأكد السلطان لهذا الخبر ورسم لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء المقدمين ويقول لهم . اطلعوا الى عند السلطان حتى يهرأ عليكم الكتب التي وردت عليه عن أخبار ابن عثمان . فطلعوا الى عند السلطان في ذلك اليوم ، فلما اجتمعوا فرأ عليهم ما ورد عليه من المطالعات عن أخبار ابن عثمان ، فأقام الأمراء عنده الى بعد العصر وهم في ضرب مشورة بسبب على دولات وابن عثمان ، ثم بعد أيام خمدت تلك الاشاعات واستمر الأمر مبني على السكون .

وفي يوم الأربعاء عاشره نزل السلطان الى الميدان وساقوا قدامه الرماحة وهم لابسون الأحمر والخوذ كما يفعلون عند دوران المحمل في رجب ، واجتمع في الميدان الجهم الغفير من الناس بسبب الفرجة ، وكان الشريف بركات حاضرا مع الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفي ذلك اليوم توفي الأمير أسنباي الأصم أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان من أعيان ممالك الأشرف قايتباي ، وكان علامة في لعب الرمح وقد فاتته التقدمة من قبل ذلك ، وكان لابأس به ، وقد مات فجأة على حين عفة .

وفي يوم الخميس حادي عشره عمل السلطان المولد الشريف النبوي ونصب النيسة الكبيرة المدورة بالحوش ، قيل ان مصره في تلك النيسة على الأشرف قايتباي ستة وثلاثون ألف دينار ، فحضر القضاة الأربعة والشريف ، بركات أمير مكة ، قيل أجلس السلطان فوق الإتاكي سودون المعجمي ، واجتمع سائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف ومشايخ العلم ، وكان يوما مشهودا على العادة .

وفي يوم السبت ثالث عشره أشيع أن اقطاع أسنباي الأصم أنهم به السلطان على الأمير قايتباي الذي كان نائب الكرك ، فصار من جلة الأمراء الطبلخانات

وفيه حضر الأمير ألماس دوا دار سكين الذي كان توجه الى طرابلس بسبب ضبط موجود جانم نائب طرابلس الذي توفي ، وقرر عوصه تماراز مملوك السلطان الذي كان نائب قلعة حلب ، وقرر في نيابة قلعة حلب قانصوه الساقى عوضا عن تماراز الأشرفي بحكم انتقاله الى نيابة طرابلس ، وتوجه ألماس أيضا بسبب تقليد تماراز المذنور لما ولي نيابة طرابلس ، وبسبب جبي الأموال التي قررت على عربان جبل ناباس ، وغير ذلك من البلاد بسبب المشاة ، فأهلك الحرث والنسل .

وفي يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير قاي باي قرا أمير آخور كبير باش العسكر الذي كان توجه الى حلب ، وحضر الأمير سودون الدوا دارى رأس توبة النوب ، وحضر الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وكانوا توجهوا في هذه التجريدة صحبة أمير آخور ، فلما دخلوا الى القاهرة باتوا في مدرسة السلطان ، ثم طلعوا الى القلعة وقاتلوا في ذلك اليوم السلطان ، فخلع عليهم كوامل بسمور ونزلوا

الى دورهم في، موكب حافل ، فكانت مدة غيبة
الأمراء في هذه السفرة نحو تسعة أشهر ورجعوا
وهم سالمون لم يفقد منهم أحد ، ولا وقع بينهم
قتال بسبب ابن عثمان والصفوى ، لكن قاسى
العسكر في هذه السفرة مشقة زائدة بسبب الغلاء
الذى وقع بحلب وقلة العليق على الخيول ، فباعوا
خيولهم وسلاحهم وقماشهم ، فدخلوا الى مصر
وهم في غاية التعفيش ومنهم من دخل وهو راكب
على حمار .

وفي ذلك اليوم أكمل السلطان على العسكر
النفقة المقدم ذكرها على حكم ما شرح فيه ولم يعط
المماليك القرائضة العواجز ولا أولاد الناس شيئا ،
وصار الذى يأخذ النفقة يكتبه كاتب المماليك
طائفة الى جهة الشرقية وطائفة الى جهة الغربية ،
وطائفة الى منفوط وطائفة لحفظ الجسور ، فصار
بعض المماليك يقول : « ما لنا حاجة بنفقة على هذا
الوجه » .

فلما أقام قانى باى أمير آخور في المدينة ثلاثة
أيام أهدى الى السلطان مقدمة حافلة على ما قيل ،
فكان من جملتها ذهب عين عشرة آلاف دينار
 وخمسة وعشرون مملوكا جراكسة وخيول خاصات
أربع طوابل وأربعمائة رأس غنم وأثواب بعلبكي
وأثواب صوف وغير ذلك أشياء فاخرة ، وقيل
أحضر الى السلطان ثمانين ألف دينار وذلك مما
جباه من أمر المشاة الذين أفردهم السلطان على
الشام وحلب وحماه وغير ذلك من البلاد بسبب
المشاة التى تخرج قدام العسكر في التجريدة ،
فحصل على أهل تلك البلاد منه الضرر الشامل
وأخذ أموالهم بالظلم والعسف ، وقرر على جهات
البلاد الشامية من الاقطاعات والرزق على كل
رأس من الفلاحين قدرا معلوما ، كما فعل بعربان
جبل نابلس وغيره من البلاد ، فضج منه الأفلاك

والأملاك بسبب ذلك ، وكان المحرك لذلك يوسف
ابن أبى أصبح .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره نزل السلطان الى
الميدان وأرسل خلفه، التريف بركات أمير مكة ،
وحضر أمير كبير وجماعة من الأمراء المقدمين ، ثم
أحضر ممالك يرمون بالنشاب على الخيل وهم
باللبس الكامل فأظهروا أشياء عربية في فنون
الرماية ، وأحرق السلطان احراقة نطق بالنهار في
الميدان ، وأحضر الأفيال الكبار فتصارعت قدامه ،
وكذلك السبع والهزير ، فانشرح السلطان في ذلك
اليوم وكان يوما مشهودا فأقام في الميدان الى
قريب الظهر

وفي يوم الجمعة تاسع عشره الموافق لسابع
بشنس القبطى ، فيه قلع السلطان الصوف ولبس
البياض ، وكان الوقت يومئذ رطباً .

وفي يوم السبت عشرينه نزل السلطان انى
الميدان وبات به ليلة الأحد ، فدخل الى البستان
الذى أنشأ به فأطلق ماء البحرة ونثر فيها الورد
والياسمين ، وفرش حولها الفرش الفاخرة ، وعلق
بين الأشجار أحمال قناديل وتعليق كثيرة ما بين
تنانير وأمشاط وغير ذلك حتى أضاء البستان
بالنور ، ثم أرسل خلف الشريف بركات وبات
عنده تلك الليلة ، ومد له أسمطة حافلة وطوارى
فاخرة ما بين حلوى وفاكهة وغير ذلك ، ثم أحضر
اليه مغانى البلد وأرباب الآلات الدواخل ، فكانت
ليلة حافلة من الليالى الملوكية ، كما قال فيها
الشاعر :

ومجلس راق من غير واش يكدره
ومن رقيب له في اللوم ايلام
ما فيه ساع سوى الساقى وليس به
على الندامى سوى الريحان نمام

فلما أصبح أصبح يوم الأحد خرج السلطان وجلس في الميدان وأحضر جماعة من المماليك يرمون بالنشاب على القبق ، فأقام في الميدان يومين وليلة ثم طلع الى القلعة ، وقد بالغ في اكرام الشريف بركات بأشياء لم تقع لأحد من أجداده ولا أقاربه .

وفي يوم الاثنين ثانى عشره ، فيه خلع السلطان على أمراء الحاج فقرر الأمير علان أحد المتقدمين ودوادار ثانى أيضا أمير ركب المحمل ، وقرر الجنب العلاء على بن المؤيد أحمد بن الأشرف اينال أمير ركب الأول ، فكان لهما موكب حافل .

وفي ذلك اليوم أشيع أن خشقدم شاد الشون قد هرب وصحبته جماعة من المماليك السلطانية فهيا له مركبا بستة عشر مقادفا ، وقيل انه أخذ معه نحو عشرة مماليك ، وخرج من مصر على حمية ، فأشيع أنه قد توجه الى عند سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، وقيل ان له أخا عند ابن عثمان أمير من أمرائه فتوجه اليه ، وأصل خشقدم هذا من مماليك السلطان قانصوه الأشرف الغورى من مشترياته ، وكان أنعم عليه بامرة عشرة وجعله رأس نوبة عصاة بم فرره في شادية الشون ، وكان قبل ذلك تكلم في نيابة جدة نيابة عن الأمير حسين نائب جدة فاستمر على ذلك مدة ، ثم ان السلطان صادره وأخذ منه نحو خمسة آلاف دينار ، وكان خشقدم هذا متزوجا بينت جاني بيك دوادار طراباي الذي كان ناظر الديوان المفرد ، فلما قبض السلطان على جاني بيك أمر خشقدم بطلاق بنت جاني بيك غصبا وقيل كان له منها أولاد وربما ألزمه بما تأخر على

جاني بيك من المال ، فما طاق خشقدم ذلك وحمل على نفسه فهرب نحو بلاد ابن عثمان ، فكان كما يقال في المعنى :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق

فلما أشيع توجه خشقدم الى بلاد ابن عثمان كثر القال والقييل بين الناس بسبب ذلك ، وقيل ان أخا خشقدم هذا كان مقيما عند ابن عثمان سليم شاه وهو من أخصائه ، فختى بعض العقلاء أن خشقدم يحسن لابن عثمان أن يمضى على بلاد السلطان ويهون عليه ذلك الأمر ، والله غالب على أمره .

وفي يوم الجمعة سادس عشرين هذا الشهر كانت وفاة الأمير قاني باى قرا أمير آخور كبير الذى كان باش العسكر المتوجه الى حلب ، وكان موته بغتة على حين غفلة ، وكانت مدة توعكه خمسة أيام حتى أشيع أنه مات مسموما من بعض أخصائه ، والعلم عند الله تعالى ، وكان أصل الأمير قاني باى هذا من مماليك الملك الأشرف قايتباى من مشترياته ، فأعتقه وأخرج له خيلا وقماشاً وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بقى سلحدارا ، ثم أنعم عليه بامرية عشرة في سنة ثمان وتسعين وثمانمائة ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ، وقرره في نيابة صهيون ، وقيل سعى فيها بمال له صورة فأقام بصهيون مدة ، وكان الساعى له في نيابة صهيون الأمير أربك الخازندار ، وقيل قرر في امرية الكبرى بحلب مدة يسيرة ، ثم عاد الى مصر وبقى مقدم ألف في دولة الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، ثم بقى أمير آخور كبير — بعد وقعة الأمير أقبردى الدوادار — لما قتل الأمير كرتباى ابن عمه الأشرف قايتباى في

مدرسة السلطان حسن ، فقرره الملك الناصر في امرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير كرتباى بحكم فله ، وذلك في المحرم سنة ثلاث وتسعمائة فقام في امرية آخورية الكبرى بحوا من ثمانى عشرة سنة وثلاثة أشهر .

وكان أميراً جليلاً مبجلاً معظمياً ، في سعة من المال والسلاح والبرك والحيول والبعال والجمال والماليك ، وكان في مائة من كل شيء ، وهو الذى أنشأ الجامع الذى عند المصنع بجاه سوق الحيل ، واجماع الذى بالقرب من ميدان المهارة الذى بجوار البركة الناصرية ، وكان له من العمر لما مات نحو ستين سنة .

وكانت صفته طويل القامة ملء الجسد أسمر اللون جداً كما وكزه الشيب ، وكان مشهوراً بالنجاعة والفروسية ولعب الرمح بحيث كان يدعى بقاى باى الرماح ، لكنه كان عنده الطمع الزائد والظلم والعسف ، وكانت معاملته أنحس المعاملات يأكل أموال الناس بغير حق ، وإن وضع يده على وقف أو تركه أكلها عن آخرها ، وإن اشترى من أحد شيئاً أكل ثمنه عليه ، وإن استعمل صنائعاً أو مسبياً قطع مصانعته في أجرته ، ويخرج من بابه غير راض عنه .

وكان السلطان قرره باش العسكر على التجريدة التى توجهت الى حلب ، فأظهر في البلاد الشامية والحلبية غاية الظلم ، وأفرد الأموال الجزيلة على جهات البلاد الشامية والحلبية بسبب المشاة الذين يكونون أمام العسكر ، فجار على الناس وأخذ جملة من الأغنام لأهل الضياع من الفلاحين نحو ثلاثين ألف رأس غنم ، وقيل أكثر من ذلك .

وكان السلطان في وقت عينه بأن يتوجه الى جهات الشرقية بسبب فساد العربان ، فكان إذا ظفر

بأحد من الفلاحين الضعفاء بوسطه أو سلخه من رأسه الى قدميه ، وربما صنع ذلك بجماعة من الأشراف وزعم أنهم من العربان المصاة على ما قيل عنه ، وكانت مساوئه أكثر من محاسنه ، وكان شدد القسوة كثير الجهل ، وقد أراح الله تعالى الناس منه . فلما مات لم يشن عليه أحد من الناس بحير قط ، وقد قلت في ذلك مداعبة لطيفة :

جهنم منذ قالت
لقانى باى خذ حذارك

قد زاد نيران وجدى
من كترتى لا تنظارك

وأنا أستغفر الله العظيم وأتوب اليه من ذلك ، ولكن أحببت أن أذكر هنا شيئاً من مساوئه حتى يعتبر من بفى لعل أن تحسن أخبارهم من بعدهم . وكان السلطان متأثراً من الأمير قانى باى هذا في الباطن ، وقد عين له امرية السلاح غير ما مرة ويترك امرية آخورية الكبرى فيأبى من فاك ، وكان السلطان له قصد أن يقرر أحداً من أخصائه في امرية آخورية الكبرى فبعارضه في ذلك ، فلما مرض الأمير قانى باى استمر مقيماً بباب السلسلة في مدة انقطاعه نحو خمسة أيام ، فمات بباب السلسلة ليلة الجمعة بعد العشاء ، فرسم السلطان أن ينزل الى داره وهو ميت فنزلوا به في نابوت الى بيته الذى عند حدره البقر .

وكان متزوجاً ببنت الأمير يشبك بن مهدي أمير دودار كبير فأقامت له نعيًا بالطارات ، واستمرت تدق عليه بالطارات ثلاثة أيام متوالية فعز ذلك على السلطان في الباطن ، وأشيع بين عياله أنه قد مات مسموماً ، فحققت ذلك على بنت الأمير يشبك فيما بعد وقرر عليها فوق الثلاثين ألف دينار وزعم أن

قانى باى أمير آخور أودع عندها مالا فشرعت فى بيع جهازها حتى ترد ما قرر عليها من المال .

فلما كان يوم الجمعة حضر القضاة الأربعة والأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأخرجت جنازته من بيته وقدامه كفارة ، فظلعوا به من على حذرة البقر ، فلما وصل الى الرملة نهب العوام تلك الكنفارة ، فلما وصل الى سبيل المؤمنين خرج السلطان من الميدان وصلى عليه وكانت جنازته حافلة ، ثم رجعوا به من المصلاة ودفنوه فى مدرسته التى تجاه سوق الخيل ، وخلقى بعمله وانقضى أمره . وفى يوم السبت سابع عشرينه فيه ابتداء السلطان بضرب الكرة فى الميدان على العادة .

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه وقف الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين قاطبة وباسوا الأرض للسلطان وسألوا بأن يكون سيدى ابن السلطان أمير آخور كبير عوضا عن الأمير قانى باى قرا بحكم وفاته ، فأعجب السلطان ذلك فى الباطن وقد مشت الأمراء فى غرض السلطان لما رأوا له قصدا فى ذلك ، فأنعم على ولده المقر الناصرى محمد فى ذلك اليوم بامرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قانى قرا ، فحضر ابن السلطان وباس الأرض على ذلك الانعام له .

وفى ربيع الآخر كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء فطلع الخليفة والقضاة الأربعة والسيد الشريف بركات أمير مكة فهنوا السلطان بالشهر وعادوا الى دورهم ، وقد بالغ السلطان فى اكرام السيد الشريف بركات وقام اليه وعظمه نعظيما بالغاً .

وفى يوم الخميس تانى الشهر أكمل السلطان النفقة على جماعة من المماليك القراصة ، وكان عول قبل ذلك أن لا ينفق عليهم شيئا ، ثم أنفق

عليهم ، ولكن أعطاهم السم فى الدسم فكتب منهم جماعة الى الشرقية وجماعة الى العربية وجماعة الى العقبة والأزلم والى منفلوط ثم صرح لهم جبارا وقال : « الذى يطلب يخرج وسافر من يومه والذى ما يطلب نفقة يقعد ويستريح فى بيته » . فرجع غالب المماليك عن طلب النفقة والذى أخذ النفقة خرج الى السفر من يومه .

وفى يوم الاثنين سادس هذا الشهر عمل السلطان الموكب بالقصر الكبير ، ودار تقيب الجيش على الأمراء المقدمين وأعلمهم أن الموكب بالقصر الكبير ، وهو بالتشاش والقماش ، فلما تكامل الموكب وحضر الأمراء المقدمون طلب السلطان ولده المقر الناصرى محمد وخلصه عنه وقرره فى امرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قانى باى قرا بحكم وفاته . فلما خلع عليه نزل وصحبته الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، فنزل من سلم المدرج ونوجه الى باب السلسلة وقدامه الأمراء قاطبة بالشاش ، ومشت قدامه الشعراء والشبابة السلطانية ، فدخل الى باب السلسلة ونزل على سلم الحرافة وطوب للأمرء وانفض ذلك الموكب الحافل ، وكان سن ابن السلطان يومئذ احدى عشرة سنة .

ولم يسمع فيما مضى من الأخبار المتقدمة أن ابن سلطان ولى أمير آخور كبير سوى هذا ، ولكن الملك الظاهر خشفدم قرر ربيبه الشهابى أحمد بن العينى أمير آخور كبير ولم يكن ابن سلطان ، فعند ذلك من النوادر الغريبة ، ولم يسمع فيما مضى من الأخبار أن ابن سلطان ولى الأتابكية فى حياة والده وتسلطن منها سوى الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

وفى يوم الأربعاء ثامن نزل السلطان الى باب السلسلة وجلس فى الحرافة ومد بها سباط الغداء ،

ثم عرض مماليك الأمير قانى باى أمير آخور
وعرض البوتات التى كانت للأمير آخور ورسم
بجميع ذلك الى ولده .

وفى يوم الخميس تاسعه رسم السلطان لولده
أن يركب ويتوجه الى بيت أمير كبير سودون
العجمى ويتشكر منه الذى تعصب له فى آن يلى
أمير آخور كبير ، فنزل وصحبته الأمير طومان باى
أمير دوا دار كبير وجماعة من الأمراء العشراوات
والجهم الغفير من المماليك والخاصكية ، فشق من
الصليبة وتوجه الى بيت أمير كبير فقام اليه ولاقاه
من الحوش ، ثم ألبسه كاملية مخمل أحمر بسمور
وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض وأركبه
فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ثم شق من الصليبة
ثانيا فى موكب حافل فطلع وهو لابس الفوقافى
الكاملية ، فباس الأرض للسلطان ثم رجع الى باب
السلسلة .

وفى يوم السبت ثامن عشره فيه توفى الأمير نانق
الغورى الخازن أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان
عند السلطان من المقربين ، فكان موته فجأة على
حين غفلة ، وكان متهورا بالشح الزائد والبخل
وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السلطان
على شخص من الأمراء العشراوات يقال له بىردى
ابن كسباى وقرره باش المجاورين بمكة عوضا
عن جاني بيك قرا الذى كان بها فى السنة الخالية ،
وخلع على شخص من الأمراء العشراوات الرءوس
النواب يقال له قرا كز الجكمى وقرره فى نظر
الحسبة الشريفة بمكة ، وكانت الحسبة مضافة
لباشية مكة ففصلها السلطان منها وقرر بها قرا كز
هذا .

وفى يوم السبت خامس عشرينه كان ختام
ضرب الكرة ، فلعب السلطان الكرة فى الميدان ،

ثم طلع الى القلعة وعزم على الأمراء وجلس فى
المقعد الذى أنشأه بالحوش ومد لهم هنالك
أسمطة حافلة وطوارى فاخرة ، فأقام الأمراء عنده
الى بعد العصر ، وكان السيد الشريف بركات أمير
مكة حاضرا ذلك المجلس فبالغ السلطان فى اكرامه
وتعظيمه الى الناية وأجلسه فوق أمير كبير ، ثم
أحضر السلطان ثيرانا وكباشا تتناطح قدامه فى
الحوش ، فلما دخل وقت الظهر أحضر جماعة
من المماليك لعبوا خصمانية فى الرمح واستمروا
على ذلك الى بعد العصر ، ثم انقض ذلك الجمع
ونزل الأمراء الى بيوتهم .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه حضر الى الأبواب
الشريفة الأمير أقبای الذى كان كاشف الشرقية
وكان قد توجه الى نحو طرابلس فى أشغال
السلطان ، فلما طلع الى القلعة كان عليه كاملية
بسمور من عند نائب طرابلس انعاما .

وفى جمادى الأولى كان مستهل الشهر يوم
الحميس فطلع الخليفة والقضاة الأربعة والسيد
الشريف بركات أمير مكة فهنوا السلطان بالشهر ،
ثم ان السلطان خلع فى ذلك اليوم على السيد
الشريف بركات خلعة السفر وأذن له بالعود الى
مكة ، فخلع عليه أطلسين وفوقانى حرير أخضر
بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكة ، وخلع
على ولد الشريف كاملية مخمل أحمر بسمور ،
وخلع على عرعر صهر الشريف بركات كاملية صوف
بسمور ، وخلع على شخص من أولاد دراج أمير
الينبع وقرره فى امرة الينبع ، وجعل للشريف بركات
التحدث على بندر الينبع يولى به من يشاء من
تحت يده ويعزل من يشاء .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على ولده المقر
الناصرى محمد أمير آخور كبير خلعة الانظار ،

فألْبسه أطلسين وفوقاني حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكية ، فخرج من الميدان وقدامه السيد الشريف بركات أمير مكة والأتابكى سودون العجمى وجماعة من الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، فشقوا من القاهرة فى موكب حافل وكان لهم يوم من الأيام المشهودة ، فتوجه ابن السلطان الى المدرسة البرقوقية على جارى العادة ، وتوجه السيد الشريف بركات الى تربة الملك الظاهر برقوق فأقام بها الى حين يرحل .

وفى يوم الجمعة ثابى هذا الشهر أرسل السلطان الى السيد الشريف بركات مقدمة حافلة وهو فى تربة الظاهر برقوق ، فكان من جملة ما ذهب عين أربعة آلاف دينار ، وأربعة ممالك فرسان وهم باللبس الكامل ، وكان الشريف بركات اشترى من مصر ممالك ، وأهدى اليه الأمراء عدة ممالك ، فكان معه نحو خمسين مملوكا مكمل بالسلح ، وأرسل اليه السلطان ست بقيق ضمنها صوف وسمور ووشق وسنجا وبعلبكى وتفاصيل حرير سكندرى وأبراد منزلاوى وشقق برق بجر ذهب وأثواب مخمل ملون وأثواب برصاوى مزهر بقبص ، فأرسل اليه من كل صنف من هذه الأصناف عشر قطع ، وأرسل اليه نمچاه زعموا أنها نمچاه بعض الصحابة ، فكتب السلطان اسم الشريف بركات عليها وسقطها بالذهب ، وأرسل اليه أربعة أسياف خاص وهى مسقطة بالذهب ، وأرسل اليه أربع زرديات وهى مسقطة بالذهب ، وأرسل اليه صنجقین سلطانی بطلعتین فولاذ ، أحدهما حرير أصفر مرقوم بالذهب وآخر حرير أصفر برسم الأسفار ، وأرسل اليه محفة بغشى جوخ أصفر ، وكان قبل ذلك أرسل اليه عدة خيول وهجن وجمال بخاتى وبغال وسلح برسم

الممالك الذين معه ، وقد أعادق عليه بكثرة الانعام له حتى أدهنسه بالحلایا فوق ما أهدى اليه السيد الشريف بركات بأضعاف ، فلما وصلت هذه التقدمة الى الشريف بركات خلع على غلمان السلطان والمهتار محمد مهتار الطشتخاناه الخلع السنينة وفرق عليهم الدنانير والدراهم ، ولم يقع لأحد من أجداده ولا أقاربه ما وقع له مع الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وفد بالغ فى اكرامه وتعظيمه جدا .

وفى يوم الأربعاء سابع هذا الشهر طلع ابن أبى الرداد بشارة النيل المبارك ، وأخذ قاع النيل فجاءت القاعدة سبع أذرع وأربع أصابع ، أرجح من نيل السنة الخالية بعشرين أصبعا كما قيل .

وفى يوم الأربعاء المذكور توجه القاضى كاتب السر محمود بن أجا ونائبه الشهابى أحمد بن الجيعان ، فتوجها الى السيد الشريف بركات أمير مكة وعلى أيديهما تقييد بولاية امرة مكة ، وقد بالغوا فى نعته وترجمته الى الناية ، ثم أحضروا له مصحفا شريفا وسيفا وحلقة عليهما أنه لا بخون السلطان ولا يعطى عليه ولا يخرج عن طاعته على ممر الليالى والأيام ولا ولا ... فلما حلف كتبوا صورة هذا الحلف فى ورقة وأشهدوا عليه وكتب خط يده على تلك الورقة ، ثم عادوا الى القلعة وعرضوا ذلك الحلف على السلطان ، وكل ذلك وقع والشريف بركات فى تربة الظاهر برقوق ، فألبس الشريف بركات القاضى كاتب السر كاملية مخمل بسمور وكذلك الشهابى أحمد بن الجيعان .

وفى يوم الجمعة تاسعه نزل الأمير طومان باى الدوادار من عند السلطان الى المقر الناصرى محمد ابن السلطان وعلى يده منشور باقطاع

الامرية بالتقدمة ، فلما نزل الأمير طومان باى الى عند ابن السلطان بالمنشور ألبسه أطلسين وفوقاني حرير أخضر بطررز يلبغاوى عريض واركبوه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فلما وصل الأمير الدوادار الى بيته أرسل اليه ابن السلطان على يد لالاته سنبل الطواشى خمسمائة دينار وقيل ألف دينار ، فألبسه الأمير الدوادار كاملية مخمل أحمر بسمور ودفع اليه خمسين دينارا ، وقد تعاطف أمر ابن السلطان في امرية آخورية الكبرى وصار في كل ليلة يوقد على باب السلسلة فانوسين آكرة وكذلك على باب الميدان وقد عظم أمره جدا ، ورسم السلطان أن أحدا لا يقول له سيدى بل يقولون له أمير آخور كبير .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره جلس السلطان في الميدان وعرض العسكر أصحاب الطبقة الخامسة ، فكتب منهم جماعة نحو ستمائة مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ، وعينهم الى جهة الهند ، وكان فيهم جماعة من ممالك السلطان الجلبان وجماعة من الممالك القرانصة وأولاد الناس وغير ذلك ، وكان السلطان من حين بلغه أن الفرنج تزايد عبثهم في البحر الملح وطفشت به مراكب الفرنج ، فاهتم بعمارة مراكب في السويس نحو عشرين مركبا وأوسقهم بالسلاح والمكاحل والمدافع وغير ذلك من آلة الحرب ، وجعل سلمان العثماني رئيسا لتلك المراكب ، وتحت يده جماعة كثيرة من العثمانية والمغاربة البحارة نحو ألفى انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، فلما عين السلطان العسكر في ذلك اليوم استحثهم على الخروج بسرعة ، ورسم أن النفقة تكون يوم الثلاثاء بعد النصف ، فانفصل المجلس على ذلك . وفي يوم الأربعاء رابع عشره أشيع بين الناس

أنه في ذلك اليوم حضر هجان من البلاد الحلبية وأخبر أن سليم شاه بن عثمان ملك الروم مشى على شاه اسمعيل الصفوى ملك العراقين ، فلما بلغ على دولات أن طائفة من عسكر ابن عثمان قد قريت من بلاده خرج اليها وتحارب معها فانكسرت تلك الطائفة اليسيرة التي من عسكر ابن عثمان وقتل منها جماعة ونهب على دولات ما معهم ، فعند ذلك طمع على دولات في عسكر ابن عثمان ، فلما بلغ سليم شاه بن عثمان ذلك أرسل الى على دولات عسكرا ثقيلا نحو ثلاثين ألف مقاتل على ما قيل ، ومعهم من الأمراء نحو سبعة أمراء من أمرائه ، ومعهم سبعة صناجق فتحاربوا مع على دولات وكسروه ونهبوا عسكره ، وقتل على دولات في المعركة هو وولده ، وحزوا رءوسهما على ما قيل وأشيع ، ووقعت الكسرة على على دولات وقد قويت الاشاعات بقتله والعلم عند الله تعالى .

فلما سمع السلطان هذا الخبر تنكد له الى الغاية ، ثم أرسل خلف الأمراء في ذلك اليوم وأطلعهم على ما بلغه من هذه الأخبار وضربوا مشورة فيما يكون من أمر هذه الواقعة ، والأمر لله في ذلك ، فكان حال على دولات مع ابن عثمان كما يقال في المعنى :

لا تأمنن عدوا وان دنا للمنيه
فحبة السم تدعى بعد المنية حيه

وقد تقدم القول على أن ابن عثمان كان متعصبا لابن شاه سوار بأن يرد اليه بلاد أبيه سوار من يد عمه على دولات ويولييه مكان أبيه ، فكان يخشى من السلطان . وقد تقدم القول على أنه كان أرسل يسأل فصل السلطان في ذلك ، وكان الأمر مبنيا على السكون فما يعلم الآن ما يصير من بعد ذلك .

بعضهم بعضا ، فحصل له توعك في جسده واستمر
عليلا الى أن مات .

وفي جمادى الآخرة كان مستهل الشهر بوم
الجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا
السلطان بالشهر .

وفي يوم الثلاثاء خامسه أنفق السلطان على
العسكر المعين للهند جامكية أربعة أشهر معجلا ،
ومنهم من تشكى بأن به الحجة الافرنجى وما يقدر
يسافر فأعفاه السلطان من السفر وقال له : « أعد
النفقة التى أخذتها ولا تسافر » . وربما رسم على
بعض أولاد الناس حتى يعيد الخمسين أشرفيا التى
أخذها نفقة وقال لهم : الذى ما يقدر على السفر
وهو ضعيف يعيد النفقة ولا يسافر ، وكان مجموع
هذا العسكر الذى كتب للهند نحو خمسمائة
انسان ، غير التراكمة البحارة من جماعة الرئيس
سلمان .

وفي يوم الأربعاء سادسه عزل السلطان قاضى
القضاة الشافعى علاء الدين الاخيمى ، فكانت
مدته فى هذه الولاية سنة وسبعة أشهر الا يومين ،
وكان ماشيا فى منصب القضاة على الأوضاع كما
ينبغى ، ومباشرا هذه الوظيفة بعفة زائدة وحسن
تصرف ، وجاء فى منصب القضاة كفؤا لذلك ،
وعزل من هذه الوظيفة والناس عنه راضية وحاز
الثناء الجميل من الدين والخير ومنع الرشوة ،
وكان فى مدة ولايته لا يتعاطى شيئا من معلوم
الأنظار بل كان ينعم بذلك على طلبة العلم والفقهاء
وغير ذلك .

فلما عزل خلع السلطان فى يوم الأربعاء المذكور
على قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن
النقيب وولاه القضاء ، وهذه سادس ولاية وقعت

وفى يوم الخميس خامس عشره حضر الى
الأبواب الشريفة السيفى جانم الخاصكى الذى
كان توجه الى ابن عثمان ، فلما حضر أخبر أن ابن
عثمان أكرمه غاية الاكرام وخلع عليه عند عوده
الى مصر خلعة تماسيح بسمور ، ولكن هذا الأمر
حدث من بعد مجيء جانم من عند ابن عثمان ،
والحركات والسكون بيد الله تعالى .

وفى ذلك اليوم خرج نائب بهنسا الذى قرره
السلطان بها وهو شخص من الخاصكة خادم
السجادة يقال له قانصوه العجمى ، وأصله من
ممالك السلطان الغورى ، وقد سعى فى هذه
النيابة بمال له صورة حتى وليها .

وفى يوم الخميس المذكور رحل السيد الشريف
بركات من تربة الظاهر برقوق وتوجه الى بركة
الحاج وعزم على السفر الى مكة ، فخرج معه
جماعة كثيرة من الناس يرومون الحج ، فخرجوا
صحبه الى مكة .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه أنفق السلطان على
العسكر المعين للهند نفقة السفر ، فأعطى لكل
مملوك خمسين دينارا ، ووعدهم أن بنفق عليهم
جامكية ستة أشهر معجلا قبل أن يسافروا ، وقيل
أعفى منهم جماعة من أولاد الناس ممن شكوا
ضعفا فى جسده أو من به حب أفرنجى^١ ، وصار
يصرح لهم جهارا ويقول : « الذى ما يطيق سفر
البحر الملح يعلمنى بذلك فأعفيه من السفر » ... فعد
ذلك له من محاسنه .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من بلاد
الغرب بأن الشيخ يحيى صاحب جربة قد توفى الى
رحمة الله تعالى ، وكان لا بأس به ، وقيل انه مات
قهرًا من أولاده وقد افتتنوا فى بعضهم وقتل

(١) هو مرض الزهري .

له بالديار المصرية ، منها خمس ولايات في دولة الأشرف الغورى والولاية الأولى في دولة الأشرف جان بلاط ، فلما لبس التشريف بالمتعهد الذى بالحوش نزل من القلعة في موكب حافل وقدامه القضاة الثلاثة وسائر نواب الشافعية وناظر الجيش وناظر الخاص وغير ذلك من الأعيان ، فتوجه الى المدرسة الصالحية على جارى العادة ، ولكن سعى في هذه الولاية بثلاثة آلاف دينار غير خدمة للأمير الدواidar الكبير والدواidar الثانى والقاضى كاتب السر . فقبل نفذ منه في هذه الست ولايات فوق الثلاثين ألف دينار ، وولى هذه الولاية في يوم الأربعاء وهو يوم نحس مستمر ، فتفائل له الناس بعدم اقامته في هذه الولاية لكونه ولى في يوم الأربعاء ، فذهب منه هذا المال العظيم ، وباليته لو شبع من ماله بنصف رطل سكر أو طير دجاج بر به نفسه ، وأخباره في الشح والبخل الزائد مشهورة بين الناس فما يحتاج لشرح ذلك ، فكان كما يقال في المعنى :

ويحبس روثه في البطن شهرا

مخافة أن يجوع اذا خربه

ويكى بالدموع لهضم أكل

كما يكى اليتيم على أبيه

وفي يوم السبت تاسعه رسم السلطان بشنق أربعة أنفار منهم جارية بيضاء رومية وجارية حبشية وصبى ابن ناس لفاف وشخص قواس . وسبب ذلك أن ابن الناس هذا والقواس أفسدا هاتين الجاريتين وحسنا لهما بأن تقتلا أستاذهما ، وكان أستاذهما شخصا من أولاد الناس مقطوع ، فقتلوه ثم ألقوه في المستراح وأخذوا كل ما في بيته وسافروا الى نحو اطفيج ، ومضى على هذا الأمر نحو خمسة أشهر ثم فشا من بعد ذلك أمرهم ونمت عليهم جارية صغيرة ، فقبض عليهم بعض مشايخ

اطفيج وأرسلهم الى السلطان ، فقرره فاعترفوا بقتله وأنهم ألقوه في المستراح ، رسم السلطان للوالى بأن يفحص عن أمره ، فتوجه وكشف المستراح فوجده فيه وفد تقدد جلده فأخرجه من المستراح ، فلما عرضه على السلطان رسم بدفنه وأخرج اقطاعه لبعض المماليك ، ثم رسم بشنق هؤلاء الذين فعلوا ذلك ، فلما توجهوا بهم الى الشنق ارتجت لهم القاهرة في ذلك اليوم ، ثم توجهوا بهم الى المكان الذى قتلوا فيه أستاذهم ، وهو مكان بالقرب من باب سعادة ، فشنقوا هناك الأربع أنفس ومضى أمرهم .

وفي يوم الخميس رابع عشره خلع السلطان على الأمير يوسف الذى كان نائب القدس وقرره في نيابة صفد عوضا عن طراباى الذى كان بها ، وكان عادة نيابة صفد ما يليها الا مقدم ألف ، وآخر من يليها من الأمراء المقدمين الأمير أزدمر المسرطن وأقام بها الى أن مات . فلما وليها الأمير يوسف عز ذلك على الأمراء كونه سيفيا ، وكان يعرف يوسف بن سيباي ، ولكن سعى في نيابة صفد بمال له صورة حتى وليها ، وما زال الدهر كثير الغلطات .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من مماليكه يقال له قانصوه الساقى ، وقرره في وظيفة الأمير نائق الخازن على الحواصل السلطانية .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير قانصوه حباية ، ورسم له بأن يتوجه الى طرابلس في بعض المهمات الشريفة .

وفي يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى يوم الأحد خامس مسرى ، وفتح السد في يوم الاثنين سادس مسرى ، وكان نيلا مباركا قوى العزم ، فلما أوفى رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه

ويفتح السد ، فتوجه الى المقياس وخلق العمود ونزل في الحرافقة وفتح السد على العادة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، ووقع فيه محاسن كثيرة على العادة ، فلما فتح السد ومضى طلع الى القلعة فخلع عليه السلطان خلعة سنينة ونزل الى داره ، وللناس مدة طويلة لم يروا النيل أوفى في خامس مسرى ، وقد قيل في المعنى :

رعى الله مصر كم بها من مسرة
ومنز أنس لاح بالطالع السعد

رويت الوفا عن سدها يوم كسره
فها أنا مهما عشت أروى عن السد

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه حضر قاصد ملك الروم سليم شاه ، فلما حضر طلع الى القلعة ، فجلس السلطان في الحوش على المصطبة ، فلما مثل بين يديه أحضر صحبته رأس على دولات وراس ولده وراس وزيره وهى فى علبه ، فلما أحصروا تلك الرؤوس بين يدى السلطان شق عليه ذلك وقال : ايش أرسللى هذه الرؤوس ؟ هى رؤوس ملوك الفرنج انتصر عليهم حتى أرسلهم لى ؟ هم رسم للوالى بأن يأخذ تلك الرؤوس ويدفنها على شاه سوار عند الكوم الذى بالقرب من زاوية الشيخ كهنبوش ، فانفض الموكب في ذلك اليوم والسلطان والأمراء فى غاية الاضطراب ، وكثر القال والقال فى ذلك أن قلعة زمنطو وبلاد على دولات جميعها ملكها ابن عثمان واستتاب فيها ابن سوار ، وقد خرجت بلاد على دولات من يدى السلطان ولم تنتطح فى ذاك شاتان ، وابن عثمان يقصد فى الباطن اثارة فتنة كبيرة بينه وبين السلطان وأظهر التحرش بالسلطان وفتح باب الشر ، فتنكد السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرينه لم يخرج

السلطان من الدهيشة ولم ينزل الى الميدان ، وأشيع أنه قد شرب دواء وأنه متوعك فى جسده ، وكان حصل له فى يوم الاثنين انزعاج لما حضر قاصد ابن عثمان برأس على دولات ، وحصل فى ذلك اليوم بين السلطان والأمراء كلام يابس وخاشنوه فى الكلام وقالوا له : يامولانا السلطان غالب البلاد الحلبية خرجت من أيدينا وصارت بيد ابن عثمان وخطب له فيها باسمه وضربت له السكة باسمه وشرع فى بناء برج عند عقبة بغراض وآخر على باب الملك والسلطان يده فى الماء البارد وفسدت أحوال المملكة وغالب الرعية بحلب وغيرها من ظلم النواب وجورهم يميلوا الى ابن عثمان لأجل عدله فى الرعية ، وهذه الأحوال غير صالحة ... فشق عليه كلام الأمراء وكظم لذلك ولم ينزل الميدان فى ذلك اليوم ولا حكم بين الناس .

ومن الحوادث قد أشيع بين الناس أن سنبل الطواشى لالا سيدى ابن السلطان وقع بينه وبين جماعة من المماليك الجلبان بسبب مملوك كان ساقيا عند ابن السلطان ، فضربه سنبل ضربا مبرحا بسبب فشروى فأقام أياما ومات ، فتعصب له جماعة من المماليك الجلبان وأعدوا سنبل بالقتل فى ذلك اليوم ، وكثر القيل والقال فى ذلك وأشيع اقامة فتنة كبيرة بين المماليك والسلطان لأجل سنبل بسبب ذلك .

وفي يوم الخميس ثامن عشرين هذا الشهر خلع السلطان على الأمير طراباى بن يشبك الذى كان نائب صفد وعزل عنها فاستقر به حاجب الحجاب بدمشق ، وهذه درجة من حيدر لأسفل ، وقيل انه سعى فى ذلك بمبلغ له صورة .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرينه قويت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة من المماليك الجلبان بسبب

سنبل الطواشي لالا سيدي ابن السلطان ، وقد تدمم سبب ذلك من أجل المملوك الذي قتله ، فلم يطلع من الأمراء في ذلك اليوم الا القليل ، وقبل ان السلطان لم يخرج ولم يصل الجمعة وكان في غاية النكد ، وأرسل قبض على سنبل الطواشي وأودعه في الترسيم واحتاط على موجوده ورسم عليه بالدهيشة أربعة من الخاصكية ، ومن حين وقعت هذه الحادثة رسم السلطان لولده بأن يقيم فوق القلعة ولا ينزل لباب السلسلة ، خوفاً عليه من المماليك حتى تخمد هذه الفتنة ويكون من أمرها ما يكون .

وفي رجب ، كان مستهل الشهر يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، وكان بالميدان فسلموا عليه ونزلوا الى دورهم .

ومما وقع في ذلك اليوم من الحوادث المهولة أن المماليك الجلبان لما أصبحوا في ذلك اليوم استمروا على إثارة الفتنة المقدم ذكرها ، فلبسوا كباشيات مقلوبة ووقفوا على باب سلم المدرج ومنعوا الناس من الطلوع الى القلعة ، وخاف مقدم المماليك وغيب من باب القلعة ، وقصد المماليك أن يnehوا الدكاكين التي في خرائب التتار ، وقصدوا أن ينزلوا الى المدينة وينهبوا الأسواق ، فمنعهم من ذلك الأمير طقطبای نائب القلعة من النزول الى المدينة ، فلما طلع السلطان من الميدان ودخل الى الدهيشة بلغه أمر هذه الفتنة ، ثم اتسع الكلام بين المماليك وبين السلطان بسبب سنبل الطواشي الذي قتل المملوك ، وقد تقدم القول على ذلك ، فأرسلت المماليك تقول للسلطان : « ان لم تسلمنا سنبل الطواشي أو تنفق علينا لكل مملوك منا مائة

دينار وتقيم حرمتنا فان السوق صارت تمسك لجام المماليك في الأسواق ونهبناهم وما صار لنا حرمة بين الناس على أيامك » . فلما بردت الرسل بين المماليك وبين السلطان بسبب ذلك ، وقد رأى السلطان عين الفساد من المماليك ، رسم للوالى بأن يقبض على سنبل ويخرج به الى المماليك ، وكان سنبل من حين جرى منه ما جرى بسبب المملوك الذي قتله وهو في الترسيم عند السلطان في الدهيشة ، فأخذ الوالى وخرج به وهو ماشى وعلى رأسه زمط وعليه ملوطة بيضاء وهو مفكك الأطواق ، فلما خرج الى باب القلعة أحاط به المماليك وقصدوا أن يقطعوه بالسيوف ، فصار يسأل قرابة المملوك الذي قتل بآلف دينار فأبى من ذلك وقال : ما آخذ الا روحه ، ثم أنزاه من سلم المدرج وأثروا به الى عند الحوض الذي تحت سلم المدرج فوسطوه هنالك ، وأحضروا له تابوتا فحملوه فيه ومضوا به فغسلوه ودفنوه ، ومضى أمره كأنه ما كان .

وكان سنبل هذا من أعيان الخدام حبشى الجنس جميل الصورة يدعى سنبل بن غارى ، وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاثين سنة ، وكان لالا سيدي ابن السلطان وحج معه ورأى من العز والعظمة غاية التعظيم ، وكان خازن دار كيس ، وكان من المقربين عند السلطان وافر الحرمة نافذ الكلمة ، ولا سيما لما ولى ابن السلطان أمير آخور كبير فصار سنبل هو المتصرف في أمور باب السلسلة ويحكم عوضا عن ابن السلطان ، وصار لا يقبل لأحد من الأمراء رسالة ولا شفاعة ، فعادى جميع الأمراء وحملوا منه في الباطن ، فلما جرى له ما جرى لم يرث له أحد من الأمراء ، ولم يفد سنبل مما ناله من ذلك العز والعظمة شيئا ، ومات هذه

الموتة الشنيعة ، ولم يتفق لأحد من الخدام قبله أنه مات موسطاً ، وكان ذلك من الأمور المقدرة . فلما توسط سنبل خمدت تلك الفتنة وطلعت المماليك الى الطبقاق وبطل أمر الفتنة ، تم ان السلطان أشهر المناداة في القاهرة : بأن لا سوقيا ولا تاجرا يبهذل ممالك السلطان ولا يمسك لأحد منهم لجسام فرسه ، ومن فعل ذلك قطعت يده ولا يقل حياه عليهم ، وكانت هذه المناداة من أكبر الفساد في حق الناس ، وصارت المماليك من بعد ذلك يدخلون الى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين ولا يقدر أحد يمنعه من ذلك ، وصار الناس معهم من بعد ذلك في غاية الضنك والقهر ، وقد أرضى المماليك بقتل سنبل وبهذه المناداة عن طلب النفقة .

وفي يوم الاثنين ثالثه وردت على السلطان أخبار ردية بأن سليم شاه بن عثمان تملك غالب بلاد على دولات وشرع في بناء أبراج على عقبة بغراض عند باب الملك ، وأرسل نائب الشام ونائب حلب يعاتبان السلطان في تأخير ارسال التجريدة الى اليوم بسبب حفظ البلاد قبل أن يتمكن منها عسكر ابن عثمان ، فلما وردت هذه الأخبار على السلطان تنكد الى الغاية وطلع الى الدهيشة هو والأمراء وضربوا مشورة في ذلك الأمر .

وفي يوم الأربعاء خامسه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التي بالمطرية فأقام بها الى بعد العصر ، فلما رجع الى القلعة شق من على باب اللوق ، فلما شق من هناك وقف له جماعة هناك من التجار وشكوا له من أذى المماليك في حقهم وخطفهم القماش من على الدكاكين ، فلم يلتفت الى ذلك ، وربما أغلظ التجار على السلطان في القول ، فطلع الى القلعة وهو في غاية السودة من العوام .

وفي يوم الخميس سادسه توفي القاضي أبو الفتح السرم ساحي ، وكان من أعيان الناس ورأس الموقعين العدول ، وكان موته فجأة على حين غفلة . وفي يوم السبت ثامنه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس وبات به ، وأصبح يوم الأحد مقيماً هناك ، ومد له الزيني بركات بن موسى أسمطة حافلة وانشرح هناك ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر من يوم الأحد ، وكان النيل يومئذ في عشرين ذراعاً ، فجلس في القصر الذي أنشأه على بسطة المقياس وكان ذلك اليوم بالسلطاني .

وفي يوم الاثنين عاشره جلس السلطان في الميدان وعرض العسكر المعين الى جهة الهند ، فعرضهم وهم باللبس الكامل واستدعاهم كل واحد باسمه ، فلما فرغ من عرض العسكر خلع على الرئيس سلمان العثماني كاملية مخمل أحمر بسمور وقرره باش المراكب المجهزة للهند ، وقرر الباش الثاني شخصاً يسمى يشبك وهو أمير عشرة ، وقرر الباش الثالث شخصاً يقال له دمر داش الاقريطشى ، وكان أصله افرنجي يبيع النيذ الاقريطشى فاشتهر بذلك ، فأنعم عليه السلطان بامرة عشرة وجعله باش العسكر — وكان ذلك من غلطات الزمان ! — فلما انتهى أمر العرض بسط السلطان يده وقرأ سورة الفاتحة ودعا بالنصر للعسكر . ثم ان العسكر خرج من الميدان ونزل وشق من القاهرة وقدامهم الطبول والزمر ومكاحل النفط والبندقيات وعلى رؤوسهم الصنجق السلطاني ، وكان لهم يوم مشهود . وكان مجموع هذا العسكر المتوجه الى الهند على تحرر أمره نحو ستة آلاف انسان ، تفصيله : خاصكية خمسون ، جمدارية مائة وخمسون ، ومن الطبقة الخامسة المتجددة ما بين أولاد ناس ومماليك وغير ذلك أربعمائة وخمسون ،

وبعارة ومقاتلين وتراكمة ومغاربة وغير ذلك خمسة آلاف وثلاثمائة أربعة وأربعين على ما قيل ، فلما خرجوا من القاهرة توجهوا الى الريدانية الى أن يرحلوا من هناك الى السويس ، فكان السلطان في مدة إقامتهم في الريدانية يسد لهم أسسطة حافلة من ماله بكرة وعنسيا الى أن رحلوا من هناك وتوجهوا الى سحر السويس ، وكان عدة المراكب التي أنشأها السلطان بالسويس عشرين مركبا ، وقد شجنوا بالمكاحل والمدافع والبارود وغير ذلك من الزايت بسبب العسكر ، وقد تقدم القول على أن السلطان أنفق على هؤلاء العسكر قبل ذلك وأعطى لكل مملوك منهم خمسين دينارا ، ووعدهم بأن ينفق عليهم قبل أن يسافروا جامكية ستة أشهر مسحلا عند خروجهم الى السفر .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على قاصد ابن عثمان وأذن له بالعود الى بلاده وكتب له الجواب عن مطالعته التي حضرت على يده ، ثم ان السلطان قصد أن يعين له قاصدا من عنده فلم يطاوعه أحد من الأمراء ولا من الخاصكية بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ، وقالوا للسلطان . هذا رجل جاهل سفاك للدماء وكل من توجه اليه بهذا الجواب قتله ، فلم يوافق الى التوجه اليه أحد من العسكر

وفي يوم الخميس ثالث عشره خلع السلطان على الوزير يوسف البدرى بأن يسمنر في الوزارة على عادته ، وكان له مدة وهو في الترسيم بسبب عمل الحساب . وآخر الأمر كتب عليه السلطان مسطورا بخمسة وستين ألف دينار والتزم بأمر السداد هو والقاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، فخلع السلطان عليهما ونزلا في موكب حافل .

وفي يوم السبت خامس عشره نزل السلطان

من القلعة وعدي الى الروضة ونصب له خيمة عند خرطوم الروضة وصواوين ، وأقام هناك يومين ليلة ، وأحضر عنده مغاني وأرباب الآلات ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب أسسطة حافلة وطواري فاخرة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما يهدى للملوك ، فأنشراح السلطان هناك الى الغاية وصنع دكة خشب في وسط الماء وكان النيل في قوة الزيادة ، وجلس عليها وحوله الخاصكية وهم خائفون في الماء حتى ابتلت ملايلتهم بالماء والطين ، وقد فتك في القصف والفرجة حتى خرج في ذلك عن الحد ، وكان السلطان حصل له قبل ذلك غاية النكد بسبب توسيط الطواشي سنبل وفتنة الممالك في طلب النفقة ، فما صدق باخماد تلك الفتنة عنه فنزل هناك وأنشراح في ذلك اليوم ، واستمر مقيما هناك الى يوم الأحد آخر النهار ، وكانت ليلة تفرقة الجامكية ، فطلع من هناك الى القلعة وشق من الصليبة ولم يكن قدماه أحد من الأمراء سوى جماعة من خاصكيته فقط .

وفي يوم الخميس عشرينه خرج الأمير طومان باي الدوادار الكبير وصحبته الأمير خاير بيك أحد المقدمين الذي كان كاشف الغربية وبعض أمراء عشراوات وخاصكية ، فخرج في ذلك اليوم وتوجه الى جبل نابلس بسبب فساد العربان الذين هناك ، فانه حصل بينهم وبين نائب غزة فتنة كبيرة وقتل فيها جماعة ، واضطربت أحوال الدرب السلطاني من غزة الى مصر ، وخرج الأمير الدوادار بغير طلب ، وكان ذلك اليوم يوم نوروز وأول السنة القبطية فلم تتفاهل الناس بخروج الدوادار في ذلك اليوم وقالوا : يستمر سنته كلها في هجاج وسفر .

وفي يوم السبت ثاني عشرينه توفي شخص من الأمراء الطلحانات يقال له جاني بيك قرا بن حيدر وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي وكان لا بأس به .

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه رحل الأمير الدوادار من الريدانية وتوجه الى الخانكة ، ومما عد من محاسن الأمير طومان باي الدوادار أن شخصا من الفقراء كان على باب جامع شيخو يتمنى مائة دينار ذهبا وجملا وعبدا حتى يتوجه الى الحجاز ، فأقام على ذلك مدة طويلة ، وكان يبتلش بالأمراء كلما طلوعوا الى القلعة ونزلوا فأصورهم وأبادهم شرا وحرهم أن يشقوا من الصليبية . ففى بعض الأيام أرسل اليه الأمير طومان باي الدوادار خمسين دينارا ذهبا وجملا وعبدا وقال له : امض الى الحجاز ، فقال له ذلك الفقير : احملنى معك الى القدس فأزوره قبل أن أحج ، فحملة معه لما سافر الى نابلس ، فعاد ذلك من النوادر اللطيفة من الأمير الدوادار . وكان فيه الخير ، وكان قليل الأذى بحلاف من تقدمه من الدوادارية .

وفي يوم الخميس سابع عشرينه عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى محيى الدين بن النقيب فكانت مدته فى هذه الولاية خمسين يوما لا غير ، ونقد منه فى هذه الولاية ثلاثة آلاف دينار غير الكلف ولم يقيم فيها سوى هذه المدة اليسيرة وعزل فلما عزل لم يرث له أحد من الناس فى سعيه فى هذه الوظيفة ، وقد نقد منه على وظيفة القضاء فوق الثلاثين ألف دينار ، وهو ممقوت عند الناس ولم يمكث فى هذه الست ولايات الا مدة يسيرة نحو السنتين ، وكان أرشل قليل الحظ . فلما عزل ابن النقيب فى ذلك اليوم خلع السلطان على قاضى القضاة كمال الدين الطويل وأعاده الى

القضاء ، وهذه رابع ولاية وقعت لقاضى القضاة كمال الدين ، وقد سعى فى هذه الولاية بثلاثة آلاف دينار ، وكان الساعى له القاضى علاء الدين ناظر الخاص والشرفى يحيى الشطرنجى نديم السلطان ، فلما لبس التشريف وشق من القاهرة أوقدوا له الشموع على الدكاكين وزينوا له بعض دكاكين فى حارته عند الخانقاه البيرسية . وكان قاضى القضاء كمال الدين محببا للناس قاطبة ، ولما عاد قاضى القضاة كمال الدين الى منصب القضاء هنبته بهذين البيتين وهما :

الى قاضى القضاة تقول مصر
لقد جاد الزمان بمشئى حالى
ولما عاد منصبه أناها
سرور بالتسام وبالكمال

فلما أحضروا له التشريف وقف السلطان عن لبسه فى ذلك اليوم وصار بعثه بكلمات مما تقدم منه ، وقال له : « لا تبقى تحكم وترجع عن أحكامك » .

وفي يوم الجمعة ليلة السبت ثامن عشرين رجب كانت وفاة قاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد البر بن قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وقد تقدم ترجمة نسبه فى الجزء الثامن من التاريخ ، وكان قاضى القضاة عبد البر اماما فاضلا عالما علامة فى هبة ، وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت من أعيان علماء الحنفية ، توفي وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة أو دون ذلك ، ومات وهو منفصل عن القضاء ، وقد أقام فى منصب القضاء نحو ثلاث عشرة سنة وأشهر . ورأى فى دولة الأشرف قانصوه الغورى ما لا رآه غيره من القضاة ، وكان من أخصاء السلطان بحيث انه كان يبات عند السلطان بالقلعة ثلاث ليال

فى الحصنة ، وصار هو المتصرف فى أمور المملكة
بمحاصرة السلطان ، واستمر على ذلك حتى تغير خاطر
السلطان عنه سبب ما تقدم ذكره من عزل القضاة
الأربعة فى يوم واحد ، فعزل معهم ، واستمر على
عزله والسلطان متغيظ عليه ولا يسمع بذكره قط
حتى مات من شدة قهره ، ثم مات رحمة الله عليه ،
وقد فلت فى هذه الواقعة :

طلعت لعبسء البر أعظم ذبلة
من قهر أحكام القضا لما عزل
مد نال دل الطرد من سلطانه
وأنى إليه كل عكس متصل

وفى شعبان كان مستهل الشهر يوم الأحد ،
فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع القضاة
الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان الخليفة متوعكا فى
جسده فلم يطلع للتهنئة بالشهر

وفى يوم الثلاثاء ثالثه نزل السلطان وتوجه الى
قبة الأمير بشبك النى بالمطرية ، فبات بها وتفرج
على الملقه وكانت فى قوة ملوها ، فأقام هناك الى
يوم الأربعاء آخر النهار ثم عاد الى القلعة ، ونزل
أيضا عقب ذلك الى القبة وبات بها .

وفى يوم الاثنين سادس عشره حضر الى
الأبواب الشريفة جانم الخاصكى الذى كان أرسله
السلطان الى ملك التتار بسبب أقارب السلطان
الدين أسرهم ملك التتار عنده ، فلما مر من على
بلاد ابن عثمان أرسل قبض عليه وأخذ ما كان معه
من الهدية التى كان أرسلها السلطان الى ملك
التتار ، وحصل لجانم من ابن عثمان غاة البهدة ،
وهم يشتقه غير ما مرة حتى شفع فيه بعض وزراء
ابن عثمان ، فلما رجع جانم أخبر عن ابن عثمان
أمورا شتى قالها فى حق السلطان وعسكر مصر ،
وأنة جهز عدة مراكب كثيرة نحو أربعمئة مركب فى

البحر تجىء ثغر الاسكندرية ودمياط ، وفرقا من
عسكره تجىء من على البلاد الحلبية ، فلما تحقق
السلطان ذلك أرسل خلف أمير كبير سودون
العجمى وبقية الأمراء ، فجلسوا فى الدهيئة
وضربوا مشورة بسبب ابن عثمان ، وقيل انه حلف
الأمراء فى ذلك اليوم بأن يكونوا كلمة واحدة ولا
يخرجوا عن طاعته ظاهرا وباطنا ، وحلف هو أيضا
لهم بمعنى ذلك ، وانفض المجلس بعد الحلف .

ويقال كان سبب اثاره هذه الفتنة الحادثة بين
السلطان وبين ابن عثمان أن حشقدم مملوك
السلطان الذى كان مشد الشون . وقد تقدم القول
على أنه كان قد حصل له من السلطان حنق بسبب
زوجته بنت جاني بيك دوادار الأمير طراباى وقد
تقدم ذكر ذلك ، فلما رأى حشقدم أن السلطان
محط عليه بسبب جاني بيك فر على حين غفلة
ونزل فى مركب وتوجه الى عند سليم بن عثمان
وكان له أخ عند ابن عثمان ، فلما توجه حشقدم
الى ابن عثمان أكرمه وأنعم عليه بأمرية فى بلاده .

فلما استقر حشقدم عند ابن عثمان شرع يحط
على السلطان عند ابن عثمان ويحبره بأمر من
أفعال السلطان من أبواب المظالم ، وأخبره بما
أحدثه على السوق من أمر المشاهدة والمجامعة على
أرباب البضائع من المال المقرر عليهم فى كل شهر ،
وأخبره بأمر العش الذى فى المعاملة فى الذهب
والفضة ، وأخبره بأشياء كثيرة من هذا النمط من
أحوال مصر ، حتى أحبره بجملة عساكر مصر وما
يشتملون عليه ، وأخبره عن أمر قضاة مصر قاطبة
وأنهم يأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ،
وحسن له أن يمشى على بلاد السلطان وسهل عليه
ذلك الأمر ، فعرفه كيف يرسل مراكب على
الاسكندرية ودمياط .

العسكر الذى كان فيها جماعة ، فلم تتفائل الناس بذلك .

وفى يوم الخميس تاسع عشره خلع السلطان على الأمير اينال باى دوا دار سكين وعييه بأن يسافر الى البلاد الشاميه بسبب أمور تتعاني بأشغال السلطنة ، فتوجه اليها .

وفى يوم الجمعة عشرينه فتح سد بحر أبى المنجا ، وكان النيل يومئذ فى ست عشرة أصبعا ، من احدى وعشرين ذراعا ، وكان فتحه فى أول يوم من بابه من الشهور القبطية ، وقد تأخر فتحه عن الماده الى ذلك اليوم ، وكان النيل فى قوة عزمه من الزيادة ، فلما فتح سد أبى المنجا نقص النيل فى ذلك اليوم ولم يزد من بعد ذلك شيئا ، وقد ثبت على ست عشرة أصبعا من احدى وعشرين ذراعا ، وحصل به غاية النفع وروى سائر البلاد التى قط ما رويت ، واستمر ثابتا الى أوائل هاتور فعد ذلك من النوادر .

ومن العجائب أن مع وجود علو النيل وثباته لم يسكن فى الجزيرة الوسطى ولا بيت واحد ولم يفتح فيها دكان ولم يعمل بها مقصف للمتفرجين ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، ولكن أشاعوا أنه سكن بالجزيرة عدة مناجات جمال لابن السلطان والأمراء ، فخشى الناس أن يسكنوا الجزيرة من النفر الذين هناك ، فهذا كان السبب فى منع الناس من سكنى الجزيرة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه نادى السلطان فى الحوش للعسكر بأن يعملوا يرقهم وأن يكونوا على يقظة فان السلطان ينفق ويخرج فى جمعته ، وصار فى كل جامكية ينادى للعسكر بذلك فى الحوش ، وأشيع أن السلطان هو الذى يسافر بنفسه بسبب

فعند ذلك طمعت آمال ابن عثمان بأن سلك مصر والله تعالى غالب على أمره . فمن حين توجه ختقدم الى ابن عثمان وهو يظهر المشى على بلاد السلطان ، ولا سيما قتل على دولات ومملك بلاده وولى فيها ابن سوار وجعله نائبه وصار يكاتب السلطان فى مطالعته بالفاظ يابسة ، وكل ذلك مما أوحاه اليه ختقدم عن أحوال الديار المصرية .

فلما حضر جانبهم الخاصكى وأخبر السلطان بما قاله ابن عثمان فى حقه من هذه الأخبار المقدم ذكرها ، اضطربت أحوال السلطان وتكد لذلك ، واستمرت الوحشة بينه وبين ابن عثمان عمالة .

وهذه الواقعة تقرب مما وقع للملك الناصر محمد بن قلاوون مع قبجق نائب الشام ، فانه أظهر العصيان على السلطان فأرسل بالقبض عليه ، فلما تحقق ذلك فر من الشام وتوجه الى غازان ملك التتار وقوى عزمه وحسن اليه بأن يمشى على بلاد السلطان فملكها من غير ماع ، وكذا جرى فمشى غازان على بلاد السلطان ومملك حلب والشام ، فخرج اليه الملك الناصر محمد بن قلاوون وتحارب مع غازان فكسر غازان الملك الناصر كسرة مهولة ، فرجع الملك الناصر الى مصر وهو مهزوم ، ثم تحايا عسكر مصر ورجع الملك الناصر وتحارب مع غازان ثانيا فكسره كسرة مهولة وغنم منه أشياء كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك ، وكان هذا كله من فتنة قبجق لما توجه اليه وحسن له ذلك ، ونعوذ بالله أن تكون فتنة ابن عثمان مثل ذلك ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشره جاءت الأخبار من السويس بأن المراكب التى جهزها السلطان الى الهند غرق منها مركب وقد صدمت فى شعب فانكسرت وغرق جميع ما كان فيها ، وفقد من

ابن عثمان ، واستمرت الاشاعات قائمة بسفر
السلطان تم خمدت تلك الاشاعة قليلا .

وفي ذلك اليوم كانت وفاة القاضي جلال الدين
محمد الزقناوى أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس
به . ومات وهو في عشر الثمانين سنة .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه نزل السلطان الى
بولاق وتوجه الى ضيافة القاضي كاتب السر محمود
ابن آجا بالبرابحية التى هناك فأقام عنده الى يوم
الأربعاء وهو في أرغد عيش ، فما أبهى القاضي
كاتب السر في ضيافته ممكنا وأحضر من كل شىء
أحسنه ، حتى قيل انه تكلف على أسمطة وطوارى
حافلة وتقدمة عظيمة قدمها للسلطان فوق ألف
دينار . وكان ابن السلطان معه وجماعة من
الخاصكية ، وانشرح السلطان هناك الى الغاية
وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات ، وأظهر
القاضى كاتب السر أنواع العظمة من الفرش
الفخرة والأوانى الصينى والنحاس المكفت وغير
ذلك من كل صنف .

ثم ان السلطان صلى العصر يوم الأربعاء وطلع
الى القلعة وكانت لبله جامكية ، فلما ركب من
هناك خلع على القاضى كاتب السر كاملية حافلة
من ملايسه مخمل أحمر بسمور فاخر ، وتشكر
منه لما تكلفه له من الأسمطة الحافلة وغير ذلك من
المأكول والمشرب والتقادىم الحافلة .

وفي يوم الخميس سادس عشرينه أنفق السلطان
الجامكية ، وهى آخر الجوامك ، ثم نادى للعسكر
بأن يعملوا يرقهم وأن يكونوا على يقظة فان
التجريدة الى حلب عمالة ، فلما تحقق المماليك ذلك
نزلوا من القلعة وأطلقوا فى الناس النار ، وأخذوا
بغال القضاة والعلماء والتجار وهجموا عليهم
الحارات والبيوت ، وأنزلوا الفقهاء من على بغالهم

فى وسط الأسواق وأخذوها من تحتهم ، وأخذوا
بعلة النسيخ برهان الدين بن السكركى وهو فى
الحضور فى المدرسة الأشرفية فبرطل عليها بمبلغ له
صوره حتى حلقها ، ثم سارت المماليك تسافر الى
نحو بابيس والصالحية ويأخذون بغال المسافرين
وأكاديشهم ، حتى صبح منهم جميع الناس وتزايد
منهم الضرر الشامل فى حق الناس جدا ، وصاروا
ييهدلون القضاة والعلماء بالضرب وينزلونهم من
على بغالهم ، وفعلوا من هذا النمط أشياء كثيرة .



وفي رمضان كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ،
فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع الخليفة والقضاة
الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، ثم طلع الوزير
يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب ،
وطلعوا بالخبز والسكر والدقيق وهو على رءوس
الجمالين مزفوف ، وطلعوا بأغنام وأبقار كما جرت
به العادة فخلع السلطان على الوزير وناظر الدولة
شرف الدين الصغير والمحتسب ... وكان يوما
مشهودا .

وفي يوم الأربعاء ثانى شهر رمضان قوى عزم
السلطان بأن يسافر الى نجر الاسكندرية ورشيد
بسبب تفقد أحوال الأبراج التى هناك ، وأشيع أنه
سرع فى بناء سور برشيد على شواطئ البحر الملح
فأرسل عدة بنائين وحجارين بسبب ذلك ، وقد
بلغه عن ابن عثمان أنه يقصد يطرق نجر الاسكندرية
ودمياط على حين غفلة ، فلما صلى السلطان الصبح
يوم الأربعاء نزل من القلعة وتوجه الى بولاق
وعدى الى بر انبابة ونصب له خيمة هناك حتى
يتكامل خروج العسكر ، فكان صحبته من
الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى والأمير
أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادارى

رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب
والامير ناي بيك التازيدار أحد الامراء المقدمين ،
وجماعة من الأمراء الطبلحات والعشراوات منهم
الأمير خاير بيك المعصار ، وكان صحبته من
المباشرين النسيهباى أحمد بن الجيعان نائب كاتب
السر والفاضى أبو البقا ناظر الاسطبل ، وآخرون
من المباشرين من أرباب الوظائف ، وعين معه نحو
خمسين خاصكيا من أرباب الوظائف وألزمهم بأن
يصحبوا معهم كل واحد فرسا وبعلا جنيا .
فقداسوا فى المراكب بسبب الخيول ما لا خير فيه ،
وكان النيل فى عشرين ذراعا والطرق مقطوعة من
كثرة الماء ، فحصل للأمراء والعسكر مشقة زائدة
ولا سيما فى رمضان والصيام عمال كل يوم ،
فأقام السلطان فى بر انبابة الى يوم الحمس ثالث
الشهر فنزل فى مركب ورحل من انبابة هو والأمراء
فى عدة مراكب كثيرة ، وكانت هذه السفرة على
حين غفلة

وفى ليلة الجمعة رابع الشهر سقط سقف
زاوية لشيخ أبى العباس البصير رحمه الله عليه ،
وهى التى عند باب الخرق المطلة على الخليج ،
فقتل تحت الردم رجل وصبى صغير وهرب من
كان بها من المصلين وقت العشاء فسلسوا ، ولم
يقتل غير اثنين كما تقدم .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن الممالك
الجلبان ربطوا كلاب حديد فى جبل ، وشلقوه
فتعلق فى شباك الطبقة التى على باب الزردخانه ،
وتسلقوا عليه وهم من داخل الحوش السلطانى ،
فلما وصلوا الى الشباك وجدوا بالقرب منهم أربع
طقزيات بأسقاط فضة فسحبوها وأخذوها .
فلما طلع النهار حضر الأمير مغلباى الشريفى
الزردكاش الكبير ، فأعلموه بذلك ورأى الجبل

معلقا فى الشباك فكتب بذلك محضرا ، ولم يقد
من ذلك شىء وراحت على من راح .

وفى يوم الأحد ثالث عشره أشيع بين الناس أن
الوالى عافب جاني بيك دوادار طراباى على ينية
المال الذى تأخر عليه ، فطالبوه بأن يورده ما عليه
شيئا على الحامكية فقال : ما بقى مسمى شىء من
المال غير روحي خذوها ، فضربوه كسارات على
ركبه ، وقيل عضروه فى أصدائه ، وهو يقول ما
بقى معى شىء من المال ، فاستمر يعاقبه الوالى
حتى أشرف على الموت ، وأشيع بين الناس موته ،
ولكن ما صح ذلك ، وهذا انتقام من الله تعالى ذان
جاني بيك هذا كان من وسائل سوء مستحقا
لكل الأذى .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشر هذا الشهر حضر
السلطان من ثغر الاسكندرية ، وهذه هى السفرة
الثانية فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة ثلاثة عشر
يوما لا غير ، بخلاف السفرة الأولى ، وكان سبب
توجهه الى ثغر الاسكندرية فى هذه المرة أنه لما
بلغه عن سليم شاه ابن عثمان بأنه قد جهز نحو
أربعمائة مركب وهو قاصد الى ثغر الاسكندرية
ودمياط الشهير ، فتوجه السلطان الى هناك لتفقد
أحوال الأبراج التى هناك وترميم نائها ، وتوجه
الى رشيد وأيضا رسم بأن يبنى عليها سور من
جهة البحر الملح ، وأشيع أن السلطان أنعم هناك
على خاير بيك العلالى الشهير بالمعمار بتقدمة ألف
وجعله متحدثا فى باشية برج الأترف قايتباى ،
وأشيع أيضا أن السلطان حصل له هناك توعك فى
جسده وأفطر يوما من شهر رمضان عندما حصل
له دوخة وأغمى عليه ، فعند ذلك بادر بسرعة
المجئ الى مصر ، فأتى فى مركب لبر مصر عند
السواقي التى أنشأها هناك فطلع من عند
السواقي هو والأمراء الذين كانوا صحبته ،

فخلع عليهم هناك كوامل مخمل بسمور ، فلما طلع لاقاه من هناك الخليفة والقضاء الأربعة وبقية الأمراء الذين كانوا بمصر ، فشق من السبع ستابات الى قناطر السباع ، ورسم للأمير كبير سودون العجمي بأن يترجه الى بيته من هناك ، فلما وصل الى المدرسة الصرغتمشية رسم للخليفة بأن يترجه الى بيته من هناك ، وكان الأمير أركناس أمير مجلس حصل له رمد في عينه فلم يركب مع السلطان ، فشق السلطان من الصليبية وطلع الى الرملة ودخل الى الميدان ، فطوب الى القضاة وانصرفوا الى يسوتهم ، وكان موكب السلطان هينا بخلاف مواكبه المقدمة .

وفي يوم الخميس رابع عشره فرق السلطان الكسوة على المسكر مع الجامكية .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على حسام الدين محمود ابن قاضي القضاة سري الدين عبد البر ابن الشحنة وقرره في قضاء الحنفية ، عوضا عن القاضي شمس الدين السمديسى الحنفى بحكم انفصاله عن القضاء ، فكانت مدته في القضاء سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، وكان من أخصاء السلطان وامامه ولكن سعى عليه الحسامى محمود ابن الشحنة بثلاثة آلاف دينار حتى ولى وظيفة القضاء ، وكان الحسامى محمود شابا قليل الرأسمال من العلم ولم يكن في طبقة علماء الحنفية ممن ولى وظيفة قضاء الحنفية ، ولكن السلطان ما عنده أعز ممن يورد له مالا ويكون مهما كان ، وقد استكثر غالب الناس على محمود وظيفة القضاء ، وفيه يقول القائل :

لا واخذ الرحمن سلطاننا

أفعاله بالطبع رهاجه

ولى علينا للورى قاضيا

ما كان للدهر به حاجة

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على محيي الدين يحيى بن قاضي القضاة برهان الدين الدميرى وأعادته الى قضاء المالكية ، عوضا عن جلال الدين ابن قاسم بحكم انفصاله عن القضاء ، وقد سعى عليه محيي الدين يحيى الدميرى بالنفى دينار ، وهذه ثاني ولاية وقعت لمحيي الدين بن الدميرى بمصر ، فكانت مدة جلال الدين بن قاسم في قضاء المالكية سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام مثل مدة السمديسى الحنفى فانها ولىا في يوم واحد ، وقد تولى الحسامى محمود ومحيي الدين يحيى بن الدميرى في يوم واحد ، وشقا من القاهرة وعليهما التشايف ، وكان لهما يوم مشهود .

وفي هذا الشهر كملت عمارة مدرسة الأمير بيبرس قريب السلطان التي أنشأها بفرب حط الجودرية ، وجاءت في غاية الحسن والظرف ، فخطب بها في ذلك الشهر .

وفي يوم الاثنين حادى عشرينه كان أول هاتور الشهر القبطى . ومن العجائب أن النيل استمر في ثبات لم ينهبط حتى دخل هاتور ، وكان يومئذ في تسع عشرة ذراعا ونصف ذراع ، حتى عد ذلك من النوادر ، ولكن حصل بذلك الضرر الشامل على المزارعين بمكث الماء على الأراضى . ومن العجائب مع وجود ثبات النيل هذه المدة لم تسكن الجزيرة الوسطى في هذه السنة ولا كرى فيها بيت ولا دكان .

وفي ذلك اليوم توفي الأمير أقبردى الحسنى أحد الأمراء العشراوات من طبقة زمامية ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى .

وفي يوم الأحد سابع عشرينه كان اختم صحيح البخارى بالقلعة ، وخلع السلطان على القضاة الأربعة وأعيان العلماء ومن له عادة ، وفرقت الصرر على جارى العادة ، وكان ختما حافلا .

وفي يوم الاثنين ثامن عشر منه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان ، وألبسه كامله محصل أحمر بسمور ، ونزل من القلعه في موكب حافل ، وكانت الخلع في هذه السنه في غايه الوحاشه من انشحات ناظر الخاص بخلاف كل سنه .



وفي شوال كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، وهو يوم عيد الفطر ، فخرج السلطان وصلى صلاة العيد ، ثم دخل الى الحوش الكبير وجلس على الدكة وخلع على القضاة الأربعة ثم على أمير بدير وبقية الأمراء المقدمين .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير خابر بك المعمار وألبسه مئزر وأطلسين لكونه بقى مقدم ألف ، ثم خلع على المباشرين ومن به عادة . وكان موكب العيد حافلا . وكان الأمير طوماى باى الدوادار مسافرا في جبل نابلس ، وكانت الخلع في هذا العيد في غايه الوحاشه ، وأبطل ناظر الخاص الطرز النخ الذى كان يعمل في الخلع ، وكانت الخلع من النماش القطنى الذى مثل نقش . ثم نزل ابن السلطان الى باب السلسله وعليه فوقانى بطرز يلبعوى عريض ، ونزل في موكب حافل وقدامه الشعراء والشبابه السلطانيه ، فمد بباب السلسله مدة حافله وخلع على غلمانه أرباب الوظائف ، ثم خلع فوقانى الذى كان عله على الأمير آقبای الطويل أمير آحور ثابى أحد المقدمين فلما انقضى أمر المدة بباب السلسله نزل المقر الناصرى ولد السلطان من باب السلسله ، وعليه تخفيه صغيره وسلارى بعلبكى أبيض ، وقدامه القاضي محيى الدين عبد القادر القسروى ناظر الجيش والقاضى أبو البقا ناظر الاسطبل وبعض جماعة من الخاصكيه ،

وقدامه ثلاث طوائل خيل بنواشى حرير أصفر ، فلما شق من التاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء وأوقدوا له أحمالا ونناير بالنهار من الوراقين الى آخر البندقانيين ، وزدوا له عند بينه رية حافله بالحيام والسحائب ، وصنعوا له ردكا على بابه وفيه أشجار وأحواص جلد بفواوير ماء عماله ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجه ، ودقت له الكوسات على بابه ، وزفته المغاني بالطارات على الدكاكين ، ولاقته طائفة اليهود بالنسرع مرقوده قدامه ، فاستمر في هذا المركب حتى دخل الى بيته الذى في خط البندقانيين ، ومد له هناك مدة ثانية واستمر هناك في بيته الى أواخر النهار ، ثم ركب من هناك وطلع الى القلعه .

وفي يوم الخميس ثانيه تغير خاطر السلطان على عبد العظيم الصيرفى وأودعه في الحديد ، وأرسله الى بيت الأمير الدوادار حتى على حساب الشعير الذى هو متحدث عليه ، فاستمر في الترسيم حتى يكون من أمره ما يكون .

وفي يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان جماعة من المماليك القرائصه ، وعين منهم جماعة الى العقبه وجماعة الى الأزلم وجماعة الى الاسكندرية والى رشيد وجماعه الى دمياط يقيسون بها ، فعالب المماليك اختار دمياط ورشيد دون تلك المواضع وشرعوا يتشكون من ذلك فقال لهم السلطان : أنا ما شرطت عليكم كل من أخذ منكم الخمسين دينار النفقه يسافر الى العقبه والأزلم وغير ذلك من الأماكن وقتلوا نعم سافر الى أى مكان أرسلنا فيه السلطان ؟ فحصل في ذلك اليوم بين السلطان وبين المماليك بعض تشاجر ، وانقض المجلس مانعا ، وحق السلطان من المماليك القرائصه في ذلك اليوم الى الغايه .

وفي يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على الأمير قابصوه العادلي كاشف الشرفية على عادته .
وفي يوم الجمعة عاشره ، الموافق لتاسع عشر هاتور القبطي ، فيه لبس السلطان الصوف وقلع البباض ، وقد آخر لبس الصوف عن عادته أياما .
وفي يوم السبت حادى عشره قبض السلطان على المعلم خصر معامل اللحم ، وشكه في الحديد وهبده ، وسجنه بالعرفانة حتى تغلق ما عليه من اللحوم المكسورة للعسكر . وفي ذلك اليوم ورد عبد العظيم الصيرفي مما قرر عليه بسبب الشخير المنكسر أنفى دنار ، واستمر في الترسيم حتى يعلق ما بى عليه وهو في الحديد .

وفي يوم السبت المذكور توفي الأمير بوروز أخو الأمير يتبك الدوادار أحد الأمراء المقدمين الألواف وكان له مدة وهو منقطع في بيته عليل حتى مات في ذلك اليوم .

وفي يوم الخميس سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، ووقع في ذلك اليوم بعض اضطراب . وسبب ذلك أن السلطان كان عين من المماليك القرائضة خمسين مملوكا يتوجهون الى مكة صحبة باش المجاورين على جارى العادة ، وكان قد عينهم في ربيع الأول وأخذوا في أسباب عمل يرقهم ، فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره بدا للسلطان في ذلك اليوم بأن يبطل هؤلاء الحمسين مملوكا الذين كان عينهم صحبة باش المجاورين وعين غيرهم في ذلك اليوم وأبطل الذين كان عينهم قبل ذلك ، وكان قد بقى لخروج المحصل يومان ، فحصل الضرر الشامل للمماليك الذين بطلوا بعد أن باعوا خيولهم وفماشهم ، وأكروا لنسائهم على أنهم يقيمون في مكة سنة ، فتكدوا الى الغاية بسبب ذلك ، وحصل غاية الضرر للمماليك الذين تعينوا الى مكة في ذلك اليوم ، وقد بقى

لخروج الحججاج يومان ، فخرجوا على وجوههم ، وفيهم من سافر في سفد ، وما حصل عليهم حير ، فما شكر السلطان أحمد على ذلك وعابوا عليه هذه الفعلة ، فعد ذلك من النوادر الغريبة

وفي ذلك اليوم عرس السلطان تسوة الكعبة الشريفة ومقام ابراهيم عليه السلام ، وعرض المحمل الشريف ، وكان السلطان في الحوش جالسا به ، وكان ذلك اليوم مشهودا

وفي يوم السبت ثامن عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة في بحبل زائد ، وكان له يوم مشهود ، وكان امير ركب المحمل الأمير علان الدوادار الثاني أحد الأمراء المقدمين ، وامير الركب الأول المقر العلاء على ابن الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف اينال ، وكان باش المجاورين في تلك السنة الأمير بيردى بن كسباى أحد الأمراء العشراوات ، ومحتسب مكة الأمير فراكز الجكمي رأس نوبة عصاة ، فارتجت لهم القاهرة في ذلك اليوم .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره وقعت فيه فادرة غريبة . وهى أن السلطان نزل الى الميدان وجلس به وأحضر بين يديه شحسا يهوديا ، قال له يوسف شنشوا ، وكان أصله تاجرا من تجار الفريج ، وكان يعرف باللغة التركية ، ثم بقى معلما في دار الضرب فقيل انه تأخر عليه مال من بقايا المصادرات وحساب قديم ، وهو مبلغ اننى عشرين ألف دنار ، فتكاسل عن وزن ذلك ، فأرسله السلطان الى المتشرة فأقام بها أياما ولم يرد شيئا مما عليه من المال ، فأحضره السلطان بين يديه وأحضر له المعاصير وعصره في أكعابه في وسط الميدان بين يديه ، فلما تزايد به أمر الوجع من عصر أكعابه أسلم وقال : « أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، برئت

عن كل دين بخلافه دين الاسلام » . فكبر الحاضرون من العسكر والناس أجمعين ، فلم يلتفت السلطان الى اسلامه وأبقاه بالعمامة الصفراء ورسم ليحيى ابن نكار دوا دار الوالى بأن يتسلمه ويعاقبه ويستخلص منه المال جميعه ، وقال : « المسلمون كثير والاسلام ما له حاجة بهذا ! » . فشكه ابن نكار فى الحسد ونزل به ليعاقبه ويستخلص منه المال فكان كما يقال : اذا تسلط على اليهودى يسلم !

وفى هذا الشهر أشيع بين الناس أن العجمى الشنقى الذى كان نديم السلطان يضحك عليه ، وقد تقدم القول على أن السلطان كان أرسله فى أواخر شهر رمضان الى نائب الشام والى نائب حلب ، وعلى يده فيلان مقدمة من عند السلطان : أحدهما الى نائب الشام والآخر الى نائب حلب ، فأشيع بين الناس أن الشنقى قد مات على غير وجه مرضى ، وقد اختلف القول فى سبب موته والى الآن لم يثبت عنه خبر صحيح فى كيفية موته والأقوال فى ذلك كثيرة . وكان هذا العجمى مشعوذا مضحكا يلعب بالصحون النحاس على جريدة فى الحلق ، فلما قرب السلطان وأحسن اليه صار من جملة أعيان المملكة ، ويركب وقدامه الساعى ويشق من القاهرة وتعظمه الأمراء وتقوم اليه اذا دخل عليها ، وكذلك أرباب الدولة من المباشرين وغيرها . وقيل انه لما دخل الى الشام كان فى موكب حافل وزينت له مدينة دمشق لما شق فيها الفيلان اللذان أرسلهما السلطان . ويقال ان نائب الشام أنعم عليه بنحو ألف دينار وكذلك نائب حلب ، وكسب من السلطان أموالا جزية

وسلاريات سمور ووشق وغير ذلك أشياء كثيرة ، ومن الأمراء وأعيان الناس ، وكان الناس يسألونه فى قضاء حوائجهم عند السلطان ، ورأى من العز والعظمة بالديار المصرية ما لا رآه أحد قبله من المقرين عند الملوك ، وكانت رئاسة هذا العجمى من غلطات الزمان كما قيل :

ما طاب فرع أصله خبيث
ولا زكا من مجده حديث

ولم يصح موته .

وفى يوم الأربعاء سادس عشرينه حضر مبشر الحاج وقد أبطأ عن مياعده أياما . وسبب ذلك أن العربان خرجوا عليه وعروه وأخذوا جميع ما معه حتى الرحلة التى تحته وجميع كتب الحجاج ، فلم يصل لأحد من الناس من حجاجه كتاب فى هذه السنة ، وقيل ان المبشر مشى على أقدامه يومين وهو لابس بشت ، فلما سمع السلطان ذلك تنكد والناس قاطبة لهذه الأخبار المهولة .

فلما حضر المبشر أشيع بين الناس وفاة القاضى زين الدين النابلسى ، أخى الشرقى يونس النابلسى الذى كان أستاذارا ، وكان القاضى زين الدين مجاورا بمكة فمات هناك .

وفى هذا الشهر أشيع سفر السلطان الى جهة الفيوم ليكشف عن الجسر الذى انهدم من الماء وشرق غالب بلاد الفيوم ، فلما تسامعت الممالك الجبلان بسفر السلطان الى الفيوم تنكدوا لذلك وقالوا : « كيف يسافر السلطان فى قوة الشتاء وخيولنا فى الربيع » . فشق عليهم ذلك وربما أشاعوا وقوع فتنة كبيرة .

ففيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له ستة أشهر وأربعة أشهر مكسورة وأن يبطل هذا الظلم الزائد والمصادرات للناس وأن يمشى على طريقة الملوك السالفة ، وأن يعزل ابن موسى من الحسبة ويعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة ويعزل كرتباى الوالى ، فانه قتل من خشداسينا مملوكا وما بقى لنا حرمة بين العوام ، وذكروا أشياء كثيرة من هذا النمط .

وفى رواية أخرى أن المماليك قالوا : ويسلمنا علم الدين الحلبي وجمال الدين بواب الدهيشة ، فان جمال الدين كان متحدثا فى الخزائن الشريفة من بعد موت الأمير خاير بيك الخازندار ، فصار جمال الدين يعارض المماليك فيما رسم لهم به السلطان من انعام لهم . فلما طال المجلس على السلطان ، وأعيت الرسل المترددة بالرسائل بين السلطان وبين المماليك ، قام السلطان من الميدان وقد أدركته صلاة الجمعة ، فلما طلع أغلقت المماليك فى وجهه باب السبع حדרات ثم رجموه من الطباقي ولم يكتفوا من الدخول الى الحوش ، وقيل جاءته رجمة فى تخفيفته وسبوه من الطباقي سبا فاحشا بعبارة قبيحة .

فلما عاين السلطان ذلك خاف على نفسه من البهدة فرجع الى الميدان وخرج من باب الميدان الذى عند حوش العرب وخرج من بين الكيمان وتوجه الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليوم ، ثم نادى لأصحاب المراكب أن لا يعدى أحد من النواتية بأمر ولا مملوك الا بمشورة السلطان .

فلما قرب وقت صلاة الجمعة طلع جماعة من

وفى يوم الخميس سابع عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة ابن على دولات الكبير ، وفد اجتمع أولاد على دولات وأخوه عبد الرزاق الكل بمصر . ولما حضر ابن على دولات حضر صحبته حاجب ثانى بحلب وهو شخص فقال له قانصوه ابن نفيس ، وكان نائب حلب أرسله الى ابن عثمان قاصدا بسبب القلاع التى أخذها من بلاد على دولات . فلما حضر قانصوه هذا من عند سليم شاه ابن عثمان أخبر عنه بأخبار غير صالحة بأنه قال : أنا ما أخذت هذه القلاع الا بالسيف وما أردتها الا بالسيف ، وأنه ماهو راجع عن التوجه الى حلب والشام وحدثته نفسه بأخذ مصر ، وهو فى عمل يرق عظيم وجهاز مراكب فى البحر ليحجىء على اسكندرية ودمياط . فلما سمع السلطان ذلك تنكد واجتمع هو والأمراء فى ضرب مشورة بسبب ذلك . وأخبر هذا القاصد أنه أراد أن يعوقه عنده أو يقتله فما مكنه أمراؤه من ذلك ، وقالوا : القاصد ما يقتل .

وفى ذلك اليوم كان آخر تفرقة الجامكية ، فأشيع فى ذلك اليوم بإقامة فتنة كبيرة من المماليك الجلبان . فلما كانت ليلة الجمعة أثار المماليك فتنة بالقلعة ورجموا من الطباقي ، فلما طلع النهار يوم الجمعة نزل السلطان الى الميدان ، وجلس به وترددت الرسل بينه وبين المماليك ، وقد أرسل لهم جماعة من الأمراء والخاصكية فقالوا لهم : نحن ما نطلب منه نفقة ، وانما نطلب أن يبطل المجاعة والمشاورة التى قررها على السوق فى الدكاكين وعلى سائر البضائع حتى ما نلتقى شيئا نأكله ، ويصرف هذه اللحوم المنكسرة للعسكر ،

الأمراء المقدمين الى صلاة الجمعة فلما بلغهم توجه
السلطان الى المقياس صلوا الجمعة بالقلعة ، ثم
نزل ستة عشر أميرا متقدم ألف ، وتوجهوا الى
السلطان في المقياس لكي يرضوا خاطره على
مماليكه مما وقع من المماليك في حقه ... فلما
اجتمعوا بالسلطان قال لهم : « أنا ما بقيت أعمل
سلطانا ، ولوا عليكم من تختارونه غبرى » . فبات
تلك الليلة بالمقياس ، وبات عنده الأمرء المقدمون .

فلما كان وقت المغرب نزل من القلعة الجم
الغفير من المماليك الجلبان ، وفصدوا أن ينهبوا
بيوت الأمرء ، فمنعوا بعضهم بعضا من ذلك ،
فنهبوا بعض دكاكين من الصبية مثل الشمع
والحلوى والخبز وغير ذلك . واستمر الحال على
ذلك بطول الليل وهم يشوشون على الناس ،
ويخطفون العمائم والشهود ، وحصل منهم في
تلك الليلة الضرر الشامل من أذى المماليك ، وكان
السلطان لما توجه الى المقياس أخذ ولده معه خوفا
عليه من المماليك أن يكدوا عليه .

فلما كان يوم السبت تاسع عشرينه توجه
الأمرء المقدمون قاطبة الى السلطان ، وكذلك
الأمرء الطبلخانات والعشراوات من أرباب
الوظائف ، فوقف الأتابكى سودون العجمى وبقية
الأمرء المقدمين وباسوا الأرض للسلطان على أنه
يقوم ويطلع الى القلعة ويرضى عن مماليكه ، فشق
السلطان ملوطته وبكى حتى أغمى عليه ، ورشوا
على وجهه الماء وهو يقول : « ما بهى لى حاجة
بسلطنة فأرسلونى أى مكان تختارونه وولو أمير
كبير » . فخاف أمير كبير ، وصار يرعب من كلام
السلطان وحصل له وهم .

وقد وقع مثل ذلك للملك الأشرف قايتباى
لما طلب منه المماليك نفقة عند حضورهم من
تجريدة ابن عثمان ، فجمع الأمرء قاطبة والخليفة
والقضاة الأربعة ، وأحضر القبة والطير وفرس
النوبة وقال : « سلطنوا أمير كبير أزييك » ، وفكك
أزرار ملوطته على أنه يدخل الى البحرة ، وقال
للقضاة : « اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من
السلطنة » . وقد تقدم ذلك فى أول التاريخ من
أخباره ، فلما خلع نفسه من السلطنة أعاده
الخليفة الى السلطنة ثانيًا ، وكان سبب ذلك
المماليك أيضا .

ثم ان السلطان أرسل خلف أغوات الطباق
وهو فى المقياس ، فلما حضروا بين يديه صاروا
يشكون له أن اقطاعاتهم لم يصل لهم منها شيء ،
وأن الحماية يأخذونها من المقطعين معجلا قبل
أوان النيل بمدة ، وأن لحوم العسكر مكسورة
بالأشهر ، وأن جميع البضائع غالية بسبب المشاهرة
والمجاعة التى قررت على السوق ، وأن كل شيء
غال حتى الخام والبلبكي والتبن ما يوجد ،
وصارت الجامكية ما فيها بركة كونها من مال
المصادر ، وأغلظوا عليه فى القول ، وقالوا له :
« ليش ماتمشى على طريقه الملوك السالفة وتقتل من
هذا الظلم » . ثم قرروا معه بأن يصرف للعسكر
للحوم المكسورة وأن يبطل المشاهرة والمجاعة ،
ويعزل المحتسب ويولى غيره ، ويعزل الوزير
والوالى ويولى غيرهما ، فقال السلطان : « نعم
أفعل لكم ذلك جميعه » . وصاروا بشرطون عليه
شروطا كثيرة من هذا النمط ، وهو يقول : نعم .
وكان ألباس دوادار سكين هو الذى يتردد
بالرسائل بين السلطان وبين المماليك .

فلما طاب خاطر المماليك على ذلك أحضر لهم السلطان مصحفاً شريفاً وحلف عليه أغوات الطباق من الحاصكية ، وكل واحد منهم على انفراده ، بأن يرجسوا بقية المماليك ، ويحمدوا هذه الفتنة ويثوبوا تحت طاعة أستاذهم . فحلفوا على ذلك ودخلوا على السلطان ، وبأسوا له الأرض . وخمدت تلك الفتنة على خير ... ولولا لطف الله تعالى في اخماد هذه الفتنة عن قريب ، والا كان فصد المماليك الجلبان أن ينهبوا المدنسة وأسواق الفسات ويوب الأُمراء وأعيان الناس ويقتلوا من الأُمراء من أرادوا قتله ، ولو فعلوا ذلك لطلع من يدهم ، وكل مفعول جائز في هذه الأيام ، ولكن الله سلم والله الحمد على ذلك .

سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (١٥١٦ م) :

كان مستهل المحرم يوم الاثنين . وكان يومئذ خليفة الوفت أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب عز شرفهما . وسلطان مصر يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره .

وأما السادة القضاة الأربعة : فالقاضي الشافعي كمال الدين الطويل ، والقاضي الحنفي قاضي القضاة حسام الدين محمود ابن قاضي القضاة سري الدين عبد البر بن الشحنة الحلبي ، والقاضي المالكي قاضي القضاة محيي الدين ابن قاضي القضاة برهان الدين الدميري ، والقاضي الحنبلي قاضي القضاة شهاب الدين الفتوحى أيد الله بهم الاسلام .

وأما الأُمراء المقدمون فكانت عدتهم يومئذ ستة وعشرين أميراً مقسدى ألوف ، منهم أرباب الوظائف ستة ، وهم : الأتابكى سودون العجمي

أمير كبير ، وكانت يومئذ امرية السلاح شاغرة ، والأمير أركماس طرباي أمير مجلس ، والمقر الناصري محمد بجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، والأمير سودون الدوادر رأس بوبة النوب ، والأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير طومان باى بن فنصوه ابن أخى السلطان أمير دوادر كبير ، وقد جمع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف .

وأما الأُمراء المقدمون غير أرباب الوظائف ، فهم : الأمير بحسباى بن عبد الكريم نائب طرابلس كان ، والأمير قانصوه بن كسباى بن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش ، والأمير قانصوه أبو سنة الوالى كان السيفى يتسبك ، وفيل ان السلطان عين له تقدمة الأمير حسين نائب جدة وتوجهت اليه البشائر بها من قبل ، والأمير طقطباى العلانى نائب القلعة ، والأمير قانصوه كرت بن تمر باى ، والأمير جان بلاط المحمدي المعروف بالموتر ، والأمير تانى بك النجمى ، والأمير أرزمك الشريفى الناشف ، والأمير تانم بك بن يتسبك المعروف بالحازدار ، والأمير قانصوه يشبك المعروف برجلة نائب قطيا ، والأمير خاير بك السيفى اينال ، والأمير قانصوه الفاجر ، والأمير أزبك بن طرباي المعروف بالملكحل ، والأمير بيبرس ابن عبد الكريم ، والأمير أبرك الأشرفى ، والأمير علان بن قراجا وقد جمع بين التقدمة والدوادارية الثانية ، والأمير خدابردى الأشرفى نائب الاسكندرية ، والأمير آقباى بن قانصوه وقد جمع بين الأمير آخورية الثانية والتقدمة ، والأمير خاير بك العلانى المعروف بالمعمار .

وأما نواب البلاد الشامية والحلبية : فالمقر السيفى سيباى بن بخت خجا ، والمقر السيفى خاير بك بن بلباى نائب حلب ، وتمراز الأشرقى نائب طرابلس ، وجان بردى الفزالى نائب حماه ، ويوسف الذى كان نائب القدس ، وانتقل الى نيابة صفد ، ونائب غزة دولات باى وقد أضيف اليه نيابة القدس والكرك مع نيابة غزة .

وأما الأمراء الطليخانات من أرباب الوظائف : فالأمير يوسف الناصرى الذى كان نائب حماه شاد الشرابخانة الشريفة ، والأمير مغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، والأمير نوروز تاجر الممالك ، والأمير قانصوه بن دولات بردى استادار الصحبة ، والأمير قانى بك بن بخشبلى رأس نوبة ثانى ، والأمير طومان باى قرا حاجب ثانى ، والأمير كرتباى الأشرقى والى الشرطة ، والأمير أزدمر المهندار ، والشريفى يونس نقيب الجيوش المنصورة ، والأمير بخشبلى قرا شاد الشون ، والأمير يونس الترجمان ، ومعلم المعلمين البدرى حسن بن الطولونى ولكن الوظيفة بيد ولده أحمد من حين كف بصره وانقطع .

وأما الأمراء الرءوس نوب فكثيرون لم نوردتهم هنا خشية الاطالة .

وأما أرباب الوظائف من أعيان المباشرين المتعممين : فالمقر القاضى المحبى محمود بن أجا الحلبى كاتب السر الشريف ناظر ديوان الانشاء أعزّه الله ، ونائبه المقر الشهابى أحمد بن الجيعان ، والمقر القاضى محبى الدين عبد القادر الشهير بالقصروى ناظر الجيش الشريف ، والزينى عبد

القادر وأخوه أبو بكر أولاد الملكى مستوقيا ديوان الجيوش الشريف ، والمقر العلائى على بن الامام ناظر الخاص الشريف وناظر الأوقاف ، وكانت الوزارة يومئذ شاغرة من حين عزل عنها يوسف البدرى ، فكان حينئذ القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، ومتكلما فى ديوان الوزارة ، وقد جمع بين نظارة الدولة وكتاية الممالك ، وكانت وظيفة الاستدارية يومئذ بيد الأمير طومان باى الدوادار ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاصطبل الشريف ومستوفى ديوان الخاص ، والقاضى عبد الباسط تقى الدين ناظر الزردخانه ، والقاضى عبد الكريم بن الأدمى مستوفى الزردخانه ، والقاضى زين الدين بركات ابن موسى ناظر الحسبة الشريفة وغير ذلك من الوظائف ، والأمير شرف الدين يونس النابلسى استادار العالية كان ، وناظر الأحباس بدر الدين العيسى ، ونقيب الأشراف السيد الشريف أفضل الدين محمد والآن صار متحدثا فى استيفاء ديوان الجيش الشامى ، والقاضى كريم الدين أخو القاضى شرف الدين أحمد بن الجيعان ، والشمسى محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان متحدثا فى الخزانة الشريفة ، والشمسى محمد بن ابراهيم الشرايىشى متحدثا فى وظيفة الزمامية ، والعلائى على البرماوى متحدثا فى جهات الديوان المفرد وبرددارية السلطان ، وعبد العظيم الصيرفى متحدثا فى الشؤون السلطانية وأمر العليق ، وغير ذلك من المباشرين وأعيان الدولة .

وأما الأعيان من الخدام الطواشية ، فان وظيفة الزمامية لها مدة وهى شاغرة من حين توفى الأمير

عبد اللطيف الزمام ، والآل الأمير بشير بن مصطفى رأس نوبة السقاة ، والأمير مرهف بن قانصوه ساقى خوند ، والأمير سنبل العثماني مقدم المماليك ونائبه جوهر الرومى ، والأمير سرور الحسنى شاد الحوش الشريف ، وغير ذلك من أعيان الخدام .

وفى هذه السنة تكاملت خاصكية السلطان نحو ألف ومائتى خاصكى من مشترياته ، فقرر منهم جماعة أرباب وظائف ما بين دواديرية سكنين وسلحدارية وزردكاشية وأمراء آخورية وسقاة وغير ذلك من الوظائف . وقد تكامل فى هذه السنة من الأمراء الطبليخانات والعشراوات فوق الثلثمائة أمير . وقد كثر العسكر وقلت الرزق

ولما كان مستهل الشهر يوم الاثنين جلس السلطان فى الميدان وطلع اليه الحلفة والقضاة الأربعة فهنوا السلطان بالعام الجديد ورجعوا الى دورهم .

ثم فى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباى والى القاهرة وأشهبوا المناداة فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء وأن لا أحد من الناس يكسر الكلام وأن كل شىء على حكمه يعنى فى أمر المشاهدة والمجامعة التى قررت على الحسبة ، وأن لا أحد من الناس يخرج من بعد العشاء بسلاح ولا يتزيا بزي ولا يغطى وجهه فى الأسواق ، ومن فعل ذلك شتى من غير معاودة ، وأن لا أحد من الناس يخشى على المحتسب . وقد تقدم القول بأن المماليك الجلبان أثاروا فتنة كبيرة حتى حرق منهم السلطان ، وتوجه الى المقياس وأقام به ثلاثة أيام ، فنشبت

الأمراء بينه وبين مماليكه بالصلح على أن يعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة والأمير كرتباى من الولاية والزينى بركات بن موسى من الحسبة ويبطل المشاهدة والمجامعة التى قررت على السوق أرباب البضائع ، وقد تقدم القول بما كان سبب ذلك .

فلما أن طلع السلطان الى القلعة وبات بها أصبح فأمر بأن ينادى فى القاهرة بما تقدم ذكره ، ولم يفعل شيئا مما وقع عليه الاتفاق مع المماليك الجلبان ، فشقت عليهم هذه المناداة وأشيع باثارة هذه الفتنة ثانيا وكثر القال والقليل بين الناس ، وكانت الناس استبشرت بإبطال المشاهدة والمجامعة فلما نودى بأن كل شىء على حكمه نزل على الناس جمرة بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر جلس السلطان فى الحوش وعرض آغاوات الطباق ، فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام وقال : « لا تسمعوا للمماليك القرانصة كلاما لأنهم يرمون بينى وبينكم ، ولا تشمتوا العدو فىنا ، وابن عثمان متحرك علينا ، ولا بد من خروج تجريدة له عن قريب ، فحصلوا معكم ذهباً ينفعكم اذا سافرتهم ، والذى هو منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا ييفى وراءكم التفاتة اذا سافرتهم فى التجريدة » . فلما سمعوا ذلك شق عليهم وقصدوا أن يثيروا فتنة فى ذلك اليوم وتزايد الاضطراب ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة . وقد توعد المماليك بركات بن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل فى ذلك اليوم ونادى بأن كل شىء على حكمه ، وتخلقت جماعته بالزعمران فى عائمهم ،

وشق في القاهرة ، تنكد الممالك الجلبان لذلك ، وقالوا . « لم يطلع بأيدينا من الاتفاق شيء ، وخلق جماعته بانزعفران جكاره فبنا ... والله ما نرجع حتى نقتله ! » . وقد تقدم القول بأن الممالك قالوا للسلطان : « سنم لنا ابن موسى المحتسب نقتله » ... بسبب غلو البضائع من كل شيء في الأسواق .

وفي يوم الأحد سابعه توفي الشرفي يحيى بن القاضي صلاح الدين بن الجيعان ، وكان شابا حسن الشكل ضخم الجسد ، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة ، وكانت جنازته حافلة .

وفي أثناء ذلك اليوم ركب الزينى بركات بن موسى المحتسب وشق القاهرة وقبض على جماعة من السوق أرباب البضائع وضربهم ضربا مبرحا وأشهرهم في القاهرة ، وأشهر المنادة في ذلك اليوم وسعر اللحم والدقيق والخبز والأجبان وسائر البضائع ، وكل ذلك خوفا من الممالك الجلبان .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند سوارشاه الذى تعصب له ابن عثمان عوضا عن دولات ، فأحضر صحبته مقدمة فشروية للسلطان وجودها وعدمها سواء ، وهى خمسة عشر جملا بخاتى وثمانى أكاديش وستة بغال من غير زيادة على ذلك ، وأرسل يترفق للسلطان في مطالعته فاستشار السلطان الأمراء بأن يقبل منه تلك التقدمة أم يردها عليه ، فأقامت الأمراء عند السلطان الى قرب الظهر ولم يعلم أحد ما وقع عليه الاتفاق في ذلك اليوم .

وفيه خرج الأمير طومان باى الدوادار وصحبته الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين فتوجها الى جهة الفيوم ليكشفوا عن الجسر الذى هناك . وقد قيل انه لما كان النيل عاليا في هذه السنة

انقلب . وكان السلطان قبل وقوع فتنة الممالك المتقدم ذكرها قصد أن يسافر الى الفيوم بنفسه ويكشف عن أمر هذا الجسر . فما تم له ذلك فرسم الى الأمير الدوادار بأن يتوجه الى هناك ويكشف عن أمر هذا الجسر .

وفيه نادى السلطان للعسكر بأن يطلعوا الى القلعة بسبب اللحوم المنكسرة فطلع الجم العفير من العسكر الذين معهم وصول باللحم المنكسر ، وقد تجمد للعسكر من اللحوم المكسورة في ديوان الوزارة فوق أربعين ألف دينار ، فقتل أمر هذا على السلطان .

وفيه نادى السلطان بأن الوزير يوسف البدرى يظهر وعليه أمان الله تعالى ، وكان محتفيا من حين توعدته الممالك الجلبان بالقتل . فظهر في يوم الثلاثاء تاسعه ، فلما قابل السلطان خلع عليه كاملية بسمور ونزل الى داره .

وفي يوم السبت ثالث عشره رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره في القاهرة وقد قبض عليهم شيخ العرب بن أبى الشوارب ، فرسم السلطان بتوسيطهم في ذلك اليوم وكان فيهم شخص يسمى أبو عزرائيل وهو كبيرهم فوسطهم أجمعين .

وفي هذا الشهر أو الذى قبله كانت وفاة الشيخ العارف بالله تعالى الولي المعتقد سيدى محمد بن عثمان رحمة الله عليه ، وكان من أعيان المشايخ الصوفية وله شهرة بالصلاح والاعتقاد بين الناس .

وفي يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير قانصوه جانية وكان قد توجه الى طرابلس بسبب المشاة من العربان الذين يخرجون أمام العسكر في التجريدة فأحضر الأموال صحبته ودخلت الى الخزائن الشريفة .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره ابتدأ السلطان بتفرقة اللحوم التي كانت مكسورة للعسكر فصار يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية ، وكان فيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له أربعة .

وفي يوم الخميس ثامن عشره كان دخول الأمير قايتباي أحد الأمراء الطبلخانات — وهو قريب زوجة الأتابكي قائم التاجر — على ابنة الأمير طقطباي نائب القلعة أحد المقدمين فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغنات خمس وعشرون رئيسة ، ومدوا فيه أسطحة حافلة من الأطعمة الفاخرة وصنعوا شموعا مزهرة بين وشامات وكان من المهمات المشهورة . وفي يوم الاثنين ثاني عشره دخل أمير ركب الحاج الأول وهو المقر العلائي على ابن الملك المؤيد أحمد ، فخلع عليه السلطان ونزل الى داره في موكب حافل .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره دخل الأمير علان أمير حاج ودخل صحبته المحمل الشريف ، وكان يوما مشهودا . فطلع الأمير علان الى القلعة وخلع عليه السلطان خلعة سنية ، ونزل الى داره في موكب حافل . وفد أتى عليه الحجاج خيرا كثيرا بما فعله في طريق الحجاز من وجوه البر والصدقات ، وقد حصل في هذه السنة للحجاج مشقة عظيمة في مغارة شعيب بسبب السيل الذي نزل عليهم هناك . وهلك من الحجاج في هذه السنة جماعة كثيرة وكان معهم الغلاء موجودا . وكان العربان طافشة في درب الحجاز ولا سيما ما وقع للمبشر في هذه السنة وقد تقدم القول بأن العربان عروه وأخذوا كل ما معه حتى كتب الحجاج ، فلم يصل لأحد من حاجه في هذه السنة كتاب ولا علم بهم خبر .

ولما حضر الأمير علان أشيع أنه قبض في مكة على شخص يقال له المعلم أحمد الشامي وكان أصله من عتالين الزردخانة فوجد معه مالا يتجر فيه في مكة ، فلما بلغ أمره الأمير علان قبض عليه ، وكان له رفيق فهرب من هناك فلما دخل أحمد الشامي هذا الى القاهرة أسفرت القضية عن كونه سرق العملة الضائعة التي كانت بالقلعة ، وسرقت من مال السلطان وهي اثنا عشر ألف دينار وقد تقدم الكلام على ذلك ، وأن السلطان غرمها للمعلم يعقوب انيهودي معلم دار الضرب ، فلما حضر أحمد الشامي بين يدي السلطان اعترف بذلك فسلمه السلطان للوالي يعاقبه حتى يستخلص منه المال الذي أخذه . ثم ان أحمد الشامي أقر على شخص كان معه لما أخذ المال وهو كان بالقاهرة مقيما ، فلما أقر عليه خاف على نفسه من العقاب فأرسل للسلطان أربعة آلاف دينار ، وقال هذا هو القدر الذي نابني من المال ولم يخصني شيء غير ذلك . فلم يكتف منه السلطان بذلك ورسم عليه وشكه في الحديد حتى يحضر بقية المال . وكان هذا الشخص من معلمى دار الضرب أيضا ، وقد ظهر هذا المال الذي سرق من دار الضرب بعد مدة طويلة فعد ذلك من جملة سعد السلطان .

وفي يوم الخميس خامس عشره حضر قاصد من عند ملك الحبشة وكانت قصاد ملوك الحبشة لهم مدة طويلة لم يدخل منهم أحد الى مصر ، وفد دخل قاصد من عند ملك الحبشة في دولة الملك الأشرف قايتباي وذلك في سنة ثمانين وثمانمائة . ومن بعد ذلك لم يدخل قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة وما لهم شغل في مصر . فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولا

قماش ، كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش واصطفت الأمراء عن يمينه وشماله كل واحد منهم فى منزلته ، ثم طلع القاصد من الصليبة وصحبته الأمير أزدمر المهندار وجماعة من الرؤوس النوب ومن المماليك السلطانية وغير ذلك . وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار ، والبقية كلهم ليسوا من الأعيان ، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة شعر ، وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفى أيديهم أساور ذهب .

وأما القاصد الكبير فذكروا أنه كان ابن أمير كبير الحبشة وقيل ان أباه هو الذى حضر فى دولة الملك الأشرف قايتباى وكان على رأسه خوذة مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب وفيها بعض فصوص ، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثنى وعليه شايات حرير ملون ، وعلى بقية أمراء الحبشة شايات حرير ملون وعلى رؤوسهم شهود حرير . وذكروا أن فيهم شخصا شريفا ... وكان مجموع هؤلاء الحبشة الذين حضروا الى مصر نحو ستمائة انسان وأوساطهم مشدودة بحوائص كهينة الدنانير . وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلان على جمل يضربون عليهما وكان صحبتهم البترك وعليه برنس حرير أزرق . وكانت أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة ، فطلعوا القلعة من سلم المدرج والبترك ماش قدامهم . فلما وصلوا الى باب الحوش كان صحبتهم كراسى حديد عالية وقصدوا أن يجلسوا عليها بحضرة السلطان فلم تمكنهم رؤوس النوب من ذلك ، ووقع فى أيام الملك الأشرف قايتباى مثل ذلك وطلعوا معهم

بكراسى فما مكنوهم من الجالوس عليها بحضرة السلطان . فلما وصل هذا القاصد الى الحوش قبل الأرض ، فلما وصل الى أوائل البساط قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة ولم يدخل معه قدام السلطان غير سبعة أنفس والبقية لم يدخلوا ، فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة ، ثم قدموا كتاب ملك الحبشة ، قيل انه فى ضمن غلاف من النضة وقيل من الذهب ، فلما قرئ على السلطان وجد فيه الفاظا حسنة ونعتا عظيما للسلطان ، وأن قصادنا أتوا الى مصر ليزوروا القيامة التى بالقدس ، فلا تمنعهم من ذلك . فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة ، فرسم لهم السلطان أن يقيموا فى ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع الى أن يسافروا ، وأرسل لهم خياما ضربت لهم من داخل الميدان ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل اليهم من العوام .

فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهندار وجماعة من رؤوس النوب فوصلوهم الى الميدان خوفا عليهم من العوام أن يرموهم ، فكان لهم يوم مشهود . فان قصاد ملوك الحبشة لا يدخلون الى مصر الا قليلا لأن بلادهم بعيدة ، حتى قيل ان هذا القاصد له تسعة أشهر وهو مسافر حتى دخل الى مصر . ثم ان القاصد أرسل الى السلطان مقدمة لم تكن كبيرة أمر ، قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك ، فلما عاينها السلطان وبخ الذى طلع بها وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة الى الملوك السالفة مثل الأشرف برسباى والظاهر جقمق والأشرف قايتباى وغير ذلك من الملوك ، وأحضر له عدة توارين

يذكر فيها هدايا ملوك الحبشة الى ملوك مصر فقرئت عليه ، ولكن ضعف أمر ملوك الحبشة بالنسبة الى ما كانوا عليه من قديم الزمان حتى نقل بعض المؤرخين أنه كان لملوك الحبشة على نواحي النيل ستون مملكة لا ينازع بعضها بعضا فيما بأيديهم من الأراضي التي هناك ، والآن قد ضعف أمرهم بالنسبة الى ما كانوا عليه من قبل ذلك . وقد أرسل بعض ملوك الحبشة مقدمة للملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة ، فقومت بمائة ألف دينار أو أكثر من ذلك حتى عدت من النوادر . ثم ان قاصد الحبشة أقام في الميدان ثلاثة أيام وسافر هو ومن معه الى القدس ليزوروا القيامة .

وفيه حضر الأمير طومان باي الدوادار وقد تقدم القول على أنه سافر الى جهة الفيوم هو والأمير أرزمك الناشف ليكشفوا على الجسر الذي هناك وقد انقلب من الماء . وكان السلطان قصد أن يتوجه الى هناك بنفسه فما تم له ذلك كما تقدم ذكره ، فلما توجه الأمير الدوادار الى هناك قررا على عمارة هذا الجسر نحو ثلاثين ألف دينار ، فلما رجعا أخبر السلطان بذلك .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له شمس الدين السكندري وقرره اماما عوضا عن الشيخ محب الدين الشاذلي الامام بحكم وفاته ، قيل ان شمس الدين السكندري سعى في هذه الوظيفة بألف ومائتي دينار حتى قرر بها .

وفيه احتمل السلطان تفرقة ثمن اللحوم التي كانت منكسرة للعسكر ، وقيل ان السلطان أخرج من الخزائن الشريفة خمسة عشر ألف دينار وسلمها للقاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة ليشتري بها أغناما لأجل تفرقة لحوم المماليك ، وقال ما بقيت

أكسر للعسكر لحوما بعد هذا اليوم ، وقد ثقل عليه ما صرفه للعسكر بسبب اللحوم التي كانت منكسرة لهم ، حتى قيل انه صرف في حركة تفرقة اللحوم فوق الأربعين ألف دينار . واستمرت الوزارة شاغرة من حين عزل عنها يوسف البدرى . وفيه نادى السلطان للعسكر بأن كل من كان له فرس أو أكثر في الديوان يطلع يقبض ثمنه . ومن حين تحقق السلطان أن ابن عثمان زاحف على البلاد السلطانية وهو يأخذ بحواطر المماليك القرانصة ويرضيهم بكل ما يمكن ، وصرف لهم اللحوم التي كانت منكسرة وأعطاهم ثمن الخيول التي كانت لهم في الديوان .

وفيه أخرج السلطان جانبا من مماليكه الغورية وفرق عليهم في ذلك اليوم زرديات وسيوافوتر اكيش وقسيا ونشابا ، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك .

وفيه توفى الأمير قن بك بن تربك أحد الأمراء الطبلخانات ، وهو ابن عم الأتابكي أزبك ، وكان قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه أرسل السلطان الى عبد الرزاق أخى دولات والى أولاد على دولات الكبار والصغار ثمانية آلاف دينار فقسمت بينهم ، وأرسل يقول لهم : « اعملوا بهذه النفقات برقكم واخرجوا سافروا قبل خروج التجربة واجمعوا عساكرهم من التركمان الى أن أحضر أنا والعسكر » .

وفيه أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع وصوانا الى ثغر الاسكندرية وسافرت في المراكب الى هناك فكانت نحو مائتي مكحلة ، وقد بلغه أن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجيء على السواحل للديار المصرية .

وفيه نادى السلطان في القاهرة بأن أصحاب الدكاكين والأملاك يقطعون الأراضي من الأسواق

والشوارع فامتلأوا ذلك وشرعوا فى العمل ، لكن حصل للناس مشقة زائدة فى الصرف على ذلك لجماعة الوالى والترابة فى شيل التراب ، وقد وقع له مثل ذلك فى أوائل سلطنته فى سنة تسع وتسعمائة وقطع الطرقات قاطبة وادعى أن الأراضى قد علت ، وقد تقدم لى أنى قلت فى ذلك :

فى دولة الغورى رأينا العجب

وقد حملنا فوق ما لا نطيق

وقد كفى فى عامنا ما جرى

من قلة الأمن وقطع الطريق

وفى يوم الخميس خامس عشره أظهر السلطان العدل وأشهر المناداة عن لسان السلطان فى سواحل مصر العتيقة وبولاى بأن المكوس التى كانت تؤخذ على الغلال بطلت ، وكانت مظلمة عظيمة من البدع المنكرة ، وهى أنه كان يؤخذ على كل أردب قمح أو شعير أو فول يباع أو يشتري نصف فضة . وكان الأشرف قايتباى أبطل ذلك فلما تسلمن ابنه الملك الناصر أعاد هذه المظلمة . فلما تسلمن الأشرف قانصوه الغورى تزايد الأمر حتى صار يؤخذ على كل أردب ثلاثة أنصاف من البائع والمشتري ، وصار يسمى الموجب ، ثم انتقلوا من الغلال الى أن جعلوا على البطيخ مكسا أيضا . فاستمر ذلك مدة طويلة الى أن ألهم الله تعالى السلطان ابطال ذلك جميعه .

وفى يوم السبت سابع عشره كان دخول الأمير الماس أحد الأمراء العشراوات على ابنة الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير كان ، فكان ذلك المهم من المهمات المشهورة ، وحضر فى هذه الوليمة الأتابكى سودون العجمى والمقر الناصرى محمد نجل المقام الشريف وسائر الأمراء من كبير وصغير وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره أكمل السلطان تفرقة تمن الجيول التى كانت للعسكر فى الديوان وأكمل تفرقة اللحوم التى كانت مكسورة للعسكر وعوق بعض اللحوم التى كانت منكسرة لجماعة من المباشرين الزردخانية .

وفى ذلك اليوم طرق السلطان أخبار رديئة بسبب ابن عثمان فتنكد لذلك وخلا هو والأمراء يصربون مشورة بينهم فى أمر ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء سلبخ هذا الشهر ، أشهر السلطان المناداة فى القاهرة للعسكر بالعرض يوم الخميس ، وآلا يتأخر عن العرض احد من كبير ولا صغير فاضطربت لذلك أحوال العساكر قاطبة .

وفى صفر وكان مستهله يوم الأربعاء طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فقال السلطان للخليفة لما جلس عنده : « اعمل برقك الى السفر وكن على يقظة فأنا مسافر الى حلب بسبب ابن عثمان » . وقال للقضاة الأربعة مثل ما قال للخليفة : « اعملوا يرقكم وكونوا على يقظة حتى تخرجوا صحبتى » ... فقالوا : « الأمر لمولانا » . وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من القراء يقال له شهاب الدين بن الرومى وقرره اماما عوضا عن عبد الرازق بحكم وفاته ، وقيل انه سعى فى ذلك بألف دينار حتى قرر بها .

وفى يوم الخميس ثانيه جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر من كبير وصغير وكتب الجميع ، فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق ولم يعف من العسكر أحدا .

وفى ذلك اليوم كانت وفاة الأمير خاير بك ابن اينال أحد الأمراء المقدمين ويعرف بكاشف الغريبة وأصله من ممالك الأمير اينال الأشقر أمير

سلاح كان ، وقد ساعدته الأقدار حتى صار باش
العسكر ثم بقى كاشف الغريبة ثم أنعم عليه السلطان
بتقدمة ألف ، وسافر الى الحجاز باش العسكر في
التجريدة التي خرجت بسبب الجازاني وانتصر على
العربان من قبيلة بنى ابراهيم فحز رؤوسهم وأرسلها
الى القاهرة ، وكان مسعود الحركات . فلما مات
نزل السلطان وصلى عليه وكانت جنازته مشهودة ،
وكان في سعة من المال فخلف من الموجود ما لا
يحصى .

وفي يوم السبت رابعه عرض السلطان مماليك
الأمير خاير بك المتوفى ، وأخذ منهم ما اختاره
وأرسلهم الى الطباقي ، ثم أرسل رسم على دوا دار
خاير بك وعلى مباشريه وشكهم في الحديد . وكان
الأمير خاير بك قد كتب وصية وبراً جماعته فلم
يلتفت السلطان الى وصيته .

وفي أثناء هذا الشهر كانت وفاة الشيخ نور
الدين على المحلى رحمه الله وكان يعزف بقريبة ،
وكان من أعيان علماء الشافعية وله شهرة زائدة بين
الناس .

ومن الحوادث في هذا اليوم ما وقع لعلم الدين
چلبى السلطان ، وهو أنه كان ساكناً في الحسينية
وكان السلطان رسم للوالى بأن يباشر قطع أراضي
الأسواق بنفسه ، فلما انتهوا في القطع الى الحسينية
جاء مماليك الوالى الى الحسينية ، وأخذوا حميرا
من حمام الجبالين ليشيلوا عليها التراب الذى
قطعوه ، فمنعهم من ذلك جماعة علم الدين
وتخاصموا مع مماليك الوالى ، فجاء عبد علم
الدين وقال لأستاذه على ذلك ، وكان علم الدين في
الحمام فقال علم الدين : « اضربوا مماليك الوالى
وامنعوهم » . ففتكوا بهم وضربوهم ضرباً مبرحاً
حتى شجوا بعضهم وكسروا أيدي بعضهم ، فلما

سمع الوالى بذلك ركب وأتى الى علم الدين ،
فأغلظ عليه علم الدين في القول وربما سفه على
الوالى ، فقبض الوالى على عبد علم الدين الذى
ضرب مماليك الوالى فوضعه في الحديد ، ثم طلع
الوالى الى السلطان وأحضر مماليكه الذين ضربوا
بين يدي السلطان ، فلما عاين السلطان ذلك شق
عليه ما فعل علم الدين في حق الوالى . ثم طلع
علم الدين الى السلطان وظن أن السلطان يقوم في
نصره ، فلما عاين السلطان علم الدين رسم لتقيب
الجيش بأن يقبض على علم الدين ويمضى به الى
الوالى يوسطه ، وصمم السلطان على ذلك . فقبض
تقيب الجيش على علم الدين وقلع سلاليه وفك
أزرار ملوطته وأركبه على بغلة ، ومضى به الى
الوالى ليوسطه ، فاستدرك الوالى فرصة في هذه
الواقعة وركب في أثناء ذلك اليوم وأتى الى الأمير
الكبير سودون العجمي ، وترامى عليه بسبب علم
الدين بأن يطلع يشفع فيه عند السلطان من
التوسيط ، فطلع أمير كبير فشفع فيه فقبلت
شفاعته ، ثم أن الوالى ألبس علم الدين كاملية
صوف بسمور وطلع علم الدين الى السلطان ليوس
الأرض ، فتنتر فيه السلطان لما رآه وقال له :
« الزم بيتك ولا ترنى وجهك أبداً » . فقبل ان علم
الدين خدم السلطان بمال له صورة حتى رضى عليه
وخدم الوالى أيضاً بمال لكنه استمر ممنوعاً من
الطلوع الى القلعة من بعد ذلك ، وقد تزايد هذا
الأمر الفشروى حتى خرج عن الحد . وكان علم
الدين لما قرره السلطان طاش ، وكان في خدمة
السلطان من مبدأ أمره حين كان أمير عشرة . وكان
علم الدين عنده بجمقدار وهو صبي أمرد ، فلما
تسلطن السلطان صار علم الدين عنده من المقربين

وصار يلبس سالارى بكم قصير مثل الأمراء
العشراوات ويشق القاهرة والركبدار يمشى في
جانبه يفسح له الطريق وخلفه بجمقدار وعلى
كتفه فوطه حرير وهو راكب على بغلة عالية فكانت
المماليك كلما رأوه يلعنونه في الباطن ، وربما
توعده بالقتل . وأمه كانت صانعة ، وقبل ان أصله
كان من أبناء الساسة التى بالحسينية وعنده كثافة
في طبعه وقلة فضيلة فكان كما قيل :

نقصت عقلا وفهما وزدت شحما ولحما
ورثت طالوت جسما ولم ترث منه علما
وفي يوم الاثنين سادس صفر جلس السلطان
بالميدان وعرض من العسكر في ذلك اليوم أربع
طباق . ومن الحوادث اللطيفة في ذلك اليوم أن
السلطان أمر بإبطال المشاهرة والمجامعة التى كانت
للمحتسب ، وأشهر النداء في مصر والقاهرة بذلك
وان مكس البحرين الذى كان يؤخذ على الغلال
بطل . فارتفعت له الأصوات بالدعاء بالنصر ،
وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ونقطت
الناس المنادين بالفضة على تلك البشارة الحسنة
التي سرت القلوب والأسماع وكان يوما مشهودا
وقلت في هذه الواقعة هذه الأبيات :

قد جاد سلطان الورى بعدله في القاهرة
مذ رخص الأسعار مع ابطاله المشاهرة
كم جائع من فرحة يدعو له مجاهرة
وكم حزين قلبه بالكسر أضحى جابه
وقد عفا غلالنا من المكوس الجائرة
وصرف اللحم الذى أرضى به عساكره
فارتفعت أيدي الورى له بفضل شاكره
وحاز أجرا ناله من الدنا والآخره
وقد علا تاريخه فوق النجوم الزاهرة

لأنه في عصره بين الملوك نادره
فيالها من سنة خيراتها مبادره
فكم له في الخير من أفعال بر ظاهره
يا رب فاجعل يده لكل باع فاهره
وكانت هذه المشاهرة من أكبر أسباب الفساد
في حق المسلمين ، فان الوسائط السوء حسوا
للسلطان عبارة بأن يجعل على السوق في كل شهر
مالا يوردونه للمحتسب فتزايد الأمر الى أن صار
مقررا على السوفه في كل شهر فوق ألفى دينار من
هذه الجهة وغيرها من الجهات المتكلم عليها الزينى
بركات بن موسى ، وكان جماعة من الأمراء الذين
بغير أقاطيع محتالة في كل شهر على الزينى بركات
ابن موسى بما يتحصل من المشاهرة والمجامعة ،
فكانت السوق تجور في أسعار البضائع ولا يجسر
أحد من الناس يكلمهم فيقولون علينا مال للسلطان
نورده في كل شهر ، فاستمر ذلك من أول دولة
السلطان الى أن ألهمه الله تعالى ابطالها .

وفيه وجد مملوك من ممالك السلطان مقتولا
بباب الوزير وكان ذلك المملوك من جلبانه وكان
مصارعا ولا يعلم من قتله فتكدت الممالك بسبب
ذلك .

وفي يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان الأمراء
المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات وكان
قد دار عليهم نقيب الجيش من قبل وأعلمهم أن
العرض يوم الثلاثاء فطلعوا جميعا ، فقبل عين في
ذلك اليوم من الأمراء المقدمين ستة عشر أميرا وأما
الأمراء الطبلخانات والعشراوات فلم يعف منهم
الا القليل وقال لهم : « الذى له عذر يعوقه عن
السفر يذكره لى » ... فأعفى منهم جماعة .

وفي يوم الخميس تاسعه أكمل السلطان عرض
العسكر قاطبة وام يعف منهم أحدا .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على القاضي بركات بن موسى وقرره ناظر الذخيرة الشريفة كما كان شمس الدين بن عوض ولم يعد الزيني بركات الى الحسبة ، فنزل من القلعة في موكب حافل وصحبته الأمير طومان باي الدوادار وقدامه السعاة ماشية وشق من الصليبة واستمرت الحسبة شاغرة الى الآن لم يلبها أحد .

وفي يوم الجمعة عاشره صلى السلطان صلاة الصبح ونزل الى الميدان ثم خرج من باب الميدان الذي عند باب القرافة وتوجه من هناك الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليوم . وأشيع أن السلطان يريد أن يتوجه من هناك الى الفيوم ليكشف عن أمر الجسر الذي انقلب هناك من الماء ، وذلك لأنه لم يكتف بتوجهه الأمير طومان باي الدوادار والأمير أرزمك الناشف الى هناك قبل ذلك كما تقدم ذكره فصمم على ذلك وتوجه فكان صحبتته من الأمراء المقدمين الأتابكي سودون العجمي والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدواداري رأس نوبة النوب والأمير أنص باي حاجب الحجاب والأمير طومان باي الدوادار والأمير تمرآز الزردكاش أحد المقدمين وبعض أمراء عشراوات ، ونحو خمسين خاصكيا وبعض جماعة من المباشرين وأقام في المقياس الى أن صلى الجمعة وعدى الى الجيزة ونصب له وطاق عند الأهرام ، فأقام ذلك اليوم هناك ثم توجه الى الفيوم من تحت الجبل .

ومن الوقائع الغريبة أن السلطان لما غضب على علم الدين چلبى بسبب ما تقدم ، واستمر علم الدين ممنوعا من طلوع القلعة قال السلطان لمحمد المهتار : « انظر لي چلبى يخلق رأسى » ... فعرض عليه عدة چلبية فما أعجبه منهم أحد ، فقال له

محمد : « بقی عندنا صبی صغیر آمر د یسسی عبد الرزاق أصله من باب الوزير وهو يتيم وكان يخلق لجماعة من الخدام وهو يخلق مليحا » . فقال السلطان : « أحضره حتى يخلق لي » . فأحضره ، فلما خلق له أعجبه حالته ، فاستقر به چلبى السلطان عوضا عن علم الدين ، فسافر هذا الصبي مع السلطان الى الفيوم وأنعم عليه بكسوة حافلة وأخرج له اكديشا وبغلة وصار چلبى السلطان في ساعة واحدة . واذا أعطى لا مانع ، والله عند القلوب المنكسرة جابر ، والعبد بسعده لا يآييه ولا يجده ... فعد ذلك من النوادر !

وفي يوم الاثنين ثالث عشره خرج عبد الرزاق أخو دولات وأولاد على دولات الذين كانوا حضروا الى مصر فلما حضروا أرسل اليهم السلطان ثمانية آلاف دينار ليعملوا بهما برفهم ، فتأهبوا وخرجوا وسافروا في ذلك اليوم وقصدوا التوجه الى حلب .

وفي يوم الخميس سادس عشره جلس نائب القلعة ومقدم الممالك عند باب القلعة ، وصرفا الجامكية على الممالك والعسكر في غيبة السلطان على جاري العادة .

وفي يوم الأحد تاسع عشره حضر السلطان من الفيوم وعدى من الجيزة فلاقاه الخليفة والقضاة الأربعة فشق من الصليبة وقدامه القضاة الأربعة والأتابكي سودون العجمي وسائر الأمراء المقدمين وأعيان المباشرين وانسحبت الجنايب قدامه وطلع الى القلعة في موكب حافل ، وكانت مدة غيبته في الفيوم تسعة أيام ، فكشف على الجسر الذي هناك وعاد فدخل عليه تقادم كثيرة من الكشاف ومن المدركين ما بين خيول وأغنام وأبقار وجمال وغير ذلك من النقادم الفاخرة . قيل لما توجه الخليفة ليسلم على السلطان لم يجتمع به هناك فطلع بعد

العصر الى القلعة ، وسلم على السلطان وهناه
بالسلامة .

ومن الحوادث في ذلك اليوم أن السلطان لما
عدى من الجيزة كان في ذلك اليوم رياح عاصفة
فغرقت مركب قدام المقياس ، وقد ازدحمت فيها
الخيول وشبت على بعضها ، فأشيع أن المركب قد
انقلبت بمن فيها ثم خمدت تلك الاشاعة عن ذلك
الخبر .

وفي يوم الاثنين عشره كان عبد النصارى وهو
أول يوم من الخماسين ، وكانت خماسين مباركة لم
يظهر فيها علة بمصر ولا بأعمالها قاطبة .

وفي يوم الخميس ثالث عشره أشيع بين الناس
أن النيل قد زاد ذراعين فطلع ابن أبى الرداد
وأخبر السلطان أن النيل قد زاد نصف ذراع وكان
النيل يومئذ في اثني عشر ذراعاً وثلاث أصابع فزاد
على ذلك نصف ذراع وكان ذلك في شهر برمها .
وسبب هذا الزيادة أن الأمطار كانت بأعلى بلاد
الصعيد فأنحدرت منها السيول الى النيل فزاد
هذه الزيادة في غير أوانها ، وقد وقع مثل ذلك في
بعض السنين الماضية وزاد في غير أوانه بسبب
السيول نحو ذراعين .

وفي يوم السبت خامس عشره جلس السلطان
في الميدان وعرض الأمراء الطبلحانات والعشراوات
ورؤوس النوب ، فلما عرصهم قال لهم : « اعملوا
برقكم وكونوا على نقطة من السفر فاني أنفق
وأخرج في جمعتي هذه » ... فنزلوا على ذلك .

وفي يوم الخميس سلخ هذا الشهر حضر ساع
وقيل اثنان من عند نائب حلب وأخبرا بأن نائب
حلب أرسل مطالعة على يديهما فلما قرئت على
السلطان فاذا فيها ان شاه اسماعيل الصفوى ملك
العرافين جمع من العسكر ما لا يحصى وهم زاحفون

على بلاد ابن عثمان ، وكان في سنة عشرين
ونسعمائة حصل بينه وبين سليم شاه ملك الروم
واقعة مهولة ، وقد تقدم القول على ذلك وانكسر
اسماعيل شاه الصفوى كما تقدم . فاستمر الصفوى
من حين جرى له ما جرى وهو في جمع عساكر
واستعان بملوك التتار فقبل انه جمع الجم الغفر
من العساكر ، فان ابن عثمان كان قد قتل غالب
عسكره في الواقعة المتقدم ذكرها .

فلما راج أمر الصفوى وجمع العساكر قصد
الزحف على بلاد ابن عثمان ، فقبل انه كبس على
جماعة ابن عثمان الذين كانوا في آمد وقد كان
ملكها من بد الصفوى حين محاربته معه في الواقعة
المذكورة وجعل ابن عثمان فيها نائبا من قبله ،
فأشيع أن الصفوى كبس على من كان بآمد على
حين غفلة ، وقتل من كان فيها من العثمانية ،
واستخلصها من بد جماعة ابن عثمان وانتصر
عليهم .

فلما طرق هذا الخبر سمع السلطان اجتمع
بالأمراء في الميدان وأقاموا في ضرب مشورة بسبب
ذلك الى قريب الظهر ، فأشيع أن السلطان قال :
« أنا أخرج بنفسى وأقعد في حلب حتى أنظر
ما يكون من أمر الصفوى وابن عثمان فان كل من
انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على
بلادنا » .

فانفض المجلس على أنه لا بد من خروج
تجريدة تقيم بحلب وتحرس البلاد الحلبية ، وأشيع
في ذلك اليوم باحضار الكشاف ومشايخ العربان
والزامهم أن شرعوا في تحصيل عشرين ألف
خيال من العشير وفرسان العرب ، ويوزعوا ذلك
على سائر البلاد من الشرقية والغربية وجهات
الصعيد ، وهذا من أكبر أسباب الفساد في حق
الجند والمقطعين ، فان الكشاف ومشايخ العربان

يأخذون في هذه الحركة من البلاد المثل عشرة
أمتال لأنفسهم .

وفي ربيع الأول وكان مستهله يوم الجمعة طلع
الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ،
وقيل ان السلطان أرسل شمس الدين بن ناشي
وبركات بن الظريف شيخ القراء الى الخليفة وهو
يقول : « اعمل برقك الى السفر فانه لا بد من سفر
السلطان الى حلب ، وانه ينفق ويخرج في شهر
واحد » ... فتتكد الخليفة لهذا الحبر .

وفي يوم الأحد ثالثه جلس السلطان بالميدان
وعرض الأمراء الطبلخانات وخاصكية الخواص ،
وعين منهم جماعة للسفر . ثم طلع ودخل الى قاعة
البيسرية وفتح الحواصل وأخرج منها عدة سروج
بلور وعقيق وكنائش زركش وسروج ذهب
وبركستوانات فولاذ مكفتة بذهب وغير ذلك ،
وأفرد منها ما حسن بباله لأجل الطلب اذا خرج
وسافر ... وهذا كله حتى يشاع بين الناس سفر
السلطان الى حلب .

وفي يوم الثلاثاء خامسه جلس السلطان بالميدان
وعرض الأمراء الطبلخانات والعشراوات وألزم كل
أمير أن يستخدم عنده ممالك شئ خمسة وشئ
ثلاثة وشئ اثنان بحسب اقطاعه ، وقرر معهم أن
بعد المولد الشريف يعرضهم قدامه بالميدان وهم
باللبس الكامل والخيول الجيدة وكل من لم يفعل
ذلك يخرج عن امرته ويجعله طرخانا .

وفي يوم الثلاثاء المذكور نزل القاضي شهاب
الدين بن الجيعان نائب كاتب السر عن لسان
السلطان الى أمير المؤمنين المتوكل على الله بسبب
عمل برقه ، وقد كشفوا في الدفاتر القديمة فوجدوا

أن الخليفة اذا سافر صحبة السلطان يكون جميع
برقه على السلطان ... فكتب الخليفة قوائم
بمصرف عمل للبرق فكان ذلك بعشرة آلاف
دينار ، وقيل خمسة آلاف دينار فأخذ الشهابي
أحمد تلك القوائم وطلع بها الى القلعة ليعرضها
على السلطان .

وفي هذا الشهر خلع السلطان على الأمير طراباي
الذي كان قبل ذلك نائب صفد وأعاده الى نيابة
صفد كما كان ، وعزل عنها يوسف الذي كان
نائب القدس فكان مكتة في نيابة صفد دون السنة
ثم عزل وولى طراباي المذكور .

وفي يوم الأربعاء سادسه جلس السلطان
بالميدان وعرض ممالك الجلبان قاطية وعينهم الى
السفر صحبتته ، ولم يعف منهم سوى الممالك
الصغار الكتانية المرد .

وفي يوم الخميس سابعه رسم السلطان
للطواشية بأن تدور على الممالك البطالة وأولاد
الناس الذين كان السلطان قطع جوامكم ، بأن
يطلعوا يوم السبت للعرض ، فالذي يصلح للسفر
يعيد السلطان له جامكيته ويكتبه للسفر . ثم من
بعد ذلك ظهرت اشاعة رد الجوامك التي قطعت .
فلما كان يوم السبت تاسعه جلس السلطان
بالميدان وعرض جماعة من الممالك القرانصة من
الشيوخ والعواجز وأولاد الناس أصحاب
الجوامك ، فلما عرضهم عين منهم جماعة للشرقية ،
وعين منهم جماعة مع كاشف الغربية وجماعة الى
البحيرة وجماعة منهم الى الطرانة ، وجماعة الى
المنوفية وجماعة الى منفلوط وجماعة الى الجيزة ،
وألزمهم بأن يكونوا مع الكشاف لرد العربان اذا
ظهر منهم فساد وحفظ البلاد في غيبة السلطان اذا
سافر . وقد قويت الاشاعات بسفر السلطان الى

حلب ، ودارت الطواشية على الممالك القرانصة
وأولاد الناس بسبب هذا العرض حتى عين هؤلاء
الجماعة الى هذه الجهات المذكورة لا بسبب رد
الجوامك التي كانت قطعت للمالك العواجز
وأولاد الناس ، واستقرت هذه الواقعة على
ما ذكرناه .

وفي يوم الأحد عاشره نزل السلطان وعدى الى
بر الجيزة وعرض جمال الأمير حناير بك لاشته
العربي الذي توفي ، ثم عاد وطلع الى القلعة ودخل
الى قاعة البيسرية ، وعرض في ذلك اليوم بكايير
وفرفلات وجوانسن وغير ذلك أشياء كثيرة من
آلات السلاح من خواصل الذخيرة .

وفي يوم الاثنين حادى عشره عمل السلطان
المولد النبوى الشريف على المادة ويصب الخيمة
العظيمة التي صنعها الملك الأشرف . وكانت هذه
الخيمة كهيئة قاعة فيها لواوين ثلاثة وفي وسطها
قبة على أربعة أعمدة ، فيل لم يعمل في الدنيا قط
لها نظير وهي من فماش ملون ، وهذه الخيمة كان
لا ينصبها الا ثلثمائة رجل من النواتية ، وقيل ان
مصروفها ستة وثلاثون ألف دينار ، فنصبها
بالحوش ونصب الشربدارية في الحوش أحواض
جلد مملوءة بالماء الحلو وعلقوا شوكات بالكيزان
الفاخرة ، وزينوا بالأواني الصينى والطاسات
النحاس ، وأوسعوا في زينة الشرابخانة الزينة
الفاخرة أكثر من كل سنة . ثم جلس السلطان في
الخيمة ، وحضر الأتابكى سودون العجمى وسائر
الأمرء من المقدمين وغيرهم وحضر القضاة الأربعة
وأعيان الناس والمباشرون والوعاظ على العادة ثم
مدوا السباط وقد أوسع في أمره . وكان مولدا
مشهودا أبهج مما تقدم من الموالد الماضية .

وفي ذلك اليوم توفى قاضى القضاة محيى الدين

ابن النقيب رحمة الله عليه ، وهو محيى الدين
عبد القادر بن على بن مصلح الشافعى ... وكان
يقرب للخوارج شمس الدين بن فضا الجوهري ،
وكان من أهل العلم والفضل ، لكنه كان جاف
النفس ، وينسب الى شح زائد وله في ذلك الأمر
أخبار شنيعة لم تذكر هنا لكنها شائعة بين الناس ،
ومات وله من العمر نحو الثمانين سنة . وكان
سبب موته أنه كان يمتنى فى الأسواق بقبضاب
سجك فتوجه الى خان الحليلى فرفسه فرس فوقع
على فخذه فانكسر ، فحملوه الى خلوته التي في
المدرسة المنصورية فأقام بها أياما ومات . وكان
منفصلا عن القضاء وقد ولى منصب القضاء ست
مرات ، ونفذ منه في هذه الست ولايات ستة
وثلاثون ألف دينار ، وكانت اقامته في الست
ولايات نحو سنتين ، وكان قليل الحظ عند الناس
قاطبة ، وكان يسعى على القضاة المتولين ولا يزال
عليهم حتى يعزلهم ويتولى منصب القضاة ، فعزل
به قاضى القضاة زكريا ، وقاضى القضاة ابن
أبى شريف وقاضى القضاة القلقشندي وقاضى
القضاة عماد الدين الطويل وبدر الدين المكينى
وعلاء الدين بن النقيب ، وكان يسعى بجملة من
الأموال ولا يقيم في منصب القضاة غير أشهر ثم
يعزل ، فنفذ منه مال له صورة على هذه الطريقة .
وقد قلت في ذلك مداعبة لطيفة :

منصب الحكم فى القضا قال لما
كشف الله ما به من هموم

زال عنى ابن النقيب وانى
كنت معه فى قبضة الترسيم

وقيل كان متحصل ابن النقيب هذا فى كل يوم
من وظائفه نحو أشرفيين من خبز وجوامك ، وكان
بحرم نفسه من المأكول والمشرب والملبوس .

وفي ذلك اليوم توفي المهتار حسن شربدار السلطان وكان في سعة من المال ، وصادره السلطان غير ما مرة . فلما مات ختم السلطان على حواصله ولم يلتفت الى أولاده .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشره توفي الشيخ محب الدين الحلبي امام السلطان وكان من المقربين عنده وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس رابع عشره ورد على السلطان مطالعة من عند سييى نائب السلطان بالشام ، فأرسل يقول له : « يا مولانا السلطان ان البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن لا يوجد ، والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك ، ولا يتعب السلطان سره ولا يسافر ، وان كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية » . فلم يلتفت السلطان الى كلامه واستمر باقيا على حركة السفر الى حلب .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره خلع السلطان على الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير برسباي الفيل أحد أمراء الطبليخانات وقرره أمير حاج الركب الأول ، فنزلا من القلعة في موكب حافل .

وفي هذا اليوم خلع السلطان على الأمير ألماس أحد الأمراء العشراوات ، ويعرف بدوادار سكين وقرره في ولاية الشرطة بالقاهرة عوضا عن الأمير كرتباي بحكم انتقاله الى تقدمه ألف . وكان الأمير كرتباي من أعيان ممالك السلطان ، وولى كشف الشرقية وولاية القاهرة ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف . وقيل ان الأمير ألماس سعى في الولاية بأحد وأربعين ألف دينار منها عشرون ألف دينار معجلة وواحد وعشرون يدفعها على نقودات متفرقة .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على مملوكه

الأمير ماماي الصغير وقرره في نظر الحسبة الشريفة عوضا عن الزيني بركات بن موسى بحكم انتقاله الى استدارية الذخيرة ، وكانت مدة اقامة الزيني بركات بن موسى في الحسبة إحدى عشرة سنة الا شهرا وعزل عنها والناس عنه راضية . وقيل ان الأمير ماماي الصغير سعى في الحسبة بحسبة عشر ألف دينار حتى وليها ، وكانت الحسبة والولاية في قديم الزمان من أقل الوظائف ، وولبها جماعة كثيرة من أبناء الناس والفقهاء ، ولكن عظم أمر هاتين الوظيفتين في هذا الزمان الى الغاية ، وصارتا من أجل الوظائف ، وهذه الأموال العظيمة التي يسعى بها هؤلاء انما يستخلصونها من أضلاع المسلمين ودمائهم والأمر الى الله .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان على العسكر نفقة السفر ، وقد تحقق أمر خروج التجريدة ، فأنفق على كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر بثمانية آلاف وثمان جمل سبعة دنائير ، ثم ان السلطان كتب أولاد الناس قاطبة الى السفر ولم يعطهم نفقة بل أعطاهم جامكية أربعة أشهر بثمانية آلاف ، وكان سبب ذلك أن القاضي شرف الدين الصغير كاتب الممالك قال للسلطان : « انا نظرنا في بعض التواريخ أن الملك الظاهر برقوق لما خرج الى التجريدة لم ينفق على أولاد الناس شيئا » . فأعجب السلطان منه ذلك ، وقطع نفقة أولاد الناس قاطبة ، فكثر عليه الدعاء من أولاد الناس بسبب ذلك . وكانت هذه الواقعة من أعظم مساويه في حق أولاد الناس ، وحصل لهم كسر خاطر شديد .

وفي يوم الأحد سابع عشره ظهر أحمد بن الصائغ الذي كان ضد الزيني بركات بن موسى في الحسبة وكان له مدة وهو محتف ، فظهر في

ذلك اليوم وقابل السلطان ثم خمد أمره ولم ينتج مع وجود الزينى بركات بن موسى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره توفيت خوند جان سكر الجركسية مستولدة السلطان وهى أم ولده الذى توفى فى الفصل سنة عشرين وتسعمائة ، وكانت دبة خيرة قليلة الأذى ، فلما أشيع موتها طلع الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان المباشرين ، فصلى عليها الخليفة عند باب الستارة ونزلوا بها من سلم المدرج وهى فى بشيخانة زركش ونهبت الكفارة من قدامها قبل أن تنزل من القلعة ، ومشى الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء قدامها من القلعة الى مدرسة السلطان التى فى الشرايشين ، فدفنت هناك على أولادها . ولم يدخلوا بها من باب زويلة بل دخلوا بها من خوخة أيدغمش . وكانت جنازتها حافلة ، وكثر عليها الأسف والحزن من الناس .

وفى يوم الخميس حادى عشره وقف جماعة من أولاد الناس الى السلطان بسبب النفقة ، فلما وقفوا له ساعدهم الأمير علان الدوادر وبقبة الأمراء ، فلم يرث لهم السلطان ، وقال : « أنا ما عندى نفقة لهؤلاء فالذى لا قدرة له على السفر يرد الأربعة شهور الجامكية التى أخذها وأنا أترك له شهرا ويستريح وتنقطع عنى جامكيتة » . فرد جماعة كثيرة من أولاد الناس جامكية الأربعة شهور التى أخذوها واستمر أمرهم مبنيا على السكوت .

وفى يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان على بقية العسكر النفقة . وفى يوم السبت ثالث عشره أكمل السلطان النفقة على العسكر قاطبة من قرانصة وجليان ، ونادى عليهم فى الحوش أن السفر أول الشهر ، فاضطربت أحوال العسكر وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصار

الممالك بهجمون الطواحين وبأخذون منها الخيول والبغال والأكاديس ، فغلقت السواحين قاطبة ، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء ، وغلقت أسواق التماش بسبب الممالك واختفى الصنائعية والخياطون ، واضطربت أحوال القاهرة واختفى جماعة من النجار خوفا من الممالك ، واختفى طائفة من العلماء خيفة السر ، وصارت أحوال مصر مثل يوم الفياحه كل واحد يقول يارب روحى . وفد عاب العسكر على السلطان هذا الرهج الذى وقع منه ، ولم يستس على طريقة الملوك السالفة عند خروجهم للسفر مع انه لم يكن أمر يستحق هذا الرهج العظيم ، ولا جاءت أخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى حلب ولا جاليشه ولا تحرك على بلاده ، وغابوا على السلطان أينما عرضه عسكر مصر قاطبة فى أربعة أيام ، وأنفق عليهم مع العرض ، فحشوا أن يتساع فى بلاد ابن عثمان وبلاد الصفوى أن السلطان الغورى قد عرض عساكره جميعا فى أربعة أيام فينسبونهم الى قلة وانه ما ثم بمصر عسكر ، وربما يطمع العدو اذا سمع بذلك . وما كان هذا رأى من الصواب وهذه الأحوال كلها غير صالحة .

وفى يوم السبت المقدم ذكره أرسل السلطان نفقة الأمراء المقدمين ، فأرسل للأتابكى سودون العجمى خمسة آلاف دينار ، والأمير أوكماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادرى رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب لكل واحد أربعة آلاف دينار ، وبقية الأمراء المقدمين الذين هم بغير وظائف لكل واحد منهم ثلاثة آلاف دينار . وأين هذه النفقة من النفقة التى كان يرسلها الأشرف قايتباى للأمراء المقدمين عند خروجهم الى

تجاريد ابن عثمان ؟ فكان يرسل للأتابكي أزيك وحده ثلاثين ألف دينار والأمير تماراز أمير سلاح عشرين ألف دينار وأمير مجلس مثل ذلك وبقيّة الأمراء المقدمين لكل واحد منهم عشرة آلاف دينار حتى عد ذلك من النواذر الغريبة ... ولم يفعل الأشرف قايتباي ذلك الا في آخر تجاريد ابن عثمان سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، فبلغت نفقة الأمراء قاطبة دون الجند مائة ألف دينار .

وفي يوم الأحد رابع عشرية نزل السلطان وتوجه الى مدرسته التي بالشرابشين فأقام بها الى ما بعد العصر ، وأشيع أنه قد عرض موجود خوند ، فان حواصلها كانت هناك فظهر لها موجود عظيم ما بين ذهب وفضة عين وفصوص وقماش فاخر وغير ذلك .

وفي يوم الاثنين خامس عشرية أفتق السلطان على الأمراء الطلبخانات والأمراء العشراوات ، وصار يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية ، فأعطى لكل أمير طلبخانات خمسمائة دينار ، وأعطى لكل أمير عشرة مائتي دينار ، ولم يرسل للخليفة نفقة ، فحصل له غاية المشقة وترامى على جماعة من الأمراء في أن يقترضوه مبلغا بربح ، ودخل في جهته ديون كثيرة ... ولم يتفق قط أن السلطان اذا سافر البلاد الشامية وصحبته الخليفة أن يخرج بلا نفقة ، وكانت عادة جميع السلاطين أن برك الخليفة اذا سافر يكون على السلطان ، وكان يرسل اليه خمسمائة دينار لأجل جوامك أتباعه ، فلم يلتفت السلطان لشيء من ذلك وشح معه في أمر النفقة ، وكان الخليفة مظلوما مع السلطان في هذه الواقعة . ثم انه عرض الممالك القرائصة الشيوخ والعواجز وكتب منهم جماعة

الى الشرقية والغربية والصعيد وألزمهم أن يخرجوا بلا نفقة وكانوا نحو خمسمائة مملوك .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرية نزل السلطان من القلعة وتوجه الى الريدانية ، ورتب الفراشين كيف ينصبون الوطاق اذا برز السلطان للسفر ، ورتب منازل الأمراء وكيف تكون منازلهم بالريدانية .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان لولده أمير آخور كبير بأن يعمل برفه ويسافر صحبته ، وكان في الأول رسم له بأن يكون مقيما بساب السلسلة الى أن يحضر السلطان ثم بطل ذلك ، ورسم له بأن يشرع في عمل برفه الى السفر .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرية ، الموافق لسادس بشنس القبطي ، خلع السلطان الصوف ولبس البياض . وكانت أول جمعة خروجه زوجة السلطان التي توفيت فصنع لها السلطان مادة حافلة وحضر هناك الخليفة والقضاة الأربعة وجماعة من الأمراء المتقدمين ، وحضر قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة منسجودة بمدرسة السلطان التي بالشرابشين .



وفي يوم السبت مستهل شهر ربيع الآخر جلس السلطان بالميدان ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنوه بالشهر الجديد وعادوا الى دورهم . وفي ذلك اليوم خلع السلطان على ولد المhtar حسن الشريدار الذي تقدم ذكر وفاته وقرره في وظيفة آبيه في مهتارية الشرابخانة عوضا عن آبيه بحكم وفاته .

وفي ثانيه فرق السلطان على ممالكه الجلبان لبوس الخيل من حرير ملون وخود وأتراس وبدلات ما بين زنود وركب فولاذ ، وغير ذلك من آلة السلاح التي في الزردخانه ، فتزاحمت عليه الممالك

آخرها ووقع بها الغلاء العظيم من خراب البلاد .
فله الحمد على ذلك .

ومن الحوادث في هذه المدة أن السلطان صادر
ابنة الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء
المقدمين ، وهى زوجة الأمير تانى بك الخازندار
أحد الأمراء المقدمين ، وهى التى كان وقع لها ذلك
الأمر الفاحش المقدم ذكره ... فلما صادرها قرر
عليها مالا ثقيلا له صورة ، فأرسل رسم عليها
بجماعة من الطواشية . فلما تحققت ذلك شرعت في
بيع جهازها وجميع ما تملكه من صامت وناطق .

وكان سبب ذلك أنه لما توفى والدها الأمير خاير
بك تكلم الأعداء في حقها بأنها أخذت من موجود
أبيها ثلاث قدور فيها مال جزيل له جرم ، فأرسل
خلفها فلما حضرت بين يديه سألها عن ذلك فأنكرت
وحلفت أنها مارأت تلك القدور الذهب التى اتهموها
بها ، فحقن منها السلطان وقال لها : « أنستى
ذنبك ؟ » يعنى أمر الصبى الذى وجدوه عندها ،
فحلف السلطان ان لم تحضر بالمال الذى أخذته من
مال أبيها والا يغرقها ، وصمم على ذلك ... فلما جرى
ذلك شرعت في بيع جهازها لتورد المال الذى قرر
عليها ، فصار في كل يوم سبت وثلاثاء يحضر
الزنى بركات بن موسى وجماعة من المباشرين
ويبيعون قماشها مثل التركة . وقد وقع لابنة يشبك
الدوادر زوجة الأمير قانباى أمير آخور كبير كهذه
الواقعة بعينها وصودرت وباعت جهازها وقماشها
وجواربها مثل التركة ، وغلقت ما عليها من المال .
وقد تقدم ذكرها .

وفي يوم الخميس سادسه صرف السلطان
للعساكر المتوجهة الى السفر ثمن اللحوم المنكسرة
لهم على ثلاثة أشهر لكى يتوسعوا فيها ، ولم

وصاروا يخطفون اللبوس الملاح بأيديهم ، ولا
يرضون بالذى يفرقه السلطان عليهم ، فعجز عن
رضاهم في ذلك اليوم وكثر تنمردهم في هذه الأيام
الى الغاية .

« أعجوبة » قيل ان امرأة ولدت ولدا له رأسان
وأربع أيدي وأربع أرجل ، فلما شاهده السلطان
تعجب منه وقيل وقع مثل ذلك في زمن الامام على
رضى الله عنه .

ومن جملة انعام الله تعالى على المسلمين أن
السلطان أبطل سفر العربان الذين أفردهم على
البلاد الشرقية والغربية والصعيد ، وقد تقدم
القول على أن السلطان قصد أن يأخذ معه في
التجريدة جماعة من الخيالة من فرسان العرب
يكونون أمام العسكر وقت الحرب ، فأحضر
مشايخ العربان والكشاف ، وأفرد عليهم نحو
خمسائه خيال وقيل خمسة آلاف خيال ، فنزلوا
الى البلاد قاطبة ، وصاروا يفردون على كل بلد
خيالين بمائة دينار وعلى البلد الكبيرة أربع خيالة
بمائتى دينار . فلما سمع أهل النواحي من الفلاحين
بذلك الأمر أخذوا البلاد وتركوا زروعهم في الأرض
ورحلوا وخرب بعض بلاد في هذه الحركة ... فلما
بلغ الأمراء ذلك وقفوا للسلطان وشكوا له من
ذلك ، وأن غالب البلاد تخرب وأخلاها الفلاحون
وأغلظ الأمراء على السلطان في القول وقالوا له :
نسافر معكم وتخرب بلادنا فمن أين نأكل ونسدد
ديواننا اذا سافرنا ؟ فاستحى منهم السلطان وأمر
بإبطال ذلك ، وأخرج مراسيم شريفة الى الكشاف
ومشايخ العربان بإبطال ما كان قد رسم به في
الأول ، وإعادة ما أخذ من الفلاحين بالنواحي .
فخرجت المراسيم الشريفة الى البلاد بمنع ذلك ،
ولو استمر على قوله الأول لخربت مصر عن

يصرف للذين تأخروا بمصر شيئاً ، وأحالهم على
الطباخين يصرفون لهم في غيبته .

وفي ذلك اليوم برز السلطان خيامه الى الريدانية
وقد تحقق أمر سفره الى البلاد الشامية ، ثم نادى
للعسكر في الميدان أن كل من جهز برقه ولا بقى له
عاقبة يخرج ويسافر ويتقدم قبل خروج السلطان ،
ولكن الى الآن لم يعلق السلطان الجاليش
الذى هو مقدمة الجيش اذا سافروا الى البلاد
الشامية ، وكانت العادة أنهم اذا سافروا الى البلاد
الشامية يعلقون الجاليش قبل خروجهم بأربعين
يوماً ، فلم يمش السلطان على طريقة الملوك
السالفة .

وفي يوم الخميس المذكور أرسل السلطان الى
أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله نفقة السفر ،
على يد حسام الدين الألواحى بواب الدهيشة ،
ألف دينار وكان الساعى له في ذلك الأمير طومان
باى الدوادار الكبير ، ولولا هو ما كان يرسل له
شيئاً ، فان السلطان أرسل للقضاة الأربعة يقول
لهم اعملوا برقكم ، ولم يرسل لهم شيئاً من النفقة ،
وقد حصل لهم غاية الكلفة والمشقة لأنه من حين
سافر الأشرف برسباى الى آمد سنة ست وثلاثين
وثمانمائة لم يخرج الخليفة ولا القضاة الأربعة الى
البلاد الشامية صحبة السلطان ، وكان للخليفة
والقضاة الأربعة على السلطان عادة أنهم اذا سافروا
الى البلاد الشامية يرسل لهم نفقة السفر ، فتغافل
السلطان عن ذلك .

ثم بعد أيام أرسل السلطان للخليفة سيفاً مستقلاً
بالذهب ، على يد شخص من الزردكاشية يقال له
محمد العادلى ، وقد تقدم القول على أنه أرسل له
نوبة جام جديد ، فكان مجموع ما حصل له من
السلطان من الانعام ، ذهب وغير ذلك ، دون ألفى

دينار ، وقد تكلف الخليفة في هذه الحركة على
مصرف برقه وغير ذلك نحو الخمسة آلاف دينار
أو أكثر .

وفي يوم الجمعة سابعه خرجت جماعة كثيرة من
ممالك السلطان ، وتوجهوا الى السفر نحو البلاد
الشامية ، وقد نادى عليهم السلطان قبل ذلك أن
كل من جهز برقه يخرج ويسافر قبل خروج
السلطان ، فصار يخرج في كل يوم جماعة من
العسكر شيئاً فشيئاً ولم يسافروا .

وفي ذلك اليوم حضر خليفة سبدي أحمد البدوى
وقد حضر بطلب من السلطان فلما مثل بين يديه
قال له اعمل برقك حتى تسافر صحبتى الى حلب .
فلما سمع ذلك تعلق وأظهر أنه ضعيف ولم يقدر
يسافر ، فحقق منه السلطان وألزمه بالسفر ولم
يقبل له عذراً . وأرسل بقول لخليفة سبدي أحمد
الرفاعى رحمة الله عليه اعمل برقك حتى تسافر
صحبتى .

فلما تحقق القضاة سفر السلطان أخذوا في
تجهيز أمرهم وعمل برقهم ، وعينوا معهم جماعة
كثيرة من النواب ، فتقلقوا من أمر السفر ، فعند
ذلك فرض القضاة الأربعة مبلغاً له صورة على
نوابهم على كل واحد من النواب قدر معين على
قدر مقامه ، فقامت الثائرة والشناعة على القضاة
بسبب ذلك . ولما بلغ السلطان ذلك الخبر أنكر
على القضاة هذه الفعلة .

وفيه طلع قاضى القضاة الشافعى كمال الدين
الطويل وصلى بالناس صلاة الجمعة ، ثم استأذن
فى الدخول على السلطان ، فدخل عليه وهو
بالدهيشة ، فلما جلس بين يدي السلطان شرع
يخلف له أنه لم يدخل كيسه شيئاً مما قرره على
النواب ، وانما النواب الذين عينوا للسفر قالوا

نجعل كلتتنا على النواب المقيمين بمصر . فلما سمع السلطان ذلك قال : « لا تشوشوا على أحد من النواب ولا تأخذوا أحدا منهم بالغصب ، فالذى يسافر من تلقاء نفسه يسافر والذي لا يسافر لا تخصبوه على السفر » ... فبطلت تلك الحادثة الشنيعة والله الحمد بعد ما كان جماعة من النواب شرعوا فى بيع قماشهم وكتبهم . وقد حصل لهم الضرر بسبب ما قرروه عليهم كما تقدم ذكره . ولم يقع للقضاة مع نوابهم مثل ذلك لما سافر الأشرف برسباى الى آمد .

وفيه عرض السلطان غلمانا للبيوتات من الفراشين والبايصة والركبخانة والحجارين والشريدارية والزردخانية من النفطية وغير ذلك ، وطلب الأمير علم الدين الذى يحكم على الطبالين والزمارين وألزمه أن يصرف على من يسافر صحبته من الطبالين والزمارين والمنقرين من كيسه ، وقال له : أنت تأكل معلوم هذه الوظيفة عدة سنين فأنتفق عليهم من عندك والا فعندنا من يلى هذه الوظيفة ويفعل ذلك . ثم عرض مغانى الدكة وهم أحمد أبو سنة والمحوج والمحلاوى ، وأمرهم بأن يسافروا صحبته ، ثم عين جماعة من التجارين والحجارين وأمرهم بالسفر معه ، ثم عرض هؤلاء المذكورين ولم ينفق عليهم شيئا ، بل صرف لهم جامكية أربعة شهور لا غير ، ولم يعطهم نفقة وقال لهم : « أنتم تأكلون جوامك السلطنة كذا وكذا سنة فعند ارادتى سفركم تطلبون منى نفقة » . وكان قبل ذلك لما قرر القضاة على نوابهم مبلغا مساعدة للنواب الذين يسافرون ، أفرد شمس الدين الظريف نقيب القراء على جماعة من القراء والوعاظ والمؤذنين ، وأمرهم أن يسافروا صحبة السلطان كما فعل القضاة مع نوابهم .

وفى يوم الأحد تاسعه حضر الى الأبواب الشريفة العجمى الشنقجى ، نديم السلطان الذى كان توجه بالأفيال الى نائب الشام ونائب حلب وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته غير ما مرة ، فظهر أن السلطان أرسله الى شاه اسمعيل الصفوى فى الخفية فى خبر سر بين السلطان وبين اسمعيل شاه كما أشيع ذلك بين الناس .

وفى يوم الاثنين عاشر ربيع الآخر خرج طلب السلطان . وكان من ملخص أمره أنه أخرج الطلب من الميدان قبل طلوع الشمس ومشى به من الرميثة ونزل من حدرة البقر وطلع به من الصليية ، وكان ما اشتمل عليه ذلك الطلب أنه جر فيه خمس عشرة نوبة هجن بأطوار زركش وكنابيش وخمس عشرة نوبة بأكوار مخمل ملون ، وأما الخيول فثلثمائة فرس ، منها مائة فرس بيركستوانات فولاذ مكفت بذهب وجواغين مكفتة بالذهب وشيء مخمل ملون ومنها ثلاث طوايل بكنابيش زركش وسروج ذهب ومنها ثلاث طوايل بعراقى وسروج بداوى وطبول بازات . وكان فى الطلب أربعة وعشرون تختا بأغشية حرير أطلس أصفر وكجاوتين مخمل بزركش وهما الجوشنان ، وكان فيه ست خزائن بأغشية حرير أصفر ، وكان فيه محفتان على البغال بأغشية حرير أصفر ، وكان بالطلب خمسة رءوس خيل خاصة منها اثنان بأرقاب مزركش وكنابيش وسروج بلور مزيكة بذهب وشيء عقبى وطبول بازات بلور مزيكة بذهب ، وكان به فرسان بكنابيش وسروج ذهب عليها غواشى ذهب وعليها هلالات ذهب عوضا عن الطيور ، وكان راكبا بالطلب بعض أمراء عشراوات رءوس بالشاش والقماش ، وبعض خدام من الطواشية ، وكان

راكبا به من المباشرين القاضى محمود بن أجا كاتب السر ، والقاضى محيى الدين القصرى ناظر الجيش ، والقاضى علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان كاتب السر ، والقاضى أبى البقاء ناظر الاسطبل ، والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، والقاضى شرف الدين الصغير كاتب الممالك وناظر الدولة ، والشرفى يوسى النابلسى الاستادار كان ، والقاضى كريم الدين بن الجيعان ، وأولاد الملكى وغير ذلك من المباشرين . ثم جاء الصنجنى السلطانى وانجرت الكئوسات والصناجق السلطانية والخليفة ، وكان به أربعة طبول وأربعة زمور وعشرة أحمال كئوسات ، وكان عادة طلب السلطان أن يكون به أربعون حمل كئوسات ، فشق طلب السلطان من الرميطة واصطف العسكر والجسم الغفير من الناس بسبب الفرجة على الطلب ، فلما مر الطلب لم يعجب الناس واستقلوا الخيول انى به .

وقال من أدرك طلب الأشرف برسباى لما خرج الى آمد : كان فى طلبه أربعمائة فرس مزينة بالبركستوانات المخمل الملون والفولاذ ، وميز بعض الناس يشبك الدوادار لما خرج الى شاه سوار على طلب السلطان وشكره على هذا الطلب ، لأنه كان مرتبا عن طلب السلطان ونزل من جهة باب الوزير ودخل من باب زويلة ، وشق من القاهرة وكان يوما مشهودا حتى رجت له القاهرة فى ذلك اليوم . فاستمر ينسحب حتى خرج من باب النصر وتوجه الى المخيم الشريف بالريدانية .

وفى ذلك اليوم خرج سنيح أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وكان قدماه طبلان وزمران ونفير . ولم يخرج فى ذلك اليوم غير طلب السلطان فقط ، وكانت العادة القديمة أن يخرج السلطان

عقيب طلبه ثم تنسحب أطلاب الأمراء بعده شيئا فشيئا ، فلم يمس السلطان على النظام القديم وخالف عوائد الملوك فى أشياء كثيرة من أفعاله ، منها أنه لم يعلق الجاليش على الطلخانات كعادة الملوك السالفة فانهم كانوا يعلفون الجاليش ، ويعرضون العسكر ثم ينفقون عليهم نفقة السفر ، ويستمر الجاليش معلقا الى أن يخرج السلطان ولو بعد شهرين .

وقد حكى عن الظاهر برقوق أنه لما جرد الى تمرلك خرج طلبه ينسحب من باب الميدان وكان الظاهر برقوق يرتب طلبه بنفسه وهو راكب على فرسه وفى بده طبر وبكر بفرسه من باب الميدان الى الصوة .

قيل أن السلاطين المتقدمة كانوا يخرجون الى البلاد الشامية عند ما تنتقل الشمس الى برج الحمل فى أوائل فصل الربيع والوقت رطب ، وأما الغورى فانه سافر فى قوة الحر والشمس فى برج السرطان فحصل للعسكر مشقة شديدة فى الطريق وليس من العادة القديمة أن السلطان يشق عند خروجه القاهرة بل يخرج من الصوة ، وفى العود يشق القاهرة . وكان السلطان الغورى لا تقتدى الا برأى نفسه فى جميع الأمور .

وفى يوم الخميس ثالث عشره أشيع بين الناس أن شخصا من ممالك السلطان الجلبان يقال له جانم الأفرنجى ، وكان مجرما عاقفا مسرفا على نفسه ، خرج صحبة الممالك السلطانية الذين تقدموا قبل خروج السلطان ، فصار جانم هذا يخطف كل شىء لاح له ، ويؤذى الناس بطول الطريق . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل مراسيم شريفة الى أرباب الادراك بأن يقبضوا عليه ويشنقوه حبث وجدوه من غير مشورة ، فقبل انهم قبضوا عليه وشنقوه على شجره فى بلييس وهو

بقماشة وسيفه وتركاشه ، ووضعوا غلمانهم في الحديد الى أن أتوا بهم الى المقشرة .

وفي يوم الجمعة رابع عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى القرافة وزار قبر الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، وكان صحبته ولده أمير آخور كبير ، وقيل انه تصدق في ذلك اليوم بمال له جرم .

وفي ذلك اليوم برز سنيح السلطان وتوجه الى الريدانية ، وكذلك الأمراء خرج سنيحهم .

فلما كان يوم السبت خامس عشره خرج السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى الى البلاد الشامية والحلية ، وللناس مدة طويلة لم يروا سلطانا خرج الى تلك البلاد على هذا الوجه من حين توجه الأشرف برسباى العلائى الى آمد ، وذلك في سنة ست وثلاثين وثمانمائة ، فكانت المدة نحو سبع وثمانين سنة .

ولما كانت صبيحة يوم السبت المذكور اجتمع سائر الأمراء المقدمين عند السلطان بالميدان ، وهم بالشاش والقماش ، فخلع السلطان في ذلك اليوم ميمر وأطلسين على الأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس وقرره في امرية السلاح ، وكانت شاعرة من حين قرر الأمير سودون العجمى فى الأتابكية ، فكانت عدة الأمراء المقدمين الذين تعينوا للسفر صحبة الركاب الشريف خمسة عشر أميرا ... منهم أرباب الوظائف خمسة وهم المقر الأتابكى سودون ابن جانى بك الشهير بالعجمى ، والمقر السيفى أركماس أمير مجلس سلاح ، والمقر الناصرى محمد ابن المقام الشريف أمير آخور كبير ، والمقر السيفى سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى قانصوه بن سليمان چركس ، ثم الأمير تمر الحسنى الشهير بالزردكاش ، والأمير

علان بن قراچا دوادار ثانى أحد المقدمين ، والأمير قانصوه كرت ، والأمير جان بلاط الشهير بالموتى ، والأمير تانى بك الشهير بالخازندار ، والأمير بييرس قريب السلطان ، والأمير أبرك رأس الجلبان الأشرفى ، والأمير آقبساي الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين ، والأمير كرتباى الأشرفى الذى كان والى القاهرة أحد المقدمين .

وأما الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف منهم الأمير يوسف الناصرى شاد الشرايخانه ، والأمير مغلباى ، والشرفى يحيى الزردكاش الكبير ، والأمير قاننى بك بن بخشباى رأس نوبة ثانى ، والأمير طومان باى قرا حاجب ثانى ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات . وأما الأمراء العشراوات فعين منهم جماعة كثيرة يخرجون الى السفر صحبة الركاب الشريف . وأما الأمراء الذين تخلفوا بالقاهرة فهم المقر السيفى طومان باى أمير دوادار كبير ابن أخى السلطان ، وقد تعين أن يكون نائب الغيبة عن السلطان الى أن يحضر ، والأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين ، والأمير أرزمك الشهير بالناشف ، والأمير قاننى بك النجمى أحد المقدمين وكان قرر فى امرية الحاج ، والأمير أربك الشهير بالملكحل أحد المقدمين ، والأمير قانصوه الفاجر أحد مقدمى الألو ، والأمير بخشباى أحد المقدمين ، وكان قد توجه الى الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك ، والأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين وكان مقيما بشجر رشيد بسبب عمارة الأبراج التى هناك والسور ، والأمير خدابردى نائب الاسكندرية أحد المقدمين وكان مقيما بها ، والأمير قانصوه الشهير برجله أحد الأمراء المقدمين نائب قطيا وكان مقيما بها .

فلما أشرقت شمس يوم السبت خامس عشر

ربيع الآخر المقدم ذكره انسحبت أطلاب الأمراء المقدمين المتوجهين صحبة الركاب الشريف ، فكان أولهم طلب الأمير كرتباى أحد المقدمين ، وهو الذى كان والى القاهرة ، ثم طلب الأمير أقباي الطويل أمير آخور تانى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير تانى بك الخازندار ، ثم طلب الأمير علان بن الأشرفي أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير قراجا الدودار الثانى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير بيبرس قريب السلطان ، ثم طلب الأمير جان بلاط الشهير بالموتر ، ثم طلب الأمير قانصوه كرت ، ثم طلب الأمير تمر الحسنى الشهير بالزردكاش ، ثم طلب الأمير قانصوه ابن السلطان جركس ، ثم طلب الأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، ثم طلب الأمير سودون الدودارى رأس نوبة النوب ، ثم طلب المقر الناصرى محمد ، نجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، ثم طلب الأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس وقد قرر أمير سلاح ، ثم بعد ذلك مشى طلب الأتابكى سودون بن جاني بك الشهير بالعجمى وكان طلبه غاية فى الحسن والترتيب .

فلما انقضى أمر الأطلاب خرج السلطان من باب الاصطبل الذى عند السلم المدرج ، فخرج وقدامه النفير السلطاني المسمى بالبرغشى وهو فى موكب عظيم قل أن يتفق لسلطان موكب مثل ذلك الموكب فكان فى أول الموكب الأفيال الثلاثة وهى مزينة بأنواع الزينة ، ثم ترادف العسكر المنصور بالشاش والقماش ثم الأمراء رءوس النوب بالعصى يفسحون الناس ، وقد ترادفت الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات قاطبة ثم أرباب الوظائف من المباشرين ، منهم المقر القاضى محب الدين محمود بن أجا كاتب السر الشريف ، والقاضى ناظر الجيش محبى

الدين عبد القادر القسروى ، ومنهم ناظر الخاص علاء الدين ابن الامام ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ومستوفى ديوان الانشاء الشريف ، والقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الشريفة وكاتب العساكر المنصورة ، والقاضى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة واستادار الذخيرة ، والشرفى يونس النابلسى كاتب جيش الشام واستادار العالية كان ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاصطبل المعمر ، وأولاد الجيعان كتاب الخزائن الشريفة ، وأولاد الملكى كتاب استيفاء الجيش ، وكاتب الزردخانه ، وغير ذلك من أرباب الوظائف من المباشرين ، والشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة

وكان حاضرا هذا الموكب السادة الأشراف اخوة الشريف بركات أمير مكة ، فكانوا فدام الأمراء المقدمين ، ثم تقدمت الأمراء المقدمون قاطبة وصحبته ولد السلطان المقر الناصرى أمير آخور كبير والى جانبه الأتابكى سودون العجمى . ثم من بعد ذلك تقدمت السادة القضاة الأربعة مشايخ الاسلام وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وقاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود ابن الشحنة ، وقاضى القضاة المالكى محبى الدين يحيى الدميرى ، وقاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ، ثم بعدهم أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين ، وعليه قباء بعلبكى بطراز أسود حرير ، ولم يكن على رأسه صنجق خليفتى ، وقد اختصر هذا الخليفة أشياء كثيرة مما كان يعمل للخلفاء المتقدمين من أقاربه . ثم مشى الجنائب السلطانية فكانوا طوائين خيل بعراقى وسروج

بغواشي حرير أصفر وطبول بازات ، وطولتي خيل
بكنايش وسروج ذهب وميائثر زركش وبعضهم
بسروج بلور مزيكة بالذهب وشيء عقيق مزيك
بفضة ، وقد تقدم ذكر الطلب بما شرح من وصفه
قبل ذلك ، ثم تقدمت جماعة من رعوس النوب
مشاة والجاويشية والطبردارية مشاة بالأطبار ،
ولهم يكن قدامه لا وطاق ولا شبابة سلطانية كما
هي عادة السلاطين في الموابك . ثم مشت البقيج
والمجاميع مغطية بالحرير الأصفر ومشى البخوري
بالمبخره قدامه ، ثم أقبل السلطان الملك الأشرف
قائمه الغورى عز نصره ، وكان الخليفة قدامه
بنحو عشرين خطوة . وكان السلطان راكبا على
فرس أشقر بسرج ذهب وكنبوش وعلى رأسه
كلوته وهو لابس قباء بعلبكي أبيض بطرز ذهب
على حرير أسود عريض قيل كان فيه خمسمائة
ذهب بنادقة ، وكان ذلك اليوم في غاية الأبهة
والعظمة ، فانه كان حسن الهيئة تماث منه العيون
مبجلا في الموابك ، وأقبل والصنjq السلطاني
على رأسه ومقدم الممالك سنبل العثماني خلفه
وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش والجهم
الكثير من الخاصكية والجمدارية . فدخل من باب
زويلة وشق القاهرة في ذلك الموكب الحافل ،
فارتجت له القاهرة في هذا اليوم ، وضجت الناس
له بالدعاء من العوام وغيرهم ، وانطلقت له النساء
بالزغاريت من الطيقان ، فاستمر في ذلك الموكب
حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا .
ثم وصل الى المخيم بالريداية ، ثم في عقيب ذلك
اليوم نزلت خوخجانات فيها الذهب والفضة
وضمن كل واحدة من الذهب العين ألف دينار
خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الأموال

التي جمعها من أوائل سلطنته الى أن خرج في هذه
التجريدة ، وفرغ أيضا حواصل الذخيرة وأخذ
ما فيها من التحف وآلات السلاح الفاخرة التي
كانت بها من ذخائر الملوك السالفة من سروج
ذهب وبلور وعقيق وغير ذلك من كنايش زركش
وطبول بازات بلور ومينة وبركستوانات مكفتة
وأكوار زركش وغير ذلك من التحف الملوكية .
فنزل جماعة من كتاب الخزينة صحبة الخوخجانات
وجماعة من الخازندارية وهم بالشاش والقماش ،
فكانت تلك الخوخجانات محملة على خمسين
جملا ، ثم نزلت الزردخانه وهي محملة على مائة
جمل ، وقدامها طبلان وزمران وعيدان نقر على
جمال ، فتوجهوا الى الوطاق .

وفي يوم الأحد سادس عشره أرسل السلطان
نادى في القاهرة أن الرحيل يوم الجمعة حادى
عشره ، فلا يتأخر أحد من العساكر الذى تعين
للسفر ولا يخنق بحجة ولا عذر ، ولما أقام السلطان
في الوطاق عين جماعة من نواب السادة القضاة
للسفر صحبة الركاب الشريف . فأما نواب
الشافعية : فعين منهم الشيخ زين العابدين نجل
القاضى كمال الدين الطويل ، والقاضى شمس
الدين بن وحيش ، والقاضى شمس الدين التهنى
امام الأمير أركماس أمير سلاح ، والقاضى زين
الدين الظاهري ... فجعل ذلك أربعة من نواب
الشافعية . وعين من مشايخ العلم الشافعية جمال
الدين الصابونى مفتى المسلمين ، والشيخ صلاح
الدين القليوبى قارئ الحديث الشريف ، وسافر
صحبة هؤلاء العلماء اخوة الشريف بركات أمير
مكة .

وأما من تعين من نواب السادة الحنفية : فالسيد
الشريف القاضى البردينى ، والقاضى زين الدين

الشرنقاوى ، والقاضى شرف الدين البلقينى ، والقاضى عز الدين خليل . وأما نواب السادة المالكية فتعين منهم : القاضى شمس الدين المدينى والقاضى معين الدين بن يعقوب . وأما نواب السادة الحنابلة فتعين منهم : القاضى شهاب الدين الهيمى والقاضى شمس الدين الطرابلسى . وأما من توجه صحبة الركاب الشريف من مشايخ الصوفية : فمنهم السادة الأشراف القادرية ، وخليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، والشيخ محمد بن كشك ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه ، والشيخ عفيف الدين شيخ مشيهد السيدة نفيسة رضى الله عنها . وأما من توجه صحبة الركاب الشريف من أئمة السلطان : فقاضى القضاة الحنفية شمس الدين السمديسى ، والشيخ شهاب الدين بن الرومى . وأما من توجه من مشايخ القراء صحبته : فالشيخ شمس الدين بن الطريف ، والشيخ الخواص ، والرومى ، والشيخ حسن الطنتنائى ، وابن القاضى خليل ، والشيخ أبو الفضل الفار ، وابنا عثمان الاثنان . وأما من سافر معه من المؤذنين ، فمنهم : نور الدين الخواص ، ونور الدين الحسنى ، وجلال الدين ، وناصر الدين . وأما من توجه صحبة السلطان من الموقعين : فمنهم القاضى رضى الدين الحلبي ، والقاضى عمر بن معين الدين ، والقاضى علم الدين العباسى ، والقاضى محب الدين الظاهرى ، وشمس الدين الجيزى ، وسعد الدين بن الرومى . وأما من توجه صحبته من كتاب الخزينة فمنهم : القاضى كريم الدين عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى أحمد ، والقاضى شمس الدين محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان . وأما كتاب الزردخانة فمنهم : القاضى زين الدين عبد الباسط ، والقاضى

عبد الكريم بن الأذننى ، وغير ذلك من المباشرين . وأما من توجه صحبه السلطان من الاطباء فمهم . محمد ابن الرئيس شمس الدين القوصونى وهو رأس الاطباء الا ان ، وصحبته جماعه من الاطباء ، ومن الكحالين عبد الرحمن ابن الشريف ، ومحمد ابن العفيف ، وآخرون . ومن المزينين عبد القادر المرشدى وآخرون من الجراحية . وأما من توجه صحبته من مغانى الدكة : فهم نور الدين المحجوب وأحمد بن أبى سنة وأحمد المحلاوى . وتوجه صحبة السلطان جماعة كثيرة من البنائين والتجارين والحدادين كما جرت به العادة .

وسافر معه شيخ المشايخ ، المسمى بشيخ الحرافيش ، وجنده وصنجه وطبله ، وكان هو قدام طلب السلطان لما دخل الى دمشق كما جرب به العوائد القديمة عند خروج التجاريد .

ولما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر رحل من المخيم الشريف ثلاثة من الأمراء المقدمين وهم الأمير كرتباى الأشرفى الذى كان والى القاهرة وبقي مقدم ألف ، وكان جملة ما معه من ممالিকে أربعين مملوكا ، والأمير أبرك الأشرفى والأمير بيبرس قريب السلطان ، وكان جملة ما معه من ممالিকে أربعة وأربعين مملوكا .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره رحل من الأمراء المقدمين ثلاثة أيضا وهم : الأمير تانى بك الخازندار وكان جملة ما معه من ممالিকে اثنين وستين مملوكا ، والأمير قانصوه كرت وكان جملة ما معه من ممالিকে اثنين وخمسين مملوكا ، والأمير قانصوه ابن سلطان جركس وكان جملة ما معه من ممالিকে ستة وسبعين مملوكا ، وأما الأمير جان بلاط الموتر فكان جملة ما معه من ممالিকে ستة وثلاثين مملوكا ،

والأمير تمر الزرد كاش كان جملة ما معه من مماليكه اثنين وسبعين مملوكا .

وفي يوم الجمعة حادى عشريه رحل من الأمراء المقدمين أرباب الوظائف الأمير أنص باى حاجب الحجاب وكان جملة من معه من المماليك أربعة وستين مملوكا ، والأتابكى سودون العجمى ، وأما المقر الناصرى ولد السلطان أمير آخور كبير والأمير أقبای الطویل أمير آخور ثانی فانهما لا یرحلان الا فی ركاب السلطان ، وكان جملة ما مع الأتابكى سودون من مماليكه مائة وخمسة وثلاثين مملوكا ، وولد السلطان عشرين مملوكا كتابية صغارا للخدمة ، وجملة ما مع الأمير أقبای الطویل من مماليكه خمسة وأربعين مملوكا ، فكان جملة ما مع هؤلاء الأمراء الذين توجهوا صحبة السلطان تسعمائة وأربعة وأربعين مملوكا على ما قيل . ويقال ان عدة المماليك الذين خرجوا فی هذه التجريدة من القرائصة والجلبان وأولاد الناس خمسة آلاف نفر ، على ما قيل ، والله أعلم . وقيل تأخر بالقاهرة من المماليك القرائصة والعواجز والشیوخ والمماليك الجلبان فی الطباق والقلعة وأولاد الناس نحو ألفی نفر على ما قيل .

ولما كان السلطان بالمخیم الشريف ورد علیه مطالعة من عند نائب حلب واذا فیها : « ان ابن عثمان أرسل قاصدا فعوقناه عندنا وأخذنا الكتاب منه وهاهو واصل لكم » فوصل الیه وهو بالمخیم بالریدانية . ولما فكه السلطان وقرأه فاذا فیه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة ، منها أنه أرسل يقول له : « أنت والدى وأسألك الدعاء وانى ما زحفت على بلاد على دولات الا باذنك وانه كان باغیا على ،

وهو الذى أثار الفتنة القديمة بین والدى والسلطان قايتباى حتى جرى بينهما ما جرى ، وهذا كان غاية الفساد فی مملکتكم وكان قتله عين الصواب . وأما ابن سوار الذى ولى مكانه فان حسن ببالکم أن تبقوه على بلاد آبيه أو تولوا غیره ، فالأمر راجع اليکم . وأما التجار الذين یجلبون الممالیک الجراکسة فانى ما منعهم وانما هم تضرروا من معاملتکم فی الذهب والفضة فامتنعوا عن جلب الممالیک اليکم ، وان البلاد التى أخذتها من على دولات أعیدها لکم وجميع ما ترومونه ویریده السلطان فعلناه » .

فلما سمع السلطان ذلك أحضر الأمراء المقدمين وقرأ علیهم کتاب ابن عثمان ، فانشرح الأمراء والسلطان لهذا الخبر ، واستبشروا بأمر الصلح والعود الى الأوطان عن قريب ... وكان هذا كله حیل وخداع من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده ، وقد ظهر حقيقة ذلك فیما بعد .

وفي عقیب ذلك اليوم حضر الأمير اینال باى الدوادر سكين ، الذى كان توجه الى حلب بسبب كشف خبر ابن عثمان ، فلما حضر وجد السلطان قد برز خيامه الى السفر وخرج من القاهرة فأخبر أن قاصد بن عثمان وصل الى حلب ، وأن ابن عثمان یقصد الصلح بینه وبين السلطان ، فقدم لاینال باى هناك مقدمة حافلة .

ومما وقع للسلطان وهو بالوطاق أن ليلة رحيله من الريدانية خلع على الأمير طومان باى الدوادر كاملية بسمور حافلة وقرره نائب الغيبة بالقاهرة الى أن یحضر . وخلع على القاضي بركات بن موسى وقرره فی الحسبه عوضا عن الأمير مامای الى آن

يحضر ، وجعل الزينى بركات بن موسى المذكور متحدثا في جميع أمور السلطنة . وفي تلك الليلة أحضر مشاعل موقدة فطارت منها شرارة على خيمة السلطان فاحترق جانب منها ، فلم تتفائل الناس بذلك بسبب السلطان . فلما دخل الزينى بركات ابن موسى الى القاهرة تضاعفت عظمتة الى الغاية وصار في مقام نظام الملك وهو المتصرف في أمور المملكة ، والأمير الدوادار الكبير معه كاللؤلؤ يديره كيف يشاء .

وفي تلك الليلة أيضا خلع على الأمير ألماس ، وقرره والى القاهرة وأوصاه بحفظها وعدم الظلم ، وخلع على الأمير ماماي المحتسب ورسم له بالسعر معه الى حلب ، فرجع الأمير الدوادار من عند السلطان وشق من الصليبة في موكب حافل وقدامه المنادون ينادون بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد من الناس يشى من بعد العشاء بسلاح ، ولا يشوش مملوك ولا غلام على مسبب ، وأن من كانت له ظلامة أو حق شرعى على أحد ولم يدفعه له فعليه بباب الدوادار فارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء . وكان الأمير الدوادار محببا للرعية والفقراء ، قليل الأذى في حق الناس . ولما شق الصليبة شق في موكب حافل وقدامه السعاة والسقاة والجم الكثير من الناس والأتباع والمماليك السلطانية ، وتوجه الى منزله في ذلك الموكب . وقد قلت في ذلك :

لقد شرف الأكوان نائب غيبة

أمير دوادار الى النهى والأمر

كريم شجاع في المعامع فارس

له نصره في الحرب بالبيض والسم

إذا ما اشتكى المظلوم من جور ظالم
له طلعة بالعدل تؤذن بالفجر

فيارب كن عوننا له ومساعدنا
على كل ما يغشاه من حادث الدهر

وأبق ابن موسى للرعية انه
كليم زكى القلب أمن من السحر

جناب كريم نم ناظر حسبه
ومولده قد كان في ليلة القدر

وللسادة الأشراف ينظر بالتقى
ونال بهذا غاية الفوز بالأجر

وصار لديوان الذخيرة ناظرا
وعامله في أعناق أعدائه يبري

عزيز بمصر حاز طلعة يوسف
أعوذه بالنجم والنور والحشر

وفي يوم السبت ثاني عشرى ربيع الآخر رحل السلطان من المحيم الشريف بالريديانية وصحبته الحليفة والقضاة الأربعة وولده المقر الناصرى أمير آخور كبير وأقبای الطويل أمير آخور ثاني فصلى صلاة الصبح ورحل وتوجه الى خانقاه سرياقوس ، وكانت مدة اقامته في الوطاق بالريديانية سبعة أيام ، فلما توجه الى خانقاه سرياقوس أقام بها يوما وليلة ورحل عنها يوم الأحد ثالث عشرية .

وفي يوم الاثنين رابع عشرية فرقت الجامكية الثالثة على العسكر الذى تأخر بمصر ، فجلس الأمير طقطبای عند سلم المدرج ، وصرفت الجامكية بحضرته ... وهذه أول جامكية صرفت في غيبة السلطان .

وفي ذلك اليوم رسم الأمير الدوادار للأمرء المقدمين الذين عينهم السلطان الى الشرقية والغربية بأن يخرجوا ويسافروا لأجل حفظ البلاد

فقبضوا على ذلك الرجل الذي زعموا أنه فداوى
وأحضروه بين يدي السلطان ، فقرر فأنكر فرسم
بشنقه .

ثم ان السلطان أرسل يقول للأمير ألماس والى
القاهرة بأن يكبس على علم الدين وعلى أقاربه
ويقبض عليهم ويشنق علم الدين على بابه ، فلما
بلغ علم الدين الجلبى ذلك اختفى وهرب من
بيته .

ثم ان الوالى قبض على جماعة من الساسة
من أقارب علم الدين ووضعهم فى الحديد ، فأشيع
بين الناس أنهم شنقوهم فى المقشرة أو سجنوهم
حتى يحضر السلطان . وكان قبل ذلك حرق
للأمراء أيضا عدة شون دريس فى الحسينية بنحو
ألفى دينار ، فنسبوا ذلك لفعل جماعة من الساسة
من أقارب علم الدين الجلبى ، واذا وقعت البقرة
كثرت سكاكينها ، واستمر الطلب الحثيث على
علم الدين الجلبى الى أن ظفروا به ، فقبل ان
الوالى لما هرب علم الدين أرسل مماليكه باللبس
الكامل فى طلب علم الدين فلم نظفروا به .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره خرج الأمير
الدوادار وسافر بسبب سد جسر الفيض وجسر
أبى المنجا وقد أعيا الخولة سدهما ، وكان النيل
قد زاد قبل المنادة ، وكان فى اثنى عشر ذراعا
فتعب الأمير الدوادار فى سد تلك الجسور غاية
التعب ، وكسر مراكب فى أساس هذين السدين
والماء بقوى على ما يصنعون الى أن أعان الله
وسدهما ورجع .

وفى جمادى الأولى خرج الأمير مامى الصغير
المحتسب وسافر ولحق السلطان ، وخرج صحبته
صبي صغير عمره ثلاث عشرة سنة ويقال له قاسم

من فساد العربان ، فتوجه الأمير تانى بك الى
الشرفية ، والأمير أزبك المكحل الى الغربية ،
والأمير قانصوه الفاجر الى المنوفية ، والأمير
قانصوه أبو سنه الى البحيرة ، والأمير بخشبای
كان مسافرا الى جهة الفيوم بسبب عمارة الجسر
الذى هناك . ثم نادى الأمير الدوادار فى القاهرة
لجميع المماليك السلطانية المعينين الى البلاد بأن
يخرجوا صحبة الأمراء الذين يسافرون الى الشرقية
والغربية ولا يتأخر عن ذلك أحد من المماليك
المعينة للسفر فامثلوا ذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشره توفى الأمير نوروز
تاجر المماليك وأحد الأمراء الطبلخانات ، وكان
أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان قد كبر
وثقل فى الشحم حتى عجز عن الحركة ، واستمر
على ذلك حتى مات ، فأشيع أن السلطان أنعم على
مملوكه مامى الذى قرر فى الحسبة بىرك نوروز
وخيله وبغاله وخيامه على ما قيل والله أعلم .

وفى ذلك اليوم أظلم الجو وأرعس وأبرق ،
وأمرت السماء مطرا غزيرا ، وكان ذلك فى أول
بؤونة من الشهور القبطية ، فاستمر المطر عمالا
ثلاثة أيام متوالية حتى عد ذلك من النواذر . وقام
عقيب ذلك رياح واصفر الجو صفرة عظيمة وقت
المغرب ففتاءل الناس بوقوع فتن فى الوجود وقد
جرى فيما بعد .

وفى ذلك اليوم جاءت الأخبار من عند السلطان
أنه لما رحل من الخانقاه وجد فى وطاقه شخص من
السعادة ، زعموا بأنه فداوى أرسله علم الدين
چلبى السلطان الذى تغير خاطره عليه كما تقدم
ذكر ذلك ، فقال أعداء علم الدين انه أرسل ذلك
الفداوى ليقتل الصبى المسمى بعبد الرزاق الذى
صار چلبى السلطان عوضا عن علم الدين ،

ابن أحمد بك بن أبي يزيد بن عثمان وكان عمه سليمان شاه ابن عثمان لما قتل أخاه أحمد بك فر ابنه قاسم هذا هو ولالاه ، ودخل الى حلب في الخفية ثم جاء الى مصر وأقام بها الى أن خرج السلطان الى جبة البلاد الشامية ، فأخذه صحبته ليبلغ بذلك مقاصده ، فلم يفد من ذلك شيء . ولما خرج صحبة الأمير ماماي خرج وقدامه جنائب ، وكان السلطان قد قام له بمصالح البرق ، وتكلف عنه بنحو ألفي دينار حتى يظهر أمره ويشاع ذكره في بلاد بني عثمان بأن في مصر من أولاد بني عثمان ولدا ذكرا ، وظن السلطان أن عسكر ابن عثمان اذا سمعوا ذلك يخامرون على سليمان شاه ويأتون الى هذا الصبي قاسم ، فلم يظهر لهذا الأمر نتيجة ولا أفاد ما قصده شيئا ، فشق من الصليبة وعلى رأسه عمامة تركمانية وفي وسطه خنجر ملوكي . وقيل كان في أذنه بلخشة مشنة ، وصحبته جماعة من العثمانية . وخرج صحبته الأمير ماماي والأمير اينال باي دودار سكين الذي كان قد حضر من البلاد الشامية ، فرسم له السلطان بالعود ثانيا صحبته الى حلب .

ومن الحوادث التي جرت في غيبة السلطان أن الأمير ألباس والى الشرطة صار يحجر على الناس ، ويأمرهم بأن يعبروا على الحارات والأزقة دروبا في أماكن شتى ، فعمروا دربا في رأس سوق الدريس ودربا في الحسينية ودربا على قنطرة الحاجب ودربا عند الفرايين وآخر عند خوخة القطانين وآخر عند المقس وعدة دورب في أماكن شتى ، وسد عدة خوخ كانت بالقاهرة فصار على رأس الناس طيرة بسبب المناسر والحريق بالقاهرة ، وأمرهم بأن يعلقوا على كل دكان قنديلا ،

وإذا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء ولا يمشى بسلاح .

ومن الوقائع اللطيفة أن الأمير الدودار لم يشوش على أحد من أجناد الحلقة ولا ألزمهم بالمبيت في القلعة في غيبة السلطان ، وكانت العادة القديمة أن السلطان اذا سافر نحو البلاد الشامية تتسلط نقباء القصر على أولاد الناس من نقباء الحلقة ويلزمونهم بالمبيت في القلعة في كل ليلة في مدة غيبة السلطان الى أن يحضر من السفر ، فيحصل لهم مشقة زائدة ويقاسون تعباً شديداً بسبب طوعهم كل ليلة الى القلعة ليبيتوا بها بعيداً عن بيوتهم في الشتاء ، والذي لا يبيت يقيم له بديلاً يبيت عنه بالقلعة . وكان ذلك يعمل الى أيام الأشرف قايتباي لما كان يسافر ، فلم يتعرض الأمير الدودار لما سافر الغوري الى أحد من الناس من أجناد الحلقة ، فكتب ذلك في صحيفة الأمير الدودار ودعا له أولاد الناس الذين أبطل عنهم هذه السنة السيئة .

ومن الحوادث في غيبة السلطان أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان قصد أن يشتري قمحا من مركب على شاطئ البحر ، فلما اشتراه لم يجد تراسا فوجد شخصا من الفلاحين الصعايدة ومعه حمار وزكية ، فأمسك المملوك ذلك الحمار والزكية فلم يعطه الفلاح إياهما ، وتنازع معه فضربه المملوك ضربا مبرحا على رأسه حتى سال دمه ، فألقى الرجل نفسه في البحر فأغمر عليه فمات ، فعند ذلك تكاثر الناس على ذلك المملوك فمسكوه وأتوا به الى بيت الأمير الدودار ، فوضعه في الحديد وأرسله الى الوالى ... فلما بلغ خشدشيينه أتوا الى بيت الدودار فوجدوه غائبا نحو جسر الفيض بسبب سده ، فقبل للمماليك

ان ذلك المملوك سلمه الأمير الدوادار الى الأمير
المناس الوالى ، فعند ذلك نزل من الطابق الجهم
الكثير من الممالك الجلبان لأجل أن ينهبوا بيت
الوالى ويحرفوه ويطلقوا المملوك ، فتغافل الأمير
الدوادار عن أمر ذلك القليل وراحت على من
راحت .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن شخصا من
الطواشية يقال له عنبر مقدم طبقة الأشرفية ، وكان
ساكنا بالقلعة فى خرائب تتر وكان متهما بالمال ،
وكان عنده ودائع من جوامك الممالك ، فنزل عليه
بعض الحرامية وهو راقد فى بيته ليلا وضربوه
على رأسه بالجلبات حتى مات ، وأخذوا جميع
ما فى بيته ، وقتلوا عبده وجاريته ولم ينتطح فيها
شأتان ، حتى تحير الأمير طقطبى نائب القلعة من
ذلك ، وكيف جرى فى وسط القلعة والأبواب تغلق
من بعد المغرب ... فعند ذلك من العجائب !

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى قاضى القضاة
الشافعية جمال الدين ابراهيم ابن الشيخ علاء
الدين القلقشندى رحمة الله عليه ، وكان من أهل
الدين والعلم والفضل وله سند عال فى الحديث
الشرىف ، وولى منصب القضاة فى أيام الأشرف
الغورى مرتين . وكان قد كبر وشاخ وقارب
التسعين سنة ، وكان من أعيان علماء الشافعية
رحمة الله عليه .

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان دخل الى
الصالحية فى يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر .
قيل انه لما أراد الرحيل منها أذن للخليفة والقضاة
الأربعة أن يتقدموا الى غزة ، ثم لما وصل الى
قطيا لاقاه الأمير قانصوه رجلة نائب قطيا ومد له
هناك مدة حافلة ، وقدم له تقديمة جيدة على
ما قيل .

ومن الاشاعات التى أشيعت فى أثناء الطريق
أنه سرقت بغلة قاضى القضاة الحنفية ثم ظهرت
بعد ذلك وتكلف عليها الحلوان حتى رجعت اليه .
وأشيع أن بقجة فيها قماش قاضى القضاة الحنبلى
سُرقت من خيمته . وأشيع أنه قد سرق للسلطان
جمل عليه مال له صورة ، فقبض على من فعل
ذلك ، ووسط من الجمالة ثلاثة أنفار ... وكل ذلك
اشاعات ليس لها صحة .

ثم وردت الأخبار أن السلطان دخل مدينة غزة
المحروسة يوم الخميس رابع جمادى الأولى ،
فلاقاه الأمير دولات باى نائب غزة ومد له مدة
حافلة ، وقدم له تقدمة عظيمة ، وقيل انه أقام بها
خمس أيام ورحل عنها .

وأشيع أن السلطان لما كان بغزة خلع على جمال
الدين الألواحى بواب الدهيشة وقرره معلم
المعلمين عوضا عن الشهابى أحمد بن الطولونى
بحكم انفصاله عنها ، وكان هذا من غلطات الزمان
فى تولية الوظائف غير أهلها .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره طلع ابن أبى الرداد
بشارة النيل المبارك ، فأخذ القاعدة فجاءت اثنى
عشر ذراعا وهذا من النواذر ، وقد بقى على الوفاء
سنة أذرع . هكذا نقله المقرئ فى الخطط ، وزاد
الشيخ جلال الدين السيوطى فى كتابه المسمى
بكوكب الروضة أربعا وعشرين اصبعاً . وكان
الناس من أيام الناصر محمد بن قلاوون ما رأوا
القاعدة جاءت اثنى عشر ذراعا ، فان أيامه سنة
احدى وستين وسبعمائة جاءت القاعدة اثنى عشر
ذراعا وكان الوفاء سادس مسرى وبلغت الزيادة فى
تلك السنة الى ما بقرب من أربعة وعشرين ذراعا ،
فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل ،

واستمتعوا في هبوطه حتى هبط بعد ما مكث الى آخر توت .

ثم في أيام الأشرف برسباي في سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة جاءت القاعدة أحد عشر ذراعا وعشر أصابع . وكان الوفاء ثاني مسرى وبلغت الزيادة في تلك السنة عشرين اصبعاً من الذراع العشرين ، وثبت الى أواخر بابيه . فلما جاءت القاعدة في هذه السنة اثني عشر ذراعا حسبت الناس أن النيل يمكث على الأراضى وقت أوان الزرع وأنه يبقى في غير أوانه ، فما حصل في هذه السنة الا كل خير ، ووفى النيل في أوانه ، وسيأتى الكلام عليه في موضعه .

وفي يوم السبت سبع عشرية توفي الأمير جاني باي من طبقة الزمائية ، وكان من أمراء الطبلخانات وأصله من مماليك الأشرف قاينباي ، وكان لا بأس به .

وفيه أخرجوا فلوساً جدداً وأبطلوا الفلوس العتق ، ونادوا بأن الفلوس العتق بنصفين الرطل والجدد معاددة ، فوقف حال الناس بسبب ذلك .

وفي جمادى الآخرة وكان مستهله يوم الثلاثاء ، توجه جماعة من نواب القضاة وأعيان الناس الى بيت الأمير الدوادار وهنوه بالشهر .

وفي هذا الشهر وردت الأخبار بأن السلطان دخل الى دمشق المحروسة يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى ، فلاقاه الأمير سيباي نائب الشام ودخل في موكب حافل وقدمه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشراوات وأرباب الوظائف من المباشرين والجسم الكثير من العسكر والناس . ولما لاقاه أمراء الشام وعساكرها ، وحمل على رأسه القبة والجلالة كما جرت به عوائد الملوك من قديم الزمان ، فزينت

له مدينة دمشق زينة حاذلة ودعت له البشائر بقلعة دمشق ، وتتر على رأسه بعض بجار الأفرنج ذهباً وفضة وفرش له سيباي نذرت حافر فرسه الشقي الحرير ، وازدحمت عليه المساليك بسبب نثار الذهب والفضة ، فكاد السلطان يسقط عن ظهر فرسه من شدة زحام الناس عليه ، فسنعهم من نثار الذهب والفضة ومن فرش الشقي الحرير تحت حافر فرسه ، فكان له بدمشق يوم دشهود وعد ذلك من المواكب المشهودة . فاستمر ذلك الموكب الحفل حتى دخل من باب النصر الذي بدمشق ، وخرج الى الفضاء منها ، وتوجه الى المصطبة التي يقال لها مصطبة السلطان ، وهى بالقابون القاقوني ، فنزل هناك ورسم لبعض حجاب دمشق بمارتها ، وكانت قد تشعثت من مرور السنين . وهذا الموكب لم يتفق لسلطان من بعد الأشرف برسباي لما توجه الى الشام في سنة ست وثلاثين وثمانمائة سوى الملك الأشرف قانصوه الغوري .

ثم ان السلطان أقام بالمصطبة التي بالقابون تسعة أيام . وقيل ان قاضى القضاة كمال الدين الطويل خطب بجامع بنى أمية جمعيتين ولم يحضر السلطان هناك لصلاة الجمعة . وقيل استمرت مدينة دمشق مزينة سبعة أيام ، ثم ان السلطان رحل عنها وتوجه الى حمص ، ثم رحل عنها وتوجه الى حماه فلاقاه نائبها جان بردى الغزالي . قيل انه مد له هناك مدة حافلة أعظم من مدة أمير الشام على ما أشيع . وقيل ان السلطان لما رحل من حماه نزل بها قاسم بك بن أحمد بن عثمان الذي تقدم ذكره عندما خرج من مصر وسافر صحبة الأمير ماماي المحتسب كما تقدم .

وقيل انه في ليلة الاثنين رابع عشر هذا الشهر خسف جرم القمر خسوفاً فاحشاً ، حتى أظلمت

الدنيا وأقام في الخسوف فوق خمسين درجة ،
وتغطى بالسواد جميعه ، واستمر في الخسوف الى
ثلاث الليل الأخير .

وفي يوم الاثنين رابع عشره رسم الأمير الدوادار
بشئى شخص من العربان المفسدين على قنطرة
الحاجب .

وقد ضبط الأمير الدوادار أحوال الديار المصرية
في غيبة السلطان ضبطا جيدا ، ورسم للأمير ألماس
والى القاهرة بأن يطوف في كل ليلة من بعد
العشاء ، وعين معه مائة مملوك من المماليك الجلبان
يطوفون معه : كل ليلة تنزل جماعه من المماليك
من طباقهم بالنوبة ويطوفون مع الوالى الى طلوع
الفجر ، فلم يقع في غيبة السلطان في القاهرة الا كل
خير ، وكان ذلك على غير قياس .

وكان الأمير الدوادار في كل وقت يقمع الأمير
ألماس الوالى بسبب ما أخذه من الناس لأجل
الدورب ، وقد أفحش في الظلم في هذه الحركة ،
فكان يتفق مع أرباب الأدراك والخفراء فيجبون له
من سكان الخطط والحارات لأجل عمارة
الدورب ، فجبوا له من الناس أموالا لها صورة ...
فكانت الخفراء اذا وقفوا على باب أحد من
السكان يقررون عليه من الدراهم بحسب ما
يختارونه من ذلك ، فاذا هرب صاحب الدار
سمروا الباب على أولاده وعياله حتى يحضر ويدفع
لهم ما قرروه عليه ، والمرأة الأرملة يسمرون بابها
عليها ويتركونها بالجوع والعطش حتى ترمى لهم
من الطاقة للحناف أو الطراحة أو البساط أو غير
ذلك ، فكانوا يقررون على الفقراء من الناس شئ
أشرفى وشئ أشرفين ، وأما أعيان الناس فكانوا
يقررون عليهم شئ خمسة أشرفية وشئ عشرة
أشرفية بحسب ما يختارونه ... ففعلوا مثل ذلك

بخط المتس وخط باب البحر وسويقة اللبن
بالحسينية وسوق الدريس وخط بركة الرطلى
وغير ذلك من الأماكن والخطط ، ففعلوا في هذه
الحركة ما لم يفعله هناد ، من وجوه الظلم
والفساد ، وهم يزعمون أن في ذلك نفعا للمسلمين
في عمارة الدورب . فجبوا من هذه الحركة مالا له
صورة ، ولم يصرفوا منه الا القليل .

ثم حسنوا للوالى عبارة بأن يجبى من جامع
ابن طولون الى مشهد السيدة نفيسة الى
آخر السوق الطولونى على جميع الأملاك
والدكاكين التى هناك ، وزعموا أنهم ينشئون
سورا على حدرة ابن قميحة الى باب القرافة ،
وزعموا أن ذلك يمنع هجمة العربان على حين
غفلة ، وكل هذا حيلة على أخذ مال الناس .
فشرعوا في كتب أسماء الدكاكين والأملاك التى
بتلك الحارات الطولونية والقرافية . فلما بلغ
الأمير الدوادار زجر ألماس وحط عليه . وكان
أشاع ذلك على لسان الأمير الدوادار فحلف الأمير
الدوادار أيمانا مغلفة أنه ما له علم بذلك ، وأبطل
هذه الحادثة المهولة فدعا له الناس قاطبة .

ثم ان جماعة حاجب الحجاب قصدوا أن ينشئوا
مظلمة أخرى ، وهى أنهم يجبون من سكان بركة
الرطلى مالا له صورة بسبب قطع الطين الذى في
فم البركة ، فانه كان قد علا جدا حتى امتنع دخول
المراكب للبركة ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك
أبطل هذه الفعلة أيضا ورسم بسد فم البركة رأسا
حتى لا تدخل اليها المراكب .

وفي يوم السبت تاسع عشره حضر الأمير
الدوادار وكان قد توجه الى القيوم ليكشف عن
الجسر الذى عمره الأمير بخشبائى هناك ، فكشف
عليه وعاد بعد أيام .

تمتع بماء النيل قبل وفائه
فقد طاب منه الشرب وهو لنا طيب

وقد سكبت منه الجنادل فيضها
فأضحى بلا شك حلاوته سكب

ومن الحوادث أن الأمير الدوادر نائب الغيبة
منع الناس أن يسكنوا الجسر الذي ببركة الرطلى
والحلجان فاطبة ، وعمل جسرا على خليج الزربية
عند موردة الجبس ، فأل أمر الجزيرة الوسطى
الى الخراب . فلم يكن بها بيت ، ولا فتح فيها
دكان ، ومنع المقاصفية أن ينصبوا مقصفا في
الجسر ، ولا في الزربية ، فلم يكر في الجسر ولا في
الزربية بيت ولا دكان ، ولم يسكن المسطاحى ولا
حكر الشامى ولا الزربية ، وصارت بيوت بركة
الرطلى خاوية على عروشها ولا سيما بيوت أولاد
الجيحان وبيت كاتب السر وغير ذلك من بيوت
الأعيان ، فحصل للناس في هذه السنة غاية الإنكاد
بسبب ذلك ، وخسر الناس كراء بيوتهم . وأشيع
سد خوخة الجسر ، فتلطف القضاى بركات بن
موسى المحتسب بالأمر الدوادر فى أن يسمح
للناس فى دخول المراكب على العادة ، وأن يسكنوا
الجسر فأبى من ذلك ، وقال ان العوام يفسدون
نساء الأغوات المسافرين صحبة السلطان فى هذه
النيلية ، واستمر مصمما على منع ذلك .

ثم فى أواخر النيلية شفع القضاى بركات بن
موسى فى خمسة مراكب للبياعين أن تدخل فى
البركة على العادة ، فدخل الحلوانى والجبان
والفاكهانى والعداس والسويخاتى لا غير ، فأقاموا
أياما يسرون فلم يجدوا من يبيعون عليه ، فمضوا
الى حال سبيلهم . واستمرت بركة الرطلى ليس بها
ديار ولا نافخ نار ، فعند ذلك عمل الشيخ بدر

وفى غيبة السلطان كان الأمير الدوادر يركب
كل يوم ومعه الأمراء العشراوات الدين بمصر
ويسرون نحو المطرية وبركه الحاج ، فاذا رجع
يدخل من باب النصر ، وقدامه الجم الكثير من
الأمراء والعسكر ، وكل هذا لأجل العرب
والفلاحين حتى لا يظنوا أنه ما بقى فى مصر عسكر
ولا يطمعوا فى أمر العامة ، وكان هذا من الآراء
الحسنة .

وفى يوم الاثنين حادى عشرى جمادى الآخرة
الموافق لسابع عشرى آيب كان وفاء النيل المبارك ،
وفتح السد يوم الثلاثاء ثانى عشرىه الموافق الثامن
عشرى آيب ، وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة
أيام ، وكان للناس مدة طويلة من سنة خمس
وأربعين وثمانائة ما رأوا النيل وفى سابع
عشرى آيب الا فى تلك السنة . فصنف منادى
البحر هذه الكلمات : « يا حبيب اهنا وطيب ،
النيل أوفى فى آيب ، وقد بقينا فى هنا ، يافرحنا » .
وكلمات آخر غير ذلك .

فلما وفى النيل توجه الأمير طومان باى الدوادر
نائب الغيبة لفتح السد فنزل فى مركب الحراقة
وتوجه الى المقياس وخلق العمود . ثم نزل من
المقياس فى الحراقة المذكورة وصحبته جماعة من
الأمراء المقدمين الذين كانوا بمصر ، منهم الأمير
قطبباى نائب القلعة والأمير أرزمك الناشف
وآخرون من الأمراء ... فتوجه لفتح السد وكان
يوما مشهودا . فلما فتح السد عاد الأمير الدوادر
الى بيته فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء بالشاش
والقماش ، وجماعة من المباشرين . فلما فتح السد
جرى الماء فى الخلجان بعزم قوى ، وسر الناس فى
ذلك اليوم بوفاء النيل قبل ميعاده ، وقد قيل فى
المعنى :

الدين الزينوني هذه المراثية اللطيفة في واقعة الحال
فقال :

سألت اله المروشي بنعم بالنصر
لسلطاننا الغوري فهو أبو النصر

ملك عزيز أشرف ومظفر
مؤيد دين ظاهر كامل القدر

لعيته أضحي على الكون وحشة
فها بركة الرطلي مدمعها بجرى

يحق لنا نرني المقاصف بالبكا
خصوصا من المسطاح مع لذة الجسر

لقد كان فيه للخليع تواصل
لعمرك ان الوصل خير من الهجر

وكان بها جيزة طاب ظلها
فناح عليها الطير والوحش في القفر

على ما جرى للجسر ساقية بكت
وصاحت بقلب صار في غابة الكسر

ودوحته تبكي بجامعه دما
وقد أصبح الشامي يبكي على الحكر

وأضرب بيوت الجسر خالية فلا
لصاحبها سكنى ولا أحد يكرى

وقد أصبحت تلك القصور خواليا
فياوحشة السكان من كل ذى قصر

على بركة الرطلي نوحوا وعددوا
لما حل فيها من نكال ومن خسر

فكان بها للقادسي حلاوة
مشبكها يشدو من المسك والعطر

وكان بها الفكاه يسعى بمركب
بخوخ ورمان يبشر بالبشر

وزهر ونسرين وآس ونوفر
لها بهجة للمرء طيبة النشر

وكان بها الجبان يقلى بمركب
فيجمع بين النار والماء في البحر

وكان بها للأكلين قطايف
بها عطش تسقى من الغيث بالقطر

لها رونق في الصحن من فستق بها
وسكرها يروى حديث أبي ذر

وكان بها للراكين مراكب
مسترة فيها وأخرى بلا ستر

وكم داخل فيها مغن ومنشد
بنغمة فم من خفيف ومن شعر

وكم آلة للمطربين عهدتها
وجنك وأعواد تغرد كالقمرى

وقد درست تلك المعاهد كلها
وناخت بها الغربان والبوم في الوكر

وشق شقيق الروض فيها ثيابه
وأرمى غصين الدوح مافيه من زهر

وقد لبس الشحرور سود ثيابه
وأبدى خرير الماء لطما من النهر

وسالت دموع السحب من أعين السما
وصار ضياء الصبح كالليل اذ يسر

وقد كسفت شمس الضحى في سمائها
وأظلم نور البدر بالخسف للفجر

جزيرتنا الوسطى خراب لأنها
بها وضعوا سد الماء بها بجرى

وقد أخذوا أنقاضها لمبيعها
ولم يبق فيها من بناء سوى الجدر

وقد أصبح النوتى في غاية الضنا
ولا تلتقى فيها معاش ولا مكرى

وباع قماش الستر منها وقلعها
وباع المدارى حيث يدرى ولا يدرى

فيامقلتي جودي بدمع تحسرا
ويامهجتي صبيرا وناهيك بالصبر
رعى الله آياما تقضت بطيبيها
ونحن بمصر في أمان وفي بشر
وكان الدوادار الكبير هو الذي
أشار بهذا المنع بالنهي والأمر
أراد بهذا المنع صون حريم من
غدا صحبة السلطان والبنات في الحدر
فكان بهذا الأمر أكرم صائين
حريم جميع الناس من آفة الدهر
ولولا ابن موسى كان في البعض شافعا
وقد نال شكر الشاكرين مع الأجر
لما سمحوا فيها بمركب بائع
ولا لاح فيها من جليس على الجسر
فياربنا أنعم علينا بنصرة
لسلطاننا الغوري والعسكر المصري
وأنعم بعود الكل في خير مقدم
إلى الأهل والأوطان في غابة الجبر
وصل على المختار من آل هاشم
محمد الهادي إلى الخير والبشر
كذا الآل والأصحاب والتبع الأولى
لهم غاية الاحسان في موقف الحشر
عليهم صلاة الله ما هبت الصبا
صباحا على عود وما غرد القمري
وناظمها العوفي يدعو لكل من
رأى عيب زيتوني وينعم بالستر
وفي يوم الجمعة خامس عشره توفي الشيخ تاج
الدين الذاهر رحمه الله وكان من أعيان مشايخ
الصوفية ، وله شهرة طائلة بالصلاح والاستقامة
بين الناس ، وكان لا بأس به .

وفي شهر رجب توفي الأمير طراباي أحد الأمراء
العشراوات ، وكان مستهله يوم الخميس فتوجه
جماعة من نواب القضاة والكتاب والأعيان إلى
بيت الأمير الدوادار نائب الغيبة وهنئوه بالشهر .
وفي يوم الخميس ثامنه توفي تغري بردي
المعروف بالشمشماني وكان يدعى أنه من الأمراء
العشراوات ، قيل انه كان من جملة السقاة فمات
عن عدة أقطيع ورزق مشترياته ، وكان في سعة
من الرزق ، وكان ينسب إلى شح زائد وبخل .
وفيه جاءت الأخبار بوفاة شحص من الأمراء
العشراوات يقال له مسديد ، وكان مسافرا صحبة
السلطان في التجريدة ، وكان أصله من ممالك
الأشرف قايتباي .

وفيه دخل الأمراء الذين كانوا في نواحي
الشرقية والغربية كما تقدم ذكر ذلك فرجعوا عندما
أوفي النيل وتقطعت الطرقات بالمياه .
وفيه قلق الناس بسبب الفلوس الجدد فصارت
البضائع تباع بسعيرين ، ووصل صرف النصف
الفضة بالفلوس العتق إلى ستة عشر درهما وكانت
الفلوس الجدد تصرف معاددة وهي في غاية الخفة ،
فتضرر الناس لذلك وغلقت الدكاكين بسبب ذلك
وتشطح الخبز وسائر البضائع ، وكادت أن تنشأ
من ذلك غلوة .

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان وصل إلى
حلب فدخلها في يوم الخميس عاشر جمادى
الآخرة . فكان لدخوله يوم مشهود ، وقدمه
الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء كموكبه
بالشام ، وحملت القبة والجلالة على رأسه ، وكان
حاملها ملك الأمراء خاير بك نائب حلب كما فعل
سبياي نائب الشام .

وفي حال دخول السلطان إلى حلب حضر قصاد

من النقدمة أربعين مملوكا ، وأبدان سمور وآثواب
مخمل وآثواب صوف وآثواب بعلبكية وغير ذلك .
وكان ما أرسله الى الخليفة بدنين سمور وثوب
مخمل بكفوف قصب وثوبين صوف عال . وأرسل
اليه قاضى عسكر ابن عثمان ثوبين صوف وسجادة
وبغلة . وأرسل ابن عثمان الى أمير كبير أيضا
تقدمة حافلة ما بين سمور ومخمل وصوف ومن
الممالك اثنين .

ثم ان السلطان عين الأمير مغلباى دودارسكين
بأن يتوجه الى ابن عثمان وعلى يده مطالعة من
عند السلطان الى ابن عثمان تتضمن أمر الصلح
بينهما ، والأمراء والعسكر منتظرون رد الجواب
عن ذلك . وقد نظمت هذه القصيدة فى معنى واقعة
سفر السلطان من حين خروجه من مصر الى دخوله
مدينة حلب فقلت :

ادعو بنصر للمليك الأشرف
سلطان مصر ذى المقام الأشرف

قد قدر الرحمن ثقل ركابه
نحو الشام وحسنها المستظرف
اختار أن يطاء البلاد لكشفها
فعدت تجود له بجود متحف

خضعت له النواب طوعا باللقا
من غير حرب أو حسام مرهف
لو كان ذو القرنين حيا فى الورى
لاقاه بالاكرام والفضل الوفى

تاريخه فاق الملوك تعاظما
فاصغى له واسمع بغير تكلف
عاينته يوما مضى فى موكب
يزهو على برقوق وهو الأشرفى

سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، فقبل انه أرسل
اليه قاضى عسكره — وهو شخص يقال له ركن
الدين — وأحد أمرائه يقال له فراجا باشا ،
وصحبتهم سبعمائه عليقة ، فنزلوا بمدينة حلب .
وبلغنى من الكتب الواردة بالأخبار أن السلطان
لما حضر بين يديه قاضى ابن عثمان وقراجا باشا
شرع يعتبهم على أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه
وما جرى منه فى حقه ، وأخذه لبلاد على دولات ،
فقال له القاضى وقراجا باشا : « نحن فوض لنا
أستاذنا أمر الصلح ، وقال كل ما اختاره السلطان
افعلوه ولا تشاورونى » ... وكل هذا حيل وخداع
حتى تبطل همة السلطان عن القتال ويشنى عزمه عن
ذلك . وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد .

ثم ان قاضى ابن عثمان أحضر فتاوى من علماء
بلادهم ، وقد أفتوا بقتل شاه اسمعيل الصفوى ،
وأن قتله جائز فى الشرع . وأرسل يقول فى كتابه
للسلطان : « أنت والدى وأسألك الدعاء ، لكن
لا تدخل بينى وبين الصفوى » .

ومن جملة مخادعة السلطان ابن عثمان للسلطان
الغورى أنه أرسل يطلب منه سكر وحلوى فأرسل
له الغورى مائة قنطار سكر وحلوى فى علب كبار
وهذه حيلة منه ، وأرسل يقول فى كتابه : « انى
لا أحول عن اسمعيل شاه أبدا حتى أقطع أثره من
وجه الأرض ، فلا تدخل بيننا فيما نكون فى أمر
الصلح » . وأظهر أنه قاصد نحو الصفوى ليحاربه
والأمر بخلاف ذلك فى الباطن . وذكروا له أنه على
القيسارية يقصد التوجه الى الصفوى .

ثم ان السلطان خلع على قصاد ابن عثمان الخلع
السنية ، وقيل ان السلطان ابن عثمان أرسل الى
السلطان الغورى مقدمة حافلة ، وللخليفة وأمير
كبير سودون العجمى ، فكان ما أرسله ابن عثمان

ركب الخليفة والقضاة أمامه
وجيوشه منها الأسود تختفي
عودت طلعتة بسورة يوسف
وجميع عسكره بأى الزخرف
فى غزة قد كان يوم دخوله
يوم الخميس بعسكر مترادف
قالت دمشق لفرحها لما أنى
أهلا بسلطان الأنام المنصف
وتهللت بالنور جبهة ربوة
لما اكتست بالزهر حلة يوسف
وحماة أحماها بصائح عدله
فأطاعه العاصى بغير توقف
واشتافه نهر الفرات وقد أتى
تيساره بالماء فى عزم وفى
واستأنست حلب به مذ زارها
واستوحشت مصر له بتكلف
شرفت به حلب وقالت فرحة
يا حبذا من قادم مستظرف
سلطانا العورى صار مؤيدا
مذ حفه الرحمن باللفظ الخفى
فالله يفييه على طول المدى
ما أسكرت ريح الصبا كالقرقف
قد صار لابن إياس شعر قاله
لكن نظمى قد أتى بتضعف
ثم الصلاة على النبى المصطفى
خير البرية ياله من مسعف
والآل والأصحاب ما جن الدجى
أو ضاء صبح بعد ليل أوطف
وختام مسك قد شذا لما بدا
سلطان مصر ذو المقام الأشرف

وحكى أن السلطان لما دخل الى حلب رسم
لقاضى القضاة كمال الدين الطويل بأن يحطب فى
الجامع الكبير اندى . بحلب ، فاجتمع الجهم الكثير
من أهل حلب فى الجامع المذكور ، فخرج قاضى
القضاة كمال الدين الطويل ورفى المنبر وحطب
خطبة بليغة ، وأورد أحاديث شريفة فى معنى الصلح .
وأذن المؤدبون بالجامع وفراوا حزب السلطان
هناك ، وعملت الوعاظ . وكان يوما مشهودا بالجامع
المذكور ، ولم يحضر السلطان ولم يصل صلاة
الجمعة هناك كما فعل بدمشق ، فعابوا عليه ذلك .
وكان قاضى القضاة كمال الدين يحطب بالجامع
الكبير مدة إقامة السلطان بحلب .

ومن الحوادث التى وقعت من السلطان بحلب
أنه أنعم على قانصوه نائب حلب بنصفه ألف ،
وعلى يوسف الناصرى شاد الشرايحة الذى كان
نائب حماه ، وعلى طراباى نائب صفد ، وعلى
تمراز نائب طرابلس .

ومنها أنه أنفق على أولاد الناس الذين توجهوا
صحبته بلا نفقة ، لكل واحد منهم ثلاثون دينارا .
وكان رسم لهم قبل ذلك لكل واحد بحمسين دينارا ،
فعارض فى ذلك كاتب الممالك وجعلها ثلاثين
دينارا . وصرف المعسكر تمن اللحم عن ثلاثة
شهور .

ثم ان السلطان فرق على ممالكه الحلبان من
حواصل قلعة حلب عدة سلاح لم يعبر عنها ، وفرق
عليهم خيولا ما لها عدد ، وصار نعم عليهم
بالعطايا الجزيلة من مال وخيول خاص وسلاح
بطول الطريق ، ولم يعط المماليك الفرائضة شيئا
فعر ذلك عليهم فى الباطن .

ثم ان السلطان فرأ ختمة فى الميدان الكبير بحلب
يوم الخميس مع ليلة الجمعة ، وحضر أمير المؤمنين

المتوكل على الله والقضاة الأربعة ومشايخ الزوايا ،
وصلى أمير المؤمنين بالسلطان في الحيمة صلاة
العصر وصلاة المغرب .

وأنعم السلطان في ذلك اليوم بأربعمائة دينار ،
ومائة رأس غنم ، وأنعم على قاضى القضاة
الشافعى بسبعين ديناراً ، وعلى نوابه ومن معه من
العلماء بسبعين ديناراً ، والقاضى الحنفى كذلك .
وأنعم على القاضى المالكى بخمسين ديناراً ، وعلى
نوابه الثلاثة بثلاثين ديناراً ، وكذلك القاضى
الحنبللى . وأنعم على مشايخ الزوايا لكل واحد
منهم خمسون ديناراً ، ، وأنعم على الفقراء الذين
سافروا صحبته لكل واحد منهم عشرة دنائير ،
وأنعم على القراء الذين حضروا هذه الختمة من
قراء حلب وغيرها لكل واحد خمسة دنائير . وفى
عقيب ذلك أحضر السلطان الأمراء المقدمى الألوف
والنواب والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات
وحلفهم على المصحف الشريف بأنهم لا يخونونه
ولا يغدرونه ، فحلفوا كلهم على ذلك .

ثم نادى للعسكر بالعرض في الميدان الذى في
حلب فعرضوا وهم باللبس الكامل وأدخلهم من
تحت سيفين على هيئة قنطرة ، كما هى عادة
الأتراك . وعندهم أن هذا هو القسم العظيم .
ثم ان السلطان أرسل خلف قاسم بك ، في حماة
فلما حضر خلع عليه وأشهر أمره بحلب .

ثم وردت الأخبار الى حلب بأن سليم شاه بن
عثمان قبض على قاصد السلطان الذى كان أرسله
الى ابن عثمان ، وهو الأمير مغلباى أحد الدوادارية
ووضعه في الحديد . وكان السلطان جهز الأمير
كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين الذى كان
والى القاهرة الى ابن عثمان وصحبته هدية حافلة
بنحو عشرة آلاف دينار ، وخلع على قاضى عسكر

ابن عثمان ووزير قراجا باشا الذى تقدم ذكرهما
خلعة سنية بطرز يلبغاوى عريض ، وأذن لهما
بالعود الى بلادهما . وكان هذا هو عين الغلط من
السلطان الغورى ، حيث أطلق فصاد ابن عثمان
قبل أن يحضر مغلباى ويظهر له من أمر ابن عثمان
ما يعتمد عليه .

ثم لما وصل الأمير كرتباى الى عنتاب بلغه أن
السلطان ابن عثمان أبى الصلح وقبض على الأمير
مغلباى ووضعه في الحديد بعد أن قصد شنقه ،
فشفع فيه بعض وزرائه وقصد حلق لحيته . وقد
قاسى منه من البهدة ما لا يمكن شرحه . فلما
تحقق الأمير كرتباى ذلك رجع الى حلب وأعلم
السلطان بما فعله سليم شاه ابن عثمان بالأمير
مغلباى ، وأن طوالع عسكره قد وصلت الى عنتاب
وملكت قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغير ذلك من
القلاع . ولما وصل الأمير كرتباى بهذه الأخبار
الردية الى السلطان اضطربت أحواله وأحوال
الناس وأحوال العسكر قاطبة .

ثم ان السلطان أنعم على الأمير عبد الرزاق
وولاه على اقليم أولاد ذو الغادر ، فخرج من حلب
وصحبته ملك الأمراء خاير بك في موكب حافل .
فخرج نائب حلب وأمراؤها وعساكرها ونزلوا عن
حلب بيوم ، وصحبته من المشاة خمسة آلاف
ماش ، وأنفق عليهم السلطان جامكية شهر واحد .
ثم خرج بعدهم ملك الأمراء سيباى نائب
الشام ، وتمراز نائب طرابلس ، وطراباى نائب
صفد ونائب حمص ونائب غزة ، فخرجوا من حلب
يوم السابع عشر من شهر رجب . وقد أشيع أن
ابن عثمان ماش من جهة وابن سوار ماش من
جهة .

ثم ان السلطان نادى للعسكر بالرحيل من

حلب والنزول على جيلان لقتال الباغي ابن عثمان ،
وأن السلطان والأمراء عن قريب يخرجون الى
القتال ، والذى يريد الله هو الذى يكون ...
وهذا ما نقل من شرح كتاب أمير المؤمنين الى ولده
أمير المؤمنين يعقوب .

ثم ذكر فيه عن أمر الأسعار فى حلب ، فقال :
الشعير كل أردب بسبعة وعشرين نصفاً ، والخبز
لل رطل بثلاثة دراهم ، والخبز بنصفين الرطل ،
واللحم بنسعة دراهم كل رطل مصرى ، والدبس
بصنف فصه الرطل المصرى ، وتناهى سعر القمح
الى أشرهين لل أردب ، والكرسنة علق الجمال
بمائة وأربعة وعشرين درهما الأردب

ثم ان السلطان أرسل مثالا شريفا الى الأمير
الدوادار تتضمن الوصية بالرعية ، وأن الممالك
الجلبان الدين بالطباق يكفون الأذى عن الناس
ولا يشوشون على أحد من المتسببين ، وأن الأمير
الدوادار يعرض جميع من فى الحبوس قاطبة من
رجال وساء ، ويطلق المديوين وغيرهم ، ولا
يترك بالحبوس غير أصحاب الجرائم ممن عليه
دم . وأرسل أيضا يقول له ان كان درب الحجاز
آمنا من العربان فجهز الحاج من القاهرة ، وان
كان مخوفا فلا يسافر أحد من الحجاج فى هذه
السنة .

وأرسل أيضا مثالا شريفا الى الممالك الجلبان
الذين بالطباق بأنهم لا ينزلون من الطباق الى
المدينة ، ولا يشوشون على أحد من الناس قاطبة ،
ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة ، فقرئ
عليهم هذا المثال بالقلعة بين يدى الأمير طقطباى
نائب القلعة ، وأرسل بالسلام على الأمراء
والعسكر قاطبة .

وفى شهر شعبان — وكان مستهله يوم الجمعة —

ووافق ذلك يوم النوروز من السنة القبطية
فمد ذلك من النوادر ، وقد دخلت سنة قبطية فى
أول يوم من الشهور العربية ، ولا سيما يوم
الجمعة وهو يوم فيه ساعة الاجابة .

وفى يوم السبت خلع الأمير الدوادار على
شخص من الخاصكية يقال له جاني بك القصير
وهو من ممالك السلطان وقرره فى كشف منفلوط
عوضا عن اينال بن جاني بك الذى كان بها ، وقد
ضعف بصره .

وفى يوم الأحد ثالثه عرض الأمير الدوادار
المحاييس الذين بالسجون وعرض النساء اللاتي
بالحجرة فأطلق منهم جماعة ممن عليهم دين ،
وصالح أرباب الدبون من ماله وأرصاهم ،
واستتاب جماعة من الحرامية وأطلقهم ، ورسم
بتوسيط جماعة ممن عليهم الدم ، وأبقى منهم
جماعة فى السجون الى أن يحضر السلطان .

ثم ان الأمير الدوادار تصدق على الفقراء بمبلغ
له صورة ، ورسم بقراءة ختمات فى جميع مساجد
القاهرة ، وقال ادعوا للسلطان بالنصر .

وفى يوم الاثنين رابعه خلع الأمير الدوادار على
يوسف البدرى وأعاده الى الوزارة كما كان ،
وهذه رابع ولاية له بالوزارة .

وفى ذلك اليوم نودى فى القاهرة بسفر الحاج
على العادة ، وكان أشيع عدم خروج الحاج فى
هذه السنة .

وفى يوم الثلاثاء خامسه مع ليلة الأربعاء توفى
قاضى الحنفية كان برهان الدين ابراهيم بن الكركى
وهو ابراهيم بن الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن
اسماعيل الكركى الحنفى وكان عالما فاضلا رئيسا
حشما من أعيان الحنفية ، سمع على الشيخ محيى
الدين الكافيجى ، والشيخ سيف الدين وآخرين

من علماء الحنفية . وكان امام الأشرف قايتباي ، ورأى في أيامه غاية العز والعظمة ، وولى عدة وظائف سنية ، منها أنه ولى مشيخة أم السلطان التى فى التبانة ، ومنها استيفاء الصحبة ، ثم ولى قاضى قضاة الحنفية مرتين ، ثم ولى مشيخة المدرسة الأشرفية وقاسى محنا وشدائد من الأشرف . وكان يشوش الوجه عنده رقة حاشية ولطافة ، غير كثيف الطبع ومات وهو فى عشر الثمانين ، وعاش سعيدا ومات شهيدا ، وكان فى أرغد عيش من المال والجاه . وكان سبب موته أنه كان ساكنا على بركة الفيل فنزل يتوضأ على سلم القيطون وفى رجله قبقاب ، فزلقت رجله بالقبقاب ، فوقع فى البركة وكانت فى قوة ملئها أيام النيل ، ولما وقع ثقلت عليه الثياب فمات من وقته رحمة الله عليه ومات شهيدا .

وفيه خلع الأمير الدوادار على شخص من الخاصكية يقال له قجماس وقرره فى كشف المنوفية عوضا عن قانصوه الذى كان بها .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة شمس الدين محمد بن ناشى شيخ سوق الكتبيين ، وكان مقربا عند السلطان ، وقد حاز عدة وظائف سنية .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الأمير يوسف الشهير بالمقطش الذى كان نائب صند وعزل عنها ثم توفى بحلب . وأشيع وفاة أبرك الذى كان كاشف اقليم الجيزة وكان من الأمراء العشراوات . وأشيع وفاة جماعة كثيرة كانوا صحبة السلطان بسبب وخم حصل لهم . فمات فى غزة وفى انشام وفى حلب من الأمراء العشراوات والخاصكية والعلمان وغير ذلك مالا يحصى عدده ماتوا من كثرة الأوخام التى كانت معهم بطول الطريق .

وفيه جاءت الأخبار بصحة ما تقدم ذكره . وأن السلطان لما كان بحلب أنعم بتقادم ألوف على جماعة

من الأمراء منهم الأمير يوسف الناصرى شاد الشرايحاف ، ومنهم طراباى بن يشبك نائب صند ، ومنهم قانصوه استادار الصحبة ، ومنهم قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب ، ومنهم تسرائز نائب طرابلس ، وآخرون . والذى يظهر من أمر السلطان أنه كان يريد ابطال جماعة من الأمراء المقدمين العواجز ويجعل هؤلاء عوضا عنهم .

وفى يوم الجمعة خامس عشر شعبان ، توفى الحاج على البرماوى بزددار السلطان والمتحدث على جهات الديوان المفرد ، وقد رأى من العز والعظمة ما لم يره غيره من البزددارية ، وساعدته الأقدار حتى وصل الى ما لم يصل اليه غيره فى هذه الوظيفة ، وكان سبب موته أنه طلع له شفة فى ظهره فانقطع اثنى عشر يوما ومات .

وكان أصله من فلاحين برمة يبيع الخام والطرح فى الأسواق وهو راكب على حمار الى أن فتح الله عليه ، وكان لا بأس به ، وعنده لين جانب مع تواضع زائد ، وظهر له من الموجود بعد موته من الذهب العين خمسمائة ألف دينار وستمائة دينار . ووجد له فى مكان اثنا عشر ألف دينار ذهب عين برسيهية ، ووجد له من الحجورة والمهارة نحو خمسة وأربعين رأسا ، ومن الجاموس مائة رأس ، ومن الغنم الضأن ألف رأس ، ووجد له بالدواليب أربعمائة ثور ، وضاع له عند الفلاحين بالبلاد أكثر مما تقدم ذكره ، فقوم ذلك الموجود بمائة ألف دينار .

وفى يوم السبت سادس عشر شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ... وما ذاك الا أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مجرد مطرد من عند الأمير علان دوادار ثانى أحد

الأمراء المتقدمين وضمنه أن السلطان كان يكذب في أمر سليم شاه بن عثمان تارة ويصدق أخرى ، إلى أن حضر الأمير مغلباي دوا دار سكين من عنده وهو في حال نحس ، بزنت أقرع على رأسه ، وعلى بدنه كبر عنيق دنس ، وهو راكب على اكديتش هزيل ، وقد نهب جميع بركه ، وأخذت خيوله وقماشه . وأخبر أن ابن عثمان أبي الصلح وقال له : « قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق » . وأخبره أنه وضعه في الحديد ، وقصد أن يخلق لحيته ، وقدمه إلى الشنق ثلاث مرات فشفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله في قفة على رأسه ، وقاسى منه من الهوان والأهوال ما لا خير فيه . فلما سمع السلطان هذه الحكاية تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان . فقبل أنه أنعم على مغلباي بألف دينار وخيول وقماش في نظير ما ذهب له .

والذي استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه صلى الظهر وركب ، وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء في العشرين من رجب وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله ، والقضاة الأربعة ، وكان قد تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط حتى رجت لهم حلب .

فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى جيلان فبات بها ، فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرى رجب رحل السلطان من جيلان وتوجه إلى مرج دابق ، فأقام إلى يوم الأحد خامس عشرى رجب — وهو يوم نحس مستمر — فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه ابن عثمان ، فصلى السلطان صلاة انصبح ، ثم ركب وتوجه إلى زغزغن وتل الفار ، قيل أن هناك مشهد نبي الله داود عليه السلام .

فركب السلطان وهو بتخفيفه صغيرة وملوطة وعلى كتفه طبر وصار يرتب العسكر بنفسه . وكان أمير المؤمنين على الميمنة وهو بتخفيفه وملوطة وعلى كتفه طبر مثل السلطان ، وعلى رأسه الصنجق الخلفتي . وكان حول السلطان أربعون مصحفا في أكياس حرير أصفر وعلى رؤوس جماعة أشراف وفيها مصحف بخط الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه . وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام ، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود ، وكان الصبى قاسم بك ابن أحمد بك بن عثمان المقدم ذكره واقفا بازاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أصفر وقيل أحمر ، وكان الصنجق السلطاني خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعا ، وتحتة مقدم المماليك سنبل العثماني والسادة القضاة الأربعة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين ، وكان على ميمنة العسكر الأمير سيباي نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب ، فقبل أول من برز إلى القتال في الميدان الأتابكى سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة منكرة ، وأخذوا منهم سبع صنجق وأخذوا المكاحل التي كانت على العجل ورماة البندق . فهم ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشر آلاف انسان ، وكانت النصر لعسكر مصر أولا وياليتهم تم ذلك . لكنه قد بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال للمماليك الجلبان :

« لا تقاتلوا أبدا ، واخلوا الممالك القرانصة يقاتلون وحدهم » ...

فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم على ذلك واذا بالأتابكي سودون العجمي قتل في المعركة ، وقتل ملك الأمراء سيباي نائب الشام ، فانهزم في الميمنة من العسكر جانب كبير . ثم ان خاير بك نائب حلب انهزم وهرب ، فكسر الميسرة . وأسر الأمير قانصوه بن سلطان چركس ، وقيل قتل . وقيل ان خاير بك كان موالسا على السلطان الغوري في الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان هو أول من هرب قبل العسكر قاطبة وأظهر الهزيمة ، وكان ذلك من الله تعالى خذلانا لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر . وصار السلطان واقفا تحت الصنجق في نفر قليل من الممالك ، فشرع ينادى : « يا أغوات هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة » فلم يسمع له أحد قولا وصاروا يتسحبون من حوله ، وهو يقول للفقراء : « ادعوا الله تبارك وتعالى بالنصر فهذا وقت دعائكم » وصار لا يجد له معينا ولا ناصرا ، فانطلقت في قلبه جمرة نار لا تطفأ ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صاروا لا يرى بعضهم بعضا ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر ، وغلت أيديهم عن القتال ، وشخصت منهم الأبصار . وقد قلت في هذه الواقعة هذه الآيات :

لما التقى الجيشان مع سلطاننا

في مرج دابق قال هل من مسعفى

فله أجاب لسان حال قائلا

عرضت نفسك لليل فاستهدف

واشدت بالجلبان رعب قلوبهم
وغدوا يقولوا آى أرض نختفى

والهيب أطمعهم لذل نفوسهم
حتى آتاهم بالقضاء المتلف

فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، خاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق السلطاني فأنزله وطواه وأخفاه . ثم تقدم الى السلطان وقال له : « يا مولانا السلطان ان عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل الى حلب » . فلما تحقق السلطان ذلك غلبه في الحال خلط فالج ، أبطل نسه وأرخی حنكه ، فطلب ماء فأتوه بماء في ماسة من ذهب فشرب منه قليلا ، وألفت فرسه على أنه يهرب فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس الى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ، وقيل فقئت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر .

فلما أشيع موته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية وغللمان السلطان ممن كان حوله ، وأما السلطان من حين مات فلم يعلم له خبر ، ولا وقف له على أثر ، ولا ظهرت جثته بين القتلى ، فكان الأرض قد ابتلعت في الحال ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر . فداس العثمانية وطاق الغوري بما فيه من الأمتعة والأرزاق التي كانت حوله بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثماني ، وداسوا أعلام الفقراء وصناجق الأمراء ، ووقع النهب في أرزاق عسكر مصر وبرقهم ، وزال ملك الأشرف الغوري في لمح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

فاضحل أمره وزال ملكه ، بعد ما تصرف في ملك مصر وأعمالها ، والبلاد الشامية وأعمالها ، وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر

وعشرين يوما ... فانه ولى ملك مصر فى مستهل
شوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفى فى الخامس
والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة
وكانت الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك وفد
قلت فى المعنى :

اعجبوا للأشرف الغورى الذى

مذتهاهى ظلمه فى القاهرة

زال عنه ملكه فى ساعة

خسر الدنيا اذن والآخرة

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس الى
ما بعد الظهر ، وانتهى الحال الى الأمر الذى فد
قدره الله تعالى ، فقتل فى تلك الواقعة من عسكر
السلطان ابن عثمان ومن عسكر السلطان الغورى
ما لا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة
وهم : الأتابكى سودون العجمى ، وبيبرس قريب
السلطان ، وأقبى الطويل ، وأسروا قاصوه بن
سلطان چركس ، وقتل سيبى نائب الشام وتمرار
نائب طرابلس وطراباى نائب صند وأصلان نائب
حمص وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق
وأمراء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة
كثيرة من أمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية
وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرانصة .

ولم يقتل من المماليك الجلبان الا القليل فانهم لم
يقاتلوا فى هذه الواقعة ولا ظهر لهم فروسية ولا
جذبوا سيفا ولا هزوا رمحا فكأنهم خشب مسندة .
وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه ،
وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق
الأربعين أميرا ، وقتل فى ذلك اليوم القاضى ناظر
الجيش عبد القادر القسروى وجماعة كثيرة من
الجنود يأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكانت

ساعة يشيب منها الوليد ، ويذوب لسطوتها الحديد .
فكان مرج دابق فيه جثث مرمية وأبدان بلا رءوس
ووجوه معمرة بالتراب قد تغيرت محاسنها ، وصار
فى ذلك المكان خيول مرمية موتى ، وسروج مفرقة
وسيوف مسقطة بذهب وبركستوانات فولاذ
بذهب وخوذ وزرديات وبقع قماش فلم يلتفت اليها
أحد ، وكل من العسكرين قد اشتغل بما هو أهم
من ذلك ، وقال بعض المواليا فى المعنى :

صفق جوادى وقد جسيت يوم الحرب

عودى فغنت صوارم شرقها والغرب

ضربت عادة تنقط فى سماع الضرب

رءوس الأعادى وترقص داخله فى الحرب

ثم ان ابن عثمان زحف بعسكره وأتى الى وطاق
السلطان ، ونزل فى خيامه وجلس فى المدورة ،
واحتوى على الطشتخاناه وما فيها من الأواني
الفاخرة ، وعلى الزردخاناه وما فيها من السلاح ،
وعلى خزائن المال والتحف ، ونزل كل أمير من
أمرائه فى وطاق أمير من أمراء الغورى واحتوى على
ما فيها ، فاحتوى على وطاق خمسة عشر أميرا
مقدمى ألوف خارجا عن أمراء الطبلخانات
والعشراوات ، واحتوى العسكر على خيام العسكر
المصرى والشامى والحلبى وغير ذلك كما يقال :
« مصائب قوم عند قوم فوائد » .

ولم يقع قط لملوك ابن عثمان مثل هذه النصرة
على أحد من الملوك قاطبة ، بل ان تمرلنك زحف على
بلاد ابن عثمان وحارب أحد أجداده وهو شخص
يقال له يلدرم . فلما حاربه انكسر فأسره تيمور
ووضعه فى قفص حديد وصار يعجب عليه فى بلاد
العجم ، فما طاق ابن عثمان ذلك فابتلع فص الماس
فمات وهو فى ذلك القفص الحديد . ولم يقع قط
لأحد من سلاطين مصر مثل هذه الكائنة ، ومات

تحت صنبحه في يوم واحد وانكسر على هذا الوجه أبدا ، ولا سمع بمثل ذلك ونهب ماله وبركه بيد عدوه غير فاصوه العورى . وكان ذلك في الكتاب مسطورا ، وكان السلطان والأمراء ما منهم أحد ينظر في مصالح المسلمين بعين العدل والانصاف ، فردت عليهم أعمالهم ونياتهم وسلط عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ما جرى كما قيل في المعنى :

أين الملوك الأولى في الأرض قد ظلموا

والله منهم لقد أخلى أماكنهم

ثم ان السلطان ابن عثمان نحول من مرج دابق فدخل الى حلب فملكها من غير مانع ونزل بالميدان الذى بها في المكان الذى كان به السلطان العورى ...

وهذا ما انتهى اليه من ملخص هذه الواقعة مع ما فيها من زيادة ونقصان ، فهذا ما كان من أمر السلطان العورى وابن عثمان . وأما ما كان من أمر الأمراء والعسكر بعد الكسرة فانهم توجهوا الى حلب وأرادوا الدخول بها ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبرقهم ، ووضعوا أيديهم على ودائعهم التى كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب ما لم يجز عليهم من عسكر ابن عثمان .

وكان أهل حلب بينهم وبين المماليك السلطانية حظ نفس من حين توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة الى حلب صحبة قانى باى أمير آخور كبير . فنزلوا في بيوت أهل حلب غصبا وفسقوا في نسائهم وأولادهم وحصل منهم غاية الضرر والأذية لأهل حلب ، فما صدق أهل حلب أن وقعت لهم هذه الكسرة فأخذوا بثأرهم منهم ... فلما رأى الأمراء وبقية العسكر ذلك خرجوا من حلب على حمية وتوجهوا الى دمشق ودخلوها وهم في أفحش حال ،

لا برك ولا قماش ولا خيول ، ودخل غالب العسكر الى الشام وبعضهم راكب على حمار وبعضهم راكب على جمل وبعضهم عريان وعليه عباءة أو بشت . ولم يقع لعسكر مصر مثل هذه الكائنة ، فأقام الأمراء والمباشرون والعسكر في الشام حتى تتكامل البقية ويظهر السالم من العاطب ... قيل ان الأمراء لما دخلوا الى الشام وصاروا في حر الشمس لم يجدوا ما يستظلون به حتى صنع لهم الغلمان عرائس من فروع الشجر يستظلون بها .

وأما ما كان من أمر سليم شاه ابن عثمان فانه أقام بالميدان الذى في حلب فتوجه اليه أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة محبى الدين الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى . وأما قاضى القضاة محمود بن الشحنة فانه هرب مع العسكر الى الشام ونهب جميع بركه وقماشه ، ودخل الى الشام في أنحس حال .

قيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن عثمان وهو بالميدان عظمه وأجلسه وجلس بين يديه فأشيع انه قال له : أصلكم من أين ؟ فقال له : من بغداد ، فقال له ابن عثمان : نعيدكم الى بغداد كما كنتم . والأقوال في ذلك كثيرة ... فلما أراد الخليفة الانصراف خلع عليه خلة سنية من ملابسه ، وأنعم عيه بسال له صورة وردة الى حلب ووكل به ألا يهرب .

وقيل لما دخل عليه القضاة الثلاثة المذكورون وبخهم بالكلام ، وقال لهم أتنتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ، وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء ، وما منكم من أحد يرشد الى الخير ، لأنكم لم تمنعوا سلطانكم عن المظالم التى كان يفعلها بالناس ، وأنتم ترون ذلك منه ولا تنكرونه .

وأشاعوا من هذه الأخبار العجائب والغرائب ،
والمعول في ذلك على الصحة .

وأخبرني من رأى سليم شاه ابن عثمان أنه مربوع
القامة واسع الصدر أقتص العنق مكرفس الأكتاف
مترك الوجنتين واسع العينين درى اللون واقر
الأنف ملء الجسد حليق اللحية ليس له غير
الشوارب ، كبير الرأس عمامته صغيرة دون عمام
أمرائه . فلما جاء الى حلب سلمه أهلها المدينة من
غير نزاع ، وهرب قانصوه الأشرفي نائب القلعة ،
وتوجه الى الشام مع العسكر وترك أبواب قلعة
حلب مفتحة ... فلما بلغ ابن عثمان ذلك أرسل اليها
شخصا من جماعته أعرج أجروود وفي يده دبوس
خشب ، فطلع الى قلعة حلب فلم يجد بها مانعا
يرده . فختم على الحواصل التي بها واحتوى على
ما فيها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك ، وقد
فعل ابن عثمان ذلك ليقال انه أخذ قلعة حلب
شخص أعرج وفي يده دبوس خشب وهو أضعف
من في عسكره وقد قيل في المعنى :

لا تحقرن صغيرا في مخاصمة

ان الذبابة تدمى مقلة الأسد

وأشيع أن ابن عثمان من حين استولى على مدينة
حلب لم يدخلها غير ثلاث مرات : المرة الأولى دخلها
وطلع الى القلعة بسبب عرض حواصلها ، فلما
عرضت عليه رأى ما أدهشه من مال وسلاح
وتحف ، وكان فيها من المال نحو مائة ألف ألف
دينار ، ورأى من الكنايش الزركش والرقاب
الزركش والطبر والسروج الذهب والبلور وطبول
البازات واللجم المرصعة والفصوص المثمنة
والبركستوانات الفولاذ الملون والسيوف المسقطة
بالذهب والزرديات والخوذ الفاخرة وغير ذلك من
السلاح ما لم يره قط ، ولا فرح به أحد من

أجداده ، ولا أحد من ملوك الروم ، لأن الذي
جمعه الغوري من الأموال من وجوه الظلم
والجور ، والتحف التي أخرجها من الخزائن من
ذخائر الملوك السالفة من عهد ملوك الترك
الچراكسة ، احتوى عليه جميعه السلطان سليم شاه
ابن عثمان من غير تعب ولا مشقة . هذا خارج عما
كان للأمرء المتقدمين والأمرء الطبليحات
والعشراوات والمباشرين والعسكر قاطبة من
الودائع بحلب من مال وسلاح وقماش وبرك وغير
ذلك ، فاحتوى ابن عثمان على ذلك جميعه .

وقيل انه ملك ثلاث عشرة قلعة من بلاد
السلطان ، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح
وغير ذلك ، فكان الذي ظفر به سليم بن عثمان
في هذه الواقعة من الأموال والسلاح والتحف وغير
ذلك لا ينحصر ولا يضبط ، وقد قسم له ذلك من
القدم ... واحتوى على خيول وبغال وجمال
لا يحصى عددها ، واحتوى على خيام وبرك
ولا سيما ما كان مع السلطان وأمرء العسكر ، كما
يقال في المعنى :

آلا انما الأقسام تحرم ساهرا

وآخر يأتي رزقه وهو نائم

ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة في جامع
الأطروش الذي بحلب وخط باسمه ودعى له على
المنابر في مدينة حلب وأعمالها ، وزينت له مدينة
حلب وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وارتفعت
له الأصوات بالدعاء وهو مار عند عوده من
الجامع ، وفرح الناس به فرحا شديدا ، وانتفى
اليه الخواجا ابراهيم السمرقندى والخواجا يونس
العادلى والعجمى الشنقجى . وكان هؤلاء من
أخصاء الغوري ، وكانوا مع ابن عثمان في الباطن
ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار

المملكة . فلما فقد السلطان الغورى أظهروا عين المحبة لابن عثمان وصاروا يحطون على الغورى ويذكرون أخباره الشنيعة لابن عثمان ، وصاروا من جماعته ونسوا احسان الغورى اليهم كما يقال فى المعنى :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار
فلا تبالى أصدوا عنك أو زاروا

أخلاقهم حين تبلوهم أوعار
وفعلهم منكر للمرء أو عار

لهم لديك اذا جاءوك أوطار
اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وممن كان موالسا على السلطان فى الباطن خاير بك نائب حلب ، فانه أول من كسر عسكر السلطان ، وانهزم عن ميسرته ، وتوجه الى حماه . ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه ، فلما حضر اليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ولبس زى التراكمة — العمامة المدورة والدلامة — وقص ذقنه وسماه السلطان « خاين بك » لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان . فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك ، وتوجهوا صحبة العسكر الى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان .

وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المعتصم بالله وملك هولاءكو بغداد وقتل الخليفة ، فصار ابن العلقمى مقربا عند هولاءكو ثم انقلب عليه وقتله ، وقال : « أنت ما فيك خير لأستاذك فما يكون فيك الخير لى » . وربما يقع لخاير بك مثل ذلك .

ثم ان ابن عثمان دخل الى مدينة حلب ثالث مرة بسبب أنه دخل بها الحمام وأنعم على المعلم بمبلغ

له صورة ... واستمر الخليفة والتضامة الثلاثة الشافعى والمالكي والحنبلى فى الترسيم بحلب لا يخرجون منها الى ان يأتى بهم ابن عثمان ، وأقام بحلب جماعة كثيرة من أعيان الناس بعد الكسرة منهم : القاضى عبد الكريم بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ، وعبد الكريم بن فخرية أحد كتاب المماليك ، وعبد الكريم بن الأدمى مستوفى الزردخانه ، والرئيس محمد بن القيسوى امام السلطان الغورى ، والسمديسى الذى كان قاضى القضاة الحنفية وامام السلطان ، والخواص مؤذن السلطان ورفيقه رصاص المؤذن ، وبصوى بن بكير ورفيقه ، وجماعة آخرون لم تحضرنى أسماؤهم الآن ... فهؤلاء تخلفوا بحلب بعد الكسرة حتى يؤذن لهم .

وقيل لما دخل ابن عثمان الى مدينة حلب نادى فيها بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وكل من كان عنده للأمرء والعسكر شيء من خيول أو سلاح أو قماش يحضر ما عنده ، وان لم يحضر ما عنده وغمز عليه شق من غير معاودة .

وأما من قتل فى هذه المعركة من الأمراء وأعيان الناس ، فالذى يحضرنى من ذلك وتحققته : الأتابكى سودون العجمى ، وملك الأمراء سيباى نائب الشام ، والأمير قانصوه بن سلطان چركس ، وقيل لم يقتل وأسر الأمير بيبرس قريب السلطان وهو صاحب المدرسة التى بالقرب من الجودرية ، والأمير أقبای الأشرفى الطويل أحد المقدمين أمير آخور ثانى ، فهؤلاء الذين قتلوا من الأمراء المقدمين فى هذه الواقعة .

وأما من قتل من النواب : فتتمراز الأشرفى نائب طرابلس ، ونائب صفد ، وأصلان نائب حمص ، وجماعة كثيرة من نواب الشام وحلب .

وقتل محمد العفيف رئيس الكحالين ، وتوفى جلال الدين أحد كتاب المماليك بغزة عند العود ، وخليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، وغير ذلك ممن لا تحضرني أسماؤهم ، وأما القاضى جمال الدين عبد الله مباشر وقف قانى باى الجركسى فقد قيل انه قتل فى الواقعة .

وأما من توفى من أولاد الناس فالشرفى يونس ابن قانصوه أحد أولاد بنت قرقماس الطبردارية وشخص يقال له محمد بن قرقماس الجمالى أحد الطبردارية أيضا ، وقتل ابراهيم قريب الشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وآخرون من الأعيان ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن . وقتل بعد الواقعة بحلب عبد الكريم الأدمى مستوفى الزردخانه ، وقتل ابن على الزردى .

ومن هنا نرجع الى أخبار القاهرة بعد هذه الواقعة ، فانه لما ورد كتاب الأمير علان الدوادار الثانى بما وقع من هذه الأمور المهولة فى تلك الواقعة وقتل الأمراء والأعيان والقضاة ، قام العزاء والصراخ فى بيت الأتابكى سودون العجمى وكان أميرا دينا خيرا لين الجانب ، وكان يعرف بسودون بن جاني بك وكان أصله من ممالك الأشرف قايتباى وولى عدة وظائف سنية منها امرية مجلس ، وامرية سلاح ، والأتابكية ، واصطلى الحرب وأظهر الفروسية فى هذه الواقعة ، واستمر يقاتل حتى قتل على ظهر فرسه رحمة الله عليه .

وقام نعى السلطان فى ذلك اليوم ، ونعى الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء بسبب من قتل من العسكر وغيرهم ، ورجت القاهرة

وأما من قتل من الأمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة : منهم طومان باى ابن قرا حاجب ثامى وجانى بك العسادل شاد الشراجاناه كان ، وقانصوه حبانى ، وبرد بك رأس نوبة عصاه ، ونوروز رأس نوبة عصاه ، وقانصوه الذى كان أستاذار الصحبه ، وبخشباى قرا شاد الشون ، وقيت الأحول ، وقرقماش المقرى توفى بالشام ، ويوسف المفتش الذى كان نائب صفد . ومن الأمراء العشراوات جانبهم المحمدى ، وجان بردى الذى كان كاشف الرميلى ، وبرسباى أحد الأمراء العشراوات ، وتوفى أقباب الطويل الذى كان كاشف الشرقية ، وملاج الذى كان نائب القدس ، وجان بردى وطراباى أخو الأتابكى قيت الرحى ، وخدا بردى ، وقانم الأعرج ، وجانم الطويل ، وقايتباى أخو اصطمر . وتوفى مسلايد ، وتوفى طراباى قرا ، وأفظوه الطويل خادم السادة ، وجان بلاط الذى كان والى قطيا ، وبرسباى أحد الأمراء العشراوات وصهره ، وتوفى لاجين ناظر مقام سيدى أحمد البدوى بغزة ، وقانصوه الناصرى ، وطراباى الأشرفى ، وتوفى الأمير أينال خازندار الأمير قانى باى أمير آخور كبير وكان من أمراء الطبلخانات ، وغير ذلك ممن يأتى ذكره ، حتى قيل انه مات فى هذه الواقعة من أمراء مصر والشام وحلب وغير ذلك نحو أربعين أميرا لهم تحضرني أسماؤهم الآن .

وقتل أذربك العجمى أمير طبلخانات ، وقتل جان بلاط الساقى أمير طبلخانات ، وتوفى شاد بك نائب المهمندار ، وتوفى الأمير اياس المشطوب رأس نوبة عصاه من العشراوات .

وأما من توفى من المباشرين فالقاضى ناظر الجيش عبد القادر القسروى ، وقتل بوطاق السلطان .

وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القال والقليل .

وفي يوم الأحد سابع عشر شعبان وردت الأخبار على الأمير الدوادار بأن عربان بنى عطية والنعائم نهبوا ضياع الشرفية وأخذوا منها نحو أربعمائة رأس غنم من غنم السلطان والدوادار ودخلوا وادى العباسية ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك صلى الظهر ثم ركب وخرج اليهم وصحبته خمسمائة مملوك ، فكبس عليهم ، فهربوا من وجهه وغنموا ما نهبوه من الأموال والمواشي والغلال وغير ذلك ، فرجع الأمير الدوادار الى داره .

وفيه خلع الأمير الدوادار على الزينى بركات ابن موسى ، فشق القاهرة وأشهر النداء بالأمان والاطمئنان وأن المشاهدة والجامعة بطالة ، وجميع المظالم الحادثة بطالة ، وأن الزينى بركات بن موسى على عادته ولا يحتسب عليه أحد ، وقد تضاعفت حرمة ، ونفذت كلمته فوق ما كان ، واجتمع معه عدة وظائف سنية ، وصار هو المتصرف في جميع أمور المملكة ليس على يده يد .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره أنفق الأمير الدوادار الجامكية على العسكر الذين في القاهرة ، فجلس الأمير طقطبى نائب القلعة عند سلم المدرج ، وأنفق الجامكية هناك ، والاشاعات فاشية بموت السلطان ، والأحوال مضطربة .

وفيه رسم الدوادار بعرض من في السجون حتى النساء اللاتي بالحجرة ، فلما عرضوا عليه أفرج على جماعة كثيرة منهم جان بك دوادار الأمير طراباى ، وكان له مدة وهو في السجن بالمقشرة بسبب المال الذى تبقى عليه من حين كان

متحدثا في نظر الديوان المفرد ، وأفرج عن القاضى بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط ، وكان له مدة في المقشرة على بقايا من مال المصادرة ، وأفرج عن ولده شمس الدين وأخيه نجم الدين ، وأفرج عن صلاح الدين ابن كاتب غريب ابن أخى أبى الفضل ، وأفرج عن المعلم شنشو اليهودى الذى كان يهوديا . وأسلم وقد تقدم سجنه ، وأفرج عن المعلم يعقوب الصائغ معلم دار الضرب ، وأفرج عن جماعة كثيرة من العمال والفلاحين وغيرهم ، حتى أفرج عن النساء اللاتي كن بالحجرة ، وعن كانوا في السجون من الأعيان . ولم يبق في السجون غير أصحاب الجرائم ومن عليه دم قديم . وقطع أيدي جماعة وأطلقهم ، ثم وسط جماعة من المجرمين منهم شخص يقال له عبدالقادر أبو دية وآخرون منهم ، وقطع أيدي جماعة من الحرامية ، وأفرج عن القاضى صلاح الدين بن أبى السعود ابن القاضى ابراهيم بن ظهيرة قاضى قضاة مكة ، وكان له مدة وهو في الحديد في بيت الزينى بركات بن موسى في الترسيم ، وأقام على ذلك مدة طويلة حتى أفرج الله عنه ، وكان سبب ذلك شخص يقال له ابراهيم السمرقندى ترفع معه عند السلطان حتى قال انه لقي خبيثة بمكة فيها مال كثير ، وأرسل السلطان أحضره على غير صورة مرضية من مكة ، ولما حضر قال له : « المال الذى لقيته أحضره لى » فأذكر ذلك فوضعه السلطان في الحديد وسلمه الى الزينى بركات ، فأقام عنده في الترسيم في الحديد مدة طويلة بغير ذنب .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره خلع الأمير الدوادار على الشهابى أحمد بن المنذرى حسن ابن الطولونى وأعادته الى وظيفته معلم المعلمين ، وكان السلطان أخرجها عنه وجعل جمال الدين

الفلوحي بواب الدهيشة متكلماً في العلنية
عوضاً عن ابن الطولوني .

وفيه رسم الأمير الدوادر نائب الغيبة بأشهر
المناداة في القاهرة بأن جميع المكوس الحادثة
بطالة ، وتجري على ما كانت عليه أيام الأشرف
قايتباي من غير زيادة على ذلك ، فارتفعت له
الأصوات بالدعاء .

وفي ذلك اليوم شق الزيني بركات بن موسى
القاهرة ، وسعر جميع الأسعار ، حتى الكفاة
سعرها بدرهمين الرطل ، وكانت بأربعة دراهم
كل رطل ، وسعر الأجبان واللحوم .

وفي أثناء ذلك الشهر فتح سد أبي المنجا ،
وكان النيل يومئذ في عشرين ذراعاً ، ووافق ذلك
ثاني عشرى توت أول الشهور القبطية . وكان
الأمير الدوادر في مدة غيبة السلطان يركب في
كل يوم ويسير نحو المطرية ، فإذا رجع يدخل من
باب النصر ويشق من القاهرة وقدامه الأمراء
المقدمون الذين تخلفوا بمصر ، والجهم الكثير من
العسكر . فيشق القاهرة وقدامه السعاة والعبيد
النفطية ومماليكه متقلدون بالسيوف وبأيديهم
رماح بشطقات حريز ملون ، فترتج له القاهرة
وترتفع له الأصوات بالدعاء من الناس ، فكانت
نفسه تحدثه بالسلطنة قبل وقوعها ، وقد عظم
أمره جداً وهابه الناس هيبة عظيمة .

وفي يوم الجمعة ثاني عشره لما تحقق موت
السلطان لم تدع الخطباء في ذلك اليوم على
المنابر باسم السلطان ، بل دعوا باسم الخليفة
فقط ولم يذكروا اسم السلطان ، وبعضهم قال :
« اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا » .
واستمر الحال على ذلك مدة طويلة ومصر بلا
سلطان ، وكذلك البلاد الشامية .

وفي تلك الأيام وقع الفساد من العربان في
الشرقية وغيرها من البلاد ، فنهبوا عدة بلاد من
المنزلة وغيرها من ضواحي الشرقية ، ولم يبقوا
لهم مواشى ولا بقرا ولا غنما ، حتى أخذوا صيغة
النساء ، وقتل من الفلاحين في هذه الحركة ما لا
يحصى عددهم ، وكذلك من القصاد وغيرهم .
وانقطعت جميع الطرقات من المسافرين ولا سيما
لما تحققوا موت السلطان ، وصارت مصر في
اضطراب والاشاعات قائمة بالأخبار الرديئة عسا
جري للسلطان والعسكر .

وكان أكثر من شن هذه الغارات أولاد شيخ
العرب الأمير أحمد بن بقر وجماعة من العشير ،
وفعلوا ما عظم خبره في العساكر والتجار الذين
دخلوا صحبة القفل الشامية ، فقتلوا من العساكر
والتجار ما لا يحصى عددهم ، وأخذوا أموالهم
وجمالهم ، والذي سلم من القتل عروه ، وجري
على العسكر من هؤلاء العربان ما لم يجر عليهم
من عسكر ابن عثمان ، ووقع لهم ذلك بين قطيا
والصالحية عند ما وصلوا الى الأمان .

وفي هذا الشهر أشيع أن المماليك الجلبان
قصداً أنهم ينزلون من الطباق ، وينهبون خان
الخليلى ثم يحرقونه ، ويقتلون من به من تجار
الأروام ، وقالوا : هؤلاء التجار من جهة ابن عثمان
وقد شمتوا بأستاذنا لما مات ... فلما بلغ الأمير
الدوادر ذلك أحضر أغوات الطباق وقال لهم :
« لا أطلب خيود هذه الفتنة الا منكم » .
فمنعواهم من النزول من الطباق ، ولولا أن الأمير
الدوادر قام في هذا الحركة حتى خمدت هذه
الفتنة لخرت مصر عن آخرها من المماليك الجلبان .
وفيه اهتم الأمير الدوادر بعمل طوارق خشب
وكفيات ويندقيات وغير ذلك من آلات الحرب ...
وأشيع أنه يتسلطن قبل مجيء العسكر ، وكان

القائم في ذلك الأمير طقطباى نائب القلعة والأمير
علان الدوادر الثاني .

وفي يوم الجمعة الثانية لم تذكر الخطباء اسم
سلطان في الدعاء كما فعلوا في الجمعة الماضية ،
ومن حين ورد كتاب الأمير علان بما جرى للعسكر
من أمر الكسرة وأمر السلطان لم ترد من بعد
ذلك أخبار صحيحة ، وانقطعت الأخبار عن مصر
نحو أربعين يوما ، وكثر القال والقال في ذلك على
أنواع شتى .

ومن جملة ما أشيع أن جان بردى الغزالي نائب
الشام منع أن يصل الى مصر أحد ، وعوق العسكر
بالشام .

وفيه وردت أخبار من عند الأمير حسين
نائب جدة ، والرئيس سلمان العثماني ، أنهما لما
توجها الى الهند صحبة العسكر المقدم ذكرهم ،
ووصلا الى كمران ، وهى ضيعة من ضياع الهند ،
أنشئوا هناك قلعة ذات أبراج ، فأكمل بناؤها في
نحو خمسة أشهر . ثم ان الأمير حسين أرسل
طائفة من العسكر نحو مكان يسمى اللحية ،
وأرسل طائفة من العسكر الى مكان يسمى مورا ،
وأقام الأمير حسين هو وبقية العسكر في مكان
يسمى « بيت الفتية » فأقاموا بها نحو شهر . ثم
ان الأمير حسين والأمير سلمان والعسكر
توجهوا الى نحو زبيد ، وحاصروا صاحبها عبد
الملك أخا الشيخ عامر فملكوا منه زبيد وذلك
صبيحة يوم الجمعة في العشرين من جمادى الآخرة
سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فوجدوا بها من
الأمم ما لا يحصى عددهم ، ثم ذكروا في الكتاب
أن الأمير حسين لما أن فتح زبيد توجه الى حصار
مدينة عدن ، وأنه أشرف على أخذها ، ولما ملكوا
زبيد أقاموا بها شخصا من ممالك الأشرف الغورى
وهو من أمراء العشراوات يسمى برسباى ، ومعه

بعض جماعة من المماليك وأولاد الناس الذين
كانوا صحبتهم ، والتف عليهم جماعة من العربان
نحو عشرة آلاف انسان . ولما ملك برسباى زبيد
تسلطن بها ورتب له دوادارا وخازندارا وأرباب
وظائف كعادة السلاطين ، وغنم منها أموالا جزيلة
هو ومن معه من العسكر . ولما توجه الى حصار
عدن أيضا ملكها كما قيل .

وفي هذا الشهر عرض الأمير الدوادر العسكر
الذين في القاهرة وكان ذلك العرض في بيته وكان
سبب هذا العرض أنه بلغ الأمير الدوادر أن عدة
مراكب وصلت الى ثغر اسكندرية ورشيد ، فخشى
أن تكون من عند ابن عثمان ، فبادر الى عرض
العسكر وقال لهم : كونوا على يقظة وعبوا برقكم
حتى يتضح هذا الخبر ، وانفصل المجلس على
ذلك ... فانصرف العسكر في هرج .

وفي شهر رمضان ، وكان مستهله يوم السبت ،
توجه لبيت الأمير الدوادر جماعة من نواب القضاة
وهنؤه بالشهر وكانت القضاة الثلاثة والخليفة في
أسر سليم شاه ابن عثمان بحلب لا يمكنهم العود
الى مصر .

وفي يوم الأحد ثانيه كان أول باب من الشهور
القبطية ، فثبت فيه النيل المبارك على عشرين
ذراعا ، وكان في العام الماضي أرجح من ذلك ،
واستمر في ثبات الى أول هاتور ، ثم وردت الأخبار
على يد ساع بأن الأمراء والعسكر دخلوا الى
الشام وهم في أنحس حال ، وقد نهب بركهم
وخيولهم وجمالهم وجميع مايملكونه ... وأخبر
ذلك الساعى أن أهل الشام لما تحققوا موت السلطان
وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشام ،
وأخذوا أموالهم ، وقتلوا منهم جماعة ، واضطربت
أحوال البلاد الشامية غاية الاضطراب .

وفيه دخل قاضى القضاة محسود بن الشحنة وقد نهب جميع بركه وكل ما يملكه ، وأخبر أن ابن عثمان ملك ثلاث عشرة قلعة ، وخطب باسمه فيها ومشى حكمه من الفرات الى حلب . وأخبر أن الخليفة والقضاة الثلاثة فى أسر ابن عثمان بحلب ، ولولا أنه هرب مع العسكر والا كان أسر معهم . وأخبر أن ابراهيم السمرقندى ويونس العادلى والعجمى الشنقجى — الذين كانوا من أخصاء السلطان — لما مات الغورى التفوا على سليم شاه ابن عثمان ، وصاروا من جماعته ، وصاروا يتقربون اليه بذكر مساوى أستأذهم الغورى وأمرائه ، ويظهرون له معائبهم وقبائحهم ، ولم يذكروا شيئا من احسان الغورى لهم لا جليلا ولا حقيرا ، وكأنه لم يكن سلطانا لهم ولا أستاذا ، ونسوا جميع انعامه واحسانه اليهم ، ولا سيما ما أحسن به الى العجمى الشنقجى من سلاحيات وشقق حرير وسور ومال وانعامات جزيلة ، فلم يشر ذلك فيهم . فلما بلغ الأمير الدوادار ذلك رسم للوالى أن يكبس على بيت السمرقندى ويونس العادلى ، فتوجه اليهم الوالى وقبض على عيال السمرقندى ويونس العادلى وحريمهما وحاشيتهما ، ووضع عبد السمرقندى فى الحديد ، وختم على حواصل السمرقندى ويونس العادلى ، وظهر أنهم كانوا موالسين على السلطان ، وكانوا يكتبون سليم شاه ابن عثمان فى الباطن بأحوال السلطان وأمور المملكة ... وصاحب البيت أدرى بالذى فيه .

* * *

وفى يوم الجمعة سابعه صلى الأمير الدوادار صلاة الجمعة ، وخرج الى ملاقاتة الأمراء المقدمين الذين حضروا من الشام ، وقد بلغه وصولهم الى بليس ، فدخل القاضى محمود بن أجا كاتب السر

وهو فى محفة وصحبته الشهابى أحمد بن الجيعان ، ودخل الأمير أركماس أمير سلاح وهو فى محفة عليل ، ودخل الأمير أنص باى حاجب العجائب وتمر الزردكاش والأمير علان الدوادار الثانى وآخرون ، ثم دخل بقية العسكر وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع والضعف ، ودخلوا وأطواقهم مفككة ، وأظهروا الحزن على السلطان ، وصار الأمراء والعسكر يدخلون شيئا فشيئا .

وفى يوم الخميس ثالث عشره دخل الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والأمير كرت قانصوه والأمير جان بردى الغزالى نائب حصاه ، ودخل المقر الناصرى محمد نجل السلطان الغورى ، والأمير جان بلاط الموتى والأمير أبرك الأشرفى والأمير تانى بك الخازندار والأمير كرتباى .

وفيه تكامل دخول الأمراء فسلم عليهم الأمير الدوادار ورجع الى منزله ، ودخل صحبته الأمير قانصوه الأشرفى الذى كان نائب قلعة حلب ، وهو الذى سلم القلعة بما فيها من المال والسلاح والقماش والكنائش الزركش والسروج الذهب وغير ذلك من التحف ، فتسلمها ابن عثمان من غير أن يحاصر القلعة ، فخرج قانصوه هذا والأمراء الذين معه فارين الى جهة الشام ، مع أن قلعة حلب حصينة مانعة ... فلما قابله الأمير الدوادار وبخه بالكلام ، ورسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة ، واستوعده بكل سوء .

فلما دخل الأمراء الى القاهرة اجتمع رأى الجميع على سطنة طومان باى الدوادار . وترشح أمره لأن يلى السلطنة ، فصار يتمتع من ذلك غابة الامتناع ، والأمراء كلهم يقولون : « ما عندنا من نسلطنه الا أنت ، ولا محيد لك عنها طوعا أو كرها » .

هذه السنة ، واستمر نافذا الكلمة وافر الحرمة الى أن دخل الى حلب وأقام بها ، وأرسل اليه ابن عثمان عدة قصاص بالخلع السنية ، وأنعم عليهم بالعطايا الجزيلة الى أن حضر مغلباى دوادار سكين الذى كان أرسله الى ابن عثمان ، فلما رجع من عنده وهو فى غاية التحقير كما تقدم ، وكان السلطان أرسل مغلباى هذا الى ابن عثمان فى هيئة تشعر بالشدة والقوة ، لابس آلة الحرب باللبس الكامل . فشقق ذلك على ابن عثمان وبهدله . فلما حضر الى الغورى أعلمه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح .

فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان يريد الشر معه نادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب ، فخرج العسكر قاطبة وهم كالنجوم الزاهرة ، من آلة السلاح والخيول الفاخرة ، وكل فارس مقوم بألف فارس من عسكر ابن عثمان ، ولكن الله تعالى يعطى النصر من يشاء ... فتوجهوا الى مرج دابق يوم الأحد خامس عشرى رجب من هذه السنة ، فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى تل الفار ، ركب صبيحة يوم الأحد المذكور وهو يوم نحس مستمر ، فبرز فيه الى قتال ابن عثمان ، وكانت الكسرة أولا على عسكر ابن عثمان ، ثم بدل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر ، وعادت الكسرة على عسكر مصر .

ولما رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يلفت فرسه ليهرب وينجو بنفسه ، فاعتزته سارقة من الرجفة فأغمى عليه فسقط عن ظهر فرسه الى الأرض فطلعت روحه فى تلك الساعة ، وصار ملقى على الأرض ، فزحفت عساكر ابن عثمان ، ففر من كان حوله من الغلمان ،

ثم ان الأمير الدوادار ركب وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين ، منهم الأمير علان والأمير أنسباى حاجب الحجاب والأمير تمر والأمير طقطباى نائب القلعة وآخرون من الأمراء وتوجهوا الى العارف بالله تعالى الشيخ أبى السعود الذى فى كوم الجارح ، فلما تكامل المجلس عنده ذكروا له أمر سلطنة الدوادار وأنه امتنع من ذلك ، فأحضر لهم الشيخ مصحفاً شريفاً ، وحلف الأمراء الذين حضروا صحبة الدوادار بأنهم اذا سلطنوه لا يخوبونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله ... فحلف الجميع على ذلك .

ثم ان الشيخ حلفهم ألا يعودوا الى ما كانوا عليه من ظلم الرعايا ، وألا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، ولا يجددوا مظلمة ، وأن يبتلوا جميع ما أحدثه الغورى من المظالم ، ويبطلوا ما كان على الدكاكين من المشاهدة والمجامعة ، وأن يجروا الأمور على ما كانت عليه فى أيام الأشرف قايتباى ، ويمشوا الحسبة على طريقة يشبك الجمالى لما كان محتسبا ... فحلفوا على ذلك .

ثم ان الشيخ ذكر للأمراء أن الله تعالى ما كسرهم وذلكم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، الا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر ، فقالوا : « تبنا الى الله تعالى من اليوم عن الظلم » . ثم انفض المجلس على ذلك وخرجوا من عند الشيخ أبى السعود على أن يسلطنوا الأمير الدوادار ، وأخذ الشيخ عليهم العهد بجميع ما حلفهم عليه بحضرته كما تقدم . وترشح أمر الأمير الدوادار الى السلطنة ، وتسلمن كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف الغورى ، فإنه خرج من القاهرة خامس عشر ربيع الآخر من

والساحدانية والممالك الجلبان ، وتركوا جثته على الأرض فكان آخر العهد به ولم تر له جثة ولا عرف له مكان قبر ، فكأنما ابتلعت الأرض ، ولم يقف له أحد من الناس على خبر .

ومن العجائب انه لم يدفن في مدرسته التي صرف عليها نحو مائة ألف دينار ، وظن أنه يدفن بها على عزة وحفظ مقام ، فكان المقدور خلاف ذلك ، وصار مرميا في البرارى تنهشه الذئاب والنمور ، ومات وله من العمر نحو ثمانية وسبعين سنة .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما . وكانت هذه المدة على الناس كل يوم كآلف سنة مما يعدون .

وكانت صفته أنه طويل القامة ، غليظ الجسد ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحج العينين ، جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحبه الشيب الا قليلا . وكان ملكا مهيبا جليلا مبجلا في المواكب ، تملأ العيون منه في المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للريعية لكان خيار ملوك الجراكسة ، بل وخيار ملوك مصر قاطبة .

وكان في يومى الاثنين والخميس ينزل الى الحوش السلطاني ، ويومى السبت والثلاثاء بالميدان . فينزل من السبع حدرات وقدامه طوالتين خيل بسروج ذهب وكنابيش زركش . وكان يكثُر في الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوى والركب العراض ، وكان يشد في وسطه حياصة ذهب عوضا عن الشد البعلبكي ، وكان يلبس في أصابعه الخواتم الياقوت والفيروزج والزمرد والإلماس وعين الهر ، وكان مولعا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والعنبر ، وكان ترفا في

ملبسه ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويميل الى أبناء العجم وربما كان يميل الى مذهب النسيجية من ميله الى معاشره الأعاجم ، وكان مولعا بخرس الأشجار وحب الرياضيات وسماع الأطيوار المفردة ، ونشق الأزهار العطرة . وكان يستعمل الطاسسات الذهب يشرب فيها ، وكان يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهما في الأكل والشرب ، وكان يغوى طيور المسموع .

وكان يعرف بقانصوه بن ببيردى الغورى ، واستمر يرتع في ملك مصر على ما ذكرناه من التمتع والرفاهية وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة ، والأمراء والنواب والعسكر في قبضة يده لم يختلف عليه اثنان في كلمة ، الى أن وقعت الواقعة بينه وبين سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، فخرج اليه كما ذكرنا وجرت له هذه الكائنة التي لم تقع لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا . وقد قلت في معنى ذلك :

طالعت تاريخ الملوك فلم أرى

فيما سمعت حوادث مما جرى

لا زالت الأيام يبدو فعلها

بعجائب وغرائب بين الورى

لكن هذى وقعة ما مثلها

سبقت لسلطان ولا متأما

والأشرف الغورى كان مليكنا

لكنه قد جار فينا واقبرى

والموت أوجب هزمه مع جيشه

قد كان ذلك في الكتاب مسطرا

أعماله ردت عليه بما جنى

والدهر جازاه بأمر قدرا

وكان للغورى محاسن ومساوى ، لكن مساويه

أكثر من محاسنه ...

وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منها لا دينار ولا درهم . فلما شنق جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم يعقوب اليهودي ، فمشى على طريقة جمال الدين . وقد استباح أموال المسلمين فكان النصف الفضة ينكشف في ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر . فاستمر الغش في معاملته في مدة دولته الى أن مات . وقد ورد الحديث الشريف « من غشنا فليس منا » .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف فيأخذ كل منهم المثل أمثالا ، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد الشامية والحلبيية . وكان يفرد عليهم الأموال الجزيلة في كل سنة فيأخذونها من الرعية وزيادة بالظلم والعسف ... فكان كل واحد من الرعية أصحاب الأقطاع والأوقاف يتمنى الرحيل من بلاده الى غيرها من عظم الظلم الذي يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذي أفرد عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل لأهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره الى الحراب . وعز وجود الشاشات بمصر ، وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الافرنج ، والأرز والأنطاع ، وخرب البندر ، وكذلك بندر الاسكندرية ، وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم .

وكان كل أحد من أراذل الناس يتقرب الى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدرا معلوما يؤخذ على كل اردب ثلاثة

فأما ما عد من محاسن الغورى فانه كان رضى الحلق ، يملك نفسه عند العصب ، وليس له زيادة حدة عند قوة خلقه . ومنها أنه كان له اعتقاد زائد في الفقراء والصالحين . ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم . ومنها أنه كان ماسك اللسان عن سب الناس في شدة غضبه . ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء ، وليس له هرج . وكان مغرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار ، وكان فريبا من الناس ، يحب المزح والمجون في مجلسه ، غير أنه كشف من حيث النظر الى داته . وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا كبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك في أفعالها .

وأما ما عد من مساويه فانها كثيرة لا تحصى : منها أنه أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث في سائر الدول من قبله . ومنها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد انحس المعاملات جميعها : زغل ونحاس وغش ، لا يحل بها بيع ولا شراء . ولا معاملة في مله من المثل . ومنها ما قررره على الحسبة في كل شهر وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار . وكانت السوقه نبيع البضائع بسا يختارونه من الأتبان ، ولا يفدر أحد أن يكلمهم ، فان كلمهم أحد بفولون علينا مال السلطان ، فكانت سائر البضائع في أيامه غالية بسبب ذلك .

وقرر على دار الضرب مالا له صورة في كل شهر ، فكانوا يضيفون في الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهارا . فكان الأشراف الذهبى اذا صفى بظهر فيه ذهب يساوى اثني عشر نصفا . وقد سلم السلطان دار الضرب الى شخص يسمى جمان الدين ، فلعب في أموال المسلمين ، وأتلف المعاملة ،

أنصاف من البائع والمشتري ، وكذلك على البطّيح والرمّان ، حتى خرج على بيع الملح ، وجدد في أيامه عدة مكوس من هذا النمط لم يفعلها هناد في زمانه ، ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره .

وصادر أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه مالا له صورة ، ودخل في جملة ديون حتى أورد ما فرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، فمنهم القاضي بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، ومهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس الدين ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ماتوا في سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله النسيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ورزقهم من غير سبب ، وإعطاء ذلك إلى مساليكه الجلبان . ومنها قطع جوامك الضعفاء والأيتام من الرجال والنساء والصغار ، وحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك . ومنها أنه أرسل فك الرخام الذي بقاعة ناظر الخاص يوسف التي تسمى نصف الدنيا ، فوضع ذلك الرخام في قاعة اليسرية التي بالقلعة .

ومنها أنه قطع معتاد الناس من الديوان المقرر من قديم الزمان ، وجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضي ، وكانت المقطعين تقاسى من الهوان والذل ما لا خير فيه . ثم تزايد حرصه على جمع الدنيا وشحه حتى صار يحاسب السواقين الذين في سواقى القلعة ، والحوالة الذين في سواقى الميدان ، على الجلة وروث الأبقار وما يتحصل في كل يوم مما يبيعونه ، وقرر عايهم مبلغا يؤدونه للذخيرة الشريفة . وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه في غاية الضيق ،

لا يغفل عنهم من المصادرات يوماً واحداً . وكان من حين توفي الأمير خاير بك الخازندار ييساشر منبسط أمر الخزانة بنفسه ، ما يدخل إليها وما يخرج منها وما يعرضون عليه من الأمور في ذلك جميعه من الوصولات ، وما يصرف من الخزائن في كل يوم . وكانت هذه الأموال العظيمة التي تدخل له يصرفها في عسائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويخرب الحيطان والسقوف بالذهب ، وهذا عين الاسراف ليست مال المسلمين ... وكان يهرب من المحاكمات ، كما يهرب الصغير من المكتب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرضى ، بل على أمور مستقبحة . وكان يتغافل عن أمر القتل ويدفعهم إلى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليها . وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلم على المراسيم الا قليلا ، فتتعطل أشغال الناس بسبب ذلك ، حتى كانت تشتري العلامة العنبة بأشرفى حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الحوائج . ولو شرحنا مساويه كلها لطلال الشرح في ذلك .

وأما من تولى الخلافة في أيامه فأمر المؤمنين محمد المتوكل على الله ، نجل امين المؤمنين المستمسك بالله يعقوب .

وأما قضاة الشافعية فأولهم شيخ الاسلام قاضى القضاة زكريا ، وقاضى القضاة محبى الدين عبد القادر النقيب ، تولى وظيفه القضاء في أيامه خمس مرات ، وقاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف المقدسى ، وقاضى القضاة ابن فرفور المقدسى ، وقاضى القضاة جمال الدين القلقشندى ، تولى القضاء في أيامه مرتين ، وقاضى القضاة كمال الدين بن محمد بن على الشهير بالطويل القادرى ، وقاضى القضاة بدر الدين المكينى ، وقاضى القضاة علاء الدين بن النقيب ، ثم أعيد

قاضي القضاة كمال الدين الطويل ، وقد ولى القضاء في دولته أربع مرات .

وأما قضاة الحنفية فالقاضي سري الدين عبد البر ابن الشحنة ، ثم القاضي برهان الدين بن الكركي ، ثم القاضي شمس الدين محمد السمديسي ، ثم القاضي حسام الدين محمود بن الشحنة .

وأما قضاة المالكية فالقاضي عبد الغني بن تقى الدين ، ثم القاضي برهان الدين الدميري ، ثم ولده محيي الدين يحيى ، ثم جلال الدين بن قاسم ، ثم أعيد محيي الدين بن الدميري ثانيا .
وأما قضاة الحنابلة فالقاضي شهاب الدين أحمد الششيني ، ثم ولده عز الدين محمد ، ثم شهاب الدين الفتوحى .

وأما كتاب سره فالقاضي محب الدين الحلبي .
وأما نظار جيشه فالقاضي شهاب الدين أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الحاص ، والقاضي عبد القادر القصوى . وأما نظار خواصه فالقاضي علاء الدين ابن الصابوي أولا ، ثم علاء الدين ابن الامام ، ثم ناصر الدين الصفدى ، ثم أعيد ابن الامام ثانيا .

وأما وزراؤه فالأمير طقطباى بن ولى الدين ، وجمع بين الوزارة والأستادارية ، ثم الأمير نعرى برمش ، ثم الأمير يوسف البدرى .

وأما استادارياته ، فالأمير نعرى بردى بن بلباى القادرى ، ثم الأمير نرباى حارندار الملك العادل طومان باى . ثم الشرفى يوسف النابلسى . ثم قرر الأمير طومان باى الدوادار فى الأستادارية مضاعفا لما بيده من الدوادارية الكبرى ، واستمر بها الى أن تسلطن .

وأما من ولى الحسبة فى أيامه فالأمير قرقماس المقرى ، والأمير جان بردى الغزالى . ثم أعيد

قرقماس المقرى ، ثم الزينى بركات بن موسى ، ثم الأمير ماماى الصغير .

وأما أتابكيتته فأولهم قيت الرحبى ، وقرقماس ابن ولى الدين ، ودولات باى بن أركماس ، وسودون العجمى .

وأما دوادارياته فأولهم مصرباى ، ثم أردمر بن على باى ، ثم طومان باى الذى تسلطن بعده .

وأما حجاية فالأمير خاير بك بن باى الذى فرز فى نيابة حلب ، والأمير أنص باى بن مصطفى .
وأما بقية الأمراء وأرباب الوظائف فعلى حكمهم ما تقدم من أخبارهم .

وأما نوابه بالشام : فالأمير دولات باى بن أركماس ، ثم قانصوه المحمدي الشهير بالبرجى وسيباى بن بخت خجا . وأما نوابه بحلب : فأركماس بن طراباى ، وبخشباى بن عبد الكريم ، وسودون بن يشبك ، وجانم ويشبك وأبرك الأشرفى ، وتمرار الأشرفى . وأما نوابه بصفد : فقانصوه بن قرا ، وتانى باى العثمانى ، وسودون الدوادار . وأما نوابه بغزة : فالأمير صلاح الدين الذى كان نائب القدس ، وأزيك الصوفى الذى كان نائب القدس أيضا ، وأقباى الذى كان كاشف الشرقى . وآخر من ولى بها فى أيامه دولات باى الأعمش ، وقد جمع له بين نيابة القدس والكرك ونيابة غزة ، وولى بها آخرين غير هؤلاء .

وأما ما أنشأه بالقاهرة : فمن ذلك الجامع والمدرسة اللذان أنشأهما عند الشرايشين ، والوكالة والحواصل والربوع التى أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة ... ومن انشائه المئذنة التى عمرها بالجامع الأزهر وهى برأسين ، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التى بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التى بخان الخليلى ، وجدد عسارة

خان الخليلى ، وأنشأ به الحواصل والدكاكين ...
وأنشأ فى باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وكذلك
الربعين اللذين بين السورين والطاحون عند
المصبغة ... وأنشأ البيت الذى فى البندقانيين
لولده ، وتناهى فى زخرفته . وأنشأ هناك ربعا
ووكالة .

وأنشأ الميدان الذى كان تحت القلعة ، ونقل
إليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجرى إليه ماء
النيل من سواق نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة
والمقعد والمبيت يرسم المحاكمات ... وأنشأ جامعا
خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومئذنة ،
وجدد عمارة بالقلعة منها الدهيشة ، وقاعة اليسرية ،
وقاعة العواميد ، وقاعة البحرة . وأنشأ المقعد
القبلى الذى بالحوش ، وجدد عمارة المطبخ الذى
بالقلعة ، وجدد عمارة سبيل المؤمنين ، وجعل سفهه
معقودا بالحجر . وأنشأ الربع والدكاكين التى
بسوق عبد المنعم . وأنشأ الربع والوكالة التى فى
الجسر الأعظم . وجدد عمارة ميدان المهارة الذى
بالقرب من قناطر السباع ، وبناه بالحجر الفص
المشهر بعد ما كان بالطوب اللبن . وأنشأ المجرة
ونقلها من درب الخولى الى موردة الحلفاء .

وجدد عمارة المقياس ، وأنشأ به القصر على تلك
البسطة التى كانت هناك . وأنشأ بها المقعد المطل
على البحر ... وجدد عمارة قنطرة بنى وائل ،
والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب ، وقنطرة
الخنوبى وأعلاها ، حتى صارت تدخل المراكب من
تحتها . وجدد عمارة قناطر السباع . وأنشأ المساطب
وعليها الدعائم عند قبة الأمير يشبك التى بالمطرية .

وأنشأ بالطينة على ساحل البحر المالح قلعة
لطيفة بها أبراج وجامع بخطبة . وأنشأ بشجر رشيد
سورا وأبراجا لحفظ الثغر ، وجدد عمارة الأبراج
بالأسكندرية ، وأصلح طريق العمبة ، ودوار حقن .

وأنشأ هناك خانا وأبراجا على بابه ، وجعل فيه
حواصل لأجل ودائع الحجاج . وأنشأ فى الأزلم
خانا وجعل فيه حواصل مثل الخان الذى فى العقبة ،
وحفر هناك الآبار فى عدة مواضع من مناهل
الحجاج .

وأنشأ بسكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين
والمنقطعين هناك ، وأجرى عين بازان بعد ما كانت
انقطعت من سنين ، وأنشأ بجدة سورا على ساحل
البحر المالح ، وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر
جدة من الفرنج ، وجاء هذا السور من أحسن
المباني هناك . وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة
مبان بها فنع للمسلمين .

وبالجملة أن السلطان الغورى كان خيار ملوك
الچراكسة على عوج فيه ، ولم يجرى من بعده أحد
من الملوك يشابهه فى أفعاله وعلو همته وعزمه فى
الأموار . وكان كفوا تاما للسلطنة ، مبجلا فى
المواكب ، تملأ منه العيون .

وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء ،
ومشايخ الاسلام ، وقضاة القضاة ، فمنهم : الشيخ
بدر الدين ابن عبد الرحمن الديرى رحمة الله عليه ،
وكان من أعيان علماء الحنفية مفتيا مدرسا عريفا
ولى مشيخة الجامع المؤيدى ، وكان من خيار أبناء
الديرى . وتوفى الشيخ شهاب الدين ، خليفة
سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه ، وكان من
أعيان مشايخ الحقيقة . وجاءت الأخبار بوفاة قاضى
القضاة الحنبلى بهاء الدين بن قدامة ، توفى بدمشق
ولى قضاء الحنابلة بمصر والشام . وتوفى الشيخ
ابراهيم المواهبى الشاذلى رحمة الله عليه ، وكان
من أعيان مشايخ الصوفية . وتوفى العلامة تفى
الدين الأوجاقى شيخ الحديث ، رحمة الله عليه .
وتوفى الحافظ العلامة جلال الدين عبد الرحمن
الأسيوطى ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، بلغت

مصنفاته ستائة مؤلف ، وكان بارعا في علم الحديث ، توفي في جنادى الأولى سنة احدى عشرة وتسعمائة . وتوفي قاضى قضاة المالكية برهان الدين الدميرى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة . وتوفي القاضى ناصر الدين محمد بن جرباش ، وكان من أعيان علماء الحنفية . وتوفي الشيخ علاء الدين العجمى الشافعى شيخ تربة جاني بك نائب جادة ، وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفي قاضى قضاة الحنابلة شهاب الدين أحمد الششيني ، وكان علامة في مذهبه ، توفي سنة تسع عشرة وتسعمائة . وتوفي الشيخ عبد الباسط بن خليل المؤرخ ، وكان من أعيان الحنفية ، وكانت وفاته في ربيع سنة عشرين وتسعمائة . وتوفي الشيخ العارف بالله تعالى ، محمد ابن عنان رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الصوفية . وتوفي قاضى قضاة الشافعية كان ، يحيى الدين عبد القادر بن النقيب ، وكانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة . وتوفي قاضى القضاة كان ، جمال الدين ابراهيم بن علاء الدين القلقشندي الشافعى ، وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفي الشيخ نور الدين على المحلى وكان يعرف بفريه ، وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفي الشيخ تاج الدين الذاكر ، وكان من أعيان الصوفية . وتوفي قاضى قضاة الحنفية ، وكان يسمى برهان الدين بن الكركى . وكان من أعيان علماء الحنفية ، مات غرقا في أيام دولته . ومات غير هؤلاء جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم هنا خشية الاطالة . ولا بأس بإيراد هذا الزجل الذى عمله الشيخ بدر الدين أبقاه الله تعالى ، يرثى به الملك الأشرف قانصوه الغورى عند وقوع تلك الفتنة المقدم ذكرها وما جرى له ، وهو قوله :

غربت شمس دولة الغورى

وابن عثمان بجو طلع ساير

وبهذا رب السما قد حكم
والفلك دار ولم يزل داير
ابن عثمان باداه بأخذ القلع
ويمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيئوا الى مصر مملوك
ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا
ومن الصوف ما عاد يجينا ثياب
على الصوف ياما قعدنا سنين
ما يجى من عندو ولا تاجر
والأمانة جو للملك قالوا
ابن عثمان باغى عليك جابر
الأمير الكبير سى سودون
للعجم نسبتو خلاف القياس
والمقر الأشرفى العنالى
هو أمير سلاح سى أركناس
وبسودون رأس نوبة الثواب
لو رياضه مع سائر الأحناس
وأنصى باى هو حاجب الحجاب
لو شجاعة فى الحرب بالسائر
ومحمد يدعى أمير آخه .
نجل سلطان أشرف عزيز نامر
والدوادار تانى أمير علان
وان أردت المقدمين تذكر
ابن جركس مقدم كبير
وتمر بالزردكاش يـ
وكذا جنبلات معو كرتباى
وأربعين فى ذى العدد وأكثر
وتبعهم من الاساوة كثير
طبلخااه يانصر تباشير

والعساكر معهم كثير فرسان
عشراوات من ترك تتكاثر
ضرب الكل بينهم مشورة
قالوا ملئت منا القلوب والنفوس
نحن نخرج جميع لاجل القتال
بالجنائب والسلاح واللبوس
ونجرد لنصرة السلطان
نكسر الروم والأراضى ندوس
راهنوا بالنفوس وهم أقسار
كل واحد بهجتو قامر
ولا يدري ما قد خبي في الغيب
من تقادير القادر القاهر
خامس العشر من ربيع آخر
لتسماية اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادي
شافع الخلق في نهار الزحام
كان خروج السلطان بتجريدة
لابن عثمان طالب بلاد الشام
والامارة في خدمته موكبين
بالماليك والطلب تتفاخر
وخروج الجميع من القاهرة
كان بتقدير الواحد القاهر
في محفة خرج معو القاضي
كاتب السر المنتخب محمود
والخليفة المتوكل ولد يعقوب
هو محمد فعلو الجمل محمود
وقضاة القضاة ومن معهم
كل نائب قد أبذل المجهود
خرج معو لاجل الخلع
ناظر الخاص الناهي الأمر

هو المباشر للخاص وهو العامل
وكذا القصري للجيش ناظر
دخلوا الشام أوكب بهم موكب
ما سمعنا موكب رثي مثله
ولا نالوا ملك ولا سلطان
في المواكب ولا أحد قبله
ومن الشام خرج دخل في حلب
وقطع من وعره الى سهله
وسليم شاه لما سمع أظهر
أن طبعو منها بقى حابر
طلب الصلح أرسل لهم قاصد
بالهدايا والملبس الفاخر
قالوا ذا الصلح سيد الأحكام
من بخالف يرجع هداه في ضلال
والأمانة في محل الانسان
وأبى حملها عوالي الجبال
وقضى ربنا بحفن الدما
وكفى الله المؤمنين القتال
جو جواسيس الأشرف الغوري
أعلموه انو عليه ماكر
قالوا احذر تركن الى صلحو
واعلم انه خاين عليك غادر
حقق القول ومن حلب برز
والعساكر معو لاجل القتال
وجد الروم مجهزين بالسلاح
والتراكيش معمره بالنبال
ووقع بين العسكرين وقعة
للفريقين شابت لها الأطفال

نصر الله المصري على الرومي
 وبجبلو أضحي عليه غاير
 ولا يدري ما قد خبي في الغيب
 ولا يدري ما هو إليه صاير
 ابن عثمان كان لو من العسكر
 خلق كانوا على الشمال كامنين
 في اشتغال العسكر بنه الروم
 خرجوا في القتال لأجل السين
 فاستغاث الملك وبو سارقه
 ارتقى على الأرض عن جوادوينين
 جا ابن عسو يبيرس واقباي الطويل
 كل واحد لنصرته بادر
 والشجاعة ما تغلب الكثرة
 قطعوههم بالصارم الباتر
 جل ربي محرك الحركات
 جعل الله لكل قتله سبب
 والعجب كان في قتلة الغوري
 في التواريخ تكتب بماء الذهب
 تسعمائة اثنين وعشرين عام
 ما جرى لو خامس وعشرين رجب
 نسال الله أن يحسن العاقبه
 ويسيد الرابع هو الحاسر
 يكشف العار عنا بأخذ التار
 ويرد الكره على الكافر
 أشتى التار لقتلة الغوري
 ولعل أن أبلغ الأوطار
 والتهامي ذلك النهار عندي
 ويعنوا على وسر أو طار

بعد هذا ما أخشى غراب البين
 أن زعق في دارما أو طار
 والعجائب في قتلة الغوري
 راح برجلو لقتلتو خاطر
 وحسنا كل الحساب الا
 ما جرى لو ما سر بالخاطر
 دمه العين منى على الغوري
 من دماها بجرى لعزني عين
 أرتجى عين في الناس تساعدي
 من صباحي حتى تغيب العين
 كان عليه ترقب زمان ملكو
 والسعاده حتى أصابو عين
 الجواد غاب بين العباد أرماء
 مات ودمعو من العيون غاير
 كل من غار منو بقى فرحان
 بعد ما كان غاير على الغاير
 ذي العساكر شبهتها روضه
 فيها أغصان فرسان عليها زهور
 والنسيم في النهر فصل زرد
 وإذا هو كالسيف ظهر مشهور
 واللبوس من فوق الحديد تحكى
 ورد أحمر بين الرياض منشور
 ومن البان شطفات غصون مذهبه
 وجمها صناجق الباتر
 وحكى الياسمين بدن مجروح
 وشقيق النعمان عليه داير
 في سما حرب عسكر السلطان
 تطلع انجم فرسان تزين اللبوس

والأسنة تحكى شهب ثاقه
 وخودهم مثل النجوم فى الشمس
 والملك بينهم قمر مخسوف
 وحكى الرعد ضربهم فى التروس
 خلت أسهم من قوس قزح ترمى
 للعساكر فى ليل غبار عاكر
 السحاب صار يمطر سهام خارقه
 للأعداء ولم يزل ماطر
 ذى العساكر بستان وفيه فاكهه
 ودماهم خمر العنب مدفوق
 واحد اصفر لونو حكى مشمش
 وذا لون العنب وذا معشوق
 ما رأى حد مثل ذى الوقعة
 لا تقل لى الناصر ولا برقوق
 والأماره تحكى شجر مشمر
 فى رياض نشروا غدا عاطر
 والمدافع ترمى سفرجل كبار
 ول رمان يحكى من الفحول فاخر
 كم أسلى قلبى على الغورى
 وأقلو يا قلب اتفكر
 أين سليمان وأين هو النمرود
 وأين هو فرعون وأين هو اقيصر
 وأين ملوك الزمان وذو القرنين
 واللى بسمى ان صح الاسكندر
 وأين كسرى أنو شروان وايوانه
 مات والايوان بعدو بقى دائر
 اكل حادث بأمر القديم راحل
 والاقامة للأول الآخر

لو يكن فى هذا البلد حمال
 ويراهن فى واجب الملعب
 نحن عصبه نحزن على غلبه
 لما يبقى دستو عليه مقلوب
 فايش تقل سلطاننا الغورى
 لما جرد قتل ومات مكروب
 بعد ملكو خمس وعشر سنين
 تسعة أشهر بالكاتب الحاصر
 ويلها خمس وعشرون يوم
 عز كاتب حاسب أمين ذاكر
 العجب كان فى قتلة الغورى
 كل مقدور لا يمنعه المحذور
 ويوم خروجو من البلد أوكب
 ولا يدري ما فى الجبين مسطور
 بالمقدر قال لو لسان الحال
 قد بقى من عمرك ثلاث شهور
 اتبه من رقدة الغفلة
 واحمل الطول من الأمل قاصر
 بعد الاشهر عدة تسعة أيام
 والمنية تكون فى العاشر
 ذى الملك كان رئيس وهو مقدم
 وابن عثمان مؤخر ولا ح كسره
 خندس الريح عليه وحل مركبو
 وابن عثمان عوم وبان نصره
 غرق السفن واخرب السفان
 وبسيفو رمى الجميع بحر
 من جثثهم ومن دماهم صار
 بحرهم بر بالجتت صادر

وتركهم لما رجع مقلع
 برهم بحر بالدماء حادر
 قد جلا لو عروس جمال ملكو
 خالق الخلق ربنا ذو الجلال
 وجبا لوانو يقع ميت
 عن جواد ويوم الحروب والقتال
 وزوى لوانو يموت مقهور
 ولا يعرف قبره ليسوم الزوال
 كم تطير بالرمل والرمال
 طائر الله هو أعظم الطائر
 طار حسابو وكل ما أمل
 وبهذا ما طار عليه طائر
 ابتدأ في النظم والخاتم
 بمديحي في المصطفى المختار
 كلمو الضب والذراع والبعير
 وسعت لو في خدمتو الأشجار
 والغزاة حديثها مشهور
 ونطق لو في راحتو الأحجار
 والقمر انشق له بصفين
 بعد ما كان كامل صحيح فاير
 وأشبع الجيش كلو ببعض الزاد
 وجرى الماء من اصبعو فاير
 ان يقولوا أبو النجاة العوفي
 في نظامو ما في البلد مشلو
 يا الذي جا يسمع عقود نظمه
 خذ وحرر عنو بديع نقلوا
 وان أتالك من يطلب التاريخ
 والوفايح عن الملوك قلو

غربت شمس دولة الغورى
 وابن عثمان نجمو طلع ساي
 وبهذا رب السما قد حكم
 والفلك دار ولهم نزل داي
 وهذا آخر ما انتهى اليها من أخبار دولة الملك
 الأشرف أبي النصر قانصوه الغورى رحمة الله
 عليه . وقد افتتح أوائل دولته بمصادرات وظلم ،
 وأخذ أموال بغير حق ، واختتمت أواخر دولته بفتن
 وضرب سيف وذهاب أموال وأرواح ، وأمور
 مهولة وحوادث غريبة ، وفتن عظيمة ليس لها آخر .
 والأمر الى الله تعالى من قبل ومن بعد ، يفعل ما يشاء
 ولا يسأل عما يفعل .
 واستمر سليم شاه بن عثمان مستوليا على البلاد
 الشامية والحلبية وملك قلاعها وأعمالها ، وحكم
 من الفرات الى الشام ثلاثة شهور ، وملك ثلاث
 عشرة فلعة بالأمان من غير حرب ولا قتال ، وملك
 قبل ذلك عدة قلاع من أعمال شاه اسمعيل
 الصفوى . والذي وقع لسليم شاه ابن عثمان من
 السعد والنصرة على الصفوى وسلطان مصر ،
 وأخذ أموالهم وبركهم وحيولهم واحوائه على
 بلادهم ، وخزائن أموال الأمراء وأموال السلطان
 العورى وناهيك بها — ما وقع فظ لأحد من ملوك
 الروم قبله ولا بعده ، وهذا الأمر من الله تعالى ،
 وقد وعده بذلك من القدم ، ان يعد الله حق . وهو
 لا يخلف الميعاد .

الأشرف أبو النصر طومان باي

وهو السابع والأربعون من ملوك الترك
 وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الحادى
 والعشرون من ملوك الجراكسة وأولادهم في

من المكاحل فترح له القاهرة كلما شق منها وفتح
السد في عية السلطان ، وكان يوم مشهود
وهم يزل على ذلك حتى تبت صوت السلطان
العورى : ورجعت الأمراء من التجريد ، فوقع
الاختيار منهم على سلطنته ، فامتنع من ذلك غابة
الامتناع ، والأمراء تقول ما عندنا سلطان الا أنت ،
وهو يمتنع من ذلك

ثم ركب هو والأمير علان وجماعه من الأمراء
المقدمين وتوجهوا الى نوم الجارج عند الشيخ
أبى السعود ، فلما جلسوا بين يديه ودكروا له ذلك
بعل الأمير طومان باى على السند ، انواع من
العلل . منها ان حزان بينت مال المسلمين ليس فيها
درهم ولا دينار ، فادا سلطت م ابقى على
العسكر تسينا . ومنها ان ابن عثمان ملك البلاد
الشامييه وهو راحف على مصر ، وأن الأمراء
لا يطاوعون على الرجوع الى السفر نائبا ومنها
أنه اذا تسلطن يعدرون به ، ويركبون عليه ،
ويحللونه من السلطنة ، ويرسلونه الى السجن
بشعر الاسكندرية ، ولا يقبوه في السلطنة الا مدة
يسيرة . ثم ان الشيخ أبا السعود احضر بين يدي
الأمراء مصحفا شريفا وحلف عليه الأمراء الدين
جاءوا بضجته بأنهم اذا سلطنوه لا يحامرون
عليه ولا يعدروه ، ولا يثيرون فتنا . وأبهم
ينتهون عن مظالم المسلمين قاطبة فحلفوا كلهم
على المصحف الشريف بسعى ذلك فلما بحلفوا
ترشح أمر طومان باى الى السلطنة ، واقضى
المجلس على ذلك ، ونوحه الأمراء الى بيوتهم .

فلما كان يوم الجمعة رابع عشر شهر رمضان من
هذه السنة صلى الأمير الدوادار صلاة الفجر ،
وركب ومعه الأمراء المقدمون وقدامه الفسوايس
والمشاعل ، فطلع الى باب السلسلة وجلس به .

العدد وكان أصله من كتابية الأشرف
قاينباى ، اشراه الملك الأشرف فانصوه العورى ،
وكان بلود له بمصرايه . فلما اشراه قدمه الى
الأشرف قاينباى ، ولهذا يدعى طومان باى بن
فانصوه . فصار من جيلة مماليكه الكتائبية ،
واستمر على ذلك حتى تسلطن الملك الناصر محمد
ابن قاينباى ، فأخرج له حيلًا وقماشًا وغلما و صار
من مستخرجات الناصر ومعانيقه . وبقي جمدارا
ثم بى خاصكيا ، واستمر على ذلك حتى سلطان
قريبه قانصوه العورى ، فأنعم عليه بامرية عشرة ،
واستمر على ذلك الى سنة عشر وتسعمائة ... فلما
توفى ابن السلطان المقر الناصرى في الفصل الذى
جاء بها أنعم عليه السلطان بامرية طبلخاناه وجعله
شاد الشرايخاناه عوضا عن ولده بحكم وفاته ،
واستمر على ذلك الى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة .

فلما توفى الأمير أزدمر بن على باى الدوادار
الكبير في جمادى الأولى وهو مسافر بجبل نابلس ،
خلع عليه السلطان وقرره في الدوادارية الكبرى
عوضا عن الأمير أزدمر بحكم وفاته ، فاستمر في
الدوادارية الكبرى الى أن خرج السلطان الى
التجريدة بسبب ابن عثمان ... فجعله نائب العية
عوضا عن نفسه الى أن يحضر من السفر ، فساس
الناس في عية السلطان أحسن سياسة ، وكانت
الناس عنه راضية ، وأطاعه العسكر الدين بحلفوا
بمصر قاطبة . وقد جسع بين الدوادارية الكبرى
والاستادارية العالية وكاشف الكتشاف ونائب
العية .

وكان يركب في كل يوم اثنين وخمس ويسير
نحو المطرية ، ويدخل من باب النصر ، ويشق
القاهرة وقدامه الجم الكثير من العسكر والأمراء
المقدمين ، وقدامه سعاة وعبيد نفطية يرمون بالنفط

فلما ركب من بيته الذى فى درب البابا شق من الصليبة . وهو بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء ، وكذلك الأمراء الذين طلّعوا صحبته . فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وانطلقت النساء له بالزغاريت من الطيقان .

فلما استقر بباب السلسلة أرسل خلف أمير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين المتوكل على الله ، فحضر وصحبه سيدى هرون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله وأولاد ابن عمهم خليل ، وحضر قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود بن الشحنة ، والقاضى شرف الدين يحيى ابن البردينى أحد نواب الشافعية ، وجماعه نواب القضاة الذين بالقاهرة ، فلما تكامل المجلس واجتمع سائر الأمراء المقدمين وغيرهم من الأكابر والأصاغر والعسكر أظهر أمير المؤمنين يعقوب وكالة مطلقة عن ولده محمد المتوكل على الله بأنه وكله فى جميع أموره ، وما يتعلق به من أمور الخلافة وغيرها ، وكالة مفوضة ، وثبت ذلك على يد الصاضى شمس الدين بن وحيش ، فاكتفوا بذلك ... وكان أشيع أن يولو الخلافة الى أحد من أولاد سيدى الكبير خليل ، فإن الخليفة المتوكل على الله كان فى أسر ابن عثمان ، ووالده يعقوب عزل نفسه من الخلافة ، فلما أحصر هذه الودالة عن ولده اكتفوا بذلك ... وكان قاضى قضاة الشافعية كمال الدين الطويل فى أسر ابن عثمان وكذلك قاضى قضاة المالكية محبى الدين الدميرى وقاضى القضاة الحنبلى الشهابى الفتوحى . فلم يحضر هذه المبايعة من أعيان نواب الشافعية إلا الشرفى يحيى بن البردينى . فبايع السلطان الخليفة أمير المؤمنين يعقوب ، وشهد عليه بذلك الشرفى يحيى بن البردينى وجماعه من نواب القضاة بياة

عن محمد المتوكل ، وحضر فى آخر المجلس قاضى القضاة الحنفى محمود بن الشحنة .

فلما تمت له البيعة أحضروا له خلعة السلطنة ، وهى الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيوف البداوى ، فأفيض عليه شعار الملك ، وتلقب بالملك الأشرف ، مثل قرييه الغورى . ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنش ولا سرج ذهب ، ولا وجدوا له فى الزردخانات لا قبة ولا طيرا ، ولا الغواشى الذهب . فركب من سلم الحراقة التى بباب السلسلة ، والخليفة قدماه . فطلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على كرسى المملكة ، وقبل له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته .

وكان محببا للعوام ، فانه كان لين الجانب ، قليل الأذى ، غير متكبر ولا متجبر . فلما انتهى أمر المبايعة خلع السلطان على أمير المؤمنين ونزل الى داره فى موكب حفل . وزالت دولة الغورى كأنها لم تكن . فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغير على طول المدى . وقد قال محمد بن قانصوه :

فد ذهب الغورى الى ربه
وذا الدى قدرد الله

الملك لله فمن شاء من
عباده للملك ولاء

فلما كان وقت صلاة الجمعة فى ذلك اليوم خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة ، وخطب به الشرفى يحيى بن البردينى ، واستمر يحط به فى كل يوم جمعة . ثم ان الخطباء خطبوا باسمه فى ذلك اليوم على منابر مصر فى القاهرة بعد ما كان الخطباء لم يدكروا فى الخطبة اسم سلطان ، ولم

بدعوا نحو خمسين يوما ، بل كانوا بدعون
للحلبه فقط

وفي هذا السوم قبض السلطان على قانصوه
الأشرفي نائب قلعة حلب الذي سلم القلعة الى
ابن عثمان من غير حرب ولا محاصرة ، فلما حضر
قانصوه هذا صاحبه العسكر نغير خاطر السلطان
عليه بسبب ذلك ، فقبض عليه وأودعه في البرج
بالقلعة ، حتى يكون من أمره ما يكون

وفي يوم السبت خامس عشر رمضان حضر جماعة
من الأمراء ممن تحلف بعهد العسكر بدمشق ،
وحضر الأمير جان بردى العزالي نائب حماه وقد
ترشح امره أن يلي بياضة الشام ، والأمير سودون
الدوادار رأس نوبة النوب ، والأمير فانصوه كرت
أحد المقدمين وكان مريضا فلما حصروا وجدوا
الدوادار قد تسلطن فعز ذلك على الأمير سودون
الدوادار . وكان صد ركن الى السلطنة وهو
بالشام فلم يسم له ذلك فلما حصروا طلعوا الى
القلعة وقبلوا الأرض للسلطان . ونزلوا الى
دورهم

ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن أمير عربان
حماه الأمير ناصر الدين بن الحنش نالعه
آل ابن عثمان أرسل چالاش عسده وصحبته ابن
سوار — الذي كان يعصب له — فلما وصلوا
الى قابون بالقرب من دمشق ، اتهم ابن الحنش ،
وحصل يسه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة
مهولة ، وقتل منهم جماعة وأطلق عليهم الماء من
أنهم دمشق ، حتى صار كل من دخل في تلك المساء
نفرسه يوحل ، فلا تقدر على الخلاص فهلك من
عسكر ابن عثمان جماعة كثره حسبما أشيعت
بذلك الأخبار . وقد قلت في المعنى :

قل لا بن عثمان اذا قابلته
اقبل بصيحه ناصح ودع الطيش

واحذر بعارض شاميا بجهالة
نحشى عليك اللدع من ابن الحنش

فلما دخلت الأمراء دخل أصحابهم جماعه كثيرة
من أعيان أهل دمشق وأولادهم وعيالهم ، وسبب
ذلك أنه لما حصل لعسكر مصر هذه الكسرة ،
وقتل سيباي نائب الشام ، واضطربت الأحوال ،
وتب أهل الشام بعضهم على بعض . وهبوا حارة
السرة ، وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم . وكذلك
فعلوا بتجار الفريج الدين هناك ، وهبوا أموالهم .
وكانت فتنة مهولة . وهبوا بيوت اعيان الناس
بدمشق من القضاة والتجار . فخرج غالب أعيان
دمشق منها بسبب ذلك ، وبسبب فتنة ابن عثمان
ومساد الأحوال بمصر والبلاد الشامية فلما بلغ
السلطان ما فعله ناصر الدين بن الحنش مع عسكر
ابن عثمان رسم له بياضة حمص ، وهيل برزت له
المراشيم الشريفة أنه اذا كسر عسكر ابن عثمان
برره السلطان في الأتابكية بدمشق ، فان ابن
الحنش أرسل يقول للسلطان . « مدني ببغض
عسكر وأنا أجبع العربان وضمان كسرة عسكر
ابن عثمان على » وكان في قديم الزمان بعض
أجداد الحنش متولبا على بياضة حمص ..

وفيه حضر شخص يقال له اينال الأعور وكان
جان بردى العزالي قرره في بياضة صفد فلما بعث
اليها دواداره ومباشريه وثب عليهم أهل صفد ،
ولم يمكنهم من الدخول الى المدينة ، وربما
قتلوا منهم جماعة فحضر الى مصر ليلبس خلعة
وبمضى الى صفد ، لقتص من أهلها

وفي يوم الاثنين سابع عشره أنفق السلطان
الجامكية على العسكر في الحوش ، وحصل في

ذلك اليوم بين الأمراء خلف بسبب الوظائف ،
وحصل بين الأمير علان الدوادار الثاني وبين جان
بردى الغزالي تشاجر حتى خرجا فيه عن الحد .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض
وهم الذين كانوا مقيمين بمصر ولم يخرجوا في
التجريدة صحبة السلطان . ونادى أيضا أن كل
من أخذ شيئا من نهب سلاح العسكر أو قبائشهم
يرده ، ومن لم يرد شيئا وغمز عليه شئ من غير
معاودة . وقد بلغه أن جماعة من الغلمان والعبيد
ممن كان في التجريدة نهب أشياء كثيرة من مال
وسلاح وقماش وغير ذلك .

ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما تسلطن أمر
بهدم المسطبة التي كان أنشأها السلطان الغورى
بالحوش أيضا عوضا عن الدكة التي كان يجلس
عليها الأشرف قايتباي ، فهدم السلطان المسطبة
وأعاد الدكة كما كانت في أول الأمر وجلس عليها ،
وكانت قد تكسرت فأصلحوها وجعل لها غشاء من
الجوخ الأصفر وصار يجلس عليها للمحاكمات كما
كان يجلس الأشرف قايتباي ، وقد قلت في المعنى :

قد عادت الدكة للحكم

وانهدمت مسطبة الظلم

وصار طومان باي بين الوري

يمشي به الذيب مع الغنم ،

فياله من ملك عدله

قد شاع بين العرب والعجم

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، جلس السلطان
على الدكة وعرض العسكر بالحوش ، وكتب منهم
نحو ألفى مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين الذين
كانوا بمصر نحو ستة مقدمين . وعين الأمير جان
بردى الغزالي باشا على العسكر ، وقد ترشح أمره
بأن يلى نيابة الشام .

وفيه قبض السلطان على المهتار محمد الفجولي ،
وعلى أخيه على مهتار الطشطحاناه بخدمة السلطان
الغورى ، وقبض على جمال الدين الألواحى بواب
الدهيشة ، وهذا كان أول حكم للسلطان طومان
باي . وسبب ذلك أن السلطان لما تسلطن عرض
الخزائن فوجدها فارغة ليس فيها درهم ولا دينار .
وكان محمد المهتار وجمال الدين البواب من حين
توفى الأمير خاير بك الخازندار جعلهما السلطان
الغورى متحدثين في أمور الخزائن الشريفة ،
فصارا يتصرفان فيها كيف يختاران ، فطاشا وركبا
في غير سرجيها ، وما كانا يظنان أن السلطان
الغورى يموت في هذا الزمان . فكان ذلك من
أكبر أسباب الفساد في حقها كما يقال في المعنى :

أمور تضحك السفهاء منها

ويكى من عواقبها اللبيب

وفي يوم الخميس عشرى شهر رمضان ، عمل
السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وجلس على
الدكة بالحوش ، وخلع على من يذكر من الأمراء ،
وهم المقر السيفى سودون التهابى الدوادار ، وقرره
أتابكى العساكر عوضا عن سودون العجمى بحكم
قتله في واقعة ابن عثمان . وخلع على المقر السيفى
جان بردى الغزالي ، وقرره في نيابة الشام عوضا
عن سيباي بن بخت خجا بحكم قتله في واقعة ابن
عثمان . وخلع على المقر السيفى أركماس بن
طراباي ، وقرره في امرية سلاح على عادته . وخلع
على المقر السيفى بخشبای بن عبد الكريم وقرره
أمير مجلس عوضا عن أركماس بحكم ولايته في
امرية سلاح . وخلع على المقر السيفى أنص باي
ابن مصطفى وقرره أمير آخور كبير عوضا عن نجل
المقام الشريف الغورى بحكم انفصاله عنها . وخلع
على تمر الحسنى وقرره رأس نوبة النوب عوضا

عن سودون الدوادارى بحكم انتقاله الى الأتابكية .
 وحلج على منطباى العالنى نائب القسلعه وفرره
 حاجب الحجاب عوضا عن أنص باى بحكم انتقاله
 الى امریه آخور الكبرى . وخلج على الأمير علان
 ابن فراجا وفرره أمير دوادار كبير عوضا عن المقام
 الشريف بحكم انتقاله الى السلطنة . وخلج على
 الأمير أبرك الأشرفى وفرره وزيرا واستادارا
 وكاشف الكساف عوضا عن المقام الشريف . وخلج
 على كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين وقرره
 دوادارا تانيا مقدم ألف كما كان علان . وخلج على
 مامای دوادار قانى باى قرا أمير آخور كبير كان ،
 وقرره أمير آخور تانيا عوضا عن آقباى الطويل
 بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان . وخلج على شحص
 من الأتراك يقال له تم السيفى مغلباى الساقى ،
 وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن خدا بردى
 الأشرفى ، بحكم أنه بقى مقدم ألف . وخلج على
 شحص يقال له بحشباى الذى كان كاشف البهسنا
 وفرره فى نيابة صفد . وخلج على شخص آخر من
 الأتراك وقرره فى نيابة طرابلس . وخلج على شخص
 يقال له تانى بك الأشرفى وقرره فى نيابة القلعة عوضا
 عن طقطباى بحكم انتقاله الى الحجوية الكبرى .
 وخلج على أقطوه وقرره كاشف الشرقية ثم أبطل
 ذلك فيما بعد . وخلج على الأمير بشبك الفقيه
 وقرره خازندارا كبيرا عوضا عن خاير بك الذى
 توفى . وخلج على جتتمر وقرره خازندارا تانيا .
 وخلج على مامای الصغير وأقره فى الحسبة على
 حاله . وخلج فى ذلك اليوم على جماعة كثيرة
 وقرره فى وظائف معلومة .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين ، فخلج على
 القضاى محمود كاتب السر ابن أجا وأقره على
 حاله . وأقر الشهابى أحمد ناظر الخاص ابن يوسف
 متحدثا فى نظارة الجيش عوضا عن القسروى بحكم

قتله هناك . وخلج على سائر المباشرين من أرباب
 الوظائف باستمرارهم على وظائفهم . وخلج على
 نقيب الجيش ، وأزدمر الميئندار ، والمساس والى
 الشرطة ، وسنبيل مقدم المماليك ، باستمرارهم على
 عاداتهم .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرية خلج السلطان على
 شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر باستمراره على
 عادته . وقد حصل من أولاد أحمد بن بقر فى هذه
 السنة من الفساد ما لا يحصل من بلاد الفرنج ،
 من قتل النفوس ونهب الأموال ، ولا سيما ما فعله
 ابن الجذامى بالعسكر لما رجع وهو مكسور ، وما
 فعله أولاد عبد الدائم بالشرقية من نهب الأموال
 وقتل النفوس ، ولم تنتفح فيها شاتان . وخلج عليه
 وراحت على من راح .

وفى يوم الخميس سابع عشرية ، خلج السلطان
 على مصرباى الأقرع أحد أمراء الطيلخانات وقرره
 فى الحجوية الثانية عوضا عن طومان باى قرا بحكم
 قتله فى واقعة عثمان . وخلج على تهرباى العادلى
 وقرره تاجر المماليك عوضا عن نوروز بحكم
 وفاته . وخلج على شادبك وفرره شاد الشرايخانة
 عوضا عن يوسف الناصرى بحكم انتقاله الى
 النقدمة . وخلج على على بك وقرره على نظر
 الجوالى عوضا عن القسروى . وخلج على فخر
 الدين بن سوز واستقر به ثالث فلم فى كتابة
 المماليك عوضا عن جلال الدين بحكم وفاته .
 وخلج على حاجب الحجاب بدمشق باستمراره
 على عادته .

وفى أواخر هذا الشهر قرىء عهد السلطان
 بحضرة أمير المؤمنين يعقوب وقاضى القضاة
 الحنفى ، وجماعة من النواب ، وحضرت جماعة من
 المقدمين على العادة . ثم ان السلطان أنعم على
 أمير المؤمنين يعقوب لما بايعه بالسلطنة بحصة

ونصف وثلث في منشية دهشور ، فأنعم عليه في ذلك اليوم بما ذكرناه .

وفي يوم السبت تاسع عشره طلع ناظر الخاص بخلع العيد وعرضها على السلطان وهي مزقوفة على رءوس الجمالين .

وفي يوم الأحد سلخ هذا الشهر حضر الناصري محمد ابن بلباى المؤيدى حاجب ميسره بدمشق وأخبر بأن سليم شاه بن عثمان فد ملك مدينه دمشق وملك قلعته ، وقتل على باى الأشرى نائب القلعة ، وقتل ستة وثلاثين أميرا من أمراء دمشق غير من وجده من الرعية بالشام .

وحضر ابن بلباى هذا وهو في زى العرب ببشب وزنط على رأسه . فلما أشيعت الأخبار في القاهرة بأن ابن عثمان ملك الشام صارت الناس في أمر مريب بسبب ذلك ، وقالوا ما بقى بعد أخذ الشام الا مصر ، وجزموا بهذا الأمر . وعول بعض الناس على الهروب الى جهة الصعيد ... فتأكد السلطان والأمراء والناس قاطبة لهذا الخبر ، ولا سيما أنها ليلة عيد الفطر ، والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان وكسرة العسكر ، والأشلة قائمة بسبب من قتل من العسكر ، وقد قلت :

يا ابن عثمان كف عن أخذ مصر

بلد شرفت بخير امام

حبرنا الشافعى قطب ولى

نجل ادريس عمدة الاسلام

هى تدعى كنانة من غزاها

قسم الله ظهره بالحسام

وفي شوال ، وكان مستهله يوم الاثنين ، صلى السلطان صلاة العيد ، وخلع على الأمراء ومن له

عادة . فخطب بالسلطان في ذلك اليوم الشرقى بحبى ابن البردينى ، وكان موكب العيد حفلا .

وفي يوم الجمعة خامسه ، الموافق لاربع هاتور القبطى ، قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وقد عجل بلبس الصوف .

وفيه توفى الأمير جانم الابراهيمى أحد الأمراء الطبلحانات .

وفي يوم السبت سادسه طلع الى السلطان شخص يقال له على الشعبانى تقيب المحتسب ، وشخص آخر يقال له ابن خبيز السمسار فى الغلال ، فلما وقفا بين يدى السلطان تكلما معه بأن يجعل على الحسبة مالا معيناً ، وعلى الغلال أيضاً ، ولا يحصل من ذلك ضرر للمسلمين ... فلم يلتفت السلطان الى كلامهما وضرب على الشعبانى بالمقارع وابن خبيز ، وأشهر الشعبانى في القاهرة وهو ماش مكشوف الرأس ، وفد صرب بالمقارع ونودى عليه : هذا جزاء من يتعاون في انشاء المظالم في الدولة العادلة بعد ما بطلت ، وأمر السلطان بعزل الشعبانى من التحدث في أمر الحسبة ، فأقام الشعبانى بعد ذلك أياما يسيرة ، وأشيع موته من الضرب الذى حصل له كما تقدم .

وفي يوم الاثنين ثامن ، حضر دوا دار نائب غزة المسمى بعلى بك الأحذب ، وأخبر بأن ابن عثمان من حين دخل الشام تلاشى أمره ووقع الوخم في عسكره ، فصار يموت منهم في كل يوم جماعة ، وعز عندهم وجود الأقوات من الغلال والعلف . وقد ضيقت عليه العربان ومنعوا عنه ما يجلب من الشعير والقمح والتين ، وكل من خرج من عسكره الى الضياع قتله العرب ، وقد تجون بدخوله فما بقى يمكنه الخروج منها ، وسارت خيول عسكره سائبة تأكل من ورق الأشجار وهى في غاية الحصر .

وفيه حضر خدابردى نائب الاسكندرية وخرج اليها نهم الذى قرر بها ، وحضر الأمير خاير بك المعمارى الذى كان توجه الى ثعر رشيد بسبب عمارة السور والأبراج التى هناك كما تقدم .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له ملباى المشرف وقرره فى استدارية الصحبة عوضا عن قانصوه الأشرفى بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه كانت كائنة الزينى بركات ابن موسى مع الشيخ أبى السعود وسبب ذلك أن شخصا مدابعا يبيع الجلود ، يقال له الدمراوى — مكاسا على بيع الجلود — فجار عليه ابن موسى ، فوقع بينه وبين ابن موسى حظ نفس ، فقصد ابن موسى أن يقبض عليه فتوجه الدمراوى الى الشيخ أبى السعود واحتفى به ، فأرسل الشيخ أبو السعود رسالة الى ابن موسى بسبب ذلك ، وقد شنع فيها ، فتوقف ابن موسى فى أمره ولم تلتفت الى رسالة الشيخ وطاوله فى أمر الدمراوى . فأرسل الشيخ لابن موسى فأحضره ، فما حضر عنده فى كوم الجارج وبخه الشيخ بالكلام ، وقال له : « ماكلب كم تظلم المسلمين » . فحنق منه ابن موسى وقام من عنده على غير رضا ، فأمر الشيخ بكشف رأس ابن موسى وضربه بالنعال . فصفعوه بالنعال على رأسه حتى كاد أن يهلك ، ثم وضعه فى مكان وأرسل خلف الأمير علان الدوادار الكبير ... فلما حضر قال له ضعه فى الحديد ، واطلع وشاور السلطان عليه وأعلمه بأنه يؤذى المسلمين .

فلما طلع الأمير علان وشاوره فى أمر ابن موسى وما جرى له مع الشيخ أبى السعود ، أرسل السلطان يقول للشيخ أبى السعود : مهما اقتضاه

رأيك فيه فافعله فلما ورد الجواب على الشيخ بذلك أمر باشهار ابن موسى فى القاهرة ثم يشنفوه على باب زويلة . فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التى فى كوم الجارج وهو ماش مكشوف الرأس بكبر طاق وهو فى الحديد نادى عليه : « هذا جزاء من يؤذى المسلمين » . فتوجهوا من كوم الجارج الى ساحل مصر العتبقة وهم ينادون عليه الى أن وصل الى بيت الأمير علان الدوادار الذى بالناصرية ... فأراد أن يوقع فيه بشنق أو تغريق . ثم عاودوا الشيخ فى أمره بأن عليه مالا للسلطان ومتى شنق ضاع على السلطان ماله ، فعفا الشيخ عنه من القتل ، واستمر ابن موسى عند الأمير علان وهو فى الحديد حتى يكون من أمره ما يكون . وكانت واقعة مهولة بين ابن موسى والشيخ أبى السعود ، وقد أشرف ابن موسى فى هذه الكائنة على الهلاك . وفد قلت فى هذه الواقعة :

تعجبوا مما جرى فى الوجود
بين ابن موسى كان وأبى السعود

تساجر قد طال ما بينهما
واشتعلت نيرانه بالوفود

فصرح الشيخ بعزلانه
وأكد القول بالألأعود

ويغلب الله على أمره
ويرغم القاهرة أنف الحسود

ليت شعرى ذا الهبوط الذى
نال ابن موسى بعده من صعود

ولما جرى لابن موسى ما جرى ، ظهر غريمه شهاب الدين بن الصائغ ، وكان يسعى عليه فى أيام الغورى . فلما وقعت هذه الكائنة لابن موسى

اتتدب الى مرافقته ابن الصائغ وقال : أنا أثبت في
جهة ابن موسى للسلطان مائة ألف دينار .

ثم ان ابن الصائغ توجه الى بيت ابن موسى
وصحبته طواشيه وقواسه وجماعة كثيرة ، وكبس
على ساء ابن موسى . وقبض عليهن وهب ما في
بيوتهن من قماش وأمتعة . وقبض على عبيده
وغلماناه وحاشيته .

فلما رأى السلطان ما قد حل به توقف عما كان
فيه من أذى ابن موسى ... ثم ان ابن موسى قال
أنا أثبت في جهة ابن الصائغ مائتي ألف دينار ،
وقال للأمير علان . أرسل خلف ابن الصائغ وصعه
في الحديد حتى يعمل حسابه . فلما حضر ابن
الصائغ وصعه الأمير علان في الحديد حتى يقيم
حسابه مع ابن موسى .

وأما ما كان من أمر التسبخ أبى السعود ، فانه
لما فعل بابن موسى ما فعل قامت عليه النائرة
والأشلة وأنكر عليه الناس والفقراء ، وقالوا . ابش
للشيخ شغل في أمور السلطنة ؟ واستقلت الناس به
ولم يشكره أحد على ما فعله بابن موسى .

وفي يوم الأحد رابع عشره طلعت الى القلعة
خوند بنت الأمير أفبردى الدوادار ، وهى روجة
السلطان ، وأمها بنت حاص بك أخت خوند زوجه
الأشرف قايتباى . فطلعت وقت صلاة الصبح
بالغوانييس والمشاعل . ومعها الجهم الكثير من
الحوندات والستات وأعيان ساء الأمراء
والمباشرين . فاستمرت في موكبها حتى طلعت الى
القلعة ودخلت الى قاعة العواميد . فحصل الأمير
بشير الطواشي رأس نوبة الستارة على رأسها
القبة والطيخ ، حتى جلست على مربتها . وكان لها
يوم مشهود بالقلعة .

وفي يوم الأحد عرض الأمير علان الدوادار ابن
موسى ، وابن الصائغ ، وكان قرر على ابن موسى
عشرين ألف دينار ، وأن يورد منها على الجامكية
عشرة آلاف دينار ، فلم يورد منها شيئاً فبطحه
على الأرض . وضربه نحو عشرين عصاً ، فوعد أنه
يورد ذلك القدر .

ثم طلب أحمد بن الصائغ وضربه فوق أربعمائة
عصاً حتى كاد أن يهلك ، وأشيع بين الناس موته .
وفي يوم الخميس ثامن عشره لم يخرج المحفل
من القاهرة ولم يحج أحد من الناس قاطبة بسبب
فتنة ابن عثمان ، وأشيع أنه يرسل جماعة من
عسكره الى مكة المشرفة وصحبتهم كسوة
الى الكعبة ، فلم يثبت ذلك .

ثم ان السلطان أرسل الطواشي مرهف من البحر
المالح وصحبته كسوة الكعبة المشرفة والصرر لأهل
مكة المشرفة والمدينة . فتوجه الى الطور ونزل
من هناك الى البحر .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن الشيخ
أبا السعود أرسل خلف ابن موسى وفكه من الحديد
وأظهر أنه قد رضى عليه ، وصار يتصرف في أمور
المملكة من عزل وولاية ، فأنكر عليه الناس ذلك .

وفي يوم السبت عشريه طلع الزينى بركات بن
موسى الى السلطان على أنه يعيده الى وظائفه فلم
يلتفت اليه ، ونزل من عنده بعير طائل وهو في
التوكيل به حتى يعلق ما قرر عليه من المال ، فتوجه
الى بيته وهو في غاية الذل بعد ما زينت له حارته
في سوقة اللبن ، وتخلقت جماعته بالزعفران فنزل
عليهم خدمة بسبب ذلك .

وفي يوم الأحد حادى عشره ، خلع السلطان
على شرف الدين بن عوض وقرره في استدارية

الذخيرة عوضا عن ابن موسى بحكم انفصاله عنها

وفي يوم الاثنين ثانى عشره نادى السلطان للعسكر بأن يوم الثلاثاء أول النفقة .

وفيه وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك ، وأنه قد وقع بين الرئيس سليمان العثمانى وبين الأمير حسين نائب جدة ، وأن كلا منهما توجه الى جهة من جهات الهند .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له قجماس — وكان شادا فى بنها العسل — وقرره فى كشوفية الشرقية ، وأبطل من كان قرر بها .

وفيه أنفق السلطان على العسكر المعينين للتجريدة ، فأعطى لكل مملوك خمسين دينار ، فردوها عليه وقالوا « بق ، بق » ، وخرجوا من باب الحوش على حمية ، وقصدوا أن ينشئوا قننة ، فأشار بعض الأمراء على السلطان بأن يرضيهم ، وأن ينفق عليهم كل واحد مائة دينار على جارى العادة . فاسترد من خرج من العسكر على غير رضا ، ثم لما ردوا أنفق لكل مملوك مائة دينار وجامكية ثلاثة شهور عبارة عن مائة وعشرين دينارا لكل مملوك . فأنتق فى ذلك اليوم على أربع طباق ، وأشيع أن هذا العسكر لما يخرج يقيم فى غزة هو والأمراء ويحرسون المدينة الى أن تخرج التجريدة الكبيرة بعد الربيع .

وفيه أرسل السلطان بالقبض على جماعة من الأروام الذين كانوا فى خان الخليلى ، وقد بلغه عنهم أنهم يكتبون ابن عثمان بما يقع فى مصر من أمور المملكة ، وعندهم جواسيس لابن عثمان ، فأرسل بالقبض عليهم ووضعهم فى الحديد .

وفيه أشيع أن السلطان طلب ابن عثمان الصبى الصغير الذى يقال له قاسم بن أحمد بك ابن عثمان الذى توجه مع السلطان الغورى الى التجريدة ، فلما انكسر العسكر رجع مع الأمراء الى مصر ، فبلغ السلطان أن جماعة يقصدون قتله ، فحاف عليه السلطان من القتل ... فطلع به الى القلعة وأسكنه فى مكان بالبحر ورث له ما يكفيه فى كل يوم هو وجماعته .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الشرفى يحيى ابن الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان مفيما بحماه ، فلما ملكها ابن عثمان فر منها وجاء الى مصر من البحر المالح من جهة طرابلس .

وفيه خلع السلطان على الأمير طقطبى حاجب الحجاب ، وجعله متحدثا فى كشوفية البحيرة عوضا عن يوسف البدرى مضافا لما بيده من الحجوية الكبرى .

وفي يوم الجمعة سادس عشره حضر الى الأبواب الشريفة القاضى عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكان فى الأسر عند ابن عثمان بالشام ، ففر منه وحضر الى مصر وهو فى زى جمال وعليه بشت وعلى رأسه زنط . وحضر صحبته شخص يقال له أحمد الدمياطى وهو تاجر فى الوراقين ، وأخبر السلطان بأن ابن عثمان قد تلاشى أمره ، وأن عساكره مختلفون ؟ وأن ناصر الدين ابن الحنش ضيق عليه الطرقات . وصارت العربان تقتل كل من انفرد من عسكره فى الضياع ، وأخبر أنه ملك مدينة الشام وقلعتها ، وملك قلعة طرابلس وصفد وأعمالها ، وصار بيده من الشام الى الفرات ، وأناب فى هذه المدن التى ملكها جماعة من أمرائه كما فعل فى حلب وحماه وحمص وغير ذلك من البلاد . وقيل ان ابن

الجنش أرسل الى السلطان مطالعة مستحثة في ارسال تجريدة بسرعة قبل أن يزحف ابن عثمان الى غزة . ثم ان السلطان خلع على القاضي عبد الكريم ونزل الى بيته .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره خلع السلطان على ابن خليفة سيدى أحمد البدوى الذى قتله ابن عثمان فى حلب وفرره عوضا عن آبيه بحكم قتله ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وعلى رأسه الأعلام وفداه سائر الفقراء الأحمدية .



وفي ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وخلع فى ذلك اليوم على الشرقى يحيى بن البردينى وفرره فى قضاء الشافعية عوضا عن قاصى القضاة كمال الدين الطويل بحكم أسره عند ابن عثمان . وخلع على قاصى القضاة الحنفية حسام الدين محمود ابن التحنة وأفره فى قضاء الحنفية على عادته وخلع على الشيخ سمس الدين التتاي وفرره فى قضاء المالكية عوضا عن القاضى مجبى الدين الدميرى بحكم أسره عند ابن عثمان وخلع على قاصى القضاة عز الدين الششيبى وأعادته الى قضاء الحنابلة عوضا عن شهاب الدين الفتوحى بحكم أسره عند ابن عثمان ... وهذه ثانية ولايه وفعت لعز الدين بن الششيبى . فلما خلع السلطان على القضاة الأربعة فى يوم واحد ونزلوا من القلعة وعليهم التشاريف رجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم ، واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة . وقد تولى هؤلاء القضاة والقاهرة فى غاية الاضطراب بسبب ابن عثمان .

وفي ذلك اليوم أكمل السلطان النفقة على العساكر المعينة للتجريدة ، وأخذوا فى أسباب عمل البرق والحروج الى غزة ... قيل ان السلطان أنفق

على نحو ألفى مملوك ، وهم المعينون للسفر . وفى يوم الجمعة رابعه طلع ملك الأمراء جان بردى العزالى نائب الشام الى القلعة فصلى مع السلطان صلاة الجمعة ، ثم خلع عليه السلطان وجعله باشا على العسكر المعينين للتجريدة . فلما نزل من القلعة توجه الى وطاقه الذى بالريداية وخرج من غير طلب ، بل قدامه بعض جنائب حيول بعراى وطبول بازات ، وقدامه عبيد نفطية ، فتوجه الى الريداية فى ذلك اليوم قبل خروج الأمراء والعسكر .

وفي يوم السبت خامسه نادى السلطان للعساكر المعينة للتجريدة بأن يخرجوا صحبه الباشا فى ذلك اليوم ، ومن لا يخرج يستاهل ما يعرى عليه فوقف له جماعة من المماليك المعينه وقالوا لا يخرج ولا يسافر حتى تنفق علينا تمن جمل ستة أشرفية ، وتصرف لنا العليق ، وثمن اللحم المنكسر . فحصل فى ذلك اليوم بعض اضطراب ، وخرج المجلس مانعا ، والعسكر غير راض ، والأحوال غير صالحة ، وابن عثمان زاحف الى غزة ، ونائب غزة أرسل يقول : أدركونا بالعسكر قبل أن يملك ابن عثمان مدينة غزة ، وتتعبوا فى خلاص البلاد من يده

وفي يوم الأحد سادسه خرج شخص من الأمراء المقدمى الألوفا المعينين للسفر ، وصار فى كل يوم يخرج منهم الى الوطاق جماعة شبيها فشيئا ، والباشا جان بردى مقيم بالريداية حتى يكمل خروج العسكر .

وفي يوم الاثنين سابعه أنفق السلطان على العسكر المعين للسفر ثمن اللحم عن ثلاثة أشهر ، فحصل كل مملوك نحو أربعة أشرفية ونصف توسعة عليهم ليستعينوا بذلك .

وفي ذلك اليوم حضر شخصان من المماليك السلطانية وكانا فى بعض الضياع عند العرب .

الذخيرة الشريفة ، ووكيل بيت المال عوضا عن
الزنى بركات بن موسى .

وفي يوم الجمعة حادى عشره تزايد أم الاشاعات
بأن ابن عثمان أرسل الى غزة عسكريا صحبه جماعة
من أمرائه ، منهم شخص يسمى اسلندر باشا ،
والآخر يسمى داود باشا ، وآخرون من أمرائه .
وأشيع أنهم قد ملكوا مدينة غزة ، وأحرقوا منها
بعض بيوت . وأن نائب غزة هرب وعسكر
ابن عثمان زاحف على مصر ، وأن الاحوال غير
صالحة

فلما تحقق السلطان هذه الأخبار ، أشيع أنه
يخرج الى لقاء ابن عثمان بنفسه . وبادى في ذلك
اليوم بأن الزعر والصبيان الشطار والمعاربة وكل
من كان مخفيا على قتل قتل أو غلبه دم يظهر
وعليه أمان الله ، والعرض بهم في الميدان ، وأن
السلطان بصرف لهم الجوامت وأمرؤوب وكونون
صحبة الزردخانات اذا سافر السلطان . فلم تعجب
الناس هذه المناذاة لقوله ولو ذبوا قتلوا القتلى
مفهورون وعليهم أمان الله -- وكان السلوت عن هذا
أجمل -- فاضطربت الأحوال في ذلك اليوم ،
وارتجت القاهرة ، وخرج العسكر المعين للسفر
على وجوههم مسرعين .

وفي ذلك اليوم خرج الأمير خدا بردى الأشرفى
أحد المقدمين الذى كان نائب الاسكندرية ، فخرج
في موكب حفل بعير طلب ، وفداهه الجنائب
الحريية ، وصحبته الجم الكثير من العسكر من
ماليكه . وقيل كان عنده ناشئة مملوك ...
فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ،
والنصرة للعسكر على ابن عثمان . وقد صارت
الناس في وجل بسبب ابن عثمان .

وفي يوم السبت ثانى عشره جلس السلطان على

فدخلا مصر في هيئة العلمان بأبشاش وعليهما
زنوط ، فأخبرا بأن ابن عثمان قد تلاشى أمره وأن
عسكره مختلف عليه ، وقد وقع بينه وبين خاير بك
نائب حلب ، وربما أشاعوا قتله . ولم يكن لهذا
الخير صحة في أمر ابن عثمان ولم تثبت صحة هذه
الأخبار .

وفي يوم الأربعاء تاسعه حضر دوا دار خاير بك
نائب حلب ، وزعم أنه قد فر من ابن عثمان ، وأخبر
أن ابن عثمان أرسل عسكريا نحو خمسة آلاف
فارس صحبة ابن سوار وقد أشرفوا على أخذ
غزة ، بل أشاعوا أخذها ، وأن نائب غزة قد
هرب . فاضطربت الأحوال لهذه الأخبار ، وتنكد
السلطان الى الغاية ، وفادى في ذلك اليوم بالحروج
من غير تأخير ، ومن تأخر يستاهل ما يجرى عليه .
فلما كان في ذلك اليوم خرجت العسكر على
وجوههم مسرعين ، وأشيع سفر السلطان بنفسه
وصحبته الأمراء قاطبة ، وأنه هو الذى يلقى ابن
عثمان بنفسه وصحبته نائب حلب أمير كبير ، وهو
في الحديد ، وجماعة من أجناد الحلقة بغزة ، وهم في
الحديد ، وأرسل نائب غزة يرافع فيهم بأنهم كاتبوا
ابن عثمان بأن يحضر الى غزة ويملكها من غير
مانع .

فلما حضروا بين يدى السلطان حلفوا له أن هذا
الأمر ما وقع منهم ولا كاتبوا ابن عثمان ، وأنما
دولت باى نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ
نفس ، فكذب عليهم بهذه التهمة الباطلة ، فصدفهم
السلطان على ذلك . وأرسل جان بردى الغزالى
نائب الشام يشفع فيهم ويبرئهم مما قالوه في حقهم
بالباطل ، ففكهم السلطان من الحديد ، وأرسلهم
الى نقيب الجيش حتى يتبصر في أمرهم .

وفي يوم الخميس خلع السلطان على الأمير
يوسف البدرى الذى كان وزير وفوره ناظر

الدكة بالحوش ، وحضر الأمراء فاستحثهم السلطان على أن يخرجوا كلهم في ذلك اليوم فقال الأمير طقطبای حاجب الحجاب : أنا عزمنا على السفر الى البحيرة ... وكان السلطان قد جمعه متحدثا في كشوفية البحيرة . فقالت الأمراء : الخروج الى قتال ابن عثمان أوجب من الخروج الى البحيرة ، وأنت ما خرجت سحبة السلطان العورى لما سافر ، ولا نهب لك برك ولا قماش . فتعلل أنه ضعيف ، فحصل بينه وبين الأمراء في ذلك اليوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان ، وفصد الممالك الجلبان أن ينزلوا فينهبوا بيته ويحرقوه ... وقبل أن بعض الممالك اكمه وقاسى من البهدة ما لا خير فيه ، فتقرر الحال على أنه يخرج الى التجريدة صحبة الأمراء ، ومنع السلطان الممالك من نهب بيته . وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض قاطبة .

وفي ذلك اليوم خرج الأمير نائب حماه الذى قرر عوصا عن جان بردى الغالى فخرج بطلب حربى .

وفي ذلك اليوم خرج الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين وطلب طلبا حربيا ، وكان قدماه جنائب وطبلان وعلى رأسه صنجق ، وصارت الأمراء تخرج شيئا بعد شيء الى قتال ابن عثمان .

وفي يوم الأحد ثالث عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر الذين كانوا مسافرين الى التجريدة ، فكتبهم الى السفر ثانيا ولم يترك منهم الا القليل . فعرض في ذلك اليوم أربع طباق وكتب غالب من فيها من الممالك .

وفي ذلك اليوم عرض السلطان عجلة من خشب تجرها أبقار ، وفيها رماة بالبندق الرصاص ... وكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك . وعرض

جمالا وفوقها مكاحل ورماة يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال . وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب . فقوى قلب العسكر في ذلك اليوم على القتال ، وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه الى قتال ابن عثمان ، واستحث بقية الأمراء على الخروج بسرعة ولم ينفق على الأمراء شيئا ، وقال لهم : اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فان بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار ، وأنا واحد منكم ، ان خرجتم خرجت معكم ، وان قعدتم قعدت معكم ، وما عندى نفقة أنفقها عليكم .

وفي يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالحوش وعرض من العسكر أربع طباق .

وفي ذلك اليوم أشيع أن السلطان تغير خاطره على الزينى بركات بن موسى وأعادته الى الترسيم بعد ما كان ترشح أمره الى أعادته في وظائفه . وكان سبب ذلك أن السلطان لما حصل لابن موسى ما حصل قرر عليه مالا فلم يورد منه الا القليل ، وادعى العجز . فلما جاء على السلطان أمر نفقة العسكر وخروجهم بسرعة ، ضيق على أصحاب المصادرات ، مهم : ابن موسى ، ومحمد المهتار ، وجمال الدين بواب الدهيشة ، وآخرون ممن بقيت عليهم بوافى الأموال المنكسرة لستعين بذلك على نفقة العسكر ... ومن حين قرر يوسف البدرى في وظائف ابن موسى آل أمره الى العكس والزوال .

وفيه خرج الأمير قانصوه الفاجر أحد المقدمين وتوجه الى السفر .

وفي يوم الاثنين المتقدم ذكره خرج الأمير طقطبای حاجب الحجاب وتوجه الى السفر ، فطلب طلبا وقدامه طبلان وزمران وبعض جنائب ، كما خرج أرزمك الناشف .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره جلس السلطان بالميدان وعرض بقبة العسكر ثم نادى في ذلك اليوم بأن الأمراء وبقية العسكر يخرجون في هذا اليوم ومن تأخر لا يسأل عما يجرى عليه . وقد خرج هذا العسكر في قلب الشتاء في وسط الأرياف وقاسى غابه المسفة .

وفي هذا اليوم خرج الأمير تاني بك النجسي أحد الأمراء المقدمين بطلب حربى .

وفي يوم الخميس سابع عشره خرج الأمير الماس والى القاهرة وبرز الى السفر في ذلك اليوم .

وفيه قبض على شخص أعجمى كان يصنع السنبوسك عند قناطر السباع فوجدوه قد سجد الى كلب أسود مسين فذبحه وسلحه وعمل منه السنبوسك ، فلما قبضوا عليه أحضروه بين يدى الأمير مامى المحسب ، ف ضرب العجمى بافتارخ وأشهره في القاهرة والكلب معلق في ركبته ، فطافوا به في المدينة ثم سجنوه في المعتبره ولم تزل الاعجام تقع منهم هذه العمله النسيعة من قبل .

وفي يوم الاثنين حادى عشره وقع فيه من الحوادث ان بعض المماليك السلطانيه خرجوا بسيرون نحو المطرية ، فرأوا جماعة مقبلين من نحو بركة الحاج ، فلما قربوا منهم قادا بهم من جماعه ابن عثمان ، فقالوا لهم من أنتم ؟ قالوا نحن قصاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وكانوا نحو حسنة عتر انسانا ، وفيهم القاصد الكبير ، وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخملة . ورأوا صحبتهم شخصا من مصر يقال له عبد البر ابن محاسن ، كان كاتب الخزانة عند الأتابكى سودون العجمى ، فلما قتل وملك ابن عثمان حلب والشام ، تحشر فيه بواسطه يونس العادلى والسرقندى ، فلما أرسل ابن

عثمان هذا القاصد ما جسروا يجيئون من جهة عزه ، فان نائب الشام جان بردى العزالى كان بالقرب من عزه يتحاصر جماعة ابن عثمان الدين بعزة ، فبرطل القاصد بعض العربان بمال له صورة خفى أنوا بهم من طريق الدرب السلطاني وطلعوا بهم من التيه وأنوا بهم الى عجرود فلما صادفهم هؤلاء المماليك قبضوا على القاصد الكبير وعلى جماعته وعلى محاسن ، ووجدوا معهم ثلاثة من العربان ، فقبضوا على الجميع فبينما هم على ذلك اد رأوا ثلاثة أنصار من الأروام الدين في خان الحللى فد أتوا اليهم وسلموا عليهم ، وباسوا أيديهم ، فقبض عليهم هؤلاء المماليك وقالوا بهم . « من اين علمتم أن هذا القاصد بجىء اليوم حى أتيتم اليه ؟ ما أنتم الا جواسيس من عند ابن عثمان » . فقبضوا عليهم بعد ما أنسجعوهم ضربا ، وأتوا بالكل الى بيت الأمير علان الدوادار الكبير .

فلما دخل القاصد بيت الأمير علان ، قالوا له انزل عن فرسك وسلم على الأمير الدوادار ، فلم يوافق على ذلك ، وأغلظ عليهم في القول . ثم سل سيفه وهاش على من حوله من جماعة الدوادار .

فلما رأى الدوادار الكبير ذلك ، رسم للمماليك أن ينزلوه عن فرسه عصبا ، فأنزلوه وأخذوا سيفه منه ، ثم بهدلوه ومن معه من العثمانيه ، وضربوهم ومسكروهم وعروهم من نياهم ، ووضعوهم في الحديد بعد ما فاسوا غاية البهدة من جماعة الدوادار .

فلما بلغ السلطان ذاك رسم الأمير مغلباى دوادار سكين — الذى كان أرسله السلطان العورى الى ابن عثمان وحصل منه في حقه غاية البهدة — فقال

له السلطان » انزل وبهدل فاصد ابن عثمان كما بهدلوك . فأخذ خشدشينه ووجهه بهم الى بيت الأمير علان على أنهم يوفعون في جماعة ابن عثمان فعلا من أنواع البهولة . أو يقتلهم ، فما مكنهم الأمير علان من ذلك .

... بن حسان الذي حضر صحبتهم ، فلما مثل بين يدي السلطان شرع بطس في أوصاف ابن عثمان وفي تزايد عظيسته . فمن جملة ما حكى عنه أنه لما دخل الى حلب قطع في يوم واحد ثمانمائة رأس من حسنة أهل مصر من جملتهم حليفة سيدي أحمد المدوني وآخرين من الأعيان ممن تحلفوا بحلب . وأجبر أن عسكر ابن عثمان هو في السجن ألف إنسان ، وأنه خطب باسمه من بغداد الى الشام ، وأن معاملته ماثية من بغداد الى الشام . وأنه لما دخل الى الشام وملكها شرع في عبارة سور وأبراج من القصابون الى آخر سديده يسمى . وجعل في ذلك السور أبوابا تغلق على المدسة . وهو في حمة زائدة ، ويقول ما أرجع حتى أمات مصر . وأقبل جميع من بها من الممالك الجرائسة ... أخبر أن ابن عثمان يحب عن عسكره أن لا ياتر دينا ، فهي هذه المدة يقتل عسكره حاشا في المدسة ويحرقون بالمعاصي والفسوق . « أنهم لا يسمعون تسهر ومضام . وشربون حمة التمر والبسورة . ويسعمون دة التمسيس والسمس ، ويغفلون الفاحشة في الصبيان المرء في شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلي صلاة الجمعة إلا طلاء ... وقد أشيعت عن ابن عثمان عنده الاختيار المتبعة من غير ابن حسان ومن ساعد هذا من أفعال عسكره بحلب والشام .

فلما أظن ابن حسان في أخبصار ابن عثمان ، حنق منه السلطان ، وقال له : « أنت جاسوس

من عند ابن عثمان أتيت لتكشف أخبارنا وتطالعه بذلك » . فرسم بسجنه في البرج الذي بالقلعة ، فسجن به أياما حتى طلع الأتابكي سودون الدواداري وشفع فيه حتى أطلقه من البرج ، وقد قطع قلب العسكر بما حكاه عن ابن عثمان .

ثم أن السلطان رسم بشنق اثنين من العربان الذين أتوا بالقاصد من هذه الطريق التي كانت يخفها عليهم . وأشيع أنه حضر صحبة القاصد من جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفرا ، فاختفوا في القاهرة . فلما بلغ السلطان ذلك نادى في خان الحليلي « بأن لا أحد يأوي عنده عريبا من جماعة ابن عثمان ، ومن عزم عليه بأن عنده أحد من العثمانية شنق من غير معاودة » .

ثم أن السلطان أرسل أخذ المطالعات التي حضرت على يد القاصد ، ولم يقابله . فوجدوا معه عدة مطالعات للأمراء والمباشرين وأعيان الديار المصرية . فالدى أشيع من مطالعة السلطان أن غالب ألقاها تركيه ، وكان من مضمونها : من مقامه السعيد الى الأمير طومان باي ، أما بعد ، فإن الله قد أوحى الى باني أملك البلاد شرقا وغربا كما ملكها الاسكندر ذو العرين . ومن جملة المطالعة وعد ووعد ، وتهديد وتشديد فس جملة ذلك « أنك مسلوك باع ونشري ، ولا تصح لك ولاية ، وأنا ملك بن ملك الى عشرين جدا ، وقد بوليت الملك بعهد من الخليفة والقصة » . وذكر في مطالعته أشياء كثيرة من هذا النمط . ثم ذكر في أثناء المطالعة « وأن أردت أن تنجو من سطوه بأسنا فاضرب السكة في مصر بأسنا ، وكذلك الخطبة ، وتكون نائبنا بمصر ، ولك من غزة الى مصر ، ولنا من الشام الى الفرات ، وإن لم تدخل تحت طاعتنا ، أدخل الى مصر ، وأقتل جميع من بها من الجراكسة حتى أشق بطون الحوامل ، وأقبل الأجنة التي

في النفقة في وجهه ، وقالوا ما نسافر حتى نأخذ مائة دينار كل مملوك ، فاننا لم بق عندنا لا خيول ولا قماش ولا برك ولا سلاح ، فنزلوا كلهم من القلعة على حمية ، وهم على غير رضا ، فحنق منهم السلطان وقام عن الدكة وطلع المقعد ، وقال « ما أقدر على مائة دينار لكل مملوك ، والخزائن فارغة من المال ، وان لم ترضوا بذلك فولوا عليكم من تختارونه في السلطنة ، وأنا أتوجه الى مكة أو غيرها من البلاد » فوقع في ذلك اليوم بعض اضطراب ، وأشيع أن بعض المماليك قال للسلطان « ان كنت تعمل سلطانا فامش على طريقة من تقدمك من الملوك ، وان رحت لعنة الله عليك ، غيرك يجي يعمل سلطانا » . فسمع ذلك بأذنه منهم .

وأشيع أن السلطان قال للعسكر « أتمم أخذتم من السلطان العورى ثلاثين دينارا ولم تقابلوا شيئا ، وكسرتهم السلطان وحتتموه حتى قتل » . فنزل العسكر على غير رضا ... وأشيع اثاره فتنة بين العسكر .

ثم انه في ذلك اليوم نادى السلطان بأن جميع الأمراء من الأكابر والأصاغر يطلعوا غدا باكر النهار ، فان العرض عام . وانقض المجلس على ذلك .

فلما كان يوم الخميس رابع عشره ، جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وطلع الأمراء قاطبة والعسكر ، وطلع سيدي محمد ابن السلطان الغورى ، فقال السلطان : « هذا ابن أستاذكم قد حضر ، اسألوه ان كان أبوه ترك في الخزائن شيئا من المال يجبركم بذلك ، وان كنتم تسلطونه فانا أول من ييوس له الأرض » . فقالت المماليك الجلبان : « نحن نسافر بلا نفقة حتى نأخذ بشار

في بطونهم من الجراكسة » . وأظهر التعاضم وفوة البأس ، ولعل الله تعالى أن يخله بسبب هذا التعاضم الزائد . وفي آخر مطالعته : « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » . فلما قرئت هذه المطالعة على السلطان بكى وحصل له غاية الرعب . وكانت المماليك الجلبان اتفقوا على أنه اذا طلع القاصد الى القلعة ، يقطعونه بالسيوف ، فلم يطلع الى القلعة بسبب ذلك .

وفيه أشيع بين الناس ما في مطالعة ابن عثمان من هذه الدعاوى العريضة كما تقدم ذكره . ثم اضطربت أحوال الديار المصرية ، وأخذ كل أحد حذره من ابن عثمان ، وقالوا مثل ما طرقتنا قصاده على حين غفلة ، كذلك هو يطرقتنا أيضا على حين غفلة . فشرع الناس في تحصين أماكن في أطراف المدينة وجوابها ليختموا فيها اذا دخل ابن عثمان الى مصر ، وبعض الناس عول على أن نزل هو وأولاده وعياله ويتوجه الى أعلى الصعيد اذا تحقق مجيء ابن عثمان .

وأشيع أن خير بك نائب حلب ، الذى عصى ودخل تحت طاعة ابن عثمان ، أرسل مطالعات الى بعض الأمراء المقدمين ، وهو يرعبهم في الدحول تحت طاعة ابن عثمان ، وشرع يطنب في محاسنه وعدله بين الرعية ، وأنه اذا دخل مصر يبنى كل أحد من الأمراء على وظيفته وعلى رزقه . وكل هذا حيل وخداع ، حتى يتمكن من الدحول الى مصر .

ثم ان السلطان نادى للعسكر أن أول النفقة يوم الأربعاء ثالث عشرى الشهر ، فجلس السلطان بالحوش على الدكة ، وطلع العسكر لقبض النفقة فلما طلوعوا آتفق عليهم لكل مملوك ثلاثون دينارا وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين دينارا ، فرموا تلك

أستاذنا » . وقالت المماليك القرائصة « نحن ما نسافر حتى نأخذ مائة وثلاثين ديناراً كما أعطى من مسافر قبلنا » . فانفض المجلس مانعاً أيضاً ... وكثر القول والقييل في ذلك اليوم .

وأشيع أن بعض الأمراء قال للسلطان : اعمل كما عمل الأشرف قايتباي والسلطان العورى ، وخذ من الأملاك والأوقاف والرزق والاقطاعات لتستعين بذلك على النفقة بسبب دفع العدو عن مصر . فلم يوافق السلطان على ذلك ، وقال : ما أحدث في أيامي مظلمة أبداً . فشكره الناس على ذلك ، ودعوا له . ولو فعل ذلك جاز وقالوا يعذر لأجل دفع العدو . وما ثم في الخزائن مال ولكن وفقه الله تعالى إلى فعل الخير ، وسطر أجر ذلك في صحيفته إلى يوم القيامة ، فكان كما قيل في المعنى :

للخير أهل لا تزا ل وجوهه تدعو إليه
طوبى لمن جرت الأمور ر الصالحات على يديه
وفي هذا اليوم أشيع أن السلطان أرسل فلول لأولاد الملك المؤيد . وأولاد الملك المصور ، وأولاد الأمراء الدين بمصر ، اعلموا برفكم وأخرجوا للسفر ، والذي لا يسافر منكم يقيم له بديلاً عوضاً عنه للسفر

وقيل وزع على جماعة من المباشرين والخدام من الطواشية مالا له صورة مساعدة السلطان على النفقة . وشرع السلطان في بيع فئاش وسلاح وتحف وذخائر وصوف وسور وبعبدى وغير ذلك من الأصناف ، وأخذ من ابن السلطان العورى مالا له صورة مساعدة على النفقة

وفي ذلك اليوم أشيع أن السلطان أرسل بعض الخاصكية إلى الأتابكي فيت الرحبى لنقله من نجر الاسكندرية إلى نجر دمياط ، وأرسل مراسيم

شريفه إلى الطاهر فاصوه بسن بسر . . . أن يسكن في قاعة الملك المؤيد بالاسكندرية ، وأن يركب ويصلى صلاة الجمعة مع الناس في الجامع ، وأن يسير نحو البساتين التي بالاسكندرية .

وفي يوم الجمعة خامس عشره خرج الأمير خاير بك المعسار أحد الأمراء المقدمين والأمير أزبك المكحل ، فخرجوا في ذلك اليوم إلى التجريدة وطلباً أطلاباً حربية .

وفي يوم السبت سادس عشره طلع العسكر بسبب العرض . ونم بطلع في ذلك اليوم أحد من الأمراء المقدمين ، واحتجب السلطان في الدهيشة ولم يخرج إلى العسكر ، فنزلوا إلى بيوتهم من غير طائل .

وفي هذا اليوم ، نادى السلطان بأن لا أحد من الناس يتجهر بالمعاصي ، ولا يهودى ولا نصرانى يبيع خمرًا ، ومن شمر عليه يبع الحمر شتى من غير معاودة ، وكذلك البوزة والحشيش . فلم يسمع له أحد ذلك ولم ينهوا عما هم فيه .

وفي ذى الحجة ، كان مستهل الشهر يوم الخميس ، طلع القضاة الذين تولوا جديداً في الشهر الماضى ، وهنوا السلطان بالشهر ونزلوا إلى بيوتهم .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم السبت ثالث الشهر ، وقد اتفق مع العسكر على أنه بنفق لكل مملوك خمسين ديناراً ، ويصرف ثمن اللحم المنكسر خمسة أشهر ، والعليق المنكسر ، فتراضوا .

وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على جماعة من الخاصكية نحو عشر أنفس ، منهم شخص يقال

٢٠ حبيب بن أبي حمزة ، وهو من خيار مماليك الأشرف قايتباي .

وفيه أشيع أن السلطان خرج عن ألف دينار فرقها على الفقراء الذين في الزوايا وفي المزارات التي بالفراة وغيرها من المزارات ، وفرق عليهم أيضا قمحا لكل زاوية خمسة أرادب . وقال لهم ادعوا بالنصر للسلطان وهلاك العدو . وقرأ عدة ختمات في المزارات ، منها عند الامام الشافعي والامام الليث وغير ذلك من المزارات .

وفيه استحث السلطان أولاد السلاطين وأولاد الأمراء والمباشرين والخدام فيما قرره عليهم من المال بسبب النفقة ، وأشيع أنه أخذ من ابن السلطان الغوري مالا له صورة . وقيل أن السلطان الغوري كان قد خصص ولده قبل أن يسافر إلى البلاد الشامية بمائة ألف دينار ... هكذا أشيع .

وفي يوم السبت ثالثه طاع العسكر إلى القلعة ليقبضوا النفقة كما نادى ، فورد على السلطان في ذلك اليوم أخبار ردية بأن العسكر الدين توجهوا إلى غزة قد انكسروا في يوم الأحد رابع عشرين دي القعدة .

ومن العجائب أن الواقعة الأولى التي انكسر فيها السلطان الغوري كانت في يوم الأحد خامس عشرين رجب ، فكان التفاوت بينها وبين هذه الواقعة يوما واحدا ، وهذا من العجائب . وهذه الكسرة الثانية كانت يوم الأحد .

وكان من ملخص أخبار هذه الكسرة ، أن جان بردى الغزالي — نائب الشام — خرج إلى التجريدة قبل العسكر بمدة أيام ، وصار الأمراء والعسكر يخرجون بعده متفرقين بتكاسل زائد فلما أبطأوا على الغزالي جمع بعض عربان وتقدم إلى غزة هو والأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين

الذي ولي نيابة حماه ، ودولات باي نائب غزة ، وأصله من مماليك السلطان الغوري ، وجماعه من المماليك السلطانية ، فقاطعوا على عسكر ابن عثمان من طريق الدرب السلطاني ، فتلاقوا مع عسكر ابن عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان .

وكان باش العسكر العثمانية سنان باشا ومعه آخرون من أمرائه ومن العساكر العثمانية الجم الكثير ، وكان جان بردى الغزالي ومن معه من الأمراء في فئة قليلة من العسكر ، فوقع بين الفريقين هناك واقعة مهولة تشيب منها النواصي ، وكان ذلك بالقرب من بيسان ، فانكسر الأمير جان بردى الغزالي ومن معه من العساكر والأمراء ، وقتل الأمير خدابردى أحد الأمراء المقدمين ، وقتل الأمير على باي السيفي ، وأزدمر الدوادار أحد الأمراء الطبلخانات ، وأشيع موت جماعة من الأمراء ولكن لم أقف على صحة من قتل من الأعباء في هذه المعركة .

وأشيع أن الأمير جان بردى الغزالي قد جرح والأمير أرزمك الناشف أيضا . وقتل من المماليك السلطانية جماعة ، ومن العلمان ما لا يحصى عددهم ، وقد حزت رؤوسهم بالسيوف . وقيل أن هذا الخبر ورد من عند الأمير طقطبای حاجب الحجاب ، وكان من حين خرج إلى السفر وهو مفيم بالصالحية ، فورد عليه بعض المماليك السلطانية وأخبره بذلك ، فطالع السلطان بما قد جرى من أمر هذه الحركة المهولة .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان قد احتوى على برك الغزالي وأرزمك الناشف لما وقعت الكسرة ، فلم يتركوا لهما بركا ولا خيولا ولا جمالا ولا سلاحا . وقد تقوى العثمانية ثانيا بهذه الكسرة

الثانية ، ولم ينج من عسكر مصر في هذه المعركة الا من طال عمره .

وقيل ان مماليك الغورى هم الدين أحسوا بالعسكر وبادروا بالهروب حتى وقعت هذه الكسرة الثانية ، ولما تزايدت الأقوال في ذلك عين الأمير سنبل مقدم المماليك بأن يوجه الى الصالحية ليكشف الأخبار ، فخرج من بومه وسافر .

وفي يوم الأحد رابعه وقعت حادثه مهولة وهي أن السلطان نزل الى الميدان ، واجتمع الأمراء والعسكر فلم يشعروا الا وقد قامت ضجه كبيرة في الرميّة ، وأشاعوا أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى الريدانية ، فقال السلطان للعسكر : « كم فلنا لكم اخرجوا للتجريدة ما ترضون تسافرون . فاخرجوا ولا فوا ابن عثمان » . فلبس العسكر آلة الحرب وركبوا قاطبة ، ورجت القاهرة رجا مهولا ، ووزع الناس قماشهم في الأماكن المخفية .

فلما اضطربت الأحوال ركب العسكر وتوجهوا الى الريدانية ، فلم يروا هناك أحدا من العثمانية ، فرجع العسكر الى بيوتهم بعد ما ارتجت القاهرة ، وعول الناس على أن يحنقوا في فسافى الموتى ، ثم أسفرت هذه الواقعة عن جماعه من العربان نزلوا من الجبل وأنوا الى الريدانية فأشاع الذي رأيهم من بعد أنهم من العثمانية ، فانتشرت هذه الأجبار في القاهرة من غير سبب

وفي هذا اليوم أفرج السلطان عن الأمير قانصوه الأشرقي الذي كان نائب حلب ، وسلم القلعة الى ابن عثمان من غير قتال ولا محاصره . فتغير خاطر السلطان عليه بسبب ذلك وسجنه في البرج بالقلعة ، فأقام به مدة ثم أفرج عنه في ذلك اليوم . وفي يوم الاثنين خامسه دخل الأمراء والعسكر الذين توجهوا الى عزه وانكسروا من عسكر ابن

عثمان ، فدخل جان بردى الغزالي وأرزمك الناشف وبعض أمراء عشراوات ، ودخل العسكر وهم في آنحس حال مما جرى عليهم من النهب والقتل ، آنحس من المرة الأولى ... فدخل بعض المماليك السلطانية وهم راكبون على حمير ، وبعضهم على جبال ، وقد بهب قماشهم وخيولهم وسلاحهم ، ولم يسلم من القتل الا من كان في أجله مدة . ودكروا عن ابن عثمان أن مع عسكره رماحا بكلايب يحطفون بها الفارس عن فرسه وبلفونه على الأرض . وذكر جان بردى أنهم رموه على الأرض ولولا غلمانة فاتلوا عنه العثمانية لكانوا حزوا رأسه مثل الأمير خدابردى الذي قتل . وحكوا عن عسكر ابن عثمان أنهم مثل الجراد المنتشر ، لا يحصى عددهم ، وأن معهم رماة بالبندق الرصاص على عجالات ختب تحبها أبقار وجاموس في أول العسكر ، وحكوا عنهم أشياء كثيرة من هذا النمط .

وحضر الأمير دولات باي نائب غزة الذي كان بها . وحضر أيضا الأمير بحشبای الذي كان مشد الشور ، أخو الأمير كربای الذي كان والي القاهرة ، وكان أشيع موته في الواقعه التي وقعت في مرج دابق ، فظهر أنه في بيد الحياة ، وكان محتفيا عند العرب ، فحضر في ذلك اليوم ، وحضر أيضا شحس من الأمراء العشراوات يقال له فرقماس الرحبي ، وكان أشيع موته في الواقعه التي كانت في مرج دابق ، فظهر أنه في بيد الحياة ، وحضر أيضا جماعة كثيرة كان أشيع موته ، فظهر أنهم في بيد الحياة .

فلما طلع الأمير جان بردى الغزالي والأمير أرزمك الناشف الى القلعة ألبسهما السلطان ملابس بسمور ونزلا الى منزلها . وقد فرح

كل واحد من الناس بسلامتهما لأنهما فرسان الاسلام ، فدقت لهما البشائر على أبواب دورهما .

فلما حضر الغزالي ومن معه من الأمراء والعسكر ، ظهر أمر من قتل من الأمراء العشراوات والعسكر والعلماء ، فصار في كل حارة نعي مثل أيام الفصول .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم الثلاثاء سادسه ، فلما طلع النهار بادر العسكر بالطلوع الى القلعة فابتدأ السلطان بتفرقة النفقة على العسكر ، فأعطى لكل مملوء خمسة وعشرين دينارا ، وأعطاهم ثمن الأصحية على العادة ، وكان أولا سألهم بأن يعطيهم ثلاثين دينارا كل مملوك فأبوا ذلك .

فلما رأوا عين الجبد وأن ابن عثمان زاحف على البلاد ، وقد وصل الى فطيا ، رصوا بحمسة وعشرين دينارا نفقة ، ونزلوا من القلعة وآخذوا في أسباب آلة السفر .

وفيه ورد على السلطان أخبار ردة بأن سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان الذي ملك مدينة غزة قد لعب في أهل غزة بالسيف ، وقتل منهم نحو ألف انسان ما بين نساء ورجال وصغار . وكان سبب ذلك أن الغزالي لما تلافى مع سنان باشا على الشريعة ، أشيع في غزة أن الغزالي قد انصر على عسكر ابن عثمان ، وقتل سنان باشا ، وعسكر ابن عثمان . فبادر على بى دودار نائب غزة وأجناده فنهبوا وطاق العثمانية وأحرقوا خيامهم ، وقتلوا من كان في الوراق والمدينة من العثمانية نحو أربعمئة انسان ما بين شيوخ وصبيان ، ومن أكان بها مريضا ، وأحرقوا الحيام التي كانت في وطاقهم .

فلما ظهر أن الكسرة على عسكر مصر ، وقتل

من قتل من الأمراء ، رجع سنان باشا الى غزة ، فوجد من كان بها قد قتل ونهب الوراق ، فجمع أهل غزة قاطبة وقال لهم : « من فعل ذلك بنا ؟ » ، قالوا : « على بى دودار نائب غزة وأجناد غزة ، ولم نفعل نحن شيئا من ذلك » . فأمر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا بها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم . فقال لهم سنان باشا : « نحن لما دخلنا غزة هل شوشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيئا ؟ » قالوا لا ، فقال لهم : « كيف فعلتم بعسكرنا ذلك ؟ » فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجة ... فعند ذلك أمر عسكره أن يلعبوا فيهم بالسيف ، فقتلوا منهم ما لا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا . وقد قيل في المعنى :

ان ترمك الأقدار في أزمة

أوجبها أجرامك السالفه

فادع الى ربك في كشفها

ليس لها من دونه كاشفه

وفي يوم الأربعاء سابعه حضر الى الأبواب الشريفة جماعة من طوائف العربان من غزاة ومحارب ، ومن عربان هواة . وكان السلطان ألزم مشايخ العربان أن يأتوا وصحبتهم جماعة من فرسان العربان ممن هو أشجعهم ، حتى بنوجهوا صحبة التجريدة مع العسكر . فلما حضروا نزلوا بالجيزة ، واجتمع بها الجم الكثير من العربان ، ثم دخلوا الى الرميلة ونزلوا بها حتى يعرضهم السلطان بالميدان . وقد انحط أمر الترك عند العرب والفلاحين بسبب هذه الكسرات التي وفعت للعسكر ، وتملك ابن عثمان البلاد الشامية ، وثبت عند الناس أن دولة الجراكسة قد آلت الى الانقراض ، وأن ابن عثمان هو الذي يملك البلاد

وصار جماعة من الفلاحين اذا آتاهم قاصد من باب
أستأذهم يقولون ما نقدر نعطى خراجا حتى يتبين
لنا أن البلاد لكم أو لابن عثمان ، فنبقى نورد
الخراج مرتين . وقد اضطربت الأحوال برا وبحرا
والأمر الى الله تعالى .

وفى ذلك اليوم أشيع بين الناس أن السلطان
وسم بتغريق القاصد الذى حضر من عند ابن عثمان ،
وقد تقدم ذكر ذلك . فأشيع أنهم أغرفوه ومن
معه من العثمانية تحت الليل ... هكذا أشيع .

وفيه ابتداء السلطان بتفريفة الأضحية على
العسكر ولم يعط المماليك الذين كانوا صحبة
الغزالي وانكسروا ، فقال لهم السلطان : أنتم هربتم
ولهم تقاتلوا شيئا ، وختتم الأمراء حتى انكسروا .

وفيه أشيع بين الناس أن أوائل عسكر ابن عثمان
قد وصل الى قطيا ، وقد تملنوا القلعة التى
بالطينة ، وهرب من كان بها من أولاد الناس
القاطنين بها . وقيل لم يثبت أمر هذه الاشاعة

وفى يوم السبت عاشره كان عيد النحر فخرج
السلطان وصلى صلاة العيد ، وطلع الأمراء بالشاش
والقماش على جارى العادة وكان موكب العيد
حافلا ، لكن كان الناس فى غابة الوجل والخوف
من ابن عثمان . وقد بلغ الناس أن أوائل عسكره
وصل الى قطيا ، ولا سيما ما بلغ الناس مما فعله
عسكر ابن عثمان بأهل غزة من القتل والنهب
وسبى النساء وقتل الأطفال ، كما أشيع ذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره أخرج السلطان
الزردخانة الشريفة التى يخرجها صحبة العسكر ،
فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب
التى كان صنعها بسبب التجريدة ، فكانت عدتها
مائة عجلة وتسمى عند العثمانية ربة ، وكل عربة
منها يسحبها زوج أبقار ، وفيها مكحلة نحاس ترمى

بالبنديق الرصاص ... فنزل السلطان من المتعد
وركب وفى يده عصا ، وصار يرتب العجلات فى
مشيها بالميدان ، ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل
محملة طوارق بحو ألف وخمسمائة طارقة ،
ومحملة أيضا بارودا ورصاصا وحديدًا ورماح
خشب ، وغير ذلك . وقدام العجلات أربعة طبول
وأربعة زمور . وقدامها من الرماة نحو مائتى انسان
ما بين ركان ومغاربة ، وبأيديهم صنماجق بعلبكي
أبيض وكندكى أحمر ، وهم هولون الله ينصر
السلطان . وجماعة من النفطية ما بين عبيد وغيرهم
يرمون بالنفط قدام العجلات .

وركب قدامها الأمير مغلباى الزردكاش الكبير ،
ويوسف الزردكاش الثانى ، وجماعة من الزردكاشية ،
وعبد الباسط ناظر الزردخانة ، والشهابى
أحمد بن الطولونى ، وقدامهم الجمل الكثير من
النجارين والحدادين الذين يعينوا للسفر مع
التجريدة ... فخرجوا من باب الميدان الى الرملة
ونزلوا من جهة القبور ، وشقوا من البسطين ،
ودخلوا من باب زويلة ، وشقوا من القاهرة
فرجت بهم القاهرة فى ذلك اليوم ، واصطفت
الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكان يوما
مشهودا . وارتفعت الأصوات له بالدعاء بالنصر
على ابن عثمان الباغي ، وتباكى الناس لما
عابوا تلك العجلات والمكاحل والهمة العالية التى
من السلطان فيما صنعه . واستمروا شاقين من
القاهرة حتى خرجوا من باب النصر وتوجهوا الى
الريدانية عند تربة العادل التى هناك .

وأشيع أن امرأة قتلت فى ذلك اليوم من شدة
الازدحام ، فلما وصلت العجلات الى تربة العادل
صفوهم هناك الى أن تخرج الأمراء . فكان ذلك
اليوم من الأيام المشهودة فى الفرجة

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره ، أشيع أن بعض

الناس شفع في المماليك الذين حضروا من غزة ، ولم يصرف لهم السلطان الأضحية ، فصرفها لهم في ذلك اليوم بعد ما ويجهم بالكلام ، وقال لهم : كيف هربتم حتى كسرتهم الأمراء ولم تقاتلوا وبقي وجهكم أسود بين الناس ؟

وفي يوم الأربعاء رابع عشره ، حضر الى الأبواب الشريفة الناصري محمد بن شمس الدين القوصوي رئيس الطب ، وكان في حلب أسيرا عند ابن عثمان ، فهرب من هناك مع العربان ، وغرم لهم مالا له صورة حتى أتوا به الى مصر فطلع وقابل السلطان في ذلك اليوم ، وفد غير هبته وحلق ذقنه وتزيا يزي العرب ، حتى نخلص من جماعة ابن عثمان ، وأخير السلطان أنه قد بلغه عن ابن عثمان أن عسكره مختلف عليه ، وأنه مات له من الجمال والخيول ما لا يحصى عدده من الثلج الذي وقع بالشام ، وأن الغلاء هناك ، وأن عسكره قد قلق من البرد والثلج وموت الخيول . وأشيع في ذلك اليوم أن عسكر ابن عثمان كان في غزة ورحل عنها ، وقد صارت العربان تقتل منهم جماعة كثيرة ممن يجدونه في الضياع ، فيقتلونهم ويهربون في الجبال .

وفي يوم الخميس خامس عشره طلع العسكر لقبض الجامكية ، فقال لهم الطواشية : « يا أغوات ما في هذا اليوم جامكية ، البلاد خراب ، والعرب مشتتة في الطرقات ، والمدركون ومشايخ العربان ما أرسلوا من التقاسيط التي عليهم شيئا ، فإن حصل شيء على يوم الاثنين ينفق لكم » .. فنزل العسكر من القلعة وهم في غاية النكد ، فإن لهم ستة أشهر لم يصرف لهم السلطان من اللحم المنكسر شيئا ، وقد معطلت الجوامك أيضا .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على قانصوه رجلة ، أحد الأمراء المقدمين الذي كان نائب قطيا ، وقرره كاشف الترفيه عوضا عن فجماس الذي كان بها ، فانه كان عاجزا عن اصلاح أحوال الشرقية . وخلع على ألماس كاشف الغربية بأن يستمر على عادته في كشف العربية . وخلع على الأمير أبرك الوزير والاستادار باستمراره على عادته . وكان أشيع عزله . وفد صارت أحوال الدبار المصرية في هذه الأيام في غاة الاضطراب من وجوه شتى

وفي يوم الجمعة صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم خلع على الأتابكي سودون الدواداري ، وقرره باش العسكر على التجريدة .

وفيه حصر الأمير طقطبای حاجب الحجاب وكان قد توجه صحبة التجريدة المعينة الى غزة ، فأظهر أنه مريض ، وأقام بالصالحية فلما انكسر جان بردى الغزالي ورجع الى مصر ، أقام بقية الأمراء في الصالحية الى أن تخرج التجريدة التي تعينت ثانيا ، فلما حضر الأمير طقطبای دون الأمراء الذين هناك عز ذلك على الأمراء والعسكر ، ونسبوه الى العجز ، وصار ممقوتا عند العسكر قاطبة .

وفيه أشيع أن السلطان رسم لطوائف العربان الذين حضروا بأن يرجعوا الى بلادهم . وقد أشار بعض الأمراء على السلطان أن العربان ليس لهم فائدة في خروجهم مع التجريدة ، فرسم لهم بالعود الى بلادهم .

وفي يوم الأحد ثامن عشره ورد على السلطان اخبار ردة بأن ابن عثمان خرج من الشام بنفسه هو وعساكره ، وهو قاصد مصر ، وقد أشيع أنه قسم عسكره فرقتين ، فرقة تجيء من الدرب السلطاني ، وفرقة تجيء من التيه .

وفي أثناء هذا الشهر خلع السلطان على الأمير

اينال خازندار الأمير طراباي ، أحد الأمراء العشراوات ، وقرره في نيابة دمياط عوضا عن كان بها ، فلما بلغ السلطان هذا الخبر المتقدم أرسل أحضر الأمراء وضربوا مشورة في ذلك . وأشيع أن السلطان يخرج الى الريدانية وقيم بها ، ويقسم العسكر فرقتين فرقة تتوجه الى ناحية عجرود ، والفرقة الثانية تتوجه الى المكان الذي جاء منه القاصد الذي تقدم ذكره . وكان الأمراء عولوا على خروج التجريدة من أول السنة الجديدة ، فلما وردت عليهم هذه الأخبار اضطربت أحوالهم ، ورسم لهم السلطان أن يبرزوا خيامهم في الريدانية بسرعة ، ويكونوا على يقظة ، فان ابن عثمان قد وصل الى غزة ... وقيل انه توجه يزور بيت المقدس ، ثم يمشی بعساكره الى مصر ، وقد كثر القال والقال في ذلك ، واضطربت أحوال الناس قاطبة ، الى أين يذهبون حتى تنقضي هذه الفتنة .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء المقدمين ، ويقول لهم برزوا خيامكم بالريدانية في هذا اليوم . فخرجت خيام جماعة من الأمراء في ذلك اليوم الى الريدانية .

وفي هذا اليوم نادى السلطان بأن جميع المغاربة الذين في مصر والقاهرة يحضرون عدا للعرض .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره ، جلس السلطان على الدكة في الحوش ، وطلع الجهم الكثير من المعاربة . فلما طلوعوا الى القلعة لم يجتمع عليهم السلطان ، وأرسل اليهم الأمير شاد بك الأعور ، فقال لهم . « السلطان يقول لكم عينوا منكم ألف انسان من شجعانكم حتى يخرجوا مع التجريدة » فأرسلوا يقولون للسلطان : « نحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر ، ونحن ما نقاتل الا الافرنج ، وما نقاتل مسلمين » وأظهروا التعصب لابن عثمان .

فلما عاد الجواب على السلطان بما قاله المغاربة عز على السلطان ذلك ، وأرسل يقول لهم : « ان لم تخرجوا وتقاتلوا ابن عثمان والا فالهالك الجلبان يقتلون كل مغربي في مصر حتى لا يخلوا فيها مغربيا يلوح » . فنزلوا من القلعة على غير رضا من السلطان .

وفيه أشيع أن ابن عثمان أرسل كتابا الى شيخ العرب أحمد بن بقر ، يقول له فيه : « ادخل تحت طاعتنا ولك الأمان ، ولاقينا من الصالحية ، وصحبك ألف أردب شعير »

وأشيع أن عبد الدائم أحمد بن بقر الذي كان عاصيا توجه الى ابن عثمان لغزة ، والاشاعات في أخبار ابن عثمان كثيرة .

وفي يوم الاثنين المقدم ذكره نادى السلطان للعسكر قاطبة من كبير وصغير بأن يعرضوا غدا في الريدانية وهم باللبس الكامل من آلة السلاح .

ثم ان السلطان نزل الى الميدان ، وصلى صلاة العصر وركب من هناك وتوجه الى الريدانية ، وبات بها في الوطاق . وهذا أول نزوله من حين ولي السلطنة .

وفي يوم الثلاثاء عشريه لبس العسكر آلة السلاح وخرجوا للعرض بالريداية بحضرة السلطان .

وفي ذلك اليوم صارت الأمراء المقدمون يخرجون الى الريدانية ، وهم الأمراء الذين تعينوا للتجريدة وصاروا يخرجون شيئا بعد شيء وهم بأطلاب حربية ، ومماليكهم لابسهم آلة الحرب ، وهم على جرائد الخيل .

ثم خرج الأتابكي سودون الدواداري ، وجان بردى الغزالي نائب الشام ، وأركمسي امير سلاح ،

ويحشباى أمير مجلس ، وأنص باى أمير آخور كبير ،
وبسر رأس نوبه النوب ، وعلازل الدوادار الكبير ،
وظفطباى حاجب الحجاب ، وفيسل بل أعفى من
السفر بسبب ضعفه ، ولكن الأصح سفره .
وخرجت بمئة الأمراء المقدمى الالوف قاطبة ،
والأمراء 'ضلعخانات' ، والعسراوات هائلة ، وعساكر
مصر ، ولم يبق بها من الأمراء والعسكر الا القليل .
وهذه التجربة أكثر عسكرا من التجربة التى
خرجت مع السلطان العورى .

وكان هذا السلطان له عزم شديد فى عمل هذه
العجالات وسبك المكامل ، وعمل البندق
الرصاص ، وجمع من الرماة ما لا يحصى ، وكانت
له همة عالية ومقصد جميل ، ولعل الله تعالى أن
ينصره على ابن عثمان . وكان ابن عثمان باغيا على
عسكر مصر ، وقد غاداهم وتعدى عليهم بغير
سبب ، والباغى له مصرع .

وفيه أشيع أن السلطان رسم بأن الأفيال الكبار
تخرج صحبة العسكر اذا تقاتلوا مع ابن عثمان
بعد ثلاثة أيام .

وفى ذلك اليوم لما خرج العسكر ركب السلطان
من الوطاق ، وتوجه الى المصطبة التى بالريدانية ،
التى تسمى المطعم . فجلس بها واجتمع الجهم
الكثير ، وهم لا يسون آلة السلاح . وقد سدوا
الفضاء واجتمع هناك السواد الأعظم من العوام
حتى النساء ، وقد أطلقوا الزغاريت هناك ،
وارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان بالنصر ،
وكان يوم مشهود .

فلما نظر السلطان الى العسكر لم يعرضهم
باستدعاء هناك ، بل نادى بأن جميع العسكر
المصور من كبير وصغير لا يناحر منهم أحد ، وأن
العرض فى الصالحية ، وأن السلطان لا توجه الى

الصالحية حتى يخرج العسكر قدامه من هناك ثم
يعود الى القلعة . وكان ذلك عين الصواب .

وفى يوم الاربعاء حادى عشره اسمر السلطان
مقيما بالريدانية وخرج فى ذلك اليوم بمئة
العسكر وقد ترادف الخروج من غير عذر ولا
حجة . والسلطان يستحقهم فى سرعة الخروج .

ولما نزل السلطان من القلعة أخذ صحبته قاسم
بك ، وهو الصبى الذى من أولاد ابن عثمان ، وقد
تقدم ذكره . فجعل له السلطان بركا وسنجا على
انفراد ، ورسم له بأن يسافر صحبة العسكر ،
ويقف وقت الحرب تحت الصجق السلطانى .

وأشيع أن سليم شاه فى قلبه الواجب من هذا
الصبى . وقبل أن غالب عسكره مائل الى هذا
الصبى ، ويقولون اذا انكسر سليم شاه مالنا الا
ابن استادنا هذا سلطنه عوضا عن سليم شاه .

وفى ذلك اليوم أشيع أن صاحب رودس ، أرسل
الى السلطان ألف رام من جماعته يرمون بالبندق
الرصاص . وأرسل اليه عدة مراكب فيها بارود ،
فدخلت تلك المراكب الى ثعسر دمبساط ، وأرسلوا
يعلمون السلطان بذلك ، وهذه عونة من صاحب
رودس الى سلطان مصر ، حتى يستعين بذلك على
قتال ابن عثمان الباغى على أهل مصر . فلم يظهر
لاشاعة هذه العونة خبر ولا تبجعة ، وانما هى
اشاعة ليس لها صحه فيما نقل عنها .

ولما خرج السلطان الى الريدانية أشيع أنه بتوجه
من هناك الى الصالحية للاقى عسكر ابن عثمان .
فمعه الأمراء من التوجه الى الصالحية ، وقالوا
ما نفع بيننا وبينه قتال الا فى الريدانية .

ثم ان التجار صارت تنقل أمتعتها وأموالها من
الدكاكين التى فى الأسواق . ويدخلونها فى الأماكن
المنسية ، حتى تسلم ، وما سلم منها شيء .

وفيه تحول غالب الناس من أطراف المدينة ودخلوا القاهرة وسكنوا بها ، ونقل أعيان الناس فماشهم الى التربة ، والى المدارس والزوايا والمزارات ، والى بيوت العوام التى فى الرباع ، لعله يسلم وما سلم منه شئ ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى آخر هذه السنة توفى الشهابى أحمد بن الأمير أسنبعا الطيارى رأس بوبه السوب كان . وكان الشهابى أحمد من أعيان أولاد الناس الرؤساء ، وكان حشما رئيسا لا بأس به ، ومات وله من العمر ما قارب التسعين سنة ، وكان من المعمرين فى الأرض .

وفى يوم الخميس ثمانى عشرية وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد خرج من غزة ، وأن أوائل عسكره قد وصل الى العريش . وأشيع أن السلطان رسم بخفر خندق من سبيل علان الجبل الأحمر والى آخر غيطان المطربة ، ثم ان السلطان نصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل معمرة بالمدافع ، وصف حولها العربات الخشب التى صنعها بالقلعة كما تقدم ذكر ذلك .

ثم ان السلطان رسم للأمير مامى الصغير المحتسب بأن ينادى فى القاهرة للسوق وأرباب البضائع من الزبائن والخبازين والجزارين بأن يحولوا بضائعهم الى الوطاق عند تربة العادل ، وينشئوا هناك سوقا ويبيعوا على العسكر الذى هناك .

ثم ان السلطان رسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة للعسكر الذين تأخروا بأن يخرجوا الى الريدانية ولا يتأخر منهم أحد . فنادت المشاعلية فى الحارات والأزقة بأن المماليك السلطانية تخرج فى ذلك اليوم الى الوطاق ، وكل من تأخر منهم شنى على باب

منزله من غير معاودة . وجعل يكرر المناداة فى ذلك اليوم مرتين ، فانه قد بلغ السلطان أن جماعة من المماليك السلطانية صاروا يتوجهون الى الوطاق فى باكر النهار حتى ينظرهم السلطان ، ثم يرجعون الى بيوتهم ويبيتون بها ، فشقى ذلك على السلطان وحجر عليهم بأن يبيتوا فى الوطاق كل ليلة .

وفى يوم الجمعة ثالث عشرية وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل أوائله الى قطيا ، فاضطربت أحوال الناس لذلك .

وفى يوم السبت رابع عشرية عرض السلطان العسكر الذين بالوطاق ، فاجتمع منهم الجهم الكثير فوعدهم السلطان أنهم اذا قاتلوا عسكر ابن عثمان بقلب ، وانتصروا عليهم ، ينفق على كل واحد منهم عشر أشرفيات ، وينعم على كل واحد منهم بسيف وترس . ورسم للأمير أنسبى أمير آخور بأن يصلح بين زعر الصليبة وزعر المدينة .

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان اهتم بعمل حائط يستر بها المكاحل التى نصبها بالريدانية ، وأشيع أن السلطان جعل يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين . فلما رأى العسكر أن السلطان حمل الحجارة بنفسه ، صار المماليك يحملون الحجارة ويشيلون التراب مع الفعلة فى حفر الخندق ، وعمل الحائط التى تستر المكاحل .

ثم وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل الى بليس .

وفى يوم الأحد خامس عشرية ، حضر الأمير قانصوه العادلى ، الذى كان كاشف الشرقية ، وكان السلطان قد أرسله ليكشف أخبار عسكر ابن عثمان ، اذا كانوا قد وصلوا الى هناك ، أى الى القرب من الصالحية . فلما وصل الأمير قانصوه الصالحية ، رأى جماعة من عسكر ابن عثمان قد

قدام الوطاق ، وهم على ظهور خيولهم لابسين آلة الحرب ، ولا ينسموا الا بالنوبة خوفا من هجمة تحت الليل من العثمانية . وقد اشتد الرعب في قلوب الجراكسة من عسكر ابن عثمان .

فلما قرب عسكر ابن عثمان من الحانكاه خرج منها غالب أهلها بأولادهم وعيالهم وقماشهم ... ودخلوا الى القاهرة خوفا على أنفسهم من عسكر ابن عثمان ، وكذلك غالب فلاحى الشربة وأهل بليس ، قد دخلوا الى القاهرة خوفا من النهب والقتل من العثمانية .

ثم ان العربان من السوالمه صاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من العنابية ، ويفطعون رؤوسهم ويحسرونها بين يدي السلطان ، فيرسم السلطان بأن يعلو على باب النصر وباب زويلة .

ثم ان السلطان عرس العسكر بالريدايه وهم لابسون آلة الحرب حتى عرس الأمراء المقدمين والعشراوات ... وحضر الأمراء المقدمون وهم بالطبول والزمور ، وكان لهم يوم مشهود بالريدانه .

ثم ان السلطان سار الى بركة الحاج وصحبته الأمراء والعسكر فاطبة فسير بهم ، ثم رجع الى الوطاق وفداه الضبول والزمور والنفوط ، فامتدت العساكر من الجبل الأحمر الى غيطان المطرية حتى سدت الفضاء .

وأشيع أن السلطان لما تحقق وصول ابن عثمان الى بليس ، رسم بحرف انشود النى في بليس وما حولها ، حتى النشود النى في الحانكاه ، فأحرقوا أشياء كثيرة من النبن والندريس وغير ذلك من القمح والشعير والقول ، وذلك لأجل عسكر ابن عثمان حتى لا يسهوها بسبب خيولهم ، فيفوى بذلك العسكر على القتال .

وصلوا الى هناك ، فقبض على شخصين منهم وحز رأسيهما وأحصرهما بين يدي السلطان . وكان صحبه تلك الرعوس تحصى من أبناء حلب من جماعة حايريك نائب حلب الذى خامر على السلطان الغورى والتف على ابن عثمان . فلمسا وقف بين يدي السلطان طومان باى أخبره أن الواصل اليك حايريك نائب حلب وصحبته ابن سوار وجماعة من أمراء ابن عثمان ، وان هذا الجاليش فيه من عسكر ابن عثمان ثمانية آلاف فارس ، وقد بطلت خيولهم من التعب والجوع ، وأن انغلاء موجود في عسكره . ووجدوا مع ذلك الرجل الحلبي عدة مطالعات من خاير بك نائب حلب الى الأمراء المقدمين الذين بقصر ، فأخذ السلطان المطالعات التى كانت معه ، ووضع ذلك الرجل الحلبي في الحديد .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل بليس نادى لأهل بليس بالأمان والاطمئنان ، وأن لا أحد من العساكر العثمانية يشوش على أحد من أهل بليس ، ولا الفلاحين فاطبة .

ثم أشيع أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى العكرشه ، فلما تحقق السلطان ذلك أراد أن يخرج بالعسكر وبلاقيهم من هناك ، فلم تمكنه الأمراء من ذلك ... ولو لاقاهم من هناك كان عين الصواب ، فان خيولهم كانت قد بطلت من الجوع والتعب ، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم من حين خروجهم من الشام وهم في غاية التعب ، فكان ربما يكسرهم قبل أن يدخلوا الى الحانكاه ، ويجدوا العليق والمأكلى والمشرب والراحة من التعب ... فلم يتفق للسلطان أن يلاقيهم من هناك حتى تمكنوا من الدخول الى الحانكاه .

ثم رسم السلطان للعسكر بأن يبيتوا تلك الليلة

وفي هذه المدة صارت العربان تقطع رؤوس
العثمانية الذين يظفرون بهم في الطرقات ، فيرسل
السلطان يعلق تلك الرؤوس على أبواب المدينة .
ومن الحوادث في هذه السنة انه أشيع أن
السلطان كان جالسا في الحية وإذا بسجس من
الترکمان قد دخل عليه وهو لابس رباطا أحمر وثي
وسطه محقق وبركاش ، وقد صرب على وجهه
لثاما ، وكان السلطان في نفر قليل من الحاصكية .
فلما هجم ذلك الشخص على السلطان وفرب منه
دفعه بعض الطواشيہ الدين كانوا وافقين بين يدي
السلطان ، فلما مس صدر ذلك الشخص وجد في
صدره ثديين طويلين فكشف اللثام عن وجهه ، فاذا
ذلك الشخص امرأة من ساء التراكمة ، فتوهم
السلطان انها تقصد قتله ، فقال أخرجوها من
قدامي . فلما خرجت من بين يديه وجدوها لابسة
زردية من تحت ثيابها وهي مسحمة بجنجر كبير من
تحت ثيابها ، فلما عانها المماليك الحلبان على تلك
الحالة صربوها بالسيوف ، وقد بحفوا أنها هجمت
على السلطان تريد قتله لأجله . فلما قتلوها رسم
السلطان بأن يعلقوها على باب النصر ، فأتوا بها
وهي عريانة وصاروا يسحبونها من الريدانة الى
باب النصر ، حتى علقوها هناك على مكان نجاه
باب النصر ، واستمرت معلقة هناك يومين عريانة
وعورتها مكشوفة بين الناس ، ثم دفنت .

ثم ان السلطان أرسل مع دوا دار الوالي رأسين
مقطوعين ، فزعموا أن أحدهما رأس ابراهيم
السمرقندي ، والآخر رأس أمير من أمراء ابن
عثمان ، فعلقوهما على دكان عند باب زويلة . وقد
تحيل بعض العربان على ابراهيم السمرقندي
وأضافه وبات عنده ، وكان السمرقندي أتى صحبة
ابن عثمان . فلما بات تلك الليلة عند البدوي حز

رأسه تحت الليل ، فلما طلع النهار أحضرها بين
يدي السلطان طومان باي وقال له : « الذي يأتيك
برأس ابراهيم السمرقندي ايش تعطيه ؟ » فقال له
السلطان : « أعطيه ألف دينار » . فأخرج رأس
السمرقندي من تحت برنسه وقال له : « هذا رأس
ابراهيم السمرقندي » ، فلما نحقق السلطان ذلك
دفع لذلك البدوي ألف دينار . وكان ابراهيم
السمرقندي أصله من المدينة الشريفة ، وطاف من
بلاد العجم الى بلاد الروم ، وكان يعرف اللغة
التركية ... فلما دخل الى مصر تحشر في السلطان
الغوري وصار من جملة أخصائه ، فلما جرى
للغوري ما جرى وانكسر التف على سليم شاه بن
عثمان وصار من أخصائه . وفيل هو الذي حسن
لابن عثمان أن يدخل مصر وبملكها ويقطع جادة
الچراکسة من مصر ، وأطمعه في ذلك حتى دخل
مصر ... وكان السمرقندي من الظلمة الكار ، ولو
عاش الى أن ملك ابن عثمان مصر ما كان يحصل
لأهلها منه خير قط . وكان يرفع في أعيان مصر
أشد المرافعة ، فأراح الله تعالى منه الناس قاطبة
وكفاهم شره .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي الحجة وردت
الأخبار بأن جاليش عسكر ابن عثمان قد نزل
الحاج ، فاضطربت أحوال عسكر مصر ، وأغلقت
باب الفتوح ، وباب النصر ، وباب الشعرية ، وباب
البحر ، وباب القنطرة ، وغير ذلك من أبواب
المدينة . وغلقت الأسواق الى بالقاهرة ، وتعطلت
الطواحين ، وتشحط الدقيق والخبز من الأسواق .
ثم ان السلطان لما تحقق وصول عسكر ابن عثمان
الى بركة الحاج ، زعق النفير بالوفاق ، فركب
العسكر قاطبة وركب سائر الأمراء المقدمين والأمراء
الطبلاخانات والعشراوات ، وركب قاسم بك بن

وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب .

فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عسكان ووصل أوائله الى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير فى الوطاق ، وفادى السلطان للعسكر بالخروج الى قتال ابن عثمان ، فركب الأمراء المدموم ودفوا الطبول حربيا ، وركب العسكر فاطبة حتى سدوا الفضاء ، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر ، وهم السواد الأعظم ، فتلافى الجيتان فى أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين وافته مهولة يطول شرحها ، أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق . فقتل من العنماية ما لا يحصى عددهم ، وقتل سنان باشا لالا ابن عثمان ، وكان أكبر وزرائه ، وقتل من أمرائه وعسكره جساعة كثيرة ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل إعلان الى نربة الأمير بشبك الدوادار

ثم ان العثمانية تحايوا وجاءوا من كل ناحية أفواجا أفواجا كأنهم قطع الغمام ، ثم انقسموا فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية . وطرشوهم بالبندق الرصاص وهجموا عليهم هجمة منكرة ، فما كان غير قليل حتى قتل من عسكر مصر ما لا يعلمه الا الله تعالى . وقتل من الأمراء المقدمين جماعة كثيرة منهم أربك المكحل ، وجرح الأتابكى سودون الدوادارى جرحا بالغا ، وقيل انكسر فخذاه فاخفى فى غيط هناك ، وجرح الأمير إعلان الدوادار ، فلم تكن الا ساعة سيرة مقدار خمس عشرة درجة ، حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة . فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة ، وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك

عثمان ، فاجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقا ، واجتمع من العساكر من أرباب الوطاق ومن المماليك السلطانية ومماليك الأمراء والعربان نحو عشرين ألف فارس ، ودقت الطبول والزمر حربيا ، وصار السلطان طومان باى راكبا بنفسه ، وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم ، وصف العسكر من الجبل الأحمر الى غيط المطرية . فاجتمع هناك الجهم الكثير من العسكر ، وكان السلطان طومان باى له همة عالية ، ولو كان السلطان الغورى حيا ما كان يفعل بعض ما فعله السلطان طومان باى ، لكن لم يعطه الله النصر على ابن عثمان ، ولم يقع فى ذلك اليوم بين الفريقين قتال ، ولم يبرز كل منهما الى غريمه . فقطعوا فى ذلك اليوم بعض رعوس من العثمانية ، وأرسلوا علقوها على أبواب المدينة .

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة وقعت فيه كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذاك الا أن السلطان طومان باى لما توجه الى الريدانية ونصب بها الوطاق ، حصن الوطاق بالمكاحل والمدافع ، وصف هناك طوارق ، وصنع عليها تساتير من خشب ، وحفر خندقا من الجبل الأحمر الى غيط المطرية ، وقد تقدم القول على ذلك . ثم ان السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف حمل جمل وعليها زكائب فيها عليق ، وعلى أكتابها صناجق بيض وحمرة تخفق فى الهواء ، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل ، وظن أن القتال بطول بينه وبين ابن عثمان ، أو أن الحصار يبقى مدة طويلة ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج ، أقام بها بومين ، فلم يجسر السلطان طومان باى أن يتوجه اليهم . ولو توجه

السلحدارية فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى . فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية ، ورأى العسكر قد ذهب من حوله ، خاف على نفسه أن يفبصوا عليه ، فطوى الصنجق السلطاني وولى واختفى ، فيل انه توجه نحو طرا وهذه ثالث كسرة وقعت بعسكر مصر .

وأما الفرقة العثمانية التي توجهت من تحت الجبل الأحمر ، فانها نزلت على الوطاق السلطاني ، وعلى وطاق الأمراء والعسكر ، فنهبوا كل ما كان فيه من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبصار وغير ذلك ، ثم نهبوا المكاحل التي كان نصبها السلطان هناك . ونهبوا الطوارق والتسائير الحشب والعربات التي تعب عليها السلطان وصرف عليها جملة من المال ، ولم يفده من ذلك شيء . ونهبوا البارود الذي كان هناك ، ولم يبقوا بالوطاق شيئا لا قليلا ولا كثيرا ، فكان ذلك ما جرت به المقادير ، والحكم لله العلى الكبير .

ثم ان جماعة من العثمانية لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق ، دخلوا القاهرة بالسيف عنوة ، وتوجه جماعة منهم الى المقشرة ، وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحاييس ، وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية ، فأطلقوهم أجمعين ، وأطلقوا من كان في الديلم والرجة والقاعة أجمعين .

ثم توجهوا الى بيت الأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين ، فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس الترجمان ، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان المباشرين ومسائير الناس ، وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت في حجة العثمانية ، فانطلق في أهل مصر جمره نار .

ثم دخل جماعة من العثمانية الى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والاكايش وأخذوا

عدة جمال من جمال السقائين ، وصارت العثمانية فنهب ما يلوح لهم من القماش ، وغير ذلك . وصاروا يحطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود ، واستمر النهب عمالا في ذلك اليوم الى ما بعد المغرب ، ثم توجهوا الى شون القمح التي بمصر وبولاق ، ونهبوا ما فيها من الغلال حق المسلمين . وهذه الحادثة التي وقعت لم تكن لأحد على بال ، وكان ذلك ما جرت به الأقدار في الأزل . وقتل في هذه المعركة ابن سوار بالريدانية ، ودفن على جسده سوار في تربته التي تجاه يشيك الدوادار ، وقتل سنان باشا وزير ابن عثمان الأكبر . وفي ذلك يقول الشيخ بدر الدين الزيتوني :

نبكى على مصر وسكانها
قد خربت أركانها العامره
وأصبحت بالذل مقهورة
من بعد ما كانت هي القاهرة

وفي يوم الاثنين — سلخ سنة اثنتين وعشرين ونسعمائة — دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله القاهرة ، وصحبه وزراء ابن عثمان والجم الكثير من العساكر العثمانية ، ودخل ملك الأمراء خاير بك ، ودخل قاضى القضاة الشافعية كمال الدين الطويل ، والقاضى المالكي محيى الدين الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ، وكل هؤلاء كانوا في أسر ابن عثمان من حين مات السلطان الغورى .

فلما دخل الخليفة من باب النصر ، شق القاهرة وفداه المشاعليه تنادى للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وأن لا أحد من العسكر العثماني يشوش على أحد من الرعية . وقد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل ، وإن كل من كان عنده مملوك جركسى ولا يغمز عليه وظهر عنده يشنق من غير معاودة ، والدعاء للملك المظفر

وطاقة من بركة الحاج ونصبه في الريدانية ،
وشرع العثمانيه بنصب على الممالك الجراسية
من الترب وسافى الموتى ، ومن عيطان المطرية ،
فلما أحصروهم بين يدي السلطان أمر بصرب
أعناقهم

ثم ان بعض مشايخ العربان قبض على الأتابكي
سودون الدواداري ، وأحصره بين يدي السلطان
سليم شاه . فلما حصر بين يديه وبجه بالكلام
فوجده قد جرح وكسر فحذنه وهو في حانة
الأموات ، فلم تأخذه عليه شفقه ، بل أركبه على
حمار وألبسه عمامه زرقاء وجرسه في وطاقه ،
وفصد أن يشهره في القاهرة ، فمات وهو على
ظهر الحمار ، وفيل حز رأسه بعد الموت وعلقوها
في الوطاق .

وصار العثمانية يكبسون الترب ، وبقبضون
على الممالك الجراسية منها ، وكل تربة وجد فيها
مملوك چركسى حزوا رأسه ورأس من بالتربة التي
وجدوه فيها من الحجازيين ، وعلقوا رءوسهم في
وطاق ، فضرب في يوم واحد تلمثائة وثلاثون
رأسا من سكان الصحراء . وقيل كان فيهم يابغة
وأشراف ، فراحوا ظلما لا ذنب لهم ، وصاروا
يكبسون الحارات والبيوت ، ويفبصون على
الممالك الجراسية من اصطبلاهم باليسد ،
ويتوجهون بهم الى الوطاق بالريدانية ، فيصربون
أعناقهم هناك . فلما كثرت رءوس القتلى بالريدانية
نصبوا صواري وعليها جبال وعلقوا عليها رءوس
من قتل من الممالك الجراسية وغيرهم ، حتى فيل
قتل في هذه الواقعة بالريدانية فوق أربعائة
انسان ، ما بين جراسية وغللمان ، وعربان من
الشرقية والغربية . وصارت الجثث مرمية من سبيل
علان الى تربة الأشرف قايتباي ، فجافت منهم

سليم شاه بالنصر . فضج له الناس بالدعاء ، ولكن
لم تلتفت أحد من العثمانيه لهذه المناداة ، وصاروا
بجهون بيوت أولاد الناس ، حتى بيوت الربوع
في حجة أنهم بفتشون على الممالك الجراسية
فاستمر النهب والهجم عمالا في بيوت الأمراء
والعسكر وأهل البلد ثلاثة أيام متواليه لا يتردون
خيلا ولا بعالا ولا فماشيا ولا قليلا ولا كثيرا ، وما
أبقوا في ذلك مكانا .

ودخل في ذلك اليوم يونس العادلي ، وخشقدم
الذى كان متبدا الشون بمصر ، وكان قد هرب من
المحورى الى البلاد العثمانية ، وهو الذى كان
سببا لهذه الفتنة العظيمة .

وفي يوم الجمعة خطب باسم السلطان سليم شاه
على منابر مصر والقاهرة ، وقد ترجم له بعض
الخطباء في خطبته فقال : « وانصر اللهم السلطان
ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر
الجنيين ، وسلطان العراقيين ، وخادم الحرمين
الشرعيين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره
نصرا عزيزا ، وافتح له فتحا ميبيا يا مالك الدنيا
والآخرة يارب العالمين » .
وقد قلت في ذلك :

حمى العمام بحرب وكدر
وجرى للناس عابات الضرر
وأتاهم حادث من ربهم
كل هذا بفضاء وقدر

سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (١٥١٧ م) :

كان مستهل المحرم يوم السبت ، وفيه أرسل
السلطان سليم شاه جماعة من الانكشارية وأوقفهم
على ابواب المدينه ينعون الهابة من نهب البيوت ،
ولما انكسر عسكر مصر حول السلطان سليم شاه

الأرض وصارت لا تعرف جثة الأمير من جثة
المملوك ، وهم ابدان بلا رءوس . وأما من قتل
من عسكر ابن عثمان في هذه الواقعة فلا يحصى
عددهم

ثم ان ابن عثمان أرسل خلف المقر الناصري
محمد بن السلطان العورى . فلما حضر إليه
قفلانا من محفل أحضر مذهب ، وألبسه عمامه
عثمانية ، وأعطاه ورده بالأمان له على نفسه ،
ورسم له بأن سكن في مدرسه أبيه التي أنشأها في
الشرابشين . وأسكن الدفتردار في بيته الذي في
البندقانيين ، وهو أحد وزراء السلطان سليم شاه .

ثم توجه إليه الأمير يوسف البندري الوزير
فأعطاه أمانا وألبسه قفطانا محملا وأفره محدثا
على جهات العربية . وخلع على الأمير فارس السيفي
تسرازا وأفره كاشف المنية ، وغير ذلك من الجهات
القبيلية . وخلع على الزينى بكات بن موسى ،
وجعله متحدثا في الحسبة على أن يقرر بها من
يختاره !

وفي يوم الأحد تآلى المحرم أشيع أن السلطان
سليم شاه قبل وطافه من اربدانية ونصبه في بولاق
من تحت الرسف الى آخر لجزيره الوسطى ،
وفد أحصروا اليه منايح قلعه الجبل فلم يلتفت
الى ذلك ، وأخذا الإقامة على شاطئ بحر النيل
فلما كثرت العساكر بالقاهرة صاروا يدورون في
الحارات والأزقة والأسواق . وكل من رأوه من
أولاد الناس لأبسا زينا أحمر وتحصيه بمولود له
أنت جركسى ، فيقتلعون رأسه فلبس أولاد
الناس كلهم عمامهم حتى أولاد الامراء والسلطين
قاطبة ، وأبطلوا لبس التحافيف والزنوط من
مصر .

وفي يوم الاثنين ثالث المحرم أوكب السلطان
سليم شاه ، ودخل الى القاهرة من باب النصر وشق

المدينة في موكب حافل ، وقدامه الجنائب المسومة
الكثيرة العدد ، والعساكر التراكمة ما بين مشاة
وركاب ، حتى ضاقت بهم الشوارع . واستمر
سائرا من المدينة حتى دخل من باب زويلة ، ثم
خرج من تحت الربع وتوجه من هناك الى بولاق ،
ونزل بالوطاق الذي نصبه تحت الرصيف .

فلما شق من المدينة ، ارتفعت له الأصوات
بالدعاء من الناس قاطبة . وقيل ان صفته درى
اللون ، حلى الدين ، وافر الأنف ، واسع العينين ،
قصير القامة ، وعلى رأسه عمامة صغيرة . وكان
عنده خفه ورهيج ، كثير التلفت اذا ركب الفرس .
وقيل انه كان له من العمر حين ذلك نحو أربعين
سنة أو دون ذلك ، وليس له نظام يعرف مثل نظام
المملوك السالفه . وكان سيىء الخلق ، سفاكا
للدماء شديد الغضب ، لا يرجع في القول .

ولما شق من القاهرة كان قدامه الخليفة والقضاة
الأربعة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر .
وكان ينادى كل يوم في القاهرة بالأمان والاطمئنان ،
والنهب عمال من جماعته ، ولا يستمعون
لناداته . وحصل للناس منه الضرر الشامل .

ومما أشيع عنه أنه قال في بعض مجالسه بين
أخصائه وهو بالشام : اذا دخلت الى مصر أحرق
بيوتها قاطبة ، وألعب في أهلها بالسيف . فقبل
تلطف به الخليفة حتى رجع عن ذلك ، ولو فعل
ذلك ما كان يجد له من مانع منعه ، ولكن الله
سلم والله غالب على أمره .

ولما زاد صرر العثمانية في القاهرة صارت أعيان
الناس والمباشرين يجعلون على أبوابهم جماعة من
العثمانية يحفظون بيوتهم من النهب ، وصارت
العثمانية يمسون أولاد الناس من الطرقات ،
ومولود لهم أتهم جراكسة فيشهدون الناس

الى قتال شاه اسماعيل الصفوى سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فانكسر منه الصفوى ، وقتل غالب عسكره ، واحتوى على أمواله وسلاحه من غير مانع ، وملك غالب بلاده التى بالعراقين . ثم تصدى الى قتال الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وتلاقى معه على مرج دابق فى رجب سنة اثنين وعشرين وتسعمائة ، فلم يحل معه غير مدة يسيرة وانكسر ، ومات قهرا فى وسط الحرب .

وملك سليم شاه مدينة حلب وقلعتها من غير محاصرة . فلما ملك قلعة حلب أرسل اليها شحصا من جماعته أعرج أعور وفى يده دبوس خشب ، وهو ماش على أقدامه ، فتسلم الأموال والسلاح التى كانت بها ، حتى قيل كان بها من الأموال السلطانية للغورى مائة ألف ألف دينار وثمانمائة ألف دينار ، خارجا عن السلاح والكنائس الذهب والسروج الذهب والبلور والعقيق والخلع التى بالطراز الذهب اليلغاوى ، وغير ذلك من التحف الفاخرة . فاحتوى على ذلك جميعه خارجا عن برك السلطان والأمراء وأولادهم ، وبرك العساكر وخيولهم وبغالهم وجمالهم ، وخيامهم فاحتوى على ذلك جميعه .

ثم توجه الى الشام فملكها بالأمان ، ثم نزل اليه اغات الشام بالأمان فقتله وقتل معه نحو أربعين أميرا من أمراء الشام ، وملك قلعتها واحتوى على ما فيها من الأموال والسلاح والغلال والبارود وغير ذلك مما كان بها .

ثم خرج من الشام وقصد اتوجه نحو الديار المصرية ، فتسلم طرابلس وصنفد وغزة وبيت المقدس وجبل نابلس وعدة بلاد من تلك الجهات ... تسلم الكل بالأمان من غير حرب ولا مانع ، ولم يتفق ذلك لأحد من الملوك قبله .

عندهم أنهم ما هم چراكسة . فيقولون لهم اشتروا أنفسكم من القتل ، فيأخذون منهم بحسب ما يختارونه من المبلغ . وصار أهل مصر تحت أسرهم ، ثم صار الزعر وعياق مصر يغمزون العثمانية على حواصل الخوندات والستات فينهبون ما فيها من القماش الفاخر . فافتحت العثمانية كنوز الأرض بمصر من بهب فساش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شيء جليل ، وظفروا بأشياء لم يظفروا بها قط فى بلادهم ، ولم يروها قبل ذلك ، ولا أستادهم الكبير .

ومن هنا فرجع الى ترجمة سليم شاه ابن عثمان وذلك على سبيل الاختصار من أخباره بحسب ما يتيسر لى من ذلك ، على ما مشيت عليه طريقة التاريخ من مبتداه الى هذه الواقعة .

سليم شاه بن أبى يزيد

هو الملك اتلفظر سليم شاه ، بن السلطان أبى يزيد ، بن السلطان محمد بن اسلطان مراد خان ابن أبى يزيد المعروف بيلدرم بن أرخان بن أردن بن عثمان بن سليمان بن عثمان الكبير ، الشهيد بالغزاة بعد أن عاش تسعا وستين سنة .

وسليم شاه هذا هو الشهير بابن عثمان ، من خلاصة ملوك الروم ، وهو الثامن والاربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث من ملوك الروم بصر . فان أول ملوك الروم بمصر الظاهر خشقدم ، والثانى الظاهر تمبرغا ، والثالث سليم خان ابن عثمان .

ملك القاهرة عنوة بقائم سيفه ، وقد حصل له سعد عظيم لم يحصل لأبائه ولا لأجداده من قبله . وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطار ، فتصدى

ثم توجه الى القاهرة فتلاقى مع الأشرف طومان باى على الريدانية فوق بينهما قتال هين ، فلم يكن الا عشرون درجة وانكسر الأشرف طومان بان وولى مهزوما ، وقتل من العسكر ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر ملك مصر والقاهرة عنوة بقائم سيفه .

ومن عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه فاتح مصر سنة اثنتين وعشرين من الهجرة النبوية عنوة بقائم سيفه ، لم نفتحها أحد من الملوك بعده عنوة سوى سليم شاه بن عثمان ، ولم يقع مثل ذلك الا لبختنصر فى قديم الزمان .

ومن هنا رجع الى أخبار بن عثمان ، فانه لما نزل بالوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف أقام به الى يوم الثلاثاء رابع المحرم .

فلما كانت ليلة الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشاء لم يشعر ابن عثمان الا وفد هجوم عليه الأشرف طومان باى بالوطاق بما معه من العسكر ، واحتاط به ، فاضطربت أحوال ابن عثمان الى الغاية ، وظن أنه مأخوذ لا محالة . وأشيع أنه هجوم عليه بجمال محملة ساسا وأطلق دها النار ، فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان ، وأوقع فيهم السيف تحت الليل ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، واجتمع هناك الجهم الكثير من الزعر وعياق بولاق من النواتيه وغيرهم ، وصاروا يرمون فى الوطاق بالمقاليع وفيها الحجارة . واستسروا على ذلك الى أن طلع النهار ، فلاقاهم الأمير علان الدوادر الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير ، فأسعفهم .

وكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر ، هناك واقعة تشيب منها النواصي ، فملكوا منهم من رأس الجزيرة الوسطى الى قنطرة باب البحر ، والى

قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر الى ما بعد المغرب .

ثم أشيع أن العربان لما وفعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذى كان بالريدانية .

ثم ان المماليك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية ، كما كانت العثمانية تكبس البيوت على الجراكسة ، ومثل ما يعمل شاة الحمى فى القرط ، يعمل القرط فى جلدها ، فصاروا يدورون فى الحارات ، وكل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأسه ، ويحضرونها بين يدى السلطان طومان باى ، وصار الطالب مطلوبيا ، ولكن لم يتم لهم ذلك .

فلما كان يوم الخميس سادس المحرم ، اشتد القتال بين الفريقين ، ونادى السلطان طومان باى فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن « كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ، ويقطع رأسه ، ويحضرها بين يدى السلطان » .

ثم ان العثمانية طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة النيل . وملكوها منهم ، ثم ان الأتراك خرقوا عقد قنطرة قديدار خوفا من العثمانية أن يهجموا عليهم ، ثم ان العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عساد الدين التى بالناصرية ، وقضوا على من بها من المماليك الجراكسة ، وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية ، ونهبوا القناديل والحصار التى فى الزاوية ، وقتلوا جماعة كثيرة من العوام ، وفيهم صغار وشيوخ لا ذنب لهم .

ثم ان العثمانية طردوا الأتراك من الناصرية الى قناطر السباع ، ثم ان السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو بالعمري الذى بالصليبة وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة الى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر . ثم رسم بحفر خندق فى رأس

والى الرملة والى تحت القلعة ، وفى الحارات والأزقة ، وهم آبدان بلا رعوس .

هذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب يعرون الناس ، وبأخدون أثوابهم ، ويقتلوهم ويقتلون كل من يلوح لهم من العثمانية ، وغيرهم ، ولولا لطف الله تعالى لهجموا على الناس فى القاهرة ، ونهبوا أسواقها ودورها .

ثم ان السلطان طومان باى نادى فى القاهرة أن كل من أمسك احدا من العثمانية ، وطلب منه الأمان لا يقتله ويأتى به حيا .

ومن العجائب فى هذه الواقعة ، أن السلطان طومان باى لما ظهر فى هذه المرة بعد انهزامه فى الريدانية ، خطب باسمه فى القاهرة ، وكان فى الجمعة الماصية خطب باسم سليم شاه بن عثمان فكان كما يقال فى المعنى :

لا نياسن من فرج ولطف

وقوة نظهر بعد ضعف

فاستمر السلطان طومان باى يرتفع امره مع عسكر ابن عثمان ، ويقتل منهم فى كل يوم ما لا يحصى من يوم الأربعاء الى طلوع شمس يوم السبت ثامن المحرم ، فتكاسل العسكر عن القتال ، واختفوا فى بيوتهم ، وتفرقت الأمراء عنه كل واحد فى ناحية ، واستمر السلطان طومان باى يقاتل فى عسكر ابن عثمان وحده فى نفر قليل من العبيد الرماة وبعض ممالك سلطانية وبعض أمراء ، كالأمير شاد بك الأعور ، وآخرين من الأمراء العشراوات . فلما ظهر انه الغلب هرب وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات فى أفعاله كما قيل فى المعنى :

فليل الحظ ليس له دواء

ولو كان المسيح له طيب

الصليبية ، وآخر عند قناطر السباع ، وآخر عند الرملة . وآخر عند جامع ابن طولون ، وآخر عند حدرة البقر .

ثم ان السلطان طومان باى رسم بحرق خان المطبلى ، فمنعه بعض الأمراء من ذلك ، وأشيع أنه قسم العسكر الى أربع فرق . فرقة الى جهة قناطر السباع ، وفرقة الى جهة الرملة ، وفرقة الى جهة جامع ابن طولون ، وفرقة الى جهة باب زويلة . فلم يقاتل من الممالك الجراكسة الا النسل ، وصاروا يختفون فى الاصطبلات والزوانا خوفا من القتال ، وقد دخل الرعب فى قلوبهم من العثمانية فمابقى يخرج منها .

ثم ان طائفة من العثمانية توجهوا من جهة مصر العتيقة ، وطلعوا من جهة باب القرافة ، وملكوا من باب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فدخلوا الى ضربحها ، وداسوا على قبرها ، وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذى كانت عند قبرها ، وبسطوا الزاوية ، وأخذوا من مقامها شيئا كثيرا ، وقتلوا أيضا فى مقامها ممالك جم اكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا اجتمعوا بها حين هربوا من المعركة .

ثم أن السلطان قصد أن يهدم قناطر السباع ، فهدم من عقدها بعض شيء . ثم ان الأتراك سجنوا جماعة من العثمانية ، فهربوا وطلعوا الى مآذن الجوامع . فطلعوا مثذنة المؤيد ، وصاروا يرمون الناس بالبندق والرصاص ، ويمنعونهم من الدخول الى باب زويلة ، واستمروا على ذلك حتى طلع لهم الأتراك وقتلواهم فى المثذنة شر قتلة .

ثم صارت القتل من الأتراك والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق الى قناطر السباع ،

وهذه رابع كسرة وقعت لسكر محضر مع ابن عثمان ، وقد غلت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والتدار ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا .

ولما هرب السلطان طومان باي وفعت في القاهرة المصيبة العنيفة التي لم يسمع بشئها فيما تقدم من الزمان ، وهو أنه لما هرب السلطان طومان باي صبيحه يوم السبت ثامن المحرم .

طفشت العثمانية في الصليبية وأحرقوا جامع شبحو ، فأحرق سقف الايوان الكبير والقبعة التي كانت به ... فعلوا ذلك لكونه كان به وفعت العطب لما تقدم ، وأحرقوا البيوت التي حوله في درب ابن عزيز . ثم حبسوا على الشرفي بحبي بن العداس خليل الجامع . وأحضره بين يدي سليم شاه ابن عثمان ، فهم بضرب عنقه ، فلما بلغ الخليفة ذلك ، ركب وأبى الى ابن عثمان ، وشفع في ابن العداس ، وخلصه من القتل . ولولا أنه كان في أجله فسحة لضربوا عنقه في الحال . وفاسى شدة من الطربة .

ثم ان العنابية طمست في جميع البحارات والأماكن ، وحطوا عنظهم في المبد والعداس والعوام من الزمر وغيرهم . ولعبو بهم بالسيف ، وراح الصالح بالطالح ، وربما عرفت من لادب له فصارت جثثهم مرمية في الشرفات من باب زوبلة الى الرملة ، ومن الرملة الى الصليبية الى قناطر السباع ، الى الناصرية الى مصر العنيفة فكان مقدار من قتل في هذه الوافه من بولاق الى الجزيرة الوسطى الى الصليبية فوق العنصرة آلاف انسان ، في مدة هذه الأربعة الأيام ، ولولا لطف الله تعالى لفنى أهل مصر ناطمة بالسيف .

ثم ان العثمانية صارت تكس على الممالك الجراكسة في البيوت والحارات ، فمن وجدوه

منهم ضربوا عنقه ، وكذلك الجوامع الكبار ، والمدارس والزوايا . فهجموا على الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن تاولون ، وغيرها . وقتلوا من وجدوه من الممالك الجراكسة فيها . فقتل قبضوا على نحو ثمانمائة مملوك ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ، ومساليك سلطانية . فضربوا رقابهم أجمعين بين يدي السلطان سليم .

وقيل ان المشاعلى الذي كان هناك افرنجي ، وقل يهودى من الروم . وكان اذا ضرب عنق أحد من الجراكسة يعزلها وحدها ، ويعزل رؤوس الغلمان والعربان وحدها ، ثم ينصب الجبال على الصواري ويعلق عليها تلك الرؤوس في الوطاق الذى بالجزيرة الوسطى . وكان المشاعلى اذا حز رأس الممالك يرمى جثثهم في البحر .

وأخبرنى من أثق به أنه شاهد جثة الأمير قانصوه رجله أحد الأمراء المتقدمين الذى كان نائب قطيا وهى مرمية قدام سبيل السلطان ، والكلاب تنهش في مصارينه وشحم بطنه ، فانه كان رجلا جسيما .

وقتل في هذه الواقعة الأمير بخشبای الذى كان فرره السلطان طومان باي أمير مجلس كما تقدم ، وقتل آخرون من الأمراء الطبعانان والعشراوات والحاصكة وغير ذلك ، وصارت الحث مرمية في الرملة الى سوق الخيل ، ثم الى الحميين ، وقد تناهت الكلاب أجسادهم .

ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط . الا ما كان في زمن بختنصر البابلى لما أتى من بابل وزحف على البلاد بعسكره وخربها وهدم بيت المقدس . ثم دخل مصر وخربها عن آخرها ، وقتل من أهلها مائة ألف ألف انسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ، لس بها ديار ولا نافخ نار . فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من

يزرع عليه الأراضي ولا ينتفع به . لكن هذه الواقعة لها نحو ألفى سنة وهي قبل ظهور عيسى ابن مريم عليه السلام .

ثم وقع مثل ذلك في بغداد في فتنة هولاء ، وهو المعروف بتتار ، لما زحف على بغداد وخربها وأحرق بيوتها ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، واستمرت من بعد ذلك خرابا الى الآن ، فوقع لأهل مصر ما يقرب من ذلك ، وما زالت الأيام تبدى العجائب .

فلما هرب السلطان طومان باى وقتل من قتل من الأمراء والعسكر ، رجع السلطان سليم شاه الى وطاقه الذى فى الجزيرة الوسطى ، وبص فى وطاقه صنجنين أحدهما أبيض والآخر أحمر ، وذلك اشارة عندهم لرفع السيف عن أهل المدنة . هكذا عادتهم فى بلادهم اذا ملكوا مدينة وفتحوها بالسيف عنوة .

وفى هذا الشهر توفى الشيخ شهاب الدين القسطلانى ، وكان علامة فى الحديث ، وله شهرة طائلة بين الناس ، وكان لا بأس به .

وفى تلك الأيام صار الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحل والعقد ، والأمر والهى بالديار المصرية . وصارت أولاد السلاطين جالسه فى دهليز بيته لا يعبا بهم ، مثل المقر العلانى على بن المؤيد أحمد ، وابن الظاهر خشقدم ، وأولاد الملك المنصور عثمان ، وغير ذلك من أولاد الأمراء ، وأعيان الناس من الرؤساء والمباشرين ، وجماعة من الأمراء مثل قانى بك رأس بوبة ثانى ، وسنبل مقدم المماليك ، وغير ذلك من الأمراء ، فى دهليز بيته لم يلتفت اليهم ، وصار رنكه مضروبا على غالب البيوت . وكانت مراسلته ماشية فى المدينة لا ترد ، وشفاعته كافية فى كل أمر اشتد . وصار هو

فى مقام سلطان مصر فى نفوذ الكلمة ، وظهور العظمة فى تلك الأيام . ودخل عليه من الناس أموال وتفادم عظمة لم تصل لآبائه ولا أجداده ، وصارت الستات والحدونات مرمية فى دهليز بيته لا يلتفت اليهن ، وصارت خوند ابنة الأمير أقبردى الدوادار زوجة السلطان طومان باى مقيمة فى بيته ، وقد قرر عليها السلطان سليم شاه مالا جزيلا تورده الى الديوان . فلا زال الخليفة يتلطف بالسلطان سليم شاه حتى حط عنها جانبها من المال الذى قررره عليها . وحصل له من الستات والحدونات خدم جزيلا . فطاش الخليفة فى تلك الأيام الى الغاية ، وظن أن هذا الحال بنم له ، وما علم أن القبان بآخره . كما قيل فى المعنى :

أمور تضحك السفهاء منها

ويبكي من عواقبها اللبيب

ومن الحوادث أن أولاد الزنكلوبى الدين جرى لهم مع السلطان العورى ما جرى ، ومات أبوهم تحت الضرب . وابن نور الدين المشالى الذى شنقه الغورى — كما تقدم ذكره — لما تعيرت الدول ودخل ابن عثمان الى القاهرة ، وفادى من كانت له ظلامة يرفع أمره الى السلطان سليم ، ثار أولاد الزنكلوبى وابن نور الدين المشالى على القاضى شمس الدين وحيش ، وقالوا له أنت كنت سببا لشنق نور الدين المشالى ، وضرب الزنكلوبى . وقصدوا أن يمسوا به الى ابن عثمان ليقطع رأسه ، فترامى على الخليفة فى عمل المصلحة بينه وبين أولاد الزنكلونى وابن المشالى ، فتكلم الخليفة بينهم على أن ابن وحيش يدفع الى أولاد الزنكلونى ثلثمائة دينار ، ولابن المشالى مائتى دينار ، فأبوا من ذلك ، واستمرت دعوتهم باقية على شمس الدين بن وحيش الى أن يعرضوا ذلك على ابن عثمان .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم ، نادى
لسلطان سليم شاه بعد العصر فى القاهرة بأن
للأمراء المقدمين والأمراء الأربعينيات والأمراء
العشراوات الذين اختفوا بعد الواقعة يظهرون
وعليهم أمان الله تعالى .

وقيل ان السلطان سليم شاه كتب للامراء عهدا
وأمانا فى ورقة طويلة وعلقها المنادى على جريدة ،
ونادى أيضا بأن الأمراء المختفين يظهرون
ويتوجهون الى مدرسة السلطان العورى وعليهم
الأمان . فظهر الأمير أركمى أمير سلاح ، والأمير
أنص باى أمير آخور كبير ، والأمير تىر الحسى -
رأس نوبة النوب ، والأمير طقطباى حاجب
الحجاب ، والأمير تانى بك الحازندار أحد
المقدمين . والأمير تانى بك النجمى أحد المقدمين ،
والأمير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين .

ومن الأمراء الطبلخانات الأمير مصرباى الأقرع ،
والأمير قانى بك رأس نوبة ثانى ، والأمير يتبك
الفقيه دودار السلطان طومان باى ، وكان مختفيا
فى الجامع الأزهر فطلع بالأمان .

وظهر من الأمراء العشراوات نحو أربعين أميرا
وأكثر من ذلك وآخرون من الخاصكية .

فلما ظهروا واجتمعوا فى المدرسة الغورية
احتاط بهم جماعة من العثمانية ، ثم مضوا بهم الى
الوطاق وأرادوا أن يخونوهم . فلما قابلوا السلطان
سليم وبخهم بالكلام وبصق على وجههم ، ودكر
لهم ظلمهم وما كانوا يصنعون ، ثم رسم لهم بأن
يطلعوا الى القلعة ، ويقيموا بها محتفظا بهم فطلعوا
الى القلعة .

وفيه أشيع أن جان بردى الغزالى أرسل بطلب
الأمان من السلطان سليم شاه . وقد وصل الى

الخاقاه وصحبته جباة من المماليك الجراكية
الذين هربوا بعد الكسرة ، فأرسل له السلطان
سليم شاه أمانا .

وفيه أشيع أن السلطان طومان باى لما هرب من
الواقعة التى كانت بالصليية ظهر بعد ذلك أنه
توجه الى البهنسا وأقام بها ، فلما خجر من الذى
قاساه من الحروب والشرور ، أرسل القاضي
عبد السلام قاضى البهنسا ليطلب له الخليفة الأمان
من السلطان سليم شاه .

وفيه أشيع أن العثمانية هجموا على مقام
الامام الشافعى رضى الله عنه ونهبوا ما فيه من
السط والقناديل فى حجة المماليك الجراكسة ،
وكذلك مقام الليث بن سعد أيضا نهبوا ما فيه .

وفي يوم الثلاثاء ، ثامن عشر المحرم ، دخل
جان بردى الغزالى القاهرة وعلى رأسه منشور
فيه أمان من السلطان سليم شاه ، فتوجه اليه وهو
فى الوطاق وقابله هناك . وكان الغزالى لما انكسر
السلطان طومان باى فى الريدانية أشيع أنه هرب
الى عكة ، وقيل الى غزة ، ومعه جماعة من المماليك
الجراكسة . وكان جان بردى الغزالى منوطا مع
ابن عثمان فى الباطن من أيام الغورى . وكان سببا
لكسرة العسكر فى مرج دابق هو وخاير بك نائب
حلب ، وانهزما قبل العسكر ، وأشاعا الكسرة على
عسكر مصر .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر المحرم ، أشيع أن
المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالى رسموا
عليهم ، وقيل سجنوهم بالقلعة ، وكانوا نحو
أربعمائة مملوك ، وقد ظهروا بالأمان من ابن
عثمان . فلما ظهروا قبض عليهم وغدر بهم ، وكان
من عادته يعطى الأمان للأمراء والمماليك ثم يغدر
بهم فى الحال ، فكان لا يثق أحد منه بالأمان .

بارعا فى العلوم ، ورعا زاهدا ... ولى قضاء الشافعية فى أيام السلطان الغورى ، فأقام بها مدة وعزل عنها ، ثم قرره الغورى فى مشيخة مدرسته ، وقاسى فى أواخر عمره شدائد ومحن من السلطان الغورى وأقام مدة طويلة وهو عليل ، حتى مات ، وعاش من العمر فوق الثمانين سنة . ولما أن مرض ثارت الحروب والفتن وتكاثرت الأهوال على الناس بصر ، فمات ولم يشعر بموته أحد من الناس ، رحمة الله عليه .

وتوفى أيضا البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين كان ، وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس ، وكف بصره قبل موته بمدة طويلة ، وكان أنشأ له تاريخا لضبط الوقائع ، وكان علامة فى كل فن ، رحمة الله عليه .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرى المحرم ، خلع السلطان على الشرقى يوس الاستادار قفطانا من المحمل بالذهب ، وجعله متحدئا على جهات بلاد الشرقية ، ليمسح البلاد ويكشف ما فيها من اقطاعات الممالك الجراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف . فأخذ فوائهم من أولاد الجيعان بمعنى ذلك . ونزل الى الشرقية ، فما أبفى من أبواب المظالم شيئا حتى فعله بالشرقية . وقرر فخر الدين ابن عوض وبركات آخا شرف الدين الصغير متحدئين فى جهات الغربية . وقرر الزينى بركات بن موسى متحدئا على جهات المحلة . وقرر شرف الدين الصغير وأبا البقا ناظر الاصطبل متحدئين فى الجهات القبلية ، فأظهر كل منهم أنواعا من المظالم فى حق الناس بسبب الاقطاعات والرزق .

وأشيع أن السلطان سليم شاه أوقف أمر المناشير

وفيه قرر السلطان سليم شاه جماعة من أمرائه فى الولايات على بعض البلاد ، منهم نائب غزة ، ومنهم كاشف المحلة والشرقية والغربية ، فولى عدة ، كشف فى أماكن مختلفة من البلاد .

وفى يوم الخميس عشرى المحرم ، نادى السلطان سليم شاه فى الصليبية وقناطر السباع بأن أصحاب الأملاك الذين فى الصليبية وجامع ابن طولون يخلون بيوتهم ، فإن السلطان سليم شاه طالع الى القلعة ليقيم بها ، وصار يكرر المناداة فى كل يوم بذلك ، فأخلى الناس بيوتهم .

فلما طلع الى القلعة نادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وكيف الأمان وقد خرجت الناس من بيوتهم على وجوههم فى أسوأ الأحوال ، وانطلقت فى قلوبهم جمره نار ، وهجمت الطوائف العثمانية على الناس فى بيوتهم ، وأخرجوهم منها وسكنوا بها ، حتى صارت الحارات والأزقة ما تنشق منهم ، وصاروا كالجراد المنتشر من كثرتهم ، من الصليبية الى جامع قوصون الى قناطر السباع الى داخل باب زويلة ، وما خلا منهم موضع فى المدينة . وصارت الناس تسد أبوابها وتضيقها مثل الحوخ حتى لا تدخل فيها الخيول ، ولم يقد ذلك شيئا ، وهدموا ما بنوه وسكنوا بها .

تم ان السلطان سليم شاه طلع الى القلعة فى موكب حافل رجت له القاهرة ، وكان معه المماليك الذين طلوعوا بالأمان ، وقيدوهم وأودعوهم فى الوكالة التى خلف مدرسة السلطان الغورى .

وفى أوائل هذه السنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم العلامة برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى ، كان عالما فاضلا فى مذهبه ،

التي بيد أولاد الناس بسبب أقاطيعهم ، فحصل لهم غاية الضرر بسبب ذلك .

وفي آخر هذا الشهر تشحطت الغلال وارتفع الخبز من الأسواق ، وسبب هذا الأمر أن العثمانية لما دخلوا القاهرة نهبوا المغل الذي في الشون ، وأطعموه لخيولهم ، حتى لم يبق في الشون شيء من الغلال . ونهبوا القمح الذي كان بالطواحين ، واضطربت أحوال الناس قاطبة

ثم ان الأخبار تبادلت بأن طومان باي ظهر أنه في الصعيد ، عند أولاد عمر ، ومنع المراكب من الدخول الى مصر بالغلال . فسوجب ذلك وقعت التشحيطة بمصر .

وأما السلطان سليم فانه لما طلع الى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد ، ولم يجلس على الدكة بالحوش السلطاني جلوسا عاما ، ولم يفصل بين ظالم ومظلوم ، بل كان يحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأسر وأخذ أموال بغير حق . وكان هذا على غير القياس . فانه كان أشيع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم في بلادهم ، قبل أن يدخل سايم شاه الى مصر ، فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة ، ولا متى سليم شاه على قواعد السلاطين السالفة ، ولم يكن له نظام يعرف لا هو ولا وزرائه ولا أمراؤه ولا عسكره ... بل كانوا همجا لا يعرف الغلام من الأسناد .

ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ، ربطت العسكر الخيول في الحوش الى باب القلعة عند الايوان الكبير وباب الجامع الذي بالقلعة ، وصار روث الخيل هناك كأنه كيما نثر التراب على الأرض ، حتى سد الطريق .

وخرب ابن عثمان غالب الأماكن التي بالقلعة وفك رحامها ونزل به في المراكب يوجهون به الى القسطنطينية .

ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره بالرميلة من باب القرافة الى سوق الخيل ، ثم ان العثمانية نصبوا حية في وسط الرميطة وجعلوا فيها دنان بوزة ، وخيمة أخرى فيها جفان حشيش ، وخيمة أخرى فيها صبيان مرد لأجل المحاربة كعادتهم في بلادهم .

وفي يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان باي قويت شوكتة ، والتف عليه جماعة كثيرة من العربان ، واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجم الكثير

وأشيع أنه وصل اليه من نغر الاسكندرية زردخاناه ما بين نشاب وقسي وبارود . فلما تحقق السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الملك الأشرف طومان باي ، وصار على رأس أهل مصر طيرة مما جرى عليهم في الواقعة التي كانت بالصليية ، فخشوا من مثل ذلك .

وفي صفر وكان مستهله يوم الأحد ، في يوم الثلاثاء ثائه حضر العلاني على ناظر الخواص ، وكان قد توجه الى نغر الأسكندرية ، فلما حضر أحضر صحبته جماعة من المماليك الجراكسة كانوا هناك ، فأحضرهم في زناجير . ثم أشيع بعد ذلك أن ناظر الخواص كان قد توجه الى ... ويقول لهم سبحان الله ان كنتم نسيئوننا فنحن ما نسيناكم . وأرسل يعتب عليهم ويتجرش بهم .

ثم بعد أيام أشيع أن طومان باي أرسل يقول لابن عثمان : « ان كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك ، وأكون أنا قائبا عنك بمصر ،

(١) بياض بالأصل .

وبردبك داوادر الخليفة ، الى السلطان طومان باى
نحو الصعيد .

وفى هذه الأيام قويت الاشاعات بأن السلطان
طومان باى جمع من العساكر والعربان ما لا يحصى
عددهم وهو زاحف على ابن عثمان فى بر الجيزة .
فكثر القيل والقال ، ووقع الاضطراب فى القاهرة
بسبب ذلك .

ثم أشيع أن الأمير علان بن قراجا الدوادر
الكبير قد توفى بالصعيد ودفن فى بعض الضياع
هناك وصلى عليه السلطان طومان باى والأمراء
الذين كانوا هناك . وكان الأمير علان جرح فى
الواقعة التى كانت بالريدانية ، واستمر عيلا من
ذلك الوقت حتى مات هناك ، وكان من فحول
الأمراء وأشجعهم والله غالب على أمره .

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر تزايد فساد
العربان بالشرقية ، وصاروا يقطعون الطريق على
العثمانية ويقتلونهم ويأخذون خيولهم وجمالهم
وسلاحهم ، ونهبوا بلاد عبد الدائم بن أبى
الشوارب وأحرقوها ، ونهبوا عدة بلاد من
الشرقية ، منها قليوب وقلقشنده ، وغير ذلك من
البلاد ، ووصلوا الى شبرى ، وصاروا يعدون من
شبرى الى قنطرة الحاجب . فلما تزايد الأمر
أرسل اليهم السلطان سليم شاه تجريدة فيها من
العسكر نحو ألف وخمسمائة عثمانى ، وجعل عليهم
جان بردى الغزالى باشا ، فخرجوا من القاهرة على
حماية وتوجهوا الى الشرقية فأقاموا بها أياما ،
فذهبت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبال
فرجع العسكر ولم يلاقوهم .

وفى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من الصعيد
بأن القضاة الأربعة وبردبك داوادر الخليفة ، وقاصد
ابن عثمان مصلح الدين الذى كان أرسله معهم ،

وأحمل اليك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه
بيننا من المال الذى أحمله اليك فى كل سنة ،
فأرحل عن مصر أنت وعسكرك الى الصالحية ،
وصن دماء المسلمين بيننا ، ولا تدخل فى خطيئة أهل
مصر من كبار وصغار وشيوخ ونساء ، وإن كنت
ما ترضى بذلك أخرج ولاقنى فى بر الجيزة ،
ويعطى الله النصر لمن يشاء منا » .

فلما وقف السلطان سليم شاه على مطالعة
السلطان طومان باى ، أرسل خلف أمير المؤمنين
والقضاة الأربعة ، وأحضر جماعة من وزرائه ،
وكتب بحضرتهم صورة حلف الى السلطان طومان
باى ، وكتب ابن عثمان خطه عليها ، ووقع الاتفاق
فى القلعة على أن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجهون
الى السلطان طومان باى بذلك الحلف على
أيديهم .

ثم ان ابن عثمان خلع على القضاة الأربعة خلعا
سنية وقال لهم : « انزلوا فى هذا الوقت واعملوا
برقكم حتى تتوجهوا الى طومان باى نحو
الصعيد » . فنزلوا من القلعة على ذلك .

ثم ان الخليفة امتنع من التوجه الى السلطان
طومان باى ، وقال أنا أرسل دوادارى برد بك الى
طومان باى صحبة القضاة الأربعة . وأشيع أن
المطالعة التى أرسلها طومان باى الى ابن عثمان
ذكر فى ذيلها : « ولا تحسب أنى أرسلت أسألك
فى أمر الصلح عن عجز ، فان معى ثلاثين أميرا
ما بين مقدمى ألف وأربعينيات وعشراوات ، ومعى
من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا ،
وما أنا بعاجز عن قتالك ، ولكن الصلح أصلح
لصون دماء المسلمين » .

ثم فى عقب ذلك توجهت القضاة الأربعة ،

وجماعة من العثمانيين ، وصلوا الى قريب البهنسا ، فخرج عليهم جماعة من الجراكسة فقتلوا العثمانيين ، وهرب بردبك دودار الحليفة حتى بجا من القتل ، ونهب جميع ما معه من القماش ، وغيره . وأشيع قتل قاضى البهنسا عبد السلام ، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك ، وما سلموا من القتل الا بعد جهد كبير .

فلما بلغ ابن عثمان ذلك اغتاض غيظا شديدا وتحقق أن السلطان طومان باى قد أبى الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان ، ثم اد ابن عثمان نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى الى بركة الحبش . وفى يوم السبت حادى عشرى صفر نزل السلطان سليم شاه من القلعة ومعه الجيم الكثير من العساكر ببركة الحبش ، ونوجه المباشرون صحبته ، حتى القاضى كاتب السر ، وأخذ السفائين بجمالهم ، فضج الناس من العطش لأن السلطان ابن عثمان طلب جميع السفائين بجمالهم ورواياهم ليسافروا معه الى الصعيد بسبب السلطان طومان باى ، وان كان يهرب منه الى بلاد الزنج وينبعه ، فوصل ثمن الراوية الماء أربعة أنصاف .

وفى يوم السبت تامن عشرى صفر أشيع أن أوائل عسكر السلطان طومان باى قد وصل الى نرسه بالقرب من العجيزة ، فرسم ابن عثمان بعمل وحسات على شاطئ البحر بجهة صرا لأجل تعديه العسكر ، وكذلك فى بر مصر العيقة . وفى هذه الأيام امتنع جلب البضائع التى كانت تدخل الى القاهرة من الجبن والسنن والأعنام وغير ذلك من البضائع التى كانت تجلب من العجيزة وبواحيها ، وقلوب وتسبرى وغير ذلك من البلاد ، واضطربت أحوال القاهرة جدا بسبب اقامة هذه الفتنة .

وفى ربيع الأول ، وكان مستهه يوم الثلاثاء ،

أشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج من بلاد الشرقية ، كبس على عدة بلاد منها حين وصل الى التل والزنكلون ، فنهب ما فيها من الأبقار والأغنام والأوز والدجاج ، وأسر نساء الفلاحين وأولادهم الصبيان والبنات ، وصاروا يبيعونهم فى القاهرة بأبخس الأثمان ، كما فعل أقبرى الدودار فى الأحامدة وأولادهم . فاشترى بعض الناس بنتا بأربع أشرفيات وأعتقها ورهبها الى أمها ، وقد رق عليها .

ثم ان جان بردى الغزالى فعل فى الشرقية ما لم يفعله بختنصر لما دخل الى مصر . ثم ان يونس باشا نادى فى القاهرة أن كل من اشترى شيئا من نهب بلاد الشرقية من الأبقار والأغنام يرده على أصحابه ، وكذلك أولاد الفلاحين . ولام الغزالى على فعله ذلك فى الشرقية لوما عنيها . وقد قيل فى المعنى :

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا
بيع الهوان ربحت أم لم تربح
قدم وآخر من أردت من الورى
مات الذى قد كنت منه تستحى

وفى يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول رسم السلطان سليم شاه بأن الأمراء الذين كانوا بالقلعة فى الترسيم يحضرون بين يديه فى الوطاق الذى فى بركة الحبش ، فنزلوا بهم من القلعة : شىء على بغال ، وشىء على حمير ، وشىء مشاة . وهم فى جنازير وعليهم كبوره عتق ، وعلى رءوسهم كوافى بغير شاشات . وقيل كان فيهم من الأمراء المقدمين سبعة ، وهم : أركماس أمير سلاح ، وأنص باى أمير آخور ، وتمر رأس نوبة النوب ، وطقطباى حاجب الحجاب ، وتانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وتانى بك النجى أحد الأمراء المقدمين ، وقانصوه أبو سنة أحد الأمراء المقدمين .

وأما الأمراء الطبلخانات فهم قانئ بك رأس نوبة
ثاني ، ومصرياى الأفرع ، وألماس والى القاهره ،
ومامائى التسعير المحسب ، ويوسف الأشرفى
الزردكاش الثانى . وآخرون من الأمراء الطبلخانات
لم نحضرى أساؤهم الآن .

وأما الأمراء العتراوات فجماعة كثيرة هم
تحضرنى أساؤهم . فكان مجموع هؤلاء الأمراء
المقدم ذكرهم أربعة وخمسين أميرا ما بين مقدمى
ألوف وغير ذلك . فلما منلوا بين يدى السلطان
سليم شاه ، وبجهم بالكلام ، تم امر ضرب أعناقهم
أجمعين ف ضرب أعناقهم فى الوطاق الذى ببركة
الحش . وذلك فى يوم السبت خامس ربيع الأول .
وصارب أجسادهم مرميه على الأرض تنهتهم
الكلاب بالنهار ، والضباع والذئاب بالليل وصارت
المرأة من ساء الأمراء المقدمين تبرطل المشاعلة
بسال له صورة حتى يسكنوها من قتل جته زوجها
فتحضر له تابونا وحالين يحملونه من برنة الحش
الى المدنة ، فتغسله ونكفنه وتدفنه فى ترابه ان
كان له تربة . وتركت جت البشه هناك مرمية
تنهسها الكلاب .

وكانت هذه الكائنه من أعظم الكوائن فى حق
الأمراء . وقد ظهروا بالأمان لابن عثمان ، تم
عذرهم وقتلهم ، فكان لا يثق احد له بالأمان ،
وليس له قول ولا فعل .

وفيل كان سبب قتل هؤلاء الأمراء أن السلطان
طومان باى لما قتل قاصد ابن عثمان وجداعه من
عسكره الذين توجهوا صجبه الفضاة الأربعة ،
لما طلب طومان باى الأمان من ابن عثمان ، فلما فعل
ذلك طومان باى علم ابن عثمان أنه قد أبى من
الصلح ، فقتل هؤلاء الأمراء ظلما بعد أن أعطاهم
الأمان وكان ذلك من شدة عيظه وحمه وقد قلت
فى هذه الواقعة :

جل الذى أفنى عساكر مصرنا
من دولة أتراكها من جركس
وأنت الينا دولة عوجاء من
أولاد عثمان ذوى الفعل المسى
قتلوا أكابرنا بأيسر حيلة
عملت عليهم لا بأسهم القسى
يالىت شعري دولة الأتراك هل
تأتى كما كانت ونذكر مانسى؟!

ومن الحوادث أن السلطان سليم شاه لما قتل
هؤلاء الأمراء أرسل فقبض علم نساءهم ورسم
عليهن ، وأرسلهن الى بيت ناظر الخاص وأشيع
أنه يقصد مصادرتهن ، وقرر عليهن مالا يورده .
فأقمى فى بيت ناظر الخاص أياما ، ولم يوردن من
المال شيئا ، فنقلوهن الى بيت الدفتردار فقصد أن
يعاقبهن ، وقبل سجن مهن جباعه فى الحجره حتى
يوردن ما فرر عليهن من المال . ورسم على مباشرى
الأمراء الدين قتلوا حتى يمسوا حساب اقطاعهم
فأقاموا فى الترسيم مدة .

وفى يوم الأحد سادس ربيع الأول عدى السلطان
سليم باى بر الجيره بسبب قتال الأشرف طومان
باى . وقد بلعه أنه وصل الى المنوات ، ومعه من
العربان والعسكر ومن المساليك الجراكسه الجم
الكثير .

فلما عدى الى بر الجيزة أقام بها الى يوم الخميس
عاشر نهر ربيع الأول ، فتلاقى عسكر ابن عثمان
وعسكر السلطان طومان باى على وردان ، وقيل
على المنوات ، فكان بين الفريقين وافعة لم يسمع
بسلها ، أعظم من الواقعة التى كانت بالريدانية .
وقيل كانت هذه الواقعة عند كوم الحمام وانكسر
عسكر ابن عثمان فوق ما مرة ، وطردتهم الأتراك

الجراكسة حتى ألقوا أنفسهم في البحر ، وكانت الكسرة عليهم أولا ، وقتل منهم جماعه كثيرة .

ثم بعد ذلك تكاثرت العثمانيه على الأتراك ، وطرشتهم الرماة بالبندق الرصاص ، فهزموهم هزيمة منكرة ، ووقع الكسرة على الأتراك ، وولى السلطان طومان باى مهزوما فنوجه الى قرية تسمى البولة في أعلى تروجه ، وهذه خامس كسرة وقعت على عسكر مصر . وكان السلطان طومان باى ليس له سعد في حركاته ، كلما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس ، كما يقال في المعنى :

إذا لم يكن سود من الله للفتى

فأول ما يجى عليه اجتهداه

فلما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر ، قطع رءوس المساليك الجراكسه ، وقطع رءوس جماعه كثيره من العربان الذين كانوا مع السلطان طومان باى فلما تكامل قطع الرءوس رسم ابن عثمان باحضار مراكب ، فلما حصرت وضعوا فيها رءوس الذين قتلوا ، فلما عدوا الى بولاق صعدوا مدارى خُشب ، وعلقوا عليها تلك الرءوس ، وحملتها النوانيه على أكتافهم ، ولافتهم الطبول والزمور ونادوا في القاهرة بالزينة فزينت زينه حافلة ، وشعوا بتلك الرءوس من البحر الى باب القنطرة ، وطلعوا بهم على سوق مرجوش ، وشقوا بهم من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود وفيل كان عدة الرءوس الذين قتلوا في هذه الواقعة ودخلوا القاهرة نحو ثمانمائة رأس ما بين أتراك وعربان وغير ذلك ، والذين قتلوا هناك وألقوهم في البحر أكثر من ذلك .

والقضاة الأربعة والأمراء بالحوش السلطاني ، والأسمطة التي كانت تعمل في ذلك اليوم ، وما كان يعطى للمقرئين والفقراء من الشققي والأنعام في تلك الليلة ، فبطل ذلك جميعه .

وأشيع أن ابن عثمان لما طلع الى القلعة وعرضت عليه الحواصل التي بها رأى خيمة المولد فباعها للمغاربة بأربعمائة دينار ، فقطعوها قطعاً وباعوها للناس ستائر وسفر . وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا لم يعمل مثلها قط . قيل ان مصروفها على الأشرف قايتباى ثلاثون ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، وكانت غاية في التجميل حين تنصب ليلة المولد الشريف . وكانت كهينة قاعة ، ولها أربعة لواوين ، وفوقها قبة بقمرينات ، والكل من قماش . وكان فيها تقاصيص غريبة ، وفصوص غريبة ، وصنائع لا يعمل الآن مثلها أبداً ، وكانت اذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة انسان حتى ينصبوها في الحوش السلطاني ، وكانت من جملة شعائر المملكة السلطانية بالقاهرة ، فابتيعت بأبخس الأثمان ، ولم يعرف ابن عثمان قيستها ، وفقدتها الملوك من ذلك الوقت ، وهذه من جملة مساويه التي فعلها بمصر .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما بلغه أن الدفتردار رسم على نساء الأمراء الذين قتلوا ، أنكر على الدفتردار ذلك ، وأمر باطلافيهن من الترسيم ، وأمر ألا يأخذ أحد منهن شيئاً ويترك لهن ما تأخر عليهن من المال .. فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، ولم يظهر لهذا الكلام تتبعه حسا بعد ، واستمرت المصادرات عسالة كما كانت بل ازدادت أضعافا .

وفيه جاءت الأخبار من البهنسا بأن قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود ابن قاضى القصاة عبد البر بن الشحنة قد قتل هو وأخوه أبوبكر . وكان

وفي يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول ، كانت ليلة المولد النبوى ، فلم يشعر به أحد من الناس . وبطل ما كان يعمل في ليلة المولد من اجتماع العلماء

جددا كل اثنين بدرهم ، وعليها اسم سليم شاه ، وكانت في عاية الحقة ، فنصرر الناس معها الى الغاية .

وفي آثناء هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا الناصري محمد الأشقر تسيخ الشيوخ بحاقاه سريافوس ، وكان اصيلا عريفا من ذوى البيوت . وكان والده القاضي محب الدين الاتقر ولى نظارة الجيش . وكتابه السر بالديار المصرية . وكان من أعيان الرؤساء رحمه الله عليه ، مات وله من العمر فوق التساين سنة . وكان عنده لين جانب مع تواضع زائد ، وكان أسير اللون جدا ، كانت أمه جارية حبتيه مسولدة الأشقر .

ومن هنا نرجع الى اخبار السلطان طومان باى فانه لما تلافى مع عسكر ابن عثمان على المنوات وفيل بوردان ، انكسر عسكر السلطان طومان كما تقدم القول على ذلك ، فتوجه طومان باى الى نحو تروجة بالعريسة منهزما . فلافاه حسن ابن مرعى وتسكر ابن أخيه مشايخ البحيرة في ضيعة تسمى البوصة . فعزما على السلطان طومان باى ليصيفاه . وكان حسن بن مرعى بينه وبين السلطان طومان باى صداقة قديمة ، فركن له السلطان طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة .

ثم ان السلطان طومان باى أحضر الى حسن بن مرعى وشكر مصحفه شريفا وحلفهما عليه ابهما لا يحونانه ، ولا يعدران به ، ولا يدلسان عليه بشىء من الأشياء ، ولا بسبب من أسباب المسك ، ولا يدلان عليه . فحلقا له على المصحف سبع أيمان بمعنى ذلك ، فطاب قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عندهما .

فلما استقر عندهما احتاطت به العربان من كل جانب وهو لا يدري بما به المقادير تجرى . ثم انهما

السلطان سليم شاه أرسله مع القضاة الثلاثة الى السلطان طومان باى بالبهسا ، لما أرسل يطلب من ابن عثمان الأمان . فكذب له أمانا وصورة حلف ، وأرسله على يد قاضى القضاة ، وأرسل صحتهم أميرا من أمرائه ، وجباة من العثمانية . فلما وصلوا هناك لم يوافق السلطان طومان باى على الصلح ، ولم يسكنه الأمراء من ذلك ، وقاروا على جباة ابن عثمان وقتلوه عن آخرهم وقتلوا عبد السلام قاضى البهسا وقتلوا قاضى القضاة محمود بن الشحنة .

ويقال ان سبب قتله أن أخاه آنا بكر كان عنده عرسه وملوحة رغبة ، فهدا سواد الناس المور ، فزعموا أنه غمز على شحص من الممالك الجراكسة كان مختفيا في مكان ، فدل العثمانه عليه ، فهجموا على ذلك المملوك وفضعوا رأسه .

فلما سافر قاضى القضاة محمود بن الشحنة الى السلطان طومان باى بسبب الأمان الذى أرسله اليه ابن عثمان ، سافر أبو بكر صجبة أخيه محمود الى البهسا ، فثارت الجراكسة على جماعة ابن عثمان فقتلوه هناك ، فكان للمملوك الذى قتل أخ هناك فغزوه بعض الممالك على أبى بكر وقالوا له هذا الذى غمز على أخيك حتى قطعوا رأسه فوثب ذلك المملوك على أبى بكر وفتح رأسه هناك . فنعصب له أخوه محمود بن الشحنة ، فوثبوا عليه فقطعوا رأسه أيضا ، ودفنا هناك .

هذا ما أشيع واستفاض بين الناس من أمرهما . ولما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر أقام في بر الجيزة أياما ، وسار من هناك وتفرج على الأهرام وتعجب من بنائها .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره نادوا في القاهرة بإبزال الفلوس العتق . وضربوا للناس فلوسا

أرسل إلى السلطان سليم شاه أعلاه به ، فأرسل إليه جماعة من عسكره فقبضوا عليه ، ووضعوه في الحديد ، وتوجهوا به إلى ابن عثمان ، ولما رأى من كان مع السلطان طومان باي من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه ، تفرقوا من حوله ، وتشتتوا في البلاد . وتمت الحيلة على السلطان طومان باي ، وخانه حسن بن مرعى بعد أن خافه على المصحف الشريف وركن إليه .

وكان حسن بن مرعى من أعز أصحاب السلطان طومان باي . وله عليه غاية الفضل والمساعدة من أيام السلطان العورى ، وقام بما عليه من المال مراراً ، فلم يذكر له من هذه الأخلاق شيئاً ولا أثر فيه الحير . فكان كما قيل في المعنى :

لا تركزن إلى الحريف فماؤه

مستوخم وهوأؤه خطاف

يمنى مع الأجسام مشى صديقها

ومن الصديق على الصديق يخاف

فلما أحضروا السلطان طومان باي بين يدي ابن عثمان وهو لا لبس مثل لبس العرب الهوارة ، وعلى رأسه زنط ، وعليه شاش ، وعلى بدنه ملوطة بأكمام طوال . فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له ثم عاتبه ببعض كلمات ، فلما خرجوا به من قدامه توجهوا به إلى خيمة من الخيام ، فأقام بها ، واحتاطت به الأتكنشارية بالسيوف لأجل الحفظ به . فأقام هناك أياماً وهو بوطاق ابن عثمان ببر انبابه .

وفيه وردت الأخبار إلى القاهرة بمسك السلطان طومان باي ، فصارت طائفة من الناس تكذب بمسبكه ، وطائفة تصدق ذلك . فأقام السلطان طومان باي في الوطاق عند ابن عثمان ، وهو في الحديد إلى يوم الاثنين حادى عشر ربيع الأول من تلك السنة . وكان ذلك اليوم يوم الخميس ،

وهو يوم قطر النصارى وعيدهم الأكبر . فعدوا بالسلطان طومان باي من بر انبابة إلى بولاق ، وطلعوا به من هناك وهو راكب على أكديش : وهو في الحديد ، وعليه لبس العرب الهوارة كما تقدم . وكانت مدة اقامته في الوطاق على تلك الحالة نحو سبعة عشر يوماً . وأشيع أن ابن عثمان قصد أن يرسل طومان باي إلى مكة ولا يقتله ، ثم بدا له بعد ذلك ما سنذكره .

فلما علم ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باي ، حنق من ذلك وعدى به إلى بولاق ، فلما طلع إلى بولاق وشق من المقس ، كان قدامه نحو أربعمئة عشاني ورماة بالنفط ، فطلع من جهة سوق مرجوش ، وشق من القاهرة ، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق . حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدرى ما يفعل به .

فلما أتوا إلى باب زويلة ، أنزلوه عن فرسه وأرخوا له الحبال ، ووقفت حوله العشانية بالسيوف مسلولة . فلما تحقق أنه يشق وقف على أفدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : افرأوا لى الفاتحة ثلاث مرات . ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات ، وقرأت الناس معه ، ثم قال : للمشاعلى : اعمل شغاك .

فلما وضعوا الحية في رقبتهم ورفعوا الحبل ، انقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الحبل مرتين ، وهو يقع على الأرض ثم يعلقونه وهو مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياء جوخ أحمر ، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفي رجله لباس من جوخ أزرق ... فلما شق وطلعت روحه ، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . فانه كان شاباً حسن الشكل ، كريم الأخلاق ، سنه نحو أربع وأربعين سنة . وكان

وفي اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ،
ووضعوه فيه ، وتوجهوا به الى مدرسة السلطان
الغورى عمه ، ففصلوه وكفنوه ، وصلوا عليه
ودفنوه في الحوش الذى خلف المدرسة ، ومضت
دولته كأنها لم تكن ، وقد قلت من آيات :

لنهي على سلطان مصر كيف قد
ولى وزال كأنه لن نذكر
شقوقه ظلمنا فوق باب زويلة
ولقد أذافوه الوبال الأكبر
يا رب فاعف عن عظام جرمه
واجعل جنات الجلد رب له قرى

وكان شقيق السلطان طومان باى من غادات سعد
السلطان سليم شاه بن عثمان ولم يسمع بتمل
هذه الواقعة فما تقدم من الزمان أن سلطان
مصر شقيق على باب زويلة قط ، ولم يهد مثل
هذا ، ومن عهد شاه سوار الذى كلموه على باب
زويلة ، لم يعلق أحد ممن له شهرة طائلة غير
السلطان طومان باى .

ثم ان ابن عثمان لما شقيق طومان باى صفا له
الوقت ، وفعل بعد ذلك أمورا يأتى الكلام عليها .
تم أخذ فى أسباب التوجه الى نحو بلاد
القسطنطينية ، فأشيع أنه يجعل بوس باشاه نائبا
عنه بمصر . ثم حلق على شخص من جماعته وقرره
نائب غزة . وخلع على شخص آخر وقرره نائب
القدس . فخرجوا من القاهرة فى أواخر هذا الشهر ،
وقدامهما طبلان وزمران وجنائب . وخرجوا فى
موكب حافل .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره صنع بعض النفطية
الى السلطان نفطا ، وتوجه به الى وظائفه بانباية ،
فأحرقوه فدأمه بالوطاق .

شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان ، وثبت وقت
الحرب بنفسه ، وقتل فى عسكر ابن عثمان ، وقتل
منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مسرات ، وهو
فى نفر قليل من عسكره . ووقع منه فى الحرب
أمور لم تقع من الأبطال العاترة .

وكان لما سافر عمه السلطان الغورى ، جعله
نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من حلب ، فساس
الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت
الناس عنه راضية فى غيبة السلطان ، وكانت القاهرة
فى تلك الأيام فى غاية الأمن من المناسر والحريق
وغير ذلك .

لما مات السلطان الغورى عمه ، وتسلم
عوضه ، أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان
يعمل فى أيام الغورى ، ولم يشوش على أحد من
المباشرين فى مدة سلطنته .

ولما وصل ابن عثمان الى الشام وقصد أن يخرج
اليه ، قيل له ان الخزائن خالية من الأموال . فقال
له الأمراء وجماعة المباشرين : « افعل كما فعل
السلطان الغورى ، وحد أجرة الأماكن التى بالقاهرة
سبعة أشهر ، وخذ من الرزق والأقطاعات خراج
سنة » . فلم يسمع لهم شيئا وأبى من ذلك ،
وقال : « ما أجعل هذا مسطرا فى صحيفتى » .

وكان ملكا جليلا قليل الأذى . كثير الخير ،
وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر
وأربعة عشر يوما ، فانه تسلم رابع عشر رمضان ،
وانكسر وهرب تاسع عشر ذى الحجة .

وكان فى هذه المدة فى غاية التعب والنكد ،
وقاسى شدائد ومحنا ، وحروبا وشرورا
وهجاءا... وتشتت فى البلدان ، وآخر الأمر شقيق
على باب زويلة . وأقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى
فاحت رائحته .

ومن الحوادث المهمة أنه قد أشبع أن السلطان
سليم شاه ، عول على جشاعه من أهل مصر من
أعيانهم يرسلهم الى اسطنبول .

وفي يوم الجمعة خامس عشرية آتى السلطان
سليم شاه من وطاife الذى فى ابابه ، وعدى الى
بولاق وتوجه الى القاهرة ، وشق من باب الحرق ،
ودخل من باب زويلة ، وتوجه من هناك الى الجامع
الأزهر ، وزينت له القاهرة ، فصنى بالأزهر صلاة
الجمعة ، وتصدق هناك بمبلغ له صسورة . ثم
توجه الى بولاق من الطريق التى آتى منها ، وكان
فى موكب حافل .

ثم بعد أيام أشيع أنه دخل الى حمام الاستدار
التى ببولاق فأتى من الرملة ولم يشق بولاق .
وكان أهل بولاق زينوا له السوق ، ولما خرج من
الحمام عاد من الطريق التى آتى منها ، وفيل انه
أنعم على الحمامى فى ذلك اليوم بعشرين ديناراً ،
وأعجبه حمام بولاق وشكره ثم عاد الى الوطاق .

ثم ان جماعه من وزراء ابن عثمان وأهل مشورته
جلسوا فى المدرسة العورىة ، وشرعوا يطلبون جماعة
من القضاة والشهود والمباشرين ، وأعياد تجار
المغاربة ، وتجار الوراقين ، ونجار الشرب ،
والباسطية ، وجماعة من البزدارية والرسلى ، وجماعه
من السوق المتسبيين فى البصائى ، وطائفه من
البنائين والتجارين والمرحسين والمبلطين والحدادين
وغير ذلك من أرباب الحرف ، حتى ائلموا جماعة
من أعيان اليهود فلما تكامل عرضهم فى المدرسة
العورىة عيسوا جماعة منهم أن يسافروا الى
اسطنبول . فكتبوا أسماهم فى قوائم ، وألزموا
كل واحد منهم بأن يحضر له ضامناً تضمنه . فلما
أحضروا لهم الضمان أطلقوهم الى حال سبيلهم .

ويأتى الكلام بعد ذلك فى أمورهم وما تم لهم فى
هذه الحركة .

وفى يوم الأحد سابع عشرية قبضى الوالى على
شخص من العماىة قيل انه حطاف امراد من السوق
وزنى بها ، فاما بلغ ابن عثمان ذلك أمر الوالى
أن يقطع رأسه فقطع رأسه فى الحال ، وطاف بها
فى القاهرة وهى على رمح ، مظهر من ابن عثمان
فى ذلك اليوم عدل عظيم لعل أن يعتبر بفيه عسكره
ويكفوا عن الأذى .

وفى أثناء ذلك الشهر وقع أن ابن عثمان شرع
فى فك الرخام الذى بالقلعه فى قاعة اليسرى
والدهيشة ، وقاعة البحرة والقصر الكبير ، وغير
ذلك من أماكن بالقلعة ، وفك العواميد السماقية
التى كانت فى الايوان الكبير ، قيل انه قصد أن
ينشئ له مدرسة فى اسطنبول مثل مدرسة السلطان
العورى ، فلم تبسر له ذلك .

ثم صار بحبى بن بكار يرك ويأخذ معه جماعة
من المرحمين . فبهجمون قاعات الناس ، ويأخذون
ما فيها من الرخام السماقى والزرزورى الملون .
فأحربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين ويوت
الأمراء فاطمة ، حتى القاعات التى ببولاق ، وقاعات
الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص التى
عنى بركة الرطلى ، وغير ذلك من قاعات المباشرين
والتجار وأبناء الناس ، والمدارس التى فيها الكتب
النفيسة ، فنقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها ،
ولم يعرفوا الحلال من الحرام .

وفيه نادوا فى القاهرة بإبطال الفلوس العتق
وصربوا الناس فلوساً جديداً خففاً جداً ، فحسر
الناس الثلث ، ووقف حال الناس بسبب ذلك ...
فصارت البضائع تباع بيسعيرين : سعر بالفلوس
العتق ، وسعر بالفلوس الجدد .

وفيه صاروا يقبضون على جماعة من مباشرى
الأمراء ، ويقولون لهم حاسبونا على خراج الأمراء
الدين فتلوا في المعركة .

وفي ربيع الثانى وكان مسهله يوم الأربعاء ،
أشيع أنه قد حضر قاصد من شاه اسمعيل الصفوى
وعلى يده مطالعة لابن عثمان ، فلما قرأها تنكد
وقصد أن يقبض عليه ، فهرب ذلك القاصد من
عند ابن عثمان ، وكان بالمقياس . فلما هرب صاروا
يكبسون بيوت مصر العتيقة ، وبيوت الروضة ،
فلم يحصلوه لا فى البر ولا فى البحر ، فحصل لأهل
مصر العتيقة غاية الضرر من كبس البيوت بسبب
هروب هذا القاصد . فمن الناس من يقول انهم
قبضوا عليه فيما بعد وقطعوا رأسه ، ومنهم من
يقول انهم لم يحصلوه واستمر هاربا .

ومن الحوادث أن شحصا من التجار الأروام
كان له دين على الزينى عبد القادر الملكى وأخيه
أبى بكر بن الملكى ، نحو خمسة آلاف دينار ،
وفيل عشرة آلاف دينار ، فكان كلما طالبهما سوفاً
به ومطلاه . وتماديا على ذلك مدة طويلة ،
فشكاهما الى الدفتردار ، فأرسل حلفهما ، فلمسا
حضرا اعترفا لذلك التاجر بالقدر المذكور ، فأمرهما
الدفتردار بأن يدفعوا له ذلك ، فقالا ما معنا شيء
من المال ، ولكن يصبر حتى يبعث الله لنا بشيء من
المال ، فندفع له حقه . فقال لهما ما بهيت أصبر
عليكما . فحنق منهما الدفتردار وأمر بسجن
عبد القادر وأخيه أبى بكر ، فسجنا فى سجن
الديلم ، وأقاما به أياما حتى سعى لهما الشهابى
أحمد ابن الجيعان وأطلقا من السجن ،
ثم استرضوا ذلك التاجر حتى أفرج عنهما .

وفي أوائل هذا الشهر حضر قاضى القضاة
الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى المالكى

محيى الدين بن الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب
الدين الفتوحى . وكانوا توجهوا الى نحو البها
بسبب الأمان الذى توجهوا به من عند ابن عثمان
الى السلطان طومان باى ، ولم نفذ توجه هؤلاء
القضاة اليه شيئا .

ولما حضر هؤلاء القضاة أخبروا بصفة قتل
قاضى القضاة حسام الدين محمود بن الشحنة
الحنفى وأخيه أبى بكر ، وقد تقدم القول على
سبب قتلها ودفنا هناك .

وفي يوم الاثنين سادسه أشيع أن ابن عثمان
عدى الى المقياس . وكان فى ذلك اليوم رياح
عاصفة فكاد أن يغرق . فلمسا سلم من الغرق أقام
بالمقياس ونقل وطاقه الى الروضة ومصر العتيقة
ثم أن أمراءه طردوا السكان الذين بالروضا
وبمصر العتيقة ، وسكنوا فى دورهم ، فحصل
للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، فأعجبه المقياس
فأقام به مدة أيام ، وكان وزراؤه يعدون الى
الروضة فى كل يوم وبطاعونه بالأموال التى يفعلونها
فى الناس من خير أو شر .

وفي يوم الثلاثاء سابعه توفيت ابنة الأمير يشبك
ابن مهدي أمير دوا دار ، وهى روجه قاضى باى أمير
آخور كبير ، وقاست قبل موتها شداًد ومحننا ؛
وصودرت غير ما مرة من السلطان العورى ، ومن
ابن عثمان أيضا ، واستمرت محتفنة حتى ماتت .
وكانت من أعبان الستات فى سعة من المال ، وكانت
لا بأس بها .

وفيه خلع السلطان على شحص من العلماء .
يقال له الشيخ شمس الدين بن يس الطرابلسى ؛
وقرره فى قضاء الحنفية عوضا عن محسود بن
الشحنة بحكم قتله كما تقدم

وفيه وقعت كائنة عظيمة لحوند ابنه المقر آفبردى

الشافعية ، وفد قاسى من العثمانية غاية البهذلة من الضرب والصك ، وأنزلوه المركب على رعم أنفه ، ومنهم الزينى زين الدين الشرفقاشى ، أحد نواب الحنفية ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأثميدى ، أحد نواب الشافعية ، والقاضى بدر الدين البلقينى ، نقيب قاضى القضاة الشافعى ، والقاضى شهاب الدين بن الهيشى ، أحد نواب الحنابلة . والشريف البردينى الحنفى ، وآخرون من نواب القضاة الأربعة .

وخرج فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من تجار السرب والورافين ... منهم محمد المسكى الأسود . ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب الأسمر ، ومن بجار خان الخليلى وغيره ... وخرج يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وخرج ابن شفيرة التاجر الذى بمرجوش . ومن تجار الهرامزة وغير ذلك من التجار والأعيان من مشاهير الناس ... فهؤلاء خرجوا فى ذلك اليوم ثم تبعهم طائفة أخرى يأتى الكلام عليها . وكانت هذه الواقعة من أشنع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل مصر قط مثلاً فيما تقدم من الزمان . وهذه عبارة عن أمر المسلمين وتقيهم الى اسطنبول .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره أشيع بين الناس أن ابن عثمان كان فى أصبعه خانم من الفضة وهو مرصود للمقابلة . وكان يشترك به فسقط من أصبعه فى البحر وهو فى المقياس ، فتأسف عليه غاية الأسف ، وأحضر الغطاسين فغطسوا عليه عدة مرات فلم يجدوه فى ذلك المكان . ويقال أن هذا الخاتم كان فى ذخائر أجساد ابن عثمان حتى فقد منه .

وفى أواخر هذا الشهر أرسل ابن عثمان بقول لأمير المؤمنين : « اعمل برقك حتى تسافر الى

الدوادار ، وهى زوجة السلطان طومان باى ، بذلك انه كان عندها جارية بيضاء چركسية رقاصة ، فهربت من عندها وبوجه الى بعض وزراء ابن عثمان ، فعرفه بمكان حاصل سيدها . فتوجهوا اليه ونقلوا لل ما كان فيه من بناتى زركتش وعنبر ومناعد سمور ووشى وحياصب ذهب ولؤلؤ وجوهر مرصع وكوامل ذهب . وغير ذلك من الامتعة الفاخرة ، وأوانى بلور وأوانى فضة ونحاس مكلف بالذهب . وصيى موتى بلازورد ، وغير ذلك . فنقلوا جميع ما كان بها فى الحاصل . فذهب لها أشياء كثيرة بحو حسين ألف دينار . وما فتح ابن عثمان بذلك . فصايرها وفرر عليها وعلى والدها بنت العالانى على بن خاص بك عشرين ألف دينار . وقبل أكثر من ذلك القدر . فحصل لها ولوالدها الضرر الشديد ، وفاسدا شدايد عقيمة ومحننا وبهذلة وعديدا بالقتل . وما جرى عليهما خبر .

وفى يوم الجمعة سابع عشره رسم الدفتردار باخراج طائفة من اليهود ممن كان تعين الى السفر الى اسطنبول . فخرجوا فى ذلك اليوم جملة واحدة . فنزلوا فى المراكب وبوجهوا الى نهر الاسكندرية الى أن مضوا الى اسطنبول ... فأخذوا بساءهم ، أولادهم ومضما . وفى غيب ذلك خرج طائفة من البائين والمهمسين والنجارين والحدادين والمخمس والمباطين ، وفيهم البعض من الصارى . وطائفة من الفعلة ، وذلك بسبب المدرسة التى أراد ابن عثمان أن ننسها باسطنبول مثل مدرسة السلطان العورى . وأشيع أنه أرسل طائفة من المغاربة أيضا تقيم باسطنبول .

وفى يوم السبت ثامن عشره خرج الى السفر لاسطنبول طائفة أخرى من نواب القضاة والشهود فمنهم القاضى شمس الدين الحلبي أحد نواب

اسطنبول » فلما تحقق الخليفة ذلك اضطربت
أحواله ، وشرع في عمل برقه وقال سافر أنت
وأولاد عمك خليل وصهرك محمد بن خاص بك .
فلما بلغهم ذلك تنكدوا أجمعون .

وفيه نزل ابن عثمان بالرخام الذي فكه من
القلعة ، فوضعه في صناديق خشب ونزلوا به في
المراكب لسنوجهاوا به الى اسطنبول

ومن العجائب أن السلطان العورى ظلم أولاد
ناظر الحاص يوسف ، وأخذ رخام قاعتهم التي
تسمى بنصف الدنيا ، وجعل ذلك الرخام في فاعة
البيسرية ، فسلط الله تعالى عليه بعد موته ابن
عثمان ، ولم ينتفع به أحد من بعده ، والمجازاة من
جنس العمل . وقد خرج هذا الشهر على الناس
وهم في أمر مريب مما جرى عليهم من ابن عثمان .

وفي شهر جمادى الأولى ، وكان مستهله يوم
الجمعة ، ففى ذلك اليوم خرج المقر العلاني على
ابن الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف انال ،
وكان تعين الى السفر الى اسطنبول ، فخرج في
ذلك اليوم ، وخسر جاعة من الفقهاء وأعيان
التجار ممن تعين الى اسطنبول ، فمنهم شمس الدين
ابن روق وكان القاضى بدر الدين بن الوقاد
أحد نواب الخنفة تعين الى السفر الى اسطنبول ،
فلما تحقق ذلك اختفى ، وحصل على نقب الجيش
من الدفتردار ما لا خير فيه ، وبهذه وهم بضربه
لأنه كان ضامته .

وفي يوم السبت ثانى الشهر ، عرض السلطان
سليم شاه عسكره ببر الجيزة ، وعين منهم جماعة

مسافرون صحبته الى ثغر الاسكندرية ، وأشيع
سفره الى هناك

وفي يوم الاثنين رابعه على ابن عثمان من
المقباس الى بر مصر العتيقة ، وشق من حامع ابن
طولون وطلع الى القلعة ، ثم عاد من يومه الى
المقباس وأقام به .

ومن الحوادث أن شحصا من نواب الشافعية
قيل عنه انه زوج امرأة من ساء الأتراك لشخص
من العثمانية ، فظهر أنها لم تكمل عدة زوجها الذى
مات ، فدلس ذلك على القاضى الذى زوجها الى
العثمانى فلما رفع أمرها الى ابن عثمان احضر
ذلك القاضى ولم يقبل له عدرا ، ووطحه وضربه
ضربا شديدا ، ثم كشف رأسه وألبسه عليها كرشا
من لروش البصر بروته ، ورببه على حمار
مقلوبا ، وأشهره في القاهرة ، وكان قبل ذلك
نادى السلطان في القاهرة بان لا أحد من فضاة
مصر يعمد عقدا لعثمانى ، ولا يزوجه بأحد من
ساء الأتراك . وكذلك الشهور . وخرج عليهم في
ذلك الى العساة ، فلم يسمع له فضاة مصر شيئا
من ذلك ، وصاروا بزواج العثمانية بنساء
الأتراك الذين قتلوا في الحرب كما تقدم القول
على ذلك .

وفي يوم الخميس سابع هذا الشهر نزل
السلطان سليم شاه من المقباس في مراكب هو
وجماعة وفصدوا النوجه الى ثغر الاسكندرية
وفيل كان معه من فرسان عسكره ألف فارس ،
وتوجه يوسف باشا من البر على تروجة بعسكر
آخر يلاقيه من هناك .

وفي يوم الثلاثاء ثانى عشر جمادى الأولى خرج
أمير المؤمنين المتوكل على الله قاصدا السفر الى

اسطنبول ، وخرج صحبته أولاد عمه خليل ، وهما أبو بكر وأحمد ، وخرج صحبته الناصري محمد ابن العالاني علي بن حاص بان صهر الحليفة ، وخرج السرفي بوس ابن الإتابلي سودون العجمي ، وآخرون من الأعسان ، فتوجهوا الى بولاق ، ونزلوا من هناك في المراكب لسوجهوا الى نغر رشيد ، فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر عانة الأسف ، وقالوا قد انقطعت الخلفاء من مصر ، وصارت باسطنبول ... وهذه من الحوادث المبهولة .

ثم ان الحليفة عوم من بولاق الى رشيد ، ثم بعد ذلك وردت الأخبار بأن الخليفة قد وصل الى نغر رشيد ، وأقام به هؤ وجساعه من الذين سافروا ، ثم دخلوا الى نغر اسكندرية ووجدوا الصهاريج التي بها مشحونة من الماء . فبلغ ملء كل كراز خمسة أقصاف ، وذلك من كثرة الخلق الذين اجتمعوا هناك ، ولا سيما لما دخل اليها عسكر ابن عثمان .

وأشيع أن السلطان سليم شاه لما دخل نغر الاسكندرية ، رسم بأن الجساعه الدين أبوا من مصر سيجون في الحانات ، وفي أبراج الاسكندرية الى أن يكاملوا ، ثم سافروا دفعة واحدة . فوضعوهم في الأبراج وساءهم في الحانات ، ففاسوا مشنة عظيمة بسبب ذلك .

وخرج في عقيب ذلك مقدم المماليك سنبل وسافر الى اسطنبول ونائبه جوهر ، وقيل توجه سنبل الى بيت المقدس من بعد ذلك

وفي يوم الجمعة ثاني عشرى جمادى الأولى

خرج الى السفر الى اسطنبول الشهابي أحمد ناظر الجيش وابن الجمالي يوسف ناظر الخصاص ، وخرج صحبته بدر الدين وأخوه كمال الدين ، وخرج ناصر الدين العزى ويحيى بن الطنساوى موقع الدرج ، وخرج جان بك دودار طراباى . وفي يوم الجمعة المقدم ذكره حضر السلطان سليم شاه من نغر الاسكندرية ، فكانت مدة غيبته في هذه السفرة خمسة عشر يوما ذهابا وإيابا ، وفيل انه أقام بشعر الاسكندرية ثلاثة أيام لا غير . ودخل عليه من التقادم من مشايخ العربان بالغربية شئ كثير ما بين خيول وجمال وأبقار وغير ذلك . فلما حضر أتى الى المقياس وشق من جهة الروضة بالمراكب ، فانطلقت له النسوان من الطيقان بالزغاريت .

وفي يوم السبت ثالث عشره عرض يونس باشا الذى قرر نائب السلطنة بمصر عسكر ابن عثمان ذلك اليوم ، وأشيع أن ابن عثمان قد طرقتة الأخبار الرديئة من عند الصفوى وأنه قد زحف على بلاده وملك منها عدة بلاد .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرى جمادى الأولى خرج الى السفر الى اسطنبول الشيخ زين العابدين ابن قاضى القضاة الشيخ كمال الدين الشافعى الطويل ، فكثر عليه الأسف والحزن فانه كان محببا للناس ، وخرج زين الدين البتنولى ناظر المواريث أيضا وآخرون من مباشرى المواريث . وخرج جماعة من الزردكاشية منهم يحيى بن يونس ومحمد العادلى المعروف بابن البدوية وزين الدين بن محمود الأعور وأحمد بن الهوارى وآخرون من صناع الزردخانه . وخرج ابراهيم مقدم الدولة وخرج جماعة من مباشرى الخوشكانة .

وفى أثناء هذا الشهر توفى تقي الدين بن الطبرنى
كاتب السمعير بالشمون السلطانية ، وكان لا بأس به .

وفى يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع ابن أبى
الرداد ببشارة النسل المبارك ، وجاءت القاعدة تمانى
آدرع وست عترة أصبعا . وكانت القاعدة فى العام
الماضى لما أخذ قاع النبل انتى عترة دراعا ، حتى
ند ذلك من النوادر العربية

وفى جمادى الآخرة ، وكان مستهله يوم الأحد .
فى ذلك اليوم كان أول المناداة على النبل المبارك
فرد ثلاث أصابع ... وفى ذلك اليوم أشيع أن
السلطان سليم شاه خلع على وريثه نونس باشا
وهره نائباً عنه بمصر وأعمالها إذا سافر الى بلاده .
فلما تقرر نونس باشا فى النيابة بمصر ، وأشيع
سفر ابن عثمان ، ظهر جماعة كثيرة من الممالك
الچراكسة وتزويوا بزي العثمانية ولبسوا الطراير
والقفاطين الحرير ، وصاروا بخالطون العثمانية ،
ويركبون معهم فى الأسواق بطول النهار .

وفى يوم الأربعاء رابع هذا الشهر نادى السلطان
فى عسكره بأن كل من كان متزوجاً من مصر بامرأة
بطلقها ، والا شنىق من غير معاودة فمنهم من طلق
زوجته ومنهم من أبقاها فى عصمته .

ومن الحوادث آن القاضى بدر الدين بن الوقاد
لما تعين للسفر الى اسطنبول وضمنه نفس الجيش
تخلص واختفى أباماً فغمز عليه فقبضوا عليه من
المكان الذى كان به . فلما أحصروه بين يدى
الدفتردار وبخه بالكلام ، وبطحه على الأرض ،
وهم بضربة حتى شفع فيه بعض الحاضرين ،
وقاسى من البهدة والسب ما لا خير فيه ، وغرم
مالاً له صورة ، وآخر الأمر سافر الى اسطنبول ،
والذى خاف منه قد وقع فيه .

وفى يوم الخميس خامسه ، عدى السلطان سليم
شاه من انروصنة ، وطلع الى الرميلى ، وعرض
عسكره فى الميدان الذى تحت القلعة ، وعين منهم
جماعة يسمون بمصر صحبة نونس باشا ، وعين
جماعة يسافرون صحبته ، ورسم للمشاة من
عسكره بأن يسافروا فى البحر ، واستمر بعرض
عسكره ثلاثة أيام متوالية

وفى ذلك اليوم خرج حريم ملك الأمراء خاير
بك . وحريم جان بردى الغزالى ، للاقامة بحلب
الى أن تأتى السلطان هناك . وقد فوت الاشاعات
بسر السلطان عن قريب

وفى يوم الجمعة سادس هذا الشهر ، خرج
جماعة من المباشرين للسفر الى اسطنبول ، منهم
القاضى عبد الكريم أخو الشهابى أحمد بن الجيعان
كاتب الحزائن الشريفة ، وحسرج الناصرى محمد
ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان كاتب الحزائن
أبضا . وخرج الزينى عبد القادر بن الملكى مستوفى
ديوان الجيس . وخرج شحص من أولاد ابن
البارزى يقال له بهاء الدين ، وخرج محمد المجولى
معتار السلطان الغورى بالطشتخاناه الشريفة ،
وخرج عبد الباسط بن تقي الدين ناظر الزردخانه
وولده زين الدين ، وخرج فى ذلك اليوم بعض
نصارى من كتاب الحزينة . وخرج كمال الدين
يزددار الطرايية ، وخرج فرج الدين البردى رأس
نوبه حاجب الحجاب ، وخرج فتح الدين بن فحيرة
أحد كتاب الممالك . وخرج جماعة كثيرة من
البزدارية ، والرسل وأرباب الصنائع من كل فن
ممن تعين الى اسطنبول ، وخرج الشهابى أحمد
ابن البدرى وحسن بن الطولونى معلم المعلمين ،
وخرج يحيى شكار دودار ، وشيخ سوق الغزل
بدر الدين ، وخرج ابراهيم مقدم الدولة ، وخرج

له أصحاب ، يكون ملكا للسلطان ، ويدخل الى الدحيرة .

ويقرب من هذه الواقعة أن الدفتردار رسم لقاضى القضاة المنفصل علاء الدين بن النقيب أن يتحدث على أوقاف الحرمين الشريفين فاطبة ، ورفع بد قاضى القضاة كمال الدين الطويل التسامى من التحدث على أوقاف الحرمين الشريفين ، فكان أصحاب الأوقاف يعرضون مكانيتهم على قاضى القضاة علاء الدين ويكتب عليها « عرض » ، ثم يرضون بها الى الدفتردار فبحرج مراسيمهم بالافراج عن ذلك . فبقع عليهم كلفة للقاضى علاء الدين ، وكلفة لمراسيم الدفتردار ، وإن لم يفعلوا ذلك ، ولم تحرج مراسيم الدفتردار بالافراج عن جهات الأوقاف ، يضع المباشرون والظلمة أيديهم على بلاد الأوقاف ، ويستخرجون منها الخراج ، ويروح ذلك على النظار . وهذا من جملة مساوى ابن عثمان فيما فعله فى أهل مصر من الإنكاد والضرر الشامل لهم .

وفى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الآخرة ، حضر الشرفى يونس النابلسى الاستادار ، وكان قد توجه الى بلاد الشرقية بسبب جمع الخراج من بلاد المقطعين والأتراك والأمراء الذين قتلوا فى المعركة ، فمسح بلاد الشرقية قاطبة وحصل منه غارة الضرر . وضيق على الناس فى أرزاقهم من نساء ورجال ، ووضع يده على خراجهم بغير حق ، وما حصل لأحد منه خير . فكان كما يقال فى المعنى : مباشر فى الورى لم تخف سيرته

بين الأنام وما بخشى من الرب
تنجو به رجله مما جنت يده
كأنه القط فى خطف وفى هرب
وفى يوم الأحد خامس عشره ، حضر الى

جساعة كثيرة غير هؤلاء فى أوقات متفرقة ، ونزلوا فى المراكب ونوجهوا الى نهر الاسكندرية ، ومن هناك ينوجهون الى اسطنبول . وقبل ان عده من خرج من أهل مصر الى اسطنبول ألف وثمانمائة انسان ، وقيل دون ذلك .

وقيل ان السلطان سليم شاه لما أخذ من مصر هؤلاء الجساعة أحضر غيرهم من اسطنبول يقيمون بمصر عوضا عن الذين خرجوا منها ، وقيل ان هذه عادة عندهم اذا فتحوا جهة أخذوا من أهلها جماعة يرضون الى بلادهم ، ويحضرون من بلادهم جماعة يقيمون فى تلك المدينة عوضا عن الجماعة الذين أخذوهم .

وفيه نادوا فى القاهرة أن لا عدد ولا جارية ولا امرأة ولا صبى أمرد يخرج الى السوق حتى يخرج العسكر العثمانى من مصر ، وذلك خوفا عليهم من التركمان أن يخطفوه ويسافروا بهم .

وفيه توجه السلطان سليم شاه الى بئر البلسان التى بالمطرية وأضافه هناك الناصرى محمد بن الرئيس شمس الدين القوصونى ومد له هناك مدة حافلة ، وكذلك الشيخ دمرداش ، وانشرح ابن عثمان فى ذلك اليوم الى الغابة ، وغسل وجهه من مائها ، وأقام هناك الى ما بعد العصر ، ثم رجع الى الوطاق .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الدفتردار ضيق على الناس أصحاب الأملاك بسبب أملاكهم ، وبدب الشرقى يونس نقيب الجيش الى ضبط البيوت التى فى القاهرة قاطبة . ففسار الناس يعرضون عليه مكاتيبهم ، فالذى يكون من الأعيان يفرج له عن بيته ، ويواسى نقيب الجيش بشىء من الدراهم ، ويكتب على مكتوبه « عرض » . والذى يكون جاريا فى ملك الممالك الجراكسة ، ولم يظهر

عروض ، وكانا في بعض جهات الغربية ، بسبب استخراج الحراج وعمارة الجسور التي هناك وفي يوم الخميس تاسع عشره ، توفيت ابنة السلطان طومان باي . وكان لها من العمر نحو عشر سنين ، وكان قد حصل لها طربة على أبيها لما قتل .

وفي يوم الأحد ثاني عشره اضطربت أحوال القاهرة ، وصارت الأدراك تقف على أبواب المدينة ويمسكون الناس من رئيس ووضيع ، ويضعونهم في الجبال حتى من بلوح لهم من القضاة والشهود ، وما يعلم ما ب صنع بهم . فلما طلعا بهم إلى القلعة أسفرت هذه الواقعة عن أنهم جمعوا الناس ليسحبوا المكاحل النحاس الكبار التي كانت بالقلعة ، وبنزلوها إلى شاطئ البحر ، ثم يضعوها في المراكب ، ويمضوا بها إلى اسطنبول .

وكان قبل ذلك بمده نزلوا بالعمودين السماقي اللذين قلعهما من الابوان الذي بالقلعة ، فارتجت لهما الصليبة لما نزلوا بهما من القلعة . وقاسى الناس في سحبهما عاهة المشقة ، وحصل لهم بهدلة من الضرب والصك وخطف العمائم والشدود تم في عقيب ذلك نزلوا بالمكاحل من القلعة وصاروا يربطون الرجال بالجبال في رقابهم ، ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ، ولو كانوا من أعيان الناس . فحصل للناس بسبب ذلك ما لا خير فيه .

وفي يوم الخميس سادس عشره رسم السلطان سليم شاه باحضار ألف رأس من الغنم ، ومائة جمل ومائة بقرة ، فلما حضرت بين يديه أمر أن تفرق قربانا على مجاوري الجوامع والمساجد والزوايا ومزارات الصالحين التي بالقرافة وغيرها من المزارات المشهورة ، حتى على أبواب ترب

الأبواب الشريفة ابن السيد الشريف بركات أمير مكة ، وكان سبب حضوره أنه أتى ليهنيء ابن عثمان بمملكة مصر ، وأحضر صحبته تقصادم فاخرة ، وحضر صحبته بيردي بن كسباي أحد الأمراء العشراوات الذي كان باش المجاورين بمكة ، وحضر قراكر الذي كان محتسبا بمكة . فلما حضر أشيع بين الناس أن حسين نائب جدة قد قتل على يد الرئيس سلمان العثماني ، وقيل أنه أعرفه في البحر . وكان حسين قد ظلم وجار على أهل مكة وجدة ، وجدد مظالمه في أيام السلطان الغوري ، وكان من المفسدين في الأرض ، فقتل كما تقدم ، وكان غير محب لأهل جدة ومكة .

ومن الحوادث أن النيل المبارك توقف في أثناء الزيادة واستمر في التوقف ستة أيام ، فقلق الناس لذلك ، وزاد سعر القمح ، وتشحطت سائر الغلال ، واضطربت الأحوال جدا . ثم بعد ذلك زاد النيل المبارك أصبعا واحدة فسكن الحال فلما .

وفي يوم الاثنين سادس عشره ، حضر جماعة من المباشرين الذين كانوا قد توجهوا إلى الغربية والمنوفية والمحلة ... فحضر أبو البقاء ناظر الأسطبل ، وبركات أخو شرف الدين الصغير ، ويحيى بن الطنساوي وآخرون من المباشرين .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره أشيع أن بيردي باش المجاورين وقراكر المحتسب والممالك الذين حضروا صحبتهم من مكة يريد قتلهم ابن عثمان ، فشفع فيهم ابن الشريف بركات من القتل ، فرسم أن بتوجهوا إلى اسطنبول ، فخرجوا في ذلك ونزلوا في المراكب ، وتوجهوا إلى ثغر الاسكندرية ومن هناك توجهوا إلى اسطنبول .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشره ، حضر الزيني بركات بن موسى المحتسب ، وحضر فخر الدين بن

وسافر من البحر المالح وتوجه الى المدينة الشريفة
من ينبع ، وكان من قديم الزمان لا يلى مشيخة
الحرم الا الطواشية .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما كان
بالمقياس ، أحضر في بعض الليالي خيال الظل ، فلما
جلس للفرجة قيل ان المخايل صنع صفة باب زويلة
وصفه السلطان طومان باى لما شفق عليها ، وقطع
به الحبل مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك ، وأنعم
على المخايل في تلك الليلة بشماتين دينارا ، وخلع
عليه فقطانا مخملا مذهبا ، وقال له اذا سافرتا الى
اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابني على ذلك .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه أنشأ له قصرا
من حاسب بالمقياس فوق القصر الذى أنشأه
السلطان الغورى فوق بسطة المقياس ، وصار يجلس
به في اليوم الحر ، وأحضر جساعة من التجارين
والبناتين وترع في بنائه حتى درغ في أسر مدة .
وفد قلت في ذلك :

لو علم الغورى أن قصره
يسكن للمظفر المؤيد
أضرم فيه النار من يومه
ولم بدع في جدره جلمد

وفي رجب وكان مستهله يوم الاثنين ، في يوم
الأربعاء تالته ، توفي القاضى رضى الدين الحلبى
الموقع ، وكان شابا حسن الشكل والهيئة . وكان
من أخصاء القاضى كاتب السر محمود ابن آجا ،
وكان من أعيان الموقعين ، وكان من جملة أصحابنا
رحمة الله عليه . وكان له مدة وهو متسوعك في
جسده ، وكان تعين الى سفر اسطنبول ففرض
عقيب ذلك . فدخل انكشارى من العثمانية فراه
مريضا ، فقال له اخرج في هذا اليوم وسافر . فقال

السلطين المتقدمين . ففرقوا ذلك جميعه وصاروا
يذهبون الغنم والبقر والجمال على أبواب الجوامع
والمساجد والزوايا ويفرقونها على المجاورين الذين
بها . وقبل ان سبب ذلك أن لهم عادة في بلادهم
اذا حلت الشمس في برج الأسد يفرقون هذا
القربان على مجاورى الجوامع والمساجد والزوايا ،
ويفرقونها على المجاورين الذين في بلادهم قاطبة ،
ففعل مثل ذلك بمصر .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه نزل في مركب
وتوجه نحو الآثار الشريف ، فمام عليه ريح عاصف
فاقلبت به المركب في البحر ، فكاد أن يعرق ،
وأغمى عليه وما بقى من موته شيء ، وقيل انه كان
سكران لا يعى ، فكاد في أجله فسحقة حتى عاش
الى اليوم .

ومن الحوادث في هذا الشهر أن الخليفة لما
سافر الى اسطنبول أخرجوا عنه نظر مشهد السيدة
نفيسة رضى الله عنها ، وكان ذلك بيد الحلفاء من
قديم الزمان ، وكان من جملة نعظيمهم . وكان
يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من التسوع
والزيت ، وكان يحصل لهم في كل يوم من الصندوق
الذى تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ له صورة
من النذور التى كانت تدخل عليهم ، فخرج ذلك
كله عنه ، وحصل للخليفة بعفوب والد المتوكل على
الله غاية الضرر بسبب ذلك ، وشق عليه ذلك ، ولم
يفده من ذلك شيء .

وفي أثناء هذا الشهر ، خرج الشرفى يحيى بن
البردينى الذى كان ولى قضاء القضاة في دولة
الأشرف طومان باى ، ولما رأى الأحوال مضطربة
وبعثوا أعيان الناس الى اسطنبول ، سعى ببال له
صورة حتى قرر في مشيخة الحرم الشريف النبوى ،
كما كان جاهين الجمالى . فخرج من هذا الشهر

له لا أستطيع القيام ، فحمله العثماني بالنطع الذي تحته ، وأراد أن يخرج من الباب ، فدخلوا عليه ودفعوا له سبع أشرفيات حتى تركه ومضى . فمات تلك الليلة من الرجفة التي حصلت له .

وفي يوم الخميس رابعه خرج الى السفر ابن السيد الشريف بركات أمير مكة ، فتوجه الى وطاقه الذي بالريدانية ، فكان له موكب حافل ، وخلع عليه السلطان قفطان تماسيح مذهب ، وفدامه الرماة بالنفط . وخرج صحبته غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة ، وقد أشار عليه السلطان بأن الحجازيين الذين بالقاهرة تخرج صحبته الى اسطنبول .

وأشيع أن السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بأن يكون عوضا عن الباشا الذي بها ، وجعله هو المتصرف في أمر مكة قاطبة . وأضاف له نظر الحسبة بمكة أيضا ، وأنصفه غاية الانصاف . وتزايدت عظمة السيد بركات الشريف الى الغاية ، وأكرم ولده غاية الاكرام .

وفيه ترافع جماعة من المباشرين مع بعضهم ، وانتبذ الى عمل حسابهم الزينى بركات بن موسى ، وألزمهم بالعود الى البلاد ثانيا ليغلقوا ما كان بقي عليهم من الخراج في البلاد ، فانهم كانوا أرسلوا خلفهم بالاستعجال الى سفر اسطنبول .

وفي أثناء هذا الشهر توفي القاضي ناصر الدين محمد بن العمري ، موقع الأمير يشبك الدوادار ، وكان من المعمرين في الأرض .

ومن الحوادث أن الدفتردار أوقف المناشير التي في يد أولاد الناس بسبب اقطاعاتهم ، ولم يمض غير الأوقاف والرزق التي بالمكاتب ، والمربعات الجيشية فقط . فحصل لأولاد الناس غاية الضرر

بسبب ذلك ، ووضع المباشرون أيديهم على حراجهم ، وراح عليهم الحراج في هذه السنة بين الفلاحين والمباشرين .

وفي يوم الأربعاء عاشر رجب حضر شيخ العرب أحمد بن بقر ، وقد أرسل اليه ابن عثمان أمانا بالحضور ، فحضر وقابل يونس باشا وبفيسة الوزراء ، وكان له مدة وهو عاص في وادي العباسية ، ومعه جماعة من المماليك الجراكسة ، وكان يحسن اليهم بالعليق وغير ذلك من القوت . وفي يوم السبت ثالث عشر رجب ، الموافق ثامن مسرى من الشهور القبطية ، أظلم الجو ظلمة شديدة ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى توحلت منه الأرض والأسواق . وكانت الشمس في برج الأسد ، فتعجب الناس غاية العجب من كون المطر جاء في غير أوانه ، وكان قد بقي على ميعاد الوفاء أربع وستون أصبعا ، والنيل في قوة الزيادة ، فخشى الناس على النيل من النقص ، وأشيع كسوف الشمس في ذلك اليوم .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره تحول السلطان سليم شاه من المقياس ، وأتى الى بيت الأشرف قايتباي الذي خلف حمام الفارقاني المطل على بركة الفيل ، فأقام به ، فتعجب الناس لذلك كيف ترك المقياس في ليالى الوفاء وسكن في هذا المكان الذي بين الدروب ، فاختلف الناس في الأقوال بسبب ذلك ، ولم يعلم ما سبب تحوله من المقياس الى هذا المكان مع وجود كثرة رغبته في اقامته بالمقياس . فلما سكن في ذلك المكان طفشت عساكره في بيوت الناس التي حول الصليبية وأعمالها ، وطردها أصحابها منها وسكنوها ، فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفي يوم الخميس خامس عشره طلع ابن عثمان الى القلعة ودخل الى الحمام الذي بها بالبحر ، ثم

رجع الى بيت الأشرف قايتباي ، فتيل اصطفت
عساكره من القليل الى باب السلسلة ما بين مشاة
وركاب .

وبدیه وردت الأخبار من البحيرة بأن حسن بن
مرعى محاصر مع الجويلي « فأرسل لهما السلطان
تجريدة الى البحيرة ، وعين بها ألف عنابي من
عسكره .

ومن الحوادث الموهلة أن النيل المبارك توقف
ليالى الوفاء على اصبع واحدة . وكان مضى من
مسرى ثمانية عشر يوما ، فاضطرب أحوال الديار
المصرية بسبب ذلك . ثم أشيع أن النيل قد نقص
أربع أصابع ، واستمر في ذلك التوقف ستة أيام ،
وقد مضى من مسرى واحد وعشرون يوما ،
فاضطربت الأحوال بسبب ذلك . ولولا خوف
السوقة من ابن عثمان لرفعوا الحيز من الأسواق ،
وكادوا أن ينشئوا علوة عظيمة . وقد توقف النيل
في هذه السنة مرتين ستة أيام في أيبب وستة أيام
في مسرى ، ولولا أن الله بعث الزيادة بعد ذلك
لأكل الناس بعضهم بعضا ، وقال القائل في المعنى :

لو نطق النيل قال قولا

بشفى به غاية الشفاء

قد كثر الجور فاعذرونى

لما توففت في الوفاء

فلما كان يوم السبت السابع عشرى رجب ،
الموافق لثاني عشرى مسرى ، زاد الله في النيل
المبارك اصبعاً واحدة عن النقص الذي كان نقصه .
ثم في يوم الأحد ثالث عشرى مسرى القبطى ،
الموافق لثامن عشرى رجب ، زاد النيل ما كان
نقصه ، ووفى ست عشرة ذراعا واصبعا من السابعة
عشرة ، وكان النفس أربع أصابع عن الوفاء ، فزاد
النفس رأوفى وزاد اصبعاً من السابعة عشره ، وذلك

من فضل الله تعالى على عباده . فلما كان يوم الاثنين
تاسع عشرى رجب الموافق لرايح عشرى مسرى
فتح السد وجرى الماء في الخليج الحاكى
والناصرى ، وقد قيل في المعنى :

عجبت لنيل مصر حين وفي

على جور الأنام العاديات

فخضنا في حديث النيل لكن

مزجناه بأوصاف الفرات

وكان الذى فتح السد في ذلك اليوم يونس
باشا نائب السلطنة ، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة
مثل العادة . وبطل ما كان يعمل في ذلك اليوم من
الأسطة التى كانت تصنع بالمقياس ، والمجامع
الحلوى ، والمشقات الفاخرة التى كانت تصرف في
ذلك اليوم . فنزل يونس باشا في الحراقة السلطانية
وتوجه الى السد وفتحه على العادة . ولكن أين
الشراب من يد المتساول بالنسبة لما كان يعمل يوم
الوفاء بمصر .

ومن الحوادث أنه لما دخل الماء الى بركة الرمللى
سكنت العثمانية في بيوت الجسر قاطبة . وربطوا
خيولهم في القواطين المطلة على البركة ، وأخذوا
الأبواب والظيافان والدرايزانات وأوفدوها في
النار ، وكذلك بيوت المصطاحى وحكر الشامى ،
وسكنوا في بيوت الأكابر التى كانت على البركة
قاصبة ، فامتنعت مراكب البياعين من الدخول الى
البركة ، وكذلك المتفرجون . ومنعوا المتفرجين من
الدخول الى الجسر ، وصاروا يهوشون على الناس
بالعصى . وأما الجزيرة الوسطى فانها خرجت عن
آخرها . ولم يبق منها الا الجدر ، ونقل أصحاب
الأملاك ستوف البيوت والأبواب والظيافان ، ولم
يمتوا منها غير الحيضان . وأما بركة الأزبكية فان

التركمان نصبوا وطافهم بها ومنعوا الماء من
الدحول اليها وحربوا غالب ييويها ، وأخذوا غالب
ما فيها من الأبواب والطبقان وغير ذلك من
الأخشاب

وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر رجب أشيع أن حسن
ابن مرعى شيخ عربان البحيرة قد حضر بالأمان ،
وكان قد بى له ادلال على ابن عثمان ، من حين
تحيل على السلطان طومان باى وفبص عليه . فلما
قابل ابن عثمان فبص عليه وسجبه بالبرج الذى
بالقلعة ، وقبض على ابن صقر . وقبض على ابن
أخى الجويلى ، وسجنهم بالبرج أيضا . وكان
شيخ العرب أحمد بن بفر أتى ليفايل ابن عثمان ،
فلما رأى ما جرى على مشايخ العربان هؤلاء رجع
بعد أن دخل القاهرة ، ومضى الى الشرقيه . وقد
شمت فى حسن بن مرعى كل الناس ، فانه كان
سببا لمسك السلطان طومان باى حتى شق .
والمحازاة من جنس العمل

وفي آخر هذا الشهر بوفى صاحبنا القاضي
أبو الفتح السراجى أحد نواب الحنفية رحمة الله
عليه ، وكان عالما فاضلا بارعا فى النحو ، وكان له
شعر جيد وألف عدة كتب . وكان من الأفاضل فى
عصره ، عارفا بطريقة صنعة التوقيع ، حسن
العبارة . وكان مجلسه يحط جامع ابن طولون
وعاش من العمر ما قارب السبعين سنة ، وكان
حسن الهيئة ، وقلت :

لوحوا على مصر لأمر قد جرى

من حادث عمت مصيته الورى

زالت عساكرها من الأتراك فى

غمض العيون كأنها سنة الكرى

وأتى اليها عسكر سيماهمو

حلق الذقون ولبس طرطور يرى

وأميرهم بين الورى قد حقرا
لا يعرف الأستاذ من غلمانه
جل الاله مصدقا عما حكى
فى سورة الروم العظيمة أخبرا

قد أوعد الرحمن وعدا صادقا
أن ابن عثمان بلى وكذا جرى
ولاه رب العرش سلطانا على
مصر وهذا الأمر كان مقدرا
أين الملوك بمصر من ساداتها

مثل الدور تضى وكانت أنورا
يا لهف قلبى للمواك كنه لم
تلقى بقلعتها الحزنة عسكرا
لهفى على ذاك النظام وحسنه
ما كان فى الترتيب منه أفجرا
لهفى على ضرب الكرات ولعبها

فى الحوش صارت فى الحضيض الى ورا
لهفى على الشباب والرمح الذى
كانا مع الدبوس بكسر عنترا
لهفى على لبس الكلوة والقبأ
كانا بها التجميل من غير ازدرا
لهفى على تلك التحافيف التى

كانت على الأمراء تزهو منظرا
لهفى على لبس الكراف بقندس
بطلت وألغوا كل زنط أحمرأ

لهفى على المهماز والخف الذى
كانا نهار الحرب أصون للثرا
لهفى على أعياد مصر كيف قد
أفنت تشاريفها بها و متمسرا
وكذا الكنايش التى قد زخرفت
كانت تشد خيولها عند السرى

وكذا السروج المفرقات بلمعها
كانت كبرق أو كليل أقسرا
لهفى على الأبواب كنف تكسرت
وخلت أماكنها وصاحبها سرى
لهفى على نهب القماش وبيعه
وبأبخس الأثمان صارت تشتري
وأشيع بيع الخيمة العظمى التى
للمولد النبوى أحسن ما يرى
بيعت بأبخس قيمة عما حكى
يالهدف قلبى كم يزيد تحسرا
لهفى على شبحو وجامعه الذى
قد كان للصلوات مجمع للورى
درست معالنه بحرق صار من
بعد التزخرف والرباضة أغبرا
لهفى على سوق الصليبة كيف قد
أخلت حوانيت به مما جرى
لهفى على فك الرخام ونقله
من كل بيت كان زاه أزهرا
زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بها تزهو على كل القرى
لهفى على الأمراء كيف تشتتوا
وخلت منازلهم وعادت مقفرا
لهفى على أترالك مصر اذ غدت
مكسورة وقلوبها لن تجبرا
لهفى على الفرسان كيف تقطعت
أعناقهم بيد العدو اذ افترى
صارت على الطرقات من أجسادهم
رمم حكمت عيد الضحى الأكبرا
لهفى على ذاك الحريم وهتكه
من بعد صون فى الحريم مخدرا

وتيتمت أطفال جند قد غدت
أجسامهم نهش الكلاب على الثرى
قتلوا بأصغر بندق من شأنها
كالسهم تجرى فى الجسوم ولا ترى
لما تكسرت الجراكسه التى
كانوا بمصر أذلهم رب الورى
لهفى على سلطان مصر كيف فد
ولى وزال كأنه لم يذكر
شنقوه ظلما فوق باب زويلة
ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا
يارب فاعف عن عظام جرمه
واجعل جنان الخلد رب له قرا
يالهدف قلبى للخليفة كيف قد
طرده عن مصر بجور واقترا
وأذيق من ذل السؤال وفاقا
أيدي وأتعاب بما قد أقهرا
وكذا بنو عم له قد أخرجوا
معه لأسطنبول وامتد السرى
وكذاك أبناء الملوك تحيروا
عند الخروج ولم يراعوا الأوقرا
وكذاك أعيان التجار وغيرهم
صارت دموعهمو بسحر أنهرا
لهفى على الشرع الشريف وحكمه
قد كان فى زمن القضاة موقرا
يالهدف قلبى للشهود بمجلس
كانوا بهم تقضى الحوائج للورى
الله أكبر انها لمصيبة
وقعت بمصر ما لها مثل يرى
ولقد وقفت على تواريخ مضت
لم بذكروا فيها بأعجب ما جرى

لهفى على عيش بمصر قد خلت
أمامه كالحلم ولى مدبرا
وأتى من التكدير ما لا مخبر
سمعت به أذن ولا عين ترى
وتوقف النيل السعيد عن الوفا
في هذه الأيام آخر ما جرى
وتزايد الكرب العظيم لأجله
حتى وفى وبه المنادى بشرا
قد كان هذا الانتقام بمصرنا
سبقت به الأقدار كان مصدرا
يأليت شعري بعد هذا كله
تنفى الهموم وترتجى فرجا نرى
يارب انا بالنبي المصطفى
والأنبياء الكل سادات الورى
نسألك كشفا للأمر بسرعة
واعف عن الأجرام عفوا واغفرا
قد جاد لابن إياس شعر قاله
لكن منه النظم يخكى جوهر
ثم الصلاة على النبي محمد
والآل والأصحاب ممن بشرا
ماماس غصن فى الرياض وغردت
أطياره عند النسيم اذا سرى

وفى أول شعبان المكرم وكان مستهله يوم
الأربعاء ، أشيع أن شيخ العرب أحمد بن بكر لما
رأى أن السلطان سليم شاه قبض على حسن بن
مرعى شيخ عربان البحيرة ، وسجنه بالبرج ، خاف
على نفسه ، وخرج من القاهرة على حين غفلة ،
وتوجه الى جهات الشرقية ، ولاقتسه العربان .
ولو تكاسل يوما واحدا لقبض عليه ابن عثمان
وسجنه ، كما قد فعل بحسن بن مرعى .

وفيه أشيع أن جماعة من العثمانة قتلوا أميرا
من أمراء ابن عثمان وهو نائم على فراشه ، وكان
صاحب صنجق ، ولم يعلم ما سبب ذلك . وقيل
قبضوا على من فعل ذلك من العثمانه وشنق منهم
جماعة من أجل ذلك

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه بدا له أن
يعزل يونس باشا من نيابة السلطنة بمصر ، ويولى
ملك الأمراء خاير بك عوضا عنه لأمر فد عن له .
ومن الحوادث ، ان ابن عثمان لما سكن فى
بيت الأشرف قايتباى المطل على بركة الفيلى ،
وجرى الماء فى الخليج الحاكمى ، أمر بسد الخليج
من عند قنطرة عمر شاه حتى تملأ بركة الفيلى
بسرعة .

وفى يوم الجمعة ثالث شعبان ، أشيع أن ابن
عثمان قوى عزمه على العود الى بلاده ، وحروجه
من مصر ، فعين شخصا من أمرائه يقال له على بك
فى ذلك اليوم ، وصحبته جماعة من العثمانية ،
بسبب اصلاح الآبار فى طريق غزة ، وتنظيف
الطرق من الوعر قبل خروج السلطان ، فلما
تحقق عسكره أمر خروجه الى السفر لأسطنبول
شرعوا فى عمل برقههم ، ومشتري أزوادهم ،
فارتجت لهم القاهرة بسبب ذلك .

وفى يوم السبت رابع شعبان ، وقعت حادثة
مهولة ... وهى أن السلطان سليم شاه قبض على
جماعة من عسكره نحو أربعة وعشرين انسانا ،
وقيل أكثر من ذلك . فلما قبض عليهم رسم بشنق
جماعة منهم فى أماكن مختلفة ، وكلب منهم اثنين
على باب زويلة ، واثنين على باب الصاغة ، واثنين
بين القصرين ، والبقية عند جامع قوصون ، وشيء
فى الصليبية ، وشيء فى قناطر السباع . وأشيع أن
سبب ذلك ان جماعة من الانكشارية قصدوا أن

بقتلوا ابن عثمان لما كان بالمقياس ، فاستدرك أمره ، وتحول الى بيت السلطان قايتباي الذي خلف حمام الفارقاني ، وصار يقبض على من كان سببا لاشاعة قتله .

وفيه حضر الرئيس سلمان العثماني الذي كان قد توجه صحبة المراكب التي كان أرسلها السلطان الغوري الى الهند .

وفيه أشيع أن الرئيس سلمان هو الذي أغرق حسين نائب جدة ، وكان بينهما عداوة من أيام الغوري ، فلما مات الغوري وظفر سلمان بحسين قتله على ما قيل . ولما حضر الرئيس سلمان أحضر صحبته جماعة من الفرنج الذين كان أسرهم من بحر الهند ممن كان بعث به ، ويقطع الطريق على مراكب التجار الذين يرون من هناك .

وأشيع أن الرئيس سلمان ، وحسين نائب جدة ، كانا فتحا عدة بلاد بالهند من بلاد الشيخ عامر ، وغنموا منها أموالا جزيلة لا تحصى هم والعسكر الذين توجهوا صحبتتهما في أيام الغوري ، وهم من عسكر الطبقة الخامسة التي كان جدها الغوري في زمانه .

وفي يوم السبت حادي عشر شعبان كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية . وفيه أشيع أن ابن عثمان أرسل الى خاير بك الذي قرره في نيابة السلطنة صنجقا ، وتحقق الناس أنه نائب السلطنة عوضا عن يوس باشا ، وكان ابن عثمان قرره في نيابة السلطنة قبل ذلك .

وفيه عرض ابن عثمان عسكره بالميدان الذي تحت القلعة وهم لابسو الزرديات ، وفي أيديهم الرماح والأتراس . وأشيع سفره أواخر الشهر الى اسطنبول

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره وقفت جماعة

الوالي على أبواب المدينة ، وصاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من العوام وغيرهم ، فاذا قبضوا عليهم يضعونهم في الحبال . وصاروا يقبضون على الناس من شطوط بولاق ، ومن شطوط مصر العتيقة ، وكذلك يقبضون على جمال السفائين بالروايا التي عليها ، فاضطربت أحوال الناس ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، واختفت الناس في البيوت ، وكثر القيل والقال في ذلك فمن الناس من يقول انهم يقبضون عليهم بسبب أنهم بمسكون الحيول الجنائب اذا سافر ابن عثمان ، ومنهم من يقول انهم يقبضون عليهم حتى يسافروا بهم الى اسطنبول في المراكب . فحصل للناس الضرر الشامل بسبب هذا .

وأما سبب مسك جمال السفائين ، فانهم أشاعوا أن ابن عثمان اذا خرج يأخذ معه جمال السفائين بالروايا الى أن يصل الى غزة ، لأجل عدم الماء في الطريق من هنا الى غزة ، فامتنع السفاءون من الخروج في هذه الأيام وعز وجود الماء ، فضجت الناس لذلك ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية .

وفيه خرج الوالي الذي كان ابن عثمان فرره في ولاية القاهرة ، فخرج وبرز الى الريدانية الى أن يخرج ابن عثمان .

وفيه أشيع أن ابن عثمان أطلق الجماعة الذين كان قبض عليهم من العوام والفلاحين والسوقة ، وكان أشيع عنهم أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول . وكانوا لما قبضوا عليهم سجنوهم في أماكن متفرقة حتى يكون من أمرهم ما يكون . ثم نادى في القاهرة بأن لا أحد يشوش على أحد من العوام ولا من الفلاحين ، فسكن الاضطراب قليلا ، وفتحت الدكاكين في الأسواق ، وخمدت هذه

الحركة . قيل ان بعض وزراء ابن عثمان شفع عنده في اطلاق الناس الذين سجنوهم كما تقدم . وفي يوم الجمعة سابع عشره توجه السلطان سليم شاه الى الجامع الأزهر وصلى به الجمعة وتصدق في ذلك اليوم بمال له صورة ، ثم شق من القاهرة في موكب ، وكان ذلك آخر مواكبه في القاهرة ، ثم رجع الى المكان الذى كان به .

وفي يوم الاثنين عشريه عرض السلطان سليم شاه كسوة الكعبة الشريفة ، وكسوة ضريح النبى صلى الله عليه وسلم ، وكسوة ضريح سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، وصنع للمحمل الشريف كسوة . وقد تباهى في كسوة الكعبة بخلاف العادة ، وتباهى في زركشة البرقع الى الغاية ، وكذلك في ثوب المحمل الشريف ، وما أبقى في ذلك ممكنا .

وفيه أطلق ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا في سجن الديلم فأطلقهم أجمعين ، وكانوا نحو أربعة وخمسين مملوكا ، وقد راج أمر المماليك الجراكسة قليلا .

وفي يوم الأربعاء ثانى عشريه خرج القاضى محب الدين بن أجا — كاتب السر الشريف وصاحب ديوان الانشاء — فخرج هو ونساؤه وعياله وصهره الجمالى يوسف بن الطحان ، فخرجت النساء في محائر وشقائف . فلما خرج القاضى كاتب السر سكن في بيته الذى عند قنطرة مستقر الوزير يوسف البدرى .

وفي يوم الخميس ثالث عشريه شعبان خرج وتوجه الى السفر سلطان مصر الملك المظفر سليم شاه بن عثمان ، فخرج من بيت السلطان قايتباى الذى خلف حمام الفارقانى ، وشق من الصليبة

وطلع الى الرميلة ، فخرج في موكب حافل ، وقدامه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب ، وجان يردى الغزالى نائب الشام ، وقدام العسكر طبلان ورمزان وعدة جنائب حربيه . وكان راكبا على بغلة صفراء عالية — قيل انها من بغال السلطان الغورى كان يركبها في الأسفار — وكان عليه قفطان مخمل أحمر ، وقدامه جماعة من الوزراء ، منهم يونس باشا والدفتردار وبقية الوزراء والأمراء والجم الكثير من عساكره ما بين مشاة وركاب . فطلع من جهة الصور ، ونزل من جهة تربة الأشرف قايتباى ، ووقف هناك وقرأ سورة الفاتحة وأهداها اليه . وكان قدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط المربعة . ثم شق من بين التراب الى تربة العادل التى بالفضاء ، واستمر على ذلك حتى نزل بالوطاق الذى نصبه ببركة الحاج . ولو شق من القاهرة لكان يوما مشهودا ، ولكن خرج على حين غفلة فلم يشعر به أحد من الناس . ولما خرج من بين التراب قسم عسكره فرقتين: فرقة مرت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة من تربة العادل ، ثم تلاقوا على بركة الحاج . ولما وصل الى الوطاق لم ينزل به وتوجه على ظهر الخاقاه فنزل هناك .

ثم ان ابن عثمان لما رحل من مصر ترك بها من عسكره ، ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك ، نحو خمسة آلاف فارس ، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام . وقرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشا ، وجعله نائب القلعة ، يقيم بها ولا ينزل الى المدينة .

ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوى ملك مصر

الذى افتخر به فرعون اللعين حيث قال : « أليس لى ملك مصر » وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا ، ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر ، وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أبطالها ، ويتم أطفالها ، وأسر رجالها ، وبدد احوالها ، وأظهر احوالها فلم يدخل اليها أحد من الحوارج ، ولا ملكها فظ أحد ، ولا جرى مثل ما جرى عليها من ابن عثمان الا ان كان فى زمن بختنصر البابلى ، ففسد جرى عليها من ابن عثمان بعض ما جرى عليها من بختنصر . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

وأشيع أن ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جبل محبلة ، ما بين ذهب وفضة ، هذا خارجا عما عنمه من التحف والسلاح والصبى والنحاس والمكفت والحيول والبغال والجمال وغير ذلك ، حتى نقل منها الرخام الفاخر ، وأخذ منها من كل شىء أحسنه ، مما لم يفرح به أبأوه ولا أجداده من قبله أبدا . وكذلك ما غنمه وزرأوه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره ، فانهم غنموا من النهب ما لا يحصى وصار أقل ما فيهم أعظم من أمير مائة ومقدم ألف ، مما غنمه من مال وسلاح وحيول وغير ذلك ... فما رحلوا عن الديار المصرية الا والناس فى غابة البلبه .

وفى مدة اقامه ابن عثمان بالقاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل . وبطل منها نحو خمسين صنعة ، وتعطلت منها أصحابها ، ولم يعمل بها فى أيامه بمصر . وكانت مدة اقامة ابن عثمان بمصر ثمانية أشهر الا أياما فلائلا . ومدة استيلائه على مصر والبلاد الشاميه والحلبيه من حين قتل الغورى ، واستيلائه على حلب الى خروجه من مصر ، سنة وشهر واحد . وهو مالك من الفرات الى مصر

الى الشام ، ويخطب فيها باسمه ، وكذلك السكة على الذهب والفضه باسمه ، وكذلك ما حول العراقين ، وقد وعده الله بذلك .

وفى مدة اقامه ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاما ، ولا رآه أحد ، ولا أنصف مظلوما من ظالم بل كان مشغوبا ببلدته وسكره واقامته فى المقاس بين الصبيان المرد ، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه . فكان ابن عثمان لا يظهر الا عند سفك دماء الجراكسة ، وما كان له أمان اذا أعطاه لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض لا ثبت على قول واحد كقول الملوك وعادتهم فى أفعالهم ، وليس له سباط يعرف ، ولا نظام كعادة السلاطين فى سباطهم كانت تجلس عليه الخاصية فى كل يوم .

وأما عسكره فكانوا جميعا عيوبهم دنية ، ونفوسهم قذرة ، يأكلون وهم راكبون على خيولهم فى الأسواق ، وعندهم غفشة فى أنفسهم زائدة وقلة دين ، يتجأهرون بشرب الخمر فى الأسواق بين الناس . ولما جاءهم شهر رمضان كان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجامع ، ولا صلاة الجمعة الا قليلا منهم ، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة ، وليس لهم نظام يعرف لاهم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم ، وهم همج كالبهائم .

ولما خرج ابن عثمان من مصر ، رسم لابن السلطان الغورى بأن يسافر معه فبرز سنبجه ، وخرج وسافر صحبته . وأشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج مع ابن عثمان كان وعده بنبابة الشام ، بل قيل انه ولاه نبابة طرابلس ونبابة صفد ونبابة غزة ونبابة الرملة وبيت المقدس وجبل

(١) فى الاصل : « ولا أنصف ظالما من مظلوم » *

نابلس ولم يولّه نيابة الشام ، فشق ذلك عليه ، ثم قرره في نيابة الشام وتوجه اليها صحبته .

وفي يوم السبت خامس عشرية نادى خاير بك بأن الممالك الجراكسة تظهر وعليهم أمان الله تعالى . فظهر منهم الجيم الكثير وهم في أسوأ حال في زى الفلاحين ، وعليهم زنوط قرع وبرد سود وعضان بأكمام كبار . فاذا رأهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين .

وفيه وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى بلييس ، وحصل له توعك في جسده ، فأرسل الى خاير بك يطلب محفة ، فأرسل له خاير بك محفة الى بلييس .

وفي يوم الأحد سادس عشرى شعبان ، طلع المقر السيفى ملك الأمراء خاير بك بن بلباي نائب السلطنة بالديار المصرية الى قلعة الجبل ، فكان له موكب حافل ، وقدامه عدة جنائب بغواشى حرير أصفر ، وقدامه جماعة كثيرة من العثمانية مشاة يرمون بالنفط ، وقدامه الجيم الكثير من عسكر ابن عثمان . فشق من الصليبة بعد طلوع الشمس ، وطلع الى القلعة وأقام بها ... وصارت مصر نيابة بعد أن كانت سلطنة ، وتقلبت الأحوال ، وكثرت الأقوال . وقد قلت في خاير بك لما تولى نيابة السلطنة شعرا وهو :

مصر أضحت في سرور عندما

قد تولى للنيابة خير بك

فلسان الحال عنها قائل

يالعمرى قد آنانى خير بك

فلما أقام خاير بك بالقلعة ، أرسل خلف البنائين والنجارين والمبطين ليرموا ما فسد من أماكن القلعة . ثم ان خاير بك خلع على شخص من

الأتراك يقال له كشيغا ، وقرره في ولاية القاهرة وهو مسلوكة .

وفيه خلع ملك الأمراء خاير بك على جماعة من المباشرين وقرره في وظائف سننية : فخلع على الفصاى ناظر الجيش « علاء الدين ابن الامام » وقرره كاتب السر الشريف ، عوضا عن محمود بن آجا بحكم توجهه الى السمر كدا تقديم ، وقرره ناظر الجيش ايضا عوضا عن الشهابى أحمد ابن ناظر الخاص ، وأبقى علاء الدين في نظارة الخاص مضافة لما بيده من هذه الوظائف . وفيل انه قرره في نظر الكسوة الشريفة ، وجعله أمير ركب المحمل أيضا ، فصار بيده خمس وظائف سنية ، فتضاعفت عظمته فوق ما كان .

وخلع على الزينى بركات بن موسى ، وقرره مدير الملكة ، وناظر الحسبة الشريفة ، وناظر المارستان المنصورى ، وناظر الدخيرة الشريفة ، وغير ذلك من الوظائف . وتزايدت عظمته ، واجتست الكلمة فيه ، وصار عزيز مصر في هذه الفترة ، فنوجه الناس الى بابه لقضاء حوائجهم ، وصار هو حاكم البلد ، وقد قلت فيه :

يا نجل موسى عدت بالبركات في

أعلى المراتب حيث كنت وأزيدا

قد كان قطعاً زال عنك ولم تزل

في السعد عسالا على رغم العدا

وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان ، وقرره نائب كاتب السر على عادته ، ورسم له بأن يتوجه الى مكة من البحر المالح وكسوة الكعبة بصحبته .

وخلع على القاضى شرف الدين الصغير وقرره متحدثا في ديوان الوزارة . وخلع على الشرفى يونس النابلسى وقرره استادار العالية وصاحب الديوان المفرد . وخلع على فضل الدين وأخيه

شمس الدين كاتب الممالك ، وقررها في التحدث
على جهات الذخيرة . وخلق على عبد العظيم
الصيرفي وقرره في استدارية الشعير وغير ذلك من
الوظائف ... فنزلوا من القلعة وهم بالقضاطين
المخلع عوضا عن الخلع ، فخلع على هؤلاء الجماعة
في يوم واحد ، وهذا أول تصرف خاير بك في
أحوال المملكة .

وفيه أشيع أنه قد عقد لخاير بك على خوند
مصر باي زوجة الظاهر قانصوه .

وفيه ظهر الزينى أبو بكر ابن الملكى وكان له
مدة وهو محتف ، فلما ظهر خلع عليه خاير بك
قظطانا محملا ، وفرره في استيفاء الجيش على
عادته

وفي يوم الثلاثاء ، ثامن عشرى شعبان ، حضر
الأمير قايتباي الذى كان نائب الكرك ، وكان قد
أرسله خاير بك الى ابن عثمان بمطالعة من عنده
لأجل أن جماعة من عسكره الانكشارية ثاروا على
خاير بك ، وقالوا له « رتب لنا جامكية كما كانت
تأخذ الممالك الجراكسة ، واجعل لنا لحما وعليقا
مثل الجراكسة » فقال لهم : « حتى أرسل استاذن
استاذكم بذلك » .. فأرسل الأمير قايتباي نائب
الكرك الى ابن عثمان بسبب ذلك . فلما حضر
ما علم احد بمسادا أجاب ابن عثمان عن تلك
المطالعة التى أرسلها بسبب جماعه الانكشارية كما
تقدم . فلما حضر قايتباي أشيع أن ابن عثمان لمسا
دخل الى الخطارة قطع رأس يونس باشا ، ولا
يعلم ما سبب ذلك . وكان يونس باشا أعظم
وزرائه ، وكان لطيف الذات وعنده رقة حاشية
بخلاف طبع الأتراك . وكان قرره أولا فى أن يكون
نائبا عنه بمصر ، ثم رجع عن ذلك وقرر خاير بك
في النيابة . وكان يونس باشا مقربا عند ابن عثمان
الى الغاية بخلاف بقية الوزراء ، ويقال ان يونس

باشا هو الذى كان سببا لولاية سليم شاه على
مملكة الروم دون اخوته ، فما زال يجتهد ويسعى
حتى ولاه الروم ، ثم سار معه على ذلك حتى دخل
الى مصر وملكها .. ولكن سليم شاه ابن عثمان
ليس له صاحب ولا صديق ، ولا أمان منه لأحد
من وزرائه ولا من عسكره ، ومن طبعه الرهج
والخفة ، ويجب سفك الدماء ولو كان لولده .
ويقال انه قتل أباه واخوته لأجل مملكة الروم ،
وآخر الأمر قتل يونس باشا لكونه صار له عليه
يد قديمة ، وكان يونس باشا يظن أن سليم شاه
يرعى له الود القديم ، فكان كما قيل فى المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمله
رب من ترجو به دفع الأذى

سوف يأتيك الأذى من قبله

فلما أشيع قتل يونس باشا ، اضطربت القاهرة
وغلقت أبواب المدينة من بعد العصر ، وخشوا من
هجمة العرب على المدينة ، ثم سكن ذلك
الاضطراب قليلا .

وفي شهر رمضان ، وكان أوله يوم الخميس ،
فلما كانت ليلة الرؤيا ركب الزينى بركات بن
موسى المحتسب من المدرسة المنصورية ، وقدامه
الفوائس موقودة والمشاعل كذلك على العادة ،
وكان له موكب حافل .

فلما كان صبيحة شهر رمضان ، خلع ملك
الأمراء خاير بك على القاضى شرف الدين الصغير
وابن موسى ، قظطانين مخملين كما هى عادتهم فى
أول شهر رمضان ، ونادوا فى القاهرة بأن لا أحد
يحتسب على الزينى بركات ابن موسى ناظر الحسبة
الشريفة .

وفي يوم الخميس ، مستهل الشهر ، خلع ملك
الأمراء خاير بك على الأمير قايتباي الشهير

بنائب الكرك وقرره فى الدوادارية ، وكانت شاغرة من حين مات الأمير علان الدوادار .

وفى يوم الخميس ثامن شهر رمضان طلعت الى القلعة خوند مصرى باى — وقد تقدم القول بأن ملك الأمراء خاير بك قد تزوج بها — وطلعت الى القلعة فى ذلك اليوم قبل شروق الشمس وصحبته نساء كثيرة من نساء أعيان وهن على حمير المكارية .

وفى يوم الجمعة تاسع الشهر أشهروا فى القاهرة أربع نسوة ، وهن على حمير ووجوههن ملطخة بالسواد ، فيل انهن كن يجعن عندهن الأجانب من الأتراك فى شهر رمضان ، ويأتين لهم بالنساء الأجنبية ، فغمز عليهن ، وأمر خاير بك بأشهارهن على تلك الحالة .

وفى يوم السبت عاشره ظهر الأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرفه ، وفد أرسل اليه ملك الأمراء خاير بك مندبل الأمان ، وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة . فلما طلع الى القلعة ، وقابل خاير بك ، خلع عليه ققطانا مخملا ، ونزل فسكن فى بيت الأمير قانصوه جركس الذى فى حارة السقائين . وأشيع ظهور جماعه من الأمراء العشراوات .

وفيه قابل شيخ العرب أحمد بن بقر ، وخلع عليه وعلى ولده ببيرس ، وقد التزما بإصلاح جهات الشرفه ولم نم ذلك . واستمرت أحوال الشرقية فى غاية الفساد من سبد الدانم بن بقر واخوته .

وفى يوم الاثنين ثانى عشر رمضان — وكان أول بابه من الشهور القطه — ثبت النيل المبارك على اربع عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، واستمر فى ثبات الى آخر أيام بابه ، وشرق غالب بلاد الصعيد ، وأكثر البلاد العالية التى لا تروى الا

من عشرين ذراعا ، وكان نيلا شحيحا من أوله الى آخره .

وفيه ظهر أبو البقاء ناظر الأسطبل ، وكان مختفيا ، فلما ظهر ألبسه خاير بك ققطانا مخملا ، وأقره على عادته متحدتا على جهات الأسطبل الخاص .

وفى يوم الاثنين المقدم ذكره ، عرض ملك الأمراء خاير بك كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ، وكسوة مقام إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكسوة ضريح النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدة ستور من قبل ابن عثمان ، وقد تناهوا فى زركشة البرقع ، وسيج كسوة الكعبة الى الغاية ، بخلاف العادة .

فشقوا بها من القاهرة وفدامهم الأعيان من المباشرين والجم الكثير من العساكر العثمانية ، ومن الرماة جماعة كثيرة يرمون بالنفوط ، وكان ذلك اليوم مشهودا . فلما طلعوا الى القلعة عرضوا على خاير بك نائب السلطنة ، تم رجوعوا ثانيا من حيث جاءوا .

وفى يوم الأربعاء رابع عشر رمضان ، نادى ملك الأمراء خاير بك ، بأن المماليك الجراكسة الدين ظهروا بمصر يركبون الحبول ويشترون السلاح ، وكان قبل ذلك نادى فى القاهرة لتجار القبو بأنهم لا يبيعون على المماليك الجراكسة شيئا من آلة السلاح ، فشق ذلك على العثمانية ، ووقفوا لحاير بك فى الحوش ، وكلموه وأرادوا معه فتح باب الشر ، وقالوا له : « نحن ما يكفيننا هذا القدر الذى ربته لنا ، وهو ثلاثة أنصاف فى كل يوم ، وكل شىء فى السوق عال » . ثم قالوا له : « رتب لنا جوامك فى كل شهر ألفين ، ولحما وعليقا ، وورق علينا اقطاعات مثل ما كانت المماليك الجراكسة » . وأعاظوا عليه فى القول ، فقال لهم :

« ليس لى هذا التصرف ، لأنى انى أنا نائب السلطنة ، وهذا لا يكون الا بأمر السلطان ، فزى الذى يفرق عليكم الاقطاعات ، ويجعل لكم الجوامك واللعوم والعليق » . فلما سمعوا ذلك منه سبوه سبا قبيحا وهبوا بقتله ، فقام ودخل البيت مسرعا ، وأغلق عليه الباب دونهم . فوضع فى ذلك اليوم بعض اضطراب بالقلعة ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة . وثاروا على خير الدين الذى جعله السلطان نائب القلعة ، فأغلق باب القلعة واختفى . ثم أشيع أن خاير بك أرسل إلى ابن عثمان ساعيا بضره بما وقع من أمر هذه الحركة ، وعول خاير بك على رد الجواب عن ذلك .

وفى يوم الاحد ثامن عشر رمضان ، نادوا فى القاهرة بأن المماليك الجراكسة الذين طهروا يلبسون الزنوط الحمر والملايط على عادتهم ، ولا يتزيوا بزى العثمانية ولا يخرجوا إلى الطرقات . وسبب ذلك أنه أشيع أن جماعة من الجراكسة يتزيوا بزى العثمانية ، ويخرجون إلى الطرقات . ويحفظون عثمان الناس . وما بلوح لهم من البصائع وغيرها فى حجة العثمانية . فسأدى خاير بك تلك المناداة حتى سار الجراكسة من العثمانية ، ولم يقد ذلك شيئا .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره خرج الشهابى أحمد ابن الجيعان نائب نائب انسر . ومصلح الدين خارندار ابن عثمان ، وصاحبهما لسود اسلميه الشريفه وهى محزومة محبلة على الجبال ، وأشيع أنها بوجهان بها من البحر المالح إلى جملده إلى مكة المشرفة ، فنادى لها فى القاهرة موكب حافل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وخرج صاحبهما ألفا عثمانى وقدامهم طبلان وزمران ورماة بالنفط وركب قدامهما الأمير قاينباى الدوادار الكبير ، وأعيان المباشرين ، فلما خرجوا من القاهرة رجعت

لهم مصر ، فخرجوا من باب النصر ، وتوجهوا إلى المولاي باليدانية .

وفى ذلك اليوم ثارت جماعة من العثمانية على الزينى بركات بن موسى المحتسب ، بسبب القلوس الجدد ، فإن ابن عثمان ضرب فلوسا جددا وجعل فيها اسمه ، ورسم للسوقه ونادى لهم بأن يصرف كل ستة عشر جديدا بنصف فضة معاددة . وكانت هذه القلوس فى غاية الخفة ، فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، ووقف حالهم وغلقت الدكاكين . فلما جرى ذلك نادى الزينى بركات بن موسى بأن النصف الفضة يصرف بأربعة وعشرين جديدا ، ليعرف الدرهم القلوس من الدرهم فى المعاملة ، فثارت العثمانية على ابن موسى ، وقالوا له : « هل مات السلطان سليم شاه بن عثمان ، حتى تبطل من مصر معاملته » ؟ وهما بضره فنادى فى ذلك اليوم بأن كل شىء على حاله من القلوس ، كل ستة عشر جديدا بنصف فضة كما كان فى الأول . فأغلقت السوقه دكاكينهم ، ورفعوا البضائع ، ووقع فى القاهرة بعض اضطراب .

وأشيع أن خاير بك نائب السلطنة صنع من الخوازيق الحديد عدة ، وأنه بعد العيد يخوزق جماعة من السوقه على باب القاهرة ، فلما أشيع ذلك خافت السوقه وفتحت الدكاكين ، ومشوا صرف النصف بستة عشر جديدا ، كما كان فى الأول .

وفى يوم الثلاثاء عشرى شهر رمضان ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه إلى تربة العادل ليودع مصلح الدين والشهابى أحمد بن الجيعان ، فودعهما ورجع ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه نحو ألفين من العثمانية ، وجماعة مشاة يرمون بالنفط ،

فرجت له القاهرة في ذلك اليوم ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ، وهندا أول مواكبه بالقاهرة من حين تولى نيابة السلطنة .

ثم في يوم الخميس ثاني عشره ، نزل ملك الأمراء من القلعة ثانيا ، وتوجه الى باب الشعرية ، وزار الشيخ عبد القادر الدشوطي ، وجلس عنده ساعة . فقيل ان الشيخ عبد القادر قال له استوص بالريعية فانك تسأل عن ذلك يوم القمامة . فبكى خاير بك ، وقبل يده وخرج من عنده ، وعاد الى القلعة من يومه .

وفي يوم السبت رابع عشرى شهر رمضان ، ظهر الأمير آرزملك الناشف أحد الأمراء المقدمين . فلما طلع الى القلعة وقابل ملك الأمراء خاير بك ومنديل الأمان على رأسه ، قام له خاير بك واعتنقه وأجلسه بين يديه . وكان لما طلع القلعة لابسا زى العرب ، وعليه زنط وشاش وملوطة بأكمام كبار ، فألبسه خاير بك قفطانا مخملا بتماسيح ، وألبسه عمامة عثمانية . وكان لما قابله معه ستة أنفار ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ، فخلع عليهم قفاصين مخملة ونزلوا من القلعة الى أماكن أعدت لهم .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشرى شهر رمضان ، ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وحضر ملك الأمراء خاير بك والقضاة الأربعة وجماعة من أعيان العلماء والفقهاء وأعيان المباشرين .

فلما انقض المجلس خلع خاير بك على القضاة قفاطين من جوخ أزرق بوجه صوف ، وفرق على الفقهاء والعلماء صررا فيها دراهم ، وكان ختما حافلا . وشتان بين هذا الختم وما كان يعمل في ختم السلاطين الماضية في مثل هذا اليوم .

ولما سافر سليم شاه بن عثمان ، وخرج من مصر ، استمرت الخطبة والسكة عمالة في مصر

باسمه ، فكان سائر الخطباء يدعون في يوم الجمعة باسمه ، ويقولون : « وانصر اللهم السلطان الممدد المظفر سليم شاه » . وكذلك اسمه على الدنانير والدرهم والفلوس الجدد .



ثم كان مستهل شوال يوم السبت ، فطلع القضاة الأربعة وجماعة من أعيان المباشرين ، فخرج ملك الأمراء خاير بك وصلى صلاة العيد بجامع القلعة . ثم أنه مد مدة حافلة لجماعة من العثمانية ، فنزلوا على ذلك السباط مثل الصفورة ، فلم ييموا منه غير العظام ، ولم يفضل لعلمان القلعة شيء . وكان خاير بك يظن أن الأمراء الجراكسة الذين ظهروا والخاصكية يطلعون ويحضرون المدة ، فلم يطلع له أحد من هؤلاء ، وخافوا أن تكون مكيدة أو حيلة . وكان هذا اليوم لم يكن عبدا ، بل كان في غابة الخبود في كل نىء .

وفي هذا العيد لم يخلع خاير بك على أحد من قضاة القضاة ، ولا على أحد من المباشرين قاطبة كما كانت العادة القديمة .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشره ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى نحو البريم على سبيل التنزه ، ونصب له هناك خياما ، وأراد أن يبيت على شاطئ البحر ، وأحضر جماعة ممن يقلون السك ، وقصد أن ينشرح في ذلك اليوم هناك ، فصنع له السيد تقيب الإشراف مدة حافلة وأحضرها هناك ، فخرج عليها جماعة من العثمانية في أثناء الطريق ، فخطفوا ذلك الأكل من فرق رعوس الحمالين . فلما بلغ خاير بك ذلك تنكد من العثمانية بسبب هذه القلعة ، ولم يكن له عند العثمانية حرمة ولا وقار ، ولا مراعاة له في سائر الأحوال .

وفي ذلك اليوم فتح البريم بحضرة خاير بك ،
وأحد ساعه من الصيادين في مراكب معهم
أسماك كثيرة ، فصار القلايون يقلون من هذه
الاسماك ويطعم العسكر الدين بصحبته ، وانشرح
في ذلك اليوم الى الغاية ، وأقام هناك الى ما بعد
العصر ، ثم نزل في مركب وتيق من جهة الروضة ،
وطلع من بر مصر العتيقة الى القلعة .

وفي ذلك اليوم أنشع أن السلطان سليم شاه بن
عثمان أرسل مطالعة الى خاير بك على يد ساع ،
فكان من مصموبها انه وصل الى الشام
ودخل اليها ، وزينت له لما دخلها . ومن مصمبون
تلك المطالعة أن ابن عثمان أرسل يطلب من
خاير بك أربعين ألف أردب شعير وفتح يرسلها له
في مراكب من البحر المسالح الى الشام ، فالزم
خاير بك المباشرين بذلك ، فأخذوا في تجهيز ذلك
وارساله من البحر كما يبرز الامر .

وفي أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من عند
الجماعة الذين خرجوا من مصر ووجهوا الى
اسطنبول ، بأن مركبا من المراكب التي توجهوا بها
قد غرقت في البحر المالح ، وغرق للناس فيها جملة
مال ، وغرق فيها أربعمائة انسان ، وفيهم جماعة
من الأعيان الذين خرجوا من مصر ، ولكن لم
يثبت الى الآن أسماء من غرق فيها من الأعيان .
وقد أشيع أنه كان فيها يبردى بن كسباى أحد
الأمراء العشراوات الذى كان باش المجاورين بمكة ،
وحضر صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة ، وفد
تقدم القول على ذلك .

وكان بتلك المركب قراكر الجكمى رأس نوبة
عصا ، الذى كان محتسبا بمكة ، وكان بها نحو
أربعين مملوكا ، وكانوا صحبة باش المجاورين ،
وحضروا صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة .
وقد تقدم القول على ذلك .

وكان بتلك المركب محمد بن ابراهيم
النرايتى . الذى كان ناظر الاوقاف المتعلقة
بالزمامية في أيام السلطان الغورى ، وكان بها غير
هؤلاء جماعة كثيرة من الناس فأشيع غرقهم أجمعين ،
ولكن لم يتأكد القول بذلك الى الآن . وأتسيع
غرق جماعة من البزدداريه الدين كانوا خرجوا من
مصر ليتوجهوا الى اسطنبول . وأشيع أن الطاعون
عسال باسطنبول وبها الوخم والغلاء ، وهذا
ما أتسيع والله أعلم بصحة ذلك .

وفي يوم السبت خامس عشر شوال ، حضر أمير
من عند ابن عثمان من الشام بقال له الأمير على ،
فيل هو الذى كان واليا بالقاهرة لما كان بها ابن
عثمان ، فخرج الأمير قايتباى الدودار الى ملاقاته ،
فدخل من باب النصر .

وحضر صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ،
وجماعة من المساليك المتعلقين بسلك الأمراء خاير
بك الذين كانوا بحلب . فيل انهم نحو ثلثائة
مملوك ، فأنزلوا هذا القاصد في بيت الأتابكى
سودون العجى الذى في قنطرة سنقر ، فلم تصح
هذه الاشاعة ، وأنزلوه في مكان غير ذلك المكان
الذى ذكروه ، فأخبر هذا القاصد بأن ابن عثمان
دخل الى الشام وهو مقيم بها . وقيل انه يشقى
هناك ، وأن أهل الشام في غاية الضنك والشدة
من عسكره ، لأنهم طردوهم عن بيوتهم وسكنوا
بها ، وحصل منهم لأهل الشام الضرر الشامل
أكثر مما حصل لأهل مصر . وأخبر أن الغلاء
بالشام حتى بلغ ثمن العليقة الواحدة ستة أنصاف
ولا توجد .

واختلفت الأقوال في مجيء هذا القاصد ...
فمن الناس من يقول جاء بسبب استعجال هذا
المغل الذى أرسل يطلبه ابن عثمان ، ومن الناس
من يقول ان ابن عثمان ولاه نيابة الاسكندرية ،

وقيل جاء بسبب غير ذلك . والأقوال في ذلك كثيرة .

وفي يوم الأحد سادس عشره نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى منشييه المهرانى ، بسبب وسق المراكب بالمغل الذى أرسل بطلبه ابن عثمان ، فقيل جهز من المغل نحو ثلاثين ألف أردب قمحا وشعيرا ، وقيل أكثر من ذلك

وفي يوم الاثنين سابع عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة في موكب حافل ، وكان أمير وكب المحمل في تلك السنة القاضى علاء الدين بن الامام ناظر الخاص ، الذى قرر في كتابة السر كما تقدم .

وقد خرج الحاج في هذه السنة ركبا واحدا ، الأول والمحمل معا . وكان الحاج في هذه السنة قليلا جدا خوفا من فساد العربان في الطريق ، لأنه في السنة الماضية — في دولة الأشرف طومان باى — لم يخرج المحمل من القاهرة ، ولم يحج فيها من أهل مصر أحد .

ولما خرج القاضى ناظر الخاص ، طلب طلبا حربيا ، يشتمل على أربعة نوب هجن بأكوار مخمل ، وبعض خيول جنائب عليها بركستوانات فولاذ وكنايش زركش ، وثلاثة خزائن بأغشية حرير أصفر ، ومحفة جوخ أزرق ، وقدامه طبلان وزمران من غير صنجق . وقد احتفل بعمل سنيح حافل بسبب من حج معه من العثمانية في هذه السنة .

ولما شق من القاهرة كان قدامه الأمير قايتباى الدوادار والأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمى الألوف الذى ظهر عن قريب ، والأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية ، وكان قدامه جماعة من أمراء ابن عثمان ومن عسكره

وركب قدامه سائر الأعيان من المباشرين من كبير وصغير ، ثم أتى بعده المحمل وقدامه القضاة الأربعة على العادة

ومن حج في هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة محبى الدين المالكى — وهو ابن الدميرى — فألبسه خاير بك قفطانا محملا ، وقرره قاضى المحمل وحج آخرون من الأعيان لا يحضروا أسماؤهم الآن .

وقد جدد ابن عثمان كسوة المحمل في هذه السنة ، فصنع له كسوة فاخرة كلها زركش ، وكتب عليها اسمه ، ولما شقوا من القاهرة كان لهم يوم مشهود على العادة القديمة . هذا ما كان من ملخص خروج المحمل في ذلك اليوم .

وفي يوم السبت ثانى عشره خلع ملك الأمراء خاير بك على قانصوه العادلى قفطانا مخملا بتناسيح ، وقرره كاشف الشرقية كما كان أولا .

وفي يوم الأحد نالت عسريه قبض الوالى على خمسة أنفار من العثمانية أشيع عنهم أنهم يحطفون العمائم ويعرون الناس في الطرقات ، وأنهم يخطفون النساء والصبيان المرد ، وتزايد منهم الفساد . فلما قبض عليهم ، رسم سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان أن يشنقوا على باب زويلة فشنق منهم اثنان على باب زويلة ، وواحد على باب الشعرية . وأما الاثنان فقد شفع فيهما من الشنق في ذلك اليوم فسجنا

وكانت العثمانية الذين بمصر كثير منهم الأذى في حق أهل مصر من حين رحل ابن عثمان عنهم ، وصاروا لا يسمعون لخاير بك كلامه ، ولا له عليهم حرمة .

وفي يوم الاثنين رابع عشرى شوال توجهت الممالك الجراكسة الى بيت الأمير قايتباى الدوادار

هذه الهبة ، واختلط العثمانية مع الجراكسة ،
حتى صاروا لا يعرف هذا من هذا الا بشيء واحد
وهو أن المماليك الجراكسة تعسرف بذقونهم ،
والعثمانية بغير ذقون . وقد قلت في هذا المعنى
مواليا :

امشى مع الدهر قدر الجهد يا غلطان
واخلع ثياب المواكب واتبع السلطان

في لبس ستمان أو طرطور أو قفطان
وكن مع القوم في الملبوس والأوطان
وفي يوم الأحد ثامن الشهر ، نزل ملك الأمراء
خاير بك من القلعة باكر النهار ، وتوجه الى نحو
قبة الأمير يشبك الدواidar التي بالمطرية ، وأقام
هناك الى آخر النهار ، ومد في ذلك اليوم مدة
حافلة ، واهدت اليه جماعه من المباشرين مجامع
حلوى ، ومشنات فاكهة ، وسكر وخرفان شوى ،
واقفاص أوز ودجاج ، وغير ذلك أشياء فاخرة ،
على أعناق الحمالين وظهور الدواب ، وكان يوما
سلطانيا . ولم يتم حتى وقعت حادثة ... وهى أنه
في ذلك اليوم بعد العصر ، نزل جماعة من العربان
من نحو الجبل الأحمر ، بالقرب من سبيل علان ،
فقطعوا الطريق على جماعة من الفلاحين معهم جمال
محملة قمحا وبطيخا ، فأخذوا منهم نحو أربعين
جسلا ، وذهبوا بها الى الجبل ، ومضوا بها ولم
تنتطح فيها شاتان . فلما بلغ ملك الأمراء ذلك
تنكد غاية التنكد بسبب ذلك ، فلما ذهبت العرب
بالجمال أنى الفلاحون الى ملك الأمراء واستعاثوا
بين يديه وبكوا ، فقام من وقته وهو منكد ، وطلع
الى القلعة بعد العصر ، ولم يخرج من يده شيء في
رد الجمال من أيدي العربان الى أصحابها .

وفي يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة حضر الى
الأبواب الشريفة شيخ العرب عبد الدائم بن شيخ

بسبب أنه وعد المماليك أنه يصرف لهم جوامك
في ذلك اليوم ، فطلع الى القلعة واجتمع بملك
الأمراء خاير بك ، وأقام بالقلعة الى قريب الظهر ،
والمماليك الجراكسة في انتظاره على بابه ، فلما
نزل قال لهم : « با أغوات شاورت ملك الأمراء
عن أمركم ، فقال حتى بجمع المال ، ونفق عليهم
الجوامك » . ولم يواعدهم على يوم معين ،
فرجعوا من عنده بغير طائل .

وقد صارت المماليك الجراكسة في غاية الذل
من الفقر والعري ، ومنهم من سأل الناس في
رغيف يقتسات به ، ومنهم من يطوف في الأسواق
يسأل التجار والسوقة في درهم يشتري به كبشة
فول يأكلها ، فسبحان من بعز ويدل . وصاروا
يمشون في الأسواق لا خيول لهم ولا قماش ولا
سلاح ولا بيوت تأويهم ، ولا اصطبلات ولا عبيد
ولا غلمان ، وقد نظر الله البهم بعين المقت جزاء
ما كانوا يعملون ، فسبحان من قهر الجبابرة بعز
سلطانه .

وفي يوم الأحد كان مستهل ذي القعدة الحرام ،
فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك
الأمراء خاير بك نائب السلطنة بالشهر ، وعادوا
الى بيوتهم .

وفي يوم الخميس خامسه خلع ملك الأمراء على
يوسف البدرى وأعاده الى الوزارة كما كان أولا ،
فخلع عابه قفطانا مخملا عوضا عن المتمر . وقد
صارت الأمراء الجراكسة الذين ظهروا كلهم
بقفطانات مخملة ، وبعضهم بقفطانات جوخ
وطراير جوخ أسود ، وعليهم عمائم مدورة ، وفي
أرجلهم سقمانات جلد في زى العثمانية ، فصارت
الأمراء الجراكسة والمماليك السلطانية كلهم على

بالحارات ، وأقامت الأبواب مغلقة الى ضحوة
النهار ، بهم فتحت بعد ذلك . وسبب ذلك أن حسين
ابن مرعى شيخ عربان البحيره ، الذى كان سببا
لمسك السلطان طومان باى ، تحيل عليه السلطان
سليم شاه بن عثمان حنى قبض عليه ، وقيده
بقيدين ، وأودعه فى الاعتقال فى طبقة عند باب
القلعة ، ووكل به جماعة من العنابيه بحفظونه ،
فأقام على ذلك مدة ، وعافهم ، وبرد القيدين ببرد
جليد ، وتدلّى بجبل من السور الذى بالقلعة ،
وهرب بعد العشاء من القلعة . فلما بلغ ملك الأمراء
هروب حسن بن مرعى من القلعة تنكد لذلك غابة
النكد ... وهرب حسن بن مرعى وفاز بذلك ،
ونحوف الناس من هروبه

وفيه وردت الأخبار من الشام ، بأنه لما أقام بها ابن عثمان وفع بها في تلك الأيام وحم عظيم ، ومات من عسكره جماعة كثيرة من ذاك الوخم . وأشيع موت حليم جلبى فقبه ابن عثمان وندبه ، وأشيع موت أخى حليم جلبى أنصا ، ومات من أمرائه جماعة كثيرة ، وأنه وقع بالشام غلاء عظيم ، حتى وصلت كل علقة الى حمسة أنصاف ، ووصل سعر البغف الخبز نصف فضة وأن عسكره تقلق من الغلاء والوخم ، وتفرقوا عنه في الضياع والحال

وأشيع أن عسكر ابن عثمان خرب غبطان الشام ، ونهب الفواكه من فوق الأشجار ، ورعت خيولهم في الغيطان ، وأكلوا أوراق الأشجار ، وطرّدوا الناس من بيوتهم وسكنوا بها ، وخربوا غالب بيوت الشام ، وحصل منهم لأهل الشام غابة الضرر ، أكثر مما حصل منهم في حق أهل مصر من الفساد بها

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع في هذا الشهر

من أن جماعة من المباشرين بالديوان المفرد ، منهم
يوس النابلسي الأسنادار ، وفجر الدين وأخوه
أولاد ابن عوض ، وبركات أخو شرف الدين
الصغير . وشرف الدين الكبير ، وأبو بكر بن
الملكي مسو في ديوان الجيش ، وبركات بن موسى
وعلاء الدين ناظر الحاص . وعبد العظيم أسنادار
الصغير ... فهؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون
في الأرض ولا يصلحون ، اتفقوا على أخذ أموال
المسلمين ، فاستباحوا أموالهم ودماءهم ، وما ذاك
الا أن غالب البلاد قد شرق في هذه السنة بسبب
خسة النيل . وكان المباثرون ! الترموا بتعليق المال
الذي على البلاد ، فلما حصل هذا الشراقي صربوا
مشوره بين بعضهم وقالوا : « نحن في العام الماضي
أوقفنا أقطاعات أولاد الناس التي بالمناشير ، وأخذنا
خراجهم ، وفي هذه السنة أوقفوا الرزق التي
بالمربعات الجينية ، ونضع أيدينا على خراجها في
هذه السنة في نظير شراقي البلاد » فطلعوا الى
ملك الأمراء خاير بك ، وعرضوا عليه ذلك
وحسنوا له عبارة في استخراج خراج الرزق في هذه
السنة في نظير الشراقي ، فقال لهم : « انزلوا
افعلوا ذلك » فنزلوا من عنده ، وأطلقوا في
الناس النار ، وأرسلوا العمال بالمراسيم الى البلاد
ليستخرجوا منها الأموال من الرزق التي بالمربعات
قاطبة ، حتى الرزق الأحباسية ، ولو كانت الرزقة
تشتري بمربعة شربة . فضجت أولاد الناس
والنساء الأراامل من هذه الحادثة المهولة ،
وحصل الضرر الشامل للأراامل والأيتام . والله
تعالى لا يغفل ولا ينام .

وصار الناس يقفون الى ملك الأمراء خاير بك ،
ويشكون اليه ذلك ، فبقولهم : « أنا أوقفت
المناشير والمربعات بأمر الخنكار ابن عثمان » ،
فنزلوا من عنده في أسوأ حال ، وصاروا يسألون

الأسنادار بمال يدفعونه له حتى يفرج عن
ررهم ، فلا يجيبهم ولا يفصليهم حاجة .

ثم ان فجر الدين بن عوض — لا جزاه الله
خيرا — استدرج من الرزق الى خراج بلاد
الأوفاف التي كانت بالمكاتب الشرعية ، فصار
يستخرج خراج الأوفاف ويأكله على أصحابه رغما
عن أنفسهم ، فحصل للناس في هذه الحركة غاية
الضرر الشامل ، وقد اشتد الأمر على الناس بسبب
ذلك ، وكل هذا من المباشرين وأداهم في حق
المسلمين . وقد قلت في المعنى مواليا :

كان ابن عثمان مذجا مصر مثل الضيف
رحل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجوروا في الشتاء والصيف
أطراف أقاليمهم تفعل مثل فعل السيف

وفي يوم الأحد ثاني عشر ذي القعدة ، خرج
الأمير قايتباي الدوادار ، وعدى الى بر الجيزة ،
وخرج صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ، ومعهم
مكاحل نحاس ومدافع نحاس وعجل ، وقد أشيع
أن عدة قبائل من العرب نزلوا على الجيزة فافتتوا
مع عرب عزالة ، وحصل منهم غاية الفساد . فخرج
الأمير قايتباي وصحبته تجريدة وعسكر من
الجراكسة بسبب العربان وطردوهم عن البلاد
فخرج وقام في بر الجيزة الى أن يتكامل العسكر .

وفي يوم الاثنين ثالث عشره ، اجتمع المماليك
الجراكسة في بيت الأمير قايتباي الدوادار —
وهو بيت الأتابكي قرقماس الذي عند حوض
العظام — واجتمع القاضي شرف الدين الصغير
كاتب المماليك ، ولم يكن الأمير قايتباي الدوادار
حاضرا ، بل حضر أخوه جان بك . فاتفقوا على
المماليك الجراكسة لكل واحد منهم ألفا درهم .

وفي يوم الجمعة سابع عشره ، حضر الأمير قايتباي الدوادار ، وكان قد خرج باش التجريدة الذي توجهت الى السرب ، وأخبر أنه لم يظفر بحسن ابن مرعى ، ونرافح هو والعربان الى الأودية والجبال . وأشيع أن باش عسكر العثمانية هو الذي أهمل في أمر حسن بن مرعى حتى أخلى من وجه العسكر ، ومضى ببجعه ، ودخل الى الأودية والجبال .

وفي آخر هذا الشهر وقع بين القاضي فخر الدين بن عوص ، وبين خشمدم الاشرفي مملوك السلطان العورى . - الذي كان شاد الشون وهرب ونوجه الى بلاد ابن عثمان ، وكان سببا لانشاء هذه الفتنة بين سليم شاه بن عثمان وبين السلطان العورى - وقد تقدم القول على ذلك - فلما دخل ابن عثمان الى مصر وملكها قرر خشمدم هذا كاشف أسيوط مع منفوط . فلما رحل ابن عثمان عن مصر . وقرر ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بمصر ، عزل خشمدم من التحدث على أسيوط . فلما حضر خشمدم من أسيوط وفعب بينه وبين فخر الدين بن عوص فتته بسبب الرزق التي هناك ، فحصل بينهما نشاجر عظيم ، فتشامتا وتسابا سبا فيبعا . وقال فخر الدين بن عوص لخشمدم : أنت كنت سببا لنفوق الفتنة بين أستاذنا العورى وبين ابن عثمان ، فتحصل خشمدم من فخر الدين بن عوص ، وشق عليه ذلك .

فلما كان يوم السبت ثامن عشرى دى الحجة ، طلع خشمدم الى القلعة ، ووقف الى ملك الأمراء خاير بك ، وشكا له فخر الدين بن عوص مما قاله في حفه ، فتعصب له جماعة من العثمانية ، واغلظوا على خاير بك في القول بسبب فخر الدين بن عوص فلما طلع ابن عوص الى القلعة يوم السبت ، وبخه

وصاروا يستوعبونهم طبقة بعد طبقة ، فأثقتوا عليهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء رابع عشره ، وأنفخوا يوم الأربعاء ويوم الخميس أيضا ، وقد ظهر من الممالك الجراكسة الجهم الكثير فوق الخمسة آلاف مملوك ، وقد كانوا موزعين في البلاد عند الفلاحين ، وآخرون قد اختفوا في البيوت والحارات ، حتى خمدت الفتنة ثم ظهوروا بعد ذلك .

وفي يوم الخميس سادس عشره ، أشيع أن الأمير قايتباي الدوادار ، لما توجه الى بر الجيزة بسبب فساد العربان ، وأقام هناك أياما حتى يتكامل خروج العسكر ، وردت الأخبار بأن العسكر العثمانى لما توجهوا الى هناك ، وقع بينهم خلف في بعضهم ، فونبوا على باشهم ، وهو شخص من أمراء ابن عثمان ، وراموا قتله فهرب واستجار بالأمير قايتباي . فلما جرى ذلك أرسل الأمير قايتباي كاتب ملك الأمراء بما جرى من العثمانية في حق باشهم .

ثم أشيع واستفاض بين الناس ، أن حمادا شيخ عربان عزالة قد حصر عند ملك الأمراء خاير بك ، وأخبره أن العربان الذين أتوا الى بر الجيزة ، عدة قبائل لا تحصى ، وأن العسكر الذي أرسله لا يفاوم هذه العربان الكثيرة ، فانهم فوق العشرين ألف اسان . ونشأ هذا كله من حسن بن مرعى لما هرب من الحبس ، فانه طاف بالعربان وأنشأ هذا الفساد . ثم قال له : « ان لم تخرج أنت بنفسك ، وتعدى بر الجيزة ، والا فما يقع للعسكر اتفاق بينهم » ، فصلى ملك الأمراء خاير بك صلاة الفجر ، ثم نزل من القلعة وقدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط ، والجهم الكثير من العثمانية ، ومعهم مناجق حريق أحمر ... فشق من الصليبه وتوجه الى بولاق ليعدى الى الجيزة .

وأشيع عن كتب الحجاج أن الشهابي أحمد بن الجيعان قد جاور بسكة ، وكذلك مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، وغير ذلك من الأعيان ، والذين كانوا بها نزلوا صحبة الحجاج لما اشتد أمر الغلاء بسكة .

انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة على خير ، وكانت سنة صعبة شديدة على الناس ، كثيرة الحوادث والفتن ، جرت فيها أمور شنيعة لم تجر في سالف الأزمان ، وقتل فيها جماعة من الأمراء والعسكر والماليك السلطانية في فتنة ابن عثمان ، وقتل فيها من أهل مصر من ليس له ذنب وراح ظلما . فقتل من الناس مالا يحصى عددهم ، ولعب السيف في أهل مصر سبعة أيام ، وقتل فيها ثلاثة سلاطين وهم : الأشراف الغوري ، والأشرف طومان باي ، والظاهر قانصوه — قتل في البرج بعر الاسكندرية — وتغير فيها ثلاث دول ، وخرب فيها دور كثيرة ، ونهب فيها أموال وقماش لا يحصى . وتيتيم فيها أطفال ، وترملت فيها نساء ، وجرت فيها مفاسد كثيرة لم سمع بمثلا . ولم تقاس أهل مصر شدة أعظم من هذه الا في زمن بختنصر البابلي ، فانه خرب مصر وأحرقها حتى أقامت أربعين سنة خرابا . فكان النيل يطلع ويهبط ، ويفرش على الأرض فلا يجد من يزرع شيئا من أراضيها . وهذا كله بتقدير الله تعالى فنسأل الله تعالى حسن العاقبة ، ورد العاقبة الى خير .

وقد وقفت على كتاب تأليف الشيخ جلال الدين السيوطي رحمة الله عليه ، ذكر فيه « أن في هذا القرن يبدو الحراب في مصر في سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم يتزايد الأمر الى سنة خمسين وتسعمائة ، فيقع فيها فناء عظيم ، حتى

خاير بك بالكلام ، وقامت عليه النائرة من أمراء ابن عثمان الدين بصر ، وقالوا له : « هذا خلى أساده الغوري وهرب من عنده وجاء الى الخنكار وصار من جساغته ، وأنت نبهده وتشتته » ، فقامت البيعة على ابن عوض بأنه تنتم ختقدم وسبه ، فغضب خاير بك على ابن عوض . وأمر بوضعه في الحديد ، وأسلمه للوالي ، ورسم له بأن يوسطه ، فقصده الوالي أن ينزل به من القلعة ليوسطه . فقامت جماعة من المبشرين وندخلوا على ختقدم ، وأصلحوا بينه وبين فخر الدين بن عوض ، فدخل الى ملك الأمراء خاير بك ، وشمع فيه من التوسيط وقاسى ابن عوض في ذلك اليوم غاية البهدة من أمراء ابن عثمان بسبب ختقدم .

وكان ابن عوض مستحفا لذلك ، فانه صار في هذه الأيام من وسائل سوء ، ولا سيما ما فعله في جهات الغربية . ووضع يده على رزق الناس وأوقافهم ، واستخراج حراجهم ، وضاع على الناس حقوقهم ، وحصل منه الضرر البالغ ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفي ذلك اليوم حضر هجان بكتب الحاج ، وقد حضر في السابع والعشرين من ذي الحجة ، وأشيع عن كتب الحجاج أن مكة بها غلاء ، وقد وصل الحمل الدقيق الى أربعين ديناراً ، ووصل الأردب القمح الى عشر أشرفيات ، ووصلت البطة الدقيق الى ثلاث أشرفيات . وكذلك اشتد السعر في سائر البضائع والأصناف والغلال . وذكروا أنه مات من الجمال ما لا يحصى ، حتى وصل كراء الموهية الى أربعين ديناراً . وذكروا من هذا النمط أشياء كثيرة ، وأن أمير مكة السيد الشريف نادى في مكة أن لا أحد من الناس يجاور بمكة تلك السنة بسبب الغلاء .

يفنى من أهل مصر نحو النصف . وقد ظهرت علامة ذلك في هذه السنة . ومن أعظم مساوىء ابن عثمان اخراج أعيان الرؤساء بالدار المصرية ، وفضيهم الى اسطنبول ، ونحن نذكر منهم ما تيسر فنقول :

ذكر من توجه في هذه السنة الى القسطنطينية من أعيان رؤساء الديار المصرية

وهم : مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله ابن المستمسك بالله يعقوب ، وأولاد ابن عمه سيدى خليل ، وهما : أبو بكر وسيدى أحمد ، ثم المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

ومن أولاد الأمراء : الشرفى يونس بن الأتابكى سودون العجمى ، والجناب الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك صهر الأشرف قايتباى . ومن الأمراء ببيردى ابن كسباى الذى كان باشى المجاورين بمكة أحد الأمراء العشراوات ، وقرائز الجمكى أحد الأمراء العشراوات ، وقانصوه القيم باشى المدينة الشريفة ، وجماعة من المماليك السلطانية الذين كانوا مجاورين بمكة المشرفة ، وجان بك دوادار الأمير طراباى .

ومن أولاد الناس : الشهابى أحمد بن البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين ، ويوسف بن أبى الفرج الذى كان تقيب الجيش ، ويحيى بكار الذى كان دوادار الوالى

ومن نواب السادة الشافعية : الشيخ زين العابدين بن قاضى القضاة كمال الدين الطويل ، والشيخ شرف الدين بن دوق ، والشيخ شمس الدين الحلبي والشيخ شمس الدين بن وحيش ، والتشيخ لسان الدين بن مظهر ، والشيخ بدر الدين البلقينى ، والشيخ برهان الدين الأبناسى ،

والشيخ شمس الدين الحجازى ، والشيخ شمس الدين بن الآدمى الدمياطى ، والقاصى شمس الدين المفسى العزى ، والسيد الشريف الحجار ، والقاصى ولى الدين البتنوى ابن الشرمساحى ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأتميدى .

ومن نواب السادة الحنفية الشيخ زين الدين الترنقاتى ، والسيد الشريف البريدى ، والشيخ بدر الدين بن الوفاة السعودى ، والشيخ بدر الدين محمد بن الرومى .

ومن نواب السادة المالكية : الشيخ شهاب الدين أحمد بن الفيتى ، والشيخ شهاب الدين الأبناسى .

ومن نواب السادة الحنابلة : الشيخ شهاب الدين الهيتى ، والشيخ جلال الدين الطنبدى ، والقاصى جمال الدين الحنبلى .

وأما من توجه الى اسطنبول من المباشرين السلطانية فهم : المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش ابن ناظر الخاص يوسف ، وابن أخيه بدر الدين ابن كمال الدين ، والجناب الشمسى محمد بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان أحد كتاب الخزانة الشريفة ، والقاضى زين الدين عبد القادر الملكى مستوفى ديوان الجيوش المنصورة ، والشمسى محمد البارزى .

ومن كتاب المماليك وغيرهم : شمس الدين محمد بن فخر الدين ، وسعد الدين ورج وكريم الدين ، وفتح الدين من أولاد ابن فحيرة ، وابن أبى المنصور ، ومحمد بن عبد العظيم ، ومحيى الدين ابن بهاء الدين من أولاد ابن البقرى ، وأبو الحسن ابن الرفيق ، وعبد العظيم بن غالب ، ويحيى بن الطنساوى ، وشهاب الدين بن عبد العظيم ، وعبد العظيم بن تقى الدين ناظر الزردخانة ، وولده زين الدين ، وتاج الدين أخو عبد الكريم اللادى ،

سالم التاجوري ، وسعيد اللبدى ، وأبو سعيد ،
وآخرون لم تحضرني أسماؤهم من المباشرين
والتجار بأسواق القاهرة وغيرها .

ومن الخدام : مقدم الماليك سنبل العثماني
ونائبه ، وعثمان الرومى ، وشهاب الدين أحمد
الجارجى . فيل مات من الرحمة قبل سفره بإيام .
ومن البزددارية كمال الدين بن يزداد أمير كبير ،
وعبد القادر بن المنقار ، وابن الشيخ محمد ابن
رسالن ، وفاصر الدين واسماعيل ومحمد الكاتب ،
وأبو بكر وابن السمينى ، ويحيى بن يحيى ،
وبركات بن المبيض ، ومحمد بن الجيعان ، وبركات
النائب ، وسعد الدين بن البهلاق ، ويحيى مقدم
الخاص ، وحسن نائب البرماوى ، والسوهاجى ،
ومحمد قطارة ، ومحمد بن فرو شيخ جهات
الأميرية ، وآخرون ما تحضرني أسماؤهم الآن .
ومن رءوس النوب : فرج بن البريدنى وآخرون .
ومن مقدمى السفائين : عبيد وأبو الخير وابن فريخ
النار .

وتوجه الى اسطنبول جماعة من البنائين
والتجارين والحدادين والمرخين والمبلطين والخراطين
والمهندسين والحجارين والفعلاء جماعة كثيرة لم
تحضرني أسماؤهم الآن . وقد زعموا أن الخنكار
ابن عثمان قصد أن ينشئ له مدوسة فى اسطنبول
مثل مدرسة السلطان الغورى التى بالشرابشين .

وتوجه الى اسطنبول جماعة من طائفة اليهود
والسامرية . ومن طائفة النصارى : بانوب الكاتب
بالخزائن الشريفة ، وأبو سعيد ، وأمين الدولة ،
ويوحنا الصغير ، ويوسف بن هبول ، وشيخ
الملكيين الأسكندرى وولده ، وآخرون من
النصارى واليهود لم تحضرني أسماؤهم . فيقال ان
جسيع من خرج من أهل مصر وتوجه الى اسطنبول
دون الألف انسان ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وفيهم

وكمال الدين من أولاد ابن البفرى ، وشرف الدين
وعلى المرجوشى ، وأبو يوسف الاستادار ، وابن
الزكى ، ومحمد بن على كاتب الحزاة ، وأحمد
ابن قريميط ، وعبد القادر بن قريميط ، وأبو
السعادات ، وأفضل الدين المنوفى ، وفاصر الدين
العزى الموفق ، وولى الدين ناظر المواريث ، وعامل
المواريث . وسعد الدين أبو علاء الدين ناظر
الخاص ، وبركات المنوفى وسعد الدين المنوفى ،
ومحمد الكوير ناظر الخاص ، وأحمد بن حسو
البطن ، وابن نصر الله ، وكريم الدين سهر عبد
الفتاح ، ومحمد بن أبى غالب ، وصفى الدين بن
المهضم ، وتاج الدين بن البفرى ، وشقيقه بركات
بن سلمان ، وكمال الدين بن الناصرى ، وعبد
الرحمن مباشر أمير آخور كبير ، وبدر الدين بن
خازوفه ورفيقه ، وأبو الفضل مباشر الوالى
ورفيقه ، والعبادى ورفيقه ، وبدر الدين مباشر
الأمير أنس باى ، وكمال الدين العائق مباشر أمير
آخور كبير ، وآخرون من المباشرين لم تحضرني
أسماؤهم الآن .

ومن أعيان الناس : المهتار محمد النجولى مهتار
السلطان العورى كان ، والمينار سليمان ، ومحمد
ابن يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وعلم الدين
جلبى السلطان العورى ، وعلى مقدم الدولة .

ومن الزردكاشية : يحيى بن يوسف ، ومحمد
العادلى الشخير بابن البدوبه ، وزين العابدين بن
محمود الأعور ، وجماعة من السيوفيه والضيافة
والسباكين والحدادين .

ومن تجار الباسطية : شهاب الدين الخطيب
الأسمر ، وأحمد الديروطى ، وأولاد ابن نقيس ،
وعلى بن خشيم ومن نجار سوق مرجوش : ابن
الشقية ، وأبو الفوز الحمصاى . وبدر الدين
شيخ سوق الغزل . ومن نجار المعارية : الشيخ

ما فيها من الأبواب والسقوف والشبابيك الحديد والطينان ، ويحملونها على الجمال بين الناس على النداء والاجهار ، ويبيعونها بأبحس الأثمان ، ولم يجدوا من يردهم عن ذلك .

ثم صاروا يطلعون بالنساء الى القلعة ويتحشرون بهن في أطباق المماليك الدين بالقلعة ، وصنعوا بالطباق أطباق بوزة ، وصارت خانه يرسم حرافهم . وصاروا يأخذون ما بالطباق من الأبواب والسقوف ويطحون بها الطعام ، حتى خربوا غالب السقوف التي بالقلعة .

ثم تزايد منهم الفساد حتى صاروا يحطفون النساء والصبيان المرد وعمائم الناس من الطراف والأزقة والأسواق في النهار والليل ، وصار الناس على رءوسهم طيرة من العثمانية ، ويجدون القتلى مرمية في الطراف .

فلما تزايد هذا الأمر دخل جماعة من الناس الى القاضي الذي جعله ابن عثمان في المدرسة الصالحية أمينا على قضاة مصر ، فشكوا له من أفعال العثمانية وما يفعلونه بالناس . فلما سمع هذا الكلام ركب وبوجه الى بيت الأمير فايتبأى الدوا دار ، وأركبه وطلع به الى القلعة ، وأخبروا ملك الأمراء خاير بك بهذه الأحوال التي تصدر من العثمانية .

ثم ان قاضي ابن عثمان أغلظ على خاير بك في القول وقال له : « انظر في أحوال المسلمين والا تحرب مصر عن آخرها ، فقد فسدت الأحوال جدا ، ومتى بلغ الحنكار هذه الأخبار يرسل يضرب أعناقنا ، ويقول لنا كيف كتمتم عنى أخبار مصر ، وغفلتم عن أحوال المسلمين ، حتى جرى فيها ما جرى » .

فلما سمع ملك الأمراء خاير بك هذا الكلام وعد القاضي والأمير قايتبأى الى يوم السبت حادى

نسوان أيضا وأولادهم صغار رضع ، ومنهم كبار . ولم يفاس أهل مصر من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ، ولا سمع بمثلها في التواريخ القديمة ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا ... ففارق الناس أوطانهم وأولادهم وأهاليهم وتغربوا من بلادهم الى بلد لهم يطئوها قط ، وخالطوا أقواما غير جنسهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وكانت سنة مشومة على الناس ، مباركة على المباشرين الدين بمصر ، وصاروا هم الملوك يتصرفون في المملكة بما يختارونه من الأمور ، ولا سيما ما فعلوه في جهات الشرفية والغربية وجهات الصعيد ، ووضعوا أيديهم على رزق الناس والافطاعات ، ثم استدرجوا الى أن أخذوا أموال الناس بغير حق شرعى ، ثم استدرجوا ثانيا الى أن أخذوا أموال الأوقاف . وصاروا ليس على يدهم يد ، يفعلون ما شاءوا من هذا النمط ، فغنموا في هذه السنة أموالا جزيلا من البلاد مما أخدوه من خراج الناس ... فكان مجيء ابن عثمان غنيمة للمباشرين ، وبعض الأفراد الذين أودع عندهم الأمراء الجراكسة والعسكر الأموال والقماش وقتلوا في الواقعة ، ففعدوا على تلك الودائع ، وراحت على من راحت ، فكان كما يقال في المعنى : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

سنة اربع وعشرين وتسعمائة (١٥١٨ م) :

فيها كان افتتاح شهر المحرم يوم الأربعاء ، فطلع القضاة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء خاير بك بالعام الجديد ، ثم رجعوا الى دورهم فلما كان يوم السبت رابع المحرم ، شكا الناس من أدى العثمانية الذين بمصر ، وتزايد منهم الفساد في حق الناس ، وصاروا يتوجهون الى الأماكن التي في زقاق الكحل والمستطاحي والتي في الجسر وحكر الشامي والأزبكية يأخذون

عشر الشهر ، فأحضر الأنكشارية والأصباهية وعرضهم ، وفحص عنهم يفعل هذا منهم .

ثم أن خاير بك نادى فى القاهرة بأن لا امرأه تخرج من بيتها ولا صبي أمرد ، ولا يتوجهون فى هذا الشهر الى السيدة نفيسة ، ولا الى مشهد الحسين ، ولا الى بين القصرين ، وان الدكاكين والأسواق تغلق بعد المغرب ، ولا يشئ أحد من الناس بعد المغرب .

وفى يوم الاحد نانى عشر المحرم ، حضر من الشام من عند ابن عثمان قاصدان زعما أنهما من أعيان أمراءه ، وقيل ان أحدهما أغات طائفية الانكشارية ، والآخر أغات الأصباهية ، فلما بلغ ملك الأمراء حضورهما نزل من القلعة ولاقاهما ، وكان لهما موكب حافل ، فطلعا الى القلعة . واجتمعت الأمراء العثمانيه والأمير قايتباى الدوادار وقرءوا مطالعة الخنكار .

ثم أشيع أن ابن عثمان أرسل يطلب الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، والأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية ، والأمير تيرباى العادلى ، وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الأصباهية الذين كان قد تركهم بمصر ، فكثر القيل والقال فى ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشره أرسل ملك الأمراء خاير بك الى الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، والأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية ، والأمير تيرباى العادلى ، وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الأصباهية الذين كان قد تركهم بمصر ... فكثر القيل والقال فى ذلك .

وأرسل ملك الأمراء خاير بك الى الأمير أرزمك الناشف أربعمئة دينار وقال له . هذه نفقة السفر :

فاعمل بها برقت وأخرج سافر . فشكا أرزمك من ذلك وقال ايش يكفينى هذا القدر لعمل برق السفر . ثم ركب وتوجه الى بيت الأمير قايتباى الدوادار وشكا له من أمر هذه النفقة ، فقال له : اصبر حتى أطلع الى ملك الأمراء خاير بك فى ذلك اليوم .

ثم فى يوم الأربعاء خامس عشره ، أشيع بين الناس أن جماعة من الانكشارية والأصباهية لما تحققوا أن الخنكار أرسل يطلبهم أظهروا العصيان ، وخرج بعضهم الى نحو الشرفية والغربية وتفرقوا فى البلاد .

ومن الحوادث الغريبة أنه فى يوم الجمعة سابع عشر المحرم من هذه السنة ، أشيع واستفاض بين الناس أنه قبض على قاسم بك بن أحمد بك بن أبى يزيد بن محمد بن عثمان ملك الروم . وقاسم بك هذا هو الذى كان قانصوه الغورى اجتهد كل الاجتهاد حتى أدخله الى مصر ، وصار ضدا لسليم شاه ابن عثمان . وكان سليم شاه يخشى من أمر قاسم بك هذا أن يلتف عليه عسكر الروم من عساكر جده ويولوه مملكة الروم . وسافر قاسم بك هذا صحبة الأشرف قانصوه الغورى الى حلب ، وصنع له برقا وسنيحا حافلا ، وجعل له صنجقا من حرير أخضر وأحمر كما هى عادة ملوك الروم ، وحضر الواقعة التى كانت فى مرج دابق . فلما فقد السلطان الغورى وجرى ما جرى ، رجع قاسم بك صحبة الأمراء الى مصر وصار معظما عند السلطان طومان باى ، وحضر معه فى الواقعة التى كانت بالمطرية ، فلما انكسر السلطان طومان باى هرب معه الى جهة الصعيد ، فلما وقع السلطان طومان باى هو وابن عثمان فى الجيزة بالقرب من وردان انكسر طومان باى وهرب . فلما قبضوا عليه وشنقوا اختفى قاسم بك ولم يعلم له

متى بات في قيد الحياة تدخل علينا التراكمة وتقتلنا
عن آخرنا وتقع فتنة كبيرة . فلما دخل وقت العشاء
أحضروا المشاعلى ودخلوا عليه وهو في العرقانة
فخنقوه بها ، وكان آخر العهد به .

فلما أصبح يوم السبت ثامن عشره ، أخرجوا
قاسم بك من العرقانة وهو ميت ، ووقدوه على
مسطبة بالحوش ، وكشفوا عن وجهه ، وأرسلوا
خلف العثمانيين قاطبة حتى رأوه ، فقالوا لهم : هذا
قاسم بك بن أحمد بك ابن أبى يزيد بن عثمان . تم
صاروا يقلبونه باطنا وظاهرا ، ثم شهد منهم جماعة
كثيرة أن هذا هو قاسم بك ابن أحمد بك ابن
عثمان . ثم بعد ذلك أرسل ملك الأمراء خاير بك
خلف قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ،
وقاضى القضاة الحنفى الطرابلسى ، وقامت عندهما
البينة بصحة معرفة قاسم بك هذا ، فكتبوا بذلك
محضرا وثبت عند قاضى القضاة . ثم انهم شرعوا
في تجهيز قاسم فجلسوه وكفنوه ، وأخرجوه فدام
الدكة التى بالحوش السلطاني ، فصلوا عليه هناك ،
وكان الذى صلى عليه قاضى القضاة الشافعى .
وكانوا أطلقوا له نذراء فى القاهرة بأن الصلاة على
الشاب الشهيد قاسم بك بن عثمان ، فانه ينزل من
القلعة . ثم اذن ملك الأمراء خاير بك أشهر المناداة
فى القاهرة بأن يصلى على قاسم بك بن عثمان
صلاة الغيبة فى الجوامع ، كل هذا حتى يتحقق
الناس موته عن يقين .

فلما صلوا عليه بالحوش حمل الأمراء نعشه
على أكتافهم ، ثم نزلوا به من سلم المدرج ،
ووضعوا عمامته على نعشه ورفعوا عليه علما
أبيض ، ثم توجهوا به الى تربة البجاني فدفنوه
فيها على أقاربه . وكانت جنازته مشهودة ، وكثر
عليه الأسف والحزن من الناس ، فانه كان شابا
جميل الصورة ، حسن المنظر ، له من العمر سبع

خبر مدة طويلة ، وقد فاته القتل مرارا عديدة .
وكان السلطان حاسب حسابه جدا ليلا ونهارا ،
وكان عسكر ابن عثمان قصدهم المخامرة
عليه والتوجه الى قاسم بك . وقد أشيع بين الناس
انه لما هرب بعد كسرة طومان باى ، توجه مع
بعض العربان الى نحو الجبل الأخضر الذى بأعلى
البحيرة ، وكان قد نسي أمره .

فلما كان يوم الجمعة المقدم ذكره أشاعوا أنهم
قد قبضوا عليه فى مكان عند العطوف بالقرب من
البرقية ، وقد غمز عليه بعض غلمانه فى ذلك المكان ،
فتوجه اليه كمشبعا والى القاهرة وشخص آخر
يقال له جانم الحمزاوى شاد الشون من خدمة ملك
الأمراء خاير بك ، وهو دوادار الآن ، فتوجهوا اليه
وقبضا عليه من ذلك المكان المذكور . فلما قبضوا
عليه عروه من أثوابه وقلعوه عمامته وألبسوه
برنسا أسود وغطوا وجهه . وسبب ذلك أنهم
خشوا أن العثمانية متى بلغهم أنهم قبضوا عليه
وهو طالع الى القلعة يخلصونه ويقتلون من معه ،
وتثور بين العثمانيين فتنة عظيمة ، وتكون سببا
لزوال ملك سليم شاه بن عثمان . فلما طلعوا به
الى القلعة بعد العصر قريب المغرب من يوم
الجمعة ، عرضه على ملك الأمراء خاير بك ،
فرسم بادخاله الى سجن العرقانة الذى هو داخل
الحوش السلطاني ، فأدخلوه به وأغلقوا عليه باب
السجن .

ثم اجتمع ملك الأمراء خاير بك ، والأمير
قايتباى الدوادار ، ومن الأمراء العثمانيين فائق بك
وسنان بك ومصطفى بك وخير الدين بك نائب
القلعة . فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فى أمر قاسم
بك ، فقال ملك الأمراء خاير بك : دعوه فى السجن
وأرسلوا كاتبوا الخسكار فى أمره وانتظروا الجواب
فيما يرسم به . فقال فائق بك : هذا ما هو رأى ،

عشرة سنة ، وقد قتل ظلما بغير ذنب ، وقد تناحرت عليه العثمانيون بالبكاء

فلما دفنوه ولحدوه قطعوا رأسه بليل ووضعوها في علبه وتوجه بها جانم الحمزاوى هي والمحضر الى الخنكار بالشام ... هذا ما أشتيع واستفاضل بين الناس ، والله أعلم بصحة ذلك .

وقد عد مسك قاسم بك وقتله أعظم من مسك الأشرف طومان باى وقتله ، فتحجب الناس من عورة سعد سليم شاه بن عثمان من مبدئه الى منتهاه ، وهذا أمر من الله تعالى ليس في فدره بشر . وكانت الناس تظن أن قاسم بك هذا سيلي مملكة الروم بعد عمه سليم شاه ، فخابت فيه الظنون وعاجله ريب المنون ، وكان ذلك مما سبقت به الأقدار ، والحكم لله الواحد القهار

وفي يوم الأحد تاسع عشره أنفقوا الجامكية على المماليك الجراكسة في بيت الأمير فبتباى الدوادار ، فأنفقوا لكل مملوك ألفى درهم ، وهى جامكية شهر واحد ، فأنفقوا عليهم يوم الأحد ويوم الاثنين .

وفي ذلك اليوم نادى ملك الأمراء خاير بك في القاهرة بأن لا أحد من الناس يخبى في بيته عثمانيا ولا انكشاريا من عسكر ابن عثمان ، وكل من خبأ عنده أحدا وغمز عليه شنىق على باب داره من غير معاودة . وسبب ذلك أن الخنكار بن عثمان لما أرسل يطلب جماعة من الانكشارية ومن الاصباهية اختفى منهم جماعة وجماعة تفرقوا في الشرقية والغربية وتوجهوا اليها هاربين في البلاد ، وأطهروا العصيان ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفي يوم الاثنين سابع عشره أشهروا المنادة في القاهرة حسبما رسم ملك الأمراء بأن جميع الانكشارية والاصباهية يخرجون يوم الاثنين

صحبة القصاد ، وكل من تأخر منهم شنىق من غير معاودة ، فشنىق من القاهرة جيساعة من الأمراء العثمانية وقدامهم مشاغلي ينادى بالتركي وآخر ينادى بالعربي وذلك بعد الظهر . فلما بلغ العثمانية ذلك اضطربت أحوالهم وخرج غالبهم الى فحسو الشرقية ، وقد التفت عليهم المماليك الجراكسة ، وصاروا يرمون بينهم وبين الأمراء العثمانية الذين بمصر الفتن حتى يقع بينهم الشر وبظهروا العصيان على ابن عثمان .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرى المحرم ، دخل الحاج الى القاهرة ودخل المحصل الشريف ، والقاضى علاء الدين ناظر الخاص أمير ركب المحصل ، وقاضى قضاة المالكية محيي الدين بن الدميرى ، وبقية الحجاج ، وأخبروا أنهم قاسوا في هذه الحجة مشقة زائدة وشدائد عظيمة من العلاء وموت الجمال ، وفساد العربان في الطريق ، وكثرة الأمطار والسيول ، وقلة العليق . ومشى غالب الحجاج على أقدامهم في الرجعة ، وقد أثنوا على ناظر الخاص فيما فعله بالحجاج في الطريق من البر والصدقات وفعل الخير ، وكان إذا رأى أحدا من الحجاج منقطعا يركبه على جماله وينعم عليه بالماء والبسماط في الطلعة والرجعة . فرجع الحجاج وهم عنه راضون فيما فعله بهم ، وقد رفق بهم في مشى الركب بسبب المنقطعين من الحجاج ، وقد أثنوا عليه خيرا .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشره ، دخل الى القاهرة الأمير قانصوه العادلى كاشف جهات الشرفيه ، وكان أشتيع عنه العصيان من حين عين للسفر ، فأتى لتبطل عنه الاشاعات . فلما طلع يوم الخميس الى القلعة خلع عليه ملك الأمراء خاير بك قفطانا مخملا مذهبا ، ونزل يعمل برقه .

منية غمر وأحرقها وغيرها من بلاد الشرقية ووقع الاضطراب بها ، وطفشت العربان في البلاد بالفساد والنهب ، وحصل منهم الضرر الشامل . وصار عبد الدائم رأس كل فتنة في كل دولة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفي يوم السبت تاسعه قويت الاشاعات بعصيان عبد الدائم ، وأنه قد التف عليه عربان كثيرة من الشرقية والغربية ، وطرّدوا آباءه من الشرقية . واضطربت أحوال الشرقية الى الغابة

وأشيع في البلاد أن مصر ما بقي فيها أحد من عساكر ابن عثمان . فلما بلغ ملك الأمراء خاير بك ذلك رسم لخير الدين بك نائب القلعة وجماعة من الأمراء العثمانية بأن يسفّوا من القاهرة ومعهم الانكشارية الذين تأخروا بمصر . فنزل من القلعة وقدامه من الانكشارية نحو ثلثائة انسان وهم مشاة وبأيديهم مكاحل ، وشق من الصليبة وتوجه من بين الصوريين وطلع من جهة سوق مرجوش ، وشق من القاهرة فرجت له في ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك أخذ في أسباب تحصين القلعة ، وسد منها عدة أبواب ، وأبقى منها الأبواب الكبار على حنكمها ، وقصد أن يسد بعض أبواب من القاهرة ، وأظهر الخوف والفرع ، ودخلت رأسه الجراب من عبد الدايم بن بقر وكثرة العربان التي اجتمعت معه . وكثر القيل والقال في ذلك والروايات مختلفة .

وفيه أشيع أن الرئيس سلمان العثماني الذي كان في البرج بالقلعة وضعه خاير بك في الحديد وأرسله الى ابن عثمان بالشام ، وكثرت الحوادث في هذه الايام جدا .

وفي يوم الاثنين حادي عشره أشيع أن ملك

وقد مضى هذا الشهر وعسكر ابن عثمان في خلف بينهم بسبب السفر الى الشام ، واستمرت الانكشارية في أمر العصيان عن السفر ، وصاروا يكبسون عليهم بيوتهم وحاراتهم ، ويقبضون على نسائهم اللاتي تزوجن بهن من مصر ، وحصل لهن الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفي صفر الخير ، وكان مستهله يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، فهنّوا ملك الأمراء خاير بك بالشهر ورجعوا الى دورهم . وفي هذا اليوم خرج جماعة من الانكشارية والاصباهية من الطائعين منهم دون العاصين الذين هربوا كما تقدم ، فخرجوا صحبة القصاد الذين جاءوا لطلبهم من الشام حسبما رسم الخنكار سليم شاه بن عثمان . قيل انه أرسل بطلب ألف انسان من الاصباهية ، ومن الانكشارية أربعائة انسان .

وفي يوم الاثنين رابع صفر ، خرج بقية العسكر العثماني الذي تعين للسفر ، وخرج الأمراء المعينون للسفر ، وهم : الأمير أرزمك الناشف أحدالمقدمين ، والأمير قانصوه العادلي كاشف الشرقية ، والأمير تمبراي العادلي ، والأمير خشقدم الأشرفي الذي كان شاد الشون أيام السلطان الغوري . ولم يشعر بخروجهم أحد من الناس ، ولم يطلبوا طلبا على جاري العادة ، فلما خرجوا توجهوا الى الريدانية ونزلوا بها الى أن يرحلوا منها .

وفي هذه الأيام تزايد القال والقيل بين الناس بوقوع فتنة كبيرة .

وفي يوم الثلاثاء خامس صفر خلع ملك الأمراء خاير بك على شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر وقرره في مشيخة جهات الشرقية عوضا عن ابنه عبد الدائم ، وقد أظهر عبد الدائم العصيان ونهب

بك ، وقد تقدم القول على أنه كان توجه الى الشام عند السلطان سليم شاه ابن عثمان بمشارة قتل قاسم بك بن عثمان ، فلما أخبر سليم شاه بذلك سر الى الغاية . وأشيع أنه أنعم على جانم الحمزاوى بناية نجر الاسكندرية ، ثم رسم له بالعود الى القاهرة ، وأرسل على يده خلعة الى ملك الأمراء خاير بك في استمراره بناية السلطنة بدصر على عادته ، وأرسل خلعة الى الأمير قايتباى الدوادار ، وقيل الى كمشبا والى القاهرة لكونه قبض على قاسم بك ابن عثمان . فلما وصل القاصد صحبه جانم الحمزاوى الى الريدانية بات في تربة العادلى . وفى هذا اليوم نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة وصحبته الأمير قايتباى الدوادار والأمراء العثمانية الذين بمصر ، وطائفة من الانكشارية والاصباية وغير ذلك من الطوائف الذين تركهم ابن عثمان بمصر ، وصحبته جماعة كثيرة من الأمراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر كما تقدم . وخرج الجهم الكثير من العساكر العثمانية وفهم من يرمى بالنفوط . فتوجه الى تربة العادلى وجلس على المسطبة التى هناك . ثم ان ملك الأمراء خاير بك لبس القفطان المخمل المذهب الذى أرسله له السلطان سليم شاه ابن عثمان ، فأشيع ذلك اليوم أن ابن عثمان جعله مستمرا على نيابته بمصر على عادته ، وأن يجعل السكة والخطبة باسمه ، فلم تصح هذه الاشاعات فيما بعد .

ثم ان ملك الأمراء ركب من هناك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل وقدامه قضاة القضاة . وموجب ذلك أن هذا اليوم كان مستهل الشهر ، فتوجهت اليه القضاة هناك ليهنوه بالشهر . فلما رجع الى القاهرة رجعوا صحبه وركبوا قدامه الى أن طلع الى القلعة ،

الأمراء خاير بك عين الأمير قايتباى الدوادار بأن يخرج الى عبد الدائم بن بفر وصحبته جماعه من المماليك الجراكسة ومن العثمانية . وعرض فى ذلك اليوم طائفة من العثمانية يقال بهم كلمبا ، فعرضهم فى بيت سنان باشا العثمانى ، وعين منهم جماعة يخرجون الى التجريدة صحبة الأمير قايتباى الدوادار بسبب عبد الدائم كما تقدم .

وفى أثناء هذا الشهر أشيع أن الخنكار سليم شاه ابن عثمان خرج من دمشق وفسد الوجه الى حلب ، وما يعلم سبب ذلك . وكثر الأقاويل فى خروجه من الشام الى حلب .

وفى يوم الأربعاء عتري صهر عرض الأمير قايتباى الدوادار المماليك الجراكسة فى بيته الذى بين القصرين ، وعين جماعه منهم يخرجون الى الشرفية بسبب عصيان شيخ العرب عبد الدائم بن بقر ، وفد قويت الاشاعات بعصيانه ، وقد التفت عليه جماعة كثيره من العربان ، وفسدت أحوال الشرقية قاطبة من قطع الطريق على القصاد ، وهب البلاد ، ووقع الاضطراب جدا هناك حتى كادت أن تعرب بلاد الشرقية ، ولما عرض الأمير قايتباى الجراكسة وجد غالبهم مشاة على أقدامهم بغير خيول ولا سلاح ، فبطل أمر العرض والتجريدة .

وفى يوم السبت ثالث عشره حرج شيخ العرب ببيرس بن بفر أخو عبد الدائم وصحبته الشيخ أبو الحسن بن الشيخ أبى العباس العفرى يسعون بين عبد الدائم وبين أبيه الأمير أحمد وبين اخوته بالصلح . وأشيع أن ملك الأمراء خاير بك أرسل صحبتهما خلعة الى عبد الدائم نعه يقع الصلح على أيديهما ، وكذا جرى .

وفى يوم السبت مستهل شهر ربيع الأول حضر جانم الحمزاوى دوادار ملك الأمراء خاير

وركب قدامه أيضاً أعيان المباشرين ، ولاقتهم
النصارى بالشموع في أيديهم من باب النصر .
فلما وصل الى بين القصرين ومر على بيت الأمير
قايتباي الدوادار نثرت على رأسه كبشة جيدة من
الفضة ، فتخاطفتها الناس .

فلما شق من القساهرة زينت له زينة خفيفة في
بعض أماكن ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من
بعض الناس ، وأشبهوا النداء قدامه بالأمان
والألمتتان ، والبيع والشراء ، وأن لا أحد شوش
على أحد من الرعية ، وأن كل من ظلم أو قهر عليه
بمسبب ملك الأمراء خاير بك ، والدعاء بالنصر
لمولانا السلطان سليم شاه ابن عثمان . فضج الناس
له بالدعاء قاطبة . واستمرت الانكشارية برمون
قدامه بالنفوط وهم مشاة حتى طلع الى القلعة
وكانوا نحو أربعمئة انسان .

وكان أشيع أن ملك الأمراء خاير بك يستقل
بمملكة مصر ، ويجعل السكة والخطبة باسمه
حسبما رسم الخنكار ابن عثمان ، فلم تصح هذه
الاشاعة ، وخمدت كأنها لم تكن ، واستمر نائباً
على حكمه . وكانت هذه الاشاعة من الكلام
المختلف من جملة كذب الناس ، وصار غالب أهل
مصر في هذه الأيام بختلقون الكلام الكذب ،
ويشيعونه بين الناس بما يختارونه ، ثم يطلونه
وينقضونه ويأتون بكلام غيره . والكل ليس له
صحة وهو من جملة المختلف . وقال القائل في
المعنى :

أبناء مصر مقالهم عجب

تواتر الصدق منه مرفوض

مقالهم لا يزال مختلفا

وكله ناقض ومنقوض

ولما حضر جانم الحمزاوى أشيع بين الناس أن

السلطان سليم شاه لما أقام بالشام رسم لقاضى

القضاة الشافعى معب الدين ابن قاضى القضاة
شهاب الدين بن فرفور بأن يتقلد بمذهب
الامام أبى حنيفة ويترك مذهب الامام الشافعى
رضى الله عنه . وأشيع أنه لا يحكم بالشام غير
قاضى قضاة الحنفية لا غير ، كما هي عادة بلاد
الروم . وأبطل من الشام المذاهب الثلاثة فتساءل
الناس له بسرعة الزوال عن قريب بسبب ذلك ،
وأشيع أنه أبطل الوكلاء والرسل من أبواب القضاة
ونوابهم . فلما بلغ ملك الأمراء خاير بك ذلك رسم
لقضاة القضاة بمصر أن يحفوا من نوابهم ، فرسم
لقاضى القضاة الشافعى بخمسة من النواب ،
وقاضى القضاة الحنفى بأربعة من النواب ، وقاضى
القضاة المالكي بثلاثة من النواب ، وقاضى القضاة
الحنبلية باثنين من النواب ، من غير زيادة على
ذلك . ثم ان ملك الأمراء خاير بك رسم لنواب
القضاة أن سطلوا الوكلاء والرسل من المدرسة
الصالحية ، وأن نواب القضاة لا يحكمون الا في
بيوتهم من غير رسل ولا وكلاء ، فلم يتم هذا الأمر
ولم يسمع له شيء .

ومما وقع في هذه الأيام من الحوادث الشيعة ،
أن شخصا من أمراء ابن عثمان صار يجلس على
دكة بباب الصالحية يسمونه المحضر ، وحوله
جماعة من الانكشارية ، فكان لا يقضى أمر من
الأحكام الشرعية حتى يعرض عليه فكان يقف
بين يديه الشاكى والمشتكى ويحاطبونه بترجمان
بينهما عن أمر الشككاة ، فكان يقرر على كل
محكمة في كل أشرفى ستة دراهم نقرة ، يأخذها
لنفسه من الشاكى والمشتكى ، يسمون ذلك
مصلحات . وكان اذا أمر بشيء لا تعارضه القضاة .
وكان يزعم أنه مستوفى على القضاة في الأمور
الشرعية . وكان يضرب من يستحق الضرب ،
ويسجن من يستحق السجن ، ولا يراجع القضاة

فى ذلك ، فكان يتصل له فى كل يوم من ذلك القدر
المعلوم مال له صورة ، يأخذه من الشاكى
والمشتكى .

تم انهم أحدثوا مظلمة أخرى ، وهى أنهم
فرروا اصافا على كل دكان من الشهود ومجالس
القضاة الذين بمصر والقاهرة قاطبة كل شهر ستة ،
ويزعمون أنهم يوردون ذلك القدر لبيت مال
المسلمين ، وبجهزونه الى السلطان ابن عثمان .
وقد ضعفت شوكة الشرع فى هذه الأيام جدا ،
وقد قال القائل فى المعنى :

يارب زاد الظلم واستحوذوا

والفعل منهم ليس يخفى عليك

ومالنا الاك فانظر لنا

ولجننا منهم وخذهم اليك

ولما حضر الأمير جانم الحزواى دوا دار ملك
الأمرء خاير بك أخبر بأن السلطان سليم شاه لما
دخل الى الشام استقر بالأمرء جان بردى الغزالى
نائب الشام . وجعل له التحدث من غزة الى الشام
وأعمالها ، يولى من يختار ويعزل من يختار .
وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخلوا الى الشام
طردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا فيها كما
فعلوا بمصر ، وخبروا غيطانها وزروعها ، وقطعوا
أشجارها ، وأكلوا جميع فواكهها .

وفى يوم الاثنين ثالث ربيع الأول أشيع بين
الناس بالمراسيم التى حضرت من عند الخنكار سليم
شاه على يد الأمير جانم الحزواى ، فكان
مضمونها أنه أرسل يقول لملك الأمرء خاير بك
« اصرف لأولاد الناس جوامكهم على العادة ،
وكذلك الممالك الجراكسة ، وكل من له جامكية
يصرفها له ، ويجرى الناس على عوائدهم من كبير
وصغير » . فشكر له الناس ذلك ودعوا له .

فلما بلغ أولاد الناس ذلك طلعوا الى القلعة
ونزلوا أسماءهم عند القاضى شرف الدين الصغير
كاتب الممالك ، حتى كل من كان له جامكية أشرفى
أو مائتا درهم . وأرسل يقول له احتفظ بالرعية .
وفى يوم الاثنين عاشره طلع الممالك الجراكسة
الى الميدان الذى تحت القلعة ، وحضر كاتب
الممالك شرف الدين الصغير ، وأنفق على الممالك
جامكية شهر واحد ، وبقي لهم شهران مكسوران .
ولهم يحضر ملك الأمرء تفرقة الجامكية بالميدان ،
بل حضر شرف الدين الصغير وجماعة من كتاب
الممالك . وشرع شرف الدين كاتب الممالك يقول
للممالك : يا أغوات كل من أخذ الجامكية يعمل
برقه للسفر . ويقول له : اذا طلبت منك هؤلاء
الممالك للسفر فأحضر بهم . فنزلوا من القلعة على
ذلك .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول كانت
ليلة المولد النبوى ، فصنع له ملك الأمرء مولدا
لهم يشعر به أحد من الناس . فقيل أحضر عنده
عشر جوخ للمقربين فضجوا من ذلك ، وقالوا
نحن كان يدخل علينا فى مولد السلطان لكل واحد
منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمرء
جوخة بأشرفين ؟ فرسم لكل منهم بجوخة بأربع
أشرفيات لا غير .

ثم بعد العصر مد سماعا فى المقعد الثانى الذى
بالحوش ليس بكبير أمر ، تخاطفته العثمانية فى لمح
البصر وبات غالب الفقهاء بلا عشاء ، وأين الحسام
من المنجل بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين
الماضية من الأسطة الحافلة ، والشقق الحرير
التي كانت تدخل على المقربين والوعاظ ، ولا سيما
ما كان يعمل فى مولد السلطان قانصوه الغورى .
فكان يصرف على مولده فوق الأربعة آلاف من

الدنانير ، ويحضر عنده في تلك الخيمة المعظمة التي
لم يسمح الزمان بمثلها أبدا القضاة الأربعة ، ومن
الأمراء المقدمين أربعة وعشرون أميراً مقدم ألف ،
غير بقية الأمراء والعسكر وهم بالشاش والقماش ،
فأين هذا النظام من ذلك النظام العظيم . فما أسفى
على تلك الأباة ، كأنها منامات أحلام ! وقد قال
القائل في المعنى :

يا دهر مع رتب المعالى مسرعا

بيع الهوان ربحت أم لم تبيع

قدم وآخر من أردت من الورى

مات الذى قد كنت منهم تستحى

وفى يوم السبت خامس عشر ربيع الأول خلع
ملك الأمراء خاير بك على الزينى بركات بن
موسى المحتسب واستقر به أمير ركب المحصل
الشرىف ، وكانت هذه الوظيفة لا يستقر بها إلا
أمير مقدم . ولعمري أن هذه الوظيفة فد هانت
حتى سامها كل مفلس ، فخلع عليه قفطانا مخملا
مذهبا ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه
أعيان المباشرين والأمراء العثمانية ، وجماعة من
الأمراء الجراكسة ، والمماليك الجراكسة ، فرجت
له القاهرة فى ذلك اليوم ، وزينت له الدكاكين
بالشموع ، وعلقت له الأحمال بالقنادل ، ولاقته
مشايخ العربان من بنى هلال ، وكاشف الشرقية ،
ومشى قدامه جماعة من الانكشارية نحو مائتى
انسان يرمون بالنفوط ، ومشى قدامه جماعة من
القواسة نحو ثلثمائة انسان ، ومشى قدامه السقاءون
يرشون الماء بطول الطريق ، ومشى قدامه الضوية
بالمشاعل وعليها النفوط الزركش ، ومشى قدامه
جميع الرسل قاطبة وبأيديهم العصي ، ولاقاه
الشعراء والشبابة السلطانية مثل مواكب
السلطين ، ولاقاه المغانى من النساء بالطارات ،

وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وساق
فدامه البرجاس عربان بنى حرام ، وكان ذلك اليوم
من الأباة المشهودة قل أن يقع لأحد من الأمراء مثل
ذلك ، فلهج الناس بهذا الموكب ، وقالوا لعل هذا
نهاية سعد الزينى بركات بن موسى . ولم يقع مثل
هذا الموكب للملك المظفر سليم شاه ابن عثمان لما
دخل الى القاهرة حين ملكها . فلما نزل الزينى
بركات بن موسى الى داره ، أنعم على الانكشارية
بثلاثمائة دينار ، فحصل لكل واحد منهم أشرفى ،
وأنعم على القواسة والسفائين أيضا بمبلغ جيد .
وقد قلت فى هذا الموكب أبياتا :

ان ابن موسى لم تزل حركاته

تأبى بسعد خارق بين النورى

عابنته فى موكب حفل فلا

سمعت به أذن ولا عين ترى

فى يوم سبت شرفوه بجعله

فاق الملوك وصار يزهو منظرا

لما استقر أمير محمل سرنا

واستبشرت لقدمه أم المرى

وتفائل الحجاج آن بكعبة

يلقوا الرخا والأمن ممن بشرا

يا ربنا فأطل بقسائه بنعمة

تحمد بها الركبان عاقبة السرى

وفى يوم الأحد ثالث عشره أنفق ملك الأمراء
على جماعة من الأمراء الجراكسة : فأعطى لكل
أمير طبلخاناة أربعين دينارا ، وأعطى لكل أمير
عشرة عشر أشرفيات ، وقيل خمسة وعشرين أشرفيا
فى نظير أقاطيعهم ولحومهم وعليقهم ، وأعطى
المماليك الجراكسة لكل واحد منهم ألفى درهم من
غير زيادة على ذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشرى ربيع الأول ، وافق

ذلك اليوم دخول أول يوم من الخمسين وهو يوم
حمد النصارى وفطرهم . ومن جملته إمام الله تعالى
أنه لم يقع في هذه الخمسين معاونة بصر ولا
غيرها من البلاد .

وفي ذلك اليوم كانت وفاة صاحبنا النصارى
محمد بن منكلى بغا ، وكان موته فجأة . وكان
لطيف الداب . هذه المحاضرة ضمن العبارة في
كلامه ، رقيق الطباع ، عثير الناس ... وكان
لا بأس به .

وفي هذا الشهر حضر النصارى محمد المعروف
بابن الورد لاعب التطريج ، وكان بالشام من حين
أرسل خلفه السلطان سليم شاه ، وكان السلطان
أرسل له مبلغا له صوره يتسفر به . فلما توجه إلى
الشام وجد الحنكار غير منشرح بسبب الصفوى ،
فأقام مده بالشام ثم استأذن السلطان في عوده إلى
مصر ، فأذن له بالعود إلى مصر ، فأخبر النصارى
محمد بن الورد أن فصاد الصفوى قدموا على ابن
عثمان وهو بالسام من مكان غير الطريق السالكة ،
فما شعر بهم ابن عثمان إلا وهم بين يديه ، فدفعوا
إليه مطالعة من عند الصفوى ، وتقدمة حافلة . فلما
قرأ تلك المطالعة وجد فيها عبارة لطيفة ، وألفاظا
رقيقة تتضمن أمر الصلح بينه وبين الصفوى ،
ونعته بنعوت عظيمة في المطالعة . فلما قرأ المطالعة
اضطرب لذلك ، وقال هذا كله مخادعة من الصفوى
حتى يبطل عزمى عن ملاقاته ، ثم بطرقتى على حين
غفلة ، كما فعلت أنا مع السلطان العورى . فرحل
من الشام على الفور . ونصحت النوجه إلى حلب .
وقال لوزرائه : أنا أعلم من حيل اسمعيل الصفوى
ومجادعته ما لا تعلمونه . فدان لما يقال في المعنى :

توقع كيد من خاصست يوما

ولا تركن إلى ود الأعدى

فإن الجرح ينكث كل حين

إذا كان البناء على فساد

ثم أشيع أن ابن عثمان لما دخل إلى حلب أخذ
في أسباب تحصين المدينة ، ثم قبض على جماعه من
أهل باقوسه ممن كان مشهورا بالفساد ، فشنق
منهم جماعة . ثم أشيع أنه صادر جماعة من أهل
حلب ، وأفرد عليهم الأموال الجزيلة ، وحصل لأهل
حلب منه ومن عساكره غاية الضرر ، والأمر لله .

وامتدلى شهر ربيع الآخر ، وكان أوله يوم
الأحد . ففي يوم الخميس خامسه قدم إلى الأبواب
السريفة مصلىح الدين بك خازندار ابن عثمان ،
وكان توجه إلى مكة من البحر المسالح صحبة
الشهابى أحمد بن الجيعان ، فلما نزل ببركة الحاج
خرج الأمير فايتباى الدوادار إلى ملاقاته ، وكذلك
أعيان المباشرين ، فلما طلع إلى القلعة وقابل ملك
الأمراء خلع عليه ونزل إلى منزله في موكب
حافل ، وفداهه الأمراء العثمانيه والجراكسة والجم
الكثير من العساكر .

وفي يوم الثلاثاء عاشره وقعت حادثة غريبة ،
وهى أن ملك الأمراء خاير بك أشهر النداء في
القاهرة بأن كل من رأى كلبا يقتله ويعلقه على
دكانه . فبادر الناس بالقبض على الكلاب ،
وصارت التراسه يسدون الدلاب من الطرقات
ويوسطونها بالسيوف نصفين ، فقتلوا في ذلك
اليوم ما لا يحصى من الكلاب ، حتى قيل انهم
قتلوا في ذلك اليوم فوق الخمسمائة كلب على
ما أشيع . وصار العياق يمسون الكلاب من
الحرارة والأزقة ويمتلونها شر قتلة ، وصاروا
يعلقونها على الدكاكين ، ولم يعلم ما سبب ذلك .
ثم أشيع بأن عادة التراكمه في بلادهم باسطنبول
إذا كثرت عندهم الكلاب في المدينة يقتلون منها
جانبا كبيرا في أيام الحماسين ، يزعمون أن بذلك
يخف الطاعون من المدينة ، فصارت عندهم عادة ،
ثم استمر السيف يعمل في الكلاب يوما وليلة حتى

هجت الكلاب مما دهاها الى الترب والصحراء .
وقد قلت فى المعنى :

تأملوا ما جرى بمصر
من حادت عم بالعذاب
فسا رعى الترك فى دماء
فكيف يرعوا دم الكلاب !

فلما تزايد الأمر فى قتل الكلاب ، طلع الزينى
بركات بن موسى المحتسب الى ملك الأمراء خاير
بك وشفع فى الكلاب من القتل ، وقال لملك الأمراء
لا نتعرض لقتل الكلاب لأن أربك أمير كبير نعرض
لقتل الكلاب التى كانت بالأزبكية ، فلم يعش بعد
ذلك غير سنة واحدة ومات ، فرجع ملك الأمراء
عن قتل الكلاب ، ونادى فى القاهرة بأن يرفعوا
القتل عن الكلاب ، وكل من قبض على كلب يطلفه
الى حال سبيله . فدعا الناس للزينى بركات بن
موسى الذى شفّع فى الكلاب من القتل ، ثم سكن
الاضطراب الذى كان بالقاهرة بسبب قتل
الكلاب .

وفى هذه الأيام أشيع أن ملك الأمراء أخذ فى
أسباب تحصين القلعة وسد منها أبوابا ، وحصن
الأبراج التى بها وركب عليها المكاحل ، وشرع فى
عمل عجالات وعمل مكاحل ومدافع ، وعمل شتاب
ولم يعلم ما سبب ذلك .

ثم أشيع أن ملك الأمراء أحضر مصحفا شريفا
وأحضر الأمراء العثمانية الذين بسصر وحلفهم
بأنهم لا يخونونه ، ولا يغدروه ، وأن يكونوا
هم وإياه على كلمة واحدة . ثم انه حلف الأمير
قايتباى الدوادار بمعنى ذلك ، فأقام الأمراء فى
القلعة على ذلك الى بعد الظهر وهم فى ضرب
مشورة بينهم .

ومن الوقائع الغريبة أنه فى يوم الثلاثاء سادس
عشره وقعت فادرة ، وهى أن شحسا ظهر بالنحارية

وزعم أنه السلطان قانصوه الغورى ، وصار يفسد
عقول الفلاحين ، ويقول لهم أنا السلطان الغورى ،
وصار يكتب كتباً ويرسلها الى مشايخ العربان ،
وهى مخلقة بالزعران ، تسدق غالب الناس بأن
السلطان الغورى قد ظهر وهو فى قيد الحياة ،
فامتلات القاهرة بهذه الاشاعة . فلما قويت أخبار
هذا الرجل ارسل ملك الأمراء بالقبض عليه من
الحارية فقبضوا عليه ، واحصروه بين يدي ملك
الأمراء . فلما مل بين يديه عرفه ، وكان نصب عليه
قبب ذلك وهو نائب وادعى انه قانصوه خمسمائة
الدى تسطن ، وأفسد عقول الناس أيضا بحلب .
فصر به ملك الأمراء فى حلب ، بالمقارع وفتح انفه
ثم أتى الى مصر وأشاع أنه الأمير محمد بك قريب
السلطان الغورى الذى قتل فى عزاة الفريج . وقد
نصب بسبب ذلك واحد من الشاف ومسيح
العربان جلسة تقادم . وقد قرب الى عقولهم أنه
الامير محمد بك قريب السلطان ، بسبب عليه
السلطان الغورى وصر به وسجنه بالمقشرة ، فأقام
بها مدة . وفيل كان أصله من القواسمة ببعض
جهاز دمشق . فلما سافر السلطان الغورى الى
حلب واستقر الأمير طومان باى الدوادار نائب
العيه أطلقه من المقشرة مع جلسة من أطلقه ، فلما
ادعى أنه السلطان الغورى وقبض عليه ملك الأمراء
خاير بك وقال له : « أنا ما قطعت أنفك فى حلب
وقلت لى انى نبت عن الكذب على الملوك » . ثم
انه رسم بتكليه على باب الشعرية ، فنزلوا به من
القلعة وربطوا رجله فى ذنب أكديش ، وصار
يسجبه على وجهه الى باب الشعرية ، والمشاعليه
تنادى عليه : هذا جزاء من يكذب على الملوك .
فرجت له القاهرة فى ذلك اليوم . وكان يوما
مشهودا فى الفرجة عليه ، والناس تقول قد مسكوا
السلطان الغورى . فلما وصل الى باب الشعرية
كلبوه على الباب بين البرجين ، فاسس مكلبا ثلاثة

أيام لم يست . فلما بلغ ملك الأمراء أنه لم يست
الى الآن ، رسم بأن ينزلوه ويوسطوه ، فأنزلوه
ووسطوه عند باب الشعريه في مفرق الطرق ، بعد
أن فاسى أنواع العذاب ، ودفنوه ومضى أمره
وكفى الناس شره .

وفيه كاتب كائن الشيخ أبرك الرومى ، وفسد
تعبير حاصر ملك الأمراء عليه فوصعه في الحديد ،
وهيل صربه بالمقارع ، وأتبع أنه فسد شنه فشفع
فيه بعض القصر . ولم يعلم ما دمه حتى يعبر حاصر
خاير بك عليه . وقد اختلف الأقوال في أمره ،
ولان عنده حصر راند في الألابر ، واحصر الامر
وقع في هذه الكائنه المهوله

وفي يوم الأربعاء سابع عشره نزل ملك الأمراء
من القلعه ، وغدى الى الروحه واقام بالمقياس ،
ولان صحبتته الأمير قايباى الدوادار وجماعه من
العثمانيه ، وأضافهم صياحه حافله . ومد لهم اسمطة
وطوارى . وسبب ذلك أن ملك الأمراء حابر بك
كان يبه وبين الأمير قايباى وحنه ، وقد صار
بعض الوسائط يرمى بينهما العن . ثم ان ملك
الأمراء حابر بك حلف الأمير قايباى الدوادار على
مصحف شريف بان يكون هو واباه على كلسة
واحدة ، ولا يحون بعضهم بعضا . وقد تقدم
القول على ذلك ، فلما تحالفا راى ما كان يبه من
الوحشه .

وكان نقل الى ملك الأمراء أن الأمير قايباى
الدوادار منفق مع المسالك الجراكسه على زواله
وكانت هذه فتنة من الأعداء . ثم أشيع بين الناس
أن الشيخ أبرك كان يسعى بيهما بالسن وينقل
الكلام الباطل ، فصع ملك الأمراء تلك الوليسه
في المقياس . وعزم على الأمير قايتباى وجماعة من
الأمراء العثمانية ، وأقام ملك الأمراء بالمقياس الى
آخر النهار ، فأرسل اليه الزينى بركات بن موسى
هناك مدة حافلة على رؤوس الجمالين ، وصار كل

واحد من المباشرين يهدى اليه شيئا من المأكول
الفاجر ، وكان يوما سلطانيا ، ثم عاد ملك الأمراء
الى القلعة بعد العصر من يومه .

وفيه حضر شخص من حلب بهلوان ونصب في
بركة الفرع التى بالحسيه صوارى . حلا . رلان
يوم الجمعة ، فاجتمع الجهم الكثير من الحلاق .
فلما صعد على الجبال نهر اشياء غريبه في سعة
البهلوانية وهو واقف على الجبال ، منها أنه نصب
له آدماج وسيه ورمى بالنشاب في السيه وهو
واقف على الجبال ، ومنها أنه مشى على الجبال
وهو مفيد وعيناه مربوطه بخرقه ، ومنها أنه مشى
على الجبل وفي رجله فبقاب وتحتة ألواح صابون ،
ورمى في الادماج وهو واقف على سيوف مسلوطة ،
ومها أنه مى على الجبال مطلوبا وهو معى
العيسين ، وأظهر من هذه الألعاب العجائب
والغرائب... وكان لمصر لمدة طويلة من أيام الأشرف
برسباى لم يدخلها مثل هذا في صنعة البهلوانية .
وكان هذا البهلوان يدعى يوسف ، وفيل انه من
أبناء حلب ، وفيل انه نشأ باللاذقية . وكان شابا
جسيل الصورة وله عبيد علمهم صنعه البهلوانية
يسشون على الجبال أيضا ويظهرون القنون العربية
مثله .

وفيه حضر الزينى طيلان رأس نوبة ، وكان
توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبتة
مصلح الدين بك والتهابى أحمد بن الجيعان ،
وكان أشيع عنه أنه توجه الى اسطنبول مع جملة
من توجه هناك ، فلم يصح ذلك ، وانما كان توجه
الى مكة وحصر من البحر المالح أيضا .

وفيه توفى العلائى على بن طوغان الذى كان
دوادار الأشرف قانصوه خمسمائة ، وكان من
أعيان أولاد الناس ، وكان رئيسا حشما لبن الجانب
سيوسا في أفعاله ، وقاسى في آخر عمره شدة اند
ومحنا بسبب قانصوه خمسمائة .

وفيه حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه ، فلما حضر أشيع بين الناس أن السلطان مقيم بحلب ، وأن شاه اسماعيل الصفوي مسحرك على ابن عثمان ، وهو في جمع كبير من العساكر ، وأن ابن عثمان أخذ حدره منه . وأشيع بين الناس أن نائب الشام جان بردى الغزالي تحايل على ناصر الدين ابن الحنش شيخ الأعراب والبقاع وغير ذلك من جهات دمشق . فلما تحايل عليه ونست حيلته عليه قتله وفصل نحصا آخر من متبايع العربان يقال له ابن الحرفوش . وكان ناصر الدين بن الحنش كثير العصيان على نواب حلب ، بل وعلى سلاطين مصر أيضا . وكان لما ملك ابن عثمان دمشق امتنع من المقابلة به ، فتحايل عليه جان بردى الغزالي حتى أخذه بغتة وقتله وحز رأسه هو وابن الحرفوش ، وأرسل رأسيهما إلى ابن عثمان وهو بحلب ، فعذ ذلك من جيلة سعد بن عثمان ، ولولا تحيل الغزالي على قتل ابن الحنش بحيلة صعدت من يده لما قدر على قتله ابن عثمان أبدا ، وقد عجز عن ذلك سلاطين مصر .

وفيه أشيع أن الخنكار سليم شاه لما توجه إلى حلب أرسل سيدي محمد ابن السلطان العوري إلى اسطنبول من هناك ، وأرسل صحبه آخرين من امرائه يتحفظون به إلى أن يدخل إلى اسطنبول وأشيع أن الخنكار لما دخل إلى حلب أقام بها مدة وحصن سورها وأبراجها وابوابها ، وعسر فيها ما يحتاج إليه من العساة ، وقتل من أهل حارة بالقوسه جساعة من شرار أهلها ، وفيل وزع على جماعة من أعيان حلب مالا له صورة ، وعمل فيهم البطيط ، فلما بلغه أن شاه اسماعيل الصفوي يقصد أن يزحف على البلاد الحلبية أخذ يتلأق خواطر أهل حلب ، ورفع عنهم ما أحدثه عليهم من المظالم . وقد تقدم القول أن ابن عثمان لما كان مقيما بدمشق طرقته قصاد الصفوي على حين غفلة من طريق غير

الطريق السالكة ، وهي أسربة قليلة السالك ، وهي طريق يقال لها الحلويه بالسرب من ندمر ، فما نمر ابن عثمان إلا وهم بين يديه ، فقال لهم : « لم لا آتينهم من الطرق السالكة » فقالوا له ، أن نساه اسماعيل الصفوي أرسل اليك عدة قصاد ، ونوابك الذين في البلاد يستلونها ، فقال لنا : توجهوا من هذه الطريق ، ثم قدموا إليه مطالعة الصفوي ، فأشيع أن مضسونها أنه أرسل يترفق له في المطالعة ، وبعته فيها بعبوب شطيمه بانك ملك البازد والعباد ، وملدت مصر ومصرت خدام العسرين الشريسين ، وأنت الآن اسكندر عسكرك ، والماضي بيننا لا يعاد ، فننوجه أنت إلى بلادك ، وآتوجه أنا إلى بلادى ، ونصون دماء المسلمين بيننا ، ومهما كان فصدك فعلته لك . فلما وقف السلطان على مطالعة الصفوي قال لوررانه . « ان هذه الهدية السى أرسلها إلينا ، وهذا الكلام الذى فى المطالعة كله حيل وخداع ، حتى يبطل عزمى عن مصالاته ويطلقى على حين غفلة ، كما فعلته قصاده » . فتقبل انه أخذ الهدية التى أرسلها ، وقتل القصاد وما أبقى منهم سوى كبيرهم فكان كما قيل فى أمثال الصادح والبالغم : وان من يستنصح الأعداى يردونه بالعش والنساد ثم ان ابن عثمان لما وردت إليه دساد الصفوي وهو بالسام رحل عنها ، وتوجه إلى حلب ، وأحد فى أسباب تحصينها كما تقدم .

وفى جمادى الاولى ، وكان مسنهل الشهر يوم الثلاثاء طلع القضاة إلى التلعة وهنوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا إلى منازلهم .

وفى يوم الأربعاء تأنبه توفيت زوجة الأمير قايتباى الدوادار ، وهى سرية الملك الأشرف طومان باى ، التى تسكنى نال باى ، فلما ماتت دفن فى حوش مدرسه السلطان العورى .

وفي يوم الخميس ثالثه قدم القاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ، وكان توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبة مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، فسببه مصلح الدين وتأخر بعده مدة ثم حصر . فلما حضر طلع الى القلعة وفابل ملك الأمراء فحلح عليه ققطانا احمر مخملا مذهبا ، ونزل من القلعة في موكب حفل وقدامه علاء الدين الامام كاتب السر ، وأعيان المباشرين من ارباب الوظائف ، وركب قدامه نصيب الجيش الشرقي يونس وجماعة من الأمراء العثمانية ، ومن الأمراء الجراكسة . فزيت له حارة البندقانيين وأوقدوا له بها الشموع على الدكاكين ، وتخلقت جماعته بالزعفران ... وكان ذلك اليوم مشهودا في القصف والفرجة .

وفيه رسم ملك الأمراء بالافراج عما بأيدي أولاد الناس والنساء من المربعات التي نانو أوقفوها من أول السنة ولم يعضها المباشررون ، فحصل لأولاد الناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، وعمل المباشررون بجملة مال له صورة ، وأمضوا للناس الافراج عن رزقهم واقطاعاتهم ونفعوا الناس عايه النفع ، ولم يشعر ملك الأمراء بشيء من ذلك .

وفيه وقعت حادثه شنيعة ... وهي أن شخصا من العوام كان أصله مؤذنا ، فدخل في بعض العيطان وفتح عيدان خيار شنبر ووضعها في قفه ، فقبض عليه الخولى وحصل بينهما تشاجر ، فأغلظ عليه الخولى وأتى به الى بيت الوالى وقص عليه أمره ، فطلع به الوالى الى ملك الأمراء وعرضه عليه وهو حامل القفة التي فيها الخيار شنبر . فلما علم ملك الأمراء بذلك ، وكان ملك الأمراء حرج على بيع خيار شنبر ، وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه . ثم ان ملك الأمراء رسم للوالى بشنق ذلك الرجل الذى سرق خيار شنبر ، فأشهره في القاهرة ،

وعلق القفة التي فيها الخيار شنبر في رقبته ، وشق به من القاهرة حتى أتى به الى القنطرة التي بزقاق الكحل فشنقه هناك ، وأقام ثلاثة أيام وهو مصلوب لم يدفن ، وراح الرجل ظلما على بعض عيدان خيار شنبر ما تساوى أربعة أنصاف ، فتأسف الناس عليه كيف راح ظلما على شيء ما يسحق هذا كله . وكان له أولاد وزوجة .

وكان ملك الأمراء يبيت يسكر طول الليل ، ويصبح في خبال السكر يحكم بين الناس بما يقول له عقله ، ولم يظهر العدل في محاكماته قط منذ ولى على مصر .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره ، في تلك الليلة خسف القمر ، وأقام في الحسوف ثمانيا وأربعين درجة .

وفيه أنفق ملك الأمراء الجامكية على الأمراء الطبلخانات ، وعلى الأمراء العشروات ، وعلى المماليك الجراكسة ، فأعطى الأمراء الطبلخانات كل واحد أربعين دينارا ، وأعطى الأمراء العشروات كل واحد منهم خمسة وعشرين دينارا ، كما أنفق عليهم في الشهر الماضى . وأنفق على المماليك كل واحد منهم ألفى درهم على العادة . وأنفق على أولاد الناس ممن نزل اسمه في الديوان ، فأنفق على العسكر جامكية شهرين كانت منكسرة لهم في الديوان من غير لحوم ولا علق .

وفي يوم السبت تاسع عشره توفيت والدته الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكانت لها جنازة حافلة . وفي يوم الأحد عشره وقعت حادثه مهولة ، وهي أن ملك الأمراء خاير بك كان عين جماعة من الانكشارية والاصباهية أن يسافروا الى الخنكار بحلب صحبة مصلح الدين . فلما قصد مصلح الدين السفر هربت الانكشارية والاصباهية في تلك الليلة ، وكسروا أبواب القلعة ونزلوا منها على

حمية ، وتوجهوا الى مصر العتيقة ، فنزلوا في المراكب الكبار ، ثم أخذوا جماعة من النواتية وسافروا في المراكب ، وفصدوا أن يشوجهوا الى جهة الصعيد .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل يقول للأمير قايتباي الدوادار : اخرج في هذه الساعة وسافر خلف الانكشارية ، وكل من ظفرت به منهم اقلته . فصلى الأمير قايتباي صلاة الصبح وركب وخرج على حمية ، وصحبته الأمير جانم الحمراء ، والأمير على العثماني ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، وجماعة من العساكر العثمانية ، فعدوا الى بر الجيزة وأقاموا فيه ذلك اليوم حتى تكامل خروج العسكر ، وخرجوا أفواجا أفواجا ، فرجت لهم القاهرة في ذلك اليوم وكثر القال والقيل في ذلك اليوم بين الناس بسبب ذلك ، واضطربت أحوال العثمانية في بعضهم ، وصاروا فرقتين : فرقة مع ملك الأمراء ، وفرقة معهم عليه

ثم ان الأمير قايتباي رحل من الجيزة هو والعسكر وتوجه الى نحو الميمون بالقرب من جزيرة بنى على ، فتلاقوا هنالك مع الانكشارية والاصباية الذين هربوا هناك .

ثم ان الزينى بركات بن موسى المحتسب رسم له ملك الأمراء خاير بك بأن يتوجه الى مصر العتيقة ويمسك مراكب ، ويرسل فيها رواده بالأمراء والعسكر الذين توجهوا الى الميمون . فأوسق عدة مراكب فيها زوادة ما بين بسماط وجبس حالوم ورز وسمن وعسل وغير ذلك من الزوادة . وأرسل ذلك الى العسكر .

ثم في يوم الأربعاء ثالث عشرية وردت الأخبار بأن الأمير قايتباي الدوادار قد انتصر على الانكشارية والاصباية الذين هربوا ، فلما تلاقوا

معه عند جزيرة بنى على تصدى الى قتالهم الأمير جانم الحمراء والأمير على العثماني . فحاصر الانكشارية في المراكب . ورموا عليهم بالمدافع والبندق الرصاص ، فأحرقوا مراكبهم ، فطلبوا الأمان من الأمير على ، والأمير جانم الحمراء وقد وقع غالبهم في البحر فعرق من عرق ، وفبصوا على الباقي وأسروهم ، فحزروا رؤوس جماعة منهم ، ودانوا نحو ستة وثلاثين رأسا ، وأسروا الباقين بالحياة . ثم ان الأمير قايتباي أرسل تلك الرؤوس والأسارى الى ملك الأمراء في مراكب ، فلما طلوعوا بها علقوها على مدارى كما فعلوا برؤوس الجراكسة ، والمجازاة من جسس العمل ، فلما طلوعوا بهم الى القلعة قصد ملك الأمراء أن يعلى تلك الرؤوس على ابواب المدينة فشق ذلك على بنية العثمانية ، ومسعوا ملك الأمراء من ذلك . وأما بقية الانكشارية الذين أسروا بالحياة فقطعوا رؤوسهم اجمعين ، فليل كانت عدة الانكشارية الذين ملوا والدين هربوا والذين عرقوا نحو مائة وخمسين انسانا .

ومن العجائب أن التراكمه كانت في العام الماضي تقتل أولاد الجراكسة ، فعما قريب صارت المماليك الجراكسة تقتل التراكمه في الليل والنهار ، وهذا عجيب ! وقد ورد في بعض الأخبار « لا تكرهوا الفتن فان فيها حصاد المنافقين » ، وقد قيل في المعنى : لا تكرهوا الحرب ان فيه حصاد ندل مع الحبيث فمسنريح ومسراح منه كما جاء في الحديث وفيه خرج مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، الذي قدم من مكة ، فتوجه الى الريدانية ، وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان . وقد أشيع أن ابن عثمان كان قد أرسل خلفه ، فلما أقام بالريدانية نزل اليه ملك الأمراء وودعه ، ثم رجع ودخل من باب النصر وشق من القاهرة في موكب حافل ،

وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة . ثم ان مصلح الدين أقام بالريدانية أياما ثم عاد الى القاهرة ، فأشيع أن سبب ذلك أن قاصد صاحب اليمن قد وصل الى الطور ، وصحبته تقدمه حافلة الى السلطان سليم شاه بن عثمان ، فلما بلغ ذلك ، ملك الأمراء أرسل استرد مصلح الدين الى القاهرة حتى يدخل الى القاهرة قاصد صاحب اليمن ، ويأخذه صحبته مع التقدمه ويمضى الى الخنكار ، فهذا كان سبب رجوع مصلح الدين الى القاهرة .

وفيه رسم ملك الأمراء للقصة بأن يتوجهوا الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ويقرءوا هناك ، ويدعوا الله تعالى بالنصر للسلطان سليم شاه على اسماعيل الصفوى فتوجه فضاء القضاة الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ، وقرءوا هناك ختمة ، وفرقوا أجزاء الربعة على الحاصرين ، فقرءوا أجزاء الربعة عشر مرار ، وأهدوا ثواب ذلك للبنى صلى الله عليه وسلم . ثم الى السلطان سليم شاه ودعوا له بالنصر على الصفوى .

وفي يوم السبت سادس عشره حضر الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير جانم الحمزاوى والأمير على بك العثمانى ، وكانوا توجهوا الى الميمون بسبب محاربة الانكشارية الذين هربوا ، كما تقدم . فلما انتصروا عليهم وقتلوهم رجعوا وطلعوا الى القلعة ، فحلح عليهم ملك الأمراء ونزلوا الى منازلهم .

وفيه حضر الى القاهرة الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وكان لما ظهر أرسل الخنكار طلبه وهو بحلب ، فتوجه اليه هو والأمير قانصوه العادلى ، والأمير تمر باى العادلى ، وأقام عنده مدة ، ثم رسم له بالعودة الى القاهرة ، وكان أشيع بين الناس أن ابن عثمان قرره فى الأتابكية

بمصر . فلما حضر لم يظهر لهذه الاشاعة نتيجة ، واستمر بطالا مقيما بمنزله . ولما حضر حضر بصحبته الأمير شساد بك نائب المهندار ، والأمير جانم الطويل أحد الأمراء العشراوات ، وكان أشيع موتهما بمرج دابق ، فلما ظهر أنهما فى قيد الحياة حضر الى مصر .

وفى آخر هذا الشهر كثرت الاشاعات بأن عربان السوالم قد حضر منهم ما لا يحصى ، وقد فصدوا حرب ابن بقر ، وأظهروا غاية الفساد بالشرقية .

وفى جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الخميس ، فطلع قضاة القضاة الى القلعة وهنثوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس ثامنه رسم ملك الأمراء بقراءة سبع ختمات : واحدة فى مقام الامام الشافعى ، وواحدة فى مقام الامام الليث ، وواحدة فى مقام الشيخ عمر بن الفارض ، وواحدة فى مقام الشيخ أبى الحسن الدينورى ، وواحدة فى مقام الشيخ أبى الخير الكلبياتى رضى الله عنهم أجمعين ، وواحدة فى المقياس ، وواحدة فى الجامع الأزهر . ورسم بأن يهدوا ثواب ذلك للسلطان سليم شاه ابن عثمان ، فانه خرج الى ملاقة اسماعيل شاه الصفوى .

فلما قدم رسول صاحب اليمن ، وعلى يده مقدمة حافلة للسلطان سليم شاه بن عثمان ، استمر القاصد مقيما بالقاهرة الى أن سافر صحبة مصلح الدين ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفى يوم الأحد حادى عشر هذا الشهر طلع ابن أبى الرداد بيشارة النيل وأخذ قاع النيل فجاءت القاعدة ست أذرع وعشر أصابع أنقص من السنة الخالية بذراعين وست أصابع . فانه كانت القاعدة فى السنة الخالية ثمانى أذرع وست عشرة أصبا .

وفي يوم السبت سابع عشره ،لبرقت ملك الأمراء
أخبار رديئة ، بأن عربان السوالم قد طغست حتى
وصلت الى بركة الحاج ، ووصل أوائلهم الى
المطرية . فلما بلغ ملك الأمراء ذلك تنكد ، وأرسل
الى الأمير قايتباى الدوادار يقول له : « اخرج فى
هذه الساعة ، واطرد العربان » . فخرج من يومه هو
والماليك الجراكسة وجماعة من العثمانية ، ورماة
من الانكشارية ، فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم ،
فخرجوا وهم سائقون الى بركة الحاج . فقبل
حاصل بين الترك والعربان عركة يسيرة ، فقتل فيها
جماعة من العربان ، وأسروا منهم جماعة ، وقطعوا
رعوس أربعة . ثم رجع الأتراك بعد المغرب وقد
وقعت خيولهم وبعض منها تفرقع من العطش ،
وما رأوا خيرا ... فهربت العربان من وجوههم
وصعدوا الى الجبل .

ثم رسم ملك الأمراء بشنق من أسر منهم على
باب قطرة الحاجب ، وعلقوا عليه تلك الرعوس
التي قطعوها من العربان ، وقيل قتلوا من الأتراك
جماعة ورجعوا من غير طائل من العربان .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره وقعت حادثة
شنيعة ، وهى أن شخصا يقال له حسين وكان
طشتدار عند الأمير نوروز أحد الأمراء المتقدمين ،
ثم بقى فى طشتخانات السلطان الغورى ، وهو رجل
شيخ مسن زعم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم
فى المنام ، وقال له امض الى سليم شاه بن عثمان
وقل له يرجع الى بلاده ويكف القتال عن المسلمين
بسبب اسماعيل شاه الصفوى . وادعى أن ابن
عثمان دفع اليه مالا له صورة فلم يقبله منه . ثم
ان ذلك الرجل ذهب الى ملك الأمراء خاير بك
وقص عليه تلك الرؤية فتهاون خاير بك بكلامه .
ثم أن ذلك الرجل قال لملك الأمراء : « ارجع عن
مظالم العباد أنت والمباشرون ، خربتكم مصر بظلمكم »
ثم سب المباشرين بحضرة خاير بك سبا قبيحا ،

وقال لبركات ابن موسى أنت لو حججت فى هذه
السنة ما يقبلك النبى صلى الله عليه وسلم . فلما
تزايد فى القول حنق منه ملك الأمراء ، فأمر بضرب
عنقه فضرب عنقه فى الميدان . وقيل ان ذلك الرجل
تكلم بكلام كثير ، وأظهر أنه كشف له عن أمور
تأتى فى أواخر هذه السنة من الأهوال ، فان كان
صادقا فيما قاله وادعاه من هذه الأخبار التي ذكرها
فسوف تقع ، ويظهر أثره أو صلاحه أو كذبه .

وفيه أشهر ملك الأمراء النداء فى القاهرة بأن
لا أحد من الحجاج يسافر فى البحر المالح ، ولا
يرسل له أحمال من البحر ، وموجب ذلك فساد
العربان فى الطرقات ، وعبث الفرنج فى سواحل
البحر المالح .

وفي يوم الخميس ثانى عشره خرج مصلح الدين
خازندار ابن عثمان وتوجه الى نحو الريدانية ،
وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان ، فخرج وقت
صلاة الصبح وصحبته الأمير قايتباى الدوادار ،
وأعيان المباشرين ، والأمراء العثمانية . فكان له
موكب حافل .

ثم خرج بعده مقدمة حافلة أرسلها ملك الأمراء
الى الخنكار هو وولده سليمان بك الذى
باسطنبول . فكان ما اشتملت عليه تلك المقدمة
من الخيول أربعين فرسا خاصات عليها عبي فلعى ،
يصحبها أربعون فرسا من الأكاديش ، واثنتان
وأربعون جملا محملة قماشا محزومة ، قيل صمها
تفاصيل سكندرية ، وأبدان منزلاوية ، وقماش
فارسكورى ، وغير ذلك من شاشات وأرز ، وغير
ذلك من مقاطع خمسينى ، وخام رفيع وغير ذلك ...
ومن جبلتها أربعة وستون جملا محملة سكرا
ضمن صناديق جريد بأغشية لباد أبيض . قيل
جملة ذلك أربعمائة قنطار . وقيل أن ملك الأمراء
كرر السكر ثانيا وجعل فيه المسك والعنبر الخام .

ومن جملة التقدمة جبال محملة عصفرا وحذاء وغير ذلك ، ومن جملة التقدمة أحبال شفاف خضراء مرطبات أشربة مربى .

وأشيع أن ملك الأمراء أرسل الى الخنكار ابن عشان جبالا عليها مال من حراج مصر عن سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ولم يعلم ما قدر ذلك . فلما مضت مقدمة ملك الأمراء طلع في عقيب ذلك مقدمة صاحب اليمن ، وهي مقدمة حافلة تشتمل على شاشات وأرز وتحف ومعادن ولؤلؤ وفصوص وطلاشية وغير ذلك . فلما مضت مقدمة صاحب اليمن ، طلعت مقدمة الأمير على بن عمر صاحب جهات الصعيد ، وهي مقدمة حافلة منها مائتا فنطار سكر ، ورقيق ما بين عبيد وجواري وخيل وجمال ، وغير ذلك أشياء حافلة تصلح للسلوك .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره رحل مصلح الدين من الريدانية ، وتوجه الى الخانقا . وأشيع أنه لما كان مصلح الدين بالريدانية سرق من تحت رأسه بقجة قماش قيل ان فيها مبلغا له صورة .

وفي يوم الجمعة المذكور طرقت ملك الأمراء أخبار رديئة ، بأن حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، والتفت عليه عربان قبائل البحيرة وغيرها . فلما تحقق ملك الأمراء صحة هذا الخبر نزل الى الميدان قبل صلاة الجمعة وعرض المماليك الجراكسة ، والعسكر العثماني . فكتب من الفريقين نحو خمسمائة انسان ما بين انكشارية ورماة ، وعين صحبتهم عشر عجلات تكون قدام العسكر ، وعين الأمير قايتباي الدوا دار باش المماليك الجراكسة ، وعين أمير آخور باش العثمانية .

وفي هذه الأيام اضطربت أحوال ملك الأمراء جدا ، وقد بلغه أن العربان طردوا اسمعيل بن الجبويلي عن أرض البساط وملكوها منه ،

واضطربت أحوال الغربية الى الغاية ، واضطربت أيضا أحوال الشرقية بسبب عربان البحر . وعبد الدائم بن بقر واخوته ، واضطربت أيضا أحوال جهات الصعيد ، وقد ضاعت مصالح المسلمين بينهم . وخرب من الشرقية والغربية عدة بلاد ، وظهر الفساد والفتن برا وبحرا . والأمر لله تعالى .

وفي يوم السبت رابع عشره أرسل شكر أخو حسن بن مرعى شخصا من أقاربه يطلب الأمان له من ملك الأمراء ، فأرسل اليه ملك الأمراء مندب الأمان وصورة حلف على يد القاضي فخر الدين ابن عوض ، وأرسل اليه ققطان حرير مخملا . وخلع على شخص من أقارب حسن بن مرعى الذي جاء يطلب الأمان من ملك الأمراء .

وفي يوم الأحد خامس عشره خرجت التجريدة التي كانت تعينت الى حسن بن مرعى ، وكان باش العسكر أمير آخور أخا ملك الأمراء وصحبته جماعة من العثمانية ما بين انكشارية ورماة بالبندق الرصاص ، وخرج صحبة العسكر تلك العجلات التي عينت لهم ، وكانت عدتها عشر عجلات ، وخرجت طائفة من المماليك الجراكسة وتوجهوا الى البحيرة وصحبهم الأمان والخلعة الى شكر بن مرعى .

وفي هذا الشهر وردت الأخبار من مكة بأن عدة مراكب فيها افرنج يعبثون في البحر المالح ويقطعون الطريق على المسافرين في البحر . وأرسل السيد الشريف مطالعة الى ملك الأمراء بأن يرسل له تجريدة بسرعة ، وقد خشي على بندر جدة أن تفرقه الفرنج على حين غفلة ، ويملكوه من المسلمين .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره نزل ملك الأمراء الى الميدان الذي تحت القلعة ، وعرض العسكر ،

وعين منهم جماعة يسافرون الى جادة بسبب حفظ البندر . فلما عرض العسكر كذب منهم جماعة ما بين جراكسة وأولاد ناس رماربة وغير ذلك . وكان مجموع ما كتبه من العسكر في ذلك اليوم نحو مائتين وخمسين انسانا ، وأنفق في ذلك اليوم على طائفة المغاربة على حكم ما كان ينفق عليهم السلطان الفورى . فنزلوا من القلعة ، وشرعوا في أسباب عمل برقتهم الى السفر ، وأما بقية العسكر فلم ينفق عليهم شيئا . وقد صبر حتى يرد عليه من مسكة خبر آخر في أمر الفرنج ينسده عليه .



وفي شهر جيب وكان مستهله يرم الجبعة طلع القضاة الأربعة وهنأوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى دورهم .

وفي يوم الاثنين رابعه حضر جان بك دوا دار الأمير قايتباى ، والأمير بخشباى فرا الذى كان شاد الشون ، والقاضى عبد الفتاح وآخرون من المباشرين . وكان هؤلاء توجهوا بسو الشريه بسبب أنهم مسحوا جهات الشرقية ، وميزوا الشراقي من الرى ، ومسحوا الأقطيع والرزق ، وعملوا بالبائع والذراع فى الشرقية ، وجاروا على المقطعين فى المساحة . ثم انتقلوا من الرزق والأقطيع الى جهات الأوقاف فمسحوها ، وصاروا ينزلون الى البلاد ويفردون عليها المال ، ويضعون الفلاحين فى الحديد بعد الضرب المؤلم ، ويقررون على كل بلد ما يختارونه من الأموال . فجبوا من الشرفية فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينار ، وخرب فى هذه الحركة غالب بلاد الشرقية ، ورحل منها الفلاحون . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الناس ، فعمت هذه الحادثة أصحاب الرزق والأوقاف من الرجال والنساء حتى الأرامل والأيتام والمستحقين ، وقد تعطلت الأوقاف بسبب ذلك . وكان هذا كله بواسطة ملك الأمراء خاير بك فانه

كان سببا لذلك ، فعند هذا من جملة مساويه فى حق أهل مصر ، وحصل فى هذه الحركة غاية النفع للمباشرين الذين تكلموا فى أمر هذه المساحة بالشرقية . والأمر لله وحده .

وفي يوم الاثنين حادى عشره أشهر ملك الأمراء خاير بك المنادة فى القاهرة بأن الممالك الجراكسة لا يلبسون زنوطا ، ولا يشنون بقباقيب فى الأسواق ، ولا يجلسون على المساطب فى الحارات ، ولا على أبواب الجوامع ، وكان ملك الأمراء سامح لهم أولا فى ذلك ، ثم ضيق عليهم ومنعهم من هذه الأفعال فيما بعد .

وفي يوم السبت سادس عشره رسم ملك الأمراء بشنق شخص عجمى فشنق ، وكان هذا الشخص ناجرا فى سعة من المال ، فلما حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بمال له صورة طمع ملك الأمراء فى ماله وزعم أنه جاسوس من عند شاه اسمعيل الصفوى حضر ليكشف عن مصر وأحوالها ، ويطالع الصفوى بذلك . فشنقه ظلما ، واحتاط على جميع أمواله ، وجعل له ذنبا أنه جاء من عند الصفوى جاسوسا . وفي يوم الأربعاء عشريه حضر شيخ العرب شكر أخو حسن بن مرعى شيخ جهات البحيرة صجبة القاضى فخر الدين بن عوض ، وقد تقدم القول بأن ملك الأمراء كان أرسل له منديل الأمان على يد ابن عوض ، فأطاع وحضر الى القلعة وقابل ملك الأمراء فخلع عليه قفطان حرير ونزل من القلعة وتوجه ليحضر أخاه حسن بن مرعى ، فتوجه الى نحو قليوب وصحبته القاضى بركات المحتسب ليحضر حسن بن مرعى ، وأرسل له ملك الأمراء منديل الأمان على يد القاضى بركات المحتسب .

ثم فى أثناء ذلك اليوم حضر حسن ابن مرعى ودخل القاهرة وعلى رأسه منديل الأمان ، وصحبته جماعة من العثمانية ، وأمير آخور أخو ملك الأمراء ، والزينى بركات المحتسب ، وفخر الدين

ولما توفي الشيخ بدر الدين الزيتوني رثاه
ولده القاضي بدر الدين محمد بهذه القطعة الزجل
اللطيفة وهي قوله :

يحق لى أن أرثى لمسوت والدى
كان أفصح النظام وعقلو رجيج
فى درج الأكفان للقياما اندرج
واجب على ففدو بعزمى أصيح
كان والدى فى فن الأزجال تقصدوا
حفاظ مصر والكل بيه يقتنون
وفى جسيم العلوم مالو نظير
فقيه مدرس فى جميع الفنون
يدرى الأصول والنحو معرب خطيب
ومنطقى فى الصرف عاقل مصون
جا الموت خدو وأصبحت بين الورى
فريده وجسيم الناس بحزنى تيسح
وينسذبوا هسى عليه بالفراق
وما جرى من جفن عيني الفسريح
قوموا بنا جيع الموالى والصحاب
نرتى الذى قد كان وكان فى الدهور
زين الوجود مالو وجود فى الورى
عارف بفن الشعر والكل زور
أصحابنا زيدوا النبواح والنحيب
على أديب يدري أصول البحور
مثلوا ما حد يحسن زجل فى الأنام
ولا موشح لو ودوييت صحيح
والفرو ظاهر مثل صبح الدجى
ما بين قاضى الكل والزمير ريج
كان فى الأدب ناظم وناثر فصيح
وقد حوى جملة محاسن ملاح
ان ملت فى التحرير حريرى النظام
بل سيدو لما تعدد الفصاح

ابن عوض ، وجماعة كثيرة من العربان . فشق من
القاهرة ومنديل الأمان على رأسه . فلما طلع الى
ملك الأمراء بالقلعة وفابله خلع عليه ققطانا محملا
مدهبا ، ونزل من القلعة فى موكب حافل .

وكان أشيع أن ملك الأمراء سيفبص عليه ، فانه
وفع فى ذنب عظيم . وسبب ذلك أنه كان مسجوناً
بالقلعة من حين قبض عليه الخنكار وسجنه بها ،
فتسحب من هناك ليلا وهرب ، واستمر فى عصيان
وهجاج مدة طويلة ، وكثر النيل والقال بسببه ،
والنف عليه جساعة كثيرة من عربان الغريبة . فلما
طلع وقابل ملك الأمراء وخلع عليه بطلت تلك
الاشاعات التى كانت تشاع بين الناس بسبب
عصيانه .

وفى يوم الاثنين خامس عشرى شهر رجب ،
كانت وفاة صاحبنا الشيخ بدر الدين محمد بن
محمد الزيتوني العوفي رحمة الله عليه ، وكان أحد
نواب السادة الشافعية ، وكان فاضلا عارفا بصحة
القضاء والتوقيع ، ماهرا فى الخطب . وكان فكه
المحاصرة كثير العترة للناس . وكان علامة فى فن
الزجل . وكان يظم الشعر على فنون ، وهى الشعر ،
والدوييت ، والمواليا ، والموشحات . وكان له شعر
جيد ، ونظم أرجوزة مفيدة فى الفقه وشرحها شرحا
على الأوضاع مفيدا فى معناه . ومن شعره الرقيق
قوله ملغزا فى اسم حسرة :

يا سائلى عن اسم من خدوده كالغندم
فى خدوده وثغره وفى مؤادى المعرم
وكان مولده سنة احدى وثلاثين وثمانمائة ،
وذلك فى شهر شعبان فى سادسه . فكانت مدة
حياته أربعاً وتسعين سنة الا يوما . فلما مات حضر
القضاة الأربعة وصلوا عليه ، وكانت له جنازة
حافلة ، ودفن بحوش ربة الصوفية ، رحمه الله
تعالى .

أو عنتر العبي نهار المجال
أو نشر حاتم طى عند السماح
وما لشماخ رقتوا في البديع
وقس ما ينقاس بنطقو الفصيح
وسائر الحفاظ تراهم لديه
ما يقتدوا الا بقولو الصحيح
يا من روى الأخبار كان والدى
مختص بالآداب وكان لى مفيد
مفتاح لباب الرزق للضيق فرج
وجهو سرور كعبو مبارك سعيد
مختار لفعل الخير بشير الفرح
مرشد ومحسن كل ما فيه مليح
ياقونيس الخط وبجوهراتى
فرقو صباح ظاهر ووجهو صبيح
كان آخر النظام وبحر العلوم
وروض تربه زاهر بديع الصفات
وتقلدان مع راح وريحان وروح
جمع ضريحو ذى المعانى الشتات
كيف لا أحرك للضريح ساكنى
وأبكى عليه طوال الحيا للممات
ومشتكى خزنى وروضى الترب
والنقل والراح الذى لى يريح
والروح والريحان وما قد عدم
من الوجود موجود بذاك الصريح
بعدو على الدوم قد الفت النواح
والحزن عن يعقوب ورتت النحيب
أصبحت من ما نوح سفينى غريق
والدمع طوفان ما طفا لى لهيب
يارب هب لى صبر أيوب عليه
وارسل اليه رحمه بظه الحبيب
قلبى من أجلو صار بحزنى كليم
والدمع لو فى صحن خدى مسيح

ونا غريق معروق بنار الخليل
وشبه اسماعيل بحزنو ديبح
قد نظم الجوهر بتأليف كتاب
حاوى لوم الفقه سهل البيان
وقد شرح لو شرح واضح مفيد
وصار لو بيه تذكرا بطول الزمان
وقال ذخيرة لى ليوم النشور
أسكنه ربى فى فسيح الجان
دار النعيم فيها مقيم لم يزل
ما بين أشجار وكونر بسبح
والحور والولدان وما يستتبه
من الفواكه مع مهام فسيح
ونا ابن ريسوى عريق النسب
يا رب الارباب يا لطيف نا حبير
اجبر بطفك كسر قلبى الحزين
يا جابر العظم الرميم الكسير
واعطف على بحنو الورى
وما نعر فاجعلولى يسير
مدح المجد للخلائق شما
به يهتدى قلبى وبو أسريح
ونا أريد أمدح محمد عسى
يطمى لهيبى واهتدى بالمديح
صلوا على المختار حبيب الاله
من أرسلو الله للخلائق شفيح
يوم القيامة والخلائق زمر
ياتوا لآدم يقول ما أستطيع
اشفع تشفع فى أمتك يسمع ال
مولى ويغفر كل ذنب قبيح
ويدخلوا الجنة كذا قد ورد
عن النبى مسند حديث صحيح

وفى هذا الشهر توقف النيل وسلسل فى الزيادة ، وصار يزيد فى كل يوم أصبعا ، وقارة اصبعين . وقد مضى من مسرى شتره أيام ولم يصل النيل الى عشر أذرع . فاضطربت احوال الناس فى تلك الأيام ، وتشحطت الغلال . وبلغ سعر البطة الدفيق اثنتى عشر بصفا ... فعند ذلك رسم ملك الأمراء بأن يزل الوالى ويلبس الروضة ، فنزل هو وجماعته من الأمراء العثمانية وكبس الروضة ، وفك الحيام الى كات بهب . وشهر لمناداة هياك بأن لا أحد تتجهر بالمعاصى ولا يجمع جموعا ولا ينصب حيمه على شاطئ البحر ، ومن يفعل ذلك ينسحق على باب داره من غير معاودة فى ذلك . فانكف الناس عن التجاهر بالمعاصى بالروضة ، فنزل فى ذلك اليوم غالب الناس من الروضة .

وفى شهر شعبان - وكان مستهله يوم الأحد - طلع القضاة الأربعة ، وهنوا ملك الأمراء بالسهرة ، ثم عادوا الى دورهم

وفى يوم الاثنين تاسع الشهر كانت وفاة الشيخ الصالح الفط العارف بالله تعالى ، الورع الزاهد الناسك . تسبح محبى الدين عبد القادر ، ابن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى حسن ، ابن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى بدر الدين ، المدعو شرف الدين موسى الدشوطى ، رحمه الله عليهم أجمعين . وكان الشيخ عبد القادر شافعى المذهب مجذوبا واعيا . وكان مكشوف الرأس ، وكان دائما شعره فى رأسه وعلى جسده حبة خشنة دائما . وكان سواحلا لا يتخذ له سكنا ولا زوجة ولا ولدا ولا عيالا . وكان تتعدى بالقرايش والزعر دائما . وكان لا يأكل طعام اللحم الا قليلا . وكان مهيبا معظما عند الملوك والسلطين وأعيان

الناس ، وكانت رسالته عندهم لا ترد . وكان فى أواخر عمره حصل له كفاف فى عينيه واستمر على ذلك حتى مات . وقد عاش من العمر نحو ثمان وثمانين سنة أو فوق ذلك .

وكان محببا للناس ، وكانت النذور التى تدخل عليه من عند الأكابر تنتهى بها جوامع بخطيب ومساجد . وله عدة جوامع ومساجد فى أماكن شتى . ولما توفى ارجب له القاهرة ، ونزل ملك الأمراء والعثمانية والامير فايتباى الدوادار والقضاة الأربعة وأعيان الناس وآرياب الدولة ، وخرج نعشه من بيت المعلم حسن الصياد المهندس خارج باب الشعرية ، ورفعت له الأعلام على نعشه ، وحضر أطفال المكاتب وعلى رؤوسهم المصاحف ، ومشوا حول نعشه ، واستمر على ذلك حتى وصل الى مدرسته التى أنشأها تجاه سيدى يحيى البلخى فدفن بها . وكانت جنازته حافلة ، رحمة الله عليه ، وكان بفيه السلف من الأولياء .

وفى هذا الشهر قبض ملك الأمراء على يوسف البدرى الوزير ، ورسم عليه وعلى زوجته وعلى عياله وعلمانه وحاشيته ، وقرر على يوسف البدرى مالا له صورة ، وعلى زوجته وجماعته . وتمادى أمره فى المصادرة حتى ذهب ما بملكه جميعا من صامت وناطق ، حتى باع أثاث البيت من قطارميز وزلع . حتى الحصر وغير ذلك ... واستمر فى المصادرة نحو شهرين هو وزوجته وهما فى الترسيم وغياله ، وآخر الأمر أرسلوه الى اسطنبول . وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفيه نادى ملك الأمراء فى القاهرة للمباشرين والعمال بأنهم لا يستخرجون من بلاد الشرقية والغربية عن سنة أربع وعشرين وتسعمائة شيئا الا بمرسوم من عند ملك الأمراء ، فاضطربت أحوال

المسلمين والمباشرين . وكثر بينهم القليل والقال بسبب ذلك .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره ، الموافق لسابع عشرى مسرى ، وفى النيل المبارك السب عسرة ذراعا ولم يزد من الذراع السابعة عشره شيئا ، فلم يفتح السد فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت رابع عشره ، وفى النيل المبارك وزاد اصبعاً من السابع عشر ففتح السد فى ذلك اليوم . فلما وفى نزل ملك الأمراء وتوجه الى المقياس وخلق العمود ، ومد هنالك مداه حافله . وحضر الأمراء العثمانية ، ثم نزل فى الحراسة وصحبته الأمراء العثمانية ، وتوجه الى السد وفتحه ، وكان يوما مشهودا ، واوكب وهو طالع الى القلعة موكبا حافلا . وكان وفاء النيل فى هذه السنة على غير القياس ، لأنه كان نيلا شحيحا ، وسلسل فى الزيادة وتوقف أياما وتشحطت أسعار الغلال جميعها ، ثم وفى بعد ذلك ففرح به كل أحد من الناس ، وكان الأمر كما قاله المعمار :

النيل وفى وزال الهم وانفجرت

عنا الهموم وهان القسح ثم رمى

وراح خزانه للنيل ينظره

فاستكثر الماء فى عينيه ثم عمى

ومن الحواث فى يوم وفاء النيل أن شحضا من العثمانية غرق فى البحر ، فتأكد ملك الأمراء والعثمانية بسببه .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره حضر قاصد من البحر من عند الخنكار ابن عثمان ، ولم يعلم ما قد جاء فيه ، وما سبب مجيئه . وكثر القيل والقال فى ذلك ، ثم ظهر من بعد ذلك ما جاء بسببه ، وسنذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ولما فتح السد وجرى الماء فى الخليجان ، لم

تسكن البيسوت فى الجسر ولا التى فى المصطاحى ولا حكر الشامى فشكا أصحاب الأملاك من ذلك الى والى القاهرة ، فنادى للناس فى الجسر بأن يسكنوا وعليهم أمان الله تعالى ، والذى لا يسكن فى بيته ولا بعمره يضرب عليه ملك الأمراء رنكه ويصير ملكه ، فصار يكرر تلك المناداة للناس ثلاثة أيام متواليه . فسكن فى الجسر بعض بيوت ، ودخل بركة الرطلى بعض مراكب البياعين .

وأما الجزيرة الوسطى فانها خربت عن آخرها ولم يبق منها غير الجدر ورسوم البيوت لا غير ، وابناع أصحاب الأملاك ييونهنم نقاصا . وكان السلطان الفورى سد خليج الزريه بجسر عند قنطرة موردة الجبس ، فتلاشى أمر الجزيرة الوسطى من يومئذ ، وخلت بيوتها من السكان ، وكانت من أجل متفرجات الديار المصرية . وكان مبتدأ منشئها فى دولة الأشرف اينال سنة اثنتين وستين وثمانمائة ، ولا زالت الناس تنشى فيها الأملاك الجليلة الى سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فتلاشى أمرها وخربت جملة واحدة لما دخل ابن عثمان الى القاهرة وجرى منه ما جرى ، ونزل فى بر الجزيرة على رهلة البحر ، فصار عسكره بحرب بيوت الجزيرة وبأخذ سقوفها وأبوابها وطفانها ، فخربت بالكلية من يومئذ ، وانقطع الرجاء من عمارتها ثانيا . والأصل فى ذلك أنها أسست على غير تفوى ، وكانت بقعة فسق وزنا ، فآل أمرها الى الحراب سريعا .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرى هذا الشهر - وافق ذلك اليوم يوم النوروز - والنيل فى ست عشرة ذراعا ، ولم يدخل فى الذراع السابعة عشرة وكان من مبتداه الى انتهاء نيلا شحيحا .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره توفي سودون نائب
دمياط ، وهو أحد الأمراء العسراوات ، مات بطلا .

وفي شهر رمضان ، وكان مستهله يوم الاثنين ،
طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالصوم ،
ثم عادوا الى دورهم . ولما دخل شهر رمضان كانت
الأسعار مشحطة في سائر البضائع ، وقد تناهى
سعر القمح الى أشرفيين كل أردب ، والبطة الدقيق
الى أربعة عشر نصفاً ، والسكر تناهى سعره الى
أربعة وعشرين أشرفياً كل قنطار ، والقطر النبات
بخمسة أنصاف كل رطل ، والقطر المكرر بأربعة
أنصاف كل رطل ، والعسل النحل بثلاثة أنصاف
كل رطل ، والعسل الأسود بنصفين كل رطل ،
والسمن بثلاثة أنصاف كل رطل ، والجبن المقلّى
بثلاثة أنصاف كل رطل ، والجبن الحالوم بنصفين
كل رطل ، والجبن الأزرار الذى فى مائه بنصف فضة
كل رطل . وتشحط اللحم الضانى واللحم البقرى
حتى صار لا يوجد الا قليلا . فابتاع اللحم الضانى
بثمانية عشر كل رطل ، والبقرى بثمانية كل رطل ،
وابتيعت الحلوى المشبك من القادري بخمسة
أنصاف كل رطل ، والمنفوش بستة كل رطل ،
وعمت هذه التشحيطة سائر البضائع وسائر
الجبوبات حتى الخضر . وسبب ذلك أن الزينى
بركات بن موسى كان مشغولاً بعمل برق الحجاز ،
وقد أهمل أمور الحسبة ، ولم يلتفت لها ، فجارت
السوقة على الناس وهم فى أمر مريب بسبب هذه
التشحيطة التى وقعت فى تلك الأيام ، وكادت
الناس أن يأكل بعضها بعضاً .

وفي يوم السبت ثالث عشره جلس ملك الأمراء
فى المقعد الذى بالحوش ، فتكاثر عليه المماليك
الجراكسة فى المقعد فحنق منهم ، فقال للانكشارية
الذين حوله : اضربوهم واطردوهم من المقعد . فلما

سرعوا منه ذلك ضربوا المماليك الجراكسة بالعصى
على وجوههم ضرباً فاحشاً ، فجاءت ضربه على
أكتاف جنائى بك دوادار الأمير قايتباى الدوادار
فانزعج كنفه . فحصل للمماليك الجراكسة فى ذلك
اليوم كسر خاطر ، ونزلوا من القلعة على أنبيح
وجه .

ثم فى عقيب ذلك اليوم طلع المماليك الجراكسة
الى الميدان بسبب تفرقة الإطلاق ، فحضر القاضي
شرف الدين الصغير كاب الممانات وفرق الإطلاق ،
فأعطى لجماعة من المماليك فدان طين ونصف ،
وبعض فداناً ، وبعض نصف فدان ، فتضرر المماليك
من ذلك ، وقالوا : ايش يكفيننا النصف فدان ؟
وشكوا من ذلك فسبهم القاضي شرف الدين سبا
قبيحاً ، وقال لهم : « ياكلا بيازرايين آتتم بفى
لكم باب والا راس حتى تتكلموا ، ييضتم
وجوهكم فى اش حتى تستحقوا اطلاقات » ؟
وبهدلهم غاية البهذلة ، فنزلوا من الميدان على أقبح
وجه . وقد قلت آياتاً فى هذا المعنى :

لما تكبرت الجراكسة التى

كانت بمصر أذلهم رب الورى

وأذاقهم ذل السؤال وفاقة ا

أبدى وأدبهم بما لهمو جرى

وفى هذا الشهر وقعت بين ملك الأمراء وبين
الأمير قايتباى الدوادار فتنة ، وصار كلما طلع
اليه يمقته . وسبب ذلك أن شخصاً من عربان
السوالم كان عند قايتباى ، فأرسل خاير بك اله
انكشاريا أخذه من عنده ، ووضع فى الحديد ،
فصار بينهما حظ نفس فى الباطن .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول على يد
شخص من العثمانية ، وصار يفرق مراسيل على
عيال من توجه الى اسطنبول ، فذكروا فى كتبهم

وفاة جماعة كثيرة من أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول لهم تحضرني أسماؤهم الآن .

وأشيع أن الخنكار لما رحل عن حلب الى بلاد على دولات ، نزل بسرّش وأقام بها مدة ، ثم رحل من هناك وتوجه الى اسطنبول ، وهي القسطنطينية العظمى محل كرسى مملكة ابن عثمان ، فقبل ان أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله لما بلغه مجيء الخنكار ، خرج من اسطنبول ولاقاه هو وأولاد عه ، والعلائي على ابن الملك المؤيد وأولاد الأمراء الذين هناك ، والمباشرون وأولاد الجيعان الذين هناك ، وأولاد الناس من أهل مصر الذين توجهوا الى اسطنبول ... فلما وقعت عين الخليفة على ابن عثمان أراد أن ينزل له عن فرسه ، فحلف عليه الخنكار ومنعه من النزول اليه ، وقيل انه عظمه غاية التعظيم .

وأما بقية أعيان أهل مصر الذين هناك فلم يلتفت اليهم لما خرجوا اليه ولاقوه ، هكذا أشيع بين الناس ، وكانوا يظنون أن الخنكار اذا دخل الى اسطنبول يفرج عنهم ويرسم لهم بالعود الى مصر ، فلم يخاطب منهم أحدا ولم يلتفت اليهم .

وأشيع أنه لما دخل الى اسطنبول دخل في موكب حافل فأقام نحو ستة أيام ، ورحل عنها وتوجه الى بلد من أعمال مملكته يقال لها أدنة فأقام بها . وسبب ذلك أنه لما دخل الى اسطنبول وجد بها قناء عظيما ، وقد فتك بها الطاعون فتكا عظيما ، ومات به من عسكره ما لا يحصى . وقيل مات من أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول نحو من ثمانين انسانا ، منهم أعيان وغير أعيان ، ولكن لم أقف على حقيقة أسماء من مات هناك من الأعيان . وسيظهر فيما بعد من توفي هناك من الأعيان .

ومن العجائب أن الفلكية وأرباب النجوم

حكموا بأن سليم شاه ابن عثمان ما بقى يدخل الى بلاده اسطنبول ، فكذبهم الله تعالى فيما قالوه ، ودخلها وأقام بها أياما ، وبطلت أقوالهم الكاذبة ، كما يقال في المعنى :

لا ترقب النجم في أمر تحاوله

فالله يفعل .. لا حدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر

فلا يضرك مريض ولا زحل

وفيل بلغ الخنكار أن شاه اسماعيل الصفوى طرد عسكر ابن عثمان عن البلاد التي كان ملكها ، واستناب بها جساغة من العشانية ، فطردهم الصفوى عن بلادهم واستخلصها من أيديهم . فلما بلغ ابن عثمان ذلك خرج من اسطنبول مسرعا ، وأقام بأدرنة حتى يرى ما يكون من أمر شاه اسماعيل الصفوى . هكذا أشيع بين الناس والله أعلم بحقيقته ذلك .

وفي يوم الخميس مع ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان ، صنع الزيسى بركات بن موسى مسيرة حافلة ، وركب معه جماعة من المباشرين ، فشق من القاهرة بعد صلاة العشاء بأربعين درجة ، وقدامه انكشارية وفواسة ومشاة بقوايس ومشاعل كثيرة . فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيفان ، وارتفعت له الأصوات من العوام بالدعاء . وكانت من الليالى المشهورة . وارتجت له القاهرة في تلك الليلة ، وكان محببا للناس قاطبة .

وفيه وقع من الحوادث أن شخصا من العشانية كان في خان الخليلى قد قبض على شخص من العوام زعم أنه سرق من جيبه أربعة أنصاف ، فلما قبض عليه طلع به الى ملك الأمراء ، فلما أوقفه بين يديه قص عليه قصته وما فعله به في خان الخليلى ، وأنه قبض على يده وهو في جيبه ، وأخذ من جيبه

وهو ماش أربعة أنصاف . فلما سمع ملك الأمراء ذلك رسم للموالى أن يقطع يده ، فقطع يده وعلقها في رقبته وأشهره في القاهرة . فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف ، وقد راحت ظلما !

وقد تقدم القول أن ملك الأمراء شنق رجلا على عيدان خيار شبر ، وكان ملك الأمراء يصبح وهو مخمور يحكم بين الناس بالعسف والظلم ، مما لا يسوع الشرع الحكم به ، وكان الغالب عليه الجهل وقلة الدين في أفعاله كلها

وفي يوم الخميس خامس عشرينه ، حصر شيخ العرب عبد الدائم بن بقر ، وكان ملك الأمراء أرسل اليه منديل الأمان ، وخلعه بأن يستقر في شياخة الشرقية . فلما حضر وقابل ملك الأمراء تقدم اليه والده شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر وممسك ابنه عبد الدائم من طوقه بين يدي ملك الأمراء ، ثم التفت الى ملك الأمراء وقال له : يا ملك الأمراء متى أطلقت هذا صار في ذمتك الى يوم القيامة ، وخرب الشرقية عن آخرها . فتعصب للأمير أحمد خير الدين بك نائب القلعة ، وقال لملك الأمراء : « اذا كان أبوه يشكو منه فكيف تطلقه أنت ؟ » فساعده على ذلك سنان باشا ، فما وسع ملك الأمراء الا أنه وسعه في الحديد ، وسنمه الى خير الدين نائب القلعة .

ثم ان ملك الأمراء قبض على جماعة عبد الدائم الذين كانوا حضروا صحبته قاطبة ، وكانوا نحو ثلاثين نفرا من أعيان العربان ، ووضعهم في الحديد ، وأرسلهم الى السجن ، ثم أحضر قفطان حرير أخضر وخلعه على الأمير بيبرس ابن الأمير أحمد بن بقر ، وقرره في مشيخة الشرقية عوضا عن عبد الدائم وقد سر بمسك عبد الدائم كل أحد من الناس ،

فانه كان من المفسدين في الأرض ، ووقع منه أمور شنيعة من حين دخل ابن عثمان الى مصر ، وفتح الطريق على القوافل التي تأتي من الشام ، وقتل التجار وأخذ أموالهم ، وقتل جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا قد طفقشوا في البلاد ، وأخذ سلاحهم وخيولهم . وقد فعل من هذه الأفعال القبيحة ما لا يحصى ، ووضع يده على خراج بلاد الأوقاف واستخرجها ، وفعل من هذا النمط أشياء كثيرة .

ثم ان ملك الأمراء أرسل صرب الحوطة على موجود عبد الدائم من صامت وناطق ، حتى على سواقيه وزروعه ومواشيه وثيرانه وأبقاره وغير ذلك ، والذي خبت لا يخرج الا نكدا

وفي يوم السبت سابع عشرين شهر رمضان نبت النيل المبارك على سب أصابع من سبع عشرة ذراعا ، وهبط سريعا ولم يزد في بابة غير خمسة أباام وققص . وكان نيلا شحيحا من مبتداه الى منتهاه .

وفي ذلك اليوم نزل ملك الأمراء وتسق من القاهرة ، وقد بلغه أن قاصدا حضر من عند الخنكار ابن عثمان فنزل الى ملاقاته . فلما شق من القاهرة ضجت اليه العوام من قلة الخبز في الأسواق ، وانطلقت الألسن في حق ملك الأمراء بالكلام الفج ، وقالوا له انظر في أحوال المسلمين بنور الله تعالى والا يصير ذلك في ذمتك . فتأكد ملك الأمراء في ذلك اليوم الى الغاية . وكان صحبته الزينى بركات ابن موسى المحتسب ، فقاسى في ذلك اليوم من ملك الأمراء ما لا خير فيه . وقال له : « قد غفلت عن الناس حتى صارت غلوة بمصر » .

ثم ان ملك الأمراء لما طلع الى القلعة ، رسم نفتح شوتتين وأن تفرق على الطحانين ، ففعل ذلك .

وفي يوم الثلاثاء سلع شهر رمضان ، أرسل ملك
الأمراء أمير عليهم الى بيت الأمير قايتباي ، وقال له
قد رسم لك ملك الأمراء أن تدق على بابك في هذه
الليلة طبلخانات وكنوسات . فلما سمع ذلك الأمير
قايتباي أرسل يقول لملك الأمراء : « أدق الطبلخانات
على بابي دائما ، والا في هذه الليلة فقط » ؟ فلما
عاد الجواب الى ملك الأمراء قال : قل له في هذه
الليلة فقط . فلما بلغ الأمير قايتباي ذلك لم يوافق
على دق الطبلخانات على بابه في هذه الليلة فقط ،
وقال : « أدق الطبلخانات على بابي ليلة واحدة
حتى تضحك على الناس ؟ » . وامتنع من ذلك
ولم يدق الطبلخانات على بابه في تلك الليلة .
وقد بطل أمر دق الطبلخانات على أبواب الأمراء
من حين دخل ابن عثمان الى مصر . وقد قلت في
ذلك :

لهفى على الكاسات قد دقت على

باب بسعد اميره قد بشرا

وفي شهر شوال كان عيد الفطر يوم الأربعاء ،
فخرج ملك الأمراء وصلى صلاة العيد في جامع
القلعة وخطبه فاضى الفضاة كمال الدين التسامى ،
وانقض موكب العيد كأنه لم يكن ، ولم يحل فيه
ملك الأمراء على أحد من أرباب الوظائف ،
ولا على قضاة القضاة ، ولا على أحد من المباشرين
ولا على الأمير قايتباي الدوا دار . وبطل ما كان
يعمل في يوم العيد من تلك الموكب الجليلة
والخلع المتترات ، والتشريف السنية . وبطلت
تلك الطرز اليلغاوية العراض ، والفوقانيات
الحرير الأخضر ، وبطلت أشياء كثيرة كانت من
شعار المملكة . ووقع لى في المريعة التي قتلها في
مصر أبيات في معنى ذلك وهي :

لهفى على أعياد مصر كيف قد
أفنت تشاربها بها ومتمرا

وكذا الكنايتش التي فد زخرفت
كانت تشد خيولها عند السرى

وكذا السروج المفرقات بلسمها
كانت كبرق أو كليسل أقسرا

زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بها تزهو على كل القرى

ثم نزل الزينى بركات بن موسى من القلعة في
موكب حافل ، وهدامه الملاية والمشاعل بالقوط
الزركش عليها ، والانكشارية بالنفوط قدامه ،
والقواسم قدامه متناه . فشق من القاهرة في ذلك
الموكب .

وفي يوم الخميس ثانى شوال طلع جباة من
آعيان المباشرين الى القلعة على جارى العادة ، فلما
تكاملوا أخرج اليهم ملك الأمراء مرسوم الخنكار
ابن عثمان الذي أرسله على يد صوباشى من
العشانية ، السدى تقدم ذكر حضوره من البحر
المالح . وكان من مضمون ذلك المرسوم أنه أرسل
يطلب خمسة من المباشرين يتوجهون الى اسطنبول
وهم : العلائى على ناظر الخواص الشريفة ،
والشرفى يونس النابلى ، والقاضى بركات أخو
القاضى شرف الدين الصغير كاتب الرجح ، والقاضى
فجر الدين بن عوض ، والقاضى أبو البقاء ناظر
الاسطبل . وأرسل يطلب الأمير يوسف البدرى
الوزير الذى كان كاشف العربية . وأرسل يطلب
الشرفى يونس نقيب الجيش ... فلما تحققوا ذلك
اضطربت أحوالهم ، ورسوا عليهم بالقلعة ، وقالوا
لهم اكتبوا وصاياكم ، ويوم الجمعة تسافرون من
البحر .

ثم في ذلك اليوم خلع ملك الأمراء على القاضى
شهاب الدين بن الجيعان ، واستقر به في كتابة السر

عوضا عن علاء الدين ناظر الخاص . وخلع على القاضى شرف الدين بن عوض أخى فخر الدين . واستقر به فى كتابة الخزانة ومتحدثا فى جهات الشرقية . وخلع على القاضى بركات بن موسى وقرره فى الحسبة على عادته ، وجعله متحدثا على الاستادارية عوضا عن يونس النابلسى ، وأشرك معه الشرفى يونس النابلسى استادار ملك الأمراء ، وخلع على القاضى أبى بكر بن الملكى وقرره على عادته مستوفى ديوان الجيش ، وخلع على يوسف ابن تقيب الجيش واستقر به فى نيابة الجيش عوضا عن أبيه . فخلع على هؤلاء الجماعة فى يوم واحد ونزلوا من القلعة وعليهم القفاطين الحرير .

وفى يوم السبت رابع شوال نزل ملك الأمراء من القلعة وسار نحو بركة الحاج وصحبته الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير سنان باشا وفائق بك ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، وجماعة من المماليك الجراكسة . ولما وصل إلى سبيل علان ساق قدامه الركاب بالخيول الجنائب ، وسأقت معهم خيول الأمراء ، فسبق فرس الأمير قايتباى الدوادار فرس سنان باشا .

وفى يوم الأحد ثانى عشره أشيع أن ملك الأمراء أفرج عن القاضى نور الدين على الفيومى الحنفى ، وكان له مدة وهو فى الترسيم بالقلعة ، بسبب مكتوب ثبت عليه ، وكان غير محمود السيرة فى أفعاله ، وجرت له وقائع كثيرة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره أنفق ملك الأمراء على العساكر الذين تعينوا للعقبة والأزلم ، فأعطى لكل واحد منهم جامكية ثلاثة أشهر معجلا ، وهى عبارة عن ستة آلاف درهم . وقيل رتب لكل واحد منهم فى كل يوم رطلين بقسماطا تصرف لهم فى العقبة ، ورسم لهم بأن يجيئوا مع الحجاج اذا حضروا الى القاهرة . وتوجه هذا العسكر الى هناك لأجل حفظ ودائع الحجاج ، وملاقاتهم التى تتوجه لهم من مصر . فان العربان تزايد فسادهم فى حق الحجاج ، وأرسلوا يطلبون لهم نجدة عند عودهم الى مصر .

وفى يوم السبت رابع شوال نزل ملك الأمراء من القلعة وسار نحو بركة الحاج وصحبته الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير سنان باشا وفائق بك ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، وجماعة من المماليك الجراكسة . ولما وصل إلى سبيل علان ساق قدامه الركاب بالخيول الجنائب ، وسأقت معهم خيول الأمراء ، فسبق فرس الأمير قايتباى الدوادار فرس سنان باشا .

قيل ان هذه عادة عند العثمانية أنه فى أيام العيد يخرج الخنكار ويسير فى الفضاء ، ويسوقون قدامه بالخيول ، فمن سبق فرسه ينعم عليه الخنكار بمائة دينار ، والذى تقصر فرسه عن السباق ينعم عليه ببطيخة ، وهذا من أنواع المماجزة . فانشرح ملك الأمراء فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفيه قبض ملك الأمراء على الخواجا شهاب الدين أحمد بن أبى بكر السكندرى ، ووضعه فى الحديد ، وقرر عليه مالا له صورة . وأشيع أن الخنكار أرسل بطلبه الى اسطنبول ، فاضطربت أحواله بسبب ذلك الى الغاية .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشره رسم ملك
الأمراء بشنق عشرة أفقار من جماعة عبد الدائم بن
يقر ، فانهم كانوا من المفسدين ، فشنعوا وعلقوا في
أماكن شتى من القاهرة ، فشيء في قنطرة الحاجب ،
وشيء في رأس الحسينية ، وشيء في باب النصر .
وقد وسطوا منهم جماعة ، وشنعوا منهم جماعة ،
وشيء خوزقوهم .

وفي يوم الجمعة سابع عشر شوال أنزلوا من
القلعة جماعة من المباشرين ممن كانوا في الترسيم .
وفد تقدم التول أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول ،
فأنزلوهم من الفلحة بعد صلاة الصبح : منهم من
هو راكب على بغلة ، ومنهم من هو راكب على
حصار . فشنعوا بهم من الصليبه وبوجهوا بهم الى
بولاق ، وحولهم جماعة من الانكشارية مشاة
بالسيوف في أوساطهم . والصوباني الذي هو
متسفر عليهم راكب قدامهم . فكثر عليهم الأسف
والحزن والبكاء من الناس ... فكانت عندهم سبع
أنفس ، وهم : القاضي علاء الدين بن الامام ناظر
الخاص ، والشرفي يونس النابلسي الاستادار ،
والقاضي بركات أخو شرف الدين الصغير كاتب
الممالك ، والقاضي فخر الدين بن عوض ، والقاضي
أبو البقاء ناظر الخاص والأسطبل ، والشرفي يونس
نقيب الجيش ، والأمير يوسف البدرى وزير الديار
المصرية ، وأصله من ممالك الأمير يشبك بن مهدي
الدوادار ، كان قدمه للأشرف قايتباي ، ولا زال
يترقى حتى رأى من العز والعظمة غابة العلاء ،
وجرت عليه بعد ذلك شدائد ومحن ، وآخر الأمر
نفى الى اسطنبول .

فلما وصل هؤلاء الى بولاق نزلوا بقصر ناظر
الخاص الذي هناك حتى تنتهى أشغالهم ، فحصل
لنساء القاضي أبي البقاء والقاضي أبي البركات
كاتب الرجس على أزواجهن غاية الحزن ، فقمين

لنعيهم ودققن عليهم بالطارات ، وكذلك زوجة
يوسف البدرى وبغية المباشرين . وكانت هذه
الحادثة من أشنع الحوادث التي لم يقع قط مثلها
فيما مضى من الزمان . فاستمروا بقصر ناظر الخاص
بيولاقي الى يوم الاثنين عشرى شوال ، فنزلوا
وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية .

وكان هؤلاء المباشرى لما صفا لهم الوقت
طاشوا وصاروا كأنهم هم الملوك بمصر ، يتصرفون
في أمور المملكة بما يختارونه ليس على يدهم يد
واستغرقوا في اللذات ، وعكفوا على شرب
الخمور ، وسماع الزمور ، ولم يتفكروا في
عواقب الأمور ، فاستمروا على ذلك حتى طرقتهم
الأخبار الردية ، وأحاطت بهم كل رزية ، فكانوا
كما قيل في المعنى :

من يرتشف صفو الزمان

ن بغص يوما بالكدر

ثم في عقيب ذلك سافر الى اسطنبول الناصري
محمد بن الورد لاعب الشطرنج ، ورفيقه الشهابي
أحمد الاسكندراني . وقيل ان الخنكار سليم شاه
أرسل يطلبهما الى اسطنبول على لسان الخواجا
يونس العادلي ، وأرسل لهما مبلغا له صورة بسبب
كلفة السفر ، وعمل الزوادة .

ويقال ان جماعة من المباشرين الذين توجهوا الى
اسطنبول سألوا ملك الأمراء بأن يعطوه مالا له
صورة ويعفيهم من السفر الى اسطنبول ، فما قدر
على ذلك .

وفي يوم السبت ثامن عشر شوال خرج المحجل
الشريف من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان أمير
الركب الزينى بركات بن موسى المحتسب ، فخرج
بطلب حافل ، فكان ما اشتمل عليه الطلب خمس
عشرة نوبة من الهجن ، عليها أكوار ، ما بين مخمل

ملون وجوخ أصغر ، وبعض جنائب بيركستوانات فولاذ ، وطبول ومحفطين جوح لنسائه ، وثلاث خزان على العادة ، وكاسات على العادة وطبلين وزمرين ، وعلى رأسه صنجق عثمانى حرير أحمر . وركب صحبته جماعة من المباشرين الذين تأخروا بمصر ، وهم : الشهابى أحمد بن الجيعان ، والقاضى شرف الدين الصغير كاتب الممالك ، والقاضى تقى الدين أبو بكر بن الملكى ، والقاضى عبد العظيم الصيرفى ، وآخرون من المباشرين . وكان قدامه انكشارية ورماة وقواسة نحو مائتى انسان ... فلما شق من القاهرة دعا له السوام ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فلهج الناس بأن ذلك سيكون آخر سعه . وخرج فى هذه السنة حجاج كثيرة وغالبهم فلاحون وريافة .

وأشيع أن العربان وقت لهم فى الطريق ، وأن الغلاء موجود معهم من حين خرجوا من مصر ، وكذلك العليق كان مشحوتا . فلما خرج الحجاج وقف جماعه من أولاد الناس ، والمماليك الذين عينوا الى العقبة الى ملك الأمراء ، وشكوا له من عدم الجمال وأنها لم توجد . فرسم بإبطال جماعة منهم نحو ثلاثين انسانا . وكان الذين تعينوا فى الأول نحو ستين انسانا أو فوق ذلك

وأشيع أن أرباب الأدراك من العربان وقفوا الى القاضى بركات بن موسى بسبب عاداتهم من الصرر ، فنفر فبهم ونهرهم وسبهم ، فخرجوا من عنده على غير رضا ، وقيل أن ناظر الخاص لما حجج فى السنة الخالية أنعم على العربان وأرباب الأدراك بألف جوخة حتى رجع بالحاج وهو سالم وبيض وجهه عند الناس .

وفى شهر ذى القعدة وكان مستهله يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالسر ، فلما تكامل المجلس وقع تشاجر بين قاضى القضاة المالكى محبى الدين يحيى الدميرى ، وبين قاضى القضاة نور الدين على الطرابلسى الحنفى ، فتفاوضا الكلام فى ذلك حتى خرجا عن الحد بسبب وقفه الأمير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير ، فانه شرط فى وقفه النظر والتكلم للأمير تغرى بردى الاستادار ، وانه يدخل من شاء ويخرج من شاء من المستحقين ، ويستمر ذلك حتى يتوفى الأمير تغرى بردى . فسعت ابنة الأمير يشبك عند قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة فى ابطال ما كان شرطه والدها للأمير تغرى بردى ، ويجعل لها النظر على ذلك والتحدث على وقف والدها ، فحكم بنفسه فى ذلك ، وقد ساعدها على ذلك السلطان الغورى . فلما ثبت ذلك على يد القاضى عبد البر وحكم بما فيه ، أبطل ما كان اشترطه الأمير يشبك لتغرى بردى .

فلما توفى قاضى القضاة عبد البر ، وتوفيت ابنة يشبك ، سعى جماعة من معاتقى يشبك الدوادار لتغرى بردى ، فحكم بصحته وتبع فى ذلك شرط الواقف . فلما جرى ذلك عز على بقية القضاة ذلك لكونه نقض حكم قاضى القضاة عبد البر . فحضر فى ذلك اليوم شخص من أولاد عبد البر ، وقال لقاضى القضاة نور الدين الطرابلسى : « أنتقض حكم شيخ الاسلام عبد البر وأنت من بعض طلبته » ؟ وساعده قاضى القضاة على ذلك ، وحط عليه ملك الأمراء خاير بك ، وكان المجلس كله عليه ، فما وسعه فى ذلك المجلس الا أنه قال : « رجعت عن حكمى ، وأبقت حكم قاضى القضاة عبد البر على ما كان عليه » . فشهدوا عليه فى ذلك المجلس بإبطال ما كان حكم به ، فعد ذلك منقصة

في حق قاضي القضاة نور الدين الطرابلسي ، ولامه الناس على سرعة تقضه لحكمه في الحال ... فعد ذلك من النوادر الغريبة . وصارت الوحشة عمالة بين قاضي القضاة المالكي والحنفي في الباطن ، فنزل قاضي القضاة الحنفى من القلعة في ذلك اليوم وهو في غاية التعس

وفي عقيب ذلك عزل قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل نوابه أجمعين ، ولم يبق منهم سوى أربع أنفس لا غير ... فاستمروا على ذلك مدة . ثم انه فوض لجماعة من أعيان نوابه ممن اختاره .

وفي مستهل هذا الشهر خلع ملك الأمراء على القاضي عبد العظيم الصيرفي وفرره في نظر الحسبة عوضا عن الزينى بركات بن موسى الى أن يحضر من الحجاز . فلما ولي القاضي عبد العظيم أمر الحسبة أظهر النتيجة العظمى في انحطاط سائر أسعار البضائع بعدما كانت تشحطت الأسعار في تلك الأيام ... وصارت غلوة كبيرة بمصر ، واضطربت أحوال الناس ، وارتفع الخبز من الأسواق ، وغلقت الطواحين ، وارتجت القاهرة بسبب ذلك .

وكان عقيب ذلك خروج الحجاج ، وسافر المحتسب ، فجارت السوق على الناس في سائر البضائع . فلما ولي القاضي عبد العظيم صار يطوف القاهرة كل يوم ثلاث مرات ، وشرع يضرب الطحانين والخبازين ضربا مبرحا ، ويشهرهم في القاهرة ، وصار يوعدهم والزياتين بالشنق والخوزقة ، حتى انحطت أسعار البضائع قليلا ، وسكن ذلك الاضطراب الذي كان بمصر .

ثم رسم للجبانين والسماكين بأن يلقوا بالسيرج الطرى دائما ، وكتب قسائم على المعصرانيين ألا

يصنعوا الزيت الحلو أبدا . ثم نادى في القاهرة بتسعير اللحم الضانى والبقرى والجبن وسائر البضائع ، ثم سعر الدقيق وجعل كل بطة بثلاثة عشر نصفا ، وكانت البطة الدقيق وصلت الى ستة عشر نصفا ، فنفع الناس غاية النفع بعد ما صار بمصر غلوة شديدة . فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة . ثم أحضر القزازين والتجار وعمل معدلهم في بيع الغزل والمقاطع الخام وسائر القماش الأبيض قاطبة . فهابته التجار والسوق ، ودخل في الحسبة دخولا مهولا ، وصار له حرمة وافر وكلمة نافذة .

وفيه توفي الأمير ماماي أمير آخور ثانى كان . وكان من الأمراء الطبلحانات ، وأصله من ممالك الأمير تانى باى أمير آخور كبير . وكان موته فجأة على حين غفلة ، وقيل انه كان صحبة جماعة من العثمانية فوقع بينهما تشاجر ، فضربه ، أحدهم فمات في ليلته .

وفيه ثارت العثمانية على ملك الأمراء وقالوا له : « زد في جوامكنا والا أعطنا دستورنا نرجع الى بلادنا ، فاننا اشتقنا الى بلادنا وعيالنا ، وان في مصر غلاء ، وكل شيء غال ، وهذه الجوامك ما تكفيننا » . فوعدهم أنه يرسل يشاور الخنكار ، وأملهم الى شهرين . وكان القائم في هذه الحركة جماعة الأصباكية .

وفيه قدمت الأخبار من بلاد الصعيد بأنه قد فشا الموت هناك في الأبقار والأغنام ، فمات منها ما لا يحصى عدده ، ووقع مثل ذلك بالشمس ونواحيها ، ووقع مثل ذلك بجهات الشرقية والغربية ... وزيادة على ذلك ان الدودة رعت البرسيم من أرض الجيزة وغيرها من الأراضي التي زرعت بدريا . ووقع في أواخر هذه السنة نشيطة عظيمة في سائر الغلال .

وفى يوم الأربعاء سادسه رسم ملك الأمراء
بشنق ستة أنفار من جماعة عبد الدائم بن بفر ،
فشنقوا فى عدة أماكن .

وفى يوم السبت تاسعه يودى فى القاهرة بأن
لا أحد من الناس يصنع خيال الظل ، ولا مغانى
عرب ، ولا غير ذلك ، ولا ييطىء بزفة عريس الى
بعد العشاء ، ولا يمشى فى الأسواق من بعد
العشاء ، وأن الأسواق تغلق من بعد المغرب
وسبب ذلك أن العثمانية صاروا يشوشون على
الناس فى الليل ، ويخطفون النعمائم والتدود ،
ويخطفون النساء والمردان من الطرقات ليلا
ونهارا ، وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل ،
وصارت الممالك العثمانية تؤدى الناس ، وصارت
الطرقات من بعد المغرب مقفرة من فلة السالك بها ،
وصار على الوجود خدمة

وفيه قدمت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن
الجماعة الذين توجهوا هناك من المباشرين ، لما
نزلوا فى المراكب وسافروا فى البحر المالح ، غابوا
فيه ثلاثة أيام ، ثم عادوا الى نهر رشيد . وسبب
ذلك أنه فى تلك الأيام ثار ريح عظيم فرد المراكب
من حيث جاءت ، فأقاموا فى رشيد أياما حتى طاب
الريح ، ثم سافروا وقصدوا التوجه الى اسطنبول

وفيه أرسل القاضى بركات بن موسى المختسب
يطلب من ملك الأمراء تجريدة تلاقيه من الأزلم
عند عود الحجاج ، فان العربان شوشوا على
الحجاج وأخذوا منهم جمالا محملة بما عليها من
الأحمال ، وحصل منهم غاية الفساد فى حق الحجاج .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك نزل الى الميدان
وعرض جماعة من العساكر . وعين تجريدة تلاقى
الحجاج من الأزلم ، فكتب الى جماعة من الممالك

الجراكسة وجماعة من العسكر وجماعة من أولاد
الناس ، واستحثهم فى سرعة الخروج الى الأزلم .

وفى يوم الاثنين خامس عشره نزل ملك الأمراء
من القلعة بعد صلاة الصبح ، وعدى الى بر الجيزة ،
وتوجه الى نحو شبرامنت وقناطر العشرة ، وذلك
على سبيل التنزه ، فصنع له الشهابى احمد بن
الجيعة هناك مدة حافلة ، وكذلك القاضى شرف
الدين الصغير كاتب الممالك . وكان صحبتة الأمير
فايتباى الدودار ، والأمير آرزملك الناشف ،
وسنان باشا ، وفائق بك ، وجماعة من الأمراء
العثمانية ، وجماعة كثيرة من الممالك الجراكسة

فاستمر هناك الى ما بعد العصر ، وركب وعدى
من بر الجيزة ، وطلع الى القلعة . وأشيع أنه كان
بين ملك الأمراء وبين الأمير فايتباى الدودار حظ
نفس فى الباطن ، فعزم عليه هناك وزال ما كان
بينهما من تلك الوحشة ، وطامت الجواهر منهما .

وفى يوم الجمعة سلخ الشهر خرج الأمير فايتباى
الدودار ، وسافر الى نحو العباسية ، وسبب ذلك
أنه تغيب من الممالك الجراكسة من خشداشينه
لأجل تفرقة الأضحية ، فانها كانت غالية ومشحونة
ولا توجد .

وفى شهر ذى الحجة ، وكان مسنهله يوم السبت ،
طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك
الأمراء بالشهر ، وعادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس سادسه خرج العسكر المعين
الى الأزلم . وكان باش هذه التجريدة شخص
يسمى إياس ، فخرج مع العسكر

وفيه قدمت الأخبار من الصعيد بأن الأمير على
ابن عمر ، خرج يغزو صاحب النوبة ، وأن الصعيد
حواله مضطربة .

عثمان في سائر أفعاله . وقطع الأضحية التي كانت
تفرق في الأعياد .

وفي أواخر هذا السهر وقع بين ملك الأمراء وبين
الاصباهيه من عسدر ابن عثمان ، وقالوا له اعطنا
دستورا لنسافر الى بلادنا فانا اشتقنا الى بلادنا
وعيانا . فقال لهم حتى أرسل أشاور الحنكار .
فقالوا نحن ما نصبر حتى تشاور . وأغلظوا على
سنان باشا في القول ، وقالوا له هذا كله شغلك ،
فاتفق معهم ملك الأمراء أنه بعد مضي الشتاء يأذن
لهم بالسفر والعودة الى بلادهم .

اتتهى ما أوردناه من أخبار سنة أربع وعشرين
وتسعمائة وخرجت عن الناس على خير ، وكانت
سنة كثيرة الحوادث ، منها خسة النيل ، ووقوع
الغلاء في سائر البضائع والغلل ، واستمرت هذه
التشحيطة تزايد الى اواخر السنة ، ووقع من
الحوادث نفى المباشرين الى اسطنبول ، وغير ذلك
حوادث كثيرة تقدم ذكرها .

سنة خمس وعشرين وتسعمائة هجرية (١٥١٩ م) :
كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، فطلع القضاة
الأربعة الى القلعة ، وهنثوا ملك الأمراء بالعام
الجديد تم عادوا الى دورهم .

وفي يوم مستهل الشهر أمطرت السماء مطرا
غزيرا ، فتفاءل الناس بأن ذلك العام يكون مباركا
خصبا .

وفي يوم الخميس رابع المحرم ، وصلت من ملك
الأمراء نائب الشام جان بردى الغزالي الى ملك
الأمراء خاير بك مقدمة ليست بعظيمة أمر ، وهي
أربعة رؤس خيل ، وثمانية شقادات تشتمل على
بطارمير ، ضمنها مغل ، وفي بعض الشقادات

وفي يوم الجمعة سابعه خرج الأمير جانم
الحمزاوي دوا دار ملك الأمراء وقصد التوجه الى
نحو البلاد الشامية ، وسبب ذلك أن ملك الأمراء
أرسل على يده مقدمة حافلة الى شخص من أمراء
ابن عثمان يقال له برى باشا ، وكان من أعيان
أمراء ابن عثمان ، وكان مقيما على البيرة ، وقيل
يحلب . فلما خرج الأمير جانم الحمزاوي ووصل
الى العكرشا ، وردت عليه الأخبار من هناك بأن
الأمير برى باشا الذي خرج بسببه قد توجه الى
نحو اسطنبول ، وقد تغلب عليه العسكر الدين
كانوا على البيرة من الغلاء وشدة البرد ، فرجع
الى اسطنبول الى أن يذهب الشتاء . فلما تحقق
الأمير جانم الحمزاوي رجوع الأمير برى باشا الى
اسطنبول ، أرسل يشاور ملك الأمراء في أن يرجع
الى مصر أو يسافر الى حلب ، فرسم له ملك الأمراء
بالعود الى مصر ، فرجع من العكرشا ، وصحبته
التقدمة التي عينت لبرى باشا .

ومن الحوادث أن ملك الأمراء رسم للوالى بأن
ينادى في القاهرة بسد قناطر الحروبى الثلاث ،
فورعوا سد هذه القناطر على السكان الذين يبيتهم
فوق السور . فحصل للسكان الذين يبيتهم فوق
السور غاية الضرر من مصروف العمارة على ذلك .
وأشيع سد قناطر السباع أيضا ، وقنطرة الموسيقى ،
ولم يعلم ما القصد من ذلك . فسدوا قناطر الحروبى
الثلاث بالحجارة ، فعد ذلك من النواذر العريبه ،
وكثر القيل والقال في ذلك .

وفي يوم الاثنين عاشره كان عيد النحر ، فلم
يفرق ملك الأمراء على أحد أضحية ، لا على الأمراء
ولا على العسكر ، وقطع ضحايا الفقهاء والمباشرين ،
حتى ضحايا الزوايا والمزارات التي في القرافة
وغيرها ، وقال : « أنا ما أمشى الا على طريقة ابن

كمشرى وتفاح وسواقه ، وأرسل ملك الأمراء جان بردى الى الأمير قايتباى الدوادار فرسا وأربع شقادات ، ومثل ذلك للأمير أرزمك الناشف ، ومثل ذلك الى جماعة من الأمراء العثمانية ، فشكروا له ذلك .

وفى يوم الجمعة خامس المحرم ، حضر مبشر الحجاج وأخبر بالأمن والسلامة لهم ، غير أن معهم الغلاء الشديد ، وموت الجمال ، فوصل كراء الجمل الى مائة وعشرين ديناراً ، وأن مكة فيها غلاء شديد ، ونزل غالب من بها من المجاورين بسبب الغلاء ، وإن العربان جائرة فى الطرقات ، وكانت سنة صعبة شديدة على الحجاج .

وفى يوم الأحد سابع المحرم قدمت الأخبار من قطيا بأن والى قطيا وهو شخص من الأتراك يقال له قان بردى ، وأصله من ممالك الظاهر برقوق ، وفيل من ممالك الغورى قانصوه ، أرسل اليه ملك الأمراء انكشاريين يطالبانه بمال قطيا ، فلم يعطهما شيئاً ، فأغلظا عليه فى القول وقالوا له نأخذك معنا فى الحديد الى ملك الأمراء ، فبطحهما على الأرض وضربهما بالمقارع حتى أشرفا على الموت وقيل مات أحدهما من الضرب . وقال لهما امضيا الى أستاذ كما وقولا له ايش ما طلع من يدك افعله ، فحضر أحدهما وأخبر ملك الأمراء بذلك ، فلما سافرا من قطيا ، أخذ والى قطيا ماله وغلماناه وتوجه الى جان بردى الغزالى فى غزة بسبب ملاقة الحاج ، وقيل كان عند والى قطيا جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، فلما توجه الى الغزالى توجهوا معه اليه ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك خلع على شخص من الأتراك وقرره فى ولاية قطيا عوضاً عن قان بردى بحكم عيبته كما تقدم .

وفى يوم الأربعاء سابع عشره ركب عبد العظيم الصيرفى نائب المحتسب ، ونادى فى القاهرة بأن

أرباب الدكاكين من السوقه يبيضون دكاكينهم ويزخرفونها بالدهان ، ويبيضون آلات النحاس التى عندهم فى الدكاكين لأجل مجيء القاضى بركات ابن موسى المحتسب من الحجاز .

وفى يوم الأربعاء المقدم ذكره وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء نزل من القلعة وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وعزم على وردبش دوادار نائب الشام الذى حضر بالتقدمة ، فصنع له هناك مدة حافلة ، ونصب سييى له هناك سحابة عظيمة ، وحضر عنده الأمير قايتباى الدوادار ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، وحضر جماعة من الأمراء العثمانية منهم سنان باشا وفائق بك ، وحضر الأمير كمشبا والى القاهرة ، وجماعة من الجراكسة .

فلما انقضى أمر المدة أحضر ملك الأمراء سفرة الشراب ، فلما دارت عليهم الكاسات وطلع الحمر فى رءوسهم ، طفح ما كان فى قلوبهم من الغدر . فقال فائق بك لكمشبا والى : الجراكسة خائنون . وأجرى ذكر جان بردى الغزالى بما لا يلىق فقال له كمشبا الله يعلم من هو الذى خان منا نحن أو أتم ، وقد كتبتم أمانكم فى أوراق وفرفتوها على الأمراء ووضعوها على رءوسهم ، وطلعوا اليكم بالأمان . فغدرتم بهم وقتلتموهم فمن خان منا نحن أو أتم . ثم تزايد بينهما الكلام الفج حتى خرجا فى ذلك عن الحد ، فوثب فائق بك على كمشبا والى بخنجر ليقتله فجاءت الضربة فى قفطاناه فانخرق ، فوثب كمشبا على فائق بك ليقتله فحال بينهما الحاضرون .

ثم ركب كمشبا ، وركب جماعة من المماليك الجراكسة ، وسلوا سيوفهم ، وركب جماعة من العثمانية وسلوا سيوفهم ، وقصدوا الوثوب على بعضهم ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة تذهب فيها

الأرواح ، فتتكدد ملك الأمراء لذلك وركب على النور ، وحال بين الفريقين ، وخدمت هذه الفتنة قليلا ، ورسم للعثمانية أن يمضوا على طريق مصر العتيقة ، ومضى هو والأمراء الجراكسة على طريق القرافة ، واستمر على ذلك حتى طلع إلى القلعة من الميدان ، فما رأى نفسه في القلعة وفي عينه قطرة . وقد اضطربت أحواله وخاف أن هذه الفتنة تتسع . فقبل أنه حلف لا يشرب خمرا في هذه السنة ، واستمرت النفوس معمرة بالعداوة بين فائق بك وبين كمشبا الوالى ، وهذه الحادثة أول حوادث سنة خمس وعشرين وتسعمائة .

ثم إن ملك الأمراء بعد وقوع هذه الحركة انحبس عن الناس ثلاثة أيام ، لم يظهر لأحد من شدة تكده مما قاساه في ذلك اليوم .

وفي يوم الاثنين ثاني عشرية خرجت المدورة إلى بركة الحاج بسبب الملاقاة ، فلما أقامت المدورة هناك يوما وليلة أشيع أنها رجعت إلى القاهرة ، وسبب ذلك أن الزينى بركات بن موسى أرسل هجانا إلى ملك الأمراء وأخبره أن الحجاج وصلوا إلى عيون القصب ، وأنهم في غاية ما يكون من الأتكداد بسبب موت الجمال والغلاء وموافقة فتنة العربان مع ذلك ، فتتكدد الناس لذلك ، ورجع من كان طلع إلى بركة الحاج من الملافين .

وفي يوم السبت سابع عشرية حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وحضر صحبته الناصرى محمد الجلبى ، مهمندار ملك الأمراء ، الذى كان توجهه صحبة التقديم المتقدم ذكرها ، وهى التى أرسلها ملك الأمراء إلى ابن عثمان .

وحضر قاصد الأمير على بن عمر شيخ عربان جهات الصعيد ، وكان قد توجهه صحبة التقديم التى أرسلها إلى ابن عثمان ، فلما بلغ ملك الأمراء

وصول القاصد إلى سرياقوس نزل من القلعة وتلقاه من تربة العسالى التى بالمطرية . وخرج صحبه الأمراء العثمانية ، والأمراء الجراكسة ، وأعيان المباشرين ، والعسكر العثماني ، والافكشارية قدامه مشاة يرمون بالنفوط . فلما وصل إلى تربة العادل نزل وجلس على المصطبة التى هناك . ثم حضر القاصد وأخرج قفطانا مخملا بتماسيح على أحمر أرسله إليه الخنكار ابن عثمان بالاستمرار على نيابة مصر ، فلبسه ملك الأمراء وقبل الأرض مرارا . وأرسل قفطانات تماسيح إلى فائق بك ، وسنان باشا ، وغير الدين بك نائب القلعة ، وأرسل قفطان تماسيح إلى الأمير قايتباى الدواidar باستمراره فى الدواidarية فلبسه .

ثم ركب ملك الأمراء من هناك ودخل من باب النصر ، ونسق القاهرة فى موكب حافل ، ولما قاه قضاة القضاة الأربعة من باب النصر ، ثم مشيت طائفة النصارى قدامه بالشموع . وكان ذلك يوم السبت فلم تحضر طائفة اليهود فى ذلك اليوم ، واستمر فى ذلك الموكب إلى أن طلع القلعة وكان ذلك اليوم مشهودا .

فلما أقام القاصد أياما أشيع بين الناس أنه حضر يطلب طائفة الاصباهية التى بمصر ، وأشيع أن الخنكار ابن عثمان أرسل مقدمة حافلة إلى الأمير على بن عمر شيخ عربان الصعيد ، وأرسل إليه قفطان تماسيح باستمراره على عادته ، ورسم بأن التقديم والقفطان تتوجه إليه صحبة قاصده إلى الصعيد ، فتضاعفت عظمة الأمير على بن عمر بسبب ذلك .

وفي يوم الأحد ثامن عشرية نزل الحاج بالبركة ، وحضر المحمل الشريف صحبة القاضى بركات بن موسى المحتسب أمير الجاج ، فتغدى فى بركة

فقبضوا عليها وعلى ذلك النصراني ، فلما عرضوا على ملك الأمراء رسم بأن تعرى المرأة من آتوابها ، وتكتف أيديها وأرجلها ، وأن تربط من رجليها في ذنب اكديش ، وتسحب على وجهها سن الكداسين الى باب زويلة ، ففعلوا بها ذلك وشقوا بها من القاهرة ، وفصدوا شنقها على باب زويلة ، فقيل انها ماتت في أثناء الطريق ، وقيل بل غرقوها في البحر عند الجزيرة الوسطى ، وقد مضى أمرها ، وقد قاست ما لا خير فيه حتى ماتت .



واستهل شهر صفر يوم الثلاثاء ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة وهناك ملك الأمراء بالشهر تم عادوا الى دورهم .

وفي أوائل هذا الشهر قدمت الأخبار من ثغر الاسكندرية مع بعض تجار البنادقة ، أن جماعة من المباشرين الذين خرجوا من مصر وتوجهوا الى اسطنبول في البحر المالح ، لما وصلوا الى قرب جزيرة اقريطش خرجت عليهم طائفة من الفرنج الروادسة الذين هم أشد طوائف الفرنج ، فتحاربوا مع الجماعة العشائية الذين خرجوا صحبة المباشرين ، فقتلوا منهم جماعة ومن جملتهم الحواجا هاشم ، وكان من أبناء العجم ، وكان من أخصاء ملك الأمراء خاير بك ، وكان قرره في نظر المارستان ونظر جهات الجوالى ، فقتل في هذه المعركة . وكان قصده أن يتوجه الى الخنكار صحبة المباشرين .

فلما خرجت عليهم الفرنج تحارب معهم حتى قتل في المركب التي كان فيها الشرفى يونس النابلسى الاستادار ، والقاضى بركات كاتب الرجى أخو القاضى شرف الدين الصغير كاتب الممالك ، وكان بهذه المركب يوسف البدرى الوزير ، والناصرى

الحاج ، وتوجه الى مدرسة السلطان الغورى ، فلما طلع النهار من يوم الاثنين تاسع عشرية ، ركب من هناك وطلع الى ملك الأمراء وقابله فخلع عليه فغطانا محملا احمر مدهبا ، ونزل من عنده وشق القاهرة في موكب حافل ، وقدامه جماعة من الانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، فكانوا نحو مائتى انسان ، فشق الزينى بركات من القاهرة وهو لابس عمامة هوارية على زنط ، وهو ضارب لثاما .

ثم أشيع بين الناس أن الحجاج قاسوا في هذه السنة مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال وقلة العليق ، وكانت سنة صعبة شديدة بفساد العربان والغلاء ، وقد منعوا مبشر الحاج من الدخول الى القاهرة .

ثم أشيع وفاة الطواشى الأمير بشير رأس نوبة السقاة ، وكان قد توجه الى المدينة الشريفة من حين دخل ابن عشان الى القاهرة ، فتوجه صحبة قاضى القضاة الشرفى يحيى بن البردينى شيخ الحرم النبوى ، فأقام هناك الى أن مات ودفن بالمدينة وأشيع موت آخرين من الأعيان .

وكان غالب الناس قطع وجزم بعدم عود الزينى بركات بن موسى الى القاهرة . فانه حمل ما لا يطيق ، حيث طلع الى الحجاز أمير حاج ، وكانت هذه الوظيفة للأمراء المقدمين ، وكانت هذه السنة شديدة صعبة من فساد العربان في طريق الحجاز وشدة الغلاء وموت الجمال ، فأعانه الله على ذلك ، ورجع مع السلامة

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن جماعة من الاصباية غاروا على صبية ، فلما توجهت الى غيرهم كبسوها بالوالى في ذلك المكان الذى كانت فيه وزعموا أنها كانت عند شخص نصرانى ،

الدعاء من الناس ، وسيعلم الدين ظلموا أى منقلب
ينقلبون ، وكان كما يقال فى المصنى :
فاستغن بالسمع عن مرآهمو عظة

فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم

وصاروا يفتحون على الناس أبوابا من المظالم
شيئا بعد شيء ، ووضعوا أيديهم على البلاد قاطبة ،
حتى على الأوقاف التى على الجوامع والمساجد
والزوايا ، وضاع على الناس حراجهم وحصل لهم
الضرر الشامل ، ثم انهم أبطلوا الاقطاعات التى
بالمناشير ، وأدخلوها فى ديوان السلطان ، ثم فى
السنة الثانية أوقفوا الرزق التى بالمربعات الجيشية
التى بيد أولاد الناس والنساء وغير ذلك ، وصاروا
يضعون أيديهم على بلاد الأوقاف ، ويستخرجون
منها الأموال ولا يفرجون عنها الا بعد جهد كبير
لمن يأخذون برطيلة .

وكانوا اذا قرروا مع ملك الأمراء شيئا من أمر
البلاد يطاوعهم على الفساد ، ويقول لهم افعلوا
ذلك ، وهو فى أيديهم مثل اللولب يدورونه كيف
شاءوا ، وكان الوقت قد صفا لهم ، وصاروا
يتصرفون فى أحوال المملكة بما يختارونه ، فأخذهم
الله أخذا وبيلا ، ولم يجدوا لهم من الله سبيلا ،
وتكدرت معاشهم بعد الصفا ، وخابهم الدهر بعد
الوفا ، وقد قلت :

اذا صفا الدهر يوما الى التكدر يرجع
هل من لبيب تراه بأيسر الرزق يقنع
فليغبر من يشاهد لمصرع بعد مصرع

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن الحاج
الشامى قد استولت عليه الأعراب وعوقوهم عن
الدحول الى البلاد الشامية ، ونهبوا أموالهم
وجمالهم ، وغنموا منهم أموالا لها صورة ، فلما بلغ

محمد بن الورد لاعب الشطرنج أيضا ، فلما خرج
عليهم الفرنج رموا على مركبتهم بالمدافع فانخرقت
وغرقت ، وغرق كل من كان فيها من المباشرين ،
وغيرهم ، فغرقوهم وأموالهم التى كانت معهم
جميعا ، فغرق الشرفى يونس النابلسى الاستادار ،
وبركات كاتب الرجج ، ويوسف البدرى الوزير ،
ومحمد بن الورد لاعب الشطرنج ، وقيل سلم من
الغرق مع رفيقه أحمد الاسكندراني .

ثم أشيع بأن المركب التى كان بها علاء الدين
ناظر الخاص ، وفخر الدين بن عوض ، والقاضى
أبو البقاء ناظر الاسطبل ، والشرفى يونس نقيب
الجيش ، وأحمد الاسكندراني لاعب الشطرنج ،
سلمت من الغرق ، فسار بها الهواء الى نحو جزيرة
اقريطش ، فخرجوا وهم عراة حفاة مكشوفو
الرءوس ، ومشوا نحو سبعة أيام حتى أعيوا من
المشى وتورمت أقدامهم ، وأشرفوا على الموت
مرارا . وأما الشرفى يونس نقيب الجيش فانه مرض
هناك ومات ودفن بجزيرة اقريطش ، وأما علاء الدين
ناظر الخاص ، فانه مرض وعجز عن المشى حتى
حملة بعض الفرنج على أكتافه . وكذلك أبو البقاء
ناظر الاسطبل ، وفخر الدين بن عوض فاستمروا
على ذلك سبعة أيام حتى وصلوا الى صاحب جزيرة
اقريطش ، فلما رأهم أحسن اليهم وكساهم ،
وأقاموا عنده مدة طويلة ، ثم جهزهم وأرسلهم الى
اسطنبول ، هكذا أشيع والعلم لله تعالى .

فلما ثبت موت هؤلاء المباشرين خرج نعيمهم
وطيف بالقاهرة ، ودقوا عليهم بالطارات ، وكان
هؤلاء المباشرون تزايد ظلمهم على أولاد الناس ،
وضيقوا عليهم بسبب أرزاقهم ، وأوقفهم
واقطاعاتهم . ولا سيما ما فعله فخر الدين بن عوض
فى جهات الغربية من وجوه الظلم ، فكثر عليهم

مثل قوله ، فكثر بينهما القيل والقال بسبب ذلك ،
وقد دبت عقارب الفتن بين الاصباهية وبين سنان
باشا وفائق بك ، وأوعدوا سنان باشا بالقتل غير
ما مرة .

وفي شهر ربيع الأول — وكان مستهل الشهر
يوم الخميس — طلع القضاة الأربعة الى القلعة
وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .
وفي يوم الاثنين خامس الشهر . نزل ملك
الأمراء الى الميدان وعرض الاصباهية وعلم من فقد
منهم ومن بقى ، ثم ظهر له ما كان يأخذه سنان باشا
وفائق بك من جوامك الاصباهية وليس لهم وجود ،
فظهر زيفه في هذه الحركة .

وفي يوم الخميس ثامن الشهر قبض ملك الأمراء
على طيلان رأس نوبة ، وضربه بين يديه بالمقارع
في الحوش ضربا مبرحا ، وكان سبب ذلك أن أخت
السلطان طومان باى رافعته ، وذكرت أن السلطان
طومان باى أودع عنده ثمانية آلاف دينار ، فأكثر
طيلان ، وحلف أنه ما أودع عنده شيئا من ذلك ،
فلما تزايد الأمر من أقواه الناس بسبب هذه
الوديسة ، وصار طيلان ينكر ذلك ، حنق منه ملك
الأمراء وأمر بضربه بالمقارع ، وهو لم يفر بشيء .
فنزل من القلعة وهو في الترسيم حتى يحقق
ذلك .

وفي يوم الأحد حادى عشره مع ليلة الاثنين ،
كان المولد الشريف النبوى ، فجلس ملك الأمراء
في المقعد الذى في الحوش السلطاني ، واجتمع
عنده بعض المباشرين ، وخير الدين نائب القلعة ،
وبعض أمراء عثمانية ، واجتمع عنده من القراء
والوعاظ ثلاث عشرة جوقة ، ثم فى أواخر النهار
مد سباطا لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وأين هذا

الأمير جان بردى الغزالى ذلك ، خرج الى العربان
من يومه ، وخرج صحبته نائب غزة بعساكر غزة ،
ونائب الكرك ، فاقتتل مع العربان وانتصر عليهم ،
وقتل منهم جماعة كثيرة ، وغنم أموالهم وما كانوا
غنموه من الحاج الشامى ، وهو شيء لا ينحصر ،
فاحتاط على جميع ما معهم ، وهربوا من وجهه الى
الجبال ، وخلص ما كانوا أسروه من رجال ونساء
وصبيان وغللمان ، فكان له الشكر على ذلك .

وفيه تزايد الضرر من الاصباهية فى حق الناس ،
وصاروا يخطفون النساء من الطرقات ، وكذلك
الصبيان المرد ، حتى قيل انهم خطفوا امرأة عند
سلم المدرسة المؤيدية تحت دكان الذى يبيع
الكعك ، والناس ينظرون اليهم وهم يفسفون بها ،
فلم يجسر أحد من الناس أن يخلصها منهم ، ثم
صاروا يقطعون الطرقات على نساء المسلمين ، وعلى
البياعين ، وصار أهل مصر منهم فى غاية الضنك
والامر لله تعالى .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره نزل ملك الأمراء
الى الميدان ، وأحضر سنان باشا أغات الاصباهية
وقد صار بينه وبينهم وحشة بسبب جوامكهم ،
فكان يأخذ من ملك الأمراء المال ولا يصرف لهم
شيئا ، فلما وقع الحساب وجد فى جهته لهم أحدا
وثمانين ألف دينار ، فاعترف أنها فى جهته وسيوصلها
الى الخنكار ، فحصل بينه وبين الاصباهية فى ذلك
اليوم تشاجر بسبب ذلك ، فقالت الاصباهية
لانعطوا سنان باشا من جوامكنا شيئا من الآن ،
واصرفوا لنا مثل جوامك المماليك فى كل شهر على
البساط .

ثم فى يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء سلخ الشهر
عرض ملك الأمراء الاصباهية ، فمثل ما وجد عند
سنان باشا وجد فى جهة فائق بك من المال ، وقال

وشكرا بالحسام قبل الكلام ، فقطعوا رءوسهما ، واشتقوا منهما ، حتى قيل ان بعض المماليك الجراكسة شرب من دمهما ، وبعضهم جزل لحومهما بالسيف ، والمجازاة من جنس العمل ، وكما تدين تدان .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره حضر الى القاهرة رأس حسن ابن مرعى ورأس شكر ، فرسم ملك الأمراء للوالى أن يعلقوهما على باب النصر ، وقيل ان رأس حسن بن مرعى لما دخلوا بها وبرأس شكر ، علقوهما فى رقبة فرس السلطان طومان باى الذى كان راكبا عليها لما قبضوا عليه فى تروجه ، فصودف أن هذا الفرس كان تحت حسن بن مرعى لما أتى الى اينال ، فعذ ذلك من النوادر الغريبة ، وقيل ان عيال السلطان طومان باى لما علقت رأس حسن وشكر على باب النصر ، أظهروا فى ذلك اليوم الفرح والسرور ، وأطلقوا الزغاريت ، وتخلقوا بالزعران . وأشيع أن أخا حسن بن مرعى كان مختفيا بالقاهرة لما قتل أخواه ، فعز عليه ، فقبضوا عليه من بيت بعض أصحابه .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره قدمت الأخبار من ثغر دمياط ، بأنه قد وصل الى الثغر قاصد من البحر أرسله الخنكار ابن عثمان يطلب سنان باشا وفائق بك ، فلما سمعا ذلك تنكدا لهذا الخبر ، وقالوا لملك الأمراء خاير بك هذا كله شغلك أنت ، تكتاب فينا الخنكار فى الدس وتراقع فينا عنده .

فلما وردت الأخبار بمجيء القاصد من دمياط ، رسم ملك الأمراء خاير بك للقضاى بركات بن موسى بالتوجه الى ملاقاته ، فحصرج الى قليب ورمى على البلاد من الشرقية والغربية أبقارا وأغناما وأوزا ودجاجا ، فجمع فى هذه الحركة فوق ألف

مما كان يعمل فى مولد من تقدم من السلاطين ، ثم انه خلع على الوعاظ ققطانات واستردها بقدر هين .

وفي يوم الاثنين ثانى عشره خلع ملك الأمراء على مملوكه برسباى ، واستقر به أمير ركب الحاج الشريف ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفي يوم الخميس خامس عشره ، حضر قاصد من عند نائب حماء وصحبته مقدمة حافلة الى ملك الأمراء ، وأشيع أن الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام قد قبض على أربعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، منهم قراجا بن طراباى ، فلما قبض عليهم حز رءوسهم وأرسلها الى الخنكار بأدرنة ، فلما فعل ذلك اضطربت أحوال جبل نابلس ، وصارت العربان ينهبون الضياع التى حول جبل نابلس ، ويقتلون أهلها ، وتزايد الغلاء بالشام من فلة الجالب اليها .

وفي يوم الثلاثاء عشره قدمت الأخبار من الغربية بأن اينال السيفى طراباى - كاشف الغربية - قد احتال على حسن بن مرعى وأخيه شكر شيخى عربان الغربية ، وهما اللذان كانا سببا لمسك السلطان طومان باى - وقد تقدم ذكر ذلك - فعزم اينال على حسن ابن مرعى وأخيه شكر فى مكان بالقرب من سنهور ، فأتيا اليه وأمناه وظنا أن ذنبهما قد نسى مما قد فعلاه ، فكان كما يقال فى المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها

عينا عليك اذا ما نمت لم تتم

فلما أقاما عنده ذلك اليوم مد لهما مدة حافلة ، ثم بعد ذلك أحضر لهما سفرة الشراب ، فلما شربا ودخلا فى السكر ، هجم عليهما جماعة من المماليك الجراكسة ممن كانوا عند اينال ، فعاجلوا حسنا

رأس من الغنم ، غير البقر والاوز والدجاج ، فمد القاضي بركات بن موسى للقاصد في قلوب مسدة حافلة ، فأشيع أنه صنع له في تلك المدة أربعمائة رأس غنم ، ومثلها أوز ، ومثلها دجاج ، وخمسمائة مجمع حلوى وقيل ألف مجمع .

ثم مد له في أبي الخيث مدة ثانية مثل الأولى ، فلما وصل القاصد الى هناك فاذا هم أميران أحدهما يسمى اسكندر باشا ، والآخر يسمى فرحات بك ، وصحبتهما من الغلمان نحو مائة انسان ، فلما انتهى أمر المدة أحضرا القاضي بركات بن موسى بين أيديهما ، وقالوا له الخنكار يسلم عليك ، ويقول لك ييى الله وجهك ، حيث رجعت بالحجاج سالمين بخلاف ما جرى على الحاج الشامى ، فقام وقبل الأرض عدة مرات ، وكشف رأسه ، فلما وصل القصاد الى شبرا خرج الأمير قايتباى الدوادر الى ملاقاتهم ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، فسلموا عليهم ورجعوا الى دورهم .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره دخل القصاد الى القاهرة وقت صلاة الصبح ، فطلعوا على الجزيرة الوسطى ، وأتوا من باب الخرق ، وأتوا الى تحت الربع ، وتوجهوا على القريين ، فأنزلوهم في بيت الأتابكى قرقماس بن ولى الدين الذى عند حوض العظام ، فأنزلوا به اسكندر باشا ، وأنزلوا فرحات بك في بيت الأمير كسباى المحتسب الذى عند مدرسة سودون بن زادة ، فمد لهما القاضي بركات ابن موسى هناك مدة ثلاثة لكل واحد منهما على انفراد ، واستمروا هناك يوم الثلاثاء سابع عشره .

وطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، واجتمعوا بملك الأمراء ، وقرءوا مطالعة الخنكار ، فكان من مضمون تلك المطالعة ، طلب سنان باشا وفائق بك

وخير الدين فائب القلعة ، وأرسل يقول لملك الأمراء خاير بك بأن يتوصى بالجراكسة ، وأن يصرف لهم جوامكهم على العادة ، ولحومهم وعليتهم ، وأن ينظر في أحوال المعاملة ، ويزيل عنها الغش من الذهب والفضة ، وأن يحفظ الثغور .

فلما تحقق سنان باشا وفائق بك أن السلطان أرسل يطلبهما ، اضطربت أحوالهما وهما يقتل ملك الأمراء خاير بك ، وعلموا أن هذا كله مما كان يرسل به الخنكار يشكو له منهما فاختنى ملك الأمراء في الحريم ثلاثة أيام لم يظهر لأحد من الناس ، حتى أشيع أنه هرب من القلعة ، فاضطربت أحوال القاهرة ، ووزع الناس أمتعتهم في الحواصل ، ولهجوا بوقوع فتنة عظيمة تخرب فيها القاهرة ، وتنهب عن آخرها من الاصباهية والكمالية ، فأقامت الناس على وجل ثلاثة أيام .

ثم طلع القاضي بركات بن موسى الى ملك الأمراء وقال له : ارسم للوالى بأن ينادى في القاهرة للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن الأسواق والدكاكين تفتح وأن لا أحد يكسر كلامه ولا يتحدث في شيء لا يعنيه ، ومن تكلم في شيء لا يعنيه يشنق من غير معاودة ، فطاف الوالى في القاهرة وأشهر النداء بذلك .

وصار ملك الأمراء على رأسه طيرة من الاصباهية فبنى حائطا تجاه باب الستارة وصارت الاشاعات قائمة بوقوع فتنة عظيمة من الاصباهية ، وكانت عدتهم نحو ألفى انسان غير الكمالية ، وصاروا يركبون في كل يوم ويقفون في الرملة ، ويسبون ملك الأمراء سبا قبيحا ويهمون بالهجوم عليه .

وفيه قدمت الأخبار من الشرقية بقتل شيخ العرب على الأسمر ابن أبى الشوارب ، وقد احتال عليه كاشف المنوفية وعزم عليه ، وأسكره وهجم

في موكب حافل ، وقدامهما الاصباهية قاطبة والانكشارية ، وألبس كل منهما قفطانا مخملا ، وقيل أنعم على كل واحد منهما بألف دينار ، فاستمر معهما العسكر العثماني حتى أنزلوهما في المراكب من بولاق ، وساروا في البحر الى ثغر دمياط ، ومن هناك نزلوا في الأغربة .

وفي يوم الجمعة خامس عشره ، انتهى العمل من الجامع الذي أنشأه المقر الشهابي أحمد بن الجيعان الذي عند بركة الرطلي ، بالقرب من حدره الفول ، وخطب به في ذلك اليوم ، وكان مسجدا قديما بني في دولة الناصر محمد بن قلاوون سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، ودفن به الشيخ خليل الرطلي ، وهو الذي تنسب اليه بركة الرطلي ، فاستمر على ذلك حتى خرب فجدهه صاحب سعد الدين بن ابراهيم البشيرى في دولة الملك المؤيد شيخ ، فأقام مدة طويلة وجعل به خطبة لكونه كان بجوار بيته الذي بالبركة ، فاستمر على ذلك الى أن خرب ، وأقام مدة طويلة وهو خراب ، فجدد بناءه القاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر في هذه السنة ، فاجتمع به في ذلك اليوم القضاة الأربعة ، وأعيان الناس من المباشرين ، وغيرهم ، وخطب به ذلك اليوم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، فخطب به خطبة بليغة في معنى انشاء الجوامع .

فلما انقضى أمر الصلاة أحضر الشهابي أحمد بن الجيعان زبادى صينى فيها سكر نحو عشرين زبديّة فطاف بها على الناس . ثم قامت جماعة من المنشدين وأنشدوا قصائد في انشاء هذا الجامع ، من فظم جمال الدين السلمونى الشاعر ، وعبد اللطيف الدنجيى ، وغيرهما من الشعراء .

ثم ان الشهابي أحمد بن الجيعان قرر بهذا الجامع حضورا من بعد العصر ، وصوفية ، وجعل

عليه دوا داره فقتله بغتة ولعب فيه بالسيف ، فلما جرى ذلك خاف شيخ العرب حسام الدين ابن بغداد على نفسه ، فاختنى مدة أيام ، وقد قوى عزم الممالك الجراكسة من حين قتل الأمير أبنال كاشف الغريبة حسن بن مرعى وشكرا أخاه .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على يونس الجلبى ، قيل ان أصله فلاح من الشرقية ، فبقى استادارا وكان له مقدار عند ملك الأمراء بسبب انسحاب المال على الجامكية ، فبطحه في الحوش وضربه ضربا مبرحا نحو ستمائة عصا ، فنزل الى بيته وهو مسطوح على حمار ، فأقام أياما ومات من الضرب .

* * *

وفي شهر ربيع الآخر ، في يوم الاثنين رابعه ، وقعت فتنة عظيمة بالقلعة بين الاصباهية والانكشارية من عسكر ابن عثمان ، قتل فيها من الاصباهية شخص ، وقيل اثنان ، فرسم ملك الأمراء للانكشارية بأن يقيمون بالقلعة دائما ، ولا ينزلوا الى المدينة ، فبطل أمر الانكشارية الذين كانوا يجلسون على أبواب المدينة ، وتشتكى الناس في خلاص الحقوق منهم ، فرسم لهم ملك الأمراء بأن يسكنوا باطباق الممالك التى بالقلعة ، ولا ينزلوا الى المدينة أبدا ، وكان يحصل منهم غاية الفساد في حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، والضيافات والبضائع من أيدي المتسبيين ، وضج الناس من ذلك .

وفيه أشيع ان سنان باشا وفائق بك قد برزا خيامهما في الريدانية بسبب السفر الى اسطنبول ، وأشيع ان سنان وفائق يتوجهان من البحر ويركهم يتوجه من البر .

وفي يوم الاثنين حادى عشره خرج سنان باشا وفائق بك وتوجها الى بولاق ، وشقا من الصليبة

شيخ الحضور الشيخ نور الدين على بن ناصر
شيخ حضور الشافعية ، وشيخ الحنفية هو شهاب
الدين أحمد بن الصائغ ، وقرر شيخ الحديث
الشريف الشيخ شمس الدين الضيروطي .

وفي يوم الأحد سابع عشره أشيع أن المملوك
الذي قتل على الأسمر ابن أبي الشوارب ، قد
قبض عليه الكاشف ، وأحضره الى ملك الأمراء ،
فرسم بشنقه فشنق على باب زويلة ، وقيل ان أصله
من مماليك الاتابكي سودون الدوادار ، فأرضى
ملك الأمراء مشايخ العربان بشنق هذا المملوك .
وفي يوم السبت ثالث عشره وقعت فتنة كبيرة
بين الاصباهية والانكشارية ، فأغلقوا باب السلسلة
وباب الميدان في ذلك اليوم ، واستمر الشر عمالا
بين الفريقين الى ما بعد الظهر ، فنزل الكيخية
الكبير ليصلح بين الفريقين فضربوه فولى هاربا .
وفي يوم الاثنين خامس عشره ، كان يوم فطر
النصارى وهو أول الخماسين .

واستهل شهر جمادى الأولى يوم السبت ، فطلع
قضاة القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر
ثم عادوا الى دورهم .

ومن الحوادث في ذلك اليوم ، أن ملك الأمراء
أحضر طائفة الانكشارية الى القلعة ، ورسم لهم أن
يحضروا بسكاكلهم والبندق الرصاص الذي
عندهم ، فلما أحضروا ذلك رسم ملك الأمراء
بادخال تلك السكاكل والبندق الرصاص في
الزردخاناه ، ورسم للانكشارية بأن يقيموا في
الأطباق التي بالقلعة ولا ينزلون الى المدينة أبدا ،
فشق ذلك عليهم الى الغاية ، وانتصفت عليهم طائفة
الاصباهية .

وفي يوم الأربعاء خامسه نزل ملك الأمراء في
مركب وعدى الى المقياس ، فأقام به الى آخر

النهار ، ثم توجه في المركب الى قصر ابن العيني
الذي بمنشية المهراني ، ثم توجه من هناك الى
بولاق وأقام بالسبتية . ثم مالح الى القلعة في أواخر
النهار وانشرح في ذلك اليوم الى الغاية .

وفيه خلع على القاضي شرف الدين الصغير ،
والقاضي شرف الدين بن عوض ، واستقر في
التحدث في جهات الشرقية ، عوضا عن يونس الذي
كان استادارا ومات تحت العقوبة .

وفي يوم الأحد تاسعه خرج القاضي بركات بن
موسى المحتسب ، الى مساحة بلاد الصعيد
واستخراج الغل الذي بها ، وكانت هذه وظيفته
الأمير يشبك الدوادار ، والأمير أقبردى الدوادار ،
وغيرهما من الدوادارية ، فخرج في موكب حافل
وقدماه الانكشارية يرمون بالنفوط ، وسافر معه
جماعة من المماليك الجراكسة ، وفعل في أمر
السنج والخيام والبرك ما عجز عنه الأمراء
المقدمون ، وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطان
ورأى من العز والعظمة في دولة ابن عثمان ما لم
يره في دولة السلطان الغوري .

وفي يوم الخميس ثالث عشره توفي الشيخ صالح
المعتقد عبد الرحمن البهنساوي ، الذي كان مفيما
بالمدرسة البرقوقية ، وكان للناس فيه اعتقاد .

وفيه عرض ملك الأمراء خاير بك طيلان رأس
نوبة ، وضربه بين يديه بالمقارع ثانيا ، وسبب ذلك
أنه تأخر عليه ألفا دينار مما كان تقرر عليه من
المال الذي يورده ، ثم بعد الضرب أرسله الى
سجن الديلم فأقام به .

وفيه قبض ملك الأمراء على جماعة من اليهود
من معلمى دار الضرب ، ومن الصيارف ، وسبب
ذلك أن معاملة السلطان ابن عثمان في الذهب
والفضة قد ذهبت وفسدت وصارت كلها غشا
وزغلا ، فقبض على معلم دار الضرب وألزمته بأن
يورد الى الخزائن الشريفة مائة ألف دينار ، وأن

الاثنين ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى طيلان رأس نوبة وقد نال من الضرب بالمقارع كما تقدم ، فاستمر عليها حتى مات ، وكان من وسائل سوء ، فلما عسوا من جلسة أعوان الظلمة

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره حصر قاصد أيضا من عند الخنكار وأخبر أن الفرنج قد تحركت على الخنكار ، وأرسل يقول لملك الأمراء بأن يحفظ الثغور ، ويحصن نغر الاسكندرية ونغر دمياط بالمكاحل وآلة السلاح وغير ذلك

وفى يوم السبت عشريه طلع ابن أبى الرداد بيشارة النيل ، وأخذ القاع فجاءت القاعدة ستة أذرع وعشرين أصبعا أرجح من العام الماضى بعشرة أصابع ، وكانت الزيادة أول يوم خمسة أصابع ، فتفاءل الناس بذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه حضر شخص شريف من عند ابن عثمان ، وزعم أنه قد قرره فى تقاية الأشراف ، وأظهر مرسوم الخنكار بذلك . وأشيع أن الخنكار أرسل يطلب الاصباهية بأن يتوجهوا الى أسطنبول فأخذوا فى أسباب عمل برقمهم .

وفى يوم السبت سابع عشريه ، خلع ملك الأمراء على القاضى عبد العظيم ، واستنفره فى التحدث فى نظر الحسبة الشريفة ، عوضا عن الزينى بركات ابن موسى ، وكان مسافرا نحو الصعيد كما تقدم ، وكان سبب ذلك أن ابن موسى لما سافر الى الصعيد جعل شخصا من العثمانية متحدثا عنه فى الحسبة الى أن يحضر من السفر ، فضاعت أحوال المسلمين فى هذه الأيام ، ووقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال ، وعز وجود الخبز فى الأسواق وتناهى سعر الأردب القمح الى ألف درهم ،

المعلمين بدار الضرب قاطبة يتوجهون الى نحو اسطنبول أو يلتزمون باصلاح المعاملة ، فلما جرى ذلك أغلظ عليه جماعة من اليهود ، وقالوا له أرنا مرسوم الخنكار ان كان أرسل يطلبنا الى اسطنبول وأقاموا أياما بالسجن حتى يكون من امرهم ما يكون .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على الأمير كمشيفا والى القاهرة فحق كمشيفا من ملك الأمراء ، فلما نزل الى بيته أغلق الباب وطرده النقباء عن بابه ، ورفع دكته وأقام أياما لم يخرج من بيته ، فنزل اليه الأمير جانم الحمزاوى ، وطلع به الى ملك الأمراء وقابله به ، فخلع عليه قفطانا مخملا ، ونزل الى داره على عادته بعد ما كان أشبع وقوع فتنة عظيمة ، وقيل انه أورد الى ملك الأمراء ستة آلاف دينار .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد ضرب زوجته خوند مصرباى الجركسية ، ضربا مبرحا حتى كادت أن تموت ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، وكثر فى ذلك القال والقليل .

وفى يوم الاثنين سادس عشره حضر من عند الخنكار أولاى ييشر بمجىء عسكر عوضا عن الاصباهية الذين بمصر ، وقد عين الخنكار عسكرا وهو فى أدرته بأن يحضروا الى مصر ، وزعم هذا القاصد أنه أتى من أدرنة الى مصر فى أحد وعشرين يوما ، وكانت الاصباهية قد تقلقوا من الاقامه بمصر ، فجاء هذا الاولاى ييشر بمجىء العسكر حتى تطمئن الاصباهية بذلك .

وفى شهر جمادى الآخرة وكان مستهل الشهر يوم

وتناهى سعر البطة الدقيق الى عشرين نصفا ، وعز وجود الشعير والفول والنبين ، فضج الناس من ذلك ، وعز وجود الأجبان والسمن والشيرج وغير ذلك ، فتوجه طائفة من التركمان الى بيت ابن موسى . وضربوا المباشرين والرسل الدين على الباب . وهرب التركمانى الذى كان يتحدث فى الحسبة .

ثم ان التركمان توجهوا الى بيت القاضى عبد العظيم ، وهجموا عليه فى حريمه ، وأخذوه وأركبوه غصبا وطلعوا به الى ملك الأمراء ، وقالوا له ان لم تول هذا الحسبة والا تحرب مصر على أيامك وتنهب المدينة عن آخرها ، فما وسع ملك الأمراء الا أن أحضر له ققطانا وأفاضه عليه ، واستقر به ناظر الحسبة عوضا عن ابن موسى ، فنزل من القلعة بعد العصر ، وشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس ، وكان محبيا لأهل مصر قاطبة ، وفرح كل أحد من الناس بولايته ، وظهر الخبز فى ذلك اليوم على الدكاكين وقد تفاعل الناس بكعبه بالرخاء ، وسكن ذلك الاضطراب الذى كان فيه الناس قليلا .

وفى هذه الأيام توقف النيل عن الزيادة أياما فقلق الناس لذلك .

وفى يوم الاثنين سلخ الشهر ثارت طائفة من الأصباهية على الأمير جاجم الحمزاوى وهو نازل من القلعة ، وعينوا له الضرب ، وقالوا له قل للملك الأمراء قد متنا من الجوع نحن وخيلنا من قلة الموجود ، فلا نلتقى فى الأسواق حزبا ولا شعيرا فاما يأذن لنا بالسفر أو يكفيننا من القوت ، فما خلاص منهم الأمير جاجم الحمزاوى الا بعد جهد كبير ، وذكروا أن لهم ثلاثة أشهر جامكية مكسورة فى الديوان .

وفى شهر رجب ، وكان مستهل يوم الثلاثاء ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى دورهم ، وقد قاق الناس من أسر الاصباهية . ثم ان النيل استمر فى التوقف لم يزد شيئا ، فأمر ملك الأمراء بإبطال المحرمات من النيذ والحشيش والبوزة ، ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش .

ثم ان والى قبض على امرأة يقال لها أنس وكانت ساكنة فى الأزيكية تجمع عندها بنات الخطا اللاتى يعملن الفاحشة ، وكان عليها مبلغ مقرر تورده كل شهر للوالى ، وكان أمرها مشهورا . فرسم ملك الأمراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية ، زوجة أحد من الناس يقال له البنيضى ، كانت ماشية على طريقة أنس هذه فى جيعها البنات الخطا ، فلما قبض والى على أنس توجه بها الى قصر ابن العيني الذى فى المنشية ، وغرفها هناك بعد العصر ، فاجتمع الجم الكثير من الناس بسبب الفرجة عليها ، وكان يوما مشهودا ، ففرقت على النداء والاجهار ، وأراح الله تعالى المسلمين وطهرت الأرض منها .

وفى يوم الجمعة رابع الشهر صلى ملك الأمراء صلاة الجمعة بالقلعة ، ثم نزل منها وتوجه الى المقياس وقرا هناك ختمة ومد مدة حافلة للفقراء ، واستمر النيل سبعة أيام لم يزد فيها شيئا وأشيع أنه قص أربعة أصابع ، فقلق الناس لذلك ووقع الغلاء فى سائر البضائع والاصناف .

وفى يوم السبت خامس رجب زاد الله فى النيل المبارك أصبعا واحدا بعد أن وفى النقص ، وفرح الناس بذلك وسكن الاضطراب الذى كان بمصر قليلا ، وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه :

قد أصبح الخزان مذ زاد
هذا النيل بعد النقص في بوسى

وقد عدا يهرا على قمحه

قراءة تنسب للـسـوسى

فلما زاد النيل هذا الأصبع وسكن الاضطراب
شرع القاضى عبد العظيم المختسب فى تسعير
البضائع قاطبة ، فانصلحت أحوال الديار المصرية
قليلا ، ووقع الرخاء وتفاعل الناس كعبه بالخير ،
وقد قلت فى المعنى :

يا قاضيا قد عدا بالله محتسبا

على الأعادى ولا يخشى من الباس

رخصت أسعارنا من بعد ماغلب

وحزت حسن الثنا من ألسن الناس

لما توليت زاد النيل وانفجرت

وقد حذى لل خزان ودراسى

ان زال هذا الغلا من مصر لا عجب

فكمبكم أخضر يزهو على الآس

ومن الحوادث أنه فى يوم الخميس عاشر
رجب ، وقعت واقعة شنيعة ، وهى أن اسكندر
بك أحد أمراء ابن عثمان الذى كان حضر الى مصر
عوصا عن سنان باشا ، لما أقام بمصر صار يعارض
قضاء القضاة فى الأحكام الشرعية ، فوقع بينه
وبين نور الدين على الميمونى تقيب قاضى القضاة
الشافعى .

ثم انه فى يوم الخميس رسم بعزل على الميمونى
من النقابة ، ولم يكتف بذلك حتى أنه تكلم مع
ملك الأمراء فى نفيه فنفاه الى دمنهور ، وأخرجه
من يومه .

ثم ان ملك الأمراء رسم بإبطال تقياء قضاة
القضاة الأربعة ، فعزل من النقابة شهاب الدين

أحمد بن سيرين تقيب قاضى القضاة الحنفى ،
وعزل نقيب قاضى القضاة المالكى شمس الدين
الدميرى ، وعزل من النقابة ابن قاضى القضاة
الحنبلى ، ومنع جماعة من الوكلاء ومن الرسل
أيضا ، وحصل لقضاة القضاة منه غايه الضنك
بسبب تقيائهم

وفد تقدم الفول ان ملك الأمراء لما توقف النيل
سبعة ايام امر بإبطال يوب الحتيس ريبوب
الخمرة ويوب البوزة وعرق انس التى كانت
تجمع عندها بنات الخطا اللاتى كن يعملن الفاحشة
من امر الزنا ، فلما راد النيل رجع لل سىء على
حاله ، وسبب ذلك أن العثمانيه تعصبوا فى اعادة
ذلك ، فان أكثرهم كان يبيع البوزة فى الدكاكين
ورسم ملك الأمراء بأن أولاد أنس لا يعارضون
فيما يفعلون من جمع بنات الخطا ، كما كانت
تفعل أمهم أنس .

وفى هذا اليوم قدمت الأخبار من حلب بأن
الخنكار أرسل عسكريا يقيمون بمصر عوضا عن
الأصباية الذين كانوا بها .

وفى يوم السبت ثانى عشره رسم ملك الأمراء
بشنق شخص سروجى فشنق عند باب خان الخليلى
وسبب ذلك انه كان له عبد فباعه لبعض المماليك
الجراكسه ، فهرب وخدم عند بعض التركمان ،
ثم ان السروجى توجه الى سيدى أحمد البدوى ،
فصادف ذلك العبد هناك فقبض عليه وأحضره الى
القاهرة ، فهرب ذلك العبد من بيت السروجى
وأتى الى التركمانى ، وادعى أنه لم يكن فى ملك
السروجى وأنه معتوق ، فطلع التركمانى وقص
خبر العبد على ملك الأمراء ، فاحضر ذلك السروجى
وأخبر أنه قد باعه لمملوك جركسى ، وقتل فى
الواقعة ومضى أمره ، فلم يثبت للسروجى عليه

حق فأغلظ السروجي على ملك الأمراء في القول
فحنق منه ملك الأمراء ورسم بشقه فشنق عند
خان الخليلي ، فقيل ان السروجي سأل ملك الأمراء
أن يفدى نفسه من الشنق بحمسمائة دينار ، فأبى
ملك الأمراء من ذلك ، وشنق فراح ظلما .

وفي يوم الاثنين رابع عشره وقعت حادثة مهولة
وهي : ان جماعة من الكملية والاصباهية وقفوا
الى ملك الأمراء يطلبون منه جوامعهم عن ثلاثة
أشهر ، ويأذن لهم بالسفر الى بلادهم ، فلم يلتفت
اليهم ، فنزلوا من عنده ووقفوا بالرميلة ، فلما طلع
الأمير جانم الحمزاوي أحاطوا به وضربوه وأنزلوه
عن فرسه ، وأرادوا قطع رأسه ، فهرب ودخل الى
الميدان وهو مكشوف الرأس ، فوقف في وجوههم
شخص من أمراء الجراكسة يقال له الأمير بخشباي
— الذي كان كاشف الپهنسا — فرموا غبنهم فيه
فضربوه بالسبيوت حتى أشيع موته ، فحملوه
وأدخلوه الى باب السلسلة وفيه بعض نفس .

ثم ان الكملية استمروا بالرميلة طالين شرا مع
الجراكسة ، وانفتح بينهم باب الشر بسبب جانم
الحمزاوي ، ثم أنزلوا الأمير بخشباي الى بيته
فأقام الى يوم الأحد عشريه ومات ، وقد جرح في
رأسه جرحا بالغا ومات به ، وأشيع أن ملك الأمراء
كتب محضرا بأن الكملية قتلوه وأرسل ذلك
المحضر الى الخنكار بأدرته ، ثم حضر جماعة من
الأمراء الجراكسة وصلوا على الأمير بخشباي ،
وكانت له جنازة حافلة وصنعوا قدامه كفارة .

وفيه قدمت الأخبار من حلب بوفاة القاضي
محب الدين محمود ابن القاضي شمس الدين
محمد بن أجا الحلبي ، وكان رئيسا حشما أصيلا
عريقا فاضلا ، ولي قضاء الحنفية بحلب ، ثم ولي

كتابة السر بالديار المصرية ، وأقام في هذه الولاية
ست عشرة سنة ، وهو عزيز في مصر نافذ الكلمة
وافر الحرمة ، وهو آخر كتاب السر بالديار المصرية
ولم يوجد بعده من يناظره في الرياسة والتعاطف
والنظام ، ومشى مشى الرؤساء المتقدمين في كتابة
السر ، وكان مولده سنة اثنتين وخمسين
وثمانمائة ، ومات وهو في ست وأربعين سنة ،
وكان كثير الأمراض في جسده ، وأكثر اقامته في
داره ، والناس تسعى اليه في أشغالها ، ولما مات
رثاه الأديب ناصر الدين محمد بن فانصوه بهذه
المرثية :

ألا في سبيل الله نجل أجأ الذي
يكل اذا عدت فضائله الفكر

فضائله كالزهر والزهر ذكرها
ومنظرها اذ فيهما النشر والبشر

كنجم بأفق الملك كان كم اهتدى
به من بليل الهم ضل به الحجر

كتابة سر الملك ماتت لكونها
به ختمت والسر من بعده جه

لذا كان محمودا وبالقلب ذكره
رعى الله محمودا له الحمد والشكر

فمن مثل محمود ومن مثل قلبه
وذا القلب ممدوح يلذ به الذكر

لقد كان كالنعمان في العلم والسخا
وفي الفخر نعم العلم والجود والفخر

له فكرة كانت تمد يراعه
بدائع لفظ نظم ابداعها الدن

لعمرك ما في الفصل والوصل مثلها
بيان معانيها لرب الحجا سحر

أرى الله منه الروح روحا تفضلا
عليه وريحانا وزيد له الأجر

وصير قبرا ضمه خير روضة
بطيب بها فيه له اللف والنشر

وفي يوم الخميس رابع عشره ثارت الاصباهية
على ملك الأمراء وطلعوا الى الرملة ، ووقفوا بها
فأغلقتوا في وجوههم باب السلسلة ، وباب الميدان ،
فصاروا يسبون ملك الأمراء سبا فاحشا ، وكان
سبب ذلك أنه كان لهم ثلاثة أشهر جامكية منكسرة
فأنفق عليهم شهرين وتأخر شهر واحد ، فقالوا
ما نسافر حتى تنفق علينا الشهر المنكسر ، والا نزلنا
فنهبنا المدينة وشوشنا على الناس ، فوقع الاضطراب
بالقاهرة ، وغلقت الأسواق والدكاكين في ذلك
اليوم .

ثم ان الاصباهية توجهوا الى بيت الأمير قايتباي
الدوا دار ، وأركبوه من بيته عصبا وطلعوا به الى
ملك الأمراء ، وطلعوا أيضا بالأمير كمشبا الوالي
فاجتمعا بملك الأمراء وحدثاه في أمر الاصباهية
بأن ينفق عليهم ذلك الشهر الذي تأخر لهم ، فتوقف
في ذلك . ثم رسم لهم بأن ينفق عليهم ذلك الشهر
فيما بعد ، وأخذوا في أسباب عمل برقهم والتوجه
الى اسطنبول .

وفيه أشيع انه حضر من اسطنبول جماعة ممن
كان بها من السيوفية والحدادين والبنائين والنجارين
والمرخين وغير ذلك من الصناعات ، وأشيع أن
الخنكار أنشأ له هناك جامعا وحماما ، فلما انتهى
العمل منهما وقفوا له وقالوا له ان خلفنا أولادا
وعيالا وقد أنهينا العمل الذي رسم به الخنكار
وما بقي لنا شغل ، فرسم لهم بالعود الى بلادهم ،
وكتب لكل واحد منهم ورقة بعدم المعارضة ،
وحضر صحبتهم أيضا الجمالي يوسف ابن نقيب

الجيش بن أبي الفرج وشخص من أقارب ابن
الطولوني ، وقد أقاموا لهم ضمانا باسطنبول بأن
يتوجهوا الى مصر ، ويقضوا أشغالهم ، ثم يعودوا
الى اسطنبول ، وأخير الجمالي يوسف بوفاة
جماعة كثيرة من الأعيان الذين توجهوا من مصر الى
اسطنبول ، ولم تحضرني أسماؤهم .

واستهل شهر شعبان يوم الخميس فطلع القضاة
الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى
دورهم .

وفي يوم الثلاثاء سادس الشهر حضر القاصد
الذي أرسله الخنكار بطلب الاصباهية ، وقد
أرسل عسكريا صحبة ذلك القاصد عوضا عن
الاصباهية ، فلما وصلوا الى الريدانية ، رسم لهم
ملك الأمراء بأن يطلعوا من بين التراب ، ولا يشقوا
من القاهرة ، قيل ان عدتهم دون ألف نفس ،
والباشا الذي عليهم يقال له قراموسى . فلما وصل
تحت القلعة أنزله ملك الأمراء بالميدان الذي تحت
القلعة ، فنصب خيامه به ، وصارت التركمان الذين
حضروا صحبتهم يهجمون على الناس في بيوتهم
ويسكنون بها .

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشره خرج اسكندر
بك وخرج صحبتته الاصباهية الذين كانوا بسمر
قاطبة ، فكان هو الباشا عليهم ، فشق عليه خروجه
من مصر ، وكان هو المشار اليه في أمور الديار
المصرية ، وصار يعارض قضاة القضاة في الأحكام
الشرعية ، فقلق الناس منه الى الغاية حتى بعث الله
تعالى بالفرج وأخرجه من مصر عاجلا . فلما خرج
اسكندر ، نزل اليه ملك الأمراء وودعه وانفهم عليه
بأشياء كثيرة من مال وخيول وزوادة وغير ذلك ،
ولما دخلت هذه الطائفة من التركمان الى مصر

صارت الناس تضيق أبوابها حتى لا يدخل منها راكب لاجل التركمان .

وفي يوم الاربعاء رابع عشره رسم ملك الأمراء يشنق سبعة أنفار من طائفة الكسلية ، فيسل هم الذين قتلوا الأمير بختنباي كما تقدم ، فشنق منهم ستة أنفار على شجرة النبق التي عند مدرسة السلطان حسن ، والآخر تنق عند باب النصر ، فشق ذلك على الكسلية ، ولم يطلع من أيديهم شيء

وفي يوم الجمعة سادس عشر شعبان كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك تاسع عشر مسرى ، ففتح السد يوم السبت سابع عشر شعبان الموافق لعشرى مسرى ، فأوفى الله الستة عشر ذراعا ، وزاد من الذراع السابع عشر أصعين . وفتح السد في العام الماضي ليلة النصف من شعبان ، فكان التفاوت بينهما يومين ، وقد قال الناصري محمد بن قانصوه :

شاهدت عند النيل يوم الوفا

حرزا عظيما جانب الشط

للعين والنظرة فيه غدت

كتابة بالكسر والبسط

قلما طلع ابن الرداد ، وأخبر ملك الأمراء بوفاء النيل المبارك ، نزل من القلعة ونوجه الى المقياس ، وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة ، ثم قدموا له المركب الغراب الذي كان عمره السلطان الغورى ، فنزل فيه وتوجه الى نحو السد الذى عند رأس المنشية ، ففتحه وأظهر التعاضم في ذلك اليوم ، وفرق المجامع الحلوى ، والمشنات الفاكة ، وكان ذلك اليوم مشهودا من كثرة المراكب والنفوط والطبول والزمو . ثم ركب ملك الأمراء من هناك ونوجه

الى القلعة ، ثم توجه الأمير كمشبا الوالى ففتح السد الذى عند قنطرة السد ، وفتح سد قنطرة قديدار ، ورجع الى داره ، وكان يوما مشهودا ، وقد عمت هذه الفرجة كل الناس .

وفيه أنفق ملك الأمراء الجامكية على الممالك الجراكسة ، فأنفق لهم شهرين ، وكان لهم جامكية أربعة أشهر مكسورة . ثم ان القاضي شرف الدين الصغير ، عوق جوامك جماعة من أولاد الناس بسبب ذلك .

وفيه تعير خاطر ملك الأمراء على جان بك كاشف الشرقية ، فأرسل بالقبض عليه واحضاره في الحديد وقد كثرت فيه الشكاوى من الناس ، واستغاثوا من ظلمه ، فلما حضر بين يدي ملك الأمراء وبجه بالكلام ، ثم وضع جنزيرا في عنقه ، وقيدا في رجليه ، وأرسله صحبة جماعة من الانكشارية الى الشرقية ، ورسم باشهار المنادة في الشرقية بأن من ظلمه جان بك كاشف الشرقية ، عليه بملك الأمراء يخلص حقه ، ثم عزل جان بك من كشف جهات الشرقية ، وقرر شخصا من الأتراك يقال له اياس ، وكان دوادارا بخدمة خاير بك المعمار قدما ، وقد تعين باش العسكر الذى كان قد تعين الى جدة ولم يتم له ذلك .

ثم ان ملك الأمراء في عقيب ذلك ، أرسل بالقبض على اينال السيفى طراباى كاشف الغربية ، وأحضره في الترسيم ، واستمر على ذلك الى الآن لم يخلص من الترسيم .

وفي أواخر هذا الشهر قدمت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة ابنة العالئى على بن خاص بك ، وهى أخت خوند زوجه الأشرف قايتباى ، وكانت رئيسة حشمة في سعة من المال ، وقد تزوجت بعدة أمراء

مقدمى الوقت ، وهي حماة الأشرف طومان باى ،
جاءت بكة وتوفيت هناك .

وفى يوم الخميس آخر الشهر ، كانت ليلة رؤية
هلال رمضان ، فتوجه قضاة القضاة الى المدرسة
المنصورية التى بين القصرين ، وحضر القاضى
عبد العظيم المحتسب ، فلما روى الهلال وانفض
المجلس ، قام القاضى عبد العظيم وركب من
المدرسة المنصورية ، فلاقته الفوائس والمشاعل
من هناك ، وعلقت له القناديل على الدكاكين ،
ومشت قدماه الشموع والسقاةون بالقرب كما كان
يصنع القاضى بركات بن موسى المحتسب ، فاستمر
فى هذا الموكب الحافل من بين القصرين الى بيته
الذى فى باب النصر ، والرسل قدماه بالشموع
الموقودة ، وكانت تلك الليلة من الليالى المشهودة
فى الفرجة والقصف ، وفيه يقول الأديب ناصر الدين
محمد ابن قانصوه :

كعب عبد العظيم كعب رخاء
ريح تسعيره الرخاء رخاء
بأشر الحسبة الشريفة فى المح
ل فراح الغلا وجاء الرخاء
من كذا كعبه لدى المحل خصب
فهو طب للداء فيه دواء
دام فيها مدير الحكم بالحك
مة ماقابل الصباح المساء
* * *

واستهل شهر رمضان بيوم الجمعة ، فطلع
القضاة الأربعة وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ، ومما
وقع فى ذلك اليوم أن قاضى القضاة الشافعى كمال
الدين الطويل تكلم مع ملك الأمراء فى ذلك المجلس

بسبب تقيبه نور الدين على الميمونى ، وقد تقدم
القول أن ملك الأمراء نفاه الى دمنهور ، فلما كلمه
القاضى كمال الدين بسبب ذلك رسم باعادته الى
مصر ، بشرط أن يكون بطالا ، ولا يتكلم فى النقابة
بباب القاضى أبدا ، ومنع بقية القضاة أن يجعلوا
لهم تقباء على أبوابهم ، ثم انفض المجلس على ذلك
وقامت القضاة .

وفى يوم الثلاثاء خامس رمضان كان يوم
النوروز ، وهو أول السنة القبطية سنة خمس
وعشرين وتسعمائة الخراجية .

وفيه قدمت الأخبار من مكة بأن فى البحر المالح
قبالة جدة نحو أربعين مركبا من مراكب الفرنج
يعبثون بالتجار ويقطعون عليهم الطرقات ، فلما بلغ
ملك الأمراء ذلك عرض جماعة من المماليك
الچراكسة وغيرهم ، وعين منهم نحو ثلثمائة مملوك
وكلمية يتوجهون صحبة الحجاج ، وقيمون بجدة
خوفا من أن يطرقتها بعض الفرنج على حين غفلة .

وفيه أشيع بين الناس أن قاسم الشروانى الذى
كان استقر فى نيابة جدة ، جمع المال الذى تحصل
من جدة فوضع بده عليه ، وأخذ المكاحل التى
كانت هناك والسلاح ، ونزل فى مراكب وتوجه
نحو بلاد هرمز ، فتأكد ملك الأمراء لهذه الأخبار
الردية .

وفيه حضر شخص يقال له كيخيه أرسله ابن
عثمان يقيم بمصر عوضا عن أغات الانكشارية الذى
كان بمصر ، فانه أراد الحج فى هذه السنة الى بيت
الله الحرام .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشر رمضان قبض على
شخص من تجار الوراقين يقال له المحلاوى ، وكان
قبيح السيرة مشهورا بأكل الربا ، وقد أنهوا فى

حقه أنه يبيع الخمر والمعجون للتركان في شهر رمضان ، وقد شهد عليه جماعة من الوراقين بذلك . فلما عرض على ملك الأمراء بالمبدان رسم بسليمه الى الوالى حتى يحرر ما يكون من أمره ، فتسلمه الوالى ونزل به الى داره ليحاقبه حتى يفر بما فيل عنه من بيع الخمر والمعجون ، وقد أوعده ملك الأمراء بالشنق بعد العيد ، فلما نزل به الوالى الى بيته قصد أن يكتب محضرا بسيرته ، فجاء اليه جماعة من الانكشارية من أصحاب المحلاوى الذين كان يبيع لهم المعجون ، فمنعوا الوالى من ذلك وأغلظوا عليه فى القول ، ثم توجهوا الى سوق الوراقين وضربوا التجار الذين تعصبوا على المحلاوى ، وقصدوا نهب التجار ، فأغلقوا الدكاكين قاطبة .

فلما كان يوم الأربعاء عشرين رمضان طلع التجار الى ملك الأمراء وأخبروه بما جرى من الانكشارية فحنق منهم ورسم للوالى بأن يوسط المحلاوى على باب الميدان ، فوسطه هناك مسرعا ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

ثم قبضوا على عبد المحلاوى فادعى أنه قد اعتقه أستاذه قبل أن يتوسط ، فقطع الوالى أذنه وأطلقه الى حال سبيله ، فعند ذلك من الحوادث المهولة . وما كان يجب على المحلاوى توسط فراح ظلما .

وفى يوم الجمعة ثانى عشره وقع من الحوادث أن ملك الأمراء كان وضع فى الرميلى — عند القماحين تجاه سبيل المؤمنين — فلقين حشب يحل كهيئة المشنقة ، ووضع فيهما حبالا وكلايب حديد كبارا . وأشيع بين الناس أن ملك الأمراء يقصد بعد العيد أن يشنق جماعة من مشايخ العربان .

ويشنق جاني بك كاشف الشرقية ، واينال كاشف الغربية ، ويشنق جماعة من الكملبه والانكشارية ، فجاءوا الى تلك المشنقة ورموا الأخشاب التى هناك ، وقطعوا الكلايب والجبال ، ثم توجهوا الى بيت كمشبع الوالى وقصدوا أن يهجموا عليه ، ثم ضربوا النقباء الذين على بابه ، ثم توجهوا الى الوراقين وقصدوا أن يقتلوا الجماعة الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى حتى وسطوه ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة ، وباتوا على ما كانوا عليه من طلب الشر مع ملك الأمراء .

وفى يوم السبت ثالث عشره ثارت الكملية والانكشارية ، وطلعوا الى الرميلى ، وقصدوا نحو المماليك الجراكسة ، وكان الأمير قايتباى الدوادار واقفا قدام باب السلسلة ، فلما رأى التركمان وتزايد الأمر منهم ، سل السيف هو ومن معه من الأمراء الجراكسة ، وفصدوا مفاصلهم ، وأغلظ التركمان على المماليك الجراكسة ، وقالوا لهم ايش أتنم واقفون تنفرجوا علينا ، نحن فى بعضنا نفتتن ، ايش أدخلكم بيننا ، ثم انفض ذلك الجمع على غير رضا ، ونزل كل أحد الى داره ، ثم ان التجار قفلوا أمتعتهم من الدكاكين خوفا من النهب ، واختفى غالب تجار سوق الوراقين المعينين الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى .

وفى يوم السبت المذكور توجه جماعة من الانكشارية والاصباهية الى بيت شخص من تجار الوراقين يقال له كريم الدين البلدى ، فنهبوا كل ما فيه ، وقبضوا على أولاده ونسائه وعبيده وجواريه ولم يظفروا به . ثم أشيع أنهم قبضوا على جماعة من الوراقين ووضعوهم فى الحديد ، وقيل أنهم من تعصبوا وشهدوا على المحلاوى بما قيل عنه . فتشكك جميع التجار لهذه الواقعة ، وصار على رؤوسهم الطيرة من التركمان ،

وحولوا أمتعتهم من الدكاكين ، وصارت الناس
تألى وجل ، خوفا مما يأتى منهم ، واستمر التركمان
تألى ما هم عليه من إقامة دتنة عظيمة والأمر لله
تعالى .

وفى يوم الاثنين خامس عشرية نادى ملك
الأمراء بالقاهرة بأن القلعى شيخ سوق الوراقين
يظهر وعليه أمان الله تعالى ، وإن لم يظهر بعد ثلاثة
أيام وغش عليه يحرق المكان الذى هو فيه والحارة
أيضا ، واستمر كمشبغا الوالى مختفيا لم يظهر .
وقد عين التركمان القتل لحمة من تجار الوراقين
وشخص من تجار الجملون يقال له ابن ظلام ، وهم
الذين شهدوا على المحلاوى بما تقدم ، وتعصبوا
عليه . واستمر الاضطراب عمالا بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرية ، حضر القاضى
بركات بن موسى المحتسب ، وكان مسافرا نحو
الصعيد بسبب صم الغلال وغير ذلك ، وكان له
نحو خمسة أشهر وهو مسافر ، فلما طلع وقابل
ملك الأمراء خلع عليه قفطانا مخملا ونزل الى داره ،
فزيت له سويقه اللبن ودكاكين الحشاشين .

وفى يوم الأربعاء سابع عشرية ، خلع ملك الأمراء
على الأمير كمشبغا الوالى وأعيد الى الولاية ، وكان
له عدة أيام وهو مختف لم يظهر بسبب واقعة
المحلاوى ، وقد وقع بينه وبين الكملى فتنة ، وعينوا
له القتل فاختفى وأغلق عليه أبوابه أياما ، فلما تلافى
ملك الأمراء خواطر التركمان وأرضاهم ، وزاد فى
جوامسكهم ، وخمدت تلك الفتنة ، ظهر كمشبغا ،
وخلع عليه واستقر على عادته ، فعز ذلك على
التركمان .

ولما حضر القاضى بركات بن موسى المحتسب
ضمن ابن ظلام شيخ سوق الجملون ، وخلصه من

الحديد ، وألبسه قفطانا مخملا ، وأقره شيخ
الجملون كما كان ، وضمنه فى مال له صورة يورده
الى ملك الأمراء ، وكان ابن ظلام صهر القاضى
بركات بن موسى ، فبدل معه المجهود حتى خلصه .

وفى يوم الخميس ثامن عشرى رمضان خرج
العسكر المعين الى بندر جدة ، فخرجت تلك
التجريدة فى ذلك اليوم وهم ماين ممالك جراكسة
وتركمان ، وكانت عدتهم نحو ثلثمائة افسان من
الفريقين ، وكان الباشا عليهم شخصا من العشمانية
يقال له أغات الكملى ، وقيل انهم يتوجهون الى
السويس ، وينزلون من هناك فى المراكب الى البحر
المالح ، حتى يصلوا الى جدة ، وقد كثرت الاشاعات
بسبب فساد الفرنج وعيبتهم فى البحر على التجار ،
وقد جاءوا نحو بندر جدة .

وفى شهر شوال وكان مستهله يوم الأحد ، طلع
القضاة الأربعة الى القلعة ، وصلوا مع ملك الأمراء
صلاة العيد ، ثم نزلوا الى دورهم ، وبطل ما كان
يخلع فى ذلك اليوم من الخلع على قضاة القضاة
والأمراء والمباشرين وأرباب الوظائف قاطبة ، وزال
ذلك النظام العظيم من مصر كأنه لم يكن أيذا

وفى يوم الخميس خامس شوال ، وافق ذلك
اليوم أول يوم من يابه ، فيه ثبت النيل المبارك على
ثنائى أصابع من عشرين ذراعا ، وكان أرجح من
نيل العام الماضى بذراعين وأصبعين ، فانه ثبت فى
العام الماضى على ستة أصابع من سبعة عشر ذراعا ،
وهبط سريعا فشرق غالب البلاد

وفى يوم الاثنين تاسع شوال جلس ملك الأمراء
بالميدان ، وعرض عليه كسوة الكعبة الشريفة
والمحمل الشريف وكان يوما مشهودا .

الخليفة محمد المتوكل على الله ، لما توجه الى اسطنبول ، توجه سحبة أولاده ابن عمه خليل ، وهما أبو بكر وأحمد ، فوقع بينهما وبينه هناك فتنة ، فترافعوا الى الخنكار ، وقالوا انه لما كان بمصر فعده على ودائع كثيرة ما بين مال وقماش أودعه عنده الأمراء الذين قتلوا ، وأخذ من خوند زوجة السلطان طومان باي وأمها مالا كثيرا ، وكذا أخذ من نساء الأمراء المقدمين الذين قتلوا من الأموال ما لا يحصى ، ولم يطالع الخنكار على شيء ، وتكلما في حقه بالباع والذراع ، وما أقبوا في ذلك ممكنا . فاعتدى الخنكار على الخليفة المتوكل على الله ، وانحط قدره عنده ، وساعدت الوزراء أولاد خليل عند الخنكار .

وكان الخليفة لما أقام باسطنبول أظهر فتكا زائدا ، واشترى له جوارى يضربن بالجنوك ، ثم انه قطع معلوم أولاد ابن عمه فشكوه الى الخنكار ، فحنق على الخليفة وأمر بأن جهاتهم تقسم ثلاثة أثلاث بين الجميع بالسوية ، فأرسل هذا القاصد يحاسب لهم على ذلك ، فلما حضر القاصد رسم على مباشرى الخليفة ، وعلى دوااره يرد بك ، وقال لهم أقيموا لنا حساب معلوم أولاد خليل بغاية الانصاف

وفي يوم السبت خامسه جلس الأمراء بالمتعد الذى بالحوش السلطاني ، وحضر قدامه مصارعان ، وهما شخص يقال له الشاطر أبو الغيث الزريكشى ، وخصمه شخص أعجمى شنيع المنظر في خلقته ، فتصارع مع الزريكشى فغلب الزريكشى ورماه الى الأرض ، وركب فوقه وعصره في الأرض حتى كاد يموت ، فانتصر عليه وغلب أبا الغيث ، وألبس ملك الأمراء الأعجمى ققطان حرير ، ونزل من القلعة وقدامه طبلان وزمران ، وجماعة من العثمانية وشق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود .

وفي يوم الجمعة ثالث عشر شوال انتهى العمل من مدرسة الشيخ الدشطوطي رحمه الله تعالى عليه . التى بالقرب من حصرة القول تجاه زاوية الشيخ يحيى البلحي ، وخطب في ذلك اليوم بها ، فاجتمع هناك الأمراء العثمانية ، والأمير جاجم الحمزاوى ، وقضاة القضاة الأربعة ، وأعيان المباشرين . ومشاهير الناس ، فلما كان وقت الصلاة صعد المنبر قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وخطب خطبة بليغة في المعنى ، فلما انقضى أمر الصلاة أحضر الأمير جاجم الحمزاوى زبادى صينى ضمنها سكر ، وشى أقسمه ، فطاف بها على الحاضرين ، وكان يوما مشهودا ، وجاءت هذه المدرسة في غاية الظرف ، وذلك ببركة الشيخ عبد القادر الدشطوطي رحمه الله عليه .

وفي يوم الخميس تاسع عشره ، خرج المحمل الشريف من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان ذلك اليوم مشهودا . وكان أمير ركب المحمل في هذه السنة الأمير برسباى دوادار ملك الأمراء ، فطلب طلبا حافلا يشتمل على محاسن كثيرة ، كما هي عادة الأطلاب القديمة ، وشق من القاهرة في موكب حفل ، وقدامه جماعه من الأمراء الإچراكسة والعثمانية وأعيان المباشرين ، والجهم الكثير من العثمانية والانكشارية يرمون بالنفوط ، وجماعة من القواسمة ، وخرج صحته سنيح عظيم من الزاد والماء ، وكانت الحجاج قليلة لأجل غلو العليق ، والكراء تشحط في هذه السنة الى الغاية .

وفي شهر ذى القعدة — وكان مستهله يوم الثلاثاء — طلع القصاد الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ، وأشيع بين الناس أن سبب حضور هذا القاصد أن

في طريقه انكشاريا يأخذ عصاه ويكسرها ، ويقول له اطلع الى القلعة واقعد في الطبقة ولا تنزل الى المدينة أبدا . وقيل انه منع الناس ألا يشتكوا أحدا من الانكشارية مطلقا ، واستمرت الفتنة ثائرة بين الاصباهية والانكشارية الى الآن ، وكل منهما على حذر من رفيقه

ومما وقع في الشهر من الحوادث أن جماعة من المماليك الجراكسة ، نحو عشرة ممالك ، فيل فيهم نحص من فرابه الأمير قانصوه ابن الأمير چركس ، وشخص آخر كان والى قليوب ، خرجوا على حين غفله وفصدوا أن سوجهوا الى الأمير جان بردى الغزالي نائب الشام ، فلما وصلوا الى قطيا قبض عليهم نائب قطيا ، ووضعهم في الحديد ، وأرسل كاتب ملك الأمراء فيهم ، فأرسل اليه ملك الأمراء جماعة من التتركان ليحضروهم ، فلما ، وصلوا الى قطيا أظهروا مرسوما من عند ملك الأمراء الى نائب قطيا بأن يضرب رقابهم أجمعين ، فامتلثل ذلك وضرب رقاب العشرة ممالك ، وكان فيهم شخص من العربان يرشدهم الى الطريق ، فضرب عنقه أيضا وكان قتلهم في مكان بين الصالحة وفطبا يسمى حيرة والعافولة . فلما أشيع هذا الخبر شق ذلك على جماعة من المماليك الجراكسة ، وشق ذلك على نائب الشام أيضا ، ووفعت الوحشة بينه وبين ملك الأمراء خاير بك من يومئذ ، ودبت بينهما عقارب الفتنة .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره ، كانت وفاة الكاتب المجيد أبى الفضل محمد السنباطي ، المعروف بالأعرج ، فيل انه مات فجأة على حين غفلة وكان له حظ .

ومن الحوادث العجيبة الغريبة التي لم يسمع بمثلها ما وقع في أواخر هذا الشهر ، وأشيع

وفي يوم الأحد مع ليلة الاثنين رابع عشره ، خسف جرم القمر خسوفا فاحشا حتى أظلم منه الجو ، وأقام في الخسوف فوق أربعين درجة ، وقد خسف أول ما أشرق عند طلوعه ، واستمر يتزايد في الخسوف حتى مضى من الليل جانب كبير ووقع مثل هذا الخسوف في السنة التي مات فيها السلطان العوري ، وكان بين موته وبين الخسوف نحو شهرين ، وجرى ما جرى من الأهوال عقيب ذلك . ونسأل الله اللطف في هذا الخسوف الثاني .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى خليج الزعفران ، وسبب ذلك أن الأمير كمشبعغا والى صنع له هناك مدة حافلة ، وأضافه فنزل اليه ، وأقام هناك الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة ، وكان قبل ذلك بيوم توجه الى قصر ابن العيني الذي بالمنشبة ، وقيل انه أقام هناك الى ما بعد العصر ، وعاد الى القلعة من يومه المذكور .

وفي يوم الاثنين حادى عشره ، وقع بين خير الدين نائب القلعة وبين فرا موسى أغات الاصباهية بحضرة ملك الأمراء بالقلعة فتنة ، وسبب ذلك انه وقعت فتنة كبيرة بين الانكشارية وبين الاصباهية ، وصار في كل ليلة يوجد في الأزقة والطرفات جماعة مقتولون بالسيوف ، فعز ذلك على قرا موسى ، وقال لنائب القلعة خير الدين . هذا كله في ذمتك انت الذي أطمعت الانكشارية في حق الناس ، حتى صاروا يحفظون النساء والصبيان ، ويحفظون عمائم الناس بأيديهم ، ويعروههم وقتلوههم ، ويحفظون بضائع السوق ، والخنكار ما يدرى بشيء من ذلك ، وان بلعه ذلك فما يحصل لك خير . ثم في عقيب ذلك صار الكيخية أغات الانكشارية يركب في كل يوم ويشق من القاهرة ، فان وجد

رأسه . فقال ملك الأمراء للحاضرين من مساليك الأشرف، قايتباي : أهذا قانصوه خمسمائة الذى لنهم تعهدونه ؟ فقال العسكر فاطبه . ليس هذا قانصوه خمسمائة ، وهذا قصير القامة أسنم اللون . ثم أن ملك الأمراء ضيق على ذلك الشخص الذى رسم أنه قانصوه خمسمائة ، فقال له ملك الأمراء : ما حملك على ذلك ؟ قال . العقر والقاقة وقله ما فى اليد . فلما اعترف بدنبه رسم ملك الأمراء بتوسيطه ، ثم بدا له أن بضرب عنقه بين يديه فى الميدان ، فضرب عنقه ومضى أمره ، ثم أحضروا له تابوتا فحمله فيه ليعملوه ويكفونوه ويدفنوه . فخدمت هذه الاشاعة التى أشبعت بسبب قانصوه خمسمائة . وكان غالب الناس الذين ليس لهم غنول صدقوا بذلك ، وقد تبين أن ذلك الرجل نصاب شيطان ، أخذ من ابنة قانصوه خمسمائة ، خمسمائة دينار . ويقول لها أنا أبوك . وكان ينصب على الناس ويقول لهم أنا قانصوه خمسمائة ، ويلصمهم غير ما مره ، فأراح الله الناس منه .

وفى يوم الخميس ثامننه ، خرجت تجريدة الى الأزم تلاقى الحجاج ، وكان بها نحو مائة مملوك ، وكان الباشا عليهم كاشف الشرقية وصحبته جماعة من الانكشارية يرمون بالبندق الرصاص وكان الباشا عليهم شخص من العثمانية . وفى يوم السبت عاشره ، كان عيد النحر ، وكانت الأضحية فى غاية الغلو ، وقد لا توجد ، فلم يضح من الناس الا القليل . وكان اللحم البقرى يباع فى تلك الأيام بنصف فضة كل رطل ، فلم يفرق ملك الأمراء على أحد من الناس أضحية فى هذه السنة ، وقطع أضحية الزوايا قاطبة ، وعادة الفقهاء والأتراك قاطبة ، كما فعل فى السنة الماضية . وفى يوم الأحد ثامن عشره ، نزل ملك الأمراء من القلعة وعدى بر الجيزة ، وتوجه الى نحو

واستفاض بين الناس ، أن قانصوه خمسمائة الذى تسلطن قد ظهر بعد مضي هذه المدة الطويلة ، وأنه باق فى قيد الحياة ، وقد تغيرت هيئته وصار له ذؤابة شعر فى رأسه ، وقد ابيضت لحيته . فكان من ملخص هذه الواقعة أن شخصا من أبناء العجم كان يرسل الى ابنة قانصوه خمسمائة — التى كانت زوجة انسباى حاجب الحجاب — ويقول لها أنا أبوك ، فترسل اليه ما ينفقه ، فأقام على ذلك مدة طويلة ، ثم أنه حضر اليها تحت الليل صحبة طواشي ، فطلع الى باب السلسلة ، وكانت تزوجت بأمير أخور كبير مملوك ملك الأمراء ، فلما فشا أمره ، ولم يعرفه أحد من حاشية ابنة قانصوه خمسمائة ، بلغ ذلك زوج ابنة قانصوه خمسمائة ، فقبض عليه ووضع فى الحديد ، وسجنه فى البرج الذى بباب السلسلة ، حتى يعرضه على ملك الأمراء ، ويتبين ما يكون من أمره ، وقد أنكر ذلك الناس قاطبة ، فان قانصوه خمسمائة له نحو ثلاث وعشرين سنة من حين قتل عند خان يونس الذى بالقرب من غزة ، وكان من أمره ما كان مع الأمير اقبردى الدوادار ، وقطع رأسه هناك وأرسلها الى الناصر محمد بن الأشرف قايتباي ، وعلقت على باب زويلة ، فكان أمر وجوده من الأمور المستحيلة التى لا تقبلها العقول السليمة بعد هذه المدة الطويلة .

وفى شهر ذى الحجة ، وكان مستهله يوم الخميس ، طلع القضاة الأربعة وهنوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم . فلما كان يوم السبت ثالثه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان وجلس به ، وأحضر مساليك الأشرف قايتباي ، ثم أحضر ذلك الشخص الذى زعم أنه قانصوه خمسمائة ، فإذا هو شخص أعجمى مربوع القامة ، أبيض اللحية ، وله ذؤابة شعر فى

الدين قاسم المالكي ، وكان عالما فاضلا ، علامة في مذهبه ، ولي قضاء المالكية في أيام السلطان الغوري ، أخذها عن قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن أبي شريف .

وفي ذلك اليوم وقع بالقلعة خطاب هين ، وهو أن ملك الأمراء وقف له طائفة من المماليك الجراكسة بسبب أن لهم جامكية شهرين مكسورة ، فلما وقفوا اليه وبخهم بالكلام ، وطفش فيهم ، وقال لهم لا زلتهم حتى أوقعتم بيني وبين نائب الشام ، وأنتم تفدون وتروحون وتشكونني عنده . فقام الأمير قايتباي الدوادار وجعل يرقع للمماليك ويقول له هؤلاء مماليكك وعبيدك ، وإنما يفعلون ذلك من الجوع والقلّة . فقال ملك الأمراء والله والله لولا أنا ما خلى الخنكار مملوكا يلوح على وجه الأرض ، فاني شفعت فيكم من القتل . فقال له الأمير قايتباي : الكل صاروا رعيتك ، ولهم أولاد وعيال ، وقد مسهم الفقر والفاقة ، والآن يطلبون صدقة الخنكار وصدقتك ، فرسم بشهر واحد يصرف لهم من جامكيتهم ، وكان لهم شهران مكسوران في الديوان .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ، وهم مرتابون من الغلاء وقلة الأمن وجور التركمان عليهم ، وتناهى سعر الأردب القمح الى ثلاثة أشرفية واثنى عشر نصفاً كل أردب ، والبنطة الدقيق بأشرفي وخمسة أنصاف ، وقد تشحطت الأسعار في سائر البضائع من المأكّل والمشرب ، وصارت التركمان يخطفون عائم الناس من فوق رؤسهم جهارا ، ولم يجدوا من منعهم من ذلك ، ويقطعون الطريق على المتسبين والضيافات التي تطلع من البلاد ، وصاروا يخطفون النساء والمرد من الطرقات كل يوم من بين الناس ، ولم يجدوا

شبرامنت على سبيل التنزه ، فأقام هناك من يوم الأحد الى يوم الثلاثاء ، وأخذ معه خياما كثيرة وسنيجا ، وصنع له هناك القاضي شرف الدين الصغير مدة حافلة ، وكان صحبته جماعة من الأمراء العثمانية وغير ذلك من المماليك الجراكسة ، فلما رجع من شبرامنت أقام بالقلعة ثلاثة أيام ، ثم عزم عليه الأمير كمشيفا الوالي في خليج الزعفران ، ومدة له هناك مدة حافلة ، وأقام عنده الى ما بعد العصر ، ثم عاد الى القلعة في يومه ، وكان نهار شعت وغبار وهواء مريسي ، فلم ينتهأ بالفرجة في ذلك اليوم .

وفيه حضر قاسم الشرواني الذي كان نائب جدة ، وجرى منه ما جرى كما تقدم ذكره ، فأرسل ملك الأمراء خلفه ، وأحضره في الحديد ، فأحضره الشريف بركات أمير مكة في البحر المالح ، فلما حضر سجنه ملك الأمراء بالعرقانة التي هي داخل الحوش السلطاني الى أن يكون من أمره ما يكون .

وفيه حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الوقفة كانت عندهم بالجمعة ، وأن الأسعار انحطت عما كانت عليه قليلا ، وأخبر المبشر أيضا أنه لما دخل الحاج الى مكة ثارت فتنة عظيمة بين عبيد أمير مكة بركات ، وبين جماعة من العثمانية ، وقتل من الفريقين نحو عشرة أنفار ، ثم خمدت تلك الفتنة وزال الشر قليلا بعد ما كاد أن يتسع . وفيه توفي صاحبنا الشرفي يحيى بن الناصري محمد الأزبكي ، الذي كان أغات الغوري ، فأشيع بعد موته أنه وجد له من الذهب العين عشرة آلاف دينار ، فعد ذلك من النوادر ، فان أباه محمد الأزبكي لم يكن في سعة من المال ، ولا أجداده ولا أقاربه .

وفي يوم الخميس سلخ هذا الشهر ، توفي الشيخ جلال الدين عبد الرحمن ، ابن الشيخ زين

من يخلصهم من أيديهم ، وحصل للناس من أيديهم
غاية الضرر .

ووقف الحال بسبب المعاملة من الفضة ، فأنها
كلها غش ونحاس وزغل ، وصار الأشرى القايتهابي
يصرف بحمسة وستين نصف فصة ، والسوق
لا تقبل من الفضة الا القليل ، وكذلك الفلوس
الجدد . وقاسى أهل مصر في هذه السنة شدة
عظيمة ما قاساها قط أحد من الناس ، والأمر لله
تعالى من قبل ومن بعد .

سنة ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠ م) :

فيها في المحرم — وكان مستهل الشهر يوم
السبت — طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنوا
ملك الأمراء بالعام الجديد ، ثم رجعوا الى
دورهم .

وفي يوم الثلاثاء رابعه ، كان ختان ولد قاضى
القضاة المالكى يحيى ، بن قاضى القضاة برهان
الدين ابراهيم الدميرى رحمة الله عليه ، فكان له
في ذلك اليوم زفة حافلة رجت لها القاهرة ، فمشت
من الجامع المؤيدى الى المدرسة الصالحية ، ومشى
فيها أعيان الرؤساء من المباشرين والتجار ،
ومشاهير الناس ، وغيرهم من الأعيان ، وأوقدت له
الشموع على الدكاكين ، وكان بوما مشهودا . وفي
أوائل ذلك اليوم مدت مدة حافلة حضرها الأمير
جانم الحمزاوى وجماعة من الأمراء العثمانية ومن
الأمراء الجراكسة وغير ذلك .

وفي يوم الاثنين رابع عشره ، دخل الحاج الى
القاهرة صحبة المحمل الشريف ، وأمير الحاج
الأمير برسباى ، وقد أثنى عليه الحجاج خيرا بما
فعله في طريق الحج ، وكان معهم الأمن والرخاء
بطول الطريق .

واستهل شهر صفر يوم الأحد فطلع القضاة
الثلاثة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء بالشهر ،
ولم يطلع قاضى القضاة الشافعى وكان مريضا
منقطعا بداره له مدة طويلة لم يركب .

وفيه وقع من الحوادث أن ملك الأمراء عزل
الشرفى يحيى بن التاج عن مشيخة الحضور
بالجامع المؤيدى ، واستقر بشخص من أبناء
العجم ، وقيل من العثمانية ، عوضا عن يحيى بن
التاج ، وكان ذلك الشخص عاريا عن العلم
والفضيلة ، ليس له شهرة بين الناس ، فقامت
الأشلاء على ملك الأمراء من العلماء والفقهاء ،
وأنكروا عليه أنه عزل يحيى بن التاج عن مشيخة
الحضور بالجامع المؤيدى من غير جنحة ولا
سبب ، وقرر بها من هو من غير أهلها ، ولم يكن
يستحق ذلك ، وهذا من البدع المنكرة .

وفي يوم الخميس خامسه ، نزل ملك الأمراء
من القلعة ، وصحبته الأمير قايتباى الدوادار
وجماعة من الأمراء الجراكسة ومن الأمراء
العثمانية ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة
نحو خمسمائة مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ،
ومن الاصباهية والكميلية والانكشارية الجم
الكثير ، وعدة رماة بالبندق الرصاص ، وأشيع
عنه أنه يقصد التوجه نحو البلاد الشرفية ، فصى
صلاة الصبح ، ونزل وشق من القاهرة ، وشق من
بين الترب ، واستمر سائرا والأمراء والعسكر
حوله حتى نزل بالعكرشا ، ثم توجه الى شبين ،
ثم توجه منها الى مرصفة ، وقد اختلفت الأقوال
في ذلك ، فمن الناس من يقول انه خرج يسرح في
الشرقية على سبيل التنزه والفرجة ، ومن الناس

من يقول انه خرج بسبب محاربة عربان السوالم ،
والأول أصح ، فخرج صحبته سائر المباشرين قاطبة .

فلما كان يوم الثلاثاء عاشره . حضر القاضي
بركات بن موسى من عند ملك الأمراء وعليه عمامة
هوارية ، وقد خلع عليه قفطانا محملا مذهبا ،
وحضر صحبته ستة أنفار بو وقد سلخوا وحشوا
تبنا ، فقبل انهم من عربان السوالم فأركبهم على
خيول ، وعليها بركستوانات محمل ، والبسوهم
جوحا وشاشات على زنوط فوق رءوسهم ،
وفدامهم اثنا عشر رأسا مقطوعة ، وهى على رماح ،
قبل انهم من أعيان عربان السوالم ، فشقوا بهم
من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فعلقوا
جماعة من المسلوخين ومن الرءوس على باب
ثوبيلة ، علقوا الباقي على باب النصر

وكان من ملخص هذه الواقعة ما أشيع
واستفاض بين الناس ، أن اياس كاشف الشرقية
تحيل على مشايخ عربان السوالم ، وأرسل لهم
بالأمان ، فركنوا له وحضروا اليه ، فصنع لهم
ضيافة ، فلما استقروا عنده أرسل يعلم ملك
الأمراء بذلك ، فأرسل اليه القاضي بركات بن
موسى ومعه جماعة من المماليك الجراكسة ،
فتوجهوا نحو عربان السوالم ، وخرج صحبتهم
عربان البلاد المجاورة من منية حمل والجوسق
المحروقة وغير ذلك ، فوقعوا مع السوالم ، وكان
بينهم واقعة مهولة ، فانكسرت السوالم وقبضوا
على بقية مشايخهم .

ثم ان العسكر والعربان نهبوا نجع السوالم عن
آخره ، وغنموا منه ما لا يحصى من جمال وخيول
وسلاح وقماش ونحاس ومصاغ وغير ذلك من
عبيد وجوار ، حتى أخذوا نساءهم وأولادهم ،
فلما وقعت هذه الكسرة على السوالم هرب من

بقى منهم الى الأودية والجبال ، فلما جرى ذلك
سلخ الكاشف مشايخهم وأرسلهم الى القاهرة كما
تقدم ذكر ذلك ، قيل كان فيهم من هو من أولاد
قراجا بن طراباي شيخ جبل نابلس .

وأشيع أن ملك الأمراء رحل من جهة مرصفة
وتوجه الى بنها العسل وأرسل سنيحه ومطبخه الى
القلعة وأشيع عوده الى القاهرة .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره رجع ملك الأمراء
الى القاهرة ، فأتى من جهة قنطرة الحاجب ودخل
من باب الشعرية ، وخرج من باب القنطرة ، وطلع
على سوق مرجوش . وشق من القاهرة فى موكب
حافل ، وقدامه جماعة من الانكشارية الرماة ،
وقدامه بعض جنائب ، ولاقاه الشعراء والشبابة
السلطانية من باب الشعرية ، وكان عليه قفطان
جوخ أحمر ، وكان قدامه ما اصطاده من الكراكي
والأوز العراقي ، فاستمر فى ذلك الموكب حتى طلع
الى القلعة ، وكان يوما مشهودا ، وكانت مدة
غيبته فى هذه السرحة سبعة أيام لباليها .

ثم دخل بعده شيخ العرب نجم شيخ العائد ،
وهو فى الحديد ، وقد نسبوا اليه انه كان متواطئا
مع عربان السوالم وهو من أغراضهم ، فقبض عليه
ملك الأمراء ووضع فى الحديد حتى يكون من
أمره ما يكون . ولم يكن فى نزول ملك الأمراء
الى الشرقية خير للناس ، فرعى العسكر زرع البلاد
وقدمت له مشايخ العربان نحو ألفى رأس غنم ،
فوزعوا ذلك على بلاد الشرقية ، وأحضروا له من
شيبين ستمائة أردب شعير ، وذلك غير التقادم من
خيول وجمال وغير ذلك من ذهب عين فوق العشرة
آلاف دينار .

وقيل ان ملك الأمراء كان فى هذه السرحة
لا يصحو من السكر ليلا ولا نهارا ، حتى أشيع
عنه انه أخذ معه أربعين بغلا وهى محملة ببذا

اقريطشى ، فكان في نزوله هناك غاة الضرر في حق الناس ، ولولا أنهم أخذوا عرب السوالم بحيله لما قدروا عليهم أبدا .

وفي يوم تاريخه عاين مؤلف هذه الوفايع بالمشاهدة ، حضور الفاضى بركاب بن موسى المحتسب ، وطلوع ملك الأمراء في ذلك الموكب المقدم ذكره ، فلما طلع ملك الأمراء الى التلعه قدمت الأخبار من الشرفيه بأن عربان السوالم لما حصلت لهم تلك الكسرة توجهوا الى الصالحية ونهبوا ما فيها فأحرقوها بما حولها من الضياع وحصل منهم غايه الضرر الشامل ، وهذا الله من سوء تدبير اياس كاشف الشرقيه ، فانه استعجل بقتل مشايخ عربان السوالم وكانوا من بوابع أعيان السوالم ، فسلخ الجميع . ومنها أنه نهب نجعهم ، وأخذ أموالهم ومواشيهم ، واسر حريسيهم حتى قيل انه أسر ستين امرأة من اعيان نسائهم ، واسر أولادهم . فلما طفشوا في البلاد أرسل ملك الأمراء يهول للكاشف أطلق ساء السوالم وأولادهم الذين عندك من كل بد ، وقد استدرك ملك الأمراء ما وقع منه في حق مشايخ عربان السوالم

وقد أشيع امر هذه الفتنة من كل جانب ، واستمرت أرباب هذه الدولة في آراء معكوسه ، ليس لأحد منهم رأى سديد ، ولا له مستشار يرجع اليه ، وصار كل منهم يشير برأى غير صواب ، ويتكلم بكلام غير معبد ، وقد صاعت الكلمه بينهم وآل أمر مملكة مصر الى الحراب ، وكل هذا من سوء تدبيرهم ، وقلة معرفتهم ، وعدم بجاوبهم للأمر ، وقلة نظرهم في العواقب ، مما يؤول أمره الى خير أو شر ، فנסأل الله تعالى اصلاح الحال ، وحسن الخاتمة ، واخماد هذه الفتنة عن قريب

وفي يوم الجمعة ثالث عشره خلع ملك الأمراء على احي نجم ، واستقر به شيخ العايد ، عوضا عن

أخيه نجم ، وقد بلغه أن أحوال الشرقيه قسسه اضطربت الى الخاية ، وثاربت بها العربان للفساد ، فلما خلع عليه خرج من يومه الى الشرقيه بسبب هذا الفساد .

وفي يوم السبت رابع عشره ، أرسل ملك الأمراء تجريدة الى الشرقيه ، وعين بها نحو مائة مملوك من الجراكسه وغيرهم ، وعين جماعة من الكمليه والاصباهيه ، وجماعة من الرماة الانكشاريه ، وجهاز عجلات تخرج صحبتهم اذا خرجوا ، وقيل ان اياس كاشف الشرقيه محاصر مع العربان في بلييس ، وقد أرسل يطلب نجدة بسرعة ، وأشيع أن عربان نجم شيخ العايد لما أمسك صاروا يعرفون الناس في رأس المطرية ، وعند قرية العادلي .

وفيه أشيع أن جماعة من الانكشاريه هجموا على سوق النحاسين وأخذوا ما فيه من النحاس لأجل أن يسبكوه مكاحل للبندق الرصاص ، فحصل للتجار الضرر الشامل من ذلك ، وكانت حركة هؤلاء الجماعة الذين قتلوا من عرب السوالم من أكبر أسباب الفساد في أحوال المملكة ، وأنهم لو أبفوهم في قيد الحياة وسجنوهم لكان ذلك عين الصواب ، وأرجى لحمود هذه الفتنة ، ولكن عطلوا قتلهم حيث ظفروا بهم . فكان كما بهال في المعنى :

أمور نضحك السفهاء منها

ويكي من عواقبها السبب

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره خرجت التجريدة التي عيها ملك الأمراء الى السوالم ، وكان الباشا عليها تحصا من أمراء العشراوات فقال له جان برذى الأتسر - الذي كان كاشف البحيرة - اخوتهم الذي كان حازيدار الملك الناصر محمد ابن الأشرفه

قانتاي ، ه كان بها من الممالك الجراكسة وغيرهم
مائة سلور . وتوجه قبل ذلك الى كاشف الشرقية
ستون مملوكا تقسمون عنده ، فخرجت التجريدة
في ذلك اليوم ، وتوجه من بها من المسالك الى
خائقاه سرياقوس

وفي يوم السبت حادى عشره ، حضر الياس
كاشف الشرقية وصحبته جماعة ممن بقى من أعيان
عربان السوالم ، وقد أتوا الى اياس طائعين بعد
أن رأوا عين الغلب ، فأحضرهم الى ملك الأمراء ،
فلما قابلوه خلع عليهم ، وأقرهم في مشيخة عربان
السوالم عوضا عن قتل منهم ، وخمدت فتنة
السوالم ، وكان ذلك على غير القياس من أمر هذه
الفتنة .

وفي شهر ربيع الأول وكان مستهله يوم الاثنين
طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنتوا ملك الأمراء
يالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفي ذلك اليوم قدم قاصد من عند الخنكار
سليم شاه ابن عثمان ، وقد حضر من البحر المالح
الى نغر الاسكندرية ، فلما طلع الى القلعة قرأ
مراسيم الخنكار على ملك الأمراء .

وأشيع بين الناس أن الخنكار أرسل يقول للملك
الأمراء أن يتوصى بالممالك الجراكسة ، ويصرف
لهم جوامكهم ولحومهم وعلقهم والأضحية
والكسوة على العادة .

وأشيع أنه أرسل يقول للملك الأمراء كل من
شوش من التركمان على أحد من الرعايا يشنقه من
غير معاودة ، وأرسل يأمر ملك الأمراء بأن ينادى
للناس بقطع الطرقات والشوارع والأسواق قاطبة
فأخذ الناس في أسباب ذلك ، وشرعوا في قطع
الطرقات .

ثم أشهروا المناداة في القاهرة على لسان الخنكار
حسبما رسم بأن لا أحد من الانكشارية ولا من
الاصبايه يشوش على أحد من الناس ، ومن فعل
ذلك بأحد بمسكه من طوقه ويتوجه به الى
حير الدين نائب القلعة ، فأشهر المناداة بذلك أربعة
مشاعليه ، اثنان يناديان بالتركي ، واثنان يناديان
بالعربي ، وهم قدام الأمير كمشبعغا والى القاهرة ،
وأظهروا العدل في ذلك اليوم ، وليته دام .

ثم أشيع بين الناس أن الخنكار لما أرسل الى
ملك الأمراء بطلب سنان باشا وفائق بك بأن
يعصرهما والاصبايه الى اسطنبول سافروا ، فلما
وصلوا هناك أحضر الخنكار سنان باشا بين يديه
وأمر بتسفه ، فاقام مصلوبا ثلاثة ايام لم يدفن .

وأشيع أن طائفه من الاصبايه الدين كانوا
ببصر وأرسل طلبهم ، لما دخلوا مدينة اسطنبول
سرب رقاب اربعمائة اصبايه منهم ، ممن أشيع
عنه الفساد ببصر من جساغه سنان باشا .

وأشيع أن الخنكار أرسل يحط على ملك
الأمراء خاير بك بسبب تراخيه في حق طائفه
الانكشاريه والاصبايه حتى جاروا على الناس ،
وساروا يتشوشون على الرعية ، وقد بلغ الخنكار
ما يصنعونه ببصر من خطف النساء والمرد وبضائع
المتسبين وخطف صيافات الناس ، فلما حضر
القاصد في ذلك اليوم وفرعوا مرسوم الخنكار
بحضرة قضاة القضاة ، شهدوا بأن ملك الأمراء
ناظر في مصالح الرعية ، والناس عنه راضية ،
وكانت هذه الشهادة عين الرياء ، واتباع الجاه
لأجل المناصب .

الفحص على كل من كان سببا لقتله ، وألزم الوالى
بإحضار سر الذى ذل فى بيته

وفيه أخرج ملك الأمراء بجريدة الى نفس
الاسكندرية بسبب عبت الفريج هناك بالمسافرين
وكان بها من العسكر نحو مائة انسان ، ما بين
مماليك جراكسه وأولاد ناس وعثمانية وغير ذلك ،

وفى شهر ربيع الآخر - - وكان مستهل الشهر
يوم الثلاثاء - - طلع فضاة القضاة الى التلعة وهنثوا
ملك الأمراء بالشهر تم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس نالته خرج الأمير جانهم
الحمزوى الى السفر ، ووقصد التوجه الى اسطنبول
فخرج فى موكب وصحبه الأمراء الجراكسة
والمباثرون وأرباب الدولة من الأمراء العشانية ،
وقد أرسل ملك الأمراء صحبته مقدمة حافلة الى
السلطان الملك المظفر سليم خان ، وكان ما اشتملت
عليه تلك المقدمة على ما قيل : من الحىول الخاص
خمسین فرسا ، وفيها بغلة قيل منتراها خمسمائة
دينار ، ومن الفماش الحرير والتفاصيل السكندرية
أشياء كثيرة ، ومن الشاشات المايى أشياء كثيرة
منها ما طوله مائة وعشرون ذراعا ، وأرسل اليه
ملك الأمراء من جملة هذه المقدمة خمسمائة
قنطار سكر معبولة بمسك ، ومن الأشربة والمرببات
أشياء كثيرة ، وأرسل اليه من الفصوص والمعادن
واللؤلؤ أشياء كثيرة ، ومن الصينى اللازوردى
والشفاف أشياء كثيرة ، وغير ذلك من التحف
الغريبة مما يهدى للملوك .

وفيه قدمت الأخبار من تونس ببلاد الغرب بأنه
قد وقع بها فتنة عظيمة بين صاحب تونس وبين
الشيخ محمد بن تليس صاحب بصرت ، وكانت
بينهما واقعة عظيمة فى أوائل صفر ، وقتل فى هذه

ثم ان ملك الأمراء قصد أن يكتب محضرا
ويأخذ عليه خط القضاة الأربعة بأن مصر فى غاية
العدل والرخاء والأمن ، فلم يوافقوه القضاة على
ذلك ، وقالوا نكتب خطوط أيدينا على شيء باطل
ويبلغ الضكار بخلاف ذلك ، فنحن على أنفسنا
منه أن نذكر أن مصر فى غاية العدل والأمن
والرخاء ، وأن التركمان لم يتوشوا على أحد من
الرعية ، وهذا باطل لا يجوز ، فرجع عن ذلك .

وفى يوم الخميس حادى عشره ، عمل ملك
الأمراء المولد الشريف النبوى بالقلعة ، وجلس
فى المقعد الذى بالحوش السلطاني ، وحضر
القضاة الأربعة على حكم السنة الماضية .

وفيه قدمت الأخبار من مكة المشرفة بأنه وقع
بين الشريف بركات أمير مكة وبين نائب جدة أغات
الكلمية الذى يسمى الكيخية ، واضطربت أحوال
مكة الى الغاية .

وفى يوم الأحد رابع عشره ، خلع ملك الأمراء
على الأمير جانهم الحمزوى كاشف البهنا والفيوم
وقرره أمير الحج بركب المحمل ، فنزل من القلعة
موكب حافل

وفيه كانت كائنة الأمير جان بردى الأشقر ،
أحد الأمراء العشراوات ، وهو أخو تتم الذى
كان نائب الاسكندرية ، قيل انه عزم عليه شخص
يسمى تمر الظاهرى ، فلما دخل عليها الليل وقع
بينهما تشاجر ، فثارت فى ذلك المجلس فتنة كبيرة
فقتل فيها جان بردى الأشقر ، ولا يعلم من قتله
من الحاضرين ، وقبضوا على من كان حاضرا ،
واختفى تمر صاحب البيت ، وكانت واقعة مهولة
فلما بلغ ملك الأمراء ذلك شق عليه قتل جان
بردى الأشقر ، فانه كان صاحبه ، فأخذ فى

فحصل بينهما واقعة مهولة ، فقتل بها جماعة كثيرة من التركمان ، وأشيع قتل سوار في المعركة ، وفد ملك عبد الرزاق من سوار الأبلستين والمرعش وغير ذلك من البلاد ، واستمرت الحرب نائرة بين الفريقين ثمانية أيام ، وانتصر عبد الرزاق على سوار ، ثم خمدت هذه الاشاعات من بعد ذلك كأنها لم تكن .



واستهل شهر جمادى الأولى يوم الخميس ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفي هذا الشهر تزايد أمر الغلاء بالديار المصرية ، وبلغ سعر القمح ثلاث أشرفيات كل أردب ، وبلغ سعر الأردب الشعير أربعمئة درهم ، والفول ستمائة درهم كل أردب ، وشطح السعر في سائر الحبوب ، وبلغ كل رطل سمن أربعة أنصاف ، والشيرج ثلاثة أنصاف كل رطل ، والأجبان قاطبة في غابة الغلو ، واللحم الضأنى كل رطل بثمانية عشر درهما ، واللحم البقرى كل رطل بستة عشر نقرة ، وبلغ سعر السكر ثمانية أنصاف كل رطل ، وبلغ سعر العسل الأسود كل رطل ثلاثة أنصاف ، وبلغ سعر الصابون كل رطل خمسة أنصاف ، وعلى هذا فقس سائر البضائع والغالل وغير ذلك ، حتى بلغ سعر الراوية من الماء أربعة أنصاف ، وعم هذا الغلاء أنواع القماش قاطبة ، البياض والملون والحريز والصوف والجوخ ، وغير ذلك من القماش . وسبب ذلك الغش في المعاملة من الذهب والفضة ، وصار الأشراف البرسيهي يصرف بثلاث أشرفيات فضة ، والأشراف القايتباهي يصرف بأشرفين وثمانية أنصاف ، والأشراف الغوري يصرف بأشرفين وأربعة أنصاف ، وكذلك الأشراف العثماني ضرب الخنكار . وأما الفضة فجميعها في غاية الغش والفساد ، وصار

المعركة نحو أربعين ألف انسان ، وآخر الأمر اقتصر السلطان حسن بن محمد صاحب نوس على ابن تليس ، وغنم منه غنائم جزيلة ، ما بين مال وقماش وسلاح وخيول وجمال وغير ذلك .

وفيه نزل ملك الأمراء الى بولاق ، واقام بها الى قريب الظهر ، فأحضر اليه القاضي بركات بن موسى المحتسب هنالك مدة حافلة ، ما بين خرفان شوى ، وقدر هريسة ، وماموية ، وفاكهة وحلواء ، ومشوم .

ثم ان ملك الأمراء عرض المراكب الأغربة التي أنشأها ، ولعبت فدامه في البحر ، وانشرح في ذلك اليوم الى السايه ، ونصب له سحابه في الجزيرة التي تجاه انبابة ، وكان يوما مشهودا . وفي يوم الاثنين حادى عشريه . كان عيد النصرى . وهو اول يوم الحماسين ، وكانت خماسين مباركة ، ثم يظهر فيها الطاعون بمصر ، ولا في غيرها من الشعوب .

وفيه توفي شرف الدين الجوينى الذى كان مباشر ديوان الأمير ازدمر الدوادار ، وباصر أيضا ديوان الأمير كسباى المحتسب ، وكان لا بأس به . ومما وقع من الحوادث الشسعه ، أن امرأة مسلمة تبست مع شخص يهودى ، فلما شاع أمرها فبص على اليهودى وعلى المرأة ، وعلى المتكاري الذى أركب المرأة ، وفبص على شخص اسكاى كان واسطة بين المرأة واليهودى ، فلما عرض امرهم على ملك الأمراء ، أمر بضربهم بالمقارع ، وسجن المرأة بالحجرة ، وسجن اليهودى بالدلم ، حتى يكون من أمرهم ما يكون .

وفيه قدمت الأخبار من حلب : أن عبد الرزاق أخا على دولات ، وث على ابن أخيه سوار ، وقد التفت عليه جماعة من التركمان البيضاء والأكراد .

الناس في أمر مريب بسبب ذلك . وقد تغيرت أحوال الديار المصرية تسيرا فاحشا الى الغاية ، وفوق ذلك جور التركمان في حق أهل مصر من الخطف والنهب ، وأخذ أموال الناس بغير حق ، وخطف النساء والمرد من الطرقات .

ومن الوقائع الغريبة ، كائنة الشيخ محمد الرشيدى الذى كان ناظر الكسوة ، وناظر الجوالى وغير ذلك من النظارات ، وكان الخنكار قرره في ذلك ، وقد سعى له حليم جلبى في ذلك ، وكان من جماعة الخنكار ، فاستمر على ذلك . ثم سعوا في الرشيدى من عند ملك الأمراء ، فأخرج عنه ما كان بيده من النظارات ، فحصل له غاية التهر ، فاخفى وخرج في الدس صحبة بعض الهجانة على أنه يتوجه الى الخنكار بشكو له ملك الأمراء الذى أخرج عنه النظارات التى كان الخنكار قرره فيها ، فلما وصل الى قطيا قبض عليه نائب قطيا ، وعلى الهجان الذى كان صحبته ، وقال له أمعك مرسوم ملك الأمراء ، فقال انما رسم لى مشافهة ، فضيق عليه نائب قطيا ، فاعترف الرشيدى أنه خرج هاربا من ملك الأمراء . فقبض عليه نائب قطيا ووضع في الحديد ، وأشيع أنه شنق الهجان هناك ، وأرسل الرشيدى في الحديد الى ملك الأمراء . فلما وقف بين يديه وبخه بالكلام ، وقال له أنت تتوجه الى الخنكار وتشكونى له . ثم ان ملك الأمراء رسم بسجن الرشيدى في العرفانة التى هى داخل الحوش السلطانى .

وفيه أرسل ملك الأمراء بالقبض على شخص يسمى محرات مقدم ، كاشف الغريبة ، وقد كثرت فيه الشكاوى من الفلاحين ، وأشيع عنه أنه ضرب شخصا من الفلاحين حتى مات تحت الضرب ، فلما

مثل بين يدى ملك الأمراء أمر بتوسيطه فوسطوه في باب زويلة .

وفي ذلك اليوم رسم ملك الأمراء بشنق اثنين من الكمليه لأمر أوجب ذلك .

ومن الحوادث أنه في يوم الثلاثاء سادسه ، وقع للأمير قايتباى الدوادار واقعة مهولة ، وهى أنه سار الى نحو المطرية وعاد ، فلما دخل من باب النصر ، وجد عند وكالة الصابون بعض الانكشارية قد أخذ من شخص يبيع الصابون خسة أوطال ، ودفع اليه ثمانية أنصاف ، وكان الصابون قيمته أشرفيا ، فلما رأى صاحب الصابون الأمير قايتباى الدوادار تعلق بلجام فرسه ، وقص عليه قصته ، وكان الانكشارى ضرب صاحب الصابون حتى آدمى وجهه ، فأرسل الأمير قايتباى مع صاحب انصابون بعض مماليكه الى الانكشارى لعله يعطى صاحب الصابون شيئا فوق ذلك القدر ، فلما قابل ذلك المملوك الانكشارى أغلظ عليه المملوك في القول ، فحنق منه الانكشارى فضرب المملوك على وجهه فأدماه . ثم ان المملوك ضربه على وجهه بدبوس فأدماه ، فاتسعت الفتنة بينهما ، فمضى الانكشارى الى أصحابه وأعلمهم بما جرى له مع مملوك الدوادار ، فاجتمع الجرم الكثير من الانكشارية وتوجهوا الى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، وهجموا عليه ، وبأيديهم سيوف مسلولة ، وقصدوا أن يحرقوا بيته وينهبوه فاخفى منهم . فلما بلغ الكيخية أغات الانكشارية ركب ورد الانكشارية ، وخمدت تلك الفتنة . فلما بلغ ذلك ملك الأمراء شق عليه ذلك ولام الأمير قايتباى الدوادار على ما فعله .

ثم ان ملك الأمراء أرسل طلب المملوك الذى ضرب الانكشارى وأثار هذه الفتنة ، فلما مثل

بين يديه أمر بضربه فضربه ضربا مبرحا ، وسجن بالعرقانة ، فسكن ذلك الاضطراب قليلا ، وصار الأمير قايتباى على رأسه طيرة من الانكشارية ، وهو مهدد بالقتل منهم فى كل يوم ، وزعم الانكشارى الذى ضرب أنه سقط منه خنجر مفضض وسيف ، وادعى أنه كان معه ثلاثون دينارا فسقطت منه ، فدفع اليه الأمير قايتباى الدوادار عشرين دينارا على ما أشيع . هكذا قيل . وصار الأمير قايتباى لا يأمن على نفسه أن بطلع القلعة وحده ، وكان يركب فى كل يوم ومعه جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، ويتوجه الى قبة يشبك التى بالمطرية ، ويقيم بها الى آخر النهار ، ثم يعود الى داره ومعه المماليك الجراكسة ، فاستمر على ذلك أياما ، ثم خمدت تلك الفتنة والله الحمد .

وفى يوم الجمعة تاسعه ، قدمت الأخبار من حلب بأن خارجيا من التركمان يقال له جلال المهتدى ، قد تصدى لمحاربة الأمير على بن شاه سوار ، والتفت عليه جماعة كثيرة من التركمان . وكان جلال هذا من قرية بالروم يقال لها اعلاق شرى بوز ، فكان بينه وبين الأمير على بن سوار واقعة مهولة ، وقتل من التركمان بها نحو ثلاثة آلاف انسان ، وأشيع أن الأمير ابن سوار قد جرح فى وجهه بطير ، وانتصر ابن سوار على ذلك الخارجى الذى يقال له جلال المهتدى ، وفر منه الى بلاده ، فخلع ملك الأمراء على الهجان الذى أتى بهذا الخبر ، ثم خمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن .

وفى ليلة الخميس خامس عشره ، خسف القمر ، وأظلمت الدنيا ، فأقام فى الحسوف نحو ساعة ثم انجلى عنه ذلك الحسوف .

وفى ذلك اليوم قبض القاضى بركات بن موسى المحتسب على أخى محمد بن خير ، وضربه ضربا

مبرحا حتى كاد أن يهلك ، ثم أشهره فى بولاق . وكان سبب ذلك أنه حجز على بيع الفول ، وصار يشتره على ذمته ويحزنه ، فشطح سعر الفول فى تلك الأيام ، وكان أخوه محمد بن خير يتحدثنا فى أمر الغلال التى كانت ترد من البلاد قاطبة ، وكان محتما بالأمير جانم الحمزوى ، فجار على الناس بسبب بيع الغلال ، فحقيق عليه القاضى بركات بن موسى وضربه كما تقدم .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء كان سعر الذهب العثمانى أن يصرف بأشرفيين ، وكان قبل ذلك يصرف بأشرفيين وخمسة أنصاف ، وصار البيع يعين بيع بالذهب ، وبيع بالفضة ، فوقفت أحوال الناس بسبب ذلك .

ثم ان ملك الأمراء نادى فى القاهرة بأن لا أحد من الناس يرد معاملة الفضة ، وكل من ردها شق من غير معاودة ، وكانت الفضة يومئذ فى غاية الغش كلها نحاس ، اذا باتت ليلة واحدة تنكشف كلها ، وكانت الانكشارية تدخل الأسواق وترمى تلك الفضة النحاس على التجار ، فكل من رد منها شيئا تنهب دكانه ، ويضرب ذلك التاجر حتى يأخذها غصبا على رغم أنفه ، فيأخذون منه أشرفيا ذهبيا ويعطونه أشرفيين من تلك الفضة النحاس ، فحصل للناس فى ذلك غابة الضرر الشامل .

وفى يوم الجمعة سادس عشره خطب فى مدرسة الست خديجة ابنة درهم ونصف ، التى بالقرب من جامع التركمان عند طاحون السدر ، فاجتمع هناك قضاة القضاة الأربعة ، وأعيان المباشرين ، وأعيان الناس ، وخطب بها فى ذلك اليوم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وكان أصل هذه المدرسة قاعة أنشأها الدرهم ونصف ، ثم بدا لابنته خديجة أن يجعلها مدرسة ،

فأنشأت بها المحراب وجعلت بها منبرا ومئذنة ، وجعلت فيها خلاوى لنصوفيه ، ثم أنها وقفت عليها جميع جهاتها المخلفة عن والدها ، فجاءت من محاسن الزمان ، وكان ذلك عين الصواب ، وفصدت بذلك الأجر والثواب

وفي هذا الشهر قدم جماعة كثيره من اسطنبول ممن كان نفى اليها من الأعيان بالديار المصرية ، منهم كمال الدين بن معين الدين الموفق ، وابن نصر الله ، ومرعى الذي كان من جماعة الأتابكى سودون العجسى ، وأحمد الضيروطى ، ومحمد بن فروشيخ جهات الأميرية ، وحضر محمد بن ابراهيم الذى كان متحدثا على الزمامية ، وحضر محمد ابن القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب المماليك ، وحضر محمد بن على كاتب الحزانة ، وحضر ابن العريطى ، وحسام الدين بواب الدهيشة ، وآخرون منهم لم يحضرني أسماؤهم الآن ، والكل فروا من اسطنبول من غير اذن من الخنكار ابن عثمان .

وحضر جماعة من السيوفيه والحدادين والنجارين والبنايين والمرحمين وغير ذلك ممن كان توجه الى اسطنبول ، فلما حصروا أشيع موت ابن سقيرة التاجر الذى من سوق مرجوش ، وأشيع موت جماعة كثيرة هناك من اعيان اهل مصر قبل ذلك . وقدمت الأخبار بوفاة جاز بك دوادار الأمير طراباى ، وكان من وسائط السوء . وتوفى محمد ابن يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وكان من وسائط السوء أيضا . وتوفى محمد المسكى الذى كان من سوق الوراقين ، وتوفى هناك جماعة كثيرة لم يحضرني أسماؤهم الآن .

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من اليهود الصيارفة ، من جماعة المعلم يعقوب اليهودى .

فضربه بالمقارع ثم قطع يده وعلقها فى عنقه ، وأشهره فى القاهرة ... وكان سبب ذلك ما أنسب عنه أنه يشتري الفضة النحاس المغشوشة ، ويصهره فى الجامكية ، وقد قلق العسكر من ذلك

وفى يوم الخميس تانى عشرية ، كان دخول الشرفى يحيى ابن الأمير طراباى رأس نوبة النوب على ابنه الأمير بيبرس ابن بنت سيرين ، ولست أعلم اسم أبيه ولا جده ، وهو يزعم أنه ينتسب الى الملك الظاهر برقوق بفوله ، فكان كما يقال فى المعنى .

شبهته مثل العقاب فأمه

معلومة وله أب مجهول

فكان له مهم حافل من المهمات المشهورة ، فصرف على المحبوز فى السماط ألف دينار ، ودبح فيه اثنتى عشرة بقرة ، ومن الحبل ثلاثة أرؤس ، ومن العنم مائة رأس . ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز مائتى زوج ، وصرف على الشمع المزهر مائة دينار ، وصرف على الخيام والتعليق أربعين ديناراً ، وعلى السقائين عشر أشرفيات ، وكان له زفة حافلة مشى فيها جماعة من الأمراء الجركسة والأمراء العثمانية ، فمشوا فيها من بيت الأمير قانتباى الدوادار الى بيت القاضى عبد العظيم الذى عمل فيه العرس وكانت ليلة حافلة . وفيه رسم ملك الأمراء بشنق شحص من عمال البلاد ، فشنع على قنطرة الحاجب بعد العصر ، وكان سبب ذلك ما أشيع عنه أنه زور مراسيم على لسان بعض المباشرين باستخراج الرزق التى بالغربية ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل أحضره ، فلما حضر أمر بشنقه من يومه ، فشنع بعد العصر وأراح الله الناس منه .

وآل أمر هذه الكائنة الى مال له صورة غرمه
الشيخ عبد المجيد الطرينى .

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام
الأمير جان بردى الغزالى تضرع لخاله على قاضى
القضاة الشافعى والى الدين محمد ابن قاضى
القضاة شهاب الدين احمد بن ترقور الدمشقى .
فهم يقتل القاضى ولى الدين غير ما مرة ، فقر منه
واختفى مدة طويلة ، ثم ظهر بسد ذلك بمدينة
حلب ، قيل انه كاتب ابن عثمان بما وقع له مع
الغزالى ، فأرسل اليه مرسومه بأن يلى قضاء
الشافعية بحلب ، فاستقر بها وأرسل لاجساد عياله
وأولاده من دمشق ، وتزوج بالست حلية زوجة
القاضى محمود كاتب السر بن أجا ، وصار صاحب
الحل والعقد بمدينة حلب ، فشق ذلك على جان
بردى الغزالى نائب الشام ، ولولا أن تدارك
القاضى ولى الدين وفعل ذلك لقتله الغزالى
لا مطالة .

وكان سبب الوحشة بينه وبين الغزالى ، أن
الغزالى قبض على شخص من المباشرين ، فوجد
معه ثلاث مطالعات متوجها بها الى الخنكار :
احداها بخط القاضى ولى الدين الشافعى ،
والأخرى من عند شخص يسمى المظفرى شيخ
المدرسة التى أنشأها الخنكار بدمشق ، والثالثة
من عند نائب دمشق ، فكان من مضمون تلك
المطالعات عدة شكاوى الى الخنكار فى الغزالى
نائب الشام ، بأنه قد أظهر العصيان وهو يعمل
فى برق عظيم ، وقد التفت عليه جماعة كثيرة من
المماليك الجراكسة . فلما بلغ ذلك القاضى ولى
الدين ، فر من الشام واختفى ، حتى ولى قنساء
حلب ، وأمره مشهور ، وصار الغزالى فى قهر من
القاضى ولى الدين ، وقيل انه شنق المظفرى ،

واستهل شهر جمادى الآخرة يوم الجمعة ،
فطلع القضاة الأربعة الى القاعة وهاضوا ملك الأمراء
بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الاثنين رابعة قدم قاصد من البحر
المالح وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليم
خان ابن عثمان ، فكان من مضمونها : انه أرسل
يطلب الأمير كشيغا والى القاهرة ، وقد بلغه
ما فتحه من أبواب المظالم بمصر ، وقد كثرت فيه
الشكاوى من الناس عند الخنكار ، فطلبه من
ملك الأمراء عدة مرار ، وهو يتناسى عليه ، فلما
رأى الطلب حثيثا فى أمره ، فما وسعه الا أن
أرسله ، فخرج على وجهه فى أثناء هذا الشهر ،
وسافر الى اسطنبول من البر دون البحر . وكان
من وسائل سوء ظنا غشوما ، عسوف سفاكا
للدماء ، استباح أموال المسلمين ودماءهم ، فلم
يتأسف لخروجه أحد من الناس ، وفرح غالب
الناس لخروجه من مصر . وكان أصل كشيغا
هذا من ممالك ملك الأمراء رومى الجنس ، سبىء
الخلق شديد البأس ، فلهج الناس بعدم عوده
الى مصر .

وفى يوم الثلاثاء خامسه توفيت الست فضل
العزيز ، وكانت يومئذ متزوجة بالشيخ عبد المجيد
الطرينى ، فكانت لها جنازة مشهورة

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع للشيخ عبد المجيد
الطرينى بسبب القتل الذى قتل ، واتهموا
به جماعته ، واتسعت هذه الكائنة حتى كاد أن
تخرب دياره فى هذه الحركة ، وأمرها مشهور بين
الناس بما وقع له بالمحلة ، واتصل خبرها بملك
الأمراء ، وكان من أمرها ما بطول شرحه ، وتعصب
لأبى الصبى الذى قتل الشيخ عبد الله بن الغمرى ،

وشتق الهجان الذي وجدت معه تلك المطالعات ،
ولو ظفر بالقاصي ولي الدين لتسقه أيضا

وفي يوم الجمعة خامس عشره توفي محيي الدين
البليسي احد نواب الشاقبة وكان لا بأس به .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره توفيت زوجة المقر
الشهابي أحمد بن الجيعان ، وكانت چركسية
الجنس تدعى شهددار ، وكانت بديعة في الحسن
والجمال من أجل النساء حسنا ، فافتتن بها المقر
الشهابي أحمد ابن الجيعان حتى شغلته عن أحوال
المملكة ، قيل انها كانت تحسن الضرب بالسبع
آلات المدربة ، وهى الجنك والعود والصنطير
والقانون والدربج والكنجا والصينى . وكان
أصل شهددار هذه من جوارى ابنة الأمير يشبك
بن مهدي الدوادار الكبير ، فادعت انها معتوقة
فتزوجها الشهابي أحمد بن الجيعان ، وأمهرها
مائتى دينار ، ودخل عليها فأحبها حبا شديدا دون
سائه ، وافتتن بها الى الغاية ، وأقامت عنده مدة
طويلة ، ثم بين بعد ذلك انها فى روى ابنه الأمير
يشبك الدوادار ولم يعق . وصار العنى فيها الى
بنت الأمير يشبك الدوادار ، فاشتراها المقر الشهابي
أحمد بن الجيعان من الورثة بحسمائة دينار ،
وقاسى بسببها مشقة عظيمة زائدة ، فأقامت عنده
مدة ، ثم انها مرضت وتزايد بها المرض حتى
ماتت ، فحصل له عليها حزن شديد وتأسف عليها
حتى كاد أن يموت من الحزن ، واستمر مغبما
بالتربة أياما ، وبادر اليه الناس بالتعزية والسلام
عليه ، وصنع عدة مأتم ، واجتمع هناك القراء
والوعاظ ، وعمل فيها الشعراء عدة مراث بديعة ،
قليل لما توفيت زوجه زين الدين عمر بن الوردى
أنشأ يقول :

إذا ما زوجة الانسان ماتت
فما بقيت لمسكنه مسكنه

وكيف يطيعه نظم ونثر
ولا بيت لديه ولا قرينه

ويضرب من هذه الواقعة التى وقعت للشهابي
أحمد بن الجيعان ، ما وقع ليزيد بن عبد الملك بن
مروان ، وذلك أن أحد الخلفاء الأموية قد اشترى
جارية مولدة من مولدات البصرة ، وكانت تسمى
حبابة ، اشتراها بألف دينار ، وكانت تشتمل على
جملة من المحاسن ، منها أنها كانت تضرب بالعود
والجنك والقانون وسائر آلات الطرب ، وتحسن
الغناء الجيد وتنظم الشعر ، وتحسن العربية ، ولها
خط جيد ، وتلعب بالنرد والشطرنج ، وكانت
بديعة الجمال ، فافتتن بها يزيد بن عبد الملك وأحبها
حبا شديدا حتى أنها شغلته عن أمور الخلافة
والنظر فى أحوال الرعية ، فاتفق له فى بعض الأيام
أنه توجه الى بستان فى دمشق ، وصحبته تلك
الجارية ، وقال لوزرائه وحجابه اذا كان الغد فلا
يخبرنى أحد منكم بشيء من أمور المملكة ، ولا
بكتاب يرد من سائر الجهات قاطمة

فلما استقر بالبستان أحضر سفره الشراب ،
ودارت بينهما الكاسات ، ولم يكن فى المجلس غير
يزيد وحظته حبابة ، فبينما هما فى أرغد عيش ،
اذ تناوت حبابة رمانة لتأكلها فشرقت بحبة من
الرمان ، فوقفت فى حلقها فانحنقت واضطربت
اضطرابا شديدا ، فخرجت روحها فى الوقت
والساعة فلما عاين يزيد ذلك كادت روحه أن
تزهق من جسده ، وتأسف على حبابة غاة الأسف .

قليل لما ماتت أقامت سبعة أيام لم تدفن وهى بين
يدبه شاهدها ويقبلها ويقول ما نظرتها فى عيني
أحسن من اليوم ، فلما جافت وتغيرت هيئتها ، ركب

تليه أنارية وأين - من وعظمه ، ظهر ما قبله ، وأخذوا تلك البقرة والبردا في ذلح ودفنوها ، واستمر يردد في الأسماء والجنين حتى مات بعدها بسنة بسيرة .

وفي هذا السير لا بد من أحوال القاهرة ، مناجات الأمراء إلى بصرى الشاملة في الذهب والفضة ، يجعل ملك الأمراء على الأسواق انكشارية بسبب صرف للمناقب الذهب بأكثر من أشرفيين فضة ، وأشيع أنه شخصاً حجازياً من الصيارفة صرف أمرفيا ذهباً بأشرفيين فضة وخمسة أنصاف ، فوسم ملك الأمراء بإشارة في القاهرة وخزم أنه ، وعلق بها الميزان ثم شنته فراح فلما

وفيه توفي محمد الرئيس، فتات العنبر رئيس المحبطين ، وكان أستاذاً في صنعة الحبال ، وكان نافي على بربوه في هذا الفن .

وفي يوم الاثنين الخامس عشره قدم ابن الشريف مركات أمير مكة وهو الذي يسمى تنية وصحبته صهره عرار ، فلما حضر خرج أمراء الجرائسة والأمراء العثمانية إلى ملاقاته ، فدخل القاهره في موكب حافل ، وقدمه الانكشارية يرمون بالنفوط ، فلما صعد إلى القلعة تلقاه ملك الأمراء من وسط الحوش السلطاني ، وبالح في إكرامه إلى الغاية ، وخلع عليه قفطاناً ، وخام على من معه من العريان وأنزلهم في مكان أعده لهم .

وفيه توفي الأمير طقنباي استادار الصحة ، أحد الأمراء العشراوات ، فلما مات دفنه ملك الأمراء في مدرسته التي بباب الوزير .

واستهل شهر رجب يوم السبت ، فطلع القضاة الأربعة إلى القلعة ، وهنأ ملك الأمراء بالشهر ، ثم هادوا إلى دورهم . وفي ذلك اليوم قرىء كتاب

الشريف مركات أمير مكة بعشرة القضاة ، فكان من مضمونه أنه أرسل يطلب من ملك الأمراء استقرار قاضي القضاة الشافعية بمكة صلاح الدين ابن ظهيرة على عادته فأجيب إلى ذلك . ثم عين في ذلك اليوم قاض مالكي وقاض حنبل إلى المدينة الشريفة ، وانضم المحيط على ذلك .

وفي يوم الأربعاء خامس رجب ، طاح ابن أبي الرداد بإشارة النيل المبارك ، وجاءت القاعدة صرة أذرع وعشرة أصابع ، وكانت في العام الماضي أوجع من ذلك عشرة أصابع .

وفي يوم الخميس سادسه ، رسم ملك الأمراء بشنق شخص من اعيان الاصباهيه وكان من أكبر المفسدين ، يحطف النساء والمرد والعصائم الظهير الاحمر ولا يجد من يرده عن ذلك ، فلما كثرت فيه الشكاوى نهض على شنقه ملك الأمراء ، فمرا موسى أحد أمراء ابن عثمان ، وفام في ذلك غاية القيام ، وأغلظ على ملك الأمراء في التبول ، وقال له الضنكار ما يدري شيء من ذلك ، فلما شنق ذلك الشخص عز على الاصباهية وتأسفوا عليه ، وأنزلوه عن المشنقة وغسلوه وكنسوه ودفنوه وفيل شنق معه في ذلك اليوم اثنان من الاصباهية ، وكانا من كبار المفسدين ، وهما اللذان توجهتا إلى بيت شاد البرلس ، ونها ما فيه وسببا حريته ، ولم يكن له ذنب يوجب ذلك ، وتقدم القول على هذه الواقعة .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشره ، خرج قاسم الشرواني الذي كان نائب جدة وعزل عنها وجرت عليه شذائد ومحن ، وسجنه ملك الأمراء بالعرقانة وقيده ، ثم ان الضنكار ابن عثمان أرسل طلبه فتوجه إلى اسطنبول وسافر إليها في ذلك اليوم .

ومن الحوادث . في هذا الشهر أن ملك الأمراء تكلم مع القضاة الأربعة بأن يحتفوا من نوابهم ، وأغلظ عليهم في القبول ، فاقترص قاضي القضاة الشافعي على خمسة عشر نائبا ، وأما القاضي الحنفي فانه عزل نوابه كلهم واقتصر على اثنين ، وهما شهاب الدين بن شيرين ، وابن بنت البدري محمد ابن الدهان ، الذي كان شيخ الجامع المؤيدي . فاما القاضي المالكي فاقترص على سبعة من النواب ، وأما القاضي الحنبلي فاقترص على سبعة من النواب أيضا ، ولم يتم ذلك فيما بعد ، وحصل للنواب في هذه الحركة غاية الضرر . وكان سبب ذلك أن نائبا من نواب القاضي الحنفي طلب امرأة الى الشرع فامتنعت من الحضور ، فقيض عليها القاضي ، وضربها نحو تمانين عصا ، وقع له مثل ذلك مرتين . ثم ان امرأة طلعت وشكته الى ملك الأمراء فمقت القضية بسبب نوابهم وما يفعلونه ، وقال لهم اعزلوا جماعة من نوابكم المناجيس .

وفيه توفي الأمير ماماي الساقى أحد الأمراء العشراوات الطبلخانات ، وكان أصله من مساليك السلطان الغوري ، وكان رئيسا حنسا لابأس به فنزل ملك الأمراء وصلى عليه وكانت جنازته حافلة . وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، كان ختان ولد القاضي شهاب الدين أحمد بن شيرين أحد نواب الحنفية ، فكان له زفة حافلة ، مشي فيها أعيان الناس من المباشرين وغير ذلك .

واستهل شهر شعبان يوم الاثنين ، فضعد القضاة الأربعة وهنؤا ملك الأمراء بالشهر . ثم عادوا الى دورهم . وفيه كانت كائنة محب الدين ابن أصيل الكفيف . فكان من ملخص واقعته أنه كان بيده مهيخة المدرسة الشيخونية والجلالية ، أخذها بنزول شخص من القضاة عنها فأقامت بيده مدة ، ثم اتدب له من رافعه ، وقال له شرط

الواقف أن تكون مشيخة الجلالية لأعلم علماء الشافعية ، وأنت شخص عار عن العلم ، فأخرجه ملك الأمراء ، وقرر بها شيخ الاسلام زين الدين زكريا الشافعي ، فشق ذلك على محب الدين بن أصيل ، وحصل له غاية البهدة من ملك الأمراء وقصته مشهورة بما جرى له

وفيه وقعت كائنة عظيمة للأمير الماس أخى أمير آخور كبير قرقماس ابن ولي الدين ، وكان من ملخص هذه الواقعة أنه كان عند الأمير الماس مملوك عايق يتزيا بزي العثمانية ، ويخرج بالليل يقطع الطريق ويخطف العناثم ، وقد وجدنا هذا المملوك يقطع الطريق في بولاق وغيرها من الأماكن فقال ملك الأمراء هذا مملوك من ؟ فقيل له مملوك الأمير الماس ، فقال له ملك الأمراء ليش ما كنت ترجع مملوكك عن الفساد ؟ فقال الماس ما كان يسمح لي . فقال ملك الأمراء ليش ما كنت شكوته لي وأنا كنت أنصفك منه . فطال بينهما الكلام . ثم ان الأمير الماس أغلظ على ملك الأمراء في القول فحنق منه فبطحه على الأرض ، وضربه ضربا مبرحا حتى عاين الموت ، قيل صربه عشر نوب . ثم رسم بنفيه الى منفلوط ، وقيل الى قوص ، ثم رسم بتسليم ذلك المملوك الى الوالى ليعاقبه ، وخرج الأمير الماس منقيا من يومه

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من الصيارف الحجازيين . وكان يجلس عند شخص بسوق الباسطيين ، فلما قبض عليه رسم بشنقه فشنق فيه خير الدين نائب القلعة ، وغرم مبلغا له صورة ، حتى سلم من الشنق ، ولا ذنب عليه بوجب ذلك سوى انه خالف المنادة وصرف أشرفيا ذهبيا بحمسة وخمسين نصفيا بزيادة خمسة أنصاف فكاد أن يشنق ظلما .

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق خمسة أنفار مسكهم شيخ العرب ابن أبى الشوارب ، زعم أنهم

كانوا من أكابر المنسرين وأعيان المنسدين . فلما قبض عليهم ابن أبي السوارب ، أرسل كاتب ملك الأمراء بذلك ، فأرسل اليه القاضي بركات بن موسى المحتسب . فأحضرهم الى القاهرة ، فرسم ملك الأمراء بشنقهم ، فشنعوا . وشنق في ذلك اليوم شخص من الناس زعموا أنه سرق ازارا وتقابا وشعرية فراح ظلما . وكان ملك الأمراء عجولا في أمر القتل .

وفيه نزل ملك الأمراء وسار الى نحو بلقيس ، ثم رجع من هناك ودخل من باب النصر وشنق القاهرة ، فلما شنق منها لم يدع له أحد من الناس بالنصر ، ولا زغرت له النساء من الطيقان . بل أغلظ عليه بعض العوام ، وقال له انظر في أحوال المسلمين بالشفقة بسبب الخبز والدقيق ، وسائر الأسعار ، فان البضائع متشحطة .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه توفي القاضي شمس الدين محمد بن عبد الكافي ، أحد بواب الشافعية ، وكان من أعيان النواب ، وكان ضخم الجسد مثقلا بالشحم جدا .

وفي يوم الأربعاء عاشره كان أول مسرى من الشهور القبطية ، ففيه زاد الله في النيل المبارك عشر أصابع ، فسر الناس بذلك ، وكان في أول الزيادة صار يسلسل في الزيادة أصبعا أصبعا على عشرة أيام متوالية ، ثم في اليوم الثاني من مسرى زاد الله في النيل المبارك خمس عشرة أصبعا في دفعة واحدة فسر الناس بذلك الى الغاية

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره كان ختان أولاد النصف من شعبان ، فأقرأ ملك الأمراء في تلك الليلة ختمة بالقلعة ، واستدعى القضاة الأربعة . فلما تكامل المجلس شرع قاضي القضاة محيي الدين

يحيى بن قاضي القضاة برهان الدين الدميري تتكلم مع ملك الأمراء بأن يشفع في الفاصي نور الدين على الفيومي ، وقد تقدم القول أن ملك الأمراء تغير خاطره عليه فنفاه الى دمنهور ، وأقام بها مدة طويلة . فلما شفع فيه القاضي المالكي رسم باحضاره من دمنهور ، وكان أحد بواب الحنفية فكثرت فيه الشكاوى ، وكان غير محمود السيرة

ثم في ذلك المجلس شفع قاضي القضاة المالكي أيضا في شمس الدين محمد السرماجي ، فتوقف ملك الأمراء في أمره قليلا ، وعده له جملة مساوي ، فلا زال قاضي القضاة يتلطف به حتى رضى عليه ، وكان منعه أن يعمل قاضيا أو شاهدا ويلزم بيته دائما ، فكتب عليه قسامة بذلك فرضى .

ثم ان قاضي القضاة شفع في نور الدين على الحسني المعروف برصاص المؤذن بأن تعاد له وظائفه التي كانت في المدرسة العورية ، وكانت خرجت عنه لما توجه الى اسطنبول وأقام بها ، فلما شفع فيه رسم له بإعادة وظائفه التي كانت بالعورية ، وكان قاضي القضاة المالكي عند ملك الأمراء من المقربين ، وكان يحضر مجلس محاكماته في كل يوم سبت ، ويفصل المحاكمات بحضرة ملك الأمراء ، ورأى في أيامه غاة العز والعظمة فوق ما رآه قاضي القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة في أيام الملك الأشرف قانصوه الغوري ، فعد من النواذر اطاعة ملك الأمراء لقاضي القضاة المالكي في جميع ما كلمه فيه في ذلك المجلس بالإجابة ، ولم يرد له شفاعته في ذلك المجلس في أمر من الأمور وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأن الأمير جانم الحمزاوي ، لما وصل الى اسطنبول ، قابل الخنكار وقبل منه الهدية التي أرسلها معه ملك الأمراء ، وأكرمه الى الغاية ، وأذن له بالعود الى مصر ، وهو واصل عن قريب .

وأشيع في الأخبار الواردة من اسطنبول ، أن جماعة من الأعيان تسحبوا من اسطنبول ، منهم القاضي علاء الدين ناظر الخاص على ابن الامام ، وأخوه محمد ، والقاضي أبو البقاء ناظر الاسطبل ، وأخوه يحيى أولاد ابراهيم المستوفى . وبهاء الدين ابن البارزى وجلال الدين بن الشبراوى وآخرون من المباشرين الذين هناك . فلما بلغ الخشكار تسحبهم من اسطنبول ، شق عليه ذلك وأرسل خلفهم ستين شاولشا ، فقبضوا عليهم من أثناء الطريق ، ووضعوهم في الحديد ، وقاسموا من البهدة والاخراق بهم ما لا يمكن شرحه ، ودخلوا بهم الى اسطنبول ، وهم مشاة في الحديد ثم سجنوهم ولا يعلم ما جرى لهم بعد ذلك .

وفيه قدمت الأخبار من بلاد المغرب بأن الفرنج توجهوا الى مدينة جربة — وهى من أجل المدن — ثم ان جماعة من ملوك الفرنج حاربوا من بها من ملوك الغرب ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة ، قتل بها من الفريقين نحو ثلاثين ألفا ، وكانت النصره لصاحب جربة على ملوك الفرنج ، وغنموا منهم أشياء كثيرة .

وفي يوم السبت عشريه ، خلع ملك الأمراء على ابن الشريف بركات أمير مكة ، وخلع على صهره عرار وأذن لهما بالعود الى بلادهما ، فكان لهما موكب حافل . فلما شقوا من القاهرة كان صحبتهما الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية والجم الكثير من الانكشارية يرمون بالنفوط ، وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشريه كان ختان أولاد قاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين الفتوحى المعروف بابن النجار ، فكان له زفة حافلة ، مشى فيها جماعة من الأعيان ، لكن فصر وصفها عن زفة

ومن الحوادث الشنيعة ، أن شخصا يقال له محبى الدين بن مشرى البزدار . له ابنة صغيرة لها سن العمر نحو سبع سنين ، وكان أبوها ساكنا فى المراغة بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكان على رأس تلك البنت كوفية ذهب ، فوقفت تلعب مع الصغار فى الحارة ، وكان لهم جار صبي أمرد يعمل صنعة القمريات ، فلعبت عينه على الكوفية الذهب التى على رأس البنت ، فلعب بعقلها وقال لها أمك فى السيدة نفيسة وأرسلت تطلبك هناك ، فدخلت معه وأخذ معه عبدا أسود ، فلما مضوا توجهوا بتلك البنت الى تربة خراب خلف مزار السيدة نفيسة ، فذبحوها هناك وحملوها وألقوها فى فسقية موتى هناك ، وأخذوا الكوفية التى على رأسها ، وتركوها تتلعب فى دمه ، فأقامت هناك يوما وليلة ، فكشروا التفيتش عليها من أمها وأبيها ، فنزل أبوها الى السوق وأوصى التجار على الكوفية الذهب التى كانت على رأس ابنته ، فاذا رأوها فليأتوه بها .

فبينما هو فى الصاغة واذا بالصبي الأمرد الذى أخذ الكوفية وذبح البنت فى الصاغة ومعه الكوفية ، فأشهرها فى المناداة ، فتناهى سعرها الى أربعين أشرفيا ، فقال له بعثك فقال له الدلال أحضر لك ضامنا ثقة فلم يجد من يضمنه ، فقبضوا عليه ، وأحضروا أبا البنت فقبض عليه ، وتوجهوا الى باب الأمير كمشعفا ، فلما عرضوه على الوالى ضربه بعض عصي فأقر أنه أخذ الكوفية عن رأس البنت وذبحها ورماها فى فسقية موتى خلف مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فقالوا له امض معنا وأرنا ذلك المكان الذى رميتها فيه ، فخرج معهم وهو فى الحديد ، وأتى بهم الى تلك الفسقية التى

رماها بها ، فنزل أبو البنت إليها فوجدتها راقدة
وهي مذبوحة وفيها بئس روح ، ولم يقطع
وربدها من الذبح ، فحملها وطلع بها من تلك
الفسقية .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل فأحضر الجميع
بين يديه ، وقصوا عليه قصة الصبي ، وما جرى
له مع البنت ، فحزن عليها ملك الأمراء وقال لها
من فعل بك هكذا فأشارت الى الصبي والعبد
الأسود الذى على باب البيت الذى منه البنت ،
وأحضروا للبنت من قطب لها مكان الذبح الذى
برقتها ، وعاشت بعد ذلك وبرئت من الذبح ،
فعد ذلك من العجائب والنادر الغريبة .

قيل ان البنت لما رماها الصبي فى الفسقية وهي
مذبوحة ، حكى لأمها وقالت لما مات فى الفسقية
دخلت على امرأة وعلى وجهها برقع ، وقالت لا تخافى
أنا السيدة نفيسة ، وغدا أخلصك من هذا المكان ،
ثم مسحت الدم من رقبتى فانقطع فى الحال ، وسكن
روعى مما كنت فيه . وهذه الواقعة قد اشتهرت
فى القاهرة .

وفى شهر رمضان وكان مستهله يوم الثلاثاء ،
طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر
ثم رجعوا الى دورهم . وفى ليلة الرؤيا توجه
القاضى بركات بن موسى المحتسب الى المدرسة
المنصورية التى بين القصرين واجتمع القضاة الأربعة
هناك ، فلم تثبت رؤيا الهلال الا بعد العشاء ،
فلما رجع القاضى المحتسب الى داره ، لاقاه ابن
عوض بالقوانين ، وعدة مشاعل كثيرة ، وكانت
له ليلة حافلة .

ومن العجائب أن النيل المارك كان على وفاء ،
ولم يتأخر عليه غير أربع أصابع ، فأشيع بعد العصر

أن النيل نقص فى تلك الليلة أصبعين ، فاضطربت
أحوال الناس بسبب ذلك . وكان قد مضى من
مسرى أحد وعشرون يوما ، ولم يف النيل ، وكانت
أشجار الغلال والبضائع كلها فى غاية الارتضاع ،
فكان كما يقال فى المعنى :

رب وف النيل انا منه فى كرب وبلوه
ما بقى للناس صبر يحملون اليوم غلوه

فاستمر النيل فى هذا التوقف على أربع أصابع ،
وفيل نقص بعد ذلك أربع أصابع ، فاستمر على
ذلك خمسة أيام لم يزد فيها شيئا ، فرسم ملك
الأمراء لقضاة القضاة ومشايخ العلم ومشايخ
الصوفية بأن يتوجهوا الى المقياس ، ويبتهلوا الى
الله تعالى بالدعاء فى وفاء النيل ، فتوجه قاضى
القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى
الحنفى الطرابلسى ، والقاضى المالكى محيى الدين
الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ،
ومن مشايخ الصوفية الشيخ محمد المنير وغير
هؤلاء من مشايخ الصوفية ، فلما توجهوا هناك
وباتوا بالمقياس نقص النيل فى تلك الليلة أصبعين
فصار النقص ستة أصابع ، ثم نقص عشرة أصابع ،
وكان تأخر عن الوفاء على أربع أصابع ، ونقص
من بعد ذلك عشر أصابع فصار النقص أربع عشرة
أصبعاً عن الوفاء .

فلما كان يوم الأحد سادس رمضان ، نزل ملك
الأمراء وتوجه الى المقياس ، وكان قد مضى من
مسرى ستة وعشرون يوما ، فأقام ملك الأمراء فى
المقياس ذلك اليوم ، وفرقوا أجزاء الربعة على
الحاضرين من الفقهاء فترءوا فيها عشرين دورا ،
ثم قرءوا صحيح البخارى هناك .

وأشيع أن ملك الأمراء فرق هناك على الفقهاء
مالا له صورة ، وأحضر الأطفال الأيتام وفرق عليهم

مبلغاً له صورة ، وأحضر من الآثار الشريفة القصص من المدرسة الغورية ووضع في فسقية المقياس ، وغسلوه في الماء الذي بها ، وكثر هناك الضجيج والبكاء والتضرع الى الله تعالى بالزيادة ، فأقام ملك الأمراء في المقياس الى قريب الظهر ، ثم طلع الى القلعة ، فلما طلع أمر بإطلاق من في السجون من الرجال والنساء والأطفال ، فأطلق منهم نحو ثمانين انساناً ، ونزل الى القرافة وزار من بها من الصالحين ، وفرق على الزوايا التي هناك مالا له صورة ، وفعل من وجوه البر والصدقات أشياء كثيرة ، وما أبقى في ذلك ممكناً .

فلما كان يوم الأربعاء ، الموافق لتاسع عشرين مسرى ، عول ملك الأمراء على أن يخرج الى الاستسقاء وصحبته الناس قاطبة يوم الخميس ، وقد تزايد قلق الناس الى الغاية ، واشتد الأمر عليهم بسبب نقص النيل عند ليسالى الوفاء وقد قال القائل في المعنى :

بمسرى النيل ما أوفى فضجروا

ودب القحط فينا من أيب

ولم أضرع لمخلوق لأنى

وجدت الله أشفق من أبى بى

وفي هذه الواقعة يقول الأديب البارع الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق وقد أجاد حيث قال :

أسبل النيل من عيولى عبره

مذ أرانى من التنقص عبره

يالهـا عبـرة ثـوت بفؤادى

ورمت بالهموم فى القلب جمره

شهر مسرى تسع وعشرون يوماً

فيه فات الوفا فأين المسره

ربنا الطف بالخلق فى النيل واطلق
بزيادته من النقص أسره

واشرح الصدر بالوفامتك واسبل
يا سميع الدعاء بفضلك ستره

واجعل الأرض منه فى خير خصب
ورخاء واجبر بلطفك كسره

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشرين مسرى ، طلع ابن أبى الرداد الى ملك الأمراء بعد الظهر وبشره بأن النيل قد زاد من النقص ثلاث أصابع ، فسر ملك الأمراء بذلك . وقيل أنهم عليه بمائة دينار وفرس وألبسه قفطاناً مخملاً مذهباً ، وأنعم على الصبى الصياح الذى ينادى على البحر بجوخة حمراء . فلما أشيع ذلك سر به الناس قاطبة ، وانطلقت النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكانت فرحة عامة لجميع الناس قاطبة .

فلما كان يوم الجمعة حادى عشر رمضان الموافق لأول أيام النسيء زاد الله فى النيل المبارك خمس أصابع ، فسر الناس بهذه الزيادة ، وقد تأخر عن الوفاء ست أصابع ، فكانت مدة توقفه عن الزيادة ثمانية أيام متوالية ، حتى يؤس الناس من طلوعه فى هذه السنة .

ثم فى ليلة السبت وفى الله الستة عشر ذراعاً وفتح السد فى يوم السبت ثانى عشر شهر رمضان الموافق للثانى من أيام النسيء ، فأوفى الله الستة عشر ذراعاً وأصبعين من السابع عشر ، وقد فات الوفاء عن ميعاده حتى مضت مسرى ، ودخلت أيام النسيء ... ولكن تقدم أن النيل تأخر عن الوفاء الى سادس أيام النسيء ، وذلك فى سنة أربع وتسعين وستمائة ، وبلغت الزيادة فى تلك السنة ستة عشر ذراعاً ثم هبط سريعاً ولم يثبت ،

فشرقت البلاد ، ووقع الغلاء . واتفق مثل ذلك أن النيل وفى فى آخر أيام النسيء ، فى سنة ثلاث عشرة وبسبب سائة ، وكان نياض شحيحا لم يثبت ، وشرقت البلاد ، ووقع الغلاء . فذل ذلك الشيخ جلال الدين السيوطى رحمة الله عليه .

فلما وفى النيل نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى المتقياس ، وخلق العمود ، ونزل فى الحراقة وفتح السد ، وكان يوما مشهودا ، كما وقع له فى السنة الخاليد . وكان الوفاء على غير التقياس مما جرى على النيل فى هذه السنة ، وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال فى المعنى :

الحمد لله زاد النيل وانشرت

سدورنا وأرانا بشره قرحا

والقلب أصبح بعد الكسر منجبرا

والأمر أمسى عقيب الضيق منفسحا

وقال آخر :

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم

ما أحسن الستر قالوا العفو مأمول

ستر الآله علينا لا يزال فما

أحلى تهتكنا والستر مسبول

وفى يوم الأربعاء سادس عشر رمضان كان أول النوروز ، وهو أول يوم من السنة القبطية ، وهى سنة ست وعشرين وتسعمائة خراجية ، ففى ذلك اليوم زاد الله النيل المبارك سبع أصابع ، فأوفى الله السبعة عشر ذراعا وأصعبا من الذراع الثامن عشر ، فسر الناس بذلك .

وفى يوم السبت سادس عشرية قدمت الأخبار بأن الأمير جانم الحمزاوى قد وصل الى قطيا ، وقد تقدم القول أنه كان توجه الى السلطان سليم خان ابن عثمان ، وصحبته مقدمة حافلة من عند ملك الأمراء الى الخنكار ابن عثمان ، فلما قابله أكرمه وخلع عليه ، وقبل منه تلك التقدمة فأقام هناك مدة . ثم ان ابن عثمان رسم للأمير جانم يعود الى مصر ، وكان أكثر الناس جزموا بعدم عوده الى مصر ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما أشيع وصوله الى قطيا خرج أعيان الناس الى ملاقاته ، وخرج الأمير فاصر الدين محمد المهندار والأمير برسباى الدوادار وسائر المباشرين قاطبة .

فلما كان يوم الأحد سابع عشرى رمضان ختم صحيح البخارى بالقلعة على العادة ، وفرفت الصرر على الفقهاء ، ومن له عادة ، وخلع على قضاة القضاة .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرية ، دخل الأمير جانم الحمزاوى الى القاهرة ونزل بتربة العادلى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشرية نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى تربة العادلى ، ونزل على المصطبة التى هناك ، ولبس خلعة الخنكار التى أرسلها له على يد الأمير جانم الحمزاوى باستمراره فى النيابة بمصر ، وهى قفطان بتماسيح على مخمل أحمر ، فركب من هناك ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه جماعة من الأمراء الجراكسة ، ومن الأمراء العثمانية ، والعساكر الاصباهية والانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، ولاقاه طائفة من النصارى وبأيديهم الشموع موقدة ، ولاقاه الشعراء والشبابة السلطانية .

والانشراف غاية الفتك ، فباع ذلك الخنكار فتغير
خاطره عليه ، وكان الوزراء مساعدين أولاد عمه
خليل ، ومحطين على الخليفة . الثالث أن جماعة
كثيرة من أهل مصر ممن كان باسطنبول ، تسحبوا
من هناك ، منهم بدر الدين ابن القاضي كمال الدين
ناظر الجيش ، وتسحب آخرون من الأعيان ،
فخشيت الوزراء أن الخليفة يتسحب من هناك
فضيقوا عليه والله أعلم .



وفي شهر شوال كان عيد الفطر يوم الخميس ،
فطلع القضاة الأربعة وصلوا مع ملك الأمراء صلاة
العيد ، وخطب بهم قاضي القضاة الشافعي خطبة
بليغة ، وكان موكب العيد موكبا حافلا .

وفي يوم الأحد رابع شوال ، جلس ملك الأمراء
بالدهيشة ، وأرسل خلف القضاة الأربعة ، وأرسل
خلف أعيان التجار ومشايخ الأسواق بسبب أمر
المعاملة في الذهب والفضة ، فلما تكامل المجلس قام
ملك الأمراء ودخل الأشرية التي بجوار الدهيشة ،
ودخل معه القضاة الأربعة ، وأرسل خلف الأمراء
العثمانية ، وهم قرا سوسى ، وفرحات ، وخير الدين
نائب القلعة ، والقاصد الذي حضر صحبة الأمير
جامم الحمزاوى ، فلما دخلوا إلى الأشرية لم
يدخلها غير هؤلاء ، ولم يأذن للأمراء الجراكسة
بالدخول معهم .

ثم إن القاصد أخرج مرسوم الخنكار الذي
أرسله صحبة الأمير جامم الحمزاوى ، فاجلس
القضاة الأربعة على أربعة كراسي ، واجلس الأمراء
العثمانية على أربعة كراسي ، وقرئ عليهم مرسوم
الخنكار ، وذلك على طريقة النسق العثماني ،
وكانت ألفاظ ذلك المرسوم باللغة التركية . فكان
من مضمونه ما أشيع بين الناس أنه قد أرسل
بأمر ملك الأمراء بالتوصية بالرعية غاية الوصية ،

ولما وصل إلى قبة الأمير يشبك التي في رأس
الحسييه لاقاه القضاة الأربعة ، فكان القاضي
الشافعي عن يمينه ، والحنفي عن يساره ، والمالكي
والحنبلي قدامه ، والأمير جامم الحمزاوى قدامه ،
وعليه ففطان مخمل مذهب كان ألبسه له الخنكار
فاستمر في ذلك الموكب إلى أن طلع إلى القلعة
وكان يوما مشهودا . فكانت مدة عيبه الأمير
جامم الحمزاوى في اسطنبول عند الخنكار ستة
أشهر ، وقيل أنه قابل الخنكار فيها مرة واحدة .

وأما ترجمة الأمير جامم الحمزاوى فهو جامم بن
يوسف بن أركساس السيفي قاني باي الحمزاوى
نائب الشام ، كان من أعيان أبناء الناس ، وقد رعى
في دولة ملك الأمراء خاير بك حتى صار صاحب
الحل والعقد بمصر ، وصار في مقام أمير كبير
بمصر .

ولما استقر الأمير جامم الحمزاوى في داره أشيع
بين الناس أنه أخبر أن الخنكار ابن عثمان تغير
خاطره على الخليفة محمد بن يعقوب المتوكل على
الله الذي توجه إلى اسطنبول ، فلما تغير خاطره
عليه أخرجه من اسطنبول على غير صورة مرصية
وهو في غاية ما يكون من البهذلة ، ونفاه إلى مكان
عسر يسمى السبع قليات ، قيل إن بينه وبين
اسطنبول سبعة أيام ، وهو المكان الذي يضع فيه
الخنكار أمواله وتحفه لكونه في غاية التحصين .

وقد اختلف في سبب تغير خاطره عليه ... فمن
جملة الأقوال أن أولاد ابن عمه خليل رافعوه بسبب
اقتطاع الخلافة أن يعطيهم منها الثلث ويأخذ هو
الثلثين فأبى من ذلك . الثاني أن الخليفة طاش
هناك وصار ينهم العيش جهارا ، واشترى له
جوارى يضربن له بالجنوك ، وفتك في البسط

وأن يصرّف للساليك الجراكسة جوامكهم ولجوههم
حايثهم على العادة القديمة . وأرسل يقول ملك
الأمراء أن يتوسى بأولاد الناس فاطبة ، وكل من
كان له جماعية وقطعت يردها إليه . وأرسل يقول
له في إصلاح المعاملة من الذهب والفضة ، فأحضروا
من حل تلك الألفاظ التركية التي في المرسوم ،
فكان هذا معناها .

ثم نربوا مشورة في أمر المعاملة فأشار
الحاضرون على ملك الأمراء أن يبنى كل شيء على
حاله من أمر المعاملة حتى يراجع الخنكار في ذلك
مرة أخرى ، بأن الذهب والفضة ينتص في معده
الحركة الثلث ، فخرج ملك الأمراء ورسم بأشعار
المناداة في القاهرة بأن كل شيء على حاله ، وأن
الأشراف العثماني والغوري لا ينصرف بآثر من
حسبي صفا فضة من غير زيادة على ذلك ، وأن
النصف الفضة النحاس يرمى ، وما عدا ذلك
يستى . ثم انقض المجلس على ذلك ، ونزل القضاة
إلى دورهم ، وسكن الاضطراب قليلا في أمر
المعاملة .

وفي يوم الجمعة التاسع شوال ، قدم من البحر
المالغ إلى تعز الاسكندرية جماعة نحو تسعة
انفار ممن كان أسر وتوجه إلى اسطنبول ، فحضر
في ذلك اليوم الشيخ بدر الدين محمد السعودي
المعروف بابن الوقاد أحد نواب الحنفية كان ،
وحضر الشيخ كمال الدين الذي كان بزدار الأمير
طومان باي ، وحضر كمال الدين العائق مباشر أمير
أخو كبير ، وحضر زين الدين حامل المزة ، وحضر
القاضي كريم الدين المجولي أحد نواب الشافعية
كان ، وحضر الخوجا عمر بن معزوز المغربي ،
وحضر المهتار بدر العادلي ، والخواجا زين الدين
العجبي ، ويوسف مناخير ، والمعلم حسين معلم
الملحك بدار الضرب . وكان هؤلاء باسطنبول

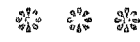
وشكوا إلى الوزراء بأن وظائفهم التي يصر
خرجت عنهم ، ونزلت جيرانهم ، وأخذ الناس
أموالهم بسوجب غيابهم في اسطنبول ، فقال لهم
الوزراء : « أقيموا لكم مساكن وتوجهوا إلى مصر
صحة جماعة من الانكسارية ، وأكسفوا على
جهاثكم ووظائفكم » وأرجعوا إلى اسطنبول على
وجه الصيف . فقاموا ذلك وحضروا إلى مصر
وصحبهم الانكساريه ، وفيهم من ترك أولاده
وعياله باسطنبول إلى أن يرجع إليهم .

ثم في عقيب ذلك أذيع أنه حضر أيضا من
اسطنبول جماعة ، منهم شمس الدين بن المرفوق
المباشر ، وفريج بن البريدي ، والطواشي مسك ،
وقيل أن الطواشي أقام بالشام عند الغزالي نائب
الشام ، ورتب له ما يكفيه كل شهر ، ومحمد بن
على كاتب الخزانة ، وآخرون حضروا في الحنفية
وصاروا ينسحبون من اسطنبول شيئا بندا شيء
ويحضرون ، وكل ذلك من غير علم الخنكار ، فإلا
يلطف بهم .

وفي يوم الجمعة سادس عشره ، الموافق لأول
يوم من بابه ، ثبت النيل المبارك على خمس أسابغ
من تسعة عشر ذراعا ، وكان في تمام الماضي يسب
على ثمانى أسابغ من عشرين ذراعا ، فكان هذا
النيل أقص من النيل الماضي بأربع وثلاث أسابغ ،
وكان فيلا شحيحا من بعداً زيادته إلى حين هبوطه .
وقد شرف غالب البلاد ، واشتد أمر الغلاء بالبلاد
المصرية ، وتكالبت الناس على مشتري القمح ،
وارتفع القمح من السواحل ، وصار إذا وصفت
مركب قمح لا تباع ولا تشتري إلا باقراج من عند
المحتسب ، ولو كان ضيافة أو من الخراج ، فحصل
للناس الضرر الشامل ، وارتفعت القاهرة بسبب مع
القمح ، ووقع الاضطراب الشديد فكادت أن تنكود
غلوته كبيرة .

وفي يوم الأحد ثامن عشره توفي شخص من
الأمرء الطليخانات يقال له مامى الصغير ، ودفن
في المدوسة القروية .

وفي يوم الاثنين قاسم عشره خرج المحفل
التسريح من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان أمير
المحفل الأمير حيان كاشف منفلوط والبهنسا ،
فطلب طلبا حافلا على العادة القديمة كمادة الأمرء
المقدمين ، وخلع على الأمير بايان أحد الأمرء
العشراوات ، واستقر به في مشيخة الحرم النبوي
عوضا عن الشرفي يحيى بن البردني بحكم انفصاله
عنها ، وكان قاضي المحفل في تلك السنة الشيخ
فتح الدين أبو الفتح الوفاي المالكي أحد النواب
بل من أعيانهم ، فحصل للحاج به غاية النفع .
ولم يحج في هذه السنة من الأعيان إلا القليل ،
وكان أكثر الحجاج فلاحين ، وريافة من البلاد .



وفي شهر ذي القعدة ، وكان مستهله يوم
السبت ، طلع القضاة الأربعة ودينوا ملك الأمرء
بالشهر تم عادوا الى دورهم . وفي يوم مستهله
وقع لقاضي القضاة الحنفى الطرابلسي بين يدي
ملك الأمرء بعض توبيخ بسبب تأبئه كمال الدين
ابن زريق ، وقد انكشف رجه في مكتوب فلور أنه
ذوره ويجرى بذلك أمر يلول شرحنا ، فحصل
للقاضى بعض دنت من ملك الأمرء ، فما رصعه
إلا أنه عزل كمال الدين بن زريق بحضرة ملك
الأمرء عزلا مؤبدا ما دام حيا ، وانقض المجلس
على ذلك .

وفي ذلك اليوم رسم ملك الأمرء بأشهار المنادة
في القاهرة بسبب المعاملة في الذهب والفضة فأطلق
أربعة مشاعلية ، في القاهرة ومصر العتيقة ، أن
الأشرفي الذهب العشاني والغروي بتصرف بخمسين
مصفا من غير زيادة على ذلك ، وأن الأشرفي الذي

هو ضرب جمال الدين يصرق بأثنين وأربعين مصفا ،
وأن الفضه على مالها لا يرد منها إلا النصف
المكشوف ، وكل من حانق في ذلك شاق من غير
معاودة ، فمكن الإضراب فليان بوسعه المنادة
بعد ما كان أشيع بإلزام هذه المعاملة لها ، وتخصر
الناس من أموالها الثلث ، فتسال الناس من البيع
والشراء أياما ، وغلقت الأسواق . فلما نادوا بإبقاء
كل شيء على حاله مكن الروم الذي كان فيه
الناس .

فيل أن ملك الأمرء أرسل يشاور الخنكار
ابن عثمان في أمر المعاملة إذا بطلت يتغير الناس
من أموالهم الثلث ، والأمير في ذلك مسؤول على
التجواب .

وفي يوم الأحد ، ثاني الشهر ، خلع ملك الأمرء
على شخص من التمايه يقال له الأمير على الكيحيه
أغات الانكشارية ، واسفر به في ولاية القاهرة ،
عوضا عن كسبنا الذي كان والي القاهرة وتوجه
الى اسطنبول كما تقدم .

وفي يوم الخميس سادسه ، نزل ملك الأمرء
من القلعة وتوجه الى الروضة ونصب له خياما في
حروط الروضة تجاه قصر ابن البيني ، فنزل هناك
وكان صحبته جماعة من الأمرء العشانية والقاصد
الذي حضر مع الأمير جانم الحمزاوي ، والأمير
قايتباي الدوادار ، وبعض أمرء من الجراكسة ،
والجيم الكثير من الاصباعية والانكشارية ، فلما
استقر هناك حضر اليه القاضي بركات بن موسى
المحتسب مدة حافلة ، فيسل ضرف عليها فتحو
خسمائة دينار ، ومن جملة ذلك أربسون خروفا
شوى ، وأربعمائة مجمع حلوى وعدة مطابق
ضمنها مأمونية سكك ، ومأمونية حوية محشوة
بسكر ، وسنبوسك بسكر ، ورخامية بسكر ،
وسمك على أنواع مختلفة ، وأشياء غير ذلك

موتقة ، وأحمال بطيخ صيفى وعبيدى ، وأطنان
قصب ، وأحمال تسطة وبطط جاذب ، وأحمال
موز وغير ذلك ، وما أبقي ممكنا فيما صنعه في
هذه المدة من الأشياء التي تصلح للسلوك ، فشكره
ملك الأمراء على ذلك ، وأثنى عليه بحضرة
الأمراء .

وكان القاضى بركات المحتسب ، عالى الهمة ،
نافذ الكلمة ، مسعود الحركات في سائر أفعاله ،
وقد وقع له أشياء غريبة لم تقع لأحد قبله من
المباشرين ، ولا غيرهم ، ولا سيما ما كان يصنعه
للسلطان . فأتاه ملك الأمراء الى ما بعد العشاء ،
ثم عدى من هناك وطلع الى القلعة ، وانقضى ذلك
اليوم السلطاني .

وفي يوم السبت ثامنه ، وقعت كائنة مهولة ...
وسبب ذلك أن ملك الأمراء جلس للمحاكمات على
العادة ، فعرض عليه ثلاث محاكمات في ذلك اليوم :
الأولى أن شخصا من الشهود يقال له شمس
الدين محمد البساطي ، كان يجلس على رأس حارة
زويلة ، وكان يخطب في جامع ابن قريسيط الذي
في حارة زويلة ، فجاءت اليه مبايعة جارية حبشية
كانت على ملك شخص من النصاري ، فابتاعها
لشخص من الفرنج ، فهربت وأتت الى بيت
الوالى وقالت له : « أنا جارية مسلمة ، كنت عند
شخص نصراني ، فباعني لشخص افرنجي ، وقصد
أن يسافر بي الى بلاد الفرنج ، فهربت من عنده
وأنتيت اليكم » . فعرض الوالى هذه الواقعة على
ملك الأمراء خاير بك فطلب النصراني البائع
فهرب ، وهرب الفرنجي المشتري ، فقبض على
شخص كان واسطة ، وعلى شمس الدين البساطي ،
وقبض على النصراني والأفرنجي فيما بعد ، وعوقبا
وقرر عليهما مال له صورة . فلما وقف شمس الدين
البساطي بين يدي ملك الأمراء قال له : ليش ماسألت

الجارية ان كانت مسلمة أو غير مسلمة ؟ فاختلط
في الكلام وتلجلج لسانه عن الجواب . فاشتد
غيظ ملك الأمراء عليه ، فرسم بقطع يده البسني
فقطعت ، وأن يشهر في القاهرة ففعل به ذلك .
وكان حاضرا في المجلس قاضى القضاة المالكي
محيى الدين الدميري ، والقاضى شهاب الدين بن
شيرين أحد نواب الخفية ، والقاضى شمس الدين
العبادي ، والأمير أرزمك الناشف ، وجماعة من
الأمراء العثمانية ، فلم يجسر أحد منهم أن يشفع
فيه لشدة غضب ملك الأمراء عليه ، وكان يوما
مهولا .

والمحاكمة الثانية ، عرض عليه شخص يقال له
محمد بن عز الدين ، كان أبوه من جملة رسل
الصالحية ، ولد يعرف بابن بابيه ، ولد ابنه فيح
الصورة والسيرة ، مشهورا بنزوير المراسيم عن
لسان المباشرين ، وسبغت له وفائع كثيرة عن لسان
الأكابر ، ففيل انه زور مرسوما على لسان القاضى
شرف الدين بن عوص ، فقبض عليه ابن العياشي
وأحضره بين يدي ملك الأمراء ، فكثرت فيه من
الناس الشكاوى ، فرسم بأن يشنق فشنق ، وشهر
في القاهرة وهو مغزوم الأنف ومقطع الآذان ،
فأراح الله تعالى العباد منه ، فانه كان كثير النصب
والحيل ، وتحكى عنه الغرائب والعجائب في أمر
الحيل والنصب والسرقة .

والمحاكمة الثالثة ، عرض عليه شخص من
الفلاحين سرق ثورا ، فرسم بأن يخوزق وتقطع أنفه
وآذانه وأن يركب على الثور ، ويشهر في القاهرة
ثم يخوزق . وكان ملك الأمراء عجولا في أمر
القتل ، وقد شنق وخوزق ووسط في أيام ولايته
على مصر ما لا يحصى من الناس ، والغالب راح
ظلمنا من غير ذنب ، وكان ملك الأمراء شديد

التسوية صلحا في الأمور جدا ، وكان الأمر كما قيل في المتن :

احذر تعاشر من يكن طبعهم
ظلم الرزى دأبا وان أحسنوا
لقول رب المشرق سبحانه
في محكم الذكر ولا تركنوا

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، رسم ملك الأمراء يشنق ثلاثة أنفار من القواسة كانوا حراسا على قصب ، فأتى اليهم بعض التركمان ليسرق من القصب ، فضربه أحد القواسة فتجاعت الضربة صائبة فمات ذلك التركماني . فلما بلغ خشدباشيته ذلك توجهوا الى تسرى ونمروا ما فيها ، ثم قبضوا على القواسة وعرضوه على ملك الأمراء ، فرسم يشنقهم فشنقوا في ذلك اليوم ومضى أمرهم . ويقال انهم أخذوا ظلا فليسوا هم الذين قتلوا التركماني . والذين قتلوه هربوا ولم يحصلوهم ، وراحوا ظلمنا وراحت في كيسهم .

وقد وقع لملك الأمراء أنه قتل ثنائي أنفس في هذه الجمعة ، فشنق منهم جماعة ، وخوزق منهم جماعة ، واقترحوا لهم العذاب حتى صاروا يخوزقونهم من أخلاعهم ، وراح غالبهم ظلما ، والأمر لله تعالى .

وفي يوم الجمعة رابع عشره أرسل كاشف الشرقية اثنين من العربان المفسدين قطاع الطريق ، فرسم ملك الأمراء يشنقهما فشنقا . وقد وقع لملك الأمراء أنه شنق وخوزق في هذا الشهر جماعة كثيرة بخلاف العادة .

وفيه أشيع أن صبيانا صغارا قعدوا يلعبون في بعض الحارات ، فعمل واحد منهم ملك الأمراء ، وآخر والى القاهرة ، ونادوا أن لا أحد يخرج من

بعد العشاء ، فقام بعض الصغار وخطف عمامة آخر بعيت عليه ، فقبضوا عليه وأحضروه بين يدي الذي جعلوه ملك الأمراء ، فرسم للذي أقاموه واليا بأن يقبض عليه ويخوزقه ، فدقوا له عصا في الأرض وأقدموه عليها غضبا ، فنهض من قال أن الصبي مات من وقته ، ومنهم من قال لم يم ، فلما جرى ذلك تواربت الصغار الى حال سبيلهم ، وقد هان القتل في هذه الأيام حتى عند الصغار . وهذه الواقعة لم تثبت الا اشاعات .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، قدمت الأخبار بأن الفرنج قد أتوا الى ساحل بيروت وحاصروا من بها ، فكسروهم وملكوا مدينة بيروت ، وأقامت معهم ثلاثة أيام . فلما بلغ ملك الأمراء نائب الشام جان بردي الغزالي ذلك عين دوايداره ومعه الجيم الكثير من العساكر ، فتوجهوا الى بيروت واقتتلوا مع الفرنج ، وكان بين الفريقين واقعة مهولة ، قتل فيها ما لا يحصى من الفرنج ، وأسر منهم ثلثمائة انسان ، وغنموا منهم أشياء كثيرة من سلاح وقماش وغير ذلك . وقيل أسروا جماعة من أولاد ملوك الفرنج ، وملكوا ثلاث برشات من كبار مراكزهم ، وكانت النصر عليهم للغزالي نائب الشام ، بعد ما ملك الفرنج بيروت ، فطردهم عنها بعون الله تعالى .

ومن الحوادث العظيمة الغريبة ما وقع يوم الأربعاء تاسع عشر ذي القعدة من سنة ست وعشرين وتسعمائة ، أنه قدم قاصد من البحر المالح وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن السلطان سليم شاه بن عثمان ، بأن السلطان سليم شاه قد توفي الى رحمة الله تعالى . وحضر صجة القاصد مطالعة من عند الرئيس شمس الدين محمد القوصوني الى صهره قاضي القضاة محيي الدين الدميري ، تتضمن أخبار موت السلطان سليم شاه

ابن عثمان ، وهى الأخبار الصحيحة ، فأخبر أن
سلطان سليم شاه خرج يتصيد ، فرجع من الصيد
بعض متوعك في جسده ، وقد طلعت له فرخة جمر ،
تناهت بها ولزم الفراش أياما ، وثقل في المرض
واستند عليه الأمر جدا ، فمات في يوم الخميس
تاسع شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة . فلما
مات كتم موته عن العسكر ثلاثة أيام ولم يدفن .
وكان ولده سليمان غائبا عن اسطنبول ، فلما
حضر وقد جد في السير حتى دخل الى اسطنبول
رجلس على سرير الملك ، أنشع موت أبيه سليم
شاه ، فأحضروه في سحلية وهو مصير ، وصلوا
عليه ، ومنحت الوزراء والعسكر قاطبة قدومه ،
وكان دفنه يوم الأحد ثاني عشر شوال أو يوم
الاثنين كما قيل ، ودفن على جده السلطان محمد
ابن عثمان في مدرسته باسطنبول ، ومضى الى رحمة
الله تعالى كأنه لم يكن ، وزال عنه الملك في طرفة
عين ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا بتغير . وفي
ذلك يقول ناصر الدين محمد بن قانصوه بن
صادق في المعنى :

عظم الله أجركم في ملك الورى سليم
عنه قد زال ملكه وغدا في الثرى رميم
وتوفى الملك المظفر سليم شاه وله من العمر
نحو سبع وأربعين سنة على ما أشيع ذلك ، ووقع
له من الأمور الغريبة ما لم يقع لأحد من آبائه ولا
أجداده ، بل ولا لأحد من ملوك الشرق ، ولا
ملوك الغرب ، ولا غيرهم ، فانه زحف على شاه
اسماعيل الصفوى ملك العراق ، وحاربه فكسره
وقتل من عساكره ما لا يحصى حتى قيل : قتل فوق
الخمسين ألفا ، وملك بلاده وطرده عنها . ثم تحرش

بسلطان مصر ، ولا زال يخادعه ويظهر أنه تحت
طاعته حتى خرج اليه وغدر به وحاربه وانكسر منه
وفقد ، وقد طرقه على حين غفلة ، وجرى عليه منه
ما جرى كما تقدم ذكر ذلك ، فملك مدينة حلب
وقلعتها في خمس درج ، واحتوى على أموال
السلطان الغورى التى كانت بقلعة حلب من غير
مانع ، ثم توجه الى دمشق فملكها وملك قلعتها
من غير مانع في أسرع من طرفة عين ، ثم توجه
الى الديار المصرية ، وحارب السلطان طومان باى
فكسره ، وقتل غالب عسكر مصر من المماليك
الجراكسة ، وقتل من الأمراء ما تقدم ذكره ، وملك
الديار المصرية في نحو عشر درج .

وكانت مدة استيلائه على حلب والشام ومصر
أربع سنين وخمسة أشهر ، وهو يحطب باسمه على
منابر حلب وأعمالها ، ودمشق وأعمالها ، ثم خطب
باسمه في الديار المصرية وأعمالها وثغورها ،
وضربت السكة باسمه في هذه المدة .

وكان استيلائه على مدينة حلب في أواخر رجب
سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، واستولى على
دمشق في سلخ رمضان ، واستولى على الديار
المصرية في المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ،
فكانت مدة إقامته في القاهرة نحو ثمانية شهور
من مستهل المحرم الى أواخر شعبان ، واستقر
بخاير بك نائبا عنه بمصر

وأما مدة استيلائه على مملكة الروم من حين
توفى والده السلطان أبو يزيد الى الآن ، فنحو
تسع سنين الا شهرا ، فان والده أبا يزيد توفى في
ثاني جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ،

و كان استيلاؤه على مملكة الروم فى حياة والده
باشهر ، فان والده أقام مريضا ملازما الفراش مدة
طويلة ، فيقال انه عجل على آبيه وقتله لأجل الملك ،
ثم انه خنق أخاه شرقط ، وقتل أخاه أحمد ،
وظن أن الوقت قد صفا له ، فتلاعبت به الدنيا كما
تلاعبت بعيره من الملوك ، ودهسه الموت الذى
لا يدفع بقوة ولا حياة ، وقد صار فى رسمه رهين
الذنوب ، لا يعلم أهو فى نعيم أو فى عذاب ، وفد
رثيته بهذه الأبيات :

لابن عثمان قصة فاسمعوها
واعجبوا من صنع ربى تعالى
ملك الشام للفرات وأضحى
فاتكا فى الأنام روحا ومالا
وأراد الدخول فى كل مصر

قلت هيهات رمت هذا محالا
طردته عنها سهام الدياجى
بدعاء فيها نفوق النبلا
بعد ما جار فى الأنام بقتل
من جيوش يدك منها الجبالا
منذ جاروا وبالغوا فى آذاهم
قد سألنا الاله نكشف حالا

فاستجاب الدعاء ومن علينا
بانفراج الهموم جل تعالى
وأتتنا أخباره بزوال
صيرت رشده حقيقا محالا

كم ملوك أذلها بعد عز
وسطا فيهمو وأفنى الرجالا
لهف قلبى على ملوك تفانوا
من سطا سيفه وطال اشتعالا

ذلت الروم بعد ما قد دهاهم
موت استاذهم وشاعوا القالا
زال عنا بموته دون حرب
وكفى الله المؤمنين القتالا

وفى ذلك اليوم أشيع موت ابن ملك الأمراء
الذى كان مقيما باسطنبول ، وكان رهينا عند ابن
عثمان من حين استولى أبوه على نيابة السلطنة
بمصر ، ولما تحقق ملك الأمراء موت السلطان سليم
شاه أظهر الحزن والأسف وشق أثوابه ولبس
السواد . وكذلك الأمير قرا موسى ، وخير الدين
نائب القلعة وفرحات ، وسائر الأمراء العثمانية
لبسوا السواد ، حتى الأمير قايتباى الدوادار لبس
السواد ، ووضع على رأسه شدا أزرق وأظهر
الحزن .

وفى يوم الخميس عشيره رسم ملك الأمراء
بأربعة مشاعلية تنادى فى القاهرة : اثنان يناديان
بالتركى ، واثنان يناديان بالعربى ... ترحموا على
الملك المظفر سليم شاه ، وادعوا بالنصر للملك
المظفر سليمان شاه . فارتجت القاهرة فى ذلك
اليوم ، وتحققوا موت سليم شاه من غير شك ،
وقالوا سبحان من هذ الجبابة ... وأما الممالك
الچراكسة فتزايد عندهم الفرح والسرور ،
واستبشروا بالفرج كما يقال : « مصائب قوم عند
قوم فوائد » .

فاستمر الأمراء وهم لابسون السواد ثلاثة أيام
متوالية وهم يظهرون الحزن على سليم شاه ابن
عثمان ، وكان مونه من الغرائب على حين غفلة ،
ولو عاش وصفا له الوقت ما حصل لأحد منه
خير ، فكفى الله الناس شره .

الملك سليمان بن سليم

هو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار الرومية من بنى عثمان ، استولى على الروم بأندلس في سنة ثمان مائة ، وملك على سنة ست وعشرين وتسعمائة ، وجلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه سليم شاه . وصار مملوكا على المملكة الرومية والديار المصرية ، وما مع ذلك من الملوك ، قيل استولى على الملك وله من العمر نحو ثمان وعشرين سنة ، وله أولاد ذكور وإناث ، وقيل عنه انه من ذوى العقول ، وفيه أقول :

سرنا لما ولي سلطاننا

ابن عثمان وصارنا في أمان

وارثا للملك عن أجداده

فهو في الملك سليمان الزمان

وأما ترجمته ، فهو سليمان بن سليم شاه الذي أخذ مصر عنوة بالسيف ، ثم والده سليم أبو يزيد . ولد سنة إحدى وخمسين وثمانمائة ، وولى على مملكة الروم ، وجلس على سرير الملك يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وتوفي سنة ثمان مائة عشرة وتسعمائة ، وكانت مدة سلطنته ببلاد الروم نحو ثلاث وثلاثين سنة .

ثم والده السلطان محمد وهو أول ملك لقب بالسلطان من ملوك الروم ، ولد سنة خمس وستين وسبعمائة ، وكانت مدة حياته نحو ستين سنة .

ثم والده مراد خان ويدعى غازي أيضا ، ولد سنة عشر وسبعمائة . وكانت مدة سلطنته بمملكة الروم إحدى وثلاثين سنة ، وعاش من العمر نحو ثمان وستين سنة .

(١) هذه العبارة من أولها الى آخرها فيها مخالفات كثيرة لا ذكره المؤرخون . فليكن ذلك معلوما .

ثم والده أبو يزيد المصروف بيلدرم ، وبيلدرم باللغة التركية اسم البرق ، وهو الذي أسره تمرلنك ووضع في قفص من حديد ، وطاف به في البلاد بعجب عليه ، وكانت وفاته في القفص الحديد سنة خمس وثمانمائة ، وكانت مدة مملكته على بلاد الروم تسع سنين أو نحو ذلك .

ثم أبوه أورخان عاش نحو ثمان وستين سنة .

ثم أبوه على أردن ، ثم أبوه عثمان الثاني ، ثم أبوه سليمان ولد في بلاد الروم ، وكانت مدة استيلائه هو وعثمان الثاني على مملكة الروم من سنة سبع وثمانين وتسعمائة ، واستمر على ذلك حتى قتل في الغزاة ببلاد الفرنج ، وخلف ابنه سليمان . فهؤلاء كلهم من نسل عثمان الثاني ، فأطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان ، وهم تسعة بالعدد .

وأما جدهم الكبير عثمان ، فقال بعض المؤرخين انه ولد سنة ثمان وخمسين وتسعمائة ، وعاش تسعا وستين سنة ، وأن أصله من عرب الحجاز من وادي الصفراء بالقرب من المدينة النبوية . فلما وقع الغلاء بالمدينة خرج منها عثمان فارا الى بلاد قرمان فنزل هناك ، وكان شجاعا بطلا فتزيا بزى أهل قونيا ، وكان ملك الروم يومئذ بيد طائفة يقال لهم السلجوقية ، فصار عثمان في خدمة الأمير على بن فرمان ، فعظم أمر عثمان عنده ، ومشى على طريقتهم ، وتكلم باللغة التركية ، وصار له أتباع كثيرة وأعوان ، وعدة عساكر نحو عشرين ألفا . فعند ذلك خرج عن طاعة السلجوقية والقرمانية ، وصار له عدة بلاد افتتحها ، وصار يغزو بلاد الفرنج في كل سنة ، ويغنم أموالهم ، ففتح عدة حصون تلى خليج القسطنطينية ، ولا زال ملك بنى عثمان يكسر وجنودهم تكسر ، وأظهروا العدل في الرعية ، وعمروا التكايا والزوايا والتخوانق .

وفي يوم السبت ثاني عشره ، نودي في القاهرة
بالزينة ثلاثة أيام متوالية بسبب سلطنه الملك المظفر
سليمان ، فزينت مصر والقاهرة زينة حافلة حتى
داخل الأسواق وغالب الحارات ، ولا سيما خان
الخليلى ، فان تجارهم زينوا زينة عظيمة ، وصار
الأمير على الكيخية والى القاهرة يطوف في كل يوم
عدة مرار ، وقدامه جماعة من الانكشارية ، وهو
ينادى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن
لا أحد يشوش على أحد من الرعية . وصار يأمر
بتقوية الزينة ، ويضرب أصحاب الدكاكين بسببها ،
وفي ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه
ابن صادق .

مذ غدت بعد سليم بعد حزن في تهاني
زينب مصر وأضحت لسليمان الزمان
ومن الحوادث أن طائفة من الانكشارية قصدوا
أن ينهبوا حارة زويلة . وقيل جرت العادة عندهم
إذا مات السلطان ينهب العسكر حارة اليهود ،
فقصد طائفة الانكشارية أن يفعلوا ذلك فمنعهم
حير الدين نائب القلعة ، وقرا موسى وفرحات من
ذلك ، فعصبوا منهم وبوجهوا الى بركة الحبش
على أنهم يدخلون على حية ، وينهبون القاهرة
عن آخرها ، فترددت الرسل بينهم وبين ملك
الأمراء على أنه ينفق على طائفة الانكشارية لكل
واحد منهم مائة دينار ، فتراضوا على ذلك ، وعلى
أنه لا ينفق على طائفة الاصباهية ولا الكمليّة
شيئا ، فتقرر الحال على ذلك .

ثم في يوم السبت المقدم ذكره أرسل ملك
الأمراء الى الأمير فايتباى الدوادار فقطان حرير
صارى وشاش خمسينى ، ثم ان ملك الأمراء صار
بنراضى حواطر المماليك الجراكسة ، فانفق عليهم
جامكية شهرين دفعة واحدة ، وصار القاضى شرف
الدين الصغير يأخذ بخواطر المماليك الجراكسة

وكان عثمان يحب العلماء ويقرب الصلحاء ،
وكان طويل القامة أسمر اللون أقنى الأنف . وقيل
عاش عثمان هذا نحو سبعين سنة ، ومات شهيدا في
بعض غزوات الفرنج ، وهو جد بنى عثمان قاطبة .
قال الشيخ تقي الدين أحمد المقرئى . لم يكن
في أبناء عثمان من يلقب بملك ولا بسلطان ، بل
كانوا إذا كاتبهم أحد من ملوك مصر وعظمتهم يقول
لهم الخنكار أو الأمير فلان . وقال المقرئى أنهم
سببون الى أبى مسلم الجراسابى ، صاحب دعوة
خلفاء بنى العباس ، الذى تعصب لهم ونزع الخلافة
من يد الأموية ، وجعلها الى العباسية . انتهى
ما أوردناه من سبب ابن عثمان ، وهذا هو النسب
الصحيح عنهم ، والله أعلم بحقيقة ذلك

ومن هنا نرجع الى خبر الملك المظفر سليمان بن
سليم شاه ابن عثمان ، فالذى أخبر به القوصونى
في كتابه ان السلطان سليمان لما جلس على سرير
الملك ، أظهر العدل في الرعية ، فأرسل أحضر
الخليفة من المكان الذى كان سجنه فيه والده سليم
شاه ، فأحضره الى اسطنبول كما كان ، ورتب له
في كل يوم ستين درهما .

وأفرج عن علاء الدين ناظر الحاص ، وعن جماعة
كثيرة من المباشرين الذين كاد سجنهم والده ،
وأفرج عن جماعة من التجار الأعجام الذين كان
والده سجنهم وزعم أنهم من عند الصفوى وأخذ
منهم حريرا بنحو اثنى عشر ألفا ، دينار . فلما آل
اليه الملك أفرج عنهم ، وأعاد لهم الحرير الذى كان
أخذهم والده منهم ورسم لهم بالعود الى بلادهم
وذكر عنه أشياء كثيرة من العدل من هذا النمط .
وفي يوم الجمعة حادى عشره رسم ملك الأمراء
بأن يصلى على السلطان سليم شاه ابن عثمان صلاة
الغيبة بجامع القلعة ، وسائر جوامع القاهرة ، وأن
يدعى للسلطان سليمان على المنابر ومضى أمر
السلطان سليم شاه كأنه لم يكن .

أيضا ، ويخاطبهم يا أغاوات ، بعد ما كان يقول
يا كلاب يا زرايين . وقد أقامت الممالك الجراكسة
صدورها من حين سمعوا بموت سليم شاه ابن
عثمان .

وفي يوم الاثنين رابع عشره أشيع أن طائفة
الاصباكية وقفوا الى ملك الأمراء ، وقالوا مثل
ما أنفقت على الانكشارية أنفق علينا أيضا ، فقال
لهم الانكشارية ممالك الخنكار وأنتم خدامه ،
وما عندى ما أنفقه عليكم ، فنزلوا من عنده على
غير رضا ، وأشيع أنهم يقصدون نهب الزينة ، فبادر
الناس بفك الزينة ، ووقع الاضطراب في ذلك
اليوم .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره ، أنفق ملك
الأمراء على الانكشارية فقط ، فأعطى لكل واحد
منهم أربعين أشرفيا ذهبيا تصرف بشمانين أشرفيا
فضة ، وأعطى الصوباشية أغوات الانكشارية لكل
واحد منهم مائة دينار ، فشق ذلك على الاصباكية
والكلمية ، وأشيع اقامة فتنة

وفي يوم الأربعاء سادس عشره ، حضر قاصد
من عند نائب الشام الأمير جان بردى الغزالي ،
يقال له خشقدم اليحياوى ، وهو أحد الأمراء
العشراوات بدمشق ، وكان أمير جكار عند
قانسوه اليحياوى ، فلما حضر بين يدى
ملك الأمراء دفع اليه مطالعة نائب الشام جان بردى
الغزالي ، ومطالعة الى الأمراء ، فلما قرئت اضطربت
أحواله ، ولم يعلم ما في تلك المطالعات ، فأنزلوا
القاصد في بيت الأمير جانم الحمزاوى ، فأقام عنده
في الترسيم وهو محتفظ به .

ثم أشيع أن ملك الأمراء من حين حضر قاصد
نائب الشام الغزالي وهو منكدر ، وشرع في تحصين
قلعة الجبل ، وركب على أبراجها المكاحل ، ووزعت
أعيان الناس أمتعتهم في حواصل ، وتزايد القيل

والقال بين الناس في أمر جان بردى الغزالي نائب
الشام ، وأشيع عصيانه بالشام ، وقد جمع من
العساكر ما لا يحصى .

ثم في يوم الخميس سابع عشره رسم ملك
الأمراء أن طائفة الانكشارية يقيمون في القلعة في
الطابق ولا ينزلون الى المدينة ، وأن طائفة الاصباكية
يسكنون حول القلعة بالقرب من بيت قرا موسى
ففعلوا ذلك .

وفي يوم الجمعة ثامن عشره خرج قاصد من
عند ملك الأمراء يقال له أمير شيخ ، فأرسل على
يديه مطالعات الى السلطان سليمان بن عثمان
يعزيه في والده السلطان سليم شاه ، ويهنيه
بإستقراره في الملك عوضا عن أبيه .

ثم أشيع أن ملك الأمراء أرسل قاصد نائب
الشام وهو خشقدم اليحياوى الذى حضر وعلى
يديه المطالعات ، فأرسله الى السلطان سليمان
وصحبته تلك المطالعات الواردة من عند نائب
الشام ، فقبل أرسله في الحديد ، وتوجه أمير
شيخ الى البحر الى ثغر الاسكندرية ، ومن هناك
توجه من البحر المالح الى اسطنبول .

ثم أشيع بعد ذلك أن القاصد قد أغرقوه تحت
الليل ، وكان آخر العهد به والله أعلم بحقيقة الحال .

ومما استفاض بين الناس من أمر واقعة نائب
الشام جان بردى الغزالي ، أنه تسلطن بالشام .

وقبل له العسكر الأرض وخطب باسمه على منابر
دمشق ، وضربت السكة باسمه على الذهب والفضة

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك ، أرسل يعلم

السلطان سليمان ابن عثمان بما وقع من نائب
الشام من سلطنته بالشام ، وأرسل اليه المطالعات
التي وردت عليه بما جرى منه ، وصار الأمر
موقوفا على الجواب عن ذلك ، وقد تحقق عصيان
نائب الشام وخروجه عن الطاعة .

وفي شهر ذي الحجة ، كان سمرقند يوم الاثنين طلع السحاب الأربعة الى بلادهم ، وسموا ملك الأمراء بالشمس ، فلما تكامل المصطفى ، اختار ملك الأمراء مصحفا ترفيفا ووضعه على كرسي ، وحضرت الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية ، فتقدم الأتباع أرومات النانب من وطاء ، أنه يدور دعب طاعة السلطان سليمان لما كان في طاعة والده سليم شاه ، وأنه لا يحزن ولا يخامر عليه . فحلف على ذلك بجمعة الشراة الأربعة ، ثم تقدم الأمير قايتباي الدوادار فحلف ، بمعنى ما حلف به الأمير أوزمك النانب ، ثم سمرت الأمراء الجراكسة يحضر منهم اثنان ، انقاد ويحلفون على المصحف بمعنى ذلك . ثم قام شخص ينال له قراجا الطويل ، وقال : يا ملك الأمراء مثلما حلفنا للأمراء العثمانية يحلفون لنا هم أيضا . فقال ملك الأمراء : واجب علينا ذلك . فتقدم ملك الأمراء وحلف على المصحف ، وأوسع في الفاظ الحلف وأكد في ذلك . ثم تقدم هرا موسى ويحلف على المصحف ، وكذلك فرحات وخير الدين نائب القلعة والكيفية الكبير آتات الانكشايه فلما تكامل الحلف رسم ملك الأمراء آت ، فسادى في القاهرة بالعربى والتركي بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن التجار تفتح دكاكينها وأن لا أحد بكشر كلاما ولا يدخل بيتا لا بعنه ، ولا تنفل له قماشا الى داره ، والدعاء بالنصر للسلطان سليمان ابن عثمان ، فلما نودى بذلك سكن الاضطراب الذي كان بين الناس قليلا .

وفي ذلك اليوم عرض على ملك الأمراء شخص من النصارى قيل عنه أنه وقع في حق النبي صلى الله عليه وسلم بكلام فاحش ، وشهد عليه بذلك ، فحكم القاضي الحنفى بهتله ، فضرب عنقه تحت

شبابك المدرسة الصالحية ، ثم ان السوام أحرقوه بالنار حتى سارت جثته رمادا

ومن الحوادث الغريبة والنوادر العجيبة أنه أشيع أن بحر النيل زاد في هذه الأيام بعد ما قد مضى من هاتور نصفه نحو ثلاثة أذرع ، حتى نيل بني على علام الوفا ست عشرة أصبعا ، فمد ذلك من النوادر الغريبة التي لم يقع مثلها فيما مضى من الزمان ، ولم يحصل بهذه الزيادة نفع للناس . بل أغرقت الزروع التي زرعت على التسطوط ، والأمتعة ، وهذا من جملة عجائب صنع الله تعالى فكان كما يقال في المعنى :

النيل أفرط فيضا بيضه المتتابع
فصار سادها حاد حديشا بالأصابع

ثم أشيع من بعد ذلك أن النيل قد دخل الى خليج الزربية من عند قصر ابن العيني ، فتطير الناس من ذلك ، ثم أشيع أن الماء دخل الى الخليج الناصري وفاض حتى دخل الى بركة الرطلى ، وغرق الزرع الذي كان بها ، فمد ذلك من النوادر الغريبة .

وأشيع ان جهات المنوفية غرق ما كان زرع بها ، وهى عدة أفدنة كثيرة ، وكذلك غرق غالب البراسيم النى بالجيزة وما حصل بهذه الزيادة للناس خير .

وفيه أفرج ملك الأمراء عن نجم شيخ العايد ، وخلع عليه وأعادته في مشيخة العايد ، كما كان أولا . وخلع على أربعة أنفار من عربان السوام ، وقرر معهم أن يجمعوا من العربان ما يقدرون عليه ، بسبب ملاقة نائب الشام جان بردى الغزالي ، فإنه تزايدت الأخبار بسلطنته بالشام ، وقد تلقب بالملك الأشرف صاحب الفتوحات ، وزينت له دمشق ثلاثة أيام ، وأوقدت له الشموع على

في جنازته قضاة القضاة وأعيان الناس ، وصلوا عليه في سبيل المؤمنين ، ونزل ملك الأمراء وصلى عليه ، وحمل نعشه من سبيل المؤمنين أول ما طلعا وكانت جنازته حافلة ، فلما صلوا عليه توجهوا به الى مقام الامام الشافعى رحمة الله عليه ، ودفن عند الشيخ محمد الخبشاني تجاه قبر الامام الشافعى رضى الله عنه ، فكان أحق بقول القائل حيث قال :

لقد عظمت رزيتنا فنبه
لها عمرا وهم جنح الليالي
فلا زالت ذوو الأقدار تلقى
من الأيام أنواع النكال
وكم جنت المنون على رجال
وجندلت الحكمة بلا قتال
ودائى ليس بشفيه دواء
وجرحى لا شول الى اندمال
به الأيام قد كانت قصارا
فويلى من ليايها الطوال
وكان ذخيرى فيها وكزى
وكان هدايتى عند الضلال
لقد درست دروس العلم حزنا
وقد صل الجواب عن السؤال
ودق الناس أبواب الفتاوى
وقد وصلوا الى باب الصيال
بكالك العلم حنى النحو أضحى
مع التصريف بعدك فى جدال
بكت أوراقه بيض المواصي
دما ويراعه سمر العوالي
وعين دواته عمشت وآلت
يمينا لا تداوى باكتحال

الدكاكين ، وقبل له الأمراء الأرض . وقد جمع
العسكر الكثير وهو فاصد نحر الدمار المصرية .
وئ يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع
الامام العزم العامل شيخ الاسلام والمسلمين ،
مفتى الأنام فى العالمين ، بية السلف ، وعمدة
الخلف ، عالم الوجود على الاطلاق ، ومن ذكره
قد شاع فى الآفاق . فهو آخر علماء الشافعية
بالديار المصرية ، وانتبت اليه رئاسة الشافعية ،
فهو شيخ الاسلام زين الدين زكريا بن محمد
ابن محمد الأنصارى السنيكى الشافعى رحمة الله
عليه .

كان مولده فى سنة أربع وعشرين وثمانمائة ،
ومات وله من العمر مائة سنة وستين بعدها . وكان
رئيسا حثما فى سعة من المال ، وولى قضاء الشافعية
فى دولة الأشرف قايتباى ، وأقام بها نحو عشرين
سنة ، ومات وهو معزول من القضاء ، وقد كف
بصره قبل وفاته بمدة طويلة .

وحضر مباحة خمسة من السلاطين ، وهم الناصر
محمد بن قايتباى ، وخاله الظاهر قابصوه ،
والأشرف جان بلاط ، والعاذل طومان باى ،
والأشرف الغورى .

وولى تدريس قبة الامام الشافعى رحمة الله عليه ،
وولى فى أواخر عمره مشيحه مدرسه الجمالية ،
وكان بيده عدة تداريس ، وآلف الكتب الجليله فى
العلوم المفيدة ، وأفتى ودرس بالقاهرة نحو ثمانين
سنة ، وانتفع منه غالب الناس . وخلف ولدا ذكرا
من جارية سوداء .

فلما بلغ ملك الأمراء وفاته أرسل اليه ثوبا
بعلبكيا وخمسين دينارا على يد الأمير جام
الحمزاوى ، وحضر غسله وتكفينه والصلاة عليه ،
وأخرجت جنازته من عند المدرسه السابقة ، ومشى

تكررت المعارف في عياني

وتميزى غدا في سوء حال

وما عوضت من بدل وعطف

سوى توكيد سقمت واعتلالى

فيا قبرا ثوى فيه تهى

فقد حزت الجميل مع الجمال

سقاه الله عينا سلسيلا

وأسبغ ما عليه من الظلال

وبوآه من الفردوس فضلا

ورقاه الى الغرف العوالى

وفي يوم الأربعاء المقدم ذكره ، توفي الشيخ

شمس الدين محمد البساطى ، الشاهد الذى قطع

ملك الأمراء يده ، فراح ظلما بلا ذنب أوجب ذلك

وأشيع أن ملك الأمراء أرسل اليه مائة دينار على

أنه يحال له على ما وقع منه ، فأبى من أخذ المائة

دينار ، وقال حتى أقف أنا وإياه بين يدي الله

تعالى . وقيل أن يده التى قطعت استمرت عنده

الى أن مات فدفنت معه فمات شهيدا

وفي يوم الثلاثاء تاسع ذى الحجة ، قدمت على

ملك الأمراء أخبار رديئة بأن العربان نزلوا على

قطيا ونهبوا ما فيها ، واستمر النهب عمالا من قطيا

الى الخطارة ، وطفشت العربان فى الشرقية ،

واضطربت أحوالها ، وأشيع أن شيخ العرب أحمد

ابن بقر أرسل حريمه وأدخلهم الى القاهرة ، ووزع

أمواله وقماشه ومواشيه خوفا من النهب فى البلاد .

وقد وردت عليه أخبار غير صالحة ، وصار

القليل والقال فى كل يوم عمالا بين الناس ، والأخبار

الكذب أكثر من الصدق .

وفي يوم الأربعاء عاشره كان عيد النحر ، فوقع

فى هذا العيد أمور غريبة بسبب الأضحية ، فبلغ

سعر كل بقرة فوق الثلاثين دينارا ، وشئ منها

بيع بأربعين دينارا ، ولم يسمع بمثل ذلك فسد بدم

من الزمان ، وبيع الخروف الكبير بعشر أشرفيات ،

وشئ باثنتى عشرة أشرفية ، وشئ باثنتى عشر ، فعد

ذلك من النواذر الغريبة ، وسبب هذا أن الأشراف

الذهب العثماني صار يصرف بخمسين نصفا من

الفضة ، وأما المعاملة من الفضة فإن غالبها نحاس ،

وأكثرها غش ، فوقف حال الناس بسبب ذلك ،

وصار الشئ يباع بشلين ، وصار كل من البضائع

وغيرها يباع بأعلى الأثمان ، وموجب ذلك قلة البهر

والأغنام فى هذه الأيام ، وصارت الأبقار تجلب الى

دمشق وتباع هناك بأعلى الأثمان ، فإن الأبقار التى

بدمشق دخل فيها الفناء وقل نسلها هناك جدا .

وفي يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمير ناصر

الدين محمد الجلبى المهندار ، وتوجه الى نحو

نهر الاسكندرية بسبب تفقد الأبراج التى هناك

خوفا من الفرنج أن يطرقوا النهر على حين غفلة .

وقد تزايد عبث الفرنج فى البحر المالح ، وقد

طمعوا فى أخذ البلاد من حين مات السلطان سليم

شاه ابن عثمان .

وفيه أشيع أنه حضر ساع من البلاد الشاميه

وعلى يده مطالعة الى ملك الأمراء ، فقال له ائ

كان معك مطالعات الأمراء فأظهرها علينا ، فأنكر

الساعى ذلك ، فحنق منه ملك الأمراء وضربه ضربا

مبرحا وسجنه وهو لم يقر بشئ من المطالعات .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن أمير شيخ —

الذى أرسله ملك الأمراء الى السلطان سليمان

ابن عثمان يهنئه بالملك ويعزيه فى أئيه السلطان

سليم شاه — قد رجع الى نهر الاسكندرية وأنه

وجد البحر المالح قد امتلا بمراكب الفرنج ، فلم

رسم للأمير قايتباي الدوادار بأن يدعو جان قلعج عنده في الترسيم حتى يعرضه عليه ، ويحقق ما قاله عنه فاستمر في الترسيم عند الأمير قايتباي .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء ملأ الصهاريج الكبار التي بباب السلسلة ، وملأ عدة صهاريج بقلعة الجبل ، وأخذ في تحصين القلعة بكل ما يمكن ، وطلع إلى القلعة بأعمال بتسمات وأرز وقمح وشعير ودقيق وغير ذلك ، وأرسل طلب من ابن قريسيط المتحدث على شبري خمسين ثورا من الثيران الكبار بسبب سحج المكاحل التي على العجل والهربات .

وأشيع أن ملك الأمراء طلب شيخ المغاربة وقال له أحضر لي ألفي مغربي من شجعان المغاربة ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة السلطان جاز بلال لما تسلطن العادل طومان باي بالشام ودخل هو وقصروه نائب الشام إلى القاهرة — وقد تقدم ذلك — وكان الأشرف جان بلال حصن القلعة أعظم من هذا التحصين ، ولم يمهده منه شيء وانكسر ، وأخذت منه قلعة الجبل في خمسة أيام ، ثم قبض عليه ونفى إلى نهر الاسكندرية .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره ، بودي في القاهرة بأن أولاد الناس ومن بمصر من الأروام يطلعون إلى القلعة للعرض بين يدي ملك الأمراء ، فصار جماعة من خان الخليلي من الطبّاخين ، ومن يعمل السراميج ، ومن يعمل السنوسك ، يطلعون إلى القلعة ويكتبون أسماءهم في الديوان ، ويسسون أنفسهم الكمالية ويتزيون بزيهم ، وصار العسكر ملفقا من سائر الطوائف والأجناس ففى سبيل الله خيار السبيل .

ثم إن طائفة الإصباهية والكمالية تغلبوا على ملك الأمراء ، وقالوا : نحن ما نخرج إلى قتال نائب

يستدلع التوجه منه إلى اسطنبول ، ورجع إلى نهر الاسكندرية ، وأرسل يطم ملك الأمراء بما وقع له .

وفي يوم الأحد حادي عشره نزل ملك الأمراء إلى الميدان الذي تحت القلعة ، وعرض سنيحه وعرض العربات وهي العجلات التي صنعها ، وفرق على المساليك سلاحا ورمحا وغير ذلك ، ورسم لهم بأن يعملوا برقهم بسبب ملاقة نائب الشام الأمير جان بردي الغزالي ، ورسم للعسكر العشاني أن يعملوا برقهم أيضا .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره رسم ملك الأمراء للمساليك الجراكسة بأن يعملوا برقهم أيضا ، ويجهزوا أمورهم بسبب السفر ، فتوجهوا إلى سوق القبو وجامع قوصون ، واشتروا ما يحتاجون إليه بسبب السفر .

وأشيع أن ملك الأمراء أمر طائفة الإصباهية والكمالية بأن يخرجوا إلى الصالحية ، وقيموا بها إلى أن يخرج العسكر ، فامتنعوا من ذلك وقالوا نحن لا نخرج إلا في ركاب ملك الأمراء إذا خرج وإن لم يخرج ما نخرج . فوقع الخلاف بينهما في هذا الأمر ، وكثر القال والقليل بين الناس ، وأن ملك الأمراء أفق على الانكشارية وأعوانهم ، ولم ينطق على الإصباهية ولا على الكمالية شيئا فحنقوا منه .

وفيه أشيع أن اليهود حولوا جميع قماشهم من حارة زويلة وبنا على أزقتها خوفا قصارا ، وقد أخذوا حذرهم من النهب ، وكذلك اعيان المباشرين ، وأن شحضا من الأمراء العشراوات يقال له جان قلعج — وهو الذي كان نائب قطيا — حضر في مجلس لهو ، فلما سكر نقل عن ملك الأمراء كلاما لم يقله ، فلما بلغ ملك الأمراء ما قاله جان قلعج ،

الشام الا بمرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، ونحن ما علينا الا حفظ درك القاهرة والمدينة ، فان دخل الينا نائب الشام -عاربناه فوقع الخلف بين العسكر العثماني وبين ملك الأمراء بسبب ذلك .

وكان من حين تولي السلطان سليمان مملكة الروم لم يرسل الى ملك الأمراء خلعة الاستمرار ، فطمع فيه كل أحد بسبب ذلك ، وصارت الأخبار في كل يوم ترد على ملك الأمراء بأن جان بردي الغزالي نائب الشام قد زحف وخرج من الشام في عسكر كثيف ، وقصد نحو الديار المصرية ، ومعه طائفة كثيرة من الأكراذ ومن عربان جبل نابلس ، ومن عربان بنى عطاء ، وبنى عطية ، وغير ذلك من طوائف العربان ، وغيرهم من عساكر دمشق .

وفيه قدمت الأخبار بأن عربان بنى عطاء وبنى عطية اتفقوا مع عربان طائفة السرواهم وكسروا طراباي بن قراجا شيخ عربان جبل نابلس ، وكان ملك الأمراء خلع عليه وعلى جماعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، وأنهم عليهم ببال له صورة على أنهم بلاقون جان بردي الغزالي ، ويحاربونه قبل أن يدخل الى القاهرة .

وفيه قدمت الأخبار بأن جماعة من عربان الغربية ثاروا على كاشف الغربية ، فهرب منهم وأرسل يعلم ملك الأمراء بذلك ، لينعين لهم نجريدة .

وفيه حصر شيخ العرب بيبرس بن بفر وقال ملك الأمراء ، فخلع عليه ، وكان أشيع عصيانه . وفيه عرض ملك الأمراء من بالسجود فأطلق منهم عشرين انسانا ، وقيل صالح جماعة منهم ممن عليهم الديون وقام بذلك من ماله .

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من الغلمان كان عند جان بردي نائب فطيا الذي تسحب منها ، فلما قبض عليه ومثل بين يديه قال له : أخبرني عن أحوال الغزالي ، كيف تسلمن ، فقال ما عندي منه علم . وكان أشيع عن ذلك الغلام أنه أتى من عند الغزالي بمطالعات الى الأمراء الذين بالقاهرة ، فلما انكر العلام ذلك ، حنق منه ملك الأمراء ، ورسم بتوسيطه فوسطه عند باب السلسلة قريب المغرب ، ومضى أمره .

وفي يوم الخميس خامس عشره ، حضر مبشر الحاج ، وأخبر أنه حصل للحجاج مشقة عظيمة بسبب الغلاء في سائر الأصناف والبضائع ، ومات من الحجاج جماعة كثيرة ، وأشيع الشاء الجميل على أمير الحاج جانم الكاشف .

وفيه قدم الخبر بأن نائب الشام جان بردي الغزالي توجه الى حلب بمن معه من العساكر ، وحاصر المدينة أشد المحاصرة ، وقد حاربه أهل حلب ونعصبوا عليه ، ولم يمكنوه من أخذ المدينة .

وقد انفصلت هذه السنة عن الناس وهم في أمر مريب ، من استمرار الغلاء مع فلة الأمن ، والفتن القائمة في البلاد الشامية والحنية ، وكثر القتل والقتل بين الناس بسبب جاذ بردي الغزالي ، فانه أشيع عنه أنه تسلمن بالشام وتلقب بالملك الأشرف .

ومن أعظم حوادث هذه السنة ، موت الخنكار سليم شاه ابن عثمان ، فان موته كان من العجائب والغرائب ... ولا سيما ما جرى منه في حق أهل مصر من الفعائل الشبعة مما تقدم ذكره .

ومن لطائف صنائع الله تعالى أنه لم يقع في هذه السنة طاعون ولا غيره في البلاد الشامية ، ولا أعمال الديار المصرية .

سنة سبع وعشرين وتسعمائة (١٥٢١ م) :

استهل المحرم يوم الأربعاء ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة : وهنأوا ملك الأمراء بالشهر والعام الجديد ، ثم عادوا الى دورهم .

وفي ذلك اليوم حضر قاصد من عند السلطان سليمان نصره الله تعالى ، وعلى يده مراسيم شريفة : فكان من مضمونها أن ملك الأمراء خاير بك على عادته في النيابة بالديار المصرية . ثم انه أشيع أن السلطان سليمان أرسل بقول لملك الأمراء : انه عين تجريدة عظيمة الى نائب الشام جان بردى الغزالي ، وأرسل يقول : لا تخرج تجريدة نحن نكفك أمره .

وفيه قدمت الأخبار بأن چاليش عسكر نائب الشام لما توجه الى حلب ، وحاصر المدنة ، انكسر ذلك الچاليش

ثم أشيع أن عربان الكرك قد استولوا على مدينة الكرك ، ورفعوا بد جماعة نائب الشام ، وقد اتدب الى محاربة جان بردى الغزالي شخص من عربان جبل نابلس يقال له جعيما شيخ عربان الكرك .

وفي رابع الشهر وقعت كائنة عظيمة لشخص من الأتراك يقال له اياس ، قيل انه من ممالك الأمير يشبك الدوادار : رسم ملك الأمراء بتوسيطه فوسط في الرميلة وكان سبب ذلك أنه كان في مجلس لهو ، وحضر في ذلك المجلس جماعة من الاصباية ، فخلط اياس في الكلام مع الاصباية في ذلك المجلس ، فقال بلغنى عن ملك الأمراء أنه يقصد أن يتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالي بالشام . فلما حضر جماعة من الأمراء العثمانية عند

ملك الأمراء ، قالوا له : بلغنا أنك تقصد أن تتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالي بالشام . فقال لهم ومن نقل عني ذلك ، قالوا شخص من الأتراك يقال له اياس ، فأمر بإحضاره ، فلما حضر قال له : من قال لك عني اني أقصد أن أتسلطن ؟ فقال له اياس : أنا سمعت ذلك من العوام ، فقال له ملك الأمراء : أحضر لى من نقل عني ذلك ، فانهقد لسان اياس وتوهم من ذلك ، واضطربت أحواله ، وصار لا يدري ما يقول ، فأخذ الأمير قايتباى الدوادار يرقع له خلله ، فطفش فيه ملك الأمراء وكاد أن يفتك به .

ثم ان ملك الأمراء رسم للوالى بأن يقبض على اياس المذكور ، فقبض عليه ونزل به من القلعة الى الرميلة ، فوسطه بسوق الخيل ، وراح ظلما من غير دنب يوجب عليه ذلك ، فان أكثر الناس كانوا يحلطون في ذلك من حين أشيع سلطنة جان بردى الغزالي بالشام ، واسنمر اياس مرميا في الرميلة والكلاب تنهش جثته في الليل ، ورسم أن لا أحد يدفنه . وكان اياس شيعا مسنا ، وله أولاد وعيال ، ولكن اشتد غضب ملك الأمراء عليه في ذلك اليوم ، فعد ذلك من مساوى ملك الأمراء .

وفي يوم الثلاثاء سابعه وقع من ملك الأمراء ما هو أشنع من ذلك ، وهو أنه رسم بتوسيط محمد ابن شمس الدين محمد الفرنوى . وسبب ذلك أن ابن الفرنوى قبض على فلاح وسجنه ، فانه كان مباشر وقف السلطان حسن ، فلما سجن ذلك الفلاح حمل بعض أقارب الفلاح على الفرنوى شخصا من العثمانية ، فكلم الفرنوى في خلاص ذلك الفلاح ، فلم يوافق ابن الفرنوى على اطلاقه فأغلظ عليه العثماني في القول وسبه ، فقال ابن

الفرنوى : عن قريب يحضر جان بردى الغزالي نائب الشام وتخرجون على ايشمه . فطلع العثماني وشكا الى ملك الأمراء ما قاله ، فاحضر ابن الفرنوى وقال له : كيف تقسول عن قريب يحضر الغزالي ويتسلطن بمصر ؟ فأذكر ابن الفرنوى ذلك ، فاحضر العثماني جماعة ممن كانوا حاضرين فشهدوا على ابن الفرنوى بأنه قال ذلك ، فحقق منه ملك الأمراء ورسم بتوسطه فوسط في الرميعة ، وراح ظلما كما وقع لانس . وكان ابن الفرنوى هذا من أعيان الناس ، أمام الأمير أفبردى الدوادار والأمير يشبك الدوادار .

وفيه صار ملك الأمراء يتصدق على الأطفال بالمكاتب قاطبه لكل طفل أربعة أنصاف ، ففرق مالا له صورة وصارت الأطفال يقرءون له الفاتحة ويهدونها في صحيفة ملك الأمراء . وصار يتصدق على الزوابة والمزارات التي بالقرافة ، ويتصدق على المجاورين بالجامع الأزهر ، فقليل انه صرف من ماله في هذه السنة نحو خمسمائة دينار .

وفيه عزل كاشف الشرفية انس واستقر عوضه شخص من الأتراك يقال له جاني بك ، وفد تقدم أنه ولي كشف الشرقية قبل ذلك

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، طرقت ملك الأمراء أخبار رديئة بأن العربان قد زحفوا على فطيا ، وقد وصلوا الى الصالحية ، فتنكد ملك الأمراء لذلك ، وعين لهم تجريدة ، فخرج اليهم طائفة من الاصباهة وطائفة من الكملة ، فتوجهوا اليهم على الفور من يومهم وكثر القتل والقتيل بسبب العربان ، وغيرهم .

وفي يوم الأحد سادس عشرى المحرم ، دخل الحجاج الى القاهرة مع الأمن والسلامة صحة

الأمير جانم أمير ركب المحمل ، ودخل قاضي المحمل النسيح أبو الفتح نتج الدين الونائي المالكي ، ودخل مسجبه النسيح شرف الدين يحيى ابن البردينى شيخ الحرم النبوى ، وكان السلطان سليم شاه نوره في متبيحة الحرم النبوى ، فسعوا عليه ف عزل واستقر بها الأمير بكباي ، كما تقدم ذكر ذلك . فلما عزل الشرفى يحيى بن البردينى عن مشيخة الحرم ، حضر صحة الحاج .

وأشيع أن الحاج قاسى في الرجعة غاية المشقة من الغلاء وموت الجبال ، وتعرضت لهم جماعة من العربان ، فتقاتلوا مع الأمير جانم أمير الحاج ، فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة ، فرجع الحاج وهم راضون عن أمير الحاج جانم ، وأثنوا عليه بكل جميل ، وشالوا له الراية البيضاء في بركة الحاج .



وفي شهر صفر ، وكان مستهله يوم الجمعة ، صعد القضاة الأربعة الى القلعة وهنثوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم ... وفيه جاءت الأخبار بأن الاصباهة والكملة الذين توجهوا الى الصالحية بسبب محاربة العربان ، ظهر منهم غاية الفساد ، وصاروا ينهبون الضياع التي حول بليس والصالحية ، يأخذون ما فيها من الاجاج والأوز والشعير والتبن ، فضج أهل الضياع من ذلك ، فأتى الفلاحون وشكوا الى ملك الأمراء ، أن التركمان هبوا معهم ، وفسفوا بنسائهم وبناتهم ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل خلف الاصباهة والكملة فحسروا الى القاهرة ولم يحصل بهم نفع .

وفيه رسم ملك الامراء بشنق شخص يقال له الحاج ياقوت ، وكان من جملة تجار الوراقين ، وله

شهره . وهو في سعة من المال . فقتل من غير ذنب
بوجب ذلك

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى
بولاق ، وكشف على المراكب التي عمرها هناك ،
فأنزلوها الى البحر قدامه ، ثم رجع وشق من
القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان
يوما مشهودا .

وفيه خرج الأمير جان بك أخو الأمير قايتباي
الدوادار ، فتوجه من البحر وسافر نحو البلاد
الشامية ليكشف أخبار نائب الشام جان بردي
الغزالي ، وغير ذلك من الأشغال السلطانية .

وفيه انقطعت الأخبار من البلاد الشامية ،
وامتنعت القوافل والمسافرون من الدرب
السلطاني ، وانكثمت أخبار نائب الشام جان بردي
الغزالي ، واستمر على ذلك ثلاثة أشهر ، وحصل
للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، ومنع القوافل
وجلب البضائع من البلاد الشامية .

واستهل شهر ربيع الأول يوم السبت فطلع
القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء
بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم

وفي يوم الثلاثاء رابعه ، نزل ملك الأمراء من
القلعة وبوجه الى بركة الحبش والبريم ، فأقام
هناك الى ما بعد الظهر ، فأرسل القاضي بركات بن
موسى المحتسب خمسة جمال ، ما بين خرفان
شوى ، وحلوى وفاكهة ، وغير ذلك من مجامع ،
ضمنها مأمونية ، وسنبوسك بسكر ، وغير ذلك
أشياء فاخرة .

ثم ان ملك الأمراء نزل من هناك في الحراقة ،
وتوجه الى الروضة ، وكشف على المراكب التي
عمرها هناك ، ثم شق من البحر وطلع من عند

قصر ابن العيني ، ونوجه من هناك الى القلعة
فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطلقان ، وانشرح
في ذلك اليوم الى الغاية

ومن الوقائع الطيبة ما وقع في يوم الاحد تاسع
الشهر ، وذلك انه وقع بين شخص من أرباب الفن
يقال له محمد الأوجاقي ، ويعرف أيضا بالشرابي ،
وشخص يقال له محمد بن سرية ، فوقع بينهما
رهان في فن الموسيقى ، فقال محمد بن سرية : أنا
أعرف قطعة من الفن ما سمعها أحد من أهل مصر
قط . فقال محمد الأوجاقي : ان كان حقا ما تدعيه ،
فنجعل مشايخ أرباب الفن ، ونجمع مغاني البلد
قاطبة ، ويكون ذلك يوم الأحد في وسط بركة
الرطلي ، وكان ذلك في زمن الربيع فلما كان
يوم الأحد يوم الميعاد ، حضر جماعة من أرباب
الفن ، وحضر مغاني البلد قاطبة ، وآتوا الى بركة
الرطلي ، فجلسوا في وسطها ، واجتمع هناك الجم
الكثير من المتفرجين ، وكان ذلك اليوم مشهودا ،
فغنى كل واحد من المغنين في ذلك اليوم نوبة من
أحسن ما عنده من الفناء ، وابتهج الناس في ذلك
اليوم غاية البهجة . وأما محمد بن سرية فانه
احتج بأنه ضعيف ، ولم يحضر ، وقال الرهان باق
الى يوم الأحد الثاني فظهر عليه العجز ، ولم يف
بما ادعاه مما تقدم ، فكان كما قيل :

كل من بادى بما ليس فيه

كذبت شوائده الامتحان

فانقض ذلك الجمع ، وعند ذلك اليوم من
النواذر في الفرجة والقصف .

وفي يوم الاثنين عاشره ، أشيع أن قاصدا حضر
من عند السلطان سليمان ، وعلى يده خلة
الاستمرار الى ملك الأمراء ، فحضر القاصد
وصحبته الأمير شيخ والأمير على المحضر ،

وفيه قدمت الأخبار من الشام ، بأن السلطان سليمان بن عثمان - أرسل الي نائب الشام جان بردى العزالي عمساكر سقيسة ، وصحبته ابن سوار ، فأوقعوا مع الغزالي في ثمانى عشرى صفر ، وكان بين الفريقين واقعة مهولة عنى حاب ، فافكسر منهم وهرب الى حماة ، فتبعوه واقتتلوا معه ، ففر منهم وهرب ، وقعد النوجه الى الشام ، وقطع قناطر الرستنى ، فتبعوه فكان بين الفريقين واقعة عظيمة خارج مدينة دمشق ، فقتل في تلك المعركة نحو عشرة آلاف انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، ما بين عربان ومساليك ، وجماعة من عوام الشام ، وفيهم أطفال وصغار من أهل ضياع الشام ، وغير ذلك ممن حضر تلك الواقعة ، فكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلنك لما ماك الشام ، وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبي وحرق ضياع ، وما أبقوا في ذلك مكانا ، وليس الخبر كالعيان . والذي قتل تحت أرجل الخيل لا ينحصر ، وآخر الأمر افكسر نائب الشام والغزالي كسرة مهولة ، وقبض عليه وقتل ، وحزت رأسه ، وأرسلت الى اسطنبول مع رأس جماعة من أصحاب الغزالي ممن كان من عصيته ، ونهب وطاقه وبركه عن آخره ، وكانت من الوقائع العظيمة التى لم يسمع بمثلا .

وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وأربعة أشهر الا أياما ، وزال كأنه لم يكن .

وكان الغزالي عنده رهن وخفنة زائدة ، أهوج الطبع ، ليس له رأى سديد ، رهاج فى الأمور ليس له تأمل ، وكان ولى نيابة الشام وهو فى غاية السطمة والحرمة الوافرة ، والكلمة النافذة ، وقد أصلح الجهات الشامية فى أيامه حتى مشى الذئب والشاة سواء ، كما يقال فى المعنى :

وبرسباى استادار الصجبة مملوك ملك الأمراء الذى كان أرسله الى السلطان سليمان بن عثمان يهنئه بالملك ويعزيه فى موت أبيه السلطان سليم شاه ، فلما حضر طلوعوا الى القلعة ، ومعهم مرسوم محتوم من عند السلطان سليمان بن عثمان ، فاجتمع بالقلعة الأمراء العثمانية والأمراء الجراكسة وقرىء عليهم مرسوم السلطان سليمان وهو مكتوب باللغة التركية ، فكان من مضمونه أن السلطان أرسل يقول لملك الأمراء انه فوض اليه نيابة مصر وما معها من الثغور والأعمال ، يعزل من يعزل ، ويولى من يولى ، ولم يرسل اليه خلعة الاستمرار ، فعز ذلك على ملك الأمراء ، وكثر بسبب ذلك القيل والقال بين الناس .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره كان المولد الشريف النبوى بالقلعة على حكم ما ذكرناه فى السنة الماضية .

وفى يوم الخميس ثالث عشره بوى فى القاهرة عن لسان ملك الأمراء خاير بك بأن من كان له حاجة الى الشام أو غزة يتوجه الى هناك ، فان الدرب السلطاني قد انفتح ، وكان الدرب السلطاني له نحو أربعة أشهر لم يسلك ، ولم تجى منه القوافل ، حتى عزت البضائع التى كانت تجلب من هناك ، وذلك بسبب عصيان نائب الشام جان بردى الغزالي .

وأشيع أن جماعة من العربان أوقعوا مع جان بردى الغزالي ، وانكسر منهم وهرب ، فقصد ملك الأمراء أن يعلم الناس بأن الدرب قد انفتح وسلك .

وفيه خلع ملك الأمراء على قرا موسى أحد أمراء ابن عثمان وقرره فى نيابة غزة ، فخرج اليها فى يوم الخميس وسافر .

يا أيها الملك الذي سيطرته

البيد يمشى دنيا من شاتها

وما كان باسم الف على العجم الكثير من
العساكر ما بين مريان جبل نابلس والكرك وغير
ذلك ، والتف عيه جماعة كثيرة من المماليك
انجراكية ، وصاروا يخرجون من مصر في الحفية
ويتوجهون اليه . والتف عليه طائفة من الأكراد
والتركماني ، حتى اجتمع عليه انا عشر ألف مقاتل ،
وفيهم رماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام ،
وفيل أكثر من ذلك ، فعند ذلك حدثته نفسه
بالسلطنة ، وثورته الجبهة فتسلطن وتلقب بالملك
الأشرف ، وقبلوا له الأرض هناك ، وخطب باسمه
على المنابر في جسيتين بدمشق ، وكل ذلك عين
الغلط منه ، وكم من عجلة أغضبت ندامة ، فكان
كما قيل في المعنى :

والنفس لا تنتهي عن نيل مرتبة

حتى تروم التي من دونها العطب

ولما تحقق ملك الأمراء أن الغزالي قد تسلطن
بالشام ، وقبلوا له الأرض هناك ، اضطربت
أحواله ، وسرت المماليك الجراكسة بذلك ،
واستبشروا بالفرج ، ويا فرحة ما تمت .

وكان أصل جان بردى الغزالي من ممالك
الأشرف قايتباي ، اشتراه وأعتقه ، وأخرج له
خيلا وفماشا ، وصار من جملة المساليك السلطانية .

ثم ان الأمير تعري بردى الأستاذار ، فرره شادا
في ضيعة بالشرقية فقال لها منية غزال فنسب اليها ،
وقيل له الغزالي مضافا لاسم تلك الضيعة . ثم ان
الأشرف قايتباي جعله جمدارا وفرره في كشف
الشرقية ، ثم بقي أمير عشرة في أواخر دولة الناصر
محمد بن قايتباي ، ثم بقي محتسب القاهرة في دولة
السلطان الغوري ، ثم قرره في حجوبية الحجاب

بحلب ، فخرج اليها من يومه ، وذلك بعد واقعة
مصر باي لما انكسر . ثم ان الغوري فله من
حجوبية الحجاب بحلب الى نيابة صمد ، وذلك
في سنة سبع عشرة وتسعمائة . ثم فله من نيابة
صمد الى نيابة حساء ، الى أن توجه السلطان
الغوري الى حلب ، وانكسر وجرى له ما جرى ،
فرجع الغزالي صحبة العسكر الى مصر ، فوجد
الأشرف طومان باي قد تسلطن عوصا عن
الغوري ، فاستقر بالغزالي نائب الشام وقد تقدم
القول على ذلك .

فلما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان مصر
أقره على عادته في نيابة الشام ، وجعل له التحدث
على الشام وحماه وحمص وصيدا وبيروت وبيت
المقدس والرملة والكرك وغير ذلك من الأعمال
الشامية والطرابلسيه ، فلو فنع بذلك لكان خيرا
له ، فكان كما يقال في الامثال السائرة : « من
شرب بكأس الطمع ترقى به » .

وفي يوم الأحد ثالث عشره قدمت الأخبار بأنه
وصل فاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان ،
فلما تحقق ملك الأمراء ذلك ، نزل من القلعه
وتوجه الى نربه العادلي ، وبأت بها لأجل ملاقة
القاصد الذي حضر . وكان ملك الأمراء أرسل
القاضي بركات بن موسى المحتسب الى الحانكاه ،
ليمد له مدة هناك .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشره ، نادى ملك
الأمراء في القاهرة بالزينة بسبب دخول القاصد ،
فزينت زينة حافلة ، فلما دخل القاصد لاقاه ملك
الأمراء من هناك ، ودخل هو واهله من باب النصر ،
وشق من القاهرة في موكب حافل ، وقدامه
العسكر قاطبة من الجراكسة والعثمانية ، وقدامه
جماعة كثيرة من الانكشارية وهم يرمون بالنفوط
ودخل قدامه عشرة رءوس على رماح ، زعموا انها

رءوس مشايخ عربان ممن كان من عصابة نائب
الشام جان بردى الغزالي ، فشق من القاهرة هو
والقاصد ، وكان يوما مشهودا

وفي يوم السبت سلخ الشهر قدم قاصد آخر
من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، وأشيع أنه
أتى الى ملك الأمراء بخلة الاستمرار ، فلما وصل
الى تربة العادلي نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من
هناك ، فجلس على المصطبة التي هناك ، فألبسه
القاصد الخلة وهي ققطان مخمل أحمر بتماسيح
مذهب ، ثم قام من هناك هو والقاصد ودخل من
باب النصر ، وشق من القاهرة في موكب حافل
أعظم من الموكب المقدم ذكره ، وركب قدامه قضاة
القضاة الأربعة ، وهم : كمال الدين الطويل
الشافعي ، وعلاء الدين على الطرابلسي الحنفي ،
ومحيى الدين يحيى الدميري المالكي ، والشهابي
أحمد الفتوحى الحنبلي . وركب قدامه الأمراء
الچراكسة قاطبة ، والأمراء العشمانية ، ومشت
قدامه الانكشارية والكمالية وهم يرمون بالنفوط ،
ومشت قدامه طائفة النصارى بالشموع الموقدة ،
واصطف الناس له على الدكاكين بسبب الفرجة ،
وكانت القاهرة مزينة في قوة الزينة ، وعلقوا له
أحمالا وثرنيات معمرة بالقناديل الموقدة بطول
المدينة ، وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، ولا
سيما ما فعله تجار الوراقين من الشموع الموكيات
الكبار ، وأطلقوا له المجامر بالعود القمارى ،
ومرشات الماورد المسك .

ثم ان جماعة من التجار ثروا على رأسه الفضة
في عدة أماكن من المدينة ، وارتفعت له الأصوات
من الناس بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت
من كل جانب من البيوت والدكاكين ، وفرشت له
الشقق الحرير تحت حافر فرسه من عند خان

مسرور ، واستمر في هذا الموكب الحفل ، حتى
طلع الى القلعة وعليه خلة الاستمرار من عند
السلطان سليمان بن عثمان ، وهي بتماسيح
مذهب على مخمل أحمر ، وكان ذلك اليوم مشهودا
في الفرجة والنصف .

فلما طلع الى القلعة ، خلع على الأمير قايتباي
الدوادر ققطانا مخملا ، ونزل الى منزله ، ثم
نادى للناس بذاك الزينة .

وقد أقامت الناس مزينة نحو عشرة أيام ،
وتكلف الناس بسبب ذلك كلفة عظيمة ، من وقيد
وقناديل ، ومشتري زيت ، وحصل في هذه الزينة
من التركمان غاية الفساد من خطف النساء
والصبيان المرد ، والتجاهر بالمعاصي ليلا ونهارا ،
حتى خرجوا في ذلك عن الحد ، ولا سيما ما كان
يفعل في خان الخليلى من الفسق .

وقد ابتهج الناس بهذه الزينة غاية البهجة ، وفي
هذه الواقعة يقول صاحبنا الناصرى محمد بن
قانسوه بن صادق يمدح السلطان سليمان بن
سليم شاء بن عثمان عز نصره وأجاد حيث قال :

الحمد لله أضحى الملك مبتسما
من بعد ما كان أبدي وجهه كظما
وكيف لا يك يبدى وجهه كظما
على سليم وقد أضحى يرى ربما
وصار بعد سليم لابنه ، وغدا
من السرور به بالبشر مبتسما
وافتر عن شنب الفتح المبين فم الـ
سنصر العزيز له بالسعد فيه لما
قد قطعت أرؤس الأعداء مخزية
وسيفه ملئت منه البطاح دما

وكيف لا وسليمان مديره
بخاتم الملك منه مذ به اختتما

وصار من كعبه فينا الغلاء رخا
والخوف أمنا بنا والنور زال عى
والنيل قد زاد فى هاتور من فرح
به وروى أراضى مصر بعد ظما

وكان أبطا لتوت بالوفا حزنا
على سليم وما روى البلاد بما
ومصر من فرح فى زينة رقصت
لما رأت لرخاها كعبه علما

وأصبحت جنة من سعد خير بك
بعد الجحيم ونادى العدل من ظلما
وكيف لا وهو خير قد أحل بها
لو لم يكن هو خير قط ما حكما

يا أيها الملك الممدوح دم فرحا
وانظر لقصد عييد يشتكى الما
فأنت بالطب أدري من سواك به
ومن سواك يرى فى حكمه حكما

لازلت من ابن قانصوه الوفى ترى
مشنفا بمديح مبدع حكما

والجود كالجود يهيم منك من خلع
نيابة عن سليمان له حكما

وموكب الملك يديه وأنت بها
كما رأينا بمصر والسرور سما

وأنت فى فرج تبدو وفى فرح
والملك مبتسم منه ترى نعمما

وكوكب السعد يسرى فى سما شرف
عليك فى سائر الأوقات محتكما

وقائلا حامدا مذ صار مبتسما
الحمد لله أضحي الملك مبتسما

وقد مضى هذا الشهر عن الناس على خير ، وكان
كثير الحوادث ، ووقع فيه أمور غريبة ، وأحوال
عجيبة ، ولا سيما ما وقع بالبلاد الشامية من الفتن
العظيمة ، من القتل والنهب وحرق الضياع ، وذهاب
الغلال ، وسبب ذلك عصيان نائب الشام جان بردى
الغزالى ، واطهاره للسلطنة . ووقع مثل ذلك بحماه
وحمص وغير ذلك من البلاد الشامية .

واستهل شهر ربيع الآخر يوم الأحد ، ففى ذلك
اليوم بلغ ملك الأمراء قدوم قاصد ، وهو الثانى
من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، قد وصل
وعلى يده خلعة ثانية لملك الأمراء ، وهذا القاصد
يقال له الأمير على ، فلما تحقق ملك الأمراء
وصوله ، نزل اليه من القلعة ولاقاه من عند تربة
العادلى ، ولبس الخلعة هناك ، ودخل من باب
النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ،
وصحبته الأمير على الذى حضر ، ولم يكن
صحبه من القضاة سوى قاضى القضاة المالكى
محى الدين يحيى بن الدميرى . وكان هذا الموكب
على حكم الموكب الذى تقدم ذكره .

ومن العجائب أن ملك الأمراء أوكب ثلاثة
مواكب حافلة ، وشق من القاهرة ثلاث مرات ، فى
مدة سبعة أيام ، فعذ ذلك من النوادر الغريبة .

وفى يوم الاثنين ثنى هذا الشهر ، خرج الأمير
قرا موسى العثمانى الذى قرر فى نيابة غزة ، فخرج
من بين الترب ، ولم يشق من القاهرة ، وخرج
صحبه الجهم الكثير من الاصباهيه ، ومن التجار
فان الدرب السلطانى كان له مدة طويلة وهو
منقطع من السالك ، من حين جرى من الغزالى
ما جرى ، الى أن أشيع قتله .

وفى يوم الاثنين تاسعه ، كانت وفاة صاحبنا
القاضى محب الدين بن آصيل ، وكان رئيسا حشما

من ذوى البيوت ، وكان قد كف بصره قبل وفاته بمدة طويلة ، وحصل له شذائد ومجن ، ومات وهو فى غاية القهر بسبب خروج مشيخة المدرسة الجمالية عنه الى الشيخ زكريا ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره ، توجه ملك الأمراء الى قبة الأمير يشبك الدواidar التى بالمطرية على سبيل التنزه ، فصنع له المقر الشهابى أحمد بن الجيعان هناك مدة حافلة ، وكذلك الخواجا هاشم ناظر المارستان ، وما أبقي فى ذلك ممكنا .

ومن الحوادث الشيعة أن ملك الأمراء فى يوم السبت رابع عشره ، رسم بقطع ثلاث رؤوس من أعيان المماليك الجراكسة ، فقطع رؤوسهم فى ذلك اليوم تحت شباك الدهيشة ، وأشهر تلك الرؤوس على الرماح ، ثم علقها على باب زويلة ، فمنهم شخص يسمى مامى الساقى ، وشخص يسمى قان بك الأشقر ، وهم من ممالك السلطان العورى .

وكان سبب ذلك أن هؤلاء المماليك كانوا بالقاهرة ، وكان ملك الأمراء يحسن اليهم غاية الاحسان ، فلما أشيع عن جان بردى الغزالى نائب الشام أنه تسلطن هناك ، وتلقب بالملك الأشرف ، تسحب هؤلاء المماليك من مصر ، وتوجهوا الى الشام ، ودخلوا تحت طاعة النزالى ، فلما انكسر الغزالى وقتل وجرى له ما جرى ، حصر هؤلاء المماليك واختفوا فى القاهرة ، فغمز عليهم .

فلما بلغ ملك الأمراء بذلك أرسل الوالى فقبض عليهم ، وأحضرهم بين يديه ، فلما مثلوا بين يديه ، وبخهم بالكلام ، فأغلظ عليه فى اقوال مامى الساقى ، فحنق منه فرسم بقطع رقابهم بين يديه ، ورسم للوالى بأن كل من كان عند الغزالى من المماليك وحضر الى مصر ، يوسطه من غير اذن ، ولم كان من الأمراء . واشتد غضب ملك الأمراء فى

ذلك اليوم بحيث انه حم جسده فى ذلك اليوم ولزم الفراش ، وانقطع عن المحاكمات ثلاثة أيام ، وأشيع أنه قد طلع له تساليك فى مشعره ، واشتد الألم عليه ، وانقطع عن الخروج ، وصار ينصدق على الزوايا والمزارات بسال له صورة ، وصار يذبح الذبائح من الأبقار على أبواب الجوامع الكبار ، ويتصدق بلحومها على المجاورين بالجوامع والزوايا .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره ، نهى بالقاهرة عن لسان ملك الأمراء : « معاشر كافة الناس ، ان كل من كان عنده مملوك من المماليك الجراكسة ، ممن كان عند الغزالى نائب الشام ، وأخفاه ولم يقر به ، يشنق على باب داره من غير معاودة » . وصارت هذه المناداة تتكرر فى كل يوم ثلاث مرات ، نحو ثلاثة أيام على لسان أربعة مشاعلية ، اثنان بالتركي واثنان بالعربى .

وقد اضطربت الأحوال فى هذه الأيام الى الغاية بسبب جان بردى الغزالى نائب الشام . فمن الناس من يقول انه باق فى قيد الحياة ، وأن الرأس التى قطعت غير رأسه ، ومن الناس من يقول انه قتل فى الواقعة التى كانت على القابون ، وحزت رأسه وأرسلت الى اسطنبول ، والأصح أنه قتل على القابون ، وهى ضيعة من الشام . وهذه الواقعة تقرب من واقعة قانصوه خمسمائة لما شك الناس فى قتله

وفى يوم الخميس تاسع عشر ربيع الآخر ، كانت وفاة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، ابن أمير المؤمنين عبد العزيز المتوكل على الله ، وكان مولده سنة احدى وخمسين وثمانمائة ، وأمه تسمى آمنة ، وهى ابنة أمير المؤمنين أبى الربيع سليمان بن محمد المتوكل على الله فهو هاشمى الأيوين . وكان رئيسا حشما دينيا خيرا صالحا لين الجانب متواضعا ، ولى الخلافة فى دولة الملك الناصر محمد بن قايىباى

الأشرف ، وأقام فيها إحدى عشرة سنة ونصفاً ،
وبابغ أربعة من السلاطين ثم صرف عن الخلافة في
دولة الأشرف الغوري ، وعهد إلى ولده محمد
المتوكل على الله ، وقاسى شدائد ومحن ، وقد تقدم
ذكر ذلك . وحصل له ضعف في بصره ، وكان لا
يقراً ولا يكتب ، وكان رجلاً مباركاً لم تعهد له
صوبة قط ، ومات وله من العمر نحو ثمانين سنة
أو دون ذلك ، وكان ولده غائباً باسطنبول من حين
نفاه السلطان سليم شاه ابن عثمان ، ولما مات رثاه
الأديب البارع ناصر الدين محمد بن قانصوه بن
صادق بهذه المرتبة فقال :

رشق الموت في مرامي القلوب
من قسي التجوى سهام الكروب
يا لها من سهام كرب عظيم
في مرامي الحشا برمي مصيب
صيرت دورنا خراباً وصرفنا
بعد عز أدلة للخطوب
يا لها من مدلة بعد عز
صيرتنا من عظمها في لغوب
أين خير الأنام والآل والصحة
ب وأين الملوك أهل الحروب
قد قضى الله بالممات عليهم
مثل ما قد قضى على يعقوب
الذي كف عن فسراق مناه
وتلقى البلاء عن أيوب
غاب عنه ابنه سمات بحزن
كمداً.. من يطيق فقد الحبيب ؟
ابن عبد العزيز أعنى أمير الـ
مؤمنين النجيب وابن النجيب
صاحب العهد والخلافة والعقـ
د مع العدل واللواء والقضيب

قلت صبرا على الذي حل لما
قد أشاد في ذا الزمان العجيب
هاشمي أيا وأما وهذا
غاية المعيد للحبيب النسيب
الذي كان للأراميل والأيد
تام كفواً وكان مأوى الغريب
يا يتامى ويا أرامل ضجوا
واهطلوا غيتكم بدمع سكوب
واسألوا الله أن يسكنه الفر
دوس فضلاً فالله خير مجيب
والى مصر أن يجيء قريباً
ابنه في هنا وعيش خصيب
صير الله روح والده في
خير روح بنشر بشر وطيب
وكذا روح من رثاه بهذا
ان يمت مثله بأوفى نصيب
وكذا قانصوه أبوه امتناناً
منه ما صاح ذو بكاء ونحيب
قائلاً والعيون تجري عيونا
رشق الموت في مرامي القلوب

ولما توفي الخليفة يعقوب لم يستطع ملك الأمراء
أن ينزل من القلعة ويصلى عليه ، فانه كان في غاية
الضرر من تلك التساليك التي طلعت له في مشعره ،
فحضر مشيّد الخليفة يعقوب قضاة القضاة ، وبعض
الأمراء فصلوا عليه ودفن عند أقاربه بالمشهد
النفيسى رحمة الله عليه ، ودفن يوم الجمعة عشريه .
وتوفي بزدداره الحاج على في ذلك اليوم ، ودفن
عقيب دفن أستاذه يعقوب .
وفي يوم السبت حادى عشريه خرج الأمير قاسم
العثماني كرك بك الذى حضر صحبة الاصباهيه ،

فرجع الى اسطنبول وصحبته جماعة من العساكر العثمانية الذين كانوا بصر ، فاختاروا عودهم الى بلادهم باسطنبول هم وهؤلاء الذين حضروا صحبة الخلعة التي جاءت الى ملك الأمراء من عند السلطان سليمان بن عثمان .

وفيه حضر الى الديار المصرية القاضى بدر الدين محمد المسعودى ابن الوقاد ، وكان بوجه الى اسطنبول مع جملة من توجه من الأسارى ، فأقام فى اسطنبول مدة طويلة الى أن مات السلطان سليم شاه وولى ابنه سليمان ، فاستأذن الوزراء فى الحضور الى مصر لتفقد أحواله ، ثم يعود الى اسطنبول ، فأذنوا له فى ذلك ، فحضر الى مصر وهو فى الترسيم بشاويش مرسوم عليه ، وحضر صحبته كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وكمال الدين العائق ، وكريم الدين المجولى ، ويوسف مناخير ، وبدر العادلى وهو معتوق الناصرى ، ومحمد بن فارس ، فلما حضروا الى مصر أقاموا بها مدة .

فلما انقضى الميعاد الذى قرره معهم الشاويش ، استحثهم على الخروج والسر الى اسطنبول . فلما كانت ليلة الرحيل ، اختفى القاضى بدر الدين بن الوقاد ولم يظهر ، فشق ذلك على الشاويش الذى كان مرسما عليهم .

وكان ابن الوقاد اختفى باذن ملك الأمراء ، حتى قيل ان ابن الوقاد قدم لملك الأمراء فى هذه الحركة ألف دينار فى الخفية ، وصار ملك الأمراء يظهر الغيظ على ابن الوقاد ويشدد فى طلبه ، ورسم على أصحابه وجيرانه ، وأظهر للشاويش الذى حضر صحبته أنه محث فى طلبه والأمر بخلاف ذلك ، ثم ان ذلك الشاويش قبض على كمال الدين بزددار طراباى ، وعلى كمال الدين العائق ، ويوسف مناخير ، وبدر العادلى ، ووضعهم فى الحديد

وأخرجهم من مصر على أقبح وجه ، وسافروا من البحر الى اسطنبول ، وقاسوا شدائد ومحن . وفيه توفى المعلم عبد الرحمن بن طيبله المعامل فى الدجاج والأوز ، وكان علامه عصره فى هذا الفن ، وكان فى سعة من المال لا بأس به ، وله بر ومعروف .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره ، كان عيد النصارى وهو أول يوم من الحماسين ، وكان ذلك اليوم رطباً وفى الساء عيم ، وهذا فال للنيل بأن يكون فى تلك السنة عالياً جداً فى الزيادة .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره ، حضر أولاًقى من عند السلطان سليمان بن عثمان ، وعلى يده مراسيم تتضمن أن كرك بك قاسم الذى حصر وعلى يده حلعه الاستمرار لملك الأمراء ، يستقر فى نيابة حلب ، عوضاً عن كان بها . وقيل ان كرك بك هذا رضع مع السلطان سيم شاه .

وقد صارت النيابات كلها بيد جماعة ابن عثمان ، فكرك هذا قرر فى نيابة حلب ، وشخص آخر يقال له اياس فى نيابة الشام عوضاً عن الغزالى ، وقرر فرحات بك فى نيابة طرابلس ، وفرقر موسى فى نيابة غزة . وقد افتسم العثمانية النيابات التى كانت بيد أعيان المماليك المصرية .

وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن فابنة الحنفى ، وكان لا بأس به . ولم يظهر القاضى بدر الدين بن الوقاد ، ولا كريم الدين المجولى ، فلما طال الأمر على الشاويش الذى كان توكل بهما ، تقلق وخرج وسافر من البحر وصحبته كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وكمال الدين العائق مباشر أمير اخور ، والحواجا عمر بن معزوز المعربى ، وزين العابدين حامل المزرة ، وبدر العادلى ، وحسين ويوسف مناخير ، فخرجوا من القاهرة

الذى كان قد اعتراه . فلما نزل من القلعة توجه الى بيت الأمير فرحات بك الذى قرر فى نياية طرابلس ، فنزل اليه وودعه ، وأقام عنده الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة وشق من الصليية وقدامه جماعة من الافكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، وقد هنأه بالشفاء الأديب البارع محمد بن قانصوه بقوله :

الحمد لله زال الهم والألم
عنا لبرئناك والأعداء لها سقم
وقلعة الملك أضحت وجهها طلقا
من بعد ما كان فيه قد بدا الكظم

وأصبحت مصر بعد الحزن فى فرح
بكم وأمسيت بشعر البشر تبتسم
وقد غدت بلسان الحال قائلة
الحمد لله زال الهم والألم

وفى يوم الجمعة حادى عشره ، قدم الأمير جاني بك وهو أخو الأمير قايتباى الدوادار ، وقد تقدم القول بأنه توجه الى كشف البلاد الشاميه ، وأرسل ملك الأمراء على يده تقديما حافلة الى الأمير اياس العثماني ، الذى استقر فى نياية الشام عوضا عن جان بردى الغزالي ، فلما قابل ملك الأمراء خلع عليه ، ونزل الى منزله ، وهو فى غاية التعظيم .

وفى يوم الجمعة المقدم ذكره ، خرج ملك الأمراء وصلى صلاة الجمعة ، وكان له مده وهو منقطع لم يسئل الجمعة فى جامع القلعة . فلما خرج من الصلاة خلع على المزيين والحكماء ، وقيل دخل على المزيين والحكماء ألف وخمسة دینار ، من نساء ملك الأمراء ، ومن سراريه ، ومن الأمير جاني الحماوى ، ومن الأمير برسباى الخازندار والمهندار ، والمباشرين وأرباب الدولة قاطبة ، ومن الأمراء العثمانية وغير ذلك من اعيان الناس .

على أقبح وجه من الشاويش الذى رسم عليهم فوضعهم فى الحديد ، وكنف بعضهم بالحبال ، وساقهم مشاة قدامه حتى وصلوا الى يولاقي فأنزلهم فى المراكب ، وسافروا نحو اسطنبول ، وحصل لهم الضرر الشامل من الشاويش . وقد خفق من ابن الوقاد والمجولى ، وحط غبنه فى هؤلاء ، ولم يتأخر بمصر ممن حضر صحبته سوى بدر الدين بن الوقاد والمجولى وزين الدين العجسى شفع فيه ملك الأمراء من التوجه الى اسطنبول

وفيه أرسل الأمير على بن عمر شيخ جهات الصعيد ، تقديما حافلة للسلطان سليمان بن عثمان قيل انها قومت بستين ألف دينار ، وكان السلطان سليمان بن عثمان أرسل الى الأمير على بن عمر خلعة الاستمرار على حاله بمشيخة الصعيد ، وقد رأى الأمير على بن عمر فى دولة ابن عثمان ما لم يره أحد من أجداده ولا من أقاربه ، من العز والعظمة والمال والجاه .

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الثلاثاء ، فطلع القضاة الأربعة وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم . ولما طلعا الى ملك الأمراء وجدوه بالأشرفية التى بجوار الدهيشة ، فقام اليهم وكان له مدة وهو متوعل فى جسده بسبب طلوع التسلالك التى فى مشعره ، وقد أشرف على الشفاء وبرىء من ذلك العارض ، وفى ذلك يقول ابن قانصوه :

الحمد لله تغور الهنا

سرورنا منها أرتنا شفاء

لما الى نائبنا شاهدت

فابتسمت من فرح عن شفاء

وفى يوم الثلاثاء ثامنه ، ركب ملك الأمراء ، ونزل من القلعة ، وقد شفى من ذلك العارض

وفي يوم السبت ثاني عشره ، خلق ملك الأمراء
على الأمير جانم الحمزاوي ، وخلق على الأمير
جانم القاضي ، وخلق على الأمير ناصر بن الأسدي قاضي
جهاز الصعيد ، وهرره على خاتمه في شريعته

وفيه هدمت الأعيان بأن الأمير جرحاه الذي
بين في نيابة طرابلس ، لما وصل إلى الصالحية ،
وجهه العريان هناك مفتحة ، فأرسل يطلبه من ملك
الأمراء فبدا ، فان العريان قد قاروا غايته في
الطريق ، وكادوا يسلبوه ، فأرسل إليه جرحاه
من الكسبية والاصباكية بمرقة على الدور ، حتى
أدركوه واستمروا معه إلى طرابلس ، وكانت
العريان في هذه الأيام في غاية الاساءة في السلوك
الشامية ، من عريان بن معالي رضى عطية .

وفي يوم الأحد عشريه توفي القاضي بدر الدين
محمد المعروف بابن العسبي فأنزل ديوان الأمير ،
وكان رئيسا حثسا حسن السيرة ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس رابع عشريه ، وقع أن ملك
الأمراء تفرغ خطاره على شخص من العظام فقال
له متعال ، فقطع أذنه وأذنيه ورسم بنفيه إلى
مكة ، فنزل من القاهرة والدم يضطر من أذنه وأذنيه ،
ولم يكن له ذنب كبير يوجب ذلك .

وفيه حضر جماعة كثيرة من اسطنبول من كان
السلطان سليم شاه أسرهم وأولادهم من مصر ،
فلما مات السلطان سليم شاه بن عثمان ، واستقر
سليمان ولده بعده ، رسم بعود الأسرى قاطبة إلى
بلادهم ، ورأف بهم ، وأظهر العدل فيهم . فحضر
منهم جماعة في هذا الشهر ، منهم شهاب الدين
أحمد بن قريبط ، ومحمي الدين وزين الدين بن
نساء الدين أحمد كتاب المسالك ، والخواجه أبو
الطيب بن الرئيس يحيى المزين ، وعبد الحفيظ

ابن النور تاجر بالهرامزة ، وأبو الفضل بن يركات
البحراني ، الطليحي ، وقاض الدين بن إبراهيم
ابن القاضي ، والي ، وبنو الدين محمد ماضي الأمين
أقرس ياني ماضي ، النجاشي ، وأنشروني لم تضرهم
اسماؤهم الآن .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره ، ظهر كريم الدين
المجولي ، وبنو الدين السجودي بن الرقاد ، وقه
تقدم القول في سبب اختفائهما من الشاويش الذي
كان مقرضا عليهما ، وبجنتهما على الخروج إلى
الاسطنبول .



وفي شهر جمادى الآخرة ، وكان مصنفه يوم
الأربعاء ، ملح القضاء الأربعة إلى القاهرة ، وبعثها
ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا إلى دورهم .

وفي يوم الخميس ثاني الشهر خرج الأمير جانم
الحمزاوي وقصد التوجه إلى اسطنبول ، وكان
ملك الأمراء عينه إلى السفر إلى السلطان سليمان
بالتقدمة ، كما كان يرسله إلى والده سليم شاه ،
وقيل أن هذه التقدمة التي أرسلت على يد الأمير
جانم الحمزاوي ، قومت بمائتي ألف دينار أو فوق
ذلك ، فخرج الأمير جانم الحمزاوي في موكب
حافل ، ولم يشق من القاهرة ، بل خرج من التراب .
وكان الأمير جانم الحمزاوي يومئذ من أرباب
العدل والعدل بالديار المصرية ، واجتمعت فيه
الكفاية ، ورأى من السز والفتنة في دولة ملك
الأمراء شارب يك ما لم يره غيره من الأمراء .

وأشيع أن ملك الأمراء رسم لكريم الدين
المجولي بأن يسافر إلى اسطنبول صحبة الأمير جانم
الحمزاوي ، وأما القاضي بدر الدين السجودي بن
الوقاد فأشيع أنه قدم ملك الأمراء ألف دينار حتى

أقام بيسر . و كاتب عنه ملك الأمراء بأنه لا يستطيع

سفر إلى اسطنبول

فيه قدم الشيخ شمس الدين محمد السمديسي الحمصي ، الذي كان ولي قضاء الحنفية في دولة العوري بحلب . وكان السلطان سليم شاه بن عثمان لما انكسر العوري ومات بحلب ، وملك سليم شاه حلب ، فبص على السمديسي وأرسله من هناك إلى اسطنبول ، فأقام بها حتى رسم السلطان سليمان بعود الأسرى إلى بلادهم ، فحضر السمديسي مع جملة من حضر إلى مصر ، وحضر صحبتته محب الدين الحنبلي الذي كان مقيما بالحانقاه الشيخوخية ، وحضر أبو الفوز بن الحصاني ، وأفضل الدين موفع السلطان طومان باي ، وحضر شمس الدين محمد المقسمي أحد نواب الشافعية ، فحضر هؤلاء كلهم من البحر المالح من دمياط .

وفيه دخل الأمير جانم الحزاي من الخانكاه وسافر .

وفيه حضر من اسطنبول المهتار محمد الخولي مهتار السلطان العوري ، وحضر من التجار ابن أبي عوانة البرلسي ، وآخرون

وفيه استقر في نيابة جدة شخص من تجار الأروام يقال له عيسى قرا قرر في نيابة جدة عوضا عن حسين الذي كان بها .

وفي هذا الشهر ظهر شمس الدين محمد بن ابراهيم الشرايشي الذي كان متحدثا في أوقاف الزمامية ، وكان له مدة من حين حضر من اسطنبول في الخفية ، فظهر لما أفرج السلطان سليمان بن عثمان عن الأسرى الذين كانوا باسطنبول .

وفي يوم الأربعاء خامس عشره ، توفي القاضي محيي الدين النبراوي أحد نواب الحنابلة ، وكان

عالما فاضلا ، علامة في مذهبه ، مات وله من العمر مائة سنة وستين بعدها ، وهو آخر نواب الحنابلة من ولي عن قاضي القضاة عز الدين العسقلاني ، وكان لا بأس به .

وفيه توفي الشيخ بدر الدين محمد المنوفي ، صاحب ملك الأمراء ، وكان لا بأس به ، وكان له فيه اعتقاد عظيم بالنصاح .

وفي توفى الشيخ عبد الصمد حطيب المدرسة الجعانية وكان لا بأس به

ومن الحوادث أنه في يوم الجمعة سابع عشره تازت فتنة عظيمة بين الاصباهية والانكشارية ، وغلقوا باب القلعة ، ومسحوا القاضي الشافعي أن تطلع القلعة ويصلي بملك الأمراء صلاة الجمعة

واستمرت هذه الفتنة عمالة بين الفريقين يومين ، وصارت الانكشارية ينزلون من القلعة مشاة ويقتتلون مع الاصباهية في الرملة ، ويتردونهم إلى الصليبة ، فقتل من الاصباهية شخص من أعيانهم ، فلما تزايد الأمر دخل بينهم أغواتهم والكيخة الكبير ، فأصلحوا بينهما ، فاصطلحا على فساد ، وخمدت هذه الفتنة والله الحمد .

وفيه قدمت الأخبار بأن عربان الشرقية قد خرجوا عن الطاعة ، وأظهروا العصيان ، ونهبوا الضياع ، فعند ذلك عين ملك الأمراء قايتباي الدوادار وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة ، بأن يخرجوا إلى العربان ويحاربوهم ، فخرج الأمير قايتباي من بومه على جرائد الخيل ، وتوجه إلى بليس ، وأقام بها .

ثم أشيع أن الأمير قايتباي قد وقع بينه وبين شيخ العرب بيسر بن بقر واقعة ، وكبس عليه نحت الليل ، فهرب منه وأظهر العصيان ، فتوجه إلى

نحو الطور وأقام به ، فلما أظهر العصيان ببيرس ابن بمر اضطربت أحوال الشرقية الى الغاية ، حتى أشيع أن ملك الأمراء قصد أن يخرج الى العربان بنفسه ، فان سبع طوائف من العربان كلهم تحالفوا على العصيان ، والخروج عن الطاعة ، منهم بنو عطية ، وبنو عطاء ، وبنو حرام ، وغير ذلك من طوائف العربان المفسدين .

ثم ان ملك الأمراء خلع على الأمير أحمد بن بقر واستقر به في مشيخة الشرقية عوضا عن أبيه ببيرس .

وفي شهر رجب — وكان مستهله يوم الخميس — اتفق أن ذلك اليوم كان عيد ميكائيل ، ونزلت النقطة بالليل مستهل الشهر ، فتفاعل الناس بأن النيل سيكون في تلك السنة عاليا مباركا ، ففي أوله طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم ، وفي يوم الأحد رابعة قبض ملك الأمراء على شخص من الاصباهية قتل شخصا من المماليك السلطانية في محل سكر ، فغضب على قتله خير الدين بك نائب القلعة ، فربطوه في ذنب اكديش وهو على ظهره ، ثم سحبوه وطلعوا به الى القلعة ، وشنقوه ومضى أمره .

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى قصر ابن العيني الذي بالمنشية ، وأقام هناك الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة ، وكان له مدة لم يتنزه في الروضة ، ولا غيرها من المتنزهات ، وسبب ذلك العارض الذي طلع له ولم يختم الى الآن .

وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كانوا هناك من أهل مصر ، وأشيع أن السلطان سليمان نادى

في اسطنبول بأن الجماعة الأسرى الذين من أهل مصر يرجعون الى بلادهم ولا يتأخر منهم أحد ، وكل من تأخر منهم شق ، فلم يتأخر باسطنبول سوى سيدي على بن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، وابن السلطان الغوري ، والناصري محمد بن خاص بك ، ومن المباشرين محمد بن صلاح الدين بن الجيعان ، وعبد القادر بن الملكي ، وعبد الكريم أخى الشهابي أحمد بن الجيعان ، وآخرين من أعيان الديار المصرية .

فحضر من جملة من حضر من اسطنبول ، القاضي شمس الدين محمد الجلبى أحد نواب الشافعية ، وحضر القاضي شمس الدين محمد الدمياطى أحد نواب الشافعية بالديار المصرية ، وولى أمانة الحكم أيضا .

ومن العجائب أنه لما حضر الى القاهرة ، حصل له توعك في جسده في مدة اقامته في البحر المالح ، فلما وصل الى منزله أقام به ليلة واحدة ومات رحمة الله عليه ، فكان ترابه بمصر . وحضر زين الدين المتوفى الموقع ، وابن عمه أفضل الدين . وحضر نور الدين على بن عبد الغنى مباشر الدشيشة . وحضر عبد العزيز السمسار في البهارة . وحضر عبد العظيم بن أبى غالب المباشر . وحضر القاضي شهاب الدين أحمد بن الهيثمى أحد نواب الحنابلة . وحضر شمس الدين محمد بن عبد العظيم أحد كتاب المماليك . وحضر يحيى بن يحيى مقدم الخاص . وحضر الخواجا أبو بكر الهاشمى . وحضر عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخانا . وولده زين الدين . وحضر ابن الطنساوى يحيى مباشر الديوان المفرد . وحضر ابن السيرجى وغير ذلك .

حافلة ، وأقام عنده الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة

وفيه قدم الأخبار من دمشق بأن جماعه من عربان دمشق ثاروا على نائب الشام الأمير اياس بك ، فلما خرج اليهم ووقع معهم ، انكسر وجرح ورد الى الشام وهو مكسور من العرب ، وقتل من عساكر الشام ما لا يحصى ، ومن عربان جبل نابلس أيضا ، وكانت فتنة مهولة بدمشق .

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلي ، ثم دخل من باب النصر وشق من القاهرة في موكب حافل ، والأمير يصوح صخته ، فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء



وفي شهر شعبان — وكان مستهله يوم الجمعة — طلع القصاة الأربعة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى منازلهم . وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول ، بأن طائفة من طوائف الفرنج يغال لها انكسر ، قد تحالفوا على قتال السلطان سليمان بن عثمان ، فلما تحقق ذلك جمع العساكر من كبير وصغير ، وخرج من اسطنبول وتوجه الى قتالهم في الجبل الكثير من العساكر والفرسان .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على شخص من الأتراك يقال له جان قليج ، فسجنه بالعقانة وأوعده بالتوسيط ، وكان سبب ذلك أنه كان ساكنا في بيت شخص من أبناء الناس — وهو ابن الأمير شاهين الجمالي الذي كان ناظر الحرم النبوي — فانكسرت عليه أجرة المكان ، فطالبه ابن شاهين ، فلم يعطه شيئا وسبه سبا فاحشا ، فطلع ابن شاهين وشكاه الى ملك الأمراء ، فأرسل خلفه

رفعه قدم شخص من الأمراء العثمانية يقال له بيسر باب . فلما بلغ ملك الأمراء قدومه نزل اليه ولأفاد من عند تربة العادلي ، ودخل صحبته وشق من اسماهرة وهو راكب عن يمينه ، فأنزاه في بيت الأمير أزدمر الدوادار ، ورب له في كل يوم ما يكفيه من دجاج وغنم وأوز وسكر ودقيق وغير ذلك ، وأشيع أنه يقسم بمصر عوضا عن مهاب الذي قرر في بيابة حماه .

وفي يوم الثلاثاء نالت عنده نزل اليه ملك الأمراء وأنعم عليه بحمسة آلاف دينار برسم النفقة على جماعته

وفي يوم الخميس حامس عشره ، طلع ابن أبي الرداد ببشارة السيل المبارك ، فجاءت القاعدة ستة أدرع وثمانية أصابع

وفي يوم الجمعة سادس عشره حضر الأمير قايناي الدوادار من الشرقية ، وقد تقدم القول على أنه توجه الى الشرقية بسبب العربان وفسادهم وعصيان بيبرس بن بقر ، فلما رحلوا الى الطور رجع الأمير قايناي الدوادار الى القاهرة ، وحضر القاضي بركات بن موسى المحتسب صحبته ، فإنه كان توجه الى الشقة أيضا .

وفيه توجه ملك الأمراء الى الجزيرة الوسطى ، وسبب ذلك أن الأمير تتم الناظر على وقف الدشيشة كان قد صنع هناك مركبا عظيمة بسبب حمل مغل الدشيشة ، وكان طولها مائة وعشرين ذراعا ، وبها فرن وطاحون وصهريج للماء الحلو ، ومقعد ومبيت واسطبل للحيل ، فعرضها على ملك الأمراء ، ثم فك أخشابها وأرسلها على ظهور الجمال الى الطور ، ومن هناك يرسلها الى البحر المالح . فلما نزل اليه ملك الأمراء مد له مدة

وفي هذا الشهر كانت وفاة الشيخ زين الدين المغربي ، وكان صالحا معفدا دينا حكيما ، وله اشتغال بالعلم ، وكان دمسرا سديا الإمام الشافعي رضى الله عنه ، وكان لا يس به .

وفي يوم الخميس ثامن عشرى هذا الشهر ، قدم شخص من عند السلطان سليمان بن عثمان بنال له محمد بن ادريس ، ويعرف بـ « بنظر الدفتردار » ، وصحبته شخص يقال له الأمير كمال ، فلما وصل الى بركة العادلى نزل اليه ملات الأمراء والأتام من هناك ، ثم دخل شو واباء من باب النعش . ومن من القاهرة في موكب عافل ، « فقامه الانكشارية والكلية مشاة يرمون بالدهوط » ، فاستمر في ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة ، وأنزل الدفتردار في بيت الأمير يسبك الدوادار الذى في حديقة البئر ، ومد له هناك مادة خافلة ، وأنزل الأمير كمال في مكان آخر ، وأتبع أن الأمير كمال حضر يروم الحج الى بيت الله الحرام ، والدفتردار حضر بسبب ضبط مال الثغور من الجهات المصرية .

وفي شهر رمضان ، وكان مستهله يوم السبت ، وكان الهلال عسر الرؤية على خمس درج ، وقيل على أربع درج ، فرآه بعض الناس وثبت عند القاضى زكرياء أحد نواب الشافعية ، وركب القاضى بركات بن موسى من المدرسة المنصورية بعد المغرب ، وقدامه المشاعل والقوانين وشق من القاهرة في موكب حافل على العادة .

وفي يوم السبت مستهل الشهر كان وفاء النيل المبارك ، أوفى الله تعالى الستة عشر ذراعا وست أصابع من الذراع السابع عشر ، ثم فتح السد يوم الأحد ثانى شهر رمضان — الموافق الحادى عشر مسرى — ووقع في دولة الأشرف قايتباى أن السد

جان قلع فلم يطلع في ذلك اليوم ، وأساء على قاصد ملك الأمراء ، فبلغ ملات الأمراء ذلك . ثم ان جان قلع طلع بعد ذلك الى ملك الأمراء وفابله ، فقبض عليه وسجنه بالعرقانة ، وكان تقدم له مع ملك الأمراء واقعه مهولة ، فاستمر في نفس ملك الأمراء منه أشياء كمينية ، وكان جان قلع عنده بادرة وكلامه يابس ، كثير الفجور

ومن الحوادث المهولة أيضا واقعه سيدى عمر بن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق ، وذلك أن سيدى عمر كان مزوجا بابنة الأمير جانم الأشرى الذى كان نائب الشام — وكانت زوجة تمتاز التمشى — فكان له رزقة وقفها عليها وبها فلاحون ، فلما تزوج بها سيدى عمر تكلم على جهاتها ، فقيل انه جار على فلاحى تلك الرزقة ولم يش له أمر الشراقى في الحصنة ، فتضرر الفلاحون لذلك ، فوقفوا الى ملك الأمراء وشكوا له من سيدى عمر بأنه قد جار عليهم ، وأخذ منهم أزيد من الخراج عن المقطعين بالناحية . فأرسل اليه ملك الأمراء يقول له انظر في حالهم ولا تجر عليهم ، فقال سيدى عمر : « وايش كان ملك الأمراء حتى يدخل بينى وبين فلاحينى في شىء ليس له فيه شغل ؟ » فبلغ ملك الأمراء ذلك فتغير خاطره على سيدى عمر ، فأرسل اليه قاصدا فأغلظ عليه في القول ولم يطلع ، فحنق منه ملك الأمراء وأرسل اليه جماعة من الانكشارية فقبضوا عليه غصبا وبهدلوه ، وطلعوا به الى القلعة ، فلما دخلوا الى الحوش قبضوا عليه وأدخلوه العرقانة ، فسجن بها وبات تلك الليلة وأقام بها الى ظهر اليوم الثانى حتى شفع فيه بعض الأمراء ، فمضى الى داره بعد أن قاسى غاية البهدة من الانكشارية ، فما شكر أحد من الناس ملك الأمراء على هذه الفعلة الفاحشة لأنه لا يستحق ذلك كله .

فتح في أول يوم من رمضان ، فلما أوفى النيل نزل ملك الأمراء الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل في الحراقة ، وتوجه الى السد ففتحه على جارى العادة ، وكان ذلك اليوم مشهودا في الفرجة والقصف ، كما يقال في المعنى :

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا
كالروض تطفو على نهر أزاره
وللوفاء عمود من أصابعهم
مخلق تملأ الدنيا بشائره

وفي يوم الثلاثاء رابع شهر رمضان ، صعد الدفتردار محمد بن ادريس الى القلعة ، واجتمع الأمراء العثمانية بالقلعة ، وقرئ عليهم مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان ، فكان من مضمونه التوصية بالرعية غاية الوصية ، وان ملك الأمراء ينظر في اصلاح المعاملة من الذهب والفضة . فوقع في المجلس بعض تشاجر بين الدفتردار وبين ملك الأمراء بسبب ذلك ، فقال ملك الأمراء : « أنا ما أغير معاملة السلطان سليم شاه ، ولا أخرج عما وقع في أيامه من أن الأشرفي الذهب يصرف في المعاملة بخمسين نصفا على العادة » .

ثم ان ملك الأمراء رسم باحضار التجار ، فلما طلوعوا الى القلعة تكلموا معهم في أمر صرف الأشرفي الذهب الواسع بخمسين نصف فضة ، فتضرروا من ذلك ، وقالوا ما يوافقنا أحد من الناس على ذلك ، وانقض المجلس مانعا من ذلك .

ثم ان القاضي بركات بن موسى المحتسب ، تكلم مع ملك الأمراء بأن يصرف الأشرفي الذهب بخمسة وأربعين نصفا ، وقيل بخمسة وأربعين عثمانيا ، وفي البيع والشراء بخمسة وأربعين نصفا ، فوقع الاتفاق على ذلك ، ونودى في القاهرة بذلك ، فسكن الاضطراب قليلا . ثم ان القاضي بركات جعل

القاضي حمزه العثماني متكلماً على دار الضرب . ثم بعد ذلك لم يتم أمر صرف الأشرفي الذهب الواسع بخمسة وأربعين نصفا ، وصار يصرف بأربعين نصفا ، وعز وجود الفضة جدا ، وصار الأشرفي الذهب يصرف بمشقة زائدة من السوق ، ويعطون فيه النصف فضة والنصف فلوسا جددا ، وحصل للناس الضرر الشامل .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأنه وقع بها طاعون عظيم ، وصار يموت بها كل يوم ما لا يحصى .

وفيه توجه الدفتردار الذي حضر الى ثغر دمياط والبرلس وثر الاسكندرية أيضا بسبب جبي الأموال التي أضيفت الى خزائن الخنكار بالروم ، فخرج الدفتردار وصحبته القاضي حمزة .

وفي أثناء هذا الشهر ، حضر جماعة من اسطنبول مع جملة من حضر منها ، فحضر القاضي علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص وأخوه . وحضر القاضي أبو البقاء ناظر الاسطبل وأخوه يحيى . وحضر من نواب القضاة القاضي شمس الدين محمد العبادي أحد نواب الشافعية . وحضر القاضي شمس الدين بن وحيش أحد نواب الشافعية . وحضر القاضي شمس الدين محمد الابشادي أحد نواب المالكية . وحضر بدر الدين بن الرومي . وحضر القاضي ابن عرفات أحد نواب الشافعية . وحضر تقى الدين العزیزی الشافعي . وحضر بدر الدين محمد بن حازوقة مباشر الأمير علان الدوادار . وحضر أحمد السكندري الشطرنجي رفيق ابن الورد . وحضر أبو البقاء بن السيرجي . وحضر بدر الدين بن الهيصم وآخرون من المباشرين والقضاة والأعيان لم تحضرني أسماؤهم الآن .

وأشيع أن السلطان سليمان — نصره الله تعالى — أعتق جميع الأسرى الذين كانوا باسطنبول من أهل مصر ، ولم يبق فيها سوى أولاد السلاطين وجماعة من المباشرين ، ومن أولاد الجيغان ممن تقدم ذكرهم ، وجماعة من أعيان الديار المصرية ، وأما الأمراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين كان السلطان سليم شاه نفاهم إلى اسطنبول ، فلما ولي ابنه سليمان لم يأمر لهم بالعود إلى مصر ، ولم يقبل فيهم شفاعاً ، واستمروا في بلاد الروم إلى الآن .

وأشيع أن السلطان سليم شاه بن عثمان كان أرسلهم إلى مكان يحاصرون فيه الفرنج ، وقد خمدت أخبارهم ، فلما حضر هؤلاء الجماعة من اسطنبول ، أشاعوا أن السلطان سليمان شاه بن عثمان قد خرج إلى القتال بسبب الفرنج ، ولم يرد من عنده خبر من حين توجه إليهم وأخبر الجماعة الذين قدموا من اسطنبول أن القاضي شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص يوسف ، حصل له في عقله ذهول ، وحصل له ضيق معيشة ، وصار يشتري عشاءه وغدائه من الطباخ في زبدية ، ويحملها بنفسه على يده ، وهو لا بس كنبك لباد أبيض ، وقاسى شدائد ومحن . وأخبروا عن زين العابدين ابن هاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل أنه تسحب من اسطنبول ولم يعلم له خبر من حين خرج ، وكانت جماعة من الشاويشبة ينصبون على من هناك من الأسرى من أهل مصر ، ويقولون نحن نساfer بكم من اسطنبول في الخفيه وتتوجه بكم إلى مصر ، فيخرجون بهم من اسطنبول وفتلونهم في الطريق ، ويأخذون ما معهم من مال وفماش ، وقد فعلوا مثل ذلك بكثير من أهل مصر ممن كان باسطنبول ، ولم يعلم لهم خبر إلى الآن .

وفي يوم الخميس سابع عشرى شهر رمضان ، كان يوم النوروز ، وهو أول يوم من السنة

النبطية ، وهى سنة سبع وثمانين وتسعمائة قبلية
خارجية ، قنى ذات اليرم بانغ النيل الى الزيادة
سبع عشرة أصبعا من تسعة عشر ذواعا واستمر
عدالا فى الزيادة .

وفى يوم السبت تاسع شبرى شهر رمضان ،
وقع فيه من الدوايد كائنة سيدي عمر بن
الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر حقيق —
وذلك أن القول تقدم بإا وقع لسيدي عمر مع ملك
الأمرأ بسبب أمر الفلاحين ، فاستمر سيدي عمر
يتابع عائلته مع الفلاحين كما تقدم ، فوقعوا وشكوه
الى ملك الأمرأ ثانيا ، فتغير خاطره على سيدي عمر
واحتد منه ، فأرسل اليه فقيبه الجيش ، فقال له
رسم ملك الأمرأ بأن تترجم فى هذه الساعة وتتوجه
الى دمياط ، فاستمر عنده حتى كتب وصيته ، وقام
وركب من وقته وتوجه الى بولاق ، ونزل فى مركب
وسارت به الى نتمو دمياط ، فهذا كله بسبب
الفلاحين من صلابة سيدي عمر وقوة رأسه ، وفلة
درايته ، حتى اتسعت هذه الحادثة بينه وبين ملك
الأمرأ على هذا الأمر الفشوى الذى لم يستحق
هذا كله ، ووقعت له هاتان الكائتان فى شهر واحد ،
فشق ذلك على ملك الأمرأ وعلى الناس قاطبة
فوقع له البهدة من ملك الأمرأ مرتين ، الأولى
بسجنه فى العرقانة ، والثانية بنفيه الى دمياط ،
وركوبه على بغلة وهو متوجه الى بولاق ، فلما
جرى ذلك توجه عيال سيدي عمر الى بيت الملكة
خاتون عمة السلطان سليمان بن عثمان ، وتراموا
عليها فى أن تشفع عند ملك الأمرأ فى عود سيدي
عمر من النفى ، فأرسلت الى ملك الأمرأ ولدها
مصطفى بك ، فشفع عنده فى سيدي عمر بأن يعود
الى داره ، فقبل شفاعة الملكة خاتون ، ورسم
بعود سيدي عمر الى منزله ، فعاد بعد ما سار فى
البحر يوما وليلة ، فلما عاد تخلقت عياله بالزعفران

ودقت له على بابه الدليلحانات والزمور ، وهنوه
بالسلامة

وفى سلخ شهر رمضان حضر الدفتردار محمد
ابن ادريس الذى كان توجه الى دمياط والبرلس
وبقية الثغور ، بسبب حبس الأموال التى أضيفت
الى خزائن مولانا السلطان سليمان ، فلما وصل
الى بولاق نزل اليه ملك الأمرأ ولاقاه من هناك ،
واستمر معه حتى أرسله الى منزله .



وفى شهر شوال كان عيد النضر يوم الاثنين ،
وقد ثبتت رؤية الهلال بعمر ، فان هلال رمضان
ثبت على يد القاضى زكريا أحمد نواب الشافعية ،
وشك الناس فى ذلك ، وقالوا ان ذلك اليوم الذى
صاموه كان آخر يوم من شعبان ، فوقع الشك
بسبب ذلك ، ومالاقى القاضى زكريا خيرا من
الناس بسبب ان هلال رمضان ثبت عنده وكانت
الميقاتية حكموا بأنه لا يرى فى تلك الليلة أبدا .

فلما كان هلال شوال أرسل ملك الأمرأ يقول
للقاضى الشافعى ، أتمم أنتم هلال رمضان على
أربع درج وقد شك الناس فى ذلك ، فما تفعلون
فى هلال شوال ؟ فأرسل يقول له قاضى القضاة
الشافعى ، هلال رمضان قد ثبت حقا ، وقامت به
البينة وزكيت ، وغدا من شوال محقق .

ثم ان قاضى القضاة الشافعى نادى فى القاهرة
أن غدا من شوال ، وهذا ما اتفق قط ان ينادى قبل
رؤية الهلال أن غدا من شوال ، فعاد ذلك من
النوادير ، وكان موكب العيد حافلا بالقلعة .

وفيه كان دخول المقر الشهابى أحمد بن الجيعان
على ابنة الأمير خاير بك كاشف الغريبة ، أحد
الأمرأ المقدمى الألو ف ، وهى التى كانت زوجة

الأمير تانى بك الخازندار أحد الأمراء المتقدمين ،
وكانت غير محمودة السيرة فى أفعالها

وفبل ذلك بمدة يسيرة تزوج القاضى أبو بكر
ابن الملكى بابنة الأمير قانصوه المعروف بأبى سنة
أحد الأمراء المتقدمين ، ولا ينكر ذلك عليهم فى
هذا الزمان .

وفيه قدمت الأخبار بأن السلطان سليمان
ابن عثمان لما توجه الى قتال الفرنج أوقع محهم ،
وكان بينهم واقعة مهولة ، وقتل من عسكره
ما لا يحصى عدده ، وقتل فى معركته الأمير قانصوه
العادلى ، الذى كان توجه الى اسطنبول ، وقد
انتصر السلطان سليمان على الفرنج نصره
عظيمة ، ثم خمدت هذه الاشاعة من بعد ذلك ،
وكثر القال والقال بين الناس بسبب ذلك .

وفى يوم الخميس ثامن عشره ، خرج المحمل
من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل
الأمير جانم كاشف القيوم على العادة ، وخرجت
صحبتة الملكة خاتون عمه السلطان سليمان وولدها
مصطفى بك ، فطلب الأمير جانم طلبا حافلا ، وكان
به ست عجالات تسحبها الأكاديش ، وعليها عدة
مكاحل نحاس ومدافع حجر ، بسبب قتال العربان
الذين فى طريق الحجاز ، فانه كان فى السنة الماضية
فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان .

وفى يوم الأربعاء رابع عشره ، نودى فى القاهرة
عن لسان ملك الأمراء ، بأنه لا مملوك ولا عثمانى
لبس زنطا أحمر . ولا أولاد الناس أيضا ، ومن
ليس زنطا بعد المنادة شنع من غير معاودة فى ذلك .
ثم أشيع أن ملك الأمراء رأى عبيدا وغلما

بجقدارية ، وهم بزئود حمر ، فقتل امضوا بهم
الى بيت الوالى يستنهم ، فشنع فيهم بعض
الأمراء .

ثم أشيع أن ملك الأمراء رسم لأمراء الجراكسة
بأنهم لا يلبسون سرموجة تركية ، ولا يلبسون بها
الى القاعة ، وهذا كله عين المثلث للجراكسة وبغضا
فهم قاطبة .

وفى يوم السبت سابع عشره ، الموافق لأول يوم
من بابه من الشهور التبعية ، ثبت النبيل المبارك
على ثلاث وعشرين أصبعا من عشرين ذراعا ، فكان
منتهى الزيادة عشرين ذراعا الا أصبعا واحدة ،
وكان نيلا عظيما الى الغاية ، والمناس مدة طويلة
ما رأوا نيلا مثل هذا ، ففتكت الناس فى الفرجة
والقصف ، وسكن غالب بيوت الجسر ، بعد ما كان
آل الى الخراب وتهدمت بيوته ، وكاد أن يبنى
مثل الجزيرة الوسطى فى خرابها .



وفى شهر ذى القعدة ، وكان مستهله يوم
الأربعاء ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنوا
ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الجمعة ثالثه ، نودى فى القاهرة عن
لسان ملك الأمراء بأن لا أمير من الجراكسة ، ولا
خاصكيا ، يركب وخلفه بغل وعليه غلام راكب ،
بل يمشى على طريقة العثمانية فى أفعالهم ، يأخذ
الغلام العاشية على كتفه ويمشى قدما .

وفى يوم الأربعاء ثامن الشهر ، أنفق ملك الأمراء
الجامكية على الممالك الجراكسة بعد ما عوق
جوامكهم وعليتهم ستة أشهر حتى عاينوا الموت
من ضيق الحال ، فصرف لهم ثلاثة أشهر ، وآخر

لم يزل ثلاثة أشهر ، ولم يصرف لهم العليق . فقبض
ذلك اليوم كل مملوك من الجراكسة أحد عشر
أشهر ، ذهباً وثمانية أنصاف من الذهب العثماني ،
فأدبروا عليهم كل أشرفي ذهب بأشرفيين فضة ،
فحسروا في صرف كل أشرفي عشرة أنصاف فضة ،
فكانت خسارهم في العشرين أشرفياً خمسة أشرفيات
وتمسكت فضة ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب
ذلك بعد صبرهم ستة أشهر ، وآخر العليق عنهم .
وأنصح أن الديوان مشحوت غاية الانشحات ،
وأن ملك الأمراء عليه ستون ألف دينار ، والمباشرون
استخرجوا من البلاد القسط الأول ، أربعة أشهر
معجزة من مغل سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبطية
خراجية قبل أن يفي النيل ويزرع الفلاحون وتروى
الأراضي ، فحصل للفلاحين عابة الضرر من ذلك ،
ورحل بعض فلاحين بسبب ذلك الظلم والجور
وقد انحط سعر الغلال عما كان أولاً من الارتفاع .
وكان سبب انشحات الديوان أن المال الذي
يجيء صار ينقسم على سبع طوائف من العسكر ،
وهم المماليك الجراكسة وأمراؤهم الذين تأخروا
بمصر ، ثم الإصباكية وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ،
ثم الصوباشية ، والانكشارية ، والكملية ، ثم
مماليك ملك الأمراء ، وذلك خارج عن كلفة من يرد
من المملكة الرومية من القصاد والمترددين من
اسطنبول وغيرها ، فكان ملك الأمراء ينعم عليهم
بالعطايا الجزيلة .

وقد بلغني ممن أثق به أنه كان متحصل خراج
مصر في دولة ابن عثمان لما ملكوها ألف ألف دينار
وثلاثمائة ألف دينار ، ومن المغل ستمائة ألف أردب
منها ثلاثمائة ألف أردب قمح وثلاثمائة ألف أردب
شعير وفول وغير ذلك ، وأين هذا القدر مما كان
عليه خراج مصر في الزمن القديم .
قل الشيخ تقي الدين المقرئ في الخطط : قد

بلغ خراج مصر في زمن القبط عند تلاشي أحوال
مصر مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار
وكان جملة خراجها في زمن الفراعنة ، ألف ألف
دينار بالدينار الفرعوني ، وهو ثلاثة مثاقيل من
مثاقيلنا الآن ، وكان مساحة أراضي مصر في زمن
الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمانين ألف ألف
فدان تزرع غير البور

وجبى خراج مصر في زمن عمرو بن العاص ،
على عبد الله بن أبي سرح ، في صدر الاسلام ،
اثنى عشر ألف ألف دينار ، غير الدنانير المتعامل بها
الآن .

وجبى خراج مصر في أيام الأمير أحمد بن
طولون . مع وجود الرخاء ، أربعة آلاف ألف
دينار وثلاثمائة ألف دينار ، غير ما يتحصل من
المكوس والغلال .

وجبى خراج مصر في أيام الأخشيدية ، فكان
ألفي ألف ألف دينار غير دنانير الآن

وجبى خراج مصر في أيام الملك الظاهر بيبرس
البندقداري ، فكان اثنى عشر ألف ألف دينار ،
مع تلاشي أحوال مصر وانحطاط خراجها الى ذلك .
وكان موجب انشحات الديوان في أيام ملك
الأمراء خاير بك أن الإصباكية والانكشارية
والكملية لما استقروا بمصر ، رتب ملك الأمراء
جوامك في كل شهر ، فكان يعطى جماعة من
الإصباكية في كل شهر ستين ديناراً ، وجماعة منهم
خمس ديناراً . وجماعة منهم أربعين ديناراً ،
وجماعة منهم ثلاثين ديناراً ، وباقيهم عشرين . وأما
الانكشارية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيتته
كل شهر خمسة عشر ديناراً ، وباقيهم اثنى عشر
ديناراً ، وأما الصوباشية فلهم في كل شهر ثلاثون
ديناراً لكل واحد . وأما الكملية فكان الغالب فيهم
من كانت جامكيتته في كل شهر اثنى عشر ديناراً ،

وجماعة عشرة دنانير ، وجماعة منهم ثمانية دنانير ، وهذا كله خارج عن جوامك ممالك ملك الأمراء .
وأما الممالك الجراكسة فان ملك الأمراء رتب لكل واحد منهم في كل شهر سبعة دنانير في نظير الجامكية واللحم ، وذلك خارج عما رتب للأمراء الجراكسة القاطنين بمصر . وذلك خارج عن انعام ملك الأمراء للمتدربين من المملكة الرومية وغيرها ، حتى قيل : كان يصرف ملك الأمراء على ماذكرناه في كل سنة نحو ألف ألف دينار وستمئة ألف دينار . فبواسطة ذلك كله ضاق الحال عن صرف الجوامك في كل شهر .

وأما المال الذي كان يرد من ثغر الاسكندرية ودمياط والبرلس وجدة وغير ذلك من الثغور ، فانه كان يحمل الى خزائن السلطان سليم شاه وولده السلطان سليمان نصره الله ، فلا يتعرض ملك الأمراء لشيء من ذلك . وما كان يستخرج غير خراج الشرقية والغربية والبحيرة وجهات الصعيد فقط لا غير .

فان قال قائل ان السلطان الغوري كان يسد أمر الجوامك في كل شهر ، وكان العسكر أكثر من ذلك ، والأمراء أربعة وعشرون مقدم ألف ، غير الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية فوق الألف خاصكى ، أقول ان السلطان الغوري ، كان يستعين على ذلك بكثرة المصادرات للمباشرين وأعيان التجار . وغير ذلك من مساير الناس ، وكان يرد عليه أموال الثغور ، وأموال البلاد الشامية والحلبية والطرابلسية وغير ذلك من الجهات ، والآل البلاد الشامية والحلبية في غاية الاضطراب ، ولم يرد منها شيء من الأموال ، فموجب ذلك ضاق الأمر من المال على ملك الأمراء ، ونرجو من الله اصلاح الحال وفي يوم الاثنين ثالث عشره ، خرج الدفتردار

محمد بن ادريس ، وتوجه صحبته ملك الأمراء الى قرية العادلى ، وكذلك الأمراء قاطبة ، وخرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباهية والانكشارية ، فتوجه طائفة منهم في البحر ، وأسميع أنهم توجهوا الى اسطنبول بطلب من السلطان سليمان نصره الله ، وقد بلغه أنهم يشوشون على أهل مصر غاية التشويش ، فأرسل أخذ منهم خمسمائة انسان من الاصباهية والانكشارية ، وأراح الله المسلمين منهم ، فانهم كانوا من كبار المفسدين ، فخرج الدفتردار في ذلك اليوم في موكب حافل كما تقدم .

وفيه كانت وفاة الناصرى محمد ابن الأمير جاني بك كوهية ، وكان رئيسا حثنا دينا خيرا من أولاد الناس ، حسن السيرة لا بأس به .

وفيه قدم من اسطنبول سيدى محمد بن الكويز ، وكان توجه الى نحو اسطنبول مع جملة من أسر من أهل مصر ، فلما أفرج السلطان سليمان عنهم ، حضر الى مصر ، وكان حسن السيرة في التصرف في أمر المواريث .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره ، حضر أولاق من عند السلطان سليمان وعلى يديه مراسيم تتضمن أنه قد انتصر على الفرنج نصرة عظيمة ، وفتح عدة مدائن من مدائن الفرنج ، وملك عدة قلاع من قلاعهم ، وصار كلما يملك مدينة من مدائنهم يجعل كنائسهم جوامع بمحاريب ومناير ، وخطب باسمه فيها ، وكانت هذه النصرة على غير القياس .

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك رسم بدق البشائر في القلعة ، ونادى في القاهرة بالزينة ، فزينت سبعة أيام متوالية ، وفتك الناس في هذه الزينة فتكا ذريعا ، حتى خرجوا في ذلك عن الحد ، وتجاهروا بالمعاصى ليلا ونهارا .

الديون نحو سبعين ألف دينار للتجار الأروام وغيرهم

وقد تزايد غضب ملك الأمراء على الشيخ عبد المجيد بن الطرينى حتى كاد أن يوسطه من شدة غضبه عليه ، وكان الشيخ عبد المجيد من أعيان الناس وله بر ومعروف ، حتى قيل كان يصنع فى كل يوم ستة أراذب دقيق يرسم الوارد عليه فى المحلة ، ويعلق فى كل يوم اثنى عشر أردبا من الشعير ، والدسوت عمالة بالطعام ليلا ونهارا للوارد عليه من سائر البلاد ، فتجمدت عليه هذه الديون العظيمة ، وسبق كما سبق غيره من الأكابر ، ولكن يلفظ الله به ، والكريم لا يضام أبدا . فكان الشيخ عبد المجيد أحق بقول القائل حيث قال :

لنا غنم تعرف وجوه اضيوفنا
تجى من مراعيها تروم الذبائح
لنا خدم ماينبت الشعر روسها
لحمل القرى من آخذات ورايح

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق شخص من المماليك الجراكسة قيل هو من ممالك أمير أخور كبير ، وقيل هو خازن داره ، وكان شابا حسنا فشق شنقه على الأتراك قاطبة ، وشنق فى ذلك اليوم معه أربعة من الجراكسة ، وقد تزايد شره فى هذه الأيام .

وفيه أشيع بين الناس أن الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة وتوجهوا الى اسطنبول ، لما دخلوا الى ثغر الاسكندرية وقع بينهم هناك فتنة عظيمة ، وقتل منهم جماعة ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك

وفى يوم الخميس ثالث عشره ، توجه ملك الأمراء الى بحو الجزيرة التى بجاه البيزة بالقرب من المقياس ، وأقام بها ذلك اليوم على سبيل التنزه ، فأرسل اليه القاصى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافله ، فتعدى ملك الأمراء هناك ، ورسم بأن الذى فضل من المدة يحمل الى القلعة ، وقد فضل منها أشياء كثيرة

ثم ان ملك الأمراء خلع على القاضى بركات بن موسى المحتسب ققطانا مذهبا ، وشكر له ما صنعه من أمر تلك المدة .

وفى يوم الأحد سادس عشره ، وقعت كائنة عظيمة للشيخ عبد المجيد بن الطرينى ، وذلك أن ملك الأمراء تغير خاطره عليه بسبب أنه كان تسلط عليه الدين الذى تقدم ذكره ، فلم يعط أصحاب الديون شيئا مما قسطه عليه ، فشكوه الى ملك الأمراء ثانيا ، فأرسل خلفه ، فلما حضر بين يديه قال له : « ألم أقسط عليك ذلك الدين فى كل شهر ، وقررت معى أنك ترضى أصحاب الديون بما قسطته عليك ، فلم تفعل من ذلك شيئا » . فلم ينطق فى ذلك بحجة ، فحنق منه ملك الأمراء ، ورسم بضربه فبطح على الأرض ، وضرب ضربا مبرحا ، حتى قيل ضرب ست نوب تدلت عليه حتى كاد أن يموت . ثم وضعه فى الحديد ، وأرسله الى بيت الوالى ليعصره فى أكعابه بحضرة أصحاب الديون ، فرق له الوالى وأرسله لسجن الديلم ، فسجن به والحديد فى عنقه ، فاستمر فى السجن بالحديد حتى كاد أن يموت ، وقد عجز عن وفاء ما عليه من الديون ، حتى فيل تجمد عليه من

تسكد لهذا الخبر ، وعين لهم الكيخية الكبير
أغاثهم ، فسافر الى الاسكندرية فى ساعته ، حتى
يصلح بينهم ويكشف عن سبب هذه الفتنة ومن
أثارها من الانكشارية أو من الكملىة الذين سافروا
من القاهرة ، فتوجه الكيخية الى نجر الاسكندرية
بسبب ذلك .

واستهل شهر دى الحجة بيوم الجمعة ، فطلع
القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء
بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم السبت المبارك ثانيه حضر قاصد من
مكة ، وصحبته رأسان فى علبه مقفولة ، زعموا
أن الأولى رأس شخص يقال له اسكندر ، وكان
أصله من ممالك السلطان الغورى ، أرسله صحبة
التجريدة التى أرسلها الى بلاد الهند بسبب محاربة
الشيخ عامر متملك زبيد وعدن وكرمان ، فلما
توجه العساكر الذين أرسلهم السلطان الغورى ،
تحاربوا معه فانكسر منهم ، وقتل فى المعركة ،
فملكوا منه البلاد وأمواله .

ثم ان اسكندر المذكور ملك بلاد الشيخ عامر
وتسلطن بها وعصى على السلطان الغورى ، وجعل
له هناك أمراء وعسكرا ، وخطب باسمه على منابر
بلاد الشيخ عامر ، واستمر على ذلك ولم يدخل
تحت طاعة الخنكار سليم شاه بن عثمان لما ملك
الديار المصرية ، ولم يخطب باسمه ، ولم يضرب
السكة باسمه هناك ، فلم يزل نائب جدة يتحيل
عليه حتى قتله وحز رأسه وأرسلها الى القاهرة ،
فعرضت على ملك الأمراء وهو بالميدان .

ثم ان ملك الأمراء أشير تلك الرأس فى القاهرة
ومعها رأس أخرى قيل انها رأس دواذره
أو خازنداره أو وزيره ، ثم علقنا على باب النصر .
وكان اسكندر هذا شجاعا ، بطلا ، مقداما فى
الحرب قوى القلب ، ملك البلاد واحتوى على
أموالها ، وفرقها على عسكره ، وجعل له أمراء
وحجبا ودواذرية ، ولولا أنهم اختالوا عليه حتى
قتلوه ، لما كانوا يقدرون عليه من شجاعته وحيله .

وفيه وضعت نادرة عريده ، وشي أنه حضر قاصد
من اسطنبول الى الشام ، ثم حضر الى القاهرة ،
فلما استقر بها أنشئ مراسيم من عند السلطان
سليمان ، وأحضر معه ذراعا من الحديد يزيد على
الذراع الهاشمى الذى تتعامل به أهل مصر بخمسة
قرايط ، وأحضر معه سنج نحاس وأرطالا على
طريقة اسطنبول . وأشيع أن السلطان سليمان بن
عثمان رسم بإبطال الذراع والسنج التى تتعامل
بها أهل مصر ، وأن التجار وأرباب البضائع
لا يتعاملون الا بهذا الذراع وهذه السنج ، فامتثل
ملك الأمراء ذلك ، وأجاب بالسمع والطاعة ، ورسم
للقاضى بركات بن موسى المحتسب بأن ينادى فى
القاهرة حسبما رسم الخنكار بإبطال الذراع
الهاشمى من مصر ، واستعمال الذراع الاسطنبولى
فنزّل المحتسب مع والى ونادى فى القاهرة بذلك .

ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب كتب
قسائم على التجار أنهم لا يبيعون ولا يشترون
الا بهذا الذراع الاسطنبولى ، فشئ ذلك على
التجار وأرباب البضائع . فلما أشهر المحتسب
المناداة بذلك ، وأن كل من خالف مرسوم الخنكار
شئق على دكانه من غير معاودة ، صارت
رسل المحتسب تطلع الى دكاكين التجار الذين فى
الأسواق وتأخذ الأذرة الحديد وترميها فى
الطرق ، فاضطربت القاهرة فى ذلك اليوم أشد

ذهبا ، فانه قد أشيع عنهم أن جماعة منهم يصنعون الزغل في الذهب والفضة ، ويطيرونها على الناس في الصرف ، فسنعوا من ذلك

وفيه قدم قاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان يقال له قاسم بك ، وعلى يده مرسوم شريف ، فكان من مضمونه أنه اقتصر على الفرنج نصرة ثانية ، وملك منهم عدة قلاع ، وقد ظفر بجماعة منهم وقتلهم .

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك نادى في القاهرة بالزينة ، فزيت ووافق ذلك يوم عيد النحر . فحصل للناس المتسمه الزائدة بهذه الزينة ، واشتغلوا بذلك عن الأضحية والعيد ، ووقع في ذلك اليوم مطر غزير ، فأعدم قماش الناس الذي في الزينة ، وصار الوالى يبطح الناس على الأرض ويضرب الذى مازين دكانه ، فما حصل لأحد من الناس خير ، واستمرت الزينة معلقة الى أن نزل ملك الأمراء وتوجه الى بولاق بسبب ملاقة القاصد الذى حضر من البحر ، فطلع من سوق مرجوش وشق القاهرة وهى مزينة ، والقاصد منجبتة ، ومشى القاضى بركات بن موسى المحتسب قدامه بعصاه الى أن طلع الى القلعة ، فأوقدوا له الشروع بالنهار على الدكاكين ، فاستمر في ذلك الموكب الى أن طلع الى القلعة ، ثم فكت الزينة في ذلك اليوم ، وانقضى أمرها .

وفي يوم السبت سادس عشره ، جلس ملك الأمراء بالمقعد الذى بالحوش السلطاني ، وطلب قضاة القضاة الأربعة ، فلما حضروا حضر القاضى حمزة قاضى ابن عثمان ، فلما تكامل المجلس تكلم ملك الأمراء مع القضاة في أمر نوابهم وما يفعلون ، وفي أمر الوكلاء ، فوقع في ذلك المجلس غاية ما يكون من اللغظ ، وكان القاضى حمزة في ذلك المجلس أشد ما يكون على القضاة ، وصار

الاضطراب . ثم صاروا يكررون المناداة بذلك في أمر المعاملة بذلك الذراع الاسطنبولى ، واستمر ذلك في البيع والشراء الى الآن .

وفيه وقعت كائنة عظيمة للوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية وكان سبب ذلك أن شخصا من الوكلاء يقال له على الأزهرى ، توكل عن شخص يهودى في شغل ، فأخذ منه في ذلك الشغل أربعين دينارا وقيل خمسين دينارا ، فلما بلغ المحضر الذى في المدرسة الصالحية ذلك ، طلب على الأزهرى وسأله عن ذلك فأنكر ، وقال ما أخذت منه هذا القدر أبدا ، وحلف وأقسم ، فحقق منه المحضر وأمر بضربه بين يديه .

ثم ان المحضر طلع الى ملك الأمراء وأخبره بأمر الوكلاء وما يصنعون ، فرسم بإحضار سائر الوكلاء فاختفى منهم جماعة ، وقبضوا على أربعة منهم ، وهم : على الأزهرى ، وسالم ، ومسعود ، والحكرى . فطلعوا بهم الى القلعة وعرضوهم على ملك الأمراء فأوعدهم بكل سوء ، ثم أرسلهم الى بيت الوالى فأرسلهم الوالى الى سجن الديلم ، فسجنوا به الى أن تظهر البقية . وكان الذى رافع في الوكلاء وأشلى فيهم بدر الدين بن الرومى ، وتعصب معه خير الدين نائب القلعة ، وقال لملك الأمراء هذه الأفعال التى يفعلها الوكلاء في المدرسة الصالحية لا تحل ولا تجوز ، فاضطربت أحوال القضاة الى الغاية .

ثم ان الوكلاء الذين سجنوا بسجن الديلم شفع فيهم القاضى حمزة ، وقيل الأمير على أحد الأمراء الخنكارية ، ثم أقام الوكلاء في السجن أياما ، ثم أخرجوا منه .

وفيه نودى بالقاهرة عن لسان ملك الأمراء بمنع الصيارف الحجازيين قاطبة ألا يصرفوا دينارا

يقول لهم : نوابكم يفعلون ما هو كيت وكيت .
فجاء ملك الأمراء على القضاة بكل ما فيه بسبب
نوابهم ، وقد كثر فسادهم .

فتكلم معهم ملك الأمراء في ذلك ، فوقع
الاتفاق في المجلس بأن كل قاض من القضاة الأربعة
يقتصر على سبعة من النواب لا غير ، على عدد أيام
الجمعة ، والقاضي من النواب يجلس في بيت قاضي
القضاة في نوبته ، ويسمع الدعوى هناك بمفرده ،
وأن القاضي اذا عقد عقد نكاح ، يأخذ على من
تزوج البكر ستين نصفا ، وعلى من تزوج الشيب
ثلاثين نصفا ، يأخذ العاقد شيئا ، والشهود شيئا ،
والباقي يحصل الى بيت الوالى ، ولا يتزوج أحد
من الناس ولا يطلق الا في بيت قاض من القضاة
الأربعة ، وأن الوكلاء تبطل قاطبة من المدرسة
الصالحية ، فانقض المجلس على ذلك : وقام القضاة
فقيل لهم امشوا على اليسق العثماني ، فاضطربت
أحوال القضاة والشهود قاطبة ، وبطلت أسبابهم
ومشوا على هذا الحكم .

وصار مقدم الوالى والجالية يأتون في كل يوم
من أيام الجمعة ، ويجلسون في بيت كل قاض من
القضاة الأربعة الى ما بعد العصر ، ويأخذون
ما يتحصل من عقود الأنكحة ، ويمضون به الى
بيت الوالى ، كما تقرر الحال على ذلك اليسق
العثماني . فصار الذى يتزوج أو يطلق تقع غرامته
نحو أربعة أشرفية ، فامتنع الزواج والطلاق في تلك
الأيام ، وبطلت سنة النكاح والأمر لله تعالى .

وفيه نزل من القلعة القاضي بركات بن موسى
المحتسب ، وأشهر المنادة في القاهرة وصحبه
الوالى بأن لا قاضى ولا شاهد يحكم في المدرسة
الصالحية ، وأن لكل قاض من القضاة سبعة من
النواب لا غير ، يحكم كل نائب يوما في بيت قاض

من القضاة الأربعة ، ويسمع الدعوى في بيت
مستنيه ، وأن لكل نائب من النواب شاهد
لا غير ، وأن القاضي يأخذ على نكاح البنت البكر
ستين نصفا ، ويأخذ على الشيب ثلاثين نصفا ، وأن
سائر النواب والشهود بطالة من الأحكام الشرعية ،
وهذا حسبما رسم به ملك الأمراء ، والمثنى على
اليسق العثماني .

فلما سمع ذلك الناس اضطربت أحوالهم غاية
الاضطراب ، ولا سيما النواب والشهود حميل لهم
الضرر الشامل ، وصارت المدرسة الصالحية ليس
يلوح بها قاض ولا شاهد ، بعد ما كانت ذنسة
العلماء .

ومن الحوادث ما وقع في أواخر الشهر وهو يوم
الأحد خلع ملك الأمراء على شخص يسمى
جمال الدين يوسف بن أبى الفرج ، ويعرف بأبن
الجاكية — وهو ابن محمد الذى كان تقيب
الجيش من أولاد ابن أبى الفرج — واستقر به في
وظيفة التفتيش عن الرزق ، فلما قرر في هذه
الوظيفة أخذ حذره منه سائر الأعيان ودخلت
رأسهم منه الجراب .

فلما استقر أمر ملك الأمراء بأن ينادى له عن
لسانه حسبما رسم ملك الأمراء لا أحد من الناس
يحتذى على الأمير جمال الدين يوسف بن أبى
الفرج ولا يعارضه ، وأنه مسموع الكلمة وافر
الحرمة .

فلما جرى ذلك طغى الأمير يوسف بن أبى الفرج
وتجبر ، وصار معه الجم الكثير من الرسل
والبزددارية ، وصار يطلب أعيان الناس من رجال
ونساء بالرسل الغلاظ الشداد ، فاذا حضروا الى
بابه ومعهم مكاتيبهم ومربعاتهم ، يقرأها ثم ينجس

لهم فيها انجاشا ، ويقول لهم أروني أصول هذا رأسول الأصول ، فاذا عجزوا عن ذلك يرسلهم الى بيت القاضي الحنفى ، ويشهد عليه أن لا حق لهم فى هذه المكاتيب ولا استحقاق ، ويأخذ منهم ما معهم من المكاتيب والمربعات ، ويمضوا خائبين . فيطلع بالمكاتيب والمربعات الى ملك الأمراء ، ففعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من أعيان الناس . فأتخذ من الجبالى يوسف ثقيب الجيش ابن الشرفى يونس ثقيب الجيش سبع عشرة رزقة بمكاتيب شرعية ، وحذف عليه ملك الأمراء ما عنده من المكاتيب جميعها ، فطلع له بها ، وفعل بجماعة كبيرة من أعيان الناس والسنات مثل ذلك ، والأمر لله تعالى .

وفيه حضرت مركب من الأغربة التى كان عمرها ملك الأمراء وأرسلها صحبة الأروام والمغاربة البحارة ، فلما دخلوا الى البحر المالح وجدوا جماعة من الفرنج يعبتون فى سواحل البحر المالح فأوفعوا معهم وقتلوه فأنكسر الفرنج ، وقبضوا عليهم وأسروهم ، واحتووا على مراكبهم ، فوجدوا فيها بضائع وجوفا وأصنافا فاخرة ، فأخذوا جميع ما كان فيها ، وقبضوا على من كان فيها من الفرنج ووضعوه فى الحديد ، وأرسلوهم الى ملك الأمراء ، فلما عرضوا عليه رسم بتوسيطهم فوسطوا منهم تسعة عشر رجلا ، وسجنوا الباقين وأخذ ملك الأمراء جميع أموالهم ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء كانوا تجارا أتوا من بلاد الفرنج فلما رأوهم قاتلوهم فأنكسروا وأسروا وأخذت جميع أموالهم . وأشيع أنهم كانوا يعيشون فى سواحل البحر المالح .

وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كان أسر من أهل مصر فى أيام السلطان سليم شاه بن عثمان

فحضر علم الدين چلبى السلطان القورى ، وحضر عقيب ذلك المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش كان ، وهو ابن المقر الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وحضر كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وحضر الرئيس عبد الرحمن بن الشريف الكحال ، وحضر الناصرى محمد بن العلأى على بن خاص بك ، وحضر القاضى شمس الدين محمد الحجازى أحد نواب الشافعية ، وحضر آخرون من الأشرى ما تحضرنى أسماؤهم الآن .

وفى يوم الخميس ثامن عشره ، قدم مبشر الحاج من مكة وأخبر بالأمن والسلامة عن الحجاج ، وأخبر أن الغلاء معهم عمال فى سائر الغلال والمأكول قاطبة ، وأخبر بموت الجمال مع الحجاج ، فخلع عليه ملك الأمراء ، ونزل الى منزله .

وقد خرجت هذه السنة على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة ، وقع فيها الرخاء فى سائر الغلال قاطبة بعد ما كان تنهى سعر القمح الى أربع أنسرفيات ذهب كل أردب وكان النيل فيها عاليا عم سائر أراضى مصر قاطبة وثبت ثباتا جيدا الى أواخر بابه . ومن محاسن هذه السنة أنها خرجت عن الناس ولم يكن فيها الطاعون فى الديار المصرية ولا فى شىء من أعمالها قاطبة .

ولكن وقع فى أواخر السنة حوادث مهولة . منها عصيان الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام وقتله ، وما وقع بالشام من الاضطراب ، فكان من ملخص واقعة الأمير جان بردى أنه لما استقر به السلطان سليم شاه نائبا بالشام ، أقام بها مدة وهو تحت طاعة السلطان سليم شاه فى الظاهر ، ولما ولي

وقف السلطان على مطالعة الغزالي ، وأرسل يقول
لخاير بك : لا تخرج أنت من مصر للغزالي ، فنحن
نكفيك سره .

ثم إن السلطان سليمان أرسلني تجسيدا إلى
الغزالي نائب الشام ، فبيّن له من العساكر العثمانية
فحو أربعة عشر ألف مقاتل ، فخرجوا من اسطنبول
على حمية ، وتوجهوا من اسطنبول إلى حلب ،
فأوقعوا مع الغزالي على حلب ، فانكسر منهم ،
فتوجه إلى دمشق ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة
على القابون خارج مدينة دمشق ، فقتل من عسكر
الغزالي هنالك ما لا يحصى من عربان الكرك وأكراد
وتركان ومماليك جراكسة ، ومن أهل دمشق ،
حتى قيل : قتل في المعركة من أهل دمشق شيوخ
وشبان وأطفال ، ومن سوقة دمشق ما لا يحصى .

وكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلوك
لما دخل إلى دمشق ، وقد خرب في هذه الواقعة ثلاث
دمشق من ضياع وحارات وأسواق وبيوت ، ودمت
الكسرة على الغزالي واختفى ، وقيل : بل قتل على
المعركة وحزت رأسه وأرسلت إلى اسطنبول ،
ومضى أمره . وإلى الآن تشك جماعة من الناس في
قتله ، ويقولون ما قتل وهو باق في قيد الحياة ،
وأنه هرب عند الصفوى بعد وقوع المعركة ،
والأصح أنه قتل في الواقعة التي كانت على القابون
ووقع الشك للناس في ذلك ، كما وقع لهم في قتل
قانسوة خمسمائة من الشك .

ومما وقع في هذه السنة من الحوادث ، حرق
النصارى على باب المدرسة الصالحية ، ومنع
الشهود من الجلوس في الحوائث . ومن الحوادث
ما وقع للشيخ عبد المجيد الطريفي وقصته مشهورة .

بعده ابنه سليمان على مملكة الروم ، أظهر جان
بردي الغزالي العصيان عليه واحدة ، ولم يدخل
تحت طاعة السلطان سليمان بن عثمان ، فقسام
معه أهل الشام من الأمراء والعسكر والعربان
والعشير ، وقالوا له قم وتسلطن فما بقي قدامك
أحد تخشى منه ، ونحن قاتل معك حتى قتل ،
فاستمال لقولهم ، وطاش وخف ، ركم عجلة أعفبت
ندامة ، فتسلطن بالشام وتلقب بالملك الأشرف أبي
الفتوحات ، وقبلوا له الأرض ، وخطب باسمه في
جامع بني أمية ، وعلى بقية منابر دمشق . فلما
تسلطن قالوا له : امض إلى مصر وحارب خير بك ،
واملك منه مصر ، فقال لهم : مصر في قبضة يدي ،
ولكن أتوجه إلى حلب وأخلصها من أيدي
العثمانية ، فما يبقى خلفي التفاتة ، ثم أتوجه إلى
مصر . ولو أتى إلى مصر لكان خيرا له ، وكان
العسكر من الجراكسة وأهل مصر والعربان قاطبة
يقلبوا على ملك الأمراء خاير بك ، ويمضوا إليه ،
فانه كان مجيبا للرعية .

فلما توجه الغزالي إلى حلب ليملكها ، حاصر
أهلها ، وأحرق غالب الضياع التي حولها ، وحصل
منه الضرر الشامل لأهل حلب ، فلما حاصر مدينة
حلب لم يقدر عليها وعجز عن ذلك . وكان الأمير
جان بردي الغزالي أول ما توفي السلطان سليم شاه
وتولى بعده ابنه سليمان ، أرسل يقول لملك الأمراء
خاير بك تسلطن أنت بمصر ، وأستمر أنا بالشام
وأحكم من الفرات إلى غزة ، وفطرد هذه العثمانية
عن مملكة مصر . فلما وقف خاير بك على مطالعة
الغزالي أفشى سره . وكان الغزالي أرسل يقول
لخاير بك إن لم تتسلطن فعندي من يتسلطن ،
فأراد خاير بك أن يتنصح للسلطان سليمان ، فأرسل
له مطالعة الغزالي التي أرسلها له في السر . فلما

ومن الحوادث منع الوكلاء من باب المدرسة الصالحية وعزل بواب القضاة الأربعة واقتصارهم على سبعة نواب لكل قاض من غير زيادة على ذلك . ومنها واقعة العقود وما تقرر على تزويج البكر ستين نصفاً والثيب ثلاثين نصفاً ، وقد تقدم ذلك فكان ذلك من أشد الكرب على المسلمين .

ومنها جلوس مقدم الوالى والجالية على أبواب القضاة من باكر النهار الى آخره ، ليأخذوا ما يتحصل من عقود الأنكحة ، ويمضوا به الى بيت الوالى ، ويسمون ذلك اليسق العشمانى . ولا يتزوج أحد من الناس ولا يطلق الا فى بيت قاض من القضاة ، فضيقوا على المسلمين غاية الضيق .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء خلع على شخص يقال له جمال الدين يوسف ابن أبى الفرج ، ويعرف بابن الجاكية ، وقرره فى وظيفة وسماه مفتش الرزق الجيشية ، فلما استقر فى هذه الوظيفة أطلق فى الناس النار ، ورافع الشهابى أحمد بن الجيعان بأنه أخذ من ديوان الجيش أقاطيع سلطانية ورزقا جيشية ، وصنع لها مكاتيب شرعية بمشترى من بيت المال ، وباعها على الناس .

ورافع أيضا الزينى أبا بكر بن أبى بكر بن الملكى بمثل ذلك ، حتى تكلم فى حق الشهابى أحمد بن الجيعان بأنه ابتاع من ديوان الجيش رزقا وأقطعا ، وصنع لها مكاتيب شرعية ، وباعها على الناس بنحو عشرين ألف دينار . وأظن هذا الكلام ليس له صحة ، وهذا باطل لا محالة ، فتغير خاطر ملك الأمراء على المقر الشهابى أحمد ابن الجيعان ، وصار اذا طلع الى القلعة لا يخاطبه أصلا ، ورسم للزينى أبى الوفاء الحلبي موقع ملك الأمراء من حين كان يحلب أن يقرأ عليه القصص ، بدلا عن الشهابى أحمد بن الجيعان ، فعظم أمر

الزينى أبى الوفا فى هذه الأيام جدا ، حتى صار فى مقام من تقدم من كتاب السر ، وصار من أعيان الرؤساء بالديار المصرية .

ثم ان الجمالى يوسف بن أبى الفرج أخذ من الناصرى محمد بن خاص بك رزقتين بمكاتيب شرعية ، فطعن فى هذه الرزق وقال له أصل هذه الرزق أقاطيع سلطانية ، فأخذ منه المكاتيب وأشهد عليه بأن لا حق له فيها ، وطلع بها الى ملك الأمراء ، وصار يفعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من رجال ونساء ، ويأخذ مكاتيبهم من أيديهم ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ويطلع بالمكاتيب الى ملك الأمراء ، فأطلق فى الناس جمره نار ، وضج منه الناس قاطبة ، حتى فيل أخذ من أيدي الناس فوق الثمانين رزقة بمكاتيب شرعية ، وطلع بها الى ملك الأمراء ، وحصل للناس منه الضرر الشامل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم

وما اكتفى ملك الأمراء بيوسف بن أبى الفرج حيث جعله مفتش الرزق الجيشية ، فجعل الأمير على العثمانى مفتش الأوقاف أيضا من بلاد ويوت وغير ذلك ، فاجتمع على بابه الرسل الغلاظ الشداد ، والبزددارية ، وصاروا يطلبون الناس أصحاب الأوقاف ، فاذا حضروا ومعهم مكاتيبهم بنحشون عليهم ويقولون لهم ايش على هذا الوقف مصاريف ، وايش متحصله فى كل شهر ، فيدعون أصحاب الأوقاف فى الترسيم ، ويقررون عليهم مبلغا ثقيلا للأمير على هو ودواداره والبزددارية والرسل ومن عنده من المباشرين ، ويكتبون له على مكاتيبه عرض ، ثم يطلقونه بعد أن بلتهب من الغرامة فوق ما لا يطيق ، فصار الأمير على يتكلم

على قرع من أبواب المظالم المهولة ، فأطلق في الناس النار الموقدة .

وأقول ان أولاد ابن أبى الفرج طول عمرهم بيت ظلم وعسف ، وطبعهم الأذى هم وأجدادهم من أيام الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق ، وقد تقدم القول على ذلك .

ومن الحوادث في أواخر هذه السنة أن ملك الأمراء جهز مراكب أغربة وفيها جماعة من المقاتلين ، فتوجهوا الى البحر المالح ، وقد بلغه أن جماعة من الفرنج يعبثون في السواحل على المسافرين ، فلما توجهوا الى البحر المالح ، وجدوا مراكب فيها تجار من الفرنج ، ومعهم بضائع بنحو خمسين ألف دينار ، فتقاتلوا معهم فكسروا الفرنج ، وقبضوا عليهم واحتاطوا على مامعهم من البضائع ، فلما حضروا الى مصر ، وعرضوا على ملك الأمراء ، رسم بتوسيط نحو تسعة عشر نفرا من الفرنج ، فراحوا ظلما ، وأخذت أموالهم ، وربما يثور من هذه الحركة فتنة كبيرة بين الفرنج وبين أهل مصر بسبب ذلك ، ويمنعون التجار من المرور في البحر ، ويقتلونهم كما فعلوا بالفرنج المقدم ذكرهم .

وفي هذه السنة قتل ملك الأمراء من الناس ما لا يحصى بتوسيط وشتق وخوزقة وأكثرهم راح ظلما ، والأمر لله تعالى .

سنة ثمان وعشرين وتسعمائة (١٥٢٢ م) :

فيها في المحرم ، وكان مستهله يوم الأحد المبارك ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالعام الجديد ثم عادوا الى منازلهم .

وفي هذا الشهر تزايد ظلم الجمالى يوسف بن أبى الفرج وفتك في الناس فتكا ذريعا ، وكثر على بابه الرسل والبزددارية ، وصار يطلب أعيان الناس من كبير وصغير ، فيحضرون ومعهم مكاتيبيهم ، ويأخذها من أيدي أصحابها غصبا ، ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ولا استحقاق ، ويطلع بها الى ملك الأمراء ، واستمر على ذلك يتزايد ظلمه الشنيع كل يوم حتى ضج منه الناس والأمر لله تعالى .

وفيه توفى الشهابى أحمد بن التمارى ، وكان من مشاهير أولاد الناس ، وكان أمير جكار ، وقد ترحل حاله في أواخر عمره ومات فقيرا .

وفي يوم الخميس خامسه حضر جماعة من اسطنبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأرسلهم الى اسطنبول ، فحضر بهاء الدين بن البارزى ، وجلال الدين ابن الخواجا بدر الدين حسين الشيراوى ، وحضر الخواجا يحيى بن عبد الدائم اللبدي المغربى من تجار جامع طولون ، وحضر آخرون ممن كان باسطنبول .

وفي يوم السبت سابعه ، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلى التى بالريديانية ، وجلس هناك على المصطبة القديمة ، وكان القاصد الذى حضر بالأمس صحبته ، فمد له هناك مدة حافلة ، وأحضر صقورا وكلابا سلوقية ، ورعى قدام القاصد رماية هناك ، وانشرح في ذلك اليوم الى الغاية .

فبينما هو على ذلك ، واذا بجماعة من الأعيان حضروا بين يديه ، منهم الشيخ شمس الدين محمد اللقانى المالكى ، والشيخ شمس الدين محمد

شمس الدين اللقاني المالكي : « ياسيدى الشيخ أنا أخاف على رقبتي أكثر من رقابكم ، امضوا باسم الله » . فقاموا من عنده وهم في غاية القهر ، يتعشرون في أذيالهم ، ولم يلتفت الى أقوالهم ، فقال له بعض الفقهاء الذين حضروا : « نحن نساfer الى السلطان سليمان نصره الله تعالى ، ونخبره بما يفعل في مصر » . فتأكد ملك الأمراء في ذلك اليوم بعد ما كان منشرحا ، ثم قام من هناك وطلع الى القلعة ، وخرج القاصد من هناك وتوجه من يومه وسافر الى اسطنبول .

فلما رجع الفقهاء من عند ملك الأمراء ، قامت الأثلة والنائرة على ملك الأمراء ، وكثر الدعاء عليه بسبب عقود الأنكحة ، وقصدوا يعلقون أبواب الجوامع والمساجد ، فلما جرى ذلك أرسل ملك الأمراء الزينى أبا الوفا الموقع ، يأخذ بخاطر الشيخ شمس الدين محمد اللقاني ، وقال له : لا تؤاخذ ملك الأمراء ، فانه لم يكن يعرفك . وأرسل على يد الزينى أبى الوفاء الموقع مائتى دينار وأربع بقرات ، ففرقت على مجاورى الجامع الأزهر ، وأرسل مثل ذلك الى مقام الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، وأرسل مثل ذلك الى الزوايا التى بالقرافة ، والى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وغير ذلك من الزوايا والمزارات والمساجد ، وقصد أن يستجلب خواطر العلماء والفقهاء مما فعله من الأفعال الشنيعة ، ليمحو ذلك بذلك ، وهذا من المحالات ، كما يقال فى المعنى :

جفاء جرى جهرا لدى الناس وانبسط
وعذر أتى سرا فأكد ما فرط
ومن ظن أن يمحو جلى جفائه
خفى اعتذار فهو فى غاية الفرط

المعروف بالديروطى الشافعى ، والشيخ شمس الدين أحمد بن الجلبى وآخرون من العلماء ، فلما اجتمعوا قالوا . « يا ملك الأمراء قد أبطلتم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصرتم تأخذون على زواج البنت البكر ستين نصفاً ، وعلى زواج المرأة ثلاثين نصفاً ، ويتبع ذلك أجرة اليهود ، ومقدمى الوالى : وغير ذلك ، وهذا يخالف الشرع الشريف ، وقد عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خاتم فضة ، وعلى ستة أنصاف فضة ، وعقد على آية من كتاب الله ، وقد ضعف الاسلام فى هذه الأيام ، وتجاهر الناس بالمعاصى والمنكرات ، وتزايد الأمر فى ذلك » . ثم ذكروا له آيات من كتاب الله تعالى ، وأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلتفت ملك الأمراء الى شىء من ذلك ، وقال للشيخ شمس الدين محمد اللقاني المالكي : « اسمع ياسيدى الشيخ ، ايش كنت أنا ؟ الخنكار رسم يبدأ . وقال امشوا فى مصر على اليسق » . فقال له شحص من طلبة العلم يقال له عيسى المغربى : هذا يسق الكفر ، فحنق منه ملك الأمراء ، فرسم بتسليمه الى الوالى ليعاقبه ، فتوجهوا به الى بيت الوالى ، ثم شفع فيه بعض الأمراء .

فلما كان عقيب ذلك توجه الى ملك الأمراء جماعة من التجارين والقلافطة ، وعلى رؤوسهم مصاحف ، وهم يستغيثون (الله ينصر السلطان سليمان) . فظن ملك الأمراء أنهم من الجامع الأزهر ، ثم تبين أنهم تجارون وقلافطة ، أتوا يشتكون من الشاد على المراكب التى عمرها ملك الأمراء فى الروضة ، بأنه قد ظلمهم وجار عليهم . فلما كثر منهم الضجيج ، رسم ملك الأمراء لمن حوله من الانكشارية بضربهم ، فشتتوا أجمعين . ثم طال المجلس بين ملك الأمراء وبين مشايخ العلم الذين حضروا ، فكان من جوابه للشيخ

وفي يوم الاثنين سادس عشره ، أنفق ملك
الأمراء على المماليك الجراكسة ، وكان لهم حسنة
أشهر جامكة منكسرة ، وقد ضاع عليهم علق
أربعة أشهر ، فأنفق ملك الأمراء عليهم في ذلك
اليوم شهرين ، وآخر لهم ثلاثة أشهر ، فأضر ذلك
بحالهم

وفيه اجتمع العسكر ليبصرو الجامكية في
الميدان ، فنزل لهم المقر الشهابي احمد بن الجيعان .
والقاضي بركات بن موسى المجنسب ، وابن أبي
أصبع ، فقالوا للمماليك الجراكسة . ملك الأمراء
يقول لكم انه مسافر بعد الربيع ، فالذى له قدرة
يعمل برقه ، والذي ما له قدرة على السفر لا يأخذ
جامكية ويقعد يستريح . فلما سمع العسكر ذلك
اضطربت أحوالهم .

ثم ان ملك الأمراء جلس في شباك الدهيشة
وأرسل خلف المماليك الجراكسة ، فلما طلعا
ووقفوا بين يديه ، استدعاهم واحدا بعد واحد ،
وصار يختار من كل عشرة ممالك مملوكا واحدا ،
الذى يجده شابا وله قدرة على السفر ، فيقيه على
جامكيته ، والذي يجده من الشيوخ العواجز
يقف جامكيته ، فأبطل في ذلك اليوم ألف مملوك
من المماليك الجراكسة والناس وغير ذلك ، وفيهم
من هو من الأغوات من ممالك الأشرف قايتباي ،
فتزايدت قسوته في ذلك اليوم عليهم .

ومما وقع في ذلك اليوم من النوادر الغريبة ،
أن ملك الأمراء لما عرض المماليك صار كل من رآه
من المماليك ولحيته طويلة يقص منها نصفها ،
ويعطيها له في يده ، ويقول له امش على القانون
العثماني في قص اللحى ، وتضييق الأكمام ، وكل
ما تفعله العثمانية ، فنزل المماليك الجراكسة من
القلعة في ذلك اليوم وهم في غاية النكد مما جرى
عليهم .

وكان سبب قتل جوامك جماعة من المماليك
الجراكسة ، ان الديوان كان يومئذ في عاب
الانشحات ، وقد كثر العسكر وسار المال فسم على
سبع طوائف من العسكر ما بين أمراء عثمانية ،
وطائفة من الاصباهية ، وطائفة من الانكشارية .
وطائفة من الكمية ، وطائفة من الأمراء الجراكسة ،
وطائفة من المماليك الجراكسة ، ومماليك ملك
الأمراء طائفة سابعة ، فكان يصرف في كل شهر
لطائفة الاصباهية أحد عشر ألف دينار . ويصرف
لطائفة الانكشارية في كل شهر ثلاثة عشر ألف
دينار ، ويصرف لطائفة الكمية في كل شهر أحد
عشر ألف دينار ، ويصرف لطائفة المماليك الجراكسة
وأولاد الناس أحد عشر ألف دينار . ويصرف
لمماليكه وخدامه وحاشيته وغير ذلك من الرواتب
في كل شهر ثلاثة عشر ألف دينار ، وذلك خارج
عن جامكية الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية
والمرتدين من القصاد العثمانية ، فبموجب ذلك
وقع الانشحات في تأخير الجوامك وكسرهما الأشهر .

وكان السلطان الغوري لا يستعين على سد
الجوامك في كل شهر الا بكثرة المصادرات للتجار
وغيرهم من مساتير الناس وأعيانهم . وكان يسد
من مظالم العباد ، ويصير انهم ذلك عليه .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء قد تغير خاطره على
خوند مصرباي الجركسية ، وانزلها من القلعة ،
ورسم لها بأن تسكن بمدرسته التي بناها بباب
الوزير ، ورتب لها في كل شهر ما يكفيها من النفقة .
وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الأمراء قدوم زوجته
أم أولاده من اسطنبول ، وقد أتت صحبة الأمير
جانم الحمزاوى من اسطنبول ، فاختار بأن تكون
صاحبة القاعة عوضا عن خوند مصرباي ، فشق
ذلك عليها .

وفي يوم الخميس تاسع عشره ، أكمل ملك
الأمراء تفرقة الجامكية على العسكر ، وأوقفه
جوامك كثير من الممالك الجراكسة ، ومن أولاد
الناس ، ومن العواجز والشيوخ ، وقال للذين
صرف لهم الجوامك : كونوا على يقظة واعملوا
برقكم ، فربما الخنكار يرسل يطلبكم على حين
غفلة ، فقالوا كلهم : السمع والطاعة ، ونزلوا على
ذلك .

وفيه أشيع أن الأمير فرحات العثماني نائب
طرابلس ، استقر في نيابة الشام عوضا عن إياس ،
الذي كان بها ، وتوجه إياس إلى اسطنبول ، فصار
الأمير فرحات بيده نيابة طرابلس والشام .

وفي يوم الأربعاء خامس عشره دخل الحاج إلى
القاهرة ، ودخل الأمير جانم أمير ركب المحمل
وصحبته المحمل الشريف .

ثم أشيع أن الحاج قد قاسى في هذه السنة
مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال . ولما طلع
إلى العقبة اشتد عليه البرد هناك والرياح العاصفة ،
فمات من الحجاج ما لا ينحصر ، حتى قيل مات
منهم من العقبة حتى دخلوا القاهرة نحو ثمانين
إنسانا ، ودخل الباقون مرضى من شدة البرد
العاصف المضرب بالأجساد .

ولما دخل الحاج أشيع موت الأمير باباي ، الذي
كان ولي مشيخة الحرم النبوي ، وأشيع موت
شخص من الأمراء العثمانية ، كان أغات
الانكشارية ، توفي لما دخل المدينة الشريفة على
صاحبها أفضل الصلاة والسلام ودفن بالبقيع ،
وكان من خيار العثمانية .

وتوفي الأمير مقرر أمير عربان بنى جبر ، متملك
جزيرة بين النهرين إلى بلاد هرمز الأعلى ، وكان أميرا
عظيما جليل القدر مبجلا في سعة من المال ، وكان

مالكى المذهب سيد عربان الشرق على الإطلاق ،
وكان أتى إلى مكة وحج في العام الماضي ، وكان
يجلب إلى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة ، والمسك
والزعفران ، والعنبر الخام والعود والقمارى ،
والحرير الملون ، وغير ذلك من الأشياء المتحفة .
قيل أنه لما دخل إلى مكة والمدينة تصدق على
أهلها بخمسين ألف دينار ، فلما حج ورجع إلى
بلادها لاقتنه الفرنج في الطريق وتجاربت معه ،
فانكسر الأمير مقرر منهم ، وقبضوا عليه باليد
وأسروه ، فسألهم أن يشتري نفسه منهم بألف
ألف دينار فأبى الفرنج من ذلك ، وقتلوه بين
أيديهم ، ولم يغن عنه ماله شيئا ، وملكوا منه
جزيرة بين النهرين ، وملكوا قلعتها التي هناك ،
واستولوا على أموال الأمير مقرر وبلادها ، وكان
ذلك أشد الحوادث في الاسلام وأعظمها . وقد
تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندي ،
والأمر لله تعالى .

ولما رجع الحجاج أثنوا على الأمير جانم أمير
الحاج بكل جميل ، في حفظه للحجاج ، ومنع
الضرر عنهم ، وغير ذلك من أنواع البر والمعروف .

وفي شهر صفر ، وكان مستهله يوم الاثنين ، طلع
القضاة الأربعة إلى القلعة وهنأوا ملك الأمراء
بالشهر ، ثم عادوا إلى دورهم .

وفي يوم الأربعاء ثلثه ، خرج الأمير قايتباي
الدوادر وجماعة من الأمراء الجراكسة إلى ملاقة
الأمير جانم الحمزاوى الذى كان توجه إلى
اسطنبول ، وصحبته مقدمة حافلة إلى السلطان
سليمان بن عثمان ، أرسلها ملك الأمراء خاير بك
إليه على يد الأمير جانم كما تقدم ، فأكرمه وأحسن

اليه ، وقبل منه تلك التقدمة ، فأقام باسطنبول مدة ثم رسم له بالعود الى مصر

فلما بلغ الأمراء قدومه الى مصر ، خرجوا اليه قاطبة ، وخرجت اليه أعيان المباشرين قاطبة ، وجميع مشايخ العربان والكشاف المدركين قاطبة .

فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر صفر ، وصل الأمير جانم الحمزاوى الى خانقاه سرياقوس ، فمد له القاضى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، هذا بعد أن لاقاه من الصالحية .

وأشيع أنه حضر صحبة الأمير جانم الحمزاوى حريم ملك الأمراء الذى كان باسطنبول من حين ملك السلطان سليم شاه الديار المصرية ، فلما تولى السلطنة ولده سليمان ، رسم بعود حريم ملك الأمراء وأولاده اليه .

وفيه طلعت زوجة ملك الأمراء الى القلعة تحت الليل على المشاعل والفوانيس وهى فى محفة ، فلما طلع النهار طلع لها جميع المغانى يهتئونها بالسلامة .

ثم ان الأمير جانم الحمزاوى رحل من الخانقاه ، وتوجه الى تربة العادلى وبات بها

فلما كان يوم السبت ثالث عشره ، صلى ملك الأمراء صلاة الفجر ، ونزل من القلعة وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية ، فجلس على المصطبة التى هناك ، وسلم على الأمير جانم الحمزاوى ، ثم أحضر الخلعة التى أرسلها له السلطان سليمان ابن عثمان باستمراره على نيابة مصر ، فقام ولبسها ، وقبل الأرض نحو القبلة ، وكانت الخلعة بتماسيح مذهب على أحمر . ثم قصد الدخول من باب النصر ، وشق من القاهرة ، فاصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وأوقدت له الشموع

على الدكاكين ، وعلقت له القناديل والثريات ، ولم تزين له القاهرة فى ذلك اليوم . وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الأمراء أن السلطان سليمان قد مات له ولد ذكر مراهق ، فمنع الزينة بسبب ذلك .

فلما وصل الى قبة الأمير بشبك الدوادر ، لاقته الأمراء الجراكسة والعسكر من الممالك الجراكسة قاطبة ، ولاقته القضاة الأربعة ، وهم : كمال الدين الطويل الشافعى ، ونور الدين على الطرابلسى الحنفى ، ومجيب الدين الدميرى المالكى ، وشهاب الدين أحمد الفتوحى الحنبلى . ولاقته الأمراء العثمانية . وهم : الأمير عنى ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير نصوح ، وغير ذلك من الأمراء العثمانية . وخرج اليه طائفة الاصباهية وأمرأؤها ، والكواخى من أغوات الانكشارية ، ومشى قدامه الانكشارية قاطبة والكملية قاطبة وهم يرمون بالنفوط ، ولقاه أعيان الشرقية وهم : الأمير أحمد بن بقر أمير طائفة جذام وأمير الرايتين ، ومشايخ عربان الغربية وهم : حسام الدين بن بغداد ، وشيخ العرب واصل بن الأحذب أمير هواره ، وشيخ العرب اسماعيل بن أخى الجويلى ، وشيخ العرب جريش ، وآخرون من عربان الشرقية والغربية . ومشى قدامه النصارى بالشموع الموقدة .

ودخل الأمير جانم الحمزاوى وعليه خلعة السلطان سليمان بن عثمان ، وهى مخمل مذهب . فلما دخل من باب النصر نزل القاضى بركات بن موسى عن فرسه ، ومشى بالعصا قدام ملك الأمراء من باب النصر الى أن طلع الى القلعة . وكذلك الجمالى يوسف ثقيب الجيش ، ولقته الشعراء بالدف والشبابة السلطانية ، فلما وصل الى مدرسة الناصر ثر عليه الحلوانى الذى هناك

واستمر ملك الأمراء في ذلك الموكب الحافل حتى دخل إلى الميدان الذي تحت القلعة ، وقد طلع من جهة التبانة إلى مدرسة السلطان حسن . وقد شاهدت هذا الموكب بالعائنة ، وكان من الموكب المشهودة الجليلة .

ذلما استقر ملك الأسرراء بالقلعة مطلع على الأمير على الشمازي ، والأمير قنوص ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير شيخ . وطلع على القناسي زين الدين بركات بن موسى المحتسب ققطانا مضملا لكونه مشى بالعصا قدامه من باب النصر إلى القلعة ، ولكونه مدد للأمير جانم الحمزاوي عند ملاقاته مدة حافلة في بليس ، ثم في الخاقاه ، وغير ذلك من الأماكن . وفي هذه الواقعة يقول الأديب البارغ الفاضل ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال :

أهلا بمن عند التواضع راوي
شرفا ومنه الجود وجدا راوي
شرفا تضر له الرعوس لكونه
شرفا عار الفرقدين يساوي
يامرجا من قادم أعنى به
مولي المقر هو جانم الحمزاوي
من جاء مصر بخلعة غرا حوت
والعز من ذي الملك فخرا حاوي
شرف من اسطنبول معه بها آتى
منه لخير بك وخيرا ناوي
لله ذاك اليوم وهو بها يرى
وسلامه داء القلوب يداوي
في موكب الملك العظيم وحوله
أسد سطاها الراسيات يقاوي
والناس في فرج وفي فرح به
والجو مثل النحل منهم داوي

شيئا من الفضة ، فقال له ملك الأمراء : أكثر الله خيرك ، فلما وصل إلى باب سوق الوراثين ألتحقوا له محاجر البخور بالعدد القماری وركزوا له الطبول والزمر والمخاني من النساء والرجال في عدة أماكن من القاهرة ، وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت ، وأوقدت له الشموع على الشكاكين ، ولا سيما تجار الوراثين فانهم أوقدوا له موكبات شمع كبار مذهب ، وسار ملك الأمراء يسلم على الناس كلما مر عليهم يسينا وشمالا ، فترفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة .

وكان الأمير جانم الحمزاوي قدامه وعليه خلعة السلطان سليمان ، وعن يمينه الأمير قايتباي اندوادر ، وعن يساره الأمير أرؤمك الناشيء ، وأعيان المياشرين قدامه .

ودخل صحبة الأمير جانم الحمزاوي جماعة من أعيان مصر ممن كان أسر مع السلطان سليم شاه ، فلما مات وتولى ولده سليمان السلطنة رسم لهم بالعود إلى مصر ، فعد ذلك من جملة محاسنه وعدله وفعله الحسن .

فحضر صحبة الأمير جانم الحمزاوي ... الشرفي يونس بن الأتابكي سودون - العجني ، والشسي محمد بن القاضي صلاح الدين بن الجيعان ، والزيني عبد القادر بن القاضي بركات بن قريميط أحد كتاب المماليك ، والقاضي كريم الدين عبد الكريم بن إسرائيل ، والقاضي كريم الدين المجولي وسعد الدين بن جلال الدين أحد كتاب المماليك وأولاد المستوفي سعد الدين وأخوه بركات ، وكمال الدين العائق مباشر أميرأخور كبير ، وشهاب الدين أحمد بن أخى الاستادار يونس النابلسي ، والحاج بدر العادلي المهتار ، وآخرون ممن كان باسطنبول وأسر من أهل مصر .

وصياحهم بالنصر من عظم الدعا
وعنده كالكلب خزيا عاوى

ولبعضهم بعضا أصابعهم غدت
تبدي الإشارة والرءوس تلاوى

جانم مفدى نائب فى مصرنا
والعز فى ذى الخلعتين سساوى

لازال فى مثليهما مرقاهما
فيه على زحل بغير تهاوى

بقاء ذى الملك الذى أضحى له
شرف على كسرى وقيصر حاوى

أعنى سليمان المقيم بعدله
أما اليه من تروع ياوى

والمدح ممن قانصوه له أب
يبدى على كبد العدو مكاوى

ولسانه عن حال مصر قائل
ومقاله داء الغلاء مداوى

ان فاخرت بالنيل مصر غيرها
فنواله لبلاد مصر تقاوى

ثم أشيع ان السلطان سليمان - نصره الله
تعالى - أرسل سبعة قفاطين حريز الى مشايخ
العربان الذين بالصعيد ، والذين بالغربية ، والذين
بالشرقية ، والذين بالبحيرة ، وأرسل لكل واحد
منهم مرسوما شريفا على انفراد مع القفطان

وأرسل على يد الأمير جانم الحمزاوى ، ققطانا مخملا
مذهبا للسيد الشريف بركات أمير مكة المشرفة

وأرسل ققطانا مخملا للأمير على بن عمر شيخ
عربان الصعيد . وأرسل ققطانا مخملا لشيخ

العرب واصل بن الأحذب أمير هواة . وأرسل
قفطانا مخملا الى الأمير أحمد بن بقر أمير جذام

وأمير الرايتين . وأرسل ققطانا مخملا لشيخ العرب
حسام الدين بن بغداد شيخ عربان الغربية

وأرسل ققطانا مخملا لشيخ العرب اسماعيل بن
أبى الجوزلى شيخ عربان البحيرة ، ورساوا ذلك
مع المراسيم ، ومن كان منهم حصرا فى القاهرة
ليس ققطانه بحضرة ملك الأمراء

وفى يوم الأحد رابع عشر ، حضر يشا يشا
ملك الأمراء : الأمير على العشمانى . وحضر الشيخ

نائب القلعة ، والأمير نصوص ، والأمير شيخ ،
والقاضى حسنة ، وغير هؤلاء من الكواخى .

أحضر الأمير جانم الحمزاوى مرسوم السفندان
سليمان ابن عثمان - نصره الله تعالى - ققطان

اليه الأمراء العشمانية قاطبة ، وملك الأمراء ، ولم
يحضر ذلك المجلس أحد من الأمراء الجوانقة .

ثم قرئ عليهم ذلك المرسوم ، فكانت انفاظه باللغة
التركية ، فأحضروا من حلها بالعربية .

فكان من مضمونه أن السلطان سليمان نص

ملك الأمراء نعمنا عظيمنا ، وفوض له التكلم على
مصر وأعمالها ، يعزل بها من يختار ، ويولى من

يختار ، من الثغور والبلاد الشرقية والغربية وبلاد
الصعيد .

ومن مضمونه أنه اذا قدم عليه قاصد من بلاد
الروم ، لا ينعم عليه بأكثر من ألف دينار . فانه
بلغ السلطان سليمان أنه ينعم على قصاده
الواردة عليه من بلاد الروم ببال جزيل ، فمنعه
من ذلك .

ومن مضمونه أن ملك الأمراء ينظر فى أحوال
الرعية ، ويصرف للجند جوامكهم فى كل شهر
على العادة ، وأن ينظر فى أمر المعاملة فى الذهب
والفضة .

ومن مضمونه أنه أرسل يطلب جماعة من
الأصباية يمضون الى اسطنبول ، ويحجوا الى
مصر غيرهم .

وأرسل يقول لملك الأمراء أن ينظر في أمر تسعير
البضائع بالتسريح وغيره ، وأظهر غاية العدل في
مرسوم ملك الأمراء ، وأكد فيه النظر في أحوال
الرعية قاطبة . وفيه يقول الناصري محمد بن
قانسوه بن صادق :

كعب سليمان كعب خير

أعنى ابن عثمان دام ملكه
من كعبه مصر في رخاء

ومن سطاء الملوك ملكه

وفيه أشيع أن السلطان رسم للأمير جانم
الحمزاوي أنه إذا دخل إلى حلب يطلع القلعة
ويأخذ المال الذي كان السلطان الفوري أودعه بها
لما خرج إلى ملاقاته السلطان سليم شاه بن عثمان ،
وكان نحو ستمائة ألف دينار وكسور ، فرسم
السلطان سليمان بحمل ذلك إلى ملك الأمراء خاير
بك ، وأنه يسبك الفضة ويضربها باسم السلطان
سليمان بمصر ، وتمشى في المعاملة للناس ، والله
أعلم بحقيقة ذلك هل له صحة أو لا .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره ، نزل ملك الأمراء
من القلعة ، وعدى إلى بر الجيزة ، ونزل بشبرمنت
على سبيل التنزه ، وكان صحبته الأمير قانسوه ،
وآخرون من الأمراء الجراكسة ، والأمراء العثمانية
والقاضي شرف الدين الصغير ، والشهابي أحمد بن
الجييعان ، والقاضي بركات بن موسى المحتسب ،
وآخرون من المباشرين . وأقام بشبرمنت إلى يوم
الأربعاء رابع عشرى صفر وأرسل يطلب عليقا
ودقيقا ، وغير ذلك من دجاج وأوز . وأشيع أنه
توجه من هناك إلى نحو النجيلة يتصيد فتوجه
إليه الأمير جانم الحمزاوي ، وتقيب الجيش
الجمالى يوسف ، والقاضي شرف الدين بن عوض
ويوسف بن أبي الفرج المفتش ، وابن أبي اصبع

وغير هؤلاء من الأعيان وأرباب الوظائف .
وفيه توفي القاضي بدر الدين محمد بن حجاج
الموقع ، وكان من الأعيان وخدم عدة أمراء
مقدمى ألوف .

واستهل شهر ربيع الأول يوم الأربعاء ، وكان
ملك الأمراء عائبا ، فلم تطلع القضاة إلى القلعة
ولم يهتئوا بالشهر .

فلما كان يوم الثلاثاء سابعه ، حضر ملك الأمراء
من تلك السرحة ، فكانت مدة غيبته في هذه
السرحة خمسة عشر يوما ، فتنزه هناك وانشرح
إلى الغاية ، وتصيد عدة من الكراكي والغزلان ،
ودخل عليه جملة تقادم حافلة من مشايخ العربان
الذين بالعربية والشرقية ، والكشاف المدركين ،
ما بين ذهب وفضة وخيول وجمال وبقر وجاموس
وغنم وأوز ودجاج وقذور غسل نحل وسمن ،
وغير ذلك أشياء فاخرة تهدي للملوك .

فلما رحل من النجيلة لم يتوجه إلى الاسكندرية
ولم يدخلها في هذه المرة ، بل قصد العود إلى
القاهرة . فلما وصل إلى قرية قليوب ، تسامع به
الناس فخرجوا إليه ، فأضافه هناك شيخ العرب
ابن أبي الشوارب ، وبات بقلوب . فلما أصبح
رحل من هناك ، وتوجه إلى تربة العادلى التى
بالريدانية ، فمدت له هناك مدة حافلة ، فتعدى
هناك ورحل ، فخرجت إليه قضاة القضاة لتلقيه
فلم يجتمعوا به ، ولم يكن معه غير قاضى القضاة
محيى الدين بن الدميرى فقط . ثم اصطف له
الناس على الدكاكين لأجل الفرجة ، فلم يشق من
القاهرة في ذلك اليوم ، وطلع إلى القلعة من بين
الترب ، فلم يشعر به أحد .

وفي يوم السبت حادى عشره عمل ملك الأمراء
المولد النبوى ، فاجتمعت القراء والوعاظ بالدهيشة

وأرسل يقول لقضاة القضاة : لا تكلفوا خواطركم ولا تطلعوا القلعة ، فإن ملك الأمراء حصل له توعدك في جسده ، فلم يحضر المولد . ثم أرسل خلف قاضى القضاة المالكى على انفراده ، وقال له : اطلع واحضر المولد . وكان قاضى القضاة المالكى من أخصاء ملك الأمراء ، وكان عنده من المقرين .

ثم إن ملك الأمراء أرسل يقول للأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية : لا تكلفوا خواطركم ولا تطلعوا الى القلعة بسبب المولد ، فإن ملك الأمراء احتجب في ذلك اليوم بالأشرفية التى بجوار الدهيشة . ولم يجلس عند المقرين ، ولا حضر السباط في ذلك اليوم ، بل قعد على رأس السباط قاضى القضاة المالكى ، والأمير برسباى ، والخازندار ، وآخرون من الأمراء العثمانية ، وانقضى ذلك .

وفيه خلع ملك الأمراء على القاضى أبى السعود ابن الشحنة ، واستقر أمير جكار عوضاً عن الناصرى محمد بن أحمد بن اسنبغا بحكم صرفه عنها .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على الطواشى مسك فرسم بتوسيطه ، ثم شفع فيه الأمراء العثمانية فرسم بنفيه الى المدينة الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . فخرج من يومه وسافر في البحر المالح ، وكان سبب ذلك أن مسك هذا لما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان الديار المصرية ، لم يقابله واختفى حتى رحل ابن عثمان عن مصر ، واستقر الأمير جان بردى الغزالى في نيابة الشام وسافر اليها ، فخرج مسك صحبته في الخفية ، وأقام عنده بالشام ، فلما جرى للغزالى ما جرى وقتل ، حضر مسك الى القاهرة ، وقابل ملك الأمراء وصار عنده من المقرين .

وكان مسك هذا لطيف الذات ، يشتمل على

جملة من المحاسن ، منها الخط الجيد ، والقراءة الحسنة ، وغير ذلك من المحاسن . فاتفق أن الطواشى الذى يحضر من اسطنبول رأى مسك هذا الذى كان يكره السلطان سليم شاه ، ولما دخل الى مصر هرب وتوجه الى جان بردى الغزالى فتغير خاطره عليه ، فرسم ملك الأمراء بتوسيطه ، ثم شفع فيه من التوسيط فرسم بنفيه ، وكان مسك هذا من أعيان خدام الأشرف قايتباى

وفي يوم الجمعة سابع عشره خرجت الملكة خاتون عمة السلطان سليمان -- وقد تقدم القول أنها أتت الى مصر لتصحج -- فلما حجت قصدت العودة الى بلادها ، وعين معها ملك الأمراء جباعية من الكيلية ومن الأصباكية يحفظونها في الطريق اذا سافرت . فأشيع بعد سفرها بأيام أن العربان خرجت عليها في العريش ، ونهبت أطراف يركها من جمال وقماش وغير ذلك .

ومن النوادر الغريبة ما وقع يوم الخميس ثالث عشره ، وذلك أنه قد أشيع في القاهرة بين الناس ، أن الشهابى أحمد بن الجيعان قد شق نفسه ، فاضطربت القاهرة في ذلك اليوم أشد الاضطراب ، ولم يتك أحد من الناس في ذلك ، لأن المقر الشهابى أحمد بن الجيعان حصل له في تلك الأيام غاية الشدائد والمحن ، وصار ممقوتا عند ملك الأمراء ، وقد تقدم القول على سبب ذلك ، فلم تقويت الإشاعات بذلك ، كان الشهابى أحمد بالقلعة ، فقال له الأمير جانم الحمزاوى قم وانزل وشق من القاهرة حتى تصمد هذه الاشاعة ، فقام ونزل من القلعة ، وشق القاهرة . فلما رآه الناس فرحوا به وهنئوه بالسلامة ، وخمدت تلك الاشاعة الباطلة التى ليس لها صحة ، فعند ذلك من النوادر الغريبة .

وفى شهر ربيع الآخر ، وكان مستهله يوم الجمعة ، دلى القضاة الأربعة ومننوا ملك الأمراء بالشهر فلما تكامل المجلس حصل فى ذلك اليوم تشاجر بين قاضى القضاة الحنفى على الطرابلسى ، وبين مستنبيه محب الدين سبط الشيخ بدر الدين محمد بن الدهانة ، وقد ناقضه قاضى القضاة الحنفى فى القول ، وقال له حكمك لا يجوز ، قد وليت بالرشوة . وأسعه من هذه الألفاظ المنكرة أشياء كثيرة بحضرة ملك الأمراء ، وبحضرة قضاة القضاة ومشايخ العلم ، فقال قاضى القضاة الشافعى لمحب الدين : حكمك الذى حكمته باطل . فقال له محب الدين : ما هو صحيح منك . واستمر المجلس يتزايد فى اللفظ بين الفقهاء بحضرة ملك الأمراء . وكان قاضى القضاة الحنفى أهوج رهاجا ، وعنده صعصعة وبادرة حدة مع قلة دربة .

فلما رأى ملك الأمراء المجلس قد انفض على غير طائل ، أصلح بين قاضى القضاة الحنفى وبين مستنبيه محب الدين سبط ابن الدهانة ، فاصطلحا صلحا على فساد ، وانفض ذلك المجلس .

ثم ان ملك الأمراء قال لقاضى القضاة الحنفى : لا تبقى تعارض محب الدين فى أحكامه . فنزل محب الدين وهو منتصف على قاضى القضاة ، وقد بهدله فى ذلك اليوم غاية البهذلة .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأنه قد وقع بها زلزلة عظيمة ، فهدمت عدة بيوت سقطت على أهلها ، ورمت الأعمدة التى تحت الأماكن والقبب ، وكانت من الأمور المهولة . وذكروا أنه وقع مثل هذه الزلزلة فى أيام الخنكار أبى يزيد جدد السلطان سليمان ، فجرى عقيب ذلك ما جرى مع السلطان قايتباى ، وكسر مرتين ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده .

وفى يوم الخميس سابعه أشيع أن شخصا منجما قال انه فى يوم الجمعة تثور على الناس رياح عاصفة ، وتقع زلزلة عظيمة حتى تسقط منها البيوت ، وتقضى الناس وهم فى صلاة الجمعة . فانتشرت هذه الاشاعة فى القاهرة ، وانطلقت ألسنة الناس بذلك قاطبة . فاضطربت القاهرة لهذه الاشاعة ، وصار الناس يودع بعضهم بعضا ، وباتوا تلك الليلة على وجل .

فلما أصبحوا وجاء وقت صلاة الجمعة دخلوا الى الجوامع فصلوا وعلى رؤسهم طيرة . فلما قضيت الصلاة ، وخرجوا من الجوامع ، صار لهم ضجيج وهم يهتفون بعضهم بعضا بالسلامة ، ويصافحون بعضهم بعضا ، وخمدت هذه الاشاعة التى لا أصل لها .

وقد اتفق وقوع مثل هذه الواقعة فى أوائل سلطنة الأشرف قايتباى . وأشيع مثل ذلك أن الناس اذا صلوا الصلاة يقبضون وهم فى صلاة الجمعة ، فلما دخل الناس الى الجوامع صار على رؤسهم طيرة ، فاتفق أن خطيبا كان فى الجامع الذى عند ميدان القمح ، وكان يعتره خلط مصرع ، فلما سعد المنبر عرض له ذلك الخلط المصرع ، وهو على المنبر ، فاضطرب وسقط عن المنبر ، فلما عاين الناس ذلك اضطربوا وهربوا من الجامع ، ولم يصلوا وظنوا أن الذى أشيع حق ، فعد ذلك من اسوار من اسوار مصر بيس هم عقول ... يصدقون بالمحالات الباطلة التى ليس لها صحة !

وفى يوم الاثنين حادى عشر ، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى بولاق ، وكشف على المراكب الأغربة التى عمرها هناك ، فسيرت قدامه فى البحر ذهابا وإيابا ، وهو ينظر اليها والنفوط عمالة ، ثم عاد الى القلعة .

عليهم رياح عاصفة ، فلمسا وصلت المركب الى
تسيرا دارب في البحر وغرقت هناك بكل ما فيها
من الخلائق والبضائع والأصناف . وكان فيها
تجار معاربة وبحارة ، وكادوا قبل سفرهم صاروا
يشموتون على الناس ويسككونهم من الطراقات
غسبا بسبب المراكب ، ففكر الدعاء عليهم من
الناس بظلمهم ، وحصل لأهل مصر في ذلك اليوم
عايه الضرر . فلما سافرت المراكب غرق اكبرها
في يومه لما حلت من بولاق ، وذلك بدعاء الناس
عليهم .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى : أن المعلم
ابراهيم اليهودى ، معلم دار الضرب ، كان له
جاريتان احدهما حبشية والأخرى سوداء ، فوطيء
الجارية الحبشية فحبلت منه ، فوضعت بنتا ،
فعاثت تلك البنت سبعة أشهر ، ثم ان الجارية
الحبشية أظهرت أنها تريد أن تدخل الحمام ،
فلما وصلت الى الحمام هربت وتوجهت
الى بيت قاضى القضاة محبى الدين بن الدميرى ،
وقالت له : يا سيدى القاضى أنا مسلمة ، وأبدت
الشهادة بين يديه ، ثم قالت له أنا سيدى المعلم
ابراهيم اليهودى معلم دار الضرب ، وقد وطئنى
وحملت منه بهذه البنت ، وأنا صرت مسلمة مابقيت
أقعد عنده ، فحكم قاضى القضاة باسلامها في
الحال ، وأرسل خلف اليهودى معلم دار الضرب
بسبب ابنته ، فانها صارت مسلمة تابعة لأمها ، فحكم
قاضى القضاة باسلام البنت أيضا وأمها . فقبل ان
المعلم ابراهيم دفع لقاضى القضاة خمسمائة دينار
على أن يجعل البنت تبعا لأبيها فأبى من ذلك
واستمر مصمما على حكمه ، فطلع ابراهيم
اليهودى الى ملك الأمراء وكتب قصة بشرح الحال ،
ووقف الى ملك الأمراء ، فقال له : « قاضى القضاة
حكم باسلام البنت وأمها وصارت مسلمة ، أعيدها
أنا الى دين اليهود ؟ » . فلم يطلع من يد ابراهيم

وفى يوم السبت سادس عشره ، سقطت القبة
العظيمة التى كانت على الايوان باكر النهار ،
وهذه القبة من انشاء الناصر محمد بن علاون .
فلما سقطت تفاعل الناس بزوال ملك ملك الأمراء
عن قريب ، وهذه القبة لها نحو مائتى سنة من
حين عمرت ، وكانت من خشب وفوقها رصاص ،
وكانت مغلفة بقبشاني أخضر . ولم يعمر في مصر
أكبر منها ، وكانت من نوادر الزمان .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره توجه الأمير
شيخ العثماني الى اسطنبول ، وأرسل صحبته
تقدمه حافلة الى السلطان سليمان بن عثمان ،
وأرسل يشاور السلطان في أمور كثيرة من أحوال
المملكة ، وينتظر الجواب عن ذلك .

وأشيع أن السلطان سليمان أرسل يطلب من
ملك الأمراء نحيل بلح ليزرعها . في اسطنبول ،
فشرع ملك الأمراء في تجهيز ذلك ، فقبل انه
أرسل اليه خمسمائة نخلة من البلح الحياتى ،
وهى نحيل صغار تطرح بلحا حيانيا أحمر في غاية
الحلاوة ، فأرسل تلك النخيل في صناديق خشب
وهى في طينها ، وأرسلها في مراكب الى البحر
المالح ، وتتوجه من هناك الى اسطنبول ، وأرسل
صحبتها خولة تزرعها هناك .

وفيه جهز ملك الأمراء الأغربة وبها مقاتلون
من المغاربة وغيرهم . وقد بلغه أن جماعه من
الفرننج تعبت في السواحل وتشوش على
المسافرين في البحر . ولما سافر بعض التجار من
الأروام في البحر ، وقصد يطلع من الاسكندرية
ويتوجه من هناك الى اسطنبول ، أوسق معه عدة
مراكب بضائع وأصنافا كثيرة من قماش وغير
ذلك بنحو مائة ألف دينار .

وكان في ذلك المركب رجال ونساء وصغار
وتجار من الأروام وعبيد وجوار ، فلما سافروا
من ساحل بولاق وأقلعوا ذلك اليوم ثارت

اليهودى فى هذه الواقعة شىء ، ونزل من القلعة وهو مخزى ، وعثقت الجارية وابنتها على رغم أنفه .

وفيه قدمت الأخبار من الغربية أن عربان عزالة قد نزلوا على البساط بالقرب من تروجة وصاروا ينهبون الجرون ، ويرعون الزروع ، فحاربهم شيخ العرب اسماعيل ابن أخى الجويلى وكسرهم ، واحتوى على جمالهم وأغنامهم وخيولهم وغير ذلك ، ولم يترك لهم شيئا ، وهربوا ومضوا حيث شاءوا . ثم ان اسماعيل أرسل تلك الغنيمة الى ملك الأمراء ، فشكره على ذلك .

وفى شهر جمادى الأولى ، وكان مستهله يوم السبت ، طلع القضاة الأربعة وهنثوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى منازلهم . وفى ذلك اليوم خلع ملك الأمراء على الأمير جانم السيفى دولات باى الأتابكى كاشف الفيوم ، وقرره أمير ركب المحمل على عادته . وهذه ثالث مرة يسافر أمير الحاج فى دولة ملك الأمراء خاير بك .

وفى ذلك اليوم نادى ملك الأمراء فى القاهرة بأن الدينار السليم شاهى يصرف بأربعين نصفا من الفضة العتيقة ، والدينار السليمانى يصرف بخمسة وستين نصفا حسابا عن كل نصف فضة من الفضة الجديدة يقع بنصفين وربيع ، عبارة عن أن الدينار السليمانى يقف فى البيع والشراء بخمسة وعشرين نصفا .

فلما نودى فى القاهرة بذلك اضطربت أحوال الناس فى تلك المعاملة ، وصارت البضائع تباع بسعرين ، سعر بالفضة الجديدة ، وسعر بالفضة العتيقة ، فضج الناس من ذلك ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، وبطل البيع والشراء ، ووقف حال

التجار والمسيبين ، وصار النصف العتيق يصرف بستة دراهم فلوس جدد ، والفضة الجديدة تصرف بنصفين وربيع ، وقد لعب ابراهيم اليهودى فى أموال المسلمين من ذهب وفضة وفلوس جدد ، وتحكم فى أخذ ما بيد الناس من أموالهم بغير حق ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء خامس الشهر ، اجتمع الجهم الكثير من السوق والمسيبين وجماعة من القزازين من منية أبى عبد الله ، وجماعة من المكاسة وغير ذلك ، وحملوا على رؤوسهم مصاحف وربعات وأعلاما وطلعوا الى القلعة ، وزعموا أن محبى الدين بن أبى أصبح قد ظلمهم بسبب مكس الأطرون ، وأخذ منهم على حكم المعاملة الجديدة كل نصف بنصفين وربيع ، وقد ظلمهم وصار يقيم لهم النصف من الفضة العتيقة بستة نقرة . فلما طلعا الى القلعة لم يجتمعوا بملك الأمراء ، واحتجب عنهم ، وأرسل اليهم الأمير جانم الحمزاوى والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك . فقال لهم ملك الأمراء : يقول لكم هذا أمر السلطان فى أمر المعاملة . فكابروا ووقفوا وشكوا وتحسبوا ، فخرج اليهم جماعة من الانكشارية فضربوهم بالعصى على وجوههم ، فتشتتوا ونزلوا على أسوأ حال وهم فى غاية الذل . وفيه نزل ملك الأمراء وتوجه الى بركة الحبش على سبيل التنزه ، فجهز اليه القاضى المحتسب هناك مدة حافلة ، وأقام الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة فى يومه .

وفيه نودى فى القاهرة بأن السنج والأرطال القديمة التى كانت تتعامل بها الناس من قديم الزمان تبطل جميعها من القاهرة ، وأخرجوا لهم سنج نحاس وأرطالا تسمى العثمانية ، وهى عبارة عن تسعة دراهم ، فتتقص كل مائة درهم أربعة

دراهم في سائر الأوزان قاطبة في البضائع ، حتى في المسك والعود والعنبر وغير ذلك ، فتصير كل مائة درهم ستة وتسعين درهما ، وعملوا مثل ذلك في القبان أيضا ، وخرجوا على الناس في استعمال تلك السنج والأرطال ، وأوعدوا السوق أن كل من خالف في ذلك شق من غير معاودة في ذلك . وقد تقدم القول أنهم أبطلوا الذراع الهاشمي ، وأخرجوا الذراع العثماني الذي يزيد على الهاشمي خمسة قراريط ونصف قيراط . وكتبوا على التجار قسائم ألا يستعملوا الا الذراع العثماني فقط فشق ذلك على الناس قاطبة .

وفي يوم السبت ثامن الشهر ، رسم ملك الأمراء بشنق أنفار منهم يهودي ونصراني ، وقد ظهر عليهم شيء من الزغل في الذهب والفضة ، وقد نم النصراني على اليهودي ، فكبسوا على اليهودي في بيته ، فوجدوا عنده آلة الزغل ، وشخص آخر مقدم درك الأزبكية ، أشيع أنه قتل في دركه شخصا من الانكشارية ، وشخص آخر قيل هو ابن أنس التي كانت في الأزبكية وغرقوها قبل تاريخه ، فحوزقوا الأربعة في يوم واحد فأما اليهودي فحوزقوه عند باب الصاغة ، والنصراني خوزقوه بالقرب من المارستان ، وأشيع عنه أنه لما حوزقوه أسلم وتلفظ بالشهادتين فلم يلتفتوا الى اسلامه ، فحوزقوه وأقام يوما وليله وهو في قيد الحياة يتكلم حتى مات بعد ذلك ، وأما مقدم درك الأزبكية فحوزقوه في الأزبكية عند الدكة بالقرب من بركة قرموط ، عند المكان الذي قتل فيه الانكشاري ، وأما ابن أنس القوادة التي غرفوها ، فحوزقوه في الأزبكية ، قيل انه كان له جرة في الانكشاري الذي قتل .

ومن الحوادث الشنيعة في ذلك اليوم ، أن جماعة من الانكشارية مروا بذلك النصراني الذي خوزقوه

عند باب المارستان ، فوجدوه يتلفظ بالشهادتين ، فطلب شربة ماء من الانكشارية الذين حوله ، وكان أربعة ممالك من ممالك الأمير قايتباي الدوادار واقفين مع الانكشارية ، فرفقوا بذلك النصراني وأنزلوه الى الأرض وقلعوا الحازوق من بطنه ، وسقوه شربة ماء وأرقدوه على الأرض ، فحصل بين الانكشارية وبين ممالك الأمير قايتباي الدوادار تشاجر بسبب ذلك النصراني ، فانسع الشر بينهم ، فسحب بعض ممالك الأمير قايتباي خنجرا وهاش به على الانكشارية ، ففجرح منهم شخص وسال دمه ، وانقطعت جوحته ، فتكاثرت الانكشارية على الممالك فهربوا منهم ، وتوجهوا الى بيت الدوادار الذي بين القصرين ، فتبعهم الانكشارية وهجموا عليهم في بيت الدوادار ، فأغلقوا الباب في وجوههم ، فحنقوا منهم وقصدوا أن يحرقوا الباب ، واثارت فتنة عظيمة كما يقال . « ومعظم النار من مستصغر الشر » .

فلما بلغ الوالي ذلك أرسل دواداره فأعاد النصراني الى الخازوق ثانيا وفيه الروح ، فلما طلع النهار بلغ ملك الأمراء أحبار هذه الواقعة فتعير خاطره على الأمير قايتباي الدوادار بسبب ممالكه ، فأرسل يطلب منه ممالكه الذين فعلوا هذه الفعلة ، فطلع اليه الأمير جانبي بك أخو الدوادار ، فلما رآه ملك الأمراء طمأن فيه بالكلام ، وقال له ان لم تحضر هذه الممالك الذين أثاروا هذه الفتنة ما يحصل لك خير ، فنزل من عنده وهو في غاية النكد .

ثم ان ملك الأمراء فادى في القاهرة : كل من أخفى عنده مملوكا من ممالك الدوادار شنق على باب داره من غير معاودة ، والذي يحضر مملوكا منهم له مائة دينار وقفتان مخلص .

فلما كان يوم الاثنين عاشر الشهر نزل ملك الأمراء الى الميدان وأحضر بين يديه مملوكين من مماليك الأمير قايتباى الدوادار ممن فعل هذه الفعلة ، وقد قبض عليهما والى ورسم بتوسطيهما فوسطوهما على باب الميدان ، ووسط معهما بواب الدوادار أيضا لكونه أغلق في وجه الانكشارية الباب ، فراح البواب ظلما . وكان عند ملك الأمراء الأمير قايتباى فمقتة ملك الأمراء غاية المقت .

فلما رسم ملك الأمراء بتوسط البواب ، قام الأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير نصوح العشاني ، وشفعا في بواب الدوادار فان له أولادا وأبا شيخا كبيرا ، فلم يلتفت الى شفاعتهم ، فقاما وقبلا يدي ملك الأمراء ثانيا مرة ، وهو لا يزداد الا قسوة ، وحصل للأمير قايتباى في هذه الحركة غاية البهذلة ، وانحطت كلمته عند الناس قاطبة .

وقيل ان الأمير قايتباى الدوادار دفع للانكشارى الذى قالوا انه جرح مائة دينار وأعطاه جوخة كانت عليه وجبتى حرير بفرو سنجاب في نظير جوخته التى شرطت ، وأعطاه خنجرا عوضا عن خنجره الذى زعم أنه سقط منه ، وأرضاه بكل ما يمكن ، وهذه من أبشع الحوادث وأشنعها .

ومن هنا نرجع الى أخبار ذلك النصرانى الذى أسلم لما خوزقوه ، فاستمر يتلفظ بالشهادتين حتى مات ، فشاوروا عليه قاضى القضاة كمال الدين الطويل الشافعى ، فرسم بأن يغسلوه ويكفنوه ويصلوا عليه ويدفنوه في مقابر المسلمين ، ففعلوا به ذلك ، وسار جماعة من العوام قدام نعشه حتى دفنوه بعد الصلاة عليه في جامع الحاكم .

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، سافر القاصد الذى كان حضر وبشر بأن الأمير مصطفى قد تزوج بإبنة السلطان سليم شاه ، وهى أخت السلطان

سليمان ، فأنعم عليه ملك الأمراء بمال له صورة ، وكذلك سائر الأمراء العثمانية وأرباب الدولة ، فدخل عليه فوق العشرة آلاف دينار . ودخل عليه مثل ذلك بالشام وحلب وسائر النواب .

وفي يوم الجمعة رابع عشره ، أشيع فدوم شيخ العرب الأمير أحمد بن قاسم بن بقر ، ويعرف بأبى الشوارب ، وكان توجه الى الأمير جان بردى الغزالى ، وطلب له من ملك الأمراء الأمان على نفسه ، فحضر الى القاهرة وقابل ملك الأمراء فخلع عليه ، وصار عنده من المقرين فأقام مدة على ذلك . ثم بدا لملك الأمراء قتله ، فأرسل الى جاني بك كاشف الشرقية بأن يقطع رأسه ، فتوجه اليه جاني بك وهو في منية أبى الحارث بالدقهلية ، فهجم عليه وقطع رأسه ، وقتل معه شخصا آخر من مشايخ عربان العايد ، فلما قتل الأمير أحمد بن قاسم بن بقر نهبت داره ، وسبيت نساؤه وأولاده ولم يعلم أحد ما سبب ذلك .

ثم ان الأمير جاني بك الكاشف أرسل رأس الأمير أحمد بن قاسم ، ورأس شيخ العايد ، فرسم ملك الأمراء بدفن الرؤوس ، وقد أخذ ملك الأمراء بشأره من أحمد بن قاسم وكان في قلبه منه شيء من حين توجه الى الغزالى نائب الشام فكان كما يقال في المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها

عيننا عليك اذا ما نمت لم تتم

وفيه توفى الأمير تراز الشمسى السيفى الأتابكى الذى كان كاشف البحيرة ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الاثنين سابع عشره ، قبض ملك الأمراء على المقر الشهابى أحمد بن الجيعان ، وسجنه بالقاهرة بالعرقانة ، وكان ملك الأمراء متحملا منه

فى الباطن غاية التحمل ، وكانت هذه أول كائنة وقعت له مع ملك الأمراء ، وأمره الى الله تعالى ، فأقام أياما وهو فى الترسيم .

ثم أن ملك الأمراء خلع عليه بعد ما أورد مالا له صورة من التقسيط الذى كان عليه ، وقد نقد منه جميع ما معه من المال ولم يبق على ملكه لا رزقة ولا اقطاع ولا بيوت ولا دكاكين ، وباع سائر قاعاته التى على بركة الرطلى فاشتراها الأمير قاسم الشروانى الذى كان نائب جدة بأبخس الأثمان ، وجرى عليه شدائد ومحن دون أقاربه السذين مضوا ، وما لاقى خيرا فى هذه الدولة وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الاثنين كان عيد الفصح عند النصارى — وهو أول يوم من الخمسين — وهو أكبر أعياد النصارى ، فحكى عن يونس النصرانى مباشر ملك الأمراء أنه صنع فى ذلك اليوم خمسين بطة من الدقيق برسم الكعك والخشتان ، واثنى عشر قنطار شيرج ، وعشرة قناطير سكر ، وعشرين ألف بيضة برسم صباغ البيض الذى يفرق على الناس ، ودخل عليه تقادم من الأعيان وأشياء كثيرة من أغنام وأوز ودجاج وغير ذلك .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى : أن شخصا يقال له ابن الشاطر حسن المصارع ، خرج من بيته بعد العصر ، وركب على حماره ، ثم جلس على مصطبة تحت بيت فى الجسر ليتفرج ، فاضطرب ساعة يسيرة ثم طلعت روحه فى الحال ، وصار ملقى على الطريق ، فمضى الناس الى ولده وزوجته وأخبروهما بموته ، فأحضروا له نعشا وحملوه عليه بعد المغرب ، ومضوا به الى بيته ، وكان ذلك الرجل يبيع الورق ، فنعوذ بالله من موت الفجأة على حين غفلة .

وفى يوم السبت ثانى عشره ، قدم أمير من أمراء السلطان سليمان ، وقد طلع من البحر من ثغر الاسكندرية ، فلما بلغ ملك الأمراء قدومه رسم للأميرجانم الحمزاوى والأمير قايتباى الدوادار أن يخرجوا الى ملاقاته ، فخرجوا الى وردان ولاقوه من هناك ، ومدوا له هنالك مدة حافلة ، وصارت الكشف ومشايخ العربان تمتد له المدات بطول الطريق ، فلما وصل الى بولاق نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك .

فلما كان يوم الأربعاء سادس عشره ، دخل الأمير سنان بك الذى أرسله السلطان سليمان الى مصر ليقيم بها عوضا عن الأمير نصوح ، ويسافر الأمير نصوح الى اسطنبول . قيل ان الأمير سنان هذا كان عند السلطان سليم شاه بن عثمان من المقربين ، وكان عنده بوابا لما دخل الى مصر ، وكان موكلا بحفظه ليلا ونهارا ، فلما رجع السلطان سليم الى اسطنبول جعله نائبا على بلد يقال لها انطاكية ، فلما تسلمن ولده سليمان أرسله الى مصر ل يكون أمينا على ملك الأمراء . فلما توجه اليه ملك الأمراء أركبه فرسا بسرج ذهب ، وعرقه زركش ، وألبسه قفطانا مذهبيا ، فركب من بولاق ، وملك الأمراء صحبته ، فتوجهوا من باب البحر ، وعلى رأسه صنجق حرير أحمر ، وخلفه طبلان وزمران ، وكان معه نحو مائة مملوك مشترواته ، فلما دخل من باب البحر استمر فى ذلك الموكب حتى شق من القاهرة وكان ذلك اليوم مشهودا ، فانزلوه فى بيت الأتابكى قرقماس الذى عند حوض العظام ، ومدوا له هناك مدة حافلة .

ثم أشيع أنه لما دخل الأمير سنان ، أخبر أن السلطان سليمان بن عثمان جهز خمسمائة مركب ، وشحنها بالسلاح والمقاتلين ، وخرج بنفسه الى قتال أهل رودس من الفرنج ، وقد جمع من

العساكر ما لا يحصى عددهم ، وهو قاصد التوجه اليهم

قيل ان الأمير سنان لما مر على ضياع الشرقية التي على شاطئ البحر ، وقف اليه الجم الكثير من الفلاحين واستغاثوا به ، ودعوا بالنصر للسلطان سليمان ابن عثمان ، وقالوا قد خربنا من الظلم يأخذوا منا النصف من الفضة الجديده بصمين وربع وعند الحساب يقيمونه علينا بنصف فضه ، ما يحل من الله سبحانه وتعالى ، فوعدهم بالنظر في أحوالهم ولم يظهر لقوله نتيجة فيما بعد ، واستمر كل شيء على حاله .

وفي يوم الخميس سابع عشره طلعت مقدمة الأمير سنان بك الى ملك الأمراء ، فكان من جملتها أربعة ممالك صغار مرد چراكسه ، وحملاان ما بين شربات وطاسات وغير ذلك وحملاان شقق برصاوى مذهب ، وأثواب محمل ملون وعليها فرو سمور ووشق وسنجا ، وحملاان أقواس وغير ذلك .

وفي يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع الأمير سنان بك الى القلعة ، وحصر الأمراء العثمانية ، ثم ان الأمير سنان أحضر مرسوم السلطان سليمان الذى حضر على يده ، فلما قرئ عليهم ، كان من مضمونه الوصية بالرعيه ، والنظر في أحوال الناس في أمر المعاملة ، وأرسل يهول ملك الأمراء انه لا يمكن أحدا من الانكشارية من النزول الى المدينة حتى لا يشتكى أحد من الناس منهم ، وان ملك الأمراء لا يصرف لهم في كل يوم أكثر من درهمين فضة ، كما كانوا في اسطنبول ، وأرسل يقول له أشياء كثيرة من تعلقات المملكة .

وفي شهر جمادى الآخرة - وكان مستهله يوم الأحد - طلع القضاة الأربعة وهننوا ملك الأمراء

بالشهر تم عادوا الى منازلهم . وقيل لما طلع القضاة الى القلعة للتهنئة نزل ملك الأمراء لزيارة الامام الشافعى والامام الليث فأبطأ عليهم حتى اضحى النهار وهم جلوس بجامع القلعة ، فلما عاد جلس بالدهيشة وأرسل خلفهم فهننوا بالشهر ونزلوا

وفي ذلك اليوم حضر الشريف البردينى من اسطنبول ، وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان متوج بعلامته ، بأنه استقر به ناظر المدرسة الشيعوية وشيخها ، وكذلك مشيحه مدرسة الأمير فانى باى الجركسى التى فى الرملة ، والنظر على جهات السادة الأشراف فاطبة ، فلم ملتفت الى ما فى مراسيمه ، وعز ذلك عليه ، فانه أخذ عدة أنظار ، ونزع آدى المتحدثين عليها

ومما وقع فى ذلك اليوم أن شحضا وقف الى ملك الأمراء فضه واشتكى فيها المقر الشهابى أحمد بن الجيعان شكوى بالغة ، وكان ملك الأمراء متغيظا عليه ، فلما شكاه ذلك الرجل قبض عليه ملك الأمراء وسجنه فى محزن عند بواب الحوش ، ورسم أن لا يدخل عليه أحد من جماعته ، ولا نفرش تحته شيء ولا حصر ثم قبض على دواذره محمد وضربه بين يديه وسجنه بالعرقانة داخل الحوش ، وقرر عليه ألف دينار بوردها على الحامكة

وفي يوم السبت سابعه ، دخل العسكر الدين أرسلهم السلطان سلمان الى مصر بقيمون بها ، والدين كانوا بها سوجهون الى اسطنبول ، فلما وصل العسكر الى الريدانية ، نزل ملك الأمراء الى قرية العادلى ، ولاقى العسكر الدين حضروا من اسطنبول ، وكان باشهم سسمى الأمير خضر ، وكان ذلك العسكر كله من الاصباينة ، فيل انهم فوق ألف اسنان ، فدخل ملك الأمراء من باب النصر

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها

فكيف اذا الرعاة هي الذئاب ؟

وفى يوم الأحد خامس عشره ، خرج الأمير على العثماني باش العسكر الاصباهية ، وتوجه الى خيامه بالريدانية .

ثم فى يوم الخميس تاسع عشره ، خرج الأمير نصوح العثماني وصحبته من كان تأخر من الاصباهية ، فلما سافروا سكن الأمير سنان فى بيت الأمير أزدمر الدوادار عوضا عن الأمير نصوح ، وسكن الأمير خضر فى بيت الأمير طراباى ، عوضا عن الأمير على الذى توجه الى اسطنبول .

وفى يوم الجمعة عشريه ، حضر القاضى بركات ابن موسى المحتسب ، وكان مسافرا نحو المنزلة ، فأقام بها مدة ثم رجع ، فلما طلع الى القلعة ، وقابل ملك الأمراء خلع عليه ، فنزل من القلعة وهو فى موكب حافل . وفى ذلك اليوم أشهر المناداة فى القاهرة بأن الفلوس الجدد كل فلسين بدرهم ، فحصل للسوقه غاية الضرر بسبب ذلك .

ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب ضمن الشهابى أحمد بن الجيعان ، وأفرج عنه من الترسيم ، وكان له مدة فى الترسيم كما تقدم ، ونزل الى منزله .

وفيه عزم الأمير سنان على ملك الأمراء فنزله اليه ملك الأمراء فمد له مدة حافلة ، وحضر أيضا الأمير خضر فأقام ملك الأمراء عنده الى قريب انظر ، وركب من عنده وطلع الى القلعة .

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق ثلاث أنفس ، وكان ذنبهم أنهم سرقوا شيئا بسيرا من الخينار الشنبر ، فشنتقوا بسبب ذلك وراحوا ظلما .

وفى يوم الاثنين ثالث عشريه ، أفق ملك الأمراء على العسكر جامكية ثلاثة أشهر ، وآخر لهم ثلاثة لأنهم كان لهم ستة أشهر مكسورة لم تصرف .

وشق من القاهرة فى موكب حافل ، فلما دخلت الاصباهية الى مصر طفشوا فى المدينة بسبب البيوت التى ينزلون بها ، فصاروا يشوتشون على الناس ويخرجونهم من بيوتهم غصبا بالضرب ويسكنون بها .

ثم أشيع أنه حضر صحبة العسكر شخص من العثمانية يزعم أنه قاض من قضاة ابن عثمان وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر فى وظيفة يقال لها القسام ، وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثا على جميع الترك قاطبة ، الأهلية وغير الأهلية ، ولا يعارضه أحد من الناس فى ذلك ، ويأخذ مما يتحصل من كل تركة العشر لبيت المال الأهلية وغير الأهلية ، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل .

ومن مضمون مراسيمه أن لا أحد من الممالك الجراكسة وأولاد الأتراك قاطبة وأرباب الدولة والاصباهية والانكشارية يعقد عقدا على بكر أو ثيب الا عند ذلك القسام ، ويأخذ على عقد البنت ستين نصفا ، والثيب ثلاثين نصفا ، فأخذ قسائم على قضاة القضاة بذلك فاضطربت أحوال الناس لذلك ، ولم يتعصب أحد من قضاة القضاة لمنع ذلك عن المسلمين ، وقد خافوا على مناصبهم من العزل ، وتغافلوا حتى ضعفت شوكة الاسلام فى أيامهم ، واستطالت قضاة الروم عليهم .

وقد ترادفت الحوادث المنكرة ، والبدع الشنيعة المخالفة للشريعة فى هذه الأيام ، وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . فصار يوسف بن أبى الفرج مفتش الرزق والاقطاعات ، وفخر الدين بن عوض مفتش الرزق الأحباسية التى بالصعيد ، والأمير على العثماني مفتش الأوقاف قاطبة ، والقسام الذى حضر قسام الترك ، وملك الأمراء يعينهم على ذلك ، فأين المهرب ؟ كما يقال فى المعنى :

النواب والشهود والقضاة قاطبة ، وضاق الأمر على الناس أجمعين .

وفى يوم الجمعة سابع عشره ، وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء أرسل حلف الشهابى أحمد بن الجيعان شاويشا ، فلما حصر بين يديه ، بطحه على الأرض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون بوبة يضربونه بالعصى . ثم انه طلب القاضى شرف الدين الصغير كاتب الممالك — وكان مريضا ملازم الفراش وعينه موجوعة — ولما أرسل خلفه اعتذر بأنه قد شرب دواء وهو مريض . فحقق منه ملك الأمراء فأرسل اليه أربعة شاويشية ، فحملوه من فراشه وأركبوه غصبا ، فلما طلع الى القلعة ووقف بين يدى ملك الأمراء بطحه الى الأرض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون بوبة ، وهو يقول للممالك الذين يضربونه : « اضربوه قوى هذا عدوكم الأكبر » فضربوه حتى كاد أن يموت ويهلك .

ثم طلب القاضى شرف الدين بن عوض ، فلما حضر بطحه على الأرض وضربه ضربا مبرحا دون ضرب الشهابى أحمد بن الجيعان .

ثم طلب محبى الدين بن أبى أصبع وهم بضربه ، فشهد له الأمير برسباى انحنازندار أنه غلق ما عليه من التقسيط ، فأقامه ولم يضربه فى ذلك اليوم .

ثم رسم ملك الأمراء بسجن الجميع فى العرقانة فسجنوا فيها ، وقد خرب بيت أولاد الجيعان عن آخره . وقد اشتد غضب ملك الأمراء على المباشرين فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا بالنكد عليهم قاطبة ، وقيل لم يسجن بالعرقانة سوى القاضى شرف الدين الصغير ، وسجن الشهابى أحمد بن

وفى ذلك اليوم قطع ملك الأمراء جوامك كثير من الجراكسة وأولاد الناس ، وصرف لهم بحكم النصف ، فجعل لكل واحد ألف درهم ، ويصير طرخانا ، فشق ذلك على الممالك الجراكسة ، وكان فيهم من هو كفء للأسفار والتجاريد ، وفيهم من هو شاب بطل ، وكذلك أولاد الناس .

وفى أواخر هذا الشهر حضر ألاق من اسطنبول فى البحر المالح الى الاسكندرية ، ثم قدم الى مصر وطلع الى ملك الأمراء ، وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، فكان من مضمونه أن الواصل الى الديار المصرية الذى يسمى سيدى چلبى هو أعظم قضاة السلطان سليمان وأكبرهم ، وأن السلطان سليمان رسم بإبطال القضاة الأربعة الذين بمصر ، ويصير قاضى العسكر الذى هو قادم بتصرف فى الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة ، وأن سائر النواب والشهود تبطل قاطبة ، ويقتصر الأمر على أربعة نواب من كل مذهب نائب لا غير ، وكل نائب يقتصر على اثنين من الشهود لا غير ، وأن النواب الأربعة يكونون فى الصالحية لا غير ، وأن لا أحد يعقد عقدا ، ولا يوقف وقفا ولا يكتب وصية ولا عتقا ولا اجارة ولا حجة ولا غير ذلك من الأمور الشرعية حتى تعرض على قاضى العسكر بالمدرسة الصالحية دائما .

فلما وقف ملك الأمراء على مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان ، أرسل يهول للقضاة الأربعة اصرفوا الرسل عن أبوابكم ، والنواب قاطبة والوكلاء ، والزمو بيوتكم الى أن يحضر قاضى العسكر ، حسبما رسم به السلطان سليمان ابن عثمان . فامثلوا ذلك وصرفوا من كان على أبوابهم من الرسل والوكلاء ، فاضطربت أحوال

الجيعةان وابن عوض عند باب الحوش الى أن يكون من أمرهما ما يكون .

أقول ان أولاد الجيعةان قد خدموا سبعة عشر سلطانا وباشروا ديوان الجيش وكتابة الخزانة في أوائل دولة الأشرف برسباى ، وكان أول اشتهارهم وظهورهم في دولة الملك المؤيد شيخ ، وذلك نحو مائة وعشرين سنة ، فما أهينوا فيها قط ولا ضربوا ولا صودروا ولا جرى عليهم قط تشويش ، وهم في كل دولة معظمون مكرمون ، وما تبهدلوا قط ، وما جرى عليهم مثل ما جرى على الشهابى أحمد هذا ، وكانت السلاطين تعظمهم غاية التعظيم الى غاية دولة الأشرف الغورى .

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن شخصا من تجار الروم بخان الخليلى يقال له الخواجى محمود العجمى التبريزى ، وهو فى سعة من المال ، وكان يقرض أعيان المباشرين المال بالفوائد الجزيلة ، ويأخذ الربا من الناس على القرض ، ولا سيما المحتاج لذلك . فاتفق أنه سكر يوما وأتى الى منزله ، فوجد جواريه واقعات فى بعضهن ، وتقاتلن قتالا مهولا ، فحنق منهن ، فضرب جارية حبشية منهن على ضلعها ، فجاءت الضربة صائبة فماتت الجارية من وقتها ، وكان معه منها أولاد ، وكادت الأشلة تقوم عليه من الناس من أهل الحارة لأجل ذلك ، فطلع الى ملك الأمراء وفص عليه القصة بأمر تلك الجارية واعترف بقتلها ، فغضب عليه ملك الأمراء ورسم بمسكه ، ثم أرسله عند الوالى ، فركب الوالى وتوجه الى بيت الخواجى محمود ليكشف عن أمر تلك الجارية كيف قتلت ، فوجد الخواجى محمودا كان ظالما عليها ، وقد قتلها بغير ذنب ، وقد شهد أهل الحارة أنه سكر كل ليلة

ويعربد فى الجوارى ، فطلع الوالى الى ملك الأمراء وأخبره بسيرته القبيحة ، وأنه عاش على غير الطريق ، وأثنى جراحاته عند ملك الأمراء ، فرسم بسجن الخواجى محمود فى العرانة ، وقيل انه سأل ملك الأمراء أن يدفع اليه ألف دينار فأبى من ذلك ، ولو أن الخواجى محمودا أرضى الوالى بمائة دينار ، وستر عليه هذه الكائنة ، ما وصل الأمر الى ذلك ، ولكن اتسعت هذه الواقعة الى الغاية .

وأشيع أن ملك الأمراء طلب منه عشرة آلاف دينار ، وهذا كله آفة الربا الذى كان يأخذه من الناس ، فانه كان يقرض الألف دينار بألف وخمسمائة دينار ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا ، فختم ملك الأمراء على حواصله . ثم شفع فيه بعض الأمراء العثمانية ، فأخذ ثلاثة آلاف دينار . ثم ان ملك الأمراء تتبع أصحابه الذين كان يسكر معهم ، فأخذ من كل واحد منهم ألف دينار ، وكانت هذه السكر سكرة الشوم على الخواجى محمود وأصحابه .

وفى يوم الأحد تاسع عشره ، عرض ملك الأمراء القاضى شرف الدين الصغير والشهابى أحمد بن الجيعةان وشرف الدين بن عوض ، وقصد ضربهم ثانيا ثم وضعهم فى الحديد ، ورسم للوالى أن يشنق الثلاثة على أبواب بيوتهم ، واحتاط بهم مقدمو الوالى ، فضمنهم القاضى بركات بن موسى المحتسب الى باكر النهار ، حتى يسعوا فى سداد ما كان تأخر عليهم من التقاسيط التى تأخرت فى البلاد ، فأخذ الشهابى أحمد بن الجيعةان فى أسباب بيع بيوته ورزقه وأملاكه التى كانت على بركة الرطلى ، فاشتراها الأمير قاسم الشروانى بأبخس الأثمان ، ولم يبق بيد الشهابى أحمد لا

ملك ولا رزقة ولا بيت ولا ربع ولا دكان ولا شيء
قل ولا جل .

ثم ان آخته باعت جميع ما تملكه من مصوغ
وحلى ، حتى باعت البسط من تحتها والطاريج
واللحف والمخدرات وآثاث البيت ، وفعلوا مثل
ذلك بسراريه وجواريه الموتقات ، وغير ذلك من
حاشيته ، وعبيده وغلمانه .

ثم ان القاضى عبد الجواد أخا القاضى شرف
الدين الصغير ، أخذ فى أسباب ما يؤخذ على أخيه
من التقييط ، فافترض وتداين وقد أشرف على
التغليق وكذلك القاضى شرف الدين بن عوض .
وفى يوم الاثنين سلخ هذا الشهر ، أشيع أن
ملك الأمراء يقصد أن يعرض العسكر ، فطلع
العسكر الى القلعة قاطبة ، فلم يخرج ملك الأمراء
فى ذلك اليوم ، وأرسل يقول للعسكر : العرض
يوم السبت ، فانفضوا ونزلوا من القلعة ، ولم
يعرضوا فى ذلك اليوم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الشريف على بن
هजार أمير الينبع ، توفى هو ووزيره أحمد بن زحام
فى جمعة واحدة ، وكان من خيار من ولى امرية
الينبع .

وفى ذلك اليوم نودى فى القاهرة بأن الغريب
يسافر لأهله وألا يقيم بمصر غريب . وكان
سبب ذلك أنه أشيع أنهم قبضوا على شخصين من
الأعجام زعموا أنهم جواسيس من عند اسمعيل
شاه الصفوى .

وفى شهر رجب ، وكان مستهله يوم الثلاثاء
أهل هذا الشهر والناس فى أمر مريب ، بسبب
ما وقع من الحوادث من عزل القضاة الأربعة وسائر
نوابهم ، والشهود قاطبة ، وما وقع للمباشرين من
هذه الكائنة العظمى .

ومنها أمر المعاملة التى حصل للناس منها غاية
الضرر ، ولا سيما الفلاحين يقبضون الخراج منهم
على حكم الفضة الجديدة بنصفين وربع ، ويسيّمونه
عند الحساب بنصف واحد ، وفقد تزايد الاضطراب
فى هذه الأيام جدا من وجوه كثيرة .

وفى يوم الأربعاء ثانيه أشيع هروب شيخ العرب
بيرس بن بقر ، وأنه توجه الى نحو الطور
وأخوه عبد الدايم بالبرج فى القلعة ، وهو مقيد ،
وله نحو ثلاث سنين فى البرج لم يفرج عنه ، وصار
أبوهام الأمير احمد بن بقر هو المتكلم فى الشرقية قاطبة .
وفى هذا الشهر قدم الزينى عبد القادر بن الملكى
الذى كان توجه الى اسطنبول مع من توجه من
الأسرى ، فأفرج عنه السلطان سليمان ابن عثمان
مع من أفرج عنه .

وفيه نزل ملك الأمراء الى قصر ابن العيني
الذى بالمنشية على سبيل التنزه ، فأقام هناك الى
ما بعد العصر ، فأرسل اليه القاضى بركات بن
موسى المحتسب هناك مدة حافلة على حكم
ما تقدم له قبل ذلك .

وفى يوم الخميس ثالثه ، طلب ملك الأمراء
الشهابى أحمد بن الجيعان وشرف الدين بن
عوض ، فلما مثلا بين يديه رسم بضربهما ضربا
مبرحا فضربا حتى أشرفا على الموت ، وكانا فى
غاية الألم مما نالهما من شدة الضرب الأول ، وجاء
هذا الضرب الثانى زيادة على ذلك ، وأمرهما
الى الله تعالى .

وفى يوم السبت خامسه ، نزل ملك الأمراء الى
الميدان ، وجلس به وعرض العسكر قاطبة ، وعين
منهم جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة نحو ألف
 وخمسمائة مملوك ، وقال لهم : كونوا على برق ان
طلبكم السلطان من البحر توجهوا اليه ، وان
طلبكم من البر توجهوا اليه .

وفى ذلك اليوم طلع ملك الأمراء وقطع جوامك
كثيره من العسكر ، وصرف لهم بحكم النصف من
الجامكية

وفى يوم الأحد سادسه بودى فى القاهرة بأن
كراء بيوت الأوقاف التى تحت نظر القضاة وغيرهم
لا يقبضونه الا على حكم المعاملة الجديدة كل
نصف بصفين وربيع ، وأن الأشراف الذهب بصرف
بسبعة عشر نصفاً من القصة الجديدة ، فشق ذلك
على الناس قاطبة ، وحصل لهم غارة الضرر .

وفى يوم الاثنين سابعه ، عرض ملك الأمراء
جماعة من أمراء الجراكسة ، ما بين أمراء طبلخانات
وعشراوات ، فقطع رواتبهم التى كانت تصرف
لهم ، ثم رسم بأن يصرف لهم بحكم النصف من
ذلك ، كما فعل بالممالك الجراكسة ، فحصل لهم
فى ذلك اليوم كسر خاطر عظيم ، وكان فيهم
شيوخ من القرائصة الأعوات

وفى يوم الخميس عاشر الشهر ، قدم قاضى
العسكر الموعود به المسمى بسيدى جلبى ، واستمر
ملك الأمراء بصحبته الى أن أنزله فى بيت الأمير
جائى مصبغة ، الذى خلف المدرسة الغورية ،
وأرسل اليه مدة حافله ، فلما استقر هناك ، أتى
اليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ،
وقاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى ،
وقاضى القضاة شهاب الدين الفسوحى الحنبلى ،
وكان قاضى القضاة الحنفى مريضا فلم يحضر اليه ،
فقبل لما دخلوا عليه لم يغم لهم ولم يعظمهم ، وكانت
صفته أنه شيخ هرم ، أبيض اللحية ، طويل القامة ،
وعلى عينه اليمنى فص ، فلم ينظر الا بعين واحدة ،
وهو فصيح اللسان باللغة العربية ، حسن المحاضرة
ولكن قال القائل فى المعنى :

لا تشكرون امراً حتى تحربه
ولا تدمنه من غير جريب
فشرك المرء ما لم تبلة خطأ
وذمه بعد شذر محض تكذيب

وفى يوم السبت ثانى عشره ، بودى فى القاهرة
بإبطال الفضة العتيقة قاطبة ، وأنها تدخل الى دار
الضرب .

وفى ذلك اليوم نزل ملك الأمراء الى الميدان ،
وجلس به وأحضر الأمراء العثمانية ، والأمير
قايتباى الدوادار ، ثم حضر قاضى العسكر
وأخرج مرسوم السلطان سليمان الواصل على
يده ، فكانت ألفاظه باللغة التركية ، فأحضرها من
قرأ ذلك فكان من مصموه الوصيه بالريعية
قاطبة ، وانصاف المظلوم من ظالمة ، واصلاح المعاملة
فى الذهب والفضة بين الناس . وقد تعاطم عليهم
فاضى العسكر ، فلم يجلس بينهم ، ولا حضر قراءة
مرسوم السلطان . ومن جملة ألفاظه نعت قاضى
العسكر ، فكان من نعته أوصاف جميله تختص
به ، وأن يكون له التكلم فى الأحكام الشرعية على
المذاهب الأربعة ، ويحكم فى المدرسة الصالحية بين
الناس .

ثم ان فاضى العسكر جعل شحصا من العثمانية
يقال له القاضى صالح أفندى نائباً عنه ، يحكم فى
المدرسة الصالحية بين الناس ، وكان حنفياً ، ثم ان
فاضى العسكر استناب شحصا آخر يقال له فتح
الله ، وكان من العثمانية ، وكان شافعى المذهب ،
ثم ان قاضى القضاة جعل تحت يد كل قاض من
الأروام ، قاضيا من أولاد مصر ، فجعل الفاضى
شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائباً عن القاضى
صالح أفندى العثمانى ، وجعل القاضى شمس
الدين محمد الحلبي الشافعى نائباً عن القاضى فتح

الله العثماني ، وجعل القاضي أبا الفتح الوفاي أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه ، وجعل نظام الدين الحنبلي يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه ، والمرجع في الأحكام الشرعية الى قاضي العسكر . ثم رسم لكل نائب من النواب الأربعة أن يقتصر على شاهدين لا غير ، وسائر النواب والشهود تبطل قاطبة ، ثم رسم قاضي العسكر للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية اذا وقفوا قدامه يأخذون في أيديهم العصي . فاجتمع بالصالحية من الرسل فوق الستين رسولا ، وصاروا على هذه الهيئة ، ثم ان قاضي العسكر أقام من الأروام شخصا وسماه قسام الترك ، فجعل على كل تركة الخمس لبيت المال مع وجود الورثة من الأولاد الذكور والإناث ، فحصل للناس بذلك الضرر الشامل .

وفي يوم الأحد ثالث عشره ، نودي في القاهرة عن لسان قاضي العسكر ، بأن الشهود قاطبة لا يعقد أحد منهم عقدا ، ولا يكتب وصية ولا اجارة ولا مبايعة ولا شيئا من الأمور الا في المدرسة الصالحية عند القاضي صالح نائب قاضي العسكر ، فحصل للناس بسبب التزويج في هذه الأيام غاية المشقة ، واختار كل منهم العزوية على التزويج .

وفيه نزل ملك الأمراء الى قاضي العسكر وسلم عليه ، وقد بلغه أنه توقع في جسده ، فنزل اليه وعاده ، ثم طلع الى القلعة .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره ، أنفق ملك الأمراء على المماليك الجراكسة جوامكهم ، وكان لهم سبعة أشهر منكسرة ، فأنفق عليهم في ذلك اليوم أربعة أشهر ، حتى على الغلمان والمباشرين والفقهاء والمقرئين ومن له عادة .

وفيه منع قاضي العسكر شمس الدين الحلبي من التكلم في المدرسة الصالحية ، وقرر عوضه القاضي شجاع العثماني ، وجعله قاضي العسكر متحدثا على أوقاف الجوامع والمدارس ومعالم الأنظار ، فطلب الجباة وقال لهم : ارفعوا لى حساب الأوقاف ، وقدر معالم الأنظار ، وما قدرها في كل شهر ، فشرعوا في أسباب ذلك ، وفي عمل الحساب .

ثم ان قاضي العسكر رسم بأخذ الخلاوى التي في المدرسة البرقوقية والأشرفية والغورية وغير ذلك من المدارس ، وأنزل فيها جماعة من الأروام الآفاقية .

ثم ان القاضي صالح نائب قاضي العسكر ، عرض الرسل الذين في المدرسة الصالحية ، ورسم لهم ألا يأخذ الرسول منهم في الشغل الذي يتوجه اليه أكثر من نصف فضة من الفضة الجديدة بنصفين وربيع ، وجعل على من يتزوج بكرا ثلاثة وأربعين نصفا ، ويتكلف للشهود والعائد مثل هذا . هذا ما تقرر على العوام ، وأما الرؤساء فشيء غير ذلك . وقرر على كل شهادة تقع في المدرسة الصالحية قدرا معلوما بحسب كل شغل ثقيل كان أو خفيفا .

ثم أشيع عن قاضي العسكر أنه قال : قصدي أمشي نساء مصر على قاعدة نساء اسطنبول مع أزواجهن ، فان عادتنا اذا دخل الرجل على زوجته تعطيه نصف المهر الذي أعطاه لها ، وأن الرجل لا يقرر لزوجه لا كسوة ولا نفقة بل يكسيها في كل سنة جوخة وقيصا ويطعمها في كل يوم على ما يختار من قليل وكثير ، وتغزل وتكسى زوجها في كل سنة . فلما سمع العوام بذلك فرحوا ودعوا لقاضي العسكر بسبب هذه الواقعة ، واغتم النساء

بذلك ، وظنوا أن ذلك الشيء واقع ، وأن قاضى
العسكر أبطل كسوتهن ونفقتهن ، فشق ذلك
عليهن ، فعد من النوادر الغريبة .

ومن الحوادث أن شخصا يهوديا وقف الى
القاضى صالح نائب قاضى العسكر وكتب قصة
واشتكى فيها الأمير تتم أحد الأمراء الطبخانات
فاظر الدشيشة ، فأرسل خلفه القاضى صالح رسولا
وانكشاريا ، فلما حضر الى المدرسة الصالحية ادعى
اليهودى على الأمير تتم . فأنصف القاضى صالح
اليهودى من الأمير تتم ، واستمر الأمير تتم فى
الترسيم حتى أراضى اليهودى .

ثم فى عقيب ذلك اشتكت الأمير جاني بك أخا
الأمير قايتباى الدوادار زوجته عند القاضى صالح ،
فطلبه فى المدرسة الصالحية ، ووضعها فى الترسيم
حتى أراضى زوجته فيما ادعته ، ولم يلتفت الى
أخيه الأمير قايتباى الدوادار .

وفى يوم الخميس سابع عشره ، نودى فى القاهرة
عن لسان ملك الأمراء وقاضى العسكر ، بأن
لا امرأة تخرج الى الأسواق الا العجائز ، وكل من
خالف بعد ذلك من النساء تضرب ، وتربط من
شعرها بذب اكديش ، ويطاف بها فى القاهرة ،
فحصل للنساء بسبب ذلك غاية الضرر .

ثم بعد ذلك بأيام ، اتفق أن قاضى العسكر طلع
الى القلعة ، فوجد نسوة يتحدثن مع جماعة من
الاصباهية فى وسط السوق ، فعز ذلك عليه ، فلما
طلع الى القلعة قال لملك الأمراء ان نساء مصر
أفسدت عسكر الخنكار ، ولا بقوا ينفعون لقتال
قط . وقص عليه قصة النسوة مع الاصباهية ،
فتغير خاطر ملك الأمراء على النساء قاطبة ، ورسم
لوالى بأن لا امرأة تخرج من بيتها مطلقا ،
ولا تركب على حمار مكارى مطلقا ، وكل مكارى

أركب امرأة شتى من يومه من غير معاودة فى
ذلك .

ثم فى عقيب ذلك اليوم رأوا امرأة راكبة مع
مكارى فى طريق الصحراء ، فأنزلوها عن الحمار ،
وهرب الحمار ، فضربوها وقطعوا أزارها ، فما
خلصت الا بعد جهد كبير ، وغرمت نحو أشرفين .

فلما استمر ذلك الأمر باعت المكارية حميرها
قاطبة ، واشتروا عوضها أكاديش ، وشدوها
بنصف رحل ، وصارت النساء يركبن عليها
بسجادة ، والمكارى قائد لجام الاكديش . واستمروا
على ذلك ، وبطل أمر الحمير المكارية من القاهرة .

وركبت الخوندات والستات على الأكاديش على
طريقة أهل اسطنبول ، وفيهم من ركب على بغل .
ويقرب من هذه الواقعة ما وقع فى أيام الأشرف
برسباى ، أنه منع النساء من الخروج الى الأسواق
مطلقا . وكان الطعن بصصر عمالا ، وكانت الغاسلة
إذا خرجت الى ميتة لتغسلها ، تأخذ من المحتسب
ورقة وتغرزها فى أزارها حتى يعلم أنها غاسلة ،
فاستمروا على ذلك مدة يسيرة . ثم فى عقيب ذلك
مرض الأشرف برسباى ، ومات بعد ذلك ، وأعيد
كل شيء على ما كان عليه .

وفيه نزل القاضى بركات بن موسى المحتسب
من القلعة بعد العصر ، ونادى بأن الأشرفى الذهب
السليمانى يصرف من الفضة الجديدة بخمسة
وعشرين نصفا ، والأشرفى الذهب السليم شاهى
والغورى يصرف من الفضة الجديدة بخمسة عشر
نصفا ، وإن الفلوس الجدد كل أربع جدد بدرهم .

ثم ان المحتسب سعر سائر البضائع على ما كانت
عليه فى أيام يشبك الجمالى المحتسب . فلما نودى
بذلك ارتجت القاهرة بسبب أمر المعاملة فى الذهب

والفضة ، وحصل للناس غاية الضرر ، وخسروا أموالهم ، ولا سيما التجار ، فغلقت أسواق البلد والدكاكين قاطبة ، وتعطل الناس من البيع والشراء لأجل ابطال المعاملة ، وصرف النصف الفضة بنصفين وربيع .

وفي يوم الأحد عشريه ، نودى في القاهرة : « كل شئ على حكمه كما كان أولا في صرف الذهب والفضة والفلوس الجدد كل اثنين بدرهم على ما كانت عليه أولا » فسكن الاضطراب قليلا .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشريه ، نزل ملك الأمراء وتوجه نحو قصر ابن العيني الذي في المنشية ، وكشف على المراكب التي أنشأها هناك ، واسنعمل الصناع في سرعة العمل .

وفي يوم الجمعة خامس عشريه ، طلع ابن أبي الرداد ببشارة النيل ، وأخذ القاعدة ، فجاءت سبعة أذرع وعشر أصابع ، وذلك أرجح من العام الماضي .

وفي أواخر هذا الشهر ، قدم قاصد من البحر من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، وعلى يده مرسوم شريف ، فكان من مضمونه أنه أرسل الى ملك الأمراء خاير بك يطلب منه عسكرا من الأمراء الجراكسة ، فعين الأمير قايتباي الرمضاني الدوادر الكبير بأن يكون باش العسكر ، ثم رسم له بأن يطلب الأمراء الجراكسة الى بيته ، ويعين منهم من يختاره ، فعرضهم عنده ، وكتب منهم جماعة نحو ثلاثة وأربعين أميرا ، منهم أمراء طبلخانات ، وأمراء عشراوات ، بسبب غزاة رودس ، وأن السلطان سليمان قد جهز الى أهل رودس ستمائة مركب ، وشحنها بالسلاح والمقاتلين ، وخرج الى الغزاة الرومية في البحر المالح .

وفي يوم السبت سادس عشريه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وجلس فيه ، وعرض جماعة من الكمالية وكتب منهم أربعمائة انسان ، وعرض طائفة الانكشارية وكتب منهم نحو مائة انسان .

وفي يوم الأحد سابع عشريه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان وجلس به ، وعرض المماليك الجراكسة وكتب منهم نحو خمسمائة مملوك ، وقيل ثمانمائة وكان الأمير قايتباي الدوادر باش العسكر هو الذي يعين ويكتب منهم من يختاره . فلما تكامل عرض المماليك الجراكسة والاصباهية والانكشارية والكمالية كان مجموع ذلك ألفا وخمسمائة انسان .

ثم في يوم الاثنين ثامن عشريه ، أنفق ملك الأمراء على الجراكسة جامكية أربعة أشهر ، كانت لهم منكسرة في الديوان ، ولم يعطهم زيادة على ذلك .

ثم ان ملك الأمراء عين الأمير قايتباي الدوادر باشا على الأمراء والمماليك الجراكسة فقط .

ثم ان ملك الأمراء جهز صحبة الأمير جانم الحمزاوى بقسماطا وجبن حالوم وبصلا وعسلا أسود . فجهز ذلك في المراكب برسم العسكر يفرق عليهم بطول الطريق ، وقيل أرسل صحبته أربعين ألف دينار بسبب جوامك العسكر .

ومن الحوادث الشنيعة ، ما وقع في أواخر هذا الشهر ، وذلك أن ملك الأمراء رسم للوالى بأن يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة لأجل المراكب حتى يقدفوا فيها بالعساكر ، فنزل الوالى وأطلق في الناس النار وشرع يقبض على كل من رآه في الرميطة وفي الطريق من الغلمان والفلاحين ، وكل من قبض عليه وضعه في الحديد وأرسله الى السجن ، الى أن يخرج العسكر ، فصار يقبض على جماعة من السوفة والعييد السود

ثم تدرج جماعة الوالى حتى صاروا يقبضون على جماعة من التجار والفقهاء وغير ذلك ، فصاروا يشتركون أنفسهم من جماعة الوالى بمبلغ له صورة ، حتى تحصل مع الجالية مال له صورة من الناس . ثم صار الوالى يركب ويكبس على ساحل بولاق ومصر العتيقة ، ويقبض على المواتية والفلاحين ، فهرب الناس قاطبة من السواحل .

ثم رسم ملك الأمراء لكاشف الجيزة وغيره ، أن يقبضوا على جماعة من الفلاحين من قنفشندة وقلوب وسبك الثلاث ، ومن شبرى والمنية وغير ذلك من الضياع ، فصار الفلاحون يحتفون فى المطامير ، وكادت مصر أن تحرب فى هذه الحركة عن آخرها . فقليل مجموع الدين قبضوا عليهم نحو ألفى اسان ، وفيل أكثر من ذلك ، وحصل للناس غاية الضرر . وقيل مات فى سجن الديلم جماعة كثيرة ممن قبض عليه ، ماتوا من الجوع . وتشدت الحر ، والوخم ، ونزل على أهل مصر فازلة عظيمة بسبب ذلك لم يسمح بمثلها قط ، انتهى ما أوردناه من حوادث شهر رجب . وكان كثير الحوادث . فوقع فيه أمور غريبة ، ونوادير عجيبة ، والأمر لله .

واستهل شهر شعبان يوم الأربعاء ، فلم يطلع أحد من القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فانهم استمروا فى العزل المقدم ذكره ، وصار قاضى العسكر هو المتكلم على المذاهب الأربعة .

ووقع فى هذا الشهر من الحوادث أن الأخبار قد قدمت من الصعيد بأن القاضى فخر الدين ابن عوض لما توجه لينسح جهات الصعيد دخل سائر الرزق الأحباسية قاطبة فى المساحة التى بالمكاتب الشرعية والمربعات والمناشير ، وقال لأصحابها من

أراد الافراج عن رزقته يقف الى ملك الأمراء ويحضر مرسومه بالافراج عن رزقته .

ثم انه منع الفلاحين من اعطاء خراج اروق حتى يحضروا بالافراجات من عند ملك الأمراء . فاضطربت أحوال الناس ، وتكدوا غايه التكد ، وصار كل من وقف انى ملك الأمراء بسبب رزقته ، وأحضر مكتوبه أو مربعتة يأخذ منه المكتوب أو المربعة ، ويقول له : امض الى حال سبيك ، فان الرزق قاطبة دخلت الدخيرة ، فيرجع وهو فى عاية القهر .

(أقول) ان الرزق الأحباسية ما تعرض لها أحد من سلاطين مصر ، ولا أخرج منها شيئاً عن أصحابها ولا ضيقوا عليهم بسبب ذلك .

وقيل ان الامام الليث بن سعد رضى الله عنه ، هو الذى دون ديوان الأحباس فى أيامه ، وأفرد للرزق الأحباسية ديوانا يختص بها دون ديوان الجيش ، واستمر ذلك باقيا من بعد الامام الليث الى الآن ، حتى جاء فخر الدين بن عوض ، فنقض ذلك الأمر الذى كان على جهات البر والصدقات ، وأبطل أمر الرزق الأحباسية وأدخلها الدخيرة ، وأبطل ما كان صنعه الامام الليث بن سعد رضى الله عنه .

وفى يوم الاثنين سادس الشهر ، خرج الأمير قايتباى الرمضانى الدوادار وتوجه الى السفر بسبب غزاة رودس ، فخرج صحبته الأمراء والعسكر قاطبة ، وخرج صحبته الأمير جانم الحمزوى مشير الملكة ، وخرج الرئيس حامد القبطان رئيس المراكب ، وصحبته العسكر العثمانى الذى تعين من الأصباهية والاسكشارية والكمليه ، وخرج العسكر من الممالك الجراكسة ، فكان معه من الأمراء الجراكسة نحو ثلاثة وأربعين أميراً ما بين أمراء طبليخانات وعشراوات . فلما طلع الى القلعة

خلع عليه ملك الأمراء قفطان حرير مذهب ، وخلع على الرئيس حامد القبطان قفطانا أيضا ، فخرج الأمير قايتباى من الميدان وعلى رأسه صنجق حرير أحمر ، وخرج ملك الأمراء من الميدان صحبته ليودعه ، وخرج صحبته قاضى العسكر ، والأمراء العثمانية قاطبة ، فشق من القاهرة فى موكب حافل وليس قدومه جنائب ، وخلعه طبلا ورمرا عثمانيه ونزل وشق من القاهرة الى بولاق ، وكان يوما مشهودا .

ثم عاد ملك الأمراء الى القلعة ، وحصل لأهل مصر بسبب خروج التجريده عايه الضرر .

وفى يوم الثلاثاء سابع الشهر ، أرسل ملك الأمراء يستعجل الأمير قايتباى الدوا دار فى سرعة التوجه الى رودس ، والنزول فى المراكب ، ثم بوى فى القاهرة بأن العسكر المعين للسفر يخرج فى بقية ذلك اليوم ، وكل من تأخر عن الخروج فى بقية هذا اليوم شق من غير معاودة ، فخرج المماليك المعينون للسفر قاطبة .

ومن الحوادث أن شخصا من نواب الحنفية يقال له شمس الدين محمد المناوى الحنفى ، شهد شهادة حقا بين شخصين فى تمارى بينهما بسبب دين ، فلما بلغ قاضى العسكر ذلك أرسل خلف القاضى شمس الدين محمد المناوى انكشاريين ، فلما حضر بهدله وهم يضربه ، وقال له : أنا ما منعكم أن تشهدوا على أحد من الناس الا فى المدرسة الصالحية . ثم أرسله الى السجن ، فشق ذلك على القضاة والنواب ، فاضطربت القاهرة بسببه ، ثم شفع فيه عند قاضى العسكر القاضى شهاب الدين ابن شيرين الحنفى ، فأطلقه من السجن فى يومه هو والعجاوى ، وقد حصل لأهل مصر من قاضى العسكر غاية الضرر للرجال والنساء .

ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهال ولا من المجانين ، وتزايد حكمه بالجور بين الناس ، وقد ضيق عليهم غاية الضيق ثم تكلم الناس مع قاضى العسكر فى أمر النساء ألا يمنعوا من طلوع الترب ، ودخول الحمام ، وزيارة الأقارب ، فأذن لهم فى ذلك ، وأن المرأة لا تخرج الى الطريق الا مع زوجها ، وألا يدخل الأسواق غير العجائز فقط ، فسمح لهم قاضى العسكر ، وأن النساء لا يركبن الا الخيول والبغال دائما . فاستمروا على ذلك .

وقد فتك قاضى العسكر بالناس فى هذه الأيام فتكا ذريعا ، وقد جمع بين فبح الشكل والفعل ، فانه كان أعور بفرد عين بلحية بيضاء ، وقد طعن فى السن ، وكان قليل الرسمال فى العلم ، أجهل من حمار ، لا يدري شيئا فى الأحكام الشرعية ، وقدمت اليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشىء ، وقد هجاه الناس هجوا فاحشا فى مدة اقامته بمصر ، وقالوا فيه عدة مقاطيع . فمن جملة ذلك بعض كلام الشهود فيه وهو قوله :

رأينا شيخا أعورا قبل موتنا
أتى من بلاد الروم يقطع رزقنا
يقدم قانونا على شرع أحمد
فنسأل رب العرش يكشف كربنا
وقلت أنا :

رأيتك لا ترى الا بعين
وعينك لا ترى الا قليلا
فان لك قد أصبت بفرد عين
فخذ من عينك الأخرى كفيلا
وقد أيقنت أنك عن قريب
اذن بالكف تلتبس السبيلا

وفي يوم الجمعة عاشر الشهر قدم الأمير شيخ الذي كان توجه الى اسطنبول في بعض أشغال ملك الأمراء ، فلما حضر أخبر بأن السلطان سليمان جهز عدة مراكب مشحونة بالسلاح والمقاتلين ، وجهاز عساكر كبيرة بسبب غزاة رودس ، وخرج بنفسه ، وذلك في خامس عشر رجب على ما أشيع بين الناس ، وأرسل على يده مراسيم شريفة ، تتضمن أن السلطان سليمان قد فوض أمر مملكة مصر الى ملك الأمراء خاير بك ، يعزل من يختار ، ويولى من يختار ، والمرجع في ذلك اليه ، فيما يراه من المصلحة .

وفي يوم السبت حادى عشره ، نودى في القاهرة بأن الأمير والى الجلبى العثمانى الذى حضر من اسطنبول ، قد استقر ناظرا على سائر الأوقاف قاطبة ، فلا يعصى عليه أحد من الناس . فتجددت مظلمة أخرى .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره كانت ليلة النصف من شعبان ، فنزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى المقياس ، وأقرأ هناك ختمة ، ومد هناك مدة حافلة ، ورسم بقراءة عدة ختمات في تلك الليلة : في الجامع الأزهر ، ومقام الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، وغير ذلك في أماكن متفرقة .

وفي يوم الخميس سادس عشره ، خلع ملك الأمراء على القاضى بركات بن موسى المحتسب قفطانا محملا مذهبا ، وفزره في التحديث على جهات الشرقية قاطبة ، من المطرية الى دمياط ، وقد التزم في كل سنة بأربعمائة ألف دينار يقوم بذلك على ثلاثة أقساط ، فنزل من القلعة في موكب حافل ، ومشاعلية قدامه ، تنادى أن القاضى بركات ابن موسى ناظر الذخيرة الشريفة ، متحدث على

الشرقية قاطبة ، فلا يحتدى عليه أحد من الناس ، ولا يشتكى أحد من الشرقية الا من بابيه ، فتزايدت عظمة القاضى بركات بن موسى الى الغاية .

وفي يوم الأحد سادس عشره ، خرج قاضى العسكر بتصد التوجه الى مكة المشرفة من البحر المالح ، فلما خرج نزل ملك الأمراء وركب صحبته ، وكذلك خير الدين نائب القلعة ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، فودعوه من عند تربة العادلى ورجعوا ، فلما خرج قاضى العسكر من مصر أراح الله تعالى المسلمين منه ، فما حصل منه لأهل مصر خير . فعزلت القضاة الأربعة بسببه ، وأخرج عنهم الأنظار ، ومنع الشهود من الجلوس في المجالس قاطبة ، واستمرت دكاكينهم مغلوقة ، ومنع نواب القضاة الأربعة من الأحكام الشرعية ، ولم يسق منهم غير من تقدم ذكرهم ، وضيق على الناس في أمر عقود الأنكحة ، وقرر عليهم ما تقدم ذكره من المبلغ ، وصار لا يعقد عقد الا في المدرسة الصالحية ، وضيق على النساء بما تقدم ذكره من الخروج الى الأسواق ، ومن ركوب الحمير ، فلما خرج من مصر صفت النساء ، ورقصت . وضيق على أهل مصر في أمور كثيرة بطول شرحها .

ولما خرج قاضى العسكر توجه الى نحو الطور ، فقبل ان ملك الأمراء أنعم عليه بعشرة آلاف دينار غير المغل الذى أرسله اليه لما قدم من اسطنبول .

ولما توجه قاضى العسكر الى الحجاز ، أشيع أن السلطان سليمان أرسل أربعين ألف دينار على يد شخص من العثمانية بسبب عمارة العيين التى بمكة المشرفة ، لما تعطلت ، وهى التى بالحرم ، وعمارة المنارة التى بالحرم النبوى .

ولما خرج قاضى العسكر خرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباكية ومن أهل مصر ، وخرجت صحبته زوجة الأمير سنان فى محفة . فلما سافر قاضى العسكر جعل القاضى صالح العثمانى الحنفى نائبا عنه بحكم فى المدرسة الصالحية الى أن يحضر من السفر من الحجاز .

وكان قاضى العسكر قبل أن يسافر ولى ستة وعشرين نائبا من نواب القضاة الأربعة ، وجعل منهم من هو فى بولاق ، وفى مصر العتيقة ، وفى نجاع طولون ، وفى الحسينية ، وغير ذلك من الأماكن . وجعل فى كل مجلس أربعة نواب يقضون بين الناس بالحق . وجعل على كل مجلس شيئا معلوما ، وعليهم شوايش من العثمانية يضبط من يحصل فى كل يوم من أجره أشغال الناس ، فقسم للقاضى من ذلك المتحصل شيئا وللشهود شيئا وله شيء ، ثم يأخذ الباقي ويضعه فى صندوق يرسم السلطان سليمان يودع بيت المال .

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع لقاضى القضاة الحنفى على بن باسبن الطرابلسى بسبب وقف الحواجا شهاب الدين أحمد بن صالح السكندرى ، وذلك أنه طلع قاضى القضاة الحنفى الى ملك الأمراء ، فلما رآه مقبلا من بعد قال ابش طلع هذا الثقيل بعمل ؟ فلما جلس وأخرج مكتوب الوقف الذى زوروه ، وثبت عليه ، اتبذ له جماعة من القضاة ، وحضر أبو الفتح الوفائى المالكى الذى بحكم لابن الحواجا شهاب الدين السكندرى ، وحضر ذلك المجلس القاضى صالح العثمانى نائب قاضى العسكر . ولما أخرج قاضى القضاة الحنفى المكتوب الذى صنعوه ، دفعه ملك الأمراء الى القاضى صالح العثمانى ، وقال له : انظر فى هذا المكتوب ، فلما قرأه قال هذا الحكم الذى حكم

به قاضى القضاة الحنفى باطل لا تجوز قراءته ، فحصل لقاضى القضاة فى ذلك المجلس غاية البهدة ، وأسمعته الفقهاء الكلام المنكى ، وانتصف عليه أبو الفتح فى ذلك الحكم الذى حكمه ، فقام قاضى القضاة من ذلك المجلس وهو يتعثر فى أذياله مما قاسى من البهدة من ملك الأمراء ومن القاضى صالح وغيره . وكان قاضى القضاة الحنفى غير محب للناس ، وكان عنده صعصعة وجنون ، وسوء تدبير ويس طباع ، مع وهج وخفة زائدة ، مع عبوسة وجه وشناعة زائدة ، وقد قلت فيه :

رب قاض قد اعتراه جنون
شأنه الوهج ما لديه سكوت
لم يفده علمه اذا ضل شيئا
فهو فينا معلم مجنون
وقولى أيضا :

كم ضاع للنعمان من مذهب
فى عصرنا لما تولى فلان
تبا له من حاكم أهوج
أحكامه مشهورة بالجنان

وفى يوم الأربعاء سلخ شهر شعبان ، كانت ليلة رؤية هلال رمضان ، فلم يخضر من قضاة القضاة أحد الى المدرسة الصالحية على جارى العادة ، فانهم كانوا منفصلين عن القضاة ، فحضر بعض نواب القضاة ، منهم شمس الدين المجولى ، وشهاب الدين أحمد بن شيرين الحنفى ، وفتح الدين الوفائى المالكى ، ونظام الدين الحلبى الحنبلى ، وحضر القاضى بركات بن موسى المحتسب .

فلما رأى الهلال ركب من هناك القاضى بركات المحتسب ، وشق من بين القصرين فى موكب حافل ،

وقدماه عدة فوائيس ومشاعل على جارى العادة
فى كل سنة .

فلما كانت ليلة الخميس أهل شهر رمضان ، فلم
يطلع من قضاة القضاة أحد للتهنئة بالشهر ، وكان
الناس فى غاية الاضطراب بسبب المعاملة ، فان
الدينار السليماني يصرف بخمسة وأربعين نصفاً
من الفضة القديمة حساباً عن كل نصف بنصفين
وربع من الفضة الجديدة ، فوقف الحال بسبب
ذلك ، ولا سيما حال الفلاحين فى البلاد ، فان
العمال يحاسبونهم فى الدينار عند القبض بنصفين
وربع من الفضة الجديدة ، ويفيمونه عليهم وقت
الحساب بنصف واحد ، فخرّب غالب البلاد بسبب
هذه المعاملة وغير ذلك . وكانت أحوال الناس
فى غاية الاضطراب بسبب الرزق الأحماسية التى
أدخلها فخر الدين بن عوض فى ديوان السلطان ،
وصار ملك الأمراء كل من طلع له بمكتوبه أو
مربعته ، يأخذ ذلك منه ، ويقول له هذا دخل
ديوان السلطان . فحصل للناس غاية الضرر من
كل وجه .

ومن الحوادث أن ملك الأمراء طلب التجار
قاطبة ، وكتب عليهم قسائم ألا يتعاملوا إلا
بالذراع العثماني فى البيع والشراء ، وأبطل الذراع
القديم الهاشمي ، وكتب القسائم على التجار
بذلك ، وهو يزيد عن الذراع القديم نحو ربع
ذراع .

واستهل رمضان وقضاة القضاة الأربعة منفصلون
عن القضاة ، والمباشرون فى الترسيم بالقلعة من
حين جرى عليهم ما جرى .

وفى يوم الخميس ثامنه مع ليلة الجمعة ، رأى
الناس كوكبا عظيما جاء من نحو الغرب ، وخلفه

شرار كمثل عمود النار ، فاستمر ماشيا فى السماء
الى نحو الشرق فاخفى ، وهذا شاع خبره بين
الناس لما طلع النهار .

وفى يوم الأربعاء رابع عشر شهر رمضان كان
وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك ثالث عشر مسرى .
وفتح السد فى يوم الخميس خامس عشر
رمضان ، الموافق لرابع عشر مسرى ، فأوفى الله
السته عشر ذراعا وزاد ثلاث أصابع من الذراع
السابع عشر . فلما أوفى نزل ملك الأمراء من
القلعة وتوجه الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل
فى الحراقة وصحبته الأمراء العثمانية ، ففتح السد
الذى عند رأس المنشية ، ثم ركب من هناك وتوجه
الى الوالى ففتح السد الثانى الذى عند قطرة السد ،
وكان ذلك اليوم مشهودا . وكان ذلك آخر فتح
ملك الأمراء للسد ، ومات بعد ذلك بشهرين ، وفى
ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه :

خليج السد يوم الكسر جبر

بماء للعيون يرى بهيجا

وهذا اليوم يوم الجبر فاسرع

بنا قطعاً نرى هذا الخليج

وفيه قدم أولاق من البحر المالح وأخبر عن
السلطان سليمان أنه فى المحاصرة مع الفرنج ،
وكثر القال والقيال بين الناس بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن سوار قد قتل ،
وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان سليمان بن عثمان
أن ابن سوار قد التف على شاه اسماعيل الصفوى
وصار يكاتبه فى الدس ، فندب اليه الأمير فرحات
الذى كان توجه الى جان بردى الغزالى نائب
الشام ، فتوجه الى ابن سوار وأظهر أنه يقصده

ازدحم عليه الناس ليروا المهدي ، وكان ذلك اليوم مشهودا بسبب الفرجة عليه لما شق من القاهرة . فاستمر على اكتاف الشيخ حسن حتى توجه به الى المدرسة المؤيدة ، ثم بدا لملك الأمراء أن يرسل المهدي الى بيت الوالي ، فقبضوا عليه وتوجهوا به الى بيت الوالي ، فاستمر به مدة ثم شفع فيه .

وفي يوم الأربعاء حادي عشره ، قبض ملك الأمراء على يوسف بن أبي الفرج بن الجاكية ، وسلمه الى القاضي بركات بن موسى ليقيم حسابه مما دخل عليه من المال بسبب الرزق ، ولما نزل الى بيت المحتسب هم أن يعريه ويضربه بالمقارع ، وقال له أقم حسابك من حين قررت في هذه الوظيفة ، فقبل انه أورد سبعمائة دينار ، فقال له القاضي المحتسب : جلبت الدعاء على ملك الأمراء لأجل هذا القدر الهين ... لا جزاك الله خيرا !

وفي يوم الجمعة ثالث عشره ، نزل ملك الأمراء وتوجه الى نحو الجامع الأزهر ليصلي هناك صلاة الجمعة ، وكان صحبته الأمراء العثمانية الذين بمصر ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، منهم الأمير أرزمك الناشف . فلما انقضى أمر صلاة الجمعة ، وفصد أن يركب ، وقف اليه رضى الدين بن الدهانة وجماعة من الفقهاء وقالوا له : يا ملك الأمراء انظر في أحوال الرعية . فقال : نعم ، وركب بسرعة ، وخرج من باب الجامع ، وتوجه الى القلعة .

وقيل ان ملك الأمراء تصدق في ذلك اليوم على مجاورى الجامع الأزهر بخمسمائة دينار ، وكان الذى تولى أمر الصدقة في ذلك اليوم شهاب الدين المحلى امام أمير آخور كبير ، فما لاقى في ذلك

التوجه الى ديار بكر بسبب عسكر الصفوى ، فأنسافه ابن سوار وركن اليه ، فلما جلس معه على مجلس الشراب فى نفر قليل من أصحابه ، وثب على ابن سوار جماعة من العثمانية من حاشية الأمير فرحات ، فقتلوا ابن سوار وهو على سفرة الشراب على حين غفلة ، ولم يشعر به أحد من عسكره . ولما أشيع قتله اضطربت أحوال السوارية بقتله . وقيل ان فرحات قتل بعد ذلك ثلاثة من أولاد ابن سوار ، وقتل جماعة من أمرائه ، ثم مضى عنهم ، وقد تمت حيلته على ابن سوار حتى قتله

ومن الحوادث أنه حضر الى القاهرة شخص قيل ان أصله من الشرق ، وقيل كان بككة ، وأقام بها مدة ، فلما حضر ادعى أنه المهدي ، فلما طلع الى ملك الأمراء وقال له أنا المهدي ، وكان حاضرا فى ذلك المجلس القاضى شهاب الدين أحمد بن شيرين ، فسأله عن مسائل فى العلم فلم يجبه بشيء . وكانت صفته أنه شيخ طاعن فى السن ، قصير القامة جدا ، ولم يكن فيه من علامات المهدي شيء . فلما أغلظ على ملك الأمراء فى الكلام ، رسم بالقبض عليه ، وأن يتوجهوا به الى المارستان ، ويضعوه فى الحديد ، ويسجنوه عند المجانين ، فقبضوا عليه وتوجهوا به الى نحو المارستان ، فكشفوا عن رأسه ، ووضعوه فى الحديد ، فلما بلغ الشيخ ابراهيم الذى فى الجامع المؤيدى ، والشيخ حسن العثمانى ، طلعا الى ملك الأمراء وشفعا فيه ، فرسم ملك الأمراء باطلاقه من المارستان . فأتى اليه الشيخ حسن العثمانى وحمله على اكتافه وأخرجه من المارستان ، وكان هذا الرجل معظما عند العثمانية ، وفى خدمته جماعة كثيرة من الأعجام نحو خمسين انسانا ، فلما خرج من المارستان

اليوم خيرا بسبب تفرقة الصدقة ، وحصل له غاية البهولة من الناس .

وفي يوم السبت رابع عشره ، نودى فى القاهرة عن لسان ملك الأمراء ، بأن جميع القضاة والشهود يحضرون بدفاترهم الى المدرسة الصالحية ، ويسلمون ذلك الى القاضى صالح نائب قاضى العسكر ، فلم يوافق أحد من الناس على ذلك وأبطلوا هذا الأمر .

وفيه أشيع أن العربان قطعوا جسر الحلفاية ، فنقص البحر فى تلك الليلة ثمانى أصابع ، وكان فى قوة الزيادة ، فاضطربت أحوال الناس .

ثم فى يوم الخميس زاد الله فى النيل المبارك اصبعين من النقص ، فسكن ذلك الاضطراب ، واستمرت الزيادة عمالة الى بابه .

وفي شهر شوال ، وكان مستهله يوم السبت ، وهو عيد الفطر ، فكان أكثر العساكر مسافرا فى غزوة رودس ، وكذلك الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من الأمراء ، فلما صلى ملك الأمراء صلاة العيد مد مدة حافلة ، وكانت الاصباهية والانكشارية تتخاطفها ، وكان هذا العيد خامدا .

وفي يوم الأحد ثانيه حضر أولاق من البحر وعلى يده كتاب من عند الأمير جانم الحمزاوى الى ملك الأمراء ، فقرأه بحضرة القاضى شهاب الدين بن شيرين ، فكان من مضمونه أن الأمير قايتباى الدوادار ، ومن معه من العساكر والأمراء والمماليك الجراكسة قد وصلوا الى رودس فى ثالث عشر رمضان ، فوجدوا السلطان سليمان فى جزيرة تجاه رودس ، فأقاموا ثلاثة أيام لم يجتمعوا بالسلطان . ثم فى اليوم الثالث أوكب السلطان

سليمان وجلس للعسكر جلوسا عاما فى ذلك اليوم . فلما نظر الأمير قايتباى الدوادار عظمه وأكرمه ، وكذلك الأمراء الذين صحبته ، ووقف المماليك الجراكسة قدامه نشكرهم ، وأننى عليهم . وقيل ان السلطان سليمان استقل عتق والمده سليم شاه الذى قتل المماليك الجراكسة وقال : مثل هذه المماليك كانت تقتل ؟ ؟

وقيل انه أنزل العسكر المصرى وملاقه عنده الوزير الأعظم . وأخبر الأمير جانم فى كتابه انه الى الآن لم يقع بين السلطان وبين أهل رودس قتال ، وأنه مقيم بجزيرة تجاه رودس ، والميعاد بعد العيد .

وفي يوم الاثنين ثالث الشهر ، قدم الخواجابن عبد الله من اسطنبول ، فنزل اليه ملك الأمراء ولواقه من عند تربة العادلى ، وخلع عليه قنطان حرير . فلما حضر ابن عبد الله أشيع أن السلطان قرره ناظرا على الأوقاف قاطبة ، وأنه يكشف على سائر الأوقاف والجوامع والمدارس قاطبة ، فيعزل من يشاء ، ويبقى من يشاء . وأشيع عنه أنه يخرج الوظائف عن الفقهاء ، ولا يبقى بيد فقيه وظيفتين فى التصرف ، وأن يقرر الوظائف لجماعة آفاقية من الأروام . فلما أشيع ذلك اضطربت أحوال فقهاء مصر .

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن الأمير فرحات نائب الشام قبض على جماعة من التجار أتوا من بلاد الشام اسماعيل الصفوى ، وزعم أنهم جواسيس من عند الصفوى ، فلما قبض عليهم ، أخذ جميع ما معهم من الأموال والبضائع والأصناف التى أتوا بها ، ثم ضرب أعناقهم أجمعين ، وربما يثور من هذه الواقعة فتنة عظيمة بين العثمانية والصفوى .

السجن الى آخر شهر رمضان ، وأتلفهم في يوم واحد .

وفي ليلة السبت خامس عشره خسف جرم القمر خسوفا كاملا حتى أظلم الجو وصار القمر كالفضة السوداء ، فأقام في ذلك الحسوف نحو خمسين درجة ، وكان ذلك نصف الليل .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، خرج المحمل من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان يوما مشهودا ، وكان أمير ركب المحمل الشريف الأمير جانم السيفي دولات باي الأتابكي ، وهذه ثالث سفرة الى الحجاز سافرها الأمير جانم كاشف القبوم ، فشق من القاهرة في موكب حافل ، وطلب طلبا كاطلاب الأمراء المقدمي الألوف ، وكان في موكبه ست عجلات ، وفي كل عجلة مكحلة بحاس برسم المدافع ، فان درب الحجاز كان في غابة الاضطراب بسبب فساد العربان ، ولم يركب قدام المحمل أحد من القضاة الأربعة غير قاضى المحمل شمس الدين محمد بن النقيب .

وأشيع أن كسوة الكعبة الشريفة أرسلها ملك الأمراء من البحر المالح ، وسبب ذلك فساد العربان . وكذلك المال أرسله السلطان سليمان ابن عثمان الى مكة والمدينة النبوية لأجل الصدقة على مجاورى الحرمين الشريفين صحة قاضى العسكر لما توجه من البحر المالح خوفا من العربان واضطراب درب الحجاز في هذه الأيام المشطة

وفي يوم الاثنين رابع عشره ، حضر قاصد من البحر ، وأخبر أن السلطان سليمان ابن عثمان في المحاصرة مع الفرنج الروادسة ، وأحضر كتابا من عند الأمير جانم الحمزاوى ، يذكر فيه أن العسكر في انشحات زائد من الغلاء بسبب القمح والدقيق ، وقد عزت الأقوات هناك ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك ، نزل الى الشون التى بمصر العتيقة ، وأخرج

ومن الحوادث الشنيعة أن جماعة من النصارى كانوا يسكرون في بيت عند جامع المقسى على الخليج ، فلما فوى عليهم السكر ، تزايد منهم الضجيج والتجاهر بالسكر ، وكان في جامع المقسى ابن الشيخ محمد بن عنان مقيما به ، فثقل عليه أمرهم ، فأرسل اليهم من ينهاهم عن ذلك ، فأغلظ عليهم في القول ، وقال لهم : أما تستحون من الشيخ ابن عنان ؟ فسبوا الشيخ ابن عنان سبا فييحا ، فطلع الشيخ الى ملك الأمراء وشكا من النصارى ، فأرسل ملك الأمراء بالقبض على النصارى ، فهربوا وقبضوا على واحد منهم ، فرسم ملك الأمراء بحرقه ، فلما رأى النصارى عين الجدد ، سلم خوفا من الحرق ، فالبسوه عمامة بيضاء . فلما جرى ذلك خاف بقية النصارى على أنفسهم ، واختفوا عند يوس النصرانى حتى تخمد هذه الواقعة عنهم

وفي يوم الجمعة قدم قاصد من عند الأمير جانم الحمزاوى ، وأخبر أن العسكر يورر للقتال مع عسكر الفرنج الدين برودس ، وأشيع انهم أشرفوا على أخذ السور الأول من مدينة رودس ، ولكن قتل في هذه المعركة من العساكر ما لا يحصى .

وفي يوم الجمعة المقدم ذكره ، كان يوم النوروز - وهو أول توت من الشهور القبطية ، وأول سنة ثمان وعشرين وتسعمائة خراجية - وكان النيل يومئذ في عشرين اصبعاً من ثمانية عشر ذراعا ، وكان سائر المغل في غاية الرخص بعد ما كان السعر قد انشط لما توقف النيل عن الزيادة كما تقدم .

ومن الحوادث الشنيعة أن والى القاهرة شنع في يوم واحد أربعة عشر انسانا ، وخوزق منهم جماعة ، وعلقهم في أماكن متفرقة ، وكان أكثرهم حرامية وزغلية ومن عليه دم ، فأخرجهم الوالى في

ثلاثين ألف أردب وخمسمائة حمل دقيق ، فاستمر ينزل الى الشون بسبب ذلك أربعة ايام متوالية ، خشي جهاز في المراكب ثلاثين ألف أردب قمح ، وخمسمائة حمل دقيق ، وخمسمائة أردب أرز ، وقيل مثلها حمص وبسلة ، وقيل أرسل مع ذلك أشياء كثيرة من البصل وغير ذلك مما استحسنه ، فجهز ذلك بسرعة ، وأرسله من البحر الى السلطان والعسكر الذين هناك .

وفي شهر ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الاثنين ، وكانت القضية الأربعة منفصلين عن القضاء كما تقدم ، فلم يطلع منهم أحد للتهنئة بالشهر في ذلك اليوم .

وفي يوم الثلاثاء ثانيه عزل الأمير جان بك من كشف الشرقية ، واستقر بالأمير اينال السيفي طراباي .

وفي يوم الاثنين ثامنه توفت أصيل القلعية ، وكانت من أعيان مغاني البلد ، وكان لها انشاد لطيف ، وكانت بارعة في غناء الخفائف التي هي من فرح الزمان ، ورأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية الحظ والاحسان لها .

وفيه نودي في القاهرة بإبطال الفضة العتيقة من المعاملة قاطبة ، وأن الفضة الجديدة تصرف كل نصف بنصفين وربيع ، فازداد وقوف الحال على الناس ثانيا بإبطال الفضة العتيقة من المعاملة ، والفلوس الجدد كانت كل اثنين بدرهم ، فنادوا عليها كل واحد بدرهم ، فازداد الحال وقوفا ثالثا .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد مرض ولزم الفراش وتزايد به المرض من يومه وانقطع

عن المحاكمات . فلما قوى عليه المرض صار يتصدق على الأطفال الذين بمكاتب القاهرة قاطبة لكل صغير نصف فضة كبير ، بنصفين وربيع ، وصار أحد الخازنارية وابن الظريف المقري يدفع لكل صغير النصف في يده ، ويعطي الفقيه خمسة أنصافه كبار ، والعريف ثلاثة أنصاف كبار ، ويقولون لهم اقرءوا الفاتحة وادعوا بالشفاء والعافية للملك الأمراء .

وقد تكاثرت الأقوال بأن به ثلاثة أمراض ، منها فرخة جمرة طلعت له في مشعره ، ومنها حذار انصب له في جميع أعضائه ، وهو من أنواع الفالج ، ومنها كتم البول فصارت الحكماء تبيت عنده في كل ليلة وقد أعياهم أمره في هذا العارض الذي به ، وقيل انه مشغول من حين نزل الى الشون .

وفي هذا الشهر ثبت النيل المبارك على إحدى وعشرين اصبعاً من تسعة عشر ذراعاً ، وكان نيلاً متوسطاً ، وكان في العام الماضي عشرين ذراعاً الا اصبعاً واحدة .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه ، أفرج ملك الأمراء عن القاضي شرف الدين الصغير كاتب الممالك ، وأفرج عن القاضي شرف الدين بن عوض ، وألبسهما قفطانين حرير مذهب ، وأركبهما فرسين من الاسطبل السلطاني ، ونزلا من القلعة في موكب حافل ، وشقا من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهوداً ، فتخلقت عيالهما بالزعران ، فانهما خلاصا من فم الموت ، وقد قاسيا شدائد ومحن وضرباً وبهدلة ، وسجنا في العرقانة ، وقد أقاما في هذه السدة نحو أربعة أشهر ، وقسا قلب ملك الأمراء عليهما . وقد قال في ذلك الناصري محمد بن قانصوه :

بالشرفى المقر أضحى

ديوان ذا الملك فى انضباط

لا زال فيه الى المعالى

بالسعد يرقى بلا انهباط

الحمد لله بكم عيننا

قوت بفرحة لنا فى السرور

لما خلصتم ونزلتم الى

منازل العز وزال الشرور

وفى يوم الخميس حادى عشره ، أشيع بين الناس
أن ملك الأمراء بطلت شقته ، وعجز عن القيام ،
وتزايد به ألم الفرخة الجمر ، واشتد عليه مخرج
البول والغائط من الورم من تلك الجمرة ، وهذا
العارض بعينه قد وقع للخنكار سليم شاه ابن
عثمان ومات به .

ثم ان قضاة القضاة الأربعة ركبوا وطلعوا الى
ملك الأمراء وعادوا وسلموا عليه ، فلم يع لهم ،
ولم يلتفت اليهم ، فقرعوا له الفاتحة ونزلوا الى
منازلهم .

فلما تزايد الأمر بملك الأمراء أعتق جميع
جواريه وعبيده ومماليكه ، ثم انه دفع للقاضى
بركات بن موسى المحتسب ألف دينار فضة ، ورسم
بعشرة آلاف اردب قمح من الشونة ، ورسم
للمحتسب بأن يفرق ذلك كله على مجاورى الجامع
الأزهر ، والمزارات والزوايا التى بالقراطين قاطبة ،
ومجاورى مقام الامام الشافعى والامام الليث
رضى الله عنهما ، ويفرق باقى ذلك على الفقراء
والمساكين ومن عليه دين ، ففرق ذلك كما رسم
له ملك الأمراء .

ثم انه رسم باخراج مراسيم للقاضى شرف الدين
ابن عوض بأن يفرج عن أصحاب الرزق الأعباسية
التي كان أدخلها الى الديوان السلطانى ، وكان
قدرها نحو ألف وثمانمائة رزقة ، فأفرج عنها
لأصحابها ، وأعاد مكاتيب الرزق الجيشية التى
كان أخرجها المفتش يوسف بن الجاكية الى

فلما نزل القاضى شرف الدين الصغير الى بيته
لم يقيم به الا ساعة يسيرة ثم ركب وتوجه الى تربة
الامام الشافعى رضى الله عنه ، فزاره ثم طلع الى
القلعة ثانيا هو والقاضى بركات بن موسى المحتسب ،
فاجتمعا على ملك الأمراء وتكلما معه على المقر
الشهابى أحمد بن الجيعان ، فان ملك الأمراء
توقف فى الافراج عنه ، وقد عول على شنقه على
باب زويلة ، فنجاه الله تعالى من كيدده ، ولولا
اشتغال ملك الأمراء بنفسه لكان شق الشهابى
أحمد بن الجيعان لا محالة .

فلما تكلم القاضى شرف الدين الصغير ، والقاضى
بركات المحتسب ، وقيل ساعدهما خير الدين نائب
القلعة ، فى أمر الشهابى أحمد بن الجيعان ، رسم
ملك الأمراء بالافراج عنه بعد جهد كبير ، وكان
ملك الأمراء على خطر ، وبانت عليه لوائح
الموت .

فلما أفرج عنه ألبسه قفطان حرير ، وأركبه على
فرس من الاصطبل السلطانى ، ونزل من القلعة ،
وشق من القاهرة فرجت له ، وانطلقت له النساء
من الطيقان بالزغاريت ، وارتفعت له الأصوات
من الناس بالدعاء . فان الشهابى أحمد كان محببا
للناس فشق من القاهرة بعد العصر ، فكان له
موكب حافل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فتوجه
الى منزله بعد ما قاسى شدايد ومحن ، وأوعد
بالشنق من ملك الأمراء ، فكفاه الله تعالى شره .
وفيه يقول الأديب ناصر الدين محمد بن قانصوه :

أصحابها ، ثم صار يقول للمباشرين الذين شوش عليهم : حاللوني وأبرئوا ذمتي . فحاللوه غصبا .

وفي يوم الجمعة ثاني عشره رسم باطلاق المحاييس رجالا ونساء ، فتوحه القاضي شرف الدين الصغير والقاضي المحتسب الى بيت الوالى ، وعرضوا من فى سجن الديلم والرحبة ، فطلعوا بالمحاييس فى زناجير مشاة وتوجهوا بهم الى بيت الوالى ، فلما عرضهم هناك ، صار القاضي شرف الدين الصغير والقاضي المحتسب يصالحون أصحاب الديون الذين عليهم من أربعين أشرفيا ونازل ، فيقولون لأصحاب الديون اتركوا لأجل ملك الأمراء الباقي . فصالحوا أرباب الديون بقدر يسير ، وفعلوا ذلك بجماعة كثيرة من أرباب الديون ، وفيهم جماعة من أعيان الناس .

وأطلقوا جماعة كثيرة من الضمان ، وجماعة من الفلاحين ، فقليل أطلقوا من سجن الرحبة أربعين انسانا ، وأطلقوا من سجن الديلم دون ذلك ، ولم يتركوا بالسجنين غير الحرامية ، ومن عليه دم .

ولم ير الناس فى أيام ملك الأمراء خاير بك أحسن من هذه الأيام ، فانه جاد مع الناس وبر الفقراء والمساكين ، ولم يعرف الله الا وهو تحت الحمل ، فلم يفده من ذلك شئ ، ويأبى الله الا ما أراد :

ويقرب من هذه الواقعة ما وقع للأشرف الغورى لما حصل له عارض فى عينيه ، فجاد على الناس الى الغاية ، وأفرج عمن بالسجون ، وعن جماعة من المباشرين ممن كان فى الترسيم بمال له صورة ، وكانت تلك الأيام خيار دولته على الاطلاق .

ويقرب من ذلك ما وقع للأشرف قايتباى لما وقع عن الفرس وانكسر فخذه ، وأقام منقطعا فى القاعة التى بجوار الدهيشة ، وجلس على سرير

مقور ، وصارت الناس تدخل عليه وتسلم عليه ، فجاد على الناس ، وأفرج عن جماعة كثيرة من المباشرين كانوا فى السجن ، وتصدق بمال له صورة على الفقراء والمساكين ، وفعل أشياء كثيرة من أنواع البر والصدقات ، وكانت تلك الأيام خيار دولته .

وغالب هؤلاء الملوك ما يعرفون الله الا وهم تحت الحمل ، اذا جرت عليهم مصيبة يجودون فى حق الناس ، ويفعلون الخير .

وفي يوم السبت ثالث عشره ، أشيع أن ملك الأمراء قد نزل به النزاع ، وأنه أرسل خلف الأمير سنان بك العثماني ، فلما طلع اليه وجده فى حال التلف ، فدفع اليه خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه له .

ثم انه قال له على قدر الأموال التى فى الخزائن ، وقال الأموال ستمائة ألف دينار ذهب عين ، هذا خارج عما كان فى بيت المال من المال ، وخلف من الخيول والجمال والبغال والحمير ما لا ينحصر ، ومن الغلال والأغنام والأبقار أشياء كثيرة ومع وجود هذه الأموال التى تركها كان يكسر جوامك الممالك الجراكسة ستة أشهر لم يعطهم شيئا ، ويشتكى أن بيت المال مشحوت من المال .

وكان أصل ملك الأمراء من ممالك الأشرف قايتباى ، وهو جركسى الجنس أباطا ، وكان أبوه اسمه بلباى الجركسى ، ولهذا كان يدعى خاير بك بلباى ، وينسب الى الأشرف قايتباى .

ومات أيضا أخوه خضر بك ، وأما أخوه جان بلاط فانه بقى مقدم ألف ومات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى ، مات بالطاعون . وأما أخوه قانصوه فانه كان يعرف بقانصوه المحمدى ، فارتقى حتى تولى نيابة الشام ، ومات فى دولة الأشرف الغورى .

وأما خاير بك فانه أقام بالطبقة وصار من جملة المماليك السلطانية ، فأخرج له السلطان خيالا وقماشاً وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بهى خاصكيا دوادار سكين ، ثم بقى أمير عشرة في سنة احدى وتسعمائة في دولة الملك الناصر محمد ابن الأشرف قايتباى ، ثم بقى أمير طبلخانات في دولته أيضا ، وأرسله قاصدا الى الخنكار أبى يزيد ابن عثمان ملك الروم في سنة ثلاث وتسعمائة ، ثم بقى مقدم ألف في دولة الأشرف جان بلاط ، وخرج صحبة العسكر الى الشام . فلما حضر العادل الى مصر أرسل بالافراج عنه ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمه ألف كما كان . فلما تسلطن الأشرف الغورى ، جعله حاجب الحجاب ، واستمر على ذلك حتى توفى أخوه قانصوه المحمدي نائب الشام ، فنقل السلطان الأمير برسباى من نيابة حلب الى الشام عوضا عن قانصوه برج ، وخلع على الأمير خاير بك وقرره في نيابة حلب عوضا عن برسباى ، وذلك في سنة عشر وتسعمائة ، واستمر على ذلك حتى تحرك الخنكار سليم شاه ابن عثمان على السلطان الغورى . وانكسر ، وكان خاير بك سببا لكسرة الغورى .

فلما ملك سليم شاه الديار المصرية وجرى منه ما جرى ، وأراد التوجه الى بلاده ، خلع على يونس باشا وقرره نائبا على مصر ، ثم بدا له أن يقرر خاير بك نائب حلب على نيابة مصر عوضا عن يونس باشا ، فخلع عليه في يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ودفع اليه خاتم الملك ، فاستمر على نيابته بمصر الى أن مات في يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، فكانت مدة نيابته بمصر خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما ، بما فيها من مدة انقطاعه عن المحاكمات ، وتوعدك جسده .

وأما ماعد من مساويه ، فانه كان جبارا عنيدا سفاكا للدماء . قتل في مدة ولايته ما لا يحصى من الخلائق ، وشنق رجلا على عود خيار شنبر أخذه من جنينته ، وشنق من الناس ووسط وخوزق جماعة كثيرة ، واقتراح لهم أشياء في عذابهم ، فكان يخوزقهم من أضلاعهم ، ويسميه شك الباذنجان ، فقتل بمصر وحلب فوق العشرة آلاف رجل ، وغالبهم راح ظلما .

ومنها أنه آتلف معاملة الديار المصرية من الذهب والفضة والفلوس الجدد ، وسلط ابراهيم اليهودى معلم دار الضرب على أخذ أموال المسلمين .

ومنها أنه قرب شخصا من النصارى يقال له يونس ، وجعله متحدثا على الدواوين ، وصار المسلمون يقفون في خدمته ويخضعون له .

ومنها أنه كان يكره الفقهاء وطلبة العلم والعلماء وعزل القضاة الأربعة ونوابهم قاطبة ، ومنع الشهود أن يجلسوا في الحوانيت ويتقاضوا أشغال الناس .

ومنها أنه كان يكره المماليك الجراكسة ويعوق جوامكهم ستة أشهر ، ثم يصرف لهم شهرين بألف جهد .

ومنها أنه شوش على جماعة من أعيان المباشرين وضربهم وبهدلهم وعوفهم في الترسيم نحو خمسة أشهر ، ولا سيما ما جرى على الشهابى أحمد بن الجيعان ، فانه سلب نعمته ، وأخذ منه فوق السبعين ألف دينار ، حتى باع جميع أملاكه وقماشه ورزقه ، وبقي على الأرض

ومنها أنه ندب يوسف بن أبى الفرج وقرره في وظيفة يقال لها مفتش الرزق الجيشية ، فحصل للناس منه غاية الضرر الشامل .

ومنها أنه أرسل فخر الدين بن عوض الى بلاد الصعيد ، ومسح الرزق الأحباسية ، وأدخلها في

الديوان ولم يفرج عنها ، وحصل للناس بسبب ذلك غاية الضرر ، فقليل انه أخرج ألفا وثمانمائة رزقة ، منها ما كان على الزوايا والمساجد والترب وغير ذلك .

ومنها أنه كان سببا لخراب الديار المصرية ودخول سليم شاه الى مصر ، وحسن له عبارة أخذ مصر ، وضمن له أخذها من غير مانع ، وعرفه كيف يصنع حتى ملكها ، وجرى منه ما جرى ، وقتل الأمراء والمماليك الجراكسة ، وشنق السلطان طومان باى على باب زويلة ، وكل ذلك بترتيبه ودوليته .

وكان كثير الحيل والخداع والمكر ، وكان من دهاة العالم لا يعلم له حال . ولو ذكرت مساويه كلها لطال الشرح في ذلك ، وقد قلت فيه هذه الأبيات عن لسانه :

أصبحت بقاع حضرة مرتها

لا أملك من دنيائى الا كفنا

يا من وسعت عباده رحمته

من بعض عبيدك المسيئين أنا

فلما تحقق الناس موت ملك الأمراء ارتجت القاهرة ، وأشيع أن التركمان ينهبون الأسواق ، فانتقل مكان الجسر من بركة الرطلى على ملح البصر ووزع الناس أمتعتهم في الحواصل .

ثم طلع الأمير سنان بك الى القلعة ، وحضر الأمير خير الدين بك نائب القلعة ، والأمير خضر بك ، والكواخى أغوات الانكشارية ، فلما اجتمعوا ضربوا مشورة في أمر المملكة ، وما يكون من أمر العثمانية ، فالتزم الأمير خير الدين نائب القلعة والكواخى بأمر الانكشارية ، والتزم الأمير سنان بك والأمير خضر بك بأمر الاصباهية وغير ذلك من

الكلمية ، ثم حضر الأمير أرزمك الناشف ، فالتزمه بأمر المماليك الجراكسة وما يحصل منهم .

ثم ختم نائب القلعة والأمير سنان بك على الحواصل التى بالقلعة .

ثم ان الوالى والقاضى بركات المحتسب نزلا من القلعة وناديا فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يغلق له بابا ولا دكانا ، والدعاء للسلطان سليمان بالنصر ، فارتفعت الأصوات من الناس بالدعاء قاطبة ، فكرروا هذه المناداة يوم الأحد ويوم الاثنين .

وكان عند العثمانية عادة اذا مات صاحب المدينة ينهبون المدينة عن آخرها ، فمنعهم الأمراء التركمان من ذلك ، وقالوا لهم متى نهبتم المدينه تملككم عوام مصر ، ويحصل بينهم وبينكم فتنة عظيمة ، وتخرب مصر عن آخرها ، فسكن الاضطراب قليلا .

ثم فى يوم الاثنين ، لما دفن خاير بك ، تحول الأمير سنان ، وطلع الى القلعة من يومه ، وسكن بها ، فوقع بين الأمير سنان والأمير خضر تشاجر بسبب النيابة ، فأظهر الأمير سنان مرسوما وعليه علامة السلطان سليمان ، بأنه اذا تولى ملك الأمراء خاير بك يكون عوضا عنه فى نيابة مصر ، فوقع الاتفاق بينهما بأن يستقر بالقلعة ، ويكاتب السلطان بموت خاير بك ، وينتظر الجواب بما تقتضيه الآراء الشريفة فى ذلك .

ثم ان الأمير سنان عرض ما فى بيت المال من المال ، فوجد خاير بك خلف من المال على ما قيل ستمائة ألف دينار ، خارجا عما كان فى بيت المال .

ثم ان الأمير سنان بك خلع على القاضى شرف الدين الصغير واستقر به متحدثا على جهات الغريبة وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان ، وشرف

وفي يوم الخميس ثامن عشره ، سافر الأمير
اينال السيفى طراباى الذى ولى كشف الشرقية
الى محل ولايته بها .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره ، حضر شخص
من ممالك الأمير قايتباى الدوادار فى بعض أشغال
أستأذه وعلى يده كتب ، فكان من مضمونها
أن السلطان سليمان نازل على رودس ، وأنه يباب
رودس يحاصرها أشد المحاصرة ، وقد قتل من
العسكر العثمانى ما لا يحصى من البندق الرصاص
ومن المدافع التى عمالة نازلة فى كل يوم من قلعة
رودس ، وكلما هدم من سورها شيئاً تبنيه الفرنج
تحت الليل بالحجر الفص ، وقد أعياهم أمر الفرنج
وقوة بأسهم ، وقد كتم موت من مات من الأمراء
الجراكسة والمماليك .

وفي يوم السبت عشريه ، رسم الأمير سنان
لمماليك ملك الأمراء خاير بك أن ينزلوا من الطباق
التى بالقلعة ، فشق ذلك عليهم ، فلما نزلوا من
الطباق طلع اليها جماعة من الاصباهية ممن هم
من جماعة الأمير سنان ، والانكشارية من عصبة
خير الدين نائب القلعة .

ثم أشيع أنه وقع بين الأمير سنان والأمير خضر
العثمانى تشاجر بسبب النيابة ، فوقع الاتفاق على
ما يرد من جواب السلطان على ذلك .

وفيه أشيع أن الأمير اينال السيفى ، الذى
استقر كاشف الشرقية ، تحول عنها الى كشف
الغربية ، وأعيد الأمير جان بك الى كشف الشرقية
كما كان أولاً .

واستهل شهر ذى الحجة بيوم الثلاثاء ، فكان
المتحدث على الديار المصرية يومئذ الأمير سنان بك
العثمانى ، نائباً على مصر عوضاً عن خاير بك بحكم
وفاته ، وكان قضاة القضاة منفصلين عن القضاء
كما تقدم ، فأم يطلع الى التهئة بالشهر أحد .

الدين بن عوض ، وجعلهما متحدتين على جهات
الشرقية ، فامتنع الشهابى أحمد كل الامتناع من
لبس القفطان وقال : أنا أصبحت رجلاً فقيراً لا أملك
من الدنيا شيئاً ، وأنا ما بقيت أباشراً شيئاً فأرسلونى
الى اسطنبول أو الى مكة المشرفة . ورد على الأمير
سنان ذلك القفطان .

وخلع على القاضى بركات المحتسب ، وجعله
متحدثاً على جميع جهات الشرقية من دمياط الى
المطرية على عادته . وخلع على محبى الدين بن
أبى أصبع ، وجعله متحدثاً على ديوان الوزارة
وديوان الخاص على عادته كما كان .

وفي ذلك اليوم نزل حريم خاير بك من القلعة
على وجوههن وهن فى غاية الذل .

وفي يوم الأربعاء سابع عشره رسم الأمير سنان
بتوسيط شخص من الاصباهية فوسطه فى الرميلة .
وسبب ذلك أنه خطف خرقة جوخ ثمنها مائة
وعشرون ديناراً ، فطلع صاحب الجوخة الى الأمير
سنان وشكا له ذلك الشخص الاصباهى ، فقال
له الأمير سنان : ألك عليه بينة بأنه خطف منك
الخرقة الجوخ ؟ فقال له : نعم ، وأحضر له من شهد
عليه بذلك ، فأرسل خلف الاصباهى وسأله عن
ذلك فاعترف ، وأحضر الخرقة الجوخ ، وأعادها
الى صاحبها ، ومضى بها . ثم انه رسم بتوسيط
الاصباهى فوسطوه فى الرميلة عند باب الميدان ،
وهذا أول حكم الأمير سنان فى القتل .

ثم ان الأمير سنان رسم بأن يعين جماعة من
الانكشارية فى بيت المحتسب يضبطون ما يتحصل
من أموال الحسبة فى كل يوم ، وجعل مثل ذلك
فى بيت الوالى ، وبيت محبى الدين بن أبى اصبع
لكونه متحدثاً فى ديوان الوزارة والخاص ، وجعل
مثل ذلك فى ديوان الوزراء ، يضبطون ما يتحصل
فى كل يوم ، وجعل مثل ذلك على المكاساة الذين
فى بولات ومصر العتيقة ، وغير ذلك من القباض

وفى يوم السبت خامسه ، توفى الشيخ أمين الدين بن النجار خطيب جامع العمري ، وكان ديننا خيرا من أهل العلم والدين ، من أعيان الشافعية .

وفى غريب موته توفى القاضى جلال الدين بن محمد بن بدر الدين بن محمد بن كسيل أحد نواب الشافعية ، وكان عالما فاضلا ، وله نظم جيد ، وكان من أعيان الشافعية

وفى يوم الخميس عاشره ، كان عيد النحر ، فصنع الأمير سنان مدة حافلة بالقلعة لأجل الاصباهية والانكشارية والكملية ، فتناهبوا تلك المدة على ملح البصر ، وقد ذاق الأمير سنان طعم المملكة ، ودخلت حلاوتها فى أسنانه .

وفى يوم الخميس سابع عشره ، فادى الأمير سنان بعد العصر فى القاهرة بأن السلطان سليمان استقر بالوزير الأعظم مصطفى باشا نائبا على مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته . وقد وصل ذلك النائب الى الاسكندرية ، ثم نادى فى ذلك اليوم للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء وأن لا أحد يكتر كلاما فيما لايعنيه .

فلما تحقق الناس ذلك ، خرج المبشرون وأعيان الناس الى ملاقة ذلك النائب ، وأشيع أن الأمير جانم الحمزاوى قادم صحبة النائب ، وأنه قد وصل الى قليوب ، فخرج غالب العسكر العثماني الى ملاقاته .

فلما كان يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل الوزير الأعظم مصطفى باشا الى ساحل بولاق . فلما أشيع ذلك نزل الأمير سنان من القلعة ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، وآتى اليهم الأمير خضر العثماني ، وآتى اليهم الكواخى أغوات الانكشارية ، وآتى الأمير أرزمك الناشف

آغات المالك الجراكسة ، وسائر الاصباهية والانكشارية والكملية قاطبة ، وبوجهوا الى بولاق لأجل ملاقة النائب مصطفى باشا .

فلما وصلوا الى بولاق ، احصروا للنائب فرسا من الخيول الخاص ، ولبس خلعة السلطان ، وهى بتناسيح على أحمر ، واحصروا لجماعته نحو أربعمائى فرس ، فركب النائب من هناك هو وجماعته ، ومشت الانكشارية قدامه والكملية قاطبة يرمون بالنفوط ، وركب جميع الاصباهية وأمراؤهم ، وجميع الأمراء الجراكسة وأتباعهم ، وأعيان الناس قاطبة .

فدخل من باب البحر واستمر الى باب القنطرة ، فشق من سوق مرجوش ، ثم شق من القاهرة فى موكب حافل مثل موكب ملك الأمراء خاير بك ، وكان الأمير سنان عن يمينه ، والأمير جانم الحمزاوى عن يساره وعليه خلعة بتناسيح ذهب ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير خضر قدامه ، وعلى رأسه صنجق بقمع فضة ، ومن ورائه طبلان وزمران عثمانية ، وخلفه جماعة بطراير حمر بعصائب ذهب .

فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وكانت صفته أنه أبيض اللون ، عري الوجه حليق اللحية ، ليس له غير شاربين أصفرين ، معتدل القامة ، وعليه حشمة وخضر ، وقيل هذا أعظم وزراء ابن عثمان ، حتى أطلق عليه أنه وزير الوزراء . واستمر فى موكب حافل حتى شق من الرملة ، ودخل الى الميدان ، ثم صعد الى القلعة . وفيه يقول الناصري محمد بن قانصوه بن صادق :

لا تحزننى مصر على
موت الأمير خير بك

بل افرجى بمصطفى

ستتظريه خير بك

فلما قدم النائب مصطفى باشا الى مصر ، أشيع أن الأخبار وردت على السلطان سليمان بوفاة ملك الأمراء خاير بك وهو على رودس في يوم الخميس ثالث ذى الحجة . فلما تيقن موته خلع على وزيره الأعظم مصطفى باشا وقرره في نيابة مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته ، فاستقر في النيابة يوم السبت خامس ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وتسمعاثة ، وكانت ولايته في الخامس وهو يوم نحس مستمر .

وكان السلطان على رودس ، فكانت مدة ولايته من حين ولى برودس ، الى أن دخل الى ثغر الاسكندرية ، تسعة عشر يوما ، وكانت مدة سفره في البحر أربعة أيام ، ودخل الى شاطيء بولاق يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة ، فتكون مدة ولايته من حين ولى برودس الى أن دخل الى الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما .

فلما طلع النائب مصطفى باشا الى القلعة يوم الأربعاء مد له الأمير سنان هناك مدة حافلة بالقلعة ، ثم مد له بساط الأنس وسلمه مفاتيح بيت المال ، ودفع له خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه لملك الأمراء .

ثم تحول الأمير سنان ، ونزل الى منزله بدرب ابن البابا ، فكانت مدة نيابته بالقاهرة الى أن حضر مصطفى باشا ثمانية وثلاثين يوما ، كأنها أضغاث أحلام .

وفي يوم الخميس رابع عشره ، نزل النائب مصطفى باشا الى الميدان ، وحضر الأمير سنان ، والأمير خضر ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، وحضرت الأغوات المتعلقة بالانكشارية ، وقرىء عليهم مرسوم السلطان الذى حضر على يد مصطفى

باشا ، فكانت براعة استهلال ذلك المرسوم : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما » . ثم نعت النائب مصطفى باشا بنعوت عظيمة ، بأنه وزير الوزراء ، وأمير الأمراء ، وما أشبه ذلك من النعوت الحسنة .

ثم رسم له بأن يعطى في كل سنة من خراج أراضى مصر مائة ألف دينار له وللماليكه وحاشيته . ومن مضمون ذلك المرسوم أنه لا يصرف لطائفة الانكشارية والاصباهية أكثر من أربعة أنصاف في كل يوم ، فشق عليهم ذلك . وكان ملك الأمراء خاير بك رتب لجماعة من الاصباهية أشرفيين في كل يوم جماعة ، وأشرفى كل يوم ، وكان في طائفة الانكشارية من كان له في كل يوم عشرون تصفا ، وشىء عشرة أنصاف ، وشىء ثمانية ، فبطل ذلك جميعه ، واستقرت على أربعة أنصاف كل يوم .

ومن مضمون المرسوم ، الوصية بالرعية قاطبة ، والماليك الجراكسة ، واصلاح المعاملة ، والنظر في أحوال الرعية والمسلمين بما فيه اصلاحهم . وكان من مضمونه أشياء كثيرة يطول شرحها . وفى ذلك اليوم طلع القضاة الأربعة يسلمون عليه ، فوجدوه بالأشرفية النى بالقلعة ، فلم يمكنوهم من الدخول اليه حتى شاوروه ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه فوجدوه ملقى على ظهره ، فلم يلتفت اليهم ، ولا قام لهم ، ولم يعدهم من البشر . ثم قال لهم على لسان الترجمان النائب : « يقول لكم لولا أنه ضعيف لقام لكم » . فقرءوا الفاتحة وانصرفوا .

وفي يوم الجمعة خامس عشره ، نزل النائب مصطفى باشا الى الميدان وجلس به ، وعرض موجود ملك الأمراء خاير بك من الجمال والخيول والبغال ، فوجد له من ذلك أشياء كثيرة لا تنحصر ، ثم طلع الى الحوش السلطاني وعرض ممالك

خاير بك ، ثم عرض الحواصل التى فيها الموجودات من قماش ونحاس وصينى وغير ذلك ، فوجد له أشياء كثيرة أعظم من موجود الأشرف قايتباى ، ووجد له من الذهب العين على ما قيل ستمائة ألف دينار . وقد حاز هذا الموجود العظيم فى هذه المدة اليسيرة .

وفى يوم السبت سادس عشره ، نزل مصطفى باشا الى الميدان وجلس به ، وحوله الأمير سنان والأمير خضر والأمير خير الدين نائب القلعة والأمير أرزمك الناشف وجماعة آخرون من الأمراء ، فأظهر التعاضم فى ذلك اليوم ، ومشى على طريقة الخنكار سليم شاه ، وصار كواحد منهم .

وكان النائب مصطفى هذا متزوجا بابة الخنكار سليم شاه ، وهى أخت السلطان سليمان ، فوقف الوالى قدامه بالعصا ، وكذلك نقيب الجيش أيضا ، واصطفت قدامه الانكشارية والاصباهية والكملية وبأيديهم العصى . ثم ترادفت عليه القصص بحوائج الناس ، فلم يفهم منها شيئا ، وصار الترجمان يقول له معنى ما فى القصص بالتركى ، وهو كالخشبة . ثم رسم بالمناداة فى القاهرة بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن كل من ظلم من بعد ملك الأمراء خاير بك فعليه بالأبواب العالية .

ثم أشيع أنه نادى أن العمال يقبضون الخراج من الفلاحين ، النصف الفضة بنصفين ، ويقام لهم عند الحساب بنصفين وربح ، ففرح الفلاحون بذلك . ثم من بعد ذلك تبين أن هذه الاشاعة ليس لها صحة ، وكل شئ على حكمه فى المعاملة .

ثم ان النائب قام وطلع الى القلعة ، وهذا أول ديوان فى أيامه ، وأول محاكماته بين الناس ، وأول جلوسه للناس عامة .

وفى يوم الأحد سابع عشره ، أشيع فى القاهرة أن القاضى بركات بن موسى قد انفصل عن الحسبة ،

واستقر بها شخص من العثمانية من أقارب النائب مصطفى يقال له قاسم باشا ، فاضطربت القاهرة بسبب ذلك ، وشق على الناس عزله

وفى ذلك اليوم أشيع أن النائب عند اخذ مهامه الحواصل كلها جميعا التى فى القلعة من البوابين ، وسلمها لجماعة من الأروام من حاشيته ، وطرد البوابين والغلمان والركابة والبايسة ، وأبطل الشواش والركبدارية والفراشين وغلمان السلطان قاطبة ، حتى بطل الطباخين من المطبخ ، وأقام جماعة من الأروام عوضهم ، وأبطل المترئين الذين كانوا يقرءون بالقلعة قاطبة ، حتى أبطل من كان بالقلعة من المؤذنين ، وجعل لجامع الحوش مؤذنا واحدا ، وأبطل جميع نظام القلعة الذى كانت عليه قديما ، ومشى على القانون العثمانى ، وهو أشأم قانون .

ثم انه شرع فى بيع موجودات ملك الأمراء خاير بك ، فطلب التجار قاطبة فطلعوا الى القلعة بسبب المبيع .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره ، طلع اعيان المباشرين الى القلعة ، وتوجهوا الى بيت الدفتردار ، فاجتمعوا هناك وشرعوا فى أمر تقسيط البلاد ، وأشيع أنهم قد أفردوا للنائب مصطفى باشا فى كل شهر ثمانية آلاف دينار ، ولما ليكه خاصة ، ولجماعته وحاشيته ومطبخه وانعاماته ، وغير ذلك مما حكم به الزمان الخبيث على الناس .

ثم ان المعلم الحلوانى العجمى الذى كان دكانه تجاه المدرسة الناصرية ، التى بين القصرين ، صار من خواص السائب مصطفى باشا ، وصار من المقربين عنده ، ويتقاضى حوائجه وحوائج الناس عنده ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار المرجع اليه فى الأمور فى تلك الأيام ، حتى بقى كمنزلة الدوادار الكبير . فكان كما يقال فى المعنى :

ما كنت أحسب أن يمتد بي زمني

حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره ، قدم مبشر الحجاج ، وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الضلاء وموت الجبال موجود مع الحجاج ، ولم يكن لما قالوه من أمر الفتن التي وقعت بمكة صحة ، والله الحمد والشكر على ذلك .

وفي ذلك اليوم ، خلع مصطفى باشا على القاضي شرف الدين الصغير ، وأقره على ما كان عليه من التحدث على جهات الغربية ، وخلع على القاضي فخر الدين بن عوض ، وأقره على ما كان عليه من التحدث على جهات الصعيد ، وخلع على القاضي بركات بن موسى ، والقاضي شرف الدين بن عوض ، واستقر بهما في التحدث على جهات الشرقية قاطبة كما كانا في الأول ، فنزلوا من القلعة ، وشقوا من القاهرة في موكب حافل .

ثم أشيع أن القاضي بركات بن موسى لم يعد إلى الحسبة ، فتشوش الناس لذلك .

وفي يوم الأربعاء سلك الشهر ، ترشح امر القاضي بركات بن موسى المحتسب لعوده إلى الحسبة ، وقيل أنه رتب لذلك الشخص العثماني أشرفيين كل يوم ، فنأدى في القاهرة بعد العصر

حسبما رسم الزينى بركات بن موسى كل شيء على حاله ، وأن السوق والمتسبين يحضرون باكر النهار إلى بيت القاضي بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة ، وناظر الذخيرة الشريفة ، فهو على حاله في الحسبة ، ففرح غالب الناس بذلك .

انتهى ما أوردناه في هذا التاريخ من الأخبار العجيبة ، والوقائع الغريبة ، وقد اشتمل على أخبار سبع دول كانت بالديار المصرية وقد تقدم ذكرها من الأول إلى هنا . وقد وقع لى من المحاسن في هذا التاريخ ما لم يقع لغيرى من المؤرخين فيما أوردوه من تواريخهم القديمة ، وقد أعان الله تعالى على انتهائه على خير ، والله الحمد والمنة على ذلك وفيه أقول :

اغفر لمنشيه واصفح
أحسن لي في ابتداء
وقولي أيضا :

تاريخنا بهجة المجالس
سماعه المورى سرور
وغيره أبشأ :

ألفته نعم الجليل
يقي على سنن الوفا
س إذا تغيرت البشر
أبدا ويقنع بالنظر

